

تفسير البحر المحيט

لمحمد بن يوسف الشيرازي حيان الأندلسي
المتوفى سنة ٧٤٥هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد النوني الدكتور أحمد النجولي الجبل
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر أستاذ تفسير وعلم القرآن بجامعة الأزهر

قرطه

الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ الفريادي

أستاذ التفسير وعلم القرآن كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

الجزء الأول

المحتوى

أول الفاتحة - البقرة: ١٧٦

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فناكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم تقديم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على المبعوث (شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن كتاب « البحر المحيط » في تفسير القرآن الكريم لأبي حيان يُعدّ - عند أهل العلم - المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم .

« ولم يهمل مؤلف الكتاب - كما يقول صاحب التفسير والمفسرون - ما عدا هذا الجانب من النواحي التي لها اتصال بالتفسير .

فنراه : يتكلم على المعاني اللغوية للمفردات .

ويذكر : أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والقراءات الواردة مع توجيهها .

كما أنه : لا يفضل الناحية البلاغية في القرآن ، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام .

مع ذكره : لما جاء عن السلف ، ومن تقدمه من الخلف .

كل هذا طريقة : وضعها لنفسه ، ومشى عليها في كتابه ، ونبهنا عليها في مقدمته .

ولذلك :

فالكتاب لا يستغني عنه باحث ، ولا ينبغي أن تخلو منه مكتبة عالم .

وأما مؤلف الكتاب :

فهو واحد من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ... !!

ولد في إحدى جهات « غرناطة » ، من بلاد الأندلس ، أعادها الله للإسلام - عام ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م ... !!!

وقد رحل وتنقل ... إلى أن قام بمدينة القاهرة من الديار المصرية ، حتى توفي بها - رحمه الله - بعد أن كف بصره عام

٧٤٥ هـ - ١٣٤٤ م .

ذلكم هو : محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي ، المعروف بأبي حيان .

* * *

ولأهمية هذا الكتاب ، وتفرده في بابهِ ؛ فقد توفر على تحقيقه تحقيقاً علمياً ، وإخراجه إخراجاً فنياً ، يكشف

روائعه ، ويبرز كنوزه ، ويعرض نفائسه :

شيخان جليلان - ولا نزيكهما على الله - لهما في العمل :
من الشباب قوتهم ، ومن الشيوخ خبرتهم ، ومن العلماء أمانتهم ، ومن الباحثين دقتهم ، ومن المحققين مثابرتهم ،
وهما :

الشيخ : علي محمد معوض .
والشيخ : عادل أحمد عبد الموجود .
وقد تعاون معهما في خدمة الكتاب اثنان من المشتغلين في الحقل الجامعي وبحوثه ، كل منهما : حجة في مادته ،
مرجع في تخصصه ، مع التمتع بحب البحث ، والنشاط الدؤوب من أجله ، وهما :

الدكتور/ أحمد عبد الغني الجمل . . مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين جامعة الأزهر .
والدكتور/ زكريا عبد المجيد النوي . . مدرس اللغة العربية وآدابها بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

* * *

وبتوفيق الله ، وتعاون هذا الفريق ، وإخلاصه في العمل ، ودقته في البحث ؛ جاء الكتاب في : صورة قشبية ،
وإخراج بديع ، وخدمة غير مسبوقه ، حاملاً الكثير من التعديلات المفيدة ، والتعليقات النافعة ، والكشافات الهامة .
فأصبح بوضعه الراهن : دليلاً للحائر ، مريحاً للباحث ، نافعاً للعالم .
جعله الله في ميزان حسناتهم جميعاً ، وأعانهم على المزيد والمزيد من هذا العمل النافع المفيد .

الأستاذ الدكتور

عبد الحي حسين الفرماوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بجامعة الأزهر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذي أنزل على عبده ، الكتاب ولم يجعل له عوجاً . قيباً) . والصلاة والسلام على النبي المصطفى . أما

بعد .

فقد أنزل الله القرآن كتاباً ختم به الكتب ، على خاتم الأنبياء والرسل .

كتاب معجزة ومنهج . . .

تحدى به العرب أرباب الفصاحة والبيان . . . وفوق أنه كتاب معجز فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق . . . إنه مخرج للأمة من أزماتها ، كما قال الرسول ﷺ :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟

قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم . وهو الذي لا تزيف به الأفئدة ، ولا تضل به الأهواء ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يخلق على كثرة الرد .

لا يشعب منه العلماء ولا يملأه الأتقياء ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشد فأما به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ .

من قال به صدق . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم .

لا خيار للأمة في أن تأخذ به أو تدعه ، أو تأخذ ببعض وتترك بعضاً وإلا صدق فيهم النكير الذي صدق فيمن قبلهم ﴿ أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

ولا يتأتى أن تتخذ الأمة منهاجاً لحياتها ، ودستوراً لصلاحها إلا بعد فهمه وتدبره . .

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ بهذا الفهم . من هنا كانت أهمية علم التفسير ، الذي كان موضع عناية السلف والخلف . .

وكيف لا ؟ وقد قال ابن مسعود : من أراد العلم فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . .

يقول الزركشي في مقدمة كتابه « البرهان في علوم القرآن » :

إن أولى ما أعملت فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللوائح : الفحص عن أسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التأويل ، الذي تقوم به المعالم ، وثبت الدعائم . .

ومن أهم كتب التفسير هذا الكتاب الذي قمنا بتحقيقه وضبطه وإخراجه في الصورة التي بين يدي القارئ . .

إنه البحر المحيط « للعلامة اللغوي الضليع أبي حيان » . .

ولما كان الكتاب عمدة في بابيه ، ولم يطبع إلا طبعة رديئة ، سيئة ، مليئة بالأخطاء المطبعية ، والإملائية ، والنحوية ، والأسلوبية . مما يتعب القارئ بل ويجهده ، ويقطع عليه متابعة المصنف رحمه الله :

كان حرياً أن يحقق ، ويخرج إلى المسلمين في صورة تعم بها الفائدة . . .

وقد قمنا بعمل دراسة في بداية الكتاب وجاءت في بابين كما يلي :

الباب الأول :

علم التفسير :

تعريفه لغة واصطلاحاً ، التأويل ، تعريفه لغة واصطلاحاً ، الفرق بين التأويل والتفسير ، الحاجة إلى علم التفسير ، العلوم التي لا بد منها للمفسر .

أقسام التفسير :

أولاً : التفسير بالمأثور :

من تفسير القرآن بالقرآن ، من تفسير الرسول للقرآن ، من تفسير الصحابة للقرآن ، تفسير التابعين ، المفسرون من الصحابة ، علي بن أبي طالب ، عبد الله بن مسعود ، أبي بن كعب ، عبد الله بن عباس ، المفسرون من التابعين وطبقاتهم ، أهل مكة ، مجاهد ، سعيد بن جبير ، عطاء بن أبي رباح ، عكرمة ، أهل المدينة ، زيد بن أسلم ، أبو العالية ، محمد بن كعب القرظي ، العراق ، مسروق ، قتادة ، الحسن البصري ، مرة الهمداني ، الضحاك ، تدوين التفسير بالمأثور .

ثانياً : التفسير بغير المأثور (بالرأي) :

مناهج المفسرين بالرأي ، أهم كتب التفسير بالرأي : ١ - مفاتيح الغيب ، لباب التأويل في معاني التنزيل ، ٢ - البحر المحيط .

الباب الثاني : أبو حيان وتفسيره :

الفصل الأول : الترجمة :

اسمه ، كنيته ، مولده ، نشأته ، هيئته ، أسرته ، زوجته ، أبنائه ، ١ - نضار ، ٢ - حيان ، حفيده ، شيوخه ، ارتحال أبي حيان ، ثقافته ، مصنفاته : - التفسير ، القراءات - الحديث - الفقه ، اللغة ، النحو ، ثناء العلماء عليه ، تلاميذه ، خشوعه ، غايته ، عقيدته ، أبو حيان والباطنية ، أبو حيان والصوفية ، أبو حيان والإسرائيليات ، أبو حيان ومذهبه الفقهي ، وفاته .

الفصل الثاني : تفسير (أبو حيان) :

منهج (أبو حيان) في تفسيره ، البحر المحيط بين التفسير بالأثر والتفسير بالرأي : أولاً : التفسير الأثري في البحر ، ثانياً : التفسير بالرأي في البحر ، الكلام على غوامض الإعراب ، علوم البلاغة بأنواعها الثلاثة ، البحر المحيط بين الإيجاز والإطناب ، الفقه في تفسير البحر المحيط ، الشواهد الشعرية في البحر المحيط لأبي حيان ، استخدام القواعد النحوية ،

أبو حيان والمذاهب النحوية ، المذهب البصري ، المذهب الكوفي ، المذهب البغدادي ، المذهب الأندلسي ، استقلال
(أبو حيان) النحوي ، أبو حيان ومعرّب القرآن ، أبو حيان وابن عطية ، أبو حيان والزّمخشرّي ، أبو حيان والقراءات ،
مصادر (أبو حيان) ، البحر المحيط في نظر أصحاب الطبقات ، حول البحر ، النهر المار ، السدّر اللقيط من البحر
المحيط ، المحاكمة .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم منهجنا في التحقيق

من المعلوم أن من مهام المحقق أن يخرج الكتاب في الصورة التي أراد بها المصنف حتى ينتفع به القارئ فقمنا بالخطوات التالية حتى خرج هذا الكتاب في هذه الصورة التي بين يديك حفظنا الله وإياك .

أولاً : المقابلة على النسخ :

فقد كان تحت أيدينا نسختان ومطبوعة :

أ - النسخة الأولى وهي المحفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٤) تفسير تحت أرقام (٢٨٩٨٣) ، (١٠٥٨٧) ، (١٠٥٨٨) ، (٢٩٠٨٥) ، (١٠٥٨٩) .

ب - النسخة المحفوظة أيضاً في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨) تفسير تحت رقمي (١١٩٦) ، (١٤٨٤١) .

ج - وهي النسخة المطبوعة في مطبعة السعادة وهي إن شئت فقل : هي أردؤها إذ لا تكاد تخلو صفحة من تصحيف أو تحريف ، هذا بالإضافة لما في أبيات الشواهد الشعرية من أخطاء فادحة تستغلq ويصعب إدراك موطن الشاهد على الصورة التي كانت عليها .

ويرى أحد المبرزين في سماء التحقيق وهو الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب أن تحقيق مثل هذه الكتب المطبوعة لا يقل أهمية عن المخطوطة .

هذا ولقد كان كتاب « البحر المحيط » ضمن تلك الكتب التي تحتل المركز الأول ضمن عالم المطبوعات الذي يحتاج أن يخرج في ثوب جيد يسهل على الباحث الاستفادة من كنوزه وعلومه وقد بذلنا الوقت في إخراجه بصورة طيبة فله الحمد والمنة .

ثانياً : قمنا بتوثيق الأحاديث النبوية الشريفة .

ثالثاً : قمنا بتوثيق بعض الآثار .

رابعاً : قمنا بتراجم للأعلام الواردة في الكتاب .

خامساً : قمنا بتخريج الشواهد الشعرية في مظانها .

سادساً : قمنا بالتعليق على المسائل النحوية في الكتاب .

ولله الحمد والمنة

علم التفسير

الحمد لله الذي أنزل القرآن هادياً لطريق السداد ، كافياً لمصالح العباد ، وافياً بحصول المراد ، مبيناً سبيل الرشاد للمعاش .

سبحان من أوحاه قرآناً عربياً ، عذب البيان ، بليغ الخطاب ، فصيح الأداء ، معجزاً للبلغاء والفصحاء .
قال الله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ الآية (١) .

نحمده سبحانه وتعالى على إرساله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، فأخرج به عباده من الظلمات إلى النور ، وجعله ناطقاً بكل أمر رشيد ، هادياً إلى صراط العزيز الحميد ، فأرشد به الأمة إلى أقوم سبيل فهداهم إلى الحق وهم في ضلال مبين ، فتلاشى ظلام الباطل ، وسطع نور اليقين ، فهو دستور الخالق لإصلاح الخلق ، وقانون السماء لهداية الأرض ، أنهى إليه مُنْزِلَه كل تشريع ، وأودعه كل نهضة ، وناط به كل سعادة وهو حجة الرسول ، وآيته الكبرى : يقوم في فم الدنيا شاهداً برسائله ، ناطقاً بنبوته ، دليلاً على صدقه وأمانته ، وهو ملاذ الدين الأعلى ، يستند الإسلام إليه في عقائده وعباداته وحكمه وأحكامه وأدابه وأخلاقه ، وقصصه ومواعظه ، وعلومه ومعارفه ، وهو عماد لغة العرب الأسمى ! تدين له اللغة في بقائها وسلامتها ، وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها .

أما بعد

فلما كان القرآن الكريم متضمناً لدقائق العلوم النظرية والعملية ، ومنطوياً على دقائق الفنون الخفية والجلية ، ومحيطاً بمناط الدلائل الأصلية والفرعية وعليه يدور فلك الأوامر والنواهي ، وإليه تستند معرفة الأشياء كما هي ، فهو الهداية العظمى لعباده ، قد أفلح باتباعه من لم يجد قبله فلاحاً ، وصلح به من لم يعرف قبله صلاحاً ، ولقد تصدى لتفسيره كبار الأئمة في كل عصر ، فدوّنوا أسفاراً بارعة شاملة لمحاسنه الرائعة ، فيها فوائد تقر بها العيون فلاجل ذلك عقدنا هذه المقدمة حتى يتبين القارئ مدى عناية المفسرين بالتفسير ، ونبدأ أولاً ببيان معنى التفسير فنقول والله الحمد والمنة : -

تعريف علم التفسير

التفسير : مصدر فسرّ بتشديد السين ، الذي هو مضعف فسر بالتخفيف - من بابي نصر وضرب - الذي مصدره الفسر ، وكلاهما فعل متعد فالتضعيف ليس للتعدية .

والفسر : الإبانة والكشف لدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسر من السامع ، ثم قيل : المصدران

(١) الإسراء : ٨٨ .

والفعلان متساويان في المعنى ، وقيل : يختص المضعف بإبانة المعقولات .

قال الراغب والفيروز آبادي : وكأن وجهه أن بيان المعقولات يكلف الذي يبينه كثرة القول ، كقول أوس بن حجر :

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّ نَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

فكان تمام البيت تفسيراً لمعنى الألمي ، وكذلك الحدود المنطقية المفسرة للمواهي والأجناس ، فناسب أن يخص هذا البيان بصيغة المضاعفة ، بناء على أن الفعل المضعف إذا لم يكن للتعدية كان المقصود منه الدلالة على التكرير من المصدر .

قال في الشافية : « وفعل للتكرير غالباً » وقد يكون التكرير في ذلك مجازياً واعتبارياً بأن ينزل كد الفكر في تحصيل المعاني الدقيقة ، ويشهد لهذا قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾^(١) .

وقيل : مأخوذ من التفسر وهي اسم لما يعرف به الطبيب المرض^(٢) .

فأما علم التفسير في نظر أهل العلم فقد اختلفت أساليب العلماء في تعريفه فمنهم من أطال في تعريفه فقال : هو علم نزول الآيات وشؤونها وأفاصيصها والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها وبيان محكمها ، ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ، ووعداها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها ، ونحو ذلك^(٣) ومنهم من توسط - كمصنفنا ذي البيان أبي حيان هنا في البحر - فقال في تعريفه : علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحصل عليها حالة التركيب وتتمت لذلك . وشرح هذا التعريف . . . قال الشيخ أبو شعبة في الإسرائيليات^(٤) : وهذا التعريف غير جلي ولا واضح ، وكذلك لم يصرح بالغرضين الأهميين ، اللذين نزل لهما القرآن ، وهما كونه كتاب الهداية البينة ، التي هي أوضح الهدايات وأقومها ، والتي لو أتبعها البشر لحققت لهم السعادتين الدنيوية والأخروية .

والكتاب السماوي المعجز فهو المعجزة العظمى ، والآية الكبرى الباقية على وجه الدهر لنبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - .

وعرفه الزركشي في برهانه^(٥) : بأنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه ، وحكمه ، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ .

التأويل

التأويل : لغة^(٦) أصله من الأول وهو الرجوع ، فكأن المؤول للآية رجع بها إلى ما تحتمله من المعاني .

(١) سورة الفرقان : ٣٣ .

(٢) انظر الصحاح ٧٨١/٢ للسان ٣٤١٢/٥ ترتيب القاموس ٤٩٠/٣ ، المفردات للراغب (٥ - ٥٧٢) .

(٣) الإتيقان ١٧٤/٢ .

(٤) الإسرائيليات : ٤١ .

(٥) البرهان ٣٣/١ .

(٦) الصحاح ١٦٢٧/٤ ، اللسان ١٧١/١ ، ترتيب القاموس ١٩٧/١ .

وقيل : مأخوذ من الإيالة وهي السياسة ، وكأن المؤول للكلام ساسه ، وتناوله بالمحاورة والمداورة حتى وصل إلى المراد منه .

قال الزرقاني في مناهل العرفان^(١) : والتأويل مرادف للتفسير في أشهر معانيه اللغوية .
قال الفيروز آبادي : في قاموسه^(٢) « أول الكلام تأويلاً وتأوله : دبره وقدره وفسره » .
وقال في لسان العرب^(٣) : الأول : الرجوع ، آل الشيء يؤول أولاً ومالاً رجع ، وأول الشيء رجعه ، وألت عن الشيء ارتددت . . .

والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد في كثير من آياته على معان مختلفة ، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة آل عمران الآية السابعة : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فهو في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين .

وأيضاً قوله تعالى في سورة النساء في الآية التاسعة والخمسين : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ فهو في هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير .
وقوله تعالى في سورة الأعراف في الآية الثالثة والخمسين : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى تَأْوِيلِهِ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ .
وقوله تعالى في سورة يونس في الآية التاسعة والثلاثين : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ ﴾ فهو في الآيتين بمعنى وقوع المخبر به .

وقوله تعالى في سورة يوسف الآية السادسة : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رِبْكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ . . . ﴾ وقوله أيضاً في نفس السورة الآية السابعة والثلاثون : ﴿ وَقَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ .

وقوله أيضاً في نفس السورة في الآية الرابعة والأربعين : ﴿ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ . . . ﴾ .
وقوله في الآية المائة من نفس السورة : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فالمراد به في كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا .

وقوله في سورة الكهف في الآية الثامنة والسبعين : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . . . ﴾ وقوله أيضاً في نفس السورة في الآية الثانية والثمانين : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وبيان السبب الحامل عليها ، وليس المراد منه تأويل الأقوال .

والتأويل في الاصطلاح له معنيان عند السلف : تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء أوافق ظاهره أو خالفه ، أو هو نفس المراد بالكلام فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الشيء المخبر به . . .

أما عند المتأخرين فمعناه : صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به . . .

(١) ٤٧٢/١ .

(٢) ١٩٧/١ .

(٣) اللسان ١٧١/١ .

الفرق بين التفسير والتأويل والعلاقة بينهما

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : هما بمعنى واحد ، وعلى هذا يعرف بما عرف به التفسير . وقد أنكر بعض العلماء ذلك .

قال الراغب الأصفهاني في المفردات : التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعمالاً في الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل ، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية ، وأما التفسير فيستعمل فيها وفي غيرها .

وقال أبو طالب الثعالبي : التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً ، كتفسير الصراط بالطريقة ، والصيب بالمطر . والتأويل : تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الأمر ، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد ، لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل مثاله قوله تعالى في سورة الفجر في الآية الرابعة عشرة : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تفسيره : أنه من الرصد ، يقال : رصدته إذا رقبته ، والمرصاد : مفعال منه ، وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله ، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه .

وقال بعض العلماء : التفسير يتعلق بالرواية ، أي : التفسير بالمأثور ، والتأويل : يتعلق بالدراية أي التفسير بالرأي^(١) والاجتهاد .

وقال الماتريدي : « التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأي ، وهذا المنهي عنه ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله^(٢) .

قال شيخنا الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه القيم : التفسير والمفسرون^(٣) : والذي تميل إليه النفس من هذه الأقوال هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية ، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية ، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان ، والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي ، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع ، وخالطوا رسول الله ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم . وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب ، واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من كل ذلك .

قال الزركشي : « وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ، ليحيل على الاعتماد في المنقول ، وعلى النظر في المستنبط »^(٤) .

(١) الإتيان ١٧٣/٢ .

(٢) الإتيان ١٧٣/٢ .

(٣) ٢٣/١ .

(٤) الإتيان ١٨٣/٢ وانظر مقدمتنا على تفسير الوسيط وبحر العلوم .

الحاجة إلى علم التفسير

أعلم هداك الله تعالى لما يجب ويرضى أن علم تفسير القرآن من أهم العلوم التي يجب على الأمة الإسلامية تعلمها ، فلقد أوجب سبحانه وتعالى على أمته فهم القرآن ، وتدبر معانيه قال جلّ وعلا : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

وقال جلّ وعلا : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ﴾ (٢) .
وقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٣) .

فقد دلت الآية الأولى على أنه أنزل للتدبر ، وحث الآيتان الأخريان على تدبره ، وتدبر القرآن بدون فهم معانيه غير ممكن ، وفهم معانيه إنما يكون بمعرفة تفسيره ، فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها الكتاب العزيز النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس ، وإعزاز العالم . وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى كنه هذه الكنوز والذخائر مهما بلغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن .

قال السيوطي رحمه الله في بيان الحاجة إلى التفسير : « القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب ، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ مثل قولهم « وأينا لم يظلم نفسه » حينما نزل قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ (٤) ففسره النبي ﷺ بالشرك (٥) ، واستدل بقوله سبحانه ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (٦) وكذلك حين قال النبي ﷺ : « من نوقش الحساب عذب » سألته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن قوله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ (٧) فقال ﷺ : « ذلك العرض » (٨) وكقصه عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والخيط الأسود (٩) ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه بل نحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم .

العلوم التي لا بد منها للمفسر

وقبل أن ابدأ بالعلوم التي لا بد منها لمن يتصدى لتفسير القرآن أبين هل يجوز التفسير أم لا ؟

قال بعض العلماء : اختلف الناس في تفسير القرآن هل يجوز لكل أحد الخوض فيه ؟ فقال قوم : لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو ، والأخبار والآثار ، وليس له إلا

(٣) محمد : ٢٤ .

(١) النساء : ٨٢ .

(٤) الأنعام : ٨٢ .

(٢) ص ٢٩ .

(٥) أخرجه البخاري ١٠٩/١ في كتاب الإيمان باب ظلم دون ظلم (٣٢) (٣٣٦٠) (٣٤٢) (٣٤٢٩) (٤٦٢٩) (٤٧٧٦) (٦٩١٨) (٦٩٣٧) ، وأخرجه مسلم ١٤/١ في كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤/١٩٧) .

(٦) سورة لقمان : ١٣ .

(٧) سورة الإنشقاق : ٨ ، ٩ .

(٨) أخرجه البخاري ١٩٦/١ - ١٩٧ في العلم باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه (١٠٣) ، وفي ٤٠٠١/١١ في الرقائق باب من نوقش الحساب عذب (٦٥٣٦) (٦٩٣٧) ، ومسلم ٢٢٠/٤ في الجنة باب إثبات الحساب (٢٨٧٦/٧٩) .

(٩) أخرجه البخاري ٣١/٨ في كتاب التفسير باب وكلوا واشربوا . . . (٤٥١٠) ، وأخرجه مسلم ٧٦٦/٢ في كتاب الصيام باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر (١٠٩٠/٣٣) .

أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ﷺ في ذلك .

ومنهم من قال : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها المفسر ولا طائل لهذا الخلاف فأنت ترى أن أصحاب القول الأول جامدون فلا يعبأ بقولهم ولا يلتفت إليه لمخالفته اتفاق أهل العلم .

وقلت : وقد ذكر أبو حيان - رحمه الله - في مقدمة تفسيره هذه العلوم ونحن نحيلك عليها فإنها مفيدة جداً وقد أعرضنا عن ذكرها خشية الإطالة والسآمة وانظر هذا المبحث في الإتقان للجلال السيوطي والبرهان للزركشي فإنه في غاية الأهمية .

واعلم أن هذه العلوم التي هي كالألة للمفسر لا يكون مفسراً إلا بتحصيلها ، فمن فسر القرآن بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه ، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه ، والصحابة والتابعون - رضي الله عنهم - كانت عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكْتِسَاب واستفادوا العلوم الأخرى من سيدنا رسول الله ﷺ . وبعد بيان هذا نبين أقسام التفسير فنقول والله الحمد والمنة .

أقسام التفسير

التفسير المعتمد عند أهل العلم سلفاً وخلفاً ينقسم إلى قسمين :

الأول : التفسير بالمأثور ، والثاني : التفسير بالرأي السديد ، والاجتهاد الصحيح المبني على العلوم والمعارف وورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن التفسير أربعة حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب بالسنتها ، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

قال الزركشي في البرهان : « هذا تقسيم صحيح ، فأما الذي تعرفه العرب بالسنتها فهو ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب ، فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها - ولا يلزم ذلك القارئ - ثم إن كان ما يتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفى فيه خبر الواحد والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين ، وإن كان يوجب العلم أي : الاعتقاد لم يكف ذلك ، بل لا بد أن يستفيض ذلك اللفظ ، وتكثر شواهد من الشعر ، وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلاً للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم ويسلم القارئ من اللحن ، وإن لم يكن محيلاً للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن ، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه .

وأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى فهذا القسم لا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك التوحيد من قوله : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ محمد آية (١٩) وأنه لا شريك له في الإلهية ، وإن لم يعلم أن « لا » موضوعة في اللغة للنفي (وإلا) موضوعة للإثبات ، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر ، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى : ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ طلب إيجاب المأمورية ، وإن لم يعلم أن صيغة أفعّل للوجوب .

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فهو ما يجري مجرى الغيوب كآيات التي تذكر فيها الساعة والروح والحروف المقطعة ونحو ذلك ، وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهداهم فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، اعتماداً على الدلائل والشواهد دون مجرد الرأي .

وإذا نظرنا إلى صدر ما أسميناه بأقسام التفسير وما ورد عن ابن عباس لا خلاف فهما متفقان جملاً وتفصيلاً وسنزيد

القسمين وضوحاً فنقول وبالله التوفيق والسداد .

أولاً : التفسير بالمأثور

المأثور : اسم مفعول من أثرت الحديث^(١) أثراً من باب قتل يقتل والأثر بفتحيتين : اسم منه ، وحديث مأثور أي : منقول .

فالتفسير بالمأثور ، سواء أكان متواتراً أم غير متواتر ، وعلى هذا يشمل المنقول عن الله تعالى أو عن سيدنا رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أو عن التابعين لهم بإحسان - رضي الله عن الجميع .

من تفسير القرآن بالقرآن

ومثال ما جاء في القرآن قوله سبحانه : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾^(٢) البقرة آية ١٨٧ فإن كلمة « من الفجر » بيان وشرح للمراد من كلمة « الخيط الأبيض » التي قبلها .

وقوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ الآية ٣ المائدة ، فإنها بيان للفظ « ما يتلى عليكم » من قوله سبحانه : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾^(٣) المائدة آية ١ ، وقوله تعالى : ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمتم برسلي وعزغنهم وأفرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ﴾^(٤) الآية ١٢ المائدة ، فإنها بيان للعهدين في قوله سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾^(٥) الأول للأول ، والثاني للثاني .

من تفسير الرسول للقرآن

ومثال ما جاء في السنة شرحاً للقرآن ، أنه ﷺ فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾^(٦) الأنعام ٨٢ ، وأيد تفسيره هذا بقوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وفسر ﷺ الحساب اليسير بالعرض حين قال : « من نوقش الحساب عذب » فقالت له السيدة عائشة أو ليس قد قال الله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾^(٧) فقال ﷺ : « ذلك العرض » بياناً للحساب اليسير .

وكلا هذين القسمين لا شك في قبوله . أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره ، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى . وأما الثاني فلأن خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، ووظيفته البيان والشرح ، مع أنا نقطع بعصمته وتوقيفه . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾^(٨) .

بقي القسم الثالث : وهو بيان القرآن بما صح وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم . قال الحاكم في المستدرک :

(١) لسان العرب ٢٥/١ ترتيب القاموس ١١٢/١ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٧ .

(٣) المائدة : ١ .

(٤) المائدة : ١٢ .

(٥) البقرة : ٤٠ .

(٦) سبق ترجمته .

(٧) سورة الانشقاق ٨٧ .

(٨) سورة النحل : ٤٤ .

« إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع » كذلك أطلق الحاكم .

وما قاله الحاكم وغيره : نازعه فيه الإمام ابن الصلاح وغيره ، من المحققين المتأخرين وقالوا : إن ذلك مخصص بما فيه سبب نزول أو نحوه مما لا دخل للرأي فيه ، وأما ما يتعلق باللغة والأحكام الاجتهادية : فليس من قبيل المرفوع .

وقد صرح الحاكم نفسه بذلك في كتابه : « علوم الحديث » فقال : ومن الموقوفات : تفسير الصحابة . وأما من يقول : إن تفسير الصحابة مسند - أي مرفوع - فإنما يقوله فيما فيه سبب نزول ، فقد خصص هنا وعمم في المستدرك .

والمحققون من العلماء : فالإمام الحافظ ابن حجر ، على أن أقوال الصحابة في التفسير لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ بشرطين :

الأول : أن يكون مما لا مجال للرأي فيه ، كأسباب النزول ، وأحوال القيامة ، واليوم الآخر ونحوها .

الثاني : ألا يكون الصحابي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، أي : غير معروف برواية الإسرائيليات .

قال أبو شعبة : وهذا الشرط الثاني يدل على بعد نظرات أئمة الحديث ونقاده ، وأنهم لم تجز عليهم هذه الإسرائيليات التي رويت عن بعض الصحابة ، فقد علموا كذبها ، وعلموا أنها دخيلة على الرواية الإسلامية .

وقد كان كثير من التابعين يتحاشون الرواية عن بعض الصحابة الذين عرفوا بالأخذ عن أهل الكتاب ، وليس أدل على ذلك : من أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد شهد له أبو هريرة بأنه كان أكثر حديثاً منه لأنه كان قارئاً كاتباً ، رواه البخاري في صحيحه ومع هذا : فقد جاءت مروياته أقل من مرويات أبي هريرة ، لأنه كانت وقعت له كتب من كتب أهل الكتاب في موقعة اليرموك ، تبلغ حمل بعيرين ، فكان يحدث ببعض ما فيها فمن ثم : تحاشى بعض الرواة الرواية عنه ، فكان هذا سبباً من أسباب قلة مروياته عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أمثلة من تفسير الصحابة للقرآن

من ذلك : ما روي عن سلمة بن الأكوع في تفسير قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾^(١) البقرة ١٨٤ : كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها .

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس : أنها ليست بمنسوخة ، وأنها في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما ، فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً .

وهذا : إنما يتأتى على من يفسر الإطاقة : بأنها تحمل الشيء بتكلف وجهد ويشهد له قراءة « يطوقونه » بضم الياء ، وفتح الطاء ، وفتح الواو المشددة ، وأما قراءة العامة من القراءة المشهورة فتشهد للرأي الأول ، وهذا إلى جانب كونه مثلاً لتفسير الصحابي لون من ألوان اختلاف الصحابة في التفسير ، وغير ذلك مما هو مسطر في الدر المنثور والطبري وابن أبي حاتم وغيرها من كتب التفسير بالمأثور .

تفسير التابعين

وأما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء : منهم من اعتبره من التفسير بالمأثور ، لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً ،

وبعضهم عدها من قبيل التفسير بالرأي والاجتهاد لكثرة اختلافهم أكثر من الصحابة .

قال الزركشي في البرهان : « وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد ، واختار ابن عقيل المنع ، وحكوا عن شعبة بن الحجاج أنه قال : أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ ! لكن عمل المفسرين على خلافه فقد حكوا في كتبهم أقوالهم ، لأن غالبها تلقوها عن الصحابة .

والحق أنه إذا أجمعوا على أمر كان حجة ، أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض وكذلك من بعدهم .

وقد رويت عن التابعين في التفسير روايات كثيرة لا يحصيها العد لا سيما مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة وغيرهم ، وإن شئت أن تقف على هذا فارجع إلى ابن أبي حاتم والطبري وتفسير مجاهد والدر المنثور للسيوطي - رحمه الله - وكذلك هنا في البحر فإنه محشود بالآثار .

المفسرون من الصحابة

قال الجلال السيوطي - رحمه الله - في الإتقان : « اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ، أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - والرواية عن الثلاثة قليلة جداً وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم » والمكثرون من هؤلاء هم علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب وعبد الله بن عباس وإليك كلمة موجزة عنهم :

علي بن أبي طالب^(١)

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ ، وصهره على ابنته فاطمة ، وذريته ﷺ منها ، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهو أول هاشمي ولد من هاشميين ، ورابع الخلفاء الراشدين ، وأول خليفة من بني هاشم ، وهو أول من أسلم من الأحداث ، وصدق برسول الله ﷺ هاجر إلى المدينة ، وموقفه من الهجرة مشهور ، وقد أعطاه الرسول ﷺ اللواء في مواطن كثيرة وقال يوم خيبر : « لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » ثم أعطاها لعلي - رضي الله عنه - ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره ، فمن ورع في الدين ، إلى زهد في الدنيا ، إلى قرابة وصهر برسول الله ﷺ إلى علم جم وفضل غزير .

مكانته من التفسير : جمع علي - رضي الله عنه - إلى مهارته في القضاء والفتوى علمه بكتاب الله ، وفهمه لأسراره وخفي معانيه ، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل ، وقد روي عن ابن عباس أنه قال : « ما أخذت من تفسير القرآن فغن علي بن أبي طالب » ، وأخرج أبو نعيم في الحلية عن علي - رضي الله عنه - أنه قال : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ؟ ، وأين نزلت ؟ وإن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤلاً » .

وتوفي - رحمه الله - في رمضان سنة أربعين من الهجرة بيد الملعون عبد الرحمن بن ملجم .

(١) انظر ترجمته في التهذيب ٣٣٤/٧ ، التقریب ٣٩/٢ .

عبد الله بن مسعود^(١)

ترجمته : هو عبد الله بن مسعود بن غافل ، يصل نسبه إلى مضر ، ويكنى بأبي عبد الرحمن الهذلي ، وأمّه أم عبد بنت عبد ود من هذيل ، وكان ينسب إليها أحياناً فيقال ابن أم عبد ، كان - رحمه الله - خفيف اللحم قصيراً شديداً الأدمة ، أسلم قديماً ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ ، وأوذى في الله من أجل ذلك ، ولما أسلم عبد الله بن مسعود أخذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه في أكثر شؤونه ، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله يلبسه إياه إذا قام ، ويخلعه ويحمله في ذراعه إذا جلس ، ويمشي أمامه إذا سار ، ويستتره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلج عليه داره بلا حجاب حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - من أهل بيت رسول الله ﷺ ، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وصلى إلى القبلتين ، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة .

كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتاب الله ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن ، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال : قال لي رسول الله ﷺ : اقرأ عليّ سورة النساء : قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه حتى بلغت : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ : . . فاضت عيناه ﷺ وكان رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » .

ولابن مسعود مكانة عالية في التفسير ، وروى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه ، وعن مسروق قال : « قال عبد الله - يعني ابن مسعود - والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تتناوله المطايا لأتيته . وتوفي - رحمه الله - بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع ليلاً ، وكان عمره يوم وفاته بضعا وستين سنة .

أبي بن كعب^(٢)

هو : أبي بن كعب بن قيس من بني النجار الأنصاري الخزرجي يكنى : أبا المنذر وأبا الطفيل كان من السابقين إلى الإسلام ، من الأنصار شهد العقبة ، وبدرًا وما بعدها وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة ، وبإقراءه ، وقد قال فيه عمر : « أبي أقرؤنا » رواه البخاري .

ومن فضائله : أن النبي ﷺ قرأ عليه القرآن ، روى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال : النبي ﷺ لأبي : إن الله أمرني أن أقرأ عليك : « لم يكن الذين كفروا . . . » . . . فبكى « وإنا قرأ عليه النبي ﷺ ليزداد علماً بالقراءة من النبي ﷺ . ويزداد تثباً فيها ، وليكون عرض القرآن وأخذه عن شيخ مقرأ سنة متبعة وللتنبية على فضيلة أبي وتقدمه في حفظ القرآن .

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤٦١/١ ، طبقات ابن سعد ١٠٦/١/٣ ، حلية الأولياء ١٢٤/١ ، تاريخ بغداد ١٤٧/١ - ١٥٠ .

(٢) انظر السير ٣٨٩/١ ، طبقات ابن سعد ٥٩/٢/٣ ، حلية الأولياء ٢٥٠/١ ، أسد الغابة ٦١/١ .

مبلغه في العلم : فكان أبي بن كعب سيد القراء ، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ .
فكان أبي بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى : ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله هو أنه كان
حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها ، وكونه من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وهذا بالضرورة
يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه ومقدم القرآن ومؤخره وناسخه ومنسوخه .
وتوفي سنة ثلاثين من الهجرة فرضي الله عنه .

عبد الله بن عباس (١)

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ وأمه لبابة
الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية ولد والنبي - عليه الصلاة والسلام - وأهل بيته بالشعب بمكة فأتى به النبي -
عليه الصلاة والسلام - فحنكه بريقه ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ولازم النبي - عليه الصلاة والسلام - في صغره
لقربته منه ، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ ، وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة وقيل
خمس عشرة ، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاتهم من حديث رسول الله ﷺ .
كان ابن عباس يلقب بالحبر والبحر لكثرة علمه ، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله ،
ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير ، وكان عمر - رضي الله عنه - يجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويدنيه منه ،
وكان يقول له : إنك لأصبح فتياننا وجهاً ، وأحسنهم خلقاً وأفقههم في كتاب الله ، وقال في شأنه : ذاكم فتى الكهول ، إن له
لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً .

وقال فيه ابن مسعود - رضي الله عنه - : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس » .
وتوفي بالطائف سنة ثمان وستين على أرجح الروايات وله من العمر سبعون سنة وقال محمد بن الحنفية بعد أن سوى
عليه التراب : مات والله اليوم حبر هذه الأمة .

المفسرون من التابعين وطبقاتهم

قد اشتهر بالتفسير من التابعين - رضي الله عنهم - كثيرون من أعيانهم مجاهد بن جبر وسعيد بن جبيرة وعكرمة وعطاء
والحسن ومسروق وسعيد بن المسيب وأبو العالية والربيع بن أنس والضحاك بن مزاحم وغيرهم .
فنستطيع أن نعتبر المفسرين طبقات ثلاثاً : طبقة أهل مكة ، وطبقة أهل المدينة ، وطبقة أهل العراق .

أهل مكة (٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة ؛ لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي
ربيع وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبيرة وأمثالهم .

مجاهد (٣)

هو مجاهد بن جبر المكي المقرئ ، المفسر ، أبو الحجاج المخزومي مولى السائب بن أبي السائب . كان أحد الأعلام

(١) انظر ترجمته : سير أعلام النبلاء ٣/٣٣ ، طبقات ابن سعد ٢/٣٦٥ تاريخ بغداد ١/١٧٣ ، أسد الغابة ٣/٢٩٠ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) انظر ترجمته في السير ٤/٤٤٩ ، طبقات ابن سعد ٥/٤٦٦ ، البداية والنهاية ٩/٢٢٤ ، تهذيب التهذيب ١٠/٤٢ .

الأثبات ولد سنة ٢١ هـ في خلافة عمر بن الخطاب وكانت وفاته بمكة .

كان مجاهد - رحمه الله - أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير ، وكان أوثقهم ، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما ، ونجد البخاري - رضي الله عنه - في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ينقل لنا كثيراً من التفسير عن مجاهد وهذه أكبر شهادة من البخاري على ثقته وعدالته ، وقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهداً يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة .

وقال قتادة : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد .

وقال الذهبي في الميزان في آخر ترجمة مجاهد : أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة .

وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب بمكة وهو ساجد سنة أربع ومائة على الأشهر وعمره ثلاث وثمانون سنة .

سعيد بن جبير^(١)

أبو محمد أو أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولا هم ، كان حبشي الأصل ، وكان من تلاميذ ابن عباس المتخرجين في مدرسته ، وكان أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود ، ثم لأبي بردة الأشعري ، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علماً .

قال سفیان الثوري : « خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة ، والضحاك » وقال قتادة : وكان أعلم الناس أربعة ، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير ، وكان عكرمة أعلمهم بالسير وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام .

قتله الحجاج صبراً في سنة خمس وتسعين من الهجرة وهو ابن تسع وأربعين سنة فرضي الله عنه وأرضاه .

عطاء بن أبي رباح^(٢)

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولا هم ، ولد سنة سبع وعشرين ، كان - رحمه الله - أسود ، أعور ، أفتس ، أشل ، أعرج ، ثم عمي بعد ذلك ، روى عن ابن عباس وابن عمرو بن العاص وغيرهم وحدث عن نفسه : أنه أدرك مائتين من الصحابة وكان ثقة ، فقيهاً ، عالماً ، كثير الحديث ، وانتهت إليه فتوى أهل مكة ، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه : تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء ؟ وقال سلمة بن كهيل : ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة : عطاء ، ومجاهد وطاوس .

توفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال .

عكرمة^(٣)

هو أبو عبد الله : عكرمة بن البربري ، أحد الأئمة الأعلام وقد أخذ ابن عباس بالتربية والتثقيف في صغره ، وربما

(١) انظر ترجمة السير ٣٢١/٤ ، طبقات ابن سعد ٢٥٦/٦ ، طبقات المفسرين ١٨١/١ ، تهذيب التهذيب ١١/٤ .

(٢) انظر ترجمته في السير ٧٨/٥ ، طبقات ابن سعد ٤٦٧/٥ ، تهذيب التهذيب ١٩٩/٧ .

(٣) انظر ترجمته في السير ١٢/٥ ، طبقات ابن سعد ٢٨٧/٥ ، حلية الأولياء ٣٣٦/٣ ، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ .

كان يقسو عليه في هذا ، قال عكرمة : « كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل ، ويعلمني القرآن والسنن » وكان يقول : « كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس » وقال أيضاً : « لقد فسرت ما بين اللوحين » : يعني ما بين جلدتي المصحف وقد اختلف العلماء فيه ما بين معدل له ، ومجرح ، والأكثر على توثيقه وتعديله وبحسبه توثيقاً ، رواية إمام الأئمة البخاري عنه في صحيحه .

قال الشعبي : « ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة » .
توفي سنة خمس ومائة .

أهل المدينة

كان بالمدينة كثير من الصحابة ، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها ، كما تحول كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين ، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير ، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة وكان قيامها على أبي بن كعب رضي الله عنه .
فأشهر رجالها :

زيد بن أسلم^(١)

هو أبو أسامة - أو أبو عبد الله - زيد بن أسلم العدوي المدني الفقيه المفسر ، مولى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول في التفسير والثقة فيما يروونه ، قال فيه الإمام أحمد ، وأبوزرعة ، وأبو حاتم والنسائي : ثقة .

وقد عرف زيد بأنه كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك ، فقد روى حماد بن زيد عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه : لا أعلم به بأساً ، إلا أنه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه ، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيدا ثقة لا يؤخذ عليه شيء ، إلا أنه كان يكثر من القول بالرأي ، وهذا لا يعد مغزماً من عبيد الله في ثقته وعدالته ، كما لا نستطيع أن نعد هذا طعناً منه في علمه ، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول في القرآن برأيهم ، كغيره من الصحابة والتابعين ، وكان زيد يرى جوازاً تفسير القرآن بالرأي فلا يتحرج منه .

وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائة من الهجرة وقيل غير ذلك .

أبو العالية^(٢)

أبو العالية البراء اسمه : زياد ، وقيل : رفيع بن مهران الرياحي ، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي بستين ، روى عن علي ، وأبي بن كعب ، وابن عباس ، وابن عمر وغيرهم ، وروى عنه بديل بن ميسرة ، وسعيد بن أبي عروبة ، وغيرهما ، وثقه ابن معين ، وأبوزرعة ، وأبو حاتم ، وهومن كبار التابعين ، وروي عنه أنه قال : « قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات . وقال فيه ابن أبي داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية » .

وقد روى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة من التفسير ، ورواها عنه الربيع بن أنس ، وعنه أبو جعفر الرازي ، وهي

(١) انظر ترجمته في السير ٣١٦/٥ ، حلية الأولياء ٢٢١/٣ ، تهذيب التهذيب ٣٩٥/٣ .

(٢) انظر ترجمته في السير ٢٠٧/٤ ، طبقات ابن سعد ١١٢/٧ ، حلية الأولياء ٢١٧/٢ ، تهذيب التهذيب ٢٨٤/٣ ، طبقات المفسرين

صحيحة . وتوفي سنة تسعين .

محمد بن كعب القرظي^(١)

هو أبو حمزة - أو أبو عبد الله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني من حلفاء الأوس . روى عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهم . وروى عن أبي بن كعب بالواسطة ، وقد اشتهر بالثقة والعدالة ، والورع وكثرة الحديث ، وتأويل القرآن . وقال العجلي : مدني ، تابعي ثقة رجل صالح . عالم بالقرآن ، وهو عند أصحاب الكتب الستة . وقال ابن عون : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي .

وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف ؛ فمات هو وجماعة معه تحت الهدم سنة ثمان عشرة ومائة من الهجرة ، وقيل غير ذلك ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

العراق

مسروق^(٢)

هو : أبو عائشة : مسروق بن الأجدع ، بن مالك بن أمية ، الهمداني الكوفي ، العابد العالم ، العامل ، روى عن الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب وغيرهم . وكان أعلم أصحاب ابن مسعود ، وأكثرهم أخذاً منه ، قال علي بن المديني : ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله : يعني ابن مسعود : وقال الشعبي : ما رأيت أطلب للعلم منه ، وقد قال فيه ابن معين : ثقة لا يسأل عن مثله .

روي عنه أنه قال : كان عبد الله - يعني ابن مسعود - يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار وتوفي سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأصح .

قتادة^(٣)

هو : أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمره ، عربي الأصل . كان يسكن البصرة . روى عن أنس ، وأبي الطفيل ، وابن سيرين ، وعكرمة ، وعطاء بن أبي رباح ، وغيرهم . وكان قوي الحافظة واسع الاطلاع في الشعر العربي بصيراً بأيام العرب ، عليمًا بأنسابهم متضلعا في اللغة العربية ، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير .

قال سعيد بن المسيب : ما كنت أظن أن الله خلق مثلك .

وقال ابن حبان في الثقات : كان من علماء الناس بالقرآن والفقه ومن حفاظ أهل زمانه . وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة ، وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور .

الحسن البصري^(٤)

هو : أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ، مولى الأنصار ، وأمه خيرة مولاة السيدة أم سلمة ، ولد لستين بقيتا من

(١) انظر السير ٦٥/٥ ، تهذيب التهذيب ٤٢٠/٩ ، حلية الأولياء ٢١٢/٣ .

(٢) انظر السير ٦٣/٤ ، وطبقات ابن سعد ٧٦/٦ ، أسد الغابة ٣٥٤/٤ . حلية الأولياء ٩٥/٢ ، تهذيب التهذيب ١٠٩/١٠ .

(٣) انظر السير ٢٦٩/٥ ، طبقات ابن سعد ٢٢٩/٧ ، تهذيب التهذيب ٣٥١/٨ ، طبقات المفسرين ٤٣/٢ .

(٤) انظر ترجمته في السير ٥٦٣/٤ ، طبقات ابن سعد ١٦/٦ ، طبقات المفسرين ٤٧١/١ .

خلافة عمر ، ونشأ بوادي القرى ، وكان فصيحاً ورعاً زاهداً واعظاً لا يجارى في وعظه روى عن بعض الصحابة والتابعين ، وروى عنه الكثيرون من أتباع التابعين ، قال فيه ابن سعد : كان الحسن جامعاً عالماً ، رفيعاً ، فقيهاً ثقة مأموناً ، عابداً ، ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً .

مرة الهمداني^(١)

هو أبو إسماعيل مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي ، العابد المعروف بمرة الطيب ومرة الخير . لقب بذلك لعبادته ، وشدة ورعه وكثرة صلاحه ، روى عن أبي بكر ، وعمر ، وعلي ، وابن مسعود وغيرهم . وروى عنه الشعبي وغيره من أصحابه . وثقه ابن معين والعجلي . قال فيه الحارث الغنوي : سجد مرة الهمداني حتى أكل التراب وجهه وكان يصلي كل يوم ستائة ركعة ، وتوفي سنة ٧٦ هـ ست وسبعين من الهجرة .

الضحاك^(٢)

هو : الضحاك بن مزاحم الهلالي ، مولا هم الخراساني روى عن بعض الصحابة ، وأخذ عنهم العلم ، وثقه أحمد بن حنبل ، وابن معين ، وأبو زرعة ، وكان له شهرة بالتفسير توفي سنة خمس ومائة .

تدوين التفسير بالمأثور

جاء قرن تابعي التابعين ، وفيه ألفت تفاسير كثيرة جمعت من أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ، ووکیع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبي إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وعلي بن أبي طلحة ، والبخاري وآخرين . ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبري كتابه المشهور وهو من أجل التفاسير ثم ابن أبي حاتم ، وابن ماجه والحاكم ، وابن مردويه ، وابن حبان ، وغيرهم .

وليس في تفاسير هؤلاء إلا ما هو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ما عدا ابن جرير فإنه تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وذكر الإعراب والاستنباط .

ثانياً : التفسير بغير المأثور

(بالرأي)

المراد بالرأي هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موقفاً أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم . والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتقان عن الزركشي فقال ما ملخصه : للنظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربع :

الأولى : النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع .

الثانية : الأخذ بقول الصحابي ، فقد قيل إنه في حكم المرفوع مطلقاً . وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه .

(١) انظر السير ٧٤/٤ ، طبقات ابن سعد ١٦/٦ ، حلية الأولياء ١٦١/٤ ، تهذيب التهذيب ٨/١٠ ، طبقات المفسرين ٢١٧/٢ .

(٢) انظر السير ٥٩٨/٤ ، طبقات ابن سعد ٦/٦ ، تهذيب التهذيب ٤٥٣/٤ ، طبقات المفسرين ٢١٦/١ .

الثالثة : الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب .
الرابعة : الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » .

فمن فسر القرآن برأيه أي : باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المأخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله ، كان تفسيره سائغاً جائزاً خليفاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود . ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها ، كان تفسيره ساقطاً مردوفاً خليفاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم .

فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه . وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها . وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه .

أما الأمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها التهجم على تبين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة . ومنها حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة . ومنها الخوض فيما استأثر الله بعلمه . ومنها القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل . ومنها السير مع الهوى والاستحسان .

وبعد هذا فاعلم أن أكثر السلف الصالح - رضي الله عنهم - قد أجازوا تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد .

مناهج المفسرين بالرأي

يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره ، وأن يتذرع بكل العلوم التي ذكرها الإمام الحبر البحر ذي البيان أبو حيان في مقدمة تفسيره هنا ليكون قد أصاب المراد أو كاد .

أولاً : أن يطلب المعنى من القرآن ، فإن لم يجده طلبه من السنة ؛ لأنها شارحة للقرآن . فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله . شاهدوه حين نزل ، فوق ما امتازوا به من علم وعمل .
« وخير ما فسرته بالوارد » .

ثانياً : إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي :

١ - البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق . ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم .

٢ - إرداف ذلك بالكلام على التركيب من جهة الإعراب والبلاغة ، على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية .

٣ - تقديم المعنى الحقيقي على المجازي ، بحيث لا يصر إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة .

٤ - ملاحظة سبب النزول . فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد ، كما سبق في مبحث أسباب النزول .

٥ - مراعاة التناسب بين السابق واللاحق ، بين فقرات الآية الواحدة ، وبين الآيات بعضها ببعض .

٦ - مراعاة المقصود من سياق الكلام .

٧ - مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة .

٨ - مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون ، وسنن الاجتماع ، وتاريخ البشر العام وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن .

٩ - مطابقة التفسير لما كان عليه النبي ﷺ في هديه وسيرته ؛ لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشماله وتقريراته .

١٠ - ختام الأمر ببيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشرعة والعلوم الكونية .

١١ - رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال وهو ما يأتي :

قال السيوطي في الإتقان ما نصه : « وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً ، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه . وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأي .

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره . وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة ، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية ، وفي الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ . وإن كانت في أحدهما عرفية والآخر لغوية فالحمل على العرفية أولى .

وإن اتفقا في ذلك أيضاً ، فإن تنافى اجتماعهما . ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كالقرء للحيض والطهر ، اجتهد في المراد منهما ، بالأمارات الدالة عليه . فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه .

وإن لم يظهر له شيء فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف ؟ أقوال . وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين ، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلا ان دل دليل على إرادة أحدهما « اهـ » .

أهم كتب التفسير بالرأي الجائز

نذكر منها مجرد أمثلة ومن أراد المزيد فليرجع إلى التفسير والمفسرون لشيخنا الشيعي الذهبي ومناهل العرفان وغيرهما .

١ - مفاتيح الغيب :

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي ، التميمي البكري ، الطبرستاني ، الرازي ، الملقب بفخر الدين ، والمعروف بابن الخطيب الشافعي ، المولود سنة ٥٤٤ هـ أربع وأربعين وخمسةائة من الهجرة . وتوفي - رحمه الله - سنة ٦٠٦ هـ ست وستائة من الهجرة بالري^(١) .

٢ - لباب التأويل في معاني التنزيل :

مؤلف هذا التفسير : هو علاء الدين أبو الحسن ، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيعي ،

(١) انظر ترجمته في : الأعلام ٢٠٣/٧ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢٣/٢ ، وفيات الأعيان ٣٨١/٣ ، لسان الميزان ٤٢٦/٤ ، البداية والنهاية ٥٥٣/٣ ، طبقات الشافعية ٣٣/٥ ، النجوم الزاهرة ١٩٨/٦ ، مفتاح السعادة ٤٤٥/١ ، مرآة الجنان ٧/٤ ، مرآة الزمان ٣٥٣/٨ .

البغدادى ، الشافعي ، الصوفي ، المعروف بالخازن^(١) . توفي سنة ٧٤١ هـ (إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة) بمدينة حلب ، فرحمه الله رحمة واسعة .

٣ - البحر المحيط

وهو الذي نحن بصده وسنفرده الكلام عليه بإذن الله تعالى .
هذه أمثلة ، وليست حصراً لكتب التفسير بالرأي الجائز .

(١) انظر ترجمته في : الدرر الكامنة ٩٧/٣ ، الأعلام ٥/٥ . معجم المطبوعات ٨٠٩ .

الباب الثاني

أبو حيان وتفسيره

الفصل الأول: الترجمة

اسمه

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الأندلسي الجياني الغرناطي المغربي المالكي ثم الشافعي^(١) .
قولنا النفزي نسبة إلى نفزة قال ياقوت في معجم البلدان^(٢) : نفزة : بالفتح ثم السكون وزاي مدينة بالمغرب بالأندلس .

وقال ابن العماد في الشذرات^(٣) : نسبة إلى نفزة بكسر النون وسكون قبيلة من البربر .
وقولنا : الجياني نسبة إلى جيان ذكرها ياقوت^(٤) وضبطها بالفتح والتشديد وفي آخرها نون وقال : إنها مدينة لها كورة واسعة .

الغرناطي : نسبة إلى غرناطة لأنه ولد فيها .

كنيته

كني العلامة « بأبي حيان » وهذه الكنية هي التي عرف بها واشتهر بين أهل العلم قديماً وحديثاً .
قال رحمه الله تعالى محدثنا عن الكنى في « البحر » :
« وعن عمر أشيعوا الكنى »

مولده

ولد رحمه الله في مدينة غرناطة سنة أربع وخمسين وستائة .
قال ابن السبكي في طبقاته^(٥) : الجياني الأصل الغرناطي المولد .
وقال ابن العماد في الشذرات^(٦) : ولد بمطخشارش وقال عنها إنها مدينة من حضيرة غرناطة . وقال الذهبي : ولد في أواخر شوال بمطخشارش وهي مدينة من أعمال غرناطة ونشأ بغرناطة .

(١) نفح الطيب ٢٨٩/٣ ، والنجوم الزاهرة ١١١/١٠ ، وتتممة المختصر ٤٨/٢ . وشذرات الذهب ٤٥/٦ .

(٢) معجم البلدان ٣٤٢/٥ .

(٣) ٤٥/٦ .

(٤) معجم البلدان ٢٦٦/٢ .

(٥) ابن السبكي ٥٣١/٦ .

(٦) الشذرات ١٤٥/٦ .

قال أبو حيان - رحمه الله - في مقدمة التفسير عند الكلام على التلقي وفي القراءات العشر على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري الوادي تشبتي بمطخشارش من حضرة غرناطة .

وقال الصفدي - رحمه الله : - ولد أبو حيان رحمه الله بغرناطة .

قلت : ولاحظ المقرئ (١) - رحمه الله - الخلاف فقال : « وما ذكره الصفدي - رحمه الله - تعالى في موضع ولادة أبي حيان غير مخالف لما ذكره الصفدي في الوافي وغيره أنه ولد بغرناطة إلا أن قوله بمدينة مطخشارش فيه نظر ؛ لأنه يقيض أنها مدينة وليس كذلك ، وإنما هي موضع بغرناطة ولذا قال الرعياني : إن مولد أبي حيان بمطخشارش من غرناطة ونحوه لابن جماعة وهو صريح في المراد ، وصاحب البيت أدري بالذي فيه .

ولد - رحمه الله - كما قلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، قال أبو حيان في البحر عند المقدمة : « وما زال يختلج في ذكري ويختلج في فكري أي إذا بلغت الأمد الذي يتغصن فيه الأديم ويتنغص برؤيتي النديم ، وهو العقد الذي يجل عرى الشباب المقول فيه : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإياه الشواب (٢) ألوذ بجناب الرحمن ، وأقتصر على النظر في تفسير القرآن ، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد ، وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد ، وذلك بانتصابي مدرساً في علم التفسير في قبة السلطان المنصور قدس الله مرقده وبل بمنزلة الرحمة معهده ، وذلك في دولة السلطان القاهر الملك الناصر الذي رد الله به الحق إلى أهله وأسبغ على العالم وارف ظله . واستنفذ به الملك من عضابه وأقره في منيف محله وشريف نصابه ، وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري وهذا نص لأبي حيان - رحمه الله - يبين سن ولادته كما ذكرناه .

نشأته

ولاشك أن للورثة والبيئة أثراً كبيراً في حياة الإنسان وتكوين شخصيته ، والعاملان معاً عاملان هامين ولا يقل أحدهما أثراً عن الآخر في هذا الشأن ، فإذا نظرنا إلى الإمام الخبر وجدنا أن العاملين متوافران فيه فالعامل الأساسي الأول وهو الورثة متوافر في هذا الإمام العلم الخبر صاحب البحر « أبو حيان » فأبوه علم من أعلام التفسير كما قص هو عنه في تفسير سورة الكهف ، ولم تطلعننا المراجع عن أبيه ويبدو أنها اكتفت بشهرة ابنه ذي البيان أبي حيان .

وتوفر لأبي حيان البيئة العلمية التي ساعدته لنضوج فكره وشموخ عقله ، فبعد أن شب وترعرع يرى من حوله نهضة علمية نشيطة ، فأهل العلم يعقدون الحلقات في أماكن مختلفة ، وتشمل تلك الحلقات ألواناً شتى في مجال المعرفة كالفقه والحديث والتفسير والأصول واللغة والأدب وغير ذلك من العلوم ، وفي ظل هذا الجو العلمي نشأ إمامنا أبو حيان - عليه رحمة الله - قال المقرئ نقلاً عن الصفدي : نشأ في « غرناطة » وقرأ بها القراءات والنحو واللغة وسمع أيضاً بمالقة والمرية والجزيرة الخضراء وجبل الفتح (٣) .

قلت : ولا شك أن غرناطة كما تحدثنا كتب السير والأعلام أنها حافلة بمدارس العلم المختلفة وأساتذة الحديث والفقه واللغة والأدب شأنها في ذلك شأن « قرطبة » و « مرسية » و « إشبيلية » وغيرها من عواصم الأندلس ، تلك التي كانت تمثل مركز إشعاع ثقافي وحضاري في هذه المنطقة من العالم ، ولقد تعلم الخبر البحر أبو حيان في مقتبل عمره كما يتعلم أبناء

(١) نفح الطيب ٢٩٢/٣ .

(٢) الكتاب لسيبويه ١٤١/١ ، وسر صناعة الإعراب ٣١١/١ .

(٣) نفح الطيب ١٩٤/٣ .

عصره ، وأقبل على طلب العلم بجدة ونشاط منذ نعومة أظفاره ، وكان من الطبيعي جداً أن يتجه أبو حيان هذا الاتجاه فهو يرى من حوله الكل يلتمس المعرفة فقد نشأ - رحمه الله - نشأة علمية فأخذ العلم من أعظم شيوخ عصره وفحول أساتذة الأندلس وغيرها .

يقول أبو حيان في البحر : « وما زلت من لدن ميزت أتلמד للعلماء ، وأنحاز للفهاء ، وأرغب في مجالسهم وأنافس في نفائسهم ، أسلك طريقهم ، وأتبع فريقهم ، فلا أنتقل إلا من إمام إلى إمام ، ولا أتوقل إلا ذروة علام فكم صدر أودعت علمه صدري ، وحبر أفنيت في فوائده حبري ، وإمام كثرت به الإمام وعلام أطلت معه الاستعلام أشنف المسامع بما تحسد عليه العيون وأزِيل في تطلاب ذلك المال المصون ، وأرتفع في رياض وارقة الظلال ، وأكرع في حياض صافية السلسال وأقتبس بها من أنوارهم ، وأقتطف من أزهارهم وأتبلج في صفحاتهم وأتأرجح في نفحاتهم ، وألقط من ثمارهم وأضبط من فضالة إيثارهم وأقيد من شواردهم وأنتقي من فرائدهم .

وقال أيضاً في المصدر السابق :

فجعلت العلم بالنهار سحيري وبالليل سميري زمان غيري يقصر ساريه على الضبا ويهب اللهو ولا كهبوب الصبا ، ويرفل في مطارف اللهو ويتقمص أردية الزهو ويؤثر مسرات الأشياح على لذات الأرواح . ويقطع نفائس الأوقات وخسائس الشهوات من مطعم شهوي ومشرب روي ، وملبس بهي ، ومركب خطي ، ومفرش وطّي ، ومنصب سني ، وأنا أتوسد أبواب العلماء وأتقصّد أمائل الفهماء وأسهر في حنادس الظلام ، وأصبر على شظف الأيام وأؤثر العلم على الأهل والمال والولد وأرتحل من بلد إلى بلد . . .

قال ابن الجزري في غاية النهاية^(١) وأول قراءته سنة سبعين وستمائة قرأ القرآن الكريم بالقراءات السبع ببلده على عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري .

قال ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة : قرأ القرآن بالروايات واشتغل وسمع الحديث بالأندلس .

وقال الشوكاني في البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع^(٢) : وتلا القراءات إفراداً وجمعاً على مشايخ الأندلس وسمع الكثير بها .

وقال ابن السبكي - رحمه الله -^(٣) : ونشأ « بغرناطة » وقرأ بها القراءات والنحو واللغة .

وقال ابن شاکر الكتبي في فوات الوفيات^(٤) : قرأ القرآن بالروايات وسمع الحديث ببلاد الأندلس .

وقال الشيخ الإمام - رحمه الله - محدثاً عن نفسه « في مقدمة البحر » : وقد قرأت القرآن بقراءة السبعة بجزيرة الأندلس على الخطيب أبي جعفر أحمد بن علي بن محمد الرعييني المعروف بابن الطبايع بغرناطة ، وعلى الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري الوادي تشيتي بمطخشارش ، وقال قرأت القرآن بالقراءات الثمان بثمر الإسكندرية على الشيخ الصالح رشيد الدين أبي محمد عبد النصير بن علي بن يحيى الهمداني عرف بابن المربوطي ، وقرأت بالقراءات السبع بمصر - حرسها الله - على الشيخ المسند العدل فخر الدين أبي الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن علي المليجي .

(١) ٢٨٥/٢ .

(٢) ٢٨٨/٢ .

(٣) ٣١/٦ .

(٤) ٥٥٥/٢ .

وأما علم التفسير فأخذه عن ابن النقيب . قال أبو حيان في مقدمة التفسير : واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي المعروف بابن النقيب رحمه الله تعالى . . .

وقد تلقى أبو حيان - رحمه الله كثيراً من كتب أهل اللغة ودواوين الشعر ، وحفظ كثيراً منها فقال - رحمه الله - محدثاً عن نفسه : « وقد حفظت في صغري في علم اللغة كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني ، واللغات المحتوى عليها دواوين مشاهير العرب الستة امرئ القيس ، والنابعة ، وعلقمة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، ودبوان الأفوه الأودي لحفظي عن ظهر قلب لهذه الدواوين ، وحفظت كثيراً من اللغات المحتوى عليها نحو الثلث من كتاب الحماسة ، واللغات التي تضمنها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظي ذلك ، ومن الموضوعات في الأفعال كتاب ابن القوطية . . .

أما النحو فقد أخذ هذا الفن عن الأستاذ الفاضل الشيخ أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ، وذلك من كتاب سيبويه ، قال في البحر : « وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه - رحمه الله تعالى - ، وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات وأجمعه للأحكام كتاب تسهيل الفوائد لأبي عبد الله محمد بن مالك الجلياني الطائي مقيم دمشق ، وأحسن ما وضع في التصريف كتاب الممتع لأبي الحسن علي بن مؤمن بن عصفور الحضرمي الإشبيلي - رحمه الله تعالى - وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره .

كما تلقاه أيضاً على أبي الحسن الأبيدي وابن أبي الأحوص وخلق .

قال الإمام جلال الدين السيوطي في البغية^(١) : وأخذ القراءات عن أبي جعفر بن الطباع ، والعربية عن أبي الحسن الأبيدي ، وأبي جعفر بن الزبير ، وابن أبي الأحوص ، وابن الصائغ ، وأبي جعفر الليلي ، وبمصر عن البهاء ابن النحاس وجماعة . . .

كما أنه تلقى علوم البلاغة بأنواعها الثلاثة البيان ، والمعاني ، والبديع على أستاذه ابن الزبير قال - رحمه الله - في مقدمة البحر : وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير - رحمه الله - .

أما علم « أصول الفقه » فقد تلقاه - رحمه الله - على أكثر من شيخ ، قال - رحمه الله - في مقدمة البحر « بحثت في هذا الفن في كتاب الإشارة لأبي الوليد الباجي ، على الشيخ الأصولي الأديب أبي الحسن فضل بن إبراهيم المعافري الإمام بجامع غرناطة والخطيب به ، وعلى الأستاذ العلامة أبي جعفر بن الزبير في كتاب الإشارة في شرحها له وذلك بالأندلس . .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في الدرر الكامنة^(٢) : وقرأ شيئاً من « أصول الفقه » على أبي جعفر بن الزبير في « الإشارة » « للباجي » ومن المستصفي ، وقرأ في « أصول الدين » على ابن الزبير .

هيبته

قال الرعييني^(٣) : كان كثير الضحك والانبساط ، حسن اللقاء ، جميل المؤانسة ، فصيح الكلام ، طليق اللسان ،

(١) ٢٨٠/١ .

(٢) ٧٥/٥ .

(٣) نفح الطيب ٣/٣٢١ .

ذو لمة وافرة ، وهمة فاخرة ، وله وجه مستدير ، وقامته معتدلة التقدير ، ليس بالطويل ولا القصير ، كان مهيباً جهورياً مع الدعابة والغزل ، وطر التسمت ، مليح الحديث لا يُمل وإن طال ، حسن العمة ، مليح الوجه ، ظاهر اللون ، مشرب بالحمرة ، منور الشيبة ، كبير اللحية ، مسترسل الشعر فيها .

وقال الحافظ ابن حجر : قال الصفدي : كان شيخنا طوالاً حسن النعمة مليح الوجه ظاهر اللون مشرباً بحمرة منور الشيبة ، كبير اللحية ، مسترسل الشعر .

أسرته

بعد استقراء كتب التراجم والسير لم أجد من ترجم أو تعرض لأبويه ، ولكنه نقل عن والده في بعض المواضع فقال : وقال سيدي فسح الله في مدته . . .

زوجه

وهي زمردة بنت أبرق^(١) .
وقد أسمعها أبو حيان على الأبرهوقي^(٢) وغيره وسمع منها البرزالي^(٣) .
وكانت تكنى أم حيان . توفيت في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وسبعمئة .
وقد مدحها أبو حيان^(٤) بقصيدة قال فيها :

جُنِنتُ بِهَا سَوْدَاءُ فِي لَوْنٍ وَنَاطِرٍ	وَيَا طَالَمَا كَانَ الْجُنُونُ بِسَوْدَاءُ
وَجَدْتُ بِهَا بَرَّ النَّعِيمِ وَإِنْ يَكُنْ	فُوَادِي مِنْهَا فِي جَحِيمٍ وَلَاوَاءُ
وَشَاهَدْتُ مَعْنَى الْحُسْنِ فِيهَا مُجَسِّدًا	فَأَعْجَبَ بِمَعْنَى صَارَ جَوْهَرُ أَشْيَاءُ
أَطَاعَتِهِ مِنْ قَدَمِهَا بِمُثَقَّفٍ	أَصَبْتُ وَمَا أَغْنَى الْفَتَى لِبِسِ خَصْدَاءُ
لَقَدْ طَعَنْتِ وَالْقَلْبَ سَاهَ فَمَا ذَرَى	أَبَالِقْدُ مِنْهَا أَمْ بِصَعْدَةِ سَمَرَاءُ

ولم ترتح « زمردة » زوج (أبو حيان) للبيت الأول ، فغيره فقال :

جُنِنتُ بِهَا سَوْدَاءُ شَعْرٍ وَنَاطِرٍ	وَسَمَرَاءُ لَوْنٍ تَزْدَرِي كُلَّ بَيْضَاءُ
--	--

أبناءؤه

١ - نضار

نضار^(٥) بنت محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين « أبو حيان » الأندلسي الغرناطي النفزي .
وكانت تكنى « أم العز » شاعرة أدبية فاضلة ولدت في جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعمئة ، وكان والدها يثني عليها خيراً .

(١) بفتح الهمزة وسكون التحتانية .

(٢) أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد بن علي الهمداني الأصل نزيل القاهرة . انظر الدرر الكامنة ١٠١/١ .

(٣) القاسم محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف البرزالي المصدر السابق ٣٢١/٣ .

(٤) النفع ٣٢٥/٣ . (٥) بضم النون وتخفيف الضاد .

قال المقرئ^(١) نقلاً عن الصفدي : قال لي والدها : إنها خرجت جزءاً لنفسها ، وإنها تعرب جيداً ، وأظنه - والقائل الصفدي - قال لي : إنها تنظم الشعر ، وإن أخاها حيان لم يبلغ ما بلغته من الاطلاع ولذلك كان أبوها يقول ليت أخاها حيان كان مثلاً .

قال الصفدي^(٢) : وكنت بالرحبة لما توفيت فكتبت لوالدها بقصيدة أولها :

بَكَيْنَا بِاللُّجَيْنِ عَلَى نُضَارٍ فَسِيلُ الدَّمْعِ فِي الْخَدَّيْنِ جَارِي
فَيَالَهُ جَارِيَةً تَوَلَّتْ فَنَبْكِيهَا بِأَذْمَعِنَا الْجَوَارِي

وألف أبو حيان كتاباً سماه النضار في المسلاة عن « نضار » وذكر فيه حياته .

٢ - حيان^(٣)

حيان بن محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي النفزي .

حفيدة

محمد بن حيان بن أبي حيان^(٤) .

شيوخه

فمن سنن العلم التلقي ، فلقد تلقى المعلم الأول سيدنا رسول الله ﷺ القرآن من الله تعالى بواسطة جبريل - عليه السلام - وتلقى الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - العلم من سيدنا رسول الله ﷺ وتلقى التابعون العلم من الصحابة الأجلاء - رضوان الله عليهم أجمعين - وتلقى أهل الطبقات بعد التابعين بعضهم من بعض إلى يومنا هذا ، فالتلقي سنة من سنن العلم ، فلذا كان يرى شيخنا - رحمه الله - « أبو حيان » أن التلقي هو المعلم الأول للإنسان ، ونظم - رحمه الله - في التلقي على الشيوخ نظماً فقال^(٥) :

أَمْدَعِيَا عِلْماً وَلَسْتَ بِقَارِيءٍ كِتَاباً عَلَى شَيْخٍ بِهِ يَسْهُلُ الْحَزْنُ
أَتَزْعُمُ أَنَّ الذَّهْنَ يُوضَحُ مُشْكِلًا بِلا مُوضَحٍ ؟ كَلَّا لَقَدْ كَذَبَ الذَّهْنُ
وَأَنَّ الَّذِي يَبْتَغِيهِ دُونَ مُعَلِّمٍ كَمُوقِدٍ مِصْبَاحٍ وَلَيْسَ لَهُ دَهْنُ

وأشدد أيضاً فقال^(٦)

يَظُنُّ الْعَجْزُ أَنَّ الْكُتُبَ تُجَدِّي أَخَا ذَهْنٍ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ
وَمَا يَذَرِي الْجَهْلُ بِأَنَّ فِيهَا غَوَامِضَ حَيَّرَتْ عَقْلَ الْفَهِيمِ

(١) النفح ٣/٣١٥ ، والأعلام ٨/٣٥٦ .

(٢) انظر النفح ٣/٣١٥ .

(٣) الدرر الكامنة ٢/١٧٠ .

(٤) الشذرات ٧/٦٠ .

(٥) نفح الطيب ٣/٣٢٤ .

(٦) النفح ٣/٣٢٠ .

إِذَا رُمْتَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ ضَلَلْتَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
وَتَلْتَسِسُ الْأُمُورَ عَلَيْكَ حَتَّى تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ «تُومَا الْحَكِيمِ»

قال الجلال السيوطي - رحمه الله - في البغية^(١) : وسمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو أربعمائة وخمسين شيخاً ، ونحن نذكر بعضهم على سبيل الإجمال :

أولاً : أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي العاصمي الجبالي المولد الغرناطي المنشأ الأستاذ أبو جعفر قال أبو حيان في النصار : كان محدثاً جليلاً ناقداً ، نحويّاً ، أصولياً ، أديباً ، فصيحاً ، مفوهاً « حسن الخط مقرئاً مفسراً مؤرخاً ، أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالطة وقرنطة وغيرهما ، وكان كثير الإنصاف ناصحاً في الإقراء . . . توفي يوم الثلاثاء ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعائة^(٢) .

ولقد أكثر الإمام أبو حيان - رحمه الله - النقل عنه في البحر .

ثانياً : الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الإمام أبو علي بن أبي الأحوص القرشي الفهري الغرناطي الموطن البلسي الأصل الجبالي المولد ، ويعرف أيضاً بابن الناظر الحافظ النحوي ، كان من فقهاء المحدثين القراء النحاة الأدباء ، ألف في القراءات ، وله برنامج ، ومسلسلات ، وأربعون ، سمعها منه أبو حيان - رحمه الله - توفي بغرناطة في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وستائة كذا قال ابن الزبير ، وقال ابن عبد الملك سنة ثمانين^(٣) .

قال أبو حيان في مقدمة التفسير : وما كان في هذا الكتاب من تفسير ابن عطية فأخبرني به القاضي الإمام أبو علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص القرشي .

ثالثاً : علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم الخشني الأبيدي أبو الحسن ، قال أبو حيان في النصار : كان أحفظ من رأيناه بعلم العربية وكان يقرئ كتاب سيبويه فما دونه وكان في غاية الفقر على إمامته في العلم ، ولي إمامة جامع « القيسارية » فارتفق بمعلومه . قال : قلت يوماً للفقير أبي إسحاق إبراهيم بن زهير والأبيدي حاضر : ما حد النحو ؟ فقال هذا الشيخ هو حدُّ النحو ، توفي سنة ثمانين وستائة في رجب^(٤) .

أبيدي : بهزمة مضمومة وباء موحدة مشددة مفتوحة وذال معجمة منسوب إلى أبدة بلد من بلاد الأندلس .

رابعاً : محمد بن علي بن يوسف العلامة رضي الدين أبو عبد الله الأنصاري الشاطبي اللغوي قال الذهبي : ولد ببلنسية سنة إحدى وستائة ، وكان عالي الإسناد في القرآن روى عنه أبو حيان والمزي والقطب الحلبي وآخرون مات بالقاهرة يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وستائة .

خامساً : محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر الإمام أبو عبد الله بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي شيخ الديار المصرية في علم اللسان ، ولد في سلخ جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وستائة ، قال أبو حيان كان هو والشيخ محيي الدين المازوني شيخي الديار المصرية . توفي يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وستائة^(٥) .

(١) ٢٨٠/١ .

(٢) البغية ٣٩١/١ - ٢٩٢ ، الشذرات ١٦/٦ ، غاية النهاية ٣٢/١ ، البدر الطالع ٣٣/١ ، تذكرة الحفاظ ٨٩/١ ، الدرر الكامنة ٨٩/١ .

(٣) البغية ٣٥/١ ، غاية النهاية ٢٤٢/١ ، طبقات المفسرين للداودي ٥٠/١ .

(٤) البغية ١٩٩/٢ .

(٦) البغية ١٣/١ - ١٤ .

(٥) البغية ١٩٤/١ ، حسن المحاضرة ٣٠٧/١ .

سادساً : محمد بن مصطفى بن زكريا بن خواجا بن حسن الدروكي الصلغري فخر الدين الحنفي النحوي قال أبو حيان في النُّصار : كان عالماً بالعربية ، أخذنا عنه وكان يعرف التركية والفارسية إفراداً وتركياً ، وله قصيدة في العربية استوعب فيها الحاجبية وقصيدة في قواعد لسان الترك توفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة^(١) .

سابعاً : أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن عياش أبو جعفر بن الطباع الرعيني الغرناطي إمام حاذق مشهور نبيل صالح ، قرأ على الخطيب عبد الله بن محمد بن الكواب السبع ، وعلى يوسف بن يحيى بن عبد الله اللخمي ما عدا الكسائي ويوسف بن عبد العزيز الأبيدي وسعد بن محمد الحفار وعبد الرحمن بن دحمان قرأ عليه أبو حيان وأبو القاسم محمد بن سهل الغرناطي وخلق ، وتوفي سنة ثمانين وستائة في ذي القعدة^(٢) .

ثامناً : أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري الليالي الأستاذ أبو جعفر النحوي اللغوي المقرئ أحد مشاهير أصحاب الشُّلّولين أخذ عنه وعن الديّاج وأبي إسحاق البطليوسي والأعلم ، وسمع الحديث من ابن خروف وأبي القاسم بن رهمون وأبي عبد الله بن أبي الفضل المرسى والمنذري صنف شرحين على الفصيح وغير ذلك . توفي بتونس في المحرم سنة إحدى وتسعين وستائة^(٣) .

تاسعاً : عبد الحق بن علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك أبو محمد الغرناطي الخطيب بمطبخشارش مقرئ صالح عارف مكتب ، لازمه أبو حيان وانتفع به وقال : قرأت عليه السبع في نحو من عشرين ختمة إفراداً وجمعاً ، وعليه تعلمت الهجاء ولازمته نحواً من سبعة أعوام وذلك في مدة آخرها سنة تسع وستين وستائة^(٤) .

عاشراً : اليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر بن محمد بن عبد الله بن مروان بن اليسر بن طليق الداخل الأندلسي ابن حبيب أبو الحسين ، وأبو سهل القشيري الغرناطي المكتب مقرئ عارف ، قرأ على أبيه عبد الله وعلى عبد الله بن محمد بن الحسين الكواب وقرأ بعض القرآن بمضمن المصباح ، وقرأه أجمع على أبي الحسن علي بن محمد بن إبراهيم السبتي سنة إحدى وعشرين وستائة ، وقرأ عليه أبو حيان بقراءة نافع وقرأ عليه جميع كتاب المصباح وغيره من الكتب^(٥) .

الحادي عشر : أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم بن مختار بن أبي بكر الجذامي الإسكندراني المالكي القاضي ناصر الدين أبو العباس بن المنير كان إماماً في النحو والأدب والأصول والتفسير وله يد طولى في علم البيان والإنشاء ، سمع منه أبو حيان وغيره ، صنف في التفسير الانتصاف من صاحب الكشف ، ومناسبات تراجم البخاري وغير ذلك ، وأراد أن يصنف في الرد على الإحياء فخاصمته أمه وقالت له : فرغت من مضاربة الأحياء وشرعت في مضاربة الأموات فتركه توفي يوم الجمعة مستهل ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وستائة^(٦) .

الثاني عشر : عبد الله بن أبي عامر يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري القرطبي أبو القاسم يعرف بابن فرح ، قال ابن الزبير : كان أديباً كاتباً نحويّاً شاعراً فقيهاً أصولياً مشاركاً في علوم ، علماً في القراءة

(١) البغية ٢٤/١ - ٢٤٧ .

(٢) غاية النهاية ٨٧/١ - ٣٩٣ .

(٣) البغية ٤٠٢/١ - ٤٠٣ .

(٤) غاية النهاية ٣٥٩/١ - ١٥٣ .

(٦) البغية ٣٨٤/١ .

(٥) غاية النهاية ٣٨٥/٢ .

وطيئاً عند المناظرة متناصفاً شيناً أشعري النسب والمذهب مصمماً على طريق الأشعر ملتزماً للمذهب المالكي . وقال أبو حيان في النصار : ومن شيوخه أبو بكر بن طلحة النحوي والحافظ أبو بكر بن خلفون وأبو زر مصعب بن محمد بن مسعود الحشني ، وقد أجاز لي في عميم إجازته لأهل غرناطة .

الثالث عشر : إسماعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله أبو طاهر بن المليجي - بفتح الميم وياء ساكنة بعد اللام المكسورة وجيم شيخ عدل مسند قرأ السبع على أبي الجود غياث بن فارس وعمر زماناً ، وقرأ عليه أبو حيان ، وأبو بكر الجعبري وخلق ، قال الذهبي : كان تاركاً للفن وإنما ازدحم الناس عليه لعلل رواياته . مات في رمضان سنة إحدى وثمانين وستمائة ودفن بالقرافة عن تسعين سنة^(١) .

الرابع عشر : عبد النصير بن علي بن يحيى بن إسماعيل بن مخلوف بن نزال بن مطروح أبو محمد المريوطي - بفتح الميم وسكون الراء وياء - الهمداني أحد شيوخ الإقراء بالإسكندرية ، مقرأ حاذق صدوق ، ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وتلا بالسبع على أبي القاسم الصفراوي وجعفر الهمداني ، تلا عليه بالثمانين وأبو حيان ومات بعد الثمانية وستمائة بالإسكندرية^(٢) .

الخامس عشر : يعقوب بن بدران بن منصور بن بدران التقي أبو يوسف الدمشقي ثم المصري المعروف بالجرائدي إمام مقرأ كامل ناقل ألف كتاب المختار ونظم حل رموز الشاطبية وكان شيخ وقته بالديار المصرية ، تصدر بالمدرسة الظاهرية الركنية عندما عمرت وبغيرها ، ولد بعد الستمائة بدمشق وتوفي سنة ثمان وثمانين وستمائة بالقاهرة عن نيف وثمانين سنة^(٣) .

السادس عشر : خليل بن أبي بكر بن محمد بن صديق الصفا أبو الصفا المراغي الحنبلي مسند عارف بمذهبه ولد سنة بضع وتسعين وخمسمائة وسئل عنه أبو حيان فقال كان شيخاً راوية للقراءات يقرأ عليه من يضبط القراءات وسمع منه أبو حيان الحروف وتوفي سابع عشر ذو الحجة سنة خمس وثمانين وستمائة بالقاهرة^(٤) .

وبهذا القدر نكتفي حتى لا يضيق بنا المقام علماً بأن الجلال السيوطي حكى في البغية أنه تلقى على أربعمائة وخمسين شيخاً .

هذا ولا يكتفي الإمام الخبر عند هذا الحد بل يستمر في لقاء الشيوخ وأخذ العلم عنهم فارتحل إلى عواصم الأندلس وجيرانها ثم رحل إلى الشرق وستكلم إن شاء الله تعالى عن رحلاته .

ارتحال أبي حيان

يذكر أهل السير والأعلام أن سبب خروج الإمام الخبر البحر صاحب البحر « أبو حيان » من الأندلس - أعادها الله للأمة الإسلامية - هو الخلاف الذي حدث بين « أبي حيان » وبعض شيوخه .

قال المقرئ في نفح الطيب^(٥) قال : « لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة » : ونالته نبوة لحق بسببها بالشرق .

(١) غاية النهاية ١/ ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) غاية النهاية ١/ ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٣) الغاية ٢/ ٣٨٩ .

(٥) ١/ ٣٣٧ .

(٤) الغاية ١/ ٢٧٥ - ٢٧٦ .

وقال في موضع آخر^(١) : إن أبا حيان حملته حدة الشبية على التعرض للأستاذ « أبي جعفر بن الطباع » وقد وقعت بينه وبين أستاذه « ابن الزبير » وقعة فنال منه ، وتصدى لتأليف في الرد عليه ، وتكذيب روايته فامتعض له ونفذ الأمر بتنكيهه فاخفى ثم أجاز البحر محتفياً ولحق بالمشرق .

وقال أيضاً^(٢) : وأفاد غير واحد « أن سبب رحلة الشيخ أبي حيان عن الأندلس أنه نشأ شر بينه وبين شيخه أحمد بن علي الطباع فألف أبو حيان كتاباً سماه « الإلماع في إفساد إجازة ابن الطباع » فرفع ابن الطباع أمره للأمير محمد بن نصر المدعو « بالفقيه » وكان أبو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه فنشأ شر عن ذلك .

وقال الداودي في طبقات المفسرين^(٣) : كان سبب رحلته عن غرناطة أنه حملته حدة الشبية على التعرض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع ، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جعفر بن الزبير واقعة ، فنال منه وتصدى لتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته ، فرفع أمره إلى السلطان فأمر بإحضاره وتنكيهه فاخفى ، ثم ركب البحر ، ولحق بالمشرق .

وقال الجلال السيوطي في بغية الوعاة^(٤) : وكان سبب رحلته عن غرناطة أنه حملته حدة الشبية على التعرض للأستاذ أبي جعفر بن الطباع ، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي « جعفر بن الزبير » وقعة ، فنال منه وتصدى لتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته ، فرفع أمره إلى السلطان ، فأمر بإحضاره وتنكيهه فاخفى ، ثم ركب البحر ولحق بالمشرق قال الجلال قلت : ورأيت في كتابه « النصار » الذي ألفه في ذكر مبدئه واشتغاله وشيوخه ورحلته أن مما قوى عزمه على الرحلة عن « غرناطة » أن بعض العلماء « بالمنطق » و « الفلسفة » و « الرياضة » و « الطبيعي » قال للسلطان : إني قد كبرت وأخاف أن أموت فأرى أن ترتب لي طلبه أعلمهم هذه العلوم لينفعوا السلطان من بعدي قال أبو حيان : فأشير إلى أن أكون من أولئك ويرتب لي راتب جيد وكسا وإحسان ، فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك .

وقت خروج (أبي حيان) من الأندلس

خرج « أبو حيان » - رحمه الله - من « الأندلس » سنة سبع وسبعين وستمائة .
وقال أبو المحاسن^(٥) ثم ارتحل عن الأندلس في أول سنة سبع وسبعين .

وذكر المقرئ في نفح الطيب^(٦) أن خروج أبي حيان من الأندلس كان سنة تسع وسبعين وستمائة ، ولما خرج من الأندلس لم يقصد مكاناً معيناً يمكث فيه ، بل ارتحل هنا وهنا وأخذ من كل مدينة يقصدها الكثير والكثير عن علمائها الأفاذا .

فكان أول ارتحاله بالمغرب ويذكر المؤرخون وكتاب السير والأعلام أن « أبا حيان » اجتمع بكثير من علماء المغرب وكذلك الأمر « بتونس » وفي هذا يقول صاحب تاريخ الفكر الأندلسي^(٧) إن أبا حيان اجتمع بكثير من علماء المغرب وتونس وسمع منهم وطاف بنواحي المغرب .

(١) النفح ٣/٣٣٨ .

(٢) النفح ٣/٣٤١ .

(٣) ٢/٢٨٨ .

(٤) ١/٢٨٠ .

(٥) ذيل التذكرة ٢٣ - ٢٤ .

(٧) تاريخ الفكر (١٨٧) .

(٦) ٣/٣٤١ .

ويزكرون أيضاً^(١) أنه سمع « بسبته » و « بجاية » و « تونس » .
 وكان الإمام « أبو حيان » - رحمه الله - له اليد الطولى في معرفة « طبقات العلماء » المغاربة .
 قال « المقرئ » - رحمه الله - : نقلاً عن « الصفدي » وكانت له اليد الطولى في « التفسير » والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم وخصوصاً المغاربة .
 وكانت « النصيحة » من العلامة محمد بن علي بن يوسف رضي الدين أبي عبد الله الأنصاري الشاطبي اللغوي بالارتحال من المغرب فقال أبو حيان في قصيدة رثاه بها :

وأوصاني الرضي وصاة نُضجِ وكان مهذباً شهماً أيباً
 بالأ تحسن ظناً بشخصٍ ولا تصحب حياتك مغرباً

وهكذا تلقى النصيحة من العلامة الرضي فانتقل إلى الاسكندرية .
 وقد ذكروا أنه سمع « بتونس » من أبي محمد عبد الدين هارون وغيره . و « بجاية » من أبي عبد الله بن محمد بن صالح الكتاني^(٢) .

وذكر الجلال السيوطي في البغية^(٣) محمد بن يوسف بن حبش - بفتح الحاء - أبا بكر الأديب العالم البارع النحوي من شيوخ أبي حيان . وقال : كان حياً بتونس سنة تسع وسبعين وستمائة .

وذكر الإمام « أبو حيان » في « البحر » عند قول الله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ الآية .

أن من شيوخه بتونس أحمد بن علي بن خالص الأشبيلي قال : « وكان المستنصر بالله » أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا بن أبي محمد بن أبي حفص ملك إفريقية قد سأل أحد شيوخنا الذين لقيناهم بتونس وهو الشيخ العابد المنقطع أبو العباس أحمد بن علي بن خالص الأشبيلي وكان من جملة ما درسه في رحلته الحديث وعلومه قال الجلال السيوطي في البغية إنه سمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز .

الشام وأبو حيان

قال أبو حيان في كتاب التكميل في شرح التسهيل في مقدمته « بأنه ذهب إلى الشام » قال ومع ذلك فطالما سألني سائلون من أهل مصر والشام في شرح باقية وتكميله وانتقاده وتذييله . . .
 وقال أيضاً في نفس الكتاب « ومما خوطبت به في دمشق المحروسة كلمة . . . » .

الرحلة إلى السودان

يذكر المقرئ في النفع خبر رحلة أبي حيان رحمه الله فيقول قال ابن رشد حدثنا أبو حيان فقال حدثنا التاجر أبو

(١) ذيل التذكرة (٢٣) .

(٢) الشذرات ١٤٥/٦ ، النجوم ١١١/١٠ .

(٣) طبقات الشافعية لابن السبكي ٢١/٦ .

(٤) ٢٧٦/١

عبد الله البرجوني بمدينة عيذاب^(١) وبرجونة قرية من قرى دار الإسلام .

قال وكنت بجامع لؤلؤم من بلاد الهند ومعنا رجل مغربي اسمه « يونس » فقال لي اذكر لنا شيئاً فقلت له : قال « علي » - رضي الله عنه - في الكريم :

أثمر خيراً وإذا وضع في اللثيم أثمر شراً مما لقيت في الأصداق فيثمر الدر ويقع في فم الأفاعي فيثمر السم .

الاسكندرية وأبو حيان

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الدرر الكامنة^(٢) . . . ثم قدم الاسكندرية فقرأ القراءات على « عبد النصير بن علي المربوطي » ونص على ذلك في مقدمته لكتاب البحر المحيط .

قال صاحب تاريخ الفكر الأندلسي وقد بارح أبو حيان الأندلس في سنة ٦٧٨ وطاق بنواحي المغرب ومصر ووصل إلى الحبشة ثم حج بيت الله الحرام وتوجه بعد ذلك إلى الشام . قال محمد الدمشقي في ذيل التذكرة : سمع بسبته وبجاية وتونس والاسكندرية .

أبو حيان واستقرار الرحلة

ثم استقر أبو حيان عليه رحمة الله ورضوانه في مصر المحروسة حرسها الله تعالى وفي ذلك يقول السبكي وغيره^(٣) :

ثم قدم مصر قبل سنة ثمانين وستائة .

وقال محمد الدمشقي في ذيل التذكرة^(٤) ثم قدم مصر في سنة ثمانين وستائة فسمع بها الكثير .

ثقافته

تبحر أبو حيان عليه رحمة الله في علوم مختلفة وفاق أقرانه في جميع الأقطار التي حل بها ولم يكن في عصره من يدانيه في سعة اطلاعه وتبحره في المجالات المختلفة .

وإذا استعرضنا العلوم التي يحتاج إليها المفسر فقد ذكرها في مقدمة تفسيره فقال : فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم على الاختصار . . .

فقال : النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه :

- علم اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً ، ولا شك أن أبا حيان قد وصل فيها ما لم يصل إليه واحد من أقرانه وله اليد الطولى كما أوضحنا ذلك مراراً .

- علم النحو ووصل فيه ما لم يصل أحد من أقرانه وألف فيه التذييل والارتشاف ولم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف والأحوال .

- علم البلاغة والمشتمل على فنونه الثلاثة المعاني والبيان والبديع فالناظر في كتاب البحر المحيط يجد أنه يذكر بعد

(١) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة : بلدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب لمن تقدم من عدن إلى الصعيد انظر معجم البلدان ١٩٣/٤ .

(٢) ذيل التذكرة ٢٤ .

(٣) ص ٢٣ .

(٤) ٣١/٦ .

انتهاء تفسير الآية مواطن البلاغة فيها من بيان ومعاني وبديع .

- وأما علم أصول الفقه ولا شك أن له يداً طولى في هذا الفن .

- وأما الحديث وعلومه فقد ذكرها المصنف رحمه الله فقال تضمن الكتاب - أي البحر المحيط - الكتب والأهيات التي سمعناها ورويناها كالصحيحين والجامع للترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجه وسنن الشافعي ومسنند الدارمي ومسنند الطيالسي ومسنند الشافعي وسنن الدارقطني ومعجم الطبراني الكبير والصغير ومستخرج أبي نعيم على مسلم وغير ذلك من المصنفات الحديثية .

- وأما علم أصول الدين فقد بحثه مع شيخه شمس الدين الأصفهاني وغيره .

- علم القراءات قرأ على خلق كثير وصنف فيه كما أوضحت ذلك في مصنفاته .

- وأما علم الفقه فقد كان له يد فيه كما وصفه الحافظ الذهبي رحمه الله .

فلا شك أن كثرة هذه العلوم جعلت لأبي حيان مرتبة عالية فوصل إلى ما لم يصل إليه غيره فكان واسع المعرفة ملماً بعلوم كثيرة مثل الطب والهيئة وغيرها فقد تحدث عن الطب وذلك في كتابه البحر عند قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه ... ﴾ .

قال ابن بختيشوع في كتابه إن ورق القنب يحدث في الجسم سبعين داء وذكر منها أنه يصفر الجلد ويسود الأسنان ويجعل فيها الحفر ويثقب الكبد ويحميها ويفسد العقل ويضعف البصر ويحدث الغم ويذهب الشجاعة والبنج والسيكران كالورق في الضرر وأما المرققات كالزعران والمازريون فالقدر المضر منها حرام . وقال جمهور الأطباء إذا استعمل من الزعران كثير قتل فرحاً .

- علم الهيئة نقل في تفسيره أيضاً عن علماء الهيئة عند قول الله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر ﴾ .

قال : وذكر أبواب الهيئة أن الأرض نقطة في وسط الدائرة ليس لها جهة وأن البحار محيطة بها والهواء محيط بالماء والنار محيطة بالهواء والأفلاك وراء ذلك .

ثم قال : وقد ذكر القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في كتابه المعروف بالدقائق خلافاً عن الناس المتقدمين هل الأرض واقفة أم متحركة وفي كل قول من هذين مذاهب كثيرة في السبب الموجب لوقوفها أو لتحركها وكذلك تكلموا على جرم السموات ولونها وعظمتها وأبراجها وذكر مذاهب المنجمين والمناوية وتخاليط كثيرة والذي تكلم عليه أهل الهيئة هو شيء استدلوا عليه بعقولهم وليس في الشرح شيء من ذلك والمعتمد عليه أن هذه الأشياء لا يعلم حقيقة خلقها إلا الله تعالى ومن أطلعه الله على شيء منها بالوحي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً .

اطلاعه على كتب السابقين

والناظر في تفسير الإمام (أبو حيان) يعرف مدى سعة ثقافة هذا الإمام فلقد كان مطلعاً على كتب السابقين من أهل الديانات الأخرى كالتيوترة والإنجيل والزبور .

فقال في البحر عند قول الله تعالى : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾ وقد شهدت التوراة والإنجيل بذلك والنصوص موجودة فيهما إلا أن في مواضع منها في التوراة في الفصل التاسع وفي الفصل العاشر من السفر الأول وفي

الفصل العشرين من السفر الخامس ومنها في الإنجيل مواضع تدل على ذلك .

وأيضاً عند قول الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ قال وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حرام ولا حلال إنما هي حكم ومواعظ وقد قرأت جملة منها ببلاد الأندلس .

مصنفاته

قال الصفدي : وله التصانيف التي سارت وطارت وانتشرت وما انتشرت وقرئت ودريت ونسخت وما مسخت أجملت كتب الأقدمين وأهملت المقيمين بمصر والقادمين^(١) . وقال التاج السبكي إن الناس أكبوا على كتبه ولا تقتصر مصنفاته على النحو فحسب بل تتناول علوم القرآن والحديث .

قال الذهبي صاحب التصانيف البديعة .

وإليك ما طالعنا كتب التراجم والسير من مصنفات الخبر صاحب البحر .

التفسير

أولاً : البحر المحيط وهو الذي نحن بصددته وستكلم عليه بشيء من التفصيل .

ثانياً : النهر الماد اختصره الإمام أبو حيان من البحر^(٢) .

القراءات

أولاً : عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي^(٣) .

وقال أبو حيان رحمه الله في مقدمة التفسير عند الكلام على القراءات « وأنشأت في هذا العلم كتاب عقد اللآلي قصيداً في عروض قصيد الشاطبي ورويه يشتمل على ألف بيت وأربعة وأربعين بيتاً جرحت فيها بأسامي القراء من غير دمر ولا لغز ولا حوش لغة وأنشأته من كتب تسعة كما قلت :

تنظم هَذَا الْعَقْدُ مِنْ دُرِّ تِسْعَةٍ	مِنَ الْكُتُبِ فَالتَّيْسِيرُ عَنْوَانُهُ الْمُجَلَا
بِكَافٍ لِتَجْرِيدٍ وَهَادٍ لِتَبْصِيرَةٍ	وَأَقْنَاعٍ تَلْخِيصَيْنِ أَضْحَى مَكْمَلَا
جَنِيَتْ لَوْ أَنْسَى لَفَظَ لَطِيفَةٍ	وَجَانِبْتُ وَخْشِيئاً كَثِيفاً مَعْقَلَا

ونقل أيضاً منها عند قول الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ .

وَعَشْرَةُ أَفْعَالٍ تُمَالُ لِحَمْرَةٍ	فَجَاءَ وَشَاءَ ضَاقَ رَانَ وَكَمَلَا
بِزَادٍ وَخَابَ وَطَابَ خَافَ مَعَاً	وَحَاقَ زَاغَ سَوَى الْأَحْزَابِ مَعَ صَادِهَا فَلَا

ثانياً : الحلل الحالية في أسانيد^(٤) القراءات العالية .

ثالثاً : المورد الغمر في قراءة أبي عمرو^(٥) .

(١) النفح ٢٩٥/٣ .

(٢) راجع كتب التراجم التي ترجمت للمصنف رحمه الله .

(٣) الدرر الكامنة ٧٠/٥ ، البغية ٢٨٢/١ ، طبقات الشافعية ٣١/٦ ، البدر الطالع ٢٢٨/٢ ، كشف الظنون ١١٥٢/٢ .

(٤) الدرر الكامنة ٧١/٥ ، نفح الطيب ٣٠٦/٣ ، البغية ٢٨٢/٢ . (٥) البدر ٢٨٨/٢ .

- رابعاً : تقريب النائي في قراءة الكسائي^(١) .
 خامساً : المزن الهامر في قراءة ابن عامر^(٢) .
 سادساً : الأثير في قراءة « ابن كثير »^(٣) .
 سابعاً : النافع في قراءة نافع^(٤) .
 ثامناً : الرزمة في قراءة حمزة^(٥) .
 تاسعاً : الروض الباسم في قراءة عاصم^(٦) .
 عاشراً : غاية المطلوب في قراءة يعقوب^(٧) .
 قاله الشوكاني في البدر .
 الحادي عشر : قصيدة النير الجلي في قراءة زيد بن علي^(٨) .

الحديث

ولم تطالعنا كتب السير والأعلام بشيء من مؤلفات الإمام أثير الدين أبي حيان الحديثية اللهم إلا جزء حديثي ذكره الصفدي في إجازته .
 جزء حديثي^(٩) .

الفقه

أولاً : الوهاج في اختصار المنهاج^(١٠) .
 والمنهاج للإمام شرف الدين النووي رحمه الله ، وانظر ترجمته في تحقيقنا على روضة الطالبين .
 ثانياً : الأنور الأجل في اختصار المحلى^(١١) .
 وقد ذكره المصنف رحمه الله تعالى في البحر عند الكلام على قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ قال وفرق أبو محمد بن حزم بين المريض والمسافر فقال فيما معناه في كتابنا المسمى بالأنور الأجل في اختصار المحلى ما نصه : ويجب على من يسافر ولو عاصياً ميلاً فصاعداً الفطر إذا فارق البيوت في غير رمضان وليفطر المريض ويقضي بعد ويكره صومه ويجزىء .

-
- (١) النفع ٣/٣٠٦ ، فوات الوفيات ٥٥٧/٢ .
 (٢) النفع ٣/٣٠٧ ، البدر الطالع ٢٨٨/٢ .
 (٣) النفع ٣/٣٠٦ ، وابن السبكي ٣١/٦ .
 (٤) النفع ٣/٣٠٦ ، البدر ٢/٢٨٨ ، فوات الوفيات ٥٥٧/٢ .
 (٥) النفع ٣/٣٠٦ ، البدر ٢/٢٨٨ .
 (٦) النفع ٢/٣٠٦ ، البدر ٢/٢٨٨ .
 (٧) الدرر الكامنة ٥/٧١ ، البدر ٢/٨٩ .
 (٨) انظر نفع الطيب ٣/٣٠٦ .
 (٩) ذكره الصفدي في إجازته .
 (١٠) الدرر ٥/١٧١ ، فوات الوفيات ٥٥٧/٢ ، البغية ١/٢٨٣ ، الشذرات ٦/١٤٦ .
 (١١) النفع ٣/ ، الدرر الكامنة ٥/٧١ .

- ثالثاً : مسائل الرشد في تجريد مسائل نهاية ابن رشد ولم يتمه^(١) .
 رابعاً : الاعلام بأركان الإسلام^(٢) .

اللغة

أولاً : إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب^(٣) وهو كتاب مطبوع ومتداول بين أهل العلم طبع مرتين الأول بمطبعة الإخلاص بحماة سنة ١٣٤٥ والثانية ببغداد قامت بتحقيقه الدكتور خديجة الخديشي .
 ثانياً : الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء^(٤) وطبع هذا الكتاب بمطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٦١ مع كتيب آخر باسم الفرق بين الضاد والظاء .

- ثالثاً : الإدراك للسان الأتراك^(٥) .
 وطبع هذا الكتاب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٩ هـ .
 رابعاً : الأفعال في لسان الترك^(٦) .
 خامساً : زهو الملك في نحو الترك^(٧) .
 سادساً : منطق الخرس في لسان الفرس^(٨) .
 سابعاً : جلاء الغبش في لسان الحبش^(٩) .
 ثامناً : المخبور في لسان اليجمور^(١٠) .

النحو

أولاً : التذكرة .
 قال السيوطي في البغية في أربع مجلدات كبار وقفت عليها وانتقيت منها كثيراً . قلت ونقل الإمام أبو حيان منه في البحر عند قول الله تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم . . . ﴾ الآية ونقل منه في مواطن أخرى كما ستقف عليها في الكتاب .
 ثانياً : الشذا في مسألة كذا^(١١) وقد شرحها ابن هشام بكتاب سباه فوح الشذا في مسألة كذا .

-
- (١) نفح الطيب ٣/٣٠٧ ، فوات الوفيات ٢/٥٥٧ .
 (٢) فوات الوفيات ٢/٥٥٧ ، البدر ٢٨٩ .
 (٣) البغية ١/٢٨٢ ، النفح ٣/٣٠٦ .
 (٤) البغية ١/٢٨٢ ، الدرر ٥/١٧١ ، البدر ٢/٢٨٩ .
 (٥) الدرر الكامنة ٥/٧١ ، البغية ١/٣٨٣ .
 (٦) النفح ٣/٣٠٧ ، الدرر ٥/٧١ .
 (٧) البغية ١/٢٨٣ ، النفح ٣/٣٠٧ .
 (٨) البغية ١/٢٨٣ ، فوات الوفيات ٢/٥٥٧ .
 (٩) النفح ٣/٣٠٨ ، البغية ١/٢٨٣ ، وفيها نور الغبش ولكن في البحر جلاء .
 (١٠) النفح ٣/٣٠٨ ، الدرر ٥/٧١ ، فوات الوفيات ٢/٥٥٧ .
 (١١) النفح ٣/٣٧ ، الدرر الكامنة ٥/٧١ .

وقد ألحق الجلال السيوطي رحمه الله بكتابه الأشباه والنظائر في علم النحو تهذيب ابن هشام لكتاب الشذا في أحكام كذا^(١).

ثالثاً : الشذرة^(٢).

رابعاً : غاية الإحسان في علم اللسان^(٣).

وهو مخطوط وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية وفي المكتبة الظاهرية بدمشق رقم (١٨٤٥) عام ويقع في ثمانية عشر ورقة .

خامساً : النكت الحسان في شرح غاية الإحسان^(٤).

ونقل الشيخ خالد رحمه الله في كتاب التصريح على التوضيح منه^(٥) وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٣٦٤) .

سادساً : القول الفصل في أحكام الفصل^(٦).

وقد ذكره أبو حيان رحمه الله في البحر عند قول الله تعالى في سورة البقرة الآية الخامسة : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

سابعاً : اللمحة البدرية في علم العربية^(٧).

وقد شرحها ابن هشام^(٨) وهذا الكتاب توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم (١٠٥٠) نحو وقد طبع شرح ابن هشام في جزأين بتحقيق الدكتور هادي سنة ١٩٧٧ .

ثامناً : نهاية الأعراب في علمي التعريف والإعراب وهي أرجوزة لم تتم^(٩) نقل عنها الإمام أبو حيان في كتابه منهج السالك^(١٠) ونقل عنها الإمام الجلال السيوطي في الأشباه والنظائر^(١١) مسوغات الابتداء بالنكرة .

وَكُلُّ مَا ذَكَرْتُ فِي التَّمِيمِ يَرْجِعُ لِلتَّخْصِصِ وَالتَّعْمِيمِ

ثامناً : فضل النحو^(١٢).

تاسعاً : إعراب القرآن^(١٣).

عاشراً : الهداية في النحو .

(١) انظر الأشباه ١٥٢/٤ ، وقد طبع كتاب ابن هشام سنة ١٩٦٣ .

(٢) البغية ٢٨٣/١ ، النفع ٣٠٧ ، الدرر ٧١/٥ .

(٣) الدرر ٧١/٥ ، فوات ٥٥٧/٢ ، البغية ٢٨٣/١ .

(٤) الدرر ٧١/٥ فوات الوفيات ٥٥٧/٢ .

(٥) انظر التصريح ٢/١ ، ٣٢٢ ، ٣٦٣ ، ٢٥/٢ .

(٦) انظر فوات الوفيات ٥٥٧/٢ ، البدر الطالع ٢٨٩/٢ .

(٧) النفع ٣٠٧/٣ ، البغية ٢٨٣/١ ، الدرر ٧١/٥ .

(٨) كشف الظنون ١٥٦١/٢ .

(٩) النفع ٣٠٧ .

(١٠) ص ٤٥ .

(١١) ٤٥/٢ .

(١٢) انظر تاريخ الفكر الإسلامي (١٨٧) .

(١٣) فهرس المخطوطات العربية بالمغرب الأقصى .

- وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم (١٧٢٦) .
- الحادي عشر : الاسفار الملخص من كتاب الصفا^(١) والصفار أبو الفضل البطليوسي^(٢) .
- الثاني عشر : التجريد لأحكام سيويه .
- ذكره أبو حيان في الإجازة وذكره ابن حاجي خليفة في كشف الظنون^(٣) .
- الثالث عشر : التقريب^(٤) .
- وهو اختصار المقرب لابن عصفور ويوجد منه نسخة في معهد المحفوظات العربية رقم (٣٨) .
- الرابع عشر : التدريب في تمثيل المقرب^(٥) .
- ذكره أبو حيان في إجازة الصفدي .
- وقال حاجي خليفة في الكشف^(٦) وتوجد منه نسخة في معهد المخطوطات العربية رقم (٣٢) .
- الخامس عشر : الموفور في تحرير أحكام ابن عصفور^(٧) .
- قال ابن حاجي خليفة : توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤) نحو .
- السادس عشر : المبدع^(٨) .
- وهو تلخيص كتاب المتع في التصريف .
- توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤) .
- السابع عشر : التكميل شرح التسهيل^(٩) .
- وقد ذكر أبو حيان أن هذه التكملة تعادل الخمسين من الكتاب .
- قال : ولما تكمل شرح الخمسين للذين لم يشرحه المصنف على المنهج الذي قصدناه والمتزع الذي أردناه في كتاب سميناه التكميل شرح التسهيل .
- الثامن عشر : التذيل والتكميل شرح التسهيل^(١٠) .
- وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٦٢) وتوجد منه نسخة أخرى .
- قلت وأحال عليها كثيراً هنا في البحر وبعد أن يتكلم عن القضايا النحوية والعرفية يقول وقد بسطنا هذه المسألة في التذيل وينقل أيضاً من التكميل ويحيل عليه كثيراً .
- التاسع عشر : التنخيل الملخص من شرح التسهيل^(١١) .

(١) النفع ٣/٣٠٧ ، البدر ٢/٢٨٩ ، البغية ١/٣٨٣ . (٣) ١٤٢٨/٢ .

(٢) انظر البغية ٢/٢٥٦ . (٤) النفع ٣/٣٧ ، الطبقات الكبرى ٦/٣٢ ، البدر ٢/٢٨٩ .

(٥) النفع ٣/٣٠٧ ، الدرر الكامنة ٥/٧١ ، البدر الطالع ٢/٢٨٩ .

(٦) كشف الظنون ٢/١٨٠٥ .

(٧) الكشف ٢/١٩١٠ .

(٨) البغية ١/٢٨٢ .

(٩) انظر مقدمة التسهيل .

(١٠) النفع ٣/٣٠٦ ، ابن السبكي ٦/٣١ ، الدرر ٥/٧١ ، البدر ٢/٢٨٩ ، البغية ١/٢٨٢ ، كشف الظنون ١/٤٠٥ ،

(١١) ٤٠٥/١ .

قاله حاجي خليفة في كشف الظنون .

العشرون : الارتشاف^(١) .

قال الجلال السيوطي ولم يؤلف في العربية أعظم منه وهو مطبوع في مطبعة الخانجي في ثلاثة مجلدات .

الحادي والعشرون : منهج السالك إلى ألفية ابن مالك .

ذكره أبو حيان في إجازته للصفدي .

ثناء العلماء عليه

أثنى على الإمام أبي حيان كل من لقيه أو أخذ عنه ونهل من منهله أو نظر في كتبه . قال أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر « إنه شيخ الدهر ومحبي الفن والأدب بعدما درست معالمة ومجزي اللسان العربي فلا يقاربه فيه أحد ولا يقاومه » .

وقال أيضاً إنه له اليد الطولى في التفسير والشروط .

قال الجلال السيوطي في البغية: نحوي عصره ولغوي ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه قال الصفدي : لم أره قط إلا يقرأ أو يشتغل أو يكتب أو ينظر في كتاب ، وكان ثبناً قيماً عارفاً باللغة ، وأما النحو والتعريف فهو الإمام المطلق فيهما خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض فيهما غيره وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصاً المغاربة . . .

قال الأدفي : كان ثبناً صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن .

قال ابن الجزري رحمه الله في البغية : الإمام الحافظ شيخ العربية والأدب والقراءات مع العدالة والثقة .

قال الذهبي : ومع براعته الكاملة في العربية له يد طولى في الفقه والآثار والقراءات واللغات وله مصنفات في القراءات والنحو وهو مفخر أهل مصر في العلم ، تخرج به عدة أئمة . . .

قال الشوكاني في البدر الطالع^(٢) الإمام الكبير في العربية والتفسير تبحر في اللغة العربية والتفسير وفاق الأقران وتفرد بذلك في جميع أقطار الدنيا ولم يكن بعصره من يماثله .

قال ابن قاضي شهاب في طبقات الشافعية^(٣) : هو الحافظ المفسر النحوي اللغوي فريد الدهر وشيخ النحاة في عصره ، وإمام المفسرين في وقته وصاحب التصانيف المشهورة التي سارت شرقاً وغرباً .

وقال الرعي^(٤) : هو شيخ فاضل ما رأيت مثله كثير العمل والانبساط بعيد عن الانقباض جيد الكلام حسن اللقاء جميل المؤانسة فصيح الكلام طليق اللسان ذولمة وافرة وهمة فاخرة .

قال الذهبي أيضاً لا يثبت لأحد في العربية ، وينظر إلى النحاة بعين النقص لسعة ما هو فيه من التبحر في علم

(١) نسبة إليه جميع مصادر الترجمة .

(٢) ٢٨٨/٣ .

(٤) نفح الطيب ٣٢١/٣ .

(٣) ٦٧/٣ .

قال الصفدي : وقد مدحه كثير من الشعراء والكبار الفضلاء منهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله :

قَدْ قُلْتُ لَمَّا أَنْ سَمِعْتُ مَبَاحِثًا فِي الذَّاتِ قَرَّرَهَا أَجَلَ مُقَيَّدِ
هَذَا أَبُو حَيَّانٍ قُلْتُ صَدَقْتُمْ وَبَرَزْتُمْ هَذَا هُوَ التَّوْجِيْدِ

وقد جاء يوماً إلى بيت الشيخ صدر الدين ابن الوكيل فلم يجده فكتب « بالجلس »^(٢) على مصراع الباب ، فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال :

قَالَ أَبُو حَيَّانٍ غَيْرُ مُدَافِعِ مَلِكُ النُّحَاةِ فَقُلْتُ بِالْإِجْمَاعِ
اسْمُ الْمُلُوكِ عَلَى النُّقُودِ ، وَإِنِّي شَاهَدْتُ كُنْيَتَهُ عَلَى الْمِصْرَاعِ

ومدحه مجير الدين عمر بن اللمطي بقصيدة أولها :

يا شيخ أهل الأدب الباهر من ناظم يلقي ومن نائر^(٣)

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الخيمي بقصيدة أولها^(٤) :

إن الأثير أبا حيان أحياناً بنشره طي علم مات أحياناً

تلاميذه

كان أبو حيان رحمه الله إماماً من عظماء الأئمة الأخيار وأستاذاً من أجل أساتذته وقته وكان يرحل إليه التلاميذ في مشارق الأرض ومغاربها وقد انتفع بعلومه خلق كثير وأصبحوا - فيما بعد - من أكابر الفقهاء والشيوخ العظام .

قال الجلال السيوطي في البغية^(٥) وتقدم في النحو وأقرأ في حياة شيوخه بالمغرب وقال السبكي في طبقاته : إمام النحو الذي لقاصده منه ما يشاء^(٦) .

وقال الصفدي : وكان له إقبال على الطلبة الأذكياء وعنده تعظيم لهم^(٧) .

وقال محمد الدمشقي^(٨) : وأمضى أكثر عمره على الإقراء والتصنيف وقرأ عليه الأئمة الكبار وتلمذوا له وأكثروا من كتب تصانيفه في حياته والأخذ عنه .

(١) معرفة القراء ٥٦١/٢ .

(٢) نفع الطيب ٢٩٨/٣ - ٢٩٩ .

(٣) نفع الطيب ٢٩٩ .

(٤) البغية ٢٨٠/١ .

(٥) انظر البغية ٢٨٠/١ ، غاية النهاية ، نفع الطيب ٣٠٤/٣ ، معرفة القراء ٥٢/٢ ، غاية النهاية ٢٨٥/٢ ، ذيل التذكرة ص ٢٣ ، طبقات المفسرين للدواودي ٢٨٦/٢ ، طبقات الشافعية لابن السبكي ٣١/٦ ، أعلام النساء ١٥١٢/٣ ، النجوم الزاهرة ٣٧٠/٧ ، وانظر أيضاً البحر فإنه نبه على ذلك كثيراً .

(٦) الطبقات ٣٢/٦ .

(٨) ذيل التذكرة ص ٢٣ .

(٧) البغية ٢٨٢/١ .

ويرى الإمام ابن السبكي^(١) أن معظم من تعلم في عصره إنما تخرج على أبي حيان وذكر أن غالب مشايخ العصر والاقران أخذوا عنه .

وقال ابن الجزري^(٢) : وأقام بالديار المصرية يؤلف ويقرئ . . . ونذكر منهم ما هو على سبيل المثال لا الحصر والاستقراء :

أولاً : علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى بن عمر بن عثمان بن علي بن سوار بن سوار بن سليم السبكي تقي الدين أبو الحسن الفقيه الشافعي المفسر الحافظ الأصولي النحوي اللغوي المقرئ البياني الجدلي الخلافي النظار البارع شيخ الإسلام أوجد المجتهدين ولد مستهل صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وصنف نحو مائة وخمسين كتاباً مطولاً ومختصراً توفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة بمصر^(٣) .

ثانياً : أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي العلامة بهاء الدين أبو حامد ابن شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن ولد بعد المغرب ليلة العشرين من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وسبعمائة وكانت له اليد الطولى في اللسان العربي والمعاني والبيان صنف عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح وغير ذلك توفي ليلة الخميس سابع عشرين رجب سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمكة^(٤) .

ومن شعره يمدح شيخه أبا حيان من قصيدة :

فداكم فؤاد حان للبعد فقدمه * وصب قضى وجداً وما حال عهده
وقلب جريح بالغرام متميم * وطرف قريح طال في الليل سُهده

ثالثاً : محمد بن عبد البر بن يحيى بن علي بن تمام بهاء الدين أبو البقاء السبكي الفقيه الشافعي النحوي . قال ابن حجر : شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضيأؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها . . .

وقال الذهبي في المعجم المختار : إمام متبحر ، مناظر بصير بالعلم محكم العربية مع الدين والتصوف مات بدمشق يوم الثلاثاء عشر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وسبعمائة^(٥) .

رابعاً : أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي شهاب الدين المقرئ النحوي نزيل القاهرة المعروف بالسمين قال الأسنوي كان فقيهاً بارعاً في النحو والقراءات ويتكلم في الأصول أديباً وله تفسير القرآن ، والأعراب الفه في حياة شيخه أبي حيان وناقشه فيه كثيراً وشرح التسهيل وشرح الشاطبية وغير ذلك توفي في جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وسبعمائة^(٦) .

خامساً : عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل القرشي الهاشمي العقيلي الهمداني الأصل ثم البالسي المصري قاضي القضاة بهاء الدين ابن عقيل الشافعي نحوي الديار المصرية كان إماماً في العربية والبيان وتوفي بالقاهرة ليلة الأربعاء ثالث عشرين ربيع الأول سنة تسع وستين وسبعمائة^(٧) .

(١) الطبقات ٣٢/٦ .

(٣) البغية ١٧٦/٢ - ١٧٧ ، غاية النهاية ٥٥١/١ ، حسن المحاضرة ١٧٧/١ .

(٤) البغية ٣٤٢/١ - ٣٤٣ ، الدرر الكامنة ٢١٠/١ ، البدر الطالع ٨١/١ .

(٥) البغية ١٥٢/١ - ١٥٣ ، الدرر الكامنة ٤٩٠/٣ .

(٧) البغية ٤٧/٢ - ٤٨ - الدرر الكامنة ٢٦٦/٢ - ٢٦٨ .

(٦) البغية ٤٠٢/١ ، الدرر الكامنة ٣/١ - ٣٤٠ .

سادساً : محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق أبو عبد الله التلمساني العجيسي المالكي العلامة ولد سنة إحدى عشرة وسبعمائة وتقدم في بلاده ، وتمهر في العربية والأصول والأدب وقال في تاريخ غرناطة : وكان مليح الترسل حسن اللقاء كثير التودد ممزوج الدعابة بالوقار . . . توفي في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة (١) .

سابعاً : أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم بن أحمد بن محمد بن سليم بن محمد القيسي تاج الدين أبو محمد الحنفي النحوي قال ابن حجر في الدرر : ولد في آخر ذي الحجة سنة ثنتين وثمانين وستمائة ولازم أبا حيان دهرًا طويلاً وتقدم في الفقه والنحو واللغة ودرس وناب في الحكم وشرح كافية ابن الحاجب وشرح الشافية له وشرح الفصيح ، والدر اللقيط من البحر المحيط قصره على مباحث أبي حيان مع ابن عطية والزنجشري وغير ذلك من المصنفات توفي في رمضان سنة تسع وأربعين وسبعمائة (٢) .

ثامناً : محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم الحلبي محيي الدين ناظر الجيش قال ابن حجر ولد سنة سبع وتسعين وستمائة واشتغل ببلاده ثم قدم القاهرة ولازم أبا حيان ودرس بالمنصورية التفسير وكان له في الحساب يد طولى ثم ولي نظر الجيش وغيره ورفع قدره كان عليّ الهمة نافذ الكلمة كثير البذل والجود شرح التلخيص والتسهيل توفي في ثاني عشر ذي الحجة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (٣) .

تاسعاً : الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المولد الأسفي المحتد النحوي اللغوي الفقيه البارع بدر الدين المعروف بابن أم قاسم ، وهي جدته أم أبيه واسمها زهراء وأخذ العربية عن أبي عبد الله الطنجي والسراج الدمهوري وأبي زكريا الغماري وأبي حيان وله شرح التسهيل شرح المفصل وشرح الألفية توفي يوم عيد الفطر سنة تسع وأربعين وسبعمائة (٤) .

عاشراً : محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الغماري المصري المالكي النحوي شمس الدين قال ابن حجر : أخذ العربية والقراءات عن أبي حيان وغيره وسمع من اليافعي والشيخ خليل المالكي وحدث ، وكان عارفاً باللغة العربية بارعاً فيها كثير المحفوظ لا سيما في الشواهد قوي المشاركة في فنون الأدب والاصول والتفسير والفروع توفي في شعبان سنة اثنتين وثمانين (٥) .

الحادي عشر : أحمد بن محمد بن عبد المعطي بن أحمد بن عبد المعطي بن مكّي بن طراد بن حسين بن مخلوف بن أبي الفوارس بن سيف الإسلام بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري المكي المالكي النحوي أبو العباس اشتغل كثيراً ومهر في العربية وشارك في الفقه وأخذ عن أبي حيان وغيره وانتفع به أهل مكة في العربية توفي في المحرم سنة ثمان وثمانين وثمانمائة (٦) .

الثاني عشر : عبد الرحمن بن أحمد بن علي الواسطي الأصل البغدادي تقي الدين نزيل القاهرة ولد سنة إحدى - أو اثنتين أو ثلاث - وسبعمائة وتلا بالسبع على التقي الصائغ وأخذ النحو عن أبي حيان ونظم غاية الإحسان له وعرضها عليه

(١) البغية ١/٤٦ - ٤٧ ، الدرر الكامنة ٣/٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٢) البغية ١/٣٢٦ - ٣٢٩ .

(٣) البغية ١/٢٧٥ - ٢٧٦ ، الدرر الكامنة ٤/٢٩٠ .

(٤) البغية ١/٥١٧ ، طبقات المفسرين ١/١٣٩ .

(٥) البغية ١/٣٧٢ ، العقد الثمين ٣/١٤٩ - ١٥٣ ، الدرر الكامنة ٣/٢٧٧ .

(٦) البغية ١/٢٣٠ .

فأعجبته وقرظها وشرح الشاطبية وتصدر للإقراء مدة وتوفي في صفر سنة إحدى وثمانين وسبعمائة^(١).

الثالث عشر : محمد بن محمود بن أحمد البابر تي الشيخ أكمل الدين الحنفي ولد سنة بضعة عشرة وسبعمائة وأخذ عن أبي حيان والأصفهاني وكان علامة فاضلاً ذا فنون ، وافر العقل ، قوي النفس عظيم الهيئة مهيباً وله التفسير وشرح المشرق وشرح مختصر ابن الحاجب شرح الهداية في الفقه وغير ذلك توفي ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان سنة ست وثمانين وسبعمائة وحضر جنازته السلطان فمن دونه ودفن بالشيخونية^(٢).

الرابع عشر : إبراهيم بن عبد الله بن علي بن يحيى بن خلف المقرئ النحوي برهان الدين الحكري اعتنى بالعربية والقراءات وأخذ عن البهاء بن النحاس وتلا على التقي الصائغ وابن الكفتي ولزم درس أبي حيان وأخذ عنه الناس وكان حسن التعليم وسمع الحديث من الدمياطي والأبرقوهي مات بالطاعون العام في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وسبعمائة^(٣).

الخامس عشر : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محرر بن عبد الله الحضرمي أبو محمد كان خاتمة الصدور ذاتاً وسلفاً وجلالة له القدر المعلى في علم العربية والمشاركة الحسنة في الأصلين والإمامة في الحديث والتبريز في الأدب والتاريخ واللغات والعروض كثير الاجتهاد والملازمة والتفنن والمطالعة مقصوراً على الإفادة والاستفادة توفي بتونس في الطاعون العام سنة تسع وأربعين وسبعمائة^(٤).

السادس عشر : أحمد بن سعد بن محمد أبو العباس العسكري الأندلسي الصوفي قال الصفدي : شيخ العربية بدمشق في زمانه ، أخذ عن أبي حيان وأبي جعفر بن الزيات وكان بارعاً في النحو ، مشاركاً في الفضائل وشرح التسهيل واختصر تهذيب الكمال توفي في ذي القعدة سنة خمسين وسبعمائة^(٥).

السابع عشر : علي بن بلبان الفارسي الأمير علاء الدين الحنفي ولد سنة خمس وسبعين وستمائة وقرأ النحو على أبي حيان والأصول على العلاء القنوني والفقه على الفخر التركاني والسروجي وأتقن النحو وشرح الجامع الكبير ورتب صحيح ابن حيان على الأبواب توفي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة^(٦).

الثامن عشر : سعيد بن محمد بن سعيد الملياني المغربي المالكي النحوي قال في الدرر : كان شيخاً فاضلاً في العربية من أعيان المالكية خيراً متحرزاً من سماع الغيبة رحل من المغرب إلى القاهرة سنة عشرين وسبعمائة وسمع بها من جماعة وأخذ عن أبي حيان وتحول إلى دمشق وتصدر بها لإقراء العربية إلى أن مات في سادس من شوال سنة إحدى وسبعين^(٧).

التاسع عشر : أحمد بن محمد الفيومي ثم الحموي قال في الدرر : اشتغل ومهر وتميز في العربية عن أبي حيان ثم قطن حماة وخطب بجامع الدهشة وكان فاضلاً عارفاً بالفقه واللغة صنف المصباح المنير في غريب الشرح الكبير توفي سنة نيف وسبعين وسبعمائة^(٨).

(١) البغية ٧٦/٢ ، الدرر الكامنة ٣٢٣/٢ .

(٢) البغية ٢٣٩ - ٢٤٠ ، الدرر ٢٥٠/٤ .

(٣) البغية ٤١٥/١ ، الدرر ٢٩/١ .

(٤) البغية ١١٦/٢ - ١١٧ .

(٥) البغية ٣٠٩/١ ، الدرر الكامنة ١٣٥/١ - ١٣٦ .

(٦) البغية ١٥٢/٢ .

(٧) البغية ٣٨٩/١ ، الدرر الكامنة ٢١٤/١ .

(٨) البغية ٥٨٨/١ ، الدرر الكامنة ١٣٦/٢ .

العشرون : عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن إبراهيم الأموي الشيخ جمال الدين أبو محمد الأسنوي الفقيه الشافعي الأصولي النحوي العروضي أخذ العربية عن أبي الحسن النحوي والد ابن الملقن وأبي حيان وغيرهما وكتب له أبو حيان : بحث على الشيخ فلان كتاب التسهيل ثم قال له : لم أشيخ أحداً في سنك توفي ليلة الأحد ثامن عشري جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وله سبع وستون سنة ونصف وكانت جنازته مشهودة تنطق له بالولاية^(١) .

الحادي والعشرون : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم القيسي المالكي العلامة برهان الدين أبو إسحاق السفاسي النحوي صاحب إعراب القرآن أخذ عن أبي حيان توفي في ثامن عشر ذي القعدة سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة^(٢) .

الثاني والعشرون : عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري الشيخ جمال الدين الحنبلي النحوي الفاضل العلامة المشهور أبو محمد سمع على أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى صنف مغني اللبيب وشذور الذهب وقطر الندى وغير ذلك وتوفي ليلة الجمعة خامس ذي القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة^(٣) .

الثالث والعشرون : محمد بن عبد الله بن محمد بن علي أبو عبد الله محيي الدين الصائغ الأموي المري قرأ النحو بالقاهرة إلى أن صار يقال له أبو عبد الله النحوي ولازم أبا حيان وانتفع بجاهه وكان سهلاً دمث الأخلاق محباً للطلب دؤوباً عليه توفي في رمضان سنة خمسين وسبعمائة^(٤) .

الرابع والعشرون : خليل بن أيك^(٥) .

الخامس والعشرون : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي أبو عبد الله التلمساني قاضي الجماعة بفاس كان مشاراً إليه ، اجتهداً ودؤوباً وحفظاً وعناية وإطلاعاً ونقلًا ونزاهة أخذ العلم عن جماعة منهم عبد المهيم بن محمد الحضرمي النحوي وبصر عن أبي حيان والشمس الأصفهاني وخلق قال ابن الخطيب اتصل بنا نعيه في المحرم وأراه مات في ذي الحجة من العام قبله سنة تسع وخمسين وسبعمائة^(٦) .

السادس والعشرون : إسماعيل بن محمد بن علي بن عبد الله بن هاني اللخمي الغرناطي سريّ الدين أبو الوليد ولد سنة ثمان وسبعمائة بغيرناطة وأخذ عن جماعة من أهل بلده كأبي القاسم بن جزى ثم قدم القاهرة ، وذاكر أبا حيان ثم قدم الشام وأقام بحياة واشتهر بالمهارة في العربية وبالغ ابن كثير في الثناء عليه توفي في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين وسبعمائة^(٧) .

إبراهيم بن أحمد بن عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن بن نشوان الإمام القاضي بدر الدين بن الخشاب المخزومي المصري الشافعي عالم رصين خير، قرأ السبع على أبي حيان وولي قضاء حلب ثم قضاء المدينة الشريفة ستين ومات

(١) البغية ٩٣/٢ .

(٢) البغية ٤٢٥/١ ، الدرر الكامنة ٥٥/١ .

(٣) البغية ٦٨/٢ - ٦٩ ، الدرر الكامنة ٣٠٨/٢ - ٣١٠ .

(٤) البغية ١٤٣/١ ، الدرر الكامنة ٤٨٤/٣ .

(٥) ابن السبكي ٩٤/٦ ، الشذرات ٢٠٠/٦ .

(٦) البغية ٤٥٦/١ ، الدرر الكامنة ٣٨٠/١ - ٣٨١ .

(٧) البغية ٢١/١ .

خارجاً منها في سنة أربع وسبعين وسبعمئة^(١).

أحمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن زكريا بن يحيى أبو العباس بن السويدي المصري مسند خير صالح مات سنة أربع وثلاثمائة بمنزله خارج باب النصر^(٢).

أحمد بن سعد بن محمد بن أحمد الشيخ ضياء الدين أبو العباس الأندقوني الأندلسي ثم الدمشقي إمام علامة ولد في حدود السبعمئة أو على رأسها حفظ التسهيل وبحثه على الشيخ أبي حيان وتوفي في المحرم سنة إحدى وخمسين وسبعمئة^(٣).

أحمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم أبو جعفر الحميري الغرناطي يعرف بالشقوري مقريء كامل صالح قرأ على ابن الحسن القيقاطي وأبي جعفر بن الزيات وحج فقرأ على أبي حيان وغيره توفي في أواخر سنة ست وخمسين وسبعمئة^(٤).

أبو بكر بن أيد غدي بن عبد الله الشمسي الشهير بابن الجندي ويسمى عبد الله شيخ مشايخ القراء بمصر أستاذ كامل ناقل ثقة ولد بدمشق سنة تسع وتسعين وستمئة قرأ الكثير على التقي الصايغ والعشر على إبراهيم بن عمر الجعبري والثمان على أبي حيان والسبع على عبد الله بن عبد الحق الدلاصي مات بالقاهرة ودفن خارج باب النصر رحمه الله تعالى^(٥).

محمد بن أحمد بن علي بن الحسن بن جامع أبو المعالي ابن اللبان الدمشقي أستاذ محرو ضابط ولد سنة خمس عشرة وسبعمئة وطلب القراءات سنة سبع وعشرين وما بعدها فتخرج بالإمام أبي العباس أحمد بن نحلة سبط السلعوس وارتحل كثيراً ثم دخل مصر فقرأ على ابن حيان بمضمن قصيدته اللاميتين في السبع وقراءة يعقوب سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة توفي ليلة الجمعة ثاني ربيع الأول سنة ست وسبعين وسبعمئة وصلى عليه بعد صلاة الجمعة بالجامع الأموي^(٦).

أحمد بن محمد بن علي أبو العباس العنابي النحوي الأستاذ نزيل دمشق قدم القاهرة من بلد العناب فلازم أبا حيان وأتقن عليه النحو وقرأ عليه الثمان وخدمة حتى مات وتوفي سنة ست وسبعين وسبعمئة^(٧).

أحمد بن عمر بن هلال الربيعي المالكي^(٨).

سراج الدين البلقيني^(٩).

كمال الدين أبو الفضل جعفر بن تغلب الأدفوي^(١٠).

محمد بن علي بن عبد الواحد الدكالي ابن النقاس^(١١).

(١) الشذرات ١٩٥/٦ ، النجوم ٢٨٨/٩ .

(٢) الغاية ٨/١ - ٩ .

(٣) البغية ٤٧/١ (١٩٦) .

(٤) البغية ٥٥/١ - ٥٦ .

(٥) غاية ١/١ .

(٦) غاية النهاية ٧٢/٢ - ٧٣ .

(٧) غاية النهاية ١٢٥/١ .

(٨) الشذرات ٣٣٨/٦ .

(٩) الشذرات ٥١/٧ ، حسن المحاضرة ٣٢٩/١ .

(١٠) الشذرات ١٥٣/٦ ، البدر الطالع ١٨٢/١ .

(١١) طبقات المفسرين ٢٠٠/٢ .

أحمد بن يحيى العدوي العمري^(١) .

محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد الشيخ تاج الدين المراكشي^(٢) .

أحمد بن لؤلؤ الروعي شهاب الدين بن النقيب .

إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد المؤمن بن سعيد بن علوان بن كامل أبو إسحاق الشاسي الجريزي نزيل القاهرة ولد سنة تسع وسبعمائة بدمشق وقرأ القراءات العشر على أبي حيان توفي ليلة الاثنين ثامن جمادى الآخرة سنة ثمانمائة بمصر^(٣) .

علي بن عيسى الزواوي شرف الدين .

عبد الله بن رضي الدين^(٤) .

علي بن أحمد بن إسماعيل المدلجي نور الدين^(٥) .

محمد بن عبد اللطيف الكويك .

أحمد بن عبد العزيز بن يوسف بن يغمور الحراني ابن المرحل^(٦) .

أحمد بن محمد بن يحيى بن نحلة المعروف بسبط السلعوس أبو العباس النابلسي ثم الدمشقي أستاذ ماهر ورع صالح ولد سنة سبع وثمانين وستمائة وقرأ بدمشق على ابن بضمان ومحمد بن أحمد بن ظاهر البالسي ثم رحل إلى القاهرة وقرأ بها على أبي حيان لعاصم ثم علي الصايغ بمضمن كتب وتوفي في رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة بدمشق^(٧) .

عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن علي بن سبع بن مالك النفزي الكركي الشافعي يعرف بابن أبي العباس ولد قبل السبعمائة بالكرك وتلا على الصائغ وأبي حيان وأتقن العربية عنه وأتقن الفرائض وتصدر بالكرك وتوفي يوم عرفة سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بالكرك^(٨) .

محمد بن أحمد بن جابر الهواري أبو عبد الله الأندلسي المرسي الضرير النحوي الأديب إمام بارع خرج من الأندلس حاجاً سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بعد أن قرأ بها على ابن عمر القيقاطي فقدم مصر وأخذ عن أبي حيان ثم قدم دمشق وسمع بها الكثير وتوفي نحو سنة ثمانين وسبعمائة^(٩) .

الحسن بن محمد بن صالح أبو محمد النابلسي الحنبلي إمام فقيه قرأ السبع على أبي حيان وسكن مصر^(١٠) .

(١) الشذرات ١٦٠/٦ .

(٢) الشذرات ١٧٢/٦ .

(٣) غاية النهاية ٨ - ١ .

(٤) الشذرات ٢٥١/٦ - ٢٥٢ .

(٥) الشذرات ٢٧٥/٦ .

(٦) الشذرات ٣٠٠/٦ .

(٧) الغاية ١٢٣/١ (٦٣١) .

(٨) الغاية ٣٦٦/١ .

(٩) الغاية ٦٠/٢ .

(١٠) الغاية ٣٢١/١ .

ولعل بعد هذا التطواف السريع علمت مدى صدق ما قاله العلامة ابن السبكي رحمه الله « إن معظم من تعلم في عصره إنما تخرج على يديه » .

خشوعه

قال السيوطي رحمه الله في البغية^(١) كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن .

هذا النص يعطينا مدى تأسي أبي حيان بسيدنا رسول الله ﷺ فكان ﷺ يقرأ القرآن ويبكي وانظر إلى ما أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « قال لي رسول الله ﷺ وهو على المنبر : اقرأ علي قلت : اقرأ عليك وعليك انزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيري فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾^(٣) قال : حسبك الآن . فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان وقال الشوكاني في البدر الطالع^(٤) .

[. . . كان كثير الخشوع والتلاوة والعبادة] .

غايته

إن المسلم يجب أن يعرف غايته في الدنيا ولماذا خلقه الله سبحانه وتعالى في دار الفناء وأن يعرف ماله وما عليه تجاه خالقه سبحانه وتعالى وكان « شيخنا » رحمه الله يعرف هذا أتم المعرفة « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

كان يقول رحمه الله : غايتي ثلاثة أشياء :

أولاً : تلاوة الكتاب العزيز .

قلت ولقد جاءت الدلائل القاطعات من الكتاب والسنة على استحباب تلاوة القرآن الكريم .

ثانياً : الإكثار من عمل الخير .

وقد جاءت النصوص الواضحات من الكتاب والسنة على استحباب^(٥) عمل الخير .

ثالثاً : النفس العفيفة .

وينشد ذلك فيقول :

أُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا ثَلَاثًا وَإِنِّهَا لَغَايَةُ مَطْلُوبٍ لِمَنْ هُوَ طَالِبُ
تِلَاوَةِ قُرْآنٍ وَنَفْسٍ عَفِيفَةٍ وَإِكْثَارِ أَعْمَالٍ عَلَيْهَا أَوْاطِبُ^(٥)

وهذه أبيات أنشدتها توضح غايته في الدنيا .

(١) أخرجه البخاري ٢٥٠/٨ ، في التفسير باب (٩) (٤٥٨٢) وفي ٣٩/٩ في فضائل القرآن باب ٣٢ (٥٠٤٩) وفي باب استماع القرآن (٨٠٠/٢٤٧) (٨٠٠/٢٤٨) .

(٢) النساء : ٤١ .

(٣) ٢٨٨/٢ .

(٤) وقد يكون واجباً .

(٥) نفح الطيب ٣٢٠/٣ .

قال عليه رحمة الله :

أما إنه لولا ثلاث أحبها تَمَنَيْتُ أَنْ لَا أَعَدَّ مِنَ الْأَحْيَا
فَمِنْهَا رَجَائِي أَنْ أَفُوزَ بِتَوْبَةٍ تُكْفِّرُ ذَنْباً وَتُنْجِحَ لِي سَعِيَا
وَمِنْهُمْ صَوْنُ النَّفْسِ عَنْ كُلِّ جَاهِلٍ لثِمٍ فَلَا أُمْسِي إِلَى بَابِهِ مَشِيَا
وَمِنْهُمْ أَخَذِي بِالْحَدِيثِ إِذَا الْوَرَى نَسُوا سُنَّةَ الْمُخْتَارِ وَاتَّبَعُوا الرَّأْيَا

وانظر إلى هذه المعاني المرصعة باللؤلؤ المنشور في كتابه الموسوم « بالبحر » الذي نحن بصددده إذ قال في مقدمته « جعلت كتاب الله والتدبر لمعانيه أنيسي إذ هو أفضل مؤانس ، وسميري إذا أحلوا لكتب ظلم الحنادس . . . وأنشد فقال :

نِعَمَ السَّمِيرُ كِتَابُ اللَّهِ إِنَّ لَهُ حَلَاوَةً هِيَ أَحْلَى مِنْ جَنَى الضَّرْبِ
بِهِ فُتُونُ الْمَعَانِي قَدْ جُمِعْنَ فَمَا يَفْتَنُ مَنْ عَجِبَ إِلَّا إِلَى عَجَبِ
أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَأَمْثَالٍ وَمَوْعِظَةٍ وَحِكْمَةٍ أودعت في أفصح الكتب
لَطَائِفُ يَجْتَلِيهَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ وَرَوْضَةٌ يَجْتَنِيهَا كُلُّ ذِي أَدَبٍ

عقيدته

نشأ أبو حيان في مدينة الأندلس كما قدمنا وكانت الأندلس آنذاك تنفر من العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتنجيم ونحوها فلم يشتغل بهذا الفن إلا القليل النادر وكان اشتغاله بها خفية دون الجهر فتكون عند المجتمع الأندلسي فكرة سيئة عن هذه العلوم الفلسفية وكان المشتغل بها آنذاك يوصف بالزندقة ويرمى بالكفر ويوشى به إلى الحكام فيرمي في غياهب السجون وخاصة أن أهل العلم من الفقهاء والمحدثين استطاعوا بما لهم من نفوذ وجاه أن يعطوا للأمرأ صورة سيئة عن هذه العلوم وبدعوا من يشتغل بهذه الفنون .

وهذا يعطينا أن أبا حيان تأثر بما كانوا عليه بالأندلس من سلامة العقيدة ، ولم تكن البيئة فقط هي موضع تأثر أبي حيان فقط بل ساعده أيضاً على ذلك اتباعه الآثار واشتغاله بالحديث واتباعه منهج القرآن .

قال الحافظ ابن حجر^(١) رحمه الله متحدثاً عن عقيدته : وكان صدوقاً حجة ثبناً سالماً في العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم .

وقال أيضاً^(٢) : وكان عرياً من الفلسفة بريئاً من الاعتزال متمسكاً بطريقة السلف .

أبو حيان والباطنية

الباطنية قوم رفضوا الأخذ بظاهر القرآن وقالوا : للقرآن ظاهر وباطن ، والمراد منه باطنه دون ظاهره . ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ فُضِرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ^(٣) فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الحديد ١٣ وهم فرق متعددة على المثال الآتي :

١ - القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط إحدى قرى واسط ، وهو الذي تزعمهم فيما ذهبوا إليه .

(١) الدرر ٥/٧٣ .

(٢) الحديد : ١٣ .

(٣) الدرر الكامنة ٥/٧٤ .

٢ - الإسماعيلية : نسبة إلى إسماعيل أكبر أولاد جعفر الصادق ، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون الإمامة فيه ، وقيل إنهم سموا إسماعيلية ، لانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل .

٣ - السبعية : نسبة إلى عدد السبعة . ذلك لأنهم يعتقدون أن في كل سبعة إماماً يقتدى به .

٤ - الحرمية : نسبة إلى الحرم . وذلك لأنهم يستباحون الحرمات .

٥ - البابكية : نسبة إلى زعيمهم بابك الخرمي الذي خرج بأذربيجان .

٦ - المحمرة : سموا بذلك للبسهم الحمرة .

ومذهب الباطنية على عمومها وبله انتقل إليهم بطريق العدوى من المجوس . ومن تأويلاتهم الفاسدة في القرآن أنهم يقولون في تفسير قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أن الإمام علياً ورث النبي في عمله .

ويقولون : معنى الجنابة أنها مبادرة المستجيب بإفشاء السر قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى الطهارة التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام . ومعنى التيمم : الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعي الإمام ، ومعنى الصيام : الإمساك عن كشف السر .

ويقولون : إن الكعبة هي النبي ﷺ (والباب) علي (والصفاء) هو النبي ، (والمروة) علي ، (ونار إبراهيم) هي غضب النمرود عليه ، (وعصا موسى) هي حجته . إلى غير ذلك من الخرافات التي لا يقبلها عقل ولا يؤيدها نقل .

وهذه التأويلات الفاسدة من أشد وأنكى ما يصاب به الإسلام والمسلمون ، لأنها تؤدي إلى نقض بناء الشريعة حجراً حجراً ، وإلى الخروج من ربة الإسلام وحل عُراه عروة عروة ، ولأنها تجعل القرآن والسنة فوضى فاحشة يقال فيها ما شاء الهوى أن يقال كأنها لغو من الكلام ، أو كلاً مباح للبهائم والأنعام ، وأخيراً ينفرط عقد المسلمين ويكون بأسهم بينهم من جراء هذا العبث بتلك الضوابط الدينية الكبرى والحفاظ الأدبية العظمى . وما دام لكل واحد أن يفهم من القرآن ما شاء له الهوى والشهوة دون اعتصام بالشريعة ، ولا التزام لقواعد اللغة ، لم يعد القرآن قرآناً ، وإنما هما الهوى والشهوة فحسب .

وكان موقف أبي حيان من هذا التفسير واضحاً جلياً قال : وتركت أقوال الملحد الباطنية المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها إلى هذيان افتروه على الله وعلى علي - كرم الله تعالى وجهه - وعلى ذريته ويسمو له علم التأويل . . . هكذا نص عليه في مقدمة التفسير .

وانظر هذا في تفسير قول الله تعالى في الآية الثانية والسبعين من سورة المائدة : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . . . ﴾ .

أبو حيان والصوفية

قال الزركشي في البرهان : كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة ، كقول بعضهم في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ إن المراد النفس ، يريدون أن علة الأمر بقتال من يلينا هي القرب ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه .

وقال ابن الصلاح في فتاويه : وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق في التفسير . فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا

مسلك الباطنية ، وإنما ذلك منهم تنظير لما ورد به القرآن . فإن النظر يذكر بالنظر . ومع ذلك فإيا ليتهم لم يتساهلوا بمثل ذلك . لما فيه من الإبهام والإنباس . وقال النسفي في عقائده : « النصوص على ظواهرها ، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطل إلحاد » . اهـ . قال التفتازاني في شرحه : سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها ، بل لها معان لا يعرفها إلا المعلم . وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية . قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التوفيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان .

ومن هنا يعلم الفرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشاري ، وبين تفسير الباطنية الملاحدة . فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر ، بل يحضون عليه ويقولون : لا بد منه أولاً . إذ من ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر ، كمن ادعى بلوغ سطح البيت قبل أن يجاوز الباب .

وأما الباطنية فإنهم يقولون : إن الظاهر غير مراد أصلاً . وإنما المراد الباطن . وقصدهم نفي الشريعة .

ونقل السيوطي في الإتيان عن ابن عطاء الله في لطائف المنن ما نصه : اعلم أن التفسير عند هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة ، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره . لكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه في عرف اللسان . ولهم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء في الحديث : « لكل آية ظهر وبطن » . فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم ، أن يقول لك ذوجدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ فليس ذلك بإحالة وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى للآية إلا هذا . وهم لم يقولوا ذلك بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ، ويفهمون عن الله ما ألهمهم . اهـ .

وكان أيضاً موقف أبي حيان من هذا الاتجاه متمسكاً بالوضوح فقال : وربما ألمت بشيء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمداول اللفظ وتجنب أفاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ . . .

وانظر ما تعقب به تفسير القشيري للآية الرابعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ . . .

أبو حيان والإسرائيليات

والبحر المحيط من التفاسير التي يقل فيها ذكر الإسرائيليات وقد غني بالتنبيه إلى الكثير منها ، وبيان عدم صحتها ، وتحذير القارئ من الاغترار بها وكثيراً ما يضرب عن ذكرها مشيراً إلى بطلانها وقد يوجزها ثم يكر عليها بالإبطال والتزييف ولا سيما فيما يدرك بطلانه وكذبه بالعقل والنظر .

وذلك مثل ما فعل في تزييف قصة هاروت وماروت ، ومثل ما روى في قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - وهمه ، والبرهان الذي رآه .

ومثل قصة سيدنا داود عليه السلام وزوجه أوريا .

ومثل قصة سيدنا سليمان عليه السلام .

ومثل ما روى في سبب فتنة أيوب .

ومع هذا لا يسلم أبو حيان من الإسرائيليات وذلك مثل ما ذكره في حجر سيدنا موسى عليه السلام وعلى أي هيئة

وأيضاً ما ذكره في أسماء الكواكب الاثني عشر التي رآها سيدنا يوسف عليه السلام وأيضاً في قصة إرم ذات العماد .
وقال أبو شهبة - رحمه الله^(١) ومهما يكن من شيء فتفسير أبي حيان من التفاسير المتحفظة والمقلدة . . . في ذكر
الإسرائيليات والموضوعات فرحمه الله وأثابه .

أبو حيان ومذهبه الفقهي

كان الفقه المالكي سائداً بالأندلس ، وكان أساس القضاء والفتيا والشورى ، وقد علي به أهل العلم عناية فائقة ،
فحفظوا مسائله ودرسوا كتبه كالموطأ ، والمدونة والواضحة والمستخرجة وغيرها من كتب المذهب ، وقد حظي المذهب
المالكي دون غيره برعاية الأمراء والخلفاء بمدينة الأندلس ، فلم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم
فروع مذهب المالكية ، فكان من نتيجة ذلك ظهور علماء عظام في مذاهب الإمام مالك - رحمه الله - فالإمام أبو حيان -
رحمه الله - مما ذكرت لنا كتب الطبقات والسير أنه تنقل في مذاهب مختلفة وهي المالكي والظاهري والشافعي أخيراً فالمالكية
باعتبار أنه المذهب السائد آنذاك في مدينة الأندلس وينقل عنه أنه قرأ الموطأ على ابن الطباع وذلك في مدينة الأندلس ،
وانتقل إلى المذهب الظاهري - وهو الذي وضع لبنته الأولى داود الظاهري - وكان يدين به أبو حيان - رحمه الله - قبل الرحيل
من الأندلس ، وكان يقول محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه .

وقال الشوكاني في البدر الطالع :

ولقد ألف أبو حيان رحمه الله كتاب الأنور الأحلى في اختصار المحلى ، ودافع عن مؤسسه دفاعاً دونه في بحره فقال أبو
حيان - رحمه الله - مدافعاً عن داود عند قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . . . قال « ألا ترى أن داود لا يحرم إلا ما ذكره الله تعالى ، وهو اللحم دون الشحم ، إلا أن يذهب ابن عطية
إلى ما يذكر عن أبي المعالي عبد الملك الجويني ، من أنه لا يعتد في الإجماع بخلاف داود ، فيكون عنده إجماعاً وقد اعتد أهل
العلم الذين لهم الفهم التام والاجتهاد قبل أن يخلق الجويني بأزمان بخلاف داود ، ونقلوا أقاويله في كتبهم كما نقلوا أقاويل
الأئمة كالأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والثوري والشافعي وأحمد ودان بمذهبه وقوله وطريقته ناس وبلاد وقضاة وملوك الأزمان
الطويلة ، ولكنه في عصرنا هذا قد دخل هذا المذهب^(٢) .

وبعد مجيئه إلى مصر اتبع المذهب الشافعي - رضي الله عنه - وألف فيه الوهاج في اختصار المنهاج والمنهاج للإمام
النوي - رحمه الله - شارح المذهب في فقه الشافعية وسئل أبو حيان عن التحول فقال بحسب البلدة^(٣) .

وكان يأخذ بآراء الشافعي في أكثر أقواله والناظر في البحر المحيط يجد هذا بكثرة وفيرة .
وقد مدح الإمام الشافعي بقصيدة ذكرها له ابن السبكي .

وَجَسَّرَ النَّاسَ عَلَى خَوْضِهِ	إِنْ كَانَ فِي النَّحْوِ قَدْ اسْتَبَحَرَ
مَنْ بَعْدَهُ قَدْ حَالَ تَمْيِيزُهُ	وَحَظَّهُ قَدْ رَجَعَ الْقَهْقَرَى
شَارَكَ مِنْ سَاوَاهُ فِي فَنِّهِ	وَكَمْ لَهُ فَنٌّ بِهِ اسْتَأْثَرَ
دَابُّ بَنِي الْآدَابِ أَنْ يَغْسِلُوا	مَدَمَّعَهُمْ فِيهِ بِقَايَا الْكَرَى

(١) ٢٩٠/٢ .

(٢) إنما يحى كل مذهب بكثرة أتباعه . .

(٣) بدائع الزهور ٢٠٠/١ خريجة الجويني .

وَالنَّحْوُ قَدْ سَارَ الرَّدَى نَحْوَهُ
وَاللُّغَةُ الْفُضْحَى غَدَتْ بَعْدَهُ
تَفْسِيرُهُ الْبَحْرُ الْمَحِيطُ الَّذِي
فَوَائِدُ مِنْ فَضْلِهِ جَمَةٌ
وَكَانَ ثَبَتًا نَقْلُهُ حُجَّةٌ
وَرِحْلَةً فِي سُنَّةِ الْمُصْطَفَى
لَهُ الْأَسَانِيدُ الَّتِي قَدْ عُلَتْ
سَاوَى بِهَا الْأَحْفَادُ أَحْرَارَهُمْ
وَشَاعِرًا فِي نَظْمِهِ مُفْلِقًا
لَهُ مَعَانٍ كُلَّمَا خَطَّهَا
أَفْدِيهِ مِنْ مَاضٍ لِأَمْرِ الرَّدَى
مَا بَاتَ فِي أَبْيَضٍ أَجْفَانِهِ
تُصَافِحُ الْحُورُ لَهُ رَاحَةً
إِنْ مَاتَ فَالذِّكْرُ لَهُ خَالِدٌ
جَادٌ ثَرَى وَارَاهُ غَيْثٌ إِذَا
وَحَّصَهُ مِنْ رَبِّهِ رَحْمَةٌ

وفاته

بعد هذه الرحلة الطويلة التي استمرت تسعين عاماً تطالعنا كتب التراجم بوفاته هذا الإمام العلم العلامة الثقة الحجة أمير النحلة سنة خمس وأربعين وسبعمائة^(١).

وقد رثاه تلميذه الصفدي بقصيدة قال فيها :

مَاتَ أَثِيرُ الدِّينِ شَيْخُ الْوَرَى
وَرَقٌّ مِنْ حُسْنِ نَسِيمِ الصَّبَا
وَصَادِحَاتِ الْأَيْكِ فِي نَوَاجِهَا
يَا عَيْنُ جُودِي بِالذُّمُوعِ الَّتِي
وَأَجْرِي دَمًا فَالْخَطْبُ فِي شَأْنِهِ
مَاتَ إِمَامٌ كَانَ فِي عِلْمِهِ
أُمْسَى مُنَادَى لِلَيْلَى مُفْرَدًا
يَا أَسَفًا كَانَ هُدًى ظَاهِرًا

فَاسْتَعَرَ الْبَارِقَ وَاسْتَعْبَرَ
وَاعْتَلَّ فِي الْأَسْحَارِ لَمَّا سَرَى
رَثْتُهُ فِي السُّجْعِ عَلَى حَرْفِ رَا
يُرْوَى بِهَا مَا ضَمَّهُ مِنْ ثَرَى
قَدْ اقْتَضَى أَكْثَرَ مِمَّا جَرَى
يُرَى إِمَامًا وَالْوَرَى مِنْ وَرَا
فَضَمَّهُ الْقَبْرُ عَلَى مَا تَرَى
فَعَادَ فِي تُرْبَتِهِ مُضْمَرًا

(١) الدرر الكامنة ٧٦/٦ ، البدر ٢٩٠/٢ ، النجوم الزاهرة ١١١/١٠ فوات الوفيات ٥٥٥/٢ ، طبقات المفسرين ٢٨٦/٢ ، معرفة القراء

وَكَانَ جَمْعُ الْفَضْلِ فِي عَصْرِهِ
وَعَرَّفَ الْفَضْلُ بِهِ بُرْهَةً
وكان ممنوعاً من الصرف لا
لا أَفْعَلَ التَّفْضِيلَ مَا بَيْنَهُ
لا بَدَلِي عَنْ نَعْتِهِ بِالتَّقْيِ
لم يَدْغِم في اللُّحْدِ إِلاَّ وَقَدْ
بَكَى لَهُ زَيْدٌ وَعَمَرُو فَمِنْ
ما أَغْقَدَ التَّسْهِيلَ مِنْ بَعْدِهِ
صَحَّ فَلَمَّا أَنْ قَضَى كَسْرًا
وَالآنَ لَمَّا مَضَى نُكْرًا
يَطْرُقُ مِنْ وِافَاهُ خَطْبُ عَرَا
وبين ما أعرفه في الوَرَى
فَفِعْلُهُ كَانَ لَهُ مَصْدَرًا
فَكَ مِنَ الصَّبْرِ وَثِيقَ الْعُرَا
أَمْثِلَةَ النُّحُو وَمُئِنَّ قَرَا
فَكَمْ لَهُ مِنْ عَثْرَةٍ يَسْرَا

منهج أبي حيان في تفسيره

لقد قام أبو حيان في تفسيره على أساس من اللغة والنحو ، من هنا جاء تفسيره قوياً في بابه ، محكماً في بنيانه .

فالواقع أن اللغة وما تشتمل عليه من بيان لمعنى المفردات وإعراب للكلمات وتعريف للمشتقات تعد من أهم الأركان التي يعتمد عليها المفسر لكتاب الله تعالى ، لأن القرآن عربي فلا بد في تفسيره من الرجوع إلى اللغة العربية والاستعانة بها في شرح ألفاظه وإعراب كلماته ومعرفة مشتقاته ، ولذا كان من أهم العلوم التي لا بد منها للمفسر علم اللغة ؛ لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع . وعلم النحو ؛ لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب . وعلم الصرف إذ بواسطته تعرف الأبنية والصيغ ، ولقد كان لتفسير أبي حيان النصيب الأوفر في هذا المضمار عن بقية التفاسير التي رأيناها واطلعنا عليها وقرأنا فيها وقد كان منهجه رحمه الله كالآتي :-

[الكلام على مفردات الآيات في ابتداء كل سورة] :

كان رحمه الله يتكلم على مفردات الآية التي يريد تفسيرها لفظة لفظة ، وذلك بما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب ، وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ ذكر ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه .

[الكلام على أسباب النزول] :

قال : [ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان سبب] . وهذا العلم المسمى بأسباب النزول من العلوم الهامة للمفسر ، فإن لم يكن على بصيرة منه وقع في خطأ عظيم .

الناسخ والمنسوخ :

ثم يشرع أبو حيان - رحمه الله - في بيان الناسخ من المنسوخ لأن معرفة الناسخ من المنسوخ من العلوم الهامة التي يجب أن يكون المفسر على دراية واعية كاملة بها ، وإلا تخبط تخبطاً يحط من شأنه وشأن المتكلم فيه .

الكلام على تناسب الآيات :

وبعد أن يذكر سبب أو أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، يبين مناسبة الآية ، ومناسبة الآيات وارتباطها بالسابقة واللاحقة من الأمور التي يجب أن يوليها المفسر اهتمامه .

ذكر القراءات وتوجيهها :

كان منهج أبي حيان في تفسيره للقراءات أنه التزم في تفسيره إيراد القراءات المستعملة والشاذة وتبيين ما تحتمله هذه القراءات من المعاني، قال في مقدمة التفسير: حاشداً فيها القراءات شاذها ومستعملها ذاكرةً توجيه ذلك في علم العربية . وسنفرد لها باباً .

البحر المحيط بين التفسير بالآثر والتفسير بالرأي

أولاً : التفسير الأثري في البحر : -

ومما هو جدير بالذكر هنا أن تفسير أبي حيان الموسوم بالبحر قد جمع بين المأثور والرأي ، فأبو حيان دائماً يذكر الآثار الثابتة عن سيدنا رسول الله ﷺ في الآية ، وهو أيضاً محشود بنقل الأجلء من الصحابة رضي الله عنهم والثقات من التابعين ، وهو حين يذكر ذلك عن الصحابة الأجلء والتابعين الثقات لا يتقيد بذكر الأسانيد التي عني بها غيره من المفسرين بالمأثور ، ونجد أبا حيان - رحمه الله - لا يلتزم دائماً بتخريج الأحاديث ونسبتها إلى مصادر مصنفها ، وفي بعض الأحيان لا يذكر راوي الحديث ، اكتفاءً منه بشهرة الحديث بين المفسرين والعلماء ، ولا يلتزم الصحة أيضاً ، وهذا نادر جداً ، بل وجد بعض الأحاديث الضعيفة والروايات المنكرة فيه ولكن على ندرة .

وقد قال أبو حيان ذلك في معرض الكلام على المنهج الذي سار عليه [. . . ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها] .

ثانياً : التفسير بالرأي في البحر : -

بيان الجلي والخفي

يقوم أبو حيان في تفسيره بتوضيح الجلي - الواضح - والخفي من الآيات فيخرج الخفي من حيز الخفي إلى حيز الوضوح والتجلي .

قال أبو حيان . . . متكلاً على جليها^(١) وخفيها: بحيث إنني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها .

الكلام على غوامض الإعراب

راعى أبو حيان - رحمه الله - هذا الجانب حتى استخلص بعض المحدثين من كتابه إعراباً متكاملًا للقرآن الكريم وهذا الجانب من أهم الجوانب التي يجب أن يلاحظها العالم والفقهاء والمحدث لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره .

قال أبو حيان : [. . . مبدئاً ما فيها من غوامض الإعراب] .

علوم البلاغة بأنواعها الثلاثة

يرى أبو حيان - رحمه الله - أن وجه إعجاز القرآن هو البيان في الأسلوب والفصاحة في النظم والبلاغة في أداء المعنى فلقد أبان أبو حيان - رحمه الله - وجه الإعجاز في غير ما آية من القرآن ، ولقد أضفى هذا النبوغ الأدبي على تفسير البحر ثوباً جميلاً لفت إليه أنظار الباحثين ، وعلقت به قلوب المفسرين فكان رحمه الله يذكر عند انتهاء الكلام على الآية المواطن البلاغية

(١) الآية التي يريد تفسيرها .

من بيان ومعاني وبديع فيها فيقول : وفيها من الفصاحة والبيان كذا وكذا ، ويعد أوجه البلاغة في الآية .
قال أبو حيان . . . ودقائق الآداب من بديع وبيان .

البحر المحيط بين الإيجاز والإطناب

يعد من أهم مميزات هذا التفسير أنه ليس بالطويل الممل حتى قال هو نفسه في البحر : . . . ولا أكرر الكلام في لفظ سبق ، ولا في جملة تقدم الكلام عليها ، ولا في آية فسرت ، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية ، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة .

الفقه في تفسير البحر المحيط

نجد أبا حيان - رحمه الله - في البحر عندما يتعرض لآية من آيات الأحكام يتعرض لذكر كلام الصحابة الأجلاء والتابعين الثقات ومن بعدهم مع بيان المذاهب الأربعة ، وتعرض لذلك إشارة تعتبر بطرف الأنامل فلم يقم التفسير فروعاً لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً في قليل ولا كثير . قال أبو حيان . . . : ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة أبي حنيفة ، مالك ، والشافعي ، وأحمد - وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني ، محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه .

الشواهد الشعرية في البحر المحيط

تكلمنا فيما سبق عن حفظ أبي حيان وأنه حفظ الشواهد والأشعار وكان ذلك مما ساعده في الاحتجاج بها في اللغة والنحو ، وكانت للشواهد عنده مكانة عليا في بناء القواعد النحوية ، وكان يكثر الاحتجاج به في خلال توضيح معاني الألفاظ القرآنية ، ولا يكاد أبو حيان يتناول كلمة من حيث إعرابها إلا ويأتي عليها بشاهد من شواهد العربية ، ولكن الملاحظ في البحر أنه كثيراً ما يتغافل عن نسبة الشعر إلى قائله ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك أنها معلومة مشهورة عند العرب ، وذكر أبياتاً كثيرة من شواهد الكتاب لم يعلم قائلها ، وكان ينسب بعض الأبيات إلى قائلها ، فكان يقول قال امرؤ القيس أو قال رؤبة ونحو ذلك في مواضع عديدة من الكتاب .

استخدام القواعد النحوية

لا شك أن المفسر لا يطلق عليه مفسراً إلا إذا كان ملماً إماماً كاملاً بالقواعد النحوية ، حتى يستطيع أن يقف على المعنى الذي أراده الله - عز وجل - فلقد أكثر أبو حيان - رحمه الله - من ذكر المسائل النحوية في كتابه هنا ، حتى قالوا إنك لو استطعت أن تخرج كتاب نحو كاملاً من كتاب البحر المحيط لفعلت فلقد حوى بين دفتيه مسائل النحو فقال . . . وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو .

قال : وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس بادئاً بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحاً له ذلك ، ما لم يصدر عن الظاهر ما يجب إخراجه به متنبكاً في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها ، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه ، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب ، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوز النحاة في شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة والتراكيب الفلقة والمجازات المعقدة ، ثم أختتم في جملة من الآيات التي فسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصاً ثم

أتبع آخر الآيات بكلام مثور ، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما أختاره من تلك المعاني ملخصاً جملها أحسن تلخيص ، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير « اهـ » .

أبو حيان والمذاهب النحوية

إن الناظر في كتاب البحر المحيط للإمام ذي البيان أبي حيان يدرك من أول وهلة عمق غزارة علم هذا الرجل ، ومكانته السامية ، ومدى اطلاعه على المذاهب النحوية وآراء كل فريق منهم ، فهو يعرض القضية النحوية فيعرض معها مواطن الخلاف بين أهلها ، وهو في عرضه هذا لم يكن مجرد جامع ناقل بل أخذ كل بدلائله . فينظر فيها بعين البصير المتأمل ، فيرجح ما رآه موافقاً للحق الذي ابتغاه ، حتى قال قولته المشهورة : ولسنا متعبدین بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم ، فكم من حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون ، وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون ، إنما يعرف ذلك من له استبحار في علم العربية^(١) .

وفي بعض الأحيان يذكر الخلاف دون ذكر الترجيح فمن أي هذه المذاهب النحوية هو ؟ نستطيع من خلال دراستنا لكتاب البحر المحيط أن نستخلص المذاهب التي تأثر بها أبو حيان في أربعة مذاهب :

أولاً : المذهب البصري .

ثانياً : المذهب الكوفي .

ثالثاً : المذهب البغدادي .

رابعاً : المذهب الأندلسي .

ومن خلال معرفة اتجاه أبي حيان النحوي يجدر بنا أن نقدم بياناً موجزاً مبسطاً عن تلك المذاهب فنقول ولله الحمد والمنة :

المذهب البصري

تعتبر البصرة أول مدينة عنيت بالنحو واللغة وتدوينها واختراع القواعد لها ، وقد سبقت البصرة بنحو مائة عام ، حتى جاءت الكوفة من بعدها تؤسس مذهباً خاصاً يضاهي مذهب البصرة وينازعه ، وتبدأ مدرسة البصرة بأبي الأسود الدؤلي الذي توفي بها سنة ٦٧ هـ ، وكان من تلاميذه عنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٨٩ هـ ، ويحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ هـ الذين نسب إليهم ابتداء النحوي في بعض الروايات .

ثم جاءت من بعدهم طبقة أخرى من أبي عمرو بن العلاء عاش من سنة ٧٠ - ١٥٤ هـ ، وابن أبي إسحاق الحضرمي توفي سنة ١١٧ هـ ، ثم جاءت طبقة ثالثة وهي طبقة أبي زيد سعيد بن أوس توفي سنة ٢١٥ هـ ، ويونس بن حبيب عاش من سنة ٩٠ - ١٨٢ هـ ، ثم جاءت طبقة رابعة وهي طبقة الخليل بن أحمد عاش من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٧٥ هـ ، وسيبويه عمرو بن عثمان توفي سنة ١٨٠ هـ . وكان عمل علماء البصرة في أول أمرها هو إثارة مسائل متفرقة والنقاش حول آية أو حديث أو بيت شعر ، ثم استخراج قاعدة ، ولم يبدأ التدوين إلا بعد فترة ، وأسبق من نسب إليه التأليف هو ابن أبي إسحاق الحضرمي ، فقد نسب إليه أنه كتب كتاباً في الهمز .

(١) عند قول الله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ الآية الأولى من سورة النساء .

ثم جاءت الخطوة التالية ، وهي جمع مسائل النحو المعروفة في كتاب ، وقد ذكروا أن عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩ هـ ، فعل ذلك فألف كتابين ، سمي أحدهما الجامع ، والآخر الإكمال ، ويبدو أنها كانت محاولة أولية للجمع . وقد كان صاحب الفضل في الجمع الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب العقل المبتكر فأوحاه إلى سيبويه ، ولقنه من دقائق نظره ، ونتاج فكره ، فحمل سيبويه ذلك ، وألف كتابه الموسوم « بالكتاب » ، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم ، ويعتبر هذا الكتاب أعظم إنتاج مدرسة البصرة .

البصريون وموقف الإمام أبي حيان منهم

لم يكن أبو حيان - رحمه الله - مجرد حاطب ليل ، بل كان ناقداً بصيراً ، فلقد وصل في علم النحو كما وصفه الواصفون إلى مرتبة عالية ، لم يصل إليها أحد ممن عاصره ، فهو يختار ما هو مناسب للآية ، دون النظر لقائله ، فالتقليد في نظر أبي حيان - رحمه الله - ظاهرة سلبية ممقوتة . قال أيضاً متحدثاً عن البصريين : « لسان العرب ليس مخصوصاً فيما نقله البصريون فقط ، والقراءات لا تحيء على ما علمه البصريون ونقلوه »^(١) .

وقال قولته المشهورة : « ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة ، ولا غيرهم عن خالفهم » .

أمثلة للنقل عن نحاة أهل البصرة

نقل الإمام أبو حيان في مواضع عديدة من كتابه عن الخليل بن أحمد وانظر هذا عنه قول الله تعالى : ﴿ لا يلاف قريش ﴾ .

وفي مواضع أخر تراه ينقل عن رأي الخليل عن سيبويه فيقول : قال سيبويه^(٢) . والمطلع على كتاب أبي حيان يجد أنه أكثر النقل عن سيبويه ، ولذا يقول في مقدمة تفسيره : « وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب أبي بشر . . . » .

ويقول أيضاً في البحر^(٣) : وهذا مذهب من لم يحصل مذهب سيبويه ولا أمعن النظر في كتابه .

ونقل عنه أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾^(٤) .

قال سيبويه لو قال رجل

وكثيراً ما لا يذكر قول سيبويه ولكن يقول : وهذا مذهب سيبويه أو الظاهر من كلامه . وكثيراً ما يرد النقل عن سيبويه ، وهذا ظاهر جلي في البحر ، ستقف عليه - إن شاء الله تعالى - كثيراً .

ومع كثرة النقول عنه وإشاداته بالكتاب فتراه يصحح في بعض المواضع تاركاً الكتاب مصححاً قول غيره .

المبرد

ويعتبر المبرد من نحاة أهل البصرة ، نقل عنه - أيضاً - أبو حيان - رحمه الله - في البحر عند قول الله تعالى : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾^(٥) .

(١) عند قول الله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه . . . ﴾ .

(٢) عند قول الله تعالى : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ .

(٣) عند قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ﴾ .

(٤) الأعراف ١٦٤ ، وانظر الكتاب ١/١٦١ . (٥) البقرة : ٢٠ ، وانظر المقتضب ٤/٤٢٤ .

ومع ذلك لم يسلم له كما هي عادة أبي حيان - رحمه الله - في النقول ، فرد عليه عند قول الله - تعالى - : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾^(١) .

والناظر في كتاب البحر يجد أبا حيان رجح كثيراً من آرائهم .

المذهب الكوفي

لا شك أن الكسائي يُعَدُّ إمام مدرسة الكوفة فهو الذي وضع رسومها ووطأ منهجها وفيه يقول أبو الطيب اللغوي « كان عالم أهل الكوفة وإمامهم إليه ينتهون بعلمهم وعليه يعملون في روايتهم » .

والناظر في كتاب البحر المحيط يجد أن أبا حيان كان كثير النقل عن المذهب الكوفي ، فقد نقل عن أقطابه في كثير من المواضع التي تراها في مطالعتك لهذا البحر . فنقل الكثير والكثير عن الكسائي ونقل عن الرواسي ، وأثنى عليه فقال : إنه إمام من أئمة الكوفة عند قول الله تعالى : ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ « البقرة » .

وأيضاً نقل عن الفراء في مواضع كثيرة من كتابه .

ونقل عن ثعلب أيضاً في مواضع عديدة من كتابه .

مثل ما نقله عنه في قوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ . والناظر في كتاب البحر يجد أبا حيان لم يلتزم ترجيح مذهب معين ، بل رجح رأي البصريين تارة والكوفيين أخرى .

فرجح رأي الكوفي في مجيء الفاعل مرفوعاً بعد المصدر المنون^(٢) .

ولكن في بعض المواضع أغفل الترجيح ، ومثال ذلك عندما تكلم عن ضمير الفعل فقال لا موضع له من الإعراب عند البصريين ، وله موضع عند الكوفيين ، وعند الفراء حسب الاسم قبله ، وعند الكسائي حسب الاسم بعده ، ولم يرجح شيئاً^(٣) . وأيضاً لم يرجح وقوع الجملة فاعلاً فقال : « أجازة الكوفيون ورده البصريون » .

وأيضاً في « حذف الفاعل » يميزه الكوفيون ولا يراه البصريون .

المذهب البغدادي

اتبع نواة بغداد في القرن الرابع الهجري منهجاً جديداً في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية ، يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعاً ، وكان من أهم ما هيا لهذا الاتجاه الجديد أن أوائل هؤلاء النحاة تتلمذوا للمبرد وثعلب ، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيها ، ويعني بالتعمق في مصنفات أصحابها ، والنفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة^(٤) . وكان من أقطاب هذه المدرسة ابن قتيبة ، وابن كيسان ، وابن السراج ، ومحمد بن أحمد بن منصور الوراق ، ونفطويه ، وسليمان الحامض ، وأبو علي الأصفهاني ، وابن جني ، وأبو عبد الله الكرمانی ، والزجاجي ، وابن الشجري ، وابن الأنباري ، والرمانی ، والعكبري ، وأبو علي الفارسي .

نقل أبو حيان - رحمه الله - في كتابه هنا كثيراً من هذه الآراء عن هذا المذهب ، فقد نقل كثيراً عن أبي علي الفارسي

(٢) انظر اللمع ٩٣/٢ .

(١) البقرة : ١٧ .

(٣) ١٠٣/٦، ٤٧/١ .

(٤) انظر مزيد الكلام على هذا المذهب المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ٢٤٥ وما بعدها .

ورد عليه في مواضع من كتابه ، ونقل عن ابن قتيبة في مواضع من كتابه ونقل أيضاً عن ابن السراج وابن جني وابن كيسان في مواضع كثيرة من كتابه .

ولم يسلم أبو حيان لهذا المذهب ، بل أخذ عليه مؤخذات حين طعن في أبي علي الفارسي .

المذهب الأندلسي

أخذت دراسة النحو تزدهر في الأندلس منذ عصر ملوك الطوائف ، فإذا نُحاتها يخالطون جميع النحاة السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين . وإذا هم ينتهجون نهج الأخيرين من الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة ، ويضيفون إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين وخاصة أبو علي الفارسي وابن جني ، ولا يكتفون بذلك ، بل يسرون في اتجاههم من كثرة التعليقات والنقود إلى بعض الآراء الجديدة ، وبذلك يتيحون لمنهج البغداديين ضرباً من الخصب والنماء .

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن الأعلام الشتمري المتوفى سنة ٤٧٦ للهجرة هو أول من نهج لنحاة الأندلس من قوة هذا الاتجاه ، فقد كان لا يكتفي في الأحكام النحوية بالعلل الأولى التي يدور عليها الحكم مثل أن كان مبتدأ مرفوع ، بل كان يطلب علة ثانية لمثل هذا الحكم يوضح بها لماذا رفع المبتدأ ولم ينصب ، يقول ابن مضاء : وكان الأعلام - رحمه الله - على بصره بالنحو مولعاً بهذه العلل الثواني ويرى أنه إذا استنبط منها شيئاً فقد ظفر بطائل . وكان ما يزال يختار لنفسه من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين .

وأيضاً من نحاة هذه المدرسة ابن السعيد عبد الله بن محمد السيد البطلبيوسي المتوفى سنة ٥٢١ هـ ، وابن الباذش هو علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي ، وابن الطراوة سليمان بن محمد بن الطراوة المتوفى سنة ٥٢٨ هـ ، وابن عصفور ، والسهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد العزيز ، وابن طاهر محمد بن أحمد بن طاهر المتوفى في عشر الثمانين وخمسمائة ، وابن مالك وخلق^(١) .

ولقد أكثر النقل عنهم أبو حيان - رحمه الله - .

استقلال أبي حيان النحوي

لم يكن أبو حيان - رحمه الله - يأخذ بمذهب أهل البصرة دائماً ، ولا بمذهب أهل الكوفة دائماً ، ولا بما ذهب إليه البغداديون ، ولا بما ذهب إليه الأندلسيون ، بل كان حراً يختار منها ما يشاء وفق القواعد الأصلية لهذا الفن .

قال الدكتور شوقي ضيف : وحقاً لم يدع إلى إلغاء نظرية العامل في النحو ، ولكنه دعا مراراً وتكراراً إلى إلغاء ما يتعلق به النحاة من كثرة التعليل للظواهر اللغوية والنحوية وجلب التمارين غير العملية ، ونقل السيوطي في اللمع تعرضه لذلك في غير موضع ، وأول ما يلقانا في هذا الجانب تعليقه على خلاف البصريين والكوفيين في الإعراب وهل هو أصل في الأسماء فرع في الأفعال أو لا ؟ فقد قال : « هذا من الخلاف الذي ليس فيه كبير منفعة » . وعلق على تعليلهم لامتناع الجر من الفعل والجزم من الاسم ولحقوق تاء التانيث الساكنة للماضي دون أخويه بأن تعليل أمثال ذلك من الوضعيات ينبغي أن يمنع ، لأنه يؤدي إلى تسلسل السؤال ، يقول : إنما يسأل عما كان يجب قياساً فامتنع . ويعرض لاختلافهم في معنى الصرف ويقول إنه : « خلاف لا طائل تحته » كما يعرض لتعليلهم ضم التاء في مثل « كلمت » للمتكلم وفتحها للمخاطب وكسرها للمخاطبة يقول : « هذه التعاليل لا يحتاج إليها لأنها تعليل وضعيات ، والوضعيات لا تعلل » ويقف بإزاء تعليلاتهم

(١) انظر المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ٢٨٨ وما بعدها .

لتسكين الماضي وعدم فتحه حين يسند إلى التاء والنون ونا ، قائلاً : « الأولى الإضراب عن هذه التعاليل » كما يقف عند اختلافهم في همزة ال التعريفية وهل هي همزة قطع أو وصل ؟ قائلاً : « وهذا الخلاف لا يجدي شيئاً ولا ينبغي أن يتشاغل به » . ويعقب على وجوه الخلاف السبعة في رافع المضارع بقوله : « لا فائدة لهذا الخلاف ، لأنه لا ينشأ عنه حكم تطبيقي » كما يعقب على اختلاف البصريين والكوفيين في أيهما الفعل أو المصدر أصل الاشتقاق ؟ قائلاً : « هذا الخلاف لا يجدي كبير منفعة » وقد مضى أبو حيان في أثره يقدم السماع على القياس وخاصة إذا تعارضا ، على نحو ما يتضح في بعض القراءات المخالفة للقياس من مثل العطف على الضمير المتصل المجرور بدون إعادة الخافض ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول . وكان يعارض الكوفيين ومن يتابعهم أحياناً مثل ابن مالك في القياس على الشاذ والنادر قائلاً إن ذلك يفضي إلى التباس الدلالات وصور التعبير ، ونقل عنه السيوطي تقيده بالسماع وعدم القياس عليه في مواضع مختلفة من الهمع . ومع اهتمامه بالسماع كان يخالف ابن مالك في الاعتماد على الحديث في الاستشهاد ، لأنه روي بالمعنى ، ورواه أعاجم كثيرون يفشو اللحن على ألسنتهم .

ودائماً نراه يتعبد لسيبويه وجمهور البصريين ، مما يجعله يقف في صف مقابل لابن مالك وما انتهجه لنفسه من متابعة الكوفيين كثيراً في آرائهم وليس معنى ذلك أنه رفض جميع آراء الكوفيين كما قدمنا ، فقد كان يختار من حين إلى حين بعض آرائهم ، من ذلك ما ذهبوا إليه ، وتابعهم فيه ابن جني ، من أن عامل الرفع في المبتدأ الخبر وعامل الرفع في الخبر المبتدأ فهما مترافعان ، وكذلك ما ذهبوا إليه مع الأخفش من أن الفعل الماضي يقع حالاً بدون « قد » وبدون تقدير لها كما جاء في الذكر الحكيم : ﴿ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾^(١) .

ومن ذلك أيضاً قراءة الآية : ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾^(٢) بتنوين كلا على أنها مصدر من الكل بمعنى الأعباء أو النقل أي « حملوا كلا » ، وجوز الزمخشري أن تكون كلا في القراءة هي نفسها حرف الردع ونون كما نونت سلاسلأ في آية : ﴿ إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسلأ وَأَغْلَالأ وَسَعِيرأ ﴾ ورد ذلك أبو حيان قائلاً : إن ذلك إنما صح في (سلاسلأ) لأنه اسم أصله التنوين فرجع به إلى أصله للتناسب ، أو على لغة من يصرف ما لا ينصرف . ومن ذلك توجيه الزمخشري لقراءة المضارع بالغنية في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتأ ﴾^(٣) والقراءة المشهورة (ولا تحسبن) فقد جعل التقدير في الآية الأولى : ولا يحسبنهم ، والذين فاعل . وتصدى له أبو حيان قائلاً : إن ذلك يستلزم عود الضمير على المؤخر ، وكأنه فاته أن هذا المؤخر مقدم في الرتبة . وكان يأخذ برأي الأعلام الشتمري في أن الإعراب معنوي لا لفظي . ونصر ابن الطراوة في أن بناء « سحر » لتضمنها معنى حرف التعريف مثل أمس^(٤) . وكذلك نصر السهيلي في أنه لا بد من تعاند معطوفي لا مثل « جاءني رجل لا امرأة » . وكان ابن الباذش يجوز في مثل « الهندان هما يفعلان » تذكير المضارع ، فيقال « يفعلان » حملاً على لفظ هما ، ورد أبو حيان رأيه في جواز تذكير المضارع ، لأن الأصل رد الأشياء إلى أصولها وأيضاً لأن السماع بالتاء في مثل قول عمر بن أبي ربيعة^(٥) :

لَعَلَّهَا أَنْ تَبْغِيََا لَكَ حَاجَةً

وكان ابن عصفور وتلميذه ابن الصائغ يذهبان إلى أن « كلما » في مثل « كلما استدعيتك فإن زرتني فعبدي حر » مرفوعة بالابتداء وأن جملي الشرط والجواب خير . ودفع قولهما أبو حيان بأنه لم تأت « كلما » في الذكر الحكيم إلا منصوبة

(١) انظر الهمع (٢٤٧/١) .

(٢) انظر الهمع (٢٨/١) .

(٣) سورة مريم : ٨٢ .

(٤) انظر الهمع (١٧١/٢) .

(٥) سورة آل عمران : ١٦٩ .

مثل : ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾^(١) وكذلك هي في الأشعار .

وأكثر من كان يتصدى له أبو حيان ويخالفه في آرائه ابن مالك ، فمن ذلك أنه كان يضعف رأيه في أن الإعراب جزء من ماهية الكلمة ذاهباً مع الجمهور إلى أنه زائد على ماهيتها . وذهب ابن مالك إلى أن الفعل الماضي قد يدل على الاستقبال في مواضع ، هي : بعد همزة التسوية مثل « سواء عليّ أسافرت أم لم تسافر » وبعد أداة التخصيص مثل « هلا ذاكرت » وبعد كلما مثل ﴿كلما فضجت جلودهم بدلناهم﴾^(٢) وبعد حيث مثل ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾^(٣) وبعد الصلة مثل : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾^(٤) وإذا وقع صفة لنكرة عامة كحديث : « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » أي سمع . وأنكر أبو حيان هذه الدلالة للماضي ، وقال الذي نذهب إليه فيها جميعاً الحمل على الماضي لإبقاء اللفظ على موضعه ، أما معنى الاستقبال فقد جاء من خارج أو بعبارة أخرى من قرينة خارجية^(٥) . وكان ابن مالك يذهب إلى أن الباء قد تزداد مع الحال مستدلاً بقول أحد الشعراء :

فَمَا رَجَعَتْ بِخَائِبَةٍ رَكَابٌ حَكِيمٌ بِنِ الْمُسَيَّبِ مُنْتَهَاها

وقول آخر :

كَائِنْ دُعِيَتْ إِلَى بِأَسَاءِ دَاهِمَةٍ فَمَا انْبَعَثُتْ بِمَزُودٍ وَلَا وَكَلٍ

وخالفه أبو حيان ، وخرج البيتين على أن التقدير بحاجة خائبة وبشخص مزود أي مذعور ، ويريد بالمزود نفسه على قولهم : « رأيت به أسداً » . وكان ابن مالك يجوز حذف الضمير العائد في الصلة إذا تعين الحرف قياساً على الجملة الخبرية كقولك « الذي سرت يوم الجمعة » أي فيه . ورد ذلك أبو حيان قائلاً : إنه لا ينبغي أن تقاس الصلة على جملة الخبر ولا أن يذهب إلى ذلك إلا بسامع ثابت عن العرب . وكان ابن مالك يذهب إلى أن حذف نون يكون المجزومة في قوله : « لم يك » للتخفيف ، ورد أبو حيان هذا التعليل ذاهباً إلى أن العلة هي كثرة الاستعمال مع شبه النون بحروف العلة . وذهب ابن مالك إلى أن « كل » قد تأتي توكيداً مع إضافتها إلى اسم ظاهر حال محل الضمير مثل :

كَمْ قَدْ ذَكَرْتُكَ لَوْ جَرَى بِذِكْرِكُمْ يَا أَشْبَهَ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ بِالْقَمَرِ

وخالفه أبو حيان ذاهباً إلى أن « كل الناس » في البيت نعت لا توكيد . ومر بنا أن ابن مالك كان يجوز - تبعاً للأخفش - مجيء الحال مع المضاف إليه بشرط أن يكون المضاف جزءاً منه أو مثل جزئه نحو : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً﴾^(٦) ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾^(٧) ورد ذلك أبو حيان وقال : إن إخواناً منصوبة على المدح وحنيفاً حال من ملة أو من الضمير في اتبع محتجاً بأن العامل في الحال هو العامل في صاحبها ، وعامل المضاف إليه اللام المقدرة أو الإضافة وكلاهما لا يصلح أن يعمل في الحال . ومر بنا أن ابن مالك كان يجوز - تبعاً لابن جني والزمخشري - أن تبدل الجملة المفرد كقول بعض الشعراء :

(١) سورة البقرة : ٢٠ .

(٢) سورة النساء : ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٩ .

(٤) سورة المائدة : ٣٤ .

(٥) اللمع (٩ / ١) .

(٦) سورة النساء : ١٢٥ .

(٧) سورة الحجر : ٤٧ .

إلى الله أشكو بالمدينة حاجةً وبالشام أخرى كيف يلتقيان

فكيف يلتقيان في رأيهم بدل من حاجة وأخرى ، كأن الشاعر قال : أشكو هاتين الحاجتين تعذر التقائهما ، وقال ابن مالك ، ومنه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أن ربك ﴾ (١) فإن وما بعدها بدل من ما وصلتها . ورد ذلك أبو حيان قائلاً : إن البديلين جميعاً استئناف .

وله وراء ما قدمنا اجتهادات وتخریجات وآراء مختلفة ينفرد بها ، من ذلك أنه كان يذهب إلى أن « أن المصدرية » لا توصل بالأمر ، وأن « أن » الموصولة به في بعض العبارات مثل « كتبت إليه أن قم » تفسيرية ، أما ما حكاه سيبويه من قولهم : « كتبت إليه بأن قم » فالباء فيه زائدة . وكان يذهب إلى أن اللام في مثل : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ (٢) هي لام الابتداء مفيدة لمعنى التوكيد ويجوز أن يكون قبلها قسم مقدر أو لا يكون . وكان ينكر مجيء « ما » نكرة موصوفة . أما قولهم : « مررت بما معجب لك » فما فيه زائدة . وكان سيبويه يذهب إلى أن قول بعض العرب « ما أنت وزيداً » و « كيف أنت وزيداً » على تقدير كان محذوفة أي ما كنت وزيداً وكيف تكون وزيداً ، وذهب الفارسي وغيره من النحاة إلى أن كان المقدرة تامة ، وذهب أبو حيان إلى أنها الناقصة ، فما خبرها وكذلك كيف . ومعروف أن الجملة الموصوف بها يربطها دائماً بموصوفها ضمير إما مذكور وإما مقدر مثل : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعه ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ (٣) على تقدير فيه محذوفة أربع مرات ، وذهب أبو حيان مذهباً بعيداً قائلاً : إن الأولى أن لا يقدر في الآية ضمير بل يقدر أن الأصل واتقوا يوماً لا تجزي بإبدال يوم الثانية من يوم الأولى ، ثم حذف المضاف ، وهو تخریج ظاهر التكلف . واختلف البصريون والكوفيون في ألفاظ العدد المعدولة على وزن فعال ومفعول . فوقف بها البصريون عند أحاد وموجد وثناء وثنى وثلاث ومثلث ورباع ومربع وخماس وخمسة وعشار ومعشر لمجيئها ساعاً وقاس عليها الكوفيون سداس ومسدس وسباع ومسبع وثمان ومثمان وتساع ومتسع ، وقال أبو حيان : الصحيح أن البناءين مسموعان من واحد إلى عشرة على نحو ما حكى ذلك أبو عمرو الشيباني وغيره . وكان جمهور النحاة يميز ترخيم العلم المركب تركيب مزج مطلقاً ومنع أكثر الكوفيين ترخيم ما آخره « ويه » مثل سيبويه ، وذهب أبو حيان إلى أنه لا يجوز ترخيم هذا العلم بحال . وكان جمهور النحاة يذهب إلى أن المنصوب في مثل أنت الرجل علماً أو أدباً أو حلماً ، وأنت زهير شعراً ، وأنت حاتم جوداً ، ويوسف حسناً حال ، وذهب أبو حيان إلى أنه تمييز . وذهب الجمهور إلى أن « نعم » في مثل « نعم هذه أطلالهم » للتذكير بينما ذهب أبو حيان إلى أنها تصديق لما بعدها وقدمت ، قال : والتقديم أولى من ادعاء معنى لم يثبت لها وبعد هذا التطواف السريع ألا ترى معي أن لأبي حيان اتجاه خاصاً به ، فالحق هو الذي قررناه أنه صاحب اتجاه فعلية هواطل وسحائب رحمة العلي الغفار .

أبو حيان ومعربو القرآن

ناقش الإمام أبو حيان قضايا إعراب الآي في الكتاب العزيز مع من سبقه في إعراب الآيات القرآنية كأبي البقاء العكبري وابن عطية والزنجشيري ، ونكتفي هنا بأبي البقاء وسنفرد البحث عن ابن عطية والزنجشيري - رحمهما الله تعالى .

فأبو البقاء هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الإمام محب الدين أبو البقاء العكبري البغدادي العزيز النحوي الحنبلي صاحب الإعراب صنف إعراب القرآن وإعراب الحديث وإعراب الشواذ ، ولد في أوائل سنة ثمان وثلاثين

(١) سورة فصلت : ٤٣ .

(٢) سورة البقرة : ٤٨ .

(٣) سورة البقرة : ٦٥ .

وخمسماية ببغداد وتوفي ليلة الأحد من ربيع الآخر سنة ست عشرة وستماية^(١) .

فقد نقل أبو حيان - رحمه الله - في كتابه عنه الكثير ولم يدعن له بكل ما يأتي فتراه يوافقه في البعض ويناقشه في أخرى إما لضعف ما ذهب إليه أو لخروجه عن كلام العرب .

قال أبو حيان في البحر في سورة المائدة قال تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم ... ﴾ .

قال : قال أبو البقاء : ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المنصوب تقديره وهم يحبونه . انتهى . وهذا ضعيف لا يسوغ مثله في القرآن ، وسنواليك الحديث عن الزمخشري وابن عطية - رحمهما الله - .

أبو حيان وابن عطية

عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم وقيل عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطي صاحب التفسير الإمام أبو محمد الحافظ القاضي . قال ابن الزبير كان فقيهاً جليلاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير نحويًا لغويًا أديباً بارعاً شارعاً مفيداً ضابطاً نسيباً فاضلاً من بيت علم وجلالة غاية في توقد الذهن وحسن الفهم وجلالة التصرف . روى عن أبيه الحافظ أبي بكر وأبي علي الغساني والصفدي ، وعنه ابن مزار وأبو القاسم بن حبيش وجماعة وولي قضاء المرية يتوخى الحق والعدل .

وألّف تفسير القرآن العظيم وهو أصدق شاهد له بإمامته في العربية وغيرها وخرج له برنامجاً .

ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وتوفي بلورقة في خامس عشر رمضان سنة ثنتين وقيل إحدى وست وأربعين وخمسماية .

وذكره في قلائد العقيان ووصفه بالبراعة في الأدب والنظم والنثر .

ولقد نوه أبو حيان في مقدمة تفسيره بالزمخشري وابن عطية باعتبارهما علمين من أعلام التفسير وإمامين من كبار أئمتيه ووصفهما بأنهما أجل من صنف في علم التفسير وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير ثم أثنى أبو حيان في هذه المقدمة كذلك على كتابيهما في التفسير ثناء ورفع من شأنهما وأشار إلى أنه قام في تفسيره بانتقاد هذين الكتائين والتعقيب عليهما وذلك حيث يقول :

« ولما كان كتاباهما في التفسير قد أنجدا وأغارا وأشرقا في سماء هذا العلم بدرين وأنارا وتنزلا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين ، والذهب الإبريز من العين ، وبتيمة الدر من اللالي ، وليلة القدر من الليالي ، فعكف الناس شرقاً وغرباً عليهما وثنوا أعنة الاعتناء إليهما وكان فيهما على جلالتهما مجال لانتقاد ذوي التبريز ، ومسرح للتخيل فيهما والتمييز ثنيت إليهما عنان الانتقاد ، وحللت ما تخيل الناس فيهما من الاعتقاد أنها في التفسير الغاية التي لا تدرك والمسلك الوعر الذي لا يكاد يسلك وعرضتهما على محك النظر ، وأوريت فيهما نار الفكر ، حتى خلصت دسيسهما وبرز نفيسهما ، وسيرى ذلك من هو للنظر أهل واجتمع فيه إنصاف وعقل » .

تناول أبو حيان كلام ابن عطية بالشرح والتحليل تارة وبالنقد والمناقشة تارة أخرى ، وقد برهن أبو حيان بذلك على ما كان يتمتع به من عقلية ناقدة وفكر سليم .

ففي المجال الأول وهو مجال الشرح والتحليل نجد أن أبا حيان عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾^(١) ينقل كلام ابن عطية بنصوصه ، ويقوم بشرحه وتوضيحه ، ويقول قال ابن عطية في قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ رداً على من قال : إن النار لم تخلق حتى الآن ، وهو القول الذي سقط فيه (منذر بن سعيد) انتهى كلامه ومعناه : إنه زعم أن الإعداد لا يكون للموجود لأن الإعداد هو التهيئة والارصاد للشيء قال الشاعر :

أَعَدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَابِغَةً وَعَدَاءً عَلَنَدَى^(٢)

أي هيأت قال ولا يكون ذلك إلا للموجود قال بعضهم : أو ما كان في معنى الموجود ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عظيماً ﴾ .

منذر الذي ذكره ابن عطية كان يعرف بالبلعوطي ، وكان قاضي القضاة بالأندلس ، وكان معتزلياً في أكثر الأصول ، ظاهرياً في الفروع ، وكان أبو حيان ينتقد ابن عطية في أمور نحوية كثيرة ، أهمها مخالفة ابن عطية لمذاهب النحاة جميعاً مخالفتهم لمذهب البصريين في النحو على الخصوص ، وأنه كان يذكر في تفسيره التخريجات النحوية الضعيفة أو الفاسدة .

فمن النوع الأول وهو ما يتعقب فيه أبو حيان ابن عطية لأنه يخالف مذاهب النحاة ما ذكره أبو حيان عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) فقد ذكر أن ابن عطية لا يجوز الحمل على لفظ « من » بعد الحمل على معناها مع أن هذا شيء جائز عند النحاة .

يقول أبو حيان : قال ابن عطية : (من يقول آمناً) رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع ، بحسب لفظ « من » ومعناها ، وحسن ذلك بأن الواحد قبل الجمع في الرتبة ، ولا يجوز أن يرجع من لفظ جمع إلى توحيد ولو قلت : ومن الناس من يقولون ويتكلم لم يجز انتهى كلامه ، وما ذكر من أنه لا يرجع من لفظ جمع إلى توحيد خطأ بل نص النحويون على جواز الجملتين ، لكن البدء بالحمل على لفظ ثم على المعنى أولى من الابتداء بالحمل على المعنى ثم يرجع إلى الحمل على اللفظ ، ومما رجع إلى الأفراد بعد الجمع قول الشاعر :

لَسْتُ مِمَّنْ يَكْعُ أَوْ يَسْتَكِينُونَ إِذَا كَافَحْتُهُ خَيْلُ الْأَعْدَادِ

ومن النوع الثاني وهو ما ينتقد فيه أبو حيان ابن عطية لأنه يخالف مذهب البصريين النحوي ما ذكره أبو حيان أثناء تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٤) حيث يقول : « قال أبو محمد بن عطية : النصب » أي في قراءة ويسفك بالفتح « بواو الصرف ، قال : كأنه قال من يجمع أن يسفك وأن يسفك انتهى كلامه والنصب بواو الصرف ليس من مذاهب البصريين ، ومعنى واو الصرف : إن الفعل كان يستحق وجهاً من الاعراب غير النصب فيصرف بدخول الواو عليه ، عن ذلك الاعراب إلى النصب كقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ ﴾^(٥) في قراءة من نصب ، وكذلك : ﴿ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ﴾ فقياس الأول الرفع ، وقياس الثاني الجزم ، فصرفت الواو الفعل إلى النصب فسميت واو الصرف وهذا عند البصريين منصوباً بإضمار أن « بعد الواو ، والعجب من ابن عطية أنه ذكر هذا الوجه أولاً ، وثنى بقول

(١) سورة البقرة : ٢٤ .

(٤) سورة البقرة : ٣٠ .

(٢) انظر تخرجه في موضعه .

(٥) سورة الشورى : ٢٥ .

(٣) سورة البقرة : ٨ .

(٦) سورة آل عمران : ١٤٢ .

المهدي ثم قال : والأول أحسن ، وكيف يكون أحسن وهو شيء لا يقول به البصريون ، وفساده مذكور في علم النحو .

ومن النوع الثالث وهو ما يتعقب فيه أبو حيان ابن عطية لأنه يذكر في تفسيره بعض الوجوه الضعيفة أو الفاسدة في النحو ما جاء عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾^(١) ، فقد ذكر أبو حيان أن ابن عطية يقول إن الضمير في « به » يعود على « الهدى » الذي تقدم في الآية السابقة وهذا عند أبي حيان وجه ضعيف يحصل به التعقيب في اللفظ والالتباس في المعنى وفي ذلك يقول أبو حيان : « قال ابن عطية : ويتحمل عندي أن يعود الضمير على « الهدى » الذي تقدم ، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في الآية ، وحذر رسوله من اتباع أهوائهم ، وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به ثم ذكر له أن المؤمنين التالين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى ، المقتدون بأنواره انتهى كلامه وهو محتمل لما ذكر ، لكن الظاهر أن يعود على الكتاب لتناسب الضمائر ولا تختلف فيحصل التعقيب في اللفظ والالتباس في المعنى ، لأنه إذا كان جعل الضمائر المتناسبة عائدة على واحد ، والمعنى فيه جيد صحيح الإسناد كان أولى من جعلها متنافرة ، ولا نعدل إلى ذلك إلا بصارف عن الوجه الأول إما لفظي وإما معنوي .

تعقيبات أبي حيان على ابن عطية في القراءات :

ومن ناحية أخرى كان أبو حيان كذلك ينتقد ابن عطية في باب القراءات وذلك عندما يجد ابن عطية يرد إحدى القراءات الصحيحة مثلاً ، أو يخرج القراءة تخريجاً غريباً لم يذهب إليه أحد من النحاة أو يرجع قراءة على أخرى لاعتبارات نحوية وبلاغية غير مسلمة أو يتوقف في إثبات إحدى القراءات أو توجيهها ، فيقوم أبو حيان بإثبات ذلك أو توجيهه .

المثال الأول : يرد فيه أبو حيان أبلغ رد على ابن عطية ، لأنه يخطئ في قراءة حمزة ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾^(٢) بالخفض ، وهي قراءة صحيحة ومتواترة فيقول أبو حيان : وأما ابن عطية « ويرد عندي هذه القراءة من المعنى وجهان » جسارة قبيحة منه لا تليق بحاله ولا بطهارة لسانه إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ قرأ بها سلف الأمة ، واتصلت بأكابر قراء الصحابة الذين تلقوا القرآن من رسول الله ﷺ بغير واسطة : عثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت ، وأقرأ الصحابة أبي بن كعب - عمد إلى ردها بشيء خطر له في ذهنه ، وجسارته هذه لا تليق إلا بالمعتزلة كالزحشري فإنه كثيراً ما يطعن في نقل القراء وقراءتهم ، وحمزة رضي الله عنه أخذ القرآن عن سليمان بن مهران الأعمش ، وحمدان بن أعين ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد الصادق ، ولم يقرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر ، وكان حمزة صالحاً ورعاً ثقة في الحديث ، وهو من الطبقة الثالثة ، ولد سنة ثمانين ، واحكم القراءة وله خمس عشرة سنة ، وأم الناس سنة مائة ، وعرض عليه القرآن من نظرائه جماعة ، منهم سفيان الثوري والحسن بن صالح ومن تلاميذه جماعة منهم إمام الكوفة في القراءة والعربية أبو الحسن الكسائي ، وقال الثوري وأبو حنيفة ويحيى بن آدم : غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض . وإنما ذكرت هذا وأطلت فيه لئلا يطلع عمر على كلام الزحشري وابن عطية في هذه القراءة فيسيء ظناً بها ويقارنها ، فيقارب أن يقع في الكفر بالطعن في ذلك ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم ممن خالفهم ، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب لم ينقله البصريون ، وكم حكم ثبت بنقل البصريين ، لم ينقله الكوفيون ، وإنما يعرف ذلك من له استبحار في علم العربية .

(١) سورة البقرة : ١٢١ .

(٢) سورة النساء : ١ .

والمثال الثاني : ينتقد فيه أبو حيان ابن عطية لأنه وجه قراءة ﴿ ثم توليتكم إلا قليل منكم ﴾^(١) بالرفع - توجيهاً غريباً لم يذهب إليه أحد من النحاة فيقول : « قال ابن عطية : وهذا على بدل (قليل) من الضمير في (توليتكم) وجاز ذلك - يعني البدل - مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي ، لأن (توليتكم) معناه النفي كأنه قال : لم يفوا بالميثاق إلا قليل - انتهى كلامه - والذي ذكره النحويون أن البدل من الموجب لا يجوز ، لو قلت : قام القوم إلا زيد - بالرفع - على البدل لم يجز - قالوا : لأن البدل محل المبدل منه ، فلو قلت : قام إلا زيد - لم يجز لأن (إلا) لا تدل في الموجب وأما ما اعتل به من تسويغ ذلك ، لأن معنى (توليتكم) النفي ، كأنه قيل : لم يفوا إلا قليل - فليس بشيء ، لأن كل موجب إذا أخذت في نفي نقيضه أو ضده كان كذلك ، فليجز : قام القوم إلا زيد ، لأنه يؤول لقولك لم يجلسوا إلا زيد ، ومع ذلك لا تعتبر العرب هذا التأويل فتنبي عليه كلامها وإنما أجاز النحويون : قام القوم إلا زيد - بالرفع على الصفة ، وقد عقد سيبويه في ذلك باباً في كتابه فقال : هذا باب ما يكون فيه (إلا) وما بعده وصفاً بمنزلة : غير ومثل وذكر من أمثلة هذا الباب لو كان معنا رجل إلا زيد لغلبنا : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ﴾^(٢) - إلى أن يقول أبو حيان : « وإنما نبهنا على أن ما ذهب إليه ابن عطية في تخريج هذه القراءة لم يذهب إليه نحوي » .

المثال الثالث : يناقش فيه أبو حيان الأساس النحوي والبلاغي الذي بمقتضاه رجع ابن عطية قراءة الجزم في قوله : (ويكفر) من الآية الكريمة : ﴿ إن تبدوا الصدقات فتعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾^(٣) ويحكم أبو حيان بأن الأبلغ هو قراءة الرفع ، ويعلل ذلك فيقول : قال ابن عطية : الجزم في الرأء أفصح هذه القراءات ، لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء ، وكونه مشروطاً بوقوع الإخفاء ، وأما رفع الرأي فليس فيه هذا المعنى اهـ ونقول : ان الرفع أبلغ واعلم لأن الجزم يكون على أنه معطوف على جواب الشرط الثاني ، والرفع يدل على أن التكفير مترتب من جهة المعنى على بذل الصدقات أبدت أو أخفيت لأننا نعلم أن هذا التكفير متعلق بما قبله ، ولا يختص التكفير بالإخفاء فقط ، والجزم يخصه به ، ولا يمكن أن يقال : إن الذي يبدي الصدقات لا يكفر من سيئاته ، فقد صار التكفير شاملاً للنوعين من إبداء الصدقات وإخفائها وإن كان الإخفاء خيراً من الإبداء » .

والمثال الرابع : يتعقب فيه أبو حيان ابن عطية لأنه توقف في إثبات قراءة « الناس » بالكسر من غير ياء في قوله تعالى : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾^(٤) وهنا يقوم أبو حيان بإثبات هذه القراءة فيقول : (قال ابن عطية : ويجوز عند بعضهم حذف الياء فيقول : الناس كالقاض والهاد قال : أما جوازه في العربية فذكره سيبويه وأما جوازه مقروءاً به فلا أحفظه انتهى كلامه فقوله : أما جوازه في العربية فذكره سيبويه ، ظاهر كلام ابن عطية أن ذلك جائز مطلقاً ولم يجزه سيبويه إلا في الشعر فقط وأجازته القراءة في الكلام ، وأما قوله : « وأما جوازه مقروءاً به فلا أحفظه » فكونه لا يحفظه قد حفظه غيره ، قال أبو العباس المهدي : ﴿ أفاض الناس ﴾ « قرأ به » سعيد بن جبير ، وعنه أيضاً : (الناس) بالكسر من غير ياء انتهى قول أبي العباس المهدي » .

والمثال الخامس : يعلق فيه أبو حيان على كلام ابن عطية بالنسبة لقراءة قال عنها ابن عطية إنها غير متجهة وهي قراءة طلحة بن مصرف : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾^(٥) بالتشديد في لما فيحاول أبو حيان أن يبين وجهها من الناحية العربية ، وذلك حيث يقول « قال أبو محمد بن عطية : وهي قراءة غير متجهة وما قاله ابن عطية من أنها غير متجهة

(١) سورة البقرة : ٨٣ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٢ .

(٣) سورة البقرة : ٢٧١ .

(٤) سورة البقرة : ٧٤ .

(٥) سورة البقرة : ١٩٩ .

لا يتمشى إلا إذا نقل عنه أنه يقرأ : (وإن) بالتشديد فحيثئذ يعسر توجيه هذه القراءة ، أما إذا قرأ بتخفيف (إن) ، وهو المظنون به ذلك ، فيظهر توجيهها بعد ظهور إذ تكون (إن) نافية وتكون (لما) بمنزلة (إلا) ، كقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾^(١) ، ﴿ وإن كل لما جميعاً لدينا محضرون ﴾^(٢) ، ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾^(٣) في قراءة من قرأ (لما) بالتشديد ويكون مما حذف منه المبتدأ لدلالة المعنى عليه التقدير : وما من الحجر إلا يتفجر منه الأنهار ، ثم يقول أبو حيان بعد ذلك : « ولا يبعد ذلك إذا حمل اللفظ على القابلية ، إذ كل حجر يقبل ذلك ، ولا يمتنع فيه إذا أراد الله ذلك فإذا تخلص هذا كله كانت القراءة متوجهة إلى تقدير أن يقرأ طلحة (وإن) بالتخفيف وأما أن صح عنه أنه يقرأ (وإن) بالتشديد فيعسر توجيه ذلك ، وأما من زعم أن (إن) المشددة هي بمعنى (ما) النافية فلا يصح قوله ولا يثبت ذلك في لسان العرب » .

ومع كثرة هذه الردود كان الحظ الأوفر في جانب أبي حيان ولكن في بعضها تحامل على ابن عطية في تعقيباته : قال الاستاذ عبد الوهاب عبد الوهاب فايد : هذا وقد لاحظت أن أبا حيان كان في بعض هذه الردود والتعقيبات يتحامل على ابن عطية بغير وجه حق فمن الأشياء التي جانبه الصواب فيها أنه يريد أن يلزم ابن عطية بمذهب البصريين في النحو كما أشرت إلى ذلك فيما سبق ، ومن العجب أن أبا حيان في مكان آخر من تفسيره يقول : إننا لسنا متعبدين بمذهب نحاة البصرة ولا غيرهم وذلك في مقام الرد على من خطأ قراءته الصحيحة ، بناء على قاعدة من قواعد المذهب البصري وإذا كان أبو حيان يقول : إننا لا نتعبد بمذهب البصريين في النحو فكيف ساغ له أن يلزم ابن عطية بمراجعة مذهبه في تفسيره على الدوام .

كذلك في الأمور التي ظهر فيها تحامل أبي حيان على ابن عطية ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾^(٤) حيث يقول : قال المهدوي في كتاب (التحصيل) من تأليفه : وهذه المعجزة إنما كانت على عهد النبي ﷺ ، ثم ارتفعت بوفاته ﷺ ، ونظير ذلك رجل يقول لقوم حدثهم بحديث : دلالة صدقي أن أحرك يدي ولا يقدر أحد منكم أن يحرك يده ، فيفعل ذلك ، فيكون دليلاً على صدقه ، ولا يبطل دلالته ان حركوا أيديهم بعد ذلك ، انتهى كلامه وقد قال غيره من المفسرين قال ابن عطية : والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية وهي بمنزلة دعائه النصراني من أهل نجران إلى المباهلة انتهى كلامه وكلا القولين أعني قول المهدوي وابن عطية مخالف لظاهر القرآن ، لأن (أبداً) ظاهرة أن يستغرق مدة أعمارهم » .

وفي رأيي^(٥) أن كلام ابن عطية في واد وكلام أبي حيان في واد آخر فابن عطية يقول إن وجه المعجزة في هذه النازلة هو موت من يتمنى الموت من اليهود في زمن الرسول ﷺ وقد استمرت هذه المعجزة أياماً كثيرة عند نزول هذه الآية وقد شرح ابن عطية في تفسيره هذه المعجزة فقال : « وهي آية بينة أعطاها الله رسوله محمداً عليه السلام لأن اليهود قالت : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ » ، وشبه ذلك من القول فأمر نبيه أن يدعوهم إلى تمنى الموت وأن يعلمهم أن من تمناه منهم مات ، ففعل النبي عليه الصلاة والسلام ذلك فعلم اليهود صدقه ، فأحجموا عن تمنيه فرقاً من الله ، لقبح أعمالهم ومعرفتهم بكذبهم في قوله : نحن أبناء الله ، وحرصاً منهم على الحياة » .

(١) سورة الطارق : ٤ .

(٢) سورة يس : ٣٢ .

(٣) سورة الزخرف : ٣٥ .

(٤) سورة البقرة : ٩٥ .

(٥) الأستاذ عبد الوهاب في منهج ابن عطية .

ولكن أبا حيان يقول في مقام الرد على ابن عطية إن كلامه مخالف لظاهر القرآن لأن قوله (أبداً) يفيد أن عدم تمنيه الموت مستمر إلى نهاية أعمارهم ، فهل هذا الكلام من أبي حيان يتنافى مع قول ابن عطية ؟ وإذا جاز لأبي حيان أن يرد على المهدي بهذا الكلام فإنه لا يصح بحال أن يكون كلامه هذا رداً على ابن عطية ، لأنه كما ذكرت في واد ، وكلام ابن عطية في واد آخر .

قام أحد العلماء وهو أبو زكريا يحيى بن محمد الشاوي الجزائري (ت ١٠٩٦ هـ) بتأليف كتاب في هذا الموضوع ، وهو الكتاب المعروف باسم المحاكمة بين أبي حيان وابن عطية والزحشري ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم (٢٦٦٤١) علوم قرآن ، يقول الشاوي في مقدمة هذا الكتاب : « وبعد ، فالكتاب قصدت فيه جمع اعتراضات الإمام ذي البيان ، المشتهر بأبي حيان ، على ابن عطية ، ومحمود الزحشري ، والتكلم معه بما يظهر للقريب والبعيد ، وأسأل الله في ذلك التسديد » .

وهذا الكتاب يمتاز بناحية هامة هي أنه كان في بعض الأحيان يناقش أبا حيان في ردوده ، وانتقاداته ، وسأقتصر هنا على مثالين ، يرد الشاوي فيهما على أبي حيان :

١ - ينتقد أبو حيان ابن عطية في توجيه قراءة ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنً ﴾^(١) على وزن فعلى بأن كلامه فيه ارتباك وأخطاء نحوية ، وهنا يتصدى الشاوي في كتابه للدفاع عن ابن عطية ، فيقوم أولاً بتلخيص ما يقول الرجلان ثم يقوم ثانياً بالرد على أبي حيان وفي ذلك يقول الشاوي : « قال ابن عطية (جاء بحسن) مؤثناً في قراءة طلحة بن مصرف ، ورده سبويه لأن أفعلاً فعلى لا يجيء إلا معرفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل ويبقى مصدراً كالعقبى ، فذلك جائز وهو وجه القراءة بها وقال أبو حيان في كلامه ارتباك ، إذ لا يلتزم تعريف (أفعلاً) بل له استعمالات ، فإن كان بمن ظاهرة أو مقدرة أو مضافاً إلى نكرة لم يتعرف بحال ، وإن حكى بلام تعرف ، وأن أضيف إلى معرفة ففي التعريف بتلك الإضافة خلاف ، وأما (فعلى) فلها استعمالان : تحليه بال وهي معرفة ، وإضافته إلى معرفة ، وفي التعريف بتلك الإضافة خلاف فحصرها في التعريف غير صحيح وقوله : « إلا أن يزال عنها معنى التفضيل » مقتضى هذا الكلام أن (فعلى) مؤث (أفعلاً) التفضيل ، إذا زال عنه معنى التفضيل يبقى مصدراً وليس كذلك ولا ينقاس مجيء (فعلى) مصدراً ، إنما جاءت منه ألفاظ يسيرة مصادر بالأصالة كرجعى ، ولا يعتقد في (فعلى) أنثى (أفعلاً) إذا زال عنها معنى التفضيل أن تنقلب مصدراً بل تبقى على الوسطية دون تفضيل ككبرى بمعنى كبيرة ، وصغرى بمعنى صغيرة وجلى بمعنى جليلة ، ولا ينقاس جعل شيء منها مصدراً كمذكرها إذا زال عنه معنى التقدير ، فيكون أكبر بمعنى كبير وأعلم بمعنى عالم وصفاً بلا تفضيل ويحتمل أن يكون معنى كلامه يعني (إلا أن يزال عنه) أي عن خصوص (حسن) معنى التفضيل ويبقى مصدراً ، ويكون استثناء منقطعاً أي إلا أن تكون هذه اللفظة مصدراً كالعقبى ، ومعنى قوله : (وهو وجه القراءة بها) أي والمصدرية وجه القراءة بها واعلم أن تخريج هذه القراءة على وجهين أحدهما أنها مصدر ولكن يتوقف على سماع من العرب أنهم يقولون حسن حسنى ، كما يقولون : ارجع ورجعى ، وبشر وبشرى ، لما تقدم (أن) (فعلى) في المصادر لا ينقاس عليها .

وثانيهما : أن يكون صفة لمحذوف أي كلمة أو مقابلة حسنى ، وتكون باقية على التفضيل ، وتكون جاءت على وجه الدور حيث استعملت دون (ال) ولا إضافة كقول الشاعر :

وإن دَعَوْتَ إِلَى جُلَى وَمَكْرُمَةٍ يَوْمًا كِرَامَ سُرَاةِ النَّاسِ فَادْعِينَا

وذلك ممكن هنا ، لأنها قراءة شاذة ، ويجوز أن تكون لا تفضيل فيها فيكون معنى (حسنى) حسنة كما جاء يوسف أحسن إخوته ، انتهى كلام أبي حيان .

قلت : لا ارتباك في كلام ابن عطية سيما وهو منقول عن سيبويه ، وإنما معناه التقابل على هذه الصورة بأن يكون بأفعل فعلى ولا يكون دون تعريف بال أو بإضافة ، واحترس بالقيد من (أفعل) الذي لا يقابله (فعلى) بل للمذكر (أفعل) وللمؤنث كذلك فإنه لا يكون إلا مع تنكير حقيقة أو حكماً كنيته مع الإضافة ، فليس مراده الكلام في (أفعل) أنه لا يكون إلا معرفة ، لأن هذه المسألة لا تخفى على أدنى مبتدئ ، فكيف بالتاج ، أولم يقرأ : ﴿ والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ ^(١) ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة والله أعلم حيث يجعل رسالته » واعتراضه عليه بمثل هذا التوهم من أغرب ما يسمع من مثل الإمام أبي حيان في حق تاج من فسر القرآن بشهادة أهل العرفان ، وإنما مراده الإشارة إلى الهيئة الاجتماعية أي لا تقابل هكذا بأن يقال للمذكر (أفعل) وللمؤنث (فعلى) إلا في تعريف .

٢ - ويرمي أبو حيان ابن عطية بأنه وهم على سيبويه حيث نسب إليه ما لم يقل به ، وهو أن (ما) في قوله تعالى : ﴿ بثسوا اشتروا به أنفسهم ﴾ ^(٢) « موصولة بمعنى الذي واشتروا صلته وهنا يدافع الشاوي عن ابن عطية بأنه لا وهم فقد أثبت بعضهم ذلك عن سيبويه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ يقول الشاوي :

« وقال ابن عطية : قال سيبويه : موصولة بمعنى الذي ، واشتروا صلته قال : والتقدير على هذا بثس الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا ، كقوله بثس الرجل زيد قال أبو حيان : وهم على سيبويه قلت : أثبت بعضهم عنه ، وأوله بعضهم على أنه تفسير معنى مثل : دققته دقاً نعم أي نعم الدق ، فلا وهم ، وسبب داعاه الوهم أن فاعلها عنده لا يكون إلا (بال) أو مضافاً إلى ما فيه (بال) ومن حفظ حجة على من لم يحفظ » .

أبو حيان والزمخشري

محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو قاسم جار الله . كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجودة القريحة ، متفنناً في كل علم ، معترلياً قوياً في مذهبه ، مجاهرأً به حنفياً .

ولد في رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، وورد ببغداد غير مرة ، وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري وأبي مضر الأصبهاني ، وسمع من أبي سعد الشفاني ، وشيخ الإسلام أبي منصور الحارثي وجماعة ، وجاور بمكة ، وتلقب بجار الله ، وفخر خوارزم أيضاً .

وكتب إليه الحافظ السلفي يستجيزه ، وأصابه خراج في رجله فقطعها وصنع عوضها رجلاً من خشب ، وكان إذا مشى ألقى عليها ثيابه الطوال فيظن من يراه أنه أعرج .

وله من التصانيف : الكشف في التفسير ، الفائق في غريب الحديث ، المفصل في النحو ، المقامات ، المستقصى في الأمثال ، ربيع الأبرار ، أطواق الذهب ، صميم العربية ، شرح أبيات الكتاب ، الأنموذج في النحو ، الرائد في الفرائد ، شرح بعض مشكلات المفصل ، الكلم النوابع ، القسطاس في العروض ، الأحاجي النحوية ، وغير ذلك .

(١) سورة النساء : ٨٤ .

(٢) سورة البقرة : ٩٠ .

مات يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة .

وله :

إِنَّ التَّفَاسِيرَ فِي الدُّنْيَا بِلاَ عَدَدٍ وَلَيْسَ فِيهَا لَعَمْرِي مَثَلُ كَشَافِي
إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْهُدَى فَالزَّمْ قِرَاءَتَهُ فَالْجَهْلُ كَالدَّاءِ وَالْكَشَافُ كَالشَّافِي

وكان للزخشري النصيب الأوفر في ردود أبي حيان رحمة الله عليه .

فلقد تعقبه في معظم تفسيره ، وخطأه كثيراً ، ويعقب بقوله (فيه دسيسة الاعتزال) ونكتفي بإيراد مقال واحد من ردوده وتعقبه له إذ البحر زاخر بها .

يقول في آية سورة النمل : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللّٰهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ . . . ﴾ الآية فقد أورد الزخشري في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ثم قال : [وهذا الرجل وإن كان أوتي من علم القرآن أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ، ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة ، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله ، واستطردت إلى مدح كتاب الزخشري ، فذكرت أشياء من محاسنه ، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه ، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا ، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح ، فقلت بعد ذكر ما مدحته به (١) :

وَلَزَلْتُ سَوْءٌ قَدْ أَخَذَنَ الْمَخَانِقَا	ولكنه فيه مَجَالٌ لِنَاقِدٍ
وَيَغْزُو إِلَى الْمَعْصُومِ مَا لَيْسَ لَائِقَا	فَيُثَبِّتُ مَوْضُوعَ الْأَحَادِيثِ جَاهِلًا
وَلَا سِيَمَا إِنْ أَوْلَجُوهُ الْمَضَائِقَا	وَيَسْتَتِمُّ أَعْلَامَ الْأَيْمَةِ ضَلَّةً
بِتَكْثِيرِ الْأَفَاطِ تُسَمَّى الشُّقَاشِقَا	وَيُسَهِّبُ فِي الْمَعْنَى الْوَجِيزَ دَلَالَةً
وَكَانَ مُجْبَأً فِي الْخَطَابَةِ وَمِيقَا	يُقَوِّلُ فِيهَا اللَّهَ مَا لَيْسَ قَائِلًا
فَلَيْسَ لِمَا قَدْ رَكِبُوهُ مَوَافِقَا	وَيُخْطِئُ فِي تَرْكِيبِهِ لِكَلَامِهِ
لِيُوْهِمَ أَغْمَارًا وَإِنْ كَانَ سَارِقَا	وَيَنْسُبُ إِبْدَاءَ الْمَعَانِي لِنَفْسِهِ
يُجَوِّزُ إِغْرَابًا أَبَى أَنْ يَطَابِقَا	وَيُخْطِئُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ لِأَنَّهُ
وَأَخَرُ عَانَاهُ فَمَا هُوَ لِأَجِقَا	وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يُؤْتَى الْبَيَانَ سَلِيقَةً
لِمَذْهَبٍ سَوْءٍ فِيهِ أَصْبَحَ مَارِقَا	وَيَحْتَالُ لِلْأَلْفَافِ حَتَّى يَدِيرَهَا
مَغَارِبَ تَخْرِيقِ الصَّبَا وَمَشَارِقَا	فَيَا خُسْرَهُ شَيْخٌ تَخَرَّقَ صَيْتُهُ
لَسَوْفَ يُرَى لِلْكَافَرِينَ مُرَافِقَا	لِئِنْ لَمْ تُدَارِكْهُ مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً

ومن الملاحظ أن أبا حيان كان لاذعاً في حكمة هذا على الزخشري ، ووصفه بأنه « قليل البضاعة من البيان والعربية ، مع أنه سلطان هذه الطريقة في التفسير غير مدافع » (٢) .

(١) البحر المحيط ٨٥/٧ .

(٢) التفسير والمفسرون ٤١٣/١ .

علم القراءات والبحر

ولما كانت القراءات من أبرز ما جاء في البحر المحيط وزخر به الكتاب أحببنا أن نطوف بالقارىء هذه - التطوفة السريعة - لأنها من وجهة نظرنا تهم قارىء البحر المحيط .

تكلم عن القراءات من نظر أهل العلم ، والكلام على رجالها وأعدادها وضابط قبوها .

القراءات جمع قراءة وهي في اللغة : مصدر سماعي لقرأ . وفي الاصطلاح : مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه ، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئتها .

وفي منجد المقرئين لابن الجزري ما نصه : (القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة . . . والمقرء : العالم بها رواها مشافهة ، فلو حفظ التيسير مثلاً ليس له أن يقرء بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسلاً ، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسماع والمشافهة والقارىء المتبدى من شرع في الأفراد إلى أن يفرد ثلاثاً من القراءات . والمتنهي من نقل من القراءات أكثرها وأشهرها) اهـ .

نشأة علم القراءات

اعلم أن المعول عليه في القرآن الكريم إنما هو التلقي والأخذ ، ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام ، إلى النبي ﷺ ، وأن المصاحف لم تكن ولن تكون هي العمدة في هذا الباب . إنما هي مرجع جامع للمسلمين ، على كتاب ربهم ، ولكن في حدود ما تدل عليه وتعينه ، دون ما لا تدل عليه ولا تعينه ، والمصاحف لم تكن منقوطة ولا مشكولة ، وأن صورة الكلمة فيها كانت محتملة لكل ما يمكن من وجوه القراءات المختلفة ، وإذا لم تحتملها كتبت الكلمة بأحد الوجوه في مصحف ، ثم كتبت في مصحف آخر بوجه آخر وهلم جرا . فلا غرو أن كان التعويل على الرواية والتلقي هو العمدة في باب القراءة والقرآن .

واعلم أن عثمان - رضي الله عنه - حين بعث المصاحف إلى الآفاق أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب ، وهذه القراءة قد تخالف الذائع الشائع في القطر الآخر عن طريق المبعوث الآخر بالمصحف الآخر .

ثم إن الصحابة - رضوان الله عليهم - قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد ، ومنهم من أخذه عنه بحرفين ، ومنهم من زاد . ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال . فاختلف بسبب ذلك أخذ التابعين عنهم وأخذ تابعي التابعين عن التابعين ، وهلم جرا حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرها .

قال النووي - رحمه الله - : والاعتماد في نقل القرآن على الحفاظ . ولذلك أرسل (أي : عثمان - رضي الله عنه -) كل مصحف مع من يوافق قراءته في الأكثر وليس بلام . وقرأ كل مصر بما في مصحفهم ، وتلقوا ما فيه من الصحابة الذين تلقوه عن النبي ﷺ . ثم تجرد للأخذ عن هؤلاء قوم أسهروا ليلهم في ضبطها ، وأتبعوا نهارهم في نقلها ، حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء . وأنجباً للاقتداء ، وأجمع أهل بلدهم على قبول قراءتهم ، ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ودرايتهم . ولتصديهم للقراءة نسب إليهم ، وكان المعول فيها عليهم .

ثم إن القراء بعد هؤلاء كثروا ، وفي البلاد انتشروا ، وخلفهم أمم بعد أمم ، وعرفت طبقاتهم ، واختلفت صفاتهم ، فكان منهم المتقن للتلاوة المشهور بالرواية والدراية ، ومنهم المحصل لوصف واحد . ومنهم المحصل لأكثر من

واحد ، فكثرت بينهم لذلك الاختلاف ، وقل منهم الائتلاف .

فقام عند ذلك جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبالغوا في الاجتهاد بقدر الحاصل ، وميزوا بين الصحيح والباطل ، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعزوا الأوجه والروايات ، وبينوا الصحيح والشاذ ، والكثير والفاذ بأصول أصلوها ، وأركان فصلوها ، الخ اهـ .

المقرئون من الصحابة

فالمشتهرون من الصحابة بإقراء القرآن عثمان ، وعلي ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعري ، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية .

المقرئون من التابعين

والمشتهرون من التابعين : ابن المسيب ، وعروة ، وسالم ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن يسار ، وأخوه عطاء ، وزيد بن أسلم ، ومسلم بن جندب ، وابن شهاب الزهري ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القاري . (وكل هؤلاء كانوا بالمدينة) .

وعطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وابن أبي مليكة وعبيد بن عمير وغيرهم (وهؤلاء كانوا بمكة) .

وعامر بن عبد القيس وأبو العالية ، وأبورجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وجابر بن زيد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وغيرهم . (وهؤلاء كانوا بالبصرة) .

وعلقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والربيع بن خثيم ، والحارث بن قيس ، وعمر بن شرحبيل ، وعمرو بن ميمون ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وزر بن حبيش ، وعبيد بن نضلة ، وأبوزرعة بن عمرو ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، والشعبي ، (وهؤلاء كانوا بالكوفة) .

والمغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان ، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء ، وغيرهما . (وهؤلاء كانوا بالشام) .

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها ، فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبه بن نصاح ، ثم نافع بن أبي نعيم .

وكان بمكة عبد الله بن كثير ، وحيد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن محيصن . وكان بالكوفة يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبي النجود ، وسليمان الأعمش ثم حمزة ، ثم الكسائي .

وكان بالبصرة عبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمرو وأبو عمرو بن العلاء وعاصم الجحدري ثم يعقوب الحضرمي .

وكان بالشام عبد الله بن عامر وعطية بن قيس الكلبي وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر . ثم يحيى بن الحارث الذماري ، ثم شريح بن يزيد الحضرمي .

وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدة ، مهرؤا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم .

أعداد القراءات

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراءات ف قيل : القراءات السبع والقراءات العشر والقراءات الأربع عشرة . وأحظى الجميع بالشهرة القراءات السبع . وهي القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين وهم : نافع وعاصم وحمة وعبد الله بن عامر وعبد الله بن كثير وأبو عمرو بن العلاء وعلي الكسائي . والقراءات العشر هي هذه السبع وزيادة قراءات هؤلاء الثلاثة : أبي جعفر ويعقوب وخلف .

ضابط قبول القراءات

لعلماء القراءات ضابط مشهور يزنون به الروايات الواردة في القراءات ، فيقولون كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً ووافقت العربية ولو بوجه وصح إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن .

وهذا الضابط نظمه صاحب الطيبة فقال :

وكل ما وافق وجه النحو * وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن * فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت * شذوذه لو أنه في السبعة

الكلام على القراءات الشاذة

أجمع الأصوليين والفقهاء وأكثر القراء وكل من قال بالتواتر ، على أن الشاذ ليس بمتواتر ، بل نقل آحاد ، سواء كان بثقة عن ثقة أم لا ، حصل مع الثقة شهرة واستفاضة أم لا ؟ وعلى قول مكّي ومن وافقه : هو ما خالف الرسم أو العربية ، ونقل ولو بثقة عن ثقة ، أو وافقهما ، ونقل بغير ثقة أو بثقة لكن لم يشتهر .

وأما قرآنية الشاذ فأجمع الأصوليون أيضاً والفقهاء والقراء وغيرهم على أن مطلق الشاذ يقطع بكونه ليس بقرآن ، فكل ما صدق عليه عند قوم أنه شاذ فهو عندهم ليس بقرآن ، وإن كان قرآناً عند غيرهم ، كالصحيح السند المشهور إذالم يتواتر ليس هو قرآناً عند الجمهور ، وإن صدق عليه أنه عند مكّي وأتباعه ، والضابط حينئذ ما صدق عليه أنه شاذ ، وذلك لعدم صدق حد القرآن عليه وهو التواتر . وصرح بذلك الغزالي وابن الحاجب في كتابيه ، والقاضي عضد الدين ، وابن الساعاتي ، والنووي ، وغيرهم ، ممن لا فائدة في عده لكثرتهم . قال ابن الحاجب في منتهاه : مسألة ما نقل آحاداً فليس بقرآن ، لأن القرآن مما تتوفر الدواعي على نقل تفاصيله متواتراً ، لما تضمنه من الإعجاز ، وأنه أصل جميع الأحكام ، فما لم ينقل متواتراً قطع بأنه ليس بقرآن ، وقال ابن الساعاتي في بديعه : مسألة ما لم ينقل متواتراً قطع بأنه ليس بقرآن ، وقال الإمام أبو الحسن السخاوي : الشاذ ليس بقرآن ، لأنه لم يتواتر . قال : فإن قيل لعله كان مشهوراً متواتراً ثم ترك حتى صار شاذاً ، قلت : هو كالمستحيل ، لما تحققناه من أحوال هذه الأمة ، واتباعها عن نبيها وحرصها على امتثال أوامره ، وقال لهم ﷺ : « بلغوا عني ولو آية » وأمرهم باتباع القرآن ، والحرص عليه ، وحضهم على تعلمه وتعليمه ، فكيف استجازوا تركه وهجروا القراءة به ، حتى صار قرآناً شاذاً بتضييعهم إياه ، وانحرافهم عنه ، ثم قال : فإن قيل : منعوا من القراءة به وحرقت مصاحفه . قلت : هذا من المحال ، وليس في قدرة أحد من البشر أن يرفع ما أطبقت عليه الأمة واجتمعت عليه الكافة ، وأن يختم على أفواههم فلا ينطق به ، ولا أن يحويه من صدورهم بعد وعيه وحفظه ، ولو تركوه في

الملاء لم يتركوه في الخلوة، وكان ذلك كالحامل لهم على إذاعته والجد في حراسته، كي لا يذهب من هذه الأمة كتابها، وأصل دينها، ولو أراد بعض ولاية الأمر في زماننا أن ينزع القرآن من أيدي الأمة أو شيئاً منه، ويعفى أثره، لم يستطع ذلك، فكيف يجوز ذلك في زمن الصحابة والتابعين، وهم هم ونحن نحن، على أنه قد روي أن عثمان قد قال لهم بعد ذلك لما أنكروا عليه تحريق المصاحف وأمرهم بقراءة ما كتب : اقرؤوا كيف شئتم ، إنما فعلت ذلك لئلا تختلفوا .

أهل العلم في القراءات آراء المتتمة للعشر

تواتر القراءات العشر^(١)

التحقيق الذي يؤيده الدليل - هو - : أن القراءات العشر كلها متواترة ، وهو رأي المحققين من الأصوليين والقراء ، كابن السبكي ، وابن الجزري ، والنويري .

قال ابن الجزري - رحمه الله - في كتابه منجد المقرئين :

(الفصل الثاني في أن القراءات العشر متواترة فرشاً وأصولاً حال اجتماعهم وافتراقهم وحل مشكل ذلك) اعلم : أن العلماء بالغوا في ذلك نفيًا وإثباتاً ، وأنا أذكر أقوال كل ثم أبين الحق من ذلك . أما من قال بتواتر الفرش دون الأصول ، فابن الحاجب . قال في مختصر الأصول له : (القراءات السبع : متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه) فزعم أن المد والإمالة وما أشبه ذلك من الأصول كالإدغام ، وترقيق الراءات ، وتفخيم اللامات ، ونقل الحركة ، وتسهيل الهمزة ، من قبيل الأداء ، وأنه غير متواتر . وهذا قول غير صحيح .

وأما المد فأطلقت وتحت ما يسكب العبرات ، فإنه إما أن يكون طبيعياً أو عرضياً . والطبيعي : هو : الذي لا تقوم ذات حروف المد بدونه ، كالألف من قال ، والواو من يقول ، والياء من قيل . وهذا لا يقول مسلم بعدم تواتره ، إذ لا تمكن القراءة بدونه . والمد العرضي هو الذي يعرض زيادة على الطبيعي ، لموجب ، إما سكون أو همز . فأما السكون فقد يكون لازماً كما في فواتح السور ، وقد يكون مشدداً نحو (الم ، ق ، ن ، ولا الضالين) ونحوه ، فهذا يلحق بالطبيعي لا يجوز فيه القصر ، لأن المد قام مقام حرف توصلًا للنطق بالساكن . وقد أجمع المحققون من الناس على مده قدرًا سواء ، وأما الهمز فعلى قسمين :

(الأول) : إما أن يكون حرف المد في كلمة والهمز في أخرى وهذا يسميه القراء منفصلاً ، واختلفوا في مده وقصره ، وأكثرهم على المد . فادعاه عدم تواتر المد فيه ترجيح بلا مرجح ، ولو قال العكس لكان أظهر ، لشبهته ، لأن أكثر القراء على المد .

(الثاني) : أن يكون حرف المد والهمز في كلمة واحدة ، وهو الذي يسمى متصلاً . وقد أجمع القراء سلفاً وخلفاً من كبير وصغير ، وشريف وحقير ، على مده ، لا خلاف بينهم في ذلك . إلا ما روي عن بعض من لا يعول عليه بطريق شاذة ، فلا تجوز القراءة به . حتى أن إمام الرواية أبا القاسم الهذلي - الذي دخل المشرق والمغرب وأخذ القراءة عن ثلاثمائة

(١) هذا الفصل استفدناه من كتاب شيخنا الشيخ الزرقاني من كتابه مناهل العرفان فارجع إليه إن شئت .

وخمسة وستين شيخاً وقال : رحلت من آخر الغرب إلى فرغانة يميناً وشمالاً ، وجبلاً وبحراً ، وألف كتابه الكامل ، الذي جمع فيه بين الذرة وأذن الجرة ، من صحيح وشاذ ، ومشهور ومنكر - قال في باب المد في فصل المتصل : (لم يختلف في هذا الفصل ، أنه ممدود على وتيرة واحدة فالقراء فيه على غط واحد ، وقدره بثلاث ألفات - إلى أن قال - : وذكر العراقي : أن الاختلاف في مد كلمة واحدة ، كالاختلاف في مد كلمتين ، ولم أسمع هذا لغيره . وطالما مارست الكتب والعلماء ، فلم أجد من يجعل مد الكلمة الواحدة ، كمد الكلمتين إلا العراقي) قلت : والعراقي هو منصور بن أحمد المقرئ ، كان بخراسان ، ولقد أخطأ في ذلك ، وشيوخه ، الذين قرأ عليهم نعرفهم : الإمام أبو بكر بن مهران ، وأبو الفرج الشنبوذي ، وإبراهيم بن أحمد المروزي ، ولم يرو عنهم شيء من ذلك في طريق من الطرق .

فإذا كان ذلك يحسر ابن الحاجب أو من هو أكبر منه على أن يقدم على ما أجمع عليه فيقول : هو غير متواتر فهذه أقسام المد العرضي أيضاً متواترة لا يشك في ذلك إلا جاهل . وكيف يكون المد غير متواتر وقد أجمع عليه الناس خلفاً عن سلف ؟ .

فإن قيل : قد وجدنا القراء في بعض الكتب كالتيشير للحافظ الداني وغيره ، جعل لهم فيما مد للهمز مراتب في المد إشباعاً وتوسطاً ، وفوقه ودونه ، وهذا لا ينضبط إذ المد لا حد له . وما لا ينضبط كيف يكون متواتراً ؟ قلت : نحن لا ندعي أن مراتبه متواترة ، وإن كان قد ادعاه طائفة من القراء والأصوليين . بل نقول : إن المد العرضي من حيث هو متواتر مقطوع به ، قرأ به النبي ﷺ ، وأنزله الله تعالى عليه ، وأنه ليس من قبيل الأداء ، فلا أقل من أن نقول : القدر المشترك متواتر . وأما ما زاد على القدر المشترك كعاصم ، وحمة ، وورش ، فهو إن لم يكن متواتراً فصحيح مستفاض متلقى بالقبول . ومن ادعى تواتر الزائد على القدر المشترك فليبين .

وأما الإمالة على نوعيها ، فهي وضدها لغتان فاشيتان من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، مكتوبتان في المصاحف ، متواترتان ، وهل يقول أحد لغة : أجمع الصحابة والمسلمون على كتابتها في المصاحف ، إنها من قبيل الأداء ؟ وقد نقل الحافظ الحجة أبو عمرو الداني في كتابه إيجاز البيان ، الإجماع على أن الإمالة لغة لقبائل العرب ، دعاهم إلى الذهاب إليها التماس الخفة . وقال الإمام أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل : إن الإمالة والتفخيم لغتان ليست إحداهما أقدم من الأخرى : بل نزل القرآن بهما جميعاً - إلى أن قال - : والجملة بعد التطويل من قال : إن الله تعالى لم ينزل القرآن بالإمالة أخطأ وأعظم الفرية على الله تعالى ، وظن بالصحابة خلاف ما هم عليه من الورع والتقوى .

قلت : كأنه يشير إلى كونهم كتبوا بالإمالة في المصاحف نحو (يحيى ، وموسى ، وهدي ، ويسعى والهدى ويغشيها ، وجليها ، وآسى ، وآتينكم) وما أشبه ذلك مما كتبوه بالياء على لغة الإمالة ، وكتبوا مواضع تشبه هذا بالألف على لغة الفتح ، منها : قوله عز وجل في سورة إبراهيم : ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ حتى إنهم كتبوا ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ في البقرة بالياء ، وكتبوا ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ بالألف . وأي دليل أعظم من ذلك ؟ .

قال الهذلي : وقد أجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، على الأخذ والقراءة والإقراء بالإمالة والتفخيم ، وذكر أشياء ثم قال : وما أحد من القراء إلا رويت عنه إمالة قلت أو كثرت - إلى أن قال - : وهي (يعني الإمالة) لغة هوازن ، وبكر بن وائل ، وسعد بن بكر .

وأما تخفيف الهمزة ونحوه من النقل والإدغام ، وترقيق الرءاءات ، وتفخيم اللامات ، فمتواتر قطعاً ، معلوم أنه منزل من الأحرف السبعة ، ومن لغات العرب ، الذين لا يحسنون غيره ، وكيف يكون غير متواتر ، أو من قبيل الأداء ؟

وقد أجمع القراء في مواضع على الإدغام في مثل (مدكر ، أثقلت ، دعوا الله ربها ، ما لك لا تأمنا على يوسف) وكذلك أجمع القراء في مواضع على تخفيف الهمز ، نحو (الآن ، آله ، الذاكرين) في الاستفهام وفي مواضع على النقل ، نحو (لكننا هو الله ربى) و (يرى ، ونرى) وعلى ترقيق الرءاءات في مواضع ، نحو (فرعون ، ومرية) وعلى تفخيم اللامات في مواضع ، نحو اسم الجلالة بعد الضمة والفتحة .

وأجمع الصحابة - رضوان الله عليهم - على كتابة الهمزة الثانية من قوله تعالى - في آل عمران - : ﴿ أُوْنَبِّئُكُمْ ﴾ بواو . قال أبو عمرو الداني وغيره : إنما كتبوا ذلك على إرادة تسهيل الهمزة بين بين اهـ . وكيف يكون ما أجمع عليه القراء أمماً عن أمم غير متواتر . وإذا كان المد وتخفيف الهمز والإدغام غير متواتر على الإطلاق ، فما الذي يكون متواتراً ؟ أقصر (ألم ، ودابة ، وأولئك) الذي لم يقرأ به أحد من الناس ؟ أم تخفيف همزة (الذكرين ، آله) الذي أجمع الناس على أنه لا يجوز ، وأنه لحن ؟ أم إظهار (مدكر) الذي أجمع الصحابة والمسلمون على كتابته وتلاوته بالإدغام ؟؟ فليت شعري من الذي تقدمه قبل بهذا القول ، فقضى أثره والظاهر أنه لما سمع قول الناس : إن التواتر فيما ليس من قبيل الأداء ، ظن أن المد والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه من قبيل الأداء ، فقال غير مفكر فيه . وإلا فالشيخ أبو عمرو ولو فكر فيه ؛ لما أقدم عليه ، أو لو وقف على كلام إمام الأصوليين من غير مدافعة القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني في كتاب الانتصار ، حيث قال : (جميع ما قرأ به الأمصار مما اشتهر عنهم استفاض نقله . ولم يدخله في حكم الشذوذ ، بل رآه سائغاً جائزاً من همز وإدغام ، ومد وتشديد ، وحذف وإمالة ، أو ترك ذلك كله ، أو شيء منه ، أو تقديم ، أو تأخير ، فإنه كله منزل من عند الله تعالى ، ومما وقف الصحابة على صحته ، وخير بينه وبين غيره ، وصوب للجميع القراءة به . قال : لو سوغنا لبعض القراء إمالة ما لم يمله الرسول ﷺ والصحابة أو غير ذلك لسوغنا لهم مخالفة جميع قراءة الرسول ﷺ . ثم أطال - رحمه الله - الكلام على تقدير ذلك ، وجوز أن يكون النبي ﷺ أقرأ واحداً بعض القرآن بحرف ، وبعضه بحرف آخر ، على ما قد يراه أيسر على القارئ) اهـ .

قلت : وظهر من هذا أن اختلاف القراء في الشيء الواحد مع اختلاف المواضع قد أخذه الصحابي كذلك من رسول الله ﷺ ، وأقرأه كذلك إلى أن اتصل بالقراء . نحو قراءة حفص (مجريها) بالإمالة فقط ، ولم يمل في القرآن غيره ، وقراءة ابن عامر (إبراهيم) في مواضع محصورة وقراءة أبي جعفر (يُجَزْنَ) في الأنبياء فقط بضم الياء وكسر الزاي وفي باقي القرآن بفتح الياء وضم الزاي ، وقراءة نافع عكسه في جميع القرآن بضم الياء وكسر الزاي ، إلا في الأنبياء فإنه فتح الياء وضم الزاي ، وشبه ذلك مما يقول القراء عنه : جمع بين اللغتين .

وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وتواترها ، كما أخلى غيره كتبهم منها . وإذا قد ذكرها فليته لم يتعرض إلى ما كان من قبيل الأداء . وإذا قد تعرض فليته سكت عن التمثيل ، فإنه إذا أثبت أن شيئاً من القراءات من قبيل الأداء لم يكن متواتراً عن النبي ﷺ كتقسيم وقف حمزة وهشام ، وأنواع تسهيله ، فإنه وإن تواتر تخفيف الهمز في الوقف عن رسول الله ﷺ فلم يتواتر أنه وقف على موضع بخمسين وجهاً ، ولا بعشرين ، ولا بنحو ذلك . وإنما إن صح شيء منها فوجه ، والباقي لا شك أنه من قبيل الأداء .

ولما قال ابن السبكي في كتابه جمع الجوامع : (والسبع متواترة قيل : فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة وتخفيف الهمز ونحوه) وسئل عن زيادته على ابن الحاجب (قيل) المقتضية لاختياره أن ما هو من قبيل الأداء كالمدة والإمالة إلى آخره متواتر فأجاب - رحمه الله - في كتابه منع الموانع : اعلم : أن السبع متواترة والمد متواترة والإمالة متواترة كل هذا بين لا شك فيه . وقول ابن الحاجب : (فيما ليس من قبيل الأداء) صحيح لو تجرد عن قوله : كالمدة والإمالة . لكن تمثيله بها أوجب

فساده ، كما سنوضحه من بعد ، فلذلك قلنا : (قيل) ليتبين أن القول بأن المد والإمالة والتخفيف غير متواتر ضعيف عندنا ، بل هي متواترة ثم أخذ يذكر المد والإمالة والتخفيف - إلى أن قال - : فإذا عرفت فكلامنا قاض بتواتر السبع ومن السبع مطلق المد والإمالة وتخفيف الهمز بلا شك .

أما من قال : إن القراءات متواترة حال اجتماع القراء لا حال افتراقهم ، فأبو شامة قال في المرشد الوجيز في الباب الخامس منه : (فإن القراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح في قراءتهم ، تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما نقل عن غيرهم . فما نسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة وغيرهم ، الجمع بين الساكتين في تاءات البزي وإدغام أبي عمرو ، وقراءة حمزة (فما استطاعوا) وتسكين من أسكن (بارئكم) ونحوه (وسبأ ، ويابني ، ومكر السيء) وإشباع الياء في (يرتقي ، يتقي ، يبصر ، وأفئدة من الناس) وقراءة (ملائكة) بفتح الهمزة ، وهمز (ساقها) وخفض (والأرحام) في أول النساء ، ونصب (كن فيكون) ، والفصل بين المتضايقين في الأنعام ، وغير ذلك ، إلى أن قال : فكل ذلك محمول على قلة ضبط الرواة فيه ، ثم قال : وإن صح النقل فيه فهو من بقايا الأحرف السبعة التي كانت القراءة المباحة عليه ، على ما هو جائز في العربية ، فصيحاً كان أو دون ذلك . وأما بعد كتابة المصاحف على اللفظ المنزل ، فلا ينبغي قراءة ذلك اللفظ إلا على اللغة الفصحى من لغة قريش وما ناسبها ، حملاً لقراءة النبي ﷺ والسادة من أصحابه على ما هو اللائق ، فإنهم إنما كتبوه على لغة قريش ، فكذا قراءتهم به : قال : وقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين : أن القراءات السبع كلها متواترة ، أي في كل فرد فرد ممن روى عن هؤلاء الأئمة السبعة . قالوا : والقطع بأنها منزلة من عند الله تعالى واجب ، قال : ونحن بهذا نقول ، لكن فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق ، واتفقت عليه الفرق من غير تكير له ، مع أنه شاع واشتهر واستفاض ، فلا أقل من اشتراط ذلك إذا لم يتفق التواتر في بعضها .

فانظريا أخي إلى هذا الكلام الساقط ، الذي خرج من غير تأمل ، المتناقض في غير موضع في هذه الكلمات اليسيرة ! أوقفت عليه شيخنا الإمام - ولي الله تعالى - أبا محمد بن محمد بن محمد الجمالي - رضي الله عنه - ، فقال : ينبغي أن يعدم هذا الكتاب من الوجود ولا يظهر البتة ، وإنه طعن في الدين . قلت : ونحن - يشهد الله - أننا لا نقصد إسقاط الإمام أبي شامة ، إذ الجواد قد يعثر ولا يجهل قدره . بل الحق أن يتبع ، ولكن نقصد التنبيه على هذه الزلة المذلة ليحذر منها من لا معرفة له بأقوال الناس ، ولا اطلاع له على أحوال الأئمة .

أما قوله : (فمما نسب إليهم وفيه إنكار أهل اللغة الخ) فغير لائق بمثله أن يجعل ما ذكره منكراً عند أهل اللغة . وعلماء اللغة والإعراب الذين عليهم الاعتماد سلفاً وخلفاً يوجهونها ويستدلون بها . وأن يسعهم إنكار قراءة تواترت أو استفاضت عن رسول الله ﷺ ؟ إلا نُؤَيِّسُ لا اعتبار بهم ، لا لمعرفة لهم بالقراءات ولا بالأثار جمدوا على ما علموا من القياسات ، وظنوا أنهم أحاطوا بجميع لغات العرب أفصحها وفصيحتها ، حتى لو قيل لأحدهم شيء من القرآن على غير النحو الذي أنزل الله يوافق قياساً ظاهراً عنده ، ولم يقرأ بذلك أحد لقطع له بالصحة . كما أنه لو سئل عن قراءة متواترة لا يعرف لها قياساً لأنكرها ولقطع بشذوذها حتى أن بعضهم قطع في قوله عز وجل : ﴿ مالِكُ لَا تَأْمَنُ ﴾ بأن الإدغام الذي أجمع عليه الصحابة - رضي الله عنهم - والمسلمون لحن ، وأنه لا يجوز عند العرب ، لأن الفعل الذي هو تأمن مرفوع ، فلا وجه لسكونه حتى يدغم في النون التي تليه .

فانظر - يا أخي - إلى قلة حياء هؤلاء من الله تعالى . يجعلون ما عرفوه من القياس أصلاً والقرآن العظيم فرعاً ! حاشا العلماء المقتدى بهم من أئمة اللغة والإعراب من ذلك . بل يجيئون إلى كل حرف مما تقدم ونحوه يبالغون في توجيهه والإنكار

على من أنكره . حتى ان إمام اللغة والنحو أبا عبد الله محمد بن مالك قال في منظومته الكافية الشافية في الفصل بين المتضايين :

« وعدتي قراءة ابن عامر * فكم لها من عاضد وناصر »

ولولا خوف الطول وخروج الكتاب عن مقصوده لأوردت ما زعم أن أهل اللغة أنكروه ، وذكرت أقوالهم فيها ، ولكن إن مد الله في الأجل لأضعن كتاباً مستقلاً في ذلك ، يشفي القلب ، ويشرح الصدر ، أذكر فيه جميع ما أنكره من لا معرفة له بقراءة السبعة والعشرة .

ولله در الإمام أبي نصر الشيرازي حيث حكى في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ كلام الزجاجي في تضعيف قراءة الخفض .

ثم قال : ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ واستقبح ما قرأ به . وهذا مقام محذور لا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو . ولعلمهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه فإننا لا ندعي أن كل ما في القراءات على أرفع الدرجات من الفصاحة . وقال الإمام الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان عند ذكر اسكان (بارئكم ويأمركم) لأبي عمرو بن العلاء : (وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية . بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل . والرواية إذا ثبتت عندهم لم يردوها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة فلزم قبولها والمصير إليها) .

قلت : ثم لم يكف الإمام أبا شامة حتى قال : (فكل ذلك (يعني ما تقدم) محمول على قلة ضبط الرواية) لا والله . بل كله محمول على كثرة الجهل ممن لا يعرف لها أوجهاً وشواهد صحيحة تخرج عليها ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى في الكتاب الذي وعدنا به آنفاً ، إذ هي ثابتة مستفاضة ، ورواتها أئمة ثقات . وإن كان ذلك محمولاً على قلة ضبطهم فليت شعري أكان الدين قد هان على أهله ؟ حتى يجيء شخص في ذلك الصدر يدخل في القراءة بقلة ضبطه ما ليس منها فيسمع منه ويؤخذ عنه ، يقرأ به في الصلاة وغيرها ، ويذكره الأئمة في كتبهم ، ويقروئون به ويستفاض ، ولم يزل كذلك إلى زماننا هذا ، لا يمنع أحد من أئمة الدين القراءة به ، مع أن الإجماع منعقد على أن من زاد حركة أو حرفاً في القرآن ، أو نقص من تلقاء نفسه مصراً على ذلك يكفر ، والله جل وعلا تولى حفظه : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

وأعظم من ذلك تنزله إذ قال : (وعلى تقدير صحتها وأنها من الأحرف السبعة لا ينبغي قراءتها حملاً لقراءة النبي ﷺ وأصحابه على ما هو اللائق بهم) فإذا كان النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقرؤوا بها مع تقدير صحتها ، وأنها من الأحرف السبعة ، فمن أوصلها إلى هؤلاء الذين قرؤوا بها ؟ .

ثم يقول : (فلا أقل من اشتراط ذلك) يعني : اشتراط الشهرة والاستفاضة . قلت : ألا تنظرون إلى هذا القول ؟ ثم أحد في الدنيا يقول : إن قراءة ابن عامر وحمزة وأبي عمرو ومن اجتمع عليه أهل الحرمين والشام وأبي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر ، وقراءة البري وقنبل وهشام ، أن تلك غير مشهورة ولا مستفاضة ، وإن لم تكن متواترة ؟ . هذا كلام من لم يدر ما يقول حاشا الإمام أبا شامة منه . وأنا من فرط اعتقادي فيه أكاد أجزم بأنه ليس من كلامه في شيء . ربما يكون بعض الجهلة المتعصين ألحقه بكتابه أو أنه ألف هذا الكتاب أول أمره ، كما يقع لكثير من المصنفين وإلا فهو في غيره من مصنفاته كشرحه على الشاطبية بالغ في الانتصار والتوجيه لقراءة حمزة (والأرحام) بالخفض والفصل بين المتضايين . ثم قال في الفصل : ولا التفات إلى قول من زعم أنه لم يأت في الكلام مثله ، لأنه ناف ، ومن أسند هذه القراءة مثبت . والإثبات مرجح على النفي بالإجماع قال : ولو نقل إلى هذا الزاعم عن بعض العرب أنه استعمله في النثر لرجع عن قوله . فما باله ما

يكتفي بناقلي القراءة من التابعين عن الصحابة رضي الله عنهم ثم أخذ في تقرير ذلك ، قلت : هذا الكلام مبين لما تقدم وليس منه في شيء . وهو الأليق بمثله رحمه الله .

ثم قال أبو شامة في المرشد بعد ذلك القول : (فالحاصل : أنا لسنا ممن يلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلف فيها) قلت : ونحن كذلك لكن في القليل منها كما تقدم في الباب الثاني .

قال : (وغاية ما يبيده مدعي تواتر المشهور منها كإدغام أبي عمرو ، ونقل الحركة لورش ، وصلة ميم الجمع ، وهاء الكناية لابن كثير ، أنه متواتر عن ذلك الإمام الذي نعمت تلك القراءة إليه بعد أن يجهد نفسه في استواء الطرفين والواسطة إلا أنه بقي عليه التواتر من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كل فرد فرد من ذلك . ومن ثم تسكب العبرات فإنها من ثم لم ينقلها إلا آحاد إلا اليسير منها) .

قلت : هذا من جنس ذلك الكلام المتقدم . أوقفت عليه شيخنا الإمام واحد زمانه شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب بيبود الشافعي فقال لي : معذور أبو شامة حيث إن القراءات كالحديث مخرجها كمخرجه ، إذا كان مدارها على واحد ، كانت أحادية ، وخفي عليه أنها نسبت إلى ذلك الإمام اصطلاحاً ، وإلا فكل أهل بلدة كانوا يقرؤونها أخذوها أمماً عن أمم . ولو انفرد واحد بقراءة دون أهل بلدة لم يوافقه على ذلك أحد بل كانوا يجتنبونها ويأمرون باجتنابها .

قلت : صدق . ومما يدل على هذا ما قال ابن مجاهد : قال لي قنبل : قال القواس في سنة سبع وثلاثين ومائتين : الق هذا الرجل (يعني البزي) فقل له : هذا الحرف ليس من قراءتنا . يعني (وما هو بميت) مخففاً . وإنما يخفف من الميت من قد مات ومن لم يميت فهو مشدد . فلقيت البزي فأخبرته فقال له : قد رجعت عنه . . . وقال محمد بن صالح : سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو : كيف تقرأ (لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد) ؟ فقال (لا يعذب) بالكسر . فقال له الرجل : كيف ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ (لا يعذب) بالفتح . فقال له أبو عمرو : لو سمعت الرجل الذي قال : سمعت النبي ﷺ ما أخذته عنه . أو تدري ما ذاك ؟ لأنني أتهم الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة .

قال الشيخ أبو الحسن السخاوي : وقراءة الفتح أيضاً ثابتة بالتواتر . قلت : صدق ، لأنها قراءة الكسائي ، قال السخاوي : وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم . وإنما أنكرها أبو عمرو لأنها لم تبلغه على وجه التواتر .

قلت : وهذا كان من شأنهم على أن تعيين هؤلاء القراء ليس بلازم ، ولو عين غير هؤلاء لجاز . وتعيينهم إما لكونهم تعمّدوا للإقراء أكثر من غيرهم ، أو لأنهم شيوخ المعين كما تقدم . ومن ثم كره من كره من السلف أن تنسب القراءة إلى أحد . روى ابن داود عن إبراهيم النخعي قال : كانوا يكرهون سند فلان وقراءة فلان . قلت : وذلك خوفاً عما توهمه أبو شامة من القراءة إذا نسبت إلى شخص تكون أحادية . ولم يدر أن كل قراءة نسبت إلى قارئ من هؤلاء كان قراؤها زمن قارئها وقبله أكثر من قرائتها في هذا الزمن وأضعافهم ، ولو لم يكن انفراد القراء متواتراً لكان بعض القرآن غير متواتر ، لأننا نجد في القرآن أحرفاً تختلف القراء فيها وكل منهم على قراءة لا توافق الآخر ، كأرجه وغيرها ، فلا يكون منها متواتراً . وأيضاً قراءة من قرأ (مالك ، ويخادعون) فكثير من القرآن غير متواتر لأن التواتر لا يثبت باثنين ولا بثلاثة .

قال الإمام الجعبري في رسالته : وكل وجه من وجوه قراءته كذلك (يعني متواتراً) لأنها أبعاضه . ثم قال : فظهر من هذا فساد قول من قال : هو متواتر دونها ، إذ هو عبارة عن مجموعها .

ثم قال ابن الجزري : ومما يحقق لك أن قراءة أهل كل بلدة متواترة بالنسبة إليهم أن الإمام الشافعي - رضي الله عنه - جعل البسملة من القرآن مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضي عدم كونها من القرآن ، لأنه من أهل مكة ، وهم يشبتون البسملة بين السورتين ، ويعدونها من أول الفاتحة آية ، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط عن ابن كثير فلم يعتمد

في روايته عن مالك في عدم البسملة ، لأنها آحاد واعتمد على قراءة ابن كثير لأنها متواترة . وهذا لطيف فتأمله فإنني كنت أجد في كتب أصحابنا يقولون : إن الشافعي - رضي الله عنه - روى حديث عدم البسملة عن مالك ، ولم يعول عليه ، فدل على أنه ظهرت له فيه علة ، وإلا لما ترك العمل به قلت : ولم أر أحداً من أصحابنا بين العلة ، فبيناً أنا ليلة مفكر ، إذ فتح الله تعالى بما تقدم - والله تعالى أعلم - أنها هي العلة . مع أني قرأت القرآن برواية إمامنا الشافعي عن ابن كثير كالبري وقنبل . ولما علم بذلك بعض أصحابنا من كبار الأئمة الشافعية قال لي : أريد أن أقرأ عليك القرآن بها .

وما يزيدك تحقيقاً ما قاله أبو حاتم السجستاني قال : أول من تتبع بالبصرة وجوه القراءات وألفها وتبع الشاذ منها هارون بن موسى الأعور قال : وكان من القراء . فكره الناس ذلك وقالوا : قد أساء حين ألفها . وذلك أن القراءة إنما يأخذها قرون وأمة عن أفواه أمة ولا يلتفت منها إلى ما جاء من راووا . قلت : يعني آحاداً آحاداً .

وقال الحافظ العلامة أبو سعيد خليل كيكليدي العلائي في كتابه المجموع المذهب : وللشيخ شهاب الدين أبي شامة في كتابه المرشد الوجيز وغيره كلام في الفرق بين القراءات السبع والشاذة منها . وكلام غيره من متقدمي القراء ما يوهم أن القراءات السبع ليست متواترة كلها وأن أعلاها ما اجتمع فيه صحة السند وموافقة خط المصحف الإمام والفصح من لغة العرب ، وأنه يكفي فيها الاستفاضة وليس الأمر كما ذكر هؤلاء . والشبهة دخلت عليهم من انحصار أسانيدنا في رجال معروفين وظنوها كاجتهاد الآحاد .

قلت : وقد سألت شيخنا إمام الأئمة أبا المعالي - رحمه الله تعالى - عن هذا الموضوع فقال : انحصار الأسانيد في طائفة لا يمنع مجيء القرآن عن غيرهم . فلقد كان يتلقاه أهل كل بلد يقرؤه منهم الجم الغفير عن مثلهم ، وكذلك دائماً ، والتواتر حاصل لهم . ولكن الأئمة الذين تصدوا لضبط الحروف ، وحفظوها من شيوخهم ، وجاء السند من جهتهم ، وهذه الأخبار الواردة في حجة الوداع ونحوها أجلى ولم تزل حجة الوداع منقولة ، ممن يحصل بهم التواتر عن مثلهم في كل عصر فهذه كذلك . وقال : هذا موضع ينبغي التنبيه له . انتهى والله أعلم .

هل تجوز القراءة بالشاذ ؟

وهل تصح الصلاة به ؟

أما الأولى فالذي استقرت عليه المذاهب أنه إن قرأ بها غير معتقد أنها قرآن ولا موهم ذلك بل لما فيها من الأحكام الشرعية عند من يحتج بها أو الأحكام الأدبية فلا كلام في جواز قراءتها ، ولهذا نقلت ودونت في الكتب ، وتكلم على ما فيها من فقه ولغة وغير ذلك ، وإن قرأها باعتقاد قرآنيته أو بإيها قرآنيته حرم ذلك ، ونقل ابن عبد البر في تمهيده إجماع المسلمين عليه ، وأنه لا يصلى خلف من يصلي بها ، وقال العلامة محيي الدين النووي - رحمه الله ورضي الله عنه - في شرح المذهب : قال أصحابنا وغيرهم : ولا يجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءات الشاذة لأنها ليست قرآناً لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر . هذا هو الصواب الذي لا يعدل عنه ، ومن قال غيره فغالط أو جاهل ، وأما الشاذة فليست بمتواترة ، فلو خالف وقرأ بالشاذ أنكر عليه سواء قرأ بها في الصلاة ، أو غيرها وقد اتفق فقهاء بغداد على استنابة من قرأ بالشواذ ، ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشاذ ، وأنه لا يصلى خلف من يقرأ بها ، وكذا قال في الفتاوى والتبيان .

قال : وقال العلماء : من قرأ بها إن كان جاهلاً بالتحريم عرف ، فإن عاد عزز تعزيراً بليغاً إلى أن ينتهي عن ذلك . ويجب على كل مكلف قادر على الإنكار أن ينكر عليه ، وقال الإمام فخر الدين في تفسيره : اتفقوا على أنه لا يجوز في الصلاة

القراءة بالوجوه الشاذة ، وقال ابن الصلاح في فتاويه فيما زاد على العشر : وهو ممنوع من القراءة به منع تحريم لا منع كراهة ، في الصلاة وخارجها ، عرف المعنى أم لا ، ويجب على كل أحد إنكاره ، ومن أصر عليه وجب منعه وتأنيبه وتعزيزه بالحبس وغيره ، وعلى المتمكن من ذلك أن لا يهمله ، وكذلك صرح بالتحريم السبكي والإسنوي والأذرعي والزرركشي والدميري وغيرهم .

وقول الرافعي : وتسوغ القراءة بالشاذ ليس فيه تعرض للجواز ابتداء كما سيأتي بسطه . وأما المالكية فيكفي نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك . وقال الإمام أبو عمرو بن الحاجب في جواب فتيا ، وردت عليه من بلاد العجم ، صورتها : هل تجوز القراءة بالشواذ أم لا ؟ لا يجوز أن يقرأ بالشاذ في الصلاة ولا غيرها عالماً كان بالعربية أو جاهلاً ، وإذا قرأ قارئ فإن كان جاهلاً بالتحريم عرف به ، وأمر بتركها ، وإن كان عالماً أدب بشرطه ، وإن أصر على ذلك أدب على إصراره وحبس إلى أن يرتد عن ذلك . وقال التونسي في تفسيره : اتفقوا على منع القراءة بالشواذ ، فإن قيل قد ذكر ابن عبد البر في تمهيده ، قراءات من الشواذ منسوبة إلى الصحابة مثل ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ لعمر وابنه ، وعلي وابن مسعود ، وابن عباس وابن الزبير ، وأبي العالية والسلمي ، ومسروق وطاوس ، وغيرهم ، ومثل قراءة ابن مسعود ﴿ نعيجه أنثى ﴾ وقراءة ابن عباس ﴿ وشاورهم في بعض الأمر ﴾ وقراءة من قرأ ﴿ عسى الله أن يكف بين بأس الذين كفروا ﴾ وقراءة ابن مسعود وأبي الدرداء ﴿ والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى ﴾ وقال : قال سفيان وقرأ ابن مسعود : ﴿ وأقيموا الحج والعمرة لله ﴾ وقال أيضاً : قال ابن وهب : قيل لمالك : أترى أن تقرأ بمثل ما قرأ عمر ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ ؟ - قال : ذلك جائز . قال رسول الله ﷺ : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) وقال أيضاً : وأخبرني مالك قال : أقرأ ابن مسعود رجلاً (طعام الأثيم) فجعل الرجل يقول : طعام اليتيم فقال له ابن مسعود : طعام الفاجر فقلت لمالك : أترى أن تقرأ بذلك ؟ قال : نعم أرى ذلك واسعاً . قيل : قد ذكر ابن عبد البر الجواب عقب هذا فقال : وذلك محمول عند أهل العلم على القراءة في غير الصلاة على وجه التعليم ، والوقوف على ما روى في ذلك من علم الخاصة - والله أعلم - .

أما الحنفية فمذهبهم أيضاً : التحريم ، كما أفتى به أهل العصر منهم ، كما سيأتي كلامهم ، وكذلك الحنابلة .

أما تعزيز من قرأ بالشواذ فلا يحتاج إلى نقل ، لأن قاعدة الحرام تعزيز صاحبه ، وقد نص على التعزيز ابن الصلاح ، وابن الحاجب والنووي وغيرهم ، وأفتى به الشيخ العلامة سعد الدين الدبري وغيرهم ممن لا فائدة في ذكره - والله أعلم - .

وقال : عزز من المتقدمين على قراءة الشواذ جماعة منهم : ابن مقسم قال فيه عبد الواحد بن أبي هاشم : وقد تبع تابع في عصرنا هذا ، فزعم أن كل من صح عنده وجه في العربية بحرف من القراءات يوافق خط المصحف فقراءته به جائزة في الصلاة وفي غيرها فابتدع بدعة ضل بها عن سواء السبيل ، وكان الإمام أبو بكر بن مجاهد أعظم القراء حينئذ فقام عليه واستتابه عن بدعته ، ومنهم الإمام العلامة ابن شنبوذ ضرب في تعزيزه سبع درر وكتب عليه محضر بواقعة ، والقائم عليه ابن مجاهد أيضاً ، كما ذكر قصته الحافظ شمس الدين الذهبي ، ومنهم : الإمام العلامة ابن بضحان قدم إلى مصر ، وأقرأ بإدغام مثل الحمير لتركبها - لأبي عمرو فرفع إلى القاضي وحكم عليه بالمنع من ذلك مع نهايته في العلم لا سيما علم النحو والقراءة .

وأما كلام القراء - رحمهم الله - فقال السجاوندي رحمه الله : لا يجوز القراءة بشيء من الشواذ ، لخروجها عن إجماع المسلمين ، وعن الوجه الذي ثبت به القرآن ، وهو التواتر ، وإن كان موافقاً للعربية وخط المصحف ، لأنه جاهل من طريق الأحاد ، وإن كان نقلته ثقات فتلك الطريق لا يثبت بها القرآن ، ومنها ما نقله من لا يعتمد على نقله ، ولا يوثق بخبره ، فهذا أيضاً مردود ، ولا يجوز القراءة به ، ولا يقبل ، وإن وافق العربية وخط المصحف ، ولقد نبغ قوم يطالعون

كتب الشواذ ، ويقرأون بها فيها ، وربما صحفوا ذلك فيزداد الأمر ظلمة .

وأما قول الشيخ برهان الدين الجعبري - رحمه الله - : وحكم الشاذ الجواز فمحمول على جواز النقل والرواية لا مطلقاً ، بل بشرط عدم اعتقاد القرآنية كما تقدم في كلام ابن عبد البر ، لأن المقرء من حيث كونه مقرئاً وظيفته مجرد النقل والرواية ، وكذلك كل من وقع في كلامه الجواز ، يحتمل أن يكون مراده بشرط أن لا يعتقد قرآنيته - والله أعلم - .

وأما قول الهذلي : ما من قراءة قرئت ولا رواية إلا وهي صحيحة . فهذا إن كان ظاهره عدم الاحتياج إلى التواتر فقد قيده بقول : إذا لم يخالف الإجماع ، وبه صار موافقاً عليه الأئمة - والله أعلم - .

وأما المسألة الثانية : وهي صحة الصلاة إذا قرئ بالشواذ فيها ، فأما الحنفية فالذي أفتى به أهل العصر منهم فساد الصلاة إن غيرت المعنى كما سيأتي ، وقال شمس الدين السرخسي في أصوله : لما قرر أن القرآن لا بد من تواتره ولهذا قالت الأئمة : لو صلى بكلمات تفرد بها ابن مسعود لم تجز صلاته ، لأنه لم يوجد فيه النقل المتواتر ، وباب القرآن باب يقين وإحاطة ، فلا يثبت بدون النقل المتواتر كونه قرأناً ، وما لم يثبت أنه قرآن فتلاوته في الصلاة كتلاوة خبر ، فيكون مفسداً للصلاة ، وظاهر هذا الإفساد سواء قرأ معه غير شاذ أم لا ، وسواء غير المعنى أم لا ، وفي شرح الهداية للسكاكي - رحمه الله - وفي الكافي : لو قرأ بقراءة شاذة لا تفسد صلاته بالاتفاق وفي فتاوى الظهيرية : لو قرأ ما روي عن النبي ﷺ عن الله تعالى كقوله : « الصوم لي وأنا أجزي به » وما أشبهه لا يجوز ، ولو قرأ بقراءة ليست في مصحف العامة كقراءة ابن مسعود وأبي تفسد صلاته عند أبي يوسف ، والأصح أنه لا تفسد ولكن لا يعتد به من القراءة ، وفي الشامل للسراج الهندي : ويقرأ بما في مصحف عثمان ، ولو قرأ بما ليس في مصحف العامة تفسد صلاته عند الشيخين ، والأصح أنه لو قرأ بما في مصحف ابن مسعود وأبي لا يعتد به ولا تفسد وقاله الفارابي في شرح الهداية .

* * *

مصادر (أبي حيان)

تعد المصادر التي يعتمد عليها المفسر هي اللبنة الأولى لوضع تفسيره ، ولقد تأثر أبو حيان - رحمه الله - في تفسيره بجملة من شيوخه شرقاً وغرباً ، فمصادره في تفسيره متنوعة ، فمنها ما هو من كتب التفسير ، ومنها ما هو من كتب القراءات ، ومنها ما هو من كتب الحديث ، ومنها ما هو من كتب التاريخ وغير ذلك مما ستقف عليه إن شاء الله - تعالى - من خلال قراءتك في تفسيره .

مصادر (أبي حيان) في التفسير

يعد من أهم كتب التفسير التي تأثر بها الإمام أبو حيان كتاب شيخه الإمام الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي المعروف بابن النقيب - رحمه الله المسمى بـ :

(التحرير والتجوير لأقوال أئمة التفسير)

قال عنه أبو حيان « يبلغ في العدد مائة سفر أويكاد ، ومع اعتماده عليه يصفه بكثرة التكرير وقلة التحرير ، كما أنه لم يكن راضياً عما أولع به ابن النقيب مؤلف هذا التفسير من كثرة النقول عن غلاة الصوفية فيضرب عنها صفحاً .

المحرر الوجيز

ولا يشك أحد من المطلعين على كتاب البحر المحيط أن أبا حيان تأثر بكتاب المحرر الوجيز للإمام ابن عطية الغرناطي

فلقد أثنى عليه أبو حيان - رحمه الله - في كتابه ، وكان كثير النقل عنه فيورد كلامه تارة يوافقه وتارة يعترض عليه كما سنبين ذلك بتفصيل إن شاء الله تعالى .

الكشاف

وهو كتاب مشهور لمحمود بن عمر بن محمد بن عمر النحوي الملقب بجار الله ، ولقد تأثر أبو حيان به في كتابه هذا ، فتارة يوافقه الرأي وتارة يعترض وكان للزخشي الحظ الأوفر في الرد عليه فقال عنهما .

« وكان ابن عطية والزخشي من أجل من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير ، وهما فارسا علم التفسير وممارساً تحريره والتجوير نشره نشرأ وطار لهما به ذكراً » .

مصادر (أبي حيان) في القراءات

أولاً : الإقناع : ويعد من أهم مصادر المصنف - رحمه الله - كتاب الإقناع للإمام أبي جعفر بن الباشر وتحت يدي منه نسخة مخطوطة .

ثانياً : كتاب المصباح : وهو من أهم المراجع التي اعتمد عليها المصنف - رحمه الله - في بحره وهو لأبي الكرم الشهرزوري .

- عقد اللاليء هي قصيدة للمصنف رحمه الله نقل منها أبيات في البحر .

- المحتسب : في تبين وجوه شواذ القراءات لأبي الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ وهو كتاب جليل القدر قام فيه أبو الفتح بتوجيه القراءات الشاذة وهي ما عدا القراءات السبع في نظره انظر الكلام على القراءة الشاذة في المبحث المخصص للكلام على القراءات .

مؤلفات أبي عمرو الداني

مثل التيسير وجامع البيان في القراءات السبع ، فلقد نقل أبو حيان - رحمه الله - في تفسيره عن أبي عمرو الداني الكثير من العبارات وهي كثيرة جداً فانظرها في التفسير . غفر الله لنا ولك .

مصادر (أبي حيان) في الحديث

ساق الإمام (أبو) حيان في معرض الاستشهاد كثيراً من السنن والآثار فمن المصادر التي صرح بها .

الجامع الصحيح (صحيح البخاري)

للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

المسند الصحيح (صحيح مسلم)

للإمام أبي الحسين : مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ .

سنن أبي داود

للإمام أبي داود : سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

سنن النسائي

وكتاب السنن للإمام أحمد بن شعيب النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ .

الجامع الصحيح (سنن الترمذي)

للإمام أبي عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ .

سنن ابن ماجه

للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

- السنن للإمام الشافعي المتوفى سنة .

- سنن الدارمي لأبي محمد عبد الله بن بهران الدارمي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

مسند الطيالسي

للإمام سليمان بن داود بن الجارود الفارسي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

سنن الدارقطني

للإمام علي بن عمر الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

المعجم الكبير

للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني المتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

المعجم الأوسط

للإمام الطبراني صاحب الكبير .

المعجم الصغير

للإمام الحافظ الطبراني المتقدم .

مستخرج أبي نعيم على صحيح مسلم : للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

وأشياء كثيرة سترها أثناء التحقيق إن شاء الله تعالى فمن تخريج الأحاديث .

مصادر أبي حيان في كتب النحو

لقد استمد أبو حيان - رحمه الله - المادة اللغوية والنحوية في تفسيره من مصادر كثيرة ومتنوعة :

الكتاب : لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه ، وكان للكتاب في نظر أبي حيان - رحمه الله - المكانة العليا والمنزلة الرفيعة فكان لا يقرئ أحداً إلا فيه . فلقد نقل في البحر عنه بكثرة لا تحصى .

التسهيل : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لأبي عبد الله محمد بن مالك الجبائي الطائي يقول عنه أبو حيان : « وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات وأجمعه للأحكام تسهيل الفوائد لأبي عبد الله ... » .

المتع : للإمام أبي الحسن علي بن مؤمن بن عصفور الحضرمي قال عنه أبو حيان : « وأحسن ما وضع في التصريف كتاب المتع ... » .

التكميل شرح التسهيل : هو كتاب للمصنف - رحمه الله - نقل منه كثيراً ههنا في البحر .

والتكميل شرح التسهيل : وهو كتاب للمصنف - رحمه الله - نقل منه هنا في البحر كثيراً .

التذكرة : وهو كتاب جليل للمصنف - رحمه الله - نقل منه هنا في البحر .

وغير هذه المصادر التي ستقف عليه إن شاء الله تعالى من خلال قراءتك في البحر .

مصادره في أصول الفقه

- المحصول : لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي المتقدم ترجمته في الكلام على المصنفات في التفسير بالرأي .
 الإشارة : لأبي الوليد الباجي .
 شرح كتاب الإشارة : للشيخ الأستاذ أبي جعفر بن الزبير .
 مختصر المحصول : لابن بنت العراقي .
 ومختصر المحصول : لعلاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب الباجي .
 القواعد : لشمس الدين محمود الأصبهاني .
 وغير ذلك .

مصادره في الفقه

- المحلى : للإمام ابن حزم الظاهري .
 الأنوار الأجل في اختصار المحلى : وهو للإمام المصنف - رحمه الله - وهو مختصره . وأيضاً من مصادره كتب المذاهب الأربعة حيث يلتزم المصنف - رحمه الله - بالعزو إليهما غالباً في المسائل التي يذكرها ضمن تفسير الآية .

مصادره في التاريخ

- السيرة : لأبي بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى المتوفى سنة ١٥٠ هـ .
 - قلائد العقيان ومحاسن الأعيان : للوزير أبي نصر الفتح بن خاقان الإشبيلي .
 - الصلة : للحافظ أبو القاسم بن بشكوال .

مصادره من جهة شيوخه

- وإلى جانب ما قدمنا من المصادر المختلفة التي استقى منها أبو حيان تفسيره هنا مصدر هام لا يقل عن المصادر السابقة ألا وهو شيوخه الذين أخذ عنهم العلم .
 فلقد نقل كثيراً من البحر عن اختيارات لشيوخه فتعتبر هذه المصادر هي اللبنة الأولى في إنشاء هذا التفسير . . .

مصادر أبي حيان في أصول الدين

- ولم يذكر كتاباً معيناً اعتمد عليه بل قال وقد صنف علماء الإسلام من سائر الطوائف في هذا كتباً كثيرة .

مصادره في علم البلاغة

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء : لأبي الحسن حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري .
 نظم القرآن : للجاحظ .
 الانتصار في إعجاز القرآن : لأبي بكر محمد بن أبي الطيب الباقلاني .

البحر في نظر أصحاب الطبقات

قال الحسيني في ذيل التذكرة :

ومن عيون تصانيفه البحر المحيط في التفسير ، والناظر في كتب التراجم والطبقات يجد أنهم مجمعون على جلال المؤلف وجلال الكتاب .

وقال الشيخ الذهبي في التفسير والمفسرون^(٢) : وهو متداول بين أهل العلم ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم قال أبو شعبة : يعتبر من التفاسير التي يقل فيها ذكر الإسرائيليات والموضوعات .

(حول البحر)

النهر الماد

اختصر أبو حيان - رحمه الله - تفسير البحر المحيط في تفسير أسماء النهر الماد من البحر قال أبو حيان : « فإني لما صنف كتابي الكبير المسمى بالبحر المحيط في علم التفسير عجز عن قطعه لطوله السابح وثقلت له عن اقتناصه البارح منه والسانح ، فأجريت منه نهراً تجري عيونه وتلتقي بأبكاره فيه عيونه . . .

الدر اللقيط من البحر المحيط

قال أحد تلامذة الإمام أبي حيان وهو تاج الدين أحمد بن عبد القادر بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ فجمع تعقبات أبي حيان على الزمخشري وابن عطية في كتاب أسماه (الدر اللقيط من البحر المحيط) وفي مقدمة هذا الكتاب يقول مؤلفه : وبعد فهذا كتاب يشتمل على ذكر ما في كتاب شيخنا الأستاذ العام الحافظ أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان التفري الأندلسي نزيل القاهرة - أيده الله - في تفسير القرآن المسمى بالبحر المحيط من الكلام من الإمام جابر الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمود الزمخشري والقاضي المفسر العالم أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن محمود الزمخشري والقاضي المفسر العالم أبي محمد بن عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي - رحمهم الله - والرد عليهما فيما ذكراه في كتابيهما في التفسير والتنبيه على خطئهما في الأحكام الإعرابية وتقرير ذلك على أحسن تقرير .

المحاكمة

هذا الكتاب لأبي زكريا يحيى بن محمد الشاوي الجزائري وهي تقارير قصد فيها المؤلف توضيح الصواب في المناقشات التي جرت بين المفسرين الثلاثة . أبي حيان وابن عطية والزمخشري فقد قال مؤلفه في مقدمة كتابه ، وبعد : فالكتاب قصدت فيه جمع اعتراضات الإمام ذي البيان المشتهر بأبي حيان علي بن عطية ومحمود الزمخشري والتكلم معه بما يظهر للقريب والبعيد ، وأسأل الله في ذلك التسديد وهذا الكتاب توجد منه نسخة في مكتبة الأزهر الشريف تحت رقم ٢٦٦٤١ تفسير ومنه نسخة بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم (٢١٨) .

لقد قدس الله الحرام
المسمى بالبحر المحيط
تكملة لكتابنا
في تاريخ بغداد
القديم

محضر من سيدنا الحسين
في مائة وثمانين

واصفى ما في الدنيا



وَأَمَّا مَنْ أَصْبَرَ دُونَ عَيْنَيْهِمْ بِرُوحِ الْوَيْلِ الْوَيْلِ الْوَيْلِ الْوَيْلِ الْوَيْلِ الْوَيْلِ
 وَقُلْ لِمَنْ شَاءَ وَقُلْ لِمَنْ أَفَاضَ وَرَأَوْا مَا صَبَرُوا وَمَنْ أَفَاضَ وَأَوْ
 مُشْكَلًا وَأَنْجُو أَشْجَاهُ وَذَلَّلُوا أَصْعَابَهُ وَأَمَّا مَنْ أَصْبَرَ بِشُورٍ الْفُتْلُ
 فَتَمَّ عَمَلُهُ بِالنَّزْهِتِ وَالْفُتْلِ فَالْعَلَّامُ هُوَ الْمَوَاضِي فِيهِ الْوَيْلُ الْوَيْلُ الْوَيْلُ الْوَيْلُ الْوَيْلُ
 تَعْلَمُ الْإِغْرَابَ وَالْمَدَى مِنْ مَعَالِمِهِ مَا دُونَ وَبِشُورٍ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 وَالْحَمْدُ مِنْ دُونِ مَا دُونَ وَالرَّادُّ مِنْ نَوَاطِفِ مَا طَفَى وَبِشُورٍ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 إِلَى عِلْمِ الْفُتْلِ وَتَوَكَّلْ إِلَى الْحَقِّقِ وَالْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 فَتَوَكَّلْ عَلَى الْقَرِيبِ الْمَعُولِ عَلَيْهِ وَالْمُسْتَدِ فِي حَقِّ الْفُتْلِ وَلَمْ
 الْقَوْلُ بِمَا الْفُتْلُ مِنْ تَقَارُبِ أَطْلُ وَطَرِيقِ الْفُتْلِ وَالْمُسْتَدِ وَالْمُسْتَدِ
 بِمَا ضَلَّاهُمْ فَتَدَارَى الْمُنَاضِلَةُ وَمَا زِلْتَ مِنْ لَدُنْ الْفُتْلِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 وَأَزَعْتَ فِي عَالَمِهِمْ وَأَنَافَسْتَ نَفْسَهُمْ وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 أَشْغَلَ الْأَمْسَ إِلَى عَامِهِ وَلَا تَوَقَّلْ الْأَذْرَ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 صَدْرِي وَحِزْنُ أَفْئِدَتِي فِي فَوَائِدِ حَتْرِي وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 وَعَلَامُ أَهْلَتْ مَعَهُ الْأَسْتِغْلَامُ أَشْتَقَّ الْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 فِي بَطْنِ ذَلِّ الْهَالِكِ الْمَصُونِ وَأَزْنَعُ فِي رِيَاضِ الْفُتْلِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 فِي حَامِي ضَائِقَةِ السَّلَالِ وَأَفْخَسُ مِنْ أَوَارِغِهِمْ وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 وَأَنْجُو مِنْ حَتْمِهِمْ وَأَنَاخُ مِنْ نَحْمِهِمْ وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 أَتَاهُمْ وَأَتَقَدُّ مِنْ شَوَارِدِهِمْ وَأَشْغَى مِنْ شَوَارِدِهِمْ وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 سَحَرِي وَبَابُ الْبَدَلِ سَحَرِي رَمَا نَحْمُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 وَلَا تَهْتَرِبُ الْعَصَا وَتَرْقُلُ فِي مَطَارِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 سَرَانَا الْأَشْجَاعُ عَلَى لِيَاكُ الْإِرْوَاحِ وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ
 الشَّوَاتِ مِنْ مَطْعَمِ شَيْءٍ وَمَشْرَبِ رَوْيٍ وَمَكْنَسِ نَحْمٍ وَمَرْكَرِ حَتْمٍ
 وَمَغْرَشِ طَرِيقٍ وَمَنْصِبِ سَنِيٍّ وَأَنَا تَوَسَّلْ أَوَانِ الْعِلْمِ وَأَنْقُصْ أَيْدِيَهُمْ
 وَالْمُسْتَدِ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ الْفُتْلُ

وَقُلْتُ مَا بَعْدَ عَمَّادٍ اِنْ مَرَدُّهُ هَذِهِ شَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَبَاطِنُ الْعِ
شَمُوسِهَا وَمَغَارِبُهَا بَنَصْنَةُ الْإِسْلَامِ وَمُسْتَعْرِ الْأَعْلَامِ فَأَمْتُ بِهَا لَوْ وَادُّهَا
وَعَارِفَةُ عِلْمِ أَشْدَهَا وَثَنَائِي زَائِلُهُ وَفَاضِلُ أَصْحَابِهِ وَبَاحِصُ نَصَائِبِهِ
وَأَنْتَ يَا سَيِّدِي وَمِنْ مَرَدِّهَا عَلَى تَصْنِيعِ هَذِهِ الثَّلَاثِ الْمَرْفُوعَةِ مِنْ رَدِّهَا
الْمَرْحُومَةِ اِنْ رَكُونُ نَوَارِ اسْتَعْنِي مِنْ مَدَى وَسُرَامِ النَّارِ يَصْفُو عَلَى
ثَمَاحُوتِهَا بِالنَّفْسِ صَدَتْ وَلَا عِزَّ وَجْهِهِ اللَّهُ إِنْ رَدَّتْ حَلَّتْ كَاتِبُهُ
وَالدُّبُرُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهَا فَهُوَ أَفْضَلُ مُوَالَسَةٍ وَسَمَرَةٍ إِذَا اطْلَوْتُ طَلْعَهُ
الْحَادِسِ فِي عَمْرِائِهِ دَابَّ إِلَيْهِ أَنْ لَمْ يَحْفَظْهُ هِيَ أَهْلِي مِنْ جِنِّ الصَّبْرِ
بِهِ مُنَوَّنٌ الْمَعْنَى فَيَجْعَلُ مَا بَيْنَهُ مِنْ عَجَبٍ كَمَا إِلَى عَجَبٍ
فِيهِ وَتَهَيَّ وَأَشْأَلُ وَمَوْعِظَةٌ وَحِكْمَةٌ أَوْ دَعْبٌ أَفْضَحُ الْمَعْنَى
لَطَائِفُ مَجْلِبِهَا كُلِّ ذِي بَصَرٍ وَرَوْضَةُ مَجْلِبِهَا كُلِّ ذِي أَدَبٍ
وَمِنْ مَرَدِّهَا إِلَى مَرَدِّهَا أَوْ لَا مَا لَكُمْ كَلَامٌ عَلَى مَعْرُوفَاتِ الْكَلَامِ الَّتِي
أَفْضَحُهَا لَكُمْ فَحَاجَّكُمْ مِنَ اللُّغَةِ وَالْأَحْكَامِ الْخَوِيَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَكُمْ
قَبْلَ الرُّسُودِ إِذَا كَانَ كَلَامُ مَعْنَاكُمْ أَوْ مَعْنَاكُمْ رَدَّتْ ذَلِكَ أَوَّلَ مَوْضِعٍ نَحْنُ فِيهِ
تِلْكَ حِلَّةُ الشَّرِّ يَا سَيِّدِي تِلْكَ الْمَعْنَى فِي كُلِّ مَوْضِعٍ نَقَعَ فِيهِ مَجْلِبُ كَلِمَتِهِمْ شَرٌّ
فِي الشَّرِّ إِنْ أَنْتَ تَرَوْهَا إِنْ كَانَ لَهَا سَبَبٌ وَنَسَبٌ وَنَاسَبٌ وَأَزْمَانٌ طَوِيلٌ
بِمَا قَلْبُهَا كَاشِدٌ بِالْقُرْآنِ شَاذٌ وَمُسْتَعْبِدٌ ذَا لِي أَنْوَاجُهُ ذَلِكَ فِي عِلْمِ الْعَرَبِ
بِأَقْلَامِ أَوَّلِ الْمَسَافِرِ وَكَلَّفَ فِيهِمْ مَعَانِيَهُمْ كَلَامًا عَلَى حِلَّتِهَا وَخَفَتِهَا بِحَثِّ
أَتَى لَا أَعَادَ مِنْهَا كَلِمَةً وَأَنْ أَشْرَفَتْ حُرِّيَّةَ كَلِمَتِهَا مِنْهَا مَا مَاتَ مِنْهَا مِنْ غَوَايِضِ
الْأَعْرَافِ وَدَقَائِقِ الْأَدَاةِ مِنْ دَبِجٍ وَبَيَانٍ مَعْنَدٍ أَنْ لَا أَكْثَرَ رَدِّهَا
وَلِي لَفْظٌ سَقِيٌّ وَلَا فِي حِلَّةِ نَفْسِهِ الْكَلَامُ عَلَيْهَا وَلَا فِي أَيْةِ مَسَرَّتْ بَلْ ذَلَّتْ فِي شَرِّهَا
نَهَا الْحَوْلَةَ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَكْتُمُ فِيهِ عَلَى لَفْظِ الْمَقْطَعِ أَوْ الْكَلِمِ أَوْ الْإِلَهِ وَأَنْ
عَرَضَ تَكْرُرُهَا فَرِيدٌ قَابِلٌ بِمَا قَلَّ أَفَادَتُهُ لِنَفْسِهَا الْأَرْضِيَّةِ وَفَرِيدٌ فِي الْأَحْكَامِ

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

قال الشيخ الإمام العالم العلامة . البحر الفهامة . المحقق المدقق . حجة^(١) البلغاء ، وقدوة النحاة والأدباء . الأستاذ « أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الجياني » - رحمه الله تعالى - وأمتع بعلمه المسلمين آمين .

(الحمد لله) مبدئ صور المعارف الربانية في مرايا العقول ، ومبرزها من محال الأفكار إلى محال المقول ، وحارسها بالقوتين الذاكرة للمنقول ، والمفكرة للمعقول ، ومفيض الخير عليها من نتيجة مقدمات الوجود ، السائر روح قدسه في بطون التهائم^(٢) وظهور النجود^(٣) ، المبرز في الاتصالات الإلهية والمواهب الربانية على كل موجود ، محمد ذي المقام المحمود ، والحوض المورود ، المبتعث بالحق للأنام داعياً ، وبالطريق الأنهج إلى دار الإسلام منادياً ، الصادع بالحق ، الهادي للخلق ، المخصوص بالقرآن المبين ، والكتاب المستبين ، الذي هو أعظم المعجزات ، وأكبر الآيات البينات ، السائرة في الآفاق ، الباقي بقاء الأطواق في الأعناق ، الجديد على تقادم الأعصار ، اللذيذ على توالي التكرار ، الباسق في الإعجاز إلى الذروة العليا ، الجامع المصالح الآخرة والدنيا ، الجالي بأنواره ظلم الإلحاد ، الحالي بجواهر معانيه طلي^(٤) الأجياد ، صلى الله على من أنزل عليه ، وأهدى أرج تحية وأزكاها إليه ، وعلى آله المختصين بالزلفي^(٥) لديه ، ورضي الله عن صحبه الذين نقلوا عنه كتاب الله أداء عرضاً ، وتلقوه من فيه جنيئاً وغضاً ، وأدوه إلينا صريحاً محضاً ، وبعد فإن المعارف جمّة ، وهي كلها مهمة ، وأهمها ما به الحياة الأبدية ، والسعادة السرمدية ، وذلك علم كتاب الله هو المقصود بالذات ، وغيره من العلوم له كالأدوات ، هو العروة الوثقى ، والوزر الأقوى الأوقى ، والحبل المتين ، والصراط المبين ، وما زال يختلج في ذكري ، ويعتلج في فكري ، أني إذا بلغت الأمد الذي يتغضد^(٦) فيه الأديم^(٧) ، ويتنغص برؤيتي النديم ، وهو العقد الذي يحل عرى الشباب ، المقول فيه إذا بلغ الرجل الستين .

(١) حجة البلغاء : الحجة البرهان وقيل الحجة ما دُفِعَ به الحُصْمُ - لسان العرب (٧٧٩ / ٢) ، ترتيب القاموس (٥٩١ / ١) .

(٢) التَّهَائِمُ : التَّهْمَةُ الأرض الْمُتَّصِفَةُ إلى البحر كأنها مصدر من تهامة . والتهائم المتصوفة إلى البحر - لسان العرب (٤٥٣ / ١) ، ترتيب القاموس (٣٨٣ / ١) .

(٣) النجود جمع نجد ، وهو ما أشرف من الأرض وارتفع .

(٤) طلي : الطَّلِيَّةُ : صفحة العنق - لسان العرب (٢٦٩٩ / ٤) ، ترتيب القاموس (٩٥ / ٣) .

(٥) الزَّلْفَى : الزَّلْفُ ، والزَّلْفَةُ ، والزَّلْفَى : القرية ، والدرجة ، والمنزلة - لسان العرب (١٨٥٣ / ٣) ، ترتيب القاموس (٤٦٧ / ٢) .

(٦) يتغضد : (في ط) والأصل يتخضد (بالخاء المعجمة) .

(٧) الأديم : الجلد .

فإياه وإيا الشَّوَابُ^(١)

أَلُوذِبَجْنَابِ الرَّحْمَنِ وأقتصر على النظر في تفسير القرآن، فأتاح الله لي ذلك قبل بلوغ ذلك العقد، وبلغني ما كنت أروم من ذلك القصد، وذلك بانتصابي مدرساً في علم التفسير في قبة السلطان الملك المنصور قدس الله مرقده، وبل بمرز الرحمة معهده، وذلك في دولة ولده السلطان القاهر، الملك الناصر، الذي رداً لله به الحق إلى أهله، وأسبغ على العالم وارفاً ظله، واستنقذه الملك من غصابه، وأقره في^(٢) منيف محله وشريف نصابه، وكان ذلك في أواخر سنة عشر وسبعمائة، وهي أوائل سنة سبع وخمسين من عمري فعكفت على تصنيف هذا الكتاب، وانتخاب الصفو واللباب، أجبل الفكر فيما وضع الناس في تصانيفهم، وأنعم النظر فيما اقترحوه من تأليفهم، فألخص مطولها، وأحل مشكلها وأقيد مطلقها، وأفتح مغلقها، وأجمع مبددها، وأخلص منقدها، وأضيف إلى ذلك ما استخرجته القوة المفكرة من لطائف علم البيان، المطلع على إعجاز القرآن، ومن دقائق علم الإعراب، المغرب في الوجوه أي إغراب، المقتنص في الأعمار الطويلة من لسان العرب، وبيان الأدب، فكلم حوى من لطيفة فكري مستخرجها، ومن غريبة ذهني متعجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية، والنظر في التراكيب النحوية، والتصرف في أساليب النظم والنثر، والتقلب في أفانين الخطب والشعر، لم يهتد إلى إثارتها ذهن، ولا صاب^(٣) بريقها مزن^(٤)، وأنى ذلك وهي أزاهر خمائل^(٥) غفل^(٦)، ومناظر ما لمستغلق أبوابها من قفل، في إدراك مثلها تتفاوت الأفهام، وتبارى الأوهام، وليس العلم على زمان مقصوراً، ولا في أهل زمان محصوراً، بل جعله الله حيث شاء من البلاد، وبثه في التهائم والنجاد^(٧)، وأبرزه أنواراً تتوسم، وأزهاراً تنسم، وما زال بأفقنا المغربي الأندلسي، على بعده من مهبط الوحي النبوي، علماء بالعلوم الإسلامية وغيرها كملة، وفهماء تلاميذ لهم دراة نقلة، يروون فيروون ويسقون فيرتوون، وينشدون فينشدون، ويهدون فيهدون، هذا وإن اختلفوا في مدارك العلوم، وتباينوا في المفهوم، فكل منهم له مزية لا يجهل قدرها، وفضيلة لا يسر بدورها^(٨)، ومما برعوا فيه علم الكتاب، انفردوا باقراءه مد أعصار دون غيرهم من ذوي الآداب، أثاروا كنوزه، وفكوا رموزه، وقربوا قاصيه، وراضوا عاصيه وفتحوا مقفله، وأوضحوا مشكله، وأنهجوا^(٩) شعابه^(١٠)، وذللوا صعابه، وأبدوا معانيه في صورة التمثيل، وأبدعوه بالتركيب والتحليل، فالكتاب هو

-
- (١) الشواب : والشوب والشباب : الخلط - لسان العرب (٢٣٥٥/٤) ، ترتيب القاموس (٧٧٢/٢) .
 (٢) منيف : ذاك طود منيف أي : عال مشرف - لسان العرب (٤٥٧٩/٦) ، ترتيب القاموس (٤٦٢/٤) .
 (٣) صاب : صاب المطر صوباً وانصاب كلاهما انصب - لسان العرب (٢٥١٨/٤) ، ترتيب القاموس (٨٦٥/٢) .
 (٤) مزن : المزن : السحاب عامة ، وقيل : السحاب ذو الماء واحده مزنة - لسان العرب (٤١٩٤/٦) ، ترتيب القاموس (٢٣٨/٤) .
 (٥) خمائل : الخميعة الأرض السهلة التي تنبت - لسان العرب (١٢٦٨/٢) ، مجمل اللغة (٢٢٠/٢) .
 (٦) غفل : كل ما لا علامة فيه ولا أثر عماره من الأرضين والطرق ونحوها غفل - لسان العرب (٣٢٧٧/٥) ، ترتيب القاموس (٤٠٧/٣) .
 (٧) النجاد : النجد من الأرض : قفافها وصلابتها - لسان العرب (٤٣٤٥/٦) ، ترتيب القاموس (٣٢٦/٤) .
 (٨) بدرها : بدرت إلى الشيء أبدر بدوراً : أسرع وكذلك بادرت إليه ، وتبادر القوم أسرعوا - لسان العرب (٢٢٨/١) ، ترتيب القاموس (٢٢٩/١) .
 (٩) وأنهجوا : أنهج الطريق : وضع واستبان - لسان العرب (٤٥٥٤/٦) ، ترتيب القاموس (٤٤٨/٤) .
 (١٠) شعابه : الشعب بالكسر ما انفرج بين جبليين وقيل : هو الطريق في الجبل والجمع الشجاب - لسان العرب (٢٢٦٩/٤) ، مجمل اللغة (١٦٢/٣) .

المراقبة^(١) إلى فهم الكتاب ، إذ هو المطلع على علم الأعراب ، والمبدي من معالمة ما درس ، والمنطق من لسانه ما خرس ، والمحبي من رفاته ما رسم^(٢) ، والرادّ من نظائره ما طمس ، فجدير لمن تافت نفسه إلى علم التفسير ، وترقت إلى التحقيق فيه والتحرير ، أن يعتكف على كتاب « سبويه » ، فهو في هذا الفن المعول عليه ، والمستند في حل المشكلات إليه ، ولم ألق في هذا الفن من يقارب أهل قطرنا الأندلسي فضلاً عن المماثلة^(٣) ، ولا من يناضلهم فيداني في المناضلة ، وما زلت من لدن ميزت أتلمذ للعلماء ، وأنحاز للفهماء ، وأرغب في مجالسهم ، وأنفس في نفائسهم ، وأسلك طريقهم ، وأتبع فريقهم ، فلا أنتقل إلا من إمام إلى إمام ، ولا أتوقل^(٤) إلا ذروة علم ، فكم صدر أودعت علمه صدري ، وحير أفنيت في فوائده خبري ، وإمام أكثرت به الإلمام ، وعلام أطلت معه الاستعلام ، أشنف^(٥) المسامع بما تحسد عليه العيون ، وأذيل في تطلاب ذلك المال المصون ، وأرتع^(٦) في رياض وارفة الظلال ، وأكرع^(٧) في حياض صافية السلسال^(٨) ، وأقتبس بها من أنوارهم ، وأقتطف من أزهارهم ، وأبتلع^(٩) من صفحاتهم ، وأتأرج^(١٠) من نفحاتهم ، وألقط من نثارهم ، وأضبط من فضالة إثارهم ، وأقيد من شواردهم ، وأنتقي من فرائدهم ، فجعلت العلم بالنهار سحيري ، وبالليل سميري^(١١) ، زمان غيري يقصر ساريه على الصّبا ، ويهب للهو ولا كهبوب الصّبا ، ويرفل^(١٢) في مطارف اللهو ، ويتقمص أردية الزهو ، ويؤثر مسرات الأشباح ، على لذات الأرواح ، ويقطع نفائس الأوقات ، في خسائس الشهوات ، من مطعم شهّي ، ومشرب روي ، وملبس بهّي ، ومركب خطّي ، ومفرش وطّي ، ومنصب سنّي ، وأنا أتوسد أبواب العلماء ، وأتقصد أمثال الفهماء ، وأسهر في حنادس^(١٣) الظلام ، وأصبر على شظف الأيام ، وأوثر العلم على الأهل والمال والولد ، وأرتحل من بلد إلى بلد ، حتى ألقيت بمصر عصا التسيار ، وقلت : ما بعد عبادان من دار ، هذه مشارق الأرض ومغاربها ، وبها طوالع شمسها وغواربها ، بيضة الإسلام ، ومستقر الأعلام ، فأقمت بها المعرفة أبدية ، وعارفة علم أسديها ، وثاني^(١٤) أرابه^(١٥) ، وفاضل أصحابه ، وبها صنفت تصانيفي ، وألفت تأليفي ، ومن بركاتها على تصنيفي لهذا الكتاب ، المقرب من رب الأرباب ، المر

- (١) المراقبة : الدرجة واحدة من مراقبي الدرج - لسان العرب (١٧١١/٣) ، ترتيب القاموس (٣٧٩/٢) .
- (٢) رسم : هي كل ما هيل عليه التراب ، فقد رُيس - لسان العرب (١٧٢٨/٣) ، مجمل اللغة (٤٢٠/٢) .
- (٣) وهذه فيه تعصب لأهل بلده وإلا فلاهل المشرق إبداع وهو مسطر في كتب السير والأعلام .
- (٤) أتوقل : وقيل في الجبل بالفتح يقلّ وقلاً وقولاً وتوقلّ توقلاً : صعد فيه - لسان العرب (٤٩٠/٦) ، ترتيب القاموس (٦٤٧/٤) .
- (٥) أشنف : الشنف : الذي يلبس في أعلى الأذن - لسان العرب (٢٣٤١/٤) .
- (٦) أرتع : الرتع : الرعى في الخصب - لسان العرب (١٥٧٧/٣) .
- (٧) أكرع : كرع في الماء يكرع كروعاً وكرعاً : تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء - لسان العرب (٣٨٥٨/٥) .
- (٨) السلسال : سلسيل الجنة وهو عين فيها ، وقيل الخالص الصافي من القذى والكدر ، فهو فعيل بمعنى مفعول ويروي سلسال وسلسيل - لسان العرب (٢٠٧٥/٣) .
- (٩) ابتلع : يقال : بلع بالشئ وتبلع إذا فرغ - لسان العرب (٣٣٩/١) .
- (١٠) أتأرج : الأرج : نفحة الريح الطيبة - لسان العرب (٥٧/١) .
- (١١) سميري : رجل سمير : صاحب سمير ، وقد سامرته ، والسمير والمسامير والسامير : السمار وهم القوم يسمرون - لسان العرب (٢٠٩٠/٣) .
- (١٢) يرفل : ويرفل في ثيابه يرفل إذا أطالها وجرها متبخراً فهو رافل والرّفيل : الأحرق - لسان العرب (١٦٩٦/٣) .
- (١٣) حنادس : ليل جنّيس : مظلم ، والحنادس : ثلاث ليال من الشهر لظلمتهن - لسان العرب (١٠٢٠/٢) .
- (١٤) ثاني : الثائي والثائي جميعاً : الإفساد كله ، وقيل : هي الجراحات والقتل ونحوه من الإفساد - لسان العرب (٤٦٧/١) .
- (١٥) أرابه : راب إذا أصلح ، ورأب الصدع والإناء إرابه رأباً ورأبة : شعبه وأصلحه - لسان العرب (١٥٣١/٣) .

أن يكون نوراً يسعى بين يديّ ، وسترًا من النار يصفو عليّ ، فما لمخلوق بتأليفه قصدت ، ولا غير وجه الله به أردت ، جعلت كتاب الله والتدبير لمعانيه أنيسي ، إذ هو أفضل مؤانس ، وسميري إذا أخلو لكتب ظلم الحنادس :

نَعْمَ السَّمِيرُ كِتَابَ اللَّهِ إِنَّ لَهُ	حَلَاوَةً هِيَ أَحْلَى مِنْ جَنَى الضَّرَبِ
بِهِ فَنُورُ الْمَعَانِي قَدْ جُمِعْنَ فَمَا	يَفْتَنُ مِنْ عَجَبٍ إِلَّا إِلَى عَجَبٍ
أَمْرٍ، وَنَهْيٍ، وَأَمْثَالٍ، وَمَوْعِظَةٍ	وَحِكْمَةٍ أودَعَتْ فِي أَفْصَحِ الْكُتُبِ
لَطَائِفُ يَجْتَلِيهَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ	وَرَوْضَةٌ يَجْتَنِيهَا كُلُّ ذِي أَدَبٍ

[منهجه في تأليف هذا الكتاب]

(وترتيبي في هذا الكتاب)

أنني أبتدىء أولاً بالكلام على مفردات الآية التي أفسرها لفظاً لفظاً فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التي لتلك اللفظة قبل التركيب ، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك في أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعاني في كل موضع تقع فيه فيحمل عليه .

ثم أشرع في تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب ، ونسخها ، ومناسبتها وارتباطها بما قبلها ، حاشداً فيها القراءات شاذها ومستعملها ، ذاكراً توجيه ذلك في علم العربية ، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها ، متكلماً على جليها وخفيها بحيث إنني لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها مبدئاً ما فيها من غوامض الإعراب ، ودقائق الآداب من بديع وبيان ، مجتهداً أني لا أكرر الكلام في لفظ سبق ، ولا في جملة تقدم الكلام عليها ، ولا في آية فسرت ، بل أذكر في كثير منها الحوالة على الموضع الذي تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية ، وإن عرض تكرير فبمزيده فائدة ، ناقلاً أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم في الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآني ، محيلاً على الدلائل التي في كتب الفقه ، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل في تقررها والاستدلال عليها على كتب النحو ، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس ، بادئاً بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ ، مرجحاً له لذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجاً به عنه ، منكباً في الإعراب عن الوجوه التي تنزه القرآن عنها ، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه ، وأنه ينبغي أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوز النحاة في شعر « الشماخ » و « الطرمح » وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة ، والتراكيب القلقة ، والمجازات المعقدة ، ثم أختتم الكلام في جملة من الآيات التي فسرتها أفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علم البيان^(١) والبديع^(٢) ملخصاً ، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منشور ، أشرح به مضمون تلك الآيات ، على ما أختاره من تلك المعاني ملخصاً جملتها في أحسن تلخيص ، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم في التفسير ، وصار ذلك أنموذجاً لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقي من سائر القرآن ، وستقف على هذا المنهج

(١) وهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة على المقصود ، أي : ملكة ، وهيئة راسخة في النفس يقتدر بها على إدراكات جزئية ، أو أصول وقواعد معلومة يعرف بها إيراد وتأدية المعنى الواحد المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال بطرق - أي : بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على ذلك المعنى .

(٢) هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال وبعد رعاية وضوح الدلالة على المرام . والمستفاد من علم البديع الحسن العرضي ومن البيان الحسن الذاتي .

الذي سلكته إن شاء الله تعالى ، وربما ألممت بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ ، وتجنبنا كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التي يحملونها الألفاظ ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الألفاظ القرية عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى ، وعلى عليٍّ كرم الله وجهه ، وعلى ذريته ، ويسمونه علم التأويل ، وقد وقفت على تفسير لبعض رؤوسهم ، وهو تفسير عجيب يذكر فيه أقاويل السلف مزدرياً عليهم ، وذاكراً أنه ما جهل مقالاتهم ، ثم يفسر هو الآية على شيء لا يكاد يخطر في ذهن عاقل ، ويزعم أن ذلك هو المراد من هذه الآية ، وهذه الطائفة لا يلتفت إليها ، وقد رد أئمة المسلمين عليهم أقاويلهم وذلك مقرر في علم أصول الدين ، نسأل الله السلامة في عقولنا وأدياننا وأبداننا ، وكثيراً ما يشحن المفسرون تفاسيرهم من ذلك الإعراب ، بعلل النحو ، ودلائل أصول الفقه^(١) ، ودلائل أصول الدين^(٢) ، وكل هذا مقرر في تأليف هذه العلوم ، وإنما يؤخذ ذلك مسلماً في علم التفسير دون استدلال عليه ، وكذلك أيضاً ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول ، وأحاديث في الفضائل ، وحكايات لا تناسب ، وتواريخ إسرائيلية ، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير ، ومن أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب ، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة ، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه ، فلن يحتاج في فهم ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهم ولا معلم ، وإنما تفاوت الناس في إدراك هذا الذي ذكرناه ، فلذلك اختلفت أفهامهم ، وتباينت أقوالهم ، وقد جربنا الكلام يوماً مع بعض من عاصرنا ، فكان يزعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل في فهم معاني تراكيبه ، بالإسناد إلى « مجاهد » و « طاوس » و « عكرمة » وأضرابهم ، وأن فهم الآيات متوقف على ذلك ، والعجب له أنه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف ، متباينة الأوصاف ، متعارضة ينقض بعضها بعضاً ، ونظير ما ذكره هذا المعاصر أنه لو تعلم أحدنا مثلاً لغة الترك إفراداً وتركيباً حتى صار يتكلم بتلك اللغة ، ويتصرف فيها نثراً ونظماً ، ويعرض ما تعلمه على كلامهم فيجده مطابقاً للغتهم ، قد شارك فيها فصحاءهم ، ثم جاءه كتاب بلسان الترك ، فيحجم عن تدبره وعن فهم ما تضمنه من المعاني ، حتى يسأل عن ذلك « سنقراً » التركي « أوسنجراً » ، ترى مثل هذا يعد من العقلاء ، وكان هذا المعاصر يزعم أن كل آية نقل فيها التفسير خلف عن سلف بالسند إلى أن وصل ذلك إلى الصحابة ، ومن كلامه أن الصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن تفسيرها هذا وهم العرب الفصحاء الذين نزل القرآن بلسانهم ، وقد روي : عن « علي » كرم الله وجهه ، وقد سئل هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة ، أو فهماً يؤتاه الرجل في كتابه ، وقول هذا المعاصر يخالف قول علي رضي الله عنه ، وعلى قول هذا المعاصر يكون ما استخرجه الناس بعد التابعين من علوم التفسير ومعانيه ودقائقه وإظهار ما احتوى عليه من علم الفصاحة والبيان والإعجاز لا يكون تفسيراً ، حتى ينقل بالسند إلى مجاهد ونحوه وهذا كلام ساقط .

(١) وهو معرفة دلائل الفقه إجمالاً ، وكيفية الاستفادة منها ، وحال المستفيد .

(٢) مركب إضافي تتوقف معرفته على معرفة غيره . وأصول جمع : أصل وهو ما يبتنى عليه غيره سواء كان البنيان ، حسيّاً ، أو عرفياً ، أو معنويّاً . والدين يطلق على معان منها الطاعة ، والعبادة ، والجزاء ، والحساب ، واصطلاحاً عرفه السيد في تعريفاته بقوله : وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول ﷺ - ولكن بالمعنى الذي أراده المصنف - رحمه الله - هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ، ورفع الشبه عنها ، والمراد بالعقائد : ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وهذا هو المراد بأصول الدين ويسمى علم الكلام ، ويسمى علم التوحيد وغير ذلك من الأسماء . وأعلم أن أسماء العلوم في اصطلاح العلماء تطلق ويراد منها الفن المدون المخصوص الذي هو المسائل ذات الموضوعات الخاصة والمحمولات الخاصة ويطلق : أيضاً على التصديقات التي تتعلق بهذه المسائل الخاصة بقطع النظر عن خصوص من قامت به تلك التصديقات وتطلق أيضاً على ملكة استحضار تلك المسائل وتطلق أيضاً على الاستحصال .

[العلوم التي يحتاج إليها المفسر]

وإذ قد جر الكلام إلى هذا فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم على الاختصار وننبه على أحسن الموضوعات التي في تلك العلوم المحتاج إليها فيه فنقول :

النظر في تفسير كتاب الله تعالى يكون من وجوه :

الوجه الأول : علم اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً ، الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم ، وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة ، وأكثر الموضوعات في علم اللغة كتاب « ابن سيده »^(١) ، فإن الحافظ أبا محمد « علي بن أحمد الفارسي » ذكر أنه في مائة سفر بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة ، ومن الكتب المطولة فيه كتاب « الأزهرى » ، و « الموعب » لابن التياني^(٢) ، و « المحكم » لابن سيده وكتاب « الجامع » لأبي عبد الله محمد بن جعفر التميمي القيرواني^(٣) عرف بالقزاز ، و « الصحاح » للجوهري^(٤) ، و « البارع » لأبي علي القالي ، و « مجمع البحرين » « للصاغاني »^(٥) ، وقد حفظت في صغري في علم اللغة كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني^(٦) ، و « اللغات » المحتوي عليها دواوين مشاهير العرب الستة : « امرئ القيس »^(٧) ، و « النابغة »^(٨) ، و « علقمة »^(٩) ، و « زهير »^(١٠) ، و « طرفة »^(١١) ، و « عنترة »^(١٢) ، وديوان « الأفوه الأودي »

(١) علي بن أحمد بن سيده اللغوي النحوي الأندلسي أبو الحسن الضرير لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب صنف المحكم والمحيط الأعظم في اللغة وشرح كتاب الأخفش وغير ذلك مات سنة ثمان وخمسين وأربعمائة عن نحو ستين سنة - بغية الرواة (١٤٣/٢) .

(٢) تمام بن غالب بن عمر يعرف بابن التيان - بفتح المثناة من فوق ، وتشديد التحتية - اللغوي القرطبي ثم المرسي أبو غالب قال الحميدي : كان إماماً في اللغة ، ثقة في إيرادها ، ذين ورع . صنف تلقيح العين في اللغة مات بالمصرية في أحد الجماديين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة - بغية (٤٧٨/١) ، الصلة لابن بشكوال (١٢٢) .

(٣) محمد بن جعفر القزاز القيرواني أبو عبد الله التميمي النحوي قال الصفدي وغيره : شيخ اللغة في المغرب ، كان إماماً علامة ، قيماً بعلوم العربية ، مهيباً عند الملوك والعلماء ، محبوباً عند العامة ، يملك لسانه ملكاً شديداً ، صنف الجامع في اللغة ، وغير ذلك مات سنة اثنتي عشرة وأربعمائة بالقيروان عن نحو تسعين - بغية (٧١/١) ، إنباه الرواة (٨٤/٣) .

(٤) إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح الإمام أبو نصر الفارابي قال ياقوت كان من أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً ، صاحب الصحاح ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة - بغية (٤٤٦/١) ، معجم الأدباء (١٥١/٦) .

(٥) الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي العدوي العمري الإمام رضي الدين أبو الفضائل الصغاني حامل لواء اللغة في زمانه ، له من التصنيفات مجمع البحرين في اللغة ، وغير ذلك ، توفي سنة خمس وستمائة ، انظر بغية (٥١٩/١) .

(٦) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار أبو العباس النحوي الشيباني مولاهم المعروف بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللغة وله كتاب المصون ، واختلاف النحويين ومعاني القرآن ، وغير ذلك ، وتوفي في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين - إنباه الرواة (١٣٨/١) ، تاريخ بغداد (٢٠٤/٥) ، تاريخ أبي الفدا (٦٠/٢) .

(٧) امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي من بني آكل الثمر أشهر شعراء العرب على الإطلاق يماني الأصل مولده بنجد توفي سنة ٨٠ قبل الهجرة ، انظر الأعلام للزركلي (١٢-١١/٢) .

(٨) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري أبو أمانة شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، توفي نحو سنة ١٨ قبل الهجرة - الأعلام (٥٤/٣) ، معاهد التنصيص (٣٣٣/١) ، نهاية الأرب (٥٩/٣) ، وسماء زياد بن عمرو ، الأغاني (٣/١١) .

(٩) علقمة بن عبدة - بفتح العين والباء - بن ناشرة بن قيس بن بني تميم شاعر جاهلي من الطبقة الأولى توفي نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة ، الأعلام (٢٤٧/٤) ، خزائن الأدب (٥٦٥/١) ، سمط اللآلئ (٤٣٣) ، رغبة الأمل (٢٤٠/٢) .

(١٠) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني من مضر حكيم الشعراء في الجاهلية توفي سنة ١٣ قبل الهجرة ، انظر الأعلام (٥٢/٣) ، =

لحفظي عن ظهر قلب لهذه الدواوين ، وحفظت كثيراً من اللغات المحتوي عليها نحو الثلث من كتاب الحماسة ، واللغات التي تضمنها قصائد مختارة من شعر « حبيب بن أوس »^(١) لحفظي ذلك ، ومن الموضوعات في الأفعال كتاب ابن القوطية^(٢) ، وكتاب « ابن طريف »^(٣) ، وكتاب « السرقنطي » المنبوز^(٤) بالحمار ، ومن أجمعها كتاب « ابن القطاع »^(٥) .

الوجه الثاني : معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة أفرادها ومن جهة تركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو ، وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب « أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه »^(٦) - رحمه الله تعالى - ، وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات ، وأجمعه للأحكام كتاب « تسهيل الفوائد » لأبي عبد الله محمد بن مالك الجبائي الطائي^(٧) مقيم دمشق ، وأحسن ما وضع في التصريف كتاب « الممتع » لأبي الحسن « علي بن مؤمن بن عصفور » الحضرمي الإشبيلي^(٨) رحمه الله تعالى ، وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر « أحمد بن

= الأغاني (٢٨٨/١٠) ، شرح زهير لثعلب (٥٥) .

(١١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، ولد في بادية البحرين ، وتنقل في بقاع نجد ، وهو أصغر شعراء المعلقات ، توفي نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة ، انظر الأعلام (٢٢٥/٣) ، سمط اللآلئ (٣١٩) ، شرح شواهد المغني (٢٧٢) .

(١٢) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، ومن شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد توفي نحو سنة ٢٢ قبل الهجرة ، انظر الأعلام (٩١/٥) ، الأغاني (٢٣٧/٨) .

(١٣) حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أبو تمام أحد أمراء البيان ، صاحب ديوان الحماسة ، وغير ذلك توفي سنة ٢٣١ هجرية - انظر الأعلام (١٦٥/٢) ، وفيات الأعيان (١٢١/١) ، ومعاهد التنخيص (٣٨/١) .

(١٤) محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية القرطبي النحوي أبو بكر مولى عمر بن عبد العزيز - والقوطية نسب إلى القوط ، وهم ينسبون إلى قوط بن حام بن نوح كانوا بالأندلس قبل الإسلام أيام إبراهيم قال ابن الفرضي : أصله من إشبيلية ، وكان إماماً في اللغة العربية حافظاً لها مقدماً فيها على أهل عصره ، لا يشق غباره ، صنف في تصارييف الأفعال ، المقصورة والممدودة مات يوم الثلاثاء لسبع بقيت من ربيع الأول سنة سبع وستين وثلاثمائة - البغية (١٩٨/١) ، تاريخ علماء الأندلس (٧٨/٢) .

(١٥) عبد الملك بن طريف الأندلسي أبو مروان النحوي اللغوي أخذ عن أبي بكر بن القوطية وكان حسن التصريف في اللغة وله كتاب حسن في الأفعال مات في حدود الأربعمائه - البغية (١١١/٢) .

(١٦) المنبوز : تقول : نبزه ينزّه نبزاً ، أي : لقبه - لسان العرب (٤٣٢٤/٦) .

(١٧) علي بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي ، كان إمام وقته بمصر في علم العربية كما وصفه ياقوت توفي في صفر سنة خمس عشرة ، وقيل أربع عشرة وخمسمائة - البغية (١٥٣/٢ - ١٥٤) ، معجم الأدباء (٢٧٩/١٢ - ٢٨٣) .

(١٨) عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين سيبويه أبو بشر ويقال : أبو الحسن قال الأزهرى : كان سيبويه علامة حسن التصنيف ، جالس الخليل وأخذ عنه مات سنة ثمانين ومائة ، قال الخطيب وعمره اثنتان وثلاثون سنة - البغية (٢٢٩/٢) .

(١٩) محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك العلامة جمال الدين أبو عبد الله الطائي الجبائي الشافعي النحوي إمام النحاة وحافظ اللغة قال الذهبي : ولد سنة ستمائة أو إحدى وستمائة ، وكان إماماً في القراءات وعللها ، وإمام اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على حوشها وأما النحو والتصريف فكان فيهما بارعاً لا يجارى وحيراً لا يبارى توفي في ثاني عشر شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة - انظر البغية (١٣٠/١) .

(٢٠) علي بن مؤمن بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس ، توفي في رابع عشر ذي القعدة سنة ثلاث - وقيل تسع وستين وستمائة - انظر البغية (٢١٠/٢) .

إبراهيم بن الزبير الثقفي^(١) في كتاب «سيبويه» وغيره .

الوجه الثالث : كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح ، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة ، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله « محمد بن سليمان النقيب »^(٢) ، وذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه في التفسير ، وما وضعه شيخنا الأديب الحافظ المتبحر أبو الحسن « حازم بن محمد بن حازم الأندلسي الأنصاري القرطاجني »^(٣) مقيم تونس المسمى « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » ، وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى .

الوجه الرابع : تعيين مبهم ، وتبيين مجمل ، وسبب نزول ونسخ ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ وذلك من علم الحديث ، وقد تضمنت الكتب والأمهات التي سمعناها ورويناها ذلك « كالصحيحين » ، و « الجامع للترمذي » ، و « سنن أبي داود » ، و « سنن النسائي » ، و « سنن ابن ماجه » ، و « سنن الشافعي » ، و « مسند الدارمي » ، و « مسند الطيالسي » ، و « مسند الشافعي » ، و « سنن الدارقطني » ، و « معجم الطبراني الكبير » ، و « المعجم الصغير له » ، و « مستخرج أبي نعيم » على مسلم وغير ذلك .

الوجه الخامس : معرفة الإجمال^(٤) والتبيين^(٥) ، والعموم^(٦) والخصوص^(٧) ، والإطلاق^(٨) والتقييد^(٩) ، ودلالة الأمر والنهي^(١٠) وما أشبه هذا ، ويختص أكثر هذا الوجه بجزء الأحكام من القرآن ، ويؤخذ هنا

(١) أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين الثقفي العاصمي الجباني الغرناطي المنشأ الأستاذ أبو جعفر قال تلميذه أبو حيان صاحب البحر - في النضار - كان محدثاً جليلاً ناقداً نحويّاً أصولياً فصيحاً مفوهاً حسن الخط مقرئاً مفسراً مؤرخاً ... ولد سنة سبع وعشرين وستمائة ومات يوم الثلاثاء ثامن من ربيع الأول سنة ثمان وسبعمائة البغية (٢٩١/١) .

(٢) محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين العلامة جمال الدين أبو عبد الله البلخي الأصل المقدسي الحنفي المفسر المعروف بابن النقيب أحد الأئمة العلماء الزهاد كان عالماً زاهداً عابداً متواضعاً ، وتفسيره مشهور في نحو مائة مجلد ، مات في محرم سنة ثمان وتسعين وستمائة - الأنس الجليل (٢١٧/٢) ، الجواهر المضيئة (٥٧/٢) ، الشذرات (٤٤٢/٥) .

(٣) حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطبي النحوي أبو الحسن هنيء الدين شيخ البلاغة والأدب ، قال أبو حيان صاحب التفسير : هو أوجد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان ، توفي ليلة السبت رابع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة - البغية (٤٩١/١) .

(٤) وهو في اصطلاح علماء الأصول : ما لم تتضح دلالاته .

(٥) في اللغة الإيضاح وعند الأصوليين : إخراج الشيء من الإشكال إلى التجلي والوضوح - القاموس (٢٠٤/٤) ، المعتمد (٣١٧/١) ، البرهان (١٥٩/١) ، المستصفى (١٥٣/١) ، المحصول (٢٢/٣/١) ، الحدود للباي ص ٤١ .

(٦) جمع عام والعام في اللغة الشامل وفي الاصطلاح هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له دفعه بلا حصر - القاموس (١٩٤/٤) ، نشر البنود (٢٠٦/١) ، المحصول (٥١٣/٢/١) ، الحدود للباي ص ٤٤ .

(٧) وهو إخراج بعض ما يتناوله العموم قبل أن يقيد حكمه ، والمخصصات للعموم ضربان : متصلة ومنفصلة . فالتصلة : الاستثناء ، والشرط ، والصفة والغاية . والمنفصلة : العقل ، والحس ، ومنطوق الكتاب ، والسنة ، ومفهوماً ، وفعل النبي ﷺ وإقراره والإجماع والقياس - انظر شرح التنقيح (٥١) ، الاحكام للأمدى (١٢٠/٢ - ١٤٣ - ١٤٦ - ١٤٨ - ١٥٢) شرح الكوكب المنير (٣٩١) ، (٤١٣) ، إرشاد الفحول (١٥٥ - ١٥٧ ، ١٦٠) .

(٨) فالإطلاق هو الكلّي الذي لم يدخله التقييد فلذلك لا يكون إلا نكرة لشياعها ويكتفي في الحكم عليه بفرد من أفراد أي فرد كان .

(٩) والتقييد : هو الذي دخله تعيين ولو من بعض الوجوه ، كالشرط ، والصفة ، وغير ذلك ، انظر أحكام الفصول (٢٧٩) ، والتقييد والإطلاق أمران إضافيان ، فرب مطلق مقيد بالنسبة ، ورب مقيد مطلق فإذا قلت إنسان فهو مطلق ولو قلت فيه حيوان ناطق لكان مقيد لوصف الحيوان بالنطق وقد يكون اللفظ مقيداً من وجه مطلقاً من وجه انظر شرح تنقيح الفصول (٣٩ - ٤٠) ، (٢٦٦) ، شرح الكوكب المنير (٤٢١) .

من أصول الفقه ، ومعظمه هو في الحقيقة راجع لعلم اللغة ، إذ هو شيء يتكلم فيه على أوضاع العرب ، ولكن تكلم فيه غير اللغويين أو النحويين ومزجوه بأشياء من حجج العقول ، ومن أجمع ما في هذا الفن كتاب المحصول لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي^(١) ، وقد بحثت في هذا الفن في كتاب «الإشارة» «لأبي الوليد الباجي»^(٢) على الشيخ الأصولي الأديب «أبي الحسن فضل بن إبراهيم المعافري» ، الإمام بجامع «غرناطة» والخطيب به ، وعلى الأستاذ العلامة «أبي جعفر بن الزبير» في كتاب «الإشارة» وفي شرحها له وذلك بالاندلس ، وبحث أيضاً في هذا الفن على الشيخ «علم الدين عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري»^(٣) المعروف بابن بنت العراقي في مختصره الذي اختصره من كتاب المحصول ، وعلى الشيخ «علاء الدين علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب الباجي»^(٤) في «مختصره» الذي اختصره من كتاب «المحصول» ، وعلى الشيخ شمس الدين «محمد بن محمود الأصبهاني» صاحب «شرح المحصول» بحثت عليه في كتاب «القواعد» من تأليفه رحمه الله تعالى .

الوجه السادس : الكلام فيما يجوز على الله تعالى وما يجب له وما يستحيل عليه ، والنظر في النبوة ويختص هذا الوجه بالآيات التي تضمنت النظر في الباري تعالى ، وفي الأنبياء ، وإعجاز القرآن ، ويؤخذ هذا من علم الكلام ، وقد صنف علماء الإسلام من سائر الطوائف في هذا كتباً كثيرة ، وهو علم صعب إذ المزلة فيه والعياذ بالله مفض إلى الخسران في الدنيا والآخرة ، وقد سمعت منه مسائل تبحث على الشيخ شمس الدين الأصفهاني^(٥) وغيره .

الوجه السابع : اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص ، أو تغيير حركة أو إتيان بلفظ بدل لفظ ، وذلك بتواتر وآحاد ، ويؤخذ هذا الوجه من علم القرآن ، وقد صنف علماءنا في ذلك كتباً لا تكاد تحصى ، وأحسن الموضوعات في القراءات السبع : كتاب «الإقناع» «لأبي جعفر بن الباذش»^(٦) ، وفي القراءات العشر كتاب «المصباح» «لأبي الكرم

(١٠) = انظر مباحث الأمر والنهي في جمع الجوامع (٣٦٦/١) وما بعدها ، المعتمد (٤٩/١) وما بعدها ، والعدة لأبي يعلى (٢١٤/١) ، والبرهان (٣٢٣/١) ، الإحكام للآمدي (١٩٨/٢) ، المستصفى (١٦٢/١) ، المحصول (١٩/٢/١) فواتح الرحموت (٣٦٧/١) - المنتهى لابن الحاجب ص ٦٥ .

(١) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي الإمام فخر الدين الرازي القرشي البكري الشافعي المفسر المتكلم ولد سنة أربع وأربعين وخمسائة واشتغل على والده وكان من تلامذة محيي السنة البغوي وشرح مفصل الزمخشري - ابن السبكي (٨١/٨) ، الشذرات (٢١/٥) ، طبقات المفسرين للداودي (٢١٣/٢) .

(٢) سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي أبو الوليد الباجي فقيه أصولي مالكي كبير من رجال الحديث توفي سنة ٤٧٤ هجرية - انظر الوفيات (١٢/١) ، والفوات (١٧٥/١) ، نفع الطيب (٣٦١/١) ، الأعلام (١٢٥/٣) .

(٣) عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري علم الدين ابن بنت العراقي مفسر فقيه توفي سنة ٧٠٤ هجرية - انظر مفتاح السعادة (٢٢١/٢) ، الأعلام (٥٣/٤) ، الدرر الكامنة (٣٩٩/٢) ، كشف الظنون (١٤٧٧) .

(٤) علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب علاء الدين الباجي : عالم بالأصول والمنطق والحساب ، من أهل مصر ، مغربي الأصل ، كان أقوى أهل زمانه مناظرة لا يكاد ينقطع في بحث وله غاية السؤل في علم الأصول توفي سنة ٧١٤ هجرية - مفتاح السعادة (٢٢٤/٢) ، الأعلام (٣/٤) ، الدرر الكامنة (١٠١/٣) .

(٥) محمد بن محمود بن محمد بن عباد السلماني أبو عبد الله شمس الدين الأصفهاني ، قاض من فقهاء الشافعية بأصبهان ، له كتاب القواعد في أصول الفقه والدين والمنطق والجدل ، وشرح المحصول في أربعة مجلدات ولم يكمل ، توفي سنة ٦٨٨ هجرية ، فوات الوفيات (٢٦٥/٢) ، البداية والنهاية (٣١٥/١٣) ، الأعلام (٨٧/٧) .

(٦) أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري الغرناطي أبو جعفر المعروف بابن الباذش النحوي ابن النحوي ، قال ابن الزبير : عارف بالآداب والإعراب ، إمام نحوي متقدم ، راوية مكث ، أخذ عن أبيه وأكثر الرواية عنه ، وشاركه في كثير من شيوخه . وروى أيضاً عن أبي علي الغساني ، وأبي علي الصدفني . وكان عارفاً بالأسانيد ، نقاداً لها ، ألف الإقناع في القراءات ، لم يؤلف مثله . مات في =

الشهرزوري»^(١)، وقد قرأت القرآن بقراءة السبعة بجزيرة الأندلس على الخطيب أبي جعفر «أحمد بن علي بن محمد الرعيني»^(٢) عرف بابن الطباع بغرناطة، وعلى الخطيب أبي محمد «عبد الحق بن علي بن عبد الله الأنصاري»^(٣) الوادي تشبتي «بمطحشارش»، من حضرة غرناطة وعلى غيرهما بالأندلس، وقرأت القرآن بالقراءات الثمان بشعر «الإسكندرية» على الشيخ الصالح رشيد الدين أبي محمد عبد النصير بن علي بن يحيى الهمداني^(٤) عرف بابن المربوطي، وقرأت القرآن بالقراءات السبع بمصر حرسها الله تعالى على الشيخ المسند العدل فخر الدين أبي الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن علي المليحي^(٥)، وأنشأت في هذا العلم كتاب «عقد اللآلئ» قصيداً في عروض قصيد «الشاطبي»، ورويه يشتمل على ألف بيت وأربعة وأربعين بيتاً، صرحت فيها بأسامي القراء من غير رمز ولا لغز ولا حوشي لغة، وأنشأته من كتب تسعة كما قلت:

تَنْظُمُ هَذَا الْعَقْدُ مِنْ دُرِّ تِسْعَةٍ مِنْ الْكُتُبِ فَالتَّيْسِيرُ عَنْوَانُهُ انجلى
بِكَافٍ لِتَجْرِيدٍ وَهَادٍ لِتَبْصِرَةٍ وَإِقْنَاعٍ تَلْخِصُصِينَ مُكَمَّلًا
جَنَيْتُ لَهُ أَنْسِي لَفْظَ لَطِيفِهِ وَجَانِبْتُ وَحْشِيًّا كَثِيفًا مُعَقَّلًا

فهذه سبعة وجوه لا ينبغي أن يُقدم على تفسير كتاب الله إلا من أحاط بجملة غالبها من كل وجه منها، ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلا من كان متبحراً في علم اللسان، مترقياً منه إلى رتبة الإحسان، قد جبل طبعه على إنشاء النثر والنظم دون اكتساب، وإبداء ما اخترعته فكرته السليمة في أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرغ في ذلك زمانه النفس، وهجر الأهل والولد والأنيس، ذلك الذي له في رياضه أصفى مرتع، وفي حياضه أصفى مكرع، يتنسم عَرْفَ أزهار طال ما حجبته الكمام^(٦)، ويترشف كؤوس رحيق له المسك ختام، ويستوضح أنوار بدور سترتها كثائف الغمام، ويستفتح أبواب مواهب الملك العلام، يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد، وينفتح له ما استغلق إذ بيده الإقليد^(٧)، وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم، أو قصر في إنشاء المنشور والمنظوم، فإنه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وعن إدراك لطائف ما تضمنه من العجب العجائب، وحظه من علم التفسير إنما هو نقل أسطار، وتكرار محفوظ على مر الأعصار، ولتباين أهل الإسلام في إدراك فصاحة الكلام، وما به تكون الزجاجة في النظام، اختلفوا فيما به إعجاز القرآن، فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوغل في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر، ولا داخله تحت القدر، ومن لم يدرك هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنه من نمط كلام العرب، وإن مثله مقدور لمنشئ الخطب، فإعجازه عنده

= جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة - البغية (١/ ٣٣٨).

(١) المبارك بن الحسن بن أحمد الشهرزوري أبو الكرم عالم بالقراءات مجود لها صنف فيها المصباح الزاهر في القراءات العشر البواهر رواه من نحو خمسمائة طريق توفي في بغداد سنة ٥٥٠ هجرية - غاية النهاية (٢/ ٣٨)، إرشاد الأريب (٦/ ٢٢٧)، الأعلام (٥/ ٢٦٩) - (٢٧٠).

(٢) انظر ترجمته في شيوخ الإمام أبي حيان وسبب الرحلة في مقدمتنا على هذا الكتاب.

(٣) انظر شيوخ المصنف في المقدمة.

(٤) انظر شيوخ المصنف في المقدمة.

(٥) انظر المقدمة.

(٦) كمامها: الكُم، بالكسر، والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور، والجمع كِمام وأكمة وأكمام - لسان العرب (٥/ ٣٩٣١).

(٧) الإقليد: قال أبو الهيثم: الإقليد: المفتاح - لسان العرب (٥/ ٣٧١٧).

إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ومنازلته ، وإن كانوا قادرين على مماثلته ، والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصرف هم من نقصان الفطرة الإنسانية في رتبة بعض النساء حين رأت زوجها يَطأ جارية فعاتبته فأخبر أنه ما وطئها ، فقالت له إن كنت صادقاً فأقرأ شيئاً من القرآن ، فأنشدها بيت شعر قاله ذكر الله فيه ورسوله وكتابه فصدقته ، فلم ترزق من الرزق ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحق .

وحكى لنا أستاذنا العلامة « أبو جعفر » - رحمه الله تعالى - عن بعض من كان له معرفة بالعلوم القديمة ، ومعرفة بكثير من العلوم الإسلامية ، أنه كان يقول له يا أبا جعفر لا أدرك فرقاً بين القرآن وبين غيره من الكلام ، فهذا الرجل وأمثاله من علماء المسلمين يكون من الطائفة الذين يقولون بأن الإعجاز وقع بالصرقة ، وكان بعض شيوخنا من له تحقق بالمعقول ، وتصرف في كثير من المنقول ، إذا أراد أن يكتب فقرأ فصيحة أتى لبعض تلامذته وكلفه أن ينشئها له ، وكان بعض شيوخنا ممن له التبصر في علم لغة العرب إذا أسقط من بيت الشعر كلمة ، أو ريع البيت ، وكان المعين بدون ما أسقط لا يدرك ما أسقط من ذلك ، وأين هذا في الإدراك من آخر إذا حركت له مسكناً أو سكنت له محرراً في بيت أدرك ذلك بالطبع ، وقال إن هذا البيت مكسور ، ويدرك ذلك في أشعار العرب الفصحاء إذا كان فيه زحاف ما ، وإن كان جائزاً في كلام العرب ، لكن يجد مثل هذا طبعه ينبو^(١) عنه ويقلق لسماعه هذا وإن كان لا يفهم معنى البيت لكونه حوشياً للغات ، أو منطقياً على حوشي^(٢) ، فهذه كلها من مواهب الله تعالى لا تؤخذ باكتساب ، لكن الاكتساب يقويها وليس العرب متساوين في الفصاحة ، ولا في إدراك المعاني ولا في نظم الشعر، بل فيهم من يكسر الوزن ومن لا ينظم ولا بيتاً واحداً ، ومن هو مقل من النظم ، وطباعهم كطباع سائر الأمم في ذلك ، حتى فحول شعرائهم يتفاوتون في الفصاحة ، وينفخ الشاعر منهم القصيدة حولاً حتى يسمى قصائد الحوليات فهم مختلفون في ذلك ، وكذلك كان بعض الكفار حين سمع القرآن أدرك إعجازه للوقت ، فوق وأسلم ، وآخر أدرك إعجازه فكفر ، ولج في عناده ﴿ بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ [البقرة : ٩٠] ، فنسب تارة إلى الشعر وتارة إلى الكهانة والسحر ، وآخر لم يدرك إعجاز القرآن كتلك المرأة العربية التي قدمنا ذكرها ، وكحال أكثر الناس فإنهم لا يدركون إعجاز القرآن من جهة الفصاحة ، ممن أدرك إعجازه فوق وأسلم بأول سماع سمعه « أبوذر » رضي الله عنه قرأ عليه رسول الله ﷺ من أوائل فصلت آيات فأسلم للوقت ، وخبره في إسلامه مشهور ، وممن أدرك إعجازه وكفر عناداً « عتبة بن ربيعة » ، وكان من عقلاء الكفار حتى كان يتوهم « أمية بن الصلت »^(٣) أنه هو يعني عتبة يكون النبي المنبعث في « قريش » ، فلما بعث الله محمداً ﷺ حسده عتبة ، وأضرابه مع علمهم بصدقه وأن ما جاء به معجز ، وكذلك « الوليد بن المغيرة » ، روى عنه أنه قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلو^(٤) ، ومع هذا الاعتراف غلب عليه الحسد والأشر^(٥) ، حتى قال ما حكى الله عنه ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾ [المدثر : ٢٥] ، وممن

(١) ينبو : نبا عنه بصره ينبو ، أي تجافى ولم ينظر إليه - لسان العرب (٤٣٣٢/٦) .

(٢) حوشي الكلام : وحشية وغريبة - لسان العرب (١٠٤٩/٢) .

(٣) أمية بن عبد الله أبي الصلت بن أبي ربيعة عوف الثقفي . شاعر جاهلي حكيم ، من أهل الطائف ، قدم دمشق قبل الإسلام ، وكان مطلعاً على الكتب القديمة ، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ، ونبذوا عبادة الأوثان ، توفي سنة ٥ هجرية - سمط اللآلئ

(٣٦٢) ، الخميس (٤١٢/١) ، وفيه أن وفاته سنة ٢ هجرية ، الأعلام (٢٣/٢) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٧٣/١) ، وابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ، ورواه البيهقي في الشعب بسند جيد ، وذكره ابن إسحاق في السيرة .

(٥) الأشر : البطر - لسان العرب (٨٤/١) .

لم يدرك إعجازه أو أدرك وعاند وعارض مسيلمة الكذاب ، أتى بكلمات زعم أنها أوحيت إليه انتهت في الفهامة^(١) والعي والغثاة بحيث صارت هزأة للسامع ، وكذلك « أبو الطيب المتنبي » وقد ذكر القاضي أبو بكر محمد بن أبي الطيب الباقلاني^(٢) في كتاب « الانتصار في إعجاز القرآن » شيئاً من كلام أبي الطيب مما هو كفر ، وذكر لنا قاضي القضاة أبو الفتح محمد بن علي بن وهب القشيري أن أبا الطيب ادعى النبوة ، واتبعه ناس من عبس وكتب وأنه اختلق شيئاً ادعى أنه أوحى إليه به سوراً سماها العبر ، وإن شعره لا يناسبها لجودة أكثره ورداءتها كلها أو كلاً ما هذا معناه ، وإنما أتينا بهذه الجملة من الكلام ليعلم أن أذهان الناس مختلفة في الإدراك على ما شاء الله تعالى وأعطى كل أحد . (ولنبين) .

[الشروط الواجب توافرها في المفسر]

إن علم التفسير ليس متوقفاً على علم النحو فقط كما يظنه بعض الناس ، بل أكثر أئمة العربية هم بمعزل عن التصرف في الفصاحة والتفنن في البلاغة ، ولذلك قلت تصانيفهم في علم التفسير ، وقل أن ترى نحوياً بارعاً في النظم والثر ، كما قل أن ترى بارعاً في الفصاحة يتوغل في علم النحو ، وقد رأينا من ينسب للإمامة في علم النحو وهو لا يحسن أن ينطق بأبيات من أشعار العرب فضلاً عن أن يعرف مدلولها أو يتكلم على ما انطوت عليه من علم البلاغة والبيان فأنى لمثل هذا أن يتعاطى علم التفسير ، والله در أبي القاسم الزمخشري^(٣) حيث قال في خطبة كتابه في « التفسير » ما نصه .

إن أملاً العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهز الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلفظ مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه ، وإجالة النظر فيه ، كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ^(٤) في كتاب « نظم القرآن » ، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علك^(٥) اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التتقير عنهما أزمته ، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجّع زماناً ورجّع إليه ، وردّ وردّ عليه ، فارساً في علم الإعراب ، مقدماً في جملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان

(١) الفَهَامَةُ : الفَهْمَةُ والفَهَاهَةُ : العِيَّ - لسان العرب (٣٤٨١/٥) .

(٢) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها ومن كتبه إعجاز القرآن والإنصاف ، وقد طبع أكثر من مرة توفي سنة ٤٠٣ هجرية - انظر وفيات الأعيان (٤٨١/١) ، تاريخ بغداد (٣٧٩/٥) ، الأعلام (١٧٦/٦) .

(٣) ستاتي ترجمة المصنف رحمه الله له بعد قليل .

(٤) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة - توفي سنة ٢٥٥ هجرية . إرشاد الأريب (٥٦/٦) ، أمراء البيان (٣١١) ، الأعلام (٧٤/٥) .

(٥) علك : الشيء يعلُكُهُ ويعلُكه عُلُكاً : مضغه ولجلجله - لسان العرب (٣٠٧٧/٤) .

النفس دراً كالجمعة وإن لطف شأنها ، متبهاً على الرزمة^(١) وإن خفي مكانها ، لا كَرَأَ^(٢) جاسياً^(٣) ، ولا غليظاً جافياً ، متصرفاً ذا دربة بأساليب النظم والنثر ، مرتاضاً غير ريفض بتلقيح نبات الفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقه ، ووقع في مداخضة ومزالقه ، انتهى كلام « الزمخشري » في وصف متعاطي تفسير القرآن ، وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي يبهج بجنسه الأدباء ، ويقهر بفصاحته البلغاء ، وهو شاهد له بأهليته للنظر في تفسير القرآن ، واستخراج لطائف الفرقان .

[حديثه عن الزمخشري وابن عطية]

وهذا « أبو القاسم محمود بن عمر المشرقي الخوارزمي الزمخشري » ، و « أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي » المغربي الغرناطي^(٤) ، أجل من صنف في علم التفسير ، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير ، وقد اشتهرا ولا كاشتهار الشمس ، وخلدا في الأحياء وإن هدا في الرسم ، وكلامهما فيه يدل على تقدمهما في علوم ، من منشور ومنظوم ، ومنقول ومفهوم ، وتقلب في فنون الآداب ، وتمكن من علمي المعاني والإعراب ، وفي خطبتي كتابيهما وفي غصون كتاب « الزمخشري » ما يدل على أنهما فارسا ميدان ، وممارسا فصاحة وبيان ، وللزمخشري تصانيف غير تفسيره ، منها « الفائق » في لغات الحديث ، و « مختلف الأسماء ومؤلفها » ، و « ربيع الأبرار » ، و « الرائض في الفرائض » ، و « المفصل » وغير ذلك ، وقد ذكر الوزير أبو نصر الفتح بن خاقان الاشبيلي^(٥) في كتابه المسمى « قلائد العقيان ومحاسن الأعيان » أبا محمد بن عطية^(٦) فقال فيه : نبعة روح العلا ، ومحرز ملابس الثنا ، فذ الجلالة ، وواحد العصر والأصالة ، وقار كما رسا الهضب^(٧) وأدب كما اطرده السلسل العذب ، أثره في كل معرفة علم في رأسه نار ، وطوالعه في آفاقها صبح ونهار ، وقد أثبت من نظمه ما ينفع عبيراً ، ويتضح منيراً ، وأورد له ثراً كما نظم قلائد ، ونظماً تزدان بمثله أجياد الولائد ، من ألفاظ عذبة تستنزل برقتها العصم ومعان مبتكرة تفحم الألد الخصم ، أبقت له ذكراً مخلداً على جبين الدهر ، وعرفاً أرجاً كتضوع الزهر ، ولما كان

(١) الرزمة : الرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما بيان بلفظ - لسان العرب (١٧٢٧/٣) ، ترتيب القاموس (٣٨٨/٢) ، مجمل اللغة (٤٢٠/٢) .

(٢) لا كَرَأَ : الكَرَزَ : الذي لا ينسبط . لسان العرب (مادة كرز) .

(٣) جاسياً : وجسا الرجل جَسُواً وجُسُوءاً : صُلْب - لسان العرب (٦٢٥/١) ، ترتيب القاموس (٤٩٣/١) ، مجمل اللغة (٤٣٦/١) .

(٤) ستأتي ترجمة المصنف رحمه الله .

(٥) الأديب الكبير أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الاشبيلي ، صاحب كتاب قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، وهو مطبوع عدة طبعات ، والعقيان يكسر العين الذهب الخالص - توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وذكر ابن الأبار أنه توفي سنة ٥٢٨ هجرية انظر معجم الأدباء (١٨٦/١٦) ، معجم ابن الأبار (٣١٣) ، وفيات الأعيان (٢٣/٤) ، السير (١٠٧/٢٠) .

(٦) انظر ترجمته في الصلة (٣٨٦/٢) - بغية الملتبس (٣٧٦) ، معجم ابن الأبار (٢٦٩) ، صلة الصلة لابن الزبير ٢ ، الديباج المذهب (٥٧/٢) ، بغية الوعاة (٧٣/٢) ، طبقات المفسرين للسيوطي (١٦ - ١٧) ، سير أعلام النبلاء (٥٨٧/١٩) ، طبقات المفسرين للداودي (٢٦٠/١) ، نفع الطيب (٦٧٩/١) ، شجرة النور الزكية (٢٩/١) ، كشف الظنون (٤٣٩) ، (١٦١٣) ، هدية العارفين (٥٠٢) .

(٧) الهضب : الهضبة والهضب : الجبل المنبسط - لسان العرب (٤٦٧٠/٦) ، مجمل اللغة (٤٨١/٤) ، ترتيب القاموس (٥١٥/٤) .

كتاباهما في التفسير قد أنجدا وأغاراً^(١) ، وأشرقا في سماء هذا العلم بدرّين وأنارا ، وتنزلا من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العين ، والذهب الابريز من العين ، وقيمة الدر من اللآلي ، وليفة القدر من الليالي ، فعكف الناس شرقاً وغرباً عليهما ، وثنوا أعنة الاعتناء إليهما ، وكان فيهما على جلالتهما مجال لانتقاد ذوي التبريز^(٢) ، ومسرح للتخييل فيهما والتمييز ، ثبت إليهما عنان الانتقاد ، وحللت ما تخيل الناس فيهما من الاعتقاد ، أنهما في التفسير الغاية التي لا تدرك ، والمسلك الوعر الذي لا يكاد يسلك ، وعرضتهما على محك النظر ، وأوريت فيهما نار الفِكر ، حتى خلص دسيسهما ، وبرز نفيسهما ، وسيرى ذلك من هو للنظر أهل ، واجتمع فيه إنصاف وعدل ، فإنه يتعجب من التولج على الضراغم^(٣) ، والتحرز لأشبالها والأنف راغم ، إذ هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير ، وممارسا تحريره والتحرير ، نشرهما نشرأ ، وطار لهما به ذكراً ، وكانا متعاصرين في الحياة ، متقاربين في الممات (ولد أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري)^(٤) « بزمخشري » قرية من قرى خوارزم يوم الأربعاء السابع عشر لرجب سنة سبع وستين وأربعمائة (وتوفي بكر كنج) قصبة « خوارزم » ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسائة (وولد أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرؤوف بن عبد الله بن تمام بن عطية المحاربي من أهل غرناطة) سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وتوفي بلورقة في الخامس والعشرين لرمضان سنة إحدى وأربعين وخمسائة هكذا ذكره القاضي ابن أبي جمرة^(٥) في وفاة ابن عطية وقال الحافظ أبو القاسم بن بشكوال :^(٦) توفي يعني « ابن عطية » سنة اثنين وأربعين وخمسائة ، وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص ، وكتاب الزمخشري ألخص وأغوص ، إلا أن الزمخشري قائل بالطفرة ، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة ، فربما سنع له أبي المقادة فأعجزه اغتيابه ، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه ، فتركه عقلاً لمن يصطاده ، وغفلاً لمن يرتاده ، وربما ناقض هذا المتزع فتني العنان إلى الواضح ، والسهل اللائح ، وأجال فيه كلاماً ، ورمى نحو غرضه سهاماً ، هذا مع ما في كتابه من نصرة مذهبه ، وتحقّم مرتكبه ، وتحشّم حمل كتاب الله عزّ وجلّ عليه ، ونسبة ذلك إليه ، فمغتفر إساءته لإحسانه ، ومصفوح عن سقطه في بعض لإصابته في أكثر تبيانه . فما كان في كتابي هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله تعالى فأخبرني به أستاذنا العلامة أبو

(١) أنجدا وأغاراً : قال الفارسي : أغار ذهب في الأرض ، وأنجد : ارتفع - لسان العرب (٤٣٤٧/٦) ، مجمل اللغة (٣٧٨/٤) ، ترتيب القاموس (٣٢٦/٤) .

(٢) البريز : رجل برز وامرأة برزة : يوصفان بالجهاة والعقل - لسان العرب (٢٥٥/١) ، مجمل اللغة (٢٥١/١) ، ترتيب القاموس (٢٤٧/١) .

(٣) الضراغم : الضّرغم والضّرغام والضرغام : الأسد - لسان العرب (٢٥٨٢/٤) ، ترتيب القاموس (٢٤/٣) .

(٤) الأنساب (٢٩٧/٦ - ٢٩٨) ، نزهة الألبا (٣٩١) ، المنتظم (١١٢/١٠) ، معجم البلدان (١٤٧/٣) ، الأدباء (١٢٦/١٩) ، اللباب (٧٤/٢) ، إنباه الرواة (٢٦٥/٣) ، وفيات الأعيان (١٦٨/٥) ، المختصر في أخبار البشر (١٦/٣) ، العبر (١٠٦/٤) ، السير (١٥١/٢٠) ، وما بعدها تذكرة الحفاظ (١٢٨٣/٤) ، بغية الوعاة (٢٧٩/٢) ، طبقات المفسرين للداودي (٣١٤/٢) ، معجم المطبوعات (٩٧٣) .

(٥) الشيخ الإمام المعمر مسند المغرب أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن أبي جمرة الأموي مولا هم الأندلسي المرسي مات بمرسية في المحرم سنة تسع وتسعين وخمسائة .

التكملة لابن الأبار (٥٦١/٢) ، سير أعلام النبلاء (٣٩٨/٢١) ، العبر (٣٠٩/٤) ، الشذرات (٣٤٢/٤) .

(٦) هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن داحة الأنصاري .

توفي ليلة الأربعاء ، الموافق ثمانية من رمضان عام ثمانية وسبعين وخمسائة ، ودفن لصلاة المغرب بمقبرة ابن عباس وعلى مقربة من قبر يحيى بن يحيى . وصلى عليه الحاكم يومئذ بقرطبة أبو الوليد هشام ، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام . تذكره الحفاظ (١٣٣٩/٤) ، التكملة لكتاب الصلة ج ١ رقم (٨٣١) ، دائرة المعارف الإسلامية (٩٧/١) ، وفيات الأعيان (١٣/٢) .

جعفر « أحمد بن إبراهيم بن الزبير » قراءة مني عليه فيه ، وإجازة أيام كنت أبحث معه في كتاب سيبويه ، عن القاضي « ابن الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني^(١) » عن « أبي طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر الخشوعي^(٢) » ح وأخبرني به عالياً « أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي^(٣) » عرف بابن البخاري « في كتابه إلي من دمشق » عن « أبي طاهر الخشوعي » وهو آخر من حدث عنه عن « الزمخشري » ، وما كان في هذا الكتاب من تفسير « ابن عطية » فأخبرني به القاضي الإمام « أبو علي الحسين بن عبد العزيز بن أبي الأحوص » القرشي^(٤) ، قراءة مني عليه لبعضه ، ومناولة عن الحافظ « أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي^(٥) » ، قال أخبرنا أبو « القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري^(٦) » يعرف بابن حبيش » ، قال أخبرنا به مصنفه قراءة عليه لجميعه ، وأخبرني به عالياً القاضي الأصولي المتكلم « أبو الحسن محمد بن القاضي الأصولي المتكلم » « أبي عامر يحيى بن عبد الرحمن الأشعري^(٧) » نسباً ، ومذهباً إجازة كتبها لي بخطه « بغرناطة » عن أبي الحسن علي بن أحمد بن علي الغافقي الشقوري^(٨) بقرطبة ، وهو آخر من حدث عن « ابن عطية » وهو آخر من روى عنه ، واعتمدت في أكثر نقول كتابي هذا على كتاب « التحرير والتحجير » لأقوال أئمة التفسير من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب « جمال الدين أبي عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسي » عرف « بابن النقيب » - رحمه الله تعالى - إذ هو أكبر كتاب رأيته صنف في علم التفسير ، يبلغ في العدد مائة سفر أو يكاد إلا أنه كثير التكرير ، قليل التحرير ، مفرط الإسهاب لم يعد جامعه من نسخ كتب في كتابه كذلك كان فيه بحال التهذيب ومراد الترتيب ، وهذا الكتاب روايتي بالإجازة من

- (١) ابن الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السكوني الأندلسي الكاتب شيخ البلاغة . توفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة .
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٦٣٠/٥) ، سير أعلام النبلاء (٢٣/٢٩٩) .
- (٢) أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات بن إبراهيم الدمشقي الخشوعي الأنماطي . ولد في صفر سنة عشر وخمسمائة وتوفي في صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .
- السير (٢١/٣٥٥) ، التكملة للمنذري ترجمة (٦٥٥) ، العبر (٤/٣٠٢) ، دول الإسلام (٢/٧٩) ، النجوم الزاهرة (١٨١/٥) ، الشذرات (٤/٣٣٥) .
- (٣) علي بن أحمد بن عبد الواحد السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي قمر الدين أبو الحسن المعروف بابن البخاري ، علامة بالحديث ، نعتة الذهبي بمسند الدنيا ، قال ابن تيمية رحمه الله ينشر صدري إذا أدخلت ابن البخاري بيني وبين النبي ﷺ توفي سنة ٦٩٠ هجرية - الشذرات (٥/٤١٤) ، الأعلام (٤/٢٥٧) ، كشف الظنون (٢/١٦٩٦) .
- (٤) الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الإمام أبو علي بن أبي الأحوص القرشي الفهري الغرناطي الموطن ، ألف في القراءات توفي في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وستمائة ، البغية (١/٥٣٥) ، غاية النهاية (١/٢٤٢) .
- (٥) أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي البلنسي الإمام العلامة الحافظ المجود الأديب البليغ شيخ الحديث والبلاغة بالاندلس استشهد في كائنة أنيشة على ثلاث فراسخ من مرسية في العشرين من ذي الحجة سنة أربع وثلثين وستمائة . انظر السير (٢٣/١٣٤) ، التكملة للمنذري ٣ رقم (٢٧٧٠) ، تذكرة الحافظ (٤/١٤١٧) ، الديباج (١/٣٨٥) .
- (٦) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن يوسف الأنصاري الأندلسي المرسيني ؛ نزيل مرسية ، ابن حُبَيْش وحبيش خاله ، فينسب إليه توفي في صفر سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، السير (٢١/١١٨) ، البغية (٢/٨٥) ، الشذرات (٤/٢٨٠) .
- (٧) يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع أبو عامر الأشعري القرطبي صاحب التصانيف الكلامية انظر سير أعلام النبلاء (٢٣/٨٠) .
- (٨) الإمام المقرئ المسند أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن عيسى الغافقي القرطبي الشقوري ، قال ابن البار كان ثقة صالحاً . مات في صفر سنة ست عشرة وستمائة ، السير (٢٢/٩٥) ، غاية النهاية (١/٥٢١) ، والشقوري بفتح الشين المعجمة ، وضم القاف نسبة إلى شقورة من نواحي قرطبة .

جامعه رحمه الله تعالى ، وقد شاهدناه غير مرة حين جمعه يقول للناسخ اقرأ عليّ فيقرأ عليه فيقول اكتب من كذا إلى كذا ، وينقل ما في كتب التفسير التي اعتمدها ، ويعزو في أكثر المواضع ما ينقل منها إلى مصنف ذلك الكتاب ، وكان فيه فضيلة أدب وله نثر ونظم متوسط رحمه الله تعالى ورضي عنه (وقد تقدم أني قرأت كتاب الله تعالى على جماعة من المقرئين رحمهم الله تعالى) وأنا الآن أسند قراءتي القرآن ، من بعض الطرق وأذكر شيئاً مما ورد في القرآن وفوائده وتفسيره على سبيل الاختصار فأقول ، قرأت القرآن برواية « ورش »^(١) وهي الرواية التي نشأ عليها ببلادنا وتعلمها أولاً في المكتب ، على المسند المعمر العدل أبي طاهر إسماعيل بن هبة الله بن علي المليجي^(٢) بمصر ، وقرأتها على أبي الجود غياث بن فارس بن مكي المنذري^(٣) بمصر ، وقرأتها على « أبي الفتوح ناصر بن الحسن بن إسماعيل الزيدي »^(٤) « بمصر » ، وقرأتها على « أبي الحسن يحيى بن علي بن أبي الفرج الخشاب »^(٥) « بمصر » ، وقرأتها على أبي الحسن أحمد بن سعيد بن نفيس^(٦) بمصر ، وقرأتها على « ابن عدي عبد العزيز بن علي بن محمد »^(٧) عرف بابن الإمام « بمصر » ، وقرأتها على « أبي بكر بن عبد الله بن مالك بن سيف »^(٨) « بمصر » ، وقرأتها على « أبي يعقوب بن يوسف بن عمرو بن سيار » ويقال يسار الأزرق « بمصر » ، وقرأتها على « أبي عمر وعثمان بن سعيد بن عدي الملقب « بورش » بمصر » ، وقرأتها على « أبي عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم »^(٩) بمدينة رسول الله ﷺ ، وقرأ « نافع » على « أبي جعفر يزيد بن القعقاع »^(١٠) بمدينة رسول الله ﷺ ، وقرأ « يزيد » على

- (١) عثمان بن سعيد بن عدي المصري من كبار القراء غلب عليه لقب (ورش) لشدة بياضه توفي سنة ١٩٧ هجرية ، غاية النهاية (٥٠٢/١) ، إرشاد الأريب (٣٣/٥) ، الأعلام (٢٠٥/٤) .
- (٢) إسماعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله أبو طاهر بن المليجي - بفتح الميم وباء ساكنة بعد اللام المكسورة وجيم - شيخ عدل مسند ، قرأ السبع على أبي الجود غياث بن فارس . انظر غاية النهاية (١٦٩/١) .
- (٣) غياث بن فارس بن مكي بن عبد الله أبو الجود اللخمي المنذري المصري إمام كامل أستاذ ثقة . توفي في تاسع رمضان سنة خمس وستمئة ، غاية النهاية (٤/٢) .
- (٤) ناصر بن الحسن بن إسماعيل بن زيد أبو الفتوح الزيدي المعروف بالشريف الخطيب شيخ الديار المصرية ومقرئها ، غاية النهاية (٣٢٩/٢) .
- (٥) يحيى بن علي بن الفرج أبو الحسين المصري يعرف بابن الخشاب شيخ الإقراء بالديار المصرية . توفي سنة أربع وخمسمئة ، غاية النهاية (٣٧٥/٢) .
- (٦) أحمد بن سعيد بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن سليمان المعروف بابن نفيس أبو العباس الطرابلسي الأصل ثم المصري . إمام ثقة كبير انتهى إليه علو الإسناد . توفي في رجب سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة ، غاية النهاية (٥٦/١ - ٥٧) .
- (٧) عبد العزيز بن علي بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن الفرج أبو عدي المصري . يعرف بابن الإمام ، مقرأ محدث متصدر ضابط ، شيخ القراء ومسندهم بمصر وكان شيخاً وربما صدوقاً ، مات في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة غاية النهاية (٣٩٤/١ - ٣٩٥) .
- (٨) أبو بكر بن سيف بن أبي بكر الزين بن الحريري المزني الشافعي ، توفي في ربيع الأول سنة ست وعشرين وسبعمئة عن ثمانين سنة غاية النهاية (١٨٤/١ - ١٨٥) .
- (٩) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم ، ويقال أبو الحسن ، وقيل أبو عبد الله ، وقيل أبو عبد الرحمن ، الليثي مولاهم ، وهو مولى جعونة بن شعوب الليثي خليف حمزة بن عبد المطلب المدني . أحد القراء السبعة والأعلام ثقة صالح ، انظر غاية النهاية (٣٣٠/٢) ، وما بعدها .
- (١٠) يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي المدني القارئ أحد القراء العشرة تابعي ، مشهور ، كبير القدر ، ويقال اسمه جندب بن فيروز ، وقيل فيروز ، انظر غاية النهاية (٣٨٢/٢) .

« عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي »^(١) بمدينة رسول الله ﷺ ، وقرأ « عبد الله » على « أبي المنذر أبي بن كعب » بمدينة رسول الله ﷺ ، وقرأ « أبي » على رسول الله ﷺ ، هذا إسناد صحيح دائر بين مصري ومدني فمن شيخي إلى ورش مصريون ، ومن نافع إلى من بعده مديون ، (ومثل هذا الإسناد عزيز الوجود بيني وبين رسول الله ﷺ ثلاثة عشر رجلاً) ، وهذا من أعلي الأسانيد التي وقعت لي وقد وقع لي في بعض القراءات أن بيني وبين رسول الله ﷺ اثني عشر رجلاً ، وذلك في قراءة « عاصم »^(٢) وهي القراءة التي ينشأ عليها أهل العراق ، وهو إسناد أعلى ما وقع لأمثالنا ، وقرأت القرآن على « أبي الطاهر بن المليجي » ، قال قرأت على « أبي الجود »^(٣) ، قال : قرأت على « أبي الفتوح الزيدي » ، قال : قرأت على « أبي الحسن علي بن أحمد الأبهر »^(٤) ، قال : قرأت على « أبي الحسن بن إبراهيم الأهوازي »^(٥) ، قال : قرأت على « أبي الحسن بن علي بن الحسين بن عثمان الغضائري »^(٦) وقرأ « الغضائري » على « أبي بكر يوسف بن يعقوب بن خالد بن مهران الواسطي »^(٧) ، قال : قرأت على « أبي محمد يحيى بن محمد بن قيس الأنصاري العليني »^(٨) الكوفي ، قال قرأت على « أبي بكر بن عياش » ، قال : قرأت على « عاصم » ، وقرأ « عاصم » على « أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي »^(٩) ، وقرأ « السلمي » على « أبي بن كعب » و « عثمان بن عفان » و « علي بن أبي طالب » و « عبد الله بن مسعود » و « زيد بن ثابت » ، وقرأ هؤلاء الخمسة على رسول الله ﷺ .

[ذكر فضائل القرآن]

(وأما ما ورد في القرآن وفوائده) فقد صنف الناس في ذلك « كآبي عبيد القاسم بن سلام »^(١٠) وغيره .

(ومما روي) أن رسول الله ﷺ قال : إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قيل : فما النجاة منها يا رسول الله ؟

(١) عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عمر وأبو الحارث المخزومي التابعي الكبير ، كان أقرأ أهل المدينة في زمانه مات بعد سنة سبعين وقيل سنة ثمان وسبعين ، غاية النهاية (٤٣٩/١ - ٤٤٠) .

(٢) عاصم بن بهدلة أبي النجد أبو بكر الأسدي الكوفي ، شيخ الإقراء بالكوفة ، وأحد القراء السبعة ، انظر غاية النهاية (٣٤٦/١ - ٣٤٧) .

(٣) وقد تقدم ترجمته وهو غياث بن فارس .

(٤) علي بن أحمد بن علي أبو الحسن الأبهر الضريير ، قال ابن الجزري : كان موجوداً في حدود عام خمسمائة ، غاية النهاية (٥٢١/١) .

(٥) الحسن بن علي بن إبراهيم بن يزداد بن هرمز الأستاذ أبو علي الأهوازي صاحب المؤلفات ، شيخ القراء في عصره ، وأعلى من بقي في الدنيا إسناداً . إمام كبير محدث ، انظر غاية النهاية (٢٢٠/١) .

(٦) علي بن الحسين بن عثمان بن سعيد أبو الحسن الغضائري البغدادي ، انظر غاية النهاية (٥٣٤/١) .

(٧) يوسف بن يعقوب بن الحسين بن يعقوب بن خالد بن مهران وقيل خلف بن مهران أبو بكر الواسطي يعرف بالأصم . إمام جليل ثقة مقررء محقق كبير القدر مات في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة عن مائة إلا خمس سنين ، غاية النهاية (٤٠٤/٢ - ٤٠٥) .

(٨) يحيى بن محمد بن قيس وقيل ابن محمد بن عليم أبو محمد العليني الأنصاري الكوفي ، شيخ القراء بالكوفة ، مقررء حاذق ثقة . توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين عن ثلاث وتسعين سنة ، غاية النهاية (٣٧٨/٢ - ٣٧٩) .

(٩) عبد الله بن حبيب بن ربيعة أبو عبد الرحمن السلمي الضريير مقررء الكوفة ، ولد في حياة النبي ﷺ ، ولأبيه صحبة . إليه انتهت القراءة تجويداً وضبطاً ، انظر غاية النهاية (٤١٣/١) .

(١٠) الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله ولد سنة سبع وخمسين ومائة ، أخذ اللغة عن أبي عبيدة ، وأبي زيد ، وجماعة وله كتاب فضائل القرآن ، وهو مطبوع ، والغريب ، وغير ذلك توفي سنة ٢٢٤ هجرية - انظر السير (٤٩٠/١٠) ، طبقات ابن سعد (٣٥٥/٧) ، التاريخ الكبير للبخاري (١٧٢/٧) ، وفیات الأعيان (٦٠/٤) .

قال : كتاب الله تعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، من تركه تجبراً قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيج به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يملئه الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن عصم به فقد هدي إلى صراط مستقيم^(١) ، وقال رسول الله ﷺ من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : اتلوا هذا القرآن ، فإن الله تعالى يأجركم بالحرف عشر حسنات ، أما إنني لا أقول ألم حرف ، ولكن الألف حرف ، واللام حرف ، والميم حرف^(٣) .

وروي عنه ﷺ أنه قال في آخر خطبة خطبها وهو مريض : أيها الناس إنني تارك فيكم الثقلين ، إنه لن تعمى أبصاركم ، ولن تضل قلوبكم ، ولن تزل أقدامكم ، ولن تقصر أيديكم ، كتاب الله سبب بينكم وبينه ، طرفه بيده وطرفه بأيديكم ، فاعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه ، وأحلّوا حلاله ، وحرموا حرامه ، ألا وأهل بيتي وعترتي وهو الثقل الآخر ، فلا تسبوهم فتهلكوا^(٤) .

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال : من قرأ القرآن فرأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغراً ما عظم الله^(٥) .

وعنه ﷺ أنه قال : ما من شفيع أفضل عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك^(٦) ، وعنه ﷺ أفضل عبادة أمتي القرآن^(٧) ، وعنه ﷺ أنه قال : أشرف أمتي حملة القرآن^(٨) .

وعنه ﷺ أنه قال : من قرأ مائة آية كتب من القانتين^(٩) ، ومن قرأ مائتي آية لم يكن من الغافلين^(١٠) ، ومن قرأ

(١) أخرجه الدارمي في السنن (٤٣٥/٢) ، في كتاب فضائل القرآن ، والترمذي (١٥٨/٥ - ١٥٩) ، في فضائل القرآن باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) ، وقال هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول .

(٢) وهو مروي من كلام ابن مسعود رضي الله عنه ، انظر البرهان في علوم القرآن (٨/١) ، النهاية في غريب الحديث (٣٨/١) ، ومعنى فليثور القرآن أي : ليجتهد عن معانيه وعلمه وقراءته وتفسيره ، انظر لسان العرب م (ثور) ، ترتيب القاموس (٤٢٧/١) .

(٣) أخرجه من حديث عبد الله بن مسعود الدارمي (٤٢٩/٢) ، في فضائل القرآن والترمذي (١٧٥/٥) ، في فضائل القرآن باب ١٦ حديث (٢٩١٠) ، وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٤) أخرجه الطبري من حديث ابن مسعود في التفسير (٦٨/١) ، بلفظ مقارب .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤٩/١) ، وعزاه للطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن عبد الله بن عمرو ، وأخرجه أيضاً الخطيب في التاريخ (٣٩٦/٩) .

(٦) ذكره الحافظ العراقي في تخریج الأحياء (٢٧٣/١) ، وقال مرسل ، وانظر كشف الخفاء (٢٠/١) .

(٧) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (٤٤/٢) (فيض) لابن قانع عن أسير بن جابر ، وللسجزي في الإبانة عن أنس ، ورمز له بالضعف ، وعزاه المناوي لأبي نعيم في فضائل القرآن عن النعمان بن بشير ، وأنس معاً . قال الحافظ العراقي وإسنادهما ضعيف وذكره الهندي في الكنز (٢٢٦٣) ، (٢٣٥٧) .

(٨) أخرجه ابن عساكر كذا في تهذيب تاريخ دمشق (٤٣٣/٢) .

(٩) أخرجه ابن عدي في الكامل (٩٤٦/٣) .

(١٠) ذكره المنذري في الترغيب (٢٤٧/٢) ، بلفظ من قرأ مائتي آية كتب من القانتين . وهو عند الدارمي (٤٦٥/٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٢٦٧/٢ - ٢٦٨) ، وأورده ابن الجوزي في العلل (١٠٤/١) ، ولفظ من قرأ مائة آية في ليلة لم يكتب من الغافلين أخرجه ابن عدي في الكامل (٧٩٥/٢) ، وأخرجه أيضاً البغوي في التفسير (١٧٠/٧) ، وابن كثير (١٥/٢) .

ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن^(١) ، وعنه عليه السلام أنه قال: القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من شفع له القرآن نجا ، ومن محل به القرآن يوم القيامة أكبه الله لوجهه في النار ، وأحق من شفع له القرآن أهله وحملته ، وأولى من محل به القرآن من عدل عنه وضعه .

وعنه عليه السلام أنه قال : إن أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى^(٢) .

وعنه عليه السلام أنه قال : إن الذي يتعاهد القرآن ويشد عليه له أجران ، والذي يقرأه وهو خفيف عليه مع السفرة الكرام البررة^(٣) ، وعنه عليه السلام أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه^(٤) ، وقال قوم من الأنصار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : ألم تر يا رسول الله « ثابت بن قيس » لم تزل داره البارحة تزهو وحولها أمثال المصابيح ، فقال لهم فلعله قرأ سورة البقرة . فسئل « ثابت بن قيس » فقال قرأت سورة البقرة ، وقد خرج البخاري في تنزيل الملائكة في الظلمة لصوت « أسيد بن حضير » بقراءة سورة البقرة^(٥) ، وقال « عقبه بن عامر » عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع فقال عليكم بالقرآن^(٦) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أحسن الناس قراءة أو صوتاً بالقرآن ، فقال الذي إذا سمعته رأيته يخشى الله تعالى^(٧) .

[الترغيب في تفسير القرآن]

(وأما ما ورد في تفسيره) فروى ابن عباس أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : أي علم القرآن أفضل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عربيته فالتمسوها في الشعر^(٨) .

وقال أيضاً عليه السلام : أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه^(٩) ، فإن الله تعالى يحب أن يعرب ، وقد فسرت الحكمة من قوله تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، بأنها تفسير القرآن ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة^(١٠) ، وقال « الحسن » : أهلكتهم العجمة يقرأ أحدهم الآية فيعيا بوجوهها حتى يفترى

-
- (١) أخرجه بنحوه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٩٩) ، وذكره المنذري بنحوه في الترغيب (٤٤٧/٢) .
 - (٢) أخرجه أبو عوانة (٢٢٣/١) ، وابن حبان أوردته الهيثمي في الموارد (١٧٩٣) ، وأبو نعيم في الحلية (١٠٨/٤) ، وابن عدي في الكامل (٩٨٨/٣) ، وذكره المنذري في الترغيب (٣٤٩/٢) .
 - (٣) أخرجه البخاري (٦٩١/٨) ، في التفسير (٤٩٣٧) ، ومسلم (٥٤٩/١ - ٥٥٠) . في صلاة المسافرين باب فضل الماهر بالقرآن (٢٤٤ - ٧٩٨) .
 - (٤) أخرجه البخاري (٧٤/٩) ، في فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧) .
 - (٥) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٧/٩) ، وابن كثير في التفسير (٥٣/١) .
 - (٦) أخرجه البخاري (٦٣/٩) ، في فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٥٠١٨) ، ومسلم (٥٤٨/١) ، في صلاة المسافرين باب ٣٦ حديث (٧٩٦/٢٤٢) .
 - (٧) أخرجه بنحوه الطحاوي في مشكل الآثار (١٧١/١) ، وذكره الهندي في الكنز (٩٦٦) .
 - (٨) أخرجه ابن ماجة بسند ضعيف ، وذكره الهندي في الكنز (١٥٠/١) ، والفيروزآبادي في البصائر (٦٣/١) .
 - (٩) انظر تفسير القرطبي (٢٠/١) ، وفيه عن ابن عباس قال : إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر قلت ولا يصح مرفوعاً .
 - (١٠) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣٩/٢) ، وذكره الهيثمي في المجمع (١٦٣/٧) ، والخطيب في التاريخ (٧٧/٨) ، وذكره ابن حجر في المطالب (٣٥٢١) ، وقال الهيثمي رواه أبو يعلى وفيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري وهو متروك وقال العراقي أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى والبيهقي في الشعب وسنده ضعيف .

على الله بها . وقال « ابن عباس » : الذي يقرأ القرآن ولا يفسر كالأعرابي الذي يهذ الشعر^(١) ، ووصف علي « جابر بن عبد الله »^(٢) لكونه يعرف تفسير قوله تعالى ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾^(٣) القصص ٨٥ ، ورحل « مسروق »^(٤) إلى « البصرة » في تفسير^(٥) آية فليل له الذي يفسرها رجع إلى « الشام » ، فتجهز ورحل إليه حتى علم تفسيرها ، وقال « مجاهد »^(٦) : أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل^(٧) .

(وما روى) عن رسول الله ﷺ من كونه لا يفسر من كتاب الله إلا آيا بعدد ، علمه إياهن جبرائيل عليه السلام محمول ذلك على مغيبات القرآن وتفسيره لمجمله ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى .

(وما روى) عنه ﷺ من قوله (من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)^(٩) محمول على من تسور على تفسيره برأيه دون النظر في أقوال العلماء ، وقوانين العلوم ، كالنحو واللغة والأصول وليس من اجتهد ففسر على قوانين العلم والنظر بداخل في ذلك الحديث ، ولا هو يفسر برأيه ، ولا يوصف بالخطأ .

[المفسرون من الصحابة]

والمنقول عنه الكلام في تفسير القرآن من الصحابة جماعة ، منهم « علي بن أبي طالب » ، و « عبد الله بن مسعود » ، و « أبي بن كعب » ، و « زيد بن ثابت » ، و « عبد الله بن عمرو بن العاص » ، فهؤلاء مشاهير من أخذ عنه التفسير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقد نقل عن غير هؤلاء غير ما شيء من التفسير .

[المفسرون من التابعين]

(ومن المتكلمين) في التفسير من التابعين ، « الحسن بن أبي الحسن »^(١٠) ، و « مجاهد بن جبر »^(١١) ،

- (١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨١/١) ، عن سعيد بن جبيرة .
- (٢) انظر فتح القدير للشوكاني (١٤/١) ، وتفسير القرطبي (٢١/١) .
- (٣) انظر تفسير القرطبي (٢١/١) ، فتح القدير (١٤/١) .
- (٤) مسروق بن الأجدع الهمداني أبو عائشة الكوفي الإمام القدوة قال أبو إسحاق حجاج مسروق فما نام إلا ساجداً على وجهه وقال ابن معين ثقة لا يسأل عن مثله قال ابن سعد توفي سنة ثلاثة وستين ، الخلاصة (٢١/٣) .
- (٥) انظر فتح القدير (١٤/١) ، تفسير القرطبي (٢١/١) .
- (٦) انظر تفسير القرطبي (٢١/١) ، فتح القدير (١٤/١) .
- (٧) انظر فتح القدير (١٤/١) ، تفسير القرطبي (٢١/١) .
- (٨) انظر تفسير القرطبي (٢١/١) ، فتح القدير (١٤/١) .
- (٩) أخرجه الطبري في التفسير (٧٩/١ - ٨٠) ، وأخرجه أبو داود في كتاب العلم باب (٥) .
- والترمذي في السنن (٢٩٥٠) ، (٢٩٥١) ، وأحمد في المسند (٢٣٣/١) ، والطبراني في الكبير (١٧٥/٢) . قال الطبري : يعني ﷺ أنه أخطأ في فعله بقبيله فيه برأيه وإن وافق قبيله ذلك عين الصواب عند الله لأن قبيله فيه برأيه ليس بقبيل عالم ان الذي قال فيه من قول حق وصواب فهو قائل على الله ما لا يعلم آثم بفعله ما قد نهى عنه وحظر عليه ، الطبري (٧٩/١) .
- (١٠) الحسن بن أبي الحسن البصري مولى أم سلمة والربيع بنت النضر أوزيد بن ثابت أو سعيد الإمام أحد أئمة الهدى والسنة قال ابن سعد كان عالماً جامعاً رفيعاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً قال ابن عُلَية مات سنة عشر ومائة ، الخلاصة (٢١٠/١) - (٢١١) .
- (١١) مجاهد بن جبر مولى السائب بن أبي السائب أبو الحجاج المكي المقرئ الإمام المفسر وثقه ابن معين وأبو زرعة قال ابن حبان مات بمكة سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد ، الخلاصة (١٠/٣ - ١١) .

و« سعيد بن جبير »^(١) ، و« علقمة »^(٢) ، و« الضحاك بن مزاحم »^(٣) ، و« السدي »^(٤) ، و« وأبو صالح »^(٥) ، وكان « الشعبي »^(٦) يطعن على « السدي » و« أبي صالح » ، لأنه كان يراهما مقصّرَيْن في النظر .

[منهج التفسير في العصور المتقدمة له والمتأخرة]

ثم تتابع الناس في التفسير وألفوا فيه التأليف ، وكانت تأليف المتقدمين أكثرها إنما هي شرح لغة ، ونقل سبب ، ونسخ ، وقصص ، لأنهم كانوا قريبي عهد بالعرب ، وبلسان العرب ، فلما فسد اللسان وكثرت العجم ، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة ، والناقصو الإدراك احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التركيب ، وانتزاع المعاني وإبراز النكت البيانية ، حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه ، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها ، ولا عنصره يحركه إليها ، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب ، فإن ذلك كان مركزاً في طباعهم يدركون تلك المعاني كلها من غير مَوْقَف ولا معلم ، لأن ذلك هو لسانهم وخطتهم وبيانهم ، على أنهم كانوا يتفاوتون أيضاً في الفصاحة وفي البيان ، ألا ترى إلى قوله ﷺ حين سمع كلام « عمرو بن الأهتم »^(٧) في « الزَّبْرِقان »^(٨) : إن من البيان لسحراً ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى تفاوت العرب في الفصاحة .

- (١) سعيد بن جبير الوالي مولاهم الكوفي الفقيه أحد الأعلام قال اللالكائي ثقة إمام حجة ، قال ميمون بن مهران مات سعيد وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه ، قتل سنة خمس وتسعين كهلاً قتله الحجاج فما أمهل بعده ، الخلاصة (٣٧٤/١ - ٣٧٥) .
- (٢) علقمة بن قيس بن عبد الله بن علقمة بن سلامان بن كهيل بن بكر بن عوف النخعي أبو شبل الكوفي أحد الأعلام ، مخضرم ، مات سنة اثنتين وستين ، الخلاصة (٢٤١/٢) .
- (٣) الضحاك بن مزاحم الهلالي مولاهم الخراساني . يكنى أبا القاسم . وثقه أحمد ، وابن معين ، وأبو زرعة قال أبو نعيم : مات سنة خمس ومائة ، الخلاصة (٥/٢) .
- (٤) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور السدي أحد موالى قريش ، قال النسائي صالح الحديث وقال يحيى بن سعيد القطان لا بأس به ، وثقه أحمد ، وقال مرة مقارب ، وضعفه ابن معين توفي سنة سبع وعشرين ومائة سير أعلام النبلاء (٢٦٤/٥) ، طبقات ابن سعد (٣٢٣/٦) ، التاريخ الكبير (٣٦٠/١) .
- (٥) أبو صالح باذام ويقال : باذان قال يحيى بن معين : ليس به بأس ، وإذا حدث عن الكلبي فليس بشيء وقال يحيى القطان : لم أر أحداً من أصحابنا تركه قال ابن عدي عامة ما يرويه تفسير ، قل ما له من السند انظر السير (٣٧/٥) ، التاريخ الكبير (١٤٤/٤) ، طبقات ابن سعد (٣٠٢/٥) .
- (٦) عامر بن شراحيل الحميري الشعبي أبو عمرو الكوفي الإمام العلم ولد لست سنين خلت من خلافة عمر قال أبو مجلز ما رأيت فيهم أفقه من الشعبي وقال العجلي مرسل الشعبي صحيح توفي سنة ثلاث ومائة ، انظر طبقات ابن سعد (٢٤٦/٦) ، التاريخ الكبير (٤٥٠/٦) ، الخلاصة (٢٢/٢) .
- (٧) عمرو بن سنان بن سمي التميمي المنقري أبو ربيعي ، أحد الشعراء الخطباء في الجاهلية والإسلام ، كان يدعى (المكحل) لجماله في شبابه وهو صاحب البيت المشهور .

لعمرى ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ولقب أبوه بالأهتم لأن ثنيته هتمت يوم الكلاب . البيان والتبيين (٢٧/١) ، (١٩١) ، الشعر والشعراء (٢٤٠) ، الأعلام (٧٨/٥) .

(٨) لقب بالزبرقان وهو من أسماء القمر لحسن وجهه وهو الزبرقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه قيل اسمه الحصين توفي نحو سنة ٤٥ هجرية - الإصابة (٥٤٣/١) ، جمهرة الأنساب (٢٠٨) ، الأعلام (٤١/٣) .

[تعريف علم التفسير لغة واصطلاحاً]

وقد آن أن نشرع فيما قصدنا وننجز ما به وعدنا ونبدأ برسم لعلم التفسير فإني لم أقف لأحد من علماء التفسير على رسم له .

فنقول :

التفسير في اللغة : الاستبانة والكشف ، قال « ابن دريد » ومنه يقال للماء الذي ينظر فيه الطبيب تفسرة ، وكأنه تسمية بالمصدر ، لأن مصدر فعل جاء أيضاً على تفعله نحو جرب تجربة وكرم تكربة ، وإن كان القياس في الصحيح من فعل التفعيل ، كقوله تعالى (وأحسن تفسيراً) ، وينطلق أيضاً التفسير على التعرية للانطلاق ، قال « ثعلب » تقول : فَسَّرْتُ الفرسَ عَرَيْتُهُ ، لينطلق في حضره ، وهو راجع لمعنى الكشف ، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجري .

وأما الرسم في الاصطلاح : فنقول : التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك .

فقولنا : علم هو جنس يشمل سائر العلوم ، وقولنا : يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن هذا هو علم القراءات ، وقولنا : ومدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ وهذا هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم ، وقولنا : وأحكامها الإفرادية والتركيبية هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب شمل بقوله التي تحمل عليها ما لا دلالة عليه بالحقيقة وما دلالة عليه بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاءً فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز ، وقولنا وتتمات لذلك ، هو معرفة النسخ ، وسبب النزول وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن ونحو ذلك .

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ باء الجر تأتي لمعانٍ : للإلصاق ، والاستعانة ، والقسم ، والسبب ، والحال ، والظرفية ، والنقل^(١) ، والإلصاق حقيقة مسحت برأسي ، ومجازاً مررت بزيد ، والاستعانة ذبحت بالسكين ، والسبب ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا ﴾ [النساء : ١٦٠] ، والقسم بالله لقد قام ، والحال جاء زيد بشيابه ، والظرفية زيد بالبصرة ، والنقل قمت بزيد .
وتأتي زائدة للتوكيد .
شَرَبْنِ بِمَاءِ الْبَحْرِ^(٢) .

والبدل فليت لي بهم قوماً أي بدلهم ، والمقابلة اشتريت الفرس بألف ، والمجازة ﴿ تشقق السماء بالغمام ﴾ [الفرقان : ٢٥] ، أي عن الغمام ، والاستعلاء ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ [آل عمران : ٧٥] ، وكنى بعضهم عن الحال بالمصاحبة ، وزاد فيها كونها للتعليل ، وكنى عن الاستعانة بالسبب ، وعن الحال بمعنى « مع » بموافقة معنى « اللام » ، ويقال : أسم بكسر همزة الوصل وضمها وسمى كهدي ، والبصري يقول مادته سين وميم وواو ، والكوفي يقول واو وسين وميم ، والأرجح الأول ، والاستدلال في كتاب النحو^(٣) ، أل للعهد في شخص أو جنس ، وللحضور ، وللملح الصفة ، وللغلبة ، وموصولة ، فللعهد في شخص جاء الغلام ، وفي جنس اسقى الماء ، وللحضور خرجت فإذا الأسد ، وللملح الحارث ، وللغلبة الدبران ، وزائدة لازمة وغير لازمة ، فاللازمة كالآن ، وغير اللازمة باعد أم العمر من

(١) انظر مغني اللبيب (٣٢٧/١) ، الإتيان (١٨٤/٢) .

(٢) هذا صدر بيت لأبي إذؤيب الهذلي انظر الخزانة (٩٧/٧) ، الاقتضاب (٢٨٥/٢) ، شرح شواهد المغني ص ٣١٨ ، سر صناعة الإعراب لابن جني ص ٤٢٤ .

(٣) اشتقاق الاسم عند المحققين من النحويين من السمو ، وهو الارتفاع ، ومحل مرتفع فهو ظاهر . والاسم يظهر المسمى عند السامع ؛ فاشتق من السمو لذلك وقد قيل : إنما اشتق الاسم من السمو ؛ لكون الكلام على ثلاثة أقسام . وضع لكل قسم عبارة ، وكان الاسم المقدم ؛ فأعطى أرفع العبارات ، وكان الحرف المتأخر ؛ إذ لا معنى له في ذاته فأعطي أحط العبارات ، وكان الفعل واسطة بينهما فتوسط اسمه .

وذهب قوم إلى أن اشتقاق الاسم من السمة ، وهي العلامة ، والاسم جعل دلالة على المسمى ، وهذا تبطله صناعة العربية ، إذ لو كان مشتقاً من السمة لقبل في تصغيره : وسيم ، ولا يقال ذلك إنما يقال في تصغيره سمي ، وكذلك في جمعه أسماء برد لام الفعل . والتكبير والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها ، فصح أن اشتقاقه من السمو . انظر العلوم المستودعة في السبع المثاني ١٨ خ أ .

أسيرها ، وهل هي مركبة من حرفين أم هي حرف واحد ، وإذا كانت من حرفين فهل الهمزة زائدة أم لا مذهب ، و « الله » علم لا يطلق إلا على المعبود بحق ، مرتجل غير مشتق عند الأكثرين ، وقيل مشتق ومادته قيل لام وياء وهاء ، من لاه يليه ارتفع ، قيل : ولذلك سميت الشمس إلهة بكسر الهمزة وفتحها ، وقيل لام وواو وهاء ، من لاه يليه لوهاً احتجب أو استتار ، ووزنه إذ ذاك فَعَلَ أو فَعِلَ ، وقيل الألف زائدة ومادته همزة ولام من أله : أي فزع قاله « ابن إسحاق »^(١) أو أله تحير قاله « أبو عمر » ، وأله عبد قاله « النضر »^(٢) ، أو أله سكن قاله « المبرد »^(٣) ، وعلى هذه الأقاويل فحذفت الهمزة اعتباطاً^(٤) ، كما قيل في ناس أصله أناس ، أو حذفت للنقل ولزم مع الإدغام ، وكلا القولين شاذ ، وقيل مادته واو ولام وهاء من وله أي طرب ، وأبدلت الهمزة فيه من الواو نحو أشاح قاله « الخليل » ، و « القناد » ، وهو ضعيف للزوم البدل ، وقولهم في الجمع آلهة وتكون فعلاً بمعنى مفعول ، كالكتاب يراد به المكتوب ، وأل في الله إذا قلنا أصله الإلاه قالوا للغلبة ، إذ الإله ينطلق على المعبود بحق وباطل ، والله لا ينطلق إلا على المعبود بالحق ، فصار كالنجم للثريا . وأورد عليه بأنه ليس كالنجم لأنه بعد الحذف والنقل أو الإدغام لم يطلق على كل إله ثم غلب على المعبود بحق ، ووزنه على أن أصله فعال فحذفت همزته عال ، وإذا قلنا بالأقاويل السابقة فال فيه زائدة لازمة ، وشذ حذفها في قولهم لاه أبوك شذوذ ، حذف الألف في اقبل سيل اقبل جاء من عند الله ، وزعم بعضهم أن أل في الله من نفس الكلمة . ووصلت الهمزة لكثرة الاستعمال وهو اختيار « أبي بكر بن العربي »^(٥) و « السهيلي »^(٦) ، [وهو خطأ لأن وزنه إذ ذاك يكون فعلاً وامتناع تنوينه لا موجب له ، فدل على أن أل حرف داخل على الكلمة سقط لأجلها التنوين] ، وينفرد هذا الاسم بأحكام ذكرت في علم النحو^(٧) ومن غريب ما قيل : إن أصله لاها بالسريانية فعرب قال :

- (١) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى مولى قيس بن مخزومة أبو عبد الله المدني أحد الأئمة الأعلام ، وثقه العجلي ، وابن سعد ، وقال البخاري رأيت علي بن عبد الله يحتج به توفي سنة إحدى وخمسين ومائة . الخلاصة (٣٧٩/٢) .
- (٢) النضر بن شميل العلامة الإمام الحافظ أبو الحسن المازني البصري النحوي نزيل مرو ، ولد في حدود سنة اثنتين وعشرين ومائة وثقه ابن معين وابن المديني ، والنسائي . توفي في أول سنة أربع ومائتين السير (٣٢٨/٩) ، التاريخ الكبير (٩٠/٨) ، الجرح والتعديل (٤٧٧/٨) ، إنباه الرواة (٣٤٨/٣) .
- (٣) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس الأزدي البصري إمام النحاة صاحب الكامل وأحد أئمة الأدب والأخبار توفي سنة ٢٨٦ هجرية . انظر السير (٥٧٦/١٣) ، الأعلام (١٤٤/٧) .
- (٤) الاعتباطي نوع من أنواع الحذف يقع دون علة تصريفية ، وذلك كحذف الواو من كلمة أبو دون سبب تصريفي معروف ، وقد سمي هذا النوع من الحذف بالاعتباطي تشبيهاً له بالإنسان الذي يعتبط ، أي يموت بلا علة . وقد ورد في اللسان - قوله (كل من مات بغير علة فقد اعتبط) . انظر معجم المصطلحات النحوية (١٤٣) - لسان العرب (٢٧٨٦/٤) .
- (٥) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي المعافري الإشبيلي المالكي يكنى أبا بكر وكان مولده ليلة الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة ، وتوفي في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وفيات الأعيان (٤٨٩/١) ، نفح الطيب (٣٤٠/١) ، الأعلام (٢٣٠/٦) .
- (٦) عبد الرحمن بن عبد الله أبو القاسم السهيلي الخثعمي الأندلسي المالقي ولد سنة ٥٠٨ توفي سنة ٥٨١ ، وفيات الأعيان (٣٢/) ، إنباه الرواة (١٦٢/٢) .
- (٧) لفظ الجلالة « الله » اسم دال على عين الذات القائمة بنفسها ، وليس باسم مشتق من صفة في ذاته تعالى ، كالحى الذي اشتق من الحياة ، والمريد من الإرادة ، والقادر من القدرة ، فإن هذه الأسماء مشتقة من صفات الذات ، ولا هو أيضاً كأسماء الأفعال ، مثل الخالق من الخلق ، والرازق من الرزق ، فكل اسم من أسماء الصفات ، أو الأفعال فهو مشتق بلا شك وكل اسم ثبت لعين الذات دون النظر إلى صفة من الصفات فهو غير مشتق سواء كان اسم سلب ، أو اسم إثبات ، ومن خواص لفظ الجلالة : أنه تعالى عجز الضلال المدعى الربوبية عن التجاسر على التسمي بهذه التسمية ، وعليه حمل في بعض الوجوه قوله تعالى « هل تعلم له سمياً » ، ومنها أن كل

كَحَلْفَةٍ مِنْ أَبِي رِبَاحٍ يَسْمَعُهَا لَاهُ الْكِبَارُ^(١)

قال « أبو يزيد البلخي »^(٢) هو أعجمي ، فإن اليهود والنصارى يقولون لاها ، وأخذت العرب هذه اللفظة وغيرها فقالوا الله ، ومن غريب ما قيل في « الله » أنه صفة ، وليس اسم ذات ، لأن اسم الذات يعرف به المسمى ، والله تعالى لا يدرك حساً ولا بديهة ولا تعرف ذاته باسمه ، بل إنما يعرف بصفاته فجعله اسماً للذات لا فائدة في ذلك ، وكان العلم قائماً مقام الإشارة وهي ممتنعة في حق الله تعالى ، وحذفت الألف الأخيرة من « الله » لئلا يشكل بخط الاله اسم الفاعل من لها يلهو ، وقيل طرحت تخفيفاً ، وقيل هي لغة فاستعملت في الخط .

(الرحمن) فَعَلَّانَ من الرحمة ، وأصل بنائه من اللازم من المبالغة ، وشذ من المتعدي وأل فيه للغلبة ، كهي في الصعق ، فهو وصف لم يستعمل في غير الله ، كما لم يستعمل اسمه في غيره وسمعنا مناقبه ، قالوا رحمن الدنيا والآخرة ، ووصف غير الله به من تعنت الملحدين ، وإذا قلت الله رحمن ففي صرفه قولان ليسند أحدهما إلى أصل عام ، وهو أن أصل الاسم الصرف ، والآخر إلى أصل خاص وهو أن أصل فعْلان المنع للغلبة فيه ، ومن غريب ما قيل فيه أنه أعجمي بالخاء المعجمة فعرب بالخاء قاله ثعلب . (الرحيم) فَعِيل محوّل من فاعل للمبالغة وهو أحد الأمثلة الخمسة وهي فَعَّالٌ وفَعُولٌ ومِفْعَالٌ وفَعِيلٌ وفَعِلٌ ، وزاد بعضهم فَعِيلاً فيها نحو سَكَّير ، ولها باب معقود في النحو ، وقيل : وجاء رحيم بمعنى مرحوم ، قال العَمَلْس بن عقيل : -

فَأَمَّا إِذَا عَضْتُ بِكَ الْأَرْضُ عَضَّةً فَإِنَّكَ مَعْطُوفٌ عَلَيْكَ رَحِيمٌ^(٣)

قال « علي » و « ابن عباس » و « علي بن الحسين » و « قتادة » و « أبو العالية »^(٤) و « عطاء » و « ابن جبير » و « محمد بن يحيى بن حبان »^(٥) و « جعفر الصادق »^(٦) : الفاتحة مكية^(٧) ويؤيده ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾

اسم من الأسماء التسعة والتسعين لا بد أن يكون مشتقاً من صفة ، أو فعل وهذا قد قيل انه غير مشتق ، بل هو اسم لعين الذات دون نظر إلى صفة يشتق منها ، وعلى هذا ترجع إليه جميع الأسماء ، ومنها أنهم زادوا ميماً عليه فقالوا : اللهم ، فكانت هذه الكلمة بزيادة الميم فيها جامعة لجميع أسماء الله تعالى . ولهذا اللفظ الجليل خواص أخر انظر - العلوم المستودعة في السبع المثاني ٢٣ خ بتصرف - نتائج الفكر بتحقيقنا آخ (تحت الطبع) .

- (١) البيت من مخلع البسيط للأعشى - انظر مع الهوامع (١٧٨/١) ، الدرر اللوامع (١٥٤/١) ، ديوانه (١٩٥) .
- (٢) أحمد بن سهل أبو زيد البلخي أحد الكبار الأفاضل من علماء الإسلام جمع بين الشريعة والفلسفة والأدب والفنون توفي سنة ٣٢٢ هجرية - انظر معجم الأدباء (٦٥/٣) ، لسان الميزان (١٨٣/١) ، الأعلام (١٣٤/١) .
- (٣) ذكره ابن منظور في اللسان ونسبه لعمل بن عقيل (١٦١٢/٣) ، شرح ديوان الحماسة (٤/٣ ، ٤) ، وروايته [فأما إذا عضت بك الحرب] .

- (٤) رفيع - بضم أوله مصغراً ابن مهران الرياحي بكسر المهملة مولاهم أبو العالية البصري ، مخضرم ، إمام من الأئمة ، صلى خلف عمر قال مغيرة أول من أذن بما وراء النهر أبو العالية - توفي سنة تسعين - الخلاصة (٣٣٠/١ - ٣٣١) .
- (٥) محمد بن يحيى بن حبان بن منقذ بن عمرو الأنصاري المازني أبو عبد الله المدني الفقيه وثقه أبو حاتم وابن معين والنسائي توفي سنة إحدى وعشرين ومائة - الخلاصة (٤٦٧/٢) .
- (٦) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط الهاشمي القرشي أبو عبد الله الملقب بالصادق ، سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين ، ولقب بالصادق ؛ لأنه لم يعرف عنه الكذب قط توفي سنة ١٤٨ هجرية - الأعلام للزركلي (١٢٦/٢) .

- (٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/١ - ٣) عن علي رضي الله عنه وقاتله فأخرجه عن علي رضي الله عنه الواحد في أسباب النزول ، والثعلبي في تفسيره ، وعن قتادة أخرجه أبو بكر بن الأنباري في المصاحف .

والقرآن العظيم ﴿ [الحجر : ٨٧] ، والحجر مكية بإجماع ، وفي حديث أبي أنها السبع المثاني^(١) والسبع الطوال أنزلت بعد الحجر بمدة ، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة ، وما حفظ أنه كانت في الإسلام صلاة بغير ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ [الفاتحة : ١] ، وقال « أبو هريرة » و « عطاء » « ابن يسار » و « مجاهد » و « سواد بن زياد »^(٢) و « الزهري »^(٣) و « عبد الله بن عبيد بن عمير »^(٤) هي مدنية^(٥) ، وقيل إنها مكية مدنية ، الباء في بسم الله للاستعانة نحو كتبت بالقلم ؛ وموضعها نصب أي بدأت وهو قول الكوفيين^(٦) ، وكذا كل فاعل بديء في فعله بالتسمية

(١) أخرجه البخاري (١٥٦/٨) ، في التفسير (٤٤٧٤) ، (٤٧٠٣) ، وفي (٥٤/٩) ، في فضائل القرآن (٥٠٠٦) ، وذكره السيوطي في الدر (٤/١) .

(٢) انظر الإصابة في تمييز الصحابة (١٤٨/٣) .

(٣) محمد بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب الدين عبد الله بن الحارث بن زهرة القرشي الزهري أبو بكر المدني . أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز ، والشام توفي سنة أربع وعشرين ومائة - تهذيب التهذيب (٤٤٥/٩) - الخلاصة (٤٥٧/٣) .

(٤) عبد الله بن عبيد بن عمير اللثمي الجندعي أبو هاشم المكي روى عن أبيه وابن عمر وثقه أبو حاتم مات سنة ثلاث عشرة ومائة - الخلاصة (٧٦/٢) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/١) عن مجاهد وعزاه لوكيع والفريابي في تفسيريهما ، وأبي عبيد في فضائل القرآن ، وابن أبي شيبه في المصنف وعبد بن حميد ، وابن المنذر في تفسيره ، وأبي بكر بن الأنباري في كتاب المصاحف ، وأبي الشيخ في العظمة ، وأبي نعيم في الحلية ، وعزاه أيضاً لوكيع في التفسير .

(٦) الباء في البسملة إما للمصاحبة على وجه التبرك أو للاستعانة كذلك ولا مانع من الاستعانة باسمه تعالى كما يستعان بذاته والأولى جعلها للمصاحبة لأن جعلها للاستعانة فيه إساءة أدب لأن باء الاستعانة تدخل على الإله فيلزم عليها جعل اسم الله مقصوداً لغيره لا لذاته . إلا أن يقال أن من جعلها للاستعانة نظر إلى جهة أخرى وهي أن الفعل المشروع فيه لا يتم على الوجه الأكمل إلا باسمه تعالى ، لكن قد يقال مظنة الإساءة ما زالت موجودة ، هذا ما ذهب إليه بعض أهل العلم ، والذي نراه موافقاً للصواب ولمقاصد الشريعة وروحها أنها للاستعانة وهو أيضاً ما رجحه الألوسي حيث قال : وعندي أن الاستعانة أولى بل يكاد أن تكون متعينة إذ فيها من الأدب والاستكانة وإظهار العبودية ما ليس في دعوى المصاحبة ولأن فيها تلميحاً من أول وهلة إلى إسقاط الحول والقوة ونفي استقلال قدر العباد وتأثيرها وهو استفتاح لباب الرحمة وظفر بكنز لا حول ولا قوة إلا بالله ولأن هذا المعنى أمس بقوله تعالى وإياك نستعين ولأنه كالتعنين في قوله (اقرأ باسم ربك) ليكون جواباً لقوله ﷺ لست بقارئ على أتم وجه وأكملة وما ذكروه في تأييد المصاحبة كله مردود : (أما الأول) : فلأن دون إثبات الأثرية خرق القناد .

(وأما الثاني) : فلأنه توهم نشأ من تمثيلهم في الآلة بالمحسوسات وليست كل استعانة بألة ممتنئة ولا شك في صحة استعانت بالله وقد ورد - في الشرع قال تعالى (استعينوا بالله واصبروا) فهو إذن على أن جهة الابتدال مما لا تمر ببال والقلب قد أحاط بجهاته جهة أخرى وأيضاً في تخصيص الاستعانة بالآلة نظر لأنها قد تكون بها وبالقدرة ولو سلم فأى مانع من الإشارة بها هنا إلى أنه كما هو المقصود بالذات فهو المقصود بالعرض إذ لا حول ولا قوة إلا به .

(وأما الثالث) : فلأن المشركون إلى الاستعانة بالهتهم أقرب إذ هم وسائطهم في التقرب إليه تعالى وهي أشبه بالآلة . (وأما الرابع) : فلأن الآلة لا بد من وجودها في كل جزء إلى آخر الفعل وإلا لم يتم ولا نسلم لزوم بين مصاحبة شيء لشيء وملاسته لجميع أجزائه وما ذكره من الحديث فهو بالاستعانة أنسب لأنها مشعرة بتبري العبد من حوله وقوته وإثبات الحول والقوة لله تعالى وهذا من باب العقائد التي عقد عليها قلب كل مسلم يسمى أو لم يسمى .

(وأما الخامس) : فلأنه إن أراد أن معنى المصاحبة التبرك فظاهر البطلان وقد رجح بخفي حنين وإن أراد أنه يفهم منها بالقرينة فندعيه نحن بها إذا قصد الآلية لتوقف الاعتداد الشرعي عليها وأما كون التبرك معنى ظاهراً لكل أحد فلا نسلم أنه من خصوص المصاحبة .

(وأما السادس) : فلأن الانحصار فيه ممنوع .

(وأما السابع) : فلأن ما يفتتح به الشيء لا مانع من كونه جزءاً بالفاتحة مفتتح القرآن وجزؤه لو سلم فجعلها مفتتحاً بالنسبة إلى ما عداها قاله الشهاب ولا يضر الحنفي ما فيه .

(وأما الثامن) : فلأن معنى الحديث أفعل كذا مستعيناً باسم الله الذي لا يضرني مع ذكر اسمه مستعيناً به شيء إذ من استعان بجناحه

كان مضمر الأبد ، أو قدره « الزمخشري » فعلا غير بدأت وجعله متأخراً ، قال تقديره بسم الله اقرأ أو أتلوا الذي يجيء بعد التسمية مقروء ، والتقديم على العامل عنده يوجب الاختصاص ، وليس كما زعم ، قال « سيويه » وقد تكلم على ضربت زيدا ما نصه (وإذا قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك) يعني تأخير عربياً جيداً ، وذلك قولك زيدا ضربت ، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء ، مثله في ضرب زيد « عمراً » وضرب زيدا « عمرو » انتهى . وقيل موضع اسم رفع ، التقدير ابتدائي ثابت أو مستقر باسم الله ، وهو قول البصريين ، وأي التقديرين أرجح : يرجح الأول ، لأن الأصل في العمل للفعل ، أو الثاني لبقاء أحد جزأي الإسناد ، والاسم هو اللفظ الدال بالوضع على موجود في العيان إن كان محسوساً وفي الأذهان إن كان معقولاً ، من غير تعرض بينيته للزمان ، ومدلوله هو المسمى ، ولذلك قال « سيويه »^(١) فالكل اسم وفعل وحرف ، والتسمية : جعل ذلك اللفظ دليلاً على ذلك المعنى ، فقد انضحت المباني بين الاسم والمسمى والتسمية ، فإذا أسندت حكماً إلى اسم ، فتارة يكون إسناده إليه حقيقة نحو زيد اسم ابنك ، وتارة لا يصح الإسناد إليه مجازاً ، وهو أن تطلق الاسم وتريد به مدلوله وهو المسمى ، نحو قوله تعالى ﴿ تبارك اسم ربك ﴾ [الرحمن : ٧٨] ، ﴿ وسبح اسم ربك ﴾ [الأعلى : ١] ، ﴿ وما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ [يوسف : ٤٠] ، والعجب من اختلاف الناس هل الاسم هو عين المسمى أو غيره ، وقد صنف في ذلك الغزالي^(٢) وابن السيد^(٣) والسهيلي وغيرهم ، وذكروا احتجاج كل من القولين وأطالوا في ذلك ، وقد تأول السهيلي^(٤) رحمه الله قوله تعالى ﴿ سبح اسم ربك ﴾ [الأعلى : ١] ، بأنه أقحم الاسم تنبيهاً على أن المعنى سبح ربك ، واذكر ربك بقلبك ولسانك حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان ، لأن الذكر بالقلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم ، والذكر باللسان متعلقه اللفظ ، وقوله تعالى « ما تعبدون من دونه إلا أسماء » بأنها أسماء كاذبة غير واقعة على حقيقة ، فكأنهم لم يعبدوا إلا الأسماء التي اخترعوها وهذا من المجاز البديع^(٥) ، وحذفت

أعانه ومن لاذ ببابه حفظه وصانه ، وإن استبعدت هذا ورددت ما قيل في الرد من أن المراد بالحديث الإخبار بأنه لا يضر مع ذكر اسمه شيء من مخلوق والمصاحبة تستدعي أمراً حاصلها عندها نحو جاءكم الرسول بالحق والقراءة لم تحصل بعد فتعذرت حقيقة المصاحبة بأن المصاحبة هنا ليست محسوسة وكونها إخباراً بنفي صفة الضرر يفهم منه صفة النفع والبركة وهي دفع الوسوسة عن القارئ مع جزيل الثواب فلا ضير أيضاً لأنه مجرد استئناس ولا يوحشنا إذ ما نستأنس به كثير .

(أما التاسع) : فلأن جعل الموجود كالمعدوم للجري لا على المقتضى من المحسنات والنكتة ها هنا أن شبه اسم الله بناء على يقين المؤمن بما ورد فمن السنة والقطع بمقتضاها بالأمر المحسوس وهو حصول الكتب بالقلم وعدم حصوله بعدمه ثم أخرج الاستعارة التبعية لوقوعها في الحرف .

(وأما العاشر) : فلأنه لا يخفى حال التشبيه بالقلم .

(وأما الحادي عشر) : فلأنه لا نسلم أن التبرك معنى المصاحبة أو لازم معناه بل هو معلوم من أمر خارج هو أن مصاحبة اسمه سبحانه يوجد معها ذلك وهو جار في الاستعانة باسمه عن شأنه على أن في الاستعانة من اللطف ما لا يخفى ويمكن على بعد أن يكون عدم اختيار الزمخشري لها لنزعات الشيطان الاعتزالية من استقلال العبد بفعله فقد ذهب إليه هو وأصحابه . انظر روح المعاني (٤٧/١) - (٤٨) ، وانظر تحفة المريد ص ٣ بشرح جوهرة التوحيد .

(١) انظر الكتاب (٢/١) .

(٢) حجة الإسلام وزين الأنام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكانت وفاته بها صبيحة يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسائة - الشذرات (١٢٠/٤) ، مفتاح السعادة (١٩١/٢) ، ابن السبكي (١٠١/٤) .

(٣) عبد الله بن محمد بن السيد أبو محمد من العلماء باللغة والأدب ولد ونشأ في بظليوس في الأندلس من مصنفاته الاقتضاب في شرح أدب الكتاب مطبوع وغير ذلك توفي سنة ٥٢١ هجرية - بغية الملتبس (٣٢٤) ، وقلائد العقيان (١٩٣) ، الأعلام (١٢٣/٤) .

(٤) انظر نتائج الفكر ٤ خ بتحقيقنا .

(٥) في حقيقة الاسم عند المتكلمين خلاف مشهور فذهب الأشعرية إلى أنه عين المسمى . وذهب المعتزلة إلى أنه غير المسمى وقالت =

الألف من بسم هنا في الخط تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، فلو كتبت باسم القاهر أو باسم القادر ، فقال الكسائي والأخفش تحذف الألف ، وقال الفراء لا تحذف إلا مع بسم الله الرحمن الرحيم لأن الاستعمال إنما كثر فيه ، فأما في غيره من أسماء الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف ، والرحمن صفة لله عند الجماعة ، وذهب الأعلام وغيره إلى أنه بدل ، وزعم أن الرحمن علم ، وإن كان مشتقاً من الرحمة لكنه ليس بمنزلة الرحيم ولا الراحم بل هو مثل الدبران ، وإن كان مشتقاً من دبر صيغ للعلمية فجاء على بناء لا يكون في النعوت ، قال ويدل على علميته ووروده غير تابع لاسم قبله ، قال تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ [الرحمن : ١] ، وإذا ثبتت العلمية امتنع النعت فتعين البدل ، قال أبو زيد السهيلي : البدل فيه عندي ممتنع ، وكذلك عطف بيان لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبين لأنه أعرف الأعلام كلها وأبينها ألا تراهم ﴿ قالوا وما الرحمن ﴾ [الفرقان : ٦٠] ولم يقولوا وما الله فهو وصف يراد به الشئ ، وإن كان يجري مجرى الأعلام ، (الرحمن الرحيم) قيل دلالتهما واحدة نحو ندمان ونديم ، وقيل معناهما مختلف فالرحمن أكثر مبالغة وكان القياس الترقى كما تقول عالم نحير ، وشجاع باسل ، لكن أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم ، وأصولها بالرحيم ليكون كاللتممة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف واختاره « الزمخشري » ، وقيل : الرحيم أكثر مبالغة ، والذي يظهر أن جهة المبالغة مختلفة فلذلك جمع بينهما ، فلا يكون من باب التوكيد فمبالغة فعلا مبالغة غضبان وسكران من حيث الامتلاء والغلبة ، ومبالغة فعيل من حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة ، ولذلك لا يتعدى فعلاً ، ويتعدى فعيل ، تقول زيد رحيم المساكين كما تعدي فاعلاً ، قالوا زيد حفيظ علمك وعلم غيرك ، حكاه « ابن سيده » عن العرب ، ومن رأى أنها بمعنى واحد ولم يذهب إلى توكيد أحدهما بالآخر احتاج أنه يخص كل واحد بشيء ، وإن كان أصل الموضوع عنده واحداً ليخرج بذلك عن التأكيد ، فقال : « مجاهد » رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، وروى « ابن مسعود » وأبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة^(١) ، وإذا صح هذا التفسير وجب المصير إليه ، وقال « القرطبي » رحمن الآخرة ورحيم الدنيا ، وقال « الضحاك » : لأهل السماء والأرض ، وقال « عكرمة » برحمة واحدة وبمائة رحمة ، وقال « المزني » : بنعمة الدنيا والدين ، وقال « العزرمي » : الرحمن بجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة

= الأشعرية وطائفة من المتكلمين : أن الكلام في الاسم والمسمى يعرفك حقيقة صفات معبودك ، فتصل بذلك إلى تصحيح توحيدك فإذا لم ينظر الإنسان ويستدل فكيف يصل إلى المعرفة التي كلفها . لكن منع الشافعي رضي الله عنه ، وابن حنبل ، وأكثر الفقهاء ، والمحدثين رضي الله عنهم طريق الكلام في الاسم والمسمى . حتى قال الشافعي : إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له .

وعلى كل ، فطريق المتكلمين غير طريق الفقهاء والمحدثين ، فإن الفقهاء والمحدثين أخذوا الأمور بالتسليم والنقل والمتكلمون ركبوا إلى النقل طريق النظر بالعقل فأقاموا صناعة غير معهودة في السلف وقالوا : نفتح بها طريق النظر إذ السلف كانوا لقرب عهدهم بالنبوة ولاشتغال أفكارهم بالنظر في ملكوت السماء والأرض مستغنيين عن هذه الصناعة إذ كانت الأدلة راسخة في قلوبهم وطرق الاستدلال نيرة في عقولهم فلما ذهب ذلك الجيل الجليل وفترت الدواهي وفشت البدع بسوء النظر وجب أن يحترق طريق النظر وتهج مسلكت العبر وتبين الأدلة الصحيحة من الفاسدة وتضان عقائد الخلق عن تشويش المبتدعة والمارقة فتكلموا بما لم يعهد من السلف الكلام فيه فمن العلماء من يؤثر ويراه عين الصواب ، ومنهم من يجتنبه ويجعله عين الضلال ، ومنهم من يتوقف فيه ، ومنهم من يرتضي منه أسلوباً دون غيره من الأساليب . انظر العلوم المستودعة في السبع المثاني ١٩ خ .

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٢٧/١) ، (١٤٧) بإسناد ضعيف ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/١) ، وزاد نسبه لابن عدي في الكامل وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، والثعلبي بسند ضعيف جداً عن أبي سعيد الخدري من كلام نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام .

الرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم واللفظ بهم^(١)، وقال « المحاسبي »^(٢) : برحمة النفوس ورحمة القلوب ، وقال « يحيى بن معاذ »^(٣) : لمصالح المعاد والمعاش ، وقال « الصادق » : خاص اللفظ بصيغة عامة في الرزق ، وعام اللفظ بصيغة خاصة في مغفرة المؤمن ، وقال ثعلب (الرحمن) أمدح و (الرحيم) ألطف ، وقيل (الرحمن) المنعم بما لا يتصور جنسه من العباد و (الرحيم) المنعم بما يتصور جنسه من العباد ، وقال « أبو علي الفارسي »^(٤) : الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين ، كما قال تعالى ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾^(٥) [الأحزاب : ٤٣] ، ووصف الله تعالى بالرحمة مجاز عن إنعامه على عباده ألا ترى أن الملك إذا عطف على رعيته ، ورق لهم أصابهم إحسانه ، فتكون الرحمة إذ ذاك صفة فعل ، وقال قوم هي إرادة الخير لمن أراد الله تعالى به ذلك فتكون على هذا صفة ذات ، وينبني على هذا الخلاف خلاف آخر ، وهو أن صفات الله تعالى الذاتية والفعلية أهي قديمة أم صفات الذات قديمة ؟ وصفات الفعل محدثة قولان ، وأما الرحمة التي من العباد فقليل هي رقة تحدث في القلب ، وقيل هي قصد الخير أودع الشر ، لأن الإنسان قد يدفع الشر عن لا يرق عليه ، ويوصل الخير إلى من لا يرق عليه ، وفي البسملة من ضروب البلاغة نوعان :

أحدهما : « الحذف » : وهو ما يتعلق به الباء في بسم وقد مر ذكره ، والحذف قيل لتخفيف اللفظ ، كقولهم بالرفاء والبنين ، باليمن والبركة ، فقلت إلى الطعام وقوله تعالى في تسع آيات أي أعرست وهلموا واذهب ، قال أبو القاسم السهيلي « وليس كما زعموا إذ لو كان كذلك كان إظهاره وإضماره في كل ما يحذف تخفيفاً ، ولكن في حذفه فائدة ، وذلك أنه موطن ينبغي أن لا يقدم فيه سوى ذكر الله تعالى ، فلو ذكر الفعل وهو لا يستغني عن فاعله لم يكن ذكر الله مقدماً ، وكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى ، كما تقول في الصلاة الله أكبر ومعناه من كل شيء ، ولكن يحذف ليكون اللفظ في اللسان مطابقاً لمقصود القلب ، وهو أن لا يكون في القلب ذكر إلا الله عز وجل ، ومن الحذف أيضاً حذف الألف في بسم الله وفي الرحمن في الخط وذلك لكثرة الاستعمال .

النوع الثاني : التكرار في الوصف ، ويكون إما لتعظيم الموصوف أو للتأكيد ، ليتقرر في النفس ، وقد تعرض المفسرون في كتبهم لحكم التسمية في الصلاة وذكروا اختلاف العلماء في ذلك وأطالوا التفاريع في ذلك ، وكذلك فعلوا في غير ما آية ، وموضوع هذا كتب الفقه ، وكذلك تكلم بعضهم على التعوذ وعلى حكمه وليس من القرآن بإجماع ونحن في كتابنا هذا لا نتعرض لحكم شرعي إلا إذا كان لفظ القرآن يدل على ذلك الحكم أو يمكن استنباطه منه بوجه من وجوه الاستنباطات ، واختلف في وصل الرحيم بالحمد فقرأ قوم من الكوفيين بسكون الميم ، ويقفون عليها ويتدثون بهمزة مقطوعة ، والجمهور على جر الميم ووصل الألف من الحمد ، وحكى « الكسائي » عن بعض العرب

(١) أخرجه بنحوه الطبري في التفسير (١٢٧/١) ، (١٤٦) .

(٢) الحارث بن أسد أبو عبد الله المحاسبي أحد مشائخ الصوفية ، وشيخ الجنيد إمام الطريقة ، ويقال إنما سمي المحاسبي لكثرة محاسبته نفسه توفي ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين - ابن قاضي شهبة (٥٩/١ - ٦٠) ، تاريخ بغداد (٢١١/٨) ، حلية الأولياء (٧٣/١٠) .

(٣) يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي أبو زكريا واعظ ، زاهد لم يكن له نظير في وقته من أهل الرأي ، أقام ببلخ ، ومات في نيسابور سنة ٢٥٨ هجرية - العروش على شرح الرسالة القشيرية (١١٩/١) ، صفوة الصفوة (٧١/٤) ، الأعلام (١٧٢/٨) .

(٤) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن حميد بن سلمان الإمام أبو علي الفارسي النحوي المشهور . ولد سنة ٢٨٨ هجرية ، وتوفي سنة ٣٧٧ هجرية وصنف الإيضاح في النحو ، والتكملة في التصريف ، وغير ذلك - البغية (٤٩٦/١) ، إنباء الرواة (٢٧٣/١) ، الأعلام (١٩٣/٢) .

(٥) ذكره القرطبي في التفسير (٧٤/١) .

أنه يقرأ الرحيم الحمد بفتح الميم وصلة الألف كأنك سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت ولم تروه هذه قراءة عن أحد .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ الحمد ﴾ الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده ونقيضه الذم^(١) وليس مقلوب مدح خلافاً لابن الأنباري ، إذ هما في التصريفات متساويان ، وإذ قد يتعلق المدح بالجماد فتمدح جوهرة ولا يقال تحمد ، والحمد والشكر بمعنى واحد ، أو الحمد أعم ، والشكر ثناء على الله تعالى بأفعاله والحمد ثناء بأوصافه ثلاثة أقوال أصحها أنه أعم فالحمد قسمان : شاكراً ومثن بالصفات ﴿ لله ﴾ اللام للملك وشبهه ، وللمليك وشبهه ، وللاستحقاق ، وللنسب ، وللتعليل ، وللتبليغ ، وللتعجب ، وللتبيين ، وللضرورة ، وللمظرفية بمعنى في ، أو عند ، أو بعد ، وللانتها ، وللاستعلاء ، مثل ذلك المال لزيد ، أدام لك ما تدوم لي ، وهبت لك ديناراً ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، الجلباب للجارية ، لزيد عم ، ﴿ لتحكم بين الناس ﴾ [النساء : ١٠٥] ، قلت لك ، والله عينا من رأى من تفوق ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : ٢٣] ، ﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : ٨] ، ﴿ القسط ليوم القيامة ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، كتب لخمسة خلون ، ﴿ لدلوك الشمس ﴾ ، ﴿ سقناه لبلد ميت ﴾ ، ﴿ يخرون للأذقان ﴾ [الإسراء : ١٠٧] ، ﴿ رب العالمين ﴾ الرب : السيد ، والمالك ، والثابت ، والمعبود ، والمصلح وزاد بعضهم بمعنى الصاحب مستدلاً بقوله :

فَدَنَا لَهُ رَبُّ الْكِلَابِ بِكَفِّهِ بَيْضُ رَهَافٍ رِيَشُهُنَّ مُقَزَّعٌ^(٢)

وبعضهم بمعنى الخالق ، الْعَالَمُ ، لا مفرد له كالأثام ، واشتقاقه من العلم أو العلامة ومدلوله كل ذي روح^(٣) قاله « ابن عباس » ، أو الناس قاله « البجلي » أو الانس والجن والملائكة ، قاله أيضاً « ابن عباس »^(٤) ، أو الإنس والجن والملائكة والشياطين قاله « أبو عبيدة »^(٥) و « الفراء »^(٦) ، أو الثقلان قاله ابن عطية ، أو بنو آدم قاله « أبو معاذ » ، أو أهل الجنة والنار قاله الصادق ، أو المرتزقون قاله « عبد الرحمن بن زيد »^(٨) ، أو كل مصنوع قاله الحسن وقتادة^(٩) ، أو الروحانيون قاله بعضهم^(١٠) ، ونقل عن المتقدمين أعداد مختلفة في العالمين وفي مقارها^(١١) الله أعلم بالصحيح ،

(١) انظر لسان العرب (٩٨٧/٢) .

(٢) المقزّع : المتفرق .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٩٧/١) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٣/١) ، وعزاه للفرابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وصححه من طرق عن ابن عباس دون زيادة « الملائكة » ، وذكره القرطبي في التفسير (٩٧/١) ، أيضاً دون تلك الزيادة .

(٥) معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري أبو عبيدة النحوي من أئمة الأدب واللغة من مصنفاته مجاز القرآن وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم ، توفي سنة ٢٠٩ هجرية - تاريخ بغداد (٢٥٢/١٣) ، الأعلام (٢٧٢/٧) .

(٦) يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي إمام العربية أبو زكريا ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هجرية كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي من مصنفاته معاني القرآن وغير ذلك توفي سنة ٢٠٧ هجرية - وفيات الأعيان (١٧٦/٦) ، شذرات الذهب (١٩/٢) .

(٧) ذكره القرطبي في تفسيره (٩٧/١) .

(٨) ذكره القرطبي في تفسيره (٩٧/١) عن زيد بن أسلم .

(٩) ذكره القرطبي في التفسير (٩٧/١) عن أبي عمرو بن العلاء .

(١١) انظر في ذلك الدر المنثور للسيوطي (١٣/١) ، تفسير القرطبي (٩٧/١) .

والجمهور قرأوا بضم دال الحمد، وأتبع « إبراهيم بن أبي عبلة »^(١) ميمه لام الجر لضمه الدال ، كما أتبع « الحسن » و « زيد بن علي » كسرة الدال لكسرة اللام وهي أغرب ، لأن فيه إتباع حركة معرب لحركة غير إعراب ، والأول بالعكس ، وفي قراءة « الحسن » احتمال أن يكون الاتباع في مرفوع أو منصوب ويكون الإعراب إذ ذاك على التقديرين مقدراً منه من ظهوره شغل الكلمة بحركة الإتيان كما في المحكي والمدغم ، وقرأ « هارون العتكي »^(٢) و « روبة »^(٣) و « سفيان بن عيينة » : الحمد بالنصب ، والحمد مصدر معرف بأل إما للعهد : أي الحمد المعروف بينكم لله ، أو لتعريف الماهية كالدينار خير من الدرهم : أي أي دينار كان فهو خير من أي درهم كان ، فيستلزم إذ ذاك الأحمدة كلها ، أو لتعريف الجنس فيدل على استغراق الأحمدة كلها بالمطابقة ، والأصل في الحمد لا يجمع لأنه مصدر ، وحكى « ابن الأعرابي » جمعه على أحمد كأنه راعى فيه جامع اختلاف الأنواع قال :

وَأَبْلَجُ مَحْمُودُ الثَّنَاءِ خَصَصْتُهُ بِأَفْضَلِ أَقْوَالِي وَأَفْضَلِ أَحْمَدِي^(٤)

وقراءة الرفع أمكن في المعنى ، ولهذا أجمع عليها السبعة لأنها تدل على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى ، فيكون قد أخبر بأن الحمد مستقر لله تعالى : أي حمده وحمد غيره ، ومعنى اللام في الله الاستحقاق ، ومن نصب فلا بد من عامل تقديره أحمد الله أو حمدت الله ، فيتخصص الحمد بتخصيص فاعله وأشعر بالتجدد والحدوث ، ويكون في حالة النصب من المصادر التي حذفت أفعالها وأقيمت مقامها ، وذلك في الأخبار نحو شكراً لا كفوراً ، وقدر بعضهم العامل للنصب فعلاً غيره مشتق من الحمد : أي أقول الحمد لله أو الزموا الحمد لله ، كما حذفوه من نحو اللهم ضباً وذنباً ، والأول هو الصحيح لدلالة اللفظ عليه ، وفي قراءة النصب اللام للتبيين ، كما قال أعني لله ، ولا تكون مقوية للتعدي ، فيكون لله في موضع نصب بالمصدر لامتناع عمله فيه ، قالوا سقياً لزيد ، ولم يقولوا سقياً زيداً ، فيعملونه فيه ، فدل على أنه ليس من معمول المصدر بل صار على عامل آخر ، وقرأ زيد بن علي^(٥) وطائفة (رب العالمين) بالنصب على المدح ، وهي فصيحة لولا خفض الصفات بعدها ، وضعفت إذ ذاك ، على أن الأهوازي حكى في قراءة زيد بن علي على أنه قرأ (رب العالمين الرحمن الرحيم) بنصب الثلاثة فلا ضعف إذ ذاك ، وإنما تضعف قراءة نصب رب وخفض الصفات بعدها ، لأنهم نصوا أنه لا اتباع بعد القطع في النعوت^(٦) ، لكن تخريجها على أن يكون الرحمن

(١) إبراهيم بن أبي عبلة الإمام القدوة شيخ فلسطين أبو إسحاق العقيلي الشامي المقدسي من بقايا التابعين ولد بعد الستين وثقه ابن معين والنسائي توفي سنة اثنتين وخمسين ومائة - السير (٣٢٣/٦) ، التاريخ الكبير (٣١/١) ، تهذيب التهذيب (١٤٢/١) .

(٢) هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور العتكي البصري الأزدي مولاهم علامة صدوق نبيل له قراءة معروفة مات قبل المائتين - غاية النهاية (٣٤٨/٢) .

(٣) روبة بن العجاج التميمي الرازي من أعراب البصرة وكان رأساً في اللغة ورؤية بالهمز قطعة من خشب يشعب بها الإناء جمعها رثاب والروبة بواو : خميرة اللبن والروبة أيضاً قطعة من الليل - توفي سنة خمس وأربعين ومائة - السير (١٦٢/٦) ، لسان الميزان (٢٦٤/٢) ، معجم الأدباء (١٤٩/١١) .

(٤) البيت من الطويل لم يعلم قائله : انظر تفسير القرطبي (١٣٣/١) .

(٥) زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب العلوي أبو الحسين المدني أحد أئمة أهل البيت قتل في أوائل صفر سنة اثنتين وعشرين ومائة - الخلاصة (٣٥٤/١) .

(٦) اختلف النحويون في الإتيان بعد القطع . . . فمنهم من أجازه وقال : ليس فيه إلا الفصل بين الصفة والمصوف وهذا جائز ، ومنهم من منعه وقال : الأصل في صفة المدح والذم والترحم القطع لأن المقصود الإخبار بحاله وصفته بعدما تم الإخبار عنه بفعله ، ألا ترى أنك إذا قلت : مررت بزید العاقل ، وأنت قد جئت بالعاقل للمدح فقد حصل إخبارك بالمرور ، ثم جئت بعد ذلك بكلام تقصد به غير الكلام الأول ، وهو المدح والتعظيم ، إلا أن العرب أجرتة فعلاً ، لأنه يفهم منه في الأول صفة ، فجرى لذلك مجرى ما جرى به للبيان

بدلاً ، ولا سيما على مذهب « الأعلّم » إذ لا يجيز في الرحمن أن يكون صفة ، وحسن ذلك على مذهب غيره كونه وصفاً خاصاً ، وكون البدل على نية تكرار العامل ، فكأنه مستأنف من جملة أخرى فحسن النصب ، وقول من زعم أنه نصب رب بفعل دل عليه الكلام قبله كأنه قيل نحمد الله رب العالمين ضعيف ، لأنه مراعاة التوهم ، وهو من خصائص العطف ولا ينقاس فيه ، ومن زعم أنه نصبه على البدل فضعيف ، للفصل بقوله (الرحمن الرحيم) (ورب) مصدر وصف به على أحد وجوه الوصف بالمصدر ، أو اسم فاعل حذفت ألفه فأصله رب ، كما قالوا رجل بار وير ، وأطلقوا الرب على الله وحده وفي غيره قيد بالإضافة نحو رب الدار ، وآل في العالمين للاستغراق ، وجمع العالم شاذ ، لأنه اسم جمع وجمعه بالواو والنون أشد للإخلال ببعض الشروط التي لهذا الجمع ، والذي اختاره أنه ينطلق على المكلفين لقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ [الروم : ٢٢] ، وقراءة حفص بكسر اللام توضح ذلك .

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ تقدم الكلام عليهما في البسملة ، وهما مع قوله رب العالمين صفات مدح لأن ما قبلها علم لم يعرض في التسمية به اشتراك فيخصص ، وبدأ أولاً بالوصف بالربوبية ، فإن كان الرب بمعنى السيد أو بمعنى المالك أو بمعنى المعبود كان صفة فعل للموصوف بها التصريف في المسود والمملوك والعابد بما أراد من الخير والشر ، فناسب ذلك الوصف بالرحمانية والرحيمية لينبسط أمل العبد في العفو إن زل ، ويقوى رجاءه إن هفا ، ولا يصح أن يكون الرب بمعنى الثابت ، ولا بمعنى الصاحب ، لامتناع إضافته إلى العالمين ، وإن كان بمعنى المصلح كان الوصف بالرحمة مشعراً بقلّة الإصلاح ، لأن الحامل للشخص على إصلاح حال الشخص رحمته له ، ومضمون الجملة والوصف أن من كان موصوفاً بالربوبية والرحمة للمربوبين كان مستحقاً للحمد ، وخفض (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) الجمهور ، ونصبهما « أبو العالية » و « ابن السميع »^(١) و « عيسى بن عمر »^(٢) ، وورفعهما « أبو رزين العقيلي » و « الربيع بن خيثم » و « أبو عمران الجوني »^(٣) ، فالخفض على النعت ، وقيل : في الخفض ، إنه بدل أو عطف بيان وتقدم شيء من هذا ، والنصب والرفع للقطع ، وفي تكرار الرحمن الرحيم إن كانت التسمية آية من الفاتحة تنبيه على عظم قدر هاتين الصفتين وتأكيد أمرهما ، وجعل مكى تكرارها دليلاً على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ، قال إذ لو كانت آية لكنا قد آتيناً بآيتين متجاورتين بمعنى واحد وهذا لا يوجد إلا بفواصل تفصل بين الأولى والثانية ، قال : والفصل بينها بالحمد لله رب العالمين كلا فصل ، قال لأنه مؤخر يراد به التقديم تقديره الحمد لله الرحمن الرحيم رب العالمين ، وإنما قلنا بالتقديم لأن مجاورة الرحمة بالحمد أولى ومجاورة الملك بالملك أولى ، قال :

من الصفات ، فإذا قطعوا وجاءوا على القياس ، فيكون رجوعهم بعد ذلك إلى النعت نقضاً للغرض ، ويجري هذا مجرى العودة على المعنى بعد اللفظ ، والعودة على اللفظ بعد المعنى ، والعودة إلى المعنى بعد اللفظ صحيحة لا خلاف فيها ، العودة إلى اللفظ بعد المعنى خروج عن القياس ونقض للغرض ، وقد اختلف الناس في هذا أيضاً ، كما اختلفوا في الفصل الأول ، والأقوى ألا يتبع بعد اللفظ وألا يعاد على اللفظ بعد العودة على المعنى .

انظر من البسيط (٣١٦/١ - ٣١٧) ، انظر همع الهوامع (١١٨/٢ - ١١٩) ، شرح ابن عقيل (٢٠٤/٢) .

(١) محمد بن عبد الرحمن بن السميع - بفتح السين - أبو عبد الله اليماني له اختيار في القراءة - انظر غايّة النهاية (١٦١/٢) .

(٢) عيسى بن عمر الإمام المقرئ العابد أبو عمر الهمداني الكوفي عرف بالهمداني . وثقه ابن معين ، وغيره ، وكان مقرئ الكوفة في زمانه بعد حمزة ومعه وقال الثوري ما بها أقرأ منه - توفي سنة ست وخمسين ومائة - السير (١٩٩/٧) ، التاريخ الكبير (٣٩٧/٦) ، تهذيب التهذيب (٢٢٢/٨) .

(٣) موسى بن سهل بن عبد الحميد أبو عمران البصري الجنوبي نزبيل بغداد وثقه الدارقطني مات في رجب سنة سبع وثلاث ومائة - تاريخ بغداد (٥٦/١٣ - ٥٧) ، العبر (١٣/٢) ، السير (٢٦١/١٤) .

والتقديم والتأخير كثير في القرآن ، وكلام مكي مدخول من غير وجه ، ولولا جلالة قائله نزهت كتابي هذا عن ذكره ، والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة لأنه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبية ، وصفة الرحمة ، ثم ذكر شيئين أحدهما ملكه يوم الجزاء ، والثاني العبادة ، فناسب الربوبية للملك ، والرحمة العبادة ، فكان الأول للأول ، والثاني للثاني ، وقد ذكر المفسرون في علم التفسير الوقف ، وقد اختلف في أقسامه ، فقليل تام وكاف وقبيح وغير ذلك^(١) وقد صنف الناس في ذلك كتباً مرتبة على السور ككتاب أبي عمرو الداني ، وكتاب « الكرمانى » وغيرهما ، ومن كان عنده حظ في علم العربية استغنى عن ذلك .

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

﴿مالك﴾ قرأ مالك على وزن فاعل بالخفض عاصم والكسائي وخلف في اختياره ويعقوب وهي قراءة العشرة إلا « طلحة » و « الزبير » ، وقراءة كثير من الصحابة منهم أبي وابن مسعود و « معاذ » و « ابن عباس » والتابعين منهم « قتادة » و « الأعمش » ، وقرأ مالك على وزن فعل بالخفض باقي السبعة ، وزيد و « أبو الدرداء وابن عمر والمسور وكثير من الصحابة والتابعين ، وقرأ « ملك » على وزن سَهْل أبو هريرة وعاصم الجحدري ورواها الجعفي^(٢)

(١) الوقف في الاصطلاح : هو قطع النطق عند آخر الكلمة وقطعها عما بعدها ولما لم يمكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحد لم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة وجب حينئذ اختيار وقف للتنفس والاستراحة وتعين ارتضاء ابتداء بعد التنفس والاستراحة ، وتحتم أن لا يكون ذلك مما يخل بالمعنى ولا يخل بالفهم إذ بذلك يظهر الإعجاز ، ويحصل القصد ، ولذلك حض الأئمة على تعلمه ومعرفته فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله : الترتيل معرفة الوقوف - وتجويد الحروف . والوقف ينقسم إلى اختياري واضطراري ، لأن الكلام إما أن يتم أولاً فإن تم كان اختيارياً . وكونه تاماً لا يخلو إما أن لا يكون له تعلق بما بعده البتة - أي لا من جهة اللفظ ، ولا من جهة معنى - فهو الوقف الذي اصطلح عليه الأئمة (بالتام) لتامه المطلق ، يوقف عليه ويبتدأ بما بعده ، وإن كان له تعلق فلا يخلو هذا التعلق إما أن يكون من جهة المعنى فقط وهو الوقف المصطلح عليه (بالكافي) للاكتفاء به عما بعده . واستغناء ما بعده عنه وهو كالتام في جواز الوقف عليه والابتداء بما بعده . وإن كان التعلق من جهة اللفظ فهو الوقف المصطلح عليه (بالحسن) لأنه في نفسه حسن مفيد يجوز الوقف عليه دون الابتداء بما بعده للتعلق اللفظي إلا أن يكون رأس آية فإنه يجوز في اختيار أكثر أهل الأداء . لمجيئه عن النبي - ﷺ - في حديث أم سلمة - رضي الله تعالى - عنها أن النبي ﷺ إذا قرأ قطع قراءته آية يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم يقف ، ثم يقول (الحمد لله رب العالمين) ثم يقف ، ثم يقول (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) رواه أبو داود ساكناً عليه ، والترمذي وأحمد . وأبو عبيدة وغيرهم ، وهو حديث حسن وسنده صحيح ، وكذلك عد بعضهم الوقف على رؤوس الآي في ذلك سنة (فالوقف التام) أكثر ما يكون في رؤوس الآي وانقضاء القصص (والوقف الكافي) يكثر في الفواصل وغيرها (والوقف الحسن) نحو الوقف على (بسم الله) وعلى (الحمد لله) وعلى (رب العالمين) الوقف على ذلك وما أشبهه حسن لأن المراد من ذلك يفهم . (والوقف القبيح) نحو الوقف على : بسم ، وعلى : الحمد ، وعلى : رب ، ومالك يوم وإياك ، وصراط الدين ، وغير المغضوب . فكل هذا لا يتم عليه كلام ولا يفهم منه معنى . وقد يكون بعضه أقيح من بعض كالوقف على ما يحيل المعنى نحو (وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه) فإن المعنى يفسد بهذا الوقف لأن المعنى أن البنت مشتركة من النصف مع أبويه . وإنما المعنى أن النصف للبنت دون الأبوين . ثم استأنف الأبوين بما يجب لهما مع الولد . انظر النشر (١ / ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٨ - ٢٢٩) .

(٢) الحسين بن علي الجعفي ابن الوليد الإمام القدوة الحافظ المقرئ المجود الزاهد بقية الأعلام أبو عبد الله وأبو محمد الجعفي مولاهم الكوفي وثقه ابن معين وغيره وتوفي في شهر ذي القعدة سنة ثلاث ومائتين وله بضع وثمانون سنة - السير (٣٩٧ / ٩) ، طبقات ابن سعد (٣٩٦ / ٦) ، التاريخ الكبير (٣٨١ / ٢) ، غاية النهاية (٢٤٧ / ١) .

وعبد الوارث^(١) عن أبي عمرو وهي لغة بكر بن وائل^(٢) ، وقرأ مَلِكِي بِإِشْبَاع كَسرة الكاف أحمد بن صالح^(٣) عن ورش عن نافع ، وقرأ مَلِكٌ على وزن عجل « أبو عثمان النهدي »^(٤) ، و « الشعبي » و « عطية » ، ونسبها « ابن عطية » إلى « أبي حياة » ، وقال صاحب « اللوامح » : قرأ « أنس بن مالك » و « أبو نوفل » عمر بن مسلم بن أبي عدي مَلِكٌ يوم الدين بنصب الكاف من غير ألف ، وجاء كذلك عن أبي حياة انتهى . وقرأ كذلك إلا أنه رفع الكاف « سعد بن أبي وقاص » و « عائشة » و « مورك العجلي »^(٥) ، وقرأ مَلِكٌ فعلاً ماضياً « أبو حياة » و « أبو حنيفة » و « جبير بن مطعم »^(٦) و « أبو عاصم عبيد بن عمير الليثي »^(٧) و « أبو المحشر عاصم بن ميمون الجحدري » فينصبون اليوم . وذكر « ابن عطية » أن هذه قراءة « يحيى بن يعمر » و « الحسن » و « علي بن أبي طالب » ، وقرأ « مَلِكٌ » بنصب الكاف « الأعمش » و « ابن السميع » و « عثمان بن أبي سليمان » و « عبد الملك » قاضي « الهند » ، وذكر « ابن عطية » أنها قراءة « عمر بن عبد العزيز » و « أبي صالح السمان » و « أبي عبد الملك الشامي »^(٨) ، وروى « ابن أبي عاصم » عن « اليمان » ملكاً بالنصب والتنوين ، وقرأ مَلِكٌ برفع الكاف والتنوين « عون العقيلي » ، ورويت عن « خلف بن هشام »^(٩) و « أبي عبيد » و « أبي حاتم »^(١٠) وبنصب اليوم ، وقرأ مَلِكٌ يوم بالرفع والإضافة « أبو هريرة » و « أبو حياة » و « عمر بن عبد العزيز » بخلاف عنه ، ونسبها صاحب « اللوامح » إلى أبي « روح عون بن أبي شداد

(١) عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان أبو عبيدة التنوري العنبري مولا هم البصري إمام حافظ مقرئ ثقة ولد سنة اثنتين ومائة ومات في آخر ذي الحجة سنة تسع أو أول المحرم سنة ثمانين ومائة بالبصرة وله ثمان وسبعون سنة وصلى عليه ابن سوار العنبري - غاية النهاية (٤٧٨/١) .

(٢) بكر بن وائل بن قاسط من بني ربيعة من عدنان جد جاهلي من نسله (بنو يشكر) و (حنيفة) و (الدؤل) و (مرة) و (بنو عجل) و (تيم الله) و (ذهل بني شيبان) وكان صنم البكرين في الجاهلية يدعى (المحرق) شاركهم فيه ربيعة كلها أقاموه في (سلمان) وراء الكوفة وجعلوا في كل حي من ربيعة « ولداً » له - انظر الأعلام للزركلي (٧١/٢) ، جمهرة الأنساب (٢٩٠) .

(٣) أحمد بن صالح الإمام الكبير حافظ زمانه بالديار المصرية أبو جعفر المصري المعروف بابن الطبري ولد بمصر سنة سبعين ومائة قال البخاري أحمد بن صالح ثقة صدوق - السير (١٦٠/١٢) ، التاريخ الكبير (٦/٢) ، تاريخ بغداد (١٩٥/٤) ، غاية النهاية (٦٢/١) .

(٤) أبو عثمان النهدي الإمام الحجة شيخ الوقت عبد الرحمن بن مل وقيل ابن ملي بن عمرو بن عدي البصري مخضرم معمر أدرك الجاهلية والإسلام وغزا في خلافة عمر وبعدها غزوات - السير (١٧٥/٤) - طبقات ابن سعد (٩٧/٧) ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣٢٤/٣) .

(٥) مورك العجلي الإمام أبو المعتمر البصري قال ابن سعد كان ثقة عابداً توفي في ولاية عمر بن هبيرة على العراق - السير (٣٥٣/٤) - طبقات ابن سعد (١٥٠/٥) ، تهذيب التهذيب (٣٣١/١٠) .

(٦) جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي شيخ قريش في زمانه أبو محمد ، ويقال أبو عدي القرشي النوفلي . توفي سنة تسع وخمسين ، وقيل سنة ثمان وخمسين - السير (٩٥/٣) ، أسد الغابة (٣٢٣/١) ، الاستيعاب (٢٣٠/١) .

(٧) عبيد بن عمير بن قتادة اللبني الجندعي المكي الواعظ المفسر ولد في حياة رسول الله ﷺ ، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة - طبقات ابن سعد (٤٦٣/٥) ، التاريخ الكبير (٤٥٥/٥) - انظر السير (١٥٦/٤) ، المعارف (٤٣٤) .

(٨) أبو عبد الملك الشامي قاضي الجند ، عرض على يحيى بن الحارث الزماري ، روى القراءة عنه أيوب بن تميم أبو عبيد القاسم بن سلام - غاية المنتهى (٦١٨/١) .

(٩) خلف بن هشام بن ثعلب وقيل طالب بن غراب الإمام الحافظ الحجة شيخ الإسلام أبو محمد البغدادي البزار المقرئ وله اختيار في الحروف صحيح ثابت ليس بشاذ أصلاً ولا يكاد يخرج فيه عن القراءات السبع توفي في سابع من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين وقد شارف الثمانين - السير (٥٧٦/١) ، طبقات ابن سعد (٣٤٨/٧) ، التاريخ الكبير (١٩٦/٣) .

(١٠) انظر غاية النهاية (٣٢٠/١) ، وفيه أبو حاتم السجستاني - وانظر (٩٧/٢) وفيه أبو حاتم الحنظلي الرازي .

العقيلي»^(١) ساكن « البصرة » ، وقرأ مَلِيكَ على وزن فعيل « أَبِي » و « أبوهريرة » و « أبورجاء العطاردي »^(٢) وقرأ مَالِكُ بالإمالة البليغة « يحيى بن يعمر » و « أيوب السختياني »^(٣) ، وبين بين « قتيبة بن مهران »^(٤) عن الكسائي ، وجهل النقل أعني في قراءة الإمالة « أبو علي الفارسي » فقال لم يمل أحد من القراء ألف مالك وذلك جائز إلا أنه لا يقرأ بما يجوز إلا أن يأتي بذلك أثر مستفيض ، وذكر أيضاً أنه قرئ في الشاذ (مَلَأُك) بالألف والتشديد للام وكسر الكاف فهذه ثلاث عشرة قراءة بعضها راجع إلى الملك ، وبعضها إلى الملك ، قال اللغويون وهما راجعان إلى الملك وهو الربط ، ومنه ملك العجين وقال « قيس بن الخطيم »^(٥) :

مَلَكْتُ بِهَا كَفْيَ فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا يُرَى قَائِماً مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا^(٦)

والإملاك^(٧) ربط عقد النكاح ، ومن ملح هذه المادة أن جميع تقاليبيها الستة مستعملة في اللسان ، وكلها راجع إلى معنى القوة والشدة ، فبينها كلها قدر مشترك ، وهذا يسمى بالاشتقاق^(٨) الأكبر ، ولم يذهب إليه غير أبي الفتح ، وكان « أبو علي الفارسي » يأنس به في بعض المواضع ، وتلك التقاليب ملك مكل كمكل لكم كمل كملم ، وزعم الفخر الرازي أن تقلاب كمكل مهممل وليس بصحيح بل هو مستعمل بدليل ما أنشد الفراء من قول الشاعر :

- (١) عون بن أبي شداد العقيلي بالفتح أبو معمر البصري عن أنس وعنه خلف بن خليفة وثقه ابن معين - الخلاصة (٣٠٩/٢) .
 - (٢) عمران بن ملحان - بكسر الميم وسكون اللام العطاردي أبورجاء البصري مخضرم أسلم بعد فتح مكة وثقه ابن معين . وتوفي سنة سبع عشرة ومائة - الخلاصة (٣٠٣/٢) ، التقريب للحافظ ابن حجر (٨٥/٢) .
 - (٣) أيوب بن أبي تميمة ، كيسان السختياني - نسبة إلى عمل السختيان - وبنييه وهو جلود الضأن - أحد الأئمة الأعلام . توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة - الخلاصة (١١٠/١) .
 - (٤) قتيبة بن مهران أبو عبد الرحمن الأزادي قرية من أصبهان إمام مقرر صالح ثقة ، قال الحافظ أبو عبد الله مات قتيبة بعد المائتين - غاية النهاية (٢٦/٢ - ٢٧) .
 - (٥) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي أبو يزيد شاعر الرؤوس وأحد صناديدها في الجاهلية له ديوان مطبوع توفي نحو سنة ٢ قبل الهجرة - الأغاني (١٥٤/٢) ، رغبة الأمل (١٧/٦) ، الأعلام للزركلي (٢٠٥/٥) .
 - (٦) انظر روح المعاني (٨٣/١) .
 - (٧) الإملاك : التزويج ، ويقال للرجل إذا تزوج : قد مَلَكَ فَلَانٌ يَمْلِكُ مَلَكاً وَمَلَكاً وَمَلَكاً - انظر لسان العرب (٤٢٦٨/٦) .
 - (٨) الاشتقاق : نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتها معنى وتركيباً ومغايرتهما في الصيغة . وهو يقابل الجمود ويضاده ، ويعتبر الاشتقاق أحد المصادر الهامة في توسعة اللغة ونموها .
- وقد اختلف في الأصل الذي يقع فيه الاشتقاق . فالكوفيون يرون أن الفعل أصل الاشتقاق في حين أن البصريين يرون أن المصدر أصله .
- ويتجه النحاة إلى ترجيح رأي البصريين واعتبار المصدر أصل ذلك .
- ويقسم اللغويون الاشتقاق إلى قسمين هما : الاشتقاق الكبير والاشتقاق الصغير .
- فأما الصغير فهو أخذ الكلمة من أصلها وتصريفها عدة تصريفات بنفس ترتيب حروفها مع ما تقتضيه الصيغ من زيادات مثل : يأكل وأكل وماكول وأكول وأكال من مادة (أكل) . وهذا النوع يسمى أيضاً الاشتقاق الأصغر .
- وأما الأكبر فهو كما عرفه ابن جني ومثل له بقوله : (ان تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحد تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه وإن تباعد شيء من ذلك عنه رد بلطف الصنعة والتأويل إليه) .
- (ومثاله : (ك ل م) (ك م ل) (م ل ك) (ل ك م) (ل م ك) وكل هذه التقاليب تدور حول معنى القوة والشدة) . وهذا النوع من الاشتقاق قد يسمى الاشتقاق الكبير . وهناك من يرى أن الاشتقاق الأكبر هو أن يكون بين الكلمتين تناسب في مخارج الحروف مثل نهق ونق . انظر معجم المصطلحات النحوية (١١٦ - ١١٧) ، الخصائص لابن جني (١٣٤/٢ - ١٣٥) .

فَلَمَّا رَأَى قَدْ حَمَمْتُ ارْتَحَالَهُ تَمَلَّكَ لَوْ يُجِدِي عَلَيْهِ التَّلْمُكَ^(١)

والملك هو : القهر والتسلط على من تتأتى منه الطاعة ، ويكون ذلك باستحقاق وبغير استحقاق ، والملك هو : القهر على من تتأتى منه الطاعة ومن لا تتأتى منه ، ويكون ذلك منه باستحقاق ، فبينهما عموم وخصوص من وجه ، وقال «الأخفش»^(٢) يقال : ملك من المُلْك بضم الميم ، ومالك من المِلْك بكسر الميم وفتحها ، وزعموا أن ضم الميم لغة في هذا المعنى ، وروي عن بعض « البغداديين » لي في هذا الوادي ملك ومُلْك بمعنى واحد ﴿ يوم ﴾ اليوم هو المدة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ويطلق على مطلق الوقت وتركيبه غريب ، أعني وجود مادة تكون فاء الكلمة فيها ياء وعينها واو لم يأت من ذلك سوى يوم وتصاريفه ويوح اسم للشمس ، وبعضهم زعم أنه بوج بالباء والمعجمة بواحدة من أسفل ﴿ الدين ﴾ الجزء ، دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا ، قاله قتادة^(٣) ، والحساب ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ [الروم : ٣٠] قاله « ابن عباس »^(٤) ، والقضاء ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ [النور : ٢] ، والطاعة في دين عمرو ، وحالت بيننا وبينك فدك قاله أبو الفضل ، والعادة .

كَدِينِكَ مِنْ أُمِّ الْحَوِيرِثِ قَبْلَهَا مِنْ معلقة امرئ القيس .

وكنى بها هنا عن العمل قاله الفراء ، والملة ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣] ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩] والقهر ومنه المدين للعبد ، والمدينة للأمة قاله « يمان بن رثاب » ، وقال « أبو عمرو » الزاهد وإن أطاع وعصى ، وذلل وعز ، وقهر وجار وملك ، وحكى أهل اللغة دنته بفعله دِيناً بفتح الدال وكسرها جازيته ، وقيل الدين المصدر والدين بالكسر الاسم ، والدين السياسة والديان السائس ، قال « ذو الأصبع » عنه .

وَلَا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَحْزُونِي

والدين الحال ، قال « النضر بن شميل » : سألت أعرابياً عن شيء فقال لو لقيتني على دين غير هذا لأخبرتكَ ، والدين الداء عن « اللحياني » وأنشد :

يَا دِينَ قَلْبِكَ مِنْ سَلَمِي وَقَدْ دِينَا

ومن قرأ بجر الكاف فعلى معنى الصفة ، فإن كان بلفظ ملك على فعل بكسر العين أو إسكانها أو مليك بمعناه فظاهر ، لأنه وصف معرفة بمعرفة ، وإن كان بلفظ مَالِك أو مَلَاك أو مَلِيك محولين من مالك للمبالغة بالمعرفة ، وبدل عليه قراءة من قرأ ملك يوم الدين فعلاً ماضياً ، وإن كان بمعنى الاستقبال ، وهو الظاهر ، لأن اليوم لم يوجد فهو مشكل ، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال ، فإنه تكون إضافته غير محضة فلا يتعرف بالإضافة ، وإن أضيف إلى معرفة ، فلا يكون إذ ذاك صفة لأن المعرفة لا توصف بالنكرة ، ولا بدل نكرة من معرفة لأن البدل بالصفات ضعيف .

(١) ذكره في لسان العرب بلا نسبة (١٠٠٧/٢) .

(٢) سعيد بن مسعدة أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط قرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه وكان معتزلياً ، دخل بغداد ، وأقام بها مدة درس وصنف فيها وهو الذي زاد في العروض بحر الخبب توفي سنة ٢١٥ من مصنفاته معاني القرآن إنباه الرواة (٣٦/٢) ، الشذرات (٣٦/٢) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥/١) ، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٥/١) ، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم .

وحل هذا الإشكال : هو أن اسم الفاعل إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال جاز فيه وجهان :

أحدهما : ما قدمناه من أنه لا يتعرف بما أضيف إليه ، إذ يكون منوياً فيه الانفصال من الإضافة ، ولأنه عمل نصب لفظاً .

الثاني : أن يتعرف به إذا كان معرفة ، فيلاحظ فيه أن الموصوف صار معروفاً بهذا الوصف ، وكان تقييده بالزمان غير معتبر^(١) ، وهذا الوجه غريب النقل لا يعرفه إلا من له اطلاع على كتاب « سيبويه » وتنقيب عن لطائفه ، قال « سيبويه » رحمه الله تعالى ، وزعم يونس^(٢) والخليل^(٣) أن الصفات المضافة التي صارت صفة للنكرة قد يجوز فيهن كلهن أن يكن معرفة ، وذلك معروف في كلام العرب انتهى . واستثنى من ذلك باب الصفة المشبهة فقط ، فإنه لا يتعرف بالإضافة نحو حسن الوجه^(٤) ، ومن رفع الكاف ونون أو لم ينون فعلى القطع إلى الرفع ، ومن نصب فعلى القطع إلى النصب ، أو على النداء ، والقطع أغرب لتناسق الصفات ، إذ لم يخرج بالقطع عنها ، ومن قرأ ملك فعلاً ماضياً فجملته خبرية لا موضع لها من الإعراب ، ومن أشبع كسرة الكاف ، فقد قرأ بنادر ، أو بما ذكر أنه لا يجوز إلا في الشعر ، وإضافة الملك أو الملك إلى يوم الدين إنما هو من باب الاتساع إذ متعلقهما غير اليوم ، والإضافة على معنى اللام لا على معنى في خلافاً لمن أثبت الإضافة بمعنى في ، ويبحث في تقرير هذا في النحو^(٥) ، وإذا كان من الملك كان من باب :

(١) اعلم أن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال فإن العرب تضيفه إضافتين :

الأولى : إضافة طلباً للتخفيف .

الثانية : إضافة على جهة التعريف وتكون هذه الإضافة كإضافة سائر الأسماء فإذا أضفته على جهة التخفيف كان حكمه كحكمه لو لم تضاف ، فيبقى نكرة ، وإذا أضيف إضافة الأسماء على جهة التخصيص والتعريف ، جرى مجرى الأسماء ، فيجري حينئذ ضاربك ، مجرى غلامك ، وإن كان بمعنى الحال والاستقبال فنقول :

أزید أنت ضاربك إذا لم ترد التعريف ، فإذا أردت التعريف فلا يكون في زيد إلا الرفع ، ولا يجوز أن ينتصب ، فنقول : أزید أنت ضاربك ، كما نقول : أزید أنت غلامك ، وإنما لم يجز لزيد أن ينتصب هنا ، لأن ضارباً إذا أضيف إضافة التعريف ، فلا يجوز أن يعمل ، لأنه قد باعد الأفعالي ، وما لا يعمل لا يصح أن يُفسَّر .

انظر من البسيط (٢/ ١٠٤٠ - ١٠٤١) ، وانظر الارتشاف (٣/ ١٨٦ - ١٨٧) .

(٢) يونس بن حبيب الضبي بالولاء أبو عبد الرحمن ويعرف بالنحوي علامة بالأدب كان إمام نحاة البصرة في عصره أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء من كتبه معاني القرآن توفي سنة ١٨٢ هجرية - نزهة الألبا (٥٩) ، المزهر (٢/ ٢٣١) ، الأعلام (٨/ ٢٦١) .
(٣) الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي ، نحوي لغوي عروضي استنبط من العروض وعلله ما لم يستخرجه أحد ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم ، له كتاب العين ، وغير ذلك ، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائة إنباه الرواة (١/ ٣٤١) ، أخبار النحويين البصريين للسيرافي (٣٨) ، الشذرات (١/ ٢٧٥) ، غاية النهاية (١/ ٢٧٥) .

(٤) إضافة الصفة المشبهة لا تكون أبداً للتعريف لأن الأول في المعنى هو الثاني والشيء لا يتعرف بنفسه ألا ترى أنك لا تقول : هذا عاقل زيد تريد هذا زيد العاقل ؛ لأن العاقل هو زيد ، وهو في المعنى صفة ، وأنت إذا قلت : مررت برجل حسن الوجه فالحسن في المعنى صفة للوجه ، فلو جاز أن تضاف الصفة إلى الموصوف ولم يكن ذلك ثانياً عن النصب لجاز ما ذكرته وهو : هذا عاقل زيد ، ومررت بكريم عمرو ، تريد : مررت بعمرو الكريم ، وهذا بين أن العرب لا تقوله .

فقد صح بما ذكرته أن الحسن لم يضاف إلى الوجه ليتعرف به وإنما أضيف بعد ما نصب على التشبيه بالمفعول به ، وصار بذلك : مررت برجل حسن الوجه بمنزلة قولك : مررت برجل ضارب الغلام ، وهم يضيفون ضارباً إلى الغلام طلباً للتخفيف فأضافوا حسناً إلى الوجه - انظر البسيط (٢/ ١٠٨٤ - ١٠٨٥) .

(٥) قال الجرجاني وابن الحاجب في كافيته وابن مالك في كتبه : وتقدر (في) حيث كان ظرفاً له ، قال في شرحي الكافية والتسهيل : قد أعلتها أكثر النحويين وهي ثابتة في الفصح كقوله تعالى (الذو الخصام) ، (بل مكر الليل والنهار) ، (تربص أربعة أشهر) ، (يا =

طَبَّاحُ سَاعَاتِ الْكَرَى زَادَ الْكَسَلَ

وظاهر اللغة : تغاير الملك والمالك كما تقدم ، وقيل هما بمعنى واحد كالفره والفاره ، فإذا قلنا بالتغاير فقليل مَالِك أمدح لحسن أضافته إلى من لا تحسن إضافة الْمَلِكِ إِلَيْهِ نحو مَالِكِ الجن والإنس والملائكة والطير فهو أوسع لشمول العقلاء وغيرهم قال الشاعر :

سُبْحَانَ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِوَجْهِهِ مَلِكِ الْمُلُوكِ وَمَالِكِ الْعَفْرِ

قاله « الأخفش » ، ولا يقال هنا ملك ، ولقولهم مالك الشيء لمن يملكه ، وقد يكون مَلِكًا لا مَالِكًا ، نحو مَلِكِ العرب والعجم قاله أبو حاتم ، ولزيادته في البناء والعرب تعظم بالزيادة في البناء ، وللزيادة في أجزاء الثاني لزيادة الحروف ، ولكثرة من عليها من القراء ، ولتمكن التصرف ببيع وهبة وتمليك ، ولإبقاء الْمَلِكِ في يد الْمَالِكِ إذا تصرف بجور أو اعتداء أو سرف ، ولتعيينه في يوم القيامة ، ولعدم قدرة المملوك على انتزاعه من الملك ، ولكثرة رجائه في سيده بطلب ما يحتاج إليه ولوجوب خدمته عليه ، ولأن المالك يطمع فيه ، والمَلِكُ يطمع فيك ، ولأن له رافة ورحمة ، والملك له هبة وسياسة ، وقيل مَلِكُ أمدح وألحق إن لم يوصف به الله تعالى لإشعاره بالكثرة ، ولتمدحه بمالك الملك ، ولم يقل مالك الملك ، ولتوافق الابتداء والاختتام في قوله ملك الناس ، والاختتام لا يكون إلا بأشرف الأسماء ، ولدخول المالك تحت حكم الملك ، ولوصف نفسه بالملك في مواضع ، ولعموم تصرفه فيمن حوته مملكته ، وقصر المالك على ملكه قاله « أبو عبيدة » ، ولعدم احتياج الملك إلى الإضافة أو مالك لا بد له من الإضافة إلى مملوك ، ولكونه أعظم الناس فكان أشرف من المالك ، قال « أبو علي » حكى « ابن السراج »^(١) عن اختار قراءة ملك كل شيء بقوله (رب العالمين) فقراءة مالك تقرير ، قال أبو علي ولا حجة في هذا ، لأن في التنزيل تقدم العام ثم ذكر الخاص منه ﴿ الخالق البارئ المصور ﴾ [الحشر : ٢٤] ، فالخالق يعم ، وذكر المصور لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ، ووجوه الحكمة ، ومنه ﴿ وبالأخرة هم يوقنون ﴾ [البقرة : ٤] ، بعد قوله ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : ٣] ، وإنما كررها تعظيماً لها ، وتنبيهاً على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الملحد ، ومنه (الرحمن الرحيم) ذكر الرحمن الذي هو عام ، وذكر الرحيم بعده لتخصيص الرحمة بالمؤمنين ، في قوله ﴿ وكان بالمؤمنين

= صاحبي السجن) . ولا يصح تقديرها إلا بتكلف أفاده السيوطي في الهمع وقال : قال أبو حيان (ولا أعلم أحداً ذهب إلى هذه الإضافة غيره وهو مردود فقد قال بها الجماعة المذكورون معه كما صرح بتقله عنهم تقوية لابن مالك ورد الدعوى تفرد وصرح ابن الحاجب في مقدمته بأن تقدير (في) أقل من « اللام » و « من » وكذا قال ابن مالك وزاد أن تقدير من أقل من تقدير اللام وقال الكوفيون ويقدر (عند) نحو : هذه نافذة رقاد الحلب : أي رقاد عند الحلب وأجاب أبو حيان بأن هذا وما قدر فيه من باب الصفة المشبهة ، والأصل رفعة على الفاعلية مجاز للمقايسة ، وقال أبو حيان : لا تقدير أصلاً لا للام ولا لغيرها وإنما الإضافة تفيد الاختصاص ، وجهاته متعددة بين كل جهة منها الاستعمال ، فإذا قلت : غلام زيد ، دار عمر ، فالإضافة للملك أو سرج الدابة ، فالإضافة للاستحقاق أو شيخ أخيك فلمطلق الاختصاص .

هذا : وقد صرح المصنف رحمه الله أن الإضافة هنا على معنى اللام .

انظر مع الهوامع (٤٦/٢ - ٤٧) ، التصريح على التوضيح (٢٥/٢) ، الإنصاف (٤٣٨/٢) ، البسيط شرح الجمل (٨٩٧/٢) .

(١) هو أبو بكر محمد بن سهل النحوي البغدادي كان أحد العلماء المذكورين بالأدب وعلم العربية المجمع على فضله ونبله وجلالة قدره في النحو والأدب توفي يوم الأحد لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ٣١٦ هجرية ببغداد في خلافة المقتدر بالله - انظر إنباه الرواة (١٤٥/٣) ، معجم الأدباء (١٩٧/١٨) ، وفيات الأعيان (٤٦٢/٣) .

رحيماً ﴿ [الأحزاب : ٤٣] ، انتهى . وقال « ابن عطية » أيضاً فإن الرب يتصرف في كلام العرب بمعنى الملك كقوله :

وَمِنْ قَبْلُ رَبَّنِي فَصَفْتُ رُبُوبُ

وغير ذلك من الشواهد فتنعكس الحجة على من قرأ ملك ، والمراد باليوم الذي أضيف إليه مالك أو ملك زمان ممتد إلى أن ينقضي الحساب ، ويستقر أهل الجنة فيها وأهل النار فيها ، ومتعلق المضاف إليه في الحقيقة هو الأمر ، كأنه قال مالك أو ملك الأمر في يوم الدين ، لكنه لما كان اليوم ظرفاً للأمر جاز أن يتسع فيتسلط عليه الملك أو المالك لأن الاستيلاء على الظرف استيلاء على المظروف ، وفائدة تخصيص هذه الإضافة وإن كان الله تعالى مالك الأزمنة كلها والأمكنة ، ومن حلها والملك فيها التنبيه على عظم هذا اليوم بما يقع فيه من الأمور العظام ، والأحوال الجسام من قيامهم فيه لله تعالى ، والاستشفاع لتعجيل الحساب ، والفصل بين المحسن والمسيء ، واستقرارهما فيما وعدهما الله تعالى به ، أو على أنه يوم يرجع فيه إلى الله جميع ما ملكه لعباده ، وخولهم فيه ، ويزول فيه ملك كل مالك ، قال تعالى : ﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : ٩٥] ، ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الكهف : ٤٨] ، قال « ابن السراج » : إن معنى (مالك يوم الدين) أنه يملك مجيئه ووقوعه ، فالإضافة إلى اليوم على قوله إضافة إلى المفعول به على الحقيقة ، وليس ظرفاً اتسع فيه ، وما فسر به الدين من المعاني يصح إضافة اليوم إليه إلى معنى كل منها إلا الملة ، قال « ابن مسعود » و « ابن عباس » و « قتادة » و « ابن جريج » وغيرهم (يوم الدين) يوم الجزاء على الأعمال والحساب^(١) ، قال « أبو علي » : ويدل على ذلك ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ [غافر : ١٧] ، ﴿ واليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ، وقال مجاهد يوم الدين يوم الحساب مدينين محاسبين ، وفي قوله (مالك يوم الدين) دلالة على إثبات المعاد ، والحشر ، والحساب ، ولما اتصف تعالى بالرحمة انبسط العبد ، وغلب عليه الرجاء ، فبه بصفة الملك أو المالك ليكون من عمله على وجل ، وأن لعمله يوماً تظهر له فيه ثمرته من خير وشر .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

﴿ إياك ﴾ إيا تلحقه ياء المتكلم وكاف المخاطب وهاء الغائب وفروعها ، فيكون ضمير نصب منفصلاً ، لا اسماً ظاهراً أضيف خلافاً لزماعه ، وهل الضمير هو مع لواحقه أو هو وحده واللواحق حروف أو هو واللواحق أسماء أضيف هو إليها أو اللواحق وحدها وإيا زائدة لتصل بها الضمائر أقوال ذكرت في النحو^(٢) ، وأما لغاته فبكسر الهمزة وتشديد الياء وبها

(١) ذكره ذلك السيوطي في الدر المنثور (١٤/١) ، عن ابن مسعود وعزاه لابن جرير والحاكم وصححه وعن ابن عباس لابن جرير وابن أبي حاتم وعن قتادة لعبد الرزاق وعبد بن حميد وانظر القرطبي في التفسير (١٠٠/١) ، وابن كثير في التفسير (٤٠/١) .

(٢) ذهب سيبويه وأكثر البصريين والأخفش إلى أن الضمير هنا (إيا) وما زاد على الضمير فهو حرف يدل على الأفراد والثنية والجمع وعلى الخطاب وعلى المتكلم وعلى الغيبة قال الزمخشري : قال أبو حيان وهو الذي صححه أصحابنا وشيوخنا وذهب الخليل والمازني واختاره ابن مالك إلى أنها أسماء مضمرة أضيف إليها الضمير الذي هو « إيا » لظهور الإضافة في قولهم إيايا وإيا الشواب وهو مردود لشذوذه ولم تعهد إضافة الضمائر وقال أبو حيان : ولو كانت إيا مضافة لزم إعرابها لأنها ملازمة لما ادعوا إضافتها إليه والمبني إذا لزم الإضافة أعرب كأي بل أولى لأن إيا لا تنفك وأي قد تنفك عن الإضافة وذهب الفراء إلى أن اللواحق هي الضمائر إيايا حرف زيد دعامة يعتمد عليها اللواحق لتنفصل عن المتصل ووافقه الزجاج في أن للواحق ضمير إلا أنه قال إن إيا اسم ظاهر أضيف إلى اللواحق فهي في موضع جر به وقال ابن درستويه : إنه بين الظاهر والمضمر وقال الكوفيون : مجموع إيا ولواحقها هو الضمير فهذه ستة مذاهب . انظر همع الهوامع (٦١/١) ، الكتاب (٣٥٥/٢) ، سر صناعة الإعراب (٣١١/١) ، انظر الإنصاف (٦٩٥/٢) ، شرح المفصل (٩٨/٣) ، شرح الكافية (١٢/٢) .

قرأ الجمهور وبفتح الهمزة وتشديد الياء وبها قرأ « الفضل الرقاشي »^(١) وبكسر الهمزة وتخفيف الياء وبها قرأ « عمرو بن فائد »^(٢) عن « أبي » وبإبدال الهمزة المكسورة هاء ، وبإبدال الهمزة المفتوحة هاء ، وبذلك قرأ « ابن السوار الغنوي » ، وذهب « أبي عبيدة » إلى أن إيا مشتق ضعيف ، وكان « أبو عبيدة » لا يحسن النحو وإن كان إماماً في اللغات وأيام العرب ، وإذا قيل بالاشتقاق ، فاشتقاقه من لفظ إوٍ من قوله :

فَاوٍ لِدِكْرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا

فتكون من باب قوة ، أو من الآية فتكون عينها ياء ، كقوله :

لَمْ يَبْقَ هَذَا الدَّهْرُ مِنْ إِيَّائِهِ^(٣)

قولان ، وهل وزنه إِفْعَلْ وأصله إَوَوُ أو إَوِي ، أو فِعِيلْ فأصله إَوِيَوُ ، أو إَوِيِي ، أو فَعُولْ وأصله إَوَوُ ، أو إَوِيِي ، أو فَعَلِي فأصله إَوَوِي ، أو أَوِيَا أفاويل كلها ضَعِيفَة ، والكلام على تصاريفها حتى صارت إيا تذكر في علم النحو ، وإضافة إيا الظاهر نادر نحو :

وإِيا الشَّوَابِ

أو ضرورة نحو دعني وإيا خالد ، واستعماله تحذيراً معروفاً ، فيتحمل ضميراً مرفوعاً يجوز أن يتبع بالرفع نحو إياك أنت نفسك ﴿ نعبد ﴾ العبادة : التذلل قاله الجمهور ، أو التجريد قاله ابن السكيت^(٤) ، وتعديه بالتشديد مغاير لتعديده بالتخفيف نحو عبدت الرجل ذللت ، وعبدت الله ذللت له وقرأ « الحسن » و « أبو مجلز »^(٥) و « أبو المتوكل »^(٦) إِيَّاكَ يُعْبَدُ بالياء مبنياً للمفعول ، وعن بعض أهل مكة نَعْبُدُ بإسكان الدال ، وقرأ « زيد بن علي » و « يحيى بن وثاب »^(٧) و « عبيد بن عمير » الليثي نَعْبُدُ بكسر النون ﴿ نستعين ﴾ الاستعانة : طلب العون والطلب أحد معاني استفعل ، وهي اثنا عشر معنى وهي الطلب ، والاتحاد ، والتحول ، والقاء الشيء بمعنى ما صيغ منه ، وعدّه كذلك ، ومطأوعة افعل وموافقة تفعل ، وافتعل ، والفعل المجرد ، والإغناء عنه وعن فعل ، مثل ذلك استطعم واستعبده واستنسر واستعظمه واستحسنه وإن لم يكن كذلك ، واستشلى مطاوع اشلى ، واستبل موافق مطاوع ابل ، واستكبر موافق تكبر ،

(١) الفضل بن عيسى الرقاشي البصري روى عن أنس وعنه الثوري وقال أبو داود لا يكتب حديثه الخلاصة (٣٣٦/٢) .

(٢) عمرو بن فائد أبو علي الأسواري البصري وردت عنه الرواية في حروف القرآن . انظر غاية النهاية (٦٠٢/١) .

(٣) البيت من مشطور الرجز لأبي النجم العجلي : « سر صناعة الإعراب » ص ٦٥٩ وانظر التنبيهات لعلي بن حمزة ص ٣٢٩ .

(٤) ابن السكيت شيخ العربية أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت البغدادي النحوي المؤدب مؤلف كتاب إصلاح المنطق دین خير حجة في العربية . توفي سنة أربع وأربعين ومائتين . طبقات النحويين واللغويين (٢٠٢) ، تاريخ بغداد (٢٧٣١٤) ، معجم الأدباء (٥٠/٢٠) ، انظر السير (١٦/١٢) ، وفيات الأعيان (٣٩٥/٦) ، والسكيت بكسر السين المهملة والكاف المشددة وبعدها مثناة من تحتها ثم تاء مثناة من فوقها وعرف بذلك لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت وكل ما كان على وزن (فعيل) أو (فعليل) فإنه مكسور الأول .

(٥) لاحق بن حميد البصري ، ويقال شعبة بن خالد بن كثير بن حبش بن عبد الله بن سدوس السدوسي أبو مجلز - بكسر الميم وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي وثقه ابن سعد والمعجلي توفي سنة مائة أو إحدى ومائة . التهذيب (١٧٢/١١) .

(٦) الناجي البصري محدث إمام اسمه علي بن داود متفق على ثقته . توفي سنة اثنتين ومائة . السير (٨/٥) ، طبقات ابن سعد (٢٢٥/٧) ، تهذيب التهذيب (٩٩/١٢) .

(٧) يحيى بن وثاب الإمام القدوة المقرئ الشيخ القراء الأسدي الكاهلي ، مولا هم أحد الأئمة الأعلام وثقه المعجلي وغيره . انظر السير (٣٧٩/٤) ، طبقات ابن سعد (٢٩٩/٦) ، التاريخ الكبير (٣٠/٨) ، الشذرات (١٢٥/١) .

واستعصم موافق اعتصم ، واستغنى موافق غني ، واستنكف واستحيا مغنيان عن المجرد ، واسترجع ، واستعان خلق عانته مغنيان عن فعل ، فاستعان طلب العون كاستغفر واستعظم ، وقال صاحب « اللوامح » وقد جاء فيه وياك أبدل الهمزة واواً ، فلا أدري أذلك عن الفراء أم عن العرب ، وهذا على العكس مما فروا إليه في نحو أشاح فيمن همز ، لأنهم فروا من الواو المكسورة إلى الهمزة ، واستثقالاً للكسرة على الواو ، وفي وياك فروا من الهمزة إلى الواو ، وعلى لغة من يستثقل الهمزة جملة لما فيها من شبه التهوع ، ويكون استفعل أيضاً لموافقة تفاعل وفعل ، حكى « أبو الحسن بن سيده » في « المحكم » تماسكت بالشيء ومسكت به ، واستمسك به بمعنى واحد أي احتبست به ، قال ويقال مسكت بالشيء وأمسكت وتمسكت احتبست انتهى . فتكون معاني استفعل حينئذ أربعة عشر لزيادة موافقة تفاعل وتفعل . وفتح نون نستعين قرأ بها الجمهور وهي لغة الحجاز وهي الفصحى . وقرأ « عبيد بن عمير الليثي » و « زر بن حبیش »^(١) و « يحيى بن وثاب » و « النخعي » و « الأعمش » بكسرها . وهي لغة قيس وتميم وأسد وربيعة ، وكذلك حكم حرف المضارعة في هذا الفعل وما أشبهه ، وقال « أبو جعفر الطوسي » هي لغة « هذيل » ، وانقلاب الواو ألفاً في استعان ومستعان ويا في نستعين ومستعين ، والحذف في الاستعانة مذكور في علم التصريف ، ويعدى استعان بنفسه وبالباء ، (إياك) مفعول مقدم ، و « الزمخشري » يزعم أنه لا يقدم على العامل إلا للتخصيص فكأنه قال ما نعبد إلا إياك ، وقد تقدم الرد عليه في تقديره بسم الله أتلو وذكرنا نص سيبويه هناك ، فالتقديم عندنا إنما هو للإعتناء والاهتمام بالمفعول ، وسب أعرابي آخر فأعرض عنه وقال إياك أعني ، فقال له : وعنك أعرض فقدما الأهم ، وإياك التفات لأنه انتقال من الغيبة إذ لو جرى على نسق واحد لكان إياه ، والانتقال من فنون البلاغة وهو الانتقال من الغيبة للخطاب أو التكلم ، ومن الخطاب للغيبة أو التكلم ، ومن التكلم للغيبة أو الخطاب ، والغيبة تارة تكون بالظاهر وتارة بالمضمهر ، وشرطه : أن يكون المدلول واحداً ، ألا ترى أن المخاطب بإياك هو الله تعالى ، وقالوا فائدة هذا الالتفات إظهار الملكة في الكلام والاعتدال على التصرف فيه ، وقد ذكر بعضهم مزيداً على هذا وهو إظهار فائدة تخص كل موضع موضع ونتكلم على ذلك حيث يقع لنا منه شيء ، وفائدته في (إياك نعبد) أنه لما ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والملك والملك لليوم المذكور ، أقبل الحامد مخبراً بأثر ذكره الحمد المستقر له منه ومن غيره أنه وغيره يعبد ويخضع له ، وكذلك أتى بالنون التي تكون له ولغيره ، فكما أن الحمد يستغرق الحامدين كذلك العبادة تستغرق المتكلم وغيره ، ونظير هذا أنك تذكر شخصاً متصفاً بأوصاف جليلة مخبراً عنه إخبار الغائب ويكون ذلك الشخص حاضراً معك فتقول له : إياك أقصد فيكون في هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ إياه ، ولأنه ذكر ذلك توطئة للدعاء في قوله اهدنا ، ومن ذهب إلى أن ملك منادى فلا يكون إياك التفاتاً لأنه خطاب بعد خطاب ، وإن كان يجوز بعد النداء الغيبة كما قال :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أَقَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ^(٢)

ومن الخطاب بعد النداء :

(١) زر بن حبیش بن حباشة بن أوس الإمام القدوة مقرئ الكوفة مع السلمي أبو مريم الأسدي الكوفي ويكنى أيضاً أبا مطرف أدرك أيام الجاهلية وتصدر للإقراء فقرأ عليه يحيى بن وثاب وعاصم بن بهدلة وأبو إسحاق والأعمش وغيرهم توفي سنة إحدى وثمانين . السير (١٦٦/٤) ، طبقات ابن سعد (١٠٤/٦) ، تذكرة الحفاظ (٥٤/١) ، تاريخ الإسلام (٢٤٩/٣) .
(٢) البيت من البسيط للناطقة الذبياني . انظر الكتاب (٣٦٤/١) ، الخزانة (٤٠٩/٤) ، شرح شواهد المغني (٣١٥/٤) ، التصريح على التوضيح (١٤٠/١) ، الدرر اللوامع (٦١/١) ، الأشموني (٢١٠/١) ، ديوانه (١٥) .

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَمِي عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالَ مِنْهُلًا بِجَرَعَائِكَ الْقَطْرُ^(١)
ودعوى الزمخشري^(٢) في أبيات امرئ القيس الثلاثة أن فيها ثلاثة التفاتات غير صحيح ، بل هما التفاتان ،
الأول خروج من الخطاب المفتوح به في قوله :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَثْمَدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ^(٣)

إلى الغيبة في قوله :

وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلِيلَةَ ذِي الْعَائِرِ الْأَرْمَدِ^(٤)

الثاني خروج من هذه الغيبة إلى المتكلم في قوله :

وَذَلِكَ مِنْ نَبَأٍ جَاءَنِي وَخَبَّرْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ^(٥)

وتأويل كلامه أنها ثلاث خطأ ، وتعيين أن الأول هو الانتقال من الغيبة إلى الحضور أشد خطأ ، لأن هذا الالتفات هو من عوارض الألفاظ لا من التقادير المعنوية ، وإضمارها قولوا قبل (الحمد لله) وإضمارها أيضاً قبل إياك لا يكون معه التفات وهو قول مرجوح ، وقد عقد أرباب علم البديع للالتفات في كلامهم ومن أجلهم كلاماً فيه « ابن الأثير الجزري » رحمه الله تعالى ، وقراءة من قرأ إياك يعبد بالياء مبنياً للمفعول مشكلة ، لأن إياك ضمير نصب ولا ناصب له وتوجيهها أن فيها استعارة والتفاتاً ، فالاستعارة إحلال الضمير المنسوب موضع الضمير المرفوع فكأنه قال أنت ثم التفت فأخبر عنه اخبار الغائب لما كان إياك هو الغائب من حيث المعنى فقال يعبد ، وغرابة هذا الالتفات كونه في جملة واحدة وهو ينظر إلى قول الشاعر :

أَأَنْتَ الْهَلَالِيُّ الَّذِي كُنْتَ مَرَّةً سَمِعْنَا بِهِ وَالْأَرْحِيُّ الْمُغَلَّبُ^(٦)

وإلى قول « أبي كثير الهذلي » :

يَا لَهْفَ نَفْسِي كَانَ جِلْدَةَ خَالِدٍ وَبَيَاضُ وَجْهِكَ لِلْتُّرَابِ الْأَغْفَرِ^(٧)

وفسرت العبادة في إياك نعبد بأنها التذلل والخضوع وهو أصل موضوع اللغة ، أو الطاعة كقوله تعالى ﴿ لا تعبد الشيطان ﴾ [مريم : ٤٤] ، أو التقرب بالطاعة ، أو الدعاء ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ [غافر : ٦٠] ، أي عن دعائي أو التوحيد ﴿ إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، أي ليوحدون وكلها متقاربة المعنى ، وقرنت الاستعانة بالعبادة للجمع بين ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى وبين ما يطلبه من جهته ، وقدمت العبادة على الاستعانة لتقديم

(١) البيت من الطويل لذي الرمة انظر شرح شواهد المغني (٦/٢) ، التصريح على التوضيح (١٨٥/١) ، همع الهوامع (١١١/١) ،

الدرر اللوامع (٨١/١) ، الأشموني (٣٧/١) ، مغني اللبيب (٢٣) .

(٢) انظر الكشف (١٤/١) .

(٣) البيت من المتقارب لامرئ القيس ، انظر معاهد التنصيص (٦١/١) .

(٤) البيت من المتقارب لامرئ القيس التصريح على التوضيح (١٩١/١) ، الأشموني (٢٣٦/١) ، شرح شواهد المغني (٢٠/٢) .

(٥) البيت من المتقارب لامرئ القيس . شرح شواهد المغني (٣٢/٢) ، مغني اللبيب (٣٢٠) .

(٦) البيت لحميد انظر الصاحبي ص ٢٣٣ ، شرح الجمل (١٨٩/١) ، همع الهوامع (٢٩٩/١) ، الزاهر لابن الأنباري (١٠/٢) .

(٧) البيت لأبي كبير الهذلي كما ذكر المصنف انظر أمالي ابن الشجري (١١٧/١) ، ديوان الهذليين (١٠١/٢) .

الوسيلة قبل طلب الحاجة لتحصل الإجابة ليها ، وأطلق العبادة والاستعانة ليتناول كل معبود به وكل مستعان عليه ، وكرر إياك ليكون كل من العبادة والاستعانة سيقا في جملتين وكل منهما مقصودة ، وللتصيص على طلب العون منه ، بخلاف لو كان إياك نعبد ونستعين فإنه كان يحتمل أن يكون إخباراً بطلب العون : أي وليطلب العون من غير أن يعين ممن يطلب ، ونقل عن المتممين للصالح تقييدات مختلفة في العبادة والاستعانة ، كقول بعضهم : إياك نعبد بالعلم وإياك نستعين عليه بالمعرفة وليس في اللفظ ما يدل على ذلك ، وفي قوله نعبد قالوا رد على الجبرية ، وفي نستعين رد على القدرية ، ومقام العبادة شريف ، وقد جاء الأمر به في مواضع قال تعالى ﴿ واعبد ربك ﴾ [الحجر : ٩٩] ، ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : ٢١] ، والكنية به عن أشرف المخلوقين ﷺ قال تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : ١] ، ﴿ وما أنزلنا على عبدنا ﴾ [الأنفال : ٤١] ، وقال تعالى حكاية عن عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ﴿ قال إني عبد الله ﴾ [مريم : ٣٠] ، وقال تعالى وتقدس ﴿ لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ [طه : ١٤] ، فذكر العبادة عقيب التوحيد ، لأن التوحيد هو الأصل والعبادة فرع ، وقالوا في قوله إياك رد على الدهرية والمعطلة والمنكرين لوجود الصانع فإنه خطاب لموجود حاضر

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

﴿ اهدنا ﴾ الهداية الإرشاد والدلالة والتقدم ، ومنه الهوادي أو التبيين ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ [فصلت : ١٧] ، أو الإلهام ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : ٥٠] ، قال المفسرون معناه ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها ، أو الدعاء ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ [الرعد : ٧] ، أي داع ، والأصل في هدى أن يصل إلى تأتي معموله باللام ﴿ يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء : ٩] ، أو إلى ﴿ لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ثم يتسع فيه فيعدى إليه بنفسه ومنه اهدنا الصراط ، ونا ضمير المتكلم ومعه غيره أو معظم نفسه ، ويكون في موضع رفع ونصب وجر ﴿ الصراط ﴾ الطريق وأصله بالسين من السَّرَط^(١) وهو الفم ، ومنه سمي الطريق لقماً وبالسين على الأصل قرأ قبل ورويس ، وإبدال سينه صاداً هي الفصحى وهي لغة « قريش » ، وبها قرأ الجمهور ، وبها كتبت في الإمام زياً لغة رواها الأصمعي عن « أبي عمرو » وإشمامها زياً لغة قيس ، وبه قرأ حمزة بخلاف وتفصيل عن رواته ، وقال أبو علي وروي عن « أبي عمرو » السين والصاد والمضارعة بين الزاي والصاد ، ورواه عنه « العريان » عن « أبي سفيان » ، وروي « الأصمعي »^(٢) عن « أبي عمرو » أنه قرأها بزاي خالصة ، قال بعض اللغويين ما حكاه الأصمعي في هذه القراءة خطأ منه إنما سمع « أبا عمرو » يقرأها بالمضارعة فتوهمها زياً ولم يكن الأصمعي نحوياً فيؤمن على هذا ، وحكى هذا الكلام « أبو علي » عن « أبي بكر بن مجاهد »^(٣) ، وقال « أبو جعفر الطوسي »^(٤) في « تفسيره » وهو إمام من أئمة الإمامية الصراط

(١) قال الجوهري في الصحاح : الصِّرَاط والصِّرَاط والزَّرَاط الطريق ، قال الشاعر :

أكر على الحروريين مهري وأحملهم على وضح الصراط

انظر الصحاح (١١٣٩/٣) ، لسان العرب (٣٤٣٢/٤) .

(٢) عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع أبو سعيد الأصمعي البصري اللغوي أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والنوادر وله مناظرات مع سيبويه توفي سنة ٢١٦ من مصنفاته غريب القرآن ، وغير ذلك انظر تهذيب الأسماء واللغات (٢٧٣/٢) .

(٣) أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي الحافظ الأستاذ أبو بكر بن مجاهد البغدادي شيخ الصنعة ، وأول من سبغ السبعة . انظر غاية النهاية (١٣٩/١) ، وما بعدها .

(٤) شيخ الشيعة ، وصاحب التصانيف أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي أعرض عنه الحفاظ لبدعته . مات في المحرم سنة ستين وأربعمائة ، انظر السير (٣٣٤/١٨) ، الفهرست للطوسي (١٥٩) ، المنتظم (٢٥٢/٨) ، طبقات المفسرين للدوادري

بالصاد لغة « قريش » وهي اللغة الجيدة وعامة العرب يجعلونها سيناً والزاي لغة لعذرة وكعب وبني القين ، وقال « أبو بكر بن مجاهد » وهذه القراءة تشير إلى أن قراءة من قرأ بين الزاي والصاد تكلف حرف بين حرفين ، وذلك صعب على اللسان ، وليس بحرف ينبي عليه الكلام ، ولا هو من حروف المعجم ولست أدفع أنه من كلام فصحاء العرب إلا أن الصاد أفصح ، وأوسع ويذكر ويؤنث وتذكره أكثر ، وقال « أبو جعفر الطوسي » ، أهل الحجاز يؤنثون الصراط كالطريق والسبيل والزقاق والسوق ، وينو تميم يذكرون هذا كله ويجمع في الكثرة على شرط نحو كتاب وكتب ، وفي القلة قياسه أسرطة نحو حمار وأحمره هذا إذا كان الصراط مذكراً ، وأما إذا أنث فقياسه أفعل نحو ذراع وأذرع وشمال وأشمل ، وقرأ « زيد بن علي » و « الضحاك » و « نصر بن علي »^(١) عن « الحسن » اهدنا صراطاً مستقيماً بالتنوين من غير لام التعريف ، كقوله ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ﴿ صراط الله ﴾ [الشورى ٥٣] ، ﴿ المستقيم ﴾ ، استقام استفعل بمعنى الفعل المجرد من الزوائد ، وهذا أحد معاني استفعل وهو أن يكون بمعنى الفعل المجرد وهو قام ، والقيام هو الانتصاب والاستواء من غير اعوجاج .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

﴿ صراط الذين ﴾ اسم موصول والأفصح كونه بالياء في أحواله الثلاثة ، وبعض العرب يجعله بالواو في حالة الرفع واستعماله بحذف النون جائز ، وخص بعضهم ذلك بالضرورة إلا إن كان لغير تخصيص فيجوز في غيرها ، وسمع حذف أل منه فقالوا الذين وفيما تعرف به خلاف ذكر في النحو ، ويخص العقلا- بخلاف الذي فإنه ينطلق على ذي العلم وغيره ﴿ أنعمت ﴾ النعمة لين العيش وخفضه ولذلك قيل للجنوب النعامي للين هبونها ، وسميت النعمة للين سهمها نعم إذا كان في نعمة ، وأنعمت عينه : أي سررتها ، وأنعم عليه بالغ في التفضيل عليه : أي ، والهمزة في أنعم بجعل الشيء صاحب ما صيغ منه إلا أنه ضمن معنى التفضل فعدي بعلى ، وأصله التعدي بنفسه أنعمته : أي جعلته صاحب نعمة ، وهذا أحد المعاني التي لأفعل وهي أربعة وعشرون معنى هذا أحدها ، والتعدي والكثرة والضرورة والإغاثة والتعريض والسلب وإصابة الشيء بمعنى ما صيغ منه وبلوغ عدد أو زمان أو مكان وموافقة ثلاثي وإغناء عنه ومطابقة فعل وفعل والهجوم ونفي الغريزة والتسمية والدعاء والاستحقاق والوصول والاستقبال والمجيء بالشيء والتفرقة مثل ذلك أدنيته ، وأعجبني المكان ، وأغد البعير ، وأحليت فلاناً ، وأقبلت فلاناً ، واشتكت الرجل ، وأحمدت فلاناً ، وأعشرت الدراهم ، وأصبحنا وأشأم^(٢) القوم ، وأحزنه بمعنى حزنه ، وأرقل^(٣) وأقشع^(٤) السحاب مطاوع قشع الريح السحاب ، وأفطر مطاوع فطرته ، واطلعت عليهم ، واستريح ، وأخطيته سميته مخطئاً ، وأسقيته ، وأحصد الزرع ، وأغفلته وصلت غفلتي إليه ، وأففته استقبلته بأف هكذا مثل هذا ، وذكر بعضهم أن أفعل فعل ، ومثل الاستقبال أيضاً بقولهم أسقيته : أي استقبلته بقولك سقياً لك ، وكثرت جثت بالكثير ، وأشرقت الشمس أضاءت ، وشرقت طلعت ، التاء المتصلة بانعم ضمير المخاطب المذكر المفرد ، وهي حرف في أنت والضميران فهو مركب ﴿ عليهم ﴾ على

(١/٢٦) ، الذريعة إلى تصانيف الشيعة (١٤/٢) .

(١) نصر بن علي بن نصر بن علي بن صهبان بن أبي عمرو الجهضمي البصري الحافظ الإمام الولي العالم الصالح . توفي في ربيع الآخر سنة خمسين ومائتين . غاية النهاية (٣٣٧/٢) .

(٢) الشؤم : خلاف اليؤن ورجل مشؤوم على قومه والجمع مشأئيم . . . لسان العرب (٢١٧٧) .

(٣) الرُقْلَةُ : النخلة . . . وأرقل المفازة : قطعها . . . (لسان العرب (١٧٠٨) .

(٤) الْقَشْعُ والقَشْعُ : السحاب الذاهب المنقشع عن وجه السماء والقَشْعَةُ والقَشْعَةُ : قطعة منه تبقى في أفق السماء إذا تقشع الغيم .

حرف جر عند الأكثرين إلا إذا جُرَّت بمن أو كانت في نحو هَوْن عليك ، ومذهب « سيبويه » أنها إذا جرت اسم ظرف ، ولذلك لم يعدها في حروف الجر^(١) ووافقه جماعة من متأخري أصحابنا ، ومعناها الاستعلاء حقيقة أو مجازاً ، وزيد أن تكون بمعنى عن ، وبمعنى الباء ، وبمعنى في ، وللمصاحبة ، وللتعليل ، وبمعنى من ، وزائدة مثل ذلك ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، ﴿ فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، بعد على كذا ﴿ حقيق على أن لا أقول على ﴾ [الأعراف : ١٠٥] ﴿ على ملك سليمان ﴾ [البقرة : ١٠٢] ﴿ وآق المال على حبه ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ [البقرة : ١٨٥] ﴿ حافظون إلا على أزواجهم ﴾ [المعارج : ٣٠] .

أَبَى اللّٰهُ إِلَّا أَنْ سَرَحَ مَالِكَ عَلَى كُلِّ أَفْنَانٍ الْعِضَاءِ تَرُوقُ

أي تروق كل أفنان العضاء ، هم ضمير جمع غائب مذكر عاقل ، ويكون في موضع رفع ونصب وجر ، وحكى اللغويون في (عليهم) عشر لغات ضم الهاء وإسكان الميم وهي قراة « حمزة » ، وكسرهما وإسكان الميم وهي قراة الجمهور ، وكسر الهاء والميم وياء بعدها وهي قراة « الحسن » ، وزاد « ابن مجاهد » أنها قراة « عمر بن فائد » ، وكذلك بغير ياء وهي قراة « عمرو بن فائد » ، وكسر الهاء وضم الميم وواو بعدها وهي قراة « ابن كثير » و « قالون » بخلاف عنه ، وكسر الهاء وضم الميم بغير واو وضم الهاء والميم وواو بعدها وهي قراة « الأعرج »^(٢) و « الخفاف »

(١) الأصل في الحرف « على » أنه حرف ثم اتسع فيها واستعملت اسماً ، ولحظوا فيها معنى (فوق) فأدخلوا عليها (من) فقالوا : قمت من عليه وذهب ابن الطراوة إلى أن (على) لا تكون حرفاً وإنما هي ظرف بمنزلة (فوق) ، فإذا قلت : جلست عليه فهي بمنزلة جلست فوقه ، وهي من الظروف التي تتصرف ولا تخفض إلا بمن خاصة نحو « عند » تقول : جلست عندك ، ولا يجوز أن ترفع ولا تنصب على غير الظرف ولا تخفض إلا بمن ، وادعى أن هذا مذهب سيبويه واستدل بما ذكره سيبويه في باب عدة ما يكون عليه الكلام ، وهو قوله : (وعلى اسم) ولا تكون إلا ظرفاً للكلام في هذا الموضع في فصلين :

أحدهما : أنك إذا قلت جلست عليك ، فليس بمنزلة : جلست فوقك .

الثاني : أن مذهب سيبويه أن (على) تكون حرفاً وتكون اسماً كما قال النحويون فأما الأول فاعلم أنك إذا قلت : جلست فوقك ، فلا يقتضي أن الجلوس يتعلق بك ، إنما يقتضي هذا اللفظ أن الجلوس وقع في مكان له منك هذه النسبة بمنزلة : جلست تحتك وجلست يمينك ، وجلست شمالك وإذا قلت : جلست عليك فيقتضي أن الجلوس وصل إليك ، ووقع بك إلا أنه لم يصل بنفسه ووصل بحرف الجر ، فهو بمنزلة صرت إليك ومشيت لك .

الإضافة على حسب ما ذكرته ، فكيف يقال : إن (على) في قولك : جلست عليك ، ظرف بمنزلة (فوق) ، ومطلوب الفعل ما بعدها ، (وعلى) موصلة الفعل إليه ، وجلست فوقك ليس الاسم هو مطلوب الجلوس و (فوق) موصولة ، وإنما (فوق) دالة على المكان الذي يطلبه الجلوس وأضيف إليه ليزول عمومهم ويتخصص بمنزلة ضربت غلامك بالضرب بالغلام ، لكن لما كان الغلام عاماً أضيف إلى المخاطب ليزول عمومهم ويتخصص بذلك وأما نسبته إلى سيبويه لقوله في الباب الذي ذكر (ولا تكون إلا ظرفاً) فيريد - والله أعلم - ولا تكون إلا ظرفاً إذا كانت اسماً ، والدليل على ذلك أنه قال في باب : (ما يتعدى إلى المفعولين ويجوز الاختصار على أحدهما دون الآخر) ، إنك تقول : استغفرت الله الذنب والأصل استغفرت الله من الذنب فأسقط حرف الجر ونظره بقول الشاعر :

أَلَيْتَ حَبَّ الْعِرَاقِ الدَّهْرَ أَطْعَمَهُ

وقال في هذا : إنه على إسقاط حرف الجر ، وقال : الأصل : أليت على حب العراق ، فلما أسقط حرف اجر انتصب الاسم . فهذا بذلك على أن (على) تكون عنده حرف جر ، وأن قوله : في باب عدة ما يكون عليه الكلام : (ولا يكون إلا ظرفاً) يريد إذا كانت اسماً . انظر البسيط (٢/ ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠) ، الكتاب (٤/ ٢٣١ ، ١/ ٣٨ ، ٢/ ٢٩) ، الدرر اللوامع (٢/ ٢٣) ، الأشموني (٢/ ٢٢٢) ، مغني اللبيب (١١٤) .

(٢) عبد الرحمن بن هرمز الهاشمي مولاهم أبو داود المدني الأعرج القاري عن أبي هريرة ، ومعاوية ، وأبي سعيد قال أبو عبيد : توفي سنة سبع عشرة ومائة بالإسكندرية . الخلاصة (٢/ ١٥٦) .

الحيرة من اشهار الصفات الأزلية فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية لثلا يستغرقوا في الصفات الأزلية ، وهذه الأقوال ينبو عنها اللفظ ، ولهم فيما يذكرون ذوق وإدراك لم نصل نحن إليه بعد ، وقد شحنت التفاسير بأقوالهم ، ونحن نلم بشيء منها لثلا يظن أنا إنما تركنا ذكرها لكوننا لم نطلع عليها ، وقد رد « الفخر الرازي » على من قال إن الصراط المستقيم هو القرآن ، أو الإسلام وشرائعه ، قال : لأن المراد صراط الذين أنعمت عليهم من المتقدمين ولم يكن لهم القرآن ولا الإسلام يعني بالإسلام هذه الملة الإسلامية المختصة بتكاليف لم تكن تقدمتها ، وهذا الرد لا يتأتى له إلا إذا صح أن الذين أنعم الله عليهم هم متقدمون ، وستأتي الأقاويل في تفسير ﴿ الذين أنعم الله عليهم ﴾ ، واتصال « نا » بـ « اهد » مناسب لنعبد ونستعين لأنه لما أخبر المتكلم أنه هو ومن معه يعبدون الله ويستعينونه سأل له ولهم الهداية إلى الطريق الواضح ، لأنهم بالهداية إليه تصح منهم العبادة ألا ترى أن من لم يهتد إلى السبيل الموصلة لمقصوده لا يصح له بلوغ مقصوده ، وقرأ الحسن والضحاك صراطاً مستقيماً دون تعريف ، وقرأ « جعفر الصادق » صراطاً مُستقيماً بالإضافة : أي الدين المستقيم ، فعلى قراءة « الحسن » و « الضحاك » يكون ﴿ صراط الذين ﴾ بدل معرفة من نكرة كقوله تعالى ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله ﴾ [الشورى : ٥٣] ، وعلى قراءة الصادق وقراءات الجمهور تكون بدل معرفة من معرفة صراط الذين بدل شيء من شيء ، وهما بعين واحدة وجيء بها للبيان ، لأنه لما ذكر قبل اهدنا الصراط المستقيم كان فيه بعض إبهام فعينه بقوله صراط الذين ليكون المسؤول الهداية إليه قد جرى ذكره مرتين ، وصار بذلك البديل فيه حوالة على طريق من أنعم الله عليهم ، فيكون ذلك أثبت وأؤكد ، وهذه هي فائدة نحو هذا البديل ، ولأنه على تكرار العامل فيصير في التقدير جملتين ، ولا يخفى ما في الجملتين من التأكيد فكأنهم كرروا طلب الهداية ، ومن غريب النقول أن الصراط الثاني ليس الأول بل هو غيره ، وكأنه قرئ فيه حرف العطف ، وفي تعيين ذلك اختلاف قيل : هو العلم بالله والفهم عنه قاله ^(١) « جعفر بن محمد » ، وقيل : التزام الفرائض واتباع السنن ، وقيل : هو موافقة الباطن للظاهر في إسباغ النعمة قال تعالى ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] ، وقرأ صراطاً من أنعمت عليهم « ابن مسعود » و « عمر » و « ابن الزبير » و « زيد بن علي » ، والمنعم عليهم هنا الأنبياء ، أو الملائكة ، أو أمة موسى وعيسى الذين لم يغيروا ، أو النبي ﷺ ، أو النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، أو المؤمنون ^(٢) قاله « ابن عباس » ، أو الأنبياء والمؤمنون ، أو المسلمون ^(٣) قاله « وكيع » ، أقوال وعزا كثيراً منها إلى قائلها « ابن عطية » فقال ، قال « ابن عباس » والجمهور : أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين انتزعوا ذلك من آية النساء ^(٤) ، وقال « ابن عباس » : أيضاً هم المؤمنون ^(٥) ، وقال « الحسن » : أصحاب محمد ﷺ وقالت فرقة : مؤمنوني إسرائيل ، وقال « ابن عباس » أصحاب موسى قبل أن يبدلوا ، وقال « قتادة » الأنبياء خاصة ^(٦) ، وقال « أبو العالية » : محمد ﷺ و « أبو بكر » و « عمر » ^(٧) انتهى . ملخصاً . ولم يقيد الإنعام ليعم جميع الإنعام أعني عوم البديل ، وقيل أنعم عليهم بخلقهم للسعادة ، وقيل : بأن نجاهم من الهلكة ، وقيل بالهداية واتباع

(١) انظر القرطبي في التفسير (١٠٣/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٤٤/١) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤٤/١) ، القرطبي في التفسير (١٠/١) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦/١) ، وعزاه لابن جرير عن ابن عباس .

(٦) انظر الدر المنثور (١٦/١) ، عن ابن عباس وفتح الباري (١٣٠/٨) .

(٧) انظر الطبري (١٧٥/١) ، والبغوي (٢٣/١) .

أخرجه الحاكم في المستدرک (٢٥٩/٢) ، عن أبي العالية عن ابن عباس .

الرسول ، وروي عن المتصوفة تقييدات كثيرة غير هذه ، وليس في اللفظ ما يدل على تعيين قيد ، واختلف هل لله نعمة على الكافر فاثبتها « المعتزلة » . ونفاها غيرهم ، وموضع عليهم نصب ، وكذا كل حرف جر تعلق بفعل ، أو ما جرى مجراه غير مبني للمفعول ، وبناء أنعمت للفاعل استعطاف لقبول التوسل بالدعاء في الهداية وتحصيلها : أي طلبنا منك الهداية إذ سبق إنعامك ، فمن إنعامك إجابة سؤالنا ورغبنا كمثل أن تسأل من شخص قضاء حاجة ، وتذكره بأن من عادته الإحسان بقضاء الحوائج ، فيكون ذلك أكد في اقتضائها وأدعى إلى قضائها ، وانقلاب الفاعل مع المضمهر هي اللغة الشهري ، ويجوز إقرارها معه على لغة ، ومضمون هذه الجملة طلب استمرار الهداية إلى طريق من أنعم الله عليهم ، لأن من صدر منه حمد الله وأخبر بأنه يعبد ويستعينه ، فقد حصلت له الهداية ، لكن يسأل دوامها واستمرارها ﴿ غير ﴾ مفرد مذكر دائماً ، وإذا أريد به المؤنث جاز تذكير الفعل حملاً على اللفظ ، وتأنيته حملاً على المعنى ، ومدلوله المخالفة بوجه ما ، وأصله الوصف ويستثنى به ، ويلزم الإضافة لفظاً أو معنى ، وإدخال أل عليه خطأ ولا يتعرف ، وإن أضيف إلى معرفة ، ومذهب « ابن السراج » ، أنه إذا كان المغاير واحداً تعرف بإضافته إليه ، وتقدم عن « سيبويه » أن كل ما إضافته غير محضة قد يقصد بها التعريف فتصير محضة فتعرف إذ ذاك (غير) بما تضاف إليه إذا كان معرفة ، وتقرير هذا كله في كتب « النحو » ، وزعم « البيانيون » أن غير أو مثلاً في باب الإسناد إليهما مما يكاد يلزم تقديمه ، قالوا نحو قولك غيرك يخشى ظلمه ، ومثلك يكون للمكرمات ، ونحو ذلك مما لا يقصد فيه بمثل إلى إنسان سوى الذي أضيف إليه ، ولكنهم يعنون أن كل من كان مثله في الصفة كان من مقتضى القياس وموجب العرف أن يفعل ما ذكر وقوله :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ

غرضه أنه ليس ممن ينخدع ويغتر ، وهذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدم نحو : يكون للمكرمات مثلك ، وينخدع بأكثر هذا الناس غيري ، فأنت ترى الكلام مقولاً على جهته ﴿ المغضوب عليهم ﴾ الغضب تغير الطبع لمكروه ، وقد يطلق على الإعراض لأنه من ثمرته ، لا حرف يكون للنفي وللطلب وزائداً ، ولا يكون اسماً خلافاً للكوفيين ﴿ ولا الضالين ﴾ والضلal : الهلاك والخفاء ضل اللبن في الماء ، وقيل : أصله الغيبة ﴿ في كتاب لا يضل ربي ﴾ [طه : ٥٢] ، وضللت الشيء : جهلت المكان الذي وضعته فيه ، وأضللت الشيء : ضيعته ، ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ [محمد : ٨] ، وضل غفل ونسي ﴿ وأنا من الضالين ﴾ [الشعراء : ٢٠] ، ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، والضلal^(١) سلوك سبيل غير القصد ، ضل عن الطريق سلك غير جادتها ، والضلal الحيرة والتردد ، ومنه قيل لحجر أملس يردده الماء في الوادي ضلضلة ، وقد فسر الضلال في القرآن بعدم العلم بتفصيل الأمور وبالمحبة ، وسيأتي ذلك في مواضعه ، والجر في غير قراءة الجمهور ، وروى « الخليل » عن « ابن كثير » النصب وهي قراءة « عمر » و « ابن مسعود » و « علي » و « عبد الله بن الزبير » ، فالجر على البدل من الذين عن « أبي علي » ، أو من الضمير في عليهم وكلاهما ضعيف ، لأن غير أصل وضعه الوصف والبدل بالوصف ضعيف ، أو على النعت عن « سيبويه » ويكون إذ ذاك غير تعرفت بما أضيفت إليه ، إذ هو معرفة على ما نقله « سيبويه » في أن كل ما إضافته غير محضة قد تتمحض فيتعرف إلا في الصفة المشبهة ، أو على ما ذهب إليه « ابن السراج » إذ وقعت غير على مخصوص لا شائع ، أو على أن الذين أريد بهم الجنس لا قوم بأعيانهم قالوا كما وصفوا المعرف بأل الجنسية بالجملة ،

(١) الضلال : النسيان وفي التنزيل العزيز (ممن ترضون في الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) أي أن تغيب عن حفظها أو يغيب حفظها عنها . . . لسان العرب (٢٦٠٢/٤) .

وهذا هدم لما اعتزموا عليه من أن المعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة^(١) ، ولا أختار هذا المذهب وتقرير فساده في « النحو » ، والنصب على الحال من الضمير في عليهم وهو الوجه ، أو من الذين قاله المهدي^(٢) وغيره وهو خطأ لأن الحال من المضاف إليه الذي لا موضع له لا يجوز ، أو على الاستثناء قاله « الأخفش » و « الزجاج »^(٣) وغيرهما وهو استثناء منقطع إذ لم يتناوله اللفظ السابق ومنعه الفراء من أجل لا في قوله (ولا الضالين) ولم يسوغ في النصب غير الحال قال لأن لا تزداد إلا إذا تقدم النفي نحو قول الشاعر :

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَهُمْ وَالطَّيِّبَانِ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ^(٤)

ومن ذهب إلى الاستثناء جعل لا صلة : أي زائدة مثلها في قوله تعالى (ما منعك أن لا تسجد) [الأعراف ١٢] وقول الراجز :

فَمَا أَلَوْمُ الْبَيْضِ أَلَّا تَسْخَرَا^(٥)

(١) النعت والمنعوت كالشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون معرفة نكرة ، لما بينهما من التضاد ، لأن النكرة لشياعها كالجمع ، والمعرفة لاختصاصها بالواحد ، فكما لا يمكن أن يكون الواحد جمعاً ، والجمع واحداً ، لا يمكن أن تكون المعرفة نكرة ، فإذا لم يكن ذلك في الشيء الواحد تعذر فيما هما كالشيء الواحد .

والدليل على أن النعت والمنعوت كالشيء الواحد : أنك إذا قلت : مررت بزيد الأكل ، فيتناول زيد الأكل عند من لا يعرف الشخص بزيد وحده منزلة زيد عند من يعرفه بذلك ، فصار زيد الأكل كله على هذا بمنزلة زيد وحده عند من يعرفه به ، لهذا لا تنعت النكرة إلا بنكرة ، والمعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة .

قال المصنف رحمه الله في ارتشاف الضرب : الذي نختاره أنه لا تنعت المعرفة إلا بالمعرفة ولا النكرة إلا بالنكرة إذا توافقا في الإعراب . وذهب بعض الكوفيين إلى جواز التخالف بكون النعت نكرة إذا كان لمدح أو ذم ، وجعل منه (ويل لكل همزة لمزة الذي جمع) فالذي وصف لهزمة ، وأجاز الأخفش وصف النكرة بالمعرفة إذا خصصت قبل ذلك بالوصف نحو قوله تعالى (فأخراهم يقومون مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان) قال الأوليان صفة الآخرين لأنه لما وصف تخصص وجوز قوم وصف المعرفة بالنكرة ومنه عندهم قوله :

وللمغنى رسول الزور قواد . .

فقواد صفة للمغنى وزعم ابن الطراوة أنه يجوز وصف المعرفة بالنكرة إذا كان الوصف بها خاصاً بالموصوف وجعل من ذلك :

وفي أنيابها السم نافع .

وقال : نافع صفة للسم .

وأجيب بالمنع في الجميع بإعرابها أبداً .

انظر البسيط شرح الجمل (٣٠١/١ - ٣٢٥) ، ارتشاف الضرب (٥٨٠/٢) ، همع الهوامع (١١٦/٢ - ١١٧) .

(٢) أحمد بن عمار أبو العباس المهدي المقيء النحوي المفسر . كان مقدماً في القراءات والعربية ، أصله من المهدية ، ودخل الأندلس ، وصنف كتباً مفيدة ، منها التفسير ، مات في الأربعين وأربعمائة - إنباه الرواة (٩١/١ - ٩٢) ، البغية (٣٥١/١) .

(٣) إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، ولد في بغداد سنة ٢٤١ هجرية كان من أهل الفضل والدين ، حسن الاعتقاد ، جميل المذهب ، كان يخرط الزجاج ، ثم مال إلى النحو ، فلزم المبرد . توفي سنة ٣١١ في بغداد ومن مصنفاته معاني القرآن وغير ذلك - إنباه الرواة (١٥٩/١) ، الأعلام (٣٣/١) .

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٦١/١٦) ، ونسبه لجبرير انظر شرح ديوان جبرير ص ١٩٦ .

(٥) البيت من الرجز لأبي النجم وهو بتمامه فما ألوم البيض ألاً تسخرا : وقد رأين الشمت القفندرا . انظر الصحاح (٧٩٨/٢) ، المغرب (٤٧/١) ، المحتسب (١٨١/١) ، أمالي ابن الشجري (٢٣١/٢) ، لسان العرب (٣٧١/٥) (قفندر) .

وقول الأحوص :

وَيُلْجِئُنِي فِي اللَّهْوِ أَنْ لَا أَحِبُّهُ وَاللَّهُوُ دَاعٍ دَائِبٌ غَيْرُ غَافِلٍ^(١)

قال « الطبري » : أي أن تسخر وأن أحبه ، وقال غيره معناه إرادة أن لا أحبه ، فلا فيه متمكنة ، يعني في كونها نافية لا زائدة ، واستدلوا أيضاً على زيادتها ببيت أنشدته المفسرون وهو :

أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلَ وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمٌ مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُودُ قَاتِلَهُ^(٢)

وزعموا أن لا زائدة ، والبخل مفعول بأبي : أي أبى جوده البخل ، ولا دليل في ذلك بل الأظهر أن لا مفعول بأبي وأن لفظة لا لا تتعلق بها وصار إسناداً لفظياً ، ولذلك قال (واستعجلت به نعم) فجعل نعم فاعلة بقوله استعجلت ، وهو إسناد لفظي^(٣) ، والبخل بدل من لا أو مفعول من أجله ، وقيل انتصب غير بإضمار أعني ، وعزي إلى « الخليل » وهذا تقدير سهل ، وعليهم في موضع رفع بالمغضوب على أنه مفعول لم يسم فاعله ، وفي إقامة الجار والمجرور مقام الفاعل إذا حذف خلاف ذكر في « النحو » ، ومن دقائق مسأله مسألة يغنى فيها عن خبر المبتدأ ذكرت في النحو ، و « لا » في قوله (ولا الضالين) لتأكيد معنى النفي لأن غير فيه النفي كأنه قيل لا المغضوب عليهم ولا الضالين ، وعين دخولها العطف على قوله المغضوب عليهم لمناسبة غير ولثلا يتوهم بتركها عطف الضالين على الذين ، وقرأ « عمر » و « أبي » وغير الضالين ، وروي عنهما في الرائ في الحرفين النصب والخفض ، ويدل على أن المغضوب عليهم هم غير الضالين ، والتأكيد فيها أبعد والتأكيد في لا أقرب ولتقارب معنى غير من معنى لا أتى « الزمخشري »^(٤) بمسألة ليبين بها تقاربهما فقال وتقول أنا زيداً غير ضارب ، مع امتناع قولك أنا زيداً مثل ضارب ، لأنه بمنزلة قولك أنا زيداً لا ضارب ، يريد أن العامل إذا كان مجروراً بالإضافة فمعمول لا يجوز أن يتقدم عليه ولا على المضاف ، لكنهم تسمحو في العامل المضاف إليه غير فأجازوا تقديم معموله على غير إجراء لغير مجرى لا فكما أنه لا يجوز تقديم معمول ما بعدها عليها فكذلك غير ، وأوردها « الزمخشري »^(٥) على أنها مسألة مقررة مفروغ منها ليقوى بها التناسب بين غير ولا إذ لم يذكر فيها خلافاً ، وهذا الذي ذهب إليه « الزمخشري » مذهب ضعيف جداً بناء على جواز أنا زيد إلا ضارب ، وفي تقديم معمول ما بعد « لا » عليها ثلاثة مذاهب ذكرت في النحو وكون اللفظ يقارب اللفظ في المعنى لا يقضى له بأن يجري أحكامه عليه ولا يثبت تركيب إلا بسماع من العرب ولم يسمع أنا زيداً غير ضارب ، وقد ذكر أصحابنا قول من ذهب إلى جواز ذلك وردوه ، وقدّر بعضهم في غير المغضوب محذوفاً قال : التقدير غير صراط المغضوب عليهم ، وأطلق هذا

(١) البيت من الطويل للأحوص انظر ديوانه (١٧٣) ، مغني اللبيب (٢٤٨) ، مجاز القرآن (٣٩٤) .

(٢) البيت من الطويل لم أعثر على قائله ، انظر مغني اللبيب (٢٤٨/١) ، رقم الشاهد (٤١١) ، وورد فيه أبى جوده لا البخل واستعجلت به :

نعم من فتى لا يمنع الجود قاتله

(٣) الإسناد ضم شيء إلى شيء وفي اصطلاح النحاة ضم إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التامة ، أي : على وجه يحسن السكون عليه والإسناد نوعان :

إسناد أصلي ، أي بالأصالة ، وذلك كإسناد الفعل للفاعل ، والخبر للمبتدأ .

وإسناد تبعي : أي بالتبعية كإسناد البدل ، والمعطوف بالحرف .

وانظر معجم المصطلحات النحوية (١٠٧) ، حاشية الصبان على الأشموني (٤٢/٢) .

(٤) انظر الكشف (١٧/١) .

(٥) انظر الكشف في (١٧/١) .

التقدير فلم يقيده بجر غير ولا نصبه ، وهذا لا يتأتى إلا بنصب غير فيكون صفة لقوله الصراط ، وهو ضعيف لتقدم البدل على الوصف ، والأصل العكس ، أو صفة للبدل وهو صراط الذين ، أو بدلاً من الصراط ، أو من صراط الذين وفيه تكرار الإبدال وهي مسألة لم أقف على كلام أحد فيها إلا أنهم ذكروا ذلك في بدل النداء ، أو حالاً من الصراط الأول أو الثاني ، وقرأ « أيوب السخيتاني » ولا الضَّالِّين بإبدال الألف همزة فراراً من التقاء الساكنين ، وحكى « أبو زيد » دأبة وشأبة في كتاب الهمز وجاءت منه ألفاظ ومع ذلك فلا ينقاس هذا الإبدال لأنه لم يكثر كثرة توجب القياس نص على أنه لا ينقاس النحويون ، قال « أبو زيد » سمعت « عمرو بن عبدي » يقرأ ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : ٣٩] ، فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة ، قال « أبو الفتح » وعلى هذه اللغة قول كثير :

إِذَا مَا الْعَوَالِي بِالْعَبِيطِ أَحْمَارَتْ^(١)

وقول الآخر :

وَلِلْأَرْضِ أَمَّا سُودَهَا فَتَجَلَّتْ بَيَاضاً وَأَمَّا بَيْضُهَا فَادَّهَمَتْ^(٢)

وعلى ما قال « أبو الفتح » أنها لغة ينبغي أن ينقاس ذلك وجعل الإنعام في صلة الذين والغضب في صلة أل لأن صلة الذين تكون فعلاً فيتعين زمانه ، وصلة أل تكون اسماً فينبهم زمانه والمقصود طلب الهداية إلى صراط من ثبت إنعام الله عليه وتحقق ذلك ، وكذلك أتى بالفعل ماضياً ، وأتى بالاسم في صلة أن ليشمل سائر الأزمان ، وبناءه للمفعول لأن من طلب منه الهداية ونسب الإنعام إليه لا يناسب نسبة الغضب إليه ، لأنه مقام تلطّف وترفق وتذلّل لطلب الإحسان فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام وليكون المغضوب توطئة لختم السورة بالضالين لعطف موصول على موصول مثله لتوافق آخر الآي ، والمراد بالإنعام الانعام الديني ، والمغضوب عليهم والضالين عام في كل من غضب عليه وضل ، وقيل : المغضوب عليهم : اليهود ، والضالون : النصارى^(٣) قاله « ابن مسعود » و « ابن عباس » و « مجاهد » والسدي وابن زيد ، وروي هذا عن عدي بن حاتم^(٤) عن رسول الله ﷺ^(٥) ، وإذا صح هذا وجب المصير إليه ، وقيل اليهود والمشركون ، وقيل غير ذلك ، وقد روي في كتب التفسير في الغضب والضلال قيود من المتصوفة لا يدل اللفظ عليها كقول بعضهم غير المغضوب عليهم بترك حسن الأدب في أوقات القيام بخدمته ولا الضالين برؤية ذلك ، وقيل

(١) البيت من الطويل لكثير عزة ، انظر ديوانه (٩٧/٢) وروايته فيه :

إِذَا مَا أَحْمَارَتْ بِالْعَبِيطِ الْعَوَامِلُ .

وانظر المحتسب لابن جني (٤٧/١) ، التصريح على التوضيح (١٢٦/٣) .

(٢) البيت من الطويل لكثير عزة ، انظر ديوانه (١١٣/٢) ، المحتسب (٤٧/١ - ٣١٢) ، همع الهوامع (١٩٩/٢) ، الدرر اللوامع (٢٣٠/٢) ، شرح المفصل (١٢/١٠) .

(٣) من معانيها أيضاً معنى الباء كقوله تعالى (يذروكم فيه) أي بسببه (وإلى) كقوله (فردوا أيديهم في أفواههم) : أي إليها .

ومعنى (من) نحو (يوم نبعث في كل أمة شهيداً) : أي منهم .

ومعنى عن نحو (فهو في الآخرة أعمى) : أي عنها وعن محاسنها .

ومنها التوكيد وهي الزائدة نحو (وقال اركبوا فيها) : أي اركبوها انظر الإتيان (٢١٢/٢) .

(٤) عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعيد بن حشر بن امرئ القيس بن عدي الطائي الجواد ابن الجواد له في الكرم حكايات مشهورة عاش مائة وعشرين سنة قال ابن سعد : توفي سنة ثمان وستين الخلاصة (٢٢٣/٢ - ٢٢٤) .

(٥) أخرجه الترمذي (١٨٧/٥) ، في كتاب التفسير باب ٢ حديث (٢٩٥٤) ، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦/١) ، وعزاه لأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم .

غير هذا والغضب من الله تعالى إرادة الانتقام من العاصي لأنه عالم بالعبد قبل خلقه وقبل صدور المعصية منه فيكون من صفات الذات أو إحلال العقوبة به فيكون من صفات الأفعال ، وقدم الغضب على الضلال وإن كان الغضب من نتيجة الضلال ضل عن الحق فغضب عليه لمجاورة الإنعام ومناسبة ذكره قرينة لأن الإنعام يقابل بالانتقام ولا يقابل الضلال الإنعام فالإنعام إيصال الخير إلى المنعم عليه ، والانتقام إيصال الشر إلى المغضوب عليه ، فيبينهما تطابق معنوي ، وفيه أيضاً تناسب التسجيع ، لأن قوله (ولا الضالين) تمام السورة فناسب أواخر الآي ، ولو تأخر الغضب ومتعلقه لما ناسب أواخر الآي ، وكان العطف بالواو الجامعة التي لا دلالة فيها على التقديم والتأخير لحصول هذا المعنى من مغايرة جمع الوصفين الغضب عليه والضلال لمن أنعم الله عليه وإن فسر اليهود والنصارى بالتقديم إما للزمان أو لشدة العداوة ، لأن اليهود أقدم وأشد عداوة من النصارى (وقد انجر) في غصون تفسير هذه السورة الكريمة من علم البيان فوائد كثيرة لا يهتدي إلى استخراجها إلا من كان توغل في فهم لسان العرب ، ورزق الحظ الوافر من علم الأدب ، وكان عالماً بافتنان الكلام ، قادراً على إنشاء النثر البديع والنظام ، وأما من لا اطلاع له على كلام العرب ، وجسا طبعه حتى عن الفقرة الواحدة من الأدب ، فسمعه عن هذا الفن مسدود ، وذهنه بمعزل عن هذا المقصود ، قالوا وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

النوع الأول : « حسن الافتتاح » و « براعة المطلع »^(١) فإن كان أولها (بسم الله الرحمن الرحيم) على قول من عدّها منها فناهيك بذلك حسناً إذ كان مطلعها مفتتحاً باسم الله ، وإن كان أولها (الحمد لله) فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ووصفه بماله من الصفات العلية أحسن ما افتتح به الكلام ، وقدم بين يدي النثر والنظام ، وقد تكرر الافتتاح بالحمد في كثير من السور ، والمطلع تنقسم إلى حسن وقبيح ، والحسن إلى ظاهر وخفي على ما قسم في علم البديع .

النوع الثاني : المبالغة في الثناء وذلك لعموم آل في الحمد على التفسير الذي مر .

النوع الثالث : تلوين الخطاب على قول بعضهم ، فإنه ذكر أن الحمد لله صيغته صيغة الخبر ، ومعناه الأمر كقوله لا ريب فيه ومعناه النهي .

النوع الرابع : الاختصاص باللام التي في الله إذ دلت على أن جميع المحامد مختصة به إذ هو مستحق لها وبالإضافة في ملك يوم الدين لزوال الأملاك والممالك عن سواه في ذلك اليوم وتفرد فيه بالملك والملك قال تعالى ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : ١٦] ، ولأنه لا مجازي في ذلك اليوم على الأعمال سواه .

النوع الخامس : الحذف وهو على قراءة من نصب الحمد ظاهر وتقدم هل يقدر من لفظ الحمد أو من غير لفظه ، قال بعضهم ومنه حذف العامل الذي هو في الحقيقة خبر عن الحمد وهو الذي يقدر بكائن أو مستقر قال ومنه حذف صراط من قوله غير المغضوب التقدير غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين ، وحذف سورة إن قدرنا العامل في الحمد إذا نصبناه اذكروا أو اقرؤوا فتقديره اقرؤوا سورة الحمد ، وأما من قيد ﴿ الرحمن والرحيم ﴾ و ﴿ نعبد ونستعين ﴾ و ﴿ أنعمت ﴾ و ﴿ المغضوب عليهم ﴾ و ﴿ الضالين ﴾ فيكون عنده في سورة محذوفات كثيرة .

(١) عبارة عن سهولة اللفظ ، وصحة السبك ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو وتناسب القسمين تسمى حسن الابتداء ، انظر الكافية البديعية ص ٥٧ ، البديع لابن المعتز (٧٥) .

النوع السادس : التقديم والتأخير وهو في قوله نعبد ونستعين والمغضوب عليهم والضالين وتقدم الكلام على ذلك .

النوع السابع : التفسير ويسمى التصريح بعد الإبهام ، وذلك في بدل صراط الذين من الصراط المستقيم .

النوع الثامن : الالتفات وهو في إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا .

النوع التاسع : طلب الشيء وليس المراد حصوله بل دوامه وذلك في اهدنا .

النوع العاشر : سرد الصفات لبيان خصوصية في الموصوف أو مدح أو ذم .

النوع الحادي عشر : التسجيع وفي هذه السورة من التسجيع المتوالي وهو اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي قوله تعالى ﴿ الرحمن الرحيم اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ نستعين ﴾ ﴿ ولا الضالين ﴾ انقضى كلامنا على تفسير الفاتحة ، وكره الحسن أن يقال لها : أم الكتاب ، وكره « ابن سيرين »^(١) أن يقال لها : أم القرآن ، وجوزها الجمهور . والإجماع على أنها سبع آيات إلا ما شذ فيه من لا يعتبر خلافه ، عد الجمهور المكيون والكوفيون ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ آية ولم يعدوا أنعمت عليهم وسائر العادين ومنهم كثير من قراء مكة والكوفة لم يعدوها آية وعدوا ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ آية وشذ « عمرو بن عبيد » فجعل آية ﴿ إياك نعبد ﴾ فهي على عد ثمان آيات وشذ « حسين الجعفي » فزعم أنها ست آيات ، قال « ابن عطية » وقول الله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [الحجر : ٨٧] ، هو الفصل في ذلك ، ولم يختلفوا في أن البسملة في أول كل سورة ليست آية ، وشذ « ابن المبارك » فقال إنها آية في كل سورة ، ولا أدري ما الملحوظ في مقدار الآية حتى نعرف الآية من غير الآية ، وذكر « المفسرون » عدد حروف الفاتحة وذكروا سبب نزولها ما لا يعد سبب نزول ، وذكروا أحاديث في فضل ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الله أعلم بها وذكروا للتسمية أيضاً نزول ما لا يعد سبباً ، وذكروا أن الفاتحة تسمى الحمد . وفاتحة الكتاب . وأم الكتاب . والسبع المثاني . والواقية . والكافية . والشفاء . والشافية . والرقية . والكنز . والأساس . والنور . وسورة الصلاة . وسورة تعليم المسألة . وسورة المناجاة . وسورة التفويض . وذكروا أن ما ورد من الأحاديث في فضل الفاتحة والكلام على هذا كله من باب التذليلات لا أن ذلك من علم التفسير إلا ما كان من تعيين مبهم أو سبب نزول أو نسخ بما صح عن رسول الله ﷺ فذلك يضطر إليه علم التفسير ، وكذلك تكلموا على آمين ولغاتها والاختلاف في مدلولها وحكمها في الصلاة وليست من القرآن فلذلك أضربنا عن الكلام عليها صفحاً كما تركنا الكلام على الاستعاذة في أول الكتاب وقد أطال المفسرون كتبهم بأشياء خارجة عن علم التفسير حذفناها من كتابنا هذا إذ كان مقصودنا ما أشرنا إليه في الخطبة والله تعالى أعلم .

(١) محمد بن سيرين الأنصاري مولاهم أبو بكر البصري ، إمام وقته ، قال ابن سعد كان ثقة ، مأموناً ، عالياً ، رفيعاً ، فقيهاً ، إماماً كثير العلم توفي سنة مائة الخلاصة (٤١٢/٢ - ٤١٣) .

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

﴿الم﴾

﴿الم﴾ أسماء مدلولها حروف المعجم ، ولذلك نطق بها نطق حروف المعجم ، وهي موقوفة الآخر لا يقال إنها معربة لأنها لم يدخل عليها عامل فتعرب ، ولا يقال إنها مبنية لعدم سبب البناء لكن أسماء حروف المعجم قابلة لتركيب العوامل عليها فتعرب تقول : هذه ألف حسنة ونظير سرد هذه الأسماء موقوفة أسماء العدد إذا عدوا يقولون : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ، وقد اختلف الناس في المراد بها وسنذكر اختلافهم إن شاء الله تعالى

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

﴿ذلك﴾ ذا اسم إشارة ثنائي الوضع لفظاً ثلاثي الأصل لا أحادي الوضع ، وألفه ليست زائدة خلافاً للكوفيين و « السهيلي » بل ألفه منقلبة عن ياء ولامه خلافاً لبعض البصريين في زعمه أنها منقلبة من واو من باب طويت وهو مبني ، ويقال فيه ذا وذائه وهو يدل على القرب فإذا دخلت الكاف فقلت ذاك دل على التوسط فإذا أدخلت اللام فقلت ذلك دل على البعد ، وبعض النحويين رتبة المشار إليه عنده قرب وبعد ، فمتى كان مجرداً من اللام والكاف كان للقرب ، ومتى كانتا فيه أو إحداهما كان للبعد والكاف حرف خطاب تبيين أحوال المخاطب من أفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث كما بينها إذا كان ضميراً ، وقالوا ألك في معنى ذلك ولاسم الإشارة أحكام ذكرت في النحو ﴿الكتاب﴾^(١) يطلق بإزاء معاني العقد المعروف بين العبد وسيده على مال مؤجل منجم للعتق ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيما نكم﴾ [النور : ٣٣] ، وعلى الفرض ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ [النساء : ١٠٣] ، ﴿كتب عليكم القصاص﴾ [البقرة : ١٧٨] ، ﴿كتب عليكم الصيام﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وعلى الحكم قاله « الجوهري » لأقضي بينكما بكتاب الله كتاب الله أحق وعلى القدر :

يَا ابْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا^(٢)

(١) الكتاب مطلق : التوراة . . . (كتاب الله) جائز أن يكون القرآن وأن - يكون التوراة . . . فالكتاب : ما يكتب فيه وقيل الصحيفة . انظر لسان العرب (٣٨١٦/٥) .

(٢) ذكره الجوهري في صحاحه ونسبه للجعدي (٢٠٨/١) ، انظر لسان العرب (٣٨١٧/٥) ، تاج العروس (٤٤٤/١) ، تفسير القرطبي (١١٢/١) .

أي قدر الله وعلى مصدر كتبت تقول كتبت كتاباً وكتباً ، ومنه (كتاب الله عليكم) وعلى المكتوب كالحساب بمعنى المحسوب قال :

بَشَّرْتُ عِيَالِي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً أَتَتْكَ مِنَ الْحَجَّاجِ يُتْلَى كِتَابُهَا

﴿ لا ﴾ نافية والنفي أحد أقسامها وقد تقدمت ﴿ ريب ﴾ الريب الشك بتهمة راب حقق التهمة قال :

لَيْسَ فِي الْحَقِّ يَا أُمَيَّةَ رَيْبٌ إِنَّمَا الرَّيْبُ مَا يَقُولُ الْكَذُوبُ (١)

وحقيقة الريب : قلق النفس (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة ومنه إنه مر بظني خافق فقال لا يربه أحد بشيء وريب الدهر صرفه (٢) وخطبه ﴿ فيه ﴾ في اللوعاء حقيقة أو مجازاً وزيد للمصاحبة وللتعليل وللمقايسة ولموافقة على ، والباء (٣) مثل ذلك زيد في المسجد ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، ﴿ ادخلوا في أمم ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، ﴿ لمسكم فيما أفضتم ﴾ [الأنفال : ٦٨] ، ﴿ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [فصلت : ٣١] ، ﴿ في جذوع النخل ﴾ [طه : ٧١] ، ﴿ يذروكم فيه ﴾ : أي يكثرهم به ، الهاء المتصلة بفي من فيه ضمير غائب مذكر مفرد وقد يوصل بياء وهي قراءة ابن كثير (٤) وحكم هذه الهاء بالنسبة إلى الحركة والإسكان والاختلاس والإشباع في كتب « النحو » ﴿ هدى ﴾ الهدى (٥) : مصدر هدى وتقدم معنى الهداية والهدى مذكر و « بنو أسد » يؤثثونه يقولون : هذه هدى حسنة . قاله « الفراء » في كتاب « المذكر والمؤنث » ، وقال « ابن عطية » : الهدى لفظ مؤنث وقال « اللحياني » (٦) هو : مذكر انتهى كلامه . قال « ابن سيده » والهدى : اسم من أسماء النهار قال ابن مقبل :

حَتَّى اسْتَبْتَنَ الْهُدَى وَالْبَيْدُ هَاجِمَةً يَخْضَعْنَ فِي الْآلِ غُلْفًا أَوْ يُصَلِّينَا (٧)

وهو على وزن فُعَلَى كَالسُّرَى وَالْبَكَّى ، وزعم بعض أكابر نحائنا أنه لم يجيء من فعلى مصدر سوى هذه الثلاثة وليس بصحيح فقد ذكر لي شيخنا اللغوي الإمام في ذلك رضي الدين « أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف الشاطبي » (٨) أن العرب قالت : « لقيته لُقى » وأنشدنا لبعض العرب :

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١١٢/١) ، وروايته فيه : ليس في الحق يا أميمة ريب : ... إنما الريب ما يقول الجهول . ونسبه لعبد الله بن الزبير .

(٢) انظر لسان العرب (١٧٨٨/٣) .

(٣) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور (١٦/١) ، عن مجاهد ، وعزه لعبد بن حميد وابن جريج ، وعن ابن مسعود وعزه لابن جريج ، وانظر تفسير ابن كثير (٤٦/١) ، صحيح الترمذي (٢٧٢/٤) (٤٠٣٠) .

(٤) عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان بن فيروزان بن هرمز الإمام العلم مقررء مكة ، وأحد القراء السبعة ، أبو معبد الكنانى الدارى المكى مولى عمرو بن علقمة الكنانى ، ولد سنة ٤٨ ، ومات سنة عشرين ومائة ، انظر السير (٣١٨/٥) ، تهذيب التهذيب (٣٦٧/٥) ، الجرح والتعديل (١٤٤/٥) .

(٥) الهدى : ضد الضلال وهو الرشاد ، انظر لسان العرب (٤٦٣٨/٦) .

(٦) علي بن المبارك وقيل ابن حازم أبو الحسن اللحياني من بني لحيان بن هذيل بن مدركة وقيل : سمي به لعظم لحيته أخذ عن الكسائي ، وأبي زيد ، وأبي عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأخذ عنه القاسم بن سلام ، وله النوادر المشهورة ، انظر البغية (١٨٥/٢) .

(٧) انظر لسان العرب (٤٦٤٠/٦) ، تفسير القرطبي (١١٣/١) .

(٨) محمد بن علي بن يوسف العلامة رضي الدين أبو عبد الله الأنصاري الشاطبي اللغوي توفي بالقاهرة يوم الجمعة الثاني والعشرين من

وَقَدْ زَعَمُوا جِلْمًا لِقَاكَ وَلَمْ أَرِدْ بِحَمْدِ الَّذِي أُعْطَاكَ جِلْمًا وَلَا عَقْلًا^(١)

وقد ذكر ذلك غيره من اللغويين ، وفعل يكون جمعاً معدولاً وغير معدول ، ومفرداً وعلماً معدولاً وغير معدول ، واسم جنس لشخص ولمعنى ، وصفة معدولة وغير معدولة ، مثل ذلك جمع وغرف وعمر وأدد ونغر وهدى وفسق وحطم ﴿ للمتقين ﴾ المتقي : اسم فاعل من اتقى وهو افتعل من وقى بمعنى حفظ وحرس ، وافتعل هنا للاتخاذ : أي اتخذ وقاية وهو أحد المعاني الاثني عشر التي جاءت لها افتعل وهو الاتخاذ ، والتسبب ، وفعل الفاعل بنفسه ، والتخير ، والخطفة ، ومطوعة أفعل ، وفعل ، وموافقة تفاعل ، وتفعّل ، واستفعل ، والمجرد ، والإغناء عنه ، مثل ذلك اطبخ ، واعتمل واضطرب ، وانتخب ، واستلب ، وانصف مطاوع أنصف ، واغتم مطاوع غمته ، واجتور وابتم ، واعتصم ، واقتدر ، واستلم الحجر وإبدال الواو في اتقى تاء وحذفها مع همزة الوصل قبلها فيبقى تقى مذكور فيعلم التصريف .

فأما هذه الحروف المقطعة أوائل السور : فجمهور المفسرين على أنها حروف مركبة ومفردة ، وغيرهم يذهب إلى أنها أسماء عبر بها عن حروف المعجم التي ينطق بالالف واللام منها في نحو قال والميم في نحو ملك ، وبعضهم يقول : إنها أسماء السور^(٢) قاله « زيد بن أسلم » ، وقال قوم : إنها فواتح للتنبيه والإستئناف ليعلم أن الكلام الأول قد انقضى ، قال مجاهد : هي في فواتح السور كما يقولون في أول الإنشاد لشهير القصائد بل ولا بل^(٣) « نحا هذا » النحو « أبو عبيدة » و « الأخفش » ، وقال « الحسن » هي أسماء السور وفواتحها^(٤) ، وقوم أنها أسماء الله أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها^(٥) ، وروي عن « ابن عباس » وقوم : هي حروف متفرقة دلت على معان مختلفة ، وهؤلاء اختلفوا في هذه المعاني ، فقال قوم : يتألف منها اسم الله الأعظم^(٦) قاله « علي » و « ابن عباس » إلا أنا لا نعرف تأليفه منها أو اسم ملك من ملائكته أو نبي من أنبيائه لكن جهلنا طريق التأليف ، وقال « سعيد بن جبير » : هي أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها تعلموا اسم الله الأعظم^(٧) ، وقال « قتادة » هي أسماء القرآن كالفرقان^(٨) ، وقال « أبو العالية » : ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله تعالى^(٩) ، وقيل : هي حروف تدل على مدة الملة وهي حساب « أبي جاد » كما ورد في حديث حي بن أخطب^(١٠) ، وروى هذا عن « أبي العالية » وغيره ، وقيل : مدة الأمم السالفة ، وقيل

جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وستمائة ، انظر البغية (١٩٤/١) .

(١) انظر روح المعاني (١٠٧/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزاه لابن جرير عن زيد بن أسلم .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ بن حبان عن مجاهد .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزاه لابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في كتاب

الأسماء والصفات عن ابن عباس .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢/١) ، وعزاه لابن جريج وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره (٤٤/١) .

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٢/١) ، وعزاه لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٩) انظر السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن أبي حاتم عن أبي العالية .

(١٠) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزاه لابن إسحاق ، والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف ، وانظر تفسير الطبري

(٢١٠/١) في (٢١٦ - ٢١٧) (٢٤٦) .

مدة الدنيا ، وقال « أبو العالية » : أيضاً ليس منها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجال آخرين^(١) ، وقيل : هي إشارة إلى حروف المعجم كأنه قال للعرب إنما تحدثكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتكم ، وقال « قطرب » وغيره وغيره هي إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول للعرب إنما تحدثكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتكم فقلوه ﴿ أَلَمْ ﴾ بمنزلة (أ) (ب) (ت) (ث) ليدل بها على التسعة وعشرين حرفاً ، وقال قوم : هي تنبيه كما في النداء ، وقال قوم : إن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة ، وقيل هي أمانة لأهل الكتاب أنه سينزل على محمد ﷺ كتاب في أول سور منه حروف مقطعة ، وقيل : حروف تدل على ثناء أننى الله به على نفسه ، وقال « ابن عباس »^(٢) : ﴿ أَلَمْ ﴾ أنا الله أعلم ﴿ المر ﴾ [الرعد : ١] ، أنا الله أرى ، و ﴿ المص ﴾ [الأعراف : ١] أنا الله أفصل ، وروي عن « سعيد بن جبیر »^(٣) مثل ذلك ، وروي عن « ابن عباس » : الألف من الله واللام من جبرائيل والميم من محمد ﷺ^(٤) ، وقال « الأخفش » : هي مبادئ كتب الله المنزلة بالأسن المختلفة ومبان من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وأصول كلام الأمم ، وقال « الربيع بن أنس »^(٥) : ما منها حرف إلا يتضمن أموراً كثيرة دارت فيها الألسن ، وليس فيها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو في الأبد وللأبد ، وليس منها حرف إلا في مدة قوم وآجالهم^(٦) ، وقال قوم : معانيها معلومة عند المتكلم بها لا يعلمها إلا هو ، ولهذا قال « الصديق » رضي الله عنه في كتاب الله سر وسر الله في القرآن في الحروف التي في أوائل السور^(٧) ، وبه قال « الشعبي »^(٨) ، وقال « سلمة بن القاسم » : ما قام الوجود كله إلا بأسماء الله الباطنة والظاهرة وأسماء الله المعجزة الباطنة أصل لكل شيء من أمور الدنيا والآخرة وهي خزانة سره ومكنون علمه ومنها تفرع أسماء الله كلها هي التي قضى بها الأمور وأودعها أم الكتاب وعلى هذا حوم جماعة من القائلين بعلوم الحروف ، وممن تكلم في ذلك أبو الحكم بن برجان^(٩) وله تفسير للقرآن والبونى^(١٠) وفسر القرآن و « الطائي بن العربي » و « الجلالي » و « ابن حمويه »^(١١) وغيرهم وبينهم اختلاف في ذلك ، وسئل « محمد بن الحنفية » عن ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : ١] ، فقال للسائل لو أخبرت بتفسيرها لمشيت على الماء لا يوارى قدميك ، وقال قوم معانيها معلومة ويأتي بيان كل حرف في موضعه ، وقال قوم اختص الله بعلمها نبيه ﷺ وقد أنكر جماعة من المتكلمين أن يكون

(١) انظر السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، في تمام الأثر السابق .

(٢) انظر السيوطي في الدر المنثور (٢٢/١) ، وعزاه لوكيع ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس من طرق عن ابن عباس .

(٣) انظر ابن كثير في تفسير (٥٧/١) .

(٤) انظر القرطبي في التفسير (١٠٩/١) .

(٥) الربيع بن أنس الكندي ، قال أبو حاتم صدوق ، وقال العجلي ثقة صدوق . قيل توفي سنة تسع وثلاثين ومائة - الخلاصة (٣١٨/١) .

(٦) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٧/١) ، وعزاه لابن أبي حاتم ، وابن جرير .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره (٤٤/١) ، القرطبي في التفسير (١٠٨/١) .

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزاه لابن المنذر ، وأبي الشيخ بن حبان في التفسير عن داود بن أبي هند قال كنت أسأل الشعبي عن فواتح ... إلخ .

(٩) عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن أبو الحكم اللخمي الإفريقي ثم الإشبيلي الصوفي العارف المشهور بابن برجان مات بمراكش سنة ست وثلاثين وخمسمائة - الشذرات (١٣/٤) طبقات المفسرين للداودي (٣٠٠/١) .

(١٠) نسبة إلى مدينة تسمى بونة في الجزائر وهي الآن تسمى عنابة .

(١١) أحمد بن علي بن حمويه النحوي النيسابوري بغية الوعاة (٣٤٠/١) .

في القرآن ما لا يفهم معناه فانظر إلى هذا الاختلاف المنتشر الذي لا يكاد ينضبط في تفسير هذه الحروف والكلام عليها ، والذي أذهب إليه أن هذه الحروف التي في فواتح السور هو المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وسائر كلامه تعالى محكم وإلى هذا ذهب « أبو محمد علي بن أحمد اليزيدي »^(١) وهو « قول الشعبي » و « الثوري » وجماعة من المحدثين قالوا : هي سر الله في القرآن وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه ولا يجب أن نتكلم فيها ولكن نؤمن بها وتمر كما جاءت ، وقال الجمهور بل يجب أن يتكلم فيها وتلتبس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها ، واختلفوا في ذلك الاختلاف الذي قدمناه ، قال ابن عطية : والصواب ما قال الجمهور فنفسر هذه الحروف ونلتبس لها التأويل لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة نظماً ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها كقول الشاعر :

قُلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَافَ^(٢) أَرَادَ قَالَتْ وَقَفْتُ

وكقول القائل :

بِالْخَيْرِ خَيْرَاتُ وَإِنْ شَرَفَا وَلَا أُرِيدُ الشَّرَّ إِلَّا أَنْ تَأْ^(٣)

أراد وإن شرا فشر وأراد إلا أن تشاء ، والشواهد في هذا كثيرة ، فليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتبس وجهه انتهى كلامه . و فرق بين ما أنشد وبين هذه الحروف ، وقد أطلال « الزمخشري »^(٤) وغيره الكلام على هذه الحروف بما ليس يحصل منه كبير فائدة في علم التفسير ولا يقوم على كثير من دعاويه برهان ، وقد تكلم المعربون على هذه الحروف فقالوا لم تعرب حروف التهجي لأنها أسماء ما يلفظ فهي كالأصوات فلا تعرب إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها ، ويحتمل محلها الرفع على المبتدأ أو على إضمار المبتدأ ، والنصب بإضمار فعل ، والجر على إضمار حرف القسم ، هذا إذا جعلناها اسماً للسور ، وأما إذا لم تكن اسماً للسور فلا محل لها لأنها إذ ذاك كحروف المعجم أوردت مفردة من غير عامل فاقترضت أن تكون مستكنة كأسماء الأعداد أوردتها لمجرد العدد بغير عطف ، وقد تكلم النحويون على هذه الحروف على أنها أسماء السور وتكلموا على ما يمكن إعرابه منها وما لا يمكن ، وعلى ما إذا أعرب فمنه ما يمنع الصرف ومنه ما لا يمنع الصرف وتفصيل ذلك في علم النحو^(٥) ، وقد نقل خلاف في كون هذه الحروف آية فقال الكوفيون ﴿ ألم ﴾ آية وكذلك هي آية

(١) انظر طبقات القراء (٥١٧/١) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (١٠٩/١) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٠٩/١) .

(٤) انظر الكشف (٢٠/١ - ٢١) .

(٥) حرف الهجاء كص ، ون ، وق ، تجوز فيه الحكاية ، لأنها حروف ، فتحكى كما هي والإعراب جعلها أسماء لحروف الهجاء وعلى هذا يجوز فيها الصرف وعدمه بناء على تذكير الحرف وتأنينه وسواء في ذلك أضيف إليه سورة أم لا نحو قرأت صاد أو سورة صاد بالسكون والفتح متوناً وغير متون .

ومن هذه الأحرف في أوائل السور ما وازن الأعجمي كحميم وطسين ويس - فأوجب ابن عصفور فيه الحكاية لأنها حروف مقطعة وجوز الشلوبين فيه ذلك - والإعراب غير مصروف لموازنته هابيل وقابيل وقد قرئ يسين بنصب النون وسواء في جواز الأمرين أضيف إليه سورة أم لا ، ومن هذه الحروف المركب كطسم ، فإن لم يضاف إليه سورة ، ففيه رأي ابن عصفور والشلوبين فيما قبله ، ورأي ثالث وهو البناء للجزأين على الفتح كخمسة عشر ، وإن أضيف إليه سورة لفظاً أو تقديراً ، ففيه الرأيان ، ويجوز على الإعراب فتح النون وإجراء الإعراب على الميم كبعلبك وإجراؤه على النون مضافاً لما بعده وعلى هذا في ميم لصرف وعدمه بناء على تذكير الحرف وتأنينه أما كهيعص وحمعسق فلا يجوز فيهما إلا الحكاية سواء أضيف إليهما سورة أم لا ولا يجوز فيهما الإعراب ، لأنه لا نظير لهما في الأسماء

في أول كل سورة ذكرت فيها وكذلك المص وطسم واخواتها وطه ويس وحى وأخواتها إلا حمعسق فإنها آيتان وكهيعص آية وأما المر واخواتها فليست بآية وكذلك طس وص وق ون والقلم وق وص حروف دل كل حرف منها على كلمة وجعلوا الكلمة آية كما عدوا ﴿ الرحمن ﴾ و ﴿ مدهامتان ﴾ [الرحمن : ٦٤] ، آيتين ، وقال البصريون وغيرهم ليس شيء من ذلك آية ، وذكر المفسرون الإقتصار على هذه الحروف في أوائل السور وأن ذلك الإقتصار كان لوجوه ذكرها لا يقوم على شيء منها برهان فترك ذكرها ، وذكروا أن التركيب من هذه الحروف انتهى إلى خمسة وهو ﴿ كهيعص ﴾ [مريم : ١] ، لأنه أقصى ما يتركب منه الاسم المجرد ، وقطع « ابن القعقاع » ألف لام ميم حرفاً حرفاً بوقفة وقفة وكذلك سائر حروف التهجي من الفواتح ، وبين النون من طسم ويس وعسق ونون إلا في طس تلك فإنه لم يظهر ، وذلك اسم مشار بعيد ويصح أن يكون في قوله ذلك الكتاب على بابه ، فيحمل عليه ولا حاجة إلى إطلاقه بمعنى هذا كما ذهب إليه بعضهم فيكون للقريب فإذا حملناه على موضوعه فالمشار إليه ما نزل بمكة من القرآن^(١) قاله « ابن كيسان » وغيره ، أو التوراة والإنجيل^(٢) قاله « عكرمة » ، أو ما في اللوح المحفوظ قاله « ابن حبيب »^(٣) ، أو ما وعد به نبيه ﷺ من أنه ينزل إليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد^(٤) قاله « ابن عباس » ، أو الكتاب الذي وعد به يوم الميثاق قاله « عطاء بن السائب » ، أو الكتاب الذي ذكرته في التوراة والإنجيل قاله ابن رثاب ، أو الذي لم ينزل من القرآن ، أو البعد بالنسبة إلى الغاية التي بين المنزل والمنزل إليه ، أو ذلك إشارة إلى حروف المعجم التي تحدثكم بالنظم منها ، وسمعت الأستاذ أبا جعفر بن إبراهيم بن الزبير شيخنا يقول ذلك إشارة إلى الصراط في قوله ﴿ اهدنا الصراط ﴾ [الفاتحة : ٥] ، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب ، وبهذا الذي ذكره الأستاذ تبين وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد وهذا القول أولى لأنه إشارة إلى شيء سبق ذكره لا إلى شيء لم يجر له ذكر وقد ركبوا وجوهاً من الإعراب في قوله ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : ٢] ، والذي نختاره منها أن قوله ﴿ ذلك الكتاب ﴾ جملة مستقلة من مبتدأ وخبر ، لأنه متى أمكن حمل الكلام على غير إضمار ولا افتقار كان أولى أن يسلك به الإضمار والافتقار وهكذا تكون عادتنا في إعراب القرآن لا نسلك فيه إلا الحمل على أحسن الوجوه وأبعدها من التكلف وأسوغها في لسان العرب ، ولسنا كمن جعل كلام الله تعالى كشعر امرئ القيس وشعر الأعشى يحمله جميع ما يحتمله اللفظ من وجوه الاحتمالات فكما أن كلام الله من أفصح كلام فكذلك ينبغي إعرابه أن يحمله على أفصح الوجوه ، هذا على أننا نذكر كثيراً مما ذكره لينظر فيه فيما يظهر لبعض المتأملين ترجيح شيء منه ، فقالوا يجوز أن يكون ذلك خبر المبتدأ محذوف تقديره هو ذلك الكتاب ، والكتاب صفة أو بدل أو عطف بيان ، ويحتمل أن يكون مبتدأ وما بعده خبراً وفي موضع خبر ﴿ الم ﴾ و ﴿ لا ريب ﴾ جملة تحتمل الإستئناف فلا يكون لها موضع من الإعراب وأن تكون في موضع خبر لذلك ، والكتاب صفة أو بدل أو عطف أو خبر بعد خبر إذا كان الكتاب خبراً وقلت بتعدد الأخبار التي ليست في معنى خبر واحد وهذا أولى بالبعد لتباين

المعربة ، ولا تركيب المزج لأنه لا يركب أسماء كثيرة وأجاز يونس في كهيعص أن تكون كلمة مفتوحة والصاد مضمومة ، ووجهه أنه جعله اسماً أعجمياً ، وأعرابه وإن لم يكن له نظير في الأسماء المعربة .

انظر مع الهوامع (٣٥/١) ، الارتشاف (٤٤٤/١) .

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٤٤/١ - ٤٥) ، ابن كثير (٣٩/١) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٦١/١) .

(٣) محمد بن حبيب أبو جعفر قال ياقوت : من علماء بغداد باللغة ، والشعر والأخبار ، والأنساب ، توفي بسامراء في ذي الحجة سنة خمس

وأربعين ومائتين البغية (٧٣/١ - ٧٤) .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٤٤/١) ، عن الفراء .

أحد الخبرين لأن الأول مفرد والثاني جملة وأن يكون في موضع نصب : أي مبرأ من الريب ، وبناء ريب مع لا يدل على أنها العاملة عمل إن فهو في موضع نصب ولا وهو في موضع رفع بالابتداء ، فالمرفوع بعده على طريق الإسناد خبر لذلك المبتدأ فلم تعمل حالة البناء إلا النصب في الاسم فقط هذا مذهب سيبويه وأما الأخفش فذلك المرفوع خبر للا فعملت عنده النصب والرفع وتقرير هذا في كتب النحو ، وإذا عملت عمل إن أفادت الاستغراق فنفت هنا كل ريب ، والفتح هو قراءة الجمهور ، وقرأ أبو الشعثاء ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ بالرفع وكذا قراءة زيد بن علي حيث وقع ، والمراد أيضاً هنا الاستغراق لا من اللفظ بل من دلالة المعنى لأنه لا يريد نفي ريب واحد عنه وصار نظير من قرأ ﴿ فَلَا رَيْبَ ﴾ ولا فسوق ﴿ [البقرة : ١٩٧] ، بالبناء والرفع لكن البناء يدل بلفظه على قضية العموم والرفع لا يدل لأنه يحتمل العموم ، ويحتمل نفي الوحدة لكن سياق الكلام يبين أن المراد العموم ورفع على أن يكون ريب مبتدأ وفيه الخبر وهذا ضعيف لعدم تكرار لا ، أو يكون عملها إعمال ليس فيكون فيه في موضع نصب على قول الجمهور من أن لا إذا عملت عمل ليس رفعت الاسم ونصبت الخبر ، أو على مذهب من ينسب العمل لها في رفع الاسم خاصة وأما الخبر فمرفوع لأنها وما عملت فيه في موضع رفع بالابتداء كحالها إذا نصبت وبني الاسم معها وذلك في مذهب سيبويه به وسيأتي الكلام مشبعاً في ذلك عند قوله تعالى ﴿ فَلَا رَيْبَ ﴾ ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴿ [البقرة : ١٩٧] ، وحمل لا في قراءة لا ريب على أنها تعمل عمل ليس ضعيف لقلة إعمال لا عمل ليس فلهذا كانت هذه القراءة ضعيفة وقرأ الزهري وابن محيصن^(١) ومسلم بن جندب^(٢) وعبيد بن عمير فيه بضم الهاء وكذلك إليه وعليه وبه ونصله ونوله وما أشبه ذلك حيث وقع على الأصل ، وقرأ ابن أبي إسحاق^(٣) فهو بضم الهاء ووصلها بواو ، وجوزوا في قوله أن يكون خبراً للأعلى مذهب الأخفش وخبراً لها مع اسمها على مذهب سيبويه أن يكون صفة والخبر محذوف وأن يكون من صلة ريب بمعنى أنه يضمن عامل من لفظ ريب فيتعلق به إلا أنه يكون متعلقاً بنفس لا ريب إذ يلزم إذ ذاك إعرابه لأنه يصير اسم لا مطولاً بمعموله نحو لا ضارباً زيداً عندنا ، والذي نختاره أن الخبر محذوف لأن الخبر في باب لا العاملة عمل إن إذا علم لم تلفظ به بنو تميم ، وكثر حذفه عند أهل الحجاز وهو هنا معلوم فأحمله على أحسن الوجوه في الإعراب ، وإدغام الباء من لا ريب في فاء فيه مروى عن أبي عمرو والمشهور عنه الإظهار وهي رواية اليزيدي عنه ، وقد قرأته بالوجهين على الأستاذ أبي جعفر بن الطباع بالأندلس ، ونفي الريب يدل على نفي الماهية : أي ليس مما يحله الريب ولا يكون فيه ، ولا يدل ذلك على نفي الارتياح لأنه قد وقع ارتياح من ناس كثيرين فعلى ما قلناه لا يحتاج إلى حملة على نفي التعليق والمظنة كما حملة الزمخشري^(٤) ، ولا يرد علينا قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ لاختلاف الحال والمحل فالحال هناك المخاطبون والريب هو المحل ، والحال هنا منفي والمحل الكتاب فلا تنافي بين كونهم في ريب من القرآن وكون الريب منفيّاً عن القرآن ، وقد قيد بعضهم الريب فقال لا ريب فيه عند التكلم به وقيل هو عموم يراد به الخصوص : أي عند المؤمنين ، وبعضهم جعله على حذف مضاف : أي لا سبب فيه لوضوح آياته وإحكام معانيه وصدق أخباره ، وهذه التقادير لا

(١) محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي المكي مقرئ أهل مكة مع ابن كثير ثقة ، روى له مسلم ، قال أبو القاسم الهذلي مات سنة ثلاث وعشرين ومائة بمكة وقيل غير ذلك - انظر غاية النهاية (١٦٧/٢) .

(٢) مسلم بن جندب أبو عبد الله الهذلي المدني تابعي مشهور قال عمر بن عبد العزيز (من سره أن يقرأ القرآن غضاً فليقرأه على قراءة مسلم بن جندب) . توفي بالمدينة سنة ثلاثين ومائة في أيام مروان بن محمد - انظر غاية النهاية (٢٩٧/٢) .

(٣) عبد الله بن زيد بن الحارث الحضرمي البصري أبو بحر بن أبي إسحاق مشهور بكنية والده ، مات سنة سبع وعشرين ومائة ، عن ثمان وثمانين سنة - انظر البغية (٤٢/٢) .

(٤) انظر الكشف (٣٤/١) .

يحتاج إليها واختيار الزمخشري^(١) أن فيه خبر وبذلك بنى عليه سؤالاً وهو أن قال : هلا قدم الظرف على الريب كما قدم على القول في قوله تعالى ﴿ لا فيها غول ﴾ ؟ ، وأجاب بأن التقديم يشعر بما يبعد عن المراد ، وهو أن كتاباً غيره فيه الريب كما قصد في قوله ﴿ لا فيها غول ﴾ [الصفات : ٤٧] ، تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل : ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة ، وقد انتقل الزمخشري^(٢) من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولا نعلم أحداً يفرق بين « ليس في الدار رجل » و « ليس رجل في الدار » وعلى ما ذكر من أن خمر الجنة لا يغتال ، وقد وصفت بذلك العرب خمر الدنيا قال علقمة بن عبدة^(٣) :

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيكَ طَالِبُهَا وَلَا يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَدْوِيمُ

وأبعد من ذهب إلى أن قوله ﴿ لا ريب ﴾ صيغة خبر ومعناه النهي عن الريب ، وجوزوا في قوله تعالى ﴿ هدى للمتقين ﴾ أن يكون هدى في موضع رفع على أنه مبتدأ وفيه في موضع الخبر أو خبر مبتدأ محذوف : أي هو هدى ، أو على فيه مضمرة إذا جعلنا فيه من تمام لا ريب ، أو خبر بعد خبر فتكون قد أخبرت بالكتاب عن ذلك ويقول ﴿ لا ريب فيه ﴾ ثم جاء هذا خبراً ثالثاً ، أو كان الكتاب تابعاً وهدى خبر ثان على ما مر في الإعراب ، أو في موضع نصب على الحال وبولغ بجعل المصدر حالاً وصاحب الحال اسم الإشارة أو الكتاب والعامل فيها على هذين الوجهين معنى الإشارة ، أو الضمير في فيه والعامل ما في الظرف من الاستقرار وهو مشكل لأن الحال تقييد فيكون انتقال الريب مقيداً بالحال إذ لا ريب فيه يستقر فيه في حال كونه هدى للمتقين لكن يزيل الإشكال أنها حال لازمة ، والأولى جعل كل جملة مستقلة فذلك الكتاب جملة ولا ريب جملة وفيه هدى للمتقين جملة ولم يحتج إلى حرف عطف لأن بعضها آخذ بعنق بعض فالأولى أخبرت بأن المشار إليه هو الكتاب الكامل كما تقول زيد الرجل : أي الكامل في الأوصاف ، والثانية نعت لا يكون شيء ما من ريب ، والثالثة أخبرت أن فيه الهدى للمتقين ، والمجاز إما في فيه هدى : أي استمرار هدى لأن المتقين مهتدون فصار نظير ﴿ اهدنا الصراط ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وإما في المتقين : أي المشارفين لاكتساب التقوى كقوله :

إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتٌ مِنْ تَمِيمٍ

والمتمقي في الشريعة هو الذي بقي نفسه أن يتعاطى ما توعد عليه بعقوبة من فعل أو ترك وهل التقوى تتناول اجتناب الصغائر في ذلك خلاف ، وجوز بعضهم أن يكون التقدير هدى للمتقين والكافرين فحذف لدلالة أحد الفريقين ، وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم ومضمون هذه الجملة على ما اخترناه من الإعراب الإخبار عن المشار إليه الذي هو الطريق الموصول إلى الله تعالى ، هو الكتاب : أي الكامل في الكتب وهو المنزل على رسول الله ﷺ الذي قال فيه ما فرطنا في الكتاب من شيء فإذا كان جميع الأشياء فيه فلا كتاب أكمل منه وأنه نفى أن يكون فيه ريب وأنه فيه الهدى ، ففي الآية الأولى الإتيان بالجملة كاملة الأجزاء حقيقة لا مجاز فيها وفي الثانية مجاز الحذف لأننا اخترنا حذف الخبر بعد لا ريب ، وفي الثانية تنزيل المعاني منزلة الأجسام إذ جعل القرآن ظرفاً والهدى مظهراً فالحق المعنى بالعين وأتى بلفظة في التي تدل على الوعاء كأنه مشتمل على الهدى ومحتو عليه احتواء البيت على زيد في قولك زيد في البيت

(١) انظر الكشف (٣٤/١) .

(٢) انظر الكشف (٣٤/١) .

(٣) علقمة بن عبدة بفتح العين والباء - بن ناشرة بن قيس من بني تميم شاعر جاهلي من الطبقة الأولى ، كان معاصراً لأمراء القيس ، وله معه مساجلات وله ديوان مطبوع . توفي نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة - انظر الأعلام (٢٤٧/٤) ، سمط اللالي (٤٣٣) .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ الإيمان^(١) التصديق وما أنت بمؤمن لنا ، وأصله من الأمن أو الأمانة ومعناها الطمأنينة أمنه صدقه وأمن به وثق به ، والهمزة في أمن للصيرورة كأعشب أو لمطاوعة فعل كأكب وضمن معنى الاعتراف أو الوثوق فعدي بالباء وهو يتعدى بالباء ، واللام ﴿ فما آمن لموسى ﴾ [يونس : ٨٣] ، والتعدي باللام في ضمنها تعد بالباء فهذا فرق ما بين التعديتين ، الغيب^(٢) مصدر غاب يغيب إذا توارى وسمي المطمئن من الأرض غيباً لذلك أو فعيل من غاب فاصله غَيْبٌ وخفف نحولين في لين والفارسي لا يرى ذلك قياساً في ذوات الباء فلا يميز في لين التخفيف ويميزه في ذوات الواو نحو « سيد وميت » وغيره قاسه فيهما وابن مالك وافق أبا علي في ذوات الباء ، وخالف الفارسي في ذوات الواو فزعم أنه محفوظ لا مقيس وتقرير هذا في علم التصريف ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ والإقامة التقويم أقام العود قومه ، أو الإقامة أقامت الغزاة سوق الضراب : أي أدامتها من قامت السوق ، أو التشمير والنهوض من قام بالأمر^(٣) والهمزة في أقام للتعدي ، الصلاة فعلة وأصله الواو لا اشتقاقه من الصلى وهو عرق متصل بالظهر يفرق من عند عجب الذنب ويمتد منه عرقان في كل رك عرق يقال لهما الصلوان فإذا ركع المصلي انحنى صلاه وتحرك فسمي بذلك مصلياً ومنه أخذ المصلى في سبق الخيل لأنه يأتي مع صلوى السابق قال ابن عطية فاشتقت الصلاة منه إما لأنها جاءت ثانية الإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل وإما لأن الراكع والساجد يشني صلواه ، والصلاة حقيقة شرعية تنتظم من أقوال وهيات مخصوصة وصلى فعل الصلاة وأما صلى دعا فمجاز وعلاقته تشبيه الداعي في التخشع والرغبة بفاعل الصلاة وجعل ابن عطية الصلاة مما أخذ من صلى بمعنى دعا كما قال :

عَلَيْكَ مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْتَ فَأَغْتَمِضِي نَوْماً فَإِنَّ لِحْنِبَ الْمَرْءِ مُضْطَجِعاً^(٤)

وقال : -

لَهَا حَارِسٌ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَهَا وَإِنْ ذَبَحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمَزَمَهَا^(٥)

قال فلما كانت الصلاة في الشرع دعاء وانضاف إليه هيات وقراءة سمي جميع ذلك باسم الدعاء والقول إنها من الدعاء أحسن انتهى كلامه . وقد ذكرنا أن ذلك مجاز عندنا وذكرنا العلاقة بين الداعي وفاعل الصلاة ، ومن حرف جر ، وزعم الكسائي أن أصلها منا مستدلاً بقول بعض قضاة : -

بَذَلْنَا مَارِنَ الْخَطِي فِيهِمْ وَكُلَّ مُهْنِدٍ ذَكَرَ حُسَاماً

(١) الإيمان : ضد الكفر ، والإيمان : بمعنى التصديق ضده التكذيب . وَحَدَّ الرَّجَاجُ الْإِيمَانَ فقال : الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشرعية ولما أتى به النبي ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب - لسان العرب (١٤١/١) .

(٢) الغيب : الشك وجمعه غيب وغيوب ...

والغيب : كل ما غاب عنك - لسان العرب (٣٣٢١/٥) .

(٣) والقائم بالدين : المستمسك به الثابت عليه ... أمة قائمة : أي مستمسكة بدينها . انظر لسان العرب (٣٧٨٣/٥) .

(٤) ذكره ابن منظور في لسان العرب (٢٤٩٠/٤) ، ونسبه للأعشى ، انظر ديوان الأعشى الأكبر ص ١٠٥ ، وهو من قصيدة يمدح فيها هودة بن علي الحنفي .

(٥) هو للأعشى ، انظر ديوانه (١٦٤) ، زمزم : ضم شفثيه مترنماً .

مِنَا أَنْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّىٰ أَغَابَ شَرِيدَهُمْ قَتَرَ الظَّلَامَا^(١)

وتأول ابن جني^(٢) رحمه الله على أنه مصدر على فعل من منى يعني : أي قدر ، واغتر بعضهم بهذا البيت فقال وقد يقال منا ، وقد تكون لابتداء الغاية وللتبعض وزائدة لبيان الجنس ، وللتعليل ، وللبدل ، وللمجاوزه ، والاستعلاء ، ولانتهاء الغاية ، وللفضل ، ولموافقة الباء ، ولموافقة في (مثل ذلك) سرت من البصرة إلى الكوفة أكلت من الرغيف ما قام من رجل ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ﴾ [الكهف : ٣١] ، ﴿ في آذانهم من الصواعق ﴾ [البقرة : ١٩] ، ﴿ بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : ٣٨] ، ﴿ غدوت من أهلك ﴾ [آل عمران : ١٢١] ، قربت منه ونصرناه من القوم ﴿ يعلم المفسد من المصلح ﴾ [البقرة : ٢٢٠] ، ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ [الشورى : ٤٥] ، ماذا خلقوا من الأرض ، ما تكون موصولة ، واستفهامية ، وشرطية ، وموصوفة ، وصفة ، وتامة ، مثل ذلك ﴿ ما عندكم ينفذ ﴾ [النحل : ٩٦] ، ﴿ مال هذا الرسول ﴾ [الفرقان : ٧] ، ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة ﴾ [فاطر : ٢] ، مررت بماء معجب لك ، لأمر ما جَدَعَ قَصِيرُ أنفه ، ما أحسن زيدا ﴿ مما رزقناهم ﴾ الرزق العطاء وهو الشيء الذي يرزق كالطحن والرزق المصدر وقيل الرزق أيضاً مصدر رزقته أعطيته ﴿ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً ﴾ [النحل : ٧٥] ، وقال :-

رَزَقْتُ مَالاً وَلَمْ تُرَزَّقْ مَنَافِعَهُ إِنَّ الشَّقِيَّ هُوَ الْمَحْرُومُ مَا رَزَقَا

وقيل : أصل الرزق الحظ ومعاني فعل كثيرة ذكر منها الجمع ، والتفريق ، والإعطاء ، والمنع ، والإمتناع ، والإيذاء ، والغلبة ، والدفع ، والتحويل ، والتحول ، والاستقرار ، والسير ، والستر ، والتجريد ، والرمي ، والإصلاح ، والتصويت (مثل ذلك) حشر ، وقسم ، ومنح ، وغفل ، وشمس ، ولسع ، وقهر ، ودرأ ، وصرف ، وظعن ، وسكن ، ورمل ، وحجب ، وسلخ ، وقذف ، وسبح ، وصرح ، وهي هنا للإعطاء نحو نحل ووهب ومنح ﴿ ينفقون ﴾ الإنفاق الإنفاق أنفقت الشيء وأنفدته بمعنى واحد ، والهزمة للتعدية يقال نفق الشيء نفد وأصل هذه المادة تدل على الخروج والذهاب ومنه نافع والنافقاء ونفق .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ ﴾

الذين ذكروا في إعرابه الخفض على النعت للمتقين أو البدل ، والنصب على المدح على القطع أو بإضمار أعني على التفسير ، قالوا : أو على موضع المتقين ، تخيلوا أن له موضعاً ، وأنه نصب واغتروا بالمصدر فتوهوا أنه معمول له عدي باللام ، والمصدر هنا ناب عن اسم الفاعل فلا يعمل وإن عمل اسم الفاعل وأنه بقي على مصدريته فلا يعمل لأنه هنا لا ينحل بحرف مصدر وفعل ولا هو بدل من اللفظ بالفعل بل للمتقين يتعلق بمحذوف صفة لقوله ﴿ هدى ﴾ : أي هدى كائن للمتقين ، والرفع على القطع : أي هم الذين أو على الابتداء الخبر .

﴿ وَأُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ ﴾

(١) البيتان من الوافر للقضاعي ، انظر مجمع الهوامع (٣٤/٢) ، الدرر اللوامع (٣٤/٢) .

(٢) عثمان بن جني - بسكون الياء معرب جني - أبو الفتح النحوي من أحق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف ، توفي لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة - انظر البغية (١٣٢/٢) ، الأعلام (٢٠٤/٤) .

أولئك المتقدمة وأولئك المتأخرة والواو مقحمة وهذا الأخير إعراب منكر لا يليق مثله بالقرآن ، والمختار في الإعراب الجر على النعت والقطع إما للنصب وإما للرفع وهذه الصفة جاءت للمدح ، وقرأ الجمهور يؤمنون بالهمزة ساكنة بعد الياء وهي فاء الكلمة وحذف همزة أفعل حيث وقع ذلك ورش وأبو عمر وإذا أدرج بترك الهمز ، وروي هذا عن عاصم ، وقرأ رزين بتحريك الهمزة مثل يؤخركم ووجه قراءته أنه حذف الهمزة التي هي فاء الكلمة لسكونها وأقر همزة أفعل لتحركها وتقدمها واعتلاها في الماضي والأمر والياء مقوية لوصول الفعل إلى الاسم كمررت بزيد فتعلق بالفعل أو للحال فتعلق بمحذوف : أي ملتبسين بالغيب عن المؤمن به فيتعين في هذا الوجه المصدر ، وأما إذا تعلق بالفعل فعلى معنى الغائب أطلق المصدر وأريد به اسم الفاعل ، قالوا وعلى معنى الغيب أطلق المصدر وأريد به اسم المفعول نحو ﴿ هذا خلق الله ﴾ [لقمان : ١١] ، ودرهم ضرب الأمير وفيه نظر لأن الغيب مصدر غاب اللازم أو على التخفيف من غيب كلين فلا يكون إذ ذاك مصدراً وذلك على مذهب من أجاز التخفيف ، وأجاز ذلك في الغيب « الزمخشري »^(١) ولا يصار إلى ذلك حتى يسمع منفلاً من كلام العرب ، والغيب هنا القرآن^(٢) قاله عاصم بن أبي النجود أو ما لم ينزل منه قاله الكلبي^(٣) ، أو كلمة التوحيد وما جاء به محمد ﷺ قاله الضحاك ، أو علم الوحي^(٤) قاله ابن عباس وزر بن حبيش وابن جريج^(٥) وابن واقد^(٦) ، أو أمر الآخرة^(٧) قاله الحسن ، أو ما غاب من علوم القرآن قاله عبد الله بن هانئ^(٨) ، أو الله عز وجل^(٩) قاله عطاء وابن جبير ، أو ما غاب عن الحواس مما يعلم بالدلالة قاله ابن عيسى ، أو القضاء والقدر ، أو معنى بالغيب بالقلوب^(١٠) قاله الحسن ، أو ما أظهره الله على أوليائه من الآيات والكرامات ، أو المهدي المنتظر قاله بعض الشيعة ، أو متعلق بما أخبر به الرسول ﷺ من تفسير الإيمان حين سئل عنه وهو الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره^(١١) وإياه نختار لأنه شرح حال المتقين بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ، والإيمان المطلوب شرعاً هو ذاك ثم إن هذا تضمن الاعتقاد القلبي وهو الإيمان بالغيب والفعل البدني وهو الصلاة وإخراج المال وهذه الثلاثة هي عمد أفعال المتقي فناسب أن يشرح الغيب بما ذكرنا وما فسر به الإقامة قبل يصلح أن يفسر به قوله ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ [البقرة : ٣] ، وقالوا : وقد يعبر بالإقامة عن الأداء وهو فعلها في الوقت المحدود لها قالوا لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت والقنوت القيام بالركوع والسجود قالوا سبح إذا صلى لوجود التسبيح فيها فلولا أنه كان من المسبحين قاله الزمخشري^(١٢) ، ولا يصح إلا

(١) انظر الكشاف (٣٨ / ١ ، ٣٩) .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره عن عاصم عن زر .

(٣) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي أبو النضر الكوفي قال ابن عدي : رضوه في التفسير ، ولشهرته فيما بين الضعفاء يكتب حديثه ، وقال أبو حاتم أجمعوا على ترك حديثه واتهمه جماعة بالوضع توفي سنة ست وأربعين ومائة - انظر الخلاصة (٤٠٥ / ٢) .

(٤) ذكره البغوي في التفسير (٤٧ / ١) ، عن زر بن حبيش ، وابن جريج .

(٥) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي توفي سنة خمسين ومائة - انظر الخلاصة (١٧٨ / ٢) .

(٦) عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم الواقدي الختلي المؤدب البغدادي كذا قال الهذلي ، وقال ابن الجزري في الغاية (٣٨١ / ١) : إنما هو عبد الرحمن بن عبيد الله بن واقد مقرأ معروف .

(٧) ذكره البغوي في التفسير (٤٧ / ١) ، عن الحسن .

(٨) عبد الله بن هانئ بن عبد الله بن الشخير بكسر المعجمة ثم تحتانية ثم مهملة العامري أبو الحسين البصري - الخلاصة (١٠٧ / ٢) .

(٩) ذكره البغوي في تفسيره دون عزو لقائل ، وابن كثير في تفسيره عن عطاء بن أبي رباح .

(١٠) ذكره القرطبي في تفسيره (١١٥ / ١) عن الحسن .

(١١) أخرجه البخاري في الصحيح (١٤٠ / ١) ، كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (٥٠) ، وطره في (٤٧٧٧) ، ومسلم في الصحيح (٤٠ / ١) ، كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١٠ / ٧) .

بارتكاب مجاز بعيد ، وهو أن يكون الأصل قامت الصلاة بمعنى أنه كان منها قيام ثم دخلت الهمة للتعدية فقلت أقمت الصلاة : أي جعلتها تقوم : أي يكون منها القيام والقيام حقيقة من المصلي لا من الصلاة فجعل منها على المجاز إذا كان من فاعلها ، والصلاة هنا الصلوات الخمس قاله مقاتل ، أو الفرائض والنوافل قاله الجمهور ، والرزق قيل هو الحلال قاله أصحابنا ، لكن المراد هنا الحلال لأنه في معرض وصف المتقي ، و ﴿ من ﴾ كتبت متصلة « بما » محذوفة النون من الخط وكان حقها أن تكون منفصلة لأنها موصولة بمعنى الذي لكنها وصلت لأن الجار والمجرور كشيء واحد ، ولأنها قد أخفيت نون من في اللفظ فناسب حذفها في الخط وهنا للتبويض إذ المطلوب ليس إخراج جميع ما رزقوا لأنه منهي عن التبذير والإسراف ، والنفقة التي في الآية هي الزكاة الواجبة^(١) قاله ابن عباس ، أو نفقة العيال^(٢) قاله ابن مسعود وابن عباس ، أو التطوع قبل فرض^(٣) الزكاة قاله الضحاك ، معناه أو النفقة في الجهاد ، أو النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة ، وقالوا إنه كان الفرض على الرجل أن يمسك مما في يده بمقدار كفايته في يومه وليلته ويفرق باقيه على الفقراء ، ورجح كونها الزكاة المفروضة لاقترانها بأختها الصلاة في عدة مواضع من القرآن والسنة ، ولتشابه أوائل هذه السورة بأول سورة النمل وأول سورة لقمان ، ولأن الصلاة طهرة للبدن والزكاة طهرة للمال والبدن ، ولأن الصلاة شكر لنعمة البدن ، والزكاة شكر لنعمة المال ، ولأن أعظم ما لله على الأبدان من الحقوق الصلاة ، وفي الأموال الزكاة ، والأحسن أن تكون هذه الأقوال تمثيلاً للمنفق لا خلافاً فيه ، وكثيراً ما نسب الله الرزق لنفسه حين أمر بالإلفاق أو أخبر به ، ولم ينسب ذلك إلى كسب العبد ليعلم أن الذي يخرج العبد ويعطيه هو بعض ما أخرجه الله له ونحله إياه ، وجعل صلات ﴿ الذين ﴾ أفعالاً مضارعة ولم يجعل الموصول آل فيصله باسم الفاعل ، لأن المضارع فيما ذكر البيانين مشعر بالتجدد والحدوث بخلاف اسم الفاعل لأنه عندهم مشعر بالثبوت ، والأمدح في صفة المتقين تجدد الأوصاف ، وقدم المتفق منه على الفعل اعتناء بما خول الله به العبد ، وإشعاراً أن المخرج هو بعض ما أعطى العبد ولتناسب الفواصل ، وحذف الضمير العائد على الموصول لدلالة المعنى عليه : أي ومما رزقناه هو ، واجتمعت فيه شروط جواز الحذف من كونه متعيناً للربط معمولاً لفعل متصرف تام ، وأبعد من جعل ما نكرة موصوفة ، وقدر ومن شيء رزقناه هو لضعف المعنى بعد عموم المرزوق الذي ينفق منه ، فلا يكون فيه ذلك التمدح الذي يحصل بجعل ما موصولة لعمومها ، ولأن حذف العائد على الموصول ، أو جعل ما مصدرية فلا يكون في رزقناهم ضمير محذوف بل ما مع الفعل بتأويل المصدر فيضطر إلى جعل ذلك المصدر المقدر بمعنى المفعول ، لأن نفس المصدر لا ينفق منه إنما ينفق من المرزوق ، وترتيب الصلاة على حسب الإلزام فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائماً ، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات ، والنفقة لازمة في بعض الأوقات ، وهذا من باب تقديم الأهم فالأهم ، الإنزال الإيصال والإبلاغ ولا يشترط أن يكون من أعلا فإذا نزل بساحتهم أي وصل وحل ، إلى حرف جر معناه انتهاء الغاية ، وزيد كونها للمصاحبة ، وللتبيين ، ولموافقة اللام وفي ومن وأجاز الفراء زيادتها ﴿ مثل ذلك ﴾ سرت إلى الكوفة ، ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : ٢] ، ﴿ السجن أحب إلي ﴾ [يوسف : ٣٣] ، ﴿ والأمر إليك ﴾ [النمل : ٣٣] ، كأنني إلى الناس

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧/١) ، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن إسحاق عن ابن عباس وانظر تفسير ابن كثير (٦٥/١) ، والقرطبي في تفسيره (١٢٥/١) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧/١) ، وعزاه لابن جرير عن ابن مسعود وانظر تفسير ابن كثير (٦٥/١) ، والقرطبي في تفسيره (١٢٥/١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧/١) ، وعزاه لابن جرير عن الضحاك وانظر تفسير ابن كثير (٦٥/١) ، والقرطبي في تفسيره (١٢٥/١) .

مَطْلِي^(١): أي في الناس ، أيسقى فلا يروى إلى ابن أحمر ، أي مني ، تهوى إليهم في قراءة من قرأ بفتح الواو أي تهوَاهُمْ ، وحكمها في ثبوت الفاء وقلبها حكم على وقد تقدم ، والكاف المتصلة بها ضمير المخاطب المذكر وتكسر للمؤنث ويلحقها ما يلحق أنت في التثنية والجمع دلالة عليها ، وربما فتحت للمؤنث أو اقتصر عليها مكسورة في جمعها نحو :

وَلَسْتُ بِسَائِلٍ جَارَاتِ بَيْتِي أَغْيَابَ رِجَالِكِ أُمُّ شُهُودُ^(٢)

قبل وبعد ظرفاً زمان وأصلهما الوصف ، ولهما أحكام تذكر في النحو^(٣) ، ومدلول قبل متقدم كما أن مدلول بعد متأخر ، الآخرة تأنيث الآخر مقابل الأول ، وأصل الوصف تلك الدار الآخرة ، ولدار الآخرة ، ثم صارت من الصفات الغالبة ، والجمهور على تسكين لام التعريف ، وإقرار الهمزة التي تكون بعدها للقطع ، وورش يحذف وينقل الحركة إلى اللام ، الإيقان : التحقق للشيء لسكونه ووضوحه يقال يقن الماء سكن وظهر ما تحته ، وأفعل بمعنى استفعل كَأَبْلُ بمعنى استبل ، وقرأ الجمهور (بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) مبنياً للمفعول ، وقرأهما النخعي^(٤) وأبو حيو^(٥) ويزيد بن قطيب^(٦) مبنياً للفاعل ، وقرئ شاذاً بما (أنزل إليك) بتشديد اللام ووجه ذلك أنه أسكن لام أنزل كما أسكن

(١) جزء بيت للناطقة الذيباني وهو :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

انظر ديوانه ص ٢٨ .

(٢) البيت من الوافر لم يعلم قائله انظر حاشية يس على التصريح (١٢٨/١) ، ديوان الحماسة للتبريزي (٢٠٩/١) .

(٣) بعد من الظروف المبنية في بعض الأحوال وهي ظرف زمان لازم الإضافة وله أحوال :

أحدها : أن يصرح بمضاهة نحو جئت بعدك فهو معرب منصوب على الظرفية .

ثانيها : أن يقطع عن الإضافة لفظاً ومعنى قصداً للتذكير فكذلك كقوله : فما شربوا بعداً على لذة خمر . . وقد يجز قرئ الله الأمر من قبل ومن بعد بالجر والتنوين وقد يرفع روي فما شربوا بعد بالرفع .

ثالثها : أن يقطع عنها بأن يحذف المضاف إليه لكن ينوى لفظه فيعرب ولا ينون لانتظار المضاف إليه المحذوف .

رابعها : أن يحذف وينوى معناه فيبنى على الضم . نحو الله الأمر من قبل ومن بعد . أي : قبل الغلبة وبعدها وعلله ابن مالك بأنه كان حقها البناء في الأحوال كلها لشبهها بالحرف لفظاً من حيث إنها لا تتصرف بتثنية ولا جمع ولا اشتقاق ومعنى لافتقارها إلى غيرها في بيان معناها لكن عارض ذلك لزومها للإضافة فأعربت فلما قطعت عنها ونوي معنى الثاني دون لفظه أشبهت حروف الجواب في الاستغناء بها عن لفظ ما بعدها فانضم ذلك إلى الشبهين المذكورين فبنيت وفي الإفصاح أكثر النحويين يقولون لما أفردت من مضافها وتضمنته أشبهت الحروف لتعلقها بالمحذوف بعدها معنى تعلق الحروف بغيرها فبنيت لذلك وقد تفتح في هذه الحالة بلا تنوين وقد تضم مع التنوين وكلاهما إعراب حكى هشام رأيته قبل ومن قبل وأنشد .

ولا وجد العذري قبل جميل . وأنشد الخليل قوله : فما شربوا بعد على لذة خمر . بالضم منوناً ولا يضاف بعد لجملته ما لم يكف بما كقوله :

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالشغام المخلص

مثل بعد فيما تقدم من إعرابها في الأحوال الثلاثة وبنائها في الحالة الرابعة على الضم للعلة المذكورة قبل . ومن بناء قبل الآية السابقة ومن تنكيرها قوله : فساغ لي الشراب وكنت قبلاً وقراءة من قبل بالجر والتنوين ومن نية لفظ المضاف إليه فيه قوله ومن قبل نادى كل مولى قراية كذا رواه الثقات بكسر اللام . انظر همع الهوامع (٢٠٩/١ - ٢١٠) .

(٤) أبو عبد الرحمن الأسود بن يزيد بن قيس النخعي مات سنة خمس وسبعين طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٩ .

(٥) شريح بن يزيد الحضرمي أبو حياء الحمصي المؤذن المقرئ وثقة ابن حبان توفي سنة ثلاث ومائتين - الخلاصة (٤٤٨/١) .

(٦) يزيد بن قطيب السكوني الشامي ثقة له اختيار في القراءة ينسب إليه انظر غاية النهاية لابن الجزري (٣٨٢/٢) .

وضاح آخر الماضي في قوله :-

إِنَّمَا شِغْرِي قَيْدٌ قَدْ خُلِطَ بِخُلْجَانٍ

ثم حذف همزة إلى ونقل كسرتها إلى لام أنزل فالتقى المثلان من كلمتين والإدغام جائز فأدغم ، وقرأ الجمهور (يوقنون) بواو ساكنة بعد الياء وهي مبدلة من ياء لأنه من أيقن ، وقرأ أبو حية النمري بهمزة ساكنة بدل الواو كما قال الشاعر :

لَحَبُّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعَدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ^(١)

وذكر أصحابنا أن هذا يكون في الضرورة ، ووجهت هذه القراءة بأن هذه الواو لما جاورت المضموم فكان الضمة فيها ، وهم يدلون من الواو المضمومة همزة ، قالوا في وجهه ووقت أجوه وأقتت ، فأبدلوا من هذه همزة إذ قدروا الضمة فيها ، وإعادة الموصول بحرف العطف يحتمل المغايرة في الذات وهو الأصل ، فيحتمل أن يراد مؤمنو أهل الكتاب لإيمانهم بكل وحي ، فإن جعلت الموصول معطوفاً على الموصول اندرجوا في جملة المتقين ، إن لم يرد بالمتقين بوصفه مؤمنو العرب ، وذلك لانقسام المتقين إلى القسمين ، وإن جعلته معطوفاً على المتقين لم يندرج لأنه إذ ذاك قسم لمن له الهدى لا قسم من المتقين ، ويحتمل المغايرة في الوصف ، فتكون الواو للجمع بين الصفات ، ولا تغاير في الذوات بالنسبة للعطف ، وحذف الفاعل في قراءة الجمهور ، وبني الفعلان للمفعول للعلم بالفاعل نحو « انزل المطر » ، وبناءهما للفاعل في قراءة النخعي وأبي حيوه ويزيد بن قطيب فاعله مضمير قيل الله أو جبرائيل ، قالوا وقوة الكلام تدل على ذلك ، وهو عندي من الالتفات ، لأنه تقدم قوله ﴿ ومما رزقناهم ﴾ فخرج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة ، إذ لو جرى على الأول لجاء بما أنزلنا إليك وما أنزلنا من قبلك ، وجعل صلة ما الأولى ماضية لأن أكثره كان نزل بمكة والمدينة ، فأقام الأكثر مقام الجميع أو غلب الموجود ، لأن الإيمان بالمتقدم الماضي يقتضي الإيمان بالمتأخر لأن موجب الإيمان واحد ، وأما صلة الثانية فمتحققة الماضي ، ولم يعد حرف الجر في ما الثانية ليدل أنه إيمان واحد إذ لو أعاد لأشعر بأنهما إيمانان ، وبالأخرة تقدم أن المعنى بها الدار الآخرة للتصريح بالموصوف في بعض الآي ، وحمله بعضهم على النشأة الآخرة ، إذ قد جاء أيضاً مصرحاً بهذا الموصوف ، وكلاهما يدل على البعث ، وأكد أمر الآخرة بتعلق الإيقان بها الذي هو أجلى وأكد مراتب العلم والتصديق ، وإن كان في الحقيقة لا تفاوت في العلم والتصديق دفعا لمجاز إطلاق العلم ويراد به الظن ، فذكر أن الإيمان والعلم بالآخرة لا يكون إلا إيقانا لا يخالطه شيء من الشك والإرتياب ، وغاير بين الإيمان بالمنزل والإيمان بالآخرة في اللفظ لزوال كلفة التكرار ، وكان الإيقان هو الذي خص بالآخرة ، لكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد فيها من الثواب والعقاب السرمديين ، وتفصيل أنواع التنعيم والتعذيب ، ونشأة أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية ، ورؤية الله تعالى ، فالآخرة أغرب في الإيمان بالغيب من

(١) البيت من الوافر لجري انظر ديوانه (١١٢) ، التصريح على التوضيح (١٧٥/٢) ، (١٤٦/٣) ، المحاسب (٤٧/١) ، شرح شواهد الشافية للبغدادي (٤٢٩) ، مغني اللبيب (٦٨٤) ، الكشاف (٣٦٥/٤) .
والبيت في الديوان هكذا :

لَحَبُّ الْوَافِدَانِ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعَدَةُ لَوَاضَاءَهُمَا الْوَقُودُ
ومن مغني اللبيب هكذا :

أَحَبُّ الْمَوْفِدِينَ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعَدَةُ إِذْ أَضَاءَهُمَا الْوَقُودُ

الكتاب المنزل ، فلذلك خص بلفظ الإيقان ، ولأن المنزل إلى الرسول ﷺ مشاهد أو كالمشاهد ، والآخرة غيب صر ف فناسب تعليق اليقين بما كان غيباً صرفاً ، قالوا والإيقان هو العلم الحادث سواء كان ضرورياً أو استدلالياً ، فلذلك لا يوصف به الباري تعالى ليس من صفاته الموقن ، وقدم المجرور اعتناء به ولتطابق الأواخر ، وإيراد هذه الجملة اسمية وإن كانت الجملة معطوفة على جملة فعلية أكد في الإخبار عن هؤلاء بالإيقان ، لأن قولك « زيد فعل » أكد من « فعل زيد » لتكرار الاسم في الكلام بكونه مضمراً ، وتصديره مبتدأ يشعر بالإهتمام بالمحكوم عليه ، كما أن التقديم للفعل مشعر بالإهتمام بالمحكوم به ، وذكر لفظة هم في قوله (هم يوقنون) ولم يذكر لفظة هم في قوله (ومما رزقناهم ينفقون) لأن وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ، ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ، ولأنه لو ذكرهم هناك لكان فيه قلق لفظي إذ كان يكون ومما رزقناهم هم ينفقون ، أولئك اسم إشارة للجمع يشترك فيه المذكر والمؤنث والمشهور عند أصحابنا أنه للرتبة القصوى كأولئك ، وقال بعضهم هو للرتبة الوسطى^(١) قاسه على ذا حين لم يزيدها في الوسطى عليه غير حرف الخطاب ، بخلاف أولئك ويضعف قوله كون هاء التنبيه لا تدخل عليه ، وكتبوه بالواو فرقاً بينه وبين إليك ، وبني لافتقاره إلى حاضر يشار إليه به ، وحرك لالتقاء الساكنين وبالكسر على أصل التقائهما ، الفلاح الفوز والظفر بإدراك البغية أو البقاء ، قيل وأصله الشق القطع :

إِنَّ الْحَدِيدَ بِالحَدِيدِ يُفْلَحُ^(٢)

وفي تشاركه في معنى الشق مشاركة في الفاء والعين^(٣) نحو فلى وفلق^(٤) وفلذ ، تقدم في إعراب ، (الذين يؤمنون بالغيب) أن من وجهي رفعه كونه مبتدأ ، فعلى هذا يكون أولئك مع ما بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر الذين ، ويجوز أن يكون بدلاً وعطف بيان ، ويمتنع الوصف لكونه أعرف ، ويكون خبر الذين ، إذ ذاك قوله (على هدى) ، وإن كان رفع الذين على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو كان مجروراً أو منصوباً كان أولئك مبتدأ خبره على هدى ، وقد تقدم أنا لا نختار الوجه الأول لانفلاته مما قبله ، والذهاب به مذهب الاستئناس مع وضوح اتصاله بما قبله وتعلقه به : وأي

(١) ذهب أكثر النحويين إلى أن الإشارة ثلاث مراتب قربي ولها المجرد ، ووسطى ولها ذو الكاف ، وبعدي ولها ذو الكاف واللام وصححه ابن الحاجب واختلف على هذا في مرتبة أولئك بالمد فقيل : هؤلاء وسطى كأولئك وقيل : للبعدي كأولئك قال أبو حيان ويستدل للأول بقوله :

يأما أميلح غزلانا شدد لنا من هؤليائكن الضال والسحر

لأن هاء التنبيه لا تصحب ذا البعيد . وصحح ابن مالك أن لاسم الإشارة مرتبتين وقال : إنه الظاهر من كلام المقدمين ونسبه الصفار إلى سيبويه واحتج له ابن مالك بأن المشار شبيه بالمنادى والنحويون مجمعون على أن المنادى ليس له إلا مرتبتان فلحق بنظيره ، وبأن الفراء نقل أن بني تميم ليس من لغتهم استعمال اللام مع الكاف ، والحجازيين ليس من لغتهم استعمال الكاف بلا لام فلزم من هذا أن اسم الإشارة على اللغتين ليس له إلا مرتبتان وبأن القرآن لم يرد فيه المجرد من اللام دون الكاف فلو كان له مرتبة أخرى لكان القرآن غير جامع لوجوه الإشارة فإنه لو كانت المراتب ثلاثة لم يكتف في التنبيه والجمع بلفظين وهي وجوه حسنة إلا أن دعوى الإجماع في الأول مردودة بما ذكرناه - انظر مع الهوامع (٧٥ / ١ - ٧٦) .

(٢) ذكره بتمامه في تاج العروس بلا نسبة :

قد علمت خيلك أني الصصحح إن الحديد بالحديد يفلح

انظر تاج العروس (٢٠٠ / ٢) .

(٣) فلى : فلى الصبي والمهر والجحش فلولاً وفلاءً وأفلاءً واقتلاه : عزله عن الرضاع وفصله - لسان العرب (٣٤٦٩ / ٥) .

(٤) الفَلَقُ : الشق . الفَلَقُ : الخلق وفي التنزيل : (إن الله فلق الحب والنوى) وقال بعضهم فلق : في معنى خالق - لسان العرب (٣٤٦٢ / ٥) .

فائدة للتكلف والتعسف في الاستثناف فيما هو ظاهر التعلق بما قبله والإرتباط به ، وقد وجه الزمخشري^(١) وجه الاستثناف بأنه : لما ذكر أن الكتاب اختص المتقون بكونه هدى لهم اتجه لسائل أن يقول ما بال المتقين مخصصين بذلك ، فأجيب بأن الذين جمعوا هذه الأوصاف الجليلة من الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق والإيمان بالمنزل والإيقان بالآخرة على هدى في العاجل وذوو فلاح في الآجل ، ثم مثل هذا الذي قرره من الاستثناف بقوله : أحب رسول الله ﷺ الأنصار الذين قارعوا دونه فكشفوا الكرب عن وجهه أولئك أهل للمحبة ، يعني أنه استأنف فابتدأ بصفة المتقين كما استأنف بصفة الأنصار ، وعلى ما اخترناه من الإتصال يكون قد وصف المتقين بصفات مدح فضلت جهات التقوى ، ثم أشار إليهم وأعلم بأن من حاز هذه الأوصاف الشريفة هو على هدى وهو المفلح ، والاستعلاء الذي أفادته في قوله ﴿على هدى﴾ هو مجاز ، نزل المعنى منزلة العين وأنهم لأجل ما تمكن رسوخهم في الهداية جعلوا كأنهم استعملوه ، كما تقول فلان على الحق وإنما حصل لهم هذا الإستقرار على الهدى بما اشتملوا عليه من الأوصاف المذكورة في وصف الهدى بأنه من ربهم ، أي كائن من ربهم تعظيم للهدى الذي هم عليه ، ومناسبة ذكر الرب هنا واضحة ، أي إنه لكونه ربهم بأي تفاسيره فسرت ناسب أن يهيء لهم أسباب السعادتين الدنيوية والأخروية ، فجعلهم في الدنيا على هدى وفي الآخرة هم المفلحون ، وقد تكون ثم صفة محذوفة أي على هدى ، وحذف الصفة لفهم المعنى جائز ، وقد لا يحتاج إلى تقدير الصفة ، لأنه لا يكفي مطلق الهدى المنسوب إلى الله تعالى ومن لا ابتداء الغاية أو للتبويض على حذف مضاف أي من هدى ربهم ، وقرأ ابن هرمز^(٢) من ربهم بضم الهاء وكذلك سائر آت جمع المذكر والمؤنث على الأصل من غير أن يراعى فيها سبق كسر أو باء ، ولما أخبر عنهم بخبرين مختلفين كرر أولئك ليقع كل خبر منهما في جملة مستقلة ، وهو أكد في المدح إذ صار الخبر مبنياً على مبتدأ ، أو هذان الخبران هما نتيجتا الأوصاف السابقة إذ كانت الأوصاف منها ما هو متعلقه أمر الدنيا ومنها ما متعلقه أمر الآخرة ، فأخبر عنهم بالتمكن من الهدى في الدنيا ، وبالفوز في الآخرة ولما اختلف الخبران كما ذكرنا أتى بحرف العطف في المبتدأ ، أو لو كان الخبر الثاني في معنى الأول لم يدخل العاطف ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿أولئك هم الغافلون﴾ بعد قوله ﴿أولئك كالأنعام﴾ كيف جاء بغير عاطف لاتفاق الخبرين اللذين للمبتدئين في المعنى ، ويحتمل هم أن يكون فصلاً أو بدلاً ، فيكون ﴿المفلحون﴾ خبراً عن ﴿أولئك﴾ ، أو المبتدأ ﴿المفلحون﴾ خبره والجملة من قوله هم ﴿المفلحون﴾ في موضع خبر أولئك وأحكام الفصل وحكمه المجيء به مذكورة في كتب النحو^(٣) ، وقد جمعت أحكام الفصل مجردة من غير دلائل في نحو من ست ورقات ، وإدخال هو في مثل هذا التركيب أحسن لأنه محل تأكيد ورفع توهم من يتشكك في المسند إليه الخبر أو ينازع فيه ، أو من يتوهم التشريك فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ [النجم : ٤٣] ، و﴿أنه هو أمات وأحيا﴾ [النجم : ٤٤] ، ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ [النجم : ٤٨] ، وقوله ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ [النجم : ٤٥] ، ﴿وأنه أهلك عاد الأولى﴾ [النجم : ٥٠] ، كيف أثبت هو دلالة على ما ذكر ولم يأت به في نسبة خلق الزوجين وإهلاك عاد ، إذ لا يتوهم إسناد ذلك لغير الله تعالى ولا الشركة فيه ، وأما الإضحاك والإبكاء والإماتة والإحياء والإغناء والإقناء فقد يدعي ذلك أو الشركة فيه متواقع كذاب كنمروذ ، وأما قوله تعالى ﴿وأنه هورب الشعري﴾ [النجم : ٤٩] ، فدخول هو للإعلام بأن الله هو

(١) انظر الكشف (٤٣/١) .

(٢) عبد الرحمن بن هُرْمُز - بضم الهاء والميم بينهما راء ساكنة - الهاشمي المدني الأعرج القاريء توفي سنة سبع عشرة ومائة بالإسكندرية -

الخلاصة (١٥٦/٢) .

(٣) سيأتي الكلام مفصلاً عن حكم تعدد الخبر عند قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) . . الآية .

رب هذا النجم ، وإن كان رب كل شيء لأن هذا النجم عبد من دون الله ، واتخذ إلهاً فأتى بهوليبه بأن الله مستبد بكونه رباً لهذا المعبود ، ومن دونه لا يشاركه في ذلك أحد ، والألف واللام في المفلحون لتعريف العهد في الخارج أو في الذهن ، وذلك أنك إذا قلت زيد المنطلق فالمخاطب يعرف وجود ذات صدر منها انطلاق ، ويعرف زيدا ، ويجهل نسبة الانطلاق إليه ، وأنت تعرف كل ذلك فتقول له زيد المنطلق ، فتفيده معرفة النسبة التي كان يجهلها ، ودخلت هو فيه إذا قلت زيد هو المنطلق لتأكيد النسبة ، وإنما تؤكد النسبة عند توهم أن المخاطب يشك فيها أو ينازع أو يتوهم الشركة ، وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات من قوله تعالى ﴿ أَلَمْ ﴾ إلى قوله ﴿ المفلحون ﴾ أقوالاً ، أحدها : أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب دون غيرهم ، وهو قول ابن عباس وجماعة ، الثاني : نزلت في جميع المؤمنين^(١) قاله مجاهد ، وذكروا في هذه الآية من ضروب الفصاحة أنواعاً :

الأول : حسن الافتتاح وأنه تعالى افتتح بما فيه غموض ودقة لتنبية السامع على النظر والفكر والاستنباط .

الثاني : الإشارة في قوله ذلك أدخل اللام إشارة إلى بعد المنازل .

الثالث : معدول الخطاب في قوله تعالى لا ريب فيه صيغته خبر ومعناه أمر وقد مضى الكلام فيه .

الرابع : الاختصاص هو في قوله هدى للمتقين .

الخامس : التكرار في قوله تعالى ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ ﴿ يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ . وفي قوله ﴿ الذين ﴾ ، ﴿ والذين ﴾ إن كان الموصوف واحداً فهو تكرار اللفظ والمعنى ، وإن كان مختلفاً كان من تكرار اللفظ دون المعنى ومن التكرار ﴿ أولئك ﴾ ﴿ وأولئك ﴾ .

السادس : تأكيد المظهر بالمضمر في قوله ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وفي قوله ﴿ يوقنون ﴾ .

السابع : الحذف وهو مواضع أحدها هذه ﴿ أَلَمْ ﴾ عند من يقدر ذلك ، وهو هدى وينفقون في الطاعة ، وما أنزل إليك من القرآن ، ومن قبلك أي قبل إرسالك أو قبل الإنزال ، وبالأخرة أي بجزء الآخرة ، ويوقنون بالمصير إليها وعلى هدى أي أسباب هدى أو على نور هدى والمفلحون أي الباقون في نعيم الآخرة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ﴾ إن حرف تأكيد يتشبث بالجملة المتضمنة الإسناد الخبري فينصب المسند إليه ويرتفع المسند وجوباً عند الجمهور ، ولها ولأخواتها باب معقود في النحو ، وتأتي أيضاً حرف جواب بمعنى نعم ، خلافاً لمن منع ذلك ، الكفر : الست^(٢) ولهذا قيل كافر للبحر ، ومغيب الشمس ، والزراع ، والدافن ، والليل ، والمتكفر ، والمتسلح فيبينها كلها قدر مشترك وهو الست ، سواء اسم بمعنى استواء مصدر استوى ، ووصف به بمعنى مستو ، فتحمل الضمير ، قالوا مرت برجل سواء والعدم ، قالوا أصله العدل قال زهير :

يُسَوِّيَ بَيْنَهَا فِيهَا السَّوَاءُ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) ، وعزه لوكيع والفريابي وعبد بن حميد وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد وذكره الواحدي في أسباب النزول ص ١١ عن مجاهد .

(٢) وكل من ستر شيئاً فقد كَفَرَهُ وَكَفَرَهُ .

والكافر : الزَّرَاعُ لَسْتَرِهِ الْبَذْرَ بِالتَّرَابِ وَالْكَفَّارُ : الزَّرْعُ . انظر لسان العرب (٣٨٩٩/٥) .

ولإجرائه مجرى المصدر لا يثنى ، قالوا هما سواء استغنوا بثنية سي بمعنى سواء كفي بمعنى قواء ، وقالوا هما سيان ، وحكى أبو زيد تشيته عن بعض العرب ، قالوا هذان سواءان ولذلك لا تجمع أيضاً قال :

وَلَيْلٍ يَقُولُ النَّاسُ مِنْ ظُلْمَاتِهِ سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْعُيُونِ وَعُورُهَا^(١)

وهمزته منقلبة عن ياء فهو من باب طويت ، وقال صاحب اللوامح قرأ الجحدري سواء بتخفيف الهمزة على لغة الحجاز فيجوز أنه أخلص الواو ، ويجوز أنه جعل الهمزة بين بين ، وهو أن يكون بين الهمزة والواو ، وفي كلا الوجهين لا بد من دخول النقص فيما قبل الهمزة المليئة من المد انتهى ، فعلى هذا يكون سواء ليس لاه ياء بل واواً فيكون من باب قواء ، وعن الخليل سوء عليهم بضم السين مع واو بعدها مكان الألف مثل دائرة السوء ، على قراءة من ضم السين ، وفي ذلك عدول عن معنى المساواة إلى معنى القبح والسب ، ولا يكون على هذه القراءة له تعلق إعراب بالجملة بعدها بل يبقى ﴿ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إخبار بانتفاء إيمانهم على تقدير إنذارك وعدم إنذارك ، وأما سواء الواقع في الإستثناء في قولهم قاموا سواك بمعنى قاموا غيرك فهو موافق لهذا في اللفظ مخالف في المعنى ، فهو من باب المشترك^(٢) وله أحكام ذكرت في باب الإستثناء ، الهمزة للدعاء ، وزيد ، وللاستفهام الصرف ، وذلك ممن يجهل النسبة فيسأل عنها ، وقد يصحب الهمزة التقرير ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، والتحقيق :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا^(٣)

والتسوية ﴿ سواء عليهم أُنذَرْتَهُمْ ﴾ ، والتوبيخ ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] ، والإنكار أزيدنيه لمن قال جاء زيد ، وتعاقب حرف القسم الله لأفعلن ، الإنذار : الإعلام مع التخويف في مدة تسع التحفظ من المخوف ، وإن لم تسع سمي إعلاماً وإشعاراً وإخباراً ، ويتعدى إلى اثنين ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً ﴾ [النبأ : ٤٠] ، ﴿ فقل أنذرتكم صاعقة ﴾ [فصلت : ١٣] ، والهمزة فيه للتعدية يقال نذر القوم إذا علموا بالعدو ، ﴿ وَأَمْ ﴾ حرف فإذا عادل الهمزة وجاء بعده مفرد أو جملة في معنى المفرد سميت أم متصلة ، وإذا انخرم هذان الشرطان أو أحدهما سميت منفصلة ، وتقرير هذا في النحو^(٤) ، ولا تزداد خلافاً لأبي زيد ، لم حرف نفى معناه النفي وهو مما يختص بالمضارع اللفظ الماضي

(١) البيت من الطويل لمضر بن ربيعة الأسدي . انظر الحماسة البصرية (٣٤٢/٢) ، خزنة الأدب (١٨/٥) ، جامع البيان (٨٦/١) ، وروايته فيه (بطول المرء) تفسير القرطبي (١٨٤/١) ، حماسة ابن الشجري (٢٠٤) .

(٢) المشترك : ما وضع لمعنى كثير بوضع كثير كالعين لاشتراكه بين المعاني ومعنى الكثرة ما يقابل الوحدة لا ما يقابل القلة فيدخل فيه المشترك بين المعين فقط كالقراء والشفق فيكون مشتركاً بالنسبة إلى الجميع محملاً بالنسبة إلى كل واحد والاشتراك بين الشيتين إن كان بالنوع يسمى مماثلة كاشتراك زيد وعمرو في الإنسانية وإن كان بالجنس يسمى مجانسة كاشتراك إنسان وفرس في الحيوانية وإن كان بالعرض إن كان في الكم يسمى مادة كاشتراك ذراع من خشب وذراع من ثوب في الطول وإن كان في الكيف يسمى مشابهة كاشتراك الإنسان والحجر في السواد وإن كان بالمضاف يسمى مناسبة كاشتراك زيد وعمرو في بُنو بكر وإن كان بالشكل يسمى مُشاكلة كاشتراك الأرض والهواء في الكُرْبية وإن كان بالوضع المخصوص يسمى مُوازنة وهو أن لا يختلف البُعد بينهما كسطح كلِّ فلك ، وإن كان بلا أطراف يسمى مطابقة كاشتراك الاجنتين في الأطراف . انظر التعريفات (١١٩ - ١٢٠) .

(٣) هذا صدر بيت من الوافر لجبرير وعجزه (وأندى العالمين بطون راح) انظر ديوانه (١٥) ، طبقات الشعراء (١٢٣) ، شرح شواهد المغني ص ٤٢ ، شرح أدب الكاتب ص ١٧٣ اللسان .

(٤) أم حرف عطف وهي نوعان متصلة وهي قسمان :

الأول : أن يتقدم عليها همزة التسوية نحو (سواء عليهم أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) البقرة ٦ .

والثاني : أن يتقدم عليها همزة يُطلب بها ويأم التعيين نحو (الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثَيْنِ) الأنعام ١٤٤ .

وسميت في القسمين متصلة لأن ما قبلها وما بعدها لا يستغنى بأحدهما عن الآخر وتسمى أيضاً معادلة لمعادلتها للهمزة في إفادة التسوية

معنى فعمل فيه ما يخصه وهو الجزم وله أحكام ذكرت في النحو

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غَشَاةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

الختم : الوسم بطابع أو غيره مما يوسم به ، القلب^(١) مصدر قلب ، والقلب للحممة الصَّنَوْبَرِيَّةُ المعروفة ، سميت بالمصدر ، وكني به في القرآن وغيره عن العقل ، وأطلق أيضاً على لب كل شيء وخالصة ، السمع مصدر سمع سمعاً وسامعاً ، وكني به في بعض المواضع عن الأذن ، البصر نور العين وهو ما تدرك به المرئيات الغشاة^(٢) الغطاء غشاه أي غطاه ، وتصحح الواو لأن الكلمة بنيت على تاء التانيث كما صححوا اشتقاقه ، قال أبو علي الفارسي لم أسمع من الغشاة فعلاً متصرفاً بالواو ، وإذا لم يوجد ذلك كان معناها معنى ما اللام منه الياء غشي يغشى ، بدلالة قولهم الغشيان ، والغشاة من غشي كالجباوة من جبيت في أن الواو كأنها بدل من الياء إذا لم يصرف منه فعل كما لم يصرف من الجباوة انتهى كلامه ، العذاب أصله الاستمرار ثم اتسع فيه فسمى به كل استمرار ألم ، واشتقوا منه فقالوا عذبت أي داومت عليه الألم ، وقد جعل الناس بينه وبين العذب الذي هو الماء الحلو وبين عذب الفرس استمر عطشه قدراً مشتركاً وهو الاستمرار ، وإن اختلف متعلق الاستمرار ، وقال الخليل أصله المنع يقال عذب الفرس امتنع من العلف ، عظيم اسم فاعل من عظم غير مذهب به مذهب الزمان ، وفعل اسم وصفة ، الاسم مفرد نحو قميص ، وجمع نحو كليب ، ومعنى نحو صهيل ، والصفة مفرد فعلة كقري ، وفعل كسرى واسم فاعل من فَعَلَ ككريم ، وللمبالغة من فاعل كعليم ، وبمعنى أفعل

في القسم الأول والاستفهام في الثاني .

ويفترق القسمان من أربعة أوجه :

أحدها وثانيها : أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تستحق جواباً لأن المعنى معهما ليس على الاستفهام لأن وأن الكلام معها قابل للتصديق والتكذيب لأنه خبر وليست تلك كذلك ، الاستفهام منها على حقيقته .
والثالث والرابع : أن الواقعة بعد همزة التسوية لا تقع إلا بين جملتين ولا تكون الجملتان معها إلا في تأويل المفردين وتكون الجملتان فعليتين واسميتين ومختلفتين نحو (سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون) وأم الأخرى تقع بين المفردين وهو الغالب فيها نحو (أنتم أشد خلقاً أم السماء) وبين جملتين ليستا في تأويلهما .

النوع الثاني : منقطعة وهي ثلاثة أقسام :

مسيبقة بالخبر المحض نحو (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) السجدة ٢ (أم يقولون افتراه) يونس ٣٨ .
ومسيبقة بالهمزة لغير الاستفهام نحو (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها) الأعراف ١٩٥ ، إذ الهمزة في ذلك للإنكار فهي بمنزلة النفي والمتصلة لا تقع بعده .

ومسيبقة باستفهام بغير الهمزة نحو (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور) الرعد ١٦ .
ومعنى أم المنقطعة الذي لا يفارقها الإضراب ثم تارة تكون له مجرداً وتارة تضمن مع ذلك استفهاماً إنكارياً .
فمن الأول : (أم هل تستوي الظلمات والنور) الرعد ١٦ لأنه لا يدخل الاستفهام على استفهام .
ومن الثاني : (أم له البنات ولكم البنون) الطور ٣٩ تقديره : بل أله البنات إذ لو قدرت الإضراب المحض لزم المحال .
انظر الإتيان (١٦/٢ - ١٦٤ - ١٦٥) .

(١) والختم على القلب : ألا يفهم شيئاً ولا يخرج منه شيء كأنه طُبِعَ وفي التنزيل العزيز (ختم الله على قلوبهم) هو كقوله : (طبع الله على قلوبهم) فلا تعقل ولا تعي شيئاً قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع في اللغة واحد وهو التغطية على الشيء . . . لسان العرب (١١٠١/٢) .

(٢) وغاشية القلب وغشاوته : قميصه قال أبو عبيد : في القلب غشاة وهي الجلد الملبسة وربما خرج فؤاد الإنسان والدابة من غشائه وذلك من فزع يفزعه فيموت مكانه وكذلك تقول العرب : انخلع فؤاده . . . لسان العرب (٣٢٦١/٥) .

كشيط^(١) ، وبمعنى مفعول كجريح ، ومُفْعِل كسميع وأليم ، وتَفَعَّل كوكيد ، ومُفَاعِل كجليس ، ومُفْتَعِل كسعير ، ومُسْتَفْعِل كمكين ، وفُعِل كطبيب ، وفعل كعجيب ، وفعل كصحيح ، وبمعنى الفاعل والمفعول كصریح ، وبمعنى الواحد والجمع كخليط ، وجمع فاعل كغريب ، مناسبة اتصال هذه الآية بما قبلها ظاهر وهو أنه لما ذكر صفة من الكتاب له هدى وهم المتقون الجامعون للأوصاف المؤدية إلى الفوز ذكر صفة ضدّهم وهم الكفار المحتوم لهم بالوفاة على الكفر ، وافتتح قصتهم بحرف التأكيد ليدل على استثناء الكلام فيهم ، ولذلك لم يدخل في قصة المتقين ، لأن الحديث إنما جاء فيهم بحكم الانجرار إذ الحديث إنما هو عن الكتاب ، ثم أنجز ذكرهم في الإخبار عن الكتاب ، وعلى تقدير إعراب ﴿الذين يؤمنون﴾ الأول والثاني مبتدأ فإنما هو في المعنى من تمام صفة المتقين ، الذين كفروا يحتمل أن يكون للجنس ملحوظاً فيه قيد وهو أن يقضى عليه بالكفر والوفاة عليه ، وأن يكون لمعيّن كأي جهل وأبي لب وغيرهما ، وسواء وما بعده يحتمل وجهين أحدهما أن يكون لا موضع له من الإعراب ، ويكون جملة اعتراض من مبتدأ وخبر بجعل سواء المبتدأ والجملة بعده الخبر أو العكس ، والخبر قوله لا يؤمنون ، ويكون قد دخلت جملة الاعتراض تأكيداً لمضمون الجملة ، لأن من أخبر الله عنه أنه لا يؤمن استوى إنذاره وعدم إنذاره ، والوجه الثاني أن يكون له موضع من الإعراب وهو أن يكون في موضع خبر إن فيحتمل لا يؤمنون أن يكون له موضع من الإعراب إما خبر بعد خبر ، على مذهب من يميز تعداد الأخبار أو خبر مبتدأ محذوف أي هم لا يؤمنون^(٢) ، وجوزوا فيه أن يكون في موضع الحال وهو بعيد ، ويحتمل أن يكون لا موضع له من الإعراب فتكون جملة تفسيرية لأن عدم الإيمان هو استواء الإنذار وعدمه ، كقوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ [الفتح : ٢٩] ، أو يكون جملة دعائية وهو بعيد ، وإذا كان لقوله تعالى ﴿أنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ موضع من الإعراب فيحتمل أن يكون سواء خبر إن ، والجملة في موضع رفع على الفاعلية ، وقد اعتمد بكونه خبر الذين ، والمعنى إن الذين كفروا مستوٍ لإنذارهم وعدمه ، وفي كون الجملة تقع فاعلة خلاف مذهب جمهور البصريين أن الفاعل لا يكون إلا اسماً أو ما هو في تقديره ، ومذهب هشام وشعبل وجماعة من الكوفيين جواز كون الجملة تكون فاعلة ، وأجازوا يعجبني يقوم زيد ، وظهر لي أقام زيد أم عمرو ، أي قيام أحدهما ، ومذهب الفراء وجماعة أنه إن كانت الجملة معمولة لفعل من أفعال القلوب وعلق عنها جاز أن تقع في موضع الفاعل أو المفعول الذي لم يسم فاعله وإلا فلا ، ونسب هذا لسيبويه ، قال

(١) الشميط : الصبح لاختلاط لونه من الظلمة والبياض ويقال للصبح : شميط مولع - لسان العرب (٤/ ٢٣٢٦) .

(٢) اختلف النحاة في جواز تعداد الخبر لمبتدأ واحد على أقوال :

أحدها : وهو الأصح وعليه الجمهور . الجواز كما في النعوت سواء اقترن بعاطف أم لا فالأول : كقولك زيد فقيه وشاعر وكاتب ، والثاني : كقوله تعالى « وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد » وقول الشاعر :

من يك ذابت فهذا بتني مقيظ مصيف مشتي

والقول الثاني : المنع واختاره ابن عصفور وكثير من المغاربة وعلى هذا فما ورد من ذلك جعل الأول خيراً والباقي صفة للخبر ومنهم من يجعله خبر مبتدأ مقدر .

والقول الثالث : الجواز إن اتحدا في الأفراد والجملة الأولى كما تقدم ، والثاني نحو زيد أبوه قائم أخوه خارج والمنع إن كان أحدهما مفرداً والآخر جملة والرابع قصر الجواز على ما كان المعنى منها واحداً نحو الرمان حلو حامض أي : مُز وزيد أعسر أسير أي : أضبط وهو الذي يعمل بكلتا يديه وهذا النوع يتعين فيه - ترك العطف لأن مجموع الخبرين فيه بمنزلة واحد وجوز أبو علي استعماله بالعطف كغيره من الأخبار المفردة فيقال هذا حلو وحامض قال صاحب البديع : ولا يجوز الفصل بين هذين الخبرين ولا تقديمهما على المبتدأ عند الأكثرين ولا تقديم أحدهما وتأخير الآخر وأجازه بعضهم انتهى ومن ذلك يتحصل في التقديم ثلاثة أقوال كما حكيتها في المتن . انظر مع الهوامع (١٠٨/١) .

أصحابنا والصحيح المنع مطلقاً ، وتقدير هذا في المبسوطات من كتب النحو^(١) ، ويحتمل أن يكون قوله ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ مبتدأ وخبراً على التقديرين اللذين ذكرناهما إذا كانت جملة اعتراض ، وتكون في موضع خبر إن ، والتقديران المذكوران عن أبي علي الفارسي وغيره ، وإذا جعلنا سواء المبتدأ والجملة الخبر فلا يحتاج إلى رابط لأنها المبتدأ في المعنى والتأويل ؛ وأكثر ما جاء سواء بعده الجملة المصدرة بالهمزة المعادلة بأم ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ [إبراهيم : ٢١] ، ﴿ سواء عليكم أذعوتهم أم أنتم صامتون ﴾ [الأعراف : ١٩٣] ، وقد تحذف تلك الجملة للدلالة عليها ﴿ اصبروا أولاً ولا تصبروا سواء عليكم ﴾ [الطور : ١٦] ، أي أصبرتم أم لم تصبروا وتأني بعده الجملة الفعلية المتسلطة على اسم الاستفهام نحو سواء على أي الرجال ضربت قال زهير :

سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتُهُ أَسَاءَةً نَحْسٍ تُتَّقَى أَمْ بِأَسْعَدٍ^(٢)

وقد جاء بعده ما عري عن الاستفهام وهو الأصل قال :

سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ الْعُيُونِ وَعُورُهَا^(٣)

وأخبر عن الجملة بأن جعلت فاعلاً بسواء أو مبتدأة وإن لم تكن مصدرة بحرف مصدري حملاً على المعنى ، وكلام العرب منه ما طابق فيه اللفظ المعنى نحو قام زيد وزيد قائم وهو أكثر كلام العرب ، ومنه ما غلب فيه حكم اللفظ على المعنى نحو علمت أقم زيد أم قعد لا يجوز تقديم الجملة على علمت ، وإن كان ليس ما بعد علمت استفهاماً بل الهمزة فيه للتسوية ، ومنه ما غلب فيه المعنى على اللفظ ، وذلك نحو الإضافة للجملة الفعلية نحو :

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا^(٤)

إذ قياس الفعل أن لا يضاف إليه ، لكن لوحظ المعنى وهو المصدر فصحت الإضافة ، قال ابن عطية ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر ، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام ، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً : سواء علي أقم أم قعدت أم ذهبت ، وإذا قلت مستفهماً أخرج زيد أم قام فقد استوى الأمران عندك ، هذان في الخبر وهذان في الاستفهام ، وعدم علم أحدهما بعينه ، فلما عممتها التسوية جرى على الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته إياه في الإبهام وكل استفهام تسوية ، وإن لم يكن كل تسوية استفهاماً انتهى كلامه ، وهو حسن إلا أن في أوله مناقشة وهو قوله ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر وليس

(١) اختلف في الإسناد إلى الجملة على مذاهب أصحاب المنع فلا يكون فاعلاً ولا نائباً عنه ، والثاني الجواز لوروده في قوله تعالى (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه) فأجازوا يعجنني يقوم زيد وظهر لي أقم زيد أم عمرو ، وأجيب بأن الفاعل في الآية ضمير البداء المفهوم من بدأ أو ضمير السجن المفهوم من الفعل .

والثالث : يجوز أن يقع فاعلاً أو نائباً عنه لفعل من أفعال القلوب إذا علق نحو ظهر لي أقم زيد أم عمرو ، وعلم أقم بكر أم خالد بخلاف نحو يسرنني خرج عبد الله فلا يجوز ونسب هذا لسبويه . انظر مع الهوامع (١٦٤/١) .

(٢) انظر ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤٠ . مجاز القرآن لأبي عبيدة (٥٨/٢) ، مجمع البيان (٩١/١) .

(٣) تقدم .

(٤) هذا صدر بيت من الطويل للنابغة الذبياني وعجزه فقلت : ألما أصبح والشيب وازع انظر . ديوانه (٥١) ، الكتاب (٢٦٠/١) ،

المقتضب (٣٢٢/٤) ، المقرب (٥٣) ، شرح المفصل (١٦/٣) ، الخزائن (١٥١/٣) ، شذور الذهب (٧٨) ، مع الهوامع

(٢١٨/١) ، الدرر اللوامع (١٨٧/١) ، الأشموني (٢٥٦/٢) .

كذلك ، لأن هذا الذي صورته صورة الاستفهام ليس معناه الخبر لأنه مقدر بالمقدر إما مبتدأ وخبره سواء أو العكس ، أو فاعل سواء لكون سواء وحده خبراً لإن ، وعلى هذه التقادير كلها ليس معناه معنى الخبر ، وإنما سواء وما بعده إذا كان خبراً أو مبتدأ معناه الخبر ، ولغة تميم تخفيف الهمزتين في نحو أنذرتهم ، وبه قرأ الكوفيون وابن ذكوان وهو الأصل ، وأهل الحجاز لا يرون الجمع بينهما طلباً للتخفيف ، فقرأ الحرميان وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، إلا أن أبا عمرو وقالون^(١) وإسماعيل بن جعفر عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفاً ، وابن كثير لا يدخل وروى تحقيقاً عن هشام وإدخال ألف بينهما وهي قراءة ابن عباس وابن أبي إسحاق ، وروى عن ورش كابن كثير وكقالون ، وإبدال الهمزة الثانية ألفاً فيلتقي ساكنان على غير حدتهما عند البصريين وقد أنكر هذه القراءة الزمخشري^(٢) ، وزعم أن ذلك لحن وخروج عن كلام العرب من وجهين ، أحدهما الجمع بين ساكنين على غير حده ، الثاني أن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها هو بالتسهيل بين بين لا بالقلب ألفاً ، لأن ذلك هو طريق الهمزة الساكنة . وما قاله هو مذهب البصريين ، وقد أجاز الكوفيون الجمع بين الساكنين على غير الحد الذي أجازاه البصريون ، وقراءة ورش صحيحة النقل لا تدفع باختيار المذاهب ، ولكن عادة هذا الرجل إساءة الأدب على أهل الأداء ونقله القرآن ، وقرأ الزهري وابن محيصن أنذرتهم بهمزة واحدة حذف الهمزة الأولى للدلالة المعنى عليها ، ولأجل ثبوت ما عادلها وهو أم وقرأ أبي أيضاً بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الميم الساكنة قبلها ، والمفعول الثاني لأنذر محذوف للدلالة المعنى عليه التقدير أنذرتهم العذاب على كفرهم أم لم تنذرهموه ، وفائدة الإنذار مع تساويه مع العدم أنه قاطع لحجتهم وأنهم قد دعوا فلم يؤمنوا ، ولثلاثا يقولوا ربنا لولا أرسلت ، وأن فيه تكثير الأجر بمعامانة من لا قبول له للإيمان ومقاساته ، وأن في ذلك عموم إنذاره لأنه أرسل للخلق كافة ، وهل قوله لا يؤمنون خبر عنهم ، أو حكم عليهم ، أو ذم لهم ، أو دعاء عليهم أقوال ، وظاهر قوله تعالى ﴿ ختم الله ﴾ أنه إخبار من الله تعالى بختمه ، وحمله بعضهم على أنه دعاء عليهم ، وكنى بالختم على القلوب عن كونها لا تقبل شيئاً من الحق ، ولا تعيه لإعراضها عنه ، فاستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول ، أو مثل القلب بالوعاء الذي ختم عليه صوناً لما فيه ومنعاً لغيره من الدخول إليه ، والأول مجاز الاستعارة ، والثاني مجاز التمثيل ، ونقل عن مضي أن الختم حقيقة ، وهو انضمام القلب وانكماشه ، قال مجاهد إذا أذنت ضم من القلب هكذا وضم مجاهد الخنصر ، ثم إذا أذنت ضم هكذا وضم البنصر ثم هكذا إلى الإبهام ، وهذا هو الختم والطبع والرین ، وقيل الختم سمة تكون فيهم تعرفهم الملائكة بها من المؤمنين ، وقيل حفظ ما في قلوبهم من الكفر ليجازيهم ، وقيل الشهادة على قلوبهم بما فيها من الكفر ، ونسبة الختم إلى الله تعالى بأي معنى فسر إسناد صحيح ، إذ هو إسناد إلى الفاعل الحقيقي إذ الله تعالى خالق كل شيء ، وقد تأول الزمخشري^(٣) وغيره من المعتزلة هذا الإسناد إذ مذهبهم أن الله تعالى لا يخلق الكفر ولا يمنع من قبول الحق والوصول إليه ، إذ ذاك قبيح ، والله تعالى يتعالى عن فعل القبيح ، وذكر أنواعاً من التأويل عشرة (ملخصها) :

الأول : أن الختم كنى به عن الوصف الذي صار كالخلقي ، وكأنهم جبلوا عليه وصار كأن الله هو الذي فعل بهم ذلك .

(١) عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى بن عبد الصمد بن عمر بن عبد الله الزرقى ويقال المربى مولى بني زهرة أبو موسى الملقب قالون قارئ المدينة ونحوها انظر غاية النهاية (١٦٥ / ١) .

(٢) انظر الكشف (٤٨ / ١) .

(٣) انظر الكشف (٥٠ / ١) .

الثاني : أنه من باب التمثيل كقولهم « طارت به العنقاء » إذا أطال الغيبة وكأنهم مثلت حال قلوبهم بحال قلوب ختم الله عليها .

الثالث : أنه نسبته إلى السبب لما كان الله هو الذي أقدر الشيطان ومكنه أسند إليه الختم .

الرابع : أنهم لما كانوا مقطوعاً بهم أنهم لا يؤمنون طوعاً ولم يبق طريق إيمانهم إلا بالبراءة وقسر ، وترك القسر عبر عن تركه بالختم .

الخامس : أن يكون حكاية لما يقوله الكفار تهكماً كقولهم قلوبنا في أكنة .

السادس : أن الختم منه على قلوبهم هو الشهادة منه بأنهم لا يؤمنون .

السابع : أنها في قوم مخصوصين فعل ذلك بهم في الدنيا عقاباً عاجلاً كما عجل لكثير من الكفار عقوبات في الدنيا .

الثامن : أن يكون ذلك فعله بهم من غير أن يحول بينهم وبين الإيمان لضيق صدورهم عقوبة غير مانعة من الإيمان .

التاسع : أن يفعل بهم ذلك في الآخرة لقوله تعالى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ [الإسراء : ٩٧] .

العاشر : ما حكى عن الحسن البصري وهو اختيار أبي علي الجبائي^(١) والقاضي أن ذلك سمة وعلامة يجعلها الله تعالى في قلب الكافر وسمعه تستدل بذلك الملائكة على أنهم كفار وأنهم لا يؤمنون انتهى . ما قاله المعتزلة ، والمسألة يبحث عنها في أصول الدين ، وقد وقع قوله ﴿ وعلى سمعهم ﴾ بين شيئين يمكن أن يكون السمع محكوماً عليه مع كل واحد منهما ، إذ يحتمل أن يكون أشرك في الختم بينه وبين القلوب ، ويحتمل أن يكون أشرك في الغشاوة بينه وبين الأبصار لكن حملة على الأول أولى للتصريح بذلك في قوله وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة وتكرير حرف الجر يدل على أن الختم ختمان ، أو على التوكيد إن كان الختم واحداً ، فيكون أدل على شدة الختم ، وقرأ ابن عجلة أسماعهم فطابق في الجمع بين القلوب والأسماع والأبصار ، وأما الجمهور ففرؤوا على التوحيد إما لكونه مصدراً في الأصل فلمح فيه الأصل ، وإما اكتفاء بالمفرد عن الجمع لأن ما قبله وما بعده يدل على أنه أريد به الجمع ، وإما لكونه مصدراً حقيقة ، وحذف ما أضيف إليه للدلالة المعنى أي حواس سمعهم ، وقد اختلف الناس في أي الحاستين السمع والبصر أفضل وهو اختلاف لا يجدي كبير شيء ، والإمالة في أبصارهم جائزة وقد قرئ بها ، وقد غلبت الراء المكسورة حرف الاستعلاء إذ لولاها لما جازت الإمالة وهذا بتمامه مذكور في النحو ، وقرأ الجمهور غشاوة بكسر الغين ورفع التاء ، وكانت هذه الجملة ابتدائية ليشمل الكلام الإسنادين إسناد الجملة الفعلية وإسناد الجملة الابتدائية ، فيكون ذلك أكد لأن الفعلية تدل على التجدد والحدوث والاسمية تدل على الثبوت ، وكان تقديم الفعلية أولى ، لأن فيها أن ذلك قد وقع وفرغ منه ، وتقديم المجزوء الذي هو على أبصارهم مصحح لجواز الابتداء بالنكرة مع أن فيه مطابقة بالجملة قبله لأنه تقدم فيها الجزء المحكوم به وهذه كذلك الجملتان تؤول دلالتهما إلى معنى واحد وهو منعهم

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره توفي سنة ٣٠٣ هجرية - وفيات الأعيان (٤٨٠/١) ، البداية والنهاية (١٢٥/١١) .

من الإيمان ، ونصب المفضل غشاوة يحتاج إلى إضمار ما أظهر في قوله وجعل على بصره غشاوة : أي وجعل على أبصارهم غشاوة ، أو إلى عطف أبصارهم على ما قبله ، ونصبها على حذف حرف الجر أي بغشاوة وهو ضعيف ، ويحتمل عندي أن تكون اسماً وضع موضع مصدر من معنى ختم لأن معنى ختم غشَى وستر ، كأنه قيل تغشية على سبيل التأكيد ، وتكون قلوبهم وسمعهم وأبصارهم مختوماً عليها مغشاة ، وقال أبو علي وقراءة الرفع أولى لأن نصب إما أن يحمله على ختم الظاهر فيعرض في ذلك أنك حلت بين حرف العطف والمعطوف به وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر ، وإما إن تحمله على فعل يدل عليه ختم تقديره وجعل على أبصارهم فيجيء الكلام من باب :

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمَحًا^(١)

وقول الآخر :

عَلَفْتُهَا تَيْنًا وَمَاءً بَارِدًا

ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في حال سعة واختيار ، فقراءة الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة انتهى كلام أبي علي رحمه الله تعالى ، ولا أدري ما معنى قوله لأن نصب إنما يحمله على ختم الظاهر ، وكيف تحمل غشاوة المنصوب على ختم الذي هو فعل هذا ما لا حمل فيه ، اللهم إلا إن أراد أن يكون قوله تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ دعاء عليهم لا خبراً فإن ذلك يناسب مذهبه لاعتزاله ، ويكون غشاوة في معنى المصدر المدعو به عليهم القائم مقام الفعل ، فكأنه قيل وغشَى الله على أبصارهم ، فيكون إذ ذاك معطوفاً على ختم عطف المصدر النائب مناب فعله في الدعاء ، نحو قولك رحم الله زيدا وسقياً له ، وتكون إذ ذاك قد حلت بين غشاوة المعطوف وبين ختم المعطوف عليه بالجار والمجرور ، وأما إن جعلت ذلك خبراً محضاً وجعلت غشاوة في موضع المصدر البدل عن الفعل في الخبر فهو ضعيف لا ينقاس ذلك بل يقتصر فيه على مورد السماع ، وقرأ الحسن باختلاف عنه وزيد بن علي غُشَاوَةً بضم الغين ورفع التاء ، وأصحاب عبد الله بالفتح والنصب وسكون الشين ، وعبيد بن عمير كذلك إلا أنه رفع التاء ، وقرأ بعضهم غُشَوَةً بالكسر والرفع ، وبعضهم غُشَوَةٌ وهي قراءة أبي حنيفة والأعمش قرأ بالفتح والرفع والنصب ، وقال الثوري كان أصحاب عبد الله يقرؤونها غُشِيَةً بفتح الغين والياء والرفع اهـ ، وقال يعقوب^(٢) غُشَوَةٌ بالضم لغة ولم يؤثرها عن أحد من القراء ، قال بعض المفسرين وأصوب هذه القراءات المقروء بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن عمامة ، والأشياء التي هي أبداً مشتملة فهذا يجيء وزنها كالصمامة والعمامة والعصابة والزيانة وغير ذلك ، وقرأ بعضهم غشاوة بالعين المهملة المكسورة والرفع من العشي وهو شبه العمى في العين ، وتقديم القلوب على السمع من باب التقديم بالشرف وتقديم الجملة التي انتظمتها على الجملة التي تضمنت الأبصار من هذا الباب أيضاً ، وذكر أهل البيان أن التقديم يكون باعتبارات خمسة :

تقدم العلة والسبب على المعلول والمسبب ، كتقديم الأموال على الأولاد في قوله تعالى ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] ، فإنه إنما يشرع في النكاح عند قدرته على المؤونة فهي سبب إلى التزوج ، والنكاح سبب للتناسل ، والعلة كتقدم المضيء على الضوء ، وليس تقدم زمان لأن جرم الشمس لا ينفك عن الضوء ، وتقدم

(١) البيت من الكامل لعبد الله بن الزبيري - انظر الخصائص (٤٣١/٢) ، الإنصاف ص ٦١٢ ، الأشباه والنظائر (٢٢٤/١) ، معاني القرآن للأخفش ص ٤٦٦ ، الكشف (٣٦/٤) ، اللسان (مسخ) .

(٢) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق أبو محمد الحضرمي مولاهم البصري أحد القراء العشرة وإمام أهل البصرة ومقرئها انظر غاية النهاية (٣٨٦/٢) .

بالذات كالواحد مع الاثنين ، وليس الواحد علة للاثنين بخلاف القسم الأول ، وتقدم بالشرف كتقدم الإمام على المأموم ، وتقدم الزمان كتقدم الوالد على الولد بالوجود ، وزاد بعضهم سادساً وهو التقدم بالوجود حيث لا زمان .

ولما ذكر تعالى حال هؤلاء الكفار في الدنيا أخبر بما يؤول إليه أمرهم في الآخرة من العذاب العظيم ، ولما كان قد أعد لهم العذاب صير كأنه ملك لهم لازم ، والعظيم هو الكبير ، وقيل العظيم فوق لأن الكبير يقابله الصغير والعظيم يقابله الحقيق ، قيل والحقيق دون الصغير ، وأصل العظم في الجثة ثم يستعمل في المعنى ، وعظم العذاب بالنسبة إلى عذاب دونه يتخلله فتور ، وبهذا التخلل المتصور يصح أن يتفاضل العَرَضَانِ كسوادين أحدهما شع من الآخر إذ قد تخلل الآخر ما ليس بسواد ، وذكر المفسرون في سبب نزول قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله ﴿عَظِيمٌ﴾ أقوالاً :

أحدها : أنها نزلت في يهود كانوا حول المدينة^(١) قاله ابن عباس ، وكان يسميهم .

الثاني : نزلت في قادة الأحزاب من مشركي قريش^(٢) ، قاله أبو العالية .

الثالث : في أبي جهل وخمسة من أهل بيته^(٣) ، قاله الضحاك .

الرابع : في أصحاب القليب وهم أبو جهل وشيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط وعتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة .

الخامس : في مشركي العرب قريش وغيرها .

السادس : في المنافقين .

فإن كانت نزلت في ناس بأعيانهم وافوا على الكفر فالذين كفروا معهودون ، وإن كانت لا في ناس مخصوصين وافوا على الكفر فيكون عاماً مخصوصاً ألا ترى أنه قد أسلم من مشركي قريش وغيرها ومن المنافقين ومن اليهود خلق كثير بعد نزول هاتين الآيتين ، وذكروا أيضاً أن في هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنواعاً :

الأول : الخطاب العام اللفظ الخاص المعنى .

الثاني : الاستفهام الذي يراد به تقرير المعنى في النفس : أي يتقرر أن الإنذار وعدمه سواء عندهم .

الثالث : المجاز ويسمى الاستعارة وهو قوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ ، وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس سيحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم ، والختم هنا معنوي فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير له اسم المختوم عليه فبين أنه من مجاز الاستعارة .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩/١) ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٩/١) ، وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية .

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ١٢ عن الضحاك .

الرابع : الحذف وهو في مواضع ، منها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : أي إن القوم الذين كفروا بالله وبما جئت به ، ومنها لا يؤمنون بالله وبما أخبرتهم به عنه ، ومنها ختم الله على قلوبهم فلا تعي وعلى أسماعهم فلا تصغي ، ومنها وعلى أبصارهم غشاوة على من نصب أي وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون سبيل الهداية ، ومنها ولهم عذاب أي ولهم يوم القيامة عذاب عظيم دائم ، ويجوز أن يكون التقدير ولهم عذاب عظيم في الدنيا بالقتل والسي أو بالإذلال ووضع الجزية وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم .

الخامس : التعميم وهو في قوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإنه لو اقتصر على قوله عذاب ولم يقل عظيم ، لاحتمل القليل والكثير فلما وصفه بالعظيم تمم المعنى ، وعلم أن العذاب الذي وعدوا به عظيم إما في المقدار وإما في الإيلام والدوام .

السادس : الإشارة فإن قوله سواء عليهم إشارة إلى أن السواء الذي أضيف إليهم وباله ونكاله عليهم ومستعل فوقهم ، لأنه لو أراد بيان أن ذلك من وصفهم فحسب لقال سواء عندهم ، فلما قال سواء عليهم نبه على أنه مستعل عليهم فإن كلمة على للاستعلاء ، وهو الذي قاله هذا القائل من أن على تشعر بالاستعلاء صحيح ، وأما أنها تدل على أن الكلام تضمن معنى الوبال والنكال عليهم فليس بصحيح ، بل المعنى في قولك سواء عليك وعندك كذا وكذا واحد وإن كان أكثر الاستعمال بعلى ، قال تعالى ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ [الشعراء : ١٣٦] ، ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ [إبراهيم : ٢١] .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمَا رِحْلَتِي وَمَقَامِي

وكل هذا لا يدل على معنى الوبال والنكال عليهم .

السابع : مجاز التشبيه ، شبه قلوبهم لتأنيبها عن الحق وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية بالوعاء المختوم عليه المسدود منافذه المغشى بغشاء يمنع أن يصل إليه ما يصلحه ، لما كانت مع صحتها وقوة إدراكها ممنوعة عن قبول الخير وسماعه وتلمح نوره ، وهذا كله من مجاز التشبيه إذ الختم والغشاوة لم يوجد حقيقته وهو بالاستعارة أولى إذ من شرط التشبيه أن يذكر المشبه والمشبه به

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

﴿الناس﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه ومرادفه أناسي جمع إنسان ، أو أنسي ، وقد قالت العرب ناس من الجن حكاه ابن خالويه (١) ، وهو مجاز إذ الأصل في بني آدم ، ومادته عند سيبويه رحمه الله والفراء همزة ونون وسين ، وحذفت همزته شذوذاً وأصله أناس ، ونطق بهذا الأصل ، قال تعالى ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ [الإسراء : ٧١] ، فمادته ومادة الإنس واحدة ، وذهب الكسائي إلى أن مادته نون وواو وسين ، ووزنه فعل مشتق من النوس ، وهو الحركة يقال ناس ينوس نوساً إذا تحرك ، والنوس : تذبذب الشيء في الهواء ، ومنه نوس القرط في الأذن ، وذلك لكثرة حركته ، وذهب قوم

(١) الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله الهمداني كان إماماً في اللغة والعربية وغيرهما توفي سنة ٣٧٠ هجرية - إنباه الرواة (١/٣٢٤) .

إلى أنه من نسي ، وأصله نسي ثم قلب فصار نيس ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فقليل ناس ، ثم دخلت الألف واللام ، والكلام على هذه الأقوال مذكور في علم التصريف .

﴿من﴾ موصولة، وشرطية، واستفهامية، ونكرة موصوفة، وتقع على ذي العلم، وتقع أيضاً على غير ذي العلم إذا عومل معاملة: العالم، أو اختلط به فيما وقعت عليه ، أو فيما فصل بها ، ولا تقع على آحاد ما لا يعقل مطلقاً خلافاً لزعام ذلك ، وأكثر لسان العرب أنها لا تكون نكرة موصوفة ، إلا في موضع يختص بالنكرة كقول سويد بن أبي كاهل^(١) : -

رُبَّ مَنْ أَنْضَجَتْ غَيْظًا صَدْرُهُ لَوْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْع^(٢)

ويقل استعمالها في موضع لا يختص بالنكرة نحو قول الشاعر : -

فَكَفَى بِنَا فَضْلاً عَلَى مَنْ غَيْرَنَا حُبُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَّانَا^(٣)

وزعم الكسائي أن العرب لا تستعمل من نكرة موصوفة إلا بشرط وقوعها في موضع لا يقع فيه إلا النكرة ، وزعم هو وأبو الحسن^(٤) الخنائي أنها تكون زائدة ، وقال الجمهور لا تزداد ، وتقع من على العامل المعدوم الذي لم يسبقه وجود تنوهم موجوداً خلافاً لبشر المريسي ، وفاقاً للفرّاء ، وصححه أصحابنا ، فأما قول العرب أصبحت كمن لم يخلق فتزيد كمن قد مات ، وأكثر المعربين للقرآن متى صلح عندهم تقدير ما أو من بشيء جوزوا فيها أن تكون نكرة موصوفة ، وإثبات كون ما نكرة موصوفة يحتاج إلى دليل ، ولا دليل قاطع في قولهم مررت بما معجب لك لإمكان الزيادة ، فإن اطرّد ذلك في الرفع والنصب من كلام العرب ، كان سرنى ما معجب لك وأحببت ما معجباً لك كان في ذلك تقوية لما ادعى النحويون من ذلك ، ولو سمع لأمكنّت الزيادة أيضاً ، لأنهم زادوا ما بين الفعل ومرفوعه والفعل ومنصوبه والزيادة أمر ثابت لما ، فإذا أمكن ذلك فيها فينبغي أن يحمل على ذلك ولا يثبت لها معنى إلا بدليل قاطع ، وأمعت الكلام في هذه المسألة بالنسبة إلى ما يقع في هذا الكتاب من علم النحول ما ينبنى على ذلك في فهم القرآن ، القول هو اللفظ الموضوع لمعنى ، وينطلق على اللفظ الدال على النسبة الإسنادية وهو الكلام وعلى الكلام النفساني ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله﴾ [المجادلة : ٨] ، وتراكيبه الست تدل على معنى الخفة والسرعة ، وهو متعد لمفعول واحد فإن وقعت جملة محكية كانت في موضع المفعول ، وللقول فصل معقود في النحو ، الخِذَاع : قيل إظهار غير ما في النفس ، وأصله الإخفاء ومنه سمي البيت المفرد في المنزل مخدعاً يتستر أهل صاحب المنزل فيه ، ومنه الأَخْدَعَان وهما العرقان المستبطنان في العنق ، وسمي الدهر خادعاً لما يخفى من غوائله ، وقيل الخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ، من قولهم ضب خادع وخدع إذا أمر الحارث وهو صائد الضب يده على باب جحره

(١) سويد بن أبي كاهل عطيف أو سيب بن حارثة بن حسل الذيباني الكناني الشكري أبو سعد شاعر من مخضرمي الجاهلية والإسلام عده

ابن سلام في طبقة عترة توفي بعد سنة ٦٠ هجرية - سبط اللآلي (٣١٣) ، الأعلام (١٤٦/٣) .

(٢) البيت من الرمل انظر شرح المفصل (١١/٤) ، الخزانة (٥٤٦/٢) ، مغني اللبيب (٣٢٨) ، همع الهوامع (٩٢/١) ، الدرر

اللوامع (٦٩/١) ، الأشموني (٥٤/١) .

(٣) البيت من الكامل لحسان ونسب لغيره - انظر الكتاب (٢٦٩/١) ، أمالي ابن الشجري (١٦٩/٢) ، شرح المفصل (١٢/٤) ،

المقرب (٤٣) ، الدرر اللوامع (٧٠/١ - ١٤٥) .

(٤) الإمام القدوة الحافظ المقرئ شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن حسين الدمشقي الحنائي توفي في ربيع الأول سنة

ثمان وعشرين وأربعمائة - سير أعلام النبلاء (٥٦٥/٣) .

أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر ، وهو راجع إلى معنى القول الأول ، وقيل أصله الفساد من قول الشاعر :

أَبْيَضُ اللَّوْنِ لَذِيذُ طَعْمِهِ طَيِّبُ الرَّيْقِ إِذَا الرَّيْقُ خَدَعُ^(١)

أي فسد ، (إلا) حرف وهو أصل لذوات الاستثناء وقد يكون ما بعده وصفاً وشرط الوصف به جواز صلاحية الموضوع للاستثناء وأحكام (إلا) مستوفاة في علم النحو ، (النفس) الدم ، أو النفس المودع في الهيكل القائم به الحياة ، والنفس الخاطر ما يدرى أي نفسه يطيع ، وهل النفس الروح أم هي غيره في ذلك خلاف ، وفي حقيقة النفس خلاف كثير ، تجمع على أنفس ونفوس ، وهما قياس فَعْل الاسم الصحيح العين في جمعيه القليل والكثير ، الشعور إدراك الشيء من وجه يدق مشتق من الشعر والإدراك بالحاسة مشتق من الشعار وهو ثوب على الجسد ، ومشاعر الإنسان حواسه .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

المرض مصدر مرض ويطلق في اللغة على الضعف والفتور ، ومنه قيل فلان يمرض الحديث أي يفسده ويضعفه ، وقال ابن عرفة : المرض في القلب^(٢) الفتور عن الحق ، وفي البدن فتور الأعضاء ، وفي العين فتور النظر ويطلق ويراد به الظلمة قال :

فِي لَيْلَةٍ مَرِضْتُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ فَمَا يُجِسُّ بِهِ نَجْمٌ وَلَا قَمَرٌ^(٣)

و لمرض الفساد ، وقال أهل اللغة المرض والألم والوجع نظائر ، الزيادة فعلها يتعدى إلى اثنين من باب أعطى وكسى ، وقد يستعمل لازماً نحو زاد المال ، (أليم) فاعل من الألم بمعنى مفعول كالسميع بمعنى المسمع أو للمبالغة وأصله ألم ، (كان) فعل يدخل على المبتدأ والخبر بالشروط التي ذكرت في النحو فيدل على زمان مضمون الجملة فقط ، أو عليه وعلى الصيرورة ، وتسمى ناقصة ، وتكتفي بمرفوع فتارة تكون فعلاً لازماً وتارة متعدياً ، بمعنى كفل أو غزل كنت الصبي كفلته وكنت الصوف غزلته وهذا من غريب اللغات وقد تزداد ولا فاعل لها إذ ذاك خلافاً لأبي^(٤) سعيد ، وأحكامها مستوفاة في النحو ، التكذيب مصدر كَذَبَ والتضعيف فيه للرمي به ، كقولك شجعتَه وجبنتَه أي رميته بالشجاعة والجبن ، وهي أحد المعاني التي جاءت لها فَعْل وهي أربعة عجز الرمي ، والتعدية ، والتكثير ، والجعل على صفة ، والتسمية ، والدعاء للشيء أو عليه ، والقيام على الشيء ، والإزالة ، والتوجه ، واختصار الحكاية ، وموافقة تفعل وفعل ، والإغناء عنهما ، مثل ذلك جبنته ، وكثرتَه ، وفطرتَه ، وفسقتَه ، وسقيتَه ، وعقرتَه ، ومرّضتَه ، وقذّيت عينه ، وشوّق ، وأمن قال أمين ، وولّى موافق تولى ، وقدر موافق قدر ، وحمّر تكلم لغة حمير ، وعرد في القتال ، وأما التكذب فسيأتي الكلام عليه ، لما ذكر من الكتاب هدى لهم وهم المتقون الذين جمعوا أوصاف الإيمان من خلوص الاعتقاد ، وأوصاف الإسلام من الأفعال البدنية والمالية ، ولما ذكر ما آل أمرهم إليه في الدنيا من الهدى وفي الآخرة من الفلاح ، ثم أعقب ذلك بمقابلهم من الكفار الذين ختم عليهم بعدم الإيمان ، وختم لهم بما يؤولون إليه

(١) ذكره في لسان العرب ونسبه لسويد بن أبي كاهل يصف ثغر امرأة - انظر اللسان (١١١٣/٢) ، تهذيب اللغة (١٥٩/١) .

(٢) والمرّض والمرّض : الشك ، ومنه قوله تعالى : (في قلوبهم مرض) أي : شك ونفاق وضعف يقين ... لسان العرب (٤١٨١/٦) .

(٣) البيت لأبي حية النميري - انظر تهذيب اللغة (٣٥/١٢) ، روح المعاني (١٤٩/١) .

(٤) أبو سعيد السيرافي - انظر البغية (٥٠٧/١) .

من العذاب في النيران وبقي قسم ثالث أظهر والإسلام مقالاً وأبطنوا الكفر اعتقاداً ، وهم النافقون أخذ يذكر شيئاً من أحوالهم ، و (من) في قوله ومن الناس للتبعض ، وأبعد من ذهب إلى أنها لبيان الجنس لأنه لم يتقدم شيء مبهم فيبين جنسه ، والألف واللام في الناس ، للجنس أو للعهد فكأنه قال ومن الكفار السابق ذكرهم من يقول ولا يتوهم أنهم غير مختوم على قلوبهم كما ذهب إليه الزمخشري^(١) ، فقال : فإن قلت كيف يجعلون بعض أولئك والمنافقين غير مختوم على قلوبهم ؟ ، وأجاب بأن الكفر جمع الفريقين وصيرهم جنساً واحداً ، وكون المنافقين نوعاً من نوعي هذا الجنس مغايراً للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما من الخديعة والاستهزاء لا يخرجهم من أن يكونوا بعضاً من الجنس انتهى ، لأن المنافقين داخلون في الأوصاف التي ذكرت للكفار من استواء الإنذار وعدمه ، وكونهم لا يؤمنون ، وكونهم مختوماً على قلوبهم وعلى سمعهم ومجعولاً على أبصارهم غشاوة ، ومخبراً عنهم أنهم لهم عذاب عظيم ، فهم قد اندرجوا في عموم الذين كفروا وزادوا أنهم قد ادعوا الإيمان وأكذبهم الله في دعواهم ، وسيأتي شرح ذلك ، وسأل سائل ما معنى (ومن الناس من يقول) : ومعلوم أن الذي يقول هو من الناس فكيف يصلح لهذا الجار والمجرور وقوعه خبر للمبتدأ بعده ، فأجيب بأن هذا تفصيل معنوي ، لأنه تقدم ذكر المؤمنين ، ثم ذكر الكافرين ، ثم أعقب بذكر المنافقين ، فصار نظير التفصيل اللفظي في قوله ﴿ ومن الناس من يعجبك ﴾ ، ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ﴾ [البقرة : ٢٠٧] ، فهو في قوة تفصيل الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق ، كما فصلوا إلى من يعجبك قوله ومن يشري نفسه ، و ﴿ من ﴾ في قوله تعالى ﴿ من يقول ﴾ نكرة موصوفة مرفوعة بالابتداء ، والخبر الجار والمجرور المتقدم الذكر ، ويقول صفة ، هذا اختيار أبي البقاء^(٢) ، وجوز الزمخشري هذا الوجه ، وكأنه قال ومن الناس ناس يقولون كذا ، كقوله ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، قال إن جعلت اللام للجنس يعني في قوله ﴿ ومن الناس ﴾ قال : وإن جعلها : للعهد فموصولة ، كقوله ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ [التوبة : ٦١] ، واستضعف أبو البقاء أن تكون موصولة بمعنى الذي ، قال لأن الذي يتناول قوماً بأعيانهم ، والمعنى هنا على الإبهام والتقدير ، ومن الناس فريق يقول ، وما ذهب إليه الزمخشري من أن اللام في الناس إن كانت للجنس كانت من نكرة موصوفة ، وإن كانت للعهد كانت موصولة أمر لا تحقيق له ، كأنه أراد مناسبة الجنس للجنس والعهد للعهد ، ولا يلزم ذلك بل يجوز أن تكون اللام للجنس ، ومن موصولة ويجوز أن تكون للعهد ومن نكرة موصوفة فلا تلازم بين ما ذكره ، وأما استضعاف أبي البقاء كون من موصولة وزعمه أن المعنى على الإبهام فغير مسلم ، بل المعنى أنها نزلت في ناس بأعيانهم معروفين ، وهم عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ، ومن وافقه من غير أصحابه ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، وقد وصفهم الله تعالى في ثلاث عشرة آية وذكر عنهم أقاويل معينة قالوها ، فلا يكون ذلك صادراً إلا من معين فأخبر عن ذلك المعين ، والذي نختار أن تكون من موصولة وإنما اخترنا ذلك لأنه الراجح من حيث المعنى ، ومن حيث التركيب الفصيح ، ألا ترى جعل من نكرة موصوفة إنما يكون ذلك إذا وقعت في مكان يختص بالنكرة في أكثر كلام العرب ، وهذا الكلام ليس من المواضع التي تختص بالنكرة وأما أن تقع في غير ذلك فهو قليل جداً ، حتى إن الكسائي أنكر ذلك وهو إمام نحو وسامع لغة ، فلا نحمل كتاب الله ما أثبتته بعض النحويين في قليل ، وأنكر وقوعه أصلاً الكسائي فلذلك اخترنا أن تكون موصولة و ﴿ من ﴾ من الأسماء التي لفظها مفرد مذكر دائماً ، وتطلق عليه فروع المفرد والمذكر إذا كان معناها كذلك ، فتارة يراعى اللفظ فيفرد ما يعود على من مذكراً ، وتارة يراعى المعنى فيحمل عليه ، ويطلق المعربون ذلك ، وفي ذلك تفصيل كثير ذكر في النحو (قال

(١) انظر الكشف (٥٤/١) .

(٢) عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الإمام محب الدين أبو البقاء العكبري البغدادي الضرير النحوي الحنبلي صاحب الإعراب - انظر البغية (٣٨/٢ - ٣٩) .

ابن عطية ﴿من يقول آمناً﴾ رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع بحسب لفظ من ومعناها ، وحسن ذلك لأن الواحد قبل الجمع في الرتبة ، ولا يجوز أن يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد ، لو قلت ومن الناس من يقولون ويتكلم لم يجز انتهى كلامه . وما ذكر من أنه لا يرجع من لفظ جمع إلى توحيد خطأ ، بل نص النحويون على جواز الجملتين ، لكن البدء بالحمل على اللفظ ثم على المعنى أولى من الإبتداء بالحمل على المعنى ثم يرجع إلى الحمل على اللفظ ، ومما رجع فيه إلى الأفراد بعد الجمع قول الشاعر : -

لَسْتُ مِنْ يَكُوعٍ أَوْ يَسْتَكِينُو نَ إِذَا كَافَحَتُهُ خَيْلُ الْأَعَادِي (١)

وفي بعض هذه المسائل تفصيل ، كما أشرنا إليه ، ويقول أفرد فيه الضمير مذكراً على لفظ من ، و ﴿آمناً﴾ جملة هي المقولة فهي في موضع المفعول وأتى بلفظ الجمع رعيّاً للمعنى إذ لو راعى لفظ من قال آمنت ، واقتصروا من متعلق الإيمان على الله واليوم الآخر حيدة منهم عن أن يعترفوا بالإيمان برسول الله ﷺ ، وبما أنزل إليه وإيماناً أنهم من طائفة المؤمنين ، وإن كان هؤلاء كما زعم الزمخشري (٢) يهوداً فإيمانهم بالله ليس بإيمان ، كقولهم ﴿عزير ابن الله﴾ [التوبة : ٣٠] وباليوم الآخر كذلك ، لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته ، وهم لو قالوا ذلك على أصل عقيدتهم لكان كفراً ، فكيف إذا قالوا ذلك على طريقة النفاق خديعة للمسلمين واستهزاء بهم ، وفي تكرير الباء دليل على مقصود كل ما دخلت عليه الباء بالإيمان ، واليوم الآخر يحتمل أن يراد به الوقت المحدود من البعث إلى استقرار كل من المؤمنين والكافرين فيما أعد لهم ، ويحتمل أن يراد به الأبد الدائم الذي لا ينقطع ، وسمي آخراً لتأخره إما عن الأوقات المحدودة باعتبار الاحتمال الأول ، أو عن الأوقات المحدودة باعتبار الاحتمال الثاني ، والباء في ﴿بمؤمنين﴾ زائدة ، والموضع نصب لأن ما حجازية ، وأكثر لسان الحجاز جر الخبر بالباء ، وجاء القرآن على الأكثر وجاء النصب في القرآن في قوله ﴿ما هذا بشراً﴾ [يوسف : ٣١] ، ﴿وما هن أمهاتهم﴾ [المجادلة : ٢] ، وأما في أشعار العرب فزعموا أنه لم يحفظ منه أيضاً إلا قول الشاعر : -

وَأَنَا النَّذِيرُ بِجَرَّةٍ مُسَوَّدَةٍ تَصِلُ الْجِيُوشُ إِلَيْكُمْ أَفْوَادَهَا (٣)
أَبْنَاؤُهَا مُتَكَتَفُونَ أَبَاهُمْ حَنِقُوا الصُّدُورَ وَمَا هُمْ أَوْلَادُهَا (٤)

ولا تختص زيادة الباء باللغة الحجازية ، بل تزداد في لغة تميم خلافاً لمن منع ذلك ، وإنما ادعينا أن قوله بمؤمنين في موضع نصب ، لأن القرآن نزل بلغة الحجاز ، لأنه حين حذفت الباء من الخبر ظهر النصب فيه ، ولها أحكام كثيرة في باب معقود في النحو ، وإنما زيدت الباء في الخبر للتأكيد ، ولأجل التأكيد في مبالغة نفي إيمانهم جاءت الجملة المنفية اسمية مصدرة بهم ، وتسلب النفي على اسم الفاعل الذي ليس مقيداً بزمان ليشمل النفي جميع الأزمان ، إذ لو جاء اللفظ منسحباً على اللفظ المحكي الذي هو آمناً لكان وما آمنوا ، فكان يكون نفيّاً للإيمان الماضي ، والمقصود

(١) البيت من الخفيف لم يعلم قائله - انظر روح المعاني (١/ ١٣٤) ، الشاهد فيه مراعاة المعنى في قوله : أو يستكينون ثم راعى اللفظ في إذا كافحته .

(٢) انظر الكشف (١/ ٥٤ ، ٥٥) .

(٣) البيت من الكامل لعدي بن الرقاع - انظر ديوانه (٨٢) ، الحماسة البصرية (١/ ٨٦) ، المقاصد النحوية (٢/ ٣٧) ، شرح شواهد ابن عقيل ص ٥٦ البيت الأخير .

(٤) البيت من الشواهد التي لم يعرف قائلها واستشهد النحاة بالبيت الثاني على إعمال (ما) النافية عمل (ليس) في قوله (وما هم أولادها) فرفع بها الاسم محلاً ونصب خبرها لفظاً وذلك لغة أهل الحجاز - انظر شرح ابن عقيل (١/ ٣٠٢) .

أنهم ليسوا متلبسين بشيء من الإيمان في وقت ما من الأوقات ، وهذا أحسن من أن يحمل على تقييد الإيمان المنفي أي وما هم بمؤمنين بالله واليوم الآخر ، ولم يردّ الله تعالى عليهم قولهم آمنا ، إنما رد عليهم متعلق القول ، وهو الإيمان ، وفي ذلك رد على الكرامية في قولهم إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب ، و (هم) في قوله ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ عائد على معنى مَنْ إذ أعاد أولاً على اللفظ فأفرد الضمير في يقول ، ثم أعاد على المعنى فجمع ، وهكذا جاء في القرآن أنه إذا اجتمع اللفظ والمعنى بدىء باللفظ ثم أتبع بالحمل على المعنى ، قال تعالى ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا ﴾ [التوبة : ٤٩] ، ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ [التوبة : ٧٥] ، ﴿ ومن يقنت منكنّ الله ورسوله وتعمل صالحاً ﴾ . وذكر شيخنا الإمام علم الدين أبو محمد عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري الأندلسي الأصل المصري المولد والمنشأ المعروف « بابن بنت العراقي » رحمه الله تعالى أنه جاء موضع واحد في القرآن بدىء فيه بالحمل على المعنى أولاً ثم أتبع بالحمل على اللفظ ، وهو قوله تعالى ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى ، وأورد بعضهم قراءة من قرأ في الشاذ ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ [النساء : ٧٢] ، بضم الهمزة ، متخيلاً أنه مما بدىء فيه بالحمل على المعنى ، وسيأتي الكلام عليه في موضعه ، ولا يجوز الكوفيون الجمع بين الجملتين إلا بفواصل بينهما ولم يعتبر البصريون الفاصل ، قال ابن عصفور ولم يرد السماع إلا بالفصل كما ذهب الكوفيون إليه وليس ما ذكر بصحيح ، ألا ترى قوله تعالى ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] ، فحمل على اللفظ في كان إذ أفرد لضمير وجاء الخبر على المعنى إذ جاء جمعاً ، ولا فصل بين الجملتين ، وإنما جاء أكثر ذلك بالفصل لما فيه من إزالة قلق التنافر الذي يكون بين الجملتين ، وقرأ الجمهور (يُخَادِعُونَ الله) مضارع خادع وقرأ عبد الله وأبو حية (يَخْدَعُونَ الله) مضارع خدع المجرد ، ويحتمل قوله (يخادعون الله) أن يكون مستأنفاً ، كأن قائلًا يقول لم يتظاهروا بالإيمان وليسوا بمؤمنين في الحقيقة ، فقليل يخادعون ، ويحتمل أن يكون بدلاً من قوله (يقول آمنا) ، ويكون ذلك بياناً لأن قولهم آمنا وليسوا بمؤمنين في الحقيقة مخادعة ، فيكون بدل فعل من فعل لأنه في معناه وعلى كلا الوجهين لا وضع للجمله من الإعراب ، ويحتمل أن تكون الجملة في موضع الحال ، وذو الحال الضمير المستكن في يقول أي ومن الناس من يقول آمنا مخادعين الله والذين آمنوا ، وجوز أبو البقاء أن يكون حالاً والعامل فيها اسم الفاعل الذي هو بمؤمنين ، وذو الحال الضمير المستكن في اسم الفاعل وهذا إعراب خطأ ، وذلك أن ما دخلت على الجملة فنفت نسبة الإيمان إليهم ، فإذا قيدت تلك النسبة بحال تسلط النفي على تلك الحال وهو القيد فنفته ، ولذلك طريقتان في لسان العرب :

أحدهما : وهو الأكثر أن ينتفي ذلك لقيد فقط ويكون إذ ذاك قد ثبت العامل في ذلك القيد فإذا قلت ما زيد أقبل ضاحكاً فمفهومه نفي الضحك ويكون قد أقبل غير ضاحك وليس معنى الآية على هذا إذ لا ينفي عنهم الخداع فقط ويثبت لهم الإيمان بغير خداع ، بل المعنى نفي الإيمان عنهم مطلقاً .

والطريق الثاني : وهو الأقل أن ينتفي القيد وينتفي العامل فيه ، فكأنه قال في المثال السابق لم يقبل زيد ولم يضحك أي لم يكن منه إقبال ولا ضحك ، وليس معنى الآية على هذا إذ ليس المراد نفي الإيمان عنهم ونفي الخداع ، والعجب من أبي البقاء كيف تنبه لشيء من هذا . فمنع أن يكون يخادعون في موضع الصفة ، فقال ولا يجوز أن يكون في موضع جر على الصفة لمؤمنين ، لأن ذلك يوجب نفي خداعهم ، والمعنى على إثبات الخداع انتهى كلامه . فأجاز ذلك في الحال ولم يجز ذلك في الصفة ، وهما سواء ، ولا فرق بين الحال والصفة في ذلك ، بل كل منهما قيد يتسلط النفي عليه ، والله تعالى هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء فمخادعة المنافقين الله هو من حيث الصورة لا من حيث

المعنى من جهة تظاهرهم بالإيمان وهو مبطنون للكفر ، قاله جماعة ، أو من حيث عدم عرفانهم بالله وصفاته فظنوا أنه ممن يصح خداعه ، فالتقدير الأول مجاز والثاني حقيقة ، أو يكون على حذف مضاف أي يخادعون رسول الله ﷺ والذين آمنوا ، فتارة يكون المحذوف مراداً وتارة لا يكون مراداً ، بل نزل مخادعتهم رسول الله ﷺ بمنزلة مخادعة الله فجاء يخادعون الله وهذا الوجه^(١) قاله الحسن والزجاج ، وإذا صح نسبة مخادعتهم إلى الله تعالى بالأوجه التي ذكرناها كما ذكرناها فلا ضرورة تدعو إلى أن نذهب إلى أن الاسم مقحم لأن المعنى يخادعون الذين آمنوا كما ذهب إليه الزمخشري^(٢) ، وقال يكون من باب أعجبنى زيد وكرمه ، المعنى هذا أعجبنى كرم زيد ، وذكر زيد توطئة لذكر كرمه ، والنسبة إلى الإعجاب إلى كرمه هي المقصودة ، وجعل من ذلك ﷻ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﷻ [التوبة : ٦٢] ، ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ [الأحزاب : ٥٧] ، وما ذكره في هذه المثل غير مسلم له وللايتين الشريفتين محامل تأتي في مكانها إن شاء الله تعالى ، وأما أعجبنى زيد وكرمه فإن الإعجاب أسند إلى زيد بجملته ثم عطف عليه بعض صفاته تمييزاً لصفة الكرم من سائر الصفات التي انطوى عليها لشرف هذه الصفة ، فصار من المعنى نظيراً لقوله تعالى ﴿ وملائكته ورسله وجبرائيل وميكال ﴾ [البقرة : ٩٨] فلا يدعي كما ادعى الزمخشري أن الاسم مقحم ، وأنه ذكر توطئة لذكر الكرم ، وخادع الذي مضارعه يخادع على وزن فاعل ، وفاعل يأتي لخمسة معان ، لاقتسام الفاعلية والمفعولية في اللفظ ، والاشتراك فيهما من حيث المعنى ، ولموافقة أفعال المتعدي ، وموافقة المجرد للإغناء عن أفعال ، وعن المجرد ، ومثل ذلك ضارب زيداً عمرو ، وباعدته ، وواريت الشيء ، وقاسيت ، وخادع هنا إما لموافقة الفعل المجرد فيكون بمعنى خدع ، وكأنه قال يخدعون الله ، ويبينه قراءة ابن مسعود وأبي حية وقد تقدمت ، ويحتمل أن يكون خادع من باب المفاعلة فمخادعتهم تقدم تفسيرها ، ومخادعة الله لهم حيث أجرى عليهم أحكام المسلمين ، واكتفى منهم في الدنيا بإظهار الإسلام وإن أبطنوا خلافه ، ومخادعة المؤمنين لهم كونهم امتثلوا أحكام المسلمين عليهم ، وفي مخادعتهم هم للمؤمنين فوائد لهم من تعظيمهم عند المؤمنين ، والتطلع على أسرارهم فيفضونها إلى أعدائهم ، ورفع حكم الكفار عنهم من القتل وضرب الجزية وغير ذلك ، وما ينالون من الإحسان بالهداية وقسم الغنائم ، وقرأ ما يُخَادِعُونَ الحرميان وأبو عمرو ، وقرأ باقي السبعة وما يخدعون ، وقرأ الجار وابن أبي سبرة^(٣) وأبو طالوت عبد السلام بن شداد^(٤) وما يخدعون مبنياً للمفعول ، وقرأ بعضهم « وما يُخَادِعُونَ » بفتح الدال مبنياً للمفعول ، وقرأ قتادة ومورق^(٥) العجلي « وما يخدعون » من خَدَعَ المشدّد مبنياً للفاعل ، وبعضهم بفتح الياء والخاء وتشديد الدال المكسورة فهذه ست قراءات ، توجيه الأولى أن المعنى في الخداع إنما هو الوصول إلى المقصود من المخدوع ، بأن يفعل له فيما يختار ، وينال منه ما يطلب على غرة من المخدوع وتمكن منه وتفعل له ، ووبال ذلك ليس راجعاً للمخدوع ، إنما وباله راجع إلى المخادع ، فكأنه ما خادع ولا كاد إلا نفسه بإيرادها موارد الهلكة ، وهو لا يشعر بذلك جهلاً منه بقبيح انتحاله ، وسوء مآله ، وعبر عن هذا المعنى بالمخادعة على وجه المقابلة ، وتسمية الفعل الثاني باسم الفعل الأول المسبب له كما قال :

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣٧/١) ، عن الحسن والبغوي في تفسيره (٥٠/١) .

(٢) انظر الكشف (٥٨/١) .

(٣) الجارود بن أبي سبرة - بإسكان الموحدة - سالم بن سلمة الهذلي أبو نوفل البصري . قال أبو حاتم : صالح الحديث مات سنة عشرين ومائة - الخلاصة (١٥٨/١) .

(٤) عبد السلام بن شداد أبو طالوت روى القراءة عن أبيه سئل عنه أحمد فقال لا أعلمه إلا ثقة - غاية النهاية (٣٨٥/١) .

(٥) مورق - بضم أوله وكسر المهملة ابن مشمرخ بفتح الراء كمدحرج العجلي وثقه ابن سعد توفي في ولاية عمر بن هبيرة - الخلاصة (٨٦/٣) .

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدُ عَلَيْنَا فَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)

جعل انتصاره جهلاً ، ويؤيد هذا المتن هنا أنه قد يجيء من واحد كعاقبت اللص ، وطارقت النعل^(٢) ، ويحتمل أن تكون المخادعة على بابها من اثنين ، فهم خادعون أنفسهم حيث منوها الأباطيل ، وأنفسهم خادعتهم حيث متهم أيضاً ذلك ، فكأنها مجاورة بين اثنين ، وقال الشاعر^(٣) : -

تَذَكَّرَ مِنْ أَنِّي وَمِنْ أَيْنَ شَرِبُهُ يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ لَذِي الْبَهْجَةِ الْإِبِلِ

وأنشد ابن الأعرابي : -

لَمْ تَذَرِ مَا وَلَسْتَ قَائِلَهَا عُمُرُكَ مَا عَشْتَ آخِرَ الْأَبَدِ
وَلَمْ تُؤَامِرْ نَفْسِيكَ مُمْتَرِيَا فِيهَا وَفِي أُخْتِهَا وَلَمْ تَلِدْ

وقال : -

يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ وَفِي الْعَيْشِ فُسْحَةً أَيْسَتَوْبُغُ الذُّوبَانَ أَمْ لَا يُطَوِّرُهَا^(٤)

وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي : -

وَكُنْتُ كَذَاتِ الضِّيِّ لَمْ تَذَرِ إِذْ بَعَثْتُؤَامِرُ نَفْسِيهَا أَتَسْرِقُ أَمْ تَزْنِي

ففي هذه الأبيات قد جعل للشخص نفسين على معنى الخاطرين ، ولها جنسين ، أو يكون فاعل بمعنى فعل فيكون موافقاً لقراءة (وما يخدعون) تقول العرب ، خادعت الرجل أعملت التحيل عليه . فخدعته : أي تمت عليه الحيلة ونفذ فيه المراد ، خدعاً بكسر الخاء في المصدر ، وخديعة حكاه أبو زيد ، فالمعنى وما ينفذ السوء إلا على أنفسهم ، والمراد بالأنفس هنا ذاتهم ، فالفاعل هو المفعول ، وقد ادعى بعضهم أن هذا من المقلوب ، وأن المعنى وما يخادعهم إلا أنفسهم قال لأن الإنسان لا يخدع نفسه بل نفسه هي التي تخدعه ، وتسوّل له ، وتأمره بالسوء ، وأورد أشياء مما قلبته العرب ، وللنحويين في القلب مذهبان .

أحدهما : أنه يجوز في الكلام والشعر اتساعاً واتكالاً على فهم المعنى .

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته . راجع شرح المعلقات للتبريزي ص ٢٨٨ .

(٢) طارق الرجل بين نعلين وثوبين : لبس أحدهما على الآخر .

وطارق نعلين : خصف إحداهما فوق الأخرى وجلّد النعل طرأها - لسان العرب (٤/٢٦٦٤) .

(٣) البيت للكُميت - انظر اللسان : أبل (١٠/١) .

(٤) ذكر ابن منظور البيت الأول والثاني هكذا : -

لَمْ تَذَرِ مَا لَا وَلَسْتَ قَائِلَهَا عُمُرُكَ مَا عَشْتَ آخِرَ الْأَبَدِ
وَلَمْ تُؤَامِرْ نَفْسِيكَ مُمْتَرِيَا فِيهَا وَفِي أُخْتِهَا وَلَمْ تَكْدِ

وذكر البيت الثالث هكذا :

يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ وَفِي الْعَيْشِ فُسْحَةً أَيْسَتَرَجِعُ الذُّوبَانَ أَمْ يَطَوِّرُهَا؟

انظر لسان العرب (٦/٤٥٠٠) ، تاج العروس (٤/٢٦٢) .

والثاني : أنه لا يجوز في الكلام ويجوز في الشعر حالة الاضطراب وهذا هو الذي صححه أصحابنا ، وكأن هذا الذي ادعى القلب لما رأى قولهم منتك نفسك ، وقوله تعالى ﴿بل سولت لكم أنفسكم﴾ [يوسف : ١٨ ، ٨٣] تخيل أن الممنى والمسؤل غير الممنى والمسؤل له ، وليس على ما تخيل ، بل الفاعل هنا هو المفعول ، ألا ترى أنك تقول : أحب زيد نفسه ، وعظم زيد نفسه ، فلا يتخيل هنا تباين الفاعل والمفعول إلا من حيث اللفظ ، وأما المدلول فهو واحد وإذا كان المعنى صحيحاً دون قلب فأبي حاجة تدعو إليه ، هذا مع أن الصحيح أنه لا يجوز إلا في الشعر ، فينبغي أن ينزه كتاب الله تعالى منه ، ومن قرأ « وما يُخَادَعُونَ » أو « يُخَدَعُونَ » مبنياً للمفعول فانتصاب ما بعد إلا على ما انتصب عليه زيد غبن رأيه : إما على التمييز على مذهب الكوفيين ، وإما على التشبيه بالمفعول به ، على ما زعم بعضهم ، وإما على إسقاط حرف الجر أي في أنفسهم ، أو عن أنفسهم ، أو ضمن الفعل معنى ينتقصون ويستلبون فينتصب على أنه مفعول به ، كما ضمن الرث معنى الإفضاء فعدى بإلى في قوله الرث إلى نسائكم ، ولا يقال رث إلى كذا ، وكما ضمن هل لك إلى أن تزكي معنى أجذبك ، ولا يقال ألا هل لك في كذا ، وفي قراءة « وما يخدعون » فالتشديد إما للتكثير بالنسبة للفاعلين ، أو للمبالغة في نفس الفعل إذ هو مصير إلى عذاب الله ، وإما لموافقة فعل نحو قدر الله وقدر وقد تقدم ذكر معاني فعل ، وقراءة من قرأ « وما يخدعون » أصلها يخندعون فأدغم ، ويكون افتعل فيه موافقاً لفعل نحو اقتدر على زيد وقدر عليه ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها افتعل ، وهي اثنا عشر معنى ، وقد تقدم ذكرها ، (وما يشعرون) جملة معطوفة على (وما يخادعون إلا أنفسهم) فلا موضع لها من الإعراب ، ومفعول (يشعرون) محذوف تقديره : إطلاع الله نبيه على خداعهم وكذبهم ، روي ذلك عن ابن عباس ، أو تقديره : هلاك أنفسهم وإيقاعها في الشقاء الأبدي بكفرهم ونفاقهم^(١) ، روي ذلك عن زيد ، ويحتمل أن يكون وما يشعرون جملة حالية تقديره وما يخادعون ، إلا أنفسهم غير شاعرين بذلك لأنهم لو شعروا أن خداعهم لله وللمؤمنين إنما هو خداع لأنفسهم لما خادعوا الله والمؤمنين ، وجاء يخادعون الله بلفظ المضارع لا بلفظ الماضي ، لأن الماضي يشعر بالإنقطاع ، بخلاف المضارع فإنه يشعر في معرض الدم أو المدح بالديمومة ، نحو زيد يدع اليتيم ، وعمر يقرى الضيف ، والقراء على فتح راء مَرَضٌ في الموضوعين إلا الأصمعي عن أبي عمرو ، فإنه قرأ بالسكون فيهما ، وهما لغتان كالحلب والحلب ، والقياس الفتح ، ولهذا قرأ به الجمهور ، ويحتمل أن يراد بالمرض الحقيقة وأن المرض الذي هو الفساد أو الظلمة أو الضعف أو الألم كائن في قلوبهم حقيقة ، وسبب إيجاده في قلوبهم هو ظهور الرسول ﷺ وأتباعه وفشو الإسلام ونصر أهله ، ويحتمل أن يراد به المعجاز ، فيكون قد كنى به عما حل القلب من الشك^(٢) قاله ابن عباس ، أو عن الحسد والغل كما كان عبد الله بن أبي ابن سلول ، أو عن الضعف والخور لما رأوا من نصر دين الله ، وإظهاره على سائر الأديان ، وحمله على المعجاز أولى لأن قلوبهم لو كان فيها مرض لكانت أجسامهم مريضة بمرضها ، أو كان الجحام عاجلهم ، قال بعض المفسرين : يشهد لهذا الحديث النبوي ، والقانون الطبي .

أما الحديث فقوله ﷺ «إن في جسد ابن آدم لمضغة ، إذا صلحت صلح الجسد جميعه ، وإذا فسدت فسد الجسد جميعه ، ألا وهي^(٣) القلب » .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠/١) ، وعزاه لابن جرير ولكن عن أبي زيد .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠/١) ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٣) أحمد بن حنبل في المسند (٢٧٠/٤ - ٢٧٤) ، والبخاري (١٥٣/١) ، كتاب الإيمان باب من استبرأ لدينه (٥٢) (٢٠٥١) ، ومسلم (١٢١٩/٣) ، كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩ - ١٠٧) ، وابن ماجه (١٣١٨/٢) ، كتاب الفتن باب الوقوف عند الشبهات (٣٩٨٤) ، والدارمي (٢٤٥/٢) ، كتاب البيوع - باب في الحلال بين الحرام بين .

وأما القانون الطبي فإن الحكماء وصفوا القلب على ما اقتضاه علم التشريح ، ثم قالوا إذا حصلت فيه مادة غليظة ، فإن تملكته منه ومن غلافه ، أو من أحدهما فلا يبقى مع ذلك حياة ، وعاجلت المنية صاحبه ، وربما تأخرت تأخيراً يسيراً ، وإن لم تتمكن منه المادة المنصبة إليه ، ولا من غلافه ، أخرت الحياة مدة يسيرة ، وقالوا لا سبيل إلى بقاء الحياة مع مرض القلب ، وعلى هذا الذي تقرر لا تكون قلوبهم مريضة حقيقة .

وقد تلخص في القرآن من المعاني السببية التي تحصل في القلب سبعة وعشرون مرضاً وهي :

الرين ، والزيج ، والطبع ، والصرف ، والضيق ، والخرج ، والختم ، والإقفال ، والإشراب ، والرعب ، والقساوة ، والإصرار ، وعدم التطهير ، والنفور ، والاشمئزاز ، والإنكار ، والشكوك ، والعمى ، والإبعاد بصيغة اللعن ، والتأبي ، والحمية ، والبغضاء ، والغفلة ، والغمة ، واللهو ، والارتباب ، والنفاق .

وظاهر آيات القرآن تدل على أن هذه الأمراض معان تحصل في القلب فتغلب عليه ، وللقلب أمراض غير هذه ، من الغل ، والحقد ، والحسد ، ذكرها الله تعالى مضافة إلى جملة الكفار ، والزيادة تجاوز المقدار المعلوم ، وعلم الله محيط بما أضمره ، من سوء الاعتقاد ، والبغض والمخادعة ، فهو معلوم عنده كما قال تعالى وكل شيء عنده بمقدار ، وفي كل وقت يقذف في قلوبهم من ذلك القدر المعلوم شيئاً معلوم المقدار عنده ، ثم يقذف بعد ذلك شيئاً آخر فيصير الثاني زيادة على الأول ، إذ لو لم يكن الأول معلوم المقدار لما تحققت الزيادة ، وعلى هذا المعنى يحمل (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) ، وزيادة المرض إما من حيث إن ظلمات كفرهم تحل في قلوبهم شيئاً فشيئاً ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ [النور : ٤٠] أو من حيث إن المرض حصل في قلوبهم بطريق الحسد ، أو الهم بما يجدد الله سبحانه لدينه من علو الكلمة ولرسوله وللمؤمنين من النصر ونفاذ الأمر ، أو لما يحصل في قلوبهم من الرعب ، وإسناد الزيادة إلى الله تعالى إسناد حقيقي بخلاف الإسناد في قوله تعالى ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : ١٢٥] ، ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وقالت المعتزلة لا يجوز أن تكون زيادة المرض من جنس المزيد عليه إذ المزيد عليه هو الكفر ، فتأولوا ذلك على أن يحمل المرض على الغم ، لأنهم كانوا يفتنون بعلو أمر رسول الله ﷺ أو على منع زيادة اللطاف ، أو على ألم القلب ، أو على فتور النية في المحاربة ، لأنهم كانت أولاً قلوبهم قوية على ذلك ، أو على أن كفرهم كان يزداد بسبب ازدياد التكليف من الله تعالى ، وهذه التأويلات كلها إنما تكون إذا كان قوله ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ [البقرة : ١٠] خبراً ، وأما إذا كان دعاء فلا ، بل يحتمل أن يكون الدعاء حقيقة فيكون دعاء بوقوع زيادة المرض ، أو مجازاً فلا تقصد به الإجابة لكون المدعوه واقعاً ، بل المراد به السب واللعن والنقص ، كقوله تعالى ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة : ٣٠] [المنافقون : ٤] ، ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [التوبة : ١٢٧] ، وكقوله تعالى لعن الله إبليس وأخزاه^(١) ، ومعلوم أن ذلك قد وقع ، وأنه قد باء بخزي ولعن لا مزيد عليه لأنه لا انتهاء له ، وتنكير « مرض » من قوله ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [المدثر : ٣١] [البقرة : ١٠] لا يدل على أن جميع أجناس المرض في قلوبهم كما زعم بعض المفسرين ، لأن دلالة النكرة على ما وضعت له إنما هي دلالة على طريقة البدل ، لأنها دلالة تنتظم كل فرد على جهة العموم ، ولم يحتاج إلى جمع مرض لأن تعداد المحال يدل على تعداد الحال عقلاً ، فاكفني بالمفرد عن الجمع ، وتعدية الزيادة إليهم لا إلى القلوب إذ قال تعالى ﴿ فزادهم ﴾ [البقرة : ١٠] ولم يقل فزادها يحتمل وجهين :

(١) خزا الرجل يخزوه خزواً : ساسه وقهره ، قال ذو الإصبع العدواني لاه ابن عمك إلا أفضلت في حسب ... يوماً ولا أنت ديانى فتخزونى .

أحدهما : أن يكون على حذف مضاف : أي فزاد الله قلوبهم مرضاً .

والثاني : أنه زاد ذواتهم مرضاً لأن مرض القلب مرض لسائر الجسد فصح نسبة الزيادة إلى الذوات ، ويكون ذلك تنبيهاً على أن في ذواتهم مرضاً ، وإنما أضاف ذلك إلى قلوبهم لأنها محل الإدراك والعقل .

وأمال حمزة^(١) فزادهم في عشرة أفعال ألفها منقلبة عن ياء إلا فعلاً واحداً ألفه منقلبة عن واو ووزنه فعل بفتح العين إلا ذلك الفعل فإن وزنه فعل بكسر العين ، وقد جمعتها في بيتين في قصيدتي المسماة بعقد اللآليء في القراءات السبع العوالي وهما : -

وَعَشْرَةُ أَفْعَالٍ تُمَالُ لِحَمْزَةٍ فَجَاءَ وَشَاءَ ضَاقَ رَانَ وَكَمَلَا
بَزَادَ وَخَابَ طَابَ خَافَ مَعَاً وَحَاقَ زَاغَ سَوَى الْأَحْزَابِ مَعَ صَادِهَا فَلَا^(٢)

يعني أنه قد استثنى حمزة ﴿ وإذ زاغت الأبصار ﴾ [الأحزاب : ١٠] في سورة الأحزاب ، ﴿ زاغت عنهم الأبصار ﴾ في صاد فلم يملها ، ووافق ابن ذكوان^(٣) حمزة على إمالة جاء وشاء في القرآن ، وعلى زاد في أول البقرة وعنه خلاف في زاد هذه في سائر القرآن ، وبالوجهين قرأته له ، والإمالة لتمييم والتفخيم للحجاز ، و (أليم) تقدم تفسيره ، فإذا قلنا إنه للمبالغة فيكون محولاً من فَعِلَ لها ونسبته إلى العذاب مجاز ، لأن العذاب لا يألم ، إنما يألم صاحبه ، فصار نظير قولهم شِعِرَ شاعر والشعر لا يشعر إنما الشاعر ناظمه ، وإذا قلنا إنه بمعنى مؤلم كما قال عمرو بن معد يكرب : -

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ^(٤)

أي المسمع ، وفعل بمعنى مفعول مجاز لأن قياس أفعَلَ مفعول ، فالأول مجاز في التركيب وهذا مجاز في الأفراد ، وقد حصل للمنافقين مجموع العذابين : العذاب العظيم المذكور في الآية قيل لانخراطهم معهم ولا انتظامهم فيهم ، ألا ترى أن الله تعالى في تلك الآية قد أخبر أنهم لا يؤمنون في قوله لا يؤمنون ، وأخبر بذلك في هذه الآية بقوله وما هم بمؤمنين ، والعذاب الأليم ، فصار المنافقون أشد عذاباً من غيرهم من الكفار بالنص ، على حصول العذابين المذكورين لهم ولذلك قال تعالى ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ ثم ذكر تعالى أن كينونة العذاب الأليم لهؤلاء سببها كذبهم وتكذيبهم (ما) مصدرية أي بكونهم يكذبون ، ولا ضمير يعود عليها لأنها حرف خلافاً لأبي الحسن ، ومن زعم أن كان الناقصة لا مصدر لها فمذهبه مردود ، وهو مذهب أبي علي الفارسي ، وقد كثر في كتاب سيبويه المحجى بمصدر كان الناقصة ، والأصح أنه لا يلفظ به معها فلا يقال كان زيد قائماً كوناً ، ومن أجاز أن تكون ما موصولة بمعنى الذي فالعائد عنده محذوف تقديره يكذبونه أو يكذبونه ، وزعم أبو البقاء أن كون ما موصولة أظهر قال لأن الهاء المقدرة عائدة إلى الذي دون المصدر ولا يلزم أن يكون ثَمَّ هاء مقدرة ، بل من قرأ « يكذبون » بالتخفيف ، وهم

(١) حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الإمام الحبر أبو عمارة الكوفي التيمي مولاهم - انظر غاية النهاية (٢٦١/١) .

(٢) انظر تقدمتنا على هذا الكتاب .

(٣) عبد الله بن أحمد بن بشير ويقال بشير بن ذكوان بن عمرو بن حسان بن داود بن حسن بن سعد بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر أبو عمرو وأبو محمد القرشي الفهري الدمشقي شيخ الإقراء بالشام - انظر غاية النهاية (٤٠٤/١) .

(٤) هذا صدر بيت وعجزه :

يؤرقني وأصحابي هجوع وهو لعمرو بن معد يكرب

انظر تهذيب اللغة (١٢٤/٢) ، أمالي ابن الشجري (٦٤/١) ، الخزانة (٤٦٠/٣) ، الشعر والشعراء (٣٣٢ - ٣٣٤) .

الكوفيون فالفعل غير متعد ، ومن قرأ بالتشديد وهم الحرميان والعربيان فالمفعول محذوف لفهم المعنى ، تقديره بكونهم يكذبون الله في إخباره والرسول فيما جاء به ، ويحتمل أن يكون المشدد في معنى المخفف ، على جهة المبالغة ، كما قالوا في صدق صدق وفي بان الشيء بئن ، وفي قلص الثوب قلص ، والكذب له محامل في لسان العرب^(١) :

أحدها : الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه ، وعمرو بن بحر يزيد في ذلك أن يكون المخبر عالماً بالمخالفة ، وهي مسألة تكلموا عليها في أصول الفقه .

الثاني : الإخبار بالذي يشبه الكذب ولا يقصد به إلا الحق ، قالوا ومنه ما ورد في الحديث عن إبراهيم صلوات الله عليه وعلى نبينا .

الثالث : الخطأ كقول عبادة فيمن زعم أن الوتر واجب كذب أبو محمد أي أخطأ .

الرابع : البطل كقولهم كذب الرجل أي بطل عليه أمله وما رجا وقدر .

الخامس : الإغراء بلزوم المخاطب الشيء المذكور كقولهم كذب عليك العسل : أي أكل العسل والمغرى به مرفوع بكذب ، وقالوا لا يجوز نصبه إلا في حرف شاذ ، ورواه القاسم بن سلام عن معمر بن المثنى والمؤثم هو الأول وقد اختلف الناس في الكذب فقال قوم الكذب كله قبيح لا خير فيه ، وقالوا : سئل مالك عن الرجل يكذب لزوجته ولا يتهنئ للقلب فقال لا خير فيه ، وقال قوم الكذب محرم ومباح ، فالمحرم الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه إذا لم يكن في مراعاته مصلحة شرعية ، والمباح ما كان فيه ذلك كالكذب لإصلاح ذات البين . وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات خلافاً :

قال قوم نزلت في منافقي أهل الكتاب كعبد الله بن أبي ابن سلول ومعتب بن قشير والجد بن قيس حين قالوا تعالوا إلى خلة نسلم بها من محمد وأصحابه ونتمسك مع ذلك بديننا ، فأظهروا الإيمان باللسان واعتقدوا خلافه^(٢) ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس .

وقال قوم نزلت في منافقي أهل الكتاب وغيرهم رواه السدي عن ابن مسعود وابن عباس وبه قال أبو العالية وقتادة وابن زيد

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

(إذا) ظرف زمان ، ويغلب كونها شرطاً وتقع للمفاجأة ظرف زمان وفقاً للرياشي والزجاج لا ظرف مكان خلافاً للمبرد ، ولظاهر مذهب سيوبه ، ولا حرفاً خلافاً للكوفيين ، وإذا كانت حرفاً فهي لما تيقن أوجده ويجزم بها في الشعر وأحكامها مستوفاة في علم النحو ، الفعل الثلاثي الذي انقلب عين فعله ألفاً في الماضي إذا بني للمفعول أخلص كسر

(١) انظر لسان العرب (٥/ ٣٨٤٠ - ٣٨٤٤) .

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص ١٢ عن أبي صالح عن ابن عباس .

أوله وسكنت عينه ياء في لغة قريش ومجاوريهم من بني كنانة ، وضم أولها عند كثير من قيس وعقيل ومن جاورهم ، وعامة بني أسد ، وبهذه اللغة قرأ الكسائي وهشام في « قيل » و « غيض » و « حيل » و « سيء » و « سيئت » و « جيء » و « سيق » ، وافقه نافع وابن ذكوان في « سيء » و « سيئت » زاد ابن ذكوان « حيل » و « ساق » ، وبالله الأولى قرأ باقي القراء ، وفي ذلك لغة ثالثة وهي إخلاص ضم فاء الكلمة وسكون عينه واو ولم يقرأ بها ، وهي لغة لهذيل وبني دبير ، والكلام على توجيه هذه اللغات وتكميل أحكامها مذكور في النحو ، الفساد التغير عن حالة الاعتدال والاستقامة ، قال سهيل في الفصيح فسد ونقيضه الصلاح^(١) ، وهو اعتدال الحال واستواؤه على الحالة الحسنة ، (الأرض) مؤنثة وتجمع على أرض وأراض وبالواو والنون رفعا ، وبالياء والنون نصبا وجرأ شذوذا ، فتفتح العين ، وبالألف والتاء قالوا أرضات والأراضي جمع جمع كأواظب ، (إنما) ما صلة لأن وتكفها عن العمل فإن وليتها جملة فعلية كانت مهيئة ، وفي ألفاظ المتأخرين من النحويين وبعض أهل الأصول أنها للحصر ، وكونها مركبة من ما النافية دخل عليها إن التي للإثبات فأفادت الحصر قول ركيك فاسد صادر عن غير عارف بالنحو ، والذي نذهب إليه أنها لا تدل على الحصر بالوضع ، كما أن الحصر لا يفهم من أخواتها التي كُفَّت بما ، فلا فرق بين لعل زيدا قائم ، ولعل ما زيد قائم ، فكذلك إن زيدا قائم وإنما زيد قائم ، وإذا فهم حصر فإنما يفهم من سياق الكلام ، لا أن إنما دلت عليه ، وبهذا الذي قررناه يزول الإشكال الذي أوردوه في نحو قوله تعالى ﴿ إنما أنت منذر ﴾ ، ﴿ قل إنما أنا بشر ﴾ ، ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ ، وإعمال إنما قد زعم بعضهم أنه مسموع من لسان العرب ، والذي عليه أصحابنا أنه غير مسموع ،^(٢) (نحن) ضمير رفع منفصل لمتكلم معه غيره أو لمعظم نفسه وفي اعتلال بنائه على الضم أقوال تذكر في النحو ، (ألا) حرف تنبيه زعموا أنه مركب من همزة الاستفهام ولا النافية للدلالة على تحقق ما بعدها ، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقا كقوله تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر ﴾ ، ولكونها من المنصب في هذه لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم . وقال ذلك الزمخشري^(٣) والذي نختاره أن ألا التنبيهية حرف بسيط ، لأن دعوى التركيب على خلاف الأصل ، ولأن ما زعموا من أن همزة الاستفهام دخلت على لا النافية دلالة على تحقق ما بعدها إلى آخره خطأ ، لأن مواقع ألا تدل على أن لا ليست للنفي فيتم ما ادعوه ، ألا ترى أنك تقول : « ألا إن زيدا منطلق » ليس أصله « لا أن زيدا منطلق » ، إذ ليس من تراكيب العرب ، بخلاف ما نظره من قوله تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر ﴾ لصحة تركيب ليس زيد بقادر ، ولوجودها قبل رب ، وقبل ليت وقبل النداء وغيرها مما لا يعقل فيه أن لا نافية ، فتكون الهمزة للاستفهام دخلت على لا النافية فأفادت التحقيق قال امرؤ القيس : -

أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ وَلَا سَيِّمًا يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلٍ^(٤)

وقال الآخر :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَدِثَ وَصَلِيهَا وَكَيْفَ تُرَاعِي وَصَلَةَ الْمُتَغَيِّبِ^(٥)

(١) انظر لسان العرب (٣٤١٢/٥) .

(٢) البيت من الطويل من معلقة امرئ القيس ديوانه (٣٢) وشرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص ٣٢ ، الخزانة (٦٣/٢) ، شرح المفصل (٨٦/٢) ، التصريح (١٤٤/١) ، مغني اللبيب (١٤٠/١) ، همع الهوامع (٢٣٤/١) ، الأشموني (١٤٤/١) ، الدرر (١٩٩/١) ، شواهد المغني (٥٥٨/٢) ، الشاهد فيه وقوع « ألا » قبل رب فتكون الهمزة للاستفهام دخلت على لا النافية فأفادت التحقيق .

(٤) البيت من الطويل لامرئ القيس - انظر ديوانه ص ٣٠ ، الدرر اللوامع (١١٤/١) .

وقال الآخر :

أَلَا يَا لَقَوْمِي لِلْخَيْالِ الْمَشُوقِ وَلِلدَّارِ تَنَائٍ بِالْحَبِيبِ وَنَلْتَقِي^(١)

وقال الآخر :

أَلَا يَا قَيْسُ وَالضُّحَّاكَ سِيرَا فَقَدْ جَاوَزْتُمَا خَمَرَ الطَّرِيقِ^(٢)

إلى غير هذا مما لا يصلح دخول « لا » فيه ، وأما قوله لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يلتقي به القسم فغير صحيح ، ألا ترى أن الجملة بعدها تستفتح برب وبليت وبفعل الأمر وبالنداء وبحبذا في قوله : -

أَلَا حَبْدًا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدٌ^(٣)

ولا يلتقي بشيء من هذا القسم ، وعلامة ألا هذه التي هي تنبيه واستفتاح صحة الكلام دونها ، وتكون أيضاً حرف عرض فيليها الفعل ، وإن وليها الاسم فعلى إضمار الفعل ، وحرف جواب بقول القائل ألم تقم فتقول ألا بمعني بلى ، نقل ذلك صاحب كتاب رصف المباني في حروف المعاني ، قال وهو قليل شاذ وأما ألا التي للتمني في قولهم « ألا ماء » فذكرها النحاة في فصل لا الداخل عليها الهمزة ، (لكن) حرف استدراك^(٤) فلا يجوز أن يكون ما قبلها موافقاً لما بعدها ، فإن كان نقيضاً أو ضدّاً جاز ، أو خلافاً ففي الجواز خلاف ، وفي التصحيح خلاف ، وحكى أبو القاسم بن الرمال جواز إعمالها مخففة عن يونس ، وحكى ذلك غيره عن الأخفش ، وحكى عن يونس أنها ليست من حروف العطف ، ولم تقع في القرآن غالباً إلا وواو العطف قبلها ، ومما جاءت فيه من غير واو قوله تعالى ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ﴾ ﴿ لكن الله يشهد ﴾ وفي كلام العرب : -

إِنَّ ابْنَ وَرَقَاءَ لَا تُخْشَى غَوَائِلُهُ لَكِنْ وَقَائِعُهُ فِي الْحَرْبِ تُنْتَظَرُ^(٥)

وبقية أحكام لكن مذكورة في النحو^(٦) ، الكاف حرف تشبيه تعمل الجر واسميتها مختصة عندنا بالشعر ، وتكون

(١) البيت من الطويل لم يعلم قائله : الشاهد فيه وقوع ألا قبل النداء .

(٢) البيت من الوافر لم يعلم قائله : الجمل (١٦٥) ، الدرر (١٩٦/٢) ، همع الهوامع (١٤٢/٢) ، شرح المفصل (١٢٩/١) ، اللسان (آخر) .

(٣) وهذا صدر بيت من الطويل للحطيئة - انظر ديوانه ص ١٩ ، شرح المفصل (١٠/١) ، القرطبي (٣٩٩/١) .

(٤) الاستدراك : هو تعقيب الكلام بنفي ما يتوهم منه ثبوته أو إثبات ما يتوهم منه نفيه وعرفه الروداني بأنه مخالفة حكم ما بعد لكن لحكم ما قبلها مع التوهم أولاً ، وهذا المعنى في لكن أغلبي فيها وليس لازماً فقد لا تأتي لرفع التوهم .

معجم المصطلحات النحوية (١٨) ، حاشية الصبان (٢٧٠/١) .

(٥) البيت من البسيط لزهير - انظر ديوانه (٣٠٦) ، شرح شواهد المغني (١٧٨/٤) ، التصريح على التوضيح (١٤٧/٢) ، همع الهوامع (١٣٧/٢) ، الدرر اللوامع (١٨٩/٢) ، الأشموني (١١٠/٣) .

(٦) لا خلاف بين النحويين في أن - لكن - للعطف ومعناها الاستدراك ، أورد ابن الطراوة هذا القول وقال : إن « لكن » ليست للاستدراك وإنما هي ضد « لا » توجب للثاني ما نفي عن الأول .

ولكن إن وليها جملة فغير عاطفة بل حرف ابتداء سواء كانت بالواو أو بدونها وقال ابن أبي الربيع هي عاطفة جملة على جملة ما لم تقترن بالواو أو وليها مفرد فشرطها تقدم نفي أو نهي قال الكوفيون : أو إيجاب والبصريون منعه لأنه لم يسمع فيتعين كونها حرف ابتداء بعده الجملة . ومن أحكامها أن لا تقترن بالواو فإن اقترنت به فحرف ابتداء لأن العاطف لا يدخل على العاطف ، وقيل : لا تكون عاطفة مع المفرد إلا بها قاله ابن خروف . وزعم يونس العطف بالواو دونها فلا تكون عاطفة عنده أصلاً لأنها لم تستعمل غير مسبوقة بواو ، وهو عند

زائدة ، وموافقة لعلی ، ومن ذلك قولهم « كخير » في جواب من قال « كيف أصبحت » ؟ ويحدث فيها معنى التعليل وأحكامها مذكورة في النحو ، السفه^(١) : الخفة ، ومنه قيل للثوب الخفيف النسج سفيه ، وفي الناس خفة الحلم ، قاله ابن كيسان ، أو البهت والكذب والتعمد خلاف ما يعلم قاله مؤرج ، أو الظلم والجهل قاله قطرب ، والسفهاء جمع سفيه ، وهو جمع مطرد في فعل الصحيح الوصف المذكر العاقل الذي بينه وبين مؤنثه التاء ، والفعل منه سَفِهَ بكسر العين وضمها ، وهو القياس لأجل اسم الفاعل ، قالوا ونقيض السفه الرشد وقيل الحكمة ، يقال رجل حكيم وفي ضده سفيه ونظير السفه التزق والطيش

﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾﴾

اللقاء استقبال الشخص قريباً منه ، والفعل منه لقي يلقي ، وقد يقال لاقى وهو فاعل بمعنى الفعل المجرد ، وسمع للقي أربعة عشر مصدراً ، قالوا لقي لقياً ، ولقية ، ولقاء ، ولقاء ، ولقي ، ولقياء ، ولقياء ، ولقياء ، ولقيانا ، ولقيالة ، وتلقاء ، الخلو الانفراد خلافة : أي انفرد ، أو المضي قد خلت من قبلكم سنن (الشيطان) فيعال عند البصريين فنونه أصلية من شَطَن أي بعد ، واسم الفاعل شاطن قال أمية :

أَيَّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَىٰ فِي السَّجَنِ وَالْأَكْبَالِ^(٢)

وقال رؤبة :

وَفِي أَخَادِيدِ السَّيَاطِ الْمُتَنِ شَافٍ لِبَغْيِ الْكَلْبِ الْمُشَيْطَنِ^(٣)

ووزنه فعلان عند الكوفيين ، ونونه زائدة من شاط يشيط إذا هلك قال الشاعر :

قَدْ تَظْفَرُ الْعَيْرُ فِي مَكْنُونٍ قَائِلَةً وَقَدْ يَشْطُو عَلَىٰ أَرْمَاحِنَا الْبَطْلُ^(٤)

والشيطان كل متمرد من الجن والإنس والدواب ، قاله ابن عباس ، وأثناء شيطانة ، قال الشاعر : -

عطف مفرد على مفرد كما أشار المصنف رحمه الله ، وزعم ابن مالك أن العطف بالواو دونها لكن عطف جملة حذف بعضها على جملة صرح بجمعها وزعم ابن عصفور الواو زائدة لازمة والعطف بلكن وزعم ابن كيسان أنها زائدة غير لازمة والعطف بلكن . انظر البسيط شرح الجمل (٣٤٠/١) ، مع الهوامع (١٣٧/٢ - ١٣٨) .

(١) السَّفَهُ والسَّفَاهُ والسَّفَاهَةُ : خفة الحلم ، وقيل : نقيض الحلم ، وأصله الخَفَةُ والحركة ، وقيل : الجَهْلُ ، وهو قريب بعضه من بعض - لسان العرب (٢٠٣٢/٣) .

(٢) ذكره ابن منظور ونسبه لأمية بن أبي الصلت وروايته فيه :

أَيَّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَىٰ فِي السَّجَنِ وَالْأَكْبَالِ

وتعقبه الصاغانى فقال : الرواية : والأكبال ، والأغلال في بيت بعده بسبعة عشر بيتاً في قوله : « واتقى الله وهو في الأغلال » .

انظر لسان العرب (٢٢٦٥/٤) .

(٣) ذكر في لسان العرب عجزه ونسبه لأمية بن أبي الصلت - انظر لسان العرب (٢٢٦٥/٤) .

(٤) البيت من البسيط للأعشى ميمون - انظر ديوانه (٤٧) ، شرح المفصل (٦٤/٥) ، وروايته فيه :

قد نخضب العير من مكنون قائلة وقد يشيط على أرماحنا البطل

هِيَ الْبَازِلُ الْكُومَاءُ لَا شَيْءَ غَيْرَهَا وَشَيْطَانَةٌ قَدْ جُنَّ مِنْهَا جُنُونُهَا^(١)

وشياطين جمع شيطان نحو غرائث في جمع غرثان^(٢) ، وحكاه الفراء وهذا على تقدير أن نونه زائدة تكون نحو غرثان ، (مع) اسم معناه الصلبة اللائقة بالمذكور وتسكينها قبل حركة لغة ربيعة وغنم قاله الكسائي ، وإذا سكنت فالأصح أنها اسم ، وإذا لقيت ألف اللام أو ألف الوصل فالفتح لغة عامة العرب ، والكسر لغة ربيعة وتوجيه اللغتين في النحو، ويستعمل ظرف مكان فيقع خبراً عن الجثة والأحداث ، وإذا أفرد نون مفتوحاً وهي ثلاثي الأصل من باب المقصور إذ ذاك لا من باب يد خلافاً ليونس ، وأكثر استعمال معاً حال نحو جميعاً وهي أخص من جميع لأنها تشرك في الزمان نصاً ، وجميع تحتمله ، وقد سأل أحمد بن يحيى أحمد بن قادم^(٣) عن الفرق بين قام عبد الله وزيد معاً ، وقام عبد الله وزيد جميعاً ، قال فلم يزل يركض فيها إلى الليل ، وفرق ابن يحيى بأن جميعاً يكون القيام في وقتين وفي وقت واحد ، وأما إذا قلت معاً فيكون في وقت واحد ، الاستهزاء الاستخفاف والسخرية ، وهو استفعل بمعنى الفعل المجرد ، وهو فعل تقول هزأت به واستهزأت بمعنى واحد مثل استعجب بمعنى عجب ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها استفعل

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١٥)

المد التطويل ، مد الشيء طوله وبسطه ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ ، وأصل المد الزيادة ، وكل شيء دخل في شيء فكثرة فقد مده قاله اللحياني ، وأمد بمعنى مد «مد الجيش» ، و«أمدّه» زاده وألحق به ما يقويه من جنسه ، وقال بعض أهل العلم مدّ زاد من الجنس ، وأمدّ زاد من غير الجنس ، وقال يونس مدّ في الخير ، وأمدّ في الشر انتهى . قوله ويقال مدّ النهر ، وأمدّه نهر آخر ، ومادّة الشيء ما يمدّه الهاء فيه للمبالغة ، وقال ابن قتيبة^(٤) مددت الدواء وأمدتها بمعنى ، ويقال مددنا القوم^(٥) صرنا لهم أنصاراً وأمددناهم بغيرنا ، وقال اللحياني أمد الأمير جنده بالخيـل ، وفي التنزيل ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ ، الطغيان^(٦) مجاوزة المقدار المعلوم ، يقال طغى^(٧) الماء وطغت النار ، العمه^(٨) التردد والتحير ، وهو شبيه

(١) البيت من الطويل لم يعلم قائله - انظر مجالس العلماء للزجاجي ص ١٦ حياة الحيوان للجاحظ (٥٣/٣) - لسان العرب (جفن) .

(٢) الْغَرَثُ : أيسر الجوع ، وقيل : شدته ، وقيل : هو الجوع عامة .

(٣) وفي البغية محمد بن عبد الله بن قادم النحوي أبو جعفر وحكي أيضاً أن اسمه أحمد . قال ياقوت : كان حسن النظر في علل النحو-

انظر معجم الأدباء (٢٠٧/١٨) ، البغية (١٤٠/١ - ١٤١) .

(٤) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ثقة ديناً فاضلاً هكذا وصفه

الخطيب في التاريخ - انظر تاريخ بغداد (١٧٠/١) ، البغية (٦٣/٢) .

(٥) جاء في لسان العرب :

ومددنا القوم : صرنا لهم أنصاراً ومدداً ، وأمددناهم بغيرنا ، وحكى اللحياني : أمد الأمير جنده بالخيـل والرجال ، وأعانهم ، وأمدهم

بمال كثير وأغاثهم ... (٤١٥٧/٦) .

(٦) ابن سيده : طَغَى يَطْغَى طَغْياً وَيَطْغُو طُغْيَاناً : جاوز القَدْرَ وارتفع وغلا في الكفر - لسان العرب (٢٦٧٧/٤) .

(٧) وطغى الماء والبحر : ارتفع وعلا على كل شيء فاخرقه ، وفي التنزيل العزيز : «إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية» وطغى

البحر : هاجت أمواجه - لسان العرب (٢٦٧٨/٤) .

(٨) الْعَمَةُ : التَّحِيرُ والتردد ، وأنشد ابن بري :

بالعمى إلا أن العمى توصف به العين التي ذهب نورها ، والرأي الذي غاب عنه الصواب ، يقال عمه يعمه عمها وعمهاً فهو عمه وعامه ، ويقال برية عمهاء إذا لم يكن بها علم يستدل به ، وقال ابن قتيبة العمه أن يركب رأسه ولا يبصر ما يأتي ، وقيل العمه العمى عن الرشد .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ بِحَرِّهِمْ وَمَا كَانَ نُؤْمُهُتْدِينَ﴾ ﴿١٦﴾

الاشتراء والشراء بمعنى الاستبدال بالشيء والاعتياض منه ، إلا أن الاشتراء^(١) يستعمل في الابتياح والبيع ، وهو ما جاء فيه افعل بمعنى الفعل المجرد ، وهو أحد المعاني التي جاء لها افعل ، الربح هو ما يحصل من الزيادة على رأس المال ، التجارة هي صناعة التاجر ، وهو الذي يتصرف في المال لطلب النمو والزيادة ، المهندي اسم فاعل من اهتدى وافتعل فيه للمطاوعة هديته فاهتدى نحو سويته فاستوى وغمته فاعتم ، والمطاوعة أحد المعاني التي جاءت لها افعل ، ولا تكون افعل للمطاوعة مبنية إلا من الفعل المتعدي ، وقد وهم من زعم أنها تكون من اللازم ، وإن ذلك قليل فيها مستدلاً بقول الشاعر : -

حَتَّىٰ إِذَا اشْتَالَ سُهَيْلٌ فِي السَّحَرِ كَشُعْلَةِ الْقَاسِ تَرْمِي بِالسُّرَرِ^(٢)

لأن افعل في البيت بمعنى فعل ، تقول شال يشول واشتال يشتال بمعنى واحد ، ولا تتعقل المطاوعة إلا بأن يكون المطاوع متعدياً ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا جملة شرطية ، ويحتمل أن تكون من باب عطف الجمل استثنافاً يعني عليهم قبائح أفعالهم وأقوالهم ، ويحتمل أن يكون كلاماً وفي الثاني جزء كلام ، لأنها من تمام الصلة ، وأجاز الزمخشري وأبو البقاء أن تكون معطوفة على يكذبون ، فإذا ذاك يكون لها موضع من الإعراب وهو النصب ، لأنها معطوفة على خبر كان ، والمعطوف على الخبر خبر ، وهي إذ ذاك جزء من السبب الذي استحقوا به العذاب الأليم ، وعلى الاحتمالين الأولين لا تكون جزءاً من الكلام ، وهذا الوجه الذي أجازاه على أحد وجهي ما من قوله ﴿بما كانوا يكذبون﴾ خطأ ، وهو أن تكون ما موصولة بمعنى الذي ، وذلك أن المعطوف على الخبر خبر فيكذبون قد حذف منه العائد على ما وقوله ، ﴿وإذا قيل لهم﴾ إلى آخر الآية لا ضمير فيه يعود على ما فبطل أن يكون معطوفاً عليه ، إذ يصير التقدير : ولهم عذاب أليم بالذي كانوا إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، وهذا كلام غير منتظم لعدم العائد ، وأما وجهها الآخر وهو أن تكون ما مصدرية ، فعلى مذهب الأخفش يكون هذا الإعراب أيضاً خطأ ، إذ عنده أن ما المصدرية اسم يعود عليها من صلتها ضمير والجملة المعطوفة عارية منه ، وأما على مذهب الجمهور فهذا الإعراب شائع ، ولم يذكر الزمخشري وأبو البقاء إعراب هذا سوى أن يكون معطوفاً على يكذبون أو على يقول وزعماً أن الأول وجه ، وقد ذكرنا ما فيه والذي نختاره الاحتمال الأول ، وهو أن تكون الجملة مستأنفة كما قرناه ، إذ هذه الجملة والجملة بعدهما هي من تفاصيل الكذب ونتائج التكذيب ، ألا ترى قولهم ﴿إنما نحن مصلحون﴾ وقولهم ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ وقولهم عند لقاء المؤمنين ﴿أما﴾ كذب محض ، فناسب جعل ذلك جملاً

أي تُردد النظر ، وقيل : العمه التردد في الضلالة والتحير - لسان العرب (٣١١٤/٤) .

(١) الشراء : يمد ويقصر ، يقال منه شريت الشيء أشريه شري إذا بعته وإذا اشتريته أيضاً وهو من الأضداد قال تعالى : « ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » البقرة ٢٠٧ . وقال تعالى : « وشروه بثمن بخس » يوسف ٢٠ . ويجمع الشري على أشبرية - انظر الصحاح (٢٣٩١/٦) ، المغرب (٤٤٢/١) ، المصباح (٤٧٦/١) .

(٢) انظر روح المعاني (١٦٢/١) .

شالته الناقة بذنبها تشول شولاً وشولاناً ، أشالته واستشالته ، أي : رفعته . . . وشال ذنبها : أي ارتفع - لسان العرب (٢٣٦٣/٤) .

مستقلة ذكرت لإظهار كذبهم ونفاقهم ونسبة السفه للمؤمنين واستهزائهم ، فكثير بهذه الجمل واستقلالها ذمهم والرد عليهم ، وهذا أولى من جعلها سبقت صلة جزء كلام ، لأنها إذ ذاك لا تكون مقصودة لذاتها إنما جيء بها معرفة للموصول إن كان اسماً ، ومتممة لمعناه إن كان حرفاً ، والجمله بعد إذا في موضع خفض بالإضافة ، والعامل فيها عند الجمهور الجواب فإذا في الآية منصوبة بقوله ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ والذي نختاره أن الجمله بعدها تليها هي الناصبة لإذا ، لأنها شرطية وأن ما بعدها ليس في موضع خفض بالإضافة فحكمها حكم الظروف التي يجازى بها ، وإن قصرت عن عملها الجزم على أن من النحويين من أجاز الجزم بها حملاً على متى منصوباً بفعل الشرط ، فكَذلك إذا منصوبة بفعل الشرط بعدها ، والذي يفسد مذهب الجمهور جواز « إذا قمت فعمرو قائم » ، لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وجواز وقوع إذا الفجائية جواباً لإذا الشرطية قال تعالى ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ وما بعد إذا الفجائية لا يعمل فيما قبلها ، وحذف فاعل القول هنا للإيهام ، فيحتمل أن يكون الله تعالى ، أو الرسول ﷺ ، أو بعض المؤمنين ، وكل من هذا قد قيل ، والمفعول الذي لم يسم فاعله ، فظاهر الكلام أنها الجمله المصدرة بحرف النهي ، وهي ﴿ لا تفسدوا في الأرض ﴾ إلا أن ذلك لا يجوز إلا على مذهب من أجاز وقوع الفاعل جملة ، وليس مذهب جمهور البصريين وقد تقدمت المذاهب في ذلك عند الكلام على قوله تعالى ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ والمفعول الذي لم يسم فاعله في ذلك حكمه حكم الفاعل ، وتخريجه على مذهب جمهور البصريين أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو مضمرة تقديره هو يفسره سياق الكلام ، كما فسر المضمرة في قوله تعالى ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ سياق الكلام ، والمعنى « وإذا قيل لهم قول شديد » فأضمر هذا القول الموصوف ، وجاءت الجمله بعده مفسرة فلا موضع لها من الإعراب ، لأنها مفسرة لذلك المضمرة الذي هو القول الشديد ، ولا جائز أن يكون لهم في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ، لأنه لا ينتظم منه مع ما قبله كلام ، لأنه يبقى لا تفسدوا لا ارتباط له إذ لا يكون معمولاً للقول مفسراً له ، وزعم الزمخشري أن المفعول الذي لم يسم فاعله هو الجمله التي هي لا تفسدوا ، وجعل ذلك من باب الإسناد اللفظي ونظره بقولك ألف حرف من ثلاثة أحرف ، ومنه زعموا مطية الكذب قال كأنه قيل « وإذا قيل لهم هذا القول وهذا الكلام » انتهى . فلم يجعله من باب الإسناد إلى معنى الجمله ، لأن ذلك لا يجوز على مذهب جمهور البصريين ، فعُدل إلى الإسناد اللفظي وهو الذي لا يختص به الاسم ، بل يوجد في الاسم والفعل والحرف والجمله ، وإذا أمكن الإسناد المعنوي لم يعدل إلى الإسناد اللفظي ، وقد أمكن ذلك بالتخريج الذي ذكرناه ، واللام في قوله « لهم » للتبليغ وهو أحد المعاني السبعة عشر التي ذكرناها اللام عند كلامنا على قوله تعالى ﴿ الحمد لله ﴾ ، وإفسادهم في الأرض بالكفر^(١) قاله ابن عباس ، أو المعاصي^(٢) قاله أبو العالية ومقاتل ، أو بهما^(٣) قاله السدي عن أشياخه ، أو بترك امتثال الأمر واجتناب النهي^(٤) قاله مجاهد ، أو بالنفاق الذي صافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين ، ذكره علي بن عبيد الله ، إما بإعراضهم عن الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن ، أو بقصدتهم تغيير الملة قاله الضحاك ، أو باتباعهم هواهم وتركهم الحق مع وضوحه قاله بعضهم ، وقال الزمخشري^(٥) :

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٧٥/١) ، عن ابن عباس .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٧٥/١) ، عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية .

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٧٥/١) ، عن السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمداني

عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ .

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٧٥/١) ، عن ابن جريج عن مجاهد نحوه .

(٥) انظر الكشاف (٦٢/١) .

الإفساد في الأرض تهيج الحروب والفتن ، قال لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية ، قال تعالى ﴿ ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ﴾ ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ ، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء « حرب الفساد » انتهى كلامه . ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة ، وزادها تغليظاً إصرارهم عليها والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت قلت خيراتها ونزعت بركاتها ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة ، فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها ، كما أن الطاعة والإستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث ، ألا ترى قوله تعالى ﴿ فقلت استغفروا ربكم ﴾ ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ الآيات وقد قيل في تفسيره : ما « روي » في الحديث من « أن الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب »^(١) ، إن معاصيه يمنع الله بها الغيث فيهلك البلاد والعباد لعدم النبات وانقطاع الأقوات ، والنهي عن الإفساد في الأرض من باب النهي عن المسبب ، والمراد النهي عن السبب فمتعلق النهي حقيقة هو مضافة الكفار ، ومما ألثهم على المؤمنين بإفشاء السر إليهم ، وتسليطهم عليهم لإفضاء ذلك إلى هيج الفتن المؤدي إلى الإفساد في الأرض ، فجعل ما رتب على المنهي عنه حقيقة منهياً عنه لفظاً ، والنهي عن الإفساد في الأرض هنا كالنهي في قوله تعالى ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ وليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد ، بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم ومنه مادة حياتكم وهو سترة أمواتكم ، جدير أن لا يفسد فيه إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقال تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاًها ﴾ ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساًها متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ أنا صبينا الماء صباً ﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات المنبهة على الامتنان علينا بالأرض ، وما أودع الله فيها من المنافع التي لا تكاد تحصى ، وقابلوا النهي عن الإفساد بقولهم ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ فأخرجوا الجواب جملة اسمية لتدل على ثبوت الوصف لهم ، وأكدوها بإنما دلالة على قوة اتصافهم بالإصلاح ، وفي المعنى الذي اعتقدوا أنهم مصلحون أقوال :

أحدها : قول ابن عباس إن ممالأتنا^(٢) الكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين^(٣) .

والثاني : قول مجاهد : وهو أن تلك الممالة هدى وصلاح وليست بفساد^(٤) .

والثالث : أن ممالأة النفس والهوى صلاح وهدى .

والرابع : أنهم ظنوا أن في ممالأة الكفار صلاحاً لهم وليس كذلك لأن الكفار لو ظفروا بهم لم يبقوا عليهم ، ولذلك قال ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ .

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩/١١) ، في كتاب الرقائق ، باب سكرات الموت (٦٥١٢) (٦٥١٣) ، ومسلم (٦٥٦/٢) ، في كتاب الجنائز باب ما جاء في مستريح ومستراح منه (٩٥٠/٦١) ، وأحمد في المسند (٢٩٦/٥) (٢٠٣) ، (٣٠٤) .

(٢) يقال : مألته على الأمر ممالأة : ساعده عليه وشايعته ، وتمالأناً عليه : اجتمعنا ، وتمالؤوا عليه : اجتمعوا عليه - لسان العرب (٤٢٥٣/٦) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠/١) ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠/١) ، وعزاه لابن جرير عن مجاهد .

والخامس : أنهم أنكروا أن يكونوا فعلوا ما نهوا عنه من ممالأة الكفار ، وقالوا إنما نحن مصلحون باجتئاب ما نهينا عنه .

والذي نختاره أنه لا يتعين شيء من هذه الأقوال بل يحمل النهي على كل فرد من أنواع الإفساد ، وذلك أنهم لما ادعوا الإيمان ، وأكذبهم الله في ذلك ، وأعلم بأن إيمانهم مخادعة ، كانوا يكونون بين حالين أحدهما أن يكونوا مع عدم إيمانهم موادعين لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ، والحالة الأخرى أن يكونوا مع عدم إيمانهم يسعون بالإفساد بالأرض لتفرق كلمة الإسلام ، وشتات نظام الملة فنهوا عن ذلك ، وكأنهم قيل لهم إن كنتم قد قنع منكم بالإقرار بالإيمان ، وإن لم تؤمن قلوبكم فإياكم والإفساد في الأرض ، فلم يجيبوا بالامتناع من الإفساد ، بل أثبتوا لأنفسهم أنهم مصلحون ، وأنهم ليسوا محللاً للإفساد فلا يتوجه النهي عن الإفساد نحوهم لاتصافهم بضده وهو الإصلاح ، كل ذلك بهت منهم ، وكذب صرف على دعائهم في الكذب ، وقولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ولما كانوا قد قابلوا النهي عن الإفساد بدعوى الإصلاح الكاذبة ، أكذبهم الله بقوله ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ فأثبت لهم ضد ما ادعوه مقابلاً لهم ذلك في جملة اسمية مؤكدة بأنواع من التأكيد منها : التصدير بأن ، وبالمجيء بهم ، وبالمجيء بالالف واللام التي تفيد الحصر عند بعضهم ، وقال « الجرجاني »^(١) دخلت الألف واللام في قوله المفسدون لما تقدم ذكر اللفظة في قوله لا تفسدوا ، فكأنه ضرب من العهد ، ولو جاء الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان ألا إنهم هم المفسدون انتهى كلامه . وهو حسن ، واسفتحت الجملة بألا منبهة على ما يجيء بعدها لتكون الأسماع مصغية لهذا الإخبار الذي جاء في حقهم ، ويحتمل هم أن يكن تأكيداً للضمير في إنهم ، وإن كان فصلاً فعلى هذين الوجهين يكون المفسدون خبراً لأن ، وأن يكون مبتدأ ، أو يكون المفسدون خبره والجملة خبر لأن ، وقد تقدم ذكر فائدة الفصل عند الكلام على قوله ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ ، وتحقيق الاستدراك هنا في قوله ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ هو أن الإخبار عنهم أنهم هم المفسدون يتضمن علم الله ذلك ، فكان المعنى أن الله قد علم أنهم هم المفسدون ولكن لا يعلمون ذلك ، ف وقعت لكن إزاء ذلك بين متفاوتين ، وجهة الاستدراك أنهم لما نهوا عن إيجاد مثل ما كانوا يتعاطونه من الإفساد ، فقابلوا ذلك بأنهم مصلحون في ذلك ، وأخبر الله عنهم أنهم هم المفسدون ، كانوا حقيقين بأن يعلموا أن ذلك كما أخبر الله تعالى ، وأنهم لا يدعون أنهم مصلحون ، فاستدرك عليهم هذا المعنى الذي فاتهم من عدم الشعور بذلك تقول « زيد جاهل ولكن لا يعلم » ، وذلك أنه من حيث اتصف بالجهل وصار وصفاً قائماً بزيد ، كان ينبغي لزيد أن يكون عالماً بهذا الوصف الذي قام به ، إذ الإنسان ينبغي أن يعلم ما اشتمل عليه من الأوصاف ، فاستدرك عليه بلكن لأنه مما كثر في القرآن ، ويغض في بعض المواضع إدراكه ، قالوا ومفعول (يشعرون) محذوف لفهم المعنى تقديره أنهم مفسدون ، أو أنهم معذبون ، أو أنهم ينزل بهم الموت فتقطع التوبة ، والأولى الأول ، ويحتمل أن لا ينوى محذوف ، فيكون قد نفى عنهم الشعور من غير ذكر متعلقه ولا نية ، وهو أبلغ في الذم ، جعلوا لدعواهم ما هو إفساد إصلاحاً ممن انتفى عنه الشعور ، وكأنهم من البهائم ، لأن من كان متمكناً من إدراك شيء فأهمل الفكر والنظر حتى صار يحكم على الأشياء الفاسدة بأنها صالحة ، فقد انتظم في سلك من لا شعوره ولا إدراك ، أو من كابر وعاند فجعل الحق باطلاً فهو كذلك أيضاً ، وفي قوله تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ تسلية عن كونهم لا يدركون الحق إذ من كان من أهل الجهل ، فينبغي للعالم أن لا يكثر بمخالفته ، والكلام على قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا ﴾ كالكلام على قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا ﴾ من حيث عطف هذه الجملة على سبيل الاستئناف ، أو عطفها على صلة من من قوله ﴿ من يقول ﴾ أو عطفها على

(١) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي الإمام المشهور أبو بكر توفي سنة إحدى - وقيل أربع وسبعين وأربعمائة - البغية

﴿ يكذبون ﴾ ومن حيث العامل في إذا ومن حيث حكم الجملة بعد إذا ومن حيث المفعول الذي لم يسم فاعله .

واختلف في القائل لهم آمنوا فقال ابن عباس الصحابة^(١) ولم يعين أحداً منهم ، وقال مقاتل قوم مخصوصون منهم وهم سعد بن معاذ ، وأبولبابه ، وأسيد بن الحضير ، ولما نهاهم تعالى عن الإفساد أمرهم بالإيمان ، لأن الكمال يحصل بترك ما لا ينبغي وبفعل ما ينبغي ، وبدى بالمنهي عنه لأنه الأهم ، ولأن المنهيات عنها هي من باب التروك ، والتروك أسهل في الامتثال من امتثال الأمور بها ، والكاف من قوله ﴿ كما آمن الناس ﴾ في موضع نصب ، وأكثر المعربين يجعلون ذلك نعتاً لمصدر محذوف التقدير عندهم « آمنوا إيماناً كما آمن الناس » ، وكذلك يقولون في سير عليه شديد ، أو سرت حثيثاً أي شديداً ، أو حثيثاً نعت لمصدر محذوف التقدير سير عليه سيراً شديداً وسرت سيراً حثيثاً ، ومذهب سيبويه رحمه الله أن ذلك ليس بنعت لمصدر محذوف ، وإنما هو منصوب على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدم المحذوف بعد الإضمار على طريق الاتساع ، وإنما لم يجر ذلك لأنه يؤدي إلى حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه في غير المواضع التي ذكروها ، وتلك المواضع : أن تكون الصفة خاصة بجنس الموصوف نحو « مررت بكاتب ومهندس » ، أو واقعة خبراً نحو « زيد قائم » ، أو حالاً نحو « مررت بزيد ركباً » ، أو وصفاً لظرف نحو « جلست قريباً منك » ، أو مستعملة استعمال الأسماء ، وهذا يحفظ ولا يقاس عليه نحو الأبطح والأبرق ، وإذا خرجت الصفة عن هذه المواضع لم تكن إلا تابعة للموصوف ولا يكتفى عن الوصف ، ألا ترى أن سيبويه منع « ألأ ماء ولو بارداً » وإن تقدم ما يدل على حذف الموصوف ، وأجاز « ولو بارداً » لأنه حال ، وتقرير هذا في كتب النحو ، وما من كما آمن الناس مصدرية التقدير كإيمان الناس فينسبك من ما والفعل بعدها مصدر مجرور بكاف التشبيه التي هي نعت لمصدر محذوف ، أو حال على القولين السابقين ، وإذا كانت ما مصدرية فصلتها جملة فعلية مصدرية بماض متصرف ، أو مضارع وشذ وصلها بليس في قول الشاعر :

بِمَا لَسْتُمْ أَهْلُ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ^(٢)

ولا توصل بالجملة الاسمية ، خلافاً لقوم منهم أبو الحجاج الأعلم ، مستدلين بقوله : -

وَجَدْنَا الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا كَمَا الْحَبَطَاتِ شَرُّ بَنِي تَمِيمٍ^(٣)

وأجاز الزمخشري^(٤) وأبو البقاء في ما من قوله كما آمن أن تكون كافة للكاف عن العمل ، مثلها في « ربما قام زيد » وينبغي أن لا تجعل كافة إلا في المكان الذي لا تقدر فيه مصدرية ، لأن إبقاءها مصدرية مبق للكاف على ما استقر فيها من العمل ، وتكون الكاف إذ ذاك مثل حروف الجر الداخلة على ما المصدرية ، وقد أمكن ذلك في « كما آمن الناس » فلا ينبغي أن تجعل كافة ، والألف واللام في الناس يحتمل أن تكون للجنس فكأنه قال الكاملون في الإنسانية ، أو عبر بالناس عن المؤمنين ، لأنهم هم الناس في الحقيقة ومن عداهم صورته صورة الناس وليس من الناس لعدم تمييزه ، كما قال الشاعر : -

(١) انظر الطبري (٢٩٤/١) ، معالم التنزيل (٣٤/١) ، فتح القدير (٤٣/١) .

(٢) البيت من الطويل لم يعلم قائله - انظر مغني اللبيب ص ٣٠٦ ، شرح شواهد الألفية (٤٢٢/١) . وهذا عجز بيت وصدره :

أليس أميري في الأمور بأنتما

(٣) البيت من الوافر لزياد الأعجم - انظر أمالي ابن الشجري (٢٣٥/٢) ، الخزائن (٢٧٨/٤) ، الأشموني (٢٣١/٢) .

(٤) انظر الكشاف (٦٤/١) .

لَيْسَ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُ يَحْسَبُهُ النَّاسُ مِنَ النَّاسِ

ويحتمل أن تكون الألف واللام للعهد ، ويعني به رسول الله ﷺ وأصحابه^(١) ، قاله ابن عباس ، أو عبد الله بن سلام ونحوه ممن حسن إسلامه من اليهود قاله مقاتل ، أو معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وجماعة من وجوه الأنصار عدهم الكلبي ، والأولى حملها على العهد ، وأن يراد به من سبق إيمانه قبل قول ذلك لهم فيكون حواله على من سبق إيمانه ، لأنهم معلومون معهودون عند المخاطبين بالأمر بالإيمان .

والتشبيه في ﴿ كما آمن الناس ﴾ إشارة إلى الإخلاص ، وإلا فهم ناطقون بكلمتي الشهادة غير معتقديها ، (أنؤمن) معمول (لقالوا) ، وهو استفهام معناه الإنكار ، أو الاستهزاء ، ولما كان المأمور به مشبهاً كان جوابهم مشبهاً في قولهم ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ ، والقول في الكاف ، وما في هذا كالقول فيهما في ﴿ كما آمن الناس ﴾ ، والألف واللام في (السفهاء) للعهد ، فيعني به الصحابة^(٢) قاله ابن عباس ، أو الصبيان والنساء^(٣) قاله الحسن ، أو عبد الله بن سلام وأصحابه^(٤) قاله مقاتل ، ويحتمل أن تكون للجنس فيندرج تحته من فسر به الناس من المعهودين ، أو الكاملون في السفه ، أو لأنهم انحصر السفه فيهم إذ لا سفه غيرهم ، وأبعد من ذهب إلى أن الألف واللام للصفة الغالبة نحو العيوق والدبران ، لأنه لم يغلب هذا الوصف عليهم فصاروا إذا قيل السفهاء فهم منه ناس مخصوصون ، كما يفهم من العيوق نجم مخصوص ، ويحتمل قولهم كما آمن السفهاء أن يكون ذلك من باب التعنت والتجمل حذراً من الشماتة وهم عالمون بأنهم ليسوا بسفهاء ، ويحتمل أن يكون ذلك من باب الاعتقاد الجزم عندهم فيكونوا قد نسبوههم للسفه معتقدين أنهم سفهاء ، وذلك لما أدخلوا به من النظر والفكر الصحيح المؤدي إلى إدراك الحق وهم كانوا في رئاسة ويسار ، وكان المؤمنون إذ ذاك أكثرهم فقراء وكثير منهم موالٍ ، فاعتقدوا أن من كان بهذه المثابة كان من السفهاء ، لأنهم اشتغلوا بما لا يجدي عندهم ، وكسلوا عن طلب الرئاسة والغنى وما به السؤدد في الدنيا ، وذلك هو غاية السفه عندهم ، وفي قوله ﴿ كما آمن السفهاء ﴾ إثبات منهم في دعواهم بسفه المؤمنين أنهم موصوفون بضد السفه ، وهو رزاة الأحلام ورجحان العقول ، فرد الله عليهم قولهم ، وأثبت أنهم هم السفهاء ، وصدر الجملة بألا التي للتنبيه لينادي عليهم المخاطبين بأنهم السفهاء ، وأكد ذلك « بأن » وبلغف « هم » ، وإذا التقت الهمزتان والأولى مضمومة والثانية مفتوحة من كلمتين نحو « السفهاء » ألا ففي ذلك أوجه :

أحدها : تحقيق الهمزتين ، وبذلك قرأ الكوفيون وابن عامر .

والثاني : تحقيق الأولى وتخفيف الثانية بإبدالها واواً كحالها إذا كانت مفتوحة قبلها ضمة في كلمة نحو ، أوأتي مضارع أتى فاعل من أتيت وجؤن تقول ، أوأتي وجون ، وبذلك قرأ الحرمان وأبو عمرو .

والثالث : تسهيل الأولى بجعلها بين الهمزة والواو وتحقيق الثانية .

والرابع : تسهيل الأولى بجعلها بين الهمزة والواو وإبدال الثانية واواً .

وأجاز قوم وجهاً خامساً وهو جعل الأولى بين الهمزة والواو وجعل الثانية بين الهمزة والواو ، ومنع بعضهم ذلك لأن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٠/١) ، وعزه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) انظر تفسير القرطبي (١٤٣/١) ، الدر المنثور (٣٠/١) .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٧٦/١) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (١٤٣/١) .

جعل الثانية بين الهمزة والواو تقريباً لها من الألف ، والألف لا تقع بعد الضمة ، والأعراب الثلاثة التي جازت في هم في قوله هم المفسدون جائزة في هم من قوله هم السفهاء .

والاستدراك الذي دلت عليه لكن في قوله ﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ مثله في قوله تعالى ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ وإنما قال هناك (لا يشعرون) ، وهنا (لا يعلمون) ، لأن المثبت لهم هناك هو الإفساد ، وهو مما يدرك بأدنى تأمل ، لأنه من المحسوسات التي لا تحتاج إلى فكر كثير ، فنفي عنهم ما يدرك بالمشاعر ، وهي الحواس مبالغة في تجهيلهم ، وهو أن الشعور الذي قد ثبت للبهائم منفي عنهم ، والمثبت هنا هو السفه ، والمصدر به هو الأمر بالإيمان ، وذلك مما يحتاج إلى إمعان فكر واستدلال ونظر تام يفضي إلى الإيمان والتصديق ، ولم يقع منهم المأمور به فناسب ذلك نفي العلم عنهم ، ولأن السفه هو خفة العقل والجهل بالمأمور قال السموأل : -

نَخَافُ أَنْ تُسَفَّهُ أَحْلَامُنَا فَتَجْهَلَ الْجَهْلَ مَعَ الْجَاهِلِ

والعلم نقيض الجهل فقابله بقوله ﴿ لا يعلمون ﴾ ، لأن عدم العلم بالشيء جهل به ، قرأ ابن السمينغ اليماني وأبو حنيفة ﴿ وإذا لآقوا الذين ﴾ وهي فاعل بمعنى الفعل المجرد ، وهو أحد معاني فاعل الخمسة ، والواو المضمومة في هذه القراءة هي واو الضمير تحركت لسكون ما بعدها ، ولم تعد لام الكلمة المحذوفة لعروض التحريك في الواو ، واللقاء يكون بموعد وبغير موعد فإذا كان بغير موعد سمي مفاجأة ومصادفة ، وقولهم لمن لقوا من المؤمنين ﴿ آمناً ﴾ بلفظ مطلق الفعل غير مؤكد بشيء توثرية منهم وإيهاماً ، فيحتمل أن يريدوا به الإيمان بموسى وبما جاء به دون غيره ، وذلك من خبثهم وبهتهم ، ويحتمل أن يريدوا به الإيمان المقيد في قولهم آمناً بالله وباليوم الآخر وليسوا بصادقين في ذلك ، ويحتمل أن يريدوا بذلك ما أظهره بالسنتهم من الإيمان ومن اعترفهم حين اللقاء ، وسموا ذلك إيماناً وقلوبهم عن ذلك صارفة معرضة ، وقرأ الجمهور (خَلَوْا إِلَى) بسكون الواو وتحقيق الهمزة ، وقرأ ورش بإلقاء حركة الهمزة على الواو وحذف الهمزة ، ويتعدى خلا بالباء وبإلى ، والباء أكثر استعمالاً ، وعدل إلى إلى ، لأنها إذا عديت بالباء احتملت معنيين : أحدهما الانفراد ، والثاني السخري ، إذ يقال في اللغة خلوت به : أي سخرت منه ، وإلى لا يحتمل إلا معنى واحداً ، وإلى هنا على معناها من انتهاء الغاية على معنى تضمين الفعل : أي صرفوا خلاهم إلى شياطينهم ، قال الأخفش خلوت إليه جعلته غاية حاجتي وهذا شرح معنى ، وزعم قوم منهم « النضر بن شميل » : أن إلى هنا بمعنى « مع : أي وإذا خلوا مع شياطينهم كما زعموا ذلك في قوله تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : ٢] ، و﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ [آل عمران : ٣] ، أي مع أموالكم ومع الله ، ومنه قول النابغة :

فَلَا تَتْرُكْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي إِلَى النَّاسِ مَطْلَبٌ بِهِ الْقَارُ أُجْرَبُ^(١)

ولا حجة في شيء من ذلك وقيل إلى بمعنى الباء لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وهذا ضعيف إذ نيابة الحرف عن الحرف لا يقول بها سيبويه والخليل ، وتقدير هذا في النحو ، وشياطينهم هم اليهود الذين كانوا يأمرورهم بالتكذيب^(٢) قاله ابن عباس ، أو رؤساؤهم في الكفر^(٣) قاله ابن مسعود ، وروي أيضاً عن ابن عباس ، أو شياطين

(١) البيت من الطويل للنابغة الذبياني انظر ديوانه (١٣) ، والخزانة (١٣٧/٤) ، مغني اللبيب (٧٥) ، مع الهوامع (٢٠/٢) ، الدرر اللوامع (١٣/٢) ، الأشمونى (٢١٤/٢) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١/١) ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١/١) ، وعزاه لابن جرير عن ابن مسعود .

الجن^(١) قاله الكلبي ، أو كهنتهم^(٢) قاله الضحاك وجماعة وكان في عهد رسول الله ﷺ من الكهنة جماعة منهم « كعب بن الأشرف » من بني « قريظة » ، و « أبو بردة في بني أسلم » ، وعبد الدار في جهينة ، وعوف بن عامر في بني أسد ، وابن السوداء في الشام ، وكانت العرب يعتقدون فيهم الإطلاع على علم الغيب ويعرفون الأسرار ويدأوون المرضى ، وسموا شياطين لتمردهم وعتوهم ، أو باسم قرنائهم من الشياطين ، إن فسروا بالكهنة ، أو لشبههم بالشياطين في وسوستهم وغرورهم وتحسينهم للفواحش وتقييحهم للحسن ، والجمهور على تحريك العين من (معكم) ، وقرئ في الشاذ (أنا معكم) وهي لغة غنم وربيعة ، وقد اختلف القولان منهم ، فقالوا للمؤمنين آمنا ، ولشياطينهم إنا معكم ، فانظر إلى تفاوت القولين فحين لقوا المؤمنين قالوا آمنا أخبروا بالملوك كما تقدم من غير توكيد ، لأن مقصودهم الأخبار بحدوث ذلك ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحاؤون فيه ، أولأنه لا تطوع بذلك ألسنتهم لأنه لا باعث لهم على الإيمان حقيقة ، أولأنه لو أكدوه ما راج ذلك على المؤمنين فافتقروا بمطلق الإيمان ، وذلك خلاف ما أخبر الله عن المؤمنين بقوله ﴿ ربنا إنا آمنا ﴾ وحين لقوا شياطينهم ، أو خلوا إليهم قالوا إنا معكم ، فأخبروا أنهم موافقوهم ، وأخرجوا الأخبار في جملة اسمية مؤكدة بأن يدلوا بذلك على ثباتهم في دينهم ، ثم بينوا أن ما أخبروا به الذين آمنوا إنما كان على سبيل الاستهزاء ، فلم يكتفوا بالإخبار بالموافقة ، بل بينوا أن سبب مقاتلتهم للمؤمنين إنما هو الاستهزاء والاستخفاف لا أن ذلك صادر منهم عن صدق وجد ، وأبرزوا هذا الإخبار في جملة اسمية مؤكدة بإنما مخبر عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الذي يدل على الثبوت ، وأن الاستهزاء وصف ثابت لهم لا أن ذلك تجدد عندهم ، بل ذلك من خلقهم وعادتهم مع المؤمنين ، وكان هذه الجملة وقعت جواباً لمنكرهم عليهم قولهم إنا معكم كأنه قال كيف تدعون أنكم معنا وأنتم مسالمون للمؤمنين تصدقونهم ، وتكثرون سوادهم ، وتستقبلون قبلتهم ، وتأكلون ذبائحهم ، فأجابوهم بقولهم ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ : أي مستخفون بهم نصانع بما نظهر من ذلك عن دماننا وأموالنا وذرياتنا ، فنحن نوافقهم ظاهراً ونوافقكم باطناً ، والقائل إنا معكم إما المنافقون لكبارهم ، وإما كل المنافقين للكافرين ، وقرئ مستهزئون بتحقيق الهمزة ، وهو الأصل وبقليها ياء مضمومة لانكسار ما قبلها ، ومنهم من يحذف الياء تشبيهاً بالياء الأصلية في نحو يرمون فيضم الراء ، ومذهب سيبويه رحمه الله في تحقيقها أن تجعل بين بين ، ومذهب أبي الحسن أن تقلب ياء قلباً صحيحاً ، قال أبو الفتح حال الياء المضمومة منكر كحال الهمزة المضمومة ، والعرب تعاف ياء مضمومة قبلها كسرة ، وأكثر القراء على ما ذهب إليه سيبويه انتهى . وهل الاجتماع والمعية في الدين ، أو في النصر والمعونة على رسول الله ﷺ وأصحابه ، أو في اتفاقهم مع الكفار على إطلاعهم على أحوال المؤمنين وإعلامهم بما أجمعوا عليه من الأمر وأخفوه من المكاييد ، أو في اتفاقهم مع الكفار على أذى المسلمين وتربصهم بهم الدوائر وفرحهم بما يسوء المسلمين وحزنهم بما يسرهم وقصدهم إخماد كلمة الله أقوال أربعة ، والدواعي إلى الاستهزاء خوف الأذى واستجلاب النفع والهزل واللعب ، والله تعالى منزّه عن ذلك فلا يصح إضافة الاستهزاء الذي هذه دواعيه إلى الله تعالى ، فيحتمل أن يكون الاستهزاء المسند إلى الله تعالى كناية عن مجازاته لهم ، وأطلق اسم الاستهزاء على المجازاة ليعلم أن ذلك جزاء الاستهزاء ، أو عن معاملته لهم بمثل ما عاملوا به المؤمنين ، فأجرى عليهم أحكام المؤمنين من حقن الدم وصون المال والإشراك في المغنم مع علمه بكفرهم ، وأطلق على الشيء ما أشبهه صورة لا معنى ، أو عن التوطئة والتجهيل لإقامتهم على كفرهم ، وسمى التوطئة لهم استهزاء لأنه لم يعجل لهم العقوبة ، بل أملى وأخرهم إلى الآخرة ، أو عن فتح باب الجنة فيسرعون إليه فيغلق ، فيضحك منهم المؤمنون ، أو عن خمود النار فيمشون فيخسف بهم ، أو عن

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤٥/١) ، عن الكلبي .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٤٥/١) ، عن جماعة من المفسرين .

ضرب السور بينهم وبين المؤمنين وهو السور المذكور في الحديد ، أو عن قوله تعالى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : ٤٩] ، أو عن تجديد الله لهم نعمة كلما أحدثوا ذنباً فيظنون أن ذلك لمحبة الله لهم ، أو عن الحيلولة بين المنافقين وبين النور الذي يعطاه المؤمنون^(١) ، كما ذكروا أنه روي في الحديث أو عن طردهم عن الجنة « إذا أمر بناس منهم إلى الجنة ودنوا منها ووجدوا ريحها ونظروا إلى ما أعد الله فيها لأهلها » ، وهو حديث فيه طول روي عن عدي بن حاتم ، ونحا هذا المنحى^(٢) ابن عباس والحسن ، وفي مقابلة استهزائهم بالمؤمنين باستهزاء الله بهم ، ما يدل على عظم شأن المؤمنين وعلو منزلتهم ، وليعلم المنافقون أن الله هو الذي يذب عنهم ويحارب من حاربهم ، وفي افتتاح الجملة باسم الله التفضيم العظيم حيث صُدِّرت الجملة به ، وجعل الخبر فعلاً مضارعاً يدل عندهم على التجدد والتكرار ، فهو أبلغ في النسبة من الاستهزاء المخبر به في قولهم ثم في ذلك التنصيص على الذين يستهزئ الله بهم ، إذ عدى الفعل إليهم فقال يستهزئ بهم وهم لم ينصوا حين نسبوا الاستهزاء إليهم على من تعلق به الاستهزاء ، فلم يقولوا إنما نحن مستهزون بهم ، وذلك لترحهم من إبلاغ ذلك للمؤمنين فينقمون ذلك عليهم ، فأبقوا اللفظ محتملاً أن لو حققوا على ذلك لكان لهم مجال في الذب^(٣) عنهم أنهم لم يستهزئوا بالمؤمنين ، ألا ترى إلى مداراتهم عن أنفسهم بقولهم ﴿ آما بالله وباليوم الآخر ﴾ ، ويقولهم ﴿ إذا لقوهم قالوا آمنا ﴾ فهم عند لقائهم لا يستطيعون إظهار المداراة ولا مشاركتهم بما يكرهون ، بل يظهرون الطوعية والانقياد ، وقرأ ابن محيصن وشبل (أي مدهم) ، وتروى عن ابن كثير ونسبة المد إلى الله حقيقة إذ هو موجد الأشياء والمنفرد باختراعها ، والمعنى أن الله تعالى يطول لهم في الطغيان ، وقد ذهب الزمخشري^(٤) إلى تأويل المد المنسوب إلى الله تعالى بأنه منع الألفاظ وخذلانهم بسبب كفرهم وإصرارهم بقيت قلوبهم تتزايد الظلمة فيها تزايد النور في قلوب المؤمنين ، فسمى ذلك التزايد مداً ، وأسند إلى الله لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم ، أو بأن المد هو على معنى القسر^(٥) والإلجاء قال ، أو على أن يسند فعل الشيطان إلى الله لأنه بتمكينه وإقداره والتخلية بينه وبين إغواء عباده ، وإنما ذهب إلى التأويل في المد لأن مد الله لهم في الطغيان قبيح والله منزّه عن فعل القبيح ، والتأويل الأول الذي ذكره الزمخشري^(٦) قول الكعبي وأبي مسلم ، وقال الجبائي هو المد في العمر ، وعندنا نحن أن الله خالق الخير والشر وهو الهادي والمضل ، وقد تقدم الكلام في نحو من هذا عند قوله تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : ٧] ، ومد الله في طغيانهم التمكين من العصيان قاله ابن مسعود أو الإملاء^(٧) قاله ابن عباس ، أو الزيادة من الطغيان^(٨) قاله مجاهد ، أو الإمهال قاله الزجاج وابن كيسان ، أو تكثير الأموال والأولاد وتطبيب الحياة ، أو تطويل الأعمار ومعافاة الأبدان وصرف الرزايا وتكثير الأرزاق .

وقرأ زيد بن علي في (طُغْيَانِهِمْ) بكسر الطاء وهي لغة يقال طُغْيَانٌ بالضم والكسر كما قالوا لُقيانٌ وُغْيَانٌ بالضم والكسر ، وأمال الكسائي في (طُغْيَانِهِمْ) ، وأضاف الطغيان إليهم لأنه فعلهم وكسبهم وكل فعل صدر من العبد صحت

(١) قال الله تعالى « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى » سورة الحديد ١٣ ، ١٤ .

(٢) ذكره بمعناه السيوطي في الدر المنثور (٣١/١) ، عن أبي صالح وعزاه لابن المنذر .

(٣) الذَّبُّ : المنع والدفع وقد ذببت عنه . وذَبَّ أي أكثر الذَّبَّ .

(٤) انظر الكشف (٦٧/١) ، الصحاح (١٢٦/١) .

(٥) قسره على الأمر قسراً : أكرهه عليه وقهره وكذلك اقتصره عليه .

(٦) انظر الكشف (٦٧/١) ، الصحاح (٧٩١/٢) .

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١/١) ، وعزاه لابن جرير عن ابن مسعود وانظر تفسير ابن كثير (٧٨/١) .

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١/١) ، وعزاه للفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد .

إضافته إليه بالمباشرة ، وإلى الله بالاختراع وما فسر به العمه يحتمله قوله تعالى ﴿ يعمّهون ﴾ فيكون المعنى يترددون ويتحيرون ، أو يعمون عن رشدهم ، أو يركبون رؤوسهم ولا يبصرون ، قال بعض المفسرين : وهذا التفسير الأخير أقرب إلى الصواب لأنهم لم يكونوا مترددين في كفرهم ، بل كانوا مصرين عليه معتقدين أنه الحق وما سواه الباطل (يعمّهون) جملة في موضع الحال نصب على الحال ، إما من الضمير في يمدّهم ، وإما من الضمير في طغيانهم ، لأنه مصدر مضاف للفاعل ، وفي طغيانهم يحتمل أن يكون متعلقاً بيمدّهم ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بيعمّهون ، ومنع أبو البقاء أن يكون في طغيانهم ويعمّهون حالان من الضمير في (يمدّهم) قال لأن العامل لا يعمل في حالين انتهى كلامه . وهذا الذي ذهب إليه يحتاج إلى تقييد ، وهو أن تكون الحالان لذي حال واحد ، فإن كانا لذوي حال جاز نحو لقيت زيدا مصعداً منحدراً ، فأما إذا كانا لذي حال واحد كما ذكرنا .

ففي إجازة ذلك خلاف ، ذهب قوم إلى أن ذلك لا يجوز كما لم يجز ذلك للعامل أن يقضي مصدرين ولا ظرفي زمان ولا ظرفي مكان فكذا لا يقضي حالين ، وخصص أهل هذا المذهب هذا القول بأن لا يكون الثاني على جهة البدل أو معطوفاً ، فإنه إذا كانا كذلك جازت المسألة ، قال بعضهم إلا أفعال التفضيل فإنها تعمل في ظرفي زمان و ظرفي مكان ، وحالين لذي حال فإن ذلك يجوز وهذا المذهب اختاره أبو الحسن بن عصفور ، وذهب قوم إلى أنه يجوز للعامل أن يعمل في حالين لذي حال واحد ، وإلى هذا أذهب لأن الفعل الصادر من فاعل ، أو الواقع بمفعول يستحيل وقوعه في زمانين وفي مكانين ، وأما الحالان فلا يستحيل قيامهما بذوي حال واحد إلا إن كانا ضدين ، أو نقيضين فيجوز أن تقول « جاء زيد ضاحكاً راكباً » لأنه لا يستحيل مجيئه وهو ملتبس بهذين الحالين ، فعلى هذا الذي قررناه من الفرق يجوز أن يجيء الحالان لذي حال واحد ، والعامل فيهما بذوي حال واحد إلا إن كانا ضدين ، أو نقيضين فيجوز أن يجيء الحالان لذي حال واحد ، والعامل فيهما بذوي حال واحد ، (أولئك) اسم أشير به إلى الذي تقدم ذكرهم الجامعين للأوصاف الذميمة ، من دعوى الإصلاح وهم المفسدون ، ونسبة السفه للمؤمنين وهم السفهاء ، والاستخفاف بالمؤمنين بإظهار الموافقة وهم مع الكفار ، وقرأ الجمهور (اشتروا الضلالة) بضم الواو ، وقرأ أبو السمال^(١) قعنب العدوي اشتروا والضلالة بالفتح وإعتلال ضمة الواو وجوه أربعة مذكورة في النحو ، ووجه الكسر أنه الأصل في التقاء الساكنين نحو ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ [الجن : ١٦] ، ووجه الفتح اتباعها لحركة الفتح قبلها ، وأما حمزة والكسائي الهدى وهي لغة بني تميم ، والباقون بالفتح وهي لغة قريش ، والاشتراء هنا مجاز كنى به عن الاختيار ، لأن المشتري للشيء مختار له مؤثر فكأنه قال اختاروا الضلالة على الهدى وجعل تمكنهم من اتباع الهدى كالثمن المبذول في المشتري ، وإنما ذهب في الاشتراء إلى المجاز لعدم المعاوضة إذ هي استبدال شيء في يدك بشيء في يد غيرك وهذا مفقود هنا ، وقد ذهب قوم إلى أن الاشتراء هنا حقيقة لا مجاز ، والمعاوضة متحققة ثم راموا يقررون ذلك ، ولا يمكن أن يتقرر لأنه على كل تقدير يؤول الشراء فيه إلى المجاز قالوا إن كان أراد بالآية المنافقين ، كما قال مجاهد فقد كان لهم هدى ظاهر من التلطف بالشهادة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والغزو والقتال ، فلما لم تصدق بواطنهم ظواهرهم واختاروا الكفر استبدلوا بالهدى الضلال ، فتحققت المعاوضة ، وحصل البيع والشراء حقيقة ، وكان من بيع المعاطاة التي لا تفتقر إلى اللفظ ، وقالوا لما ولدوا على الفطرة واستمر لهم حكمها إلى البلوغ وحد التكليف استبدلوا عنها بالكفر والنفاق فتحققت المعاوضة ، وقالوا لما كانوا ذوي عقول متمكنين من النظر الصحيح المؤدي إلى معرفة الصواب من الخطأ ، استبدلوا بهذا الاستعداد النفيس اتباع الهوى والتقليد للآباء مع قيام الدليل الواضح فتحققت

(١) قعنب بن أبي قعنب أبو السمال - بفتح السين وتشديد الميم وباللام العدوي البصري له اختيار في القراءة شاذ عن العامة ، انظر غاية النهاية (٢٧/٢) .

المعاوضة ، قالوا وإن كان أراد بالآية أهل الكتاب كما قال قتادة فقد كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ، ومصدقين ببعث النبي ﷺ ، ومستفتحين به ويدعون بحرمته ، ويهددون الكفار بخروجه فكانوا مؤمنين حقاً ، فلما بعث ﷺ وهاجر إلى المدينة ، خافوا على رئاستهم ومآكلهم وانصراف الأتباع عنهم ، فجحدوا نبوته وقالوا ليس هذا المذكور عندنا وغيره صفته ، واستبدلوا بذلك الإيمان الكفر الذي حصل لهم فتحقت المعاوضة ، قالوا وإن كان أراد سائر الكفار كما قاله ابن مسعود وابن عباس ، فالمعاوضة أيضاً متحققة إما بالمدة التي كانوا عليها على الفطرة ثم كفروا ، أو لأن الكفار كان في محصولهم المدارك الثلاثة الحسي والنظري والسمعي ، وهذه التي تفيد العلم القطعي ، فاستبدلوا بها الجري على سنن الآباء في الكفر ، وقال ابن كيسان خلقتهم لطاعته فاستبدلوا عن هذه الخلقة المرضية كفرهم وضعف قوله ، لأنه تعالى لو برأهم لطاعته لما كفر أحد منهم لاستحالة أن يخلق شيئاً لشيء ويتخلف عن ذلك الشيء ، وسيأتي الكلام على قوله تعالى ﴿إلا يعبدون﴾ ، وعلى ﴿ولذلك خلقهم﴾ إن شاء الله ، قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي الضلالة الكفر والهدى الإيمان^(١) ، وقيل الشك واليقين ، وقيل الجهل والعلم ، وقيل الفرقة والجماعة ، وقيل الدنيا والآخرة ، وقيل النار والجنة ، وعطف ﴿فما ربحت﴾ بالفاء يدل على تعقب نفى الربح للشراء ، وأنه بنفس ما وقع الشراء تحقق عدم الربح ، وزعم بعض الناس أن الفاء في قوله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ دخلت لما في الكلام من معنى الجزاء ، والتقدير ان اشتروا ، (والذين) إذا كان في صلة فعل كان في معنى الشرط ومثله ﴿الذين ينفقون أموالهم﴾ [البقرة : ٢٦٢] ، وقع الجواب بالفاء في قوله ﴿فلهم أجرهم﴾ ، وكذلك الذي يدخل الدار فله درهم انتهى . وهذا خطأ لأن الذين ليس مبتدأ فيشبه بالشرط الذي يكون مبتدأ فتدخل الفاء في خبره كما تدخل في جواب الشرط وأما الذين خبر عن أولئك ، وقوله ﴿فما ربحت﴾ ليس بخبر فتدخله الفاء وإنما هي جملة فعلية معطوفة على صلة الذين فهي صلة لأن المعطوف على الصلة صلة ، وقوله وقع الجواب بالفاء في قوله فلهم أجرهم خطأ لأنه ليس بجواب ، إنما الجملة خبر المبتدأ الذي هو ينفقون ، ولا يوز أن يكون أولئك مبتدأ والذين اشتروا مبتدأ ، وفما ربحت تجارتهم خبر عن الذين ، والذين وخبره خبر عن أولئك لعدم الرابط في هذه الجملة الواقعة خبراً لأولئك ولتحقق مضي الصلة ، وإذا كانت الصلة ماضية معنى لم تدخل الفاء في خبر موصولها المبتدأ ، ولا يجوز أن يكون أولئك مبتدأ والذين بدل منه وفما ربحت خبر لأن الخبر إنما تدخله الفاء لعموم الموصول ، ولإبدال الذين من أولئك صار الذين مخصوصاً لأنه بدل من مخصوص وخبر المخصوص لا تدخله الفاء ، ولأن معنى الآية ليس إلا على كون أولئك مبتدأ والذين خبراً عنه ، ونسبة الربح إلى التجارة من باب المجاز ، لأن الذي يربح أو يخسر إنما هو التاجر لا التجارة ولما صور الضلالة والهدى مشتري وثمناً رشح هذا المجاز البديع بقوله تعالى ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وهذا من باب ترشيح المجاز ، وهو أن يبرز المجاز في صورة الحقيقة ثم يحكم عليه ببعض أوصاف الحقيقة فيضاف مجاز إلى مجاز ، ومن ذلك قول الشاعر :-

بَكَى الْخَزْمُ مِنْ رُوحٍ وَأَنْكَرَ جِلْدُهُ وَعُجْتُ عَجِيجاً مِنْ جُذَامِ الْمَطَارِفِ

أقام الخز مقام شخص حين باشر روحاً بكى من عدم ملائمة ثم رشحه بقوله وأنكر جلده ، ثم زاد في ترشيح المجاز بقوله وعجت : أي وصاحت مطارف الخزم من قبيل روح هذا وهي جذام ، ومعنى البيت أن روحاً وقبيلته جذام لا يصلح لهم لباس الخزم ومطارفه ، لأنهم لا عادة لهم كذلك فكنى عن التباين بينهما بما كنى فيه في البيت ، ومن ذلك قول الشافعي رضي الله عنه :-

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣١/١ - ٣٢) ، عن ابن عباس وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وعن قتادة وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم - وانظر تفسير ابن كثير (٧٩/١) .

أَيَا بُومَةَ قَدْ عَشَّشْتُ فَوْقَ هَامِي عَلَى الرَّغْمِ مِنِّي حِينَ طَارَ غُرَابُهَا^(١)

لما كنى عن الشيب بالبومة فأقبل عليها ونادها ، رشح هذا المجاز بقوله قد عَشَّشْتُ لأن الطائر من أفعاله اتخاذ العشة ، وقد أورد الزمخشري في ترشيح المجاز في كشافه مثلاً ، وقرأ « ابن أبي عبله » ﴿ تجاراتهم ﴾ على الجمع ووجهه أن لكل واحد تجارة ، ووجه قراءة الجمهور على الأفراد أنه اكتفى به عن الجمع لفهم المعنى ، وفي قوله ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ إشعار بأن رأس المال لم يذهب بالكلية لأنه إنما نفى الربح ، ونفى الربح لا يدل على انتقاص رأس المال ، وأجيب عن هذا بأنه اكتفى بذكر عدم الربح عن ذكر ذهاب المال ، لما في الكلام من الدلالة على ذلك لأن الضلال نقيض الهدى ، والنقيضان لا يجتمعان فاستبدلهم الضلالة بالهدى دل على ذهاب الهدى بالكلية ، ويتخرج عندي على أن يكون من باب قوله : -

عَلَى لَاجِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أي لا منار له فيهتدى به فنفى الهداية ، وهو يريد نفي المنار ويلزم من نفي المنار نفي الهداية به ، فكذاك هذه الآية لما ذكر شراء شيء بشيء توهم أن هذا الذي فعلوه هو من باب التجارة ، إذ التجارة ليس نفس الاشتراء فقط وليس بتاجر ، إنما التجارة التصرف في المال لتحصيل النمو والزيادة ، فنفى الربح والمقصود نفي التجارة : أي لا يتوهم أن هذا الشراء الذي وقع هو تجارة فليس بتجارة ، وإذا لم يكن تجارة انتفى الربح فكأنه قال فلا تجارة لهم ولا ربح ، وقال الزمخشري^(٢) معناه إن الذي يطلبه التجار في متصرفاتهم شيان : سلامة رأس المال ، والربح ، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين معاً لأن رأس المال مالههم كان هو الهدى ، فلم يبق لهم مع الضلالة ، وحين لم يبق في أيديهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح وإن ظفروا بما ظفروا به من الأعراض الدنيوية ، لأن الضلال خاسر دامر ، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله قد ربح انتهى كلامه . ومع ذلك ليس بمخلص في الجواب لأن نفي الربح عن التجارة لا يدل على ذهاب كل المال ، ولا على الخسران فيه ، لأن الربح هو الفضل على رأس المال فإذا نفى الفضل لم يدل على ذهاب رأس المال بالكلية ، ولا على الانتقاص منه وهو الخسران ، قيل لما لم يكن قوله تعالى ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ مفيداً لذهاب رؤوس أموالهم ، أتبعه بقوله ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ فأكمل المعنى بذلك وتم به المقصود ، وهذا النوع من البيان يقال له التتميم ومنه قول امرئ القيس :

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا وَأَرْحُلُنَا الْجِرْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبِ^(٣)

تمم المعنى بقوله الذي لم يثقب وكمل الوصف ، وسمى الله تعالى اعتياضهم الضلالة عن الهدى تجارة ، وإن كانت التجارة هي البيع والشراء المتحقق منه الفائدة ، أو المترجى ذلك منه وهذا الاعتياض منفي عنه ، ذلك لأن الكفر محبط للأعمال قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وفي الحديث أنه ﷺ سئل عن ابن جدعان وهل ينفعه وصله الرحم وإطعام المساكين ، فقال لا إنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين^(٤) لأنهم لم يعتاضوا ذلك إلا

(١) البومة واليوم : طائر كلاهما للذكر والأنثى الهامة الرأس والجمع هام وهامة القوم رئيسهم - انظر ديوان الشافعي (٢٩) .

(٢) انظر الكشاف (٧٢ ، ٧١/١) .

(٣) البيت من قصيدة لامرئ القيس - انظر ديوانه (٣٧) ، قال أبو عبيد البكري : الطباء والبقر عيونها سود في حالة الحياة فإذا ماتت بدا بياضها فلذلك شبهها بالجرع الذي فيه بياض وسواد بعدما ماتت .

(٤) أخرجه أبو عوانة (١٠٠/١) ، وأحمد في المسند (١٢٠/٦) ، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٣) ، والحاكم في المستدرک (٤٠٥/٢) .

لما تحققوا وارتجوا من الفوائد الدنيوية والأخروية ، ألا ترى إلى قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة : ١٨] ، وقولهم ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ وكانت اليهود تزعم أنهم لا يعذبون إلا أياماً معدودة ، وبعضهم يقول يوماً واحداً ، وبعضهم عشراً ، وكل طائفة من الكفار تزعم أنها على الحق وأن غيرها على الباطل ، فلحصول الراحة الدنيوية ورجاء الراحة الأخروية ، سمي اشتراءهم الضلالة بالهدى تجارة ، ونفى الله تعالى عنهم كونهم مهتدين ، وهل المعنى ما كانوا في علم الله مهتدين ، أو مهتدين من الضلالة ، أو للتجارة الرابعة ، أو في اشتراء الضلالة ، أو نفى عنهم الهداية والريح ، لأن من التجار من لا يربح في تجارته ، ويكون على هدى وعلى استقامة ، وهؤلاء جمعوا بين نفى الربح والهداية ، والذي أختاره أن قوله تعالى ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ إخبار بأن هؤلاء ما سبقت لهم هداية بالفعل ، لثلاثتهم من قوله بالهدى أنهم كانوا على هدى فيما مضى ، فبين قوله ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ مجاز قوله بالهدى ودل على أن الذي اعتاضوا الضلالة به إنما هو التمكن من إدراك الهدى ، فالمثبت في الاعتياض غير المنفي أخيراً لأن ذاك بالقوة وهذا بالفعل ، وانتصاب (مهتدين) على أنه خبر كان فهو منصوب بها وحدها ، خلافاً لمن زعم أنه منصوب بكان والاسم معاً ، وخلافاً لمن زعم أن أصل انتصابه على الحال ، وهو الفراء قال لشغل الاسم برفع كان إلا أنه لما حصلت الفائدة من جهته كان حالاً خبراً ، فأتى معرفة فليل « كان أخوك زيداً » تغليلاً للخبر لا للحال .

وذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات أقوالاً :

أحدها : أنها نزلت في المنافقين .

الثاني : في قوم أعلم الله بوصفهم قبل وجودهم ، وفيه إعلام بالمغيبات .

الثالث : في عبد الله بن أبي وأصحابه نزل ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا ﴾ والتي قبلها في جميع المنافقين ، وذكرها ما معناه أنه لقي نفراً من المؤمنين فقال لأصحابه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فذكر أنه مدح وأثنى على أبي بكر وعمر وعلي ، فوبخه علي وقال له لا تنافق فقال ألي تقول هذا ، والله إن إيماننا كيما نكم ثم افترقوا فقال عبد الله لأصحابه كيف رأيتموني فعلت فأتوا عليه خيراً ، وقد تقدمت أقاويل غير هذه الثلاثة في غضون الكلام قبل هذا .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (١٧)

المَثَل في أصل كلام العرب بمعنى المِثْل والمِثْل كشيء وشبهه وهو النظير ويجمع المَثَل والمِثْل على أمثال ، قال الزبيدي الأمثال الأشباه ، وأصل المِثْل الوصف هذا مثل كذا : أي وصفه مساو لوصف الآخر بوجه من الوجوه ، والمثل القول السائر الذي فيه غرابة من بعض الوجوه ، وقيل المثل ذُكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه فيه نوع من الخفاء ليصير في الذهن مساوياً للأول في الظهور من وجه دون وجه والمقصود من ذكر المثل أنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه لأن الغرض من ضرب المثل : تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل ، (والذي) اسم موصول للواحد المذكور ونقل عن « أبي علي » أنه مبهم يجري مجرى من في وقوعه على الواحد والجمع ، وقال « الأخفش » : هو مفرد ويكون في معنى الجمع وهذا شبهه بقول « أبي علي » ، وقال صاحب « التسهيل » : فيه وقد ذكر الذين قال : ويغنى عنه الذي في غير تخصيص كثيراً وفيه للضرورة قليلاً وأصحابنا يقولون يجوز أن تحذف النون من الذين فيبقى الذي ، وإذا كان الذي لمفرد فسمع تشديد الياء فيه

مكسورة أو مضمومة وحذف الياء وإبقاء الذال مكسورة أو ساكنة ، وأكثر أصحابنا على أن تلك لغات في الذي ، والاستيقاد بمعنى الإيقاد واستدعاء ذلك ووقود النار ارتفاع لهيها . و (النار) جوهر لطيف مضيء حار محرق ، (لما) حرف نفي يعمل الجزم وبمعنى إلا وظرفاً بمعنى حين عند الفارسي ، والجواب عامل فيها إذ الجملة بعدها في موضع جر وحرف وجوب لوجوب عند سبويه وهو الصحيح لتقدمها على ما نفي بما ولمجيء جوابها مصدراً بإذا الفجائية ، الإضاءة الإشراق وهو فرط الإنارة ، و (حوله) ظرف مكان لا يتصرف ، ويقال حوال بمعناه ويشيان ويجمع أحوال وكلها لا تتصرف وتلزم الإضافة ، الذهاب الانطلاق ، النور الضوء من كل نير ونقيضه الظلمة ، ويقال نار ينور إذا نفر وجارية نوار : أي نفور ومنه اسم امرأة « الفرزدق » وسمي نوراً لأن فيه اضطراباً وحركة ، الترك التخليئة اترك هذا : أي خلّه ودّعهُ وفي تضمينه معنى التصيير ، وتعديته إلى اثنين خلاف ، الأصح جواز ذلك ، الظلمة عدم النور وقيل هو عرض ينافي النور وهو الأصح لتعلق الجعل بمعنى الخلق به ، والاعدام لا توصف بالخلق وقد رده بعضهم لمعنى الظلم وهو المنع ، قال : لأن الظلمة تسد البصر وتمنع الرؤية ، الإبصار الرؤية .

﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

جموع كثرة على وزن فُعْلٌ وهو قياس في جمع فَعْلَاءَ وأَفْعَلِ الوصفين ، سواء تقابلاً نحو أحمر وحمرء ، أو انفرد المانع في الخلقة نحو عدل ورتق فإن كان الوصف مشتركاً لكن لم يستعملا على نظام أحمر وحمرء ، وذلك نحو رجل آلى وامرأة عجزاء لم ينقص فيه فعل بل يحفظ فيه ، والصمم داء يحصل في الأذن يسد العروق فيمنع من السمع ، وأصله من الصلابة قالوا قنات صماء ، وقيل أصله السد وصممت القارورة سددها ، والبكم آفة تحصل في اللسان تمنع من الكلام قاله أبو حاتم^(١) ، وقيل الذي يولد أخرس وقيل الذي لا يفهم الكلام ولا يهتدي إلى الصواب فيكون إذ ذاك داء في الفؤاد لا في اللسان ، والعمى ظلمة في العين تمنع من إدراك المبصرات ، والفعل منها على فعل بكسر العين واسم الفاعل على أفعال وهو قياس الآفات والعاهات ، والرجوع إن لم يتعد فهو بمعنى العود وإن تعدى فبمعنى الإعادة ، وبعض النحويين يقول إنها تضمن معنى صار فتصير من « باب كان » ترفع الاسم وتنصب الخبر ، قال : « الزمخشري »^(٢) لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بذكر ضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيثات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب بأنه مشاهد وفيه تبيكيت للخصم الألد^(٣) وقمع لسورة الجامع^(٤) الآبي ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفشت في كلام رسول الله ﷺ وكلام الأنبياء والحكماء فقال الله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، ومن سور الإنجيل سور الأمثال انتهى كلامه ، ومثلهم مبتدأ والخبر في الجار والمجرور بعده ، والتقدير كائن كمثل كما يقدر ذلك في سائر حروف الجر وقال ابن عطية الخبر الكاف وهي على هذا اسم كما هي في قول الأعشى : -

(١) محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي مولاهم أبو حاتم الرازي الحافظ الكبير مات في شعبان سنة سبع وسبعين ومائتين - الخلاصة (٣٧٨ / ٢) .

(٢) انظر الكشف (٧٢ / ١) .

(٣) الألد : الخصيم الجدل الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق وجمعه لُدٌ ولِدَادٌ - لسان العرب (٤٠٢٠ / ٥) .

(٤) يقال : فرس جموح : إذا لم يش رأسه وجمع الفرس بصاحبه جمحاً وجماحاً : ذهب يجري جرياً غالباً وأعتر فارسه وغلبه - لسان العرب (٦٧٢ / ١) .

أَتَنَتَّهُوْنَ وَلَٰكِنْ يَنْهَىٰ ذَوِي شَطَطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْقَتْلُ^(١)

انتهى ، وهذا الذي اختاره وبدأ به غير مختار ، وهو مذهب أبي الحسن يجوز أن تكون الكاف اسماً في فصيح الكلام ، وتقدم أنا لا نجيزه ، إلا في ضرورة الشعر ، وقد ذكر ابن عطية الوجه الذي بدأنا به بعد ذكر الوجه الذي اختاره ، وأبعد من زعم أن الكاف زائدة مثلها في قوله فصيروا مثل ﴿ كعصف مأكول ﴾ [الفيل : ٥] ، وحمله على ذلك والله أعلم أنه لما تقرر عنده أن المثل والمثل بمعنى صار المعنى عنده على الزيادة ، إذ المعنى تشبيه المثل بالمثل لا يمثل والمثل هنا بمعنى القصة والشأن فشبه شأنهم ووصفهم ، بوصف المستوقد ناراً ، فعلى هذا لا تكون الكاف زائدة ، وفي جهة المماثلة بينهم وبين الذي استوقد ناراً وجوه ذكروها :

الأول : أن مستوقد النار يدفع بها الأذى فإذا انطفأت عنه وصل الأذى إليه كذلك المنافق يحقن دمه بالإسلام ويبيحه بالكفر .

الثاني : أنه يهتدي بها فإذا انطفأت ضل كذلك المنافق يهتدي بالإسلام فإذا اطلع على نفاقه ذهب عنه نور الإسلام وعاد إلى ظلمة كفره .

الثالث : أنه إذا لم يمدّها بالحطب ذهب ضوءها ، كذلك المنافق إذا لم يستدم الإيمان ذهب إيمانه .

الرابع : أن المستضيء بها نوره من جهة غيره لا من جهة نفسه فإذا ذهب النار بقي في ظلمة ، كذلك المنافق لما أقر بلسانه من غير اعتقاد قلبه كان نور إيمانه كالمستعار .

الخامس : أن الله شبه إقبالهم على المسلمين بالإضاءة وعلى المشركين بالذهاب^(٢) قاله مجاهد .

السادس : شبه الهدى الذي باعوه بالنور الذي حصل للمستوقد والضلالة المشتراة بالظلمات .

السابع : أنه مثل ضربه الله للمنافق لأنه أظهر الإسلام فحقن به دمه ومشى في حرمة وضيائه ثم سلبه في الآخرة عند حاجته إليه^(٣) روي معناه عن الحسن ، وهذه الأقاويل على أن ذلك نزل في المنافقين^(٤) وهو مروي عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي ومقاتل ، وروي عن ابن جبير وعطاء ومحمد بن كعب^(٥) ويومان بن رثاب أنها في اليهود فتكون في المماثلة إذ ذاك وجوه ذكروها :

الأول : أن مستوقد النار يستضيء بنورها ويتأنس وتذهب عنه وحشة الظلمة ، واليهود لما كانوا يبشرون بالنبى ﷺ ويستفتحون به على أعدائهم ويستنصرون به فينصرون شبه حالهم بحال المستوقد النار ، فلما بعث وكفروا به أذهب الله ذلك النور عنهم .

(١) انظر ديوان الأعشى الكبير ص ١٣٤ .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣/١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢/١ - ٣٣) ، عن غير واحد من الصحابة أو التابعين إلا الحسن وأشار ابن كثير في تفسيره لنسبة ذلك إليه (٨١/١) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٢/١ - ٣٣) ، عن ابن عباس وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والصابوني في المائتين . وعن السدي وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم . وعن قتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير - وانظر تفسير ابن كثير (٨٠/١ - ٨١) .

(٥) محمد بن كعب القرظي المدني ثم الكوفي أحد العلماء قال ابن عون : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي توفي سنة تسع عشرة ومائة - الخلاصة (٤٥٢/٢) .

الثاني : شبه نار حربهم التي شبهوا لرسول الله ﷺ بنار المستوقد وإطفاءها بذهاب النور الذي للمستوقد ، الثالث شبه ما كانوا يتلون في التوراة من اسم رسول الله ﷺ وصفته وصفة أمته ودينه وأمرهم باتباعه بالنور الحاصل لمن استوقد ناراً ، فلما غيروا اسمه وصفته وبدلوا التوراة وجحدوا أذهب الله عنهم نور ذلك الإيمان ، وتقدم الكلام على الذي ، وتقدم قول الفارسي في أنه يجري مجرى من في الأفراد والجمع ، وقول الأخفش إنه مفرد في معنى الجمع ، والذي نختاره أنه مفرد لفظاً وإن كان في المعنى نعتاً لما تحته أفراد فيكون التقدير كمثل الجمع الذي استوقد ناراً كأحد التأويلين في قوله :

وَإِنَّ الَّذِي حَانتَ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ^(١)

ولا يحمل على المفرد لفظاً ومعنى بجمع الضمير في ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ وجمعه في دماؤهم ، وأما من زعم أن الذي هنا هو الذين وحذفت النون لطول الصلة فهو خطأ لإفراد الضمير في الصلة ، ولا يجوز الإفراد للضمير لأن المحذوف كالمفروق به ألا ترى جمعه في قوله تعالى ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : ٦٩] ، على أحد التأويلين وجمعه في قول الشاعر : -

يَا رَبَّ عَبَسَ لَا تُبَارِكْ فِي أَحَدٍ فِي قَائِمٍ مِنْهُمْ وَلَا فِيمَنْ قَعَدَ
إِلَّا الَّذِي قَامُوا بِأَطْرَافِ الْمَسَدِ^(٢)

وأما قول الفارسي إنها مثل من ليس كذلك لأن الذي صيغة مفرد ومثنى وجمع بخلاف من فلفظ من مفرد مذكر أبداً وليس ، كذلك الذي ، وقد جعل « الزمخشري »^(٣) ذلك مثل قوله تعالى ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ [التوبة : ٦٩] ، واعل لتسويغ ذلك بأمرين قال : أحدهما أن الذي لكونه وصلة إلى وصف كل معرفة واستطالته بصلته حقيق بالتخفيف ، ولذلك نهكوه بالحذف فحذفوا ياءه ثم كسرتة ثم اقتصروا على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين ، وهذا الذي ذكره من أنهم حذفوه حتى اقتصروا به على اللام وإن كان قد تقدمه إليه بعض النحويين خطأ لأنه لو كانت اللام بقية الذي لكان لها موضع من الإعراب كما كان للذي ، ولما تخطى العامل إلى أن يؤثر في نفس الصلة فيرفعها وينصبها ويجرها ويجاز وصلها بالجمع كما يجوز وصل الذي إذا أقرت ياءه أو حذفت ، قال : والثاني أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون إنما ذلك علامة لزيادة الدلالة ألا ترى أن سائر الموصولات لفظ الجمع والواحد فيهن سواء انتهى . وما ذكره من أن جمعه ليس بمنزلة جمع غيره بالواو والنون صحيح من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فليس كذلك بل هو مثله من حيث المعنى ، ألا ترى أنه لا يكون واقعاً إلا على من اجتمعت فيه شروط ما يجمع بالواو والنون من الذكورية والعقل ، ولا فرق بين الذين يفعلون والفاعلين من جهة أنه لا يكون إلا جمعاً لمذكر عاقل ، ولكنه لما كان مبنياً التزم فيه طريقة واحدة في اللفظ عند أكثر العرب ، وهذيل أتت بصيغة الجمع فيه بالواو والنون رفعاً والياء والنون نصباً وجراً ، وكل العرب التزمت جمع الضمير العائد عليه من صلتها كما يعود على الجمع المذكر العاقل ، فدل هذا كله على أن ما

(١) وهذا صدر بيت وعجزه :

هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ

وهذا البيت للأشهب بن رميلة - انظر لسان العرب (٣٤٥٨/٥) ، الخزانة (٢٥/٦) ، الحماسة البصرية (٢٦٩/١) ، المنصف لابن جني (٦٧/١) .

(٢) انظر روح المعاني (١٦٤/١) .

(٣) انظر الكشف (٧٢/١) .

ذكره ليس بمسوخ لأن يوضع الذي موضع الذين إلا على التأويل الذي ذكرناه من إرادة الجمع أو النوع وقد رجع إلى ذلك الزمخشري^(١) أخيراً ، وقرأ ابن السميع كمثّل الذين على الجمع وهي قراءة مشكلة لأننا قد ذكرنا أن الذي إذا كان أصله الذين فحذفت نونه تخفيفاً لا يعود الضمير عليه إلا كما يعود على الجمع فكيف إذا صرح به ، وإذا صحت هذه القراءة فتخريجها عندي على وجوه :

أحدها : أن يكون أفراد الضمير حملاً على التوهم المعهود مثله في لسان العرب كأنه نطق بمن الذي هو لفظ ، ومعنى كما جزم بالذي من توهم أنه نطق بمن الشرطية ، وإذا كان التوهم قد وقع بين مختلفي الحد وهو إجراء الموصول في الجزم مجرى اسم الشرط فبالحري أن يقع بين متفقي الحد وهو الذين ومن الموصولان مثال الجزم بالذي قول الشاعر : أنشده ابن الأعرابي :

كَذَاكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِمًا تُصِبُّهُ عَلَى رَغَمِ عَوَاقِبُ مَا صَنَعَ^(٢)

الثاني : أن يكون أفراد الضمير وإن كان عائداً على جمع اكتفاء بالإفراد عن الجمع كما تكتفي بالمفرد الظاهر عن الجمع ، وقد جاء مثل ذلك في لسان العرب ، أنشد أبو الحسن :

وَبِالْبَدْوِ مِنَّا أُسْرَةٌ يَحْفَظُونَنَا سِرَاعٌ إِلَى الدَّاعِي عِظَامٌ كَرَاكِرُهُ^(٣)

أي كراكرهم .

والثالث : أن يكون الفاعل الذي في استوقد ليس عائداً على الذين وإنما هو عائد على اسم الفاعل المفهوم من استوقد ، التقدير استوقد هو : أي المستوقد فيكون نحو قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ ﴾ [يوسف : ٣٥] ، أي هو : أي البداء المفهوم من بدا على أحد التأويلات في الفاعل في الآية ، وفي العائد على الذين وجهان على هذا التأويل :

أحدهما : أن يكون حذف وأصله لهم : أي كمثل الذي استوقد لهم المستوقد ناراً وإن لم تكن فيه شروط الحذف المقيس فيكون مثل قول الشاعر :

وَلَوْ أَنَّ مَا عَالَجْتُ لَيْنَ فُؤَادِهَا فَفَسَا اسْتِيلِينَ بِهِ لَلَانَ الْجَنْدَلُ^(٤)

يريد ما عالجت به فحذف حرف الجر والضمير ، وإن لم يكن فيه شروط الحذف المقيس وهي مذكورة في مبسوطات كتب النحو ، وضابطها أن يكون الضمير مجروراً بحرف جر ليس في موضع رفع وأن يكون الموصول أو الموصوف به الموصول أو المضاف للموصل قد جر بحرف مثل ذلك الحرف لفظاً ومعنى وأن يكون الفعل الذي تعلق به الحرف الذي جر الضمير مثل ذلك الفعل الذي تعلق به الحرف السابق .

والوجه الثاني : أن تكون الجملة الأولى الواقعة صلة لا عائد فيها لكن عطف عليها جملة بالفاء وهي جملة لما وجوابها ، وفي ذلك عائد على الذي فحصل الربط بذلك العائد المتأخر ، فيكون شبيهاً بما أجازوه من الربط في باب

(١) انظر الكشف (٧٣/١) .

(٢) البيت من البسيط لتمام بن مقبل انظر أمالي ابن الشجري (٣٠١/٢) ، شرح شواهد الشافية (٢٣٦) ، روح المعاني (١٦٤/١) .

(٣) البيت من الطويل لم يعلم قائله - انظر دقائق التصريف (١٤٣) ، وروايته فيه (... كرام كراكره) ، روح المعاني (١٦٤/١) .

(٤) البيت من الوافر للأحوص - انظر الخزانة (٢٤٨/١) ، مغني اللبيب (٤٠٨) ، همع الهوامع (٩٠/١) ، الدرر اللوامع (٦٨/١) .

الابتداء من قولهم « زيد جاءت هند فضربتها » ويكون العائد على الذين الضمير الذي في جواب لما وهو قوله تعالى ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولم يذكر أحد ممن وقفنا على كلامه تخريج قراءة ابن السميغ ، واستوقد استفعل وهي بمعنى أفعل حكى أبو زيد أوقد واستوقد بمعنى ، ومثله أجاب واستجاب ، وأخلف لأهله واستخلف : أي خلف الماء ، أو للطلب ، جوز المفسرون فيها هذين الوجهين من غير ترجيح ، وكونها بمعنى أوقد قول الأخفش وهو أرجح لأن جعلها للطلب يقتضي حذف جملة حتى يصح المعنى وجعلها بمعنى أوقد لا يقتضيه ألا ترى أنه يكون المعنى في الطلب « استدعوا ناراً فأوقدوها فلما أضاءت ما حوله » ، لأن الإضاءة لا تسبب عن الطلب إنما تسبب عن الاتقاد ، فلذلك كان حملها على غير الطلب أرجح والتشبيه وقع بين قصة وقصة فلا يحتاج في نحو هذا التشبيه إلى مقابلة جماعة بجماعة ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [الجمعة : ٥] ، وعلى أنه في قوله ﴿ كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ هو من قبيل المقابلة أيضاً ، ألا ترى أن المعنى هو كمثل الجمع أو الفوج الذي استوقد فهو من المفرد اللفظ المجموع المعنى ، على أن من المفسرين من تخيل أنه مفرد ورام مقابلة الجمع بالجمع فادعى أن ذلك هو على حذف مضاف ، التقدير « كمثل أصحاب الذي استوقد » ولا حاجة إلى هذا الذي قدره لأنه لو فرضناه مفرداً لفظاً ومعنى لما احتج إلى ذلك لأن التشبيه إنما جرى في قصة بقصة وإذا كان كذلك فلا تشترط المقابلة كما قدمنا ، ونكر ناراً وأفردها لأن مقابلها من وصف المنافق إنما هو نزر يسير من التقييد بالإسلام وجوانحه منظوية على الكفر والنفاق مملوءة به ، فشبه حاله بحال من استوقد ناراً ما إذ لا يدل إلا على المطلق لا على كثرة ولا على عهد ، والفاء في (فلما) للتعقيب وهي عاطفة جملة الشرط على جملة الصلة ، ومن زعم أنها دخلت لما تضمنته الصلة من الشرط وقدره إن استوقد فهو فاسد من وجوه ، وقد تقدم الرد على ما يشبه هذا الزعم في قوله فما ربحت تجارتهم فأغنى عن إعادته هنا ، وأضاءت قيل متعد وقيل لازم ومتعد قالوا وهو أكثر وأشهر فإذا كان متعدياً كانت الهمزة فيه للنقل إذ يقال ضاء المكان كما قال العباس بن عبد المطلب في النبي عليه الصلاة والسلام :

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ ضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأَفْقُ^(١)

والفاعل إذ ذاك ضمير النار وما مفعوله وحوله صلة معمولة لفعل محذوف لا نكرة موصوفة وحوله صفة لقلة استعمال ما نكرة موصوفة ، وقد تقدم لنا الكلام في ذلك : أي فلما أضاءت النار المكان الذي حوله وإذا كان لازماً ، فقالوا إن الضمير في أضاءت للنار وما زائدة وحوله ظرف معمول للفعل ، ويجوز أن يكون الفاعل ليس ضمير النار وإنما هو ما الموصولة ، وأنت على المعنى : أي فلما أضاءت الجهة التي حوله كما أنثوا على المعنى في قولهم « ما جاءت حاجتك » ، وقد ألم الزمخشري^(٢) بهذا الوجه ، وهذا أولى مما ذكره لأنه لا يحفظ من كلام العرب « جلست ما مجلساً حسناً » ولا « قمت ما يوم الجمعة » ، والحمل على المعنى محفوظ كما ذكرناه ولو سمع زيادة « ما » في نحو هذا لم يكن ذلك من مواضع اطراد زيادة ما ، والأولى في الآية بعد ذلك أن يكون أضاءت متعدية فلا تحتاج إلى تقدير زيادة ولا حمل على المعنى ، وقرأ ابن السميغ وابن أبي عبلة فلما ضاءت ثلاثياً فيخرج على زيادة ما وعلى أن تكون هي الفاعلة إما موصولة وإما موصوفة كما تقدم ، ولما جوابها ذهب الله بنورهم ، وجمع الضمير في بنورهم حملاً على معنى الذي إذا قررنا أن المعنى كالجمع الذي استوقد أو على ذلك المحذوف الذي قدره بعضهم وهو كمثل أصحاب الذي استوقد ،

(١) البيت من المنسرح وهو من قصيدة للعباس بن عبد المطلب يمدح بها رسول الله ﷺ - انظر الحماسة (٩٣١/١) ، الأمالي للزجاج ص ٦٦ ، الاقتضاب (٢٧٣/٣) ، السيرة الحلبية ص ٦٢ .

(٢) انظر الكشف (٧٨/١) .

وأجازوا أن يكون جواب لما محذوفاً لفهم المعنى كما حذفوه في قوله ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا ﴾ [يوسف : ١٥] ، قال « الزمخشري »^(١) وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الالباس الدال عليه انتهى . وقوله لاستطالة الكلام غير مسلم لأنه لم يستطال الكلام لأنه قدره خمدت وأي استطالة في قوله ﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ خمدت بل هذا لما وجوابها فلا استطالة بخلاف قوله ﴿ فلما ذهبوا به ﴾ فإن الكلام قد طال بذكر المعاطيف التي عطف على الفعل وذكر متعلقاتها بعد الفعل الذي يلي لما فلذلك كان الحذف سائغاً لاستطالة الكلام ، وقوله مع أمن الالباس ، وهذا أيضاً غير مسلم وأي أمن إلباس في هذا ، ولا شيء يدل على المحذوف بل الذي يقتضيه ترتيب الكلام وصحته ووضعه مواضعه أن يكون ذهب الله بنورهم هو الجواب فإذا جعلت غيره الجواب مع قوة ترتب ذهاب الله بنورهم على الإضاءة كان ذلك من باب اللغز إذ تركت شيئاً يبادر إلى الفهم وأضمرت شيئاً يحتاج في تقديره إلى وحي يسفر عنه إذ لا يدل على حذفه اللفظ مع وجود تركيب ذهب الله بنورهم ، ولم يكتف الزمخشري بأن جوز حذف هذا الجواب حتى ادعى أن الحذف أولى ، قال وكان الحذف أولى من الإثبات لما فيه من الوجازة مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ للفظ في أداء المعنى ، كانه قيل فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار انتهى . وهذا الذي ذكره نوع من الخطابة لا طائل تحتها لأنه كان يمكن له ذلك لو لم يكن يلي قوله ﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ قوله ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ، وأما ما في كلامه بعد تقدير خمدت إلى آخره فهو مما يحمل اللفظ ما لا يحتمله ويقدر تقادير وجمالاً محذوفة لم يدل عليها الكلام وذلك عادته في غير ما كلام في معظم تفسيره ولا ينبغي أن يفسر كلام الله بغير ما يحتمله ولا أن يزداد فيه بل يكون الشرح طبق المشروح من غير زيادة عليه ولا نقص منه ولما جوزوا حذف الجواب تكلموا في قوله تعالى ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ فخرجوا ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يكون مستأنفاً جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد فقيل ذهب الله بنورهم .

والثاني : أن يكون بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان قالهما الزمخشري .

وكلا الوجهين مبنيان على أن جواب لما محذوف ، وقد اخترنا غيره وأنه قوله تعالى ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ والوجه الثاني من التخريجين اللذين تقدم ذكرهما ، وهو أن يكون قوله ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ بدلاً من جملة التمثيل على سبيل البيان لا يظهر في صحته لأن جملة التمثيل ، هي قوله مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فجعله ذهب الله بنورهم بدلاً من هذه الجملة على سبيل البيان لا يصح ، لأن البديل لا يكون في الجمل ، إلا إن كانت الجملة فعلية تبدل من جملة فعلية فقد ذكروا جواز ذلك^(٢) ، وأما أن تبدل جملة فعلية من جملة اسمية فلا أعلم أحداً أجاز ذلك ، والبديل على نية تكرار العامل^(٣) والجملة الأولى لا موضع لها من الإعراب لأنها لم تقع موقع المفرد فلا يمكن أن تكون الثانية على نية تكرار العامل ، إذ لا عامل في الأولى فتكرر في الثانية ، فبطلت جهة البديل فيها ، ومن جعل الجواب محذوفاً جعل الضمير في

(١) انظر الكشف (١ / ٧٣) .

(٢) قال السيوطي في همع الهوامع : وتبدل الجملة من الجملة نحو (أمركم بما تعلمون أمركم بأنعام وبنين) (إني جزيتهم اليوم بما صبروا إنهم هم الفائزون) - انظر همع الهوامع (٢ / ١٢٨) .

(٣) معنى تكرير العامل أنك إذا قلت مررت بأخيك زيد تقديره مررت بأخيك يزيد وإذا قلت رأيت أخاك زيداً فتقديره رأيت أخاك رأيت زيداً فذلك المقدر هو العامل في البديل إلا أنه حذف لدلالة الأول عليه فالبديل من غير جملة المبدل منه هذا مذهب أبي الحسن الأخفش وجماعة من محققي المتأخرين كأبي علي الرماني وغيرهم والحجة لهم في ذلك أنه قد ظهر في بعض المواضع فمن ذلك قوله تعالى : (وقال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم) فقوله : لمن آمن منهم بدل من الذين استضعفوا وهو بديل

(بنورهم) عائداً على المنافقين ، والباء في بنورهم للتعدية وهي إحدى المعاني الأربعة عشر التي تقدم أن الباء تجيء لها ، وهي عند جمهور النحويين ترادف الهمزة ، فإذا قلت خرجت بزيد فمعناه أخرجت زيداً ، ولا يلزم أن تكون أنت خرجت ، وذهب أبو العباس إلى أنك إذا قلت قمت بزيد دل على أنك قمت وأقمته ، وإذا قلت أقمت زيداً لم يلزم أنك قمت ، ففرق بين الباء والهمزة في التعدية ، وإلى نحو من مذهب أبي العباس ذهب السهيلي قال تدخل الباء يعني المعدية حيث تكون من الفاعل بعض مشاركة للمفعول في ذلك الفعل ، نحو أقعدته وقعدت به ، وأدخلته الدار ودخلت به ، ولا يصح هذا في مثل أمرضته وأسقمته ، فلا بد إذن من مشاركة ولو باليد إذا قلت قعدت به ودخلت به ، ورد على أبي العباس بهذه الآية ونحوها ، ألا ترى أن المعنى أذهب الله نورهم ، ألا ترى أن الله لا يوصف بالذهاب مع النور ، قال بعض أصحابنا ولا يلزم ذلك أبا العباس إذ يجوز أن يكون الله وصف نفسه بالذهاب على معنى يليق به ، كما وصف نفسه تعالى بالمجيء في قوله ﴿ وجاء ربك ﴾ [الفجر : ٢٢] ، والذي يفسد مذهب أبي العباس من التفرقة بين الباء والهمزة قول الشاعر : -

دِيَارُ الَّتِي كَانَتْ وَنَحْنُ عَلَى مَنَى تَجِلُّ بِنَا لَوْلَا نَجَاءُ الرِّكَائِبِ^(١)

أي تحلنا ألا ترى أن المعنى تصيرنا خللاً غير محرمين ، وليست تدخل معهم في ذلك ، لأنها لم تكن حراماً فتصير خللاً بعد ذلك ، ولكون الباء بمعنى الهمزة لا يجمع بينهما ، فلا يقال أذهبت بزيد ، ولقوله تعالى ﴿ تنبت بالدهن ﴾ [المؤمنون : ٢٠] ، في قراءة من جعله رباعياً تخريج يذكر في مكانه إن شاء الله تعالى ، ولباء التعدية أحكام غير هذا ذكرت في النحو .

وقرأ اليماني « أذهب الله نورهم » وهذا يدل على مرادفة الباء للهمزة ، ونسبة الإذهاب إلى الله تعالى حقيقة ، إذ هو فاعل الأشياء كلها ، وفي معنى (ذهب الله بنورهم) ثلاثة أقوال :

أحدها : قال ابن عباس هو مثل ضرب للمنافقين ، كانوا يعتزون بالإسلام ، فناكحهم المسلمون ووارثوهم وقاسموهم الفيء ، فلما ماتوا سلبهم الله العز كما سلب موقد النار ضوءه ، ﴿ وتركهم في ظلمات ﴾ أي في عذاب^(٢) .

الثاني : أن ذهاب نورهم باطلاع الله المؤمنين على كفرهم ، فقد ذهب منهم نور الإسلام بما أظهر من كفرهم .

الثالث : أبطل نورهم عنده ، إذ قلوبهم على خلاف ما أظهروا ، فهم كرجل أوقد ناراً ثم طفئت فعاد في ظلمة .

وهذه الأقوال إنما تصح إذا كان الضمير في (بنورهم) عائداً على المنافقين ، وإن عاد على المستوقدين فذهاب

البعض لأن المؤمنين بعض المستضعفين ، ومن ذلك قوله تعالى : (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة) فقلوه : لبيوتهم بدل من لمن يكفر بالرحمن وهو بدل الاشتغال وقد أظهر العامل قالوا فلو كان العامل في البذل هو العامل في المبدل منه لآدى ذلك إلى محال وهو أن يكون قد عمل في الاسم عاملان وهما اللام الأولى واللام الثانية إذ حروف الخفض لا تعلق عن العمل وقيل لأبي علي كيف يكون البذل إيضاحاً للمبدل منه وهو من غير جملة فقال لما لم يظهر العامل في المبدل منه واتصل البذل بالمبدل منه في اللفظ جاز أن يوضحه وذهب سيويه وأبو العباس محمد بن يزيد والسيرافي من المتأخرين إلى أن العامل في البذل هو العامل في المبدل منه كالنعت والتأكيد وذلك لتعلقهما به من طريق واحد وأما ظهور العامل في بعض المواضع فقد يكون تأكيداً كما يتكرر العامل في الشيء الواحد . انظر شرح المفصل (٦٧/٣ - ٦٨) ، انظر البسيط شرح الجمل (٣٨٧/١) .

(١) البيت من الطويل لقيس بن الخطيم ، ديوانه (٧٦ - ٧٩) ، الكامل (٣٩٢/١) ، الخزائن (٢٧/٧) ، اللسان (حلل) .

(٢) انظر الدر المنثور (٣٢/١) .

النور هو إطفاء النار التي أوقدوها ، ويكون بأمر سماوي ليس لهم فيه فعل ، فلذلك قال الضحاك لما أضاءت النار أرسل الله عليها ريحاً عاصفاً فأطفأها ، وهذا التأويل يأتي على قول من قال إنها نار حقيقة ، أوقدها أهل الفساد ليتوصلوا بها وينوروا إلى فسادهم وعبثهم ، فأحمد الله نارهم وأضل سعيهم ، وأما إذا قلنا إن ذكر النار هنا مثل لا حقيقة لها ، وأن المراد بها نار العداوة والحقد ، فإذهب الله لها دفع ضررها عن المؤمنين ، وإذا كانت النار مجازية فوصفها بالإضاءة ما حول المستوقد هو من مجاز الترشيع ، وقد تقدم الكلام فيه وإذهب النور أبلغ من إذهب الضوء ، لاندرج الأخص في نفي الأعم لا العكس ، فلو أتى بضوئهم لم يلزم ذهاب النور ، والمقصود إذهب النور عنهم أصلاً ألا ترى كيف عقبه بقوله ﴿ وتركههم في ظلمات ﴾ ، وإضافة النور إليهم من باب الإضافة بأدنى ملابسة إذ إضافته إلى النار هو الحقيقة لكن مما كانوا ينتفعون به صح إضافته إليهم ، وقرأ الجمهور في ظلمات بضم اللام ، وقرأ الحسن وابن السماك بسكون اللام ، وقرأ قوم بفتحها وهذه اللغى الثلاث جائزة في جمع فعلة الاسم الصحيح العين غير المضعف ولا المعل اللام بالتاء ، فإن اعتلت بالياء نحو كلية امتنعت الصفة ، أو كان مضعفاً نحو درة ، أو معتل العين نحو سورة ، أو وصفاً نحو بهمة امتنعت الفتحة والضممة ، وقرأ قوم أن « ظلمات » بفتح اللام جمع ظلم الذي هو جمع ظلمة ، فظلمات على هذا جمع جمع والعدول إلى الفتح تخفيفاً أسهل من ادعاء جمع الجمع لأن العدول إليه قد جاء في نحو كسرات جمع كسرة جواز وإليه في نحو جفنة وجوباً فعلة وفعلة أخوات ، وقد سمع فيها الفتح بالقيود التي تقدمت وجمع الجمع ليس بقياس ، فلا ينبغي أن يصار إليه إلا بدليل قاطع ، وقرأ اليماني في ظلمة على التوحيد ليطابق بين أفراد النور والظلمة ، وقراءة الجمع لأن كل واحد له ظلمة تخصه فجمعت لذلك ، وحيث وقع ذكر النور والظلمة في القرآن جاء على هذا المنزع من أفراد النور وجمع الظلمات ، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله ، ونكرت الظلمات ولم تضاف إلى ضميرهم كما أضيف النور اكتفاء بما دل عليه المعنى من إضافتها إليهم من جهة المعنى ، واختصار اللفظ ، وإن كان ترك متعدياً لواحد فيحتمل أن يكون في ظلمات في موضع الحال من المفعول فيتعلق بمحذوف ، ولا يبصرون في موضع الحال أيضاً إما من الضمير في تركهم ، وأما من الضمير المستكن في المجرور فيكون حالاً متداخلة ، وهي في التقديرين حال مؤكدة ، ألا ترى أن من ترك في ظلمة لزم من ذلك أنه لا يبصر ، وإن كان ترك مما يتعدى إلى اثنين كان في ظلمات في موضع المفعول الثاني ، ولا يبصرون جملة حالية ، ولا يجوز أن يكون (في ظلمات) في موضع الحال و (لا يبصرون) جملة في موضع المفعول الثاني ، وإن كان يجوز « ظننت زيدا منفرداً لا يخاف » ، وأنت تريد ظننت زيداً في حال انفراده لا يخاف ، لأن المفعول الثاني أصله خبراً لمبتدأ ، وإذا كان كذلك فلا يأتي الخبر على جهة التأكيد إنما ذلك على سبيل بعض الأحوال لا الأخبار ، فإذا جعلت في ظلمات في موضع الحال كان قد فهم منها أن من هو في ظلمة لا يبصر فلا يكون في قوله لا يبصرون من الفائدة إلا التوكيد ، وذلك لا يجوز في الأخبار ألا ترى إلى تخريج النحويين قول امرئ القيس : -

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْحَرَفَتْ لَهُ بِشَقٌّ وَشَقٌّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلْ^(١)

على أن (وشق) مبتدأ وعندنا في موضع الخبر (ولم يحول) جملة حالية أفادت التأكيد ، وجاز الابتداء بالنكرة لأنه موضع الخبر ، لأنه يؤدي إلى مجيء الخبر مؤكداً لأن نفي التحويل مفهوم من كون الشق عنده ، فإذا استقر عنده

(١) بشق : بشرط جسمها انظر ديوان امرئ القيس (١١٣) . والبيت من معلقته ونصه :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتي شقها لم يحول
راجع شرح المعلقات للتبريزي ص ٣٢ .

ثبت أنه لم يحول عنه ، قال ابن عباس والظلمات هنا لعذاب^(١) ، وقال مجاهد ظلمة الكفر ، وقال قتادة ظلمة يلقيها الله عليهم بعد الموت ، وقال السدي ظلمة النفاق^(٢) ، ولم يذكر مفعول لا يصرون ، ولا ينبغي أن ينوى لأن المقصود نفي الإبصار عنهم لا بالنسبة إلى متعلقه ، قرأ الجمهور « صم بكم عمي » بالرفع ، وهو على إضمار مبتدأ تقديره هم صم ، وهي أخبار متبينة في اللفظ والدلالة الوضعية لكنها في موضع خبر واحد إذ يؤول معناها كلها إلى عدم قبولهم الحق ، وهم سمعوا الأذان فصاح الألسن بصراء الأعين ، لكنهم لم يصيخوا إلى الحق ، ولا نطقت به ألسنتهم ، ولا تلمحوا أنوار الهداية وصفوا بما وصفوا من الصمم والبكم والعمى ، وقد سمع عن العرب لهذا نظائر أنشد الزمخشري من ذلك أبياتاً وأنشد غيره : -

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزْتُ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخِذْرُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا أَذْنِي وَمَا فِي سَمْعِهَا وَقَرُّ^(٣)

وهذا من التشبيه البليغ عند المحققين ، وليس من باب الاستعارة لأن المستعار له مذكور ، وهم المنافقون والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام كقول زهير : -

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمْ^(٤)

وحذف المبتدأ هناك لذكره فلا يقال إنه من باب الاستعارة إذ هو كقول زهير : -

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ^(٥)

والإخبار عنهم بالصمم والبكم والعمى هو كما ذكرناه من باب المجاز ، وذلك لعدم قبولهم الحق ، وقيل وصفهم الله بذلك لأنهم كانوا يتعاطون التصامم والتباكم والتعامي من غير أن يكونوا متصفين بشيء من ذلك ، فنبه على سوء اعتمادهم وفساد اعتقادهم ، والعرب إذا سمعت ما لا تحب أو رأت ما لا يعجب طرحوا ذلك كأنهم ما سمعوه ولا رأوه ، قال تعالى ﴿ كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا كَانَ فِي أذْنِهِ وَقَرَأَ ﴾^(٦) وقالوا قلوبنا في أكنة ﴿ [فصلت : ٥] الآية ، قيل : ويجوز أن يكون أريد بذلك المبالغة في ذمهم وأنهم من الجهل والبلادة أسوأ حالاً من البهائم ، وأشبه حالاً من الجمادات التي لا تسمع ولا تتكلم ولا تبصر ، فمن عدم هذه المدارك الثلاثة كان من الذم في الرتبة القصوى ، ولذلك لما أراد إبراهيم

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٨٢/١) ، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٨٢/١) ، عن السدي في تفسيره .

(٣) انظر روح المعاني (١٦٩/١) ، وذكر القرطبي البيت الأول ونسبه للدارمي (١٥٠/١) .

(٤) قوله : « لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَذَّفٍ » هذه رواية الأعمش .

ورواية الخطيب : « مقاذف » انظر شرح المعلقات (١٤٦) .

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف (٧٨/١) ، وذكر بعده في الحاشية : -

هلا كررت على غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر

نسبه لعمران بن حطان قاتل الحجاج .

(٦) الْوَقْرُ : ثقل في الأذن بالفتح وقيل : هو أن يذهب السمع كله والثقل أخف من ذلك وقد وقرت أذنه بالكسر تَوَقَّرَ وَقَرَأَ أَي : صَمَّتْ - لسان العرب (٤٨٨٩/٦) .

على نبينا وعليه السلام المبالغة في ذم آلهة أبيه ، قال ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ [مريم : ٤٢] ، وهذه الجملة خبرية ولا ضرورة تدعو إلى اعتقاد أنه خبر أريد به الدعاء ، وإن كان قد قاله بعض المفسرين قال دعاء الله عليهم بالصمم والبكم والعمى جزاء لهم على تعاطيهم ذلك ، فحقق الله فيهم ما يتعاطونه من ذلك ، وكأنه يشير إلى ما يقع في الآخرة من قوله ﴿ ويحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، وقرأ عبد الله بن مسعود وحفصة أم المؤمنين صُماً بُكْماً عَمِياً بالنصب ، وذكروا في نصبه وجوهاً : أحدها : أن يكون مفعولاً ثانياً لترك ، ويكون في ظلمات متعلقاً بتركهم ، أو في موضع الحال ولا يبصرون حال .

الثاني : أن يكون منصوباً على الحال من المفعول في تركهم على أن تكون لا تتعدى إلى مفعولين ، أو تكون تعدت إليهما وقد أخذتهما .

الثالث : أن يكون منصوباً بفعل محذوف تقديره أعني .

الرابع : أن يكون منصوباً على الحال من الضمير في يبصرون ، وفي ذلك نظر .

الخامس : أن يكون منصوباً على الذم صماً بكمماً فيكون كقول النابغة : -

أَفَارُعُ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا وَجُوهُ قُرُودٍ تَبْتَغِي مَنْ تُجَادِعُ^(١)

وفي الوجوه الأربعة السابقة لا يتعين أن تكون الأوصاف الثلاثة من أوصاف المنافقين إذ هي متعلقة في العمل بما قبلها ، وما قبلها الظاهر أنه من أوصاف المستوقدين إلا أن جعل الكلام في حال المستوقد قد تم عند قوله ﴿ فلما أضاءت ما حوله ﴾ [البقرة : ١٧] ، وكان الضمير في نورهم يعود على المنافقين فإذا كان ذلك تكون الأوصاف الثلاثة لهم ، وأما في الوجه الخامس فيظهر أنها من أوصاف المنافقين لأنها حالة الرفع من أوصافهم ، ألا ترى أن التقدير هم صم أي المنافقون فكذلك في النصب ، ونص بعض المفسرين على ضعف النصب على الذم ولم يبين جهة الضعف ، ووجهه أن النصب على الذم إنما يكون حيث يذكر الاسم السابق ، فتعدل عن المطابقة في الإعراب إلى القطع وها هنا لم يتقدم اسم سابق تكون هذه الأوصاف موافقة له في الإعراب فتقطع فمن أجل هذا ضعف النصب على الذم ، فهم لا يرجعون جملة خبرية معطوفة على جملة خبرية ، وهي من حيث المعنى مترتبة على الجملة السابقة ومتعقبها ، لأن من كانت فيه هذه الأوصاف الثلاثة التي هي كناية عن عدم قبول الحق ، جدير أن لا يرجع إلى إيمان ، فإن كانت الآية في معنيين فذلك واضح ، لأن من أخبر الله عنه لا يرجع إلى الإيمان لا يرجع إليه أبداً ، وإن كانت في غير معنيين فذلك مقيد بالديمومة على الحالة التي وصفهم الله بها ، قال قتادة ومقاتل لا يرجعون عن ضلالهم^(٢) ، وقال السدي لا يرجعون إلى الإسلام^(٣) ، وقيل لا يرجعون عن الصمم والبكم والعمى ، وقيل لا يرجعون إلى ثواب الله ، وقيل عن التمسك بالنفاق ، وقيل إلى الهدى بعد أن باعوه أو عن الضلالة بعد أن اشتروها ، وأسند عدم الرجوع إليهم لأنه لما جعل تعالى لهم عقولاً للهداية وبعث إليهم رسلاً بالبراهين القاطعة وعدلوا عن ذلك إلى اتباع أهوائهم والجري على مألوف آبائهم

(١) البيت من الطويل للنابغة ديوانه (٣٤ ، ٣٥) ، الخزنة (٤٤٦/٢) ، الإفصاح (٢٨٣) ، اللسان (جدع) .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٨٢/١) ، عن قتادة وكذا القرطبي في تفسيره (١٥٠/١) ، وابن جرير عن قتادة نحوه (٣٣٢/١) (٤٠٢) .

(٣) انظر الطبري (٣٣٢/١) رقم (٤٠٣) ، ابن كثير (٨٢/١) ، عن السدي .

كان عدم الرجوع من قبل أنفسهم ، وقد قدمنا أن فعل العبد ينسب إلى الله اختراعاً وإلى العبد لملاسته له ، ولذلك قال في هذه الآية ﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ [البقرة : ١٨] ، فأضاف هذه الأوصاف الذميمة إلى ملاسيتها ، وقال تعالى ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : ٢٣] ، فأضاف ذلك إلى الموجد تعالى ، وهذه الأقاويل كلها على تقدير أن يكون الركوع لازماً ، وإن كان متعدياً كان المفعول محذوفاً تقديره فهم لا يرجعون جواباً

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُهُمْ فِيءَ إِذَا نِهِم مِّنَ الصَّوَعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ أو لها خمسة معان : الشك والإبهام والتخيير والإباحة والتفصيل وزاد الكوفيون أن تكون بمعنى الواو وبمعنى بل وكان شيخنا أبو الحسن بن الصائغ يقول أو لأحد الشيئين أو الأشياء ، وقال السهيلي أو للدلالة على أحد الشيئين من غير تعيين ، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه من حيث إن الشك تردد بين أمرين من غير ترجيح ، لا أنها وضعت للشك فقد تكون في الخبر ولا شك إذا أبهمت على المخاطب ، وأما التي للتخيير فعلى أصلها لأن المخير إنما يريد أحد الشيئين ، وأما التي زعموا أنها للإباحة فلم تؤخذ للإباحة من لفظ أو ، ولا من معناها ، إنما أخذت من صيغة الأمر مع قرائن الأحوال ، وإنما دخلت لغلبة العادة في أن المشتغل بالفعل الواحد لا يشتغل بغيره ولوجع بين المباحين لم يعص ، علماً بأن أو ليست معتمدة هنا ، (الصيب) المطر يقال صاب يصوب فهو صيب إذا نزل والسحاب أيضاً قال الشاعر :-

حَتَّى عَفَاها صَيْبٌ وَدُقُهُ دَانِي النُّوَاجِي مُسْبِلٌ هَاطِلٌ^(١)

وقال الشماخ^(٢) :

وَأَشْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرَّعْدِ صَيْبٌ^(٣)

ووزن صيب فيعمل عند البصريين وهو من الأوزان المختصة بالمعتل العين إلا ما شذ في الصحيح ، من قولهم صيقل بكسر القاف علم لامرأة ، وليس وزنه فعلاً خلافاً للبراء ، وقد نسب هذا المذهب للكوفيين وهي مسألة يتكلم عليها في علم التصريف ، وقد تقدم الكلام على تخفيف مثل هذا ، السماء كل ما علاك من سقف ونحوه ، والسماء المعروفة ذات البروج ، وأصلها الواو لأنها من السمو ، ثم قد يكون بينها وبين المفرد تاء تأنيث قالوا سماوة ، وتصح الواو إذ ذاك لأنها بنيت عليها الكلمة قال العجاج :-

طِيُّ الْيَالِي زُلْفًا فَرُزْلَفًا سَمَاوَةُ الْهَلَالِ حَتَّى أَحْقَوْقَفًا

(١) انظر روح المعاني (١/١٧١) .

(٢) الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الديلمي الغطفاني شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وهو من طبقة لبيد والنابعة - انظر الأعلام (٣/١٧٥) ، خزائن الأدب (١/٥٢٦) .

(٣) ذكره في الكشف (١/٨١) ، هو عجز بيت صدره :

عفا آية نَسَجَ الْجَنُوبِ مع الصبا

ونسبه في حاشية الكشف للشماخ ، وقيل : للنابعة ، وقيل : للهيثم بن خوار .

والسماء مؤنث وقد يذكر ، قال الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْمًا لَحَقْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ^(١)

والجنس الذي ميز واحده بتاء يؤنثه الحجازيون ويذكره التميميون وأهل نجد ، وجمعهم لها على سموات ، وعلى أسمية وعلى سماء ، قال فوق سبع سمائنا شاذ ، لأنه أولاً اسم جنس فقياسه أن لا يجمع ، وثانياً فجمعه بالألف والتاء ليس فيه شرط ما يجمع بهما قياساً ، وجمعه على أفعلة ليس مما ينقاس في المؤنث ، وعلى فاعل لا ينقاس في فعال ، (الرعد) قال ابن عباس ومجاهد وشهر بن حوشب^(٢) وعكرمة^(٣) الرعد ملك يزرع السحاب بهذا الصوت^(٤) ، وقال بعضهم كلما خالفت سحابة صاح بها ، والرعد اسمه ، وقال علي وعطاء وطاوس والخليل صوت ملك يزرع السحاب^(٥) ، وروي هذا أيضاً عن ابن عباس ومجاهد^(٦) ، وقال مجاهد أيضاً صوت ملك يسبح وقيل ريح يختنق بين السماء والأرض ، وروي عن ابن عباس أنه ريح تختنق بين السحاب فتصوت ذلك الصوت^(٧) ، وقيل اصطكاك الأجرام السحابية وهو قول أرباب الهيئة ، والمعروف في اللغة أنه اسم الصوت المسموع ، وقاله علي ، قال بعضهم أكثر العلماء على أنه ملك والمسموع صوته يسبح ويزجر السحاب ، وقيل الرعد صوت تحريك أجنحة الملائكة الموكلين بزرع السحاب ، وتلخص من هذه النقول قولان : أحدهما : أن الرعد ملك .

الثاني : أنه صوت قالوا وسمي هذا الصوت رعداً لأنه يرعد سامعه ، ومنه رعدت الفرائض أي حركت وهزت كما تهزه الرعدة واتسع فيه ، فقليل أرعد أي هدد وأوعد ، لأنه ينشأ عن الإبعاد والتهدد ، ارتعاد الموعد والمهدد ، (البرق) مخراف حديد بيد الملك يسوق به السحاب^(٨) قاله علي ، أو أثر ضرب بذلك المخراف ، وروي عن علي ، أو سوط نور بيد الملك يزرعها^(٩) به قاله ابن عباس ، أو ضرب ذلك السوط^(١٠) قاله ابن الأنباري ، وعزاه إلى ابن عباس ، وروي نحوه^(١١) عن مجاهد أو ملك يتراءى^(١٢) ، وروي عن ابن عباس ، أو الماء قاله قوم^(١٣) ، منهم أبو الجلد جيلان بن فروة

(١) البيت من الوافر لم يعلم قائله - انظر اللسان (سما) ، معاني القرآن للفراء (١٢٨/١) ، المذكر والمؤنث ص ١٠٢ ، انظر روح المعاني (١٧١/١) ، مجالس العلماء للزجاجي (٧٥) .

(٢) شهر بن حوشب مولى أسماء بنت يزيد بن السكن أبو سعيد الشامي وثقه ابن معين ، وأحمد ، وضعفه النسائي ، وقال أبو زرعة : لا بأس به توفي سنة مائة - الخلاصة (٤٥٧/١) .

(٣) عكرمة البربري مولى ابن عباس أبو عبد الله أحد الأئمة الأعلام وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم توفي سنة خمس ومائة (٢٤٠/٢) .

(٤) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٣٨/١ - ٣٣٩) ، عن مجاهد (٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢) ، وعن شهر بن حوشب رقم (٤٢٣) ، وعن ابن عباس رقم (٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧) ، وعن عكرمة (٤٢٨) .

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (١٥١/١) ، عن علي رضي الله عنه وأكثر العلماء .

(٦) انظر منتخب الكنز (٤٥٩/٢) ، عن ابن عباس .

(٧) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٤١/١ - ٣٤٢) ، (٤٣٧ - ٤٣٨) ، عن ابن عباس والقرطبي في تفسيره (١٥١/١) .

(٨) ذكره ابن جرير الطبري (٣٤٣/١) (٤٣٩ - ٤٤١) ، عن علي في القولين .

(٩) ذكره ابن جرير (٣٤٣/١) (٤٤٠) ، عن ابن عباس .

(١٠) ذكره ابن جرير (٣٤٣/١) (٤٤٢) ، عن ابن عباس .

(١١) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٤٤/١) (٤٤٦) ، عن مجاهد .

(١٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٥٢/١) ، عن ابن عباس .

(١٣) ذكره الطبري في تفسيره (٣٤٣/١) (٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥) .

البصري ، أو تَلَأْلؤُ الماء حكاة ابن فارس ، أو نار تنقذ من اصطكاك أجرام السحاب قاله بعضهم ، والذي يفهم من اللغة أن الرعد عبارة عن هذا الصوت المزعج المسموع من جهة السماء ، وأن البرق هو الجرم اللطيف النوراني الذي يشاهد ولا يثبت ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ جعل يكون بمعنى خلق ، أو بمعنى ألقى فيتعدى لواحد ، وبمعنى صير ، أو سمى فيتعدى لاثنيين وللشروع في الفعل ، فتكون من أفعال المقاربة تدخل على المبتدأ والخبر بالشروط المذكورة في بابها ، الأصبع مدلولها مفهوم وهي مؤنثة ، وذكروا فيها تسع لغات وهي الفتح للهمزة وضمها وكسرها مع كل من ذلك للباء ، وحكوا عاشرة وهي أصبوع بضمها وبعد الباء واو ، وجميع أسماء الأصابع مؤنثة إلا الإبهام ، فإن بعض بني أسد يقولون هذا إبهام ، والتأنيث أجود وعليه العرب غير من ذكر ، لأن مدلولها مفهوم وهي مؤنثة ، كذلك تلحقها التاء في التصغير قالوا أذينة ، ولا تلحق في العدد قالوا ثلاث آذان قال أبو ثروان^(١) في أحجية له :

مَا ذُو ثَلَاثِ آذَانٍ يَسْبِقُ الْخَيْلَ بِالرَّدْيَانِ

يريد السهم وآذانه وقذذه ، الصاعقة^(٢) الوقعة الشديدة من صوت الرعد ، معها قطعة من نار تسقط مع صوت الرعد ، قالوا تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامه ، وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، وهي مع حدتها سريعة الخمود ويهلك الله بها من يشاء ، قال لبيد يرثي أخاه أربد وكان ممن أحرقت الصاعقة :

فَجَعَنِي الْبَرْقُ وَالصَّوَاعِقُ بِأَلِّ فَارِسٍ يَوْمَ الْكَرْبَةِ النَّجْدِ^(٣)

ويشبه بالمقتول بها من مات سريعاً ، قال علقمة بن عبدة :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبٌ^(٤)

وروى الخليل عن قوم من العرب الساعة بالسین ، وقال النقاش^(٥) صاعقة وصعقة وصاعقة بمعنى واحد ، قال أبو عمرو الصاعقة لغة بني تميم قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمُجْرِمِينَ أَصَابَهُمْ صَوَاعِقُ لَا بَلَّ هُنَّ فَوْقَ الصَّوَاعِقِ^(٦)

وقال أبو النجم^(٧) :

يَحْلُونَ بِالْمَقْصُورَةِ الْقَوَاطِعِ تَشَقُّقُ الْبُرُوقِ بِالصَّوَاعِقِ^(٨)

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عيسى أبو القاسم الأموي الإشبيلي بفتح التاء والواو بينهما راء ساكنة توفي سنة إحدى وأربعين وخمسائة - البغية (٨٦/٢) .

(٢) والصاعقة : العذاب وقيل : قطعة من نار تسقط بإثر الرعد لا تأتي على شيء إلا أحرقت - لسان العرب (٢٤٥٠/٤) .

(٣) انظر القرطبي (١٥١/١) ، لسان العرب (صقع) .

(٤) انظر روح المعاني (١٧٤/١) ، وذكره ابن منظور في لسان العرب (صقع) ونسبه لابن الأحمر .

(٥) محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون الموصلي ثم البغدادي أبو بكر النقاش توفي في شوال سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة -

ابن السبكي (١٤٥/٣) ، غاية النهاية (١١٩/٢) .

(٦) انظر القرطبي (١٥٣/١) .

(٧) الفضل بن قدامة العجلي أبو النجم من بني بكر بن وائل توفي سنة ١٣٠ هجرية - انظر الأعلام (١٥١/٥) .

(٨) روايته في لسان العرب هكذا :

فإذا كان ذلك لغة ، وقد حكوا تصريف الكلمة عليه لم يكن من باب المقلوب ، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك ، ونقل القلب عن جمهور أهل اللغة ، ويقال صَعَقَتْهُ وَأُصْعَقَتْهُ الصاعقة إذا أهلكته فصعق : أي هلك ، والصاعقة أيضاً العذاب على أي حال كان قاله ابن عرفة ^(١) ، والصاعقة والصاعقة إما أن تكون صفة لصوت الرعد ، أو للرعد فتكون التاء للمبالغة نحو رواية ، وإما أن تكون مصدرأ كما قالوا في الكاذبة ، الحذر والفزع والفرق والجزع والخوف نظائر الموت عرض يعقب الحياة ، وقيل فساد بنية الحيوان ، وقيل زوال الحياة ، الإحاطة حصر الشيء بالمنع له من كل جهة ، والثلاثي منه متعد ، قالوا حاطه يحوطه حوطاً ، أو كصيب ^(٢) معطوف على قوله كمثل الذي استوقد ، وحذف مضافان إذ التقدير أو كمثل ذوي صيب نحو قوله تعالى كالذي يغشى عليه من الموت : أي كدوران عين الذي يغشى عليه ، وأوهنا للتفصيل وكان من نظر في حالهم منهم من يشبهه بحال المستوقد ، ومنهم من يشبهه بحال ذوي صيب ، ولا ضرورة تدعو إلى كون أول للتخيير وأن المعنى أيهما شئت مثلهم به ، وإن كان الزجاج وغيره ذهب إليه ، ولا إلى أن أو للإباحة ، ولا إلى أنها بمعنى الواو كما ذهب إليه الكوفيون هنا ، ولا إلى كون أو للشك بالنسبة للمخاطبين إذ يستحيل وقوعه من الله تعالى ، ولا إلى كونها بمعنى بل ، ولا إلى كونها للإبهام ، لأن التخيير والإباحة إنما يكونان في الأمر ، أو ما في معناه وهذه الجملة خبرية صرف ، ولأن أو بمعنى الواو أو بمعنى بل لم يثبت عند البصريين وما استدلل به مثبت ذلك مؤول ، ولأن الشك بالنسبة إلى المخاطبين أو الإبهام بالنسبة إليهم لا معنى له هنا ، وإنما المعنى الظاهر فيها كونها للتفصيل وهذا التمثيل الثاني أتى كاشفاً لحالهم بعد كشف الأول ، وإنما قصد بذلك التفصيل والإسهاب بحال المنافق ، وشبهه في التمثيل الأول بمستوقد النار وإظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع جدواه بذهاب النور ، وشبهه في الثاني دين الإسلام بالصيب وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من الإفزاع والفتن من جهة المسلمين بالصواعق ، وكلا التمثيلين من التمثيلات المفرقة كما شرحناه ، والأحسن أن يكن من التمثيلات المركبة دون المفرقة فلا تتكلف مقابلة شيء بشيء ، وقد تقدم الإشارة إلى ذلك عند الكلام على التمثيل الأول ، فوصف وقوع المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة ، بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل ، وبحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق ، وإنما قدر « كمثل ذوي صيب » لعود الضمير في يجعلون ، والتمثيل الثاني أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر ، ولذلك آخر فصار ارتقاءً من الأهون إلى الأغلظ ، وقد رام بعض المفسرين ترتب أحوال المنافقين وموازنتها في المثل من الصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق ، فقال مثل الله القرآن بالصيب لما فيه من الأشكال وعماهم بالظلمات والوعيد والزجر بالرعد والنور والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً أن تبهرهم بالبرق وتخرفهم بجعل أصابعهم وفضح نفاقهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوها بالصواعق ، وهذا قول من ذهب إلى أنه من التمثيل المفرق الذي يقابل منه شيء شيئاً من الممثل ، وستأتي بقية الأقوال في ذلك إن شاء الله تعالى .

وقرىء أو (كصايب) وهو اسم فاعل من صاب يصوب ، وصيب أبلغ من صايب ، والكاف في موضع رفع لأنها

يحكون بالمصقولة القواطع تشقق البرق عن الصواعق
انظر اللسان (٢٤٧١/٤) .

(١) محمد بن محمد بن عرفة الورغي التونسي المالكي أبو عبد الله توفي ليلة الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة - انظر البغية (٢٢٩/١) .

(٢) الصوب : نزول المطر .

الصَّيْبُ : السحاب ذو الصَّوب وصاب أي : نزل - لسان العرب (٢٥١٨/٤) .

معطوفة على ما موضعه رفع ، والجملة من قوله ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ إذا قلنا ليست جواب لما جملة اعتراض فصل بها بين المعطوف والمعطوف عليه ، وكذلك أيضاً ﴿ صم بكم عمي ﴾ إذا قلنا إن ذلك من أوصاف المنافقين ، فعلى هذين القولين تكون الجملتان جملتي اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وقد منع ذلك أبو علي وردّ عليه بقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ وَالْخُطُوبُ مُغَيَّرَاتٌ وَفِي طُولِ الْمَعَاشِرَةِ التَّقَالِي
لَقَدْ بَالَيْتُ مَظْعَنَ أُمِّ أَوْفَى وَلَكِنْ أُمُّ أَوْفَى لَا تُبَالِي^(١)

فصل بين القسم وجوابه بجملتي الاعتراض .

من السماء متعلق بصيب فهو في موضع نصب و (من) فيه لابتداء الغاية ويحتمل أن تكون في موضع الصفة فتعلق بمحذوف وتكون من إذ ذاك للتبويض ، ويكون على حذف مضاف التقدير أو كمطر صيب من أمطار السماء ، وأتى السماء مُعرّفة إشارة إلى أن هذا الصيب نازل من آفاق السماء فهو مطبق عام ، قال « الزمخشري » : وفيه أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من زعم أنه يأخذه من البحر ويؤيده قوله تعالى ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ [النور : ٤٣] ، انتهى كلامه . وليس في الآيتين ما يدل على أنه لا يكون منشأ المطر من البحر ، إنما تدلّ الآيتان على أن المطر ينزل من السماء ، ولا يظهر تناف بين أن يكون المطر ينزل من السماء وأن منشأه من البحر ، والعرب تسمي السحاب بنات بحر يعني أنها تنشأ من البحار قال طرفة :

لَا تَلُمْنِي إِنَّهَا مِنْ نِسْوَةٍ رُقِدِ الصَّيْفُ مَقَالِيَتٍ نُزُرُ
كَبَنَاتِ الْبَحْرِ يَمَازُنَ كَمَا أَتَبَتِ الصَّيْفُ عَسَالِيَجَ الْخُضَرِ^(٢)

وقد أبدلوا الباء ميماً فقالوا بنات المحر ، كما قالوا رأيت من كذب^(٣) ومن كثم^(٤) ، وظلمات مرتفع بالجار والمجرور على الفاعلية ، لأنه قد اعتمد إذا وقع صفة ، ويجوز أن تكون فيه في موضع الحال من النكرة المخصصة بقوله ﴿ من السماء ﴾ إما تخصيص العمل ، وإما تخصيص الصفة على ما قدمناه من الوجهين في إعراب من السماء ، وأجازوا أن يكون (ظلمات) مرفوعاً بالابتداء ، وفيه في موضع الخبر ، والجملة في موضع الصفة ، ولا حاجة إلى هذا لأنه إذا دار الأمر بين أن تكون الصفة من قبيل المفرد ، وبين أن تكون من قبيل الجمل ، كان الأولى جعلها من قبيل المفرد ، وجمع الظلمات لأنه حصلت أنواع من الظلمة ، فإن كان الصيب هو المطر فظلماته ظلمة تكاثفه وانتساجه وتتابع قطره وظلمة ظلال غمامه مع ظلمة الليل ، وإن كان الصيب هو السحاب فظلمة سجمته وظلمة تطبيقه مع ظلمة الليل ، والضمير في فيه عائد على الصيب ، فإذا فسر بالمطر فمكان ذلك السحاب ، لكنه لما كان الرعد والبرق ملتبسين بالمطر جعلاً فيه على طريق التجوّز ، ولم يجمع الرعد والبرق وإن كان قد جمعت في لسان العرب ، لأن المراد بذلك المصدر كأنه قيل وإرعاد وإبراق وإن أريد العينان فلائهما لما كانا مصدرين في الأصل ، إذ يقال رعدت

(١) البيتان من الوافر لزهير - انظر مغني اللبيب (٣٩٥) ، ديوانه (٣٤٢) .

(٢) انظر ديوان طرفة بن العبد (٤١) ، ورواية الديوان :

كبنات البحر يماذن كما أتبت الصيف عساليج الخضر

(٣) كذب : الكذب بالتحريك : القرب وهو كذبك أي : قُرْبَكَ - لسان العرب (٣٨٢٥ / ٥) .

(٤) كثم : الكثرة : المرأة الرّيا من شراب أو غيره . ووطب أكرم أي مملوء - لسان العرب (٣٨٣٠ / ٥) .

السماء رعداً وبرقت برقاً روعي حكم أصلهما ، وإن كان المعنى على الجمع كما قالوا رجل خصم ، ونكرت (ظلمات ورعد وبرق) ، لأن المقصود ليس العموم إنما المقصود اشتغال الصيب على ظلمات ورعد وبرق ، والضمير في يجعلون عائد على المضاف المحذوف للعلم به ، لأنه إذا حذف فتارة يلتفت إليه حتى كأنه ملفوظ به فتعود الضمائر عليه كحال مذكوراً ، وتارة يطرح فيعود الضمير الذي قام مقامه ، فمن الأول هذه الآية وقوله تعالى ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه ﴾ [النور : ٤٠] ، التقدير أو كذي ظلمات ، ولذلك عاد الضمير المنصوب عليه في قوله يغشاه ، ومما اجتمع فيه الالتفات والاطراح قوله تعالى ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ [الأعراف : ٤] ، المعنى من أهل قرية فقال فجاءها فاطرح المحذوف ، وقال أوهم فالتفت إلى المحذوف ، والجملة من قوله يجعلون لا موضع لها من الإعراب ، لأنها جواب سؤال مقدر كأنه قيل فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد فقيل يجعلون ، وقيل الجملة لها موضع من الإعراب وهو الجر ، لأنها في موضع الصفة لذوي المحذوف كأنه قيل جاعلين ، وأجاز بعضهم أن تكون في موضع نصب على الحال من الضمير الذي هو الهاء في فيه ، والراجع على ذي الحال محذوف ثابت الألف واللام عنه التقدير من صواعقه .

وأراد بالأصابع بعضها لأن الأصبع كلها لا تجعل في الأذن إنما تجعل فيها الأنملة ، لكن هذا من الاتساع وهو إطلاق كل على بعض ، ولأن هؤلاء لفرط ما يهولهم من إزعاج الصواعق كأنهم لا يكتفون بالأنملة ، بل لو أمكنهم السد بالأصبع كلها لفعلوا ، وعدل عن الاسم الخاص لما يوضع في الأذن إلى الاسم العام وهو الأصبع ، لما في ترك لفظ السبابة من حسن أدب القرآن وكون الكنايات فيه تكون بأحسن لفظ ، لذلك ما عدل عن لفظ السبابة إلى المسبحة والمهلهلة وغيرها من الألفاظ المستحسنة ، ولم تأت بلفظ المسبحة ونحوها لأنها ألفاظ مستحدثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد وإنما أحدثت بعداً ، وقرأ الحسن (من الصَّوَاعِقِ) ، وقد تقدم أنها لغة تميم وأخبرنا أنها ليست من المقلوب ، والجعل هنا بمعنى الإلقاء والوضع كأنه قال (يضعون أصابعهم) ومن تتعلق بقوله يجعلون وهي سببية : أي من أجل الصواعق وحذر الموت مفعول من أجله ، وشروط المفعول من أجله موجودة فيه إذ هو مصدر متحد بالعمل فاعلاً وزماناً ، هكذا أعربوه ، وفيه نظر لأن قوله من الصواعق هو في المعنى مفعول من أجله ، ولو كان معطوفاً لجاز كقول الله تعالى ﴿ ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ [البقرة : ٢٦٥] ، وقول الراجز :

يَرْكَبُ كُلُّ عَاقِرٍ جُمُهورٍ مَخَافَةً وَزَعَلَ المَحْبُورِ
وَالهُولُ مِنْ تَهُولِ الهُبُورِ^(١)

وقالوا أيضاً يجوز أن يكون مصدراً : أي يحذرون حذر الموت وهو مضاف للمفعول ، وقرأ قتادة والضحاك بن مزاحم وابن أبي ليلى^(٢) ﴿ حَذَرَ الموت ﴾ [البقرة : ١١] ، وهو مصدر حاذر قالوا وانتصابه على أنه مفعول له والإحاطة هنا كناية عن كونه تعالى لا يفوته كما لا يفوت المحاط المحيط به فقليل بالعلم ، وقيل بالقدرة وقيل بالإهلاك ، وهذه الجملة اعتراضية لأنها دخلت بين هاتين الجملتين اللتين هما (يجعلون أصابعهم) (ويكاد البرق) وهما من قصة واحدة ، وقد تقدم لنا أن هذا التمثيل من التمثيلات المركبة ، وهو الذي تشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى في أمر من الأمور وإن لم يكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى ، فيكون المقصود تشبيه

(١) هذا الرجز للعجاج - انظر ديوانه (٢٨) ، الكتاب (١٨٥ / ١) ، شرح المفصل (٨٥ / ٢) ، الخزانة (٤٨٨ / ١) .

(٢) عبد الرحمن بن أبي ليلى الأنصاري الأوسي أبو عيسى الكوفي أدرك مائة وعشرين من الصحابة الأنصاريين مات سنة ثلاث وثمانين - الخلاصة (١٥٠ / ٢) .

حيرة المنافقين في الدين والدنيا بحيرة من انطفأت ناره بعد إيقادها وبحيرة من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق ، وهذا الذي سبق أنه المختار ، وقالوا أيضاً يكون من التشبيه المفرق ، وهو أن يكون المثل مركباً من أمور والممثل يكون مركباً أيضاً وكل واحد من المثل مشبه لكل واحد من الممثل .

وقد تقدم قولان من جعل هذا المثل من التمثيل المفرق .

والثالث : أن الصيب مثل للإسلام والظلمات مثل لما في قلوبهم من النفاق والرعد والبرق مثلاً لما يخوفون به .

والرابع : البرق مثل للإسلام ، والظلمات مثل للفتنة والبلاء .

والخامس : الصيب الغيث الذي فيه الحياة مثل للإسلام ، والظلمات مثل للإسلام المنافقين وما فيه من إبطان الكفر ، والرعد مثل لما في الإسلام من حقن الدماء ، والاختلاط بالمسلمين في المناكحة والموارثة والبرق ، وما فيه من الصواعق مثل لما في الإسلام من الزجر بالعقاب في العاجل والآجل ، ويروى معنى هذا^(١) عن الحسن .

والسادس : أن الصيب والظلمات والرعد والبرق والصواعق كانت حقيقة أصابت بعض اليهود فضرب الله مثلاً بقصتهم لبقيتهم ، وروي في ذلك حديث عن ابن مسعود وابن عباس .

السابع : أنه مثل ضربه الله للخير والشر الذي أصاب المنافقين فكأنهم كانوا إذا كثرت أموالهم وولدهم الغلمان أو أصابوا غنيمة أو فتحاً قالوا دين محمد صدق فاستقاموا عليه فإذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا هذا من أجل دين محمد فارتدوا كفاراً .

الثامن : أنه مثل الدنيا وما فيها من الشدة والرخاء والنعمة والبلاء بالصيب الذي يجمع نفعاً بإحيائه الأرض ، وإنباته النبات ، وإحياء كل دابة ، والانتفاع به للتطهير وغيره من المنافع وضراً بما يحصل به من الإغراق والإشراق وما تقدمه من الظلمات والصواعق بالإرعاد والإبراق وأن المنافق يدفع أجلاً بطلب عاجل النفع فيبيع آخرته وما أعد الله له فيها من النعيم بالدنيا التي صفوها كدر ومآله بعد إلى سقر .

التاسع : أنه مثل للقيامة لما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ، ومثل ما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل .

العاشر : ضرب الصيب مثل لما أظهر المنافقون من الإيمان ، والظلمات بضلالهم وكفرهم الذي أبطنوه وما فيه من البرق بما علاهم من خير الإسلام وعلتهم من بركته واهتدائهم به إلى منافعهم الدنيوية وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وما فيه من الصواعق بما اقتضاه نفاقهم وما هم صائرون إليه من الهلاك الدنيوي والأخروي .

وقد ذكروا أيضاً أقوالاً كلها ترجع إلى التمثيل التركيبي .

الأول : شبه حال المنافقين بالذين اجتمعت لهم ظلمة السحاب مع هذه الأمور فكان ذلك أشد لحيرتهم إذ لا يرون طريقاً ولا من أضاء له البرق ثم ذهب كانت الظلمة عنده أشد منها لو لم يكن فيها برق .

(١) ذكره بنحوه ابن جرير في تفسيره (٣٤٩/١) (٤٥٤) ، ولكن عن ابن عباس ، وانظر تفسير ابن كثير (٨٣/١) .

الثاني : أن المطر وإن كان نافعاً إلا أنه لما ظهر في هذه الصورة صار النفع به زائلاً كذلك إظهار الإيمان نافع للمنافق لو وافقه الباطن وأما مع عدم الموافقة فهو ضرر .

الثالث : أنه مثل حال المنافقين في ظنهم أن ما أظهروه نافعهم وليس بنافعهم بمن نزلت به هذه الأمور مع الصواعق فإنه يظن أن المخلص له منها جعل أصابعه في أذانه وهو لا ينجيه ذلك مما يريد الله به من موت أو غيره .

الرابع : أنه مثل لتأخر المنافق عن الجهاد فراراً من الموت بمن أراد دفع هذه الأمور بجعل أصابعهم في آذانهم .

الخامس : أنه مثل لعدم خلاص المنافق من عذاب الله بالجاعلين أصابعهم في آذانهم فإنهم وإن تخلصوا عن الموت في تلك الساعة فإن الموت من ورائهم

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يكاد مضارع كاد التي هي من أفعال المقاربة ، ووزنها فَعَلَ يَقَعْل نحو خاف يخاف منقلبة عن واو ، وفيها لغتان فعل كما ذكرناه وفعل ، ولذلك إذا اتصل بها ضمير الرفع لتكلم أو مخاطب أو نون إناث ضموا الكاف فقالوا كدت وكدت وكدن وسمع نقل كسر الواو إلى الكاف مع ما إسناده لغير ما ذكر قول الشاعر :

وَكَيْدَتْ ضِبَاعُ الْقَفِّ يَأْكُلْنَ جُثَّتِي وَكَيْدَ خِرَاشٍ عِنْدَ ذَلِكَ يَيْتَمُ^(١)

يريد وكادت وكاد .

وليس من أفعال المقاربة ما يستعمل منها مضارع إلا كاد وأوشك ، وهذه الأفعال هي من باب كان ترفع الاسم وتنصب الخبر إلا أن خبرها لا يكون إلا مضارعاً ، ولها باب معقود في النحو وهي نحو من ثلاثين فعلاً ذكرها أبو إسحاق البهاري في كتابه « شرح جمل الزجاجي » ، وقال بعض المفسرين يكاد فعل ينفي المعنى مع إيجابه ويوجب مع النفي ، وقد أنشدوا في ذلك شعراً يلغز فيه بها ، وهذا الذي ذكر هذا المفسر هو مذهب أبي الفتح وغيره ، والصحيح عند أصحابنا أنها كسائر الأفعال في أن نفيها نفي وإيجابها إيجاب ، والإحتجاج للمذهبين المذكور في كتب النحو ، الخطف أخذ الشيء بسرعة ، (كل) للعموم وهو اسم جمع لازم للإضافة إلا أن ما أضيف إليه يجوز حذفه ويعوض منه التنوين وقيل هو تنوين الصرف وإذا كان المحذوف معرفة بقيت كل على تعريفها بالإضافة فيجيء منها الحال ولا تعرف باللام عند الأكثرين ، وأجاز ذلك الأخفش والفارسي وربما انتصب حالاً والأصل فيها أن تتبع توكيداً كأجمع وتستعمل مبتدأ كونها كذلك أحسن من كونها مفعولاً ، وليس ذلك بمقصود على السماع ولا مختصاً بالشعر خلافاً لزمعه ، وإذا أضيفت كل إلى نكرة أو معرفة بلام الجنس حسن أن تلي العوامل اللفظية ، وإذا ابتدئ بها مضافة لفظاً إلى نكرة طابقت الأخبار وغيرها ما تضاف إليه وإلى معرفة فالأفصح إفراد العائد ، أو معنى لا لفظاً فالأصل ، وقد يحسن الإفراد .

(١) من الطويل لأبي خراش خويلد بن مرة الهذلي - انظر ديوان الهذليين ق ٢ ص ١٤٤ ، ١٤٨ وروايته :

فتقعدا وترضى مكاني خليفة وكاد خراش يوم ذلك ييتم

شرح المفصل (٧٢/١٠) ، الممتع في التصريف (٤٣٩/٢) ، شفاء العليل (١٧٩) ، لسان العرب م (ذيل ، وكيد) وفيه (وكيد ضباع ...) .

وأحكام كل كثيرة ، وقد ذكرنا أكثرها في كتابنا الكبير الذي سميناه بالتذكرة ، وسردنا منها جملة لينتفع بها ، فإنها تكررت في القرآن كثيراً .

المشي : الحركة المعروفة (لو) عبارة سيوية أنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، وهو أحسن من قول النحويين أنها حرف امتناع لا امتناع لاطراد تفسير سيويه رحمه الله في كل مكان جاءت فيه لو ، وانخرام تفسيرهم في نحو « لو كان هذا إنساناً لكان حيواناً » إذ على تفسير الإمام يكون المعنى ثبوت الحيوانية على تقدير ثبوت الإنسانية ، إذ الأخص مستلزم الأعم ، وعلى تفسيرهم ينخرم ذلك ، إذ يكون المعنى ممتنع الحيوانية لأجل امتناع الإنسانية ، وليس بصحيح ، إذ لا يلزم من انتفاء الإنسانية انتفاء الحيوانية إذ توجد الحيوانية ولا إنسانية ، وتكون لو أيضاً شرطاً في المستقبل بمعنى إن ولا يجوز الجزم بها خلافاً لقوم ، قال الشاعر :

لَا يَلْقَاكَ الرَّاجُوكَ إِلَّا مَظْهَرًا خُلِقَ الْكِرَامُ وَلَوْ تَكُونُ عَدِيمًا^(١)

وتشرب « لو » معنى التمني ، وسيأتي الكلام على ذلك عند قوله تعالى ﴿ فلو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ﴾ [البقرة : ١٦٧] ، إن شاء الله تعالى ، ولا تكون موصولة بمعنى إن خلافاً لزاعم ذلك ، (شاء) بمعنى أراد وحذف مفعولها جائز لفهم المعنى وأكثر ما يحذف مع « لو » لدلالة الجواب عليه ، قال الزمخشري^(٢) ولقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد يعني حذف مفعولهما قال لا يكادون يبرزون هذا المفعول إلا في الشيء المستغرب نحو قوله :

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ

وقوله تعالى ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهمو لاتخذناه ﴾ [الأنبياء : ١٧] ، ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدأ لاصطفى ﴾ [الزمر : ٤] ، انتهى كلامه ، قال صاحب التبيان وذلك بعد أن أنشد قوله :

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةَ الصَّبْرِ أَوْسَعُ^(٣)

متى كان مفعول المشيئة عظيماً أو غريباً كان الأحسن أن يذكر نحو لو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيته ، وسر ذكره أن السامع منكر لذلك أو كالمنكر فأنت تقصد إلى إثباته عنده فإن لم يكن منكراً فالحذف نحو « لو شئت قمت » ، وفي التنزيل ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] ، انتهى . وهو موافق لكلام الزمخشري ، وليس ذلك عندي على ما ذهبنا إليه من أنه إذا كان في مفعول المشيئة غرابة حسن ذكره ، وإنما حسن ذكره في الآية والبيت من حيث عود الضمير إذ لو لم يذكر لم يكن للضمير ما يعود عليه فهما تركيبان فصيحان وإن كان أحدهما أكثر .

فأحدهما : الحذف ودلالة الجواب على المحذوف إذ يكون المحذوف مصدراً دل عليه الجواب وإذا كانوا قد حذفوا أحد جزأي الإسناد وهو الخبر في نحو « لولا زيد لأكرمتك » للطول بالجواب وإن كان المحذوف من غير جنس المثبت فلأن يحذف المفعول الذي هو فضلة لدلالة الجواب عليه إذ هو مقدر من جنس المثبت أولى .

(١) البيت من الكامل لم يعلم قائله - انظر التصريح على التوضيح (٢٥٦/٢) ، الأشموني (٣٨/٤) ، شرح شواهد الألفية للعيني (٤٦٩/٤) .

(٢) انظر الكشف (٨٧/١) .

(٣) البيت من الطويل لإسحاق الخريمي يرثي أبا الهيثام عامر بن عمار أمير عرب الشام - انظر الكشف (٨٧/١) ، الكامل للمبرد (٧٠٣) ، المصوت للعسكري (١٦) ، دلائل الإعجاز (١٠٨) ، معاهد التنقيص (٨٤/١) .

والثاني : أن يذكر مفعول المشيئة فيحتاج أن يكون في الجواب ضمير يعود على ما قبله نحو قوله تعالى ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهم آياتاً لاتخذناه ﴾ [الأنبياء : ١٧] ، وقول الشاعر :

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ

وأما إذا لم يدل على حذفه دليل فلا يحذف نحو قوله تعالى ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوين : ٢٨] ، ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ [المدثر : ٣٧] ، الشيء ما صح أن يعلم من وجهه ويخبر عنه ، قال سيوي رحمه الله وإنما يخرج التأنيث من التذكير ، ألا ترى أن الشيء يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يعلم أذكر هو أو أنثى ، والشيء مذكر وهو عندنا مرادف للموجود في إطلاقه على المعدوم بطريق الحقيقة خلاف ، ومن أطلق ذلك عليه فهو أنكر النكرات إذ يطلق على الجسم والعرض والقديم والمعدوم والمستحيل ، القدرة القوة على الشيء والاستطاعة له ، والفعل قدر ، ومصادره كثيرة قدر قدرة وبثليث القاف ومقدرة وبثليث الدال قدراً وقدراً وقدراً وقدراً وقدراً وقدراً ومقدراً ومقدراً .

الجملة من قوله ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ لا موضع لها من الإعراب ، إذ هي مستأنفة جواب قائل قال فكيف حالهم مع ذلك البرق فقليل يكاد البرق يخطف أبصارهم ، ويحتمل أن تكون في موضع جر صفة لذوي المحذوفة ، التقدير « كائد البرق يخطف أبصارهم » والألف واللام في البرق للعهد إذ جرى ذكره نكرة في قوله ﴿ فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ [البقرة : ١٩] ، فصار نظير لقيت رجلاً فضربت الرجل ، وقوله تعالى ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ [المزمّل : ١٥ ، ١٦] ، وقرأ مجاهد وعلي بن الحسين ويحيى بن زيد « يَخْطِفُ » بسكون الخاء وكسر الطاء ، قال « ابن مجاهد » : وأظنه غلطاً واستدل على ذلك بأن أحداً لم يقرأ بالفتح ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ [الصافات : ١٠] ، وقال « الزمخشري »^(١) ، الفتح يعني في المضارع أفصح انتهى . والكسر في طاء الماضي لغة قریش وهي أفصح ، وبعض العرب يقول خَطَفَ بفتح الطاء يخطف بالكسر ، قال ابن عطية : ونسب المهدوي^(٢) هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء^(٣) وذلك وهم ، وقرأ علي وابن مسعود « يخطف » ، وقرأ أبي « يتخطف » ، وقرأ الحسن أيضاً « يَخْطِفُ » بفتح الياء والحاء والطاء المشددة ، وقرأ الحسن أيضاً والجحدري وابن أبي إسحاق « يخطف » بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء المكسورة ، وأصله يخطف ، وقرأ الحسن أيضاً وأبو رجاء وعاصم الجحدري وقتادة « يخطف » بفتح الياء وكسر الخاء والطاء المشددة ، وقرأ أيضاً الحسن والأعمش « يَخْطِفُ » بكسر الثلاثة وتشديد الطاء ، وقرأ زيد بن علي « يَخْطِفُ » بضم الياء وفتح الخاء وكسر الطاء المشددة من خطف وهو تكثير مبالغة لا تعدية ، وقرأ بعض أهل المدينة « يخطف » بفتح الياء وسكون الخاء وتشديد الطاء المكسورة .

والتحقيق أنه اختلاس لفتح الخاء لا إسكان لأنه يؤدي إلى التقاء الساكنين على غير حد التقائهما فهذا الحرف قرئ عشر قراءات .

(١) انظر الكشف (٨٦/١) .

(٢) أحمد بن عمار أبو العباس المهدوي صاحب التفسير كان مقدماً في القراءات والعربية مات في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة - غاية النهاية (٩٢/١) ، طبقات المفسرين للداودي (٥٦/١) .

(٣) عمران بن تيم ويقال ابن ملحان أبو رجاء العطاردي البصري التابعي الكبير توفي سنة خمس ومائة وله مائة وسبع وعشرون سنة - غاية النهاية (٦٠٤/١) .

السبعة يَخْطَفُ ، والشواذ يَخْطُفُ ، يَخْطِفُ ، يَخْطُفُ ، يَخْطَفُ ، وأصله يتخطف فحذف التاء مع الياء شذوذاً كما حذفها مع التاء قياساً يخطف يخطف يخطف ، والأربع الآخر أصلها يخطف ، فعرض إدغام التاء في الطاء فسكنت التاء للإدغام فلزم تحريك ما قبلها فأما بحركة التاء وهي الفتح مبينة أو مختلسة أو بحركة التاء الساكنين وهي الكسر ، وكسر الياء اتباع لكسرة الخاء وهي مسألة إدغام اختصم به وهي مسألة تصريفية يختلف فيها اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر وتبين ذلك في علم التصريف .

ومن فسر البرق بالزجر والوعيد قال يكاد ذلك يصيبهم ، ومن مثله بحجج القرآن وبراهينه الساطعة قال المعنى يكاد ذلك يبههم ، وكل منصوب على الظرف ، وسرت إليه الظرفية من إضافته لما المصدرية الظرفية ، لأنك إذا قلت « ما صَجَبْتَنِي أَكْرَمْتُكَ » فالمعنى مدة صحبتك لي أكرمك ، وغالب ما توصل به ما هذه بالفعل الماضي ، وما الظرفية يراد بها العموم فإذا قلت « أصبحك ما ذر الله شارق » فإنما تريد العموم فكل هذه أكدت العموم الذي أفادته ما الظرفية ، ولا يراد في لسان العرب مطلق الفعل الواقع صلة لما فيكتفى فيه بمرة واحدة لدلالته على عموم الزمان جزم بها بعض العرب ، والتكرار الذي يذكره أهل أصول الفقه والفقهاء في كلما إنما ذلك فيها من العموم لا أن لفظ كلما وضع للتكرار كما يدل عليه كلامهم وإنما جاءت كل توكيد للعموم المستفاد من ما الظرفية ، فإذا قلت « كلما جئتنِي أَكْرَمْتُكَ » ، فالمعنى أكرمك في كل فرد فرد من جيثائك إليّ ، وما أضاء في موضع خفض بالإضافة والتقدير كل إضاءة وهو على حذف مضاف أيضاً ، معناه كل وقت إضاءة فقام المصدر مقام الظرف كما قالوا « جئتك خفوق النجم » ، والعامل في كلما قوله « مشوا فيه » وأضاء عند المبرد هنا متعد التقدير « كلما أضاء لهم البرق الطريق » ، فيحتمل على هذا أن يكون الضمير في فيه عائداً على المفعول المحذوف ، ويحتمل أن يعود على البرق : أي مشوا في نوره ومطرح لمعانه ويتعين عوده على البرق فيمن جعل أضاء لازماً : أي كلما لمع البرق مشوا في نوره ، ويؤيد هذا قراءة ابن أبي عبلة كلما ضاء ثلاثياً ، وقد تقدّم أنها لغة ، وفي مصحف أبي مروا فيه ، وفي مصحف « ابن مسعود » مضوا فيه ، وهذه الجملة استئناف ثالث كأنه قيل فأضاء لهم في حالتي وميض البرق وخفائه قيل كلما أضاء لهم إلى آخره ، وقرأ يزيد بن قطيب والضحاك وإذا أَظْلَمَ مبنياً للمفعول وأصل أظلم أن لا يتعدى يقال أظلم الليل ، وظاهر كلام الزمخشري^(١) أن أظلم يكون متعدداً بنفسه لمفعول فلذلك جاز أن يبنى لما لم يسم فاعله قال الزمخشري أظلم على ما لم يسم فاعله وجاء في شعر حبيب بن أوس الطائي : -

هُمَا أَظْلَمَا حَالِي ثُمَّتَ أَجْلِيَا ظَلَامِيَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيَبِ

وهو إن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء الدليل عليه بيت الحماسة فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه انتهى كلامه . فظاهره كما قلنا أنه متعدّد وبنائه لما لم يسم فاعله ، ولذلك استأنس بقول أبي تمام :

هما أظلما حالي ، وله عندي تخريج غير ما ذكر الزمخشري^(٢) ، وهو أن يكون أظلم غير متعدّد بنفسه لمفعول ولكنه يتعدى بحرف جر ألا ترى كيف عدى أظلم إلى المجرور بعلى ، فعلى هذا يكون الذي قام مقام الفاعل أو حذف

(١) انظر الكشف (٨٦/١) .

(٢) انظر الكشف (٨٦/١) .

هو الجار والمجرور فيكون في موضع رفع وكان الأصل وإذا أظلم الليل عليهم ثم حذف فقام الجار والمجرور مقامه نحو غضب زيد على عمرو ، ثم تحذف زيدا وتبني الفعل للمفعول فتقول « غضب على عمرو » ، فليس يكون التقدير إذ ذاك وإذا أظلم الله الليل فحذفت الجلالة وأقيم ضمير الليل مقام الفاعل وأما ما وقع في كلام حبيب فلا يستشهد به وقد نقد على أبي علي الفارسي الاستشهاد بقول حبيب : -

مَنْ كَانَ مَرَعَى عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ رَوْضُ الْأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُولًا

وكيف يستشهد بكلام من هو مولد وقد صنف الناس فيما وقع له من اللحن في شعره ، ومعنى قاموا ثبتوا ووقفوا وصدرت الجملة الأولى بكلاً والثانية بإذا ، قال الزمخشري^(١) لأنهم حراس على وجود ما هم مهم به معقودة من إمكان المشي وتأتيه ، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف والتجسس انتهى كلامه .

ولا فرق في هذه الآية عندي بين (كلما) و (إذا) من جهة المعنى لأنه متى فهم التكرار من ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴾ لزم منه أيضاً التكرار في أنه ﴿ إذا أظلم عليهم قاموا ﴾ لأن الأمر دائر بين إضاءة البرق والإظلام فمتى وجد هذا فقد هذا فيلزم من تكرار وجود هذا تكرار عدم هذا على أن من النحويين من ذهب إلى أن إذا تدل على التكرار ككلما وأنشد : -

إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الْحُبِّ فِي كَيْدِي أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْقَوْمِ أَبْتَرِدُ^(٢)

قال فهذا معناه معنى كلما .

وفي تأويل هذه الآية أقوال :

قال ابن عباس والسدي كلما أتاهم القرآن بما يحبونه تابعوه .

وقال قتادة إضاءة البرق حصول ما يرجونه من سلامة نفوسهم وأموالهم فيسرعون إلى متابعتها .

وقال مقاتل : البرق الإسلام ومشيههم فيه اهتداؤهم فإذا تركوا ذلك وقعوا في ضلالهم .

وقيل إضاءته لهم تركهم بلا ابتلاء ، ومشيههم فيه إقامتهم على المسالمة بإظهار ما يظهرونه .

قيل كلما سمع المنافقون القرآن وحججه أنسوا ومشوا معه فإذا نزل ما يعملون فيه أو يكلفونه قاموا : أي ثبتوا على

نفاقهم .

وقيل كلما توالى عليهم النعم قالوا دين حق وإذا نزلت بهم مصيبة سخطوا وثبتوا على نفاقهم .

وقيل كلما خفي نفاقهم مشوا فإذا افتضحوا قاموا .

وقيل كلما أضاء لهم الحق اتبعوه فإذا أظلم عليهم بالهوى تركوه .

(١) انظر الكشف (١/ ٨٦) .

(٢) البيت من البسيط لعروة بن أذينة - انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٨٤ ، الأمالي للقالبي (١/ ٣١) ، الحماسة البصرية

(٢/ ١٥٧ ، ١٥٨) ، الأغاني (١٨/ ٣٢٩) ، لسان العرب (برد) .

وقيل ينتفعون بإظهار الإيمان فإذا وردت محنة أو شدة على المسلمين تحيروا كما قام أولئك في الظلمات متحيرين .

قال الزمخشري^(١) وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة فإذا خفي وفتّر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة انتهى كلامه . ومفعول (شاء) هنا محذوف للدلالة عليه التقدير « ولو شاء الله إذهب سمعهم وأبصارهم ، والكلام في الباء في (بسمعهم) كالكلام فيها في ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ، وتوحيد السمع تقدم الكلام عليه عند الكلام على قوله ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ [البقرة : ٧] ، وقرأ ابن أبي عبيدة لأذهب بأسماعهم وأبصارهم فالباء زائدة التقدير « لأذهب أسماعهم » كما قال بعضهم « مسحت برأسه » ، يريد رأسه ، و « خشنت بصدري » يريد صدره وليس من مواضع قياس زيادة الباء وجمعه الأسماع مطابق لجمع الأبصار ، ومعنى الجملة أن ذهاب الله بسمعهم وأبصارهم كان يقع على تقدير مشيئة الله ذلك ، وقيل المعنى لأهلكهم لأن في هلاكهم ذهاب سمعهم وأبصارهم ، وقيل وعيد بإذهاب الأسماع والأبصار من أجسادهم حتى لا يتوصلوا بهما إلى ما لهم كما لم يتوصلوا بهما إلى ما عليهم ، وقيل : لأظهر عليهم بنفاقهم فذهب منهم عز الإسلام وقيل لأذهب أسماعهم فلا يسمعون الصواعق فيحذرون ، ولأذهب أبصارهم فلا يرون الضوء ليمشوا ، وقيل : عن ابن عباس ﴿ لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ لما تركوا من الحق بعد معرفته^(٢) ، وقيل لعجل لهم العقوبة في الدنيا فذهب بسمعهم وأبصارهم فلم ينتفعوا بها في الدنيا لأنهم لم يستعملوها في الحق فينتفعوا بها في آخرهم ، وقيل : لزاد في قصيف الرعد فأصمهم وفي ضوء البرق فأعماهم ، وقيل : لأوقع بهم ما يتخوفونه من الزجر والوعيد ، وقيل : لفضحهم عند المؤمنين وسلطهم عليهم ، وقال الزمخشري^(٣) : لذهب سمعهم بقصيف الرعد وأبصارهم بيوميض البرق ، وظاهر الكلام أن هذا كله مما يتعلق بذوي صيب فصرف ظاهره إلى أنه مما يتعلق بالمنافقين غير ظاهر وإنما هذا مبالغة في تحير هؤلاء السفر وشدة ما أصابهم من الصيب الذي اشتمل على ظلمات ورعد وبرق بحيث تكاد الصواعق تصمهم والبرق يعميهم ، ثم ذكر أنه لو سبقت المشيئة بذهاب سمعهم وأبصارهم لذابت ، وكما اخترنا في قوله ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ إلى آخره أنه مبالغة في حال المستوقد كذلك اخترنا هنا أن هذا مبالغة في حالة السفر وشدة المبالغة في حال المشبه بهما يقتضي شدة المبالغة في حال المشبه فهو وإن لم تكن هذه الجزئيات التي للمشبه به ثابتة للمشبه بنظائرها ثابتة له ، ولا سيما إذا كان التمثيل من قبيل التمثيلات المفردة ، وأما على ما اخترناه من أنه من التمثيلات المركبة فتكون المبالغة في التشبيه بما آل إليه حال المشبه به ، وقد تقدم الكلام على ذلك قبل ، وخص السمع والأبصار في قوله ﴿ لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴾ لتقدم ذكرهما في قوله ﴿ في آذانهم ﴾ ، وفي قوله ﴿ يخطف أبصارهم ﴾ ، وقال بعضهم تقدم ذكر الرعد والصواعق ومدرکہما السمع والظلمات والبرق ومدرکہما البصر ثم قال لو شاء أذهب ذلك من المنافقين عقوبة لهم على نفاقهم أعقب تعالى ما علقه على المشيئة بالإخبار عنه تعالى بالقدرة لأن بهما تمام الأفعال أعني القدرة والإرادة ، وأتى بصيغة المبالغة إذ لا أحق بها منه تعالى ، وعلى كل شيء متعلق بقوله قدير ، وفي لفظ قدير ما يشعر بتخصيص العموم إذ القدرة لا تتعلق بالمستحيلات ، وقد تقدم لنا بعض كلام على تناسق

(١) انظر الكشف (٨٦/١) .

(٢) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٥٩/١ - ٣٦٠) (٤٧٠) ، عن ابن عباس به .

(٣) انظر الكشف (٨٧/١) .

الاي التي تقدم الكلام عليها ونحن نلخص ذلك هنا ، فنقول : افتتح تعالى هذه السورة بوصف كلامه المبين ، ثم بين أنه هدى لمؤمني هذه الأمة ومدحهم ، ثم مدح من ساجلهم في الإيمان وتلاهم من مؤمني أهل الكتاب وذكر ما هم عليه من الهدى في الحال ومن الظفر في المال ، ثم تلاهم بذكر أضدادهم المختوم على قلوبهم وأسماعهم المغطى أبصارهم الميؤوس من إيمانهم وذكر ما أعد لهم من العذاب العظيم ، ثم أتبع هؤلاء بأحوال المنافقين المخادعين المستهزئين ، وأخر ذكرهم وإن كانوا أسوأ أحوالاً من المشركين لأنهم اتصفوا في الظاهر بصفات المؤمنين وفي الباطن بصفات الكافرين فقدم الله ذكر المؤمنين ، وثنى بذكر أهل الشقاء الكافرين ، وثالث بذكر المنافقين الملحدين وأمعن في ذكر مخازيهم ، فأنزل فيهم ثلاث عشرة آية كل ذلك تقبيح لأحوالهم وتنبيه على مخازي أعمالهم ثم لم يكتف بذكر ذلك حتى أبرز أحوالهم في سورة الأنفال فكان ذلك أدعى للتفجير عما اجتروحه من قبيح الأفعال فانظر إلى حسن هذا السياق الذي توغل في ذروة الإحسان وتمكن في براعة أقسام البديع وبلاغة معاني البيان

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَارَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(يا) حرف نداء ، وزعم بعضهم أنها اسم فعل معناها أنادي ، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بها ، وهي أعم حروف النداء إذ ينادى بها القريب والبعيد ، والمستغاث ، والمندوب ، وأماها بعضهم ، وقد تجرد للتنبيه فيليها المبتدأ والأمر والتمني والتعليل ، والأصح أن لا ينوى بعدها منادى ، (أي) استفهام وشرط وصفة ووصلة لنداء ما فيه الألف واللام وموصولة ، خلافاً لأحمد بن يحيى إذ أنكر مجيئها موصولة ، ولا تكون موصوفة ، خلافاً للأخفش ، (ها) حرف تنبيه ، أكثر استعمالها مع ضمير رفع منفصل مبتدأ مخبر عنه باسم إشارة غالباً أو مع اسم إشارة لالبعاد ، ويفصل بها بين : أي في النداء وبين المرفوع بعده ، وضمها فيه لغة بني مالك من بني أسد يقولون « يا أيه الرجل » ، و « يا أيته المرأة » ، الخلق الاختراع بلا مثال ، وأصله التقدير ، خلقت الأديم : قدرته قال زهير :

وَلَأَنْتَ تَفَرِّي مَا خَلَقْتَ وَيَعُضُ الْقَوْمُ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي^(١)

قال قطرب^(٢) : الخلق هو الإيجاد على تقدير وترتيب ، والخلق والخلقة تنطلق على المخلوق ، ومعنى الخلق والإيجاد والإحداث والإبداع والاختراع والإنشاء متقارب ، « قبل » ظرف زمان ولا يعمل فيها عامل فيخرجها عن الظرفية إلا من ، وأصلها وصف ناب عن موصوفه لزوماً فإذا قلت : « قمت قبل زيد » فالتقدير قمت زماناً قبل زمان قيام زيد ، فحذف هذا كله وناب عنه قبل زيد ، (لعل) حرف ترجُّ في المحبوبات وتوقع في المحذورات ، ولا تستعمل إلا في الممكن لا يقال « لعل الشاب يعود » ولا تكون بمعنى كي ، خلافاً لقطرب وابن كيسان ، ولا استفهاماً خلافاً للكوفيين ، وفيها لغات لم يأت منها في القرآن إلا الفصحى ، ولم يحفظ بعدها نصب الاسمين ، وحكى

(١) البيت في روح المعاني (١/١٨٤) ، والقرطبي (١/١٥٧) .

(٢) محمد بن المستنير أبو علي النحوي المعروف بقطرب لازم سيويه وكان يدلج إليه فإذا خرج رآه على بابه فقال له : ما أنت إلا قطرب ليل فلقب به توفي سنة ست ومائتين - معجم الأدباء (٢٩/٥٣) ، البغية (١/٢٤٢) .

«الأخفش» : أن من العرب من يجزم بلعل وزعم أبو زيد أن ذلك لغة بني عقيل ، (الفراش)^(١) الوطاء الذي يقعد عليه وينام ويتقلب عليه ، (البناء) مصدر وقد يراد به المنقول من بين أوقبة أو خباء أو طراف ، وأبنية العرب أخبيتهم ، (الماء) معروف ، وقال بعضهم : هو جوهر سيال به قوام الحيوان ، ووزنه «فعل» ، وألفه منقلبة من واو ، وهمزته بدل من هاء يدل عليه مويه ومياه وأمواه ، (الثمرة) ما تخرجه الشجرة من مطعوم أو مشموم ، (الند) المقاوم المضاهى مثلاً كان أو ضدّاً أو خلافاً ، وقال أبو عبيدة : والمفضل الند الضد ، قال ابن عطية : وهذا التخصيص تمثيل لا حصر ، وقال غيره : الند الضد المبغض المناوئ من الندود ، وقال المهدوي : الند الكفو والمثل ، هذا مذهب أهل اللغة سوى أبي عبيدة فإنه قال : الضد ، قال الزمخشري : الند : المثل ولا يقال إلّا للمثل المخالف المناوئ ، قال جرير : -

أَتَيْمٌ تَجْعَلُونَ إِلَيَّ نِدّاً وَمَا تَيْمٌ لِّدِي حَسْبِ نَدِيدُ^(٢)

وناددتُ الرجل خالفته ونافرته ، من ند ندوداً إذا نفر ، ومعنى قولهم « ليس لله ند ولا ضد » نفي ما يسد مسده ونفي ما ينافيه .

(يا أيها الناس) خطاب لجميع من يعقل قاله ابن عباس ، أو اليهود خاصة قاله الحسن ومجاهد ، أولهم وللمنافقين قاله مقاتل ، أولكفار مشكركي العرب وغيرهم قاله السدي ، والظاهر قول ابن عباس لأن دعوى الخصوص تحتاج إلى دليل .

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر المكلفين من المؤمنين والكفار والمنافقين وصفاتهم وأحوالهم وما يؤول إليه حال كل منهم انتقل من الإخبار عنهم إلى خطاب النداء وهو التفات شبيه بقوله ﴿إياك نعبد﴾ [الفاتحة : ٥] ، بعد قوله ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة : ٢] ، وهو من أنواع البلاغة كما تقدم إذ فيه هز للسامع وتحريك له إذ هو خروج من صنف إلى صنف ، وليس هذا انتقالاً من الخطاب الخاص إلى الخطاب العام ، كما زعم بعض المفسرين ، إذ لم يتقدم خطاب خاص إلّا إن كان ذلك تجوزاً في الخطاب ، بأن يعني به الكلام فكانه قال انتقل من الكلام الخاص إلى الكلام العام ، قال هذا المفسرون ، وهذا من أساليب الفصاحة فإنهم يخصون ثم يعمون ولهذا لما نزل ﴿وأندركم عشيرتكم الأقرين﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، دعاهم رسول الله ﷺ فخصّ وعمّ فقال : يا عباس عم محمد : لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً^(٣) ، وقال الشاعر :

يَا بَنِيَّ ائْتَدِبُوا وَيَا أَهْلَ بَيْتِي وَقَبِيلِي عَلَيَّ عَاماً فَعَاماً

انتهى كلامه .

(١) الفراش : ما اقترش ، والجمع أفرشة . وفروش ... والفروش المفروش من متاع البيت ، وقوله تعالى : (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) أي : وطاء ولم يجعلها حَزَنَةً غليظة لا يمكن الاستقرار عليها - لسان العرب (٣٣٨٢/٥) .

(٢) انظر الكشف في (٩٥/١) ، والاستفهام إنكاري وتيم اسم رجل اسم قبيلة وهو مفعول مقدم و (إلى) متعلق بتجعلون على طريقة التضمين أي تنسبونه إلى أو إليّ بمعنى لي ويجوز تعلقه بنداً وهو مفعول ثان . والواو للحال أي والحال أنيما ليس نداءً لصاحب حسب ومآثر فكيف يكون نداءً لي ويروى أتيتم يجعلون فهو مبتدأ - انظر حاشية الشيخ عليان على الكشف (٩٥/١) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠/٣٥٠) ، والنسائي في المجتبى في كتاب الوصايا (٣٦٤٨) ، والترمذي (٣١٨٤) ، وأحمد في المسند (١٨٧/٦) ، والطبري (٧٢/١٩) .

وروي عن ابن عباس ومجاهد وعلقمة أنهم قالوا : كل شيء نزل فيه « يا أيها الناس » فهو مكّي ، و « يا أيها الذين آمنوا » فهو مدني ^(١) ، أما في « يا أيها الذين آمنوا » فصحيح ، وأما في « يا أيها الناس » فيحمل على الغالب ، لأن هذه السورة مدنية وقد جاء فيها « يا أيها الناس » ، و (أي) في أيها منادى مفرد مبني على الضم ، وليست الضمة فيه حركة إعراب ، خلافاً « للكسائي » و « الرياشي » ^(٢) ، وهي وصلة لنداء ما فيه الألف واللام ، لما لم يمكن أن ينادى توصل بنداء : أي إلى ندائه ، وهي في موضع نصب ، وهاء التنبيه كأنها عوض مما منعت من الإضافة ، وارتفع (الناس) على الصفة على اللفظ لأن بناء « أي » شبه بالإعراب ، فلذلك جاز مراعاة اللفظ ، ولا يجوز نصبه على الموضع ، خلافاً لأبي عثمان ^(٣) ، وزعم أبو الحسن في أحد قوليه أن « أيا » في النداء موصولة ، وأن المرفوع بعدها خبر مبتدأ محذوف ، فإذا قال « يا أيها الرجل » فتقديره يا من هو الرجل ، والكلام على هذا القول وقول أبي عثمان مستقصى في النحو ، ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ ولما واجه تعالى الناس بالنداء أمرهم بالعبادة ، وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة : ٥] ، والأمر بالعبادة شمل المؤمنين والكافرين ، لا يقال المؤمنون عابدون ، فكيف يصح الأمر بما هم ملتبسون به ، لأنه في حقهم أمر بالازدياد من العبادة فصح مواجهة الكل بالعبادة ، وانظر لحسن مجيء الرب فإنه السيد والمصلح ، وجدير بمن كان مالكا أو مصلحاً أحوال العبد أن يخص بالعبادة ولا يشرك مع غيره فيها ، والخطاب إن كان عاماً كان قوله ، (الذي خلقكم) صفة مدح ، وإن كان لمشركي العرب كانت للتوضيح إذ لفظ الرب بالنسبة إليهم مشترك بين الله تعالى وبين آلهتهم ، ونبه بوصف الخلق على استحقاقه العبادة دون غيره (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ، أو على امتنانه عليهم بالخلق على الصورة الكاملة والتميز عن غيرهم بالعقل والإحسان إليهم بالنعم الظاهرة والباطنة ، أو على إقامة الحجة عليهم بهذا الوصف الذي لا يمكن أن يشرك معه فيه غيره ، ووصف الربوبية والخلق موجب للعبادة إذ هو جامع لمحبة الاصطناع والاختراع ، والمحبة يكون على أقصى درجات الطاعة لمن يحب ، وقالوا المحبة ثلاث : فزادوا محبة الطباع كمحبة الوالد لولده ، وأدغم أبو عمر (وخلقكم) ، وتقدم تفسير الخلق في اللغة ، وإذا كان بمعنى الاختراع والإنشاء فلا يتصف به إلا الله تعالى ، وقد أجمع المسلمون على أن لا خالق إلا الله تعالى ، وإذا كان بمعنى التقدير فمقتضى الله أنه قد يوصف به غير الله تعالى كبيت زهير ، وقال تعالى ﴿ فبأمر الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، ﴿ وإذ تخلق من الطين ﴾ [المائدة : ١١٠] ، وقال أبو عبد الله البصري أستاذ القاضي عبد الجبار ^(٤) : إطلاق اسم الخالق على الله تعالى محال ، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الفكر والظن والحسبان ، وذلك في حق الله تعالى محال ، وكأنّ أبا عبد الله لم يعلم أن الخلق في اللغة يطلق على الإنشاء ، وكلام البصري مصادم لقوله تعالى ﴿ هو الله الخالق الباري ﴾ [الحشر : ٢٤] ، إذ زعم أنه لا يطلق اسم الخالق على الله ، وفي اللغة والقرآن والإجماع ما يرد عليه وعطف قوله (والذين من قبلكم) على الضمير المنصوب في (خلقكم) ، والمعطوف متقدم في الزمان على المعطوف عليه وبدأ به وإن كان متأخراً في الزمان ، لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، إذ أقرب الأشياء إليه نفسه ، ولأنهم المواجهون بالأمر بالعبادة ، فتنبههم أولاً على أحوال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٣/١) ، عن علقمة فقط وعزاه لأبي عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن الضريس وابن المنذر وأبي الشيخ بن حبان في التفسير . وذكر القرطبي في تفسيره (١٥٧/١) ، عن علقمة ومجاهد .

(٢) العباس بن الفرج أبو الفضل الرياشي اللغوي النحوي قال السيرافي : وكان عالماً باللغة والشعر ورياش رجل من جزام كان أبوه عبداً فنسب إليه - انظر البغية (٢٧/١) ، تاريخ بغداد (١٣٨/١٢) .

(٣) أبو عثمان الأشنادناني اللغوي الراوية روى عنه ابن دريد البغية (١٣٧/٢) .

(٤) عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الأسد أبادي أبو الحسين قاض أصولي كان شيخ المعتزلة في عصره توفي سنة ٤١٥ هجرية - الأعلام للزركلي (٢٧٣/٣) .

أنفسهم أكد وأهم ، وبدأ أولاً بصفة الخلق إذ كانت العرب مقرة بأن الله خالقها ، وهم المخاطبون والناس تبع لهم ، إذ نزل القرآن بلسانهم ، وقرأ ابن السمين (وخلق من قبلكم) جعله من عطف الجمل ، وقرأ زيد بن علي (والذين من قبلكم) بفتح ميم من ، قال الزمخشري^(١) : وهي قراءة مشككة ووجهها على أشكالها أن يقال : أقحم الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً ، كما أقحم جرير في قوله :

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَالَكُمْ^(٢)

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه وكإقحامهم لام الإضافة بين المضاف والمضاف إليه في لا أبالك انتهى كلامه .

وهذا التخريج الذي خرج الزمخشري^(٣) قراءة زيد عليه هو مذهب لبعض النحويين ، زعم أنك إذا أتيت بعد الموصول بموصول آخر في معناه مؤكد له لم يحتاج الموصول الثاني إلى صلة نحو قوله : -

مِنَ النَّفْرِ اللَّائِي الَّذِينَ إِذَا هُمْ يَهَابُ اللَّثَامُ حَلَقَةَ الْبَابِ فَعَقَّعُوا^(٤)

فإذا وجوابها صلة اللائي ، ولا صلة للذين لأنه إنما أتى به للتأكيد قال أصحابنا : وهذا الذي ذهب إليه باطل لأن القياس إذا أكد الموصول أن تكرره مع صلته لأنها من كماله ، وإذا كانوا أكدوا حرف الجر أعادوه مع ما يدخل عليه لافتقاره إليه ولا يعيدونه وحده إلا في ضرورة ، فالأحرى أن يفعل مثل ذلك بالموصول الذي الصلة بمنزلة جزء منه ، وخرج أصحابنا البيت على أن الصلة للموصول الثاني وهو خبر مبتدأ محذوف ، ذلك المبتدأ والموصول في موضع الصلة للأول تقديره « من النفر اللائي هم الذين إذا هم » ، وجاز حذف المبتدأ وإضمماره لطول خبره ، فعلى هذا يتخرج قراءة زيد أن يكون قبلكم صلة من ومن خبر مبتدأ محذوف ، وذلك المبتدأ وخبره صلة للموصول الأول وهو الذين التقدير « والذين هم من قبلكم » ، وعلى قراءة الجمهور تكون صلة الذين قوله (من قبلكم) ، وفي ذلك إشكال لأن الذين أعيان ، و (من قبلكم) جار ومجرور ناقص ليس في الإخبار به عن الأعيان فائدة ، فكذلك الوصل به إلا على تأويل ، وتأويله أنه يؤول إلى أن ظرف الزمان إذا وصف صح وقوعه خبراً نحو « نحن في يوم طيب » كذلك يقدر هذا والذين كانوا من زمان قبل زمانكم ، وهذا نظير قوله تعالى (بالذين من قبلكم) وإنما ذكر (والذين من قبلكم) ، وإن كان خلقهم لا يقتضي العبادة علينا لأنهم كالأصول لهم فخلق أصولهم يجري مجرى الإنعام على فروعهم ، فذكرهم عظيم إنعامه تعالى عليهم وعلى أصولهم بالإيجاد ، وليست لعل هنا بمعنى كي ، لأنه قول مرغوب عنه ، ولكنها للترجي والإطماع ، وهو بالنسبة إلى المخاطبين ، لأن الترجي لا يقع من الله تعالى إذ هو عالم الغيب والشهادة ، وهي متعلقة بقوله (اعبدوا ربكم) فكأنه قال إذا عبدتم ربكم رجوتم التقوى ، وهي التي تحصل بها الوقاية من النار والفوز بالجنة ، قال ابن عطية : ويتجه تعلقها بخلقكم ، لأن كل مولود يوجد على الفطرة فهو بحيث يرجى أن يكون متقياً ، ولم يذكر الزمخشري^(٥) غير تعلقها بخلقكم قال لعل واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة ، لأن الله تعالى خلق عباده

(١) انظر الكشف (٩١/١) .

(٢) البيت من البسيط لجبر - انظر ديوانه (٣٤٦ - ٣٤٧) ، شرح شواهد المغني (٨٥٥) ، الخزانة (٢٩٨/٣) ، الحماسة البصرية

(٢/٢٩٦) ، الخصائص (٣٤٥/١) ، لسان العرب (أبي) .

(٣) انظر الكشف (٩١/١) .

(٤) البيت من الطويل للثعلبي انظر أسرار البلاغة (١٦١) ، الخزانة (٥٢٩/٢) ، أمالي القالي (١٦٤/٣) .

(٥) انظر الكشف (٩٢/١) .

ليتعبدهم بالتكليف ، ورُكِّبَ فيهم العقول والشهوات ، وأزاح العلة في إقذارهم وتمكينهم ، وهداهم النجدين ، ووضع في أيديهم زمام الاختيار ، وأراد منهم الخير والتقوى ، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا الترجح أمرهم ، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل انتهى كلامه . وهو مبني على مذهبه الاعتزالي من أن العبد مختار ، وأنه لا يريد الله منه إلا فعل الخير ، وهي مسألة يبحث فيها في أصول الدين .

والذي يظهر ترجيحه أن يكون (لعلكم تتقون) متعلقاً بقوله (اعبدوا ربكم) ، فالذي نُودُوا لأجله هو الأمر بالعبادة ، فناسب أن يتعلق بها ذلك ، وأتى بالموصول وصلته على سبيل التوضيح أو المدح للذي تعلقت به العبادة ، فلم يجأ بالموصول ليحدث عنه ، بل جاء في ضمن المقصود بالعبادة ، وأما صلته فلم يجأ بها لإسناد مقصود لذاته ، إنما جيء بها لتتميم ما قبلها ، وإذا كان كذلك فكونها لم يجأ بها لإسناد يقتضي أن لا يهتم بها فيتعلق بها ترج أو غيره بخلاف قوله (اعبدوا) فإنها الجملة المفتحة بها أولاً والمطلوبة من المخاطبين ، وإذا تعلق بقوله (اعبدوا) كان ذلك موافقاً ، إذ قوله (اعبدوا) خطاب (ولعلكم تتقون) خطاب ، ولما اختار الزمخشري^(١) تعلقه بالخلق قال : (فإن قلت) : كما خلق المخاطبين (لعلهم يتقون) فكذلك خلق الذين من قبلهم ، لذلك قصره عليهم دون من قبلهم ، (قلت) : لم يقصره عليهم ولكن غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ والمعنى على إرادتهم جميعاً انتهى كلامه . وقد تقدم ترجيح تعلقه بقوله (اعبدوا) فيسقط هذا السؤال ، وقال المهدوي : لعل متصلة « باعبدوا » لا « بخلقكم » لأن من ذراه الله عز وجل لجهنم لم يخلقه ليتقي ، والمعنى عند « سيبويه » : افعلوا ذلك على الرجاء والطمع أن تتقوا انتهى كلامه .

ولما جعل « الزمخشري »^(٢) (لعلكم تتقون) متعلقاً بالخلق قال ، (فإن قلت) : فهلا قيل تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا المكان تتقون ليتجاوب طرفا النظم .

(قلت) : ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم ، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده ، فإذا قال (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وأثبت لها في النفوس انتهى كلامه . وهو مبني على مذهبه في أن الخلق كان لأجل التقوى ، وقد تقدم ذلك ، وأما فوله : ليتجاوب طرفا النظم فليس بشيء ، لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفي النظم ، لأنه يصير المعنى (اعبدوا ربكم لعلكم تتقون) : واتقوا ربكم لعلكم تتقون ، وهذا بعيد في المعنى إذ هو مثل « اضرب زيداً لعلك تضربه » و « اقصد خالداً لعلك تقصده » ، ولا يخفى ما في هذا من غثاثة اللفظ وفساد المعنى ، والقرآن منزّه عن ذلك ، والذي جاء به القرآن هو في غاية الفصاحة ، إذ المعنى : أنهم أمروا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم ، لأن التقوى مصدر اتقى ، واتقى معناه اتخاذ الوقاية من عذاب الله وهذا مرجو حصوله عند حصول العبادة ، فعلى هذا العبادة ليست نفس التقوى ، لأن الاتقاء هو الاحتراز عن المضار ، والعبادة : فعل المأمور به ، وفعل المأمور به ليس نفس الاحتراز بل يوجب الاحتراز ، فكأنه قال : اعبدوه فحترزوا عن عقابه ، فإن أطلق على نفس الفعل اتقاء فهو مجاز ، ومفعول (يتقون) محذوف ، قال ابن عباس : الشرك ، وقال الضحاك : النار^(٣) ، أو معناه طيعون^(٤) قاله مجاهد ،

(١) انظر الكشف (٩٣/١) .

(٢) انظر الكشف (٩٦/١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤/١) ، وعزه لابن أبي حاتم عن الضحاك .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤/١) ، وعزه لوكيع وعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ عن مجاهد .

ومن قال : المعنى الذي خلقكم راجين للتقوى ، قال بعض المفسرين : فيه بعد من حيث إنه لو خلقهم راجين للتقوى كانوا مطيعين مجبولين عليها ، والواقع خلاف ذلك انتهى كلامه . ويعني أنهم لو خلقوا وهم راجون للتقوى لكان ذلك مركزاً في جبلتهم ، فكان لا يقع منهم غير التقوى وهم ليسوا كذلك ، بل المعاصي هي الواقعة كثيراً وهذا ليس كما ذكر ، وقد يخلق الإنسان راجياً لشيء فلا يقع ما يرجوه لأن الإنسان في الحقيقة ليس له الخيار فيما يفعله أو يتركه ، بل نجد الإنسان يعتقد رجحان الترك في شيء ثم هو يفعله ، ولقد صدق الشاعر في قوله : -

عَلِمِي بِقُبْحِ الْمَعَاصِي حِينَ أَرْكُبَهَا يَقْضِي بِأَنِّي مَحْمُولٌ عَلَى الْقَدَرِ^(١)

فلا يلزم من رجاء الإنسان لشيء وقوع ما يرتجي ، وإنما امتنع ذلك التقدير أعني تقدير الحال من حيث إن لعل للإنشاء فهي وما دخلت عليه ليست جملة خبرية فيصح وقوعها حالاً ، قال الطبري^(٢) : هذه الآية يريد ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ﴾ [البقرة : ٢١] ، من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله غير جائز^(٣) ، وذلك أن الله عز وجل أمر بعبادته من آمن به ومن كفر بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون ، وأنهم عن ضلالتهم لا يرجعون ، والموصول الثاني في قوله (الذي جعل) يجوز رفعه ونصبه ، فرفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف فهو رفع على القطع إذ هو صفة مدح قالوا : أو على أنه مبتدأ خبره قوله (فلا تجعلوا الله أنداداً) ، وهو ضعيف لوجهين .

أحدهما : أن صلة الذي وما عطف عليها قد مضيا فلا يناسب دخول الفاء في الخبر .

الثاني : أن ذلك لا يتمشى إلا على مذهب أبي الحسن ، لأن من الروابط عنده تكرار المبتدأ بمعناه ، (فالذي) مبتدأ و (فلا تجعلوا الله أنداداً) ، جملة خبرية والرابط لفظ الله من الله ، كأنه قيل : « فلا تجعلوا الله أنداداً » ، وهذا من تكرار المبتدأ بمعناه ، ولا نعرف إجازة ذلك إلا عن أبي الحسن أجاز أن تقول : « زيد قام أبو عمرو » إذا كان أبو عمرو كنية لزيد ، ونص سيبويه على منع ذلك ، وأما نصبه فيجوز أن يكون على القطع ، إذ هو وصف مدح كما ذكرنا ، ويجوز أن يكون وصفاً لما كان له وصفاً (الذي خلقكم) وهو ربكم ، قالوا : ويجوز نصبه على أن يكون نعتاً لقوله (الذي خلقكم) فيكون نعتاً للنعت ، ونعت النعت مما يحيل تكرار النعت ، والذي نختاره أن النعت لا ينعت بل النعت كلها

(١) البيت من الطويل لعكرشة العبيسي - انظر دلائل الإعجاز (١٣٨) .

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري الإمام أبو جعفر رأس المفسرين على الإطلاق أحد الأئمة وتفسيره من أجل التفاسير لم يؤلف مثله كما ذكره العلماء قاطبة - انظر طبقات المفسرين للدوادني (١٠٦/٢) ، غاية النهاية (١٠٦/٢) .

(٣) انظر هذه في تفسير الطبري (٣٦٣/١) ، والأحكام للآمدي (١٢٤/١) .

اختلف قول أبي الحسن الأشعري في جواز التكليف بما لا يطاق نفيًا وإثباتاً وذلك كالجمع بين الضدين ، وقلب الأجناس وإيجاد القديم وإعدامه ونحوه وميله في أكثر أقواله إلى الجواز وهو لازم على أصله في اعتقاد وجوب مقارنة القدرة الحادثة للمقدور بها مع تقدم التكليف بالفعل على الفعل وأن القدرة الحادثة غير مؤثرة في مقدورها بل مقدورها مخلوق لله تعالى .

ولا يخفى أن التكليف بفعل الغير حالة عدم القدرة عليه تكليف بما لا يطاق . وهذا هو مذهب أكثر أصحابه وبعض معتزلة بغداد حيث قالوا بجواز تكليف العبد بفعل في وقت علم الله تعالى أنه يكون ممنوعاً عنه والبكرية حيث زعموا أن الختم والطبع على الأفئدة مانعان من الإيمان مع التكليف به غير أن من قال بجواز ذلك من أصحابه اختلفوا في وقوعه نفيًا وإثباتاً ووافق على القول بالنفي بعض الأصحاب وهو مذهب البصريين من المعتزلة وأكثر البغداديين وأجمع الكل على جواز التكليف بما علم الله أنه لا يكون عقلاً وعلى وقوعه شرعاً كالتكليف بالإيمان لمن علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل خلافاً لبعض الثنوية .

والمختار إنما هو امتناع التكليف بالمستحيل لذاته كالجمع بين الضدين ونحوه .

وجوازه في المستحيل باعتبار غيره وإليه ميل الغزالي رحمه الله .

وانظر تفصيل ذلك في الأحكام للآمدي .

راجعة إلى منوع واحد ، إلا إن كان ذلك النعت لا يمكن تبعيته للمنوعات فيكون إذ ذاك نعتاً للنعت الأول نحو قولك : يا أيها الفارس ذو الجمة ^(١) ، وأجاز أبو محمد مكي ^(٢) نصبه بإضمار أعني وما قبله ليس بملتبس فيحتاج إلى مفسر له بإضمار أعني ، وأجاز أيضاً نصبه بتقون ، وهو إعراب غث ينزه القرآن عن مثله ، وإنما أتى بقوله الذي دون واول لتكون هذه الصفة وما قبلها راجعين إلى موصوف واحد ، إذ لو كانت بالواو لأوهم ذلك موصوفاً آخر ، لأن العطف أصله المغايرة ، و (جَعَلَ) بمعنى صيّر لذلك نصبت الأرض ، و (فراشاً) ، و (لكم) متعلق بجعل ، وأجاز بعضهم أن ينتصب فراشاً وبناء على الحال ، على أن يكون جعل بمعنى خلق فيتعدى إلى واحد ، وغاير اللفظ كما غاير في قوله ﴿ خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : ١] ، لأنه قصد إلى ذكر جملتين فغاير بين اللفظين ، لأن التكرار ليس في الفصاحة كاختلاف اللفظ والمدلول واحد ، وأدغم أبو عمرو لام جعل في لام لكم ، والألف واللام في (الأرض) يجوز أن تكون للجنس الخاص ، فيكون المراد أرضاً مخصوصة وهي كل ما تمهد واستوى من الأرض وصلاح أن يكون (فراشاً) ، ويجوز أن تكون لاستغراق الجنس ، ويكون المراد بالفراش مكان الاستقرار واللبث لكل حيوان ، فالوهد مستقر بني آدم وغيرهم من الحيوانات والجبال ، والحزون مستقر لبعض الأدميين بيوتاً أو حصوناً ومنازل أول بعض الحيوانات وحشاً وطيراً يفترشون منها أوكاراً ، ويكون الامتنان على هذا مشتقاً على كل من جعل الأرض له قراراً ، وغلب خطاب من يعقل على من لا يعقل ، أو يكون خطاب الامتنان وقع على من يعقل لأن ما عداهم من الحيوانات معد لمنافعهم ومصالحهم فخلقها من جملة المنة على من يعقل ، وقرأ يزيد الشامي ^(٣) (بساطاً) ، وطلحة (مهاداً) ، والفراش والمهاد والبساط والقرار والوطاء نظائر ، وقد استدل بعض المنجمين بقوله (جعل لكم الأرض فراشاً) على أن الأرض مبسوطة لا كرية ، وبأنها لو كانت كرية ما استقر ماء البحار فيها ، أما استدلاله بالآية فلا حجة له في ذلك لأن الآية لا تدل على أن الأرض مسطحة ولا كرية ، إنما دلت على أن الناس يفترشونها كما يتقبلون بالمفارش سواء كانت على شكل السطح أو على شكل الكرة ، وأمكن الافتراض فيها لتباعد أقطارها واتساع جرمها ، قال الزمخشري ^(٤) وإذا كان يعني الافتراض سهلاً في الجبل وهو وتد من أوتاد الأرض فهو أسهل في الأرض ذات الطول والعرض ، وأما استدلاله باستقرار ماء البحار فيها فليس بصحيح قالوا لأنه يجوز أن تكون كرية ويكون في جزء منها منسطح يصلح للاستقرار ، وماء البحر متماسك بأمر الله تعالى لا بمقتضى الهيئة انتهى قولهم . ويجوز أن يكون بعض الشكل الكروي مقراً للماء إذا كان ذلك الشكل ثابتاً غير دائر ، أما إذا كان دائراً فيستحيل عادة قراره في مكان واحد من ذلك الشكل الكروي ، وهذه مسألة يتكلم عليها في علم الهيئة .

وقوله تعالى ﴿ والسمااء بناء ﴾ [البقرة : ٢٢] ، هو تشبيه بما يفهم كقوله تعالى ﴿ والسمااء بنيانها بأيدي ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، شبهت بالقبة المبنية على الأرض ، ويقال لسقف البيت بناء ، والسمااء للأرض كالسقف ^(٥) ، روي هذا عن ابن عباس وجماعة ، وقيل سماها بناء لأن سمااء البيت يجوز أن يكون بناء غير بناء كالخيام والمضارب

(١) الجمة من شعر الرأس : ما سقط على المنكبين - لسان العرب (٦٨٧/١) .

(٢) مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار أبو محمد القيسي النحوي المقرئ صاحب الإعراب مات في المحرم سنة سبع ثلاثين وأربعمائة - البغية (٢٩٨/٢) .

(٣) يزيد بن قطيب السكوني الشامي ثقة له اختيار في القراءة ينسب إليه - انظر غاية النهاية (٣٨٢/٢) .

(٤) انظر الكشاف (٩٤/١) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤/١) ، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة وهو عند ابن جرير في تفسيره (٣٦٧/١) (٤٧٨) .

والقباب ، لكن البناء أبلغ في الإحكام وأتقن في الصنعة وأمنع لوصول الأذى إلى من تحته ، فوصف السماء بالأبلغ والأتقن والأمنع ، ونبه بذلك على إظهار قدرته وعظيم حكمته ، إذ المعلوم أن كل بناء مرتفع لا يتهياً إلا بأساس مستقر على الأرض أو بعمد وأطناب مركوزة فيها ، والسماء في غاية ما يكون من العظم وهي سبع طباق بعضها فوق بعض ، وعليها من أثقال الأفلاك ، وأجناس الأملاك ، وأجرام الكواكب التي لا يعبر عن عظمها ولا يحصى عددها ، وهي مع ذلك بغير أساس يمسكها ، ولا عمد تقلها ، ولا أطناب تشدها ، وهي لو كانت بعمد وأساس كانت من أعظم المخلوقات ، وأحكم المبدعات فكيف وهي عارية عن ذلك ، ممسكة بالقدرة الإلهية ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ [فاطر : ٤١] ، وقيل سميت بناء لتمامها ، كما يتماسك البناء بعضه ببعض ، (وأنزل من السماء) يجوز أن يراد به السحاب ، ويجوز أن يراد به السماء المعروفة ، فعلى الأول الجامع بينهما هو القدر المشترك من السمو ، ولا يجوز الإضمار لأنه غير الأول ، وعلى الثاني فحسن الإظهار دون الإضمار هنا كون السماء الأولى في ضمن جملة ، والثانية جملة صالحة بنفسها أن تكون صلة تامة لولا عطفها ، ومن متعلقة بأنزل وهي لابتداء الغاية ، ويحتمل أن تتعلق بمحذوف على أن تكون في موضع الحال من ماء ، لأنه لو تأخر لكان نعتاً فلما تقدم انتصب على الحال ، ومعناها إذ ذاك التبعض ، ويكون في الكلام مضاف محذوف : أي من مياه السماء ونكر ، (ماء) لأن المنزل لم يكن عاماً فتدخل عليه الألف واللام ، وإنما هو ما صدق عليه الاسم ، (فأخرج به) والهاء في (به) عائدة إلى الماء ، والباء معناها السببية ، فالماء سبب للخروج ، كما أن ماء الفحل سبب في خلق الولد ، وهذه السببية مجاز إذ الباري تعالى قادر على أن ينشئ الأجناس ، وقد أنشأ من غير مادة ولا سبب ، ولكنه تعالى لما أوجد خلقه في بعض الأشياء عند أمر ما أجرى ذلك الأمر مجرى السبب لا أنه سبب حقيقي ، والله تعالى في إنشاء الأمور منتقلة من حال إلى حال حكم يستنصر بها لم يكن في إنشائها دفعة واحدة من غير انتقال أطوار ، لأن في كل طور مشاهدة أمر من عجيب التنقل وغريب التدريج تزيد المتأمل تعظيماً للباري ، (من الثمرات) من للتبعض ، والألف واللام في الثمرات لتعريف الجنس ، وجمع لاختلاف أنواعه ولا ضرورة تدعو إلى ارتكاب أن الثمرات من باب الجموع التي يتفاوت بعضها موضع بعض لالتقائهما في الجمعية نحو ﴿ كم تركوا من جنات ﴾ [الدخان : ٢٥] ، و ﴿ ثلاثة قروء ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، فقامت الثمرات مقام الثمر أو الثمار على ما ذهب إليه الزمخشري^(١) ، لأن هذا من الجمع المحلي بالألف واللام ، فهو وإن كان جمع قلة فإن الألف واللام التي للعموم تنقله من الاختصاص لجمع القلة للعموم ، فلا فرق بي الثمرات والثمار إذ الألف واللام للاستغراق فيهما ، ولذلك رد المحققون على من نقد على حسان قوله :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرِّيْلُ مَعْنَى فِي الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا^(٢)

بأن هذا جمع قلة ، فكان ينبغي على زعمه أن يقول « الْجَفَنَانِ » و « سيوفنا » وهو نقد غير صحيح ، لما ذكرناه من أن الاستغراق ينقله ، وأبعد من جعل (من) زائدة ، وجعل الألف واللام للاستغراق لوجهين :

أحدهما : زيادة من في الواجب وقيل معرفة ، وهذا لا يقول به أحد من البصريين والكوفيين إلا الأخفش .
والثاني : أنه يلزم منه أن يكون جميع الثمرات التي أخرجها رزقاً لنا ، وكم من شجرة أثمرت شيئاً لا يمكن أن

(١) انظر الكشف (٩٤/١) .

(٢) البيت من الطويل لحسان بن ثابت - انظر الكتاب (١٨١/٢) ، الخصائص (٢٠٦/٢) ، المحتسب (١٨٧/١ - ١٨٨) ، شرح المفصل (١٠/٥) ، الخزانة (٤٣٠/٣) ، شرح شواهد الألفية للعيني (٥٢٧/٤) ، الأشموني (١٢١/٤) .

يكون رزقاً لنا ، وإن كانت للتبعض كان بعض الثمار رزقاً لنا وبعضها لا يكون رزقاً لنا وهي الواقع ، وناسب في الآية تنكير (الماء) وكون من دالة على التبعض وتنكير الرزق ، إذ المعنى « وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات بعض رزق لكم » ، إذ ليس جميع رزقهم هو بعض الثمرات إنما ذلك بعض رزقهم ومن الثمرات ، يحتمل أن يكون في موضع المفعول به بأخرج ويكون على هذا ، (رزقاً) منصوباً على الحال إن أريد به المرزوق كالطحن والرعي ، أو مفعولاً من أجله إن أريد به المصدر وشروط المفعول له فيه موجودة ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بأخرج ويكون رزقاً مفعولاً بأخرج .

وقرأ ابن السميع (من الثمرة) على التوحيد يريد به الجمع كقولهم فلان أدركت ثمرة بستانه يريدون ثماره ، وقولهم للقصيد كلمة وللقرية مدرة لا يريدون بذلك الأفراد ، و (لكم) إن أريد بالرزق المصدر كانت الكاف مفعولاً به ، واللام منوية لتعدي المصدر إليه نحو : « ضربت ابني تأديباً له » : أي تأديبه ، وإن أريد به المرزوق كان في موضع الصفة فتعلق اللام بمحذوف : أي كائناً لكم ، ويحتمل أن تكون لكم متعلقاً بأخرج : أي : « فأخرج لكم به من الثمرات رزقاً » .

وانتهى عند قوله (رزقاً لكم) ذكر خمسة أنواع من الدلائل ، اثنين من الأنفس خلقهم وخلق من قبلهم ، وثلاثة من غير الأنفس ، كون الأرض فراشاً ، وكون السماء بناء ، والحاصل من مجموعهما تقدّم خلق الإنسان لأنه أقرب إلى معرفته ، وثنى بخلق الآباء ، وثالث بالأرض لأنها أقرب إليه من السماء ، وقدم السماء على نزول المطر وإخراج الثمرات ، لأن هذا كالأمر المتولد بين السماء والأرض ، والأثر متأخر عن المؤثر ، وقيل قدم المكلفين لأن خلقهم أحياء قادرين أصل لجميع النعم ، وأما خلق السماء والأرض والماء والثمر فإنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة والعقل ، وقد اختلف أيهما أفضل ؟ ومن قال السماء أفضل قال : لأنها متعبد الملائكة وما فيها من بقعة عصي الله فيها ، ولأن آدم لما عصاه قال : لا تسكن جوارى ، ولتقديم السماء على الأرض في أكثر الآيات ، ولأن فيها العرش والكرسي واللوح المحفوظ والقلم ، وأنها قبلة الدعاء ، ومن قال الأرض أفضل قال لأن الله وصف منها بقاعاً بالبركة ، ولأن الأنبياء مخلوقون منها ، ولأنها مسجد وطهور ، (فلا تجعلوا لله أنداداً) ظاهره أنه نهى عن اتخاذ الأنداد ، وسموا أنداداً على جهة المجاز من حيث أشركوهم معه تعالى في التسمية بالإلهية والعبادة صورة لا حقيقة ، لأنهم لم يكونوا يعبدونهم لذواتهم بل للتقرب إلى الله تعالى ، وكانوا يسمون الله إله الآلهة ورب الأرباب ومن شابه شيئاً في وصف ما قيل هو مثله وشبهه ونده في ذلك الوصف دون بقية أوصافه ، والنهي عن اتخاذ الأنداد بصورة الجمع هو على حسب الواقع ، لأنهم لم يتخذوا له تعالى ندّاً واحداً ، وإنما جعلوا له أنداداً كثيرة ، فجاء النهي على ما كانوا اتخذه ، ولذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل^(١) :

أَرَبّاً وَاحِداً أَمْ أَلْفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمتِ الْأُمُورُ^(٢)

وقرأ زيد بن علي بن محمد بن السميع ندّاً على التوحيد وهو مفرد في سياق النهي ، فالمراد به العموم ، إذ ليس المعنى « فلا تجعلوا لله ندّاً واحداً بل أنداداً » ، وهذا النهي متعلق بالأمر في قوله (اعبدوا ربكم) : أي فوحده وأخلصوا

(١) زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي نصير المرأة في الجاهلية وأحد الحكماء وهو ابن عم عمر بن الخطاب ولم يدرك الإسلام وكان يكره عبادة الأوثان - انظر الأعلام (٦٠/٣) ، الأغاني (١٥/٣) .

(٢) ذكره في الكشف (٩٥/١) ، ونسبه في حاشيته لعمرو بن زيد بن نفيل بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن ربيع - انظر روح المعاني (١٩١/١) .

له العبادة ، لأن أصل العبادة هو التوحيد ، قال الزمخشري^(١) متعلق بلعل على أن ينتصب (تجعلوا) انتصاب (فأطلع) في قوله ﴿لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى﴾ [غافر : ٣٦] ، في رواية حفص عن عاصم : أي «خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه» انتهى كلامه ، فعلى هذا لا تكون لانهية بل نافية ، وتجعلوا منصوب على جواب الترجي ، وهو لا يجوز على مذهب البصريين ، إنما ذهب إلى جواز ذلك الكوفيون أجروا «لعل» مجرى «هل» فكما أن الاستفهام ينصب الفعل في جوابه فكذلك الترجي ، فهذا التخريج الذي أخرجه الزمخشري لا يجوز على مذهب البصريين ، وفي كلامه تعليق «لعلكم تتقون» بخلقكم ، ألا ترى إلى تقديره : أي خلقكم لكي تتقوا وتخافوا عقابه فلا تشبهوه بخلقه ، وهو جار على ما مر من مذهبه الاعتزالي ، ويجوز أن يكون متعلقاً بالذي إذا جعلته خبر مبتدأ محذوف : أي هو الذي جعل لكم هذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية ، فلا تجعلوا له أنداداً ، والظاهر في هذا القول هو ما قدمناه أولاً من تعلقه بقوله (اعبدوا ربكم) ، وأنتم تعلمون (جملة حالية ، وفيها من التحريك إلى ترك الأنداد ، وإفراد الله بالوحدانية ما لا يخفى : أي أنتم من ذوي العلم والتمييز بين الحقائق والإدراك للطائفتين الأشياء والاستخراج لغوامض الدلائل في الرتبة التي لا تليق لمن تحلى بها أن يجعل لله نداً وهو خلقه إذ ذاك فعل من كان أجهل العالم وأبعدهم عن الفطنة وأكثرهم تجويزاً للمستحيلات ، ومفعول (تعلمون) متروك لأن المقصود إثبات أنهم من أهل العلم والمعرفة والتمييز تخصيص العلم بشيء قال معناه ابن قتيبة ، لأنه فسر تعلمون بمعنى تعقلون ، وقيل هو محذوف اختصاراً تقديره : «وأنتم تعلمون أنه خلق السموات وأنزل الماء ، وفعل ما شرحه^(٢) في هذه الآيات» ، ومعنى هذا مروى عن ابن عباس وقتادة ومقاتل أو «أنتم تعلمون أنه ليس ذلك في كتابكم التوراة والإنجيل»^(٣) ، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ، أو أنه لا ند له^(٤) قاله مجاهد ، أو «أنتم تعلمون أنه لا يقدر على فعل ما ذكره أحد سواه» ، ذكره علي بن عبيد الله ، أو «وأنتم تعلمون أنها حجارة» قاله أبو محمد بن الخشاب^(٥) ، أو «وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت» ، أو «وأنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله» كقوله ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ [الروم : ٤٠] ، قالهما الزمخشري^(٦) ، والمخاطب بقوله (فلا تجعلوا) ظاهره أنه للناس المأمورين بـ (اعبدوا ربكم) ، وقد تقدمت أقاويل السلف في ذلك ، قال ابن فورك^(٧) : ويحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين المعنى : «فلا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أنداداً بعد علمكم أن العلم هو نفي الجهل بأن الله واحد» .

قال أبو محمد بن عطية هذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق ، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أخذ بطرف من جعل نداً انتهى . وقول أبي

- (١) انظر الكشف (٩٥/١) .
- (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٤/١ - ٣٥) ، عن ابن عباس وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وهو عند ابن جرير في التفسير (٣٧٠/١) (٤٨٦) ، قتادة وعزاه في الدر لابن جريج .
- (٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٧١/١) ، عن مجاهد .
- (٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٥/١) ، وعزاه لوكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد .
- (٥) عبد الله بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الخشاب أبو محمد النحوي قال القفطي : كان أعلم أهل زمانه بالنحو توفي عشية الجمعة ثالث رمضان سنة سبع وستين وخمسائة - البغية (٢٩/٢ - ٣٠) .
- (٦) انظر الكشف (٩٥/١) .
- (٧) محمد بن الحسن الأصبهاني أبو بكر بن فورك الإمام الجليل روى عنه البيهقي والقسيري وغيرهما توفي سنة ٤٠٦ هجرية - ابن السبكي (١٢٧/٤) .

محمد يعطي أن الله أغنى الإنسان خطأ في التركيب ، لأن أعطى لا تنوب أن ، ومعمولها مناب مفعولها ، بخلاف ظن فإنها تنوب مناب مفعولها ، ولذلك سر ذكر في علم العربية ، قال بعض المفسرين : اختص تعالى بهذه المخلوقات ، وهي الخلقة البشرية والبيتان الأرضية والسماوية ، لأنها محل الاعتبار ، ومسرح الإبصار ، ومواطن المنافع الدنيوية والأخروية ، وبها يقوم الدليل على وجود الصانع وقدرته وحكمته وحياته وإرادته ، وغير ذلك من صفاته الذاتية والفعلية وانفراده بخلقها وإحكامها ، وقدم الخلقة البشرية وإن كانت العالم الأصغر لما فيها من بدائع الصنعة ما لا يعبر عنه وصف لسان ، ولا يحيط بكنهه فكر جنان ، وظهور حسن الصنعة في الأشياء اللطيفة الجرم أعظم منه في الأجرام العظام ، ولأن اعتبار الإنسان بنفسه في تقلب أحواله أقرب إلى ذهنه قال تعالى ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ٢١] ، أو لأن العرب عادت على تقديم الأهم عندها والمعنى به قال وهو تعالى باصلاح حال البنية البشرية أكثر اهتماماً من غيرها من المخلوقات ، لأنها أشرف مخلوقاته وأكرمها عليه قال تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، الآية ، ولأنه تعالى خلق هذه الأشياء منافع لبني آدم وأعدها نعماً يمتن بها عليهم ، وذكر المنعم عليه يتقدم على ذكر النعمة ، ثم إنه تعالى لما عرفهم أنه خالقهم ، أخبرهم أنه جعل لهم مكاناً يستقرون عليه ، إذ كانت حكمته اقتضت ذلك فيستقرون فيه جلوساً ونوماً وتصرفاً في معاشهم ، وجعل منه سهلاً للقرار والزرع ووعراً للاعتصام ، وجبالاً لسكون الأرض من الاضطراب ، ثم لما منّ عليهم بالمستقر أخبرهم بجعل ما يقيمهم ويظلمهم وجعله كالخيمة المضروبة عليهم ، وأشهدهم فيها من غرائب الحكمة ، بأن أمسكها فوقهم بلا عمد ولا طنب لتهتدي عقولهم أنها ليست مما يدخل تحت مقدور البشر ، ثم نبههم على النعمة العظمى وهي إنزال المطر الذي هو مادة الحياة وسبب اهتزاز الأرض بالنبات وأجناس الثمرات .

وقدم ذكر الأرض على السماء وإن كانت أعظم في القدرة وأمكن في الحكمة وأتم في النعمة وأكبر في المقدار ، لأن السقف والبنيان فيما يعهد لا بد له من أساس وعمد مستقر على الأرض ، فبدأ بذكرها إذ على منها يوضع الأساس وتستقر القواعد ، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقر عليها قواعد ، أو لأن الأرض خلقها متقدماً على خلق السماء ، فإنه تعالى خلق الأرض ومهّد رواسيها قبل خلق السماء قال تعالى ﴿ قل أئنكم لتكفرون ﴾ [فصلت : ٩] ، إلى آخر الآيات ، أو لأن ذلك من باب الترقى بذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى ، وقد تضمنت هاتان الآيتان من بدائع الصنعة ودقائق الحكمة وظهور البراهين ، ما اقتضى تعالى أنه المنفرد بالإيجاد المتكفل للعباد دون غيره من الأنداد التي لا تخلق ولا ترزق ولا لها نفع ولا ضرر ، ﴿ ألا لله الخلق والامر ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، قال بعض أصحاب الإشارات لما امتن تعالى عليهم بأنه خلقهم والذين من قبلهم ، ضرب لهم مثلاً يرشددهم إلى معرفة كيفية خلقهم ، وأنهم وإن كانوا متوالدين بين ذكر وأنثى مخلوقين ﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾ [النجم : ٤٦] ، هو تعالى خالقهم على الحقيقة ومصوّرهم في الأرحام كيف يشاء ، ومخرجهم طفلاً ومربيهم بما يصلحهم من غذاء وشراب ولباس إلى غير ذلك من المنافع التي تدعو حاجتهم إليها ، فجعل الأرض التي هي فراش مثل الأم التي يفرشها الزوج ، وهي أيضاً تسمى فراشاً وشبه السماء التي علت على الأرض بالأب الذي يعلو على الأم ويغشاها ، وضرب الماء النازل من السماء مثلاً للنطفة التي تنزل من صلب الأب ، وضرب ما يخرج من الأرض من الثمرات بالولد الذي يخرج من بطن الأم ، يؤنس تعالى بذلك عقولهم ويرشددها إلى معرفة كيفية التخليق ، ويعرفها أنه الخالق لهذا الولد والمخرج له من بطن أمه ، كما أنه الخالق للثمرات ومخرجها من بطون أشجارها ، ومخرج أشجارها من بطن الأرض ، فإذا أوضح ذلك لهم أفردوه بالإلهية وخصوه بالعبادة وحصلت لهم الهداية .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

إن حرف ثنائي الوضع يكون شرطاً ، وهو أصل أدواته ، وحرف نفى وفي إعماله إعمال « ما الحجازية » خلاف ، وزائداً مطرداً بعد ما النافية وقبل مدة الإنكار ، ولا تكون بمعنى « إذ » خلافاً لزاعمه ولا يعد من مواضعه المخففة من الثقل ، لأنها ثلاثية الوضع ، ولذلك اختلف حكمها في التصغير ، (العبد) لغة المملوك الذكر من جنس الإنسان وهو راجع لمعنى العبادة ، وتقدم شرحها ، (الإتيان) المجيء والأمر منه أتت ، كما جاء في لفظ القرآن ، وشذ حذف فائه في الأمر قياساً واستعمالاً قال الشاعر :

تِ لِي آلَ عَوْفٍ فاندھم لي جماعة وَسَلَّ آلَ عَوْفٍ أَيَّ شَيْءٍ يَضِيرُهَا^(١)
وقال آخر :

فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَنْهَضْ لَكُمْ فَنَبْرُكُم فتونا قفوا دوناً اذن بالخزائم^(٢)
(السورة) : الدرجة الرفيعة :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً^(٣)

وسميت سورة القرآن بها ، لأن قارئها يشرف بقراءتها على من لم تكن عنده كسور البناء ، وقيل لتمامها وكمالها ، ومنه قيل للناقة التامة سورة ، أولاً لأنها قطعة من القرآن من أسارت ، والسور فأصلها الهمز وخففت قاله أبو عبيدة ، والهمز فيها لغة ، (من مثله) المماثلة تقع بأدنى مشابهة ، وقد ذكر سيبويه رحمه الله أن « مررت برجل مثلك » ، يحتمل وجوهاً ثلاثة ، ولفظة « مثل » لازمة الإضافة لفظاً ، ولذلك لحن بعض المولدين في قوله :

وَمِثْلُكَ مَنْ يَمْلِكُ النَّاسَ طُرّاً عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي النَّاسِ مِثْلُ

ولا يكون محلاً خلافاً للكوفيين ، وله في باب الصفة إذا جرى على مفرد ومثنى ومجموع حكم ، ذكر في النحو ، « الدعاء » الهتف باسم المدعو ، « الشهداء »^(٤) جمع شهيد للمبالغة كعليم وعلماء ، ولا يبعد أن يكون جمع شاهد كشاعر وشعراء ، وليس فُعَلَاءَ باب فاعل ، (دون) ظرف مكان ملازم للظرفية الحقيقية أو المجازية ، ولا يتصرف فيه بغير من ، قال سيبويه : وأما دونك فلا يرفع أبداً ، قال الفراء : وقد ذكر دونك وظروفاً نحوها لا تستعمل أسماء مرفوعة

(١) البيت من الطويل لم يعلم قائله - انظر جمع الهوامع (٢١٨/٢) ، ضرائر الشعر (٩٨) ، الدرر اللوامع (١٣٩/٢) ، أمالي ابن الشجري (١٧/٢) .

(٢) البيت من الطويل لم يعلم قائله - انظر ضرائر الشعر لابن عصفور (١٠٠)

(٣) هذا صدر بيت من الطويل للناطقة الديباني ، وعجزه : -

ترى كل ملك دونها يتذبذب

انظر ديوانه (٢٨) ، المصون لأبي أحمد العسكري (١٥٤) .

(٤) الشهيد : المقتول في سبيل الله والجمع شهداء ... لسان العرب (٢٣٥٠/٤) .

على اختيار وربما رفعوا ، وظاهر قول الأخفش : جواز تصرفه خرج قوله تعالى : ﴿ومنا دون ذلك﴾ [الجن : ١١] ، على أنه مبتدأ وبني لإضافته إلى المبني ، وقد جاء مرفوعاً في الشعر أيضاً قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَنِي أَنِّي حَمَيْتُ حَقِيبَتِي وَبَاشَرْتُ حَدَّ الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ دُونَهَا

وتجيء (دون)^(١) صفة بمعنى رديء يقال ثوب دون : أي رديء حكاها سيبويه في أحد قوليه ، فعلى هذا يعرب بوجه الإعراب ، ويكون (دون) مشتركاً الصدق يقابله الكذب ، وهو مطابقة الخبر للمخبر عنه ، (لن) حرف نفي ثنائي الوضع بسيط لا مركب من « لا أن » ، خلافاً للخليل في أحد قوليه ، ولا نونها بدل من ألف فيكون أصلها « لا » ، خلافاً للفرء ، ولا يقتضي النفي على التأيد ، خلافاً للزمخشري^(٢) في أحد قوليه ، و « لن » هي أقصر نفيّاً من « لا » إذ لن تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها كما يمتد في « لا » خلافاً لزاعمه ، ولا يكون دعاء خلافاً لزاعمه ، وعملها النصب ، وذكروا أن الجزم بها لغة وأنشد ابن الطراوة^(٣) :

لَنْ يَخْبِ الْآنَ مِنْ رَجَائِكَ مَنْ حَرَّكَ دُونَ بَابِكَ الْحَلَقَةَ^(٤)

ولها أحكام كثيرة ذكرت في النحو ، « الوقود » اسم لما يوقد به وقد سمع مصدراً ، وهو أحد المصادر التي جاءت على فَعُول ، وهي قليلة لم يحفظ منها فيما ذكر الأستاذ « أبو الحسن بن عصفور » سوى هذا والْوَضوء والطَّهُّور والْوَلُوع والْقَبُول ، (الحجارة) جمع الحجر ، والتاء فيها لتأكيد تأنيث الجمع كالفحولة ، (أعدت) هيئت ، (وإن كنتم في ريب) نزلت في جميع الكفار ، وقال ابن عباس ومقاتل نزلت في اليهود ، وسبب ذلك أنهم قالوا هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي وإنما لفي شك فيه ، والأظهر القول الأول .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما احتج تعالى عليهم بما يثبت الوجدانية ، ويبطل الاشتراك ، وعرفهم أن من جعل لله شريكاً فهو بمعزل من العلم والتميز أخذ يحتج على من شك في النبوة بما يزيل شبهته ، وهو كون القرآن معجزة ، وبين لهم كيف يعلمون أنه من عند الله أم من عنده ، بأن يأتواهم ومن يستعينون به بسورة من هذا ، وهم الفصحاء البلغاء المجيدون حوك الكلام من الثار والنظام والمتقليون في أفنانين البيان والمشهود لهم في ذلك بالإحسان ، ولما كانوا في ريب حقيقة ، وكانت إن الشرطية إنما تدخل على الممكن أو المحقق المبهم زمان وقوعه ، ادعى بعض المفسرين أن (إن) هنا معناها إذا ، لأن إذا تفيد مضي ما أضيفت إليه ، ومذهب المحققين أن « إن » لا تكون بمعنى إذا ، وزعم المبرد ومن وافقه أن لكان الماضية الناقصة معاني حكماً ليست لغيرها من الأفعال الماضية فلقوة كان زعم أن « إن » لا يقلب معناها إلى الاستقبال ، بل يكون على معناه من المضي إن دخلت عليه إن ، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن « كان » كغيرها من الأفعال ، وتأولوا ما ظاهره ما ذهب إليه المبرد إما على إضمار يكن بعد « إن » نحو ﴿إن كان قميصه قد﴾ [يوسف : ٢٦] ، أي إن يكن كان قميصه ، أو على أن المراد به التبيين : أي إن يتبين كون قميصه قد ، فعلى قول أبي العباس يكون كونهم في ريب ماضياً ، ويصير نظير ما لوجاء إن كنت أحسنت إليّ

(١) ويقال : دون : بمعنى الساقط من الناس وغيرهم وبمعنى الشريف ... لسان العرب (١٤٦١/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٠١/١) .

(٣) سليمان بن محمد بن عبد الله السبائي المالقي أبو الحسين ابن الطراوة - بفتح الطاء والراء المهملتين - توفي في رمضان - أو شوال سنة ثمان وعشرين وخمسائة - البغية (٦٠٢/١) .

(٤) البيت من المنسرح ونسب لأعرابي - انظر مع الهوامع (٤/٢) ، الدرر اللوامع (٤/٢) ، الأشموني (٢٧٨/٣) ، مغني اللبيب (٢٨٥) ، لسان العرب (رفق) .

فقد أحسنت إليك إذا حمل على ظاهره ولم يتأول ، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله (وإن كنتم في ريب) جرى كلام الله فيه على التحقيق مثال قول الرجل لعبده « إن كنت عبدي فأطعني » ، لأن الله تعالى عالم بما تكنه القلوب ، قال : وبين هذا أن سبب نزول هذه الآية قول اليهود وإنا لفي شك مما جاء به ، وجعلها بمعنى إذا وكان ماضيه اللفظ والمعنى ، أو مثل قول القائل « إن كنت عبدي فأطعني » فراراً من جعل ما بعد إن مستقبل المعنى ، وذلك ممكن ولا تنافي بين إن كانوا في ريب فيما مضى ، وإن تعلق على كونهم في ريب في المستقبل ، لأن الماضي من الجائز أن يستدام بأن يظهر لمعتقد الريب فيما مضى خلاف ذلك فيزول عنه الريب ، فقليل وإن كنتم : أي وإن تكونوا في ريب باستصحاب الحالة الماضية التي سبقت لكم ، فأتوا وهذا مثل من يقول لولده العاق له « إن كنت تعصيني فارحل عني » ، فمعناه : إن تكن في المستقبل تعصيني فارحل عني ، لا يريد التعليق على الماضي ، ولا أن « إن » بمعنى « إذا » إذ لا تنافي بين تقدّم العصيان وتعليق الرحيل على وقوعه في المستقبل ، ولا حاجة إلى جعل ما يثبت حرفيته بمعنى إذا الظرفية ، وقد تقدم لنا أنه لا تنافي بين قوله تعالى ﴿ لا ريب فيه ﴾ [البقرة : ٢] ، وبين قول (وإن كنتم في ريب) عند الكلام على قوله ﴿ لا ريب فيه ﴾ [البقرة : ٢] ، (وفي ريب من) تنزيل المعاني منزلة الأجرام ، ومن تحتمل ابتداء الغاية ، والسببية ، ولا يجوز أن تكون للتبويض ، و « ما » موصولة : أي من الذي نزلناه ، والعائد محذوف : أي نزلناه وشرط حذفه موجود ، وأجاز بعضهم أن تكون ما نكرة موصوفة ، وقد تقدم لنا الكلام على ما النكرة الموصوفة ، ونزلنا التضعيف فيه هنا للنقل وهو المرادف لهزمة النقل ويدل على مرادفتها في هذه الآية قراءة يزيد بن قطيب « مما أنزلنا » بالهزمة ، وليس التضعيف هنا دالاً على نزوله منجماً في أوقات مختلفة ، خلافاً للزمخشري^(١) قال : (فإن قلت) لم قيل مما نزلنا على لفظ التنزيل دون الإنزال ، (قلت) لأن المراد النزول على التدرج والتنجيم وهو من مجازه لمكان التحدي ، وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري^(٢) في تضعيف عين الكلمة هنا هو الذي يعبر عنه بالتكثير : أي يفعل ذلك مرة بعد مرة ، فيدل على هذا المعنى بالتضعيف ويعبر عنه بالكثرة ، وذهل الزمخشري عن أن ذلك إنما يكون غالباً في الأفعال التي تكون قبل التضعيف متعدية نحو « جَرَحْتُ زيداً » ، وَفَتَحْتُ الباب ، وَقَطَعْتُ ، وَذَبَحْتُ ، لا يقال جلس زيد ، ولا قعد عمرو ، ولا صوم جعفر ، و (نزلنا) لم يكن متعدياً قبل التضعيف ، إنما كان لازماً ، وتعديه إنما يفيد التضعيف ، أو الهزمة ، فإن جاء في لازم فهو قليل قالوا « مات المال » و « مَوْتُ المال » إذا كثر ذلك فيه ، وأيضاً فالتضعيف الذي يراد به التكثير إنما يدل على كثرة وقوع الفعل ، أما أن يجعل اللازم متعدياً فلا و (نزلنا) قبل التضعيف كان لازماً ، ولم يكن متعدياً فيكون التعدي المستفاد من التضعيف دليلاً على أنه للنقل لا للتكثير ، إذ لو كان للتكثير وقد دخل على اللازم بقي لازماً نحو مات المال ، وموت المال ، وأيضاً فلو كان التضعيف في نزل مفيداً للتنجيم لاحتاج قوله تعالى ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : ٣٢] ، إلى تأويل ، لأن التضعيف دال على التنجيم والتكثير ، وقوله (جملة واحدة) ينافي ذلك ، وأيضاً فالقراءات بالوجهين في كثير مما جاء يدل على أنهما بمعنى واحد ، وأيضاً مجيء نزل حيث لا يمكن فيه التكثير والتنجيم ، إلا على تأويل بعيد جداً يدل على ذلك قال تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية ﴾ [الأنعام : ٣٧] ، وقال تعالى ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٥] ، ليس المعنى على أنهم اقترحوا تكرير نزول الآية ، ولا أنه علق تكرير نزول ملك رسول على تقدير كون ملائكة في الأرض ، وإنما المعنى والله أعلم مطلق الإنزال ، وفي نزلنا التفات لأنه انتقال من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ، لأن قبله ﴿ اعبدوا ربكم ﴾ [البقرة : ٢١] ، و ﴿ فلا

(١) انظر الكشف (٩٦/١) .

(٢) انظر الكشف (٩٦/١) .

تجعلوا لله أنداداً ﴿٢٣﴾ ، فلو جرى الكلام على هذا السياق لكان مما نزل على عبده ، لكن في هذا الالتفات من التفخيم للمنزل والمنزل عليه ما لا يؤديه ضمير غائب ، لا سيما كونه أتى بنا المشعرة بالتعظيم التام وتفخيم الأمر ، ونظيره ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، وتعدى نزل « بعلى » ، إشارة إلى استعلاء المنزل على المنزل عليه وتمكنه منه وأنه قد صار كالملابس له ، بخلاف « إلى » فإنها تدل على الانتهاء والوصول ، ولهذا المعنى الذي أفادته على تكرر ذلك في القرآن في آيات قال تعالى ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ [آل عمران : ٣] ، ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [طه : ١ ، ٢] ، ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ﴾ [آل عمران : ٧] ، وفي إضافة « العبد » إليه تعالى تنبيه على عظيم قدره ، واختصاصه بخالص العبودية ، ورفع محله ، وإضافته إلى نفسه تعالى ، واسم العبد عام وخاص ، وهذا من الخاص :

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبْدَهَا لِأَنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي^(١)

ومن قرأ (على عبادنا) بالجمع فقليل : يريد رسول الله ﷺ وأمته قاله الزمخشري^(٢) ، وصار نظير قوله تعالى ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] ، لأن جدوى المنزل والهداية الحاصلة به من امثال التكليف ، والموعود على ذلك لا يختص بل يشترك فيه المتبوعون والتبائع ، فجعل كأنه نزل عليهم ، وذلك نوع من المجاز يجعل فيه من لم يباشر الشيء إذا كان مكلفاً به منزلة من باشر ، ويحتمل أن يريد به النبيين الذين أنزل عليهم الوحي والكتب ، والرسول أول مقصود بذلك وأسبق داخل في العموم ، لأنه هو الذي طُلب معاندوه بالتحدي في كتابه ، ويكون ذلك خطاباً لمنكري النبوات كما قال تعالى حكاية عن بعضهم ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : ٩١] ، ويحتمل أن يراد بالمفرد الجمع وتبينه هذه القراءة كقوله تعالى ﴿ واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥] ، في قراءة من أفرد ، فيكون إذاك للجنس ، (فأتوا بسورة) طلب منهم الإتيان بمطلق سورة ، وهي القطعة من القرآن التي أقلها ثلاث آيات ، فلم يقترح عليهم الإتيان بسورة طويلة فيتعبوا في ذلك ، بل سهل عليهم وأراح عليهم بطلب الإتيان بسورة ما ، وهذا هو غاية التبكيت والتخجيل لهم ، فإذا كنتم لا تقدرون أنتم ولا معاضدوكم بالإتيان بسورة من مثله ، فكيف تزعمون أنه من جنس كلامكم ، وكيف يلحقكم في ذلك ترتيب أنه من عند الله ، وقد تعرض « الزمخشري »^(٣) هنا لذكر فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً ، وليس ذلك من علم التفسير ، وإنما هو من فوائد التفصيل والتسوير ، (من مثله) الهاء عائدة على ما أو على عبدنا ، والراجح الأول وهو قول أكثر المفسرين ورجحانه من وجوه .

أحدها : أن الارتباب أولاً إنما جيء به منصباً على المنزل لا على المنزل عليه ، وإن كان الريب في المنزل ريباً في المنزل عليه بالالتزام ، فكان عود الضمير عليه أولى .

الثاني : أنه قد جاء في نظير هذه الآية ، وهذا السياق قوله ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ﴿ فأتوا

(١) البيت الذي قبله :

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفه السامع والرائي

انظر القرطبي (١٦١/١) ، روح المعاني (١٩٣/١) .

(٢) انظر الكشف (٩٧/١) .

(٣) انظر الكشف (٩٨/١) .

بعشر سور مثله مفتریات ﴿ [هود : ١٣] ، ﴿ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴿ [الإسراء : ٨٨] .

الثالث : اقتضاء ذلك كونهم عاجزين عن الإتيان ، سواء اجتمعوا أو انفردوا ، وسواء كانوا أميين أم كانوا غير أميين ، وعوده على المنزل يقتضي كون آحاد الأميين عاجزاً عنه ، لأنه لا يكون مثله إلا الشخص الواحد الأمي ، فأما لو اجتمعوا أو كانوا قارئين فلا شك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى ، فإذا جعلنا الضمير عائداً على المنزل فمن للتبعض وهي في موضع الصفة لسورة أي بسورة كائنة من مثله .

ويظهر من كلام الزمخشري^(١) تناقض في « من » هذه قال (من مثله) متعلق بسورة صفة لها : أي بسورة كائنة من مثله ، فقله متعلق بسورة يقتضي أن يكون معمولاً لها ، وقوله صفة لها : أي بسورة كائنة من مثله يقتضي أن لا يكون معمولاً لها فتناقض كلامه ، ودافع آخره أوله .

لكن يحمل على أنه لا يريد التعلق الصناعي ، كتعلق الباء في نحو « مُروري بزيد حسن » لكنه يريد التعلق المعنوي : أي تعلق الصفة بالموصوف ، واحترز من القول الآخر أنها تتعلق بقوله (فأتوا) فلا يكون (من مثله) عائداً على المنزل على ما سيأتي تبينه إن شاء الله .

وأجاز المهدوي وأبو محمد بن عطية أن تكون لبيان الجنس على تقدير أن يكون الضمير عائداً على المنزل ، وتفسر المثلية بنظمه ورصفه وفصاحته معانيه التي تعرفونها ولا يعجزهم إلا التأليف الذي خص به القرآن ، أو في غيوبة وصدقه ، وأجازا على هذا الوجه أيضاً أن تكون زائدة ، وستأتي الأقوال في تفسير المثلية على عود الضمير إلى المنزل إن شاء الله ، وقد اختلف النحويون في إثبات هذا المعنى لمن ، والذي عليه أصحابنا أن « من » لا تكون لبيان الجنس ، والفرق بين كونها للتبعض وبيان الجنس مذكور في كتب النحو ، وأما كونها زائدة في هذا الموضع فلا يجوز على مذهب الكوفيين وجمهور البصريين ، وفي المثلية على كون الضمير عائداً على المنزل أقوال :

الأول : من مثله في حسن النظم وبديع الرصف وعجيب السرد وغرابة الأسلوب وإيجازه وإتقان معانيه .

الثاني : من مثله في غيوبة من إخباره بما كان وبما يكون .

الثالث : في احتوائه على الأمر والنهي والوعد والوعيد والقصص والحكم والمواعظ والأمثال .

الرابع : من مثله في صدقه وسلامته من التبديل والتحريف .

الخامس : من مثله : أي كلام العرب الذي هو من جنسه .

السادس : في أنه لا يخلق على كثرة الرد ولا تملأ الأسماع ولا يمحوه الماء ولا تفتنى عجائبه ولا تنتهي غرائب ولا تزول طلاوته على تواليه ولا تذهب حلاوته من لهوات تاليه .

السابع : من مثله في دوام آياته وكثرة معجزاته .

الثامن : من مثله : أي مثله في كونه من كتب الله المنزل على من قبله تشهد لكم بأن ما جاءكم به ليس هو من عند الله كما قال تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ١١١] ، وإن جعلنا الضمير عائداً على المنزل عليه فمن متعلقة بقوله « فأتوا » من مثل الرسول بسورة ، ومعنى من على هذا الوجه ابتداء الغاية ، ويجوز أن

تكون في موضع الصفة فتعلق بمحذوف ، وهي أيضاً لابتداء الغاية : أي بسورة كائنة من رجل مثل الرسول : أي ابتداء كينونتها من مثله .

وفي المثلية على كون الضمير عائداً على المنزل على أقوال :

الأول : من مثله من أُمي لا يحسن الكتابة على الفطرة الأصلية .

الثاني : من مثله لم يدارس العلماء ، ولم يجالس الحكماء ، ولم يؤثر عنه قبل ذلك تعاظم الأخبار ، ولم يرَحل من بلده إلى غيره من الأمصار .

الثالث : من مثله على زعمكم أنه ساحر شاعر مجنون .

الرابع : من مثله من أبناء جنسه ، وأهل مدرته .

وذكر المثل في قوله من مثله هو على سبيل الفرض على أكثر الأقوال التي فسرت بها المماثلة إذا كان الضمير عائداً على المنزل وعلى بعضها لا يكون على سبيل الفرض ، وهو على قول من فسر أنه أراد بالمثل كلام العرب الذي هو من جنسه ، وأما إذا كان عائداً على المنزل عليه فليس على سبيل الفرض لوجود أُمي لا يحسن الكتابة ولوجود من لم يدارس العلماء ، ولوجود من هو ساحر على زعمهم ذلك في المنزل عليه ، واختار الزمخشري^(١) أن لا مثل ولا نظير قال بعد أن فسر المثل على تقدير عود الضمير على المنزل فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة في حسن النظم وعلى تقدير عوده على المنزل عليه أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً ، أو أُمياً لم يقرأ الكتب ولم يأخذ من العلماء قال « الزمخشري »^(٢) : ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك ، ولكنه نحو قول القبعثي للحجاج وقال له : لأحملنك على الأدهم مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب » أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقوة وبسطة اليد ، ولم يقصد أحداً يجعله مثلاً للحجاج انتهى كلام الزمخشري . وعلى ما فسرت به المماثلة إذ جعل الضمير عائداً على المنزل عليه ، وقد تقدم بيان وجود المثل ، وعلى أنه عائذ على المنزل يمكن وجوده في بعض تفاسير المماثلة فقول « الزمخشري »^(٣) : لا مثل ولا نظير مع تفسيره المماثلة في كونه بشراً عربياً ، أو أُمياً لم يقرأ الكتب ليس بصحيح ، لأن المماثل في هذا الشيء الخاص موجود ولما طلب منهم المعارضة بسورة على تقدير حصولهم في ريب من كونه من عند الله لم يكتف بقولهم ذلك بأنفسهم ، حتى طلب منهم أن يدعوا شهداءهم على الاجتماع على ذلك والتظاهر والتعاون والتناصر فقال : ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وفسر هنا « ادعوا » باستغيثوا قال « أبو الهيثم »^(٤) : الدعاء طلب الغوث ، دعا استغاث واستحضر ودعا فلان فلاناً إلى الحاكم استحضره ، وشهداؤهم ألتهم فإنهم كانوا يعتقدون أنهم يشهدون لهم عند الله ، قاله ابن عباس والسدي ومقاتل والفراء ، أو من يشهدهم ويحضرهم من الأعوان والأنصار^(٥) قاله ابن قتيبة ، وروي عن ابن عباس ، أو من يشهد لكم أن ما تأتون به مثل

(١) انظر الكشف (٩٦/١) .

(٢) انظر الكشف (٩٩/١) .

(٣) انظر الكشف (٩٩/١) .

(٤) أبو الهيثم الرازي قال السيوطي في البغية كان إماماً لغوياً أردك العلماء وأخذ عنهم وتصدر بالري للإفادة مات سنة ست وسبعين ومائتين - البغية (٣٢٩/٢) .

(٥) ذكره ابن جرير في التفسير (٣٧٦/١) (٤٩٦) ، عن ابن عباس وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٥/١) ، لابن إسحاق وابن أبي حاتم .

القرآن^(١) روي عن مجاهد ، وكونه جمع شهيد أحسن من جمع شاهد لجريانه على قياس جمع فعيل نحو هذا ولما في فعيل من المبالغة ، وكأنه أشار إلى أن يأتوا بشهداء بالغين في الشهادة يصلحون أن تقام بهم الحجة ، (من دون الله) متعلق بادعوا : أي وادعوا من دون الله شهداءكم : أي لا تستشهدوا بالله فتقولوا الله يشهد أن ما ندعيه حق كما يقول العاجز عن إقامة البينة بل ادعوا من الناس الشهداء الذين شهادتهم تصحح بها الدعاوى ، فكأنه قال وادعوا من غير الله من يشهد لكم ، ويحتمل أن يتعلق من دون الله بشهداءكم ، والمعنى : ادعوا من اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق ، أو أعوانكم من دون الله : أي من دون أولياء الله الذين يستعينون بهم دون الله ، أو يكون معنى (من دون الله) بين يدي الله كما قال الأعشى :

تريك القذى من دونها وهي دونه

أي تريك القذى قدامها وهي قدام القذى لرقتها وصفائها ، وأمره تعالى إياهم بالمعارضة وبدعاء الأنصار والأعوان مع علمه أنهم لا يقدرّون على ذلك ، أمر تهكم وتعجيز ، وقد بين تعالى بعد ذلك أن ذلك لا يقع منهم سيما تفسير الشهداء بالهتهم ، لأنها جماد لا تنطق فالأمر بأن يستعينوا بما لا ينطق في معارضة المعجز غاية التهكم بهم ، فظاهر قوله : (إن كنتم صادقين) معناه في كونكم في ريب من المنزل على عبدنا أنه من عندنا ، وقيل فيما تقتدرون عليه من المعارضة ، وقد حكى عنهم في آية أخرى ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [الأنفال : ٣١] ، لكن لم يجر ذكر المعارضة في هذه الآية ، إلا أن كونهم في ريب يقتضي عندهم أنه ليس من عند الله وما لم يكن من عند الله فهو عندهم تمكن معارضته ، فيحتمل أن يكون المعنى : إن كنتم صادقين في القدرة على المعارضة .

ولما كان أمره تعالى إياهم بالإتيان بسورة من مثله أمر تهكم وتعجيز ، لأنهم غير قادرين على ذلك انتقل إلى إرشادهم ، إذ ليسوا بقادرين على المعارضة ، وأمرهم باتقاء النار التي أعدت لمن كذب ، وأتى بإن وإن كان من مواضع إذا تهكأ بهم كما يقول القائل : « إن غلبتك لم أبق عليك » وهو يعلم أنه غالب ، أو أتى بإن على حسب ظنهم وإن المعجز منهم كان قبل التأمل كالمشكوك فيه عندهم لا تكالهم على فصاحتهم ، ومعنى (فإن لم تفعلوا) فإن لم تأتوا وعبر عن الإتيان بالفعل ، والفعل يجري مجرى الكناية ، فيعبر به عن كل فعل ويغنيك عن طول ما تكني عنه ، قال الزمخشري^(٢) لو لم يعدل عن لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله ، ولا يلزم ما قال الزمخشري^(٣) لأنه لو قيل فإن لم تأتوا ولن تأتوا كان المعنى على ما ذكر ويكون قد حذف ذلك اختصاراً كما حذف اختصاراً مفعول لم تفعلوا ولن تفعلوا ، ألا ترى أن التقدير فإن لم تفعلوا الإتيان بسورة من مثله ولن تفعلوا الإتيان بسورة من مثله ، فهما سيان في الحذف ، وفي كتاب ابن عطية تعليل غريب لعمل لم الجزم قال : وجزمت لم ، لأنها أشبهت لا في التبرئة في أنهما ينفيان ، فكما تحذف لا تنوين الاسم كذلك تحذف لم الحركة ، أو العلامة من الفعل وفي قوله : (ولن تفعلوا) إثارة لهمهمم ليكون عجزهم بعد ذلك أبلغ وأبدع وفي ذلك دليلان على إثبات النبوة :

أحدهما : صحة كون المتحدي به معجزاً .

الثاني : الإخبار بالغيب من أنهم لا لن يفعلوا وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٣٧٧/١) (٥٠٠) ، عن مجاهد .

(٢) انظر الكشف (١٠١/١) .

(٣) انظر الكشف (١٠١/١) .

ويدل على ذلك أنهم لو عارضوه لتوفرت الدواعي على نقله خصوصاً من الطاعنين عليه ، فإذا لم ينقل دل على أنه إخبار بالغيب وكان ذلك معجزة ، وأما ما أتى به مسيلمة الكذاب في هذره وأبو الطيب المتنبي في عبره ونحوهما فلم يقصدوا به المعارضة ، إنما ادعوا أنه نزل عليهم وحي بذلك ، فأتوا من ذلك باللفظ الغث ، والمعنى السخيف ، واللغة المهجنة ، والأسلوب الرذل ، والفقرة غير المتمكنة ، والمطلع المستقبح ، والمقطع المستوهن ، بحيث لو قرن ذلك بكلامهم في غير ما ادعوا أنه وحي كان بينهما من التفاوت في الفصاحة والتباين في البلاغة ، ما لا يخفى عمن له يسير تمييز في ذلك فكيف الجهابذة النقاد والبلغاء الفصحاء ، فسلبهم الله فصاحتهم بادعائهم وافترائهم على الله الكذب ، وقوله (ولن تفعلوا) جملة اعتراض فلا موضع لها من الإعراب ، وفيها من تأكيد المعنى ما لا يخفى لأنه لما قال (فإن لم تفعلوا) وكان معناه نفي في المستقبل مخرجاً ذلك مخرج الممكن ، أخبر أن ذلك لا يقع وهو إخبار صدق ، فكان في ذلك تأكيد أنهم لا يعارضونه ، واقتران الفعل بلن مميز لجملة الاعتراض من جملة الحال ، لأن جملة الحال لا تدخل عليها لن ، وكان النفي بلن في هذه الجملة دون لا ، وإن كانتا أختين في نفي المستقبل لأن في لن تأكيد أو تشديد تقول لصاحبك « لا أقيم غداً » فإن أنكر عليك قلت « لن أقيم غداً » كما تفعل في « أنا مقيم » و « إنني مقيم » قاله الزمخشري^(١) ، وما ذكره هنا مخالف لما حكى عنه أن لن تقتضي النفي على التأيد ، وأما ما ذهب إليه ابن خطيب زملكاً من أن : « لن » تنفي ما قرب وأن « لا » يمتد النفي فيها فكاد يكون عكس قول الزمخشري ، وهذه الأقوال أعني التوكيد والتأيد ونفي ما قرب أقاويل المتأخرين ، وإنما المرجوع في معاني هذه الحروف وتصرفاتها لأئمة العربية المقانع الذين يرجع إلى أقاويلهم ، قال سيويه رحمه الله و « لن » نفي لقوله سيفعل ، وقال وتكون « لا » نفياً لقوله تفعل ولم تفعل انتهى كلامه . ويعني بقوله تفعل ولم تفعل المستقبل فهذا نص منه أنهما ينفيان المستقبل ، إلا أن « لن » نفي لما دخلت عليه أداة الاستقبال ، و « لا » نفي للمضارع الذي يراد به الاستقبال فلن أخص إذ هي داخلة على ما ظهر فيه دليل الاستقبال لفظاً ، ولذلك وقع الخلاف في لا هل تختص بنفي المستقبل ، أم يجوز أن تنفي بها الحال ، وظاهر كلام سيويه رحمه الله هنا أنها لا تنفي الحال إلا أنه قد ذكر في الاستثناء من أدواته « لا يكون » ، ولا يمكن حمل النفي فيه على الاستقبال لأنه بمعنى إلا فهو للإنشاء ، وإذا كان للإنشاء فهو حال فيفيد كلام سيويه في قوله وتكون لا نفياً لقوله ولم يفعل هذا الذي ذكر في الاستثناء ، فإذا تقرر هذا الذي ذكرناه كان الأقرب من هذه الأقوال قول الزمخشري^(٢) أولاً من أن فيها توكيداً وتشديد إلا أنها تنفي ما هو مستقبل الأداة ، بخلاف « لا » فإنها تنفي المراد به الاستقبال مما لا أداة فيه تخلصه له ولأن « لا » قد ينفي بها الحال قليلاً « فلن » أخص بالاستقبال وأخص بالمضارع ، ولأن (ولن تفعلوا) أخص من و « لا تفعلون » ، فلهذا كله ترجيح النفي بلن على النفي بلا فاتقوا النار جواب للشرط ، وكفى به عن ترك العناد لأن من عاند بعد وضوح الحق له استوجب العقاب بالنار ، واتقاء النار من نتائج ترك العناد ومن لوازمه ، وعرف النار هنا ، لأنه قد تقدم ذكرها نكرة في سورة التحريم ، والتي في سورة التحريم نزلت بمكة وهذه بالمدينة ، وإذا كررت النكرة سابقة ذكرت ثانية بالألف واللام وصارت معرفة لتقدمها في الذكر ، ووصفت بالتي وصلتها والصلة معلومة للسامع لتقدم ذكر قوله (ناراً وقودها الناس والحجارة) ، أو لسماع ذلك من أهل الكتاب قبل نزول الآية ، والجمهور على فتح الواو ، وقرأ « الحسن » باختلاف و « مجاهد » و « طلحة » و « أبو حية » و « عيسى بن عمر الهمداني » بضم الواو ، وقرأ « عبيد بن عمير » وقيدوها على وزن فعيل ، فعلى قراءة الجمهور وقراءة « ابن عمير » : هو الحطب ، وعلى قراءة الضم هو المصدر على حذف مضاف : أي ذو وقودها ، لأن الناس والحجارة ليسا هما الوقود ، أو على أن جعلوا نفس

(١) انظر الكشف (١٠١/١) .

(٢) انظر الكشف (١٠٢/١) .

الوقود مبالغة كما يقول فلان فخر بلده ، وهذه النار ممتازة عن غيرها بأنها تتقد بالناس والحجارة وهما نفس ما يحرق ، وظاهر هذا الوصف أنها نار واحدة ولا يدل على أنها نيران شتى قوله تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحریم : ٦] ، ولا قوله تعالى ﴿ فَأَنْذَرْتَكُمْ نَاراً تَلْظَى ﴾ [اللیل : ١٤] ، لأن الوصف قد يكون بالواقع لا للامتياز عن مشترك فيه ، والناس يراد به الخصوص ممن شاء الله دخولها وإن كان لفظه عاماً ، والحجارة الأصنام وكانا وقوداً للنار مقرونين معاً ، كما كانا في الدنيا حيث نحتوها وعبدوها آلهة من دون الله ، ويوضحه قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] ، أو حجارة الكبريت^(١) روي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وابن جريج ، واختصت بذلك لما فيه من سرعة الالتهاب ، وتنن الرائحة ، وعظم الدخان ، وشدة الالتصاق بالبدن ، وقوة حرها إذا حميت ، وقيل هو الكبريت الأسود ، أو حجارة مخصوصة أعدت لجهنم إذا اتقدت لا ينقطع وقودها ، وقيل إن أهل النار إذا عيل صبرهم بكوا وشكوا فينشئ الله سحابة سوداء مظلمة فيرجون الفرج ويرفون رؤوسهم إليها فتمطر عليهم حجارة عظماً كحجارة الرحي ، فتزداد النار إيقاداً والتهاباً ، إذ الحجارة ما اكتنزوه من الذهب والفضة تقذف معهم في النار ويكونون بها ، وعلى هذه الأقوال لا تكون الألف واللام في الحجارة للعموم بل لتعريف الجنس ، وذهب بعض أهل العلم إلى : أنها تجوز أن تكون لاستغراق الجنس ، ويكون المعنى « أن النار التي وعدوا بها صالحة لأن تحرق ما ألقى فيها من هذين الجنسين » ، فعبّر عن صلاحيتها واستعدادها لأمر المحقق قال : وإنما ذكر الناس والحجارة ، تعظيماً لشأن جهنم وتنبهاً على شدة وقودها ، ليقع ذلك من النفوس أعظم موقع ، ويحصل به من التخويف ما لا يحصل بغيره ، وليس المراد الحقيقة ، وما ذهب إليه هذا الذاهب من أن هذا الوصف هو بالصلاحية لا بالفعل غير ظاهر ، بل الظاهر أن هذا الوصف واقع لا محالة بالفعل ، ولذلك تكرر الوصف بذلك وليس في ذلك أيضاً ما يدل على أنها ليس فيها غير الناس والحجارة ، بدليل ما ذكر في غير موضع من كون الجن والشياطين فيها ، وقدم الناس على الحجارة لأنهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذبون ، أو لكونهم أكثر إيقاداً للنار من الجماد لما فيهم من الجلود واللحوم والشحوم والعظام والشعور ، أو لأن ذلك أعظم في التخويف فإنك إذا رأيت إنساناً يحرق اقشعرّ بدنك وطاش لبك ، بخلاف الحجر ، قال ابن عطية وفي قوله تعالى (أعدت) ردّ على من قال إن النار لم تخلق حتى الآن ، وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد^(٢) انتهى كلامه . ومعناه أنه زعم أن الإعداد لا يكون إلا للموجود ، لأن الإعداد هو التهيئة والإرصاد للشيء قال الشاعر :

أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَابِغَةً وَعَدَاءً عَلَنَدًا

أي هيات ، قالوا ولا يكون ذلك إلا للموجود ، قال بعضهم أو ما كان في معنى الموجود نحو قوله تعالى ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عظيماً ﴾ [الأحزاب : ٣٥] ، ومنذر الذي ذكره ابن عطية كان يعرف بالبلوطي وكان قاضي القضاة بالأندلس وكان معتزلياً في أكثر الأصول ، ظاهرياً في الفروع ، وله ذكر ومناقب في التواريخ ، وهو أحد رجالات الكمال بالأندلس ، وسرى إليه ذلك القول من قول كثير من المعتزلة ، وهي مسألة تذكر في أصول الدين ، وهو أن مذهب أهل

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٦/١) ، عن ابن مسعود وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وهناد بن السري في كتاب الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الكبير والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب . وهو عند ابن جرير في تفسيره (٣٨٢-٣٨١/١) ، (٥٠٣-٥٠٤-٥٠٥-٥٠٧) ، وعزا السيوطي أثر ابن عباس لابن جرير وهو في تفسيره (٣٨٢/١) (٥٠٥) ، وذكر ابن جرير أثر ابن جريج في تفسيره (٣٨٢/١) (٥٠٦) .

(٢) منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن النفزي القرطبي أبو الحكم البلوطي : قاضي قضاة الأندلس في عصره توفي سنة ٣٥٥ هجرية - انظر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (١٧/٢) ، نفح الطيب (٣٣٥/١) .

السنة أن الجنة والنار مخلوقتان على الحقيقة ، وذهب كثير من المعتزلة والجهمية والنجارية إلى أنهما لم يخلقا بعد وأنهما سيخلقان وقرأ عبد الله اعتدت من العتاد بمعنى العدة ، وقرأ ابن أبي عبله (أعداها الله للكافرين) ولا يدل إعداها للكافرين على أنهم مخصوصون بها ، كما ذهب إليه بعض المتأولين من أن نار العصاة غير نار الكفار ، بل إنما نص على الكافرين لانتظام المخاطبين فيهم ، إذ فعلهم كفر ، وقد ثبت في الحديث الصحيح إدخال طائفة من أهل الكباثر النار ، لكنه اكتفى بذكر الكفار تغليباً للأكثر على الأقل ، ولأن الكافرين يشتمل من كفر بالله وكفر بأنعمه ، أو لأن من أخرج منها من المؤمنين لم تكن معدة له دائماً بخلاف الكفار ، والجملة من قوله (أعدت للكافرين) في موضع الحال من « النار » ، والعامل فيها « فائقوا » قاله أبو البقاء ، وفي ذلك نظر لأن جعله الجملة حالاً يصير المعنى فائقوا النار في حال إعداها للكافرين ، وهي معدة للكافرين اتقوا النار أو لم يتقوها ، فتكون إذ ذاك حالاً لازمة ، والأصل في الحال التي ليست للتأكيد أن تكون منتقلة ، والأولى عندي : أن تكون الجملة لا موضع لها من الإعراب ، وكأنها سؤال جواب مقدر ، كأنه لما وصفت بأن وقودها الناس والحجارة قيل لمن أعدت فقيل أعدت للكافرين

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

البشارة أول خبر يرد على الإنسان من خير كان أو شر ، وأكثر استعماله في الخير ، وظاهر كلام الزمخشري^(١) أنه لا يكون إلا في الخير ، ولذلك قال تأول ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [التوبة : ٣٤] ، وهو محجوج بالنقل قيل عن سيويه هو خبر يؤثر في البشارة من حزن أو سرور ، قال بعضهم ولذا يقيد في الحزن والبشارة الجمال ، والبشير الجميل قاله ابن دريد^(٢) وتبشير الفجر أوائله ، وفي الفعل لغتان : التشديد ، وهي اللغة العليا ، والتخفيف ، وهي لغة أهل تهامة ، وقد قرىء باللغتين في المضارع في مواضع من القرآن ستأتي إن شاء الله ، « الصلاح » يقابله الفساد ، « الجنة » البستان الذي سترت أشجاره أرضه ، وكل شيء ستر شيئاً فقد أجنه ، ومن ذلك الجنة والجنة والجن والمجنّ والجَنين ، المفضل الجنة كل بستان فيه ظل ، وقيل كل أرض كان فيها شجر ونخل فهي جنة ، فإن كان فيها كرم فهي فردوس ، « تحت » ظرف مكان لا يتصرف فيه بغير من ، نص على ذلك أبو الحسن قال العرب تقول تحتك رجلاك لا يختلفون في نصب التحت ، « النهر » دون البحر وفوق الجدول ، وهل هو نفس مجرى الماء أو الماء في المجرى المتسع ؟ قولان ، وفيه لغتان فتح الهاء ، وهي اللغة العالية والسكون ، وعلى الفتح جاء الجمع أنهاراً قياساً مطرداً إذ أفعال في فعل الاسم الصحيح العين لا يطرد ، وإن كان قد جاءت منه ألفاظ كثيرة ، وسمي نهراً لاتساعه أنهر وسع والنهار لاتساع ضوئه ، التشابه تفاعل من الشبه ، والشبه المثل وتفاعل تأتي لسته معان الاشتراك في الفاعلية من حيث اللفظ ، وفيها وفي المفعولية من حيث المعنى والإيهام والروم ، ومطاوعة فاعل الموافق أفعال ، ولموافقة المجرد وللإغناء عنه ، « الزوج » الواحد الذي يكون معه آخر واثان زوجان ، ويقال للرجل زوج ، ولامراته أيضاً زوج ، وذكر الفراء أن زوجاً المراد به المؤنث فيه لغتان ، زوج لغة أهل الحجاز ،

(١) انظر الكشاف (١/١٠٤) .

(٢) محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية بن حنتم بن حمامي بن واسع بن وهب بن سلمة بن حنتم بن حاضر بن حنتم الإمام أبو بكر الأزدي اللغوي الشافعي - انظر البغية (١/٧٦) وما بعدها ، إنباه الرواة (٣/٩٥) .

وزوجة لغة تميم ، وكثير من قيس وأهل نجد وكل شيء قرن بصاحبه فهو زوج له ، والزوج الصنف ومنه ﴿ زوج بهيج ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ [الشورى : ٥٠] ، « الطهارة » النظافة ، والفعل طَهَّرَ بفتح الهاء ، وهو الأفصح وَظَهَّرَ بالضم واسم الفاعل منهما طاهر فعلى الفتح قياس ، وعلى الضم شاذ نحو حمض فهو حامض وخثر^(١) فهو خائر ، « الخلود » المكث في الحياة ، أو الملك ، أو المكان مدة طويلة لا انتهاء لها ، وهل يطلق على المدة الطويلة التي لها انتهاء بطريق الحقيقة ، أو بطريق المجاز ؟ قولان ، وقال زهير :

فَلَوْ كَانَ حَمْدٌ يُخْلِدُ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ وَلَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدٍ^(٢)

ويقال خلد بالمكان أقام به ، وأخلد إلى كذا سكن إليه ، والمخلد الذي لم يشب ، ولهذا المعنى أعني من السكون والاطمئنان ، سمي هذا الحيوان اللطيف الذي يكون في الأرض خلداً ، وظاهر هذه الاستعمالات وغيرها ، يدل على أن الخلد هو المكث الطويل ، ولا يدل على المكث الذي لا نهاية له إلا بقرينة ، واختار الزمخشري^(٣) فيه أنه البقاء اللام الذي لا ينقطع تقوية لمذهبه الاعتزالي في أن من دخل النار لم يخرج منها بل يبقى فيها أبداً ، والأحاديث الصحيحة المستفيضة دلت على خروج ناس من المؤمنين الذين دخلوا النار بالشفاعة من النار .

ومناسبة قوله تعالى (وبشر) لما قبله ظاهرة ، وذلك أنه لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار ، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدى ، وهكذا جرت العادة في القرآن غالباً متى جرى ذكر الكفار ومآلهم ، أعقب بالمؤمنين ومآلهم ، وبالعكس لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد والطف والعنف ، لأن من الناس من لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف ، ومنهم من هو بالعكس ، فالمأمور بالتبشير قيل النبي ﷺ ، وقيل كل من يصلح للبشارة من غير تعيين ، قال « الزمخشري »^(٤) : وهذا أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به ، انتهى كلامه . والوجه الأول عندي أولى لأن أمره ﷺ لخصوصيته بالبشارة أفخم وأجزل وكأنه ما اتكل على أن يبشر المؤمنين كل سامع بل نص على أعظمهم وأصدقهم ليكون ذلك أوثق عندهم وأقطع في الإخبار بهذه البشارة العظيمة إذ تبشيره ﷺ تبشير من الله تعالى ، والجملة من قوله (وبشر) معطوفة على ما قبلها وليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول زيد يعاقب بالقيد والإزهاق وبشر عمراً بالعفو والإطلاق ، قال هذا الزمخشري^(٥) وتبعه أبو البقاء فقال الواو في (وبشر) عطف بها جملة ثواب المؤمنين على جملة عقاب الكافرين انتهى كلامه .

وتلخص من هذا أن عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن تتفق معاني الجمل فعلى هذا يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة غير الخبرية وهذه المسألة فيها اختلاف ، ذهب جماعة من النحويين إلى اشتراط اتفاق المعاني والصحيح أن ذلك ليس بشرط وهو مذهب سيبويه فعلى مذهب سيبويه يتمشى إعراب الزمخشري وأبي

(١) الخثرة : نقيض الرقة . والخثرة : مصدر الشيء الخثر خثر اللبن والعسل ونحوهما ... لسان العرب (١١٠٣/٢) .

(٢) وفي رواية (لم يموت) بدل (لم تمت) - انظر ديوان زهير (٤١) ، مغني اللبيب (٤١٥) .

(٣) انظر الكشف (١١٠/١) .

(٤) انظر الكشف (١٠٤/١) .

(٥) انظر الكشف (١٠٤/١) .

البقاء ، وأجاز الزمخشري وأبو البقاء أن يكون قوله (وبشر) معطوفاً على قوله (فاتقوا النار) ليكون عطف أمر على أمر ، قال الزمخشري^(١) كما تقول يا بني تميم احذروا عقوبة ما جئتم ، وبشر يا فلان بني أسد بإحسان إليهم ، وهذا الذي ذهبوا إليه خطأ لأن قوله (فاتقوا) جواب للشرط وموضعه جزم والمعطوف على الجواب جواب ، ولا يمكن في قوله (وبشر) أن يكون جواباً لأنه أمر بالبشارة مطلقاً لا على تقدير إن لم تفعلوا ، بل أمر أن يبشر الذين آمنوا أمراً ليس مترتباً على شيء قبله ، وليس قوله وبشر على إعرابه مثل ما مثل به من قوله يا بني تميم إلخ ، لأن قوله احذروا ، لا موضع له من الإعراب بخلاف قوله فاتقوا فلذلك أمكن فيما مثل به العطف ولم يمكن في وبشر ، وقرأ زيد بن علي (وبُشِّر) فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، قال الزمخشري^(٢) عطفاً على (أعدت) انتهى . وهذا الإعراب لا يتأتى علي قول من جعل أعدت جملة في موضع الحال لأن المعطوف على الحال حال ، ولا يتأتى أن يكون (وبشر) في موضع الحال فالأصح أن تكون جملة معطوفة على ما قبلها وإن لم تتفق معاني الجمل كما ذهب إليه سيبويه وهو الصحيح وقد استدلل لذلك بقول الشاعر : -

تَسَاغِي غَزَالاً عِنْدَ بَابِ ابْنِ عَامِرٍ وَكَحْلُ أَمَاقِكَ الْحِسَانَ بِإِئْمَدٍ^(٣)

وبقول امرئ القيس :

وَإِنْ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ^(٤)

وأجاز سيبويه « جاءني زيد ومن أخوك العاقلان » على أن يكون العاقلان خبر ابتداء مضر وقد تقدم لنا أن الزمخشري يخص البشارة بالخبر الذي يظهر سرور المخبر به ، وقال ابن عطية الأغلب استعماله في الخير وقد يستعمل في الشر مقيداً به منصوباً على الشر للمبشر به كما قال تعالى ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ، ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يحمل على الخير انتهى كلامه ، وتقدم لنا ما يخالف قوليهما من قول سيبويه وغيره وأن البشارة أول خبر يرد على الإنسان من خير كان أو شر ، قالوا وسمي بذلك لتأثيره في البشارة فإن كان خيراً أثر المسرة والانبساط وإن كان شراً أثر القبض والانكماش ، قال تعالى ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ﴾ [التوبة : ٢١] ، قال تعالى ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ، وجعل الزمخشري هذا العكس في الكلام الذي يقصد به استهزاء الزائد في غيظه المستهزأ به وتألّمه ، وقيل معناه : ضع هذا موضع البشارة منهم ، قالوا والصحيح أن كل خبر غير البشارة خيراً كان أو شراً بشارة قال الشاعر :

يُبَشِّرُنِي الْغُرَابُ بِبَيْنِ أَهْلِ فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلْتُكَ مِنْ بَشِيرٍ

وقال آخر :

(١) انظر الكشف (١٠٤/١) .

(٢) انظر الكشف (١٠٤/١) .

(٣) البيت من الطويل « لحسان » - انظر الكتاب (٤٢٦/١) ، مغني اللبيب (٤٨٣/٢) ، وديوانه ص ٨٣ ، ونصه : -

فناغ لدى الأبيات حوراً نواعماً وكحل مآقيك الحسان بإئمد

(٤) البيت من الطويل لامرئ القيس (معلقته) انظر شرح المعلقات للبربري ص ١٨ ونصه :

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

وانظر الكتاب (٢٤٨/١) ، المقتضب (٢٩١/٣) ، أسرار البلاغة (١٦٠) ، الخزانة (٦١/٤) ، مع الهوامع (٧٧/٢) ،

الدرر اللوامع (٩٢/٢) ، الأشموني (١٢٢/٣) .

وَبَشِّرْتُنِي يَا سَعْدُ أَنْ أَحْبَبْتَنِي جَفَوْنِي وَأَنْ الْوُدَّ مَوَّعَدُهُ الْحَشْرُ

والضعيف في بشر من التضعيف الدال على التكثير فيما قال بعضهم ولا يتأتى التكثير في بشر إلا بالنسبة إلى المفاعيل ، لأن البشارة أول خبر يسر أو يحزن على المختار ، ولا يتأتى التكثير فيه بالنسبة إلى المفعول الواحد بالنسبة إليه يكون فعل فيه مغنياً عن فعل لأن الذي ينطق به مشدداً غير العرب الذين ينطقون به مخففاً كما بينا قبل وكون مفعول بشر موصولاً بجمله فعلية ماضية ولم يكن اسم فاعل دلالة على أن مستحق التبشير بفضل الله من وقع منه الإيمان وتحقق به وبالأعمال الصالحة ، والصالحات جمع صالحة ، وهي صفة جرت مجرى الأسماء في إيلائها العوامل ، قال الحطيفة^(١) :

كَيْفَ الْهَجَاءُ وَمَا يَنْفَكُ صَالِحَةً مِنْ آلِ لَامٍ يَظْهَرُ الْغَيْبُ تَأْتِينِي^(٢)

فعلى هذا انتصابها على أنها مفعول بها ، والألف واللام في الصالحات للجنس لا للعموم لأنه لا يكاد يمكن أن يعمل المؤمن جميع الصالحات لكن يعمل جملة من الأعمال الصحيحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف ، والفرق بين لام الجنس إذا دخلت على المفرد وبينها إذا دخلت على الجمع أنها في المفرد يحتمل أن يراد بها واحد من الجنس ، وفي الجمع لا يحتمله ، قال عثمان بن عفان : الصالح ما أخلص الله تعالى ، وقال معاذ بن جبل : ما احتوى على أربعة العلم ، والنية ، والصبر ، والإخلاص ، وقال سهل بن عبد الله : ما وافق الكتاب والسنة ، وقال علي بن أبي طالب : الصلوات في أوقاتها ، وتعديل أركانها وهيئاتها ، وقيل : الأمانة ، وقيل : التوبة ، والاختيار قول الجمهور وهو كل عمل صالح أريد به الله ، قال ابن عطية وفي قوله تعالى (وعملوا الصالحات) ردّ على من يقول إن لفظة الإيمان بمجرد ما تقتضي الطاعات لأنه لو كان ذلك ما أعادها ، انتهى كلامه . وفي ذلك أيضاً دليل على أن الذين أمر الله بأن يبشروا هم من جمعوا بين الإيمان والأعمال الصالحات وأن من اقتصر على الإيمان فقط دون الأعمال الصالحات لا يكون مبشراً من هذه الآية (وبشر) يتعدى لمفعولين أحدهما بنفسه ، والآخر بإسقاط حرف الجر ، فقوله (أن لهم جنات) هو في موضع هذا المفعول ، وجاز حذف حرف الجر مع أن قياساً مطرداً واختلفوا بعد الحرف هل موضع أن ومعمولها جر أم نصب ؟ ، فمذهب الخليل والكسائي : أن موضعه جر ، ومذهب سيبويه والفراء : أن موضعه نصب ، والاستدلال في كتب النحو ، و (جنات) جمع جنة جمع قلة ، فروي عن ابن عباس أنها سبع جنات ، وقال قوم هي ثمان جنات ، وزعم بعض المفسرين : أن في تضاعيف الكتاب والسنة ما يدل على أنها أكثر من العدد الذي أشار إليه ابن عباس وغيره ، قال فإنه قال ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ [القمر : ٥٤] ، ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ [الرحمن : ٦٢] ، ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ [النجم : ١٥] ، (جنات عدن) ، وعن النبي ﷺ قال : جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن^(٣) ، وهذا الذي أورده هذا المفسر لا يدل على أنها أكثر مما روي عن ابن عباس ، وقال الزمخشري^(٤) : الجنة اسم لدار الثواب كلها وهي مشتملة

(١) جرول بن أوس بن مالك العسبي أبو مليكة شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام توفي نحو سنة ٤٥ هجرية - الأعلام (١١٨ / ٢) ،

فوات الوفيات (٩٩ / ١) ، الأغاني (١٥٧ / ٢) .

(٢) انظر ديوان الحطيفة (٨٣) ، الكشف (١٠٥ / ١) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١ / ١) ، التفسير باب (ومن دونهما جنتان) حديث (٤٨٧٨ ، ٤٨٨٠ ، ٧٤٤٤) وأخرجه مسلم (١٦٣ / ١) ،

في الإيمان (١٨٠ / ٢٩٦) . (٤) انظر الكشف (١٠٦ / ١) .

على جنان كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاق العاملين لكل طبقة منهم جنة من تلك الجنان انتهى كلامه . وقد دس فيه مذهبه الاعتزالي بقوله على حسب استحقاق العاملين ، وقد جاء في القرآن ذكر الجنة مفردة ومجموعة فإذا كانت مفردة ، فالمراد الجنس واللام في (لهم) للاختصاص ، وتقديم الخبر هنا أكد من تقديم المخبر عنه لقرب عود الضمير على (الذين آمنوا) فهو أسر للسامع ، والشائع أنه إذا كان الاسم نكرة تعين تقديمه ﴿ أئن لنا لأجراً ﴾ [الشعراء : ٤١] ، ولم يذكر في الآية الموافاة على الإيمان فإن الردة تحبطه ، وذلك مفهوم من غير هذه الآية ، وأما الزمخشري^(١) فجرى على مذهبه الاعتزالي من أنه يشترط في استحقاق الثواب بالإيمان والعمل أن لا يحبطهما المكلف بالكفر والإقدام على الكبائر وأن لا يندم على ما أوجده من فعل الطاعة وترك المعصية ، وزعم أن اشتراط ذلك كالدخل تحت الذكر ، وقد علم من مذهب أهل السنة أن من وافى على الإيمان فهو من أهل الجنة ، سواء كان مرتكباً كبيرة أم غير مرتكب تائباً أو غير تائب ، ومن قال إن (من) زائدة والتقدير تجري تحتها^(٢) ، أو بمعنى في : أي في تحتها فغير جارٍ على مألوف المحققين من أهل العربية ، بل هي متعلقة بتجري ، وهي لا ابتداء الغاية وإذا فسرنا الجنات بأنها الأشجار الملتفة ذوات الظل فلا يحتاج إلى حذف ، وإذا فسرناها بالأرض ذات الأشجار احتاج ، إذ يصير التقدير من تحت أشجارها أو غرفها ومنازلها . وقيل : عبر بتحتها عن أسافلها وأصولها ، وقيل المعنى في تجري من تحتها : أي بأمر سكانها واختيارهم فعبر بتحتها عن قهرهم لها وجريانها على حكمهم كما قيل في قوله تعالى حكاية عن فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ [الزخرف : ٥١] ، أي بأمرى وقهرى ، وهذا المعنى لا يناسب إلا لو كانت التلاوة أن لهم جنات تجري من تحتي فيكون نظير من تحتي إذا جعل على حذف مضاف : أي من تحت أهلها استقام المعنى الذي ذكر أنه لا يناسب ، إذ ليس المعنى بأمر الجنات واختيارها ، وقيل المعنى في من تحتها من جهتها ، وقد روي عن مسروق : أن أنهار الجنة تجري في غير أخاديد ، وأنها تجري على سطح أرض الجنة منبسطة ، وإذا صح هذا النقل فهو أبلغ في النزهة وأحلى في المنظر وأبهج للنفس ، فإن الماء الجاري ينبسط على وجه الأرض جوهره فيحسن اندفاعه وتكسره ، وأحسن البساتين ما كانت أشجاره ملتفة وظله صافياً وماؤه صافياً مناسباً على وجه أرضه لا سيما الجنة حصاًؤها الدر والياقوت واللؤلؤ فتتكسر تلك المياه على ذلك الحصى ويجلو صفاء الماء بهجة تلك الجواهر وتسمع لذلك الماء المتكسر على تلك اليواقيت والآلآء له خيراً ، قال شيخنا الأديب البارع أبو الحكم مالك بن المرحل^(٣) المالقي رحمه الله تعالى من كلمة : -

وَتَحَدَّثَ الْمَاءُ الزُّلَّالُ مَعَ الْحَصَى فَجَرَى النَّسِيمُ عَلَيْهِ يَسْمَعُ مَا جَرَى^(٤)

خرج الترمذي من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ أن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن

(١) انظر الكشاف (١٠٦/١) .

(٢) تحت من الظروف عديمة التصرف ، كفوق . فقد نص الأخفش على أن العرب تقول فوقك رأسك ، وتحثك رجلاك فينصبونه ، وقال بعض النحاة : فوقك رأسك وفوقك قلنسوتك ، وتحثك رجلك نعليك ، أجاز الرفع فيما أخبر به عن الرأس والرجل . وقال أحمد بن يحيى : هما سواء لا فرق ، وقد تصرف فيها بمن قال تعالى : (من تحتها الأنهار) الآية ، (وخرّ عليهم السقف من فوقهم) النحل ٢٦ - انظر ارتشاف الضرب (٢٦٣/٢) .

(٣) مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن الفرج أبو الحكم بن المرحل المالقي النحوي الأديب توفي سنة تسع وتسعين وستمائة - البيغة (٢٧١/٢) .

(٤) انظر روح المعاني (٢٠٢/١) .

وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار بعده^(١) ، ويؤيد هذا الحديث قوله تعالى ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ [محمد : ١٥] الآية ، ولما كانت الجنة لا تشوق والروض لا يروق إلا بالماء الذي يقوم لها مقام الأرواح للأشباح ما كاد معجىء ذكرها إلا مشفوعاً بذكر الأنهار مقدماً هذا الوصف فيها على سائر الأوصاف ، قال ابن عطية نسب الجري إلى النهر وإنما يجري الماء وحده توسعاً وتجاوزاً كما قال تعالى ﴿ وأسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] ، وكما قال الشاعر : -

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلْبُ الْمَجْلِسِ^(٢)

انتهى كلامه . وناقض قوله هذا ما شرح به الأنهار قبله بنحو من خمسة أسطر قال والأنهار المياه في مجاريها المتطاولة الواسعة انتهى كلامه . والألف واللام في الأنهار للجنس ، قال الزمخشري^(٣) أو يراد أنهارها فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله تعالى ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ وهذا الذي ذكره الزمخشري^(٤) وهو أن الألف واللام تكون عوضاً من الإضافة ليس مذهب البصريين ، بل شيء ذهب إليه الكوفيون ، وعليه خرج بعض الناس قوله تعالى ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ أي : أبوابها وأما البصريون فيتأولون هذا على غير هذا الوجه ويجعلون الضمير محذوفاً : أي الأبواب منها ولو كانت الألف واللام عوضاً من الإضافة لما أتى بالضمير مع الألف واللام وقال الشاعر :

قَطُوبٌ رَحِيبٌ الْجَيْبُ مِنْهَا رَقِيقَةٌ بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ^(٥)

ويجوز أن تكون الألف واللام للعهد الثابت في الذهن من الأنهار الأربعة المذكورة في سورة القتال ، وجاء هذا الجمع بصيغة جمع القلة إشارة إلى الأنهار الأربعة إن قلنا : إن الألف واللام فيها للعهد أو إشارة إلى أنهار الماء وهي أربعة أو خمسة ، في الصحيح أن رسول الله ﷺ ذكر الجنة فقال نهران باطنان الفرات والنيل ، ونهران ظاهران سيحان وجيحان^(٦) ، وفي رواية سيحون وجيحون ، وعن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن ماء الكوثر قال : ذاك نهر أعطانيه الله تعالى يعني في الجنة ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل^(٧) الحديث ، وإن كانت أنهاراً كثيرة فيكون ذلك من إجراء جمع القلة مجرى جمع الكثرة كما جاء العكس على جهة التوسع والمجاز لاشتراكهما في الجمعية ، (كلما رزقوا) تقدّم الكلام على (كلما) عند قوله تعالى (كلما أضاء لهم) وبينا كيفية التكرار فيها على خلاف ما يفهم أكثر الناس ، والأحسن في هذه الجملة أن تكون مستأنفة لا موضع لها من الإعراب وأنه لما ذكر أن من آمن وعمل الصالحات

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٧١) ، وابن حبان ، أورده الهيثمي في الموارد حديث (٢٦٢٣) ، والطبراني في الكبير (٤٢٤/١٩) ، وأبو نعيم الحلية (٢٠٥/٦) .

(٢) البيت من الكامل وهو لمهلل ، انظر النوادر لأبي زيد (٢٩) ، ومجالس ثعلب (٤٦ ، ٥٦٢) ، وأسرار البلاغة للجرجاني (٤٤٥) ، وأمالى ابن الشجري (٥٢/١ ، ١٨٤) ، (٢٣٤) ، وانظر تفسير القرطبي (١٦٦/١) .

(٣) انظر الكشف (١٠٧/١) .

(٤) انظر الكشف (١٠٧/١) .

(٥) وهو من معلقة طرفة بن العبد وهو فيها هكذا :

رحيب قطاب الجيب منها رقيقة بجس الندامى بضّة المتجرّد

انظر الديوان (٣٠) ، وانظر المحتسب لابن جني (١٨٣/١) ، وخزانة الأدب (٢٠٣/٢ - ٤٨١/٣) ، ولسان العرب (قطب) شرح

القوائد لابن الأنباري (٢٨٩) ، شرح المعلقات للزوزني (٨٠) ، جمهرة أشعار العرب (١٥٥) .

(٦) البخاري (٧٣/١٠) ، في الأشربة (٥٦١٠) .

(٧) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٥٦٤/١) .

لهم جنات صفتها كذا هجس في النفوس حيث ذكرت الجنة الحديث عن ثمار الجنات وتشوقت إلى ذكر كيفية أحوالها فقليل لهم (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً) وأجيز أن تكون الجملة لها موضع من الإعراب نصب على تقدير كونها صفة للجنات ورفع على تقدير خبر مبتدأ محذوف ، ويحتمل هذا وجهين إما أن يكون المبتدأ ضميراً عائداً على الجنات : أي هي كلما رزقوا منها أو عائداً على الذين آمنوا : أي هم كلما رزقوا ، والأولى الوجه الأول لاستقلال الجملة فيه لأنها في الوجهين السابقين تتقدّر بالمفرد فهي مفتقرة إلى الموصوف ، أو إلى المبتدأ المحذوف ، وأجاز أبو البقاء أن تكون حالاً من (الذين آمنوا) تقديره مرزوقين على الدوام ولا يتم له ذلك إلا على تقدير أن يكون الحال مقدرة لأنهم وقت التبشير لم يكونوا مرزوقين على الدوام ، وأجاز أيضاً أن تكون حالاً من جنات لأنها نكرة قد وصفت بقوله تجري فقربت من المعرفة وتؤول أيضاً إلى الحال المقدرة والأصل في الحال أن تكون مصاحبة ، فلذلك اخترنا في إعراب هذه الجملة غير ما ذكره أبو البقاء ، ومن في قوله (منها) هي لابتداء الغاية ، وفي (من) ثمرة كذلك لأنه بدل من قوله منها أعيد معه حرف كقوله تعالى ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ [السجدة : ٢٠] ، على أحد الاحتمالين ، وكلتاها تتعلق برزقوا على جهة البدل كما ذكرناه لأن الفعل لا يقضي حَرْفِي جَرٍّ في معنى واحد إلا بالعطف ، أو على طريقة البدل ، وهذا البدل هو بدل الاشتمال ، وقد طول الزمخشري^(١) في إعراب قوله (من ثمرة) ولم يفصح بالبدل لكن تمثيله يدل على أنه مراده ، وأجاز أن يكون من ثمرة بياناً على منهاج قولك : « رأيت منك أسداً » تريد أنت أسد انتهى كلامه . وكون من للبيان ليس مذهب المحققين من أهل العربية بل تأولوا ما استدلل به من أثبت ذلك ، ولو فرضنا مجيء من للبيان لما صح تقديرها للبيان هنا لأن القائلين بأن من للبيان قدروها بمضمر وجعلوه صدرراً لموصول صفة إن كان قبلها معرفة نحو ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج : ٣٠] ، أي الرجس الذي هو الأوثان وإن كان قبلها نكرة فهو يعود على تلك النكرة نحو « من يضرب من رجل » : أي هورجل ، ومن هذه ليس قبلها ما يصلح أن يكون بياناً له لا نكرة ولا معرفة إلا إن كان يتمحل لذلك أنها بيان لما بعدها ، وأن التقدير « كلما رزقوا منها رزقاً من ثمرة » فتكون من مبينة لرزقاً : أي رزقاً هو ثمرة فيكون في الكلام تقديم وتأخير فهذا ينبغي أن ينزه كتاب الله عن مثله ، وأما « رأيت منك أسداً » فمن لابتداء الغاية أو للغاية ابتداء وانتهاء نحو أخذته منك ، ولا يراد بثمرة الشخص الواحد من التفاح أو الرمان أو غير ذلك ، بل المراد والله أعلم النوع من أنواع الثمار ، قال الزمخشري^(٢) : وعلى هذا : أي على تقدير أن تكون من بياناً يصح أن يراد بالثمرة النوع من الثمار والجنات الواحدة انتهى كلامه . وقد اخترنا أن من لا تكون بياناً فلا نختار ما ابتنى عليه مع أن قوله والجنات الواحدة مشكل يحتاج فهمه إلى تأمل و (رزقاً) هنا هو المرزوق ، والمصدر فيه بعيد جداً لقوله هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً فإن المصدر لا يؤتى به متشابهاً إنما هذا من الإخبار عن المرزوق لا عن المصدر ﴿ قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ (قالوا) هو والعامل في (كلما) و (هذا الذي) مبتدأ معمول للقول ، فالجملة في موضع مفعول ، والمعنى هذا مثل الذي رزقنا فهو من باب ما الخبر شبه به المبتدأ وإنما احتيج إلى هذا الإضمار لأن الحاضر بين أيديهم في ذلك الوقت يستحيل أن يكون عين الذي تقدم إن رزقوه ، ثم هذه المثلية المقدرة حذفت لاستحكام الشبه حتى كأن هذه الذات هي الذات ، والعائد على الذي محذوف : أي رزقناه ومن متعلقة برزقنا وهي لابتداء الغاية ، وقيل مقطوع عن الإضافة ، والمضاف إليه معرفة محذوف لدلالة المعنى عليه ، وتقديره من قبله : أي من قبل المرزوق ، واختلف المفسرون في تفسير ذلك ، فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل : معناه رزق الغداة كرزق العشي^(٣) ، وقال يحيى بن أبي كثير وأبو عبيدة : ثمر الجنة إذا جني خلفه مثله فإذا رأوا ما خلف المجني

(١) انظر الكشاف (١٠٧/١) .

(٢) انظر الكشاف (١٠٧/١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٨/١) ، وعزاه لعبد بن حميد ولكن عن عكرمة فقط .

اشتبه عليهم فقالوا هذا الذي رزقنا من قبل^(١) ، وقال مجاهد وابن زيد : يعني بقوله من قبل في الدنيا^(٢) ، والمعنى أنه مثله في الصورة فالقبلية على القولين الأولين تكون في الجنة ، وعلى هذا القول تكون في الدنيا ، وقال بعض المفسرين معناه هذا الذي وعدنا في الدنيا أن نرزقه في الآخرة فعلى هذا القول يكون المبتدأ هو نفس الخبر ، ولا يكون التقدير مثل وعبر عن الوعد بمتعلقه وهو الرزق وهو مجاز فلصدق الوعد به صار كأنهم رزقوه في الدنيا ، وكون الخبر يكون غير المبتدأ أيضاً مجاز إلا أن هذا المجاز أكثر وأسوغ ، وعلى هذا القول تكون قبلية أيضاً في الدنيا لأن الوعد وقع فيها إلا أن كون قبلية في الدنيا يبعده دخول من على قبل لأنها لا ابتداء الغاية فهذا موضع قبل لا موضع من لأن بين الزمانين تراخياً كثيراً ومن تشعر بابتداء قبلية فتنافى التراخي والابتداء ، وإذا كانت قبلية في الآخرة كان في ذلك إشكال من حيث إن الرزق الأول الذي رزقوه لا يكون له مثل رزقوه قبل لأن الفرض أنه أول فإذا كان أول لم يكن قبله شيء رزقوه ، قال ابن عطية هذا إشارة إلى الجنس : أي هذا من الجنس الذي رزقناه من قبل انتهى كلامه . وليس هذا إشارة إلى الجنس بل هذا إشارة إلى الرزق وكيف يكون إشارة إلى الجنس ، وقد فسر قوله بعد من الجنس الذي رزقناه من قبل فكأنه قال هذا الجنس من الجنس الذي رزقنا من قبل وأنت ترى هذا التركيب كيف هو ، ولعل الناقل صحف مثل بمن فكان التقدير هذا الجنس مثل الجنس الذي رزقنا من قبل ، والأظهر أنه تصحيف لأن التقدير من الجنس بعيد وإنما يصح ذلك على ضرب من التجوز من إطلاق كل ويراد به بعض فنقول هذا من بني تميم ثم تتجوز فتقول هذا بنو تميم تجعله كل بني تميم مجازاً توسعاً ، ومعمول القول جملة خبرية يخاطب بها بعضهم بعضاً وليس ذلك على معنى التعجب ، قاله جماعة . وقال ابن عباس : يقولون ذلك على طريق التعجب ، قال الحسن ومجاهد : يرزقون الثمرة ثم يرزقون بعدها مثل صورتها والطعم مختلف فهم يتعجبون لذلك ويخبر بعضهم بعضاً ، قال ابن عباس : ليس في الجنة شيء مما في الدنيا سوى الأسماء وأما الذوات فمتباينة^(٣) وقراءة الجمهور ، (وأتوا) مبنياً للمفعول وحذف الفاعل للعلم به وهو الخدم والولدان يبين ذلك قراءة هارون الأعور والعنكي ، (وأتوا به) على الجمع وهو إضمار لدلالة المعنى عليه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق ﴾ [الواقعة : ١٧ ، ١٨] ، إلى قوله تعالى ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ ، فدل ذلك على أن الولدان هم الذين يأتون بالفاكهة ، والضمير في قوله تعالى به عائداً على الرزق : أي وأتوا بالرزق الذي هو من الثمار كما أن هذا إشارة إليه قال الزمخشري^(٤) ، فإن قلت إلام يرجع الضمير في قوله وأتوا به ؟ قلت إلى المرزوق في الدنيا والآخرة ، لأن قوله (هذا الذي رزقنا من قبل) انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين انتهى كلامه : أي لما كان التقدير هذا مثل الذي رزقناه كان قد انطوى على المرزوقين معاً ألا ترى أنك إذا قيل « زيد مثل حاتم » كان منطوياً على ذكر زيد وحاتم ، وما ذكره الزمخشري^(٥) غير ظاهر الآية لأن ظاهر الكلام يقتضي أن يكون الضمير عائداً على مرزوقهم في الآخرة فقط لأنه هو المحدث عنه والمشبه بالذي رزقوه من قبل مع أنه إذا فسرت قبلية بما في الجنة تعين أن لا يعود الضمير إلا إلى المرزوق في الجنة ، كأنه قال : « وأتوا بالمرزوق في الجنة متشابهاً » ، ولا سيما إذا أعربت الجملة حالاً إذ يصير التقدير قالوا هذا مثل الذي رزقنا من قبل وقد أتوا به

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٨٧/١) (٥١٨) بنحوه .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٨/١) ، وعزاه لعبد بن حميد عن علي بن زيد . وأثر مجاهد ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٨٦/١)

(٥١٤ - ٥١٥) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٨/١) ، وعزاه لمسدد وهناد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن

ابن عباس وهو عند ابن جرير في تفسيره (٣٩١/١ - ٣٩٢) (٥٣٤ - ٥٣٥) .

(٥) انظر الكشاف (١٠٨/١) .

(٤) انظر الكشاف (١٠٨/١) .

متشابهاً : أي قالوا ذلك في هذه الحال ، وكان الحامل على القول المذكور كونه أتوا به متشابهاً ومجيء الجملة المصدرة بماض حلاً ومعها الواو على إضمار « قد » جازئ في فصيح الكلام ، قال تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ : أي وقد كنتم ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ﴾ [آل عمران : ١٦٨] ، أي وقد قعدوا ، ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾ [يوسف : ٤٥] ، أي وقد اذكر إلى غير ذلك مما خرج على أنه حال وكذلك أيضاً لا يستقيم عوده إلى المرزوق في الدارين إذا كانت الجملة معطوفة على قوله تعالى ﴿ قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ [البقرة : ٢٥] ، لأن الإتيان إذ ذاك يستحيل أن يكون ماضياً معنى لازماً في حيز كلما والعامل فيها يتعين هنا أن يكون مستقبل المعنى وإن كان ماضي اللفظ لأنها لا تخلو من معنى الشرط ، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة تضمنت الإخبار عن الإتيان بهذا الذي رزقوه متشابهاً ، وقول الزمخشري^(١) : في عود الضمير إلى المرزوق في الدنيا والآخرة لا يظهر أيضاً لأن هذه الجمل إنما جاءت محدثاً بها عن الجنة وأحوالها ، وكونه يخبر عن المرزوق في الدنيا والآخرة أنه متشابه ليس من حديث الجنة إلا بتكلف ، فالظاهر ما ذكرناه أولاً من عود الضمير إلى الذي أشير إليه بهذا فقط ، وانتصب (متشابهاً) على الحال من الضمير في (به) وهي حال لازمة ، لأن التشابه ثابت له أتوا به أولم يؤتوا ، والتشابه قيل في الجودة والخيار فإن فواكه الجنة ليس فيها رديء ، قاله قتادة ، وذلك كقوله تعالى ﴿ كتاباً متشابهاً ﴾ [الزمر : ٢٣] ، قال ابن عطية : كأنه يريد متناسباً في أن كل صنف هو أعلى جنسه ، فهذا تشابه ما أو في اللون وهو مختلف في الطعم^(٢) . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد ، أو في الطعم واللذة والشهوة وإن اختلفت ألوانه ، أو متشابه بثمر الدنيا في الاسم مختلف في اللون والرائحة والطعم ، أو متشابه بثمر الدنيا في الصورة لا في القدر والطعم^(٣) ، قاله عكرمة وغيره ، وروى ابن المبارك^(٤) حديثاً يرفعه ، قال أصحاب رسول الله ﷺ إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية وما كنت أرى في الجنة شجرة مؤذية تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ وما هي ؟ ، قال السدرة فإن لها شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ أو ليس يقول (في سدر مخضود) خضد الله الشوك فجعل مكان كل شوك ثمرة فإنها لتنبث ثمرأً يفتق من الثمرة منها على اثنين وسبعين لوناً طعاماً ما فيه لون يشبه الآخر ، واختار الزمخشري^(٥) أن ثمر الجنة متشابه بثمر الدنيا وأطلق القول في كونه كان متشابهاً لثمر الدنيا ولم يكن أجناساً آخر (وملخص) ما ذكر أن الإنسان يأنس بالمألوف وإذا رأى غير المألوف نفر عنه طبعه وإذا ظفر بشيء مما ألفه وظهر له فيه مزية وتفاوت في الجنس سرّ به واعتبط بحصوله ، ثم ذكر ما ورد في مقدار الرمانة والنبة والشجرة وكيفية نخل الجنة والعنقود والأنهار ما يوقف عليه في كتابه ، وليس في الآية ما يدل على ما اختاره الزمخشري ، والأظهر أن يكون المعنى ثبوت التشابه له ولم يقيد التشابه بل أطلق ، فتقيده يحتاج إلى دليل ، ولما كانت مجامع اللذات في المسكن البهي ، والمطعم الشهي ، والمنكح الوضي ، ذكرها الله تعالى فيما يبشر به المؤمنون ، وقد بدأ بالمسكن لأن به الاستقرار في دار المقام ، وثنى بالمطعم لأن به قوام الأجسام ، ثم ذكر ثالثاً الأزواج لأن بها تمام الالتئام فقال تعالى :

- (١) انظر الكشف (١٠٩/١) .
- (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣٨/١) ، وعزاه لوكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد وهو عند ابن جرير في تفسيره (٣٩٠/١) (٥٢٦ - ٥٢٨) ، وأثر ابن عباس عند ابن جرير في تفسيره (٣٩٠/١) (٥٢٤) .
- (٣) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٩١/١) (٥٣٣) ، عن عكرمة بنحوه .
- (٤) الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي أبو عبد الرحمن المروزي ، أحد الأئمة الأعلام وشيوخ الإسلام ، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة - الخلاصة (٩٣/٢) .
- (٥) انظر الكشف (١٠٩/١) .

﴿ولهم فيها أزواج﴾ ، الأولى أن تكون هذه الجملة مستأنفة كما اخترنا في قوله (كلما رزقوا) لأن جعلها استئنافاً يكون في ذلك اعتناء بالجملة إذ سيقّت كلاماً تاماً لا يحتاج إلى ارتباط صناعي ، ومن جعلها صفة فقد سلك بها مسلك غير ما هو أصل للحمل ، وارتفاع أزواج على الابتداء وكونه لم يشرك في العامل في جنات يدل على ما قلناه من الاستئناف أيضاً ، وخبر أزواج في المجرور الذي هولهم وفيها متعلق بالعامل في لهم الذي هو خبر ، والأزواج من جموع القلة لأن زوجاً جمع على زوجة نحو عود وعودة وهو من جموع الكثرة لكنه ليس في الكثير من الكلام مستعملاً ، فلذلك استغني عنه بجمع القلة توسعاً وتجاوزاً ، وقد ورد في الحديث الصحيح ما يدل على كثرة الأزواج من الحور وغيرهم ، وأريد هنا بالأزواج القرناء من النساء اللاتي تختص بالرجل لا يشركه فيها غيره و (مطهرة) صفة للأزواج مبنية على طهرت كالواحدة المؤنثة ، وقرأ زيد بن علي (مُطَهَّرَات) فجمع بالالف والتاء على طَهْرُن ، قال الزمخشري^(١) هما لغتان فصيحتان يقال النساء فععلن وهن فاعلات والنساء فعلت وهي فاعلة ومنه بيت الحماسة :

وَإِذَا الْعَذَارَى بِالذُّخَانِ تَقَنَّتْ وَأَسْتَعَجَلَتْ نَصَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ^(٢)

والمعني : وجماعة أزواج مطهرة انتهى كلامه ، وفيه تعقب أن اللغة الواحدة أولى من الأخرى ، وذلك : أن جمع ما لا يعقل إما أن يكون جمع قلة أو جمع كثرة إن كان جمع كثرة فمجيء الضمير على حد ضمير الواحدة أولى من مجيئه على حد ضمير الغائبات ، وإن كان جمع قلة فالعكس نحو الأجداع انكسرن ويجوز انكسرت ، وكذلك إذا كان ضميراً عائداً على جمع العاقلات الأولى فيه النون من التاء (فإذا بلغن أجلهن) (والوالدات يرضعن) ولم يفرقوا في ذلك بين جمع القلة والكثرة كما فرقوا في جمع ما لا يعقل ، فعلى هذا الذي تقرر تكون قراءة زيد الأولى إذ جاءت في الظاهر على ما هو أولى ، ومجيء هذه الصفة مبنية للمفعول ولم تأت ظاهرة أو ظاهرات أفخم لأنه أفهم أن لها مُطَهَّرًا وليس إلا الله تعالى ، وقراءة عبيد بن عمير (مُطَهَّرَةٌ) وأصله متطهرة فأدغم وفي كلام بعض العرب ما أحوجني إلى بيت الله فاطهر به أطهرة : أي فاتطهر به تطهرة ، وهذه القراءة مناسبة لقراءة الجمهور لأن الفعل مما يحتمل أن يكون مطاوعاً نحو طهرته فتطهر : أي أن الله تعالى طَهَّرَهُنْ فَتَطَهَّرْنَ وهذه الأزواج التي وصفها الله بالتطهير إن كن من الحور العين كما روي عن عبد الله فمعنى التطهير : خلقتهن على الطهارة لم يعلق بهن دنس ذاتي ولا خارجي ، وإن كن من بني آدم كما روي عن الحسن عن عجايزكم الرمص^(٣) الغمص^(٤) يصرن شواب ، فقليل مطهرة من العيوب الذاتية وغير الذاتية ، وقيل مطهرة من الأخلاق السيئة والطبائع الرديئة كالغضب ، والحدة ، والحقذ ، والكيد ، والمكر وما يجري مجرى ذلك ، وقيل : مطهرة من الفواحش والخنا والتطلع إلى غير أزواجهن ، وقيل : مطهرة من الأدناس الذاتية مثل الحيض ، والنفاس ، والجنابة ، والبول ، والتغوط وغير ذلك من المقاذير الحادثة عن الأعراض المنقلبة إلى فساد كالبخر ، والذفر ، والصنان ، والقيح ، والصديد أو إلى غير فساد كالدمع ، والعرق ، والبصاق ، والنخامة ، وقيل : مطهرة من مساوئ

(١) انظر الكشف (١٠٩/١) .

(٢) لسلمي بن ربيعة بن جفنة الضبي ، وشبه استتار الأبيكار بالدخان ، أو سوادهن به باستتارهن بالقناع على طريق التصريح ، أو شبه الدخان به على طريق المكنية . حاشية الشيخ عليان على الكشف (١٠٩/١) ، الخزانة (٣٦/٨) ، الأمالي (٨٢/١) ، شرح

ديوان الحماسة للتبريزي (٥٧/٢) ، النوادر في اللغة (٣٧٥) .

(٣) رمص : الرَّمَصُ في العين كالغمص ، وهو قذى تلفظ به ، وقيل : الرَّمَصُ : ما سال .

(٤) والغَمَصُ : ما جَمَدَ - لسان العرب (١٧٢٩/٣) .

الأخلاق لا طمحات^(١) ، ولا مرجات^(٢) ، ولا يغرن ، ولا يعزن ، وقال النخعي : الولد ، وقال يمان : من الإثم والأذى ، وكل هذه الأقوال لا يدل على تعيينها قوله تعالى (مطهرة) ، لكن ظاهر اللفظ يقتضي أنهن مطهرات من كل ما يشين ، لأن من طهره الله تعالى ووصفه بالتطهير كان في غاية النظافة والوضاءة ، ولما ذكر تعالى مسكن المؤمنين ومطعمهم ومنحكهم وكانت هذه الملاذ لا تبلغ درجة الكمال مع توقع خوف الزوال ولذلك قيل : -

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ ارْتِحَالًا^(٣)

اعقب ذلك تعالى بما يزيل تنغيص التنعم بذكر الخلود في دار النعيم فقال تعالى (وهم فيها خالدون) وقد تقدم ذكر الخلاف في الخلود وأن المعتزلة تذهب إلى أنه : البقاء الدائم الذي لا ينقطع أبداً ، وأن غيرهم يذهب إلى أنه : البقاء الطويل انقطع أو لم ينقطع ، وأن كون نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار سرمدي لا ينقطع ليس مستفاداً من لفظ الخلود بل من آيات من القرآن وأحاديث صحاح من السنة قال تعالى ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ [الحجر : ٤٨] ، وفي الحديث « يا أهل الجنة خلود بلا موت »^(٤) ، وفي حديث أخرجه مسلم في وصف أهل الجنة و « إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً » ، إلى غير ذلك من الآي والأحاديث

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٥٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^(٥٧) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(٥٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(٥٩) ﴿

الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم ، ومحله الوجه ومنبعه من القلب ، واشتقاقه من

(١) طمحت المرأة تطمح طامحاً ، وهي طامح : نشزت ببعلها . والطماح مثل الجماح ، وطمحت المرأة مثل جمحت فهي طامح - لسان العرب (٢٧٠١/٤) .

(٢) مرج الأمر مرجاً ، فهو مارج ومريج : التبس واختلط . . . ومرج أمر ، يَمْرُجُهُ : ضيعه . ورجل مارج : يمرج أموره ولا يحكمها ، مرج العهد والأمانة والدين : فسد . . . لسان العرب (٤١٦٩/٦) .

(٣) والبيت هكذا في روح المعاني (٢٠٥/١) :

أشد الغم عندني في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

(٤) الحديث عند الترمذي (٥٩٦/٤) ، في كتاب صفة الجنة ، باب (٢٠) ، حديث (٢٥٥٧) .

الحياة وضده القحة^(١) ، والحياء والاستحياء والانخزال^(٢) والانقماص^(٣) والانقلاع متقاربة المعنى فتنب كل واحدة منها مناب الأخرى ، (أن) حرف ثنائي الوضع ينسبك منه مع الفعل الذي يليه مصدر وعمله في المضارع النصب إن كان معرباً ، والجزم بها لغة لبني صباح ، وتوصل أيضاً بالماضي المتصرف ، وذكرنا أنها توصل بالأمر وإذا نصبت المضارع فلا يجوز الفصل بينهما شيء ، وأجاز بعضهم الفصل بالظرف ، وأجاز الكوفيون الفصل بينها وبين معمولها بالشرط ، وأجازوا أيضاً الغاءها وتسليط الشرط على ما كان يكون معمولاً لها لولاه ، وأجاز الفراء تقديم معمول معمولها عليها ، ومنعه الجمهور ، وأحكام « أن » الموصولة كثيرة ، ويكون أيضاً حرف تفسير ، خلافاً للكوفيين إذ زعموا أنها لا تأتي تفسيراً ، وسيأتي الكلام على التفسيرية عند قوله تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي) إن شاء الله تعالى ، وتكون « أن » أيضاً زائدة وتطرد زيادتها بعد « لما » ولا تنفيذ إذ ذاك غير التوكيد خلافاً لمن زاد على ذلك أنها تنفيذ اتصال الفعل الواقع جواباً بالفعل الذي زيدت قبله وبعد القسم قبل لو والجواب ، خلافاً لمن زعم أنها إذ ذاك رابطة لجملته القسم بالمقسم عليه إذا كان لو والجواب ، ولا تكون أن للمجازاة خلافاً للكوفيين ، ولا بمعنى إن المكسورة المخففة من الثقيلة خلافاً للفارسي ، ولا للنفي ، ولا بمعنى إذ ولا بمعنى لثلا ، خلافاً لزاعمي ذلك ، وأما أن المخففة من الثقيلة فحرف ثلاثي الوضع ، وسيأتي الكلام عليه عند أول ما يذكر إن شاء الله تعالى ، و « الضرب » أساس جسم بجسم بعنف ، ويكنى به عن السفر في الأرض ، ويكون بمعنى الصنع والاعتماد ، وروي اضطرب رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب ، و « البعوضة » واحد البعوض وهي طائر صغير جداً معروف ، وهو في الأصل صفة على فعول كالقطوع فغلبت ، واشتقاقه من البعض بمعنى القطع ، « أما » حرف وفيه معنى الشرط ، وبعضهم يعبر عنها بحرف تفصيل ، وبعضهم بحرف إخبار ، وأبدل بنو تميم الميم الأولى ياء فقالوا أيما ، وقال سيبويه في تفسير ، أما أن المعنى : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب ، والذي يليها مبتدأ وخبر ، وتلزم الفاء فيما ولي الجزاء الذي يليها ، إلا إن كانت الجملة دعاء فالفاء فيما يليها ، ولا يفصل بينها من الجمل بينها وبين الفاء ، وإذا فصل بها فلا بد من الفصل بينها وبين الجملة بمعمول يلي أما ، ولا يجوز أن يفصل بين أما وبين الفاء بمعمول خبر أن ، وفاقاً لسيبويه وأبي عثمان ، وخلافاً للمبرد وابن دُرستويه ، ولا بمعمول خبر ليت ولعل خلافاً للفراء ، ومسألة أما علماً فعالماً يلزم أهل الحجاز فيه النصب وتختاره تميم ، وتوجيه هاتين المسألتين مذكور في النحو ، (الحق) الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، حق الأمر ثبت ووجب ، ومنه ﴿ حقت كلمة ربك ﴾ [يونس ٣] ، والباطل مقابله وهو المضمحل الزائل ، (ماذا) الأصل في ذا أنها اسم إشارة ، فمتى أريد موضوعها الأصلي كانت ماذا جملة مستقلة ، وتكون ما استفهامية في موضع رفع بالابتداء وذا خبره ، وقد استعملت العرب ماذا ثلاثة استعمالات غير الذي ذكرناه أولاً :

أحدها : أن تكون ما استفهاماً وذا موصولاً بدليل وقوع الاسم جواباً لها مرفوعاً في الفصيح . وبدليل رفع البدل قال الشاعر - :

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبُ فَيَقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ^(٤).

(١) يقال القُحُ : الجافي من الناس كأنه خالص فيه . . . والقُحُ أيضاً الجافي من الأشياء - لسان العرب (٣٥٣٥/٥) .

(٢) الانخزال : الانقطاع .

(٣) القمع : مصدر قمع الرجل يقمعه قمعاً ، وأقمعه ، فانقمع : قهره وذله فذل . والقمع : الذل - لسان العرب .

(٤) البيت للبيد من الطويل - انظر معاني القرآن للفراء (١٣٩/١) ، والكتاب لسيبويه (٤٠٥/١) ، والخزانة (٣٣٩/١ ، ٥٥٦/٢) ،

وشرح شواهد شروح الألفية للعيني (٧/١ ، ٤٤٠) ، والمخصص (١٠٣/١٤) ، وابن الشجري في أماليه (١٧١/٢) ، والمفصل لابن يعيش (١٤٩/٣ ، ٢٣/٤) .

الثاني : أن تكون ماذا كلها استفهاماً وهذا الوجه هو الذي يقول بعض النحويين فيه ، إن « ذا » لغو ، ولا يريد بذلك الزيادة بل المعنى أنها ركبت مع « ما » وصارت كلها استفهاماً ، ويدل على هذا الوصف وقوع الاسم جواباً لها منصوباً في الفصح ، وقول العرب : « عما ذا تسأل » بإثبات ألف « ما » ، وقول الشاعر :

يَا خُزْرَ تَغْلِبَ مَاذَا بَالٍ نَسْوَتُكُمْ لَا يَسْتَفْنِ إِلَى الدَّيْرَيْنِ تَحَنَانًا^(١)

ولا يصح موصولية « ذا » هنا .

الثالث : أن تكون « ما » مع « ذا » اسماً موصولاً وهو قليل ، قال الشاعر :

دَعِيَ مَاذَا عَلِمْتَ سَأَتَقِيهِ وَلَكِنْ بِالْمُغِيبِ نَبِّئْنِي^(٢)

فعلى هذا الوجه والأول يكون الفعل بعدها صلة لا موضع له من الإعراب ، ولا يتسلط على ماذا ، وعلى الوجه الثاني يتسلط على ماذا إن كان مما يمكن أن يتسلط ، وأجاز الفارسي أن تكون ماذا نكرة موصوفة وجعل منه :

دَعِيَ مَاذَا عَلِمْتَ

« الإرادة » طلب نفسك الشيء وميل قلبك إليه ، وهي نقيض الكراهة ويأتي الكلام عليها مضافة إلى الله تعالى إن شاء الله ، « الفسوق »^(٣) : الخروج فسقت الرطبة خرجت ، والفساق شرعاً الخارج عن الحق ، ومضارعه جاء على يفعل ويفعل ، « النقص » : فك تركيب الشيء وردّه إلى ما كان عليه أولاً ، فنقص البناء هدمه ونقص المُبرم حلّه ، و « العهد » الموثق وعهد إليه في كذا أوصاه به ، ووثقه عليه ، والعهد في لسان العرب^(٤) : على ستة محامل : الوصية ، والضمان ، والأمر ، والالتقاء ، والرؤية ، والمتمول . والميثاق : العهد المؤكد باليمين ، والميثاق والتوثقة : كالميعاد بمعنى الوعد والميلاد بمعنى الولادة ، الخسار النقصان أو الهلاك ، (كيف) اسم ودخول حرف الجر عليها شاذ ، وأكثر ما تستعمل استفهاماً والشرط بها قليل ، والجزم بها غير مسموع من العرب فلا نجيزه قياساً ، خلافاً للكوفيين وقطرب ، وقد ذكر خلاف فيها أهي ظرف أم اسم غير ظرف ، والأول عزوه إلى سيبويه ، والثاني إلى الأخفش والسيرافي ، والبديل منها والجواب إذا كانت مع فعل مستغن منصوبان ، ومع ما لا يستغنى مرفوع إن كان مبتدأ ومنصوب إن كان ناسخاً ، (أمواتاً) جمع ميت وهو أيضاً جمع ميتة وجمعهما على أفعال شذوذ والقياس في فيعل إذا كسر فعائل ، « الاستواء » الاعتدال والاستقامة استوى العود وغيره إذا استقام واعتدل ثم قيل استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء والتسوية التقويم والتعديل ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ الآيات قال ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل والفراء : نزلت في اليهود لما ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه بالعنكبوت والذباب والتراب والحجارة وغير ذلك مما يستحق ويطرح ، قالوا إن الله أعز وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه

(١) البيت من البسيط لجريز - انظر ديوانه (٤٥٤) ، همع الهوامع (٨٤/١) ، الدرر اللوامع (٥٩/١) ، مغني اللبيب (٣٠١) .

(٢) البيت من البسيط اختلف في نسبته نسبة السيوطي إلى « المثقب العبدى » واعترض عليه البغدادي وليس في المفضليات ، ونسبه العيني إلى سحيم بن وثيل - انظر الكتاب (٤٠٥/١) ، الخزانة (٥٥٤/٢) ، مغني اللبيب (٣٠١ - ٣٠٢) ، شرح شواهد المغني

(٤٨٨/١) ، همع الهوامع (٨٤/١) ، الدرر اللوامع (٦٠/١) .

(٣) فسق : الفسق : الخروج عن الأمر ، و (فسق عن أمر ربه) : أي خرج - لسان العرب (٣٤١٤/٥) .

(٤) انظر لسان العرب (٣١٤٨/٤ - ٣١٥٠) .

المحقرات ، فردّ الله عليهم بهذه الآية ، وقال الحسن ومجاهد والسدي وغيرهم : نزلت في المنافقين ، قالوا : لما ضرب الله تعالى المثل بالمستوقد والصيب قالوا الله أعلى وأعظم أن يضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء التي لا بال لها ، فردّ الله عليهم بهذه الآية ، وقيل : نزلت في المشركين والكل محتمل ، إذ اشتملت على نقض العهد وهو من صفة اليهود لأن الخطاب بوفاء العهد إنما هو لبني إسرائيل ، وعلى الكافرين ، والذين في قلوبهم مرض وهم المشركون والمنافقون ، وكلهم كانوا في إيدائه ﷺ متوافقين ، وقد نص من أول السورة إلى هنا ذكر ثلاث طوائف ، وكلهم من الذين كفروا قاله « القفال » ، قال ويجوز أن ينزل ذلك ابتداء من غير سبب ، وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد وأهله ، وأن البعوضة تحيا ما جاءت فإذا شبت وامتلأت ماتت^(١) ، كذلك مثل أهل الدنيا إذا امتلأوا منها كان سبباً لهلاكهم ، وقيل ضرب ذلك تعالى مثلاً لأعمال العباد أنه لا يمتنع أن يذكر ما قل منها أو أكثر ليجازي عليها ثواباً أو عقاباً ، والأظهر في سبب النزول والقولان الأولان :

ومناسبة هذه الآية ظاهرة إذ قد جرى قبل ذكر المثل بالمستوقد والصيب ، ونزل التمثيل بالعنكبوت والذباب فأنكر ذلك الجهلة وأهل العناد ، واستغربوا ما ليس بمستغرب ولا منكر ، إذ التمثيل يكشف المعنى ويوضح المطلوب ، وقد تقدم الكلام في فائدته عند قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً) والعامل إذا سمع التمثيل استبان له به الحق ، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور والأجناس والحشرات والهوام ، ولسان العرب ملآن من ذلك ألا ترى إلى قول الشاعر : -

وَإِنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوِي الضُّغْنِ مِنْهُمْ وَمَا أَصْبَحْتَ تَشْكُو مِنَ الْوَجْدِ سَاهِرَهُ
كَمَا لَقِيتَ ذَاتَ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا وَمَا انْفَكَّتِ الْأَمْثَالُ فِي النَّاسِ سَائِرَهُ

فذكر قصة ذات الصفا ، وهي حية كانت قد قتلت قرابة حليفها ، فتوائفا بالله على أنها تدي ذلك القتل ولا تؤذيها ، إلى آخر القصة المذكورة في ذلك الشعر ، والأمثال مضرورية في الإنجيل بالأشياء الحقة كالنخالة والدود والزناير ، وكذلك أيضاً قرأت أمثلاً في الزبور ، فإنكار ضرب الأمثال جهالة مفرطة أو مكابرة واضحة ، ومساق هذه الجملة مصدرة بأن يدل على التوكيد ، وقرأ الجمهور يَسْتَحْيِي بياءين والماضي اسْتَحْيَا وهي : لغة أهل الحجاز واستفعل هنا جاء للإغناء عن الثلاثي المجرد كاستنكف واستأثر واستبد واستعبر ، وهو من المعاني التي جاء لها استفعل ، وقد تقدم ذكرها عند قوله ﴿ وإياك نستعين ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وهذا هنا من الحياء ، وفي كلام الزمخشري^(٢) ما يدل على أن استحيا ليس مغنياً عن المجرد بل هو موافق للمجرد ، وهو أحد المعاني أيضاً الذي جاء لها استفعل ، قال الزمخشري^(٣) : يقال حيي الرجل كما يقال نسي وخشي وشطي الفرس إذا اعتلت هذه الأعضاء ، جعل حيي لما يعبر به عن الانكسار والتغير منكسر القوة منتقض الحياة ، كما قالوا فلان هلك حياءً من كذا ومات حياءً ، ورأيت الهلال في وجهه من شدة الحياء ، وذاب حياءً ، وجمد في مكانه خجلاً ، انتهى كلامه . فظاهره أنه يقال من الحياء حيي الرجل فيكون استحيا على ذلك موافقاً للمجرد ، وعلى ما نقلناه قبل يكون مغنياً عن المجرد ، وقرأ « ابن كثير » في رواية « شبل »^(٤) و « ابن محيصن » و « يعقوب » : يَسْتَحْيِي بياء واحدة وهي لغة بني تميم يجرونها مجرى يستبي ، قال الشاعر : -

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٣٩٨ - ٣٩٩) ، (٥٥٥ - ٥٥٦) ، عن الربيع .

(٢) انظر الكشاف (١١١ / ١) . (٣) انظر الكشاف (١١١ / ١) .

(٤) شبل بن عباد أبو داود المكي مكرىء مكة ثقة ضابط هو أجل أصحاب ابن كثير - انظر غاية النهاية (٣٢٣ / ١) .

أَلَا تَسْتَحْيِي مِنَّا مُلُوكَ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنَا لَا يُؤْوِ الدَّمُ بِالدَّمِ

والماضي استحي قال الشاعر :-

إِذَا مَا اسْتَحْيَنَ الْمَاءُ يَغْرِضُ نَفْسَهُ كَرَعْنُ سَبَبْتُ فِي إِنَاءٍ مِنَ الْوَرْدِ^(١)

واختلف النحاة في المحذوفة : فقليل لام الكلمة فالوزن يستفع ، فنقلت حركة العين إلى الفاء وسكنت العين فصارت يستفع ، وقليل المحذوف العين ، فالوزن يستيفل ثم نقلت حركة اللام إلى الفاء وسكنت اللام فصارت يستفل ، وأكثر نصوص الأئمة على أن المحذوف هو العين ، وقد تكلمنا على هذه المسألة في كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا ، وليس هذا الحذف مختصاً بالماضي والمضارع بل يكون أيضاً في سائر التصرفات كاسم الفاعل واسم المفعول وغير ذلك ، وهذا الفعل مما نقلوا أنه يكون متعدياً بنفسه ويكون متعدياً بحرف جر ، يقال استحييته واستحييت منه ، فعلى هذا يحتمل أن يضرب أن يكون مفعولاً به على أن يكون الفعل متعدى إليه بنفسه أو متعدى إليه على إسقاط حرف الجر ، وفي ذلك الخلاف الذي ذكرنا في قوله تعالى أن لهم جنات ، أذلك في موضع نصب بعد حذف حرف الجر أم في موضع جر .

واختلف المفسرون في معنى الاستحياء المنسوب إلى الله تعالى نفيه ، فقليل المعنى لا يترك فعبر بالحياء عن الترك ، قاله الزمخشري^(٢) وغيره ، لأن الترك من ثمرات الحياء لأن الإنسان إذا استحيا من فعل شيء تركه فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب ، وقليل المعنى لا يخشى وسميت الخشية حياء لأنها من ثمراته ورجحه الطبري ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿وتخشى الناس﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، أن معناه تستحي من الناس ، وقيل : المعنى لا يمتنع وكل هذه الأقوال متقاربة من حيث المعنى يجوز أن يوصف الله تعالى بها ، وهذه التأويلات هي على مذهب من يرى التأويل في الأشياء التي موضوعها في اللغة لا ينبغي أن يوصف الله تعالى به ، وقيل ينبغي أن تمر على ما جاءت ونؤمن بها ولا نتأولها ، ونكل علمها إليه تعالى ، لأن صفاته تعالى لا يطلع على ماهيتها الخلق^(٣) ، والذي عليه أكثر أهل العلم أن الله تعالى خاطبنا بلسان العرب وفيه الحقيقة والمجاز فما صح في العقل نسبته إليه نسبناه إليه ، وما استحال أولناه بما يليق به تعالى ، كما نؤول فيما ينسب إلى غيره مما لا يصح نسبته إليه ، والحياء بموضوع اللغة لا يصح نسبته إلى الله تعالى ، فلذلك أوله أهل العلم ، وقد جاء منسوباً إلى الله مثبتاً فيما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع إليه العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً^(٤) ، وأول بأن هذا جار على سبيل التمثيل مثل تركه تخيب العبد من عطائه لكرمه بترك من ترك المحتاج إليه حياء منه ، وقد يجوز أيضاً في الاستحياء فنسب إلى ما لا يصح منه بحال كالبيت الذي أنشدناه قبل وهو :

(١) ذكره الزمخشري في الكشف (١١٣/١) ، والبيت الذي قبله :

كفانا الربيع العيس من بركاته فجاءته لم تسمع حداء سوى الرعد

ونسبه في حاشية الكشف للمتنبي ، وفي الصحاح السبب بالكسر جلود البقر المدبوجة بالقرظ وفي البيت استعار السبب بالكسر لمشافر النوق على طريق التصريح .

(٢) انظر الكشف (١١٣/١) .

(٣) وهذه هو الحق الذي نؤمن به وانظر في ذلك فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية المجلد الخامس .

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٤٣٨) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٧/١) ، والخطيب في التاريخ (٢٣٦/٣ ، ٣١٧/٨) ، وانظر الدر (١٩٥/١) .

إِذَا مَا اسْتَحْيَيْنَ الْمَاءَ يَغْرِضُ نَفْسَهُ

قال أبو تمام :

هُوَ اللَّيْثُ لَيْثُ الْغَابِ بَأْسًا وَنَجْدَةً وَإِنْ كَانَ أَحْيَا مِنْهُ وَجْهًا وَأَكْرَمًا^(١)

ويجوز أن يكون قوله تعالى (لا يستحيي) على سبيل المقابلة ، لأنه روي أن الكفار قالوا : ما يستحيي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت ، ومجيء الشيء على سبيل المقابلة وإن لم يكن من جنس ما قوبل به شائع في لسان العرب ، ومنه ﴿ جزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وجاء ذكر الاستحياء منفياً عن الله تعالى وإن كان إثباته بموضوع اللغة لا يصح نسبته إلى الله تعالى ، فكل أمر مستحيل على الله تعالى إثباته يصح أن ينفي عن الله تعالى ، وبذلك نزل القرآن وجاءت السنة ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ [الإخلاص : ٣] ، ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ [الأنعام : ١٤] .

ونقول الله تعالى ليس بجسم ، فالإخبار بانتفاء هذه الأشياء هو الصديق المحض ، وليس انتفاء الشيء مما يدل على تجويزه على من نفي عنه ، ولا صحة نسبته إليه كما ذهب إليه أبو بكر بن الطيب وغيره ، وزعم أن ما لا يجوز على الله إثباتاً يجب أن لا يطلق على طريق النفي قال فيما ورد من ذلك هو بصورة النفي وليس بنفي على الحقيقة ، وكثرة ذلك أعني نفي الشيء عما لا يصح إثباته له كثير في القرآن ولسان العرب بحيث لا يحصر ما ورد من ذلك .

و (يضرب) قيل معناه يبين ، وقيل : يذكر ، وقيل : يضع من (ضربت عليهم الذلة) ، وضرب البعث على بني فلان ، ويكون يضرب قد تعدى إلى واحد ، وقيل يضرب في معنى يجعل ويصير كما تقول : « ضربت الطين لبناً » ، « وضربت الفضة خاتماً » فعلى هذا يتعدى لاثنين ، والأصح أن ضرب لا يكون من باب ظن وأخواتها فيتعدى إلى اثنين ، وبطلان هذا المذهب مذكور في كتب النحو ، وما إذا نصبت بعوضة زائدة للتأكيد أو صفة للمثل تزيد النكرة شيئاً كما تقول ائني برجل ما أي أي رجل كان ، وأجاز الفراء وثعلب والزجاج أن تكون ما نكرة وينتصب بدلاً من قوله مثلاً ، وقرأ الجمهور بنصب (بعوضة) ، واختلف في توجيه النصب على وجوه :

أحدها : أن تكون صفة لما إذا جعلنا ما بدلاً من مثل و « مثلاً » مفعول بيضرب ، وتكون ما إذ ذاك قد وصفت باسم الجنس المنكر لإبهام ما وهو قول الفراء .

الثاني : أن تكون (بعوضة) عطف بيان ، و (مثلاً) مفعول بيضرب .

الثالث : أن تكون بدلاً من مثل .

الرابع : أن يكون مفعولاً ليضرب ، وانتصب مثلاً حالاً من النكرة مقدمة عليها .

والخامس : أن تكون مفعولاً ليضرب ثانياً ، والأول هو المثل على أن يضرب يتعدى إلى اثنين .

والسادس : أن تكون مفعولاً أول ليضرب ، ومثلاً المفعول الثاني .

والسابع : أن تكون منصوباً على تقدير إسقاط الجار ، والمعنى أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة فما فوقها ، وحكوا له عشرين ما ناقة فجماً ، ونسبه ابن عطية لبعض الكوفيين ، ونسبه المهدوي للكوفيين ، ونسبه غيرهما للكسائي والفراء ويكون (مثلاً) مفعولاً بيضرب على هذا الوجه ، وأنكر هذا النصب أعني نصب بعوضة على هذا الوجه أبو العباس ، وتحريز نقل هذا المذهب أن الكوفيين يزعمون أن ما تكون جزاء في الأصل ، وتحول إلى لفظ الذي فينتصب ما بعدها سواء كان نكرة أم غير نكرة ويعطف عليه بالفاء فقط وتلزم ، ولا يصلح مكانها الواو ولا « ثم » ولا « أو » ولا « لا » ويجعلون النصب في ذلك الاسم على حذف مضاف وهو بين ، فلما حذف « بين » قام هذا مقامه في الإعراب ويقدر الفاء بالي ، وقد جاء التصريح بها في بعض المواضع ، حكى الكسائي عن العرب « مطرنا ما زبالة فالثعلبية » وما منصوبة بمطرنا ، وحكى الكسائي والفراء عن العرب « هي أحسن الناس ما قرناً » وانتصاب ما في هذه المسألة على التفسير ، وتقول « هي حسنة ما قرنها إلى قدمها » ، قال الفراء أنشدنا أعرابي من بني سليم : -

يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مَا قَرْنَا إِلَى قَدَمٍ وَلَا حِبَالَ مُحِبٍّ وَاصِلٍ تَصِلُ^(١)

وقال الكسائي : سمعت أعرابياً نظر إلى الهلال فقال « الحمد لله ما إهلالك إلى سراك » ، وحكى الفراء عن العرب الشنق خمأً وعشرين ، والمعنى فيما تقدم ما بين كذا إلى كذا وما في هذا المعنى لا تسقط فخطأ أن يقول مطرنا زبالة فالثعلبية ، وهذا الذي ذهب إليه الكوفيون لا يعرفه البصريون ورده إلى قواعد البصريين مذكور في غير هذا ، والذي نختاره من هذه الأعراب أن ضرب يتعدى إلى اثنين هو الصحيح ، وذلك لواحد هو مثلاً لقوله تعالى ﴿ ضرب مثل ﴾ [الحج : ٧٣] ، ولأنه المقدم في التركيب وصالح لأن ينتصب بيضرب وما صفة تزيد النكرة شيئاً ، لأن زيادتها في هذا الوضع لا تنقاس وبعوضة بدل ، لأن عطف البيان مذهب الجمهور فيه أنه لا يكون في النكرات ، إنما ذهب إلى ذلك الفارسي ، ولأن الصفة بأسماء الأجناس لا تنقاس ، وقرأ « الضحاك » و « إبراهيم بن أبي عبلة » و « رؤية بن العجاج » و « قطرب » . (بعوضة) بالرفع ، واتفق المعربون على أنه خبر ، ولكن اختلفوا فيما يكون عنه خبراً فقيل خبر مبتدأ محذوف ، تقديره هو بعوضة وفي هذا وجهان :

أحدهما : أن هذه الجملة صلة لما وما موصولة بمعنى الذي وحذف هذا العائد ، وهذا الإعراب لا يصح إلا على مذهب الكوفيين حيث لم يشترطوا في جواز حذف هذا الضمير طول الصلة ، وأما البصريون فإنهم اشترطوا ذلك في غير أي من الموصولات ، وعلى مذهبه تكون هذه القراءة على هذا التخريج شاذة ويكون إعراب « ما » على هذا التخريج بدلاً ، التقدير مثلاً الذي هو بعوضة .

والوجه الثاني : أن تكون ما زائدة أو صفة وهو بعوضة وما بعده جملة كالتفسير لما انطوى عليه الكلام السابق ، وقيل خبر مبتدأ ملفوظ به وهو « ما » على أن تكون استفهامية ، قال الزمخشري^(٢) لما استنكفوا من تمثيل الله لأصنامهم بالمحقرات قال إن الله لا يستحي أن يضرب للأنداد ما شاء من الأشياء المحقرة بله فما فوقها ، كما يقال فلان لا يبالي بما وهب ما دينار وديناران .

والمختار الوجه الثاني لسهولة تخريجه ، لأن الوجه الأول يجوز فصيحاً على مذهب البصريين ، والثاني فيه غرابة واستبعاد عن معنى الإستفهام ، و « ما » من قوله فما معطوفة على قوله بعوضة إن نصبنا ، إما موصولة وصلتها لظرف ،

(١) البيت من البسيط لم يعلم مؤلفه انظر مغني اللبيب رقم (٢٦٧) ، الدرر اللوامع (١٧٠ / ٢) .

(٢) انظر الكشف (١١٥ / ١) .

أو موصوفة وصفتها الظرف والموصولة أرجح ، وإن رفعنا (بعوضة) وكانت ما موصولة فعطف ما الثانية عليها ، أو استفهاماً فذلك من عطف الجمل ، أو كانت البعوضة خبراً لهو محذوفة وما زائدة ، أو صفة فعطف على البعوضة ، إما موصولة أو موصوفة ، وما فوقها الظاهر أنه يعني في الحجم كالذباب والعنكبوت قاله ابن عباس ، ويكون ذكر البعوضة تنبيهاً على الصغر وما فوقها تنبيهاً على الكبر وبه قال أيضاً قتادة وابن جريج ، وقيل المعنى فما فوقها في الصغر أي وما يزيد عليها في الصغر كما تقول فلان أنذل الناس ، فيقال لك هو فوق ذلك أي أبلغ وأعرق في النذالة قاله أبو عبيدة والكسائي ، وقال ابن قتيبة فوق من الأضداد ينطلق على الأكثر والأقل فعلى قول من قال بأن اللفظ المشترك يحمل على معانيه يكون دلالة على ما هو أصغر من البعوضة وما هو أكبر ، وقيل أراد ما فوقها وما دونها فاكتفى بأحد الشئين عن الآخر لدلالة المعنى عليها ، كما اكتفى في قوله ﴿ سَابِغِلْ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ [النحل : ٨١] ، عن قوله والبرد ورجح القول بالفوقية في الصغر بأن المقصود من التمثيل تحقير الأوثان وكلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود من هذا الباب أكمل ، وبأن الغرض هنا أن الله لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الحقير وبأن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسرارها أصعب ، فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله سبحانه فكان التمثيل به أقوى في الدلالة على كمال الحكمة من التمثيل بالكبير ، والذي نختاره القول الأول لجريان فوق على مشهور ما استقر فيها في اللغة ، وفي المعنى الذي أسند الله إليه عدم الاستحياء من أجله في ضرب المثل بهذه المصغرات والمستضعفات وجوه :

أحدها : أن البعوضة قد أوجدها على الغاية القصوى من الإحكام وحسن التأليف والنظام ، وأظهر فيها مع صغر حجمها من بدائع الحكمة ، كمثل ما أظهره في الفيل الذي هو في غاية الكبر وعظم الخلقة ، وإذا كل واحد منهما قد استوفى نصاب حسن الصنعة وبدائع التأليف والصنعة فضرِبَ المثل بالصغير والكبير سيان عنده إذا كانا في توفية الحكمة سواء .

الثاني : أن البعوضة لما كانت من أصغر ما خلق الله تعالى خصها بالذكر في القلة فلا يستحي أن يضرب المثل في الشيء الكبير بالكبير ، والحقير بالحقير ، وله المثل الأعلى في ضرب الأمثال .

الثالث : أن في البعوضة مع صغر حجمها وضعف بنيانها من حسن التأليف ودقيق الصنع من اختصار الخصر ودقة الخرطوم ولطيف تكوين الأعضاء ولين البشرة ما يعجز أن يحاط بوصفه ، وهي مع ذلك تبضع بشوكة خرطومها مع لينها جلد الجاموس والفيل ، وتهتدي إلى مراق البشرة بغير دليل ، فلا يستحي الله تعالى أن يضرب بها المثل إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يخلق مثلها ولا أقل منها ، كما قال تعالى (لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) .

الرابع : أن المثل بالذباب والبعوض والعنكبوت وما يجري مجراه أتى به تعالى في غاية ما يكون من التمثيل وأحسن ما يكون من التشبيه لأن الذي جعلها مثلاً لهم في غاية ما يكون من الحقارة وضعف القوة وخسة الذات والفعل فلو شبههم بغير ذلك ما حسن موقع التشبيه ولا عذب مذاق التمثيل ، إذ الشيء لا يشبه إلا بما يماثله ويشاكله ، ومن أتى بالشيء على وجهه فلا يستحي منه ، وتصدير الجملتين بأما التي معناها الشرط مشعر بالتوكيد إذ هي أبلغ من ، فالذين آمنوا يعلمون والذين كفروا يقولون إذ قد تقرر أن ما برز في حيز أما من الخبر كان واقعاً لا محالة وما مفيد ذلك ومثيرة إلا ترتب الحكم على معنى الشرط ، والضمير في أنه سائد على المثل ، وقيل هو عائذ على المصدر المفهوم من يضرب كأنه قال فيعلمون أن ضرب المثل ، وقيل هو عائذ على المصدر المفهوم من لا يستحي : أي فيعلمون أن انتفاء الاستحياء من ذكر الحق ، والأظهر الأول لدلالة قوله تعالى (ماذا أراد الله بهذا مثلاً) فميز الله تعالى المشار إليه هنا بالمثل والتقسيم ورد على شيء واحد ، فظهر أنه عائذ على المثل ، وأخبر عن المؤمنين بالعلم لأنه الجزم المطابق

لدليل ، وأخبر عن الكافرين بالقول ، وهو اللفظ الجاري على اللسان وجعل متعلقة الجملة الاستفهامية الشاملة للاستغراق والاستبعاد والاستهزاء ، وهي قوله (ماذا أراد الله) .

وقد تقدم الكلام على أقسام ماذا ، وهي هنا تحتل وجهين من تلك الأقسام :

أحدهما : أن تكون ما استفهاماً في موضع رفع بالابتداء ، وذا بمعنى الذي خبر عن ما ، (وأراد) صلة لذا الموصولة ، والعائد محذوف إذ فيه شروط جواز الحذف والتقدير ما الذي أراده الله .

والثاني : أن تكون ماذا كلها استفهاماً ، وتركيب ذا مع ما وتكون مفعولاً بأراد ، التقدير : أي شيء أراده الله ، وهذا الوجهان فصيحان ، قال ابن عطية واختلف النحويون في ماذا فقيلاً : هي بمنزلة اسم واحد بمعنى : أي شيء أراد الله ، وقيل « ما » اسم و « ذا » اسم آخر بمعنى الذي ، فما في موضع رفع بالابتداء ، وذا خبره انتهى كلام « ابن عطية » . وظاهره اختلاف النحويين في ماذا هنا وليس كذلك إذ هما وجهان سائغان فصيحان في لسان العرب ، وليست مسألة خلاف عند النحويين بل كل من شدا طرفاً من علم النحو يجوز هذين الوجهين في ماذا هنا ، وكذا كل من وقفنا على كلامه من المفسرين والمعرّبين ذكروا الوجهين في ماذا هنا ، والإرادة بالتفسير اللغوي وهي ميل القلب إلى الشيء يستحيل نسبتها إلى الله تعالى ، قال بعض المفسرين : الإرادة ماهية يجدها العاقل من نفسه ويدرك التفرقة البديهية بينها وبين علمه وقدرته ولذته وألمه ، وقال المتكلمون : إنها صفة تقتضي رجحان طرفي الجائز على الآخر في الإيقاع لا في الوقوع ، واحترز بهذا القيد الأخير من القدرة ، وأهل السنة يعتقدون أن الله يريد بإرادة واحدة أزلية موجودة بذاته ، والقدرية المعترلة والنجارية والجهمية وبعض الرافضة نفوا الصفات التي أثبتها أهل السنة ، والبهشية والبصريون من المعترلة يقولون بحدوث إرادة الله تعالى لا في محل والكرامية تقول بحدوثها فيه تعالى وأنها إرادات كثيرة ، وأكثرهم زعموا مع القول بالحدوث أنه يستحيل فيها العدم ، ومنهم من قال يجوز عدمها وهذه المسألة يبحث فيها في أصول الدين ، وانتصاب (مثلاً) على التمييز عند البصريين : أي من مثل ، وأجاز بعضهم نصبه على الحال من اسم الإشارة : أي متمثلاً به والعامل فيه اسم الإشارة ، وهو كقولك لمن حمل سلاحاً رديئاً : ماذا أردت بهذا سلاحاً ؟ فنصبه من وجهين التمييز والحال من اسم الإشارة ، وأجاز بعضهم أن يكون حالاً من الله تعالى : أي متمثلاً ، وأجاز الكوفيون أن يكون منصوباً على القطع ، ومعنى هذا أنه كان يجوز أن يعرب بإعراب الاسم الذي قبله فإذا لم تتبعه في الإعراب وقطعته عنه نصب على القطع وجعلوا من ذلك ، وعالين قنواناً من البسر أحمر^(١) ، فأحمر عندهم من صفات البسر إلا أنه لما قطعته عن إعرابه نصبته على القطع وكان أصله من البسر الأحمر ، كذلك قالوا ما أراد الله بهذا المثل فلما لم يجر على إعراب هذا انتصب مثلاً على القطع ، وإذا قلت « عبد الله في الحمام عرياناً » و « يجيء زيد ركباً » فهذا ونحوه منصوب على القطع عند الكسائي ، و فرق الفراء فزعم أن ما كان فيما قبله دليل عليه فهو المنصوب على القطع وما لا فمنصوب على الحال ، وهذا كله عند البصريين منصوب على الحال ، ولم يثبت البصريون النصب على القطع والاستدلال على بطلان ما ذهب إليه الكوفيون مذكور في مبسوطات النحو ، والمختار انتصاب مثل على التمييز ، وجاء على معنى التوكيد لأنه من حيث أشير إليه علم أنه مثل ، فجاء التمييز بعده مؤكداً للاسم الذي أشير إليه ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ جملتان مستأنفتان جاريتان مجرى البيان ، والتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بأما ، ووصف تعالى العالمين بأنه الحق ، والسائلين عنه سؤال استهزاء بالكثرة ، وإن كان قد قال تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾

(١) هذا صدر بيت من الطويل لامرئ القيس انظر ديوانه (٥٦) .

[سبأ : ٦٣] ، ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ [ص : ٢٤] ، فلا تنافي بينهما ، لأن الكثرة والقلة أمران نسيان ، فالمهتدون في أنفسهم كثير ، وإذا وصفوا بالقلة بالنسبة إلى أهل الضلال ، أو تكون الكثرة بالنسبة إلى الحقيقة ، والقلة بالنسبة إلى الأشخاص فسموا كثيراً ذهباً إلى الحقيقة كما قال الشاعر : -

إِنَّ الْكَرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلُوا وَإِنْ كَثُرُوا^(١)

واختار بعض المعربين والمفسرين أن يكون قوله تعالى (يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً) في موضع الصفة لمثل ، وكأن المعنى « ماذا أراد الله بهذا مثلاً يفرق به الناس إلى ضلال وإلى هداية » ، فعلى هذا يكون من كلام الذين كفروا ، وهذا الوجه ليس بظاهر لأن الذي ذكر أن الله لا يستحي منه هو ضرب مثل ما أي مثل كان بعوضة أو ما فوقها ، والذين كفروا إنما سألوا سؤال استهزاء وليسوا معترفين بأن هذا المثل يضل الله به كثيراً ويهدي به كثيراً ، إلا أن ضمن معنى الكلام إن ذلك على حسب اعتقادكم وزعمكم أيها المؤمنون فيمكن ذلك ، ولكن كونه إخباراً من الله تعالى هو الظاهر ، وإسناد الضلال إلى الله تعالى إسناد حقيقي ، كما أن إسناد الهداية كذلك فهو خالق الضلال والهداية ، وقد تؤول هنا الإضلال بالإضلال عن طريق الجنة ، والإضلال عن الدين في اللغة هو : الدعاء إلى تقبيح الدين وتركه وهو الإضلال المضاف إلى الشيطان والإضلال بهذا المعنى منتف عن الله بالإجماع ، والزمخشري^(٢) على طريقته الاعتزالية يقول إسناد الضلال إلى الله تعالى إسناد إلى السبب ، لأنه لما ضرب به المثل فضل به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم ، وقيل (يضل) بمعنى يعذب كقوله تعالى ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر : ٤٧] ، قاله بعض المعتزلة ، وردّ القفال هذا وقال بل المراد في الشاهد في ضلال عن الحق ، وجوز ابن عطية أن يكون قوله (يضلّ به كثيراً) من كلام الكفار ، ويكون قوله (ويهدي به كثيراً) إلى آخر الآية من كلام الله تعالى ، وهذا الذي جوزه ليس بظاهر لأنه إلباس في التركيب ، لأن الكلام إما أن يجرى على أنه من كلام الكفار أو يجرى على أنه من كلام الله ، وإما أن يجرى بعضه على أنه من كلام الكفار ، وبعضه من كلام الله تعالى من غير دليل على ذلك ، فإنه يكون إلباساً في التركيب وكتاب الله منزّه عنه ، وقرأ « زيد بن علي » (يضلّ به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضلّ به إلا الفاسقون) في الثلاثة على البناء للمفعول ، وقرأ « إبراهيم بن أبي عبلة » في الثلاثة على البناء للفاعل الظاهر مفتوح حرف المضارعة ، قال « عثمان بن سعيد الصيرفي » : هذه قراءة القدرية ، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ (يضلّ) بضم الياء في الأول (وما يضلّ به) بفتح الياء والفاسقون بالواو ، وكذا أيضاً في القراءتين السابقتين ، وهي قراءات متجهة لي أنها مخالفة للمصحف المجمع عليه ، والظاهر أن الضمير في به في الثلاثة عائد على المثل وهو على حذف المضاف : أي يضرب المثل ، وقيل الضمير في به من قوله يضلّ به : أي بالتكذيب في به من قوله (ويهدي به كثيراً) : أي بالتصديق ، ودلّ على ذلك قوة الكلام في قوله تعالى (فأما الذين آمنوا فاعلمون) ، (وأما الذين كفروا فيقولون) ومعنى ﴿ وما يضلّ به إلا الفاسقين ﴾ : أي وما يكون ذلك سبباً للضلالة إلا عند من خرج عن الحق ، وقال بعض أهل العلم : معنى يضلّ ويهدي : الزيادة في الضلال والهدى لا أن ضرب المثل سبب للضلالة والهدى ، فعلى هذا يكون التقدير : نزيد من لم يصدق به وكفر ضلالاً على ضلالة ، ومن آمن به وصدق إيماناً على إيمانه ، و (الفاسقين) مفعول يضلّ ، لأنه استثناء

(١) انظر الكشف (١١٨/١) ، القل - بالفتح : القليل وهو المراد بالضم بمعنى القلة ويستعمل بمعنى القليل أيضاً وبالكسر : الارتعاد غضباً يقول : إن الكرام في الدنيا كثير لكثرة خيرهم لأن الكريم يقاوم ألف لئيم ، والحال أنهم قليل في العدد كما أن غيرهم . يعني اللئام - قليل في الخير وإن كثروا في العدد فوجه الشبه اجتماع الكثرة والقلة في كل على التوزيع .

(٢) انظر الكشف (١١٨/١) .

مفرغ ، ومنع أبو البقاء أن يكون منصوباً على الاستثناء ويكون مفعول يضل محذوفاً تقديره « وما يضل به أحداً إلا الفاسقين » ، وليس بممتنع وذلك أن الاسم بعد إلا ، إما أن يفرغ له العامل فيكون على حسب العامل نحو « ما قام إلا زيد » و « ما ضربت إلا زيدا » و « ما مررت إلا بزيد » إذا جعلت زيدا ويزيد معمولاً للعامل قبل إلا ، أولاً يفرغ وإذا لم يفرغ فيما أن يكون العامل طالباً مرفوعاً فلا يجوز إلا ذكره قبل إلا ، وإضماره إن كان مما يضمن ، أو منصوباً أو مجروراً فيجوز حذفه ، لأنه فضلة وإثباته ، فإن حذفته كان الاسم الذي بعد إلا منصوباً على الاستثناء ، فنقول « ما ضربت إلا زيدا » تريد : ما ضربت أحداً إلا زيدا « وما مررت إلا عمراً » تريد ما ضربت أحداً إلا زيدا وما مررت إلا عمراً قال الشاعر :-

نَجَا سَالِمٌ وَالنَّفْسُ مِنْهُ بِشِدْقِهِ وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا جَفَنَ سَيْفٍ وَمُزَرًّا^(١)

يريد ولم ينج بشيء إلا جفن سيف ، وإن أثبتته ولم يحذفه فله أحكام مذكورة ، فعلى هذا الذي قد قعده النحويون يجوز في الفاسقين أن يكون معمولاً ليضل ويكون من الاستثناء المفرغ ، ويجوز أن يكون منصوباً على الاستثناء ويكون معمول (يضل) قد حذف لفهم المعنى ، والفاسق : هو الخارج من طاعة الله تعالى ، فتارة يكون ذلك بكفر ، وتارة يكون بعضيان غير الكفر ، قال الزمخشري^(٢) الفاسق في الشريعة : الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ، وهو النازل بين المنزلتين : أي بين منزلة المؤمن والكافر ، وقالوا إن أول من حذله هذا الحد أبو حذيفة واصل بن عطاء^(٣) رضي الله عنه وعن أشياعه ، وكونه بين بين : أي حكمه حكم المؤمن في أنه يناكح ، ويوارث ، ويغسل ، ويصلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، وهو كالكافر في الدم واللعن والبراء منه واعتقاد عداوته وأن لا تقبل شهادته ، ومذهب مالك بن أنس والزيدية أن الصلاة لا تجزي خلفه ، ويقال للخلفاء المردة من الكفار الفسقة ، وقد جاء الاستعمالان في كتاب الله تعالى ﴿ بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ [الحجرات : ١١] ، يريد اللزم والتنازع ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [التوبة : ٦٧] ، انتهى كلام الزمخشري ، وهو جار على مذهبه الاعتزالي ، والذي عليه سلف هذه الأمة أن من كان مؤمناً وفسق بمعصية دون الكفر ، فإنه فاسق بنفسه مؤمن بإيمانه ، وأنه لم يخرج بفسقه عن الإيمان ولا بلغ حد الكفر ، وذهبت الخوارج إلى أن من عصى وأذنب ذنباً فقد كفر بعد إيمانه ، ومنهم من قال من أذنب بعد الإيمان فقد أشرك ، ومنهم من قال : كل معصية نفاق وإن حكم القاضي بعد التصديق أنه منافق ، وذهبت المعتزلة إلى ما ذكره الزمخشري : وذكر أن لأصل هذه المسألة سموا معتزلة فإنهم اعتزلوا قول الأمة فيها فإن الأمة كانوا على قولين ، فأحدثوا قولاً ثالثاً فسموا معتزلة لذلك وهذه المسألة مقررة في أصول الدين ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ يحتمل النصب والرفع ، فالنصب من وجهين إما على الإتياع ، وإما على القطع : أي أذم الذين ، والرفع من وجهين إما على القطع : أي هم الذين ، وإما على الابتداء ويكون الخبر الجملة من قوله (أولئك هم الخاسرون) وعلى هذا الإعراب تكون هذه الجملة كأنها كلام مستأنف لا تعلق لها بما قبلها إلا على بعد ، فالأولى من هذا الإعراب الأغريب التي ذكرناها وأولاهها الإتياع ، وتكون هذه الصفة صفة ذم ، وهي لازمة إذ كل فاسق ينقض العهد ويقطع ما أمر الله بوصله .

واختلفوا في تفسير العهد على أقوال :

(١) البيت من الطويل لحذيفة بن أنس - انظر المقرب (٣٥) ، مجالس ثعلب (٤٢٤) ، لسان العرب (جفن) .

(٢) انظر الكشف (١١٩ / ١) .

(٣) واصل بن عطاء الغزالي أبو حذيفة من موالى بني ضبة أوبني مخزوم رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء والمتكلمين توفي سنة ١٣١ هجرية -

انظر وفيات الأعيان (١٧٠ / ٢) ، النجوم الزاهرة (٣١٣ / ١) ، الأعلام (١٠٨ / ٨) .

أحدها : أنه وصية الله إلى خلقه وأمره لهم بطاعته ، ونهيه لهم عن معصيته في كتبه المنزلة وعلى السنة أنبيائه المرسله ، ونقضهم له تركهم العمل به .

الثاني : أنه العهد الذي أخذه الله عليهم حين أخرجهم من أصلاب آبائهم في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، ونقضهم له كفر بعضهم بربوبيته وبعضهم بحقوق نعمته .

الثالث : ما أخذه الله عليهم في الكتب المنزلة من الإقرار بتوحيده والاعتراف بنعمه والتصديق لأنبيائه ورسله وبما جاؤوا به في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، ونقضهم له نبذه وراء ظهورهم ، وتبديل ما في كتبهم من وصفه ﷺ .

الرابع : ما أخذه الله تعالى على الأنبياء ومتبعيهم أن لا يكفروا بالله ولا بالنبي ﷺ وأن ينصروه ويعظموه في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ ﴾ [آل عمران] ، ونقضهم له إنكارهم لنبوته وتغييرهم لصفته .

الخامس : إيمانهم به ﷺ ورسالته قبل بعثه ، ونقضهم له جحدهم لنبوته ولصفته .

السادس : ما جعله في عقولهم من الحجة على توحيده وتصديق رسوله بالنظر في المعجزات الدالة على إعجاز القرآن وصدقه ونبوة محمد ﷺ ، ونقضهم هو تركهم النظر في ذلك وتقليدهم لأبائهم .

السابع : الأمانة المعروضة على السموات والأرض التي حملها الإنسان ، ونقضهم تركهم القيام بحقوقها .

الثامن : ما أخذه عليهم من أن يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ، ونقضهم عودهم إلى ما نهوا عنه وهذا القول يدل على أن المخاطب بذلك بنو إسرائيل .

التاسع : هو الإيمان والتزام الشرائع ، ونقضه كفره بعد الإيمان ، وهذه الأقوال التسعة منها ما يدل على العموم في كل ناقض للعهد ومنها ما يدل على أن المخاطب قوم مخصوصون ، وهذا الاختلاف مبني على الاختلاف الذي وقع في سبب النزول ، والعموم هو الظاهر ، فكل من نقض عهد الله من مسلم وكافر ومنافق أو مشرك أو كتابي تناوله هذا الذم ، و (من) متعلقة بقوله ينقضون وهي لا ابتداء الغاية ، ويدل على أن النقض حصل عقيب توثق العهد من غير فصل بينهما ، وفي ذلك دليل على عدم اكترائهم بالعهد فأثر ما استوثق الله منهم نقضوه ، وقيل : من زائدة وهو بعيد و (الميثاق) مفعول من الوثاقة ، وهو الشد في العقد وقد ذكرنا أنه العهد المؤكد باليمين ، وليس المعنى هنا على ذلك وإنما كنى به عن الالتزام والقبول قال أبو محمد بن عطية هو اسم في موضع المصدر كما قال عمرو بن شبيب : -

أَكْفَرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِائَةَ الرَّتَاعَا^(١)

أراد بعد إعطائك ، انتهى كلامه . ولا يتعين ما ذكر بل قد أجاز الزمخشري^(٢) أن يكون بعد التوثقة كما أن الميعاد بمعنى الوعد والميلاد بمعنى الولادة ، وظاهر كلام الزمخشري^(٣) أن يكون مصدراً ، والأصل في مفعول أن يكون وصفاً

(١) البيت من الوافر للقطامي انظر الخصائص (٢/٢٢١) ، أمالي ابن الشجري (٢/٤٢) ، شرح المفصل (١/٢٠) ، شرح الشواهد للعيني (٣/٥٠٥) ، التصريح على التوضيح (٢/٦٤) ، مع الهوامع (١/١٨٨) ، الدرر اللوامع (١/١٦١) ، ديوانه (٤١) ، مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢/٩-٧٨) .

(٢) انظر الكشاف (١/١٢٠) .

(٣) انظر الكشاف (١/١٢٠) .

نحو مَطْعَامٍ وَمِسْقَامٍ ومَذْكَارٍ ، وقد طالعت كلام أبي العباس بن الحاج^(١) وكلام أبي عبد الله بن مالك وهما من أوعب الناس لأبنية المصادر فلم يذكرهما مفعلاً في أبنية المصادر ، والضمير في ميثاقه عائد على العهد لأنه المحدث عنه ، وأجيز أن يكون عائداً على الله تعالى : أي من توثيقه عليهم أو من بعد ما وثق به عهده على اختلاف التأويلين في الميثاق ، قال أبو البقاء إن أعدت الهاء على اسم الله كان المصدر مضافاً إلى الفاعل ، وإن أعدتها إلى العهد كان مضافاً إلى المفعول ، وهذا يدل على أن الميثاق عنده مصدر ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ وما موصولة بمعنى الذي وفيه خمسة أقوال :

أحدها : أنه رسول الله ﷺ قطعوه بالكذب والعصيان^(٢) ، قاله الحسن ، وفيه ضعف إذ لو كان كما قال لكان من مكان ما .

الثاني : القول أمر الله أن يوصل بالعمل ، فقطعوا بينهما قالوا ولم يعملوا ، يشير إلى أنها نزلت في المنافقين يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم .

الثالث : التصديق بالأنبياء أمروا بوصله ، فقطعوه بتكذيب بعض وتصديق بعض .

الرابع : الرحم والقراية^(٣) قاله قتادة ، وهذا يدل على أنه أراد كفار قريش ومن أشبههم .

الخامس : أنه على العموم في كل ما أمر الله به أن يوصل وهذا هو الأوجه ، لأن فيه حمل اللفظ على مدلوله من العموم ، ولا دليل واضح على الخصوص ، وأجاز أبو البقاء أن تكون ما نكرة موصوفة ، وقد بينا ضعف القول بأن ما تكون موصوفة خصوصاً هنا ، إذ يصير المعنى ويقطعون شيئاً أمر الله به أن يوصل فهو مطلق ولا يقع الذم البليغ والحكم بالفسق والخسران بفعل مطلق ما ، والأمر هو استدعاء الأعلى الفعل من الأدنى قال « الزمخشري »^(٤) وبعثه عليه ، وهي نكتة اعتزالية لطيفة قال وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور ، لأن الداعي الذي يدعو إليه من لا يتولاه شبه بأمر يأمره به فقليل له أمر تسمية للمفعول به بالمصدر أنه مأمور به كما قيل له شأن ، والشأن : الطلب والقصد يقال شأنت شأنه : أي قصدت قصده ، وأمر يتعدى إلى اثنين والأول محذوف لفهم المعنى : أي ما أمر الله به ، وأن يوصل في موضع جر بدل من الضمير في به تقديره به وصله : أي ما أمرهم الله بوصله نحو قول الشاعر : -

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى أَنْ نَأْتِكَ تَنْوُصُ فَتَقْصُرَ عَنْهَا حِقْبَةً وَتَبْوُصُ^(٥)

أي أمن ذكر سلمى نأيتها ، وأجاز المهدوي وابن عطية وأبو البقاء أن تكون أن يوصل في موضع نصب بدلاً من

(١) أحمد بن محمد بن أحمد الأزدي أبو العباس الإشبيلي يعرف بابن الحاج مات سنة سبع وأربعين وستمائة - البغية (١/٣٥٩ - ٣٦٠) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١/٤١٦) ، بلا نسبة .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١/٤٢) ، وعزاه لعبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة وهو عند ابن جرير (١/٤١٦) ، (٥٧٤) .

(٤) انظر الكشف (١/١٢٠) .

(٥) البيت لامرئ القيس ص ٩١ ، وروايته في الديوان :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى إِذْ نَأْتِكَ تَنْوُصُ فَتَقْصُرَ عَنْهَا خُطُوَةً وَتَبْوُصُ
نَأْتِكَ : بعدت عنك وهجرت تنوص : تذهب متباعدًا وتنوص : تعجل . انظر لسان العرب (بوص) .

ما : أي وصله والتقدير ويقطعون وصل ما أمر الله به ، وأجاز المهدوي وابن عطية أن تكون في موضع نصب مفعولاً من أجله ، وقدره المهدوي كراهية أن يوصل ، فيكون الحامل على القطع لما أمر الله كراهية أن يوصل ، وحكى أبو البقاء وجه المفعول من أجله وقدره لثلاً ، وأجاز أبو البقاء أن يكون أن يوصل في موضع رفع : أي هو أن يوصل ، وهذه الأعراب كلها ضعيفة ولولا شهرة قائلها لضربت عن ذكرها صفحاً ، والأول الذي اخترناه هو الذي ينبغي أن يحمل عليه كلام الله ، وسواء من الأعراب بعيد عن فصيح الكلام بله أفصح الكلام وهو كلام الله ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها : استدعائهم إلى الكفر والترغيب فيه وحمل الناس عليه .

الثاني : إخافتهم السبيل وقطعهم الطريق على من هاجر إلى النبي ﷺ وغيرهم .

الثالث : نقض العهد .

الرابع : كل معصية تعدى ضررها إلى غير فاعلها .

وقال ابن عطية يعبدون غير الله ويجوزون في الأفعال إذ هي بحسب شهواتهم ، وهذا قريب من القول الرابع ، وقد تقدّم ما معنى في الأرض والتنبيه على ذكر الأرض عند الكلام على قوله (وإذ قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) فأغنى عن إعادته هنا ، وقد تضمنت هذه الآية الكبيرة نوعاً من البديع يسميه أرباب البيان بالطباق^(١) ، وقد تقدّم شيء منه ، وهو أن تأتي بالشيء وضده ووقع هنا في قوله تعالى (بعوضة فما فوقها) ، فإنهما دليان على الحقير والكبير وفي قوله (فأما الذين آمنوا) و (أما الذين كفروا) وفي قوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) وفي قوله (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) وفي قوله (يقطعون ما أمر الله به أن يوصل) وجاء في هذه الثلاثة الأخيرة مناسبة الطباق ، وهو أن كل أول منها كائن بعد مقابلة ، فالضلال بعد الهداية لقوله : « كل مولود يولد على الفطرة » ، ولدخول أولاد الذين كفروا الجنة إذا ماتوا قبل البلوغ ، والنقض بعد التوثقة ، والقطع بعد الوصل ، فهذه ثلاثة تناسبت في الطباق ، وفي وصل الذين بالمضارع وعطف المضارعين عليه دليل على تجدد النقض والقطع والإفساد ، وإشعار أيضاً بالديمومة وهو أبلغ في الذم ، وبناء يوصل للمفعول هو أبلغ من بنائه للفاعل ، لأنه يشمل ما أمر الله بأن يصلوه أو يصله غيرهم ، وترتيب هذه الصلوات في غاية من الحسن لأنه قد بدأ أولاً بنقض العهد وهو أخص هذه الثلاث ، ثم ثنى بقطع ما أمر الله بوصله وهو أعم من نقض العهد وغيره ، ثم أتى ثالثاً بالإفساد الذي هو أعم من القطع وكلها ثمرات الفسق ، وأتى باسم الفاعل صلة للألف واللام ليدل على ثبوتهم في هذه الصفة ، فيكون وصف الفسق لهم ثابتاً ، وتكون النتائج عنه متجددة متكررة ، فيكون الذم لهم أبلغ لجمعهم بين ثبوت الأصل وتجدد فروعه ونتائجه ، ولما ذكر أوصاف الفاسقين أشار إليهم بقوله ﴿ أولئك ﴾ أي أولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة من النقض والقطع والإفساد ﴿ هم الخاسرون ﴾ وفسر الخاسرون بالناقضين حظوظهم وشرفهم وبالهالكين ، وسبب خسرانهم استبدلهم النقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والإفساد بالإصلاح ، وعقابها بالثواب ، وقيل : الخاسرون المغبونون بفوت المثوبة ولزوم العقوبة ، وقيل خسروا نعيم الآخرة ، وقيل خسروا حسناتهم التي عملوها أحبطوها بكفرهم ، والآية في اليهود ولهم أعمال في شريعتهم ، وفي المنافقين وهم يعملون في الظاهر عمل المخلصين ، قال القفال : الخاسر اسم عام يقع على كل من عمل عملاً يجزى

(١) ويسمى التطبيق والمطابقة والتكافؤ والتضاد أيضاً وهي الجمع بين معنيين متضادين أي : متقابلين في الجملة ، أي : يكون بينهما تقابل تنافٍ ولو في بعض الصور ويكون ذلك الجمع بلفظين إما من نوع واحد من أنواع الكلمة اسمين أو فعلين أو حرفين .

عليه ﴿ كيف ﴾ قد تقدم أنه اسم استفهام عن حال ، وصحبه معنى التقرير والتوبيخ ، فخرج عن حقيقة الاستفهام ، وقيل صحبه الإنكار والتعجب أي : إن من كان بهذه المثابة من القدرة الباهرة والتصرف التام والمرجع إليه آخر فيثيب ويعاقب لا يليق أن يكفر به ، والإنكار بالهمزة إنكار لذات الفعل ، وبكيف إنكار لحاله ، وإنكار حاله إنكار لذاته ، لأن ذاته لا تخلو من حال يقع فيها فاستلزم إنكار الحال إنكار الذات ضرورة ، وهو أبلغ إذ يصير ذلك من باب الكناية حيث قصد إنكار الحال ، والمقصود إنكار وقوع ذات الكفر ، قال الزمخشري^(١) وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها ، وقد علم أن كل موجود لا ينفك من حال وصفة عند وجوده ، ومحال أن يوجد تغير صفة من الصفات كان إنكاراً لوجوده على الطريق البرهاني انتهى كلامه . وهذا الخطاب فيه التفات لأن الكلام قبل كان بصورة الغيبة ، ألا ترى إلى قوله (وأما الذين كفروا) إلى آخره ، وفائدة هذا الالتفات أن الإنكار إذا توجه إلى المخاطب كان أبلغ من توجهه إلى الغائب لجواز أن لا يصله الإنكار بخلاف من كان مخاطباً فإن الإنكار عليه أرفع له عن أن يقع فيما أنكر عليه ، والناصب لكيف ﴿ تكفرون ﴾ وأتى بصيغة تكفرون مضارعاً ولم يأت به ماضياً ، وإن كان الكفر قد وقع منهم ؟ لأن الذي أنكر أو تعجب منه الدوام على ذلك والمضارع هو المشعر به ، ولثلا يكون ذلك توبيخاً لمن وقع منه الكفر ثم آمن إذ لو جاء كيف كفرتكم ﴿ بالله ﴾ لاندرج في ذلك من كفرتكم آمن كأكثر الصحابة رضي الله عنهم والواو في قوله ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ واو الحال نحو قوله تعالى ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة ﴾ [يوسف : ٤٥] ، ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل ﴾ [هود : ٤٢] ، قال الزمخشري^(٢) : فإن قلت فكيف صح أن يكون حالاً وهو ماض ولا يقال « جئت وقام الأمير » ، ولكن « وقد قام » إلا أن يضمّر قد ، قلت : لم تدخل الواو على كنتم أمواتاً وحده ، ولكن على جملة قوله كنتم أمواتاً إلى ترجعون ، كأنه قيل كيف تكفرون بالله وقصصكم هذه وحالكم ، أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ﴿ ثم يميتكم ﴾ بعد هذه الحياة ﴿ ثم يحييكم ﴾ بعد الموت ثم يحاسبكم انتهى كلامه . ونحن نقول إنه على إضمار قد كما ذهب إليه أكثر الناس : أي وقد كنتم أمواتاً فأحياكم ، والجملة الحالية عندنا فعلية . وأما أن نتكلف ونجعل تلك الجملة اسمية حتى نفر من إضمار قد فلا نذهب إلى ذلك ، وإنما حمل الزمخشري على ذلك اعتقاده أن جميع الجمل مندرجة في الحال ولذلك قال ، (فإن قلت) بعض القصة ماض وبعضها مستقبل ، والماضي والمستقبل كلاهما لا يصح أن يقع حالاً حتى يكون فعلاً حاضراً وقت وجود ما هو حال عنه فما الحاضر الذي وقع حالاً ، (قلت) هو العلم بالقصة ، كأنه قيل : « كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه القصة وبأولها وبآخرها » انتهى كلامه . ولا يتعين أن تكون جميع الجمل مندرجة في الحال ، إذ يحتمل أن يكون الحال قوله « وكنتم أمواتاً فأحياكم » ، ويكون المعنى « كيف تكفرون بالله وقد خلقكم » ، فعبّر عن الخلق بقوله تعالى « وكنتم أمواتاً فأحياكم » ، ونظيره قوله ﷺ : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك »^(٣) : أي إن من أوجدك بعد العدم الصرف حرّى أن لا تكفر به ، لأنه لا نعمة أعظم من نعمة الاختراع ثم نعمة الاصطناع ، وقد شمل النعمتين قوله تعالى (وكنتم أمواتاً فأحياكم) لأن بالإحياء حصلنا ، ألا ترى أنها تضمنت الجملة الإيجاد والإحسان إليك بالتربية والنعم إلى زمان أن توجه عليك إنكار الكفر ، ولما كان مركزاً في الطباع ومخلوقاً في العقول أن لا خالق إلا الله ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، كانت حالاً تقتضي أن لا تجامع الكفر ، فلا يحتاج إلى تكلف أن الحال هو العلم بهذه الجملة ، وعلى هذا الذي شرحناه يكون قوله تعالى (ثم يميتكم ثم يحييكم) ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ جملاً أخبر الله

(١) انظر الكشف (١/١٢١) .

(٢) انظر الكشف (١/١٣١) .

(٣) البخاري (١٨٧/١٢) ، الدييات (٦٨٦١) ، ومسلم الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب (١٤٢ - ٨٦) .

تعالى بها مستأنفة لا داخله تحت الحال ، ولذلك غاير فيها بحرف العطف وبصيغة الفعل عما قبلها من الحرف والصيغة ، ومن جعل العلم بمضمون هذه الجمل هو الحال جعل تمكنهم من العلم بالإحياء الثاني ، والرجوع لما نصب على ذلك من الدلائل التي توصل إليه بمنزلة حصول العلم فحصوله بالإماتتين والإحياء الأول ، وكثير من الناس علموا ثم عاندوا ، وفي ترتيب هاتين الموتتين والحياتين اللاتي ذكر الله تعالى وامتن عليهم بها أقوال :

الأول : أن الموت الأول العدم السابق قبل الخلق ، والإحياء الأول الخلق ، والموت الثاني المعهود في دار الدنيا ، والحياة الثانية البعث للقيامة^(١) قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد .

الثاني : أن الموت الأول المعهود في الدنيا ، والإحياء الأول هو في القبر للمسألة ، والموت الثاني في القبر بعد المسألة ، والإحياء الثاني البعث^(٢) قاله ابن عباس وأبو صالح .

الثالث : أن الموت الأول كونهم في أصلاب آبائهم ، والإحياء الأول الإخراج من بطون الأمهات ، والموت الثاني المعهود والإحياء الثاني البعث^(٣) قاله قتادة .

الرابع : أن الموت الأول هو الذي اعتقب إخراجهم من صلب آدم نسماً كالذر ، والإحياء الأول إخراجهم من بطون أمهاتهم ، والموت الثاني المعهود والإحياء البعث^(٤) قاله ابن زيد .

الخامس : أن الموت الأول مفارقة نطفة الرجل إلى الرحم فهي ميتة إلى نفخ الروح فيحييها بالنفخ ، والموت الثاني المعهود ، والإحياء الثاني البعث .

السادس : أن الموت الأول هو الخمول ، والإحياء الأول الذكر والشرف بهذا الدين والنبى الذي جاءكم ، والموت الثاني المعهود ، والإحياء الثاني البعث قاله ابن عباس .

السابع : أن الموت الأول كون آدم من طين ، والإحياء الأول نفخ الروح فيه فحييتم بحياته ، والموت الثاني المعهود والإحياء الثاني البعث .

واختار ابن عطية القول الأول وقال : هو أولى الأقوال ، لأنه لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه ، ثم إن قوله (وكنتم أمواتاً) وإسناده آخر الإمامة إليه مما يقوي ذلك القول ، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليهم انتهى كلامه . وهو كلام حسن .

وللمنسوبين إلى علم الحقائق أقوال تخالف ما تقدم :

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٢/١) ، وعزاه لابن جرير وهو عند ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود (٤١٨/١) - (٥٧٦) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٢/١) ، وعزاه لوكيع وابن جرير عن أبي صالح وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤١٩/١) ، (٥٨٤) ، عن أبي صالح فقط .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٢/١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤١٩/١) - (٤٢٠) ، (٥٨٥) .

(٤) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤٢٠/١) ، (٥٨٦) عن ابن زيد .

أحدها : أمواتاً بالشرك فأحياكم بالتوحيد .

الثاني : أمواتاً بالجهل فأحياكم بالعلم .

الثالث : أمواتاً بالاختلاف فأحياكم بالائتلاف .

الرابع : أمواتاً بحياة نفوسكم وإماتتكم بإماتة نفوسكم وإحياء قلوبكم .

الخامس : أمواتاً عنه فأحياكم به قاله الشبلي .

السادس : أمواتاً بالظواهر فأحياكم بمكاشفة السرائر قاله ابن عطاء .

السابع : أمواتاً بشهودكم فأحياكم بمشاهدته ، ثم يميّتكم عن شواهدكم ، ثم يحييكم بقيام الحق عنه ، ثم إليهم ترجعون عن جميع ما لكم «قاله ابن فارس» (واختار الرمخشري)^(١) أن الموت الأول كونهم نطفاً في أصلاب آبائهم فجعلهم أحياء ، ثم يميّتهم بعد هذه الحياة ، ثم يحييهم بعد الموت ، ثم يحاسبهم ، وجوز أيضاً أن يكون المراد بالاحياء الثاني الإحياء في القبر وبالرجوع النشور ، وأن يراد بالإحياء الثاني أيضاً النشور ، وبالرجوع المصير إلى الجزاء ، وهذا الذي جوز أن يراد به الإحياء في القبر لا يفهم منه أنه يحيا للمسألة في القبر ولا لأن ينعم فيه أو يعذب ، لأنه ليس مذهبه لأن المعتزلة وأتباعهم أنكروا عذاب القبر ، وأهل السنة والكرامية أثبتوه بلا خلاف بينهم إلا أن أهل السنة يقولون : يحيا الميت الكافر فيعذب في قبره والفساق يجوز أن يعذب في قبره ، والكرامية تقول : يعذب وهو ميت ، والأحاديث الصحيحة قد استفاضت بعذاب القبر ، فوجب القول به واعتقاده (واختار) صاحب «المنتخب» أن المراد بقوله أمواتاً : أي تراباً ونطفاً ، لأن ابتداء خلق آدم من التراب ، وخلق سائر المكلفين من أولاده إلا عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام من النطف ، قال : واختلفوا فالأكثر على أن إطلاق اسم الميت على الجماد مجاز ، لأن الميت من يحله الموت ولا بد أن يكون بصفة من يجوز أن يكون حياً في العادة ، والقول بأنه حقيقة في الجماد مروى عن قتادة انتهى كلامه . وتفسيره الأموات بالتراب والنطف لا يظهر ذلك في التراب ، لأن المخلوق من التراب لم يتصف بالصفة التي أنكرت أو تعجب منها وقتاً قط ، فكيف يندرج في قوله (وكنتم أمواتاً) .

والذي نختاره أن كونهم أمواتاً هو من وقت استقرارهم نطفاً في الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها ، وإن الحياة الأولى نفخ الروح بعد تلك الأطوار من النطفة والعلقة والمضغة واكتساء العظام لحماً ، والإماتة الثانية هي المعهودة ، والإحياء هو البعث بعد الموت ، ويكون الإحياء الأول والموت الأول والإحياء الثاني حقيقة ، وأما كونهم أمواتاً فمن ذهب إلى أن الجماد يوصف بالموت حقيقة ، فيكون إذ ذاك حقيقة ، ومن ذهب إلى المجاز فهو مجاز سائغ قريب لأنه على كل حال موجود فقرب اتصافه بالموت ، بخلاف من زعم أنه أريد به كونه معدوماً وكونه في الصلب أو حين كان آدم طيناً ، فإن المجاز في ذلك بعيد لأن ذلك عدم صرف والعدم الذي لم يسبقه وجود يبعد فيه أن يسمى موتاً ، ألا ترى ما أطلق عليه في اللغة لفظ الموت مما لا تحله الحياة كيف يكون موجود إلا عدماً صرفاً (وآية لهم الأرض الميتة) (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحيها لمحيي الموتى) (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وتقول العرب أرض موات ، وأما قول من ذهب إلى أن الموت الأول هو الخمول ، والإحياء الأول هو التنويه والذكر ، فمجاز بعيد هنا لأنه متى أمكن الحمل على الحقيقة أو المجاز القريب كان أولى ، وقد أمكن ذلك بما ذكرناه ، ثم أكثر تلك الأقاويل يبعد

فيها التعقيب بالفاء في قوله (فأحياكم) لأن بين ذاك الموت والإحياء مدة طويلة ، وعلى ما اخترناه تكون الفاء دالة على معناها من التعقيب ، ومن قال إن الموت الأول هو المعهود ، والإحياء الأول هو للمسألة فيكون فيه الماضي قد وضع موضع المستقبل مجازاً لتحقيق وقوعه : أي وتكونون أمواتاً فيحييكم كقوله ﴿ أتى أمر الله ﴾ وقد استدل بهذه الآية قوم على نفي عذاب القبر ، لأنه ذكر تعالى موتتين وحياتين ، ولم يذكر حياة بين إحيائهم في الدنيا وإحيائهم في الآخرة ، قالوا : ولا يجوز أن يستدل بقوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) لأنه من كلام الكفار ، ولأن كثيراً من الناس أثبتوا حياة الذر في صلب آدم ، والجواب أنه لا يلزم من عدم ذكر هذه الحياة للمسألة عدمها قبل وأيضاً : فيمكن أن يكون قوله (ثم يحييكم) هو للمسألة ولذلك قال (ثم إليه ترجعون) ، فعطف بـثم التي تقتضي التراخي في الزمان ، والرجوع إلى الله تعالى حاصل عقب الحياة التي للبعث ، فدل ذلك على أن تلك الحياة المذكورة هي للمسألة ، قال الحسن ذكر الموت مرتين هذا الأكثر الناس ، وأما بعضهم فقد أماتهم ثلاث مرات (أو كالذي مر على قرية) (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) (فخذ أربعة من الطير) الآيات ، وفي قوله تعالى (فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) دليل على اختصاصه تعالى بذلك ودليل على النشور والحشر ، والظاهر في قوله تعالى (ثم إليه ترجعون) أن الهاء عائدة على الله سبحانه وتعالى لأن الضمائر السابقة عائدة عليه تعالى ، ويكون ذلك على حذف مضاف : أي إلى جزائه من ثواب أو عقاب ، وقيل عائدة على الجزاء على الأعمال ، وقيل عائدة على الموضع الذي يتولى الله الحكم بينكم فيه ، وقيل عائدة على الإحياء المدلول عليه بقوله فأحياكم (وشرح) هذا أنكم ترجعون بعد الحياة الثانية إلى الحال التي كنتم عليها في ابتداء الحياة الأولى ، من كونكم لا تملكون لأنفسكم شيئاً ، واستدلت المجسمة بقوله (ثم إليه ترجعون) على أنه تعالى في مكان ولا حجة لهم في ذلك ، وقرأ الجمهور (تُرْجَعُونَ) مبنياً للمفعول من رجع المتعدي ، وقرأ مجاهد ويحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق وابن محيصن والفياض بن غزوان^(١) وسلام^(٢) ويعقوب مبنياً للفاعل ، حيث وقع في القرآن من رجع اللازم لأن رجع يكون لازماً ومتعدياً ، وقرأ الجمهور أفصح لأن الإسناد في الأفعال السابقة هو إلى الله تعالى فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، فكان سياق هذا الإسناد أن يكون الفعل في الرجوع مسنداً إليه ، لكنه كان يفوت تناسب الفواصل والمقاطع إذ كان يكون الترتيب ثم إليه مرجعكم ، فحذف الفاعل للعلم به ، وبنى الفعل للمفعول حتى لا يفوت التناسب اللفظي ، وقد حصل التناسب المعنوي بحذف الفاعل إذ هو قبل البناء للمفعول مبني للفاعل ، وأما قراءة مجاهد ومن ذكر معه فإنه يفوت التناسب المعنوي ، إذ لا يلزم من رجوع الشخص إلى شيء أن غيره رجعه إليه ، إذ قد يرجع بنفسه من غير راد ، والمقصود هنا إظهار القدرة والتصرف التام بنسبة الإحياء والإماتة والإحياء والرجوع إليه تعالى ، وإن كنا نعلم أن الله تعالى هو فاعل الأشياء جميعها ، وفي قوله تعالى (ثم إليه ترجعون) من الترهيب والترغيب ما يزيد المسيء خشية ويرده عن بعض ما يرتكبه ويزيد المحسن رغبة في الخير ويدعوه رجاءه إلى الازدياد من الإحسان ، وفيها رد على الدهرية والمعتلة ومنكري البعث إذ هو بيده الإحياء والإماتة والبعث وإليه يرجع الأمر كله ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، وهو أنه لما ذكر أن من كان منشئاً لكم بعد العدم ومفنياً لكم بعد الوجود وموجداً لكم ثانية إما في جنة وإما إلى نار ، كان جديراً أن يعبد ولا يجحد ، ويشكر ولا يكفر ، ثم أخذ يذكرهم عظيم إحسانه وجزيل امتنانه من خلق جميع ما في الأرض لهم وعظيم قدرته وتصرفه في العالم العلوي ، وأن العالم العلوي والعالم السفلي بالنسبة إلى قدرته على السواء وأنه عليم بكل شيء ، ولفظة هو من

(١) فياض بن غزوان الضبي الكوفي مقرئ موثق ، قال الداني : ويروى عنه حروف شواذ من اختياره تضاف إليه غاية (١٣ / ٢) .

(٢) سلام بن سليمان الطويل أبو المنذر المزني مولا هم البصري ثم الكوفي ثقة جليل ومقرئ كبير توفي سنة إحدى وسبعين ومائة غاية النهاية

المضمرات وضع للمفرد المذكر الغائب ، وهو كلي في الوضع كسائر المضمرات جرى في النسبة المخصوصة حالة الاستعمال فما من مفرد مذكر غائب إلا ويصح أن يطلق عليه هو لكن إذا أسند لهذا الاسم شيء تعين ، ومشهور لغات العرب تخفيف الواو مفتوحة وشدتها همدان وسكنتها أسد وقيس ، وحذف الواو مختص بالشعر ، ولهؤلاء المنسوبين إلى علم الحقائق وإلى التصوف كلام غريب بالنسبة لمعقولنا رأيت أن أذكره هنا ليقع الذكر فيه ، قالوا أسماء الله تعالى على ثلاثة أقسام ، مظهرات ومضمرات ، ومستترات ، فالمظهرات أسماء ذات وأسماء صفات وهذه كلها مشتقة ، وأسماء الذات مشتقة وهي كثيرة ، وغير المشتق واحد وهو الله ، وقد قيل إنه مشتق ، والذي ينبغي اعتقاده أنه غير مشتق بل اسم مرتجل دال على الذات ، وأما المضمرات فأربعة أنا في مثل (الله لا إله إلا أنا) وأنت في مثل (لا إله إلا أنت سبحانك) وهو في مثل (هو الذي خلق لكم) ونحن في مثل (نحن نقص عليك) ، قالوا فإذا تقرر هذا فالله أعظم أسمائه المظهرات الدالة على الذات ، ولفظة هو من أعظم أسمائه المظهرات والمضمرات للدلالة على ذاته ، لأن أسمائه المشتقة كلها لفظها متضمن جواز الاشتراك لاجتماعها في الوصف الخاص ، ولا يمنع أن يكون أحد الوصفين حقيقة والآخر مجازاً من الاشتراك وهو اسم من أسماء الله تعالى ينبيء عن كنه حقيقته المخصوصة المبرأة عن جميع جهات الكثرة من حيث هو هو ، فلفظة هو توصلك إلى الحق وتقطعك عما سواه ، فإنك لا بد أن يشرك مع النظر في معرفة ما يدل عليه الاسم المشتق النظر في معرفة المعنى الذي يشتق منه ، وهذا الاسم لأجل دلالة على الذات ينقطع معه النظر إلى ما سواه اختار الجلة من المقربين مداراً لذكرهم ، ومناراً لكل أمرهم فقالوا يا هو لأن لفظة هو إشارة بعين المشار إليه بشرط أن لا يحضر هناك شيء سوى ذلك الواحد والمقربون لا يخطر في عقولهم وأرواحهم موجود آخر سوى الذي دلت عليه إشارته ، وهو اسم مركب من حرفين وهما الهاء والواو ، والهاء أصل والواو زائدة بدليل سقوطها في التثنية والجمع في هما وهم ، والأصل حرف واحد يدل على الواحد الفرد انتهى ما نقل عن بعض من عاصرناه في هو بالنسبة إلى الله تعالى مقررأ لما ذكره ومعتقداً لما خبره ، ولهم في لفظة أنا وأنت ، وهو كلام غريب جداً بعيد عما تكلم عليها به أهل اللغة والعربية ، وحديث هؤلاء المتتمين إلى هذه العلوم لم يفتح لي فيه بارقة ولا ألهمت فيه إلى الآن بغادية ولا طارقة ، نسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا بأنوار الهداية ، وأن يجنبنا مسالك الغواية ، وأن يلهمنا إلى طريق الصواب ، وأن يرزقنا اتباع الأمرين النيرين السنة والكتاب ، و (لكم) متعلق بخلق واللام فيه قيل للسبب : أي لأجلكم ولانتفاعكم ، وقدر بعضهم لا اعتباركم ، وقيل : للتمليك والإباحة فيكون التملك خاصاً وهو تملك ما ينتفع الخلق به وتدعو الضرورة إليه ، وقيل : للاختصاص وهو أعم من التملك والأحسن حملها على السبب فيكون مفعولاً من أجله لأنه بما في الأرض يحصل الانتفاع الديني والدنيوي ، فالديني النظر فيه وفيما فيه من عجائب الصنع ولطائف الخلق الدالة على قدرة الصانع وحكمته ومن التذكير بالآخرة والجزاء ، وأما الدنيوي فظاهر وهو ما فيه من المأكل والمشرب والملبس والمنكح والمركب والمناظر البهية وغير ذلك ، وقد استدل بقوله (خلق لكم) من ذهب إلى أن الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة فلكل أحد أن ينتفع بها ، وإذا احتمل أن يكون اللام لغير التملك والإباحة ، لم يكن في ذلك دليل على ما ذهبوا إليه ، وقد ذهب قوم إلى أن الأشياء قبل ورود الشرع على الحظر فلا يقدم على شيء إلا باذن ، وذهب قوم إلى أن الوقف لما تعارض عندهم دليل القائلين بالإباحة ودليل القائلين بالحظر قالوا بالوقف ، وحكى أبو بكر بن فورك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يخل العقل قط من السمع ، فلا نازلة إلا وفيها سمع أولها تعلق به أثر لها حال تستصحب ، وإذا جعلنا اللام للسبب فليس المعنى أن الله فعل شيئاً لسبب لكنه لما فعل ما لو فعله غيره لفعله لسبب أطلق عليه لفظ السبب ، واندرج تحت قوله (ما في الأرض جميعاً) جميع ما كانت الأرض مستقرأ له من الحيوان والنبات والمعدن والجبال ، وجميع ما كان بواسطة من الحرف والأمور المستنبطة ، واستدل بعضهم بذلك على تحريم

الطين قال لأنه خلق لنا ما في الأرض دون نفس الأرض ، وقد تقدم قبل هذا الامتنان بجعل الأرض لنا فراشاً ، وهنا امتن بخلق ما فيها لنا ، وانتصب جميعاً على الحال من المخلوق وهي حال مؤكدة ، لأن لفظة ما في الأرض عام ، ومعنى (جميعاً) العموم فهو مرادف من حيث المعنى للفظه كل ، كأنه قيل : « ما في الأرض كله » ، ولا تدل على الاجتماع في الزمان وهذا هو الفارق بين « معاً » و « جميعاً » ، وقد تقدم شيء من ذلك عند الكلام على مع ، ومن زعم أن المعنى بقوله « ما في الأرض » الأرض وما فيها ، فهو بعيد عن مدلول اللفظ لكنه تفسير معنى هذا اللفظ ومن قوله تعالى (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) فانتظم من هذين الأرض وما فيها خلق الله ذلك لنا ، وقال الزمخشري^(١) : إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء ، ويراد بها الجهات العلوية جاز ذلك ، فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية ، وقال بعض المنسويين للحقائق : خلق لكم ليعد نعمه عليكم فتقتضي الشكر من نفسك لتطلب المزيد منه ، وقال أبو عثمان : وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده وتسكن إلى ما ضمنه لك من جزيل العطاء في المعاد ولا تستكثر كثير بره على قليل عملك ، فإنه قد ابتدأك بعظيم النعم قبل العمل وقبل التوحيد ، وقال ابن عطاء : خلق لكم ليكون الكون كله لك وتكون لله فلا تشتغل بما لك عما أنت له ، وقال بعض البغداديين : أنعم عليك بها فإن الخلق عبدة النعم لاستيلاء النعم عليهم فمن ظهر للحضرة أسقط عنه المنعم رؤية النعم ، وقال الثوري : أعلى مقامات أهل الحقائق الانقطاع عن العلائق والعطف بثم يقتضي التراخي في الزمان ولا زمان إذ ذاك ، فقل : أشار بثم إلى التفاوت الحاصل بين خلق السماء والأرض في القدر ، وقيل : لما كان بين خلق الأرض والسماء أعمال من جعل الرواسي والبركة فيها ، وتقدير الأقوات عطف بثم إذ بين خلق الأرض ، والاستواء تراخ يدل على ذلك (قل أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين) الآية ، استوى أهل الحجاز على الفتح ونجد على الإمالة ، وقرئ في السبعة بهما (وفي الاستواء هنا سبعة أقوال) :

أحدها : أقبل وعمد إلى خلقها وقصد من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر ، وهو استعارة من قولهم استوى إليه كالسهم المرسل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء ، قال معناه الفراء واختاره الزمخشري^(٢) وبين ما الذي استعير منه .

الثاني : علا وارتفع من غير تكييف ولا تحديد^(٣) قاله الربيع بن أنس ، والتقدير علا أمره وسلطانه واختاره الطبري .

الثالث : أن يكون إلى بمعنى على : أي استوى على السماء : أي تفرد بملكها ولم يجعلها كالأرض ملكاً لخالقه ومن هذا المعنى قول الشاعر :

فَلَمَّا عَلَوْنَا وَاسْتَوَيْنَا عَلَيْهِمْ تَرَكْنَاهُمْ صَرَغَى لِنَسْرِ وَكَاسِرٍ^(٤)

ومعنى هذا الاستيلاء كما قال الشاعر :

قَدْ اسْتَوَى بِشَرِّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقٍ^(٥)

(٢) انظر الكشف (١٢٣/١) .

(١) انظر الكشف (١٢٣/١) .

(٣) ذكره ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٢٩/١) ، (٥٨٨) عن الربيع بن أنس .

(٤) انظر روح المعاني (٢١٥/١) .

(٥) انظر تفسير القرطبي (١٧٦/١) ، وذكره الواحدي في سورة الأعراف في تفسيره - الوسيط واليسيط .

الرابع : أن المعنى تحول أمره إلى السماء واستقر فيها ، والاستواء هو الاستقرار ، فيكون ذلك على حذف مضاف : أي ثم استوى أمره إلى السماء : أي استقر ، لأن أوامره وقضايه تنزل إلى الأرض من السماء ، قاله الحسن البصري .

والخامس : أن المعنى استوى بخلقه واختراعه إلى السماء قاله ابن كيسان ويؤول المعنى إلى القول الأول .

السادس : أن المعنى كمل صنعه فيها كما تقول « استوى الأمر » وهذا ينبو اللفظ عن الدلالة عليه .

السابع : أن الضمير في استوى عائد على الدخان ، وهذا بعيد جداً يبعده قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ [فصلت : ١١] ، واختلاف الضمائر وعوده على غير مذكور ولا يفسره سياق الكلام ، وهذه التأويلات كلها فرار عما تقرر في العقول من أن الله تعالى يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى ، وأن يحل فيه حادث أو يحل هو في حادث ، وسيأتي الكلام على الاستواء بالنسبة إلى العرش إن شاء الله تعالى ، ومعنى التسوية تعديل خلقهن وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفتور ، أو إتمام خلقهن وتكميله من قولهم « درهم سواء » : أي وازن كامل تام ، أو جعلهن سواء من قوله ﴿ إذ نسويكم ربّ العالمين ﴾ [الشعراء : ٩٨] ، أو تسوية سطوحها بالاملاس ، والضمير في فسواهن عائد على السماء على أنها جمع سماوة ، أو على أنه اسم جنس فيصدق إطلاقه على الفرد والجمع ويكون مراداً به هنا الجمع قال الزمخشري^(١) : والضمير في (فسواهن) ضمير مبهم و ﴿ سبع سموات ﴾ تفسيره كقولهم ربه رجلاً انتهى كلامه . ومفهومه أنّ هذا الضمير يعود على ما بعده ، وهو مفسر به فهو عائد على غير متقدّم الذكر ، وهذا الذي يفسره ما بعده منه ما يفسر بجملة ، وهو ضمير الشأن أو القصة ، وشرطها عند البصريين : أن يصرح بجزأها ، ومنه ما يفسر بمفرد : أي غير جملة ، وهو الضمير المرفوع بنعم وبئس وما جرى مجراهما ، والضمير المجرور ربّ والضمير المرفوع بأول المتنازعين على مذهب البصريين ، والضمير المجعول خبره مفسراً له ، والضمير الذي أبدل منه مفسره في إثبات هذا القسم الأخير خلاف ، وذلك نحو « ضربتهم قومك » وهذا الذي ذكره الزمخشري^(٢) ليس واحداً من هذه الضمائر التي سردناها إلا إن تخيل فيه أن يكون « سبع سموات » بدلاً منه ومفسراً له ، وهو الذي يقتضيه تشبيه الزمخشري^(٣) له بربه رجلاً ، وأنه ضمير مبهم ليس عائداً على شيء قبله لكن هذا يضعف بكون هذا التقدير يجعله غير مرتبط بما قبله ارتباطاً كلياً إذ يكون الكلام قد تضمن أنه تعالى استوى على السماء ، وأنه سوى سبع سموات عقيب استوائه إلى السماء ، فيكون قد أخبر بإخبارين : أحدهما : استواؤه إلى السماء ، والآخر : تسويته سبع سموات ، وظاهر الكلام أن الذي استوى إليه هو بعينه المستوى سبع سموات ، وقد أعرب بعضهم (سبع سموات) بدلاً من الضمير ، على أن الضمير عائد على ما قبله ، وهو إعراب صحيح نحو « أخوك مررت به زيد » ، وأجازوا في « سبع سموات » أن يكون منصوباً على المفعول به والتقدير : « فسوى منهن سبع سموات » ، وهذا ليس جيد من حيث اللفظ ومن حيث المعنى ، أما من حيث اللفظ : فإن سوى ليس من باب اختار فيجوز حذف حرف الجر منه في فصيح الكلام ، وأما من حيث المعنى فلأنه يدل على أن السموات كثيرة فسوى منهن سبعاً ، والأمر ليس كذلك إذ المعلوم أن السموات سبع ، وأجازوا أيضاً أن يكون مفعولاً ثانياً لسوى ويكون معنى سوى صير ، وهذا ليس بجيد لأن

= قلت : وتعلق بأذياله الذين ذهبوا إلى التأويل وليس فيه حجة لهم .

(١) انظر الكشف (١٢٣/١) .

(٢) انظر الكشف (١٢٣/١) .

(٣) انظر الكشف (١٢٣/١) .

تعدي « سَوَى » لواحد هو المعلوم في اللغة ﴿ فسواك فعدلك ﴾ [الانفطار : ٧] ، ﴿ قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ [القيامة : ٤] ، وأما جعلها بمعنى صَيَّرَ فغير معروف في اللغة ، وأجازوا أيضاً النصب على الحال فتلخص في نصب سموات أوجه البذل باعتبارين ، والمفعول به ، ومفعول ثان ، وحال ، والمختار البذل باعتبار عود الضمير على ما قبله والحال ويترجح البذل بعدم الاشتقاق ، وقد اختلف أهل العلم في أيهما خلق قبل ، فمنهم من قال : السماء خلقت قبل الأرض ، ومنهم من قال : الأرض خلقت قبل السماء ، وكل تعلق في الاستدلال بظواهر آيات يأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى ، والذي تدل عليه هذه الآية : أن خلق ما في الأرض لنا متقدم على تسوية السماء سبعا لا غيره ، والمختار أن جرم الأرض خلق قبل السماء وخلقت السماء بعدها ثم دحيت الأرض بعد خلق السماء ، وبهذا يحصل الجمع بين الآيات ، وقال بعضهم : وإنما خلق السموات سبعا لأن السبعة والسبعين فيه دلالة على تضاعف القوة والشدة ، كأنه ضوعف سبع مرات ، ومن شأن العرب أن يبالغوا بالسبعة والسبعين من العدد ، لما في ذِكْرِها من دليل المضاعفة قال تعالى ﴿ ذرعا سبعة ﴾ [التوبة : ٨٠] ، ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ [الحاقة : ٣٢] ، والسبعة تذكر في جلائل الأمور ، الأيام سبعة ، والسموات سبع ، والأرضين سبع ، والنجوم التي هي أعلام يستدل بها سبعة ، زحل ، والمشتري ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة ، والشمس ، والقمر . والبحار سبعة ، وأبواب جهنم سبعة .

وتسكين الهاء في هو وهي بعد الواو والفاء واللام وثم جائز ، وقل بعد كاف الجر وهمزة الاستفهام ، ونذر بعد « لكن » في قراءة أبي حمدون ﴿ لكن هو الله ربي ﴾ [الكهف : ٣٨] ، وهو تشبيه بتسكين سبع ، وكشرش شُبّه الكلمتان بالكلمة ، وقرأ بتسكين ﴿ وَهُوَ ﴾ أبو عمرو والكسائي وقالون ، وقرأ الباقر بضم الهاء على الأصل ، ووقف يعقوب على وَهُوَ بالهاء نحو وَهُوَ ﴿ بكل ﴾ متعلق بقوله عليم ، وكان القياس التعدي باللام حالة التقديم أو بنفسه ، وأما حالة التأخير فبنفسه لأنه من فعل متعد ، وهو أحد الأمثلة الخمسة التي للمبالغة وقد حدث فيها بسبب المبالغة من الأحكام ما ليس في فعلها ولا في اسم الفاعل ، وذلك أن هذا المبني للمبالغة المتعدي إما أن يكون فعلة متعدياً بنفسه أو بحرف جر ، فإن كان متعدياً بحرف جر تعدى المثال بحرف الجر نحو زيد صبور على الأذى زهيد في الدنيا لأن صبر يتعدى بعلى وزهد يتعدى بفي ، وإن كان متعدياً بنفسه فإما أن يكون ما يفهم علماً وجهلاً أو لا إن كان مما يفهم علماً أو جهلاً تعدى المثال بالباء نحو « زيد عليم بكذا وجهول بكذا وخبير بذلك » ، وإن كان لا يفهم علماً ولا جهلاً فيتعدى باللام نحو قوله تعالى ﴿ فعال لما يريد ﴾ [البروج : ١٦] ، وفي تعديها لما بعدها بغير الحرف ونصبها له خلاف مذكور في النحو ، وإنما خالفت هذه الأمثلة التي للمبالغة أفعالها المتعدية بنفسها ، لأنها بما فيها من المبالغة أشبهت أفعال التفضيل وأفعال التفضيل حكمه هكذا قال تعالى ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ [الإسراء : ٥٤] ، وقال الشاعر :

أَعْطَى لِفَارِهِ حُلُوَ مَرَاتِعِهَا^(١)

وقال :

أَكْرُ وَأَحْمِي لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ^(٢)

(١) هذا صدر بيت للناطقة انظر ديوانه ص ١٤ وعجزه :

من المواهب لا تعطى على حسد

قال ابن سيده : إنما يعني بالفارغة القينة وما يتبعها من المواهب - انظر لسان العرب (٣٤٠٦/٥) ، (فره) تاج العروس (٤٠٢/٩) ،

هذا وقد ثبت في (ط) . مرتعها ، شرح القصائد لابن النحاس (١٧٠/٢) .

(٢) هذا صدر بيت من الطويل لعباس بن مرداس السلمي وسيأتي المصنف بعجزه وهو قوله وأضرب منا بالسيوف القوانسا .

فإن جاء بعده ما ظاهره أنه منصوب به نحو قوله تعالى ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ يَضِلُّ﴾ [القلم : ٧] ، وقول الشاعر :

وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا

أول بأنه معمول لفعل محذوف يدل عليه أفعل التفضيل ﴿شيء﴾ قد تقدم اختلاف الناس في مدلول شيء فمن أطلقه على الموجود والمعدوم كان تعلق العلم بهما من هذه الآية ظاهراً ، ومن خصه بالموجود فقط كان تعلق علمه تعالى بالمعدوم مستفاداً من دليل آخر غير هذه الآية ﴿عليم﴾ قد ذكرنا أنه من أمثلة المبالغة ، وقد وصف تعالى نفسه « بعالم » و « عليم » و « علام » وهذان للمبالغة ، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في علامة ، ولا يجوز وصفه به تعالى ، والمبالغة بأحد أمرين إما بالنسبة إلى تكرير وقوع الوصف سواء اتحد متعلقه أم تكرر ، وإما بالنسبة إلى تكثير المتعلق لا تكثير الوصف ، ومن هذا الثاني المبالغة في صفات الله تعالى لأن علمه تعالى واحد لا تكثير فيه فلما تعلق علمه تعالى بالجميع كلية وجزئية ، دقيقة وجليلة ، معدومة وموجودة ، وصف نفسه تعالى بالصفة التي دلت على المبالغة ، وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم ، لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء ، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء ، وقال بعض الناس « العليم » من كان علمه من ذاته ، و « العالم » من كان علمه متعدداً من غيره ، وهذا ليس بجيد ، لأن الله تعالى قد وصف نفسه بالعالم ولم يكن علمه بتعلم ، وفي تعميم قوله تعالى (بكل شيء عليم) رد على من زعم أن علم الله تعالى متعلق بالكلية لا بالجزئيات تعالى الله عن ذلك ، وقالوا علم الله تعالى يتميز على علم عباده بكونه واحداً يعلم به جميع المعلومات ، وبأنه لا يتغير بتغيرها ، وبأنه غير مستفاد من حاسة ولا فكر ، وبأنه ضروري لثبوت امتناع زواله ، وبأنه تعالى لا يشغله علم عن علم ، وبأن معلوماته تعالى غير متناهية ، وفي قولهم : « لا يشغله علم عن علم » يريدون معلوم عن معلوم ، لأنه قد تقدم أن علم الله واحد ولا يشغله تعلق علم شيء عن تعلقه بشيء آخر ، وتضمن قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ [البقرة : ٢٦] ، إلى آخر قوله (وهو بكل شيء عليم) أن ما ضرب به المثل في كتابه من مستودع النار ، والصيب ، والذباب ، والعنكبوت ، وما يجري مجرى ذلك ، فيه عجائب من الحكمة الخفية والجلية وبدائع الفصاحة العربية وموافقة المثل لما ضرب به ، وأنه لا يحسن في مثله الأمثلة ، وأنه تعالى لا يترك ذلك لما فيه من الحكم ، ومدح من عرف أن ذلك حق وذم من أنكره وعابه ، وأن في ضربه هدى لمن آمن ، وضلالاً لمن صد عنه ، وذم من نقض عهد الله ، وقطع ما يجب أن يوصل ، وأفسد في الأرض ، وإعلامه بأن ذلك سبب خسارته ، والإعلام أن ناقضي عهده هو تعالى قادر على إحياهم بعد الموت ، كما كان قادراً على إيجادهم بعد العدم ، وأنه جامعهم وباعثهم ومجازيهم بأعمالهم ، وفي ذلك أشد التخويف والتهديد ، ثم بعد التخويف ذكرهم تعالى بنعمه التي أنعمها عليهم من خلق الأرض المقلدة ، والسماء المظلة ، والمخلوقات المتعددة التي ينتفعون بها ويعتبرون بها ، ليجمع بذلك بين الترهيب والترغيب ، وهذه هي الموعظة التي يتعظ بها ذو العقل السليم والذهن المستقيم ، ثم ختم ذلك بالفضل الأكبر من إعلامهم بإحاطة علمه بجميع الأشياء من الإبتداء إلى الإنهاء

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسِفُكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿ إذ ﴾ اسم ثنائي الوضع مبني لشبهه بالحرف وضعاً أو افتقاراً ، وهو ظرف زمان للماضي ، وما بعده جملة اسمية أو فعلية ، وإذا كانت فعلية قبح تقديم الاسم على الفعل وإضافته إلى المصدرة بالمضارع ، وعمل المضارع فيه مما يجعل المضارع ماضياً وهو ملازم للظرفية ، إلا أن يضاف إليه زمان ، ولا يكون مفعولاً به ، ولا حرفاً للتعليل ، أو المفاجأة ، ولا ظرف مكان ، ولا زائدة خلافاً لزاعمي ذلك ، ولها أحكام غير هذا ذكرت في النحو ، الملك ميمه أصلية وهو فعل من الملك وهو القوة ، ولا حذف فيه ، وجمع على فعائلة شذوذاً قاله أبو عبيدة ، وكأنهم توهموا أنه ملاك على وزن فعال ، وقد جمعوا فعلاً المذكر والمؤنث على فعائل قليلاً ، وقيل وزنه في الأصل فعال نحو شمأل ، ثم نقلوا الحركة وحذفوا ، وقد جاء فيه « ملاك » ، فيحتمل أن يكون فعاً ، وعلى هذا لا تكون الهمزة زائدة في فاء الكلمة وعينها ، فمنهم من قال : الفاء لام والعين همزة من لأك إذا أرسل ، وهي لغة محكية فملك أصله ملاك فخفف بنقل الحركة والحذف إلى فعل قال الشاعر :-

فَلَسْتُ لِإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لِمَلَأِكٍ تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(١)

فجاء به على الأصل وهذا قول « أبي عبيد » ، واختاره أبو الفتح ، وملائكة على هذا القول مفاعلة ، ومنهم من قال : الفاء همزة والعين لام من الألوكة وهي الرسالة ، فيكون على هذا أصله مَأَلَكًا ، ويكون مَلَأَك مقلوباً جعلت فاؤه مكان عينه وعينه مكان فائه ، فعلى هذا القول يكون في وزنه معلا ، ومنهم من قال الفاء لام والعين واو ، من لأك الشيء أداره في فيه ، وصاحب الرسالة يديرها في فيه فهو مَفْعَل من ذلك نحو معاد ، ثم حذفوا العين تخفيفاً فعلى هذا القول يكون وزنه معلاً وملائكة على القول مفاعلة ، والهمزة أبدلت من واو كما أبدلت في مصائب ، وقال « النضر بن شميل » : الملك لا تشتق العرب فعله ولا تصرفه وهو مما فات علمه انتهى . والتاء في الملائكة لتأنيث الجمع وقيل للمبالغة وقد ورد بغير تاء ، قال الشاعر :

أَنَا خَالِدٌ صَلَّتْ عَلَيْكَ الْمَلَائِكُ

خليفة فعيلة ، وفعيلة تأتي بمعنى الفاعل للمبالغة كالعليم ، أو بمعنى المفعول كالنطيحة والهاء للمبالغة ،

(١) البيت من الطويل اختلف في نسبته نسبه سيبويه إلى علقمة بن عبدة وهو في شرح ديوان علقمة للأعلم الشنمري (١٢٩) ، ونسب لابن وجزة السعدي - انظر الأغاني (٢٣٩/١) ، الشعر والشعراء رقم (١٥٧) ، وفيه (ولست بجني) انظر الاشتقاق لابن دريد ص ٢٦ ، الجمل للزجاجي (٦٠) ، المقاصد النحوية (٥٣٢/٤) ، أمالي ابن الحاجب (١٢٢/٤) ، شرح شواهد الشافعية (٢٨٧/٤) ، لسان العرب (لأك) (صوب) .

« السفك » الصَّب والإراقة لا يستعمل إلا في الدم يقال سَفَكَ وسَفَكَ وأسفك بمعنى ، ومضارع سفك يأتي على يفعل ويفعل ، (الدماء) جمع دم ولا مة ياء أو واو محذوفة لقولهم « دَمَيَان » و « دَمَوَان » وقصره ، وتضعيفه مسموعان من لسان العرب ، والمحذوف اللام قيل : أصله فَعِل وقيل فَعَلَ ، « التسييح » تنزيه الله وتبرئته عن السوء ولا يستعمل إلا لله تعالى ، وأصله من السبح وهو الجري والمسيح جار في تنزيه الله تعالى ، « التقديس »^(١) التطهير ومنه بيت المقدس والأرض المقدسة ومنه القدس السطل الذي يتطهر به والقداس : الجمال قال الشاعر :-

كَنْظُمٍ قُدَّاسٍ سِلْكُهُ مُتَقَطُّعٌ^(٢)

وقال الزمخشري^(٣) : من قَدَس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد ، « علم » منقول من علم التي تتعدى لواحد فرقوا بينها وبين علم التي تتعدى لاثنتين في النقل فعَدُوا تلك بالتضعيف وهذه بالهمزة ، قاله الأستاذ أبو علي الشلوين ، وسيأتي الكلام عليه عند الشرح ، « آدم » اسم أعجمي كآزَر وعابر ممنوع الصرف للعلمية والعجمة ، ومن زعم أنه أفعل مشتق من الأدمة وهي كالسمرة أو من أديم الأرض وهو وجهها غير صواب ، لأن الاشتقاق من الألفاظ العربية قد نص التصريفيون على أنه لا يكون في الأسماء الأعجمية ، وقيل هو عبري من الإدام وهو التراب ، ومن زعم أنه فاعل من أديم الأرض فخطؤه ظاهر لعدم صرفه ، وأبعد الطبري في زعمه أنه فعل رباعي سمي به ، « العَرَض » إظهار الشيء حتى تعرف جهته ، « الإنباء » الإخبار ويتعدى فعله لواحد بنفسه ، ولثان بحرف جر ، ويجوز حذف ذلك الحرف ويضمن معنى أعلم فيتعدى إلى ثلاثة ، « هؤلاء » اسم إشارة للقريب وها للتنبيه والاسم أولاء مبني على الكسر ، وقد تبدل همزته هاء فيقال هؤلاء ، وقد يبنى على الضم فيقال أولاء ، وقد تشيع الضمة قبل اللام فيقال أولاء قاله قطرب ، وقد يقال هؤلاء بحذف ألفها وهمزة أولاء وإقرار الواو التي بعد تلك الهمزة حكاه الأستاذ أبو علي الشلوين^(٤) ، وأنشد قوله :

تَجَلَّدَ لَا تَقُلْ هَؤُلَاءِ هَذَا بَكَى لَمَّا بَكَى أَسْفَاءً عَلَيَّكَ^(٥)

وذكر الفراء أن المد في أولاء لغة الحجاز والقصر لغة تميم ، وزاد غيره أنها لغة بعض قيس وأسد ، وأنشد للأعشى^(٦) :

هَؤُلَاءِ نُمُّ هَؤُلَاءِ كَلَا أُعْطِيتَ نِعَالًا مَحْدُودَةً يَنْعَالِ

(١) التقديس : تنزيه الله عز وجل . وفي التهذيب : القدس تنزيه الله تعالى ، وهو المتقدّس القدوس المقدّس ، ويقال : القدوس فَعُول من القدس وهو الطهارة - لسان العرب (٣٥٤٩/٥) .

(٢) هو صدر بيت لم يعرف قائله . وصدره « تحَدَّر دُمُع العين منها فخلته » انظر اللسان [قدس] ص ٣٥٥٠ ، وانظر تاج العروس (٢١٣/٤) .

(٣) انظر الكشف (١٢٥/١) .

(٤) عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأستاذ أبو علي الإشبيلي الأزدي المعروف بالشَّلَوِين - بفتح المعجمة واللام وسكون الواو وكسر الموحدة وبعدها تحتانية ونون ومعناه بلغة الأندلس (الأبيض الأشقر) قال ابن الزبير : كان إمام عصره في العربية بلا مدافع توفي في العشر الأخير من صفر سنة خمس وأربعين وستمائة - البغية (٢٢٤/٢) .

(٥) البيت من الوافر انظر الخزانة (٤٣٧/٥) ، ورواية (لما بكى أَمْنًا وَغِيظًا) شرح المفصل (١٣٦/٣) ، شرح الكافي (٣١/١) .

(٦) ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد بن ضبة بن قيس بن ثعلبة لقب بالأعشى لضعف بصره .

والهمزة عند أبي علي لام الفعل ، ففأوه ولامه همزة ، وعند أبي العباس بدل من الياء وقعت بعد ألف فقلبت همزة ، (سبحانك) معناه تنزيهك ، وسبحان^(١) اسم وضع موضع المصدر وهو مما ينتصب بإضمار فعل من معناه لا يجوز إظهاره ، وهو من الأسماء التي لزمت النصب على المصدرية ويضاف ويفرد ، فإذا أفرد كان منوئاً نحو قول الشاعر : -

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا نَعُوذُ بِهِ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمْدُ^(٢)

فقليل صَرَفَه ضرورة ، وقيل لجعله نكرة وغير منون نحو قول الشاعر : -

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عُلْقَمَةَ الْفَاحِرِ^(٣)

جعله علماً فمنعه الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون ، وزعم بعض النحويين أنه إذا أفرد كان مقطوعاً عن الإضافة فعاد إليه التنوين ومن لم ينونه جعله بمنزلة قبل وبعد ، وقد ردّ هذا القول في كتب النحو ، (الحكيم) فعيل بمعنى مفعول من أحكم الشيء أتقنه ، ومنعه من الخروج عما يريد ، « الإبداء » الإظهار و « الكتم » الإخفاء .

(وإذا قال ربك للملائكة) لم يرد في سبب نزول هذه الآيات شيء ، ومناسبتها لما قبلها أنه لما امتنّ عليهم بخلق ما في الأرض لهم وكان قبله إخراجهم من العدم إلى الوجود ، أتبع ذلك ببدء خلقهم وامتنّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجعله خليفة وإسكانه دار كرامته وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه ، وتنبههاً على مكانه ، واختصاصه بالعلم الذي به كمال الذات وتمام الصفات ، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع ، وشرف الفرع بشرف الأصل ، واختلف المعربون في (إذ) .

فذهب أبو عبيدة وابن قتيبة إلى زيادتها وهذا ليس بشيء ، وكان أبو عبيدة وابن قتيبة ضعيفين في علم النحو . وذهب بعضهم إلى أنها بمعنى « قد » ، التقدير « وقد قال ربك » وهذا ليس بشيء ، وذهب بعضهم إلى أنه منصوب نصب المفعول به باذكر : أي : واذكر إذ قال ربك وهذا ليس بشيء ، لأن فيه إخراجها عن بابها وهو أنه لا يتصرف فيها بغير الظرفية أو بإضافة ظرف زمان إليها .

وأجاز ذلك الزمخشري وابن عطية وناس قبلهما وبعدهما ، وذهب بعضهم إلى أنها ظرف ، واختلفوا فقال بعضهم : هي في موضع رفع التقدير « ابتداء خلقكم » .

وقال بعضهم في موضع نصب ، التقدير « وابتداء خلقكم إذ قال ربك » ، وناسب هذا التقدير لما تقدم قوله (خلق لكم ما في الأرض جميعاً) ، وكلا هذين القولين لا تحرير فيه ، لأن ابتداء خلقنا لم يكن وقت قول الله للملائكة

(١) سبحان الله : معناه تنزيهاً لله من الصاحبة والولد وقيل : تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به - لسان العرب (١٩١٤/٣) .

(٢) البيت من البسيط لأمية بن أبي الصلت انظر ديوانه ص ٣٠ ، لسان العرب (حمد - سجع) ونسب لورقة بن نوفل انظر الحماسة البصرية (٤٢٥/٢) ، الأغاني (١٣١/٣) ، الخزانة (٣٨٨/٣) ، المقتضب (٢١٧/٣) .

(٣) البيت للأعشى انظر ديوانه (٩٣) .

إني جاعل في الأرض خليفة ، لأن الفعل العامل في الظرف لا بد أن يقع فيه أما أن يسبقه أو يتأخر عنه فلا لأنه لا يكون له ظرفاً .

وذهب بعضهم إلى أن إذ منصوب يقال بعدها وليس بشيء ، لأن إذ مضافة إلى الجملة بعدها والمضاف إليه لا يعمل في المضاف .

وذهب بعضهم إلى أن نصبها بأحياءكم تقديره « وهو الذي أحياكم إذ قال ربك » ، وهذا ليس بشيء لأنه حذف بغير دليل ، وفيه أن الإحياء ليس واقعاً في وقت قول الله للملائكة وحذف الموصول وصلته وإبقاء معمول الصلة .

وذهب بعضهم إلى أنه معمول لخلقكم من قوله تعالى (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) (إذ قال ربك) ، فتكون الواو زائدة ويكون قد فصل بين العامل والمعمول بهذه الجمل التي كادت أن تكون سوراً من القرآن لاستبداد كل آية منها بما سقت له وعدم تعلقها بما قبلها التعلق الإعرابي ، فهذه ثمانية أقوال ينبغي أن ينزه كتاب الله عنها .

والذي تقتضيه العربية نصبه بقوله (قالوا أتجعل) : أي وقت قول الله للملائكة (إني جاعل في الأرض) ، (قالوا أتجعل) كما تقول في الكلام « إذ جئتني أكرمتك » : أي وقت مجيئك أكرمتك ، وإذ قلت لي كذا قلت لك كذا فانظر إلى حسن هذا الوجه السهل الواضح ، وكيف لم يوفق أكثر الناس إلى القول به ، وارتبكوا في دهياء ، وخطبوا خبط عشواء ، وإسناد القول إلى الرب في غاية من المناسبة والبيان ، لأنه لما ذكر أنه خلق لهم ما في الأرض كان في ذلك صلاح لأحوالهم ومعايشهم ، فناسب ذكر الرب وإضافته إلى رسول الله ﷺ تنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه وهز لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني وابتداء أمره ومآله ، وهذا تنوع في الخطاب وخروج من الخطاب العام إلى الخطاب الخاص ، وفي ذلك أيضاً إشارة لطيفة إلى أن المقبل عليه بالخطاب له الحظ الأعظم والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها ، إذ هو في الحقيقة أعظم خلفائه ، ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه وجعل أفضل أنبيائه أم بهم ليلة إسرائه وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه فهو المقدم في أرضه وسمائه وفي داري تكليفه وجزائه ، واللام في للملائكة للتبليغ ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها اللام ، فظاهر لفظ الملائكة العموم ، وقال بذلك قوم ، وقال قوم : هو عام المراد به الخصوص ، وهم سكان الأرض من الملائكة بعد الجان ، وقيل : هم المحاربون مع إبليس ومعمول القول (إني جاعل) وكان ذلك مصدراً بأن ، لأن المقصود تأكيد الجملة المخبر بها وأن هذا واقع لا محالة ، وإن تكسر بعد القول ، ولفتحها بعده عند أكثر العرب شروط ذكرت في النحو^(١) وبنو سليم يفتحونها بعده من غير شرط وقال شاعرهم : -

إِذَا قُلْتُ أَنِّي آيِبٌ أَهْلَ بَلَدَةٍ نَزَعْتُ بِهَا عَنْهَا الْوَلِيَّةَ بِالْهَجْرِ^(٢)

جاعل اسم فاعل بمعنى الاستقبال ، وتجوز إضافته للمفعول إلا إذا فصل بينهما كهذا فلا يجوز ، وإذا جاز إعماله فهو أحسن من الإضافة ، نص على ذلك سيبويه ، وقال الكسائي : هما سواء والذي اختاره : أن الإضافة أحسن ، وقد ذكرنا وجه اختيارنا ذلك في بعض ما كتبناه في العربية ، وفي الجعل هنا قولان :

(١) ذكر السيوطي في الهمع من المواضع التي يجوز فيها الكسر والفتح إذا وقعت إن خبراً عن قول وخبرها قول وفاعل القولين واحد نحو : أول ما أقول ، أو أول قولني إني أحمد الله فالفتح على تقدير حمد الله - انظر همع الهوامع (١٣٨/١) .
(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه ص ١٢٠ ، وروايته فيه (وضعت بها عنه) إيضاح الشعر للفارسي ص ٤٩٨ ، وروايته (رفعت بها عنه) الخزانة (٤٤٠/٢) - وروايته (حططت بها عنه) المقاصد النحوية (٤٣٢/٢) .

أحدهما : أنه بمعنى الخلق فيتعدى إلى واحد قاله أبو روق^(١) ، وقريب منه ما روي عن الحسن وقتادة أنه بمعنى فاعل^(٢) ولم يذكر ابن عطية غير هذا .

الثاني : أنه بمعنى التصيير فيتعدى إلى اثنين ، والثاني هو في الأرض : أي مصير في الأرض خليفة^(٣) قاله الفراء ولم يذكر الزمخشري^(٤) غيره ، وكلا القولين سائغ إلا أن الأول عندي أجود لأنهم (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) ، فظاهر هذا أنه مقابل لقوله (جاعل في الأرض خليفة) ، فلو كان الجعل الأول على معنى التصيير لذكره ثانياً فكان « أتجعل فيها خليفة من يفسد فيها » وإذا لم يأت كذلك ، كان معنى الخلق أرجح ولا احتياج إلى تقدير خليفة لدلالة ما قبله عليه لأنه إضمار ، وكلام بغير إضمار أحسن من كلام بإضمار وجعل الخبر اسم فاعل ، لأنه يدل على الثبوت دون التجدد شيئاً شيئاً ، والجعل سواء كان بمعنى الخلق أو التصيير وكان آدم هو الخليفة على أحسن الفهوم لم يكن إلا مرة واحدة ، فلا تكرر فيه ، إذ لم يخلقه أو لم يصيّر خليفة إلا مرة واحدة وقوله (في الأرض) ظاهره الأرض كلها وهو قول الجمهور ، وقيل أرض مكة ، وروى ابن سابط هذا التفسير بأنها أرض مكة مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، فإن صح ذلك لم يعدل عنه ، قيل : ولذلك سمى وسطها بكة ، لأن الأرض بكت من تحتها واختصت بالذكر ، لأنها مقر من هلك قومه من الأنبياء ، ودفن بها نوح وهود وصالح بين المقام والركن ، وتكون الألف واللام فيها للعهد نحو ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ [يوسف : ٨٠] ، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴿ [يوسف : ٢١] ، ﴿ استضعفوا في الأرض ﴾ [القصص : ٥] ، وقال الشاعر -

يَقُولُونَ لِي أَرْضُ الْحِجَازِ جَدِيبَةٌ فَقُلْتُ وَمَا لِي فِي سَوَى الْأَرْضِ مَطْلَبٌ^(٥)

وقرأ الجمهور (خَلِيفَةً) بالفاء ، ويحتمل أن يكون بمعنى الخالف ، ويحتمل أن يكون بمعنى المخلوف ، وإذا كان بمعنى الفاعل كان معناه القائم مقام غيره في الأمر الذي جعل إليه ، والخليفة قيل هو آدم لأنه خليفة عن الملائكة الذين كانوا في الأرض ، أو عن الجن بني الجان ، أو عن إبليس في ملك الأرض ، أو عن الله تعالى^(٦) ، وهو قول ابن مسعود وابن عباس ، والأنبياء هم خلائف الله في أرضه واقتصر على آدم لأنه أبو الخلائف ، كما اقتصر على مضر وتميم وقيس والمراد القبيلة ، وقيل ولد آدم لأنه يخلف بعضهم بعضاً إذا هلكت أمة خلفتها أخرى^(٧) ، قاله الحسن ، فيكون مفرداً أريد به الجمع كما جاء ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، ﴿ ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ [النور : ٥٥] ، وقيل : الخليفة اسم لكل من انتقل إليه تدبير أهل الأرض والنظر في مصالحهم ، كما أن كل من ولي الروم قيصر والفرس كسرى ، واليمن تبع .

وفي المستخلف فيه آدم قولان :

-
- (١) عطية بن الحارث الهمداني أبو روق الكوفي قال أبو حاتم صدوق الخلاصة (٢٣٣/٢) .
 - (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٤/١) ، وعزاه لابن جرير وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٤٧/١) ، (٥٩٧) ، عن الحسن .
 - (٣) الخليفة : الذي يُسْتَخْلَفُ ممن قبله ، والجمع خلائف ، جاءوا به على الأصل مثل كريمة وكرائم وهو الخليف والجمع خلفاء .
 - (٤) انظر الكشاف (١٢٥/١) - لسان العرب (١٢٣٥/٢) .
 - (٥) البيت من الطويل لم يعلم قائله وقوله (جدية) فعيلة من الحذب وهو الغلظ من الأرض في ارتفاع - انظر لسان العرب (حذب) .
 - (٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٤/١ - ٤٥) ، وعزاه للحاكم وصححه ابن جرير عن ابن عباس وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٥٠/١ - ٤٥١ - ٤٥٢) ، (٦٠١ ، ٦٠٥) .
 - (٧) انظر تفسير الطبري (٤٥١/١) ، (٦٠٢) .

أحدهما : الحكم بالحق والعدل .

الثاني : عمارة الأرض يزرع ويحصد ويبنى ويجري الأنهار ، وقرأ زيد بن علي وأبو البرهسم عمران (١) (خَلِيقَةً) بالقاف ، ومعناه واضح وخطاب الله للملائكة بقوله (إني جاعل في الأرض خليفة) إن كان للملائكة الذين حاربوا مع إبليس الجن فيكون ذلك عاماً بأنه رافعهم إلى السماء ومستخلف في الأرض آدم وذريته ، وروي ما يدل على ذلك عن ابن عباس وهو ما ملخصه : أن الله اسكن الملائكة السماء ، والجن الأرض فعبدوا دهرًا طويلاً ، ثم أفسدوا وحسدوا فاقتتلوا فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة رأسهم إبليس ، وكان أشدهم وأعلمهم ، فهبطوا الأرض وطرودوا الجن إلى شعف الجبال وبطون الأودية وجزائر البحور وسكنوها ، وخفف عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض وملك سماء الدنيا وخزانة الجنة ، فكان يعبد تارة في الأرض ، وتارة في الجنة ، فدخله العجب وقال في نفسه ما أعطاني الله هذا إلا أنني أكرم الملائكة عليه ، فقال الله تعالى له ولجنوده (إني جاعل في الأرض خليفة) بدلاً منكم ، ورافعكم إليّ ، فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة ، و (قالوا أتجعل) الآية ، وإن كان الملائكة جميع الملائكة فسبب القول : إرادة الله أن يطلع الله الملائكة على ما في نفس إبليس من الكبر ، وأن يظهر ما سبق عليه في علمه ، روي عن ابن عباس وعن السدي عن أشياخه وأن يلو طاعة الملائكة (٢) ، قاله الحسن ، أو أن يظهر عجزهم عن الإحاطة بعلمه ، وأن يعظم آدم بذكر الخلافة قبل وجوده ليكونوا مطمئنين له إذا وحدوا ، أو أن يعلمهم بخلقه ليسكن الأرض وإن كان ابتداء خلقه في السماء ، وأن يعلمنا أن نشاور ذوي الأحلام منّا وأرباب المعرفة ، إذ استشار الملائكة اعتباراً لهم مع علمه بحقائق الأشياء ، أو أن يتجاوز الخطاب بما ذكر فيحصل منهم الاعتراف والرجوع عما كانوا يظنون من كمال العلم ، أو أن يظهر علوّ قدر آدم في العلم بقوله لآدم (أنبئهم بأسمائهم) ، أو أن يعلمنا الأدب معه ، وامثال الأمر عَقَلْنَا معناه أو لم نَعْقِلْهُ لتحصل بذلك الطاعة المحضة ، وأن تطمئن قلوب الملائكة حين خلق الله النار فخافت وسألت : لمن خلقت هذا ؟ قال : لمن عصاني إذ لم يعلموا وجود خلق سواهم . قاله أبو زيد .

وقال بعض أهل الإشارة في قوله (إني جاعل في الأرض خليفة) سابق العناية لا يؤثر فيه حدوث الجنانية ولا يحط عن رتبة الولاية ، وذلك أنه تعالى نصّب آدم خليفة عنه في أرضه مع علمه بما يحدث عنه من مخالفة أمره التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة ، وأهبطه إلى الأرض التي هي محل الأكدار ، ومع ذلك لم يسلبه ما ألبسه من خلع كرامته ولا حطه عن رتبة خلافته ، بل أجزل له في العطية فقال ﴿ ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ [طه : ١٢٢] ، قال الشاعر - :

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

كان عمر ينقل الطعام إلى الأصنام والله يحبه قال الشاعر - :

أَتُظَنُّنِي مِنْ زَلَّةٍ أَتَعَقَّبُ قَلْبِي عَلَيْكَ أَرْقُ مِمَّا تَحَسَّبُ

ويقال : إن الله سبحانه خلق ما خلق ولم يقل في شيء منها ما قال في حديث آدم حيث قال (إني جاعل في الأرض خليفة) ، فظاهر هذا الخطاب تنبيه لشرف خلق الجنان وما فيها ، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إني خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً ، وإنما قال ذلك تشريفاً وتخصيصاً لآدم ، قالوا تقدم أن الاختيار في

(١) عمران بن عثمان أبو البرهسم الزبيدي الشامي صاحب القراءة الشاذة - انظر غاية النهاية (٦٠٤ / ١) .

(٢) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤٥٥ / ١) ، (٦٠٦) ، عن ابن عباس .

العالم ، إذ هو قالوا : ومعموله الجملة من قوله (أتجعل) ، ولما كانت الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول لم يكن قولهم (أتجعل فيها) الآية إلا عن نبأ ومقدمة ، فقليل الهمزة وإن كان أصلها للاستفهام فهو قد صحبه معنى التعجب ، قاله مكّي وغيره : كأنهم تعجبوا من استخلاف الله من يعصيه ، أو من يعصي من يستخلفه في أرضه ، وقيل هو استفهام على طريق الاستعظام والاكبار للاستخلاف والعصيان ، وقيل : هو استفهام معناه التقرير ، قاله أبو عبيدة قال الشاعر : -

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحٌ^(١)

وعلى هذه الأقوال يكون علمهم بذلك قد سبق إما بإخبار من الله ، أو بمشاهدة في اللوح ، أو يكون هو مخلوق غيرهم وهم معصومون ، أو قالوا ذلك بطريق القياس على من سكن الأرض فأفسد قبل سكنى الملائكة ، أو استنبطوا ذلك من لفظ (خليفة) ، إذ الخليفة من يكون نائباً في الحكم ، وذلك يكون عند التظالم ، وقيل هو استفهام محض قاله « أحمد بن يحيى » ، وقدره : أتجعل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ، وفسره أبو الفضل البجلي : أي « أم تجعل من لا يفسد » وقدره غيرهما ونحن نسبح بحمدك أم نتغير ، فعلى الأقوال الثلاثة الأول لا معادل للاستفهام ، لأنه مذهب به مذهب التعجب ، أو الاستعظام ، أو التقرير ، على القول الرابع يكون المعادل مفعول أتجعل وهو من يفسد ، وعلى القول الخامس تكون المعادلة من الجملة الحالية التي هي قوله (ونحن نسبح بحمدك) ، وقرأ الجمهور (وَيَسْفِكُ) بكسر الفاء ورفع الكاف ، وقرأ « أبو حية » و « ابن أبي عبله » ، بضم الفاء ، وقرئ (وَيُسْفِكُ) من أسفك ويُسْفِكُ من سفك مشدّد الفاء ، وقرأ ابن هرزم (وَيُسْفِكُ) بنصب الكاف ، فمن رفع الكاف عطف على يفسد ، ومن نصب فقال المهدي هو نصب في جواب الاستفهام وهو تخريج حسن ، وذلك أن المنصوب في جواب الاستفهام أو غيره بعد الواو بإضمار أن يكون المعنى على الجمع ، ولذلك تقدّر الواو بمعنى مع ، فإذا قلت « أتأتينا وتحدثنا » ونصبت ، كان المعنى على الجمع بين أن أتينا وتحدثنا : أي يكون منك إتيان مع حديث وكذلك قوله : -

أَتَيْتُ رِيَانَ الْجُفُونَ مِنَ الْكَرَى وَأَبَيْتُ مِنْكَ بَلِيلَةَ الْمَلْسُوعِ

معناه « أكون منك مبيت ريان مع مبيتي منك بكذا » وكذلك هذا يكون منك جعل مفسد مع سفك الدماء ، وقال أبو محمد بن عطية النصب بواو الصرف قال : كأنه قال من يجمع أن يفسد وأن يسفك انتهى كلامه . والنصب بواو الصرف ليس من مذاهب البصريين ، ومعنى واو الصرف أن الفعل كان يستحق وجهاً من الإعراب غير النصب ، فيصرف بدخول الواو عليه عن ذلك الإعراب إلى النصب كقوله تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ ﴾ [الشورى : ٣٥] ، في قراءة من نصب ، وكذلك ﴿ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، فقياس الأول الرفع وقياس الثاني الجزم ، فصرفت الواو والفعل إلى النصب ، فسميت واو الصرف ، وهذا عند البصريين منصوب بإضمار أن بعد الواو ، والعجب من ابن عطية أنه ذكر هذا الوجه أولاً ، وثنى بقول المهدي ، ثم قال والأول أحسن ، وكيف يكون أحسن وهو شيء لا يقول به البصريون ، وفساده مذكور في علم النحو ، ولما كانت الصلة (يفسد) ، وهو فعل في سياق الإثبات فلا يدل على التعميم في الفساد نصوا على أعظم الفساد ، وهو سفك الدماء لأنه به وتلاشي الهياكل الجسمانية التي خلقها الله ولو لم ينصوا عليه لجاز أن لا يرد من قولهم (يفسد) وكرر فيها ، لأن في ذلك تنبيهاً على أن ما كان محلاً للعبادة وطاعة الله

كيف يصير محلاً للفساد ، كما مر مثله في قوله (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) ولم يحتج إلى تكرير فيها بعد قوله ويسفك اكتفاء بما سبق وتنكباً أن يكرروا فيها ثلاث مرات ، ألا ترى أنهم نقدوا على أبي الطيب قوله :

وَنَهَبُ نَفُوسٍ أَهْلِ النَّهْبِ أَوْلَى بِأَهْلِ النَّهْبِ مِنْ نَهْبِ الْقُمَاشِ

﴿ ونحن نسبح ﴾ جملة حالية ، والتسبيح التنزيه^(١) قاله قتادة ، أرفع الصوت بذكر الله تعالى ، قاله المفضل والخضوع والتذلل قاله ابن الأنباري ، أو الصلاة : أي نصلي لك (من المسبحين) : أي من المصلين^(٢) قاله ابن مسعود وابن عباس ، أو التعظيم : أي ونحن نعظمك^(٣) قاله مجاهد ، أو تسبيح خاص وهو سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العظمة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، ويعرف هذا بتسبيح الملائكة ، أو بقول سبحان الله وبحمده ، وفي حديث عن عبادة بن الصامت عن أبي ذر أن النبي ﷺ سئل : أي الكلام أفضل ؟ قال ما اصطفى الله لملائكته ، أو لعباده « سبحان الله وبحمده » ﴿ بحمدك ﴾ في موضع الحال والباء فيه للحال أي نسبح ملتبسين بحمدك كما تقول « جاء زيد بثيابه » ، وهي حال متداخلة لأنها حال في حال^(٤) ، وقيل الباء للسبب : أي بسبب حمدك ، والحمد هو الثناء والثناء ناشئ عن التوفيق للخير والإيناعام على المثني فتزل الناشئ عن السبب منزلة السبب ، فقال (ونحن نسبح بحمدك) ، أي بتوفيقك وإيناعامك ، والحمد مصدر مضاف إلى المفعول نحو قوله من دعاء الخير : أي بحمدنا إياك ، والفاعل عند البصريين محذوف في باب المصدر وإن كان من قواعدهم أن الفاعل لا يحذف وليس بمنوي في المصدر ، كما ذهب إليه بعضهم لأن أسماء الأجناس لا يضم فيها ، لأنه لا يضم إلا فيما جرى مجرى الفعل ، إذ الإضممار أصل في الفعل ولا حاجة تدعو إلى أن في الكلام تقديم وتأخير ، كما ذهب إليه بعضهم وإن التقدير « ونحن نسبح ونقدس بحمدك » ، فاعترض (بحمدك) بين المعطوف والمعطوف عليه ، لأن التقديم والتأخير مما يختص بالضرورة ، فلا يحمل كلام الله عليه ، وإنما جاء (بحمدك) بعد (نسبح) لاختلاط التسبيح بالحمد وجاء قوله بعد ﴿ ونقدس لك ﴾ كالتوكيد لأن التقديس هو التطهير ، والتسبيح هو التنزيه والتبرئة من السوء ، فهما متقاربان في المعنى ، ومعنى التقديس كما ذكر بالتطهير ، ومفعوله : أنفسنا لك من الأنداس قاله الضحاك وغيره ، أو أفعالنا من المعاصي ، قاله أبو مسلم : أو لمعنى تكبرك ونعظمك^(٥) قاله مجاهد وأبو صالح ، أو نصلي لك أو نتطهر من أعمالهم يعنون بني آدم^(٦) ، حكى ذلك عن ابن عباس ، أو نظهر قلوبنا عن الالتفات إلى غيرك ، واللام في لك قيل : زائدة أي نقدسك ، وقيل : لام العلة متعلقة بنقدس ، قيل : أو بنسبح ، وقيل : معدية للفعل كهي في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٧٤/١) ، (٦٢٠) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لابن جرير وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٧٤/١) ، عن ابن عباس وابن مسعود (٦١٩) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٧٥/١) ، (٦٢٣) .

(٤) الحال المتداخلة هي الحال الثانية والثالثة إذا اعتبرت حالاً من ضمير المستكن في الحال التي تسبقها نحو قدم محمد متكلماً ضاحكاً مبشراً ، فضكاحاً حال من الضمير في متكلماً ومبشراً حال من الضمير في ضاحكاً وسيأتي كلام المصنف عن الحال المتداخلة في أكثر من موضع في كتابه عند قوله تعالى : (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها ...) الآية - انظر معجم المصطلحات النحوية (٨١) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن أبي صالح ومجاهد وهو في تفسير ابن جرير (٤٧٥/١) ، (٦٢٢ - ٦٢٣) .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن عباس .

سجدت لله ، وقيل : اللام للبيان كاللام بعد « سقياً لك » فتعلق إذ ذاك بمحذوف دلّ عليه ما قبله : أي تقديسنا لك ، والأحسن أن تكون معدية للفعل كهي في قوله (يسبح لله) و (سبح لله) ، وقد أبعد من ذهب إلى أن هذه الجملة من قوله (ونحن نسبح) استفهامية حذف منها أداة الاستفهام ، وأن التقدير أو نحن نسبح بحمدك أم نتغير بحذف الهمزة من غير دليل ، ويحذف معادل الجملة المقدرة دخول الهمزة عليها ، وهي قوله أم نتغير وليس ذلك مثل قوله :

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيّاً بِسَبْعِ رَمِيْنِ الْجَمْرِ أَمْ بِثَمَانٍ^(١)

يريد « أسبع » لأن الفعل المعلق قبل سبع والجزء المعادل بعده يدلان على حذف الهمزة .

ولما كان ظاهر قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) مما لا يناسب أن يجابوا به الله إذ قال لهم (إني جاعل في الأرض خليفة) ، وكان من القواعد الشرعية والعقائد الإسلامية عصمة الملائكة من المعاصي والاعتراض ، لم يخالف في ذلك إلا طائفة من الحشوية ، وهي مسألة يتكلم عليها في أصول الدين ودلائلها مبسطة^(٢) هناك ، احتاج أهل العلم إلى إخراج الآية السابقة عن ظاهرها وحملها كل قائل ممن تقدّم قوله على ما سنح له وقوي عنده من التأويل الذي هو سائغ في علم اللسان ، وقال بعض أهل الإشارات : الملائكة لما توهّموا أن الله تعالى أقامهم في مقام المشورة بأن لهم وجه المصلحة في بقاء الخلافة فيمن يسبح ويقدّس وأن لا ينقلها إلى من يفسد فيها ويسفك ، فعرضوا ذلك على الله وكان ذلك من جملة النصح في الاستشارة ، والنصح في ذلك واجب على المستشار ، والله تعالى الحكم فيما يمضي من ذلك ويختار (ومن أندر) ما وقع في تأويل الآية ما ذهب إليه صاحب كتاب فك الأزرار . وهو الشيخ صفي الدين أبو عبد الله الحسين ابن الوزير أبي الحسن علي بن أبي المنصور الخزرجي قال في ذلك الكتاب : ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوع من الاعتراض وهم منزّهون عن ذلك ، والبيان أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين وكان إبليس مندرجاً في جملتهم فورد منهم الجواب مجملاً ، فلما انفصل إبليس عن جملتهم بيبائه وظهور إبليسيته واستكباره انفصل الجواب إلى نوعين ، فنوع الاعتراض منه كان عن إبليس وأنواع الطاعة والتسبيح والتقدّس كان عن الملائكة ، فانقسم الجواب إلى قسمين كانقسام الجنس إلى جنسين وناسب كل جواب من ظهر عنه والله أعلم انتهى كلامه . وهو تأويل حسن وصار شبيهاً بقوله تعالى (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) لأن الجملة كلها مقولة ، والقائل نوعان فرد كل قول لمن ناسبه ، وقيل في قوله (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) إشارة إلى جواز التمدح إلى من له الحكم في التولية ممن يقصد الولاية إذا أمن على نفسه الجور والحيث ، ورأى في ذلك مصلحة ، ولذلك جاز ليوסף على نبينا وعليه السلام طلبه الولاية ومدح نفسه بما فيها فقال ﴿ اجعلني على خزائن الأرض أني حفيظ عليم ﴾ [يوسف : ٥٥] ، قال إني أعلم مضارع علم وما مفعولة بها موصولة قيل أو نكرة موصوفة وقد تقدم أنا لا نختار كونها نكرة موصوفة ، وأجاز مكّي بن أبي طالب والمهدوي وغيرهما أن تكون (أعلم) هنا اسماً بمعنى فاعل ، وإذا كان كذلك جاز في ما أن تكون مجرورة بالإضافة ، وأن تكون في موضع نصب

(١) البيت من الطويل لعمر بن أبي ربيعة ديوانه (٢٠٩) ، انظر الكتاب (١٧٤/٣ - ١٧٥) ، المقتضب (٢٩٤/٣) ، البيان لابن

الأنباري (١٥/١) ، ضرائر الشعر (١٥٨) ، الخزائن (١٢٢/١١) ، شرح شواهد المغني (٣١) .

(٢) والقول الحق الذي يجب اعتقاده أنهم معصومون لقوله تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقال (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقال (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) أما قوله تعالى (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) مما يوهّم عدم عصمتهم حيث قيل فيها عيبة لآدم - وتركية لنفوسهم - واتباع للظن فقد أجيب عنه بأنهم لم يكن غرضهم تعيب آدم ولا تركية نفوسهم بل غرضهم السؤال عن الحكمة وقد علموا ما قالوا من اللوح المحفوظ وما نقل من قصة هاروت وماروت مما ذكره المؤرخون لم يصح فيه شيء من الأخبار بل هو افتراء اليهود .

لأن هذا الاسم لا ينصرف ، وأجاز بعضهم أن تكون أفعال التفضيل ، والتقدير « أعلم منكم » وما منصوبة بفعل محذوف يدل عليه أعلم : أي علمت وأعلم ما لا تعلمون ، وهذا القول فيه خروج عن الظاهر ، وادعاء حذفين أحدهما حذف المفضل عليه وهو منكم ، والثاني الفعل الناصب للموصول ، وأما ما أجازته مكي فهو مبني على أمرين غير صحيحين ، أحدهما ادعاء أن أفعال تأتي بمعنى فاعل وهذا قال به أبو عبيدة من المتقدمين وخالفه النحويون ، وردوا عليه قوله وقالوا لا يخلو أفعال من التفضيل وإن كان يوجد في كلام بعض المتأخرين أن أفعال قد يخلو من التفضيل ، وبنوا على ذلك جواز مسألة يوسف أفضل إخوته حتى أن بعضهم ذكر في جواز اقتياسه خلافاً تسليماً منه أن ذلك مسموع من كلام العرب ، فقال واستعماله عارياً دون من مجرداً عن معنى التفضيل مؤولاً باسم فاعل أو صفة مشبهة مطرد عند أبي العباس ، والأصح قصره على السماع انتهى كلامه ، والأمر الثاني أنه إذا سلم وجود « أفعال » عارياً من معنى التفضيل ، فهو يعمل عمل اسم الفاعل أم لا ؟ والقائلون بوجود ذلك لا يقولون بإعماله عمل اسم الفاعل إلا بعضهم فأجاز ذلك ، والصحيح ما ذهب إليه النحويون المتقدمون من كون أفعال لا يخلو من التفضيل ولا مبالاة بخلاف أبي عبيدة لأنه كان يضعف في النحو ولا بخلاف بعض المتأخرين لأنهم مسبقون بما هو كالإجماع من المتقدمين ، ولو سلمنا سماع ذلك من العرب فلا نسلم اقتياسه لأن المواضع التي أوردت دليلاً على ذلك في غاية من القلة مع أنها قد تؤولت ، ولو سلمنا اقتياس ذلك فلا نسلم كونه يعمل عمل اسم الفاعل وكيف ثبت قانوناً كلياً ولم نسمع من العرب شيئاً من افراد تركيباته ، لا يحفظ « هذا رجل أضرب عمرأ » بمعنى « ضارب عمرأ » ولا « هذه امرأة أقتل خالدأ » بمعنى « قاتلة خالدأ » ولا « مرتت برجل أكسى زيدأ جبة » بمعنى « كاس زيدأ جبة » ، وهل هذا إلا إحداث تراكيب لم تنطق العرب بشيء من نظيرها فلا يجوز ذلك ، وكيف يعدل في كتاب الله عن الشيء الظاهر الواضح من كون أعلم فعلاً مضارعاً إلى هذا الذي هو كما رأيت في علم النحو ، وإنما طولت في هذه المسألة لأنهم يسلكون ذلك في مواضع من القرآن سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى ، فينبغي أن يتجنب ذلك ، ولأن استعمال أفعال عارية من معنى التفضيل مشهور عند بعض المتأخرين ، فنبت على ما في ذلك والمسألة مستوفاة الدلائل تذكر في علم النحو ﴿ ما لا تعلمون ﴾ الذي مدح الله به نفسه من العلم دونهم علمه ما في نفس إبليس مع البغي والمعصية^(١) قاله ابن عباس ومجاهد والسدي عن أشياخه أو علمه بأنه يكون من ذلك الخليفة أنبياء وصالحون^(٢) قاله قتادة ، أو علمه بمن يملأ جهنم من الجنة والناس قاله ابن زيد ، أو علمه بعواقب الأمور فيبتلى من تظنون أنه مطيع فيؤديه الابتلاء إلى المعصية ومن تظنون أنه عاص فيؤديه الابتلاء إلى الطاعة فبطيع قاله الزجاج ، أو علمه بظواهر الأمور وباطنها جليها ودقيقها عاجلها وآجلها صالحها وفاسدها على اختلاف الأحوال والأزمان علماً حقيقياً وأنتم لا تعلمون ذلك ، أو علمه بغير اكتساب ولا نظر ولا تدبر ولا فكر وأنتم لا تعلمون المعلومات على هذا النسق ، أو علمه بأن معهم إبليس ، أو علمه باستعظامكم أنفسكم بالتسبيح والتقديس ، والذي يدل عليه ظاهر اللفظ أنه أخبرهم ، إذا تكلموا بالجملة السابقة التي هي (أتجعل فيها) بابه يعلم ما لا تعلمون ، وأبهم في إخباره الأشياء التي يعلمها دونهم ، فإذا كان كذلك فإخباره بأنه يجعل في الأرض خليفة يقتضي التسليم له والرجوع إليه فيما أراد أن يفعله والرضا بذلك ، لأن علمه محيط بما لا يحيط به علم عالم جل الله وعز ، والأحسن أن يفسر هذا المبهم بما أخبر به تعالى عنه من قوله (قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض) الآية ﴿ وعلم آدم الأسماء

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لوكيع وسفيان بن عيينة وعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٧٦/١ - ٤٧٧) ، (٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٦/١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٧٩/١) ، (٦٣٩) .

كلها ﴿ لما أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال أراد أن يفصل بين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوماً لهم ، وذلك بأن علمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم ، فتأكد الجواب الإجمالي بالتفصيل ، ولا بد من تقدير جملة محذوفة قبل هذا لأنه بها يتم المعنى ، ويصح هذا العطف وهي فجعل في الأرض خليفة ، ولما كان لفظ الخليفة محذوفاً مع الجملة المقدرة أبرزه في قوله وعلم آدم ناصباً عليه ومنوهاً بذكره باسمه ، وأبعد من زعم أن وعلم آدم معطوف على قوله (قال) من قوله تعالى (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل) .

وهل التعليم بتكليم الله تعالى له في السماء كما كلم موسى في الأرض أو بوساطة ملك أو بالإلهام .

أقوال أظهرها أن الباري تعالى هو المعلم لا بواسطة ولا إلهام ، وقرأ اليماني ويزيد اليزيدي^(١) (وعُلم) آدم مبنياً للمفعول ، وحذف الفاعل للعلم به والتضعيف في علم للتعدي إذ كان قبل التضعيف يتعدى لواحد فعدي به إلى اثنين ، وليست التعدي بالتضعيف مقيسة إنما يقتصر فيه على مورد السماع ، سواء كان الفعل قبل التضعيف لازماً أم كان متعدياً نحو « علم » المتعدية إلى واحد ، وأما إن كان متعدياً إلى اثنين فلا يحفظ في شيء منه التعدي بالتضعيف إلى ثلاث ، وقد وهم القاسم بن علي الحريري^(٢) في زعمه في شرح الملح له أن علم تكون منقولة من علم التي تتعدى إلى اثنين فتصير بالتضعيف متعدية إلى ثلاثة ولا يحفظ ذلك من كلامهم ، وقد ذهب بعض النحويين إلى اقتباس التعدي بالتضعيف (قال الإمام) أبو الحسين بن أبي الربيع^(٣) في كتاب التلخيص من تأليفه الظاهر من مذهب سيبويه أن النقل بالتضعيف سماع في المتعدي واللازم .

وفيه علمه أقوال :

أسماء جميع المخلوقات^(٤) قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة .

أو اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وعزي إلى ابن عباس وهو قريب من الأول .

أو جميع اللغات ثم كلم كل واحد من بنيه بلغة فترقوا في البلاد واختص كل فرقة بلغة .

أو كلمة واحدة تفرع منها جميع اللغات .

أو أسماء النجوم فقط قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

أو أسماء الملائكة فقط^(٥) قاله الربيع بن خيثم^(٦) .

(١) يزيد من محمد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن رفاعة أبو خالد اللخمي الغرناطي كان بصيراً بالقراءات وعللها توفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة عن أربع وسبعين سنة غاية النهاية (٣٨٤/٢) .

(٢) العلامة البارع ذو البلاغتين أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الخزاعي - محلة بالبصرة - الحريري صاحب المقامات توفي في سادس من رجب سنة ست عشرة وخمسمائة بالبصرة - سير أعلام النبلاء (١٩/٤٦٠) .

(٣) عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الإمام أبو الحسن بن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني الإشبيلي إمام أهل النحو في زمانه توفي سنة ثمان وثمانين وستمائة - البغية (١٢٥/٢) (١٢٦) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٩/١) ، وعزاه لوكيع وابن جرير عن ابن عباس وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٨٢/١ - ٤٨٣) ، (٦٤٦ - ٦٥١) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٩/١) ، وعزاه لابن جرير وهو عنده في التفسير (٤٨٥/١) ، (٦٥٩) .

(٦) الربيع بن خيثم - بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة الثوري أبو يزيد الكوفي مخضرم توفي سنة أربع وستين - الخلاصة (٣١٨ - ٣١٩) ، السير (٢٥٨/٤) .

أو أسماء ذريته^(١) قاله الربيع بن زياد^(٢) .

أو أسماء ذريته والملائكة^(٣) قاله الطبري ، واختاره .

أو أسماء الأجناس التي خلقها علمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية واختاره الزمخشري^(٤) .

أو أسماء ما خلق في الأرض قاله ابن قتيبة .

أو الأسماء بلغة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها .

أو علمه كل شيء حتى نحو سيبويه قاله أبو علي الفارسي .

أو أسماء الله عز وجل قاله الحكيم الترمذي^(٥) .

أو أسماء من أسمائه المخزونة فعلم بها جميع الأسماء قاله الجريري .

أو التسميات ، ومعنى هذا علمه أن يسمى الأشياء ، وليس المعنى علمه الأسماء لأن التسمية غير الاسم قاله الجمهور ، وحالة تعليمه تعالى آدم هل عرض عليه المسميات ، أو وصفها له ولم يعرضها عليه قولان .

قال بعض من عاصرناه : المختار أسماء ذريته وعرفه العاصي والمطيع ليعرف الملائكة بأسمائهم وأفعالهم رداً عليهم قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) الأسماء كلها يحتمل أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه لدلالة الأسماء عليه قال الزمخشري^(٦) وعوض منه اللام كقوله ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ [مريم : ٤] ، انتهى . وقد تقدم لنا أن اللام عوض من الإضافة ليس مذهب البصريين ، ويحتمل أن يكون التقدير : مسميات الأسماء فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ويترجح الأول وهو تعليق التعليم بالأسماء تعلق الإناء به في قوله (أنبئوني بأسماء هؤلاء) والآية التي بعدها ولم يقل أنبئوني بهؤلاء ، ولا أنبئهم بهم ، ويترجح الثاني بقوله (ثم عرضهم) إذا حمل على ظاهره لأن الأسماء لا تجمع كذلك فدل على عوده على المسميات نحو قوله تعالى ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه ﴾ [النور : ٤٠] ، التقدير ، أو كذي ظلمات فعاد الضمير من يغشاه على ذي المحذوفة القائم مقامها في الإعراب ظلمات والذي يدل عليه ظاهر اللفظ أن الله علم آدم الأسماء ولم يبين لنا أسماء مخصوصة بل دل قوله تعالى كلها على الشمول والحكمة حاصلة بتعليم الأسماء وإن لم تعلم مسمياتها ، ويحتمل أن يريد بالأسماء المسميات فيكون من إطلاق اللفظ ويراد به مدلوله ﴿ ثم عرضهم ﴾ ثم حرف تراخ ومهلة علم آدم ثم أمهله من ذلك الوقت إلى أن قال أنبئهم بأسمائهم ليتقرر ذلك في قلبه ويتحقق المعلوم ثم أخبره عما تحقق به وأستيقنه ، وأما الملائكة فقال لهم على وجه التعقيب دون مهلة (أنبئوني) فلما لم يتقدم لهم تعريف لم يخبروا ولما تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ونطق إظهاراً لعنايته السابقة به

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٩/١) ، وعزه لابن جرير عن ابن زيد وهو عند ابن جرير في تفسيره (٤٨٥/١) ، (٦٦٠) .

(٢) الربيع بن زياد بن أنس بن الريان قتل مع أبي موسى الأشعري شهيداً يوم بُسْتَر - طبقات ابن سعد (٢٠٢/٦) .

(٣) انظر تفسير ابن جرير الطبري (٤٨٥/١ - ٤٨٦) .

(٤) انظر الكشف (١٢٦/١) .

(٥) محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله الحكيم الترمذي - وهو غير الترمذي أبو عيسى صاحب السنن - انظر حلية الأولياء

(٢٣٣/١٠) ، والسير (٤٣٩/١٣) .

(٦) انظر الكشف (١٢٦/١) .

سبحانه ، (عرضهم) خلقهم وعرضهم عليهم^(١) قاله ابن مسعود ، أو صورهم لقلوب الملائكة ، أو عرضهم وهم كالذر ، أو عرض الأسماء^(٢) قاله ابن عباس ، وفيه جمعها بلفظة هم ، والظاهر أن ضمير النصب في عرضهم يعود على المسميات ، وظاهره أنه للعقلاء فيكون إذ ذاك المعنى بالأسماء أسماء العاقلين أو يكون فيهم غير العقلاء وغلب العقلاء ، وقرأ أبي (ثم عرضها) ، وقرأ عبد الله ثم عَرَضَهُنَّ ، والضمير عائد على الأسماء فتكون هي المعروضة أو يكون التقدير مسمياتها فيكون المعروض المسميات لا الأسماء ، ﴿ على الملائكة ﴾ ظاهره العموم ، فقيل : هو مراد وقيل الملائكة الذين كانوا مع إبليس في الأرض ﴿ فقال ﴾ الفاء للتعقيب ولم يتخلل بين العرض والأمر مهلة بحيث يقع فيها ترو أو فكر وذلك أجدر بعدم الإضافة ﴿ أنبئوني ﴾ أمر تعجيز لا تكليف ، وقرأ الأعمش (أنبئوني) بغير همز وقد استدل بقوله (أنبئوني) على جواز تكليف ما لا يطاق ، وهو استدلال ضعيف لأنه على سبيل التبكيت ، ويدل عليه (إن كنتم صادقين) ﴿ بأسماء هؤلاء ﴾ ظاهره حضور أشخاص حالة العرض على الملائكة ، ومن قال إن المعروض إنما هي أسماء فقط جعل الإشارة إلى أشخاص الأسماء وهي غائبة إذ قد حضر ما هو منها بسبب وذلك أسماؤها وكأنه قال لهم في كل اسم لأي شخص هذا الاسم ، وهذا فيه بعد وتكلف وخروج عن الظاهر بغير داعية إلى ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ شرط جوابه محذوف تقديره «فأنبئوني» يدل عليه أنبئوني السابق ولا يكون أنبئوني السابق هو الجواب هذا مذهب سيبويه ، وجمهور البصريين ، وخالف الكوفيون وأبو زيد وأبو العباس فزعموا أن جواب الشرط هو المتقدم في نحو هذه المسألة هذا هو النقل المحقق ، وقد وهم المهدي وتبعه ابن عطية فزعموا أن جواب الشرط محذوف عند المبرد التقدير فأنبئوني إلا إن كانا اطلعا على نقل آخر غريب عن المبرد يخالف مشهور ما حكاه الناس فيحتمل ، وكذلك وهم ابن عطية وغيره فزعموا أن مذهب سيبويه تقديم الجواب على الشرط ، وأن قوله (أنبئوني) المتقدم هو الجواب والصدق هنا هو الصواب : أي « إن كنتم مصيبين » كما يطلق الكذب على الخطأ كذلك يطلق الصدق على الصواب ، ومتعلق الصدق فيه أقوال إن كنتم صادقين أي لا أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه لأنه هجس في أنفسهم أنهم أعلم من غيرهم ، أو فيما زعمتم أن خلفائي يفسدون في الأرض ، أو فيما وقع في نفوسكم أي لا أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منه ، أو بأمور من استخلفهم بعدكم ، أو إني إن استخلفتكم فيها سبحتموني وقدستموني ، وإن استخلفت غيركم فيها عصاني ، أو في قولكم إنه لا شيء مما يتعبد به الخلق إلا وأنتم تصلحون له وتقومون^(٣) به ، قال ابن مسعود وابن عباس ، أو في ذلك إنباء وجواب السؤال بالأسماء ، روي أن الملائكة حين خلق الله آدم قالت يخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً أعلم منا ولا أكرم عليه فأراد أن يريهم من علم آدم وكرامته خلاف^(٤) ما ظنوا وقالوا ولقوله (إن كنتم صادقين) لم يجز لهم الاجتهاد إذ لو لم يقيد بالصدق وهو الإصالة لجاز الاجتهاد كما جاز للذي قال له (كم لبثت) ولم يشترط عليه الإصالة لم يصب ولم يعنف ، وأبعد من ذهب إلى أن الصدق هنا ضد الكذب المتعارف لعصمة الملائكة ، كما أبعد من جعل « أن » بمعنى « إذ » فأخرجها عن الشرطية إلى الظرفية وإذا التقت همزتان مكسورتان من كلمتين نحو « هؤلاء إن كنتم » ، فورش وقبل يبدلان الثانية ياء ممدودة ، إلا أن ورشاً في (هؤلاء إن كنتم) و (على البغاء إن أردن) يجعل الياء مكسورة ، وقالون والبزي يلينان الأولى ويحققان الثانية وعنهما في (بالسوء) إلا وجوه :

أحدها : هذا الأصل الذي تقرر لهما .

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤٨٧/١) ، (٦٦٢) ، عن ابن عباس وابن مسعود .

(٢) ذكره ابن جرير في تفسيره (٤٨٧/١) ، (٦٦١) عن ابن عباس .

(٣) انظر تفسير الطبري (٤٩٠/١) .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٩/١) ، وعزه لابن جرير عن مجاهد .

الثاني : إبدال الهمزة الأولى واواً مكسورة وإدغام الواو الساكنة قبلها فيها وتحقيق الثانية .

الثالث : إبدال الهمزة الأولى ياء نحو بالسوى .

الرابع : إبدالها واواً من غير إدغام نحو السو ، وقرأ « أبو عمرو » بحذف الأولى ، وقرأ « الكوفيون » وابن عامر بتحقيق الهمزتين ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا ﴾ أي تنزيهك عن الادعاء وعن الاعتراض ، وقيل معناه تنزيه لك بعد تنزيه لفظه تنزيه ، والمعنى كذلك كما قالوا في لبيك ومعناه تلبية بعد تلبية ، وهذا قول غريب يلزم عنه أن مفردة يكون سبحاً ، وأنه لا يكون منصوباً بل مرفوعاً ، وأنه لم تسقط النون للإضافة وأنه التزم فتحها ، والكاف في (سبحانك) مفعول به أضيف إليه ، وأجاز بعضهم أن يكون فاعلاً لأن المعنى تنزهت وقد ذكرنا حين تكلمنا على المفردات أنه منصوب على معنى المصدر بفعل من معناه واجب الحذف ، وزعم الكسائي : أنه منادى مضاف ، ويطلبه أنه لا يحفظ دخول حرف النداء عليه ، ولو كان منادى لجاز دخول حرف النداء عليه ونقل لنا ، ولما سأل تعالى الملائكة ولم يكن عندهم علم بالجواب ، وكانوا قد سبق منهم قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) الآية أرادوا أن يجيبوا بعدم العلم إلا ما علمهم فقدموا بين يدي الجواب تنزيه الله اعتذاراً وأدباً منهم في الجواب وإشعاراً بأن ما صدر منهم قبل يمحوه هذا التنزيه لله تعالى فقالوا (سبحانك) ثم أجابوا بنفي العلم بلفظ « لا » التي بنيت معها النكرة فاستغرق كل فرد من أنواع العلوم ثم استثنوا من ذلك ما علمهم هو تعالى فقالوا ﴿ إلا ما علمتنا ﴾ وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام للمعلم الأول الله تعالى ، قال أبو عثمان المغربي^(١) ما بلاء الخلق إلا الدعوى ، ألا ترى أن الملائكة لما قالوا (ونحن نسبح بحمدك) كيف رُدُّوا إلى الجهل حتى قالوا (لا علم لنا) ؟ ، وروي معنى هذا الكلام عن جعفر الصادق ، وخبر لا علم في الجار والمجرور ، وتقدم لنا الكلام في (لا ريب فيه) و (لا علم) مثله فأغنى عن إعادته و (ما) موصولة يحتمل أن تكون في موضع نصب على الاستثناء ، والأولى أن تكون في موضع رفع على البدل ، وحكى ابن عطية عن الزهراوي : أن موضع ما من قولهم (ما علمتنا) نصب بعلمتنا ، وهذا غير معقول ، ألا ترى أن ما موصولة وأن الصلة علمتنا وأن الصلة لا تعمل في الموصول ، ولكن يتكلف له وجه وهو أن يكون استثناء منقطعاً فيكون معنى « إلا » « لكن » على التقدير الذي استقر في الاستثناء المنقطع ، وتكون « ما » شرطية منصوبة بعلمتنا ، ويكون الجواب محذوفاً كأنهم نفوا أولاً سائر العلوم ، ثم استدركوا أنه في المستقبل : أي شيء علمهم علموه ويكون هذا أبلغ في ترك الدعوى إذ محوا أنفسهم من سائر العلوم ، ونفوا جميعها ، فلم يستثنوا لهم شيئاً سابقاً ماضياً تحلوا به بل صاروا إلى الجهل الصرف والتبري من كل علم ، وهذا الوجه ينافي ما روى أنه كان أعلمهم تعالى أو علموا بإطلاع من اللوح بأنه سيكون في الأرض من يفسد ويسفك ، فإذا صح هذا كانوا قد بالغوا في نفي كل علم عنهم وجعلوا هذا العلم الخاص كالمعدوم ، ومن اعتقد أن الملائكة غير معصومين جعل قولهم (لا علم لنا) توبة ، ومن اعتقد عصمتهم قال : قالوا ذلك على وجه الاعتراف بالعجز والتسليم بأنهم لا يعلمون إلا ما علموا أو قالوا (أتجعل فيها) الآية لأنه أعلمهم بذلك ، وأما الأسماء فكيف يعلمونها وما أعلمهم ذلك ، ولما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه من المبالغة فيه ، ثم أردفوا الوصف بالعلم الوصف بالحكمة لأنه سبق قوله (إني جاعل في الأرض خليفة) فلما صدر من هذا المَجْعول خليفة ما صدر من فضيلة العلم تبين لهم وجه الحكمة في قوله وجعله خليفة ، فانظر إلى حسن هذا الجواب كيف قدموا بين يديه تنزيه الله ثم اعترفوا بالجهل ، ثم نسبوا إلى الله العلم والحكمة ، وناسب تقديم الوصف

(١) سعيد بن سلام القيرواني أبو عثمان المغربي نزير نيسابور توفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة - السير (١٦/٣٢٠) ، تاريخ بغداد

بالعلم على الوصف بالحكمة لأنه المتصل به في قوله وعلم أنبئوني لا علم لنا فالذي ظهرت به المزية لأدم والفضيلة هو العلم ، فناسب ذكره متصلاً به ، ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه ، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ، ولأن يكون آخر مقالهم مخالفاً لأوله حتى يبين رجوعهم عن قولهم (أنجعل فيها) وعلى القول بأن (الحكيم) هو ذو الحكمة يكون (الحكيم) صفة ذات ، وعلى القول بأنه المحكم لصنعه يكون صفة فعل ، و (أنت) يحتمل أن يكون توكيداً للضمير فيكون في موضع نصب أو مبتدأ فيكون في موضع رفع ، و (العليم) خبره ، أو فصلاً فلا يكون له موضع من الإعراب على رأي البصريين ، ويكون له موضع من الإعراب على رأي الكوفيين ، فعند الفراء موضعه على حسب الاسم قبله وعند الكسائي على حسب الاسم بعده ، والأحسن أن يحمل (العليم الحكيم) على العموم ، وقد خصه بعضهم فقال : (العليم) بما أمرت ونهيت (الحكيم) فيما قدرت وقضيت ، وقال آخر : (العليم) بالسر والعلانية و (الحكيم) فيما يفعله وهو قريب من الأول ، ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ نادى آدم باسمه العلم ، وهي عادة الله مع أنبيائه قال تعالى (يا نوح اهبط بسلام منا) (يا نوح إنه ليس من أهلك) (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) (يا موسى إني أنا الله) (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك) ، ونادى محمداً نبياً ﷺ وعلى سائر الأنبياء بالوصف الشريف من الإرسال والإنابة فقال (يا أيها الرسول) (يا أيها النبي) فانظر تفاوت ما بين هذا النداء وذاك النداء ، والضمير في (أنبئهم) عائد إلى الملائكة وفي أسمائهم عائد على المعروضين على الخلاف السابق ، قال القشيري^(١) من آثار العناية بآدم عليه السلام لما قال للملائكة (أنبئوني) داخلهم من هيئة الخطاب ما أخذهم عنهم لا سيما حين طالبهم بإنبائهم إياه ما لم تحط بهم علومهم ، ولما كان حديث آدم رده في الإنابة إليهم فقال (أنبئهم بأسمائهم) ومخاطبة آدم للملائكة لم توجب الاستغراق في الهيئة فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنه علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال (ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات) يعني ما تقاصرت عنه علوم الخلق (وأعلم ما تبدون) من الطاعات و (تكتُمون) من اعتقاد الخيرية على آدم انتهى كلام القشيري . والجملة المفتحة بالقول إذا كانت مرتباً بعضها على بعض في المعنى فالأصح في لسان العرب أنها لا يؤتى فيها بحرف ترتب اكتفاء بالترتيب المعنوي نحو قوله تعالى (قالوا أتجعل فيها) أتى بعده (قال إني أعلم) ونحو (قالوا سبحانك) (قال يا آدم أنبئهم) ، ونحو ﴿ قال لاقتلنك قال إنما يتقبل الله ﴾ [المائدة : ٢٧] ، (قال أن يحيي هذه الله) ﴿ قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ، ﴿ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، وقد جاء في سورة الشعراء من ذلك عشرون موضعاً في قصة موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام في إرساله إلى فرعون ومحاورته معه ومحاورة السحرة إلى آخر القصة دون ثلاثة جاء منها اثنان جواباً ، وواحد كالجواب ، ونحو هذا في القرآن كثير ، وقرأ الجمهور (أنبئهم) بالهمز وضم الهاء ، وهذا الأصل كما تقول أكرمهم ، وروي عن ابن عباس (أنبئهم) بالهمز وكسر الهاء ووجهه أنه أتبع حركة الهاء لحركة الباء ولم يعتد بالهمزة لأنها ساكنة فهي حجاز غير حصين ، وقرأ (أنبيهم) بإبدال الهمزة ياء وكسر الهاء ، وقرأ الحسن والأعرج وابن كثير من طريق القواس (أنبهم) على وزن أعطهم ، قال ابن جني هذا على إبدال الهمزة ياء على أنك تقول أنبئت كأعطيت قال وهذا ضعيف في اللغة لأنه بدل لا تخفيف ، والبديل عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر انتهى كلام أبي الفتح . وما ذكر من أنه لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ليس بصحيح (حكى) الأحمش في الأوسط أن العرب تحول من الهمزة موضع اللام ياء فيقولون « قَرِيتُ وَأَخْطِيتُ وَتَوَضَّيْتُ » قال وربما حولوه إلى الواو وهو قليل

(١) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد الإمام أبو القاسم القشيري النيسابوي توفي يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة - إنباه الرواة (١٩٣/٢) ، الشذرات (٣١٩/٣) .

نحو « رفوت » والجيد « رفأت » ولم أسمع « رفيت » انتهى كلام الأخفش . ودل ذلك على أنه ليس من ضرائر الشعر كما ذكر أبو الفتح وهو قوله تعالى (أنبئهم بأسمائهم) وقوله ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم ﴾ جملة محذوفة التقدير فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى وفي قوله (أنبئوني) فلما أنبأهم تنبيه على إعلام الله أنه قد أعلم الله أنه قد أعلم آدم من أحوالهم ما لم يعلمهم من حاله لأنهم رأوه قبل النفخ مصوراً فلم يعلموا ما هو ، وعلى أنه رفع درجة آدم عندهم لكونه قد علم لآدم ما لم يعلمهم وعلى إقامته مقام المفيد المعلم وإقامتهم مقام المستفيدين منه لأنه أمره أن يعلمهم أسماء الذين عرضهم عليهم وعلى أدبهم على ترك الأدب من حيث قالوا (أتجعل فيها) فإن الطوعية المحضة أن يكونوا مع عدم العلم بالحكمة فيما أمروا به ، وعدم الاطلاع على ذلك الأمر ومصلحته ومفسدته كهم مع العلم والإطلاع ، وكان الامثال والتسليم بغير تعجب ولا استفهام أليق بمقامهم لطهارة ذواتهم وكمال صفاتهم ، وفي كتاب بعض من عاصرناه . قالت المعتزلة : ظهر من آدم عليه السلام في علمه بالأسماء معجزة دالة على نبوته في ذلك الوقت ، والأقرب أنه كان مبعوثاً إلى حواء ولا يبعد أن يكون أيضاً مبعوثاً إلى من توجه التحدي إليهم من الملائكة لأن جميعهم وإن كانوا رسلاً ، فقد يجوز الإرسال إلى الرسول كبعثه إبراهيم عليه السلام إلى لوط عليه السلام ، واحتجوا بكونه ناقضاً للعادة ، ولقائل أن يقول : حصول العلم باللغة لمن علمه الله وعدم حصوله لمن لم يعلم ليس بناقض للعادة ، وأيضاً فالملائكة أما ان علموا وضع تلك الأسماء للمسميات فلا مزية أولاً فكيف علموا إصابته في ذلك ، والجواب من وجهين :

أحدهما : أنه ربما يكون لكل صنف منهم لغة ثم حضر جميعهم فعرف كل صنف إصابته في تلك اللغة إلا أنهم بأسرهم عجزوا عن معرفتها بأسرها .

الثاني : أن الله عرفهم الدليل على صدقه ولم لا يكون من باب الكرامات أو من باب الإرهاص .

واحتج من قال لم يكن نبياً بوجوه :

أحدها : صدور المعصية عنه بعد وذلك غير جائز على النبي .

وثانيها : أنه لو كان مبعوثاً لكان إلى أحد لأن المقصود منه التبليغ وذلك لا يكون للملائكة لأنهم أفضل ولا حواء لأنها مخاطبة بلا واسطة بقوله (ولا تقربا) ولا الجن لأنهم لم يكونوا في السماء .

وثالثها : قوله (ثم اجتبه) وهذا يدل على أن الاجتباء كان بعد الزلة والنبي لا بد أن يكون مجتبي وقت كونه نبياً ﴿ قال ألم أقل لكم ﴾ جواب (فلما) وقد تقدم ذكر الخلاف في (لما) المقتضية للجواب أي حرف أم ظرف ؟ ورجحنا الأول ، وذكرنا أنه مذهب سيويه و (ألم أقل) تقرير لأن الهمزة إذا دخلت على النفي كان الكلام في كثير من المواضع تقريراً لنحو قوله تعالى ﴿ ألسنت بربكم ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الأنشراح : ١] ، ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ [الشعراء : ١٨] ، ولذلك جاز العطف على جملة إثباتية نحو (ووضعنا) و (لبث) ، و (لكم) فيه تنبيههم بالخطاب وهزمهم لسماع المقول نحو قوله (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) ، نه في الثانية بالخطاب وقد تقدم أن اللام في نحو قلت لك « أولزيد » للتبليغ وهو أحد المعاني التي ذكرناها فيها ﴿ إني أعلم ﴾ بآء المتكلم المتحرك ما قبلها إذا لقيت همزة القطع المفتوحة جاز فيها وجهان التحريك والإسكان ، وقرئ بالوجهين في السبعة على اختلاف بينهم في بعض ذلك وتفصيل ذلك مذكور في كتب القراءات ، وسكنوا في السبعة إجماعاً فتنتي الا « أرني أنظر » « فاتبعني أهدك » و « ترحميني أكن » ولا يظهر بشيء من اختلافهم واتفاقهم علة إلا اتباع الرواية ، والخلاف الذي تقدم في أعلم من كونه منصوباً أو مجروراً جاز هنا ، وقد تقدم إيضاحه هناك فلا نعيده هنا ، وقد حكى ابن عطية عن المهدوي ما نصه : قال المهدوي : « ويجوز أن يكون قوله أعلم اسماً بمعنى التفضيل

في العلم فتكون ما في موضع خفض بالإضافة » ، قال ابن عطية وإذا قدر الأول اسماً فلا بد بعده من إضمار فعل ينصب غيب ، تقديره « إني أعلم من كل أعلم غيب وكونها في الموضعين فعلاً مضارعاً أخصر وأبلغ انتهى . وما نقله ابن عطية عن المهدوي وهم (والذي) ذكر المهدوي في تفسيره ما نصه : « وأعلم ما تبدو أن ينتصب ما بأعلم على أنه فعل ، ويجوز أن يكون بمعنى عالم أو يكون ما جراً بالإضافة ويجوز أن يقدر التنوين في أعلم إذا قدرته بمعنى عالم وتنصب ما به فيكون بمعنى حواج بيت الله انتهى . فأنت ترى أنه لم يذهب إلى أن أفعل للتفضيل وأنه لم يجز الجر في ما والنصب وتكون أفعل اسماً إلا إذا كان بمعنى فاعل لا أفعل تفضيل ، ولا يمكن أن يقال ما نقله ابن عطية عن المهدوي من جواز أن يكون أعلم أفعل بمعنى التفضيل وخفض ما بالإضافة البتة ﴿ غيب السموات والأرض ﴾ تقدم الكلام على هذه الألفاظ الثلاثة واختلف في الغيب هنا ف قيل : غيب السموات أكل آدم وحواء من الشجرة لأنها أول معصية وقعت في السماء ، وغيب الأرض قتل قابيل هابيل لأنها أول معصية كانت في الأرض ، وقيل : غيب السموات ما قضاه من أمور خلقه ، وغيب الأرض ما فعلوه فيها بعد القضاء ، وقيل غيب السموات : ما غاب عن ملائكته المقربين وحملته عرشه مما استأثر به تعالى من أسرار الملكوت الأعلى ، وغيب الأرض : ما أخفاه عن أنبيائه وأصفياؤه من أسرار ملكوته الأدنى وأمور الآخرة الأولى ﴿ وأعلم ما تبدو وما كنتم تكتمون ﴾ قال علي وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم أجمعين : (ما تبدو) الضمير^(١) للملائكة ، و (ما كنتم تكتمون) يعني إبليس ، فيكون من خطاب الجمع ويراد به الواحد نحو (إن الذين ينادونك) ، وروي أن إبليس مرّ على جسد آدم بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح فقال لأمر ما خلق هذا ، ثم دخل من فيه وخرج من دبره ، وقال : إنه خلق لا يتمالك لأنه أجوف ، ثم قال للملائكة الذين معه : أرأيتم إن فضل هذا عليكم وأمرتم بطاعته ما تصنعون ؟ قالوا نطيع الله ، فقال إبليس في نفسه « والله لئن سلطت عليه لأهلكنه ولئن سلط عليّ لأعطينه فهذا قوله تعالى وأعلم ما تبدو الآية ، يعني من قول الملائكة وكنتم إبليس ، وقال الحسن وقتادة : ما أبدوه هو قولهم أتجعل فيها ، وما كنتموه قولهم لن يخلق الله أكرم عليه منا ، وقيل : ما أبدوه قولهم أتجعل فيها ، وما كنتموه : أضمره من الطاعة لله والسجود لآدم ، وقيل : ما أبدوه هو الإقرار بالعجز ، وما كنتموه : الكراهية لاستخلاف آدم عليه السلام ، وقيل : هو عامٌ فيما أبدوه وما كنتموه من كل أمورهم ، وهذا هو الظاهر .

وأبرز الفعل في قوله (وأعلم) ليكون متعلقة جملة مقصودة بالعامل فلا يكون معمولها مندرجاً تحت الجملة الأولى وهو يدل على الاهتمام بالإخبار ، إذ جعل مفرداً بعامل غير العامل الأول ، وعطف قوله (وما كنتم تكتمون) هو من باب الترتيبي في الإخبار لأن علم الله تعالى واحد لا تفاوت فيه بالنسبة إلى شيء من معلوماته جهراً كان أو سراً ، ووصل « ما » بكنتم يدل على أن الكتم وقع فيما مضى وليس المعنى أنهم كنتموا عن الله لأن الملائكة أعرف بالله وأعلم فلا يكتُمون الله شيئاً ، وإنما المعنى أنه هجس في أنفسهم شيء لم يظهره بعضهم لبعض ولا أطلععه عليه ، وإن كان المعنى إبليس فقد تقدم أنه قال في نفسه ما حكيناه قبلُ عنه ، فكنتم ذلك عن الملائكة ، وقد تضمن آخر هذه الآية من علم البديع : الطباق وهو قوله (ما تبدو وما كنتم تكتمون) . قوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) السجود التذلل والخضوع ، وقال ابن السكيت : هو الميل ، وقال بعضهم : سجد وضع جبهته بالأرض ، وأسجد مِيلَ رأسه وانحنى ، وقال الشاعر : -

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ

يريد أن الحوافر تطأ الأكم فجعل تأثير الأكم للحوافر سجوداً مجازاً وقال آخر :

كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَّمْ تَحْنَفِ

وقال آخر :

سُجُودُ النَّصَارَى لِأَخْبَارِهَا

يريد الانحناء ، إبليس اسم أعجمي منع الصرف للعجمة والعلمية ، قال الزجاج ووزنه فَعْلِيل ، وأبعد أبو يدة وغيره في زعمه أنه مشتق من الإبلّاس وهو الإبعاد من الخير ، ووزنه على هذا افعيل لأنه قد تقرر في علم التصريف أن الاشتقاق العربي لا يدخل في الأسماء الأعجمية ، واعتذر من قال بالاشتقاق فيه عن منع الصرف بأنه لا نظير له في الأسماء ، وردّ بإغريض وإزْمِيل وإخْرِيط وإجْفِيل وإعْلِيْط وإِلَيْت وإِحْلِيل وإِكْلِيل وإِحْرِيط ، وقد قيل شبه بالأسماء الأعجمية فامتنع الصرف للعلمية وشبه العجمة ، وشبه العجمة هو : أنه وإن كان مشتقاً من الإبلّاس فإنه لم يسم به أحد من العرب ، فصار خاصاً بمن أطلقه الله عليه ، فكأنه دليل في لسانهم وهو علم مرتجل ، وقد روي اشتقاقه من الإبلّاس عن ابن عباس والسدي وما إخاله يصح ، « الإباء » الامتناع قال الشاعر : -

وَأَمَّا أَنْ تَقُولُوا قَدْ أَبَيْنَا فَشَرُّ مَوَاطِنِ الْحَسَبِ الْإِبَاءُ

والفعل منه أبى يأبى ولما جاء مضارعه على يفعل بفتح العين وليس بقياس أخرى كأنه مضارع فعل بكسر العين فقالوا فيه ، يثبى بكسر حرف المضارعة ، وقد سمع فيه أبى بكسر العين فيكون يأبى على هذه اللغة قياساً ووافق من قال أبى بفتح العين على هذه اللغة ، وقد زعم أبو القاسم السعدي^(١) أن أبى يأتي بفتح العين لا خلاف فيه وليس بصحيح ، فقد حكى أبى بكسر العين صاحب المحكم وقد جاء بفعل في أربعة عشر فعلاً وماضيها فعل وليست عينه ولا لامه حرف حلق ، وفي بعضها سمع أيضاً فعل بكسر العين وفي بعض مضارعها سمع أيضاً يفعل ويفعل بكسر العين وضمها ذكرها التصريفيون ، الاستكبار والتكبر وهو مما جاء فيه استفعل بمعنى تفعل وهو أحد المعاني الاثني عشر التي جاءت لها استفعل وهي مذكورة في شرح نستعين

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤)

لم يؤثر فيها سبب نزول سمعي ومناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله تعالى لما شرف آدم بفضيلة العلم وجعله معلماً للملائكة وهم مستفيدون منه مع قولهم السابق أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أراد الله أن يكرم هذا الذي استخلفه بأن يسجد له ملائكته ، ليظهر بذلك مزية العلم على مزية العبادة قال الطبري : قصة إبليس تقريع لمن أشبهه من بني آدم وهم اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ مع علمهم بنبوته ، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم ، و (إذ) ظرف كما سبق فقيل بزيادتها ، وقيل العامل فيها فعل مضمّر يشيرون إلى اذكر ، وقيل هي معطوفة على ما قبلها يعني قوله (وإذ قال ربك) ، ويضعف الأول بأن الأسماء لا تزداد ، والثاني : أنها لازم ظرفيتها ، والثالث : لاختلاف الزمانين فيستحيل وقوع العامل الذي اخترناه في إذ الأولى في إذ هذه ، وقيل العامل فيها أبى ، ويحتمل عندي أن يكون العامل في إذ محذوف دل عليه قوله فسجدوا تقديره « انقادوا وأطاعوا » لأن السجود كان ناشئاً عن الانقياد للأمر ، وفي قوله قلنا

(١) عبد الغفار بن محمد بن عبد الكافي أبو القاسم تاج الدين السعدي توفي سنة ٧٣٢ هجرية - الاعلام (٣٢/٤) ، (الشذرات (١٠٢/٦) .

التفات وهو من أنواع البديع إذ كان ما قبل هذه الآية قد أخبر عن الله بصورة الغائب ثم انتقل إلى ضمير المتكلم وأتى بنا التي تدل على التعظيم وعلو القدر وتنزيله منزلة الجمع لتعدد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة ، وحكمة هذا الالتفات وكونه بنون المعظم نفسه أنه صدر منه الأمر للملائكة بالسجود ووجب عليهم الامتثال فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم ، لأنه متى كان كذلك كان ادعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به من غير بطء ولا تأول لشغل خاطره بورود ما صدر من المعظم ، وقد جاء في القرآن نظائر لهذا ، منها (وقلنا يا آدم اسكن) (وقلنا اهبطوا) (قلنا يا نار كوني برداً) (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) (وقلنا لهم ادخلوا الباب) (وقلنا لا تعدوا) فأنت ترى هذا الأمر وهذا النهي كيف تقدمهما الفعل المسند إلى المتكلم المعظم نفسه لأن الأمر اقتضى الاستعلاء على المأمور فظهر للمأمور بصفة العظمة ولا أعظم من الله تعالى والمأمورون بالسجود قال السدي عامة الملائكة ، وقال ابن عباس الملائكة الذين يحكمون في الأرض ، وقرأ الجمهور للملائكة بجر التاء ، وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وسليمان بن مهران بضم التاء إتباعاً لحركة الجيم ونقل أنها لغة أزد شنوءة ، قال الزجاج : هذا غلط من أبي جعفر ، وقال الفارسي : هذا خطأ ، وقال ابن جني : لأن كسرة التاء كسرة إعراب ، وإنما يجوز هذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إذا كان ما قبل الهمزة ساكناً صحيحاً نحو : (وقالت اخرج) وقال الزمخشري^(١) : لا يجوز لاستهلاك الحركة الإعرابية بحركة الإتياع إلا في لغة ضعيفة كقولهم (الحمد لله) انتهى كلامه . وإذا كان ذلك في لغة ضعيفة ، وقد نقل أنها لغة أزد شنوءة فلا ينبغي أن يخطأ القارئ بها ، ولا يغلط ، والقارئ بها أبو جعفر أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضاً عن عبد الله بن عباس وغيره من الصحابة ، وهو شيخ نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة ، وقد علل ضم التاء لشبهها بألف الوصل ، ووجه الشبه أن الهمزة تسقط في الدرج لكونها ليست بأصل والتاء في الملائكة تسقط أيضاً لأنها ليست بأصل ألا تراهم قالوا الملائك ، وقيل ضمت لأن العرب تكره الضمة بعد الكسرة لثقلها ﴿ اسجدوا ﴾ أمر وتقتضي هذه الصيغة طلب إيقاع الفعل في الزمان المطلق استقباله ، ولا تدل بالوضع على الفور ، وهذا مذهب الشافعي والقاضي أبي بكر بن الطيب واختاره الغزالي والرازي ، خلافاً للمالكية من أهل بغداد وأبي حنيفة ومتبعيه ، وهذه مسألة يبحث فيها في أصول الفقه^(٢) ، وهذا الخلاف إنما هو حيث لا تدل قرينة على فور أو تأخير ، وأما هنا فالعطف بالفاء يدل على تعقيب القول بالفعل من غير مهلة ، فتكون الملائكة قد فهموا الفور من شيء آخر غير موضوع اللفظ فلذلك بادروا بالفعل ولم يتأخروا ، والسجود المأمور به والمفعول إيماء وخضوع ، قاله الجمهور ، أو وضع الجبهة على الأرض مع التذلل أو إقرارهم له بالفضل واعترافهم له بالمزية ، وهذا يرجع إلى معنى السجود اللغوي ، قال فإن من أقر لك بالفضل فقد خضع لك ﴿ لآدم ﴾ من قال بالسجود الشرعي قال كان السجود تكرة وتحية له^(٣) ، وهو قول الجمهور علي وابن مسعود وابن عباس كسجود أبوي يوسف لا سجد عبادة أو لله تعالى ونصبه الله قبله لسجودهم كالكعبة فيكون المعنى إلى آدم^(٤) قاله الشعبي ، أو لله تعالى فسجد وسجدوا مؤتمين به ، وشرفه بأن جعله إماماً يقتدون به ، والمعنى في لآدم : أي مع آدم

(١) انظر الكشف (١٢٧/١) .

(٢) الأمر المجرد عن القرائن فيه مذاهب أحدها : أنه لا يدل على فور ولا على تراخ بل على طلب الفعل خاصة وهذا هو المنسوب إلى الشافعي وأصحابه كما قال إمام الحرمين في البرهان وقال في المحصول : إنه الحق واختاره الأمدي وابن الحاجب . والثاني يفيد الفور والثالث يدل على جواز التراخي وهذان المذهبان هما للماوردي في كتاب القضاء ووجهان التمهيد للإسنوي (٢٨٧ - ٢٨٨) ، وانظر البرهان (٢٣١/١ - ٢٣٣) ، المستصفى (٩/٢ - ١٠) ، المحصول (١٨٩/٢/١) ، وما بعدها شرح اللمع (٢٣٤/١) ، شرح تنقيح الفصول (١٢٨) ، المنحول (١١١) ، إرشاد الفحول ص ٩٩ شرح تنقيح الفصول (١٢٨) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٢٠١/١) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٢٠١/١) .

وقال قوم : إنما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه فالسجود امتثال لأمر الله والسجود له ، قاله مقاتل والقرآن يرد هذا القول ، وقال قوم كان سجد الملائكة مرتين ، قيل والإجماع يرد هذا القول ، والظاهر أن السجود هو بالجبهة لقوله (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)، وقيل لا دليل في ذلك لأن الجائي على ركبتيه واقع وأن السجود كان لآدم على سبيل التكرمة ، وقال بعضهم : السجود لله بوضع الجبهة وللشعر بالانحناء انتهى . ويجوز أن يكون السجود في ذلك الوقت للبشر غير محرّم ، وقد نقل أن السجود كان في شريعة من قبلنا هو التحية ونسخ ذلك في الإسلام ، وقيل كان السجود لغير الله جائزاً إلى زمن يعقوب ثم نسخ ، وقال الأكثرون لم ينسخ إلى عصر رسول الله ﷺ ، وروي أنه ﷺ قال في حديث عرض عليه الصحابة أن يسجدوا له فقال لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين ، وأن معاذاً سجد للنبي ﷺ فنهاه عن ذلك^(١) ، قال ابن عطاء : لما استعظموا تسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليرهم بذلك استغناء عنهم وعن عبادتهم ﴿ فسجدوا ﴾ ثم محذوف تقديره « فسجدوا له » : أي لآدم دل عليه قول اسجدوا لآدم ، واللام في لآدم للتبيين ، وهو أحد المعاني السبعة عشر التي ذكرناها عند شرح الحمد لله ﴿ إلا إبليس ﴾ هو مستثنى من الضمير في فسجدوا وهو استثناء من موجب في نحو هذه المسألة فيترجح النصب ، وهو استثناء متصل عند الجمهور ابن مسعود وابن عباس وابن المسيب وقتادة وابن جريج واختاره الشيخ « أبو الحسن » و« الطبري » ، فعلى هذا يكون ملكاً ، ثم إبليس ، وغضب عليه ولعن فصار شيطاناً^(٢) ، وروي في ذلك آثار عن ابن عباس وقتادة وابن جبير ، وقد اختلف في اسمه فقيل عزازيل ، وقيل الحارث^(٣) ، وقيل هو استثناء منقطع وإنه أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ، ولم يكن قط ملكاً^(٤) قاله ابن زيد والحسن ، وروي عن ابن عباس ، وروي عن ابن مسعود وشهر بن حوشب أنه من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبّوه صغيراً وتعبد مع الملائكة وخطب معهم^(٥) واستدل على أنه ليس من الملائكة بقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلاً) فعم ، فلا يجوز على الملائكة الكفر ولا الفسق كما لا يجوز على رسله من البشر ، وبقوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ، وبقوله (كان من الجن) وبأن له نسلًا بخلاف الملائكة ، والظاهر أنه استثناء متصل لتوجه الأمر على الملائكة فلو لم يكن منهم لما توجه الأمر عليه فلم يقع عليه ذم لتركه فعل ما لم يؤمر به ، وأما (جاعل الملائكة رسلاً) و (لا يعصون الله ما أمرهم) فهو عام مخصوص إذ عصمتهم ليست لذاتهم إنما هي بجعل الله لهم ذلك ، وأما إبليس فسلبه الله تعالى الصفات الملكية وألبسه ثياب الصفات الشيطانية ، وأما قوله تعالى (كان من الجن) فقال قتادة : هم صنف من الملائكة يقال لهم الجنة^(٦) ، وقال ابن جبير : سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم^(٧) ، أو أطلق عليه من الجن لأنه لا يرى كما سمي الملائكة جنة ، أولأنه سمي باسم ما غلب عليه أو بما كان من فعله ، أولأن الملائكة تسمى جنًا ، قال الأعشى في ذكر سليمان على نبينا وعليه السلام :

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧/٥) ، وأخرجه البزار ذكره الهيثمي في كشف الأستار (١٧٩/٢) ، (١٤٦٩) والطبراني في الكبير (٥٢/٢٠) ، (٩٠) والحاكم في المستدرک (١٧٢/٤) ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١/١) ، وعزاه لابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والبيهقي في الشعب عن ابن عباس .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١/١) ، وعزاه لابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والبيهقي في الشعب عن ابن عباس وعزاه أيضاً لابن جرير عن السدي (٥٠/١) .

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠٢/١) .

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠٢/١) .

(٦) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠٢/١) .

(٧) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٠٢/١) .

وَسَخَّرَ مِنْ جَنِّ الْمَلَائِكَةِ قِيَاماً لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلَا أُجْرِ

﴿ أبى ﴾ امتنع وأنف من السجود لآدم ﴿ واستكبر ﴾ تكبر وتعظم في نفسه ، وقدم الإباء على الاستكبار وإن كان الاستكبار هو الأول ، لأنه من أفعال القلوب وهو التعظيم وينشأ عنه الإباء من السجود اعتباراً بما ظهر عنه أولاً وهو الامتناع من السجود ولأن المأمور به هو السجود فلما استثنى إبليس كان محكوماً عليه بأنه ترك السجود أو بأنه مسكوت عنه غير محكوم عليه على الاختلاف الذي ذكره قريباً إن شاء الله والمقصود : الإخبار عنه بأنه خالف حاله حال الملائكة فناسب أن يبدأ أولاً بتأكيد ما حكم به عليه في الاستثناء أو بإنشاء الإخبار عنه بالمخالفة ، والذي يؤدي هذا المعنى هو الإباء من السجود ، والخلاف الذي أشرنا إليه هو أنك إذا قلت « قام القوم إلا زيداً » فمذهب الكسائي أن التخريج من الاسم وأن « زيداً » غير محكوم عليه بقيام ولا غيره ، فيحتمل أن يكون قد قام وأن يكون غير قائم ، ومذهب الفراء أن الاستثناء من الفعل ، والصحيح مذهبنا وهو أن الاسم مستثنى من الاسم ، وأن الفعل مستثنى من الفعل ، ودلائل هذه المذاهب مذكورة في كتب النحو ، ومفعول (أبى) محذوف لأنه يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد قال الشاعر :-

أَبَى الضَّمِيمَ وَالنَّعْمَانَ يُحْرِقُ نَابَهُ عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهُ

والتقدير أبى السجود وأبى من الأفعال ، الواجبة التي معناها النفي ولهذا يفرغ ما بعد إلا كما يفرغ الفعل المنفي قال تعالى ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولا يجوز ضربت إلا زيداً على أن يكون استثناء مفرغاً لأن إلا لا تدخل في الواجب وقال الشاعر :-

أَبَى اللَّهُ إِلَّا عَذْلَهُ وَوَفَاءَهُ فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعُرْفُ ضَائِعٌ^(١)

و « أبى زيد الظلم » أبلغ من « لم يظلم » لأن نفي الشيء عن الشخص قد يكون لعجز أو غيره فإذا قلت « أبى زيد كذا » دل على نفي ذلك عنه على طريق الامتناع والأنفه منه ، فلذلك جاء قوله تعالى (أبى) لأن استثناء إبليس لا يدل إلا على أنه لم يسجد فلو اقتصر عليه لجاز أن يكون تخلفه عن السجود لأمر غير الإباء فنص على سبب كونه لم يسجد وهو الإباء والأنفه ﴿ وكان من الكافرين ﴾ قيل كان بمعنى صار وقيل على بابها : أي كان في علم الله لأنه لا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره ، فالمعنى أنه كان في علم الله سيكون من الكافرين ، قال أبو العالية : من العاصين وصلة أل هنا ظاهرها الماضي فيكون قد سبق إبليس كفار وهم الجن الذين كانوا في الأرض ، أو يكون إبليس أول من كفر مطلقاً إن لم يصح أنه كان كفار قبله ، وإن صح فيفيد أول من كفر بعد إيمانه ، أو يراد الكفر الذي هو التغطية للحق ، وكفر إبليس قيل جهل سلبه الله ما كان وهبه من العلم فخالف الأمر ونزع يده من الطاعة ، وقيل كفر عناد ولم يسلب العلم ، بل كان الكبر مانعه من السجود ، قال ابن عطية والكفر عناداً مع بقاء العلم مستبعد ، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء انتهى كلامه ، وهذا الذي ذكره جوازه واقع بالفعل ، هذا فرعون كان عالماً بوحدانية الله وربوبيته دون غيره ، ومع ذلك حملته حب الرئاسة والإعجاب بما أوتي من الملك فادعى الألوهية مع علمه ، وأبو جهل كان يتحقق رسالة النبي ﷺ ويعلم أن ما جاء به حق ، ومع ذلك أنكر نبوته وأقام على الكفر ، وكذلك الأخنس ، وأميه بن أبي الصلت ، وغيرهما ممن كفر عناداً مع علمهم بصدق الرسل .

وقد قسم العلماء الكفار إلى :

(١) البيت من الطويل للناطقة - الخزاعة (٤٦٨/٢) .

كافر بقلبه ولسانه كالدهرية ، والمنكرين رسالة النبي ﷺ .

وكافر بقلبه مؤمن بلسانه وهم المنافقون .

ومؤمن بقلبه كافر بلسانه كفرعون ومن ذكر معه فلا ينكر الكفر مع وجود العلم .

وقد استدلل المعتزلة بهذه الآية على أن المعصية توجب الكفر .

وأجيب بأنه كافر منافق وإن كان مؤمناً فإنما كفر لاستكباره واعتقاد كونه محقاً في ذلك التمرد ، واستدلاله على ذلك بقوله (أنا خير منه) ، قال القشيري لما كان إبليس مدة في دلال طاعته يختال في مراد موافقته ، سلموا له رتبة التقدم واعتقدوا فيه استحقاق التخصص فصار أمره كما قيل :-

وَكَاَن سِرَاجُ الْوَصْلِ أَزْهَرَ بَيْنَنَا فَهَبْتُ بِهِ رِيحُ مِنَ الْيَنِّ فَاَنْطَفَا

سئل أبو الفتوح^(١) أحمد أخو أبي حامد الغزالي^(٢) عن إبليس ، فقال لم يدر ذلك المسكين أن أظافير القضاء إذا حكّت أدمت ، وقببي القدر إذا رمت أصمت ، ثم أنشد :-

وَكُنَّا وَلَيْلَى فِي صُعُودٍ مِنَ الْهَوَى فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبْتُ وَزَلْتُ

﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا

مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

اسكن ، أقم ومصدره السكنى كالرجعى والمعنى راجع إلى السكون وهو عدم الحركة وكأن الساكن في المكان للبه واستقراره فيه غير متحرك بالنسبة إلى غيره من الأماكن ، (رَغَدًا) أي واسعاً كثير الإعناء فيه . قال امرؤ القيس :-

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا يَأْمُنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَغَدٍ

وتميم تسكن الغين ، وزعم بعض الناس أن كل اسم ثلاثي حلقي العين صحيح اللام يجوز فيه تحريك عينه وتسكينها ، مثل بَحْرٍ وَيَحْرُ ، ونَهْرٍ وَنَهْرٍ فأطلق هذا الإطلاق ، وليس كذلك بل ما وضع من ذلك على فعل بفتح العين لا يجوز فيه التسكين نحو السَّحَرُ ، لا يقال فيه السَّحَرُ ، وإنما الكلام في فَعَلَ المفتوح الفاء الساكن العين ، وفي ذلك خلاف ذهب البصريون إلى أن فتح ما ورد من ذلك مقصور على السماع وهو مع ذلك مما وضع على لغتين لا أن أحدهما أصل للآخر ، وذهب الكوفيون إلى أن بعضه ذو لغتين وبعضه أصله التسكين ثم فتح ، وقد اختار أبو الفتح مذهب الكوفيين والاستدلال المذكور في كتب النحو ، (حيث) ظرف مكان مبهم لازم الظرفية ، وجاء جره بمن كثيراً وبقي ، وإضافة لدى إليه قليلاً ، وإضافتها لا ينعقد منها مع بعدها كلام ، ولا يكون ظرف زمان خلافاً للأخفش ، ولا ترفع اسمين نائبة عن ظرفين نحو « زيد حيث عمر » وخلافاً للكوفيين ، ولا يجزم بها دون « ما » خلافاً للفرأ ، ولا تضاف إلى

(١) أبو الفتوح أحمد الملقب بمجد الدين فقيه غلب عليه الوعظ والميل إلى الانقطاع والعزلة توفي بقزوين في حدود سنة عشرين وخمسمائة - وفيات الأعيان (٩٧/١) ، العبر (٤٥/٤) .

(٢) حجة الإسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي إمام باسمه تنشرح الصدور وتحى النفوس توفي بطوس صبيحة يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة وعمر خمس وخمسون سنة - وفيات الأعيان (٢١٦/٤) ، طبقات الأسنوي (١١١/٢) .

المفرد خلافاً للكسائي ، وما جاء من ذلك حكماً بشذوذه ، وهي مبنية ، وتعتقب على آخرها الحركات الثلاث ، ويجوز « حَوْتُ » بالواو وبالحركات الثلاثة ، وحكى الكسائي أن إعرابها لغة بني فقعس ، « القريان » معروف وهو الدنو من الشيء ، (هذه) تكسر الهاء باختلاس وإشباع وتسكن ، ويقال هذي بالياء والهاء فيما ذكر وأبدل منها ، وقالوا « ذِ » بكسر الذال بغير ياء ولا هاء وهي تأنيث ذا ، وربما الحقوا التاء للتأنيث « ذا » فقالوا « ذات » مبنية على الكسر ، (الشجرة) بفتح الشين والجيم وبعض العرب تكسر الشين وإبدال الجيم ياء مع كسر الشين وفتحها منقول ، وخالف أبو الفتح في كون الياء بدلاً وقد أطلنا الكلام على ذلك في تأليفنا كتاب « التكميل لشرح التسهيل » والشجر ما كان على ساق ، والنجم ما نجم وانبسط على الأرض ليس له ساق ، « الظلم » أصله وضع الشيء في غير موضعه ، ثم يطلق على الشرك ، وعلى الجحد وعلى النقص ، والمظلومة الأرض التي لم تمطر ومعناه راجع إلى النقص ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ الآية لم يؤثر فيها سبب نزول سمعي .

ومناسبتها لما قبلها : أن الله لما شرف آدم برتبة العلم وإسجاد الملائكة له امتن عليه بأن أسكنه الجنة التي هي دار النعيم أباح له جميع ما فيها إلا الشجرة على ما سيأتي فيها ، إن شاء الله ، (وقلنا) معطوف على الجملة السابقة التي هي قوله تعالى (وإذ قلنا) لا على قلنا وحده لاختلاف زمانيهما ، ومعمول القول المنادى وما بعده ، وفائدة النداء : تنبيه المأمور لما يلقى إليه من الأمر وتحريكه لما يخاطب به ، إذ هو من الأمور التي ينبغي أن يجعل لها البال وهو الأمر بسكنى الجنة ، قالوا : ومعنى الأمر هنا إباحة السكنى ، والإذن فيها مثل (وإذا حللتهم فاصطادوا) ، (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) ، لأن الاستقرار في المواضع الطيبة لا تدخل تحت التعبد ، وقيل هو أمر وجوب وتكليف ، لأنه أمر بسكنى الجنة وبأن يأكل منها ، ونهاه عن شجرة واحدة ، والأصح أن الأمر بالسكنى وما بعده مشتمل على ما هو إباحة وهو الانتفاع بجميع نعيم الجنة ، وعلى ما هو تكليف وهو منعه من تناول ما نهى عنه ، (وأنت) توكيد للضمير المستكن في اسكن ، وهذا أحد المواضع التي يستكن فيها الضمير وجوباً^(١) ، (وزوجك) معطوف على ذلك الضمير المستكن وحسن العطف عليه تأكيده بأننت ، ولا يجوز عند البصريين العطف عليه دون تأكيد أو فصل يقوم مقام التأكيد ، أو فصل « بلا » بين حرف العطف والمعطوف ، وما سوى ذلك ضرورة وشاذ ، وقد روي « قم وزيد » وأجاز الكوفيون العطف على ذلك الضمير من غير توكيد ولا فصل^(٢) ، وتظافرت نصوص النحويين والمعربين على ما ذكرناه ، من أن (وزوجك) معطوف على الضمير المستكن في (اسكن) ويكون إذ ذاك من عطف المفردات ، وزعم بعض

(١) حاصل المواضع التي يستكن فيها الضمير وجوباً ونعني بواجب الاستمرار ما لا يحل محله الظاهر وهي أربعة :

الأول : فعل الأمر للواحد المخاطب كافعل فالتقدير : أنت وهذا الضمير لا يجوز إبرازه لأنه لا يحل محله الظاهر فلا تقول : افعل زيد فأما : افعل أنت واسكن أنت فأنت توكيد للضمير المستتر وعلى ذكر المصنف رحمه الله فإن كان الأمر لواحدة أو لاثنتين أو لجماعة برز الضمير نحو اضربي واضربوا واضربن .

الثاني : الفعل المضارع الذي في أوله همزة نحو أوافق والتقدير (أنا) فإن قلت : أوافق أنا وكان (أنا) تأكيداً للضمير المستتر .

الثالث : الفعل المضارع الذي في أوله النون نحن « نغيبط » أي : نحن .

الرابع : الفعل المضارع الذي في أوله التاء لخطاب الواحد نحو : تشكر (أي : أنت) .

وقد جمع ذلك ابن مالك فقال :

ومن ضمير الرفع ما يستتر كافعل أوافق نغيبط إذ تشكر

انظر التصريح على التوضيح (١٠٠/١ - ١٠١) ، شرح ابن عقيل (٩٥/١ - ٩٧) ، الكتاب لسبويه (١٢٥/١) ، حاشية الصبان على الأشموني (١١٢/١ - ١١٣) ، همع الهوامع (٦٢/١) ، شرح المفصل (٧٦/٨) ، ارتشاف الضرب (٦٥٧/٢ - ٦٥٨) .

(٢) انظر المقتضب (٢١٠/٣) .

الناس أنه لا يجوز إلا أن يكون من عطف الجمل ، التقدير « ولتسكن زوجك » ، وحذف « ولتسكن » لدلالة اسكن عليه ، وأتى بنظائر من هذا الباب نحو (لا نخلفه نحن ولا أنت) ونحو : « تقوم أنت وزيد » ونحو : « ادخلوا أولكم وآخركم » وقوله :

نَطَوُّ مَا نَطَوُّ ثُمَّ يَأْوِي ذَوُو الْأَمْوَالِ مِنَّا وَالْعَدِيمُ^(١)

إذا أعربناه بدلاً لا تأكيداً هو على إضمار فعل فتقديره عنده « ولا تخلفه أنت » ، و « يقوم زيد » و « ليدخل أولكم وآخركم » ، و « يأوي ذوو الأموال » ، وزعم أنه استخرج ذلك من نص كلام سيبويه ، وليس كما زعم^(٢) بل نص سيبويه على مسألة العطف في كتابه كما ذهب إليه النحويون ، قال سيبويه رحمه الله : وأما ما يقيح أن يشركه المظهر فهو الضمير المرفوع وذلك « فعلت وعبد الله » ، و « أفعل وعبد الله » ، ثم ذكر تعليل الخليل لقبحه^(٣) ، ثم قال فإن نعته حسن أن يشركه المظهر ، وذلك قولك « ذهبت أنت وزيد » وقال الله عز وجل (اذهب أنت وربك فقاتلا) ، و (اسكن أنت وزوجك الجنة) انتهى . فهذا نص من سيبويه على أنه من عطف المظهر على المضمّر ، وقد أجمع النحويون على جواز « تقوم عائشة وزيد » ، ولا يمكن لزيد أن يباشر العامل ، ولا نعلم خلافاً أن هذا من عطف المفردات ولتكميل الكلام على هذه المسألة مكان غير هذا .

وتوجه الأمر بالسكنى على زوج آدم دليل على أنها كانت موجودة قبله وهو قول بعض المفسرين ، أنها خلقت من وقت علمه الله الأسماء وأنبأهم هو إياها ، نام نومة فخلقت من ضلعه الأقصر قبل دخول الجنة ، وأكثر أئمة التفسير أنها خلقت بعد دخول آدم الجنة ، استوحش بعد لعن إبليس وإخراجه من الجنة فنام فاستيقظ فوجدها عند رأسه قد خلقها الله من ضلعه الأيسر ، فسألها من أنت ؟ قالت : امرأة ، قال : ولم خلقت ؟ قالت : تسكن إلي ، فقالت له الملائكة ينظرون مبلغ علمه ما اسمها ؟ قال حواء ، قالوا لم سميت حواء ، قال لأنها خلقت من شيء حي ، وفي هذه القصة زيادات ذكرها المفسرون لا نطول بذكرها لأنها ليست مما يتوقف عليها مدلول الآية ولا تفسيرها ، وعلى هذا القول يتوجه الخطاب على المعدوم ، لأنه في علم الله موجود ويكون آدم قد سكن الجنة لما خلقت ، أمراً معاً بالسكنى لتسكن قلوبهم وتطمئن بالقرار في الجنة ، وقد تكلم بعض الناس على أحكام السكنى والعمرى والرقبى وذكر كلام

(١) البيت من الوافر ليرج بن مسهر الطائي شرح ديوان الحماسة (٣ / ١٣٥ ، ١٣٧) ، وروايته (ثم يأوي ذوو الأموال) وانظر شرح شواهد المغني (٢٨١ ، ٩١٢) ، المؤلف والمختلف للامدي (٦٢) .

(٢) يرد أبو حيان في هذا على قول ابن مالك رحمه الله حيث جعل ذلك من عطف الجمل قال ابن هشام : قول النحويين في نحو (اسكن أنت وزوجك الجنة) إن العطف على الضمير المستتر وقد رد ذلك ابن مالك وجعله من عطف الجمل والأصل : وليسكن زوجك وكذا قال في (لا تخلفه نحن ولا أنت) إن التقدير ولا تخلفه أنت لأن مرفوع فعل الأمر لا يكون ظاهراً ومرفوع الفعل المضارع ذي النون لا يكون غير ضمير المتكلم .

قال القرطبي : لا يجوز اسكن وزوجك ولا اذهب وربك إلا في ضرورة الشعر كما قال :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادي كنعاج الملا تعسفن رملا

انظر مغني اللبيب (٢ / ٥٧٩) ، ارتشاف الضرب (٢ / ٦٥٧) ، تفسير القرطبي (١ / ٢٠٦) .

(٣) قال : زعم الخليل أن هذا إنما قبح من قبل أن هذا الإضمار يبنى عليه الفعل فاستقبحوا أن يشرك المظهر مضمراً بغير الفعل عن حاله إذا بعد منه وإنما حسنت شركته المنصوب لأنه لا يغير الفعل فيه عن حاله التي كان عليها قبل أن يضمرفا شبه المظهر وصار منفصلاً عندهم بمنزلة المظهر إذ كان الفعل لا يتغير عن حاله قبل أن يضمرفا فيه .

انظر الكتاب (١ / ٣٨٩ - ٣٩٠) .

الفقهاء في ذلك واختلافهم حين فسر قوله تعالى (اسكن أنت وزوجك الجنة) ، وليس في الآية ما يدل على شيء مما ذكر ، (الجنة) قال أبو القاسم البلخي وأبو مسلم الأصبهاني كانت في الأرض ، قيل بأرض عدن ، والهبوط الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله (اهبطوا مصرأ) لأنها لو كانت دار الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله هل أدلك ، ولأن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله (وما هم منها بمخرجين) ، ولأن إبليس ملعون فلا يصل إلى جنة الخلد ، ولأن دار الثواب لا يفنى نعيمها لقوله (أكلها دائم) ، ولأنه لا يجوز في حكمته أن يبتدىء الخلق في جنة يخلدهم ، ولأنه نزاع في أنه تعالى خلق آدم في الأرض ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء ، ولو كان نقله إلى السماء لكان أولى بالذكر لأنه من أعظم النعم ، وقال الجبائي : كانت في السماء السابعة لقوله (اهبطوا) ، ثم الهبوط الأول كان من تلك السماء إلى السماء الأولى ، والهبوط الثاني كان من السماء إلى الأرض ، وقال الجمهور هي في السماء وهي دار الثواب ، لأن الألف واللام في الجنة لا تفيد العموم ، لأن سكنى جميع الجنان محال ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق والمعهود دار الثواب ، ولأنه ثبت في الصحيح في محاجة آدم موسى فقال له يا آدم أنت أشقيت بنيك وأخرجتهم من الجنة ، فلم ينازعه آدم في ذلك ، وقيل هي السماء وليست دار الثواب بل هي جنة الخلد ، وقيل : في السماء جنة غير دار الثواب وغير جنة الخلد ، ورد قول من قال إنها بستان في السماء ، فلم يصح أن في السماء بساتين غير بساتين الجنة ، وما استدل به من قال إنها في الأرض : قوله تعالى (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قِيلاً سلاماً سلاماً) ، (ولا لغو فيها ولا تأثيم) (وما هم منها بمخرجين) ، وقد لغا إبليس فيها وكذب وأخرج منها آدم وحواء ، ولأنها لو كانت دار الخلد لما وصل إليها إبليس ، ووسوس لهما حتى أخرجهما ، ولأن جنة الخلد دار نعيم وراحة وليست بدار تكليف ، وقد تكلف آدم أن لا يأكل من الشجرة ولأن إبليس كان من الجن المخلوقين من نار السموم ، وقد نقل أنه كان من الجن الكفار الذين طردوا في الأرض ، ولو كانت جنة الخلد لما دخلها ، ولأنها محل تطهير فكيف يحسن أن يقع فيها العصيان والمخالفة ويحل بها غير المطهرين ، وأجيب عن الآيات أنها محمولة على حالهم بعد دخول الاستقرار والخلود ، لا على دخولهم على سبيل المرور والجواز ، فقد صح دخول رسول الله ﷺ الجنة في ليلة المعراج وفي غيرها ، وأنه رآها في حديث الكسوف^(١) ، وأما دخول إبليس إليها فدخل تسليط لا تكريم ، وذلك إن صح ، قالوا : الصحيح أنه لم يدخل الجنة بل وقف على بابها ، وكلمهما وأراد الدخول فردته الخزنة ، وقيل : دخل في جوف الحية مستتراً ، وأما كونها ليست دار تكليف فذلك بعد دخولهم فيها للإقامة المستمرة والجزاء بالأعمال الصالحة ، وأما الدخول الذي يعقبه الخروج بسبب المخالفة ، فلا ينافي التكليف بل لا يكون خالياً منه ، (وكلاً) دليل على أن الخطاب لهما بعد وجود حواء لأن الأمر بالأكل للمعدوم فيه بعد إلا على تقدير وجوده ، والأصل في « كل » أوكل الهمزة الأولى هي المجتلبة للوصل ، والثانية هي فاء الكلمة فحذفت الثانية لاجتماع المثليين حذف شذوذ فوليت همزة الوصل الكاف وهي متحركة وإنما اجتلبت للسكان فلما زال موجب اجتلابها زالت هي (قال) ابن عطية وغيره : وحذفت النون من (كلا) للأمر انتهى كلامه ، وهذا الذي ذكر ليس على طريقة البصريين فإن فعل الأمر عندهم مبني على السكون ، فإذا اتصل به ضمير بارز كانت حركة آخره مناسبة للضمير فتقول كلي وكلا وكلوا وفي الإناث يبقى ساكناً نحو « كلن » ، وللمعتل حكم غير هذا فإذا كان هكذا فقوله و (كلا) لم تكن فيه نون فتحذف للأمر وإنما يكون ما ذكره على مذهب الكوفيين حيث زعموا أن فعل الأمر معرب وأن أصل كل لتأكل ، ثم عرض فيه من الحذف بالتدريج إلى أن صار كل فأصل كلا لتأكلا ، وكان قبل دخول لام الأمر عليه فيه نون إذ كان أصله تأكلان فعلى قولهم يتم قول ابن عطية إن

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩/٢) ، كتاب الكسوف باب الجهر بالقراءة في الكسوف (١٠٦٥) ، ومسلم (٢/٦٢٠) ، في الكسوف باب صلاة الكسوف (٩٠١/٥) .

النون من كلا حذفت للأمر ﴿ منها ﴾ الضمير عائد على الجنة ، والمعنى على حذف مضاف أي من مطاعمها من ثمارها وغيرها ودل ذلك على إباحة الأكل لهما من الجنة على سبيل التوسعة إذ لم يحظر عليهما أكل ما إذ قال ﴿ رَغَدًا ﴾ والجمهور على فتح الغين ، وقرأ إبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب بسكونها وقد تقدم أنهما لغتان ، وانتصاب (رغدا) قالوا على أنه نعت لمصدر محذوف تقديره « أكلاً رغداً » ، وقال ابن كيسان : هو مصدر في موضع الحال ، وفي كلا الإعرابين نظر ، أما الأول فإن مذهب سيبويه يخالفه لأنه لا يرى ذلك وما جاء من هذا النوع جعله منصوباً على الحال من الضمير العائد على المصدر الدال عليه الفعل ، وأما الثاني فإنه مقصور على السماع قال الزجاج : الرغد الكثير الذي لا يعنك ، وقال مقاتل الواسع ، وقال مجاهد الذي لا يحاسب عليه^(١) وقيل السالم من الإنكار الهني يقال رَغَدَ عِش القوم ورَغَدَ بكسر الغين وضمها إذا كانوا في رزق واسع كثير ، وأرغد القوم أخصبوا وصاروا في رغد من العيش ، وقالوا عيشة رَغَد بالسكون أيضاً ﴿ حيث شئتما ﴾ أباح لهما الأكل حيث شاء فلم يحظر عليهما مكاناً من أماكن الجنة ، كما لم يحظر عليهما مأكولاً إلا ما وقع النهي عنه ، وشاء في وزنه خلاف فنقل عن سيبويه أن وزنه فعل بكسر العين فنقلت حركتها إلى الشين فسكنت واللام ساكنة للضمير فالتقى ساكنان فحذفت لالتقاء الساكنين وكسرت الشين لتدل على أن المحذوف هو باء كما صنعت في بعث ﴿ ولا تقربا ﴾ نهاهما عن القربان وهو أبلغ من أن يقع النهي عن الأكل ، لأنه إذا نهى عن القربان فكيف يكون الأكل منها ، والمعنى لا تقرباها بالأكل لا أن الإباحة وقعت في الأكل ، وحكى بعض من عاصرناه عن ابن العربي يعني القاضي أبا بكر ، قال سمعت الشاشي في مجلس النضر بن شميل يقول ، إذا قلت لا تقرب بفتح الراء معناه لا تلبس بالفعل ، وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن ، وقد تقدم أن معنى « لا تقرب زيدا » لا تدن منه » ، وفي هذه الحكاية عن ابن العربي من التخليط ما يتعجب من حاكياها ، وهو قوله سمعت الشاشي في مجلس النضر بن شميل وبين النضر والشاشي من السنين مئون ، إلا إن كان ثم مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن ، وقرئ (ولا تَقْرَبَا) بكسر التاء وهي لغة عن الحجازيين في فَعَلَ يَقْعَل يكسرون حرف المضارعة التاء والهمزة والنون ، وأكثرهم لا يكسر الياء ومنهم من يكسرها ، فإن كان من باب بوجل وكاسر وفاتح مع إقرار الواو قلبها ألفاً ﴿ هذه ﴾ إشارة للحاضر القريب من المخاطب ، وقرأ ابن محيصن (هَذِي) بالياء ، وقرأ الجمهور بالهاء ﴿ الشجرة ﴾ نعت لاسم الإشارة ويحتمل الإشارة أن تكون إلى جنس من الشجر معلوم ، ويحتمل أن تكون إلى شجرة واحدة من الجنس المعلوم ، وهذا أظهر لأن الإشارة لشخص ما يشار إليه ، قال ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وجعدة بن هبيرة^(٢) : هي الكرم^(٣) ، ولذلك حرمت علينا الخمر^(٤) ، وقال ابن عباس أيضاً وأبو مالك وقتادة : السنبلة ، وكان حبها كَكَلَى البقر أحلى من العسل ، وألين من الزبد^(٥) ، روي ذلك عن وهب ، ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه ، قال بعض الصحابة وقتادة : التين^(٥) وقال عليُّ شجرة الكافور ، وقال الكلبي : شجرة العلم عليها من كل لون ، ومن أكل منها علم الخير والشر ، وقال وهب : شجرة الخلد تأكل منها الملائكة ، وقال أبو العالية : شجرة من أكل منها

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم (٥٢/١) .

(٢) جعدة بن هبيرة - بضم الهاء وفتح الباء وسكون الياء - ابن أبي وهب بن عمرو بن عابد بن عمران بن مخزوم المخزومي ابن أم هانئ له صحبة وقال العجلي تابعي ثقة الخلاصة (١٦٥/١) .

(٣) ذكره السيوطي في المنثور (٥٣/١) ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٢/١ - ٥٣) ، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر من طرق عن ابن عباس وعزاه أيضاً لابن جرير وابن أبي حاتم عن وهب بن منبه (٥٢/١ - ٥٣) .

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٣/١) ، وعزاه لابن جرير عن بعض الصحابة وعزاه أيضاً لابن أبي حاتم عن علي .

أحدث ، وقال بعض أهل الكتاب : شجرة الحنظل ، وقال أبو مالك : النخلة^(١) ، وقيل : شجرة المحنة ، وقيل : شجرة لم يعلمها الله ما هي ، وهذا هو الأظهر إذ لا يتعلق بعرفانها كبير أمر ، وإنما المقصود إعلامنا أن فعل ما نهينا عنه سبب للعقوبة ، وقرىء الشجرة بكسر الشين حكاه هارون الأعور عن بعض القراء ، وقرىء أيضاً الشجرة بكسر الشين والياء المفتوحة بعدها ، وكره أبو عمرو هذه القراءة وقال يقرأ بها برابر مكة وسودانها ، وينبغي أن لا يكرهها لأنها لغة منقولة فيها ، قال الرياشي سمعت أبا زيد يقول كنا عند المفضل وعنده أعراب فقلت انهم يقولون شيرة فقالوا نعم ، فقلت له : قل لهم : يصغرونها فقالوا شيرة ، وأنشد الأصمعي : -

نَحْسَبُهُ بَيْنَ الْأَنَامِ شِيرَةً

وفي نهى الله آدم وزوجه عن قربان الشجرة دليل على أن سكناهما في الجنة لا تدوم ، لأن المخلد لا يؤمر ولا ينهى ولا يمنع من شيء ، ﴿ فتكونا ﴾ منصوب جواب النهي ، ونصبه عند سيويه والبصريين بأن مضمرة بعد الفاء وعند الجرمي بالفاء نفسها ، وعند الكوفيين بالخلاف ، وتحرير القول في هذه المذاهب يذكر في كتب النحو ، وأجازوا أن يكون (فتكونا) مجزوماً عطفاً على (تقربا) قاله الزجاج وغيره ، نحو قوله : -

فَقُلْتُ لَهُ صَوِّبْ وَلَا تَجْهَدْنَهُ فَيَذَرَكَ مِنْ أَعْلَى الْقَطَاةِ فَتَزَلَّ

والأول أظهر لظهور السببية والعطف لا يدل عليها ﴿ من الظالمين ﴾ قيل لأنفسكما بإخراجكما من دار النعيم إلى دار الشقاء ، أو بالأكل من الشجرة التي نهيتما عنها ، أو بالفضيحة بين الملأ الأعلى ، أو بمتابعة إبليس ، أو بفعل الكبيرة ، قاله الحشوية ، أو بفعل الصغيرة قاله المعتزلة ، أو بالزامهما ما يشق عليهما من التوبة والتلافي . قاله أبو علي ، أو بحط بعض الثواب الحاصل . قاله أبو هاشم ، أو بترك الأولى قال قوم هما أول من ظلم نفسه من الآدميين ، وقال قوم كان قبلهم ظالمون شُبِّهوا بهم ونُسبوا إليهم ، وفي قوله (فتكونا من الظالمين) دلالة على أن النهي كان على جهة الوجوب لا على جهة الندب ، لأن تاركه لا يسمى ظالماً ، قال بعض أهل الإشارات الذي يليق بالخلق عدم السكون إلى الخلق ، وما زال آدم وحده بكل خير وبكل عافية ، فلما جاءه الشكل والزوج ظهر إتيان الفتنة وافتتاح باب المحنة ، وحين ساكن حواء أطاعها فيما أشارت عليه من الأكل ، فوقع فيما وقع ، ولقد قيل : -

دَاءٌ قَدِيمٌ فِي بَنِي آدَمَ صَبُوءَ إِنْسَانٍ بِإِنْسَانٍ

وقال القشيري : كل ما منع منه توفرت دواعي ابن آدم للاقتراب منه ، هذا آدم عليه السلام أبيع له الجنة بجملها ونهي عن شجرة واحدة فليس في المنقول أنه مدَّ يده إلى شيء من جملة ما أبيع له ، وكأنه عيل صبره حتى ذاق ما نهى عنه ، هكذا صفة الخلق ، وقال : نبه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها ، قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) ، فإذا أخبر تعالى بجعله خليفة في الأرض فكيف يمكن بقاءه في الجنة ، كان آدم لا أحد يوفيه في الرتبة ، يتوالى عليه النداء يا آدم ويا آدم فأسمى وقد نزع عنه لباسه ، وسلب استثناسه ، والقدرة لا تكابر ، وحكم الله لا يعارض ، وقال الشاعر : -

لِلَّهِ دَرَهُمْ مِنْ فِتْيَةٍ بَكَرُوا مِثْلَ الْمُلُوكِ وَرَأَحُوا كَالْمَسَاكِينِ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٣/١) ، وعزاه لابن أبي حاتم عن الشيخ عن أبي مالك .

﴿ فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٣٦) فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣٩)

« أزل » من الزلل وهو عثور القدم ، يقال زلت قدمه ، وزلت به النعل ، والزلل في الرأي والنظر مجاز ، وأزال من الزوال وأصله التنحية ، والهمزة في كلا الفعلين للتعدية ، « الهبوط » هو النزول مصدر هبط ، ومضارعه يهبط ويهبط بكسر الباء وضمها ، والهبوط بالفتح موضع النزول ، وقال المفضل^(١) : الهبوط الخروج عن البلدة . وهو أيضاً الدخول فيها من الأضداد ، ويقال في انحطاط المنزلة مجازاً ، ولهذا قال الفراء : الهبوط الذل قال لبيد -

إِنْ يَقْنُطُوا يَهْطُوا يَوْمًا وَإِنْ أَمُرُوا

(بعض) أصله مصدر بعض ببعض بعضاً : أي قطع ، ويطلق على الجزء ، ويقابله كل ، وهما معرفتان لصدور الحال منهما في فصيح الكلام ، قالوا « مررت ببعض قائماً » و « بكل جالساً » وينوى فيهما الإضافة ، فلذلك لا تدخل عليهما الألف واللام ، ولذلك خطأوا أبا القاسم^(٢) الزجاجي في قوله « ويبدل البعض من الكل » ، ويعود الضمير على بعض ، إذا أريد به جمع مفرداً ومجموعاً ، وكذلك الخبر والحال والوصف يجوز إفراده إذ ذاك وجمعه ، « العدو » من العداوة وهي مجاوزة الحد يقال عدا فلان طوره إذا جاوزه ، وقيل « العداوة » التباعد بالقلوب من عدوى الجبل وهما طرفاه سميا بذلك لبعدهما بينهما ، وقيل من عدا : أي ظلم وكلها متقاربة في المعنى ، والعدو يكون للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد جمع فقيل أعداء ، وقد أنث فقالوا عدوة ومنه : أي عدوات أنفسهن ، وقال الفراء : قالت العرب للمرأة عدوة الله ، وطرح بعضهم الهاء ، « المستقر »^(٣) مستفعل من القرار وهو اللبث والإقامة ويكون مصدراً ، وزماناً ، ومكاناً ، لأنه من فعل زائد على ثلاثة أحرف فيكون لما ذكر بصورة المفعول ، ولذلك سميت الأرض القرارة ، قال الشاعر -

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً فَتَرَكَنْ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ

واستفعل فيه بمعنى فعل استقر وقر بمعنى ، « المتاع » البلغة وهو مأخوذ من متع النهار إذ ارتفع ، فينطلق على ما يتحصل للإنسان من عرض الدنيا ، ويطلق على الزاد ، وعلى الانتفاع بالنساء ، ومنه (فما استمتعتم به منهن) ونكاح المتعة ، وعلى الكسوة (ومتعهن) ، وعلى التعمير (يمتعكم متاعاً حسناً) ، قالوا ومنه أمتع الله بك : أي أطال الله الإيناس بك ، وكله راجع لمعنى البلغة ، « الحين » الوقت والزمان ولا يتخصص بمدة بل وضع المطلق منه ،

(١) المفضل بن سلمة بن عاصم أبو طالب النحوي اللغوي الفاضل الكوفي توفي سنة ٣٠٠ - انظر ابن قاضي شهبة (٢٥٤ / ١) ، البغية (٢٩٦ / ٢) .

(٢) عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجي صاحب الجمل توفي بطبرية في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة - البغية (٧٧ / ٢) .

(٣) قوله تعالى : (ولكم في الأرض مستقر) أي : قرار وثبوت - لسان العرب (٣٥٧٩ / ٥) .

« تلقى »^(١) تفعل من اللقاء نحو تعدى من العدو ، قالوا أو بمعنى استقبل ، ومنه تلقى فلان فلاناً استقبله ، وتلقى الوحي : أي يستقبله ويأخذه ويتلقفه ، وخرجنا نتلقى الحجيج نستقبلهم ، وقال الشماخ :

إِذَا مَا رَايَةَ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

وقال الفصيح^(٢) : « التلقي » التعرض للقاء ثم يوضع موضع القبول والأخذ ، ومنه (وإنك لتلقى القرآن) تلقيت هذه الكلمة من فلان : أخذتها منه ، « الكلمة » اللفظة الموضوعية لمعنى ، والكلمة الكلام ، والكلمة القصيدة سميت بذلك لاشتغالها على الكلمة والكلام ، ويجمع بحذف التاء فيكون اسم جنس نحو نبقة ونبق ، التوبة : الرجوع ، تاب يتوب توباً وتوبة ومتاباً ، فإذا عدي بعلى ضمن معنى العطف ، تبع بمعنى لحق وبمعنى تلا وبمعنى اقتدى ، والخوف الفزع خاف يخاف خوفاً وتخوف تخوفاً فزع ، ويتعدى بالهمز وبالتضعيف ، ويكون للأمر المستقبل ، وأصل الحزن : غلظ الهم مأخوذ من الحزن وهو ما غلظ من الأرض يقال حزن يحزن حزناً وحزناً ، ويعدى بالهمزة وبالفتحة نحو شترت عين الرجل وشترها الله ، وفي التعدية بالفتحة خلاف ، ويكون للأمر الماضي ، « الآية » : العلامة ويجمع آياً وآيات قال النابغة : -

تَوَهَّمَتْ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِتَّةِ أَغْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ^(٣)

ووزنها عند الخليل وسيبويه فَعَلَّةُ فاعلت العين وسلمت اللام شذوذاً والقياس العكس ، وعند الكسائي فاعلة حذفت العين لثلاث يلزم فيه من الإدغام ما يلزم في دابة فتثقل ، وعند الفراء فعلة فأبدلت العين ألفاً استثقلاً للتضعيف كما أبدلت في قيراط وديوان ، وعند بعض الكوفيين فعلة استثقل التضعيف فقلبت الفاء الأولى ألفاً لانكسارها وتحرك ما قبلها ، وهذه مسألة ينهى الكلام عليها في علم التصريف ، « الصحبة » الاقتران صحب يصحب ، والأصحاب جمع صاحب ، وجمع فاعل على أفعال شاذ ، والصحبة والصحابة أسماء جموع ، وكذا صحب على الأصح خلافاً للأخفش وهي مطلق الاقتران في زمان ما ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ الهمزة كما تقدم في « أَزَلَ » للتعدية ، والمعنى جعلهما زلاً باغوائه وحملهما على أن زُلاً وحصولاً في الزلة ، هذا أصل همزة التعدية ، وقد تأتي بمعنى جعل أسباب الفعل فلا يقع إذ ذاك الفعل ، تقول « أضحكت زيدا فما ضحك » و « أبكيتك فما بكى » : أي جعلت له أسباب الضحك وأسباب البكاء فما ترتب على ذلك ضحكه ولا بكائه ، والأصل هو الأول وقال الشاعر : -

كَمَيْتُ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ

معناه فيما يشرح الشراح : يزل اللبد يزلقه عن وسط ظهره ، وكذلك قوله :

يزل الغلام الخف عن صهواته

أي يزلقه ، وقيل أزلهما بعدهما تقول زل عن مرتبته وزل عني ذاك وزل من الشهر كذا أي ذهب وسقط ، وهو

(١) جاء في لسان العرب :

وأما قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات) فمعناه : أنه أخذها عنه ومثله لقنها وتلقَّنها - لسان العرب (٤٠٦٧/٥) .

(٢) أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله المروزي الجعفي المعروف بالفصيح شيخ المروزة توفي في جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وأربعمائة وعمره

تسعون سنة - الأسنوي (١٤٧/٢) .

(٣) البيت للنابغة ديوانه (٣٠ - ٣١) ، الخزاعة (٤٥٣/٢) ، مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣٣/١) ، الجمل (٤٠) .

قريب من المعنى الأول لأن الزلة هي سقوط في المعنى إذ فيها خروج فاعلها عن طريق الاستقامة وبعده عنها ، فهذا جاء على الأصل من تعدية الهمزة ، وقرأ الحسن وأبورجاء وحمزة فأزَالَهُمَا ومعنى الإزالة التنحية ، وروي عن حمزة وأبي عبيدة إمالة (فأزالهما) ، (والشيطان) هو إبليس بلا خلاف هنا ، وحكوا : أن عبد الله قرأ (فوسوس لهما الشيطان عنها) ، وهذه القراءة مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه فينبغي أن يجعل تفسيراً ، وكذا ما ورد عنه وعن غيره مما خالف سواد المصحف ، وأكثر قراءات عبد الله إنما تنسب للشيعنة ، وقد قال بعض علمائنا : إنه صح عندنا بالتواتر قراءة عبد الله على غير ما ينقل عنه مما وافق السواد فتلك إنما هي آحاد ، وذلك على تقدير صحتها فلا تعارض ما ثبت بالتواتر .

وفي كيفية توصل إبليس إلى اغوائهما حتى أكلتا من الشجرة أقاويل :

قال ابن مسعود وابن عباس والجمهور : شافهما^(١) بدليل (وقاسمهما) ، قيل فدخل إبليس الجنة على طريق الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء .

وقيل : دخل في جوف الحية ، وذكروا كيف كانت خلقة الحية وما صارت إليه وكيف كانت مكالمة إبليس لآدم ، وقد قصها الله تعالى أحسن القصص ، وأصدقها في سورة الأعراف وغيرها .

وقيل : لم يدخل إبليس الجنة بل كان يدنو من السماء فيكلمهما .

وقيل : قام عند الباب فنادى .

وقيل : لم يدخل الجنة بل كان ذلك بسلطانه الذي ابتلي به آدم وذريته كقول النبي ﷺ « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »^(٢) .

وقيل : خاطبه من الأرض ولم يصعد إلى السماء بعد الطرد واللعن وكان خطابه وسوسة ، وقد أكثر المفسرون في نقل قصص كثير في قصة آدم وحواء والحية والله أعلم بذلك ، وتكلموا في كيفية حاله حين أكل من الشجرة أكان ذلك في حال التعمد ، أم في حال غفلة الذهن عن النهي بنسيان ، أم بسكر من خمر الجنة كما ذكروا عن سعيد بن المسيب ، وما أظنه يصح عنه لأن خمر الجنة كما ذكر الله تعالى (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) ، إلا إن كانت الجنة في الأرض على ما فسره بعضهم فيمكن أن يكون خمرها بسكر ، والذين قالوا بالعمد قالوا كان النهي نهي تنزيه ، وقيل كان معه من الفزع عند إقدامه ما صير هذا الفعل صغيرة ، وقيل فعله اجتهداً ، وخالف لأنه تقدم الإشارة إلى الشخص لا إلى النوع فتركها وأكل أخرى ، والاجتهاد في الفروع لا يوجب العقاب ، وقيل كان الأكل كبيرة ، وقيل أتاها إبليس في غير صورته التي يعرفانها فلم يعرفاه وحلف لهما أنه ناصح ، وقيل نسي عداوة إبليس ، وقيل يجوز أن يتأول آدم ولا تقرباً أنه نهي عن قربان مجتمعين ، وأنه يجوز لكل واحد أن يقرب ، والذي يسلك فيما اقتضى ظاهره بعض مخالفة تأويله على أحسن محمل وتنزيه الأنبياء عن النقائص ، وسيأتي الكلام على ما يرد من ذلك وتأويله على الوجه الذي يليق إن شاء الله (وفي المنتخب) للإمام أبي عبد الله « محمد بن أبي الفضل المرسى »^(٣) : ما ملخصه : منعت الأمة وقوع

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٢١٤/١) .

(٢) متفق عليه من رواية السيدة صفية البخاري (٢٨١/٤) ، في الاعتكاف باب زيارة المرأة (٢٠٣٨) ، ومسلم (١٧١٢/٤) ، في السلام باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة (٢١٧٥/٢٤) ، وعند مسلم من رواية أنس (٢١٧٤/٢٣) .

(٣) محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد البلنسي المرسى عالم بالعربية والقراءات الأعلام (٧٢/٦) ، غاية النهاية (١٠٨/٢) .

الكفر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام^(١) ، إلا الفضيلية من الخوارج قالوا : وقد وقع منهم ذنوب ، والذنب عندهم كفر ، وأجاز الإمامية إظهار الكفر منهم على سبيل التقية ، واجتمعت الأمة على عصمتهم من الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ فلا يجوز عمداً ولا سهواً ، ومن الناس من جوز ذلك سهواً ، وأجمعوا على امتناع خطئهم في الفتيا عمداً ، واختلفوا في السهو ، وأما أفعالهم فقالت الحشوية يجوز وقوع الكبائر منهم على جهة العمد ، وقال أكثر المعتزلة بجواز الصغائر عمداً إلا في القول بالكذب ، وقال الجبائي : يمتنعان عليهم إلا على جهة التأويل ، وقيل يمتنعان عليهم إلا على جهة السهو والخطأ ، وهم مأخوذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أمتهم ، وقالت الرافضة : يمتنع ذلك على كل جهة ، واختلف في وقت العصمة : فقالت الرافضة : من وقت مولدهم ، وقال كثير من المعتزلة : من وقت النبوة ، والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب حالة النبوة البتة لا الكبيرة ولا الصغيرة ، لأنهم لو صدر عنهم الذنب لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة لعظيم شرفهم وذلك محال ، ولثلاثا يكونوا غير مقبولي الشهادة ، ولثلاثا يجب زجرهم وإيذاؤهم ، ولثلاثا يقتدى بهم في ذلك ، ولثلاثا يكونوا مستحقين للعقاب ، ولثلاثا يفعلوا ضد ما أمروا به لأنهم مصطفون ، ولأن إبليس استثناهم في الإغواء انتهى ما لخصناه من المنتخب . والقول في الدلائل لهذه المذاهب ، وفي إبطال ما ينبغي إبطاله منها مذكور في كتب أصول الدين ، (عنها) الضمير عائد على الشجرة وهو الظاهر لأنه أقرب مذكور ، والمعنى فحملهما الشيطان على الزلة بسببها ، وتكون « كُنْ » إذ ذاك للسبب : أي أصدر الشيطان زلتهما عن الشجرة كقوله تعالى (وما فعلته عن أمري) (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) ، وقيل عائد على الجنة لأنها أول مذكور ، ويؤيده قراءة حمزة وغيره (فأزلهما) إذ يبعد فأزلهما الشيطان عن الشجرة ، وقيل عائد على الطاعة قالوا بدليل قوله (وعصى آدم ربه) فيكون إذ ذاك الضمير عائداً على غير مذكور إلا على ما يفهم من معنى قوله (ولا تقربا) لأن المعنى « أطيعاني بعدم قربان هذه الشجرة » ، وقيل عائد على الحالة التي كانوا عليها من التفكه والرفاهية والتبوء من الجنة حيث شاء ، وكيف شاء ، بدليل (وكلا منها رغداً) ، وقيل عائد على السماء وهو بعيد ، (فأخرجهما مما كانا فيه) من الطاعة إلى المعصية ، أو من نعمة الجنة إلى شقاء الدنيا ، أو من رفعة المنزلة إلى سفلى مكانة الذنب ، أو رضوان الله ، أو جواره وكل هذه الأقوال متقاربة ، قال المهدوي إذا جعل (أزلهما) من زل عن المكان فقوله (فأخرجهما مما كانا فيه) تأكيد ، إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة انتهى . والأولى أن يكون بمعنى كسبهما الزلة لا يكون بإلقاء ، قال ابن عطية وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره « فأكلا من الشجرة » ويعني أن المحذوف يتقدر قبل قوله (فأزلهما الشيطان) ، ونسب الإزال والإزالة والإخراج لإبليس على جهة المجاز والفاعل للأشياء هو الله تعالى ، (وقلنا اهبطوا) قرأ الجمهور بكسر الباء ، وقرأ أبو حية (اهبطوا) بضم الباء ، وقد ذكرنا أنهما لغتان ، والقول في (وقلنا اهبطوا) مثل القول في (وقلنا يا آدم اسكن) ، ولما كان أمراً بالهبوط من الجنة إلى الأرض وكان في ذلك انحطاط رتبة المأمور لم يؤنسه بالنداء ولا أقبل عليه بتنويهه بذكر اسمه والإقبال عليه بالنداء بخلاف قوله (وقلنا يا آدم اسكن) ، والمخاطب بالأمر آدم وحواء والحية^(٢) قاله أبو صالح عن ابن عباس ، أو هؤلاء

(١) أما الكفر فهم معصومون منه قبل البعثة وبعدها عمداً أو سهواً بالإجماع والكذب : معصومون من تعمدته قبل البعثة وبعدها بالإجماع ومن صدره نسياناً على التحقيق لأنه لو صدر عنهم الكذب ولو نسياناً لارتفعت الثقة بأخبارهم وبطلت دلالة المعجزة والكبائر أيضاً معصومون من تعمدته بعد البعثة بالإجماع ومن صدره عنهم سهواً على التحقيق لأنه لو جاز صدور الكبيرة عنهم ولو سهواً لكانت طاعة مأموراً بها والله لا يأمر بالفحشاء وانظر في ذلك كتب العقائد كالعقائد النسفية وشروحها والمواقف وحواشيها .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥ / ١) ، وعزاه لأبي الشيخ عن قتادة .

وإبليس^(١) قاله السدي عن ابن عباس ، أو آدم وإبليس^(٢) قاله مجاهد ، أو هما وحواء قاله مقاتل ، أو آدم وحواء فحسب ، ويكون الخطاب بلفظ الجمع ، وإن وقع على الثنية نحو (وكنا لحكمهم شاهدين) ذكره ابن الأنباري ، أو آدم وحواء والوسوسة قاله الحسن^(٣) ، أو آدم وحواء وذريتهما قاله الفراء ، أو آدم وحواء ، والمراد هما وذريتهما ورجحه الزمخشري^(٤) قال : لأنهما لما كانا أصل الانس ومنتشعهم جعلنا كأنهما الانس كلهم ، والدليل عليه قوله (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌ) ويدل على ذلك قوله (فمن تبع هداي) الآية وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم انتهى . وفي قول الفراء خطاب من لم يوجد بعد لأن ذريتهما كانت إذ ذاك غير موجودة ، وفي قول من أدخل إبليس معهما في الأمر ضعف لأنه كان خرج قبلهما ، ويجوز على ضرب من التجوز ، قال كعب ووهب : أهبطوا جملة ونزلوا في بلاد متفرقة ، وقال مقاتل أهبطوا متفرقين فهبط إبليس ، قيل : بالأبلة ، وحواء بجدة ، وآدم بالهند ، وقيل : بسرنديب بجبل يقال له واسم ، وقيل : كان غذاؤه جوز الهند ، وكان السحاب يمسح رأسه فأورث ولده الصلع ، وهذا لا يصح إذ لو كان كذلك لكان أولاده كلهم صلعاً ، وروي عن ابن عباس أن الحية أهبطت بنصيين ، وروى الثعلبي^(٥) بأصبهان والمسعودي^(٦) بسجستان ، وهي أكثر بلاد الله حيات^(٧) ، وقيل : ببيسان ، وقيل : كان هذا الهبوط الأول من الجنة إلى سماء الدنيا ، وقيل : لما نزل آدم بسرنديب من الهند ومعه ريح الجنة علق بشجرها وأوديتها فامتلاً ما هناك طيباً فمن ثم يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام ، وذكر أبو الفرج بن الجوزي في إخراجة كيفية ضربنا صفحاً عن ذكرها ، قال : وأدخل آدم في الجنة ضحوة ، وأخرج منها بين الصلاتين فمكث فيها نصف يوم والنصف خمسمائة عام مما يعد أهل الدنيا ، والأشبه أن قوله (اهبطوا) أمر تكليف لأن فيه مشقة شديدة بسبب ما كانا فيه من الجنة إلى مكان لا تحصل فيه المعيشة إلا بالمشقة ، وهذا يبطل قول من ظن أن ذلك عقوبة لأن التشديد في التكليف يكون بسبب الثواب ، فكيف يكون عقاباً مع ما في هبوطه وسكناه الأرض من ظهور حكمته الأزلية في ذلك ، وهي نشر نسله فيها ليكلفهم ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في جنة ونار ، وكانت تلك الأكلة سبب هبوطه والله يفعل ما يشاء ، وأمره بالهبوط إلى الأرض بعد أن تاب عليه لقوله ثانية (قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ) إن كان المخاطبون آدم وحواء وذريتهما كما قال مجاهد ، فالمراد ما عليه الناس من التعادي وتضليل بعضهم لبعض ، والبعضية موجودة في ذريتهما

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥٥/١) ، وعزاه لعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢١٨/١) .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٢١٨/١) ، انظر الكشاف (١٢٨/١) .

(٤) أحمد بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي مات في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة - ابن السبكي (٥٨/٤) ، تذكره الحفاظ (١٠٩٠/٣) .

(٥) علي بن الحسين بن علي أبو الحسن المسعودي مؤرخ من أهل بغداد توفي سنة ٣٤٦ هجرة - فوات الوفيات (٤٥/٢) ، الأعلام (٢٧٧/٤) .

(٦) انظر تفسير القرطبي (٢١٨/١) .

(٧) قال أبو حيان في منهج السالك : ذهب الفراء وتبعه الزمخشري في أحد قوله إلى وجوب الواو مطلقاً .

قال السيوطي : ذهب الأخفش إلى أنه إن كان خبر المبتدأ فيها مشتقاً متقدماً لم يجز دخول الواو عليه فلا يقال : جاء زيد وحسن وجهه ، قال ابن مالك وقد تخلو الاسمية من الواو والضمير معاً نحو : مررت بالبر فقيز بدرهم على حد : السمن منوان بدرهم .

وقال أبو حيان هو على تقدير الضمير كما في المشبه به وذهب ابن جني إلى أنه لا بد من تقدير الضمير مع الواو فإذا قلت : جاء زيد والشمس طالعة ، فالتقدير طالعة وقت مجيئه ، ثم حذف الضمير ودلت عليه الواو .

انظر منهج السالك (٢١١) ، شرح المفصل (٦٥/٢) ، همع الهوامع (٢٤٦/١) ، التسهيل (١١٣) ، المقتضب (١٢٥/٤) ، البسيط شرح الجمل (٨١٥/٢) ، الكتاب (١٩٥/١) .

لأنه ليس كلهم يعادي كلهم ، بل البعض يعادي البعض ، وإن كان معهما إبليس أو الحية كما قاله مقاتل ، فليس بعض ذريتهما يعادي ذرية آدم بل كلهم أعداء لكل بني آدم ، ولكن يتحقق هذا بأن جعل المأمورون بالهبط شيئاً واحداً وجُزئوا أجزاء ، فكل جزء منها جزء من الذين هبطوا ، والجزء يطلق عليه البعض فيكون التقدير « كل جنس منكم معاد للجنس المبين له » ، وقال الزجاج : إبليس عدو للمؤمنين ، وهم أعداؤه ، وقيل : معناه عداوة نفس الإنسان له وجوارحه ، وهذا فيه بعد : وهذه الجملة في موضع الحال : أي اهبطوا متعادين ، والعامل فيها اهبطوا ، فصاحب الحال الضمير في اهبطوا ، ولم يحتج إلى الواو لإغناء الرابط عنها واجتماع الواو والضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً أكثر من افراد الضمير ، وفي كتاب الله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسوذة) وليس مجيئها بالضمير دون الواو شاذاً خلافاً للفراء ومن وافقه كالزمخشري ، وقد روى سيويه عن العرب : « كَلَّمْتُهُ فَوَه إِلَى فِيٍّ »^(١) ورجع عوده على بدئه » ، وخرجه على وجهين :

أحدهما : أن عوده مبتدأ ، وعلى بدئه خبر ، والجملة حال ، وهو كثير في لسان العرب نظمها ونثرها فلا يكون ذلك شاذاً ، وأجاز مكي بن أبي طالب أن تكون الجملة مستأنفة اخباراً من الله تعالى بأن بعضهم لبعض عدو فلا يكون في موضع الحال ، وكأنه فر من الحال لأنه تخيل أنه يلزم من القيد في الأمر أن يكون مأموراً به كالمأمور ، ألا ترى أنك إذا قلت « قم ضاحكاً » كان المعنى الأمر بإيقاع القيام مصحوباً بالحال ، فيكون مأموراً بها أو كالمأمور لأنك لم تسوغ له القيام إلا في حال الضحك ، وما يتوصل إلى فعل المأمور إلا به مأمور به ، والله تعالى لا يأمر بالعداوة ، ولا يلزم ما يتخيل من ذلك لأن الفعل إذا كان مأموراً به من يسند إليه في حال من أحواله لم تكن تلك الحال مأموراً بها ، لأن النسبة الحالية هي نسبة تقييدية لا نسبة إسنادية ، فلو كانت مأموراً بها إذا كان العامل فيها أمراً فلا يسوغ ذلك هنا ، لأن الفعل المأمور به إذا كان لا يقع في الوجود إلا بذلك القيد ولا يمكن خلافه لم يكن ذلك القيد مأموراً به ، لأنه ليس داخلاً في حيز التكليف ، وهذه الحال من هذا النوع فلا يلزم أن يكون الله أمر بها ، وهذه الحال من الأحوال اللازمة ، وقوله (لبعض) متعلق بقوله (عدو) واللام مقوية لوصول عدو إليه ، وأفرد عدو على لفظ بعض ، أو لأنه يصلح للجمع كما سبق ذكر ذلك عند الكلام على بعض وعلى عدو حالة الأفراد ، (ولكم في الأرض مستقر) مبتدأ وخبر (لكم) هو الخبر ، (وفي الأرض) متعلق بالخبر ، وحقيقته أنه معمول للعامل في الخبر ، والخبر هنا مصحح لجواز الابتداء بالنكرة ، ولا يجوز (في الأرض) أن يتعلق بمستقر سواء كان يراد به مكان استقرار كما قاله أبو العالية وابن زيد ، أو المصدر أي استقرار كما قاله السدي ، لأن اسم المكان لا يعمل ولأن المصدر الموصول ، لا يجوز بعضهم تقديم معموله عليه ، ولا يجوز (في الأرض) أن يكون خبر (ولكم) متعلق بمستقر لما ذكرناه ، أو في موضع الحال من

(١) قوله (فاه إلى فيٍّ) منصوب على الحال لأنه واقع موقع مشافهاً قال المصنف في ارتشاف الضرب : وزعم الفارسي أنه حال نائبه مناب جاعلاً ثم حذف وصار العامل كلمته ، وقال هذا مذهب سيبويه وذهب السيرافي إلى أنه اسم وضع موضع المصدر الموضوع موضع الحال ، ومعناه كلمته مشافهة موضع فاه إلى فيٍّ موضع مشافهة ، ومشافهة موضع مشافها ، وذهب الأخفش إلى أن أصله من فيه إلى فيٍّ فحذف حرف الجر ، وذهب الكوفيون إلى أن أصله كلمته جاعلاً فاه إلى فيٍّ وزعم المبرد أن تقدير الأخفش لا يغفل لأن الإنسان لا يتكلم من فم غيره إنما يتكلم كل إنسان من في نفسه وقالت العرب : (كلمته فوه إلى فيٍّ) وهو مبتدأ خبره ما بعده ، وقال الفراء : أكثر كلام العرب فاه إلى فيٍّ بالنصب والرفع مقول صحيح وفي ما أشبهه هذا من قولهم : حاذيته ركبتة إلى ركبتتي وجاورته منزله إلى منزلي وناضلته قوسه عن قوسي والأكثر فيه ركبتة ومنزله وقوسه بالرفع وإذا كان نكرة فالنصب المؤثر المختار نحو : كلمته فمأ لقم وحاذيته ركبة لركبة وناضلته قوساً عن قوس ورفعه ، وهو نكرة جائز على ضعف إذا جعلت اللام خبر الفم وكذلك غيرها من الصفات وإن وضعت الواو موضع الصفة فقلت كلمته فوه وفيٍّ وحاذيته ركبتة وركبتتي قالوا وتعمل ما تعمل إلي والنصب بعدها سائغ على إعمال المضمهر .
انظر ارتشاف الضرب (٣٣٥ / ٢) ، الكتاب (١٩٥ / ١) ، همع الهوامع (٢٣٧ / ١) .

مستقرّ لأن العامل إذ ذاك فيها يكون الخبر وهو عامل معنوي ، والحال متقدمة على جزأي الإسناد فلا يجوز ذلك ، وصار نظير « قائماً زيد في الدار » أو « قائماً في الدار زيد » وهو لا يجوز بإجماع ، (مستقرّ) : أي مكان استقراركم حالتي الحياة والموت ، وقيل هو القبر ، أو استقرار كما تقدم شرحه ، (ومتاع) المتاع ما استمتع به من المنافع ، أو الزاد ، أو الزمان الطويل ، أو التعمير .

(إلى حين) إلى الموت ، أو إلى قيام الساعة ، أو إلى أجل قد علمه الله قاله ابن عباس ، ويتعلق إلى بمحذوف : أي ومتاع كائن إلى حين أو بمتاع : أي واستمتاع إلى حين ، وهو من باب الأعمال ، أعمل فيه الثاني ولم يحتاج إلى إضمار في الأول ، لأن متعلقه فضلة ، فالأولى حذفه ، ولا جائز أن يكون من إعمال الأول ، لأن الأولى أن لا يحذف من الثاني ، والأحسن : حمل القرآن على الأولى والأفصح ، لا يقال إنه لا يجوز أن يكون من باب الأعمال ، وإن كان كل من (مستقرّ) (ومتاع) يقتضيه من جهة المعنى بسبب أن الأول لا يجوز أن يتعلق به (إلى حين) ، لأنه يلزم من ذلك الفصل بين المصدر ومعموله بالمعطوف ، والمصدر موصول فلا يفصل بينه وبين معموله ، لأن المصدر هنا لا يكون موصولاً ، وذلك أن المصدر منه ما يلحظ فيه الحدوث فيتقدر بحرف مصدري مع الفعل وهذا هو الموصول ، وإنما كان موصولاً باعتبار تقديره بذلك الحرف الذي هو موصول بالفعل ، وإلا فالمصدر من حيث هو مصدر لا يكون موصولاً ، ومنه ما لا يلحظ فيه الحدوث نحو قوله « لزيد معرفة بالنحو وبصر بالطب وله ذكاء ذكاء الحكماء » فمثل هذا لا يتقدر بحرف مصدري والفعل ، حتى ذكر النحويون أن هذا المصدر إذا أضيف لم يحكم على الاسم بعده لا برفع ولا بنصب ، قالوا فإذا قلت « يعجبني قيام زيد » فزيد فاعل القيام تأويله « يعجبني أن يقوم زيد » وممكن أن زيداً يعرى منه القيام ، ولا يقصد فيه إلى إفادة المخاطب أنه فعل القيام فيما مضى أو يفعله فيما يستقبل ، بل تكون النية في الإخبار كالتنية في يعجبني خاتم زيد المحدود المعروف بصاحبه ، والمخفوض بالمصدر على هذه الطريقة لا يقضى عليه برفع ولا يؤكد ولا ينعت ولا يعطف عليه إلا بمثل ما يستعمل مع المخفوضات الصحاح انتهى . فأنت ترى تجويزهم أن لا يكون موصولاً مع المصدر الذي يمكن أن يكون موصولاً وهو قولهم « يعجبني قيام زيد » ، فكيف مع ما لا يجوز أن يكون موصولاً نحو ما مثلنا به من قوله « له ذكاء ذكاء الحكماء وبصر بالطب » ونحو ذلك ، فكذلك يكون (مستقر) (ومتاع) من قبيل ما لا يكون موصولاً ، ولا يمتنع أن يعمل في الجار والمجرور وإن لم يكن موصولاً كما مثلنا في قوله معرفة بالنحو ، لأن الظرف والجار والمجرور يعمل فيهما روائح الأفعال حتى الأسماء الأعلام نحو قولهم :

أنا أبو المنهال بعض الأحيان وأنا ابن ماوية إذ جدّ النقر ، وأما أن تعمل في الفاعل أو المفعول به فلا ، وأما إذا قلنا بمذهب الكوفيين وهو أن المصدر إذا نون أو دخلت عليه الألف واللام تحققت له الإسمية وزال عنه تقدير الفعل فانقطع عن أن يحدث إعراباً وكانت قصته قصة زيد وعمرو والرجل والثوب ، فيمكن أيضاً أن يخرج عليه قوله تعالى (مستقر ومتاع إلى حين) ، ولا يبعد على هذا التقدير تعلق الجار والمجرور بكل منهما ، لأنه يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما ، ولأن المصدر إذ ذاك لا يكون أبعد في العمل في الظرف أو المجرور من الاسم العلم ، ويمكن أن يفسر قوله (مستقر ومتاع إلى حين) بقوله (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) ، وفي قوله (إلى حين) دليل على عدم البقاء في الأرض ، ودليل على المعاد وفي هذه الآية التحذير عن مخالفة أمر الله بقصد أو تأويل ، وأن المخالفة تزيل عن مقام الولاية (فتلقى آدم من ربه كلمات) تلقى تفعل من اللقاء وهو هنا بمعنى التجرد : أي لقي آدم نحو قولهم تعداك هذا الأمر بمعنى عداك ، وهو أحد المعاني التي جاءت لها تفعل وهي سبعة عشر معنى . مطاوعة فعل نحو كسرتة فتكسر ، والتكلف نحو تحلم ، والتجنب نحو تجنب ، والصيرورة نحو تألم ، والتلبس

بالمسمى المشتق منه نحو تقمص ، والعمل فيه نحو تسحر ، والاتخاذ نحو تبنييت الصبي ، ومواصلة العمل في مهلة نحو تفهم ، وموافقة استفعل نحو تكبر ، وموافقة المجرد نحو تعدى الشيء : أي عداه ، والإغناء عنه نحو تكلم ، والإغناء عن فعل نحو توبل ، وموافقة فعل نحو تولى : أي ولى ، والختل نحو تعقلته ، والتوقع نحو تخوفه ، والطلب نحو تنجز حوائجه ، والتكثير نحو تعطينا .

ومعنى تلقي الكلمات : أخذها وقبولها ، أو الفهم ، أو الفطنة ، أو الإلهام ، أو التعلم والعمل بها ، أو الاستغفار والاستقالة من الذنب ، وقول من زعم أن أصله تلقن فأبدلت النون ألفاً ضعيف ، وإن كان المعنى صحيحاً لأن ذلك لا يكون إلا مما كان عينه ولامه من جنس واحد نحو « تلقى وتقضى وتسرى » ، أصله تظنن وتقضض وتسرّر ، ولا يقال في تقبل تقبى ، وقرأ الجمهور برفع (آدم) ونصب (الكلمات) ، وعكس ابن كثير ، ومعنى تلقي الكلمات لآدم : وصولها إليه لأن من تلقاك فقد تلقيته فكأنه قال : فجاءت آدم من ربه كلمات ، وظاهر قوله كلمات : أنها جملة مشتملة على كلم أو جمل من الكلام قالها آدم ، فلذلك قدر وابتعد قوله كلمات جملة محذوفة وهي فقالها فتأب عليه ، واختلفوا في تعيين تلك الكلمات على أقوال ، وقد طولوا بذكرها ، ولم يخبرنا الله بها إلا مبهمه ، ونحن نذكرها كما ذكرها المفسرون : قال ابن عباس والحسن وابن جبير ومجاهد وابن كعب وعطاء الخراساني والضحاك وعبيد بن عمير وابن زيد : هي ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا ﴾ الآية^(١) ، وروي عن ابن مسعود : أن أحب الكلام إلى الله ما قاله أبونا حين اقترف الخطيئة « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب فقال : يقول ما قاله أبواه ربنا ظلمنا أنفسنا رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، وما قاله يونس (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) ، وروي عن ابن عباس ووهب أنها سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين^(٢) ، وقال محمد بن كعب هي لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم^(٣) ، وحكى السدي : عن ابن عباس أنه قال : رب ألم تخلقني بيدك ؟ ، قال بلى . قال ألم تنفخ فيّ من روحك ؟ قال بلى . قال ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ ، قال بلى . قال ألم تسكني جنتك ؟ ، قال بلى . قال رب إن تبت وأصلحت أراجعي إلى الجنة ؟ قال نعم ، وزاد قتادة في هذا : وسبقت رحمتك إليّ قبل غضبك ، قيل له بلى قال : رب هل كتبت هذا عليّ قبل أن تخلقني ؟ ، قيل له نعم فقال رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة قيل له نعم ، وقال قتادة هي : أستغفرك وأتوب إليك إنك أنت التواب الرحيم ، وقال عبيد بن عمير : قال يا رب خطيئتي التي اخطأتها شيء كتبت عليّ قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعته من قبل نفسي ؟ ، قال بل شيء كتبت عليك قبل أن أخلقك ، قال فكما كتبت عليّ فاغفر لي ، وقيل إنها : « سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور ، وقيل : رأى مكتوباً على ساق العرش « محمد رسول الله فتشفع بذلك فهي الكلمات » ، وقيل : قوله حين عطس الحمد لله ، وقيل هي الدعاء والحياء والبكاء ، وقيل : الاستغفار والندم والحزن ، قال ابن عطية : وسماها كلمات مجازاً لما هي في خلقها صادرة عن كلمات وهي كن في كل واحدة منهن ، وهذا قول يقتضي أن آدم لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود انتهى كلامه ، فتأب عليه : أي تفضل عليه بقبول توبته وأفرده بالإخبار عنه بالتوبة عليه ، وإن كانت زوجته مشاركة له في الأمر بالسكنى والنهي عن قربان الشجرة وتلقي الكلمات والتوبة ، لأنه هو المواجه بالأمر والنهي ،

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٢١/١) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٢١/١ ، ٢٢٢) .

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٢٢٢/١) .

وهي تابعة له في ذلك فكمثلت القصة بذكره وحده ، كما جاء في قصة موسى والخضر إذ جاء (حتى إذا ركبنا في السفينة) فحملهما بغير نول ، وكان مع موسى يوشع لكنه كان تابعاً لموسى فلم يذكره ، ولم يجمع معهما في الضمير ، أو اكتفى بذكر أحدهما إذا كان فعلهما واحداً نحو قوله تعالى (والله ورسوله أحق أن يرضوه) و (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) ، أو طوى ذكرها كما طواه عند ذكر المعصية في قوله وعصى آدم ربه فغوى ، وقد جاء طي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة ، وقد ذكرها في قوله (قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا) ، وإنما لم يراع هذا الستر في امرأتي نوح ولوط لأنهما كانتا كافرتين ، وقد ضرب بهما المثل للكفار لأن ذنوبهما كانت غاية في القبح والفحش والكافر لا يناسب الستر عليه ولا الإغضاء عن ذنبه بل ينادى عليه ليكون ذلك أخزى له وأحط لدرجته وحواء ليست كذلك ، ولأن معصيتهما تكررت واستمر منهن الكفر والإصرار على ذلك ، والتوبة متعذرة لما سبق في علم الله أنهما لا يتوبان وليست حواء كذلك لخفة ما وقع منها أو لرجوعها إلى ربها ، ولأن التبكي^(١) للمذنب شرع رجاء الإقلاع ، وهذا المعنى معهود فيهما ، وذكرهما بالإضافة إلى زوجيهما فيه من الشهرة ما لا يكون في ذكر اسميهما غير مضافين إليهما ، وتوبة العبد : رجوعه عن المعصية ، وتوبة الله على العبد : رجوعه عليه بالقبول والرحمة واختلف في التوبة المطلوبة من العبد ، فقال قوم : هي الندم أخذاً بظاهر قوله ﷺ « الندم توبة »^(٢) ، وقال قوم : شروطها ثلاثة الندم على ما فات ، والإقلاع عنه ، والعزم على أن لا يعود ، وتأولوا الندم توبة على معظم التوبة نحو « الحج عرفة »^(٣) ، وزاد بعضهم في الشروط المظالم إذا قدر على ردها ، وزاد بعضهم المطعم الحلال ، وقال القفال لا بد مع تلك الشروط الثلاثة من الإشفاق فيما بين ذلك ، وذلك أنه مأمور بالتوبة ولا سبيل له إلى القطع بأنه أتى بها كما لزمه فيكون خائفاً ولهذا جاء (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) ، روي عن ابن عباس : أن آدم وحواء بكيا على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتي سنة ، وقد ذكروا في كثرة دموع آدم وداود شيئاً يفوت الحصر كثرة ، وقال شهر بن حوشب : بلغني أن آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى ، وروي أن الله تعالى تاب على آدم في يوم عاشوراء ، وقرأ الجمهور (إنه) بكسر الهمزة وقرأ أبو نوفل^(٤) بن أبي عقرب (أنه) بفتح الهمزة ووجهه أنه فتح على التعليل التقدير لأنه ، فالمفتوحة مع ما بعدها فضلة إذ هي في تقدير مفرد ثابت واقع مفروغ من ثبوته لا يمكن فيه نزاع منازع ، وأما الكسر فهي جملة ثابتة تامة أخرجت مخرج الأخبار المستقل الثابت ومع ذلك فلها ربط معنوي بما قبلها كما جاءت في (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة) ، (اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ، (وصلّ عليهم إن صلاتك) ، حتى لو وضعت الفاء التي تعطي الربط مكانها أغنت عنها وقالوا : إن أن إنما تجيء لتثبيت ما يتردد المخاطب في ثبوته ونفيه ، فإن قطع بأحد الأمرين فليس من مظانها ، فإن وجدت داخله على ما قطع فيه بأحد الأمرين ظاهراً فيكون ذلك لتنزيله منزلة المتردد فيه لأمر ما ، وسيأتي الكلام على ذلك في نحو (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) إن شاء الله ، ولما دخلت للتأكيد في قوله (إنه هو التواب

(١) التبكيت : التفريع والتوبيخ ... قال الهروي : ويكون باليد وبالعضا ونحوه ، وبكته بالحجة أي غلبه ... لسان العرب (٣٣٢/١) .

(٢) أخرجه ابن ماجة رقم (٤٢٥٢) ، وأحمد في المسند (٣٧٦/١) ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٥٤/١٠) ، والحاكم (٢٤٣/٤) ، والحميدي (١٠٥) ، والطبراني في الصغير (٣٣/١) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥١/٨) ، والطحاوي في معاني الآثار (٢٩١/٤) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٣٥/٤) ، الدارمي (٥٩/٢) ، وأبو داود (٤٨٥/٢) ، (١٩٤٩) ، ، والترمذي (٢٣٧/٣) ، (٨٨٩) ، (٨٩٠) ، وفي التفسير (٢٩٧٥) ، وقال حسن صحيح ، وابن ماجة (١٠٠٣/٢) ، (٣٠١٥) ، والهيثم في الموارد حديث (١٠٠٩) ، والحاكم (٤٦٤/١) .

(٤) معاوية بن عمر بن أبي عقرب أبو نوفل الدؤلي ، قال ياقوت : كان فقيهاً نحويّاً - انظر المعجم (١٥٤/١٩) ، البغية (٢٩٤/٢) .

(الرحيم) قوى التأكيد بتأكيد آخر وهو لفظة هو ، وقد ذكرنا فائدته في قوله (وأولئك هم المفلحون) وبولغ أيضاً في الصفتين بعده فجاء (التواب) على وزن فعّال ، (والرحيم) على وزن فعيل وهما من الأمثلة التي صيغت للمبالغة ، وهذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التوبة والرجوع إلى الطاعة وإطماع في عفوه تعالى وإحسانه لمن تاب إليه (التواب) من أسمائه تعالى وهو الكثير القبول لتوبة العبد ، أو الكثير الإعانة عليها ، وقد ورد هذا الاسم في كتاب الله معرّفاً ومنكراً ، ووصف به تعالى نفسه ، فدل ذلك على أنه مما استأثر به تعالى ، وذهب بعضهم إلى أنه تعالى لا يوصف به إلا تجوزاً ، وأجمعوا أنه لا يوصف تعالى بتائب ولا آيب ولا رجاء ولا منيب ، وفرق بين إطلاقه على الله تعالى وعلى العبد ، وذلك لاختلاف صلتيهما ألا ترى (فتاب عليه) (وتوبوا إلى الله) ، فالتوبة من الله على العبد هي العطف والتفضل عليه ، ومن العبد هي الرجوع إلى طاعته تعالى لطلب ثواب أو خشية عقاب أو رفع درجات ، وأعقب الصفة الأولى بصفة الرحمة لأن قبول التوبة سببه رحمة الله لعبده . وتقدم التواب لمناسبة فتاب عليه ولحسن ختم الفاصلة بقوله الرحيم ، وقد تقدم الكلام في البسملة على لفظة الرحيم وما يتعلق بها فأغنى ذلك عن إعادته ، (قلنا اهبطوا) كرّر القول إما على سبيل التأكيد المحض لأن سبب الهبوط كان أول مخالفة فكرر تنبيهاً على ذلك أو لاختلاف متعلقيهما لأن الأول علق به العداوة ، والثاني علق بإتيان الهدى ، وإما لا على سبيل التأكيد بل هما هبوطان حقيقة الأول من الجنة إلى السماء ، والثاني من السماء إلى الأرض ، وضعف هذا الوجه بقوله في الهبوط الأول ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ ولم يحصل الاستقرار على هذا التخريج إلا بالهبوط الثاني فكان ينبغي الاستقرار أن يذكر فيه وبقوله في الهبوط الثاني منها ، وظاهر الضمير أنه يعود إلى الجنة ، فاقتضى ذلك أن يكون الهبوط الثاني منها جميعاً حال من الضمير في اهبطوا ، وقد تقدم الكلام في لفظة جميعاً وأنها تقتضي التعميم في الحكم لا المقارنة في الزمان عند الكلام على قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) ، فهنا يدل على أنهم كلهم خوطبوا بالهبوط فقد دلّ على اتحاد زمان الهبوط ، وأبعد ابن عطية في قوله كأنه قال هبوطاً جميعاً أو هابطين جميعاً فجعله نعتاً لمصدر محذوف أو لاسم فاعل محذوف ، كل منهما يدل عليه الفعل ، قال : لأن (جميعاً) ليس بمصدر ولا اسم فاعل مع منافاة ما قدر للحكم الذي صدره لأنه قال أولاً وجميعاً حال من الضمير في (اهبطوا) فإذا كان حالاً من الضمير في اهبطوا على ما قرر أولاً فكيف يقدر ثانياً كأنه قال هبوطاً جميعاً أو هابطين جميعاً ، فكلامه أخيراً يعارض حكمه أولاً ولا ينافي كونه ليس بمصدر ولا اسم فاعل وقوعه حالاً حتى يضطر إلى هذا التقدير الذي قدره ، وأبعد غيره أيضاً في زعمه أن التقدير وقلنا اهبطوا مجتمعين فهبطوا جميعاً فجعل ثَمَّ حالاً محذوفة لدلالة جميعاً عليها وعاملاً محذوفاً لدلالة اهبطوا عليه ، ولا يلتزم هذا التقدير مع ما بعده إلا على إضمار قول : أي قلنا إما يأتينكم ، وقد تقدم الكلام في المأمورين بالهبوط وعلى تقدير أن يكون هبوطاً ثانياً ، فقليل يخص آدم وحواء لأن إبليس لا يأتيه هدى وخصا بخطاب الجمع تشريفاً لهما وقيل يندرج في الخطاب لأن إبليس مخاطب بالإيمان بالإجماع ، (وإن) شرطية و (ما) زائدة بعدها للتوكيد ، والنون في (يأتينكم) نون التوكيد ، وكثر مجيء هذا النحو في القرآن (فإما ترين) و (إما ينزعك) (فإما نذهبن) ، قال أبو العباس المهدوي إن هي التي للشرط زيدت عليها ما للتأكيد ليصح دخول النون للتوكيد في الفعل ، ولو سقطت يعني ما لم تدخل النون فما تؤكد أول الكلام والنون تؤكد آخره ، وتبعه ابن عطية في هذا فقال فإن هي للشرط دخلت ما عليها مؤكدة ليصح دخول النون المشددة فهي بمثابة لام القسم التي تجيء لمجيء النون انتهى كلامه . وهذا الذي ذهب إليه من أن النون لازمة لفعل الشرط إذا وصلت إن بما هو مذهب المبرد^(١) والزجاج زعماً أنها تلزم تشبيهاً بما زيدت للتأكيد في لام اليمين نحو « والله

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري أبو العباس المبرد إمام العربية ببغداد في زمانه توفي سنة خمس وثمانين ومائتين ببغداد -

لأخرجن » ، وزعموا أن حذف النون إذا زيدت ما بعد إن ضرورة ، وذهب سيويه والفارسي وجماعة من المتقدمين إلى أن ذلك لا يختص بالضرورة ، وأنه يجوز في الكلام إثباتها وحذفها ، وإن كان الإثبات أحسن ، وكذلك يجوز حذف ما وإثبات النون قال سيويه في هذه المسألة : وإن شئت لم تقحم النون كما أنك إن شئت لم تجيء بما ؛ انتهى كلامه . وقد كثر السماع بعدم النون بعد إما قال الشنفرى^(١) :

فَإِمَّا تَرَيِّنِي كَابِنَةَ الرُّمْلِ ضَاحِيَا عَلَى رِقَّةٍ أَحْفَى وَلَا أَتَنَعَلُ^(٢)

وقال آخر :

يَا صَاحِ إِمَّا تَجِدْنِي غَيْرَ ذِي جِدَّةٍ فَمَا التَّخْلِي عَنِ الْإِخْوَانِ مِنْ شَيْمِي^(٣)

وقال آخر :

زَعَمْتُ تَمَاضُرُ أَنْبِي إِمَّا أُمْتُ تُسَدُّ أَيْبُنُوهَا الْأَصَاغِرُ خُلَّتِي^(٤)

والقياس يقبله لأن « ما » زيدت حيث لا يمكن دخول النون نحو قول الشاعر :

إِمَّا أَقَمْتُ وَإِمَّا كُنْتُ مُرْتَجِلًا فَالَلَّهُ يَحْفَظُ مَا تُبْقِي وَمَا تَذَرُ^(٥)

فكما جاءت هنا زائدة بعد إن فكذلك في نحو « إما تقم يأتينكم » مبني مفتوح الآخر ، واختلف في هذه الفتحة أهى للبناء أم بني على السكون وحرك بالفتحة لالتقاء الساكنين ؟ ، وقد أوضحنا ذلك في كتابنا المسمى بالتكميل لشرح التسهيل ، مني متعلق بيأتينكم وهذا شبيه بالالتفات لأنه انتقل من الضمير الموضوع للجمع أو المعظم نفسه إلى الضمير الخاص بالمتكلم المفرد ، وقد ذكرنا حكمة ذاك الضمير في (قلنا) عند شرح قوله (وقلنا يا آدم اسكن) وحكمة هذا الانتقال هنا أن الهدى لا يكون إلا منه وحده تعالى فناسب الضمير الخاص كونه لا هادي إلا هو تعالى فأعطى الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره الضمير الخاص الذي لا يحتمل غيره تعالى ، وفي قوله (مني) إشارة إلى أن الخير كله منه ولذلك جاء (قد جاءكم برهان من ربكم) ، (وقد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء) ، فأتى بكلمة من الدالة على الابتداء في الأشياء لينبه على أن ذلك صادر منه ومبتدأ من جهته تعالى ، وأتى بأداة الشرط في قوله (فإذا يأتينكم مني هدى) وهي تدخل على ما يتردد في وقوعه والذي انبههم زمان وقوعه ، وإتيان الهدى واقع لا محالة لأنه انبههم وقت الإتيان ، أولاً لأنه أذن ذلك بأن توحيد الله تعالى ليس شرطاً فيه إتيان رسل منه ولا إنزال كتب بذلك بل لو لم يبعث رسلاً ولا أنزل كتباً لكان الإيمان به واجباً ، وذلك لما ركب فيهم من العقل ونصب لهم من الأدلة ويمكن لهم من الاستدلال كما قال : -

(١) عمرو بن مالك الأزدي من قحطان شاعر جاهلي يمني من فحول الطبقة الثانية توفي نحو سنة ٧٠ قبل الهجرة - الأعلام (٨٥/٥) .

(٢) البيت من الطويل للشنفرى من القصيدة المعروفة بـ « لامية العرب » ، انظر شرح لامية العرب لأبي البقاء ص ١٦ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) البيت من البسيط ، وانظر المقاصد النحوية للعيني (٣٣٩/٤) ، وابن الناظم ص ٦٢٠ ، وابن مالك في أوضح المسالك (١٦٨/٢) .

(٤) البيت من الكامل لسلمي بن ربيعة - انظر الخزانة (١٦/٨) ، النوادر في اللغة لابن زيد ص (٣٧٥) ، الأمالي للقالبي (٨١/١) ، حاشية الكشف (٣٥٠/٤) ، اللسان (خلل) .

(٥) البيت من البسيط لم يعلم قائله انظر الخزانة (١٩/٤) ، شرح شواهد المغني للسيوطي (١١٨) ، شرح المفصل (٦٩/٢) ، شرح الكافية (٢٥٣/١) .

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

قال معناه الزمخشري^(١) غير إنشاد الشعر ، (هُدى) تقدم الكلام على الهدى في قوله (هدى للمتقين) ونكره لأن المقصود هو المطلق ولم يسبق عهد فيه فيعرف ، والهدى المذكور هنا الكتب المنزلة ، أو الرسل ، أو البيان ، أو القدرة على الطاعة ، أو محمد رسول الله ﷺ أقوال ، (فمن تبع) الفاء مع ما دخلت عليه جواب لقوله (فإِذَا يَأْتِيَنكُمْ) ، وقال السجاوندي الجواب محذوف تقديره فاتبعوه انتهى . فكأنه على رأيه حذف لدلالة قوله بعده فمن تبع هداي ، وتظافرت نصوص المفسرين والمعرّبين على أن (من) في قوله (فمن تبع) شرطية وأن جواب هذا الشرط هو قوله (فلا خوف) فتكون الآية فيها شرطان ، وحكي عن الكسائي أن قوله (فلا خوف) جواب للشرطين جميعاً وقد أتقنا مسألة اجتماع الشرطين في كتاب التكميل ، ولا يتعين عندي أن تكون من شرطية ، بل يجوز أن تكون موصولة ، بل يترجح ذلك لقوله في قسمه (والذين كفروا وكذبوا) فأتى به موصولاً ويكون قوله (فلا خوف) جملة في موضع الخبر ، وأما دخول الفاء في الجملة الواقعة خبراً فإن الشروط المسوّغة لذلك موجودة هنا ، وفي قوله (فمن تبع هداي) تنزيل الهدى منزلة الإمام المتبع المقتدى به فتكون حركات التابع وسكناته موافقة لمتبوعه وهو الهدى ، فحيث ذهب عنه الخوف والحزن وفي إضافة الهدى إليه من تعظيم الهدى ما لا يكون فيه لو كان معرفاً بالألف واللام وإن كان سبيل مثل هذا أن يعود بالألف واللام نحو قوله (إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول) والإضافة تؤدي معنى الألف واللام من التعريف ويزيد على ذلك بمزية التعظيم والتشريف ، وقرأ الأعرج (هداي) بسكون الياء وفيه الجمع بين ساكنين كقراءة من قرأ ومحياي وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف ، وقرأ عاصم الجحدري وعبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن أبي عمر هُديّ بقلب الألف ياء وإدغامها في ياء المتكلم إذ لم يمكن كسر ما قبل الياء لأنه حرف لا يقبل الحركة وهي لغة هذيل يقلبون ألف المقصور ياء ويدغمونها في ياء المتكلم وقال شاعرهم : -

سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمْ فَتُخَرَّمُوا وَلِكُلِّ قَوْمٍ مَضْرَعٌ

(فلا خَوْفٌ عليهم) قرأ الجمهور بالرفع والتنوين ، وقرأ الزهري وعيسى الثقفي^(٢) ويعقوب بالفتح في جميع القرآن ، وقرأ ابن محيصن باختلاف عنه بالرفع من غير تنوين ، وجه قراءة الجمهور مراعاة الرفع في (ولا هم يحزنون) فرفعوا للتعادل ، قال ابن عطية والرفع على إعمالها إعمال ليس ، ولا يتعين ما قاله بل الأولى أن يكون مرفوعاً بالابتداء لوجهين :

أحدهما : أن إعمال لا عمل ليس قليل جداً ويمكن النزاع في صحته وإن صح فيمكن النزاع في اقتياسه .

والثاني : حصول التعادل بينهما إذ تكون لا قد دخلت في كلتا الجملتين على مبتدأ ولم تعمل فيهما ، ووجه قراءة الزهري ومن وافقه أن ذلك نص في العموم فينفى كل فرد فرد من مدلول الخوف ، وأما الرفع فيجوز وليس نصاً فراعوا ما دل على العموم بالنص دون ما يدل عليه بالظاهر ، وأما قراءة ابن محيصن فخرجها ابن عطية على أنه من إعمال لا عمل ليس وأنه حذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، وقد ذكرنا ما في إعمال لا عمل ليس فالأولى أن يكون مبتدأ كما ذكرناه

(١) انظر الكشف (٢٢٩/١) .

(٢) عيسى بن عمر أبو عمر الثقفي البصري مؤلف الجامع والإكمال قال أبو عبد القاسم بن سلام كان من قراء البصرة عيسى بن عمر الثقفي وكان عالماً بالنحو غير أنه كان له اختيار في القراءة على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة ويستنكره الناس وكان الغالب عليه حب النصب إذا وجد لذلك سبيلاً منه - انظر غايه النهاية (٦١٣/١) .

إذا كان مرفوعاً منوناً وحذف تنوينه كما قال لكثرة الاستعمال ، ويجوز أن يكون عُرِّي من التنوين لأنه على نية الألف واللام فيكون التقدير فلا الخوف عليهم ، ويكون مثل ما حكى الأخفش عن العرب سلامٌ عليكم بغير تنوين ، قالوا يريدون السلام عليكم ، ويكون هذا التخريج أولى إذ يحصل التعادل في كون لا دخلت على المعرفة في كلتا الجملتين وإذا دخلت على المعارف لم تجر مجرى ليس ، وقد سمع من ذلك بيت للناطقة الجعدي وتأوله النحاة وهو :

وَحَلَّتْ سَوَادَ الْقَلْبِ لَا أَنَا بَاغِيًا سِوَاهَا وَلَا فِي حُبِّهَا مُتَرَاخِيًا^(١)

وقد لحنوا أبا الطيب في قوله :

فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلَا الْمَالُ بَاقِيًا

وكنى بقوله (عليهم) عن الاستيلاء والإحاطة ونزل المعنى منزلة الجرم ونفى كونه معتلياً مستولياً عليهم ، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن الخوف لا ينتفي بالكلية ألا ترى إلى انصباب النفي على كينونة الخوف عليهم ولا يلزم من كينونة استعلاء الخوف انتفاء الخوف في كل حال ، ولذلك قال بعض المفسرين ليس في قوله (فلا خوف عليهم) دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها عن المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنها مخففة عن المطيعين فإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا ، وقدم عدم الخوف على عدم الحزن لأن انتفاء الخوف فيما هو آت أكد من انتفاء الحزن على ما فات ولذلك أبرزت جملة مصدره بالنكرة التي هي أوغل في باب النفي ، وأبرزت الثانية مصدره بالمعرفة في قوله (ولا هم يحزنون) وفي قوله ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وأن غيرهم يحزن ولو لم يشر إلى هذا المعنى لكان ولا يحزنون كافياً ، ولذلك أورد نفي الحزن عنهم وإذهابه في قوله (إن الذين سبقت لهم) إلى قوله (لا يحزنهم الفرع الأكبر وتلقاهم الملائكة) ومعلوم أن هذين الخبرين وما قبلهما من الخبر مختص بالذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وفي قوله (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) فدل هذا كله على أن غيرهم يحزنه الفرع ولا يذهب عنهم الحزن ، وحكي عن المفسرين في تفسير هذه الجملة أقوال :

أحدها : لا خوف عليهم فيما يستقبلون من العذاب ولا يحزنون عند الموت .

الثاني : لا يتوقعون مكروهاً في المستقبل ولا هم يحزنون لفوات المرغوب في الماضي ، والحال .

الثالث : لا خوف عليهم فيما يستقبلهم ولا هم يحزنون فيما خلفه .

الرابع : لا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا .

الخامس : لا خوف عليهم من عقاب ولا هم يحزنون على فوات ثواب .

السادس : أن الخوف استشعار غم لفقد مطلوب والحزن استشعار غم لفوات محبوب .

السابع : لا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الدنيا ولا هم يحزنون على ما فاتهم منها .

الثامن : لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون فيها .

التاسع : أنه أشار إلى أنه يدخلهم الجنة التي هي دار السرور والأمن لا خوف عليهم فيها ولا حزن .

(١) البيت من الطويل للناطقة الجعدي المقاصد النحوية (١٤١/٢) ، الدرر اللوامع (٩٨/١) .

العاشر : ما قاله ابن زيد لا خوف عليهم أمامهم فليس شيء أعظم في صدر الذي يموت مما بعد الموت فأمنهم الله منه ثم سلاهم عن الدنيا فقال (ولا هم يحزنون) على ما خلفوه بعد وفاتهم في الدنيا .

الحادي عشر : لا خوف حين أطبقت النار ، ولا حزن حين ذبح الموت في صورة كبش على الصراط فقيل لأهل الجنة والنار خلود لا موت .

الثاني عشر : لا خوف ولا حزن على الدوام ، وهذه الأقوال كلها متقاربة ، وظاهر الآية عموم نفي الخوف والحزن عنهم لكن يخص بما بعد الدنيا لأنه في دار الدنيا قد يلحق المؤمن الخوف والحزن ، فلا يمكن حمل الآية على ظاهرها من العموم لذلك ﴿ والذين كفروا ﴾ قسيم لقوله (فمن تبع هداي) وهو أبلغ من قوله ومن لم يتبع هداي ، وإن كان التقسيم اللفظي يقتضيه لأن نفي الشيء يكون بوجوه ، منها : عدم القابلية بخلقه أو غفلة ، ومنها : تعمد ترك الشيء ، فأبرز القسيم بقوله (والذين كفروا) في صورة ثبوتية ليكون مزيلاً للاحتمال الذي يقتضيه النفي ، ولما كان الكفر قد يعني كفر النعمة وكفر المعصية بين أن المراد هنا الشرك بقوله ﴿ وكذبوا بآياتنا ﴾ وبآياتنا متعلق بقوله (وكذبوا) وهو من إعمال الثاني إن قلنا إن كفروا يطلبه من حيث المعنى ، وإن قلنا لا يطلبه فلا يكون من الاعمال ويحتمل الوجهين ، (الآيات) هنا الكتب المنزلة على جميع الأمم أو معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو القرآن أو دلائل الله في مصنوعاته أقوال و ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ (وأصحاب) خبر عنه والجملة خبر عن قوله والذين كفروا ، وجوزوا أن يكون أولئك بدلاً وعطف بيان فيكون أصحاب النار إذ ذاك خبراً عن الذين كفروا ، وفي قوله أولئك ﴿ أصحاب النار ﴾ دلالة على اختصاص من كفر وكذب بالنار فيفهم أن من اتبع الهدى هم أصحاب الجنة وكان التقسيم يقتضي أن من اتبع الهدى لا خوف ولا حزن يلحقه وهو صاحب الجنة ومن كذب يلحقه الخوف والحزن وهو صاحب النار ، فكأنه حذف من الجملة الأولى شيء أثبت نظيره في الجملة الثانية ومن الثانية شيء أثبت نظيره في الجملة الأولى فصار نظير قول الشاعر :

وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لِذِكْرِكَ فَتْرَةٌ كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَلُهُ الْقَطْرُ^(١)

وفي قوله (أولئك) إشارة إلى الذوات المتصفة بالكفر والتكذيب وكأن فيها تكريراً وتوكيداً لذكر المبتدأ السابق ، والصحبة معناها الاقتران بالشيء ، والغالب في العرف أن ينطلق على الملازمة وإن كان أصلها في اللغة أن تنطلق على مطلق الاقتران ، والمراد بها هنا الملازمة الدائمة ولذلك أكد بقوله (هم فيها خالدون) ويحتمل أن تكون هذه الجملة حالية كما جاء في مكان آخر (أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها) فيكون إذ ذاك لها موضع من الإعراب نصب ، ويحتمل أن تكون جملة مفسرة لما انبهم في قوله (أولئك أصحاب النار) ، ففسر وبين أن هذه الصحبة لا يراد بها مطلق الاقتران بل الخلود فلا يكون لها إذ ذاك موضع من الإعراب ، ويحتمل أن يكون خبراً ثانياً للمبتدأ الذي هو أولئك فيكون قد أخبر عنه بخبرين : أحدهما مفرد ، والآخر جملة ، وذلك على مذهب من يرى ذلك فيكون في موضع رفع ، وقد تقدم الكلام على الخلود وهل هو المكث زماناً لا نهاية له أو زماناً له نهاية ؟

(١) البيت من الطويل لأبي صخر الهذلي - انظر المقاصد النحوية (٦٧/٣) ، الكشاف (٣٩٣/٤) ، تذكرة النحاة ص ٣٢٠ ، الأمالي للقالبي (١٤٨/٢) ، شرح شواهد ابن عقيل ص ١٤٦ .

﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

« ابن » محذوف اللام ، وقيل الياء خلاف ، وفي وزنه على كلا التقديرين خلاف ، فقيل فعل وقيل فعل ، فمن زعم أن أصله ياء جعله مشتقاً من البناء وهو وضع الشيء على الشيء ، والابن فرع عن الأب فهو موضوع عليه ، وجعل قولهم البنية شاذ كالفنوة ، ومن زعم أن أصله واو وإليه ذهب الأخفش جعل البنية دليلاً على ذلك ، ولكون اللام المحذوفة واو أكثر منها ياء وجمع ابن جمع تكسير فقالوا أبناء ، وجمع سلامة فقالوا بنون ، وهو جمع شاذ إذ لم يسلم فيه بناء الواحد فلم يقولوا ابنون ، ولذلك عاملت العرب هذا الجمع في بعض كلامها معاملة جمع التكسير فألحقت التاء في فعله كما ألحقت في فعل جمع التكسير قال النابغة : -

قَالَتْ بَنُو عَامِرٍ خَالُو بَنِي أَسَدٍ يَا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضَرَّارًا لِأَقْوَامٍ^(١)

وقد سمع الجمع بالواو والنون فيه مصغراً قال يسدّد :

أَيُّنُوهَا الْأَصَاغِرُ خُلَّتِي^(٢)

وهو شاذ أيضاً ، (إسرائيل) اسم عجمي ممنوع الصرف للعلمية والعجمة ، وقد ذكروا أنه مركب من إسرا وهو العبد وإيل اسم من أسماء الله تعالى فكأنه عبد الله وذلك باللسان العبراني فيكون مثل جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل قاله ابن عباس ، وقيل معنى « إسرا » صفوة « وإيل » الله تعالى فمعناه صفوة الله^(٣) ، روي ذلك عن ابن عباس وغيره ، وقال بعضهم إسرا مشتق من الأسر وهو الشد فكأن إسرائيل معناه الذي شده الله وأتقن خلقه ، وقيل أسرى بالليل مهاجراً إلى الله تعالى فسمي بذلك وقيل أسرجنياً كان يطفئ سرج بيت المقدس وكان اسم الجنى إيل فسمي إسرائيل وكان يخدم بيت المقدس ، وكان أول من يدخل وآخر من يخرج قاله كعب ، وقيل أسرى بالليل هارباً من أخيه عيصو إلى خاله في حكاية طويلة ذكروها فأطلق ذلك عليه ، وهذه أقاويل ضعاف ، وفيه تصرفات للعرب بقوله إسرائيل بهمة بعد الألف وياء بعدها وهي قراءة الجمهور ، وإسرائيل بياءين بعد الألف وهي قراءة أبي جعفر والأعشى وعيسى بن عمر ، وإسرائيل بهمة بعد الألف ثم لام وهو مروي عن ورش ، وإسرائيل بهمة مفتوحة بعد الراء ولام وإسرائيل بهمة مكسورة بعد الراء وإسرائيل بألف مماله بعدها لام خفيفة وإسرائيل بألف غير مماله قال أمية :

لَا أَرَى مَنْ يُعَيِّشُنِي فِي حَيَاتِي غَيْرَ نَفْسِي إِلَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ^(٤)

(١) البيت من البسيط للنابغة الذبياني انظر ديوانه ص ٨٢ ، الخزانة (١٣٠ / ٢) ، (١٠٨ / ٤) ، الحلل ص (٢٣٤) ، الحماسة (٥ / ١) ، لسان العرب (خلا) وروايته (يا بؤس للحرب) .

(٢) تقدم .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٢٢٦ / ١) .

(٤) البيت من الخفيف انظر الحجة في علل القراءات السبع (١٣٤ / ٢) .

وهي رواية خارجة عن نافع ، وقرأ الحسن والزهري وابن أبي إسحاق وغيرهم وإسرائيل بنون بدل اللام قال الشاعر :

يَقُولُ أَهْلُ السُّوءِ لَمَّا جِينَا هَذَا وَرَبَّ الْبَيْتِ إِسْرَائِيلَنَا

كما قالوا سجيل وسجين ورفل ورفن^(١) وجبريل وجبرين أبدلت بالنون كما أبدلت النون بها في أصيلان قالوا أصيلال وإذا جمعته جمع تكسير قلت أساريل ، وحكي أسارلة وأسارل ، « الذكر » بكسر الذال وضمها لغتان بمعنى واحد ، وقال الكسائي يكون باللسان والذكر بالقلب فبالكسر ضده الصمت وبالضم ضده النسيان وهو بمعنى التيقظ والتنبيه ، ويقال اجعله منك على ذكر ، « النعمة » اسم للشيء المنعم به وكثيراً ما يجيء فَعَلَ بمعنى المفعول كالذبح والنقض والرعي والطحن ومع ذلك لا ينقاس ، أوفى ووفى ووفى لغى ثلاث في معنى واحد وتأتي أوفى بمعنى ارتفع قال :

رُبَّمَا أَوْفَيْتَ فِي عِلْمٍ تَرْفَعُنْ ثَوْبِي شِمَالَاتٍ^(٢)

والميفاة مكان مرتفع ، وقال الفراء أهل الحجاز يقولون أوفيت ، وأهل نجد يقولون وفيت بغير ألف قال الزجاج وفي بالعهد وأوفى به قال الشاعر :

أَمَّا ابْنُ طَوْقٍ فَقَدْ أَوْفَى بِذِمَّتِهِ كَمَا وَفَى بِقِلَاصِ النِّجْمِ حَادِيهَا^(٣)

وقال ابن قتيبة يقال وفيت بالعهد وأوفيت به وأوفيت الكيل لا غير ، وقال أبو الهيثم وفي الشيء تم ووفى الكيل وأوفيته أتممته ، ووفى ريش الطائر بلغ التمام ودرهم واف : أي تام كامل ، الرهب والرهب والرهب والرهب والخوف مأخوذ من الرهابة^(٤) وهو عظم الصدر يؤثر فيه الخوف ، والرهب النصل لأنه يرهب منه والرهب والخشية والمخافة نظائر ، التصديق اعتقاد حقيقة الشيء ومطابقته للمخبر به والتكذيب يقابله ، « أول » عند سيبويه أفعِلَ وفاؤه وعينه واوان ولم يستعمل منه فعل لاستئصال اجتماع الواوين فهو مما فاؤه وعينه من جنس واحد لم يحفظ منه إلا ددن وققس وبين وبابوس ، وقيل إن بابوساً أعجمي ، وعند الكوفيين أفعِلَ من وأل إذا لجأ فأصله أوأل ثم خفف بإبدال الهمزة واواً ثم بالإدغام وهذا تخفيف غير قياسي إذ تخفيف مثل هذا إنما هو بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الساكن قبلها ، وقال بعض الناس هو أفعِلَ من آل يؤول فأصله أوأل ثم قلب فصار ، أوأل أعفل ثم خفف بإبدال الهمزة واواً ثم بالإدغام وهذا القولان ضعيفان ، ويستعمل أول استعمالين أحدهما : أن يجري مجرى الأسماء فيكون مصروفاً وتليه العوامل نحو أكل وإن كان معناه معنى قديم وعلى هذا قول العرب ما تركت له أولاً ولا آخرأ : أي ما تركت له قديماً ولا حديثاً والاستعمال الثاني : أن يجري مجرى أفعِلَ التفضيل فيستعمل على ثلاثة أنحائه من كونه بمن ملفوظاً بها أو مقدرة وبالألف واللام وبالإضافة ، وقالت العرب ابدأ بهذا أول فهذا مبني على الضم باتفاق ، والخلاف في علة بنائه ذلك

(١) السَّجِيل : حجارة كالمَدَر . وفي التنزيل العزيز (ترميهم بحجارة من سَجِيل) وقيل هو حجر من طين معرب دخيل - لسان العرب (١٩٤٦/٣) .

(٢) الرَّفْلُ وَالرَّفْنُ مِنَ الْخَيْلِ جَمِيعاً الْكَثِيرُ اللَّحْمِ ، وَبَعِيرٌ رَفْلٌ : وَاسِعُ الْجِلْدِ ، وَقَدْ يَكُونُ الطَّوِيلُ الذَّنْبِ - لسان العرب (١٦٩٧/٣) .

(٣) الميفاة : الموضع الذي يوفي فوقه البازي لإيناس الطير أو غيره - لسان العرب (٤٨٨٦/٦) .

(٤) البيت من البسيط لطفي الغنوي الحماسة البصرية (١٣٩/١) ، شرح المفضل (٤٢/١) ، لسان العرب م (وفي ، قلص) .

(٥) الرَّهَابَةُ بِالْفَتْحِ : غُضْرُوفُ كَاللِّسَانِ ، مَعْلَقٌ فِي أَسْفَلِ الصَّدْرِ مُشْرِفٌ عَلَى الْبَطْنِ - لسان العرب (١٧٥٠/٣) .

لقطعه عن الإضافة والتقدير أول الأشياء أم لشبه القطع عن الإضافة والتقدير أول من كذا ، والأولى أن تكون العلة القطع عن الإضافة والخلاف إذا بني أهو ظرف أو اسم غير ظرف وهو خلاف مبني على أن الذي يبني للقطع شرطه أن يكون ظرفاً أو لا يشترط ذلك فيه وكل هذا مستوفى في علم النحو ، الثمن العوض المبذول في مقابلة العين المبيعة وقال :

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْ ظَفَرْتَ بِهَا فَمَا أَصَبْتَ بِتَرْكِ الْحَجِّ مِنْ ثَمَنِ

أي من عوض ، القليل يقابله الكثير واتفقا في زنة اسم الفاعل واختلفا في زنة الفعل فماضي القليل فعل وماضي الكثير فعل ، وكان القياس أن يكون اسم الفاعل من قل على فاعل نحو شذ يشذ فهو شاذ لكن حمل على مقابله ، ومثل قل فهو قليل صح فهو صحيح ، اللبس الخلط تقول العرب لَبَسْتُ الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلط ، وقال العجاج :

لَمَّا لَبَسْنَ الْحَقَّ بِالتَّجَنِّي

وجاء ألبس بمعنى لبس .

وقال آخر :

وَكَتَيْبَةٍ أَلْبَسْتُهَا بِكَتَيْبَةٍ حَتَّى إِذَا التَّبَسَّتْ نَفَضَتْ لَهَا يَدِي

« الكتم » والكتمان الإخفاء ، وضده الإظهار ومنه الكتم ورق يصبغ به الشيب ، « الركوع »^(١) له معنيان في اللغة أحدهما التظامن والانحناء وهذا قول الخليل وأبي زيد ومنه قول لبيد :

أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدْبُ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

والثاني الذلة والخضوع وهو قول المفضل والأصمعي ، قال الأضبط السعدي^(٢) :

لَا تُهِنِ الضَّعِيفَ عِلَّكَ أَنْ تَرَكَعَ يَوْماً وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ هذا افتتاح الكلام مع اليهود والنصارى ومناسبة الكلام معهم هنا ظاهرة ، وذلك أن هذه السورة افتتحت بذكر الكتاب وأن فيه هدى للمؤمنين ، ثم أعقب ذلك بذكر الكفار المختوم عليهم بالشقاوة ، ثم بذكر المنافقين وذكر جمل من أحوالهم ، ثم أمر الناس قاطبة بعبادة الله تعالى ، ثم ذكر إعجاز القرآن إلى غير ذلك مما ذكره ثم نبههم بذكر أصلهم آدم وما جرى له من أكله من الشجرة بعد النهي عنه وأن الحامل له على ذلك إبليس ، وكانت هاتان الطائفتان أعني اليهود والنصارى أهل كتاب مظهرين اتباع الرسل والافتداء بما جاء عن الله تعالى ، وقد اندرج ذكرهم عموماً في قوله (يا أيها الناس اعبدوا) فجرد ذكرهم هنا خصوصاً إذ قد سبق الكلام مع المشركين والمنافقين وبقي الكلام مع اليهود والنصارى فتكلم معهم هنا وذكرنا ما يقتضي لهم الإيمان بهذا الكتاب كما آمنوا بكتبهم السابقة إلى آخر الكلام معهم على ما سيأتي جملة مفصلة ، وناسب الكلام معهم قصة آدم

(١) الركوع : الخضوع (عن ثعلب) ركع ركعاً ورُكُوعاً : طأطأ رأسه ، وكل قومة يتلوها الركوع والسجدتان من الصلوات فهي ركعة - لسان العرب (٣/ ١٧١٩) .

(٢) الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي شاعر جاهلي قديم أساء قومه إليه فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين فقال : بكل واد بنو سعد . يعني قومه - سمط اللآلئ (٣٢٦) ، خزانة الأدب (٤ / ٥٩١) ، الأعلام (١ / ٣٣٤) .

على نبينا وعليه الصلاة والسلام لأنهم بعدما أوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح المذكور ذلك في التوراة والإنجيل من الإيفاء بالعهد والإيمان بالقرآن ظهر منهم ضد ذلك بكفرهم بالقرآن ، ومن جاء به وأقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد عليهم من الأوامر والنواهي نحو قوله (يا أيها الناس اعبدوا) و (يا آدم اسكن) ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وأضافهم إلى لفظ إسرائيل وهو يعقوب ولم يقل يا بني يعقوب لما في لفظ إسرائيل من أن معناه عبد الله أو صفوة الله ، وذلك على أحسن تفاسيره فهزمهم بالإضافة إليه فكأنه قيل يا بني عبد الله ، أو يا بني صفوة الله ، فكان في ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير كما تقول : يا ابن الرجل الصالح أطع الله ، فتضيفه إلى ما يحركه لطاعة الله لأن الإنسان يحب أن يقتفي^(١) أثر آبائه وإن لم يكن بذلك محموداً فكيف إذا كان محموداً ؟ ألا ترى (إنا وجدنا آباءنا على أمة) (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) ، وفي قوله يا بني إسرائيل دليل على أن من انتهى إلى شخص ولو بوسائط كثيرة يطلق عليه أنه ابنه وعليه يا بني آدم ويسمى ذلك أباً ، قال تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) وفي إضافتهم إلى إسرائيل تشریف لهم بذكر نسبتهم لهذا الأصل الطيب وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، ونقل عن أبي الفرج بن الجوزي أنه ليس لأحد من الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ اسمان إلا يعقوب فإنه يعقوب وهو إسرائيل ، ونقل الجوهري في صحاحه أن المسيح اسم علم ليس ليعسى لا اشتقاق له ، وذكر البيهقي عن الخليل بن أحمد خمسة من الأنبياء ذوو اسمين ، محمد وأحمد نبينا ﷺ ، وعيسى والمسيح ، وإسرائيل ويعقوب ، ويونس وذو النون ، وإلياس وذو الكفل ، والمراد بقوله (يا بني إسرائيل اذكروا) من كان بحضرة رسول الله ﷺ بالمدينة وما والاها من بني إسرائيل ، أو من أسلم من اليهود وآمن بالنبي ﷺ ، أو أسلاف بني إسرائيل وقدمائهم أقوال ثلاثة والأقرب الأول ، لأن من مات من أسلافهم لا يقال له ، (وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم) إلا على ضرب بعيد من التأويل ، ولأن من آمن منهم لا يقال له (وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به) إلا بمجاز بعيد ، ويحتمل قوله اذكروا : الذكر باللسان ، والذكر بالقلب ، فعلى الأول يكون المعنى أمروا النعم على ألسنتكم ولا تغفلوا عنها فإن إمرارها على اللسان ومدارستها سبب في أن لا تنسى ، وعلى الثاني يكون المعنى تنبهوا للنعم ولا تغفلوا عن شكرها .

وفي النعمة المأمور بشكرها أو بحفظها أقوال :

ما استودعوا من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ .

أو ما أنعم به على أسلافهم من إنجائهم من آل فرعون وإهلاك عدوهم وإيتائهم التوراة ونحو ذلك^(٢) قاله الحسن والزجاج .

أو إدراكهم مدة النبي ﷺ .

أو علم التوراة .

أو جميع النعم على جميع خلقه وعلى سلفهم وخلفهم في جميع الأوقات على تصاريف الأحوال .

وأظهر هذه الأقوال ما اختص به بنو إسرائيل من النعم لظاهر قوله (التي أنعمت عليكم) ونعم الله على بني إسرائيل كثيرة استنقذهم من بلاء فرعون وقومه ، وجعلهم أنبياء وملوكاً وأنزل عليهم الكتب المعظمة ، وظلل عليهم في التيه الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، قال ابن عباس أعطاهم عموداً من النور ليضيء لهم بالليل وكانت رؤوسهم لا تشتت وثيابهم لا تبلى ، وإنما ذكروا بهذه النعم لأن في جملتها ما شهد بنوة محمد ﷺ وهو التوراة والإنجيل

(١) قفا يقفوقفوا وقفوا : وهو أن يتبع الشيء - لسان العرب (٣٧٠٨/٥) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٣/١) ، مطولاً وعزاه لابن إسحاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم .

والزبور ، ولأن يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان برسول الله والقرآن ولأن تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الخالفة وذلك الطمع يمنع من إظهار المخالفة ، وهذه النعم وإن كانت على آبائهم فهي أيضاً نعم عليهم لأن هذه النعم حصل بها النسل ولأن الانتساب إلى آباء شرفوا بنعم تعظيم في حق الأولاد ، قال بعض العارفين : عبید النعم كثيرون ، وعبید المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل نعمه عليهم ، ولما آل الأمر إلى محمد ﷺ ذكر المنعم فقال (اذكروني أذكركم) ، فدل ذلك على فضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم وفي قوله (نعمتي) نوع التفات لأنه خروج من ضمير المتكلم المعظم نفسه في قوله (آياتنا) إلى ضمير المتكلم الذي لا يشعر بذلك ، وفي إضافة النعمة إليه إشارة إلى عظم قدرها وسعة برها وحسن موقعها ، ويجوز في الباء من نعمتي الإسكان والفتح ، والقراء السبعة متفقون على الفتح ، وأنعمت صلة التي والعائد محذوف التقدير أنعمتها عليكم ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ « العهد » تقدم تفسيره لغة في قوله (الذين ينقضون عهد الله) ، ويحتمل العهد أن يكون مضافاً إلى المعاهد وإلى المعاهد ، وفي تفسير هذين العهدين أقوال :

أحدها : الميثاق الذي أخذهم عليه من الإيمان به والتصديق برسوله وعهدهم ما وعدهم به من الجنة .

الثاني : ما أمرهم به وعهدهم ما وعدهم^(١) به قاله ابن عباس .

الثالث : ما ذكر لهم في التوراة من صفة رسول الله ﷺ وعهدهم ما وعدهم به من الجنة رواه أبو صالح عن ابن عباس^(٢) .

الرابع : أداء الفرائض وعهدهم قبولها والمجازاة عليها .

الخامس : ترك الكبائر وعهدهم غفران الصغائر .

السادس : إصلاح الدين وعهدهم إصلاح آخرتهم .

السابع : مجاهدة النفوس وعهدهم المعونة على ذلك .

الثامن : إصلاح السرائر وعهدهم إصلاح الظواهر .

التاسع : (خذوا ما آتيناكم بقوة) قاله الحسن^(٣) .

العاشر : وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

الحادي عشر : الإخلاص في العبادات وعهدهم إيصالهم إلى منازل الرعايات .

الثاني عشر : الإيمان به وطاعته وعهدهم ما وعدهم عليه من حسن الثواب على الحسنات .

الثالث عشر : حفظ آداب الظواهر وعهدهم في السرائر .

الرابع عشر : عهد الله على لسان موسى عليه السلام لبني إسرائيل إني باعث من بني إسماعيل نبياً فمن اتبعه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه وعزاه لابن جرير ، وابن أبي حاتم (٦٤ ، ٦٣/١) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٢٢٧/١) .

(٣) انظر تفسير القرطبي (٢٢٧/١) .

وَصَدَّقَ بِالنُّورِ الَّذِي يَأْتِي بِهِ غُفِرَتْ لَهُ وَأَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ وَجَعَلَتْ لَهُ أَجْرَيْنِ اثْنَيْنِ قَالَهُ الْكَلْبِيُّ .

الخامس عشر : شرط العبودية وعهدهم شرط الربوبية .

السادس عشر : أوفوا في دار محنتي على بساط خدمتي بحفظ حرمتي أوف بعهدكم في دار نعمتي على بساط كرامتي بقربي ورؤيتي قاله الثوري .

السابع عشر : لا تفروا من الزحف أدخلكم الجنة قاله إسماعيل بن زياد .

الثامن عشر : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا ﴿ ١ ﴾ الْآيَةَ ﴾ (١) قاله ابن جريج وعهدهم إدخالهم الجنة .

التاسع عشر : أوامره ونواهيه ووصاياه فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة قاله الجمهور .

العشرون : أوفوا بعهدي في التوكل أوف بعهدكم في كفاية المهمات قاله أبو عثمان .

الحادي والعشرون : أوفوا بعهدي في حفظ حدودي ظاهراً وباطناً أوف بعهدكم بحفظ أسراركم عن مشاهدة غيري .

الثاني والعشرون : عهده حفظ المعرفة وعهدنا إيصال المعرفة قاله القشيري .

الثالث والعشرون : أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم أخذ الميثاق أوف بعهدكم الذي ضمنت لكم يوم التلاق .

الرابع والعشرون : أوفوا بعهدي اكتفوا مني بي أوف بعهدكم أرض عنكم بكم ، فهذه أقوال السلف في تفسير هذين العهدين ، والذي يظهر والله أعلم أن المعنى طلب الإيفاء بما التزمه الله تعالى وترتيب إنجاز ما وعدهم به عهداً على سبيل المقابلة أو إبرازاً لما تفضل به تعالى في صورة الشروط الملزمة به فتتوفر الدواعي على الإيفاء بعهد الله كما قال تعالى (ومن أوفى بعهد من الله) (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ، وقال رسول الله ﷺ « فإن له عهداً عند الله أن يدخله الجنة » ، وقرأ « الزهري » (أوف بعهدكم) مشدداً ، ويحتمل أن يراد به التكثير وأن يكون موافقاً للمجرد ، فإن أريد به التكثير فيكون في ذلك مبالغة على لفظ أوف ، وكأنه قيل أبلغ في إيفائكم فضمن تعالى إعطاء الكثير على القليل ، كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ، وانجرام المضارع بعد الأمر نحو « اضرب زيداً يغضب » يدل على معنى شرط سابق وإلا فنفس الأمر وهو طلب إيجاد الفعل لا يقتضي شيئاً آخر ، ولذلك يجوز الاقتصار عليه فتقول « اضرب زيداً » فلا يترتب على الطلب بما هو طلب شيء أصلاً ، لكن إذا لوحظ معنى شرط سابق ترتب عليه مقتضاه ، وقد اختلف النحويون في ذلك ، فذهب بعضهم إلى أن جملة الأمر ضمنت معنى الشرط ، فإذا قلت « اضرب زيداً يغضب » ضمن « اضرب » معنى « إن تضرب » ، وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو الحسن بن خروف (٢) ، وذهب بعضهم إلى أن جملة الأمر نابت مناب الشرط ، ومعنى النيابة أنه كان التقدير « اضرب زيداً إن تضرب زيداً يغضب » ، ثم حذفت جملة الشرط وأنيبت جملة الأمر منابها ، وعلى القول الأول ليس ثم جملة محذوفة بل عملت الجملة الأولى الجزم لتضمن الشرط كما عملت من الشرطية الجزم لتضمنها معنى إن ، وعلى القول الثاني عملت الجزم لنيابتها مناب الجملة الشرطية ، وفي الحقيقة العمل إنما هو للشرط المقدر وهو اختيار الفارسي والسيرافي وهو الذي نص عليه سيبويه

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره (٥٥٨ / ١ ، ٥٥٩) ، رقم (٨٠٨) .

(٢) علي بن محمد بن علي بن محمد نظام الدين أبو الحسن الأندلسي النحوي توفي سنة ٦٠٩ هجرية - انظر وفيات الأعيان (٣ / ٣٣٥) ،

بغية الوعاة (٢٠٣ / ٢) .

عن الخليل ، والترجيح بين القولين يذكر في علم النحو ﴿ وإياي فارهبون ﴾ إياي منصوب بفعل محذوف مقدراً بعده لانفصال الضمير ، وإياي ارهبوا ، وحذف لدلالة ما بعده عليه ، وتقديره قبله وهم من السجائدي إذ قدره وارهبوا إياي ، وفي مجيئه نصب مناسبة لما قبله لأن قبله أمر ، ولأن فيه تأكيداً إذ الكلام مفروق في قالب جملتين ، ولو كان ضمير رفع لجاز لكن يفوت هذان المعنيان وحذفت الياء ضمير النصب من (فارهبون) لأنها فاصلة ، وقرأ ابن أبي إسحاق بالياء على الأصل قال الزمخشري^(١) وهو أؤكد في إفادة الاختصاص من (إياك نعبد) ، ومعنى ذلك أن الكلام جملتان في التقدير وإياك نعبد جملة واحدة والاختصاص مستفاد عنده من تقديم المعمول على العامل ، وقد تقدم الكلام معه في ذلك وإنا لا نذهب إلى ما ذهب إليه من ذلك ، والفاء في قوله (فارهبون) دخلت في جواب أمر مقدّر والتقدير تنبهوا فارهبون ، وقد ذكر سيويه في كتابه ما نصه تقول « كل رجل يأتيك فاضرب » لأن يأتيك صفة ههنا كأنك قلت « كل رجل صالح فاضرب » انتهى . قال ابن خروف قوله « كل رجل يأتيك فاضرب » بمنزلة « زيداً فاضرب » إلا أن هنا معنى الشرط لأجل النكرة الموصوفة بالفعل ، فانتصب كل وهو أحسن من « زيداً فاضرب » انتهى . ولا يظهر لي وجه الأحسن التي أشار إليها ابن خروف ، والذي يدل على أن هذا التركيب أعني زيداً فاضرب تركيب عربي صحيح قوله تعالى (بل الله فاعبد) وقال الشاعر :

وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهُ فَاعْبُدَا^(٢)

قال بعض أصحابنا : الذي ظهر فيها بعد البحث أن الأصل في « زيداً فاضرب تنبه فاضرب زيداً » ثم حذف تنبه فصار فاضرب زيداً فلما وقعت الفاء صدرت قداماً الاسم إصلاحاً للفظ ، وإنما دخلت الفاء هنا لتربط هاتين الجملتين . انتهى ما لخص من كلامه . وإذا تقرر هذا فتحتمل الآية وجهين :

أحدهما : أن يكون التقدير وإياي ارهبوا تنبهوا فارهبون فتكون الفاء دخلت في جواب الأمر وليست مؤخرة من تقديم .

والوجه الثاني : أن يكون التقدير وتنبهوا فارهبون ثم قدّم المفعول فانفصل وأخرت الفاء حين قدم المفعول وفعل الأمر الذي هو تنبهوا محذوف فالتقى بعد حذفه حرفان ، الواو العاطفة والفاء التي هي جواب أمر فتصدّرت الفاء فقدم المفعول وأخرت الفاء إصلاحاً للفظ ، ثم أعيد المفعول على سبيل التأكيد ولتكميل الفاصلة وعلى هذا التقدير الأخير لا يكون (إياي) معمولاً لفعل محذوف بل معمولاً لهذا الفعل الملفوظ به ولا يبعد تأكيد الضمير المنفصل بالضمير المتصل كما أكد المتصل بالمنفصل في نحو ضربتك إياك ، والمعنى ارهبون أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغير وهذا قول ابن عباس ، وقيل معنى فارهبون أن لا تنقضوا عهدي وفي الأمر بالرهبة وعيد بالغ ، وليس قول من زعم أن هذا الأمر معناه التهديد والتخويف والتهويل مثل قوله تعالى (اعملوا ما شئتم) تشديد لأن هذا في الحقيقة مطلوب واعملوا ما شئتم غير مطلوب فافترقا ، وقيل : الخوف خوفان : خوف العقاب وهو نصيب أهل الظاهر ويزول ، وخوف جلال وهو نصيب أهل القلب ولا يزول ، وقال السلمي : الرهبة خشية القلب من ردي خواطره ، وقال سهل : وإياي فارهبون موضع اليقين بمعرفته وإياي فاتقون موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج ، وقال القشيري : أفردوني بالخشية لانفرادي بالقدرة على الإيجاد ﴿ وآمنوا بما أنزلت ﴾ ظاهره أنه

(١) انظر الكشف (١٣١/١) .

(٢) هذا عجز بيت من الطويل للأعشى انظر ديوانه ص (٤٩) ، تذكرة النحاة ص (٧٢) ، المقاصد النحوية (٣٤٠/٤) ، شرح شواهد المغني ص (٥٧٧) ، الكشف (٥٩٣/١) .

أمر لبني إسرائيل لأن المأمورين قبل هم وهذا معطوف على ما قبله فظاهره اتحاد المأمور ، وقيل أنزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه علماء اليهود ورؤسائهم ، والظاهر الأول ويندرج فيه كعب ومن معه « وما » في قوله (بما أنزلت) موصولة : أي بالذي أنزلت ، والعائد محذوف تقديره أنزلته وشروط جواز الحذف فيه موجودة والذي أنزل تعالى هو القرآن ، والذي معهم هو التوراة والإنجيل ، وقال قتادة : المراد بما أنزلت من كتاب ورسول يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، وأبعد من جعل ما مصدرية وأن التقدير وآمنوا بإنزالي لما معكم من التوراة فتكون اللام في لما من تمام المصدر لا من تمام ﴿ مصدقاً ﴾ وعلى القول الأول يكون لما معكم من تمام مصدقاً واللام على كلا التقديرين في لما مقوية للتعدي كهي في قوله تعالى (فعال لما يريد) وإعراب مصدقاً على قول من جعل ما مصدرية حال من ما في قوله ﴿ لما معكم ﴾ ولا نقول يبعد ذلك لدخول حرف الجر على ذي الحال لأن حرف الجر كما ذكرناه هو مقول للتعدي فهو كالحرف الزائد وصار نظير « زيد ضارب مجردة لهند » التقدير « ضارب هنذاً مجردة » ثم تقدمت هذه الحال ، وهذا جائز عندنا ، ويبعد أن يكون حالاً من المصدر المقدر لوجهين :

أحدهما : الفصل بين المصدر ومعموله الحال المصدر .

والوجه الثاني : أنه يبعد وصف الإنزال بالتصديق إلا أن يتجاوز به ويراد به المنزل وعلى هذا التقدير لا يكون لما معكم من تمامه ، لأنه إذا أريد به المنزل لا يكون متعدياً للمفعول ، والظاهر أن مصدقاً حال من الضمير العائد على الموصول المحذوف وهي حال مؤكدة والعامل فيها أنزلت ، وقيل حال من ما في قوله بما أنزلت وهي حال مؤكدة أيضاً ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أفعل التفضيل إذا أضيف إلى نكرة غير صفة فإنه يبقى مفرداً مذكراً والنكرة تطابق ما قبلها فإن كان مفرداً كان مفرداً ، وإن كان تثنية كان تثنية ، وإن كان جمعاً كان جمعاً ، فتقول : زيد أفضل رجل ، وهند أفضل امرأة ، والزيدان أفضل رجلين ، والزيدون أفضل رجال ، ولا تخلو تلك النكرة المضاف إليها أفعل التفضيل من أن تكون صفة أو غير صفة ، فإن كانت غير صفة فالمطابقة كما ذكرنا ، وأجاز أبو العباس « إخوانك أفضل رجل » بالإنفراد ومنع ذلك الجمهور ، وإن كانت صفة وقد تقدم أفعل التفضيل جمع جازت المطابقة وجاز الأفراد ، قال الشاعر أشده الفراء :

وَإِذَا هُمْ طَعِمُوا فَأَلَامَ طَاعِمٍ وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَشَرَّ جِيَاعٍ

فأفرد بقوله طاعم وجمع بقوله جيع وإذا أفردت النكرة الصفة وقبل أفعل التفضيل جمع فهو عند النحويين متأول ، قال الفراء تقديره من طعم ، وقال غيره يقدر وصفاً لمفرد يؤدي معنى جمع كأنه قال فألام فريق طاعم ، وحذف الموصوف وقامت الصفة مقامه فيكون ما أضيف إليه في التقدير وفق ما تقدمه وقال بعض الناس يكون التجوز في الجمع ، فإذا قيل مثلاً « الزيدون أفضل عالم » فالمعنى كل واحد من الزيدين أفضل عالم ، وهذه النكرة أصلها عند سيبويه التعريف والجمع فاختصروا الألف واللام وبناء الجمع ، وعند الكوفيين أن أفعل التفضيل هو النكرة في المعنى فإذا قلت « أبوك أفضل عالم » فتقديره عندهم أبوك الأفضل العالم وأضيف أفضل إلى ما هو هو في المعنى ، وجميع أحكام أفعل التفضيل مستوفاة في كتب النحو ، وعلى ما قررناه تأولوا (أول كافر) بمن كفر ، أو أول حزب كفر ، أو لا يكن كل واحد منكم أول كافر ، والنهي عن أن تكونوا أول كافر به لا يدل ذلك على إباحة الكفر لهم ثانياً أو آخراً فمفهوم الصفة غير مراد ، ولما أشكلت الأولية هنا زعم بعضهم أن أول صلة يعني زائدة والتقدير ولا تكونوا كافرين به ، وهذا ضعيف جداً ، وزعم بعضهم أن ثم محذوفاً معطوفاً تقديره « ولا تكونوا أول كافر به ولا آخر كافر » ، وجعل ذلك مما حذف فيه المعطوف لدلالة المعنى عليه وخص الأولية بالذكر لأنها أفحش لما فيها من الابتداء بها وهذا شبيه بقول

الشاعر :

مِنْ أَنَاسٍ لَّيْسَ فِي أَخْلَاقِهِمْ عَاجِلُ الْفُحْشِ وَلَا سُوءُ جَزَعٍ

لا يريد أن فيهم فحشاً أجلاً بل أراد لا فحش عندهم لا عاجلاً ولا أجلاً ، وتأوله بعضهم على حذف مضاف : أي ولا تكونوا مثل أول كافر به : أي ولا تكونوا وأنتم تعرفونه مذكوراً في التوراة موصوفاً مثل من لم يعرفه وهو مشرك لا كتاب له ، وبعضهم على صفة محذوفة : أي أول كافر به من أهل الكتاب إذ هم منظور إليهم في هذا مظنون بهم علم ، وبعضهم على حذف صلة يصح بها المعنى ، التقدير « ولا تكونوا أول كافر به مع المعرفة » لأن كفر قريش كان مع الجهل وهذا القول شبيه بالذي قبله ، وبعضهم قدر صلة غير هذه : أي ولا تكونوا أول كافر به عند سماعكم لذكره بل تثبتوا فيه وراجعوا عقولكم فيه ، وقيل ذكر الأولية تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول مؤمن به لمعرفةهم به وبصفته ولأنهم كانوا هم المبشرين بزمانه والمستفتحين على الذين كفروا به فلما بعث كان أمرهم على العكس قال تعالى (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) ، وقال القشيري : لا تسنوا الكفر سنة فإن زور المبتدئين فيما يسنون أعظم من زور المقتدين فيما يتبعون ، والضمير في به عائد على الموصول في بما أنزلت وهو القرآن قاله ابن جريج ، أو على محمد ﷺ ودل عليه المعنى لأن ذكر المنزل يدل على ذكر المنزل عليه أبو العالية ، أو على النعمة على معنى الإحسان ولذلك ذكر الضمير قاله الزجاج ، أو على الموصول في لما معكم لأنهم إذا كفروا بما يصدقه فقد كفروا به ، والأرجح الأول لأنه أقرب وهو منطوق به مقصود للحديث عنه بخلاف الأقوال الثلاثة ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ الاشتراء هنا مجاز يراد به الاستبدال كما قال :

كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا

وقال آخر :

فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بِعَدْلِكَ بِالْجَهْلِ

ولما كان المعنى على الاستبدال جاز أن تدخل الباء على الآيات ، وإن كان القياس أن تدخل على ما كان ثمناً ، لأن الثمن في البيع حقيقته : أن يشتري به لكن لما دخل الكلام على معنى الاستبدال جاز ذلك لأن معنى الاستبدال يكون المنصوب فيه هو الحاصل وما دخلت عليه الباء هو الزائل ، بخلاف ما يظن بعض الناس أن قولك بذلت أو أبدلت درهماً بدينار معناه : أخذت الدينار بدلاً عن الدرهم ، والمعنى والله أعلم ولا تستبدلوا بآياتي العظيمة أشياء حقيرة خسيسة ، ولو أدخل الباء على الثمن دون الآيات لانعكس هذا المعنى إذ كان يصير المعنى أنهم هم بذلوا ثمناً قليلاً وأخذوا الآيات ، قال المهدوي : ودخول الباء على الآيات كدخولها على الثمن وكذلك كل ما لا عين فيه وإذا كان في الكلام دنائير أو دراهم دخلت الباء على الثمن . قاله الفراء انتهى كلام المهدوي . ومعناه أنه إذا لم يكن دنائير ولا دراهم في البيع صح أن يكون كل واحد من المبذول ثمناً ومثماً لكن يختلف دخول الباء بالنسبة لمن نسب الشراء إلى نفسه من المتعاقدين جعل ما حصل هو المثلث فلا تدخل عليه الباء وجعل ما بذل هو الثمن فأدخل عليه الباء ، ونفس الآيات لا يشتري بها فاحتيج إلى حذف مضاف ، فقيل تقديره بتعليم آياتي . قاله أبو العالية وقيل بتغيير آياتي قاله الحسن ، وقيل بكتمان آياتي قاله السدي ، وقيل لا يحتاج إلى حذف مضاف بل كنى بالآيات عن الأوامر والنواهي وعلى الأقوال الثلاثة التي قبل هذا القول تكون الآيات : ما أنزل من الكتب ، أو القرآن ، أو ما أوضح من الحجج والبراهين ، أو الآيات المنزلة عليهم في التوراة والإنجيل المتضمنة الأمر بالإيمان برسول الله ﷺ ، وعلى الأقاويل في ذلك

المضاف المقدر والقول بعدها اختلفوا في المعنى بقوله (ثمنًا قليلاً) فمن قال أن المضاف هو التعليم قال الثمن القليل هو الأجرة على التعليم وكان ذلك ممنوعاً منه في شريعتهم أو الراتب المرصد لهم على التعليم فنهوا عنه ، ومن قال هو التغيير قال الثمن القليل هو الرئاسة التي كانت في قومهم خافوا فواتها لو صاروا أتباعاً لرسول الله ﷺ ، ومن جعل الآيات كناية عن الأوامر والنواهي جعل الثمن القليل هو ما يحصل من شهوات الدنيا التي اشتغلوا بها عن إيقاع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ، ووصف الثمن بالقليل لأن ما حصل عوضاً عن آيات الله كائناً ما كان لا يكون إلا قليلاً وإن بلغ ما بلغ كما قال تعالى (قل متاع الدنيا قليل) فليس وصف الثمن بالقليلة من الأوصاف التي تخصص النكرات بل من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات إذ لا يكون إلا قليلاً ، ويحتمل أن يكون ثم معطوف تقديره ثمنًا قليلاً ولا كثيراً فحذف لدلالة المعنى عليه ، وقد استدلل بعض أهل العلم بقوله (ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً) على منع جواز أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله والعلم ، وقد روي في ذلك أحاديث لا تصح ، وقد صح أنهم قالوا يا رسول الله : « إنا أخذنا على كتاب الله أجراً » فقال : « إن خير ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله »^(١) ، وقد تضافرت أقوال العلماء على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم ، وإنما نقل عن الزهري وأبي حنيفة الكراهة لكون ذلك عبادة بدنية ولا دليل لذلك الداهب في الآية وقد مر تفسيرها ﴿ وإياي فاتقون ﴾ الكلام عليه إعراباً كالكلام على قوله (وإياي فارهبون) ويقرب معنى التقوى من معنى الرهبة ، قال صاحب المنتخب والفرق أن الرهبة عبارة عن الخوف ، وأما الانتقاء فإنه يحتاج إليه عند الجزم بحصول ما يتقى منه فكأنه تعالى أمرهم بالرهبة لأجل أن جواز العقاب قائم ثم أمرهم بالتقوى لأن تعيين العقاب قائم انتهى كلامه ومعنى جواز العقاب هناك وتعيينه هنا أن ترك ذكر النعمة والإيفاء بالعهد ظاهره أنه من المعاصي التي تجوز العقاب ، إذ يجوز أن يقع العفو عن ذلك وترك الإيمان بما أنزل الله تعالى وشراء الثمن بالآيات الله من المعاصي التي تحتم العقاب وتعينه إذ لا يجوز أن يقع العفو عن ذلك ، فقليل في ذلك فارهبون ، وقيل في هذا فاتقون : أي اتخذوا وقاية من عذاب الله إن لم تمتثلوا ما أمرتكم به ، والأحسن أن لا يقيد ارهبون واتقون بشيء ، بل ذلك أمر بخوف الله واتقائه ولكن يدخل فيه ما سبق الأمر عقبيه دخولاً واضحاً ، فكان المعنى ارهبون إن لم تذكروا نعمتي ولم توفوا بعهدي ، واتقون إن لم تؤمنوا بما أنزلت ، وإن اشتريتم بآياتي ثمنًا قليلاً ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ أي الصدق بالكذب قاله ابن عباس^(٢) ، أو اليهودية والنصرانية بالإسلام^(٣) قاله مجاهد ، أو التوراة بما كتبوه بأيديهم فيها من غيرها ، أو بما بدلوا فيها من ذكر محمد ﷺ^(٤) قاله ابن زيد ، أو الأمانة بالخيانة لأنهم ائتمنوا على إبداء ما في التوراة فخانوا في ذلك بكتمانه وتبديله ، أو الإقرار بنبوة محمد ﷺ إلى غيرهم وجحدتهم أنه ما بعث إليهم^(٥) قاله « أبو العالية » ، أو إيمان منافقي اليهود بإبطان كفرهم ، أو صفة النبي ﷺ بصفة الدجال وظاهر هذا التركيب أن الباء في قوله بالباطل للإلصاق كقولك : « خلطت الماء باللبن » فكأنهم نهوا عن أن يخلطوا الحق بالباطل فلا يتميز الحق من الباطل ، وجوز الزمخشري^(٦) أن تكون الباء للاستعانة كهي في « كتبت بالقلم » قال كان المعنى « ولا تجعلوا الحق ملتبساً مشتبهاً بباطلكم » ، وهذا فيه بعد عن هذا التركيب وصرف عن الظاهر بغير ضرورة تدعو إلى ذلك ﴿ وتكتموا

(١) أخرجه البخاري (١٩٩/١٠) في الطب ، باب الشروط في الرقية بفتحة الكتاب (٥٧٣٧) ، من حديث ابن عباس وهو عند البخاري

ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري . البخاري (٥٧٤٩) ، ومسلم (٢٢٠١/٦٦) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٤/١) ، وعزاه لابن جرير .

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٤/١) ، مطولاً وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة .

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه (٦٤/١) ، وعزاه لابن جرير (٦٤/١) .

(٥) ذكره ابن جرير في تفسيره بنحوه (٥٦٨/١) ، (٨٢٤) .

(٦) انظر الكشف (١٣٢/١) .

الحق ﴿ مجزوم عطفاً على تلبسوا ، والمعنى : النهي عن كل واحد من الفعلين كما قالوا « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » بالجزم نهياً عن كل واحد من الفعلين ، وجوزوا أن يكون منصوباً على إضمار أن وهو عند البصريين عطف على مصدر متوهم ، ويسمى عند الكوفيين النصب على الصرف ، والجرمي^(١) يرى أن النصب بنفس الواو وهذا مذكور في علم النحو ، وما جوزوه ليس بظاهر لأنه إذ ذاك يكون النهي منسحباً على الجمع بين الفعلين ، كما إذا قلت « لا تأكل السمك وتشرب اللبن » معناه النهي عن الجمع بينهما ، ويكون بالمفهوم يدل على جواز الالتباس بواحد منهما وذلك منهى عنه ، فلذلك رجح الجزم ، وقرأ عبد الله (وتكتمون الحق) وخرج على أنها جملة في موضع الحال ، وقدره الزمخشري : كاتمين وهو تقدير معنى لا تقدير إعراب ، لأن الجملة المثبتة المصدرة بمضارع إذا وقعت حالاً لا تدخل عليها الواو والتقدير الإعرابي هو أن تضمير قبل المضارع هنا مبتدأ تقديره وأنتم تكتمون الحق ، ولا يظهر تخريج هذه القراءة على الحال لأن الحال قيد في الجملة السابقة ، وهم قد نهوا عن لبس الحق بالباطل على كل حال فلا يناسب ذلك التقييد بالحال إلا أن تكون الحال لازمة ، وذلك أن يقال لا يقع لبس الحق بالباطل إلا ويكون الحق مكتوماً ، ويمكن تخريج هذه القراءة على وجه آخر وهو أن يكون الله قد نعى عليهم كتمهم الحق مع علمهم أنه حق ، فتكون الجملة الخبرية عطفت على جملة النهي على من يرى جواز ذلك وهو سيبويه وجماعة ، ولا يشترط التناسب في عطف الجمل^(٢) ، وكلا التخريجين تخريج شذوذ ، والحق الذي كتموه هو أمر رسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس ومجاهد وقاتدة وأبو العالية والسدي ومقاتل ، أو الإسلام قاله الحسن ، أو يكون الحق عاملاً فيندرج فيه أمر رسول الله ﷺ والقرآن وما جاء به ﷺ ، وكتمانهم : أنهم كانوا يعلمون ذلك ويظهرون خلافه ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ جملة حالية ومفعول تعلمون محذوف اقتصاراً إذ المقصود وأنتم من ذوي العلم فلا يناسب من كان عالماً أن يكتم الحق ويلبسه بالباطل ، وقد قدروا حذفه حذف اختصار ، وفيه أقاويل ستة :

أحدها : وأنتم تعلمون أنه مذكور هو وصفته في التوراة ﷻ .

الثاني : وأنتم تعلمون البعث والجزاء .

(١) صالح بن إسحاق أبو عمر الجرمي البصري مولى جرم من قبائل اليمن كان عالماً بالفقه والنحو واللغة حسن المذهب توفي سنة ٢٢٥ هجرية - تاريخ بغداد (٣١٣/٩) .

(٢) قال السيوطي في همع الهوامع : وأما عطف الخبر على الإنشاء وعكسه فمنعه البيانيون وابن مالك في باب المفعول معه في شرح التسهيل ، وابن عصفور في شرح الإيضاح ، ونقله عن الأكثرين ، وجوزه الصفار وجماعة ، واستدلوا بقوله تعالى : (وبشر الذين آمنوا) (وبشر المؤمنين) وقول الشاعر :

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

والمانعون أولوا ذلك بأن الأمرين في الآيتين معطوفان على « قل » مقدرة قبل يا أيها أو على أمر محذوف تقديره في الأولى فأنذره ، وفي الثانية : فأبشر كما قال الزمخشري في : (واهجرني ملياً) أن التقدير فاحذرني واهجرني للدلالة لأرجنك على التهديد ، وأن الفاء في قوله : (فهل) إلى آخره لمجرد السببية .

وقال ابن هشام في مغني اللبيب : أما ما نقله أبو حيان عن سيبويه فغلط عليه ، وإنما قال : « وأعلم أنه لا يجوز من عبد الله وهذا زيد الرجلين الصالحين » رفعت أو نصبت ؛ لأنك لا تنفي إلا على من أثبتته وعلمته ، ولا يجوز أن تخلط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلها بمنزلة واحدة ، وقال الصفار : لما منعها سيبويه من جهة النعت علم أن زوال النعت يضحجها ؛ فتصرف أبو حيان من كلام الصفار فوهم فيه ، ولا حجة فيما ذكر الصفار ؛ إذ قد يكون للشيء مانعان ويقتصر على ذكر أحدهما ؛ لأنه الذي اقتضاه المقام . والله أعلم - انظر همع الهوامع (١٤٠/٢) ، مغني اللبيب (٤٨٢/٢ - ٤٨٥) ، الكتاب (٤٢٦/١) .

الثالث : وأنتم تعلمون أنه نبي مرسل للناس قاطبة .

الرابع : وأنتم تعلمون الحق من الباطل .

وقال الزمخشري^(١) وأنتم تعلمون في حال علمكم أنكم لا بسون كاتمون فجعل مفعول العلم اللبس والكتم المفهومين من الفعلين السابقين قال وهو أقبح ، لأن الجهل بالقبيح ربما عذر راكمه انتهى . فكان ما قدره هو على حذف مضاف أي وأنتم تعلمون قبح ، أو تحريم اللبس والكتم .

وقال ابن عطية وأنتم تعلمون جملة في موضع الحال ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ما علموا انتهى . ومفهوم كلامه أن مفعول تعلمون هو الحق كأنه قال ولا تكتموا الحق وأنتم تعلمونه ، لأن المكتوم قد يكون حقاً وغير حق ، فإذا كان حقاً وعلم أنه حق كان كتمان له أشد معصية وأعظم ذنباً ، لأن العاصي على علم أعصى من الجاهل العاصي ، قال ابن عطية ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص في أمر محمد ﷺ ولم يشهد لهم بعلم على الإطلاق ، قال ولا تكون الجملة على هذا في موضع الحال انتهى . يعني أن الجملة تكون معطوفة وإن كانت ثبوتية على ما قبلها من جملة النهي ، وإن لم تكن مناسبة في الإخبار على ما قررناه من الكلام في تخريجنا لقراءة عبد الله وتكتمون ، والأظهر من هذه الأقاويل ما قدمناه أولاً من كون العلم حذف مفعوله حذف اقتصار ، إذ المقصود أن من كان من أهل العلم والإطلاع على ما جاءت به الرسل لا يصلح له لبس الحق بالباطل ولا كتمان ، وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد في النهي عن اللبس والكتم فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس ، والكتم حالة الجهل لأن الجاهل بحال الشيء لا يدري كونه حقاً أو باطلاً ، وإنما فائدتها أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل بها ، وقال القشيري لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين والكون في حالة واحدة في محلين ، فإما مبسطة بحق ، وإما مربوطة بحط ، و (لا تلبسوا الحق بالباطل) تدليس ، و (تكتموا الحق) تلبس و (أنتم تعلمون) أن حق الحق تقديس انتهى . وفي هذه الآية دليل أن العالم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانها ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ تقدّم الكلام على مثل هذا في أول السورة في قوله وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويعني بذلك صلاة المسلمين وزكاتهم ، فقيل هي الصلاة المفروضة ، وقيل جنس الصلاة ، والزكاة قيل أراد المفروضة ، وقيل صدقة الفطر وهو خطاب لليهود ، فدل ذلك على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، قال القشيري : وأقيموا الصلاة احفظوا أدب الحضرة ، فحفظ الأدب للخدمة من الخدمة ، وآتوا الزكاة زكاة الهمم كما تؤدي زكاة النعم قال قائلهم :

كُلُّ شَيْءٍ لَهُ زَكَاةٌ تُؤَدَّى وَزَكَاةُ الْجَمَالِ رَحْمَةٌ مِثْلِي

﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ خطاب لليهود ، ويحتمل أن يراد بالركوع الانقياد والخضوع ، ويحتمل أن يراد به الركوع المعروف في الصلاة ، وأمروا بذلك وإن كان الركوع مندرجاً في الصلاة التي أمروا بإقامتها لأنه ركوع في صلاتهم ، فنه بالأمر به على ذلك مطلوب في صلاة المسلمين ، وقيل كنى بالركوع عن الصلاة أي وصلوا مع المصلين كما يكنى عنها بالسجدة تسميةً للكل بالجزء ، ويكون في قوله مع دلالة على إيقاعها في جماعة لأن الأمر بإقامة الصلاة ، أولاً لم يكن فيها إيقاعها في جماعة ، والراكعون قيل النبي ﷺ وأصحابه ، وقيل أراد الجنس من الراكعين وفي هذه الجمل وإن كانت معطوفات بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيباً ترتيب عجيب ، من حيث الفصاحة وبناء الكلام بعضه على بعض .

وذلك أنه تعالى أمرهم أولاً بذكر النعمة التي أنعمها عليهم إذ في ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب إطاعته ، ثم أمرهم بإيفاء العهد الذي التزموه للمنعم ، ثم رغبهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم في الإيفاء بالعهد ، ثم أمرهم بالخوف من نعماته إن لم يوفوا فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان وأمر بالخوف من العصيان ، ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن ، ورغب في ذلك بأنه مصدق لما معهم فليس أمراً مخالفاً في أيديهم لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ، ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم تعالى باتقائه ، ثم أعقب ذلك بالنهي عن لبس الحق بالباطل وعن كتمان الحق ، فكان الأمر بالإيمان أمراً بترك الضلال والنهي عن لبس الحق بالباطل وكتمان الحق تركاً للإضلال ، ولما كان الضلال ناشئاً عن أمرين إما تمويه الباطل حقاً إن كانت الدلائل قد بلغت المستتبع ، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتكتموا ، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم ، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان وإظهار الحق بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، إذ الصلاة أكد العبادات البدنية ، والزكاة أكد العبادات المالية ، ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له تعالى مع جملة الخاضعين الطائعين ، فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم ، واختتامها بالانقياد للمنعم وما بينهما تكاليف اعتقادية وأفعال بدنية ومالية ، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والاختتام يظهر فضل كلام الله على سائر الكلام ، وهذه الأوامر والنواهي وإن كانت خاصة في الصورة ببني إسرائيل فإنهم هم المخاطبون بها هي عامة في المعنى ، فيجب على كل مكلف ذكر نعمة الله والإيفاء بالعهد وسائر التكاليف المذكورة بعد هذا

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤) وَأَسْتَعِينُوا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

الأمر طلب إيجاد الفعل ، ويطلق على الشأن ، والفعل منه أمر يأمر على فَعَلَ يَقَعْلُ ، وتحذف فاؤه في الأمر منه بغير لام ، فتقول « مُرْزِداً » وإتمامه قليل أو مرزيداً فإن تقدم الأمر واو أو فاء فإثبات الهمزة أجود ، وهو ما يتعدى إلى مفعولين أحدهما بنفسه والآخر بحرف جر ، ويجوز حذف ذلك الحرف وهو من أفعال محصورة تحذف من ثاني مفعوليها حرف الجر جوازاً تحفظ ، ولا يقاس عليها ، البر^(١) الصلة وأيضاً الطاعة ، قال الرازي :

لَا هُمْ رَبٌّ إِنْ بَكَرًا دُونَكَ يَبْرُكُ النَّاسُ وَيَفْخَرُونَكَ

والبر الفؤاد وولد الثعلب والهَرّ ، وبرّ والده أجله ، وأعظمه ، يَبْرُهُ على وزن فَعَلَ يَقَعْلُ ، ورجل بَارٌّ وبرّ وبرت يمينه وبرّ حجه أجلها ، وجمع أنواعاً من الخير والبر سعة المعروف والخير ، ومنه البر والبرية للسعة ويتناول كل خير ، والابرار الغلبة قال الشاعر :

وَيُيْرُونَ عَلَى الْإِي الْمَبْرُ

النسيان ضد الذكر وهو السهو الحادث بعد حصول العلم ، ويطلق أيضاً على الترك ، وضده الفعل ، والفعل نَسِيَ يَنْسَى على فَعَلَ يَقَعْلُ ، ويتعدى لواحد ، وقد يعلق نسي حملاً على علم ، قال الشاعر :

وَمَنْ أَنْتُمْ إِنْ نَسِينَا مَنْ أَنْتُمْ وَرِيحُكُمْ مِنْ أَيِّ رِيحِ الْأَعَاصِرِ

(١) البرّ: الصدق والطاعة . . . وبرّ يبرّ: إذا صلح ، وبر في يمينه يبرّ: إذا صدقه ولم يحنث - لسان العرب (٢٥٢/١) .

وفي البيت احتمال ، التلاوة القراءة ، وسميت بها لأن الآيات أو الكلمات أو الحروف يتلو بعضها بعضاً في الذكر والتلو التبع وناقة مثل يتبعها ولدها ، « العقل »^(١) : الإدراك المانع من الخطأ ، ومنه عقال البعير يمنعه من التصرف ، والمعقل مكان يمتنع فيه ، والعقل الدية لأن جنسها إبل تعقل في فناء الولي ، أو لأنها تمنع من قتل الجاني ، والعقل ثوب موشى ، قال الشاعر :

عَقْلاً وَرَقْماً تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتَّبِعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجَوَافِ مَذْمُومٌ

والعقال زكاة العام ، قال الشاعر :

سَعَى عِقْلاً فَلَمْ يَتْرُكْ لَنَا سَبْداً فَكَيْفَ لَوْ قَدْ سَعَى عَمْرُو عَقَالَيْنِ؟

ورمل عقنقل متماسك عن الإنهيار ، « الصبر » حبس النفس على المكروه ، والفعل صبر يصبر على فعل يفعل ، وأصله أن يتعدى لواحد ، قال الشاعر :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةً تَرُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ

وقد كثر حذف مفعوله حتى صار كأنه غير متعدّ ، الكبير من كبر يكبر ويكون ذلك في الجرم وفي القدر ، ويقال كبر عليّ كذا : أي شق وكبر يكبر فهو كبير من السنّ ، قال الشاعر :

صَغِيرَيْنِ نَرَعَى الْبُهِمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ يَكْبُرِ الْبُهِمُ

الخشوع^(٢) قريب من الخضوع ، وأصله اللين والسهولة ، وقيل الاستكانة والتذلل ، وقال الليث : الخضوع في البدن والخشوع في البدن والبصر والصوت والخشعة الرملة المتطامنة ، وفي الحديث « كانت الكعبة خشعة على الماء » ، « الظن » ترجيح أحد الجانبين وهو الذي يعبر عنه النحويون بالشك ، وقد يطلق على التيقن ، وفي كلا الاستعمالين يدخل على ما أصله المبتدأ والخبر بالشروط التي ذكرت في النحو ، خلافاً لأبي زيد السهيلي إذ زعم أنها ليست من نواسخ الابتداء ، والظن أيضاً يستعمل بمعنى التهمة فيتعدى إذ ذاك لواحد ، قال الفراء : الظن يقع بمعنى الكذب ، والبصريون لا يعرفون ذلك ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ الهمة للاستفهام وضعا وشابها هنا التوبيخ والتفريع ، لأن المعنى الإنكار عليهم وتوبيخهم على أن يأمر الشخص بخير ويترك نفسه ، ونظيره في النهي قول أبي الأسود :

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُوتِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

وقول آخر :

وَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَها عَنْ غِيْهَا فَإِنْ انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ

(١) قال ابن الأنباري :

رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه ، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه ، وقيل : العاقل الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها ، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حُسيّ ومُنِعَ الكلام ، والمعقول : ما تَعَقَّلَهُ بقلبك . والمعقول : العقل ، يقال ما له مَعْقُولٌ ، أي عَقْلٌ - لسان العرب (٤/٣٠٤٦) .

(٢) خَشَعَ يَخْشَعُ خَشوعاً واختشع وَتَخَشَّعَ : رمى ببصره نحو الأرض وغطّه وخفض صوته ، وقوم خُشَّعَ : متخشعون . وخشع بصره : انكسر - لسان العرب (٢/١١٦٥) .

فيفتح في العقول أن يأمر الإنسان بخير وهو لا يأتيه ، وأن ينهى عن سوء وهو يفعله ، وفي تفسير البر هنا أقوال الثبات على دين رسول الله ﷺ وهم لا يتبعونه ، أو اتباع التوراة وهم يخالفونها في جحدهم صفته ، وروي عن قتادة وابن جريج والسدي ، أو على الصدقة ويخلون ، أو على الصدق وهم لا يصدقون ، أو حض أصحابهم على الصلاة والزكاة ولا يأتونهما^(١) ، وقال السلمي : أنطالبون الناس بحقائق المعاني وأنتم قلوبكم خالية عن ظواهر رسومها ، وقال القشيري : أنحرّضون الناس على البدار وترضون بالتخلف ، وقال : أتدعون الخلق إلينا وتقعّدون عنا وألفاظاً من هذا المعنى ، وأتى بالمضارع في تأمرون ، وإن كان قد وقع ذلك منهم لأنه يفهم منه في الاستعمال في كثير من المواضع الديمومة وكثرة التلبس بالفعل نحو قولهم « زيد يعطي ويمنع » ، وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان مبالغة في الترك ، فكأنه لا يجزي لهم على بال ، وعلق النسيان بالأنفس تأكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة ﴿ وتنسوا ﴾ معطوف على تأمرون ، والمنعي عليهم : جمعهم بين هاتين الحالتين من أمر الناس بالبرّ الذي في فعله النجاة الأبدية وترك فعله حتى صار نسياً منسياً بالنسبة إليهم ﴿ أنفسكم ﴾ والأنفس هنا ذواتهم ، وقيل جماعتهم وأهل ملتهم ، ثم قيد وقوع ذلك منهم بقوله ﴿ وأنتم تلون الكتاب ﴾ أي إنكم مباشرو الكتاب وقارئوه وعالمون بما انطوى عليه ، فكيف امتثلتموه بالنسبة إلى غيركم وخالفتموه بالنسبة إلى أنفسكم ، كقوله تعالى (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) والجملة حالية ، ولا يخفى ما في تصديرها بقوله (وأنتم) من التبكيت لهم والتقريع والتوبيخ لأجل المخاطبة بخلافها لو كانت اسماً مفرداً ، و (الكتاب) هنا التوراة والإنجيل ، وفيهما النهي عن هذا الوصف الذميمة وهذا قول الجمهور ، وقيل الكتاب هنا القرآن ، قالوا ويكون قد انصرف من خطاب أهل الكتاب إلى خطاب المؤمنين ، ويكون ذلك من تلوين الخطاب مثل قوله تعالى (يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك) ، وفي هذا القول بعد إذ الظاهر أن هذا كله خطاب مع أهل الكتاب ﴿ أفلا تعقلون ﴾ مذهب سيبويه والنحويين : أن أصل الكلام كان تقديم حرف العطف على الهمزة في مثل هذا ، ومثل (أولم يسيروا) (أثم إذا ما وقع) لكن لما كانت الهمزة لها صدر الكلام قدمت على حرف العطف ، وذلك بخلاف هل ، وزعم الزمخشري^(٢) أن الواو والفاء وثم بعد الهمزة واقعة موقعها ولا تقديم ولا تأخير ويجعل بين الهمزة وحرف العطف جملة مقدرة يصح العطف عليها ، وكأنه رأى أن الحذف أولى من التقديم والتأخير ، وقد رجع عن هذا القول في بعض تصانيفه إلى قول الجماعة ، وقد تكلمنا على هذه المسألة في شرحنا لكتاب التسهيل ، فعلى قول الجماعة يكون التقدير « أفلا تعقلون » ، وعلى قول الزمخشري^(٣) يكون التقدير أتعقلون فلا تعقلون أمكنوا فلم يسيروا في الأرض ، أو ما كان شبه هذا الفعل مما يصح أن يعطف عليه الجملة التي بعد حرف العطف ، ونبههم بقوله (أفلا تعقلون) على أن فيهم إدراكاً شريفاً يمنعهم من قبيح ما ارتكبوا من أمر غيرهم بالخير ونسيان أنفسهم عنه ، وأن هذه حالة من سلب العقل إذ العاقل ساع في تحصيل ما فيه نجاته وخلاصه أولاً ثم يسعى بعد ذلك في خلاص غيره ، « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، ومركز في العقل أن الإنسان إذا لم يحصل لنفسه مصلحة فكيف يحصلها لغيره ، ألا ترى إلى قول الشاعر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزِنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَانٍ

فإذا صدر من الإنسان تحصيل المصلحة لغيره ومنع ذلك لنفسه ، كان ذلك خارجاً عن أفعال العقلاء خصوصاً في الأمور التي يرجى بسلوكها النجاة من عذاب الله والفوز بالنعيم السرمدية ، وقد فسروا قوله أفلا تعقلون بأقوال أفلا

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره بنحوه (٨/٢) .

(٢) انظر الكشاف (١٣٣/١) .

(٣) انظر الكشاف (١٣٣/١) .

تعقلون : أفلا تمنعون أنفسكم من مواجهة هذه الحال المردية بكم ، أو أفلا تفهمون قبح ما تأتون من معصية ربكم في اتباع محمد ﷺ والإيمان به ، أو أفلا تتهون لأن العقل ينهى عن القبيح ، أو أفلا ترجعون لأن العقل يراد إلى الأحسن ، أو أفلا تعقلون أنه حق فتتبعونه ، أو أن وبال ذلك عليكم راجع ، أو أفلا تمتنعون من المعاصي ، أو أفلا تعقلون إذ ليس في قضية العقل أن تأمر بالمعروف ولا تأتبه ، أو أفلا تفتنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقبحه عن ارتكابه ، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقل لأن العقول تأباه وتدفعه ، وشبهه بهذه الآية (لم تقولون ما لا تفعلون) الآية ، والمقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الإرشاد إلى المنفعة والتحذير عن المفسدة ، وذلك معلوم بشواهد العقل فمن وعظ ولم يتعظ فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل ، ويصير ذلك الوعظ سبباً للرجفة في المعصية لأنه يقال لولا اطلاع الواعظ على أن لا أصل لهذه التخويفات لما أقدم على المعصية ، فتكون النفس نافرة عن قبول وعظ من لم يتعظ وأنشدوا :

مَوَاعِظُ الْوَاعِظِ لَنْ تُقْبَلَ حَتَّى يَعْيَهَا قَلْبُهُ أَوْ لَا

وقال عليّ كرم الله وجهه « قصم ظهري رجلان عامل مهتك^(١) ، وجاهل متنسك » ، ولا دليل في الآية لمن استدل بها على أنه ليس للعاصي أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولا في قوله تعالى (لم تقولون ما لا تفعلون) ، ولا للمعتزلة في أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى ، قالوا : التوبيخ لا يحسن إلا إذا كانوا فاعلي أفعالهم ، وهذه مسألة مشكلة يبحث فيها في علم الكلام ، وهذا الإنكار والتوبيخ والتقريع وإن كان خطاباً لبني إسرائيل ، فهو عام من حيث المعنى ، وعن محمد بن واسع^(٢) بلغني أن ناساً من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة ، قالوا كنا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ تقدم ذكر معاني استفعل عند ذكر المادة في قوله تعالى (وإياك نستعين) ، وأن من تلك المعاني الطلب وأن استعان معناه طلب المعونة ، وظاهر الصبر أنه يراد به ما يقع عليه في اللغة ، وقال مجاهد : الصبر الصوم ، والصوم صبر لأنه إمساك عن الطعام ، وسمي رمضان شهر الصبر^(٣) ، والصلاة هي المفروضة مع ما يتبعها من السنن والنوافل قاله مجاهد ، وقيل الصلاة الدعاء ، وقد أضمرُوا للصبر صلة تقيده ، فقيل بالصبر على ما تكرهه نفوسكم من الطاعة والعمل ، أو على أداء الفرائض روي ذلك عن ابن عباس ، أو عن المعاصي ، أو على ترك الرياسة ، أو على الطاعات وعن الشهوات ، أو على حوائجكم إلى الله ، أو على الصلاة ، ولما قدر هذا التقدير أعني بالصبر على الصلاة توهم بعض من تكلم على القرآن ، أن الواو التي في الصلاة هنا بمعنى على وإنما يريد قائل هذا أنهم أمروا بالاستعانة بالصبر على الصلاة وبالصلاة ، لأن الواو بمعنى على ويكون ينظر إلى قوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) ، وأمروا بالاستعانة بالصلاة لأنه يتلى فيها ما يرغب في الآخرة ويزهد في الدنيا ، أو لما فيها من تمحيص الذنوب وترقيق القلوب ، أو لما فيها من إزالة الهموم ، ومنه الحديث « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » ، وقدر روي أن ابن عباس يُعَيّ إليه « قُتِم » أخوه فقام يصلي وتلا و (استعينوا بالصبر والصلاة)^(٤) ، أو لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر وكل

(١) يقال : رجل مُنْهَكٌ ومُنْهَكٌ ومُسْتَهَكٌ : لا يبالي أن يهتك ستره عن عورته .
(٢) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس القدوة أبو بكر العالم الرباني مات سنة سبع وعشرين ومائة - انظر السير (١١٩/٦) ، تهذيب التهذيب (٤٩٩/٩) .
(٣) انظر تفسير الطبري (١١/٢) .
(٤) انظر الدر المنثور للسيوطي (٦٧/٢) .

هذه الوجوه ذكرها ، وقدم الصبر على الصلاة ، قيل لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي ، والنفي مقدم على الإثبات ، ويظهر أنه قدم الاستعانة به على الاستعانة بالصلاة ، لأنه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على من ألفها واعتادها من ذكر ما نسوه ، والإيفاء بما أخلفوه والإيمان بكتاب متجدد ، وترك أخذهم الرشا على آيات الله ، وتركهم لباس الحق بالباطل ، وكنتم الحق الذي لهم بذلك الرياسة في الدنيا ، والاستتباع لعوامهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهذه أمور عظيمة فكانت البداية بالصبر لذلك ، ولما كان عمود الإسلام هو الصلاة وبها يتميز المسلم من المشرك ، أتبع الصبر بها إذ يحصل بها الاشتغال عن الدنيا وبالتلاوة فيها الوقوف على ما تضمنه كتاب الله من الوعد والوعيد والمواعظ والآداب ومصير الخلق إلى دار الجزاء ، فيرغب المشتغل بها في الآخرة ويرغب عن الدنيا ، وناهيك من عبادة تتكرر على الإنسان في اليوم والليل خمس مرات يناجي فيها ربه ويستغفر ذنبه ، وبهذا الذي ذكرناه تظهر الحكمة في أن أمروا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، ويعد دعوى من قال إنه خطاب للمؤمنين برسول الله ﷺ ، قال لأن من ينكره لا يكاد يقال له استعن بالصبر والصلاة ، قال ولا يبعد أن يكون الخطاب ، أولاً لبني إسرائيل ثم يقع بعد الخطاب للمؤمنين ، والذي يظهر أن ذلك كله خطاب لبني إسرائيل ، لأن صرف الخطاب إلى غيرهم لغير موجب ثم يخرج عن نظم الفصاحة ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ الضمير عائد على الصلاة هذا ظاهر الكلام وهو القاعدة في علم العربية أن ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل ، وقيل يعود على الاستعانة وهو المصدر المفهوم من قوله واستعينوا فيكون مثل (اعدلوا هو أقرب للتقوى) : أي العدل أقرب قاله البجلي ، وقيل يعود على إجابة رسول الله ﷺ ، لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه قاله الأخفش ، وقيل على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة ، وقيل يعود على الكعبة لأن الأمر بالصلاة إليها ، وقيل يعود على جميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها من قوله اذكروا نعمتي إلى واستعينوا ، وقيل المعنى على التثنية واكتفى بعوده على أحدهما ، فكانه قال وإنهما كقوله (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها) في بعض التأويلات وكقوله (والله ورسوله أحق أن يرضوه) وقول الشاعر :

إِنَّ شَرْخَ الشُّبَابِ وَالشَّعَرَ الْأَسَدَ وَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونًا^(١)

فهذه سبعة أقوال فيما يعود الضمير عليه ، وأظهرها ما بدأنا به أولاً . قال مؤرج في عود الضمير لأن الصلاة أهم وأغلب كقوله تعالى (انفضوا إليها) انتهى . يعني أن ميل أولئك الذين انصرفوا في الجمعة إلى التجارة أهم وأغلب من ميلهم إلى اللهو ، فلذلك كان عود الضمير عليها ، وليس يعني أن الضميرين سواء في العود لأن العطف بالواو يخالف العطف بأو فالأصل في العطف بالواو مطابقة الضمير لما قبله في تثنية وجمع ، وأما العطف بأو فلا يعود الضمير فيه إلا على أحد ما سبق ، ومعنى كبر الصلاة ثقلها وصعوبتها على من يفعلها مثل قوله تعالى (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) : أي شق ذلك وثقل ﴿ إلا على الخاشعين ﴾ استثناء مفرغ لأن المعنى وإنها لكبيرة على كل أحد إلا على الخاشعين ، وهم المتواضعون المستكينون ، وإنما لم تشق على الخاشعين لأنها منظوية على أوصاف هم متحلون بها لخشوعهم من القيام لله والركوع له والسجود له والرجاء لما عنده من الثواب ، فلما كان مآل أعمالهم إلى السعادة الأبدية سهل عليهم ما صعب على غيرهم ، من المنافقين والمرائين بأعمالهم الذين لا يرجون لها نفعاً ويجوز في ﴿ الذين ﴾ الإتيان والقطع إلى الرفع ، أو النصب ، وذلك صفة مدح ، فالقطع أولى بها و ﴿ يظنون ﴾ معناه يوقنون قاله

(١) البيت من الخفيف لحسان بن ثابت رضي الله عنه شرح ديوان حسان (٤١٣) ، والكامل (٩١/٢) ، لسان العرب م (شرح) .

الجمهور^(١) ، لأن من وصف بالخشوع لا يشك أنه ملاق ربه ، ويؤيده أن في مصحف عبد الله الذين يعلمون ، وقيل : معناه الحسابان فيحتاج إلى مصحح لهذا المعنى وهو ما قدره من الحذف وهو بذنوبهم فكأنهم يتوقعون لقاء ربهم مذنبين ، والصحيح هو الأول ومثله (إني ظننت أني ملاق حسابه) (فظنوا أنهم مواقعوها) ، وقال دريد :

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفَيِّ مُدَجِّجٍ سَرَاتُهُمْ فِي السَّائِرِيِّ الْمُسَرِّدِ^(٢)

قال ابن عطية قد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر أظن هذا إنساناً ، وإنما نجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس انتهى ، والظن في كلا استعماليه من اليقين أو الشك يتعدى إلى اثنين ، وتأتي بعد الظن أن الناصبة للفعل وأن الناصبة للاسم الرافعة للخبر ، فتقول « ظننت أن تقوم » و « ظننت أنك تقوم » ، وفي توجيه ذلك خلاف مذهب سيويه أن أن وأن كل واحدة منهما مع ما دخلت عليه تسد مسد المفعولين ، وذلك بجران المسند والمسند إليه في هذا التركيب ، ومذهب إبي الحسن وأبي العباس أن أن وما عملت فيه في موضع مفعول واحد أول ، والثاني مقدّر ، فإذا قلت « ظننت أن زيدا قائم » فتقديره ظننت قيام زيد كائناً أو واقعاً ، والترجيح بين المذهبين يذكر في علم النحو ﴿أنهم ملاقور بهم﴾ الملاقاة مفاعلة تكون من اثنين ، لأن من لاقاك فقد لاقيته ، وقال المهدوي والماوردي وغيرهما الملاقاة هنا وإن كانت صيغتها تقتضي التشريك ، فهي من الواحد كقولهم « طارقت النعل وعاقبت اللص » ، وعافاك الله « قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن لقي يتضمن معنى لاقى ، وليست كذلك الأفعال كلها بل فعل خلاف في المعنى لفاعل انتهى كلامه . ويحتاج إلى شرح ، وذلك أنه ضعفه من حيث إن مادة لقي تتضمن معنى الملاقاة بمعنى أن وضع هذا الفعل سواء كان مجرداً ، أو على فاعل معناه واحد من حيث إن من لقيك فقد لقيته ، فهو لخصوص مادته يقتضي المشاركة ، ويستحيل فيه أن يكون لواحد ، وهذا يدل على أن فاعل يكون لموافقة الفعل المجرد ، وهذا أحد معاني فاعل وهو أن يوافق الفعل المجرد ، وقول ابن عطية وليست كذلك الأفعال كلها كلام صحيح : أي ليست الأفعال مجرداً بمعنى فاعل ، بل فاعل فيها يدل على الاشتراك ، وقوله بل فعل خلاف فاعل يعني بل المجرد فيها يدل على الانفراد وهو خلاف فاعل ، لأنه يدل على الاشتراك فضعف بأن يكون فاعل من اللقاء من باب عاقبت اللص حيث إن مادة اللقاء تقتضي الاشتراك سواء كان بصيغة المجرد أو بصيغة فاعل ، وهذه الإضافة غير محضّة لأنها إضافة اسم الفاعل بمعنى الاستقبال ، وقد تقدم لنا الكلام على اسم الفاعل إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال بالنسبة إلى أعماله في المفعول ، وإضافته إليه وإضافته إلى الرب وإضافة الرب إليهم في غاية من الفصاحة ، وذلك أن الرب على أي محامله حملته فيه دلالة على الإحسان لمن يربه وتعطف بين لا يدل عليه غير لفظ الرب ، وقد اختلف المفسرون في معنى ملاقة ربهم ، فحمله بعضهم على ظاهره من غير حذف ولا كناية بأن اللقاء هو رؤية الباري تعالى ولا لقاء أعظم ولا أشرف منها ، وقد جاءت بها السنة المتواترة وإلى اعتقادها ذهب أكثر المسلمين ، وقيل ذلك على حذف مضاف : أي جزاء ربهم لأن الملاقاة بالذوات مستحيلة في غير الرؤية ، وقيل ذلك كناية عن انقضاء أجلهم كما يقال لمن مات قد لقي الله ، ومنه قول الشاعر :

غَدَا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٨/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد .

وعزاه أيضاً لابن جرير عن قتادة وكذلك ذكره عن أبي العالية مطولاً (٦٨/١) .

(٢) البيت من الطويل للريد بن الصمة انظر جمهرة أشعار العرب ص (٢١١) ، شعراء النصرانية (٧٥٦) ، الأصمعيات (١٠٦) ،

الخزانة (٢٧٩/١١) ، الكشاف (٣٨٤/٤) ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٥٦/٢) .

وكنى بالملاقاة عن الموت لأن ملاقاته الله متسبب عن الموت فهو من إطلاق المسبب ، والمراد منه السبب وذلك أن من كان يظن الموت في كل لحظة لا يفارق قلبه الخشوع ، وقيل ذلك على حذف مضاف أخص من الجزاء وهو الثواب : أي ثواب ربهم فعلى هذا القول ، والقول الأول يكون الظن على بابه من كونه يراد به الترجيح وعلى تقدير الجزاء أو كون الملاقاة يراد بها انقضاء الأجل ، يكون الظن يراد به التيقن ، وقد نازعت المعتزلة في كون لفظ اللقاء لا يراد به الرؤية ولا يفيدها ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ والمنافق لا يرى ربه ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ ، ويتناول الكافر والمؤمن ، وفي الحديث « لقي الله وهو عليه غضبان »^(١) إلى غير ذلك مما ذكره ، وقد تكلم على ذلك أصحابنا ، ومسألة الرؤية يتكلم عليها في أصول الدين ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اختلف في الضمير في إليه على من يعود ، فظاهر الكلام والتركيب الفصحح أنه يعود إلى الرب ، وأن المعنى : وأنهم إلى ربهم راجعون ، وهو أقرب ملفوظ به ، وقيل يعود على اللقاء الذي يتضمنه ملاقور ربهم ، وقيل يعود على الموت ، وقيل على الإعادة وكلاهما يدل عليه ملاقو وقد تقدم شرح الرجوع فأغنى عن إعادته هنا ، وقيل بالقول الأول وهو أن الضمير يعود على الرب فلا يتحقق الرجوع فيتحققه إلى حذف مضاف التقدير إلى أمر ربهم راجعون ، وقيل المعنى بالرجوع الموت ، وقيل راجعون بالإعادة في الآخرة وهو قول أبي العالية^(٢) ، وقيل راجعون إلى أن لا يملك أحدهم ضراً ولا نفعاً لغيره كما كانوا في بدء الخلق ، وقيل راجعون فيجزئهم بأعمالهم وليس في قوله وأنهم إليه راجعون دلالة للمجسمة والتناسخية على كون الأرواح قديمة ، وإنما كانت موجودة في عالم الروحانيات قالوا لأن الرجوع إلى الشيء المسبوق بالكون عنده

﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

« الفضل » الزيادة واستعماله في الخير وفعله فعل يفعل ، وأصله أن يتعدى بحرف الجر وهو على ثم بحذف على على حد قول الشاعر وقد جمع بين الوجهين :

وَجَدْنَا نَهْشَلًا فَضَلْتَ فَقِيمًا كَفَضَلِ ابْنِ الْمَخَاضِ عَلَى الْفَصِيلِ^(٣)

وأما في الفضلة من الشيء وهي البقية فيقال فضل فضل كالذي قدمناه ، وفضل يفضل نحو سميع يسمع ، وفضل بفضل بكسرهما من الماضي وضمهما من المضارع ، وقد أولع قوم من النحويين بإجازة فتح ضاد فضلت في البيت

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها (٨٨/٥) ، في كتاب الخصومات ، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٤١٦ ، ٢٤١٧) ، وأحمد في المسند (٣٧٧/١ ، ٣٧٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، ١١٨/٢ ، ١٩٢/٤ ، ٣١٧ ، ٢٥/٥ ، ٢١١ ، ٢١٢) .

(٢) ذكره ابن جرير في تفسيره (٢٣/٢) ، (٨٦٧) .

(٣) البيت من الوافي للفرزدق من قصيدة يهجو نهشلاً انظر الديوان (٩٦/٢) ، الجمل ص (٢٥٧) .

ونهشل اسم قبيلة سميت باسم أبيها نهشل بن دارم .

وكسرها ، والصواب الفتح ، الجزاء القضاء عن المفضل والمكافأة قال الراجز : -

يَجْزِيهِ رَبُّ الْعَرْشِ عَنِّي إِذْ جَزَى جَنَاتٍ عَدْنٍ فِي الْعُلَالِي الْعُلَا

والإجزاء الإغناء ، قبول الشيء التوجه إليه ، والفعل قبل يقبل ، والقبل ما واجهك ، قال القطامي^(١) :

فَقُلْتُ لِلرَّكْبِ لَمَّا أَنْ عَلَا بِهِمْ مِنْ عَن يَمِينِ الْحُبَّيَا نَظْرَةً قَبْلُ

الشفاعة^(٢) ضم غيره إلى وسيلته ، والشفعة ضم الملك الشفع الزوج ، والشفاعة منه لأن الشفاعة والشفوع له شفع ، وقال الأحوص^(٣) :

كَأَنَّ مَنْ لَامَنِي لِأَضْرِمَهَا كَانُوا لِلَّيْلِ يَلُومُهُمْ شَفَعُوا

وناقة شفوع خلفها ولد ، وقيل خلفها ولد وفي بطنها ولد ، الأخذ ضد الترك ، والأخذ القبض والإمساك ، ومنه قيل للأسير أخيد ، وتحذف فاؤه في الأمر منه بغير لام وقُلْ الإتمام ، العدل الفداء والعدل ما يساويه قيمة ، وقدرًا وإن لم يكن من جنسه وبكسر العين المساوي في الجنس والجرم ، ومن العرب من يكسر العين من معنى الفدية واحد الأعدال بالكسر لا غير ، والعدل المقبول القول من الناس ، وحكى فيه أيضاً كسر العين ، وقال ثعلب : العدل الكفيل والرشوة قال الشاعر :

لَا يَقْبَلُ الصَّرْفَ فِيهَا نَهَابُ الْعَدْلَا

النصر العون أرض منصورة ممدودة بالمطر قال الشاعر :

أَبُوكَ الَّذِي أَجْدَى عَلَيَّ يَنْصُرُهُ وَأُمْسَكَ عَنِّي بَعْدَهُ كُلُّ قَاتِلٍ

وقال آخر :

إِذَا وَدَّعَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَوَدَّعِي بِلَادَ تَمِيمٍ وَأَنْصُرِي أَرْضَ عَامِرٍ

والنصر العطاء ، والانتصار الانتقام ، النجاة التنجية من الهلكة بعد الوقوع فيها ، والأصل الإلقاء بنجوة قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ لِلنُّعْمَانِ كَانَ بِنَجْوَةٍ مِنْ الشَّرِّ لَوْ أَنَّ امْرَأً كَانَ نَاجِيَا

الآل : قيل بمعنى الأهل ، وزعم أن ألفه بدل عن هاء وأن تصغيره أهيل ، وبعضهم ذهب إلى أن ألفه بدل من همزة ساكنة ، وتلك الهمزة بدل من هاء ، وقيل ليس بمعنى الأهل لأن الأهل القرابة ، والآل من يؤول من قرابة أوولى أو مذهب فآلفه بدل من واو ، ولذلك قال يونس في تصغيره أويل ، ونقله الكسائي نصاً عن العرب ، وهذا اختيار أبي

(١) عُمر بن شُعَيْب بن عمرو بن عباد بن بني جُشَم بن بكر أبو سعيد التغلي الملقب بالقُطامي توفي نحو سنة ١٣٠ هجرية - انظر الأعلام (٨٨/٥) .

(٢) الشفاعة : كلام الشفع للملك في حاجة يسألها لغيره - انظر لسان العرب (٢٢٨٩/٤) .

(٣) عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري من بني ضبيعة توفي سنة ١٠٥ هجرية - انظر الأعلام (١١٦/٤) ، الأغاني (٤٠/٤) .

الحسن بن الباذش ، ولم يذكر سيبويه في باب البدل أن الهاء تبدل همزة ، كما ذكر أن الهمزة تبدل هاء في هزقت وهيا وهرحت وهياك ، وقد خصوا آلًا بالإضافة إلى العلم ذي الخطر ممن يعلم غالباً ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام قال الشاعر :

نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي بَلَدِنَا لَمْ نَزَلْ إِلَّا عَلَى عَهْدِ إِرَمِ^(١)

قال الأخفش : لا يضاف آل إلا إلى الرئيس الأعظم نحو آل محمد ﷺ ، وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة ، قبل وفيه نظر لأنه قد سمع عن أهل اللغة في البلدان فقالوا : آل المدينة ، وآل البصرة ، وقال الكسائي لا يجوز أن يقال فلان من آل البصرة ولا من آل الكوفة ، بل يقال من أهل البصرة ومن أهل الكوفة انتهى قوله . وقد سمع إضافته إلى اسم الجنس وإلى الضمير قال الشاعر :

وَأَنْصُرُ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ أَلَكْ

وقال هدية :

أَنَا الْفَارِسُ الْحَامِي حَقِيقَةً وَالْيَدِي وَإِلِي كَمَا تَحْمِي حَقِيقَةً آلِكَ^(٢)

وقد اختلف في اقتباس جواز إضافته إلى المضمير فمنع من ذلك الكسائي وأبو جعفر النحاس وأبو بكر الزبيدي^(٣) ، وأجاز ذلك غيرهم وجمع بالواو والنون رفعاً وبالياء والنون جرّاً ونصباً ، كما جمع أهل فقالوا آلون وآل : السراب يجمع على أفعال قالوا أأوال ، والآل عمود الخيمة ، والآل الشخص ، والآلة الحالة الشديدة ، فرعون لا ينصرف للعلمية والعجمة ، وسيأتي الكلام عليه ، سامه كلفه العمل الشاق قال الشاعر :

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسَفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الْخَسَفَ فِينَا

وقيل معناه يعلمونكم من السيماء وهي العلامة ، ومنه تسويم الخيل^(٤) ، وقيل يطالبونكم من مساومة البيع ، وقيل يرسلون عليكم من إرسال الإبل للرعي ، وقال أبو عبيدة يولونكم يقال سامه خطة خسف : أي أولاه إياها ، السوء مصدر أساء يقال ساء يسوء وهو متعد ، وأساء الرجل : أي صار ذا سوء قال الشاعر :

لَيْسَ سَاءَ نِي أَنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِإِلِكِ^(٥)

ومعنى ساءه أحزنه هذا أصله ثم يستعمل في كل ما يستقبح ، ويقال أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل يراد قبحهما ، « الذبح » أصله الشق قال الشاعر :

(١) البيت من الرمل انظر تذكرة النحاة ص (٢٣) ، شفاء العليل (٧١١) ، همع الهوامع (٥٠/٢) .

(٢) البيت من الكامل لعبد المطلب بن هاشم انظر حاشية الصبان (١٣/١) ، الاقتضاب (٣٧/١) ، حاشية الكشف (٤٧٢/٤) .

(٣) محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذجج بن محمد بن عبد الله بن بشر أبو بكر الزبيدي الإشبيلي النحوي ، صاحب طبقات النحويين . قال ابن الفَرَضِي كان أوحده عصره في علم النحو وحفظ اللغة ، توفي يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة - انظر البغية (٨٤/١) .

(٤) انظر لسان العرب (٢١٥٨/٣) .

(٥) البيت من الطويل لم يعلم انظر ديوان الحماسة للتبريزي (١٤٩/٣) .

كَأَنَّ بَيْنَ فَكِّهَا وَالفَكِّ فَأَرَّةٌ مِسْكٌ دُبِحَتْ فِي سَكِّ^(١)

وقال :

كَأَنَّمَا الصَّابُ فِي عَيْنَيْكَ مَذْبُوحٌ

والذبيحة داء في الحلق يقال منه ذبحه يذبحه ذبحاً والذبح المذبح ، الاستحياء هنا الإبقاء حياً ، واستفعل فيه بمعنى أفعَل استحياءه ، وأحياء بمعنى واحد نحو قولهم أبل واستبل أو طلب الحياء وهو الفرج ، فيكون استفعل هنا للطلب نحو استغفر : أي تطلب الغفران ، وقد تقدم الكلام على استحيا من الحياء في قوله (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً) ، النساء اسم يقع للصغار والكبار وهو جمع تكسير لنسوة ، ونسوة على وزن فعلة ، وهو جمع قلة خلافاً لابن السراج إذ زعم أن فعلة اسم جمع لا جمع تكسير ، وعلى القولين لم يلفظ له بواحد من لفظه ، والواحدة امرأة ، البلاء : الاختبار بلاء يبلوه بلاء اختبره ، ثم صار يطلق على المكروه والشدة ، يقال أصاب فلاناً بلاء أي شدة ، وهو راجع لمعنى البلى كأن المبتلى يؤول حاله إلى البلى وهو الهلاك والفناء ، ويقال أبلاه بالنعمة وبلاه بالشدة ، وقد يدخل أحدهما على الآخر فيقال بلاء بالخير وأبلاه بالشر قال الشاعر : -

جَزَى اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

فاستعملهما بمعنى واحد وبنى منه افتعل فيقال ابتلى ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ تقدم الكلام في شرح هذا ، وأعيد نداؤهم ثانياً على طريق التوكيد ، ولينبهوا لسماع ما يرد عليهم من تعداد النعم التي أنعم الله بها عليهم وتفصيلها نعمة نعمة ، فالنداء الأول للتنبيه على طاعة المنعم ، والنداء الثاني للتنبيه على شكر النعم ﴿ وأني فضلتكم ﴾ ثم عطف التفضيل على النعمة ، وهو من عطف الخاص على العام ، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور وهو ما انفردت به الواو دون سائر حروف العطف ، وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي يذكر لنا هذا النحو من العطف ، وأنه يسمى بالتجريد كأنه جرد من الجملة ، وأفرد بالذكر على سبيل التفضيل وقال الشاعر :

أَكْرُ عَلَيْهِمْ دَعْلَجاً وَلَبَانُهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقَعَ الْقَنَاءُ تَحْمَحَمًا^(٢)

دعلج هنا اسم فرس ولبانه صدره ، ولأبي الفتح بن جني كلام في ذلك يكشف من سر الصناعة له ﴿ على العالمين ﴾ أي عالمي زمانهم قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم^(٣) ، أو على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء (وجعلهم ملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين) ، وذلك خاصة لهم دون غيرهم فيكون عاماً ، والنعمة مخصوصة قالوا ويدفع هذا القول (كنتم خير أمة) ، أو على الجم الغفير من الناس يقال رأيت عالماً من الناس يراد به الكثرة ، وعلى كل قول من هذه الأقوال الثلاثة لا يلزم منه التفضيل على هذه الأمة ، لأن من قال بالعموم خص النعمة ولا يلزم التفضيل على كل عالم بشيء خاص التفضيل من جميع الوجوه ، ومن قال بالخصوص فوجه عدم التفضيل مطلقاً ظاهر ، وقال القشيري أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ ،

(١) البيت لمنظور بن مرثد الأسدي ، انظر اللسان (ذبح) .

(٢) البيت من الطويل لعامر بن الطفيل ، انظر ديوانه (١٣٤) ، وانظر لسان العرب م (علج) .

(٣) انظر الدر المنثور للسيوطي (٦٨ / ١) .

وأشهد المسلمين فضل نفسه فقال (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) فستان بين من مشهودة فضل ربه ومن مشهودة فضل نفسه ، فالأول يقتضي الثناء ، والثاني يقتضي الإعجاب انتهى . وآخره ملخص من كلامه ﴿ واتقوا يوماً ﴾ أمر بالاتقاء وكأنهم لما أمروا بذكر النعم وتفضيلهم ناسب أن من أنعم عليه وفضل يكون محصلاً للتقوى ، فأمرُوا بالإدامة على التقوى ، أو بتحصيل التقوى إن عرض لهم خلل ، وانتصاب (يوماً) إما على الظرف والتمتق محذوف تقديره اتقوا العذاب يوماً ، وإما على المفعول به اتساعاً ، أو على حذف مضاف : أي عذاب يوم أو هول يوم ، وقيل معناه : جيئوا متقين ، وكأنه على هذا التقدير لم يلحظ متعلق الاتقاء فإذا ذاك ينتصب يوماً على الظرف ، قال القشيري : العوام خوفهم بعذابه فقال (واتقوا يوماً) (واتقوا النار) والخواص خوفهم بصفاته فقال (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) ، (وما تكون في شأن) الآية وخواص الخواص خوفهم بنفسه فقال (ويحذركم الله نفسه) ، وقرأ ابن السماك العدوي : لا تُجْزِي من أجزأ : أي أغنى ، وقيل جزأ وأجزأ بمعنى واحد ، وهذه الجملة صفة لليوم والرباط محذوف ، فيجوز أن يكون التقدير لا تجزي فيه فحذف حرف الجر فاتصل الضمير بالفعل ثم حذف الضمير فيكون الحذف بتدريج ، أو عداه إلى الضمير أولاً اتساعاً ، وهذا اختيار أبي علي وإياه نختار ، قال المهدي والوجهان يعني تقديره لا تجزي فيه ولا تجزيه جائزان عند سيويه والأخفش والزجاج ، وقال الكسائي لا يكون المحذوف إلا لهاء ، قال لا يجوز أن تقول « هذا رجل قصدت » و « لا رأيت رجلاً أرغب » وأنت تريد قصدت إليه أرغب فيه انتهى . وحذف الضمير من الجملة الواقعة صفة جائز ومنه قوله :

فَمَا أَدْرِي أَغَيَّرَهُمْ تَنَاءٍ وَطُولُ الْعَهْدِ أَمْ مَالٌ أَصَابُوا^(١)

يريد أصابوه ، وما ذهبوا إليه من تعيين الربط أنه فيه ، أو الضمير هو الظاهر ، وقد يجوز على رأي الكوفيين أن يكون ثم رابط ولا تكون الجملة صفة ، بل مضاف إليها يوم محذوف لدلالة ما قبله عليه التقدير (واتقوا يوماً يوم لا تجزي) ، فحذف يوم لدلالة يوماً عليه فيصير المحذوف في الإضافة نظير الملفوظ به في نحو قوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون) ، ونظير (يوم لا تملك) فلا تحتاج الجملة إلى ضمير ، ويكون إعراب ذلك المحذوف بدلاً وهو بدل كل من كل ومنه قول الشاعر :

رَحِمَ اللَّهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا بِسِجِّسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ^(٢)

في رواية من خفض التقدير أعظم طلحة ، وقد قالت العرب « يعجبني الإكرام عندك سعد » بنية يعجبني الإكرام إكرام سعد ، وحكى الكسائي عن العرب « أطعمونا لحماً سميناً شاة ذبحوها » : أي لحم شاة ، وحكى الفراء عن العرب أما والله لو تعلمون العلم الكبيره سنة الدقيق عظمه على تقدير لو تعلمون علم الكبيرة سنة ، فحذف الثاني اعتماداً على الأول ، ولم يجز البصريون ما أجازه الكوفيون من حذف المضاف وترك المضاف إليه على خفضه في يعجبني القيام زيد ، ولا يبعد ترجيح حذف يوم لدلالة ما قبله عليه بهذا المسموع الذي حكاه الكسائي والفراء عن العرب ، ويحسن هذا التخريج كون المضاف إليه جملة فلا يظهر فيها إعراب فيتنافر مع إعراب ما قبله ، فإذا جاز ذلك في نثرهم مع التنافر فلأن يجوز مع عدم التنافر أولى ، ولم أر أحداً من المعربين والمفسرين خرجوا هذه الجملة هذا

(١) البيت من الوافر للحارث بن كلدة ، انظر المقاصد النحوية (٤/٦٠) ، شرح شواهد الكشاف (٤/٣٤٧) ، شرح أبيات سيويه للنحاس ص (١٣١) ، شرح أبيات الكتاب للسيرافي (١/٣٦٥) ، شرح شواهد ابن عقيل للجرجاوي ص (٢٠١) .

(٢) البيت من الخفيف لعبد الله بن قيس ، انظر ديوانه ص (٢٠) ، المعارف لابن قتيبة ص (٢) ، شرح المفصل (١/٤٧) ، الخزانة (٤/٤١٤) ، الحماسة البصرية (١/٢٠٧) ، التنبيه والإيضاح (١/٢٥٦) .

التخريج ، بل هم مجمعون على أن الجملة صفة ليوم ، ويلزم من ذلك حذف الرابط أيضاً من الجمل المعطوفة على ﴿ لا تجزي ﴾ أي ولا يقبل منها شفاعته فيه (ولا يؤخذ منها عدل) فيه (ولا هم ينصرون) فيه ، وعلى ذلك التخريج لا يحتاج إلى إضمار هذه الروابط ﴿ نفس عن نفس ﴾ كلاهما نكرة في سياق النفي فتعم ، ومعنى التنكير أن نفساً من الأنفس لا تجزي عن نفس من الأنفس شيئاً من الأشياء ، قال الزمخشري^(١) وفيه إقناط^(٢) كلي قاطع من المطامع ، وهذا على مذهبه في أن لا شفاعته ، وقال بعضهم : التقدير عن نفس كافرة فقيدها بالكفر ، وفيه دلالة على أن النفس تجزي عن نفس مؤمنة ، وذلك بمفهوم الصفة ، ويأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند الكلام على قوله ، (ولا يقبل منها شفاعته) وقرأ أبو السرار الغنوي لا تجزي نسمة عن نسمة ، وانتصاب شيئاً على أنه مفعول به : أي لا يقضي شيئاً : أي حقاً من الحقوق ، ويجوز أن يكون انتصابه على المصدر : أي ولا تجزي شيئاً من الجزاء قاله الأخفش ، وفيه إشارة إلى القلة كقولك « ضربت شيئاً من الضرب » ﴿ ولا يقبل منها شفاعته ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تُقبل بالتاء وهو القياس والأكثر ، ومن قرأ بالياء فهو أيضاً جائز فصيح لمجاز التانيث وحسنه أيضاً الفصل بين الفعل ومرفوعه ، وقرأ « سفيان » (ولا يُقبل) بفتح الياء ، ونصب شفاعته على البناء للمفاعل ، وفي ذلك التفات وخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ، لأن قبله اذكروا نعمتي وأني فضلتكم وبنائه للمفعول أبلغ لأنه في اللفظ أعم ، وإن كان يعلم أن الذي لا يقبل هو الله تعالى ، والضمير في منها عائد على نفس المتأخرة ، لأنها أقرب مذكور : أي لا يقبل من النفس المستشفعة شفاعته شافع ، ويجوز أن يعود الضمير على نفس الأولى : أي ولا يقبل من النفس التي لا تجزي عن نفس شيئاً شفاعته هي بصدد أن لو شفعت لم يقبل منها ، وقد يظهر ترجيح عودها إلى النفس الأولى لأنها هي المحدث عنها في قوله (لا تجزي نفس عن نفس) ، والنفس الثانية : هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدية ، وظاهر قوله (ولا يقبل منها شفاعته) نفي القبول ووجود الشفاعته ، ويجوز أن يكون من باب :

عَلَى لَاجِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

نفي القبول والمقصود نفي الشفاعته كأنه قيل لا شفاعته فتقبل ، وقد اختلف المفسرون في فهم هذا على ستة أقوال :

الأول : أنه لفظ عام لمعنى خاص ، والمراد الذين قالوا من بني إسرائيل نحن أبناء الله وأبنائه وإنهم يشفعون لنا عند الله ، فرد عليهم ذلك وأويسوا منه لكفرهم ، وعلى هذا تكون النفس الأولى مؤمنة والثانية كافرة ، والكافر لا تنفعه شفاعته لقوله تعالى (فما تنفعهم شفاعته الشافعين) .

الثاني : معناه لا يجدون شفعياً تقبل شفاعته لعجز المشفوع فيه عنه وهو قول الحسن .

الثالث : معناه لا يجيب الشافع المشفوع فيه إلى الشفاعته وإن كان لو شفع لشفع .

الرابع : معناه حيث لم يأذن الله في الشفاعته للكفار ولا بد من إذن من الله بتقديم الشافع بالشفاعة لقوله (ولا تنفع الشفاعته عنده إلا لمن أذن له) (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

الخامس : معناه ليس لها شفاعته فيكون لها قبول ، وقد تقدم هذا القول .

(١) انظر الكشف (١٣٦/١) .

(٢) القنوط : اليأس ، وفي التهذيب : اليأس من الخير ، وقيل : أشد اليأس من الشيء - انظر لسان العرب (٣٧٥٢/٥) .

السادس : أنه نفي عام : أي لا يقبل في غيرها لا مؤمنة ولا كافرة في مؤمنة ولا كافرة قاله الزمخشري^(١) ، وأجمع أهل السنة أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين ، خلافاً للمعتزلة قالوا : الكبيرة تخلص صاحبها في النار وأنكروا الشفاعة ، وهم على ضربين طائفة أنكرت الشفاعة إنكاراً كلياً ، وقالوا لا تقبل شفاعة أحد في أحد واستدلوا بظواهر آيات ، وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة ، وطائفة أنكرت الشفاعة في أهل الكبائر قالوا وإنما تقبل في الصغائر ، وقال في المنتخب أجمعت الأمة على أن لمحمد ﷺ شفاعة في الآخرة ، واختلفوا لمن تكون فذهبت المعتزلة إلى أنها للمستحقين الثواب وتأثيرها في أن تحصل زيادة من المنافع على قدر ما استحقوه ، وقال أصحابنا تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقين إما بأن لا يدخلوا النار ، وإما في أن يخرجوا منها بعد دخولها ويدخلون الجنة ، واتفقوا على أنها ليست للكفار ، ثم ذكر نحواً من ست أوراق في الاستدلال للطائفتين ، ورد بعضهم على بعض يوقف عليها في ذلك الكتاب (ولا يؤخذ منها عدل) العدل : الفدية قاله ابن عباس^(٢) وأبو العالية ، وسميت عدلاً لأن المفدي يعدل بها : أي يساويها ، أو البدل أي رجل مكان رجل ، وروي عن ابن عباس أو حسنة مع الشرك ثلاثة أقوال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أتى بالضمير مجموعاً على معنى نفس لأنها نكرة في سياق النفي فتعم كقوله تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ، وأتى به مذكراً لأنه أريد بالنفوس الأشخاص كقولهم ثلاثة أنفس ، وجعل حرف النفي منسجماً على جملة اسمية ليكون الضمير مذكوراً مرتين فيتأكد ذكر المنفي عنه النصر بذكره مرتين ، وحسن الحمل على المعنى كون ذلك في آخر فاصلة فيحصل بذلك التناسب في الفواصل بخلاف أن لو جاء ولا تنصر إذ كان يفوت التناسب ، ويحتمل رفع هذا الضمير وجهين من الإعراب :

أحدهما : وهو المتبادر إلى أذهان المعربين أنه مبتدأ ، والجملة بعده في موضع رفع على الخبر .

والوجه الثاني : وهو أغمض الوجهين وأغربهما أنه مفعول لم يسم فاعله يفسر فعله الفعل الذي بعده ، وتكون المسألة من باب الاشتغال وذلك أن « لا » هي من الأدوات التي هي أولى بالفعل كهمزة الاستفهام ، فكما يجوز في « أريد قائم » و « أريد يضرب » الرفع على الاشتغال فكذلك هذا ، ويقوي هذا الوجه أنه تقدم جملة فعلية ، والحكم في باب الإشتغال أنه إذا تقدمت جملة فعلية وعطف عليها بشرط العطف المذكور في ذلك الباب ، فالأصح الحمل على الفعل ، ويجوز الابتداء كما ذكرنا أولاً ، ويقوي عود الضمير إلى نفس الثانية بناء الفعل للمفعول ، إذ لو كان عائداً على نفس الأولى لكان مبنياً للفعل كقوله لا تجزي ، ومن المفسرين من جعل الضمير في ولاهم عائداً على النفسين معاً ، قال لأن التثنية جمع ، قالوا وفي معنى النصر للمفسرين هنا ثلاثة أقوال :

أحدها : أن معناه لا يمنعون من عذاب الله .

الثاني : لا يجدون ناصراً ينصرهم ولا شافعاً يشفع لهم .

الثالث : لا يعاونون على خلاصهم وفكاكهم من موبات أعمالهم ، وثلاثة الأقوال هذه متقاربة المعنى ، وجاء النفي لهذه الجمل هنا بلا المستعملة لنفي المستقبل في الأكثر ، وكذلك هذه الأشياء الأربعة هي مستقبلية ، لأن هذا اليوم لم يقع بعد وترتيب هذه الجمل في غاية الفصاحة ، وهي على حسب الواقع في الدنيا ، لأن المأخوذ بحق إما أن يؤدي عنه الحق فيخلص ، أو لا يقضى عنه فيشفع فيه ، أو لا يفتدى فيه فيفتدى ، أو لا يفدى فيتعاون بالآخون على

(١) انظر الكشاف (١٣٧/١) .

(٢) انظر الطبري (٣٤ - ٣٥) ، ابن كثير (٨٩/١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦٨/١) ، وعزاه لابن جرير ، وابن المنذر .

تخليصه ، فهذه مراتب يتلو بعضها بعضاً ، فلهذا والله أعلم جاءت مرتبة في الذكر هكذا ، ولما كان الأمر مختلفاً عند الناس في الشفاعة والفدية ، فمن يغلب عليه حب الرياسة قدم الشفاعة على الفدية ومن يغلب عليه حب المال قدم الفدية على الشفاعة ، جاءت هذه الجمل هنا مقدماً فيها الشفاعة ، وجاءت الفدية مقدمة على الشفاعة في جملة أخرى ، ليدل ذلك على اختلاف الأمرين ، وبدى هنا بالشفاعة لأن ذلك أليق بعلو النفس وجاء هنا بلفظ القبول وهناك بلفظ النفع ، إشارة إلى انتفاء أصل الشيء وانتفاء ما يترتب عليه ، وبدى هنا بالقبول لأنه أصل للشيء المترتب عليه ، فأعطى المتقدم ذكر المتقدم وجوداً وآخر هناك النفع إعطاء للمتأخر ذكر المتأخر وجوداً ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ تقدم الكلام على إذ في قوله (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل) ، ومن أجاز نصب « إذ » هناك مفعولاً به بإضمار اذكروا ، وأدعى زيادتها بقياس قوله هناك إجازته هنا ، إذ لم يتقدم شيء تعطفه عليه إلا إن ادعى مدح أن إذ معطوفة على معمول « اذكروا » ، كأنه قال (اذكروا نعمتي) وتفضيلي إياكم ووقت تنجيتكم ويكون قد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة الاعتراض التي هي (واتقوا يوماً) ، وقد قدمنا أنا لا نختار أن يكونه مفعولاً به باذكر ، لا ظاهرة ولا مقدرة ، لأن ذلك تصرف فيها وهي عندنا من الظروف التي لا يتصرف فيها إلا بإضافة اسم زمان إليها على ما قرر في النحو ، وإذا كان كذلك فالذي نختاره أن ينتصب على الظرف ويكون العامل فيه فعلاً محذوفاً يدل عليه ما قبله تقديره « وأنعمنا عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون » ، وتقدير هذا الفعل أولى من كل ما قدمناه ، وخرج بقوله أنجيناكم إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه من ضمير المتكلم الذي لا يدل على تعظيم في قوله نعمتي التي أنعمت ، لأن هذا الفعل الذي هو الإنجاء من عدوهم هو من أعظم أو أعظم النعم ، فناسب الأعظم نسبته للمعظم نفسه ، وقرئ (أنجيناكم) والهمزة للتعدية إلى المفعول كالتضعيف في نجيناكم ، ونسبة هذه القراءة للنخعي ، وذكر بعضهم أنه قرأ (أنجيتكم) فيكون الضمير موافقاً للضمير في نعمتي ، والمعنى خلصتكم من آل فرعون ، وجعل التخليص منهم لأنهم هم الذين كانوا يباشرونهم بهذه الأفعال السيئة ، وإن كان أمرهم بذلك فرعون ، وآل فرعون هنا أهل مصر قاله مقاتل ، أو أهل بيته خاصة قاله أبو عبيد ، أو أتباعه على ذنبه قاله الزجاج ، ومنه وأغرقنا آل فرعون وهم أتباعه على ذنبه إذ لم يكن له أب ولا بنت ولا ابن ولا عم ولا أخ ولا عصة وأدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ : من آلك ؟ فقال كل تقي^(١) . ويؤيد القول الثاني لا تحل الصدقة^(٢) لمحمد وآل محمد . والمراد بالآل هنا آل عقيل وآل عباس وآل الحارث بن عبد المطلب ومواليهم ، وورد أيضاً أن آله أزواجه وذريته فدل على أنه لرسول الله ﷺ آل عام وآل خاص ، وفرعون علم لمن ملك العمالة ، كما قيل قيصر لمن ملك الروم وكسرى لمن ملك الفرس والنجاشي لمن ملك الحبشة وتبع لمن ملك اليمن ، وقال السهيلي هو اسم لكل من ملك القبط ومصر ، وقد اشتق منه « تفرعن الرجل » إذا تجبر وعتا ، واسمه الوليد بن مصعب قاله ابن إسحاق وأكثر المفسرين ، أو فنطوس قاله مقاتل ، أو مصعب بن الريان حكاه ابن جرير ، أو مغيث ذكره بعض المفسرين ، أو قابوس وكنيته أبو مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح ، وروي أنه من أهل اصطخر ورد إلى مصر فصار بها ملكاً لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية قاله المسعودي ، وقال ابن وهب فرعون موسى هو فرعون يوسف ، قالوا : وهذا غير صحيح لأن بين دخول يوسف مصر ودخول موسى أكثر من

(١) وقال السخاوي في المقاصد ص (٥) ، (٣) ، أخرجه تمام في الفوائد من حديث شيبان بن فروخ . حدثنا نافع بن هرمز والديلمي من حديث النضر بن محمد الشيباني عن يحيى بن سعيد كلاهما عن أنس . وقال أسانيدنا كلها ضعيفة ، لكن له شواهد كثيرة . وأخرجه ابن عدي في الكامل (٥٠٦/٧) .

(٢) أخرجه مسلم من رواية عبد المطلب بن ربيعة (٧٥٣/٢) ، في الزكاة باب ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة (١٠٧٢/١٦٧) ، ضمن حديث طويل .

أربعمئة سنة ، والصحيح أنه غيره ، وقيل كان اسم فرعون يوسف الريان بن الوليد ﴿يسومونكم﴾^(١) يحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة وهي حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال : أي سائميكم ، وهي حال من آل فرعون ، وسوء العذاب أشقه وأصعبه ، وانتصابه مبني على المراد بيسومونكم ، وفيه للمفسرين أقوال : السوم بمعنى التكليف ، أو الإبلاء فيكون سوء العذاب على هذا القول مفعولاً ثانياً لسام : أي يكلفونكم ، أو يولونكم سوء العذاب ، أو بمعنى الإرسال ، أو الإدامة ، أو التصريف : أي يرسلونكم ، أو يديمونكم ، أو يصرفونكم في الأعمال الشاقة ، أو بمعنى الرفع : أي يرفعونكم إلى سوء العذاب ، أو الوسم : أي يعلمونكم من العلامة ، ومعناه أن الأعمال الشاقة لكثرة مزاولتها تصير عليهم علامة بتأثيرها في جلودهم وملابسهم كالحدادة والنجارة وغير ذلك يكون وسماً لهم ، والتقدير يعلمونكم بسوء العذاب ، وضعف هذا القول من جهة الاشتقاق لأنه لو كان كذلك لكان يسمونكم ، وهذا التضعيف ضعيف لأنه لم يقل إنه مأخوذ من الوسم ، وإنما معناه معنى الوسم وهو من السيمياء والسيماء ومسومين في أحد تفاسيره بمعنى العلامة ، وأصول هذا سين وواو وميم وهي أصول يسومونكم ، ويكون فعل المجرد بمعنى فعل وهو مع الوسم مما اتفق معناه ، واختلفت أصوله كدمث ودمثر وسبط وسبطر أو بمعنى الطلب بالزيادة من السوم في البيع : أي يطلبونكم بازدياد الأعمال الشاقة ، وعلى هذه الأقوال غير القولين الأولين يكون سوء العذاب مفعولاً على إسقاط حرف الجر ، وقال بعض الناس ينتصب سوء العذاب نصب المصدر ، ثم قدره سوماً شديداً وسوء العذاب : الأعمال القادرة . قاله السدي : أو الحرث والزراعة والبناء وغير ذلك ، قاله بعضهم ، قال وكان قومه جنداً ملوكاً ، أو الذبح ، أو الاستحياء المشار إليهما قاله الزجاج ، ورد ذلك بثبوت الواو في إبراهيم فقال ويذبحون فدل على أنه عذبهم بالذبح وبغير الذبح ، وحكي أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً في الأعمال من البناء والتخريب والزراعة والخدمة ، ومن لا يعمل فالجزية فذوو القوة ينحتون السواري من الجبال ، حتى قرحت أعناقهم وأيديهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها ، وطائفة ينقلون له الحجارة والطين ويبنون له القصور ، وطائفة يضربون اللبن يطبخون الآجر ، وطائفة نجارون وحدادون والضعفة جعل عليهم الخراج ضريبة يؤدونها كل يوم ، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤديها غلت يده إلى عنقه شهراً ، والنساء يغزلن الكتان وينسجن ، وأصل نشأة بني إسرائيل بمصر نزول إسرائيل بها زمان ابنه يوسف بها على نبينا وعليهما السلام ﴿يذبحون أبناءكم﴾ قراءة الجمهور بالتشديد ، وهو أولى لظهور تكرار الفعل باعتبار متعلقاته ، وقرأ الزهري وابن محيصن (يَذْبَحُونَ) خفيفاً من ذبح المجرد اكتفاء بمطلق الفعل وللعلم بتكريره من متعلقاته ، وقرأ عبد الله (يُقْتَلُونَ) بالتشديد مكان يذبحون ، والذبح قتل ، ويذبحون بدل من يسومونكم بدل الفعل من الفعل نحو قوله تعالى (يلق أثاماً بضاعف له العذاب) وقول الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تَلُمُّمٌ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْباً جَزْلاً وَنَاراً تَأْجَجَا^(٢)

ويحتمل أن تكون مما حذف منه حرف العطف لثبوته في إبراهيم ، وقول من ذهب إلى أن الواو زائدة لحذفها هنا ضعيف ، وقال الفراء : الموضع الذي حذفت فيه الواو تفسير لصفات العذاب والموضع الذي فيه الواو بين أنه قد مسهم العذاب غير الذبح ، ويجوز أن يكون يذبحون في موضع الحال من ضمير الرفع في يسومونكم ، ويجوز أن يكون مستأنفاً .

(١) جاء في لسان العرب :

قال أبو إسحاق : يسومونكم : يُؤْلُونُكُمْ . . . وقال الليث : السوم أن تُجَسِّمَ إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . . . (٣/٢١٥٨) .

(٢) البيت من الطويل لعبيد الله بن الحر أنظر الخزانة (٩/٩٨) ، الكشف (٤/٣٥٥) ، شرح أبيات سيويه للنحاس ص (٣٠٩) ، اللسان (نور) .

وفي سبب الذبح والاستحياء أقوال وحكايات مختلفة الله أعلم بصحتها ، ومعظمها يدل على خوف فرعون من ذهاب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل ، والأبناء الأطفال الذكور ، يقال إنه قتل أربعين ألف صبي ، وقيل أراد بالأبناء الرجال وسموا أبناء باعتبار ما كانوا قبل والأول أشهر ، والنساء هنا البنات وسموا نساءً باعتبار ما يؤلن إليه ، أو بالاسم الذي في وقته يستخدم من ويمتهن ، وقيل أراد النساء الكبار والأول أشهر ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ وفسر الاستحياء بالوجهين اللذين ذكرناهما عند كلامنا على المفردات ، وهو أن يكون المعنى يتركون بناتكم أحياء للخدمة ، أو يفتشون أرحام نساكم ، فعلى هذا القول ظاهره أن آل فرعون هم المباشرون لذلك ، ذكر أنه وكل بكل عشر نساء رجلاً يحفظ من تحمل منهن ، وقيل وكل بذلك القوابل ، وقد قيل إن الاستحياء هنا من الحياء الذي هو ضد الفحّة ، ومعناه أنهم يأتون النساء من الأعمال بما يلحقهم منه الحياء ، وقدم الذبح على الاستحياء لأنه أصعب الأمور وأشقها ، وهو أن يذبح ولد الرجل والمرأة اللذين كانا يرجوان النسل منه ، والذبح أشق الآلام ، واستحياء النساء على القول الأول ليس بعذاب لكنه يقع العذاب بسببه من جهة إبقائهن خدماً وإذاقتهن حسرة ذبح الأبناء إن أريد بالنساء الكبار ، أو ذبح الإخوة إن أريد الأطفال وتعلق العار بهن إذ يبقين نساء بلا رجال فيصرن مفترشات لأعدائهن ، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الأمر بالقتل بغير حق والمباشر له شريك في القصاص ، فإن الله تعالى أغرق فرعون وهو الأمر وآله وهم المباشرون ، وهذه مسألة يبحث فيها في علم الفقه ، وفيها خلاف بين أهل العلم ﴿ وفي ذلكم بلاء ﴾ هو إشارة إلى ذبح الأبناء واستحياء النساء وهو المصدر الدال عليه الفعل نحو قوله تعالى (ولمن صبر وغفر إن ذلك) وهو أقرب مذكور ، فيكون المراد بالبلاء الشدة والمكروه ، وقيل يعود إلى معنى الجملة من قوله يسومونكم مع ما بعده فيكون معنى البلاء كما تقدم ، وقيل يعود على التنجية وهو المصدر المفهوم من قوله نجيناكم فيكون البلاء هنا النعمة ، ويكون ذلكم قد أشير به إلى أبعد مذكور وهو أضعف من القول الذي قبله والمتبادر إلى الذهن ، والأقرب في الذكر هو القول الأول وفي قوله ﴿ من ربكم عظيم ﴾ دليل على أن الخير والشر من الله تعالى بمعنى أنه خالقهما ، وفيه رد على النصارى ومن قال بقولهم : إن الخير من الله والشر من الشيطان ووصفه بعظيم ظاهر ، لأنه إن كان ذلكم إشارة إلى التنجية من آل فرعون ، فلا يخفى ما في ذلك من عظم النعمة وكثرة المنّة ، وإن كان إشارة إلى ما بعد التنجية من السوم أو الذبح والاستحياء ، فذلك ابتلاء عظيم شاق على النفوس ، يقال إنه سخرهم فبنوا سبعة حوائط جائعة أكبادهم عارية أجسادهم وذبح منهم أربعين ألف صبي ، فأى ابتلاء أعظم من هذا وكونه عظيماً هو بالنسبة للمخاطب السامع لا بالنسبة إلى الله تعالى ، لأنه يستحيل عليه اتصافه بالاستعظام ، قال القشيري : من صبر في الله على بلاء الله عوضه الله صحبة أوليائه هؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين انتهى . ولم تزل النعم تمحو آثار النقم قال الشاعر : -

نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيِّدِينَا

ولما تقدم الأمر بذكر النعم مجملة فيما سبق ، أمرهم بذكرها ثانية مفصلة فبدأ منها بالفضل ، ثم أمرهم باتقاء يوم لا خلاص فيه لا بقاؤهم حق ولا شفيق ولا فدية ولا نصر لمن لم يذكر نعمه ولم يمثل أمره ولم يحتجب نهيه ، وكان الأمر بالاتقاء مهماً هنا لأن من أخبر بأنه فضل على العالمين ربما استنام إلى هذا التفضيل ، فأعلم أنه لا بد مع ذلك من تحصيل التقوى وعدم الاتكال على مجرد التفضيل ، لأن من ابتدأ بسوابق نعمه يجب عليك أن تتقي لواحق نعمة ، ثم ثنى بذكر الإنجاء الذي به كان سبب البقاء بعد شدة اللاؤاء ، ثم بعد ذلك ذكر تفاصيل النعماء مما نص عليه إلى قوله (اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم) فكان تعداد الآلاء مما يوجب جميل الذكر وجليل الشاء ، وسيأتي الكلام في ترتيب هذه النعم نعمة نعمة إن شاء الله تعالى

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ ٥٠ ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ٥١ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٥٢ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ٥٣ ﴿

الفرق : الفصل فرق بين كذا وكذا فصل ، وفرق كذا فصل بعضه من بعض ، ومنه الفرق في شعر الرأس ، والفرق ، والفرقان ، والتفرق ، والفرق ، المفروق كالطحن ، والفرق ضده الجمع ونظائره الفصل وضده الوصل . والشق والصدع وضدهما اللأم والتمييز وضده الاختلاط ، وقيل يقال فرق في المعاني ، وفرق في الأجسام وليس بصحيح ، (البحر) مكان مطمئن من الأرض يجمع المياه ، ويجمع في القلة على أبحر وفي الكثرة على بحور وبحار ، وأصله قيل الشق وقيل السعة ، فمن الأول البحيرة وهي التي شقت أذنبا ، ومن الثاني البحيرة المدينة المتسعة وفرس بحر واسع العدو وتبحر في العلم : أي اتسع وقال :

أَنْعَقُ بِضَانِكَ فِي بَقْلِ تُبْحَرُهُ مِنْ الْأَبَاطِحِ وَاحِيسُهَا بِجِلْدَانِ

وجاء استعماله في الماء الحلو والماء المالح قال تعالى (وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) ، وجاء استعماله للملح ، ويقال هو الأصل فيه أنشد أحمد بن يحيى :

وَقَدْ عَادَ عَذْبُ الْمَاءِ بَحْرًا فَرَادَنِي عَلَى مَرَضٍ أَنْ أَبْحَرَ الْمَشْرَبُ الْعَذْبُ^(١)

أي صار ملحاً ، « الغرق » معروف والفعل منه فعل بكسر العين يفعل بالفتح قال :

وَتَارَاتِ يَجْمُ فَيَغْرُقُ

والتغريق والتعويض والترسيب والتغيب بمعنى واحد ، النظر تصويب المقلة إلى المرئي ، ويطلق على الرؤية ، وتعديته بإلى ويعلق وإن لم يكن من أفعال القلوب فليُنظر أيها أركى طعاماً ونظرة وانتظره أوأنظره أخره والنظرة التأخير ، وعد في الخير والشر ، والوعد في الخير ، وأوعد في الشر ، والإيعاد والوعيد في الشر ، « موسى » اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والعلمية يقال هو مركب من « مو » وهو الماء « وشا » وهو الشجر فلما عَرَبَ أبدلوا شينه سينا ، وإذا كان أعجمياً فلا يدخله اشتقاق عربي ، وقد اختلفوا في اشتقاقه فقال مكِّي موسى مُفْعَل من اوسيت ، وقال غيره هو مشتق من ماس يميمس ووزنه فُعْلَى فأبدلت الياء واواً لضمه ما قبلها كما قالوا طوبى وهي من ذوات الياء لأنها من طاب يطيب ، وكون وزنه فعلى هو مذهب المعربين ، وقد نص سيبويه على أن وزن موسى مُفْعَل وذلك فيما لا ينصرف واحتج سيبويه في الأبنية على ذلك بأن زيادة الميم أولاً أكثر من زيادة الألف آخرأ ، واحتج الفارسي على كونه مَفْعَلاً لا فعلى بالإجماع على صرفه نكرة ولو كان فعلى لم ينصرف نكرة لأن الألف كانت تكون للتأنيث وألف التأنيث وحدها تمنع الصرف في المعرفة والنكرة ، « الأربعون » ليس بجمع سلامة بل هو من قبيل المفرد الذي هو اسم جمع ومدلوله معروف ، وقد أعرب إعراب الجمع المذكر السالم ، « الليلة » مدلولها معروف وتكسر شاذاً على فعال فيقال الليالي ، ونظيره الكيكة

(١) نسبه ابن منظور لَنُصَيْبٍ وروايته : وقد عاد ماء الأرض بحراً فزادني : إلى مرضٍ أن أبحر المشرب العذب .

والكيائي كأنه جمع ليلاه وكيكاه وأهل والأهالي ، وقد شذوا في التصغير كما شذوا في التفسير قالوا ليلية ، الاتخاذ افتعال من الأخذ وكان القياس أن لا تبدل الهمزة إلا ياء فتقول إيتخذ كهزمة إيمان ، إذ أصله إيمان وكقولهم انترز افتعل من الإزار فمتى كانت فاء الكلمة واواً أو ياء وبنيت افتعل منها ، فاللغة الفصحى إبدالها تاء وإدغامها في تاء الافتعال فتقول اتصل واتسر من الوصل واليسر ، فإن كانت فاء الكلمة همزة وبنيت افتعل أبدلت تلك الهمزة ياء وأقررتها هذا هو القياس وقد تبدل هذه الياء تاء فتدغم قالوا ائتمن وأصله ائتمن ، وعلى هذا جاء اتخذ ، ومما علق بذهني من فوائد الشيخ الإمام^(١) بهاء الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر الحلبي عرف بابن النحاس رحمه الله وهو كان المشتهر بعلم النحو في ديار مصر أن اتخذ مما أبدل فيه الواو تاء على اللغة الفصحى لأن فيه لغة أنه يقال وخذ بالواو فجاء هذا على الأصل في البدل ، وإن كان مبنياً على اللغة القليلة ، وهذا أحسن لأنهم نصّوا على أن « ائتمن » لغة رديئة ، وكان رحمه الله يغرب بنقل هذه اللغة ، وقد خرج الفارسي مسألة اتخذ على أن التاء الأولى أصلية إذ قلت ، قالت العرب اتخذ بكسر الخاء بمعنى أخذ قال تعالى (لتخذت عليه أجراً) في قراءة من قرأ كذلك وأشد الفارسي رحمه الله :

وَقَدْ تَخَذْتُ رَجُلِي إِلَى جَنْبِ غَرَزِهَا نَسِيفاً كَأَفْحُوصِ الْقَطَاةِ الْمُطَوَّقِ^(٢)

فعلى قوله التاء أصل وبنيت منه افتعل فقلت اتخذ كما تقول اتبع مبنياً من تبع ، وقد نازع أبو القاسم الزجاجي في اتخاذ فزعم أن أصله اتخذ وحذف كما حذف اتقى فقالوا تقى ، واستدل على ذلك بقولهم اتخذ بفتح التاء مخففة كما قالوا يتقي ويتسع بحذف التاء التي هي بدل من فاء الكلمة ، ورد السيرافي هذا القول ، وقال لو كان محذوفاً منه ما كسرت الخاء ، بل كانت تكون مفتوحة ككاف تقى وأما يتخذ فمحذوف مثل يتسع حذف من المضارع دون الماضي وتخذ بناء أصلي انتهى . وما ذهب إليه الفارسي والسيرافي من أنه بناء أصلي على حده هو الصحيح بدليل ما حكاه أبو زيد وهو اتخذ يتخذ اتخذاً قال الشاعر :

وَلَا تُكْثِرُنْ تَخَذَ الْعِشَارِ فَإِنَّهَا تُرِيدُ مَبَاءَاتٍ فَسِيحاً بِنَاؤُهَا^(٣)

وذكر المهدوي في شرح الهداية أن الأصل واو مبدلة من همزة ثم قلبت الواو تاء وأدغمت في التاء فصار في اتخذ أقوال :

أحدها : التاء الأولى أصل .

الثاني : أنها بدل من واو أصلية .

الثالث : أنها بدل من تاء أبدلت من همزة .

الرابع : أنها بدل من واو أبدلت من همزة واتخذ تارة يتعدى لواحد وذلك نحو قوله تعالى (اتخذت بيتاً) ، وتارة لاثنين نحو قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) بمعنى صير ، العجل معروف وهو ولد البقرة الصغير الذكر ، (بعد) ظرف زمان وأصله الوصف كقبل وحكمه حكمه في كونه يبنى على الضم إذا قطع عن الإضافة إلى معرفة ويعرب بحركتين ، فإذا قلت « جئت بعد زيد » فالتقدير « جئت زماناً بعد زمان مجيء زيد » ولا يحفظ جرّه إلا بمن وحدها ،

(١) محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر الإمام أبو عبد الله بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي شيخ الديار المصرية في علم اللسان توفي يوم الثلاثاء سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وتسماية - البغية (١٣/١ - ١٤) .

(٢) نسبه في اللسان إلى المخرق العبدى - انظر اللسان م (مخص) .

(٣) البيت من الطويل لم يعلم قائله .

« عفا » بمعنى كثر فلا يتعدى (حتى عفوا وقالوا) وبمعنى درس فيكون لازماً متعدياً نحو : « عفت الديار » ونحو « عفاها الريح » و « عفا عن زيد » لم يؤاخذ به جريمته و « اعفوا عن اللحي » : أي اتركوها ولا تأخذوا منها شيئاً ورجل عفوّ والجمع عفّو على فعل بإسكان العين وهو جمع شاذ والعفاء الشعر الكثير^(١) قال الشاعر :

عَلَيْهِ مِنْ عَقِيقَتِهِ عَفَاءٌ^(٢)

ويقال في الدعاء على الشخص عليه العفاء ، قال :

عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءُ

يريد الدروس وتأتي عفا بمعنى سهل من قولهم خذ ما عفا وصفا وأخذت عفوه : أي ما سهل عليه (ماذا ينفقون قل العفو) : أي الفضل الذي يسهل اعطاؤه ، ومنه (خذ العفو) : أي السهل على أحد الأقوال ، والعافية الحالة السهلة السمحة ، الشكر الثناء على إساءة النعم وفعله شكر يشكر شكراً وشكوراً ، ويتعدى لواحد تارة بنفسه وتارة بحرف جر ، وهو من ألفاظ مسموعة تحفظ ولا يقاس عليها ، وهو قسم برأسه تارة يتعدى بنفسه ، وتارة بحرف جر على حد سواء ، خلافاً لمن زعم استحالة ذلك ، وكان شيخنا أبو الحسين ابن أبي الربيع يذهب إلى أن شكر أصله أن يتعدى بحرف جر ثم اسقط اتساعاً ، وقيل الشكر : إظهار النعمة من قولهم شكرت الرمكة مهرها إذا أظهرته والشكير^(٣) صغار الورق يظهر من أثر الماء قال الشاعر :

وَبَيْنَا الْفَتَى يَهْتَزُّ لِلْعَيْشِ نَاضِراً كَعُسْلُوجَةٍ يَهْتَزُّ مِنْهَا شَكِيرُهَا^(٤)

وأول الشيب قال الراجز :

الآن إِذْ لَاجُ بِكَ الْعَيْرُ وَالرَّأْسُ إِذْ صَارَ لَهُ شَكِيرُ

وناقة شكور تذر أكثر مما رعت ، « الفرقان » مصدر فرق وتقدّم الكلام في فرق ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ معطوف على (وإذ نجيناكم) فالعامل فيه ما ذكر أنه العامل في إذ تلك بواسطة الحرف ، وقرأ الزهري (فرقنا) بالتشديد ويفيد التكثير لأن المسالك كانت اثني عشر مسلماً على عدد أسباط بني إسرائيل ، ومن قرأ فرقنا مجرداً اكتفى بالطلق وفهم التكثير من تعداد الأسباط بكم متعلق بفرقنا والباء معناها السبب : أي بسبب دخولكم أو المصاحبة : أي ملتبساً كما قال :

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالتَّرِيَا

أي ملتبسة بنا أو : أي جعلناه فرقاً بكم كما يفرق بين الشئين بما توسط بينهما وهو قريب من معنى الاستعانة ، أو معناها اللام : أي فرقنا لكم البحر : أي لأجلكم ومعناها راجع للسبب ، ويحتمل الفرق أن يكون عرضاً من ضفة إلى ضفة ، ويحتمل أن يكون طولاً ، ونقل كل ، وعلى هذا الثاني قالوا : كان ذلك بقرب من موضع النجاة ولا يلحق في البر إلا في أيام كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة ، وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريباً من برية فلسطين

(١) انظر لسان العرب (٤/ ٣٠٢٠) .

(٢) هذا عجز بيت لزهير بن أبي سلمى وصدره « أذلّك أم أجبّ البطن جابٌ » . انظر اللسان م (عفا) .

(٣) قال ابن الأعرابي : الشكير ما ينبت في أصل الشجرة من الورق وليس بالكبار - انظر لسان العرب (٤/ ٢٣٠٦) .

(٤) ذكره في اللسان غير منسوب . وفيه « للعين » بدلاً من للعيش . انظر اللسان م (شكر) ص (١٢٣٠٦) .

وهي كانت طريقهم ، (البحر) قيل : هو بحر القلزم من بحار فارس وكان بين طرفيه أربعة فراسخ ، وقيل : بحر من بحار مصر يقال له اساف ويعرف الآن ببحر القلزم قيل وهو الصحيح ، ولم يختلفوا في أن فرق البحر كان بعدد الأسباط اثني عشر مسلماً ، واختلفوا في عدد المفروق بهم وعدد آل فرعون على أقوال يضاد بعضها بعضاً وحكوا في كيفية خروج بني إسرائيل وتعتهم وهم في البحر مقتحمون وفي كيفية خروج فرعون بجنوده حكايات مطوّلة جداً لم يدل القرآن ولا الحديث الصحيح عليها فالله أعلم بالصحيح منها ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ يعني من الغرق ومن إدراك فرعون لكم واليوم الذي وقع فيه الفرق والنجاة والغرق كان يوم عاشوراء ، واستطردوا إلى الكلام في يوم عاشوراء وفي صومه وهي مسألة تذكر في الفقه ، وبين قوله (فرقنا بكم البحر) وبين قوله (فَأَنْجَيْنَاكُمْ) محذوف يدل عليه المعنى تقديره « وإذا فرقنا بكم البحر وتبعكم فرعون وجنوده في تقحمه فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ وأغرقنا آل فرعون ﴾ » والهمزة في أغرقنا للتعدية ويعدى أيضاً بالتضعيف ، ولم يذكر فرعون فيمن غرق لأن وجوده معهم مستقر ، فاكفى بذكر الآل هنا لأنهم هم الذين ذكروا في الآية قبل هذه ونسب تلك الصفة القبيحة إليهم من سومهم بني إسرائيل العذاب وذبحهم أبناءهم واستحيائهم نساءهم فناسب هذا أفرادهم بالغرق ، وقد ذكر تعالى غرق فرعون في آيات أخر منها (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) (حتى إذا أدركه الغرق) (فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم) وناسب نجاتهم من فرعون بإلقائهم في البحر وخروجهم منه سالمين نجا نبيهم موسى على نبينا وعليه السلام من الذبح بإلقائه وهو طفل في البحر وخروجه منه سالماً ، ولكل أمة نصيب من نبيها وناسب هلاك فرعون وقومه بالغرق هلاك بني إسرائيل على أيديهم بالذبح لأن الذبح فيه تعجيل الموت بإنهار الدم والغرق فيه إبطاء الموت ولا دم خارج ، وكان ما به الحياة ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ سبباً لإعدامهم من الوجود ، ولما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة جعله الله تعالى نكالاً لمن ادعى الربوبية (فقال أنا ربكم الأعلى) إذ على قدر الذنب يكون العقاب ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ جملة حالية وهو من النظر بمعنى الإبصار ، والمعنى والله أعلم أن هذه الخوارق العظيمة من فرق البحر بكم وإنجائكم من الغرق ومن أعدائكم ، وإهلاك أعدائكم بالغرق وقع وأنتم تعانون ذلك وتشاهدونه لم يصل ذلك إليكم بنقل بل بالمشاهدة التي توجب العلم الضروري بأن ذلك خارق من عند الله تعالى على يد النبي الذي جاءكم ، وقيل (وأنتم تنظرون) إليهم لقرب بعض من بعض ، وقيل إلى طفوهم على وجه الماء غرقى ، وقيل إليهم وقد لفظهم البحر وهم العدد الذي لا يكاد ينحصر لم يترك البحر في جوفه منهم واحداً ، وقيل تنظرون : أي بعضكم إلى بعض وأنتم سائرون في البحر وذلك أنه نقل أن بعض قوم موسى قالوا له أين أصحابنا فقال سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم قالوا لا نرضى حتى نراهم فأوحى الله إليه أن قل بعصاك هكذا فقال بها على الحيطان فصار بها كوى فترأوا وتسامعوا كلام بعضهم بعضاً ، وهذه الأقوال الخمسة النظر فيها بمعنى الرؤية ، وقيل النظر تجوز به عن القرب : أي وأنتم بالقرب منهم : أي بحال لو نظرتم إليهم لرأيتموهم كقولهم « أنت مني بمرأى ومسمع » : أي قريب بحيث أراك وأسمعك قاله ابن الأنباري ، وقيل : هو من نظر البصيرة والعقل ومعناه وأنتم تعتبرون بمصرعهم وتتظنون بمواقع النعمة التي أرسلت إليهم ، وقيل النظر هنا بمعنى العلم لأن العلم يحصل عن النظر فكفى به عنه قاله الفراء وهو معنى قول ابن عباس ﴿ وإذا وعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ قرأ الجمهور (وعدنا) ، وقرأ أبو عمرو (وَعَدْنَا) بغير ألف هنا ، وفي الأعراف ، وطه ، ويحتمل وعدنا أن يكون بمعنى وعدنا ويكون صدر من واحد ، ويحتمل أن يكون من اثنين على أصل المفاعلة فيكون الله قد وعد موسى الوحي ، ويكون موسى وعد الله المجيء للميقات ، أو يكون الوعد من الله وقبوله كان من موسى ، وقبول الوعد يشبه الوعد ، قال القفال : ولا يبعد أن يكون الأدمي يعد الله بمعنى يعاهده ، وقيل « وَعَدَ » إذا كان عن غير طلب ، و « وَعَدَ » إذا كان عن طلب ، وقد رجح أبو عبيد

قراءة من قرأ (وَعَدْنَا) بغير ألف وأنكر قراءة من قرأ (وَاعَدْنَا) بالألف وافقه على معنى ما قال أبو حاتم ومكي ، وقال أبو عبيد : المواعدة لا تكون إلا من البشر ، وقال أبو حاتم : أكثر ما تكون المواعدة من المخلوقين المتكافئين كل واحد منهما يعد صاحبه ، وقد مر تخريج واعد على تلك الوجوه السابقة ولا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ، لأن كلا منهما متواتر فهما في الصحة على حد سواء ، وأكثر القراء على القراءة بألف وهي قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحزمة والكسائي ، موسى هو موسى بن عمران بن بصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، وذكر الشريف أبو البركات^(١) محمد بن أسعد بن علي الحوَّاني النسابة أن موسى على نبينا وعليه السلام هو موسى بن عمران بن قاهث وتقدّم الكلام في لفظ موسى العلم ، وأما موسى الحديدية التي يحلق بها الشعر فهي مؤنثة عربية مشتقة من أسَوْتُ الشيء إذا أصلحته ووزنها مُفْعَل ، وأصلها الهمز وقيل اشتقاقها من أوسيت إذا حلقت وهذا الاشتقاق أشبه بها ولا أصل للواو في الهمز على هذا ، (أربعين ليلة) ذو الحجة وعشر من المحرم ، أو ذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، قاله أبو العالية وأكثر المفسرين ، وقرأ علي وعيسى بن عمر بكسر باء (أَرْبَعِينَ) شاذاً اتباعاً ، ونصب أربعين على المفعول الثاني لواعدنا على أنها هي الموعودة ، أو على حذف مضاف التقدير تمام أو انقضاء أربعين حذف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب إعرابه قاله الأخفش فيكون مثل قوله :

فَوَاعِدِيهِ سِرّاً حَتَّى مَالِكٍ أَوْ النَّقَا بَيْنَهُمَا أَسْهَلًا^(٢)

أي إتيان سر حتى مالك ، ولا يجوز نصب أربعين على الظرف لأنه ظرف معدود فيلزم وقوع العامل في كل فرد فرد من أجزائه ، والمواعدة لم تقع كذلك و (ليلة) منصوب على التمييز الجائي بعد تمام الاسم ، والعامل في هذا النوع من التمييز اسم العدد قبله شبه أربعين بضاربيين ، ولا يجوز تقديم هذا النوع من التمييز على اسم العدد بإجماع ، ولا الفصل بينهما بالمجرور إلا ضرورة نحو :

عَلَى أَنِّي بَعْدَ مَا قَدْ مَضَى ثَلَاثُونَ لِلْهَجْرِ حَوْلًا كَمِيلًا^(٣)
وَعِشْرِينَ مِنْهَا أَصْبَعًا مِنْ وَرَائِنَا^(٤)

ولا تعريف للتمييز خلافاً لبعض الكوفيين وأبي الحسين بن الطراوة ، وأول أصحابنا ما حكاه أبو يزيد الأنصاري من قول العرب « ما فعلت العشرون الدرهم » وما جاء نحو هذا مما يدل على التعريف ، وذلك المذكور في علم النحو ،

(١) محمد بن أسعد بن علي بن معمر العبيدي العلوي أبو علي شرف الدين الجواني المالكي عالم بالأنساب ، أصله من الموصل ، ومولده ووفاته بمصر . توفي سنة ٥٨٨ هجرية - الأعلام (٣١/٦) .

(٢) البيت من السريع لعمر بن أبي ربيعة انظر ديوانه ص (١٦٠) ، وروايته :

وواعديهِ سدرتي مالِك أَوْ ذَا الَّذِي بَيْنَهُمَا أَسْهَلَا

شرح أبيات سيبويه للنحاس (١٥٤) ، والسيرافي (٤٢٨/١) ، والخزانة (١٢٠/٢) ، وانظر الكتاب (٢٨٣/١) .
ورويته (أو الربا بينهما ...) .

(٣) من المتقارب التام للعباس بن مرداس السلمي ، انظر الخزانة (٢٩٩/٣ ، ٤٦٧/٧) ، شرح أبيات سيبويه للنحاس (٢٢٨) ، شرح شواهد المغني (٩٠٨) ، الكتاب (١٥٨/٢) ، المقتضب (٥٥/٣) ، مجالس ثعلب (٤٢٤) ، الإنصاف ص (٣٠٨) ، شرح المفصل (١٣٠/٤) ، مغني اللبيب (١٤٠/٢) ، الهمع (٢٥٤/١) ، شفاء العليل (٥٧٩) .

(٤) البيت من الطويل لسحيم عبد بني الحسحاس .

ديوانه ص (١٦ ، ٢١) ، ابن يعيش (١٣٠/٤) ، الهمع (٢٥٤/١) .

وكان تفسير الأربعين بليلة دون يوم لأن أوّل الشهر ليلة الهلال ولهذا أرّخ بالليالي ، واعتماد العرب على الأهلة فصارت الأيام تبعاً لليالي ، أو لأن الظلمة أقدم من الضوء بدليل (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) ، ودلالة على مواسلته الصوم ليلاً ونهاراً لأنه لو كان التفسير باليوم أمكن أن يعتقّد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالي اقتضت قوّة الكلام أنه واصل أربعين ليلة بأيامها وهذه المواعدة للتكلم أو لإنزال التوراة ، قال المهدوي وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله فخرج إلى الطور في سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل وصعد الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة ففقدوا فيما ذكره المفسرون عشرين يوماً وعشرة ليال فقالوا قد أخلفنا مواعده انتهى كلامه . وقال الزمخشري^(١) : لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه وعد الله أن ينزل عليهم التوراة وضرب له ميقاتاً انتهى ﴿ ثم اتخذتم العجل ﴾ الجمهور على إدغام الذال في التاء ، وقرأ ابن كثير وحفص من السبعة بالإظهار ، ويحتمل اتخذه هنا أن تكون متعدية لواحد : أي صنعتم عجلاً كما قال (واتخذ قوم موسى من بعده من حلهم عجلاً جسداً له خوار) على أحد التأويلين ، وعلى هذا التقدير يكون ثم جملة محذوفة يدل عليها المعنى وتقديرها وعبدتموه إلهاً ، ويحتمل أن تكون مما تعدّت إلى اثنين فيكون المفعول الثاني محذوفاً لدلالة المعنى ، التقدير « ثم اتخذتم العجل إلهاً » ، والأرجح القول الأول ، إذ لو كان مما يتعدّى في هذه القصة لاثنتين لصرح بالثاني ولو في موضع واحد ، ألا ترى أنه لم يعد إلى اثنين بل إلى واحد في هذا الموضع وفي (واتخذ قوم موسى) وفي (واتخذوه وكانوا ظالمين) وفي (إن الذين اتخذوا العجل) ، وفي قوله له في هذه السورة أيضاً (إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) ، لكنه يرجح القول الثاني لاستلزام القول الأول حذف جملة من هذه الآيات ، ولا يلزم في الثاني إلا حذف المفعول وحذف المفرد أسهل من حذف الجملة ، فعلى القول الأول فيه ذم الجماعة بفعل الواحد لأن الذي عمل العجل هو « السامري » وسيأتي إن شاء الله الكلام فيه وفي اسمه ، وحكاية إضلاله عند قوله تعالى (وأضلهم السامري) وذلك عادة العرب في كلامها تدم وتمدح القبيلة بما صدر عن بعضها ، وعلى القول الثاني فيه ذمهم بما صدر منهم والألف واللام في العجل على القول الأوّل لتعريف الماهية إذ لم يتقدّم عهد فيه ، وعلى القول الثاني للعهد السابق إذ كانوا قد صنعوا عجلاً ثم اتخذوا ذلك العجل إلهاً ، وكونه عجلاً ظاهر في أنه صار لحماً ودماً فيكون عجلاً حقيقة ويكون نسبة الخوار إليه حقيقة قاله الحسن ، وقيل هو مجاز : أي عجلاً في الصورة والشكل لأن السامري صاغه على شكل العجل وكان فيما ذكروا صائغاً ، ويكون نسبة الخوار إليه مجازاً قاله الجمهور . وسيأتي الكلام على ذلك في الأعراف إن شاء الله .

ومن أغرب ما ذهب إليه في هذا العجل أنه سمي عجلاً لأنهم عجلوا به قبل قدوم موسى فاتخذوه إلهاً قاله أبو العالية ، أو سمي هذا عجلاً لقصر مدّته ﴿ من بعده ﴾ من تفيد ابتداء الغاية ويتعارض مدلولها مع مدلول ثم لأن ثم تقتضي وقوع الاتخاذ بعد مهلة من المواعدة ومن تقتضي ابتداء الغاية في التعدية التي تلي المواعدة إذ الظاهر عود الضمير على موسى ولا تتصوّر التعدية في الذات ، فلا بد من حذف ، وأقرب ما يحذف مصدر يدل عليه لفظ واعدنا : أي من بعد مواعده فلا بد من ارتكاب المجاز في أحد الحرفين إلا أن قدر محذوف غير المواعدة وهو أن يكون التقدير من بعد ذهابه إلى الطور فيزول التعارض إذ المهلة تكون بين المواعدة والاتخاذ ، ويبين المهلة قصة الأعراف إذ بين المواعدة والاتخاذ هناك جمل كثيرة وابتداء الغاية يكون عقيب الذهاب إلى الطور فلم تتوارد المهلة والابتداء على شيء واحد فزال التعارض ، وقيل الضمير في بعده يعود على الذهاب : أي من بعد الذهاب ، ودل على ذلك أن المواعدة

تقتضي الذهاب فيكون عائداً على غير مذكور بل على ما يفهم من سياق الكلام نحو قوله تعالى (حتى توارت بالحجاب) ، (فأثرون به نقعاً) : أي توارت الشمس إذ يدل عليها قوله (بالعشي) و : أي (فأثرون) بالمكان إذ يدل عليه و (العاديات) (فالموريات) (فالمغيرات) إذ هذه الأفعال لا تكون إلا في مكان فاقترضته ودلت عليه ، وقيل : الضمير يعود على الإنجاء : أي من بعد الإنجاء ، وقيل على الهدى : أي من بعد الهدى ، وكلا هذين القولين ضعيف **﴿ وأنتم ظالمون ﴾** جملة حالية ومتعلق الظلم ، قيل ظالمون بوضع العبادة في غير موضعها ، وقيل بتعاطي أسباب هلاكها ، وقيل برضاكم فعل السامري في اتخاذ العجل ولم تنكروا عليه ، ويحتمل أن تكون الجملة غير حال ، بل إخبار من الله أنهم ظالمون : أي سجيتهم الظلم وهو وضع الأشياء في غير محلها ، وكان المعنى : ثم اتخذتم العجل من بعده وكنتم ظالمين كقوله تعالى (اتخذوه وكانوا ظالمين) ، وأبرز هذه الجملة في صورة ابتداء وخبر لأنها أبلغ وأكد من الجملة الفعلية ولموافقة الفواصل ، وظاهر قوله (ثم اتخذتم) العموم وأنهم كلهم عبدوا العجل إلا هارون ، وقيل الذين عكفوا على عبادته من قوم موسى ثمانية آلاف رجل ، وقيل كلهم عبدوه إلا هارون مع اثني عشر ألفاً ، قيل وهذا هو الصحيح ، وقيل إلا هارون والسبعين رجلاً الذين كانوا مع موسى ، واتخاذ السامري العجل دون سائر الحيوانات ، قيل لأنهم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم وكانت على صور البقر فقالوا : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) فهجس في نفس السامري أن يفتنهم من هذه الجهة فاتخذ لهم العجل ، وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر وكان منافقاً يظهر الإيمان بموسى فاتخذ عجلاً من جنس ما كان يعبد ، وفي اتخاذهم العجل إلهاً دليل على أنهم كانوا مجسمة أو حلولية إذ من اعتقد تنزيه الله عن ذلك واستحالة ذلك عليه بالضرورة تبين له بأول وهلة فساد دعوى أن العجل إله ، وقد نقل المفسرون عن ابن عباس والسدي وغيرهما قصصاً كثيراً مختلفاً في سبب اتخاذ العجل وكيفية اتخاذ وانجر مع ذلك أخبار كثيرة الله أعلم بصحتها إذ لم يشهد بصحتها كتاب ولا حديث صحيح فتركنا نقل ذلك على عادتنا في هذا الكتاب **﴿ ثم عفونا عنكم ﴾** تقدمت معاني عفا ، ويحتمل أن يكون عفا عنه من باب المحو والإذهاب ، أو من باب الترك ، أو من باب السهولة ، والعفو والصفح متقاربان في المعنى ، وقال قوم لا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلا في الذنب ، فإن كان العفو هنا بمعنى الترك أو التسهيل فيكون عنكم عام اللفظ خاص المعنى لأن العفو إنما كان عمن بقي منهم ، وإن كان بمعنى المحو كان عاماً لفظاً ومعنى فإنه تعالى تاب على من قتل وعلى من بقي قال تعالى (فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم) ، وروي أن الله أوحى إلى موسى بعد قتلهم أنفسهم أي قبلت توبتهم فمن قتل فهو شهيد ومن لم يقتل فقد تبت عليه وغفرت له . وقالت المعتزلة (عفونا عنكم) : أي بسبب إتيانكم بالتوبة وهي قتل بعضهم بعضاً **﴿ من بعد ذلك ﴾** إشارة إلى اتخاذ العجل ، وقيل إلى قتلهم أنفسهم والأول أظهر **﴿ لعلكم ﴾** تقدم الكلام في لعل في قوله (لعلكم تتقون) لغة ودلالة معنى بالنسبة إلى الله تعالى فأغنى عن إعادته **﴿ تشكرون ﴾** أي تثنون عليه تعالى بإسداءه نعمه إليكم وتظهرون النعمة بالثناء ، وقالوا الشكر باللسان وهو الحديث بنعمة المنعم والثناء عليه بذلك ، وبالقلب وهو اعتقاد حق المنعم على المنعم عليه ، وبالعمل (اعملوا آل داود شكراً) ، وبالله : أي شكراً لله بالله لأنه لا يشكره حق شكره إلا هو وقال بعضهم :

وَشُكْرُ ذَوِي الْإِحْسَانِ بِالْقَوْلِ تَارَةً
وَبِالْقَلْبِ أُخْرَى ثُمَّ بِالْعَمَلِ الْأَسْنَى
وَشُكْرِي لِرَبِّي لَا بِقَلْبِي وَطَاعَتِي
وَلَا بِلِسَانِي بَلْ بِهِ شُكْرُهُ عَنَّا

ومعنى (لعلكم تشكرون) : أي عفو الله عنكم لأن العفو يقتضي الشكر قاله الجمهور ، أو تظهرون نعمة الله عليكم في العفو ، أو تعترفون بنعمتي ، أو تديمون طاعتي ، أو تقرون بعجزكم عن شكري . أربعة أقوال ، وقال ابن

عباس : الشكر : طاعة الجوارح ، وقال الجنيد : الشكر^(١) : هو العجز عن الشكر ، وقال الشبلي^(٢) : التواضع تحت رؤية المنة ، وقال الفضيل : أن لا تعصي الله ، وقال أبو بكر الوراق^(٣) : أن تعرف النعمة من الله ، وقال ذو النون^(٤) : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان ، قال القشيري : سرعة العفو عن عظيم الجرم دالة على حقارة المعفو عنه ، يشهد لذلك (من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) وهؤلاء بنو إسرائيل عبدوا العجل فقال تعالى ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك ﴾ ، وقال لهذه الأمة (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) انتهى كلامه . وناسب ترجي الشكر أثر ذكر العفو لأن العفو عن مثل هذه الزلة العظيمة التي هي اتخاذ العجل إلهاً هو من أعظم أو أعظم إسداء النعم فلذلك قال (لعلكم تشكرون) ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب ﴾ هو التوراة بإجماع المفسرين ﴿ والفرقان ﴾ هو التوراة ومعناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً وفرقاً بين الحق والباطل ويكون من عطف الصفات لأن الكتاب في الحقيقة معناه المكتوب قاله الزجاج واختاره الزمخشري^(٥) ، وبدأ بذكره ابن عطية قال كرر المعنى لاختلاف اللفظ ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل ، ولفظة كتاب لا تعطي ذلك ، أو الواو مقحمة : أي زائدة وهو نعت للكتاب قال الشاعر :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْهَمَامِ وَلَيْثِ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمُرْدَحِمِ^(٦)

قاله الكسائي وهو ضعيف ، وإنما قوله وابن الهمام وليث من باب عطف الصفات بعضها على بعض ولذلك شرط ، وهو أن تكون الصفات مختلفة المعاني أو النصر لأنه فرق بين العدو والولي في الفرق والنجاة ، ومنه قيل ليوم بدر يوم الفرقان قاله ابن عباس ، أو سائر الآيات التي أوتي موسى على نبينا وعليه السلام من العصا واليد وغير ذلك لأنها فرق بين الحق والباطل ، أو الفرق بين الحق والباطل قاله أبو العالية ومجاهد ، أو الشرع الفارق بين الحلال الحرام أو البرهان الفارق بين الكفر والإيمان قاله ابن بحر وابن زيد ، أو الفرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ، ومنه قوله تعالى ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ أي فرجاً ومخرجاً ، وهذا القول راجع لمعنى النصر أو القرآن ، والمعنى : أن الله آتى موسى ذكر نزول القرآن على محمد ﷺ حتى آمن به حكاه ابن الأنباري ، أو القرآن على حذف مفعول التقدير ومحمداً الفرقان ، وحكي هذا عن الفراء وقطرب وتعلب وقالوا هو كقول الشاعر :

وَرَجَّحَنَ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا^(٧)

التقدير وكحلن العيون ، ورد هذا القول مكي والنحاس وجماعة لأنه لا دليل على هذا المحذوف ، ويصير نظير

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي القواريري . توفي رحمه الله يوم السبت في شوال سنة ثمان وتسعين ومائتين - انظر حلية الأولياء (٢٥٥/١٠) ، تاريخ بغداد (٢٤١/٧) .

(٢) دلف بن جحدر الشبلي ناسك . توفي سنة ٣٣٤ هجرية - انظر الأعلام (٣٤١/٢) ، وفیات الأعيان (١٨٠/١) ، حلية الأولياء (٣٦٦/١٠) .

(٣) الإمام المحدث أبو بكر محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي المستملي الوراق توفي سنة ٣٧٨ هجرية - انظر السير (٣٨٨/١٦) .

(٤) ذو النون بن إبراهيم الاخميمي أبو الفيض ، وقيل اسمه ثونان ، وقيل الفيض ، وقيل ذنون لغته مات يوم الاثنين سنة خمس ، وقيل ست وأربعين ومائتين - انظر طبقات الأولياء ص (٢١٨) .

(٥) انظر الكشف (١٤٠/١) .

(٦) البيت من المتقارب الأنصاف لابن الأنباري (٤٦٩) ، شرح شواهد الكشف (٥١٢/٤) ، معاني القرآن للفراء (١٠٥/١) ، ابن خلوويه إعراب ثلاثين سورة ص (٢٢٥) ، الطبري (٥٩/٢) ، الطبرسي (٩٤/١) .

(٧) البيت من الوافر للراعي النميري انظر ديوانه (٢٨/١) .

« أطعمت زيداً خبزاً ولحماً » يكون اللحم أطعمته غير زيد ، ولأن الأصل في العطف أنه يشارك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم السابق إذا كان العطف بالحروف المشتركة في ذلك وليس مثل ما مثلوا به من « وزججن الحواجب والعيون » لما هو مذكور في النحو ، وقد جاء (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء) وذكرنا جميع الآيات التي آتاها الله تعالى موسى لأنها فرقت بين الحق والباطل أو انفراق البحر قاله يمان وقطرب ، وضعف هذا القول بسبق ذكر فرق البحر في قوله (وإذ فرقنا) وبذكر ترجية الهداية عقيب الفرقان ولا يليق إلا بالكتاب ، وأجيب بأنه وإن سبق ذكر الانفلاق فأعيد هنا ونص عليه بأنه آية لموسى مختصة به وناسب ذكر الهداية بعد فرق البحر لأنه من الدلائل التي يستدل بها على وجود الصانع وصدق موسى على نبينا وعليه السلام وذلك هو الهداية ، أو لأن المراد بالهداية النجاة والفوز ، وبفارق البحر حصل لهم ذلك فيكون قد ذكر لهم نعمة الكتاب الذي هو أصل الديانات لهم ونعمة النجاة من أعدائهم فهذه اثنا عشرة مقالة للمفسرين في المراد بالفرقان هنا ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ ترجية لهدايتهم وقد تقدم الكلام في لعل ، وفي لفظ ابن عطية في لعل هنا ، وفي قوله قبل (لعلكم تشكرون) أنه توقع والذي تقرر في النحو أنه إن كان متعلق لعل محبواً كانت للترجي فإن كان محذوراً كانت للتوقع كقولك لعل العدو يقدم ، والشكر والهداية من المحبوبات فينبغي أن لا يعبر عن معنى لعل هنا إلا بالترجي ، قال القشيري فرقان هذه الأمة الذي اختصوا به نور في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل ، استفت قلبك ، اتقوا فراسة^(١) المؤمن^(٢) ، المؤمن ينظر بنور الله ، (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) وذلك الفرقان ما قدموه من الإحسان انتهى كلامه . وناسب ترجي الهداية أثر ذكر إتيان موسى الكتاب والفرقان لأن الكتاب به تحصل الهداية ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ ، ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى ﴾ ، ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ ، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من ذكر الامتتان على بني إسرائيل فصولاً منها : فرق البحر بهم على الوجه الذي ذكر من كونه صار اثني عشر مسلماً على عدد الأسباط وبين كل سبط حاجز يمنعهم من الازدحام دون أن يلحقهم في ذلك استيحاش لأنه صار في كل حاجز كوى بحيث ينظر بعضهم إلى بعض على ما نقل وهو من أعظم الآيات الدالة على صدق موسى على نبينا وعليه السلام ، وهذا الفرق هو النعمة الثالثة لأن الأولى هي : التفضيل والثانية هي : الإنجاء من آل فرعون والثالثة : هي هذا الفرق وما ترتب عليه من إنجائهم من الغرق وإغراق أعدائهم وهم ينظرون بحيث لا يشكون في هلاكهم ، ثم استطرده بعد ذلك إلى ذكر النعمة الرابعة وهي : العفو عن الذنب العظيم الذي ارتكبه من عبادة العجل فذكر سبب ذلك ، وأنه اتفق ذلك لغية موسى عنهم لمناجاة ربه وأنهم على قصر مدة غيبته انخدعوا بما فعله السامري هذا ولم يطل عليهم الأمد وخليفة موسى فيهم أخوه هارون ينهاهم فلا ينتهون ومع هذه الزلة العظيمة عفا عنهم وتاب عليهم فأى نعمة أعظم من هذه (ثم ذكر النعمة الخامسة) وهي ثمرة الوعد وهو إتيان موسى التوراة التي بها هدايتهم ، وفيها مصالح دنياهم وآخرتهم ، وجاء ترتيب هذه النعم متناسقاً يأخذ بعضها بعنق بعض وهو ترتيب زمني وهو أحد الترتيبات الخمس التي مر ذكرها في هذا الكتاب لأن التفضيل أمر حكيم فهو أول ثم وقعت النعم بعده وهي أفعال يتلو بعضها بعضاً ، فأولها الإنجاء من سوء العذاب ، ذبح الأبناء ، واستحياء النساء بإخراج موسى

(١) الفراسة بكسر الفاء : في النظر الثبوت والتأمل للشيء ، والبصر به ، يقال : إنه لفارس بهذا الأمر إذا كان عالماً به . . . انظر لسان العرب (٣٣٧٩/٥) .

(٢) ذكره السخاوي في المقاصد ص (١٩) ، (٢٣) ، وعزاه للترمذي رقم (٣١٢٧) ، في التفسير ، والعسكري في الأمثال كلاهما من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) وقال الترمذي إنه غريب ، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢١/٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٩٤/٤) ، (١١٨/٦) ، والعقيلي في الضعفاء (١٢٩/٤) .

إياهم من مصر بحيث لم يكن لفرعون ولا لقومه عليهم تسليط بعد هذا الخروج والإنجاء ثم فرق البحر بهم وإرائهم عياناً هذا الخارق العظيم ثم وعد الله لموسى بمناجاته ، وذهابه إلى ذلك ، ثم اتخاذهم العجل ، ثم العفو عنهم ، ثم إيتاء موسى التوراة ، فانظر إلى حسن هذه الفصول التي انتظمت انتظام الدرّ في أسلاكها والزهر في أفلاكها كل فصل منها قد ختم بمناسبة ، وارتقى في ذروة الفصاحة إلى أعلى مناصبه وارداً من الله على لسان محمد أمينه لسان من لم يتل من قبل كتاباً ولا خطه بيمينه ،

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

القوم اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده امرؤ وقياسه أن لا يجمع وشذّ جمعه قالوا أقوام وجمع جمعه قالوا أقاويم فقليل يختص بالرجال قال تعالى (لا يسخر قوم من قوم) ولذلك قابله بقوله ولا نساء من نساء وقال زهير :

أَقَوْمُ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وقال آخر :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي

وقال آخر :

لَا يَبْعُدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجَزَرِ

وقيل لا يختص بالرجال بل ينطلق على الرجال والنساء (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه) ، و(يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة) ، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة قال هذا القائل أما إذا قامت قرينة على التخصيص فيطل العموم ويكون المراد ذلك الشيء المخصص ، والقول الأول أصوب ، ويكون اندراج النساء في القوم على سبيل الاستتباع وتغليب الرجال ، والمجاز خير من الاشتراك ، وسمي الرجال قوماً لأنهم يقومون بالأمور ، الباري^(١) الخالق برأياً يبرأ خلق وفي الجمع بين الخالق والبارى في قوله هو الله الخالق الباري المصور ما يدل على التباين إلا أن حمل على التوكيد وقد فرق بعض الناس بينهما ، فقال الباري هو المبدع المحدث ، والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال ، وقال

(١) الباري : من أسماء الله عز وجل ، والله الباري الذاري . . . الباري : هو الذي خلق الخلق لا عن مثال . قال : ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها بغيره من المخلوقات ، وقلما تستعمل في غير الحيوان - انظر لسان العرب (٢٣٩/١) .

بعض العلماء : برأ وانشأ وأبدع نظائر، قال المهدوي وغيره واللفظ له وأصله من تبري الشيء من الشيء وهو انفصاله منه فالخلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود انتهى . وقال أمية الخالق الباريء المصور في الأرحام ماء حتى يصير دماً ، القتل ازهاق الروح بفعل أحد من طعن أو ضرب أو ذبح أو خنق أو ماشابه ذلك وأما إذا كان من غير فعل فهو موت هلاك والمقتل المذلل وقال امرؤ القيس :

بِسَهْمَيْكَ فِي أَغْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلٍ

شرحوه بالمذلل ، خير هي أفعال التفضيل حذفت همزتها شذوذاً في الكلام فنقص بناؤها فانصرفت كما حذفوها شذوذاً في الشعر من أحب للتي للتفضيل وقال الأحوص :

وَزَادَنِي كَلْفًا بِالْحُبِّ أَنْ مُنِعْتُ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا

وقد نطقوا بالهمزة في الشعر قال الشاعر :

بِلَالٍ خَيْرُ النَّاسِ وَابْنُ الْأَخِيرِ

وتأتي خير أيضاً لا بمعنى التفضيل تقول في « زيد خير » تريد بذلك خصلة جميلة ومخففاً من خير رجل خير : أي فيه خير ويمكن أن يكون من ذلك ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنٌ ﴾ ، (حتى) حرف معناه الكثير فيه الغاية وتكون للتعليل وإبدال حائثها عيناً لغة هذيل وسمع فيها الإمالة قليلاً وأحكامها مستوفاة في النحو ، الرؤية الإبصار والماضي رأى عينه همزة تحذف في مضارعه والأمر منه وبناء أفعال والأمر منه واسم الفاعل واسم المفعول تقول يرى وترى ونرى وأرى زيدا وأريت زيدا ورزيدا ومر زيدا ومري وتثبت في الرؤية والرأي والرؤيا والمرأى والمرئي والمرأة واسترأى وأرأى من كذا وفي ما أراه وأرئه في التعجب وهذا الحذف الذي ذكرناه هو إذ كان مدلول رأى ما ذكرناه من الإبصار في يقظة أو نوم أو الاعتقاد ، فإن كانت رأى بمعنى أصاب رثته فلا تحذف الهمزة بل تقول رآه يرآه : أي أصاب رثته نقله صاحب كتاب الأمر ولغة تميم إثبات الهمز فيما حذف منه غيرهم فيقولون يرأى وأرئى ، وقال بعض العرب فجمع بين حذف الهمزة والإثبات :

أَلَمْ تَرَ مَا لَاقَيْتُ وَالذَّهْرُ أَغْصُرُ وَمَنْ يَتَمَلَّ الْعَيْشَ يَرَأَى وَيَسْمَعُ^(١)

« الجهرة »^(٢) العلانية ، ومنه الجهر ضد السر وفتح عين هذا النحو مسموع عند البصريين مقيس عند الكوفيين ، وقد تقدم شيء من ذلك ، ويقال جهر الرجل الأمر كشفه وجهرت الرُّكْبَةُ^(٣) أخرجت ما فيها من الحَمَاءِ^(٤) وأظهرت الماء قال :

إِذَا وَرَدْنَا آجِنًا جَهْرُنَا أَوْ خَالِيًا مِنْ أَهْلِهِ عَمَرْنَا

والجمهوري العالي الصوت وصوت جهير عال ووجه جهير ظاهر الوضوء والأجهر الأعمى سمي على الضد ،

(١) البيت من الطويل للأعلم بن حرادة - انظر شرح شواهد الشافعية ص (٣٢٩) ، نوادر أبي زيد (٤٩٧) .

(٢) الجهرة : ما ظهر . ورآه جهرة : لم يكن بينهما ستر ، ورأيته جهرة وكلمته جهرة .

وفي التنزيل العزيز : (أرنا الله جهرة) أي : غير مستتر عنا بشيء - انظر لسان العرب (١ / ٧١٠) .

(٣) الرُّكْبَةُ : البثر تحفر ، والجمع ، رَكْبِي ، وركايا - انظر لسان العرب (٣ / ١٧٢٢) .

(٤) الحَمَاءُ والحَمَّاءُ : الطين الأسود المُنْتِنُ - انظر لسان العرب (٢ / ٩٨٦) .

البعث^(١) الإحياء وأصله الإثارة قال الشاعر :

أُنِيخُهَا مَا بَدَا لِي ثُمَّ أَبْعَثُهَا كَأَنَّهَا كَاسِرٌ فِي الْجَوِّ فَتَخَاءُ

وقال آخر :

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ قَدْ بَعَثْتُ بِسُحْرَةٍ فَقَامُوا جَمِيعاً بَيْنَ عَانٍ وَنَشْوَانِ

وقيل أصله الإرسال ومنه ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ﴾ وتأتي بمعنى الإقامة من الغشي أو النوم ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾ ، والقدر المشترك بين هذه المعاني هو إزالة ما يمنع عن التصرف ، ظلل فعل وهو مشتق من الظل والظل أصله المنفعة ، « والسحابة » ظلة لما يحصل تحتها من الظل ومنه قيل : « السلطان ظل الله في الأرض » ، قال الشاعر :

فَلَوْ كُنْتُ مَوْلَى الظِّلِّ أَوْ فِي ظِلَالِهِ ظَلَمْتُ وَلَكِنْ لَا يَدِي لَكَ بِالظُّلْمِ

« الغمام » اسم جنس بينه وبين مفردة هاء التأنيث تقول غمامة وغمام نحو حمامة وحمام وهو السحاب وقيل ما ابيض من السحاب ، وقال مجاهد هو أبرد من السحاب وأرق وسمي غماماً لأنه يغم وجه السماء : أي يستره ومنه الغم والغمم والأغم والغمة والغمی والغماء وغمّ الهلال ستر والنبت الغميم هو الذي يستر ما يسامته من وجه الأرض ، المن مصدر منت : أي قطعت والمن الإحسان والمن صمغة تنزل على الشجر حلوة وفي المراد به في الآية أقوال ستأتي إن شاء الله تعالى ، السلوى^(٢) اسم جنس واحدها سلواة قاله الخليل والألف فيها للإلحاق لا للتأنيث نحو علقي وعلقة إذ لو كانت للتأنيث لما أنث بالهاء قال الشاعر :

وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لِذِكْرَاكِ سَلْوَةٍ كَمَا انْتَفَضَ السَّلْوَاةُ مِنْ بَلَلِ الْقَطْرِ

وقال الكسائي السلوى واحدة وجمعها سلاوى ، وقال الأخفش جمعه وواحدة بلفظ واحد ، وقيل جمع لا واحد له من لفظه وقال مؤرج السدوسي السلوى هو العسل بلغة كنانة ، قال الشاعر :

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلْدُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا

وقال غيره هو طائر قال ابن عطية وقد غلط الهذلي في قوله :

أَلْدُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورُهَا

فظن السلوى العسل وعن هذا جوابان يبينان أن هذا ليس غلطاً أحدهما ما نقلناه عن مؤرج من كونه العسل بلغة كنانة والثاني أنه تجوز في قوله نشورها لأجل القافية فعبر عن الأكل بالشور على سبيل المجاز ، قالوا واشتقاق السلوى من السلوة لأنه لطيفه يسلي عن غيره ، الطيب فيعل من طاب يطيب وهو اللذيذ وتقدم الكلام في اختصاص هذا الوزن بالمعتل إلا ما شذ وفي تخفيف هذا النوع وبالمخفف منه سميت مدينة رسول الله ﷺ طيبة ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ﴾ عد صاحب المنتخب هذا إنعاماً خامساً ، وقيل هذه الآية وما بعدها منقطعة مما تقدم من التذكير

(١) بعثه يبعثُ : أرسله وحده ، وبعث به ، أرسله مع غيره . وابتعثه أيضاً : أي أرسله فانبعث - انظر لسان العرب (٣٠٧/١) .

(٢) السلوى : طائر وهو في غير القرآن العسل ... انظر لسان العرب (٢٠٨٦/٣) .

بالنعم وذلك لأنه أمر بالقتل ، والقتل لا يكون نعمة وضعف بأن من أعظم النعم التنبيه على ما به يتخلصون من عقاب الذنب العظيم وذلك هو التوبة ، وإذا كان قد عدّد عليهم النعم الدنيوية فلأن يعدد عليهم النعم الدينية أولى ، ولما لم يكمل وصف هذه النعمة إلا بمقدمة ما تسببت عنه قدم ذكر ذلك وهذا الخطاب هو محاورة موسى لقومه حين رجع من الميقات ووجدهم قد عبدوا العجل ، واللام في قوله (لقومه) للتبليغ وإقبال موسى عليهم بالنداء ونداؤه بلفظ (يا قوم) مشعر بالتحنن عليهم وأنه منهم وهم منه ، ولذلك أضافهم إلى نفسه كما يقول الرجل « يا أخي ويا صديقي » فيكون ذلك سبباً لقبول ما يلقي إليه بخلاف أن لو ناداه باسمه أو بالوصف القبيح الصادر منه ، وفي ذلك أيضاً هزلهم لقبولهم الأمر بالتوبة بعد تفريعهم بأنهم ظلموا أنفسهم : وأي ظلم أعظم من اتخاذ إله غيره (إن الشرك لظلم عظيم) ونص على أنهم ظلموا أنفسهم بذلك لأنه أفحش الظلم لأن نفس الإنسان أحب شيء إليه فإذا ظلمها كان ذلك أفحش من أن يظلم غيره ، (ويا قوم) منادى مضاف إلى ياء المتكلم ، وقد حذف واجتزأ بالكسرة عنها وهذه اللغة أكثر ما في القرآن ، وقد جاء إثباتها كقراءة من قرأ (يا عبادي فاتقوني) بآثبات الياء ساكنة ، ويجوز فتحها فتقول يا غلامي وفتح ما قبلها وقلب الياء ألفاً فتقول يا غلاما ، وأجاز الأخفش حذف الألف والاجتزأ بالفتحة عنها فتقول يا غلام ، وأجازوا ضمه وهو على نية الإضافة فتقول « يا غلام » تريد يا غلامي ، وعلى ذلك قراءة من قرأ (قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ) (قال رب السجن أحب إلي) هكذا أطلقوا وفصل بعضهم بين أن يكون فعلاً أو اسماً ، أن كان فعلاً فلا يجوز بناؤه على الضم ومثل الفعل بمثل « يا ضاربي » فلا يجيز في هذا « يا ضارب » وظاهر الخطاب اختصاصه بمتخذي العجل ، وقيل يجوز أن يراد به من عبد ومن لم يعبد جعلوا ظالمين لكونهم لم يمنعهم ولم يقاتلوهم والباء في ﴿ باتخاذكم العجل ﴾ سببية واحتمال الوجهين السابقين في قوله (ثم اتخذتم العجل) جاء هنا : أي بعلمكم العجل وعبادته أو باتخاذكم العجل إلهاً . قال السلمي^(١) : عجل كل واحد نفسه فمن أسقط مراده وخالف هواه فقد برىء من ظلمه ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ الفاء في فتوبوا معها التسبب ، لأن الظلم سبب للتوبة ولما كان السامري قد عمل لهم من حليهم عجلاً ، قيل لهم توبوا إلى بارئكم : أي منشئكم وموجدكم من العدم إذ موجد الأعيان هو الموجد حقيقة وأما عمل العجل واتخاذة فليس فيه إبراز الذوات من العدم إنما ذلك تأليف تركيب لا خلق أعيان فنبهوا بلفظ الباري على الصانع : أي الذي أوجدكم هو المستحق للعبادة لا الذي صنعه مصنوع مثله فلذلك والله أعلم كان ذكر الباري هنا ، وقرأ الجمهور بظهور حركة الإعراب في (بارئكم) وروي عن أبي عمرو الاختلاس ، روى ذلك عنه سيبويه ، وروي عنه الإسكان وذلك إجراء للمنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة فإنه يجوز تسكين مثل (إبل) فأجري المكسوران في بارئكم مجرى (إبل) ومنع المبرد التسكين في حركة الإعراب وزعم أن قراءة أبي عمرو لحن وما ذهب إليه ليس بشيء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله ﷺ ، ولغة العرب توافقه على ذلك ، فإنكار المبرد لذلك منكر وقال الشاعر :-

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْقٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلٍ^(٢)

(١) محمد بن الحسين بن موسى أبو عبد الرحمن السلمي شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان ، توفي سنة ٤١٢ هجرية - انظر البداية والنهاية (١٢/١٢) ، ابن السبكي (٤/١٤٣) .

(٢) البيت من السريع لامرئ القيس . انظر ديوانه في (١١٩ ، ١٢٢) ، الخزانة (٨/٣٥٠) ، (٣٥١) ، الدرر اللوامع (١/٣٢) ، والنوادر لأبي زيد (١٨٧) ، الكامل (١/١٤٣) ، وروايته (فالיום أسقى) ، وانظر الكتاب (٤/٢٠٤) ، الشعر والشعراء ص (١٠٤) ، الحجة لأبي علي (١/٣١٣ ، ٢/٦٦) ، والخصائص (١/٧٤ ، ٢/٣١٧ ، ٣/٩٦) ، شرح المفصل (١/٤٨) .

وقال آخر :

رُحِبْتُ وَفِي رِجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا وَقَدْ بَدَا هُنَاكَ مِنَ الْمِزْرِ^(١)

وقال آخر :

أَوْ نَهْرٌ تَبْرَى فَمَا تَعْرِفُكُمْ الْعَرَبُ^(٢)

وقد خلط المفسرون هنا في الردّ على أبي العباس فأنشدوا ما يدل على التسكين مما ليست حركته حركة إعراب ، قال الفارسي أما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها ومما يدل على صحة قراءة أبي عمرو ما حكاه أبو زيد من قوله تعالى (ورسلا لديهم يكتبون) ، وقراءة مسلمة^(٣) بن محارب (وبعولتهنّ أحقّ بردهنّ في ذلك) ، وذكر أبو عمرو أن لغة تميم تسكين المرفوع من يعلمه ونحوه ومثل تسكين بارئكم قراءة حمزة (ومكر السّيء) ، وقرأ الزهري (بارئكم) بكسر الباء من غير همز ، وروي ذلك عن نافع ولهذه القراءة تخريجان :

أحدهما : أن الأصل الهمز وأنه من برأ فخففت الهمزة بالإبدال المحض على غير قياس إذ قياس هذا التخفيف جعلها بين بين .

والثاني : أن يكون الأصل بارئكم بالياء من غير همز ويكون مأخوذاً من قولهم برئت القلم إذا أصلحته أو من البرى وهو التراب ثم حرك حرف العلة وإن كان قياسه تقدير الحركة في مثل هذا رفعاً وجراً وقال الشاعر :

وَيَوْمًا تَوَافَيْنَا الْهُوَى غَيْرَ مَاضِي^(٤)

وقال آخر :

وَلَمْ تَخْتَضِبْ سُمُرُ الْعَوَالِي بِالْدَمِ^(٥)

وقال آخر :

خَبِثُ الثَّرَى كَأَبِي الْأَزِيدِ^(٦)

وهذا كله تعليل شذوذ وقد ذكر الزمخشري في اختصاص ذكر البارىء هنا كلاماً حسناً هذا نصه : فإن قلت من أين اختص هذا الموضع بذكر البارىء ؟ قلت البارىء هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) و متميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة فكان فيه تقريب بما كان منهم من ترك عبادة العالم

(١) البيت من السريع للأقشر الأسدي . انظر الكتاب (٢٠٣/٤) ، الشعر والشعراء ص (١٠٦) ، الخصائص (٧٤/١ ، ٣١٧/٢) ، الدرر اللوامع (٣٢/١) ، المقاصد النحوية (٥١٦/٤) ، وصف المباني ص (٣٩٣) .

(٢) البيت من البسيط لجبر بن عطية . انظر ديوانه ص (٧٠) ، لسان العرب (شت) .

(٣) انظر ترجمته في غاية النهاية (٢٩٨/٢) .

(٤) هذا صدر بيت من الطويل لجبر من هجاء الأخطل . انظر شرح ديوانه ص (٥٤/١) وروايته « فيوماً يجارين الهوى غير ما صبا » فعلى هذا فلا شاهد فيه - وانظر المقتضب (١٤٤/١ ، ٣٥٤/٣) .

(٥) انظر الدرر اللوامع (٣١/١) ، ونسبه ابن مالك لأبي طالب - انظر شرح التسهيل (٦٠/١) ، وانظر شفاء العليل ص (١٢٩) .

(٦) البيت من المتقارب لجبر انظر ديوانه ص (١٥٢) ، الدرر اللوامع (٢٩/١) ، شرح التسهيل (٦٠/١) ، همع الهوامع (٥٣/١) ، توضيح المقاصد (١١٣/١) ، شفاء العليل ص (١٢٩) .

الحكيم الذي برأهم بلطيف حكمته على الأشكال المختلفة أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة ، في أمثال العرب « أبلد من ثور » حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم وينثر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغبطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها انتهى كلامه ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ ظاهر هذا أنه القتل المعروف من إزهاق الروح ، فظاھرہ أنهم يباشرون قتل أنفسهم والأمر بالقتل من موسى على نبينا وعليه السلام لا يكون إلا بوحى من الله تعالى إما بكونه كانت التوراة في شريعته متقررة بقتل النفس وإما بكونه أمر ذلك بأمر متجدد عقوبة لهؤلاء الذين عبدوا العجل ، والمأمور بقتل أنفسهم عباد العجل ، أو من عبد ومن لم يعبد ، والمعنى اقتلوا الذين عبدوا العجل من أهلكم كقوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي من أهلكم وجلدتكم ، أو الجميع مأمورون بقتل أنفسهم ثلاثة أقوال ، وقال ابن إسحاق أمروا بأن يستسلموا للقتل وسمى الاستسلام للقتل قتلاً على سبيل المجاز ، وقيل معنى (فاقتلوا أنفسكم) ذللو أهواءكم ، وقد قدمنا أن التقتيل بمعنى التذليل ، ومنه أيضاً قول حسان :

إِنَّ الَّتِي عَاطَيْتَنِي فَرَدَّدْتُهَا قَتَلْتُ قَتَلْتُ فَهَاتِيهَا لَمْ تُقْتَلْ

فلنخص في قوله فاقتلوا ثلاثة أقوال :

الأول : الأمر بقتل أنفسهم .

الثاني : الاستسلام للقتل .

والثالث : التذليل للأهواء والأول هو الظاهر وهو الذي نقله أكثر الناس ، وظاهر الكلام أنهم هم المأمورون بقتل أنفسهم ، فقيل : وقع القتل هكذا قتلوا أنفسهم بأيديهم ، وقيل : قتل بعضهم بعضاً من غير تعيين قاتل ولا مقتول ، وقيل : القاتلون هم الذين اعتزلوا مع هارون والمقتولون عباد العجل ، وقيل : القاتلون هم الذين كانوا مع موسى في المناجاة بطور سيئ ، والمقتولون من عداهم وإذا قلنا أن بعضهم قتل بعضاً فاختلّفوا في كيفية القتل فقيل اصطفتوا صفين فاجتلدوا بالسيوف والخناجر فقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم كفوا فكان ذلك شهادة للمقتول وتوبة للقاتل ، وقيل : أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك ، وقيل : وقف عباد العجل صفاً ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم ، وقيل : احتبى عباد العجل في أفنية دورهم أو في موضع غيره وخرج عليهم يوشع بن نون وهم محتبون فقال ملعون من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فيقولون آمين فما حل أحد منهم حبوته حتى قتل منهم سبعون ألفاً ، وفي رواية قال لهم من حل حبوته لم تقبل توبته ولم يذكر اللعنة ، وقيل : إن الرجل كان يبصر ولده ووالده وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضي لأمر الله فأرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها ، وأمروا أن يحتبوا بأفنية بيوتهم ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم ، وقيل لهم أصبروا فلعن الله من مد طرفه أو حل حبوته أو اتقى بيد أو رجل فيقولون آمين فقتلوهم إلى المساء ، حتى دعا موسى وهارون قالوا يا رب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية ، فكشفت السحابة ونزلت التوبة فسقطت الشفار من أيديهم ، وكانت القتلى سبعين ألفاً ؛ انتهى ما نقلناه من بعض ما أورده المفسرون في كيفية القتل وفي القاتلين والمقتولين ، وفي ذلك من الاتعاض والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهار ، وانظر إلى لطف الله بهذه الملة المحمدية إذ جعل توبتها في الاقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم المعاودة إليه ، والفاء في قوله فاقتلوا أنفسكم إن قلنا إن التوبة هي نفس القتل وإن الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم فتكون هذه الجملة بدلاً من قوله فتوبوا والفاء كهي في فتوبوا معها السببية وإن قلنا إن القتل هو تمام توبتهم فتكون الفاء للتعقيب ، والمعنى فأتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتكم ، وقد أنكر في « المنتخب » كون القتل يكون

توبة وجعل القتل شرطاً في التوبة فأطلق عليه مجازاً كما يقال للغاصب إذا قصد التوبة توبتك رد ما غصبت يعني أنه لا تتم توبتك إلا به فكذاك هنا وتعدية التوبة إلى معنى الإنتهاء بها إلى الله فتكون بريئة من الرياء في التوبة لأنهم إن راءوا بها لم تكن إلى الله ولا يلتفت إلى ما وقع في المنتخب من أن المفسرين أجمعوا على أنهم ما قتلوا أنفسهم بأيديهم إذ قد نقلنا أن منهم من قال ذلك فليس بإجماع وأما منع عبد الجبار ذلك من جهة العقل بأن القتل هو نقض البنية التي عنده يجب أن يخرج من أن يكون حياً وما عدا ذلك إنما يسمى قتيلاً على سبيل المجاز ، قال وهذا لا يجوز أن يأمر الله به لأن العبادات الشرعية إنما تحسن لكونها مصالح لذلك المكلف ولا يكون مصلحة إلا في الأمور المستقبلية ، وليس بعد القتل حال تكليف حتى يكون القتل مصلحة فيه وهذا بخلاف ما يفعله الله من الإماتة لأن ذلك من فعل الله تعالى فيحسن أن يفعله إذا كان صلاحاً لمكلف آخر ، وبخلاف أن يأمر الله بأن يجرح نفسه أو يقطع عضواً من أعضائه ولا يحصل الموت عقبه لأنه لما بقي بعد ذلك الفعل حياً لم يمتنع أن يكون ذلك الفعل صلاحاً في الأفعال المستقبلية ، انتهى كلامه . وهو مبني على قاعدتهم في الاعتزال من مراعاة المصلحة ، والكلام معهم في ذلك مذكور في « أصول الدين » مع أنه يمكن أن يقال هنا بالمصلحة ، لأن الأمر بالقتل ليس إلا من باب الزواجر والروادع وليس من شرط ذلك اعتبار حال المكلف بل يصنع الزواجر لازدجار غيره وإذا فعل مثل هذا الفعل العظيم الذي هو القتل بمن عبد العجل اتعظ به غيره وانكف عن الوقوع فيما لا يكون التوبة منه إلا بالقتل ، وقرأ قتادة فيما نقل المهدوي وابن عطية والتبريزي^(١) (فَأَقِيلُوا أَنْفُسَكُمْ) ، وقال الثعلبي قرأ قتادة (فَأَقْتَالُوا أَنْفُسَكُمْ) فأما فأقيلوا فهو أمر من الإقالة ، وكان المعنى إن أنفسكم قد تورطت في عذاب الله بهذا الفعل العظيم الذي تعاطيتموه من عبادة العجل وقد هلكت فأقيلوها بالتوبة والتزام الطاعة وأزيلوا آثار تلك المعاصي بإظهار الطاعات ، وأما فاقتلوا أنفسكم فقالوا هو افتعل بمعنى استفعل : أي فاستقيلوها والمشهور استقال لا اقتال ، قال ابن جني : يضعف أن يكون عينها واواً كاقتلوا ، ويحتمل أن تكون ياء كقياس ، والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة كما قال ابن جني ، فهذه اللفظة لا شك مسموعة بدليل نقل قتادة لها ، ويكون مما جاءت فيه افتعل بمعنى استفعل وهو أحد المعاني التي جاءت لها افتعل وذلك نحو « اعتصم واستعصم » . قال السلمي : (فتوبوا إلى بارئكم) ارجعوا إليه بأسراركم وقلوبكم فاقتلوا أنفسكم بالتبري منها فإنها لا تصلح لبساط الأنس ، وقال « الواسطي » كانت توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم ولهذه الأمة أشد وهو إفناء نفوسهم عن مرادها مع بقاء رسوم الهياكل ، وقال فارس : التوبة محو البشرية بمباينات الإلهية ، وقيل توبوا إليه من أفعالكم وأقوالكم وطاعتكم واقتلوا أنفسكم في طاعته ، وقتل النفس عما دون الله وعن الله بالفراغ من طلب الجزاء حتى ترجع إلى أصل العدم ويبقى الحق كما لم يزل ، وقال بعض أهل اللطائف : التوبة بقتل النفس غير منسوخة لأن بني إسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً وهذه الأمة قتل أنفسهم في أنفسهم وأول قدم في القصد إلى الله الخروج عن النفس توهم الناس أن توبة بني إسرائيل كانت أشق ولا كما توهموا فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة وأما أهل الخصوص ففي كل لحظة قتل ، قال الشاعر :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ^(٢)

(١) الإمام أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن حسن بن بسطام الشيباني الخطيب التبريزي أحد الأعلام توفي سنة ٥٠٢ هجرية - السير (٢٦٩/١٩) .

(٢) البيت من الكامل لعدي بن الرعاء وبعده :

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله (فاقتلوا) لأنه أقرب مذكور : أي القتل ﴿ خير لكم ﴾ وقال بعضهم هو إشارة إلى المصدرين المفهومين من قوله (فتوبوا وقاتلوا) فأوقع المفرد موقع الثنية : أي فالتوبة والقتل خير لكم فيكون مثل قولهم في قوله تعالى (عوان بين ذلك) : أي بين ذنبك : أي الفارض والبكر وكذلك قوله :

إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلْشَّرِّ مَدًى وَكَلاَ ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ^(١)

أي وكلا ذنبك وهذا يبنى على ما قدمناه من أن قوله (فاقتلوا) هل هو تفسير للتوبة فتكون التوبة هي القتل فينبغي أن يكون ذلك مفرداً أشير به إلى مفرد وهو القتل ، أو يكون القتل مغايراً للتوبة ، فيحتمل هذا الذي قاله هذه القائل ولكن الأرجح خير إن كانت للفضل قليل المعنى خير من العصيان والإصرار على الذنب ، وقيل خير من ثمرة العصيان وهو الهلاك الذي لهم إذ الهلاك المتناهي خير من الهلاك غير المتناهي إذ الموت لا بد منه فليس فيه إلا التقديم والتأخير ، وكلا هذين التوجيهين ليس التفضيل على بابه إذ العصيان والهلاك غير المتناهي لا خير فيه فيوصف غيره بأنه أزيد في الخيرية عليه ، ولكن يكون على حد قولهم « العسل أحلى من الخل » ، ويحتمل أن لا يكون للفضل بل أريد به خير من الخيور ، (لكم) متعلق بخير إن كان للفضل وإن كانت على أنها خير من الخيور فيتعلق بمحذوف : أي خير كائن لكم والتخريجان يجريان في نصب قوله ﴿ عند بارتكم ﴾ والعندية هنا مجاز ، إذ هي ظرف مكان وتجاوز به عن معنى حصول ثوابهم من الله تعالى ، وكرر الباريء باللفظ الظاهر تأكيداً ولأنها جملة مستقلة فناسب الإظهار وللتنبية على أن هذا الفعل هو راجع عند الذي أنشأكم ، فكما رأى أن إنشاءكم راجح رأى أن إعدامكم بهذا الطريق من القتل راجح فينبغي التسليم له في كل حال وتلقي ما يرد من قبله بالقبول والامتنال ﴿ فتاب عليكم ﴾ ظاهره أنه إخبار من الله تعالى بالتوبة عليهم ، ولا بد من تقدير محذوف عطفت عليه هذه الجملة : أي فامتنلتم ذلك فتاب عليكم ، وتكون هاتان الجملتان مندرجتين تحت الإضافة إلى الظرف الذي هو إذ في قوله (وإذ قال موسى لقومه) ، وأجاز الزمخشري^(٢) : أن يكون مندرجاً تحت قول موسى على تقدير شرط محذوف كأنه قال فإن فعلتم فقد تاب عليكم ، فتكون الفاء إذ ذاك رابطة لجملة الجزاء بجملة الشرط المحذوفة هي وحرف الشرط وما ذهب إليه الزمخشري لا يجوز ذلك أن الجواب يجوز حذفه كثيراً للدليل عليه ، وأما فعل الشرط وحده دون الأداة فيجوز حذفه إذا كان منفياً بلا في الكلام الفصح نحو قوله :

فَطَلَّقَهَا فَلَسْتُ لَهَا بِكُفُوٍ وَإِنْ لَا يَعْلُ مَفْرِقَكَ الْحَسَامُ^(٣)

فأناس يمصصون ثماراً وأناس حلوقهم في الماء

انظر أمالي ابن الشجري (١٥٢/١) ، شرح المفصل (٦٩/١٠) ، العقد الفريد (٤٩١/٥) .

(١) البيت من الرمل لعبد الله بن الزبيري وهو أحد أعداء النبي ﷺ الذين كانوا يهجون ، وهذا البيت من قصيدة قيلت بعد وقعة أحد شماتة بالمسلمين وقد أجابه عليها حسان بن ثابت بقصيدة أخرى من بحرهما وقافيتها ومطلعها :

ذهبت يا بن الزبيري وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحياناً دول
إن شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل

انظر شرح المفصل (٢/٣) ، المقرب (٤٥) ، مغني اللبيب (٢٠٣/١) ، التصريح على التوضيح (٤٣/٢) ، مع الهوامع (٥٠/٢) ، الدرر اللوامع (٦١/٢) ، الأشموني (٤٣/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٤٠/١) .

(٣) البيت من الوافر للأحوص واسمه محمد بن عبد الله الأنصاري . انظر ديوانه (١٩) ، شرح شواهد المغني (٩٣٦/٢) ، أوضح =

التقدير وإن لا تطلقها يعل فإن كان غير منفي بلا فلا يجوز ذلك إلا في ضرورة نحو قوله :

سَقَّتْهُ الرِّوَاءُ عِدُّ مِنْ صَيْفٍ وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يُعْدَمَا^(١)

التقدير « وإن سقته من خريف فلن يعدم الري » وذلك على أحد التخريجين في البيت وكذلك حذف فعل الشرط وفعل الجواب دون أن يجوز في الضرورة نحو قوله :

قَالَتْ بَنَاتُ الْعَمِّ يَا سَلْمَى وَإِنْ كَانَ عَيَّاً مُعْدِماً قَالَتْ وَإِنْ^(٢)

التقدير وإن كان عيياً معدماً أتروجه وأما حذف فعل الشرط وأداة الشرط معاً وإبقاء الجواب فلا يجوز إذا لم يثبت ذلك من كلام العرب ، وأما جزم الفعل بعد الأمر والنهي واختواتهما فله ولتعلييل ما ذكرنا من الأحكام مكان آخر يذكر في علم النحو وظاهر قوله (فتأب عليكم) إنه كما قلنا إخبار عن المأمورين بالقتل الممثلين ذلك ، وقال ابن عطية : معناه على الباقيين ، وجعل الله القتل لمن قتل شهادة وتاب على الباقيين وعفا عنهم انتهى كلامه ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ تقدم الكلام على هذه الجملة عند قوله تعالى في قصة آدم (فتأب عليه إنه هو التواب الرحيم) فأغنى ذلك عن إعادته هنا ، ﴿ وإذ قلتم يا موسى ﴾ هذه محاورة بني إسرائيل لموسى وذلك بعد محاورته لهم في الآية قبل هذا ، والضمير في قلتم قيل للسبعين المختارين قاله ابن مسعود وقتادة ، وذكر في اختيار السبعين كيفية ستأتي إن شاء الله تعالى في مكانها في الأعراف ، وقيل الضمير لسائر بني إسرائيل إلا من عصمه الله قاله ابن زيد ، وقيل الذين انفردوا مع هارون ولم يعبدوا العجل ، وقال بعض من جمع في التفسير تضافت أقوال أئمة التفسير على أن الذين أصابتهم الصاعقة هم السبعون رجلاً الذين اختارهم موسى ومضى بهم لميقات ربه ومناجاته ، وما ذكر لا يمكن مع ذكر الاختلاف في قوله (وإذ قلتم) لأن الظاهر أن القائل هم الذين أخذتهم الصاعقة إلا إن كان ذلك من تلوين الخطاب وهو هنا بعيد وفي نداء بني إسرائيل لنبيهم باسمه سوء أدب منهم معه إذ لم يقولوا يا نبي الله أو يا رسول الله أو يا كليم^(٣) الله أو غير ذلك من الألفاظ التي تشعر بصفات التعظيم وهي كانت عادتهم معه يا موسى لن نصبر على طعام واحد يا موسى اجعل لنا إلهاً يا موسى ادع لنا ربك ، وقد قال الله لهذه الأمة ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ [النور : ٦٣] ، ﴿ لن نؤمن لك ﴾ قيل : معناه لن نصدقك فيما جئت به من التوراة ولم يريدوا نفي الإيمان به بدليل قولهم لك ولم يقولوا بك نحو ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ [يوسف : ١٧] ، أي بمصدق ، وقيل : معناه لن نقر لك فعبّر عن الإقرار بالإيمان وعدّاه باللام وقد جاء ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ قال أقررتهم وأخذتهم على ذلكم إصري قالوا أقرنا ﴿ [آل عمران : ٨١] ، فيكون المعنى لن نقر لك بأن التوراة من عند الله ، وقيل : يجوز أن تكون اللام لليلة : أي لن نؤمن لأجل قولك بالتوراة ،

= المسالك (٢٢١/٢) ، شرح التصريح (٢٥٢/٢) ، مع الهوامع (٣٣٦/٤) ، شذور الذهب ص (٤١٤) ، الدرر اللوامع (٧٨/٢) ، الحماسة البصرية (٢٦٣/٢) ، الحلل في شرح أبيات الجمل ص (٢٠١) ، الإنصاف لابن الأنباري (٢٧٢) ، الشاهد فيه قوله : « وإلا يعل » حيث حذف فعل الشرط لكونه معلوماً من سابق الكلام ، ولكون أداة الشرط إن المدغمة في لا النافية ، وليس يجوز حذف الشرط إلا على مثل هذه الصورة ، وهو مع ذلك قليل بالنسبة لحذف الجواب .
(١) البيت من المتقارب للنمرين تولى . انظر ديوانه (١٠٤) ، الكتاب (٢٦٧/١) ، المقتضب (٢٨/٣) ، الخزانة (٣٣٤/٤) ، الخصائص (٤٤١/٢) .

(٢) البيت من الرجز لرؤية . انظر ملحقات ديوانه (١٨٦) ، المغرب (٦٠) ، الخزانة (٦٣٠/٣) ، مغني اللبيب (٦٤٩) ، التصريح على التوضيح (١٩٥/١) ، مع الهوامع (٦٢/٢) ، الدرر اللوامع (٧٨/٢) ، الأشموني (٣٣/١) ، الشاهد فيه حذف فعل الشرط والجواب كما قدر المصنف .

(٣) كليمك : الذي يكلمك ، وفي التهذيب : الذي تكلمه ويكلمك . . . انظر لسان العرب (٣٩٢٢/٥) .

وقيل : يجوز أن يراد نفي الكمال : أي لا يكمل إيماننا لك كما قيل في قوله ﷺ « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله والناس أجمعين » ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ حتى هنا حرف غاية أخبروا بنفي إيمانهم مستصحباً إلى هذه الغاية ومفهومها أنهم إذا رأوا الله جهرة آمنوا ، والرؤية هنا هي البصرية وهي التي لا حجاب دونها ولا ساتر ، وانتصاب جهرة على أنه مصدر مؤكد مزيل لاحتمال الرؤية أن تكون مناماً أو علماً بالقلب ، والمعنى حتى نرى الله عياناً وهو مصدر من قولك جهر بالقراءة وبالدهاء : أي أعلن بها فأريد بها نوع من الرؤية فانتصابها على حد قولهم قعد القرفصاء وفي نصب هذا النوع خلاف مذكور في النحو ، والأصح أن يكون منصوباً بالفعل السابق يعدي إلى النوع كما تعدي إلى لفظ المصدر الملاقي مع الفعل في الاشتقاق ، وقيل انتصابه على أنه مصدر في موضع الحال على تقدير الحذف : أي ذوي جهرة ، أو على معنى جاهرين بالرؤية لا على طريق المبالغة نحو رجل صوم لأن المبالغة لا تترادف هنا ، فعلى القول الأول تكون الجهرة من صفات الرؤية ، وعلى هذا القول تكون من صفات الرائيين ، وثم قول ثالث وهو : أن يكون راجعاً لمعنى القول أو القائلين ، فيكون المعنى وإذ قلتم كذا قولاً جهرة أو جاهرين بذلك القول لم يسره ولم يتكتموا به بل صرحوا به وجهروا بأنهم أخبروا بانتفاء الإيمان مغياً بالرؤية ، والقول بأن الجهرة راجع لمعنى القول مروى عن ابن عباس^(١) وأبي عبيدة ، والظاهر تعلقه بالرؤية لا بالقول وهو الذي يقتضيه التركيب الفصيح ، وقرأ ابن عباس وسهل بن شعيب^(٢) وحמיד بن قيس^(٣) جَهْرَةً بفتح الهاء ، وتحتمل هذه القراءة وجهين :

أحدهما : أن يكون جهرة مصدراً كالعَلَبَة فتكون معناها ، ومعنى جهرة المسكنة الهاء سواء ويجري فيها من الإعراب الوجوه التي سبقت في جهرة .

والثاني : أن يكون جمعاً لجاهر ، كما تقول فاسق وفسقة ، فيكون انتصابه على الحال : أي جاهرين بالرؤية ، قال الزمخشري^(٤) وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه السلام رآهم وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأقسام أو الأعراض فرادوه بعد بيان الحجة ووضوح البرهان ولجوا فكانوا في الكفر كعبدة العجل ، فسلط الله عليهم الصاعقة كما سلط على أولئك القتل تسوية بين الكافرين ودلالة على عظمها بعظم المحنة اهـ كلامه . وهو مصرح باستحالة رؤية الله تعالى بالأبصار وهذه المسألة فيها خلاف بين المسلمين ذهب القدرية والمعتزلة والنجارية والجهمية ومن شاركهم من الخوارج إلى استحالة ذلك في حق الباري سبحانه وتعالى وذهب أكثر المسلمين إلى إثبات الرؤية ، فقال الكرامية يرى في جهة فوق وله تحت ويرى جسمًا وقالت المشبهة يرى على صورة ، وقال أهل السنة لا مقابلاً ولا محاذياً ولا متمكناً ولا متحيزاً ولا متلوناً ولا على صورة ولا هيئة ولا على اجتماع وجسمية بل يراه المؤمنون يعلمون أنه بخلاف المخلوقات كما علموه كذلك قبل ، وقد استفاضت الأحاديث الصحيحة الثابتة في رؤية الله تعالى فوجب المصير إليها ، وهذه المسألة من أصعب مسائل أصول الدين ، وقد رأيت لأبي جعفر الطوسي من فضلاء الإمامية فيها مجلدة كبيرة ، وليس في الآية ما يدل على ما ذهب إليه الزمخشري^(٥) من استحالة الرؤية لكن عاداته تحميل الألفاظ ما لا تدل عليه خصوصاً ما يجر إلى مذهبه الاعتزالي نعوذ بالله من العصبية فيما لا ينبغي ، وكذلك اختلفوا في رؤية الحق نفسه فذهب أكثر المعتزلة إلى أنه لا يرى نفسه وذهبت

(١) انظر تفسير القرطبي (١/٢٧٥) ، تفسير الطبري (٢/٨١) ، غريب القرآن ص (٤٩) .

(٢) سهل بن شعيب الكوفي عرض على عاصم بن أبي النجود وعلى أبي بكر بن عياش انظر غاية النهاية (١/٣١٩) .

(٣) حميد بن قيس الأعرج أبو صفوان المكي القاريء توفي سنة ١٣٠ هجرية - غاية النهاية (١/٢٦٥) .

(٤) انظر الكشف (١/١٤١) .

(٥) انظر الكشف (١/١٤١) .

طائفة منهم إلى أنه يرى نفسه ، وذهب الكعبي^(١) إلى أنه لا يرى نفسه ولا غيره وهذا مذهب النجار^(٢) وكل ذلك مذكور في علم أصول الدين ﴿ فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ ﴾ أي استولت عليكم وأحاطت بكم ، وأصل الأخذ القبض^(٣) باليد ، والصاعقة هنا هل هي نار من السماء أحرقتهم ، أو الموت ، أو جند سماوي سمعوا حسهم فماتوا ، أو الفرع فدام حتى ماتوا ، أو غشي عليهم ، أو العذاب الذي يموتون منه أو صيحة سماوية ؟ أقوال ، أصحها أنها سبب الموت لا الموت وإن كانوا قد اختلفوا في السبب ، قاله المحققون لقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، وأجمع المفسرون على أن المدة من الموت أو الصعق كانت يوماً وليلة ، وقيل أصاب موسى ما أصابهم ، وقيل صعق ولم يمض قالا وهو الصحيح لأنه جاء فلما أفاق في حق موسى وجاء ثم بعثناكم في حقهم وأكثر استعمال البعث في القرآن بعث الأموات ، وقيل غشي عليهم كهو ولم يموتوا والصعق يطلق على غير الموت وقال جرير :

وَهَلْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ غَيْرَ قَرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَ^(٤)

والظاهر أن سبب أخذ الصاعقة إياهم قولهم (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) إذ لم يقولوا ذلك ويسألوا الرؤية إلا على سبيل التعتن ، وقيل سبب أخذ الصعقة إياهم هو غير هذا القول من كفرهم بموسى أو تكذيبهم إياه لما جاءهم بالتوراة أو عبادة العجل ، وقرأ عمرو على (الصَّعْقَةُ) واستعظم سؤال الرؤية حيث وقع لأن رؤيته لا تحصل إلا في الآخرة فطلبها في الدنيا هو مستنكر ، أو لأن حكم الله أن يزيل التكليف عن العبد حال ما يراه فكان طلبها طلباً لإزالة التكليف ، أو لأنه لما دلت الدلائل على صدق المدعى كان طلب الدلائل الزائدة تعنتاً ، أو لأن في منع الرؤية في الدنيا ضرباً من المصلحة المهمة للخلق فلذلك استنكر ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة حالية ومتعلق النظر أخذ الصعقة إياكم : أي وأنتم تنظرون إلى ما حل بكم منها أو بعضكم إلى بعض كيف يخرميتاً ، أو إلى الأحياء ، أو تعلمون أنها تأخذكم فعبّر بالنظر عن العلم ، أو إلى آثار الصاعقة في أجسامكم بعد أن بعثتم ، أو ينظر كل منكم إلى إحياء نفسه كما وقع في قصة العزيز ، قالوا حيي عضوا بعد عضو ، أو إلى أوائل ما كان ينزل من الصاعقة قبل الموت أو أنتم يقابل بعضكم بعضاً من قول العرب دور آل فلان تترأى : أي يقابل بعضها بعضاً ، ولو ذهب ذاهب إلى أن المعنى وأنتم تنظرون إجابة السؤال في حصول الرؤية لهم لكان وجهاً من قولهم نظرت الرجل : أي انتظرته كما قال الشاعر :

فَأَيْنُكُمْ إِنْ تَنْظُرَانِي سَاعَةً مِّنَ الدَّهْرِ تَنْفَعَنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبٍ^(٥)

لكن هذا الوجه ليس بمنقول فلا أجسر على القول به وإن كان اللفظ يحتمله ، وقد عدَّ صاحب المنتخب هذا

(١) عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي من بني كعب أحد أئمة المعتزلة كان رأس طائفة منهم تسمى الكعبية توفي سنة ٣١٩ هجرية - تاريخ بغداد (٣٨٤/٩) ، الأعلام (٦٥/٤ - ٦٦) .

(٢) الحسين بن محمد بن عبد الله النجار الرازي أبو عبد الله رأس الفرقة النجارية من المعتزلة وإليه نسبتها توفي نحو سنة ٢٢٠ هجرية - اللباب (٢١٥/٣) ، الأعلام (٢٥٣/٢) .

(٣) أخذه بذنبه مؤاخذه : عاقبه وفي التنزيل العزيز (فكلاً أخذنا بذنبه) - لسان العرب (٣٦/١) .

(٤) البيت من الوافر لجرير كما قال المصنف وهو من قصيدة له يهجو فيها الفرزدق مطلعها :

ألا حي الديار بسعد إنني أحب لحب فاطمة الديارا
أراد الظاعنون ليحزنوني فهاجوا صدع قلبي فاستطارا

انظر شرح ديوان جرير (٢٠٨ - ٢٠٩) .

(٥) ذكره القرطبي في تفسيره (٤٢/٢) ، بلا نسبة .

إنعاماً سادساً وذكر في كونه إنعاماً وجوهاً ، منها ما يتعلق بغير بني إسرائيل ، ومنها ما يتعلق بهم والمقصود ذكر ما يتعلق بكون ذلك إنعاماً وهو أن إحياءهم لأن يتوبوا عن التعتن ولأن يتخلصوا من أليم العقاب ويفوزوا بجزيل الثواب من أعظم النعم ، ولا تدل هذه الآية على أن قولهم هذا بعد أن كلف عبدة العجل بالقتل ولا قبله ، وقد قيل بكل من القولين لأن هذه الجمل معطوفة بالواو والواو لا تدل بوضعها على الترتيب الزمني ، قال بعضهم : لما أحلهم الله محل مناجاته وأسمعهم لذيد خطابه اشترأت نفوسهم للفخر وعلو المنزلة فعاملهم الله بنقيض ما حصل في أنفسهم بالصعقة التي هي خضوع وتذل تأديباً لهم وعبرة لغيرهم إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ معطوف على قوله (فأخذتكم الصاعقة) ، ودل العطف بشم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زماناً تتصور فيه المهلة والتأخير هو زمان ما نشأ عن الصاعقة من الموت أو الغشي على الخلاف الذي مر ، والبعث هنا الإحياء ، ذكر أنهم لما ماتوا لم يزل موسى يناشد ربه في إحيائهم ويقول : يا رب إن بني إسرائيل يقولون قتلنا خيارنا حتى أحياءهم الله جميعاً رجلاً بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ، وقيل : معنى البعث الإرسال : أي أرسلناكم ، روي أنه لما أحياءهم الله سألوا أن يعثهم أنبياء فبعثهم أنبياء ، وقيل : معنى البعث الإفاقة من الغشية ، ويتخرج على قول من قال إنهم صعقوا ولم يموتوا ، وقيل : البعث هنا القيام بسرعة من مصارعهم ومنه (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) ، وقيل معنى البعث هنا التعليم : أي ثم علمناكم من بعد جهلكم ، والموت هنا ظاهره مفارقة الروح الجسد ، وهذا هو الحقيقة ، وكان إحياءهم لأجل استيفاء أعمارهم ، ومن قال كان ذلك غشياً وهموداً كان الموت مجازاً قال تعالى ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ [إبراهيم : ١٧] ، والذي أتاه مقدماته سميت موتاً على سبيل المجاز قال الشاعر :

وَقُلْ لَهُمْ بِادِرُوا بِالْعُذْرِ وَالتَّمْسُوا قَوْلًا يُبَرِّئُكُمْ إِنِّي أَنَا الْمَوْتُ

جعل نفسه الموت لما كان سبباً للموت وكذلك إذا حمل الموت على الجهل كان مجازاً وقد كنى عن العلم بالحياة وعن الجهل بالموت قال تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ وقال الشافعي رحمه الله :

إِنَّمَا النَّفْسُ كَالزُّجَاجَةِ وَالْإِلْمُ سِرَاجٌ وَحِكْمَةُ اللَّهِ زَيْتٌ
فَإِذَا أَبْصُرْتَ فَإِنَّكَ حَيٌّ وَإِذَا أَظْلَمْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ

وقال ابن السيد :

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيمٌ
وَذُو الْجَهْلِ مَيِّتٌ وَهُوَ مَاشٍ عَلَى الثَّرَى يُظَنُّ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيمٌ

ولا يدخل موسى على نبينا وعليه السلام في خطاب (ثم بعثناكم) لأنه خطاب مشافهة للذين قالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ [البقرة : ٥٥] ، ولقوله ﴿ فلما أفاق ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، لا يستعمل هذا في الموت ، وأخطأ ابن قتيبة في زعمه أن موسى قد مات ﴿ لعلمكم تشكرون ﴾ وفي متعلق الشكر أقوال يبنني أكثرها على المراد بالبعث والموت ، فمن زعم أنهما حقيقة قال : المعنى « لعلمكم تشكرون » نعمته بالإحياء بعد الموت أو على هذه النعمة وسائر نعمه التي أسداها إليهم ومن جعل ذلك مجازاً عن إرسالهم أنبياء أو آثارهم من الغشي أو تعليمهم بعد الجهل جعل متعلق الشكر أحد هذه المجازات ، وقد أبعد من جعل متعلق الشكر إنزال التوراة التي فيها ذكر توبته عليهم وتفصيل شرائع بعد أن لم يكن شرائع ، وقيل : المعنى لعلمكم تشكرون نعمة الله بعد ما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذاقتكم الموت ، وقال في المنتخب إنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم أما أنه كلفهم فلقوله ﴿ لعلمكم تشكرون ﴾ [البقرة : ٥٦] ، ولفظ الشكر

يتناول جميع الطاعات لقوله (اعملوا آل داود شكراً) انتهى كلامه . وقال الماوردي اختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاناة الأهوال التي تضطره وتلجئه إلى الاعتراف بعد الإقتراف ، فقال قوم سقط عنهم التكليف ليكون تكليفهم معتبراً بالاستدلال دون الاضطرار ، وقال قوم : يبقى تكليفهم لئلا يخلو بالغ عاقل من تعبد ولا يمنع حكم التكليف بدليل قوله تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ [الأعراف : ١٧١] ، وذلك حين أبوا أن يقبلوا التوراة فلما نتق الجبل فوقهم آمنوا وقبلوها فكان إيمانهم بها إيمان اضطرار ولم يسقط عنهم التكليف ومثلهم قوم يونس في إيمانهم اهـ كلامه ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ الغمام^(١) مفعول على إسقاط حرف الجر : أي بالغمام كما تقول ظللت على فلان بالرداء ، أو مفعول به لا على إسقاط الحرف ، ويكون المعنى جعلناه عليكم ظلاً ، فعلى هذا الوجه الثاني يكون فعل فيه بجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه كقولهم عدلت زيداً : أي جعلته عدلاً فكذلك هذا معناه جعلنا الغمام عليكم ظلة ، وعلى الوجه الأول تكون فعل فيه بمعنى افعل فيكون التضعيف أصله للتعدية ثم ضمن معنى فعل بعدي بعلى فكان الأصل وظللناكم : أي أظللناكم بالغمام نحو ما ورد في الحديث سبعة يظلهم الله في ظله ، ثم ضمن ظلل بمعنى كلل أو شبهه مما يمكن تعديته بعلى فعدها بعلى ، وقد تقدم ذكر معاني فعل وليس المعنى على ما يقتضيه ظاهر اللفظ إذ ظاهره يقتضي أن الغمام ظلل علينا ، فيكون قد جعل على الغمام شيء يكون ظلة للغمام وليس كذلك بل المعنى والله أعلم ما ذكره المفسرون ، وقد تقدم تفسير الغمام ، وقيل إنه الغمام الذي أتت فيه الملائكة يوم بدر وهو الذي تأتي فيه ملائكة الرحمن ، وهو المشار إليه بقوله (في ظلل من الغمام والملائكة) وليس بغمام حقيقة ، وإنما سمي غماماً لكونه يشبه الغمام ، وقيل الذين ظلل عليهم الغمام بعض بني إسرائيل وكان الله قد أجرى العادة في بني إسرائيل أن من عبد الله ثلاثين سنة لا يحدث فيها ذنباً أظلمته غمامة ، وحكى أن شخصاً عبد ثلاثين سنة فلم تظله غمامة ، فجاء إلى أصحاب الغمام فذكر لهم ذلك فقالوا لعلك أحدثت ذنباً ، فقال : لا أعلم شيئاً إلا أنني رفعت طرفي إلى السماء وأعدته بغير فكر فقالوا له ذلك ذنبك وكانت فيهم جماعة يسمون أصحاب الغمام فامتّن الله عليهم بكونهم فيهم من له هذه الكرامة الظاهرة الباهرة ، والمكان الذي أظلمتهم فيه الغمامة كان في التيه بين الشام ومصر لما شكوا حر الشمس ، وسيأتي بيان ذلك في قصتهم ، وقيل أرض بيضاء عفراء ليس فيها ماء ولا ظل وقعوا فيها حين خرجوا من البحر فأظلمهم الله بالغمام ووقاهم حرّ الشمس ﴿ وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى ﴾ المنّ^(٢) : اسم جنس لا واحد له من لفظه وفي المنّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل أقوال ما يسقط على الشجر أحلى من الشهد وأبيض من الثلج وهو قول ابن عباس والشعبي ، أو صمغة طيبة حلوة وهو قول مجاهد^(٣) ، أو شراب كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء وهو قول الربيع بن أنس^(٤) وأبي العالية ، أو عسل كان ينزل عليهم وهو قول ابن زيد أو الرقاق المتخذ من الذرة ، أو من النقي وهو قول وهب ، أو الزنجبيل وهو قول السدي^(٥) ، أو الترنجيبين وعليه أكثر المفسرين ، أو عسل حامض قاله عمرو بن عيسى ، أو جميع ما منّ الله به عليهم في التيه وجاءهم عفواً من غير تعب قاله الزجاج ، ودليله قوله ﷺ « الكمأة من المنّ » الذي منّ الله به على بني إسرائيل ، وفي رواية على موسى ، وفي السلوى الذي أنزله الله على بني إسرائيل أقوال : طائر يشبه السماني ، أو هو السماني نفسه ، أو طيور حمر بعث الله بها سحابة فمطرت في عرض ميل وطول رمح في السماء بعضه

(١) الغمام : البرد وسحابٌ أعظمٌ : لا فُرَجَة فيه - لسان العرب (٣٣٠٣/٥) .

(٢) قال الزجاج : المنّ في اللغة ما يمنّ الله عزّ وجلّ به مما لا تعب فيه ولا نصب ، وقال : وأهل التفسير يقولون : إن المنّ شيء كان يسقط على الشجر حلويشرب ويقال : إنه الترنجيبين - لسان العرب (٤٢٧٩/٦) .

(٣) انظر تفسير الطبري (٩١/٢) ، وقول ابن عباس في المصدر نفسه (٩٣/٢) .

(٤) انظر تفسير الطبري (٩٢/٢) .

(٥) انظر تفسير الطبري (٩٣/٢) .

على بعض قاله أبو العالية ومقاتل^(١) ، أو طير يكون بالهند أكبر من العصفور قاله عكرمة ، أو طير سمين مثل الحمام ، أو العسل بلغة كنانة وكانت تأتيهم السلوى من جهة السماء فيختارون منها السمين ويتركون الهزيل ، وقيل كانت ريح الجنوب تسوقها إليهم فيختارون منها حاجتهم ويذهب الباقي ، وقيل كانت تنزل على الشجر فينطبخ نصفها وينشوي نصفها وكان المن ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والسلوى بكرة وعشياً ، وقيل دائماً وقيل كلما أحبوا (وقد ذكر المفسرون) حكايات في التظليل ونزول المن والسلوى وتضافرت أقاويلهم أن ذلك كان في فحص التيه ، وستأتي قصته في سورة المائدة إن شاء الله تعالى ، وأنهم قالوا من لنا من حر الشمس فظلل عليهم الغمام ، وقالوا من لنا بالطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا من لنا بالماء فأمر الله موسى بضرب الحجر وهذه دل عليها القرآن وزيد في تلك الحكايات أنهم قالوا بم نستصبح فضرب لهم عمود من نور في وسط محلهم وقيل من نار ، وقالوا من لنا باللباس فأعطوا أن لا يبلى لهم ثوب ولا يخلق ولا يدرن وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان ﴿ كلوا ﴾ أمر إباحة وإذن كقوله فاصطادوا وفانتشروا في الأرض ، وذلك على قول من قال إن الأصل في الأشياء الحظر أو دوماً على الأكل على قول من قال الأصل فيها الإباحة وههنا قول محذوف : أي قلنا كلوا والقول يحذف كثيراً ويبقى المقول وذلك لفهم المعنى ومنه أكفرتم : أي فيقال أكفرتم وحذف المقول وإبقاء القول قليل وذلك أيضاً لفهم المعنى قال الشاعر :

لَنَحْنُ الْأَلَى قُلْتُمْ فَأَنْتَى مُلِئْتُمْ بِرُؤْيَيْنَا قَبْلَ اهْتِمَامٍ بِكُمْ رُغْبًا^(٢)

التقدير قلتُم نقاتلهم ﴿ من طيبات ﴾ من للتبعض لأن المن والسلوى بعض الطيبات ، وأبعد من ذهب إلى أنها زائدة ولا يخرج ذلك إلا على قول الأخفش ، وأبعد من هذا قول من زعم أنها للجنس لأن التي للجنس في إثباتها خلاف ، ولا بد أن يكون قبلها ما يصلح أن يقدر بعده موصول يكون صفة له ، وقول من زعم أنها للبدل إذ هو معنى مختلف في إثباته ولم يدع إليه هنا ما يرجح ذلك ، والطيبات هنا قيل الحلال وقيل اللذيذ المشتبه ، ومن زعم أن هذا على حذف مضاف وهو كلوا من عوض طيبات ما رزقناكم فقوله ضعيف ، قال : عوضهم عن جميع مأكلمهم المستلذة بالمن والسلوى فكانا بدلاً من الطيبات وقد استنبط بعضهم من قوله (كلوا من طيبات ما رزقناكم) أنه لا يكفي وضع المالك الطعام بين يدي الإنسان في إباحة الأكل بل لا يجوز التصرف فيه إلا بإذن المالك وهو قول ، وقيل يملك بالوضع فقط ، وقيل بالأخذ والتناول ، وقيل لا يملك بحال بل ينتفع به وهو على ملك المالك ، وما في قوله ﴿ ما رزقناكم ﴾ موصولة والعائد محذوف : أي ما رزقناكموه ، وشروط الحذف فيه موجودة ولا يبعد أن يجوز مجوز فيها أن تكون مصدرية فلا يحتاج إلى تقدير ضمير ويكون يطلق المصدر على المفعول والأول أسبق إلى الذهن ﴿ وما ظلمونا ﴾ نفى أنهم لم يقع منهم ظلم الله تعالى ، وفي هذا دليل على أنه ليس من شرط نفى الشيء عن الشيء إمكان وقوعه لأن ظلم الإنسان لله تعالى لا يمكن وقوعه البتة ، قيل : المعنى وما ظلمونا بقولهم (أرنا الله جهرة بل ظلموا أنفسهم بما قابلناهم به من الصاعقة) ، وقيل : وما ظلمونا بادخارهم المن والسلوى بل ظلموا أنفسهم بفساد طعامهم وتقليص أرزاقهم ، وقيل : وما ظلمونا بإيائهم على موسى أن يدخلوا قرية الجبارين ، وقيل : وما ظلمونا باستجبابهم العذاب وقطعهم مادة الرزق عنهم بل ظلموا أنفسهم بذلك ، وقيل : وما ظلمونا بكفر النعم بل ظلموا أنفسهم بحلول النقم ، وقيل : وما ظلمونا بعبادة العجل بل ظلموا أنفسهم بقتل بعضهم بعضاً (وافق ابن عطية والزمخشري)^(٣) على أنه يقدر محذوف

(١) انظر تفسير القرطبي (٢٧٦/١) ، فتح القدير (٨٨/١) .

(٢) البيت من الطويل لم يعلم قائله - انظر الدرر اللوامع (١٣٩/١) .

(٣) انظر الكشاف (١٤٢/١) .

قبل هذه الجملة فقدرة ابن عطية فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر ، قال : والمعنى وما وضعوا فعلهم في موضع مضرّة لنا ولكن وضعوه في موضع مضرّة لهم حيث لا يجب ، وقدره الزمخشري^(١) فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا قال باختصار الكلام بحذفه لدلالة وما ظلمونا عليه انتهى . ولا يتعين تقدير محذوف كما زعما لأنه قد صدر منهم ارتكاب قبائح من اتخاذ العجل إلهاً ومن سؤال رؤية الله على سبيل التعنت وغير ذلك مما لم يقص هنا فجاء قوله تعالى (وما ظلمونا) جملة منفية تدل على أن ما وقع منهم من تلك القبائح لم يصل إلينا بذلك نقص ولا ضرر بل وبأل ذلك راجع إلى أنفسهم ومختص بهم لا يصل إلينا منه شيء ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ لكن هنا وقعت أحسن موقع لأنه تقدم قبلها نفي وجاء بعدها إيجاب نحو قوله تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وكذلك العكس نحو قوله تعالى ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ [البقرة : ١٣] ، أعني أن يتقدم إيجاب ثم يجيء بعده نفي لأن الاستدراك الحاصل بها إنما يكون يدل عليه ما قبلها بوجه ما وذلك أنه لما تقرر أنه قد وقع منهم ظلم فلما نفي ذلك الظلم أن يصل إلى الله تعالى بقيت النفس متشوّفة ومتطلعة إلى ذكر من وقع به الظلم فاستدرك بأن ذلك الظلم الحاصل منهم إنما كان واقعاً بهم وأحسن مواقعها أن تكون بين المتضادين ، ويلييه أن تقع بين النقيضين ، ويلييه أن تقع بين الخلافين ، وفي هذا الأخير خلاف بين النحويين أذلك تركيب عربي أم لا وذلك نحو قولك ما زيد قائم ولكن هو ضاحك ، وقد تكلم على ذلك في علم النحو واتفقوا على أنها لا تقع بين المتماثلين نحو ما خرج زيد ولكن لم يخرج عمرو وطباق الكلام أن يثبت ما بعد لكن على سبيل ما نفي قبلها نحو قوله ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ [هود : ١٠١] ، لكن دخلت كانوا هنا مشعرة بأن ذلك من شأنهم ومن طريقتهم ، ولأنها أيضاً تكون في كثير من المواضع تستعمل حيث يكون المسند لا ينقطع عن المسند إليه نحو قوله ﴿ وكان الله بكل شيء عليم ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، فكان المعنى ولكن لم يزلوا ظالمي أنفسهم بكثرة ما يصدر منهم من المخالفات ، (ويظلمون) صورته صورة المضارع وهو ماض من حيث المعنى وهذا من المواضع التي يكون فيها المضارع بمعنى الماضي ، ولم يذكره ابن مالك في التسهيل ولا فيما وقفنا عليه من كتبه وذكر ذلك غيره وقدم معمول الخبر عليه هنا وهو قوله أنفسهم ، ليحصل بذلك توافق رؤوس الآي والفواصل ، وليلدل على الاعتناء بالإخبار عما حل به الفعل ولأنه من حيث المعنى صار العامل في المفعول توكيداً لما يدل عليه ما قبله فليس ذكره ضرورياً ، وبأن التوكيد إن يتأخر عن المؤكد وذلك أنك تقول « ما ضربت زيداً » ولكن ضربت عمراً فذكر ضربت الثانية أفادت التأكيد لأن لكن موضوعها أن يكون ما بعدها منافياً لما قبلها ولذلك يجوز أن تقول « ما ضربت زيداً ولكن عمراً » فلست مضطراً لذكر العامل فلما كان معنى قوله (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) في معنى ولكن ظلموا أنفسهم كان ذكر العامل في المفعول ليس مضطراً إليه ، إذ لو قيل « وما ظلمونا ولكن أنفسهم » لكان كلاماً عربياً ويكتفى بدلالة لكن أن ما بعدها مناف لما قبلها ، فلما اجتمعت هذه المحسنات لتقديم المفعول كان تقديمه هنا الأفصح . (وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة من ذكر قصص بني إسرائيل فصولاً) منها أمر موسى على نبينا وعليه السلام إياهم بالتوبة إلى الله من مقارفة هذا الذنب العظيم الذي هو عبادة العجل من دون الله وأن مثل هذا الذنب العظيم تقبل التوبة منه ، والتلطف بهم في نداءهم بيا قوم ، وتنبيههم على علة الظلم الذي كان وباله راجعاً عليهم ، والإعلام بأن توبتهم بقتل أنفسهم ، ثم الإخبار بحصول توبة الله عليهم وأن ذلك كان بسابق رحمته ، ثم التوبيخ لهم بسؤالهم ما كان لا ينبغي لهم أن يسألوه وهو رؤية الله عياناً لأنه كان سؤال تعنت ، ثم ذكر ما ترتب على هذا السؤال من أخذ الصاعقة إياهم ، ثم الإنعام عليهم بالبعث وهو من الخوارق العظيمة أن يحيي الإنسان في الدنيا بعد أن مات ، ثم

إسعافهم بما سألوه إذ وقعوا في التيه واحتاجوا إلى ما يزيل ضررهم ، وحاجتهم من لفح الشمس ، وتغذية أجسادهم بما يصلح لها فظلل عليهم الغمام وهذا من أعظم الأشياء وأكبر المعجزات حيث يسخر العالم العلوي للعالم السفلي على حسب اقتراحه ، فكان على ما قيل تظلمهم بالنهار وتذهب بالليل حتى ينور عليهم القمر ، وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا من أشرف المأكول ، إذ جمع بين الغذاء والدواء بما في ذلك من الحلاوة التي في المن ، والدسم الذي في السلوى وهما مقمعا الحرارة ومثيرا القوة للبدن ، ثم الأمر لهم بتناول ذلك غير مقيد بزمان ولا مكان بل ذلك أمر مطلق ثم التنصيص أن ذلك من الطيبات وبحق ما يكون ذلك من الطيبات ، ثم ذكر أنه رزق منه لهم لم يتعبوا في تحصيله ولا استخراجيه ولا تنميته بل جاء رزقا مهنا لا تعب فيه ، ثم ارداف هذه الجمل بالجملة الأخيرة ، إذ هي مؤكدة لافتتاح هذه الجمل السابقة لأنه افتتحها بالإخبار بأنهم ظلموا أنفسهم وختمها بذلك وهو قوله (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فجاءت هذه الجمل في غاية الفصاحة لفظاً ، والبلاغة معنى ، إذ جمعت الألفاظ المختارة والمعاني الكثيرة متعلقاً أوائل أواخرها بأواخر أوائلها مع لطف الإخبار عن نفسه ، فحيث ذكر النعم صرح بأن ذلك من عنده فقال (ثم بعثناكم) وقال (وظللنا) (وأنزلنا) وحيث ذكر النقم لم ينسبها إليه تعالى فقال (فأخذتكم الصاعقة) وسر ذلك أنه موضع تعداد للنعم فناسب نسبة ذلك إليه ليذكرهم آلاءه ولم ينسب النقم إليه وإن كانت منه حقيقة لأن في نسبتها إليه تخويفاً عظيماً ربما عادل ذلك الفرح بالنعم والمقصود انبساط نفوسهم بذكر ما أنعم الله به عليهم وإن كان الكلام قد انطوى على ترهيب وترغيب فالترغيب أغلب عليه

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيِّطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا لَأْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ غَيْرَ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

« الدخول » معروف وفعله دَخَلَ يَدْخُلُ وهو مما جاء على يَفْعُل بضم العين وكان القياس فيه أن يفتح لأن وسطه حرف حلق كما جاء الكسر في ينزع وقياسه أيضاً الفتح ، القرية المدينة من قُرَيْتُ : أي جمعت ، سميت بذلك لأنها مجتمع الناس على طريق المساكنة ، وقيل : إن قَلَّوا قيل لها قرية ، وإن كَثُرُوا قيل لها مدينة ، قيل : أقل العدد الذي تسمى به قرية ثلاثة فما فوقها ، ومنه قرئت الماء في الحوض ، والمقراة الحوض ، ومنه القرى وهو : الضيافة ، والقرى

المجرى ، والقرى الظهر ولغة أهل اليمن القرية بكسر القاف ، ويجمعونها على قرى بكسر القاف : نحو رشوة ورشا ، وأما « قرية » بالفتح فجئت على قرى بضم القاف وهو جمع على غير قياس قيل ولم يسمع من فعله المعتل اللام إلا قرية وقرى وتروة وتري وشهوة وشهى ، (الباب) معروف وهو المكان الذي يدخل منه وجمعه أبواب وهو قياس مطرد وجاء جمعه على أبوة في قوله :

هَتَاكَ أَخِيَّةٌ وَلَا أُجَّ أَبُوتُهُ^(١)

لتشاكل أخبية كما قالوا « لا دريت ولا تليت » ، وأصله تلوت فقلبت الواو ياء لتشاكل دريت ، (سجداً) جمع ساجد وهو قياس مطرد في فاعل وفاعلة الوصفين الصحيح اللام ، (وقولوا) كل أمر من ثلاثي اعتلت عينه فانقلبت ألفا في الماضي تسقط تلك العين منه إذا أسند لمفرد مذكر نحو : قل وبع أو لضمير مؤنث نحو قلن وبعن فإن اتصل به ضمير الواحدة نحو قلتي ، أو ضمير الاثنين نحو قولاً ، أو ضمير الذكور نحو قولوا أثبتت تلك العين ، وعلة الحذف والإثبات مذكورة في النحو ، وقد جاء حذفها في الشعر فجاء قوله قلى وعشا ، (حطة) على وزن فَعْلَةٍ من الحط وهو مصدر كالحط ، وقيل هو هيئة وحال كالجلسة والقعدة ، والحط^(٢) الإزالة حططت عنه الخراج ازلته عنه ، والنزول حططت وحكى « بفناء زيد نزلت به » والنقل من علو إلى أسفل ومنه انحطاط القدر ، وقال أحمد بن يحيى وأبان بن تغلب^(٣) الحطة التوبة ، وأنشدوا :

فَارَ بِالْحِطَّةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ بِهَا ذَنْبَ عَبْدِهِ مَغْفُورًا

أي فاز بالتوبة وتفسيرهما الحطة بالتوبة إنما هو تفسير باللازم لا بالمرادف لأن من حُطَّ عنه الذنب فقد تيب عليه ، « الغفر » والغفران الستر وفعله غَفَرَ يَغْفِرُ بفتح الغين في الماضي وكسرها في المضارع والغفيرة المغفرة ، والغفارة السحاب وما يلبس به سية القوس وخرقة تلبس تحت الخمار ومثله المغفر والجماء الغفير : أي جماعة يستر بعضهم بعضاً من الكثرة ، وقول عمر لمن قال له « لم حصبت المسجد هو أغفر للنخامة » كل هذا راجع لمعنى الستر والتغطية ، الخطيئة^(٤) فعيلة من الخطأ ، والخطأ العدول عن القصد يقال خطيء الشيء أصابه بغير قصد وأخطأ إذا تعمد ، وأما خطايا فجمع خطيئة مشددة عند الفراء كهدية وهدايا وجمع خطيئة المهموز عند سيويه والخليل فعند سيويه أصله خطائي مثل صحائف وزنه فعائل ثم أعلت الهمزة الثانية بقلبها ياء ثم فتحت الأولى التي كان أصلها ياء المد في خطيئة فصار خطائي فتحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار خطاء فوقعت همزة بين ألفين ، والهمزة شبيهة بالألف فصار كأنه اجتمع ثلاثة أمثال فأبدلوا منها ياء فصار خطايا كهدايا ومطايا ، وعند الخليل أصله خطائي ثم قلب فصار خطائي على وزن فعال المقلوب من فعائل ، ثم عمل فيه العمل السابق في قول سيويه ، وملخص ذلك : أن الياء في خطايا منقلبة عن الهمزة المبدلة من الياء بعد ألف الجمع التي كانت مدة زائدة في خطيئة على رأي سيويه والألف بعدها منقلبة عن الياء المبدلة

(١) البيت من السسيط للفلاح بن حباب كما في الاقتضاب (٤٢٧/٣) ، ونسبه ابن منظور في اللسان للفلاح بن حبابه م (بوب) .

(٢) الحط : الوضع حَطَّ يَحْطُّ حَطًّا فَانْحَطَّ وَالْحَطُّ : وضع الأحمال عن الدواب - لسان العرب (٩١٤/٢) .

(٣) أبان بن تغلب بن رباح الجريري أبو سعيد البكري قال ياقوت : كان قارئاً فقيهاً لغوياً إمامياً ثقة عظيم المنزلة جليل القدر . توفي سنة إحدى وأربعين ومائة - معجم الأدباء (١٠٧/١) ، البغية (٤٠٤/١) .

(٤) الخطيئة : الذنب على عَمْدٍ - لسان العرب (١١٩٣/٢) .

من الهمزة التي هي لام الكلمة ، ومنقلبة عن الهمزة التي هي لام الكلمة في الجمع والمفرد ، والألف بعدها هي الياء التي كانت ياء بعد ألف الجمع التي كانت مدة في المفرد على رأي الخليل ، وقد أمعنا الكلام في هذه المسألة من كتاب التكميل لشرح التسهيل من تأليفنا .

« الإحسان » والإينعام والإفضال نظائر أحسن الرجل أتى بالحسن وأحسن الشيء أتى به حسناً وأحسن إلى عمرو أسدى إليه خيراً ، التبديل تغيير الشيء بآخر تقول هذا بدل هذا : أي عوضه ويتعدى لاثنتين ، الثاني أصله حرف جر « بدلت ديناراً بدرهم » : أي جعلت ديناراً عوض الدرهم ، وقد يتعدى لثلاثة فتقول « بدلت زيداً ديناراً بدرهم » : أي حصلت له ديناراً عوضاً من درهم ، وقد يجوز حذف حرف الجر لفهم المعنى قال تعالى ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ [الفرقان : ٧٠] ، أي يجعل لهم (حسنات) عوض السيئات ، وقد وهم كثير من الناس فجعلوا ما دخلت عليه الباء هو الحاصل ، والمنصوب هو الذاهب ، حتى قالوا ولو أبدل ضاد بظاء لم تصح صلاته وصوابه لو أبدل ظاء بضاد ، « الرُّجُزُ » العذاب وتكسر راءه وتضم ، والضم لغة بني الصعداء وقد قرىء بهما في بعض المواضع قال رؤبة :

كَمْ رَأَمْنَا مِنْ ذِي عَدِيدٍ مُبْزِي حَتَّى وُقِينَا كَيْدَهُ بِالرُّجُزِ

و « الرُّجُز » بالضم اسم صنم مشهور ، والرجزاء ناقة أصاب عجزها داء ، فإذا نهضت ارتعشت أفخاذها قال الشاعر :

هَمَمْتُ بِخَيْرٍ ثُمَّ قَصَّرْتُ دُونَهُ كَمَا نَاءَتِ الرُّجُزَاءُ شُدَّ عَقَالُهَا

قيل الرجز مشتق من الرجاجة وهي صوف تزين به الهودج كأنه وسهم قال الشاعر :

وَلَوْ ثَقَّقَآهَا ضُرَّجَتْ بِدِمَائِهَا كَمَا ضُرَّجَتْ نَضْوُ الْقِرَامِ الرِّجَائِزُ

الاستسقاء طلب السقي والطلب أحد المعاني التي سبق ذكرها في الاستفعال في قوله (وإياك نستعين) ، العصا مؤنث والألف منقلبة عن واو قالوا عصوان وعصوته : أي ضربته بالعصا ويجمع على أفعال شذوذاً قالوا اعص أصله اعصو ، وعلى فعول قياساً قالوا عصي أصله اعصوو ويتبع حركة العين حركة الصاد قال الشاعر :

أَلَا إِنَّ لَا تَكُنْ إِبِلٌ فَمِعْزَى كَأَنَّ قُرُونًا جِلَّتْهَا الْعِصِيُّ^(١)

« الحجر » هو هذا الجسم الصلب المعروف عند الناس وجمع على أحجار وحجار وهما جمعان مقيسان فيه ، وقالوا حجارة بالياء ، واشتقوا منه قالوا استحجر الطين ، والاشتقاق من الأعيان قليل جداً ، « الانفجار »^(٢) انصداع شيء من شيء ومنه انفجر ، والفجور وهو الانبعاث في المعصية كالماء وهو مطاوع فعل فجره فانفجر والمطاوعة أحد المعاني التي جاء لها انفعال وقد تقدّم ذكرها ، (اثنتا) تأنيث اثنتين وكلاهما له إعراب المثنى وليس بمثنى حقيقة لأنه لا يفرد فيقال اثن ولا أثنه ولأهمهما محدوفة وهي ياء لأنه من ثنيت ، العشرة بإسكان الشين لغة الحجاز وبكسرها لغة تميم

(١) البيت من الوافر لامرئ القيس ديوانه (١٣٦) ، (١٣٧) ، الحماسة البصرية (٧٩/٢) .

(٢) يقال : انفجرت عليهم الدواهي : أتهم من كل وجه كثيرة بغته - لسان العرب (٣٣٥١/٥) .

والفتح فيها شاذ غير معروف ، وهو أول العقود واشتقوا منه فقالوا عَشَرَهُمْ يعشرهم ومنه العشر والعشر والعُشْر شجر لين والأعشار القطع لا واحد لها ووصف بها المفرد قالوا برمة أعشار ، العين لفظ مشترك بين منبع الماء والعضو الباصر والسحابة تقبل من ناحية القبلة والمطر يمطر خمساً أو ستاً لا يقلع ومن له شرف في الناس والثقب في المزايدة والذهب وغير ذلك ، وجمع على أعين شاذاً ، وعيون قياساً ، وقالوا في الأشراف من الناس أعيان ، وجاء ذلك قليلاً في العضو الباصر ، قال الشاعر :

أَسْمَلُ أَغْيَانًا لَهَا وَمَاقِيَا

أناس اسم جمع لا واحد له من لفظه وإذا سمي به مذكر صرف وقول الشاعر :

وَأِلَى ابْنِ أُمِّ أَنَاسٍ أَرْحَلُ نَاقَتِي^(١)

منع صرفه إما لأنه علم على مؤنث وإما ضرورة على مذهب الكوفيين ، مشرب مفعول من الشراب يكون للمصدر والزمان والمكان ، ويطرد من كل ثلاثي متصرف مجرد لم تكسر عين مضارعه سواء صحت لامه كسرت ودخل أو أعلت كرمي وغزا وشذ من ذلك ألفاظ ذكرها النحويون ، « العثو » والعثي أشد الفساد يقال عثأ يعثو عثواً وعثي يعثي عثياً وعثاً يعني عثياً لغة شاذة ، قال الشاعر :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنْ رَأْسِي قَدْ عَثَا فِيهِ الْمَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ

وثبوت العثي دليل على أن عثي ليس أصلها عثو كرضي الذي أصله رضو ، خلافاً لزاعمه ، وعاث يعيث عثياً ومعائاً ، وعث يعث كذلك ، ومنه عثة الصوف وهي السوسة التي تلحسه ، « الطعام » اسم لما يطعم كالعطاء اسم لما يعطى وهو جنس ، « الواحد » هو الذي لا يتبعض والذي لا يضم إليه ثان يقال وحد يحد وحداً وحدة إذا انفرد ، « الدعاء » التصويت باسم المدعو على سبيل النداء ، والفعل منه دعا يدعو دعاء ، « الإنبات » الهمزة فيه للنقل وهو الإخراج لما شأنه النمو ، « البقل » جنس يندرج فيه النبات الرطب مما يأكله الناس والبهائم يقال منه بقلت الأرض وأبقلت : أي صارت ذات بقل ومنه الباقلاء ، قاله ابن دريد ، « القثاء » اسم جنس واحده قثاء بضم القاف وكسرهما وهو هذا المعروف ، وقال الخليل هو الخيار ويقال أرض مقثأة : أي كثيرة القثاء ، « الفوم » قال الكسائي والفراء والنضر بن شميل وغيرهم هو الثوم أبدلت الثاء فاء كما قالوا في مغفور مغثور ، وفي جدث جدف ، وفي عاثور عافور قال أمية بن الصلت :

كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةً فِيهَا الْقَرَادِيسُ وَالْفُومَانُ وَالْبَصَلُ

وأنشد مؤرج لحسان :

وَأَنْتُمْ أَنَاسُ إِسَامِ الْأُصُولِ طَعَامُكُمْ الْفُومُ وَالْحَوْقُلُ

يعني الفوم^(٢) والبصل ، وهذا كما أبدلوا بالفاء الثاء قالوا في الأثافي الأثائي ، وكلا البدلين لا ينقاس أعني إبدال

(١) هذا صدر بيت من الكامل لبشر بن أبي خازم الأسدي . انظر الكتاب (٩/٢) ، همع الهوامع (١٢٧/٢) ، الخزائن (١٤٩/١) .

(٢) الفوم : الزرع أو الحنطة . . وقال بعضهم : الفوم الجُمُصُ لغة شامية . . . والفوم : الخبز أيضاً ، وقيل : الفوم لغة في الثوم . . .

لسان العرب (٣٤٩١/٥) .

الثاء فاء والفاء ثاء ، وقال أبو مالك وجماعة الفوم الحنطة ومنه قول أحيحة بن الجلاح :

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي كَأَغْنَى وَاحِدٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ عَنْ زِرَاعَةِ فُومٍ

قيل وهي لغة مصر وهو اختيار المبرد وقال الفراء : وهي لغة قديمة وقال ابن قتيبة والزجاج : هي الحبوب التي تؤكل ، وقال أبو عبيدة وابن دريد هي السنبله زاد أبو عبيدة بلغة أسد ، وقيل الحبوب التي تخبز ، وقيل الخبز تقول العرب فوموا لنا: أي اخبزوا واختاره ابن قتيبة قال :

تَلْتَقِمُ الْفَالِحَ لَمْ يُفُومَ تَقْمُماً زَادَ عَلَى التَّقْمِ

وقال قطرب : الفوم كل عقدة في البصل ، وكل قطعة عظيمة في اللحم ، وكل لقمة كبيرة ، وقيل : إنه الحمص وهي لغة شامية ويقال لبائعه فامي مغير عن فومي للنسب كما قالوا سهلي ودهري ، العدس : معروف وعدس وعدس من الأسماء الأعلام وعدس زجر للبغل ، البصل معروف ، « أدنى » أفعل التفضيل من الدنو وهو القرب يقال منه دنا يدنو دنواً ، وقال علي بن سليمان الأخفش هو أفعل من الدناءة وهي الخسة والرداءة خفت الهمزة بإبدالها ألفاً ، وقال أبو زيد في المهموز دَنُوَ الرجل يَدْنًا دَنَاءً وَدَنًا يَدْنًا ، وقال غيره : هو أفعل من الدون : أي أخط في المنزل وأصله أدون فصار وزنه أفعل نحو أولى لك هو أفعل من الوليل أصله أويل فقلب ، « المصر »^(١) البلد مشتق من مصرت الشاة أمصرها مصراً حلبت كل شيء في ضرعها ، وقيل المصر: الحدُّ بين الأرضين ، وهجر يكتبون اشترى الدار بمصورها : أي بحدودها ، وقال عدي بن زيد :

وَجَاعِلُ الشَّمْسِ مِصْراً لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فُصِّلَا

« السؤال » الطلب ويقال : سأل يسأل سؤالاً ، والسؤال المطلوب ، وسأل يسأل على وزن خاف يخاف ، ويجوز تعليق فعله وإن لم يكن من أفعال القلوب سلمهم أيهم بذلك زعيم قالوا لأن السؤال سبب إلى العلم فأجري مجرى العلم ، الذلة مصدر ذل يذل ذلة وذلاً ، وقيل « الذلة » كأنها هيئة من الذل كالجلسة والذل الخضوع وذهاب الصعوبة ، المسكنة^(٢) مفعلة من السكون ومنه سمي المسكين لقلة حركاته وتور نشاطه وقد بني من لفظه فعل ، قالوا تمسكن كما قالوا تمدرع من المدرعة وقد طعن على هذا النقل وقيل لا يصح وإنما الذي صح تسكن وتدرع ، باء بكذا : أي رجع قاله الكسائي^(٣) أو اعترف قاله أبو عبيدة^(٤) واستحق قاله أبو روق ، أو نزل وتمكن قاله المبرد ، أو تساوى قاله الزجاج وأنشدوا لكل قول ما يستدل به من كلام العرب وحذفنا نحن ذلك ، « النبيء » مهموز من أنبأ فاعيل بمعنى مفعول كسميع من أسمع وجمع على النبأ ومصدره النبوة ، وتنبأ مسيلمة كل ذلك دليل على أن اللام همزة ، وحكى الزهراوي^(٥) أنه

(١) قال الليث : المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفياء والصدقات من غير مؤامرة للخليفة - لسان العرب (٤٢١٥/٦) .

(٢) المسكنة : فقر النفس .

وتمسكن إذا تشبه بالمساكين ، وهم جمع المسكين ، وهو الذي لا شيء له ، وقيل : هو الذي له بعض الشيء - لسان العرب (٢٠٥٦/٣) .

(٣) قال الواحدي بأؤوا أي رجعوا في قول الفراء وقال الكسائي : انصرفوا به - انظر معاني القرآن للفراء (٦٠/١) ، الأخفش (٢٧٣/١) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٢٩٢/١) .

(٥) الإمام العالم الحافظ المجود محدث الأندلس أبو حفص عمر بن عبد الله بن يوسف بن حامد الذهلي القرطبي الزهراوي توفي سنة ٤٥٤ هجرية - السير (٢١٩/١٨) .

يقال نبؤ إذا ظهر فهو نبيء وبذلك سمي الطريق الظاهر نبياً فعلى هذا هو فعيل اسم فاعل من فعل كشریف من شرف ومن لم يهزم فليل أصله الهمز ثم سهل ، وقيل مشتق من نبا ينبو إذا ظهر وارتفع قالوا والنبي الطريق الظاهر قال الشاعر :

لَمَّا وَرَدَنَّ نَبِيًّا وَاسْتَتَبَ بِنَا مُسْحَفِرٌ لِحُطُوطِ الْمَسْحِ مُنْسَحِلٌ

قال الكسائي : النبي الطريق سمي به لأنه يهتدى به قالوا وبه سمي الرسول لأنه طريق إلى الله تعالى ، « العصيان » عدم الانقياد للأمر والنهي ، والفعل منه عصى يعصي وقد جاء العصى في معنى العصيان أنشد ابن حماد في تعليقه عن أبي الحسن بن الباذش مما أنشده الفراء :

في طاعة الرب وعَصَى الشيطان

الإعتداء افتعال من العَدُو وقد مرّ شرحه عند قوله ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ [البقرة : ٣٦] ، ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ القائل هو الله تعالى وهل ذلك على لسان موسى أو يوشع عليهما السلام قولان ، وانتصاب هذه على ظرف المكان لأنه إشارة إلى ظرف المكان كما تنتصب أسماء الإشارة على المصدر وعلى ظرف الزمان إذا كنّ إشارة إليهما تقول « ضربت هذا الضرب » و « صمت هذا اليوم » هذا مذهب سيويه في دخل أنها تتعدى إلى المختص من ظرف المكان بغير وساطة في فإن كان الظرف مجازياً تعدّت بفي نحو « دخلت في غمار الناس » و « دخلت في الأمر المشكل » ، ومذهب الأخفش والجزمي أن مثل دخلت البيت مفعول به لا ظرف مكان ، وهي مسألة تذكر في علم النحو ، والألف واللام في القرية للحضور ، وانتصاب القرية على النعت أو على عطف البيان كما مرّ في إعراب الشجرة من قوله ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ [البقرة : ٣٥] ، وإن اختلفت جهتا الإعراب في هذه فهي في (ولا تقربا هذه) مفعول به وهي هنا على الخلاف الذي ذكرناه ، والقرية هنا بيت المقدس في قول الجمهور قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي والربيع وغيرهم ، وقيل أريحا قاله ابن عباس أيضاً وهي بأرض المقدس ، قال أبو زيد عمر بن شبة^(١) النمري : كانت قاعدة ومسكن ملوك وفيها مسجد هو بيت المقدس ، وفي المسجد بيت يسمى إيليا ، وقال الكواشي : أريحا قرية الجبارين كانوا من بقايا عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق ، وقيل : الرملة قاله الضحاك ، وقيل : ايلة ، وقيل : الأردن ، وقيل : فلسطين ، وقيل : البلقاء ، وقيل : تدمر ، وقيل : مصر ، وقيل : قرية بقرب بيت المقدس غير معينة أمروا بدخولها ، وقيل : الشام روي ذلك عن ابن كيسان ، وقد رجح القول الأوّل لقوله في المائدة ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ [المائدة : ٢١] ، قيل : ولا خلاف أن المراد في الآيتين واحد وردّ هذا القول بقوله فبدّل لأن ذلك يقتضي التعقيب في حياة موسى لكنه مات في أرض التيه ولم يدخل بيت المقدس ، وأجاب من قال إنها بيت المقدس بأن الآية ليس فيها ما يدل على أن القول كان على لسان موسى ، وهذا الجواب وهم لأنه قد تقدّم أن المراد في هذه الآية وفي التي في المائدة من قوله (ادخلوا الأرض المقدسة) واحد والقائل ذلك في آية المائدة قطعاً ألا ترى إلى قوله ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ [المائدة : ٢٢] ، وقولهم (قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين) ، قال وهب : كانوا قد ارتكبوا ذنباً فليل لهم ادخلوا ؛ الآية ، وقال غيره ملوا المنّ والسلوى فليل لهم ﴿ اهبطوا مصرأ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وكان أوّل ما لقوا أريحا .

وفي قوله (هذه القرية) دليل على أنهم قاربوها وعايينوها لأن هذه إشارة لحاضر قريب ، قيل والذي قال لهم ذلك هو يوشع بن نون فإنه نقل عنهم أنهم لم يدخلوا البيت المقدس إلا بعد رجوعهم من قتال الجبارين ولم يكن موسى معهم

(١) عمر بن شبة بن عبيدة بن ربيعة أبو زيد البصري النميري مولاهم النحوي توفي سنة ٢٦٢ هجرية - البغية (٢١٩/٢) .

حين دخلوها فإنه مات هو وأخوه في التيه ، وقيل لم يدخلوا التيه لأنه عذاب والله لا يعذب أنبياءه ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في قصة آدم في قوله ﴿ وكلا منها رغداً ^(١) حيث شئتما ﴾ [البقرة : ٣٥] ، إلا أن هناك العطف بالواو وهنا بالفاء وهناك تقديم الرغد على الظرف وهنا تقديم الظرف على الرغد ، والمعنى فيهما واحد إلا أن الواو هناك جاءت بمعنى الفاء قيل وهو المعنى الكثير فيها أعني أنه يكون المتقدم في الزمان والمعطوف بها هو المتأخر في الزمان وإن كانت قد ترد بالعكس وهو قليل وللمعية والزمان وهو دون الأول ، ويدل أنها بمعنى الفاء ما جاء في الأعراف من قوله فكلا بالفاء والقضية واحدة ، وأما تقديم الرغد هناك فظاهر فإنه من صفات الأكل أو الأكل فناسب أن يكون قريباً من العامل فيه ولا يؤخر عنه ويفصل بينهما بظرف وإن لم يكن فاصلاً مؤثراً المنع لاجتماعهما في المعمولية لعامل واحد وأما هنا فإنه آخر لمناسبة الفاصلة بعده ألا ترى أن قوله (فكلوا منها حيث شئتم رغداً) وقوله (وادخلوا الباب سجداً فهما سجعتان متناسبتان) فلهذا والله أعلم كان هذان التركيبان على هذين الوضعين ﴿ وادخلوا الباب ﴾ الخلاف في نصب (الباب) كالخلاف في نصب (القرية) ، والباب أحد أبواب بيت المقدس ، ويدعى الآن « باب حطة » قاله ابن عباس ، أو الثامن من أبواب بيت المقدس ويدعى باب التوبة قاله مجاهد والسدي ، أو باب القرية التي أمروا بدخولها ، أو باب القبة التي كان فيها موسى وهارون يتعبدان ، أو باب في الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، ﴿ سَجْدًا ﴾ نصب على الحال من الضمير في (ادخلوا) قال ابن عباس معناه ركعاً وعبر عن الركوع بالسجود كما يعبر عن السجود بالركوع ، قيل لأن الباب كان صغيراً ضيقاً يحتاج الداخل فيه إلى الانحناء ، وبعد هذا القول لأنه لو كان ضيقاً لكانوا مضطرين إلى دخوله ركعاً فلا يحتاج فيه إلى الأمر وهذا لا يلزم لأنه كان يمكن أن تكون الحال لازمة بمعنى أنه لا يمكن أن يقع الدخول إلا على هذه الحال والحال اللازمة موجودة في كلام العرب ، وقيل : معناه خضعاً متواضعين ، واختاره أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل في المنتخب ، ونذكر وجه اختياره لذلك وقيل : معناه السجود المعروف من وضع الجبهة على الأرض ، والمعنى : ادخلوا ساجدين شكراً لله تعالى إذ ردهم إليها وهذا هو ظاهر اللفظ قال أبو عبد الله بن أبي الفضل : وهذا بعيد لأن الظاهر يقتضي وجوب الدخول حال السجود ، فلو حملناه على ظاهره لامتنع ذلك ، فلما تعذر حمله على حقيقة السجود وجب حمله على التواضع لأنهم إذا أخذوا في التوبة فالتائب عن الذنب لا بد أن يكون خاشعاً مستكيناً ، وما ذهب إليه لا يلزم لأن أخذ الحال المقارنة فتعذر ذلك عنده ، وليس بمتعذر لأنه لا يبعد أن أمروا بالدخول وهم ساجدون فيضعون جباههم على الأرض وهم داخلون ، وتصدق الحال المقارنة بوضع الجبهة على الأرض إذا دخلوا ، وأما إذا جعلنا الحال مقدرة فيصح ذلك لأن السجود إذ ذاك يكون مترخياً عن الدخول والحال المقدرة موجودة في لسان العرب ، من ذلك ما في كتاب سيبويه « مررت برجل معه صقرٌ صائداً به غداً » ، وإذا أمكن حمل السجود على المتعارف فيه كثيراً وهو وضع الجبهة بالأرض يكون الحال مقارنة ، أو مقدرة كان أولى ، وقال الزمخشري ^(٢) : أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله وتواضعاً ، وما ذكره ليس مدلول الآية ، لأنهم لم يؤمروا بالسجود في الآية عند الانتهاء إلى الباب بل أمروا بالدخول في حال السجود ، فالسجود ليس مأموراً به بل هو قيد في وقوع المأمور به وهو الدخول ، والأحوال نسب تقييدية والأوامر نسب إسنادية فتناقضتا ، إذ يستحيل أن يكون الشيء تقييدياً إسنادياً لأنه من حيث التقييد لا يكفي كلاماً ، ومن حيث الإسناد يكفي فظهر التناقض ، وفي كيفية دخولهم الباب أقوال : قال ابن عباس وعكرمة دخلوا من قبل أستاذهم ، وقال ابن مسعود دخلوا مقنعي رؤوسهم ، وقال مجاهد دخلوا على حروف أعينهم ، وقال مقاتل دخلوا مستلقين ، وقيل دخلوا منزحفين على ركبهم عناداً وكبراً ، والذي

(١) عيش رغد : كثير ... مخصب رفيه غزير - لسان العرب (٣/ ١٦٨٠) .

(٢) انظر الكشف (١/ ١٤٢) .

ثبت في البخاري^(١) ومسلم « أنهم دخلوا الباب يزحفون على أستاههم » فاضمحت هذه التفسير ووجب المصير إلى تفسير رسول الله ﷺ ، وقوله ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ حطة مفرد ومحكي القول لا بد أن يكون جملة ، فاحتيج إلى تقدير مصحح للجملة فقد مرسلنا حطة هذا تقدير الحسن بن أبي الحسن ، وقال الطبري : التقدير دخولنا الباب كما أمرنا حطة ، وقال غيرهما : التقدير أمرك حطة ، وقيل : التقدير أمرنا حطة : أي أن نحط في هذه القرية ونستقر فيها قال الزمخشري والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات كقوله « صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكَلَانَا مَبْتَلَى » ، والأصل صبراً انتهى كلامه وهو حسن . ويؤكد هذا التخريج قراءة إبراهيم بن أبي عبلة (حَطَّةٌ) بالنصب كما روي ، (صبراً جميلاً فكَلَانَا مَبْتَلَى) ، بالنصب والأظهر من التقادير السابقة في إضمار المبتدأ القول الأول لأن المناسب في تعليق الغفران عليه هو سؤال حط الذنوب لا شيء من تلك التقادير الأخر ونظير هذا الإضمار قول الشاعر :

إِذَا ذُقْتُ فَاهَا قُلْتُ طَعْمُ مَدَامَةٍ مُعْتَقَةٍ مِمَّا تَجِيءُ بِهِ التَّجَرُّ^(٢)

روي برفع طعم على تقدير « هذا طعم مدامة » وبالنصب على تقدير « ذقت طعم مدامة » (قال الزمخشري)^(٣) ، (فإن قلت) هل يجوز أن ينصب حطة في قراءة من نصبها يقولوا على معنى قولوا هذه الكلمة ؟ ، (قلت) لا يبعد انتهى . وما جوزه ليس بجائز لأن القول لا يعمل في المفردات إنما يدخل على الجمل للحكاية ، فيكون في موضع المفعول به إلا إن كان المفرد مصدرًا نحو « قلت قولاً » أو صفة لمصدر نحو « قلت حقاً » أو معبراً به عن جملة نحو « قلت شعراً » و « قلت خطبة » ، على أن هذا القسم يحتمل أن يعود إلى المصدر لأن الشعر والخطبة نوعان من القول فصار كالمقهقري من الرجوع ، وحطة ليس واحداً من هذه ، ولأنك إذا جعلت (حطة) منصوبة بلفظ (قولوا) كان ذلك من الإسناد اللفظي ، وعري من الإسناد المعنوي ، والأصل هو الإسناد المعنوي ، وإذا كان من الإسناد اللفظي لم يترتب على النطق به فائدة أصلاً إلا مجرد الامتثال للأمر بالنطق بلفظ ، فلا فرق بينه وبين الألفاظ الغفل التي لم توضع للدلالة على معنى ، ويبعد أن يترتب الغفران للخطايا على النطق بمجرد لفظ مفرد لم يدل به على معنى ، أما ما ذهب إليه أبو عبيدة من أن قوله حطة مفرد وأنه مرفوع على الحكاية وليس مقطوعاً من جملة بل أمروا بقولها هكذا مرفوعة فبعيد عن الصواب ، لأنه يبقى حطة مرفوعاً بغير رافع ولأن القول إنما وضع في باب الحكاية ليحكم به الجمل لا المفردات ، ولذلك احتاج النحويون في قوله تعالى ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٠] ، إلى تأويل وأما تشبيهه إياه بقوله :

سَمِعْتُ النَّاسَ يَنْتَجِعُونَ غَيْثًا^(٤)

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرِّكْضِ الْمَعَارِ^(٥)

- (١) البخاري (٣٤٠٣) ، ومسلم (٣٠١٥/١) ، وأحمد في المسند (٣١٢/٢) ، (٣١٨) .
- (٢) البيت من الطويل لامرئ القيس انظر ديوانه (١٠٩) ، اللسان (تجر) . همع الهوامع (١٥٧/١) .
- (٣) انظر الكشف (١٤٢/١) .
- (٤) هذا صدر بيت من الوافر لذي الرمة من قصيدة له في مدح بلال بن أبي بردة الأشعري . انظر شرح ديوان ذي الرمة ص (٦٨) ، (٧٠) ، والخزانة (١٦٧/٩) ، الحلل (٣٨٧) ، الإفصاح للفراري ص (٣٣٠) ، النوادر لأبي زيد ص (٢٠٩) ، لسان العرب (نجع ، صدح) .
- (٥) البيت من الوافر لبشر بن أبي خازم - انظر الخزانة (١٦٨/٩) ، التنبيه والإيضاح (١٧٥/٢) ، مجمع الأمثال (٢٠٣/١) ، الكشف (٣٩٢/٤) .

فليس بسديد لأن سمع ووجد كل منهما يتعلق بالمفردات والجمل لأن المسموع والموجود في الكتاب قد يكون مفرداً وقد يكون جملة وأما القول فلا يقع إلا على الجمل ولا يقع على المفردات إلا فيما تقدم ذكره وليس حطة منها ، واختلفت أقوال المفسرين في حطة .

فقال الحسن : معناه حط عنا ذنوبنا ، وقال ابن عباس وابن جبير ووهب : أمروا أن يستغفروا ، وقال عكرمة : معناها لا إله إلا الله ، وقال الضحاك : معناه وقولوا هذا الأمر الحق ، وقيل : معناه نحن لا نزال تحت حكمك ممثلون لأمرك كما يقال قد حططت في فنائك رحلي ، وقد تقدمت التقادير في إضمار ذلك المبتدأ قبل حطة وهي أقاويل لأهل التفسير .

وقد روي عن ابن عباس أنهم أمروا بهذه اللفظة بعينها ، قيل والأقرب خلافه لأن هذه اللفظة عربية ، وهم ما كانوا يتكلمون بها ، ولأن الأقرب أنهم أمروا بأن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم والخضوع حتى لو قالوا اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك لكان الخضوع حاصلًا لأن المقصود من التوبة أما بالقلب فبالندم وأما باللسان فبذكر لفظ يدل على حصول الندم في القلب وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة بعينها ، ﴿يَغْفِرُ﴾ نافع بالياء مضمومة ، ابن عامر بالتاء ، أبو بكر من طريق الجعفي يغفر ، الباقون (يَغْفِرُ) فمن قرأ بالياء مضمومة فلأن الخطايا مؤنث ، ومن قرأ بالياء مفتوحة فالضمير عائد على الله تعالى ويكون من باب الالتفات لأن صدر الآية (وإذ قلنا) ثم قال يغفر ، فانتقل من ضمير متكلم معظم نفسه إلى ضمير الغائب المفرد ، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على القول الدال عليه ، وقولوا : أي نغفر القول ونسب الغفران إليه مجازاً لما كان سبباً للغفران ، ومن قرأ بالنون وهي قراءة باقي السبعة فهو الجاري على نظام ما قبله من قوله (وإذ قلنا) ، وما بعده من قوله (وسنزيد) فالكلام به في أسلوب واحد ، ولم يقرأ أحد من السبعة إلا بلفظ ﴿خطاياكم﴾ وأماها الكسائي وقرأت طائفة (تَغْفِرُ) بفتح التاء ، قيل : كان الحطة تكون سبب الغفران يعني قائل هذا وهو ابن عطية فيكون الضمير للحطة ، وهذا ليس بجيد لأن نفس اللفظة بمجرد هـ لا تكون سبباً للغفران ، وقد بينا ذلك قبل فالضمير عائد على المقالة المفهومة من وقولوا ونسب الغفران إليها على طريق المجاز إذ كانت للغفران ، وقرأ الجحدري وقتادة (تَغْفِرُ) بضم التاء وإفراء الخطيئة ، وروي عن قتادة (يَغْفِرُ) بالياء مضمومة ، وقرأ الأعمش (يَغْفِرُ) بالياء مفتوحة وإفراء الخطيئة ، وقرأ الحسن (يَغْفِرُ) بالياء مفتوحة والجمع المسلم ، وقرأ أبو حنيفة (تَغْفِرُ) بالتاء مضمومة وبالجمع المسلم ، وحكى الأهوازي أنه قرأ (خَطَايَاكُمْ) بهمز الألف وسكون الألف الأخيرة ، وحكى عنه "مكس" وتوجيه هذا الهمز : أنه استثقل النطق بألفين مع أن الحاجز حرف مفتوح ، والفتحة تنشأ عنها الألف ، فكانه اجتمع ثلاث ألفات ، فهمز إحدى الألفين ليزول هذا الاستثقال ، وإذ كانوا قد همزوا الألف المفردة بعد فتحة في قوله :

وخندف هامة هذا العالم

فلأن يهمزوا هذا أولى ، وهذا توجيه شذوذ ، ومن قرأ بضم الياء أو التاء كان (خطاياكم أو خطياتكم أو خطيتكم) مفعولاً لم يسم فاعله ، ومن قرأ بفتح التاء أو الياء أو بالنون كان ذلك مفعولاً وجزم هذا الفعل لأنه جواب الأمر ، وقد تقدم الكلام في نظيره في قوله تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) وذكرنا الخلاف في ذلك وهنا تقدمت أوامر أربعة (ادخلوا فكلوا ، وادخلوا الباب ، وقولوا حطة) ، والظاهر أنه لا يكون جواباً إلا للآخرين وعليه المعنى لأن ترتب الغفران لا يكون على دخول القرية ولا على الأكل منها ، وإنما يترتب على دخول الباب لتقييده بالحال التي هي عبادة وهي السجود وبقوله وقولوا (حطة) لأن فيه السؤال بحط الذنوب وذلك لقوة المناسبة وللمجاورة ، ويدل على ترتب

ذلك عليها ما في الأعراف من قوله تعالى ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر ﴾ [الأعراف : ١٦١] ، والقصة واحدة فرتب الغفران هناك على قولهم (حطة) وعلى دخول الباب سجداً لما تضمنه الدخول من السجود وفي تخالف هاتين الجملتين في التقديم والتأخير دليل على أن الواو لا ترتب وأنها لمطلق الجمع ، وقرأ من الجمهور بإظهار الراء من (نغفر) عند اللام ، وأدغمها قوم ، قالوا : وهو ضعيف ﴿ وسنزید ﴾ هنا بالواو وفي الأعراف سنزید ، والتي في الأعراف مختصرة ألا ترى إلى سقوط رغداً والواو من وسنزید ، وقوله ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ [الأعراف : ١٦٢] ، يدل ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا ﴾ [البقرة : ٥٩] ، وإثبات ذلك هنا ناسب الإسهاب هنا والاختصار هناك والزيادة ارتفاع عن القدر المعلوم وضده النقص ﴿ المحسنين ﴾ قيل الذين لم يكونوا من أهل تلك الخطيئة ، وقيل (المحسنين) منهم فقيل معناه من أحسن منهم بعد ذلك زدناه ثواباً ودرجات ، وقيل : معناه من كان محسناً منهم زدنا في إحسانه ، ومن كان مسيئاً مخطئاً نغفر له خطيئته ، وكانوا على هذين الصنفين فأعلمهم الله أنهم إذا فعلوا ما أمروا به من دخولهم الباب سجداً وقولهم (حطة يغفر ويضاعف ثواب محسنهم) ، وقيل المحسنون من دخل كما أمر وقال لا إله إلا الله فتلخص أن المحسنين أما من غيرهم أو منهم فمنهم أما من اتصف بالإحسان في الماضي : أي كان محسناً أو في المستقبل : أي من أحسن منهم بعد ، أو في الحال : أي وسنزیدكم بإحسانكم في امتثالكم ما أمرتم به من دخول الباب سجداً والقول حطة ، وهذه الجملة معطوفة على وقولوا (حطة نغفر لكم خطاياكم) وليست معطوفة على نغفر فتكون جواباً ، ألا تراها جاءت منقطعة عن العطف في الأعراف في قوله (سنزید) وإن كانت من حيث المعنى لا من حيث الصناعة الإعرابية ترتب على دخول الباب سجداً والقول حطة لكنها أجريت مجرى الإخبار المحض الذي لم يرتب على شيء قبله ﴿ فبدل الذين ظلموا ﴾ ظاهره انقسامهم إلى ظالمين وغير ظالمين ، وأن الظالمين هم الذين بدلوا فإن كان كلهم بدلوا كان ذلك من وضع الظاهر موضع المضمرة إشعاراً بالعلة ، وكأنه قيل فبدلوا ، لكنه أظهره تنبيهاً على علة التبديل وهو الظلم : أي لولا ظلمهم ما بدلوا والمبدل به محذوف تقديره فبدل الذين ظلموا بقولهم حطة ﴿ قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ ولما كان محذوفاً ناسب إضافة غير إلى الاسم الظاهر بعدها والذي قيل لهم هو : أن يقولوا حطة ، فلو لم يحذف لكان وجه الكلام « فبدل الذين ظلموا بقولهم حطة قولاً غيره » لكنه لما حذف أظهر مضافاً إليه غير ليدل على أن المحذوف هو هذا المظهر وهو الذي قيل لهم وهذا التقدير الذي قدرناه هو على وضع بدل إذ المجرور هو الزائل والمنصوب هو الحاصل ، واختلف المفسرون في القول الذي قالوه بدل أن يقولوا : حطة ، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد ووهب وابن زيد : حطة^(١) وقال السدي عن أشياخه : حطة حمراء ، وقيل : حطة بيضاء مثقوبة فيها شعرة سوداء ، وقال أبو صالح : سنبلة ، وقال السدي ومجاهد : أيضاً هطاً شمهاً ، وقيل : حطى شمعاتاً ومعناها في هذين القولين حطة حمراء ، وقيل حطة بيضاء مثقوبة فيها شعرة ، وقيل حبة في شعيرة ، وقال ابن مسعود حطة حمراء فيها شعير ، وقيل حطة في شعير رواه ابن عباس عن النبي ﷺ^(٢) ، وقيل حبة حطة مقلوبة في شعرة ، وقيل تكلموا بكلام النبطية على جهة الاستهزاء والاستخفاف ، وقيل إنهم غيروا ما شرع لهم ولم يعملوا بما أنزل الله عليهم ، والذي ثبت في صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ^(٣) فسر ذلك بأنهم قالوا : حبة في شعرة فوجب المصير إلى هذا القول وإطراح تلك الأقوال ، ولو صح شيء من الأقوال السابقة لحمل اختلاف الألفاظ على اختلاف القائلين فيكون بعضهم قال كذا ،

(١) انظر تفسير الطبري (١١٣/٢) ، تفسير القرطبي (٢٨٢/١) ، تفسير ابن عباس (٩) ، مجاهد ص (٨٦) ، ابن كثير (٩٨/١) - (٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٣٤٠٣) ، ومسلم (٣٠١٥/١) ، والترمذي (٢٩٥٦) ، وأحمد في المسند (٣١٢/٢ - ٣١٨) .

(٣) انظر التخریج السابق .

وبعضهم قال كذا ، فلا يكون فيها تضاد ، ومعنى الآية : أنهم وضعوا مكان ما أمروا به من التوبة والاستغفار قولاً مغايراً له مشعراً باستهزائهم بما أمروا به والإعراض عما يكون عنه غفران خطيئاتهم كل ذلك عدم مبالاة بأوامر الله فاستحقوا بذلك النكال ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً﴾ كرر الظاهر السابق زيادة في تقبيح حالهم وإشعاراً بعلية نزول الرجز^(١) وقد أضمر ذلك في الأعراف فقال (فأرسلنا عليهم) لأن المضمّر هو المظهر وقرأ ابن محيصن (رُجْزاً) بضم الراء ، وقد تقدّم أنها لغة في الرجز ، واختلفوا في الرجز هنا فقال أبو العالية : هو غضب الله تعالى ، وقال ابن زيد : طاعون أهلك منهم في ساعة سبعين ألفاً ، وقال وهب : طاعون عذبوا به أربعين ليلة ثم ماتوا بعد ذلك ، وقال ابن جبير : ثلج هلك به منهم سبعون ألفاً ، وقال ابن عباس : ظلمة وموت مات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفاً وهلك سبعون ألفاً عقوبة . والذي يدل عليه القرآن أنه أنزل عليهم عذاب ولم يبين نوعه إذ لا كبير فائدة في تعليق النوع .

﴿ من السماء ﴾ إن فسر الرجز بالثلج كان كونه من السماء ظاهراً ، وإن فسر بغيره فهو إشارة إلى الجهة التي يكون منها القضاء عليهم أو مبالغة في علوه بالقهر والاستيلاء ﴿ بما كانوا ﴾ ما مصدرية التقدير بكونهم ﴿ يفسقون ﴾ وأجاز بعضهم أن تكون بمعنى الذي وهو بعيد ، وقرأ « النخعي » و « ابن وثاب » وغيرهما (بكسر السين) وهي لغة ، قال أبو مسلم : هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله : على (الذين ظلموا) وفائدة التكرار التأكيد لأن الوصف دال على العلية ، فالظاهر أن التبديل سببه الظلم وأن إنزال الرجز سببه الظلم أيضاً ، وقال غير أبي مسلم ليس مكرراً لوجهين أحدهما أن الظلم قد يكون من الصغائر ﴿ ربنا ظلمنا ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، ومن الكبائر ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : ١٣] ، والفسق لا يكون إلا من الكبائر ، فلما وصفهم بالظلم أولاً وصفهم بالفسق الذي هو لا بد أن يكون من الكبائر ، والثاني أنه يحتمل أنهم استحقوا اسم الظلم بسبب ذلك التبديل ونزول الرجز عليهم من السماء لا بسبب ذلك التبديل بل بالفسق الذي فعلوه قبل ذلك التبديل ، وعلى هذا يزول التكرار انتهى . وقد احتج بعض الناس بقوله تعالى (فبدّل الذين ظلموا) وترتيب العذاب على هذا التبديل على أن ما ورد به التوقيف من الأقوال لا يجوز تغييره ولا تبديله بلفظ آخر ، وقال قوم : يجوز ذلك إذا كانت الكلمة تسدّ مسدّها وعلى هذا جرى الخلاف في قراءة القرآن بالمعنى وفي تكبيرة الإحرام وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة والبيع والتملك وفي نقل الحديث بالمعنى (وذكروا) أن في الآية سوالات :

الأول : قوله هنا ﴿ وإذ قلنا ﴾ وفي الأعراف ﴿ وإذ قيل ﴾ [الأعراف : ١٦١] ، وأجيب بأنه صرح بالفاعل في البقرة لإزالة الإبهام وحذف في الأعراف للعلم به في سورة البقرة .

الثاني : قال هنا ﴿ ادخلوا ﴾ وهناك ﴿ اسكنوا ﴾ [الأعراف : ١٦١] ، وأجيب بأن الدخول مقدّم على السكنى فذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكنى في المتأخرة .

الثالث : هنا ﴿ خطاياكم ﴾ وهناك ﴿ خطيئاتكم ﴾ [الأعراف : ١٦١] ، وأجيب بأن الخطايا جمع كثرة فناسب حيث قرن به ما يليق بجوده وهو غفران الكثير والخطيئات جمع قلة لما لم يصف ذلك إلى نفسه .

الرابع : ذكر هنا ﴿ رعداً ﴾ وهناك حذف ، وأجيب بالجواب قبل .

الخامس : هنا قدم دخول الباب على القول وهناك عكس ، وأجيب أن الواو للجمع والمخاطبون بهذا مذنبون

(١) الرجز : القدر مثل الرّجس . والرّجْزُ : العذاب - لسان العرب (١٥٨٩/٣) .

فاشتغاله بحط الذنب مقدّم على اشتغاله بالعبادة فكلفوا بقول حطة أولاً ثم بالدخول وغير مذنبين فاشتغاله أولاً بالعبادة ثم بذكر التوبة ثانياً على سبيل هضم النفس وإزالة العجب فلما احتمل الانقسام ذكر حكم كل واحد منهما في سورة بأيهما بدأ .

السادس : إثبات الواو في وسنزيد هنا وحذفها هناك ، وأجيب بأنه لما تقدم أمران كان المجيء بالواو مؤذناً بأن مجموع الغفران والزيادة جزاء واحد لمجموع الأمرين ، وحيث تركت أفاد توزع كل واحد على كل واحد من الأمرين فالغفران في مقابلة القول والزيادة في مقابلة ادخلوا .

السابع : لم يذكر ههنا منهم وذكر هناك ، وأجيب بأن أول القصة في الأعراف مبني على التخصيص بلفظ من قال (ومن قوم موسى أمة) فذكر لفظ من آخر ليطابق آخره أوله ، وهنا لم تبين القصة على التخصيص .

الثامن : هنا فأنزلنا وهناك فأرسلنا ، وأجيب بأن الإنزال مفيد حدوثه في أول الأمر والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصالهم بالكلية وهذا إنما يحدث بالآخر .

التاسع : هنا يفسقون وهناك يظلمون ، وأجيب بأنه لما بين هنا كون ذلك الظلم فسقاً اكتفى بذكر الظلم في سورة الأعراف لأجل ما تقدم من البيان ، هنا قال بعض الناس بنو إسرائيل خالفوا الله في قول وفعل وأخبر تعالى بالمجازاة على المخالفة بالقول دون الفعل وهو امتناعهم عن الدخول بصفة السجود ، وأجاب بأن الفعل لا يجب إلا بأمر والأمر قول فحصل بالمجازاة عن القول المجازاة بالأمرين جميعاً ، والجزاء هنا إن كان قد وقع على هذه المخالفة الخاصة فيفسقون يحتمل الحال وإن كان قد وقع على ما مضى من المخالفات التي فسقوا بها فهو مضارع وقع موضع الماضي وهو كثير في القرآن وفصيح الكلام ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ هذا هو الإنعام التاسع وهو جامع لنعم الدنيا والدين أما في الدنيا فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولا هو لهلكوا في التيه وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الإنعام لأنهم في مفازة منقطعة وأما في الدين فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه وعلى صدق موسى عليه السلام ، والاستسقاء طلب الماء عند عدمه وقلته ، وقيل : مفعول استسقى محذوف : أي استسقى موسى ربه فيكون المستسقى منه هو المحذوف وقد تعدى إليه الفعل كما تعدى إليه في قوله إذ استسقاها قومه : أي طلبوا منه السقيا ، وقال بعض الناس وحذف المفعول تقديره استسقى ماء فعلى هذا القول يكون المحذوف هو المستسقى ويكون الفعل قد تعدى إليه كما تعدى إليه في قوله (١) :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ (٢)

ويحتاج إثبات تعديه إلى اثنتين إلى شاهد من كلام العرب كان يسمع من كلامهم « استسقى زيد ربه الماء » وقد ثبت تعديه مرة إلى المستسقى منه ومرة إلى المستسقى فيحتاج تعديه إليهما إلى ثبت من لسان العرب ، وذكر الله هذه النعمة من الاستسقاء غير مقيدة بمكان ، وقد اختلف في ذلك فقال أبو مسلم : كان ذلك على عادة الناس إذا قحطوا ، وما فعله الله تعالى من تججير الماء من الحجر فوق الإجابة بالسقيا ، وإنزال الغيث ، وقال أكثر المفسرين : كان هذا الاستسقاء في التيه حين قالوا من لنا بكذا إلى أن قالوا من لنا بالماء ، فأمر الله موسى بضرب الحجر ، وقيل ، ذلك عند

(١) انظر ما يتعلق بهذه الآثار في تفسير الطبري (١١٦/٢) ، تفسير القرطبي (٢٨٣/١) ، تفسير الوسيط للواحدي في تفسير الآية .

(٢) هذا صدر بيت من الطويل لأبي طالب بن عبد المطلب من قصيدة يمدح فيها سيدنا رسول الله ﷺ - انظر شرح ديوان أبي طالب

ص (١٠٠ ، ١١٣) ، شرح شواهد المغني ص (٣٩٥) ، الحماسة البصرية (١١٨/١) .

خروجهم من البحر الذي انفلق وقعوا في أرض بيضاء ليس فيها ظل ولا ماء ، فسألوا أن يستسقي لهم ، واللام في (لقومه) لام السبب : أي لأجل قومه ثُمَّ محذوف يتم به معنى الكلام : أي لقومه إذ عطشوا أو ما كان بهذا المعنى ومحذوف آخر : أي فأجبناه ﴿ فقلنا اضرب بعصاك ﴾ قالوا : وهذه العصا هي المسؤول عنها في قوله ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ [طه : ١٧] ، وكانت فيها خصائص تذكر في موضعها ، قيل كانت نبعة ، وقيل عليقى وهو شجر له شوك ، وقيل من آس الجنة طولها عشرة أذرع طول موسى عليه السلام ، لها شعبتان يتقدان في الظلمة ، وكان آدم حملها معه من الجنة إلى الأرض فتوارثها أصاغر عن أكابر حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، وذلك أنه لما استرعاه قال له اذهب فخذ عصا فذهب إلى البيت فطارت هذه إلى يده فأمره بردها فأخذ غيرها فطارت إلى يده فتركها له ، وقيل دفعها إليه ملك من الملائكة في طريق مدين ﴿ الحجر ﴾ قال الحسن لم يكن حجراً معيناً بل : أي حجر ضرب انفجر منه الماء وهذا أبلغ في الإعجاز حيث ينفجر الماء من أي حجر ضرب ، وروي أنهم قالوا لو فقد موسى عصاه متناً عطشاً فأوحى الله إليه لا تفرح الحجارة وكلمها تطعك لعلهم يعتبرون فكانت تطيعه فلم يعتبروا ، وقال وهب : كان يقرع لهم أقرب حجر فينفجر ، فعلى هذا تكون الألف واللام في الحجر للجنس ، وقيل إن الألف واللام للعهد وهو حجر معين حملة معه من الطور مربع له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين تسيل في جدول إلى السبط الذي أمرت أن تسقيهم وكانوا ستمائة ألف خارجاً عن دوابهم وسعة العسكر اثنا عشر ميلاً ، وقيل : حجر أهبطه معه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع لشعيب فدفعه إلى موسى مع العصا ، وقيل : هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل إذ رموه بالأذرة ففرّ ، قال له جبرائيل عليه السلام بأمر الله ارفع هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ولك فيه معجزة فحملة في مخلاة قاله ابن عباس ، وقيل : حجر أخذه من قعر البحر خفيف مربع مثل رأس الرجل له أربعة أوجه ينبع من كل وجه ثلاث أعين لكل سبط عين تسيل في جدول إليه وكان يضعه في مخلاته فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه ، وقيل : كان رخاماً فيه اثنتا عشرة حفرة تنبع من كل حفرة عين ماء عذب يأخذونه فإذا فرغوا ضربه موسى بعصاه فذهب الماء ، وقيل : حجر أخذه من جبل زبيد طوله أربعة أذرع قاله الضحاك ، وقيل : حجر مثل رأس الشاة يلقونه في جانب الجوالق إذا ارتحلوا فيه من كل ناحية ثلاث عيون بعد أن يستمسك ماؤها بعد رحلتهم ، فإذا نزلوا قرعه موسى بعصاه فعادت العيون بحسبها قاله ابن زيد ، وقيل : حجر يحمله في مخلاته أخذه إذا قالوا كيف بنا إذا أفضنا إلى أرض ليست فيها حجارة فحيثما نزلوا ألقاه فينفجر ماء ، وقيل : حجر من الكذان فيه اثنتا عشرة عيناً يسقي كل يوم ستمائة ألف قاله أبو روق ، وقيل : حجر ذراع في ذراع قاله السدي وقيل حجر مثل رأس الثور ، وقيل : حجر كان ينفجر لهم منه الماء لم يكونوا يحملونه بل كانوا : أي مكان نزلوا وجدوه فيه وذلك أعظم في الإعجاز وأبلغ في الخارق ، وقال مقاتل والكلبي : كانوا إذا قضوا حاجتهم من الماء اندرست تلك العيون فإذا احتاجوا إلى الماء انفجرت .

فهذه أقوال المفسرين في الحجر ، وظاهرها أو ظاهر أكثرها التعارض ، قال بعض من جمع في تفسير القرآن الأليق أنه الحجر الذي فرّ بثوب موسى عليه السلام فإن الله أودع فيه حركة التنقل والسعي أو وكل به ملكاً يحمله ، ولا يستنكر ذلك فقد صح أن رسول الله ﷺ قال « إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ » وقد رام هذا الرجل الجمع بين هذه الأقوال بأن يكون الحجر غير معين بل : أي حجر وجدته ضربه فوجد مرةً مربعاً ، ومرةً كذاً ، ومرةً رخاماً ، وكذا باقيها ، قال فروى الراوي صفة ذلك الحجر الذي ضربه في تلك المنزلة قال فيزول التغيرات في الكيفيات ويحصل التوفيق بين الروايات ، وهذا الكلام كما ترى ، وظاهر القرآن أن الحجر ليس بمعين إذ لم يتقدم ذكر حجر فيكون هذا معهوداً وأن الاستسقاء لم يتكرر لا هو ولا الضرب ولا الانفجار ، وأن هذه الكيفيات التي ذكرها لم يتعرض لها لفظ القرآن ،

فيحتمل أن يكون ذلك متكرراً ، ويحتمل أن يكون ذلك مرة واحدة ، والواحدة هي المتحققة ﴿ فانفجرت ﴾ الفاء للعطف على جملة محذوفة التقدير « فضرب فانفجرت » كقوله تعالى (أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) : أي فضرب فانفلق ، ويدل على هذا المحذوف وجود الانفجار مرتباً على ضربه إذ لو كان يتفجر دون ضرب لما كان للأمر فائدة ولكان تركه عصيانياً ، وهو لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وما ذهب إليه بعض الناس من أن الفاء في مثل (فانفلق) هي الفاء التي في ضرب ، وأن المحذوف هو المعطوف عليه ، وحرف العطف من المعطوف حتى يكون المحذوف قد بقي عليه دليل إذ قد أبقيت فاءه وحذفت فاء فانفلق واتصلت بانفلق فاء فضرب تكلف وتخرص على العرب بغير دليل ، وقد ثبت في لسان العرب حذف المعطوف عليه وفيه الفاء حيث لا معطوف بالفاء موجود ، قال تعالى ﴿ فأرسلون يوسف أيها الصديق ﴾ [يوسف : ٤٦] ، التقدير فأرسلوه فقال فحذف المعطوف عليه والمعطوف ، وإذا جاز حذفهما معاً فلأن يجوز حذف كل منهما وحده أولى (وزعم الزمخشري)^(١) أن الفاء ليست للعطف بل هي جواب شرط محذوف قال فإن ضربت فقد انفجرت كما ذكرنا في قوله (فتاب عليكم) وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ اه انتهى ، وقد تقدم لنا الرد على الزمخشري^(٢) في هذا التقدير في قوله (فتاب عليكم) بأن إضمار مثل هذا الشرط لا يجوز ، بيئاً ذلك هناك ، وفي قوله أيضاً إضمار قد إذ يقدر فقد تاب عليكم ، وقد انفجرت ولا يكاد يحفظ من لسانهم ذلك إنما تكون بغير فاء ، أو إن دخلت الفاء فلا بد من إظهار قد ، وما دخلت عليه قد يلزم أن يكون ماضياً لفظاً ومعنى نحو قوله ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ﴾ [فاطر : ٤] ، وإذا كان ماضياً لفظاً ومعنى استحال أن يكون بنفسه جواب الشرط فاحتيج إلى تأويل وإضمار جواب شرط ، ومعلوم أن الانفجار على ما قدر يكون مترتباً على أن يضرب ، وإذا كان مترتباً على مستقبل وجب أن يكون مستقبلاً وإذا كان مستقبلاً امتنع أن تدخل عليه قد التي من شأنها أن لا تدخل في شبه جواب الشرط على الماضي إلا ويكون معناه ماضياً نحو الآية ونحو قولهم (إن تحسن إليّ فقد أحسنت إليك) ويحتاج إلى تأويل كما ذكرنا ، وليس هذا الفعل بدعاء فتدخله الفاء فقط ويكون معناه الاستقبال وإن كان بلفظ الماضي نحو « إن زرتني فغفر الله لك » وأيضاً فالذي يفهم من الآية أن الانفجار قد وقع وتحقق ولذلك قال (قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا) ، وجعله جواب شرط محذوف على ما ذهب إليه هذا الرجل يجعله غير واقع إذ يصير مستقبلاً لأنه معلق على تقدير وجود مستقبل ، والمعلق على تقدير وجود مستقبل لا يقتضي إمكانه فضلاً عن وجوده ، فما ذهب إليه فاسد في التركيب العربي وفاسد من حيث المعنى ، فوجب طرحه ، وأين هذا من قوله وهي على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ ، وجاء هنا (انفجرت) وفي الأعراف ﴿ انبجست ﴾^(٣) [الأعراف : ١٦٠] ، فليل هما سواء انفجر وانبجس وانشق مترادفات ، وقيل بينهما فرق وهو أن الانبجاس هو أول خروج الماء والانفجار اتساعه وكثرته ، وقيل الانبجاس : خروجه من الصلب والانفجار : خروجه من اللين ، وقيل الانبجاس : هو الرشح والانفجار : هو السيلان ، وظاهر القرآن استعمالهما بمعنى واحد لأن الآيتين قصة واحدة ﴿ منه ﴾ متعلق بقوله فانفجرت ، ومن هنا لا ابتداء الغاية ، والضمير عائد على الجبر المضروب فانفجار الماء كان من الحجر لا بد من المكان كما قال تعالى ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ [البقرة : ٧٤] ، ولو كان هذا التركيب في غير كلام الله تعالى لأمكن أن يعود الضمير على الضرب وهو

(١) انظر الكشف (١/ ١٤٤) .

(٢) انظر الكشف (١/ ١٤٤) .

(٣) انبجس الماء وتبجس أي تفجر - لسان العرب (١/ ٢١٢) .

المصدر المفهوم من الكلام قبله وأن تكون من السبب : أي فانفجرت بسبب الضرب ولكن لا يجوز أن يرتكب مثل هذا في كلام الله تعالى لأنه لا ينبغي أن يحمل إلا على أحسن الوجوه في التركيب وفي المعنى ، إذ هو أفصح الكلام ، وفي هذا الانفجار من الإعجاز ظهور نفس الماء من حجر لا اتصال له بالأرض فتكون مادته منها وخروجه كثيراً من حجر صغير وخروجه بقدر حاجتهم وخروجه عند الضرب بالعصا وانقطاعه عند الاستغناء عنه ﴿ اثنتا عشرة ﴾ التاء في اثنتا للتأنيث ، وفي ثنتا للإلحاق وهذه نظير ابنة وبنت ، وقرأ الجمهور عشرة بسكون الشين ، وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى ويحيى بن وثاب وابن أبي ليلى ويزيد بكسر الشين ، وروى ذلك نعيم^(١) السعدي عن أبي عمرو ، والمشهور عنه الإسكان وتقدم أنها لغة تميم وكسرهم لها نادر في قياسهم لأنهم يخفون فعلاً يقولون في نمر نمر ، وقرأ ابن الفضل الأنصاري والأعمش بفتح الشين ، وروي عن الأعمش الإسكان والكسر أيضاً ، قال الزمخشري^(٢) الفتح لغة ، وقال ابن عطية هي لغة ضعيفة ، وقال المهدوي فتح الشين غير معروف ، ويحتمل أن تكون لغة ، وقد نص بعض النحويين على أن فتح الشين شاذ ، وعشرة في موضع خفض بالإضافة وهو مبني لوقوعه موقع النون فهو مما أعرب فيه الصدر وبني العجز ألا ترى أن اثنتي معرب إعراب المثني لثبوت ألفه رفعاً وانقلابها نصباً وجراً وأن عشرة مبني ولما تنزلت منزلة نون اثنتين لم يصح إضافتها فلا يقال اثنتا عشرتك وفي محفوطي أن ابن درستويه^(٣) ذهب إلى أن اثنا واثنتا واثنتا مع عشر مبني ولم يجعل الانقلاب دليل الإعراب ﴿ عيناً ﴾ منصوب على التمييز وإفراد التمييز المنصوب في باب العدد لازم عند الجمهور ، وأجاز الفراء أن يكون جمعاً ، وكان هذا العدد دون غيره لكونهم كانوا اثني عشر سبطاً وكان بينهم تضاعف وتنافس فأجرى الله لكل سبط منهم عيناً يرده لا يشركه فيه أحد من السبط الآخر ، وذكر هذا العدد دون غيره يسمى التخصيص عند أهل علم البيان ، وهو أن يذكر نوع من أنواع كثيرة لمعنى فيه لم يشركه فيه غيره ومنه قوله تعالى ﴿ وأنه هورب الشعري ﴾ [النجم : ٤٩] ، وسيأتي بيان ذلك التخصيص فيها إن شاء الله تعالى في موضعها ، وقول الخنساء :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَحْراً وَأُنْذِرُهُ بِكُلِّ مَغِيبِ شَمْسٍ

اختصتهما من دون سائر الأوقات للغارة والقرى ، قال بعض أهل اللطائف خلق الله الحجارة وأودعها صلابة يفرق بها أجزاء كثيرة مما صلب من الجوامد وخلق الأشجار رطبة الغصون ليست لها قوة الأحجار فتؤثر فيها تفريقاً بأجزائها ولا تفجير العيون ماءها بل الأحجار تؤثر فيها ، فلما أيدت بقوة النبوة انفلقت بها البحار وتفرقت بها أجزاء الأحجار وسالت بها الأنهار ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [آل عمران : ١٣] ، ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ جملة استئناف تدل على أن كل سبط منهم قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعداه لمشرب غيره ، وكأنه تفسير لحكمة الانقسام إلى اثنتي عشرة عيناً وتنبيه عليها وعلم هنا متعدية لواحد أجريت مجرى عرف واستعمالها كذلك كثير في القرآن ولسان العرب وكل أناس مخصوص بصفة محذوفة : أي من قومه الذين استسقى لهم والمشرّب هنا مكان الشرب وجهته التي يجري منها الماء وحمله بعضهم على المشروب وهو الماء ، والأول أولى لأن دلالة على المكان بالوضع ، ودلالته على الماء بالمجاز وهو تسمية الشيء باسم مكانه ، وإضافة المشرب إليهم لأنه لما تخصص كل مشرب بمن تخصص به صار كأنه ملك لهم ، وأعاد الضمير في مشربهم على معنى كل لا على لفظها ، ولا يجوز أن يعود على لفظها فيقال مشربه لأن

(١) نعيم بن يحيى بن سعيد أبو عبيد السعدي من ولد سعيد بن العاص الكوفي - انظر غاية النهاية (٣٤٣/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٤٤/١) .

(٣) عبد الله بن جعفر بن درستويه - بضم الدال والراء وضبطه ابن ماكولا - بالفتح ابن المرزبان النحوي أبو محمد توفي سنة سبع وأربعين

وثلاثمائة - البغية (٣٦/٢) .

مراعاة المعنى هنا لازمة لأن « كل » قد أضيفت إلى نكرة ومتى أضيفت إلى نكرة وجب مراعاة المعنى فتطابق ما أضيفت إليه في عود ضمير وغيره ، قال تعالى ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ [الإسراء : ١١] ، وقال الشاعر :

وَكُلُّ أَنَاسٍ قَارِبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ^(١)

وقال :

وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُويْهَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ^(٢)

وقال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، [العنكبوت : ٥٧] ، وتقول : كل رجلين يقولان ذلك ، ولا يجوز في شيء من هذا مراعاة لفظ كل وثم محذوف تقديره مشربهم منها : أي من الاثني عشرة عيناً ونص على المشرب تنبيهاً على المنفعة العظيمة التي هي سبب الحياة وإن كان سرد الكلام قد علم كل أناس عينهم لكن في ذكر المشرب ما ذكرناه من تسويغ الشرب لهم منها أنشئ لهم الأمر بالأكل من المن والسلوى والشرب من هذه العيون أو أمروا بالدوام على ذلك لأن الإباحة كانت معلومة من غير هذا الأمر والأمر بالواقع أمر بدوامه كقولك للقائم قم ﴿ كلوا واشربوا ﴾ هو على إضمار قول : أي وقلنا لهم وهذا الأمر أمر بإباحة قال السلمي مشرب كل أحد حيث أنزله رائده ، فمن رائده نفسه مشربه الدنيا أو قلبه فمشربه الآخرة أو سره فمشربه الجنة أو روحه فمشربه السلسبيل أو ربه فمشربه الحضرة على المشاهدة حيث يقول ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ [الإنسان : ٢١] ، طهرهم به عن كل ما سواه ، وبدىء بالأكل لأنه المقصود أولاً وثنى بالشرب لأن الاحتياج إليه حاصل عن الأكل ولأن ذكر المن والسلوى متقدم على انفجار الماء ﴿ من رزق الله ﴾ من لا ابتداء الغاية ، ويحتمل أن تكون للتبويض ، ولما كان مأكلهم ومشربهم حاصلين لهم من غير تعب منهم ولا تكلف أضيفا إلى الله تعالى وهذا التفات إذ تقدم فقلنا اضرب ولو جرى على نظم واحد لقال من رزقنا إلا أن جعلت الإضمار قبل كلوا مسنداً إلى موسى : أي وقال موسى كلوا واشربوا فلا يكون فيه التفات ومن رزق الله متعلق بقوله (واشربوا) ، وهو من إعمال الثاني على طريقة اختيار أهل البصرة إذ لو كان من إعمال الأول لأضمر في الثاني ما يحتاجه فكان يكون كلوا واشربوا منه من رزق الله ، ولا يجوز حذف منه إلا في ضرورة على ما نص بعضهم والضرورة والقليل لا يحمل كلام الله عليهما ، و« الرزق » هنا هو المرزوق وهو الطعام من المن والسلوى والمشروب من ماء العيون ، وقيل هو الماء ينبت منه الزروع والثمار فهو رزق يؤكل منه ويشرب ، وهذا القول يكون فيه من رزق الله يجمع فيه بين الحقيقة والمجاز لأن الشرب من الماء حقيقة والأكل لا يكون إلا مما نشأ من الماء لا أن الأكل من الماء حقيقة ، فحمل الرزق على القدر المشترك بين الطعام والماء أولى من هذا القول ، ولما كان مطعمهم ومشربهم لا كلفة عليهم ولا تعب في تحصيله حسنت إضافته إلى الله تعالى وإن كانت جميع الأرزاق منسوبة إلى الله تعالى سواء كانت مما تسبب العبد في كسبها أم لا واختص بالإضافة للفظ الله إذ هو الاسم العلم الذي لا يشركه فيه أحد الجامع لسائر الأسماء ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ [الروم : ٤٠] ، ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله ﴾ [سبأ : ٢٤] ، ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ﴾

(١) البيت من الطيول للأخفش بن شهاب التغلبي .

انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٣٦/٣) ، الأشباه والنظائر للسيوطي ص (١٨٧) ، شرح المفصل (٥٨/٨) ، لسان العرب

(سرب) ، الأمالي للقالبي (٢٤٣/٢) ، المفضليات ص (٢٠٣ - ٢٠٨) .

(٢) البيت للبيد ، انظر ديوانه ص (١٣١) ، (١٣٢) ، خزنة الأدب (١٥٩/٦) ، شرح شواهد المغني (١٥٠ ، ٤٠٢ ، ٥٣٨) ،

المقاصد النحوية (٥٣٥/٤) .

[النمل : ٦٤] ، واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الرزق هو الحلال لأن أقل درجات هذا الأمر أن يكون للإباحة اقتضى أن يكون الرزق مباحاً فلو وجد رزق حرام لكان الرزق مباحاً وحراماً وأنه غير جائز ، والجواب أن الرزق هنا ليس بعام إذا أريد به المن والسلوى ، والماء المنفجر من الحجر ولا يلزم من حلية معين ما من أنواع الرزق حلية جميع الرزق .

وفي هذه الآية دليل على جواز أكل الطيبات من الطعام وشرب المستلذ من الشراب والجمع بين اللونين والمطعمين وكل ذلك بشرط النحل ، وقد صح أن النبي ﷺ كان يحب الحلواء والعسل وأنه كان يشرب الماء البارد العذب وكانت تنبذ له فيه الثمرات وجمع بين القثاء والرطب وسقى بعض نسائه الماء ، وقد نقل عن جماعة من الصحابة والتابعين أنهم كانوا يتركون اللذيذ من الطعام والشهي من الشراب رغبة فيما عند الله تعالى ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ لما أمروا بالأكل والشرب من رزق الله ولم يقيد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب كان ذلك إنعاماً وإحساناً جزيلاً إليهم واستدعى ذلك التبسط في المأكول والمشرب وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية والقوة الاستعلائية نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك وهو الفساد حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها وهو الفساد في الأرض ، قال ابن عباس وأبو العالية معناه : ولا تسعوا ، وقال قتادة : ولا تسيروا^(١) ، وقيل : لا تتظالموا الشرب فيما بينكم لأن كل سبط منكم قد جعل له شرب معلوم ، وقيل : معناه لا تؤخروا الغذاء فكانوا إذا أخروه فسد ، وقيل معناه لا تخلطوا المفسدين ، وقيل : معناه لا تتمدادوا في فسادكم ، وقيل : لا تطغوا قاله ابن زيد ، وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض ، (في الأرض) الجمهور على أنها أرض التيه ، ويجوز أن يريد بها وغيرها مما قدر أن يوصلوا إليها فينالها فسادهم ، ويجوز أن يريد الأرضين كلها ، وأل لاستغراق الجنس ويكون فسادهم فيها من جهة أن كثرة العصيان والإصرار على المخالفات ، والبطر يؤذن بانقطاع الغيث وقحط البلاد ونزع البركات وذلك انتقام يعم الأرض بالفساد ، (مفسدين) حال مؤكدة ، قال القشيري في قوله تعالى (وإذ استسقى) الآية أن الذي قدر على إخراج الماء من الصخرة الصماء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه واتصال محل الاستعانة إليه وليكون لموسى عليه السلام في فضل الحجر مع نفسه شغل ولتكليفه أن يضرب بالعصا نوع من المعالجة ، ثم أراد أن يكون كل سبط جاريّاً على سنته غير مزاحم لصاحبه وحين كفاهم ما طلبوه أمرهم بالشكر وحفظ الأمر وترك احتقاب^(٢) الوزر فقال ولا تعثوا والمناهل مختلفة وكل يرد مشربه فمشرب فرات ومشرب أجاج ومشرب صاف ومشرب رنق^(٣) ، وسياق كل قوم يقودهم فالنفوس ترد مناهل المني والقلوب ترد مشارب التقى والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف من حقيقة الوحدة والذات انتهى كلامه ملخصاً . ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ لما سئموا من الإقامة في التيه والمواظبة على مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التي ألفوها وعن الحوادث التي عهدوها أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك وتشوفهم إلى ما كانوا يألفون وسألوا موسى أن يسأل الله لهم ، وأكثر أهل الظاهر من المفسرين على أن هذا السؤال كان معصية قالوا لأنهم كرهوا إنزال المن والسلوى وتلك الكراهة معصية ولأن موسى وصف ما سألوه بأنه أدنى وما كانوا عليه بأنه خير وبأن قوله أُنسبدلون هو على سبيل الإنكار ، والجواب أن قولهم لن نصبر على طعام واحد لا يدل على عدم الرضا به فقط بل اشتبهوا أشياء أخر وأما الإنكار فلا أنه قد يكون لما فيه من تفويت

(١) انظر ما يتعلق بالآثار في تفسير الطبري (١٢٣/٢) .

(٢) يقال : احتقب خيراً أو شراً واستحقبه : ادخره على المثل لأن الإنسان حامل لعمله ومدخر له واحتقب فلان الإثم : كأنه جمعه واحتقبه من خلفه - لسان العرب (٩٣٧/٢) .

(٣) الرنق : تراب في الماء من القذى ونحوه ... لسان العرب (١٧٤٤/٣) .

الأَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ أَوْ الْأَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ وَأَمَّا الْخَيْرِيَّةُ فَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ سَوْءًا مَبَاحًا ، والدليل عليه أن قوله (كلوا واشربوا) من قبل هذه الآية عند إنزال المن وتفجير العين ليس بإيجاب بل هو إباحة وإذا كان كذلك لم يكن قولهم لن نصبر على طعام واحد معصية لأن من أبيع له صنف من الطعام يحسن منه أن يسأل غيرها إما بنفسه أو على لسان الرسول ، ولما كان سؤال النبي أقرب للإجابة سألوه عن ذلك ولأن النوع الواحد أربعين سنة يمل ويشتهي إذ ذاك غيره ولأنهم ما تعودوا ذلك النوع ورغبة الإنسان فيما اعتاده وإن كان خسيساً فوق رغبة ما لم يعتده وإن كان شريفاً ، ولأن ذلك يكون سبباً لانتقالهم عن التيه الذي ملوه لأن تلك الأطعمة لا توجد فيه فأرادوا الحلول بغيره ، ولأن المواظبة على طعام واحد سبب لنقص الشهوة وضعف الهضم وقلة الرغبة والاستكثار من الأنواع بعكس ذلك فثبت بهذا أن تبديل نوع بنوع يصلح أن يكون مقصوداً للعقلاء وثبت أنه ليس في القرآن ما يدل على أنهم كانوا ممنوعين عنه فثبت أنه لا يجوز أن يكون معصية ومما يؤكد ذلك قوله (اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم) ، هو كالإجابة لما طلبوا ولو كانوا عاصين في ذلك السؤال لكانت الإجابة إليه معصية وهي غير جائزة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووصف الطعام بواحد وإن كان طعامين لأنه المن والسلوى اللذان رزقوهما في التيه لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل ألوان عديدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها ، قيل لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً يراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف ، ويجوز أن يريدوا أنهما ضرب واحد لأنهما معاً من طعام أهل التلذذ والسرف ونحن قوم فلاحة أهل زراعات فما نريد إلا ما ألقناه وضرينا به من الأشياء المتفاوتة كالحبوب والبقول ونحوهما ذكر هذين الوجهين في معنى الواحد الزمخشري^(١) ، وقيل أعاد على لفظ الطعام من حيث إنه مفرد لا على معناه ، وقيل كانوا يأكلون المن والسلوى مختلطين فيصير بمنزلة اللون الذي يجمع أشياء ويسمى لوناً واحداً قاله ابن زيد ، وقيل كان طعامهم يأتيهم بصفة الوحدة نزل عليهم المن فأكلوا منه مدة حتى سئموه وملوه ثم انقطع عنهم فأنزل عليهم السلوى فأكلوها مدة وحدها ، وقيل أرادوا بالطعام الواحد السلوى لأن المن كان شراباً أو شيئاً يتحلون به وما كانوا يعدون طعاماً إلا السلوى ، وقيل عبر عنهما بالواحد كما عبر بالاثني عن الواحد نحو يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب ، وقيل قالوا ذلك عند نزول أحدهما ، وقيل معناه لن نصبر على أننا كلنا أغنياء فلا يستعين بعضنا ببعض ويكون قد كنى بالطعام الواحد عن كونهم نوعاً واحداً وهو كونهم ذوي غنى فلا يخدم بعضهم بعضاً وكذلك كانوا في التيه فلما خرجوا منه عادوا لما كانوا عليه من فقر بعض وغنى بعض ، فهذه تسعة أقوال في معنى قوله على طعام واحد ﴿ فادع لنا ربك ﴾ معناه أسأله لنا ومتعلق الدعاء محذوف : أي ادع لنا ربك بأن يخرج كذا وكذا ولغة بني عامر فادع بكسر العين جعلوا دعا من ذوات البياء كرمي يرمي وإنما سألوا من موسى أن يدعو لهم بما اقترحوه ولم يدعوا هم لأن إجابة الأنبياء أقرب من إجابة غيرهم ولذلك قالوا ربك ولم يقولوا ربنا لأن في ذلك من الاختصاص به ما ليس فيهم من مناجاته وتكليمه وإتيانه التوراة فكأنهم قالوا ادع لنا الذي هو محسن لك فكما أحسن إليك في أشياء كذلك نرجو أن يحسن إلينا في إجابة دعائك ﴿ يخرج لنا ﴾ جزمه على جواب الأمر الذي هو ادع وقد مر نظيره في ﴿ أوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ وقيل ثم محذوف تقديره قل له اخرج فيخرج مجزوم على جواب هذا الأمر الذي هو اخرج ، وقيل جزم يخرج بلام مضمرة وهي لام الطلب : أي ليخرج وهذا عند البصريين لا يجوز ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ مفعول يخرج محذوف ومن تبعيضية : أي مأكولاً مما تنبت هذا على مذهب سيويه ، وقال الأخفش من زائدة التقدير ما تنبت وما موصولة والعائد محذوف تقديره تنبت وفيه شروط جواز الحذف ، وأجاز بعضهم أن تكون ما مصدرية تقديره من إنبات الأرض ، قال أبو البقاء لا يجوز ذلك لأن المفعول المقدر لا يوصف بالإنبات لأن الإنبات مصدر والمحذوف جوهر ، وإضافة الإنبات إلى الأرض مجاز إذ المنبت هو الله تعالى لكنه لما

جعل فيها قابلية الإنبات نسب الإنبات إليها ﴿ من بقلها ﴾ هذا بدل من قوله (مما تنبت الأرض) على إعادة حرف الجرّ وهو فصيح في الكلام أعني أن يعاد حرف الجرّ في البدل فمن على هذا التقدير تبعية كهي في مما تنبت ويتعلق بيخرج إمّا الأولى وإمّا أخرى مقدّرة على الخلاف الذي في العامل في البدل هل هو العامل الأول ، أو ذلك على تكرار العامل ، والمشهور هذا الثاني ، وأجاز المهدويّ أيضاً وابن عطية وأبو البقاء أن تكون من في قوله من بقلها لبيان الجنس وعبر عنها المهدويّ بأنها للتخصيص ثم اختلفوا ، فقال أبو البقاء موضعها نصب على الحال من الضمير المحذوف تقديره مما تنبت الأرض كائناً من بقلها وقدّم ذكر هذا الوجه ، قال ويجوز أن تكون بدلاً من ما الأولى بإعادة حرف الجر ، وأما المهدوي وابن عطية فزعموا مع قولهما أن من في من بقلها بدل من قوله مما تنبت وذلك لأن من في قوله مما تنبت للتبعيض ومن في قوله من بقلها على زعمهما لبيان الجنس ، فقد اختلف مدلول الحرفين واختلاف ذلك باختلاف الحرفين فلا يجوز البدل إلا إن ذهب ذاهب إلى أن من في قوله مما تنبت الأرض لبيان الجنس ، فيمكن أن يفرّع القول بالبدل على كونها لبيان الجنس ، والمختار ما قدّمناه من كون من في الموضوعين للتبعيض وأمّا أن تكون لبيان الجنس فقد أباه أصحابنا وتأولوا ما استدّل به مثبت ذلك والمراد بالقل هنا أطايب البقول التي يأكلها الناس كالنخاع والكرفس والكرّاث وأشباهاها قاله الزمخشري^(١)، وقرأ يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف وغيرهما (وقثاؤها) بضم القاف وقد تقدّم أنها لغة ﴿ وفومها ﴾ تقدّم الكلام فيه وللمفسرين فيه أقاويل ستة :

أحدها : أنه الثوم وبيته قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء وهو المناسب للبقل والعدس والبصل .

الثاني : قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسديّ أنه الحنطة .

الثالث : أنه الحبوب كلها .

الرابع : أنه الخبز قاله مجاهد وابن عطاء وابن زيد .

الخامس : أنه الحمص .

السادس : أنه السنبل^(٢) ﴿ وعدسها وبصلها ﴾ وأحوال هذه الخمسة التي ذكروها مختلفة فذكروا أوّلاً ما هو جامع للحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة إذ البقل منه ما هو بارد رطب كالهندبا ومنه ما هو حار يابس كالكرفس والسداب ومنه ما هو حار وفيه رطوبة عرضية كالنخاع وثانياً القثاء وهو بارد رطب وثالثاً الثوم وهو حار يابس ورابعاً العدس وهو بارد يابس وخامساً البصل وهو حار رطب وإذا طبخ صار بارداً رطباً فعلى هذا جاء ترتيب ذكر هذه الخمسة ﴿ قال أتستبدلون ﴾ الضمير في قال ظاهر عوده على موسى ، ويحتمل عوده على الرب تعالى ، ويؤيده اهبطوا مصرّاً فإن لكم ما سألتكم ، والهمزة في أتستبدلون للإنكار والاستبدال الاعتياض وقرأ أبيّ أتبدّلون وهو مجاز لأن التبدل ليس لهم إنما ذلك إلى الله تعالى لكنهم لما كانوا يحصل التبدل بسؤالهم جعلوا مبدّلين ، وكان المعنى أتسألون تبدل ﴿ الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ والذي مفعول أتستبدلون وهو الحاصل ، والذي دخلت عليه الباء هو الزائل كما قررناه في غير مكان ، هو أدنى صلة للذي وهو هنا واجب الإثبات على مذهب البصريين إذ لا طول في الصلة وأدنى خبر عن هو وهو أفعّل التفضيل ومن وما دخلت عليه حذفاً للعلم وحسن حذفهما كون أفعّل التفضيل خبراً فإن وقع غير خبر مثل كونه حالاً أو صفة قل الحذف وتقديره أدنى من ذلك الطعام الواحد وحسن حذفهما أيضاً كون المفضل عليه مذكوراً بعد ذلك وهو قوله بالذي هو خير وأفرد الذي هو أدنى لأنه أحال به على المأكول الذي هو مما تنبت الأرض وعلى ما من قوله مما تنبت

(١) انظر الكشاف (١/ ١٤٥) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٢/ ١٢٧ - ١٢٨) ، تفسير القرطبي (١/ ٢٨٨) .

فيكون قد راعى المبدل منه إذ لو راعى البديل لقال أَسْتَبْدِلُونَ اللَّاتِي هِيَ أَدْنَى ، وقد تقدّم القول في أدنى عند الكلام على المفردات وذكرنا الأقاويل الثلاثة فيها ، وقرأ زهير الفرقي ويقال له زهير الكسائي أدنأً بالهمز ووقع البعض من جمع في التفسير وهم في نسبة هذه القراءة للكسائي فقال وقرأ زهير والكسائي شاذاً أدنأً فظن أن هذه قراءة الكسائي وجعل زهيراً والكسائي شخصين وإنما هو زهير الكسائي يعرف بذلك وبالفرقي فهو رجل واحد فأما تفسير الأدنى والخير هنا ففيه أقاويل :

أحدها : قال الزجاج تفاضل الأشياء بالقيم وهذه القول لا خطر فيها ولا علو قيمة والمنّ والسلوى هما أعلى قيمة وأعظم خطراً ، واختار هذا الزمخشري^(١) قال أقرب منزلة وأهون مقداراً ، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار فيقال هو أدنى المحل وقريب المنزلة كما يعبر بالبعد عن عكس ذلك فيقال بعيد المحل بعيد المنزلة يريدون الرفعة والعلو انتهى كلامه . وهو من كلام الزجاج .

والثاني : أن المنّ والسلوى هو الذي منّ الله به وأمرهم بأكله وفي استدامة ما أمر الله به وشكر نعمته أجر وذخر في الآخرة والذي طلبوه عارٍ من هذه الخصال فكان أدنى من هذا الوجه .

الثالث : أن التفضيل يقع من جهة الطيب واللذة والمنّ والسلوى لا شك أنهما أطيب من البقول التي طلبوها .

الرابع : أن المنّ والسلوى لا كلفة في تحصيله ولا تعب ولا مشقة والبقول لا تحصل إلا بعد مشقة الحرث والزرع والخدمة والسقي وما حصل بلا مشقة خير مما حصل بمشقة .

الخامس : أن المنّ والسلوى لا شك في حله وخلوصه لنزوله من عند الله والحبوب والأرض يتخللها العيوب والغصوب ويدخلها الحرام والشبهة وما كان حلاً خالصاً أفضل مما يدخله الحرام والشبهة .

السادس : أن المنّ والسلوى يفضلان ما سألوهم من جنس الغذاء ونفعه ، وملخص هذه الأقوال هل الأدنوية والخيرية بالنسبة إلى القيمة أو امتثال الأمر وما يترتب عليه أو اللذة أو الكلفة أو الحل أو الجنس أقوال ستة ، وأما قراءة زهير فهي من الدناءة وقد تقدّم أن أدنى غير المهموز قيل إن أصلها الهمز فسهل كهذه القراءة ، ومن قال بالقلب وإن أصله أدون فالدناءة والدون راجعان إلى معنى واحد وهو الخسة وهو من جهة المعنى أحسن مقابلة لقوله بالذي هو خير ومن جعل أدنى بمعنى أقرب لأن الأدون والأدنأ يقابلهما الخير ، والأدنى بمعنى الأقرب يقابله الأبعد وحذف من ومعمولها بعد قوله هو خير لما ذكرناه في قوله هو أدنى من وقوع أفعال التفضيل خبراً وتقديره منه : أي من الذي هو أدنى ، وكانت هاتان الصلتان جملتين اسميتين لثبوت الجملة الاسمية وكان الخير أفعال التفضيل لأنه لا دلالة فيها على تعيين زمان بل في ذلك إثبات الأدنوية والخيرية من غير تقييد بزمان بخلاف الجملة الفعلية فإنه كان يتعين الزمان أو يتجاوز في ذلك إن لم يقصد التعيين فكان الوصل بما هو حقيقة في عدم الدلالة على التعيين أفصح وكانت صلة ما في قوله مما تثبت جملة فعلية لأن الفعل عندهم يشعر بالتجدد والحدوث والإنبات متجدد دائماً فناسب كل مكان ما يليق به من الصلة ﴿ اهبطوا مصرًا ﴾ في الكلام حذف على تقدير أن القائل أَسْتَبْدِلُونَ هو موسى وتقدير المحذوف فدعا موسى ربه فأجابته قال اهبطوا ، وتقدّم معنى الهبوط ويقال هبط الوادي حل به وهبط منه خرج وكأن القادم على بلد ينصبّ عليه وقرىء ، اهْبُطُوا بضم الباء وكسر ها وهما لغتان والأفصح الكسر ، والجمهور على صرف مصرأً هنا ، وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب بغير تنوين وبين كذلك في مصحف أبي بن كعب ومصحف عبد الله وبعض مصاحف عثمان ،

فأما من صرف فإنه يعني مِصْراً من الأمصار غير معين واستدلوا بالأمر بدخول القرية وبأنهم سكنوا الشام بعد التيه وبأن ما سألوه من البقل وغيره لا يكون إلا في الأمصار وهذا قول قتادة والسدي ومجاهد وابن زيد ، وقيل هو مصر غير معين لكنه من أمصار الأرض المقدسة بدليل ادخلوا الأرض المقدسة ، وقيل أراد بقوله مِصْراً وإن كان غير معين مصر فرعون وهو من إطلاق النكرة ويراد بها المعين كما تقول ائتني برجل وأنت تعني به زيدا قال أشهب قال لي مالك هي مصر قرينتك مسكن فرعون ، وأجاز من وقفنا على كلامه من المعربين والمفسرين أن تكون مصر هذه المنوثة هي الاسم العلم والمراد بقوله أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً ، قالوا وصرف وإن كان فيه العلمية والتأنيث كما صرف هند ودعد لمعادلة أحد السبيين لخفة الاسم لسكون وسطه قاله الأخفش أو صرف لأنه ذهب باللفظ مذهب المكان فذكره فبقي فيه سبب واحد فانصرف وشبهه الزمخشري^(١) في منع الصرف وهو علم بنوح ولوط حيث صرفا وإن كان فيهما العلمية والعجمة لخفة الاسم بكونه ثلاثياً ساكن الوسط وهذا ليس كما ذهبوا إليه من أنه مشبه لهند أو مشبه لنوح لأن مصر اجتمع فيه ثلاثة أسباب وهي التأنيث والعلمية والعجمة فهو يتحتم منه صرفه بخلاف هند فإنه ليس فيه سوى العلمية والتأنيث ، على أن من النحويين من خالف في هند وزعم أنه لا يجوز فيه إلا منع الصرف وزعم أنه لا دليل على ما ادعى النحويون من الصرف في قوله :

لَمْ تَلْقَعْ بِفَضْلِ مِزْرَهَا دَعْدُ وَلَمْ تُسَقِّ دَعْدُ فِي الْعُلْبِ^(٢)

وبخلاف نوح فإن العجمة لم تعتبر إلا في غير الثلاثي الساكن الوسط وأما إذا كان ثلاثياً ساكن الوسط فالصرف ، وقد أجاز عيسى بن عمر منع صرفه قياساً على هند ولم يسمع ذلك من العرب إلا مصروفاً فهو قياس على مختلف فيه مخالف لنطق العرب فوجب اطراحه ، وقال الحسن بن بحر المراد بقوله مصرأً لبيت المقدس يعني أن اللفظ وإن كان نكرة فالمراد به معين كما قلنا في قول من قال إنه أراد به وإن كان نكرة مصر المعينة ، وأما من قرأ مصر بغير تنوين فالمراد مصر العلم وهي دار فرعون ، واستبعد بعض الناس قول من قال إنها مصر فرعون قال لأنهم من مصر خرجوا وأمروا بالهبوط إلى الأرض المقدسة لقتال الجبارين فأبوا فعذبوا بالتيه وبقي أبناؤهم فامتشلوا أمر الله وهبطوا إلى الشام وقاتلوا الجبارين أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون فماتوا جميعاً في التيه وبقي أبناؤهم فامتشلوا أمر الله وهبطوا إلى الشام وقاتلوا الجبارين ثم عادوا إلى البيت المقدس ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر انتهى كلامه (فنلخص) من قراءة التنوين أن يكون المراد مصرأً غير معين لا من الشام ولا من غيره أو مصرأً غير معين من أمصار الشام أو معيناً وهو بيت المقدس أو مصر فرعون فهذه أربعة أقوال ﴿ فإن لكم ما سألتكم ﴾ هذه الجملة جواب للأمر كما يجاب بالفعل المجزوم ويعجري فيه الخلاف الجاري فيه هل ضمن اهبطوا مصرأً معنى إن تهبطوا أو أضمر الشرط وفعله بعد فعل الأمر كأنه قال إن تهبطوا مصرأً فإن لكم ما سألتكم وفي ذلك محذوفان ، أحدهم ما يربط هذه الجملة بما قبلها وتقديره فإن لكم فيها ما سألتكم ، والثاني الضمير العائد على ما تقديره ما سألتموه وشروط جواز الحذف فيه موجودة ، وقرأ إبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب سألتكم بكسر السين وهذا من تداخل اللغات وذلك أن في سأل لغتين ، إحداهما أن تكون العين همزة فوزنه فعل ، والثانية أن تكون العين واو تقول سأل يسأل فتكون الألف منقلبة عن واو ويدل على أنه من الواو وقولهم هما يتساووان كما تقول يتجاوبان وحين كسر السين توهم أنه فتحها فأتى بالعين همزة ، قال الشاعر :

(١) انظر الكشف (١/١٤٥) .

(٢) البيت من المنسرح لجري بن عطية الخطفي انظر ديوانه (١٠٣) ، المقضب (٣/٣٥٠) ، الكامل (١/١٨٣) ، الأمالي لابن الحاجب (٢/٢٩٥) ، اللسان (دعد) .

إِذَا جِئْتَهُمْ وَسَلَّيْتَهُمْ وَجَدْتَهُمْ عِلَّةَ حَاضِرَةٍ^(١)

الأصل ساءلتهم والمعروف إبدال الهمزة ياء فتقول سائلتهم ، فجمع بين العوض وهو الياء وبين المعوض منه وهو الهمزة لكنه لما اضطر قدم الهمزة قبل ألف فاعل ، وقال ابن جني يحتمل أن يكون إبدال الهمزة في سألتم ياء كما أبدلت ألفاً في قوله :

سَأَلْتُ هَذَا رَسُولَ اللَّهِ فَاجِشَّةً^(٢)

فانكسر السين قبل الياء ثم تنبه للهمز فهمز ، والمعنى ما سألتهم من البقول والحبوب التي اخترتموها على المن والسلوى ، وقيل ما سألتهم من اتكالكم على تدبير أنفسكم في مصالح معاشكم وأحوال أقواتكم ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ معنى الضرب هنا الإلزام والقضاء عليهم من ضرب الأمير البعث على الجيش وكقول العرب ضربة لازم ويقال ضرب الحاكم على اليد وضرب الدهر ضرباته : أي ألزم الزاماته ، وقيل معناه الإحاطة بهم والاشتمال عليهم مأخوذ من ضرب القباب ، ومنه قول الفرزدق^(٣) :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك بها الكتاب المنزل

وقيل معناه التصقت بهم من ضربت الحائط بالطين ألصقته به ، وقيل معناه جعلت من ضربت الطين خزفاً : أي جعلت عليهم الذلة والمسكنة أما الذلة فليل هي هوانهم بما ضرب عليهم من الجزية التي يؤدونها عن يد وهم صاغرون ، وقيل هي ما ألزموا به من إظهار الزي ليعلم أنهم يهود ولا يلتبسوا بالمسلمين ، وقيل فقر النفس وشحها فلا ترى ملة من الملل أدل وأحرص من اليهود ، وأما المسكنة فالخشوع فلا يرى يهودي إلا وهو بادي الخشوع ، أو الخراج وهو الجزية قاله الحسن وقتادة ، أو الفاقة والحاجة قاله أبو العالية ، أو ما يظهرونه من سوء حالهم مخافة أن تضاعف عليهم الجزية ، أو الضعف ففراه ساكن الحركات قليل النهوض ، واستبعد صاحب المنتخب قول من فسر الذلة بالجزية لأن الجزية لم تكن مضروبة عليهم من أول أمرهم ، وقيل هو من المعجزات لأنه أخبر عنه ﷺ فكان كما أخبر ، والمضروب عليهم الذلة والمسكنة اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ قاله الجمهور ، أو الذين كفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء بغير حق ، والقائلون ادع لنا ربك ومن تابعهم من أبنائهم أقوال ثلاثة ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾ تقدم تفسير باء فعلى من قال باء رجع تكون الباء للحال : أي مصحوبين بغضب ، ومن قال استحق فالباء صلة نحو ، لا يقرآن بالسور^(٤) ، أي استحقوا غضباً ومن قال نزل وتمكن أو تساوا والباء ظرفية ، فعلى القول الأول تتعلق بمحذوف ، وعلى الثاني لا تتعلق ، وعلى الثالث بنفس باء ، وزعم الأخفش أن الباء في قوله بغضب للسبب فعلى هذا تتعلق بباء ويكون مفعول باء محذوفاً : أي استحقوا العذاب بسبب غضب الله عليهم وباء يستعمل في الخير لنبونهم من الجنة غرماً ، ولقد بوأنا بني إسرائيل ميوّاً صدق ، نتبوا من الجنة حيث نشاء ، وفي الشر وباؤوا بغضب من الله ، أن تبوء بإثمي

- (١) البيت من المتقارب لبلال بن جرير انظر لسان العرب (سأل) سر صناعة الإعراب ص (٤٢٠) ، الخصائص (٢٨/٣ - ١٤٦) .
- (٢) هذا صدر بيت من البسيط لحسان بن ثابت انظر ديوانه (٦٧) ، وروايته فيه (ضلت هذيل بما جاءت) شرح شواهد الشافية (٣٤١/٤) .
- (٣) همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي أبو فراس شاعر من النبلاء من أهل البصرة عظيم الأثر في اللغة توفي سنة ١١٠ هجرية - الأعلام (٩٣/٨) .
- (٤) أخرجه البخاري من رواية شداد بن أوس رضي الله عنه (٩٧/١١ - ٩٨) ، في الدعوات باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦) .

وإثمك ، فباؤوا بغضب على غضب ، وقد جاء استعمال المعنيين في الحديث أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، وقال بعض الناس باء لا تجيء إلا في الشر ، والغضب هنا ما حل بهم من البلاء والنقم في الدنيا أو ما يحل بهم من العذاب في الآخرة ويكون باؤوا في معنى يبوؤون نحو أزفت الأزفة ، اقتربت الساعة ، من الله يحتمل أن يكون متعلقاً بباؤوا إذا كان باء بمعنى رجع وكأنهم كانوا مقبلين على الله تعالى فبعصيانهم رجعوا منه : أي من عنده بغضب ، ويحتمل أن يكون متعلقاً بمحذوف ويكون في موضع الصفة : أي بغضب كائن من الله ، وهذا الوجه ظاهر إذا كان باء بمعنى استحق أو بمعنى نزل وتمكن ويبعد الوجه الأول وفي وصف الغضب بكونه من الله تعظيم للغضب وتفخيم لشأنه ﴿ ذلك بأنهم ﴾ الإشارة إلى المباءة بالغضب أو المباءة والضرب وهو مبتدأ والجار والمجرور بعده خبر والباء للسبب : أي ذلك كائن بكفرهم وقتلهم ﴿ كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ الآيات المعجزات التسع وغيرها التي أتى بها موسى أو التوراة أو آيات منها كالأيات التي فيها صفة رسول الله ﷺ أو فيها الرّجم أو القرآن أو جميع آيات الله المنزلة على الرسل أقوال خمسة ، وإضافة الآيات إلى الله لأنها من عنده تعالى ﴿ ويقتلون النبيين ﴾ قتلوا يحيى وشعيا وزكريا ، وروي عن ابن مسعود قتل بنو إسرائيل سبعين نبياً وفي رواية ثلاثمائة نبي في أول النهار وقامت سوق قتلهم في آخره ، وعلى هذا يتوجه قراءة من قرأ يُقْتَلُونَ بالتشديد لظهور المبالغة في القتل وهي قراءة عليّ ، وقرأ الحسن وتقتلون بالتاء فيكون ذلك من الالتفات وروي عنه بالياء كالجماعة ولا فرق في الدلالة بين النبيين والأنبياء لأن الجمعين إذا دخلت عليهما أل تساويا بخلاف حالهما إذ كانا نكرتين لأن جمع السلامة إذ ذاك ظاهر في القلة وجمع التكسير على أفغلاء ظاهر في الكثرة ، وقرأ نافع بهمز النبيين والنبيء والأنبياء والنبوءة ، إلا أن قالون أبدل وأدغم في الأحزاب في ان وهبت نفسها للنبي إن أراد ، وفي لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن في الوصل ، وقرأ الجمهور بغير همز وقد تقدّم الكلام عليه في المفردات ﴿ بغير الحق ﴾ متعلق بقوله وتقتلون وهو في موضع نصب على الحال من الضمير في تقتلون : أي تقتلونهم مبطلين ، قيل ويجوز أن تكون منعة لمصدر محذوف : أي قتلا بغير حق ، وعلى كلا الوجهين هو توكيد ولم يرد هذا على أن قتل النبيين ينقسم إلى قتل بحق وقتل بغير حق بل ما وقع من قتلهم إنما وقع بغير حق لأن النبي معصوم من أن يأتي أمراً يستحق عليه فيه القتل وإنما جاء هذا القيد على سبيل التشنيع لقتلهم والتقييح لفعلمهم مع أنبيائهم : أي بغير الحق عندهم : أي لم يدعوا في قتلهم وجهاً يستحقون به القتل عندهم ، وقيل جاء ذلك على سبيل التأكيد كقوله ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦] ، إذ لا يقع قتل نبي إلا بغير الحق ولم يأت نبي قط بما يوجب قتله وإنما قتل منهم من قتل كراهة له وزيادة في منزلته ، قال ابن عباس وغيره لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال وكل من أمر بقتال نصر^(١) . قيل وعرف الحق هنا لأنه أشير به إلى المعهود في قوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ، وأما المنكر فالمراد به تأكيد العموم : أي لم يكن هناك حق لا ما يعرفه المسلمون ولا غيره ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ذلك رد على الأول وتكرير له فأشير به لما أشير بذلك الأول ، ويجوز أن تكون إشارة إلى الكفر والقتل المذكورين فلا يكون تكريراً ولا توكيداً ، ومعناه أن الذي حملهم على جحود آيات الله وقتلهم الأنبياء إنما هو تقدم عصيانهم واعتدائهم فجسرهم هذا على ذلك إذا المعاصي يريد الكفر ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين : ١٤] ، ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [البقرة : ٨٨] ، ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وقد تقدّم تفسير العصيان والاعتداء لغة وقد فسر الاعتداء هنا أنه تجاوزهم ما حدّ الله لهم من الحق إلى الباطل ، وقيل التماذي على المخالفة وقتل الأنبياء ، وقيل العصيان بنقض العهد والاعتداء بكثرة قتل الأنبياء ، وقيل الاعتداء بسبب المخالفة والإقامة على ذلك الزمن الطويل أثر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه

قال اختلفت بنو إسرائيل بعد موسى بخمسمائة سنة حين كثر فيهم أولاد السبايا واختلفوا بعد عيسى بمائة سنة ، وقيل هو الاعتداء في السبت قال تعالى ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ [النساء : ١٥٤] ، وما في قوله بما عصوا مصدرية : أي ذلك بعضيائهم ولم يعطف الاعتداء على العصيان لثلا يفوت تناسب مقاطع الآي ، وليلدل على أن الاعتداء صار كالشيء الصادر منهم دائماً ، ولما ذكر تعالى حلول العقوبة بهم من ضرب الذلة والمسكنة والمبأة بالغضب بين علة ذلك فبدأ بأعظم الأسباب في ذلك وهو كفرهم بآيات الله ثم ثنى بما يتلو ذلك في العظم وهو قتل الأنبياء ، ثم أعقب ذلك بما يكون من المعاصي وما يتعدى من الظلم ، قال معنى هذا صاحب المنتخب ويظهر أن قوله ذلك بأنهم كانوا يكفرون ويقتلون لتعليل لضرب الذلة والمسكنة والمبأة بالغضب ، وأن الإشارة بقوله ذلك بما عصوا إشارة إلى الكفر والقتل وبما تعليل لهما فيعود العصيان إلى الكفر ويعود الاعتداء إلى القتل فيكون قد ذكر شيئين وقابلهما بشيئين كما ذكر أولاً شيئين وهما الضرب والمبأة وقابلهما بشيئين وهما الكفر والقتل ، فجاء هذا لفاً ونشراً في الموضوعين وذلك من محاسن الكلام وجودة تركيبه ويخرج بذلك عن التأكيد الذي لا يصار إليه إلا عند الحاجة وذلك بأن يكون الكلام يبعد أن يحمل على التأسيس ، وقد تضمنت هذه الآيات من لطائف الامتنان وغرائب الإحسان لبني إسرائيل فصولاً منها أنهم أمروا بدخول القرية التي بها يتحصنون والأكل من ثمراتها ما يشتهون ثم كلفوا النذر^(١) من العمل والقول وهو دخول بابها ساجدين ونطقهم بلفظة واحدة تائبين ورتب على هذا النذر غفران جرائمهم العظيمة وخطاياهم الجسيمة فخالفوا في الأمرين فعلاً وقولاً جرياً على عاداتهم في عدم الامتثال فعاقبهم على ذلك بأشد النكال ، ثم ذكر تعالى ما كان عليه موسى عليه السلام من العطف عليهم وسؤال الخير لهم ، وذلك بأن دعا الله لهم بالسقيا فأحاله على فعل نفسه بأن أنشأ لهم من قرع الصفا بالعصا عيوناً يجري بها ما يكفيهم من الماء معيناً على الوصف الذي ذكره تعالى من كون تلك العيون على عدد الأسباط^(٢) حتى لا يقع منهم مشاحة^(٣) ولا مغالبة وأعلمهم بأن ذلك منه رزق وأمروا بالأكل منه والشرب ثم نهوا عن الفساد إذ هو سبب لقطع الرزق ، ثم ذكر تعالى تبرمهم من الرزق الذي امتن به عليهم فلجوا في طلب ما كان مألوفهم إلى نبيهم ﴿ فقالوا ادع لنا ربك ﴾ [البقرة : ٦٨ - ٦٩ - ٧٠] ، وذلك جري على عادته معهم إذ كان يناجي ربه فيما كان عائداً عليهم بصلاح دينهم ودنياهم وذكر توبيخه لهم على ما سأله من استبدال الخسيس بالنفيس وبما لا نصب في اكتسابه ما فيه العناء الشاق إذا ما طلبوه يحتاج إلى استفراغ أوقاتهم المعدة لعبادة ربهم في تحصيله ومع ذلك فصارت أغذية مضرّة مؤذية جالبة أخلاطاً رديئة ينشأ عنها طمس أنوار الأبصار والبصائر بخلاف ما رزقهم الله إذ هو شيء واحد جيد ينشأ عنه صحة البدن وجودة الإدراك ، كان الخليل بن أحمد رحمه الله يستف دقيق الشعير ويشرب عليه الماء العذب وكان ذهنه أشرق أذهان أهل زمانه وكان قوي البدن يغزو سنة ويحج أخرى ، ثم أمروا بالحلول فيما فيه مطلبهم والهبوط إلى معدن ما سأله ثم أخبر تعالى بما عاقبهم به من جعلهم أذلاء مساكين ومبأتهم بغضبه وإن ذلك متسبب عن كفرهم بالآيات التي هي سبب الإيمان لما احتوت عليه من الخوارق التي أعجزت الإنس والجان ، وعن قتلهم من كان سبباً لهدايتهم وهم الأنبياء ، إذ باتباعهم يحصل العز في الدنيا والفوز في الآخرة وأن الذي جرّ الكفر والقتل إليهم هو العصيان والاعتداء اللذان كانا سبباً منهم قبل تعاطي الكفر والقتل وقال :

وَالشَّرُّ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمَى

إِنَّ الْأُمُورَ صَغِيرَهَا مِمَّا يَهِيجُ لَهُ الْعَظِيمُ

(١) النذر : القليل التافه قال ابن سيده : النذر والنزير القليل من كل شيء - لسان العرب (٦/٤٣٩٣) .

(٢) السَّبَطُ من اليهود كالقبيلة من العرب وهم الذين يرجعون إلى أب واحد سمي سبطاً لِيُفَرَّقَ بين ولد إسماعيل وولد إسحاق وجمعه أسباط -

لسان العرب (٣/١٩٢٢) .

(٣) قال الفراء : المشيح على وجهين : المقبل إليك والمانع لما وراء ظهره - لسان العرب (٤/٢٣٧٢) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦)

هاد ألفه منقلبة عن واو والمضارع يهود^(١) ومعناه تاب أو عن ياء والمضارع يهيد إذا تحرك والأولى الأولى لقوله تعالى (إنا هدنا إليك) وسيأتي الكلام على لفظة اليهود حيث انتهينا إليها في القرآن إن شاء الله تعالى ، والنصارى جمع نصران ونصرانة مثل ندمان وندمانه ، قال سيبويه وأنشد :

وَكَلَّتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تُحْنَفِ

وأنشد الطبري :

يَظَلُّ إِذَا دَارَ الْعَشِيُّ مُحْنَفًا وَيُضْجِي لَدَيْهِ وَهُوَ نَصْرَانُ شَامِسُ

منع نصرانا الصرف ضرورة وهو مصروف لأن مؤنثه على نصرانة ، قال سيبويه إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء النسب ، فيكون كلحيان ولحياني وكأهري . وقال الخليل : واحد النصارى نصري ، كمهري ومهاري ، قيل : وهو منسوب إلى نصره قرية نزل بها عيسى ، وقال قتادة : نسبوا إلى ناصرة وهي قرية نزلوها ، فعلى هذا يكون من تغييرات النسب ، والصابئين الصابئون^(٢) قيل : الخارجون من دين مشهور إلى غيره من صبوء السن والنجم ، يقال : صبأت النجوم طلعت ، وصبأت ثنية الغلام خرجت ، وصبأت على القوم بمعنى طرأت ، قال :

إِذَا صَبَّاتُ هَوَادِي الْخَيْلِ عَنَّا حَسِبْتُ بِنَحْرِهَا شَرَقَ الْبَعِيرِ

ومن قرأ بغير همز فستكلم على قراءته ، قال الحسن والسدي : هم بين اليهود والمجوس ، وقال قتادة والكلبي : هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ، ويجيبون مذاكيرهم ، وقال الخليل : هم أشباه

(١) اليهود : اليهود ، هادوا يهودون هوداً . وسميت اليهود اشتقاقاً من هادوا أي تابوا ، وأرادوا باليهود اليهوديين ولكنهم حذفوا ياء الإضافة - لسان العرب (٤٧١٨/٦) .

(٢) الصابئون : قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام بكذبهم ، وفي الصحاح : جنس من أهل الكتاب وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار - لسان العرب (٢٣٨٥/٤) .

النصارى ، قبلتهم مهب الجنوب يقرون بنوح ويقرؤون الزبور ، ويعبدون الملائكة ، وقال عبد العزيز بن يحيى ^(١) : لا عين منهم ولا أثر ، وقال المغربي عن الصابي صاحب الرسائل : هم قريب من المعتزلة ، يقولون بتدبير الكواكب ، وقال مجاهد : هم قوم لا دين لهم ، ليسوا بيهود ولا نصارى ، قال ابن أبي نجيج : قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم ، وقال ابن زيد : قوم يقولون لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ، كانوا بالجزيرة والموصل ، وروي عن الحسن وقتادة أيضاً أنهم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون الخمس للقبلة ، ويقرؤون الزبور ، رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة ، وقال ابن عباس : هم قوم من اليهود والنصارى لا تحل مناكرتهم ولا تؤكل ذبائحهم ، وقال أبو العالية : قوم من أهل الكتاب ذبائحهم كذبائح أهل الكتاب ، يقرؤون الزبور ويخالفونهم في بقية أفعالهم ، وقال الحسن والحكم : قوم كالمجوس ، وقيل قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم وأنها فعالة ^(٢) ، وأفتى أبو سعيد ^(٣) الإصطخري القادر بالله حين سأله عنهم بكفرهم ، وقيل : قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان :

أحدهما : أن خالق العالم هو الله إلا أنه أمر بتعظيم الكواكب ، واتخاذها قبلة للصلاة ، والتعظيم والدعاء .

الثاني : أنه تعالى خالق الأفلاك والكواكب ، ثم إن الكواكب هي المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض ، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ، ثم إنها تعبد الله وهذا المذهب هو المنسوب للذين جاءهم إبراهيم عليه السلام راداً عليهم ، الأجر مصدر أجر بأجر ويطلق على المأجور به ، وهو الثواب ، والأجور جبر كسر معوج والإجار السطح ، قال الشاعر :

تَبْدُو هَوَادِيهَا مِنَ الْغُبَارِ كَالْجَيْشِ الصَّفِّ عَلَى الْإِجَارِ

الرفع معروف ، وهو أعلى الشيء والفعل منه رفع يرفع ، الطور ^(٤) اسم لكل جبل ، قال مجاهد وعكرمة وقتادة : أو الجبل المنبت دون غير المنبت ، قاله ابن عباس والضحاك ، أو الجبل الذي ناجى الله عليه موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقال العجاج :

دَانِي جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ فَرُّ تَقْضِي الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرُ

وقال آخر :

وَإِنْ تَرَّ سَلْمَى الْجِنِّ يَسْتَأْسُوا بِهَا وَإِنْ يَرَّ سَلْمَى صَاحِبِ الطُّورِ يَنْزِلْ

وأصله الناحية ومنه طوار الدار ، وقال مجاهد : هو جنس الجبل بالسريانية ، القوة الشدة وهي مصدر قوي يقوى ، وطَّىء تقول قوى يفتحون العين والتاء مفتوحة ، فتقلب ألفاً يقولون في بقي بقي ، وفي زهي زها ، قد يوجد ذلك في لغة غيرهم ، قال علقمة بن عبدة التميمي :

زَهَا الشُّوقُ حَتَّى ظَلَّ إِنْسَانٌ عَيْنِهِ يَفِيضُ بِمَغْمُورٍ مِنَ الدَّمْعِ مُتَأَفِّ

(١) عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكنانى المكي توفي سنة ٢٤٠ هجرية - تهذيب التهذيب (٦/ ٣٦٣) ، دول الإسلام .

(٢) انظر ما يتعلق بهذا تفسير الطبري (٢/ ١٤٦) ، تفسير القرطبي (١/ ٢٩٥) .

(٣) أبو سعيد الحسين بن أحمد الإصطخري توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة - طبقات الاسنوي (١/ ٣٤) ، تاريخ بغداد (٧/ ٢٦٨) .

(٤) الطُّور : الجبل ، وطور سيناء : جبل بالشام ، وهو بالسريانية طورى والنسب إليه طوري وطوراني - لسان العرب (٤/ ٢٧١٨) .

وهذه المادة قليلة وهي أن تكون العين واللام واوين ، التولي : الإعراض بعد الإقبال ، لولا للتحضيض بمنزلة هلا فيليها الفعل ظاهراً أو مضمرأ ، وحرف امتناع لوجود فيكون لها جواب ، ويجيء بعدها اسم مرفوع بها عند الفراء ، وبفعل محذوف عند الكسائي ، وبالإبتداء عند البصريين ، والخبر محذوف عند جمهورهم ، وعند بعضهم ، فيه تفصيل ذكرناه في منهج السالك من تأليفنا ، وليست جملة الجواب الخبر خلافاً لأبي الحسين بن الطراوة وإن وقع بعدها مضمر ، فيكون ضمير رفع مبتدأ عند البصريين ، ويجوز أن يقع بعدها ضمير الجر ، فتقول لولاني ولولاك ولولاه إلى آخرها وهو في موضع جر بلولا عند سيبويه ، وفي موضع رفع عند الأخفش ، استعير ضمير الجر للرفع ، كما استعاروا ضمير الرفع للجر في قولهم : ما أنا كانت ولا أنت كانا والترجيح بين المذهبين المذكور في النحو ، ومن ذهب إلى أن لولا نافية وجعل من ذلك (فلولا كانت قرية آمنت) فبعد قوله عن الصواب ، السبت اسم ليوم معلوم ، وهو مأخوذ من السبت الذي هو القطع ، أو من السبات ، وهو الدعة والراحة ، وقال أبو الفرج بن الجوزي : هذا خطأ لا يعرف في كلام العرب سبت بمعنى استراح ، والسبت الحلق والسير قال الشاعر :

بِمُقَوَّرَةِ الْأَلْيَاطِ أَمَّا نَهَارُهَا فَسَبْتُ وَأَمَّا لَيْلُهَا فَذَمِيلُ

والسبت النعل لأنه يقطع كالطحن والرعي ، قال ابن جريج : سمي يوم السبت لأنه قطعة زمان ، قال لبيد :

وَعَنَيْتُ سَبْتاً قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّحُوحِ خُلُودٌ

القرء معروف ، ويجمع فعل الاسم قياساً على فعول نحو قَرَدَ وقُرُود ، وجسم وجسوم ، وقليلأ على فَعَلَة نحو قَرَدَ وقَرَدَة ، وحسل^(١) وحسلة ، الخسء الصغار والطرء ، والفعل خسأ ويكون لازماً ومتعدياً يقال : خسأ الكلب خسواً : ذل وبعد ، وخسأته : طرده وأبعدته خسأ كرجع رجوعاً ورجعته رجعاً ، النكال^(٢) : العبرة ، وأصله المنع والنكل القيد ، وقال مقاتل : النكال العقوبة ، اليد عضو معروف أصله يدي ، وقد صرَّح بهذا الأصل ، وقد أبدلوا ياء همزة ، قالوا قطع الله أديه يريدون يديه وجمعت على أَفْعَل قالوا أَيَّدَ أصله أَيَّدي ، وقد استعملت للنعمة والإحسان ، وأما الأيادي فهو في الحقيقة جمع جمع ، واستعماله في النعمة أكثر من استعماله للجراحة ، كما أن استعمال الأيدي في الجراحة أكثر منه النعمة ، خلف ظرف مكان مبهم ، وهو متوسط التصرف ، ويكون أيضاً وصفاً يقال رجل خلف بمعنى رديء ، وسكت ألفاً ونطق خلفاً : أي نطقاً رديئاً ، موعظة : مفعلة من الوعظ والوعظ الإذكار بالخير بما يرق له القلب ، وكسر عين الكلمة فيما كان على هذا الوزن ، وعلى مفعل هو القياس ، وقد شد موءلة ، وكلم ذكرها النحويون جاءت مفتوحة العين ، قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ الآية نزلت في أصحاب سلمان ، وذلك أنه صحب عبادة من النصاري ، فقال له أحدهم : إن زمان نبي قد أظل فإن لحقته فأمن به ، ورأى منهم عبادة عظيمة ، فلما جاء النبي ﷺ ذكر له خبرهم وسأله عنهم ، فنزلت هذه الآية ، حكى هذه القصة مطولة ابن إسحاق والطبري والبيهقي ، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في أول الإسلام ، وقد الله بها أن من آمن بمحمد ﷺ ، ومن بقي على يهوديته ونصرانيته وصابئيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر فله أجره ، ثم نسخ ما قدر من ذلك بقوله ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً

(١) الحسَل : ولد الضب وقيل : ولد الضب حين يخرج من بيضته فإذا كبر فهو غَيْدَاق ، والجمع أحسال وحسلان - لسان العرب

(٢) (٨٧٥/٢)

(٢) قال الجوهري :

نكل به تنكيلاً إذا جعله نكلاً وعبرة لغيره ، ويقال : نكلت بفلان إذا عاقبته في جرم أجرمه عقوبة تُنْكَل غيره عن ارتكاب مثله - لسان العرب (٤٥٤٤/٦)

فلن يقبل منه ﴿ [آل عمران : ٨٥] ، وردّت الشرائع كلها إلى شريعة محمد ﷺ ، وقال غير ابن عباس : ليست بمنسوخة ، وهي فيمن ثبت على إيمانه بالنبي ﷺ ، وروى الواحدي^(١) بإسناد متصل إلى مجاهد قال : لما قص سلمان على النبي ﷺ قصة أصحابه ، وقال له هم في النار قال سلمان : فأظلمت عليّ الأرض فنزلت إلى يحزنون ، قال : فكأنما كشف عني جبل ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، أنه لما ذكر الكفرة من أهل الكتاب وما حل بهم من العقوبة أخبر بما للمؤمنين من الأجر العظيم دالاً على أنه يجزي كلاً بفعله ، والذين آمنوا منافقو هذه الأمة ، أي : آمنوا ظاهراً ولهذا قرّنهم بمن ذكر بعدهم ، ثم بين حكم من آمن ظاهراً وباطناً ، قاله سفيان الثوري ، أو المؤمنون بالرسول ومن آمن معناه : من داوم على إيمانه ، وفي سائر الفرق من دخل فيه ، أو الحنفيون ممن لم يلحق الرسول ، كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقيس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ومن لحقه كأبي ذر ، وسلمان وبحيرا ، ووفد النجاشي الذين كانوا ينتظرون المبعث ، فمنهم من أدرك وتابع ، ومنهم من لم يدركه ، والذين هادوا كذلك ممن لم يلحق إلا من كفر بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، والنصارى كذلك والصابئين كذلك ، قاله السديّ : أو أصحاب سلمان ، وقد سبق حديثهم ، أو المؤمنون بعيسى قبل أن يبعث الرسول ، قاله ابن عباس ، أو المؤمنون بموسى وعملوا بشريعته إلى أن جاء عيسى فآمنوا به وعملوا بشريعته إلى أن جاء محمد ، قاله السدي عن أشياخه ، أو مؤمنو الأمم الخالية ، أو المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله من سائر الأمم ، فهذه ثمانية أقوال في المعنى بالذين آمنوا والذين هادوا وهم اليهود ، وقرأ الجمهور : (هَادُوا) بضم الدال ، وقرأ أبو السمال العدوي بفتحها من المهاداة قيل : أي : مال بعضهم إلى بعض ، فالقراءة الأولى مادتها هاء وواو ودال ، أو هاء وياء ودال ، والقراءة الثانية مادتها هاء ودال وياء ، ويكون فاعل من الهداية وجاء فيه فاعل موافقة فعل كأنه قيل والذين هدوا ، أي : هدوا أنفسهم نحو جاوزت الشيء بمعنى جزته ﴿ والنصارى ﴾ الألف للتأنيث ، ولذلك منع الصرف في قوله (الذين قالوا إنا نصارى) وهذا البناء أعني فعالي جاء مقصوراً جمعاً ، وجاء ممدوداً مفرداً وألفه للتأنيث أيضاً نحو براكاء ، وقرأ الجمهور (والصابئين) مهموزاً وكذا (والصابئون) وتقدم معنى صباً ، المهموز ، وقرأ نافع بغير همز ، فيحتمل وجهين أظهرهما أن يكون من صباً بمعنى مال ، ومنه قول الشاعر :

إِلَى هِنْدٍ صَبَا قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلُهَا يُصْبِي^(٢)

والوجه الآخر يكون أصله الهمز فسهل بقلب الهمز ألفاً في الفعل وياء في الاسم ، كما قال الشاعر :

إِنَّ السَّبَاعَ لَتَهْدِي فِي مَرَابِضِهَا وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهِادٍ شَرُّهُمْ أَبْدَاً^(٣)

وقال الآخر :

وَكُنْتُ أَذَلَّ مِنْ وَتِدٍ بِقَاعٍ يُشَجِّجُ رَأْسَهُ بِالْفِهْرِ وَاجٍ^(٤)

وقال آخر :

(١) علي بن أحمد بن محمد بن علي أبو الحسن الواحدي النيسابوري صاحب التفاسير الثلاثة توفي سنة ٤٦٨ هجرية - بغية الوعاة

(٢) (١٤٥/٢) ، ابن السبكي (٢٤٠/٥) .

(٣) البيت من الهزج لزيد بن ضبة انظر لسان العرب (صبا) . مجاز القرآن لأبي عبيدة (٣١١/١) .

(٤) البيت من البسيط لإبراهيم بن هرمة انظر لسان (هداً) . الخصائص (١٥٢/٣) ، ضرائر الشعر (٢٢٩) .

(٤) البيت من الوافر لعبد الرحمن بن حسان بن انظر شرح شواهد الشافية (٣٤٣/٤) ، الكامل (٣٠٠/١) ، اللسان (وجأ) .

فَارْعَى فَرْزَةَ لَا هُنَاكَ الْمَرْتَعُ

إلا أن قلب الهمزة ألفاً يحفظ ولا يقاس عليه ، وأما قلب الهمزة ياء فبابه الشعر ، فلذلك كان الوجه الأول أظهر ، وذكر بعض المفسرين مسائل من أحكام اليهود والنصارى ﴿ والصابئين ﴾ لا يدل عليها لفظ القرآن هنا فلم نذكرها ، وموضعها كتب الفقه ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ من مبتدأ ، ويحتمل أن تكون شرطية ، فالخبر الفعل بعدها ، وإذا كانت موصولة فالخبر قوله : (فلهم أجرهم) ودخلت الفاء في الخبر لأن المبتدأ الموصول قد استوفى شروط جواز دخول الفاء في الخبر ، وقد تقدم ذكرها ، واتفق المعربون والمفسرون على أن الجملة من قوله (من آمن) في موضع خبر إن إذا كان من مبتدأ ، وأن الرابط محذوف تقديره من آمن منهم ، ولا يتم ما قالوه إلا على تباين الإيمانين ، أعني الذي هو صلة الدين ، والذي هو صلة من إما في التعليق ، أو في الزمان ، أو في الإنشاء والاستدامة ، وأما إذا لم يتباينا فلا يتم ذلك لأنه يصير المعنى أن الذين آمنوا من آمن منهم ومن كانوا مؤمنين لا يقال من آمن منهم إلا على التباين بين الإيمانين ، وذهب بعض الناس إلى أن ذلك على الحذف ، وأن التقدير إن الذين آمنوا لهم أجرهم عند ربهم ، والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن منهم : أي : من الأصناف الثلاثة فلهم أجرهم ، وذلك لما لم يصلح أن يكون عنده من آمن خبراً عن الذين آمنوا ومن بعدهم ، ومن أعرب من مبتدأ فإنما جعلها شرطية ، وقد ذكرنا جواز كونها موصولة ، وأعربوا أيضاً من بدلاً ، فتكون منصوبة موصولة ، قالوا : وهي بدل من اسم إن وما بعده ، ولا يتم ذلك أيضاً إلا على تقدير تباين الإيمانين كما ذكرنا إذا كانت مبتدأ ، والذي نختاره أنها بدل من المعاطيف التي بعد اسم إن ، فيصح إذ ذاك المعنى ، وكأنه قيل : إن الذين آمنوا من غير الأصناف الثلاثة ، ومن آمن من الأصناف الثلاثة فلهم أجرهم ، ودخلت الفاء في الخبر لأن الموصول ضمن معنى الشرط ، ولم يعتد بدخول إن على الموصول ، وذلك جائز في كلام العرب ولا مبالاة بمن خالف في ذلك ، ومن زعم أن من آمن معطوف على ما قبله ، وحذف منه حرف العطف التقدير : ومن آمن بالله ، فقله بعيد عن الصواب ولا حاجة تدعو إلى ذلك ، وقد اندرج في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالرسول إذ البعث لا يعزف إلا من جهة الرسل ﴿ وعمل صالحاً ﴾ هو عام في جميع أفعال الصلاة وأقوالها وأداء الفرائض ، أو التصديق بمحمد ﷺ أقوال الثاني يروى عن ابن عباس ، وقد حمل الصلة ، أو فعل الشرط والمعطوف على لفظ من ، فأفرد الضمير في آمن وعمل ، ثم قال : ﴿ فلهم أجرهم ﴾ إلى آخر الآية فجمع حملاً على المعنى وهذان الحملان لا يتمان إلا بإعراب من مبتدأ ، وأما على إعراب من بدلاً فليس فيه إلا حمل على اللفظ فقط ، وللحمل على اللفظ والمعنى قيود ذكرت في النحو ، قال أبو محمد بن عطية : وإذا جرى ما بعد من على اللفظ فجائز أن يخالف به بعد على المعنى ، وإذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجوز أن يخالف به بعد على اللفظ لأن الإلباس يدخل في الكلام انتهى كلامه . وليس كما ذكر ، بل يجوز إذا راعيت المعنى أن تراعى اللفظ بعد ذلك ، لكن الكوفيين يشترطون الفصل في الجمع بين هذه الحملين فيقولون من يقومون في غير شيء ، وينظر في أمورنا قومك ، والبصريون لا يشترطون ذلك وهذا على ما قرر في علم العربية :

تَرْوِي الْأَحَادِيثَ عَنْ كُلِّ مُسَامَحَةٍ وَإِنَّمَا لِمَعَانِيهَا مَعَانِيهَا

وأجرهم مرفوع بالابتداء ، ولهم في موضع الخبر وعند الأخفش والكوفيين أن أجرهم مرفوع بالجار والمجرور ﴿ عند ربهم ﴾ ظرف يعمل فيه الاستقرار الذي هو عامل في لهم ، ويحتمل أن ينتصب على الحال والعامل فيه محذوف تقديره كائناً عند ربهم ، وقرأ الجمهور (ولا خوف) بالرفع والتنوين ، وقرأ الحسن ولا خوف من غير تنوين ، وقد تقدم الكلام على قوله ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ آخر قصة آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فأغنى عن

إعادته هنا ، ومناسبة ختم هذه الآية ظاهرة ، لأن من استقر أجره عند ربه لا يلحقه حزن على ما مضى ، ولا خوف على ما يستقبل قال القشيري : اختلاف الطرق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدق الله تعالى في إيمانه وآمن بما أخبر به من حقه وصفاته ، فاختلاف وقوع الاسم غير قادح في استحقاق الرضوان ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ هذا هو الإنعام العاشر ، لأنه إنما أخذ ميثاقهم لمصلحتهم ، وتقدم الكلام في لفظة الميثاق في قوله تعالى ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ [البقرة : ٢٧] ، والميثاق ما أودعه الله تعالى العقول من الدلائل على وجوده وقدرته وحكمته وصدق أنبيائه ورسله ، أو المأخوذ على ذرية آدم في قوله ﴿ ألسنت بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، أو إلزام الناس متابعة الأنبياء ، أو الإيمان بمحمد ﷺ ، أو العهد منهم ليعملن بما في التوراة ، فلما جاء موسى قرؤوا ما فيها من التثقيف فامتنعوا من أخذها ، أو قوله (لا تعبدون إلا الله) أقوال ستة ، قال القفال : قال (ميثاقكم) ولم يقل موثيقكم لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم كقوله (ثم يخرجكم طفلاً) ، أو لأن ما أخذه على واحد منهم أخذه على غيره ، فكان ميثاقاً واحداً ، ولو جمع لاحتمل التغاير انتهى كلامه ملخصاً ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ سبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدسة ، أو من السجود ، أو من أخذ التوراة والتزامها ، أقوال ثلاثة . روي أن موسى لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها فقالوا : لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها فقالوا : لا فأمر الله تعالى الملائكة فاقطعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله ، وكذلك كان عسكرهم فجعل عليهم مثل الظلة ، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم وأضرهم ناراً بين أيديهم فاحتاط بهم غضبه ، فقبل لهم : خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل وغرقكم البحر وأحرقتمكم النار ، فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق ، وسجدوا على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً ، فلما رحمهم الله قالوا لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها فأمرُوا بسجودهم على شق واحد ، وذكر الثعلبي أن ارتفاع الجبل فوق رؤوسهم كان مقدار قامة الرجل ، ولم تدل الآية على هذا السجود الذي ذكر في هذه القصة ، والواو في قوله : (ورفعنا) واو العطف على تفسير ابن عباس ، لأن أخذ الميثاق كان متقدماً ، فلما نقضوه بالامتناع من قبول الكتاب رفع عليهم الطور ، وأما على تفسير أبي مسلم فإنها واو الحال ، أي : أن أخذ الميثاق كان في حال رفع الطور فوقهم نحو قوله تعالى ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل ﴾ [هود : ٤٢] ، أي : وقد كان في معزل . ﴿ خذوا ما آتيناكم ﴾ هو على إضمار القول أي : وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم ، وقال بغض الكوفيين : لا يحتاج إلى إضمار قول ، لأن أخذ الميثاق هو قول ، والمعنى وإذ أخذنا ميثاقكم بأن خذوا ما آتيناكم ، وما^(١) موصول والعائد عليه محذوف ، أي : ما آتيناكموه ، ويعني به الكتاب يدل على ذلك قوله : (اذكروا ما فيه) ، وقرئ (مَا آتَيْتُكُمْ) وهو شبه التفات ، لأنه خرج من ضمير المعظم نفسه إلى غيره ، ومعنى قوله : ﴿ بقوة ﴾ بجِدِّ واجتهاد قاله ابن عباس وقتادة والسدي ، أو بعمل قاله

(١) « ما » إما اسمية أو حرفية فالحرفية فترد مصدرية إما زمانية نحو ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] ، أي مدة استطاعتكم .

أو غير زمانية نحو ﴿ فذوقوا بما نسيت ﴾ [السجدة : ١٤] ، أي بنسيانكم .

وتأتي نافية إما عاملة عمل ليس نحو ﴿ ما هذا بشراً ﴾ [يوسف : ٣١] ، أو غير عاملة نحو ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ [البقرة :

٢٧٢] .

قال ابن الحاجب : وهي لنفي الحال ، ومقتضى كلام سيبويه أن فيها معنى التأكيد ، لأنه جعلها في النفي جواباً لقد في الإثبات فكما أن قد فيها معنى التأكيد ، فكذلك ما جعل جواباً لها .

وزائدة للتأكيد إما كافة نحو ﴿ إنما هو إله واحد ﴾ [الأنعام : ١٩] ، أو غير كافة نحو ﴿ فإما ترين ﴾ [مريم : ٢٦] .

قال الفارسي : جميع ما في القرآن من الشرط بعد (إما) مؤكد بالنون لمشابهة فعل الشرط بدخول ما للتأكيد لفعل القسم من جهة أن « ما » كاللام في القسم لما فيها من التأكيد وقال أبو البقاء : زيادة « ما » مؤذنة بإعادة شدة التأكيد - انظر الإتيان (٢٤٣ / ٢ - ٢٤٤) .

مجاهد ، أو بصدق وحق قاله ابن زيد ، أو بقبول قاله ابن بحر ، أو بطاعة قاله أبو العالية والربيع ، أو بنية وإخلاص ، أو بكثرة درس ودراية ، أو بجِدٍّ وعزيمة ورغبة وعمل ، أو بقدرة ، والقوة القدرة والاستطاعة ، وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ^(١) ، والباء للحال أو الاستعانة ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ قرأ الجمهور به أمراً من ذكر ، وقرأ أبي : (واذكروا ما فيه) أمراً من اذكر ، وأصله واذنكروا ، ثم أبدل من التاء دال ، ثم أدغم الدال في الدال إذ أكثر الإدغام يستحيل فيه الأول إلى الثاني ، ويجوز في هذا أن يستحيل الثاني إلى الأول ، ويدغم فيه الأول ، فيقال اذكر ، ويجوز الإظهار ، فتقول إذذكر ، وقرأ ابن مسعود تذكروا على أنه مضارع انجزم على جواب الأمر الذي هوخذوا ، فعلى القراءتين قيل : هذا يكون أمراً بالاذكار ، وعلى هذه القراءة يكون الذكر مترتباً على حصول الأخذ بقوة ، أي : إن تأخذوا بقوة تذكروا ما فيه ، وذكر الزمخشري ^(٢) أنه قرئ (وتذكروا) أمراً من التذكر ، ولا يبعد عندي أن تكون هذه القراءة هي قراءة ابن مسعود ، وهم الذي نقلناه من كتابه تذكروا في إسقاط الواو ، والذي فيه هو ما تضمنه من الثواب قاله ابن عباس ، أو احفظوا ما فيه ، ولا تنسوه وادرسوه قاله الزجاج ، أو ما فيه من أمر الله ونهيه وصفة محمد ﷺ ، أو اتعظوا به لتنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى ، والذكر قد يكون باللسان ، وقد يكون بالقلب على ما سبق ، وقد يكون بهما ، فباللسان معناه ادرسوا ، وبالقلب معناه تدبروا ، وبهما معناه ادرسوا ألفاظه وتدبروا معانيه ، أو أريد بالذكر ثمرته وهو العمل ، فمعناه اعملوا بما فيه من الأحكام والشرائع ، والضمير في فيه يعود على ما ، وقال في المنتخب : لا يحمل على نفس الذكر ، لأن الذكر الذي هو ضد النسيان من فعل الله تعالى ، فكيف يجوز الأمر به انتهى . ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ أي : رجاء أن يحصل لكم التقوى بذكر ما فيه ، وقيل : معناه لعلمكم تنزعون عما أنتم فيه ، والذي يفهم من سياق الكلام أنهم امتثلوا الأمر وفعلوا مقتضاه يدل على ذلك ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فهذا يدل على القبول والالتزام لما أمروا به ، وفي بعض القصص أنهم قالوا لما زال الجبل يا موسى سمعنا وأطعنا ولولا الجبل ما أطعناك ، وفي بعض القصص فآمنوا كرهاً وظاهر هذا الإلجاء ، والمختار عند أهل العلم أن الله تعالى خلق لهم الإيمان والطاعة في قلوبهم وقت السجود حتى كان إيمانهم طوعاً لا كرهاً ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أي : أعرضتم عن الميثاق والعمل بما فيه ، وأصل التولي أن يكون بالجسم ، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً ، ودخول ثم مشعر بالمهلة ، ومن تشعر بابتداء الغاية ، لكن بين الجملتين كلام محذوف ، التقدير والله أعلم : فأخذتم ما آتيناكم وذكرتم ما فيه وعملتم بمقتضاه ، فلا بد من ارتكاب مجاز في مدلول من ، وأنه لسرعة التولي منهم واجتماعهم عليه ، كأنه ما تخلل بين ما أمروا به وبين التولي شيء ، وقد علم أنهم بعد ما قبلوا التوراة تولوا عنها بأمور فحرفوها وتركوا العمل بها ، وقتلوا الأنبياء ، وكفروا بالله ، وعصوا أمره ، ومن ذلك ما اختص به بعضهم ، وما عمله أوائلهم ، وما عمله أواخرهم ، ولم يزالوا في التيه مع مشاهدتهم الأعاجيب يخالفون موسى ، ويظاهرون بالمعاصي في عسكرهم حتى خسف ببعضهم ، وأحرقت النار بعضهم وعوقبوا بالطاعون ، وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرؤون بها ، ثم فعل ساحروهم ما لا خفاء به حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس ، وكفروا بالمسيح وهما بقتله ، والقرآن وإن لم يكن فيه بيان ما تولوا به عن التوراة فالجملة معروفة ، وذلك إخبار من الله عن أسلافهم فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمد ﷺ ، وحالهم في كتابه ما ذكر ، والإشارة بذلك في قوله : (من بعد ذلك) إلى قبول ما أوتوه ، أو إلى أخذ الميثاق والوفاء به ورفع الجبل ، أو خروج موسى من بينهم ، أو الإيمان أقوال ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾

(١) نظر ما يتعلق بهذا تفسير الطبري (٢/١٦٠) تفسير ابن عباس (١٠/١٤) . الدر المنثور (١/٧٥) وأين كثير (١٠٥/٥١) والتبيان (١/

(٧١)

(٢) انظر الكشف (١/١٤٧) .

الفضل الإسلام ، والرحمة القرآن قاله أبو العالية ، أو الفضل قبول التوبة ، والرحمة العفو عن الزلة ، أو الفضل التوفيق للتوبة ، والرحمة القبول ؛ أو الفضل والرحمة ، فأخبر الله عنهم ، أو الفضل والرحمة بعثة رسول الله ﷺ وإدراكهم لمدته ، وعلى هذا القول يكون من تلوين الخطاب إذ صار هذا عائداً على الحاضرين ، والأقوال قبله عليه السلام على أن المخاطب به من سلف ، لأنه جاء في سياق قصتهم ، (وفضل الله) على مذهب البصريين مرفوع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره موجود ، وما يشبهه مما يليق بالموضع ، و (عليكم) متعلق بفضل أو معمول له فلا يكون في موضع الخبر ، والتقدير فلولا فضل الله عليكم ورحمته موجودان ﴿ لكنتم ﴾ جواب لولا ، والأكثر أنه إذا كان مثبتاً تدخله اللام ، ولم يجيء في القرآن مثبتاً إلا باللام ، إلا فيما زعم بعضهم أن قوله تعالى ﴿ وهم بها ﴾ [يوسف : ٢٤] ، جواب لولا قدم فإنه لا لام معه ، وقد جاء في كلام العرب بغير لام ، وبعض النحويين يخص ذلك بالشعر ، قال الشاعر :

لَوْلَا الْحَيَاءُ وَلَوْلَا الدِّينُ عِبْتُكُمَْا يَبْغِضُ مَا فِيكُمَْا إِذْ عِبْتُمَا عَوْرِي^(١)

وقد جاء في كلامهم بعد اللام قد قال الشاعر :

لَوْلَا الْأَمِيرُ وَلَوْلَا حَقُّ طَاعَتِهِ لَقَدْ شَرِبْتُ دَمًا أَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ^(٢)

وقد جاء في كلامهم أيضاً حذف اللام وإبقاء قد نحول لولا زيد قد أكرمتك . ﴿ من الخاسرين ﴾ تقدّم أن الخسران هو النقصان ، ومعناه من الهالكين في الدنيا والأخرى ، ويحتمل أن يكون كان هنا بمعنى صار ، قال القشيري : أخذ سبحانه ميثاق المكلفين ، ولكن قوماً أجابوه طوعاً لأنه تعرّف إليهم فوجدوه ، وقوماً أجابوه كرهاً ، لأنه ستر عليهم فوجدوه ، ولا حجة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور ، ولكن عدموا نور البصيرة فلم ينفعهم عيان البصر قال تعالى (ثم توليتهم) : أي رجعتهم إلى العصيان بعد مشاهدتكم الإيمان بالعيان ، ولولا حكمه بإمهاله وحكمه بإفضاله لعاجلكم بالعقوبة ، ولحلّ بكم عظيم المصيبة وقال بعض أهل اللطائف : كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تخبّط في عشواء حالكة الجلباب ، وتخطر من غلوائها وعلوها في حلتي كبر وإعجاب ، فلما أمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال التكاليف ثارت نفوسهم الآبية ، فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلفوه ، فهان عليهم حمل التوراة مع ما فيها من التكليف والنصب ، إذ ذاك أهون من الهلاك قال الشاعر :

إِلَى اللَّهِ يُدْعَى بِالْبَرَاهِينِ مِنْ أَبِي فَإِنْ لَمْ يُجِبْ نَادَتْهُ بِبُضِ الصَّوَارِمِ

﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ اللام في لقد هي لام توكيد ، وتسمى لام الابتداء في نحو لزيد قائم ، ومن أحكامها أن ما كان في حيزها لا يتقدّم عليها إلا إذا دخلت على خبر أن على ما قرر في النحو ، وقد صنف بعض النحويين كتاباً في اللامات ذكرها فيه وأحكامها ، ويحتمل أن تكون جواباً لقسم محذوف ، ولكنه جيء على سبيل التوكيد ، لأن مثل هذه القصة يمكن أن يبهتوا في إنكارها ، وذلك لما نال في عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قرده فاحتيج في ذلك إلى توكيد وأنهم علموا ذلك حقيقة ، وعلم هنا كعرف ، فلذلك تعدّت إلى واحد ، وظاهر هذا أنهم علموا أعيان المعتدين ، وقدره بعضهم علمتم أحكام الذين ، وقدره بعضهم اعتداء الذين ، والاعتداء كان على ما

(١) البيت من البسيط لتميم بن أبي مقبل انظر الشعر والشعراء (٤٦٣) . اللسان (بعض) .

(٢) البيت من البسيط لم يعلم قائله انظر الأشباه والنظائر للسيوطي (٢/ ٢٨٠) ، روح المعاني (١/ ٢٨٢) .

نقل من أن موسى أمره الله بصوم يوم الجمعة وعرفه فضله كما أمر به سائر الأنبياء ، فذكر ذلك لبني إسرائيل وأمرهم بالتشريع فيه ، فأبوه وتعدوه إلى يوم السبت ، فأوحى الله إلى موسى أن دعهما وما اختاروه وامتنحهم فيه بأن أمرهم بترك العمل ، وحرم عليهم فيه صيد الحيتان ، فكانت تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الألفية ، قاله الحسن بن أبي الحسن ، وقيل : حتى تخرج خراطيمها من الماء ، وكان أمر بني إسرائيل بإيلة على البحر ، فإذا ذهب السبت ذهب الحيتان ، فلم يظهروا للسبت الآخر ، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتبهوا لحوت ، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتا بخزمة وضرب له وتداً بالساحل ، فلما ذهب السبت جاء فأخذه ، فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع ، وقيل : بل حفر رجل في غير السبت حفيراً يخرج إليه البحر ، فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفيرة ، فإذا جزر البحر ذهب الرماء من طريق الحفيرة وبقي الحوت فجاء بعد السبت فأخذه ففعل قوم مثل فعله ، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية وباعوه في الأسواق ، فكان هذا من أعظم الإعتداء ، وقد رويت زيادات في كيفية الإعتداء الله أعلم بصحة ذلك ، والذي يصح في ذلك هو ما ذكره الله في كتابه ، وما صح عن نبيه ، منكم في موضع الحال فيتعلق بمحذوف ، تقديره كائنين منكم ، ومن للتبعض ، في السبت متعلق باعتدوا ، إما على إضمار يوم أو حكم ، والحامل على الاعتداء قيل الشيطان وسوس لهم ، وقال : إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت ، ولم تنهوا عن حبسها فأطاعوه ففعلوا ذلك ، وقيل : لما فعل ذلك بعضهم ولم يعجل له عقوبة وتشبه به أناس منهم وفعلوا لفعله ، ظنوا أن السبت قد أبيع لهم فتمالاً على ذلك جمع كبير فأصابهم ما أصابهم ، وقيل : أقدموا على ذلك متأولين لأنه أمرهم بترك العمل يوم السبت ، وقالوا إنما نهانا الله : أسباب الاكتساب التي تشغلنا عن العبادة ، ولم ينهنا عن العمل اليسير ، وقيل فعل ذلك أوباشهم تجريباً وعصياناً فم الله الجميع بالعذاب ﴿ فقلنا لهم كونوا ﴾ أمر من الكون ، وليس بأمر حقيقة ، لأن صيرورتهم إلى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم ، لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم قردة ، بل المراد منه سرعة الكون على هذا الوصف كقوله تعالى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل ٤٠] ، ومجازه أنه لما أراد منهم ذلك صاروا كذلك ، وظاهر القرآن مسخهم قردة ، وقيل : لم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما قال تعالى ﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ [الجمعة : ٥] ، قاله مجاهد ، وقيل مسخت قلوبهم حتى صارت قلوب القردة ، لا تقبل وعظاً ولا تعي زجراً ، وهو محكي عن مجاهد أيضاً ، والقول الأول هو قول الجمهور ، ويجوز أن يبقى الله لهم فهم الإنسانية بعد صيرورتهم قردة ، وروي في بعض قصصهم أن الواحد منهم كان يأتيه الشخص من أقاربه الذين نهوهم فيقول له ألم أذك ، فيقول له : برأسه بلى ، وتسيل دموعه على خديه ، ولم يتعرض في هذا المسخ شيء منهم خنازير ، وروي عن قتادة أن الشباب صاروا قردة ، والشيوخ صاروا خنازير ، وما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم .

(وروي في قصصهم) : أن الله تعالى مسخ العاصين قردة بالليل ، فأصبح الناجون إلى مساجدهم ومجتمعاتهم فلم يروا أحداً من الهالكين ، فقالوا إن للناس لشأناً ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل فوجدوهم قردة يعرفون الرجل والمرأة ، وقيل إن الناجين قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار تبرأ منهم ، فأصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين فتسوروا عليهم الجدار ، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض ، قال قتادة وصاروا قردة تعاوى لها أذنان بعدما كانوا رجالاً ونساء ﴿ قردة خاسئين ﴾ كلاهما خبر كان ، والمعنى أنهم يكونون قد جمعوا بين القردة والخسوء ، ويجوز أن يكون خاسئين صفة لقردة ، ويجوز أن يكون حالاً من اسم كونوا ، ومعنى خاسئين مبعدين ، وقال أبو روق خاسرين كأنه فسر باللازم لأن من أبعد الله فقد خسر ، وجمهور المفسرين على أن الذين مسخهم الله لم يأكلوا ولم يشربوا ولم ينسلوا بل ماتوا جميعاً وأنهم يعيشوا أكثر من ثلاثة أيام ، وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام وماتوا في اليوم الثامن ،

الألباب ، ويمرج ملتذاً بدلال الخطاب نسخ اسمه من ديوان الكمال ، ونسخ شكله إلى أقبح مثال ، هذا مع ما أعد له في الآخرة من النكال والعقوبات على الجرائم جارية على المقدار ، ناشئة عن إرادة الملك القهار ، ليست مما تدرك بالقياس ، فيخوض في تعيينها ألباب الناس ، ومثل هذه العقوبة تكون تنبيهاً للغافل ، عظة للعاقل ،

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرَعُونَ ابْيِّنْ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَاءَ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتِ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

البقرة الأنثى من هذا الحيوان المعروفة ، وقد يقع على الذكر والباقر والبقر والبيقر والباقر ، قالوا وإنما سميت بقرة لأنها تبقر الأرض : أي تشقها للحرث ، ومنه سمي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الباقر ، وكان هو وأخوه زيد بن علي من العلماء الفصحاء^(١) ، العياد والمعاذ الاعتصام ، الفعل منه عاذ يعوذ .

الجهل معروف ، والفعل منه جهل يجهل ، قيل وقد جمع على أجهال ، وهو شاذ .
قال الشنفرى :

وَلَا تَزِدْهِ الْأَجْهَالُ حِلْمِي وَلَا أَرَى سَوْوَلًا بِأَطْرَافِ الْأَقَاوِيلِ أُنْمَلُ^(٢)

ويحتمل أن يكون جمع جاهل كأصحاب جمع صاحب .

الفارض المسن التي انقطعت ولادتها من الكبر ، يقال فرضت وفرضت تَفْرُضُ بفتح العين في الماضي وضمها ، والمصدر فروض ، والفرض القطع ، قال الشاعر :

(١) عاذ به يعوذ عوداً وعباداً ومعاذاً : ولجأ إليه واعتصم ومعاذ الله أي عياد الله ، لسان العرب (٤/٣١٦٢) .

(٢) البيت للشنفرى من لاميته . انظر نرح لامية العرب للعكبري ص (٥١ ، ٥٢) .

كَمِيتٌ بِهِمُ اللَّوْنُ لَيْسَ بِفَارِضٍ وَلَا بِعَوَانٍ ذَاتِ لَوْنٍ مُخَصَّفٍ

ويقال لكل ما قدم وطال أمره فارض ، قال الشاعر :

يَا رَبِّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضٍ لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

وكان المسن سميت فارضاً لأنها فرضت سنّها : أي قطعنها وبلغت آخرها ، قال خفاف بن ندبة^(١) :

لَعَمْرِي لَقَدْ أُعْطِيتَ ضَيْفَكَ فَارِضاً تَسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رَجُلٍ
وَلَمْ تَعْطِهِ بِكُراً فَيَرْضَى سَمِينَةً فَكَيْفَ تُجَازَى بِالْمَوَدَّةِ وَالْفَضْلِ

البكر الصغيرة التي لم تلد من الصغر ، وقال ابن قتيبة التي ولدت ولداً واحداً ، والبكر من النساء التي لم يمسهما الرجل ، وقال ابن قتيبة هي التي لم تحمل ، والبكر من الأولاد الأول ، ومن الحاجات الأولى .

قال الراجز :

يَا بِكْرَ بِكْرَيْنِ وَيَا خَلْبَ الْكَبْدِ أَصْبَحْتَ مِنِّي كَذِرَاعٍ مِنْ عَضْدٍ

والبكر بفتح الباء الفتحة من الإبل ، والأنثى بكرة ، وأصله من التقدم في زمان ، ومنه البكرة والباكورة .

والعوان^(٢) النصف ، وهي التي ولدت بطناً أو بطنين ، وقيل التي ولدته مرة واحدة ، وقالت العرب العوان لا تعلم الخمرة ، ويقال عونت المرأة وحرب عوان ، وهي التي قوتل فيها مرة بعد مرة . وجمع على فعل قالوا عون وهو القياس في المعتل من فعال ، ويجوز ضم عين الكلمة في الشعر منه :

وَفِي الْأَكْفِ اللَّامِعَاتِ نَوَازِلُ

بين ظرف مكان متوسط التصرف ، تقول هو بعيد بين الماء والبر ، وفي الجاهليين : قال تعالى ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] ، ودخولها إذا كانت ظرفاً بين الماء والبر . والعوان من العوانة ، وهي التي ولدت بطناً واحداً ، وجمع على فعل قالوا عون وهو القياس في المعتل من فعال ، ويجوز ضم عين الكلمة في الشعر منه . وربما أضيفت بينا إلى المصدر ولين في ع . والفرعون ياء معتقبة كبيرة .

اللون معروف ، وجمعه على القياس ألوان ، والنود النرجس . وجمع على ألوان ، وقالوا : فلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ، ومنه يتلون تلون النرجس . والعوان من العوانة ، وهي التي ولدت بطناً واحداً ، وجمع على فعل قالوا عون وهو القياس في المعتل من فعال ، ويجوز ضم عين الكلمة في الشعر منه .

(١) خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي من مضر أبو خراشة ، شاعر فارس ، توفي نحو سنة ٢٠ هجرية - الأغاني (١٦ - ١٣٣) ، الأعلام (٣١٩/٢) .

(٢) العوان : من البقر وغيرها : النصف في سنّها . . . وقيل : العوان من البقر والخيول التي تلد بطناً واحداً . . . وقيل : هي النصف التي بين الفارض السنة وبين البكر - لسان العرب (٣١٧٩/٤) .

(٣) البيت من السريع . صدره :
(عن مبرقات بالبري ونذر) انظر الكتاب (٣٥٩/٤) ، شرح النسخة بغدادية (١٢١ - ١٢٤) ، اللسان (سوك) ، المنصف (٣٣٨/١) ،
المقتضب (١١٢/١) ، ونسبه للعجاج شرح المفضل (٨٤/١٠) .

الصفرة لون معروف ، وقياس الفعل من هذا المصدر صفر فهو أصفر وهي صفراء ، كقولهم شهب فهو أشهب وهي شهباء .

الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأبلغه ، يقال أصفر فاقع ووارس ، وأسود حالك وحايك ، وأبيض نثق وملتق ، وأحمر قاني وزنجي ، وأخضر ناضر ومدهام ، وأزرق خطباني ، وأرمك رداني .

السرور لذة في القلب عند حصول نفع ، أو توقعه ، أو رؤية أمر معجب رائق ، وقال قوم : السرور والفرح والجور والجدل نظائر ، ونقيض السرور الغم .

الذلول الريض الذي زالت صعوبته ، يقال دابة ذلول بينة الذل بكسر الذال ، ورجل ذليل بين الذل بضم الذال ، والفعل ذل يذل .

الإثارة الاستخراج والقلقلة من مكان إلى مكان ، وقال امرؤ القيس :

يُهَيِّلُ وَيُذْرِي تَرْبَهَا وَيُثِيرُهُ إِثَارَةَ نَبَّاشِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وقال النابغة :

يُثِرْنَ الْحَصَى حَتَّى يُبَنَّاثِرْنَ تَرْبَهُ إِذَا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَهَا بِالْكَلاَئِلِ

الحرث مصدر حرث يحرث وهو شق الأرض ليذر فيها الحب ، ويطلق على ما حرث وزرع ، وهو مجاز في ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ [البقرة : ٢٢٣] ، والحرث الزرع ، والحراث الكسب ، والحراث الإبل الواحدة حريثة ، وفي الحديث (أصدق الأسماء الحارث لأن الحارث هو الكاسب) ، واحتراث المال اكتسابه .

المسلمة المخلصة المبرأة من العيرب سلم له كذا : أي خلص سلاماً ، وسلامة مثل اللذاذ واللذاذة .

الشية مصدر وشى^(١) الثوب يشيه وشياً وشية حسنه وزينه بخطوط مختلفة الألوان ، ومنه قيل للساعي في الإفساد بين الناس واش لأنه يحسن كذبه عندهم حتى يقبل ، والشية اللمعة المخالفة للون ، ومنه ثور موشى القوائم قال الشاعر :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

الآن ظرف زمان حضر جميعه أو بعضه ، والألف واللام فيه للحضور ، وقيل زائدة وهو مبني لتضمنه معنى الإشارة ، وزعم الفراء أنه منقول من الفعل ، يقال آن يئين أيناً : أي حان .

الدَّرء الدفع ويدراً عنها العذاب ، وقال الشاعر :

(١) وشى : الوشي من الثياب معروف والجمع وشاء .. وقال ابن سيده : الوشي معروف وهو يكون من كل لون - انظر لسان العرب (٤٨٤٦/٦) .

وآذاً: تفاعل منه ، ولمصدره حكم يخالف مصادر الأفعال التي أولها همزة وصل ذكر في النحو .

القساوة غلظ القلب وصلابته ، يقال قسا يقسو قسواً وقسوة وقساوة وقسا وقسا وجسا وعسا متقاربة .

الشق أن يجعل الشيء شقين وتشقق منه ، الخشية الخوف مع تعظم المخشي ، يقال خشي يخشى ، الغفلة والسهو والنسيان متقاربة ، يقال منه غفل يغفل ، ومكان غفل لم يعلم به ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ الآية وجد قتيل في بني إسرائيل اسمه عاميل ولم يدروا قاتله واختلفوا فيه وفي سبب قتله ، فقال عطاء والسدي كان القاتل ابن عم المقتول ، وكان مسكيناً ، والمقتول كثير المال ، وقيل كان أخاه ، وقيل ابن أخيه ولا وارت له غيره فلما طال عليه عمره قتله ليرثه ، وقال عطاء أيضاً كان تحت عاميل بنت عم لا مثل لها في بني إسرائيل في الحسن والجمال فقتله لينكحها ، وطول المفسرون في هذه الحكاية بما يوقف عليه في كتبهم ، والذي سأل موسى البيان هو القاتل قاله أبو العالية ، وقال غيره بل اجتمع القوم فسألوا موسى .

(ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها) ، أنه تقدم ذكر مخالفتهم لأنبيائهم وتكذيبهم لهم في أكثر أنبيائهم فناسب ذلك ذكر هذه الآية ، لما تضمنت من المراجعة والتعنت والعناد مرة بعد مرة ، وقوله (وإذ قال) معطوف على قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٨] ، وقوم موسى أتباعه وأشياعه ، وقرأ الجمهور (يَا مُرْكُم) بضم الراء ، وعن أبي عمرو السكون والإختلاس وإبدال الهمزة ألفاً ، وقد تقدم توجيه ذلك عند الكلام على بارئكم ويأمركم بصيغة المضارع ، فيحتمل أن يراد به الحال ، ويحتمل أن يراد به الماضي إن كان الأمر يذبح البقرة بما أنزل الله في التوراة ، أو بما أخبر موسى ، وأن تذبحوا في موضع المفعول الثاني ليأمر وهو على إسقاط الحرف : أي بأن تذبحوا ، ولحذف الحرف هنا مسوَّغان :

أحدهما : أنه يجهز فيه إذا كان المفعول متأثراً بحرف الجر أن ي حذف الحرف كما قال :

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ

والثاني : كونه مع أن وهو يجوز معها حذف حرف الجر إذا لم يلبس ، ودلالة الآية على أن المأمور به أن يذبحوا بقرة ، فأى بقرة كانت لو ذبحوها لكان يقع الامتثال ، وقد روي الحسن عوفياً أنه روى ، الله يفتي قال والذي نفس محمد بيده لو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فاستأذنه عليه السلام ، وإنما خصص البقر من سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله ، فاخترت البقرة لأنها من المأكولات الحلال ، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه ، أو لأنه أراد تعالى أن يصل الخير للغنم الذي كان يربونها ، والله أعلم ، والله بن مصرف لم تكن من بقر الدنيا بل نزلت من السماء ، وقال بعض أهل العلم البقر سيد الحيوانات الأنسية ، وقرأ ﴿ اتَّخَذْنَا ﴾ الجمهور بالتاء على أن الضمير هو لموسى .

وقرأ عاصم الجحدري وابن محيصن بالياء على أن الضمير لله تعالى ، وهو استفهام على سبيل الإنكار ،

(١) هذا صدر بيت من البسيط نسبة سيويه لعمر بن معد يكرب انظر الكتاب (٣٧/١) ، وانظر كامل (٢١/١) ، الخزانة (٣٤٢/١) ، شرح شواهد المغني (٧٢٨) .

﴿هزوا﴾ قرأ حمزة وإسماعيل وخلف في اختياره ، والقزاز^(١) عن عبد الوارث والمفضل بإسكان الزاي ، وقرأ حفص بضم الزاي والواو بدل الهمز ، وقرأ الباقون بضم الزاي والهمزة ، وفيه ثلاث لغات التي قرئ بها ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لقوله (أنتخذنا هزواً) ، فإما أن يريد به اسم المفعول : أي مهزوءاً كقوله : درهم ضرب الأمير وهذا خلق الله ، أو يكون أخبروا به على سبيل المبالغة : أي أنتخذنا نفس الهزؤ ، وذلك لكثرة الاستهزاء ممن يكون جاهلاً ، أو على حذف مضاف : أي مكان هزء ، أو ذوي هزء وإجابتهم نبههم حين أخبرهم عن أمر الله بأن يذبحوا بقرة بقولهم أنتخذنا هزواً دليل على سوء عقيدتهم في نبههم وتكذيبهم له ، إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لما كان جوابهم إلا امتثال الأمر وجوابهم هذا كفر بموسى ، وقال بعض الناس كانوا مؤمنين مصدقين ، ولكن جرى هذا على نحو ما هم عليه من غلط الطبع والجفاء والمعصية والعذر لهم أنهم لما طلبوا من موسى تعيين القاتل فقال لهم إن الله يأمركم أن تذبحوا ، رأوا تباين ما بين السؤال والجواب وبعده ، فتوهموا أن موسى داعبهم ، وقد لا يكون أخبرهم في ذلك الوقت بأن القاتل يضرب ببعض البقرة المذبوحة فيحيا ويخبر بمن قتله ، أو يكون أخبرهم بذلك فتعجبوا من إحياء ميت ببعض ميت ، فظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء ، وقيل في الكلام محذوف تقديره الله أمرك أن تتخذنا هزواً ، وقيل هو استفهام حقيقة ليس فيه إنكار ، وهو استفهام استرشاد لا استفهام إنكار وعناد ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ لما فهم موسى عليه السلام عنهم أن تلك المقالة التي صدرت عنهم إنما هي لاعتقادهم فيها أنه أخبر عن الله بما لم يأمر به استعاذ بالله ، وهو الذي أخبر عنه أن يكون من الجاهلين بالله ، فيخبر عنه بأمر لم يأمر به تعالى إذ الإخبار عن الله تعالى بما لم يخبر به الله إنما يكون ذلك من الجهل بالله تعالى ، وقوله من الجاهلين فيه تصريح أن ثم جاهلين واستعاذ بالله أن يكون منهم ، وفيه تعريض أنهم جاهلون وكأنه قال : أن أكون منكم ، لأنهم جوزوا على من هو معصوم من الكذب ، وخصوصاً في التبليغ عن الله أن يخبر عن الله بالكذب ، قالوا والجهل بسيط ومركب ، البسيط عام وخاص ، العام عدم العلم بشيء من المعلومات ، والخاص عدم العلم ببعض المعلومات ، والمركب أن يجهل ويجهل أنه يجهل ، فالعام والمركب لا يوصف بهما من له بعض علم فضلاً عن نبي شرف بالرسالة والتكليم ، وذلك مستحيل عليه فيستحيل أن يستعذ منه إلا على سبيل الأدب ، فالذي استعاذ منه موسى هو خاص ، وهو المفضي إلى أن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً ، أو المقابل لجهلهم فقالوا أنتخذنا هزواً لمن يخبرهم عن الله ، أو معناه الاستهزاء بالمؤمنين فإن ذلك جهل أو من الجاهلين بالجواب ، لا على وفق السؤال إذ ذاك جهل والأمر من تلقاء نفسي ، وأنسبه إلى الله والخروج عن جواب الأسئلة المسترشد إلى الهزء فإن ذلك جهل ، وهذه الوجوه الستة مستحيلة على موسى ، قيل وإنما استعاذ منها بطريق الأدب ، كما استعاذ نوح عليه السلام ﴿أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾ [هود : ٤٧] ، وكما في ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ [المؤمنون : ٩٧] ، وإنما قالوا ذلك بطريق الأدب مع الله والتواضع له ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ لما قال لهم موسى أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، وعلموا أن ما أخبرهم به موسى من أمر الله إياهم بذبح البقرة كان عزيمة وطلباً جازماً قالوا له ذلك ، وهذا القول أيضاً فيه تعنت منهم وقلة طواعية إذ لو امتثلوا فذبحوا بقرة لكانوا قد أتوا بالمأمور ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما^(٢) وكسر العين من ادع لغة بني عامر ، وقد سبق ذكر ذلك في فادع لنا ربك يخرج لنا ، وجزم يبين على جواب الأمر ، وما هي مبتدأ وخبر ، وقرأ عبد الله سل لنا ربك يبين ما هي ، ومفعول يبين هي الجملة من المبتدأ والخبر والفعل معلق لأن معنى يبين لنا يعلمنا ما هي ، لأن التبيين يلزمه الإعلام ، والضمير في هي عائد على البقرة السابق

(١) انظر غاية النهاية (٣١٤/٢) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٣٠٥/١) .

ذكرها ، وكأنهم قالوا يبين لنا ما البقرة التي أمرنا بذبحها ، ولم يريدوا تبين ماهية البقرة ، وإنما هو سؤال عن الوصف فيكون على حذف مضاف التقدير ما صفتها ، ولذلك أجيوا بالوصف وهو قوله لا فارض ولا بكر ، وإنما سألوا على طريق التعنت كما قدّمناه ، أو على طريق التعجب من بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا إذ ذاك في غاية الاستغراب والخروج عن المألوف ، أو على طريق أنهم ظنوا قوله أن تذبحوا بقرة من باب المجمل فسألوا تبين ذلك إذ تبين المجمل واجب ، أو على رجاء أن ينسخ عنهم تكليف الذبح لثقل ذلك عليهم لكونهم لم يعلموا المعنى الذي لأجله أمروا بذلك ، وتقدّم معنى قولهم ادع لنا ربك كيف خصوا لفظ الربّ مضافاً إلى موسى ، وذلك لما علموا له عند الله من الخصوصية والمنزلة الرفيعة ، وقيل إنما سألوا موسى استرشاداً لا عناداً ، إذ لو كان عناداً لكفروا به وعجلت عقوبتهم ، كما عجلت في قولهم أرنا الله جهرة وفي عبادتهم العجل وفي امتناعهم من قبول التوراة وقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا ، وفي الكلام حذف تقديره فدعا موسى ربه فأجابه ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ﴾ صفة لبقرة ، والصفة إذا كانت منفية بلا وجب تكرارها كما قال :

وَفَتَيَانِ صِدْقٍ لَا ضِعَافَ وَلَا عَزْلَ^(١)

فإن جاءت غير مكررة فبابها الشعر ، ومن جعل ذلك من الوصف بالمجمل فقدر مبتدأ محذوفاً : أي لا هي فارض ولا بكر ، فقد أبعد لأن الأصل الوصف بالمفرد ، والأصل أن لا حذف ﴿ عوان ﴾ تصديق لما تضمنه قوله لا فارض ولا بكر ﴿ بين ذلك ﴾ يقتضي بين أن تكون تدخل على ما يمكن التثنية فيه ولم يأت بعدها إلا اسم إشارة مفرد ، فقليل أشير بذلك إلى مفرد فكأنه قيل عوان بين ما ذكر فصورته صورة المفرد ، وهو في المعنى مثنى لأن تثنية اسم الإشارة ، وجمعه ليس تثنية ولا جمعاً حقيقة بل كان القياس يقتضي أن يكون اسم الإشارة لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ، قالوا وقد أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة قال رؤبة :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقَ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيْعُ الْبَهَقِ

قيل له كيف تقول كأنه وهلا قلت كأنها فيعود على الخطوط ، أو كأنهما مفعول على السواد والبلق ، فقال أردت كان ذاك وقال لبيد :

إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدَى وَكِلَا ذَلِكَ رَجْسٌ وَقِيلَ^(٢)

قيل أراد وكلا ذينك فأطلق المفرد وأراد به المثنى ، فيحتمل أن تكون الآية من ذلك فيكون أطلق ذلك ويريد به منك ، وهذا مجمل غير الأول ، والذي أذهب إليه غير ما ذكروا وهو أن يكون ذلك مضافاً إلى المعطوف لدلالة المعنى عليه التقدير عوان بين ذلك ، وهذا : أي بين الفارض والبكر فيكون قوله تعالى

فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْجَاءَ سَالِمًا أَبُو حَجَرٍ إِلَّا لَيَالٍ ذُبُلُ^(٣)

أي فما كان بين الخير وبأغيه فحذف لفهم المعنى ، ومنه ﴿ سراويل تقيكم الحر ﴾ [النور : ٨١] ، أي والبرد

(١) هذا عجزيت من الطويل وهو لزهر بن أبي سلمى . انظر شرح ديوان زهير لثعلب ص (٩٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦) ، وروايته - وفتيان صدق لا ضعاف ولا نكل - وهو في اللسان برواية الديوان (حشش) .

(٢) قد تقدم .

(٣) البيت من الطويل للناطقة الذبياني من قصيدة له رثى بها أبا حُجر النعمان بن الحارث . انظر الديوان ص (١١٥ ، ١٢٠) ، المقاصد النحوية (١٦٧/٤) .

وإنما جعلت عواناً لأنه أكمل أحوالها ، فالصغيرة ناقصة لتجاوزها حالته ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ أي من ذبح البقرة ، ولا تكرر السؤل ، ولا تعتنوا في أمر ما أمرتم بذبحه ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة من قول الله ، ويحتمل أن تكون من قول موسى ، وهو الأظهر حرصهم على امتثال ما أمروا به شفقة منه ، وما موصولة ، والعائد محذوف تقديره ما تؤمرونه ، وحذف الفاعل للعلم به إذ تقدّم أن الله يأمركم ولتناسب أواخر الآي ، كما قصد تناسب الإعراب في أواخر الآيات في قوله :

وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

إذ آخر البيت الذي قبل هذا قوله :

وَمَا يَذُرُونَ أَيْنَ الْمَصَارِعُ

وأجاز بعضهم أن تكون ما مصدرية : أي فافعلوا أمركم ، ويكون المصدر بمعنى المفعول : أي مأموركم ، وفيه بعد ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ﴾ لما تعرّفوا سنّ هذه شرعوا في تعرف لونها ، وذلك كله يدل على نقص فطرهم وعقوبهم ، إذ قد تقدّم أمر الله لهم بذبح بقرة ، وأمر المبلغ عن الله الناصح لهم المشفق عليهم بقوله فافعلوا ما تؤمرون ، ومع ذلك لم يرتدعوا عن السؤل عن لونها ، والقول في أدع لنا ربك ، وفي جزم يبين ، وفي الجملة المستفهم بها ، والمحذوف بعده سبق نظيره في الآية قبله ، فأغنى عن ذكره ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء ﴾ قال الجمهور هو اللون المعروف ، ولذلك أكد بالفقوع والسرور فهي صفراء حتى القرن والظلف^(١) ، وقال الحسن وأبو عبيدة عنى به هنا السواد ، قال الشاعر :

وَصَفْرَاءُ لَيْسَتْ بِمُصْفَرَّةٍ وَلَكِنَّ سَوْدَاءَ مِثْلَ الْحَمَمِ

وقال سعيد بن جبير صفراء القرن والظلف خاصة ﴿ فاقع ﴾ أي شديد الصفرة قاله ابن عباس والحسن ، أو الخالص الصفرة قاله قطرب ، أو الصافي قاله أبو العالية وقتادة ﴿ لونها ﴾ ذكروا في إعرابه وجوهاً :

أحدها : أنه فاعل مرفوع بفاع ، وفاقع صفة للبقرة ، الثاني أنه مبتدأ ، وخبره فاقع ، والثالث أنه مبتدأ وتسّر الناظرين خبر ، وأنت على أحد معنيين أحدهما لكونه أضيف إلى مؤنث كما قالوا ذهب بعض أصابعه .

والثاني : أنه يراد به المؤنث إذ هو الصفرة فكأنه قال صفرتها تسر الناظرين ، فحمل على المعنى كقولهم : جاءته كتابي فاحتقرها على معنى الصحيفة ، والوجه الإعراب الأول ، لأن إعراب لونها مبتدأ ، وفاقع خبر مقدّم لا يجيزه الكوفيون ، أو تسّر الناظرين خبره فيه تأنيث الخبر ، ويحتاج إلى تأويل كما قررناه ، وكون لونها فاعلاً بفاع جار على نظم الكلام ولا يحتاج إلى تقديم ولا تأخير ولا تأويل ، ولم يؤنث فاقعاً وإن كان صفة لمؤنث ، لأنه رفع السبى وهو مذكر فصار نحو جاءني امرأة حسن أبوها ، ولا يصح هنا أن يكون تابعاً لصفراء على سبيل التوكيد ، لأنه يلزم المطابقة إذ ذاك للمتبوع ، ألا ترى أنك تقول أسود حالك وسوداء حالك ، ولا يجوز سوداء حالك فأمّا قوله :

وَإِنِّي لِأُسْقِي الشُّرْبَ صَفْرَاءَ فَاقِعًا كَأَنَّ دَكِيَّ الْمِسْكِ فِيهَا يُفْتَقُ

فبابه الشعر إذا كان وجه الكلام صفراء فاقعة ، وجاء صفراء فاقع لونها ولم يكتف بقوله صفراء فاقعة لأنه أراد تأكيد

(١) الظلف للبقر والغنم كالحافر (للفرس والبغل) والخف للبعير ، وقد يطلق الظلف على ذات الظلف أنفسها مجازاً - لسان العرب (٢٧٥٢/٤) .

نسبة الصفرة ، فحكم عليها أنها صفراء ، ثم حكم على اللون أنه شديد الصفرة ، فابتدأ أولاً بوصف البقرة بالصفرة ، ثم أكد ذلك بوصف اللون بها ، فكأنه قال : هي صفراء ، ولونها شديد الصفرة ، فقد اختلفت جهتا تعلق الصفرة لفظاً إذ تعلقت أولاً بالذات ثم ثانياً بالعرض الذي هو اللون ، واختلف المتعلق أيضاً لأن مطلق الصفرة مخالف لشديد الصفرة ، ومع هذا الاختلاف الظاهر فلا يحتاج ذلك إلى التوكيد .

قال الزمخشري^(١) : فإن قلت فهلا قيل صفراء فاقعة ، وأي فائدة في ذلك اللون (قلت) الفائدة فيه التوكيد ، لأن اللون اسم للهيئة ، وهي الصفرة فكأنه قيل شديد الصفرة صفرتها ، فهو من قولك جد جده وجنونك جنون اهـ كلامه . وقال وهب إذا نظرت إليها خيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها ﴿ تَسْرَ الناظرين ﴾ أي تبهج الناظرين إليها من سمنها ومنظرها ولونها ، وهذه الجملة صفة للبقرة ، وقد تقدّم قول من جعلها خبراً كقوله لونها ، وفيه تكلف قد ذكرناه ، وجاء هذا الوصف بالفعل ، ولم يجيء باسم الفاعل ، لأن الفعل يشعر بالحدوث والتجدد ، ولما كان لونها من الأشياء الثابتة التي لا تتجدد جاء الوصف به بالاسم لا بالفعل ، وتأخر هذا الوصف عن الوصف قبله ، لأنه ناشئ عن الوصف قبله ، أو كالتناهي لأن اللون إذا كان بهجاً جميلاً دهشت فيه الأبصار وعجبت من حسنه البصائر ، جاء بوصف الجمع في الناظرين ليوضح أن أعين الناس طامحة إليها ، متلذذة فيها بالنظر فليست مما تعجب شخصاً دون شخص ، ولذلك أدخل الألف واللام التي تدل على الاستغراق : أي هي بصدد من نظر إليها سرّ بها ، وإن كان النظر هنا من نظر القلب وهو الفكر ، فيكون السرور قد حصل من التفكير في بدائع صنع الله من تحسين لونها وتكميل خلقها ، والضمير في تسرّ عائد على البقرة على تقدير أن تسرّ صفة ، وإن كان خبراً فهو عائد على اللون الذي تسرّ خبر عنه ، وقد تقدّم توجيه التأنيث ، ولذلك من قرأ يسرّ بالياء فهو عائد على اللون ، فيحتمل أن يكون لونها مبتدأ ويسرّ خبراً ، ويكون فاقعاً صفة تابعة لصفراء على حد هذا البيت الذي أنشدناه وهو :

وَإِنِّي لَأَسْقِي الشَّرْبَ صَفْرَاءَ فَاقِعًا

على قلة ذلك ، ويحتمل أن يكون لونها فاعلاً بواقع ويسر اخبار مستأنف ، وجمهور المفسرين يشيرون إلى أن الصفرة من الألوان السارة ، ولهذا كان علي كرم الله وجهه يرغب في النعال الصفرة ، وقال ابن عباس الصفرة تبسط النفس وتذهب الهم ، وكان ابن عباس أيضاً يحض على لبس النعال الصفرة ، ونهى ابن الزبير ويحيى بن أبي كثير عن لباس النعال السود لأنهاتهم ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ قال أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي في ري الظمان وجه الاشتباه عليهم ، أن كل بقرة لا تصلح عندهم أن تكون آية لما علموا من ناقة صالح وما كان فيها من العجائب ، فظنوا أن الحيوان لا يكون آية إلا إذا كان على ذلك الأسلوب ، وذلك لما نبؤوا أنها آية سألوا عن ماهيتها وكيفيتها ، ولذلك لم يسألوا موسى عن ذلك بل سألوه أن يسأل الله لهم عن ذلك ، إذ الله تعالى هو العالم بالآيات ، وإنما سألوا عن التعيين ، وإن كان اللفظ مقتضاه الإطلاق لأنهم لو عملوا بمطلقه لم يحصل التقصي عن الأمر بيقين انتهى كلامه . وقال غيره لما لم يمكن التماثل من كل وجه وحصل الاشتباه ، ساغ لهم السؤال فأخبروا بسنها فوجدوا مثلها في السن كثيراً ، فسألوا عن اللون فأخبروا بذلك فلم يزل اللبس بذلك ، فسألوا عن العمل فأخبروا بذلك وعن بعض أوصافها الخاص بها ، فزال اللبس بتبيين السن واللون والعمل وبعض الأوصاف ، إذ وجود بقر كثير على هذه الأوصاف يندر ، فهذا هو السبب الذي جرّاهم على تكرار السؤال ، (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي) تقدم الكلام على هذه الجملة ، ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ هذا تعليل لتكرار هذا السؤال إلى أن الحامل على استقصاء أوصاف هذه

البقرة وهو تشابهها علينا ، فإنه كثير من البقر يماثلها في السن واللون .

وقرأ عكرمة ويحيى بن يعمر إنَّ الْبَاقِرَ ، وقد تقدم أنه اسم جمع قال الشاعر :

مَا لِي رَأَيْتَكَ بَعْدَ عَهْدِكَ مُوَحِّشًا كَحَوْضِ الْبَاقِرِ الْمَتَّهِدِّمِ

وقرأ الجمهور تشابه جعلوه فعلاً ماضياً على وزن تفاعل مسند الضمير البقر على أن البقر مذكر ، وقرأ الحسن تشابه بضم الهاء جعله مضارعاً محذوف التاء ، وماضيه تشابه ، وفيه ضمير يعود على البقر على أن البقر مؤنث ، وقرأ الأعرج كذلك إلا أنه شدد الشين جعله مضارعاً ، وماضيه تَشَابَهَ أصله تَشَابَهَ فادغم ، وفيه ضمير يعود على البقر ، وروى أيضاً عن الحسن ، وقرأ محمد المعيطي المعروف بذئ الشامة تَشَبَّهَ علينا ، وقرأ مجاهد تَشَبَّهَ جعله ماضياً على تفعل ، وقرأ ابن مسعود يَشَابُه بالياء وتشديد الشين ، جعله مضارعاً من تفاعل ، ولكنه أدغم التاء في الشين ، وقرئ متشبه اسم فاعل من تشبه وقرأ بعضهم يتشابه مضارع تشابه ، وفيه ضمير يعود على البقر ، وقرأ أبي تَشَابَهَتْ ، وقرأ الأعمش مُتَشَابِهٌ وَمُتَشَابِهَةٌ ، وقرأ ابن أبي « إسحاق » تَشَابَهَتْ بتشديد الشين ، مع كونه فعلاً ماضياً وبتاء التأنيث آخره ، فهذه اثنا عشرة قراءة ، وتوجيه هذه القراءات ظاهر إلا قراءة ابن أبي إسحاق تشابهت ، فقال بعض الناس لا وجه لها وتبيين ما قاله أن تشديد الشين إنما يكون بإدغام التاء فيها ، والماضي لا يكون فيه تاء إن بقيت إحداهما وتدغم الأخرى ، ويمكن أن توجه هذه القراءة على أن أصله اشابهت ، والتاء هي تاء البقرة ، وأصله إن البقرة اشابهت علينا ، ويقي ذلك إلحاق تاء التأنيث في آخر الفعل ، أو اشابهت أصله تشابهت فادغمت التاء في الشين ، واجتلبت همزة الوصل فحين أدرج بن أبي إسحاق القراءة صار اللفظ إن البقرة اشابهت ، فظن السامع أن تاء البقرة هي تاء في الفعل ، إذ النطق واحد فتوهم أنه قرأ تشابهت وهذا لا يظن بآب بن أبي إسحاق فإنه رأس في علم النحو ، وممن أخذ النحو عن أصحاب أبي الأسود الدؤلي^(١) مستنبط علم النحو ، وقد كان ابن أبي إسحاق يزري على العرب وعلى من يستشهد بكلامهم كالفرزدق ، إذا جاء في شعرهم ما ليس بالمشهور في كلام العرب ، فكيف يقرأ قراءة لا وجه لها ، وإن البقر تعليل للسؤال كما تقول أكرم زيداً إنه عالم فالحامل لهم على السؤال هو حصول تشابه البقر عليهم ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ أي لمهتدون إلى عين البقرة المأمور بذبحها ، أو إلى ما خفى من أمر القاتل ، أو إلى الحكمة التي من أجلها أمرنا بذبح البقرة ، وفي تعليق هدايتهم بمشيئة الله إنابة وانقياد ودلالة على ندمهم على ترك موافقة الأمر ، وقد جاء في الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد ، وجواب هذا الشرط محذوف يدل عليه مضمون الجملة : أي إن شاء الله اهتدينا ، وإذ حذف الجواب كان فعل الشرط ماضياً في اللفظ ومنفياً بلم ، وقياس الشرط الذي حذف جوابه إن يتأخر عن الدليل على الجواب ، فكأن الترتيب أن يقال في الكلام إن زيداً لقائم إن شاء الله : أي إن شاء الله فهو قائم ، لكنه توسط هنا بين اسم إن وخبرها ليحصل توافق رؤوس الآي ، وللاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله ، وجاء خبر إن اسماً لأنه أدل على الثبوت وعلى أن الهداية حاصلة لهم ، وأكد بحرفي التأكيد إن واللام ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى ، إذ أخبروا بثبوت الهداية لهم وأكدوا تلك النسبة ، ولو كان تعليقاً محضاً لما احتيج إلى تأكيد ، ولكنه على قول القائل أنا صانع كذا إن شاء الله وهو متلبس بالصنع ، فذكر إن شاء الله على طريق الأدب ، قال الماتريدي^(٢) إن قوم موسى مع غلظ أفهامهم وقلة عقولهم كانوا أعرف بالله وأكمل توحيداً من المعتزلة ، لأنهم قالوا وإنا

(١) ظالم بن عمرو بن ظالم وقيل ابن سفيان بن عمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل بن بكر بن كنانة أبو الأسود الدؤلي البصري توفي سنة تسع وسبعين للهجرة بطاعون الجارف انظر البغية (٢٢/٢ - ٢٣) .

(٢) محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ماتريد محلة بسمرقند توفي سنة ٣٣٣ هجرية -

إن شاء الله لمهتدون ، والمعتزلة يقولون قد شاء الله أن يهتدوا وهم شأؤوا أن لا يهتدوا ، فغلبت مشيئتهم مشيئة الله تعالى حيث كان الأمر على ما شأؤوا لا كما شاء الله تعالى ، فتكون الآية حجة لنا على المعتزلة انتهى كلامه . ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة ﴾ الكلام على هذا كالكلام على نظيره ﴿ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ﴾ لا ذلول صفة للبقرة على أنه من الوصف بالمفرد ، ومن قال هو من الوصف بالجملة وإن التقدير لا هي ذلول فبعيد عن الصواب ، وتثير الأرض صفة للذلول وهي صفة داخلية في حيز النفي ، والمقصود نفي إثارتها الأرض : أي لا تثير فتذل فهو من باب :

عَلَى لَاجِبٍ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

اللفظ نفي الذل ، والمقصود نفي الإثارة فينتفي كونها ذلولاً ، ولا تسقي الحرث نفي معادل لقوله لا ذلول ، والجملة صفة ، والصفتان منفيتان من حيث المعنى ، كما أن لا تسقي منفي من حيث المعنى أيضاً ، ومعنى الكلام أنها لم تذلل بالعمل لا في حرث ولا في سقي ، ولهذا نفي عنها إثارة الأرض وسقيها ، وقال الحسن كانت تلك البقرة وحشية ، ولهذا وصفت بأنها لا تثير الأرض بالحرث ولا يسنى عليها فتسقي ، وقد ذهب قوم إلى أن قوله تثير الأرض فعل مثبت لفظاً ومعنى ، وأنه أثبت للبقرة أنها تثير الأرض وتحريثها ، ونفي عنها سقي الحرث وردّ هذا القول من حيث المعنى ، لأن ما كان يحرث لا ينتفي كونه ذلولاً ، وقال بعض المفسرين معنى تثير الأرض بغى الحرث بطراً ومرحاً ، ومن عادة البقر إذا بطرت تضرب بقرنها وأظلافها فتثير تراب الأرض وينعقد عليها الغبار ، فيكون هذا المعنى من تمام قوله لا ذلول ، لأن وصفها بالمرح والبطر دليل على أنها لا ذلول ، قال الزمخشري^(١) : لا ذلول صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول ، يعني لم تذلل للحرث وإثارة الأرض ، ولا هي من النواضع التي يسنى عليها بسقي الحروث ، ولا الأولى للنفي ، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى لا ذلول تثير وتسقي ، على أن الفعلين صفتان للذلول ، كأنه قيل لا ذلول مثيرة وساقية انتهى كلامه . ووافقه على جعل لا الثانية مزيدة صاحب المنتخب ، وما ذهب إليه ليس بشيء لأن قوله لا ذلول صفة منفية بلا ، وإذا كان الوصف قد نفي بلا لزم تكرار لا النافية لما دخلت عليه تقول مررت برجل لا كريم ولا شجاع ، وقال تعالى ﴿ ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ [المرسلات : ٣٠ - ٣١] ، ﴿ وظل من يحوم لا بارد ولا كريم ﴾ [الواقعة : ٤٣] ، ﴿ لا فارض ولا بكر ﴾ [البقرة : ٦٨] ، ولا يجوز أن تأتي بغير تكرار لأن المستفاد منها النفي إلا إن ورد في ضرورة الشعر ، وإذا آل تقديرهما إلى لا ذلول مثيرة وساقية كان غير جائز لما ذكرناه من وجوب تكرار لا النافية ، وعلى ما قدرناه كان نظير جاءني رجل لا كريم وذلك لا يجوز إلا أن ورد في شعر كما نبهنا عليه ، قال ابن عطية ولا يجوز أن تكون هذه الجملة في موضع الحال لأنها من نكرة انتهى كلامه . والجملة التي أشار إليها هي قوله تثير الأرض ، والنكرة هي قوله لا ذلول ، أو قوله بقرة فإن عنى بالنكرة بقرة فقد وصفت ، والحال من النكرة الموصوفة جائزة جوازاً حسناً وإن عنى بالنكرة لا ذلول فهو قول الجمهور ممن لم يحصل مذهب سيبويه ، ولا أمعن النظر في كتابه ، بل قد أجاز سيبويه في كتابه في مواضع مجيء الحال من النكرة ، وإن لم توصف ، وإن كان الإتيان هو الوجه والأحسن ، قال سيبويه في باب ما لا يكون الاسم فيه إلا نكرة ، وقد يجوز نصبه على نصب هذا رجل منطلقاً يريد على الحال من النكرة ، ثم قال وهو قول عيسى ، ثم قال وزعم الخليل أن هذا جائز ونصبه كنصبه في المعرفة جعله حالاً ، ولم يجعله صفة ومثل ذلك مررت برجل قائماً إذا جعلت المروبه في حال قيام ، وقد يجوز على هذا فيها رجل قائماً ومثل ذلك عليه مائة بيضاء والرفع الوجه وعليه مائة دينا الرفع الوجه ، وزعم يونس أن ناساً من العرب

الفوائد البهية (١٩٥) ، مفتاح السعادة (٢١/٢) .

(١) انظر الكشف (١٥١/١) .

يقولون مررت بماء فعدة رجل والوجه الجر ، وكذلك قال سيبويه في باب ما ينتصب لأنه قبيح أن يكون صفة فقال راقود خلاً وعليك نحي سمناً ، وقال في باب نعم فإذا قلت لي غسل ملء جرة وعليه دين شعر كلبين فالوجه الرفع لأنه صفة ، والنصب يجوز كنصبه عليه مائة بيضاء فهذه نصوص سيبويه ، ولو كان ذلك غير جائز كما قال ابن عطية لما قاسه سيبويه لأن غير الجائز لا يقال به فضلاً عن أن يقاس ، وإن كان الإتيان للنكرة أحسن ، وإنما امتنعت في هذه المسألة لأن ما ذهب إليه أبو محمد هو قول الضعفاء في صناعة الإعراب ، الذين لم يطلعوا على كلام الإمام ، وأجاز بعض المعربين أن يكون تثير الأرض في موضع الحال من الضمير المستكن في ذلول تقديره لا تدل في حال إثارتها ، والوجه ما بدأنا به أولاً .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي لا ذُلُولَ بالفتح ، قال الزمخشري^(١) بمعنى لا ذلول هناك : أي حيث هي ، وهو نفي لذلها ولأن توصف به ، فيقال هي ذلول ونحوه قولك مررت بقوم لا بخيل ولا جبان : أي فيهم ، أوحى هم انتهى كلامه . فعلى ما قدره يكون الخبر محذوفاً ، ويكون قوله تثير الأرض صفة لاسم لا وهي منفية من حيث المعنى ، ولذلك عطف عليها جملة منفية وهو قوله ولا تسقي الحرث ، وإذا تقرر هذا فلا يجوز أن تكون تثير الأرض ولا تسقي الحرث خبراً ، لأنه كان يتنافر هذا التركيب مع ما قبله ، لأن قوله قال إنها بقرة يبقى كلاماً منفلاً مما بعده ، إذ لا تحصل به الإفادة إلا على تقدير أن تكون هذه الجملة معترضة بين الصفة والموصوف ، ويكون محط الخبر هو قوله ﴿ مسلمة لا شية فيها ﴾ لأنها صفة في اللفظ ، وهي الخبر في المعنى ، ويكون ذلك الاعتراض من حيث المعنى نافياً ذلة هذه البقرة ، إذ هي فرد من أفراد الجنس المنفي بلا ، الذي بني معها ، ولا يجوز أن تقع هذه الجملة أعني لا ذلول على قراءة السلمي في موضع الصفة على تقدير أن تثير وما بعدها الخبر ، لأنه ليس فيها عائد على الموصوف الذي هو بقرة إذ العائد الذي في تثير ، وفي تسقي ضمير اسم لا ولا يتخيل أن قوله لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث على تقدير أن تثير وما بعده خبر يكون دالاً على نفي ذلول مع الخبر عن الوجود ، لأن ذلك كان يكون غير مطابق لما عليه الوجود ، وإنما المعنى نفي ذلك بالنسبة إلى أرضهم وإلى حرثهم ، والألف واللام للعهد فكما يتعقل انتفاء ذلول مع اعتقاد كون تثير وما بعده صفة ، لأنك قيدت الخبر بتقديره حيث هي فصلح هذا النفي ، كذلك يتعقل انتفاء ذلول مع الخبر عنه حيث اعتقد أن متعلق الخبرين مخصوص وهو الأرض والحرث ، كما تقدر ما من ذلول مثيرة ولا ساقية ، حيث تلك البقرة كذلك تقدر ما من ذلول تثير أرضهم ولا تسقي حرثهم ، فكلاهما نفي قد تخصص إما بالخبر المحذوف ، وإما بتعلق الخبر المثبت ، وقد انتفى وصف البقرة بذلول وما بعدها إما بكون الجملة صفة والرباط الخبر المحذوف ، وإما بكون الجملة اعتراضية بين الصفة والموصوف ، إذ لم تشتمل على رابط يربطها بما قبلها إذا جعلت تثير خبر ، الا يقال ان الرابط هنا هو العموم إذ البقرة فرد من أفراد اسم الجنس ، لأن الرابط بالعموم إنما قيل به في نحو زيد نعم الرجل على خلاف في ذلك ، ولعل الأصح خلافه وباب نعم باب شاذ لا يقاس عليه لو قلت زيد لا رجل في الدار ومررت برجل لا عاقل في الدار وأنت تعني الخبر والصفة وتجعل الرابط العموم ، لأنك إذا نفيت لا رجل في الدار انتفى زيد فيها ، وإذا قلت لا عاقل في الدار انتفى العقل عن المرور به لم يجز ذلك ، فلذلك اخترنا في هذه القراءة على تقدير كون تثير وتسقي خبراً للذلول أن تكون الجملة اعتراضية بين الصفة والموصوف ، وتدل على نفي الإثارة ونفي السقي من حيث المعنى لا من حيث كون الجملة صفة للبقرة ، وأما تمثيل الزمخشري^(٢) بذلك بمررت بقوم لا بخيل ولا جبان فيهم ، أوحى هم فتمثيل صحيح ، لأن الجملة الواقعة صفة لقوم ليس الرابط فيها العموم إنما الرابط هذا الضمير ، وكذلك ما قرره هو الرابط فيه الضمير إذ قدره لا ذلول هناك : أي حيث هي ، فهذا الضمير عائد على البقرة وحصل به الربط كما

(١) انظر الكشف (١٥١/١) .

(٢) انظر الكشف (١٥١/١) .

حصل في تمثيله بقوله فيهم أو حيث هم ، فتحصل من هذا الذي قررناه أن قوله تعالى لا ذلول في قراءة السلمي يتخرج على وجهين أحدهما أن تكون معترضة ، وذلك على تقدير حذف خبر ، والثاني أن تكون معترضة ، وذلك على تقدير أن يكون خبر لا تثير الأرض ولا تسقي الحرث ، وكانت قراءة الجمهور أولى لأن الوصف بالمفرد أولى من الوصف بالجملة ، ولأن في قراءة أبي عبد الرحمن على أحد تخريجها تكون قد بدأت بالوصف بالجملة ، وقدمته على الوصف بالمفرد ، وذلك مخصوص بالضرورة عند بعض أصحابنا ، لأن لا ذلول المنفي معها جملة ، ومسلمة مفرد فقد قدمت الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد ، والمفعول الثاني لتسقي محذوف لأن سقى يتعدى إلى اثنين ، وقرأ بعضهم تسقي بضم التاء من أسقى ، وهما بمعنى واحد ، وقد قرئ نُسْقِيكُمْ بفتح النون وضمها ، مسلمة من العيوب قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية ومقاتل ، أو من الشيات والألوان قاله مجاهد وابن زيد ، أو من العمل في الحرث والسقي وسائر أنواع الاستعمال قاله الحسن وابن قتيبة ، والمعنى أن أهلها أعفوها من ذلك ، كما قال الآخر :

أَوْ مَعْبَرُ الظَّهْرِ يُنْبِي عَنْ وَلِيِّتِهِ مَا حَجَّ رَبُّهُ فِي الدُّنْيَا وَلَا اِعْتَمَرَا

أو من الحرام لا غضب فيها ولا سرقة ولا غيرهما بل هي مطهرة من ذلك ، أو مسلمة القوائم والحلق قاله عطاء الخراساني ، أو مسلمة من جميع ما تقدم ذكره ، لتكون خالية من العيوب بريئة من الغصوب مكملة الخلق شديدة الأسر كاملة المعاني صالحة ، لأن تظهر فيها آية الله تعالى ومعجزة رسوله ، قال أبو محمد بن عطية ومسلمة بناء مبالغة من السلامة ، وقاله غيره فقال هي من صيغ المبالغة ، لأن وزنها مفعلة من السلامة وليس كما ذكر ، لأن التضعيف الذي في مسلمة ليس لأجل المبالغة بل هو تضعيف النقل والتعدي يقال سلم كذا ، ثم إذا عدّيته بالتضعيف هنا كهو في قوله فرحت زيدا ، إذ أصله فرح زيد وكذلك هذا أصله سلم زيد ، ثم يضعف فيصير يتعدى فليس إذن هنا مبالغة بل هو المرادف للبناء المتعدي بالهمزة ، لاشية فيها : أي لا بياض قاله السدي ، أو لا وضح وهو الجمع بين لونين من سواد وبياض ، أو لا عيب فيها ، أو لا لون يخالف لونها من سواد ، أو بياض ، أو لا سواد في الوجه والقوائم وهو الشية في البقر ، يقال ثور موشى إذا كان في وجهه وقوائمه سواد ، وقيل لاشية فيها تفسير لقوله مسلمة : أي خلصت صفرتها عن أخلاط سائر الألوان قاله ابن زيد ، قال ابن عطية والثور الأشية الذي ظهر بقله يقال فرس أبلق ، وكبش أخرج ، وتيس أبرق ، وكلب أبقع ، وثور أشيه كل ذلك بمعنى البقلة انتهى . وليس الأشية مأخوذاً من الشية لاختلاف المادتين ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ قرأ الجمهور بإسكان اللام والهمزة بعده ، وقرأ نافع بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام ، وعنه روايتان إحداهما حذف واو قالوا ، إذ لم يعتد بنقل الحركة ، إذ هو نقل عارض ، والرواية الأخرى إقرار الواو اعتداداً بالنقل واعتباراً لعارض التحريك ، لأن الواو لم تحذف إلا لأجل سكون اللام بعدها ، فإذا ذهب موجب الحذف عادت الواو إلى حالها من الثبوت ، وانتصاب الآن على الظرفية ، وهو ظرف يدل على الوقت الحاضر وهو قوله لهم إنها بقرة لا ذلول إلى لاشية فيها ، والعامل فيه جئت ولا يراد بجئت أنه كان غائباً فجاء ، وإنما مجازة نطقت بالحق فبالحق متعلق بجئت على هذا المعنى ، أو تكون الباء للتعدي فكأنه قال أجأت الحق : أي أن الحق كان لم يجئنا فأجأته ، وهنا وصف محذوف تقديره بالحق المبين : أي الواضح الذي لم يبق معه أشكال واحتيج إلى تقدير هذا الوصف ، لأنه في كل محاورة حاورها معهم جاء بالحق ، فلو لم يقدر هذا الوصف لما كان لتقييدهم مجيئه بالحق بهذا الطرف الخاص فائده ، وقد ذهب قتادة إلى أنه لا وصف محذوف هنا ، وقال كفروا بهذا القول لأن نبي الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان لا يأتيهم إلا بالحق في كل وقت ، وقالوا ومعنى بالحق بحقيقة نعت البقرة وما بقي فيها أشكال ﴿ فذبحوها ﴾ قبل هذه الجملة محذوف التقدير فطلبوها وحصلوها : أي هذه البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وتحصيلها كان بأن الله أنزلها من السماء ، أو بأنها كانت وحشية فأخذوها ، أو باشترائها من الشاب البار بأبويه ، وهذا

الذي تضافرت أقاويل أكثر المفسرين ، وذكروا في ذلك اختلافاً وقصصاً كثيراً مضطرباً ، أضربنا عن نقله صفحاً كعادتنا في أكثر القصص الذي ينقلونه ، إذ لا ينبغي أن ينقل من ذلك إلا ما صح عن الله تعالى ، أو عن رسوله في قرآن أو سنة ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ كنى عن الذبح بالفعل ، لأن الفعل يكتنى به عن كل فعل ، وكاد في الثبوت تدلّ على المقاربة ، فإذا قلت كاد زيد يقوم فمعناه مقاربة القيام ولم يتلبس به فإذا قلت ما كاد زيد يقوم فمعناه نفى المقاربة ، فهي كغيرها من الأفعال وجوباً ونفياً ، وقد ذهب بعض الناس إلى أنها إذا أثبتت دلت على نفى الخبر ، وإذا نفيت دلت على إثبات الخبر ، مستدلاً بهذه الآية لأن قوله تعالى (فذبحوها) يدل على ذلك ، والصحيح القول الأول ، وأما الآية فقد اختلف زمان نفى المقاربة والذبح إذ المعنى وما قاربوا ذبحها قبل ذلك : أي وقع الذبح بعد أن نفى مقاربتهم ، فالمعنى أنهم تعسروا في ذبحها ، ثم ذبحوها بعد ذلك ، قيل والسبب الذي لأجله ما كادوا يذبحون هو إمّا غلاء ثمنها ، وإمّا خوف فضيحة القاتل ، وإمّا قلة انقياد وتعنت على الأنبياء على ما عهد منهم ، واختلفوا في هذه البقرة المذبوحة أهى التي أمروا أولاً بذبحها وأنها معينة في الأمر الأول وأنه لو وقع الذبح عليها أولاً لما وقع إلا على هذه معينة أم الأمور بها أولاً هي بقرة غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بلون وصفات فذبحوا المخصوصة ، فكان الأمر الأول مخصوصاً لانتقال الحكم من البقرة المطلقة إلى البقرة المخصوصة ، ويجوز النسخ قبل الفعل على أن هذه البقرة المخصوصة يتناولها الأمر بذبح بقرة ، فلو وقع الذبح عليها بالخطاب الأول لكانوا ممثلين فكذلك بعد التخصيص ، ثم اختلف القائلون بهذا الثاني هل الواجب كونها بالصفة الأخيرة فقط وهي كونها لا ذلولاً إلى آخره ، أم يضاف إلى هذه الأوصاف في جواب السؤالين قبل فيجب أن يكون مع الوصف الأخير لا فارض ولا بكرٌ وصفراء فاقعٌ لونها ، والذي نختاره هذا الثاني ، لأن الظاهر اشتراك هذه الأوصاف لأن قوله ما هي وما لونها وما هي يدل على ذلك ، وهذا هو الذي اشتهر في الأخبار أنها كانت بهذه الأوصاف جميعاً ، وإذا كان البيان لا يتأخر عن وقت الحاجة كان ذلك تكليفاً بعد تكليف ، وذلك يدل على نسخ التسهيل بالأشق ، وعلى جواز النسخ قبل الفعل ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ معطوف على قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه) ويجوز أن يكون ترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما ، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة فذبحوها وهم لا يعلمون بما له تعالى فيها من السر ، ثم وقع بعد ذلك أمر القتل ، فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة بقوله اضربوه ببعضها ولا شيء يضطرننا إلى اعتقاد تقدم قتل القتل ، ثم سألوا عن تعيين قاتله إذ كانوا قد اختلفوا في ذلك ، فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ، فيكون الأمر بالذبح متقدماً في النزول والتلاوة ، متأخراً في الوجود ، ويكون قتل القتل متأخراً في النزول والتلاوة ، متقدماً في الوجود ، ولا إلى اعتقاد كون الأمر بالذبح وما بعده مؤخراً في النزول متقدماً في التلاوة ، والإخبار عن قتلهم متقدماً في النزول متأخراً في التلاوة دون تعرض لزمان وجود القصتين ، وإنما حمل من حمل على خلاف الظاهر اعتبار ما روي من القصص الذي لا يصح إذ لم يرد به كتاب ولا سنة ، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى ، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنما يكون لمرجح ولا مرجح بل تظهر الحكمة البالغة في تكليفهم أولاً ذبح بقرة هل يمثلون ذلك أم لا ، وامثال التكاليف التي لا يظهر فيها ببادئ الرأي حكمة . أعظم من امثال ما تظهر فيه حكمة ، لأنها طوعية صرف وعبودية محضة واستسلام خالص بخلاف ما تظهر له حكمة ، فإن في العقل داعية إلى امثاله وحضاً على العمل به ، وقال صاحب المنتخب إن وقوع ذلك القتل لا بد أن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح ، فأما الإخبار عن وقوع ذلك القتل ، وعن أنه لا بد أن يضرب القتل ببعض تلك البقرة ، فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة ، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة على الأولى خطأ ، لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود ، فأما التقديم في الذكر فغير واجب ، لأنه تارة يقدم ذكر السبب على ذكر الحكم وأخرى على العكس من ذلك ، فكأنه لما وقعت لهم تلك الواقعة ، أمرهم بذبح البقرة فلما ذبحوها قال : وإذ قتلتم نفساً من قبل واختلفتم فإني مظهر لكم القاتل الذي

سترتموه بأن يضرب القتل ببعض هذه البقرة المذبوحة ، وتقدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل ، لأنه لو عكس لما كانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تشية التقرّيع انتهى كلامه . وهو مبني على أن القتل وقع أولاً ثم أمروا بعد ذلك بذبح البقرة ، وليس له دليل على ذلك إلا نقل شيء من القصص التي لم تثبت في كتاب ولا سنة ، وقد بينا حمل الآيتين على أن الأمر بالذبح يكون متقدّماً ، وأن القتل تأخر كحالهما في التلاوة .

وقال بعض الناس : التقديم والتأخير حسن ، لأن ذلك موجود في القرآن في الجمل ، وفي الكلمات ، وفي كلام العرب ، وأورد من ذلك جملاً من ذلك قصة نوح عليه السلام في إهلاك قومه وقوله (وقال اركبوا فيها) وفي حكم من مات عنها زوجها بالتربص بالأربعة الأشهر وعشر ويمتاع إلى الحول ، إذ الناسخ مقدّم والمنسوخ متأخر ، وذكر من تقديم الكلمات في القرآن والشعر على زعمه كثيراً ، والتقديم والتأخير ذكر أصحابنا أنه من الضرائر فينبغي أن ينزه القرآن عنه ، ونسبة القتل إلى جمع إما لأن القاتلين جمع وهم ورثة المقتول ، وقد نقل أنهم اجتمعوا على قتله ، أو لأن القاتل واحد ونسب ذلك إليهم لوجود ذلك فيهم على طريقة العرب في نسبة الأشياء إلى القبيلة ، إذا وجد من بعضها ما يذم به أو يمدح ﴿ فَأَذَارُتُمْ فِيهَا ﴾ قرأ الجمهور بالإدغام وقرأ أبو حية فَذَارُتُمْ على وزن تفاعلت وهو الأصل هكذا نقل بعض من جمع في التفسير وقال ابن عطية قرأ أبو حية وأبو السوار الغنوي وإذ قتلتم نفساً فَذَارُتُمْ ، وقرأت فرقة فَذَارُتُمْ على الأصل انتهى كلامه . ونقل من جمع في التفسير أن أبا السوار قرأ فَذَارُتُمْ بغير ألف قبل الراء ، ويحتمل هذا التدارؤ وهو التدافع أن يكون حقيقة ، وهو أن يدفع بعضهم بعضاً بالأيدي لشدة الاختصاص ، ويحتمل المجاز بأن يكون بعضهم طرح قتله على بعض فدفع المطروح عليه ذلك إلى الطارح ، أو بأن دفع بعضهم بعضاً بالتهمة والبراءة ، والضمير في فيها عائذ على النفس وهو ظاهر ، وقيل على القتل فيعود على المصدر المفهوم من الفعل ، وقيل على التهمة فيعود على ما دل عليه معنى الكلام ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ ما منصوب باسم الفاعل وهو موصول معهود ، فلذلك أتى باسم الفاعل لأنه يدل على الثبوت ، ولم يأت بالفعل الذي هو دال على التجدد والتكرار ، ولا تكرار إذ لا تجدد فيه لأنها قصة واحدة معروفة ، فلذلك والله أعلم لم يأت بالفعل ، وجاء اسم الفاعل معملاً ولم يضاف ، وإن كان من حيث المعنى ماضياً ، لأنه حكى ما كان مستقبلاً وقت التدارؤ ، وذلك مثل ما حكى الحال في قوله تعالى ﴿ وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ [الكهف : ١٨] ، ودخلت كان هنا ليدل على تقدم الكتمان ، والعائد على ما محذوف تقديره ما كنتم تكتمونه ، والظاهر أن المعنى ما كنتم تكتمون من أمر القتل وقتله ، وعلى هذا ذهب الجمهور ، وقيل يجوز أن يكون عاماً في القتل وغيره ، فيكون القتل من جملة أفراده ، وفي ذلك نظر إذ ليس كل ما كتموه عن الناس أظهره الله تعالى ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ جملة معطوفة على قوله (قتلتم نفساً فَادَارُتُمْ فِيهَا) ، والجملة من قوله تعالى (والله مخرج ما كنتم تكتمون) اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ، مشعرة بأن التدارؤ لا يجدي شيئاً ، إذ الله تعالى مظهر ما كنتم من أمر القتل ، والهاء في اضربوه عائذ على النفس على تذكير النفس ، إذ فيها التأنيث وهو الأشهر والتذكير ، أو على أن الأول هو على حذف مضاف : أي وإذ قتلتم ذا نفس فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فروعي بعود الضمير مؤنثاً في قوله فَادَارُتُمْ فِيهَا ، وروعي المحذوف بعود الضمير عليه مذكراً في قوله (فقلنا اضربوه) ، أو عائذ على القتل : أي فقلنا اضربوا القتل ببعضها ، الظاهر أنهم أمروا أن يضربوه بأي بعض كان ، فقيل ضربوه بلسانها ، أو بفخذها اليمنى ، أو بذنباها ، أو بالعضروف ، أو بالعظم الذي يلي العضروف ، وهو أصل الأذن ، أو بالبضعة التي بين الكتفين ، أو بالعَجَب^(١) ، وهو أصل الذنب ، أو بالقلب واللسان معاً ، أو بعظم من عظامها قاله أبو

(١) العَجَبُ والعُجْبُ من كل دابة : ما انضم عليه الوركان من أصل الذنب المغروز في مؤخّر العَجْرِ وقيل : هو أصل الذنب كله لسان العرب

العالية ، والباء في بيعضها للالة كما تقول ضربت بالقدم ، والضمير عائذ على البقرة : أي بيعض البقرة ، وفي الكلام حذف يدل عليه ما بعده وما قبله التقدير فضربه فحيي ، دل على ضربه قوله تعالى (اضربه بيعضها) ، ودل على فحيي قوله تعالى (كذلك يحيي الله الموتى) ، ونقل أن الضرب كان على جيد القتيل ، وذلك قبل دفنه ، ومن قال إنهم مكثوا في طلبها أربعين سنة ، أو من يقول إنهم أمروا بطلبها ولم تكن في صلب ولا رحم ، فلا يكون الضرب إلا بعد دفنه قيل على قبره ، والأظهر أنه المباشر بالضرب لا القبر ، وروي أنه قام وأوداجه تشخب دماً ، وأخبر بقاتله فقال قتلي ابن أخي ، فقال : بنو أخيه والله ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد معانيته ، ثم مات مكانه ، وفي بعض القصص أنه قال قتلي فلان وفلان لابني عمه ، ثم سقط ميتاً فأخذوا وقتلوا ، ولم يورثوا قاتلاً بعد ذلك ، وقال الماوردي^(١) كان الضرب بميت لا حياة فيه لئلا يلتبس على ذي شبهة أن الحياة إنما انقلبت إليه مما ضرب به لتزول الشبهة وتؤكد الحجة ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾ ، إن كان هذا خطاباً للذين حضروا إحياء القتيل كان ثم إضمار قول : أي وقلنا لهم كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة ، وقدره الماوردي خطاباً من موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وإن كان لمنكري البعث في زمن رسول الله ﷺ فيكون من تلوين الخطاب ، والمعنى كما أحى قتيل بني إسرائيل في الدنيا ، كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة ، وإلى هذا ذهب الطبري ، والظاهر هو الأول لانتظام الآي في نسق واحد ، ولئلا يختلف خطاب لعلكم تعقلون ، وخطاب ثم قست قلوبكم لأن ظاهر قلوبكم أنه خطاب لبني إسرائيل ، والكاف من كذلك صفة لمصدر محذوف منصوب بقوله يحيي الله الموتى : أي إحياء مثل ذلك الإحياء يحيي الله الموتى ، والمماثلة إنما هي في مطلق الإحياء لا في كيفية الإحياء ، فيكون ذلك إشارة إلى إحياء القتيل ، وجعل صاحب المنتخب ذلك إشارة إلى نفس القتيل ، ويحتاج في تصحيح ذلك إلى حذف مضاف : أي مثل إحياء ذلك القتيل يحيي الله الموتى ، فجعله إشارة إلى المصدر أولى وأقل تكلفاً ، وإذا كان ذلك خطاباً لبني إسرائيل الحاضرين إحياء القتيل فحكمة مشاهدة ذلك ، وإن كانوا مؤمنين بالبعث اطمئنان قلوبهم وانتفاء الشبهة عنهم ، إذ الذي كانوا مؤمنين به بالاستدلال آمنوا به مشاهدة ﴿ ويرىكم آياته ﴾ ظاهر هذا الكلام الاستثنا ، ويجوز أن يكون معطوفاً على يحيي ، والظاهر أن الآيات جمع في اللفظ ، والمعنى وهي ما أراهم من إحياء الميت والعصا والحجر والغمام والمن والسلوى والسحر والبحر والطور وغير ذلك ، وكانوا مع ذلك أعمى الناس قلوباً ، وأشد قسوة وتكديماً لنبيهم في تلك الأوقات التي شاهدوا فيها تلك العجائب والمعجزات ، وقال صاحب المنتخب (ويرىكم آياته) وإن كانت آية واحدة ، لأنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات ، العالم بكل المعلومات ، المختار في الإيجاد والإبداع ، وعلى صدق موسى عليه الصلاة والسلام ، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلاً ، وعلى تعيين تلك التهمة على من باشر ذلك القتل انتهى كلامه . ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لعلكم تمتنعون من عصيانه وتعملون على قضية عقولكم ، من أن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة : أي كخلق نفس واحدة وبعثها ، وقال الزمخشري^(٢) في الأسباب والشروط حكم وفوائد ، وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرب ، وأداء التكليف ، واكتساب الثواب ، والإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب ، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم ، ولآخرين في ترك التشديد ، والمسارة إلى امثال أوامر الله تعالى ، وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والدلالة على بركة البر بالأبوين ، والشفقة على الأولاد ، وتجهيل الهازيء بما لا يعلم

(١) علي بن محمد بن حبيب القاضي أبو الحسن الماوردي له المصنفات الكثيرة في كل فن توفي في ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة عن

ست وثمانين - انظر تاريخ بغداد (١٠٢/١٢) ، ابن السبكي (٢٦٧/٥) .

(٢) انظر الكشف (١٥٣/١) .

كنهه ولا يطلع على حقيقته من كلام الحكماء ، وبيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتنوق^(١) في اختيار ما يتقرب به ، وأن يختاره فتي السن غير فخم ولا ضرع حسن اللون بريئاً من العيوب يونق من ينظر إليه أن يغالي بشمته ، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضحى بنجبية بثلاثمائة دينار وأن الزيادة في الخطاب نسخ له ، وأن النسخ قبل الفعل جائز^(٢) ، وإن لم يجز قبل وقت الفعل ، وإمكانه لأدائه إلى البدء وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت ، وحصول الحياة عقيقه وأن المؤثر هو المسبب لا الأسباب ، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن يتولد منهما حياة انتهى كلامه . وهو حسن ، وقد ذكر المفسرون أحكاماً فقهية انتزعوها ، واستدلوا عليها من قصة هذا القتل ، ولا يظهر استنباطهم ذلك من هذه الآية ، قالوا هذه الآية دليل على حرمان القاتل ميراث المقتول وإن كان ممن يرثه .

(وأقول) لا تدل هذه الآية على ذلك ، وإنما القصة إن صحت تدل على ذلك ، لأن في آخرها فما ورث قاتل بعدها ممن قتله ، وروي عن عمر وعلي وابن عباس وابن المسيب أنه لا ميراث له عمداً كان أو خطأ ، لا من ديته ، ولا من سائر ماله ، وبه قال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي وأبو يوسف^(٣) إلا أن أصحاب أبي حنيفة قالوا إن كان صبيّاً ، أو مجنوناً ورث ، وقال عثمان البتي^(٤) يرث قاتل الخطأ ، وقال ابن وهب^(٥) عن مالك لا يرث قاتل العمد من ديته ، ولا من ماله ، وإن قتله خطأ يرث من ماله دون ديته ، ويروى مثله عن الحسن ومجاهد والزهري ، وهو قول الأوزاعي ، وقال « المزني »^(٦) عن « الشافعي » : إذا قتل الباغي العادل ، أو العادل الباغي ، لا يتوارثان ، لأنهما قاتلان ، وقالوا استدل

(١) تنوّق في الأمر أي تأنّق فيه . . . وقال ابن سيدة : تنوّق في أموره : تجود وبالغ مثل تأنّق فيها - لسان العرب (٦/٤٥٨١) .

(٢) قال الزركشي في سلاسل الذهب : يجوز نسخ المأمور به قبل التمكن من الفعل خلافاً للمعتزلة ، والخلاف يلتفت على أصليين : أحدهما : الخلاف في صحة التكليف بما علم الأمر انتفاء شرط وقوعه عند وقته ، فالمعتزلة يمنعونه ، ولهذا منعوا من النسخ ، وأصحابنا يجوزونه ، فلهذا جوزه .

وقال صاحب الفائق : من قال : المأمور لا يعلم كونه مأموراً به قبل التمكن لزم عدم جواز النسخ قبل وقته ، إذ لا يمكن قبل الوقت فلا أمر ، والنسخ يستدعي تحققه ، ومن لا يقول بذلك جاز أن يقول به ، وأن لا يقول ، فليست هذه فرع تلك مطلقاً كما يشعر به كلام الغزالي .

الثاني : أن الأمر يستلزم الإرادة عندهم . فإذا أمر بشيء علمنا أنه لا يجوز بعد ذلك نسخ فيكون غير مراد ، وعندنا لا يستلزم فيجوز تطرق النسخ إليه .

وقال الكيا الهراسي في تعليقه : القائلون بجواز النسخ قبل التمكن من الفعل إن اشترطوا في الأمر التمكن فعلى هذا لا يتحقق النسخ ، لأنه لم يتم الأمر ، وإن قالوا : إن التمكن ليس بشرط وإن العاجز يصح تكليفه كما هو مذهبنا في صحة تكليف ما لا يطاق ، فعلى هذا يتحقق الخلاف . قال : ولا يتحقق في هذه المسألة إلا بعد البناء على هذا الأصل قال : والعجب من شيخنا الإمام كيف نص في التلخيص أن يتكيف ما لا يطاق لا يجوز ، ثم النسخ بكل التمكن من الفعل جائز فكيف يصح الجمع بين هذين الأصلين . قلت : وكذلك قال : يتعجب منه حيث وافق المعتزلة في التكليف بما علم الأمر انتفاء وقوعه ، وخالفهم هنا ، وقد ظهر التفات هذه المسألة على أربعة قواعد . انظر سلاسل الذهب (٢٩٤ - ٢٩٥) ، وانظر المستصفى (٢٧٢/١) ، (٦/٢) ، نشر البنود (١/٧٥) ، المحصول (١/٤٦٧) ، الأحكام للأمدى (٣/١٧٩) ، الإبهاج (٢/٢٥٦) ، تيسير التحرير (٣/١٨٧) ، حاشية البناني (٢/٧٧) ، الآيات البيّنات (٣/١٣٧) ، إرشاد الفحول ص (١٨٧) .

(٣) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه توفي سنة ١٨٢ هجرية - انظر مفتاح السعادة (٢/١٠٠) ، أخبار القضاة لوكيع (٣/٢٥٤) ، تاريخ بغداد (١٤/٢٤٢) .

(٤) البتي بفتح الموحدة بعدها مشاه مكسورة ، وهو عثمان بن مسلم البتي أبو عمرو البصري الفقيه وثقه أحمد وابن سعد والدارقطني توفي سنة ١٤٣ هجرية - انظر الخلاصة (٢/٢٢١) .

(٥) عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري القرشي مولا هم أبو محمد البصري أحد الأئمة توفي سنة ١٩٩ هجرية - انظر اللباب (٢/٢٢٩) ، الخلاصة (٢/١١٠) .

(٦) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني صاحب الإمام الشافعي ، قال الشافعي في حقه : لو ناظر الشيطان لغلبه . توفي سنة =

مالك في رواية ابن القاسم وابن وهب بهذه القصة على صحة القول بالقسامة ، يقول المقتول دمي عند فلان ، أو فلان قتلي ، وقال الجمهور خلافه ، وقالوا في قصة البقرة استدلال لمن قال إن شرع من قبلنا شرع^(١) لنا ، وهو مذهب مالك وجماعة من الفقهاء قالوا في هذه الآيات أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته أنه إذا حصر بصفة يعرف بها جاز السلم فيه ، وبه قال مالك والأوزاعي والليث والشافعي ، وقال أبو حنيفة لا يجوز السلم^(٢) في الحيوان ، ودلائل هذه المسائل المذكورة في كتب خلاف الفقهاء ، ولا يظهر استنباط شيء من هذا من هذه القصة ، قال القشيري أراد الله أن يحجي ميتهم ليفصح بالشهادة على قاتله ، فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتولهم بقتل حيوان لهم ، صارت الإشارة منه أن من أراد حياة قلبه لم يصل إليه إلا بذبح نفسه ، فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حيي قلبه بأنوار المشاهدات ، وكذلك من أراد حياة في الأبد أُمات في الدنيا ذكره بالخمول ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ قال الزمخشري^(٣) معنى ثم قست استبعاد القسوة بعد ما ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها ونحوه ثم أنتم تمترون انتهى . وهو يذكر عنه أن العطف بثم يقتضي الاستبعاد ، ولذلك قيل عنه في قوله (ثم الذين كفروا ببرهم يعدلون) ، وهذا الاستبعاد لا يستفاد من العطف بثم ، وإنما يستفاد من مجيء هذه الجملة ووقوعها بعد ما تقدم مما لا يقتضي وقوعها ، ولأن صدور هذا الخارق العظيم الخارج عن مقدار البشر فيه من الاعتبار والعظمت ما يقتضي لين القلوب ، والإنابة إلى الله تعالى ، والتسليم لأفضيته

= ٢٦٤ هجرية - انظر وفيات الأعيان (٧١/١) ، الأعلام (٣٢٩/١) .

(١) المراد بشرع من قبلنا الأحكام التي شرعها الله تعالى للأمم السابقة بواسطة أنبيائه الذين أرسلهم إلى تلك الأمم كسيدنا إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام .

وقد تعرض علماء الأصول في الكلام على الأدلة الشرعية للبحث في شرائع الأنبياء السابقين من ناحية خاصة ، وهي أن هذه الشرائع هل تكون مشروعة بالنسبة إلينا ، فيلزمنا اتباعها وتطبيقها ؟

وخلاصة القول في هذا الموضوع أن شرائع الأنبياء السابقين بالنسبة إلينا على قسمين :

الأول : الأحكام التي لم يرد لها ذكر في كتاب الله تعالى ولا في سنة الرسول ﷺ ، وهذه لا تكون شرعاً لنا بلا خلاف .

الثاني : الأحكام التي قصها الله علينا في كتابه ، أو جاءت على لسان الرسول ﷺ ، وهذه على ثلاثة أنواع :

الأول : الأحكام التي قام الدليل على نسخها ورفعها عنا . وهذه أيضاً لا تكون شرعاً لنا بلا خلاف .

الثاني : الأحكام التي قام الدليل على إقرارها بالنسبة إلينا ، وهذه تكون شرعاً لنا ، ويلزمنا العمل بها بلا خلاف ، لأنها بالإقرار صارت من شريعتنا .

الثالث : الأحكام التي قصها الله تعالى في القرآن ، أو ذكرت على لسان الرسول ﷺ ، من غير إنكار لها أو إقرار ، ولم يرد في شرعنا ما يدل على نسخها ورفعها عنا ، كما في قول الله تعالى (وَكُنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِيهَا أَنْفُسٌ أَنْفُسُكُمْ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) فإنه إخبار عما شرع في التوراة لبني إسرائيل ، وكما في قوله عز من قائل خطاباً لصالح عليه السلام (وَيَبْتَئُهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمُكُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ) فإنه إخبار عما جرى بين صالح عليه السلام . وبين قومه ، من قسمة الماء بينهم وبين ناقته بالميامة ، لقومه يوم يشربون فيه وحدهم وللناقة يوم تشرب فيه وحدها ولا يحضرون يومها بل كانوا يشربون لبنها ، ولم يرد بعده إنكار لهذا العمل ولا إقرار له ، كما لم يرد في شرعنا ما يدل على نسخ القسمة على هذا الوجه . وهذا النوع فيه خلاف بين العلماء حكاه الأصوليون ، والصحيح فيه أنه يكون شرعاً لنا - انظر أصول الفقه لزمكي الدين شعبان (١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠) .

(٢) لغة السلف فإنه أخذ عاجل بأجل سمي به هذا العقد لكونه معجلاً على وقته فإن وقت البيع بعد وجود المبيع في ملك البائع والسلم عادة يكون بما ليس بموجود في ملكه فيكون العقد معجلاً انظر درر الأحكام (١٩٤/٢) ، ولصحته شروط انظر ما في الشرح الكبير (٢٠٨/٩) ، ومغني المحتاج (١٠٢/٢) ، روضة الطالبين (٣/٤) ، وما بعدها ، وعند الشافعي يجوز السلم في الحيوان لما روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (قال أمرني رسول الله ﷺ أن اشتري بغيراً ببعيرين إلى أجل) أخرجه أبو داود (٢٤٨/٣) ، في البيوع (٣٣٥٧) ، وانظر الاعتناء في الفرق والاستثناء بتحقيقنا (٤٨٩/١) .

(٣) انظر الكشف (١٥٥/١) .

فصدر منهم غير ذلك من غلظ القلوب ، وعدم انتفاعها بما شاهدت ، والتعنت ، والتكذيب حتى نقل أنهم بعد ما حيي القتل ، وأخبر بمن قتله قالوا كذب ، والضمير في قلوبكم ضمير ورثة القتل قاله ابن عباس ، وهم الذين قتلوه وأنكروا قتله ، وقيل قلوب بني إسرائيل جميعاً ، قست بمعاصيهم وما ارتكبوه قاله أبو العالية وغيره ، وكنى بالقسوة عن نبو القلوب عن الاعتبار ، وأن المواعظ لا تجول فيها ، وأتى بمن في قوله من بعد ذلك إشعاراً بأن القسوة كان ابتداءها عقيب مشاهدة ذلك الخارق ، ولكن العطف بـثم يقتضي المهلة فيتدافع معنى ثم ومعنى من ، فلا بد من تجوُّز في أحدهما ، والتجوُّز في ثم أولى لأن سجايابهم تقتضي المبادرة إلى المعاصي بحيث يشاهدون الآية العظيمة فينحرفون إثرها إلى المعصية عناداً وتكديباً ، والإشارة بذلك قيل إلى إحياء القتل ، وقيل : إلى كلام القتل ، وقيل : إشارة إلى ما سبق من الآيات من مسخهم قرده وخنازير ورفع الجبل وانجاس الماء ، وإحياء القتل قاله الزجاج ﴿فهي كالحجارة﴾ يريد في القسوة ، وهذه جملة ابتدائية حكم فيها بتشبيه قلوبهم بالحجارة ، إذ الحجر لا يتأثر بموعظة ، ويعني أن قلوبهم صلبة لا تخلخلها الخوارق كما أن الحجر خلق صلباً ، وفي ذلك إشارة إلى أن اعتياص قلوبهم ليس لعارض ، بل خلق ذلك فيها خلقاً أولاً كما أن صلابة الحجر كذلك ، والكاف المفيدة معنى التشبيه حرف وفاقاً لسيبويه وجمهور النحويين خلافاً لمن ادعى أنها تكون اسماً في الكلام ، وهو عن الأحفش فعلقه هنا بمحذوف التقدير فهي كائنة كالحجارة ، خلافاً لابن عصفور إذ زعم أن كاف التشبيه لا تتعلق بشيء ، ودلائل ذلك مذكورة في كتب النحو ، والألف واللام في الحجارة لتعريف الجنس ، وجمعت الحجارة ولم تفرد ، فيقال كالحجر فيكون أخصر ، إذ دلالة المفرد على الجنس كدلالة الجمع ، لأنه قبل الجمع بالجمع ، لأن قلوبهم جمع ، فناسب مقابله بالجمع ، ولأن قلوبهم متفاوتة في القسوة ، كما أن الحجارة متفاوتة في الصلابة ، فلو قيل كالحجر لأفهم ذلك عدم التفاوت ، إذ يتوهم فيه من حيث الأفراد ذلك ﴿أو أشد قسوة﴾ أو بمعنى الواو ، أو بمعنى أوللابهام ، أوللاباحة ، أو للشك ، أو للتخيير ، أو للتنوع أقوال ، وذكر المفسرون مثلاً لهذه المعاني ، والأحسن القول الأخير ، وكان قلوبهم على قسمين قلوب كالحجارة قسوة ، وقلوب أشد قسوة من الحجارة ، فأجمل ذلك في قوله (ثم قست قلوبكم) ثم فصل ونوع إلى مشبه بالحجارة ، وإلى أشد منها إذ ما كان أشد كان مشاركاً في مطلق القسوة ، ثم امتاز بالأشدية ، وانتصاب قسوة على التمييز ، وهو من حيث المعنى تقتضيه الكاف ، ويقتضيه أفعال التفضيل ، لأن كلا منهما ينتصب عنه التمييز تقول زيد كعمرو جليماً ، وهذا التمييز منتصب بعد أفعال التفضيل منقول من المبتدأ ، وهو نقل غريب فتؤخر هذا التمييز وتقيم ما كان مضافاً إليه مقامه تقول زيد أحسن وجهاً من عمرو ، وتقديره وجه زيد أحسن من وجه عمرو ، فأخرت وجهاً وأقمت ما كان مضافاً مقامه ، فارتفع بالابتداء كما كان وجه مبتدأ ، أو لما تأخر أدى إلى حذف وجه من قولك من وجه عمرو وإقامة عمرو مقامه فقلت من عمرو ، وإنما كان الأصل ذلك لأن المتصف بزيادة الحسن حقيقة ليس الرجل ، إنما هو الوجه ، ونظير هذا مررت بالرجل الحسن الوجه أو الوجه أصل هذا الرفع ، لأن المتصف بالحسن حقيقة ليس هو الرجل ، إنما هو الوجه ، وإنما أوضحنا هذا ، لأن ذكر مجيء التمييز منقولاً من المبتدأ غريب ، وأفرد أشد وإن كانت خبراً عن جمع ، لأن استعمالها هنا هو بمن لكنها حذفت ، وهو مكان حسن حذفها ، إذ وقع أفعال التفضيل خبراً عن المبتدأ ، وعطف أو أشد على قوله كالحجارة ، فهو عطف خبر على خبر من قبيل عطف المفرد كما تقول زيد على سفر أو مقيم ، فالضمير الذي في أشد عائد على القلوب ، ولا حاجة إلى ما أجازته الزمخشري^(١) من أن ارتفاعه يحتمل وجهين آخرين أحدهما أن يكون التقدير أو هي أشد قسوة فيصير من عطف الجمل ، والثاني أن يكون التقدير أو مثل أشد فحذف مثل وأقيم أشد مقامه ، ويكون الضمير في أشد إذ ذاك غير عائد على القلوب ، إذ كان الأصل أو مثل شيء أشد قسوة من الحجارة ،

فالضمير في أشدّ عائد على ذلك الموصوف بأشدّ المحذوف ، ويعضد هذا الاحتمال الثاني قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على كالحجارة قاله الزمخشري^(١) ، وينبغي أن لا يصار إلى هذا إلا في هذه القراءة خاصة ، وأما على قراءة الرفع فلها التوجيه السابق الذي ذكرناه ولا إضمار فيه فكان أرجح ، وقد رد أبو عبد الله بن أبي الفضل في منتخبه على الزمخشري قوله إنه معطوف على الكاف فقال هو على مذهب الأخفش لا على مذهب سيبويه ، لأنه لا يجوز أن يكون اسماً إلا في الشعر ، ولا يجوز ذلك في الكلام فكيف في القرآن ، فأولى أن يكون أشدّ خبر مبتدأ مضمّر : أي وهي أشدّ انتهى كلامه . وما ذهب إليه الزمخشري^(٢) صحيح ، ولا يريد بقوله معطوف على الكاف أن الكاف اسم ، إنما يريد معطوفاً على الجار والمجرور ، لأنه في موضع مرفوع فاكتفى بذكر الكاف عن الجار والمجرور ، وقوله فالأولى أن يكون أشدّ خبر مبتدأ مضمّر : أي هي أشدّ ، قد بينا أن الأولى غير هذا لأنه تقدير لا حاجة إليه ، قال الزمخشري^(٣) (فإن قلت) لم قال أشدّ قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعال التفضيل وفعل التعجب (قلت) لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ، ولكن قصد وصف القسوة بالشدة ، كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشدّ قسوة انتهى كلامه . ومعنى قوله وفعل القسوة مما يخرج منه أفعال التفضيل وفعل التعجب ، أن قسا يجوز أن يبنى منه أفعال التفضيل وفعل التعجب بجواز اجتماع الشرائط المجوزة لبناء ذلك ، وهي كونه من فعل ثلاثي مجرد متصرف تام قابل للزيادة والنقص مثبت ، وفي كونه من أفعال أو من كون أو من مبني للمفعول خلاف ، وقرأ أبو حية (أو أشدّ قساوة) ، وهو مصدر لقسا أيضاً ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ لما شبه تعالى قلوبهم بالحجارة في القسوة ، ثم ذكر أنها أشدّ قسوة على اختلاف الناس في مفهوم ، أو بين أن هذا التشبيه إنما هو بالنسبة لما علمه المخاطب من صلابة الأحجار ، وأخذ يذكر جهة كون قلوبهم أشدّ قسوة ، والمعنى أن قلوب هؤلاء جاسية^(٤) صلبة لا تليينها المواعظ ولا تتأثر للزواج ، وإن من الحجارة ما يقبل التخلخل ، وأنها متفاوتة في قبول ذلك على حسب التقسيم الذي أشار إليه تعالى (وتكلم عليه) ، فقد فضلت الأحجار على قلوبهم في أن منها ما يقبل التخلخل ، وأن قلوب هؤلاء في شدة القساوة ، واختلف المفسرون في هذه الآية فقال قوم : إن قوله (وإن من الحجارة) ، إلى آخره هو على سبيل المثل ، بمعنى أنه لو كان الحجر ممن يعقل لسقط من خشية الله تعالى ، وتشقق من هيئته ، وأنتم قد جعل الله فيكم العقل الذي به إدراك الأمور ، والنظر في عواقب الأشياء ، ومع ذلك فقلوبكم أشدّ قسوة ، وأبعد عن الخير ، وقال قوم : ليس ذلك على جهة المثل بل أخبر عن الحجارة بعينها ، وقسمها لهذه الأقسام ، وتبين بهذا التقسيم كون قلوبهم أشدّ قسوة من الحجارة ، وقرأ الجمهور وإنّ مشددة ، وقرأ قتادة وإنّ مخففة ، وكذا في الموضعين بعد ذلك وهي المخففة من الثقيلة ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : أن تكون معاملة ، ويكون من الحجارة في موضع خبرها ، وما في موضع نصب بها ، وهو اسمها ، واللام لام الابتداء أدخلت على الاسم المتأخر ، والاسم إذا تأخر جاز دخول اللام عليه نحو قوله ، وإن لك لأجراً ، وإعمالها مخففة لا يجيزه الكوفيون ، وهم محجوجون بالسماع الثابت من العرب ، وهو قولهم إن عمراً لمنطلق بسكون النون إلا أنها إذا خففت لا تعمل في ضمير لا تقول إنك منطلق إلا إن ورد في الشعر .

(١) انظر الكشاف (١/ ١٥٥) .

(٢) انظر الكشاف (١/ ١٥٥) .

(٣) انظر الكشاف (١/ ١٥٥) .

(٤) يقال : جَسَا الرجل جَسْواً وجُسْواً : صَلَبَ ، ويد جاسية : يابسَة العظام قليلة اللحم . وَجَسِيَتِ اليدُ وغيرهما جُسْواً وجَساً : يَسْت - لسان العرب (١/ ٦٢٥) .

والوجه الثاني : أن لا تكون معاملة بل تكون ملغاة ، وما في موضع رفع بالابتداء ، والخبر في الجار والمجرور قبله ، واللام في لما مختلف فيها فمنهم من ذهب إلى أنها لام الابتداء ، لزمّت للفرق بين إن المؤكدة وإن النافية ، وهو مذهب أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش^(١) الصغير ، وأكثر نحاة بغداد ، وبه قال من نحاة بلادنا أبو الحسن بن الأخضر^(٢) ، ومنهم من ذهب إلى أنها لام اختلست للفرق وليست لام الابتداء ، وبه قال أبو علي الفارسي ، ومن كبراء بلادنا ابن أبي العالقة ، والكلام على ذلك مذكور في علم النحو ، ولم يذكر المفسرون والمعربون في إن المخففة هنا إلا هذا الوجه الثاني ، وهو أنها الملغاة ، وأن اللام في لما لزمّت للفرق ، قال المهدوي من خفف إن فهي المخففة من الثقيلة ، واللام لازمة للفرق بينها وبين إن التي بمعنى ما ، وقال ابن عطية فرق بينها وبين النافية لام التوكيد في لما ، وقال الزمخشري وقرئ وإن بالتخفيف ، وهي إن المخففة من الثقيلة التي يلزمها اللام الفارقة ، ومنه قوله تعالى ﴿ وإن كل لما جميع ﴾ [يس : ٣٢] ، وجعلهم إن هي المخففة من الثقيلة هو مذهب البصريين ، وأما الفراء فزعم فيما ورد من ذلك أن إن هي النافية ، واللام بمعنى إلا فإذا قلت إن زيد لقاتم فمعناه عنده ما زيد إلا قاتم ، وأما الكسائي فزعم أنها إن وليها فعل كانت إن نافية ، واللام بمعنى إلا وإن وليها اسم كانت المخففة من الثقيلة ، وذهب قطرب إلى أنها إذا وليها فعل كانت بمعنى قد والكلام على هذا المذهب في كتب النحو ، وقرأ الجمهور لَمَّا بميم مخففة وهي موصولة ، وقرأ طلحة بن مصرف لَمَّا بالتشديد قاله في الموضعين ، ولعله سقطت واو : أي وفي الموضعين ، قال محمد بن عطية وهي قراءة غير متجهة ، وما قاله ابن عطية من أنها غير متجهة لا يتمشى إلا إذا انقل عنه أنه يقرأ . وإن بالتشديد فحيث يفسر توجيه هذه القراءة ، أما إذا قرأ بتخفيف إن وهو المظنون به ذلك فيظهر توجيهها بعض ظهور ، إذ تكون إن نافية وتكون لما بمنزلة إلا كقوله تعالى ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : ٤] ، ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٣٢] ، ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : ٣٥] ، في قراءة من قرأ لما بالتشديد ، ويكون مما حذف منه المبتدأ لدلالة المعنى عليه التقدير وما من الحجارة حجر إلا يتفجر منه الأنهار ، وكذلك ما فيها كقوله تعالى ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : ١٦٤] ، أي وما من أحد إلا له مقام معلوم ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ [النساء : ١٥٩] ، أي وما من أهل الكتاب أحد ، وحذف هذا المبتدأ أحسن لدلالة المعنى عليه إلا أنه يشكل معنى الحصر ، إذ يظهر بهذا التفضيل أن الأحجار متعددة ، فمنها ما يتفجر منه الأنهار ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ، ومنها ما يهبط من خشية الله ، وإذا حصرت أفهم المفهوم قبله إن كل فرد فرد من الأحجار فيه هذه الأوصاف كلها : أي تتفجر منه الأنهار ، ويشقق منه الماء ، ويهبط من خشية الله ، ولا يبعد ذلك إذا حمل اللفظ على القابلية ، إذ كل حجر يقبل ذلك ولا يمتنع فيه إذا أراد الله ذلك ، فإذا تلخص هذا كله كانت القراءة متوجهة على تقدير أن يقرأ طلحة وإن بالتخفيف ، وأما إن صح عنه أنه يقرأ وإن بالتشديد فيفسر توجيه ذلك ، وأما من زعم أن إن المشددة هي بمعنى ما النافية ، فلا يصح قوله ولا يثبت ذلك في لسان العرب ، ويمكن أن توجه قراءة طلحة لما بالتشديد مع قراءة إن بالتشديد بأن يكون اسم إن محذوفاً لفهم المعنى كما حذف في قوله :

وَلَكِنْ زَنْجِي عَظِيمُ الْمَسَافِرِ^(٣)

(١) علي بن سليمان بن الفضل التحوي أبو الحسن الأخفش الأصغر قرأ على ثعلب والمبرد واليزيدي وأبي العيلاء ، توفي سنة خمس عشرة وثلاثمائة وقبل ست عشرة وقد قارب الثمانين - انظر البغية (٢/ ١٦٧) ، معجم الأدباء (١٣/ ٢٤٦ - ٢٥٧) .

(٢) علي بن عبد الرحمن بن مهدي بن عمران أبو الحسن ابن الأخضر التنوخي الإشبيلي عالم بالعربية والأدب توفي سنة ٥١٤ هجرية - انظر الصلة لابن بشكوال (٤١٨) ، الأعلام (٤/ ٢٩٩) .

(٣) البيت من الطويل للفرزدق - انظر خزنة الأدب (١٠/ ٤٤٤) ، شرح شواهد المغني (٧٠١) ، الأغاني (٢١/ ٣٣٢) ، لسان العرب (سفر) .

وفي قوله :

فَلَيْتَ دَفَعْتَ اَلْهَمَّ عَنِّي سَاعَةً^(١)

وتكون لما بمعنى حين على مذهب « الفارسي » ، أو حرف وجوب لوجوب على مذهب سيبويه والتقدير وإن منها منقاداً أو ليناً وما أشبه هذا ، فإذا كانوا قد حذفوا الاسم والخبر على ما تأوله بعضهم في لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال إن وصاحبها فحذف الاسم وحده أسهل ، وقرأ الجمهور يَتَفَجَّرُ بالياء مضارع تفجر ، وقرأ مالك بن دينار^(٢) يَنْفَجِرُ بالياء مضارع انفجر ، وكلاهما مطاوع أما يتفجر فمطاوع تفجر ، وأما ينفجر فمطاوع فجر مخففاً ، والتفجر التفتح بالسعة والكثرة ، والانفجار دونه ، والمعنى إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يندفق منها الماء الكثير الغمر ، وقرأ « أبي » ، و « الضحاك » : منها الأنهار ، وقرأ الجمهور منه ، فالقراءة أولى حمل على المعنى ، وقراءة الجمهور على اللفظ لأن ما لها هنا لفظ ومعنى ، لأن المراد به الحجارة ، ولا يمكن أن يراد به مفرد المعنى ، فيكون لفظه ومعناه واحداً ، إذ ليس المعنى وإن من الحجارة للحجر الذي يتفجر منه الماء إنما المعنى للأحجار التي يتفجر منها الأنهار ، وقد سبق الكلام على الأنهار في قوله تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [البقرة : ٢٥] الآية ، وقد ذهب بعضهم إلى أن الحجر الذي يتفجر منه الأنهار هو الحجر الذي ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴿ وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴾ التشقق التصدع بطول ، أو بعرض فينبع منه الماء بقلعة حتى لا يكون نهراً ، وقرأ الجمهور يَشَقُّقُ بتشديد الشين وأصله يتشقق فأدغم التاء في الشين ، وقرأ الأعمش (تَشَقُّقُ) بالتاء والشين المخففة على الأصل ، ورأيتها معزوة لابن مصرف^(٣) ، وفي النسخة التي وقفت عليها من تفسير ابن عطية ما نصه وقرأ ابن مصرف يَشَقُّقُ بالنون وقافين ، والذي يقتضيه اللسان أن يكون بقاف واحدة مشددة ، وقد يجيء الفك في شعر فإن كان المضارع مجزوماً جاز الفك فصيحاً ، وهو هنا مرفوع فلا يجوز الفك ، إلا أنها قراءة شاذة ، فيمكن أن يكون ذلك فيها ، وأما أن يكون المضارع بالنون مع القافين وتشديد الأولى منهما فلا يجوز ، قال أبو حاتم يجوز لما تتفجر بالتاء ، ولا يجوز تشقق بالتاء ، لأنه إذا قال تتفجر فأنته لتأنيث الأنهار ولا يكون في تشقق ، وقال أبو جعفر النحاس يجوز ما أنكره أبو حاتم حملاً على المعنى ، لأن المعنى وإن منها للحجارة التي تشقق ، وأما يشقق بالياء فمحمول على اللفظ انتهى . وهو كلام صحيح ، ولم ينقل هنا أن أحداً قرأ منها الماء فيعيد على المعنى ، إنما نقل ذلك في قوله (لما يتفجر منه الأنهار) ، فكان قوله يتفجر حملاً على اللفظ ، ومنها حملاً على المعنى ، ومحسن هذا هنا أنه ولي الضمير جمع وهو الأنهار ، فناسب الجمع الجمع ، ولأن الأنهار من حيث هي جمع يبعد في العادة أن تخرج من حجر واحد ، وإنما تخرج الأنهار من أحجار ، فلذلك ناسب مراعاة المعنى هنا ، وأما فيخرج منه الماء فالماء ليس جمعاً فلا يناسب في حمل منه على المعنى ، بل أجرى يشقق ومنه على اللفظ ﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ الهبوط هنا التردّي من علو إلى أسفل ، وقرأ الأعمش يهبط بضم الباء ، وقد تقدم أنها لغة ، وخشية الله خوفه ، واختلف المفسرون في تفسير هذا ، فذهب قوم : إلى أن الخشية هنا حقيقة ، واختلف هؤلاء فقال قوم معناه من خشية الحجارة لله تعالى ، فهي مصدر مضاف للمفعول ، وإن الله تعالى جعل لهذه الأحجار التي تهبط من خشية الله تعالى تمييز أقام لها مقام الفعل المودع فيمن يعقل ، واستدل على ذلك بأن الله تعالى وصف بعض الحجارة بالخشية ، وبعضها بالإرادة ، ووصف جميعها بالنطق

(١) هذا صدر بيت من الطويل لعدي بن زيد العبادي - انظر نواذر أبي زيد ص (١٩٦) ، الخزائنة (٤٥١/١٠) ، الدرر اللوامع (١١٤/١) ، شرح شواهد المغني (٦٩٧) .

(٢) مالك بن دينار الناجي مولا هم أبو يحيى الزاهد الواعظ أحد الأعلام توفي سنة ١٣٠ هجرية - انظر الخلاصة (٤/٣) .

(٣) طلحة بن مصرف - انظر غاية النهاية (٣٤٣/١) .

والتحميد والتقديس والتأويب والتصدع ، وكل هذه صفات لا تصدر إلا عن أهل التمييز والمعرفة ، قال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) الآية (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) (يا جبال أوبي معه والطير) ، وفي الحديث الصحيح إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث^(١) ، وإنه بعد مبعثه ما مرّ بحجر ولا مدر إلا سلم عليه ، وفي الحجر الأسود انه يشهد لمن يستلمه ، وفي حديث الحجر الذي فرّ بثوب موسى عليه السلام ، وصار يعدو خلفه ويقول ثوبي حجر ثوبي حجر^(٢) ، وفي الحديث عن أحد ان هذا جبل يحينا ونحبه^(٣) ، وفي حديث حراء لما اهتز اسكن حراء^(٤) ، وفي حديث تسبيح صغار الحصى بكف رسول الله ﷺ^(٥) ، وقد دلت هذه الجملة ، وأحاديث أخر على نطق الحيوانات والجمادات وانقياد الشجر وغير ذلك ، فلولا أنه تعالى أودع فيها قوة مميزة وصفة ناطقة وحركة اختيارية لما صدر عنها شيء من ذلك ولا حسن وصفها به ، وإلى هذا ذهب مجاهد وابن جريج وجماعة ، وقال قوم الخشية هنا حقيقة وهو مصدر أضيف إلى فاعل ، والمراد بالحجر الذي يهبط من خشية الله هو البرد ، والمراد بخشية الله إخافته عباده ، فأطلق الخشية وهو يريد الإخشاء : أي نزول البرد به يخوف الله عباده ويزجرهم عن الكفر والمعاصي ، وهذا قول متكلف وهو مخالف للظاهر ، والبرد ليس بحجارة وإن كان قد اشتد عند النزول فهو ماء في الحقيقة ، وقال قوم الخشية هنا حقيقة وهو مصدر مضاف للمفعول وفاعله محذوف وهو العباد ، والمعنى أن من الحجارة ما ينزل بعضه عن بعض عند الزلزلة من خشية عباد الله إياه (وتحقيقه) أنه لما كان المقصود منها خشية الله تعالى ، صارت تلك الخشية كالعلة المؤثرة في ذلك الهبوط ، فكان المعنى لما يهبط من أجل أن يحصل لعباد الله تعالى ، وذهب أبو مسلم ، إلى أن الخشية حقيقة ، وأن الضمير في قوله (وإن منها لما يهبط من خشية الله) عائد على القلوب ، والمعنى ان من القلوب قلوباً تطمئن وتسكن وترجع إلى الله تعالى ، فكأن بالهبوط عن هذا المعنى ، ويريد بذلك قلوب المخلصين ، وهذا تأويل بعيد جداً ، لأنه بدأ بقوله وإن من الحجارة ثم قال وإن منها ، فظاهر الكلام التقسيم للحجارة ، ولا يعدل عن الظاهر إلا بدليل واضح والهبوط لا يليق بالقلوب ، إنما يليق بالحجارة وليس تأويل الهبوط بأولى من تأويل الخشية إن تأولناها ، وقد أمكن في الوجوه التي تضمنت حملها على الحقيقة ، وإن كان بعض تلك الأقوال أقوى من بعض ، وذهب بعضهم إلى أن الذي يهبط من خشية الله هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام إذ جعله دكاً ، وذهب قوم إلى أن الخشية هنا مجاز من مجاز الاستعارة ، كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى يريد أن ينقض وكما قال زيد الخيل :

يَجْمَعُ تَضَلُّ الْبُلُقُ فِي حُجْرَاتِهِ تَرَى الْأَكَمَ مِنْهُ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ

وكما قال الآخر :

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزُّبَيْرِ تَضَعُضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٢) ، وأحمد (٨٩/٥ ، ٩٥) ، والدارمي (١٢/١) ، والطبراني في الكبير (٢٥٧/٢) ، والصغير (٦٢/١) ، وابن أبي شيبه (٤٦٤/١١) .

(٢) أخرجه البخاري (٨٣/٦ - ٨٤) ، في الجهاد (٢٨٨٩) ، (٢٨٩٣) ، (٤٠٨٤) ، (٧٣٣٣) ، ومسلم (٩٩٣/٢) ، في الحج (١٣٦٥/٤٦٢) .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٠/٤) ، فضائل الصحابة (٢٤١٧/٥٠) .

(٤) وأيضاً تسبيح الطعام ، انظر صحيح البخاري (٥٨٧/٦) ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٥٧٩) .

(٥) الدارمي (١٢/١) ، والبيهقي في الدلائل (١٥٤/٢) ، ومن طريق آخر عند الترمذي (٥٩٤/٥) ، في المناقب (٣٦٢٨) .

أي من رأى الحجر متردياً من علو إلى أسفل تخيل فيه الخشية ، فاستعار الخشية كناية عن الانقياد لأمر الله ، وإنها لا تمتنع على ما يريد الله تعالى فيها ، فمن يراها يظن أن ذلك الانفعال السريع هو مخافة خشية الله تعالى ، وهذا قول من ذهب إلى أن الحياة والنطق لا يحلان في الجمادات ، وذلك ممتنع عندهم وتأولوا ما ورد في القرآن والحديث مما يدل على ذلك..، على أن الله تعالى قرن بها ملائكة هي التي تسلم وتتكلم ، كما ورد أن الرحم معلقة بالعرش تنادي اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني ، والأرحام ليست بجسم ولا لها إدراك ، ويستحيل أن تسجد المعاني أو تتكلم ، وإنما قرن الله تعالى بها ملكاً يقول ذلك القول ، وتأولوا هذا جبل يحبنا ونحبه : أي يحبنا أهله ونحب أهله كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] ، واختيار ابن عطية رحمه الله تعالى أن الله يخلق للحجارة قدراً مامناً الإدراك تقع به الخشية والحركة ، واختيار الزمخشري^(١) أن الخشية مجاز عن الانقياد لأمر الله تعالى وعدم امتناعها ، وترتيب تقسيم هذه الحجارة ترتيب حسن جداً وهو على حسب الترقى ، فبدأ أولاً بالذي تنفجر منه الأنهار : أي خلق ذا خروق متسعة فلم ينسب إليه في نفسه تفعل ولا فعل : أي أنها خلقت ذات خروق بحيث لا يحتاج أن يضاف إليها صدور فعل منها ، ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي يفعل انفعلاً يسيراً وهو أن يصدر منه تشقق بحيث ينبع منه الماء ، ثم ترقى من هذا الحجر إلى الحجر الذي يفعل انفعلاً عظيماً بحيث يتحرك ويتدهده من علو إلى أسفل ، ثم رسخ هذا الانفعال التام بأن ذلك هو من خشية الله تعالى من طواعيته وانقياده لما أراد الله تعالى منه ، فكنى بالخشية عن الطوعية والانقياد لأن من خشي أطاع وانقاد ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ هذا فيه وعيد ، وذلك أنه لما قال ثم قست قلوبكم من بعد ذلك أفهم أنه ينشأ عن قسوة القلوب أفعال فاسدة ، وأعمال قبيحة من مخالفة الله تعالى ، ومعاندة رسله ، فأعقب ذلك بتهديدهم بأن الله تعالى ليس بغافل عن أعمالهم ، بل هو تعالى يحصيها عليهم وإذا لم يغفل عنها كان مجازياً عليها ، والغفلة إن أريد بها السهو فالسهو لا يجوز على الله تعالى ، وإن أريد بها الترك عن عمد فذكروا أنه مما يجوز أن يوصف الله تعالى به ، وعلى كلا التقديرين نفى الله تعالى الغفلة عنه ، وانتفاء الشيء عن الشيء قد يكون لكونه لا يمكن منه عقلاً ولكونه لا يقع منه مع إمكانه ، وقد ذهب القاضي إلى أنه لا يصح أن يوصف الله تعالى بأنه ليس بغافل ، قال لأنه يوهم جواز الغفلة عليه ، وليس الأمر كما ذهب إليه لأن نفي الشيء عن الشيء لا يستلزم إمكانه ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقوله ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ [الأنعام : ١٤] ، فقد نفى عنه تعالى ما لا يستلزم إمكانه له .

وبغافل في موضع نصب على أن تكون ما حجازية ، ويجوز أن تكون في موضع رفع على أن تكون ما تميمية ، فدخلت الباء في خبر المبتدأ ، وسوّغ ذلك النفي ، ألا ترى أنها لا تدخل في الموجب لا تقول زيد بقائم ولا ما زيد إلا بقائم ، قال ابن عطية وبغافل في موضع نصب خبر ما ، لأنها الحجازية يقوى ذلك دخول الباء في الخبر ، وإن كانت الباء قد تجيء شاذة مع التميمية انتهى كلامه . وهذا الذي ذهب إليه أبو محمد بن عطية من أن الباء مع التميمية قد تجيء شاذة ، لم يذهب إليه نحوي فيما علمناه بل القائلون قائلان قائل بأن التميمية لا تدخل الباء في خبر المبتدأ بعدها ، وهو مذهب أبي علي الفارسي في أحد قوليه وتبعه الزمخشري ، وقائل بأنه يجوز أن يجر بالباء وهو الصحيح ، وقال الفرزدق :

لَعَمْرُكَ مَا مَعْنُ بِنَارِكَ حَقُّهُ^(٢)

(١) انظر الكشف (١٥٥/١) .

(٢) هذا صدر بيت للفرزدق - انظر ديوانه (٣١٠/١) ، الخزانة (٣٧٥/١) ، إعراب القرآن للنحاس (٣٣٨/٢) ، شرح أبيات سيويه للنحاس ص (١٠٨) ، الدرر اللوامع (١٠٢/١) .

وأشعار بني تميم تتضمن جر الخبر بالبلاء كثيراً ، وقرأ الجمهور تَعْمَلُونَ بالتاء ، وهو الجاري على نسق قوله ثم قست قلوبكم ، وقرأ ابن كثير بالبلاء ، فيحتمل أن يكون الخطاب مع رسول الله ﷺ ، ويحتمل أن يكون الخطاب مع بني إسرائيل ، ويكون ذلك التفاتاً إذ خرج من الخطاب في قوله تعالى ثم قست قلوبكم إلى الغيبة في قوله يعملون ، وحكمة هذا الالتفات أنه أعرض عن مخاطبتهم وأبرزهم في صورة من لا يقبل عليهم بالخطاب وجعلهم كالعائنين عنه ، لأن مخاطبة الشخص ومواجهته بالكلام إقبال من المخاطب عليه وتأنيس له ، فقطع عنهم مواجهته لهم بالخطاب لكثرة ما صدر عنهم من المخالفات (وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة فصلاً عظيمة ومحاورات كثيرة) وذلك أن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام شافهم بأن الله تعالى يأمرهم بذبح البقرة ، وذلك امتحان من الله تعالى لهم ، لم يبادروا لامتنال أمر الله تعالى ، وأخرجوا ذلك مخرج الهزؤ ، إذ لم يفهموا سر الأمر ، وكان ينبغي أن يبادروا بالامتثال ، فأجابهم موسى باستعاذته بالله الذي أمره أن يكون ممن جهل ، فيخبر عن الله بما لم يأمر به ، فردّ عليهم بأن استعمال الهزؤ في التبليغ عن الله تعالى وفي غيره هو يستعذ منه ، فرجعوا إلى قوله وتعتوا في البقرة ، وفي أوصافها ، وكان يجزئهم أن يذبحوا بقرة ، إذ المأمور به بقرة مطلقة ، فسألوا ما هي ، وسألوا موسى أن يدعو الله تعالى أن يبينها لهم ، إذ كان دعاؤه أقرب للإجابة من دعائهم ، فأخبر عن الله تعالى بسنها ، ثم خاف من كثرة سؤالهم ومن تعنتهم ، كما جاء إنما أهلك بني إسرائيل كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فبادر إلى أمرهم بأن يفعلوا ما يؤمرون به حتى قطع سؤالهم فلم يلتفتوا إلى أمره ، وسألوا أن يسأل الله تعالى ثانياً عن لونها إذ قد أخبروا بسنها ، فأخبرهم عن الله تعالى بلونها ، ولم يأمرهم ثانياً أن يفعلوا ما يؤمرون به ، إذ علم منهم تعنتهم لأنهم خالفوا أمر الله أولاً في قوله إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، وخالفوا أمر موسى ثانياً في قوله فافعلوا ما تؤمرون ، فلم يكن إلا أن أبقاهم على طبيعتهم من كثرة السؤال ، فسألوا ثالثاً أن يسأل الله عنها ، فأخبرهم عن الله تعالى بحالها بالنسبة إلى العمل وباقي الأوصاف التي ذكرها ، فحينئذ صرحوا بأن موسى جاء بالحق الواضح الذي بين أمر هذه البقرة ، فالتمسوها حتى حصلوها وذبحوها امتثالاً لأمر الله تعالى ، وذلك بعد تردد كثير وبطء عظيم ، وقبل ذلك ما قاربوا ذبحها بل بقوا متطلبين أشياء لتأخر عنهم تحصيلها وذبحها ، ثم أخبر تعالى عنهم بقتل النفس وتدافعهم فيمن قتلها واختلافهم في ذلك ، فأمرهم بأن يضربوا ذلك القتل ببعض هذه البقرة المذبوحة ، فضرّبوه فيحيي بإذن الله وانكشف لهم سرّ أمر الله بذبح البقرة ، وإنه ترتب على ذلك من الأمر المعجز الخارق ما يحصل به العلم الضروري الدال على صدق موسى عليه السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، ثم بين تعالى أن مثل هذا الإحياء يحيي الموتى ، إذ لا فرق بين الإحياء في مطلق الإحياء ، ثم أخبر تعالى بأنه يريهم آياته لينتج عن تلك الإراءة كونهم يصيرون من أولي العقل الناظرين في عواقب الأمور المفكرين في المعاد ، ثم أخبر تعالى بعد ذلك أنهم على مشاهدتهم هذا الخارق العظيم ورؤيتهم الآيات قبل ذلك لم يتأثروا لذلك ، بل ترتب على ذلك عكس مقتضاه من القسوة الشديدة حتى شبه قلوبهم بالحجارة ، أو هي أشد من الحجارة ، ثم استطرد لذكر الحجارة بالتقسيم الذي ذكره على أن الحجارة تفضل قلوبهم ، في كون بعضها يتأثر تأثيراً عظيماً بحيث يتحرك ويتدهده ، وكون بعضها يتشقق فيتأثر تأثيراً قليلاً فينبع منه الماء ، وكون بعضها خلق منفرجاً تجري منه الأنهار ، وقلوبهم على سجية واحدة لا تقبل موعظة ، ولا تتأثر لذكرى ولا تنبعث لطاعة ، ثم ختم ذلك بأنه تعالى لا يغفل عما اجتروحه في دار الدنيا ، بل يجازيهم بذلك في الدار الآخرة ، وكان افتتاح هذه الآيات بأن الله تعالى يأمر ، واختتامها بأن الله لا يغفل ، فهو العالم بمن امتثل ، وبمن أهمل ، فيجازي ممثلاً أمره بجزيل ثوابه ، ومهملاً أمره بشديد عقابه .

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ

بَعْدَ مَا عَقِلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ۖ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يُظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾

الطمع^(١) تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقاً قوياً ، وهو أشد من الرجاء لأنه لا يحدث إلا عن قوة رغبة وشدة إرادة ، وإذا اشتد صار طمعاً ، وإذا ضعف كان رغبة ورجاء ، يقال طمع يطمع طمعاً وطاعة وطاعة مخففاً كطواعية ، قال الشاعر :

طَمَاعِيَةٌ أَنْ يَغْفِرَ الذَّنْبَ غَافِرَةٌ^(٢)

واسم الفاعل طمع وطماع ، ويعدّى بالهمزة ، ويقال طامعه مطامعة ، ويقال طمع بضم الميم كثر طمعه ، وضد الطمع اليأس قال كثير :

لَا خَيْرَ فِي الْحُبِّ وَقَفًّا لَا يَحْرُكُهُ عَوَارِضُ الْيَأْسِ أَوْ يَرْتَاجُهُ الطَّمَعُ

ويقال امرأة مطماع : أي تطمع ولا تمكن ، وقد توسع في الطمع فسمي به رزق^(٣) الجند ، يقال أمر لهم الأمير بأطماعهم : أي أرزاقهم ، وهو من وضع المصدر موضع المفعول ، الكلام هو القول الدال على نسبة إسنادية مقصودة لذاتها ، ويطلق أيضاً على الكلمة ، ويعبر به أيضاً عن الخط والإشارة وما يفهم من حال الشيء ، وهل يطلق على المعاني القائمة بالذهن التي يعبر عنها بالكلام ، في ذلك خلاف وتقالبيه الست موضوعة ، وترجع إلى معنى القوة والشدة ، وهي كلم كامل لكم لمك ملك مكل ، التحريف إمالة الشيء من حال إلى حال ، والحرف الحد المائل ، التحديث الإخبار عن حادث ، ويقال منه يحدث ، وأصله من الحدوث ، وأصل فعله أن يتعدى إلى واحد بنفسه ، وإلى آخر بعن ، وإلى ثالث بالباء ، فيقال حدثت زيداً عن بكر بكذا ، ثم إنه قد يضمن معنى أعلم المنقولة من علم المتعدية إلى اثنين فيتعدى إلى ثلاثة ، وهي من الحاق غير سبويه بأعلم ، ولم يذكر سبويه مما يتعدى إلى ثلاثة غير أعلم وأرى

(١) جاء في لسان العرب : الطمع : ضد اليأس (٢٧٠٤ / ٤) .

(٢) هذا عجز بيت من : الطويل لم يعلم قائله انظر لسان العرب (ويل) دقائق التصريف (٥٠) ، تهذيب إصلاح المنطق (٤٤١) .

(٣) انظر لسان العرب (٢٧٠٤ / ٤) .

ونبأ ، وأما حدث فقد أنشدوا بيت الحارث بن حلزة :

أَوْ مُنِعْتُمْ مَا تُسْأَلُونَ فَمَنْ حُدِّثْتُمُوهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَلَاءُ

وجعلوا حدث فيه متعددة إلى ثلاثة ، ويحتمل أن يكون التقدير حدثتموا عنه ، والجملة بعده حال كما خرج سيبويه قوله ونبت عبد الله : أي عن عبد الله ، مع احتمال أن يكون ضمن نبت معنى أعلمت ، لكن رجح عنده حذف حرف الجر على التضمنين ، وإذا احتمل أن يخرج بيت الحارث على أن يكون مما حذف منه الحرف ، لم يكن فيه دليل على إثبات تعدد حدث إلى ثلاثة بنفسه ، فينبغي أن لا يذهب إلى ذلك إلا أن يثبت من لسان العرب ، الفتح^(١) القضاء بلغة اليمن وهو الفتح العليم ، والأذكار فتح على الإمام ، والظفر فقد جاءكم الفتح قال الكلبي ، وبمعنى القصص قال الكسائي ، وبمعنى التبيين قال الأخفش ، وبمعنى المن وأصل الفتح خرق الشيء ، والسد ضده ، الحاجة من الاحتجاج وهو القصد للغلبة حاجه قصد أن يغلب ، والحجة الكلام المستقيم مأخوذ من محجة الطريق ، أسر الشيء أخفاه وأعلنه أظهره ، الأمي الذي لا يقرأ في كتاب ، ولا يكتب نسب إلى الأم لأنه ليس من شغل النساء أن يكتبن أو يقرأن في كتاب ، أو لأنه بحال ولدته أمه لم ينتقل عنها ، أو نسب إلى الأمة وهي القامة والخلقة ، أو إلى الأمة إذ هي ساذجة قبل أن تعرف المعارف ، الأماني جمع أمنية وهي أفعولة ، أصله أمنية اجتمعت ياء وواو ، وسبقت إحداها بالسكون فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء وهي من منى إذا قدر ، لأن الممتني يقدر في نفسه ويحزر ما يتمناه ، أو من تمنى : أي كذب قال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به أهذا شيء رويته أم تمنيته : أي اختلقته ، وقال عثمان ما تمنيت ولا تغيت منذ أسلمت ، أو من تمنى إذا تلا قال تعالى ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ﴾ [الحج ٥٢] أي إذا تلا وقرأ وقال الشاعر :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَآخِرَهُ لَأَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

والتلاوة والكذب راجعان لمعنى التقدير فالتقدير أصله قال الشاعر :

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ سَوْفَ أَفْعَلُهُ حَتَّى تَبَيَّنَ مَا يُمْنِي لَكَ الْمَانِي

أي يقدر وجمعها بتشديد الياء لأنه أفاعيل ، وإذا جمع على أفاعل خففت الياء ، والأصل التشديد لأن الياء الأولى في الجمع هي الواو التي كانت في المفرد التي انقلبت فيه ياء ، ألا ترى أن جمع أملود^(٢) أماليد ، ويل الويل مصدر لا فعل له من لفظه ، وما ذكر من قولهم وأل مصنوع ، ولم يجيء من هذه المادة التي فاؤها واو وعينها ياء إلا ويل وويح وويس وويب ، ولا يثنى ولا يجمع ، ويقال ويله ويجمع على ويلات قال :

فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي^(٣)

وإذا أضيف ويل فالأحسن فيه النصب قال تعالى ﴿وَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه : ٦١] ، وزعم بعض

(١) في اللغة : الفتح : نقيض الإغلاق ، فتحه يفتح فتحاً . . . لسان العرب (٣٣٧/٥) .

(٢) رجل أملود وامرأة أملود وأملودة وأملودانية وأملودانية ومَلْدَاءُ : ناعمة .
والأملود من النساء : الناعمة المستوية القامة ، وقال شبابة الأعرابي : غلام أملود وأملود إذا كان تاماً محتتماً شطباً - لسان العرب (٤٢٦٠/٦) .

(٣) هذا عجز بيت من الطويل لامرء القيس من معلقته . انظر ديوانه ص (١١٢٨) ، وانظر شرح شواهد المغني (٧٦٦) ، والمقاصد النحوية (٣٧٤/٤) .

أنه إذا أضيف لا يجوز فيه إلا النصب وإذا أفردته اختير الرفع قال فويل للذين ، ويجوز النصب قال :

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ مِنْ سَرَائِلِهَا الْخُسْرِ^(١)

والويل معناه الفضيحة والحسرة ، وقال الخليل الويل شدة الشر ، وقال المفضل وابن عرفة الويل الحزن ، يقال تويل الرجل دعا بالويل ، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه ، وقال غيره الويل الهلكة وكل من وقع في هلكة دعا بالويل ، وقال الأصمعي هي كلمة تفجع ، وقد يكون ترحماً ومنه :

وَيْلٌ أُمِّهِ مَسْعَرُ حَرْبٍ

الأيدي جمع يد ويد مما حذف منه اللام ، ووزنه فعل ، وقد صرح بالأصل قالوا أيدي ، وقد أبدلوا من الياء الأولى همزة قالوا قطع الله أديه ، وأبدلوا منها أيضاً جيماً قالوا لا أفعل ذلك جد الدهر يريدون يد الدهر ، وهي حقيقة في الجارحة ، مجاز في غيرها ، وأما الأيادي فجمع الجمع ، وأكثر استعمال الأيادي في النعم ، والأصل الأيدي استقلت الضمة على الياء ، فحذفت فسكنت الياء وقبلها ضمة فانقلبت واواً ، فصار الأيد ، كما قيل في ميقن موقن ، ثم إنه لا يوجد في لسانهم واو ساكنة قبلها ضمة في اسم ، وإذا أدى القياس إلى ذلك قلبت تلك الواو ياء ، وتلك الضمة قبلها كسرة ، فصار الأيدي ، وقد تقدم الكلام على اليد عند الكلام على قوله لما بين يديها ، الكسب أصله اجتلاب النفع ، وقد جاء في اجتلاب الضر ، ومنه بلى من كسب سيئة ، والفعل منه يجيء متعدياً إلى واحد تقول كسبت مالا ، وإلى اثنين تقول كسبت زيدا مالا ، وقال ابن الأعرابي يقال كسب هو نفسه وأكسب غيره وأنشد :

فَأَكْسَبَنِي مَالاً وَأَكْسَبْتُهُ حَمْدًا^(٢)

المس^(٣) الإصابة ، والمسّ الجمع بين الشئتين على نهاية القرب واللمس مثله ، لكن مع الإحساس ، وقد يجيء المسّ مع الإحساس ، وحقيقة المسّ واللمس باليد ، ونقل من الإحساس إلى المعاني مثل إني مسني الشيطان كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، ومنه سمي الجنون مساً ، وقيل المسّ واللمس والجسّ متقارب ، إلا أن الجسّ عام في المحسوسات ، والمسّ فيما يخفى ويدق كنبض العروق ، والمسّ واللمس بظاهر البشرة ، والمسّ كناية عن النكاح وعن الجنون ، المعدود اسم مفعول من عدّ بمعنى حسب ، والعدد هو الحساب ، الإخلاف^(٤) عدم الإيفاء بالشيء الموعود ، بلى حرف جواب لا يقع إلا بعد نفي في اللفظ أو المعنى ، ومعناها ردّه سواء كان مقروناً به أداة الاستفهام ، أو لم يكن ، وقد وقع جواباً للاستفهام في مثل هل يستطيع زيد مقاومتي ، إذا كان منكراً لمقاومة زيد له لما كان معناه النفي ، ومما وقعت فيه جواباً للاستفهام قول الحجاج بن حكيم :

بَلَى سَوْفَ نَبْكِيهِمْ بِكُلِّ مُهْنَدٍ وَنَبْكِي نُمَيْرًا بِالرَّمَاكِ الْخَوَاطِرِ

وقعت جواباً للذي قال له وهو الأخطل :

(١) هذا عجز بيت من الطويل لجبر ، وصدره (كسا اللؤم تيمناً خضرة في جلودها) - انظر ديوانه (٢٤٨) ، الكتاب (٣٣٣/١) ، مجمع الطبري (٣٢٦/١) ، شرح المفصل (١٢١/١) ، معاني القرآن للأخفش ص (٢٩٩) .

(٢) البيت من الطويل .

(٣) يقال مَبْسُوتُ الشَّيْءِ أَمْسُهُ مَسّاً إِذَا لَمَسَتْهُ بِيَدِكَ ، ثم استعير للأخذ والضرب لأنهما باليد واستعير للجماع لأنه لمس للجنون كأن الجن مسّه . . . لسان العرب (٤٢٠١/٦) .

(٤) الْخُلْفُ وَالْخُلْفُ : نقيض الوفاء بالوعد . . . وَالْخُلْفُ بِالضَّمِّ الْاسْمُ مِنَ الْإِخْلَافِ - لسان العرب (١٢٤١/٢) .

أَلَا فَاسْأَلِ الْحَجَّافَ هَلْ هُوَ نَائِرٌ يَقْتُلِي أَصِيبَتْ مِنْ نُمَيْرِ بْنِ عَامِرٍ^(١)

وبلى عندنا ثلاثي الوضع ، وليس أصله ، بل فزيدت عليها الألف ، خلافاً للكوفيين ، السيئة : فيعلة من ساء يسوء مساءة إذا حزن ، وهي تأنيث السياء ، وقد تقدّم الكلام على هذا الوزن عند الكلام على قوله (أو كصيب) فأغنى عن إعادته ، ﴿ أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ ذكروا في سبب نزول هذه الآية أقاويل ، أحدها : أنها نزلت في الأنصار ، وكانوا حلفاء لليهود ، وبينهم جوار ورضاعة ، وكانوا يودون لو أسلموا ، وقيل : كان النبي ﷺ والمؤمنون يودون إسلام من بحضرتهم من أبناء اليهود ، لأنهم كانوا أهل كتاب وشريعة ، وكانوا يغضبون لهم ، ويلطفون بهم طمعاً في إسلامهم ، وقيل : نزلت فيمن بحضرة النبي ﷺ من أبناء السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام في الطور فسمعوا كلام الله ، فلم يمتثلوا أمره وحرّفوا القول في أخبارهم لقومهم وقالوا سمعناه ، يقول : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم فلا تفعلوا ، وقيل : نزلت في علماء اليهود الذين يحرفون التوراة فيجعلون الحلال حراماً ، والحرام حلالاً اتباعاً لأهوائهم ، وقيل : إن النبي ﷺ قال : « لا يدخل علينا قسبة المدينة إلا مؤمن » ، قال كعب بن الأشرف وهب بن يهودا وأشباههما ، اذهبوا وتجسسوا أخبار من آمن ، وقولوا لهم آمنا ، واكفروا إذا رجعتهم ، فنزلت ، وقيل : نزلت في قوم من اليهود قالوا لبعض المؤمنين : نحن نؤمن أنه نبي لكن ليس إلينا وإنما هو إليكم خاصة ، فلما خلوا قال بعضهم : أتقرون بنبوته وقد كنا قبل نستفتح به ، فهذا هو الذي فتح الله عليهم من علمه ، وقيل : نزلت في قوم من اليهود كانوا يسمعون الوحي ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهذه الأقاويل كلها لا تخرج عن أن الحديث في اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ ، لأنهم الذين يصح فيهم الطمع أن يؤمنوا ، لأن الطمع إنما يصح في المستقبل ، والضمير في أن يؤمنوا لكم لليهود ، والمعنى استبعاد إيمان اليهود ، إذ قد تقدّم لأسلافهم أفاعيل ، وجزى أبناؤهم عليها ، فبعد صدور الإيمان من هؤلاء ، فإن قيل : كيف يلزم من إقدام بعضهم على التحريف حصول اليأس من إيمان الباقيين ، قيل : قال القفال : يحتمل أن يكون المعنى كيف يؤمن هؤلاء وهم إنما يأخذون دينهم ويتعلمونه من قوم يحرفون عناداً ، فإنما يعلمونهم ما حرفوه وغيروه عن وجهه ، والمقلدون يقبلون ذلك منهم ، فلا يلتفتون إلى الحق ، وقيل : إياسهم من إيمان فرقة بأعيانهم ، والهمزة في أفطمعون للاستفهام ، وفيها معنى التريث ، كأنه قال : قد طمعتم في إيمان هؤلاء وحالهم ما ذكر ، وقيل : فيه ضرب من النكير على الرغبة في إيمان من شاهده امتناعه قائمة ، واستبعد إيمانهم ، لأنهم كفروا بموسى مع ما شاهدوا من الخوارق على يديه ، ولأنهم ما اعترفوا بالحق مع علمهم ، ولأنهم لا يصلحون للنظر والاستدلال ، والخطاب في (أفطمعون) للنبي ﷺ خاصة خاطبه بلفظ الجمع تعظيماً له ، قاله ابن عباس ومقاتل ، أو للمؤمنين ، قاله أبو العالية وقتادة ، أو للأنصار قاله النقاش ، أو لرسول الله والمؤمنين ، أو لجماعة من المؤمنين ، أو لجماعة من الأنصار ، والفاء بعد الهمزة أصلها التقديم عليها والتقدير (أفطمعون) و « أفطمعون » الفاء للعطف ، لكنه اعتنى بهمزة الاستفهام فقدمت عليها ، والزمخشري يزعم أن بين الهمزة والفاء فعل محذوف ، ويقر الفاء على حالها حتى تعطف الجملة بعدها على الجملة المحذوفة قبلها ، وهو خلاف مذهب سيبويه ، ومحجوج بمواضع لا يمكن تقدير فعل فيها نحو قوله (أو من ينشأ في الحلية) [الزخرف ١٨] (أفمن يعلم أنما أنزل إليك) [الرعد ١٩] (أفمن هو قائم) [الرعد ٣٣] (أن يؤمنوا) معمول لطمعون على إسقاط حرف الجر ، التقدير :

(١) البيت من الطويل للحجاف بن حكيم أجاز به الأخطل عند ما أنشد في حضرة عبد الملك بن مروان :

ألا سائل الحجاف هل هو نائر بقتلي أصيب من سليم وعامر

انظر الخزانة (٤٨٢/٩) ، جنى الجنتين (١٤٣) ، شعر الأخطل (٢٥٨/٢) .

في أن يؤمنوا ، فهو في موضع نصب على مذهب سيبويه ، وفي موضع جر على مذهب الخليل والكسائي ، ولكم متعلق
ببؤمنوا على أن اللام بمعنى الباء وهو ضعيف ، ولام السبب أي أن يؤمنوا لأجل دعوتكم لهم ﴿ وقد كان فريق منهم
يسمعون كلام الله ﴾ الفريق قيل : هم الأخبار الذين حرفوا التوراة في صفة محمد ﷺ قاله مجاهد والسدي ، وقيل :
جماعة من اليهود كانوا يسمعون الوحي إذا نزل على رسول الله ﷺ فيحرفونه قصداً ، أن يدخلوا في الدين ما ليس فيه ،
ويحصل التضاد في أحكامه ، وقيل : كل من حرف حكماً أو غيره كفعلهم في آية الرجم ونحوها ، وقيل : هم السبعون
الذين سمعوا مع موسى عليه السلام كلام الله ، ثم بدلوا بعد ذلك ، وقد أنكر أن يكونوا سمعوا كلام الله تعالى ، قال ابن
الجوزي : أنكر ذلك أهل العلم منهم الترمذي صاحب النوادر ، وقال : إنما خص موسى عليه السلام بالكلام وحده ،
وكلام الله الذي حرفوه قيل : هو التوراة حرفوها بتبديل ألفاظ من تلقائهم وهو قول الجمهور ، وقيل : بالتأويل مع بقاء
لفظ التوراة قاله ابن عباس ، وقيل : هو كلام الله الذي سمعوه على الطور ، وقيل : ما كانوا يسمعون من الوحي المنزل
على رسول الله ﷺ ، وقرأ الأعمش (كلم الله) جمع كلمة ، وقد يراد بالكلمة الكلام ، فتكون القراءة بمعنى
واحد ، وقد يراد المفردات فيحرفون المفردات ، فتتغير المركبات وإسنادها بتغير المفردات ، ﴿ ثم يحرفونه ﴾
التحريف الذي وقع قيل : في صفة رسول الله ﷺ ، فإنهم وصفوه بغير الوصف الذي هو عليه ، حتى لا تقوم عليهم به
الحجة ، وقيل : في صفته وفي آية الرجم . ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أي : من بعد ما ضبطوه وفهموه ، ولم تشبه عليهم
صحته ، وما مصدرية ، أي : من بعد عقلهم إياه ، والضمير في (عقلوه) عائد على كلام الله ، وقيل : ما موصولة
والضمير عائد عليها وهو بعيد ﴿ وهم يعلمون ﴾ ومتعلق العلم محذوف ، أي : أنهم حرفوه ، أو ما في تحريفه من
العقاب ، أو أنه الحق ، أو أنهم مبطلون كاذبون ، والواو في قوله (وقد كان فريق) وفي قوله (وهم يعلمون) واو
الحال ، ويحتمل أن يكون العامل في الحال قوله (أتطمعون) ويحتمل أن يكن (أن يؤمنوا) ، فعلى الأول : يكون
المعنى : أفيكون منكم طمع في إيمان اليهود ، وأسلافهم من عادتهم تحريف كلام الله ، وهم سالكو سننهم ومتبعوهم
في تضليلهم ، فيكون الحال قيداً في الطمع المستبعد ، أي يستبعد الطمع في إيمان هؤلاء وصفتهم هذه ، وعلى الثاني
يكون المعنى استبعاد الطمع في أن يقع من هؤلاء إيمان وقد كان أسلافهم على ما نص من تحريف كلام الله تعالى ،
فعلى هذا يكون الحال قيداً في إيمانهم ، وعلى كلا التقديرين فكل منهما أعني من أطمعون ومن يؤمنوا مقيد بهذه
الحال من حيث المعنى ، وإنما الذي ذكرناه تقتضيه صناعة الأعراب ، وبيان التقييد من حيث المعنى أنك إذا قلت
أطمع أن يتبعك زيد وهو متبع طريقة أبيه ، فاستبعاد الطمع مقيد بهذه الحال ، ومتعلق الطمع الذي هو الاتباع
المفروض وقوعه مقيد بهذه الحال ، فمحصوله أن وجود هذه الحال لا يجامع الاتباع ولا يناسب الطمع ، بل إنما كان
يناسب الطمع ، ويتوقع الاتباع مع انتفاء هذه الحال ، وأما العامل في قوله (وهم يعلمون) فقوله (ثم يحرفونه) أي :
يقع التحريف منهم بعد عقله وتفهمه ، عالمين بما في تحريفه من شديد العقاب ، ومع ذلك فهم يقدمون على ذلك
ويجتريئون عليه ، والإنكار على العالم أشد من الإنكار على الجاهل ، لأن عند العالم دواعي الطاعة لما علم من
ثوابها ، وتواني المعصية لما علم من عقابها ، وذهب بعضهم إلى أن العالم في قوله (وهم يعلمون) قوله (عقلوه)
والظاهر القول الأول وهو قوله (يحرفونه) ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ قرأ ابن السميع (لأقوا) قالوا على
التكثير ولا يظهر التكثير إنما هو من فاعل الذي هو بمعنى الفعل المجرد ، فعنى (لا قوا) ومعنى (لقوا) واحد ، وتقدم
شرح مفردات هذه الجملة الشرطية ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة مستأنفة ، منبئة عن نوع من قبائح اليهود الذين كانوا
في زمان رسول الله ﷺ وكاشفة عما أكنوه من النفاق ، ويحتمل أن تكون جملة حالية معطوفة على قوله (وقد كان فريق
منهم) الآية : أي كيف يطمع في إيمانهم ، وقد كان من أسلافهم من يحرف كلام الله ، وهؤلاء سالكو طريقتهم ، وهم
في أنفسهم منافقون يظهرون موافقتكم إذا لقوكم وأنهم منكم ، وهم في الباطن كفار فمن جمع بين هاتين الحالتين من

اقتدائهم بأسلافهم الضلال ومنافقتهم للمؤمنين ، لا يطمع في إيمانهم ، والذين آمنوا هنا هم أبو بكر وعمر وجماعة من المؤمنين ، قاله الجمهور المفسرين ، وقال بعضهم : المؤمنون هنا جماعة من اليهود آمنوا وأخلصوا في إيمانهم ، والضمير في (لقوا) لجماعة من اليهود غير معينة ، باقين على دينهم ، أو لجماعة منهم أسلموا ، ثم نافقوا ، أو لليهود الذين أمرهم رؤساؤهم من بني قريظة أن يدخلوا المدينة ، ويتجسسوا أخبار النبي ﷺ ، قالوا : ادخلوا المدينة وأظهروا الإيمان فإنه نهى أن يدخل المدينة إلا مؤمن ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض ﴾ أي : وإذا انفرد بعضهم ببعض ، أي : الذين لم ينافقوا إلى من نافق ، و (إلى) قيل : بمعنى مع ، أي : وإذا خلا بعضهم مع بعض ، والأجود أن يضمن خلا معنى فعل يعدي بإلى ، أي : انضوى إلى بعض أو استكان أو ما أشبهه ، لأن تضمين الأفعال أولى من تضمين الحروف ﴿ قالوا ﴾ أي : ذلك البعض الخالي ببعضهم ﴿ أتحدثونهم ﴾ أي : قالوا عاتبين عليهم : أتحدثون المؤمنين ﴿ بما فتح الله عليكم ﴾ وما موصولة والضمير العائد عليها محذوف ، تقديره بما فتحه الله عليكم ، وقبذ جوزوا في (ما) أن تكون نكرة موصوفة ، وأن تكون مصدرية ، أي : بفتح الله عليكم ، والأولى الوجه الأول ، والذي حدثوا به هو ما تكلم به جماعة من اليهود من صفة رسول الله ﷺ ، قاله أبو العالية وقتادة ، أو ما عذب به أسلافهم ، قاله السدي ، وقال مجاهد : إن رسول الله ﷺ قال لبني قريظة : يا إخوة الخنازير والقردة ، فقال الأحزاب لأتباعهم ما عرف هذا إلا من عندهم ، وقال ابن زيد : كانوا إذا سئلوا عن شيء قالوا في التوراة كذا وكذا ، فكره ذلك أحبارهم ونهوا في الخلوة عنه ، فعلى ما قاله أبو العالية يكون الفتح بمعنى الإعلام والإذكار ، أي : أتحدثونهم بما أعلمكم الله به من صفة نبيهم ، ورواه الضحاك عن ابن عباس ، وعلى قول السدي يكون بمعنى الحكم والقضاء أي : أتحدثونهم بما حكم الله به على أسلافكم وقضاه من تعذيبهم ، وعلى قول ابن زيد يكون بمعنى الإنزال أي : أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم في التوراة ، وقال الكلبي : المعنى : بما قضى الله عليكم وهو راجع لمعنى الإنزال ، وقيل : المعنى بما بين الله لكم من أمر محمد ﷺ وصفته وشريعته ، وما دعاكم إليه من الإيمان به وأخذ العهد على أنبيائكم بتصديقه ونصرته ، وقيل : المعنى بما من الله عليكم من النصر على عدوكم ، ومن تأويل كتابكم ﴿ ليحاجوكم ﴾ هذه لام كي والنصب بأن مضمرة بعدها ، وهي جائرة الإضمار إلا إن جاء بعدها لا فيجب إظهارها ، وهي متعلقة بقوله (أتحدثونها) فهي لام جر وتسمى لام كي ، بمعنى أنها للسبب كما أن كي للسبب ، ولا يعنون أن النصب بعدها بإضمار كي وإن كان يصح التصريح بعدها بكي ، فتقول : لكي أكرمك لأن الذي يضرر إنما هو أن لام كي ، وقد أجاز ابن كيسان والسيرافي أن يكون المضمرة بعد هذه اللام كي أو أن ، وذهب الكوفيون إلى أن النصب بعد هذه اللام إنما هو بها نفسها ، وأن ما يظهر بعدها من كي وأن إنما ذلك على سبيل التأكيد ، وتحريم الكلام في ذلك المذكور في مبسوطات النحو ، وذهب بعض المعربين إلى أن اللام تتعلق بقوله فتح ، وليس بظاهر ، لأن المحاجة ليست علة للفتح ، إنما المحاجة ناشئة عن التحديث ، إلا أن تكون اللام لام الصيرورة عند من يثبت لها هذا المعنى فيمكن ، إذ يصير المعنى إن الذي فتح الله عليهم به حدثوا به قال أمره إلى أن حاجوهم به ، فصار نظير (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) [القصص ٨] لم يلتقطوه لهذا الأمر إنما آل أمره إلى ذلك ، ومن لم يثبت لام الصيرورة جعلها لام كي على تجوز ، لأن الناشئ عن شيء وإن لم يقصد كالعلة ، ولا فرق بين أن يجعلها متعلقة بقوله أتحدثونهم ، وبين بما فتح ، إلا أن جعلها متعلقة بالأول أقرب وساطة ، كأنه قال : أتحدثونهم فيحاجوكم ، وعلى الثاني يكون أبعد إذ يصير المعنى : فتح الله عليكم به فحدثموهم به فيحاجوكم ، فالأولى جعله لأقرب وساطة ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد إلى ما من قوله (بما فتح الله) ، وبهذا يبعد قول من ذهب إلى أنها مصدرية لأن المصدرية لا يعود عليها ضمير ﴿ عند ربكم ﴾ معمول لقوله ليحاجوكم ، والمعنى ليحاجوكم به في الآخرة فكأنه بقوله (عند ربكم) عن اجتماعهم بهم في الآخرة ، كما قال تعالى (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) [الزمر ٣١] وقيل معنى عند ربكم في ربكم : أي فيكونون أحق به ، جعل عند بمعنى في ،

وقيل : هو على حذف مضاف أي ليحاجوكم به عند ذكر ربكم ، وقيل : معناه أنه جعل المحاجة في كتابكم محاجة عند الله ، ألا تراك تقول هو في كتاب الله كذا ، وهو عند الله كذا بمعنى واحد ، وقيل : هو معمول لقوله (بما فتح الله عليكم عند ربكم) : أي من عند ربكم ليحاجوكم ، وهو بعث النبي ﷺ وأخذ ميثاقهم بتصديقه ، قال ابن أبي الفضل : وهذا القول هو الصحيح ، لأن الاحتجاج عليهم هو بما كان في الدنيا انتهى . والأولى حمل اللفظ على ظاهره من غير تقديم ولا تأخير إذا أمكن ذلك ، وقد أمكن بجعل قوله (عند ربكم) على بعض المعاني التي ذكرناها ، وأما على ما ذهب إليه هذا الذاهب فيبعد جداً ، لأن (ليحاجوكم) متعلق بقوله : (أتحدثونهم) ، وعند ربكم متعلق بقوله : بما فتح الله عليكم ، فتكون قد فصلت بين قوله : عند ربكم وبين العامل فيه الذي هو فتح الله عليكم بقوله : ليحاجوكم وهو أجنبي منهما ، إذ هو متعلق بقوله : أتحدثونهم على الأظهر ، ويبعد أن يجيء هذا التركيب هكذا في فصيح الكلام فكيف يجيء في كلام الله الذي هو أفصح الكلام ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ظاهره أنه مندرج تحت قول من قال : أتحدثونهم بما يكون حجة لهم عليكم ، أفلا تعقلون فلا تحدثونهم بذلك ، وقيل : هو خطاب من الله للمؤمنين أي : أفلا تعقلون أن هؤلاء اليهود لا يؤمنون وهم على هذه الصفات الذميمة من اتباع أسلافهم المحرفين كلام الله والتقليد لهم فيما حرفوه ، وتظاهروا بالنفاق وغير ذلك مما نعى عليهم ارتكابه ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ هذا توبيخ من الله لهم : أي إذا كان علم الله محيطاً بجميع أفعالهم ، وهم عالمون بذلك ، فكيف يسوغ لهم أن ينافقوا ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه ، فلا يجامع حالة نفاقهم بحالة علمهم بأن الله عالم بذلك ، والأولى حمل (ما يسرون وما يعلنون) على العموم إذ هو ظاهر اللفظ ، وقيل : الذي أسروه الكفر والذي أعلنوه الإيمان ، وقيل : العداوة والصداقة ، وقيل : قولهم لشيائطينهم إنا معكم ، وقولهم للمؤمنين : آمنا ، وقيل : صفة النبي ﷺ وتغيير صفته إلى صفة أخرى حتى لا تقوم عليهم الحجة ، وقرأ ابن محيصن (أو لا تعلمون) بالياء قالوا فيكون ذلك خطاباً للمؤمنين ، وفيه تنبيه لهم على جهلهم بعالم السر والعلانية ، ويحتمل أن يكون خطاباً لهم ، وفائدته التنبيه على سماع ما يأتي بعده ثم أعرض عن خطابهم وأعاد الضمير إلى الغيبة إهمالاً لهم فيكون ذلك من باب الالتفات ويكون حكمته في الحالتين ما ذكرناه ، وقد تقدم لنا أن مثل (أفلا تعقلون) (أو لا يعلمون) أن الفاء والواو فيهما للعطف ، وأن أصلهما أن يكونا أول الكلام لكنه اعتنى بهمة الاستفهام فقدّمت ، وذكرنا طريقة الزمخشري في ذلك فأغنى عن إعادته ، وإن الله يعلم يحتمل أن يكون مما سدت فيه أن مسد المفرد إذا قلنا إن يعلمون متعد إلى واحد كعرف ويحتمل أن يكون مما سدت فيه إن مسد المفعولين ، إذا قلنا : إن يعلمون متعد إلى اثنين كظننت ، وهذا على رأي سيبويه ، وأما الأخفش فإنها تسد عنده مسد مفعول واحد ، ويجعل الثاني محذوفاً وقد تقدم لنا ذكر هذا الخلاف والعائد على ما محذوف تقديره يسرونه ويعلنونه ، وظاهر هذا الاستفهام أنه تقرير لهم أنهم عالمون بذلك : أي بأن الله يعلم السر والعلانية أي قد علموا ذلك فلا يناسبهم النفاق والتكذيب بما يعلمون أنه الحق ، وقيل : ذلك تقرير لهم وحث على التفكير فيعلمون بالتفكير ذلك ، وذلك أنهم لما اعترفوا بصحة التوراة فيها ما يدل على نبوة رسول الله ﷺ لزمهم الاعتراف بالربوبية ، ودل على أن المعصية مع علمهم بها أقبح وفي هذه الآية وما أشبهها دليل على أن رسول الله ﷺ كان يغضي عن المنافقين ، مع أن الله أظهره على نفاقهم ، وذلك رجاء أن يؤمنوا ، فأغضى عنهم حتى قبل الله منهم من قبل وأهلك من أهلك ، واختلف هل هذا الحكم باق أو نسخ ، فقال قوم : نسخ لأنه كان يفعل ذلك ﷺ تأليفاً للقلوب ، وقد أعز الله الإسلام وأغنى عنهم فلا حاجة إلى التأليف ، وقال قوم : هو باق إلى الآن لأن أهل الكفر أكثر من أهل الإيمان فيحتاجون إلى زيادة الأنصار وكثرة عددهم ، والأول هو الأشهر ، وفي قوله : يعلم ما يسرون وما يعلنون حجة على من زعم أن الله لا يعلم الجزئيات بل يعلم الكلّيات ﴿ ومنهم أميون ﴾ ظاهر الكلام أنها نزلت في اليهود المذكورين في الآية التي قبل هذه قاله ابن

عباس^(١) ، وقيل : في المجوس ، قاله علي بن أبي طالب ، وقيل : في اليهود والمنافقين ، وقال عكرمة والضحاك : في نصارى العرب ، فإنهم كانوا لا يحسنون الكتابة^(٢) ، وقيل : في قوم من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنوب ارتكبوها ، فصاروا أميين ، وقيل : في قوم لم يؤمنوا بكتاب ولا برسول فكتبوا كتابهم ، وقالوا : هذا من عند الله ، فسموا أميين لجهودهم الكتاب فصاروا بمنزلة من لا يحسن شيئاً والقول الأول هو الأظهر ، لأن سياق الكلام إنما هو مع اليهود فالضمير لهم ، ومناسبة ارتباط هذه الآية أنه لما بني أمر الفرقة الضالة التي حرفت كتاب الله وهم عقلوه وعلموا بسوء مرتكبهم ثم بين أمر الفرقة الثانية المنافقين ، وأمر الثالثة المجادلة ، أخذ يبين أمر الفرقة الرابعة وهي العامة التي طريقها التقليد وقبول ما يقال لهم قال أبو العالية ومجاهد وغيرهما : ومن هؤلاء اليهود المذكورون ، فالآية منبهة على عامتهم وأتباعهم أي أنهم لا يطمع في إيمانهم ، وقرأ أبو حية وابن أبي عبيدة أميون بتخفيف الميم ، وقد تقدم أن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب أي لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها و ﴿ لا يعلمون الكتاب ﴾ جملة في موضع الصفة والكتاب هو التوراة ﴿ إلا أمانى ﴾ استثناء منقطع ، لأن الأمانى ليست من جنس الكتاب ولا مندرجة تحت مدلوله ، وهو أحد فسمي الاستثناء المنقطع ، وهو الذي يتوجه عليه العامل ، ألا ترى أنه لو قيل : لا يعلمون إلا أمانى لكان مستقيماً ، وهذا النوع من الاستثناء يجوز فيه وجهان :

أحدهما : النصب على الاستثناء وهي لغة أهل الحجاز .

والوجه الثاني : الإتيان على البدل بشرط التأخر وهي لغة تميم ، فنصب أمانى من الوجهين ، فنصب أمانى من الوجهين ، والمعنى إلا ما هم عليه من أمانيتهم وأمانيتهم أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، أو ما يمينهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة ، أو لا يعلمون إلا أكاذيب مختلفة سمعوها من علمائهم فنقلوها على التقليد قاله ابن عباس ومجاهد واختاره الفراء ، وقيل : معناه إلا تلاوة أي لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يسمعونونه يتلى عليهم ، قال أبو مسلم : حملة على تمنى القلب أولى لقوله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم) ، وقرأ الجمهور أمانى بالتشديد وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن جاز^(٣) عن نافع وهارون عن أبي وأمانى بالتخفيف جمعه على أفاعل ، ولم يعتد بحرف المد الذي في المفرد ، قال أبو حاتم : كل ما جاء من هذا النحو واحده مشدد فلك فيه التشديد والتخفيف مثل أثافي وأغاني وأمانى ونحوه ، قال الأخفش : هذا كما يقال في جمع مفاتيح ومفاتيح ، وقال النحاس : الحذف في المعتل أكثر كما قال :

وَهَلْ رَجَعَ التَّسْلِيمُ أَوْ يُكْشَفُ الْعَمَى ثَلَاثُ الْأَثَانِي وَالرُّسُومُ الْبَلَاغُ^(٤)

﴿ وإن هم إلا يظنون ﴾ إن هنا هي النافية بمعنى ما وهم مرفوع بالابتداء ، وإلا يظنون في موضع الخبر ، وهو من الاستثناء المفرغ ، وإذا كانت إن نافية فدخلت على المبتدأ والخبر لم يعمل عمل ما الحجازية ، وقد أجاز ذلك بعضهم ، ومن أجاز شرط نفي الخبر وتأخيرها والصحيح أنه لا يجوز لأنه لم يحفظ من ذلك إلا بيت نادر وهو :

(١) انظر تفسير القرطبي (٦/٢) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٦/٢) .

(٣) سليمان بن مسلم بن جمار وقيل سليمان بن سالم بن جمار بالجيم والزاي مع تشديد الميم أبو الربيع الزهري مولا هم المدني مقريء جليل ضابط ، مات بعد السبعين ومائة - غاية النهاية (٣١٥/١) .

(٤) البيت من الطويل لذي الرمة ديوانه (٥٤) ، الخزانة (٢١٣/١) ، أمالي ابن الحاجب (٨٥/٢) ، همع الهوامع (١٥٠/٢) .

إِنْ هُوَ مُسْتَوْلِيًّا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَوْعَفِ الْمَجَانِينِ^(١)

وقد نسب السبيلي وغيره إلى سبويه جواز إعمالها إعمال ما ، وليس في كتابه نص على ذلك ، ومعنى يظنون قال مجاهد : يكذبون ، وقال آخرون : يتحدثون ، وقال آخرون : يشكون ، وهو التردد بين أمرين لا يترجح أحدهما على الناظر فيهما ، والأولى حملة على موضوعه الأصلي ، وهو الترجيح لأحد الأمرين على الآخر ، إذ لا يمكن حملة على اليقين ، ولا يلزم من الترجيح عندهم أن يكون ترجيحاً في نفس الأمر ، وقال مقاتل : معناه ليسوا على يقين إن كذب الرؤساء أو صدقوا بايعوهم انتهى كلامه ، وأتى بالخبر فعلاً مضارعاً ولم يأت باسم الفاعل ، لأنه يدل على حدوث الظن وتجده لهم شيئاً فشيئاً ، فليسوا ثابتين على ظن واحد ، بل يتجدد لهم ظنون ، دالة على اضطراب عقائدهم واختلاف أهوائهم ، وفي هذه الآية دليل على أن المعارف كسبية ، وعلى بطلان التقليد ، وعلى أن المغتر بإضلال المضل مذموم ، وعلى أن الاكتفاء بالظن في الأصول غير جائز ، وعلى أن القول بغير دليل باطل ، وعلى أن ما تساوى وجوده وعدمه لا يجوز المصير إلى أحدهما إلا بدليل سمعي ، وتمسك بها أيضاً منكر والقياس وخبر الواحد لأنهما لا يفيدان العلم ، ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ الآية قيل : نزلت في الذين غيروا صفة رسول الله ﷺ وبدّلوا نعته ، فجعلوه آدم سبطاً طويلاً ، وكان في كتابهم على الصفة التي هو بها فقالوا لأصحابهم وأتباعهم انظروا إلى صفة هذا النبي الذي يبعث في آخر الزمان ليس يشبه نعت هذا ، وكانت الأحبار من اليهود يخافون أن يذهب ما كُتبتهم بإبقاء صفة النبي ﷺ على حالها فلذلك غيروها ، وقيل : خاف ملوكهم على ملكهم إذا آمن الناس كلهم فجاءوا إلى أحبار اليهود فجعلوا لهم عليهم وضائع ومأكّل وكشطوها من التوراة ، وكتبوا بأيديهم كتاباً وحلّلوا فيه ما اختاروا وحرّموا ما اختاروا ، وقيل : نزلت في الذين لم يؤمنوا بنبي ولم يتبعوا كتاباً بل كتبوا بأيديهم كتاباً وحلّلوا فيه ما اختاروا ، وحرّموا ما اختاروا وقالوا : هذا من عند الله ، وقال أبو مالك : نزلت في عبد الله بن سعد بن سرح^(٢) كاتب النبي ﷺ ، كان يغيّره فارتد ، وقد تقدم شرح ويل عند الكلام على المفردات وذكر عن عثمان عن النبي ﷺ أنه جبل من نار جهنم ، وذكر أن أبا سعيد روى أنه واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي ، وذكر أن سفیان وعطاء بن يسار روى أنه واد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار ، وحكى الزهراوي وجماعة أنه باب من أبواب جهنم وقيل : هو صهرج في جهنم ، وقيل عن سعيد بن جبیر : أنه واد في جهنم لو سحرت فيه جبال الدنيا لانماعت من حره ، ولو صح في تفسير الويل شيء عن رسول الله ﷺ لوجب المصير إليه ، وقد تكلمت العرب في نظمها ونثرها بلفظة الويل قبل أن يجيء القرآن ، ولم تطلقه على شيء من هذه التفاسير وإنما مدلوله ما فسره أهل اللغة وهو نكرة فيها معنى الدعاء ، فلذلك جاز الابتداء بها إذ الدعاء أحد المسوغات لجواز الابتداء بالنكرة ، وهي تقارب ثلاثين مسوغاً ، وذكرناها في كتاب منهج السالك من تأليفنا ، والكتابة معروفة ويقال : أول من كتب بالقلم إدريس ، وقيل : آدم والكتاب هنا قيل : كتبوا أشياء اختلقوها وأحكاماً بدلوها من التوراة حتى استقر حكمها بينهم ، وقيل : كتبوا في التوراة ما يدل على خلاف صفة رسول الله ﷺ ، وبثوها في سفهائهم وفي العرب ، وأخفوا تلك النسخ التي كانت عندهم بغير تبديل ، وصار سفهائهم ومن يأتيهم من مشركي العرب إذا سألوهم عن صفة رسول الله ﷺ يقولون : ما هو هذا الموصوف عندنا في التوراة المبدلة المغيرة ويقرؤونها عليهم ، ويقولون لهم : هذه التوراة التي أنزلت من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، (بأيديهم) تأكيد يرفع توهم المجاز لأن قولك زيد يكتب ظاهره أنه يباشر الكتابة ، ويحتمل أن ينسب إليه على طريقة المجاز ، ويكون أمراً بذلك

(١) البيت من المنسرح الخزائن (٤/١٦٦) ، الدر اللوامع (١/٩٦) ، شرح شواهد ابن عقيل للجرجاوي ص (٦١) .

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري من بني عامر بن لؤي توفي سنة ٣٧ هجرية - انظر أسد الغابة (٣/١٧٣) .

كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ (١) كتب وإنما المعنى أمر بالكتابة ، لأن الله تعالى قد أخبر أنه النبي الأمي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب ، وقد قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون) العنكبوت ٤٨ ونظير هذا التأكيد يطير بجناحيه ويقولون بأفواههم وقوله :

نَظَرْتُ فَلَمْ تَنْظُرْ بِعَيْنَيْكَ مَنْظَرًا

فهذه كلها أتى بها لتأكيد ما يقتضيه ظاهر اللفظ ، ولرفع المجاز الذي كان يحتمله ، وفي هذا التأكيد أيضاً تقييح لفعلهم إذ لم يكتفوا بأن يأمرُوا بالاختلاق والتغيير ، حتى كانوا هم الذين تعاطوا ذلك بأنفسهم واجترحوه بأيديهم ، وقال ابن السراج : ذكر الأيدي كناية عن أنهم اختلقوا ذلك من تلقائهم ومن عند أنفسهم من غير أن ينزل عليهم انتهى كلامه ، ولا يدل على ما ذكر لأن مباشرة الشيء باليد لا تقتضي الاختلاق ، ولا بد من تقدير حال محذوفة يدل عليها ما بعدها ، التقدير يكتبون الكتاب بأيديهم محرراً أو نحوه مما يدل على هذا المعنى ، لقوله بعد ، ثم يقولون هذا من عند الله ، إذ لا إنكار على من يباشر الكتاب بيده إلا إذا وضعه غير موضعه فلذلك قدرنا هذه الحال ﴿ ثم يقولون ﴾ أي : لأتباعهم الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم ومعمول القول هذه الجملة التي هي ﴿ هذا من عند الله ليشتروا ﴾ علة في القول وهي لام كي ، وقد تقدم الكلام عليها قبل ، وهي مكسورة لأنها حرف جر فيتعلق بـ (يقولون) وقد أبعد من ذهب إلى أنها متعلقة بالاستقرار ، وبنو العنبر يفتحون لام كي قاله مكي في إعراب القرآن له ﴿ به ثمناً قليلاً ﴾ به متعلق بقوله ليشتروا ، والضمير عائد على الذي أشاروا إليه بقولهم هذا من عند الله ، وهو المكتوب المحرّف ، وتقدم القول في الاشتراء في قوله (اشتروا الضلالة بالهدى) البقرة ، والتمن هنا هو عرض الدنيا أو الرشا والمآكل التي كانت لهم ، ووصف بالقلة لكونه فانياً أو حراماً أو حقيراً ، أو لا يوازنه شيء لا ثمن ولا ثمن ، وقد جمعوا في هذا الفعل أنهم ضلوا وأضلوا وكذبوا على الله وضموا إلى ذلك حب الدنيا ، وهذا الوعيد مرتب على كتابة الكتاب المحرّف وعلى إسناده إلى الله تعالى ، وكلاهما منكر ، والجمع بينهما أنكر ، وهذا يدل على تحريم أخذ المال على الباطل وإن كان برضا المعطي ﴿ فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ كتابتهم مقدمة نتيجتها كسب المال الحرام ، فلذلك كرر الويل في كل واحد منهما لئلا يتوهم أن الوعيد هو على المجموع فقط فكل واحد من هذين متوعد عليه بالهلاك ، وظاهر الكسب هو ما أخذه على تحريفهم الكتاب من الحرام ، وهو الأليق بمساق الآية ، وقيل : المراد بما يكسبون الأعمال السيئة ، فيحتاج في كلا القولين إلى اختصاص لأن ما يكسبون عام والأولى أن يقيد بذكرناه ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ سبب نزول هذه الآية أنهم زعموا أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم ، قالوا : إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك ، روي ذلك عن ابن عباس ، وقيل : إن النبي ﷺ (٢) قال : اليهود من أهل النار ، قالوا : نحن ثم تخلفونا أنتم ، فقال : كذبتُم لقد علمتم أنا لا نخلفكم فنزلت هذه الآية ، وروي عنهم أنهم يعذبون سبعة أيام عدد أيام الدنيا سبعة آلاف لكل ألف يوم ثم ينقطع العذاب ، وروي عنهم أنهم يعذبون أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل ، وقيل : أربعين يوماً تحلة القسم ، وقيل : أربعين ليلة ثم ينادى أخرجوا كل مختون من بني إسرائيل فنزلت هذه الآية ، والضمير في (وقالوا) عائد على الذين يكتبون الكتاب ، جمعوا إلى تبديل كتاب الله وتحريفه وأخذهم به المال الحرام وكذبهم

(١) والحديث عند البخاري (٣١/١) ، كتاب بدء الوحي (٧) ، ومسلم (١٣٩٣/٣) ، في الجهاد (١٧٧٣/٧٤) .

(٢) بنحوه عند البخاري ومسلم بلفظ (يهود تعذب في قبرها) البخاري (٢٤١/٣) ، في الجنائز (١٣٧٥) ، ومسلم (٢٢٠٠/٤) ، في

على أنه من عند الله الإخبار بالكذب البحت عن مدة إقامتهم في النار ، وقد تقدم أن المس هو الإصابة : أي (لن تصيبنا النار إلا أياماً) استثناء مفرغ : أي لن تمسنا النار أبداً إلا أياماً معدودة وقد تقدم ذكر العدد في الأيام بأنها سبعة أو أربعون ، وقيل : أراد بقوله (معدودة) أي قلائل ، يحصرها العد لا أنها معينة العد في نفسها ثم أخذ في رد هذه الدعوى والأخبار الكاذبة فقال ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ أي مثل هذا الإخبار الجزم لا يكون إلا ممن اتخذ عند الله عهداً بذلك وأنتم لم تتخذوا به عهداً فهو كذب وافتراء ، وأمر نبيه ﷺ بأن يرد عليهم بهذا الاستفهام الذي يدل على إنكار ما قالوه ، وهمزة الوصل من اتخذ انحدفت لأجل همزة الاستفهام ، ومن سهل بنقل حركتها على اللام وحذفها قال : قل اتخذتم بفتح اللام ، لأن الهمزة كانت مفتوحة ، وعند الله ظرف منصوب باتخذتم ، وهي هنا تتعدى لواحد ويحتمل أن تتعدى إلى اثنين ، فيكون الثاني الظرف فيتعلق بمحذوف ، والعهد هنا الميثاق والموعود ، وقال ابن عباس : معناه هل قلتم لا إله إلا الله وآمنتم وأطعتم فتدلون بذلك وتعلمون خروجكم من النار ، فعلى التأويل الأول المعنى هل عاهدكم الله على هذا الذي تدعون ، وعلى الثاني هل أسلفتم عند الله أعمالاً توجب ما تدعون ﴿ فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ هذه الجملة جواب الاستفهام الذي ضمن معنى الشرط ، كقولك أيقصدنا زيد فلن نجيب من برنا ، وقد تقدم الخلاف في جواب هذه الأشياء هل ذلك بطريق التضمن أي يضمن الاستفهام والتمني والأمر والنهي إلى سائر باقيها معنى الشرط أم يكون الشرط محذوفاً بعدها ، ولذلك قال الزمخشري (١) : فلن يخلف متعلق بمحذوف ، تقديره إن اتخذتم عنده عهداً فلن يخلف الله عهده كأنه اختار القول الثاني من أن الشرط مقدر بعد هذه الأشياء ، وقال ابن عطية : فلن يخلف الله عهده اعتراض في أثناء الكلام ، كأنه يريد أن قوله (أم تقولون) معادل لقوله (قل أتخذتم عند الله عهداً) فصارت هذه الجملة بين هاتين اللتين وقع بينهما التعادل جملة اعتراضية فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وكأنه يقول : أي هذين واقعاً أأخذكم العهد عند الله أم قولكم على الله ما لا تعلمون ، وأخرج ذلك مخرج المتردد في تعيينه على سبيل التقرير ، وإن كان قد علم وقوع أحدهما وهو قولهم على الله ما لا يعلمون ، ونظيره ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : ٢٤] ، وقد علم أيهما على هدى وأيهما هو في ضلال ، وقيل أم هنا منقطعة فيتقدر ببل والهمزة ، كأنه قال : بل أتقولون على الله ما لا تعلمون ، وهو استفهام إنكار لأنه قد وقع منهم قولهم على الله ما لا يعلمون فأنكروا عليهم صدور هذا منهم ، وفي قوله (فلن يخلف الله عهده) دليل على أن الله لا يخلف وعده ، واختلف في الوعيد فذهب الجمهور إلى أنه لا يخلفه كما لا يخلف وعده ، وذهب قوم إلى جواز إخلاف إيعاده وقالوا : إخلاف الوعد قبيح ، وإخلاف الوعيد حسن ، وهي مسألة يبحث فيها في أصول الدين ﴿ بلى ﴾ حرف جواب يثبت به ما بعد النفي ، فإذا قلت : ما قام زيد ، فقلت : نعم ، كان تصديقاً في نفي قيام زيد ، وإذا قلت : بلى كان نقضاً لذلك النفي ، فلما قالوا : لن تمسنا النار ، أجيبوا ، بقوله : بلى ومعناها تمسكم النار والمعنى على التأييد وبين ذلك بالخلود ﴿ من كسب سيئة ﴾ من يحتمل أن تكون شرطية ويحتمل أن تكون موصولة ، والمسوغات لجواز دخول الفاء في الخبر ، إذا كان المبتدأ موصولاً موجودة هنا ، ويحسنه المعجىء في قسميه بالذين وهو موصول ، والسيئة الكفر والشرك ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وقيل : الموجبة للنار ، قاله السدي وعليه تفسير من فسر السيئة بالكبائر ، لأنها هي التي توجب النار أي يستحق فاعلها النار إن لم تغفر له ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ قرأ الجمهور بالإفراد ونافع خطيئاته جمع سلامة ، وبعض القراء خطاياهم جمع تكسير ، والمعنى : أنها أخذته من جميع نواحيه ، ومعنى الإحاطة به أنه يوافي على الكفر والإشراك ، هذا إذا فسرت الخطيئة بالشرك ، ومن فسرها بالكبيرة فمعنى

الإحاطة به أن يموت وهو مصر عليها ، فيكون الخلود على القول الأول المراد به الإقامة إلى انتهاء ، وعلى القول الثاني المراد به الإقامة دهرًا طويلًا إذ مآله إلى الخروج من النار ، قال الكلبي أوثقته ذنوبه ، وقال ابن عباس : أحبطت حسناته ، وقال مجاهد : غشيت قلبه ، وقال مقاتل : أصرَّ عليها وقال الربيع : مات على الشرك^(١) ، قال الحسن : كل ما توعده الله عليه بالنار فهو الخطيئة المحيطة ، ومن كما تقدم لها لفظ ومعنى فحمل أولاً على اللفظ فقال (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ٢ ، وحمل ثانياً على المعنى وهو قوله ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ إلى آخره وأفرد سيئة لأنه كنى به عن مفرد وهو الشرك ، ومن أفرد الخطيئة أراد بها الجنس ، ومقابلة السيئة لأن السيئة مفردة ومن جمعها فلأن الكبائر كثيرة فراعى المعنى وطابق به اللفظ ، وذهب قوم إلى أن السيئة والخطيئة واحدة ، وأن الخطيئة وصف المسيئة ، وفرق بعضهم بينهما ، فقال : السيئة الكفر والخطيئة ما دون الكفر من المعاصي ، قاله مجاهد وأبو وائل والربيع بن أنس ، وقيل : إن الخطيئة الشرك والسيئة هنا ما دون الشرك من المعاصي ، قال الزمخشري^(٢) : وأحاطت به خطيئته تلك واستولت عليه كما يحيط العدو ، ولم ينقص عنها بالتوبة انتهى كلامه . وهذا من دسائسه التي ضمنها كتابه إذ اعتقاد المعتزلة أن من أتى كبيرة ولم يتب منها ومات كان خالداً في النار وفي قوله ﴿ أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ إشارة إلى أن المراد الكفار ، ويدل على ذلك قوله ﷺ ، « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون » ، وقد رتب كونهم أصحاب النار على وجود أمرين ، أحدهما كسب السيئة والآخر إحاطة الخطيئة ، وما رتب على وجود شرطين لا يترتب على وجود أحدهما ، فدل ذلك على أن من لم يكسب سيئة وهي الشرك وإن أحاطت به خطيئته وهي الكبائر لا يكون من أصحاب النار ولا ممن يخلد فيها ، ويعني بأصحاب النار الذين هم أهلها حقيقة لا من دخلها ثم خرج منها

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما ذكر أهل النار وما أعد لهم من الهلاك أتبع ذلك بذكر أهل الإيمان وما أعد لهم من الخلود في الجنان ، والمراد بـ (الذين آمنوا) أمة محمد ﷺ ، ومؤمنو الأمم قبله ، قاله ابن عباس وغيره وهو ظاهر اللفظ ، وقال ابن زيد : هو خاص بالنبي ﷺ وأمته ، وقل ما ذكر في القرآن آية في الوعيد ، إلا وذكرت آية في الوعد ، وفائدة ذلك ، ظهور عدله تعالى واعتدال رجاء المؤمن وخوفه ، وكمال رحمته بوعده وحكمته بوعيده ، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة استبعاد طمع المؤمنين في إيمان من سبق من آبائهم والتشريف بسماع كلام الله ، ثم مقابلة ذلك بعظيم التحريف هذا على علم منهم بقبیح ما ارتكبه ، وهؤلاء المطمئنين في إيمانهم هم أبناء أولئك المحرفين ، فهم على طريقة آبائهم في الكفر ، ثم قد انطوا من حيث السريرة على مداواة المؤمنين ، بحيث إذا لقوهم أفهموهم أنهم مؤمنون ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض أنكروا عليهم ما يتكلمون به مع المؤمنين ، من إخبار بشيء مما في كتبهم ، وذلك مخافة أن يحتج المؤمنون عليهم بما في كتابهم ثم أنكر تعالى عليهم ذلك بأنهم قد علموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، فلا يناسب ذلك إلا الانقياد إلى كتاب الله ، والإخبار بما فيه وإتباع ما تضمنه من الأمر باتباع رسول الله ﷺ ، والإيمان بما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ولكنهم كفروا عناداً ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل : ١٤] ، ثم لما ذكر حال هؤلاء الذين هم من أهل العلم ولم ينتفعوا بعلمهم ذكر أيضاً مقلدتهم وعوامهم ، وأنهم لا يعلمون من الكتاب إلا ألفاظاً مسموعة ، وأن طريقهم في أصول دياناتهم إنما هو حسن ظنهم بعلمائهم المحرفين المبذلين ، ثم توعده الله تعالى بالهلاك والحسرة من حرّف كلام الله وادّعى أنه من عند الله لتحصيل غرض من الدنيا تافه نزر لا يبقى ، فباع باقياً بفان ، ثم كرّر الوعيد على ما فعلوه ، ثم أخبر عنهم بما

(١) انظر تفسير الطبري (٢/ ٢٨١ - ٢٨٤) ، تفسير ابن عباس (١٢) ، تفسير الوسيط في تفسير الآية .

(٢) انظر الكشف (١٥٨/١) .

صدر عنهم من الكذب البحت ، بأن لبثهم في النار أياماً معدودة ، وأن ذلك إخباراً ليس صادراً عن عهد اتخذه عند الله ، بل قول على الله بما لا علم لهم به ، ثم ردّ عليهم دعواهم تلك بقوله : بل ، ثم قسم الناس إلى قسمين كافر وهو صاحب النار ومؤمن وهو صاحب الجنة ، وأنهم اندرجوا تحت قسم الكافر لأنهم كسبوا السيئات وأحاطت بهم الخطيئات ، وناهيك ما اقتص الله فيهم من أول السورة إلى هنا وما يقص بعد ذلك مما ارتكبه من الكفر والمخالفات .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِأُولَئِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُواهُمْ وَهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

الوالدان الأب والأم وكل منها يطلق عليه والد وظاهر الإطلاق الحقيقة ، قال :
وَذِي وَلَدٍ لَّمْ يَلِدْهُ أَبَوَانِ

ويقال للأم : والد والوالدة ، وقيل : الوالد للأب وحده ، وثنيا تغليبا للمذكر ، الإحسان^(١) النفع بكل حسن ، ذو بمعنى صاحب ، وهو من الأسماء الستة التي ترفع وفيها الواو ، وتنصب وفيها الألف ، وتجرّ وفيها الياء ، وأصلها عند سيبويه ذوي ووزنها عنده فعل ، وعند الخليل : ذوة من باب حوة وقوة ووزنها عنده فعل ، وهو لازم الإضافة وتنقاس إضافته إلى اسم جنس ، وفي إضافته إلى مضمير خلاف ، وقد يضاف إلى العلم وجوباً إذا اقترنا وضعاً ، كقولهم ذو جدن وذو يزن وذو رعين وذو الكلاع وإن لم يقرنا وضعاً ، فقد يجوز كقولهم في عمرو وقطري ذو عمرو وذو قطري ، ويعنون به صاحب هذا الاسم وإضافته إلى العلم في وجهته مسموع ، وكذلك أنا ذو بكة ، واللهم صلّ على محمد وعلى ذويه ، ومما أضيف إلى العلم وأريد به معنى ذي مال ، ومما أضيف إلى ضمير العلم ، وأضيف أيضاً إلى ضمير المخاطب ، قال الشاعر :

وَأَنَا لَنَرْجُو عَاجِلًا مِنْكَ مِثْلَ مَا رَجَوْنَاهُ قَدَمًا مِنْ ذَوِيكَ الْفَاضِلِ^(٢)

(١) الإحسان : ضد الإساءة ، ورجل مُحْسِنٌ ومُحْسَنٌ - لسان العرب (٨٧٨/٢) .

(٢) البيت من الطويل للأحوص الأنصاري من قصيدة أنشدها بحضرة عمر بن عبد العزيز ، انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة =

وقد أتت ذو في لغة طي موصولة ولها أحكام في النحو ، القربى مصدر كالرجعى ، والألف فيه للتأنيث وهي قرابة الرحم والصلب ، قال طرفة :

وَقَرَّبْتَ بِالْقُرْبَى وَجَدَّكَ إِنَّهُ مَتَى يَكُ أَمْرٌ لِلنَّكِثَةِ أَشْهَدُ

وقال أيضاً :

وَزَلُّمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْحُرِّ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهْنَدِ

اليتامى^(١) فعلى وهو جمع لا ينصرف لأن الألف فيه للتأنيث ، ومفرده يتيم كنديم ، وهو جمع على غير قياس ، وكذا جمعه على أيتام ، وقال الأصمعي : اليتيم في بني آدم من قبل الأب ، وفي غيرهم من قبل الأم ، وحكى الماوردي أن اليتيم في بني آدم يقال : من فقد الأم والأول هو المعروف ، وأصله الانفراد ، فمعنى صبي يتيم أي منفرد عن أبيه ، وسميت الدرة التي لا مثل لها يتيمة لانفرادها قاله ثعلب ، وقيل : أصل اليتيم الغفلة ، وسمي الصبي يتيماً لأنه يتغافل عن بره ، وقيل : أصل اليتيم الإبطاء ومنه أخذ اليتيم ، لأن البر يبطئ عنه قاله أبو عمرو ، المساكين جمع مسكين وهو مشتق من السكون فالميم زائدة ، كمحضير من الحضرة ، وقد روي تمسكن فلان ، والأصح في اللغة تسكن أي صار مسكيناً ، وهو مرادف للفقير ، وهو الذي لا شيء له ، وقيل : هو الذي له أدنى شيء ، الحُسْن والحَسَن ، قيل : هما لغتان كالْبُخْل والبَخْل ، والحسن مصدر حَسُنَ كالقبح مصدر قُبِحَ مقابل حسن ، القليل اسم فاعل من قَلَّ ، كما أن كثيراً مقابلة اسم فاعل من كثر ، يقال قل يقل قلة وقلاً وقِلاً ، الإعراض ، التولي ، وقيل : التولي بالجسم والإعراض بالقلب والعرض الناحية ، فيمكن أن يكون قولك : أعرض زيد عن عمرو ، أي صار في ناحية منه فتكون الهمزة فيه للضرورة ، الدم معروف وهو محذوف اللام وهي ياء لقوله :

جَرَى الدِّمَيَانُ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ^(٢)

أو واو لقولهم : دمان ووزنه فعل ، وقيل : فعل وقد سمع مقصوراً قال :

غَفَلْتُ ثُمَّ أَتَتْ تَطْلُبُهُ فَإِذَا هِيَ بِعِظَامٍ وَدَمًا^(٣)

وقال :

= ص (٥١٤) ، لسان العرب (ذو) وروايته :

ولكن رجونا منك مثل الذي به صرفنا قديماً من ذويك الأوائل

وانظر شفاء العليل (٧١١) ، همع الهوامع (٥١/٢) .

(١) الْيَتِيمُ : الانفراد (عن يعقوب) ، واليتيم : الفرد والْيَتِيمُ والْيَتِيمُ : فقدان الأب وقال ابن السكيت : اليتيم في الناس من قبل الأب وفي البهائم من قبل الأم ولا يقال لمن فقد الأم من الناس يتيم ... لسان العرب (٤٩٤٨/٦) .

(٢) البيت من الوافر لعلبي بن بذاك من بني سليم أمالي الزجاجي ص (٢٠) ، ونسبه في الحماسة (٤٠/١) ، للمثقب العبدى وانظر الخزانة (٤٨٢/٧) ، شرح شواهد شرح الشافعية (١١٢ ، ١١٣) .

(٣) البيت من الرمل انظر الخزانة (٤٩١/٧) ، التنبيه لابن بري (٢٣٥/٢) ، شرح التسهيل (٥٠/١) ، وانظر تلخيص الشواهد ص (٧٧) ، الهمع (٣٩/١) .

وَلَكِنْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا يَقْطُرُ الدَّمَا^(١)

في رواية من رواه كذلك وقد سمع مشدّد الميم ، قال الشاعر :

أَهَانَ دَمُكَ فَرَعًا بَعْدَ عِزِّهِ يَا عَمْرُو نَعْيُكَ إِصْرَارًا عَلَى الْحَسَدِ^(٢)

الديار جمع دار وهو قياس في فعل الاسم إذا لم يكن مضاعفاً ولا معتل لام نحو طلل وفتى ، والياء في هذا الجمع منقلبة عن واو ، إذ أصله دوار وهو قياس ، أعني هذا الإبدال إذا كان جمعاً لواحد معتل العين كثوب وحوض ودار ، بشرط أن يكون فعلاً صحيح اللام ، فإن كان معتلة لم يبدل نحو روا وقالوا في جمع طويل : طوال وطيال ، أقر بالشيء اعترف به ، تظاهرون تتعاونون كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهم ظهره إلى صاحبه والظهر المعين ، الإثم الذنب جمعه آثام ، الأسرى جمع أسير ، وفعل مقيس في فاعل بمعنى ممات أو موجه كقتيل وجريح ، وأما الأسارى^(٣) فقيل : جمع أسير ، وسمع الأسارى بفتح الهمزة وليست بالعالية ، وقيل : أسارى جمع أسرى فيكون جمع الجمع قاله المفضل ، وقال أبو عمرو بن العلاء الأسرى من في اليد ، والأسارى من في الوثاق ، والأسير هو المأخوذ على سبيل القهر والغلبة ، الفداء يكسر أوله فيمد كما قال النابغة :

مَهْلًا فِدَاءَ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَمَا أَثْمَرُوا مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ^(٤)

ويقصر قال :

فِدَا لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِدِي^(٥)

وإذا فتح أوله قصر يقال : قم فدا لك أبي قاله الجوهري : ومعنى فدى فلان فلاناً أي أعطى عوضه ، المحرم اسم مفعول من حرم وهو راجع إلى معنى المنع تقول حرمة يحرمه إذا منعه ، الجزاء المقابلة ويطلق في الخير والشر ، الخزي^(٦) الهوان قال الجوهري : خزي بالكسر يخزي خزياً ، وقال ابن السكيت : معنى خزي وقع في بلية وأخزاه الله أيضاً ، وخزي الرجل في نفسه يخزي خزاية إذا استحيا وهو خزيان ، وقوم خزايا وامرأة خزيا ، الدنيا تأنيث الأدنى ويرجع إلى الدنوب بمعنى القرب ، والألف فيه للتأنيث ، ولا تحذف منها الألف واللام إلا في شعر نحو قوله :

(١) البيت من الطويل للحصين بن الحمام المري انظر أمالي الزجاجي ص (٢٠٧) ، الخزانة (٤٩٠/٧) ، الأشباه والنظائر (١١١/٣) ، شرح شواهد شرح الشافية (١١٤) .

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا ولكن على أقدامنا يقطر الدما وانظر الحجة في علل القراءات (١٣٦/٢) ، (١٤١) .

(٢) البيت من البسيط لم يعلم قائله - انظر شرح التسهيل (٥٠/١) ، همع الهوامع (٤٠/١) ، الدرر اللوامع (١٣/١) ، الأشباه والنظائر (١٤٣/١) .

(٣) الإِسَارُ : القيد ويكون حَبْلُ الكَتَافِ ، ومنه سمي الأسير . . . يقال : أسرت الرجل أسراً وإساراً فهو أسير ومأسور والجمع أسرى وأسارى - لسان العرب (٧٨/١) .

(٤) البيت من البسيط للنابغة انظر ديوانه ص (٢٦) ، شرح القصائد لابن النحاس (١٧٣/٢) ، الخزانة (١٨١/٦) ، الشعر والشعراء (١٧٣) ، اللسان (فدى) .

(٥) البيت من الطويل للنابغة انظر ديوانه (١٣٧) ، تفسير الطبري (٤٨/١) ، روح المعاني (٧٨/١) .

(٦) الخزي : السوء ، خزي الرجل يخزي خزياً وخزى (الأخيرة عن سيويه) وقع في بلية وشّرْ وشَهْرَةٌ فذلّ بذلك وهان - لسان العرب (١١٥٥/٢) .

فِي سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مَدَّتْ (١)

والدنيا تارة تستعمل صفة وتارة تستعمل استعمال الأسماء فإذا كانت صفة فالياء مبدلة من واو إذ هي مشتقة من الدنو ، وذلك نحو العليا ، ولذلك جرت صفة على الحياة في قوله (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) ، فأما القصوى والحلوى فشاذ ، وإذا استعملت استعمال الأسماء فكذلك ، وقال أبو بكر بن السراج في المصور والممدود له ، الدنيا مؤنثة مقصورة تكتب بالألف هذه لغة نجد وتميم خاصة ، إلا أن أهل الحجاز وبني أسد يلحقونها ونظائرها بالمصادر ذوات الواو فيقولون دنوى مثل شروى ، وكذلك يفعلون بكل فعلى موضع لامها واو يفتحون أولها ويقلبون الواو ياء لأنهم يستقلون الضمة والواو ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله ﴾ هذه الآية مناسبة للآيات الواردة قبلها في ذكر توبيخ بني إسرائيل وتقريعهم ، وتبيين ما أخذ عليهم من ميثاق العبادة لله ، وإفراده تعالى بالعبادة ، وما أمرهم به من مكارم الأخلاق من صلة الأرحام والإحسان إلى المساكين والمواظبة على ركني الإسلام البدني والمالي ، ثم ذكر توليهم عن ذلك ونقضهم لذلك الميثاق على عاداتهم السابقة وطريقتهم المألوفة لهم ، وإذ معطوف على الظروف السابقة قبل هذا ، والميثاق هو الذي أخذه تعالى عليهم وهم في صلب آبائهم كالذرّ قاله مكي ، وضعف بأن الخطاب قد خصص ببني إسرائيل وميثاق الآية فيهم ، أو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام ، وغيره من أنبيائهم قاله ابن عطية ، وقيل هو ميثاق أخذ عليهم في التوراة بأن يعبدوه إلى آخر الآيات ، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي (لا يَعْْبُدُونَ) بالياء ، وقرأ الباقر بالتاء من فوق ، وقرأ أبي وابن مسعود لا يَعْْبُدُوا على النهي فأما لا يعبدون فذكروا في إعرابه وجوهاً :

أحدها : أنه جملة منفية في موضع نصب على الحال من بني إسرائيل : أي غير عابدين إلا الله : أي موحدين الله ومفرديه بالعبادة ، وهو حال من المضاف إليه وهو لا يجوز على الصحيح ، لا يقال إن المضاف إليه يمكن أن يكون معمولاً في المعنى لميثاق ، إذ يحتمل أن يكون مصدرًا أو حكمه حكم المصدر ، وإذا كان كذلك جاز أن يكون المجزور بعده فاعلاً في المعنى أو مفعولاً لأن الذي يقدر فيه العمل هو ما انحل إلى حرف مصدري والفعل ، وهنا ليس المعنى على أن ينحل لذلك فلا يجوز الحكم على موضعه برفع ولا نصب ، لأنك لو قدرت أخذنا أن نوافق بني إسرائيل أو أن يوافقنا بنو إسرائيل لم يصح ، بل لو فرضنا كونه مصدرًا حقيقة لم يجز فيه ذلك ، ألا ترى أنك لو قلت أخذت علم زيد لم ينحل لحرف مصدري والفعل ، لا يقال أخذت أن يعلم زيد فإذا لم يتقدر المصدر بحرف مصدري والفعل ، ولا كان من ضربا زيدا لم يعمل على خلاف في هذا الأخير ، ولذلك منع ابن الطراوة في ترجمة سيبويه هذا باب علم ما الكلم من العربية أن يتقدر المصدر بحرف مصدري والفعل وردّ ذلك على من أجازه ، وممن أجازه أن تكون الجملة حالاً المبرد وقطرب قالوا ويجوز أن يكون حالاً مقارنة وحالاً مقدرة .

الوجه الثاني : أن تكون الجملة جواباً لقسم محذوف دل عليه قوله أخذنا ميثاق بني إسرائيل : أي استحلفناهم والله لا يعبدون ، ونسب هذا الوجه إلى سيبويه ، وأجازه الكسائي والفراء والمبرد .

الوجه الثالث : أن تكون أن محذوفة ، وتكون أن وما بعدها محمولاً على إضمار حرف جر التقدير بأن لا تعبدوا إلا الله ، فحذف حرف الجر إذ حذفه مع أن وإن جائز مطرد إذ لم يلبس ، ثم حذف بعد ذلك أن فارتفع الفعل فصار لا تعبدون قاله الأخفش ونظيره من نثر العرب مرة يحفرها ومن نظمها قوله :

(١) البيت من مشطور الرجز للعجاج انظر الخزانة (٢٩٦/٨) ، شرح شواهد الكشاف (٣٥٣) ، المفصل (١٠٠/٦) .

أَلَا أُيْهِدَا الزَّاجِرِي أَحْضَرُ الْوَعَى^(١)

أصله مرة بأن يحفرها ، وعن أن أحضر الوعى فجرى فيه من العمل ما ذكرناه ، وهذا النوع من إضمار أن في مثل هذا مختلف فيه فمن النحويين من منعه ، وعلى ذلك متأخرو أصحابنا ، وذهب جماعة من النحويين إلى أنه يجوز حذفها في مثل هذا الموضع ، ثم اختلفوا فقيل يجب رفع الفعل إذ ذاك وهذا مذهب أبي الحسن ، ومنهم من قال ينبغي العمل وهو مذهب المبرد والكوفيين ، والصحيح قصر ما ورد من ذلك على السماع ، وما كان هكذا فلا ينبغي أن تخرج الآية عليه لأن فيه حذف حرف مصدري وإبقاء صلته في غير المواضع المنقاس ذلك فيها .

الوجه الرابع : أن يكون التقدير أن لا تعبدوا ، فحذف أن وارتفع الفعل ، ويكون ذلك في موضع نصب على البدل من قوله ميثاق بني إسرائيل وفي هذا الوجه ما في الذي قبله من أن الصحيح عدم اقتباس ذلك أعني حذف أن ورفع الفعل ونصبه .

الوجه الخامس : أن تكون محكية بحال محذوفة : أي قائلين لا تعبدون إلا الله ، ويكون إذ ذاك لفظه لفظ الخبر ومعناه النهي أي : قائلين لهم لا تعبدوا إلا الله قاله الفراء ، ويؤيده قراءة أبيّ وابن مسعود ، والعطف عليه قوله (وقولوا للناس حسناً) .

الوجه السادس : أن يكون المحذوف القول أي : وقلنا لهم لا تعبدون إلا الله ، وهو نفي في معنى النهي أيضاً ، قال الزمخشري^(٢) : كما يقول تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كان سورع إلى الامتثال والانتفاء فهو يخبر عنه انتهى كلامه وهو حسن .

الوجه السابع : أن يكون التقدير أن لا تعبدون ، وتكون أن مفسرة لمضمون الجملة لأن في قوله (أخذنا ميثاق بني إسرائيل) معنى القول ، فحذف أن المفسرة وأبقى المفسر ، وفي جواز حذف أن المفسرة نظر .

الوجه الثامن : أن تكون الجملة تفسيرية فلا موضع لها من الإعراب ، وذلك أنه لما ذكر أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل كان في ذلك إيهام للميثاق ما هو ؟ فأتى بهذه الجملة مفسرة للميثاق .

فمن قرأ بالياء فلأن بني إسرائيل لفظ غيبة ، ومن قرأ بالتاء فهو التفات وحكمته الإقبال عليهم بالخطاب ليكون أدعى للقبول وأقرب للامتثال ، إذ فيه الإقبال من الله على المخاطب بالخطاب ، ومع جعل الجملة مفسرة لا تخرج عن أن يكون نفي أريد به نهي ، إذ تبعد حقيقة الخبر فيه إلا الله استثناء مفرغ لأن لا تعبدون لم يأخذ مفعوله ، وفيه التفات إذ خرج من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب ، ألا ترى أنه لو جرى على نسق واحد لكان نظم الكلام لا تعبدون إلا إيانا لكن في العدول إلى الاسم الظاهر من الفخامة ، والدلالة على سائر الصفات ، والتفرد بالتسمية به ما ليس في المضمّر ، ولأن ما جاء بعده من الأسماء إنما هي أسماء ظاهرة فناسب مجاورة الظاهر الظاهر ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ المعنى الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما وإكرامهما ، وقد تضمنت : أي من القرآن وأحاديث كثيرة ذلك ، حتى عُدَّ العقوق من الكبائر ، وناهيك احتفالاً بهما كون الله قرن ذلك بعبادته تعالى .

ومن غريب الحكايات : أن عمر رأى امرأة تطوف بأبيها على ظهرها ، وقد جاءت به على ظهرها من اليمن فقال

(١) البيت لطرفة انظر ديوانه ص (٨١) ، الحماسة البصرية (٨٣/١) ، شرح القصائد لابن الأنباري ص (١٩٢) ، الخزانة

(١٩/١) ، شرح شواهد المغني (٨٠٠-٨٠١) .

(٢) انظر الكشف (١٥٩/١) .

لها جزاك الله خيراً ، لقد وفيت بحقه فقالت ما وفيته ولا أنصفته ، لأنه كان يحملني ويود حياتي وأنا أحمله وأود موته ، واختلفوا فيما تتعلق به الباء في قوله (وبالوالدين) وفي انتصاب (إحساناً) على وجوه :

أحدها : أن يكون معطوفاً على لا تعبدون ، أعني على المصدر المنسبك من الحرف المصدرى والفعل إذ التقدير عند هذا القائل بإفراد الله بالعبادة وبالوالدين : أي وبر الوالدين ، أو بإحسان إلى الوالدين ، ويكون انتصاب إحساناً على المصدر من ذلك المضاف المحذوف ، فالعامل فيه الميثاق ، لأنه به يتعلق الجار والمجرور ، وروائح الأفعال تعمل في الظروف والمجرورات .

الوجه الثاني : أن يكون متعلقاً بـ « إحساناً » ، ويكون إحساناً مصدرًا موضوعاً موضع فعل الأمر كأنه قال : وأحسنوا بالوالدين ، قالوا : والباء ترادف إلى في هذا الفعل تقول : أحسنت به وإليه بمعنى واحد ، وقد تكون على هذا التقدير على حذف مضاف : أي وأحسنوا ببر الوالدين ، المعنى وأحسنوا إلى الوالدين ببرهما ، وعلى هذين الوجهين يكون العامل في الجار والمجرور ملفوظاً به .

قال ابن عطية : ويعترض هذا القول بأن المصدر قد تقدم عليه ما هو معمول له انتهى كلامه . وهذا الاعتراض إنما يتم على مذهب أبي الحسن في منعه تقديم مفعول نحو : ضرباً زيداً ، وليس بشيء لأنه لا يصح المنع إلا إذا كان المصدر موصولاً بأن ينحل لحرف مصدرى والفعل ، أما إذا كان غير موصول فلا يمتنع تقديمه عليه فجائز أن تقول : ضرباً زيداً وزيداً ضرباً ، سواء كان العمل للفعل المحذوف العامل في المصدر أو للمصدر النائب عن الفعل ، لأن ذلك الفعل هو أمر ، والمصدر النائب عنه أيضاً معناه الأمر ، فعلى اختلاف المذهبين في العامل يجوز التقديم .

الوجه الثالث : أن يكون العامل محذوفاً ، ويقدر : وأحسنوا ، أو ويحسنون بالوالدين ، ويتنصب إحساناً على أنه مصدر مؤكد لذلك الفعل المحذوف ، فتقديره : وأحسنوا مراعاة للمعنى لأن معنى لا تعبدون لا تعبدوا ، أو تقديره ويحسنون مراعاة للفظ لا تعبدون ، وإن كان معناه الأمر ، وبهذين قدر الزمخشري^(١) هذا المحذوف .

الوجه الرابع : أن يكون العامل محذوفاً ، وتقديره : واستوصوا بالوالدين ، ويتنصب إحساناً على أنه مفعول : قاله المهدوي .

الوجه الخامس : أن يكون العامل محذوفاً وتقديره ووصيئاهم بالوالدين ، ويتنصب إحساناً على أنه مفعول من أجله : أي : ووصيئاهم بالوالدين إحساناً منا : أي لأجل إحساننا : أي أن التوصية بهما سببها إحساننا إما لأن من شأننا الإحسان ، أو إحساناً منا للموصين إذ يترتب لهم على امتثال ذلك الثواب الجزيل والأجر العظيم ، أو إحساناً منا للموصى بهم وقد جاء هذا الفعل مصرحاً به في قوله تعالى ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ [العنكبوت : ٨] ، والمختار الوجه الثاني لعدم الإضمار فيه ، ولا طراد مجيء المصدر في معنى فعل الأمر ﴿ وذو القربى واليتامى والمساكين ﴾ معطوف على قوله (وبالوالدين) وكان تقديم الوالدين لأنهما أكد في البر والإحسان ، وتقديم المجرور على العالم اعتناء بمتعلق الحرف وهما الوالدان ، واهتماماً بأمرهما ، وجاء هذا الترتيب اعتناء بالأوكد ، فبدأ بالوالدين ، إذ لا يخفى تقدمهما على كل أحد في الإحسان إليهما ، ثم بذى القربى لأن صلة الأرحام مؤكدة أيضاً ، ولمشاركته الوالدين في القرابة ، ثم باليتامى لأنهم لا قدرة لهم تامة على الاكتساب ، وقد جاء (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة) وغير ذلك من الآثار ، ثم بالمساكين لما في الإحسان إليهم من الثواب وتأخرت درجة المساكين لأنه يمكنه

أن يتعهد نفسه بالاستخدام ، ويصلح معيشته ، بخلاف اليتامى فإنهم لصغرهم لا يتتبع بهم وهم محتاجون إلى من ينفعهم ، وأول هذه التكاليف هو إفراة الله بالعبادة ، ثم الإحسان إلى الوالدين ، ثم إلى ذي القربى ، ثم إلى اليتامى ، ثم إلى المساكين فهذه خمسة تكاليف تجمع عبادة الله ، والحض على الإحسان للوالدين ، والمواساة لذي القربى واليتامى والمساكين ، وأفرد ذا القربى لأنه أراد به الجنس ، ولأن إضافته إلى المصدر يندرج فيه كل ذي قرابة ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ لما ذكر بعد عبادة الله الإحسان لمن ذكر ، وكان أكثر المطلوب فيه الفعل من الصلة والإطعام والافتقاد ، أعقب بالقول الحسن ، ليجمع المأخوذ عليه الميثاق امثال أمر الله تعالى في الأفعال والأقوال فقال تعالى (وقولوا للناس حسناً) ، ولما كان القول سهل المرام إذ هو بدل لفظ لا مال ، كان متعلقة بالناس عموماً ، إذ لا ضرر على الإنسان في الإحسان إلى الناس بالقول الطيب .

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب (حَسَنًا) بفتح الحاء والسين ، وقرأ عطاء بن أبي رباح وعيسى بن عمر (حُسْنًا) بضمهما ، وقرأ أبي وطلحة بن مصرف حُسْنَى على وزن فعلى ، وقرأ الجحدري (إِحْسَانًا) ، فأما قراءة الجمهور (حسناً) فظاهره أنه مصدر ، وأنه كان في الأصل قولاً حسناً إما على حذف مضاف : أي ذا حسن ، وإما على الوصف بالمصدر لإفراط حسنه ، وقيل يكون أيضاً صفة لا أن أصله مصدر بل يكون كالحلو والمر ، فيكون الحسن والحسن لغتين كالحزن والحزن والعرب والعرب ، وقيل انتصب على المصدر من المعنى ، لأن المعنى وليحسن قولكم حسناً ، وأما من قرأ (حَسَنًا) بفتحيتين فهو صفة لمصدر محذوف : أي وقولوا للناس قولاً حسناً ، وأما من قرأ بضميتين فضمة السين إتباع لضمة الحاء ، وأما من قرأ (حسنى) فقال ابن عطية : رده سيويه ، لأن أفعل وفعل لا يجيء إلا معرفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل ويبقى مصدراً كالعقبى فذلك جائز ، وهو وجه القراءة بها انتهى كلامه . وفي كلامه ارتباك لأنه قال : لأن أفعل وفعل لا يجيء إلا معرفة ، وليس على ما ذكر أما أفعل فله استعمالات :

أحدها : أن يكون بمن ظاهرة أو مقدرة أو مضافاً إلى نكرة ، فهذا لا يتعرف بحال بل يبقى نكرة .

والاستعمال الثاني : أن يكون بالالف واللام ، فإذا ذاك يكون معرفة بهما .

الثالث : أن يضاف إلى معرفة ، وفي التعريف بتلك الإضافة خلاف ، وذلك نحو : أفضل القوم ، وأما فعلى فلها استعمالان :

أحدهما : بالالف واللام ، ويكون معرفة بهما .

والثاني : بالإضافة إلى معرفة نحو فضلى النساء ، وفي التعريف بهذه الإضافة الخلاف الذي في أفعل ، فقول ابن عطية : لأن أفعل وفعل لا يجيء إلا معرفة ليس بصحيح ، وقوله : إلا أن يزال عنها معنى التفضيل ويبقى مصدراً فيكون فعلى الذي هو مؤنث افعل ، إذا أزلت منه معنى التفضيل يبقى مصدراً وليس كذلك ، بل لا ينقاس مجيء فعلى مصدراً ، إنما جاءت منه ألفاظ يسيرة فلا يجوز أن يعتقد في فعلى التي مذكروها أفعل أنها تصير مصدراً إذا زال منها معنى التفضيل ، ألا ترى أن كبرى وصغرى وجلى وفضلى وما أشبه ذلك لا ينقاس جعل شيء منها مصدراً بعد إزالة معنى التفضيل ، بل الذي ينقاس على رأي أنك إذا أزلت منها معنى التفضيل صارت بمعنى كبيرة وصغيرة وجليلة وفاضلة ، كما أنك إذا أزلت من مذكروها معنى التفضيل كان أكبر بمعنى كبير ، وأفضل بمعنى فاضل ، أطول بمعنى طويل ، ويحتمل أن يكون الضمير في عنها عائداً إلى حسنى لا إلى فعلى ، ويكون استثناء منقطعاً كأنه قال : إلا أن يزال عن حسنى ، وهي اللفظة التي قرأها أبي وطلحة معنى التفضيل ، ويبقى مصدراً ، ويكون معنى الكلام إلا إن كانت مصدراً كالعقبى ، ومعنى قوله وهو وجه القراءة بها : أي والمصدر وجه القراءة بها ، وتخريج هذه القراءة على وجهين :

أحدهما : المصدر كال بشري ، ويحتاج ذلك إلى نقل أن العرب تقول حسن حسنى كما تقول رجع رجعى ، وبشر بشرى إذ مجيء فعلى كما ذكرنا مصدراً لا يتقاس .

والوجه الثاني : أن يكون صفة لموصوف محذوف : أي وقولوا للناس كلمة حسنى ، أو مقالة حسنى ، وفي الوصف بها وجهان :

أحدهما : أن تكون باقية على أنها للتفضيل واستعمالها بغير ألف ولام ولا إضافة لمعرفة نادر وقد جاء ذلك في الشعر قال الشاعر :

وَإِنْ دَعَوْتَ إِلَى جُلَى وَمَكْرُمَةٍ يَوْمًا كِرَامَ سَرَاةِ النَّاسِ فَادْعِينَا^(١)

فيمكن أن تكون هذه القراءة من هذا لأنها قراءة شاذة .

والوجه الثاني : أن تكون ليست للتفضيل ، فيكون معنى حسنى حسنة : أي وقولوا للناس مقالة حسنة ، كما خرجوا يوسف أحسن إخوته في معنى حسن إخوته ، وأما من قرأ إحساناً فيكون نعتاً لمصدر محذوف : أي قولاً إحساناً ، وإحساناً مصدر من أحسن الذي همزته للصيرورة : أي قولاً ذا حسن ، كما تقول أعشبت الأرض إعشاباً : أي صارت ذات عشب ، واختلف المفسرون في معنى قوله (وقولوا للناس حسناً) ، فقال ابن عباس : قولوا لهم لا إله إلا الله ومروهم بها ، وقال ابن جريج : قولوا لهم حسناً في الإعلام بما في كتابكم من صفة رسول الله ﷺ ، وقال أبو العالية : قولوا لهم القول الطيب وجاوبوهم بأحسن ما تحبون أن تجاوبوا به ، وقال سفيان الثوري مروهم بالمعروف وانهمهم عن المنكر ، وقال ابن عباس أيضاً صدقاً في أمر محمد ﷺ ، واختلفوا في المخاطب بقوله وقولوا للناس حسناً من هو ، فالظاهر أنه من جملة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أن لا تعبدوا إلا الله وأن تقولوا للناس حسناً ، وعلى قراءة من قرأ لا يعبدون بالياء يكون التفاتاً إذ خرج من الغيبة إلى الخطاب ، وقيل المخاطب الأمة ، والأول أقرب لتكون القصة واحدة مشتملة على مكارم الأخلاق ، ولتناسب الخطاب الذي بعد ذلك من قوله ثم توليتم إلى آخر الآيات ، فإنه لا يمكن إلا أن يكون في بني إسرائيل ، وظاهر الآية يدل على أن الإحسان للوالدين ومن عطف عليه والقول الحسن للناس ، كان واجباً على بني إسرائيل في دينهم ، لأن أخذ الميثاق يدل على الوجوب ، وكذا ظاهر الأمر ، وكأنه ذمهم على التولي عن ذلك ، وروي عن قتادة أن قوله (وقولوا للناس حسناً) منسوخ بآية السيف ، وهذا لا يتأتى إلا إذا قلنا : إن المخاطب بها هذه الأمة ، ومن الناس من خصص هذا العموم بالمؤمنين ، أو بالدعاء إلى الله تعالى بما في الأمر بالمعروف ، فيكون تخصيصاً بحسب المخاطب أو بحسب الخطاب ، وزعم أبو جعفر محمد بن علي الباقر أن هذا العموم باق على ظاهره ، وأنه لا حاجة إلى التخصيص ، قيل : وهذا هو الأقوى ، والدليل عليه أن هارون وموسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام أمرا بالرفق مع فرعون ، وكذلك رسول الله ﷺ قيل له ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ [الفرقان : ٧٢] ، ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ومن قال لا يكون القول الحسن مع الكفار والفساق ، استدل بأننا أمرنا بلعنهم وذمهم ومحاربتهم بقوله تعالى ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾ [النساء : ١٤٨] ، ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ إن كان هذا الخطاب للمؤمنين فيكون من

(١) البيت من البسيط للمرقش الأكبر انظر المفضليات (٤٣٠ ، ٤٣١) ، وقيل لبشامة بن حزن النهشلي شرح ديوان الحماسة (٥٠/١) ، وانظر الخزائنة (٢٠١/٨) ، شرح شواهد الكشاف (٥٤٨/٤) ، حاشية يس (٣٨١/٢) .

تلوين الخطاب ، وقد تقدم الكلام على تفسير هاتين الجملتين ، وإن كان هذا الخطاب لبني إسرائيل وهو الظاهر ، لأن ما قبله وما بعده يدل عليه فالصلاة هي التي أمروا بها في التوراة وهم إلى الآن مستمرون عليها ، وروي عن ابن عباس أن زكاة أموالهم كانت قرباناً تهبط إليهم نار فتحملها فكان ذلك تقبله وما لا تفعل النار ذلك به كان غير متقبل ، وقيل : الصلاة هي هذه المفروضة علينا ، والخطاب لمن بحضرة رسول الله ﷺ من أبناء اليهود ، ويحتمل ذلك وجهين أحدهما أن يكون أمرهم بالصلاة والزكاة أمراً بالإسلام ، والثاني على قول من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الإيمان والزكاة هي هذه المفروضة ، وقيل : الصلاة والزكاة هنا الطاعة لله وحده ، ومعنى هذا القول أنه كنى عن الطاعة لله تعالى بالصلاة والزكاة اللتين هما أعظم أركان الإسلام ﴿ ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ ظاهره أنه خطاب لبني إسرائيل الذين أخذ الله عليهم الميثاق ، وقيل هو خطاب لمعاصري رسول الله ﷺ من بني إسرائيل ، أسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل قال نحوه ابن عباس وغيره ، والمعنى ثم توليتم عما أخذ عليكم من الميثاق ، والمعنى بالقليل القليل في عدد الأشخاص ، فقليل هذا القليل هو عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقيل من آمن قديماً من أسلافهم وحديثاً كعبد الله بن سلام وغيره ، قال ابن عطية ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان : أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد ﷺ إلا إيمان قليل إذ لا ينفعهم ، والأول أقوى انتهى كلامه . وهو احتمال بعيد من اللفظ إذ الذي يتبادر إليه الفهم ، إنما هو استثناء أشخاص قليلين من الفاعل الذي هو الضمير في توليتم ونصب (قليلاً) على الاستثناء وهو الأفصح لأن قبله موجب ، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ (إلا قليلاً) بالرفع ، وقرأ بذلك أيضاً قوم ، قال ابن عطية : وهذا على بدل (قليل) من الضمير في توليتم ، وجاز ذلك يعني البدل مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي ، لأن توليتم معناها النفي كأنه قال لم يفوا بالميثاق إلا قليل انتهى كلامه . والذي ذكر النحويون أن البدل من الموجب لا يجوز ، لو قلت : قام القوم إلا زيد بالرفع على البدل لم يجوز قالوا ، لأن البدل يحل محل البدل منه فلو قلت قام إلا زيد لم يجوز لأن إلا لا تدخل في الموجب ، وأما ما اعتلّ به من تسويغ ذلك لأن معنى توليتم النفي ، كأنه قيل لم يفوا إلا قليل فليس بشيء ، لأن كل موجب إذا أخذت في نفي نقيضه أو ضده كان كذلك ، فليجز قام القوم إلا زيد لأنه يؤول بقولك لم تجلسوا إلا زيد ، ومع ذلك لم تعتبر العرب هذا التأويل فتبني عليه كلامها ، وإنما أجاز النحويون قام القوم إلا زيد بالرفع على الصفة ، وقد عقد سيبويه في ذلك باباً في كتابه فقال : هذا باب ما يكون فيه إلا وما بعده وصفاً بمنزلة غير مثل وذكر من أمثلة هذا الباب لو كان معنا رجل إلا زيد لغلبنا ﴿ ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

وَقَلِيلٌ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَاْمُهَا^(١)

وسوى بين هذا وبين قراءة من قرأ ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ [النساء : ٩٥] ، برفع غير ، وجوز في نحو ما قام القوم إلا زيد بالرفع البدل والصفة ، وخرج على ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُؤِ إِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ^(٢)

قال كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقة أخوه كما قال الشماخ :

(١) البيت من الطويل لذي الرمة انظر الخزانة (٤١٨/٣ - ٤٢٠) ، شرح شواهد المغني (٢١٨ - ٣٩٤) ، شرح أبيات سيبويه ص (٢٧٠) ، انظر الكتاب (٣٣١/٢) - لسان العرب (نعم - بلد) .

(٢) البيت من الوافر لحضرمي بن عامر الأسدي وقيل لعمر بن معد يكرب انظر شرح شواهد المغني (٢١٦) ، الخزانة (٤٢٦/٣) ، (٤٢٧) ، الممتع لابن عصفور (٥١/١) ، الحماسة (٤١٨/٢) ، شرح أبيات سيبويه للنحاس (١٥٠) .

وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرَهَا ضَمَّ نَفْسَهُ لَوَصَلَ خَلِيلٍ صَارِمٍ أَوْ مُعَارِزٍ^(١)

ومما أنشدته النحويون :

لِدَمٍ ضَائِعٍ نَأَتْ أَقْرَبُوهُ عَنْهُ إِلَّا الصَّبَا وَإِلَّا الْجُنُوبُ^(٢)

وأنشدوا أيضاً :

وَبِالصَّوْرَةِ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ خَلَقَ عَافٍ تَغَيَّرَ إِلَّا النُّوْيُ وَالْوَتْدُ^(٣)

قال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور : ويخالف الوصف بإلا الوصف بغيره ، من حيث إنها يوصف بها النكرة والمعرفة والظاهر والمضمر ، وقال أيضاً : وإنما يعني النحويون بالوصف بإلا عطف البيان ، وقال غيره : لا يوصف بإلا إلا إذا كان الموصوف نكرة أو معرفة بلام الجنس ، وقال المبرد : لا يوصف بإلا إلا إذا كان الوصف في موضع يصلح فيه البدل ، وتحرير ذلك نتكلم عليه في علم النحو ، وإنما نبهنا على أن ما ذهب إليه ابن عطية في تخريج هذه القراءة لم يذهب إليه نحوي ، ومن تخليط بعض المعربين أنه أجاز رفعه بفعل محذوف كأنه قال امتنع أن يكون توكيداً للمضمر المرفوع المستثنى منه ، ولولا أن هذين القولين مسطران في الكتب ما ذكرتهما ، وأجاز بعضهم أن يكون رفعه على الابتداء ، والخبر محذوف ، كأنه قال إلا قليل منكم لم يتول ، كما قالوا : ما مررت بأحد إلا رجل من بني تميم خير منه ، وهذه أعراب من لم يمعن في النحو ، (وأنتم معرضون) جملة حالية ، قالوا مؤكدة ، وهذا قول من جعل التولي هو الإعراض بعينه ، ومن خالف بينهما تكون الحال مبينة ، وكذلك تكون مبينة إذا اختلف متعلق التولي والإعراض ، كما قال بعضهم : إن معناه ثم توليتهم عن عهد ميثاقكم وأنتم معرضون عن هذا النبي ﷺ ، وجاءت الجملة الحالية اسمية مصدرة بأنتم لأنها أكد وكان الخبر اسماً لأنه أدل على الثبوت ، فكأنه قيل : وأنتم عادتكم الإعراض عن الحق والتولي عنه ، وفي المواجهة بأنتم تقبيح لفعلهم وكونهم ارتكبوا ذلك الفعل القبيح الذي من شأنه أن لا يقع كقولك يحسن إليك زيد وأنتم مسيء إليه ، فكان المعنى أن من واثقه الله وأخذ عليه العهد في أشياء بها انتظام دينه ودنياه جدير أن يثبت على العهد وأن لا ينقضه ولا يعرض عنه ، وقيل : التولي والإعراض مأخوذ من سلوك الطريق ، ومن ترك سلوك الطريق فله حالتان إحداهما أن يرجع عوده على بدئه وذلك هو التولي ، والثانية أن يأخذ في عرض الطريق ، وذلك هو الإعراض ، وعلى هذا التفسير في التولي والإعراض لا يكون في الآية دليل على الاختلاف ، إلا إن قصد أن ناساً تولوا وناساً أعرضوا وجمع ذلك لهم ، أو يتولون في وقت ويعرضون في وقت ، وقال « القشيري » : التبع بهذه الخصال حاصل لنا في شرعنا ، وأولها التوحيد وهو أفراد الله بالعبادة والطاعة ، ثم ردك إلى مراعاة حق مثلك إظهاراً أن من لا يصلح لصحبة شخص مثله كيف يقوم بحق معبود ليس كمثله شيء ، فإذا كانت التربية المتضمنة حقوق الوالدين توجب عظيم هذا الحق ، فما حق تربية سيدك لك كيف تؤدي شكره ، ثم ذكر عموم رحمته لذی القربى واليتامى والمساكين وأن يقول للناس حسناً وحقيقة العبودية الصديق مع الحق والرفق مع الخلق انتهى وبعضه مختصر .

وقال بعض أهل الاشارات : الأسباب المتقرب بها إلى الله تعالى ، اعتقاد وقول وعمل ونية ، فنه بقوله لا

(١) البيت من الطويل للشماخ بن ضرار انظر ديوانه (١٧٣) ، الكتاب (١١٠ / ٢ - ٣٣٥) ، شرح أبيات سيبويه للنحاس اللسان « عرز » .

(٢) البيت من الخفيف لم يعلم قائله انظر همع الهوامع (٢٢٩ / ١) ، الدرر اللوامع (١٩٤ / ١) ، الدر المصون (٣٨٧ / ١) .

(٣) البيت من البحر البسيط للأخطل التغلبي انظر شعر الأخطل (٤٣٤) ، الأشموني (١١٤ / ٢) ، المقاصد النحوية للعيني (١٠٣ / ٣) ،

الدر المصون (٣٨١ / ١) ، شرح شواهد المغني للسبوطي ص (٦٧٠) .

تعبدون إلا الله على مقام التوحيد ، واعتقاد ما يجب له على عباده من الطاعات والخضوع منفرداً بذلك ، ومالية محضة وهي الزكاة ، وبدنية محضة وهي الصلاة ، وبدنية ومالية وهو برّ الوالدين ، والإحسان إلى اليتيم والمساكين ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تَسْفِكُونَ دماءكم ﴾ الكلام على تسفكون كالكلام على لا تعبدون إلا الله من حيث الإعراب .

وقرأ الجمهور بفتح التاء وسكون السين وكسر الفاء ، وقرأ طلحة بن مصرف وشعيب بن أبي حمزة كذلك إلا أنهما ضمّا الفاء ، وقرأ أبو نهيك وأبو مجلز بضم التاء وفتح السين وكسر الفاء المشددة ، وقرأ ابن أبي إسحاق كذلك إلا أنه سكن السين وخفف الفاء ، وظاهر قوله لا تسفكون دماءكم : أي لا تفعلون ذلك بأنفسكم لشدة تصيكم وحق يلحقكم ، وقد جاء في الحديث أمر الذي وضع نصل سيفه في الأرض^(١) وذبابه بين ثديه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه وإخبار رسول الله ﷺ أنه من أهل النار ، وصح من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده^(٢) يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، وتظافرت على تحريم قتل النفس الممل ، وقال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ [النساء : ٢٩] ، وقيل معناه لا تسفكوا دماء الناس فإن من سفك دماءهم سفكوا دمه وقال :

سَقَيْنَاهُمْ كَأْساً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

وقيل معناه لا تقتلوا أنفسكم بارتكابكم ما يوجب ذلك ، كالارتداد والزنا بعد الإحصان ، والمحاربة قتل النفس بغير حق ونحو ذلك مما يزيل عصمة الدماء ، وقيل معناه لا يسفك بعضكم دماء بعض ، إليه أشار بقوله (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) ، وكل أهل دين كنفس واحدة قاله قتادة واختاره الزمخشري ، قال ابن عطية : إن الله أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق إلى غير ذلك من الطاعات ، والخطاب في أخذنا ميثاقكم لعلماء اليهود الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ، أو مع أسلافهم ﴿ ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ معناه : لا يخرج بعضكم بعضاً ، أو لا تسيئوا جوار من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج من دياركم ، أو لا تفعلوا ما تخرجون به أنفسكم من الجنة التي هي داركم ، أو لا تخرجون أنفسكم : أي إخوانكم لأنكم كنفس واحدة ، أو لا تفسدوا فيكون سبباً لإخراجكم من دياركم ، كأنه يشير إلى تغريب الجاني ، أو لا تفسدوا وتشاقوا الأنبياء والمؤمنين فيكتب عليكم الجلاء أقوال ستة ﴿ ثم أقررتم ﴾ أي بالميثاق واعترفتم بلزومه أو اعترفتم بقبوله أو رضيت به كما قال البعيث^(٣) :

وَلَسْتُ كَلِيباً إِذَا سِيمَ خِطَّةً أَقَرُّ كَأَقَرِّ الْحَلِيلَةِ لِلْبُعْلِ

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون أن الله أخذه عليكم ، وأراد على قدماء بني إسرائيل إن كان الخطاب وارداً عليهم وإن كان على معاصريه ﷺ من أبنائهم فمعناه وأنتم تشهدون على أسلافكم بما أخذه الله عليهم من العهد إما بالنقل المتواتر ، وإما بما تتلونه من التوراة ، وإن كان معنى الشهادة الحضور فيتعين أن يكون الخطاب لأسلافهم ، وقال بعض المفسرين : ثم أقررتم عائد إلى الخلف ، وأنتم تشهدون عائد إلى السلف لأنهم عاينوا سفك دماء بعضهم بعضاً ، وقال (وأنتم تشهدون) لأن الأوائل والأصاغر صاروا كالشيء الواحد ، فلذلك أطلق عليهم خطاب الحضرة ،

(١) أخرجه مسلم (١٠٦/١) ، في كتاب الإيمان (١٧٩ - ١١٢) ، وذبابه السيف هو طرفه الأسفل وأما طرفه الأعلى فمقبضه .

(٢) البخاري (٢٤٧/١٠) ، في الطب ، باب شرب السم (٥٧٧٨) ، ومسلم (١٠٣/١ - ١٠٤) ، في الإيمان باب غلظ تحريم قتل الإنسان ... (١٠٩/١٧٥) .

(٣) خدش بن بشر بن خالد أبو زيد التميمي المعروف بالبعيث خطيب شاعر من أهل البصرة توفي بالبصرة سنة ١٣٤ هجرية - البيان والتبيين (١٩٩/١) ، إرشاد الأريب (ف ١٧٣/٤) ، الأعلام (٣٠٢/٢) .

وقيل إن قوله (وأنتم تشهدون) للتأكيد كقولك فلان مقرّ على نفسه بكذا شاهد عليها ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ هذا استبعاد لما أخبر عنهم به من القتل والإجلاء والعدوان ، بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم ، واختلف المعربون في إعراب هذه الجملة ، فالمختار أن أنتم مبتدأ ، وهؤلاء خبر ، وتقتلون حال ، وقد قالت العرب : ها أنت ذا قائماً وها أنا ذا قائماً ، وقالت أيضاً : هذا أنا قائماً وها هو ذا قائماً ، وإنما أخبر عن الضمير باسم الإشارة في اللفظ ، وكأنه قال : أنت الحاضر وأنا الحاضر وهو الحاضر ، والمقصود من حيث المعنى الإخبار بالحال ، ويدل على أن الجملة حال مجيئهم بالاسم المفرد منصوباً على الحال فيما قلناه من قولهم ها أنت ذا قائماً ونحوه ، قال الزمخشري^(١) : والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون ، يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرّين تنزيلاً لتغيير الصفة منزلة تغيير الذات ، كما تقول رجعت بغير الوجه الذي خرجت به ، وقوله (تقتلون) بيان لقوله ثم أنتم هؤلاء انتهى كلامه . والظاهر أن المشار إليه بقوله (ثم أنتم هؤلاء) هم المخاطبون أولاً فليسوا قوماً آخرين ، ألا ترى أن هذا التقدير الذي قدره الزمخشري^(٢) من تنزيل تغيير الصفة منزلة تغيير الذات لا يتأتى في نحوها أنا ذا قائماً ولا في ها أنتم أولاً ، بل المخاطب هو المشار إليه من غير تغيير .

قال ابن عطية : وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن بن أحمد شيخنا هؤلاء رفع بالابتداء ، وأنتم خبر مقدّم ، وتقتلون حال بها تم المعنى وهي كانت المقصود فهي غير مستغنى عنها ، وإنما جاءت بعد أن تم الكلام في المسند والمُسند إليه كما تقول : هذا زيد منطلقاً ، وأنت قد قصدت الإخبار بإنطلاقه لا الإخبار بأن هذا هو زيد انتهى ما نقله ابن عطية عن شيخه ، وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري من أهل بلدنا غرناطة يعرف بابن الباذش ، وهو والد الإمام أبي جعفر أحمد مؤلف كتاب الإقناع في القراءات ، وله اختيارات في النحو حدث بكتاب سيبويه عن الوزير أبي بكر محمد بن هشام المصحفي ، وعلق عنه في النحو على كتاب الجمل والإيضاح ومسائل من كتاب سيبويه ، توفي سنة ثمان وعشرين وخمس مائة ، ولا أدري ما العلة في العدول عن جعل أنتم المبتدأ ، وهؤلاء الخبر إلى عكس هذا ، والعامل في هذه الحال اسم الإشارة بما فيه من معنى الفعل ، قالوا وهو حال منه فيكون إذ ذاك قد اتحد ذو الحال ، والعامل فيها وقد تكملنا على هذه المسألة في كتاب منهج السالك من تأليفنا فيطالع هناك ، وذهب بعض المعربين إلى أن هؤلاء منادى محذوف منه حرف النداء ، وهذا لا يجوز عند البصريين لأن اسم الإشارة عندهم لا يجوز أن يحذف منه حرف النداء ، ونقل جوازه عن الفراء ، وخرج عليه الآية الزجاج وغيره جنوحاً إلى مذهب الفراء ، فيكون على هذا القول يقتلون خبراً عن أنتم ، وفصل بين المبتدأ والخبر بالنداء ، والفصل بينهما بالنداء جائز ، وإنما ذهب من ذهب إلى هذا في هذه الآية ، لأنه صعب عنده أن ينعقد من ضمير المخاطب ، واسم الإشارة جملة من مبتدأ وخبر ، وقد بينا كيفية انعقاد هذه الجملة وقد أنشدوا أبياتاً حذف منها حرف النداء مع اسم الإشارة من ذلك قول رجل من طي :

إِنَّ الْأَوَّلَى وَصَفُوا قَوْمِي لَهُمْ فِيهِمْ هَذَا اَعْتَصِمْ تَلَقَّ مِنْ عَادَاكَ مَخْذُولاً^(٣)

وذهب ابن كيسان وغيره إلى أن أنتم مبتدأ ، ويقتلون الخبر ، وهؤلاء تخصيص للمخاطبين لما نهوا على الحال التي هم عليها مقيمون ، فيكون إذ ذاك منصوباً بأعني ، وقد نص النحويون على أن التخصيص لا يكون بالنكرات ولا بأسماء الإشارة ، والمستقرأ من لسان العرب أنه يكون أياً نحو : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، أو معرفاً بالالف واللام

(١) انظر الكشاف (١/١٦٠) .

(٢) انظر الكشاف (١/١٦٠) .

(٣) البيت من البسيط لرجل من طي . انظر شواهد التوضيح (٢١١) ، شرح عمدة الحفاظ (١/١٩٣) .

نحو : نحن العرب أقرى الناس للضيف أو بالإضافة نحو نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، وقد يكون علماً كما أنشدوا :

بِنَا تَمِيمًا يُكْشِفُ الضَّبَابَ (١)

ا هـ . وأكثر ما يأتي بعد ضمير متكلم كما مثلناه ، وقد جاء بعد ضمير مخاطب كقولهم : بك الله نرجو الفضل ، وذهب بعضهم إلى أن هؤلاء موصول بمعنى الذي ، وهو خبر عن أنتم ، ويكون تقتلون صلة لهؤلاء ، وهذا لا يجوز على مذهب البصريين ، وأجاز ذلك الكوفيون وهي مسألة خلافية مذكورة في علم النحو ، وقرأ الجمهور (يَقْتُلُونَ) من قتل مخففاً ، وقرأ الحسن (تُقْتَلُونَ) من قتل مشدداً هكذا في بعض التفاسير ، وفي تفسير المهدوي أنها قراءة أبي نهيك قال والزهري والحسن : تقتلون أنبياء الله من قتل يعني مشدداً ، والله أعلم بصواب ذلك ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ هذا نزل في بني قينقاع وبني قريظة والنضير من اليهود ، كان بنو قينقاع أعداء قريظة والنضير والأوس والخزرج اخوان ، والنضير وقريظة أيضاً أخوان ثم افترقوا ، فصارت النضير حلفاء الخزرج ، وقريظة حلفاء الأوس فكانوا يقتتلون ، ثم يرتفع الحرب فيفدون أسراهم فغيرهم الله بذلك قاله المهدوي ، قال الزمخشري (٢) : فكان كل فريق ، يقاتل مع حلفائه ، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم ، إذا أسرجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه ، فغيرتهم العرب وقالت : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم ، فيقولون أمرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتالهم ، ولكننا نستحي أن نذلّ حلفاءنا ﴿ تظاهرون عليهم بالإثم ﴾ .

قرأ بتخفيف الظاء عاصم وحزمة والكسائي ، وأصله تَظَاهَرُونَ فحذف التاء ، وهي عندنا الثانية لا الأولى خلافاً لهشام ، إذ زعم أن المحذوف هي التي للمضارعة الدالة في مثل هذا على الخطاب ، وكثيراً جاء في القرآن حذف التاء ، وقال :

تَعَاطُسُونَ جَمِيعاً حَوْلَ دَارِكُمْ فَكُلُّكُمْ يَا بَنِي حَمْدَانَ مَرْكُومٌ (٣)

يريد تعاطسون ، وقرأ باقي السبعة بتشديد الظاء : أي يادغام الظاء في التاء ، وقرأ أبو حية : (تَظَاهِرُونَ) بضم التاء وكسر الهاء ، وقرأ مجاهد وقتادة باختلاف عنهما (تَظْهَرُونَ) بفتح التاء والهاء مشددين دون ألف ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ بعضهم (تَظَاهَرُونَ) على الأصل فهذه خمس قراءات ، ومعناها كلها التعاون والتناصر .

وروى أبو العالية قال : كان بنو إسرائيل إذا استضعفوا قوماً أخرجوهم من ديارهم ، عليهم بالإثم فيه قولان أحدهما أنه الفعل الذي يستحق عليه صاحبه الذم واللوم ، والثاني أنه الذي تنفر منه النفس ولا يطمئن إليه القلب ، وفي حديث النّوّاس (الإثم ما حاك في صدرك) ، وقيل المعنى تظاهرون عليهم بما يوجب الإثم ، وهذا من إطلاق السبب على مسببه ولذلك سميت الخمر إثمًا كما قال :

شَرِبْتُ الْإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي

﴿ والعدوان ﴾ هو تجاوز الحد في الظلم ﴿ وإن يأتوكم أسارى ﴾ قراءة الجمهور بوزن فعّالي وحزمة بوزن فعّلي ﴿ تفادوهم ﴾ قرأه نافع وعاصم والكسائي من فادى ، وقرأ الباقون : من فدى .

(١) البيت من مشطور السريع لرؤية بن العجاج انظر ديوانه (١٦٩) ، الخزانة (٤١٣/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٦١/١) .

(٣) البيت من البسيط وقوله تعاطسون : تفاعل من العطاس يقال : عطس الرجل يعطس بالكسر ويعطس بالضم عطساً وعطاساً وعطسة والعطس معروف انظر اللسان (عطس) .

قال ابن عطية : وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج فيظهر التضاد المقبح لفعلمهم في الإخراج ، يعني أنه لا يناسب من أسأتم إليه بالإخراج من ديارهم أن تحسنوا إليهم بالفداء ، ومعنى تفادوهم تفدوهم إذ المفاعلة تكون من اثنين ومن واحد ، ففاعل بمعنى فعل المجرد وهو أحد معانيها ، وقيل : معنى فادي بادل أسيراً بأسير ، ومعنى فدى دفع الفداء ، ويشهد للأول قول العباس فاديت نفسي وفاديت عقيلاً ، ومعلوم أنه ما بادل أسيراً بأسير ، وقيل معنى تفدوهم بالصلح وتفادوهم بالعنف ، وقيل : تفادوهم تطلبوا الفدية من الأسير الذي في أيديكم من أعدائكم ، ومنه قوله :

قَفِي فَادِي أَسِيرِكَ إِنَّ قَوْمِي وَقَوْمِكَ مَا أَرَى لَهُمْ اجْتِمَاعًا

وتفدوهم تعطوا فديتهم ، وقال أبو علي : معنى تفادوهم في اللغة تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنه شيئاً ، وفاديت نفسي : أي أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً ، وفادي وفدى يتعديان ، إلى مفعولين الثاني بحرف جر ، وهو هنا به محذوف ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ تقدمت أربعة أشياء قتل النفس والإخراج من الديار والتظاهر والمفاداة وهي محرمة ، واختص هذا القسم بتأكيد التحريم ، وإن كانت كلها محرمة لما في الإخراج من الديار من معرة الجلاء ، والنفي الذي لا ينقطع شره إلا بالموت ، وذلك بخلاف القتل لأن القتل وإن كان من حيث هو هدم البنية أعظم لكن فيه انقطاع الشر ، وبخلاف المفاداة بها فإنها من جريرة الإخراج من الديار والتظاهر ، لأنه لولا الإخراج من الديار والتظاهر عليهم ما وقعوا في قيد الأسر ، وقد يكون أيضاً مما حذف فيه من كل جملة ذكر التحريم ، ويكون التقدير تقتلون أنفسكم وهو محرم عليكم وكذا باقيها ، وارتفاع هو على الابتداء وهو إما ضمير الشأن ، والجملة بعده خبر عنه ، وإعرابها أن يكون إخراجهم مبتدأ ، ومحرم خبراً وفيه ضمير عائد على الإخراج ، إذ النية به التأخير ولا يجيز الكوفيون تقديم الخبر إذا كان متحماً ضميراً مرفوعاً ، فلا يجيزون قائم زيد على أن يكون قائم خبراً مقدماً ، فلذلك عدلوا إلى أن يكون خبر هو قوله محرم ، وإخراجهم مرفوع به مفعولاً لم يسم فاعله ، وتبعهم على هذا المهدوي ، ولا يجيز هذا الوجه البصريون لأن عندهم أن ضمير الشأن لا يخبر عنه إلا بجملة مصرح بجزأياها ، وإذا جعلت قوله محرم خبراً عن هو وإخراجهم مرفوعاً به لزم أن يكون قد فسر ضمير الشأن بغير جملة ، وهو لا يجوز عند البصريين كما ذكرنا ، وأجازوا أيضاً أن يكون هو مبتدأ ليس ضمير الشأن بل هو عائد على الإخراج ومحرم خبر عنه وإخراجهم بدل ، وهذا فيه خلاف منهم من أجاز أن يفسر المضمير الذي لم يسبق له ما يعود عليه بالبدل ومنهم من منع ، وأجازه الكسائي وفي بعض النقول ، وأجاز الكوفيون أن يكون هو عماداً وهو الذي يعبر عنه البصريون بالفصل ، وقد تقدم مع الخبر والتقدير وإخراجهم هو محرم عليكم فلما قدم خبر المبتدأ على المبتدأ قدم معه الفصل ، قال الفراء لأن الواو هنا تطلب الاسم وكل موضع تطلب فيه الاسم فالعماد فيه جائز ، ولا يجوز هذا التخريج عند البصريين لأن فيه أمرين لا يجوز أن عندهم ، أحدهما وقوع الفصل بين معرفة نكرة لا تقارب المعرفة ، إذ التقدير وإخراجهم هو محرم فمحرم نكرة لا تقارب المعرفة ، الثاني أن فيه تقديم الفصل ، وشرطه عند البصريين أن يكون متوسطاً بين المبتدأ والخبر ، أو بين ما هما أصله وهذه كلها مسائل تحقق في علم النحو ، ووقع في كتاب ابن عطية في هذا المكان أقوال تنتقد وهو أنه قال قيل في هو أنه ضمير الأمر تقديره والأمر محرم عليكم وإخراجهم ، في هذا القول بدل من هو انتهى ما نقله في هذا القول ، وهذا خطأ من وجهين ، أحدهما أنه أخبر عن ضمير الأمر بمفرد ولا يجيز ذلك بصري ولا كوفي أما البصري ، فلأن مفسر ضمير الأمر لا بد أن يكون جملة ، وأما الكوفي فلأنه يجيز الجملة ويجيز المفرد إذا كان قد انتظم منه ، ومما بعده مسند ومسند إليه في المعنى نحو قولك ظننته قائماً الزيدان ، والثاني أنه جعل إخراجهم بدلاً من ضمير الأمر ، وضمير الأمر لا يعطف عليه ولا يبدل منه ولا يؤكد ، قال ابن عطية وقيل هو فاصلة وذا مذهب الكوفي وليست هنا بالتالي هي عماد ومحرم على هذا ابتداء

وإخراجهم خبر انتهى . ما نقله في هذا القول ، والمنقول عن الكوفيين عكس هذا الإعراب ، وهو أن يكون الفصل قد قدم مع الخبر على المبتدأ فإعراب محرم عندهم خبر مقدّم وإخراجهم مبتدأ ، وهو المناسب للقواعد إذ لا يبتدأ بالاسم إذا كان نكرة ولا مسوغ لها ، ويكون الخبر معرفة بل المستقر في لسانهم عكس هذا إلا إن كان يرد في شعر فيسمع ولا يقاس عليه ، قال ابن عطية وقيل هو الضمير المقدّر في محرم قدم وأظهر انتهى ما نقله في هذا القول ، وهذا القول ضعيف جداً إذ لا موجب لتقدّم الضمير ولا لبروزه بعد استتاره ، ولأنه يؤدي إلى خلو اسم المفعول من ضمير ، إذ على هذا القول يكون محرم خبراً مقدّماً وإخراجهم مبتدأ ، ولا يوجد اسم فاعل ولا مفعول عارياً من الضمير إلا إذا رفع الظاهر ، ولا يمكن هنا أن يرفع الظاهر لأن الضمير المنفصل المقدم هو كان الضمير المرفوع بمحرم ، ثم يبقى هذا الضمير لا يدرى ما إعرابه إذ لا جائز أن يكون مبتدأ ، ولا جائز أن يكون فاعلاً مقدّماً ، قال ابن عطية وقيل هو ضمير الإخراج تقديره وإخراجهم محرم عليكم انتهى ما نقله في هذا القول ، ولم يبين وجه ارتفاع إخراجهم ولا يتأتى على أن يكون هو ضميره ، ويكون إخراجهم تفسيراً لذلك المضمّر إلا على أن يكون إخراجهم بدلاً من الضمير ، وقد تقدم أن في ذلك خلافاً منهم من أجاز ومنهم من منع ﴿ أفْتَوْنُونِ بِعِضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ هذا استفهام معناه التوبيخ والإنكار ، ولم يذمهم على الفداء بل على المناقضة إذ أتوا ببعض الواجب وتركوا بعضاً ، وتكون المناقضة أكد في الذم ، ولا يقال الإخراج معصية فلم سماها كفراً ، لأننا نقول لعلهم صرّحوا بأن ترك الإخراج غير واجب ، مع أن صريح التوراة كان دالاً على وجوبه والبعض الذي آمنوا به إن كان المراد بالكتاب التوراة ، فيكون عامّاً فيما آمنوا به من أحكامها وفداء الأسير من جملته ، والبعض الذي كفروا به هو قتل بعضهم بعضاً ، وإخراج بعضهم من ديارهم والمظاهرة بالإثم والعدوان من جملة ما كفروا به من التوراة ، وقيل معناه يستعملون البعض ويتركون البعض تفادون أسرى قبيلتكم وتركون أسرى أهل ملكتكم ولا تفادونهم ، وقيل إن عبد الله بن سلام مرّ على رأس الجالوت بالكوفة ، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليه الحرب ، ولا يفادي من وقع عليه الحرب قال فقال ابن سلام أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهم كلّهم ، وقال مجاهد معناه إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك ، وقيل المراد التنبيه على أنهم في تمسكهم بنبوة موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام مع التكذيب بمحمد ﷺ ، مع أن الحجة في أمرهما سواء فجروا مجرى سلفهم أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، قالوا ويجوز أن يراد بالكتاب هنا المكتوب عليهم من هذه الأحكام الأربعة : أي المفروض ، والذي آمنوا به منها فداء الأسرى ، والذي كفروا به في الأربعة ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ الجزاء يطلق في الخير والشر قال وجزاهم بما صبروا ، وقال فجزاؤه جهنم ، والخزي هنا الفضيحة والعقوبة والقصاص فيمن قتل ، أو ضرب الجزية غابر الدهر ، أو قتل قريظة ، وإجلاء النضير من منازلهم إلى أريحا وأذرعات ، أو غلبة العدو أقوال خمسة ولا يتأتى القول بالجزية ولا الجلاء ، إلا إن حملنا الآية على الذين كانوا معاصري رسول الله ﷺ ، والأولى أن يكون المراد هو الذمّ العظيم والتحقير البالغ من غير تخصيص ، وإلا خزي استثناء مفرّغ وهو خبر المبتدأ ، ونقض النفي هنا نقض لعمل ما على خلاف في المسألة وتفصيل ، وذلك أن الخبر إذا تأخر وأدخلت عليه إلا فيما أن يكون هو الأول ، أو منزلاً منزله ، أو وصفاً إن كان الأول في المعنى ، أو منزلاً منزله لم يجز فيه إلا الرفع عند الجمهور ، وأجاز الكوفيون النصب فيما كان الثاني فيه منزلاً منزلة الأول ، وإن كان وصفاً أجاز الفراء فيه النصب ومنعه البصريون ، ونقل عن يونس إجازة النصب في الخبر بعد إلا كائناً ما كان ، وهذا مخالف لما نقله أبو جعفر النحاس قال لا خلاف بين النحويين في قولك ما زيد إلا أخوك أنه لا يجوز إلا بالرفع ، قال فإن قلت ما أنت إلا لحيتك فالبصريون يرفعون ، والمعنى عندهم ما فيك إلا لحيتك وكذا ما أنت إلا عينك ، وأجاز في هذا الكوفيون النصب ، ولا يجوز النصب عند البصريين في غير المصادر إلا أن يعرف المعنى فتضمّر ناصباً نحو ما أنت إلا لحيتك مرة وعينك أخرى وما أنت إلا عمامتك تحسباً ورداءك تزييناً ﴿ ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب ﴾ يوم القيامة عبارة عن

زمان ممتد إلى أن يفصل بين العباد ، ويدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ومعنى يردّون يصيرون فلا يلزم كينونتهم قبل ذلك في أشدّ العذاب ، أو يراد بالردّ الرجوع إلى شيء كانوا فيه كما قال تعالى ﴿ فرددناه إلى أمّه ﴾ [القصص : ١٣] ، وكأنهم كانوا في الدنيا في أشدّ العذاب أيضاً ، لأنهم عذبوا في الدنيا بالقتل والسبي والجلاء ، وأنواع من العذاب ، وقرأ الجمهور يردّون بالياء ، وهو مناسب لما قبله من قوله من يفعل ، ويحتمل أن يكون التفاتاً فيكون راجعاً إلى قوله أفتؤمنون ، فيكون قد خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ، وقرأ الحسن وابن هرمز باختلاف عنهما تُردّون بالتاء وهو مناسب لقوله أفتؤمنون ، ويحتمل أن يكون التفاتاً بالنسبة إلى قوله من يفعل ذلك ، فيكون قد خرج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب ، وأشدّ العذاب الخلود في النار ، وأشدّيته من حيث إنه لا انقضاء له ، أو أنواع عذاب جهنم لأنها دركات مختلفة وفيها أودية وحيات ، أو العذاب الذي لا فرح فيه ولا روح من اليأس من التخلص ، أو الأشدية هي بالنسبة إلى عذاب الدنيا ، أو الأشدية بالنسبة إلى عذاب عامتهم لأنهم الذين أصلوهم ودلسوا عليهم أقوال خمسة ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تقدّم الكلام على تفسير هذا الكلام إذ وقع قبل أن تنطمعون ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر بالياء ، والباقون بالتاء من فوق ، فبالياء ناسب يردّون قراءة الجمهور ، وبالتاء تناسب قراءة تردّون بالتاء ، فيكون المخاطب بذلك من كان مخاطباً في الآية قيل ، ويحتمل أن يكون الخطاب لأمة محمد ﷺ ، فقد روي عن عمر بن الخطاب قال إن بني إسرائيل قد مضوا وأنتم الذين تعنون بهذا يا أمة محمد وبما يجري مجراه ، وهذه الآية من أوعظ الآيات إذ المعنى أن الله بالمرصاد لكل كافر وعاص ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ قال ابن عباس نزلت في اليهود ، وهم الذين تقدّم ذكرهم أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، وفي اسم الإشارة دليل على أنه أشير به إلى الذين جمعوا الأوصاف السابقة الذميمة ، وقد تقدّم الكلام على ذلك عند الكلام على قوله ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : ٥] ، وإنه إذا عدّدت أوصاف الموصوف أشير إلى ذلك الموصوف تنبيهاً على أنه هو جامع تلك الأوصاف ، والذين خبر عن أولئك ، وتقدّم الكلام في قوله اشتروا ، وتقدّم أن الشراء والبيع يقتضيان عوضاً ومعوّضاً أعياناً ، فتوسّعت العرب في ذلك إلى المعاني وجعل إثارة همهم بهجة الدنيا وزينتها على النعيم السرمدى ، اشتراء إثارة للعاجل الفاني على الأجل الباقي ، إذ المشتري ليس هو المؤثر لتحصيله والتمن المبدول فيه مرغوب عنه عنده ، ولا يفعل ذلك إلا مغبون الرأي فاسد العقل (قال بعض أرباب المعاني) : إن الدنيا ما دنا من شهوات القلب ، والآخرة ما اتصلت برضا الرب ، فلا يخفف معطوف على الصلة ، ويجوز أن يوصل الموصول بصلتين مختلفتين زماناً تقول جاءني الذي قتل زيدا بالأمس وسيقتل غداً أخاه ، إذ الصلات هي جمل ، فمن يشترط اتحاد زمان أفعالها بخلاف ما ينزل من الأفعال منزلة المفردات ، فإنهم نصوا على اشتراط اتحاد الزمان مضياً أو غيره وعلى اختيار التوافق في الصيغة ، وجوز أن يكون أولئك مبتدأ ، والذين بصلته خبراً ، وفلا يخفف خبر بعد خبر ، وعلل دخول الفاء لأن الذين إذا كانت صلته فعلاً كان فيها معنى الشروط ، وهذا خطأ لأن الموصول هنا أعربه خبراً عن أولئك فليس قوله فلا يخفف خبراً عن الموصول ، إنما هو خبر عن أولئك ولا يسري للمبتدأ الشرطية من الموصول الواقع خبراً عنه ، وجوز أيضاً أن يكون أولئك مبتدأ ، والذين مبتدأ ثان ، وفلا يخفف خبر عن الذين ، والذين وخبره خبر عن أولئك ، قيل ولم يحتج إلى عائد لأن الذين هم أولئك كما تقول هذا زيد منطلق ، وهذا خطأ لأن كل جملة وقعت خبراً لمبتدأ فلا بد فيها من رابط ، إلا إن كانت نفس المبتدأ في المعنى فلا يحتاج إلى ذلك الرابط ، وقد أخبرت عن أولئك بالمبتدأ الموصول وبخبره فلا بد من الرابط ، وليس نظير ما مثل به من قوله هذا زيد منطلق ، لأن زيد منطلق خبران عن هذا ، وهما مفردان ، أو يكون زيد بدلاً من هذا ، ومنطلق خبراً ، وإما أن يكون هذا مبتدأ ، وزيد مبتدأ ثانياً ، ومنطلق خبراً عن زيد ، ويكون زيد منطلق جملة في موضع الخبر عن هذا فلا يجوز لعدم الرابط ، وأيضاً فلو كان هنا رابط لما جاز هذا الإعراب ، لأن الذين مخصوص بالإشارة إليه فلا يشبه اسم الشرط ، إذ يزول العموم باختصاصه ، ولأن صلة

الذين ماضية لفظاً ومعنى ، ومع هذين الأمرين لا يجوز دخول الفاء في الجملة الواقعة خبراً ، والتخفيف هو التسهيل ، وقد حمل نفي التخفيف على الانقطاع ، وحمل أيضاً على التشديد ، والأولى حمله على نفي التخفيف بالانقطاع أو بالتقليل منه ، أو في وقت أو في كل الأوقات لأنه نفي للماهية فيستلزم نفي أشخاصها وصورها ، والظاهر من النفي بلا والكثير فيها أنه نفي في المستقبل ، وقد فسر الزمخشري^(١) نفي التخفيف بأن ذلك في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا بنقصان الجزية ، وكذلك نفي النصر في الدنيا والآخرة ، ومعنى نفي النصر أنهم لا يجدون ممن يدفع عنهم ما حل بهم من عذاب الله ، ولا هم ينصرون جملة اسمية معطوفة على جملة فعلية ، ويجوز أن تكون فعلية وتكون المسألة من باب الاشتغال ، فيكون هم مرفوعاً بفعل محذوف يفسره ما بعده على حدّ قوله : وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ، ويقوي هذا الوجه ويحسنه كونه تقدم قوله فلا يخفف ، وهو جملة فعلية إذ لولا تقدّم الجملة الفعلية لكان الأرجح الرفع على الابتداء ، وذلك أن لا ليست مما تطلب الفعل لا اختصاصاً ولا أولوية ، فتكون كان والهمزة خلافاً لأبي محمد بن السيد ، إذ زعم أن الحمل على الفعل فيما دخلت عليه لا أولى من الابتداء ، وبناء الفعل للمفعول أولى من بنائه للفاعل لأنه أعم إلا إن جعل الفاعل عاماً ، فيكون ولا هم ينصرون أحد ، فكان يفوت بذلك اختتام الفواصل بما اختتمت به قبل وبعد ، ويفوت الإيجاز مع أن قوله ولا هم ينصرون يفيد ذلك أعني العموم ، (وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة) إخبار الله تعالى أنه أخذ الميثاق على بني إسرائيل بإفراد العبادة لله ، والإحسان إلى الوالدين ، وإلى ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وبالقول الحسن للناس ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأنهم نقضوا الميثاق بتوليهم وإعراضهم ، وإنه أخذ عليهم أن لا يسفكوا دماءهم ، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ، وأنهم أقروا والتزموا ذلك ، فكان الميثاق الأول يتضمن الأوامر ، والميثاق الثاني يتضمن النواهي ، لأن التكاليف الإلهية مبنية على الأوامر والنواهي ، وكان البدء بالأوامر أكد لأنها تتضمن أفعالاً ، والنواهي تتضمن تروكاً ، والأفعال أشق من التروك ، وكان من الأوامر الأمر بإفراد الله بالعبادة وهو رأس الإيمان إذ متعلقه أشرف المتعلقات فكان البدء به أولى ، ثم نعى عليهم التباسهم بما نهوا عنه ، وإن كان قد تقدم أخباره أنهم خالفوا في الأمر بقوله ثم توليتم لأن فعل المنهيات أقبح من ترك المأمورات ، لأنها تروك كما ذكرنا ، ثم قرعهم بمخالفة نواهي الله ، وأنهم مستعينون في ذلك بغير الحق بل بالإثم والعدوان ، ثم ذكر تناقض آرائهم وسخف عقولهم بقاء من أتى إليهم منهم ، مع أنهم هم السبب في إخراجهم وأسرههم ، مع علمهم بتحريم إخراجهم ، وبذكر أنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض هذا ، مع أنه كله حق وصدق فلا يناسب ذلك الكفر ببعض والإيمان ببعض ، ثم ذكر أن الجزاء لفاعل ذلك هو الخزي في الدنيا ، وأشد العذاب في الآخرة ، وأن الله تعالى لا يغفل عما عملوه فيجازيهم على ذلك ، ثم أشار إلى من تحلى بهذه الأوصاف الذميمة ، وخالف أمر الله ونهيه هو قد اشترى عاجلاً تافهاً بأجل جليل ، وأثر فانياً مكدرًا على باق صاف ، وإن نتيجة هذا الشراء أن لا يخفف عنهم ما حل بهم من العذاب ، ولا يجدوا ناصرًا يدفع عنهم سوء العقاب ، لقد خسروا تجارة وبدلوا بالنعيم السرمدي ناراً وقودها الناس والحجارة ، وإذا كان التخفيف قد نفي فالرفع أولى ، وهل هذا إلا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْتُونَنَا بِمَاءٍ وَرَءَاهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ بِيَدِكُمُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قفوت الأثر اتبعته ، والأصل أن يجيء الإنسان تابعاً للقفا الذي اتبعه ، ثم توسع فيه حتى صار لمطلق الانبعاث ، وإن بعد زمان المتبوع من زمان التابع ، وقال أمية :

قَالَتْ لِأَخْتٍ لَهُ قُصِّيه عَنْ جَنْبٍ وَكَيْفَ تَقْفُو وَلَا سَهْلٌ وَلَا جَدُّ

الرسول جمع رسول ولا ينقاس فعل في فعول بمعنى مفعول ، وتسكين عينه لغة أهل الحجاز ، والتحريك لغة بني تميم ، عيسى اسم أعجمي علم لا يصرف للعجمة والعلمية ، ووزنه عند سيبويه فَعْلَى ، والياء فيه ملحقة ببنيات الأربعة بمنزلة ياء معزى يعني بالياء الألف سماها ياء لكتابتهم إياها ياء ، قال أبو علي وليست للتأنيث كالتي في ذكرى بدلالة صرفهم له في النكرة ، وذهب الحافظ أبو عمر وعثمان بن سعيد^(١) الداني صاحب التصانيف في القراءات وعثمان بن سعيد الصيرفي وغيره إلى أن وزنه فَعْلَلٌ ، ورد ذلك الأستاذ أبو الحسن بن الباذش بأن الياء والواو لا يكونان أصلاً في بنات الأربعة ، قال بعض أصحابنا وهذه الأسماء أعجمية ، وكل أعجمي استعملته العرب فالنحويون يتكلمون على

(١) عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمرو الداني الأموي مولا هم القرطبي شيخ مشايخ المقرئين انظر غاية النهاية (٥٠٣/١) .

أحكامه في التصريف على الحد الذي يتكلمون في العربي فعيى من هذا الباب انتهى كلامه . ومن زعم أنه مشتق من العيس وهو بياض يخالطه شقرة ، فغير مصيب لأن الاشتقاق العربي لا يدخل الأسماء الأعجمية ، مريم باللسان السرياني معناه الخادم ، وسميت به أم عيسى فصار علماً ، فامتنع الصرف للتأنيث والعلمية ، ومريم باللسان العربي من النساء كالزير من الرجال ، وبه فسر قول رؤبة :

قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرِيْمُهُ

والزير الذي يكثر خلطة النساء وزيارتهن ، والياء فيه مبدلة من واو كالريح ، إذ هما من الزور والروح ، فصار هذا اللفظ مشتركاً بالنسبة إلى اللسانين ، ووزن مريم عند النحويين مفعول ، لأن فعلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية ، كما ثبت نحو عثير وعلب قاله الزمخشري^(١) وغيره ، وقد أثبت بعض الناس فعلاً ، وجعل منه ضهيد اسم موضع^(٢) ومدين إذا جعلنا ميمه أصلية ، وضهياء مقصورة مصروفة وهي المرأة التي لا تحيض ، وقيل إتي لا تدي لها^(٣) قال أبو عمرو^(٤) الشيباني ضهية وضهياء بالقصر والمد ، قال الزجاج اشتقاقها من ضَاهَتْ : أي شابهت ، لأنها أشبهت الرجل ، وقال ابن جني أما ضهيد وعثير^(٥) فمصنوعان ، فلا يجعلان دليلاً على إثبات فعيل انتهى . وصحة حرف العلة في مريم على خلاف القياس نحو مزيد ، البين الواضح بان وضح وظهر ، أيد فعل تأييداً ، وأيد أفعل ائيداً ، وكلاهما من الأيد وهو القوة ، وقد أبدلوا في أفعل من يائه جيماً قالوا أجد : أي قوي ، كما أبدلوا ياء يد قالوا لا أفعل ذلك جدي الدهر يريدون يد الدهر ، وهو إبدال لا يطرده ، والأصل في أيد أيد وصححت العين كما صححت في أغيلت ، وهو تصحيح شاذ إلا في فعل التعجب فتقول ما أبين وما أطول وراه أبو زيد مقيساً ، ولو أعل على حد أقت^(٦) وأحدثت فألقيت حركة العين على الفاء وحذفت العين لوجب أن تنقلب الفاء واواً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، كما انقلبت في أوادم جمع آدم على أفاعل ، ثم تنقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فلما أدى القياس إلى إعلال الفاء والعين رفض وصححت العين ، الروح من الحيوان اسم للجزء الذي تحصل به الحياة قاله الراغب ، واختلف الناس فيه وفي النفس أهما من المشترك أم من المتباين ، وفي ماهية النفس والروح وقد صنف في ذلك ، القدس الطهارة ، وقيل البركة ، وقد تقدّم الكلام على ذلك عند الكلام على قوله تعالى ونقدس لك ، الرسول فعول بمعنى المفعول : أي المرسل وهو قليل ، ومنه الحلوب والركوب بمعنى المحلوب والمركوب ، تهوى تحب وتختار ماضيه على فعل ومصدره الهوى ، غلف^(٧) جمع أغلف كأحر وحمر ، وهو الذي لا يفقه ، أو جمع غلاف وهو الغشاء ، فيكون أصله التثقيب فخفف ، اللعن^(٨)

(١) انظر الكشف (١٦١/١) .

(٢) انظر لسان العرب (٢٦١٦/٤) .

(٣) انظر لسان العرب (٢٦١٧/٤) .

(٤) إسحاق بن مراد أبو عمرو الشيباني توفي سنة ست - أو خمس - ومائتين وقبل سنة ثلاث عشرة - البغية (٤٣٩/١) .

(٥) ولا تقل في العثير التراب عثيراً لأنه ليس في الكلام فعيل بفتح الفاء إلا ضهيد وهو مصنوع ... لسان العرب (٢٨٠٦/٤) .

(٦) القُت : الكذب المهيأ والنميمة . قَتَ يَقْتُ قَتّاً وَقَتَّ بينهم قَتّاً : نم . وفي الحديث : لا يدخل الجنة قَتَات - لسان العرب (٣٥٢٤/٥) .

(٧) يقال : قلب أغلف بين الغُلْفَةِ : كأنه غشي بغلاف فهو لا يعي شيئاً ، وفي التنزيل العزيز (وقالوا قلوبنا غلف) وقيل : معناه صم .. لسان العرب (٣٢٨٢/٥) .

(٨) اللعن : الإبعاد والطرده من الخير ، وقيل : الطرد والإبعاد من الله ، ومن الخلق السب والدعاء واللعنة الاسم والجمع لعان ولعنات - لسان العرب (٤٠٤٤/٥) .

الطرد والإبعاد ، يقال شأ ولعين : أي بعيد ، وقال الشماخ :

ذُعِرَتْ بِهِ الْقَطَا وَنَفِيتَ عَنْهُ مَقَامَ الذُّبِّ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

المعرفة العلم المتعلق بالمفردات ، ويسبقه الجهل بخلاف أصل العلم فإنه يتعلق بالنسب ، وقد لا يسبقه الجهل ، ولذلك لم يوصف الله تعالى بالمعرفة ووصف بالعلم ، بشئ فعل جعل للذم ، وأصله فعل ، وله ولنعم باب معقود في النحو ، البغي^(١) الظلم ، وأصله الفساد من قولهم بغى الجرح فسد . قاله الأصمعي ، وقيل أصله شدة الطلب ، ومنه ما نبغي ، وقول الراجز :

أُنْشُدْ وَالْبَاغِي يُحِبُّ الْوُجْدَانَ قَلَائِصاً مُخْتَلِفَاتُ الْأَلْوَانِ

ومنه سميت الزانية بغياً لشدة طلبها للزنا ، الإهانة الإذلال ، وهان هواناً لم يحفل به ، وهو معنى الذل وهو كون الإنسان لا يؤبه به ولا يلتفت إليه ، وراء من الظروف المتوسطة التصرف ، وتكون بمعنى قدام ، وبمعنى خلف وهو الأشهر فيه ، الخالص الذي لا يشوبه شيء يقال خلص يخلص خلوصاً ، تمنى تفعل من المنية وهو الشيء المشتبه ، وقد يكون المتمنى باللسان بمعنى التلاوة ، ومنه تمنى على زيد منه حاجة ، وجد مشترك بين الإصابة والعلم والغنى والخرج ، ويختلف بالمصادر كالوجدان والوجد والموجدة ، الحرص شدة الطلب ، الود المحبة للشيء والإيثارة ، وفعله ودّ وهو على فعل يفعل ، وحكى الكسائي وددت فعلى هذا يجوز كسر الواو إذ يكون فعل يفعل وفك الإدغام في قوله :

ما في قلوبهم لنا من مودة^(٢)

ضرورة ، عمر التضعيف فيه للنقل ، إذ هو من عمر الرجل : أي طال عمره وعمره الله أطال عمره ، والعمر مدة البقاء ، الألف عشر من المئين ، وقد يتجاوز فيه فيدل على الشيء الكثير ، وهو من الألفة إذ هو مالف أنواع الأعداد ، إذ العشرات مالف الآحاد ، والمئون مالف العشرات ، والألف مالف المئين ، الزحزحة الإزالة والتنحية عن المقر ، بصير فعيل من بصر به إذا رآه فبصرت عن جنب ، ثم يتجاوز به فيطلق على بصر القلب ، وهو العلم بصير بكذا : أي عالم به ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ تقدّم الكلام في هذه اللام ، ويحتمل أن تكون للتأكيد وأن تكون جواب قسم ومناسبة هذا لما قبله أن إتياء موسى الكتاب هو نعمة لهم إذ فيه أحكامهم وشرائعهم ، ثم قابلوا تلك النعمة بالكفران ، وذلك جرى على ما سبق من عاداتهم ، إذ قد أمروا بأشياء ونهوا عن أشياء فخالفوا أمر الله ونهيه فناسب ذكر هذه الآية ما قبلها ، والإتياء الإعطاء ، فيحتمل أن يراد به الإنزال لأنه أنزله عليه جملة واحدة ، ويحتمل أن يراد آتياء أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك ما فيه ، فيكون على حذف مضاف آتينا موسى علم الكتاب ، أو فهم الكتاب وموسى هونبي الله موسى بن عمران صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، والكتاب هنا التوراة في قول الجمهور ، والألف واللام فيه للعهد إذ قرن بموسى ، وانتصابه على أنه مفعول ثان لآتينا ، وقد تقدم أنه مفعول أول عند السهيلي ،

(١) والبغي : التعدي وبغى الرجل علينا بغياً : عدل عن الحق واستطال .. لسان العرب (٣٢٣/١) .

(٢) البيت للعجاج انظر التنبيهات لعلي بن حمزة (٢٣٧) .

وموسى هو الثاني عنده ﴿وقفينا﴾^(١) هذه الياء أصلها الواو إلا أنها متى وقعت رابعة أبدلت ياء كما تقول غزيت من الغزو ، والتضعيف الذي في وقفينا ليس للتعدي إذ لو كان للتعدي لكان يتعدى إلى اثنين ، لأن قفوت يتعدى إلى واحد تقول قفوت زيدا : أي تبعته ، فلو جاء على التعدي لكان وقفيناه من بعده الرسل ، وكونه لم يجيء كذلك في القرآن يبعد أن تكون الباء زائدة في المفعول الأول ويكون المفعول الثاني جاء محذوفاً ، ألا ترى إلى قوله ﴿ثم وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم﴾ [الحديد : ٢٧] ، ولكنه ضمن معنى جئنا ، كأنه قال وجئنا من بعده بالرسل يقفوا بعضهم بعضاً ومن في ﴿من بعده﴾ لا ابتداء الغاية ، وهو ظاهر لأنه يحكى أن موسى لم يمت حتى نبىء يوشع ﴿بالرسل﴾ أرسل الله على أثر موسى رسلاً وهم يوشع وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيال والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم ، والباء في بالرسل متعلقة بوقفينا ، والألف واللام يحتمل أن تكون للجنس الخاص ، ويحتمل أن تكون للعهد لما استفيد من القرآن وغيره أن هؤلاء بعثوا من بعده ويحتمل أن تكون التقفية معنوية ، وهي كونهم يتبعونه في العمل بالتوراة وأحكامها ويأمرون باتباعها والبقاء على التزامها ، وقرأ الجمهور بالرسل بضم السين ، وقرأ «الحسن» و«يحيى بن يعمر» : «بتسكينها» ، وقد تقدم أنهما لغتان ، ووافقهما أبو عمرو وإن أضيف إلى ضمير جمع نحورسلهم ورسلكم ورسلنا ، استثقل توالي أربع متحركات فسكن تخفيفاً ﴿وآتينا عيسى ابن مريم﴾ أضاف عيسى إلى أمه رداً على اليهود فيما أضافوه إليه ﴿البنات﴾ وهي الحجج الواضحة الدالة على نبوته ، فيشمل كل معجزة أوتيتها عيسى عليه السلام وهذا هو الظاهر ، وقيل الإنجيل ، وقيل الحجج التي أقامها الله على اليهود ، وقيل إبراء الأكمة^(٢) والأبرص^(٣) والإخبار بالمغيبات وإحياء الموتى ، وهم أربعة سام بن نوح والعازر وابن العجوز وبنت العشار ، ومن الطير الخفاش فليل لم يكن من قبل عيسى بل هو صوره والله نفخ فيه الروح ، وقيل كان قبله فوضع عيسى على مثاله قالوا ، وإنما اختص هذا النوع من الطير لأنه ليس شيء من الطير أشد خلقاً منه لأنه لحم كله ، وأجمل الله ذكر الرسل وفصل ذكر عيسى ، لأن من قبله كانوا متبعين شريعة موسى ، وأما عيسى فنسخ شرعه كثيراً من شرع موسى ﴿وأيدناه﴾ قرأه الجمهور على وزن فعلناه ، وقرأ مجاهد والأعرج وحמיד وابن محيصن وحسين عن أبي عمرو وأيدناه على وزن أفعلناه ، وتقدم الكلام على ذلك في المفردات ، وفرق بعضهم بينهما فقال أما المد فمعناه القوة ، وأما القصر فالتأييد والنصر ، والأصح أنهما بمعنى قويناه ، وكلاهما من الأيد وهو القوة ﴿بروح القدس﴾ قراءة الجمهور بضم القاف والذال ، وقرأ مجاهد وابن كثير بسكون الدال حيث وقع وفيه لغة فتحها ، وقرأ أبو حية القدوس بواو ، والروح^(٤) هنا اسم الله الأعظم الذي كان به عيسى عليه السلام يحيي الموتى قاله ابن عباس ، أو «الإنجيل» كما سمي «القرآن» روحاً قال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ [الشورى : ٥٢] ، قاله ابن زيد ، أو الروح التي نفخها تعالى في عيسى عليه السلام ، أو جبريل عليه السلام قاله قتادة والسدي والضحاك والربيع^(٥) ونسب

(١) يقال : اقتفى أثره وتقفاه : اتبعه وَفَّقِيْتُ عَلَى أثره بفلان : أي أتبعته إياه .. لسان العرب (٣٧٠٨/٥) .

(٢) الكَمَةُ في التفسير : العمى الذي يولد به الإنسان ، كَمِه بصره بالكسر كَمَهاً وهو أكمه إذا عترته ظلمة تطمس عليه - لسان العرب (٣٩٣٣/٥) .

(٣) البرص : داء معروف ، نسأل الله العافية منه ومن كل داء ، وهو بياض يقع في الجسد برصاً والأنتى برصاء - لسان العرب (٢٥٨/١) .

(٤) الرُّوح بالضم في كلام العرب : النفخ ، سمي روحاً لأنه ربح يخرج من الروح - لسان العرب (١٧٦٦/٣) .

(٥) انظر تفسير القرطبي (١٨/٢) ، تفسير ابن عباس ص (١٣) ، تفسير الطبري (٣٢٠/٢) ، تفسير ابن كثير (١٢٢/١) ، مجاز القرآن (٣٦٨/١) .

هذا القول لابن عباس قاله ابن عطية ، وهذا أصح الأقوال ، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت اهج قريشاً وروح القدس معك ومرة قال له وجبريل معك انتهى كلامه قالوا ويقوي ذلك قوله تعالى إذ أيدتك بروح القدس ، وقال حسان :

وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وتسمية جبريل بذلك لأن الغالب على جسمه الروحانية ، وكذلك سائر الملائكة ، أولاً لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنه هو المتولي لإنزال الوحي ، أو لتكوينه روحاً من غير ولادة وتأيد الله عيسى بجبريل عليهما السلام لإظهار حجته وأمر دينه ، أولدفع اليهود عنه إذ أرادوا قتله ، أو في جميع أحواله ، واختار الزمخشري^(١) أن معناه بالروح المقدسة قال كما يقال حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال وروح منه فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة انتهى كلامه . وقد تقدّم معنى القدس أنه الطهارة ، أو البركة ، وقال مجاهد والربيع القدس من أسماء الله تعالى كالقدوس ، قالوا وإطلاق الروح على جبريل ، وعلى الإنجيل ، وعلى اسم الله الأعظم مجاز ، لأن الروح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان في منافذه ، ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلا أن كلاً منها أطلق الروح عليه على سبيل التشبيه من حيث إن الروح سبب للحياة ، فجبريل هو سبب لحياة القلوب بالعلوم ، والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها ، والاسم الأعظم سبب لأن يتوصل به إلى تحصيل الأغراض ، والمثابة بين جبريل والروح أتم ، ولأن هذه التسمية فيه أظهر ، ولأن المراد من أيدناه قوّيناه وأعناه ، وإسنادها إلى جبريل حقيقة ، وإلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز ، ولأن اختصاص عيسى بجبريل من أكد وجوه الاختصاص إذ لم يكن لأحد من الأنبياء مثل ذلك ، لأنه هو الذي بشر مريم بولادته ، وتولد عيسى بنفخه ورباه في جميع الأحوال ، وكان يسير معه حيث سار ، وكان معه حيث صعد إلى السماء ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ﴾ الهمة أصلها للاستفهام وهي هنا للتوبيخ والتفريع ، والفاء لعطف الجملة على ما قبلها ، واعتنى بحرف الاستفهام فقدم والأصل فأكلما ، ويحتمل أن لا يقدر قبلها محذوف بل يكون العطف على الجمل التي قبلها كأنه قال ولقد آتينا يا بني إسرائيل آتيناكم ما آتيناكم فكلما جاءكم رسول ، ويحتمل أن يقدر قبلها محذوف : أي فعلتم ما فعلتم من تكذيب فريق وقتل فريق ، وقد تقدم الكلام على كلما في قوله تعالى ﴿ كلما رزقوا منها ﴾ [البقرة : ٢٥] ، فأغنى عن إعادته ، والناسب لها قوله استكبرتم ، والخطاب في جاءكم يجوز أن يكون عاماً لجميع بني إسرائيل ، إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق وتكذيب الرسل وكثرة سؤالهم لأنبيائهم والشك والارتباب فيما أتوهم به ، أو يكون عائداً إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك ، وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله ﷺ من أبنائهم لأنهم راضون بفعلهم ، والراضي كالفاعل وقد كذبوا رسول الله ﷺ فيما جاء به وسقوه السم ليقتلوه وسحروه ، وبما متعلق بقوله جاءكم ، وما موصولة ، والعائد محذوف : أي لا تهواه ، وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بحق ، ومنه هذه الآية ، وأسند الهوى إلى النفس ، ولم يسند إلى ضمير المخاطب فكان يكون بما لا تهوون أشعاراً بأن النفس يسند إليها غالباً الأفعال السيئة ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : ٥٢] ، ﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه ﴾ [المائدة : ٣٠] ، ﴿ قال بل سوّلت لكم أنفسكم ﴾ [يوسف : ١٨] ، استكبرتم استفعل هنا بمعنى تفعل ، وهو أحد معاني استفعل ، فسر رسول الله ﷺ الكبير بأنه سفه الحق وغمط الناس ، والمعنى قيل استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول ، أو استبعاداً للرسالة ، وفي ذلك ما كانوا عليه من طبيعة الاستكبار الذي هو محل النقائص ونتيجة الإعجاب وهو نتيجة الجهل بالنفس المقارن للجهل بالخالق ، وإن ذلك كان يتكرر منهم

بتكرّر مجيء الرسل إليهم ، وهو كما ذكرنا استكبار بمعنى التكبر وهو مشعر بالتكلف والتفعل لذلك لا أنهم يصيرون بذلك كبراء عظماء بل يتفعلون ذلك لا يبلغون حقيقته ، لأن الكبرياء إنما هي لله تعالى فمحال أن يتصف بها غيره حقيقة ﴿ ففريقاً كذبتم ﴾ ظاهره أنه معطوف على قوله (استكبرتم) ، فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالكذب فقط حيث لا يقدرّون على قتله ، وفريق بالقتل إذا قدرّوا على قتله وتهياً لهم ذلك ، ويضمن أن من قتلوه فقد كذبوه ، واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك ، فذكر أقبح أفعالهم معه وهو قتله ، وأجاز أبو القاسم^(١) الراغب أن يكون فريقاً كذبتم معطوفاً على قوله وأيدناه ويكون قوله أفكلماً مع ما بعده فصلاً بينهما على سبيل الإنكار ، والأظهر في ترتيب الكلام الأول ، وهذا أيضاً محتمل وآخر العلل وقدّم المفعول ليتواخى رؤوس الآي ، وثم محذوف تقديره فريقاً منهم كذبتم ، وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر ، ولأنه المشترك بين الفريقين المكذب والمقتول ﴿ وفريقاً تقتلون ﴾ وأتى بفعل القتل مضارعاً إما لكونه حكيت أنه الحال الماضية إن كانت أريدت فاستحضرت في النفس وصور ، حتى كأنه ملتبس به مشروع فيه ، ولما فيه من مناسبة رؤوس الآي التي هي فواصل ، وإما لكونه مستقبلاً لأنهم يرومون قتل رسول الله ﷺ ، ولذلك سحره وسموه ، وقال ﷺ عند موته ما زالت أكلة خبير^(٢) تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري^(٣) ، وكان في ذلك على هذا الوجه تنبيه على أن عادتهم قتل أنبيائهم ، لأن هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وقد أمروا بالإيمان به والنصر له يرومون قتله ، فكيف من لم يكن فيه تقدم عهد من الله فقتله عندهم أولى ، قال ابن عطية عن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم تقوم سوقهم آخر النهار ، وروى سبعين نبياً ، ثم تقوم سوق نقلهم آخر النهار ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ الضمير في قالوا عائذ على اليهود ، وهم أبناء بني إسرائيل الذين كانوا بحضرة رسول الله ﷺ ، قالوا ذلك بهتاً ودفعاً لما قامت عليهم الحجج وظهرت لهم البيّنات وأعجزتهم عن مدافعة الحق المعجزات ، نزلوا عن رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية ، وقرأ الجمهور : « غلف » بإسكان اللام ، وتقدم الكلام على سكون اللام أهو سكون أصلي ، فيكون جمع أغلف أم هو سكون تخفيف ، فيكون جمع غلاف ، وأصله الضم كحمار وحمير ، قال ابن عطية وهنا يشير إلى أن التخفيف من الثقليل قلما يستعمل إلا في الشعر ، ونص ابن مالك على أنه يجوز التسكين في نحو حمير جمع حمار دون ضرورة ، وقرأ ابن عباس و« الأعرج » و« ابن هرمز » و« ابن محيصن » : « غُلف » بضم اللام ، وهي مروية عن أبي عمرو وهو جمع غلاف ، ولا يجوز أن يكون في هذه القراءة جمع أغلف لأن تثقيب فعل الصحيح العين لا يجوز إلا في الشعر يقال غلفت السيف جعلت له غلافاً ، فأما من قرأ غلف بالإسكان فمعناه أنها مستورة عن الفهم والتمييز ، وقال مجاهد : أي عليها غشاوة ، وقال « عكرمة » : عليها طابع^(٤) ، وقال الزجاج ذوات غلف : أي عليها غلف لا تصل إليها الموعظة ، وقيل معناه خلقت غلفاً لا تدبر ولا تعتبر ، وقيل محجوبة عن سماع ما تقول وفهم ما تبين ، ويحتمل على هذه القراءة أن يكون قولهم هذا على سبيل البهت والمدافعة حتى يسكتوا رسول الله ﷺ ، ويحتمل أن يكون ذلك خبراً منهم بحال قلوبهم لأن الأول فيه ذم أنفسهم بما ليس فيها

(١) الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني ، المعروف بالراغب توفي سنة ٥٠٢ هجرية - روضات الجنات (٢٤٩) ، الأعلام (٢٥٥ / ٢) .

(٢) ذكره الخطابي في إصلاح خطأ المحدثين ، والذهبي في الميزان (٣٢٦٣) ، وأخرجه ابن عدي في الكامل (٢٣٩ / ٣) ، وذكره القاضي عياض في الشفا (٦٠٩ / ١) ، وبنحوه عند البيهقي (١١ / ١٠) .

(٣) الأبر : عرق في الظهر ، يقال : هو الوريد في العنق ، وبعضهم يجعله عرقاً مستبطن الصُّلب ، وقيل الأبرهان : الأكحلان ، وفلان شديد الأبر : أي الظهر . والأبر : عرق إذا انقطع مات صاحبه - لسان العرب (٣٧٠ / ١) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (١٩ / ٣) ، تفسير الطبري (٣٢٦ / ٢) .

وكانوا يدفعون بغير ذلك وأسباب الدفع كثيرة ، وأما من قرأ بضم اللام فمعناه أنها أوعية للعلم أقاموا العلم مقام شيء مجسد وجعلوا الموانع التي تمنعهم غلفاً له ، ليستدل بالمحسوس على المعقول ، ويحتمل أن يريدوا بذلك أنها أوعية للعلم فلو كان ما تقوله حقاً وصدقاً لوعته قاله ابن عباس وقتادة والسدي ، ويحتمل أن يكون المعنى أن قلوبنا غلف : أي مملوءة علماً فلا تسع شيئاً ولا تحتاج إلى علم غيره فإن الشيء المغلف لا يسع غلافه غيره ، ويحتمل أن يكون المعنى أن قلوبهم غلف على ما فيها من دينهم وشريعتهم واعتقادهم أن دوام ملتهم إلى يوم القيامة ، وهي لصلابتها وقوتها تمنع أن يصل إليها غير ما فيها ، كالغلاف الذي يصون المغلف أن يصل إليه ما بغيره ، وقيل المعنى كالغلاف الخالي لا شيء فيه ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ بل للإضراب وليس اضرباً عن اللفظ المقول لأنه واقع لا محالة فلا يضرب عنه ، وإنما الإضراب عن النسبة التي تضمنها قولهم إن قلوبهم غلف لأنها خلقت متمكنة من قبول الحق مفطورة لإدراك الصواب ، فأخبروا عنها بما لم تخلق عليه ، ثم أخبر تعالى أنهم لعنوا بسبب ما تقدم من كفرهم ، وجازاهم بالطرده الذي هو اللعن المتسبب عن الذنب الذي هو الكفر ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ انتصاب قليلاً على أنه نعت لمصدر محذوف : أي : فإيماناً قليلاً يؤمنون قاله قتادة ، وعلى مذهب سيبويه انتصابه على الحال التقدير فيؤمنونه : أي الإيمان في حال قلته ، وجوزوا انتصابه على أنه نعت لزمان محذوف أي فرماناً قليلاً يؤمنون لقوله تعالى (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) آل عمران ٧٢ ، وجوزوا أيضاً انتصابه بـ (يؤمنون) على أن أصله فقليل يؤمنون ، ثم لما أسقط الباء تعدى إليه الفعل وهو قول معمر ، وجوزوا أيضاً أن يكون حالاً من الفاعل الذي هو الضمير في يؤمنون المعنى أي فجمعاً قليلاً يؤمنون : أي المؤمن منهم قليل ، وقال هذا المعنى ابن عباس وقتادة (وملخصه) إن القلة إما للنسبة للفعل الذي هو المصدر أو للزمان أو للمؤمن به أو للفاعل فبالنسبة إلى المصدر تكون القلة بحسب متعلقة ، لأن الإيمان لا يتصف بالقلة والكثرة حقيقة ، وبالنسبة إلى الزمان تكون القلة فيه لكونه قبل مبعثه ﷺ قليلاً وهو زمان الاستفتاح ثم كفروا بعد ذلك ، وبالنسبة إلى المؤمن به تكون القلة لكونهم لم يبق لهم من ذلك إلا توحيد الله على غير وجهه إذ هم مجسمون وقد كذبوا بالرسول وبالتوراة ، وبالنسبة للفاعل تكون القلة لكون من آمن منهم بالرسول قليلاً ، وقال الواقدي المعنى : أي لا قليلاً ولا كثيراً يقال قل ما يفعل : أي ما يفعل أصلاً ، وقال ابن الأنباري : إن المعنى فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً ، وقال المهدوي مذهب قتادة أن المعنى فقليل منهم من يؤمن ، وأنكره النحويون وقالوا لو كان كذلك للزم رفع قليل ، وقال الزمخشري^(١) ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم ، وما ذهبوا إليه من أن قليلاً يراد به النفي صحيح لكن في غير هذا التركيب أعني قوله تعالى فقليلاً ما يؤمنون ، لأن قليلاً انتصب بالفعل المثبت فصار نظير قمت قليلاً : أي قياماً قليلاً ، ولا يذهب ذاهب إلى أنك إذا أتيت بفعل مثبت ، وجعلت قليلاً منصوباً نعتاً لمصدر ذلك الفعل يكون المعنى في المثبت الواقع على صفة أو هيئة انتفاء ذلك المثبت رأساً وعدم وقوعه بالكلية ، وإنما الذي نقل النحويون أنه قد يراد بالقلة النفي المحض في قولهم أقل رجل يقول ذلك ، وقل رجل يقول ذلك ، وقلما يقوم زيد ، وقليل من الرجال يقول ذلك ، وقليلة من النساء تقول ذلك ، وإذا تقرر هذا فحمل القلة هنا على النفي المحض ليس بصحيح ، وأما ما ذكره المهدوي من مذهب قتادة وإنكار النحويين ذلك ، وقولهم لو كان كذلك للزم رفع قليل فقول قتادة صحيح ، ولا يلزم ما ذكره النحويون ، لأن قتادة إنما بين المعنى وشرحه ولم يرد شرح الإعراب فيلزمه ذلك ، وإنما انتصاب قليلاً عنده على الحال من الضمير في يؤمنون ، والمعنى عنده فيؤمنون قوماً قليلاً : أي في حالة قلة ، وهذا معناه فقليل منهم من يؤمن ، وما في قوله ما يؤمنون زائدة مؤكدة دخلت بين المعمول والفاعل نظير قولهم رويد ما الشعر وخرج ما أنف خاطب بدم ،

ولا يجوز في ما أن تكون مصدرية لأنه كان يلزم رفع قليل حتى ينعقد منهما مبتدأ وخبر ، والأحسن من هذه المعاني كلها هو الأول وهو أن يكون المعنى فيماتاً قليلاً يؤمنون ، لأن دلالة الفعل على مصدره أقوى من دلالة على الزمان وعلى الهيئة وعلى المفعول وعلى الفاعل ، ولموافقة ظاهر قوله تعالى (فلا يؤمنون إلا قليلاً) ، وأما قول العرب مررنا بأرض قليلاً ما تنبت وأنهم يريدون لا تنبت شيئاً فإنما ذلك ، لأن قليلاً انتصب على الحال من أرض وإن كان نكرة وما مصدرية ، والتقدير قليلاً إنباتها : أي لا تنبت شيئاً ، وليست ما زائدة وقليلاً نعت لمصدر محذوف تقدير الكلام تنبت قليلاً ، إذ لو كان التركيب المقدر هذا لما صلح أن يراد بالقليل النفي المحض ، لأن قولك تنبت قليلاً لا يدل على نفي الإنبات رأساً ، وكذلك لو قلنا ضربت ضرباً قليلاً لم يكن معناه ما ضربت أصلاً ﴿ ولما جاءهم ﴾ الضمير عائد على اليهود ، ونزلت فيهم حين كانت غطفان تقاتلهم وتهزمهم ، أو حين كانوا يلقون من العرب أذى كثيراً ، أو حين حاربهم الأوس والخزرج فغلبتهم ﴿ كتاب ﴾ هو القرآن ، وإسناد المجيء إليه مجاز ﴿ من عند الله ﴾ في موضع الصفة ووصفه بمن عند الله ، لا يدور أن يقبل ويتبع ما فيه ويعمل بمضمونه ، إذ هو وارد من عند خالقهم وإلههم الذي هو ناظر في مصالحهم ﴿ مصدق ﴾ صفة ثانية ، وقدمت الأولى عليها لأن الوصف بكيونته من عند الله أكد ووصفه بالتصديق ناشئ عن كونه من عند الله ، لا يقال أنه يحتمل أن يكون من عند الله متعلقاً بجاءهم ، فلا يكون صفة للفصل بين الصفة والموصوف بما هو معمول لغير أحدهما ، وفي مصحف أبي مصدق ، وبه قرأ ابن أبي عبيدة ونصبه على الحال من كتاب وإن كان نكرة ، وقد أجاز ذلك سيبويه بلا شرط فقد تخصصت بالصفة فقربت من المعرفة ﴿ لما معهم ﴾ هو التوراة والإنجيل وتصديقه إما بكونهما من عند الله ، أو بما اشتبها عليه من ذكر بعث الرسول ونعته ﴿ وكانوا ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على جاءهم ، فيكون جواب لما مرتباً على المجيء والكون ، ويحتمل أن يكون جملة حالية : أي وقد كانوا فيكون الجواب مرتباً على المجيء بقيد في مفعوله وهم كونهم يستفتحون ، وظاهر كلام الزمخشري أن قوله وكانوا ليست معطوفة على الفعل بعد لما ولا حالاً ، لأنه قدّر جواب لما محذوفاً قبل تفسيره يستفتحون فدل على أن قوله ، وكانوا جملة معطوفة على مجموع الجملة من قوله : ولما ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل المجيء ، وبني لقطعه عن الإضافة إلى معرفة ﴿ يستفتحون ﴾ أي يستحكمون ، أو يستعلمون ، أو يستنصرون أقوال ثلاثة يقولون إذا دهمهم العدو اللهم انصرونا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة ، واختلفوا في جواب ولما الأولى ، فذهب « الأخفش » و « الزجاج » إلى أنه محذوف لدلالة المعنى عليه ، واختاره الزمخشري^(١) وقدره نحو كذبوا به واستهانوا بمجيئه ، وقدره غيره كفروا فحذف لدلالة كفروا به عليه ، والمعنى قريب في ذلك ، وذهب الفراء إلى أن الفاء في قوله فلما جاءهم جواب لما الأولى ، وكفروا جواب لقوله فلما جاءهم وهو عنده نظير قوله فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف قال ويدل على أن الفاء هنا ليست بناسقة أن الواو لا تصلح في موضعها ، وذهب المبرد إلى أن جواب لما الأولى هو كفروا به وكرر لما لطول الكلام ، ويقيد ذلك تقريراً للذنب وتأكيداً له ، وهذا القول كان يكون أحسن لولا أن الفاء تمنع من التأكيد ، وأما قول الفراء : فلم يثبت من لسانهم لما جاء زيد فلما جاء خالد أقبل جعفر فهو تركيب مفقود في لسانهم فلا نثبته ، ولا حجة في هذا المختلف فيه ، فالأولى أن يكون الجواب محذوفاً لدلالة المعنى عليه وأن يكون التقدير ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم كذبوه ، ويكون التكذيب حاصلاً بنفس مجيء الكتاب من غير فكر فيه ولا روية بل بادرنا إلى تكذيبه ، ثم قال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون : أي يستنصرون على المشركين ، إذا قاتلوهم أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث قد قرب وقت بعثه فكانوا يخبرون بذلك ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا ﴾ وما سبق لهم تعريفه للمشركين ﴿ كفروا به ﴾ ستروه وجحدوه ، وهذا أبلغ في ذمهم ، إذ يكون الشيء المعروف لهم

المستقر في قلوبهم وقلوب من أعلمهم به كيانه ، ونعته يعمدون إلى ستره ، وجحدته قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ [النمل : ١٤] ، وقال أبو القاسم الراغب ما ملخصه الاستفتاح طلب الفتح ، وهو ضربان إلهي وهو النصرة بالوصول إلى العلوم المؤدية إلى الثواب ، ومنه ﴿ إنا فتحنا لك ﴾ [الفتح : ١] ، ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ [المائدة : ٥٢] ، وديوي وهو النصرة بالوصول إلى اللذات البدنية ، ومنه فتحنا عليهم أبواب كل شيء فمعنى يستفتحون^(١) : أي يعلمون خبره من الناس مرةً ويستنبطون ذكره من الكتب مرة ، وقيل يطلبون من الله بذكره الظفر ، وقيل كانوا يقولون إنا نصر بمحمد ﷺ على عبدة الأوثان ، وكل ذلك داخل في عموم الاستفتاح انتهى . وظاهر قوله ما عرفوا أنه كتاب لأنه أتى بلفظ ما ، ويحتمل أنه يراد به النبي ﷺ فإن ما قد يعبر بها عن صفات من يعقل ، ويجوز أن يكون المعنى ما عرفوه من الحق فيندرج فيه معرفة نبوته وشريعته وكتابه وما تضمنه ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ لما كان الكتاب جاثياً من عند الله إليهم فكذبوه وستروا ما سبق لهم عرفانه ، فكان ذلك استهانة بالمرسل والمرسل به قابلهم الله بالاستهانة والطرده ، وأضاف اللعنة إلى الله تعالى على سبيل المبالغة لأن من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقة ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله ﴾ [المائدة : ٦٠] ، ﴿ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ [النساء : ٥٢] ، ثم إنه لم يكتف باللعة حتى جعلها مستعلية عليهم كأنه شيء جاءهم من أعلاهم فجعلهم بها ، ثم نبه على علة اللعنة وسببها وهي الكفر كما قال قبل ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وأقام الظاهر مقام المضمحل لهذا المعنى ، فتكون الألف واللام للعهد ، أو تكون للعموم فيكون هؤلاء فرداً من أفراد العموم .

قال الزمخشري^(٢) ويجوز أن تكون للجنس ويكون فيه دخولاً أولياً ، ونعني بالجنس العموم وتخيله أنهم يدخلون فيه دخولاً أولياً ليس بشيء لأن دلالة العلة على إفراده ليس فيها بعض الأفراد أولى من بعض ، وإنما هي دلالة على كل فرد فرد فهي دلالة متساوية ، وإذا كانت دلالة متساوية فليس فيها شيء أول ولا أسبق من شيء ﴿ بثسما اشتروا به أنفسهم ﴾ تقدّم الكلام على بثس ، وأما ما اختلف فيها ألها موضع من الإعراب أم لا ، فذهب الفراء إلى أنه بجملة شيء واحد ركب كحبذا هذا نقل ابن عطية عنه ، وقال المهدوي قال الفراء يجوز أن تكون ما مع بثس بمنزلة كلما ، فظاهر هذين النقلين أن ما لا موضع لها من الإعراب ، وذهب الجمهور إلى أن لها موضعاً من الإعراب ، واختلف أموضعها نصب أم رفع ، فذهب الأخفش إلى أن موضعها نصب على التمييز ، والجملة بعدها في موضع نصب على الصفة ، وفاعل بثس مضمحل مفسر بما التقدير بثس هو شيئاً اشتروا به أنفسهم ، وأن يكفروا هو المخصوص بالذم ، وبه قال الفارسي في أحد قوليّه ، واختاره الزمخشري^(٣) ، ويحتمل على هذا الوجه أن يكون المخصوص بالذم محذوفاً واشتروا صفة له ، والتقدير بثس شيئاً شيء اشتروا به أنفسهم ، وأن يكفروا بدل من ذلك المحذوف فهو في موضع رفع أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أن يكفروا ، وذهب الكسائي في أحد قوليّه إلى ما ذهب إليه هؤلاء من أن ما موضعها نصب على التمييز ، وثم ما أخرى محذوفة موصولة هي المخصوص بالذم التقدير بثس شيئاً الذي اشتروا به أنفسهم ، فالجملة بعد ما المحذوفة صلة لها فلا موضع لها من الإعراب وأن يكفروا على هذا القول بدل ، ويجوز على هذا القول أن يكون خبر مبتدأ محذوف : أي هو كفروهم فتلخص في قول النصب في الجملة بعد ما أقوال ثلاثة ، أن يكون صفة لما هذه التي هي تمييز فموضعها نصب ، أو صلة لما المحذوفة الموصولة فلا موضع لها ، أو صفة لشيء المحذوف

(١) الاستفتاح : الاستنصار ، وفي الحديث : أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين : أي يستنصر بهم . . . واستفتح الفتح : سأل - لسان العرب (٣٣٣٨/٥) .

(٢) انظر الكشاف (١٦٥/١) .

(٣) انظر الكشاف (١٦٥/١) .

المخصوص بالذم فموضعها رفع ، وذهب « سيويه » إلى أن موضعها رفع على أنها فاعل بش فقال « سيويه » : هي معرفة تامة التقدير بش الشيء ، والمخصوص بالذم على هذا محذوف : أي شيء اشتروا به أنفسهم ، وعزي هذا القول أعني أن ما معرفة تامة لا موصولة إلى « الكسائي » ، وقال « الفراء » و « الكسائي » : فيما نقل عنهما إن ما موصولة بمعنى الذي واشتروا صلة ، وبذلك قال « الفارسي » : في أحد قوله ، وعزي « ابن عطية » هذا القول إلى « سيويه » قال : فالتقدير على هذا القول بش الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا كقولك بش الرجل زيد ، وما في هذا القول موصولة انتهى كلامه . وهو وهم على سيويه ، وذهب « الكسائي » فيما نقل عنه « المهدوي » و « ابن عطية » إلى أن ما وما بعدها في موضع رفع ، على أن تكون مصدرية التقدير بش اشتراؤهم قال « ابن عطية » : وهذا معترض لأن بش لا تدخل على اسم معين يتعرف بالإضافة إلى الضمير انتهى كلامه . وما قاله لا يلزم إلا إذا نص على أنه مرفوع ببش ، أما إذا جعله المخصوص بالذم وجعل فاعل بش مضمراً والتمييز محذوفاً لفهم المعنى ، التقدير بش اشتراؤهم فلا يلزم الاعتراض ، لكن يبطل هذا القول الثاني عود الضمير في به على ما ، وما المصدرية لا يعود عليها ضمير لأنها حرف على مذهب الجمهور ، إذ « الأخفش » يزعم أنها اسم ، والكلام على هذه المذاهب تصحيحاً وإبطالاً يذكر في علم النحو ، اشتروا هنا بمعنى باعوا ، وتقدم أنه قال شري واشترى بمعنى باع هذا قول الأكثرين ، وفي المنتخب أن الاشتراء هنا على بابه لأن المكلف إذا خاف على نفسه من العقاب أتى بالأعمال يظن أنها تخلصه ، وكأنه قد اشترى نفسه بها فهؤلاء اليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنه يخلصهم ظنوا أنهم اشتروا أنفسهم فذمهم الله عليه ، وقال هذا الوجه أقرب إلى المعنى واللفظ من الأول يعني بالأول أن يكون بمعنى باع ، وهذا الذي اختاره صاحب « المنتخب » يرد عليه قوله تعالى ﴿ بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ [البقرة : ٩٠] ، فدل على أن المراد ليس اشتراؤهم أنفسهم بالكفر ظناً منهم أنهم يخلصون من العقاب ، بل ذلك كان على سبيل البغي والحسد لكونه تعالى جعل ذلك في محمد ﷺ ، فاتضح أن قول الجمهور أولى ﴿ أن يكفروا ﴾ تقدم أن موضعه رفع إما على أن يكون مخصوصاً بالذم عند من جعل ما قبله من قوله بشما اشتروا به غير تام ، وفيه الأعراب التي في المخصوص بالذم إذا تأخر أهو مبتدأ والجملة التي قبله خبر مبتدأ محذوف على ما تقرر قبل ، وأجاز « الفراء » على هذا التقدير أن يكون بدلاً من الضمير في به فيكون في موضع خبر ﴿ بما أنزل الله ﴾ هو الكتاب الذي تقدم ذكره وهو القرآن وفي ذلك من التفخيم إن لم يحصل مضمير ، بل أظهر موصولاً بالفعل الذي هو أنزل المشعر بأنه من العالم العلوي ، ونسب إسناده إلى الله ليحصل التوافق من حيث المعنى بين قوله كتاب من عند الله وبين قوله بما أنزل الله ، ويحتمل أن يراد به التوراة والإنجيل ، إذ كفروا بعيسى وبمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، والكفر بهما كفر بالتوراة ، ويحتمل أن يراد الجميع من قرآن وإنجيل وتوراة ، لأن الكفر ببعضها كفر بكلها ﴿ بغيا ﴾ أي حسداً إذ لم يكن من بني إسرائيل قاله « قتادة » و « أبو العالية » و « السدي » ، وقيل معناه ظلماً ، وانتصابه على أنه مفعول من أجله ، وظاهره أن العامل فيه يكفروا : أي كفرهم لأجل البغي ، وقال « الزمخشري »^(١) : هو علة اشتروا ، فعلى قوله يكون العامل فيه اشتروا ، وقيل هو نصب على المصدر لا مفعول من أجله والتقدير بغوا بغياً ، وحذف الفعل لدلالة الكلام عليه ﴿ أن ينزل الله ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر ، وذلك المصدر المقدر منصوب على أنه مفعول من أجله : أي بغوا لتنزيل الله ، وقيل : التقدير بغياً على أن ينزل الله ، لأن معناه حسداً على أن ينزل الله : أي على ما خص الله به نبيه من الوحي ، فحذفت على ويجيء الخلاف الذي في أن وأن إذا حذف حرف الجر منهما أهما في موضع نصب أم في موضع خفض ، وقيل أن ينزل

في موضع جر على أنه بدل اشتمال من ما في قوله ﴿ بما أنزل الله ﴾ [البقرة : ٩٠] ، أي بتنزيل الله ، فيكون مثل قول الشاعر :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلَمَى أَنْ نَأْتِكَ تَنْوُصُ^(١)

وقرأ « أبو عمرو » و « ابن كثير » : جميع المضارع مخففاً من أنزل إلا ما وقع الاجماع على تشديده ، وهو في الحجر (وما تُنزلُهُ) إلا أن أبا عمرو شدد ﴿ على أن تنزل ﴾ آية في الأنعام ، وابن كثير شدد ﴿ وتنزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وحتى ينزل علينا كتاباً ﴿ [الإسراء : ٩٣] ، وشدد الباقون المضارع حيث وقع إلا حمزة والكسائي مخففاً ﴿ وينزل الغيث ﴾ [لقمان : ٣٤] ، في آخر لقمان ﴿ وهو الذي ينزل الغيث ﴾ [الشورى : ٢٨] ، في الشورى ، والهمزة والتشديد كل منهما للتعدية ، وقد ذكروا مناسبات لقراءات القراء ، واختياراتهم ولا تصح ﴿ من فضله ﴾ من لا ابتداء الغاية ، والفضل هنا الوحي والنبوة ، وقد جوز بعضهم أن تكون من زائدة على مذهب الأخفش ، فيكون في موضع المفعول : أي أن ينزل الله فضله ﴿ على ﴾ من يشاء على متعلقة بينزل ، والمراد بمن يشاء محمد ﷺ لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم ، وكان من العرب وعز النبوة من يعقوب إلى عيسى عليهما الصلاة والسلام كان في إسحاق فحتم في عيسى ، ولم يكن من ولد إسماعيل نبي غير نبينا محمد ﷺ فحتمت النبوة على غيرهم ، وعدموا العز والفضل و ﴿ من ﴾ هنا موصولة ، وقيل نكرة موصوفة و ﴿ يشاء ﴾ على القول الأول صلة فلا موضع لها من الإعراب ، وصفة على القول الثاني فهي في موضع خفض ، والضمير العائد على الموصول أو الموصوف محذوف تقديره يشاؤه ﴿ من عباده ﴾ جار ومجرور في موضع الحال تقديره كائنات من عباده ، وأضاف العباد إليه تشريفاً لهم كقوله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ [الزمر : ٧] ، ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ [البقرة : ٢٣] ، ﴿ فباؤوا ﴾ أي مضوا ، وتقدم معنى باؤوا ﴿ بغضب على غضب ﴾ أي : مترادف متكاثر ، وبدل ذلك على تشديد الحال عليهم ، وقيل المراد بذلك غضبان معلان بقصتين الغضب الأول لعبادة العجل ، والثاني لكفرهم بمحمد ﷺ قاله ابن عباس ، أو الأول كفرهم بالإنجيل والثاني كفرهم بالقرآن قاله قتادة ، أو الأول كفرهم بعيسى والثاني كفرهم بمحمد ﷺ قاله الحسن وغيره ، أو الأول قولهم ﴿ عزيز ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] ، وقولهم ﴿ يد الله مغلول ﴾ [المائدة : ٦٤] ، وغير ذلك من أنواع كفرهم والثاني كفرهم بمحمد ﷺ ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ الألف واللام في الكافرين للعهد ، وأقام المظهر مقام المضمّر إشعاراً بعلّة كون العذاب المهين لهم ، إذ لو أتى (ولهم عذاب مهين) لم يكن في ذلك تنبيه على العلة ، أو تكون الألف واللام للعموم فيندرجون في الكافرين ، ووصف العذاب بالإهانة وهي الإذلال قال تعالى ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور : ٢] ، وجاء في الصحيح في حديث عبادة ، وقد ذكر أشياء محرمة فقال فمن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ، فهذا العذاب إنما هو لتكفير السيئات ، أو لأنه يقتضي الخلود خلوداً لا ينقطع ، أو لشدة وعظمت واختلاف أنواعه ، أو لأنه جزاء على تكبرهم عن اتباع الحق ، وقد احتج الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر لأنه ثبت تعذيبه ، واحتج بها المرجئة على أن الفاسق لا يعذب لأنه ليس بكافر ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ الإخبار عن حضرة رسول الله ﷺ من اليهود ، وسياق الآية يدل على أن المراد آبائهم لأنهم هم الذين قتلوا الأنبياء ، وحسن ذلك أن الراضي بالشيء كفاعله ، وأنهم جنس واحد ، وأنهم متبعون لهم ومعتقدون لك ، وأنهم يتولونهم فهم منهم ﴿ آمنوا بما أنزل الله ﴾ الجمهور أنه القرآن ، وقال الزمخشري^(٢) مطلق فيما أنزل الله من كل كتاب ﴿ قالوا تؤمن بما أنزل علينا ﴾ يريدون التوراة وما جاءهم من الرسالات على لسان موسى ومن

بعده من أنبيائهم ، وحذف الفاعل هنا للعلم به ، لأنه معلوم أنه لا ينزل الكتب الإلهية إلا الله ، أو لجريانه في قوله آمنوا بما أنزل الله فحذف إيجازاً ، إذ قد تقدم ذكره وذموا على هذه المقالة ، لأنهم أمروا بالإيمان بكل كتاب أنزله الله ، فأجابوا بأن آمنوا بمقيد والمأمور به عام ، فلم يطابق إيمانهم الأمر ﴿ ويكفرون ﴾ جملة استؤنف بها الإخبار عنهم ، أو جملة حالية العامل فيها (قالوا) أي : وهم يكفرون ﴿ بما وراءه ﴾ أي : بما سواه وبه فسروا حل لكم ما وراء ذلكم ، و (فمن ابتغى وراء ذلك) أي : بما بعده قاله قتادة : أي ويكفرون بما بعد التوراة وهو القرآن ، أو بما وراءه : أي بباطن معانيها التي وراء ألفاظها ويكون إيمانهم بظاهر لفظها ﴿ وهو الحق ﴾ هو عائد على القرآن ، أو على القرآن والإنجيل ، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً ﴿ مصدقاً ﴾ حال مؤكدة إذ تصديق القرآن لازم لا ينتقل ﴿ لما معهم ﴾ هو التوراة ، أو التوراة والإنجيل ، لأنهما أنزلا على بني إسرائيل وكلاهما غير مخالف للقرآن ، وفيه رد عليهم ، لأن من لم يصدق ما وافق التوراة لم يصدق بها ، وإذا دل الدليل على كون ذلك منزلاً من عند الله وجب الإيمان به ، فالإيمان ببعض دون بعض متناقض ﴿ قل ﴾ أي : قل يا محمد ، أو قل : يا من يريد جدالهم ﴿ فلم ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، التقدير : إن كنتم آمنتُم بما أنزل عليكم فلم ﴿ تقتلون أنبياء الله ﴾ لأن الإيمان بالتوراة واستحلال قتل الأنبياء لا يجتمعان ، فقولكم إنكم آمنتُم بالتوراة كذب وبهت ، لا يؤمن بالقرآن من استحلال محارمه ، وما استفهامية حذف ألفها لأجل لام الجر ، ويقف البري بالهاء فيقول : فلمه . وغيره يقف فلم بغير هاء ، ولا يجوز هذا الوقف إلا للاختبار ، أو لانقطاع النفس ، وجاء (يقتلون) بصورة المضارع والمراد الماضي ، إذ المعنى قل فلم قتلتم ، وأوضح ذلك أن هؤلاء الذين بحضرة رسول الله ﷺ لم يصدر منهم قتل الأنبياء ، وأنه قيد بقوله ﴿ من قبل ﴾ فدل على تقدم القتل قال ابن عطية : وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر ، ألا ترى أن حاضري محمد ﷺ لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء ، وفي إضافة أنبياء إلى الله تشريف عظيم لهم ، وأنه كان ينبغي لمن جاء من عند الله أن يعظم أجل تعظيم وأن ينصر لا أن يقتل ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ قيل : إن نافية : أي ما كنتم مؤمنين ، لأن من قتل أنبياء الله لا يكون مؤمناً ، فأخبر تعالى أن الإيمان لا يجامع قتل الأنبياء أي : ما اتصف بالإيمان من هذه صفة ، قيل والأظهر أن إن شرطية ، والجواب محذوف التقدير فلم فعلتم ذلك ، ويكون الشرط وجوابه قد كرر مرتين على سبيل التوكيد ، لكن حذف الشرط من الأول ، وأبقى جوابه وهو (فلم تقتلون) ، وحذف الجواب من الثاني وأبقى شرطه ، وقال ابن عطية : وإن كنتم شرط ، والجواب متقدم ، ولا يتمشى قوله هذا إلا على مذهب من يجيز تقدم جواب الشرط ، وليس مذهب البصريين إلا أبا زيد الأنصاري والمبرد منهم ، ومعنى مؤمنين أي : بما أنزل إليكم ، أو متحققين بالإيمان صادقين فيه ، أو مؤمنين بزعمكم وأجرى هذا القول مجرى التهكم بهم والاستهزاء ، كما تقول لمن بدا منه ما لا يناسبه : فعلت كذا وأنت عاقل أي : بزعمك ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ أي : بالآيات البينات ، وهي الواضحة المعجزة الدالة على صدقه ، وقيل : التسع وهي العصا ، والسنون ، واليد ، والدم ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، وخلق البحر ، وهي المعني بقوله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة ﴿ تقدم تفسير هذه الجمل ، وإنما كررت هنا لدعواهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وهم كاذبون في ذلك ، ألا ترى أن اتخاذ العجل ليس في التوراة ، بل فيها أن يفرد الله بالعبادة ، ولأن عبادة غير الله أكبر المعاصي ، فكرر عبادة العجل تنبيهاً على عظيم جرمهم ، ولأن ذكر ذلك قبل أعقبه تعداد النعم بقوله ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ [البقرة : ٥٢] ، و ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ [البقرة : ٦٤] ، وهنا أعقبه التقرير والتوبيخ ، ولأن في قصة الطور ذكر توليهم عما أمروا به من قبول التوراة وعدم رضاهم بأحكامها اختياراً ، حتى ألجئوا إلى القبول اضطرار فدعواهم الإيمان بما أنزل إليهم غير مقبولة ، ثم في قصة الطور تذييل لم يتقدم ذكره ، والعرب متى أرادت التنبيه على تقبيح شيء ، أو تعظيمه كررته ، وفي هذا التكرار

أيضاً من الفائدة تذكّارهم بتعداد نعم الله عليهم ونعمه منهم ، ليزدجر الأخلاف بما حلّ بالأسلاف ﴿ واسمعوا ﴾ أي : اقبلوا ما سمعتم كقوله : سمع الله لمن حمده ، أو اسمعوا متدبرين لما سمعتم ، أو اسمعوا : أطيعوا لأن فائدة السماع الطاعة قاله المفضل ، والمعنى في هذه الأقوال الثلاثة قريب ، قال الماتريدي : معنى اسمعوا افهموا ، وقيل : اعملوا ووجهه أن السمع يسمع به ، ثم يتخيل ، ثم يعقل ، ثم يعمل به إن كان مما يقتضي عملاً ، ولما كان السماع مبتدأً ، والعمل غاية وما بينها وسائط صح أن يراد بعض الوسائط ، وصح أن يراد به الغاية ﴿ قالوا ﴾ هذا من الالتفات ، إذ لو جاء على الخطاب لقال : قلت ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ ظاهره أن كلتا الجملتين مقولة ونطقوا بذلك مبالغة في التعبت والعصيان ، ويؤيده قول ابن عباس : كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا : سمعنا وأطعنا ، وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا ، وقيل : القول هنا مجاز ولم ينطقوا بشيء من الجملتين ، ولكن لما لم يقبلوا شيئاً مما أمروا به جعلوا كالناطقين بذلك ، وقيل : يعبر بالقول للشيء عما يفهم به من حاله وإن لم يكن نطق ، وقيل : المعنى سمعنا بآذاننا ، وعصينا بقلوبنا ، وهذا راجع لما قاله الزمخشري ^(١) قال : قالوا : سمعنا قولك وعصينا أمرك (فإن قلت) : فكيف طابق قوله جوابهم (قلت) طابقه من حيث إنه قال لهم : اسمعوا ، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ، فقالوا سمعنا ، ولكن لا سماع طاعة انتهى كلامه . والقول الأول أحسن لأننا لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره ، لا سيما إذا لم يقيم دليل على خلافه ﴿ وأشربوا ﴾ ^(٢) عطف على (قالوا سمعنا وعصينا) ، فيكون معطوفاً على قالوا أي : خذوا ما آتيناكم بقوة قلتم كذا وكذا ، وأشربتم أو عطف مستأنف لا داخل في باب الالتفات ، بل إخبار من الله عنهم بما صدر منهم من عبادة العجل ، أو الواو للحال ، أي : وقد أشربوا والعامل قالوا : ولا يحتاج الكوفيون إلى تقدير قد في الماضي الواقع حالاً ، والقول الأول هو الظاهر ﴿ في قلوبهم ﴾ ذكر مكان الإشراب كقوله ﴿ إنما يأكلون في بطونهم ﴾ [النساء : ١٠] ، ﴿ العجل ﴾ هو على حذف مضافين ، أي : حب عبادة العجل من قولك أشربت زبداً ماء ، والإشراب مخالطة المائع الجامد ، وتوسع فيه حتى صار في اللونين قالوا : وأشربت البياض حمرة ، أي : خلطتها بالحمرة ، ومعناه : أنه داخلهم حب عبادته كما داخل الصبغ الثوب وأنشدوا :

إِذَا مَا الْقَلْبُ أَشْرَبَ حُبَّ شَيْءٍ فَلَا تَأْمُلْ لَهُ عَنْهُ انْصِرَافًا

وقال ابن عرفة : يقال أشرب قلبه حب كذا : أي حل محل الشراب ومازجه انتهى كلامه . وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها ، ولهذا قال بعضهم :

جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمِي فِي مَفَاصِلِي فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بِهَا شُغْلٌ

وأما الطعام ، فقالوا : هو مجاور لها غير متغلغل فيها ولا يصل إلى القلب منه إلا يسير ، وقال :

تَغْلَغَلَ حُبُّ عُثْمَةَ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ

وحسن حذف ذينك المضافين ، وأسند الإشراب إلى ذات العجل مبالغة كأنه بصورته أشربوه ، وإن كان المعنى على ما ذكرناه من الحذف ، وقيل : معنى اشربوا ، أي : شدّ في قلوبهم حب العجل لشغفهم به ، من أشربت البعير

(١) انظر الكشف (١/١٦٦) .

(٢) أَشْرَبَ فَلَانٌ حُبَّ فَلَانَةٍ ، أي : خالط قلبه ، وَأَشْرَبَ قَلْبُهُ حُبَّهُ هَذَا ، أي حل محل الشراب ، وفي التنزيل العزيز : (وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) أي حُبَّ العجل ... ولا يجوز أن يكون العجل هو المُشْرَبُ ، لأن العجل لا يشربه القلب ، وقد أَشْرَبَ فِي قَلْبِهِ حَبَّهُ : أي خالطه ... لسان العرب (٤/٢٢٢٤) .

إذا شددت حبلاً في عنقه ، وقيل : هو من الشرب حقيقة ، وذلك أنه نقل أن موسى عليه السلام برد العجل بالمبرد ورماه في الماء ، وقال لهم : اشربوا فشرّب جميعهم فمن كان يحب العجل خرجت برادته على شفّيته ، وهذا قول يرده قوله (في قلوبهم) ، وروي أن الذين تبين لهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجبن ، وبنائوه للمفعول في قوله (وأشربوا) دليل على أن ذلك فعل بهم ولا يفعله إلا الله تعالى ، وقالت المعتزلة : جاء مبنياً للمفعول لفرط ولوعهم بعبادته ، كما يقال معجب برأيه ، أولأن السامري وإبليس وشياطين الإنس والجنّ دعوهم إليه ، ولما كان الشرب مادة لحياة ما تخرجه الأرض نسب ذلك إلى المحبة ، لأنها مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال ﴿ بكفرهم ﴾ الظاهر أن الباء للسبب ، أي : الحامل لهم على عبادة العجل هو كفرهم السابق ، قيل : ويجوز أن يكون الباء بمعنى مع يعنون أن يكون للحال ، أي : مصحوباً بكفرهم ، فيكون ذلك كفراً على كفر ﴿ قل ﴾ يا محمد ، أو قل يا من يجادلهم ﴿ بئسما يأمركم به إيمانكم ﴾ تقدم الكلام في بئس ، وفي المذهب في ما ، فأغنى عن إعادته ، وقرأ الحسن ومسلم بن جندب بـ (هو إيمانكم) بضم الهاء ووصلها بواو وهي لغة والضم في الأصل ، لكن كسرت في أكثر اللغات لأجل كسرة الباء ، وعنى بإيمانهم الذي زعموا في قولهم (نؤمن بما أنزل علينا) ، وأضاف الأمر إلى إيمانهم على طريق التهكم ، كما قال أصحاب شيعب (أصولاتك تأمرك أن نترك) ، وقيل : ثم محذوف تقديره : صاحب إيمانكم وهو إبليس ، وقيل : ثم صفة محذوفة التقدير إيمانكم الباطل ، وأضاف الإيمان إليهم ، لكونه إيماناً غير صحيح ، ولذلك لم يقل الإيمان ، قاله بعض معاصرينا رحمهم الله ، والمخصوص بالذم محذوف بعد ما ، فإن كانت منصوبة فالتقدير بئس شيئاً يأمركم به إيمانكم ، قتل الأنبياء ، والعصيان ، وعبادة العجل ، فيكون (يأمركم) صفة للتمييز ، أو يكون التقدير : بئس شيئاً شيء يأمركم به إيمانكم ، فيكون (يأمركم) صفة للمخصوص بالذم المحذوف ، أو يكون التقدير بئس شيئاً ما يأمركم : أي الذي يأمركم فيكون يأمركم به إيمانكم ، والمخصوص مقدر بعد ذلك ، أي : قتل الأنبياء وكذا وكذا فيكون ما موصولة ، أو يكون التقدير : بئس الشيء شيء يأمركم به إيمانكم فيكون ما تامة ، وهذا كله تفريع على قول من جعل لما وحدها موضعاً من الإعراب ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ قيل : إن نافية وقيل : شرطية ، قال الزمخشري^(١) : تشكيك في إيمانهم ، وقدر في صحة دعواهم انتهى كلامه . وقال ابن عطية : وقد يأتي الشرط والشارط يعلم أن الأمر على أحد الجهتين ، كما قال الله عن عيسى عليه السلام : ﴿ إن كنت قلتة فقد علمته ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وقد علم عيسى عليه السلام أنه لم يقله ، وكذلك (إن كنتم مؤمنين) ، والقائل يعلم أنهم غير مؤمنين ، لكنه أقام حجة لقياس بين انتهى كلامه . وهو يؤول من حيث المعنى إلى نفي الإيمان عنهم ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : إن كنتم مؤمنين فبئس ما يأمركم به إيمانكم ، وقيل : تقديره إن كنتم مؤمنين ، فلا تقتلوا الأنبياء ، ولا تكذبوا الرسل ، ولا تكتنموا الحق ، وتقدير الحذف الأول أعرب وأقوى ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة ﴾ نزلت فيما حكاه ابن الجوزي عندما قالت اليهود : إن الله لم يخلق الجنة إلا لإسرائيل وبنيه ، وقال أبو العالية والربيع : سبب نزول هاتين الآيتين قولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴾ [البقرة : ١١١] ، و (نحن أبناء الله) (ولن تمسنا النار) الآيات ، وروي مثله عن قتادة ، والضمير في قل إما للنبي ﷺ ، وإما لمن ينبغي إقامة الحجة عليهم منه ومن غيره ، وفسروا الدار الآخرة بالجنة ، قالوا : وذلك معهود في إطلاقها على الجنة قال تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) ، ومعلوم أن ما يجعل لهؤلاء هو الجنة (وللدار الآخرة خير الذين يتقون) ، والأحسن أن يكون ذلك على حذف مضاف دل عليه المعنى ، أي : نعيم الدار الآخرة وحظوتها وخيرها ، لأن الدار الآخرة هي موضع الإقامة بعد انقضاء الدنيا ، وسميت آخرة لأنها متأخرة عن الدنيا ، أو هي آخر ما يسكن ،

وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله (وهم بالآخرة هم يوقنون) ، ومعنى عند الله أي : في حكم الله كقوله تعالى فأولئك عند الله أي : في حكمه هم الفاسقون ، وقيل : المراد بالعندية هنا المكانة والمزتبة والشرف لا المكان ، ومعنى (خالصة) أي : مختصة بكم لاحظ في نعيمها لغيركم ، واختلفوا في إعراب (خالصة) ، فقيل : نصب على الحال ولم يحك الزمخشري غيره ، فيكون لكم إذ ذاك خبر كانت ، ويكون العامل في الحال هو العامل في المجرور ، ولا يجوز أن يكون الظرف إذ ذاك الخبر ، لأنه لا يستقل معنى الكلام به وحده ، وقد وهم في ذلك المهدوي وابن عطية إذ قالوا : ويجوز أن يكون نصب (خالصة) على الحال و (عند الله) خبر كان ، وقيل : انتصاب (خالصة)^(١) على أنه خبر كان ، فيجوز في (لكم) أن يتعلق بكانت ، لأن كان يتعلق بها حرف الجر ، ويجوز أن يتعلق بـ (خالصة) ، ويجوز أن تكون للتبيين ، فيتعلق بمحذوف تقديره : لكم أعني نحو قولهم : سقيا لك ، إذ تقديره ، لك أَدْعُوْا من دون الناس ﴿ متعلق بـ (خالصة) ودون هنا لفظ يستعمل للاختصاص وقطع الشركة تقول : هذا لي دونك ، وأنت تريد لا حق فيه لك معي ولا نصيب ، وفي غير هذا المكان يأتي بمعنى الانتقاص في المنزل ، أو المكان ، أو المقدار ، والمراد بالناس الجنس ، وهو الظاهر لدلالة اللفظ وقوله (خالصة) ، وقيل المراد النبي ﷺ والمسلمون ، وقيل : المراد به النبي ﷺ قاله ابن عباس ، قالوا : يطلق الناس ويراد به الرجل الواحد ، وهذا لا يكون إلا على مجاز ، وتنزيل الرجل الواحد منزلة الجماعة ﴿ فتمنوا الموت ﴾ أي : سلوه باللسان فقط ، وإن لم يكن بالقلب قاله ابن عباس^(٢) ، أو تمنوه بقلوبكم وأسألوه بألستكم قاله قوم ، أو فسلوه بقلوبكم على أردإ الحزين من المؤمنين ، أو منهم ، وروي عن ابن عباس وغيره ، وقرأ الجمهور (فتمنوا الموت) بضم الواو ، وهي اللغة المشهورة في مثل : اخشوا القوم ، ويجوز الكسر تشبيهاً لهذه الواو بواو لو استطعنا ، كما شبهوا واو لَوْبُواوِ اخشُوا فضموا فقالوا : لو استطعنا ، وقرأ ابن أبي إسحاق (فَمَتَمُّوا الموت) بالكسر ، وحكى أبو علي الحسن بن إبراهيم بن يزداد عن أبي عمرو أنه قرأ (فَمَتَمُّوا الموت) بفتح الواو وحرّكها بالفتح طلباً للتخفيف ، لأن الضمة والكسرة في الواو يثقلان ، وحكى أيضاً عن أبي عمرو اختلاس ضمة الواو ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم أن الجنة لكم دون غيركم وجواب الشرط محذوف أي : فتمنوا الموت ، وعلق تمنيتهم على شرط مفقود وهو كونهم صادقين ، وليسوا بصادقين في أن الجنة خالصة لهم دون الناس ، فلا يقع التمني ، والمقصود من ذلك التحدي ، وإظهار كذبهم ، وذلك أن من أيقن أنه من أهل الجنة اختار أن ينتقل إليها ، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار ، وأن يصل إلى دار القرار ، كما روي عن شهد له رسول الله ﷺ بالجنة ، كعثمان ، وعليّ ، وعمار ، وحذيفة : أنهم كانوا يختارون الموت ، وكذلك الصحابة كانت تختار الشهادة ، وفي الحديث الصحيح أنه قال ﷺ : « ليتني أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا فأقتل ، لما علم من فضل الشهادة » ، وقال لما بلغه قتل من قتل ببئر معونة : يا ليتني غودرت معهم في لحف الجبل ، وروي عن حذيفة أنه كان يتمنى الموت فلما احتضر قال : حبيب جاء على فاقة ، وعن عمار لما كان بصفين قال :

غَدَا نَلْقَى الْأَجْبَهَ مُحَمَّدًا وَصَحْبَه

وعن عليّ أنه كان يطوف بين الصفين بغلالة ، فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزّي المحاربين ، فقال : يا بني لا يبالي أبوك أعلى الموت سقط ، أم عليه سقط الموت ، وكان عبد الله بن رواحة ينشد وهو يقاتل الروم :

يَا حَبْدَا الْجَنَّةِ وَأَقْبَرَابَهَا طَيِّبَةً وَبَارِدُ شَرَابَهَا

(١) يقال : هذا الشيء خالصة لك أي : خالص لك خاصة - لسان العرب (١٢٢٧/٢) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٣٦٣/٢) ، تفسير القرطبي (٢٤/٢) .

وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا

وفي قصتي قتل عثمان وسعيد بن جبير ما يدل على اختيارهما الشهادة ، وذلك أن عثمان جاءه جماعة من الصحابة فقالوا له : نقاتل عنك فقال لهم ، لا وكان له قريب من ألف عبد فشهروا سيوفهم لما هجم عليه ، فقال : من أغمد سيفه فهو حرّ ، فصبر حتى قتل ، وأما سعيد فإن الموكلين به لما طلبه الحجاج لما شاهدوا من لياذ السباع به وتمسحها به قالوا : لا ندخل في إراقة دم هذا الرجل الصالح ، وقالوا له طلبك ليقتلك فاذهب حيث شئت ونحن نكون فداءك ، فقال : لا والله إني سألت ربي الشهادة وقد رزقنيها والله لا برحت ، وروي عن النبي ﷺ لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه ، فمات مكانه ، وما بقي على وجه الأرض يهودي ، وذلك أن الله أمر نبيه أن يدعوهم إلى تمني الموت ، وأن يعلمهم أنه من تمناه منهم مات ، ففعل النبي ﷺ ذلك ، فعلم اليهود صدقه ، فأحجموا عن تمنيه فرقاً من الله ﴿ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ هذا من المعجزات لأنه إخبار بالغيب ، ونظيره من الإخبار بالمغيب قوله (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) وظاهره أن من ادّعى أن الجنة خالصة له دون الناس ممن اندرج تحت الخطاب في قوله (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) لا يمكن أن يتمنى الموت أبداً ، ولذلك كان حرف النفي هنا لن الذي قد ادّعى فيه أنه يقتضي النفي على التأييد ، فيكون قوله (أبداً) على زعم من ادّعى ذلك للتوكيد ، وأما من ادّعى أنه بمعنى لا فيكون (أبداً) إذ ذاك مفيداً لاستغراق الأزمان ، ويعنى بالأبد هنا ما يستقبل من زمان أعمارهم وفي « المنتخب » ما نصه : وإنما قال هنا (ولن يتمنوه) ، وفي الجمعة (ولا يتمنونه) ، لأن دعواهم هنا أعظم من دعواهم هناك ، لأن السعادة القصوى فوق مرتبة الولاية ، لأن الثانية تراد لحصول الأولى ، و (لن) أبلغ في النفي من لا ، فجعلها النفي الأعظم انتهى كلامه . قال المهدوي في كتاب « التحصيل » من تأليفه : وهذه المعجزة إنما كانت على عهد النبي ﷺ ثم ارتفعت بوفاته ﷺ ، ونظير ذلك رجل يقول لقوم حدثهم بحديث : دلالة صدقي أن أحرك يدي ولا يقدر أحد منكم أن يحرك يده ، فيفعل ذلك فيكون دليلاً على صدقه ، ولا يبطل دلالته إن حركوا أيديهم بعد ذلك انتهى كلامه ، وقد قاله غيره من المفسرين قال : « ابن عطية » : والصحيح أن هذه النازلة من موت من تمنى الموت ، إنما كانت أياماً كثيرة عند نزول الآية ، وهي بمنزلة دعائه النصراني من أهل نجران إلى المباهلة^(١) انتهى كلامه ، وكلا القولين أعني - قول المهدوي وابن عطية - مخالفان لظاهر القرآن لأن أبداً ظاهره أن يستغرق مدة أعمارهم كما بيناه ، وهل امتناعهم من تمني الموت كان لعلمهم أن كل نبي عرض على قومه أمراً ، وتوعدهم عليه بالهلاك ، فردوه تكذيباً له ، فإن ما توعدهم به واقع لا محالة ، أولعلمهم بصدق رسول الله ﷺ وأنه لا يقول على الله إلا الحق ، أولصرف الله إياهم عن ذلك كما قيل : في عدم معارضة القرآن بالصرقة ، أقوال ثلاثة . والظاهر أن ذلك معلل بما قدمت أيديهم والذي قدمته أيديهم تكذيبهم الأنبياء وقتلهم إياهم وقولهم (أرنا الله جهرة) وقولهم (اجعل لنا إلهاً) وقولهم (فاذهب أنت وربك) واعتداؤهم في السبت ، وسائر الكبائر التي لم تصدر من أمة قبلهم ولا بعدهم ، وهذا التمني الذي طلب منهم ، ونفي عنهم لم يقع أصلاً منهم ، إذ لو وقع لنقل وتوفرت دواعي المخالفين للإسلام على نقله ، وقد تقدّمت الأقوال في تفسير التمني ، والظاهر أنه لا يعنى به هنا العمل القلبي لأنه لا يطلع عليه فلا يتحدى به ، وإنما عني به القول اللساني ، كقولك : ليت الأمر يكون ألا ترى أنه يقال لقاتل ذلك : تمنى . وتسمى ليت كلمة تمنّ ، ولم ينقل أيضاً أنهم قالوا : تمنينا ذلك بقلوبنا ، ولا جائز أن يكون امتناعهم من الإخبار أنهم تمنوا بقلوبهم كونهم لا يصدّقون في

(١) البَهْلُ : اللعن ... وبهله الله بهلاً : لعنه ، وعليه بهلة الله ، وبهله أي لعنته ، وباهل القوم بعضهم بعضاً ، وتباهلوا وابتهلوا : تلاعنوا ، والمباهلة : الملاعة - لسان العرب (٣٧٥ / ١) .

ذلك ، لأنهم قد قالوا المسلمين بأشياء لا يصدقونهم فيها من الافتراء على الله ، وتحريف كتابه ، وغير ذلك ، وقال الماتريدي ما ملخصه : إن المؤمن يقول : إن الجنة له ، ومع ذلك ليس يتمنى الموت ، وأجاب بأنه لم يجعل لنفسه من المنزلة عند الله من ادعاء بنوة ، ومحبة من الله لهم ما جعلته اليهود ، لأن جميع المؤمنين غير الأنبياء لا يزول عنهم خوف الخاتمة ، والخطيء منهم مفتقر إلى زمان يتدارك فيه تكفير خطئه ، فلذلك لم يتمن المؤمنون الموت ، ولذلك كان المبشرون بالجنة يتمنونوه وذكروا في (ما) من قوله (بما قدّمت) أنها تكون مصدريّة ، والظاهر أنها موصول ، والعائد محذوف ، وهي كناية عما اجترحوه من المعاصي السابقة ، ونسب التقديم ليد مجازاً ، والمعنى بما قدّموه إذ كانت اليد أكثر الجوارح تصرفاً في الخير والشر ، وكثر هذا الاستعمال في القرآن (ذلك بما قدّمت يداك) (بما قدّمت أيديكم) (فيما كسبت أيديكم) ، وقيل : المراد اليد حقيقة هنا ، والذي قدّمته أيديهم هو تغيير صفة رسول الله ﷺ وكان ذلك بكتابة أيديهم ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ هذه جملة خبرية . ومعناها التهديد والوعيد ، وعلم الله متعلق بالظالم وغير الظالم ، فالإقتصار على ذكر الظالم يدل على حصول الوعيد ، وقيل : معناه مجازيهم على ظلمهم ، فكفى بالعلم عن الجزاء ، وعلق العلم بالوصف ليدل على العلية ، والألف واللام في الظالمين للعهد ، فتخص باليهود الذين تقدّم ذكرهم ، أو للجنس فتعم كل ظالم ، وإنما ذكر الظالمين ، لأن الظلم هو تجاوز ما حدّ الله ، ولا شيء أبلغ في التعدي من ادعاء خلوص الجنة لمن لم يتلبس بشيء من مقتضياتها ، وانفراده بذلك دون الناس ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ الخطاب هنا للنبي ﷺ ووجد هنا متعدية إلى مفعولين ، أحدهما : الضمير ، والثاني : أحرص الناس ، وإذا تعدّت إلى مفعولين كانت بمعنى علم المتعدية إلى اثنين ، كقوله تعالى (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) وكونها هنا تعدّت إلى مفعولين هو قول من وقفنا على كلامه من المفسرين ، ويحتمل أن يكون وجد هنا بمعنى لقي وأصاب ، ويكون انتصاب أحرص على الحال ، لكن لا يتم هذا إلا على مذهب من يرى أن إضافة أفعل التفضيل ليست بمحضة ، وهو قول الفارسي ، وقد ذهب إلى ذلك من أصحابنا الأستاذ أبو الحسن بن عصفور ، أما من قال بأنها محضة ولا يجيز في الحال أن تأتي معرفة فلا يجوز عنده في أحرص النصب على الحال ، وأحرص هنا هي أفعل التفضيل ، وهي مؤولة بمعنى من ، وقد أضيف إلى معرفة فيجوز فيها الوجهان ، أحدهما : أن يفرد مذكره وإن كانت جارية على مفرد ، ومثنى ، ومجموع ، ومذكر ، ومؤنث ، والثاني أن يطابق ما قبلها ، فمن الوجه الأول أحرص الناس ولوجاء على المطابقة لكان أحرص الناس ، أو أحرصني الناس ، ومن الوجه الثاني قوله (أكابر مجرميها) كلا الوجهين فصيح ، وذكر أبو منصور الجواليقي أن المطابقة أفصح من الأفراد ، وذهب ابن السراج إلى تعيين الأفراد وليس بصحيح ، وإذا أضيفت إلى معرفة ، كهذين الموضعين فشرط ذلك أن يكون بعض ما يضاف إليه ، ولذلك منع البصريون يوسف أحسن إخوته ، على أن يكون أحسن أفعل التفضيل ، وتأولوا ما ورد مما يشبه وشذ نحوه قوله :

يَا رَبِّ مُوسَى أَظْلَمِي وَأَظْلَمَهُ

يريد أظلمنا ، حيث لم يضيف أظلم إلى ما هو بعضه ، والضمير المنصوب في (ولتجدنهم) عائد على اليهود الذين أخبر عنهم بأنهم لا يتمنون الموت ، أو على جميع اليهود ، أو على علماء بني إسرائيل ، أقوال ثلاثة . وأتى بصيغة أفعل من الحرص مبالغة في شدة طلبهم للبقاء ودوام الحياة ، و (الناس) الألف واللام للجنس ، فتعم ، أو للعهد ، إما لأن يكون المراد جماعة من الناس معروفين غلب عليهم الحرص على الحياة ، أو لأن يكون المراد بذلك المجوس ، أو مشركي العرب ، لأن أولئك لا يوقنون بيعث ، فليس عندهم إلا نعيم الدنيا ، أو يؤسها ، ولذلك قال بعضهم :

تَمَتَّعَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَإِنْ مَنِ النَّشَوَاتِ وَالنَّسَا الْجِسَانِ

وقال آخر :

إِذَا انْقَضَتِ الدُّنْيَا وَزَالَ نَعِيمُهَا فَمَا لِي فِي شَيْءٍ سِوَى ذَلِكَ مَطْمَعٌ

﴿ على حياة ﴾ قدروا فيه أنه على حذف مضاف ، أي : على طول حياة ، أو على حذف صفة ، أي : على حياة طويلة ، ولو لم يقدر حذف لصح المعنى ، وهو أن يكون أحرص الناس على مطلق حياة ، لأن من كان أحرص على مطلق حياة ، وهو تحققها بأدنى زمان ، فلأن يكون أحرص على حياة طويلة أولى ، وكانوا قد ذموا بأنهم أشد الناس حرصاً على حياة : ولو ساعة واحدة ، وقرأ أبي (على الحياة) بالالف واللام ، قال الزمخشري^(١) ما معناه : قراءة التنكير أبلغ من قراءة أبي ، لأنه أراد حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة انتهى ، وقد بينا أنه لا يضطر إلى هذه الصفة ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ يجوز أن يكون متصلاً داخلاً تحت أفعل التفضيل ، فيكون ذلك من الحمل على المعنى ، لأن معنى (أحرص الناس) أحرص من الناس ويحتمل أن يكون ذلك من باب الحذف ، أي : وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف (أحرص) لدلالة أحرص الأول عليه ، والذين أشركوا المجوس ، لعبادتهم النور والظلمة ، وقيل : النار أو مشركو العرب لعبادتهم الأصنام ، واتخاذهم آلهة مع الله ، أو قوم المشركين ، كانوا ينكرون البعث كما قال تعالى ﴿ يقولون أثنا لمردودون في الحافرة ، أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ وعلى هذه الأقوال يكون (ومن الذين أشركوا) تخصيصاً بعد تعميم إذا قلنا : إن قوله (أحرص الناس) عام ، ويكون في ذلك أعظم توبيخ لليهود ، إذ هم كتاب يرجون ثواباً ويخافون عقاباً ، وهم مع ذلك أحرص ممن لا يرجو ذلك ولا يؤمن ببعث ، وإنما كان حرصهم أبلغ لعلمهم بأنهم صائرون إلى العقاب ، فكانوا أحب الناس في البعد منه ، لأن من توقع شراً كان أنفر الناس عنه ، فلما كانت الحياة سبباً في تباعد العقاب كانوا أحرص الناس عليها ، وعلى هذا الذي تقرّر من اتصال (ومن الذين أشركوا) بأفعل التفضيل فلا بد من ذكر من ، لأن (أحرص الناس) جرى على اليهود ، فلو عطف بغير من لكان معطوفاً على الناس ، فيكون في المعنى : ولتجدنهم أحرص الذين أشركوا ، فكان أفعل يضاف إلى غير ما اندرج تحته ، لأن اليهود ليسوا من المشركين ، أعني : المشركين الذين فسر بهم الذين أشركوا هنا ، إلا إذا قلنا : إن الثواني في العطف يجوز فيها ما لا يجوز في الأوائل ، فإنه يصح ذلك ، وأما قول من زعم أن قوله (ومن الذين أشركوا) معطوفاً على الضمير في قوله (ولتجدنهم) أي : ولتجدنهم وطائفة من الذين أشركوا أحرص الناس على حياة ، فيكون في الكلام تقديم وتأخير ، فهو معنى يصح ، لكن اللفظ والتركيب ينبو عنه ويخرجه عن الفصاحة ، ولا ضرورة تدعو إلى أن يكون ذلك من باب التقديم والتأخير ، لا سيما على قول من يخص التقديم والتأخير بالضرورة ، وهذا البحث كله على تقدير أن تكون الواو في (ومن الذين أشركوا) لعطف مفرد على مفرد ، وأما إذا كانت لعطف الجمل ، فيكون إذ ذاك منقطعاً من الدخول تحت أفعل التفضيل ، ويكون ابتداء إخبار عن قوم من المشركين يودون طول الحياة أيضاً ، وتقدّم أن المعنى بالذين أشركوا أهم المجوس ، أم مشركو العرب ، أم قوم من المشركين في الوجه الأول ، وأما على أن يكون استئناف إخبار ، فقال ابن عطية : هم المجوس لأن تشميتهم للعاطس بلغتهم معناه عش ألف سنة ، وفي هذا القول تشبيه لبني إسرائيل بهذه الفرقة من المشركين انتهى كلامه ، قال الزمخشري^(٢) : والذين أشركوا على هذا ، أي : على أنه كلام مبتدأ مشار به إلى اليهود ، لأنهم قالوا : عزيز ابن الله انتهى كلامه ، فعلى هذا القول يكون قد أخبر أن من هذه الطائفة التي اشتد حرصها على الحياة من يودّ لو عمر ألف سنة ، فيكون ذلك نهاية في تمني طول الحياة ، ويكون الذين أشركوا من وقوع

(١) انظر الكشف (١/ ١٦٨) .

(٢) انظر الكشف (١/ ١٦٨) .

الظاهر لمشعر بالعلية موقع المضمر ، إذ المعنى : ومنهم قوم يود أحدهم ، ويود أحدهم صفة لمبتدأ محذوف ، أي : ومن الذين أشركوا قوم يود أحدهم ، وهذا من المواضع التي يجوز حذف الموصوف فيها كقوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) وكقول العرب : مِنَّا ظَعْنٌ وَمِنَّا أَقَامٌ ، وعلى أن تكون الواو في (ومن الذين أشركوا) لعطف المفرد على المفرد ، قالوا : ويكون قوله (يود أحدهم) جملة في موضع الحال ، أي : وإذا أحدهم ، قالوا : ويكون حالاً من الذين ، فيكون العامل أحرص المحذوف ، أو من الضمير في (أشركوا) فيكون العامل (أشركوا) ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المنصوب في (ولتجدنهم) أي : ولتجدنهم الأحرصين على الحياة وإذا أحدهم ، ويجوز أن يكون استئناف إخبار عنهم ، يبين حال أمرهم في ازدياد حرصهم على الحياة ، ﴿ أحدهم ﴾ أي واحد منهم ، وليس أحد هنا هو الذي في قولهم : ما قام أحد ، لأن هذا مستعمل في النفي ، أو ما جرى مجراه ، والفرق بينهما أن أحداً هذا أصوله همزة وحاء ودال ، وأصول ذلك واو وحاء ودال ، فالهمزة في أحدهم بدل من واو ، ولا يراد بقوله (يود أحدهم) أي : يود واحد منهم دون سائرهم ، وإنما أحدهم هنا عام عموم البدل ، أي : هذا الحكم عليهم يودهم أن يعمرُوا ألف سنة ، هو يتناول كل واحد واحد منهم على طريقة البدل ، فكان المعنى : أنك إذا نظرت إلى حرص واحد منهم ، وشدة تعلق قلبه بطول الحياة وجدته لو عمر ألف سنة ﴿ لو يعمر ألف سنة ﴾ مفعول الودادة محذوف تقديره : يود أحدهم طول العمر ، وجواب لو محذوف تقديره لو يعمر ألف سنة لسر بذلك ، فحذف مفعول يود للدلالة لو يعمر عليه ، وحذف جواب لو لدلالة يود عليه ، هذا هو الجاري على قواعد البصريين في مثل هذا المكان ، وذهب بعض الكوفيين وغيرهم في مثل هذا إلى أن (لو) هنا مصدرية بمعنى ان ، فلا يكون لها جواب ، وينسبك منها مصدر هو مفعول يود ، كأنه قال : يود أحدهم تعمير ألف سنة ، فعلى هذا القول لا يكون في الكلام حذف ، وعلى القول الأول لا يكون لقوله (لو يعمر ألف سنة) محل إعراب وعلى القول الثاني محله نصب على المفعول كما ذكرنا ، والترجيح بين القولين هو المذكور في علم النحو ، قال الزمخشري^(١) : فإن قلت كيف اتصل (لو يعمر) بـ (يود أحدهم) قلت : هو حكاية لودادتهم و (لو) في معنى التمني ، وكان القياس لو أعمر إلا أنه جرى على لفظ الغيبة ، لقوله (يود أحدهم) كقولهم : حلف بالله ليفعلن انتهى كلامه وفيه بعض إبهام ، وذلك أن يود فعل قلبي ، وليس فعلاً قولياً ولا معناه معنى القول ، وإذا كان كذلك فكيف تقول : هو حكاية لودادتهم إلا أن ذلك لا يسوغ إلا على تجويز ، وذلك أن يجرى يود مجرى يقول ، لأن القول ينشأ عن الأمور القلبية ، فكأنه قال : يقول أحدهم عن ودادة من نفسه لو أعمر ألف سنة ، ولا تحتاج لو إذا كانت للتمني إلى جملة جوابية ، لأن معناها معنى يا ليتني أعمر ، وتكون إذ ذاك الجملة في موضع مفعول على طريق الحكاية ، فتلخص بما قررناه في لو ثلاثة أقوال ، أن تكون حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، وأن تكون مصدرية ، وأن تكون للتمني ، محكية ، ومعنى (ألف سنة) العمر الطويل في أبناء جنسه ، فيكون ألف سنة كناية عن الزمان الطويل ، ويحتمل أن يزيد ألف سنة حقيقة وإن كان يعلم أنه لا يعيش ألف سنة ، لأن التمني يقع على الجائز والمستحيل عادة ، أو عقلاً ، فيكون هذا معناه أنهم لشدة حرصهم في ازدياد الحياة ، يتعلق تمنيههم في ذلك بما لا يمكن وقوعه عادة ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ الضمير من قوله (وما هو) عائد على أحدهم ، وهو اسم ما ، و (بمزحزحه)^(٢) خبر ما فهو في موضع نصب ، وذلك على لغة أهل الحجاز ، وعلى ذلك ينبغي أن يحمل ما ورد في القرآن من ذلك (وأن يعمر) فاعل بمزحزحه ، أي : وما أحدهم مزحزحه من العذاب تعميره ، وجوزوا أيضاً في هذا الوجه أعني أن يكون الضمير عائداً على أحدهم ، أن يكون هو

(١) انظر الكشف (١٦٨/١) .

(٢) زحزح : أي نحى وأبعد ... زحزحه فتزحزح : دفعه ونحاه عن موضعه فتنحى وباعده منه - لسان العرب (٣/١٨١٦) .

مبتدأ وبمزرحة خبر ، وأن يعمر فاعل بمزرحة ، فتكون ما تميمية ، وهذا الوجه أعني : أن تكون ما تميمية هو الذي ابتدأ به ابن عطية ، وأجازوا أن يكون هو ضميراً عائداً على المصدر المفهوم من قوله (لو يعمر) و (أن يعمر) بدل منه ، وارتفاع هو على وجهيه من كونه اسم ما ، أو مبتدأ ، وقيل : هو كناية عن التعمير و (أن يعمر) بدل منه ، ولا يعود هو على شيء قبله ، والفرق بين هذا القول والذي قبله أن مفسر الضمير هنا هو البدل ، ومفسره في القول الأول هو المصدر الدال عليه الفعل في (لو يعمر) . وكون البدل يفسر الضمير فيه خلاف ، ولا خلاف في تفسير الضمير بالمصدر المفهوم من الفعل السابق ، فهذا يفسره ما قبله ، وذاك يفسره ما بعده ، وهذا الذي عني الزمخشري^(١) بقوله : ويجوز أن يكون هو مبهماً ، و (أن يعمر) موضحة ، يعني أن يكون هو لا يعود على شيء قبله و (أن يعمر) بدل منه وهو مفسر ، وأجاز أبو علي الفارسي في الحلييات أن يكون هو ضمير الشأن ، وهذا ميل منه إلى مذهب الكوفيين ، وهو أن مفسر ضمير الشأن ، وهو المسمى عندهم بالمجهول يجوز أن يكون غير جملة ، إذا انتظم إسناداً معنوياً نحو ظنته قائماً زيد ، وما هو بقائم زيد ، فهو مبتدأ ضمير مجهول عندهم ، وبقائم في موضع الخبر ، وزيد فاعل بقائم ، وكان المعنى عندهم ما هو يقوم زيد ، ولذلك أعربوا في ظنته قائماً زيد الهاء ضمير المجهول ، وهي مفعول ظنت وقائماً المفعول الثاني ، وزيد فاعل بقائم ، ولا يجوز في مذهب البصريين أن يفسر إلا بجملة مصرّح بجزأها سالمة من حرف جر ، قال ابن عطية : وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت هو عماد انتهى كلامه ، ويحتاج إلى تفسير ، وذلك أن العماد في مذهب بعض الكوفيين يجوز أن يتقدّم مع الخبر على المبتدأ ، فإذا قلت ما زيد هو القائم ، جَوَزُوا أن تقول ما هو القائم زيد ، فتقدير الكلام عندهم : وما تعميره هو بمزرحة ، ثم قدم الخبر مع العماد فجاء وما هو بمزرحة من العذاب أن يعمر ، أي : تعميره ، ولا يجوز ذلك عند البصريين ، لأن شرط الفصل عندهم أن يكون متوسطاً ، وتلخص في هذا الضمير أهو عائداً على أحدهم ، أو على المصدر المفهوم من يعمر ، أو على ما بعده من قوله (أن يعمر) أو هو ضمير الشأن ، أو عماد أقوال خمسة أظهرها الأول ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ قرأ الجمهور (يَعْمَلُونَ) بالياء على نسق الكلام السابق ، وقرأ الحسن وقتادة والأعرج ويعقوب بالتاء على سبيل الالتفات والخروج من الغيبة إلى الخطاب ، وهذه الجملة تتضمن التهديد والوعيد ، وأتى هنا بصفة بصير ، وإن كان الله تعالى منزهاً عن الجارحة إعلماً بأن علمه بجميع الأعمال علم إحاطة وإدراك للخفيات ، وما في (بما) موصولة . والعائد محذوف ، أي : يعملونه ، وجَوَزُوا فيها أن تكون مصدرية ، أي : بعملهم ، وأتى بصيغة المضارع وإن كان علمه تعالى محيطاً بأعمالهم السالفة والآتية لتواخي الفواصل ، وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة الامتنان على بني إسرائيل ، وتذكّارهم بنعم الله ، إذ أتى موسى التوراة المشتملة على الهدى والنور ، وَوَالَى بعده بالرسول لتجديد دين الله وشرائعه ، وآتى عيسى الأمور الخارقة من إحياء الأموات ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإيجاد المخلوق ، ونفخ الروح فيه ، والإنباء بالمغيبات وغير ذلك ، وأيده بمن ينزل الوحي على يديه ، وهو جبريل عليه السلام ، ثم مع هذه المعجزات والنعم كانوا أبعد الناس عن قبول ما يأتيهم من عند الله ، وكانوا بحيث إذا جاءهم رسول بما لا يوافقهم بادروا إلى تكذيبه ، أو قتلوه . وهم غير مكترئين بما يصدر منهم من الجرائم ، حتى حكى أنهم في أثر قتلهم الجماعة من الأنبياء تقوم سوق البقل بينهم ، التي هي أرذل الأسواق ، فكيف بالأسواق التي تباع فيها الأشياء النفيسة ، ثم نعى تعالى عليهم أنهم باقون على تلك العادة من تكذيب ما جاء من عند الله ، وإن كانوا قبل مجيئه يذكرون أنه يأتيهم من عند الله ، فحين وافاهم ما كانوا ينتظرونه ويعرفونه كفروا به ، فختم الله عليهم باللعنة ، وأن سبب طردهم عن رحمة الله هو ما سبق من كفرهم ، وأن إيمانهم كان قليلاً إذ كانوا قبل مجيء الكتاب يؤمنون بأنه سيأتي كتاب ، ثم أخذ في ذكر ذمهم ، أن باعوا أنفسهم

النفسية بما يترتب لهم على كفرهم بآيات الله من المآكل والرياسات المنقضية في الزمن اليسير ، وأن الحامل على ذلك هو البغي والحسد ، لأن اختصاص الله بفضلته من شاء من عباده ، فلم يرضوا بحكمه ، ولا باختياره ، فباؤوا بالغضب من الله ، وأعد لهم في الآخرة العذاب الذي يذلهم ويهينهم ، إذ كان امتناعهم من الإيمان إنما هو للتكبر والحسد وعدم الرضا بالقدر ، فناسب ذلك أن يعذبوا العذاب الذي فيه صغار لهم وذلة وإهانة ، ثم أخبر تعالى عنهم : أنهم إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله أجابوا : أنهم يؤمنون بالتوراة وأنهم يكفرون بما سواها ، هذا والكتب المنزلة من عند الله سواء ، إذ كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، فالكفر ببعضها كفر بجميعها ، ثم أخبر تعالى بكذبهم في قولهم (نؤمن بما أنزل علينا) وذلك بأنهم قتلوا الأنبياء والتوراة ناطقة باتباع الأنبياء والافتداء بهم ، فقد خالف قولهم فعلهم ، ثم كرر عليهم توبيخاً لهم أن موسى الذي أنزل عليه التوراة ، وأنهم يزعمون أنهم آمنوا بها ، قد جاءهم بالأشياء الواضحة ، والمعجزات الخارقة ، من نجاتهم من فرعون ، وفلق البحر ، وغير ذلك ، ومع ذلك اتخذوا من بعد ذهابه إلى مناجاة ربه إلهاً من أبعد الحيوان ذهناً وأبلدها ، وهو العجل المصنوع من حليهم ، المشاهد إنشاؤه وعمله ، وموسى لم يمت بعد ، وكتاب الله طري نزوله عليهم ، لم يتقدم عهده ، وكرر تعالى ذكر رفع الطور عليهم ، ليقبلوا ما في التوراة ، وأمروا بالسمع والطاعة ، فأجابوا بالعصيان هذا ، وهم ملجئون إلى الإيمان ، أو كالمليئين ، لأن مثل هذا المزج العظيم ، من رفع جبل عليهم ، ليشد خوابه جدير بأن يأتي الإنسان ما أمر به ، ويقبل ما كلف به من التكاليف ، وتأييدهم لذلك وعدم قبولهم ، سببه أن عبادة العجل خامرت قلوبهم ، ومازجتها حتى لم تسمع قبولاً لشيء من الحق ، والقلب إذا امتلأ بحب شيء لم يسمع سواه ، ولم يصغ إلى ملام ، وأنشدوا :

مَلَأْتُ بَعْضَ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِي فَإِنْ تُرِدِ الزِّيَادَةَ هَاتِ قَلْبًا

ثم ذمهم تعالى على ما أمرهم به إيمانهم ، ولا إيمان لهم حقيقة ، بل نسب ذلك إليهم على سبيل التهكم من عبادة العجل ، واتخاذهم إلهاً من دون الله ، ثم كذبهم في دعواهم أن الجنة هي خالصة لهم ، لا يدخلها أحد سواهم ، فأمرهم بتمني الموت لأن من اعتقد أنه يصير إلى سرور وجور ولذة دائمة لا تنقضي يؤثر الوصول إلى ذلك وانقضاء ما هو فيه من الذلة والنكد ، وأخبر تعالى أن تمني الموت لا يقع منهم أبداً ، وأن امتناعهم من ذلك هو بما قدمت أيديهم من الجرائم ، فظهر كذبهم في دعواهم بأنهم أهل الجنة ، ثم أخبر ترشيحاً لما قبله من عدم تمنيه الموت ، أنهم أشد الناس حرصاً على حياة ، حتى إنهم أحرص من الذين لا يؤمنون بالدار الآخرة ، ولا يرجون ثواباً ، ولا يخافون عقاباً ، ثم ذكر أن أحدهم يود أن يعمر ألف سنة ، ومع ذلك فتعمره وإن طال ليس بمنجيه من عذاب الله ، ثم ختم الآيات : بأن الله تعالى مطلع على قبائح أفعالهم ، ومجازيهم عليها ، وتبين بمجموع هذه الآيات ما جبل عليه اليهود من فرط كذبهم ، وتناقض أفعالهم وأقوالهم ، ونقص عقولهم ، وكثرة بهتهم ، أعادنا الله من ذلك ، وسلك بنا أنهج المسالك

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَهْدٍ وَأَعْهَدَ ابْنُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ

ظُهُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبِعُوا مَا نُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى مَلَكٍ مُسَلِّمٍ وَمَا كَفَرَ
 سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِذْنِ
 هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا
 مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ
 مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ
 مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ
 عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

جبريل : اسم ملك علم له ، وهو الذي نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ وهو اسم أعجمي ، ممنوع الصرف ،
 للعلمية والعجمة ، وأبعد من ذهب إلى أنه مشتق من جبروت الله ، ومن ذهب إلى أنه مركب تركيب الإضافة ، ومعنى
 جبر : عبد ، وإيل : اسم من أسماء الله ، لأن الأعجمي لا يدخله الاشتقاق العربي ، ولأنه لو كان مركباً تركيب الإضافة
 لكان مصروفاً ، وقال المهدوي : ومن قال : جبر مثل عبد ، وإيل اسم من أسماء الله ، جعله بمنزلة حضرموت انتهى
 كلامه ، يعني أنه يجعله مركباً تركيب المزج ، فيمنعه الصرف للعلمية والتركيب ، وليس ما ذكر بصحيح ، لأنه إما أن
 يلحظ فيه معنى الإضافة ، فيلزم الصرف في الثاني ، وإجراء الأول بوجوه الإعراب ، أو لا يلحظ فيركبه تركيب المزج ، فما
 يركب تركيب المزج يجوز فيه البناء والإضافة ومنع الصرف ، فكونه لم يسمع فيه الإضافة ، ولا البناء دليل على أنه ليس من
 تركيب المزج ، وقد تصرف في العرب على عاداتها في تغيير الأسماء الأعجمية ، حتى بلغت فيه إلى ثلاث عشرة لغة ،
 قالوا : جبريل كقنديل ، وهي لغة أهل الحجاز وهي قراءة ابن عامر وأبي عمرو ونافع وحفص ، وقال ورقة بن نوفل :

وَجِبْرِيلُ يَأْتِيهِ وَمِيكَالُ مَعَهُمَا مِنْ اللَّهِ وَحْيٌ يَشْرَحُ الصَّدْرَ مُنْزَلٌ

وقال عمران بن حطان^(١) :

وَالرُّوحُ جِبْرِيلُ مِنْهُمْ لَا كِفَاءَ لَهُ وَكَانَ جِبْرِيلُ عِنْدَ اللَّهِ مَأْمُونًا^(٢)

وقال حسان^(٣) :

وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ^(٤)

(١) عمران بن حطان السدوسي الشيباني الوائلي أبو سماك ، رأس القعدة من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ، توفي سنة ٨٤ هجرية - ميزان الاعتدال (٢٧٦/٢) ، الأعلام (٧٠/٥) .

(٢) البيت من الطويل لعمران بن حطان ، شعراء الخوارج ص (١٤٤) .

(٣) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري أبو الوليد ، شاعر النبي ﷺ توفي سنة ٥٤ هجرية - الأعلام (١٧٥/٢) .

(٤) لحسان بن ثابت ، انظر ديوانه ص (٥ - ٦) ، السيرة النبوية (٤ / ١٠٧) ، لسان العرب (جبر - كفا) ، إعراب القرآن للنحاس القرطبي (٢٤/٢) .

وكذلك ، إلا أن الجيم مفتوحة وبها قراءة الحسن وابن كثير وابن محيصن ، قال الفراء : لا أحبها ، لأنه ليس في الكلام فَعْلِيل ، وما قاله ليس بشيء ، لأن ما أدخلته العرب في كلامها على قسمين : منه ما تلحقه بأبنية كلامها كـلِجَام ، ومنه ما لا تلحقه كـإِبْرِيْسَم ، فَجَبْرِيل يفتح الجيم من هذا القبيل ، وقيل : جَبْرِيل مثل شَمُوِيل ، وهو طائر ، وَجَبْرِئِيل : كَعَنْتَرِيْس ، وهي لغة تميم ، وقيس ، وكثير من أهل نجد ، حكاها الفراء . واختارها الزجاج ، وقال : هي أجود اللغات ، وقال حسان :

شَهْدَنَا فَمَا تَلَقَى لَنَا مِنْ كَتِيبَةٍ مَدَى الدَّهْرِ إِلَّا جَبْرِئِيلُ أَمَامَهَا

وقال جرير :

عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَجَبْرِئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالاً^(١)

وهي قراءة الأعمش ، وحمة ، والكسائي ، وحماد بن أبي زياد ، عن أبي بكر عن عاصم ، ورواها الكسائي عن عاصم ، وكذلك إلا أنه بغير باء بعد الهمزة ، وهي رواية يحيى بن آدم ، عن أبي بكر ، عن عاصم ، وتروى عن يحيى بن يعمر ، وكذلك إلا أن اللام مشددة ، وهي قراءة أبان عن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وَجَبْرِئِيلَ ، وَجَبْرِئِيلَ ، وقرأ بهما ابن عباس وعكرمة (وَجَبْرَالُ) (وَجَبْرَائِلُ) بالياء والقصر ، وبها قرأ طلحة (وَجَبْرَائِيلُ) بألف بعد الراء بعدها ياءان ، أولاهما : مكسورة ، وقرأ بها الأعمش ، وابن يعمر أيضاً ، و (جَبْرَيْن) و (جَبْرَيْن) وهذه لغة أسد (وَجَبْرَائَيْن) قال أبو جعفر النحاس : جمع جبريل جمع التكسير على جَبَارِيلَ على اللغة العالية ، إذن به علم به ، وأذنه أعلمه (أذنتكم على سواء) أعلمتكم ، ثم يطلق على التمكن ، أذن لي في كذا أي : مكنتني منه ، وعلى الاختيار فعلته بإذنك ، أي : باختيارك ، مِيكَائِيلُ : الكلام فيه كاللّام في جبريل . أعني : من منع الصرف ، وبعد قول من ذهب إلى أنه مشتق من ملكوت الله ، أو ذهب إلى أن معنى ميكاء عبد ، وإيل اسم من أسماء الله تعالى ، وقد تصرف فيه العرب ، قالوا : ميكال كمفعال ، وبها قرأ أبو عمرو ، وحفص ، وهي لغة الحجاز ، وقال الشاعر :

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالُ وَجَبْرِئِيلُ^(٢)

وكذلك إلا أن بعد الألف همزة ، وبها قرأ نافع وابن شنبوذ^(٣) لقنبل ، وكذلك إلا أنه بياء بعد الهمزة ، وبها قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وأبو بكر ، وغير ابن شنبوذ لقنبل والبزي^(٤) (وَمِيكَئِيلُ) (كَمِيكَئِيلُ) وبها قرأ ابن محيصن ، وكذلك إلا أنه لا ياء بعد الهمزة ، وقرئ بها (وَمِيكَائِيلُ) بياءين بعد الألف ، أولاهما مكسورة ، وبها قرأ الأعمش^(٥) ، نبذ الشيء ينبذه نبذاً طرحه وألقاه ، الظهر : معروف ، وجمع فَعْلَ الاسم غير المعتل العين على فَعُول قياس ،

(١) البيت من الكامل لجرير من قصيدة له في هجاء تغلب ، انظر شرح ديوان جرير ص (٥٤١) ، (٥٤٣) ، وانظر إعراب القرآن للزجاج

(٨٦٨) ، الطبري (٣٤٦/١) ، مجمع البيان للطبرسي (٣٧٤/١) ، الحجة لأبي علي (١٣٣/٢) .

(٢) البيت من البسيط لكعب بن مالك الأنصاري . انظر السيرة لابن هشام (٣٠٥/٣) ، القرطبي (٣٨/٢) ، وانظر الحجة للفراسي

(١٣٨/٢) ، وروايته :

ويوم بدر لقيناهم لنا مدد فيه لدى النصر ميكال وجبريل

(٣) انظر غاية النهاية لابن الجزي (٥٤/٢) . (٤) انظر غاية النهاية (١١٩/١) .

(٥) التَّبَذُ : طرحك الشيء من يدك أمامك أو وراءك . نبذت الشيء أنبذه نبذاً إذا ألقيته من يدك - لسان العرب (٤٣٢٢/٦) .

كَظُهُور ، وعلى فَعْلَان كظُهُرَان ، وهو مشتق من الظهور ، تقول : ظهر الشيء ظهوراً إذا بدا ، تلا يتلو : تبع ، وتلا القرآن : قرأه ، وتلا (١) عليه : كذب قاله أبو مسلم ، وقال أيضاً : تلا عنه صدق ، فإذا لم يذكر الصلتين احتمال الأمرين ، سليمان : اسم أعجمي ، وامتنع من الصرف للعلمية والعجمة ونظيره من الأعجمية في أن في آخره ألفاً ونوناً هامان وماهان وسامان وليس امتناعه من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون كعثمان ، لأن زيادة الألف والنون موقوفة على الاشتقاق والتصريف والاشتقاق والتصريف العريان لا يدخلان الأسماء العجمية ، السحر : مصدر سحر يسحر سحراً ولا يوجد مصدر لفعل يفعل على وزن فعل إلا سَحَر وفعل قاله بعض أهل العلم قال الجوهري : كل ما لطف ودق فهو سَحَر يقال : سحره أبدى له أمراً يدق عليه ويخفى انتهى ، وقال :

أَدَاءُ عَرَانِي مِنْ حَبَائِكِ أَمْ سِحْرُ

ويقال : سحره خدعه . ومنه قول امرئ القيس :

أَرَانَا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ عَيْبٍ وَنَسَحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

أي : نعلل ونخدع وسيأتي الكلام على مدلول السحر في الآية ، بابل اسم أعجمي أرض وسيأتي تعيينها ، هاروت وماروت اسمان أعجميان وسيأتي الكلام على مدلولهما ويجمعان على هواريت ومواريت ويقال : هوارته وموارته ومثل ذلك طالوت وجالوت ، الفتنة : الابتلاء والاختبار فتن يفتن فتوناً وفتنة ، المرء الرجل ، والأفصح فتح الميم مطلقاً ، وحكي : الضم مطلقاً ، وحكي إتباع حركة الميم لحركة الأعراب فتقول قام المرء بضم الميم ورأيت المرء بفتح الميم ومررت بالمرء بكسر الميم ومؤنثه المرأة وقد جاء جمعه بالواو والنون قالوا : المرؤون ، الضرر والنفع معروفان ويقال : يضر بضم الضاد وهو : قياس المضعف المتعدي ومصدره الضر والضرر ويقال : ضار يضير ، قال :

يَقُولُ أَنَاسٌ لَا يَضِيرُكَ نَابُهَا بَلَى كُلُّ مَا شَفَّ النُّفُوسُ يَضِيرُهَا

ويقال : نفع ينفع نفعاً ورأيت في شرح الموجز الذي للرماني في النحو وهو : تأليف رحل يقال له : الأهوازي وليس بأبي علي الأهوازي المقرئ أنه لا يقال : منه اسم مفعول نحو منقوع ، والقياس النحوي يقتضيه ، الخلاق (٢) في اللغة : النصيب قاله الزجاج قال : لكنه أكثر ما يستعمل في الخير قال :

يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ فِيهَا لَا خَلَقَ لَهُمْ إِلَّا السَّرَابِيلَ مِنْ قُطْرٍ وَأَغْلَالٍ

والخلاق القدر ، قال الشاعر :

فَمَا لَكَ بَيْتٌ لَدَى الشَّامِخَاتِ وَمَا لَكَ فِي غَالِبٍ مِنْ خَلَاقٍ

مَثُوبَةٌ مفعلة من الثواب نقلت حركة الواو إلى الثاء ويقال : مَثُوبَةٌ ، وكان قياسه الاعلال فتقول : مَثَابَةٌ ولكنهم

(١) تَلَا إذا اتبع ، فهو تال أي : تابع ، ابن الأعرابي : تلا اتبع ، وتلا إذا تخلف ، وتلا إذا اشترى تَلَوًا ، وهو ولد البغل ، ويقال لولد البغل : تَلَوٌ .

(٢) الْخَلَاقُ : الحظ والنصيب من الخير والصلاح ، يقال : لا خلاق له في الآخرة . ورجل لا خلاق له . أي : لا رغبة له في الخير ولا في الآخرة ولا صلاح في الدين - لسان العرب (١٢٤٨/٢) .

صححوه كما صححوها في الأعلام مكورة ونظيرهما في الوزن من الصحيح مقبره ومقبره ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ أجمع أهل التفسير أن اليهود قالوا جبريل عدونا واختلف في كيفية ذلك وهل كان سبب النزول محاورتهم مع النبي ﷺ أو محاورتهم مع عمر وملخص العداوة : إن ذلك لكونه يأتي بالهلاك ، والخسف ، والجذب ، ولو كان ميكال صاحب محمد لا تبغناه ، لأنه يأتي بالخصب والسلم وكونه دافع عن بخت نصر حين أردنا قتله فخرّب بيت المقدس وأهلكنا وكونه يطلع محمداً ﷺ على سرنا والخطاب بقوله قل للنبي ﷺ ، ومعمول القول الجملة بعد ، ومن هنا شرطية ، وقال الراغب : العداوة التجاوز ومنافاة الالتئام فبالقلب يقال العداوة وبالمشي يقال العدو وبالإخلال في العدل يقال العدوان وبالمكان أو النسب يقال : قوم عدى أي : غرباء ﴿ فإنه نزل ﴾ ليس هذا جواب الشرط لما تقرر في علم العربية أن اسم الشرط ، لا بد أن يكون في الجواب ضمير يعود عليه ، فلو قلت من يكرمني فزيد قائم لم يجز ، وقوله (فإنه نزل ﴾ على قلبك) ليس فيه ضمير يعود على من وقد صرح بأنه جزاء للشرط الزمخشري^(١) ، وهو خطأ لما ذكرناه من عدم عود الضمير ، ولمضي فعل التنزيل ، فلا يصح أن تكون الجملة جزاء ، وإنما الجزاء محذوف لدلالة ما بعده عليه التقدير فعداوته لا وجه لها أو ما أشبه هذا التقدير والضمير في فإنه عائد على جبريل ، والضمير في (نزل ﴾) عائد على القرآن ، لدلالة المعنى عليه ، ألا ترى إلى قوله (مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) وهذه كلها من صفات القرآن ولقوله (بإذن الله) أي : فإن جبريل نزل القرآن على قلبك بإذن الله ، وقيل : الضمير في فإنه عائد على الله وفي نزل عائد على جبريل التقدير فإن الله نزل جبريل بالقرآن على قلبك ، وفي كل من هذين التقديرين إضمار يعود على ما يدل عليه سياق المعنى ، لكن التقدير الأول أولى ، لما ذكرناه ، وليكون موافقاً لقوله (نزل به الروح الأمين على قلبك) وينظر للتقدير الثاني قراءة من قرأ (أنزل) بالشديد (والروح) بالنصب ومناسبة دليل الجزاء للشرط هو أن من كان عدواً لجبريل فعداوته لا وجه لها ، لأنه هو الذي نزل بالقرآن المصدق للكتب والهادي والمبشر كمن آمن ومن كان بهذه المثابة فينبغي أن يحب ويشكر ، إذ كان به سبب الهداية والتنويه بما في أيديهم من كتب الله ، أو من كان عدواً لجبريل فسبب عداوته أنه نزل القرآن المصدق لكتابهم والملزم لهم اتباعك وهم لا يريدون ذلك ولذلك حرّفوا ما في كتبهم من صفاتك ومن أخذ العهود عليهم فيها بأن يتبعوك ، والفرق بين كل واحد من هذين التقديرين أن التقدير الأول موجب لعدم العداوة ، والتقدير الثاني كأنه كالعذر لهم في العداوة ، كقولك : إن عاداك زيد فقد آذيته وأسأت إليه ﴿ على قلبك ﴾ أتى بلفظ على ، لأن القرآن مستعل على القلب إذ القلب سامع له ومطيع يمثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه وكانت أبلغ من إلى ، لأن إلى تدل على الانتهاء فقط وعلى تدل على الاستعلاء وما استعلى على الشيء يضمن الانتهاء إليه وخص القلب ولم يأت عليك ، لأن القلب هو محل العقل والعلم وتلقي الواردات ، أو لأنه صحيفته التي يرقم فيها وخزائنه التي يحفظ فيها ، أو لأنه سلطان الجسد وفي الحديث : « إن في الجسد مضغة » ثم قال أخيراً « ألا وهي القلب » ، ولأن القلب خيار الشيء وأشرفه ، أو لأنه بيت الله ، أو لأنه كني به ، عن العقل اطلاقاً للمحل ، على الحال به ، أو عن الجملة الإنسانية إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [طه : ٢] ، ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ [النساء : ١١٣] ، أو يكون اطلاقاً لبعض الشيء على كله أقوال سبعة وأضاف القلب إلى الكاف التي للخطاب ولم يصفه إلى ياء المتكلم وإن كان نظم الكلام يقتضيه ظاهراً ، لأن قوله (من كان عدواً لجبريل) هو معمول لقول مضمّر التقدير قل يا محمد قال الله (من كان عدواً لجبريل فإنه نزل ﴾ على قلبك) وإلى هذا نحا الزمخشري^(٢) بقوله جاءت على حكاية كلام الله تعالى كأنه قيل : قل ما تكلمت به من قولي (من كان عدواً لجبريل فإنه

(٢) انظر الكشف (١٧٠/١) .

(١) انظر الكشف (١٧٠/١) .

نزله على قلبك) وكلامه فيه تشبيح ، وقال ابن عطية : يحسن في كلام العرب أن يحرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول ويحسن أن يقصد المعنى بقوله فيسرده مخاطبة له كما تقول : قل لقومك لا يهينوك فكذاك هذه الآية ونحو من هذا قول الفرزدق :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ جَوْ سُوَيْقَةٍ دَعَوْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةُ مَالِيَا^(١)

فأحرز المعنى ونكب عن نداء هنيذة مالك انتهى كلامه وهو تخريج حسن ويكون إذ ذاك الجملة الشرطية معمولة للفظ قل لا لقول مضمرة وهو ظاهر الكلام ﴿ يَا ذَنُ اللَّهِ ﴾ أي : بأمر الله اختاره في المنتخب ومنه لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴿ مِنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقد صرح بذلك في (وما تنتزل إلا بأمر ربك) أو بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة قاله ابن عطية ، أو باختياره قاله الماوردي ، أو بتيسيره وتسهيله قاله الزمخشري^(٢) ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ انتصاب مصدقاً على الحال من الضمير المنصوب في نزله إن كان يعود على القرآن وإن عاد على جبريل فيحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون حالاً من المجرور المحذوف لفهم المعنى لأن ، المعنى فإن الله نزل جبريل بالقرآن مصدقاً .

والثاني : أن يكون حالاً من جبريل ، وما في لما موصولة وعنى بها الكتب التي أنزل الله على الأمم قبل إنزاله ، أو التوراة والإنجيل ، والهاء في بين يديه يحتمل أن تكون عائدة على القرآن ، ويحتمل أن تعود على جبريل فالمعنى مصدقاً لما بين يديه من الرسل والكتب ﴿ وَهَدَىٰ وَبَشَّرَ ﴾ معطوفان على مصدقاً فهما حالان فيكون من وضع المصدر موضع اسم الفاعل ، كأنه قال : وهادياً ومبشراً أو من باب المبالغة كأنه لما حصل به الهدى والبشرى جعل نفس الهدى والبشرى ، والألف في بشرى للتأنيث كهي في رجعى ، وهو مصدر وقد تقدّم الكلام على المعنى في قوله (وبشر الذين آمنوا) في أوائل هذه السورة والمعنى : إنه وصف القرآن بتصديقه لما تقدّمه من الكتب الإلهية ، وإنه هدى إذ فيه بيان ما وقع التكليف به من أعمال القلوب والجوارح ، وإنه بشرى لمن حصل له الهدى فصار هذا الترتيب اللفظي في هذه الأحوال لكون مدلولاتها ترتبت ترتيباً وجودياً ، فالأول : كونه مصدقاً للكتب وذلك لأن الكتب كلها من ينبوع واحد . والثاني : أن الهداية حصلت به بعد نزوله على هذه الحال من التصديق . والثالث : أنه بشرى لمن حصلت له به الهداية ، وقال الراغب : وهدى من الضلالة وبشرى بالجنة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص الهدى والبشرى بالمؤمنين ، لأن غير المؤمنين لا يكون لهم هدى به ولا بشرى كما قال ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ولأن المؤمنين هم المبشرون فبشر عبادي يشرهم ربهم برحمة منه ودلت هذه الآية على تعظيم جبريل والتنويه بقدره حيث جعله الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه والمنزل بالكتاب الجامع للأوصاف المذكورة ودلت على ذم اليهود حيث أبغضوا من كان بهذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى قالوا وهذه الآية تعلقت بها الباطنية ، وقالوا : إن القرآن إلهام والحروف عبارة الرسول ، وردّ عليهم بأنه معجزة ظاهرة بنظمه ، وأن الله سماه وحياً ، وكتاباً ، وعربياً ، وأن جبريل نزل به ، والملمهم لا يحتاج إلى جبريل ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ ﴾ العداوة بين الله والعبد لا تكون حقيقة ، وعداوة العبد لله تعالى مجاز ، ومعناها

(١) البيت من الطويل للفرزدق ديوانه (٢/ ٣٦٠) ، (٣٦١) ، الأغاني (٢١/ ٢٧٥) ، الحماسة البصرية (١/ ٢٥٦) .

(٢) انظر الكشف (١/ ١٧٠) .

مخالفة الأمر وعداوة الله للعباد مجازاته على مخالفته ﴿وملائكته ورسله﴾ أكد بقوله وملائكته أمر جبريل إذ اليهود قد أخبرت أنه عدوهم من الملائكة ، لكونه يأتي بالهلاك والعذاب ، فرد عليهم في الآية السابقة بأنه أتى بأصل الخيور كلها وهو القرآن الجامع لتلك الصفات الشريفة من موافقته لكتبتهم وكونه هدى وبشرى فكانت تجب محبته وردّ عليهم في هذه الآية بأن قرنه باسمه تعالى مندرجاً تحت عموم ملائكته ، ثم ثانياً تحت عموم رسله ، لأن الرسل تشمل الملائكة وغيرهم ممن أرسل من بني آدم ، ثم ثالثاً بالتنصيص على ذكره مجرداً مع من يدعون أنهم يحبونه ، وهو ميكال ، فصار مذكوراً في هذه الآية ثلاث مرار ، كل ذلك رد على اليهود وذم لهم وتنويه بجبريل ، ودلت الآية على أن الله تعالى عدو لمن عادى الله وملائكته ورسله وجبريل ، وميكال ، ولا يدل ذلك على أن المراد من جمع عداوة الجميع فالله تعالى عدو ، وإنما المعنى أن من عادى واحداً ممن ذكر فالله عدوه إذ معاداة واحد ممن ذكر معاداة للجميع ، وقد أجمع المسلمون على أن من أبغض رسولاً أو ملكاً فقد كفر ، فقال بعض الناس : الواو هنا بمعنى أو ، وليست للجمع وقال بعضهم : الواو للتفضيل ، ولا يراد أيضاً أن يكون عدو الجميع الملائكة ، ولا لجميع الرسل بل هذا من باب التعليق على الجنس بصورة الجمع ، كقولك : إن كلمت الرجال فأنت طالق لا يريد بذلك إن كلمت كل الرجال ولا أقل ما ينطلق عليه الجمع ، وإنما علق بالجنس وإن كان بصورة الجمع فلو كلمت رجلاً واحداً طلقت فكذلك هذا الجمع في الملائكة والرسل ، فالمعنى أن من عادى الله أو ملكاً من ملائكته أو رسولاً من رسله فالله عدو له ، وقال الماتريدي : يحتمل أن يكون الافتتاح باسم الله على سبيل التعظيم لمن ذكر بعده كقوله تعالى (فإن لله خمسة) وخص جبريل وميكال بالذكر تشريفاً لهما وتفضيلاً ، وقد ذكرنا عن أستاذنا أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير قدس الله روحه : أنه كان يسمي لنا هذا النوع بالتجريد ، وهو : أن يكون الشيء مندرجاً تحت عموم ثم تفرد بالذكر ، وذلك لمعنى مختص به دون أفراد ذلك العام فجبريل ، وميكال ، جعلاً كأنهما من جنس آخر ونزل التغيرات في الوصف كالتغيرات في الجنس فعطف وهذا النوع من العطف - أعني - عطف الخاص على العام على سبيل التفضيل ، هو من الأحكام التي انفردت بها الواو ، فلا يجوز ذلك في غيرها من حروف العطف . وقيل : خصاً بالذكر ، لأن اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما ، فلولم يذكر لكان لليهود تعلق بأن يقولوا لم نعاد الله ، ولا جميع ملائكته وقيل : خصاً بالذكر دفعا لإشكال أن الموجب للكفر عداوة جميع الملائكة لا واحد منهم فكأنه قيل ، أو واحد منهم ، وجاء هذا الترتيب في غاية الحسن فابتدىء بذكر الله ثم بذكر الوسائط التي بينه وبين الرسل ثم بذكر الوسائط التي بين الملائكة وبين المرسل إليهم فهذا ترتيب بحسب الوحي ، ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم ، لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط لا بالنسبة إلى التفضيل ويأتي قول الزمخشري^(١) بأن الملائكة أشرف من الأنبياء إن شاء الله ، قالوا واختصاص جبريل ، وميكال ، بالذكر يدل على كونهما أشرف من جميع الملائكة وقالوا جبريل أفضل من ميكال ، لأنه قدم في الذكر ، ولأنه ينزل بالوحي ، والعلم وهو مادة الأرواح وميكال ينزل بالخصب ، والأمطار ، وهي مادة الأبدان ، وغذاء الأرواح أشرف من غذاء الأشباح انتهى . ويحتاج تفضيل جبريل على ميكايل إلى نص جلي واضح ، والتقدم في الذكر لا يدل على التفضيل إذ يحتمل أن يكون ذلك من باب الترتيب ، ومن في قوله (من كان عدواً) شرطية ، واختلف في الجواب فقيل : هو محذوف تقديره فهو كافر وحذف لدلالة المعنى عليه ، وقيل : الجواب (فإن الله عدو للكافرين) وأتى باسم الله ظاهراً ، ولم يأت بأنه عدو ، لاحتمال أن يفهم أن الضمير عائد على اسم الشرط فينقلب المعنى أو عائد على أقرب مذكور وهو ميكال فأظهر الاسم لزوال اللبس أو للتعظيم والتفخيم ، لأن العرب إذا فحمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم ومنه ﴿لينصرنه الله إن الله لقيوي عزيز﴾ [الحج : ٤٠] ، وقول الشاعر :

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئاً^(١)

وهذه الجملة الواقعة خبراً للشرط تحتاج إلى رابط لجملة الجزاء باسم الشرط ، والرابط هنا الاسم الظاهر وهو الكافرين أوقع الظاهر موقع الضمير لتواخي أواخر الآي ولينص على علة العداوة وهي الكفر إذ من عادى من تقدم ذكره أو واحداً منهم فهو كافر ، أو يراد بالكافرين العموم فيكون الرابط العموم ، إذ الكفر يكون بأنواع ، وهؤلاء الكفار بهذا الشيء الخاص فرد من أفراد العموم فيحصل الربط بذلك . وقال الزمخشري^(٢) : عدوّ للكافرين أراد عدوّ لهم فجاء بالظاهر ليدل على أن الله عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر وإذا كانت عداوة الأنبياء كفراً فما بال الملائكة وهم أشرف ، والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشدّ العقاب انتهى كلامه . وهذا مذهب المعتزلة يذهبون إلى أن الملائكة أفضل من خواص بني آدم ، ودل كلام الزمخشري^(٣) على أن الظاهر وقع موقع الضمير وأنه لم يلحظ فيه العموم . وقال ابن عطية : وجاءت العبارة بعموم الكافرين ، لأن عود الضمير على من يشكّل سواء أفرّدته أو جمعته ولو لم يبال بالاشكال ، وقلنا : المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم ويحتمل أن الله قد علم أن بعضهم يؤمن فلا ينبغي أن يطلق عليه عداوة الله للمأل وروي : « أن عمر نطق بهذه الآية مجاباً لبعض اليهود في قوله ذلك عدوّنا يعني جبريل فنزلت على لسان عمر » . قال ابن عطية : وهذا الخبر ضعيف ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ ، سبب نزولها فيما ذكر الطبراني أن ابن صوريا قال للنبي ﷺ ما جئت بآية بينة فنزلت وقال الزمخشري^(٤) : قال : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فتنبعك لها فنزلت انتهى .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة : لأنه لما ذكر تعالى جملاً من قبائح اليهود وذمهم على ذلك وكان فيما ذكر من ذلك معاداتهم لجبريل فناسب ذلك إنكارهم لما نزل به جبريل فأخبر الله تعالى بأن الرسول عليه السلام أنزل عليه آيات بينات وأنه لا يجحد نزولها إلا كل فاسق ، وذلك لوضوحها ، والآيات البينات أي : القرآن ، أو المعجزات المقرونة بالتحدي ، أو الإخبار عما خفي وأخفي في الكتب السالفة ، أو الشرائع ، أو الفرائض ، أو مجموع كل ما تقدّم أقوال خمسة ، والظاهر مطلق ما يدل عليه آيات بينات غير معين شيء منها وعبر عن وصولها إلى رسول الله ﷺ بالإنزال ، لأن ذلك كان من علوّ إلى مادونه ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ المراد بالفاسقين هنا : الكافرون ، لأن كفر آيات الله تعالى هو من باب فسق العقائد فليس من باب فسق الأفعال . وقال الحسن : إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي وقع على أعظمه من كفر أو غيره انتهى ، وناسب قوله (بينات) لفظ الكفر وهو التغطية ، لأن البين لا يقع فيه إلباس فعدم الإيمان به ليس لشبهة ، لأنه بين وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين ، وستر الواضح لا يقع إلا من متمرد في فسقه ، والألف واللام في (الفاسقون) إما للجنس ، وإما للعهد ، لأن سياق الآيات يدل على أن ذلك لليهود ، وكفى بالفسق هنا عن الكفر ، لأن الفسق خروج الإنسان عما حدّ له وقد تقدّم قول الحسن أنه يدل على أعظم ما يطلق عليه فكأنه قيل (وما يكفر بها) إلا المبالغ في كفره المنتهي فيه إلى أقصى غاية ، و (إلا الفاسقون) استثناء مفرغ إذ تقديره وما يكفر بها أحد فنفي أن يكفر بالآيات الواضحات أحد ، ثم استثنى الفاسق من أحد ، وأنهم يكفرون بها ، ويجوز في مذهب

(١) البيت من الخفيف لعدي بن زيد . انظر الكتاب (٦٢/١) ، الخصائص (٥٣/٣) ، الخزانة (٣٧٩/١) ، شعراء النصرانية ص (٤٦٨) ، شرح أبيات سيبويه للسيرافي (١٢٥/١) ، شرح شواهد المغني (٨٧٦) .

(٢) انظر الكشف (١٧٠/١) .

(٣) انظر الكشف (١٧٠/١) .

(٤) انظر الكشف (١٧٣/١) .

الفراء أن ينصب في نحو من هذا الاستثناء فأجاز ما قام إلا زيداً على مراعاة ذلك المحذوف ، إذ لو كان لم يحذف لجاز النصب ، ولا يجيز ذلك البصريون ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً ﴾ ، نزلت في مالك بن الصيف قال : والله ما أخذ علينا عهد في كتابنا أن نؤمن بمحمد ﷺ ، ولا ميثاق . وقيل : في اليهود عاهدوا على أنه إن خرج لنؤمنن به ولنكوننّ معه على مشركي العرب فلما بعث كفروا به ، وقال عطاء : هي العهود بينه وبين اليهود نقضوها كفعل قريظة والنضير قال تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون ﴾ [الأنفال : ٨] ، وقرأ الجمهور : أو ، كلما بفتح الواو ، واختلف في هذه الواو : فقيل : هي زائدة قاله الأخفش ، وقيل : هي أو الساكنة الواو حركت بالفتح وهي بمعنى بل قاله الكسائي ، وكلا القولين ضعيف وقيل : واو العطف وهو الصحيح وقد تقدّم أن مذهب سيبويه والنحويين أن الأصل تقديم هذه الواو والفاء وثم على همزة الاستفهام وإنما قدّمت الهمزة ، لأن لها صدر الكلام وإن الزمخشري^(١) يذهب إلى أن ثم محذوفاً معطوفاً عليه مقدّراً بين الهمزة وحرف العطف ، ولذلك قدّره هنا أكفروا بالآيات البينات وكلما عاهدوا ، وقد رجع الزمخشري^(٢) عن اختياره إلى قول الجماعة ، وقد أمعنا الكلام على ذلك في كتابنا المسمى « بالتكميل لشرح التسهيل » ، والمراد بهذا الاستفهام الانكار وإعظام ما يقدمون عليه من تكرار عهودهم ونقضها فصار ذلك عادة لهم وسجية ، فينبغي أن لا يكثرث بأمرهم وأن لا يصعب ذلك فهي تسلية للرسول ﷺ إذ كفروا بما أنزل عليه ، لأن ما كان ديدناً للشخص وخلقاً لا ينبغي أن يحتفل بأمره ، وقرأ أبو السمال العدوي وغيره : أو كلما بسكون الواو وخرّج ذلك الزمخشري^(٣) ، على أن يكون للعطف على الفاسقين وقدّره وما يكفر بها إلا الذين فسقوا أو نقضوا عهد الله مراراً كثيرة ، وخرجه المهدوي وغيره ، على أن أو للخروج من كلام إلى غيره بمنزلة أم المنقطعة فكأنه قال بل لما عاهدوا عهداً ، كقول الرجل للرجل لأعاقبك فيقول له : أو يحسن الله رأيك أي : بل يحسن رأيك وهذا التخرّيج هو على رأي الكوفيين إذ يكون أو عندهم بمنزلة بل وأنشدوا شاهداً على هذه الدعوى قول الشاعر :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى وَصُورَتِهَا أَوْ أَنْتَ فِي الْعَيْنِ أُمْلَحُ^(٤)

وقد جاءت أو بمعنى الواو في قوله :

مِنْ بَيْنِ مُلْجِمٍ مَهْرُهُ أَوْ سَافِعٍ

وقوله :

صُدُورُ رِمَاحٍ اشْرَعَتْ أَوْ سَلَايِلُ

يريد وشافع وسلاسل .

وقد قيل : في ذلك في قوله (خطيئة أو إثماً) أن المعنى وإثماً فيحتمل أن تخرّج هذه القراءة الشاذة على أن تكون أو بمعنى الواو كأنه قيل : وكلما عاهدوا عهداً ، وقرأ الحسن وأبورجاء (أو كلما عُوْهِدُوا) على البناء للمفعول وهي قراءة تخالف رسم المصحف وانتصاب عهداً على أنه مصدر على غير الصدر أي : معاهدة ، أو على أنه مفعول على تضمين

(١) انظر الكشف (١٧١/١) .

(٢) انظر الكشف (١٧١/١) .

(٣) انظر الكشف (١٧١/١) .

(٤) البيت من الطويل لذي الرمة انظر الخزانة (٦٥/١١) ، اللسان (أو) .

عاهد معنى أعطى أي : أعطوا عهداً ، وقرئ (عَهْدُوا) فيكون عَهْداً مصدرًا ، وقد تقدم ما المراد بالعهد في سبب النزول فأغنى عن اعادته ﴿ نبذه ﴾ طرحه أو نقضه أو ترك العمل به أو اعتزله أو رماه أقوال خمسة وهي متقاربة المعنى ونسبة النبذ إلى العهد مجاز لأن العهد معنى والنبذ حقيقة إنما هو في المتجسّدات فأخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم ، إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فنبد خاتمة قنبد الناس خواتيمهم ، لنبد بالعراء ﴿ فريق منهم ﴾ الفريق : اسم جنس ولا واحد له يقع على القليل والكثير ، وقرأ عبد الله (نقضه فريق منهم) وهي قراءة تخالف سواد المصحف فالأولى حملها على التفسير ﴿ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ يحتمل أن يكون من باب عطف الجمل ، وهو الظاهر فيكون أكثرهم مبتدأ ولا يؤمنون خبر عنه ، والضمير في أكثرهم عائد على من عاد عليه الضمير في عاهدوا وهم اليهود ، ومعنى هذا الاضراب هو : انتقال من خبر إلى خبر ، ويكون الأكثر على هذا واقعاً على ما يقع عليه الفريق كأنه أعم ، لأن من نبذ العهد مندرج تحت من لم يؤمن ، فكأنه قال : بل الفريق الذي نبذ العهد وغير ذلك الفريق محكوم عليه بأنه لا يؤمن ، وقيل : يحتمل أن يكون من باب عطف المفردات ، ويكون أكثرهم معطوفاً على فريق أي : نبذه فريق منهم بل أكثرهم ويكون قوله (لا يؤمنون) جملة حالية ، العامل فيها نبذه ، وصاحب الحال هو أكثرهم ، ولما كان الفريق ينطلق على القليل والكثير وأسند النبذ إليه كان فيما يتبادر إليه الذهن أنه يحتمل أن يكون النابذون قليلاً فبين أن النابذين هم الأكثر وصار ذكر الأكثر دليلاً على أن الفريق هنا لا يراد به اليسير منهم فكان هذا اضراباً عما يحتمله لفظ الفريق من دلالة على القليل ، والضمير في أكثرهم عائد على الفريق ، أو على جميع بني إسرائيل ، وعلى كلا الاحتمالين ذكر الأكثر محكوماً عليه بالنبذ ، أو بعدم الإيمان ، لأن بعضهم آمن ومن آمن فما نبذ العهد ، وأجمع المسلمون على أن من كفر بآية من كتاب الله أو نقض عهد الله الذي أخذه على عباده في كتبه فهو كافر ﴿ ولما جاءهم رسول ﴾ الضمير في جاءهم عائد على بني إسرائيل ، أو على علمائهم والرسول محمد ﷺ أو عيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، أو معناه الرسالة فيكون مصدراً كما فسروا بذلك قوله :

لَقَدْ كَذَبَ الْوَأَشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُ بَلِيلَى وَلَا أُرْسَلْتُهُمْ بِرَسُول

أي : برسالة أقوال ثلاثة ، والظاهر الأول ، لأن الكلام مع اليهود إنما سيق بالنسبة إلى محمد ﷺ ألا ترى إلى قوله قل (فإنه نزل على قلبك) (ولقد أنزلنا إليك) فصار ذلك كالالتفات إذ هو خروج من خطاب إلى اسم غائب ووصف بقوله ﴿ من عند الله مصدق ﴾ تفخيماً لشأنه إذ الرسول على قدر المرسل ، ثم وصف أيضاً بكونه مصدقاً لما معهم ، قالوا وتصديقه أنه خلق على الوصف الذي ذكر في التوراة ، أو تصديقه على قواعد التوحيد ، وأصول الدين ، وأخبار الأمم ، والمواعظ ، والحكم ، أو تصديقه اخباره بأن الذي معهم هو كلام الله وأنه المنزل على موسى ، أو تصديقه إظهار ما سألو عنه من غوامض التوراة أقوال أربعة ، وإذا فسر بعيسى ، فتصديقه هو بالتوراة ، وإذا فسر بالرسالة فنسبة المعجىء والتصديق إلى الرسالة على سبيل التوسع والمجاز ، وقرأ ابن أبي عبله (مُصَدِّقاً) بالنصب على الحال وحسن مجيئها من النكرة كونها قد وصفت بقوله من عند الله ﴿ لما معهم ﴾ هو : التوراة وقيل : جميع ما أنزل إليهم من الكتب ، كزبور داود ، وصحف الأنبياء التي يؤمنون بها ﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب ﴾ الكتاب الذي أوتوه هو التوراة ، وهو مفعول ثان لأوتوا على مذهب الجمهور ، ومفعول أول على مذهب السهيلي ، وقد تقدّم القول في ذلك ﴿ كتاب الله ﴾ هو : مفعول بنبذ فقيل : كتاب الله هو التوراة ، ومعنى نبذهم له اطراح أحكامه ، أو اطراح ما فيه من صفة رسول الله ﷺ إذ الكفر ببعض كفر بالجميع ، وقيل : الإنجيل ونبذهم له اطراحه بالكلية ، وقيل : القرآن وهذا أظهر إذ الكلام مع الرسول ، فصار المعنى أنه يصدّق ما بين أيديهم من التوراة وهم بالعكس يكذبون ما جاء به من القرآن ويطرحونه ، وأضاف الكتاب إلى الله تعظيماً له كما أضاف للرسول إليه بالوصف السابق ، فصار ذلك غاية في ذمهم ،

إذ جاءهم من عند الله بكتابه المصدق لكتابتهم وهو شاهد بالرسول والكتاب فنبدوه ﴿ وراء ظهورهم ﴾ وهذا مثل يضرب لمن أعرض عن الشيء جملة تقول العرب جعل هذا الأمر وراء ظهره ودبر أذنه وقال الفرزدق :

تَمِيمٌ بِنُ مَرًّا لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بَظْهَرٍ وَلَا يَغِيَا عَلَيْكَ جَوَابَهَا

وقالت العرب ذلك ، لأن ما جعل وراء الظهر زال النظر إليه ومنه ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ [هود : ٩٢] ، وقال في المنتخب : النبذ والطرح والإلقاء متقاربة ، لكن النبذ أكثر ما يقال : فيما يئس ، والطرح أكثر ما يقال في المبسوط ، وما يجري مجراه ، والإلقاء فيما يعتبر فيه ملاقة بين شيئين ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ جملة حالية ، وصاحب الحال فزيق ، والعامل في الحال نبذ ، وهو تشبيه لمن يعلم بمن يجهل ، لأن الجاهل بالشيء لا يحفل به ولا يعتد به ، لأنه لا شعور له بما فيه من المنفعة ومتعلق العلم محذوف أي : كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله لا يداخلهم فيه شك لثبوت ذلك عندهم وتحققه ، وإنما نبذوه على سبيل المكابرة والعناد وقال الشعبي : هو بين أيديهم يقرؤونه ، ولكنهم نبذوا العمل به ، وعن سفيان : أدرجوه في الديباج ، والحرير ، وحلوه بالذهب ، ولم يحلوا حلاله ، ولم يحرموا حرامه انتهى كلامه . وقول الشعبي ، وسفيان : يدل على أن كتاب الله هو التوراة ، وقال الماوردي : كأنهم لا يعلمون ما أمروا به من اتباع محمد ﷺ ، وقيل : معناه كأنهم لا يعلمون أنه نبي صادق ، وقيل : معناه كأنهم لا يعلمون أن القرآن والتوراة والإنجيل كتب الله وأن كل واحد منها حق والعمل به واجب ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ معنى اتبعوا أي : اقتدوا به إماماً ، أو فضلوا ، لأن من اتبع شيئاً فضله ، أو قصدوا ، والضمير في (واتبعوا) لليهود ، فقال ابن زيد والسدي : يعود على من كان في عهد سليمان ، وقال ابن عباس : في عهد رسول الله ﷺ وقيل : يعود على جميع اليهود ، والجملة من قوله واتبعوا معطوفة على جميع الجملة السابقة من قوله (ولما جاءهم) إلى آخرها وهو إخبار عن حالهم في اتباعهم ما لا ينبغي أن يتبع وهذا هو الظاهر لا أنها معطوفة على قوله (نبذه فريق منهم) لأن الاتباع ليس مترتباً على مجيء الرسول ، لأنهم كانوا متبعين ذلك قبل مجيء الرسول بخلاف نبذ كتاب الله فإنه مترتب على مجيء الرسول وتتلوا تتبع قاله ابن عباس ، أو تدعي ، أو تقرأ ، أو تحدث قاله عطاء ، أو تروي ، قاله يمان ، أو تعمل ، أو تكذب قاله أبو مسلم وهي أقوال متقاربة ، وما موصولة صلها تتلو ، وهو مضارع في معنى الماضي ، أي : ما تلت ، وقال الكوفيون : المعنى ما كانت تتلو لا يريدون أن صلة ما محذوفة ، وهي كانت وتتلفي موضع الخبر ، وإنما يريدون أن المضارع وقع موقع الماضي ، كما أنك إذا قلت : كان زيد يقوم هو إخبار بقيام زيد ، وهو ماضٍ لدلالة كان عليه ، والشياطين ظاهرة أنهم شياطين الجن ، لأنه إذا أطلق الشيطان تبادر الذهن إلى أنه من الجن ، وقيل المراد شياطين الإنس ، وقرأ الحسن ، والضحاك ، (الشياطين) بالرفع بالواو وهو شاذ ، قاسه على قول العرب بستان فلان حوله بساتون رواه الأصمعي قالوا ، والصحيح أن هذا الجن فاحش ، وقال أبو البقاء : شبه فيه الباء قبل النون بباء جمع الصحيح وهو قريب من الغلط ، وقال السجائدي خطأه الخازرجي ، على ملك متعلق بتتلوا وتلا يتعدى بعلى إذا كان متعلقاً يتلى عليه لقوله : يتلى على زيد القرآن ، وليس الملك هنا بهذا المعنى ، لأنه ليس شخصاً يتلى عليه فلذلك زعم بعض النحويين أن على تكون بمعنى في ، أي : تتلوا في ملك سليمان ، وقال أصحابنا : لا تكون على في معنى في ، بل هذا من التضمين في الفعل ضمن تتقول فعديت بعلى ، لأن تقول تعدى بها قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا ﴾ [الحاقة : ٤٤] ، ومعنى على ملك سليمان أي : شرعه ونبوته وحاله ، وقيل : على عهده وفي زمانه وهو قريب ، وقيل : على كرسي سليمان بعد وفاته ، لأنه كان من آلات ملكه ، وفسروا ما يتلو الشياطين بالسحر قالوا وهو الأشهر والأظهر على ما نقل في أسباب النزول من أن الشياطين كتبت السحر واختلقته ونسبته إلى سليمان وأصف ، وقيل : الذي تلتته هو الكذب الذي تضيفه إلى ما تسترق من أخبار السماء وأضافوا ذلك إلى سليمان تفخيماً لشأن ما يتلونه ، لأن

الذي كان معه من المعجزات وإظهار الخوارق ، وتسخير الجن ، والانس ، وتقريب المتباعدات ، وتأليف الخواطر ، وتكليم العجماوات كان أمراً عظيماً ، والساحر يدعي أشياء من هذا النوع من تسخير الجن ، وبلوغ الآمال ، والتأثير في الخواطر ، بل ويدعي قلب الأعيان على ما يأتي في الكلام على السحر في قوله تعالى ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ أو لأنهم كانوا يزعمون أن ملك سليمان إنما حصل بالسحر ، وقد ذكر المفسرون في كيفيات ما رتبوه من هذا الذي تلوه قصصاً كثيرة الله أعلم به ، ولم تتعرض الآية الكريمة ولا الحديث المسند الصحيح لشيء منه فلذلك لم نذكره ﴿ وما كفر سليمان ﴾ تنزيه لسليمان عن الكفر أي : ليس ما اختلقته الجن من نسبة ما تدعيه إلى سليمان تعاطاه سليمان ، لأنه كفر ومن نبأه الله تعالى منزّه عن المعاصي الكبائر والصغائر فضلاً عن الكفر ، وفي ذلك دليل على صحة نفي الشيء عمن لا يمكن أن يقع منه ، لأن النبي لا يمكن أن يقع منه الكفر ولا يدل هذا على أن ما نسبوه إلى سليمان من السحر يكون كفراً ، إذ يحتمل أنهم نسبوا إليه الكفر مع السحر ، وروي أن رسول الله ﷺ « لما ذكر سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحراً » ولم يتقدم في الآيات أن أحداً نسب سليمان إلى الكفر ، ولكنها آية نزلت في السبب المتقدم أن اليهود نسبتبه إلى السحر والعمل به ﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ كفرهم إما بتعليم السحر ، وإما تعلمهم به ، وإما بتكفيرهم سليمان به ، ويحتمل أن يكون كفرهم بغير ذلك ، واستعمال لكن هنا حسن ، لأنها بين نفي وإثبات .

وقرىء : وَلَكِنَّ بالتشديد فيجب إعمالها ، وهي قراءة نافع ، وعاصم ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وقرىء : بتخفيف النون ، ورفع ما بعدها بالابتداء والخبر ، وهي قراءة ابن عامر ، وحزمة ، والكسائي ، وإذا خففت فهل يجوز إعمالها ، مسألة خلاف ، الجمهور على المنع ، ونقل أبو القاسم بن الرمال^(١) ، عن يونس ، جواز إعمالها ، ونقل ذلك غيره ، عن الأخفش ، والصحيح المنع ، وقال الكسائي ، والفراء ، الاختيار التشديد إذا كان قبلها واو ، والتخفيف إذا لم يكن معها واو ، وذلك لأنها مخففة تكون عاطفة ، ولا تحتاج إلى واو معها كبل ، فإذا كانت قبلها واو لم تشبه بل ، لأن بل لا تدخل عليها الواو فإذا كانت لكن مشددة عملت عمل إن ، ولم تكن عاطفة انتهى الكلام ، وهذا كله على تسليم أن لكن تكون عاطفة وهي مسألة خلاف ، الجمهور على أن لكن تكون عاطفة ، وذهب يونس ، إلى أنها ليست من حروف العطف ، وهو الصحيح ، لأنه لا يحفظ ذلك من لسان العرب ، بل إذا جاء بعدها ما يوهم العطف كانت مقرونة بالواو كقوله تعالى ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وأما إذا جاءت بعدها الجملة فتارة تكون بالواو وتارة لا يكون معها الواو كما قال زهير :

إِنْ ابْنٌ وَرَقَاءَ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ لَكِنْ وَقَائِعُهُ فِي الْحَرْبِ تُنْتَظَرُ^(٢)

وأما ما يوجد في كتب النحويين من قولهم : ما قام زيد لكن عمرو ، وما ضربت زيدا لكن عمراً ، وما مررت بزيد لكن عمرو ، فهو من تمثيلهم ، لا أنه مسموع من العرب ، ومن غريب ما قيل : في لكن إنها مركبة من كلم ثلاث لا للنفي ، والكاف للخطاب وإن التي للثبات والتحقيق وإن الهزمة حذفت للاستثقال وهذا قول فاسد ، والصحيح إنها بسيطة ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ الضمير في (يعلمون) يختلف في من يعود عليه ، فالظاهر أنه يعود على الشياطين يقصدون به اغواءهم وإضلالهم وهو اختيار الزمخشري^(٣) ، وعلى هذا تكون الجملة في موضع الحال من الضمير في

(١) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عيسى أبو القاسم الأموي الاشبيلي النحوي المعروف بابن الرمال مات كهلاً سنة إحدى وأربعين وخمسمائة - البغية (٨٦/٢) .

(٢) تقدم .

(٣) انظر الكشف (١٧٢/١) .

كفروا ، قالوا أو خبراً ثانياً ، وقيل : حال من الشياطين ، ورد بأن لكن لا تعمل في الحال ، وقيل : بدل من كفروا بدل الفعل من الفعل ، لأن تعليم الشياطين السحر كفر في المعنى ، والظاهر أنه استئناف إخبار عنهم ، وقيل : الضمير عائد على الذين اتبعوا ما تتلو الشياطين على اختلاف المفسرين فيمن يعود عليه ضمير (اتبعوا) فيكون المعنى يعلم المتبعون ما تتلو الشياطين الناس ، فالناس معلمون للمتبعين وعلى القول الأول يكونون معلمين للشياطين ، واختلف في حقيقة السحر على أقوال :

الأول : أنه قلب الأعيان واختراعها وتغيير صور الناس مما يشبه المعجزات والكرامات ، كالطيران ، وقطع المسافات في ليلة .

الثاني : أنه خدع ، ومخاريق وتمويهات ، وشعوذة لا حقيقة لها ، ويدل عليه (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وفي الحديث « حين سحر لبيد بن الأعصم رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله » ، وهو قول المعتزلة : يرون أن السحر ليست له حقيقة ووافقهم أبو إسحاق الأستراباذي من الشافعية .

الثالث : أنه أمر يأخذ بالعين على جهة الحيلة ومنه (سحروا أعين الناس) كما روي « أن حبالهم وعصيتهم كانت مملوءة زئبقاً فسجروا تحتها ناراً فحميت الحبال والعصي فتحركت وسعت » ، ولأرباب الحيل والدك والشعوذة من هذه أشياء يبين كثير منها في الكتاب المسمى (بكشف الدك والشعوذة وإيضاح الشك) وفي كتاب (إرخاء الستور والكلل في الشعوذة والحيل) وفي الحديث حين « انشق القمر نصفين بمكة » قال أبو جهل : اصبروا حتى يأتي أهل البوادي فإن لم يخبروا بذلك كان محمد قد سحر أعيننا فأتوا فآخبروا بذلك فقال ما هذا إلا سحر عظيم .

الرابع : أنه نوع من خدمة الجن وهم الذين استخرجوه من جنس لطيف أجسامهم وهيئاتها فلفظ ودق وخفي .

الخامس : أنه مركب من أجسام تجمع وتحرق وتتخذ منها أرمدة ومداد ويتلى عليها أسماء وعزائم ثم تستعمل فيما يحتاج إليها من السحر .

السادس : أن أصله طلسمات وقفطريات تبني على تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس في زئبق عصى فرعون ، أو استخدام الشياطين لتسهيل ما عسر .

السابع : أنه مركب من كلمات ممزوجة بكفر قال بعض معاصرينا : هذه الأقوال كلها التي قالوها في حقيقة السحر أنواع من أنواع السحر ، وقد ضم إليها أنواع أخرى من الشعبة ، والدك ، والنارنجيات ، والأوقاف ، والعزائم ، وضروب المنادل ، والصرع ، وما يجري مجرى ذلك انتهى كلامه ، ولا يشك في أن السحر كان موجوداً لنطق القرآن والحديث الصحيح به ، وأما في زماننا الآن ، فكل ما وقفنا عليه في الكتب فهو كذب وأفتراء لا يترتب عليه شيء ولا يصح منه شيء البتة ، وكذلك العزائم وضرب المندل ، والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء يصدّقون بهذه الأشياء ويصغون إلى سماعها ، وقد رأيت بعض من ينتمي إلى العلم إذا أفلس وضع كتباً وذكر فيها أشياء من رأسه وباعها في الأسواق بالدرهم الجيدة ، وقد أطلق اسم السحر بعض العلماء على الوشي بين الناس بالنميمة ، لأن فيه قلب الصديق عدواً والحبيب بغيباً ، كما أطلق على حسن التوسل باللفظ الراق العذب لما فيه من الاستمالة وسمي سحراً حلالاً ، وقد روي إن من البيان لسحراً^(١) وقال :

وَحَدِيثُهَا السَّحَرُ الْحَلَالُ لَوَانَهُ لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

وظاهر قوله (يعلمون الناس السحر) أنهم يفهمونهم إياه بالاقراء والتعليم ، وقيل : المعنى يدلونهم على تلك الكتب فأطلق على الدلالة تعليماً تسمية للمسبب بالسبب ، وقيل : المعنى يوقرون في قلوبهم أنها حق تضر وتنفع وأن سليمان إنما تم له ماتم بذلك ، وهذا أيضاً تسمية للمسبب بالسبب ، وقيل : يعلمون معناه يعلمون أي يعلمونهم بما يتعلمون به السحر أو بمن يتعلمون منه ولم يعلموهم فهو من باب الاعلام لا من باب التعليم ، وأما حكم السحر فما كان منه يعظم به غير الله من الكواكب ، والشياطين وإضافة ما يحدثه الله إليها فهو كفر إجماعاً لا يحل تعلمه ، ولا العمل به ، وكذا ما قصد بتعلمه سفك الدماء ، والتفريق بين الزوجين ، والأصدقاء ، وأما إذا كان لا يعلم منه شيء من ذلك بل يحتمل ، فالظاهر أنه لا يحل تعلمه ولا العمل به وما كان من نوع التحيل والتخييل والدك ، والشعبذة ، فإن قصد بتعليمه العمل به والتمويه على الناس فلا ينبغي تعلمه ، لأنه من باب الباطل ، وإن قصد بذلك معرفته لئلا تتم عليه مخايل السحرة وخذعهم فلا بأس بتعلمه ، أو اللهو ، واللعب وتفريج الناس على خفة صنعته فيكره رُوي (لست من ددٍ ولا ددٍ مني) ، وأما سحر البيان فما أريد به تأليف القلوب على الخير فهو السحر الحلال ، أو ستر الحق فلا يجوز تعلمه ولا العمل به ، وأما حكم الساحر حدّاً ، وتوبة فقد تعرض المفسرون لذلك ولم تتعرض إليه الآية وهي مسألة موضوعها علم الفقه فتذكر فيه ﴿ وما أنزل ﴾ ظاهره أن (ما) موصول اسمي منصوب وأنه معطوف على قوله السحر ، وظاهر العطف التغاير فلا يكون ما أنزل على الملكين سحراً ، وقيل : هو معطوف على ما تتلو الشياطين أي : واتبعوا ما تتلو الشياطين والذي أنزل وظاهره أن ما علموه الناس أو ما اتبعوه هو منزل (واختلف في هذا المنزل الذي علم أو الذي اتبع) فقيل : علم السحر أنزل على الملكين ابتلاء من الله للناس من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ومن تجنبه أو تعلمه لا يعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به من كان مؤمناً كما ابتلى قوم طالوت بالنهر ، وهذا اختيار الزمخشري^(١) ، وقال مجاهد : وغيره المنزل هو : الشيء الذي يفرق به بين المرء وزوجه ، وهو دون السحر ، وقيل : السحر ليعلم على جهة التحذير منه ، والنهي عنه والتعليم على هذا القول إنما هو تعريف يسير بمبادئه ، وقيل : ما في موضع جر عطفاً على ملك سليمان ، والمعنى افتراء على ملك سليمان وافتراء على ما أنزل على الملكين وهو اختيار أبي مسلم ، وأنكر أن يكون الملكان نازلاً عليهما السحر قال : لأنه كفر والملائكة معصومون ، ولأنه لا يليق بالله إنزاله ، ولا يضاف إليه ، لأن الله يبطله ، وإنما المنزل على الملكين الشرع وإنهما كانا يعلمان الناس ذلك ، وقيل : ما حرف نفي ، والجملة معطوفة على (وما كفر سليمان) وذلك أن اليهود قالوا : إن الله أنزل جبريل وميكال بالسحر فنفي الله ذلك ﴿ على الملكين ﴾ قراءة الجمهور : بفتح اللام ، وظاهره أنهما ملكان من الملائكة ، وقد تقدّم الكلام على الملك في قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ [البقرة : ٣٤] ، فقيل هما جبريل ، وميكال كما ذكرناه في هذا القول الأخير ، وقيل : ملكان غيرهما وهما هاروت وماروت ، وقيل : ملكان غيرهما وسيأتي إعراب هاروت ، وماروت على تقدير هذه الأقوال إن شاء الله .

وقرأ ابن عباس ، والحسن ، وأبو الأسود الدؤلي ، والضحاك ، وابن أبيزى : (الْمَلَكَيْنِ) بكسر اللام ، فقال ابن عباس : هما رجلان ساحران كانا ببابل ، لأن الملائكة لا تعلم الناس السحر وقال الحسن : هما عليجان ببابل العراق ، وقال أبو الأسود : هما هاروت ، وماروت ، وهذا موافق لقول الحسن ، وقال ابن أبيزى : هما داود ، وسليمان على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، وقيل : هما شيطانان فعلى قول ابن أبيزى تكون (ما) نافية وعلى سائر الأقوال في هذه القراءة تكون (ما) موصولة ، ومعنى الإنزال القذف في قلوبهما ، وقد ذكر المفسرون في قراءة من قرأ (الْمَلَكَيْنِ) بفتح اللام

قصصاً كثيراً ، تتضمن أن الملائكة تعجبت من بني آدم في مخالفتهم ما أمر الله به وأن الله تعالى بكتهم بأن قال لهم اختاروا ملكين للهبط إلى الأرض فاختاروا هاروت ، وماروت ، وركب فيهما الشهوة فحكما بين الناس وافتتنا بامرأة تسمى بالعربية الزهرة ، وبالفارسية ميذخت ، فطلبها وامتنعت إلا أن يعبدا صنماً ، ويشربا الخمر ، ويقتلا ، فخافا على أمرهما ، فعلماهما ما تصعد به إلى السماء وما تنزل به فصعدت ونسيت ما تنزل به فمسخت ، وأنهما تشفعا بإدريس إلى الله تعالى فخيرهما في عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما ببابل يعذبان ، وذكروا في كيفية عذابهما اختلافاً وهذا كله لا يصح منه شيء والملائكة معصومون ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] ، ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [الأنبياء : ١٩ - ٢٠] ، ولا يصح أن رسول الله ﷺ كان يلعن الزهرة ، ولا ابن عمر ، وقيل : سبب إنزال الملكين أن السحرة كثروا في ذلك الزمان وادعوا النبوة وتحذوا الناس بالسحر فجاء ليعلم الناس السحر فيتمكنوا من معارضة السحر فيبين كذبهم في دعواهم النبوة ، أولأن المعجزة والسحر ماهيتان متباينتان ويعرض بينهما الالتباس فجاء لإيضاح الماهيتين ، أولأن السحر الذي يوقع التفرقة بين أعداء الله وأوليائه كان مباحاً ، أو مندوباً فبعثنا لذلك ، ثم استعمله القوم في التفرقة بين أولياء الله ، أو لأن الجن كان عندهم من أنواع السحر ما لم تقدر البشر على مثله ، فأنزلنا بذلك لأجل المعارضة ، وقيل : أنزلنا على إدريس ، لأن الملائكة لا يكونون رسلاً لكافة الناس ولا بد من رسول من البشر ﴿ ببابل ﴾ قال ابن مسعود : هي في سواد الكوفة وقال قتادة : هي من نصيبين إلى رأس العين ، وقيل : هي جبل دماوند ، وقيل : هي بالمغرب وقيل : في أرض غير معلومة فيها هاروت وماروت وسميت ببابل ، قال الخليل : لتبليب الألسنة حين أراد الله أن يخالف بينها أتت ريح فحشرت الناس إلى بابل فلم يدر أحد ما يقول الآخر ثم فرقتهم الريح في البلاد ، وقيل : لتبليب الألسنة بها عند سقوط قصر نمروذ ﴿ هاروت وماروت ﴾ قرأ الجمهور : بفتح التاء وهما بدل من (الملكين) وتكون الفتحة علامة للجر لأنهما لا ينصرفان وذلك إذا قلنا : أنهما اسمان لهما ، وقيل : بدل من الناس فتكون الفتحة علامة للنصب ، ولا يكون هاروت وماروت اسمين للملكين ، وقيل : هما قبيلتان من الشياطين ، فعلى هذا يكونان بدلاً من الشياطين وتكون الفتحة علامة للنصب على قراءة من نصب الشياطين ، وأما من رفع الشياطين فانتصابهما على الظم كانه قال أدم هاروت وماروت أي : هاتين القبيلتين كما قال الشاعر :

أَقَارُعُ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا وَجُوهُ قُرُودٍ تَبْغِي مَن تَخَادِعُ^(١)

وهذا على قراءة (الملكين) بفتح اللام ، وأما من قرأ بكسرهما فيكونان بدلاً من (الملكين) إلا إذا فسرا بداد ، وسليمان عليهما السلام ، فلا يكون هاروت وماروت بدلاً منهما ، ولكن يتعلقان بالشياطين على الوجهين اللذين ذكرنا في رفع الشياطين ونصبه ، وقرأ الحسن والزهري : هاروت وماروت بالرفع فيجوز أن يكونا خبر مبتدأ محذوف أي : هما هاروت ، وماروت إن كانا ملكين ، وجاز أن يكونا بدلاً من الشياطين الأول أو الثاني على قراءة من رفعه إن كانا شيطانين ، وتقدم لنا القول في هاروت ، وماروت وأنها أعجميان وزعم بعضهم أنهما مشتقان من الهُرت والهَرت وهو : الكسر وقوله : خطأ بدليل منعهم الصرف لهما ، ولو كانا كما زعم انصرفا كما انصرف جاموس إذا سميت به واختصت ببابل بالانزال ، لأنها كانت أكثر البلاد سحراً ﴿ وما يعلمان من أحد ﴾ .

قرأ الجمهور بالتشديد من علم على بابها من التعليم ، وقالت طائفة : هو هنا بمعنى يعلمان التضعيف والهمزة بمعنى واحد فهو من باب الإعلام ، ويؤيده قراءة طلحة بن مصرف (وما يعلمان من أعلم) قال ، لأن الملكين إنما نزلوا

يعلمان السحر وينهيان عنه ، والضمير في يعلمان عائد على الملكين أي : وما يعلم الملكان ، وكذلك قراءة تأبى : أي : بإظهار الفاعل لا اضمماره ، وقيل : عائد على هاروت وماروت ، ففي القول الأول يكون عائداً على المبدل منه ، وفي الثاني على البدل ومن زائدة لتأكيد استغراق الجنس ، لأن أحداً من الألفاظ المستعملة للاستغراق في النفي العام فزيدت هنا لتأكيد ذلك بخلاف قولك : ما قام من رجل ، فإنها زيدت لاستغراق الجنس وشرط زيادتها هنا موجود عند جمهور البصريين ، لأنهم شرطوا أن يكون بعدها نكرة وأن يكون قبلها غير واجب ، وقد أمعنا الكلام على زيادة من في كتاب منهج السالك من تأليفنا ، وأجاز أبو البقاء أن يكون (أحد) هنا بمعنى واحد والأول أظهر ﴿ حتى يقول ﴾ حتى هنا حرف غاية ، والمعنى انتفاء تعليمهما أو إعلامهما على اختلاف القولين في يعلمان ، إلى أن يقول إنما نحن فتنة ، وقال أبو البقاء : حتى هنا بمعنى إلا أن ، وهذا معنى لحتى لا أعلم أحداً من المتقدمين ذكره وقد ذكره ابن مالك في التسهيل وأنشد عليه في غيره :

لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الْقُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّى تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلٌ^(١)

قال : يريد إلا أن تجود وما في ﴿ إنما ﴾ كافة لأن عن العمل فيصير من حروف الابتداء وقد أجاز بعض النحويين عمل إن مع وجود ما نحو ، إنما زيداً قائم ﴿ نحن فتنة ﴾ أي : ابتلاء واختبار ﴿ فلا تكفر ﴾ قال علي رضي الله عنه : كانا يعلمان تعليم إنذار لا تعليم دعاء إليه كأنهما يقولان ، لا تفعل كذا كما لو سأل سائل عن صفة الزنا ، أو القتل فأخبر بصفته ليجتنبه ، فكان المعنى في يعلمان ، يعلمان وقال الزمخشري^(٢) : فلا تكفر فلا تتعلم معتقداً أنه حق فتكفر وحكى المهدوي ، أن قولهما إنما نحن فتنة فلا تكفر استهزاء ، لأنهما إنما يقولانه لمن قد تحققاً ضلاله وقال في المنتخب : قوله (إنما نحن فتنة) توكيد لقبول الشرع والتمسك به فكانت طائفة تمتثل وأخرى تخالف ، وقيل : فلا تكفر أي : لا تستعمله فيما نهيت عنه ، ولكن إذا وقفت عليه فتحرز من أن ينفذ لساحر عليك تمويه ، وقيل : فلا تفعله لتعمل به ، وهذا على قول من قال تعلمه جائز والعمل به كفر ، وقيل : فلا تكفر بتعليم السحر ، وهذا على قول من قال إن تعلمه كفر ، وقيل : فلا تكفر بنا ، وهذا على قول إن الملكين نزلا من السماء بالسحر ، وإن من تعلمه في ذلك الوقت كان كافراً ، أو من تركه كان مؤمناً كما جاء في نهر طالوت ، وقد تقدم ما حكاه المهدوي إن قولهما (فلا تكفر) على سبيل الاستهزاء لا على سبيل النصيحة ، وقوله (حتى يقول) مطلقاً في القول وأقل ما يتحقق بالمرّة الواحدة ، فقيل : مرة وقيل : سبع مرات ، وقيل : تسع مرات ، وقيل : ثلاث ويحتاج ذلك إلى صحة نقل ، وإن لم يوجد فيكون محتملاً ، والمتحقق المرة الواحدة ، واختلف في كيفية تلقي ذلك العلم منهما ، فقال مجاهد : هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف إليهما شيطانان في كل سنة اختلافاً واحدة فيتعلمان منهما ما يفرقان به بين المرء وزوجه ، والظاهر أن هاروت وماروت هما اللذان يباشران التعليم لقوله (وما يعلمان) وقد ذكر المفسرون قصصاً فيما يعرض من المحاورة بين الملكين وبين من جاء ليتعلم منهما ، وفي كل من ذلك القصص أنهما يأمرانه بأن يبول في تنور فاختلفوا في الإيمان الذي يخرج منه يرى فارساً مقنعاً بحديد يخرج منه حتى يغيب في السماء ، أو نوراً خرج من رماد يسطع حتى يدخل السماء ، أو طائراً خرج من بين ثيابه وطار نحو السماء ، وفسروا ذلك الخارج بأنه الإيمان ، وهذا كله شيء لا يصح البتة فلذلك لخصنا منه شيئاً ، وإن كان لا يصح حتى لا نخلي كتابنا مما ذكره ﴿ فيتعلمون ﴾ قال الفراء :

(١) البيت من الكامل للمقنع الكندي - شرح ديوان الحامسة (٤/ ١٢٥) ، (١٢٦) ، شرح شواهد المغني (٣٧٢) ، المقاصد النحوية (٤١٢/٤) ، الدرر اللوامع (٦/٢) ، حاشية يس على التصريح (١/ ٢٧٢) ، التسهيل (٢٣٠) ، الهمع (٩/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٧٣/١) .

واختاره الزجاج : وهو معطوف على شيء دل عليه أول الكلام كأنه قال فيأبون فيتعلمون ، وقال الفرّاء : أيضاً هو عطف على يعلمون الناس السحر فيتعلمون منهما ، وأنكره الزجاج بسبب لفظ الجمع في يعلمون وقد قال منهما ، وأجازه أبو علي وغيره ، إذ لا يمتنع عطف فيتعلمون على يعلمون وإن كان التعليم من الملكين خاصة ، والضمير في منهما راجع إليهما ، لأن قوله فيتعلمون منهما إنما جاء بعد ذكر الملكين ، وقال سيبويه : هو معطوف على كفروا ، قال : وارتفعت فيتعلمون ، لأنه لم يخبر عن الملكين أنهما قالوا لا تكفر فيتعلموا ليجعلا كفره سبباً لتعلم غيره ، ولكنه على كفروا فيتعلمون - يريد سيبويه - أن فيتعلمون ليس بجواب لقوله (فلا تكفر) فينصب كما نصب (لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب) لأن كفر من نهي أن يكفر في الآية ليس سبباً لتعلم من يتعلم وكفروا في موضع فعل مرفوع فعطف عليه مرفوع ، ولا وجه لاعتراض من اعترض في العطف على كفروا ، أو على يعلمون بأن فيه إضمار الملكين ، قيل : ذكرهما من أجل أن التقدير (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر فيتعلمون منهما) ، لأن قوله (فيتعلمون منهما) إنما جاء بعد ذكر الملكين كما تقدّم ، وقد نقل عن سيبويه أن قوله (فيتعلمون) هو على إضمارهم أي : فهم يتعلمون فتكون جملة ابتدائية معطوفة على ما قبلها عطف الجمل والضمير على هذه الأقوال في فيتعلمون عائد على الناس ويجوز أن يكون فيتعلمون معطوفاً على يعلمان والضمير الذي في فيتعلمون لأحد وجمع حملاً على المعنى كما قال تعالى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وهذا العطف وإن كان على منفي فذلك المنفي هو موجب في المعنى ، لأن معناه أنهما يعلمان كل واحد إذا قال له (إنما نحن فتنة فلا تكفر) وذكر الزجاج ، هذا الوجه ، وقال الزجاج : أيضاً الأجود أن يكون عطفاً على يعلمان فيتعلمون واستغنى عن ذكر يعلمان بما في الكلام من الدليل عليه ، وقال أبو علي : لأن وجه لقول الزجاج استغنى عن ذكر يعلمان ، لأنه موجود في النص انتهى كلام أبي علي ، وهو كلام فيه مغالطة ، لأن الزجاج لم يرد أن فيتعلمون معطوف على يعلمان الداخل عليها ما النافية في قوله (ولا ما يعلمان) فيكون يعلمان موجوداً في النص ، وإنما يريد أن يعلمان مضمرة مثبتة لا منفية ، وهذا الذي قدره الزجاج ليس موجوداً في النص وحمل أبا علي على هذه المغالطة حب رده على الزجاج ، وتخطئته ، لأنه كان مولعاً بذلك وللشأن الجاري بينهما سبب ذكره الناس انتهى ، ما وقفنا عليه للناس في هذا العطف ، وأكثره كلام المهدي ، لأنه هو الذي أشع الكلام في ذلك وتلخص في هذا العطف أنه عطف على محذوف ، تقديره : فيأبون فيتعلمون ، أو يعلمان فيتعلمون أي : على مثبت ، أو يتعلمون خبر مبتدأ محذوف ، أي : فهم يتعلمون عطف جملة اسمية على فعلية أو معطوفاً على يعلمون الناس ، أو معطوفاً على كفروا ، أو على يعلمان المنفية لكونها موجبة في المعنى فتلك أقوال ستة أقربها إلى اللفظ هذا القول الأخير ﴿ منهما ﴾ الضمير في الظاهر عائد على الملكين أي : فيتعلمون من الملكين سواء قرئ : بفتح اللام أو كسرهما ، وقيل : يعود على السحر ، وعلى الذي أنزل على الملكين ، وقيل : عائد على الفتنة والكفر الذي هو مصدر مفهوم من قوله (فلا تكفر) وهذا قول أبي مسلم والتقدير عنده : فيتعلمون من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴿ ما يفرقون به ﴾ (ما) موصولة ، وجوز أن تكون نكرة موصوفة ، ولا يجوز أن تكون مصدرية لأجل عود الضمير عليها ، والمصدرية لا يعود عليها ضمير ، لأنها حرف في قول الجمهور ، والذي يفرق به هو السحر - وعنى - بالتفريق تفريق الألفة والمحبة بحيث تقع الشحنة والبغضاء فيفترقان ، أو تفريق الدين بحيث إذا تعلم فقد كفر وصار مرتداً ، فيكون ذلك مفروقاً بينهما ﴿ بين المرء ﴾ .

قراءة الجمهور : بفتح الميم ، وسكون الراء والهمزة ، وقرأ الحسن والزهري وقتادة : (المرء) بغير همز مخففاً ، وقرأ ابن أبي إسحاق : (المرء) بضم الميم والهمزة ، وقرأ الأشهب العقيلي : (المرء) بكسر الميم والهمز ، ورويت عن الحسن ، وقرأ الزهري أيضاً : (المرء) بفتح الميم ، وإسقاط الهمز ، وتشديد الراء ، فأما فتح

الميم وكسرهما وضمهما فلغات ، وأما المر بكسر الراء ، فوجه أنه نقل حركة الهمزة إلى الراء وحذف الهمزة ، وأما تشديدها بعد الحذف ، فوجه أنه نوى الوقف فشد كماروي عن عاصم : مُسْتَطَرٌّ : بتشديد الراء في الوقف ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف فأقرها على تشديدها فيه ﴿ وزوجه ﴾ ظاهره أنه يريد به امرأة الرجل ، وقيل : الزوج هنا الأقارب ، والأخوان ، وهم الصنف الملاثم للانسان ، ومنه ﴿ من كل زوج بهيج ﴾ [ق : ٧] ، ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] ، ﴿ وما هم بضارين به ﴾ الضمير الذي هو هم عائذ على السحرة الذين عاد عليهم ضمير فيتعلمون ، وقيل : على اليهود الذين عاد عليهم ضمير واتبعوا ، وقيل : على الشياطين ، وبضارين في موضع نصب على أن ما حجازية ، أو في موضع رفع على أن ما تميمية ، والضمير في به عائذ على ما في قوله (ما يفرقون) .

وقرأ الجمهور : بإثبات النون في (بضارين) ، وقرأ الأعمش : بحذفها وخرّج ذلك على وجهين :

أحدهما : أنها حذفت تخفيفاً وإن كان اسم الفاعل في صلة الألف واللام .

والثاني : إن حذفها لأجل الاضافة إلى أحد وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور الذي هو به كما قال :

هُمَا أَخَوَا فِي الْحَرْبِ مَنْ لَا أَخَا لَهُ^(١)

وكما قال :

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفٍّ يَوْمًا يَهُودِيٍّ

وهذا اختيار الزمخشري^(٢) ثم استشكل ذلك ، لأن أحداً مجرور بمن فكيف يمكن أن يعتقد فيه أنه مجرور بالاضافة فقال : فإن قلت : كيف يضاف إلى أحد وهو مجرور بمن . قلت : جعل الجار جزءاً من المجرور انتهى ، وهذا التخريج ليس بجيد ، لأن الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ، والجار والمجرور من ضرائر الشعر ، وأقبح من ذلك أن لا يكون ثم مضاف إليه ، لأنه مشغول بعامل جر فهو المؤثر فيه لا الإضافة ، وأما جعل حرف الجر جزءاً من المجرور فهذا ليس بشيء ، لأنه مؤثر فيه وجزء الشيء لا يؤثر في الشيء ، والأجود التخريج الأول ، لأن له نظيراً في نظم العرب ونشرها فمن الشر قول العرب (قطا قطا بيضك اثنتا وبيضي اماتتا) يريدون اثنتان ومائتان ﴿ من أحد ﴾ من زائدة ، وأحد مفعول بضارين ، ومن تزداد في المفعول إلا أن المعهود زيادتها في المفعول الذي يكون معمولاً للفاعل الذي يباشره حرف النفي ، نحو ما ضربت من رجل ، وما ضرب زيد من رجل ، وهنا حملت الجملة من غير الفعل والفاعل على الجملة من الفعل والفاعل ، لأن المعنى وما يضررون من أحد ﴿ إلا بإذن الله ﴾ مستثنى مفرغ من الأحوال فيحتمل أن يكون حالاً من الضمير الفاعل في قوله (بضارين) ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول الذي هو من أحد ، ويحتمل أن يكون حالاً من به أي : السحر المفروق به ، ويحتمل أن يكون حالاً من الضرر المصدر المعروف

(١) البيت من الطويل ، وهو لشاعرة عربية من قصيدة قالتها في رثاء ابنها ، وقيل : أخوها . قيل : هي دُرُزْنَى بنت عبيدة ، وقيل : دُرُزْنَى بنت سيار ، وقيل : غير ذلك . انظر الكتاب (١٨٠/١) ، شرح أبيات سيبويه للسيرافي (٢١٨/١) ، الإنصاف (٤٣٤) ، شرح ديوان الحماسة (٦٠/٣ ، ٦٣) ، الخصائص (٤٠٥/٢) ، شرح المفصل (٢١/٣) ، الدرر اللوامع (٦٦/٢) ، الهمع (٥٢/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٧٣/١) .

المحذوف ، والاذن هنا فسر الوجوه التي ذكرناها عند الكلام على المفردات ، فقال الحسن : الاذن هنا هو التخلية بين المسحور وضرر السحر ، وقال الأصم : العلم ، وقال غيره : الخلق ويضاف إلى اذنه كقوله (كن فيكون) ، وقيل : الأمر ، قيل : والاذن حقيقة فيه واستبعد ذلك ، لأن الله لا يأمر بالسحر ، ولأنه ذمهم على ذلك وأول معنى الأمر فيه بأن يفسر التفريق بالصيرورة كافراً ، فإن هذا حكم شرعي وذلك لا يكون إلا بأمر الله ، وفي هذه الجملة دليل على أن ما يتعلمون له تأثير وضرر لكن ذلك لا يضر إلا بإذن الله لأنه ربما أحدث الله عنده شيئاً وربما لم يحدث ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ لما ذكر أنه يحصل به الضرر لمن يفرق بينهما ذكر أيضاً أن ضرره لا يقتصر على من يفعل به ذلك ، بل هو أيضاً يضر من تعلمه ، ولما كان إثبات الضرر بشيء لا ينفي النفع ، لأنه قد يوجد الشيء فيحصل به الضرر ويحصل به النفع نفي النفع عنه بالكلية وأتى بلفظ لا ، لأنها ينفي بها الحال والمستقبل ، والظاهر أن ولا ينفعهم معطوف على يضرهم وكلا الفعلين صلة لما فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وجوز بعضهم أن يكون لا ينفعهم على إضمار هو أي : وهو لا ينفعهم فيكون في موضع رفع وتكون الواو للحال فتكون جملة حالية ، وهذا ضعيف ، وقد قيل : الضرر وعدم النفع مختص بالآخرة ، وقيل : هو في الدنيا والآخرة ، فإن تعلمه إن كان غير مباح فهو يجبر إلى العمل به وإلى التنكيل به إذا عثر عليه وإلى أن ما يأخذه عليه حرام هذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فلما يترتب عليه من العقاب ﴿ ولقد علموا ﴾ الضمير عائد ، قيل : على اليهود الذين كانوا في عهد سليمان عليه السلام وكانوا حاضرين استخراج الشياطين السحر ودفنه أو أخذ سليمان السحر ودفنه تحت كرسيه ولما أخرجه بعد موته قالوا والله ما هذا من عمل سليمان ولا من ذنابه ، وقيل : عائد على من بحضرة رسول الله ﷺ من اليهود ، وقيل : عائد على اليهود قاطبة أي : علموا ذلك في التوراة ، وقيل : عائد على علماء اليهود ، وقيل : عائد على الشياطين وقيل : على الملكين ، لأنهما كانا يقولان لمن يتعلم السحر فلا تكفر فقد علموا أنه لا خلاق له في الآخرة ، وأتى بضمير الجمع على قول من يرى ذلك وعلم هنا يحتمل أن تكون المتعدية لمفعولين وعلقت عن الجملة ، ويحتمل أن تكون المتعدية لمفعول واحد وعلقت أيضاً كما علق عرفت ، والفرق بين هذين التقديرين يظهر في العطف على موضعها والسلام في ﴿ لمن اشتراه ﴾ هي لام الابتداء ، وهي المانعة من عمل علم ، وهي أحد الأسباب الموجبة للتعليق ، وأحازوا حذفها ، وهي باقية على منع العمل وخرجوا على ذلك :

إِنِّي وَجَدْتُ مَلَكَ الشَّيْمَةِ الْأَدَبُ^(١)

يريد : لملاك الشيمة ، ومن هنا موصولة وهي مرفوعة بالابتداء والجملة من قوله ﴿ ماله في الآخرة من خلاق ﴾ في موضع الخبر واللام في لقد للقسمة هذا مذهب سيويه ، وأكثر النحويين ، وجملة (ولقد علموا) مقسم عليها التقدير : والله لقد علموا والجملة الثانية عنده غير مقسم عليها وأجاز الفراء : أن تكون الجملتان مقسماً عليهما وتكون من للشرط وتبعه في ذلك الحوفي وأبو البقاء ، قال أبو البقاء : اللام في لمن اشتراه هي التي يوطأ بها القسم مثل ﴿ لمن لم تنته ﴾ [مريم : ٤٦] ، ومن في موضع رفع بالابتداء وهي شرط وجواب القسم (ماله في الآخرة من خلاق) انتهى كلامه . فاشتراه في القول الأول صلة ، وفي هذا القول خبر عن من ويكون إذ ذاك جواب الشرط محذوفاً يدل عليه جواب القسم ، لأنه اجتمع قسم وشرط ولم يتقدمهما ذو خبر فكان الجواب للسابق وهو القسم ، ولذلك كان فعل الشرط ماضياً في اللفظ هذا هو تقرير هذا القول وتوضيحه ، وفي كلا القولين يكون لمن اشتراه في موضع نصب

(١) البيت من البسيط لشاعر من بني فزارة لم يعرف اسمه . انظر تلخيص الشواهد لابن هشام ص (٤٤٩) ، الخزائن (١٣٩/٩) ، الدرر اللوامع (١٣٥/١) ، المقاصد النحوية (٤١١/٢) .

بـعلموا ، وقد نقل عن الزجاج ردّ قول من قال من شرط ، وقال : هذا ليس موضع شرط ، ولم ينقل عنه توجيه كونه ليس موضع شرط ، وأرى المانع من ذلك أن الفعل الذي يلي من هو ماضٍ لفظاً ومعنى ، لأن الاشتراء قد وقع وجعله شرطاً لا يصح ، لأن فعل الشرط إذا كان ماضياً لفظاً فلا بد أن يكون مستقبلاً في المعنى فلما كان كذلك كان ليس موضع شرط ، والضمير المنصوب في اشتراء عائد على السحر ، أو الكفر ، أو كتابهم الذي باعوه بالسحر ، أو القرآن ، لأنه تعوضوا عنه بكتب السحر أقوال أربعة والخلاق : النصيب قاله مجاهد : أو الدين : قاله الحسن ، أو القوام : قاله ابن عباس ، أو الخلاص : أو القدر : قاله قتادة : أقوال خمسة^(١) ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ تقدّم القول في بئس ، وفي ما الواقعة بعدها ومعناه : ذمّ ما باعوا به أنفسهم ، والضمير في به عائد على السحر ، أو الكفر ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره : على أحسن الوجوه التي تقدّمت في بئسما السحر ، أو الكفر والضمير في شروا ويعلمون باتفاق لليهود فمتى فسر الضمير في (ولقد علموا) بأنه عائد على الشياطين ، أو اليهود الذين كانوا بحضرة سليمان وفي زمانه ، أو المَلِكِينَ اللام ، أو بكسرها فلا إشكال لاختلاف المسند إليه العلم وإن اتحد المسند إليه أوّل العلم الثاني بالعقل ، لأن العلم من ثمرته فلما انتفى الأصل نفى ثمرته ، أو بالعمل ، لأنه من ثمرة العلم فلما انتفت الثمرة جعل ما ينشأ عنه منفيّاً ، أو أوّل متعلق العلم وهو المحذوف أي : علموا ضرره في الآخرة ولم يعلموا نفعه في الدنيا ، أو علموا نفي الثواب ولم يعلموا استحقاق العذاب وجواب لو محذوف تقديره ﴿لو كانوا يعلمون﴾ ذمّ ذلك لما باعوا أنفسهم ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ قد تقدّم الكلام في لو وأقسامها وهي هنا حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ويأتي الكلام على جوابها إن شاء الله ، وقال الزمخشري^(٢) : ويجوز أن يكون قوله (ولو أنهم آمنوا) تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له كأنه قيل : وليتهم آمنوا ثم ابتدئ (لمثوبة من عند الله خير) انتهى فعلى هذا لا يكون للو جواب لازم ، لأنها قد تجاب إذا كانت للتمني بالفاء كما يجاب ليت إلا أن الزمخشري^(٣) دس في كلامه هذا ويخرجه مذهب الاعتزالي حيث جعل التمني كناية عن إرادة الله فيكون المعنى : إن الله أراد إيمانهم فلم يقع مراده وهذا هو عين مذهب الاعتزال والطائفة الذين سمو أنفسهم عدلية :

قَالُوا يُرِيدُ وَلَا يَكُونُ مُرَادُهُ عَدَلُوا وَلَكِنْ عَنْ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ

وأهم آمنوا يتقدّر بمصدر كأنه قيل : ولو إيمانهم وهو مرفوع فقال سيبويه : هو مرفوع بالابتداء أي : ولو إيمانهم ثابت ، وقال المبرد : هو مرفوع على الفاعلية أي : ولو ثبت إيمانهم ففي كل من المذهبين حذف للمسند وإبقاء المسند إليه ، والترجيح بين المذهبين مذكور في علم النحو ، والضمير في أنهم لليهود ، أو الذين يعلمون السحر قولان ، والإيمان والتقوى ، الإيمان التام ، والتقوى الجامعة لضروبها ، أو الإيمان بمحمد وبما جاء به ، وتقوى الكفر والسحر ، قولان متقاربان ﴿لمثوبة﴾ اللام لام الابتداء لا الواقعة في جواب لو وجواب لو محذوف لفهم المعنى ، أي : لأثبوا ثم ابتدأ على طريق الإخبار الاستثنائي ، لا على طريق تعليقه بإيمانهم وتقواهم وترتبه عليهما هذا قول الأخفش - أعني - أن الجواب محذوف ، وقيل : اللام هي الواقعة في جواب لو ، والجواب هو قوله (لمثوبة) أي : الجملة الاسمية والأول اختيار الراغب ، والثاني اختيار الزمخشري^(٤) ، قال : أثرت الجملة الاسمية على الفعلية في

(١) انظر ما يتعلق بهذه الآثار تفسير الطبري (٤٥٣/٢) ، تفسير القرطبي (٣٩/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٧٤/١) .

(٣) انظر الكشف (١٧٤/١) .

(٤) انظر الكشف (١٧٤/١) .

جواب لو لما في ذلك من الدلالة على ثبوت المثوبة واستقرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في ﴿ سلام عليكم ﴾ [الرعد : ٢٤] ، لذلك انتهى كلامه ، ومختاره غير مختار ، لأنه لم يعهد في لسان العرب وقوع الجملة الابتدائية جواباً ولو إنما جاء هذا المختلف في تخريجه ، ولا تثبت القواعد الكلية بالمحتمل وليس مثل (سلام عليكم) لثبوت رفع (سلام عليكم) من لسان العرب ووجه من أجاز ذلك قوله : بأن مثوبة مصدر يقع للماضي ، والاستقبال فصلح لذلك من حيث وقوعه للمضي ، وقد تكلمنا على هذه المسألة في كتاب التكميل من تأليفنا بأشبع من هذا ، وقرأ الجمهور : (لَمْثُوبَةٌ) بضم الثاء كالمشورة ، وقرأ قتادة ، وأبو السمال ، وعبد الله بن بريدة : بسكون الثاء كمشورة ومعنى قوله (لَمْثُوبَةٌ) أي : لثواب وهو : الجزاء والأجر على الإيمان ، والتقوى بأنواع الاحسان ، وقيل : لمثوبة لرجعة إلى الله خير ﴿ من عند الله ﴾ هذا الجار والمجرور في موضع الصفة أي : كائنة من عند الله وهذا الوصف هو المسوَّغ لجواز الابتداء بالنكرة ، وفي وصف المثوبة بكونها من عند الله تفخيم وتعظيم لها ، ولمناسبة الإيمان والتقوى لذلك كان المعنى إن الذي آمنت به واتقيتم محارمه هو الذي ثوابكم منه على ذلك فهو المتكفل بذلك لكم ، واكتفى بالتنكير في ذلك إذ المعنى لشيء من الثواب :

قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

﴿ خير ﴾ خبر لقوله (لمثوبة) وليس خير هنا أفعل تفضيل بل هي للتفضيل لا للافضلية فهي كقوله (أفمن يلقي في النار خيراً) وخير مستقراً .

فَشَرُّكُمْ مِمَّا لَخِيرُكُمْ الْفَدَاءُ (١)

﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ جواب لو محذوف التقدير لو كانوا يعلمون لكان تحصيل المثوبة خيراً - ويعني - سبب المثوبة ، وهو الإيمان والتقوى ، ولذلك قدره بعضهم لآمنوا لأن من كان ذا علم وبصيرة لم يخف عليه الحق فهو يسارع إلى اتباعه ولا الباطل فهو يبالغ في اجتنابه ، ومفعول يعلمون محذوف اقتصاراً ، فالمعنى لو كانوا من ذوي العلم ، أو اختصاراً فقدره بعضهم ، لو كانوا يعلمون التفضيل في ذلك وقدره بعضهم لو كانوا يعلمون أن ما عند الله خير وأبقى ، وقيل : العلم هنا كناية عن العمل ، أي : لو كانوا يعلمون بعلمهم ولما انتفت ثمره العلم الذي هو العمل جعل العلم متفياً ، وقد تضمنت هذه الآيات الشريعة ما كان عليه اليهود من خبث السريرة وعدم التوفيق والطواعية لأنبياء الله ونصب المعاداة لهم حتى انتهى ذلك إلى عداوتهم من لا يلحقه ضرر عداوتهم وهو من لا ينبغي أن يعادي ، لأنه السفير بين الله وبين خلقه ، وهو جبريل أتى بالقرآن المصدق لكتابهم والمشتمل على الهدى والبشارة لمن آمن به فكان ينبغي المبادرة إلى ولائه ومحبه ، ثم أعقب ذلك بأن (من كان عدواً لله) أي : مخالفاً لأمره (وملائكته ورسله) أي : مبغضاً لهم فالله عدوه أي : معاملته بما يناسب فعله القبيح ثم التفت إلى رسوله بالخطاب فأخبره بأنه نزل عليه آيات واضحة وأنها لوضوحها لا يكفر بها إلا متمرد في فسقه ، ثم أخذ يسليه بأن عادة هؤلاء نكث عهودهم فلا تبال بمن طريقتهم هذه ، وأنهم سلكوا هذه الطريقة معك إذ أتيتهم من عند الله تعالى بالرسالة فنبذوا كتابه تعالى وراء ظهورهم ، بحيث صاروا لا ينظرون فيه ولا يلتفتون لما انطوى عليه من التنبؤ بك ، والزامهم اتباعك حتى كأنهم لم يطلعوا على الكتاب ، ولا سبق لهم بك علم منه ، ثم ذكر من مخازيهم أنهم تركوا كتاب الله واتبعوا ما ألفت إليهم الشياطين من كتب السحر على عهد

(١) البيت من الوافر لحسان بن ثابت الأنصاري - انظر ديوانه ص (٧ - ٨) ، شرح شواهد المغني للسيوطي ص (٨٥٧) ، الخزانة ص (٢٣٢/٩) ، الكشف (٣/٣٠٩) ، لسان العرب (ندد) .

سليمان ، ثم نزه نبيه سليمان عن الكفر ، وأن الشياطين هم الذين كفروا ، ثم استطرد في أخبار هاروت ، وماروت ، وأنهما لا يعلمان أحداً حتى ينصحا بهما جعلاً ابتلاء واختباراً ، وأنهما لمبالغتهما في النصيحة ينهيان عن الكفر ، ثم ذكر أن قصارى ما يتعلمون منهما هو تفريق بين المرء وزوجه ، ثم ذكر أن ضرر ذلك لا يكون إلا بإذن من الله تعالى ، لأنه تعالى هو الضار النافع ، ثم أثبت أن ما يتعلمون هو ضرر لملاسه ومتعلمه ، ثم أخبر أنهم قد علموا بحقيقة الضرر وإن متعاطي ذلك لا نصيب له في الآخرة ، ثم بالغ في ذم ما باعوا به أنفسهم إذ ما تعوضوه مآله إلى الخسران ، ثم ختم ذلك بما لو سلكوه وهو : الإيمان والتقوى لحصل لهم من الله الثواب الجزيل على ذلك ، وأن جميع ما اجترموه من المآثم واكتسبوه من الجرائم يعفي على آثاره جرّ ذيل الإيمان ويبدّل بالإساءة جميل الإحسان ، ولما كانت الآيات السابقة فيها ما يتضمن الوعيد من قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [٩٨] ، وقوله ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ وذكر نبد اليهود ، ونبد كتاب الله ، واتباع الشياطين ، وتعلم ما يضر ولا ينفع ، والأخبار عنهم بأنهم علموا أنه لا نصيب لهم في الآخرة أتبع ذلك بآية تتضمن الوعد الجميل لمن آمن واتفق فجمعت هذه الآيات بين الوعيد والوعد ، والترغيب ، والإنذار ، والتبشير وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء ، وأخبار بمغيب بعد مغيب متناسقة تناسق اللآلئ في عقودها متضحة اتضاح الدراري في مطالع سعودها معلمة صدق من أتى بها وهو ما قرأ الكتب ولا دارس ولا رحل ولا عاشر الأخبار ولا مارس ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ﴾ [النجم : ٣] - صلى الله عليه - وأوصل أزكى تحية إليه

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ ﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ١٠٥ ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦ ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ ﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٠٨ ﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩ ﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَءَاتُوا الزَّكٰوةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٠ ﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١١١ ﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢ ﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ

الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ قَالَ اللَّهُ إِنَّهُمْ يَحْكُمُونَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴿١١٢﴾

الرعاية^(١) والمراعاة النظر في مصالح الإنسان وتدبير أموره والرعونة^(٢) والرعن الجهل والهوج ، ذو يكون بمعنى صاحب ، وتثنى ، وتجمع ، وتؤنث ، وتلزم الإضافة لاسم جنس ظاهر ، وفي إضافتها إلى ضمير الجنس خلاف المشهور المنع ، ولا خلاف أنه مسموع ، لكن من منع ذلك خصه بالضرورة وإضافته إلى العلم المقرون به في الوضع أو الذي لا يقرن به في أول الوضع مسموع ، فمن الأول قولهم (ذُو يَزْنٍ وذُو جَدْنٍ ، وذُو رُعَيْنٍ ، وذُو كَلَالَعٍ) فتجب الإضافة إذ ذاك ، ومن الثاني قولهم في « تبوك » (وعمرُو وقطري ذو تبوك ، وذو عمرو ، وذو قطري) والأكثر أن لا يعتد بلفظ ذو بل ينطق بالاسم عارياً من ذو ، وما جاء من إضافته لضمير العلم ، أو لضمير مخاطب لا ينقاس كقولهم اللهم صل على محمد وعلى ذويه وقول الشاعر :

وَأِنَّا لَنَرْجُو عَاجِلاً مِنْكَ مِثْلَ مَا رَجَوْنَاهُ قَدْماً مِنْ ذَوِيكَ الْأَفَاضِلِ

ومذهب سيويه : أن وزنه فَعْلَ بفتح العين ، ومذهب الخليل : أن وزنه فَعْلَ بسكونها ، واتفقوا : على أنه يجمع في التكسير على أفعال ، قالوا أَدْوَاء وذو من الأسماء الستة التي تكون في الرفع بالواو وفي النصب بالالف وفي الجر بالياء وإعراب ذو كذا لازم بخلاف غيرها من تلك الأسماء فذلك على جهة الجواز ، وفيما أعربت به هذه الأسماء عشرة مذاهب ذكرت في النحو ، وقد جاءت ذو أيضاً موصولة وذلك في لغة طييء ، ولها أحكام ، ولم تقع في القرآن ، النسخ : إزالة الشيء بغير بدل يعقبه ، نحو نسخت الشمس الظل ، ونسخت الريح الأثر ، أو نقل الشيء من غير إزالة ، نحو نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه إلى مكان آخر ، النسيئة : التأخير نسأ ينسأ ، ويأتي نسأ بمعنى مضى الشيء . قال الشاعر :

لَمْؤُنٍ كَالْوَاحِ الْإِرَانِ نَسَاتُهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجَدٍ

الولي : فَعِيل للمبالغة من ولي الشيء جاوره ولصق به ، الحسد : تمنى زوال النعمة عن الإنسان ، حسد يحسد حسداً وحسادة ، الصفح : قريب معناه من العفو ، وهو الإعراض عن المؤاخذه على الذنب ، مأخوذ من تولية صفحة الوجه إعراضاً ، وقيل : هو التجاوز من قولك تصفحت الورقة أي : تجاوزت عما فيها ، والصفوح قيل : من أسماء الله ، والصفوح^(٣) المرأة تستر بعض وجهها إعراضاً ، قال الشاعر :

صَفُوحٍ فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلُ مَلَّتْ

تلك من أسماء الإشارة يطلق على المؤنثة في حالة البعد ، ويقال تلك ، وتيلك ، وتَالِكُ بفتح التاء ، وسكون

(١) راعى أمره : حفظه وترقبه ، والمراعاة : المناظرة والمراقبة . يقال : راعيت فلاناً مراعاة ورعاء : إذا راقبته وتأملت فعله . وراعت الأمر : نظرت إلام بصير - لسان العرب (١٦٧٧/٣) .

(٢) الرعونة : الحمق والاسترخاء . رجل أرعن وامرأة رعناء بَيِّنَا الرعونة - لسان العرب (١٦٧٥/٣) .

(٣) الصفوح في نعت المرأة : المعرضة صادة هاجرة .

اللام ، وبكسرها ، وياء بعدها ، وكسر اللام ، وبفتحها ، وألف بعدها ، وكسر اللام قال الشاعر :

إِلَى الْجُودِي حَتَّى صَارَ حَجْرًا وَحَانَ لِتَالِكِ الْعَمْرِ انْحِسَارًا

هاتوا : معناه أحضروا ، والهاء أصلية لا بدل من همزة أتى لتعديها إلى واحد لا يحفظ هاتي الجواب وللزوم الألف إذ لو كانت همزة لظهرت إذا زال موجب إبدالها وهو الهمزة قبلها ، فليس وزنها أفعال خلافاً لمن زعم ذلك ، بل وزنها فاعل كرام ، وهي فعل خلافاً لمن زعم أنها اسم فعل ، والدليل على فعليتها اتصال الضمائر بها ، ولمن زعم أنها صوت بمنزلة هاء في معنى احضر وهو الزمخشري^(١) ، وهو أمر وفعله متصرف تقول : هاتي يهاتي مهاتاة ، وليس من الأفعال التي أميت تصريف لفظه إلا الأمر منه خلافاً لمن زعم ذلك وليست ها للتنبية دخلت على أتى فألزمت همزة أتى الحذف ، لأن الأصل أن لا حذف ، ولأن معنى هات ، ومعنى ائت مختلفان ، فمعنى هات أحضر ، ومعنى ائت احضر ، وتقول : هات هاتي هاتيا هاتوا هاتين تصرفها كرامي ، البرهان^(٢) : الدليل على صحة الدعوى ، قيل : هو مأخوذ من البره وهو : القطع فتكون النون زائدة ، وقيل : من البرهنة وهي : البيان قالوا : برهن إذا بين فتكون النون زائدة . لفقدان فعلن ووجود فعلل فينبني على هذا الاشتقاق التسمية ببرهان هل ينصرف أو لا ينصرف ، الوجه : معروف ، ويجمع قلة على أوجه وكثرة على وجوه ، فينقاس أفعال في فعل الاسم الصحيح العين ، وينقاس فُعول في فعل الاسم ليس عينه واواً ، اليهود : ملة معروفة ، والياء أصلية فليست مادة الكلمة مادة هود من قوله (هوداً أو نصارى) لثبوتها في التصريف يهده وأما هوده فمن مادة هود ، قال الأستاذ أبو علي الشلوبين وهو الإمام الذي انتهى إليه علم اللسان في زمانه : يهود فيها وجهان :

أحدهما : أن تكون جمع يهودي ، فتكون نكرة مصروفة .

والثاني : أن تكون علماً لهذه القبيلة فتكون ممنوعة الصرف انتهى كلامه . وعلى الوجه الأول دخلته الألف واللام فقالوا اليهود إذ لو كان علماً لما دخلته وعلى الثاني . قال الشاعر :

أُولَئِكَ أُولَى مِنْ يَهُودَ بِمَدْحَةٍ إِذَا أَنْتَ يَوْمًا قُلْتَهَا لَمْ تُؤْنَبِ^(٣)

ليس فعل ماض خلافاً لأبي بكر بن شقير^(٤) ، وللفارسي في أحد قوليه : إذ زعما أنها حرف نفي مثل ما ووزنها فعل بكسر العين ، ومن قال أُنْتُ بضم اللام فوزنها عنده فعل بضم العين وهو بناء نادر في الثلاثي البياني العين لم يسمع منه إلا قولهم هيؤ الرجل فهو هيء ، إذا حسنت هيئته ، وأحكام ليس كثيرة مشروحة في كتب النحو ، الحكم : الفصل ، ومنه سمي القاضي الحاكم ، لأنه يفصل بين الخصمين ، الاختلاف : ضد الاتفاق ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ هذا أول خطاب خطوب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، وذلك أن أول نداء جاء أتى عاماً

(١) انظر الكشف (١٧٦/١) ، لسان العرب (٢٤٥٦/٤) .

(٢) البرهان : بيان الحجة واتضحها - لسان العرب (٢٧١/١) .

(٣) البيت من الطويل لخوات بن جبير - انظر لسان العرب (هود) والشاهد فيه قوله « يهود » علم قبيلة .

(٤) أحمد بن الحسين بن العباس بن الفرج بن شقير النحوي الشقيري أبو بكر بغدادى في طبقة ابن السراج توفي في صفر سنة سبع عشرة وثلاثمائة - البغية (٣٠٢/١) .

(يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وثاني نداء أتى خاصاً (يا بني إسرائيل اذكروا) وهي الطائفة العظيمة التي اشتملت على الملتين اليهودية والنصرانية ، وثالث نداء لأمة محمد ﷺ المؤمنين فكان أول نداء عاماً أمروا فيه بأصل الإسلام وهو عبادة الله ، وثاني نداء ذكروا فيه بالنعم الجزيلة وتعبدوا بالتكاليف الجليلة وخوفوا من حلول النقم الويلة ، وثالث نداء علموا فيه أدباً من آداب الشريعة مع نبيهم إذ قد حصلت لهم عبادة الله ، والتذكير بالنعم ، والتخويف من النقم ، والاتعاظ بمن سبق من الأمم فلم يبق إلا ما أمروا به على سبيل التكميل من تعظيم من كانت هدايتهم على يديه والتبجيل^(١) والخطاب : بـ (أيها الذين آمنوا) متوجه إلى من بالمدينة من المؤمنين ، قيل : ويحتمل أن يكون إلى كل مؤمن في عصره ، وروي عن ابن عباس : أنه حيث جاء هذا الخطاب ، فالمراد به أهل المدينة ، وحيث ورد يا أيها الناس فالمراد أهل مكة ﴿ لا تقولوا راعنا وقولوا انظُرنا ﴾ بدى بالنهي ، لأنه من باب التروك فهو أسهل ، ثم أتى بالأمر بعده الذي هو أشق لحصول الاستئناس قبل النهي ، ثم لم يكن نهياً عن شيء سبق تحريمه ولكن لما كانت لفظة المفاعلة تقتضي الاشتراك غالباً فصار المعنى ليقع منك رعي لنا ، ومنا رعي لك ، وهذا فيه ما لا يخفى مع من يعظم نهوا عن هذه اللفظة لهذه العلة وأمروا بأن يقولوا انظُرنا ، إذ هو فعل من النبي ﷺ لا مشاركة لهم فيه معه .

وقراءة الجمهور (رَاعِنَا) ، وفي مصحف عبد الله وقراءته ، وقراءة أبي : (رَاعُونَا) على إسناد الفعل لضمير الجمع ، وذكر أيضاً أن في مصحف عبد الله (ارْعُونَا) خاطبوه بذلك إكباراً وتعظيماً إذ أقاموه مقام الجمع ، وتضمن هذا النهي النهي عن كل ما يكون فيه استواء مع النبي ﷺ ، وقرأ الحسن وابن أبي ليلى وأبو حية وابن محيصن : (رَاعِنَا) بالتثنية جعله صفة لمصدر محذوف ، أي : قولاً راعناً وهو على طريق النسب كلابن ، وتامر ، لما كان القول سبباً في السبب اتصف بالرعن فنهوا في هذه القراءة عن أن يخاطبوا الرسول بلفظ يكون فيه أو يوهم شيئاً من الغض مما يستحقه ﷺ من التعظيم وتلطيف القول وأدبه ، وقد ذكر أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانت تقصد بذلك إذ خاطبوا رسول الله ﷺ الرعونة ، وكذا قيل : في راعونا أنه فاعولاً من الرعونة كعاشورا ، وقيل : كانت لليهود كلمة عبرانية ، أو سريانية يتسابون بها وهي راعينا فلما سمعوا يقول المؤمنون راعنا اقترضوه وخاطبوا بها رسول الله ﷺ وهم يعنون تلك المسبة فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها ، ومن زعم أن راعنا لغة مختصة بالأنصار فليس قوله بشيء ، لأن ذلك محفوظ في جميع لغة العرب ، وكذلك قول من قال : إن هذه الآية ناسخة لفعل قد كان مباحاً ، لأن الأول لم يكن شرعاً متقدراً قبل ، وقيل : في سبب نزولها غير ذلك ، وبالجمله فهي كما قال محمد بن جرير^(٢) : كلمة كرهها الله أن يخاطب بها نبيه كما قال ﷺ : « لا تقولوا عبدي وأمتي وقولوا فتاي وفتاتي ولا تسموا العنب الكرم »^(٣) وذكر في النهي وجوه ، إن معناها : اسمع لا سمعت ، أو أن أهل الحجاز كانوا يقولونها عند المفر قاله قطرب ، أو أن اليهود كانوا يقولون راعينا ، أي : راعي غنمنا ، أو أنه مفاعلة فيوهم مساواة ، أو معناه راع كلامنا ولا تغفل عنه ، أو لأنه يتوهم أنه من الرعونة . وقوله (انظُرْنَا) قراءة الجمهور : موصول الهمزة مضموم الظاء من النظرة وهي التأخير أي : انتظرنا وتأن علينا نحو قوله :

فَإِنكُمَا إِن تَنْظُرَانِي سَاعَةً مِّنَ الدَّهْرِ تَتَفَعِنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبَ

(١) التبجيل : التعظيم . بَجَلُ الرَّجُلِ : عظمه . ورجل بَجَالٍ وَبَجِيلٌ : يبجله الناس وقيل : هو الشيخ الكبير العظيم السيد مع جمال ونبل - لسان العرب (٢١٢/١) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٤٦٣/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٧٥٠٩) ، من حديث أبي هريرة ، وقد رواه الشيخان . انظر البخاري (١٢٨/٥) ، ومسلم (١٩٧/٢) .

أو من النظر ، واتسع في الفعل فعدي بنفسه ، وأصله أن يتعدى بإلى كما قال الشاعر :

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرُ نَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكُ الظُّبَاءُ^(١)

يريد إلى الأراك ومعناه ، تفقدنا بنظرك ، وقال مجاهد : معناه فهمنا وبين لنا ، فسر باللازم في الأصل وهو أنظر ، لأنه يلزم من الرفق والامهال على السائل ، والتأني به أن يفهم بذلك ، وقيل : هو من نظر البصيرة بالتفكير والتدبر فيما يصلح للمنظور فيه فاتسع في الفعل أيضاً إذ أصله أن يتعدى بفي ويكون أيضاً على حذف مضاف أي : انظر في أمرنا ، قال ابن عطية : وهذه لفظة مخصصة لتعظيم النبي ﷺ والظاهر عندي : استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال ، وهذا هو معنى راعنا فبدلت للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود انتهى ، وقرأ أبي ، والأعمش : أَنْظُرْنَا بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار . ومعناه : أخرنا وأمهلنا حتى نتلقى عنك ، وهذه القراءة تشهد للقول الأول في قراءة الجمهور ، ﴿ واسمعوا ﴾ أي : سماع قبول وطاعة ، وقيل : معناه أقبلوا ، وقيل : فرغوا أسماعكم حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة ، وقيل : اسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا تعودون إليه ، أكد عليهم ترك تلك الكلمة ، وروي أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال : يا أعداء الله عليكم لعنة الله فولذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه ﴿ وللكافرين عذاب إليم ﴾ ظاهره العموم فيدخل فيه اليهود ، وقيل : المراد به اليهود أي : لليهود الذين تهاونوا بالرسول وسبوه ، ولما نهى أولاً ، وأمر ثانياً ، وأمر بالسمع وحض عليه إذ في ضمنه الطاعة أخذ يذكر لمن خالف أمره وكفر (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ﴿ ما يؤد الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين ﴾ ذكر المفسرون أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد ﷺ فقالوا وددنا لو كان خيراً مما نحن عليه فنتبعه فأكذبهم الله بقوله (ما يؤد الذين كفروا) فعلى هذا يكون المراد بأهل الكتاب الذين بحضرة رسول الله ﷺ والظاهر العموم في أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وفي المشركين وهم مشركو العرب وغيرهم ، ونفي بما ، لأنها لنفي حال فهم ملتبسون بالبغض والكراهة أن ينزل عليكم ، ومن في قوله (من أهل الكتاب) تبعية فتعلق بمحذوف أي : كائنين من أهل الكتاب ومن أثبت أن من تكون لبيان الجنس قال : ذلك هنا ، وبه قال الزمخشري^(٢) ، وأصحابنا ، لا يشتون كونها للبيان ، ولا المشركين معطوف على من أهل الكتاب ، ورأيت في كتاب لأبي إسحاق الشيرازي^(٣) صاحب التنبيه ، كلاماً يرد فيه على الشيعة ، ومن قال بمقاتلتهم في أن مشروعية الرجلين في الوضوء هي المسح للعطف في قوله (وأرجلكم) على قوله (برؤوسكم) خرج فيه أبو إسحاق قوله (وأرجلكم) بالجر على أنه من الخفض على الجوار ، وأن أصله النصب فخفض عطفاً على الجوار ، وأشار في ذلك الكتاب إلى أن القرآن ، ولسان العرب يشهدان بجواز ذلك وجعل منه قوله (ولا المشركين) في هذه الآية وقوله ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ [البينة : ١] ، وأن الأصل هو الرفع أي : ولا المشركون عطفاً على الذين كفروا ، وهذا حديث من قصر في العربية وتناول إلى الكلام فيها بغير معرفة وعدل عن حمل اللفظ على معناه الصحيح وتركيبه الفصيح ، ودخلت لا في قوله (ولا المشركين) للتأكيد ، ولو كان في غير

(١) البيت من الخفيف لعبيد الله بن قيس الرقيات ، انظر ديوانه ص (٨٨) .

(٢) انظر الكشف (١٧٦/١) .

(٣) إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي ، الشيرازي أبو إسحاق توفي سنة ٤٧٦ هجرية - وفيات الأعيان (١٤/١) ، اللباب (٢٣٢/٢) ، الأعلام (٥١/١) .

القرآن لجاز حذفها ولم تأت في قوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) لمعنى يذكر هناك إن شاء الله تعالى ﴿ أن ينزل عليكم ﴾ في موضع المفعول بيود وبنائه للمفعول وحذف الفاعل للعلم به وللتصريح به في قوله من ربكم ولو بني للفاعل لم يظهر في قوله من ربكم ﴿ من خير ﴾ من زائدة ، والتقدير : خير من ربكم ، وحسن زيادتها هنا وإن كان ينزل لم يباشره حرف النفي فليس نظير ما يكرم من رجل لانسحاب النفي عليه من حيث المعنى ، لأنه إذا نفيت الودادة كان كأنه نفي متعلقها وهو الإنزال وله نظائر في لسان العرب من ذلك قوله تعالى ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، فلما تقدّم النفي حسن دخول الباء ، وكذلك قول العرب « ما ظننت أحداً يقول ذلك إلا زيد » : بالرفع على البدل من الضمير المستكن في يقول وإن لم يباشره حرف النفي ، لأن المعنى ما يقول ذلك أحد إلا زيد فيما أظن ، وهذا التخريج هو على قول سيبويه ، والخليل ، وأما على مذهب الأخفش ، والكوفيين في هذا المكان فيجوز زيادتها ، لأنهم لا يشترطون انتفاء الحكم عما تدخل عليه ، بل يجيزون زيادتها في الواجب وغيره ، ويزيد الأخفش أنه يجيز زيادتها في المعرفة ، وذهب قوم إلى أن من للتبعيض ويكون على هذا المفعول الذي لم يسم فاعله هو عليكم ويكون المعنى أن ينزل عليكم بخير من الخير من ربكم ﴿ من ربكم ﴾ من لا ابتداء الغاية كما تقول : هذا الخير من زيد ويجوز أن تكون للتبعيض ، المعنى من خير كائن من خيرٍ ربكم فإذا كانت لا ابتداء الغاية تعلق بقوله (ينزل) وإذا كانت للتبعيض تعلق بمحذوف ، وكان ذلك على حذف مضاف كما قدّرناه ، والخير هنا القرآن ، أو الوحي إذ يجمع القرآن وغيره ، أو ما خص به رسول الله ﷺ من التعظيم ، أو الحكمة ، أو القرآن ، أو الظفر ، أو النبوة والإسلام ، أو العلم ، والفقه ، والحكمة ، أو هنا عام في جميع أنواع الخير فهم يودون إنتفاء ذلك عن المؤمنين سبعة أقوال أظهرها الآخر ، وسبب عدم ودهم ذلك ، أما في اليهود فلكون النبوة كانت في بني إسماعيل ولخوفهم على رئاستهم ، وأما النصارى فلتكذيبهم في ادعائهم ألوهية عيسى وأنه ابن الله ولخوفهم على رئاستهم وأما المشركون فلسبب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ولحسداهم أن يكون رجل منهم يختص بالرسالة واتباع الناس له ﴿ والله يختص برحمته من يشاء ﴾ أي : يفرد بها وضد الاختصاص الاشتراك ، ويحتمل أن يكون يختص هنا لازماً أي : ينفرد أو متعدياً أي : يفرد إذ الفعل يأتي كذلك يقال : اختص زيد بكذا واختصصته به ، ولا يتعين هنا تعدية كما ذكر بعضهم إذ يصح والله يفرد برحمته من يشاء فيكون من فاعلة وهو افتعل من خصصت زيدا بكذا فإذا كان لازماً كان لفعل الفاعل بنفسه نحو اضطرت وإذا كان متعدياً كان موافقاً لفعل المجرد ، نحو كسب زيد مالاً واكتسب زيد مالاً ، والرحمة هنا عامة بجميع أنواعها ، أو النبوة والحكمة والنصرة اختص بها محمد ﷺ قاله عليّ ، والباقر ، ومجاهد ، والزجاج ، أو الإسلام قاله ابن عباس ، أو القرآن ، أو النبي ﷺ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهو نبي الرحمة أقوال خمسة أظهرها الأول ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ قد تقدّم أن ذو بمعنى صاحب ، وذكر جملة من أحكام ذو ، والوصف بذو أشرف عندهم من الوصف بصاحب ، لأنهم ذكروا أن ذو أبداً لا تكون إلا مضافة لاسم فمدلولها أشرف ، ولذلك جاء ذو رعين وذو وزن وذو الكلال ولم يسموا بصاحب رعين ، ولا صاحب وزن ، ونحوها ، وامتنع أن يقول : في صحابي أبي سعيد أو جابر ذو رسول الله ﷺ وجاز أن يقول : صاحب رسول الله ﷺ ولذلك وصف الله تعالى نفسه بقوله (ذو الجلال) (ذو الفضل) وسيأتي الفرق بين قوله تعالى ﴿ وإذا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ إن شاء الله تعالى ، وتقدّم تفسير الفضل العظيم ويجوز أن يراد به هنا جميع أنواع التفضلات ، فتكون أُل للاستغراق وعظمه من جهة سعة وكثرته ، أو فضل النبوة وقد وصف تعالى ذلك بالعظم في قوله ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ [النساء : ١١٣] ، أو الشريعة فعظمها من جهة بيان أحكامها من حلال ، وحرام ، ومندوب ، ومكروه ، ومباح ، أو الثواب ، والجزاء فعظمه من جهة السعة والكثرة

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : ١٧] ، « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وعلى هذه التأويلات تكون أُل للعهد ، والأظهر القول الأول ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ سبب نزولها فيما ذكروا أن اليهود لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة وطعنوا في الإسلام قالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم وينهاهم عنه غداً ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ما هذا القرآن إلا من عند محمد ، وإنه يناقض بعضه بعضاً فنزلت .

وقد تكلم المفسرون هنا في حقيقة النسخ الشرعي ، وأقسامه ، وما اتفق عليه منه ، وما اختلف فيه ، وفي جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً ، وبماذا ينسخ وغير ذلك من أحكام النسخ ، ودلائل تلك الأحكام وطولوا في ذلك ، وهذا كله موضوعه علم أصول الفقه^(١) فيبحث في ذلك كله فيه ، وهكذا جرت عادتنا أن كل قاعدة في علم من العلوم يرجع في تقريرها إلى ذلك العلم ونأخذها في علم التفسير مسلمة من ذلك العلم ولا نطول بذكر ذلك في علم التفسير فنخرج عن طريقة التفسير كما فعله أبو عبد الله محمد بن عمر^(٢) الرازي المعروف بابن خطيب الري ، فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك حكى عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال : فيه كل شيء إلا التفسير ، وقد ذكرنا في الخطبة ما يحتاج إليه علم التفسير فمن زاد على ذلك فهو فضول في هذا العلم ، ونظير ما ذكره الرازي وغيره أن النحوي مثلاً يكون قد شرع في وضع كتاب في النحو فشرع يتكلم في الألف المنقلبة فذكر أن الألف في الله أهي منقلبة من ياء ، أو واو ، ثم استطرد من ذلك إلى الكلام في الله تعالى فيما يجب له ، ويجوز عليه ، ويستحيل ، ثم استطرد إلى جواز إرسال الرسل منه تعالى إلى الناس ثم استطرد إلى أوصاف الرسول ﷺ ثم استطرد من ذلك إلى إعجاز ما جاء به القرآن وصدق ما تضمنه ، ثم استطرد إلى أن مضمونه البعث والجزاء بالثواب والعقاب ثم المثابون في الجنة لا ينقطع نعيمهم ، والمعاقبون في النار لا ينقطع عذابهم ، فبينما هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة إذا هو يتكلم في الجنة والنار ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخييط في أقصى الدرجة ، وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي قدس الله تربته يقول : ما معناه متى رأيت الرجل ينتقل من فن إلى فن في البحث ، أو التصنيف فاعلم أن ذلك إما لقصور علمه بذلك الفن ، أو لتخليط ذهنه وعدم إدراكه حيث يظن أن المتغايرات متماثلات ، وإنما أمعنت الكلام في هذا الفصل لينتفع به من يقف عليه ولئلا يعتقد أنا لم نطلع على ما أودعه الناس في كتبهم في التفسير ، بل إنما تركنا ذلك عمداً واقتصرنا على ما يليق بعلم التفسير وأسأل الله التوفيق

(١) والنسخ رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه ، أو هو بيان انتهاء حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه ، وقد اتفق المسلمون وأهل الشرائع على جواز النسخ عقلاً ، ولم يخالف في ذلك من أرباب الشرائع إلا الشيعونية وهم فرقة من اليهود يقولون بامتناعه عقلاً وسمعاً ، واتفق أيضاً المسلمون على الوقوع ، ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني وأهل الشرائع سوى الشيعونية والعنانية وهم من اليهود يقولون بامتناعه سمعاً .

ومحل النسخ هو الحكم الشرعي الذي لم يلحقه تأييد ، ولا تأقيت ، وذلك كسائر الأحكام التكليفية من الوجوب وأخواته ، وزمن النسخ ، فالنسخ للأحكام المنصوصة لا يكون إلا في حياة سيدنا رسول الله ﷺ ، لأن هذه الأحكام بعد وفاته تصير مؤبدة بانقطاع الوحي ، فلا تكون محلاً للنسخ . وحكم النسخ وجوب العمل بالناسخ وترك الحكم المنسوخ فقط إن كان النسخ للحكم دون التلاوة . أو ترك الأحكام المتعلقة بالتلاوة دون الحكم إن كان النسخ للتلاوة فقط .

انظر أحكام النسخ في المستصفى (١/٦٩) ، المحصول (١/٤٢٣) ، الآيات البينات (٣/١٢٩) ، تيسير التحرير (٣/١٨١) ، فواتح الرحموت (٢/٥٣) .

(٢) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي بن الإمام فخر الدين الرازي القرشي البكري ، صاحب المحصول والتفسير الكبير وغير ذلك من المصنفات انظر البداية والنهاية (١٣/٥٥) ، ابن السبكي (٨/٨١) ، الشذرات (٥/٢١) .

للمصواب ، و (ما) من قوله (ما ننسخ) شرطية ، وهي مفعول مقدّم ، وفي نسخ التفات ، إذ هو خروج من غائب إلى متكلم ألا ترى إلى قوله (والله يختصّ) (والله ذو الفضل) .

وقرأ الجمهور : ننسخ من نسخ بمعنى : أزال فهو عام في إزالة اللفظ والحكم معاً ، أو إزالة اللفظ فقط ، أو الحكم فقط وقرأت طائفة ، وابن عامر : من السبعة (ما ننسخ) من الإنساخ ، وقد استشكل هذه القراءة أبو علي الفارسي فقال : ليست لغة ، لأنه لا يقال : نُسَخَ وأنسخ بمعنى ولا هي للتعدي ، لأن المعنى يجيء ما يكتب من آية أي : ما ينزل من آية فيجيء القرآن كله على هذا منسوخاً وليس الأمر كذلك فلم يبق إلا أن يكون المعنى ما نجده منسوخاً كما يقال : أحمدت الرجل إذا وجدته محموداً ، وأبخلته إذا وجدته بخيلاً ، قال أبو علي : وليس نجده منسوخاً إلا بأن ينسخه فتتفق القراءات في المعنى ، وإن اختلفا في اللفظ انتهى كلامه . فجعل الهمزة في النسخ ليست للتعدي ، وإنما أفعل لوجود الشيء بمعنى ما صيغ منه ، وهذا أحد معاني أفعل المذكورة في فاتحة الكتاب وجعل الزمخشري^(١) الهمزة فيه للتعدي قال : وإنساخها الأمر بنسخها وهو : أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالاعلام بنسخها وهذا تشييع في العبارة عن معنى كون الهمزة للتعدي ، وإيضاحه إن نسخ يتعدى لواحد فلما دخلت همزة النقل تعدى لاثنتين تقول : نسخ زيد الشيء أي : أزاله وأنسخه إياه عمرو أي : جعل عمرو زيدا ينسخ الشيء أي : يزيله وقال ابن عطية : التقدير : ما ننسخك من آية أي : ما نبيح لك نسخة كأنه لما نسخ الله أباح لنبيه تركها بذلك النسخ فسمى تلك الإباحة إنساخاً ، وهذا الذي ذكر ابن عطية أيضاً هو جعل الهمزة للتعدي لكنه الزمخشري^(٢) اختلفا في المفعول الأول المحذوف أهو جبريل ؟ أم النبي ﷺ وجعل الزمخشري^(٣) الإنساخ هو الأمر بالنسخ ، وجعل ابن عطية الإنساخ إباحة الترك بالنسخ ، وخرّج ابن عطية هذه القراءة على تخريج آخر وهو أن تكون الهمزة فيه للتعدي أيضاً ، وهو من نسخ الكتاب وهو نقله من غير إزالة له قال : ويكون المعنى ما نكتب وننزل من اللوح المحفوظ ، أو ما نؤخر فيه ونترك فلا ننزله أي ذلك فعلنا فأنا نأتي بخير من المؤخر المتروك ، أو بمثله فتجيء الضمير في منها وبمثلها عائدين على الضمير في ننساها انتهى كلامه . وذهل عن القاعدة النحوية وهي : « إن اسم الشرط لا بد في جوابه من عائذ عليه » ، وما في قوله (ما ننسخ) شرطية وقوله (أو ننساها) عائذ على الآية وإن كان المعنى ليس عائذاً عليها نفسها من حيث اللفظ والمعنى إنما يعود عليها لفظاً لا معنى فهو نظير قولهم « عندي درهم ونصفه » ، فهو في الحقيقة على إضمار ما الشرطية والتقدير : أو ما ننسا من آية ضرورة أن المنسوخ هو غير المنسوء لكن يبقى قوله (ما ننسخ من آية) مفتلاً من الجواب إذ لا رابط فيه منه له وذلك لا يجوز فبطل هذا المعنى ، (من آية) من هنا للتبعض ، وآية مفرد وقع موقع الجمع ، ونظيره فارس في قولك : هذا أول فارس ، التقدير : أول الفوارس ، والمعنى أي شيء من الآيات وكذلك ما جاء من هذا النحو في القرآن وفي كلام العرب تخريجه هكذا نحو قوله (ما يفتح الله للناس من رحمة) (وما بكم من نعمه) وقولهم : من يضرب من رجل اضربه ، ويتضح بهذا المجرور ما كان معمولاً لفعل الشرط ، لأنه مخصص له إذ في اسم الشرط عموم إذ لو لم يأت بالمجرور لحمل على العموم لو قلت : من يضرب أضرب كان عاماً في مدلول من فإذا قلت : من رجل اختص جنس الرجال بذلك ولم يدخل فيه النساء ، وإن كان مدلول من عاماً للنوعين ، ولهذا المعنى جعل بعضهم (من آية) وما أشبهه في موضع نصب على التمييز قال : والمميز ما

(١) انظر الكشف (١/١٧٦) .

(٢) انظر الكشف (١/١٧٦) .

(٣) انظر الكشف (١/١٧٦) .

الضحك ، أو نمحها فلا نترك لها لفظاً يتلى ولا حكماً يلزم قاله ابن زيد^(١) ، أو نأمر بتركها يقال : أنسيته الشيء أي : أمرت بتركه ونسيته تركته قال الشاعر :

إِنَّ عَلَيَّ عَقَبَةً أَقْضِيهَا لَسْتُ بِنَاسِيهَا وَلَا مُنْسِيهَا

أي : لا أمر بتركها وقال الزجاج : قراءة تُنْسِيهَا بضم النون ، وسكون النون الثانية ، وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك ، لأنه لا يقال : أنسى بمعنى ترك ، وقال أبو علي الفارسي ، وغيره : ذلك متجه ، لأنه بمعنى نجعلك تتركها ، وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر ، وقال : إن هذا لم يكن للنبي ﷺ ولا نسي قرآنًا ، وقال أبو علي وغيره : ذلك جائز ، وقد وقع ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ أو نسيته ، واحتج الزجاج بقوله تعالى ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ [الإسراء : ٨٦] ، أي : لم نفعل ، قال أبو علي : معناه لم نذهب بالجميع ، وحكى الطبري : قول الزجاج : عن أقدم منه ، قال ابن عطية : والصحيح في هذا أن نسيان النبي ﷺ لما أراد الله أن ينساه ولم يرد أن يشته قرآنًا جائز ، وأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من الصحابة ، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر ، لأنه قد بلغ وأدى الأمانة ، ومنه الحديث حين أسقط آية ، فلما فرغ من الصلاة قال : « أفي القوم أبي قال : نعم يا رسول الله قال : فلم لم تذكرني قال : خشيت أنها رفعت فقال : النبي ﷺ لم ترفع ولكني نسيته » انتهى كلام ابن عطية . وأما من قرأ بالهمز فهو من التأخير تقول العرب : نَسَتُْ الأبل عن الحوض ، وأنْسَأُ الأبل عن ظمئها يوماً ، أو يومين ، أو أكثر : أخرها عن الورد ، وأما في الآية فالمعنى تؤخر نسخها أو نزولها قاله عطاء ، وابن أبي نجيج ، أو نمحها لفظاً وحكماً قاله ابن زيد ، أو نمضها فلا ننسخها قاله أبو عبيدة ، وهذا يضعفه قوله (نأت بخير منها) لأن ما أمضي وأقر لا يقال : فيه نأت بخير منها ، وحكي عن ابن عباس : أن في الآية تقدماً وتأخيراً تقديره ما تبدل من حكم آية ﴿ نأت بخير منها ﴾ أي : أنفع منها لكم أو مثلها ثم قال أو ننسأها أي : تؤخرها فلا ننسخها ولا نبديلها ، وهذه الحكاية لا تصح عن ذلك الحبر ابن عباس إذ هي محيلة لنظم القرآن .

نأت هو جواب الشرط ، واسم الشرط هنا جاء بعده الشرط والجزاء مضارعين ، وهذا أحسن التراكيب في فعلي الشرط والجزاء وهو أن يكونا مضارعين ﴿ بخير منها ﴾ الظاهر أن خيراً هنا أفعل التفضيل والخيرية ظاهرة ، لأن المأتي به إن كان أخف من المنسوخ أو المنسوء فخيرته بالنسبة لسقوط أعباء التكليف وإن كان أثقل فخيرته بالنسبة لزيادة الثواب ﴿ أو مثلها ﴾ أو مساو لها في التكليف والثواب وذلك : كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة ، وذهب قوم إلى أن خيراً هنا ليس بأفعل التفضيل وإنما هو خير من الخيور كخير في قوله (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) فهو عندهم مصدر ، ومن لا بداء الغاية ويصير المعنى : أنه ما ننسخ من آية أو تؤخرها نأت بخير من الخيور من جهة المنسوخ أو المنسوء ، لكن يبعد هذا المعنى قوله (أو مثلها) فإنه لا يصح عطفه على قوله بخير على هذا المعنى إلا أن اطلق الخير على عدم التكليف ، فيكون المعنى نأت بخير من الخيور وهو عدم التكليف ، أو نأت بمثل المنسوخ أو المنسوء فكأنه يقول ما ننسخ من آية أو تؤخرها فإلى غير بدل أو إلى بدل مماثل والذي إلى غير بدل هو خير أتاكم من جهة الآية المنسوخة أو المنسوءة إذ هو راحتكم من التكاليف ، وأما عطف مثلها على الضمير المجزور في منها فيضعف لعدم إعادة الجار ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن عطية : ظاهره الاستفهام المحض فالمعادل هنا على

(١) انظر ما يتعلق بهذه الآثار في المصدر السابق وتفسير القرطبي (٤٧/٢) .

قول جماعة أم تريدون ، وقال قوم : أم هنا منقطعة ، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره أم علمتم وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي ﷺ مخاطبة أمته ، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير ، وكلا القولين مروى انتهى كلامه . ونقله وما قالوه ليس بجيد ، بل هذا استفهام معناه : التقرير فلا يحتاج إلى معادل البتة والأولى أن يكون المخاطب السامع والاستفهام بمعنى التقرير كثير في كلامهم جداً خصوصاً إذا دخل على النفي (أليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) (أليس الله بأحكم الحاكمين) (ألم ترأيك فينا وليداً) ﴿ ألم يجدك يتيماً فأوى ﴾ [الضحى : ٦] ، ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الانشراح : ١] ، فهذا كله استفهام لا يحتاج فيه إلى معادل ، لأنه إنما يراد به التقرير ، والمعنى قد علمت أيها المخاطب أن الله قادر على كل شيء فله التصرف في تكاليف عباده بمحو ، وإثبات ، وإبدال حكم بحكم وبأن يأتي بالأخير لكم وبالمماثل ، وحكمة أفراد المخاطب أنه ما من شخص إلا يتوهم أنه المخاطب بذلك والمنبه به والمقرر على شيء ثابت عنده وهو : أن قدرة الله تعالى متعلقة بالأشياء فلن يعجزه شيء فإذا كان كذلك لم ينكر النسخ ، لأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه وفي قوله (ألم تعلم أن الله) فيه : خروج من ضمير جمع مخاطب وهو من خير من ربكم إلى ضمير مخاطب مفرد للحكمة التي بينها ، وخروج من ضمير متكلم معظم نفسه إلى اسم ظاهر غائب وهو الله إذ هو الاسم العلم الجامع لسائر الصفات ففي ضمنه صفة القدرة فهو أبلغ في نسبة القدرة إليه من ضمير المتكلم المعظم فلذلك عدل عن قوله (ألم تعلم أننا) إلى قوله (ألم تعلم أن الله) وقد تقدم تفسير قوله (إن الله على كل شيء قدير) في أوائل هذه السورة فأعنى ذلك عن إعادته ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ هذا أيضاً استفهام دخل على النفي فهو تقرير فليس له معادل ، لأن التقرير معناه : الإيجاب أي : قد علمت أيها المخاطب أن الله له سلطان السموات والأرض ، والاستيلاء عليهما فهو يملك أموركم ، ويدبرها ، ويجريها على ما يختاره لكم من نسخ وغيره وخص السموات والأرض بالملك ، لأنهما من أعظم المخلوقات ، ولأنهما قد اشتملا على جميع المخلوقات وإذا كان استيلاؤه على الطرفين كان مستولياً على ما اشتملا عليه أو لأنه يعبر عن مخلوقاته العلوية بالسموات والسفلية بالأرض ، وتضمنت هاتان الجملتان التقرير على الوصفين اللذين بهما كمال التصرف وهما القدرة ، والاستيلاء ، لأن الشخص قد يكون قادراً بمعنى : أن له استطاعة على فعل شيء لكنه ليس له استيلاء على ذلك الشيء فينفذ فيه ما يستطيع أن يفعل فإذا اجتمعت الاستطاعة وعدم المانعية كمل بذلك التصرف مع الإرادة ، وبدأ بالتقرير على وصف القدرة ، لأنه أكد من وصف الاستيلاء والسلطان ﴿ وما لكم من دون الله ﴾ انتقل من ضمير الأفراد في الخطاب إلى ضمير الجماعة ، وناسب الجمع هنا ، لأن المنفي بدخول من عليه صار نصاً في العموم فناسب كون المنفي عنه يكون عاماً أيضاً كان المعنى وما لكل فرد فرد منكم فرد فرد ﴿ من ولي ولا نصير ﴾ وأتى بصيغة ولي وهو : فعيل للمبالغة ، ولأنه أكثر في الاستعمال ولذلك لم يجيء في القرآن وال إلا في سورة الرعد لمواخاة الفواصل ، وأتى بنصير على وزن فعيل لمناسبة ولي في كونهما على فعيل ، ولمناسبة أواخر الآي ، ولأنه أبلغ من فاعل ، ومن زائدة في قوله (من ولي) فلا تتعلق بشيء ، ومن في (من دون الله) متعلقة بما يتعلق به المجرور الذي هو لكم وهو يتعلق بمحذوف إذ هو في موضع الخبر ، ويجوز في ما هذه أن تكون تيمية ، ويجوز أن تكون حجازية على مذهب من يجيز تقدم خبرها إذا كان ظرفاً ، أو مجروراً ، أما من منع ذلك فلا يجوز في ما أن تكون حجازية ، ومعنى من الأولى ابتداء الغاية ، وتكرر اسم الله ظاهراً في هذه الجمل الثلاث ولم يضمن للدلالة على استقلال كل جملة منها وأنها لم تجعل مرتبطة بعضها ببعض ارتباط ما يحتاج فيه إلى إضمار ، ولما كانت الجملتان الأوليان للتقرير وهو : إيجاب من حيث المعنى ناسب أن تكون الجملة الثالثة نفيًا للولي والناصر أي : أن الأشياء التي هي تحت قدرة الله وسلطانه واستيلائه فالله تعالى لا يحجزه عما يريد بها شيء ولا مغالب له تعالى فيما يريد ﴿ أم تريدون

أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴿ اختلف في سبب نزول هذه الآية فقيل : عن ابن عباس نزلت في عبد الله بن أمية ، ورهط من قريش ، قالوا : يا محمد اجعل الصفا ذهباً ، ووسع لنا أرض مكة وفجر الأنهار خلالها تفجيراً ونؤمن لك ، وقيل : تمنى اليهود وغيرهم من المشركين ، فمن قائل : ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة ، ومن قائل : ائني بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى عبد الله بن أمية إني قد أرسلت محمداً إلى الناس ، ومن قائل : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبلاً ، وقيل : إن رافع بن خزيمة ، ووهب بن زيد ، قالاً للنبي ﷺ ائتنا بكتاب من السماء وفجر لنا أنهاراً نتبعك ، وقيل : إن جماعة من الصحابة قالوا : للنبي ﷺ ليت ذنوبنا جرت مجرى ذنوب بني إسرائيل في تعجيل العقوبة في الدنيا فقال : كانت بنو إسرائيل إذا أصابتهم خطيئة وجدوها مكتوبة على باب الخاطيء فإن كفرها كانت له خزياء في الدنيا وإن لم يكفرها كانت له خزياء في الآخرة ، وقيل : اليهود ، وكفار قريش سألوا رد الصفا ذهباً ، وقيل لهم خذوه كالمائدة لبني إسرائيل فأبوا ونكصوا ، وقيل : سأل قوم أن يجعل لهم ذات أنواط كما كانت للمشركين وهي : شجرة كانوا يعبدونها ويعلقون عليها الثمرة ، وغيرها من المأكولات ، وأسلحتهم كما سأل بنو إسرائيل موسى فقالوا : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ويحتمل أن تكون هذه كلها أسباباً في نزول هذه الآية وقد طولنا بذكر هذه الأسباب وذلك بخلاف مقصدنا في هذا الكتاب ، (وأم) هنا منقطعة ، وتتقدر المنقطعة ببل والهمزة ، فالمعنى : بل أتريدون قبل تفيد الاضراب عما قبله ، ومعنى الاضراب هنا هو : الانتقال من جملة إلى جملة لا على سبيل إبطال الأولى ، وقد تقدم قول من جعل أم هنا معادلة للاستفهام الأول ، وقد بينا ضعف ذلك ، وقالت فرقة : أم استفهام مقطوع من الأول كأنه قال أتريدون ، وهذا القولان ضعيفان ، والذي تقرر أن أم تكون متصلة ، ومنفصلة ، فالمتصلة شرطها : أن يتقدمها لفظ همزة الاستفهام ، وأن يكون بعدها مفرد ، أو في تقدير المفرد ، والمنفصلة : ما انخرم الشرطان فيها ، أو أحدهما ، ويتقدر إذ ذاك ببل والهمزة معاً ، وأما مجيئها مرادفة للهمزة فقط أو مرادفة لبل فقط أو زائدة ، فأقوال : ضعيفة ، وعلى الخلاف في المخاطبين يجيء الكلام في قوله (رسولكم) فإن كان الخطاب للمؤمنين وهو قول الأصم ، والجبائي وأبي مسلم ، فيكون رسولكم جاء على ما في نفس الأمر ، وعلى ما أقروا به من رسالته وإن كان الخطاب للكفار كانت إضافة الرسول إليهم على حسب الأمر في نفسه لا على إقرارهم به ورجح كون الخطاب للمؤمنين بقوله (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) وهذا الكلام لا يصح إلا في حق المؤمن وبأنه معطوف على قوله (لا تقولوا راعنا) أي : هل تفعلون ما أمرتم أم تريدون ورجح أنهم اليهود ، لأنه سبق الكلام في الحكايات عنهم ما قالوا ، ولأن المؤمن بالرسول لا يكاد يسأله ما يكون كفراً ﴿ كما سئل ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ فعلى رأي سيبويه على الحال ؛ وعلى المشهور من مذاهب المعربين نعت لمصدر محذوف فيقدر على قولهم سؤالاً كما سئل ، ويقدر على رأي سيبويه أن تسألوه أي : السؤال كما سئل ، وما مصدرية التقدير كسؤال ، وأجاز الحوفي أن تكون ما موصولة بمعنى الذي ، التقدير الذي سئله موسى ، وقرأ الجمهور : وسيل ، وقرأ الحسن ، وأبو السمال ، بكسر السين وياء ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، والزهري ، بإشمام السين وياء ، وقرأ بعض القراء : بتسهيل الهمزة بين بين وضم السين ، وهذه القراءات مبنية على اللغتين في سأل وهو أن تكون الهمزة مقرة مفتوحة فتقول سأل فعلى هذه اللغة تكون قراءة الجمهور وقراءة من سهل الهمز بين بين ، واللغة الثانية أن تكون عين الكلمة واواً وتكون على فعل بكسر العين فتقول سِلتُ أسألُ ، كخفت أخاف أصله سَوِلْتُ ، وعلى هذه اللغة تكون قراءة الحسن ، وقراءة من أشم ، وتخريج هاتين القراءتين على هذه اللغة أولى من التخريج على أن أصل الألف الهمز فأبدلت الهمزة ألفاً فصار مثل قال ، وباع ، فقيل : سِبل بالكسر المحض ، أو الإشمام ، لأن هذا الإبدال شاذ ولا يتقاس ، وتلك لغة ثانية فكان الحمل على ما كان لغة أولى من الحمل على الشاذ غير المطرد ، وحذف الفاعل هنا للعلم به التقدير كما سأل قوم موسى موسى من قبل ﴿ موسى من قبل ﴾ يتعلق هذا الجار بقوله سئل ، وقبل : مقطوعة عن الإضافة لفظاً ، وذلك أن

المضاف إليه معرفة محذوف فلذلك بنيت قبل على الضم والتقدير من قبل سؤالكم ، وهذا تأكيد ، لأنه قد علم أن سؤال بني إسرائيل موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام متقدم على سؤال هؤلاء رسول الله ﷺ وسؤال قوم موسى عليه السلام هو قولهم ﴿أرنا الله جهرة﴾ [النساء : ١٥٣] ، ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ [الأعراف : ١٣٨] ، فأراد تعالى أن يوبخهم على تعلق إرادتهم بسؤال رسول الله ﷺ وأن يقترحوا عليه إذ هم يكفيهم ما أنزل إليهم ، وشبه سؤالهم بسؤال ما اقترحه آباء اليهود من الأشياء التي مصيرها إلى الويال ، وظاهر الآية يدل على أن السؤال لم يقع منهم ألا ترى أنه قال (أم تريدون أن تسألوا) فوبخهم على تعلق إرادتهم بالسؤال إذ لو كان السؤال قد وقع لكان التوبيخ عليه لا على إرادته ، وكان يكون اللفظ أسألون رسولكم ، أو ما أشبه ذلك مما يؤدي معنى وقوع السؤال ، لكن تضافت نقولهم في سبب نزول هذه الآية ، وإن اختلفوا في التعيين على أن السؤال قد وقع ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ تقدم الكلام في التبديل أي : من يأخذ الكفر بدل الإيمان ، وهذه كناية عن الإعراض عن الإيمان ، والإقبال على الكفر كما جاء في قوله ﴿اشترؤا الضلالة بالهدى﴾ [البقرة : ١٧٥] ، وفسر الزمخشري^(١) هذا بأن قال : ومن ترك الثقة بالآيات المنزلّة وشك فيها واقترح غيرها ، وقال أبو العالية : الكفر هنا الشدة ، والإيمان الرخاء ، وهذا فيه ضعف إلا أن يريد أنهما مستعاران في الشدة على نفسه والرخاء لها عن العذاب والنعيم ، وأما المعروف من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تفسر الآية بذلك ، والظاهر حمل الكفر ، والإيمان على حقيقتيهما الشرعية ، لأن من سأل الرسول ما سأل مع ظهور المعجزات ووضوح الدلائل على صدقه كان سؤاله تعتاً وإنكاراً ، وذلك كفر ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ هذا جواب الشرط ، وقد تقدم الكلام على الضلال في قوله ﴿ولا الضالين﴾ [الفاتحة : ٧] ، وعلى سواء في قوله ﴿سواء عليهم أأنذرتهم﴾ [البقرة : ٦] ، وإن سواء يكون بمعنى مُستَوٍ ، ولذلك يتحمل الضمير في قولهم : مررت برجل سواء هو والعدم يوصف به ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ [آل عمران : ٦٤] ، ويفسر بمعنى : العدل والنصفة ، لأن ذلك مُستَوٍ ، وقال زهير :

أَرُونَا خِطَّةً لَا عَيْبَ فِيهَا يُسَوِّي بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ

ويفسر : بمعنى الوسط قال تعالى ﴿فراه في سواء الجحيم﴾ [الصفات : ٥٥] ، أي : في وسطها ، وقال عيسى بن عمر : كتبت حتى انقطع سِوَايَ ، وقال حسان :

يَا وَبَحْ أَنْصَارَ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحِدِ

وبذلك فسر السواء في الآية أبو عبيدة ، وفسره الفراء : بالقصد ، ولما كانت الشريعة توصل سالكيها إلى رضوان الله تعالى كنى عنها بالسبيل ، وجعل من حاد عنها كالضال عن الطريق ، وكنى عن سؤالهم نبيهم ما ليس لهم أن يسألوه بتبدل الكفر بالإيمان ؛ وأخرج ذلك في صورة شرطية وصورة الشرط لم تقع بعد تنفيراً عن ذلك وتبعيداً منه فوبخهم أولاً على تعلق إرادتهم بسؤال ما ليس لهم سؤاله وخاطبهم بذلك ، ثم أدرجهم في عموم الجملة الشرطية وإن مثل هذا ينبغي أن لا يقع ، لأنه ضلال عن المنهج القويم فصار صدر الآية إنكاراً وتوبيخاً ، وعجزها تكفيراً وضلالاً ، وما أدى إلى هذا فينبغي أن لا يتعلق به غرض ، ولا طلب ، ولا إرادة ، وإدغام الدال في الضاد من الأدغام الجائز ، وقد قرئ : فقد ضلّ بالإدغام ، وبالإظهار ، في السبعة ﴿وذكر كثير من أهل الكتاب﴾ المعنى : بكثير ، كعب بن الأشرف ، أوحى بن أخطب ، وأخوه أبو ياسر ، أو نفر من اليهود حاولوا المسلمين بعد وقعة أحد أن يرجعوا إلى دينهم ، أو فنحاص بن

عاذوراء ، وزيد بن قيس ، ونفر من اليهود حاولوا حذيفة ، وعماراً ، في رجوعهما إلى دينهم أقوال ، والقرآن لم يعين أحداً إنما أخبر بزيادة كثير من أهل الكتاب ، والخلاف في سبب النزول مبني على الخلاف في تفسير كثير من أهل الكتاب ، وتخصصت الصفة بقوله (من أهل الكتاب) فلذلك حسن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، والكتاب هنا : التوراة ﴿ لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ﴾ الكلام في لو هنا كالكلام عليها في قوله ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة : ٩٦] ، فمن قال : إنها مصدرية قال : لو والفعل في تأويل المصدر وهو مفعول ود أي ودردكم ، ومن جعلها حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره جعل الجواب محذوفاً وجعل مفعول ود محذوفاً ، التقدير : ودردكم كفاراً لو يردونكم كفاراً لسروا بذلك ، وقال بعض الناس : تقديره لو يردونكم كفاراً لودوا ذلك ، فود دالة على الجواب ، ولا يجوز لود الأولى أن تكون هي الجواب ، لأن شرط لو : أن تكون متقدمة على الجواب انتهى . وهذا الذي قدره ليس بشيء ، لأنك إذا جعلت جواب لو قوله : لودوا ذلك كان ذلك دالاً على أن الودادة لم تقع ، لأنه جواب للو ، وهو لما كان سيقع لوقوع غيره فامتنع وقوع الودادة لامتناع وقوع الرد والغرض أن الودادة قد وقعت ، ألا ترى إلى أقوال المفسرين في سبب نزول هذه الآية ، وهي وإن اختلفت فاتفقوا على وقوع الودادة ، وإن اختلفت أقوالهم بمن وقعت ، وتقدير جواب لو لودوا ذلك يدل على أن الودادة لم تقع فلذلك كان تقديره لسروا أو لفرحوا بذلك هو المتعين إذا جعلت لو تقتضي جواباً ، ويرد هنا بمعنى : يصير فيتعدى إلى مفعولين الأول هو ضمير الخطاب ، والثاني كفاراً ، وقد أعربه بعضهم حالاً وهو ضعيف ، لأن الحال مستغنى عنها في أكثر مواردنا ، وهذا لا بد منه في هذا المكان ، ومن متعلقة بورد وهي لا ابتداء الغاية وظاهر الواو في يردونكم أنها للجمع ، ومن فسر كثيراً بواحد ، أو باثنين ، فجعل الواو له أولهما ليس على الأصل ﴿ حسداً من عند أنفسهم ﴾ انتصاب حسداً على أنه مفعول من أجله والعامل فيه ود أي : الحامل لهم على ودادة ردكم كفاراً هو الحسد ، وجوزوا فيه أن يكون مصدرًا منصوباً على الحال أي : حاسدين ولم يجمع ، لأنه مصدر وهذا ضعيف ، لأن جعل المصدر حالاً لا ينقاس ، وجوزوا أيضاً أن يكون نصبه على المصدر والعامل فيه فعل محذوف يدل عليه المعنى التقدير : حسدوكم حسداً ، والأظهر القول الأول ، لأنه اجتمعت فيه شرائط المفعول من أجله ، ويتعلق المجرور الذي هو من عند أنفسهم إما بملفوظ به وهو : ود أي ودوا ذلك من قبل شهوتهم لا أن ودادتهم ذلك هي من جهة التدين واتباع الحق ، ألا ترى إلى قوله تعالى من بعد ما تبين لهم الحق وإما بمقدر فيكون في موضع الصفة التقدير حسداً كائناً من عند أنفسهم وعلى كلا التقديرين يكون تأكيد أي : ودادتهم ، أو حسدهم من تلقائهم ، ألا ترى أن ودادة الكفر والحسد على الإيمان لا يكون إلا من عند أنفسهم فهو نظير ولا طائر يطير بجناحيه ، وقيل : يتعلق الجار والمجرور بقوله (يردونكم) ومن سببية أي : يكون الرد من تلقائهم ، وباغوائهم ، وتزيينهم ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ تتعلق من هذه بقوله ود أي إن ودادتهم كفركم للحسد المنبعث من عند أنفسهم وتلك الودادة ابتدأت من زمان وضوح الحق وتبينه لهم فليسوا من أهل الغباوة الذين قد يغرب عليهم وضوح الحق ، بل ذلك على سبيل الحسد والعناد ، وهذا يدل على أن الكفر يكون عناداً ، ألا ترى إلى ظاهر قوله (من بعد ما تبين لهم الحق) ، قال ابن عطية : واختلف أهل السنة في جواز ذلك والصحيح عندي جوازه عقلاً وبعده وقوعاً ، ويترتب في كل آية تقتضيه أن المعرفة تسلب من ثاني حال من العناد انتهى كلامه . والألف واللام في (الحق) إما للعهد ، ويراد به الإيمان ويدل عليه جريانه قبل هذا ، أو الألف واللام للاستغراق أي : من بعد ما انضحت لهم وجوه الحق وأنواعه ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ قال ابن عباس : هي منسوخة بقوله ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ [التوبة : ٢٩] ، وقيل : بقوله ﴿ اقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] ، وقال قوم ليس هذا حد المنسوخ ، لأن هذا في نفس الأمر كان للتوقيف على مدته ﴿ حتى يأتي الله بأمره ﴾ غيا العفو والصفح بهذه الغاية وهذه موادة إلى أن أتى أمر الله بقتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير ، وإذلالهم بالجزية وغير ذلك مما أتى من أحكام الشرع فيهم ، وترك العفو والصفح ، وقال الكلبي : هو إسلام بعض واضطلام

بعض ، وقيل : آجال بني آدم ، وقيل : القيامة ، وقيل : المجازاة يوم القيامة ، وقيل : قوة الرسالة وكثرة الأمة ، والجمهور على أنه الأمر بالقتال ، وعن الباقر أنه لم يؤمر بقتال حتى نزل ﴿ أذن للذين يقاتلون ﴾ [الحج : ٣٩] ، والأمر بالعفو والصفح هو : أن لا يقاتلوا وأن يعرض عن جوابهم فيكون أدعى لتسكين الثائرة وإطفاء الفتنة وإسلام بعضهم لا أنه يكون ذلك على وجه الرضا ، لأن ذلك كفر ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ مر تفسير هذه الآية وفيه : إشعار بالانتقام من الكفار ووعد للمؤمنين بالنصر والتمكين ، ألا ترى أنه أمر بالموادعة بالعفو والصفح وغيا ذلك إلى أن يأتي الله بأمره ثم أخبر بأنه قادر على كل شيء ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ لما أمر بالعفو والصفح ، أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام العبادة البدنية ، والعبادة المالية ، إذ الصلاة فيها مناجاة الله تعالى ، والتلذذ بالوقوف بين يديه ، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس ، فأمروا بالوقوف بين يدي الحق وبالإحسان إلى الخلق ، قال الطبري : إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة ليحط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود راعنا ، لأن ذلك نهى عن نوعه ثم أمر المؤمنون بما يحطه انتهى كلامه . وليس له ذلك الظهور ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ لما قدم الأمر بالصلاة والزكاة أتى بهذه الجملة الشرطية عامة لجميع أنواع الخير فيندرج فيها الصلاة والزكاة وغيرهما .

والقول في إعراب ما ومن خير كالقول في إعراب ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ [البقرة : ١٠٦] ، من أنهم قالوا : يجوز أن تكون ما مفعولة ومن خير حال أو مصدر أو من خير مفعول ، أو مفعولة ومن خير تمييز ، أو مفعولة ومن خير تبعية متعلقة بمحذوف وهو الذي اخترناه ، لأنفسكم متعلق بتقدموا وهو على حذف مضاف أي : لنجاة أنفسكم وحياتها ، قال تعالى (يقول يا ليتني قدمت لحياتي) وقد فسر الخير هنا بالزكاة والصدقة والأظهر العموم تجدوه جواب الشرط والهاء عائدة على ما والخير المتقدمه هي أفعال منقضية ونفس ذلك المقضي لا يوجد وإنما ذلك على حذف مضاف أي : تجدوا ثوابه فجعل وجوب ما ترتب عليه وجوداً له ، وتجدوه متعد إلى واحد ، لأنه بمعنى الإصابة والعامل في قوله (عند الله) أما نفس الفعل ، أو محذوف فيكون في معنى الحال من الضمير أي : تجدوه مدخراً ومعداً عند الله ، والظرفية هنا المكانية ممتنعة وإنما هي مجاز بمعنى القبل كما تقول لك عندي يد أي : في قبلي أو بمعنى في علم الله نحو ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة ﴾ [الحج : ١٤٧] ، أي : في علمه وقضائه ، أو بمعنى الاختصاص بالإضافة إلى الله تعالى تعظيماً كقوله ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] ، ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ المجيء بالاسم الظاهر يدل على استقلال الجمل فلذلك جاء أن الله ، ولم يجيء إنه مع إمكان ذلك في الكلام ، وهذه جملة خبرية ظاهرة التناسب في ختم ما قبلها بها تتضمن الوعد والوعيد وكنى بقوله (بصير) عن علم المشاهد أي : لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيعه ومن كان مبصراً لفعلك لم يخف عليه هل هو خير أو شر ؟ وأتى بلفظ (بصير) دون مبصر إما لأنه من بصر فهو يدل على التمكن والسجية في حق الإنسان ، أو لأنه فعيل للمبالغة مفعّل الذي هو للتكثير ويحتمل أن يكون فعيل بمعنى مفعّل كالسميع بمعنى : المسمع .

قال بعض الصوفية : على المرید إقامة المواصلات ، وإدامة التوسل بفنون القربات ، واثقاً بأن ما تقدمه من صدق المجاهدات ستزكو ثمرته في آخر الحالات وأنشدوا :

سَابِقُ إِلَى الْخَيْرِ وَبَادِرُ بِهِ فَإِنَّمَا خَلَقَكَ مَا تَعْلَمُ
وَقَدَّمَ الْخَيْرَ فَكُلُّ أَمْرٍ عَلَى الَّذِي قَدَّمَهُ يَقْدَمُ

﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ سبب نزولها اختصام نصارى نجران ، ويهود المدينة ، وتناظرهم بين يدي الرسول ﷺ فقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت : النصارى ليست اليهود على شيء ،

وكفروا بالتوراة وموسى قاله ابن عباس ، والضمير في (وقالوا) عائد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولفهم في القول لن يدخل الجنة ، لأن القول صدر من الجميع باعتبار أن كل فريق منهما قال ذلك لا أن كل فرد قال ذلك حاكماً على أن حصر دخول الجنة على كل فرد فرد من اليهود والنصارى ، ولذلك جاء في العطف بأو التي هي للتفصيل والتنويع وأوضح ذلك العلم بمعادة الفريقين ، وتضليل بعضهم بعضاً ، فامتنع أن يحكم كل فريق على الآخر بدخول الجنة ، ونظيره في لف الضمير ، وفي كون أو للتفصيل قوله (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) إذ معلوم أن اليهودي لا يأمر بالنصرانية ، ولا النصراني يأمر باليهودية ، ولما كان دخول الجنة متأخراً جاء النفي بلن المخلصة للاستقبال ومن فاعلة بيدخل وهو من الاستثناء المفرغ ، والمعنى لن يدخل الجنة أحد إلا من ؛ ويجوز أن تكون على مذهب الفراء بدلاً أو يكون منصوباً على الاستثناء إذ يجيز أن يراعى ذلك المحذوف ويجعله هو الفاعل ويحذفه وهو لو كان ملفوظاً به لجاز البديل والنصب على الاستثناء فكذلك إذا كان محذوفاً وحمل أولاً على لفظ من فأفرد الضمير في كان ثم حمل على المعنى فجمع في خبر كان فقال هوداً أو نصارى ، وهود جمع هائد ، كعائد وعود ، وتقدم مفرد النصارى ما هو أنصران أم نصرى ، وفي جواز مثل هذين الحاملين خلاف - أعني - أن يكون الخبر غير فعل بل صفة يفصل بين مذكرها ومؤنثها بالتاء نحو ، من كان قائمين الزيدون ، ومن كان قائمين الزيدان ، فمذهب الكوفيين وكثير من البصريين جواز ذلك ، وذهب قوم : إلى المنع وإليه ذهب أبو العباس : وهم محجوجون بثبوت ذلك في كلام العرب كهذه الآية فإن هوداً في الأظهر جمع هائد ، وهو من الصفات التي يفصل بينها وبين مؤنثها بالتاء ، وكقول الشاعر :

وَأَيْقَظَ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ نِيَامًا^(١)

فنيام جمع نائم وهو : من الصفات التي يفصل بين مذكرها ومؤنثها بالتاء ، وقدم هوداً على نصارى لتقدمها في الزمان .

وقرأ أبي إلا من كان يهودياً أو نصرانياً : فحمل الاسم والخبر معاً على اللفظ وهو الأفراد والتذكير .

﴿ تلك أمانيتهم ﴾ جملة من مبتدأ وخبر معترضة بين قولهم ذلك وطلب الدليل على صحة دعواهم وتلك يشار بها إلى الواحدة المفردة ، وإلى الجمع غير المسلم من المذكر والمؤنث ، فحمله الزمخشري^(٢) على الجمع قال : أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهي أمانيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأمانيتهم أن يردوهم كفاراً وأمانيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم أي : تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم انتهى كلامه . وما ذهب إليه في الوجه الأول ليس بظاهر ، لأن كل جملة ذكر فيها ودهم لشيء فقد انفصلت وكملت واستقلت في النزول فيبعد أن يشار إليها ، وأما ما ذهب إليه في الوجه الثاني ففيه مجاز الحذف ، وفيه قلب الوضع إذ الأصل أن يكون تلك مبتدأ وأمانيتهم خبر فقلب هو الوضع إذ قال إن أمانيتهم في البطلان مثل أمانيتهم هذه ، وفيه أنه متى كان الخبر مشبهاً به المبتدأ فلا يجوز تقديمه مثل : زيد زهير نص على ذلك النحويون ، فإن تقدم ما هو أصل في أن يشبه به كان من عكس التشبيه ، ومن باب المبالغة إذ جعل الفرع أصلاً ، والأصل فرعاً كقولك : الأسد زيد شجاعة ، والأظهر أن تلك إشارة إلى مقاتلتهم لن يدخل الجنة أي : تلك المقالة أمانيتهم أي : ليس ذلك عن تحقيق ، ولا دليل من كتاب الله ، ولا من أخبار من رسول ، وإنما ذلك على سبيل التمني وإن كانوا هم جازمين بمقاتلتهم لكنها لما لم تكن عن برهان كانت أمانى ، والتمنى يقع بالجائز والممتنع ، فهذا من الممتنع ، ولذلك أتى بلفظ الأمانى ولم يأت بلفظ مرجواتهم ، لأن الرجاء يتعلق بالجائز تقول : ليتني طائر ، ولا

(١) البيت من الطويل .

(٢) انظر الكشف (١٧٨/١) .

يجوز لعلمي طائر ، وإنما أفرد المبتدأ لفظاً ، لأنه كناية عن المقالة ، والمقالة مصدر يصلح للقليل والكثير فأريد بها هنا الكثير باعتبار القائلين ولذلك جمع الخير فطابق من حيث المعنى في الجمعية ، وقد تقدّم شرح الأمانى في قوله (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) فيحتمل أن يكون المعنى تلك أكاذيبهم وأباطيلهم ، أو تلك مختاراتهم وشهواتهم ، أو تلك تلاوتهم ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ لما تقدم منهم الدعوى بأنه لن يدخل الجنة إلا من ذكروا طولبوا بالدليل على صحة دعواهم ، وفي هذا دليل على أن من ادعى نفيّاً أو إثباتاً فلا بد له من الدليل ، وتدل الآية على بطلان التقليد وهو قبول الشيء بغير دليل ، قال الزمخشري^(١) : وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين ، وإن كل قول لا دليل عليه فهو باطل (إن كنتم صادقين) (فهاتوا برهانكم) أي : أوضحوا دعوتكم وظاهر الآية أن متعلق الصدق هو دعواهم أنهم مختصون بدخول الجنة ، وقيل : صادقين في إيمانكم ، وقيل : في أمانيتكم ، وقيل : معنى صادقين صالحين كما زعمتم ، وكل ما أضيف إلى الصلاح والخير أضيف إلى الصدق تقول : رجل صدق وصديق صدق ودالة صدق ومنه (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) ، وقيل : معناه إن كنتم موقنين بما أخذ الله ميثاقه وعهوده ومنه (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) ﴿ بلى ﴾ رد لقولهم لن يدخل الجنة ، والكلام فيها كالكلام الذي تقدّم في قوله (بلى من كسب سيئة) وقيل ذلك (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) ، وكلاهما فيه نفي وإيجاب ، إلا أن ذلك استثناء مفرغ من الأزمان ، وهذا استثناء مفرغ من الفاعلين ، وأبعد من ذهب إلى أن بلى رد لما تضمن قوله (قل هاتوا برهانكم) من النفي ، لأن معناه : لا برهان لكم على صدق دعواكم فأثبت ببلى أن لمن أسلم وجهه برهاناً ، وهذا ينبو عنه اللفظ ﴿ من أسلم وجهه لله ﴾ الكلام في من كالكلام في من من قوله (من كسب سيئة) والأظهر أنها مبتدأة وجوزوا أن تكون فاعلة أي : يدخلها من أسلم وإذا كانت مبتدأة فلا يتعين أن تكون شرطية فالجملة بعدها هي الخبر وجواب الشرط فله أجره وإذا كانت موصولة فالجملة بعدها صلة لا موضع لها من الإعراب والخبر هو ما دخلت عليه الفاء من الجملة الابتدائية وإذا كانت من فاعلة فقوله (فله أجره) جملة اسمية معطوفة على ذلك الفعل الرفع لمن والوجه هنا يحتمل أن يراد به الجارحة خص بالذكر لأنه أشرف الأعضاء أو لأنه فيه أكثر الحواس ، أو لأنه عبر به عن الذات ومنه ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : ٨٨] ، ويحتمل أن يراد به الجهة والمعنى أخلص طريقته في الدين لله ، وقال مقاتل : أخلص دينه ، وقال ابن عباس : أخلص عمله لله ، وقيل : قصده ، وقيل : فوّض أمره إلى الله تعالى ، وقيل : خضع وتواضع ، وهذه أقوال^(٢) متقاربة في المعنى ، وإنما يقولها السلف على ضرب المثال لا على أنها متعينة يخالف بعضها بعضاً ، وهذا نظير ما يقوله النحوي الفاعل زيد من قولك : قام زيد وآخر يقول جعفر من خرج جعفر ، وآخر يقول عمرو من انطلق عمرو ، وهذا أحسن ما يظن بالسلف رحمهم الله فيما جاء عنهم من هذا النوع ﴿ وهو محسن ﴾ جملة حالية وهي مؤكدة من حيث المعنى ، لأن من أسلم وجهه لله فهو محسن ، وقد قيد الزمخشري^(٣) الإحسان بالعمل وجعل معنى قوله (من أسلم وجهه لله) من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره وهو محسن في عمله فصارت الحال هنا مبنية إذ من لا يشرك قسماً : محسن في عمله ، وغير محسن ، وذلك منه جنوح إلى مذهبه الاعتزالي من أن العمل لا بد منه وأنه بهما يستوجب دخول الجنة ، ولذلك فسر قوله (فله أجره) الذي يستوجبه ، وقد فسر رسول الله ﷺ حقيقة الإحسان الشرعي حين سئل عن ماهيته فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وقد فسر هنا الإحسان بالإخلاص ، وفسر بالإيمان ، وفسر بالقيام بالأوامر ، والانتفاء عن المناهي ﴿ فله أجره عند ربه ﴾ العامل في

(١) انظر الكشاف (١٧٨/١) .

(٢) تفسير الطبري (٥١٠/٢) ، تفسير القرطبي (٥٢/٢) ، معالم التنزيل (١٠٦/١) .

(٣) انظر الكشاف (١٧٨/١) .

عند هو العامل في له أي : فأجره مستقر له عند ربه ، ولما أحال أجره على الله أضاف الظرف إلى لفظة ربه أي : الناظر في مصالحه ومربيّه ومدبر أحواله ليكون ذلك أطمع له فلذلك أتى بصفة الرب ولم يأت بالضمير العائد على الله في الجملة ولا بالظاهر بلفظ الله فلم يأت فله أجره عنده لما ذكرناه ، ولقلق الإتيان بهذه الضمائر ولم يأت فله أجره عند الله لما ذكرنا من المعنى الذي دل عليه لفظ الرب ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ جمع الضمير في قوله (عليهم ولا هم يحزنون) حملاً على معنى من ، وحمل أولاً على اللفظ في قوله (من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره) عند ربه ، وهذا هو الأفصح وهو : أن يبدأ أولاً بالحمل على اللفظ ، ثم بالحمل على المعنى ، وقد تقدم تفسير هذه الجملة ، وقراءة ابن محيصة فلا خَوْفُ برفع الفاء من غير تنوين باختلاف عنه ، وقراءة الزهري ، وعيسى الثقفي ، ويعقوب ، وغيرهم ، فلا خَوْفَ بالفتح من غير تنوين ، وتوجيه ذلك ، فأغنى عن إعادته هنا ﴿ وقالت اليهود ليست النصراني على شيء ﴾ وقالت النصراني ليست اليهود على شيء ﴿ قيل : المراد عامة اليهود وعامة النصراني فهذا من الاخبار عن الأمم السالفة ، وتكون أُل للجنس ويكون في ذلك تقريع لمن بحضرة رسول الله ﷺ من الفريقين ، وتسليّة له ﷺ إذ كذبوا بالرسول ، وبالكتب قبله ، وقيل : المراد يهود المدينة ، ونصارى نجران ، حيث تماروا عند الرسول وتسابوا وأنكرت اليهود الإنجيل ، ونبوة عيسى ، وأنكرت النصراني التوراة ونبوة موسى فتكون حكاية حال ، وأل للعهد ، أو المراد بذلك رجلان ، رجل من اليهود يقال : له نافع بن حرملة قال لنصارى نجران : لستم على شيء ، وقال رجل من نصارى نجران لليهود لستم على شيء فيكون قد نسب ذلك للجميع حيث وقع من بعضهم كما يقال : قتل بنو تميم فلاناً وإنما قتله واحد منهم ، وذلك على سبيل المجاز والتوسع ونسبة الحكم الصادر من الواحد إلى الجمع وهو طريق معروف عند العرب في كلامها نثرها ونظمها ، ولما جمعهم في المقالة الأولى وهي ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] ، فصلهم في هذه الآية وبين قول كل فريق في الآخر ، وعلى شيء في موضع خبر ليس ، ويحتمل أن يكون المعنى على شيء يعتد به في الدين فيكون من باب حذف الصفة نظير قوله :

لَقَدْ وَقَعْتُ عَلَى لَحْمٍ^(١)

أي : لحم منيع ، وإنه ليس من أهلك أي : من أهلك الناجين ، لأنه معلوم أن كلاً منهم على شيء ، أو يكون ذلك نفيّاً على سبيل المبالغة العظيمة إذ جعل ما هما عليه وإن كان شيئاً كلا شيء هذا ، والشيء يطلق عند بعضهم على المعدوم والمستحيل فإذا نفى إطلاق اسم الشيء على ما هم عليه كان ذلك مبالغة في عدم الاعتداد به ، وصار كقولهم أقل من لا شيء ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ جملة حالية أي : وهم عالمون بما في كتبهم تالون به ، وهذا نعي عليهم في مقالاتهم تلك إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه شاهدة توراتهم ببشارة عيسى ، ومحمد عليهما الصلاة والسلام وصحة نبوتهما ، وإنجيلهم شاهد بصحة نبوة موسى ، ومحمد ﷺ إذ كتب الله يصدق بعضها بعضاً ، وفي هذا تنبيه لأمة محمد ﷺ في أن من كان عالماً بالقرآن يكون واقفاً عنده عاملاً بما فيه قائلاً بما تضمنه لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه فيكون في ذلك كاليهود والنصارى ، والكتاب هنا قيل : هو التوراة والإنجيل ، وقيل : التوراة ، لأن النصراني تمتثلها ﴿ كذلك قال الذين يعلمون مثل قولهم ﴾ الذين لا يعلمون هم مشركو العرب في قول الجمهور ، وقيل : مشركو قريش ، وقال : عطاء : هم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى ، وقال قوم : المراد اليهود ، وكأنه أعيد قولهم أي : قال اليهود مثل قول النصراني ، ونفى عنهم العلم حيث لم ينتفعوا به فجعلوا لا يعلمون ، والظاهر القول

(١) هذا عجز بيت من الطويل لأبي خراش الهذلي من قصيدة قالها في رثاء خالد بن زهير . انظر ديوان الهذليين (١٥٤ / ٢) ، والخزانة (٧٥ / ٥) ، (٢٠٨ / ٦) ، وروايته (ألا أيها الطير) شرح شواهد الكشف (٥١٢ / ٤) ، وروايته (قلا وأبى الطير ...) .

الأول ، وقال الزمخشري^(١) : أي : مثل ذلك الذي سمعت على ذلك المنهاج قال الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام ، والمعطلة ، ونحوهم قالوا : لكل أهل دين ليسوا على شيء وهو تويخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم ، والظاهر أن الكاف من كذلك في محل نصب إما على أنها نعت لمصدر محذوف تقديره : قولاً مثل ذلك القول قال الذين لا يعلمون ، أو على أنه منصوب على الحال من المصدر المعرفة المضمرة الدال عليه قال التقدير : مثل ذلك القول قاله أي : قال القول الذين لا يعلمون ، وهذا على رأي سيبويه ، وعلى الوجهين تنتصب الكاف بقال : وانتصب على هذين التقديرين مثل قولهم على البدل من موضع الكاف ، وقيل : ينتصب مثل قولهم على أنه مفعول بيعلمون أي : الذين لا يعلمون مثل مقالة اليهود والنصارى قالوا مثل مقالتهم أي : توافق الذين لا يعلمون مقالات النصارى واليهود مع اليهود والنصارى في ذلك أن من جهل قول اليهود والنصارى وافقهم في مثل ذلك القول وجوزوا أن تكون الكاف في موضع رفع بالابتداء ، والجملة بعده خبر والعائد محذوف تقديره مثل ذلك قاله الذين ، ولا يجوز لقال أن ينصب مثل قولهم نصب المفعول ، لأن قال قد أخذ مفعوله وهو الضمير المحذوف العائد على المبتدأ فينتصب إذاً مثل قولهم على أنه صفة لمصدر محذوف ، أو على أنه مفعول ليعلمون أي : مثل قولهم - يعني - اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون اعتقاد اليهود والنصارى انتهى . ما قالوه في هذا الوجه وهو ضعيف لاستعمال الكاف اسماً ، وذلك عندنا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر مع أنه قد تؤوّل ما ورد من ذلك ، وأجاز ذلك - أعني - أن تكون اسماً في الكلام ، ويحذف الضمير العائد على المبتدأ المنصوب بالفعل الذي لو قدر خلوه من ذلك الضمير لتسلط على الظاهر قبله فنصبه ، وذلك نحو زيد ضربته ، نص أصحابنا على أن هذا الضمير لا يجوز حذفه إلا في الشعر وأنشدوا :

وَحَالِدٌ يَحْمَدُ سَادَاتِنَا بِالْحَقِّ لَا يَحْمَدُ بِأَلْبَاطِلٍ^(٢)

أي : يحمد ساداتنا ، وعن بعض الكوفيين في جواز حذف نحو هذا الضمير تفصيل مذكور في النحو ﴿ قاله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي : يفصل والفصل الحكم أو يريهم من يدخل الجنة عياناً ومن يدخل النار عياناً قاله الزجاج ، أو يكذبهم جميعاً ويدخلهم النار ، أو يثيب من كان على حق ويعذب من كان على باطل وكلها أقوال متقاربة ، والظرفان ، والجار الأول معمولان ليحكم ، وفيه متعلق بيختلفون .

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة أشياء منها افتتاحها بحسن النداء ، وإثبات وصف الإيمان لهم وتبنيهم على تعلم أدب من آداب الشريعة بأن نهوا عن قول لفظ لإيهام ما إلى لفظ أنص في المقصود وأصرح في المطلوب ، ثم ذكر ما للمخالف من العذاب الذي يذله ويهيئه ، ثم نبه على أن هذا الذي أمرتم به هو خير ، وأن الكفار لا يؤدّون أن ينزل عليكم شيء من الخير ، ثم ذكر أن ذلك ليس راجعاً لشهواتهم ولا لتمنيهم ، بل ذلك أمر إلهي يختص به من يشاء ، وأنه تعالى هو صاحب الفضل الواسع ، ولما كان صدر الآية فيه انتقال من لفظ إلى لفظ ، وأن الثاني صار أنص في المقصود بين أن ما يفعله الله تعالى من النسخ فإنما ذلك لحكمة منه فيأتي بأفضل مما نسخ ، أو بما مثله ، وأن من كان قادراً على كل شيء فله التصرف بما يريد من نسخ وغيره ، ونبه المخاطب على علمه بقدرته الله تعالى ، وبملكه الشامل لسائر

(١) انظر الكشف (١٧٩/١) .

(٢) البيت من السريع للأسود بن يعفر ، وصدره في الخزانة (١/٣٦٠) ، وروايت (فخالد يحمد . . .) انظر حاشية الأمير على المغني

(١٥٩/٢) ، ذكر عجزه ، وانظر المغني (٢/١٥٩) ، الجامع الصغير (٤٦) ، شفاء العليل (٢٩٢) ، (٤٤٣) ، روح المعاني

(٣٦١/١) .

المخلوقات ، وإنما نحن ما لنا من دونه من مانع يمنعنا منه ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، ثم أنكر على من تعلقت إرادته بأن يسأل رسول الله ﷺ سؤالاً غير جائز كسؤالات قوم موسى له ثم ذكر أن من أثر الكفر على الإيمان ، فقد خرج عن قصد المنهج ثم ذكر أن الكثير من أهل الكتاب يودون ارتدادكم وأن الحامل لهم على ذلك الحسد ثم أمروا بالموادعة والصفح ، وغيا ذلك بأمر الله فإذا أتى أمر الله ارتفع الأمر بالعفو والصفح ، ثم اختتم الآية بذكر قدرة الله تعالى على كل شيء ، لأن قبله وعداً بتغيير حال فناسب ذلك ذكر القدرة ؛ ثم أمرهم بما يقطع عنهم تلفت أقوال الكفار وهي الصلاة ، والزكاة ، وأخبر أن ما قدّمتموه من الخير فإنه لا يضيع عند الله بل تجدونه مذكوراً لكم ؛ ثم اختتم ذلك حيث نبه على أن ما عمل من الخير هو عند الله بذكر صفة البصر التي تدل على مشاهدة الأشياء ومعابنتها ؛ ثم نعى على اليهود والنصارى من دعواهم أنهم مختصون بدخول الجنة وأن ذلك أكذوبة من أكاذيبهم المعروفة ، وأنهم طولبوا بإقامة البرهان على دعوى الاختصاص ؛ ثم ذكر أن من انقاد ظاهراً وباطناً لله تعالى ، فله أجره وهو آمن فلا يخاف مما يأتي ولا يحزن على ما مضى ، ثم أخذ يذكر مقالات النصارى واليهود بعضهم في بعض ، وأنها مقالة من أظهر التبرؤ مما جاء به الرسل وأفصحته عنه الكتب المنزلة ، وذلك كله على جهة العناد لأنهم تالون للكتب عالمون بما انطوت عليه فصاروا في الحياة الدنيا على مثل حالهم في الآخرة كما أخبر تعالى عنهم بقوله ﴿ ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، ثم ذكر أن مقالاتهم تلك وإن كانوا عالمين فهي مماثلة لمقالة من لا يعلم ؛ ثم ختم ذلك بالوعيد الذي يتضمن الحكم وفصل الباطل من الحق وأنه تعالى هو المتولي ذلك ليجازيهم على كفرهم

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِيَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ أُتْبِعَتْ أَهْوَاءُ هُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ءَوْ مِنْ يَكْفُرْ بِهِ ءَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

المنع : الحيلولة بين المرید ومراده ، ولما كان الشيء قد يمنع صيانة صار المنع متعارفاً في المتنافس فيه قاله الراغب ، وفعله منع بمنع بفتح النون وهو : القياس ، لأن لام الفعل أحد حروف الحلق ، المساجد : معروفة وسيأتي الكلام على المفرد أول ما يذكر في القرآن إن شاء الله ، السعي : المشي بسرعة وهو دون العدو ، ثم يطلق على الطلب كما قال امرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَذْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤْتَلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلُ أَمْثَالِي

فسره الشراح : بالطلب ؛ الخراب^(١) : ضد العمارة ، وهو مصدر خَرِبَ الشيء يَخْرِبُ خراباً ، ويوصف به فيقال : منزل خراب ، واسم الفاعل خَرِبَ كما قال أبو تمام :

مَا رَبْعُ مِئَةٍ مَعْمُوراً يَطِيفُ بِهِ غَيْلَانُ أَبِي رُبَاً مِنْ رَبْعِهَا الْخَرِبُ

والخرِبُ ذكر الحبارى يجمع على خربان ، المشرق ، والمغرب : مكان الشروق والغروب ، وهما من الألفاظ التي جاءت على مَفْعِل بكسر العين شذوذاً ، والقياس الفتح ، لأن كل فعل ثلاثي لم تكسر عين مضارعة فقياس صوع المصدر منه والزمان والمكان مفعَل بفتح العين ، أين : من ظروف المكان وهو مبني لتضمنه في الاستفهام معنى حرفه ، وفي الشرط معنى حرفه وإذا كان للشرط جاز أن تزيد بعده ما ومما جاء فيه شرطاً بغير ما قوله :

أَيْنَ تَضْرِبُ بِنَا الْعُدَاةَ تَجِدُنَا

وزعم بعضهم أن أصل أين السؤال عن الأمكنة ؛ ثم ظرف مكان يشار به للبعيد وهو مبني لتضمنه معنى الإشارة وهو لازم للظرفية لم يتصرف فيه بغير من يقول من ثم كان كذا وقد وَهَمَ من أعربها مفعولاً به في قوله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمَلَكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : ٢٦] ، بل مفعول رَأَيْتَ محذوف ، واسع اسم فاعل من وَسِعَ يَسَعُ سَعَةً وَوَسِعاً ومقابلة ضاق إلا أن وَسِعَ يأتي متعدداً ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، الولد معروف وهو : فعل بمعنى مفعول كالقبض والنقض ولا ينقاس فعل بمعنى مفعول وفعله ، ولد يلد ، ولادة ، ووليدية ، وهذا المصدر الثاني غريب ، الْقُنُوتُ^(٢) : القيام ، ومنه « أفضل الصلاة طول القنوت » أي : القيام : والطاعة ، والعبادة ، والدعاء « قنوت شهوراً دعا » ، البديع^(٣) : النادر الغريب الشكل بَدِعَ يَبْدَعُ بَدَاعَةً فهو بَدِيع إذا كان نادراً غريب الصورة في الحسن وهو راجع لمعنى الابتداء وهو : الاختراع والانشاء ، قَضَى : قَدَّرَ ويجيء بمعنى أمضى قضى يَقْضِي قضاء قال الشاعر :

سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِباً عَلَيَّ قَضَاءَ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبَا

قال الأزهري : قضى على وجه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتماهه قال : أبو ذؤيب :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ تَبْعُ

(١) الخراب : ضد العمران ، والجمع أُخْرَبَةٌ - لسان العرب (١١٢١/٢) .

(٢) القنوت : الإمساك عن الكلام ، وقيل : الدعاء في الصلاة ، والقنوت : الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية - لسان العرب (٣٧٤٧/٥) .

(٣) بدع الشيء يبدعه بَدْعاً وابتدعه : أنشأه وبدأه . وبدع الرُّكْيَةُ : استنبطها وأحدثها - لسان العرب (٢٢٩/١) .

وقال الشماخ في عمر :

قَضَيْتُ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتُ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفْتَقِ

فيكون بمعنى خلق ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ [فصلت : ١٢] ، وأعلم ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ﴾ [الإسراء : ٤] ، وأمر ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وألزم ومنه قضى القاضي ووفى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ [القصص : ٢٩] ، وأراد ﴿ إذا قضى أمراً ﴾ [آل عمران : ٤٧] ، لولا : حرف تحضيض ، وجاء ذلك في القرآن كثيراً ، وحكمها حكم هلا ، وتأتي أيضاً حرف امتناع لوجود ، وأحكامها بمعنيها مذكورة في كتب النحو ، ومنها أن التحضيضية لا يليها إلا الفعل ظاهراً أو مضمراً ، وتلك لا يليها إلا الاسم على خلاف في إعرابه ، الجحيم : إحدى طبقات النار أعادنا الله منها ؛ وقال الفراء : الجحيم^(١) النار على النار ، وقال أبو عبيد : النار المستحكمة المتلظية ، وقال الزجاج : النار الشديدة الرقود يقال : جَحَمَتِ النار تجحماً اشتد وقودها ، وهذه كلها أقوال يقرب بعضها من بعض وقال ابن فارس : الجاحم المكان الشديد الحر ، ويقال لعين الأسد جَحْمَةً ، لشدة توقدها ويقال : لشدة الحر جاحم قال :

وَالْحَرْبُ لَا يَبْقَى لِحَا جِمْهَا التَّخِيلُ وَالْمَرَا ح

الرضا معروف ، ويقابله الغضب ، وفعله رضي يرضى رضا بالقصر ، ورضاء بالمد ورضواناً فيأؤه منقلبة عن واو يدل على ذلك الرضوان ، والأكثر تعديته بعن وقد جاء تعديته بعلي قال :

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ

وخرج على أن يكون على بمعنى عن أو على تضمين رضي معنى عطف فعدي بعلي كما تعدى عطف ، الملة : الطريقة ، وكثر استعمالها بمعنى الشريعة ف قيل : الاشتقاق من أَمَلَّتْ ، لأن الشريعة تبنى على مَتَلُو ومسموع ، وقيل : من قولهم طريق مُمَلَّ أي : قد أثر المشي فيه ، الخسران^(٢) والخسارة هو : النقص من رأس المال في التجارة هذا أصله ، ثم يستعمل في النقص مطلقاً وفعله متعد ، كما أن مقابله متعد وهو الريح تقول خسر درهماً كما تقول : ربح درهماً وقال (خسروا أنفسهم وأهليهم) ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾ نزلت في نطوس بن اسبسيانوس الرومي الذي خرب بيت المقدس ، ولم يزل خراباً إلى أن عمر في زمان عمر بن الخطاب ، وقيل : في مشركي العرب منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام قاله عطاء عن ابن عباس^(٣) ، أو في النصاري كانوا يودون خراب بيت المقدس ويطرحون به الأقدار ، وروي عن ابن عباس ، وقال قتادة ، والسدي : في الروم الذين أعانوا بُخْتَنْصَرَّ على تخريب بيت المقدس حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكريا على نبينا وعليه السلام^(٤) قال أبو بكر الرازي : لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد بختنصر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل ، وقيل : في بختنصر قاله قتادة ، وقال ابن زيد ، وأبو مسلم : المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ، وعلى اختلاف هذه الأقوال يجيء الاختلاف في تفسير المانع والمساجد وظاهر الآية العموم في كل مانع ، وفي كل

(١) الجحيم : هو اسم من أسماء جهنم ، وأصله : ما اشتد لهبه من النار ، والجاحم : المكان الشديد الحر - لسان العرب (٥٥٣/١) .

(٢) الخسار والخسارة والخيرى : الضلال والهلاك - لسان العرب (١١٥٦/١) .

(٣) انظر تفسير الطبري (٥٢٠/٢) .

(٤) انظر تفسير الطبري (٥٢٠/٢) ، تفسير القرطبي (٥٣/٢) .

مسجد والعموم وإن كان سبب نزوله خاصاً فالعبرة به لا بخصوص السبب .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه جرى ذكر النصارى في قوله ﴿ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ [البقرة : ١١٣] ، وجرى ذكر المشركين في قوله ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ [البقرة : ١١٣] ، وفي أي منهم نزلت كان ذلك مناسباً لذكرها تلي ما قبلها ، ومن استفهام وهو مرفوع بالابتداء وأظلم أفعل تفضيل وهو خبر عن من ولا يراد بالاستفهام هنا حقيقته وإنما هو بمعنى النفي كما قال فهل يهلك إلا القوم الفاسقون أي ما يهلك ، ومعنى هذا لا أحد أظلم ممن منع ، وقد تكرر هذا اللفظ في القرآن وهذا أول موارد وقال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [الأنعام : ٢١] ، وقال ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله ﴾ [الأنعام : ١٥٧] ، ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ﴾ [الكهف : ٥٧] ، إلى غير ذلك من الآيات ، ولما كان هذا الاستفهام معناه النفي كان خبراً ولما كان خبراً اتهم بعض الناس أنه إذا أخذت هذه الآيات على ظواهرها سبق إلى ذهنه التناقض فيها ، لأنه قال المتأول في هذا لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله ، وقال في أخرى لا أحد أظلم ممن افترى ، وفي أخرى لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ، فتأول ذلك على أن خص كل واحد بمعنى صلته ، فكأنه قال لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله وكذلك باقياها فإذا تخصصت بالصلوات زال عنده التناقض ، وقال غيره : التخصيص يكون بالنسبة إلى السبق لما لم يسبق أحد إلى مثله حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكاً طريقته في ذلك ، وهذا يؤول معناه إلى السبق في المانعية ، أو الافتراضية ، وهذا كله عن مدلول الكلام ووضعه العربي ، وعجمة في اللسان يتبعها استعجام المعنى ، وإنما هذا للأظلمية ، ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية ، لأن نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق ، لو قلت ما في الدار رجل ظريف لم يدل ذلك على نفي مطلق رجل ، وإذا لم يدل على نفي الظالمية لم يكن تناقضاً ، لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية ، وإذا أثبت التسوية في الأظلمية لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر لأنهم يتساوون في الأظلمية ، وصار المعنى لا أحد أظلم ممن منع ومن افترى ومن ذكر ، ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية ، ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر كما أنك إذا قلت : لا أحد أفقه من زيد وعمرو وخالد لا يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر ، بل نفى أن يكون أحد أفقه منهم لا يقال : إن من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ولم يفتر على الله الكذب أقل ظملاً ممن جمع بينهما فلا يكون مساوياً في الأظلمية ، لأن هذه الآيات كلها إنما هي في الكفار فهم متساوون في الأظلمية وإن اختلفت طرق الأظلمية فكلها صائرة إلى الكفر فهو شيء واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لأفراد من اتصف به ، وإنما تمكن الزيادة في الظلم بالنسبة لهم وللعصاة المؤمنين بجامع ما اشتركوا فيه من المخالفة فنقول : الكافر أظلم من المؤمن ، ونقول : لا أحد أظلم من الكافر ومعناه : أن ظلم الكافر يزيد على ظلم غيره ومن في قوله (ممن منع) موصولة بمعنى : الذي ، وجوز أبو البقاء أن تكون نكرة موصوفة ، أن يذكر يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً لمنع ، أو مفعولاً من أجله فيتعين حذف مضاف أي : دخول مساجد الله ، أو ما أشبه ذلك ، أو بدلاً من مساجد بدل اشتغال أي : ذكر اسم الله فيها ، أو مفعولاً على إسقاط حرف الجر أي : من أن يذكر فلما حذف من انتصب على رأي أو بقي مجروراً على رأي ، وكني بذكر اسم الله عما يوقع في المساجد من الصلوات ، والتقربات إلى الله تعالى بالأفعال القلبية ، والقالبية من تلاوة كتبه وحركات الجسم من القيام ، والركوع ، والسجود ، والقعود الذي تعبد به أو إنما ذكر تعلق المنع بذكر اسم الله تنبيهاً على أنهم منعوا من أيسر الأشياء وهو التلفظ باسم الله فمنعهم لما سواه أولى ، وحذف الفاعل هنا اختصاراً ، لأنهم عالم لا يحصون ، وجاء تقديم المجرور على المفعول الذي لم يسم فاعله ، لأن المحدث عنه قبل هي مساجد الله وهي في اللفظ مذكورة قبل اسم الله ، فناسب تقديم المجرور لذلك ، وأضيفت المساجد لله على سبيل التشريف كما قال تعالى ﴿ وأن المساجد لله ﴾ [الجن : ١٨] ، وخص بلفظ المسجد وإن كان الذي يوقع فيه أفعالاً كثيرة من القيام ،

والركوع ، والقعود ، والعكوف ، وكل هذا متعبد به ، ولم يقل مقام ، ولا مركع ، ولا مقعد ، ولا معكف ، لأن السجود أعظم الهيئات الدالة على الخضوع والخشوع والطواعية التامة ألا ترى إلى قوله ﷺ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وهي حالة يلقي فيها الإنسان نفسه للانقياد التام ويباشر بأفضل ما فيه وأعلاه وهو الوجه التراب الذي هو موطن قدميه (قال ابن عطية) وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة إذ الأرض كلها مسجد وقال الزمخشري^(١) : فإن قلت : كيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام قلت لا بأس أن يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن أذى صالحاً واحداً ومن أظلم ممن أذى الصالحين وكما قال الله عز وجل ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ [الهمزة : ١] ، والمنزول فيه الأخنس بن شريق انتهى كلامه . وقال غيره : جمعت ، لأنها قبلة المساجد كلها - يعني - الكعبة للمسلمين وبيت المقدس لغيره ﴿ وسعى في خرابها ﴾ إما حقيقة كتخريب بيت المقدس ، أو مجازاً بانقطاع الذكر فيها ، ومنع قاصديها منها إذ ذلك يؤول بها إلى الخراب فجعل المنع خراباً ؛ كما جعل التعاهد بالذكر ، والصلاة عمارة ، وذلك مجاز وقال المروزي : قال : ومن أظلم ليعلم أن قبح الاعتقاد يورث تخريب المساجد ؛ كما أن حسن الاعتقاد يورث عمارة المساجد ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ هذه جملة خبرية قالوا : تدلّ على ما يقع في المستقبل ، وذلك من معجز القرآن إذ هو من الاخبار بالغيب وفيها بشارة للمؤمنين بعلو كلمة الإسلام وقهر من عاداه ، (إلا خائفين) نصب على الحال وهو : استثناء مفرغ من الأحوال ، وقرأ أبي : إلا خيفاً ، وهو جمع : خائف كنائم ، ونوم ، ولم يجعلها فاصلة فلذلك جمعت جمع التكسير ، وإبدال الواو ياء إذ الأصل خوف ، وذلك جائز كقولهم : في صوم صيم ، وخوفهم هو ما يلحقهم من الصغار ، والذل ، والجزية أو من أن يبطش بهم المؤمنون ، أو في المحاكمة وهي : تتضمن الخوف ، أو ضرباً موجعاً ، لأن النصارى لا يدخلون بيت المقدس إلا خائفين من الضرب أقوال : والظاهر أن المعنى : أولئك ما ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا وهم خائفون من الله ، وجلون من عقابه فكيف لهم أن يلتبسوا بمنعها من ذكر الله والسعي في تخريبها إذ هي (بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) وما هذه سبيله ينبغي أن يعظم بذكر الله فيه ويسعى في عمارته ولا يدخله الإنسان إلا وجلّاً خائفاً إذ هو بيت الله أمر بالمثل فيه بين يديه للعبادة ، ونظير الآية أن يقول : ومن أظلم ممن قتل ولياً لله تعالى ما كان له أن يلقاه إلا معظماً له مكرماً أي : هذه حالة من يلقي ولياً لله لا أن يباشر بالقتل ففي ذلك تقبيح عظيم على ما وقع منه إذ كان ينبغي أن يقع ضده ، وهو التبجيل ، والتعظيم ، ولما لم يقع هذا المعنى الذي ذكرناه للمفسرين اختلفوا في الآية على تلك الأقوال التي ذكرناها عنهم ، ولو أريد ما ذكره لكان اللفظ أولئك ما يدخلونها إلا خائفين ، ولم يأت بلفظ ما كان لهم الدالة على نفي الابتغاء ، وقيل : المعنى ما كان لهم في حكم الله - يعني - أن الله قد حكم وكتب في اللوح المحفوظ أنه ينصر المؤمنين ويقويهم حتى لا يدخل المساجد الكفار إلا خائفين ، قال بعض الناس : وفيها دلالة على جواز دخول الكفار المساجد على صفة الخوف ، وليس كما قال إذ قد ذكرنا ما دلّ عليه ظاهر الآية ، وقيل : في قوله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها) أن لفظه لفظ الخبر ومعناه : الأمر لنا بأن نخيفهم وإنما ذهب إلى ذلك ، لأن الله تعالى قد أخبر أنهم سيدخلون بيت المقدس على سبيل القهر والغلبة بقوله ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرأوا ما علوا تتبيراً ﴾ [الإسراء : ٧] ، ولأن النبي ﷺ « أخبر أن ذا السويقتين من الحبشة يهدم الكعبة حجراً حجراً » فلما رأى أن هذا يعارض الآية إذا جعلناها خبراً لفظاً ومعنى حملها على الأمر ودلالتها على الأمر لنا بالإخافة لهم بعيدة جداً ، وإذا حملنا الآية على ما ذكرناه بطلت هذه الأقوال ، وأما قوله تعالى

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ فليس ذلك كناية عن يوم القيامة وسيأتي الكلام عليه في موضعه إن شاء الله تعالى . وقوله (أولئك) حمل على معنى من في قوله ﴿ ومن أظلم ﴾ ولا يختص الحمل فيها على اللفظ ، وعلى المعنى بكونها موصولة ، بل هي كذلك في سائر معانيها من الوصل ، والشرط ، والاستفهام ، وكلاهما موجود فيها في سائر معانيها في كلام العرب ، أما إذا كانت موصوفة ، نحو مررت بمن محسن لك فليس في محفوظي من كلام العرب مراعاة المعنى فيها ، وقد تكلمنا قبل على كونها موصوفة . وقال بعض الناس : في قوله تعالى (ومن أظلم) الآية دليل على منع دخول الكافر المسجد ثم ذكر اختلاف الفقهاء في ذلك ، وهي مسألة تذكر في علم الفقه وليس في الآية ما يدل على ما ذكره على ما فهمنا نحن من الآية ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ هذا الجزاء مناسب لما صدر منهم ، أما الخزي في الدنيا فهو الهوان ، والإذلال لهم وهو مناسب للوصف الأول ، لأن فيه إخمالات المساجد بعدم ذكر الله وتعطيلها من ذلك فجوزوا على ذلك بالإذلال والهوان ، وأما العذاب العظيم في الآخرة فهو : العذاب بالنار وهو : إتلاف لهياكلهم ، وصورهم ، وتخريب لها بعد تخريب ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ [النساء : ٥٦] ، وهو مناسب للوصف الثاني ، وهو سعيهم في تخريب المساجد فجوزوا على ذلك بتخريب صورهم وتمزيقها بالعذاب ، ولما كان الخزي الذي يلحقهم في الدنيا لا يتفاوتون فيه حكماً سواء فسرت به بقتل ، أو سبي للحربي ، أو جزية للذمي لم يحتج إلى وصف ، ولما كان العذاب متفاوتاً - أعني - عذاب الكافر ، وعذاب المؤمن ، وصف عذاب الكافر بالعظم ليميز من عذاب المؤمن وقيل : الخزي هو : الفتح الإسلامي ، كالقسطنطينية ، وعمورية ، ورومية ، وقيل : جزية الذمي قاله ابن عباس^(١) ، وقيل : طردهم عن المسجد الحرام ، وقيل : قتل المهدي إياهم إذا خرج قاله المروزي وقيل : منعهم من المساجد قال بعض معاصرينا : إن على كل طائفة من الكفار في الدنيا خزيًا ، أما اليهود والنصارى فقتل قريظة ، وإجلاء بني النضير ، وقتل النصارى وفتح حصونهم وبلادهم وإجراء الجزية عليهم والسيما التي التزموها وما شرطه عمر عليهم وأما مشركو العرب فقتل أبطالهم وأقيالهم^(٢) ، وكسر أصنامهم ، وتسفيه أحلامهم ، وإخراجهم من جزيرة العرب التي هي دار قرارهم ومسقط رؤوسهم وإلزامهم خطة الهلاك من القتل إلا أن يسلموا ، وقال الفراء : معناه : في آخر الدنيا وهو ما وعد الله به المسلمين من فتح الروم ولم يكن بعد ، قال القشيري : في قوله تعالى (ومن أظلم) الآية إشارة إلى ظلم من خرب أوطان المعرفة بالمنى ، والعلاقات وهي : قلوب العارفين وأوطان العبادة بالشهوات ، وهي نفوس العباد وأوطان المحبة بالخطوط ، والمسكنات وهي أرواح الواجدين ، وأوطان المشاهدات بالالتفات إلى القربات ، وهي أسرار الموحدين ، لهم في الدنيا خزي ذل الحجاب ، وفي الآخرة عذاب لاقتناعهم بالدرجات انتهى . وبعضه ملخص ، وهذا تفسير عجيب ينبو عنه لفظ القرآن ، وكذا أكثر ما يقوله هؤلاء القوم ﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ قال الحسن ، وقتادة : أباح لهم في الابتداء أن يصلوا حيث شاؤوا فنسخ ذلك ، وقال مجاهد ، والضحاك : معناها إشارة إلى الكعبة أي : حيثما كنتم من المشرق والمغرب فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة فعلى هذا هي ناسخة لبيت المقدس ، وقال أبو العالية ، وابن زيد : نزلت جواباً لمن غير من اليهود بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، وقال ابن عمر : نزلت في صلاة المسافرين حيث توجهت به دابته ، وقيل : جواب لمن قال « أفرير ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه » قاله سعيد بن جبير ، وقيل : في الصلاة على النجاشي حيث قالوا : لم يكن يصلي إلى قبلتنا ، وقيل : فيمن اشتبهت

(١) انظر تفسير الطبري (٢/٥٢٥) ، تفسير القرطبي (٢/٥٤) ، كلاهما عن قتادة .

(٢) قال أبو عبيدة : الأقيال ملوك باليمن دون الملك الأعظم ، واحد ملوكاً على قومه ومخلافه ومَحَجَرِه ، وقال غيره : سمي الملك قَيْلاً لأنه إذا قال قولاً نفذ قوله - لسان العرب (٥/٣٧٨٠) .

عليه القبلة في ليلة متغيمه فصلوا بالتحري إلى جهات مختلفة ، وقد روي ذلك في حديث عن جابر : أن ذلك وقع لسرية ، وعن عامر بن ربيعة : أن ذلك جرى مع رسول الله ﷺ في السفر ، ولو صح ذلك لم يعدل إلى سواه من هذه الأقوال المختلفة المضطربة ، وقال النخعي : الآية عامة ، أينما تولوا في متصرفاتكم ، ومساعدكم ، وقيل : نزلت حين صد رسول الله ﷺ عن البيت ، وهذه أقوال كثيرة في سبب نزول هذه الآية وظاهرها التعارض ، ولا ينبغي أن يقبل منها إلا ما صح ، وقد شحن المفسرون كتبهم بنقلها ، وقد صنف الواحدي : في ذلك كتاباً قلما يصح فيه شيء ، وكان ينبغي أن لا يشتغل بنقل ذلك إلا ما صح ، والذي يظهر أن انتظام هذه الآية بما قبلها هو أنه لما ذكر منع المساجد من ذكر الله ، والسعي في تخريبها نبه على أن ذلك لا يمنع من أداء الصلوات ولا من ذكر الله إذ المشرق والمغرب لله تعالى ؛ فأى جهة أدبتم فيها العبادة فهي لله تثيب على ذلك ولا يختص مكان التأدية بالمسجد ، والمعنى : والله بلاد المشرق والمغرب وما بينهما فيكون على حذف مضاف ، أو يكون المعنى : والله المشرق والمغرب وما بينهما فيكون على حذف معطوف أو اقتصر على ذكرهما تشريفاً لهما حيث أضيفا لله وإن كانت الأشياء كلها لله ، كما شرف البيت الحرام وغيره من الأماكن بالإضافة إليه تعالى ، وهذا كله على تقدير أن يكون المشرق والمغرب أسمى مكان ، وذهب بعض المفسرين إلى أنهما اسماً مصدر ، والمعنى : إن لله تولى إشراف الشمس من مشرقها ، وإغرابها من مغربها ، فيكونان إذ ذاك بمعنى الشروق والغروب ويبعد هذا القول قوله بعد (فأينما تولوا فثم وجه الله) وأفرد المشرق والمغرب باعتبار الناحية ، أو باعتبار المصدر الواقع في الناحية ، وأما الجمع فباعتبار اختلاف المغارب والمطالع كل يوم ، وأما التثنية فباعتبار شرقي الشتاء والصيف ومغربيهما ، ومعنى التولية الاستقبال بالوجه ، وقيل : معناها الاستدبار من قولك وليت عن فلان إذا استدبرته ، فيكون التقدير فأى جهة وليتم عنها واستقبلتم غيرها فثم وجه الله ، وقيل : ليست في الصلاة ، بل هو خطاب للذين يخربون المساجد أي : أينما تولوا هاربين عني فإنني ألحظهم ويقويه قراءة الحسن فأينما تولوا جعله للغائب فجرى على قوله (لهم في الدنيا خزي) وعلى قوله (وقالوا اتخذ الله ولداً) فجرت الضمائر على نسق واحد ، قال الزمخشري^(١) : ففي أي مكان فعلتم التولية - يعني - تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى ﴿ فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة : ١٥٠] ، انتهى ، فقيد التولية التي هي مطلقة هنا بالتولية التي هي شطر القبلة وهو قول حسن ، وقد ذكر بعض المفسرين في قوله تعالى (والله المشرق والمغرب) مسائل موضوعها علم الفقه ، منها من صلى في ظلمة مجتهداً إلى جهة ثم تبين أنه صلى لغير القبلة ، ومسألة من صلى على ظهر الدابة فرضاً ، لمرض ، أو نفلاً^(٢) ، ومسألة الصلاة على الميت الغائب إذا قلنا نزلت في النجاشي ، وشحن كتابه بذكر هذه المسائل ، وذكر الخلاف فيها ، وبعض دلائلها ، وموضوعها كما ذكرناه هو علم الفقه ، فثم وجه الله ، هذا جواب الشرط وهي جملة ابتدائية ، فقيل : معناه فثم قبله الله فيكون الوجه بمعنى : الجهة وأضيف ذلك إلى الله حيث أمر باستقبالها فهي الجهة التي فيها رضا الله تعالى قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل ، وقيل : الوجه هنا صلة ، والمعنى : فثم الله أي : علمه وحكمه ، وروي عن ابن عباس ، ومقاتل ، أو عبر عن الذات بالوجه كقوله تعالى ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقيل : المعنى العمل لله قاله الفراء ، قال :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيهِ رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

وقيل : يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه كما يقال : فلان وجه القوم أي : موضع شرفهم ، ولفلان وجه عند الناس

(١) انظر الكشف (١ / ١٨٠) .

(٢) انظر حلية العلماء (١ / ٧٦) ، وما بعدها .

أي : جاه وشرف ، والتقدير فثمّ جلال الله وعظمته قاله أبو منصور ، في المقنع ، وحيث جاء الوجه مضافاً إلى الله تعالى فله محمل في لسان العرب إذ هو لفظ يطلق على معان ويستحيل أن يحمل على العضو وإن كان ذلك أشهر فيه ؛ وقد ذهب بعض الناس إلى أن تلك صفة ثابتة لله بالسمع زائدة على ما توجهه العقول من صفات القديم تعالى ، وضعف أبو العالية وغيره هذا القول ، لأن فيه الجزم باثبات صفة لله تعالى بلفظ محتمل ، وهي صفة لا يدري ما هي ولا يعقل معناها في اللسان العربي فوجب اطراح هذا القول والاعتماد على ما له محمل في لسان العرب إذا كان للفظ دلالة على التجسيم فنحمله إمّا على ما يسوغ فيه من الحقيقة التي يصح نسبتها إلى الله تعالى إن كان اللفظ مشتركاً ، أو من المجاز ، إن كان اللفظ غير مشترك ، والمجاز في كلام العرب أكثر من : رمل يرين ، ونهر فلسطين ، فالوقوف مع ظاهر اللفظ الدال على التجسيم غباوة وجهل بلسان العرب وأنحائها ومتصرفاتها في كلامها وحجج العقول التي مرجع حمل الألفاظ المشكلة إليها ونعوذ بالله أن نكون كالكرامية ومن سلك مسلكهم في إثبات التجسيم ، ونسبة الأعضاء لله تعالى الله عما يقول المفترون علواً كبيراً وفي قوله (فأينما تولوا فثمّ وجه الله) ردّ على من يقول إنه في حيز وجهة لأنه لما خير في استقبال جميع الجهات دل على أنه ليس في جهة ولا حيز ، ولو كان في حيز لكان استقباله ، والتوجه إليه أحق من جميع الأماكن فحيث لم يخصص مكاناً علمنا أنه لا في جهة ولا حيز ، بل جميع الجهات في ملكه وتحت ملكه فأبي جهة توجهنا إليه فيها على وجه الخضوع كنا معظمين له ممثلين لأمره ﴿ إن الله واسع عليم ﴾ وصف تعالى نفسه بصفة الواسع فقيل : ذلك لسعة مغفرته وجاء إن ربك واسع المغفرة وهو معنى قول الكلبي : لا يتعاطمه ذنب ، وقيل : واسع العطاء وهو معنى قول أبي عبيدة : غني ، ومعنى قول الفراء : جواد ، وقيل : معناه : عالم من قوله ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ على أحد التفاسير ، وجمع بينه وبين عليم على سبيل التأكيد ، وقيل : واسع القدرة ، وقيل : معناه يوسع على عباده في الحكم دينه يسر ، عليم أي : بمصالحهم ، أو بنيات القلوب التي هي ملاك العمل وإن اختلفت ظواهرها في قبلة وغيرها ، وهذه التفاسير على قول من قال إن الآية نزلت في أمر القبلة ، وقال القفال : ليس فيها ذكر القبلة والصلاة ، وإنما أخبرهم تعالى عن علمه بهم ، وطوق سلطانه إياهم حيث كانوا كقوله تعالى ﴿ إن استطعتم ﴾ الآية وقوله ﴿ ما يكون من نجوى ﴾ الآية ، ويكون في هذا تهديد لمن منع مساجد الله من الذكر وسعى في خرابها أنه لا مهرب له من الله ولا مفر كما قال تعالى ﴿ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ [القيامة : ١٠ - ١١] ، وكما قال الشاعر :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَّأَي عَنْكَ وَاسِعُ

وقال الشاعر :

وَلَمْ يَكُنْ الْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ إِذْ سَرَى لِيَعَجَزَ وَالْمُغْتَرُّ بِاللَّهِ طَالِبُهُ

وقال الشاعر :

أَيْنَ الْمَفَرُّ وَلَا مَفَرٌّ لِهَارِبٍ وَلَهُ الْبَسِيطَانِ الثَّرَى وَالْمَاءُ

وعلى هذا المعنى يكون الخطاب عاماً يندرج فيه من منع المساجد من الذكر وغيره وجاءت هذه الجملة مؤكدة بأن مصرحاً باسم الله فيها دالة، على الاستقلال ، وقد قدّمنا ذلك في قوله ﴿ تجلوه عند الله ﴾ [المزل : ٢٠] ، وكقوله ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [المزل : ٢٠] ، وذلك أفخم وأجزل من الضمير ، لأن الضمير يشعر بقوة التعلق ، والظاهر يشعر بالاستقلال ، ألا ترى أنه يصح الابتداء به وإن لم يلحظ ما قبله بخلاف الضمير ، فإنه رابط

للمجئلة التي هو فيها بالمجئلة التي قبلها ، ألا ترى إلى أن أكثر ما ورد في القرآن من ذلك إنما جاء بالظاهر كما مثلناه ، وكقوله ﴿ أقيموا الصلاة إن الصلاة كانت ﴾ [النساء : ١٠٣] ، ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله ﴾ [البقرة : ٢٠] ، وقال :

لَيْتَ شِعْرِي وَإِنْ مِنْي لَيْتٌ إِنَّ لَيْتًا وَإِنْ لَوَّا عَنَاءُ^(١)

﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ نزلت في اليهود إذ قالوا عزيز ابن الله ، أو في النصراني إذ قالوا المسيح ابن الله ، أو في المشركين إذ قالوا الملائكة بنات الله ، أو في النصراني ، والمشركون ، أقوال أربعة ، والأخير قاله الزجاج ، ولاختلافهم في سبب النزول اختلفوا في الضمير في (قالوا) على من يعود فقيل : هو عائذ على الجميع من غير تخصيص فإن كلاً منهم قد جعل لله ولداً قاله ابن إسحاق ، والجمهور ، على قراءة وقالوا بالواو وهو أكد في الربط ، فيكون عطف جملة خبرية على جملة مثلها ، وقيل : هو عطف على قوله (وسعى في خرابها) فيكون معطوفاً على معطوف على الصلة ، وفصل بينهما بالجملة الكثيرة ، وهذا بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله .

وقرأ ابن عباس ، وابن عامر ، وغيرهما . قالوا : بغير واو ويكون على استئناف اللام ، أو ملحوظاً فيه معنى العطف ، واكتفى بالضمير والربط به عن الربط بالواو ، وقال الفارسي : وبغير واو هي في مصاحف أهل الشام تقدم أن اتخذ ، افتعل من الأخذ ، وإنها تارة تتعدى إلى واحد نحو قوله (اتخذت بيتاً) قالوا معناه : وعملت ، وإلى اثنين فتكون بمعنى صير ، وكلا الوجهين يحتمل هنا ، وكل من الوجهين يقتضى تصويره باستحالة الولد ، لأن الولد يكون من جنس الوالد فإن جعلت اتخذ بمعنى عمل وصنع استحال ذلك ، لأن الباري تعالى منزّه عن الحدوث قديم لا أولية لقدمه ، وما عمله محدث فاستحال أن يكون ولداً له ، وإن جعلت اتخذ بمعنى صير استحال أيضاً ، لأن التصيير هو : نقل من حال إلى حال ، وهذا لا يكون إلا فيما يقبل التغيير وفرضية الولد به تقتضي أن يكون من جنس الوالد لا تقتضى التغيير فقد استحال ذلك وإذا جعلت اتخذ بمعنى صير كان أحد المفعولين محذوفاً التقدير وقالوا اتخذ بعض الموجودات ولداً ، والذي جاء في القرآن إنما ظاهره التعدي إلى واحد قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ما اتخذ الله من ولد وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ ، وقال القشيري : أتى بالولد وهو إحدى الذات لا جزء لذاته ، ولا تجوز الشهوة في صفاته انتهى ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة أتى باللفظ الذي يقتضى التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله تعالى قبل أن يضرب عن مقاتلهم ويستدل على بطلان دعواهم وكان ذكر التنزيه أسبق ، لأن فيه ردعاً لمدعي ذلك ، وإنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس ثم أخذ في إبطال لك المقالة فقال ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ أي : جميع ذلك مملوك له ، ومن جملتهم من ادعوا أنه ولداً لله ، والولادة تنافي الملكية ، لأن الوالد لا يملك ولده ، وقد ذكر بعض المفسرين هنا مسألة : من اشترى والده ، أو ولده ، أو أحداً من ذوي رحمه ، وموضوعها علم الفقه . ولما ذكر أن الكل مملوك لله تعالى ذكر أنهم كلهم قانتون له أي : مطيعون خاضعون له ، وهذه عادة المملوك أن يكون طائعاً لمالكة ممثلاً لما يريده منه ، واستدل بنتيجة الطوعية على ثبوت الملكية ، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس الوالد إذ الولد يكون من جنس الوالد ، وأتى بلفظ ما في قوله (بل له ما في السموات والأرض) وإن كانت لما لا يعقل ، لأن ما لا يعقل إذا اختلط بمن يعقل جاز أن يعبر عن الجميع بما ، ولذلك قال سيبويه : وأما (ما) فإنها مبهمة تقع على كل شيء ويدل على اندراج من يعقل تحت مدلول ما جمع الخبر بالواو والنون التي هي حقيقة فيما

(١) البيت من الخفيف لأبي زيد الطائي ، انظر الأغاني (١٣٨/٥) ، شرح أبيات سيبويه للسيرافي (٢١١/٢) ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ص (٣١) .

يعقل واندرج فيه ما لا يعقل على حكم تغليب من يعقل ، فحين ذكر الملك أتى بلفظة ما ، وحين ذكر القنوت أتى بجمع ما يعقل فدل على أن ذلك شامل لمن يعقل وما لا يعقل ، قال الزمخشري^(١) : فإن قلت : كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله (قانتون) ، قلت : هو كقوله سبحانه (ما سخركن لنا) وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم كقوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ [الصافات : ١٥٨] ، انتهى كلامه . وهو جنوح منه إلى أن ما وقعت على من يعلم ، ولذلك جعله كقوله (ما سخركن لنا) يريد أن المعنى سبحانه من سخركن لنا ، لأنها يراد بها الله تعالى ، وما عندنا لا يقع إلا لما لا يعقل إلا إذا اختلط بمن يعقل فيقع عليهما كما ذكرناه ، أو كان واقعاً على صفات من يعقل فيعبر عنها بما ، وأما أن يقع لمن يعقل خاصة حالة إفراده أو غير إفراده فلا ، وقد أجاز ذلك بعض النحويين ، وهو مذهب لا يقوم عليه دليل إذ جميع ما احتج به لهذا المذهب محتمل وقد يؤول فيؤول قوله سبحانه (ما سخركن) على أن سبحانه غير مضاف وأنه علم لمعنى التسبيح فهو كقوله :

سُبْحَانَ مَنْ عُلِّمَ الْفَاجِرُ^(٢)

(وما) ظرفية مصدرية أي : مدة تسخيركن لنا والفاعل بسخر مضمرة يفسره المعنى وسياق الكلام إذ معلوم أن مسخرهن هو الله تعالى ، وقول الزمخشري^(٣) ، وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم ، ليست ما هنا مختصة بمن يعقل فتقول : عبر عنهم بما التي لما لا يعقل تحقيراً لهم وإنما هي عامة لمن يعقل ولما لا يعقل ، ومعنى قانتون : قائمون بالشهادة قاله الحسن ، أو في القيامة للعرض قاله الربيع ، أو مطيعون قاله قتادة ، أو مقرّون بالعبودية قاله عكرمة ، وقيل : قائمون بالله ، وأورد على من يقول القنوت القيام لله بالشهادة ، والعبودية أنه كيف عم بهذا القول وكثير لبس بمطيع ، وأجيب أن ظاهره العموم ، والمعنى الخصوص أي : أهل كل طاعة له قانتون وبأن الكفار يسجد ظلهم وبظهور أثر الصنعة فيه ، وجرى أحكام الله عليه وذلك دليل على تذلله تعالى ذكره ابن الأنباري .

﴿ كلّ له ﴾ . مرفوع بالابتداء والمضاف إليه محذوف وهو : عبارة عن من في السموات والأرض أي : كل من في السموات والأرض وهو المحكوم عليهم بالملكية قال الزمخشري^(٤) : ويجوز أن يكون كل من جعلوه لله ولداً ، وهذا بعيد جداً ، لأن المفعول لله ولداً لم يجر ذكره ، ولأن الخبر يشترك فيه المفعول ولداً وغيره و﴿ قانتون ﴾ خبر عن كل وجمع حملاً على المعنى ، وكلّ إذا حذف ما تضاف إليه جاز فيها مراعاة المعنى فتجمع ، ومراعاة اللفظ فتفرد ، وإنما حسنت مراعاة الجمع هنا ، لأنها فاصلة رأس آية ، ولأن الأكثر في لسانهم أنه إذا قطعت عن الإضافة كان مراعاة المعنى أكثر وأحسن ، قال تعالى ﴿ وكلّ كانوا ظالمين ﴾ ﴿ وكلّ أتوه داخرين ﴾ ﴿ وكلّ في فلك يسبحون ﴾ وقد جاء أفراد الخبر كقوله : ﴿ قل كلّ يعمل على شاكلته ﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى هنا ذكر محسن أفراد الخبر ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ لما ذكر أنه مالك لجميع من في السموات والأرض وأنهم كلّ قانتون له وهم المظروف للسموات والأرض ذكر الظرفين وخصهما بالبداعة ، لأنها أعظم ما نشاهده من المخلوقات وارتفاع بديع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وهو من باب الصفة المشبهة باسم الفاعل ، فالمجرور مشبه بالمفعول وأصله الأول بديع سمواته ثم شبه الوصف فأضمر فيه فنصب السموات ثم جر من نصب ، وفيه أيضاً ضمير يعود على الله تعالى ، ويكون المعنى في الأصل أنه تعالى : بدعت

(١) انظر الكشف (١٨١/١) .

(٢) تقدم .

(٣) انظر الكشف (١٨١/١) .

(٤) انظر الكشف (١٨٢/١) .

سمواته أي : جاءت في الخلق على شكل مبتدع لم يسبق نظيره ، وهذا الوجه ابتداء به الزمخشري^(١) إلا أنه قال (وبديع السموات) من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهذا ليس عندنا كذلك ، بل من إضافة الصفة المشبهة إلى منصوبها والصفة عندنا لا تكون مشبهة حتى تنصب أو تخفض ، وأما إذا رفعت ما بعدها فليس عندنا صفة مشبهة ، لأن عمل الرفع في الفاعل يستوي فيه الصفات المتعدية وغير المتعدية ، فإذا قلنا : زيد قائم أبوه فقائم رافع للأب على حد رفع ضارب له إذا قلت : زيد ضارب أبوه عمراً لا تقول : إن قائماً هنا من حيث عمل الرفع شبه بضارب ، وإذا كان كذلك فإضافة اسم الفاعل إلى مرفوعه لا يجوز لما تقرّر في علم العربية إلا إن أخذنا كلام الزمخشري^(٢) على التجوّز فيمكن ، ويكون المعنى من إضافة الصفة المشبهة إلى ما كان فاعلاً بها قبل أن يشبه ، وحكى الزمخشري^(٣) وجهاً ثانياً قال : وقيل : البديع بمعنى البدع ، كما أن السميع في قول عمرو :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

بمعنى المسمع وفيه نظر انتهى كلامه . وهذا الوجه لم يذكر ابن عطية غيره قال : وبديع مصروف من مبدع كبصير من مبصر ، ومنه قول عمرو بن معد يكرب :

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ ع يُورْقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ

يريد المسمع ، والمبدع ، والمنشئ ، ومنه أصحاب البدع ، ومنه قول عمر بن الخطاب في صلاة رمضان « نعمت المبدعة هذه » انتهى ، والنظر الذي ذكر الزمخشري^(٤) والله أعلم أن فعلاً بمعنى مفعّل لا ينقاس مع أن بيت عمرو محتمل للتأويل ، وعلى هذا الوجه يكون من باب إضافة اسم الفاعل لمفعوله .

وقرأ المنصور : بديع بالنصب على المدح ، وقرئ بالجرّ على أنه بدل من الضمير في له :

﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ لما ذكر ما دل على الاختراع ذكر ما يدل على طوعية المخترع وسرعة تكوينه ومعنى قضى : هنا أراد أي : إذا أراد إنشاء أمر واختراعه قال ابن عطية : وقضى^(٥) معناه : قدر ، وقد يجيء بمعنى أمضى ، ويتجه في هذه الآية المعنيان فعلى مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه ، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد ، والأمر واحد الأمور وليس هنا مصدر أمر يأمر ، والمعتقد في هذه الآية أن الله لم يزل أمراً للمعدومات بشرط وجودها قادراً مع تأخر المقدورات عالماً مع تأخر وقوع المعلومات ، وكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن ، وكل ما استند إلى الله من قدرة وعلم فهو قديم لم يزل انتهى ما نقلناه هنا من كلامه ، وقال المهدوي (وإذا قضى أمراً) أي : أتقنه ، وأحكمه ، وفرغ منه ، ومعنى (فإنما يقول له كن فيكون) يقول : من أجله وقيل : قال له كن وهو معدوم ، لأنه بمنزلة الموجود إذ هو عنده معلوم ، قال الطبري : أمره للشيء بكن لا يتقدّم الوجود ولا يتأخر عنه فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود

(١) انظر الكشاف (١/١٨١) .

(٢) انظر الكشاف (١/١٨١) .

(٣) انظر الكشاف (١/١٨١) .

(٤) انظر الكشاف (١/١٨١) .

(٥) القضاء : الحكم ، وأصله قضائيّ لأنه من قضيت إلا أن الباء لما جاءت بعد الألف همزت قال أهل الحجاز : القاضي معناه في اللغة القاطع للأمور المحكم لها - لسان العرب (٥/٣٦٦) .

بالأمر ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمور بالوجود قال : ونظيره قيام الأموات من قبورهم لا يتقدم دعاء الله ولا يتأخر عنه كما قال (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فالهاء في له تعود على الأمر ، أو على القضاء الذي دلّ عليه قضى ، أو على المراد الذي دلّ عليه الكلام انتهى ما نقلناه من كتابه ، وقال مكي : معنى الآية أنه عالم بما سيكون وم هو كائن فقلوه (كن) إنما هو للموجود في علمه ليخرجه إلى العيان لنا انتهى كلامه ، وقال الزمخشري^(١) : كن فيكون من كان التامة أي : أحدث فيحدث ، وهذا مجاز من الكلام وتمثيل ولا قول ثم كما لا قول في قوله :

إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاءُ لِلْبُطْنِ الْحَقِّ

وإنما المعنى ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكوّن ، ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف ، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإيذاء أكد بهذا استبعاد الولادة ، لأن من كان بهذا الصفة من القدرة كانت حاله مביئة لأحوال الأجسام في توالدها انتهى كلامه . وقال السجاوندي : كن على التمثيل لنفاذ الأمر قال

فَقَالَتْ لَهُ الْعَيْنَانِ سَمْعًا وَطَاعَةً

وإلا فالمعديوم كيف يخاطب ، أو علامة للملائكة بحدوث الموجود ، أو على تقدير ما تصوّر كونه في علمه ، أ مخصوص في تحويل الموجود من حال إلى حال ، ولو كان كن مخلوقاً لاحتاج إلى أخرى ولا يتناهى فدلّ على أن القرآن غير مخلوق انتهى كلامه ، قال المهدوي : وفي هذه الآية دليل على أن كلام الله غير مخلوق ، لأنه لو كان مخلوقاً لكان قائلاً له كن ولكان قائلاً لكن كن حتى ينتهي ذلك إلى ما لا يتناهى وذلك مستحيل مع ما يؤدي إليه ذلك من أنه لا يوجد من الله فعل ألبتة إذ لا بد أن يوجد قبله أفعال هي أقاويل لا غاية لها وذلك مستحيل ، ولا يجوز أن يحمل على المجاز إذ ذلك إنما يكون في الجمادات ولا يكون فيمن يصح منه القول إلا بدليل ، ويقوي ذلك أن المصدر فيه الذي هو قولنا من قوله ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] ، وكذا بمصدر آخر وهو أن نقول وأهل العربية مجمعون على أنهم إذا أكدوا الفعل بالمصدر كان حقيقة ولذلك جاء قوله (وكلم الله موسى تكليماً) إذ كان الله تعالى متولي تكليمه وقد قيل : إن معنى فإنما يقول له كن فيكون بكونه انتهى كلام المهدوي .

وقال في المنتخب : كن فيكون ليس المراد أنه تعالى يقول كن فحينئذ يكون ذلك الشيء ، فإن ذلك فاسد من وجوه فلا بد من تأويله وفيه وجوه :

الأول : وهو الأقوى أن المراد نفاذ سرعة قدرة الله في تكوين الأشياء وإنما يخلقها لا لفكرة ونظيره ﴿ قالنا أتينا طائعين ﴾ [فصلت : ١٠] .

الثاني : أنها علامة يعقلها الملائكة إذا سمعوها علموا أنه أحدث أمراً قاله أبو الهذيل .

الثالث : أنه جاء للموجودين الذين قال لهم ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ [البقرة : ٦٥] ، ومن جرى مجراهم وهو قول الأصم .

الرابع : أنه أمر للإحياء بالموت وللموتى بالحياة والكل ضعيف ، والقوي هو الأول انتهى كلامه .

هذا ما نقلناه من كلام أهل التفسير في الآية ، وظاهر الآية يدل على أن الله تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له كن

تبينه الآية الأخرى ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [يس : ٨٢] ، وقوله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ [القمر : ٥٠] ، لكن دليل العقل صد عن اعتقاد مخاطبة المعدوم ، وصد عن أن يكون الله تعالى محلاً للحوادث ، لأن لفظة كن محدثة ومن يعقل مدلول اللفظ . وكونه يسبق بعض حروفه بعضاً لم يدخله شك في حدوثه وإذا كان كذلك فلا خطاب ولا قول لفظياً وإنما ذلك عبارة عن سرعة الإيجاد وعدم اعتيابه فهو من مجاز التمثيل ، وكأنه قدر أن المعدوم موجود يقبل الأمر ويمثله بسرعة بحيث لا يتأخر عن امتثال ما أمر به .

وقرأ الجمهور : فيكون بالرفع ، ووجه : على أنه الاستئناف أي : فهو يكون وعزي إلى سبويه وقال غيره : فيكون عطف على يقول ، واختاره الطبري وقرره ، قال ابن عطية : وهو خطأ من جهة المعنى ، لأنه يقتضي أن القول مع التكوين حادث ، وقد انتهى ما رده به ابن عطية ، ومعنى رده أن الأمر عنده قد تم ، والتكوين حادث ، وقد نسق عليه بالفاء فهو معه أي يتعقبه فلا يصح ذلك ، لأن القديم لا يعتقبه الحادث ، وتقرير الطبري له هو ما تقدم في أوائل الكلام على هذه المسألة من أن الأمر لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه ، وما رده به ابن عطية لا يتم إلا بأن تحمل الآية على أن ثم قولاً وأمرأ قديماً أما إذا كان ذلك على جهة المجاز ومن باب التمثيل فيجوز أن يعطف على نقول .

وقرأ ابن عامر : فيكون بالنصب ، وفي آل عمران كن فيكون ، ونعلمه ، وفي النحل ، وفي مريم ، وفي يس ، وفي المؤمن ، ووافقه الكسائي ، في النحل ، ويس ، ولم يختلف في ﴿ كن فيكون الحق ﴾ في آل عمران ﴿ وكن فيكون قوله الحق ﴾ [آل عمران : ٥٩ ، ٦٠] في الإنعام ، أنه بالرفع ، ووجه النصب أنه جواب على لفظ كن ، لأنه جاء بلفظ الأمر فشبه بالأمر الحقيقي ولا يصح نصبه على جواب الأمر الحقيقي ، لأن ذلك إنما يكون على فعلين ينتظم منهما شرط وجزاء نحو أئتني فأكرمك إذ المعنى إن تأتني أكرمك ، وهنا لا ينتظم ذلك إذ يصير المعنى إن يكن يكن ، فلا بد من اختلاف بين الشرط ، والجزاء ، إما بالنسبة إلى الفاعل ، وإما بالنسبة إلى الفعل في نفسه ، أو في شيء من متعلقاته ، وحكى ابن عطية ، عن أحمد بن موسى ، في قراءة ابن عامر ، أنها لحن ، وهذا قول خطأ ، لأن هذه القراءة في السبعة ، فهي قراءة متواترة ، ثم هي بعد قراءة ابن عامر ، وهو رجل عربي لم يكن ليلحن ، وقراءة الكسائي في بعض المواضع وهو إمام الكوفيين في علم العربية ، فالقول بأنها لحن من أقبح الخطأ المؤثم الذي يجزئ قائله إلى الكفر ؛ إذ هو طعن على ما علم نقله بالتواتر من كتاب الله تعالى .

﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ قال ابن عباس ، والحسن ، والربيع ، والسدي : نزلت في كفار العرب حين طلب عبد الله بن أمية وغيره ذلك ، وقال مجاهد : في النصارى ، ورجحه الطبري ، لأنهم المذكورون في الآية أولاً^(١) . وقال ابن عباس : أيضاً اليهود الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ قال رافع بن خزيمة : من اليهود إن كنت رسولاً من عند الله فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله الآية ، وقال قتادة : مشركو مكة ، وقيل : الإشارة بقوله (الذين لا يعلمون) إلى جميع هذه الطوائف ، لأنهم كلهم قالوا هذه المقالة ، واختلافهم في الموصول مبني على اختلافهم في السبب فإن كان الموصول الجهلة من العرب فنفي عنهم العلم ، لأنه لم يكن لهم كتاب ولا هم أتباع نبوة ، وإن كان الموصول اليهود والنصارى فنفي عنهم العلم لا تنفاه ثمرته وهو الاتباع له والعمل بمقتضاه ، وحذف مفعول العلم هنا اقتصاراً ، لأن المقصود إنما هو نفي نسبة العلم إليهم لا نفي علمهم بشيء مخصوص فكأنه قيل : وقال : الذين ليسوا ممن له سجية في العلم لفرط غباوته فهي مقالة صدرت ممن لا يتصف بتميز ، ولا إدراك ، ومعمول القول الجملة التحضيضية وهي (لولا يكلمنا الله) كما يكلم الملائكة وكما كلم موسى

عليه السلام قالوا ذلك على طريقة الاستكبار والعتو (أو تأتينا آية) أي : هلا يكون أحد هذين إما التكلم وإما إتيان آية قالوا ذلك جحوداً لأن يكون ما أتاهم آية واستهانة بها ، ولما حكى عنهم نسبة الولد إلى الله تعالى أعقب ذلك بمقالة أخرى لهم تدل على تعنتهم وجهلهم بما يجب لله تعالى من التعظيم وعدم الاقتراح على أنبيائه ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ .

تقدم الكلام في إعراب كذلك ، وفي تبين وقوع من قبلهم صلة للذين في قوله (والذين من قبلكم لعلكم تتقون) والذين من قبلهم إن فسر الموصول في الذين لا يعلمون بكفار العرب ، أو مشركي مكة ، فالذين من قبلهم هم الأمم المكذبة من أسلافهم وغيرهم ، وإن فسر باليهود ، أو النصارى ، فالذين من قبلهم أسلافهم ، وانتصاب مثل قولهم على البدل من موضع الكاف ، ولا تدل المثلية على التماثل في نفس المقول ، بل يحتمل أن من قبلهم اقترحوا غير ذلك وأن المثلية وقعت في اقتراح ما لا يليق سؤاله وإن لم تكن نفس تلك المقالة إذ المثلية تصدق بهذا المعنى ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ الضمير عائد على الذين لا يعلمون والذين من قبلهم لما ذكر تماثل المقالات وهي صادرة عن الأهواء والقلوب ذكر تماثل قلوبهم في العمى والجهل كقوله تعالى ﴿ أتواصوا به ﴾ [الذاريات : ٥٣] ، قيل : تشابهت قلوبهم في الكفر ، وقيل : في القسوة ، وقيل : في التعنت والاقتراح ، وقيل : في المحال .

وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حية تشابهت بتشديد الشين ، وقال أبو عمرو الداني : وذلك غير جائز ، لأنه فعل ماض - يعني - أن اجتماع التائين المزيديتين لا يكون في الماضي إنما يكون في المضارع نحو تشابهه وحينئذ يجوز فيه الادغام أما الماضي فليس أصله تشابه وقد مر نظير هذه القراءة في قوله ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ [البقرة : ٧٠] ، وخرجنا ذلك على تأويل لا يمكن هنا فيتطلب هنا تأويل لهذه القراءة .

﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أي : أوضحنا الآيات فاقترح آية مع تقدم مجيء آيات وإيضاحها إنما هو على سبيل التعنت ؛ هذا وهي آيات مبينات لا لبس فيها ولا شبهة لشدة إيضاحها لكن لا يظهر كونها آيات إلا لمن كان موقناً^(١) ، أما من كان في ارتياب ، أو شك ، أو تغافل ، أو جهل ، فلا تنفع فيه الآيات ولو كانت في غاية الوضوح ألا ترى إلى قولهم ﴿ إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ [الحجر : ١٥] ، وقول أبي جهل وقد سأل أهل البوادي الوافدين إلى مكة عن انشقاق القمر فأخبروه به فقال بعد ذلك هذا سحر مستمر ، ولما ذكر أن اقتراح ما تقدم إنما هو من أهواء الذين لا يعلمون قال في آخرها (لقوم يوقنون) والإيقان : وصف في العلم يبلغ به نهاية الوثاقة في العلم أي : من كان موقناً ، فقد أوضحنا له الآيات فأمن بها ووضحت عنده وقامت به الحجة على غيره وفي جمع الآيات رد على من اقترح آية إذ الآيات قد بينت فلم يكن آية واحدة فيمكن أن يدعى الالتباس فيها ، بل ذلك جمع آيات بينات لكن لا ينتفع بها إلا من كان من أهل العلم والتبصر واليقين ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ بشيراً لمن آمن ونذيراً لمن كفر ، وهذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ فإنه كان يضيق صدره لتماديهم على ضلالهم .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه لما ذكر أنه بين الآيات ذكر من بينت على يديه فأقبل عليه وخاطبه ﷺ ليعلم أنه هو صاحب الآيات فقال (إنا أرسلناك بالحق) أي : بالآيات الواضحة ، وفسر الحق هنا بالصدق ، وبالقرآن ، وبالإسلام ، وبالحق في موضع الحال أي : أرسلناك ومعك الحق لا يزايلك ، وانتصاب بشيراً ونذيراً على الحال من الكاف ويحتمل أن يكون حالاً من الحق ، لأن ما جاء به من الحق يتصف أيضاً بالبشارة والنذارة ، والأظهر الأول ،

(١) اليقين : العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر ، وقد أيقن يوقن إيقاناً فهو موقن - لسان العرب (٦/ ٤٩٦٤) . .

وعدل إلى فعليل للمبالغة ، لأن فعيلاً من صفات السجايا ، والعدل في بشير للمبالغة مقيس عند سيويوه إذا جعلناه من بشر ، لأنهم قالوا بشر مخففاً ، وليس مقيساً في نذير ، لأنه من أنذر ولعل محسن العدل فيه كونه معطوفاً على ما يجوز ذلك فيه ، لأنه قد يسوغ في الكلمة مع الاجتماع مع ما يقابلها ما لا يسوغ فيها لو انفردت ، كما قالوا أخذه ما قدم وما حدث وشبه ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ .

قراءة الجمهور : بضم التاء ، واللام ، وقرأ أبي (وَمَا تُسْأَلُ) ، وقرأ ابن مسعود : (وَلَنْ تُسْأَلَ) وهذا كله خبر ، فالقراءة الأولى ، وقرأه أبي ، يحتمل أن تكون الجملة مستأنفة ، وهو الأظهر ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال ، وأما قراءة ابن مسعود فيتعين فيها الاستئناف ، والمعنى على الاستئناف أنك لا تسأل عن الكفار ما لهم لم يؤمنوا ، لأن ذلك ليس إليك ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ ﴿ إنما أنت منذر ﴾ [الرعد : ٧] ، وفي ذلك تسلية له ﷺ وتخفيف ما كان يجده من عنادهم فكأنه قيل : لست مسؤولاً عنهم فلا يحزنك كفرهم ، وفي ذلك دليل على أن أحداً لا يسأل عن ذنب أحد ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وأما الحال فعطف على ما قبلها من الحال أي : وغير مسؤول عن الكفار ما لهم لا يؤمنون فيكون قيداً في الإرسال بخلاف الاستئناف .

وقرأ نافع ، ويعقوب ، ولا تُسْأَلُ : بفتح التاء ، وجزم اللام ، وذلك على النهي ، وظاهره أنه نهي حقيقة نهى ﷺ أن يسأل عن أحوال الكفار ، قال محمد بن كعب القرظي : قال النبي ﷺ ليت شعري ما فعل أبواي فنزلت ، واستبعد في المنتخب هذا ، لأنه عالم بما آل إليه أمرهما ، وقد ذكر عياض انهما أحيا له فأسلما وقد صح أن الله أذن له في زيارتهما ، واستبعد أيضاً ذلك ، لأن سياق الكلام يدل على أن ذلك عائد على اليهود والنصارى ، ومشركي العرب الذين جحدوا نبوته وكفروا عناداً ، وأصروا على كفرهم ، وكذلك جاء بعده (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) إلا إن كان ذلك على سبيل الانقطاع من الكلام الأول ويكون من تلوين الخطاب وهو بعيد ، وقيل : يحتمل أن لا يكون نهياً حقيقة بل جاء ذلك على سبيل تعظيم ما وقع فيه أهل الكفر من العذاب كما تقول : كيف حال فلان إذا كان قد وقع في بلية فيقال لك لا تسأل عنه ، ووجه التعظيم أن المستخبر يجزع أن يجري على لسانه ما ذلك الشخص فيه لفظاعته ، فلا تسأله ، ولا تكلفه ما يضجره أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيحاشه السامع وإضجاره فلا تسأل فيكون معنى التعظيم إما بالنسبة إلى المجيب وإما بالنسبة إلى المجاب ولا يراد بذلك حقيقة النهي ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ روي أن اليهود والنصارى طلبوا من رسول الله ﷺ الهدنة ووعدوه أن يتبعوه بعد مدة خداعاً منهم فأطاعه الله على سر خداعهم فنزلت نفى الله رضاهم عنه إلا بتابعته دينهم وذلك بيان أنهم أصحاب الجحيم الذين هم أصحابها لا يطمع في إسلامهم ، والظاهر أن قوله تعالى (ولن ترضى) خطاب للنبي ﷺ علق رضاهم عنه بأمر مستحيل الوقوع منه ﷺ وهو اتباع ملتهم ، والمعلق بالمستحيل مستحيل ، سواء فسرنا الملة بالشرعية ، أو فسرناها بالقبلة ، أو فسرناها بالقرآن ، وقيل : هو خطاب له وهو تأديب لأمتهم فإنهم يعلمون قدره عند ربه ، وإنما ذلك ليتأدب به المؤمنون فلا يوالون الكافرين فإنهم لا يرضيهم منهم إلا اتباع دينهم ، وقيل : هو خطاب له ، والمراد أمته ، لأن المخاطب لا يمكن ما خوطب به أن يقع منه فيصرف ذلك إلى من يمكن ذلك منه مثل قوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : ٦٥] ، ويكون تنبيهاً من الله على أن اليهود والنصارى يخادعونكم بما يظهرون من الميل وطلب المهادنة والوعد بالموافقة ولا يقع رضاهم إلا باتباع ملتهم ووحدت الملة وإن كان لهم ملتان ، لأنهما يجمعهما الكفر فهي واحدة بهذا الاعتبار ، أو لا يجاز فيكون من باب الجمع في الضمير نظير ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : ١٣٥] ، لأن المعلوم أن النصارى لن ترضى حتى تتبع ملتهم ، واليهود لن ترضى حتى تتبع ملتهم ، وقد اختلف العلماء في الكفر أهو ملة واحدة أو ملل ، وثمرة الخلاف تظهر في الارتداد من ملة إلى ملة ، وفي

الميراث ، وذلك مذكور في الفقه ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أمره أن يخاطبهم بأن هدى الله أي : الذي هو مضاف إلى الله وهو الإسلام الذي أنت عليه هو الهدى أي : النافع التام الذي لا هدى وراءه وما أمرتم باتباعه هو هوى لا هدى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وأكد الجملة بأن وبالفصل الذي قبل فدل على الاختصاص والحصص ؛ وجاء الهدى معروفاً بالألف واللام وهو مما قيل ان ذلك يدل على الحصر فإذا قلت زيد العالم فكأنه قيل : هو المخصوص بالعلم والمحصور فيه ذلك ثم ذكر تعالى ان ما هم عليه إنما هي أهواء وضلالات ناشئة عن شهواتهم وميولهم فقال ﴿ ولئن أتبت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ وهو خطاب للنبي ﷺ على الأقوال التي في قوله (ولن ترضى) ، واللام في لئن تسمى الموطن والمؤذنة وهي تشعر بقسم مقدر قبلها ، ولذلك يبنى ما بعد الشرط على القسم لا على الشرط إذ لو بني على الشرط لدخلت الفاء في قوله ما لك والأهواء جمع : هوى ، وكان الجمع دليلاً على كثرة اختلافهم إذ لو كانوا على حق لكان طريقاً واحداً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً) وأضاف الأهواء إليهم ، لأنها بدعهم وضلالاتهم ، ولذلك سمي أصحاب البدع أرباب الأهواء ، (بعد الذي جاءك من العلم) أي : من الدين ، وجعله علماً ، لأنه معلوم بالبراهين الصحيحة قالوا : وتدل هذه الآية على أمور .

منها أن من علم الله منه أنه لا يفعل الشيء يجوز أن يخاطب بالوعيد لاحتمال أن يكون الصارف له ذلك الوعيد ، أو يكون ذلك الوعيد أحد الصوارف ، ونظيره (لئن أشركت ليحبطن عملك) .

ومنها أن قوله (بعد الذي جاءك من العلم) يدل على أنه لا يجوز الوعيد إلا بعد المعذرة أولاً فيبطل بذلك تكليف ما لا يطاق .

ومنها أن اتباع الهوى باطل فيدل على بطلان التقليد ، وقد فسر العلم هنا بالقرآن ، وبالعلم بضلال القوم ، وبالبيان ، بأن دين الله هو الإسلام ، وبالتحول إلى الكعبة قاله ابن عباس ، وفي قوله ﴿ ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، قطع لأطماعهم أن تتبع أهواؤهم ، لأن من علم أنه لا ولي له ولا نصير ينفعه إذا ارتكب شيئاً كان أبعد في أن لا يرتكبه ، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد ، وقد تقدم الكلام في الولي والنصير فأغنى ذلك عن إعادته هنا ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ قال ابن عباس : نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب ، وكانوا اثنين وثلاثين من أهل الحبشة وثمانية من رهبان الشام ، وقيل : كان بعضهم من أهل نجران ، وبعضهم من أهل الحبشة ، ومن الروم ، وثمانية ملاحون أصحاب السفينة أقبلوا مع جعفر ، وقال الضحاك : هم من آمن من اليهود ، كابن سلام ، وابن صوريا ، وابن يامين ، وغيرهم ، وقيل : في علماء اليهود وأخبار النصارى ، وقال ابن كيسان : الأنبياء والمرسلون ، وقيل : المؤمنون ، وقيل : الصحابة قاله عكرمة ، وقناة^(١) ، ، وعلى هذا الاختلاف ينزل الاختلاف في الكتاب أهو التوراة ، أو الإنجيل أو هما والقرآن ، أو الجنس فيكون - يعني به - المكتوب فيشمل الكتب المتقدمة ، (يتلونه حق تلاوته) أي : يقرؤونه ويرتلونه بإعرابه ، وقال عكرمة : يتبعون أحكامه ، وقال الحسن : يعملون بمحكمه ويكلون متشابهه إلى الله ، وقال عمر : يسألون من رحمته ويستعيذون من عذابه^(٢) ، وقال الزمخشري^(٣) : لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ والذين : مبتدأ ؛ فإن أريد به الخصوص في من اهتدى ، صح أن يكون يتلونه خبراً عنه ، وصح أن يكون حالاً مقدرة إما من ضمير المفعول ، وإما من الكتاب ، لأنهم وقت الإيتاء لم يكونوا تالين له ولا كان هو متلوأ لهم ، ويكون الخبر إذ ذاك في

(١) انظر الطبري (٢/ ٥٦٤ - ٥٦٥) ، تفسير القرطبي (٢/ ٦٦) ، معالم التنزيل (١/ ١١٠) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٢/ ٥٦٦ - ٥٦٧) ، معالم التنزيل (١/ ١١٠ - ١١١) .

(٣) انظر الكشاف (١/ ١٨١) .

الجملة من قوله (أولئك يؤمنون به) ، وجوز الحوفي أن يكون يتلونه خبراً وأولئك وما بعده خبر بعد خبر قال : مثل قولهم : هذا حلوحامض ، وهذا مبني على أنه هل يقتضي المبتدأ الواحد خبرين أم لا يقتضي إلا إذا كان في معنى خبر واحد كقولهم : هذا حلوحامض أي : مر ، وفي ذلك خلاف وإن أريد بـ (الذين آتيناهم الكتاب) العموم كان الخبر أولئك يؤمنون به ، قالوا ومنهم ابن عطية ، ويتلونه حال لا يستغنى عنها وفيها الفائدة ولا يجوز أن يكون خبراً ، لأنه كان يكون كل مؤمن يتلو الكتاب وليس كذلك بأي تفسير فسرت التلاوة ، ونقول : ما لزم في الامتناع من جعلها خبراً يلزم في الحال ، لأنه ليس كل مؤمن يكون على حالة التلاوة بأي تفسير فسرتها ، وانتصب حق تلاوته على المصدر كما تقول : ضربت زيداً حق ضربه ، وأصله تلاوة حقاً ، ثم قدم الوصف وأضيف إلى المصدر وصار نظير ضربت شديد الضرب إذ أصله ضرباً شديداً ، وجوزوا أن يكون وصفاً لمصدر محذوف وأن يكون منصوباً على الحال من الفاعل أي : يتلونه محققين ، وقال ابن عطية : وحق مصدر والعامل فيه فعل مضمر وهو بمعنى ولا يجوز إضافته إلى واحد معرّف ، وإنما جازت هنا ، لأن تعرف التلاوة باضافتها إلى الضمير ليس بتعريف محض ، وإنما هو بمنزلة قولهم رجل واحد أمه ونسيج وحده انتهى كلامه ، (وأولئك يؤمنون به) ظاهره أن الضمير في به يعود إلى ما يعود عليه الضمير في (يتلونه) وهو الكتاب على اختلاف الناس في الكتاب ، وقيل : يعود على النبي ﷺ قالوا وإن لم يتقدم له ذكر ، لكن دلت قوة الكلام عليه ، وليس كذلك ، بل قد تقدم ذكره في قوله (إنا أرسلناك بالحق) [البقرة ١١٩] لكن صار ذلك التفاتاً وخروجاً من خطاب إلى غيبة ، وقيل : يعود على الله تعالى ويكون التفاتاً أيضاً خروجاً من ضمير المتكلم المعظم نفسه إلى ضمير الغائب المفرد ، قال ابن عطية : ويحتمل عندي أن يعود الضمير على الهدى الذي تقدم ذكره كفار اليهود والنصارى في الآية وحذر رسوله من اتباع أهوائهم وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به ، ثم ذكر له أن المؤمنين التاليين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقتدون بأنواره انتهى كلامه . وهو محتمل لما ذكر ، لكن الظاهر أن يعود على الكتاب لتناسب الضمائر ولا تختلف فيحصل التعقيد في اللفظ والإلباس في المعنى ، لأنه إذا كان جعل الضمائر المتناسبة عائدة على واحد والمعنى فيها جيد صحيح الإسناد كان أولى من جعلها متنافرة ، ولا نعدل إلى ذلك إلا بصارف عن الوجه الأول ، إمّا لفظي ، وإمّا معنوي وإلى عوده على الكتاب ذهب الزمخشري^(١) ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴿ الضمير في به في هذه الجملة فيه من الخلاف ما فيه في الجملة السابقة ، والظاهر كما قلناه أنه عائدة على الكتاب ولم يعادل بين الجملتين في التركيب الخبري غير الشرطي ، أو الشرطي ، بل قصد في الأولى إلى ذكر الحكم من غير تعليق عليه ودل مقابلة الخسران على ربح من آمن به وفوزه ووفور حظه عند الله فاكتفى بثبوت السبب عن ذكر المسبب عنه ؛ وقصد في الجملة الثانية إلى ذكر المسبب على تقدير حصول السبب فكان في ذلك تنفير عن تعاطي السبب لما يترتب عليه من المسبب الذي هو الخسران ونقص الحظ ؛ وأخرج ذلك في جملة شرطية حمل فيها الشرط على لفظ من والجزاء على معناها ، وهم محتمل أن يكون مبتدأ ، وأن يكون فصلاً ، وعلى كلا التقديرين يكون في ذلك توكيد ، وفي المنتخب : الذي يليق به هذا الوصف هو القرآن (وأولئك) الأولى عائدة على المؤمنين (والثانية) عائدة على الكفار ، والدليل عليه أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب فلما ذم طريقتهم وحكى سوء أفعالهم أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم بأن تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة النبي ﷺ انتهى ، والتلاوة : لها معنيان القراءة لفظاً ، والإتباع فعلاً وقد تقدم ما نقل في تفسير التلاوة هنا ، والأولى أن يحمل على كل تلك الوجوه لأنها مشتركة في المفهوم وهو أن بينها كلها قدراً مشتركاً فينبغي أن يحمل عليه لكثرة الفوائد .

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

كرر نداء بني إسرائيل هنا وذكرهم بنعمه على سبيل التوكيد إذ أعقب ذلك النداء ذكر نداء ثانٍ يلي ذكر الطائفتين متبعي الهدى والكافرين المكذبين بالآيات ، وهذا النداء أعقب ذكر تلك الطائفتين من المؤمنين والكافرين وكان ما بين النداءين قصص بني إسرائيل ، وما أنعم الله به عليهم وما صدر منهم من أفعالهم التي لا تليق بمن أنعم الله عليه من المخالفات ، والكذب ، والتعنتات ، وما جوزوا به في الدنيا على ذلك ، وما أعد لهم في الآخرة محشواً بين التذكيرين ، ومجوعولاً بين الوعظين ، والتخوفين ليوم القيامة ، ونظير ذلك في الكلام : أن تأمر شخصاً بشيء على جهة الإجمال ، ثم تفصل له ذلك الشيء إلى أشياء كثيرة عديدة وأنت تسردها له سرداً ، وكل واحدة منها هي مندرجة تحت ذلك الأمر السابق ويطول بك الكلام حتى تكاد تتناسى ما سبق من ذلك الأمر فتعيده ثانية لتتذكر ذلك الأمر وتصير تلك التفاصيل محفوفة بالأمرين المذكورين بهما ، ولم تختلف هذه الآية مع تلك السابقة إلا في قوله هناك (ولا تقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل) البقرة ٤٨ وقال هنا (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة) وقد ذكرنا هناك ما ناسب تقديم الشفاعاة هناك على العدل ، وتأخيرها هنا عنه ونسبة القبول هناك للشفاعة ، والنفع هنا لها فيطالع هناك .

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة الاخبار عن مجاوزة الحد في الظلم ممن عطل بيوت الله من الذكر وسعى في خرابها مع أنها من حيث هي منسوبة إلى الله وهي محال ذكره وإيواء عباده الصالحين كان ينبغي أن لا يدخلوها إلا وهم وجلون : خائفون متذكرون لمن بنيت ولما يذكر فيها ؛ ثم أخبر أن لأولئك الخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة ، ثم ذكر أنه له تعالى المشرق والمغرب فيندرج في ذلك المساجد ، وأي جهة قصدتموها فالله تعالى حاوياً ، ومالكها فليس مختصاً بحيز ولا مكان ، وختم هذه الجملة بالوسع المنافي لوسع المقادير ، وبالعالم الذي هو دليل الإحاطة ، ثم أخبر عنهم بأفزع مقالة وهي نسبة الولد إلى الله تعالى ونزه ذاته المقدسة عن ذلك ، وأخبر أن جميع من في السموات والأرض ملك له خاضعون طائعون ، ثم ذكر بداعة السموات والأرض وأنها مخلوقة على غير مثال فكما أنه لا مثال لهما فكذلك الفاعل لهما لا مثال له ، ففي ذلك إشارة إلى أنه يتمتع الولد إذ لو كان له ولد لكان من جنسه ، والبارى لا شيء يشبهه فلا ولد له ، ثم ذكر أنه متى تعلقت إرادته بما يريد أن يحدثه فلا تأخر له ، وفيه إشارة أيضاً إلى نفي الولد لأنه لا يكون إلا عن توالد ويقتضي إلى تعاقب أزمان تعالى الله عن ذلك ، ثم ذكر نوعاً من مقالاتهم التي تعتوا بها أنبياء الله من طلب كلامه ومشافهته إياهم ، أو نزول آية وقد نزلت آيات كثيرة فلم يصغوا إليها ، وأن هذه المقالة اقتفوا بها آثار من تقدمهم ، وأن اهواءهم متماثلة في تعنت الأنبياء وأنه تعالى قد بين الآيات وأوضحها لكن لمن له فكر فهو يوقن بصحتها ويؤمن بها ، ثم ذكر تعالى أنه أرسله بشيراً لمن آمن بالنعيم في الآخرة والظفر في الدنيا ، ونذيراً لمن كفر بعكس ذلك وأن لا تهتم بمن ختم له بالشقاوة فكان من أهل النار ولا تغتم بعدم إيمانه فقد أبلغت وأعدت ، ثم ذكر ما عليه اليهود والنصارى من شدة تعاميمهم عن الحق بأنهم لا يرضون عنك حتى تخالف ما جاءك من الهدى الذي هو هدى الله إلى ما هم عليه من ملة الكفر واتباع الأهواء ، ثم أخبر أن متبع أهوائهم بعد وضوح ما وافاه من الدين والإسلام لا أحد ينصره ولا يمنعه من عذاب الله وأن الذين آتاهم الكتاب واصطفاهم له يتبعون الكتاب ، ويتبعون معانيه فهم مصدقون بما تضمنه مما غاب عنهم علمه ولم يحصل لهم استفادته إلا منه من خبر ماض ، أو آت ، عدو وعيد ، وثواب وعقاب ، وإن من كفر به حق عليه الخسران ، ثم ختم هذه الآيات بأمر بني إسرائيل بذكر نعمه السابقة وتفضيلهم

على عالمي زمانهم ، وكان ثالث نداء نودي به بنو إسرائيل بالإضافة إلى أبيهم الأعلى وتشريفهم بولادتهم منه ، ثم أعرض في معظم القرآن عن ندائهم بهذا الاسم وطمس ما كان لهم من نور هذا الوسم والثلاث هي مبدأ الكثرة ، وقد اهتم بك من نهك وناداك مرة ومرة ومرة ، قال الشاعر :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

❖ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ❖

إبراهيم : اسم علم أعجمي ، قيل : ومعناه بالسريانية قبل النقل إلى العلمية أب رحيم وفيه لغات ست إبراهيم بألف وياء وهي الشهيرة المتداولة وبألف مكان الياء ، وبإسقاط الياء مع كسر الهاء ، أو فتحها أو ضمها ، وبحذف الألف والياء وفتح الهاء ، قال عبد المطلب :

نَحْنُ آلُ اللَّهِ فِي كَعْبَتِهِ لَمْ نَزَلْ ذَاكَ عَلَىٰ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

عُدْتُ بِمَا عَادَ بِهِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ وَجْهِي لَكَ عَانٍ رَاغِمٌ

الإتمام : الإكمال والهمزة فيه للنقل تم الشيء يتم كمل وهو ضد النقص ، الإمام : القدوة الذي يؤتم به ومنه قيل لخطط البناء إمام ، وللطريق إمام وهو مفرد على فعال ، كالإزار للذي يؤتز به ويكون جمع آم اسم فاعل من أم يؤم ، كجائع ، وجياح ، وقائم ، وقيام ، ونائم ، ونيام ، الذرية : النسل مشتقة من ذرّوت أو ذرّيت أو ذرأ الله الخلق ، أو

الذَّرُّ ، ويضم ذالها ، أو يكسر ، أو يفتح ، فأما الضم فيجوز أن تكون ذَرِيَّةً فَعِيلَةٌ من ذَرَأَ اللهُ الخلق ، وأصله ذَرِيَّةٌ فخففت الهمزة بإبدالها ياء كما خففوا همزة النسيء فقالوا : النسيء ثم أدغموا الياء التي هي لام الفعل في الياء التي هي للمد ، ويجوز أن تكون فُعُولَةٌ من ذَرَوْتُ الأصل ذُرُوءَةٌ ، أبدلت لام الفعل ياء اجتمع لك واو وياء واو ، المد والياء المنقلبة عن الواو التي هي لام الفعل وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت واو المد ياء وأدغمت في الياء وكسرها قبلها ، لأن الياء تطلب الكسر ويجوز أن تكون فَعِيلَةٌ من ذَرَّتْ أصلها ذَرِيَّةٌ اجتمعت ياء المد والواو التي هي لام الكلمة وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ياء المد فيها ، ويجوز أن تكون فُعُولَةٌ أو فَعِيلَةٌ من ذَرَيْتُ لغة في ذَرَوْتُ فأصلها أن تكون فَعُولَةٌ ذُرُوءَةٌ وإن كان فَعِيلَةٌ ذَرِيَّةً ثم أدغم ويجوز أن تكون فَعِيلَةٌ من الذَرَّ منسوبة ، أو فَعْلِيَّةٌ من الذَرَّ غير منسوبة ، أو فَعِيلَةٌ كمريقة ، أو فُعُولٌ كسُبُوح ، وفُدُوس ، أو فُعُولَةٌ كقُرْدُودَةِ الظهر ، فضم أولها إن كان اسماً كقُمْرِيَّة وإن كانت منسوبة كما قالوا : في النسب إلى الدهر دهري وإلى السهل سهلي ، وأصل فَعِيلَةٌ من الذَرَّ ذَرِيَّةٌ وفُعُولَةٌ من الذَرَّ ذُرُوءَةٌ وكذلك فُعُولَةٌ أبدلت الراء الآخرة في ذلك ياء كراهة التضعيف كما قالوا : في تسررت تسريت ، وأما من كسر ذال ذَرِيَّة ، فيحتمل أن تكون فَعِيلَةٌ من ذَرَأَ اللهُ الخلق كبطيخة فأبدلت الهمزة ياء وأدغمت في ياء المد ، أو فَعْلِيَّةٌ من الذَرَّ منسوبة على غير قياس ، أو فَعِيلَةٌ من الذَرَّ أصله ذَرِيَّةٌ ، أو فَعْلِيلٌ كحلثيت ، ويحتمل أن تكون ذَرِيَّةٌ من ذَرَوْتُ ، أو فَعِيلَةٌ ذَرِيَّةٌ من ذَرَيْتُ ، وأما من فتح ذال ذَرِيَّة فيحتمل أن تكون فَعِيلَةٌ من ذَرَأَ مثل : سَكِينَةٌ ، أو فُعُولَةٌ من هذا أيضاً كخروبة فالأصل ذُرُوءَةٌ فأبدلت الهمزة ياء بدلاً مسموعاً وقلبت الواو ياء وأدغمت ، ويحتمل أن تكون فَعِيلَةٌ من الذَرَّ غير منسوبة كَبَرِّيَّةٌ ، أو منسوبة إلى الذَرَّ ، أو فُعُولَةٌ كخروبة من الذَرَّ أصلها ذُرُوءَةٌ ففعل بها ما تقدم ، أو فُعُولَةٌ كبكولة ، فالأصل ذُرُوءَةٌ أيضاً ، أو فَعِيلَةٌ كسكينة ذَرِيرَةٌ فقلبت الراء ياء في ذلك كله ، ويحتمل أن يكون من ذَرَوْتُ فَعِيلَةٌ كسكينة ، فالأصل ذَرِيَّةٌ ، أو من ذَرَيْتُ ذَرِيَّةٌ ، أو فُعُولَةٌ من ذَرَوْتُ ، أو ذَرَيْتُ ، وأما من بناها على فَعْلَةٍ كجفنة وقال : ذَرِيَّةٌ فإنها من ذَرَيْتُ ، النيل : الإدراك نلت الشيء أناله نيلاً ، والنيل : العطاء ، البيت : معروف ، وصار علماً بالغلبة على الكعبة ؛ كالنجم للثريا ، الأمن : مصدر أمن يأمن إذا لم يخف واطمأنت نفسه ، المقام : مفعول من القيام يحتمل المصدر والزمان والمكان ، إسماعيل : اسم أعجمي علم ويقال : إسماعيل باللام ، وإسماعين بالنون قال :

قَالَ جَوَارِي الْحَيِّ لَمَّا جِئْنَا هَذَا وَرَبِّ الْبَيْتِ إِسْمَاعِينَ

ومن غريب ما قيل في التسمية به أن إبراهيم كان يدعو أن يرزقه الله ولداً ويقول : اسمع إيل ، وإيل هو الله تعالى ، التطهير : مصدر طهر^(١) والتضعيف فيه للتعدية يقال : طهر الشيء طهارة نظف ، الطائف^(٢) : اسم فاعل من طاف به إذا دار به ويقال : أطاف بمعنى طاف قال :

أَطَافَتْ بِهِ جَيْلَانٌ عِنْدَ فِطَامِهِ^(٣)

(١) الطُّهُرُ : نقيض الحيض ، والطهر : نقيض النجاسة والجمع أطهار - لسان العرب (١٧١٢/٤) .

(٢) الطَّائِفُ : العاسُ بالليل ، والطائف : العَسَسُ . والطوافون : الخدم والمماليك - لسان العرب (٢٧٢٣/٤) .

(٣) هذا صدر بيت لامرئ القيس . انظر ديوانه ص (٥٨) ، إعراب القرآن للنحاس (٤٠٦/٤) ، ورواية عجزه (وردت عليه الحاء حتى) =

والعاكف : اسم فاعل من عكف^(١) بالشيء أقام به ولازمه قال :

عَلَيْهِ الطَّيْرُ تَرْقُبُهُ عُكُوفًا

وقال (يعكفون على أصنام لهم) الأعراف ١٣٨ أي : يقيمون على عبادتها ، البلد : معروف والبلد : الصدر ، وبه سمى البلد لأنه صدر القرى يقال : وضعت الناقة بلدتها إذا بركت ، وقيل : سمي البلد بمعنى الأثر ، ومنه قيل بليد لتأثير الجهل فيه ، ومنه قيل لبركة لبعير بلدة لتأثيرها في الأرض إذا بركت قال :

أَنِخَتْ فَأَلَقَتْ بَلَدَةً بَعْدَ بَلَدَةٍ قَلِيلٍ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَامُهَا

والبارك المبارك بالبلد ، الإضطرار : هو الإلجاء إلى الشيء ، والإكراه عليه وهو افتعل من الضر أصله اضْطَرَّارٌ أبدلت التاء طاء بدلاً لازماً وفعله متعد ، وعلى ذلك استعماله في القرآن وفي كلام العرب قال :

اضْطَرَّكَ الْجُرُزُ مِنْ سَلَمَى إِلَى أَجَا

المصير^(٢) مفعول من صار يصير فيكون للزمان والمكان ، وأما المصدر فقياسه مفعول بفتح العين ، لأن ما كسرت عين مضارعه فقياسه ما ذكرناه ؛ لكن النحويين اختلفوا فيما كان عينه ياء من ذلك على ثلاثة مذاهب :

أحدها : أنه كالصحيح فيفتح في المصدر ويكسر في الزمان والمكان .

الثاني : أنه مخير فيه .

الثالث : أنه يقتصر على السماع فما فتحت فيه العرب فتحنا وما كسرت كسرنا وهذا هو الأولى ، القواعد : قال الكسائي ، والفراء : هي الجدر ، وقال أبو عبيدة : الأساس قال :

فِي ذُرْوَةٍ مِنْ بَقَاعٍ أُولَئِهِمْ زَانَتْ عَوَالِيهَا قَوَاعِدَهَا

وبالأساس فسرها ابن عطية أولاً ، والزمخشري ، وقال : هي صفة غالبية ، ومعناها الثانية ، ومنه قعدك الله أي : أسأل الله أن يقعدك أي : يشبك انتهى كلامه . والقواعد من النساء جمع قاعد وهي : التي قعدت عن الولد وسيأتي الكلام على كون قاعد لم تأت بالتاء في مكانه إن شاء الله تعالى ، الأمة : الجماعة ، وهو لفظ مشترك ينطلق على الجماعة ، والواحد المعظم المتبوع ، والمنفرد في الأمر ، والدين ، والحين ، والأم هذه أمة زيد أي : أمة ، والقامة ، والشجة : التي تبلغ أم الدماغ ، وأتباع الرسل ، والطريقة المستقيمة ، والجيل ، المناسك : جمع منسك ومنسك ، والكسر في سين منسك شاذ ، لأن اسم المصدر والزمان والمكان من يفعل بضم العين أو فتحها مفعول بفتح العين ، إلا ما شذ من ذلك والناسك المتعبد ، البعث : الإرسال ، والإحياء والهبوب من النوم ، العزيز : يقال عزيز بضم العين أي : غلب ، ومنه (وعزني في الخطاب) ص ٢٠ وعز يز بفتحها أي : اشتد ، ومنه عز عليّ هذا الأمر أي : شق

= تجبرا) لسان العرب (جيل) وروايته فيه أتيج له جيلان عند حذاذه ورد فيه الطرف حتى تحيرا .
(١) عَكَفَ عَلَى الشَّيْءِ يَعْكُفُ وَيَعْكُفُ عُكُوفًا وَعُكُوفًا : أَقْبَلَ عَلَيْهِ مُوَاضِعًا لَا يَصْرِفُ عَنْهُ وَجْهَهُ ، وَقِيلَ : أَقَامَ ... لِسَانُ الْعَرَبِ

(٣٠٥٨ / ٤) .

(٢) الْمَصِيرُ : (فِي أَصْلِهِ) الْمَوْضِعُ الَّذِي تُصِيرُ إِلَيْهِ الْمِيَاهُ - لِسَانُ الْعَرَبِ (٢٥٣٥ / ٤) .

وتعزز لحم الناقة اشتد وعز يز من النفاسة أي : لا نظير له أو قل نظيره ، الرغبة عن الشيء : الزهادة فيه ، والرغبة فيه الإيثار له والاختيار له ، وأصل الرغبة الطلب ، الاصطفاء : الانتحاب والاختيار وهو : افتعال من الصفو وهو الخالص من الكدر والشوائب أبدلت من تائه طاء كان ثلاثيه لازماً ، صفا الشيء : يصفو وجاء الافتعال منه متعدياً ومعنى الافتعال هنا التَّخَيَّر ، وهو أخذ المعاني التي جاءت لافتعل ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي ﴾ .

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما جرى ذكر الكعبة والقبلة وأن اليهود عيروا المؤمنين بتوجههم إلى الكعبة وترك بيت المقدس كما قال ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم ﴾ [البقرة ١٤٥] ذكر حديث إبراهيم وما ابتلاه به الله واستطرد إلى ذكر البيت وكيفية بنائه وأنهم لما كانوا من نسل إبراهيم كان ينبغي أن يكونوا أكثر الناس اتباعاً لشريعة واقفاء لآثاره فكان تعظيم البيت لازماً لهم ، فنبه الله بذلك على سوء اعتمادهم ، وكثرة مخالفتهم ، وخروجهم عن سنن من ينبغي اتباعه من آبائهم ، وأنهم وإن كانوا من نسله لا ينالون لظلمهم شيئاً من عهده ، وإذ العامل فيه على ما ذكروا محذوف وقدره : اذكر أي : اذكرا إذ ابتلى إبراهيم فيكون مفعولاً به ، أو إذ ابتلاه كان كيت وكيت ، وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ [البقرة ٣٠] والاختيار أن يكون العامل فيه ملفوظاً به وهو (قال إني جاعلك) ، والابتلاء : الاختبار ومعناه : أنه كلفه بأوامر ونواه ، والباري تعالى عالم بما يكون منه ، وقيل : معناه أمر ، قال الزمخشري^(١) واختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين ما يريد الله وما يشتهي العبد كأنه امتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك انتهى كلامه . وفيه دسيسة الاعتزال ، وفي ري الظمان الابتلاء إظهار الفعل ، والاختبار طلب الخبر ، وهما متلازمان ، وإبراهيم هنا وفي جميع القرآن هو الجد الحادي والثلاثون لنبينا رسول الله ﷺ وهو خليل الله ابن تارح ، بن ناحور ، بن ساروغ ، بن أرغو ، بن فالغ ، بن عابر ، وهو هود النبي عليه السلام ومولده بأرض الأهواز ، وقيل : بكوثر ، وقيل : ببابل ، وقيل : بنجران ، ونقله أبوه إلى بابل أرض نمرود بن كنعان ، وقد تقدم ذكر اللغات الست في لفظه .

وقرأ الجمهور : إبراهيم بالالف والياء ، وقرأ ابن عامر : بخلاف عن ابن ذكوان ، في البقرة بألفين ، زاد هشام أنه قرأ كذلك في إبراهيم ، والنحل ، ومريم ، والشورى ، والذاريات ، والنجم ، والحديد ، وأول الممتحنة ، وثلاث آخر النساء ، وأخرى التوبة ، وآخر الأنعام ، والعنكبوت ، وقرأ المفضل : إبراهيم بألفين إلا في المودة ، والأعلى ، وقرأ ابن الزبير : إبراهيم ، وقرأ أبو بكر : إبراهيم بألف وحذف الياء وكسر الهاء ، وقرأ الجمهور : بنصب إبراهيم ورفع ربه ، وقرأ ابن عباس ، وأبو الشعثاء ، وأبو حنيفة ، برفع إبراهيم ونصب ربه ، فقراءة الجمهور على أن الفاعل هو الرب .

وتقدم معنى ابتلائه إياه ، قال ابن عطية : وقدم المفعول للاهتمام بمن وقع الابتلاء إذ معلوم أن الله تعالى هو المبني وإيصال ضمير المفعول بالفاعل موجب لتقديم المفعول انتهى كلامه . وفيه بعض تلخيص ، وكونه مما يجب فيه تقديم الفاعل هو قول الجمهور وقد جاء في كلام العرب مثل ضرب غلامه زيداً وقال : وقاس عليه بعض النحويين . وتأول بعضه الجمهور أو حملة على الشذوذ وقد طول الزمخشري^(٢) في هذه المسألة بما يوقف عليه من كلامه في الكشف ، وليست من المسائل التي يطول فيها لشهرتها في العربية ، وقال ابن عباس : معناها أنه دعا ربه بكلمات من

الدعاء يتطلب فيها الإجابة فأطلق على ذلك ابتلاء على سبيل المجاز ، لأن في الدعاء طلب استكشاف لما تجري به المقادير على الإنسان والكلمات لم تبين في القرآن ما هي ، ولا في الحديث الصحيح ، وللمفسرين فيها أقوال :

الأول : روى طاوس ، عن ابن عباس : أنها العشرة التي من الفطرة ، المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، ونتف الابط ، وتقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والاستطابة ، والختان ، وهذا قول قتادة .

الثاني : عشر ، وهي حلق العانة ، ونتف الابط ، وتقليم الأظفار ، وقص الشارب ، وغسل يوم الجمعة ، والطواف بالبيت ، والسعي ، ورمي الجمار ، والإفاضة ، وروي هذا عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : ثلاثون سهماً في الإسلام لم يتم ذلك أحد إلا إبراهيم وهي عشر في براءة ، التائبون الآية ، وعشر في الأحزاب إن المسلمين الآية ، وعشر في قد أفلح ، وفي المعارج ، وروي هذا عن ابن عباس أيضاً .

الرابع : هي الخصال الست التي امتحن بها الكوكب ، والقمر ، والشمس ، والنار ، والهجرة ، والختان ، وقيل : بدل الهجرة الذبح لولده قاله الحسن .

الخامس : مناسك الحج ، رواه قتادة عن ابن عباس .

السادس : كل مسألة سألها إبراهيم في القرآن مثل (رب اجعل هذا البلد آمناً) قاله مقاتل .

السابع : هي قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقوله (ربنا تقبل منا) قاله ابن جبير .

الثامن : هو قوله تعالى ﴿ وحاجه قومه ﴾ [الأنعام : ٨٠] ، قاله يمان .

التاسع : هي قوله ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء : ٧٨] ، الآيات قاله أبو روق .

العاشر : هي ما ابتلاه به في ماله ، وولده ، ونفسه فسلم ماله للضيفان ، وولده للقربان ، ونفسه للنيران ، وقلبه للرحمن فاتخذ الله خليلاً .

الحادي عشر : هو أن الله أوحى إليه أن تطهر فتمضمض ، ثم أن تطهر فاستنشق ، ثم أن تطهر فاستاك ، ثم أن تطهر فأخذ من شارب ، ثم أن تطهر ففرق شعره ، ثم أن تطهر فاستنجد ، ثم أن تطهر فحلق عانته ، ثم أن تطهر فنتف ابطه ، ثم أن تطهر فقلع أظفاره ، ثم أن تطهر فاقبل على جسده ينظر ماذا يصنع فاختنن بعد عشرين ومائة سنة ، وفي البخاري (١) أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم ، وأوحى الله إليه (إني جاعلك للناس إماماً) يأتون بك في هذه الخصال ويقتدي بك الصالحون فإن صحت تلك الرواية فالتأويل أنه اختتن بعد عشرين ومائة سنة من ميلاده ، وابن ثمانين سنة من وقت نبوته فيتفق التاريخان والله أعلم .

الثاني عشر : هي عشرة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي الملة ، والصلاة وهي : الفطرة ، والزكاة ، وهي : الطهارة والصوم ، وهو الجنة ، والحج وهو : الشعيرة ، والغزو وهو : النصرة ، والطاعة وهي : العصمة ، والجماعة ،

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨/٦) ، في الأنبياء (٣٣٥٦) ، في (٨٨/١١) ، في الاستئذان (٦٢٩٨) ، ومسلم (١٨٣٩/٤) ، في الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (٢٣٧٠/١٥١) ، والقدوم آلة التجار .

وهي : الألفة ، والأمر بالمعروف وهو : الوفاء ، والنهي عن المنكر وهو : الحجة .

الثالث عشر : هي تجعلني إماماً وتجعل البيت مثابة وأمناً وترينا مناسكنا وتتوب علينا وهذا البلد آمناً وترزق أهله من الثمرات فأجابه الله في ذلك بما سأله ، وهذا معنى قول مجاهد ، والضحاك ، وهذه الأقوال ينبغي أن تحمل على أن كل قائل منها ذكر طائفة مما ابتلى الله به إبراهيم إذ كلها ابتلاه بها ، ولا يحمل ذلك على الحصر في العدد ولا على التعيين لثلاث يؤدي ذلك إلى التناقض ، وهذه الأشياء التي فسر بها الكلمات إن كانت أقوالاً فذلك ظاهر في تسميتها كلمات ، وإن كانت أفعالاً فيكون إطلاق الكلمات عليها مجاز ، لأن التكليف الفعلية صدرت عن الأوامر ، والأوامر كلمات سميت الذات كلمة لبروزها عن كلمة كن قال تعالى ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ [النساء : ١٧١] ، وقد تكلم بعض المفسرين في أحكام ما شرحت به الكلمات من المضمضة ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والفرق ، والسدل ، والسواك ، ونف الإبط ، وحلق العانة ، وتقليم الأظفار ، والاستنجاء ، والختان ، والشيب ، وتغييره ، والثريد ، والضيافة ، وهذا يبحث فيه في علم الفقه وليس كتابنا موضوعاً لذلك فلذلك تركنا الكلام على ذلك ، (فأتَمَّهْن) الضمير المستكن في فأتَمَّهْن يظهر أنه يعود إلى الله تعالى ، لأنه هو المسند إليه الفعل قبله على طريق الفاعلية فأتَمَّهْن معطوف على ابتلى فالمناسب التطابق في الضمير ، وعلى هذا فالمعنى أي : أكملهن له من غير نقص أو بينهن ، والبيان به يتم المعنى ويظهر أو يسر له العمل بهن وقواه على اتمامهن ، أو أتم له أجورهن أو أدامهن سنة فيه وفي عقبه إلى يوم الدين أقوال خمسة ، ويحتمل أن يعود الضمير المستكن على إبراهيم فالمعنى على هذا أدامهن ، أو أقام بهن قاله الضحاك ، أو عمل بهن قاله يمان ، أو وفى بهن قاله الربيع ، أو أداهن قاله قتادة ، خمسة أقوال تقرب من الترادف إذ محصولها أنه أتى بهن على الوجه المأمور به ، واختلفوا في هذا الابتلاء هل كان قبل نبوته أو بعدها ، فقال القاضي : كان قبل النبوة ، لأنه نبه على أن قيامه بهن كالسبب ، لأنه جعله إماماً ، والسبب مقدم على المسبب فوجب كون الابتلاء مقدماً في الوجود على صيرورته إماماً ، وقال آخرون : إنه بعد النبوة ، لأنه لا يعلم كونه مكلفاً بتلك التكليف إلا من الوحي فلا بد من تقدم الوحي على معرفته بكونه كذلك ، أجاب القاضي بأنه يحتمل أنه أوحى إليه على لسان جبريل بهذه التكليف الشاقة فلما تم ذلك جعله نبياً مبعوثاً إلى الخلق ، (قال إني جاعلك) تقدم أن الاختيار في قال أنها عاملة في إذ وإذا جعلنا العامل في إذ محذوفاً كانت قال : استثنافاً فكأنه قيل : فماذا قال له ربه حين أتم الكلمات فقيل : قال إني جاعلك للناس إماماً ، وعلى اختيار أن يكون قال هو العامل في إذ يكون قال جملة معطوفة على ما قبلها أي : وقال إني جاعلك للناس إماماً إذ ابتلاه ويجوز أن يكون بياناً لقوله ابتلى وتفسيراً له ، (للناس) يجوز أن يراد بهم أمته الذين اتبعوه ويجوز أن يراد به جميع المؤمنين من الأمم ويكون ذلك في عقائد التوحيد وفيما وافق من شرائعهم ، وللناس في موضع الحال ، لأنه نعتٌ نكرة تقدم عليها التقدير إماماً كائناً للناس قالوا ويحتمل أن يكون متعلقاً بجاعلك أي : لأجل الناس وجاعل هنا بمعنى مصير فيتعدى لاثنتين الأولى الكاف الذي أضيف إليها اسم الفاعل ، والثاني إماماً ، قيل : قال أهل التحقيق ، والمراد بالإمام هنا النبي أي : صاحب شرع متبع ، لأنه لو كان تبعاً لرسول لكان مأموماً لذلك الرسول لا إماماً له ، ولأن لفظ الإمام يدل على أنه إمام في كل شيء ، ومن يكون كذلك لا يكون إلا نبياً ، ولأن الأنبياء من حيث يجب على الخلق اتباعهم هم أئمة قال تعالى ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء : ٧٣] ، والخلفاء أيضاً أئمة وكذلك القضاة ، والفقهاء ، والمصلي بالناس ، ومن يؤتم به في الباطل ، قال تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ [القصص : ٤١] ، فلما تناول الاسم هؤلاء كلهم ، وجب أن يحمل هنا على أشرف المراتب وأعلاها ، لأنه ذكره في معرض الامتنان فلا بد أن يكون أعظم نعمة ، ولا شيء أعظم من النبوة ،

قال (ومن ذريتي) ، قال الزمخشري^(١) : عطف على الكاف كأنه قال : وجاعل بعض ذريتي كما يقال : لك سأكرمك فتقول وزيداً انتهى كلامه ، ولا يصح العطف على الكاف ، لأنها مجرورة فالعطف عليها لا يكون إلا بإعادة الجار ولم يعد ، ولأن من لا يمكن تقدير الجار مضافاً إليها ، لأنها حرف فتقديرها بأنها مرادفة لبعض حتى تقدر جاعلاً مضافاً إليها لا يصح ، ولا يصح أن تكون تقدير العطف من باب العطف على موضع الكاف ، لأنه نصب فيجعل من في موضع نصب ، لأن هذا ليس مما يعطف فيه على الموضع على مذهب سيويه لفوات المحرز ، وليس نظير سأكرمك فتقول : وزيداً ، لأن الكاف هنا في موضع نصب ، والذي يقتضيه المعنى أن يكون من ذريتي متعلقاً بمحذوف التقدير : واجعل من ذريتي إماماً ، لأن إبراهيم فهم من قوله (إني جاعلك للناس إماماً) الاختصاص فسأل الله تعالى أن يجعل من ذريته إماماً .

وقرأ زيد بن ثابت : ذريتي بالكسر في الذال ، وقرأ أبو جعفر : بفتحها ، وقرأ الجمهور : بالضم ، وذكرنا أنها لغات فيها ومن أي شيء اشتقت حين تكلمنا على المفردات .

﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ والضمير في قال الثانية ضمير إبراهيم ، وفي قال هذه عائد على الله تعالى ، والعهد : الإمامة قاله مجاهد ، أو النبوة قاله السدي ، أو الأمان قاله قتادة ، وروي عن السدي ، واختاره الزجاج ، أو الثواب قاله قتادة ، أيضاً ، أو الرحمة قاله عطاء ، أو الدين قاله الضحاك ، والربيع ، أو لا عهد عليك لظالم أن تطيعه في ظلمه قاله ابن عباس ، أو الأمر من قوله ﴿ إن الله عهد إلينا ﴾ [آل عمران : ١٨٣] ، ﴿ ألم أعهد إليكم ﴾ [يس : ٦٠] ، أو إدخاله الجنة من قوله (كان له عند الله عهداً أن يدخله الجنة) . أو طاعتي قاله الضحاك أيضاً ، أو الميثاق ، أو الأمانة ، والظاهر من هذه الأقوال أن العهد هي الإمامة ، لأنها هي المصدر بها فاعلم إبراهيم أن الإمامة لا تنال الظالمين ، وذكر بعض أهل العلم أن قوله (ومن ذريتي) هو استعلام كأنه قيل أتجعل من ذريتي إماماً وقد قدمنا أن الظاهر أنه على سبيل الطلب أي : واجعل من ذريتي وهذا الجواب الذي أجاب الله به إبراهيم هو من الجواب الذي يربو على السؤال ، لأن إبراهيم طلب من الله وسأل أن يجعل من ذريته إماماً فأجابه إلى أنه لا ينال عهده الظالمين ودل بمفهوم لفظه على أنه ينال عهده من ليس بظالم ، وكان ذلك دليلاً على انقسام ذريته إلى ظالم وغير ظالم ويدل على أن العهد هو الإمامة أن ظاهر قوله (لا ينال عهدي الظالمين) أنه جواب لقول إبراهيم (ومن ذريتي) على سبيل الجعل إذ لو كان على سبيل المنع لقال : لا ، أو لا ينال عهدي ذريتك ، ولم ينط^(٢) المنع بالظالمين .

وقرأ أبو رجاء وقتادة ، والأعمش ، الظالمون بالرفع ، لأن العهد ينال كما ينال أي : عهدي لا يصل إلى الظالمين ، أو لا يصل الظالمون إليه ولا يدركونه ، وقد فسر الظلم هنا بالكفر وهو قول ابن جبير ، وبظلم المعاصي غير الكفر ، وهو قول عطاء ، والسدي ، واستدل بهذا على أن الظالم إذا عوهد لم يلزم الوفاء بعهده قال الحسن : لم يجعل الله لهم عهداً ، قال ابن أبي الفضل : ما ذكره المفسرون من أنه سأل الإمامة لذريته وأنه أجيب إلى ملتسمه لا يظهر من اللفظ ، لأنه قال (ومن ذريتي) وهو محتمل وجاعل من ذريتي أو تجعل من ذريتي ، أو اجعل من ذريتي وإذا كان هذا كله محتملاً غير منطوق به فمن أين لهم أنه سأل ، وأما قولهم أجيب إلى ملتسمه فاللفظ لا يدل على ذلك بل يدل على ضده ، لأن ظاهره أن أولادك ظالمون لكن دل الدليل على خلاف ذلك وهو جعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وغير ذلك من الآي التي تدل على أن في ذريته النبوة ، ولو قال لا ينال عهدي الظالمين منهم لدل ذلك على ما يقولون على أن

(١) انظر الكشاف (١/ ١٨٤) .

(٢) ناط الشيء ينوطه نوطاً : علقه ، والنوط : ما علق - لسان العرب (٦/ ٤٥٧٧) .

اللفظ لا ينزل عليه نزولاً بيناً انتهى ما ذكره ملخصاً بعضه ، وفيما ذكره ابن أبي الفضل نظر ، لأن تلك التقادير التي قدرها ظاهرها السؤال ، أما من قدر واجعل من ذريتي إماماً فهو سؤال ، وأما من قدر وتجعل وجاعل فهو استفهام على حذف حرف الاستفهام إذ معناه وأجاعل أنت يا رب ، أو أتجعل يا رب من ذريتي والاستفهام يؤول معناه إلى السؤال ولا يجوز أن يكون المقدر من قولهم وجاعل أو تجعل من ذريتي ، إماماً خبر ، لأنه خبر من نبي وإذا كان خبراً من نبي كان صدقاً ضرورة ، ولم يتقدم من الله إعلام لإبراهيم بذلك إنما أعلمه أنه يجعله للناس إماماً فمن أين يخبر بذلك ومن يخاطب بذلك إن كان الله قد أعلمه ذلك ، وإنما ذلك التقدير على سبيل الاستفهام ، والاستعلام هل تحصل الإمامة لبعض ذريته أم لا تحصل فأجابه الله إلى أن من كان ظالماً لا يناله عهده ، وأما قوله : إن ظاهر اللفظ أن أولادك ظالمون فليس كذلك بل ظاهره أنه لا يناله من ظلم من أولاده وغير أولاده ، ودل بمفهوم الصفة على أن غير الظالم ينالها ، ولو كان على ما قاله ابن أبي الفضل لكان اللفظ لا ينالها ذريتك لظلمهم مع أنه يحتمل أن الظالمين تكون الألف واللام فيه معاقبة للضمير أي : ظالموهم ، أو الضمير محذوف أي : منهم ومن أغرب الانتزاعات في قوله (لا ينال عهدي الظالمين) ما ذكر لي بعض الإمامية أنهم انتزعوا من هذا كون أبي بكر لا يكون إماماً قالوا ، لأن إطلاق اسم الظلم يقع عليه لأنه سجد للأصنام فقد ظلم وقد قال تعالى (لا ينال عهدي الظالمين) وذلك بخلاف عليّ فإنه لم يسجد لصنم قط ، قلت له فيلزم أن يسمى كل من أسلم من الصحابة ظالماً كسلمان ، وأبي ذر ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وعمار ، وهذا ما لا يذهب إليه أحد فلم يحرجوا ، وقال الزمخشري^(١) : وقالوا في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه ولا شهادته ، ولا تجب طاعته ولا يقبل خبره ، ولا يقدم للصلاة ، وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يفتي سراً بوجوب نصره زيد بن عليّ ، وحمل المال إليه والخروج معه على اللص المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة ، كالدوانيقي ، وأشباهه وقالت له امرأة : أشرت على ابني بالخروج مع إبراهيم ، ومحمد ابني عبد الله بن الحسن حتى قتل فقال : ليتني مكان ابنك وكان يقول : في المنصور وأشياعه ، لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني على عد آجره لما فعلت ، وعن ابن عيينة لا يكون الظالم إماماً قط ، وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة ، والإمام إنما هو لكف المظلمة فإذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المثل السائر « من استرعى الذئب فقد ظلم » انتهى كلامه . وزيد بن عليّ الذي ذكره هو : زيد بن عليّ ، زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو أخو محمد الباقر بن عليّ وإليه تنتسب الزيدية اليوم وكان من أهل العلم ، والفقه ، والفهم في القرآن ، والشجاعة وإنما ذكره الزمخشري^(٢) ، لأنه كان بمكة مجاوراً للزيدية ومصاحباً لهم وصنف كتابه الكشاف لأجلهم والصل المتغلب المتسمى بالإمام والخليفة الذي ذكره الزمخشري^(٣) : هو هشام بن عبد الملك ، خرج عليه زيد بن عليّ ، وكان قد قال لأخيه الباقر ما لك لا تقوم وتدعو الناس إلى القيام معك فأعرض عنه ، وقال له لهذا وقت لا يتعداه فدعا إلى نفسه ، وقال إنما الإمام منا من أظهر سيفه ، وقام بطلب حق آل محمد لا من أرخى عليه ستوره وجلس في بيته فقال له الباقر : يا زيد إن مثل القائم من أهل هذا البيت قبل قيام مهديهم مثل فرخ نهض من عشه من قبل أن يستوي جناحاه فإذا فعل ذلك سقط فأخذه الصبيان يتلاعبون به فاتق الله في نفسك أن لا تكون المصلوب غداً بالكناسة ، فلم يلتفت زيد لكلام الباقر وخرج على هشام فظفر به وصلبه على كناسة الكوفة ، وأحرقه بالنار وكان كما حذره الباقر ، وأما الدوانيقي فهو : المنصور أخو السفاح سمي بذلك قيل لبخله ، وقد ذكر بعض المصنفين أنه لم يكن بخيلاً وذكر من عطائه وكرمه أخباراً كثيرة ، وأما إبراهيم ، ومحمد ، اللذان ذكرهما الزمخشري^(٤) فهما ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كانا قد

(٣) انظر الكشاف (١/ ١٨٤) .

(٤) انظر الكشاف (١/ ١٨٤) .

(١) انظر الكشاف (١/ ١٨٤) .

(٢) انظر الكشاف (١/ ١٨٤) .

تغيا أيام السفاح وأول أيام المنصور ثم ظهر محمد أول يوم من رجب سنة خمس وأربعين ومائة ودخل مسجد المدينة قبل الفجر فخطب حتى حضرت الصلاة فنزل وصلى بالناس وبوع بالمدينة طوعاً واستعمل العمال ، وغلب على المدينة والبصرة وجبى الأموال ، وكان إبراهيم أخوه قد صار إلى البصرة يدعو إليه وآخر أمرهما أن المنصور وجه إليهما العساكر وقتلا ، وقد ذكر بعض المفسرين هنا أحكام الإمامة الكبرى وإن كان موضوعها أصول الدين فهناك ذكرها لكني لا أخلي كتابي عن شيء ملخص فيها دون الاستدلال .

ف نقول : الذي عليه أصحاب الحديث والسنة ، أن نصب الإمام فرض خلافاً لفرقة من الخوارج أصحاب نجدة الحاروري زعموا أن الإمامة ليست بفرض ؛ وإنما على الناس إقامة كتاب الله وسنة رسوله ولا يحتاجون إلى إمام ، ولفرقة من الإباضية زعمت أن ذلك تطوع ، واستناد فرضية نصب الإمام للشرع لا للعقل^(١) خلافاً للرافضة إذ أوجبت ذلك عقلاً ويكون الإمام من صميم قريش ، خلافاً لفرقة من المعتزلة إذ قالوا إذ وجد من يصلح لها قرشي ، ونبطي ، وجب نصب النبطي دون القرشي ، وسواء في ذلك بطون قريش كلها خلافاً لمن خص ذلك بنسل علي ، أو العباس ، إما منصوباً عليه ، وإما بجتهاد ، ويكون أفضل القوم فلا ينعقد للمفضول مع وجود الفاضل خلافاً لأبي العباس القلانسي ، فإنه يقول : ينعقد للمفضول إذا كان بصفة الإمامة مع وجود الفاضل .

وشروطه : أن يكون عدلاً مجتهداً في أحكام الشريعة شجاعاً ، والشجاعة في القلب بحيث يمكنه ضبط الأمر وحفظ بيضة الإسلام ، ولا يجوز نصب ساقط العدالة ابتداءً فإن عقد لشخص كامل الشروط ثم طرأ منه فسق ، فقال أبو الحسن : يجوز الخروج عليه إذا أمن الناس وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم ، وقال أبو الحسن أيضاً : والقاضي أبو بكر بن الطيب : لا يجوز الخروج عليه وإن أمن الناس ذلك إلا أن يكفر ، أو يدعو إلى ضلالة وبدعة ، والمرجوع في

(١) هي من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، وليست من أركان الدين ولا من المعلوم من الدين بالضرورة بحيث كفر منكرها ، وإنما هي من الأمور الفقهية العملية . وذكرت في علم الكلام لبيان حكمها حتى يظهر بطلان ما رآه أهل البدع والأهواء في شأنها من أحكام فاسدة جعلتهم يقدحون في الخلفاء الراشدين بل تجاوز بعضهم الحدود فجعل الإمام نبياً وتعالى البعض فآله الإمام . معناها : هي رئاسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن الرسول .

وحكمها : هي جائزة عند الخوارج ومذهبهم باطل لما يترتب على الإمامة من المصالح العامة التي لا تستطيع الأفراد القيام بها وقيل وجوبها على الله وهو رأي الإمامية والإسماعلية ، والله لا يجب عليه شيء كما تقدم ، وقيل بوجوبها عقلاً وهو رأي المعتزلة ، وهو باطل لأن الحكم لله لا للعقل كما ثبت أما رأي أهل السنة فتولية إمام واجبة بالشرع .

لتواتر إجماع المسلمين في الصدر الأول بعد وفاة النبي ﷺ على امتناع خلو الوقت عن خليفة حتى قال أبو بكر في خطبته « ألا إن محمداً قد مات ولا بد لهذا الدين من يقوم به » ، ولهذا قدموا تولية الإمام على أهم الواجبات وهو دفن الرسول ﷺ .

وفي نصب الإمام رفع ضرر عن المسلمين ورفع الضرر واجب شرعاً . لأن مقصود الشارع من تشريع الأحكام هي مصالح تعود على المسلمين في المعاد والمعاش والناس مع اختلاف أهوائهم وتباين نزعاتهم لا ينقاد بعضهم إلى بعض فتحدث الشحناء بينهم وفي تولية الإمام دفع هذه المضار فالإمامة من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين .

قال اللقاني رحمه الله في جوهرته :

وواجب نصب إمام عدل	بالشرع فاعلم لا بحكم العقل
فليس ركنًا يعتقده في الدين	فلا تنزع عن أمره المبين
إلا بكفرنا فانبذن عهده	فالله يكفيننا أذاه وحده
بغير هذا لا يباح صرفه	وليس يعزل إن أزيل وصفه

نصبه إلى اختيار أهل الاجتهاد في الدين ، والعامية في ذلك تبع لهم ولا اعتبار بهم في ذلك ، وليس من شرطه اجتماع كل المجتهدين ، ولا اعتبار في ذلك بعدد بل إذا عقد واحد من أهل الحل والعقد وجبت المبايعة على كلهم ، خلافاً لمن خص أهل البيعة بأربعة ، وقال : لا ينعقد بأقل من ذلك ، أو لمن قال لا ينعقد إلا بأربعين ، أو لمن قال لا ينعقد إلا بسبعين ثم من خالف كان باغياً ، أو ناظراً ، أو غالطاً ، ولكل واحد منهم حكم يذكر في علم الفقه ، ولا ينعقد لإمامين في عصر واحد خلافاً للكرامية إذ أجازوا ذلك وزعموا أن علياً ومعاوية كانا إمامين في وقت واحد ، والقول بالتقية باطل خلافاً للإمامية ومعناها : أنه يكون الشخص الجامع لشروط الإمامة إماماً مستوراً لكنه يخفي نفسه مخافة من غلب على الملك ممن لا يصلح للإمامة ، وليس من شرط الإمام العصمة خلافاً للرافضة فإنهم يقولون بوجود العصمة للإمام سراً ، وعلناً ، وليس من شرطه الإحاطة بالمعلومات كلها خلافاً للإمامية والإمام مفترض الطاعة فيما يؤدي إليه اجتهاده ، وليس لأحد الخروج عليه بالسيف وكذلك لا يجوز الخروج على السلطان الغالب خلافاً لمن رأى ذلك من المعتزلة ، والخوارج ، والرافضة ، وغيرهم ، وقد تكلم بعض الناس هنا في الإمامة الصغرى وهي : الإمامة في الصلاة وموضوعها علم الفقه ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ لما رد على اليهود في إنكارهم التوجه إلى الكعبة ، وكانت الكعبة بناء إبراهيم أبيهم كانوا أحق بتعظيمها ، لأنها من مآثر أبيهم ، ولوجه آخر من إظهار فضلها وهو كونها مثابة للناس وأمناً ، وأن فيها مقام إبراهيم ، وأنه تعالى أوحى إليه وإلى ولده بينائها وتطهيرها وجعلها محلاً للطائف ، والعاكف ، والراكع ، والساجد ، وأمره بأن ينادي في الناس بحجها ، والبيت هنا الكعبة على قول الجمهور ، وقيل : المراد البيت الحرام لا نفس الكعبة ، لأنه وصفه بالأمن وهذه صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط ، ويجوز إطلاق البيت ويراد به كل الحرم ، وأما الكعبة فلا تطلق إلا على البناء الذي يطاف به ، ولا تطلق على كل الحرم (والتاء) في مثابة للمبالغة لكثرة من يثوب إليه قاله الأخفش ، أو لتأنيث المصدر ، أو لتأنيث البقعة كما يقال : مقام ومقامة قال الشاعر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْأَرْضَ رَحْبٌ فَسِيحَةٌ فَهَلْ يَعْجِزُنِي بُقْعَةٌ مِنْ بَقَاعِهَا

ذكر رحباً على مراعاة المكان وأنت فسيحة على اللفظ .

وقرأ الأعمش ، وطلحة (مثابات) على الجمع وقال ورقة بن نوفل :

مَثَاباً لَأَفْنَاءِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا تَخْبُ إِلَيْهَا الْيَعْمَلَاتُ الطَّلَائِحُ

ويروى الذوايل ، ووجه قراءة الجمع : أنه مثابة لكل من الناس لا يختص به واحد منهم سواء العاكف فيه والباد ، ومثابة قال مجاهد ، وابن جبير ، معناه : يثوبون إليه من كل جانب أي : يحجونه في كل عام يتفرقون ثم يثوبون إليه أعيانهم ، أو أمثالهم ، ولا يقضي أحد منهم وطراً وقال الشاعر :

جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَاباً لَهُمْ لَيْسَ مِنْهُ الدَّهْرُ يَقْضُونَ الْوَطَرَ

وقال ابن عباس : معاذاً وملجأ ، وقال قتادة : والخليل مجعماً ، وقال بعض أهل اللغة : فيما حكاه الماوردي : أي مكان إثابة واحدة من الثواب وأورد هذا القول ابن عطية ، احتمالاً منه ، والألف واللام في قوله (للناس) إما لاستغراق الجنس على مذهب من يرى أن الناس كلهم مخاطبون بفروع الإيمان ، وإما للجنس الخاص على مذهب من لا يرى ذلك (وجعلنا) هنا بمعنى : صيرنا فمثابة مفعول ثان ، وقيل : جعل هنا بمعنى خلق ، أو وضع ويتعلق للناس بمحذوف تقديره مثابة كائنة إذ هو في موضع الصفة ، وقيل : يتعلق بلفظ جعلنا أي : لأجل الناس ، والأمن : مصدر

جعل البيت إياه على سبيل المبالغة لكثرة ما يقع به من الأمن أو على حذف مضاف أي : ذا أمن ، أو على أنه أطلق على اسم الفاعل مجازاً أي : آمنا كما قال تعالى ﴿ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [البقرة : ١٢٦] ، وجعله آمناً اختلّفوا أهل ذلك في الدنيا ، أو في الآخرة فمن قال إنه في الدنيا فقليل : معناه أن الناس كانوا يقتتلون ويغير بعضهم على بعض حول مكة وهي آمنة من ذلك ويلقى الرجل قاتل أبيه فلا يهيجه ، لأنه تعالى جعل لها في النفوس حرمة وجعلها آمناً للناس ، والطير ، والوحش ، إلا الخمس الفواسق فخصصت من ذلك على لسان رسول الله ﷺ وأما من أحدث حدثاً خارج الحرم ثم أتى الحرم ففي أمنه من أن يهاج ، فيه خلاف مذكور في الفقه ، وقيل : معناه أنه آمن لأهله يسافر أحدهم الأماكن البعيدة فلا يروعه أحد ، وقيل : معناه أنه يؤمن من أن يحول الجبارة بينه وبين من قصده ، ومن قال هذا الأمن في الآخرة قيل : من المكر عند الموت ، وقيل : من عذاب النار ، وقيل : من بخس ثواب من قصده قال قوم : وهذا الأمن مختص بالبيت ، وقيل : يشمل البيت والحرم ، وقال في رأي الظمآن معناه : ذا أمن لقاطنيه من أن يجري عليهم ما يجري على سكان البوادي وسائر بلدان العرب ، والظاهر أن قوله (وأمناً) معطوف على قوله (مثابة) ويفسر الأمن بما تقدّم ذكره ، وذهب بعضهم إلى أن المعنى على الأمر التقدير واجعلوه آمناً أي : جعلناه مثابة للناس فاجعلوه آمناً لا يتعدّى فيه أحد على أحد فمعناه أن الله أمر الناس أن يجعلوا ذلك الموضع آمناً من الغارة ، والقتل وكان البيت محرّماً بحكم الله ، وربما يؤيد هذا التأويل بقراءة من قرأ : واتخذوا على الأمر فعلى هذا يكون العطف فيه من عطف الجمل عطف في الجملة الأمرية على جملة خبرية ، وعلى القول الظاهر يكون من عطف المفردات ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحزمة ، والكسائي ، والجمهور ، واتخذوا بكسر الخاء على الأمر ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، بفتحها جعلوه فعلاً ماضياً ، فأما قراءة واتخذوا على الأمر ، فاختلف من المواجه به ، فقليل إبراهيم وذريته أي : وقال الله لإبراهيم وذريته اتخذوا ، وقيل : النبي ﷺ وأمه أي : وقلنا : اتخذوا ، ويؤيده ما روي عن عمر أنه قال : وافقت ربي في ثلاث فذكر منها وقلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى^(١) ، وروي عن النبي ﷺ أنه أخذ بيد عمر فقال : هذا مقام إبراهيم فقال عمر : أفلا نتخذ مصلى فقال : لم أؤمر بذلك فلم تغب الشمس حتى نزلت ، وعلى هذين القولين يكون اتخذوا معمولاً لقول محذوف ، وقيل : المواجه به بنو إسرائيل وهو معطوف على قوله (اذكروا نعمتي) ، وقيل : هو معطوف على قوله (وإذ جعلنا البيت مثابة) قالوا ، لأن المعنى ثوبوا إلى البيت فهو معطوف على المعنى ، وهذان القولان بعيدان ، وأما قراءة ، واتخذوا بفتح الخاء فمعطوف على ما قبله فإما على مجموع إذ جعلنا ، فيحتاج إلى إضمار إذ وإما على نفس جعلنا فلا يحتاج إلى تقديرها بل يكون في صلة إذ والمعنى واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبله يصلون إليها قاله الزمخشري^(٢) ، من مقام جوزوا في من أن تكون تبعيضية ، بمعنى في ، وزائدة على مذهب الأخفش ، والأظهر الأول ، وقال القفال : هي مثل اتخذت من فلان صديقاً ، وأعطاني الله من فلان أخاً صالحاً ، دخلت من لبيان المتخذ الموهوب وتميزه في ذلك المعنى والمقام مفعول من القيام يراد به المكان أي : مكان قيامه وهو الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماء فيه قاله ابن عباس ، وجابر ، وقتادة ، وغيرهم وخرجه البخاري ، وهو الآن موضع ذلك الحجر ، والمسمى مقام إبراهيم ، وعن عمر أنه سأل المطلب بن أبي رفاع : هل تدري أين كان موضعه الأول قال نعم فأراه موضعه اليوم قال أنس : رأيت في المقام

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦/٦ - ٤٥٨) ، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤) ، انظر تفسير القرطبي (٧٧/٢) .

(٢) انظر الكشف (١٨٥/١) .

أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم ، حكاه القشيري ، أو حجر جاءت به أم إسماعيل إليه وهو راكب فاغتسل عليه فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه قاله الربيع بن أنس ، أو مواقف الحج كلها قاله ابن عباس أيضاً ، وعطاء ، ومجاهد ، أو عرفة ، والمزدلفة ، والجمار ، قاله عطاء ، والشعبي ، لأنه قام في هذه المواضع ودعا فيها ، أو الحرم كله قاله النخعي ، ومجاهد ، أو المسجد الحرام قاله قوم ، واتفق المحققون على القول الأول ورجح بحديث عمر « أفلا نتخذة مصلى » الحديث ، وبقرأة رسول الله ﷺ لما فرغ من الطواف وأتى المقام (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فدل على أن المراد منه ذلك الموضع ، ولأن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع ، ولأن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حين غاصت فيه رجلاه ، وفي ذلك معجزة له فكان اختصاصه به أقوى من اختصاص غيره فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى ، ولأن المقام هو موضع القيام وثبت قيامه على الحجر ولم يثبت على غيره ، مصلى قبله قاله الحسن ، موضع صلاة قاله قتادة ، موضع دعاء قاله مجاهد^(١) ، والأولى الحمل على الصلاة الشرعية لا على الصلاة لغة ، قال ابن عطية : موضع صلاة على قول من قال المقام الحجر ومن قال غيره قال مصلى مدعى على أصل الصلاة يعني في اللغة انتهى ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ أي : أمرنا ، أو وصينا ، أو أوحينا ، أو قلنا : أقوال متقاربة المعنى ﴿ أن طهرا ﴾ يتمل أن تكون أن تفسيرية أي : طهرا ففسر بها العهد ، ويحتمل أن تكون مصدرية أي : بأن طهرا فعلى الأول لا موضع لها من الإعراب ، وعلى الثاني يحتمل الجر والنصب على اختلاف النحويين إذا حذف من أن حرف الجر هل المحل نصب أو خفض ، وقد تقدّم لنا الكلام مرة في وصل أن بفعل الأمر ، وأنه نص على ذلك سبويه وغيره ، وفي ذلك نظر ، لأن جميع ما ذكر من ذلك محتمل ، ولا أحفظ من كلامهم عجت من أن أضرب زيدا ، ولا يعجبني أن أضرب زيدا فتوصل بالأمر ، ولأن انسباك المصدر يحيل معنى الأمر ويصيره مستنداً إليه وينافي ذلك الأمر ، والتطهير المأمور به هو التنظيف من كل ما لا يليق به وقد فسروا التطهير بالبناء ، والتأسيس ، على الطهارة ، والتوحيد قاله السدي ، وهو بعيد ، وبالتطهير من الأوثان ، وذكروا أنه كان عامراً على عهد نوح ، وأنه كان فيه أصنام على أشكال صالحهم ، وأنه طال العهد فعبدت من دون الله فأمر الله بتطهيره من تلك الأوثان قاله جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، ومقاتل ، والمعنى : أنه لا ينصب فيه وثن ولا يعبد فيه غير الله وقال يمان : معناه بخراه ، ونظفاه ، وخلقه ، وقيل : من الآفات والريب ، وقيل : من الكفار ، وقيل : من الفرث والدم الذي كان يطرح فيه ، وقيل : معناه أخلصاه لهؤلاء لا يغشاه غيرهم ، والأولى حملة على التطهير مما لا يناسب بيوت الله فيدخل فيه الأوثان ، والأنجاس وجميع الخبائث وما يمنع منه شرعاً كالحائض ﴿ بيتي ﴾ هذه إضافة تشريف لا أن مكاناً محلل لله تعالى ولكن لما أمر ببنائه وتطهيره وإيفاد الناس من كل فج إليه صار له بذلك اختصاص فحسنت إضافته إلى الله بذلك وصار نظير قوله ﴿ ناقة الله ﴾ [الأعراف : ٧٣] ، ﴿ وروح الله ﴾ [يوسف : ٦٧] ، من حيث إن في كل منهما خصوصية لا توجد في غيره فناسب الإضافة إليه تعالى ، والأمر بتطهيره يقتضي سبق وجوده إلا إذا حللنا التطهير على البناء والتأسيس على الطهارة ، والتقوى ، وقد تقدّم أنه كان مبنياً على عهد نوح ﴿ للطائفين والعاكفين ﴾ ظاهره أنه كل من يطوف من حاضر أو باد قاله عطاء ، وغيره ، وقال ابن جبير الغرباء : الطارئون على مكة حجاجاً وزوّاراً فيرحلون عن قريب ، ويؤيده أنه ذكر بعده (والعاكفين) قال وهم أهل البلد الحرام المقيمون ، والمقيم مقابل المسافر ، وقال ابن عباس : المصلون ، الجالسون من غير طواف من بلدي وغريب ، وقال مجاهد : المجاورون له من الغرباء ، وقال ابن عباس : المصلون ، لأن الذي يكون يدخل إلى البيت إنما يدخل لطواف أو صلاة ، وقيل : هم المعتكفون^(٢) ، قال الزمخشري : ويجوز أن

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٧) ، تفسير القرطبي (٢/ ٧٧) ، معالم التنزيل (١/ ١١٢ - ١١٣) .

(٢) انظر ما يتعلق بهذه الآثار تفسير الطبري (٣/ ٤٠ - ٤١) ، تفسير القرطبي (٢/ ٧٨) .

يراد بالعاكفين الواقفين - يعني - القائمين كما قال للطائفين ، والقائمين والركع السجود ، والمعنى للطائفين والمصلين ، لأن القيام والركوع والسجود هيئات المصلي انتهى ، ولوقيل القائم هنا معناه العاكف من قوله ﴿مأدمت عليه قائماً﴾ [آل عمران : ٧٥] ، لكان حسناً ، ويكون في ذلك جمع بين أحوال من دخل البيت للتعبد ، لأنه لا يخلو إذ ذاك من طواف ، أو اعتكاف ، أو صلاة فيكون حملته على ذلك أجمع لما هيء البيت له ﴿والركع السجود﴾ هم المصلون عند الكعبة قاله عطاء وغيره وقال الحسن : هم جميع المؤمنين وخص الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلي ، لأنهما أقرب أحواله إلى الله ، وقدم الركوع على السجود لتقدمه عليه في الزمان ، وجمعا جمع تكسير لمقابلتهما ما قبلهما من جمعي السلامة ، فكان ذلك تنوعاً في الفصاحة وخالف بين وزني تكسيرهما تنوعاً في الفصاحة أيضاً ، وكان آخرهما على فحول لا على فعل لأجل كونها فاصلة ، والفواصل قبلها وبعدها آخرها قبله حرف مد ولين وعطفت تينك الصفتان لفرد التباين بينهما بأي تفسير فسرتهما مما سبق ولم يعطف السجود على الركع ، لأن المقصود بهما المصلون ، والركع والسجود وإن اختلفت هيئاتهما فيشملمهما فعل واحد وهو الصلاة فالمراد بالركع السجود المصلون فناسب أن لا يعطف لثلاثيتهم أن كل واحد منهما عبادة على حيالها ، وليستا مجتمعتين في عبادة واحدة وليس كذلك وفي قوله (والركع السجود) دلالة على جواز الصلاة في البيت فرضاً ونفلًا إذ لم يخصص ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ ذكرُوا أن العامل في إذ اذكر محذوفة ، ورب منادى مضاف إلى الياء وحذف منه حرف النداء والمضاف إلى الياء فيه لغات : أحسنها أن تحذف منه ياء الإضافة ويدل عليها بالكسرة فيجتزأ بها ، لأن النداء موضع تخفيف ، ألا ترى إلى جواز الترخيم فيه وتلك اللغات المذكورة في النحو ، وسيأتي منها في القرآن شيء ، ونتكلم عليه في مكانه - إن شاء الله تعالى - وناداه بلفظ الرب مضافاً إليه لما في ذلك من تلطف السؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل وإجابة ضارعه (واجعل) هنا بمعنى صير وصورته أمر وهو : طلب ورغبة ، وهذا إشارة إلى الوادي الذي دعا لأهله حين أسكنهم فيه وهو قوله ﴿بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، أو إلى المكان الذي صار بلداً ، ولذلك نكره فقال بلداً آمناً وحين صار بلداً قال ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنني﴾ وقال ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ [البلد : ١] ، هذا إن كان الدعاء مرتين في وقتين ، وقيل : الآيتان سواء فتحتمل آية التذكير أن يكون قبلها معرفة محذوفة أي : اجعل هذا البلد بلداً آمناً ويكون بلداً النكرة توطئة لما يجيء بعده كما تقول ، كان هذا اليوم يوماً حاراً فتكون الإشارة إليه في الآيتين بعد كونه بلداً ، ويحتمل وجهاً آخر وهو أنه لا يكون محذوف ، ولا يكون إذ ذاك بلداً ، بل دعى له بذلك وتكون المعرفة الذي جاء في قوله : هذا البلد باعتبار ما يؤول إليه سماه بلداً ووصف بلد بآمن إما على معنى النسب أي : ذا أمن كقولهم : عيشة راضية أي : ذات رضا ، أو على الاتساع لما كان يقع فيه الأمن جعله آمناً كقولهم : نهارك صائم ، وليلك قائم ، وهل الدعاء بأن يجعله آمناً من الجبارة والمسلطين ، أو من أن يعود حرمه حلالاً ، أو من أن يخلو من أهله ، أو آمناً من القتل أو من الخسف ، والقذف ، أو من القحط ، والجذب ، أو من دخول الدجال ، أو من أصحاب الفيل ، أقوال ؛ ومن فسر آمناً بكونه آمناً من الجبارة فالواقع يردّه إذ قد دخل فيه الجبارة وقتلوا ، كعمرو بن لحي الجرهامي ، والحجاج بن يوسف ، والقرامطة ، وغيرهم ، وكذلك من قال آمناً من القحط ، والجذب ، فهي أكثر بلاد الله قطعاً وجدباً ، وقال القفال : معناه مأموناً فيه ، وكانوا قبل أن تغزوهم العرب في غاية الأمن حتى أن أحدهم إذا وجد بمفازة أو برية لا يتعرض إليه عندما يعلم أنه من سكان الحرم ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ لما بنى إبراهيم البيت في أرض مقفرة وكان حال من يتمدّن من الأماكن يحتاج فيه إلى ماء يجري ومزرعة يمكن بهما القطان بالمدينة دعا الله للبلد بالأمن ، وبأن يجبي له الأرزاق فإنه إذا كان البلد ذا أمن أمكن وفود التجار إليه لطلب الربح ، ولما سمع في الإمامة قوله تعالى (لا ينال عهدي الظالمين) قيد هنا من سأل له الرزق فقال من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، والضمير في منهم عائد على أهله دعا لمؤمنهم بالأمن والخصب ، لأن

الكافر لا يدعى له بذلك ، ألا ترى أن قريشاً لما طغت دعا عليها رسول الله ﷺ « اللهم اشدّد وطأتك على مضر^(١) واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » ، وكانت مكة إذ ذاك قفراً لا ماء بها ، ولا نبات كما قال (بواد غير ذي زرع) فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره وأنبأ الله فيه أنواعاً من الثمر ، وروي أن الله تعالى لما دعاه إبراهيم أمر جبريل فاقتلع فلسطين ، وقيل : بقعة من الأردن فطاف بها حول البيت سبعة فأنزلها بوج فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف وقال بعضهم :

كُلُّ الْأَمَاكِينِ إِعْظَامًا لِحُرْمَتِهَا تَسْعَى لَهَا وَلَهَا فِي سَعْيِهَا شَرْفٌ

وذكر متعلق الإيمان وهو الله تعالى ، واليوم الآخر ، لأن في الإيمان بالله إيماناً بالصانع الواجب الوجود وبما يليق به تعالى من الصفات ، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالثواب والعقاب المرتبين على الطاعة والمعصية اللذين هما مناط التكليف المستدعي مخبراً صادقاً به ، وهم الأنبياء فتضمن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالأنبياء ، وبما جاؤوا به فلما كان الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، يتضمن الإيمان بجميع ما يجب أن يكون به اقتصر على ذلك ، لأن غيره في ضمنه ودعاء إبراهيم لأهل البيت يعم من يطلق عليه هذا الاسم ولا يختص ذلك بذريته وإن كان ظاهر قوله (وارزقهم من الثمرات) مختصاً بذريته لقوله ﴿إني أسكنت من ذريتي ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، لعود الضمير في وارزقهم عليه فيحتمل أن يكونا سؤالين ، ومن في قوله (من الثمرات) للتبعض ، لأنهم لم يرزقوا إلا بعض الثمرات ، وقيل : هي لبيان الجنس ومن بدل من أهله ، بدل بعض من كل ، أو بدل اشتمال مخصص لما دل عليه المبدل منه ، وفائدته أنه يصير مذكوراً مرتين إحداهما : بالعموم السابق في لفظ المبدل منه ، والثانية بالتنصيص عليه وتبيين أن المبدل منه إنما عني به وأريد البديل فصار مجازاً إذا أريد بالعام الخاص هذه فائدة هذين البديلين فصار في ذلك تأكيد وتثبيت للمتملك به الحكم وهو البديل إذ ذكر مرتين ﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ .

قرأ الجمهور من السبعة : فأمتعه مشدداً على الخبر ، وقرأ ابن عامر : فأمتعه مخففاً على الخبر ، وقرأ هؤلاء ثم اضطره خبراً ، وقرأ يحيى بن وثاب : فأمتعه مخففاً ، ثم اضطره بكسر الهمزة ، وهما خبران ، وقرأ ابن محيصن : ثم اضطره بادغام الضاد في الطاء خبراً ، وقرأ يزيد بن أبي حبيب : ثم اضطره بضم الطاء خبراً ، وقرأ أبي بن كعب : فتمتعه ثم نضطره بالنون فيهما ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : فأمتعه قليلاً ثم اضطره على صيغة الأمر فيهما فأما على هذه القراءة فيتعين أن يكون الضمير في قال عائداً على إبراهيم لما دعا للمؤمنين بالرزق دعا على الكافرين بالإمتاع القليل والإلزام إلى العذاب ومن على هذه القراءة يحتمل أن تكون في موضع رفع على أن تكون موصولة ، أو شرطية ، وفي موضع نصب على الاشتغال على الوصل أيضاً ، وأما على قراءة الباقيين فيتعين أن يكون الضمير في قال عائداً على الله تعالى ، ومن يحتمل أن يكون في موضع نصب على إضمار فعل تقديره قال الله وأرزق من كفر فأمتعه ، ويكون فأمتعه معطوفاً على ذلك الفعل المحذوف الناصب لمن ويحتمل أن تكون من في موضع رفع على الابتداء إما موصولاً ، وإما شرطاً ، والفاء جواب الشرط ، أو الداخلة في خبر الموصول لشبهه باسم الشرط ، ولا يجوز أن تكون من في موضع نصب على الاشتغال إذا كانت شرطاً ، لأنه لا يفسر العامل في من إلا فعل الشرط لا الفعل الواقع جزاء ، ولا إذا كانت موصولة ، لأن الخبر مضارع قد دخلته الفاء تشبيهاً للموصول باسم الشرط فكما لا يفسر الجزاء كذلك لا يفسر الخبر المشبه بالجزاء ، وأما إذا كان أمراً - أعني - الخبر نحو زيداً فاضربه فيجوز أن يفسر ، ولا يجوز أن تقول : زيداً

(١) البخاري (٢٢٦/٨) ، في كتاب (٦٥) ، باب (١٩) ، حديث (٤٥٩٠) ، ومسلم (٤٦٦/١ - ٤٦٧) ، في المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة .. (٦٧٥/٢٩٤) .

فتضربه على الاشتغال ولجواز زيداً فاضربه على الأمر علة مذكورة في كتب النحو ، قال أبو البقاء : لا يجوز أن تكون من مبتدأ وفأتمته الخبر ، لأن الذي لا يدخل الفاء في خبرها إلا إذا كان الخبر مستحقاً لصلتها كقولك : الذي يأتيني فله درهم والكفر لا يستحق به التمتع فإن جعلت الفاء زائدة على قول الأخفش جاز ، أو الخبر محذوفاً وفأتمته دليل عليه جاز تقديره ، ومن كفر أرزقه فأتمته ويجوز أن تكون من شرطية والفاء جوابها ، وقيل : الجواب محذوف تقديره ومن يكفر أرزق ، ومن على هذا رفع بالابتداء ولا يجوز أن تكون منصوبة ، لأن أداة الشرط لا يعمل فيها جوابها بل الشرط انتهى كلامه . وقوله : أو لا يجوز كذا ، وتعليقه ليس بصحيح ، لأن الخبر مستحق بالصلة ، لأن التمتع القليل والصيرورة إلى النار مستحقان بالكفر ، ثم إنه قد ناقض أبو البقاء في تجويزه أن تكون من شرطية والفاء جوابها ، وهل الجزاء إلا مستحق بالشرط ومرتّب عليه ؛ فكذلك الخبر المشبه به أيضاً ، فلو كان التمتع قليلاً ليس مستحقاً بالصلة ، وقد عطف عليه ما يستحق بالصلة ناسب أن يقع خبراً من حيث وقع جزاء وقد جوّز هو ذلك وأما تقدير زيادة الفاء وإضمام الخبر وإضمام جواب الشرط إذا جعلنا من شرطية فلا حاجة إلى ذلك ، لأن الكلام منتظم في غاية الفصاحة دون هذا الإضمام ، وإنما جرى أبو البقاء في إعرابه في القرآن على حد ما يجري في شعر الشنفرى ، والشمّاخ ، من تجويز الأشياء البعيدة ، والتقادير المستغنى عنها ونحن ننزه القرآن عن ذلك ، وقال الزمخشري^(١) (ومن كفر) عطف على من آمن ، كما عطف ، ومن ذريتي على الكاف في جاعلك انتهى كلامه . وتقدم لنا الردّ عليه في زعمه أن ومن ذريتي عطف على الكاف في جاعلك ، وأما عطف من كفر على من آمن فلا يصح ، لأنه يتنافى تركيب الكلام ، لأنه يصير المعنى قال إبراهيم وأرزق من كفر ، لأنه لا يكون معطوفاً عليه حتى يشركه في العامل ومن آمن العامل فيه فعل الأمر وهو العامل في ومن كفر ، وإذا قدرته أمراً تنافى مع قوله (فأتمته) لأن ظاهر هذا إخبار من الله بنسبة التمتع وإلجائهم إليه تعالى ، وأن كلا من الفعلين تضمن ضمير الله تعالى وذلك لا يجوز إلا على بعد ، بأن يكون بعد الفاء قول محذوف فيه ضمير الله تعالى أي : قال إبراهيم وأرزق من كفر فقال الله أتمته قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار ، ثم ناقض الزمخشري^(٢) قوله هذا أنه عطف على من ؛ كما عطف ومن ذريتي على الكاف في جاعلك فقال ، فإن قلت : لم خص إبراهيم المؤمنين حتى رد عليه ، قلت : قاس الرزق على الإمامة فعرف الفرق بينهما لأن الاستخلاف استرعاء مختص بمن ينصح للمرعي وأبعد الناس عن النصيحة الظالم بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق والزاماً للحجة له ، والمعنى وأرزق من كفر فأتمته انتهى كلامه ، فظاهر قوله والمعنى : وأرزق من كفر فأتمته يدل على أن الضمير في قال ومن كفر عائد على الله وأن من كفر منصوب بأرزق الذي هو فعل مضارع مسند إلى الله تعالى وهو يناقض ما قدم أولاً من أن من كفر معطوف على من آمن ، وفي قوله خص إبراهيم المؤمنين حتى رد عليه سوء أدب على الأنبياء ، لأنه لم يرد عليه ، لأنه لا يدعى ويرغب في أن يرزق الكافر بل قوله تعالى (قال ومن كفر) إخبار من الله تعالى بما يكون مآل الكافر إليه من التمتع القليل والصيرورة إلى النار وليس هنا قياس الرزق على الإمامة ولا تعزيف الفرق بينهما كما زعم ، وقد تقدم تفسير المتاع ، وأنه كل ما انتفع به وفسر هنا التمتع والإمتاع بالإبقاء ، أو بتيسير المنافع ، ومنه ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران : ١٤] ، أي : منفعتها التي لا تدوم أو بالتزويد ومنه ﴿ فمتعوهن ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، أي : زودوهن نفقة والمتعة : ما يتبلغ به من الزاد والجمع متع ومنه ﴿ متاعاً لكم وللسيارة ﴾ [المائدة : ٩٦] ، والهمزة في (أمتع) يجعل الشيء صاحب ما صيغ منه أمتعت زيداً جعلته صاحب متاع كقولهم : أقرته وأنعلته ، وكذلك التضعيف في متع هو يجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه نحو قولهم عدلته ، وليس التضعيف في متع يقتضي التكثير فينا في ظاهر

(١) انظر الكشف (١٨٦/١) .

(٢) انظر الكشف (١٨٦/١) .

ذلك القلة فيحتاج إلى تأويل كما ظنه بعضهم وتأوله على أن الكثرة بإضافة بعضها إلى بعض ، والقلة بالإضافة إلى نعيم الآخرة فقد اختلفت جهتا الكثرة والقلة فلم يتنافيا ، وانتصاب قليلاً على أنه صفة لظرف محذوف أي : زماناً قليلاً ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي : تمتعاً قليلاً على تقدير الجمهور ، أو على الحال من ضمير المصدر المحذوف الدال عليه الفعل ، وذلك على مذهب سيبويه ، والوصف بالقلة لسرعة انقضائه ، إما لحلول الأجل ، وإما بظهور محمد ﷺ فيقتله ، أو يخرجته عن هذا البلدان أقام على الكفر والإمتاع بالنعيم والزينة ، أو بالإمهال عن تعجيل الانتقام فيها ، أو بالرزق ، أو بالبقاء في الدنيا أقوال للمفسرين .

وقراءة يحيى بن وثاب ثم إضطره بكسر الهمزة ، قال ابن عطية : على لغة قريش في قولهم لا إخال - يعني - بكسر الهمزة ، وظاهر هذا النقل في أن ذلك - أعني - كسر الهمزة التي للمتكلم في نحو اضطر وهو ما أوله همزة وصل وفي نحو إخال وهو افعال المفتوح العين من فعل المكسور العين مخالف لما نقله النحويون فإنهم نقلوا عن الحجازيين فتح حرف المضارعة مما أوله همزة وصل ومما كان على وزن فعل بكسر العين يفعل بفتحها أو ذا ياء مزيدة في أوله وذلك ، نحو علم يعلم ، وانطلق ينطلق ، وتعلم يتعلم ، إلا إن كان حرف المضارعة ياء فجمهور العرب من غير الحجازيين لا يكسر الباء بل يفتحها ، وفي مثل يوجل بالياء مضارع وجل مذاهب تذكر في علم النحو ، وإنما المقصود هنا أن كلام ابن عطية مخالف لما حكاه النحاة إلا إن كان نقل أن إخال بخصوصيته في لغة قريش مكسور الهمزة دون نظائره فيكونون قد تبعوا في ذلك لغة غيرهم من العرب فيمكن أن يكون قول ابن عطية صحيحاً ، وقد تقدم لنا في سورة الحمد في قوله ﴿ نستعين ﴾ [الفاتحة : ٥] ، أن الكسرة لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة ، وقد أمعنا الكلام على ذلك في كتاب التكميل لشرح كتاب التسهيل من تأليفنا وقراءة ابن محيصن ثم اطره بادغام الضاد في الطاء ، قال الزمخشري^(١) : هي لغة مرذولة ، لأن الضاد من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها ولا تدغم هي فيما يجاورها وهي حروف ضم شفر انتهى كلامه . إذا لقيت الضاد الطاء في كلمة نحو مضطرب فالأوجه البيان وإن أدغم قلب الثاني للأول فقليل مضرب كما قيل مصبر في مصطبر ، قال سيبويه : وقد قال بعضهم : مطجع في مضطجع ، ومضجع أكثر وجاز مطجع وإن لم يجز في مصطبر مطبر ، لأن الضاد ليست في السمع كالصاد - يعني - أن الصفير الذي في الصاد أكثر في السمع من استطالة الضاد فظاهر كلام سيبويه أنها ليست لغة مرذولة ألا ترى إلى نقله عن بعض العرب مطجع وإلى قوله ومضجع أكثر فيدل على أن مطجعاً كثير ، وألا ترى إلى تعليقه وكون الضاد قلبت إلى الطاء وأدغمت ، ولم يفعل ذلك بالصاد وإبداء الفرق بينهما وهذا كله من كلام سيبويه يدل على الجواز ، وقد أدغمت الضاد في الذال في قوله تعالى ﴿ الأرض ذلولاً ﴾ [الملك : ١٥] ، رواه اليزيدي عن أبي عمرو وهو ضعيف ، وفي الشين في قوله تعالى ﴿ لبعض شأنهم ﴾ [النور : ٦٢] ، ﴿ والأرض شيئاً ﴾ [النحل : ٧٣] ، وهو ضعيف أيضاً وأما الشين فأدغمت في السين ، روي عن أبي عمرو ذلك في قوله تعالى ﴿ إلى ذي العرش سيلاً ﴾ [الإسراء : ٤٢] ، والبصريون لا يجيزون ذلك عن أبي عمرو وهو رأس من رؤوس البصريين ، وأما الفاء فقد أدغمت في الباء في قراءة الكسائي ﴿ إن نشأ نخسف بهم ﴾ [سبأ : ٩] ، وهو إمام الكوفيين وأما الراء فذهب الخليل ، وسيبويه ، وأصحابه إلى أنه لا يجوز إدغام الراء في اللام من أجل تكريرها ولا في النون ، وأجاز ذلك في اللام يعقوب ، وأبو عمرو ، والكسائي والفاء ، وأبو جعفر الرؤاسي ، وهؤلاء الثلاثة رؤوس الكوفيين حكوه سماعاً عن العرب ، وإنما تعرضت لإدغام هذه الحروف فيما يجاورها ، وذكر الخلاف فيها لثلاث بتوهم من قول الزمخشري^(١) لا تدغم فيما يجاورها أنه لا يجوز ذلك

بإجماع من النحويين ، فأوردت هذا الخلاف فيها تنبيهاً على أن ذلك ليس بإجماع ، إذ إطلاقه يدل على المنع البتة ، وقراءة ابن أبي حبيب : بضم الطاء توجيهها أنه اتبع حركة الطاء لحركة الراء وهو شاذ ، وأما قراءة أبيّ : بالنون فيهما فهي مخالفة لرسم المصحف فهي شاذة ، وقراءة ابن عباس بصيغة الأمر يكون تكرير قال على سبيل التوكيد ، أو ليكون ذلك جملتين جملة بالدعاء لمن آمن ، وجملة بالدعاء على من كفر ؛ فلا يندرجان تحت معمول واحد ؛ بل أفرد كلاً بقول واضطره على هذه القراءة هو بفتح الراء المشددة كما تقول : عضه بالفتح ، وهذا الإدغام هو على لغة غير الحجازيين ، لأن لغة الحجازيين في مثل هذا الفك ، ولو قرأ على لغة قومه لكان اضطره إلى عذاب يتعلق بقوله (ثم أضطره) ومعنى الاضطرار : هنا هو أنه يلجأ ويلز إلى العذاب بحيث لا يجد محيصاً^(١) عنه إذا حد لا يؤثر دخول النار ولا يختاره ، ومفهوم الشرط هنا ملغى إذ قد يدخل النار بعض العصاة من المؤمنين ، (وبئس المصير) المخصوص بالذم محذوف لفهم المعنى أي : وبئس المصير النار إن كان المصير اسم مكان وإن كان مصدرأ على رأي من أجاز ذلك فالتقدير ، وبئس الصيرورة صيرورته إلى العذاب ﴿ وإذ يرفع إبراهيم ﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها فالعامل في إذ ما ذكر أنه العامل في إذ قبلها ويرفع في معنى رفع وإذ من الأدوات المخلصة للمضارع إلى الماضي لأنها ظرف لما مضى من الزمان والرفع حالة الخطاب قد وقع وقال الزمخشري^(٢) . هي حكاية حال ماضية ، وفي ذلك نظر ، (من البيت) هو : الكعبة ذكر المفسرون في ماهية هذا البيت ، وقدمه ، وحدوثه ، ومن أي شيء كان باباه وكم مرة حجه آدم ، ومن أي شيء بناه إبراهيم ، ومن ساعده على البناء قصصاً كثيرة ، واستطردوا من ذلك للكلام في البيت المعمور ، وفي طول آدم والصلع الذي عرض له ، ولولده ، وفي الحجر الأسود ، وطولوا في ذلك بأشياء لم يتضمنها القرآن ، ولا الحديث الصحيح ، وبعضها يناقض بعضاً ، وذلك على جري عاداتهم في نقل ما دب وما درج ولا ينبغي أن يعتمد إلا على ما صح في كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ قال ابن عطية : والذي يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع القواعد من البيت ، ونشأه في قوله : أمر إذ لم يأت النص بأن الله أمر بذلك ﴿ القواعد ﴾^(٣) تقدّم تفسيرها في الكلام على المفردات ، وهل هي الأساس ، أو الجدر فإن كانت الأساس فرفعها بأن يبنى عليها فتنتقل من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتتطاوّل بعد التقاصر . قال الزمخشري^(٤) : ويجوز أن يكون المراد بها ساقات البناء ، ويجوز أن يكون المعنى ما قعد من البيت أي : استوطىء - يعني - جعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء ﴿ من البيت ﴾ يحتمل أن يكون متعلقاً برفع ، ويحتمل أن يكون في موضع الحال من القواعد فيتعلق بمحذوف تقديره كائنة من البيت ولم تضاف القواعد إلى البيت فكان يكون الكلام قواعد البيت لما في عدم الإضافة من الإيضاح بعد الإبهام وتفضيم شأن المبين ﴿ وإسماعيل ﴾ معطوف على إبراهيم فهما مشتركان في الرفع قيل : كان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وقال عبيد بن عمير : رفع إبراهيم ، وإسماعيل معاً ، وهذا ظاهر القرآن ، وروي عن ابن عباس : أن إسماعيل طفل صغير إذ ذاك كان يناوله الحجارة ، وروي عن عليّ أن إسماعيل كان إذ ذاك طفلاً صغيراً ، ولا يصح ذلك عن عليّ ، ومن جعل الواو في وإسماعيل واو الحال أعرب إسماعيل مبتدأ ، وأضمر الخبر ، التقدير وإسماعيل يقول ربنا تقبل منا فيكون إبراهيم مختصاً بالبناء ، وإسماعيل مختصاً بالدعاء ، ومن ذهب إلى العطف جعل

(١) يقال : ما عته محيص ، أي محيد ومهرب . . لسان العرب (٢/ ١٠٧٠) .

(٢) انظر الكشف (١٨٧/١) .

(٣) القاعدة : أصل الأسّ ، والقواعد الاساس ، وقواعد البيت اساسه - لسان العرب (٥/ ٣٦٨٩) .

(٤) انظر الكشف (١٨٧/١) .

ربنا تقبل منا معمولاً لقول محذوف عائد على إبراهيم وإسماعيل معاً في موضع نصب على الحال تقديره : وإذ يرفعان القواعد قائلين ربنا تقبل منا ، ويؤيد هذا التأويل أن العطف في وإسماعيل أظهر من أن تكون الواو واو الحال ، وقراءة أبيّ ، وعبد الله يقولان بإظهار هذه الجملة ، ويجوز أن يكون القول المحذوف هو العامل في إذ فلا يكون في موضع الحال ، والمعنى أنهما دعوا بذلك الدعاء وقت أن شرعا في رفع القواعد ، في ندائهما بلفظ ربنا تطف ، واستعطاف بذكر هذه الصفة الدالة على التربية والإصلاح بحال الداعي ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ أي : أعمالنا التي قصدنا بها طاعتك وتقبل^(١) بمعنى : اقبل فتفعل هنا بمعنى المجرد كقولهم : تعدى الشيء وعداه وهو أحد المعاني التي جاء لها تفعل والمراد بالتقبل : الإثابة عبر بإحدى المتلازمين عن الآخر ، لأن التقبل هو أن يقبل الرجل من الرجل ما يهدى إليه فشبّه الفعل من البعد بالعطية والرضا من الله تعالى بالتقبل توسعاً ، وحكى بعض المفسرين عن بعض الناس فرقاً بين القبول ، والتقبل قال التقبل : تكلف القبول ، وذلك حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحق أن يقبل قال : فهذا اعتراف من إبراهيم وإسماعيل بالتقصير في العمل ولم يكن المقصود إعطاء الثواب ، لأن كون الفعل واقعاً موقع القبول من المخدوم ألد عند الخادم العاقل من إعطاء الثواب عليه وسؤالهما التقبل بذلك على أن ترتيب الثواب على العمل ليس واجباً على الله تعالى انتهى ملخصاً . ونقول إن التقبل والقبول سواء بالنسبة إلى الله تعالى إذ لا يمكن تعقل التكليف بالنسبة إليه تعالى ، وقد قدّمنا أن تفعل هنا موافق للفعل المجرد الذي هو قبل ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ يجوز في أنت ، الابتداء ، والفصل ، والتأكيد ، وقد تقدّم الكلام في الفصل ، وفائدته وهو : من المسائل التي جمعت فيها الكلام في نحو من سبعة أوراق أحكاماً دون استدلال ، وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب إذ صدر منهما عمل ، وتضرع سؤال ؛ فهو السميع لضراعتهما وتساؤلهما التقبل وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما ، وتقدّمت صفة السمع وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة ، نحو قوله ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ، ولعمومها إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ أي : منقادين ، أو مخلصين أوجهنا لك من قوله (من أسلم وجهه) أي : أخلص عمله والمعنى : أدم لنا ذلك ، لأنهما كانا مسلمين ولك تفيد جهة الإسلام أي : لك لا لغيرك ، وقرأ ابن عباس ، وعوف الأعرابي : مُسْلِمِينَ على الجمع دعاء لهما وللموجود من أهلها كهاجر ، وهذا أولى من جعل لفظ الجمع مراداً به الثنية ، وقد قيل : به هنا ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ لما تقدّم الجواب له بقوله (لا ينال عهدي الظالمين) علم أن من ذريتهما الظالم ، وغير الظالم فدعا هنا بالتبعيض لا بالتعميم فقال (ومن ذريتنا) وخصّ ذريته بالدعاء للشفقة ، والحنو عليهم ، ولأن في صلاح نسل الصالحين نفعاً كثيراً لمتبعهم إذ يكونون سبباً لصلاح من وراءهم ، والذرية : هنا قيل : أمة محمد ﷺ بدليل قوله (وابعث فيهم) وقيل : هم العرب ، لأنهم من ذريتهما ، قال القفال : لم يزل في ذريتهما من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ، ولم تزل الرسل عليهم الصلاة والسلام من ذريتهما ، وكان في الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة الايادي ، ويقال : عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله ﷺ ، وعمرو بن الظرب ، كانا على دين الإسلام وجوّز الزمخشري أن يكون من في قوله (ومن ذريتنا) للتبيين قال : كقوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ [المائدة : ٩] ، وقد تقدّم لنا أن كون من للتبيين بأباه أصحابنا ، ويتأولون ما فهم من ظاهره ذلك ، وتقدّم شرح الأمة ، والمراد به هنا : الجماعة ، أو الجيل ، والمعنى على أن من ذريتنا هو في موضع المفعول الأول لقوله (واجعل) لأن الجعل هنا بمعنى التصيير ، فالمعنى واجعل ناساً من ذريتنا أمة مسلمة لك ويمتنع أن يكون ما قدر من قوله (واجعل من ذريتنا) بمعنى أوجد ، واخلق ، وإن كان من جهة المعنى صحيحاً فكان يكون الجعل هنا يتعدى

(١) يقال : قَبِلْتُ الشيء قَبُولاً إذا رضيته ، وتقبلت الشيء وقَبِلْتُهُ قَبُولاً ، وهو مصدر شاذ - لسان العرب (٣٥١٨/٥) .

إلى واحد ، ومن ذريتنا ، متعلق باجعل المقدرة ، لأنه إن كان من باب عطف المفردات فهو مشترك في العامل الأول ، والعامل الأول ليس معناه على الخلق والإيجاد ، وإن كان من باب عطف الجمل فلا يحذف إلا ما دل عليه المنطوق ، والمنطوق ليس بمعنى الإيجاد فكذلك المحذوف ، ألا تراهم قد منعوا في قوله تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) أن يكون التقدير : وملائكته يصلون لاختلاف مدلولي الصلاتين ، لأنهما من الله الرحمة ، ومن الملائكة الدعاء ، وتأولوا ذلك وحملوه على القدر المشترك بين الصلاتين لا على الحذف ، وأجاز أبو البقاء أن يكون المفعول الأول أمة ومن ذريتنا حال ، لأنه نعت نكرة تقدم عليها فانتصب على الحال ، ومسلمة المفعول الثاني ، وكان الأصل اجعل أمة من ذريتنا مسلمة لك قال : قالوا : وداخله في الأصل على أمة ، وقد فصل بينهما بقوله (من ذريتنا) وهو جائز ، لأنه من جملة الكلام المعطوف بالظرف وجعلوا قوله :

يَوْمًا تَرَاهَا كَثِبَهُ أُرْدِيَةِ آلِ عَصْبٍ وَيَوْمًا أُدِيمُهَا نَغْلًا

من الضرورات فالفصل بالحال أبعد من الفصل بالظرف فصار نظير ضربت الرجل ومتجردة المرأة تريد المرأة متجردة ، وينبغي أن يختص جواز هذا بالضرورة ﴿ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا ﴾^(١) قال قتادة : معالم الحج ، وقال عطاء : وابن جريج : مذابحنا : أي مواضع الذبح ، وقيل : كل عبادة يتعبد بها الله تعالى ، وقال تاج القراء الكرمانى : إن كان المراد أعمال الحج وما يفعل في المواقف ، كالطواف ، والسعي ، والوقوف ، والصلاة ، فتكون المناسك جمع منسك المصدر جمع لاختلافها ، وإن كان أراد المواقف التي يقيم فيها شرائع الحج ، كمنى ، وعرفة ، والمزدلفة ، فيكون جمع منسك وهو موضع العبادة ، وروي عن علي أن إبراهيم لما فرغ من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة بعث الله إليه جبريل عليه السلام فحج به وفي قراءة ابن مسعود (وأرهم مناسكهم) أعاد الضمير على الذرية ، ومعنى أرنا أي : بصرنا إن كانت من رأي البصرية ، والتعدي هنا إلى اثنين ظاهر ، لأنه منقول بالهمزة من المتعدي إلى واحد وإن كانت من رؤية القلب فالمنقول أنها تتعدى إلى اثنين نحو قوله :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وقال الكميت :

بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِأَيِّ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهُمْ عَارًا عَلَيَّ وَتَحْسِبُ^(٢)

فإذا دخلت عليها همزة النقل تعدت إلى ثلاثة وليس هنا إلا اثنان فوجب إن يعتقد أنها من رؤية العين وقد جعلها الزمخشري^(٣) ، من رؤية القلب ، وشرحها بقوله : عَرَفَ فهي عنده تأتي بمعنى عَرَفَ أي : تكون قلبية وتتعدى إلى واحد ، ثم أدخلت همزة النقل فتعدت إلى اثنين ويحتاج ذلك إلى سماع من كلام العرب ، وحكى ابن عطية عن طائفة : أنها من رؤية البصر وعن طائفة : أنها من رؤية القلب ، قال ابن عطية : وهو الأصح ، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفعولين ، وينفصل بأنه يوجد معدى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدى قال حطائط بن يعفر أخو الأسود :

(١) قيل الْمَنَسَكُ النَّسْكُ نَفْسُهُ ، وَالْمَنَسِكُ : الموضع الذي تذبح فيه النسيكة والنسائك - لسان العرب (٦/٤٤١٢) .

(٢) البيت من الطويل للكميت بن زيد الأسدي . انظر الدرر اللوامع (١/١٣٤) ، المقاصد النحوية (٢/٤١٣) ، خزانة الأدب

(٤/٣١٤) ، حاشية بس (١/٢٦١) .

(٣) انظر الكشف (١/١٨٨) .

أَرِيْنِي جَوَادًا مَاتَ هَزْلًا لِأَنِّي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيْلًا مُخْلَدًا^(١)

انتهى كلام « ابن عطية » ، وقوله ويلزم قائله أن يتعدى إلى ثلاثة مفعولين إنما يلزم لما ذكرناه من أن المحفوظ أن رأى إذا كانت قلبية تعدت إلى اثنين وبهمزة النقل تصير تتعدى إلى ثلاثة وقوله : وينفصل بأنه يوجد معدى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدى - يعني - أنه قد استعمل في اللسان العربي متعدياً إلى اثنين ومعه همزة النقل ؛ كما استعمل متعدياً إلى اثنين بغير الهمزة وإذا كان كذلك ثبت أن لرأى إذا كانت قلبية استعمالين :

أحدهما : أن يكون بمعنى علم المتعدية لواحد بمعنى عَرَفَ .

والثاني : أن يكون بمعنى علم المتعدية إلى اثنين ، استدلال « ابن عطية » بيت ابن يعفر على أن رأى قلبية لا دليل فيه ، بل الظاهر أنها بصرية ، والمعنى على أبصريني جواداً ، ألا ترى إلى قوله مات هزلاً ، فإن هذا هو من متعلقات البصر فيحتاج في إثبات رأى القلبية متعدية لواحد إلى سماع وقد قال ابن مالك وهو حاشد لغة وحافظ نوادر حين عدى ما يتعدى إلى اثنين فقال في التسهيل : ورأى لا لبصار ، ولا رأى ولا ضرب ، فلو كانت رأى بمعنى عَرَفَ لنفى ذلك كما نفى عن رأي المتعدية إلى اثنين كونها لا تكون لأبصار ولا رأى ولا ضرب ، وقال بعض الناس : المراد هنا بالرؤية رؤية البصر ، والقلب معاً ، لأن الحج لا يتم إلا بأمور بعضها يعلم ولا يرى ، وبعضها لا يتم الغرض منه إلا بالرؤية ، فوجب حمل اللفظ على الأمرين جميعاً ، وهذا ضعيف ، لأن فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ، أو حمل اللفظ المشترك على أكثر من موضوع واحد في حالة واحدة وهو لا يجوز عندنا .

وقرأ « ابن كثير » ، وأرنا وأرني خمسة بإسكان الراء ، وروي عن « أبي عمر » ، والإسكان ، والاختلاس ، وروي عنه الإشباع كالباقين ، إلا أن « أبا عمر » ، و« أبا بكر » سكنوا ، في أرنا اللذين ، فالإشباع هو الأصل والاختلاس حسن مشهور في العربية ، والإسكان تشبيه للمنفصل بالمتصل ؛ كما قالوا : فخذ ، وسهله كون الحركة فيه ليست لإعراب ، وقد أنكر بعض الناس الإسكان من أجل أن الكسرة تدل على ما حذف فيقبح حذفها - يعني - أن الأصل كان ارء فنقلت حركة الهمزة إلى الراء وحذفت الهمزة فكان في اقرارها دلالة على المحذوف ، وهذا ليس بشيء ، لأن هذا أصل مرفوض وصارت الحركة كأنها حركة للراء ، وقال « الفارسي » ، ما قاله هذا القائل ليس بشيء ، ألا تراهم أدغموا في لكننا هو الله ربي أي : الأصل لكن ثم نقلوا الحركة وحذفوا ثم أدغموا فذهاب الحركة في أرنا ليس بدون ذهابها في الإدغام وأيضاً فقد سمع الإسكان في هذا الحرف نصاً عن العرب ، قال الشاعر :

أَرْنَا إِذَاوَةَ «عَبْدِ اللَّهِ» نَمَلُوْهَا مِنْ مَاءٍ رَمَزَمَ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَمِئُوا^(٢)

وأيضاً فهي قراءة متواترة ، فإنكارها ليس بشيء ، وذكر المفسرون في كيفية تأدية « إبراهيم » و« إسماعيل » هذه المناسك أقوالاً سبعة مضطربة النقل ، وذكروا أيضاً من حج هذا البيت من الأنبياء ومن مات بمكة منهم ، وذكروا أنه مات بها « نوح » ، و« هود » ، و« صالح » ، و« شعيب » ، و« إسماعيل » ، وغيرهم ولم تتعرض الآية الكريمة لشيء من ذلك فتركنا نقل ذلك على عادتنا ﴿ وتب علينا ﴾ قالوا التوبة^(٣) من حيث الشريعة تختلف باختلاف التائبين ،

(١) البيت من الطويل لحطائط النهشلي . انظر الشعر والشعراء ص (٢٥٤) ، الخزانة (٤٠٦ / ١٠) ، شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٢٥ / ٤) ، مجاز القرآن (٥٥ / ١) ، التصريح (١١١ / ١) ، ابن يعيش (٧٠٨ / ٨) .

(٢) البيت من البسيط لم يعلم قائله .

(٣) التوبة : الرجوع من الذنب . وفي الذنب . وفي الحديث : الندم توبة ، والتوب مثله - لسان العرب (٤٥٤ / ١) .

فتوبة سائر المسلمين الندم بالقلب ، والرجوع عن الذنب ، والعزم على عدم العود ، ورد المظالم إذا أمكن ، ونية الرد إذا لم يمكن ، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور في الأعمال ، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال ، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات ، والترقي في المقامات فإن كان « إبراهيم » و « إسماعيل » دعوا لأنفسهما بالتوبة وكان الضمير في قوله (وتب علينا) خاصاً بهما فيحتمل أن تكون التوبة هنا من هذا القسم الأخير قالوا : ويحتمل أن يريد التثبيت على تلك الحالة مثل (ربنا واجعلنا مسلمين لك) وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية كان الدعاء بالتوبة منصرفاً لمن هو من أهل التوبة وإن كان الضمير قبله محذوفاً مقدراً فالتقدير على عصاتنا ويكون دعا بالتوبة للعصاة ، ولا تدل هذه الآية على جواز وقوع الذنب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما ذكرناه من الاحتمال خلافاً لمن زعم ذلك ، وقال التوبة مشروطة بتقدم الذنب إذ لولا ذلك لاستحال طلب التوبة ، والذي يقوي أن المراد الذرية العصاة قوله تعالى ﴿ واجنبي وبنّي أن نعبد الأصنام ﴾ [إبراهيم : ٣٥] ، إلى قوله (ومن عصاني فإنك غفور رحيم) أي : فأنت قادر على أن تتوب عليه وتغفر له .

وقراءة « عبد الله » : وأرهم مناسكهم وتب عليهم واحتمال أن يكون وأرنا مناسكنا على حذف مضاف أي : وأر ذريتنا مناسكنا كقوله ﴿ ولقد خلقناكم ﴾ [الأعراف : ١١] ، أي : خلقنا أباكم ، وقال « الزمخشري »^(١) : وتب علينا ما فرط منا من الصغائر ، أو استتابا لذريتهما انتهى . فقوله ما فرط منا من الصغائر هو على مذهب المعتزلة إذ يقولون بتجوزها على الأنبياء ، قال « ابن عطية » : وقد ذكر قول التثبيت أو كون ذلك دعاء للذرية قال : وقيل : وهو الأحسن عندي أنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف ، وتلك المواضع مكان التنصل^(٢) من الذنوب وطلب التوبة ، وقال « الطبري » : ليس أحد من خلق الله إلا وبينه وبين الله تعالى معان يحب أن يكون أحسن مما هي انتهى كلام « ابن عطية » وفيه خروج قوله (وتب علينا) عن ظاهره إلى تأويل بعيد أي : إن الدعاء بقوله (وتب علينا) ليس معناه أنهما طلبا التوبة ، بل نبها بذلك الطلب على أن غيرهما يطلب في تلك المواضع التوبة فيكونان لم يقصدا الطلب حقيقة إنما ذكرا ذلك لتشريع غيرهما لطلب ذلك وهذا بعيد جداً ، قال « ابن عطية » : وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ ، ومن الكبائر ، ومن الصغائر التي فيها رذيلة ، واختلف في غير ذلك من الصغائر انتهى كلامه ، قال « الإمام فخر الدين أبو عبد الله ، محمد بن عمر بن الحسن الرازي » في كتاب المحصول له : ما ملخصه قالت الشيعة : لا يجوز أن يقع منهم ذنب لا صغير ، ولا كبير لا عمداً ، ولا سهواً ، ولا من جهة التأويل ، ثم ذكر الاتفاق على أنه لا يجوز منهم الكفر ، ولا التبديل في التبليغ ، ولا الخطأ في الفتوى ، وذكر خلافاً في أشياء ، ثم قال : الذي يقول به أنه لا يقع منهم ذنب على سبيل القصد لا كبير ولا صغير ، وأما سهواً فقد يقع لكن بشرط أن يتذكروه في الحال وينهوا غيرهم على أن ذلك كان سهواً ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ يجوز في أنت ، الفصل والتأكيد ، والابتداء ، وهاتان الصفتان مناسبتان ، لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين (ومن ذريتهما أمة مسلمة) وبأن يريهما مناسكهما ، وبأن يتوب عليهما ، فناسب ذكر التوبة عليهما ، أو الرحمة لهما وناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة لمجاورة الدعاء الأخير في قوله (وتب علينا) وتأخرت صفة الرحمة لعمومها ، لأن من الرحمة التوبة ولكنها فاصلة والتواب لا يناسب أن تكون فاصلة هنا ، لأن قبلها إنك أنت السميع العليم وبعدها إنك أنت العزيز الحكيم

(١) انظر الكشف (١٨٨ / ١) .

(٢) يقال : تنصل فلان من ذنبه أي تبرأ ، والتَّنَصَّل : شَبَّه التَّبَرُّؤَ من جناية أو ذنب . وتنصل إليه من الجناية : خرج وتبرأ - لسان العرب

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ لما دعا ربه بالأمن لمكة وبالرزق لأهلها ، وبأن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، ختم الدعاء لهم بما فيه سعادتهم دنيا وآخرة وهو بعثة محمد ﷺ فيهم فشمّل دعاؤه لهم الأمن ، والخصب ، والهداية ، وقد تقدم معنى البعث : في قوله ﴿ ثم بعثناكم ﴾ [البقرة : ٥٦] ، والمراد هنا : الإرسال إليهم ، والضمير في فيهم يحتمل أن يعود على الذرية ويحتمل أن يعود على أمة مسلمة ويحتمل أن يعود على أهل مكة ، ويؤيده قوله ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾ [الجمعة : ٦٢] ، ولا خلاف أنه رسول الله « محمد » ﷺ وصح عنه أنه قال : « أنا دعوة^(١) أبي إبراهيم » ، ولم يبعث الله إلى مكة وما حولها إلا هو ﷺ .

وقرأ « أبي » : وابعث فيهم في آخرهم قال « ابن عباس » : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة « نوح » ، و« هود » ، و« صالح » ، و« شعيب » ، و« لوط » ، و« إبراهيم » ، و« إسماعيل » ، و« إسحاق » ، و« محمد » ﷺ ، ومنهم في موضع الصفة لرسولاً أي : كائناً منهم لا من غيرهم فهم يعرفون وجهه ونسبه ونشأته كما قال ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ [آل عمران : ٣] ، ودعا بأن يبعث الرسول فيهم منهم ، لأنه يكون أشفق على قومه ويكونون هم أعز به وأشرف وأقرب للإجابة ، لأنهم يعرفون منشأه ، وصدقه ، وأمانته ، قال « الربيع » : لما دعا « إبراهيم » قيل له : قد استجيب لك وهو في آخر الزمان ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ جملة في موضع الصفة لرسولاً ، وقيل : في موضع الحال منه ، لأنه قد وصف بقوله (منهم) ووصف « إبراهيم » الرسول بأنه يكون يتلو عليهم آيات الله أي : يقرؤها فكان كذلك وأوتي رسول الله ﷺ القرآن ، وهو أعظم المعجزات ، وقبل الله دعاء « إبراهيم » فأتى بالمدعوله على أكمل الأوصاف التي طلبها « إبراهيم » ، والآيات هنا آيات القرآن ، وقيل : خبر من مضى وخبر من يأتي إلى يوم القيامة ، وقال الفضل : معناه يبين لهم دينهم ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ هو القرآن ، والمعنى أنه يفهمهم ويلقي إليهم معانيه وكان ترتيب التعليم بعد التلاوة ، لأنه أول ما يقرع السمع هو التلاوة والتلفظ بالقرآن ثم بعد ذلك تتعلم معانيه ويتدبر مدلوله وأسند التعليم للرسول ، لأنه هو الذي يلقي الكلام إلى المتعلم وهو الذي يفهمه ويتلطف في إيصال المعاني إلى فهمه ويتسبب في ذلك والتعليم يكون بمعنى التفهيم وحصول العلم للمتعلم ويكون بمعنى القاء أسباب العلم ولا يحصل به العلم ولذلك يقبل النقيضين تقول : علمته فتعلم وعلمته فما تعلم ، وذلك لاختلاف المفهومين من تعلم ، قال « الزمخشري »^(٢) : يتلو عليهم آياتك يقرأ عليهم ، ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك ويعلمهم الكتاب القرآن ﴿ والحكمة ﴾ الشريعة ، وبيان الأحكام ، وقال « قتادة » : الحكمة السنة وبيان النبي الشرائع ، وقال « مالك » ، و« أبو رزين » : الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى ، وقال « مجاهد » : الحكمة فهم القرآن ، وقال « مقاتل » : العلم والعمل به لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما ، وقيل : الحكم والقضاء ، وقيل : ما لا يعلم إلا من جهة الرسول ، وقال « ابن زيد » : كل كلمة وعظمتك أو دعوتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ، وقال بعضهم : الحكمة هنا الكتاب وكررها تأكيداً ، وقال « أبو جعفر محمد بن يعقوب » : كل صواب من القول ورث فعلاً صحيحاً فهو حكمة وقال « يحيى بن معاذ » : الحكمة جند من جنود الله يرسلها الله إلى قلوب العارفين حتى يروّج عنها وهج الدنيا ، وقيل : هي وضع الأشياء مواضعها ، وقيل : كل قول وجب فعله ، وهذه الأقوال في الحكمة كلها متقاربة ، ويجمع هذه الأقوال

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٣١/٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٦٩/١) ، وابن سعد في الطبقات (٩٦/١/١) ، والبخاري في التفسير (١١١/١) .

(٢) انظر الكشف (١٨٩/١) .

قولان أحدهما : القرآن ، والآخر السنة ، لأنها المبينة لما انبهم من الكتاب ، والمظهرة لوجوه الاحكام ويكون المعنى والله أعلم في قوله (يتلو عليهم آياتك) أي : يفصح لهم عن ألفاظه ويوقفهم بقراءته على كيفية تلاوته كما قال ﷺ لأبي إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، وذلك لأن يتعلم أبي منه ﷺ كيفية أداء القرآن ، ومقاطعته ، ومواصله ، وفي قوله (ويعلمهم الكتاب) أي : يبين لهم وجوه أحكامه ، حلاله ، وحرامه ، ومفروضه ، ومسنونه ، ومواعظه ، وأمثاله ، وترغيبه ، وترهيبه ، والحشر ، والنشر ، والعقاب ، والثواب ، والجنة ، والنار ، وفي قوله (والحكمة) أي : السنة تبين ما في الكتاب من المجمع ، وتوضح ما انبهم من المشكل ، وتفصح عن مقادير ، وعن أعداد مما لم يتعرض الكتاب إليه ، ويثبت أحكاماً لم يتضمنها الكتاب ﴿ ويزكيهم ﴾ ^(١) باطناً من أرجاس الشرك وأنجاس الشك ، وظاهراً بالتكاليف التي تمحص الآثام ، وتوصل الأنعام قال « ابن عباس » : التزكية الطاعة والإخلاص وقال « ابن جريج » : يطهرهم من الشرك ^(٢) ، وقيل : يأخذ منهم الزكاة التي تكون سبباً لطهارتهم ، وقيل : يدعو إلى ما يصيرون به أزكيا ، وقيل : يشهد لهم بالتزكية من تزكية العدول ، ومعنى الزكاة لا تخرج عن التطهير ، أو التنمية ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز : الغالب ، أو المنيع الذي لا يرام قاله المفضل بن سلمة ، أو الذي لا يعجزه شيء قاله « ابن كيسان » : أو الذي لا مثل له قاله « ابن عباس » ، أو المنتقم قاله « الكلبي » ، أو القوي ومنه ﴿ فعزنا بثالث ﴾ [يس : ١٤] ، أو المعز ومنه ﴿ وتعز من تشاء ﴾ [آل عمران : ٢٦] ، الحكيم قد تقدم تفسير الحكيم في قصة الملائكة « وآدم » في قوله ﴿ إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ [البقرة : ٢٢] ، وأنت يجوز فيها ما جاز في ﴿ أنت السميع العليم ﴾ [البقرة] قبل من الأعراب ، وهاتان الصفتان متناسبتان لما قبلهما ، لأن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألتها « إبراهيم » لا تصدر إلا عن اتصف بالعزة ، وهي الغلبة ، أو القوة ، أو عدم النظير ، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وتقدمت صفة العزيز على الحكيم ، لأنها من صفات الذات والحكيم من صفات الأفعال ، ولكون الحكيم فاصلة كالفواصل قبلها ، وفي المنتخب : (يتلو عليهم آياتك) هي : القرآن ، وقيل : الأعلام الدالة على وجود الصانع وصفاته ، ومعنى التلاوة تذكيرهم بها ودعاؤهم إليها وحملهم على الإيمان بها ، وحكمة التلاوة بقاء لفظها على الألسنة فيبقى مصوناً عن التحريف ، والتصحيح ، وكون نظمها ولفظها معجزاً ، وكون تلاوتها في الصلوات وسائر العبادات نوع عبادة إلا أن الحكمة العظمى تعليم ما فيه من الدلائل والأحكام ، وقال « القفال » : عبر بعض الفلاسفة عن الحكمة بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة البشرية ، وقيل الحكمة : المتشابهات ، وقيل : الكتاب أحكام الشرائع ، والحكمة وجوه المصالح والمنافع فيها ، وقيل : كلها صفات للقرآن هو آيات وهو كتاب وهو حكمة انتهى ما لخص من المنتخب ﴿ ومن يرغب عن ملة « إبراهيم » إلا من سفه نفسه ﴾ روي « أن عبد الله بن سلام » دعا ابني أخيه « سلمة » ، ومهاجراً إلى الإسلام فقال : لهما قد علمتما أن الله قال في التوراة إني باعث من ولد « إسماعيل » نبياً اسمه « أحمد » من آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم « سلمة » ، وأبي « مهاجر » فأنزل الله هذه الآية .

ومن اسم استفهام في موضع رفع على الابتداء ، وهو استفهام معناه الإنكار ، ولذلك دخلت إلا بعده ، والمعنى : لا أحد يرغب فمعناه النفي العام (ومن سفه) في موضع رفع بدل من الضمير المستكن في يرغب ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الاستثناء ، والرفع أجود على البدل ، لأنه استثناء من غير موجب ومن في (من سفه)

(١) يقال : زكاه الله ، وزكى نفسه تزكية : مدحها . . . وزكى الرجل نفسه إذا وصفها وأثنى عليها - لسان العرب (١٨٤٩/٣) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٨٨/٣) ، غرائب النيسابوري (٤١٤/٢) ، تفسير الرازي (٦٧/٤) ، تفسير القرطبي (٨٩/٢) .

موصولة ، وقيل : نكرة موصوفة ، وانتصاب نفسه على أنه تمييز على قول بعض الكوفيين وهو « الفراء » ، أو مشبه بالمفعول على قول بعضهم ، أو مفعول به إما لكون سفه يتعدى بنفسه كسفه المضعف ، وإما لكونه ضمن معنى ما يتعدى أي : جهل وهو قول « الزجاج » ، و « ابن جني » ، أو أهلك وهو قول « أبي عبيدة » ، أو على إسقاط حرف الجر وهو قول : بعض البصريين ، أو توكيد لمؤكد محذوف تقديره : سفه قوله نفسه حكاها مكى ، أما التمييز فلا يجيزه البصريون ، لأنه معرفة ، وشرط التمييز عندهم : أن يكون نكرة ، وأما كونه مشبهاً بالمفعول فذلك عند الجمهور مخصوص بالصفة ، ولا يجوز في الفعل تقول : زيد حسن الوجه ، ولا يجوز حسن الوجه ، ولا يحسن الوجه ، وأما إسقاط حرف الجر وأصله من سفه في نفسه فلا ينقاس ، وأما كونه توكيداً وحذف مؤكداً ففيه خلاف ، وقد صحح بعضهم أن ذلك لا يجوز - أعني - أن يحذف المؤكد ويبقى التوكيد ، وأما التضمنين فلا ينقاس ، وأما نصبه على أن يكون مفعولاً به ويكون الفعل يتعدى بنفسه فهو الذي نختاره ، لأن « ثعلباً » ، و « المبرد » ، حكيا أن سفه : بكسر الفاء يتعدى كسفه : بفتح الفاء وشدها ، وحكي عن « أبي الخطاب » : أنها لغة ، قال « الزمخشري »^(١) : سفه نفسه امتنها واستخف بها ، وأصل السفه : الخفة ، ومنه زمام سفيه ، وقيل : انتصاب النفس على التمييز نحو غبن رأيه ، وألم رأسه ، ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف التمييز نحو قوله :

وَلَا بِفَزَارَةٍ الشَّعْرِ الرَّقَابَا أَجَبَ الظُّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ^(٢)

وقيل : معناه سفه في نفسه فحذف الجار كقولهم : زيد ظني مقيم أي : في ظني ، والوجه هو الأول ، وكفى شاهداً له بما جاء في الحديث « الكبر أن يسفه الحق ويغصص الناس » انتهى كلامه فأجاز نصبه على المفعول به إلا أن قوله : ويجوز أن يكون في شذوذ تعريف التمييز نحو قوله :

وَلَا بِفَزَارَةٍ الشَّعْرِ الرَّقَابَا أَجَبَ الظُّهْرِ لَيْسَ لَهُ سَنَامٌ

ليس بصحيح ، لأن الرقاب من باب معمول الصفة المشبهة ، والشعر : جمع أشعر وكذلك أجب الظهر هو أيضاً من باب الصفة المشبهة ، وأجب أفعّل اسم وليس بفعل ، وقبل النصف الأول قوله :

فَمَا قَوْمِي بِثَعْلَبَةٍ بَنِ سَعْدَى^(٣)

وقبل الآخر قوله :

وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذَنَابِ عَيْشٍ

فليس نحوه ، لأن نفسه انتصب بعد فعل ، والرقاب ، والظهر انتصبا بعد اسم ، وهما من باب الصفة المشبهة ومعنى الآية : أنه لا يزهّد ويرفع نفسه عن طريقة إبراهيم وهو النبي المجمع على محبته من سائر الطوائف إلا من أذل نفسه وامتتها ، وقال « ابن عباس » : معنى سفه نفسه خسر نفسه ، وقال « أبو روق » : عجز رأيه عن نفسه ، وقال يمان : حرق رأيه ، وقال « الكلبي » قتل نفسه ، وقال « ابن بحر » جهلها ولم يعرف ما فيها من الدلائل ، وحكي عن بعضهم : أن معناه سفه حق نفسه ، فأما سفه : بضم الفاء ، فمعناه صار سفيهاً مثل فقه إذا صار فقيهاً قال :

فَلَا عِلْمَ إِذَا جَهِلَ الْعَلِيمُ وَلَا رُشْدَ إِذَا سَفِهَ الْحَلِيمُ

(١) انظر الكشف (١٨٩/١) .

(٢) البيت من الوافر للناطقة الذبياني ، انظر ديوانه ص (١٠٥ - ١٠٦) ، وروايته (وتمسك بعده) وانظر الأماشي النحوية لابن الحاجب

(٢/١٥٧) ، وانظر شرح شواهد الكشف (٥١٦/٤) ، الأشباه والنظائر (٢١٦/٣) ، الحماسة (٢٤٤/١) .

(٣) هذا صدر بيت من الوافر ، انظر المفضليات ص (٣١٤) ، شرح شواهد الكشف (٣٢٨/٤) ، السيرة النبوية (١٢٣/١) .

﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ أي : جعلناه صافياً من الأدناس ، واصطفاه بالرسالة ، والخلة ، والكلمات التي وفي ، ووصى بها ، وبناء البيت ، والإمامة ، واتخاذ مقامه مصلى ، وتطهير البيت ، والنجاة من نار نمرود ، والنظر في النجوم ، وأذانه بالحج ، وإراءته مناسكه إلى غير ذلك مما ذكر الله في كتابه من خصائصه ووجوه اصطفائه ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ ذكر تعالى كرامة إبراهيم في الدارين بأن كان في الدنيا من صفوته ، وفي الآخرة من المشهود له بالاستقامة في الخير ، ومن كان بهذه الصفة فيجب على كل أحد أن لا يعدل عن ملته ، وهاتان الجملتان مؤكدتان أما الأولى فباللام ، وأما الثانية فبإين ، وباللام ، ولما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى مزيد تأكيد بخلاف حال الدنيا ، فإن أرباب المآل قد علموا اصطفاء الله له في الدنيا بما شاهدوه منه ونقلوه جيلاً بعد جيل ، وأما كونه في الآخرة من الصالحين فأمر مغيب عنهم يحتاج فيه إلى إخبار من الله تعالى فأخبر الله به مبالغاً في التوكيد ، وفي الآخرة متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده أي : وإنه لصالح في الآخرة ، وقال بعضهم : هو على إضمار - أعني - فهو للبين كلك بعد سقيا ، وإنما لم يتعلق بالصالحين ، لأن اسم الفاعل في صلة الألف ، واللام ، ولا يتقدم معمول الوصف إذ ذاك ، وكان بعض شيوخنا يجوز ذلك إذا كان المعمول ظرفاً ، أو جاراً ومجروراً قال : لأنهما يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما ، وجوزوا أن تكون الألف ، واللام غير موصولة بل معرفة كهي في الرجل ، وأن يتعلق المجرور باسم الفاعل إذ ذاك ، وقيل : في الآخرة أي : في عمل الآخرة فيكون على حذف مضاف ، وقيل : الآخرة هنا البرزخ ، والصالح ما يتبعه من الثناء الحسن في الدنيا ، وقيل : الآخرة يوم القيامة وهو الأظهر ، قال « ابن عباس » لمن الواردين موارد قدسه ، والحالين مواطن أنسه ، وقال الحسن بن الفضل : في الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : ولقد اصطفيناه في الدنيا وفي الآخرة ، وإنه لمن الصالحين ، وهذا الذي ذهب إليه خطأ ينزه كتاب الله عنه

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذا من الالتفات إذ لو جرى على الكلام السابق لكان إذ قلنا له أسلم ، وعكسه في الخروج من الغائب إلى

الخطاب قوله :

بَاتَتْ تَشْكِي إِلَى النَّفْسِ مُجْهَشَةً وَقَدْ حَمَلَتْكَ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينَ

والعامل في إذ قال أسلمت ، وقيل : ولقد اصطفيناه أي : اخترناه في ذلك الوقت وجوز بعضهم أن يكون بدلاً من قوله (في الدنيا) وأبعد من جعل إذ قال في موضع الحال من قوله (ولقد اصطفيناه) وجعل العامل في الحال اصطفيناه ، وقيل : محذوف تقديره : اذكر ، وعلى تقدير أن العامل اصطفيناه ، أو اذكر المقدرة يبقى قوله (قال أسلمت) لا ينتظم مع ما قبله إلا أن قدر يقال : فحذف حرف العطف أو جعل جواباً لكلام مقدر أي : ما كان جوابه قال : أسلمت ، وهل القول هنا على بابه فيكون ذلك بوحى من الله وطلب أم هذا كناية عما جعل الله في سجيته من الدلائل المفضية إلى الوجدانية وإلى شريعة الإسلام ، فجعلت الدلالة قولاً على سبيل المجاز ، وإذا حمل على القول حقيقة ، فاختلّفوا متى قيل له ذلك فالأكثر على أنه قيل له ذلك قبل النبوة وقبل البلوغ ، وذلك عند استدلاله بالكوكب ، والقمر والشمس ، واطلاعه على أمارات الحدوث فيها ، وإحاطته بافتقارها إلى مدبر يخالفها في الجسمية وأمارات الحدوث فلما عرف ربه قال تعالى (له أسلم) ، وقيل : كان بعد النبوة فتؤول الأمر بالإسلام على أنه بالثبات والديمومة إذ هو متحل به وقت الأمر ويكون الإسلام هنا على بابه ، والمعنى على شريعة الإسلام ، وقيل : الإسلام هنا غير المعروف ، وأول على وجوه فقال « عطاء » : معناه سلم نفسك ، وقال « الكلبي » ، و « ابن كيسان » : أخلص دينك ، وقيل : اخضع واخضع لله ، وقيل : اعمل بالجوارح ، لأن الإيمان هو صفة القلب ، والإسلام هو صفة

الجوارح فلما كان مؤمناً بقلبه كلفه بعد عمل الجوارح وفي قوله (أسلم) تقدير محذوف أي : أسلم لربك ، وأجاب بأنه أسلم لرب العالمين فتضمن أنه أسلم لربه ، لأنه فرد من أفراد العموم ، وفي العموم من الفخامة ما لا يكون في الخصوص ، لذلك عدل عن أن يقول : أسلمت لربي ، ومن كان رباً للعالمين ينبغي أن يكون جميعهم مسلمين له متقادين .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة ابتداء قصص إبراهيم عليه السلام ، فذكر أولاً ابتلاءه بالكلمات ، وإتمامه إياهن واستحقاقه الإمامة بذلك على الناس كلهم في زمانه ، وسؤال إبراهيم الإمامة لذريته شفقة عليهم ومحبة منه لهم وإثارة أن يكون في ذريته من يخلفه في الإمامة ، وإجابة الله له بأن عهده لا يناله ظالم ، وفي طيه أن من كان عادلاً قد ينال ذلك ، وكان في ابتداء قصص إبراهيم بنيه ، وذريته من بني إسرائيل وغيرهم على فضيلته وخصوصيته عند الله تعالى ليكون ذلك حاملاً لهم على اتباعه ؛ فإنه إذا كان للشخص والد متصف بصفات الكمال ، أوشك ولده أن يتبعه وأن يسلك بهجه لما في الطبع من اتباع الآباء والافتقار لآثارهم ، ألا ترى إلى قوله ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، ثم ذكر تعالى شرف البيت الحرام ، وجعله مقصداً للناس يؤمنون إليه ، وملجأً يأمنون فيه ، وأمره تعالى للناس بالاتخاذ من مقام إبراهيم مصلى ، فحصل لهم الاقتداء بأن جعل مقامه مكان عبادة ومحل إجابة ، ثم ذكر عهده لإبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت حيث صار محل عبادة لله تعالى ومكان عبادة الله تعالى يجب أن يكون مطهراً من الأرجاس والأنجاس ، وأشار بتطهير المحل إلى تطهير الحال فيه ظاهراً وباطناً ، وإلى تطهير ما يقع فيه من العبادة بالإخلاص لله تعالى فلا ينجس بشيء من الرياء ، بل يطهر باخلاصها لله تعالى ، ثم أشار إلى من طهر البيت لأجله وهم الطائفون ، والعاكفون ، والمصلون ، فبه على هذه العبادات التي تكون في البيت ودل على أن البيت لا يصلح بشيء من أمور الدنيا كالبيع ، والشراء ، وعمل الصنائع ، والحرف والخصومات ، وأنه إنما هيء لوقوع العبادات فيه ، ثم ذكر دعاء إبراهيم ربه بجعل هذا البيت محل أمن ، ودعائه لهم بالخصب ، والرزق ، وتخصيص ذلك الدعاء بالمؤمنين ، إذ الأمن ، والخصب ، هما سببان لعمارة هذا البيت وقصد الناس له ، ثم أخبر الله تعالى أن من كفر فتمتيعه قليل ، ومآله إلى النار ليكون التخويف حاملاً على التقيد بالإيمان ، والانقياد للطاعات وليلد على أن الرزق في الدنيا ليس مختصاً بمن آمن ، بل رزق الله يشترك فيه البر والفاجر ، ثم ذكر رفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت وما دعوا به إذ ذاك من طلب تقبل ما يعلنانه ، والثبات على الإسلام والدعاء بأن يكون من ذريتهما مسلمون وإراءة المناسك ، والتوبة ، وبعثة رسول من أمته يهديهم إلى طريق الإسلام بما يوحى إليه من عند الله ويطهرهم من الجرائم والآثام ، فدل ذلك على مشروعية الأدعية الصالحة عند الالتباس بالعبادات وأفعال الطاعات ، وأن ذلك الوقت مظنة إجابة ، وفي ذلك جواز الدعاء للملتبس بالطاعة ولمن أحب أن يدعوله ، وختم كل دعاء بما يناسبه مما قبله ، ولم يكن في هذا الدعاء شيء متعلق بأحوال الدنيا إنما كان كله دعاء بما يتعلق بأمور الدين فدل ذلك على عدم اكتراث إبراهيم وابنه إسماعيل بأحوال الدنيا حالة بناء هذا البيت ورفع قواعده ، وقد تقدم دعاؤه بالأمن ، والخصب لكن كان ذلك بعد أن كمل البيت وفرغ من التعبد ببنائه ورفع قواعده ، ثم ذكر شرف إبراهيم وطواعيته لربه واختصاصه في زمانه بالإمامة وصيرورته مقتدى به ذكر أنه لا يرغب عن طريقته إلا خاسر الصفقة ، لأنه المصطفى في الدنيا الصالح في الآخرة وختم ذلك بانقياده لأمر الله تعالى فأول قصته إتمامه ما كلفه الله به وآخرها التسليم لله ، والانقياد إليه ﷺ .

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣٢] أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَأُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٤﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَلُّوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٦﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٧﴾

الوصية : العهد وصى^(١) بنه اي : عهد إليهم وتقديم إليهم بما يعمل به مقتراً بوعظ ووصى * وأوصى لغتان : إلا أنهم قالوا : إن وصى المشدد يدل على المبالغة والتكثير ، يعقوب اسم أعجمي ممنوع الصرف للعلمية والعجمة الشخصية ويعقوب^(٢) : عربي وهو : ذكر القبيح وهو مصروف ، ولو سمي بهذا لكان مصروفاً ، ومن زعم أن يعقوب النبي إنما سمي يعقوب ، لأنه هو وأخوه العيص توأمان فخرج العيص أولاً ثم خرج هو يعقوبه ، أو سمي بذلك لكثرة عقبه فقله فاسد إذ لو كان كذلك لكان له اشتقاق عربي فكان يكون مصروفاً ، الحضور : الشهود تقول : منه حضر بفتح العين وفي المضارع يحضر بضمها ، ويقال : حضر بكسر العين وقياس المضارع أن يفتح فيه فيقال : يحضر لكن العرب استغنت فيه بمضارع فعل المفتوح العين فقالت حضر يحضر بالضم ، وهي ألفاظ شذت فيها العرب فجاء مضارع فعل المكسور العين على يفعل بضمها قالوا نعم ينعم ، وفضل يفضل ، وحضر يحضر ، ومت تموت ، ودمت تدوم ، وكل هذه جاء فيها فعل بفتح العين ، فلذلك استغني بمضارعه عن مضارع فعل كما استغنت فيه بفعل بكسر العين عن يفعل بفتحها قالوا : ضللت بكسر العين ، تضل بالكسر ، لأنه يجوز فيه ضللت بفتح العين ، « إسحاق » : اسم أعجمي لا ينصرف للعلمية والعجمة الشخصية ، وإسحاق مصدر أسحق ، ولو سميت به لكان مصروفاً وقالوا : في الجمع أساحقة وأساحيق ، وفي جمع يعقوب يعاقبة ، ويعاقيب ، وفي جمع إسرائيل أسارلة ، وجوز الكوفيون : في إبراهيم ، وإسماعيل براهمة ، وسماعلة ، والهاء بدل من الياء كما في زنادقة ، وزناديق ، و « قال أبو العباس » : هذا الجمع خطأ ، لأن الهمزة ليست زائدة ، والجمع أباره وأسابع ، ويجوز أباريه ، وأساميع والوجه : أن يجمع هذه جمع السلامة فيقال : إبراهيمون ، وإسماعيلون ، وإسحاقون ، ويعقوبون ، وحكى الكوفيون : أيضاً براهم ، وسماعل ، وأسحاق ، ويعاقب بغير ياء ، ولا هاء ، وقال « الخليل » ، و « سيبويه » : « براهيم » ، و « سماعيل » ، ورد « أبو العباس » : على من أسقط الهمزة ، لأن هذا ليس موضع زيادتها وأجاز ثعلب ، براء كما يقال : في التصغير بربه ، وقال « أبو جعفر » الصفار : أما إسرائيل فلا نعلم أحداً يجيز حذف الهمزة من أوله ، وإنما يقال : أساريل ،

(١) أوصى الرجل ووصاه : عهد إليه . . . وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه : إذا جعلته وصيك - لسان العرب (٦/ ٤٨٥٣) .

(٢) اليعقوب : الذكر من الحجل والقطا ، وهو مصروف لأنه عربي لم يغير وإذا كان مزيداً في أوله ، فليس على وزن الفعل - لسان العرب

وحكى الكوفيون : أسارلة وأسارل انتهى . وقد تقدّم لنا الكلام في شيء من نحو جمع هذه الأشياء واستوفى النقل هنا ، الحنف^(١) : لغة الميل وبه سمي الأحنف لميل كان في إحدى قدميه عن الأخرى ، قال الشاعر :

وَاللَّهِ لَوْلَا حَنْفٌ فِي رِجْلِهِ مَا كَانَ فِي صَبْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

و « قال ابن قتيبة » : الحنف الاستقامة ، وسمي الأحنف على سبيل التفاؤل كما سمي اللديغ سليماً ، وقال « القفال » : الحنف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات ، وقال « عمر » :

حَمِدْتُ اللَّهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالَّذِينَ الْحَنِيفِ

وقال « الزجاج » : الحنيف المائل عما عليه العامة إلى ما لزمه ، وأنشد :

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينٍ

الأسباط جمع سبط وهم في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل وهم ولد يعقوب اثنا عشر لكل واحد منهم أمة من الناس وسيأتي ذكر أسمائهم سموا بذلك من السبط وهو : التابع فهم جماعة متتابعون ويقال : سبط عليه العطاء إذا تابعه ويقال : هو مقلوب سبط ، ومنه السباطة ، والسباط ويقال : للحسن ، والحسين سبطا رسول الله ﷺ سموا بذلك لكثرتهم وانبساطهم وانتشارهم ثم صار إطلاق السبط على ابن البنت فيقال : سبط أبي عمر بن عبد البر ، وسبط حسين بن منده ، وسبط السلفي في أولاد بناتهم ، وقيل : أصل الأسباط من السبط وهو الشجر الملتف والسبط الجماعة الراجعون إلى أصل واحد ، الشقاق^(٢) : مصدر شاقه كما تقول : ضارب ضراباً وخالف خلافاً ومعناه : المعادة والمخالفة وأصله : من الشق أي : صار هذا في شق ، وهذا في شق ، والشق الجانب كما قال الشاعر :

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْحَرَفَتْ لَهُ بِشَقٍّ وَشَقٌّ عِنْدَنَا لَمْ يُحَوَّلْ

وقيل : هو من المشقة ، لأن كل واحد منهما يحرص على ما يشق على صاحبه ، الكفاية : الإحساب كفاني كذا أي : أحسبني قال الشاعر :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَّانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

أي : أغناني قليل من المال ، الصبغة : فعلة من صبغ ، كالجلسة من جلس ، وأصلها ، الهيئة التي يقع عليها الصبغ والصبغ المصبوغ به ، والصبغ المصدر وهو تغيير الشيء بلون من الألوان ، وفعله على فعل بفتح العين ، ومضارع المشهور فيه يفعل بضمها ، والقياس الفتح إذ لامه حرف حلق ، وذكر لي عن شيخنا أبي العباس أحمد بن

(١) الحنف في القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإبهامها ، وكذلك هو في الحافر في اليد والرجل ، وقيل : هو ميل كل واحدة من الإبهامين على صاحبها ، حتى يرى شخص أصلها خارجاً ، وقيل : هو انقلاب القدم حتى يصير بطنها ظهرها ، وقيل : ميل في صدر القدم - لسان العرب (١٠٢٥/٢) .

(٢) الشقاق : غلبة العداوة والخلاف ، شاقه مشاقّة وشقاقاً : خالفه - لسان العرب (٢٣٠١/٤) .

يوسف بن علي الفهري^(١) ، عرف بالليلي وهو شارح الفصيح : أنه ذكر فيه ضم الباء في المضارع والفتح ، والكسر ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين ﴾ .

قرأ « نافع » ، و « ابن عامر » ، وأوصى ، وقرأ الباقون : ووصى ، قال « ثعلب » : أملى عليّ « خلف بن هشام » البزاز ، قال اختلف مصحف أهل المدينة ، وأهل العراق في اثني عشر حرفاً ، كتب أهل المدينة وأوصى ، وسارعوا ، يقول ، الذين آمنوا من يرتدد ، الذين اتخذوا ، مسجداً خيراً منهما ، فتوكل ، وأن يظهر ، بما كسبت أيديكم ، ما تشتهي النفس ، فإن الله الغني ، ولا يخاف عقباها (وكتب أهل العراق) ووصى ، ﴿ سارعوا ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، ويقول : ﴿ من يرتد ﴾ [المائدة : ٥٤] ، ﴿ والذين اتخذوا ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ خيراً منها ﴾ [الكهف : ٣٦] ، ﴿ وتوكل ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، ﴿ أن يظهر ﴾ [غافر : ٢٦] ، ﴿ فيما كسبت أيديكم ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ﴿ ما تشتهي ﴾ [فصلت : ٣١] ، ﴿ فإن الله هو ﴾ ، ﴿ فلا يخاف ﴾ [طه : ١١٢] ، وبها متعلق بأوصى ، والضمير عائد على الملة في قوله (ومن يرغب عن ملة إبراهيم) وبه ابتداء « الزمخشري »^(٢) : ولم يذكر « المهدوي » غيره ، أو على الكلمة التي هي قوله أسلمت لرب العالمين ، ونظيره وجعلها كلمة باقية في عقبه حيث تقدم ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ [الزخرف : ٢٦] ، وبهذا القول ابتداء « ابن عطية » وقال : هو أصوب ، لأنه أقرب مذكور ورجح العود على الملة بأنه يكون المفسر مصرحاً به وإذا عاد على الكلمة كان غير مصرح به وعوده على المصرح أولى من عوده على المفهوم ، وبأن عوده على الملة أجمع من عوده على الكلمة إذ الكلمة بعض الملة ، ومعلوم أنه لا يوصى إلا بما كان أجمع للفلاح والفوز في الآخرة ، وقيل : يعود على الكلمة المتأخرة وهو قوله (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ، وقيل : على كلمة الإخلاص وهي لا إله إلا الله وإن لم يجر لها ذكر فهي مشار إليها من حيث المعنى إذ هي أعظم عمدة الإسلام ، وقيل : يعود على الوصية الدال عليها ووصى ، وقيل : يعود على الطاعة ، بنيه بنو « إبراهيم » « إسماعيل » وأمه هاجر القبطية ، و « إسحاق » ، وأمه سارة ، ومدين ومديان ، ونقشان ، وزمزان ، ونشق ، ونقش سورج ، ذكرهم الشريف النسابة « أبو البركات » محمد بن علي بن معمر الحسيني الجواني وغيره ، وأم هؤلاء الستة قطورا بنت يقطن الكنعانية ، هؤلاء الثمانية ولده لصلبه ، والعقب الباقي فيهم اثنان « إسماعيل » و « إسحاق » لا غير .

قرأ الجمهور ، و « يعقوب » بالرفع ، وقرأ « إسماعيل بن عبد الله المكي » ، و « الضرير » و « عمرو بن فائد الأسواري » ، بالنصب ؛ فأما قراءة الرفع فتحتمل وجهين . أحدهما : أن يكون معطوفاً على « إبراهيم » ويكون داخلاً في حكم توصية بنيه أي : ووصى يعقوب بنيه ويحتمل أن يكون مرفوعاً على الابتداء ، وخبره محذوف تقديره : قال يا بني إن الله اصطفى ، والأول أظهر ، وأما قراءة النصب فيكون معطوفاً على بنيه أي : ووصى بها نافلتة ، يعقوب وهو ابن ابنه إسحاق ، وبنو يعقوب يأتي ذكر أسمائهم عند الكلام على الأسباط ، يا بني : من قرأ ويعقوب بالنصب كان يا بني من مقولات « إبراهيم » ، ومن رفع على العطف فكذلك ، أو على الابتداء فمن كلام يعقوب وإذا جعلناه من كلام « إبراهيم » فعند البصريين هو على إضمار القول وعند الكوفيين لا يحتاج إلى ذلك ، لأن الوصية في معنى القول فكأنه

(١) أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغمري الليلي يسكن الموحدة بين لامين أولاها مفتوحة ، الأستاذ أبو جعفر النحوي اللغوي المقرئ أحد مشاهير أصحاب الشلوطين توفي بتونس في المحرم سنة إحدى وتسعين وستمائة - البغية (٤٠٢/١ - ٤٠٣) .

(٢) انظر الكشف (١٩١/١) .

قال قال : « إبراهيم » لبنيه يا بني ونحوه قول الراجز :

رَجُلَانِ مِنْ ضَبَّةٍ أَخْبَرَانَا أَنَا رَأَيْنَا رَجُلًا عُرْيَانَا

بكسر الهمزة على إضمار القول ، أو معمولاً لأخبرانا على المذهبين ، وفي النداء لمن بحضرة المنادي وكون النداء بلفظ البنين مضافين إليه تلطف غريب وترجئة للقبول وتحريك ، وهز لما يلقي إليهم من أمر الموافقة على دين الإسلام الذي ينبغي أن يتلطف في تحصيله ولذلك صدر كلامه بقوله (إن الله اصطفى لكم الدين) وما اصطفاه الله لا يعدل عنه العاقل .

وقرأ « أبي » ، و « عبد الله » ، و « الضحاك » : أن يا بني فيعين أن تكون أن هنا تفسيرية بمعنى أي : ولا يجوز أن تكون مصدرية ، لأنه لا يمكن انسباك مصدر منها ومما بعدها ، ومن لم يثبت معنى التفسير ، لأن جعلها هنا زائدة وهم الكوفيون ، إن الله اصطفى لكم الدين أي : استخلصه لكم وتخيره لكم صفوة الأديان والألف واللام في الدين للعهد لأنهم كانوا قد عرفوه وهو دين الإسلام ﴿ فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ هذا استثناء من الأحوال أي : إلا على هذه الحالة ، والمعنى الثبوت على الإسلام ، والنهي في الحقيقة إنما هو عن كونهم على خلاف الإسلام ، لا أن ذلك نهي عن الموت ، ونظير ذلك في الأمر : مت وأنت شهيد ، لا يكون أمراً بالموت ، بل أمر بالشهادة ؛ فكأنه قال لتشهد في سبيل الله ، وذكر الموت على سبيل التوطئة للشهادة ، وقد تضمن هذا الكلام إيجازاً بليغاً ، ووعظاً ، وتذكيراً ، وذلك أن الإنسان يتيقن بالموت ، ولا يدري متى يفاجئه فإذا أمر بالتبأس بحالة لا يأتيه الموت إلا عليها كان متذكراً للموت دائماً إذ هو مأمور بتلك الحالة دائماً ، وهذا على الحقيقة نهي عن تعاطي الأشياء التي تكون سبباً للموافاة على غير الإسلام ونظير ذلك قولهم : لا أرينك هنا ، لا ينهي نفسه عن الرؤية ، ولكن المعنى على النهي عن حضوره في هذا المكان فيكون يراه فكأنه قال : اذهب عن هذا المكان ، ألا ترى أن المخاطب ليس له أن يحجب إدراك الأمر عنه إلا بالذهاب عن ذلك المكان فأتى بالمقصود بلفظ يدل على الغضب ، والكرهية ، لأن الإنسان لا ينهي إلا عن شيء يكره وقوعه ، وقد اشتملت هذه الجملة على لطائف .

منها : الوصية ، ولا تكون إلا عند خوف الموت ، ففي ذلك ما كان عليه « إبراهيم » من الاهتمام بأمر الدين حتى وصى به من كان ملتبساً به إذ كان بنوه على دين الإسلام .

ومنها : اختصاصه ببنيه ولا يختصهم إلا بما فيه سلامة عاقبتهم .

ومنها : أنه عمم بنيه ولم يخص أحداً منهم كما جاء في حديث « النعمان بن بشير » ، حين نحله أبوه شيئاً فقال له رسول الله ﷺ « أتحب أن يكونوا لك في البر سواء ورد نحله إياه وقال لا أشهد على جور » .

ومنها : إطلاق الوصية ، ولم يقيد بها بزمان ، ولا مكان ، ثم ختمها بأبلغ الزجر أن يموتوا غير مسلمين ، ثم التوطئة لهذا النهي والزجر بأن الله تعالى هو الذي اختار لكم دين الإسلام فلا تخرجوا عما اختاره الله لكم ، قال المؤرخون : نقل « إبراهيم » ولده « إسماعيل » إلى مكة وهو رضيع وقيل : ابن سنتين ، وقيل : ابن أربع عشرة سنة ، وولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة ، ومات وله مائة وثلاثون سنة ، وكان « لإسماعيل » لما مات أبوه « إبراهيم » تسع وثمانون سنة ، وعاش « إسحاق » مائة وثمانين سنة ومات بالأرض المقدسة ، ودفن عند أبيه « إبراهيم » ، وكان بين وفاة أبيه « إبراهيم » ، ومولد « محمد » ﷺ ، نحو من ألفي سنة وستمائة سنة ، واليهود تنقص من ذلك نحواً من أربعمائة

سنة ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴾ نزلت في اليهود قالوا : ألسنت تعلم أن « يعقوب » يوم مات أوصى بنيه باليهودية . قال « الكلبي » : لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيرين فجمع بنيه ، وخاف عليهم ذلك فقال لهم (ما تعبدون من بعدي) فأنزل الله هذه الآية إعلماً لبنيه بما وصى به يعقوب ، وتكذيباً لليهود ، وأم هنا منقطعة تتضمن معنى بل . همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتقدير : بل أكنتم شهداء ، فمعنى الإضراب : الانتقال من شيء إلى شيء لا . لك إبطال لما قبله ، ومعنى الاستفهام هنا التقرير والتوبيخ وهو في معنى النفي أي : ما كنتم شهداء فكيف تنسبون إليه ما لا تعلمون ، ولا شهدتموه أنتم ولا أسلافكم ، وقيل : أم هنا بمعنى بل ، والمعنى بل كنتم أي : كان أسلافكم ، أو نزلهم منزلة أسلافهم إذ كان أسلافهم قد نقلوا ذلك إليهم ، وفي إثبات ذلك إنكار عليهم ما نسبوه إلى يعقوب من اليهودية ، والخطاب في كنتم لمن كان بحضرة رسول الله ﷺ من أحبار اليهود والنصارى ورؤسائهم ، وقال « ابن عطية » : قال لهم على جهة التقرير والتوبيخ : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى ، فتدعون عن علم أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون ، و « أم » تكون بمعنى ألف الاستفهام في صدر الكلام لغة يمانية انتهى ما ذكره ، ولم أقف لأحد من النحويين على أن « أم » يستفهم بها في صدر الكلام ، وأين ذلك ، وإذا صح النقل فلا مدفع فيه ولا مطعن ، وحكى « الطبري » أن « أم » يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره ، وهذا منه ، ومنه (أم يقولون افتراه) انتهى وهذا أيضاً قول غريب ، وتلخص أن « أم » هنا فيها ثلاثة أقوال : المشهور أنها هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، الك : أنها للإضراب فقط بمعنى بل ، الثالث : بمعنى همزة الاستفهام فقط ، وقال « الزمخشري »^(١) الخطاب للمؤمنين بمعنى ما شاهدتم ذلك وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي وقيل : الخطاب لليهود لأنهم كانوا يقولون : ما مات نبي إلا على اليهودية إلا أنهم لو شهدوه ولو سمعوا ما قاله لبنيه وما قالوه لظهر لهم حرصه على ملة الإسلام ، ولما ادعوا عليه اليهودية فالآية منافية لقولهم ، فكيف يقال لهم (أم كنتم شهداء) ولكن الوجه أن تكون أم متصلة على أن يقدر قبلها محذوف كأنه قيل ألدعون على الأنبياء اليهودية (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) يعني أن أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ أراد بنيه على التوحيد وملة الإسلام ، فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه براء انتهى كلامه ، وملخصه أنه جعل « أم » متصلة ، وأنه حذف قبلها ما يعادلها ، ولا نعلم أحداً أجاز حذف هذه الجملة ، ولا يحفظ ذلك لا في شعر ولا غيره ، فلا يجوز : أم زيد ، وأنت تريد أقام « عمرو » أم زيد ؟ ولا أم قام خالد ؟ وأنت تريد أخرج زيد أم قام خالد ؟ والسبب في أنه لا يجوز الحذف أن الكلام في معنى : أي الأمرين وقع ؟ فهي في الحقيقة جملة واحدة ، وإنما يحذف المعطوف عليه ويبقى المعطوف مع الواو والفاء إذا دل على ذلك دليل نحو قولك : بلى وعمراً جواباً لمن قال : ألم تضرب زيداً ونحو قوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت ﴾ [البقرة : ٦٠] ، أي فضرب فانفجرت ، ونذر حذف المعطوف عليه مع « أو » نحو قوله :

فَهَلْ لَكَ أَوْ مِنْ وَالِدٍ لَكَ قَبْلَنَا

أراد فهل لك من أخ أو من والد ، ومع حتى على نظر فيه في قوله :

فَيَا عَجَبًا حَتَّى كُتِبَ نَسْبِي

أي يسبني الناس حتى كليب لكن الذي سمع من كلام العرب حذف أم المتصلة مع المعطوف قال :

(١) انظر الكشف (١/ ١٩٢) .

(٢) البيت من الطويل للفرزدق ديوانه (٥١٨/١) ، الخزائن (١١٤/٩) ، الكتاب (١٨/٣) ، الدرر (٣١/٢) ، الهمع (٢٤/٢) ،

ابن يعيش (١٨/٨) ، شرح شواهد المغني ص (١٢ - ٣٧٨) ، المقترض (٤١/٢) .

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهَا سَمِيعٌ فَمَا أَذْرِي أُرْشِدُ طِلَابُهَا^(١)

يريد أم غير رشد ، فحذف لدلالة الكلام عليه ، وإنما جاز ذلك لأن المستفهم عن الإثبات يتضمن نقيضه ، فالمعنى أقام « زيد » أم لم يقم ؟ ولذلك صلح الجواب أن يكون بنعم وبلا ، فلذلك جاز ذلك في البيت في قوله : أرشد طلابها أي أم غير رشد ، ويجوز حذف الثواني المقابلات إذا دل عليها المعنى ألا ترى إلى قوله ﴿ تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] ، كيف حذف والبرد ، إذ حضر العامل في (إذ شهداء) وذلك على جهة الظرف لا على جهة المفعول كأنه قيل : حاضري كلامه في وقت حضور الموت ، وكنى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسه لا يقول المحتضر شيئاً ومنه ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ [إبراهيم : ١٧] ، أي : ويأتيه دواعيه وأسبابه وقال الشاعر :

وَقُلْ لَهُمْ بَادِرُوا بِالْعُذْرِ وَالتَّمِسُوا قَوْلًا يُبَرِّئُكُمْ إِنِّي أَنَا الْمَوْتُ

وفي قوله : حضر كناية غريبة أنه غائب لا بد أن يقدم ، ولذلك يقال في الدعاء واجعل الموت خير غائب ننتظره ، وقرئ (حضر) بكسر الضاد ، وقد ذكرنا أن ذلك لغة ، وأن مضارعها بضم الضاد شاذ ، وقدم المفعول هنا على الفاعل للاعتناء ﴿ إذ قال لبنيه ﴾ إذ بدل من إذ في قوله (إذ حضر) ، فالعامل فيه إما شهداء العاملة في إذ الأولى على قول من زعم أن العامل في البذل العامل في المبدل منه ، وإما شهداء مكررة ، على قول من زعم أن البذل على تكرار العامل ، وزعم « القفال » أن « إذ » وقت للحضور ، فالعامل فيه حضر ، وهو يؤول إلى اتحاد الطرفين ، وإن اختلف عاملهما ﴿ ما تعبدون من بعدي ﴾ ما استفهام عما لا يعقل ، وهو اسم تام منصوب بالفعل بعده ، فعلى قول من زعم أن « ما » مبهمة في كل شيء يكون هنا : يقع على من يعقل وما لا يعقل ، لأنه قد عبد بنو آدم والملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والأوثان المنحوتة ، وأما من يذهب إلى تخصيص « ما » بغير العاقل ، فقليل هو سؤال عن صفة المعبود ، لأن ما يسأل بها عن الصفات تقول ما زيد أفضيه أم شاعر ؟ ، وقيل سأل بما لأن المعبودات المتعارفة في ذلك الوقت كانت جمادات ، كالأوثان والنار والشمس والحجارة ، فاستفهم بما التي يستفهم بها عما لا يعقل ، وفهم عنه بنوه فأجابوه بأننا لا نعبد شيئاً من هؤلاء ، وقيل استفهم بما عن المعبود تجربة لهم ، ولم يقل من لثلاث يطرّق لهم الاهتداء ، وإنما أراد أن يختبرهم وينظر ثبوتهم على ما هم عليه ، وظاهر الكلام أنه استفهم عن الذي يعبدون أي العبادة المشروعة ، وقال « القفال » : دعاهم إلى أن لا يتحرّوا في أعمالهم غير وجه الله تعالى ، ولم يخف عليهم الاشتغال بعبادة الأصنام ، وإنما خاف عليهم أن تشغلهم دنياهم وفي ذلك دليل على أن شفقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أولادهم كانت في باب الدين وهمتهم مصروفة إليهم ، (من بعدي) يريد من بعد موتي ، وحكي أن « يعقوب » عليه السلام حين خير كما يخير الأنبياء اختار الموت ، وقال : أمهلوني حتى أوصي بني وأهلي فجمعهم ، وقال لهم هذا القول ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ هذه قراءة الجمهور ، وقرأ أبي (وإله إبراهيم) بإسقاط آبائك ، وقرأ « ابن عباس » و « الحسن » و « ابن يعمر » و « الجحدري » و « أبو رجاء » (وإله أبيك) فأما على قراءة الجمهور « إبراهيم » وما بعده بدل من آبائك أو عطف بيان ، وإذا كان بدلاً فهو من البذل التفصيلي ، ولو قرئ فيه بالقطع لكان ذلك جائزاً ، وأجاز « المهدي » أن يكون « إبراهيم » وما بعده منصوباً على إضمار أعني ، وفيه دلالة على أن

(١) البيت من الطويل ، لأبي ذؤيب الهذلي ، انظر ديوان الهذليين ص (٧١ - ٧٢) ، الدرر اللوامع (١٧٢ / ٢) ، شرح شواهد المغني (٢٧ - ١٤٢) ، تلخيص الشواهد لابن هشام ص (١٤٠) ، الأشموني (١١٦ / ٣) .

العم يطلق عليه أب ، وقد جاء في العباس هذا بقية آبائي وردوا عليّ أبي وأنا ابن الذبيحين على القول الشهير أن الذبيح هو إسحاق ، وفيه دلالة على أن الجدّ يسمى أباً لقوله (وإله آبائك إبراهيم) و « إبراهيم » جدّ ليعقوب ، وقد استدل « ابن عباس » بذلك وبقوله (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) على تورث الجدّ دون الإخوة وإنزاله منزلة الأب في الميراث عند فقد الأب ، وأن لا يختلف حكمه ، وحكم الأب في الميراث إذا لم يكن أب ، وهو مذهب الصديق وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو قول « أبي حنيفة » ، وقال « زيد بن ثابت » : هو بمنزلة الإخوة ما لم تنقصه المقاسمة من الثلث ، فيعطى الثلث ، ولم ينقص منه شيئاً ، وبه قال « مالك » و « أبو يوسف » و « الشافعي » وقال علي : هو بمنزلة أحد الإخوة ما لم تنقصه المقاسمة من السدس فيعطى السدس ولم ينقص منه شيئاً ، وبه قال « ابن أبي ليلى » : وحجج هذه الأقوال في كتب الفقه ، وأما قراءة أبي فظاهرة وأما على قراءة « ابن عباس » ومن ذكر معه فالظاهر أن لفظ (أباك) أريد به الأفراد ويكون « إبراهيم » بدلاً منه أو عطف بيان ، وقيل هو جمع سقطت منه النون للإضافة فقد جمع أب على أبيين نصباً وجراً ، وأبون رفعاً ، حكى ذلك « سيويه » ، وقال « الشاعر » :

فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَصَوَاتُنَا بَكَيْنَ وَفَدَيْنَا بِالْأَيْنَا^(١)

وعلى هذا الوجه يكون إعراب « إبراهيم » مثل إعرابه حين كان جمع تكسير ، وفي إجابته له بإظهار الفعل تأكيد لما أجابوه به ، إذ كان يجوز أن يقال : قالوا إلهك ، فتصريحهم بالفعل تأكيد في الجواب أنه مطابق للسؤال ، أعني في العامل الملفوظ به في السؤال ، وإضافة الإله « إلى يعقوب » فيه دليل على اتحاد معبود السائل والمجيب لفظاً ، وفي قوله (وإله آبائك) دليل على اتحاد المعبود أيضاً من حيث اللفظ ، وإنما كرر لفظ (وإله) لأنه لا يصح العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة جازه إلا في الشعر أو على مذهب من يرى ذلك ، وهو عنده قليل ، فلو كان المعطوف عليه ظاهر المكان حذف الجار إذا كان اسماً أولى من إثباته ، لما يوهم إثباته من المغايرة ، فإن حذفه يدل على الاتحاد ، وبدأ أولاً بإضافة الإله إلى يعقوب لأنه هو السائل ، وقدم إبراهيم لأنه الأصل ، وقدم « إسماعيل » على إسحاق لأنه أسنّ أو أفضل ، لكون رسول الله ﷺ من ذريته ، وهو في عمود نسبه ، واقتصر على هؤلاء لأنهم كانوا خير الناس في أزمانهم ، ولم يعم لأن الناس كان لهم معبودون كثيرون دون الله ﴿ إلهاً واحداً ﴾ يجوز أن يكون بدلاً وهو بدل نكرة موصوفة من معرفة ، ويجوز أن يكون حالاً ويكون حالاً موطئة نحو : رأيتك رجلاً صالحاً ، فالمقصود إنما هو الوصف ، وجيء باسم الذات توطئة للوصف ، وجوز « الزمخشري »^(٢) أن ينتصب على الاختصاص أي : يريد بإلهك إلهاً واحداً ، وقد نص النحويون على أن المنصوب على الاختصاص لا يكون نكرة ولا مبهماً ، وفائدة هذه الحال أو البديل هو التنصيص على أن معبودهم واحد فرد ، إذ قد توهم إضافة الشيء إلى كثيرين تعداد ذلك المضاف ، فنهض بهذه الحال أو البديل على نفي ذلك الإيهام ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي : منقادون ، لما ذكر الجواب بالفعل الذي هو نعبد لأن العبادة متجددة دائماً ، ذكر هذه الجملة الاسمية المخبر عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الدال على الثبوت ، لأن الانقياد لا ينفكون عنه دائماً ، وعنه تكون العبادة فيكون قوله (ونحن له مسلمون) أحد جملتي الجواب ، فأجابوه بشيئين : أحدهما : الذي سأل عنه ، والثاني : مؤكداً لما أجابوا به ، فيكون من باب الجواب المربي على السؤال ، وأجاز بعضهم أن تكون الجملة حالية من الضمير في نعبد ، والأول أبلغ ، وهو أن تكون الجملة معطوفة على قوله

(١) البيت من المتقارب لزياد بن واصل السلمي ، شرح أبيات سيويه للسيرافي (٢٨٤/٢) ، لسان العرب م (أبي) .

(٢) انظر الكشف (١٩٣/١) .

نعبد ، فيكون أحد شقي الجواب ، وأجاز « الزمخشري »^(١) أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة ، أي : ومن حالنا أنا نحن مسلمون مخلصون التوحيد أو مذعنون ، والذي ذكره النحويون أن جملة الاعتراض هي الجملة التي تفيد تقوية بين جزأي موصول وصلة نحو قوله :

مَاذَا وَلَا عَتَبَ فِي الْمَقْدُورِ رُمْتُ أَمَا تَخْطِيكَ بِالنُّجَحِ أَمْ خُسْرٌ وَتَضْلِيلٌ^(٢)

وقال :

ذَاكَ الَّذِي وَأَيْبِكَ يَعْرِفُ مَالِكاً وَالْحَقُّ يَدْفَعُ تُرْهَاتِ الْبَاطِلِ^(٣)

أو بين جزأي إسناد ، نحو قوله :

وَقَدْ أَذْرَكْتَنِي وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ أَسِنَّةٌ قَوْمٍ لَا ضِعَافَ وَلَا عُزْلَ^(٤)

أو بين فعل شرط وجزائه أو بين قسم وجوابه أو بين منعت ونعته أو ما أشبه ذلك مما بينهما تلازم ما ، وهذه الجملة التي هي قوله : (ونحن له مسلمون) ليست من هذا الباب لأن قبلها كلاماً مستقلاً وبعدها كلام مستقل ، وهو قوله (تلك أمة قد خلت) ، لا يقال : إن بين المشار إليه وبين الإخبار عنه تلازم يصح به أن تكون الجملة معترضة ، لأن ما قبلها من كلام « بني يعقوب » حكاة الله عنهم ، وما بعدها من كلام الله تعالى أخبر عنهم بما أخبر تعالى ، والجملة الاعتراضية الواقعة بين متلازمين لا تكون إلا من الناطق بالتلازمين يؤكد بها ويقوي ما تضمن كلامه ، فتبين بهذا كله أن قوله (ونحن له مسلمون) ليس جملة اعتراضية ، وقال « ابن عطية » (ونحن له مسلمون) ابتداء وخبر أي : كذلك كنا ونحن نكون ، ويحتمل أن يكون في موضع الحال ، والعامل نعبد ، والتأويل الأول أمدح انتهى كلامه ، ويظهر منه أنه جعل الجملة معطوفة على جملة محذوفة ، وهي قوله : كذلك كنا ولا حاجة إلى تكلف هذا الإضمار ، لأنه يصح عطفها على نعبد إلهك كما ذكرناه وقررناه قبل ، ومتى أمكن حمل الكلام على غير إضمار مع صحة المعنى كان أولى من حمله على الإضمار ، وفي المنتخب ما ملخصه تمسك بهذه الآية المقلدة ، وقالوا : إن أبناء « يعقوب » اكتفوا بالتقليد ولم ينكره هو عليهم فدل على أن التقليد كاف ، واستدل بها التعليمية قالوا : لا طريق لمعرفة الله تعالى إلا بتعليم الرسول والإمام ، فإنهم لم يقولوا نعبد الإله الذي دل عليه العقل بل قالوا لا نعبد إلا الذي أنت تعبد وأباؤك تعبد ، وهذا يدل على أن طريقة المعرفة التعلم ، وما ذهبوا إليه لا دليل في الآية عليه ، لأن الآية لم تتضمن إلا الإقرار بعبادة الإله والإقرار بالعبادة لله لا تدل على أن ذلك ناشئ عن تقليد ولا تعليم ولا أنه أيضاً ناشئ عن استدلال بالعقل فبطل تمسكهم بالآية ، وإنما لم تتعرض الآية للاستدلال العقلي ، لأنها لم تجيء في معرض ذلك ، لأنه إنما سألهم عما يعبدونه من بعد موته ، فأحالوه على معبوده ومعبود آبائه ، وهو الله تعالى ، وكان ذلك أخصر في القول من شرح صفاته تعالى من الوحدانية والعلم والقدرة ، وغير ذلك من صفاته ، وأقرب إلى سكون نفس يعقوب ، فكأنهم قالوا :

(١) انظر الكشف (١٩٤/١) .

(٢) البيت من البسيط لم يعلم قائله . انظر الدرر اللوامع (٦٥/١) ، وفيه (أما يكفيك بالنجح) ، وانظر شرح التسهيل (٢٦٠/١) .

(٣) البيت من الكامل لجبر ، من مقطوعة يخاطب بها يحيى بن عقبة الطهوي ، والفرزدق ، شرح ديوان جبر ص (٥٢٠) وروايته : (تعرف مالك والحق يدمن) انظر شرح شواهد المغني (٨١٧) ، حاشية الأمير على المغني (٥٢/٢) ، الهمع (٨٨/١) ، شفاء العليل (٢٤٨) ، الدرر (٦٥/١) ، وانظر الجامع الصغير في النحوص (٣٥) ، الخصائص (٣٣٦/١) .

(٤) البيت من الطويل ، وهو لرجل من دارم قيل جوهرية بن زيد وقيل جوهرية بن بدر . انظر شرح شواهد المغني ص (٨٠٧) . وانظر لسان العرب (هيم ، فشل) ، الهمع (٢٤٨/١) ، والخصائص (٣٣٦ ، ٣٣١/١) .

لسنا نجري إلا على طريقتك ، وقد يقال : إن في قوله (نعبد إلهك وإله آبائك) إشارة إلى الاستدلال العقلي على وجود الصانع ، لأنه قد تقدّم في أول السورة ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ [البقرة : ٢١] ، فمرادهم هنا بقولهم نعبد إلهك وإله آبائك الإله الذي دل عليه وجود آبائك وهذا إشارة إلى الاستدلال ﴿ تلك أمة قد دخلت ﴾ تلك إشارة إلى « إبراهيم » و « يعقوب » وأبنائهما ، ومعنى خلت^(١) ماتت وانقضت ، وصارت إلى الخلاء ، وهو الأرض الذي لا أنيس به ، والمخاطب هم اليهود والنصارى الذين ادّعوا لإبراهيم وبنيه اليهودية والنصرانية ، والجملة من قوله (قد خلت) صفة لأمة ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي تلك الأمة مختصة بجزء ما كسبت ، كما أنكم كذلك مختصون بجزء ما كسبتم من خير وشر ، فلا ينفع أحداً كسب غيره ، وظاهر ما أنها موصولة ، وحذف العائد أي لها ما كسبته ، وجوزوا أن تكون ما مصدرية أي لها كسبها ، وكذلك ما عي قوله (ولكم ما كسبتم) ويجوز أن تكون الجملة من قوله : (لها ما كسبت) استثناءً ، ويجوز أن تكون جملة حالية من الضمير في خلت أي انقضت مستقراً ثابتاً لها ما كسبت ، والأظهر الأول لعطف قوله (ولكم ما كسبتم) على قوله (لها ما كسبت) ، ولا يصح أن يكون (ولكم ما كسبتم) عطفاً على جملة الحال قبلها ، لاختلاف زمان استقرار كسبها لها وزمان استقرار كسب المخاطبين ، وعطف الحال على الحال يوجب اتحاد الزمان ، افتخروا بأسلافهم ، فأخبروا أن أحداً لا ينفع أحداً متقدماً كان أو متأخراً ، وروي : يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، يا فاطمة لا أغني عنك من الله شيئاً ، قال « ابن عطية » : وفي هذه الآية ردّ على الجبرية القائلين لا اكتساب للعبد ، انتهى ، وهذه مسألة يبحث فيها في أصول الدين ، وهي من المسائل المعضلة ، ومذاهب أهل الإسلام فيها أربعة :

أحدها : قول الجبرية ، وهو : أن العبد مجبور على فعله ، وأنه لا اختيار له في ذلك ، بل ملجأ إليه وأن نسبة الفعل إليه كنسبة حركة الغصن إليه إذا حركه محرك .

والثاني : قول القدرية ، وهو أنهم ليسوا مجبورين على الفعل بل لهم قدرة على إيجاد الفعل .

والثالث : قول المعتزلة ، أن العبد له قدرة يخلقها الله له قبل الفعل ، وهو متمكن من إيقاعه وعدم إيقاعه .

والرابع : مذهب أهل السنة والجماعة : أن الله يخلق للعبد تمكيناً وقدرة مع الفعل يفعل بها الخير والشر ، لا على سبيل الاضطرار والإلجاء ، وهذا التمكين هو مناط التكليف الذي يترتب عليه العقاب والثواب ، ثم بعد اتفاقهم على هذا الأصل اختلفوا في تفسيره على ثلاثة تفاسير :

أحدها : قول « أبي الحسن » : إن القدرة صفة متعلقة بالمقدور من غير تأثير في المقدور بل القدرة والمقدور حصلاً بخلق الله ، لكن الشيء الذي حصل بخلق الله وهو متعلق القدرة الحادثة هو الكسب .

والثاني : قول « الباقلاني »^(٢) إن ذات الفعل لم تحصل له صفة كونه طاعة ومعصية ، بل هذه الصفة حصلت له بالقدرة الحادثة .

والثالث : قول « أبي إسحاق الاسفرايني »^(٣) : إن القدرتين القديمة والحديثة إذا تعلقتا بمقدور وقع بهما فكان فعل

(١) خلا المكان والشيء يخلو خلواً وخلاء وأخلى : إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه ، وهو خال - لسان العرب (١٢٥٤ / ٢) .

(٢) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، توفي سنة ٤٠٣ هجرية - وفيات الأعيان (٤٨١ / ١) ، تاريخ بغداد (٣٧٩ / ٥) .

(٣) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران أبو إسحاق ، توفي سنة ٤١٨ هـ ، وفيات الأعيان (٥٤ / ١) ، الشذرات (٢٠٩ / ٣) ، الأعلام (٦١ / ١) .

العبد يوقع بإعانة فهذا هو الكسب ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ جملة توكيدية لما قبلها ، لأنه قد أخبر بأن كل أحد مختص بكسبه من خير وشر ، وإذا كان كذلك فلا يسأل أحد عن عمل أحد ، فكما أنه لا ينفعكم حسناتهم فكذلك لا تسألون ولا تؤاخذون بسيئات من اكتسبها ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) كل شاة برجلها تناط قالوا : وفي هذه الآية وما قبلها دليل على أن للإنسان أن يحتج على غيره بما يجري مجرى المناقضة ، لقوله إفحاماً له وإن لم يكن ذلك حجة في نفسه ، لأن من المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج على نبوته بأمثال هذه الكلمات بل كان يحتج بالمعجزات الباهرة لكنه لما أقام الحجة بها وأزاح العلة وجدهم معاندين مستمرين على باطلهم ، فعند ذلك أورد عليهم من الحجة ما يجانس ما كانوا عليه ، فقال إن كان الدين بالاتباع فالمتفق عليه أولى ، وفي قوله (لها ما كسبت) إلى آخره دلالة على بطلان قول من يقول بجواز تعذيب أولاد المشركين بذنوب آبائهم ، وفي الآية قبلها دلالة على أن الأبناء يثابون على طاعة الآباء ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ الضمير عائد في قالوا على رؤساء اليهود الذين كانوا بالمدينة وعلى نصارى نجران ، وفيهم نزلت « كعب بن الأشرف » و « مالك بن الصيف » و « وهب » و « أبي ياسر بن أخطب » و « السيد » و « العاقب » وأصحابهما خاصموا المسلمين في الدين ، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله من غيرها ، فأخبر الله عنهم ورد عليهم ، وأوهنا للتفصيل كأو في قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] ، والمعنى وقالت اليهود كونوا هوداً وقالت النصارى كونوا نصارى ، فالمجموع قالوا للمجموع لا أن كل فرد أمر باتباع أي الملتين ، وقد تقدّم إيضاح ذلك وإشباع الكلام فيه في قوله (وقالوا لن يدخل الجنة) ﴿ قل بل ملة إبراهيم ﴾ قرأ الجمهور بنصب ملة بإضمار فعل إما على المفعول أي بل تتبع ملة ، لأن معنى قوله (كونوا هوداً أو نصارى) اتبعوا اليهودية أو النصرانية ، وإما على أنه خبر كان أي بل تكون ملة « إبراهيم » أي أهل ملة إبراهيم ، كما قال « عدي بن حاتم » إني من دين أي من أهل دين قاله « الزجاج » ، وإما على أنه منصوب على الإغراء أي الزموا ملة « إبراهيم » قاله « أبو عبيد » ، وإما على أنه منصوب على إسقاط الخافض أي نقندي ملة أي بملة ، وهو يحتمل أن يكون خطاباً للكفار فيكون المضمرة اتبعوا أو كونوا ، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين فيقدر بتتبع أو تكون أو نقندي على ما تقدم تقديره ، وقرأ « ابن هرمز » « الأعرج » و « ابن أبي عبله » بل ملة إبراهيم برفع ملة ، وهو خير مبتدأ محذوف أي بل الهدى ملة أو أمرنا ملته أو نحن ملته أي أهل ملته أو مبتدأ محذوف الخبر أي بل ملة إبراهيم حنيفاً ملتنا ﴿ حنيفاً ﴾ ذكروا أنه منصوب على الحال من إبراهيم أي في حال حنيفيته قاله « المهدوي » و « ابن عطية » و « الزمخشري »^(١) ، وغيرهم ، قال « الزمخشري »^(٢) : كقولك رأيت وجه هند قائمة ، وأنه منصوب بإضمار فعل حكاه « ابن عطية » ، وقال : لأن الحال تعلق من المضاف إليه انتهى ، وتقدير الفعل نتبع حنيفاً ، وأنه منصوب على القطع حكاه « السجاوندي » وهو تخريج كوفي ، لأن النصب على القطع إنما هو مذهب الكوفيين ، وقد تقدم لنا الكلام فيه ، واختلاف الفراء والكسائي ، فكان التقدير بل ملة إبراهيم الحنيف فلما نكره لم يمكن اتباعه إياه فنصبه على القطع ، أما الحال من المضاف إليه إذا كان المضاف غير عامل في المضاف إليه قبل الإضافة فنحن لا نجيزه سواء كان جزءاً مما أضيف إليه أو كاجزاء أو غير ذلك ، وقد أمعنا الكلام على ذلك في كتاب منهج السالك من تأليفنا ، وأما النصب على القطع فقد ردّ هذا الأصل البصريون ، وأما إضمار الفعل فهو قريب ، ويمكن أن يكون منصوباً على الحال من المضاف ، وذكر حنيفاً ولم يؤنث لتأنيث ملة لأنه حمل على المعنى ، لأن الملة هي الدين فكانه قيل بل نتبع دين إبراهيم

(١) انظر الكشف (١٩٤ / ١) .

(٢) انظر الكشف (١٩٤ / ١) .

حنيفاً ، وعلى هذا خرجه « هبة الله بن الشجري » في المجلس الثالث من أماليه ، قال : قيل إن حنيفاً حال من إبراهيم ، وأوجه من ذلك عندي أن يجعله حالاً من الملة وإن خالفها بالتذكير ، لأن الملة في معنى الدين ، ألا ترى أنها قد أبدلت من الدين في قوله جل وعز ﴿ دينا قيما ملة إبراهيم ﴾ [الأنعام : ١٦١] ، فإذا جعلت حنيفاً حالاً من الملة فالناصب هو الناصب للملة ، وتقديره بل تتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وإنما ضعف الحال من المضاف إليه لأن العامل في الحال ينبغي أن يكون هو العامل في ذي الحال^(١) ، انتهى كلامه ، وتكون حالاً لازمة ، لأن دين إبراهيم لم ينفك عن الحنيفية ، وكذلك يلزم من جعل حنيفاً حالاً من إبراهيم أن يكون حالاً لازمة ، لأن إبراهيم لم ينفك عن الحنيفية ، والحنيف هو المائل عن الأديان كلها قاله ابن عباس ، أو المائل عما عليه العامة قاله الزجاج ، أو المستقيم قاله ابن قتيبة ، أو الحاج قاله ابن عباس أيضاً وابن الحنفية ، أو المتبع قاله « مجاهد » أو المخلص قاله السدي أو المخالف للكل قاله « ابن بحر » أو المسلم « قاله الضحاك » ، قال : فإذا جمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختن أو الحنف هو الاختتان وإقامة المناسك وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات عشرة أقوال متقاربة في المعنى ، وإنما خص « إبراهيم » دون غيره من الأنبياء وإن كانوا كلهم مائلين إلى الحق مستقيمي الطريقة حنفاء ، لأن الله اختص « إبراهيم » بالإمامة لما سنه من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام مما يقتدى به إلى قيام الساعة ، وصارت الحنيفية علماً مميزاً بين المؤمن والكافر وسمي بالحنيف من اتبعه واستقام على هديه وسمي المنكث عن ملته بسائر أسماء الملل فليل يهودي ونصراني ومجوسي وغير ذلك من ضروب النحل ﴿ وما كان من المشركين ﴾ أخبر الله تعالى أنه لم يكن يعبد وثناً ولا شمساً ولا قمراً ولا كوكباً ولا شيئاً غير الله تعالى ، وكان في قوله (بل ملة إبراهيم) دليل على أن ملته مخالفة لملة اليهود والنصارى ، ولذلك أضرب ببل عنهما ، فثبت أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وكانت العرب ممن تدين بأشياء من دين « إبراهيم » ، ثم كانت تشرك فنفى الله عن إبراهيم أن يكون من المشركين ، وقيل في الآية تعريض بأهل الكتاب وغيرهم ، لأن كلاً منهم يدعي اتباع « إبراهيم » وهو على الشرك قاله « الزمخشري »^(٢) ، فإشراك اليهود بقولهم عزيز ابن الله ، وإشراك النصارى بقولهم المسيح ابن الله ، وإشراك غيرهما

(١) حق صاحب الحال أن يكون مجروراً بالإضافة ، كما لا يكون صاحب الخبر لأن المضاف إليه مكمل للمضاف وواقع منه موقع التنوين ، فإن كان المضاف بمعنى الفعل حسن جعل المضاف إليه صاحب حال ، لأنه في المعنى فاعل أو مفعول نحو « إليه مرجعكم جميعاً » وعرفت قيام زيد مسرعاً .

وجوز البصريون وصاحب البسيط مجيء الحال من المضاف إليه مطلقاً وهذا مذهب سيويه وخرجوا عليه « إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » .

وجوزه الأخفش وابن مالك إن كان المضاف جزءاً ما أضيف إليه ، أو مثل جزئه نحو « ما في صدورهم من غل إخواناً » ونحو « ملة إبراهيم حنيفاً » ورد هذا المصنف وجعل إخواناً منصوباً على المدح على ما سيأتي ، « وحنيفاً » حال من ملة بمعنى دين كما هو ظاهر ، والسر في هذا الخلاف أنهم اختلفوا في : هل يجب أن يكون العامل في الحال هو نفس العامل في صاحبها أم لا يجب ذلك ؟ فذهب سيويه إلى أنه لا يجب أن يكون العامل في الحال هو العامل في صاحبها ، بل يجوز أن يكون العامل فيهما واحداً وأن يكون مختلفاً ، وعلى ذلك أجاز أن يجيء الحال من المضاف إليه مطلقاً . وذهب غيره إلى أنه لا بد من أن يكون العامل في الحال هو نفس العامل في صاحبها ، وترتب على ذلك ألا يجوزوا يجيء الحال من المضاف إلا إذا توفر له واحد مما ذكر ، وذلك لأن المضاف إن كان عاملاً في المضاف إليه بسبب شبهة للفعل لكونه مضدراً أو اسم فاعل ، كان كذلك عاملاً في الحال ، فيتحد العامل في الحال والعامل في صاحبه الذي هو المضاف إليه ، وإن كان المضاف جزءاً المضاف إليه ، أو مثل جزئه كان المضاف والمضاف إليه جميعاً كالشيء الواحد فيصير في هاتين الحالتين كان صاحب الحال هو نفس المضاف فاعل في الحال . انظر مع الهوامع (٢٤٠ / ١) ، منهج السالك (١٩٣) ، التصريح على التوضيح (٣٨٠ / ١) ، شرح ابن عقيل (٦٤٤ / ١) .

(٢) انظر الكشف (١٩٤ / ١) .

بعبادة الأوثان وغيرها ﴿ قولوا آمنا بالله ﴾ الآية خرج « البخاري » عن « أبي هريرة » قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، ولكن قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا الآية ، فإن كان حقاً لم تكذبوه وإن كان كذباً لم تصدقوه ، والضمير في قوله : قولوا عائد على الذين قالوا : كونوا هوداً أو نصارى أمروا بأن يكونوا على الحق ويصرحوا به ، ويجوز أن يعود على المؤمنين وهو أظهر ، وارتبطت هذه الآية بما قبلها ، لأنه لما ذكر في قوله (بل ملة إبراهيم) جواباً إلزامياً ، وهو أنهم وما أمروا باتباع اليهودية والنصرانية ، وإنما كان ذلك منهم على سبيل التقليد ، هذا وكل طائفة منهما تكفر الأخرى أجيبوا بأن الأولى في التقليد اتباع إبراهيم ، لأنهم أعني الطائفتين المختلفتين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم والأخذ بالمتفق أولى من الأخذ بالمختلف فيه إن كان الدين بالتقليد ، فلما ذكر هنا جواباً إلزامياً ذكر بعده برهاناً في هذه الآية ، وهو ظهور المعجزة عليهم بإنزال الآيات ، وقد ظهرت على يد « محمد » ﷺ فوجب الإيمان بنبوته ، فإن تخصيص بعض بالقبول وبعض بالرد يوجب التناقض في الدليل وهو ممتنع عقلاً ﴿ وما أنزل إلينا ﴾ إن كان الضمير في قولوا للمؤمنين فالمنزّل إليهم هو القرآن ، وصح نسبة إنزاله إليهم ، لأنهم فيه هم المخاطبون بتكاليفه من الأمر والنهي وغير ذلك ، وتعدية أنزل بإلى دليل على انتهاء المنزل إليهم وإن كان الضمير في قولوا عائداً على اليهود والنصارى فالمنزّل إلى اليهود : التوراة والمنزل إلى النصارى : الإنجيل ، ويلزم من الإيمان بهما الإيمان برسول الله ﷺ ، ويصح أن يراد بالمنزل إليهم القرآن ، لأنهم أمروا باتباعه وبالإيمان به وبمن جاء على يديه ﴿ وما أنزل إلى إبراهيم ﴾ الذي أنزل على « إبراهيم » عشر صحائف ، قال (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف « إبراهيم » و « موسى ») ، وكرر الموصول لأن المنزل إلينا وهو القرآن غير تلك الصحائف التي أنزلت على « إبراهيم » ، فلو حذف الموصول لأوهم أن المنزل إلينا هو المنزل إلى « إبراهيم » قالوا : ولم ينزل إلى « إسماعيل » و « إسحاق » و « يعقوب » و « الأسباط » ، وعطفوا على « إبراهيم » ، لأنهم كلفوا العمل به والدعاء إليه ، فأضيف الإنزال إليهم كما أضيف في قوله : (وما أنزل إلينا) والأسباط : هم أولاد « يعقوب » ، وهم اثنا عشر سبطاً ، قال « الشريف أبو البركات الجواني » النسابة : وولد « يعقوب » النبي ﷺ « يوسف » النبي ﷺ صاحب مصر وعزيزها ، وهو السبط الأول من أسباط « يعقوب » عليه السلام الاثني عشر ، والأسباط سوى « يوسف » : « كاذ » ، و « بنيامين » ، و « يهوذا » ، و « نفتالي » ، و « زبولون » ، و « شمعون » ، و « روبين » ، و « يساखा » ، و « لاوي » ، و « دان » ، و « ياشيرخا » من « يهوذا بن يعقوب » ، و « سليمان النبي ﷺ » وجاء من « سليمان » عليه السلام النبي « مريم » ابنة عمران « أم المسيح » عليهما السلام وجاء من لاوي بن « يعقوب » « موسى » كليم الله و « هارون » أخوه عليهما السلام انتهى كلامه ، وقال « ابن عطية » و « الأسباط » هم ولد يعقوب وهم « روبيل » ، و « شمعون » ، و « لاوي » ، و « يهوذا » ، و « رفالون » ، و « يشجر » ، و « ذينة » بنته وأمهم « ليا » ثم خلف على اختها « راحيل » فولدت له « يوسف » و « بنيامين » وولد له من سريتين « داني » و « نفتالي » و « جاد » و « أشر » انتهى كلامه وهو مخالف لكلام « الجواني » في بعض الأسماء ، وقيل « روبيل » أكبر ولده ، وقال « الحسين بن أحمد بن عبد الرحيم البيساني » : « روبيل » أصح وأثبت يعني باللام قال : وقبره في قرافة مصر في لحف الجبل في تربة « اليسع » عليهما السلام ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ أي وآمنا بالذي أوتي « موسى » من التوراة والآيات وعيسى من الإنجيل والآيات ، و « موسى » هنا هو « موسى بن عمران » كليم الله ، وقال « الحسين بن أحمد البيساني » : وفي ولد « ميثا بن يوسف » يعني الصديق « موسى بن ميثا بن يوسف » ، وزعم أهل التوراة أن الله نبأه وأنه صاحب « الخضر » ، وذكر المؤرخون أنه لما مات « يعقوب » فشا في الأسباط الكهانة ، فبعث الله « موسى بن ميثا » يدعوهم إلى عبادة الله ، وهو قبل « موسى بن عمران » بمائة سنة ، والله أعلم بصحة ذلك ، انتهى كلامه ، ونص

على « موسى » و « عيسى » لأنهما متبوعاً « اليهود » و « النصارى » بزعمهم ، والكلام معهم ، ولم يكرر الموصول في « عيسى » لأن « عيسى » إنما جاء مصداقاً لما في التوراة لم ينسخ منها إلا نزرأ يسيراً ، فالذي أوتي « عيسى » هو ما أوتي « موسى » وإن كان قد خالف في نزر يسير وجاء وما أنزل إلينا وجاء وما أوتي « موسى » و « عيسى » تنوعاً في الكلام وتصرفاً في ألفاظه ، وإن كان المعنى واحداً ، إذ لو كان كله بلفظ الإيتاء أو بلفظ الإنزال لما كان فيه حلاوة التنوع في الألفاظ ، ألا تراه لم يستحسنوا قول أبي الطيب :

وَنَهَبُ نَفُوسِ أَهْلِ النَّهْبِ أَوْلَى بِأَهْلِ النَّهْبِ مِنْ نَهَبِ الْقُمَاشِ

ولما ذكر في الإنزال أولاً خاصاً عطف عليه جمعاً ، كذلك لما ذكر في الإيتاء خاصاً عطف عليه جمعاً ، ولما أظهر الموصول في الإنزال في العطف أظهره في الإيتاء فقال : ﴿ وما أوتي النبيون من ربهم ﴾ وهو تعميم بعد تخصيص ، وظاهر قوله : (وما أوتي) يقتضي التعميم في الكتب والشرائع وفي حديث « لأبي سعيد الخدري » ^(١) قلت : يا رسول الله كم أنزل الله ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب أنزل على « شيث » خمسين صحيفة ، وأنزل على « أخنوخ » ثلاثين صحيفة ، وأنزل على « إبراهيم » عشر صحائف ، وأنزل على « موسى » قبل التوراة عشر صحائف ، ثم أنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وأما عدد الأنبياء ، فروي عن « ابن عباس » و « وهب بن منبه » أنهم مائة ألف نبي ومائة وعشرون ألف نبي كلهم من بني إسرائيل إلا عشرين ألف نبي ، وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر كلهم من ولد « يعقوب » إلا عشرين رسولاً ذكر منهم في القرآن خمسة وعشرين نص على أسمائهم وهم « آدم » و « إدريس » و « نوح » و « هود » و « صالح » و « إبراهيم » و « لوط » و « شعيب » و « إسماعيل » و « إسحاق » و « يعقوب » و « يوسف » و « موسى » و « هارون » و « اليسع » و « إلياس » و « يونس » و « أيوب » و « داود » و « سليمان » و « زكريا » و « عزيز » و « يحيى » و « عيسى » و « محمد » صلى الله عليهم وسلم ، وفي رواية عن « ابن عباس » أن الأنبياء كلهم من بني إسرائيل إلا عشرة « نوحاً » و « هوداً » و « شعيباً » و « صالحاً » و « لوطاً » و « إبراهيم » و « إسحاق » و « يعقوب » و « إسماعيل » و « محمداً » صلى الله عليهم وسلم أجمعين ، وابتدى أولاً بالإيمان بالله لأن ذلك أصل الشرائع ، وقدم ما أنزل إلينا وإن كان متأخراً في الإنزال عن ما بعده ، لأنه أولى بالذكر لأن الناس بعد بعثة « محمد » ﷺ مدعوون إلى الإيمان بما أنزل إليه جملة وتفصيلاً ، وقدم ما أنزل إلى « إبراهيم » على ما أوتي « موسى » و « عيسى » للتقدم في الزمان ، أولاً لأن المنزل على « موسى » ومن ذكر معه هو المنزل إلى « إبراهيم » إذ هم داخلون تحت شريعته ، وما أوتي « موسى » ظاهره العطف على ما قبله من المجزورات المتعلقة بالإيمان وجوزوا أن يكون وما أوتي « موسى » و « عيسى » في موضع رفع بالإبتداء وما أوتي الثانية عطف على ما أوتي ، فيكون في موضع رفع ، والخبر في قوله : (من ربهم) أو لا نفرق أو يكون (وما أوتي « موسى » و « عيسى ») معطوفاً على المجزور قبله ، (وما أوتي النبيون) رفع على الابتداء و (من ربهم) الخبر أو (لا نفرق) هو الخبر ، والظاهر أن (من ربهم) في موضع نصب ومن لا ابتداء الغاية فتعلق بما أوتي الثانية أو بما أوتي الأولى وتكون الثانية تأكيداً ، ألا ترى إلى سقوطها في آل عمران في قوله : (وما أوتي « موسى » و « عيسى » والنبيون من ربهم) ويجوز أن يكون في موضع حال من الضمير العائد على الموصول فتعلق بمحذوف أي وما أوتي النبيون كائناً من ربهم ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ ظاهره الاستئناف ، والمعنى أنا نؤمن بالجميع فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى ، فإن اليهود آمنوا بالأنبياء كلهم وكفروا « بمحمد » و « عيسى » صلوات الله على الجميع ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا

« بمحمد » ﷺ ، وقيل معناه : لا نقول إنهم يتفرقون في أصول الديانات ، وقيل معناه لا نشق عصاهم كما يقال شق عصا المسلمين إذا فارق جماعتهم ، وأحد هنا قيل هو المستعمل في النفي ، فأصوله الهمزة والحاء والذال وهو للعموم ، فلذلك لم يفتقر « بين » إلى معطوف عليه إذ هو اسم عام تحته أفراد فيصح دخول « بين » عليه كما تدخل على المجموع فتقول المال بين الزيدين ، ولم يذكر « الزمخشري »^(١) غير هذا الوجه ، وقيل أحد هنا بمعنى واحد والهمزة بدل من الواو إذ أصله « وحد » ، وحذف المعطوف لفهم السامع ، والتقدير بين أحد منهم وبين نظيره فاختصر أو بين أحد منهم والآخر ، ويكون نظير قول الشاعر :

فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْجَاءَ سَالِمًا أَبُو حَجَرٍ إِلَّا لَيَالٍ قَلَائِلُ

يريد بين الخير وبينني فحذف لدلالة المعنى عليه إذ قد علم أن « بين » لا بد أن تدخل بين شيئين كما حذف المعطوف في قوله : (سراويل تقيكم الحر) ومعلوم أن ما وقى الحروق البرد فحذف البرد لفهم المعنى ، ولم يذكر « ابن عطية » غير هذا الوجه ، وذكر الوجهين غير « الزمخشري »^(٢) و « ابن عطية » ، والوجه الأول أرجح لأنه لا حذف فيه ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ هذا كله مندرج تحت قوله : (قولوا) ولما ذكر أولاً الإيمان وهو التصديق وهو متعلق بالقلب ، ختم بذكر الإسلام وهو الانقياد الناشئ عن الإيمان الظاهر عن الجوارح ، فجمع بين الإيمان والإسلام ليجتمع الأصل والناسخ عن الأصل ، وقد فسر رسول الله ﷺ الإيمان والإسلام حين سئل عنهما ، وذلك في حديث « جبريل » عليه السلام (وقد فسروا قوله مسلمون بأقوال متقاربة في المعنى) فقيل : خاضعون ، وقيل : مطيعون ، وقيل : مذعنون للعبودية ، وقيل : مذعنون لأمره ونهيه عقلاً وفعلاً ، وقيل : داخلون في حكم الإسلام ، وقيل : منقادون ، وقيل : مخلصون ، وله متعلق بـ (مسلمون) وتأخر عنه العامل لأجل الفواصل أو تقدم له للاعتناء بالعائد على الله تعالى ، لما نزل قوله : (قولوا آمنا بالله) الآية قرأها رسول الله ﷺ على اليهود والنصارى ، وقال : الله أمرني بهذا فلما سمعوا بذكر « عيسى » أنكروا وكفروا ، وقالت النصارى : إن « عيسى » ليس بمنزلة سائر الأنبياء ولكنه ابن الله تعالى ، فأنزل الله ﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ الآية والضمير في آمنوا عائد على من عاد عليه في قوله : (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى) ويجوز أن يكون الخطاب خاصاً والمراد به العموم ، ويجوز أن يكون عائداً على كل كافر فيفسره المعنى ، وقرأ الجمهور ﴿ بمثل ما آمنتم به ﴾ ، وقرأ « عبد الله بن مسعود » و « ابن عباس » (بما آمنتم به) ، وقرأ « أبي » (بالذي آمنتم به) وقال : « ابن عباس » ليس لله مثل ، وهذا يدل على إقرار الباء على حالها في آمنت بالله ، وإطلاق (ما) على الله تعالى كما ذهب إليه بعضهم في قوله : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ [الشمس : ٥] ، يريد ومن بناها على قوله ، وقراءة « أبي » ظاهرة ويشمل جميع ما آمن به المؤمنون ، وأما قراءة الجمهور فخرجت الباء على الزيادة ، والتقدير إيماناً مثل إيمانكم كما زيدت في قوله : ﴿ وهزِّي إليك بجذع النخلة ﴾ [مريم : ٢٥] .

وسود المحاجر لا يقرآن بالسور^(٣)

﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، وتكون ما مصدرية ، وقيل : ليست بزائدة وهي بمعنى على أي فإن آمنوا على مثل ما آمنتم به وكون الباء بمعنى على قد قيل به وممن قال به « ابن مالك » قال ذلك في قوله تعالى : ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ [آل عمران : ٧٥] ، أي على قنطار ، وقيل هي للاستعانة كقولك : عملت بالقدم

(١) انظر الكشف (١/ ١٩٥) .

(٢) انظر الكشف (١/ ١٩٥) .

(٣) قد تقدم .

وكتبت بالقلم أي فإن دخلوا في الإيمان بشهادة مثل شهادتكم ، وذلك فرار من زيادة الباء ، لأنه ليس من أماكن زيادة الباء قياساً ، والمؤمن به على هذه الأوجه الثلاثة محذوف ، التقدير : (فإن آمنوا بالله) ويكون الضمير في به عائداً على ما عاد عليه ، قوله : (ونحن له) وهو الله تعالى ، وقيل يعود على ما وتكون إذ ذاك موصولة ، وأما مثل فقيل زائدة والتقدير فإن آمنوا بما آمنتم به قالوا كهي في قوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] ، أي ليس كهو شيء وكقوله :

فصبروا مثل كعصف مأكول

وكقوله :

يَا عَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكَ مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكَ^(١)

وقيل : ليست بزائدة والمثلية هنا متعلقة بالاعتقاد أي فإن اعتقدوا مثل اعتقادكم ، أو متعلقة بالكتاب أي فإن آمنوا بكتاب مثل الكتاب الذي آمنتم به ، والمعنى فإن آمنوا بكتابتكم المماثل لكتابهم أي فإن آمنوا بالقرآن الذي هو مصدق لما في التوراة والإنجيل ، وعلى هذا التأويل لا تكون الباء زائدة بل هي مثلها في قوله آمنت بالكتاب ، وقالت فرقة : هذا من مجاز الكلام يقول هذا أمر لا يفعله مثلك أي لا تفعله أنت ، والمعنى فإن آمنوا بالذي آمنتم به وهذا يؤول إلى إلغاء مثل وزيادتها من حيث المعنى ، وقال « الزمخشري »^(٢) : بمثل ما آمنتم به من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام ، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين فقيل : فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل العرض ، والتقدير أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد ﴿ فقد اهتدوا ﴾ وفيه أن دينهم الذي هم عليه وكل دين سواه مغاير له غير مماثل لأنه حق وهدى وما سواه باطل وضلال ، ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه : هذا هو الرأي الصواب ، فإن كان عندك رأي أصوب منه فاعمل به ، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه ، انتهى كلامه ، وهو حسن ، وجواب الشرط قوله : (فقد اهتدوا) وليس الجواب محذوفاً كهو في قوله ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل ﴾ [فاطر : ٤] ، لمعنى تكذيب الرسل قطعاً واستقبال الهداية هنا لأنها معلقة على مستقبل ولم تكن واقعة قبل ﴿ وإن تولوا ﴾ أي إن أعرضوا عن الدخول في الإيمان ﴿ فإنما هم في شقاق ﴾ أكد الجملة الواقعة شرطاً بـ (إن) وتأكد معنى الخبر بحيث صار ظرفاً لهم وهم مظروفون له ، فالشقاق مستول عليهم من جميع جوانبهم ومحيط بهم إحاطة البيت بمن فيه ، وهذه مبالغة في الشقاق الحاصل لهم بالتولي ، وهذا كقوله ﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ [الأعراف : ٦٠] ، ﴿ إنا لنراك في سفاهة ﴾ [الأعراف : ٦٦] ، هو أبلغ من قولك ، زيد مشاق لعمر ، ووزيد ضال وبكر سفيه ، والشقاق هنا : الخلاف قاله ابن عباس أو العداوة أو الفراق أو المنازعة قاله زيد بن أسلم ، أو المجادلة أو الضلال والاختلاف أو خلع الطاعة قاله الكسائي ، أو البعاد والفراق إلى يوم القيامة ، وهذه تفاسير للشقاق متقاربة المعنى ، وقد ذكرنا مدار ذلك في المفردات على معنيين إما من المشقة وإما أن يصير في شق وصاحبه في شق أي يقع بينهم خلاف ، قال القاضي : ولا يكاد يقال في العداوة على وجه الحق شقاق ، لأن الشقاق في مخالفة عظيمة توقع صاحبها في عداوة الله وغضبه وهذا وعيد لهم ، انتهى (فسيكفيهم الله ﴾ لما ذكر أن توليهم يترتب عليه الشقاق وهو العداوة العظيمة أخبر تعالى أن تلك العداوة لا يصلون

(١) البيت من السريع . انظر البيان في غريب إعراب القرآن (١ / ٣٤٠) ، (٢ / ٢٤٥) .

إليك بشيء منها ، لأنه تعالى قد كفاه شرهم ، وهذا الإخبار ضمان من الله لرسوله كفايته ومنعه منهم ، ويضمن ذلك إظهاره على أعدائه وغلبته إياهم لأن من كان مشاقاً لك غاية الشقاق هو مجتهد في أذاك إذا لم يتوصل إلى ذلك ، فإنما ذلك لظهورك عليه وقوة منعتك منه ، وهذا نظير قوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وكفاه الله أمرهم بالسبي والقتل في قريظة وبني قينقاع والنفي في بني النضير والجزية في نصارى نجران ، وعطف الجملة بالفاء مشعر بتعقب الكفاية عقيب شقاقهم ، والمجيء بالسين يدل على قرب الاستقبال إذ السين في وضعها أقرب في التنفيس من سوف ، والذوات ليست المكفية فهو على حذف مضاف أي فسيكفيك شقاقهم ، والمكفي به محذوف أي بمن يهديه الله من المؤمنين أو بتفريق كلمة المشاقين أو بإهلاك أعيانهم وإذلال باقيهم بالسبي والنفي والجزية كما بيناه ﴿ وهو السميع العليم ﴾ مناسبة هاتين الصفتين أن كلاً من الإيمان وضده مشتمل على أقوال وأفعال وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأقوال والأفعال ، فناسب أن يختتم ذلك بهما ، أي وهو السميع لأقوالكم العليم بنياتكم واعتقادكم ، ولما كانت الأقوال هي الظاهرة لنا الدالة على ما في الباطن قدمت صفة السميع على العليم ، ولأن العليم فاصلة أيضاً ، وتضمنت هاتان الصفتان الوعيد لأن المعنى : وهو السميع العليم فيجازيكم بما يصدر منكم ، ﴿ صبغة^(١) الله ﴾ أي : دين الله قاله ابن عباس^(٢) ، وسمي صبغة لظهور أثر الدين على صاحبه كظهور أثر الصبغ على الثوب ولأنه يلزمه ولا يفارقه كالصبغ في الثوب أو فطرة الله قاله مجاهد ومقاتل ، أو خلقة الله قاله الزجاج وأبو عبيد ، أو سنة الله قاله أبو عبيدة ، أو الإسلام قاله مجاهد أيضاً ، أو وجهة الله يعني القبلة قاله ابن كيسان ، أو حجة الله على عباده قاله الأصم ، أو الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم ، والنصاري إذ ولد لهم مولود غمسوه في السابغ في ماء يقال له المعمودية فيتطهر عندهم ويصير نصرانياً استغنوا به عن الختان ، فردّ الله عليهم بقوله (صبغة الله) أو الاغتسال للدخول في الإسلام عوضاً عن ماء المعمودية حكاه الماوردي ، أو القربة إلى الله حكاه ابن فارس في المجمل ، أو التلقين يقال فلان يصبغ فلاناً في الشيء أي يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثوب ، وهذه أقوال متقاربة والأقرب منها هو الدين والملة لأن قبله (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية ، وقد تضمنت هذه الآية أصل الدين الحنيفي ، فكفى بالصبغة عنه ومجازه ظهور الأثر أو ملازمته لمن ينتحله فهو كالصبغ في هذين الوصفين كما قال ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، والعرب تسمي ديانة الشخص لشيء واتصافه به صبغة ، قال بعض شعراء ملوكهم :

وَكُلُّ أَنْاسٍ لَهُمْ صَبْغَةٌ وَصِبْغَةٌ هَمْدَانٌ خَيْرُ الصَّبْغِ
صَبَغْنَا عَلَى ذَاكَ أَبْنَاءَنَا فَأَكْرِمْ بِصِبْغَتِنَا فِي الصَّبْغِ

وقد روي عن ابن عباس أن الأصل في تسمية الدين صبغة أن عيسى حين قصد يحيى بن زكريا ، فقال : جئت لأصبغ منك وأغتسل في نهر الأردن ، فلما خرج نزل عليه روح القدس ، فصارت النصارى يفعلون ذلك بأولادهم في كنائسهم تشبهاً بعبسى ، ويقولون : الآن صار نصرانياً حقاً وزعموا أن في الإنجيل ذكر عيسى بأنه الصابغ ويسمون الماء الذي يغمسون فيه أولادهم : المعمودية بالدال ، ويقال : المعمورية بالراء ، قال : ويسمون ذلك الفعل : التغميس ، ومنهم من يسميه : الصبغ ، فردّ الله ذلك بقوله صبغة الله ، وقال الراغب : الصبغة إشارة إلى ما أوجده في الناس من بدائه العقول التي ميزنا بها عن البهائم ورشحنا بها لمعرفة ومعرفة طلب الحق ، وهو المشار إليه بالفطرة ،

(١) صبغة الله : دينه ، ويقال : أصله . والصبغة : الشريعة والخلقة ، وقيل : هي كل ما تقرب به . . . لسان العرب (٢٣٩٦/٤) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (١١٨/٣ - ١١٩) ، ابن كثير (١٨٨/١) ، تفسير القرطبي (٩٧/٢) ، التبيان (١٢٢/١) ، الدرر (١٤٠/١ - ١٤١) .

وسمي ذلك بالصبغة من حيث إن قوى الإنسان إذا اعتبرت جرت مجرى الصبغة في المصبوغ ، ولما كانت النصارى إذا لقنوا أولادهم النصرانية يقولون نصرناه ، فقال إن الإيمان بمثل ما آمتم به صبغة الله ، وقرأ الجمهور : (صبغة الله) بالنصب ، ومن قرأ برفع ملة قرأ برفع صبغة قاله الطبري ، وقد تقدّم أن تلك قراءة الأعرج وابن أبي عبله ، فأما النصب فوجه على أوجه أظهرها أنه منصوب انتصاب المصدر المؤكد عن قوله : (قولوا آمنا بالله) ، وقيل : عن قوله : (ونحن له مسلمون) ، وقيل : عن قوله : (فقد اهتدوا) ، وقيل : هو نصب على الإغراء أي الزموا صبغة الله ، وقيل : بدل من قوله : (ملة إبراهيم) أما الإغراء فتنافره آخر الآية ، وهو قوله : (ونحن له عابدون) إلا إن قدر هناك قول ، وهو إضمار لا حاجة تدعو إليه ولا دليل من الكلام عليه ، وأما البديل فهو بعيد ، وقد طال بين المبدل منه والبديل بجمل ، ومثل ذلك لا يجوز ، والأحسن أن يكون منتصباً انتصاب المصدر المؤكد عن قوله : (قولوا آمنا) فإن كان الأمر للمؤمنين كان المعنى صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم يصغ صبغتم ، وإن كان الأمر لليهود والنصارى فالمعنى صبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا ، ونظير نصب هذا المصدر نصب قوله : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) إذ قبله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] ، معناه : صنع الله ذلك صنعه ، إنما جيء بلفظ الصبغة على طريق المشاكلة كما تقول لرجل يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان يريد رجلاً يصطنع الكرم ، وأما قراءة الرفع فذلك خبر مبتدأ محذوف أي ذلك الإيمان صبغة الله^(١) ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ هذا استفهام ومعناه النفي أي ولا أحد أحسن من الله صبغة ، و (أحسن) هنا لا يراد بها حقيقة التفضيل إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن أو يراد التفضيل باعتبار من يظن أن في صبغة غير الله حسناً لا أن ذلك بالنسبة إلى حقيقة الشيء ، وانتصاب صبغة هنا على التمييز وهو من التمييز المنقول من المبتدأ ، وقد ذكرنا أن ذلك غريب أعني نص النحويين على أن من التمييز المنقول تمييزاً نقلاً من المبتدأ ، والتقدير : ومن صبغته أحسن من صبغة الله ؟ ، فالتفضيل إنما يجري بين الصبغتين لا بين الصابغين ، ﴿ ونحن له عابدون ﴾ متصل بقوله آمنا بالله ومعطوف عليه ، قال الزمخشري^(٢) : وهذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة أو نصب على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التثامه واتساقه ، وانتصابها يعني صبغة الله على أنها مصدر مؤكد هو الذي ذكره سيبويه ، والقول ما قالت حذام ، انتهى ، وتقديره : في الإغراء عليكم صبغة الله ليس بجيد لأن الإغراء إذا كان بالظرف

(١) هذا من موضع حذف المبتدأ وجوباً ، وحاصل المواضع التي يحذف فيها المبتدأ وجوباً :

أحدها : النعت المقطوع إلى الرفع في مدح نحو « مررت بزيد الكريم » أو ذم نحو « مررت بزيد الخبيث » أو ترحم نحو « مررت بزيد المسكين » فالمبتدأ محذوف وجوباً تقديره هو الكريم ، وهو الخبيث ، وهو المسكين .

ثانياً : أن يكون الخبر مخصوص نعم أو بئس نحو نعم الرجل زيد « وبئس الرجل عمرو » ، فزيد وعمرو خبران لمبتدأ محذوف وجوباً ، والتقدير هو زيد ، أي الممدوح زيد ، وهو عمرو ، أي المذموم عمرو .

ثالثاً : ما حكى الفارسي من كلامهم « في ذمتي لأفعلن » ففي ذمتي خبر لمبتدأ محذوف ، واجب الحذف والتقدير « في ذمتي يمين » ونحوه وهو ما كان الخبر فيه صريحاً في القسم .

رابعاً : أن يكون الخبر مصدراً ثانياً عقب الفعل نحو « صبر جميل » التقدير صبري صبر جميل فصبري مبتدأ وصبر جميل : خبره ثم حذف المبتدأ الذي هو « صبري » وجوباً وسيأتي الكلام للمصنف رحمه الله .

خامساً : بعد « لا سيما » سواء كان الاسم المرفوع بعدها نكرة أم كان معرفة .

سادساً : بعد المصدر النائب عن فعله الذي بين فاعله أو مفعوله بحرف جر .

سابعاً : المصادر التي انتصبت توكيداً لنفس الجملة إذا رفعت فعلى إضمار مبتدأ لا يجوز إظهاره كقوله تعالى : « صبغة الله » الآية .

انظر ارتشاف الضرب (٢٩ / ٢ - ٣٠) ، شرح ابن عقيل (٢٥٤ / ١ - ٢٥٩) ، التصريح على التوضيح (١٧٧ / ١) .

(٢) انظر الكشف (١٩٦ / ١) .

والمجور لا يجوز حذف ذلك الظرف ولا المجور ، ولذلك حين ذكرنا وجه الإغراء قدرناه بالزموا صبغة الله ، وتقدم الكلام على العبادة في قوله ﴿إياك نعبد﴾ [الفاتحة : ٥] ، وأما هنا فقليل عابدون موحدون ومنه ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات : ٥٦] ، أي ليوحدون ، وقيل : مطيعون متبعون ملة إبراهيم وصبغة الله ، وقيل : خاضعون مستكينون في اتباع ملة إبراهيم غير مستكبرين وهذه أقوال متقاربة .

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩)

﴿ قل أتحاجونا في الله وهو ربنا وربكم ﴾ سبب النزول قيل : إن اليهود والنصارى قالوا : يا محمد إن الأنبياء كانوا منا وعلى ديننا ، ولم تكن من العرب ، ولو كنت نبياً لكنت منا وعلى ديننا ، وقيل : حاجوا المسلمين ، فقالوا (نحن : أبناء الله وأحباؤه) وأصحاب الكتاب الأول ، وقبلتنا أقدم فنحن أولى بالله منكم فأنزلت ، قرأ الجمهور : (أتحاجونا) بنونين إحداهما نون الرفع والأخرى الضمير ، وقرأ زيد بن ثابت والحسن والأعمش وابن محيصن بإدغام النون في النون ، وأجاز بعضهم حذف النون أما قراءة الجمهور فظاهرة ، وأما قراءة زيد ومن ذكر معه فوجهها أنه لما التقى مثلاً ، وكان قبل الأول حرف مدّ ولين جاز الإدغام كقولك : هذه دار راشد ، لأن المد يقوم مقام الحركة في نحو جعل لك ، وأما جواز حذف النون الأولى فوجه من أجاز ذلك على قراءة من قرأ (فبم تبشرون) [الحجر : ٥٤] بكسر النون وأنشدوا :

تَرَاهُ كَالثُّغَامِ يَعْلُ مِسْكَاً يَسُوءُ الْفَالِيَّاتِ إِذَا فَلَّيْنِي^(١)

يريد فليني ، والخطاب بقوله قل للرسول أو للسامع والهمزة للاستفهام مصحوباً بالإنكار عليهم ، والواو ضمير اليهود والنصارى ، وقيل : مشركو العرب إذ قالوا ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف : ٣١] ، وقيل : ضمير اليهود والنصارى والمشركين ، والمحاجة هنا : المجادلة ، والمعنى أجادلوننا في شأن الله واصطفائه النبي من العرب دونكم ، وتقولون لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا وترونكم أحق بالنبوة منا ؟ ، (وهو ربنا وربكم) جملة حالية يعني أنه مالكمهم كلهم ، فهم مشتركون في العبودية ، فله أن يخص من شاء بما شاء من الكرامة ، والمعنى أنه مع اعترافنا كلنا أنا مربوبون لرب واحد فلا يناسب الجدال فيما شاء من أفعاله وما خص به بعض مربوباته من الشرف والزلفى ، لأنه متصرف في كلهم تصرف المالك ، وقيل المعنى أجادلوننا في دين الله ، وتقولون : إن دينكم أفضل الأديان وكتابكم أفضل الكتب ؟ والظاهر إنكار المجادلة في الله حيث زعمت النصارى أن الله هو المسيح وحيث زعم بعضهم أن الله ثالث ثلاثة ، وحيث زعمت اليهود أن الله له ولد ، وزعموا أنه شيخ أبيض الرأس واللحية إلى ما يدعونه فيه من سمات الحدوث والنقص تعالى الله عن ذلك ، فأنكر عليهم كيف يدعون ذلك ، والرب واحد لهم ، فوجب أن يكون الاعتقاد فيه واحداً وهو أن تثبت صفاته العلا ، ويزنه عن الحدوث والنقص ، ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ المعنى : ولنا جزاء أعمالنا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والمعنى : أن الرب واحد وهو المجازي على الأعمال فلا تنبغي المجادلة فيه ولا المنازعة ﴿ونحن له مخلصون﴾ ولما بين القدر المشترك من الربوبية والجزاء ذكر ما يميز به المؤمنون من الإخلاص^(٢) لله تعالى في العمل والاعتقاد وعدم الإشراك الذي هو موجود في النصارى وفي اليهود ، لأن من عبد موصوفاً بصفات الحدوث والنقص فقد أشرك مع الله إلهاً آخر ، والمعنى أنا لم نشب عقائدنا

(١) البيت من الوافر لعمر بن معد يكرب إعراب القرآن للنحاس (٧٨/٣ ، ٣٨٣ ، ٢١/٤) ، البيان لابن الأنباري (٣٢٦/٢) ، الدرر اللوامع (٤٣/١) .

(٢) المخلص : الذي وحد الله تعالى خالصاً ، ولذلك قيل لسورة : « قل هو الله أحد » سورة الإخلاص . . . لسان العرب (١٢٢٧/٢) .

وأفعالنا بشيء من الشرك كما ادعت اليهود في العجل والنصارى في عيسى ، وهذه الجملة من باب التعريض بالذم ، لأن ذكر المختص بعد ذكر المشترك نفي لذلك المختص عن شارك في المشترك ، ويناسب أن يكون استطراداً وهو أن يذكر معنى يقتضي أن يكون مدحاً لفاعله وذمّاً لتاركة نحو قوله :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ

وهي منبهة على أن من أخلص لله كان حقيقاً أن يكون منهم الأنبياء وأهل الكرامة ، وقد كثرت أقوال أرباب المعاني في الإخلاص ، فروي أن رسول الله ﷺ قال : سألت جبريل عن الإخلاص ما هو ؟ فقال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ فقال : سر من أسراري استودعته قلب من أحببته من عبادي ^(١) ، وقال سعيد بن جبير : الإخلاص أن لا يشرك في دينه ولا يراني في عمله أحداً ، وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما ، وقال ابن معاذ : تميز العمل من الذنوب كتمييز اللبن من بين الفرث والدم ، وقال البوشنجي ^(٢) : هو معنى لا يكتبه الملك ولا يفسده الشيطان ولا يطلع عليه الإنسان ، أي لا يطلع عليه إلا الله ، وقال رويم : هو ارتفاع عملك عن الرؤية ، وقال حذيفة المرعشي : أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن ، وقال أبو يعقوب المكفوف : أن يكتم العبد حسناته كما يكتم سيئاته ، وقال سهل : هو الإفلاس ومعناه : أن يرجع إلى احتقار العمل ، وقال أبو سليمان الداراني : للمرائي ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثني عليه ، وهذا القول الذي أمر به ﷺ أن يقوله على وجه الشفقة والنصيحة في الدين لينبها على أن تلك المجادلة منكم ليست واقعة موقع الصحة ولا هي مما ينبغي أن تكون ، وليس مقصودنا بهذا التنبيه دفع ضرر منكم وإنما مقصودنا نصحكم وإرشادكم إلى تخلص اعتقادكم من الشرك ، وأن تخلصوا كما أخلصنا ، فنكون سواء في ذلك .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ إِنِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَمَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٠)

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وحفص أم تقولون بالتاء ، وقرأ الباقرن بالياء ، فأما قراءة التاء فيحتمل أم فيه وجهين :

أحدهما : أن تكون فيه أم متصلة ، فالاستفهام عن وقوع أحد هذين الأمرين المحاجة في الله والادعاء على إبراهيم ومن ذكر معه أنهم كانوا يهوداً ونصارى ، وهو استفهام صحبه الإنكار والتقريع والتوبيخ لأن كلا من المستفهم عنه ليس بصحيح .

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٣٢٢/٤) ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ ... الحديث وقال الحافظ العراقي في تخرجه : رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد : من رواه : سألت فلاناً عن الإخلاص فقال ... وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى ، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك .

(٢) محمد بن إبراهيم بن سعيد البوشنجي العبدى شيخ أهل الحديث في زمانه بنيسابور ومن أئمة اللغة وكلام العرب الوافي (٣٤٢/١) ، الشذرات (٢٠٥/٢) ، الأعلام (٢٩٤/٥) .

الوجه الثاني : أن تكون أم فيه منقطعة فتقدّر ببل والهمزة ، التقدير : بل أتقولون فأضرب عن الجملة السابقة وانتقل إلى الاستفهام عن هذه الجملة اللاحقة على سبيل الإنكار أيضاً ، أي أن نسبة اليهودية والنصرانية لإبراهيم ومن ذكر معه ليست بصحيحة بشهادة القول الصدق الذي أتى به الصادق من قوله تعالى : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً) وبشهادة التوراة والإنجيل على أنهم كانوا على التوحيد والحنيفية ، وبشهادة أن اليهودية والنصرانية لمن اقتفى طريقة عيسى وبأن ما يدعونه من ذلك قول بلا برهان ، فهو باطل ، وأما قراءة الياء فالظاهر أن أم فيها منقطعة ، وحكى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عن بعض النحاة أنها ليست بمنقطعة ، لأنك إذا قلت : أتقوم أم يقوم عمرو فالمعنى أيكون هذا أم هذا ، وقال ابن عطية : هذا المثال يعني : أتقوم أم يقوم عمرو ، غير جيد ، لأن القائل فيه واحد ، والمخاطب واحد ، والقول في الآية من اثنين والمخاطب اثنان غيران ، وإنما يتجه معادلة أم للألف على الحكم المعنوي كان معنى (قل أتحتاجونا) أيحاجون يا محمد أم يقولون ، انتهى ، ومعنى قوله : لأن القائل فيه واحد ، يعني : في المثال الذي هو يقوم أم يقوم عمرو ، فالناطق بهاتين الجملتين هو واحد وقوله والمخاطب واحد يعني الذي خوطب بهذا الكلام ، والمعادلة وقعت بين قيام المواجه بالخطاب وبين قيام عمرو وقوله : والقول في الآية من اثنين يعني أن أتحتاجونا من قول الرسول ، إذ أمر أن يخاطبهم بذلك ، وأتقولون بالتاء من قول الله تعالى ، وقوله والمخاطب اثنان غيران ، أما الأول فقوله : أتحتاجونا ، وأما الثاني فهو للرسول وأمته الذين خوطبوا بقوله أم يقولون .

وقال الزمخشري^(١) : وفيمن قرأ بالياء لا تكون إلا منقطعة ، انتهى ، ويمكن الاتصال فيها مع قراءة التاء ، ويكون ذلك من الالتفات إذ صار فيه خروج من خطاب إلى غيبة ، والضمير لناس مخصوصين ، والأحسن أن تكون أم في القراءتين معاً منقطعة ، وكأنه أنكر عليهم محتاجتهم في الله ونسبة أنبيائه لليهودية والنصرانية ، وقد وقع منهم ما أنكر عليهم ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم ﴾ [آل عمران : ٦٥] ، الآيات وإذا جعلناها متصلة كان ذلك غير متضمن وقوع الجملتين بل إحداهما ، وصار السؤال عن تعيين إحداهما وليس الأمر كذلك إذ وقعاً معاً ، والقول في أو في قول هوداً أو نصارى قد تقدّم في قوله (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقوله (كونوا هوداً أو نصارى) وأنها للتفصيل أي قالت اليهود : هم يهود وقالت النصارى : هم نصارى ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ القول في القراءات في أنتم كهو في قوله (أنذرهم أم لم تنذرهم) وقد توسط هنا المسؤول عنه ، وهو أحسن من تقدمه وتأخره ، إذ يجوز في العربية أن يقول : أعلم أنتم أم الله ، ويجوز أنتم أم الله أعلم ؟ ولا مشاركة بينهم وبين الله في العلم حتى يسأل أهم أزيد علماً أم الله ، ولكن ذلك على سبيل التهكم بهم والاستهزاء وعلى تقدير أن يظن بهم علم وهذا نظير قول حسان :

فَشَرُّكُمْ لِيَخَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ^(٢)

وقد علم أن الذي هو خير كله هو الرسول عليه السلام ، وأن الذي هو شر كله هو هاجيه ، وفي هذا ردّ على اليهود والنصارى لأن الله قد أخبر بقوله : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) ولأن اليهودية والنصرانية إنما حدثتا بعد إبراهيم ، ولأنه أخبر في التوراة والإنجيل أنهم كانوا مسلمين مميزين عن اليهودية والنصرانية ، وخرجت هذه الجملة مخرج ما يتردد فيه لأن أتباع أحبارهم ربما توهموا أو ظنوا أن أولئك كانوا هوداً أو نصارى لسماعهم ذلك منهم ، فيكون ذلك ردّاً من الله عليهم أو لأن أحبارهم كانوا يعلمون بطلان مقالاتهم في إبراهيم ومن ذكر معه لكنهم كنتموا ذلك ونحلّوهم إلى ما ذكروا ، فنزلوا لكتهم ذلك منزلة من يتردد في الشيء ، وردّ

(١) انظر الكشف (١٩٧/١) .

(٢) قد تقدم .

عليهم بقوله : (أنتم أعلم أم الله) لأن من خوطب بهذا الكلام بادر إلى أن يقول الله أعلم ، فكان ذلك أقطع للنزاع ، ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ وهذا يدل على أنهم كانوا عالمين بأن إبراهيم ومن معه كانوا مبشرين لليهودية والنصرانية لكنهم كتموا ذلك ، وقد تقدّم الكلام على هذا الاستفهام وأنه يراد به النفي ، فالمعنى لا أحد أظلم ممن كتم ، وقدّم الكلام في أفعال التفضيل الجائي بعد من الاستفهام في قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) والمنفي عنهم التفضيل في الكتم اليهود ، وقيل : المنافقون تابعوا اليهود على الكتم ، والشهادة هي أن أنبياء الله معصومون من اليهودية والنصرانية الباطلتين قاله الحسن ومجاهد والربيع ، أو ما في التوراة من صفة محمد ﷺ ونبوته والأمر بتصديقه قاله قتادة وابن زيد ، أو الإسلام وهم يعلمون أنه الحق ، والقول الأول أشبه بسياق الآية ، (من الله) يحتمل أن تكون من متعلقة بلفظ كتم ويكون على حذف مضاف أي كتم من عباد الله شهادة عنده ، ومعناه أنه ذمهم على منع أن يصل إلى عباد الله وأن يؤدوا إليهم شهادة الحق ، ويحتمل أن تكون من متعلقة بالعامل في الظرف إذ الظرف في موضع الصفة ، والتقدير شهادة كائنة عنده من الله أي الله تعالى قد أشهده تلك الشهادة ، وحصلت عنده من قبل الله واستودعه إياها ، وهو قوله ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، الآية ، وقال ابن عطية : في هذا الوجه فمن على هذا متعلقة بعنده ، والتحرير ما ذكرناه أن العامل في الظرف هو الذي يتعلق به الجار والمجرور ونسبة التعلق إلى الظرف مجاز ، وقال الزمخشري^(١) : أي كتم شهادة الله التي عنده أنه شهد بها ، وهي شهادته لإبراهيم بالحنيفية ، ومن في قوله شهادة من الله ، مثلاً في قولك : هذه شهادة مني لفلان إذا شهدت له ، ومثله ﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ [التوبة : ١] ، انتهى ، فظاهر كلامه أن (من الله) في موضع الصفة لشهادة ، أي كائنة من الله ، وهو وجه ثالث في العامل في من ، والفرق بينه وبين ما قبله أن العامل في الوجه قبله في الظرف والجار والمجرور واحد ، وفي هذا الوجه اثنان ، وكان جعل من معمولاً للعامل في الظرف أو في موضع الصفة لشهادة أحسن من تعلق من بـ (كتم) لأنه أبلغ في الأظلمية أن تكون الشهادة قد استودعها الله إياه فكتمها ، وعلى التعلق بكتم تكون الأظلمية حاصلة لمن كتم من عباد الله شهادة مطلقة وأخفاها عنهم ، ولا يصح إذ ذاك الأظلمية لأن فوق هذه الشهادة ما تكون الأظلمية فيه أكثر ، وهو كتم شهادة استودعه الله إياها فلذلك اخترنا أن لا تتعلق من بكتم ، قال الزمخشري^(٢) : ويحتمل معنيين :

أحدهما : أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها .

والثاني : أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها ، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته ، انتهى كلامه ، والمعنى الأول هو الظاهر لأن الآية إنما تقدّمها الإنكار لما نسبوه إلى إبراهيم ومن ذكر معه ، فالذي يليق أن يكون الكلام مع أهل الكتاب لا مع الرسول ﷺ وأتباعه ، لأنهم مقرون بما أخبر الله به ، وعالمون بذلك العلم اليقين ، فلا يفرض في حقهم كتمان ذلك ، وذكر في ريّ الظمان أن في الآية تقدماً وتأخيراً ، والتقدير : ومن أظلم ممن كتم شهادة حصلت له ، كقولك : ومن أظلم من زيد من جملة الكاتمين للشهادة ، والمعنى : لو كان إبراهيم وبنوه يهوداً ونصارى ثم إن الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه لكن لما استحال ذلك مع عدله وتنزيهه عن الكذب علمنا أن الأمر ليس كذلك ، انتهى ، وهذا الوجه متكلف جداً من حيث التركيب ومن حيث المدلول ، أما من حيث التركيب ، فزعم قائله أن ذلك على التقديم والتأخير ، وهذا لا يكون عندنا إلا في الضرائر ، وأيضاً فيبقى قوله : (ممن كتم) متعلق إما بأظلم فيكون ذلك على طريقة البدلية ، ويكون إذ ذاك بدل

عام من خاص ، وليس هذا النوع بثابت من لسان العرب على قول الجمهور ، وإن كان بعضهم قد زعم أنه وجد في لسان العرب بدل كل من بعض ، وقد تأول الجمهور ما أدى ظاهره إلى ثبوت ذلك ، وجعلوه من وضع العام موضع الخاص ، لندور ما ورد من ذلك ، أو يكون من متعلقة بمحذوف فيكون في موضع الحال أي كائناً من الكاتمين الشهادة ، وأما من حيث المدلول فإن ثبوت الأظلمية لمن جرّ بمن يكون على تقدير أي إن كتمها فلا أحد أظلم منه ، وهذا كله معنى لا يليق بالله تعالى وينزه كتاب الله عن ذلك ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تقدّم الكلام على تفسير هذه الجملة عند قوله (وما الله بغافل عما تعملون) أفتطمعون ولا يأتي إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيداً ، ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى بل هو محصل لأعمالهم مجاز عليها

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤١)

تقدّم الكلام على شرح هذه الجملة ، وتضمنت معنى التخويف والتهديد ، وليس ذلك بتكرار لأن ذلك ورد إثر شيء مخالف لما وردت الجملة الأولى بأثره ، وإذا كان كذلك فقد اختلف السياق فلا تكرر ، بيان ذلك أن الأولى وردت إثر ذكر الأنبياء فتلك إشارة إليهم ، وهذه وردت عقب أسلاف اليهود والنصارى فالشار إلىهم هم ، فقد اختلف المخبر عنه والسياق ، والمعنى أنه إذا كان الأنبياء على فضلهم وتقدمهم يجازون بما كسبوا فأنتم أحق بذلك ، وقيل : الإشارة بتلك إلى إبراهيم ومن ذكر معه ، واستبعد أن يراد بذلك أسلاف اليهود والنصارى لأنه لم يجز لهم ذكر مصرّح بهم ، وإذا كانت الإشارة بتلك إلى إبراهيم ومن معه فالتكرار حسن لاختلاف الأقوال والسياق ، وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة ما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله تعالى حتى جعلوا ذلك وصية يوصون بها واحداً بعد واحد ، فأخبر تعالى عن إبراهيم أنه أوصى بملته الخنيفية بنيه وأن يعقوب أوصى بذلك وقدم بين يدي وصيته اختيار الله لهم هذا الدين ليسهل عليهم اتباع ما اختاره الله لهم ، ويحضهم على ذلك وأمرهم أنهم لا يموتون إلا عليه ، لأن الأعمال بخواتيمها ، ثم ذكر سؤال يعقوب لبنيه عما يعبدون بعد موته ، فأجابوه بما قرّت به عينه من موافقته وموافقة آبائه الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده والانقياد لأحكامه ، وحكمة هذا السؤال أنه لما وصاهم بالخنيفية استفسرهم عما تكن صدورهم وهل يقبلون الوصية ؟ فأجابوه بقبولها وموافقة ما أحبه منهم ليسكن بذلك جأشه ، ويعلم أنه قد خلف من يقوم مقامه في الدعاء إلى الله تعالى ، وصدر سؤال يعقوب بتفريع اليهود والنصارى بأنهم ما كانوا شهدوا وصية يعقوب إذ فاجأه مقدمات الموت ، فدعواهم اليهودية والنصانية على إبراهيم ويعقوب وبنهم باطلة ، إذ لم يحضروا وقت الوصية ولم تنبئهم بذلك توراتهم ولا إنجيلهم ، فبطل قولهم إذ لم يتحصل لا عن عيان ولا عن نقل ولا ذلك من الأشياء التي يستدل عليها بالعقل ، ثم أخبر تعالى أن تلك الأمة قد مضت لسبيلها ، وأنها رهينة بما كسبت كما أنكم مرهونون بأعمالكم ، وأنكم لا تسألون عنهم ، ثم ذكر تعالى ما هم عليه من دعوى الباطل والدعاء إليه وزعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصانية ، ثم أضرب عن كلامهم وأخذ في اتباع ملة إبراهيم الخنيفية المباشية لليهودية والنصرانية والوثنية ، ثم أمرهم بأن يفصحوا بأنهم آمنوا بما أنزل إليهم وإلى إبراهيم ومن ذكر معه ، فإن الإيمان بذلك هو الدين الخفيف وأنهم منقادون لله اعتقاداً وأفعلاً ، ثم أخبر أن اليهود والنصارى ، إن وافقوكم على ذلك الإيمان فقد حصلت الهداية لهم ، ورتب الهداية على ذلك الإيمان ، فبني بذلك على فساد ترتيب الهداية على اليهودية والنصرانية في قوله : (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) ، ثم أخبر تعالى أنهم إن تولوا فهم الأعداء المشاقون لك وأنك لا تبالي بشقاقهم لأن الله تعالى هو كافيك أمرهم ، ومن كان الله كافيه فهو الغالب ، ففي ذلك إشارة إلى ظهوره عليهم ، ثم ذكر أن صبغة الملة الخنيفية هي صبغة الله ، وإذا كانت صبغة الله فلا صبغة أحسن منها وأن تأثير هذه الصبغة هو ظهورها عليهم بعبادة الله تعالى ، فقال : (ونحن له عابدون) ، ثم استفهمهم أيضاً على

طريق التوبيخ والتقريع عن مجادلتهم في الله ، ولا يحسن النزاع فيه لأن الله هوربنا كلنا ، فالذي يقتضيه العقل أنه لا يجادل فيه ، ثم ذكر أنه رب الجميع وأشار إلى أنه يجازي الجميع بقوله : (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) ، ثم ذكر ما انفردوا به من الإخلاص له لأن اليهود والنصارى غير مخلصين له في العبادة ، ثم استفهمهم أيضاً على جهة التوبيخ والتقريع عن مقاتلتهم في إبراهيم ومن ذكر معه من أنهم كانوا يهوداً ونصارى وأن دأبهم المجادلة بغير حق ، فتارة في الله وتارة في أنبياء الله ثم بين أنهم لا علم عندهم بل الله هو أعلم به ، ثم بين أن تلك المقالة لم تكن عن دليل ولا شبهة بل مجرد عناد ، وأنهم كاتمون للحق دافعون له فقال ما معناه : لا أحد أظلم من كاتم شهادة استودعه الله إياها ، والمعنى : لا أحد أظلم منكم في المجادلة في الله ، وفي نسبة اليهودية والنصرانية لإبراهيم ومن ذكر معه إذ عندهم الشهادة من الله بأحوالهم ، ثم هددهم بأن الله تعالى لا يغفل عما يعملون ، ثم ختم ذلك بأن تلك أمة قد خلت منفردة بعملها كما أنتم كذلك وأنكم غير مسؤولين عما عملوه ، وجاءت هذه الجملة من ابتداء ذكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه على اختلاف معانيه وتعدد مبانيه ، كأنها جملة واحدة في حسن مساقها ونظم اتساقها مرتقية في الفصاحة إلى ذروة الإحسان مفصحة أن بلاغتها خارجة عن طبع الإنسان مذكورة قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) جعلنا الله إن هدي إلى عمل به وفهم ووفى من تدبره أوفر سهم ووفى في تفكره من خطأ ووهم .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زُرِيَ ثَقَلُبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤْيِسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُومُؤَلِّيَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

القبلة^(١) : الجهة التي يستقبلها الإنسان ، وهي من المقابلة ، وقال قطرب : يقولون في كلامهم ليس له قبلة أي جهة يأوي إليها ، وقال غيره : إذا تقابل رجلان فكل واحد منهما قبلة الآخر ، وجاءت القبلة وإن أريد بها الجهة على وزن الهيئات كالقعدة والجلسة ، الوسط اسم لما بين الطرفين وصف به ، فأطلق على الخيار من الشيء لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل ، ولكونه اسماً كان للواحد والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ، وقال حبيب : كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً ، ووسط الوادي خير موضع فيه وأكثره كلاً وماءً ، ويقال : فلان من أوسط قومه وإنه لواسطة قومه ووسط قومه أي من خيارهم وأهل الحسب فيهم ، وقال زهير :

وَهُمْ وَسْطُ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ

وقد وسط سطة ووساطة ، وقال :

وكن من الناس جميعاً وسطاً

وأما وَسْطُ بسكون السين فهو ظرف المكان وله أحكام مذكورة في النحو ، أضاع الرجل الشيء : أهمله ولم يحفظه ، والهمزة فيه للنقل من ضاع يضيع ضياعاً ، وضاع المسك يضيع : فاح ، الانقلاب : الانصراف والارتجاع ، وهو للمطاوعة قلبه فانقلب ، عقب الرجل : معروف والعقب : النسل ويقال عقب بسكون القاف ، الرأفة والرحمة متقاربان في المعنى ، وقيل الرأفة أشد الرحمة ، واسم الفاعل جاء للمبالغة على فعول كضروب ، وجاء على فعل كحذر ، وجاء على فعل كندس ، وجاء على فعل كصعب ، التقلب : التردد وهو للمطاوعة قلبه فتقلب ، الشطر : النصف والجزء من الشيء والجهة ، قال الشاعر :

(١) الْقِبْلَةُ : ناحية الصلاة . وقال الليثاني : القبلة : وجهة السجود وليس لفلان قبلة : أي : جهة ، ويقال : أين قبلتك أي أين جهتك - لسان العرب (٣٥٢١/٥) .

أَلَا مَنْ مُبْلَغٍ عَنِّي رَسُولًا وَمَا تُغْنِي الرِّسَالَةُ شَطْرَ عَمْرٍو

أي نحوه ، وقال الشاعر :

أَقُولُ لِأَمٍّ زَنْبَاعٍ أَقِيمِي صُدُورَ الْعِيسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمٍ

وقال :

وَقَدْ أَظْلَكُكُمْ مِنْ شَطْرِ نَعْرِكُمْ هَوْلُ لَهُ ظِلْمٌ يَغْشَاكُمْ قِطْعًا

وقال ابن أحمر :

تَعْدُو بَنَا شَطْرَ نَجْدٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ قَدْ كَارَبَ الْعُقْدَ مِنْ إِيقَادِهِ الْحُقْبَا

وقال آخر :

وَأُظْعَنُ بِالْقَوْمِ شَطْرَ الْمُلُوكِ

أي نحوهم ، وقال :

إِنَّ الْعَشِيرَ بِهَا دَاءٌ مُخَامِرُهَا وَشَطْرُهَا نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ مَسْجُورٌ

ويقال : شطر عنه بعد و شطر إليه أقبل والشاطر من الشباب البعيد من الجيران الغائب عن منزله ، يقال : شطر شطوراً ، والشطير البعيد ، منزل شطير أي بعيد ، الحرام والحرم والحرم : الممتنع ، وقد تقدّم الكلام في ذلك في قوله (وهو محرم عليكم إخراجهم) ، الامتراء افتعال من المرية^(١) وهي الشك امترى في الشيء شك فيه ، ومنه المراء ماريته أي جادلته وشاككته فيما يدعيه ، وافتعل بمعنى تفاعل تقول تمارينا وامترينا فيه كقولك تحاورنا واحتورنا ، وجهة قال قوم منهم المازني والمبرد والفارسي : إن وجهة اسم للمكان المتوجه إليه ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أصلاً إذ هو اسم غير مصدر ، قال سيبويه : ولو بنيت فعلة من الوعد لقلت : وعدة ، ولو بنيت مصدراً لقلت : عدة ، وذهب قوم منهم المازني فيما نقل المهدوي إلى أنه مصدر ، وهو الذي يظهر من كلام سيبويه ، قال بعد ما ذكر حذف الواو من المصادر : وقد أثبتوا فقالوا : وجهة في الجهة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو شاذاً منبهة على الأصل المتروك في المصادر ، والذي سوغ عندي إقرار الواو وإن كان مصدراً أنه مصدر ليس بنجار على فعله ، إذ لا يحفظ وجه وجهه فيكون المصدر جهة ، قالوا : وعد يعد عدة ، إذ الموجب لحذف الواو من عدة هو الحمل على المضارع ، لأن حذفها في المضارع لعله مفقودة في المصدر ، ولما فقد (وجهه) ولم يسمع لم يحذف من وجهة وإن كان مصدراً لأنه ليس مصدراً ليجه وإنما هو مصدر على حذف الزوائد ، لأن الفعل منه توجه واتجه فالمصدر الجاري هو التوجه والاتجاه وإطلاقه على المكان المتوجه إليه هو من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول ، الاستباق : افتعال من السبق وهو الوصول

(١) ماريت الرجل : أناربه مراء : إذا جادلته . والمرية والمُرية : الشك والجدل - لسان العرب (٤١٨٩/٦) .

إلى الشيء أولاً ويكون افتعل منه إما لموافقة المجرد فيكون معناه ومعنى سبق واحداً ، أو لموافقة تفاعل فيكون استبق وتسابق بمعنى واحد ، الخيرات : جمع خيرة ، ويحتمل أن يكون بناء على فعلة أو بناء على فيعلة فحذف منه كالميتة واللينية ، وقد تقدّم القول في هذا الحذف ، قالوا : رجل خير وامرأة خيرة كما قالوا رجل شر وامرأة شرّة ، ولا يكونان إذ ذاك أفعال التفضيل ، الجوع القحط وأما الحاجة إلى الأكل فإنما اسمها الغرث^(١) ، يقال غَرِثَ يغْرِثُ غَرِثاً فهو غَرِثٌ وَغَرِثَانٌ قال :

مُغَرِّثَةٌ زُرْقًا كَأَنَّ عُيُونَهَا مِنْ الذَّمِّ وَالْإِيحَاءِ نَوَّارٌ عُضْرَسِ

وقد استعمل المحدثون في الغرث الجوع اتساعاً ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ سبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة ، فأنزل الله تعالى ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ الآية ، فقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فقال الله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ الآية ﴿ ومناسبة هذه الآية ﴾ لما قبلها أن اليهود والنصارى قالوا : إن إبراهيم ومن ذكر معه كانوا يهوداً ونصارى ، ذكروا ذلك طعنًا في الإسلام لأن النسخ عند اليهود باطل ، فقالوا : الانتقال عن قبلتنا باطل وسفه ، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله : ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ الآية فبين ما كان هداية وما كان سفهاً ، وسيقول : ظاهر في الاستقبال وأنه إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه يصدر منهم هذا القول في المستقبل ، وذلك قبل أن يؤمروا باستقبال الكعبة ، وتكون هذه الآية متقدمة في النزول على الآية المتضمنة الأمر باستقبال الكعبة ، فتكون من باب الإخبار بالشيء قبل وقوعه ، ليكون ذلك معجزاً إذ هو إخبار بالغيب ، ولتوطن النفس على ما يرد من الأعداء وتستعد له ، فيكون أقل تأثيراً منه إذا فاجأ ولم يتقدم به علم ، وليكون الجواب مستعداً لمنكر ذلك ، وهو قوله : (قل لله المشرق والمغرب) وإلى هذا القول ذهب الزمخشري^(٢) وغيره ، وذهب قوم إلى أنها متقدمة في التلاوة متأخرة في النزول ، وأنه نزل قوله ﴿ قد نرى تقلب وجهك ﴾ الآية ، ثم نزل ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ ، نص على ذلك ابن عباس وغيره ، ويدل على هذا ويصححه حديث البراء المتقدم الذي خرجه البخاري ، وإذا كان كذلك فمعنى قوله (سيقول) أنهم مستمرّون على هذا القول وإن كانوا قد قالوه ، فحكمة الاستقبال أنهم كما صدر عنهم هذا القول في الماضي فهم أيضاً يقولونه في المستقبل ، وليس عندنا من وضع المستقبل موضع الماضي وأن معنى سيقول قال كما زعم بعضهم ، لأن ذلك لا يتأتى مع السين لبعد المجاز فيه ، ولو كان عارياً من السين لقرب ذلك وكان يكون حكاية حال ماضية ، والسفهاء : اليهود قاله البراء بن عازب ومجاهد وابن جبير ، وأهل مكة قالوا : اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دينكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس واختاره الزجاج ، أو المنافقون قالوا ذلك استهزاء بالمسلمين ذكره السدي عن ابن مسعود ، وقد جرى تسمية المنافقين بالسفهاء في قوله (ألا إنهم هم السفهاء) أو الطوائف الثلاث الذين تقدم ذكرهم من الناس ، قال ابن عطية وغيره : وخص بقوله (من الناس) لأن السفه أصله الخفة يوصف به الجماد ، قالوا : ثوب سفه أي : خفيف النسج والهلهلة ورمح سفه أي : خفيف سريع النفوذ ، ويوصف به الحيوانات غير الناس ، فلو اقتصر لاحتمل الناس وغيرهم لأن القول ينسب إلى الناس حقيقة وإلى

(١) الْغَرْتُ : أيسر الجوع وقيل : شدته ، وقيل : هو الجوع عامة - لسان العرب (٣٢٣١/٥) .

(٢) انظر الكشف (١٩٨/١) .

غيرهم مجازاً ، فارتفع المجاز بقوله (من الناس) (ما ولاهم) أي : ما صرفهم ، والضمير عائد على النبي ﷺ والمؤمنين (عن قبلتهم) أضاف القبلة إليهم لأنهم كانوا استقبلوها زمناً طويلاً ، فصحت الإضافة ، وأجمع المفسرون على أن هذه التولية كانت من بيت المقدس إلى الكعبة ، هكذا ذكر بعض المفسرين ، وليس ذلك إجماعاً بل قد ذهب قوم إلى أن هذه القبلة التي عيب التحول منها إلى غيرها هي الكعبة ، وأنه كان يصلي إليها عندما فرضت الصلاة لأنها قبلة أبيه إبراهيم فلما توجه إلى بيت المقدس ، قال أهل مكة زارين^(١) عليه وعائين : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ هذا على حذف مضاف أي على استقبالها ، والاستعلاء هنا مجاز ، وحكمته أنهم لمواظبتهم على امتثال أمر الله في المحافظة على الصلوات ، صارت القبلة لهم كالشيء المستعمل عليه الملازم دائماً ، وفي وصف القبلة بقوله (التي كانوا عليها) ما يدل على تمكن استقبالها وديمومتهم على ذلك ، والضمير في قوله قبلتهم وكانوا : ضمير المؤمنين ، وقيل : يحتمل أن يكون الضمير عائداً على السفهاء فإنهم كانوا لا يعرفون إلا قبلة اليهود وهي إلى المغرب وقبلة النصراني وهي إلى المشرق ، والعرب لم يكن لهم صلاة فيتوجهون إلى شيء من الجهات فلما توجه نحو الكعبة استنكروا ذلك ، فقالوا : كيف يتوجه إلى غير هاتين الجهتين المعروفتين ، واختلفوا في استقبال بيت المقدس ، أكان بوحي متلو ، أو بأمر من الله غير متلو ، أو بتخيير الله رسوله في النواحي فاختر بيت المقدس ، قاله الربيع ، أو باجتهاده بغير وحي قاله الحسن وعكرمة وأبو العالية ، أقوال ، الأول عن ابن عباس روي عنه أنه قال : أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وكذلك اختلفوا في المدة التي صلى رسول الله ﷺ فيها إلى بيت المقدس ، فقيل ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وقيل تسعة أو عشرة أشهر ، وقيل ثلاثة عشر شهراً ، وقيل من وقت فرض الخمس واثتمامه بجبريل إثر الإسراء ، وكان ليلة سبع عشرة من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ، ثم هاجر في ربيع الأول وتمادى يصلي إلى بيت المقدس إلى رجب من سنة اثنتين ، وقيل إلى جمادى ، وقيل إلى نصف شعبان ، وروي أنه ﷺ صلى ركعتي الظهر^(٢) فانصرف بالأخرتين إلى الكعبة ، وقد استدل بهذه الآية على جواز نسخ السنة بالقرآن إذ صلاته إلى بيت المقدس ليس فيها قرآن واستدل بها أيضاً على بطلان قول من يزعم أن النسخ بداء ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ الأمر متوجه للنبي ﷺ ، وفيه تعليم له ﷺ كيف يبطل مقالتهم ، ورد عليهم إنكارهم ، والمعنى : أن الجهات كلها لله تعالى يكلف عباده بما شاء أن يستقبل منها ، وأن تجعل قبلة ، وقد تقدم الكلام على قوله (لله المشرق والمغرب) فأغنى عن الإعادة هنا ، وقد شرح المشرق ببيت المقدس والمغرب بالكعبة ، لأن الكعبة غربي بيت المقدس ، فيكون بالضرورة بيت المقدس شريقيا ﴿ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ أي من يشاء هدايته ، وقد تقدم الكلام على ما يشبه هذه الجملة في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) فأغنى عن إعادته ، وتقدم أن (هدى) يتعدى باللام وبـ (إلى) وبـ نفسه وهنا عدي بـ (إلى) ، وقد اختلفوا في الصلاة التي حولت القبلة فيها ، فقيل : الصبح ، وقيل : الظهر ، وقيل : العصر ، وكذلك أكثروا الكلام في الحكمة التي لأجلها كان تحويل القبلة بأشياء لا يقوم على صحتها دليل ، وعللوا ذلك بعلل لم يشر إليها الشرع ، ولا قاد نحوها العقل فتركنا نقل ذلك في كتابنا هذا على عادتنا في ذلك ، ومن طلب للوضعيات تعاليل فأحرى بأن يقل صوابه ويكثر خطؤه ، وأما ما نص الشرع على حكمته أو أشار أو قاد إليه النظر الصحيح فهو الذي لا معدل عنه ولا استفادة إلا منه ، وقد فسر قوله : صراط مستقيم بأنه القبلة التي هي الكعبة ، والظاهر أنه ملة الإسلام وشرائعه ، فالكعبة من بعض مشروعاته ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ الكاف للتشبيه وذلك اسم إشارة

(١) زرى عليه عمله : إذا عابه وعنفه - لسان العرب (٣/ ١٨٣٠) .

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى رقم (٧٣٢) ، والبخاري كما في كشف الأستار رقم (٤١٩) ، وفي الدر المنثور (١/ ١٤٦) ، وعزاه لابن المنذر .

والكاف في موضع نصب إما لكونه نعتاً لمصدر محذوف، وإما لكونه حالاً، والمعنى : وجعلناكم أمة وسطاً جعلاً مثل ذلك ، والإشارة بذلك ليس إلى ملفوظ به متقدم إذ لم يتقدم في الجملة السابقة اسم يشار إليه بذلك لكن تقدم لفظ « يهدي » ، وهو دال على المصدر وهو « الهدى » ، وتبين أن معنى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم يجعله على صراط مستقيم ، كما قال تعالى ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ [الأنعام : ٣٩] ، قابل تعالى الضلال بالجعل على الصراط المستقيم إذ ذلك الجعل هو الهداية فكذلك معنى الهدى هنا هو ذلك الجعل ، وتبين أيضاً من قوله (قل لله المشرق والمغرب) إلى آخره أن الله جعل قبلتهم خيراً من قبله اليهود والنصارى أو وسطاً ، فعلى هذه التقادير اختلفت الأقاويل في المشار إليه بذلك ، فقيل : المعنى أنه شبه جعلهم أمة وسطاً بهديته إياهم إلى الصراط المستقيم ، أي أنعمنا عليكم بجعلكم أمة وسطاً مثل ما سبق إنعامنا عليكم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، فتكون الإشارة بذلك إلى المصدر الدال عليه يهدي ، أي جعلناكم أمة خياراً مثل ما هديناكم باتباع محمد ﷺ وما جاء به من الحق ، وقيل : المعنى أنه شبه جعلهم أمة وسطاً بجعلهم على الصراط المستقيم أي جعلناكم أمة وسطاً مثل ذلك الجعل الغريب الذي فيه اختصاصكم بالهداية ، لأنه قال : (يهدي من يشاء) فلا تقع الهداية إلا لمن شاء الله تعالى ، وقيل : المعنى كما جعلنا قبلتكم خير القبل جعلناكم خير الأمم ، وقيل : المعنى كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب جعلناكم أمة وسطاً ، وقيل : المعنى كما جعلنا الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً دون الأنبياء وفوق الأمم وأبعد من ذهب إلى أن ذلك إشارة إلى قوله تعالى (ولقد اصطفيناه في الدنيا) أي مثل ذلك الاصطفاء جعلناكم أمة وسطاً ومعنى وسطاً : عدولاً ، روي ذلك عن رسول الله ﷺ ، وقد تظاهرت به عبارة المفسرين ، وإذا صح ذلك عن رسول الله ﷺ وجب المصير في تفسير الوسط إليه ، وقيل : خياراً ، وقيل : متوسطين في الدين بين المفرط والمقصر ، لم يتخذوا واحداً من الأنبياء إلهاً كما فعلت النصارى ، ولا قتلوه كما فعلت اليهود ، واحتج جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة ، فقالوا : أخبر الله عن عدالة هذه الأمة وعن خيرتهم ، فلو أقدموا على شيء وجب أن يكون قولهم حجة ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ تقدم شرح الشهادة في قوله (وادعوا شهداءكم) وفي شهادتهم هنا أقوال : أحدها : ما عليه الأكثر من أنها في الآخرة ، وهي شهادة هذه الأمة للأنبياء على أممهم الذين كذبوهم ، وقد روي ذلك نصاً في الحديث في البخاري^(١) وغيره ، وقال في المنتخب : وقد طعن القاضي في الحديث من وجوه ، وذكروا وجوهاً ضعيفة ، وأظنه عني بالقاضي هنا : القاضي عبد الجبار المعتزلي لأن الطعن في الحديث الثابت الصحيح لا يناسب مذاهب أهل السنة ، وقيل : الشهادة تكون في الدنيا ، واختلف قائلو ذلك ، فقيل : المعنى يشهد بعضكم على بعض إذا مات ، كما جاء في الحديث من أنه مر بجنازة فأتى عليها خيراً وبأخرى فأتى عليها شراً ، فقال الرسول : وجبت يعني الجنة والنار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، ثبت ذلك في مسلم ، وقيل : الشهادة الاحتجاج أي لتكونوا محتجين على الناس حكاة الزجاج ، وقيل : معناه : لتنقلوا إليهم ما علمتموه من الوحي والدين ، كما نقله رسول الله ﷺ ، وتكون « على » بمعنى « اللام » ، كقوله ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ [المائدة : ٣] ، أي للنصب ، وقيل : معناه ليكون إجماعكم حجة (ويكون الرسول عليكم شهيداً) أي محتجاً بالتبليغ ، وقيل : لتكونوا شهداء لمحمد ﷺ على الأمم اليهود والنصارى والمجوس قاله مجاهد ، وقيل : شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار ، وأسباب هذه الشهادة أي شهادة هذه العدول أربعة بمعاينة كالشهادة على الزنا وبخبر الصادق كالشهادة على الشهادة وبالاتفاضة كالشهادة على الأنساب وبالدلالة كالشهادة على الأملاك وكتعديل الشاهد وجرحه ،

وقال ابن دريد : الأشهاد أربعة : الملائكة بإثبات أعمال العباد ، والأنبياء ، وأمة محمد والجوارح ، انتهى ، ولما كان بين الرؤية بالبصر والإدراك بالبصيرة مناسبة شديدة سمي إدراك البصيرة مشاهدة وشهوداً وسمي العارف شاهداً ومشاهداً ، ثم سميت الدلالة على الشيء شهادة عليه لأنها هي التي صار الشاهد شاهداً ، وقد اختص هذا اللفظ في عرف الشرع بمن يخبر عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات ، قالوا : وفي هذه الآية دلالة على أن الأصل في المسلمين العدالة ، وهو مذهب أبي حنيفة واستدل بقوله (أمة وسطاً) أي عدولاً خياراً ، وقال بقية العلماء : العدالة وصف عارض لا يثبت إلا ببينة ، وقد اختار المتأخرون من أصحاب أبي حنيفة ما عليه الجمهور لتغير أحوال الناس ولما غلب عليهم في هذا الوقت ، وهذا الخلاف في غير الحدود والقصاص ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ لا خلاف أن الرسول هنا هو محمد ﷺ ، وفي شهادته أقوال :

أحدها : شهادته عليهم أنه قد بلغهم رسالة ربه .

الثاني : شهادته عليهم بإيمانهم .

الثالث : يكون حجة عليهم .

الرابع : تزكيته لهم وتعديله إياهم قاله عطاء ، قال : هذه الأمة شهداء على من ترك الحق من الناس أجمعين والرسول شهيد معدل مزك لهم ، وروي في ذلك حديث ، وقد تقدم أيضاً ما روى البخاري في ذلك ، واللام في قوله : (لتكونوا) هي لام كي أو لام الصيرورة عند من يرى ذلك ، فمجيء ما بعدها سبباً لجعلهم خياراً أو عدولاً ظاهر ، وأما كون شهادة الرسول عليهم سبباً لجعلهم خياراً فظاهر أيضاً لأنه إن كانت الشهادة بمعنى التزكية أو بأي معنى فسرت شهادته ، ففي ذلك الشرف التام لهم حيث كان أشرف المخلوقات هو الشاهد عليهم ، ولما كان الشهيد كالقريب على المشهود له جيء بكلمة على ، وتأخر حرف الجر في قوله (على الناس) عما يتعلق به جاء ذلك على الأصل إذ العامل أصله أن يتقدم على المعمول ، وأما في قوله : (عليكم شهيداً) فتقدمه من باب الاتساع في الكلام للفصاحة ، ولأن شهيداً أشبه بالفواصل والمقاطع من قوله : عليكم ، فكان قوله شهيداً تمام الجملة ومقطعها دون عليكم ، وما ذهب إليه الزمخشري من أن تقديم على أولاً لأن الغرض فيه إثبات شهادتهم على الأمم وتأخير على لاختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم فهو مبني على مذهبه أن تقديم المفعول والمجرور يدل على الاختصاص ، وقد ذكرنا بطلان ذلك فيما تقدم ، وأن ذلك دعوى لا يقوم عليها برهان ، وتقدم ذكر تعليل جعلهم وسطاً بكونهم شهداء ، وتأخر التعليل بشهادة الرسول لأنه كذلك يقع ، ألا ترى أنهم يشهدون على الأمم ثم يشهد الرسول عليهم على ما نص في الحديث من أنهم إذا نكرت الأمم رسلهم وشهدت أمة محمد عليهم بالتبليغ يؤتى بمحمد ﷺ ، فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم ، وإن فسرت الشهادتان بغير ذلك مما يمكن أن تكون شهادة الرسول متقدمة في الزمان فيكون التأخير لذكر شهادة الرسول من باب الترتي ، لأن شهادة الرسول عليهم أشرف من شهادتهم على الناس ، وأتى بلفظ الرسول لما في الدلالة بلفظ الرسول على اتصافه بالرسالة من عند الله إلى أمته ، وأتى بجمع فعلاء الذي هو جمع فعيل وبشهادته لأن ذلك هو للمبالغة دون قوله شاهدين أو شهاداً أو شاهداً ، وقد استدل بقوله : (ويكون الرسول عليكم شهيداً) على أن التزكية تقتضي قبول الشهادة فإن أكثر المفسرين قالوا : معنى شهيداً مزكياً لكم قالوا وعليكم تكون بمعنى لكم ﴿ وما جعلنا القبله التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبه ﴾ جعل هنا بمعنى : صير فيتعدى لمفعولين أحدهما : القبله والآخر : التي كنت عليها ، والمعنى وما صيرنا قبلك الآن الجهة التي كنت أولاً عليها إلا لنعلم أي ما صيرنا متوجهك الآن في الصلاة المتوجه أولاً لأنه كان يصلي أولاً إلى الكعبة ثم صلى إلى بيت المقدس ثم

صار يصلي إلى الكعبة ، وتكون القبلة هو المفعول الثاني والتي كنت عليها هو المفعول الأول إذ التصيير هو الانتقال من حال إلى حال فالمتلبس بالحالة الأولى هو المفعول الأول والمتلبس بالحالة الثانية هو المفعول الثاني ، ألا ترى أنك تقول : جعلت الطين خزفاً وجعلت الجاهل عالماً ، والمعنى هنا على هذا التقدير : وما جعلنا الكعبة التي كانت قبلة لك أولاً ثم صرفت عنها إلى بيت المقدس قبلتك الآن إلا لنعلم ، ووهم الزمخشري^(١) في ذلك فزعم أن التي كنت عليها هو المفعول الثاني لجعل قال : التي كنت عليها ليس بصفة للقبلة إنما هي ثاني مفعولي جعل تريد : وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة ، لأن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود ، ثم حوّل إلى الكعبة فيقول : وما جعلنا القبلة التي يجب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة يعني وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء ، انتهى ما ذكره ، وقد أوضحنا أن التي كنت عليها هو المفعول الأول ، وقيل هذا بيان لحكمة جعل بيت المقدس قبلة والمعنى : وما جعلنا متوجهك بيت المقدس إلا لنعلم ، فيكون ذلك على معنى أن استقبالك بيت المقدس هو أمر عارض لتمييز به الثابت على دينه من المرتد ، وكل واحد من الكعبة وبيت المقدس صالح بأن يوصف بقوله (التي كنت عليها) لأنه قد كان متوجهاً إليهما في وقتين ، وقيل : (التي كنت عليها) صفة للقبلة وعلى هذا التقدير اختلفوا في المفعول الثاني ، فقيل : تقديره : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبلة إلا لنعلم ، وقيل : التقدير وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة إلا لنعلم ، وقيل ذلك على حذف مضاف أي وما جعلنا صرف القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم ويكون المفعول الثاني على هذا قوله (لنعلم) كما تقول ضرب زيد للتأديب أي كائن وموجود للتأديب أي بسبب التأديب ، وعلى كون التي صفة يحتمل أن يراد بالقبلة الكعبة ويحتمل أن يراد بيت المقدس إذ كل منهما متصف بأنه كان عليه ، وقال ابن عباس : القبلة في الآية الكعبة وكنت بمعنى أنت كقوله تعالى (كنتم خير أمة) بمعنى أنتم ، انتهى ، وهذا من ابن عباس إن صح تفسير معنى لا تفسير إعراب ، لأنه يؤول إلى زيادة كان الرافعة للاسم والناصفة للخبر ، وهذا لم يذهب إليه أحد ، وإنما تفسير الإعراب على هذا التقدير ما نقله النحويون أن كان تكون بمعنى صار ، ومن صار إلى شيء واتصف به صح من حيث المعنى نسبة ذلك الشيء إليه ، فإذا قلت : صرت عالماً صح أن تقول : أنت عالم لأنك تخبر عنه بشيء هو فيه ، فتفسير ابن عباس كنت بأنثى هو من هذا القبيل ، فهو تفسير معنى لا تفسير إعراب ، وكذلك من صار خير أمة صح أن يقال فيه أنتم خير أمة ، (إلا لنعلم) استثناء مفرغ من المفعول له ، وفيه حصر السبب أي ما سبب تحويل القبلة إلا كذا ، وظاهر قوله لنعلم ابتداء العلم وليس المعنى على الظاهر إذ يستحيل حدوث علم الله تعالى ، فأول : لنى حذف مضاف أي ليعلم رسولنا والمؤمنون ، وأسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه وأهل الزلفى لديه ، فيكون هذا من مجاز الحذف أو على إطلاق العلم على معنى التمييز ، لأن بالعلم يقع التمييز أي لنميز التابع من الناكص ، كما قال تعالى ﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ويكون هذا من مجاز إطلاق السبب ويراد به المسبب ، وحكي هذا التأويل عن ابن عباس أو على أنه أراد ذكر علمه وقت موافقتهم الطاعة أو المعصية إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب ، فليس المعنى لنحدث العلم وإنما المعنى لنعلم ذلك موجوداً إذ الله قد علم في القدم من يتبع الرسول واستمر العلم حتى وقع حدوثهم ، واستمر في حين الاتباع والانقلاب واستمر بعد ذلك ، والله تعالى متصف في كل ذلك بأنه يعلم ويكون هذا قد كنى فيه بالعلم عن تعلق العلم أي ليتعلق علمنا بذلك في حال وجوده أو على أنه أراد بالعلم التثبيت أي لنثبت التابع ، ويكون من إطلاق السبب ويراد به المسبب لأن من علم الله أنه متبع للرسول فهو ثابت الاتباع أو على أنه أريد

بالعلم الجزاء أي لنجازي الطائع والعاصي ، وكثيراً ما يقع التهديد في القرآن وفي كلام العرب بذكر العلم ، كقولك : زيد عصاك ، والمعنى : أنا أجازيه على ذلك أو على أنه أريد بالمستقبل هنا الماضي ، التقدير : لما علمنا أو لعلمنا من يتبع الرسول ممن يخالف فهذه كلها تأويلات في قوله (لنعلم) فراراً من حدوث العلم وتجذده إذ ذلك على الله مستحيل ، وكل ما وقع في القرآن مما يدل على ذلك أول بما يناسبه من هذه التأويلات ، ونعلم هنا متعدياً إلى واحد وهو الموصول فهو في موضع نصب والفعل بعده صلته ، وقال بعض الناس : نعلم هنا متعلقة كما تقول علمت أزيد في الدار أم عمرو حكاه الزمخشري ، وعلى هذا القول تكون (من) استفهامية في موضع رفع على الابتداء ، و (يتبع) في موضع الجر والجملة في موضع المفعول بـ (تعلم) وقد ردّ هذا الوجه من الإعراب بأنه إذا علق (نعلم) لم يبق لقوله (ممن ينقلب) ما يتعلق به لأن ما بعد الاستفهام لا يتعلق بما قبله ، ولا يصح تعلقها بقوله (يتبع) الذي هو خبر عن (من) الاستفهامية لأن المعنى ليس على ذلك وإنما المعنى على أن يتعلق بـ (نعلم) كقولك : علمت من أحسن إليك ممن أساء ، وهذا يقوي أنه أريد بالعلم : الفصل والتمييز إذ العلم لا يتعدى بمن إلا إذا أريد به التمييز لأن التمييز هو الذي يتعدى بمن ، وقرأ « الزهري » : لِيُعْلَمَ على بناء الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله ، وهذا لا يحتاج إلى تأويل إذ الفاعل قد يكون غير الله تعالى ، فحذف وبني الفعل للمفعول ، وعلم غير الله تعالى حادث ، فيصح تعليل الجعل بالعلم الحادث ، وكان التقدير : ليعلم الرسول والمؤمنون ، وأتى بلفظ الرسول ولم يجر على ذلك الخطاب في قوله : (كنت عليها) فكان يكون الكلام من يتبعك لما في لفظه من الدلالة على الرسالة ، وجاء الخطاب مكتنفاً بذكر الرسول مرتين لما في ذلك من الفصاحة والتفنن في البلاغة ، وليعلم أن المخاطب هو الموصوف بالرسالة ، ولما كانت الشهادة والمتبوعة من الأمور الإلهية خاصة أتى بلفظ الرسول ليدل على أن ذلك هو مختص بالتبليغ المحض ، ولما كان التوجه إلى الكعبة توجهاً إلى المكان الذي ألفه الإنسان وله إلى ذلك نزوع ، أتى بالخطاب دون لفظ الرسالة ، فقيل : (التي كنت عليها) فهذه والله أعلم حكمة الالتفات هنا ، وقوله : (ينقلب على عقبيه) كناية عن الرجوع كما كان فيه من إيمان أو شغل ، والرجوع على العقب أسوأ أحوال الراجع في مشيه على وجهه ، فلذلك شبه المرتد في الدين به والمعنى أنه كان متلبساً بالإيمان فلما حوّلت القبلة ارتاب فعاد إلى الكفر ، فهذا انقلاب معنوي ، والانقلاب الحقيقي هو الرجوع إلى المكان الذي خرج منه ، وقوله : (على عقبيه) في موضع الحال أي ناكصاً على عقبيه ، ومعناه : أنه رجع إلى ما كان عليه لم يخل في رجوعه بأنه عاد من حيث جاء إلى الحالة الأولى التي كان عليها ، فهو قد ولى عما كان أقبل عليه ومشى أدراجه التي تقدّمت له ، وذلك مبالغة في التباسه بالشيء الذي يوصله إلى الأمر الذي كان فيه أولاً ، قالوا : وقد اختلفوا في أن هذه المحنة حصلت بسبب تعيين القبلة أو بسبب تحويلها ، فقيل بالأول لأنه كان يصلي إلى الكعبة ثم صلى إلى بيت المقدس ، فشق ذلك على العرب من حيث إنه ترك قبلتهم ثم صلى إلى الكعبة ، فشق ذلك على اليهود من حيث إنه ترك قبلتهم ، وقال الأكثرون بالقول الثاني ، قالوا : لو كان محمد على يقين من أمره لما تغير رأيه ، وروي أنه رجع ناس ممن أسلم ، قالوا : مرة هنا ومرة هنا ؟ وهذا أشبه لأن الشبهة في أمر النسخ أعظم من الشبهة الحاصلة بتعيين القبلة ، وقد وصفها الله بالكبر في قوله (وإن كانت لكبيرة) ، وقرأ ابن أبي إسحاق (على عقبيه) بسكون القاف ، وتسكين عين فعل اسماً كان أو فعلاً لغة تميمية ، وقد تقدّم ذكر ذلك ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ اسم كانت مضمّر يعود على التولية عن البيت المقدس إلى الكعبة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وتحريره من جهة علم العربية أنه عائد على المصدر المفهوم من قوله : (وما جعلنا القبلة) أي وإن كانت الجعلة لكبيرة ، أو يعود على القبلة التي كان رسول الله ﷺ يتوجه إليها وهي بيت المقدس قبل التحويل قاله أبو العالية والأخفش ، وقيل يعود على الصلاة التي صلّوها إلى البيت المقدس ، ومعنى كبيرة أي : شاقة صعبة ، ووجه صعوبتها أن ذلك مخالف

للعادة ، لأن من ألف شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال أو أن ذلك محتاج إلى معرفة النسخ وجوازه ووقوعه ، و « إن » هنا هي المخففة من الثقيلة دخلت على الجملة الناسخة ، واللام هي لام الفرق بين إن النافية والمخففة من الثقيلة ، وهل هي لام الابتداء ألزمت للفرق أم هي لام اجتلبت للفرق ؟ وفي ذلك خلاف هذا مذهب البصريين والكسائي والفراء وقطرب في إن التي يقول البصريون إنها مخففة من الثقيلة خلاف مذكور في النحو^(١) ، وقراءة الجمهور « لكبيرة » بالنصب على أن تكون خبر كانت ، وقرأ اليزيدي (لكبيرة) بالرفع ، وخرج ذلك الزمخشري^(٢) على زيادة كانت ، التقدير وإن هي لكبيرة ، وهذا ضعيف لأن كان الزائدة لا عمل لها ، وهنا قد اتصل بها الضمير فعملت فيه ولذلك استكن فيها ، وقد خالف أبو سعيد فزعم أنها إذا زيدت عملت في الضمير العائد على المصدر المفهوم منها أي كان هو أي الكون ، وقد رد ذلك في علم النحو ، وكذلك أيضاً نوزع من زعم أن كان زائدة في قوله :
وَجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامَ^(٣)

لا اتصال الضمير به وعمل الفعل فيه ، والذي ينبغي أن تحمل القراءة عليه أن تكون لكبيرة خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : لهي كبيرة ، ويكون لام الفرق دخلت على جملة في التقدير تلك الجملة لكانت ، وهذا التوجيه ضعيف أيضاً وهو توجيه شذوذ ، (إلا على الذين هدى الله) هذا استثناء من المستثنى منه المحذوف إذ التقدير : وإن كانت لكبيرة على الناس إلا على الذين هدى الله ، ولا يقال في هذا : إنه استثناء مفرغ لأنه لم يسبقه نفي أو شبهه إنما سبقه إيجاب ، ومعنى (هدى الله) أي هداهم لاتباع الرسول أو عصمتهم واهتدوا بهدايته أو خلق لهم الهدى الذي هو الإيمان في قلوبهم أو وفقهم إلى الحق وثبتهم على الإيمان ، وهذه أقوال متقاربة وفيه إسناد الهداية إلى الله أي إن عدم صعوبة ذلك إنما هو بتوفيق من الله لا من ذوات أنفسهم ، فهو الذي وفقهم لهدايته ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ قيل : سبب نزول هذا أن جماعة ماتوا قبل تحويل القبلة ، فسئل رسول الله ﷺ عنهم فنزلت ، وقيل : السائل أسعد بن زرارة والبراء بن معرور مع جماعة وهذا مشكل لأنه قد روي أن أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ماتا قبل تحويل القبلة ، وقد فسر الإيمان بالصلاة إلى بيت المقدس وكذلك ذكره البخاري والترمذي ، وقال ذلك ابن عباس والبراء بن عازب وقتادة والسدي

(١) قال أبو حيان في ارتشاف الضرب : مذهب سيبويه والأخفشين أبوي الحسن وأكثر نحاة بغداد : أن هذه اللام لام الابتداء التي كانت مع المشددة لزمت للفرق بين (إن) التي هي لتأكيد النسبة وبين (إن) النافية وهو اختيار أبي الحسن بن الأخضر من أئمة بلادنا ، وابن عصفور ، وابن مالك ، ومذهب الفارسي أنها ليست لام الابتداء بل لام أخرى اجتلبت للفرق ، وهو اختيار أبي عبد الله بن أبي العافية ، والأستاذ أبي علي ، وأبي الحسين بن أبي الربيع ، وقيل : إن دخلت على الجملة الاسمية كانت لام الابتداء ألزمت للفرق ، أو على الفعلية كانت غيرها فارقة ، وثمرة الخلاف بين القولين الأولين أنها إن كانت لام الابتداء وجب كسر همزة إن في مثل : قد علمنا إن كنت لمؤمناً ، وإن كانت غيرها جاءت للفرق وجب فتح همزة إن ، والجملة الفعلية هي الفعل الناسخ والمثبت من باب كان غير ليس ، ولا الواقع صلة فلا يدخل على ليس ولا على ما أوله حرف نفي ، ولا على دام ، ومن باب ظن غير الذي لا يتصرف ، فلا تدخل على (هب) ونحوها وتلزم اللام ما وقع في اللفظ ثانياً من معمول كان ومعمولي ظن وأخواتها ، ولا تدخل على ما خبره منفي في باب كان ولا على ما ثانية منفي في باب ظن وسواء في ذلك الفعل المضارع والماضي قال تعالى : (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين) (وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) (وإن منفي لمن الكاذبين) و (إن يكاد الذين كفروا ليزلقونك) ودعوى ابن مالك : أنه إذا كان بلفظ المضارع يحفظ ولا يقاس عليه ليست بشيء .

(٢) انظر الكشف (٢٠٠/١) .

(٣) البيت من الوافر للفرزدق ، انظر ديوانه (٢٩٠/٢) ، وروايته (وكيف إذا رأيت ديار قومي ..) وانظر الخزانة (٢١٧/٩) ، شرح شواهد المغني (٦٩٣) ، الحلل ص (٥٩) ، شرح أبيات سيبويه للنحاس (٦١ ، ٢٢٧) ، الجمل في النحو ص (١٢٥) ، الكتاب (١٥٣/٢) .

والربيع وغيرهم ، وكني عن الصلاة بالإيمان لما كانت صادرة عنه وهي من شعبه العظيمة ، ويحتمل أن يقرّ الإيمان على مدلوله إذ هو يشمل التصديق في وقت الصلاة إلى بيت المقدس وفي وقت التحويل ، وذكر الإيمان وإن كان السؤال عن صلاة من صلى إلى بيت المقدس لأنه هو العمدة والذي تصح به الأعمال ، وقد كان لهم ثابتاً في حال توجههم إلى بيت المقدس وغيره ، فأخبر تعالى أنه لا يضيع إيمانكم ، فاندرج تحته متعلقاته التي لا تصح إلا به وكان ذكر الإيمان أولى من ذكر الصلاة لثلاث يتوهم اندراج صلاة المنافقين إلى بيت المقدس ، وأتى بلفظ الخطاب وإن كان السؤال عمن مات على سبيل التغليب ، لأن المصلين إلى بيت المقدس لم يكونوا كلهم ماتوا ، وقرأ الضحاك (لِيُضَيِّعَ) بفتح الضاد وتشديد الياء ، وأضاع وضيّع الهمة والتضعيف ، كلاهما للنقل إذ أصل الكلمة ضاع ، وقال في المنتخب : لولا ذكر سبب نزول هذه الآية لما اتصل الكلام بعبء بعض ، ووجه تقرير الاشكال : أن الذين لا يجوزون النسخ إلا مع البداء يقولون : إنه لما تغير الحكم وجب أن يكون الحكم مفسدة أو باطلاً ، فوقع في قلوبهم بناء على هذا السؤال أن تلك الصلوات التي أتوا بها متوجهين إلى بيت المقدس كانت ضائعة فأجاب الله تعالى عن هذا الإشكال ، وبين أن النسخ نقل من مصلحة إلى مصلحة ومن تكليف إلى تكليف ، والأول كالثاني في أن المتمسك به قائم ، انتهى ، وإذا كان الشك إنما تولد ممن يجوز البداء على الله ، فكيف يليق ذلك بالصحابة ، والجواب : أنه لا يقع إلا من منافق فأخبر عن جواب سؤال المنافق أو جواب على تقدير خطور ذلك ببال صحابي لو خطر أو على تقدير اعتقاده أن التوجه إلى الكعبة أفضل ، وما ذكره في المنتخب من أنه لولا ذكر سبب نزول هذه الآية لما اتصل الكلام بعبء بعض ليس بصحيح بل هو كلام متصل سواء أصبح ذكر السبب أم لم يصح ، وذلك أنه لما ذكر قوله تعالى : (لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) كان ذلك تقسيماً للناس حالة الجعل إلى قسمين متبع للرسول وناقص ، فأخبر تعالى أنه لا يضيع إيمان المتبع بل عمله وتصديقه قبل أن تحول القبلة وبعد أن تحول لا يضيعه الله إذ هو المكلف بما شاء من التكليف ، فمن امتثلها فهو لا يضيع أجره ، ولما كان قد يهجنس في النفس الاستطلاع إلى حال إيمان من اتبع الرسول في الحالتين أخبر تعالى أنه لا يضيعه ، وأتى بكان المنفية بما الجائي بعدها لام الجحود لأن ذلك أبلغ من أن لا يأتي بلام الجحود ، فقولك : ما كان زيد ليقوم أبلغ مما كان زيد يقوم ، لأن في المثال الأول هو نفي للتهيئة والإرادة للقيام ، وفي الثاني هو نفي للقيام ، ونفي التهيئة والإرادة للفعل أبلغ من نفي الفعل لأن نفي الفعل لا يستلزم نفي إرادته ، ونفي التهيئة والصلاحي والإرادة للفعل تستلزم نفي الفعل فلذلك كان النفي مع لام الجحود أبلغ ، وهكذا القول فيما ورد من هذا النحو في القرآن وكلام العرب ، وهذه الأبلغية إنما هي على تقدير مذهب البصريين ، فإنهم زعموا أن خبر كان التي بعدها لام الجحود محذوف ، وأن اللام بعدها أن مضمرة ينسبك منها مع الفعل بعدها مصدر وذلك الحرف متعلق بذلك الحرف المحذوف ، وقد صرح بذلك الخبر في قول بعضهم :

سموت ولم تكن أهلاً لتسمو^(١)

ومذهب الكوفيين أن اللام هي الناصبة وليست أن مضمرة بعده ، وأن اللام بعدها للتأكيد ، وأن نفس الفعل المنصوب بهذه اللام هو خبر كان ، فلا فرق بين ما كان زيد يقوم وما كان زيد ليقوم إلا مجرد التأكيد الذي في اللام ، والكلام على هذين المذهبين مذكور في علم النحو ، ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ ختم هذه الآية بهذه الجملة

(١) هذا صدر بيت من الوافر لم يعلم قائله ، انظر الجني الداني ص (١١٩) ، همع الهوامع (٨/٢) ، التصريح على التوضيح (٢٣٥/٢) .

ظاهر ، وهي جارية مجرى التعليل لما قبلها أي للطف رأفته وسعة رحمته نقلكم من شرع إلى شرع أصلح لكم وأنفع في الدين ، أو لم يجعل لها مشقة على الذين هداهم أو لا يضيع إيمان من آمن ، وهذا الأخير أظهر ، والألف واللام في (بالناس) يحتمل الجنس كما قال ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ [الشورى : ١٩] ، ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، ﴿ وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ [غافر : ٧] ، ويحتمل العهد فيكون المراد بالناس : المؤمنين ، وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص : لَرَوْفٌ مهموزاً على وزن فعول حيث وقع ، قال الشاعر :

نُطِيعُ رَسُولَنَا وَنُطِيعَ رَبًّا هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رَوْفًا^(١)

وقرأ « باقي السبعة » : لَرَوْفٌ مهموزاً على وزن نَدُس ، قال الشاعر :

يَرَى لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ حَقًّا كَحَقِّ الْوَالِدِ الرَّؤْفِ الرَّحِيمِ^(٢)

وقال الوليد بن عقبة^(٣) :

وَشَرُّ الظَّالِمِينَ فَلَا تَكُنْهُ يُقَابِلُ عَمَّهُ الرَّؤْفَ الرَّحِيمُ^(٤)

وقرأ « أبو جعفر بن القعقاع » : لَرَوْفٌ بغير همز وكذلك سهل كل همزة في كتاب الله ساكنة كانت أو متحركة ، ولما كان نفي الجملة السابقة مبالغاً فيها من حيث لام الجحود ناسب إثبات الجملة الخاتمة مبالغاً فيها ، فبولغ فيها بأن وباللام وبالوزن على فعول وفعل ، كل ذلك إشارة إلى سعة الرحمة وكثرة الرأفة ، وتأخر الوصف بالرحمة لكونه فاصلة ، وتقدم المجرور اعتناءً بالمروءة بهم ، وقال القشيري : من نظر الأمر بعين التفرقة كبر عليه أمر التحويل ، ومن نظر بعين الحقيقة ظهر لبصيرته وجه الصواب ، (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي من كان مع الله في جميع الأحوال على قلب واحد ، فالمختلفات من الأحوال له واحدة فسواء غير أو قرر أو أثبت أو بدل أو حقق أو حوّل فهم به له في جميع الأحوال ، قال قائلهم :

حَيْثَمَا دَارَتْ الرُّجَا جَاءَ دُرْنَا يَحْسَبُ الْجَاهِلُونَ أَنَّا جُنَيْنَا

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ تقدم حديث البراء ، وتقدم ذكر الخلاف في هذه الآية ، وقوله : (سيقول السفهاء) أيهما نزل قبل ، ونرى : هنا مضارع بمعنى الماضي ، وقد ذكر بعض النحويين أن مما يصرف المضارع إلى الماضي (قد) في بعض المواضع ومنه ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ [النور : ٦٤] ، ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ﴾ [الحجر : ٩٧] ، ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ [الأحزاب : ١٨] ، وقال الشاعر :

(١) البيت من الوافر لكعب بن مالك الأنصاري من قصيدة قالها حين أجمع الرسول ﷺ السير إلى الطائف انظر السيرة لابن هشام (١٤٨/٤) ، ولسان العرب (راف) .

(٢) البيت من الوافر لجريز ، انظر شرح ديوان جريز (٦٠٧ ، ٦٠٨) ، والخزانة (٢٢٢/٤) ، الكامل للمبرد (٣٢٣/١) ، الحجة لأبي علي (١٧٨/٢) ، وانظر الطبرسي في مجمع البيان (٨/٢) .

(٣) الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبو وهب الأموي القرشي وال من فتيان قریش وشعرائهم وأجودهم مات بالرقعة سنة ٦١ هجرية - الأغاني (١٢٢/٥) ، الأعلام (١٢٢/٨) .

(٤) البيت من الوافر للوليد بن عقبة ، انظر مجمع البيان للطبرسي (٨/٢) ، وانظر ابن عطية (٢٤٢/١) ، القرطبي (١٥٨/٢) ، وروايته .

وشر الطالبين فلا تكنه يقاتل عمه الرؤف الرحيم

لَعَمْرِي لِقَوْمٍ قَدْ نَرَى أُمْسٍ فِيهِمْ مَرَابِطٌ لِلْأَمْهَارِ وَالْعَكِيرِ الدَّثَرِ^(١)

قال الزمخشري : (قد نرى) ربما نرى ومعناه كثرة الرؤية كقوله :

قَدْ أَتْرَكَ الْقِرْنَ مُصَفَّرًا أَنَامِلَهُ^(٢)

انتهى ، وشرحه هذا على التحقيق متضاداً لأنه شرح قد نرى برهما نرى ، ورب على مذهب المحققين من النحويين إنما تكون لتقليل الشيء في نفسه أو لتقليل نظيره ، ثم قال : ومعناه : كثرة الرؤية فهو مضادٌ لممدلول رب على مذهب الجمهور ، ثم هذا المعنى الذي ادّعاه وهو كثرة الرؤية لا يدل عليه اللفظ ، لأنه لم يوضع لمعنى الكثرة ، هذا التركيب أعني تركيب قد مع المضارع المراد منه الماضي ولا غير الماضي ، وإنما فهمت الكثرة من متعلق الرؤية وهو القلب ، لأن من رفع بصره إلى السماء مرة واحدة لا يقال فيه : قلب بصره في السماء ، وإنما يقال : قلب إذا ردّد ، فالتكثير إنما فهم من القلب الذي هو مطاوع القلب نحو : قطعت فتقطع وكسرت فتكسر ، وما طواع التكثير فيه التكثير ، والوجه هنا قيل : أريد به مدلول ظاهره ، قال قتادة والسدي وغيرهما : كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى أن يحوله إلى قبلة مكة ، قيل : كان يقلب وجهه ليؤذن له في الدعاء ، وقال الزمخشري^(٣) : كان يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم ، وأدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرهم ومزارهم ومطافهم ، ولمخالفة اليهود فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل ، انتهى كلامه ، وهو كلام الناس قبله فالأول قول ابن عباس ، وهو ليصيب قبلة إبراهيم ، والثاني قول السدي والربيع وهو ليتألف العرب لمحبتها في الكعبة ، والثالث قول مجاهد وهو قول اليهود ما علم محمد دينه حتى اتبعنا فأراد مخالفتهم ، وقيل : كنى بالوجه عن البصر لأنه أشرف وهو المستعمل في طلب الرغائب تقول : بذلت وجهي في كذا وفعلت لوجه فلان ، وقال :

رَجَعْتُ بِمَا أَبْغَى وَوَجَّهِي بِمَائِهِ

وهو من الكناية بالكل عن الجزء ولا يحسن أن يقال : إنه على حذف مضاف ويكون التقدير بصر وجهك ، لأن هذا لا يكاد يستعمل ، إنما يقال : بصرك وعينك وأنفك لا يكاد يقال : أنف وجهك ولا خد وجهك ، (في السماء) متعلق بالمصدر وهو قلب ، وهو يتعدى بفي فهي على ظاهرها قال تعالى ﴿ لَا يَغْرُنَّ تِلْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [آل عمران : ١٩٦] ، أي : في نواحي السماء في هذه الجهة وفي هذه الجهة ، وقيل : (في) بمعنى إلى ، وقيل : في السماء متعلق بنرى ، و (في) بمعنى (من) أي قد نرى من السماء قلب وجهك ، وإن كان الله تعالى يرى من كل مكان ولا تحيز رؤيته بمكان دون مكان ، وذكرت الرؤية من السماء لإعظام قلب وجهه لأن السماء مختصة بتعظيم ما أضيف إليها ، ويكون كما جاء بأن الله يسمع من فوق سبعة أرقعة ، والظاهر الأول وهو تعلق المجرور بالمصدر وأن (في) على حقيقتها ، واختص القلب بالسماء لأن السماء جهة تعود منها الرحمة كالمطر والأنوار والوحي ، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالى النعم ، ولأن السماء قبلة الدعاء ، ولأنه كان ينتظر جبريل ، وكان ينزل من السماء

(١) البيت من الطويل لامرئ القيس ، انظر ديوانه ص (١٠٩) ، تذكرة النحاة ص (١٩) ، لسان العرب (دثر) .

(٢) هذا صدر بيت من البسيط لعبيد بن الأبرص ، انظر ديوانه (٦٣ - ٦٤) ، الخزائن (٢٥٣ / ١١) ، الكشف (٣٦٧ / ٤) ، شرح شواهد

المعنى ص (٤٩٤) ، تذكرة النحاة ص (٢٧٦) .

(٣) انظر الكشف (٢٠٢ / ١) .

﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ هذا يدل على أن في الجملة السابقة حالاً محذوفة ، التقدير : قد نرى قلب وجهك في السماء طالباً قبلة غير التي أنت مستقبلها ، وجاء هذا الوعد على إضمار قسم مبالغة في وقوعه ، لأن القسم يؤكد مضمون الجملة المقسم عليها ، وجاء الوعد قبل الأمر لفرح النفس بالإجابة ، ثم بإنجاز الوعد فيتوالى السرور مرتين ، ولأن بلوغ المطلوب بعد الوعد به أنس في التوصل من مفاجأة وقوع المطلوب ، ونكر القبلة لأنه لم يجز قبلها ما يقتضي أن تكون معهودة فتعرف بالألف واللام ، وليس في اللفظ ما يدل على أنه كان يطلب باللفظ قبلة معينة ، ووصفها بأنها مرضية له لتقربها من التعيين ، لأن متعلق الرضا هو القلب ، وهو كان يؤثر أن تكون الكعبة وإن كان لا يصح بذلك ، قالوا : ورضاه لها إما 'يل السجية أو لاشتمالها على مصالح الدين ، والمعنى : لنجعلنك تلي استقبال قبلة مرضية لك ، ولنمكننك من ذلك ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ أي استقبل بوجهك في الصلاة نحو الكعبة ، وبهذا الأمر نسخ التوجه إلى بيت المقدس ، قالوا : وإنما لم يذكر في الصلاة لأن الآية نزلت وهو في الصلاة ، فأغنى التلبس بالصلاة عن ذكرها ، ومن قال : نزلت في غير الصلاة ، فأغنى عن ذكر الصلاة أن المطلوب لم يكن إلا ذلك أعني التوجه في الصلاة ، وأقول : في قوله (فلنولينك قبلة ترضاها) ما يدل على أن المقصود هو في الصلاة ، لأن القبلة هي التي يتوجه إليها في الصلاة ، وأراد بالوجه جملة البدن ، لأن الواجب استقبالها بجملة البدن ، وكفى بالوجه عن الجملة ، لأنه أشرف الأعضاء ، وبه يتميز بعض الناس عن بعض ، وقد يطلق ويراد به نفس الشيء ، ولأن المقابلة تقتضي ذلك ، وهو أنه قابل قوله : (قد نرى قلب وجهك) بقوله : (فول وجهك) وتقدم أن الشطر يطلق ويراد به النصف ويطلق ويراد به النحو ، وأكثر المفسرين على أن المراد بالشطر تلقاؤه وجانبه ، وهو اختيار الشافعي ، وقال الجبائي : وهو اختيار القاضي المراد منه وسط المسجد ومتصفه لأن الشطر هو النصف ، الكعبة : بقعة في وسط المسجد ، والواجب : هو التوجه إلى الكعبة ، وهي كانت في نصف المسجد ، فحسن أن يقال : فول وجهك شطر المسجد يعني النصف من كل جهة ، وكأنه عبارة عن بقعة الكعبة ، ويدل على صحة ما ذكرناه أن المصلي خارج المسجد متوجهاً إلى المسجد لا إلى منتصف المسجد الذي هو الكعبة لم تصح صلاته ، وأنه لو فسرنا الشطر بالجانب لم يكن لذكره فائدة ، ويكون لا يدل على وجوب التوجه إلى منتصفه الذي هو الكعبة ، قال ابن عباس وغيره : وجه رسول الله ﷺ إلى البيت كله ، وقال ابن عمر : إنما وجهه هو وأتمته حيال ميزاب الكعبة ، والميزاب : هو قبلة المدينة والشام ، وهناك قبلة أهل الأندلس بتقريب ، ولا خلاف أن الكعبة قبلة من كل أقب ، وفي حرف عبد الله (فول وجهك تلقاء المسجد الحرام) ، والقائلون بأن معنى الشطر النحو اختلفوا ، فقال ابن عباس : البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وهذا قول مالك ، وقال آخرون : القبلة هي الكعبة ، والظاهر أن المقصود بالشطر : النحو والجهة ، لأن في استقبال عين الكعبة حرجاً عظيماً على من خرج لبعده عن مسامتتها^(١) ، وفي ذكر المسجد الحرام دون ذكر الكعبة دلالة على أن الذي يجب هو مراعاة جهة الكعبة لا مراعاة عينها ، واستدل مالك من قوله : (فول وجهك شطر المسجد الحرام) على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، خلافاً للثوري والشافعي والحسن بن حي في أنه يستحب أن ينظر إلى موضع سجوده ، وخلافاً لشريك القاضي في أنه ينظر القائم إلى موضع سجوده ، وفي الركوع إلى موضع قدميه ، وفي السجود إلى موضع أنفه ، وفي القعود إلى موضع حجره ، قال الحافظ « أبو بكر بن العربي » : إنما قلنا ينظر أمامه لأنه إن حنى رأسه ذهب ببعض القيام المعترض عليه في الرأس ، وهو أشرف الأعضاء وإن أقام رأسه وتكلف النظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقة عظيمة وخرج ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج : ٧٨] ، ﴿وحشما كنتم﴾ هذا عموم في الأماكن التي يحلها

(١) سَمَتَ يَسْمُتُ : بالضم أي قصد ، وقال الأصمعي : يقال تَعَمَّدَ تَعَمُّدًا وَتَسَمَّتْ تَسْمَتًا إذا قصد نحوه - لسان العرب (٣/ ٢٠٨٧) .

الإنسان أي : في أي موضع كنتم ، وهو شرط وجزاء ، والفاء جواب الشرط و (كنتم) في موضع جزم ، و (حيث) هي ظرف مكان مضافة إلى الجملة ، فهي مقتضية الخفض بعدها ، وما اقتضى الخفض لا يقتضي الجزم لأن عوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال ، والإضافة موضحة لما أضيف كما أن الصلة موضحة (فينا في) اسم الشرط ، لأن الشرط مبهم فإذا وصلت بما زال منها معنى الإضافة ، وضمنت معنى الشرط وجوزي بها ، وصارت إذ ذاك من عوامل الأفعال ، قد تقدم لنا ما شرط في المجازاة بها ، وخلاف القراء في ذلك ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ وهذا أمر لآمة محمد رسول الله ﷺ لما تقدم أمره بذلك ، أراد أن يبين أن حكمه وحكم أمته في ذلك واحد مع مزيد عموم في الأماكن ، لئلا يتوهم أن هذه القبلة مختصة بأهل المدينة ، فبين أنهم في أيما حصلوا من بقاع الأرض وجب أن يستقبلوا شطر المسجد ، ولما كان ﷺ هو المتشوق لأمر التحويل بدأ بأمره أولاً ثم أتبع أمر أمته ثانياً ، لأنهم تبع له في ذلك ، ولئلا يتوهم أن ذلك مما اختص به ﷺ ، وفي حرف عبد الله (فولوا وجوهكم قبلة) ، وقرأ ابن أبي عبله (فولوا وجوهكم تلقاء) وهذا كله يدل على أن المراد بالشرط النحو ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي رؤساء اليهود والنصارى وأخبارهم ، وقال السدي : هم اليهود ﴿ ليعلمون أنه ﴾ أي التوجه إلى المسجد الحرام ﴿ الحق ﴾ الذي فرضه الله على إبراهيم وذريته ، وقال قتادة والضحاك : إن القبلة هي الكعبة ، وقال الكسائي : الضمير يعود على الشرط ، وهو قريب من القول الثاني ، لأن الشرط هو الجهة ، وقيل : يعود على محمد ﷺ أي يعرفون صدقه ونبوته ، قاله قتادة أيضاً ومجاهد ، ومفسر هذه الضمائر متقدم ، فمفسر ضمير التحويل والتوجه قوله (فول وجوهك) فيعود على المصدر المفهوم من قوله : (فولوا) ومفسر القبلة قوله : (قبلة ترضاها) ومفسر ضمير الشرط قوله : (شطر المسجد الحرام) ومفسر ضمير الرسول ضمير خطابه ﷺ ، فعلى هذا الوجه يكون التفاتان ، والعلم هنا يحتمل أن يكون مما يتعدى إلى اثنين ، ويحتمل أن يكون مما يتعدى إلى واحد ، لأن معموله هو أن وصلتها ، فيحتمل الوجهين ، وعلمهم بذلك إما لأن في كتابهم التوجه إلى الكعبة قاله أبو العالية ، وإما لأن في كتابهم أن محمداً ﷺ نبي صادق فلا يأمر إلا بالحق ، وإما لجواز النسخ ، وإما لأن في بشارة الأنبياء أن رسول الله ﷺ يصلي إلى القبليتين ، ﴿ من ربهم ﴾ جار ومجرور في موضع الحال أي : ثابتاً من ربهم ، وفي ذلك دليل على أن التحول من بيت المقدس إلى الكعبة لم يكن باجتهاد إنما هو بأمر من الله تعالى ، وفي إضافة الرب إليهم تنبيه على أنه يجب اتباع الحق الذي هو مستقر ممن هو معتن بإصلاحك ، كما قال تعالى : (الحق من ربك) ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالناء على الخطاب ، فيحتمل أن يراد به المؤمنون لقوله : (فولوا وجوهكم شطره) ويحتمل أن يراد به أهل الكتاب ، فتكون من باب الالتفات ، ووجه أن في خطابهم بأن الله لا يغفل عن أعمالهم تحريكاً لهم بأن يعملوا بما علموا من الحق ، لأن المواجهة بالشيء تقتضي شدة الإنكار وعظم الشيء الذي ينكر ، ومن قرأ بالياء فالظاهر أنه عائد على أهل الكتاب لمجيء ذلك في نسق واحد من الغيبة ، وعلى كلتا القراءتين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد ، ولا يغفل عنها ، وهو متضمن الوعيد ، ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ﴾ هذه تسلية للرسول عن متابعة أهل الكتاب له ، أعلمه أولاً أنهم يعلمون أنه الحق وهم يكتُمونه ، ولا يرتبون على العلم به مقتضاه ، ثم سلاه عن قبولهم الحق بأنهم قد انتهوا في العناد ، وإظهار المعادة إلى رتبة لو جئتهم فيها بجميع المعجزات التي كل معجزة منها تقتضي قبول الحق ما تبعوك ولا سلوكوا طريقك ، وإذا كانوا لا يتبعونك مع مجيئك لهم بجميع المعجزات فأحرى أن لا يتبعوك إذا جئتهم بمعجزة واحدة ، والمعنى : بكل آية يدل على أن توجهك إلى الكعبة هو الحق ، واللام في (ولئن) هي التي تؤذن بقسم محذوف متقدم ، فقد اجتمع القسم المتقدم المحذوف والشرط متأخر عنه فالجواب للقسم (١) ،

(١) مذهب البصريين إذا اجتمع شرط وقسم حذف جواب المتأخر منهما لدلالة جواب الأول عليه ، إلا إذا تقدم عليهما ذو خبر ، رجع

وهو قوله (ما تبعوا) ، ولذلك لم تدخله الفاء ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ، وهو منفي بما ماضي الفعل مستقبل المعنى ، أي : ما يتبعون قبلك لأن الشرط قيد في الجملة والشرط مستقبل ، فوجب أن يكون مضمون الجملة مستقبلاً ضرورة أن المستقبل لا يكون شرطاً في الماضي ، ونظير هذا التركيب في المثبت قوله تعالى : (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرةً لظلوا من بعده يكفرون) التقدير : ليظللن ، أوقع الماضي المقرون باللام جواباً للقسم المحذوف ، ولذلك دخلت عليه اللام موقع المستقبل فهو ماضٍ من حيث اللفظ مستقبل من حيث المعنى ، لأن الشرط قيد فيه كما ذكرنا ، وجواب الشرط في الآيتين محذوف سد مسده جواب القسم ، ولذلك أتى فعل الشرط ماضياً في اللفظ ، لأنه إذا كان الجواب محذوفاً وجب مضي فعل الشرط لفظاً إلا في ضرورة الشعر ، فقد يأتي مضارعاً ، وذهب الفراء إلى أن (إن) هنا بمعنى (لو) ، ولذلك كانت (ما) في الجواب ، فجعل ما تبعوا جواباً لأن ، لأن إن بمعنى (لو) فكما أن (لو) تجاب بما كذلك أجيب إن التي بمعنى (لو) وإن كان إن إذا لم يكن بمعنى لو لم يكن جوابها مصدراً بما بل لا بد من الفاء ، تقول : إن تزني فما أزورك ، ولا يجوز ما أزورك ، وعلى هذا يكون جواب القسم محذوفاً لدلالة جواب إن عليه ، وهذا الذي قاله الفراء هو بناء على مذهبه أن القسم إذا تقدّم على الشرط جاز أن يكون الجواب للشرط دون القسم ، وليس هذا مذهب البصريين بل الجواب يكون للقسم بشرطه المذكور في النحو^(١) ، واستعمال (إن) بمعنى (لو) قليل ، فلا ينبغي أن يحمل على ذلك إذا ساغ إقرارها على أصل وضعها ، وقال ابن عطية : وجاء جواب (لئن) كجواب (لو) وهي ضدها في أن (لو) تطلب المضي والوقوع ، وإن تطلب الاستقبال لأنهما جميعاً يترتب قبلهما القسم ، فالجواب إنما هو للقسم لأن أحد الحرفين يقع موقع الآخر ، هذا قول سيبويه ، انتهى كلامه ، وهذا الكلام فيه تشييع وعدم نص على المراد ، لأن أوله يقتضي أن الجواب لـ (إن) ، وقوله بعد فالجواب إنما هو للقسم ، يدل على أن الجواب ليس لـ (إن) ، والتعليل بعد بقوله لأن أحد الحرفين يقع موقع الآخر لا يصلح أن يعلل به ، قوله : فالجواب إنما هو للقسم ، بل يصلح أن يكون تعليلاً ، لأن الجواب لـ (إن) وأجريت في ذلك مجرى لو ، وأما قوله : هذا قول سيبويه فليس في كتاب سيبويه إلا أن ما تبعوا جواب القسم ، ووضع فيه الماضي موضع المستقبل ، قال سيبويه : وقالوا : لئن فعلت ما فعل يريد معنى ما هو فاعل وما يفعل ، وقال أيضاً : وقال تعالى ﴿ ولئن زلنا لئن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ [فاطر : ٤١] ، أي ما أمسكهما ، وقال بعض الناس : كل واحدة من (لئن) و (لو) تقوم مقام الأخرى ، ويجاب بما يجاب به ، ومنه ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرةً لظلوا ﴾ [الروم : ٥١] ، لأن معناه : ولو أرسلنا ريحاً ، وكذلك لو يجاب جواب لئن كقولك : لو أحسنت إليّ أحسن إليك ، هذا قول

= الشرط مطلقاً - كما سيأتي تفصيله - خلافاً لابن مالك والفراء في إجازة ذلك ، والأول هو الذي عليه البصريون وما استدلل به ابن مالك والفراء عندهم من قبيل ضرورة الشعر ، أو اللام من قوله « لئن » في قول الشاعرة :

لئن كان ما حدثته اليوم صادقاً
أصم في نهار القيظ للشمس بادياً

زائدة لا موطئة للقسم .
انظر التصريح على التوضيح (٢٥٣/٢ - ٢٥٤) ، شرح المفصل (٥٧/٧ - ٥٨) شرح ابن عقيل (٣٨٢/٢) ، الكتاب (٤٥٦/١) ، البسيط شرح الجمل (٩١٦/٢) .

(١) هو ألا يتقدم عليهما ذو خبر كما أشرنا في تعليقنا ، خلافاً لابن مالك في التسهيل والكافية ، وإن خالف ذلك في الألفية نحو قولك « زيد إن قام والله أكرمه » و « زيد والله إن قام أكرمه » ففي تلك الحالة يرجح الشرط مطلقاً ، أي سواء كان متقدماً أو متأخراً ، فيجاب الشرط ويحذف القسم ، وصار في تلك الحالة حشواً ملغياً كأنه ليس في اللفظ وكان من قبيل الجمل المعترضة في الكلام .
انظر شرح المفصل (٥٨/٧) ، شرح ابن عقيل (٣٨٢/٢) ، التصريح على التوضيح (٢٥٣/٢) .

الأخفش والفراء والزجاج ، وقال سيبويه : لا يجاب إحداهما بجواب الأخرى ، لأن معناهما مختلف ، وقدر الفعل الماضي الذي وقع بعد لثن بمعنى الاستقبال ، تقديره : لا يتبعون وليظن ، انتهى كلامه ، وتلخص من هذا كله أن في قوله : (ما تبعوا) قولين : أحدهما : أنها جواب قسم محذوف ، وهو قول سيبويه ، والثاني : أن ذلك جواب إن لاجرائها مجرى لو ، وهو قول الأخفش والفراء والزجاج ، وظاهر قوله : (أوتوا الكتاب) العموم ، وقد قال به هنا قوم ، وقال الأصم : المراد : علماؤهم المخبر عنهم في الآية المتقدمة أنهم الذين أوتوا الكتاب ، وفي الآية المتأخرة ، ويدل على خصوص ذلك خصوص ما تقدم وخصوص ما تأخر ، وكذلك المتوسط والإخبار بإصرارهم ، وهو شأن المعاند وأنه قد آمن به كثير من أهل الكتاب وتبعوا قبلته ، واختلفوا في قوله : (ما تبعوا قبلتك) قال الحسن والجبائي : أراد جميعهم ، كأنه قال : لا يجتمعون على اتباع قبلتك على نحو ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [الأنعام : ٣٥] ، ويكون إذ ذاك إخباراً عن المجموع من حيث هو مجموع لا حكم على الافراد ، وقال الأصم : بل المراد أن أحداً منهم لا يؤمن ، وقد تقدم أن من قول الأصم أنه أريد بأهل الكتاب الخصوص ، فكأنه قال : كل فرد من أولئك المختصين بالعناد المستمرين على جحود الحق لا يؤمن ولا يتبع قبلتك ، وقد احتج أبو مسلم بهذه الآية على أن علم الله في عباده وفيما يفعلونه ليس بحجة لهم فيما يرتكبون ، وأنهم مستطيعون لأن يفعلوا الخير الذي أمروا به ، وتركوا ضده الذي نهوا عنه ، قيل : واحتج أصحابنا به على القول بتكليف ما لا يطاق ، وهو أنه أخبر عنهم أنهم لا يتبعون قبلته ، فلو اتبعوا قبلته لزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهلاً ، وهو محال ، وما استلزم المحال فهو محال ، وأضاف تعالى القبله إليه لأنه المتعبد بها المقتدى به في التوجه إليها ، أيأس الله نبيه من اتباعهم قبلته ، لأنهم لم يتركوا اتباعه عن دليل لهم وضح ولا عن شبهة عرضت ، وإنما ذلك على سبيل العناد ، ومن نازع عناداً فلا يرجى منه انتزاع ، ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ هذه جملة خبرية ، وقيل : ومعناها النهي أي : لا تتبع قبلتهم ، ومعناها الدوام على ما أنت عليه ، وإلا فهو معصوم عن اتباع قبلتهم بعد ورود الأمر ، وقيل : هي باقية على معنى الخبر وهو أنه بين بهذا الإخبار أن هذه القبلة لا تصير منسوخة ، فجاءت هذه الجملة رفعاً لتجوز النسخ ، أو قطع بذلك رجاء أهل الكتاب ، فإنهم قالوا : يا محمد عد إلى قبلتنا ونؤمن بك وتتبعك مخادعة منهم ، فأياهم الله من اتباعه قبلتهم ، أو بين بذلك حصول عصمته ، أو أخبر بذلك على سبيل التعذر لاختلاف قبلتهم ، أو جاء ذلك على سبيل المقابلة ، أي : ما هم بتاركي باطلهم ، وما أنت بتارك حقك ، وأفرد القبلة في قوله : (قبلتهم) وإن كانت مثناة إذ لليهود قبلة وللنصارى قبلة مغايرة لتلك القبلة لأنهما اشتركتا في كونهما باطلتين ، فصار الاثنان واحداً من جهة البطلان ، وحسن ذلك المقابلة في اللفظ لأن قبله (ما تبعوا قبلتك) ، وهذه الجملة أبلغ في النفي من حيث كانت اسمية تكرر فيها الاسم مرتين ، ومن حيث أكد النفي بالباء في قوله : (بتابع) وهي مستأنفة معطوفة على الكلام قبلها لا على الجواب وحده إذ لا يحل محله ، لأن نفي تبعيتهم لقبلته مقيد بشرط لا يصح أن يكون قيداً في نفي تبعيته قبلتهم ، وقرأ بعض القراء (بتابع قبلتهم) على الإضافة ، وكلاهما فصيح أعني أعمال اسم الفاعل هنا وإضافته ، وقد تقدم في أيهما أقيس ، ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ الضمير في (بعضهم) عائد على أهل الكتاب ، والمعنى أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ولا النصارى تتبع قبلة اليهود ، وذلك إشارة إلى أن اليهود لا تنتصر وإلى أن النصارى لا تنهتد ، وذلك لما بينهما من إفراط العداوة والتباغض ، وقد رأينا اليهود والنصارى كثيراً ما يدخلون في ملة الإسلام ، ولم يُشاهد يهودياً تنصر ولا نصرانياً تهوّد ، والمراد بالبعضين : من هو باق على دينه من أهل الكتاب هذا قول السدي وابن زيد ، وهو الظاهر ، وقيل : أحد البعضين من آمن من أهل الكتاب والبعض الثاني من كان على دينه منهم ، لأن كلاهما يسفه حلم الآخر ويكفره إذ تباينت طريقتهما ، ألا ترى إلى مدح اليهود عبد الله بن سلام قبل أن يعلموا بإسلامه وبهتتهم له بعد ذلك ، وتضمنت هذه الجمل أن أهل الكتاب وإن اتفقوا على خلافك فهم مختلفون في القبلة ، وقبلة اليهود : بيت المقدس وقبلة النصارى : مطلع الشمس ، ﴿ ولئن اتبعت

أهواءهم ﴿ اللام أيضاً مؤذنة بقسم محذوف ، ولذلك جاء الجواب بقوله : إنك ، وتعليق وقوع الشيء على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط ، يقول الرجل لامرأته : إن سعدت إلى السماء فأنت طالق ، ومعلوم امتناع صعودها إلى السماء ، وقال تعالى في الملائكة الذين أخبر عنهم أنهم ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] ، قال : ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٢٩] ، وإذا اتضح ذلك سهل ما ورد من هذا النوع ، وفهم من ذلك الاستحالة ، لأن المعلق على المستحيل مستحيل ، ويصير معنى هذه الجملة التي ظاهرها الوقوع على تقدير امتناع الوقوع ، ويصير المعنى لا يعد ظالماً ولا تكونه لأنك لا تتبع أهواءهم ، وكذلك لا يحبط عملك لأن إشراكك ممتنع ، وكذلك لا يجزي أحد من الملائكة جهنم ، لأنه لا يدعي أنه إله ، وقالوا : ما خوطب به من هو معصوم مما لا يمكن وقوعه منه فهو محمول على إرادة أمته ومن يمكن وقوع ذلك منه ، وإنما جاء الخطاب له على سبيل التعظيم لذلك الأمر والتفخيم لشأنه حتى يحصل التباعد منه ، ونظير ذلك قولهم : إياك أعني واسمعي يا جارة ، قال الزمخشري^(١) : قوله : (ولئن اتبعت أهواءهم) بعد الإفصاح عن حقيقة حاله المعلومة عنده في قوله : (وما أنت بتابع قبلتهم) كلام وارد على سبيل الفرض ، والتقدير بمعنى : ولئن اتبعتهم مثلاً بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر إنك إذاً لمن المرتكبين الظلم الفاحش ، وفي ذلك لطف للسامعين وزيادة تحذير ، واستفطاع بحال من يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوى ، وإلهاب للشبات على الحق ، انتهى كلامه ، وقال في المنتخب : اختلفوا في هذا الخطاب ، قال بعضهم : هو للرسول ، وقال بعضهم : هو للرسول وغيره ، وقال بعضهم : هو لغير الرسول ، لأنه علم تعالى أن الرسول لا يفعل ذلك ، فلا يجوز أن يحضه بهذا الخطاب ، أهواءهم تقدّم أنه جمع هوى ولا يجمع على أهوية ، وأكثر استعمال الهوى فيما لا خير فيه ، وقد يستعمل في الخير وأصله الميل والمحبة ، وجمع وإن كان أصله المصدر لاختلاف أغراضهم ومتعلقاتهم وتباينها ، ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ أي : من الدلائل والآيات التي تقيد لك العلم وتحصله ، فأطلق اسم الأثر على المؤثر ، سمى تلك الدلائل علماً مبالغة وتعظيماً وتنبهياً على أن العلم من أعظم المخلوقات شرفاً ومرتبة ، ودلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم ، وقد فسر العلم هنا بالحق يعني أن ما جاء من تحويل القبلة هو الحق ، وقال مقاتل : العلم هنا : البيان ، وجاء في هذا المكان (من بعد ما جاءك) وقال قبل هذا : (بعد الذي جاءك) وجاء في الرد : (بعد ما جاءك) فاختص موضعاً بالذي وموضعين بما وهذا الموضع بمن ، والذي نقوله في هذا : إنه من اتساع العبارة ، وذكر المترادف لأن ما والذي موصولان فأياً منهما ذكرت كان فصيحاً حسناً ، وأما المعجىء بمن فهو دلالة على ابتداء بعدية المعجىء ، وأما قوله : (بعد) فهو على معنى (من) ، والتبعذية مقيدة بها من حيث المعنى ، وإن كان إطلاق (بعد) لا يقتضيها ، وقال بعضهم في الجواب عن ذلك : دخول (ما) مكان (الذي) لأن (الذي) أخص و (ما) أشد إبهاماً ، فحيث خص بالذي أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه لأنه علم بكل أصول الدين ، وخص بلفظ (ما) ما أشير به إلى العلم بركن من أركان الدين أحدهما : القبلة والآخر الكتاب ، لأنه أشار إلى قوله : ﴿ ومن الأحزاب من ينكث بعضه ﴾ [الرد : ٣٦] ، قال : وأما دخول (من) ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب على النبي ﷺ أن يخالف أهل الكتاب في أمر القبلة ، أي ذلك الوقت الذي أمرك الله فيه بالتوجه فيه إلى نحو القبلة ، إن اتبعت أهواءهم كنت ظالماً واضعاً الباطل في موضع الحق ، انتهى كلامه ، ﴿ إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ قد ذكرنا أن هذه الجملة هي جواب القسم المحذوف

الذي أذنت بتقديره اللام في (لئن) ودل على جواب الشرط ، لا يقال : إنه يكون جواباً لهما لا متناع ذلك لفظاً ومعنى ، أما المعنى فلأن الاقتضاء مختلف ، فاقضاء القسم على أنه لا عمل له فيه لأن القسم إنما جيء به تأكيداً للجملة المقسم عليها ، وما جاء على سبيل التوكيد لا يناسب أن يكون عاملاً ، واقتضاء الشرط على أنه عامل فيه ، فتكون الجملة في موضع جزم ، وعمل الشرط لقوة طلبه له ، وأما اللفظ فإن هذه الجملة إذا كانت جواب قسم لم يحتج إلى مزيد رابط ، وإذا كانت جواب شرط احتاجت لمزيد رابط وهو الفاء ، ولا يجوز أن تكون خالية من الفاء موجودة فيها الفاء ، فلذلك امتنع أن يقال : إن الجملة جواب للقسم والشرط معاً ، ودخلت إذاً بين اسم إن وخبرها لتقرير النسبة التي بينهما ، وكان حدها أن تتقدم أو تتأخر فلم تتقدم لأنه سبق قسم وشرط ، والجواب هو للقسم ، فلو تقدمت لتوهم أنها لتقرير النسبة التي بين الشرط والجواب المحذوف ، ولم تتأخر لثلاث فثقت مناسبة الفواصل وآخر الآي ، فتوسطت والنية بها التأخير لتقرير النسبة ، وتحرير معنى إذن صعب ، وقد اضطرب الناس في معناها ، وقد نص سيويه على أن معناها الجواب والجزاء ، واختلف النحويون في فهم كلام سيويه ، وقد أمعنا الكلام في ذلك في كتاب التكميل من تأليفنا ، والذي تحصل فيها أنها لا تقع ابتداء كلام بل لا بد أن يسبقها كلام لفظاً أو تقديرًا ، وما بعدها في اللفظ أو التقدير ، وإن كان مسبباً عما قبلها ، فهي في ذلك على وجهين :

أحدهما : أن تدل على إنشاء الارتباط والشرط بحيث لا يفهم الارتباط من غيرها ، مثال ذلك : أزورك فتقول : إذاً أزورك فإنما تريد الآن أن تجعل فعله شرطاً لفعلك ، وإنشاء السببية في ثاني حال من ضرورته أن يكون في الجواب وبالفعلية في زمان مستقبل ، وفي هذا الوجه تكون عاملة ولعملها مذكورة في النحو .

الوجه الثاني : أن تكون مؤكدة لجواب ارتبط بمقدم أو منبهة على مسبب شروط حصل في الحال ، وهي في الحالين غير عاملة لأن المؤكدات لا يعتمد عليها والعامل يعتمد عليه ، وذلك نحو إن تأتني إذن آتاك ، ووالله إذن لأفعلن ، فلو أسقطت (إذن) لفهم الارتباط ، ولما كانت في هذا الوجه غير معتمد عليها جاز دخولها على الجملة الاسمية الصريحة نحو أزورك ، فتقول : إذن أنا أكرمك ، وجاز توسطها نحو أنا إذاً أكرمك وتأخرها وإذا تقرر هذا ، فجاءت (إذاً) في الآية مؤكدة للجواب المرتبط بما تقدم ، وإنما قررت معناها هنا لأنها كثيرة الدور في القرآن ، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قرناه ، ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ هم علماء اليهود والنصارى أو من آمن برسول الله ﷺ من اليهود كاهن سلام وغيره ، أو من آمن به مطلقاً ، أقوال ، والكتاب : التوراة أو الإنجيل أو مجموعهما أو القرآن ، أقوال تنبني على من المراد بالذين آتيناهم ، ولفظ (آتيناهم) أبلغ من أوتوا لإسناد الإتياء إلى الله تعالى معبراً عنه بنون العظمة ، وكذا ما يجيء من نحو هذا مراداً به الإكرام نحو هدينا واجتبيينا واصطفينا ، قيل : ولأن (أوتوا) قد يستعمل فيما لم يكن له قبول ، و (آتيناهم) أكثر ما يستعمل فيما له قبول ، نحو (الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) وإذا أريد بالكتاب أكثر من واحد ، فوحد لأنه صرف إلى المكتوب المعبر عنه بالمصدر ، ﴿ يعرفونه ﴾ جملة في موضع الخبر عن المبتدأ الذي هو (الذين آتيناهم) ، وجوز أن يكون الذين مجزوراً على أنه صفة للظالمين ، أو على أنه بدل من الظالمين ، أو على أنه بدل من (الذين أوتوا الكتاب) في الآية التي قبلها ، ومرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم الذين ، ومنصوباً على إضمار أعني ، وعلى هذه الأعراب يكون قوله : (يعرفونه) جملة في موضع الحال ، إما من المفعول الأول في (آتيناهم) أو من الثاني الذي هو (الكتاب) لأن في (يعرفونه) ضميرين يعودان عليهما ، والظاهر هو الإعراب الأول لاستقلال الكلام جملة منعقدة من مبتدأ وخبر ، ولظاهر انتهاء الكلام عند قوله : (إنك إذاً لمن الظالمين) والضمير المنصوب في (يعرفونه) عائد على النبي ﷺ قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ،

وروي عن ابن عباس ، واختاره الزجاج ورجحه التبريزي ، وبدأ به الزمخشري^(١) فقال : يعرفونه معرفة جليلة يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص ، قال الزمخشري^(٢) : وغيره واللفظ للزمخشري^(٣) : وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ، ولا يلتبس على السامع ، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته وكونه علماً معلوم بغير إعلام ، انتهى ، وأقول : ليس كما قاله من أنه إضمار قبل الذكر بل هذا من باب الالتفات ، لأنه قال تعالى : (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك) ثم قال : (ولئن آتيت الذين) إلى آخر الآية ، فهذه كلها ضمائر خطاب لرسول الله ﷺ ثم التفت عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ، وحكمة هذا الالتفات أنه لما فرغ من الإقبال عليه بالخطاب أقبل على الناس فقال (الذين آتيناهم الكتاب) واخترناهم لتحمل العلم والوحي يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآي السابقة وأمرناه ونهيناه ، لا يشكون في معرفته ولا في صدق إخباره بما كلفناه من التكليف التي منها نسخ بيت المقدس بالكعبة لما في كتابهم من ذكره ونعته والنص عليه ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فقد اتضح بما ذكرناه أنه ليس من باب الإضمار قبل الذكر وأنه من باب الالتفات ، وتبينت حكمة الالتفات ، ويؤيد كون الضمير لرسول الله ﷺ ما روي أن عمر سأل عبد الله بن سلام رضي الله عنهما ، وقال : إن الله قد أنزل على نبيه (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) الآية فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ، ومعرفتي بمحمد ﷺ أشد من معرفتي بابني ، فقال عمر : وكيف ذلك ؟ فقال : أشهد أنه رسول الله حقاً ، وقد نعته الله في كتابنا ، ولا أدري ما يصنع النساء ، فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام ، فقد صدقت ، وقد روي هذا الأثر مختصراً بما يرادف بعض ألفاظه ويقاربها ، وفيه قبل عمر رأسه ، وإذا كان الضمير للرسول فقليل : المراد معرفة الوجه وتمييزه لا معرفة حقيقة النسب ، وقيل : المعنى يعرفون صدقه ونبوته ، وقيل : الضمير عائد على الحق الذي هو التحول إلى الكعبة قاله ابن عباس وقتادة أيضاً وابن جريج والربيع ، وقيل : عائد على القرآن ، وقيل : على العلم ، وقيل : على كون البيت الحرام قبلة إبراهيم ومن قبله من الأنبياء ، وهذه المعرفة مختصة بالعلماء ، لأنه قال : (الذين آتيناهم الكتاب) فإن تعلقت المعرفة بالنبي ﷺ فيمكن حصولها بالرؤية والوصف أو بالقرآن ، فحصلت من تصديق كتابهم للقرآن ونبوة محمد ﷺ وصفته أو بالقبلة أو التحويل ، فحصلت بخبر القرآن وخبر الرسول المؤيد بالخوارق ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ الكاف في موضع نصب على أنها صفة لمصدر محذوف تقديره : عرفاناً مثل عرفانهم أبناءهم ، أو في موضع نصب على الحال من ضمير المعرفة المحذوف كأن التقدير : يعرفونه معرفة مماثلة لمعرفة آبائهم ، وظاهر هذا التشبيه أن المعرفة أريد بها معرفة الوجه والصورة ، وتشبيهها بمعرفة الأبناء يقوي ذلك ، ويقوي أن الضمير عائد على الرسول ﷺ حتى تكون المعرفتان متعلقان بالمحسوس المشاهد ، وهو أكد في التشبيه من أن يكون التشبيه وقع بين معرفة متعلقها المعنى ومعرفة متعلقها المحسوس ، وظاهر الأبناء الاختصاص بالذكر ، فيكونون قد خصوا بذلك ، لأنهم أكثر مباشرة ومعاشرة للآباء وألصق وأعلق بقلوب الآباء ، ويحتمل أن يراد بالأبناء الأولاد ، فيكون ذلك من باب التغليب ، وكان التشبيه بمعرفة الأبناء أكد من التشبيه بالأنفس لأن الإنسان قد يمر عليه برهة من الزمان لا يعرف فيها نفسه بخلاف الأبناء فإنه لا يمر عليه زمان إلا وهو يعرف ابنه ، ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق ﴾ أي من الذين آتيناهم الكتاب ، وهم المصرّون على الكفر والعناد من علماء اليهود والنصارى على أحسن

(١) انظر الكشف (٢٠٤/١) .

(٢) انظر الكشف (٢٠٤/١) .

(٣) انظر الكشف (٢٠٤/١) .

التفسير في (الذين آتيناهم الكتاب) وأبعد من ذهب إلى أنه أريد بهذا الفريق جهال اليهود والنصارى الذين قيل فيهم : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) للإخبار عن هذا الفريق أنهم يكتُمون الحق وهم عالمون به ، ولوصف الأميين هناك بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، والحق المكتوم هنا هو نعت رسول الله ﷺ قاله قتادة ومجاهد ، أو التوجه إلى الكعبة أو أن الكعبة هي القبلة أو أعم من ذلك فيندرج فيه كل حق ، ﴿ وهم يعلمون ﴾ جملة حالية أي : عالمين بأنه حق ، ويقرب أن يكون حالاً مؤكدة لأن لفظ (يكتُمون الحق) يدل على علمه به لأن الكتم هو إخفاء لما يعلم ، وقيل : متعلق العلم هو ما على الكاتم من العقاب أي وهم يعلمون العقاب المرتب على كاتم الحق ، فيكون إذذاك حالاً مبنية ﴿ الحق من ربك ﴾ قرأ الجمهور ويرفع الحق على أنه مبتدأ والخبر هو (من ربك) فيكون المجرور في موضع رفع ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الحق من ربك ، والضمير عائد على الحق المكتوم أي : ما كتموه هو الحق من ربك ، ويكون المجرور في موضع الحال أو خبراً بعد خبر ، وأبعد من ذهب إلى أنه مبتدأ وخبره محذوف تقديره : الحق من ربك يعرفونه ، والألف واللام في الحق للعهد وهو الحق الذي عليه الرسول أو الحق الذي كتموه أو للجنس على معنى : أن الحق هو من الله لا من غيره أي ما ثبت أنه حق فهو من الله كالذي عليه الرسول ، وما لم تثبت حقيقته فليس من الله كالباطل الذي عليه أهل الكتاب ، وقرأ علي بن أبي طالب (الحق) بالنصب وأعرب بأن يكون بدلاً من الحق المكتوم ، فيكون التقدير يكتُمون الحق من ربك قاله الزمخشري^(١) ، أو على أن يكون معمولاً لـ (يعلمون) قاله ابن عطية ، ويكون مما وقع فيه الظاهر موقع المضمهر أي وهم يعلمونه كائناً من ربك وذلك سائغ حسن في أماكن التفضيم والتهويل ، كقوله :

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئاً^(٢)

أي يسبقه شيء وجوز ابن عطية أن يكون منصوباً بفعل محذوف تقديره : الزم الحق من ربك ، ويدل عليه الخطاب بعده ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ والمراد بهذا الخطاب في المعنى هو الأمة ، ودل الممترين على وجودهم ، ونهى أن يكون منهم ، والنهي عن كونه منهم أبلغ من النهي عن نفس الفعل ، فقولك : لا تكن ظالماً أبلغ من قولك : لا تظلم ، لأن لا تظلم نهى عن الالتباس بالظلم ، وقولك : لا تكن ظالماً نهى عن الكون بهذه الصفة ، والنهي عن الكون على صفة أبلغ من النهي عن تلك الصفة إذ النهي عن الكون على صفة يدل بالوضع على عموم الأكوان المستقبل على تلك الصفة ، ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة ، والنهي عن الصفة يدل بالوضع على عموم تلك الصفة ، وفرق بين ما يدل على عموم ويستلزم عموماً وبين ما يدل على عموم فقط ، فلذلك كان أبلغ ولذلك أكثر النهي عن الكون ، قال تعالى : ﴿ فلا تكونن من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٤٥] ، ﴿ ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ﴾ [يونس : ٩٥] ، ﴿ فلا تكن في مرية منه ﴾ [هود : ١٧] ، والكيونة في الحقيقة ليست متعلق النهي ، والمعنى لا تظلم في كل أكوانك أي في كل فرد فرد من أكوانك ، فلا يمر بك وقت يوجد فيه منك ظلم فتصير (كان) فيه نصاً على سائر الأكوان بخلاف لا تظلم فإنه يستلزم الأكوان ، وأكد النهي بنون التوكيد مبالغة في النهي ، وكانت المشددة لأنها أبلغ في التأكيد من المخففة ، والمعنى : فلا تكونن من الذين يشكون في الحق ، لأن ما جاء من الله تعالى لا يمكن أن يقع فيه شك ولا جدال إذ هو الحق المحض الذي لا يمكن أن يلحق فيه ريب ولا شك ، ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ لما ذكر القبلة التي

(١) انظر الكشف (٢٠٤ / ١) .

(٢) قد تقدم .

أمر المسلمون بالتوجه إليها وهي الكعبة ، وذكر من تصميم أهل الكتاب على عدم اتباعها ، وأن كلاً من طائفتي اليهود والنصارى مصممة على عدم اتباع صاحبها ، أعلم أن ذلك هو بفعله وأنه هو المقدر ذلك ، وأنه هو موجه كل منهم إلى قبلته ، ففي ذلك تنبيه على شكر الله إذ وفق المسلمين إلى اتباع ما أمر به من التوجه واختارهم لذلك ، وقرأ الجمهور : (وَلِكُلٍّ) منوناً (وجهه) مرفوعاً هو مؤليها بكسر اللام اسم فاعل ، وقرأ ابن عامر : (هو مؤلاًها) بفتح اللام اسم مفعول ، وهي قراءة ابن عباس ، وقرأ قوم شاذاً (وَلِكُلٍّ وَجْهَةً) بخفض اللام من كل من غير تنوين وجهه بالخفض منوناً على الإضافة ، والتنوين في كل تنوين عوض من الإضافة ، وذلك المضاف إليه كل المحذوف اختلف في تقديره ، ف قيل : المعنى : ولكل طائفة من أهل الأديان ، وقيل : المعنى : ولكل أهل صُفْع^(١) من المسلمين وجهه من أهل سائر الآفاق إلى جهة الكعبة ورائها وقدامها ويمينها وشمالها ليست جهة من جهاتها بأولى أن تكون قبله من غيرها ، وقيل : المعنى ولكل نبي قبله قاله ابن عباس ، وقيل : المعنى ولكل ملك ورسول صاحب شريعة جهة قبله ، فقبله المقربين العرش ، وقبله الروحانيين الكرسي ، وقبله الكروبيين البيت المعمور ، وقبله الأنبياء قبلك بيت المقدس ، وقبلتك الكعبة ، وقد اندرج في هذا الذي ذكرناه أن المراد بوجهه قبله ، وهو قول ابن عباس ، وهي قراءة أبيّ قرأ (ولكل قبله) ، وقرأ عبد الله (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا قِبْلَةً) ، وقال الحسن : وجهة طريقة كما قال : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : ٤٨] ، أي : لكل نبي طريقة ، وقال قتادة : وجهة أي صلاة يصلونها ، و (هو) من قوله : (هو مولياها) عائد على (كل) على لفظه لا على معناه أي : هو مستقبلها وموجه إليها صلاته التي يتقرب بها ، والمفعول الثاني لمولياها محذوف لفهم المعنى أي : هو مولياها وجهه أو نفسه قاله « ابن عباس » و « عطاء » و « الربيع » ، ويؤيد أن (هو) عائد على كل قراءة من قرأ (هو مولاها) ، وقيل : (هو) عائد على الله تعالى قاله الأخفش والزجاج ، أي : الله مولياها إياه اتبعها من اتبعها وتركها من تركها ، فمعنى هو مولياها على هذا التقدير شارعها ومكلفهم بها ، والجملة من الابتداء والخبر في موضع الصفة لوجهه ، وأما قراءة من قرأ : (وَلِكُلٍّ وَجْهَةً) على الإضافة ، فقال محمد بن جرير : هي خطأ ، ولا ينبغي أن يقدم على الحكم في ذلك بالخطأ لا سيما وهي معزوة إلى ابن عامر أحد القراء السبعة ، وقد وجهت هذه القراءة ، قال الزمخشري^(٢) : المعنى : ولكل وجهه الله مولياها ، فزيدت اللام لتقدم المفعول كقولك : لزيد ضربت ولزيد أبوه ضاربه ، انتهى كلامه ، وهذا فاسد لأن العامل إذا تعدى لضمير الاسم لم يتعد إلى ظاهره المجرور باللام ، لا يجوز أن يقول : لزيد ضربته ، ولا لزيد أنا ضاربه ، وعليه أن الفعل إذا تعدى للضمير بغير واسطة كان قوياً ، واللام إنما تدخل على الظاهر إذا تقدم ليقويه لضعف وصوله إليه متقدماً ، ولا يمكن أن يكون العامل قوياً ضعيفاً في حالة واحدة ، ولأنه يلزم من ذلك أن يكون المتعدي إلى واحد يتعدى إلى اثنين ، ولذلك تأول النحويون قوله هذا :

سراقة للقرآن يدرسه

وليس نظير ما مثل به من قوله لزيد ضربت أي زيدا ضربت ، لأن (ضربت) في هذا المثال لم يعمل في ضمير زيد ، ولا يجوز أن يقدر عامل في (لكل وجهه) يفسره قوله (مولياها) كتقديرنا : زيدا أنا ضاربه أي أضرب زيدا أنا ضاربه ، فتكون المسألة من باب الاشتغال ، لأن المشتغل عنه لا يجوز أن يجر بحرف الجر ، تقول زيدا مررت به أي

(١) الصُفْعُ : ناحية الأرض والبيت . - لسان العرب (٤/ ٢٤٧٢) .

(٢) انظر الكشف (١/ ٢٠٥) .

لا يست زيداً ولا يجوز يزيد مررت به ، فيكون التقدير : مررت بزيد مررت به بل كل فعل يتعدى بحرف الجر إذا تسلط على ضمير اسم سابق في باب الاشتغال فلا يجوز في ذلك الاسم السابق أن يجرب بحرف جر ، ويقدر ذلك الفعل ليتعلق به حرف الجر ، بل إذا أردت الاشتغال نصبته هكذا جرى كلام العرب ، قال تعالى : ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ ، وقال الشاعر :

أَتَغْلَبُهُ الْفَوَارِسُ أَمْ رَبَّاحَا عَدَلْتُ بِهِ طَهِيَّةً وَالْخَشَابَا^(١)

وأما تمثيله لزيد أبوه ضاربه فتركيب غير عربي ، فإن قلت : لم لا تتوجه هذه القراءة على أن (لكل وجهة) في موضع المفعول الثاني لموليتها والمفعول الأول هو المضاف إليه اسم الفاعل الذي هو مولى وهو الهاء ، وتكون عائدة على أهل القبلات والطوائف ، وأنت على معنى الطوائف ، وقد تقدم ذكرهم ، ويكون التقدير : وكل وجهة الله مولي الطوائف أصحاب القبلات ؟ فالجواب : أنه منع من هذا التقدير نص النحويين على أن المتعدي إلى واحد هو الذي يجوز أن تدخل اللام على مفعوله إذا تقدم ، أما ما يتعدى إلى اثنين فلا يجوز أن يدخل على واحد منهما اللام إذا تقدم ولا إذا تأخر ، وكذلك ما يتعدى إلى ثلاثة ومولٍ هنا اسم فاعل من فعل يتعدى إلى اثنين ، فلذلك لا يجوز هذا التقدير ، وقال ابن عطية في توجيه هذه القراءة : أي : فاستبقوا الخيرات لكل وجهة ولاكموها ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه ، أي : إنما عليكم الطاعة في الجميع ، وقدم قوله : (لكل وجهة) على الأمر في قوله : (فاستبقوا الخيرات) للاهتمام بالوجهة كما تقدم المفعول ، انتهى كلام ابن عطية ، وهو توجيه لا بأس به ، ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ هذا أمر بالبدار إلى فعل الخير والعمل الصالح ، وناسب هذا أن من جعل الله له شريعة أو قبله أو صلاة فينبغي الاهتمام بالمسارعة إليها ، قال قتادة : الاستباق في أمر الكعبة رغماً لليهود بالمخالفة ، وقال ابن زيد : معناه سارعوا إلى الأعمال الصالحة من التوجه إلى القبلة وغيره ، وقال الزمخشري^(٢) : ويجوز أن يكون المعنى فاستبقوا الفاضلات من الجهات وهي الجهات المسامة للكعبة وإن اختلفت ، وذكرنا أن استبق بمعنى : تسابق ، فهو يدل على الاشتراك ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ [يوسف : ١٧] ، أي نتسابق كما تقول تضاربوا ، واستبق لا يتعدى لأن تسابق لا يتعدى ، وذلك أن الفعل المتعدي إذا بنيت من لفظ معناه تفاعل للاشتراك صار لازماً ، تقول : ضربت زيداً ثم تقول : تضاربنا ، فلذلك قيل : إن (إلى) هنا محذوفة ، التقدير : فاستبقوا إلى الخيرات ، قال الراعي :

نَنَائِي عَلَيْكُمْ آلَ حَرْبٍ وَمَنْ يَمِلْ سِوَاكُمْ فَإِنِّي مُهْتَدٍ غَيْرَ مَائِلٍ^(٣)

يريد : ومن يمل إلى سواكم ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ﴾ هذه جملة تتضمن وعظاً وتحذيراً وإظهاراً لقدرته ، ومعنى (يأت بكم الله جميعاً) أي : يبعثكم ويحشركم للثواب والعقاب ، فأنتم لا تعجزونه وافقتم أم خالفتم ، ولذلك قاله ابن عباس : يعني يوم القيامة ، وقيل : المعنى أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً أي : يجمعكم ويجعل صلاتكم كلها إلى جهة واحدة وكأنكم تصلون حاضري المسجد الحرام ، قاله

(١) البيت من الوافر لجرب بن عطية الخطفي ، انظر ديوانه ص (٨٩) ، الخزانة (٦٩ / ١١) ، المقاصد النحوية (٥٣٣ / ٢) ، شرح أبيات سيويه للسيرافي (٢٨٨ / ١) ، اللسان (خشب - طها) .

(٢) انظر الكشف (٢٠٥ / ١) .

(٣) البيت من الطويل للراعي النميري من قصيدة قالها في مدح يزيد بن معاوية انظر ديوانه ص (٢٠٩ ، ٢١٠) .

الزمخشري^(١) ، ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ تقدم شرح هذه الجملة ، وسيقت بعد الجملة الشرطية المتضمنة للبعث والجزاء أي لا يستبعد إتيان الله تعالى بالأشياء المتميزة في الجهات المتعددة المتفرقة ، فإن قدرة الله تتعلق بالممكنات ، وهذا منها ، وقد تقدم لنا أن مثل هذه الجملة المصدرة بإن تجيء كالعلة لما قبلها فكان المعنى إتيان الله بكم جميعاً لقدرته على ذلك ، ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ لما ذكر تعالى أن لكل وجهة يتولاها أمر نبيه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام من أي مكان خرج ، لأن قوله : (فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك) ظاهره أنه أمر له باستقبال الكعبة وهو مقيم بالمدينة ، فبين بهذا الأمر الثاني تساوي الحالين إقامة وسفراً في أنه مأمور باستقبال البيت الحرام ، ثم عطف عليه (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ليبين مساواتهم له في ذلك أي في حالة السفر ، والأولى في حالة الإقامة ، وقرأ عبد الله بن عمير (ومن حيث) بالفتح فتح تخفيفاً ، وقد تقدم القول في حيث في قوله (حيث شئتما) ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ هذا إخبار من الله تعالى بأن استقبال هذه القبلة هو الحق أي الثابت الذي لا يعرض له نسخ ولا تبديل ، وفي الأول قال (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) حيث كان الكلام مع سفهائهم الذين اعترضوا في تحويل القبلة فردّ عليهم بأشياء منها : أن علماءهم يعلمون أن تحويل القبلة حق من عند الله ، وختم آخر هذه الآية بما ختم به آخر تلك من قوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ في امثال هذا التكليف العظيم الذي هو التحويل من جهة إلى جهة ، وذلك هو محض التعبد فالجهات كلها بالنسبة إلى البارئ تعالى مستوية ، فكونه خص باستقبال هذه زماناً ونسخ ذلك باستقبال جهة أخرى متأبدة لا يظهر في ذلك في بادئ الرأي إلا أنه تعبد محض ، فلم يبق في ذلك إلا امثال ما أمر الله فأخبر تعالى أنه لا يغفل عن أعمالكم بل هو المطلع عليها المجازي بالثواب من امثال أمره وبالعقاب من مخالفه ، وجاء في قوله : (الحق من ربك) في المكانين ، وفي قوله : (وما الله) في المكانين فحيث نبه على استدلال حكمته بالنظر إلى أفعاله ذكر الرب مقتضي للنعم ، لننظر منها إلى المنعم ، ونستدل بها عليه ، ولما انتهى إلى ذكر الوعيد ذكر لفظ الله المقتضي للعبادة التي من أجل بها استحق أليم العذاب ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ ظاهر هذه الجملة أنها كررت تأكيداً لما قبلها في الآية التي تليها فقط لا أن ذلك تأكيد للآية الأولى ، لأننا قد بينا أن الأولى في الإقامة والثانية في السفر ، وأما الثالثة فهي في السفر فهي تأكيد للثانية ، وحكمة هذا التأكيد تثبيت هذا الحكم وتقرير نسخ استقبال بيت المقدس ، لأن النسخ هو من مظان الفتنة والشبهة وتزيين الشيطان للطعن في تبديل قبلة بقبلة إذ كان ذلك صعباً عليهم ، فأكد بذلك أمر النسخ وثبت ، وكان التأكيد على ما قررناه بتكرير هذه الجمل مرتين لأن ذلك هو الأكثر المعهود في لسان العرب ، وهو أن تعاد الجملة مرة واحدة ، وقال المهدوي : كررت هذه الأوامر لأنه لا يحفظ القرآن كل أحد فكان يوجد عند بعض الناس ما ليس عند بعض لولم يكرر ، وهذا المعنى في التكرير يروى عن جعفر الصادق ، ولهذا المعنى وقع التكرير في القصص ، وقيل : لما كانت هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا ، كررت للتأكيد والتقرير وإزالة الشبهة ، وقد ذكر العلماء في هذه الآيات مخصصات تخرجها بذلك عن التأكيد ، فقيل : الأولى من قوله : (فول وجهك) نسخ للقبلة الأولى ، والثانية لاستواء الحكم في جميع الأمكنة ، والثالثة للدوام في جميع الأزمان ، وقيل : الأولى في المسجد الحرام ، والثانية خارج المسجد ، والثالثة خارج البلد ، وقيل : الخروج الأول إلى مكان ترى فيه الكعبة ، والثاني إلى مكان لا ترى فيه ، فسوى بين الحالتين ، وقيل : الخروج الأول متصل بذكر السبب وهو (وإنه للحق من ربك) والثاني متصل بانتفاء الحجة وهو (لئلا يكون للناس عليكم حجة) ، وقيل : الأول

لجميع الأحوال والثاني لجميع الأمكنة ، والثالث لجميع الأزمنة ، وقيل : الأول أن يكون الإنسان في المسجد الحرام والثاني أن يكون خارجاً عنه وهو في البلد والثالث أن يخرج عن البلد إلى أقطار الأرض فسوى بين هذه الأحوال لثلاث يتوهم أن للأقرب حرمة لا تثبت للأبعد ، وقيل : التخصيص حصل في كل واحد من الثلاثة بأمر فالأول بين فيه أن أهل الكتاب يعلمون أمر نبوة محمد ﷺ وأمر هذه القبلة حتى أنهم شاهدوا ذلك في التوراة والإنجيل ، والثاني فيه شهادة الله بأن ذلك حق ، والثالث بين فيه أنه فعل ذلك لثلاث يكون للناس عليكم حجة ، فقطع بذلك قول المعاندين ، وقيل : الأول مقرون بإكرامه تعالى إياهم بالقبلة التي كانوا يحبونها وهي قبلة إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام بقوله : (ولكل وجهة هو موليها) أي : لكل صاحب دعوة قبلة يتوجه إليها ، فتوجهوا أنتم إلى أشرف الجهات التي يعلم الله أنها الحق ، والثالث مقرون بقطع الله حجة من خاصمه من اليهود ، وقيل : ربما خطر في بال جاهل أنه تعالى فعل ذلك لرضا نبيه لقوله : (فلنولينك قبلة ترضاها) فأزال هذا الوهم بقوله : (وإنه للحق من ربك) أي : ما حولناك لمجرد الرضا بل لأجل أن هذا التحويل هو الحق ، فليست كقبلة اليهود التي يتبعونها بمجرد الهوى ثم أعاد ثالثاً ، والمراد : دوموا على هذه القبلة في جميع الأزمنة ، وقيل : كرر : (وحيث ما كنتم) فحث بإحداهما على التوجه إلى القبلة بالقلب والبدن في أي مكان كان الإنسان نائياً كان عنها أو دانياً منها ، وذلك في حال التمكن والاختيار ، وحث بالأخرى على التوجه بالقلب نحوه عند اشتباه القبلة في حالة المسابقة ، وفي النافلة في حالة السفر ، وعلى الراحلة في السفر ﴿ لثلاث يكون ﴾ هذه لام كي وأن بعدها لا النافية وقد حجز بها بين أن ومعمولها الذي هو (يكون) كما أنهم حجزوا بها بين الجازم والمجزم في قولهم : إن لا تفعل أفعَل ، وكتبت في المصحف (لا ما) بعدها ياء بعدها لام ألف ، فجعلوا صورة للهمزة الياء ، وذلك على حسب التخفيف الذي قرأ به نافع في القرآن من إبدال هذه الهمزة ياء ، وقرأ الجمهور بالتحقيق ، وهذه ان واجبة الإظهار هنا لكرهاتهم اجتماع لام الجر مع لا النافية ، لأن في ذلك قلقاً في اللفظ ، وهي جائزة الإظهار في غير هذا الموضع ، فإذا أثبتوها فهو الأصل وهو الأقل في كلامهم ، وإذا حذفوها فلأن المعنى يقتضيها ضرورة أن اللام لا تكون الناصبة لأنها قد ثبت لها أن تعمل في الأسماء الجر ، وعوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال ، ﴿ للناس عليكم حجة ﴾ أي احتجاج ، والناس : قيل : هو عموم في اليهود والعرب وغيرهم ، وقيل : اليهود ، وحجتهم قولهم : يخالفنا محمد في قبلتنا وقد كان يتبعها ، أو لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حق إلا برأيه ، ويزعم أنه أمر به ؟ أو ما درى محمد وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم ، وقيل : مشركو العرب ، وحجتهم قولهم : قد رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا حين صار يستقبل القبلة ، وقيل : الناس عام ، والمعنى : أن الله وعدهم بأنه لا يقوم لأحد عليهم حجة إلا حجة باطلة ، وهي قولهم : يوافق اليهود مع قوله : إني حنيف أتبع ملة إبراهيم ، أولاً يقين لكم ولا تثبتون على دين ، أو قالوا : ما لك تركت بيت المقدس ؟ إن كانت ضلالة فقد دنت بها ، وإن كانت هدى فقد نقلت عنه ، أو قولهم : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه ، أو قولهم : في التوراة إنه يتحول إلى قبلة أبيه إبراهيم ، فحوله الله لثلاث يقولوا نجده في التوراة يتحول ، فما تحول فيكون لهم ذلك حجة فأذهب الله حجتهم بذلك ، واللام في لثلاث لام الجر دخلت على (أن) وما بعدها فتقدر بالمصدر أي : لانتفاء الحجة عليكم ، وتتعلق هذه اللام ، قيل : بمحذوف أي عرفناكم وجه الصواب في قبلتكم ، والحجة في ذلك لثلاث يكون ، وقيل : تتعلق بـ (ولّوا) ، والقراءة بالياء لأن الحجة تأنيثها غير حقيقي ، وقد حسن ذلك الفصل بين الفعل ومرفوعه بمجرورين ، فسهل التذكير جداً وخبر كان قوله : (للناس) و (عليكم) في موضع نصب على الحال ، وهو في الأصل صفة للحجة فلما تقدم عليها انتصب على الحال والعامل فيها محذوف ، ولا جائز أن يتعلق بحجة لأنه في معنى الاحتجاج ، ومعمول المصدر المنحل لحرف مصدري والفعل لا يتقدم على عامله ، وأجاز بعضهم أن يتعلق (عليكم) بـ (حجة) هكذا نقلوا ، ويحتمل أن

يكون (عليكم) الخبر و (للناس) متعلق بلفظ يكون لأن كان الناقصة قد تعمل في الظرف والجار والمجرور ، ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ قرأ الجمهور إلا جعلوها أداة استثناء ، وقرأ ابن عامر وزيد بن علي وابن زيد (ألا) بفتح الهمزة وتخفيف لام ألا إذ جعلوها التي للتنبيه والاستفتاح ، فعلى قراءة هؤلاء يكون إعراب (الذين ظلموا) مبتدأ ، والجملة من قوله : (فلا تخشوهم واخشوني) في موضع الخبر ، ودخلت الفاء لأنه سلك بـ (الذين) مسلك الشرط ، والفعل الماضي الواقع صلة هو مستقبل المعنى ، كأنه قيل : من يظلم من الناس فلا تخافوا مطاعنهم في قبلكم واخشوني فلا تخالفوا أمري ، ولولا دخول الفاء لترجح نصب (الذين ظلموا) على أن تكون المسألة من باب الاشتغال ، أي : لا تخشوا الذين ظلموا لا تخشوهم لكن ذلك يجوز على مذهب الأخفش في زيادة الفاء ، وأجاز ابن عطية أن يكون (الذين) نصباً بفعل مقدر على الإغراء ، ونقل السجاوندي عن أبي بكر بن مجاهد أنه قرأ (إلى الذين) جعلها حرف جر وتأولها بمعنى مع ، وأما على قراءة الجمهور فالاستثناء متصل قاله ابن عباس وغيره ، واختاره الطبري ، وبدأ به ابن عطية ، ولم يذكر الزمخشري غيره ، وذلك أنه متى أمكن الاستثناء المتصل إمكاناً حسناً كان أولى من غيره ، قال الزمخشري^(١) : ومعناه لثلاث يكون حجة لأحد من اليهود إلا للمعاندین منهم القائلين : ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحجاً لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبله الأنبياء .

فإن قلت : أي حجة كانت تكون للمتصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة ولم يبال بحجة المعاندين .

قلت : كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبله أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة ، فإن قلت : كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين ؟ قلت : لأنهم يسوقونه سياق الحجة ، انتهى كلامه ، وقال ابن عطية : المعنى أنه لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة^(٢) للذين ظلموا من اليهود وغيرهم من كل من تكلم في النازلة . في قولهم (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا) عليها استهزاء ، وفي قولهم : تحير محمد في دينه وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو من منافق ، وسماها تعالى : حجة وحكم بفسادها حين كانت من ظلمة ، انتهى كلامه ، وقد اتضح بهذا التقرير اتصال الاستثناء ، وذهب قوم إلى أنه استثناء منقطع أي : لكن الذين ظلموا فإنهم يتعلقون عليكم بالشبهة يضعونها موضع الحجة وليست بحجة ، ومثار الخلاف هو هل الحجة هو الدليل والبرهان الصحيح ؟ أو الحجة هو الاحتجاج والخصومة ؟ فإن كان الأول فهو استثناء منقطع وإن كان الثاني فهو استثناء متصل ، قال الزجاج : أي عرفكم الله أمر الاحتجاج في القبلة في قوله تعالى (ولكل وجهة هو موليها لثلاث يكون للناس عليكم حجة) إلا من ظلم باحتجاجة فيما قد وضع له كما تقول : ما لك عليّ حجة إلا الظلم أو إلا أن تظلمني أي : ما لك حجة البتة . ولكنك تظلمني ، وأجاز قطرب أن يكون (الذين) في موضع جر بدلاً من ضمير الخطاب في (عليكم) ويكون التقدير : لثلاث تثبت حجة للناس على غير الظالمين منهم وهم أنتم أيها المخاطبون بتولية وجوهكم إلى القبلة ، ونقل السجاوندي أن « قطرباً » قرأ (إلا على الذين ظلموا) ، وهو بدل أيضاً على إظهار حرف الجر كقوله : (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) وهذا ضعيف لأن فيه إبدال الظاهر من ضمير الخطاب بدل شيء من شيء وهما لعين

(١) انظر الكشف (٢٠٧/١) .

(٢) الدَّحْضُ : الرُّقَى ، والإِدْحَاضُ : الإِزْلَاقُ ... دَحَضْتُ حَجَّتَهُ دَحْضاً : كذلك على المثل إذا بطلت ، وأدحضها الله - لسان العرب

واحدة ، ولا يجوز ذلك إلا على مذهب الأخفش ، وزعم أبو عبيد معمر بن المشي أن (إلا) في الآية بمعنى الواو ، وجعل من ذلك قوله :

مَا بِالمَدِينَةِ دَارٌ غَيْرَ وَاحِدَةٍ دَارَ الخَلِيفَةِ إِلَّا دَارَ مَرَوَانَ

وقوله :

وَكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا الْفَرَقْدَانِ^(١)

التقدير عنده : والذين ظلموا ، ودار مروان ، والفرقدان ، وإثبات (إلا) بمعنى الواو لا يقوم عليه دليل ، والاستثناء سائغ فيما ادعى فيه أن إلا بمعنى الواو ، وكان أبو عبيدة يضعف في النحو ، وقال الزجاج : هذا خطأ عند حذاق النحويين ، وأضعف من هذا زعم من زعم أن (إلا) بمعنى بعد أي بعد الذين ظلموا ، وجعل من ذلك ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] ، أي بعد ما قد سلف و ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ [الدخان : ٥٦] ، أي بعد الموتة الأولى ، ولولا أن بعض المفسرين ذكر هذين القولين ما ذكرتهما لضعفهما ، ﴿ فلا تخشوهن واخشوني ﴾ هذا فيه تحقير لشأنهن ، وأمر باطراحهن ومراعاة لأمره تعالى ، وضمير المفعول في (فلا تخشوهن) يحتمل أن يعود على الناس أي فلا تخشوا الناس ، وأن يعود على الذين ظلموا أي فلا تخشوا الظالمين ، ونهى عن خشيتهم فيما يزخرفونه من الكلام الباطل ، فإنهم لا يقدرُونَ على نفع ولا ضرر ، وأمر بخشيته هو في ترك ما أمرهم به من التوجه إلى المسجد الحرام ، وقيل : المعنى فلا تخشوهن في المبانيه واخشوني في المخالفة ، ومعناه قريب من الأول ، وقد ذكرنا شرح هاتين الجملتين في ذكر قراءة ابن عباس بقريب من هذا ، وقال السدي : معناه لا تخشوا أن أردكم في دينكم واخشوني ، وهذا الذي قاله لا يساعده قوله : (فلا تخشوهن) ، قال بعضهم : ذكر الخشية هنا ولم يذكر الخوف لأن الخشية حذر من أمر قد وقع والخوف حذر من أمر لم يقع ، والذي تدل عليه اللغة والاستعمال أن الخشية والخوف مترادفان ، وقال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، كما قال هنا (فلا تخشوهن واخشوني) ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ﴾ الظاهر أنه معطوف على قوله (لئلا يكون) ، وكان المعنى عرفناكم وجه الصواب في قبلكم والحجة لكم لانتفاء حجج الناس عليكم ، وإتمام النعمة فيكون التعريف معللاً بهاتين العلتين ، والفصل بالاستثناء وما بعده كلا فصل إذ هو من متعلق العلة الأولى ، وقيل : هو معطوف على علة محذوفة ، وكلاهما معلولهما الخشية السابقة كأنه قيل : واخشوني لأوفقكم ولأنتم نعمتي عليكم ، وقيل : تتعلق اللام بفعل مؤخر ، التقدير : ولأنتم نعمتي عليكم عرفتكم قبلي ، ومن زعم أن الواو زائدة فقوله ضعيف ، وإتمام النعمة بما هداهم إليه من القبلة أو بما أعدّه لهم من ثواب الطاعة ، أو بما حصل للعرب من الشرف بتحويل القبلة إلى الكعبة ، أو بإبطال حجج المحتجين عليهم أو بإدخالهم الجنة ، أو بالموت على الإسلام أو النعمة سنة الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ ، والستر والعافية والغنى عن الناس ، أو بشرائع الملة الحنيفية أقوال ثمانية صدرت مصدر المثل لا مصدر التعيين ، وكل فيها نعمة ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ تقدم القول في لعل بالنسبة إلى مجيئها من الله تعالى في قوله : ﴿ والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ في أول البقرة ، وهو أول مواقعها فيه ، والمعنى : لتكونوا على رجاء إدامة هدايتي إياكم على استقبال الكعبة ، أو لكي تهتدوا إلى قبلة أبيكم إبراهيم والظاهر رجاء الهداية مطلقاً ، ﴿ كما أرسلنا فيكم ﴾ الكاف هنا للتشبيه وهي في موضع نصب

على أنها نعت لمصدر محذوف ، واختلف في تقديره فقيل : التقدير ولأنتم نعمتي عليكم إتماماً مثل إتمام إرسال الرسول فيكم ، ومتعلق بالإتمامين مختلف فالإتمام الأول بالثواب في الآخرة ، والإتمام الثاني بإرسال الرسول إلينا في الدنيا ، أو الإتمام الأول بإجابة الدعوة الأولى لإبراهيم في قوله : (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) والإتمام الثاني بإجابة الدعوة الثانية في قوله : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) ، وقيل : التقدير ولعلكم تهتدون اهتداء مثل إرسالنا فيكم رسولا ، ويكون تشبيه الهداية بالإرسال في التحقق والثبوت أي اهتداء ثابتاً متحققاً كتحقق إرسالنا وثبوت ، وقيل : متعلق بقوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) أي جعلاً مثل ما أرسلنا ، وهو قول : « أبي مسلم » وهذا بعيد جداً لكثرة الفصل المؤذن بالانقطاع ، وقيل : الكاف في موضع نصب على الحال من نعمتي أي ولأنتم نعمتي عليكم مشبهة إرسالنا فيكم رسولا أي مشبهة نعمة الإرسال ، فيكون على حذف مضاف ، وقيل : الكاف منقطعة من الكلام قبلها ومتعلقة بالكلام بعدها والتقدير : قال الزمخشري (١) : كما ذكرتم بإرسال الرسول فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب ، انتهى ، فيكون على تقدير مصدر محذوف وعلى تقدير مضاف أي : اذكروني ذكراً مثل ذكرنا لكم بالإرسال ثم صار مثل ذكر إرسالنا ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وهذا كما تقول : كما أتاك فلان فائته بكرمك ، وهذا قول مجاهد وعطاء والكلبي ومقاتل ، وهو اختيار الأخفش والزجاج وابن كيسان والأصم ، والمعنى أنكم كنتم على حالة لا تقرؤون كتاباً ولا تعرفون رسولاً ومحمد ﷺ رجل منكم أتاكم بأعجب الآيات الدالة على صدقه ، فقال : كما أوليتكم هذه النعمة وجعلتها لكم دليلاً فاذكروني بالشكر أذكركم برحمتي ، ويؤكد : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، ويحتمل على هذا الوجه بل يظهر وهو إذا علقت بما بعدها أن لا تكون الكاف للتشبيه بل للتعليل ، وهو معنى مقول فيها إنها ترد له وحمل على ذلك قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ ، وقول الشاعر :

لَا تَشْتُمِ النَّاسَ كَمَا لَا تُشْتَمُ

أي واذكروه لهدايته إياكم ، ولا تشتم الناس لكونك لا تشتم أي امتنع من شتم الناس لامتناع الناس من شتمك ، و (ما) في كما مصدرية ، وأبعد من زعم أنها موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف و (رسولا) بدل منه ، والتقدير : كالذي أرسلناه رسولاً إذ يبعد تقرير هذا التقدير مع الكلام الذي قبله ومع الكلام الذي بعده ، وفيه وقوع (ما) على أحاد من يعقل ، وكذلك جعل (ما) كافة لأنه لا يذهب إلى ذلك إلا حيث لا يمكن أن ينسبك منها مع ما بعدها مصدر لولايته الجمل الاسمية ، نحو قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَأَبَا حُمَيْدٍ كَمَا النَّشْوَانَ وَالرَّجُلَ الْحَلِيمَ (٢)

وقول من قال : إن كما أرسلنا متعلق بما بعده قد ردّه أبو محمد مكي بن أبي طالب قال : لأن الأمر إذا كان له جواب لم يتعلق به ما قبله لاشتغاله بجوابه ، قال : لو قلت : كما أحسنت إليك فأكرمني أكرمك لم تتعلق الكاف من كما بأكرمني ، لأن له جواباً ولكن تتعلق بشيء آخر أو بمضمّر ، وكذلك فاذكروني أذكركم هو أمر له جواب فلا تتعلق كما به ، ولا يجوز ذلك إلا على التشبيه بالشرط الذي يجاب بجوابين ، وهو قولك : إذا أتاك فلان فائته ترضه ، فتكون

(١) انظر الكشف (٢٠٧/١) .

(٢) البيت من الوافر لزيد الأعجم ، انظر شعر زيد الأعجم ص (٩٧) ، وروايته : (وأعلم أنني ..) ، وانظر شواهد المغني (٥٠١) ،

(٥٠٢) ، وروايته : (وأعلم أنني) ، وقال : ويروى (لعمرك إنني) وانظر شفاء العليل للسليبي (٦٧٢) .

(كما) و (فاذكروني) جوابين للأمر ، والأول أفصح وأشهر ، وتقول : كما أحسنت إليك فأكرمني ، يصح أن يجعل الكاف متعلقة بأكرمني إذ لا جواب له ، انتهى كلامه ، ورجح مكي قول من قال إنها متعلقة بما قبلها وهو (لأنم نعمتي عليكم) لأن سياق اللفظ يدل على أن المعنى : ولأنم نعمتي عليكم ببيان ملة أبيكم إبراهيم كما أجابنا دعوته فيكم ، فأرسلنا إليكم رسولا منكم يتلو ، وما ذهب إليه « مكي » من إبطال أن تكون (كما) متعلقة بما بعدها من الوجه الذي ذكره ليس بشيء لأن الكاف إما أن تكون للتشبيه أو للتعليل ، فإن كانت للتشبيه فتكون نعتاً لمصدر محذوف ، ويجوز تقدم ذلك المصدر على الفعل مثال ذلك : أكرمني إكراماً مثل إكرامي السابق لك أكرمك ، فيجوز تقديم هذا المصدر ، وإن كانت للتعليل فيجوز أيضاً تقدم ذلك على الفعل مثال ذلك : أكرمني لإكرامي لك أكرمك ، لا نعلم خلافاً في جواز تقديم هذا المصدر ، وهذه العلة على الفعل العامل فيهما ، وتجوز مكي ذلك على التشبيه بالشرط الذي يجاب بجوابين وتسميته (كما) و (فاذكروني) جوابين للأمر ليس بصحيح ، لأن (كما) ليس بجواب ولأن ذلك التشبيه فاسد ، لأن المصدر لا يشبه الجواب وكذلك التعليل ، أما المصدر التشبيهي فهو وصف في الفعل المأمور به فليس مترتباً على وقوع مطلق الفعل بل لا يقع الفعل إلا بذلك الوصف ، وعلى هذا لا يشبه الجواب لأن الجواب مترتب على نفس وقوع الفعل ، وأما التعليل فكذلك أيضاً ليس مترتباً على وقوع الفعل بل الفعل مترتب على وجود العلة فهو نقيض الجواب ، لأن الجواب مترتب على وقوع الفعل والعلة مترتب عليها وجود الفعل ، فلا تشبيه بينهما ، وإنما يחדش عندي في تعلق (كما) بقوله : (فاذكروني) هو الفاء لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، ولولا الفاء لكان التعلق واضحاً ، وتبعد زيادة الفاء ، فبهذا يظهر تعلق (كما) بما قبلها ويكون في ذلك تشبيه إتمام هذه النعمة الحادثة من الهداية لاستقبال قبلة الصلاة التي هي عمود الإسلام وأفضل الأعمال وأدل الدلائل على الاستمسك بشريعة الإسلام بإتمام النعمة السابقة بإرسال الرسول المتصف بكونه منهم إلى سائر الأوصاف التي وصفه تعالى بها ، وجعل ذلك إتماماً للنعمة في الحالين لأن استقبال الكعبة ثانياً أمر لا يزداد عليه شيء ينسخه فهي آخر القبلات المتوجه إليها في الصلاة ، كما أن إرسال محمد ﷺ هو آخر إرسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ لا نبي بعده ، وهو خاتم النبيين ، فشبه إتمام تلك النعمة التي هي كمال نعمة استقبال القبل بهذا الإتمام الذي هو كمال إرسال الرسل ، وفي إتمام هاتين النعمتين عز للعرب وشرف واستمالة لقلوبهم إذ كان الرسول منهم والقبلة التي يستقبلونها في الصلاة بينهم الذي يحجونه قديماً وحديثاً ويعظمونه ، ﴿ رسولا منكم ﴾ فيه اعتناء بالعرب إذ كان الإرسال فيهم والرسول منهم ، وإن كانت رسالته عامة ، وكذلك جاء ﴿ هو الذي بعث في الأميين ﴾ [الجمعة : ٢] ، ويشعر هذا الامتنان بأنه لم يسبق أن يرسل لا يبعث في العرب رسول غير نبينا محمد ﷺ ، ولذلك أفرد فقال رسولا منهم ، ووصفه بأوصاف كلها معجز لهم ، وهي كونه منهم وتالياً عليهم آيات الله ومزكياً لهم ومعلماً لهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون ، وقدم كونه منهم أي يعرفونه شخصاً ونسباً ومولداً ومنشأً لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة ما يصدر من أفعاله ، وأتى ثانياً بصفة تلاوة الآيات إليه تعالى لأنها هي المعجزة الدالة على صدقه الباقية إلى الأبد ، وأضاف الآيات إليه تعالى لأنها كلامه سبحانه وتعالى ومن تلاوته تستفاد العبادات ومجامع الأخلاق الشريفة ، وتنبع العلوم ، وأتى ثالثاً بصفة التزكية وهي التطهير من أنجاس الضلال لأن ذلك ناشئ عن إظهار المعجز لمن أراد الله تعالى توقيفه وقبوله للحق ، وأتى رابعاً بصفة تعليم الكتاب والحكمة لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان باتباع النبي ﷺ فيعلمه إذ ذاك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله تعالى وما اقتضته الحكمة الإلهية ، وأتى بهذه الصفات فعلاً مضارعاً ليدل بذلك على التجدد لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائماً ، وأما الصفة الأولى وهي كونه منهم فليست بمتجددة بل هو وصف ثابت له ، وقد تقدم الكلام على هذه الأوصاف في قوله : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) بأشبع من هذا فلينظر هناك ، وختم هذا بقوله : ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ وهو ذكر عام بعد خاص لأنهم لم يكونوا يعلمون الكتاب ولا الحكمة ، وفسر

بعضهم ذلك بأن الذي لم يكونوا يعلمون قصص من سلف وقصص ما يأتي من الغيوب ، وفي هذه الآية قدم التزكية على التعليم وفي دعاء إبراهيم قدم التعليم على التزكية ، وذلك لاختلاف المراد بالتزكية ، فالظاهر أن المراد هنا هو التطهير من الكفر كما شرحناه ، وهناك هو الشهادة بأنهم خيار أذكيا ، وذلك متأخر عن تعليم الشرائع والعمل بها ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ أي اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة قاله ابن جبير ، أو بالدعاء والتسبيح ونحوه قاله الربيع والسدي ، وقال « عكرمة » : يقول الله : يا ابن آدم اذكروني بعد صلاة الصبح ساعة وبعد صلاة العصر ساعة ، وأنا أكفيك ما بينهما ، أو أثبتوا عليّ أثن عليكم ، وقد جاء هذا المعنى في الحديث الطويل في قوله ﷺ : إن الله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، وفيه ما يقول عبادي ؟ قالوا : يسبحونك ويحمدونك ويمجدونك ، وقيل : هو على حذف مضاف أي اذكروا نعمتي أذكركم بالزيادة ، وقد جاء التصريح بالنعمة في قوله : (اذكروا نعمتي) ، وقيل : الذكر^(١) باللسان وبالقلب عند الأوامر والنواهي ، وقيل : اذكروني بتوحيدي وتصديق نبي ، وقيل : بما فرضت عليكم أو ندبتكم إليه أذكركم أي أجازكم على ذلك ، وقد تقدم معنى هذا ، وهو قول سعيد : فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب ، وقيل : فاذكروني في الرخاء بالطاعة والدعاء أذكركم في البلاء بالعطية والنعماء قاله ابن بحر ، وقيل : اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال أو اذكروني بالتوبة أذكركم بالعفو عن الحوبة ، أو اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة ، أو اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات ، أو اذكروني بمحامدي أذكركم بهدايتي ، أو اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص ، أو اذكروني بالموافقات أذكركم بالكرامات ، أو اذكروني بترك كل حظ أذكركم بأن أقيمكم بحقي بعد فنائكم عنكم ، أو اذكروني بقطع العلائق أذكركم بنعت الحقائق ، أو اذكروني لمن لقيتموه أذكركم لكل من خاطبته ، قال : ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، أو اذكروني أذكركم : أحبوني أحبكم ، أو اذكروني بالتذلل أذكركم بالتفضل ، أو اذكروني بقلوبكم أذكركم بتحقيق مطلوبكم ، أو اذكروني على الباب من حيث الخدمة أذكركم على بساط القرب بإكمال النعمة ، أو اذكروني بتصفية السر أذكركم بتوفية البر ، أو اذكروني في حال سروركم أذكركم في قبوركم ، أو اذكروني وأنتم بوصف السلامة أذكركم يوم القيامة يوم لا تنفع الندامة ، أو اذكروني بالرهبة أذكركم بالرغبة ، وقال القشيري : فاذكروني أذكركم ، الذكر : استغراق الذاكر في شهود المذكور ثم استهلاكه في وجود المذكور حتى لا يبقى منه إلا أثر يذكر فيقال : قد كان فلان ، قال تعالى : (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) .

وإنما الدنيا حديث حسن فكن حديثاً حسناً لمن وعى

قال الشاعر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا مَحَاسِنُهَا طِيبُ مَا يَبْقَى مِنَ الْخَبَرِ

وفي « المنتخب » : ما ملخصه الذكر يكون باللسان وهو الحمد والتسبيح والتمجيد وقراءة كتب الله ، وبالقلب وهو الفكر في الدلائل الدالة على التكليف والأحكام والأمر والنهي والوعد والوعيد والفكر في الصفات الإلهية والفكر في أسرار مخلوقات الله تعالى ، حتى تصير كل ذرة كالمرآة المجلوة المحاذية لعالم التقديس ، فإذا نظر العبد إليها

(١) الذكر بالكسر : الحفظ بالشيء كالذكر ، والشيء يجري على اللسان والصيْتُ : كالذكرة بالضم . والثناء . والشرف . والصلاة لله تعالى - ترتيب القاموس (٢٦٢ / ٢) .

انعكس شعاع بصره منها إلى عالم الجلال ، وبالجوارح بأن تكون مستغرقة في الأعمال المأمور بها خالية عن الأعمال المنهي عنها ، وعلى هذا الوجه سمى الله الصلاة ذكراً بقوله ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ [الجمعة : ٩] ، انتهى ، وقالوا : الذكر هو تنبيه القلب للمذكور والتيقظ له ، وأطلق على اللسان لدلالته على ذلك ، ولما كثر إطلاقه عليه صار هو السابق إلى الفهم ، فالذكر باللسان سرّيّ وجهرّيّ ، والذكر بالقلب دائم ومتحلل ، وبهما أيضاً دائم ومتحلل ، فباللسان ذكر عامّة المؤمنين وهو أدنى مراتب الذكر ، وقد سماه رسول الله ﷺ ذكراً ، خرج ابن ماجه^(١) أن أعرابياً قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأنبئني منها بشيء أثبت به ، قال : لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله ، وخرج أيضاً قال : يقول الله تعالى : أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه ، وسئل أبو عثمان فقيل له : نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة فقال : احمداوا الله على أن زين جارحة من جوارحك بطاعته ، وبالقلب هو ذكر العارفين وخواص المؤمنين ، وقد سماه النبي ﷺ ذكراً ، ومعناه استقرار الذكر فيه حتى لا يخطر فيه غير المذكور ، قال الشاعر :

سَوَاكَ بِبَالِي لَا يَخْطُرُ إِذَا مَا نَسَيْتُكَ مَنْ أَدُكُرُ

وبهما هو ذكر خواص المؤمنين ، وهذه ثلاث المقامات أدومها أفضلها ، انتهى ، وقد طال بنا الكلام في هذه الجملة ، وتركنا أشياء مما ذكره الناس ، وهذه التقييدات والتفسيرات التي فسر بها الذكر (أن) لا يدل اللفظ على شيء منها ، وينبغي أن يحمل ذلك من المفسرين له على سبيل التمثيل ، وجواز أن يكون المراد ، وأما دلالة اللفظ فهي طلب مطلق الذكر ، والذي يتبادر إليه الذهن هو الذكر اللساني ، والذكر اللساني لا يكون ذكر لفظ الجلالة مفرداً من غير إسناد بل لا بد من إسناد ، وأولها الأذكار المروية في الآثار والمشار إليها في القرآن ، وقد جاء الترغيب في ذكر جملة منها والوعد على ذكرها بالثواب الجزيل ، وتلك الأذكار تتضمن الثناء على الله والحمد له والمدح لجلاله وإلتماس الخير من عنده ، فعبر عن ذلك بالذكر وأمر العبد به ، فكأنه قيل : عظموا الله وأثنوا عليه بالألفاظ الدالة على ذلك ، وسمى الثواب المترتب على ذلك ذكراً ، فقال : (فاذكروني أذكركم) على سبيل المقابلة لما كان نتيجة الذكر ناشئاً عنه سماه ذكراً ، ﴿ واشكروا لي ﴾ تقدّم تفسير الشكر وعده هنا باللام ، وكذلك ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ [لقمان : ١٤] ، وهو من الأفعال التي ذكر أنها تارة تتعدى بحرف جر وتارة تتعدى بنفسها كما قال عمر بن لجأ التميمي :

هُم جَمَعُوا بُوسِي وَنَعَمِي عَلَيْكُمْ فَهَلَّا شَكَرْتُ الْقَوْمَ إِذْ لَمْ تُقَابِلْ^(٢)

وفي إثبات هذا النوع من الفعل ، وهو أن يكون يتعدى تارة بنفسه وتارة بحرف جر بحق الوضع فيهما خلاف ، وقالوا : إذا قلت شكرت لزيد فالتقدير : شكرت لزيد صنيعة ، فجعلوه مما يتعدى لواحد بحرف جر ولآخر بنفسه ، ولذلك فسر الزمخشري^(٣) هذا الموضع بقوله : واشكروا لي ما أنعمت به عليكم ، وقال ابن عطية : واشكروا لي واشكروني بمعنى واحد ولي أفصح وأشهر مع الشكر ، ومعناه نعمتي وأيادي ، وكذلك إذا قلت شكرتك فالمعنى

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٥) ، وابن ماجه رقم (٣٧٩٣) ، وأحمد في المسند (١٨٨/٤) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٠١/١٠) ، (٤٥٧/١٣) ، وابن حبان ، أورده الهيثمي في الموارد (٢٣١٧) ، والحاكم في المستدرک (٤٩٥/١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٧١/٣) ، وأبو نعيم في الحلية (٥١/٩) .

(٢) البيت من الطويل .

(٣) انظر الكشف (٢٠٧/١) .

شكرت لك صنيعك ، وذكرته فحذف المضاف إذ معنى الشكر ذكر اليد وذكر مسديها معاً ، فما حذف من ذلك فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف ، انتهى كلامه ، ويحتاج كونه يتعدى لواحد بنفسه وللآخر بحرف جر ، فتقول : شكرت لزيد صنيعه لسماع من العرب : وحينئذ يصار إليه ﴿ ولا تكفرون ﴾ هو من كفر النعمة ، وهو على حذف مضاف أي ولا تكفروا نعمتي ، ولو كان من الكفر ضد الإيمان لكان ولا تكفروا أو ولا تكفروا بي ، وهذه النون نون الوقاية حذفت ياء المتكلم بعدها تخفيفاً لتناسب الفواصل ، قيل : المعنى واشكروا لي بالطاعة ولا تكفرون بالمعصية ، وقيل : معنى الشكر هنا الاعتراف بحق المنعم والثناء عليه ، ولذلك قابله بقوله : ولا تكفرون ، وهنا ثلاث جمل : جملة الأمر بالذكر ، وجملة الأمر بالشكر ، وجملة النهي عن الكفران ، فبدى أولاً بجملة الذكر لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى ، وذكر له جواب مترتب عليه ، وثنى بجملة الشكر لأنه ثناء على شيء خاص ، وقد اندرج تحت الأول فهو بمنزلة التوكيد فلم يحتاج إلى جواب ، وختم بجملة النهي لأنه لما أمر بالشكر لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان ، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات ، ونهى عن الكفران لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك ، وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر ونهي بدى بالأمر ، وذكرنا الحكمة في ذلك في قوله : (وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرين) فأغنى عن إعادته هنا ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قيل : سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا : سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا ، هزمهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف الشريف وهو الإيمان مجعولاً ماضياً في صلة الذين دالاً على الثبوت ، والالتباس به في تقدم زمانهم ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم من الأمر والتكليف الشاق ، لأن الصبر والصلاة هما ركننا الإسلام ، فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة ، وهو أمر قلبي ، والصلاة ثمرته وهي من أشق التكاليف لتكررها ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيراً ، فأمرُوا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة ، وقد قيد بعضهم الصبر هنا بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة ، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض ، وروي عن ابن عباس وبعضهم قال : هو كناية عن الصوم ، ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر ، وبعضهم قال : هو كناية عن الجهاد ، لقوله بعد : (ولا تقولوا لمن يقتل) وهو قول أبي مسلم ، والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ فتندرج هذه الأفراد تحته ، وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس له ، وقد تقدم الكلام على شرح هذه الجملة من قوله : (استعينوا بالصبر والصلاة) ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ أي بالمعونة والتأييد كما قال : اهجمهم وروح القدس معك ، وقال تعالى : (لا تحزن إن الله معنا) ومن كان الله معه فهو الغالب ، ولما كانت الصلاة ناشئة عن الصبر ، وصار الصبر أصلاً لجميع التكاليف الشاقة قال : (إن الله مع الصابرين) فاندرج المصلون تحت الصابرين اندراج الفرع تحت الأصل ، وأما قوله هناك : (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) فأعاد الضمير عليها على ظاهر الكلام لأنها أشرف وأشق نتائج الصبر ، ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ قيل : سبب نزول هذه الآية أنه قيل لمن قتل في سبيل الله : مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ، فأنزلت ، نهوا عن قولهم عن الشهداء : أموات ، وأخبر تعالى أنهم أحياء ، وارتفاع أموات وأحياء على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم أموات بل هم أحياء ، ويحتمل أن يكون (بل أحياء) مندرجاً تحت قول مضمّر أي بل قولوا : هم أحياء ، لكن يرجح الوجه الأول ، وهو أنه إخبار من الله تعالى قوله : (ولكن لا تشعرون) لأن معناه أن حياتهم لا شعور لكم بها ، والظاهر أن المراد حقيقة الموت والحياة ، وقيل : ذلك مجاز ، واختلفوا فقليل : أموات بانقطاع الذكر بل أحياء ببقائه وثبوت الأجر ، وكانت العرب

تسمي من لا يبقى له ذكر بعد موته كالولد وغيره ميتاً ، وقيل : أموات بالضلال بل أحياء بالطاعة والهدى كما قال : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وإذا حمل الموت والحياة على الحقيقة ، فاختلفوا ، فقال : قوم : معناه النهي عن قول الجاهلية : إنهم لا يبعثون ، فالمعنى أنهم سيحيون بالبعث فيثابون ثواب الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، وأكثر أهل العلم على أنهم أحياء في الوقت ، ومعنى هذه الحياة بقاء أرواحهم دون أجسادهم إذ أجسادهم نشاهد فسادها وفناءها ، واستدلوا على بقاء الأرواح بعذاب القبر ، وبقوله : (ولكن لا تشعرون) معناه لا تشعرون بكيفية حياتهم ، ولو كان المعنى بأحياء أنهم سيحيون يوم القيامة ، أو أنهم على هدى ونور ، لم يظهر لنفي الشعور معنى إذ هو خطاب للمؤمنين ، وهم قد علموا بالبعث وبأنهم كانوا على هدى ، فلا يقال فيه : ولكن لا تشعرون لأنهم قد شعروا به ، وبقوله (ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) وقد ذهب بعض الناس إلى أن الشهيد حي الجسد والروح ، ولا يقدح في ذلك عدم الشعور به من الحي غيره ، فنحن نراهم على صفة الأموات وهم أحياء كما قال تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ وكما ترى النائم على هيئة وهو يرى في منامه ما ينعم به أو يتألم به ، ونقل السهيلي في كتاب دلائل النبوة من تأليفه حكاية عن بعض الصحابة أنه حفر في مكان ، فافتتحت طاقة فإذا شخص جالس على سرير وبين يديه مصحف يقرأ فيه وأمامه روضة خضراء ، وذلك بأحد ، وعلم أنه من الشهداء لأنه رأى في صفحة وجهه جرحاً ، وإذا ثبت أن الشهداء أحياء إما أرواحهم وإما أجسادهم وأرواحهم ، فاختلف في مستقرها ، فقيل : قبورهم يرزقون فيها ، وقيل : في قباب بيض في الجنة يرزقون فيها قاله أبو بشار السلمي ، وقيل : في طير بيض تأكل من ثمار الجنة ، ومساكنهم سدرة المنتهى قاله قتادة ، وقيل : يأكلون من ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها قاله مجاهد ، وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : الشهداء على نهر بباب الجنة في قبة خضراء^(١) ، وروي في روضة خضراء يجري عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً ، وروي عنه ﷺ^(٢) أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة ، وأنهم في قناديل من ذهب ، وأنهم في قبة خضراء ، وإذا صح ذلك فهي أحوال لطوائف من الشهداء أو في أوقات مختلفة ، والجمهور على أنهم في الجنة ، ويؤيده قوله ﷺ لأم حارثة : إنهم في الفردوس ، ومذهب أهل السنة أن الأرواح لا تنفئ وأنها باقية بعد خروجها من البدن ، فأرواح أهل السعادة منعمة إلى يوم الدين ، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين ، والفرق بين الشهيد وغيره من المؤمنين إنما هو الرزق فضلهم الله بذلك ، وقال تعالى في حق الكفار ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ [غافر : ٤٦] ، وقال الحسن : الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على آل فرعون غدوة وعشياً فيصل إليهم الوجع ، وقالوا : يجوز أن يجمع الله من أجزاء الشهيد جملة فيحييها ، ويوصل إليها النعيم وإن كانت في حجم الذرة ، ولم تتعرض الآية الكريمة لرزق أرواح الشهداء ولا لمستقرها ، وإنما جرى ذكر ذلك على سبيل الاستطراد اتباعاً للمفسرين حيث تكلموا في ذلك في هذه الآية ، وإلا فمظنة الكلام على ذلك في قوله (بل أحياء عند ربهم يرزقون) حيث ذكر العندية والرزق ، وظاهر قوله : (لمن يقتل في سبيل الله) العموم ، وقيل : نزلت في شهداء بدر كانوا أربعة عشر ولا يخص هذا العموم بهذا السبب ، بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وفي هذه الآية تسلية لأقرباء الشهداء وإخوانهم من المؤمنين بذكر أنهم أحياء فهم مغبوطون لا محزون عليهم ، ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ تقدم أن الابتلاء هو الاختبار ليعلم ما يكون من حال

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٦/١) ، وابن حبان أورده الهيثمي في الموارد (١٦١١) ، والطبراني في الكبير (٤٠٥/١٠) ، وابن أبي شيبة (٢٩٠/٥) ، والطبري في التفسير (٣٤/٢) ، (١١٣/٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٥٠٢/٣) ، في كتاب الإمارة (١٨٨٧/١٢١) ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٦/١٩) .

المختبر ، وهذا مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى وإنما معناه هنا الإجابة ، والضمير الذي للخطاب ، قيل : هو للصحابة فقط قاله عطاء ، خاطبهم بذلك بعد الهجرة وأخبرهم بذلك قبل وقوعه تطميناً لقلوبهم ، لأنه إذا تقدم العلم بالواقع كان قد استعد له بخلاف الأشياء التي تفاجئ فإنها أصعب على النفس ، وزيادة ثواب وأجر على ما يحصل لهم من انتظار المصيبة وإخباراً بمغيب يقع وفق ما أخبر ، وتمييزاً لمن أسلم مريداً وجه الله ممن نافق وازدياد إخلاص في حال البلاء على إخلاصه في حال العافية ، وحملاً لمن لم يسلم على النظر في دلائل الإسلام إذا رأى هؤلاء المبطلين صابرين على دينهم ثابتي الجأش فيه مع ما ابتلوا به ، وقيل : هؤلاء أهل مكة خاطبهم بذلك إعلاماً أنه أجاب دعوة نبيه ﷺ فيهم ، وليبقوا يتوقعون المصيبة فتضاعف عليهم المصيبات ، وقيل : هو خطاب للأمة ويكون آخر الزمان ، قال كعب : يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة ، فيكون هذا الإخبار تحذيراً وموعظة على الركوع إلى الدنيا وزهرتها ، ويكون إخباراً بالمغيبات ، وقيل : الخطاب لا يراد به معين بل هو عام لا يتقيد بزمان ولا بمخاطب خاص ، فكأنه قيل : ولنصين بكذا فيكون في ذلك تحذير ، وأنه للصحابة وغيرهم ، وهذه الآية لها تعلق بقوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) الآية وقبلها (واشكروا لي) والشكر يوجب زيادة النعم ، والابتلاء بما ذكر ينافيه ظاهراً ، وتوجيه أن إتمام الشرائع إتمام للنعمة ، وذلك يوجب الشكر والقيام بتلك الشرائع لا يمكن إلا بتحمل المشاق ، فأمر فيها بالصبر وأنه أنعم عليه أولاً فشكر وابتلي ثانياً فصبر لينال درجتي الشكر والصبر فيكمل إيمانه كما روي عنه عليه السلام : الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ، (بشيء) متعلق بقوله : (ولنبلونكم) والباء فيه « للإلصاق » ، وأفردته ليدل على التقليل إذ لو جمعه فقال بأشياء لاحتمل أن تكون ضرورياً من كل واحد مما بعده ، وقد قرأ الضحاك (بأشياء) فلا يكون حذف فيما بعدها فيكون (من) في موضع الصفة بخلاف قراءة الجمهور (بشيء) فلا بد من تقدير حذف أي : شيء من الخوف ، وشيء من الجوع ، وشيء من نقص ، والمعنى في هذه القراءة : ولنبلونكم بطرف من كذا وكذا ، والخوف : خوف العدو قاله ابن عباس ، وقد حصل الخوف الشديد في وقعة الأحزاب ، وقال الشافعي : هو خوف الله تعالى ، والجوع القحط قاله ابن عباس عبر بالمسبب عن السبب ، وقيل : الجوع الفقر عبر بالمسبب عن السبب أيضاً ، وقال الشافعي : هو صيام شهر رمضان ونقص من الأموال بالخسران والهلاك ، وقال الشافعي : بالصدقات والأنفس بالقتل والموت ، وقال الشافعي : بالأمراض وقيل : بالشيب ، والثمرات : يعني الجوائح^(١) في الثمرات وقلة النبات وانقطاع البركات ، وقال القفال : قد يكون نقصها بالجدوب وقد يكون بترك عمارة الضياع للاشتغال بالجهاد ، وقد يكون بالإنفاق على من يرد من الوفود على رسول الله ﷺ ، وقيل : بظهور العدو عليهم ، وقال الشافعي : والثمرات موت الأولاد ، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه ، وفي حديث أبي موسى : إن الله يقول للملائكة إذا مات ولد العبد : أقبضتم ثمرة فؤاده ؟ ، وقال بعض العلماء : المراد في هذه الآية مؤن الجهاد وكلفه ، فالخوف من العدو والجوع به وبالإسفار إليه ونقص الأموال بالنفقات فيه والأنفس بالقتل والثمرات بإصابة العدو لها أو الغفلة عنها بسبب الجهاد ، انتهى كلامه ، وعطف (ونقص) على قوله : (بشيء) أي : ولنمتحننكم بشيء من الخوف والجوع ونقص ويحسن العطف تنكيرها على أنه يحتمل أن يكون معطوفاً على الخوف والجوع ، فيكون تقديره : (وشيء من نقص) ، و (من الأموال) متعلق بـ (نقص) لأنه مصدر نقص ، وهو يتعدى إلى واحد وقد حذف أي ونقص شيء ويحتمل أن يكون في موضع الصفة لنقص وتكون من لابتداء الغاية ، ويحتمل أن يكون في موضع الصفة لذلك المحذوف أي ونقص شيء من الأموال ، وتكون (من) إذ ذاك للتبعض ، وقالوا : يجوز أن تكون من عند الأخفش زائدة أي ونقص الأموال

(١) جاحهم الله جَبَحًا وجائحة : دهاهم ، مصدر كالعاقبة ، لسان العرب (١/ ٧٣٧) .

والأنفس والثمرات ، وأتى بالجملة الخبرية مقسماً عليها تأكيداً للوقوع الابتلاء ، وإسناد الفعل إليه صريح في إضافة أسباب البلى إليه وأن هذه المحن من الله تعالى ، ووعد به المؤمنين يدل على أنها ليست عقوبات بل إذا قارنها الصبر أفادت درجة عالية في الدين ، وجاء هذا الترتيب في العطف على سبيل الترقى ، فأخبر أولاً بالابتلاء بشيء من الخوف وهو توقع ما يرد من المكروه ، ثم انتقل منه إلى الابتلاء بشيء من الجوع وهو أشد من الخوف بأي تفسير فسر به من القحط أو الفقر أو الحاجة إلى الأكل إلا على تفسير الشافعي وهو صوم رمضان ، ولا ترقى بين نقص وشيء على ما اختاره من عطف نقص على شيء بل الترقى في العطف بعد ونقص ، فبدأ أولاً بالأموال ثم ترقى إلى الأنفس ، وأما (والثمرات) فجاء كالتخصيص بعد التعميم لأنها تندرج تحت الأموال فلا ترقى فيها ، ﴿ وبشر الصابرين ﴾ خطاب للنبي ﷺ أو لكل من تتأتى منه البشارة أي على الجهاد بالنصر ، أو على الطاعة بالجزاء أو على المصائب بالثواب أقوال ، والأحسن عدم التقييد أي كل من صبر صبراً محموداً شرعاً فهو مندرج في الصابرين ، قالوا : والصبر من خواص الإنسان لأنه يتعارض فيه العقل والشهوة ، وهو بدني وهو إما فعلي كتعاطي الأعمال الشاقة ، وإما احتمال كالصبر على الضرب الشديد ، ونفسي وهو قمع النفس عن مشتبهات الطبع ، فإن كان من شهوة الفرج والبطن سمي عفة ، وإن كان من احتمال مكروه اختلقت أساميه باختلاف المكروه ، ففي المصيبة يقتصر عليه باسم الصبر ، ويضاده الجزع ، وإن كان في الغنى سمي ضبط النفس ويضاده البطر ، وإن كان في حرب سمي شجاعة ويضاده الجبن ، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر ويضاده الضجر ، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتماناً ويضاده الإعلان ، وإن كان في فضول الدنيا سمي زهداً ويضاده الحرص ، وإن كان على يسير من المال سمي قناعة ويضاده الشره ، وقد جمع الله أقسام ذلك وسمي جميعها صبراً ، فقال : (والصابرين في البأساء) أي المصيبة (والضراء) أي الفقر (وحين البأس) أي المحاربة ، قال القفال : ليس الصبر أن لا يجد الإنسان ألم المكروه ولا أن لا يكره ذلك ، إنما هو حمل النفس على ترك إظهار الجزع ، وإن ظهر دمع عين أو تغير لون ، ولو ظهر منه أول ما لا يعد معه صابراً ثم صبر لم يعد ذلك إلا سلواناً ، ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة ﴾ يجوز في (الذين) أن يكون منصوباً على النعت للصابرين ، وهو ظاهر الإعراب أو منصوباً على المدح فيكون مقطوعاً ، أو مرفوعاً على إضمار (هم) على وجهين ، إما على القطع ، وإما على الاستئناف ، كأنه جواب لسؤال مقدر أي : من الصابرون ؟ قيل : هم الذين إذا ، وجوزوا أن يكون (الذين) مبتدأ و (أولئك عليهم) خبره ، وهو محتمل ، (مصيبة) اسم فاعل من أصابت وصار لها اختصاص بالشيء المكروه ، وصارت كناية عن الداهية فجرت مجرى الأسماء ووليت العوامل وأصابتهم مصيبة من التجنيس المغاير ، وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً ، ومنه ﴿ أزفت الآزفة ﴾ [النجم : ٥٧] ، إذا وقعت الواقعة ، والمصيبة كل ما آذى المؤمن في نفس أو مال أو أهل صغرت أو كبرت حتى انطفاء المصباح لمن يحتاجه يسمى مصيبة ، وروي ذلك عن النبي ﷺ أنه استرجع عند انطفاء مصباحه ، والمعنى في (إذا) هنا على التكرار والعموم ، وقد تقدم لنا ذكر الخلاف في (إذا) أتدل على التكرار أم وضعت للمرة الواحدة ؟ قولان للنحويين ، ﴿ قالوا إنا لله ﴾ قالوا : جواب (إذا) والشرط وجوابه صلة للذين ، و (إنا) أصله إنا لأنها إن دخلت على الضمير المنصوب المتصل ، فحذفت نون من إنا ، وينبغي أن تكون المحذوفة هي الثانية لأنها ظرف ولأنها عهد فيها الحذف إذا خفت ، فقالوا : إن زيدا لقائم وهو حذف هنا لاجتماع الأمثال ، فلذلك عملت ، إذ لو كان من الحذف لا لهذه العلة لانفصل الضمير وارتفع ، ولم تعمل لأنها إذا خفت هذا التخفيف لم تعمل في الضمير ، و (لله) معناه الإقرار بالملك والعبودية لله ، فهو المتصرف فينا بما يريد من الأمور ، ﴿ وإنا إليه راجعون ﴾ إقرار بالبعث وتنبية على مصيبة الموت التي هي أعظم المصائب وتذكير أن ما أصاب الإنسان دونها فهو قريب ينبغي أن يصبر له ، وللمفسرين في هاتين الجملتين المقولتين أقوال :

أحدها : أن نفوسنا وأموالنا وأهلينا لله لا يظلمنا فيما يصنعه بنا .

الثاني : أسلمنا الأمر لله ورضينا بقضائه (وإنا إليه راجعون) يعني للبعث لثواب المحسن ومعاقبة المسيء .

الثالث : راجعون إليه في جبر المصائب وإجزال الثواب .

الرابع : أن معناه إقرار بالمملكة في قوله : (إنا لله) وإقرار بالهلكة في قوله : (وإنا إليه راجعون) ، وفي المنتخب ما ملخصه أن إسناد الإصابة إلى المصيبة لا إلى الله تعالى ، ليعم ما كان من الله وما كان من غيره ، فما كان من الله فهو داخل تحت قوله : (إنا لله) لأن في الإقرار بالعبودية تفويضاً للأمر إليه وما كان من غيره فتكليفه أن يرجع إلى الله في الإنصاف منه ، ولا يتعدى كأنه في الأول (إنا لله) يدبر كيف يشاء ، وفي الثاني إنا إليه ينصف لنا كيف يشاء ، وقيل : (إنا لله) دليل على الرضا بما نزل به في الحال ، (وإنا إليه راجعون) دليل على الرضا في الحال بكل ما سينزل به بعد ذلك ، واشتملت الآية على فرض ونفل فالفرض التسليم لأمر الله والرضا بقدره والصبر على أداء فرائضه ، والنفل إظهار القول (إنا لله وإنا إليه راجعون) ، وفي إظهاره فوائد منها غيظ الكفار لعلمهم بجده في طاعة الله ، ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ (أولئك) مبتدأ وصلوات ارتفاعها على الفاعل بالجار والمجرور أي : (أولئك) مستقرة عليهم صلوات ، فيكون قد أخبر عن المبتدأ بالمفرد ، وهذا أولى من جعل صلوات مبتدأ ، والجار والمجرور في موضع خبره ، والجملة في موضع خبر المبتدأ الأول ، لأنه يكون إخباراً عن المبتدأ بالجملة ، والصلاة من الله المغفرة قاله ابن عباس ، أو الشاء قاله ابن كيسان ، أو الغفران والثناء الحسن قاله الزجاج ، والرحمة قيل : هي الصلوات ، كررت تأكيداً لما اختلف اللفظ كقوله رافة ورحمة ، وقيل : الرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة ، وقال عمر : نعم العدلان ونعم العلاوة ، وتلا (الذين إذا أصابتهم) الآية يعني بالعدلين الصلوات والرحمة وبالعلاوة الاهتداء ، وفي قوله : (أولئك) اسم الإشارة الموضوع للبعد دلالة على بعد هذه الرتبة ، كما جاء (أولئك على هدى من ربهم) والكناية عن حصول الغفران والثناء بقوله : (عليهم صلوات) بحرف على إشارة إلى أنهم منغمسون في ذلك قد غشيتهم وتجللتهم ، وهو أبلغ من قوله : لهم ، وجمع صلوات ليدل على أن ذلك ليس مطلق صلاة بل صلاة بعد صلاة ، ونكرت لأنه لا يراد العموم ، ووصفها بكونها من ربهم ليدل بمن على ابتدائها من الله أي تنشأ تلك الصلوات وتبتدىء من الله تعالى ، ويحتمل أن تكون (من) تبعية فيكون ثم حذف مضاف أي صلوات من صلوات ربهم ، وأتى بلفظ الرب لما فيه من دلالة التربية والنظر للعبد فيما يصلحه ويربه به ، وإن كان أريد بالرحمة الصلوات فلا يحتاج إلى تقييد بصفة محذوفة لأنها قد تقيدت ، إن كان أريد بها ما يغير الصلوات فيقدر ورحمة منه ، فيكون قد حذفت الصفة لما تقدم ، ويحتمل أن يكون (من ربهم) متعلقاً بقوله (عليهم) فلا يكون صفة بل يكون معمولاً للرافع لصلوات ، وترتب على مقام الصبر ، ومقال هذه الكلمات الدالة على التفويض لله تعالى هذا الجزاء الجزيل والثناء الجميل ، وقد جاء في السنة أن رسول الله ﷺ قال : من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عقابه ، وجعل له خلفاً صالحاً يرصاه ، وفي حديث آخر : من تذكر مصيبته ، فأحدث استرجاعاً وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب ، وحديث أم سلمة مشهور حيث أخلفها الله عن أبي سلمة رسول الله ﷺ ، وقال ابن جبير : ما أعطي أحد في المصيبة ما أعطيت هذه الأمة ، ولو أعطيتها أحد قبلها لأعطيها يعقوب ، ألا ترى كيف قال حين فقد يوسف : يا أسفى على يوسف ، ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ إخبار من الله عنهم بالهداية ، ومن أخبر الله عنه بالهداية فلن يضل أبداً ، وهذه الجملة ثابتة تدل على الاعتناء بأمر المخبر عنه إذ كل وصف له يبرز في جملة مستقلة ، وبدىء بالجملة

الأولى لأنها أهم في حصول الثواب المترتب على الوصف الذي قبله وأخرت هذه لأنها تنزلت مما قبلها منزلة العلة لأن ذلك القول المترتب عليه ذلك الجزاء الجزيل لا يصدر إلا عمن سبقت هدايته ، وأكد بقوله : (هم) وبالألف واللام كأن الهداية انحصرت فيهم وباسم الفاعل ليدل على الثبوت ، لأن الهداية ليست من الأفعال المتجددة وقتاً بعد وقت فيخبر عنها بالفعل بل هي وصف ثابت ، وقيل : المهتدون في استحقاق الثواب وإجزاء الأجر ، وقيل : إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن ، وقيل : إلى الاسترجاع ، وقيل : إلى الحق والصواب ، وهذه التقييدات لا دلالة عليها في اللفظ فالأولى الحمل على الهداية التي هي الإيمان ، ونظير هاتين الجملتين قوله : (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) ، والكلام في إعراب (هم المهتدون) كالكلام على (هم المفلحون) ، وقد تقدم (وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة) مزيد التوكيد في الأمر بتولية وجهه من حيث خرج ﷺ شطر المسجد ، وبتوليهم وجوههم شطره للاعتناء بأمر نسخ القبلة حيث كان النسخ صعباً على النفوس حيث ألفوا أمراً وأمروا بتركه والانتقال إلى غيره ، وخصيصاً عند من لا يرى النسخ ، فلذلك كرر ، وإنه تعالى أمر بذلك وفعله لا تنفاء حجج الناس ، لأن ذلك إذا كان بأمر منه تعالى لم تبق لأحد حجة على ممثل أمر الله لأن أمر الله ثانياً كأمره أولاً ، وهو قد أمر أولاً باستقبال بيت المقدس وأمر آخراً باستقبال الكعبة فلا فرق بين الأمرين ، ولا حجة لمن خالف واستثنى من الناس من ظلم ، لأنه لا تنقطع حججه وإن كانت باطلة ولا تشغيباته وتمويهاته لأنه قام به وصف يمنعه من إدراك الحق والبلج به ، ثم أمرهم تعالى بخشيته ونهاهم عن خشية الناس لأنهم إذا خشوا الله تعالى امتثلوا أوامره واجتنبوا مناهيه ، وعطف على تلك العلة علة أخرى وهي إتمام النعمة باستقبال الكعبة إذ في ذلك اتباع أبيكم إبراهيم والرجوع إلى المألوف ولتحصيل الهداية ، وشبه هذا الإتمام بإتمام نعمة إرسال الرسول منهم فيهم إذ هذه النعمة هي الأصل وهي منبع النعم والهداية ثم وصف المرسل إليهم بتلك الأوصاف الجليلة التي رزقوا منها الحظ الأكمل وهي تلاوة الكتاب عليهم ، ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ [العنكبوت : ٥١] ، فكيف بمزيد التزكية والتعليم للذين بهما تحصل الطهارة من الأرجاس والحياة السرمدية في الناس :

أَخُو الْعِلْمِ حَيٌّ خَالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالُهُ تَحْتَ الثَّرَابِ رَمِيمٌ

وقال آخر :

مَحَلُّ الْعِلْمِ لَا يَأْوِي ثَرَابًا وَلَا يَبْلَى عَلَى الزَّمَنِ الْقَدِيمِ

ثم أمرهم تعالى بالذكر لهذه النعم لئلا ينسوها ، وبالشكر عليها لأن يزيدهم من النعم ، ثم نهاهم عن كفرانها لأن كفران النعم يقتضي زوالها واستحقاق العذاب الشديد عليه ، ثم نادى من اتصف بالإيمان وهو ثاني نداء للمؤمنين في هذه السورة ليقبلوا على ما يأمرهم به ، فأمرهم بالاستعانة بالصبر والصلاة لأن الاستعانة بهما تحصل سعادة الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى إلى أنه مع من صبر ثم نهاهم عن أن يقولوا للشهداء : إنهم أموات ، وأخبر أنهم أحياء فوجب تصديق ما أخبر به ، وذكر أنا لا نشعر نحن بحياتهم ، ثم أخبر تعالى أنه يبتليهم بما يظهر منهم فيه الصبر وهو شيء من البلايا التي ذكرها تعالى ثم أمر نبيه أن يبشر الصابرين على ما ابتلوا به المسلمون لقضاء الله اعتقاداً وقولاً صريحاً أنهم عبيد الله ومماليكه ، وإليه مآبهم ومرجعهم يتصرف فيهم كما أراد ، ثم ختم ذلك بأن من اتصف بهذا الوصف فعليه من الله الصلاة والرحمة وهو المهتدي الذي ثبتت هدايته ورسخت

﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاللَّهُمُّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا نَورًا وَالْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴿

الصَّفاً ألفه منقلبه عن واو لقولهم صفوان ولاشتقاقه من الصفو وهو الخالص ، وقيل : هو اسم جنس بينه وبين مفردة تاء التانيث ، ومفردة : صفاة ، وقيل : هو اسم مفرد يجمع على فصول وأفعال ، قالوا : صَفِيٌّ وَأَصْفَاءٌ مثل قَفِيٍّ وَأَقْفَاءٌ ، وتضم الصاد في فُصول وتكسر كعصي ، وهو الحجر الأملس ، وقيل : الحجر الذي لا يخالطه غيره من طين أو تراب يتصل به ، وهو الذي يدل عليه الاشتقاق ، وقيل : هو الصخرة العظيمة ، المَرْوَةُ : واحدة المَرْو وهو اسم جنس قال :

فَتَرَى الْمَرْوَ إِذَا مَا هَجَرَتْ عَنْ يَدَيْهَا كَالْفَرَاشِ الْمُسْفَرِّ

وقالوا : مروات في جمع مروة ، وهو القياس في جمع تصحيح مروة^(١) وهي الحجارة الصغار التي فيها لين ، وقيل : الحجارة الصلبة ، وقيل : الصغار المرهفة الأطراف ، وقيل : الحجارة السود ، وقيل : البيض ، وقيل : البيض الصلبة ، والصفاء والمروة في الآية علمان لجبلين معروفين ، والألف واللام لزمتهما فيهما للغلبة كهما في البيت

للكعبة والنجم للثريا ، الشعائر^(١) : جمع شعيرة أو شعارة ، قال الهروي : سمعت الأزهرى يقول : هي العلائم التي ندب الله إليها ، وأمر بالقيام بها ، وقال الزجاج : كل ما كان من موقف ومشهد ومسعى ومذبح ، وقد تقدّمت لنا هذه المادة أعني مادة شعر أي أدرك وعلم ، وتقول العرب : بيتنا شعار أي علامة ، ومنه ، إشعار الهدي ، الحج القصدة مرة بعد أخرى ، قال الراجز :

لَرَاهَبٌ يَحُجُّ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي مَنْقَلٍ وَبُرْجِدٍ وَبُرْنَسٍ

والاعتماد^(٢) الزيارة ، وقيل : القصدة ثم صار الحج والعمرة علمين لقصدة البيت وزيارته للنسكين المعروفين ، وهما في المعاني كالبيت والنجم في الأعيان ، وقد تقدّمت هاتان المادّتان في يحاجوكم وفي يعمر ، الجناح : الميل إلى المأثم ثم أطلق على الإثم ، يقال : جنح إلى كذا جنوحاً مال ، ومنه جنح الليل ميله بظلمته وجناح الطائر ، تطوّع^(٣) تفعل من الطوع وهو الانقياد ، الليل : قيل هو اسم جنس مثل ثمرة وتمر ، والصحيح أنه مفرد ولا يحفظ جمعاً لليل ، وأخطأ من ظنّ أن الليالي جمع الليل بل الليالي جمع ليلة ، وهو جمع غريب ، ونظيره كيكة والكيكي والكيكة : البيضة كأنهم توهّموا أنهما ليلة وكيكة ، ويدل على هذا التوهم قولهم في تصغير ليلة : ليليلة ، وقد صرحوا بليلة في الشعر ، قال الشاعر :

فِي كُلِّ يَوْمٍ وَبِكُلِّ لَيْلَةٍ

على أنه يحتمل أن تكون هذه الألف إشباعاً نحو :

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعُقْرَابِ^(٤)

وقال ابن فارس : بعض الطير يسمى ليلاً ، ويقال : إنه ولد الحباري ، وأما النهار فجمعه نهر وأنهره كقذل وأقذلة ، وهما جمعان مقيسان فيه ، وقيل : النهار مفرد لا يجمع لأنه بمنزلة المصدر ، كقولك : الضياء يقع على القليل والكثير ، وليس بصحيح ، قال الشاعر :

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٦/١) ، وابن حبان أورده الهيثمي في الموارد (١٦١١) ، والطبراني في الكبير (٤٠٥/١٠) ، وابن أبي شيبه (٢٩٠/٥) ، والطبري في التفسير (٣٤/٢) ، (١١٣/٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٥٠٢/٣) ، في كتاب الإمارة (١٨٨٧/١٢١) ، وأخرجه الطبراني في الكبير (٦٦/١٩) .

(٣) جاحهم الله جَبَّحاً وجائحة : دهاهم ، مصدر كالعاقبة - لسان العرب (٧٣٧/١) .

(٤) المرو : حجارة بيض براقّة تكون فيها النار وتقدح منها النار . . . واحدتها مروة وبها سميت المروة بمكة ، شرفها الله تعالى - لسان العرب (٤١٨٨/٦) .

(٥) يقال : شعائر الحج مناسكه واحدتها شعيرة . . . لسان العرب (٢٢٧٧/٤) .

(٦) العمرة : طاعة الله عزّ وجلّ ، العمرة في الحج معروفة ، وقد اعتمر ، وأصله من الزيارة والجمع العمر ، وقال كراع : الاعتماد : العمرة ، سماها بالمصدر .

(٧) يقال : تطوّع للشيء وتطوّعه : كلاهما حاوله - لسان العرب (٢٧٢٠/٤) .

(٨) البيت من مشطور السريع شرح شواهد المغني (٧٩٩) .

لَوْلَا الثَّرِيدَانِ هَلَكْنَا بِالضَّمَرِ نَرِيدُ لَيْلٍ وَنَرِيدُ بِالنَّهْرِ^(١)

ويقال : رجل نهر إذا كان يعمل في النهار ، وفيه معنى النسب ، قالوا : والنهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، يدل على ذلك قوله ﷺ لعدي : إنما هو بياض النهار وسواد الليل ، يعني في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ وظاهر اللغة أنه من وقت الإسفار ، وقال النضر بن شميل : ويغلب أول النهار طلوع الشمس زاد النضر ولا يعد ما قبل ذلك من النهار ، وقال الزجاج : في كتاب « الأنواء » : أول النهار ذرور الشمس ، واستدل بقول أمية بن أبي الصلت :

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ حَمْرَاءَ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ

وقال عدي بن زيد :

وَجَاعِلُ الشَّمْسِ مِضْرًا لَا خَفَاءَ بِهِ بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ قَدْ فَصَّلَا

والمصر : القطع ، وأنشد الكسائي :

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا أَمَارَةٌ تَسْلِيْمِي عَلَيْكَ فَوَدَّعِي

وقال ابن الأباري : من طلوع الشمس إلى غروبها نهار ، ومن الفجر إلى طلوعها مشترك بين الليل والنهار ، وقد تقدمت مادة نهر في قوله : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ ، الفلك : السفن ويكون مفرداً وجمعاً ، وزعموا أن حركاته في الجمع ليست حركاته في المفرد ، وإذا استعمل مفرداً ثني قالوا : فلكان ، وقيل : إذا أريد به الجمع فهو اسم جمع ، والذي نذهب إليه أنه لفظ مشترك بين المفرد والجمع ، وأن حركاته في الجمع حركاته في المفرد ، ولا تقدر بغيرها ، وإذا كان مفرداً فهو مذكر كما قال : ﴿ في الفلك المشحون ﴾ [الشعراء : ١١٩] ، وقالوا ويؤنث تأنيث المفرد ، قال : ﴿ والفلك التي تجري ﴾ ولا حجة في هذا إذ يكون هنا استعمل جمعاً فهو من تأنيث الجمع ، والجمع يوصف بالتالي كما توصف به المؤنثة ، وقيل : واحد الفلك فلك كأسد وأسد ، وأصله من الدوران ، ومنه فلك السماء الذي تدور فيه النجوم وفلكة المغزل وفلكة الجارية استدرار نهدها ، بث : نشر وفرق وأظهر ، قال الشاعر :

وَفِي الْأَرْضِ مَبْثُوثًا شُجَاعٌ وَعَقْرَبُ

ومضارعه يث على القياس في كل ثلاثي مضعف متعد أنه يفعل إلا ما شذ ، الدابة : اسم لكل حيوان ، ورد قول من أخرج منه الطير بقول علقمة :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ

وبقول الأعشى :

دبيب قطا البطحاء في كل منهل

(١) البيت من الرجز لم يعلم قائله ، انظر اللسان (نهر) ، وروايته (لولا الثريدان لمتنا) .

وفعله : دب يدب ، وهذا قياسه لأنه لازم ، وسمع فيه يدب بضم عين الكلمة ، والهاء في الدابة للتأنيث إما على معنى نفس دابة ، وإما للمبالغة لكثرة وقوع هذا الفعل ، وتطلق على الذكر والأنثى ، التصريف : مصدر صرف ، ومعناه راجع للصرف وهو الرد صرفت زيدا عن كذا رددته ، الرياح : جمع ريح جمع تكسير وياؤه واو لأنها من راح يروح ، وقلبت ياء لكسرة ما قبلها ، وحين زال موجب القلب وهو الكسر ظهرت الواو ، قالوا : أرواح كجمع الروح ، قال الشاعر :

أَرَيْتُ بِهَا الْأَرْوَاحَ كُلَّ عَشِيَّةٍ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا آلُ نُؤْيٍ مُنْضِدٍ^(١)

قال ابن عطية : وقد لحن في هذه اللفظة عمارة بن عقيل^(٢) بن بلال بن جرير ، فاستعمل الأرياح في شعره ، ولحن في ذلك ، وقال أبو حاتم : إن الأرياح لا يجوز ، فقال له عمارة : ألا تسمع قولهم : رياح ؟ فقال له أبو حاتم : هذا خلاف ذلك ، فقال له : صدقت ورجع ، انتهى ، وفي محفوظي قديماً أن الأرياح جاءت في شعر بعض فصحاء العرب الذين يستشهد بكلامهم ، كأنهم بنوه على المفرد ، وإن كانت علة القلب مفقودة في الجمع كما قالوا : عيد وأعياد ، وإنما ذلك من العود لكنه لما لزم البدل جعله كالحرف الأصلي ، السحاب : اسم جنس المفرد سحابة ، سمي بذلك لأنه ينسحب كما يقال له حبي لأنه يحبوا قاله أبو علي ، التسخير : هو التذليل وجعل الشيء داخلًا تحت الطوع ، قال الراغب : التسخير القهر على الفعل ، وهو أبلغ من الإكراه ، الحب : مصدر حب يحب ، وقياس مضارعه يحب بالضم ، لأنه من المضاعف المتعدي ، وقياس المصدر الحب بفتح الحاء ، ويقال : أحب بمعنى حب وهو أكثر منه ومحبوب أكثر من محب ومحب أكثر من حاب ، وقد جاء جمع الحب لاختلاف أنواعه ، قال الشاعر :

ثَلَاثَةُ أَحْبَابٍ فَحُبُّ عَلاقَةٍ وَحُبُّ تِمْلَاقٍ وَحُبُّ هُوَ الْقَتْلُ^(٣)

والحب إناء يجعل فيه الماء ، الجميع فعيل من الجمع وكأنه اسم جمع فلذلك يتبع تارة بالمفرد ﴿ نحن جميع منتصر ﴾ [القمر : ٤٤] ، وتارة بالجمع ﴿ جميع لدينا محضرون ﴾ [يس : ٥٣] ، وينتصب حاء ، جاء زيد وعمر وجميعاً ، ويؤكد به بمعنى : كلهم ، جاء القوم جميعهم أي كلهم ، ولا يدل على الاجتماع في الزمان ، إنما يدل على الشمول في نسبة الفعل ، تبرأ : تفعل من قولهم : برئت من الدين براءة ، وهو الخلو والافتصال والبعد ، تقطع : تفعل من القطع وهو معروف ، الأسباب : جمع سبب وهو الوصلة إلى الموضع والحاجة من باب أو مودة أو غير ذلك ، قيل : وقد تطلق الأسباب على الحوادث ، قال الشاعر :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمِنيَّةِ يَلْقَها وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ يَسْلَمُ

وأصل السبب : الحبل ، وقيل : الذي يصعد به ، وقيل : الرابط الموصل ، الكرة العودة إلى الحالة التي كان فيها والفعل كريكركراً ، قال الشاعر :

(١) البيت من الطويل لزهير بن سلمى ، انظر ديوانه ص (٢١٩) .
(٢) عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية الكلبي اليربوعي التميمي شاعر مقدم فصيح من أهل اليمامة توفي سنة ٢٣٩ هجرية - تاريخ بغداد (٢٨٢/١٢) ، الأعلام (٣٧/٥) .
(٣) البيت من الطويل لابن الأعرابي ، انظر شرح ديوان الحماسة للتبريزي (١٢٦/٣) ، مجالس ثعلب ص (٢٣) ، لسان العرب م (ملق) ، المفصل (٤٨/٦) .

أَكْرَ عَلَى الْكَتِيبَةِ لَا أَبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

الحسرة : شدة الندم وهو تألم القلب بانحساره عن مأموله ، ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ سبب النزول أن الأنصار كانوا يحجون لمناة ، وكانت مئة خزفاً وحديداً ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا فأنزلت ، وخرج هذا السبب في الصحيحين وغيرهما ، وقد ذكر في التخرج عن الطواف بينهما أقوال (ومناسبة هذه الآية لما قبلها) أن الله تعالى لما أثنى على الصابرين وكان الحج من الأعمال الشاقة المفنية للمال والبدن ، وكان أحد أركان الإسلام ناسب ذكره بعد ذلك ، والصفا والمروة كما ذكرنا قيل : علمان لهذين الجبلين ، والأعلام لا يلحظ فيها تذكير اللفظ ولا تأنيثه ، ألا ترى إلى قولهم : طلحة وهند ، وقد نقلوا أن قوماً قالوا : ذكر الصفا لأن آدم وقف عليه ، وأنت المروة لأن حواء وقفت عليها ، وقال الشعبي : كان على الصفا صنم يدعى إسافاً وعلى المروة صنم يدعى نائلة ، فاطرد ذلك في التذكير والتأنيث ، وقدم المذكر ، نقل القولين ابن عطية ، ولولا أن ذلك دون في كتاب ما ذكرته ، لبعض الصوفية وبعض أهل البيت كلام منقول عنهم في الصفا والمروة رغبتا عن ذكره ، وليس الجبلان لذاتهما من شعائر الله بل ذلك على حذف مضاف أي إن طواف الصفا والمروة ، ومعنى (من شعائر الله) معالمه وإذا قلنا : معنى (من شعائر الله) من مواضع عبادته فلا يحتاج إلى حذف مضاف في الأول بل يكون ذلك في الجبر ، ولما كان الطواف بينهما ليس عبادة مستقلة إنما يكون عبادة إذا كان بعض حج أو عمرة بين تعالى ذلك بقوله ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر ﴾ و (من) شرطية ﴿ فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قرأ الجمهور أن يطوف ، وقرأ أنس وابن عباس وابن سيرين وشهر (أن لا) وكذلك هي في مصحف أبي وعبد الله ، وخرج ذلك على زيادة لا نحو ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] ، وقوله :

وَمَا أَلُومُ الْبَيْضَ أَنْ لَا تَسْخَرَا إِذَا رَأَيْنَ الشَّمْطَ الْقَفْنَدَارَا

فتتحد معنى القراءتين ، ولا يلزم ذلك لأن رفع الجناح في فعل الشيء هو رفع في تركه إذ هو تخيير بين الفعل والترك نحو قوله تعالى (فلا جناح عليهما) أن يتراجعا ، فعلى هذا تكون (لا) على بابها للنفي ، وتكون قراءة الجمهور فيها رفع الجناح في فعل الطواف نصاً ، وفي هذه رفع الجناح في الترك نصاً ، وكلتا القراءتين تدل على التخيير بين الفعل والترك ، فليس الطواف بهما واجباً ، وهو مروى عن ابن عباس وأنس وابن الزبير وعطاء ومجاهد وأحمد بن حنبل فيما نقل عنه أبو طالب ، وأنه لا شيء على من تركه عمداً كان أو سهواً ، ولا ينبغي أن يتركه ، ومن ذهب إلى أنه ركن كالشافعي وأحمد ومالك في مشهور مذهبه ، أو واجب يجبر بالدم كالثوري وأبي حنيفة أو إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم أو ثلاثة فأقل فعليه لكل شوط إطعام مسكين ، كأبي حنيفة في بعض الروايات يحتاج إلى نص جلي ينسخ هذا النص القرآني ، وقول عائشة لعروة حين قال لها : رأيت قول الله (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) فما نرى على أحد شيئاً فقالت : يا عerie ، كلا لو كان كذلك لقال فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، كلام لا يخرج اللفظ عما دل عليه من رفع الإثم عن طاف بهما ، ولا يدل ذلك على وجوب الطواف لأن مدلول اللفظ إباحة الفعل ، وإذا كان مباحاً كنت مخيراً بين فعله وتركه ، وظاهر هذا الطواف أن يكون بالصفا والمروة فمن سعى بينهما من غير صعود عليهما لم يعد طائفاً ، ودلت الآية على مطلق الطواف لا على كيفية ولا عدد ، واتفق علماء الأمصار على أن الرمل في السعي سنة ، وروى عطاء عن ابن عباس : من شاء سعى بمسيل مكة ، ومن شاء لم يسع ، وإنما يعني الرمل في بطن الوادي ، وكان عمر يمشي بين الصفا والمروة ، وقال : إن مشيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يمشي ، وإن سعيت فقد رأيت

رسول الله ﷺ^(١) يسعى ، وسعى رسول الله ﷺ بينهما ليري المشركين قوته ، فيحتمل أن يزول الحكم بزوال سببه ، ويحتمل مشروعيته دائماً وإن زال السبب ، والركوب في السعي بينهما مكروه عند أبي حنيفة وأصحابه ، ولا يجوز عند مالك الركوب في السعي ولا في الطواف بالبيت إلا من عذر ، وعليه إذا ذاك دم ، وإن طاف راكباً بغير عذر أعاد إن كان بحضرة البيت ، وإلا أهدى ، وشكت أم سلمة إلى رسول الله ﷺ ، فقال : طوفي من وراء^(٢) الناس وأنت راكبة ، ولم يجيء في هذا الحديث أنه أمرها بدم ، وفرق بعض أهل العلم ، فقال : إن طاف على ظهر بغير أجزأه ، أو على ظهر إنسان لم يجزه ، وكون الضمير مثني في قوله : (بهما) لا يدل على البداءة بالصفاء بل الظاهر أنه لو بدأ بالمرورة في السعي أجزأه ، ومشروعية السعي على قول كافة العلماء البداءة بالصفاء ، فإن بدأ بالمرورة فمذهب مالك ومشهور مذهب أبي حنيفة أنه يلغي ذلك الشوط ، فإن لم يفعل لم يجزه ، وروي عن أبي حنيفة أيضاً إن لم يلغ فلا شيء عليه ، نزله بمنزلة الترتيب في أعضاء الوضوء ، وقرأ الجمهور (يَطُوف) وأصله يتطوف ، وفي الماضي كان أصله تَطَوَّف ثم أدغم التاء في الطاء فاحتاج إلى اجتلاب همزة الوصل ، لأن المدغم في الشيء لا بد من تسكينه ، فصار أطوف ، وجاء مضارعه يَطُوف فأنحذفت همزة الوصل لتحسين الحرف المدغم بحرف المضارعة ، وقرأ أبو حمزة : (أن يَطُوفَ بهما) من طاف يطوف وهي قراءة ظاهرة ، وقرأ ابن عباس وأبو السمال : (يُطَافُ بهما) وأصله يططوف يفتعل ، وماضيه اَطْطَوَفَ افتعل تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً وأدغمت الطاء في التاء بعد قلب طاء كما قلبوا في اطلب فهو مطلب ، فصار أطاف ، وجاء مضارعه يطاف كما جاء يطلب ومصدر اطوف اطوفاً ، ومصدر اطاف اطيافاً ، عادت الواو إلى أصلها لأن موجب إعلالها قد زال ثم قلبت ياء لكسرة ما قبلها كما قالوا : اعتاد اعتياداً ، وأن يطوف أصله في أن يطوف أي لا إثم عليه في الطواف بهما ، فحذف الحرف مع أن ، وحذفه قياس معها إذا لم يلبس وفيه الخلاف السابق ، أموضعها بعد الحذف جر أم نصب ؟ ، وجوز بعض من لا يحسن علم النحو أن يكون (أن يطوف) في موضع رفع على أن يكون خبراً أيضاً ، قال التقدير : فلا جناح الطواف بهما ، وأن يكون في موضع نصب على الحال ، والتقدير : فلا جناح عليه في حال تطوفه بهما ، قال : والعامل في الحال العامل في الجروهي حال من الهاء في عليه ، وهذان القولان ساقطان ، ولولا تسطيرهما في بعض كتب التفسير لما ذكرتهما ، ﴿ ومن تطوع خيراً ﴾ التطوع : ما تترغب به من ذات نفسك مما لا يجب عليك ، ألا ترى إلى قوله في حديث ضمام : هل عليّ غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع أي : تتبرع ، هذا هو الظاهر فيكون المراد التبرع بأي فعل طاعة كان ، وهو قول الحسن ، أو بالنفل على واجب الطواف قاله مجاهد ، أو بالعمرة قاله ابن زيد ، أو بالحج والعمرة بعد قضاء الواجب عليه ، أو بالسعي بين الصفا والمروة ، وهذا قول من أسقط وجوب السعي لما فهم الإباحة في التطوف بهما من قوله : (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) حمل هذا على الطواف بهما كأنه قيل : ومن تبرع بالطواف بينهما أو بالسعي في الحجة الثانية التي هي غير واجبة أقوال ستة ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر : (تطوع) فعلاً ماضياً هنا ، وفي قوله : (فمن تطوع خيراً فهو خير له) فيحتمل من أن يكون بمعنى الذي ، ويحتمل أن تكون شرطية ، وقرأ حمزة والكسائي : (يطوع) مضارعاً مجزوماً بمن الشرطية ، وافقهما زيد ورويس في الأول منهما ، وانتصاب خيراً على المفعول بعد إسقاط حرف الجر أي بخير ، وهي قراءة ابن مسعود قرأ : (يتطوع بخير) ويطوع أصله : يتطوع كقراءة عبد الله فادغم ، وأجازوا جعل خيراً نعتاً لمصدر محذوف أي : ومن يتطوع تطوعاً خيراً ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ هذه الجملة جواب الشرط ، وإذا كانت (من) موصولة

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧/٣) ، في الحج ، باب من طاف بالبيت إذا قدم مكة (١٦١٧) ، ومسلم (٩٢٠/٢) ، (١٢٦١/٢٣٠) .

(٢) أخرجه البخاري ، طبعة دار الفكر (١٢٥/١) ، (١٨٨/٢) ، (١٩٠) ، (١٧٥/٦) ، ومسلم في الحج رقم (٢٥٨) ، وأبو داود

(١٨٨٢) ، والنسائي في المجتبى (٢٢٣/٥) ، وابن خزيمة (٥٢٣) ، (٢٧٧٦) ، وأحمد (٣١٩/٦) .

في احتمال أحد وجهي من في قراءة من قرأ تطوَّع فعلاً ماضياً ، فهي جملة في موضع خبر المبتدأ ، لأن تطوَّع إذ ذاك تكون صلة ، وشكر الله العبد بأحد معنيين إما بالثواب وإما بالثناء ، وعلمه هنا هو علمه بقدر الجزاء الذي للعبد على فعل الطاعة أو بنيته وإخلاصه في العمل ، وقد وقعت الصفتان هنا الموقع الحسن ، لأن التطوَّع بالخير يتضمن الفعل والقصد فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل وذكر العلم باعتبار القصد ، وأخرت صفة العلم وإن كانت متقدمة على الشكر كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخي رؤوس الآي ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ الآية نزلت في أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر النبي ﷺ ، وذكر ابن عباس أن معاذاً سأل اليهود عما في التوراة من ذكر النبي ﷺ فكتُموه إياه ، فأنزل الله هذه الآية ، والكاظمون هم أحرار اليهود وعلماء النصارى وعليه أكثر المفسرين ، وأحبار اليهود : « كعب بن الأشرف » و « كعب بن أسد » و « ابن صوريا » و « زيد بن النابوه » ، (ما أنزلنا) فيه خروج من ظاهر إلى ضمير متكلم ، و (البينات) هي الحجج الدالة على نبوته ﷺ ، و (الهدى) الأمر باتباعه أو البينات والهدى واحد ، والجمع بينهما تأكيد ، وهو ما أبان عن نبوته وهدى إلى اتباعه ، أو البينات الرجم والحدود وسائر الأحكام والهدى أمر محمد ﷺ ونعته واتباعه ، وتتعلق (من) بمحذوف لأنه في موضع الحال أي كائنات من البينات والهدى ﴿ من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ﴾ الضمير المنصوب في بيانه عائد على الموصول الذي هو (ما أنزلنا) وضمير الصلة محذوف أي ما أنزلناه ، وقرأ الجمهور بيَّناه مطابقة لقوله : أنزلنا ، وقرأ « طلحة بن مصرف » (بينه) جعله ضمير مفرد غائب وهو التفات من ضمير متكلم إلى ضمير غائب ، و (الناس) هنا أهل الكتاب ، و (الكتاب) التوراة والإنجيل ، وقيل : الناس أمة محمد ﷺ والكتاب القرآن والأولى والأظهر عموم الآية في الكاتمين وفي الناس وفي الكتاب ، وإن نزلت على سبب خاص فهي تتناول كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثه ونشره ، وذلك مفسر في قوله ﷺ : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار ، وذلك إذا كان لا يخاف على نفسه في بثه ، وقد فهم الصحابة من هذه الآية العموم وهم العرب الفصح المرجوع إليهم في فهم القرآن ، كما روي عن عثمان وأبي هريرة وغيرهما : لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم ، وقد امتنع أبو هريرة من تحديثه ببعض ما يخاف منه ، فقال : لو بثته لقطع هذا البلعوم ، وظاهر الآية استحقاق اللعنة على من كتم ما أنزل الله وإن لم يسأل عنه بل يجب التعليم والتبيين وإن لم يسألوا (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتُمونه) ، وقال الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم^(١) القرطبي فيما سمع منه أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي^(٢) : الحظ لمن آثر العلم ، وعرف فضله أن يستعمله جهده ، ويقرئه بقدر طاقته ، ويحققه ما أمكنه بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ، ويدعو إليه في شوارع السابلة ، وينادي عليه في مجامع السيارة بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ، ويجري الأجور لمقتبسيه ، ويعظم الأفعال للباحثين عنه ويسني مراتب أهله صابراً في ذلك على المشقة والأذى لكان ذلك حظاً جزيلاً وعملاً جيداً وسعداً كريماً وإحياء للعلم ، وإلا فقد درس وطمس ولم يبق منه إلا آثار لطيفة وأعلام دائرة ، انتهى كلامه ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ هذه الجملة خبر إن ، واستحقوا هذا الأمر الفظيع من لعنة الله ولعنة اللاعنين على هذا الذنب العظيم وهو كتمان ما أنزل الله تعالى ، وقد بينه وأوضحه للناس بحيث لا يقع فيه لبس ، فعمدوا إلى هذا الواضح البين فكتُموه ، فاستحقوا بذلك هذا العقاب ، وجاء بـ (أولئك) اسم الإشارة البعيد تنبيهاً على ذلك الوصف القبيح ، وأبرز

(١) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، أبو محمد عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام توفي سنة ٤٥٦ هجرية - انظر نفع الطيب (١/٣٦٤) ، إرشاد الأريب (٥/٨٦) ، الأعلام (٤/٢٥٤ - ٢٥٥) .

(٢) محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي أبو عبد الله بن أبي نصر ، مؤرخ محدث أندلسي توفي سنة ٤٨٨ هجرية - نفع الطيب (١/٣٨١) ، بغية الملتبس (١١٣) ، الأعلام (٦/٣٢٧ - ٣٢٨) .

الخبر ، في صورة جملتين تأكيداً وتعظيماً ، وأتى بالفعل المضارع المقتضي التجدد لتجدد مقتضيه ، وهو قوله تعالى : (إن الذين يكتُمون) ولذلك أتى صلة الذين فعلاً مضارعاً ، ليدل أيضاً على التجدد لأن بقاءهم على الكتمان هو تجدد كتمان ، وجاء بالجملة المسند فيها الفعل إلى الله لأنه هو المجازي على ما اجتروحه من الذنب ، وجاءت الجملة الثانية لأن لعنة اللاعنين مرتبة على لعنة الله للكافرين ، وأبرز اسم الجلالة بلفظ الله على سبيل الالتفات إذ لو جرى على نسق الكلام السابق لكان أولئك يلعنهم لكن في إظهار هذا الاسم من الفخامة ما لا يكون في الضمير ، واللاعنون : كل من يتأتى منهم اللعن وهم الملائكة ومؤمنو الثقلين قاله « الربيع بن أنس » ، أو كل شيء من حيوان وجماد غير الثقلين قاله ابن عباس والبراء بن عازب ، وإذا وضع في قبره وعذب فصاح إذ يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، أو البهائم والحشرات قاله مجاهد وعكرمة ، وذلك لما يصيبهم من الجذب بذنوب علماء السوء الكافرين ، أو الطاردون لهم إلى النار حين يسوقونهم إليها لأن اللعن هو الطرد ، أو الملائكة قاله قتادة ، أو المتلاعنون إذا لم يستحق أحد منهم اللعن انصرف إلى اليهود قاله ابن مسعود ، والأظهر القول الأول^(١) ، ومن أطلق اللاعنون على ما لا يعقل أجراه مجرى ما يعقل إذ صدرت منه اللعنة وهي من فعل من يعقل وذلك لجمعه بالواو والنون وفي قوله : (ويلعنهم اللاعنون) ضرب من البديع وهو التجنيس المغاير وهو أن يكون إحدى الكلمتين اسماً والأخرى فعلاً ، ﴿ إلا الذين تابوا ﴾ هذا استثناء متصل ، ومعنى تابوا عن الكفر إلى الإسلام أو عن الكتمان إلى الإظهار ﴿ وأصلحوا ﴾ ما أفسدوا من قلوبهم بمخالطة الكفر لها أو ما أفسدوا من أحوالهم مع الله وأصلحوا قومهم بالإرشاد إلى الإسلام بعد الإضلال ، ﴿ وبينوا ﴾ أي الحق الذي كتموه ، أو صدق توبتهم بكسر الخمر وإراقتها ، أو ما في التوراة والإنجيل من صفة محمد ﷺ ، أو اعترفوا بتلييسهم وزورهم ، أو ما أحدثوا من توبتهم ليمحوا سيئة الكفر عنهم ويعرفوا بضد ما كانوا يعرفون به ، ويقتدي بهم غيرهم من المفسدين ﴿ فأولئك ﴾ إشارة إلى من جمع هذه الأوصاف من التوبة والإصلاح والتبيين ، ﴿ أتوب عليهم ﴾ أي أعطف عليهم ، ومن تاب الله عليه لا تلحقه لعنة ، ﴿ وأنا التواب رحيم ﴾ تقدم الكلام في هاتين الصفتين ، وختم بهما ترغيباً في التوبة وإشعاراً بأن هاتين الصفتين هما له ، فمن رجع إليه عطف عليه ورحمه ، وذكرنا في هذه الآية من الأحكام جملة ، منها أن كتمان العلم حرام يعنون علم الشريعة لقوله : (ما أنزلنا من البينات) وبشرط أن يكون المعلم لا يخشى على نفسه ، وأن يكون متعيناً لذلك فإن لم يكن من أمور الشرائع فلا تخرج في كتمانها ، روي عن عبد الله أنه قال : ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، وروي عنه ﷺ أنه قال : حدث الناس بما يفهمون^(٢) ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ ، قالوا : والمنصوص عليه من الشرائع والمستنبط منه في الحكم سواء ، وإن خشي على نفسه فلا يخرج عليه كما فعل أبو هريرة ، وإن لم يتعين عليه فكذلك ما لم يسأل فيتعين عليه ، ومنها تحريم الأجرة على تعليم العلم ، وقد أجازها بعض العلماء ، ومنها أن الكافر لا يجوز تعليمه القرآن حتى يسلم ، ولا تعليم الخصم حجة على خصمه ليقطع بها ماله ولا السلطان تأويلاً يتطرق به إلى مكاره الرعية ، ولا تعليم الرخص إذا علم أنها تجعل طريقاً إلى ارتكاب المحظورات وترك الواجبات ، ومنها وجوب قبول خبر الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب عليهم قبول قوله لأن قوله : (من البينات والهدى) يعم المنصوص والمستنبط ، وجواز لعن من مات كافراً ، وقال بعض السلف : لا فائدة في لعن من مات أو جن من الكفار ، وجمهور العلماء على جواز لعن الكفار جملة من غير تعيين ، وقال بعضهم بوجوبها ، وأما الكافر المعين فجمهور العلماء على أنه لا يجوز لعنه ، وقد لعن رسول الله ﷺ قوماً بأعيانهم ، وقال ابن العربي : الصحيح عندي جواز لعنه ، وذكر ابن العربي الاتفاق على أنه لا يجوز لعن العاصي والمتجاهر بالكبائر من

(١) انظر ما يتعلق بهذه الآثار في تفسير الطبري (٣/ ٢٥٦) ، معالم التنزيل (١/ ١٣٣) ، ابن كثير (١/ ٢٠٠) ، الدر المنثور (١٦٢/١) .

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٧٢) ، في كتاب العلم (٤٩) .

المسلمين ، وذكر بعض العلماء فيه خلافاً وبعضهم تفصيلاً ، فأجازه قبل إقامة الحدّ عليه ، ومنها أن التوبة المعتمدة شرعاً أن يظهر التائب خلاف ما كان عليه في الأول ، فإن كان مرتداً فبالرجوع إلى الإسلام وإظهار شرائعه ، أو عاصياً فبالرجوع إلى العمل الصالح ومجانبة أهل الفساد ، وأما التوبة باللسان فقط أو عن ذنب واحد فليس ذلك بتوبة ، وقد تقدم الكلام في التوبة مشبعاً ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله ﴾ لما ذكر حال من كتم العلم وحال من تاب ذكر حال من مات مصراً على الكفر ، وبالع في اللعنة بأن جعلها مستعلية عليه وقد تجللت غشيتها فهو تحتها وهي عامة في كل من كان كذلك ، وقال أبو مسلم : هي مختصة بالذين يكتُمون ما أنزل الله في الآية قبل ، وذلك أنه ذكر حال الكاتمين ثم ذكر حال التائبين ثم ذكر حال من مات من غير توبة منهم ، ولأنه لما ذكر أن الكاتمين ملعونون في الدنيا حال الحياة ، ذكر أنهم ملعونون أيضاً بعد الممات ، والجملة من قوله : (وهم كفار) جملة حالية ، وواو الحال في مثل هذه الجملة إثباتها أفصح من حذفها خلافاً لمن جعل حذفها شاذاً ، وهو الفراء ، وتبعه الزمخشري^(١) ، وبيان ذلك في علم النحو ، والجملة من قوله : (عليهم لعنة الله) خبر إن ، و (لعنة الله) مبتدأ خبره (عليهم) والجملة من قوله : (عليهم لعنة الله) خبر عن أولئك ، والأحسن أن يكون لعنة فاعلاً بالمجرور قبله لأنه قد اعتمد بكونه خبراً لذي خبر فيرفع ما بعده على الفاعلية ، فتكون قد أخبرت عن (أولئك) بمفرد بخلاف الإعراب الأول ، فإنك أخبرت عنه بجملة وقرأ الجمهور ﴿ والملائكة والناس أجمعين ﴾ بالجر عطفاً على اسم الله ، وقرأ الحسن : (والملائكة والناس أجمعون) بالرفع ، وخرج هذه القراءة جميع من وقفنا على كلامه من المعربين والمفسرين على أنه معطوف على موضع اسم الله ، لأنه عندهم في موضع رفع على المصدر ، وقدره أن لعنهم الله أو أن يلعنهم الله ، وهذا الذي جوزوه ليس بجائز على ما تقرر في العطف على الموضع من أن شرطه أن يكون ثم طالب ومحرز للموضع لا يتغير ، هذا إذا سلمنا أن لعنة هنا من المصادر التي تعمل ، وأنه ينحل لـ (أن) والفعل ، والذي يظهر أن هذا المصدر لا ينحل لـ (أن) والفعل لأنه لا يراد به العلاج ، وكان المعنى أن عليهم اللعنة المستقرة من الله على الكفار ، أضيف إلى الله على سبيل التخصيص لا على سبيل الحدوث ، ونظير ذلك ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ [هود : ١٨] ، ليس المعنى ألا أن يلعن الله على الظالمين ، وقولهم : له ذكاء الحكماء ليس المعنى هنا على الحدوث ، وتقدير المصدرين منحلين لـ (أن) والفعل بل صار ذلك على معنى قولهم : وجه وجه القمر ، وله شجاعة الأسد ، فأضيفت الشجاعة للتخصيص والتعريف ، لا على معنى أن يشجع الأسد ، ولئن سلمنا أنه يتقدر هذا المصدر أعني لعنة الله بـ (أن) والفعل فهو كما ذكرناه ، لا محرز للموضع لأنه لا طالب له ، ألا ترى أنك لو رفعت الفاعل بعد ذكر المصدر لم يجز حتى تنون المصدر ، فقد تغير المصدر بتونيته ، ولذلك حمل سيبويه قولهم : هذا ضارب زيد غداً وعمراً على إضمار فعل أي ويضرب عمراً ، ولم يجز حمله على موضع زيد لأنه لا محرز للموضع ، ألا ترى أنك لو نصبت زيدا لقلت : هذا ضارب زيدا ، وتنون ، وهذا أيضاً على تسليم مجيء الفاعل مرفوعاً بعد المصدر المنون ، فهي مسألة خلاف ، البصريون يجيزون ذلك فيقولون : عجت من ضرب زيد عمراً ، والفراء يقول : لا يجوز ذلك بل إذا نون المصدر لم يجيء بعده فاعل مرفوع ، والصحيح مذهب الفراء ، وليس للبصريين حجة على إثبات دعواهم من السماع بل أثبتوا ذلك بالقياس على أن والفعل ، فمنع هذا التوجيه الذي ذكره ظاهر لأننا نقول : لا نسلم أنه مصدر ينحل لـ (أن) والفعل فيكون عاملاً ، سلمنا لكن لا نسلم أن للمجرور بعده موضعاً سلمنا ، لكن لا نسلم أنه يجوز العطف عليه ، وتخرج هذه القراءة على وجوه غير الوجه الذي ذكره :

أولها : أنه على إضمار فعل لما لم يمكن العطف ، التقدير : وتلعنهم الملائكة كما خرج سيبويه في هذا

ضارب زيد وعمراً أنه على إضمار فعل ويضرب عمراً .

الثاني : أنه معطوف على لعنة الله على حذف مضاف أي : لعنة الله ولعنة الملائكة ، فلما حذف المضاف أعرب المضاف إليه بإعرابه نجو (واسأل القرية) .

الثالث : أن يكون مبتدأ حذف خبره لفهم المعنى ، أي والملائكة والناس أجمعون يلعنونهم ، وظاهر قوله : (والناس أجمعين) العموم ف قيل : ذلك يكون في القيامة إذ يلعن بعضهم بعضاً ، ويلعنهم الله والملائكة والمؤمنون ، فصار عاماً ، وبه قال أبو العالية ، وقيل : أراد بالناس من يعتد بلغته وهم المؤمنون خاصة ، وبه قال ابن مسعود وقتادة والربيع ومقاتل ، وقيل : الكافرون يلعنون أنفسهم من حيث لا يشعرون ، فيقولون في الدنيا : لعن الله الكافر ، فيتأني العموم بهذا الاعتبار ، بدأ تعالى بنفسه وناهيك بذلك طرداً وإبعاداً ﴿ قل أؤنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله ﴾ [آل عمران : ١٥] ، فلعنة الله هي التي تجر لعنة الملائكة والناس ، ألا ترى إلى قول بعض الصحابة : وما لي لا ألعن من لعنه الله على لسان رسوله ، وكما روي عن أحمد أن ابنه سأل : هل يلعن وذكر شخصاً معيناً ، فقال لابنه ، يا بني هل رأيته ألعن شيئاً قط ؟ ثم قال : وما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه ، قال : فقلت : يا أبت وأين لعنة الله ؟ قال : قال تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ [هود : ١٨] ، ثم ثنى بالملائكة لما في النفوس من عظم شأنهم وعلو منزلتهم وطهارتهم ، ثم ثلث بالناس لأنهم من جنسهم فهو شاف عليهم لأن مفاجأة المماثل مما يدعى المماثلة بالمكروه أشق بخلاف صدور ذلك من الأعلى ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة ، وهو الظاهر إذ لم يتقدم ما يعود عليها في اللفظ إلا اللعنة ، وقيل : يعود على النار ، أضمرت لدلالة المعنى عليها ولكثرة ما جاء في القرآن من قوله : (خالدين فيها) وهو عائد على النار ، ولدلالة اللعنة على النار لأن كل من لعنه الله فهو في النار ، ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ سبق الكلام على مثل هاتين الجملتين تلوقوله : (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف) الآية فأغنى عن إعادته هنا إلا أن الجملة من قوله : (لا يخفف) هي في موضع نصب من الضمير المستكن في (خالدين) أي غير مخفف عنهم العذاب ، فهي حال متداخلة أي حال من حال لأن خالدين حال من الضمير في (عليهم) ومن أجاز تعدي العامل إلى حالين لذي حال واحد أجاز أن تكون الجملة من قوله : (لا يخفف) حال من الضمير في (عليهم) ويجوز أن تكون لا يخفف جملة استثنائية ، فلا موضع لها من الإعراب ، وفي آخر الجملة الثانية هناك (ولا ينصرون) نفى عنهم النصر وهنا (ولا هم ينظرون) نفى الإنظار وهو تأخير العذاب ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ الآية روي عن ابن عباس أنها نزلت في كفار قريش ، قالوا : يا محمد صف وانسب لنا ربك ، فنزلت سورة الإخلاص وهذه الآية ، وروي عنه أيضاً أنه كان في الكعبة ، وقيل : حولها ثلاثمائة وستون صنماً يعبدونها من دون الله فنزلت ، وظاهر الخطاب أنه لجميع المخلوقات المتصور منهم العبادة ، فهو إعلام لهم بوحدانية الله تعالى ، ويحتمل أن يكون خطاباً لمن قال : صف لنا ربك وانسبه ، أو خطاباً لمن يعبد مع الله غيره من صنم ووثن ونار ، و (إله) خبر عن إلهكم ، و (واحد) صفته وهو الخبر في المعنى لجواز الاستغناء عن إله ، ومنع الاقتصار عليه فهو شبهه بالحال الموطئة^(١) ، كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً ، والواحد المراد به نفى النظير أو القديم الذي لم يكن معه في الأزل

(١) تقسم الحال باعتبار ذاتها إلى قسمين :

الأول : حال مقصودة لذاتها ، وهي تشكل معظم الأحوال .

الثاني : حال موطئة ، وهي الحال المتصفة بالجمود ، وتكون في الوقت ذاته موصوفة ، نحو قوله تعالى « فتمثل لها بشراً سوياً » وسميت موطئة لأنها توطئ ، لذكر ما بعدها .

انظر هـم الهوامع (١ / ٢٤٥) ، معجم المصطلحات النحوية (٧٠) .

شيء ، أو الذي لا أبعاد له ولا أجزاء ، أو المتوحد في استحقاق العبادة ، أقوال أربعة ، أظهرها الأول ، تقول : فلان واحد في عصره أي لا نظير له ولا شبيه ، وليس المعنى هنا بواحد مبدأ العدد ، ﴿ لا إله إلا هو ﴾ تؤكد لمعنى الوحدانية ونفي الإلهية عن غيره ، وهي جملة جاءت لنفي كل فرد فرد من الآلهة ، ثم حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى ، فدلّت الآية الأولى على نسبة الواحدية إليه تعالى ، ودلت الثانية على حصر الإلهية فيه من اللفظ الناص على ذلك وإن كانت الآية الأولى تستلزم ذلك ، لأن من ثبتت له الواحدية ثبتت له الإلهية ، وتقدم الكلام على إعراب الاسم بعد (لا) في قوله : (لا ريب فيه) والخبر محذوف ، وهو بدل من اسم (لا) على الموضع ، ولا يجوز أن يكون خبراً كما جاز ذلك في قولك : زيد ما العالم إلا هو ، لأن (لا) لا تعمل في المعارف ، هذا إذا فرعنا على أن الخبر بعد (لا) التي يبنى الاسم معها هو مرفوع بها ، وأما إذا فرعنا على أن الخبر ليس مرفوعاً بها بل هو خبر المبتدأ الذي هو (لا) مع المبنى معها ، وهو مذهب سيويه فلا يجوز أيضاً ، لأنه يلزم من ذلك جعل المبتدأ نكرة والخبر معرفة ، وهو عكس ما استقر في اللسان العربي ، وتقرير البدل فيه أيضاً مشكل على قولهم : إنه بدل من إله ، لأنه لا يمكن أن يكون على تقدير تكرار العامل ، لا تقول : لا رجل إلا زيد ، والذي يظهر لي فيه أنه ليس بدلاً من إله ولا من رجل في قولك : لا رجل إلا زيد إنما هو بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف ، فإذا قلنا : لا رجل إلا زيد ، فالتقدير : لا رجل كائن أو موجود إلا زيد كما تقول : ما أحد يقوم إلا زيد ، فزيد بدل من الضمير في يقوم لا من أحد ، وعلى هذا يتمشى ما ورد من هذا الباب فليس بدلاً على موضع اسم (لا) ، وإنما هو بدل مرفوع من ضمير مرفوع ذلك الضمير هو عائذ على اسم (لا) ، ولولا تصريح النحويين أنه بدل على الموضع من اسم (لا) لتأولنا كلامهم على أنهم يريدون بقولهم : بدل من اسم لا أي من الضمير العائد على اسم لا ، قال بعضهم وقد ذكر أن (هو) بدل من (إله) على المحل قال : ولا يجوز فيه النصب ها هنا لأن الرفع يدل على الاعتماد على الثاني ، والمعنى في الآية على ذلك والنصب على أن الاعتماد على الأول ، انتهى كلامه ، ولا فرق في المعنى بين ما قام القوم إلا زيد وإلا زيداً من حيث إن زيداً مستثنى من جهة المعنى إلا أنهم فرقوا من حيث الإعراب ، فأعربوا ما كان تابعاً لما قبله بدلاً ، وأعربوا هذا منصوباً على الاستثناء غير أن الإتيان أولى للمشكلة اللفظية ، والنصب جائز ، ولا نعلم في ذلك خلافاً ، وقال في المنتخب : لما قال تعالى : (وإلهكم إله واحد) أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول : وهب أن إلهنا واحد فلعل إله غيرنا مغاير لإلهنا فلا جرم أزال ذلك الوهم ببيان التوحيد المطلق ، فقال : لا إله إلا هو ، فقوله : لا إله يقتضى النفي العام الشامل ، فإذا قال بعده : إلا الله أفاد التوحيد التام المطلق المحقق ، ولا يجوز أن يكون في الكلام حذف كما يقوله النحويون ، والتقدير : لا إله لنا أو في الوجود إلا الله ، لأن هذا غير مطابق للتوحيد الحق ، لأنه إن كان المحذوف (لنا) كان توحيداً لإلهنا لا توحيداً للإله المطلق ، فحينئذ لا يبقى بين قوله : (وإلهكم إله واحد) وبين قوله : (لا إله إلا هو) فرق ، فيكون ذلك تكراراً محضاً ، وأنه غير جائز ، وأما إن كان المحذوف (في الوجود) كان هذا نفيّاً لوجود الإله الثاني ، أما لو لم يضمّر كان نفيّاً لماهية الإله الثاني ، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود ، فكان إجراء الكلام على ظاهره ، والإعراض عن هذا الإضمار أولى ، وإنما قدم النفي على الإثبات لغرض إثبات التوحيد ونفي الشركاء والأنداد ، انتهى الكلام ، قال أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسى في ربيّ الظمآن : هذا كلام من لا يعرف لسان العرب ، فإن (لا إله) في موضع المبتدأ على قول سيويه ، وعند غيره اسم (لا) ، وعلى التقديرين لا بد من خبر للمبتدأ أولاً ، فما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد ، وأما قوله : إذا لم يضمّر كان نفيّاً للماهية ، قلنا نفي الماهية هو نفي الوجود ، لأن نفي الماهية لا يتصور عندنا إلا مع الوجود فلا فرق عنده بين لا ماهية ولا وجود ، وهذا مذهب أهل السنة ، خلافاً للمعتزلة فإنهم يثبتون الماهية عرية عن الوجود ، والدليل يأبى ذلك ، انتهى كلامه ، وما قاله من تقدير خبر لا بد منه ، لأن قوله : (لا إله) كلام ، فمن حيث هو كلام لا بد فيه من مسند ومسند إليه ، فالمسند إليه هو إله والمسند هو الكون

المطلق ، ولذلك ساغ حذفه كما ساغ بعد قولهم ، لولا زيد لأكرمته إذ تقديره : لولا زيد موجود ، لأنها جملة تعليلية أو شرطية عند من يطلق عليها ذلك ، فلا بد فيها من مسند ومسند إليه ، ولذلك نقلوا أن الخبر بعد (لا) إذا علم كثر حذفه عند الحجازيين ، ووجب حذفه عند التميميين ، وإذا كان الخبر كوناً مطلقاً كان معلوماً ، لأنه إذا دخل النفي المراد به نفي العموم فالمتبادر إلى الذهن هو نفي الوجود ، لأنه لا تنتفي الماهية إلا بانتفاء وجودها ، بخلاف الكون المقيد فإنه لا يتبادر الذهن إلى تعيينه فلذلك لا يجوز حذفه ، نحول رجل يأمر بالمعروف إلا زيد ، إلا إن دل على ذلك قرينة من خارج فيعلم ، فيجوز حذفه ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ذكر هاتين الصفتين منبهاً بهما على استحقاق العبادة له لأن من ابتدأ بالرحمة إنشاء بشراً سوياً عاقلاً ، وتربية في دار الدنيا موعوداً الوعد الصدق بحسن العاقبة في الآخرة جدير بعبادتك له والوقوف عند أمره ونهيهِ ، وأطمعك بهاتين الصفتين في سعة رحمته ، وجاءت هذه الآية عقيب آية مخومة باللعنة والعذاب لمن مات غير موحد له تعالى إذا غالب القرآن أنه إذا ذكرت آية عذاب ذكرت آية رحمة ، وإذا ذكرت آية رحمة ذكرت آية عذاب ، وتقدم شرح هاتين الصفتين فأغنى عن إعادته ، ويجوز ارتفاع الرحمن على البدل من هو وعلى إضمار مبتدأ محذوف أي هو الرحمن الرحيم وعلى أن يكون خبراً بعد خبر لقوله : (وإلهكم) فيكون قد قضى هذا المبتدأ ثلاثة أخبار إله واحد خبر ولا إله إلا هو خبر ثان والرحمن الرحيم خبر ثالث ، ولا يجوز أن يكون خبر لـ (هو) هذه المذكورة لأن المستثنى هنا ليس بجملة بخلاف قولك ، ما مررت برجل إلا هو أفضل من زيد ، قالوا : ولا يجوز أن يرتفع على الصفة لـ (هو) لأن المضمرة لا يوصف ، انتهى ، وهو جائز على مذهب الكسائي إذا كانت الصفة للمدح وكان الضمير الغائب ، وأهمل ابن مالك القيد الأول فأطلق عن الكسائي أنه يجيز وصف الضمير الغائب ، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن هاتين الآيتين اسم الله الأعظم (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ روي أنه لما نزل (وإلهكم) الآية . قالت كفار قريش : كيف يسع الناس إله واحد ، فنزل : (إن في خلق) ولما تقدم وصفه تعالى بالوحدانية واختصاصه بالإلهية استدلل بهذا الخلق الغريب والبناء العجيب استدلالاً بالأثر على المؤثر وبالصناعة على الصانع ، وعرفهم طريق النظر وفيم ينظرون ، فبدأ أولاً بذكر العالم العلوي ، فقال : (إن في خلق السموات) وخلقها إيجادها واختراعها أو خلقها وتركيب أجرامها واثلاف أجزائها من قولهم : خلق فلان حسن أي خلقته وشكله ، وقيل : خلق : هنا زائدة ، والتقدير أن في السموات والأرض ، لأن الخلق إرادة تكوين الشيء ، والآيات في المشاهد من السموات والأرض لا في الإرادة ، وهذا ضعيف لأن زيادة الأسماء لم تثبت في اللسان ، ولأن الخلق ليس هو الإرادة بل الخلق ناشئ عن الإرادة ، قالوا : وجمع السموات لأنها أجناس كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ، ووجد الأرض لأنها كلها من تراب ، وبدأ بذكر السماء لشرفها ، وعظم ما احتوت عليه من الأفلاك والأملأ والعرش والكرسي وغير ذلك ، وآياتها ارتفاعها من غير عمد تحتها ولا علائق من فوقها ثم ما فيها من النيرين الشمس والقمر والنجوم السيارة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نيرة وممحوّة وعظم أجرامها وارتفاعها حتى قال أرباب الهيئة : إن الشمس قدر الأرض مائة وأربع وستين مرة ، وإن أصغر نجم في السماء قدر الأرض سبع مرات وإن الأفلاك عظيمة الأجرام ، قد ذكر أرباب علم الهيئة مقاديرها وأنها سبعة أفلاك يجمعها الفلك المحيط ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أطت السماء وحق لها أن تظط ، ليس فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد) ، وصح أيضاً أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، وآية الأرض بسطها لا دعامة من تحتها ولا علائق من فوقها ، وأنهارها ومياهها وجبالها ورواسيها وشجرها وسهلها ووعرها ومعادنها ، واختصاص كل موضع منها بما هيء له ومنافع نباتها ومضارها ، وذكر أرباب الهيئة أن الأرض نقطة في وسط الدائرة ليس لها جهة وأن البحار محيطة بها ، والهواء محيط بالماء والنار محيطة بالهواء ، والأفلاك وراء ذلك ، وقد ذكر القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي في كتابه المعروف بالدقائق خلافاً عن الناس المتقدمين : هل الأرض واقفة أم متحركة ؟ ، وفي كل قول من

هذين مذاهب كثيرة في السبب الموجب لوقوفها أو لتحركها ، وكذلك تكلموا على جرم السموات ولونها وعظمتها وأبراجها ، وذكر مذاهب للمنجمين والمانوية وتخاليط كثيرة ، والذي تكلم عليه أهل الهيئة هو شيء استدلوا عليه بعقولهم ، وليس في الشرع شيء من ذلك ، والمعتمد عليه أن هذه الأشياء لا يعلم حقيقة خلقها إلا الله تعالى ، ومن أطلع الله على شيء منها بالوحي أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ اختلافهما بإقبال هذا وإدبار هذا أو اختلافهما بالأوصاف في النور والظلمة والطول والقصر أو تساويهما قاله ابن كيسان ، وقدم الليل على النهار لسبقه في الخلق قال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس : ٣٧] ، وقال قوم : إن النور سابق على الظلمة ، وعلى هذا الخلاف ابنى الخلاف في ليلة اليوم ، فعلى القول الأول تكون ليلة اليوم هي التي قبله ، وهو قول الجمهور ، وعلى القول الثاني ليلة اليوم هي الليلة التي تليه ، وكذلك يبنى على اختلافهم في النهار اختلافهم في مسألة لو حلف لا يكلم زيداً نهائياً ، ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ أول من عمل الفلك نوح على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، وقال له جبريل عليه السلام : ضعها على جوجؤ الطائر ، فالسفينة طائر مقلوب ، والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها ، قاله أبو بكر بن العربي ، وآيتها تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ، ووقوفها فوقه مع ثقلها وتبليغها المقاصد ، ولورميت في البحر حصاة لغرقت ، ووصفها بهذه الصفة من الجريان لأنها آيتها العظمى ، وجعل الصفة موصولاً صلته تجري فعل مضارع يدل على تجدد ذلك الوصف لها في كل وقت يراد منها ، وذكر مكان تلك الصفة على سبيل التوكيد إذ من المعلوم أنها لا تجري إلا في البحر ، والألف واللام فيه للجنس ، وأسند الجريان للفلك على سبيل التوسع ، وكان لها من ذاتها صفة مقتضية للمجرى ، ﴿ بما ينفع الناس ﴾ يحتمل أن تكون (ما) موصولة أي تجري مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس من أنواع المتاجر والبضائع المنقولة من بلد إلى بلد ، فتكون الباء للحال ، ويحتمل أن تكون (ما) مصدرية أي ينفع الناس في تجاراتهم وأسفارهم للغزو والحج وغيرهما فتكون الباء للسبب ، واقتصر على ذكر النفع وإن كانت تجري بما يضر لأنه ذكرها في معرض الامتنان ، ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء ﴾ أي من جهة السماء من الأولى لابتداء الغاية تتعلق بأنزل ، وفي (أنزل) ضمير نصب عائذ على (ما) أي : والذي أنزله الله من السماء ، و (من) الثانية مع ما بعدها بدل من قوله : (من السماء) بدل اشتمال فهو على نية تكرار العامل ، أو لبيان الجنس عند من يثبت لها هذا المعنى ، أو للتبعض وتعلق بـ (أنزل) ولا يقال كيف تتعلق بـ (أنزل) من الأولى والثانية لأن معنيهما مختلفان ، ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ عطف على صلة (ما) الذي هو أنزل بالفاء المقتضية للتعقيب وسرعة النبات ، وبه عائذ على الموصول ، وكنى بالإحياء عن ظهور ما أودع فيها من النبات ، وبالموت عن استقرار ذلك فيها وعدم ظهوره ، وهما كنيان غريبتان لأن ما برز منها بالمطر جعل تعالى فيه القوة الغذائية والنامية والحركة ، وما لم يظهر فهو كامن فيها كأنه دفين بها ، وهي له قبر ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ إن قدرت هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من الصلتين احتاجت إلى ضمير يعود على الموصول لأن الضمير في (فيها) عائذ على الأرض ، وتقديره : وبث فيها من كل دابة لكن حذف هذا الضمير إذا كان مجروراً بالحرف له شرط وهو أن يدخل على الموصول أو الموصوف بالموصول أو المضاف إلى الموصول حرف جر مثل ما دخل على الضمير لفظاً ومعنى ، وأن يتحد ما تعلق به الحرفان لفظاً ومعنى ، وأن لا يكون ذلك المجرور العائد على الموصول وجاره في موضع رفع ، وأن لا يكون محصوراً ولا في معنى المحصور ، وأن يكون متعيناً للربط ، وهذا الشرط مفقود هنا ، قال الزمخشري^(١) : فإن قلت : قوله : (وبث فيها) عطف على أنزل أم أحيا ؟ قلت : الظاهر أنه عطف على (أنزل)

داخل تحت حكم الصلة لأن قوله : (فأحيا به الأرض) عطف على أنزل فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد ، وكأنه قيل : (وما أنزل في الأرض) من ماء وبث فيها من كل دابة ، ويجوز عطفه على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الأرض ، وبث فيها من كل دابة لأنهم ينمون بالخصب ، ويعيشون بالحياة ، انتهى كلامه ، ولا طائل تحته ، وكيفما قدّرت من تقدير يلزم أن يكون في قوله : (وبث فيها من كل دابة) ضمير يعود على الموصول سواء أعطفته على أنزل أو على (فأحيا) لأن كلتا الجملتين في صلة الموصول ، والذي يتخرّج على الآية أنها على حذف موصول لفهم المعنى معطوف على (ما) من قوله : (وما أنزل) التقدير : وما بث فيها من كل دابة ، فيكون ذلك أعظم في الآيات ، لأن ما بث تعالى في الأرض من كل دابة فيه آيات عظيمة في أشكالها وصفاتها وأحوالها وانتقالاتها ومضارها ومنافعها وعجائبها وما أودع في كل شكل شكل منها من الأسرار العجيبة ولطائف الصنعة الغريبة ، وذلك من الفيل إلى الذرة وما أوجد تعالى في البحر من عجائب المخلوقات المبينة لأشكال البر ، فمثل هذا ينبغي إفراده بالذكر لا أنه يجعل منسوقاً في ضمن شيء آخر ، وحذف الموصول الاسمي غير أل عند من يذهب إلى اسميتها لفهم المعنى جائز شائع في كلام العرب ، وإن كان البصريون لا يقيسونه فقد قاسه غيرهم ، قال بعض طي :

مَا الَّذِي ذَابُّهُ احْتِيَاطٌ وَحَزْمٌ وَهَوَاهُ أَطَاعَ مُسْتَوِيَانِ^(١)

أي والذي أطاع ، وقال حسان :

أَمَنْ يَهْجُورَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ^(٢)

أي ومن يمدحه ، وقال آخر :

فَوَاللَّهِ مَا نِلْتُمْ وَمَا نِيلَ مِنْكُمْ بِمُعْتَدِلٍ وَفَقٍ وَلَا مُتَقَارِبِ^(٣)

يريد ما الذي نلتُم وما نيل منكم ، وقد حمل على حذف الموصول قوله تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ أي والذي أنزل إليكم ليطبق قوله تعالى : ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ وقد يتمشى التقدير الأول على ارتكاب حذف الضمير لفهم المعنى وإن لم يوجد شرط جواز حذفه ، وقد جاء ذلك في أشعارهم قال :

وَإِنْ لِسَانِي شَهْدَةٌ يُشْتَفَى بِهَا وَهَوَا عَلَى مَنْ صَبَّهَ اللَّهُ عَلَقُمُ^(٤)

(١) البيت من الخفيف نسبه ابن مالك أيضاً إلى بعض الطائيين انظر شواهد التوضيح (٥٧٧) ، وشرح التسهيل (٢٦٤/١) ، مغني اللبيب (١٢٥/٢) .

(٢) البيت لحسان ديوانه ص (٨ - ٩) ، ارتشاف الضرب (٥٥٤/١) ، السيرة النبوية (١٠٧/٤) ، تذكرة النحاة ص (٧٠) ، الخزانة (٢٣٢/٩) ، إعراب القرآن للنحاس (٣٥٣/٢) .

(٣) البيت من الطويل لعبد الله بن رواحة الأنصاري ، انظر الخزانة (٩٤/١٠) ، الدرر اللوامع (٦٨/١ - ٤٩/٢) ، ونسبه ابن مالك إلى حسان ، انظر شرح التسهيل (٢٦٤/١) .

(٤) البيت من الطويل لرجل من همدان ، انظر شرح شواهد المغني (٨٤٣) ، خزانة الأدب (٢٦٦/٥) ، الدرر اللوامع (٣٧/١) ، لسان العرب م (ها) الجمل في النحو (٢٦٧) ، شرح المفصل (٩٦/٣) ، شرح التسهيل (١٥٩/١) ، الهمع (٦١/١) ، شفاء العليل ص (١٩٠) .

يريد من صبه الله عليه وقال :

لَعَلَّ الَّذِي أَصْعَدْتَنِي أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الْأَرْضِ إِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْخَيْرَ قَادِرٌ^(١)

يريد أصدتني به ، فعلى هذا القول يكون (من كل دابة) في موضع المفعول ، و (من) تبعية وعلى مذهب الأخفش يجوز أن تكون زائدة و (كل دابة) هو نفس المفعول ، وعلى حذف الموصول يكون مفعول بث محذوفاً أي وبثه ، وتكون (من) حالية أي كائناً من كل دابة فهي تبعية ، أو لبيان الجنس عند من يرى ذلك ، ﴿ وتصريف الرياح ﴾ في هبوبها قبلاً ودبوراً^(٢) وجنوباً وشمالاً ، وفي أوصافها حارة وباردة ولينة وعاصفة وعقيماً ولواقح ونكباء^(٣) وهي التي تأتي بين مهبي ريحين ، وقيل : تارة بالرحمة وتارة بالعذاب ، وقيل : تصرفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما يحملها الصغار كذلك ، ويصرف عنها ما يضر بها ولا اعتبار بكبر القلوع ولا صغرها فإنها لو جاءت جسداً واحداً لصدمت القلوع وأغرقت ، وقد تكلموا في أنواع الرياح واشتقاق أسمائها وفي طبائعها وفيما جاء فيها من الآثار وفيما قيل فيها من الشعر ، وليس ذلك من غرضنا ، والرياح : جسم لطيف شفاف غير مرئي ، ومن آياته ما جعل الله فيه من القوة التي تقلع الأشجار ، وتعفي الآثار ، وتهدم الديار ، وتهلك الكفار ، وتربية الزرع وتنميته واشتداده بها ، وسوق السحاب إلى البلد الماحل ، واختلف القراء في أفراد الرياح وجمعه في أحد عشر موضعاً ، هذا وفي الشريعة وفي الأعراف (يرسل الرياح) و (اشتدت به الرياح) و (أرسلنا الرياح لواقح) و (تذرهم الرياح) وفي الفرقان و (أرسل الرياح) و (من يرسل الرياح) وفي الروم (الله الذي يرسل الرياح) وفي فاطر أرسل (إن يشأ يسكن الرياح) فأفرد حمزة إلا في الفرقان الكسائي إلا في الحجر ، وجمع نافع الجميع ، والعربان إلا في إبراهيم والشورى ، وابن كثير في البقرة والحجر والكهف والشريعة فقط ، وفي مصحف حفصة هنا (وتصريف الأرواح) ولم يختلفوا في توحيد ما ليس فيه ألف ولا م ، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب إلا في يونس في قوله (وجرين بهم ريح طيبة) وفي الحديث : (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) ، قال ابن عطية : لأن ريح العذاب شديدة ملتزمة الأجزاء كأنها جسم واحد وريح الرحمة لينة منقطعة فلذلك هي رياح ، وهو معنى ينشر ، وأفردت مع الفلك لأن ريح إجراء السفن إنما هي واحدة متصلة ، ثم وصفت بالطيب ، فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب ، انتهى ، ومن قرأ بالتوحيد فإنه يريد الجنس ، فهو كقراءة الجمع ، والرياح في موضع رفع ، فيكون (تصريف) مصدراً مضافاً للفاعل أي : وتصريف الرياح السحاب أو غيره مما لها فيه تأثير بإذن الله ، ويحتمل أن يكون في موضع نصب فيكون المصدر في المعنى مضافاً إلى الفاعل وفي اللفظ مضافاً إلى المفعول أي : وتصريف الله الرياح ﴿ والسحاب المسخر ﴾ تسخير : بعثه من مكان إلى مكان ، وقيل : تسخير ثبوته بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ، ووصف السحاب هنا بالمسخر وهو مفرد لأنه اسم جنس ، وفيه لغتان : التذكير كهذا ، وكقوله : ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر : ٢٠] ، والتأنيث على معنى تأنيث الجمع ، فتارة يوصف بما يوصف به الواحدة المؤنثة ، وتارة يوصف بما يوصف به الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً ﴾ [الأعراف : ٥٧] ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ، ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض ، فقيل : السحاب يأخذ المطر من السماء ، وقيل : يغترفه من بحار الأرض ، وقيل : يخلقه الله فيه ، وللغلاسفة فيه أقوال : وجعل مسخراً باعتبار إمساكه الماء إذ الماء ثقيل فبقاؤه في جو الهواء هو على خلاف ما طبع عليه ، وتقديره : بالمقدار المعلوم الذي فيه المصلحة يأتي به الله في وقت الحاجة ،

(١) البيت من الطويل للفرزدق انظر ديوانه ص (٢٠٨) ، شرح التسهيل (٢٣١/١) ، وروايته فيه (إن لم يقدر الحين قادر) .

(٢) قال الجوهري : والنكباء الريح الناكبة ، التي تنكب عن مهاب الرياح القوم - لسان العرب (٤٥٣٤/٦) .

(٣) الدُّبُور : ريح من رياح القيظ لا تكون إلا فيه وهي مهباف - لسان العرب (٤٥٣٤/٦) .

ويرده عند زوال الحاجة ، أو سوقه بواسطة تحريك الريح إلى حيث أراد الله تعالى ، وفي كل واحد من هذه الأوجه استدلال على الوحدانية ، ﴿ بين السماء والأرض ﴾ انتصاب بين على الظرف ، والعامل فيه المسخر أي سخر بين كذا وكذا ، أو محذوف تقديره : كائناً بين فيكون حالاً من الضمير المستكن في المسخر ، ﴿ لايات لقوم يعقلون ﴾ دخلت اللام على اسم إن لحيلولة الخبر بينه وبينها إذ لو كان يليها ما جاز دخولها وهي لام التوكيد ، فصار في الجملة حرفاً تأكيداً (إن) و (اللام) ، و (لقوم) في موضع الصفة أي كائنة لقوم ، والجملة صفة لقوم ، لأنه لا يتفكر في هذه الآيات العظيمة إلا من كان عاقلاً فإنه يشاهد من هذه الآية ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وانفراده بالإلهية وعظيم قدرته وباهر حكمته ، وقد أثر في الأثر : ويل لمن قرأ هذه الآية فمجد بها أي لم يتفكر فيها ، ولم يعتبر بها ، (ومناسبة هذه الآية لما قبلها) هو أنه لما ذكر تعالى أنه واحد وأنه منفرد بالإلهية لم يكتف بالإخبار حتى أورد دلائل الاعتبار ، ثم مع كونها دلائل بل هي نعم من الله على عباده فكانت أوضح لمن يتأمل ، وأبهر لمن يعقل إذ التنبيه على ما فيه النفع باعث على الفكر ، لكن لا تنفع هذه الدلائل إلا عند من كان متمكناً من النظر والاستدلال بالعقل الموهوب من عند الملك الوهاب ، وهذه الأشياء التي ذكرها الله ثمانية ، وإن جعلنا (وبث فيها) على حذف موصول كما قدرناه في أحد التخريجين كانت تسعة ، وهي باعتبار تصوير إلى أربعة خلق واختلاف وإنزال ماء وتصريف ، فبدأ أولاً بالخلق لأنه الآية العظمى والدلالة الكبرى على الإلهية إذ ذلك إبراز واختراع لموجود من العدم الصرف ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [النحل : ١٧] ، (والذين تدعون من دونه لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) ودل الخلق على جميع الصفات الذاتية من واجبية الوجود والوحدة والحياة والعلم والقدرة والإرادة ، وقدم السموات على الأرض لعظم خلقها ، أو لسبقه على خلق الأرض عند من يرى ذلك ، ثم أعقب ذكر خلق السموات والأرض باختلاف الليل والنهار ، وهو أمر ناشئ عن بعض الجواهر العلوية النيرة التي تضمنتها السموات ، ثم أعقب ذلك بذكر الفلك ، وهو معطوف على الليل والنهار كأنه قال : واختلاف الفلك : أي ذهابها مرة كذا ومرة كذا على حسب ما تحركها المقادير الإلهية ، وهو أمر ناشئ عن بعض الأجرام السفلية الجامدة التي تضمنتها الأرض ، ثم أعقب ذلك بأمور اشترك فيها العالم العلوي والعالم السفلي ، وهو إنزال الماء من السماء ونشر ما كان دفيناً في الأرض بالإحياء ، وجاء هذا المشترك مقدماً فيه السبب على المسبب ، فلذلك أعقب بالفاء التي تدل على السبب عند بعضهم ، ثم ختم ذلك بما لا يتم ما تقدمه من ذكر جريان الفلك وإنزال الماء وإحياء الموات إلا به وهو تصريف الرياح والسحاب ، وقدم الرياح على السحاب لتقدم ذكر الفلك ، وتأخر السحاب لتأخر إنزال الماء في الذكر على جريان الفلك ، فانظر إلى هذا الترتيب الغريب في الذكر حيث بدأ أولاً باختراع السموات والأرض ، ثم ثنى بذكر ما نشأ عن العالم العلوي ، ثم أتى ثالثاً بذكر ما نشأ عن العالم السفلي ، ثم أتى بالمشترك ، ثم ختم ذلك بما لا تتم النعمة للإنسان إلا به وهو التصريف المشروح ، وهذه الآيات ذكرها تعالى على قسمين : قسم مدرك بالبصائر ، وقسم مدرك بالأبصار ، فخلق السموات والأرض مدرك بالعقول ، وما بعد ذلك مشاهد للأبصار ، والمشاهد بالأبصار انتسابه إلى واجب الوجود مستدل عليه بالعقول ، فلذلك قال تعالى : ﴿ لايات لقوم يعقلون ﴾ ولم يقل : لايات لقوم يصرون تغليياً لحكم العقل إذ مآل ما يشاهد بالبصر راجع بالعقل نسبته إلى الله تعالى ، ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ﴾ لما قرر تعالى التوحيد بالدلائل الباهرة أعقب ذلك بذكر من لم يوفق واتخاذ الأنداد من دون الله ليظهر تفاوت ما بين المنهجين ، والضد يظهر حسنه الضد ، وأنه مع وضوح هذه الآيات لم يشاهد هذا الضال شيئاً منها ، ولفظ الناس عام والأحسن حمله على الطائفتين من أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، فالأنداد باعتبار أهل الكتاب هم رؤساؤهم وأخبارهم ، اتبعوا ما رتبوه لهم من أمر ونهي ، وإن خالف أمر الله ونهيه ، قال تعالى : ﴿ اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة : ٣١] ، والأنداد باعتبار عبادة الأوثان هي الأصنام اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله ، وقيل : المراد بالناس الخصوص ، فقيل : أهل الكتاب ، وقيل :

عباد الأوثان ، والأولى القول الأول ، ورجح كونهم أهل الكتاب بقوله (يحبونهم) فأتى بضمير العقلاء وباستبعاد محبة الأصنام ، ويقول : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) والتبرؤ لا يناسب إلا العقلاء ، و (من) مبتدأ موصول أو نكرة موصوفة ، وأفرد يتخذ حملاً على لفظ (من) و (من دون الله) متعلق بـ (يتخذ) و (دون) هنا بمعنى (غير) ، وأصلها أن يكون ظرف مكان وهي نادرة التصرف إذ ذاك ، قال ابن عطية : ومن دون لفظ يعطي غيبة ما يضاف إليه (دون) عن القضية التي فيها الكلام ، وتفسير دون بسوى أو بغير لا يطرد ، انتهى ، تقول : فعلت هذا من دونك أي وأنت غائب ، وتقول : اتخذت منك صديقاً واتخذت من دونك صديقاً ، فالذي يفهم من هذا أنه اتخذ من شخص غيره صديقاً ، وتقول : قام القوم دون زيد ، فالذي يفهم من هذا أن المعنى أن زيداً لم يقم فدلالته دلالة غير في هذا ، والذي ذكر النحويون هو ما ذكرت لك من كونها تكون ظرف مكان ، وأنها قليلة التصرف نادرته ، وقد حكى سيبويه أيضاً أنها تكون بمعنى رديء ، تقول : هذا ثوب دون أي رديء ، فإذا كانت ظرفاً دلت على انحطاط المكان ، فتقول قعد زيد دونك فالمعنى قعد زيد مكاناً دون مكانك أي منحطاً عن مكانك ، وكذلك إذا أردت بدون الظرفية المجازية تقول : زيد دون عمرو في الشرف تريد المكانة لا المكان ، (ووجه استعمالها بمعنى غير انتقالها عن الظرفية فيه خفاء ، ونحن نوضحه) فنقول : إذا قلت : اتخذت من دونك صديقاً ، فأصله اتخذت من جهة ومكان دون جهتك ومكانك صديقاً فهو ظرف مجازي ، وإذا كان المكان المتخذ منه الصديق مكانك وجهتك منحطة عنه وهي دونه لزم أن يكون غيراً لأنه ليس إياه ، ثم حذفت المضاف وأقمت المضاف إليه مقامه مع كونه غيراً فصارت دلالة غير بهذا الترتيب لا أنه موضوع في أصل اللغة لذلك ، وانتصب (أُنْداداً) هنا على المفعول بـ (يتخذ) وهي هنا متعدية إلى واحد نحو قولك : اتخذت منك صديقاً ، وهي افتعل من الأخذ ، وقد تقدم الكلام على الند وعلى اتخذ ، فأغنى عن إعادته ، قال ابن عباس والسدي : الأنداد الرؤساء المتبعون يطيعونهم في معاصي الله تعالى ، وقال مجاهد وقتادة : الأنداد : الأوثان ، وجاء الضمير في (يحبونهم) ضمير من يعقل ، وقد تقدم لنا أن الأولى أن تكون الأنداد المجموع من الأوثان والرؤساء ، وتكون الآية عامة ، وجاء التغليب لمن يعقل في الضمير في ﴿ يحبونهم ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم ، والجملة من يحبونهم صفة للأنداد أو حال من الضمير المستكن في (يتخذ) ، ويجوز أن تكون صفة من إذا جعلتها نكرة موصوفة ، وجاز ذلك لأن في يحبونهم ضمير أُنْداداً وضمير من ، وأعاد الضمير على من جمعاً على المعنى إذ تقدم الحمل على اللفظ في يتخذ إذ أفرد الضمير ، وقد وقع الفصل بين الجملتين وهو شرط على مذهب الكوفيين ﴿ كحب الله ﴾ الكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير الحب المحذوف على رأي سيبويه ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف على رأي جمهور المعربين ، التقدير : على الأول يحبونهموه أي الحب مشبهاً حب الله ، وعلى الثاني تقديره : حباً مثل حب الله ، والمصدر مضاف للمفعول المنصوب ، والفاعل محذوف ، التقدير : كحبهم الله أو كحب المؤمنين الله ، والمعنى أنهم سَوُوا بين الحبين حب الأنداد وحب الله ، وقال ابن عطية : حب مصدر مضاف إلى المفعول في اللفظ ، وهو على التقدير مضاف إلى الفاعل المضمر ، تقديره : كحبكم الله أو كحبهم حسبما قدر كل وجه منهما فرقة ، انتهى كلامه ، فقلوه : مضاف إلى الفاعل المضمر لا يعني أن المصدر أضمر فيه الفاعل ، وإنما سماه مضمرأ لما قدره كحبكم أو كحبهم فأبرزه مضمرأ حين أظهر تقديره أو يعني بالمضمر المحذوف ، وهو موجود في اصطلاح النحويين ، أعني أن يسمى الحذف إضماراً ، وإنما قلت ذلك لأن من النحويين من زعم أن الفاعل مع المصدر لا يحذف وإنما يكون مضمرأ في المصدر ، ورد ذلك بأن المصدر هو اسم جنس كالزيت والقمح وأسماء الأجناس لا يضمم فيها ، وقال الزمخشري^(١) : كحب الله كتعظيم الله والخضوع له أي : كما يحب الله على أنه مصدر

من المبني للمفعول ، وإنما استغنى عن ذكر من يحبه لأنه غير ملبس ، وقيل : كحبهم الله أي يسوون بينه وبينه في محبتهم لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه ﴿فإذ اركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ [يونس : ٢٢] انتهى كلامه ، واختار كون المصدر مبنياً للمفعول الذي لم يسم فاعله وهي مسألة خلاف أيجوز أن يعتقد في المصدر أنه مبني للمفعول ، فيجوز عجب من ضرب زيد على أنه مفعول لم يسم فاعله ، ثم يضاف إليه أم لا يجوز ذلك فيه ؟ ، ثلاثة مذاهب يفصل في الثالث بين أن يكون المصدر من فعل لم يبين إلا للمفعول نحو عجب من جنون بالعلم زيد لأنه من جنت التي لم تبين إلا للمفعول الذي لم يسم فاعله أو من فعل يجوز أن يبنى للفاعل ، ويجوز أن يبنى للمفعول فيجوز في الأول ويمتنع في الثاني ، وأصحها المنع مطلقاً ، وتقرير هذا كله في النحو ، وقد رد الزجاج قول من قدر فاعل المصدر المؤمنين أو ضميرهم ، وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة وأبي العالية وابن زيد ومقاتل والفراء والمبرد وقال : ليس بشيء ، والدليل على نقضه قوله تعالى بعد : ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ ورجح أن يكون فاعل المصدر ضمير المتخذين أي يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله تعالى ، فسووا بين الله وبين أوثانهم في المحبة على كمال قدرته ولطيف فطرته وذلة الأصنام وقتلها ، وقرأ أبو رجاء العطاردي (يَجِبُونَهُمْ) بفتح الياء ، وهي لغة ، وفي المثل السائر من حب طَبَّ ، وجاء مضارعه على يَجِبُ بكسر العين شذوذاً ، لأنه مضاعف متعد وقياسه أن يكون مضموم العين نحو مده يمدّه وجره يجره ، ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ قال الراغب : الحب^(١) أصله من المحبة ، حبيته أصبت حبة قلبه وأصبته بحبة القلب ، وهي في اللفظ فعل وفي الحقيقة انفعال ، وإذا استعمل في الله فالمعنى أصاب حبة قلب عبده ، فجعلها مصونة عن الهوى والشيطان وسائر أعداء الله انتهى ، وقال عبد الجبار : حب العبد لله تعظيمه والتمسك بطاعته وحب الله العبد إرادة الشاء عليه وإثابته ، وأصل الحب في اللغة اللزوم لأن المحب يلزم حبيبه ما أمكن ، اهـ والمفضل عليه محذوف وهم المتخذون الأنداد ، ومتعلق الحب الثاني فيه خلاف ، ف قيل : معنى أشد حبا لله أي منهم لله لأن حبهم لله بواسطة قاله الحسن ، أو منهم لأوثانهم قاله غيره ، ومقتضى التمييز بالأشدية أفراد المؤمنين له بالمحبة ، أو لمعرفتهم بموجب الحب ، أو لمحبتهم إياه بالغيب ، أو لشهادته تعالى لهم بالمحبة إذ قال تعالى : (يحبهم ويحبونه) أو لإقبال المؤمن على ربه في السراء والضراء والشدة والرخاء ، أو لعدم انتقاله عن مولاه ولا يختار عليه سواه ، أو لعلمه بأن الله خالق الصنم وهو الضار النافع ، أو لكون حبه بالعقل والدليل ، أو لامثاله أمره حتى في القيامة حين يأمر الله تعالى من عبده لا يشرك به شيئاً أن يقتحم النار ، فيبادرون إليها فتبرد عليهم النار ، فينادى مناد تحت العرش ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ ، ويأمر من عبد الأصنام أن يدخل معهم النار ، فيجزعون قاله ابن جبير ، تسعة أقوال ، ثبتت نقائصها ومقابلاتها المتخذ الأنداد ، وهذه كلها خصائص ميز الله بها المؤمنين في حبه على الكافرين ، فذكر كل واحد من المفسرين خصيصته ، والمجموع هو المقتضى لتمييز الحب فلا تباين بين الأقوال على هذا لأن كل قول منها ليس على جهة الحصر فيه إنما هو مثال من أمثلة مقتضى التمييز ، وقال في المنتخب : جمهور المتكلمين على أن المحبة نوع من أنواع الإرادة لا تعلق لها إلا بالجائزات ، فيستحيل تعلق المحبة بذات الله وصفاته فإذا قلنا : يحب الله فمعناه يحب طاعة الله وخدمته وثوابه وإحسانه ، وحكى عن قوم سماهم هو بالعارفين أنهم قالوا : نحب الله لذاته كما نحب اللذة لذاتها ، لأنه تعالى موصوف بالكمال ، والكمال محبوب لذاته انتهى كلامه ، وعدل في أفعال التفضيل عن أحب إلى أشد حبا لما تقرر في علم العربية أن أفعال التفضيل وفعل التعجب من واحد ، وأنت لوقلت : ما أحب زيداً لم يكن ذلك تعجباً من فعل الفاعل إنما يكون تعجباً من فعل المفعول ، ولا يجوز أن يتعجب من الفعل الواقع بالمفعول فينتصب المفعول به كانتصاب الفاعل لا تقول : ما أضرب زيداً حل به الضرب ، وإذا تقرر هذا ، فلا يجوز

(١) الحب : نقيض البغض . والحب : الوداد والمحبة ، وكذلك الحب بالكسر . . . لسان العرب (٧٤٢/٢) .

زيد أحب لعمرو ، لأنه يكون المعنى أن زيداً هو المحبوب لعمرو ، فلما لم يجز ذلك عدل إلى التعجب ، وأفعل التفضيل بما يسوغ منه ذلك فتقول : ما أشد حب زيد لعمرو ، وزيد أشد حباً لعمرو من خالد لجعفر على أنهم قد شذوا ، فقالوا : ما أحبه إليّ ، فتعجبوا من فعل المفعول على جهة الشذوذ ، ولم يكن القرآن ليأتي على الشاذ في الاستعمال والقياس ويعدل عن الصحيح الفصيح ، وانتصاب (حباً) على التمييز وهو من التمييز المنقول من المبتدأ تقديره : حبهم لله أشد من حب أولئك لله ، أو لأندادهم على اختلاف القولين ، ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾ ﴿ قرأ نافع وابن عامر (إِذْ تَرَوْنَ) بالتاء من فوق أن القوة وأن بفتحهما ، وقرأ ابن عامر (إِذْ يَرَوْنَ) بضم الياء ، وقرأ الباقون بالفتح ، وقرأ الحسن وقنادة وشيبة وأبو جعفر ويعقوب (ولو ترى) بالتاء من فوق إن القوة وإن بكسرهما ، وقرأ الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير (ولو يرى) بالياء من أسفل أن القوة وأن بفتحهما ، وقرأت طائفة (ولو يرى) بالياء من أسفل إن القوة وإن بكسرهما و(لو) هنا حرف لما كان سيقع لوقوع غيره فلا بد لها من جواب ، واختلف في تقديره فمنهم من قدره قبل (أن القوة) فيكون (أن القوة) معمولاً لذلك الجواب ، التقدير على قراءة من قرأ بالتاء من فوق : لعلمت أيها السامع أن القوة لله جميعاً ، أو لعلمت يا محمد إن كان المخاطب في ولو ترى له ، وقد كان ﷺ علم ذلك ولكن خوطب ، والمراد أمته فإن فيهم من يحتاج لتقوية علمه بمشاهدة مثل هذا ، ومن قرأ بالكسر قدر الجواب قللت إن القوة على اختلاف القولين في المخاطب بقوله (ولو ترى) من هو أهو السامع أم النبي ﷺ ؟ أو يكون التقدير لاستعظمت حالهم ، وإن القوة وإن كانت مكسورة فيها معنى التعليل مثل لو قدمت على زيد لأحسن إليك ، إنه مكرم للضيفان ، وقال ابن عطية : تقدير ذلك ولو ترى الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه واستعظامهم له لأقروا أن القوة لله ، فالجواب مضمرة على هذا النحو من المعنى ، وهو العامل في إن انتهى ، وفيه مناقشة ، وهو قوله : في حال رؤيتهم العذاب ، وكان ينبغي أن يقدر بمرادف إذ وهو قوله : في وقت رؤيتهم العذاب ، وأيضاً فقد قرأ جواب (لو) وهو غير مترتب على ما يلي (لو) لأن رؤية السامع أو النبي ﷺ الظالمين في وقت رؤيتهم لا يترتب عليها إقرارهم أن القوة لله جميعاً ، صار نظير قولك : يا زيد لو ترى عمراً في وقت ضربه لأقرأن الله قادر عليه ، وإقراره بقدرة الله ليست مترتبة على رؤية زيد ، وعلى من قرأ (ولو يرى) بالياء من أسفل ، وفتح أن يكون تقدير الجواب : لعلموا أن القوة لله جميعاً ، وإن كان فاعل يرى هو (الذين ظلموا) وإن كان ضميراً يقدر ولو يرى هو أي السامع ، كان التقدير لعلم أن القوة لله جميعاً ، ومنهم من قدر الجواب محذوفاً بعد قوله : (وأن الله شديد العذاب) وهو قول أبي الحسن الأخفش وأبي العباس المبرد ، وتقديره على قراءة (ولو ترى) بالخطاب لاستعظمت ما حل بهم ، وعلى قراءة (ولو يرى) للغائب فإن كان فيه ضمير السامع كان التقدير لاستعظم ذلك ، وإن كان الذين ظلموا هو الفاعل كان التقدير لاستعظمت ما حل بهم وإذا كان الجواب مقدراً آخر الكلام ، وكانت أن مفتوحة فتوجيه فتحها على تقديرين ، أحدهما : أن تكون معمولة ليرى في قراءة من قرأ بالياء أي : ولو رأى الذين ظلموا أن القوة لله جميعاً ، وأما من قرأ بالتاء فتكون أن مفعولاً من أجله أي لأن القوة لله جميعاً ، ومن كسر إن مع قراءة التاء في ترى ، وقدر الجواب آخر الكلام فهي وإن كانت مكسورة على معنى المفتوحة دالة على التعليل تقول : لا تن زيداً إنه عالم ولا تكرم عمراً إنه جاهل ، فهي على معنى المفتوحة من التعليل ، وتكون هذه الجملة كأنها معترضة بين (لو) وجوابها المحذوف ، وأما قراءة من قرأ بالياء من أسفل ، وكسر الهمزتين فيحتمل أن تكون معمولة لقول محذوف ، هو جواب (لو) أي : لقالوا : إن القوة ، أو على سبيل الاستثناف والجواب محذوف أي لاستعظمت ذلك ، ومفعول (ترى) محذوف أي ولو رأى الظالمون حالهم ، ﴿ ترى ﴾ في قوله (ولو ترى) يحتمل أن تكون بصرية وهو قول أبي علي ، ويحتمل أن تكون عرفانية ، وإذا جعلت (أن) معمولة ليرى جاز أن تكون بمعنى علم المتعدية إلى اثنين سدت (أن) مسدهما على مذهب سيبويه ، والذين ظلموا إشارة إلى متخذي الأنداد ، ونبه على العلية ، أو يكون عاماً فيندرج فيه هؤلاء وغيرهم من

الكفار لكن سياق ما بعده يرشد إلى أنهم متخذو الأنداد ، وقراءة ابن عامر إذ يرون مبنياً للمفعول هو من أريت المنقولة من رأيت بمعنى أبصرت ، ودخلت إذ وهي للظرف الماضي في أثناء هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه كما يقع الماضي موقع المستقبل في قوله : (ونادى أصحاب النار) وكما جاء :

بَقِيتُ وَفَرِي وَأَنْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَى وَلَقِيتُ أَضْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسٍ

لأنه علق ذلك على مستقبل وهو قوله :

إِنْ لَمْ أَشْنِ عَلَى ابْنِ هِنْدٍ غَارَةً لَمْ تَخُلْ يَوْمًا مِنْ نَهَابِ نَفُوسٍ

وحذف جواب لولفهم المعنى كثير في القرآن وفي لسان العرب قال تعالى : ﴿ ولوترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ [سبأ : ٥١] ، ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار ﴾ [الأنعام : ٢٧] ، ﴿ ولو أن قرآنًا سیرت به الجبال ﴾ [الرعد : ٣١] ، وقال امرؤ القيس :

وَجَدَّكَ لَوْ شِئْتُ أَتَانَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا^(١)

هذا ما يقتضيه البحث في هذه الآية من جهة الإعراب ، ونحن نذكر من كلام المفسرين فيها ، قال عطاء المعنى (ولو يرى الذين ظلموا) يوم القيامة (إذ يرون العذاب) حين تخرج إليهم جهنم من مسيرة خمسمائة عام تلتقطهم كما يلتقط الحمام الحبة لعلموا (أن القوة) والقدرة (لله جميعاً) ، وقيل : لو يعلمون في الدنيا ما يعلمونه إذ يرون العذاب لأقروا بأن القوة لله جميعاً أي لتبرؤوا من الأنداد والثانية من رؤية العين ، وقال التبريزي : لو اعتقدوا أن الله يقدر ويقوى على تعذيبهم يوم القيامة لامتنعوا عما يوجب الجزاء بالعذاب ، وقال الزمخشري^(٢) : ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركتهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم ، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذ عاينوا العذاب يوم القيامة ، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم انتهى كلامه .

وحكى الراغب أن بعضهم زعم أن القوة بدل من الذين ، قال وهو ضعيف انتهى يصير المعنى ولو ترى قوة الله وقدرته على الذين ظلموا ، وقال في المنتخب قراءة الياء عند بعضهم أولى من قراءة التاء لأن النبي ﷺ والمسلمين قد علموا قدر ما يشاهده الكفار ويعاينونه من العذاب يوم القيامة أما المتوعدون فإنهم لم يعلموا ذلك فوجب إسناد الفعل إليهم انتهى ولا فرق عندنا بين القراءتين ، أعني التاء والياء ، لأنهما متواترتان ، وانتصاب جميعاً على الحال من الضمير المستكن في العامل في الجار والمجرور ، والقوة هنا مصدر أريد به الجنس ، التقدير أن القوى مستقرة لله جميعاً ، ولا يجوز أن تكون حالاً من القوة ، لأن العامل في القوة أن ، وأن لا تعمل في الأحوال ، وهذا التركيب أبلغ هنا من أن لو قلت : إن الله قوي إذ تدل هنا على الإخبار عنه بهذا الوصف ، وأن القوة لله تدل على أن جميع أنواع القوى ثابتة مستقرة له تعالى وتأخر وصفه تعالى بأنه شديد العذاب عن ذلك لأن شدة العذاب هي من آثار القوة ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ لما ذكر متخذي الأنداد ذكر أن عبادتهم لهم وإفناء أعمارهم في طاعتهم معتقدين أنهم سبب نجاتهم لم تغن شيئاً وأنهم حين صاروا أحوج إليهم تبرؤوا منهم ، و (إذ) بدل من (إذ يرون العذاب) ، وقيل : معمولة لقوله (شديد العذاب) ، وقيل : لمحذوف تقديره اذكروا الذين اتبعوا هم رؤسائهم ،

(١) البيت من الطويل ، امرؤ القيس ، انظر ديوانه (٢٤٠ - ٢٤٢) ، الخزانة (٨٤ / ١٠) .

(٢) انظر الكشف (٢١١ / ١) .

وقادتهم الذين اتبعوهم في أقوالهم وأفعالهم قاله ابن عباس وعطاء وأبو العالية وقتادة والربيع ومقاتل والزجاج ، أو الشياطين الذين كانوا يوسوسون ، ويرونهم الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً قاله الحسن وقتادة أيضاً والسدي ، أو عام في كل متبوع ، وهو الذي يدل عليه ظاهر اللفظ ، وقراءة الجمهور (اتبعوا) الأول مبنياً للمفعول ، والثاني مبنياً للفاعل ، وقراءة مجاهد بالعكس فعلى قراءة الجمهور تبرؤ المتبوعون بالندم على الكفر ، أو بالعجز عن الدفع ، أو بالقول إنا لم نفضل هؤلاء بل كفروا بإرادتهم ، وتعلق العقاب عليهم بكفرهم ، لم يأت ما حاولوه من تعليق ذنوبهم على من أضلهم أقوال ثلاثة ، الأخير أظهرها ، وهو أن يكون التبرؤ بالقول قال تعالى ﴿ تَبَرُّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : ٦٣] ، وتبرؤ التابعين هو انفصالهم عن متبوعهم ، والندم على عبادتهم ، إذ لم يجد عنهم يوم القيامة شيئاً ولم يدفع عنهم من عذاب الله ورأوا العذاب الظاهر أن هذه الجملة ، وهي وما بعدها قد عطفنا على تبرأ فهمنا داخلان في حيز الظرف ، وقيل : الواو للحال فيهما ، والعامل تبرأ أي تبرؤوا في حال رؤيتهم العذاب وتقطع الأسباب بهم ، لأنها حالة يزداد فيها خوف والتنصل ممن كان سبباً في العذاب ، وقيل : الواو للحال في ورأوا العذاب ، وللعطف في وتقطعت على تبرأ ، وهو اختيار الزمخشري^(١) (وتقطعت بهم الأسباب) كناية عن أن لا منجى لهم من العذاب ولا مخلص ولا تعلق بشيء يخلص من عذاب الله وهو عام في كل ما يمكن أن يتعلق به ، وللمفسرين في الأسباب أقوال الوصلات عن قتادة والأرحام عن ابن عباس وابن جريج ، أو الأعمال الملتزمة عن ابن زيد والسدي ، أو العهود عن مجاهد وأبي روق ، أو وصلات الكفر ، أو منازلهم من الدنيا في الجاه عن ابن عباس ، أو أسباب النجاة ، أو المودات والظاهر دخول الجميع في الأسباب لأنه لفظ عام ، وفي هذه الجمل من أنواع البديع نوع يسمى الترصيع وهو أن يكون الكلام مسجوعاً كقوله تعالى (ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه) وهو في القرآن كثير ، وهو في هذه الآية في موضعين .

أحدهما : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وهو محسن الحذف لضمير الموصول في قوله (اتبعوا) إذ لو جاء اتبعوهم لفات هذا النوع من البديع .

والموضع الثاني : (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) ومثال ذلك في الشعر قول أبي الطيب :

فِي تَاجِهِ قَمَرٌ فِي ثَوْبِهِ بَشَرٌ فِي دِرْعِهِ أَسَدٌ تَدْمَى أَظْفَرُهُ

وقولنا من قصيد عارضنا به بانت سعاد :

فَالنَّحْرُ مَرْمَرَةٌ وَالنَّشْرُ عَنَبَةٌ وَالثَّغْرُ جَوْهَرَةٌ وَالرِّيقُ مَعْسُولٌ

﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا ﴾ المعنى أنهم تمنوا الرجوع إلى الدنيا حتى يطيعوا الله ويتبرؤوا منهم في الآخرة إذا حشروا جميعاً مثل ما تبرأ المتبوعون أولاً منهم ، و « لو » هنا للتمني ، قيل : وليست التي لما كان سيقع لوقوع غيره ولذلك جاء جوابها بالفاء في قوله (فتبرأ) كما جاء جواب ليت في قوله يا ليتني كنت معهم فأفوز وكما جاء في قول الشاعر :

فَلَوْ نِشَّ الْمَقَابِرُ عَنْ كُلِّبٍ فَتُخْبَرَ بِالذَّنَائِبِ أَيُّ زَيْرٍ^(٢)

(١) انظر الكشف (٢١٢/١) .

(٢) البيت من الوافر لمهلل بن ربيعة انظر الأصمعيات (٦٥٤) ، شعراء النصرانية (١٦٩) ، الحماسة البصرية (٢٤/١) ، الكامل (٣٦٠/١) ، الأغاني (٥٣/٥) .

والصحيح أن لو هذه هي التي لما كان سيقع لوقوع غيره وأشربت معنى التمني ، ولذلك جاء بعد هذا البيت جوابها هو قوله :

بِیَوْمِ الشَّعْثَمِیْنِ لَقَرَّ عَیْنًا وَكَيْفَ لِقَاءٍ مَنْ تَحْتَ الْقُبُورِ

وأن مفتوحة بعد لو كما فتحت بعد ليت في نحو قوله :

يَا لَيْتَ أَنَا ضَمْنَا سَفِينَهُ حَتَّى يَعُودَ الْبَحْرُ كَيْنُونَهُ

وينبغي أن يستثنى من المواضع التي تنتصب بإضمار أن بعد الجواب بالفاء ، وأنها إذا سقطت الفاء انجزم الفعل هذا الموضع ، لأن النحويين بين إنما استثنوا جواب النفي فقط ، فينبغي أن يستثنى هذا الموضع أيضاً ، لأنه لم يسمع الجزم في الفعل الواقع جواباً لـ (لو) التي أشربت معنى التمني ، إذا حذفت الفاء ، والسبب في ذلك أن كونها مشربة معنى التمني ليس أصلها ، وإنما ذلك بالجملة على حرف التمني الذي هو ليت والجزم في جواب ليت بعد حذف الفاء ، إنما هو لتضمنها معنى الشرط ، أو دلالتها على كونه محذوفاً بعدها على اختلاف القولين فصارت « لو » فرع فرع فضعف ذلك فيها ، والكاف في « كما » في موضع نصب ، إما نعتاً لمصدر محذوف ، أو على الحال من ضمير المصدر المحذوف على القولين السابقين في غير ما موضع من هذا الكتاب ، وما في كما مصدرية التقدير تبرؤوا مثل تبرئهم أو فتبرأه أي فتبرأ التبرؤ مشابهاً لتبرئهم ، وقال ابن عطية : الكاف من قوله « كما » في موضع نصب على النعت إما لمصدر أو لحال تقديرها متبرئين كما انتهى كلامه . أما قوله على النعت إما لمصدر فهو كلام واضح وهو الإعراب المشهور في مثل هذا ، وأما قوله أو لحال تقديرها متبرئين كما فغير واضح ، لأننا لو صرحنا بهذه الحال لما كان كما منصوباً على النعت لمتبرئين لأن الكاف الداخلة على ما المصدرية هي من صفات الفعل ، لا من صفات الفاعل ، وإذا كان كذلك لم ينتصب على النعت للحال لأن الحال هنا من صفات الفاعل ولا حاجة لتقدير هذه الحال لأنها إذ ذاك تكون حالاً مؤكدة ولا ترتكب كون الحال مؤكدة إلا إذا كانت ملفوظاً بها ، أما أن تقدر حالاً ونجعلها مؤكدة فلا حاجة إلى ذلك ، وأيضاً التوكيد ينافي الحذف ، لأن ما جيء به لتقوية الشيء لا يجوز حذفه أيضاً ، فلو صرح بهذه الحال لما ساء في « كما » ، إلا أن تكون نعتاً لمصدر محذوف ، أو حالاً من الضمير المستكن في الحال المصرح بها ، مثال ذلك « هم محسنون إليّ كما أحسنوا إلى زيد » فكما أحسنوا ليس من صفات محسنين إنما هو من صفات الإحسان ، التقدير على الإعراب المشهور « إحساناً مثل إحسانهم إلى زيد » ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ الكاف عند بعضهم في موضع رفع وقدره « الأمر كذلك » أو « حشرهم كذلك » وهو ضعيف لأنه يقتضي زيادة الكاف وحذف مبتدأ ، أو كلاهما على خلاف الأصل ، والظاهر أن الكاف على بابها من التشبيه ، وأن التقدير مثل إراءتهم تلك الأهوال (يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) فيكون نعتاً لمصدر محذوف ، فيكون في موضع نصب ، وجعل صاحب المنتخب « ذلك » من قوله (كذلك) إشارة إلى تبرؤ بعضهم من بعض ، والأجود تشبيه الإراءة بالإراءة ، وجوزوا في (يريهم) أن تكون بصرية عديت بالهمزة فتكون (حسرات) منصوباً على الحال ، وأن تكون قلبية فتكون مفعولاً ثالثاً ، قالوا ويكون ثم حذف مضاف أي على تفريطهم ، و « تحسر » يتعدى بعلى تقول « تحسرت على كذا » فعلى هنا متعلقة بقوله (حسرات) ويحتمل أن تكون في موضع الصفة فالعامل محذوف أي حسرات كائنة عليهم ، وعلى تُشعر بأن الحسرات مستعلية عليهم ، و (أعمالهم) قيل هي الأعمال التي صنعوها وأضيفت إليهم من حيث عملوها ، وأنهم مأخوذون بها ، وهذا على قول من يقول إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وهذا معنى قول الربيع وابن زيد « إنها الأعمال السيئة التي ارتكبوها فوجب لهم بها النار » ، وقال ابن مسعود والسدي : المعنى أعمالهم الصالحة التي تركوها

ففاتهم الجنة وأضيفت إليهم من حيث كانوا مأمورين بها ، قال السدي : ترفع لهم الجنة فينظرون إلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى ، فيقال لهم تلك مساكنكم لو أطعتم الله تعالى ، ثم تقسم بين المؤمنين فيرونهم فذلك حين يندمون ، وهذا معنى قول بعضهم : إن أعمالهم قد أحبط ثوابها كفرهم لأن الكافر لا يثاب مع كفره ألا ترى إلى قوله ﷺ وقد ذكر له أن ابن جُذعان « كان يصل الرحم ويطعم المسكين » وسئل هل ذلك نافعه ؟ قال « لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » ومنه قوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣] ، وقيل : المعنى أعمالهم التي تقربوا بها إلى رؤسائهم من تعظيمهم والانقياد لأمرهم والظاهر أنها الأعمال التي اتبعوا فيها رؤسائهم قادتهم وهي الكفر والمعاصي ، وكانت حسرة عليهم لأنهم رأوها مسطورة في صحائفهم وتيقنوا الجزاء عليها وكان يمكنهم تركها والعدول عنها لو شاء الله ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ هذا يدل على دخول النار ، إذ لا يقال « ما زيد بخارج من كذا » إلا بعد الدخول ، ولم يتقدم في الآية نص على دخولهم ، إنما تقدم رؤيتهم العذاب ومفاوضة بسبب تبرؤ المتبوعين من الأتباع ، وجاء الخبر مصحوباً بالباء الدالة على التوكيد ، وقال الزمخشري^(١) هم بمنزلته في قوله :

هَمْ يَفْرِشُونَ اللَّبَدَ كُلَّ طِمْرَةٍ

في دلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص انتهى كلامه . وفيه دسيعة اعتزال لأنه إذا لم يدل على الاختصاص لا يكون فيه رد لقول المعتزلة إن الفاسق يخلد في النار ولا يخرج منها ، وأما قول صاحب المنتخب إن الأصحاب احتجوا على أن صاحب الكبيرة من أهل القبلة إلى آخر كلامه فهو غير مسلم ، ولا دلالة في الآية على شيء من المذهبين ، لأنك إذا قلت « ما زيد بمنطلق » وإنما في ذلك دلالة على نفي انطلاق زيد وأما أن في ذلك دلالة على اختصاصه بنفي الانطلاق أو مشاركة غيره له في نفي الانطلاق فلا ، إنما يفهم ذلك أعني الاختصاص بنفي الخروج من النار ، إذ المشاركة في ذلك من دليل خارج وهل النفي إلا مركب على الإيجاب ، فإذا قلت « زيد منطلق » فليس في هذا دليل على شيء من الاختصاص ولا شيء من المشاركة ، فكذلك النفي ، وكونه قابلاً للخصومة والاشتراك يدل على ذلك ، ألا ترى أنك تقول « زيد منطلق غيره » و« زيد منطلق مع غيره » (وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة) إخباره تعالى بأن الصفا والمروة من معالمه التي جعلها محلاً لعبادته وإن كان قد سبق غشيان المشركين لها وتقربهم بالأصنام عليها ، وصرح برفع الإثم عن طاف بهما ممن حج أو اعتمر ، ثم ذكر أن من تبرع بخير (فإن الله شاكراً) لفعله (عليم) بنيته لما كان التطوع يشتمل على فعل ونية ختم بهاتين الصفتين المتناسبتين ، ثم أخبر تعالى عن كتم ما أنزل الله من الحكم الإلهي من بعد ما بينه في كتابه لعنه الله وملائكته ، ومن يسوغ منه اللعن من صالحه عباده ، ثم استثنى من تاب وأصلح ويؤمن ما كتم ، ولم يكتف بالتوبة فقط حتى أضاف إليها الإصلاح ، لأن كتم ما أنزل الله من أعظم الإفساد إذ فيه حمل الناس على غير المنهج الشرعي ، وأضاف التبيين لما كتم حتى يتضح للناس وضوحاً بيناً ما كان عليه من الضلال ، وأنه أقلع عن ذلك وسلك نقيض فعله الأول فكان ذلك أدعى لزوال ما قرر أولاً من كتمان الحق ، وبضدها تبين الأشياء .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء المستثنين أنه يتوب عليهم ، وأنه تعالى لا يتعاطم عنده ذنب وإن كان أعظم الذنوب إذا تاب العبد منه ، ثم أخبر تعالى أنه التواب الرحيم بصفتي المبالغة التي في « فَعَالٌ » و« فَعِيلٌ » .

ولما ذكر تعالى حال المؤمنين المتسمين بالصبر والصلاة والحج وغير ذلك من أعمال البر وحال من ارتكب المعاصي ثم ألق عن ذلك وتاب إلى الله ، ذكر حال من وافى على الكفر وأنه تحت لعنة الله ملائكته والناس وأنهم خالدون في اللعنة غير مخفف عنهم العذاب ، ولا مرجئون إلى وقت ، ثم لما كان كفر معظم الكفار إنما هو لا تخاذهم مع الله آلهة ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ [ص : ٥] ، ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة : ١١٦] ، ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾ [التوبة : ٣٠] ، وفي الحديث إنهم يسألون فيقولون : كنا نعبد عزيزاً أخبر تعالى أن الإله هو واحد لا يتعدد ولا يتجزأ ، ولا له مثل في صفاته ، ثم حصر الإلهية فيه ، فتضمن ذلك أنه هو الميثب المعاقب فوصف نفسه بهاتين الصفتين من الرحمانية والرحيمية ، ثم أخذ في ذكر ما يدل على الوحدانية والانفراد بالإلهية ، فبدأ بذكر اختراع الأفلاك العلوية ، والجرم الكثيف الأرضي ، وما يكون فيهما من اختلاف ما به السكون والحركة من الليل والنهار الناشئين عما أودع الله تعالى في العالم العلوي ، واختلاف الفلك ذاهبة وآية بما ينفع الناس الناشيء ذلك عما أودع في العالم السفلي ، وما يكون مشتركاً بين العالمين من إنزال الماء وتشقق الأرض بالنبات وانتشار العالم فيها ، ولما ذكر أشياء في الأجرام العلوية وأشياء في الجرم الأرضي ذكر شيئاً مما هو بين الجرمين وهو تصريف الرياح والسحاب إذ كان بذلك تتم النعمة المقتضية لصلاح العالم في منافعهم البحرية والبرية ، ثم ذكر أن هذا كله هي آيات للعاقل تدله على وحدانية الله تعالى واختصاصه بالإلهية إذ من عبوده من دون الله يعلمون قطعاً أنه لا يمكنه اقتدار على شيء ما مما تضمنته هذه الآيات ، وأنهم بعض ما حوته الدائرة العلوية والدائرة السفلية وأن نسبتهم إلى من لم يعبدوه من سائر المخلوقات نسبة واحدة في الافتقار والتغير فلا مزية لهم على غيرهم إلا عند من سلب نور العقل وغشيته ظلمات الجهل ، ثم ذكر تعالى بعد ذكر هذه البينات الواضحات الدالة على الوحدانية واستحقاق العبادة أن من الناس متخذي أنداد ، وأنهم يؤثرونهم ويحبونهم مثل محبة الله ، فهم يسوون بين الخالق والمخلوق في المحبة ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ [النحل : ١٧] ، ثم ذكر أن من المؤمنين أشد حباً لله من هؤلاء لأصنامهم ، ثم خاطب من خاطب بقوله (ولو يرى الذين ظلموا) حين عاينوا نتيجة اتخاذهم الأنداد وهو العذاب الحال بهم أي لرأيت أمراً عظيماً ، ثم نبه على أن أندادهم لا طاقة لها ولا قوة بدفع العذاب عمن اتخذوهم لأن جميع القوى والقدر هي لله تعالى ، ثم ذكر تعالى تبرؤ المتبوعين من التابعين وقت العذاب وزالت المودات التي كانت بينهم ، وأن التابعين تمنوا الرجوع إلى الدنيا حتى يؤمنوا ويتبرؤوا من متبوعهم حيث لا ينفع التمني ولا يمكن أن يقع فهو تمنى مستحيل لأن الله تعالى قد حكم وأمضى أن لا عودة إلى الدنيا ، ثم ذكر تعالى أنهم بعد رؤيتهم العذاب وتقطع الأسباب أراهم أعمالهم ندامات حيث لا ينفع الندم ليتضاعف بذلك الألم ، ثم ختم ذلك بما ختم لهم من العذاب السرمدي والشقاء الأبدي ، نعوذ بالله من سطا نقماته ، ونستنزل من كرمه العميم نشر رحماته

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ أَنْتُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمُ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا

اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ ثُمًّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٨٠﴾

« الحلال »^(١) مقابل الحرام ، ومقابل المحرم يقال شيء حلال أي سائغ الانتفاع به ، وشيء حرام ممنوع منه ، ورجل حلال أي ليس بمحرم ، قيل وسمى حلالاً لانهلال عقد المنع منه ، والفعل منه حَلَّ يَحُلُّ بكسر الحاء في المضارع على قياس الفعل المضاعف اللازم ، ويقال هذا جُلُّ أي حلال ، ويقال حَلَّ بَلَّ على سبيل التوكيد ، وحَلَّ بالمكان نزل به ومضارعه جاء بضم الحاء وكسرها ، وحل عليه الدين : حان وقت أدائه ، « الحُطُوة » بضم الحاء ما بين قدمي الماشي من الأرض ، والحُطُوة بفتحها المرة من المصدر يقال خطا بخطو خطواً مشى ، ويقال هو واسع الخطو ، فالحُطُوة بالضم عبارة عن المسافة التي يخطو فيها كالغرفة والقبضة وهما عبارتان عن الشيء المعروف والمقبوض ، وفي جمعها بالالف والياء لُغَى ثلاث : إسكان الطاء كحالها في المفرد وهي لغة تميم وناس من قيس ، وضمه الطاء اتباعاً لضمه الحاء ، وفتح الطاء ويجمع تكسيراً على خطى وهو قياس مطرد في فعلة الاسم ، الفحشاء^(٢) مصدر كالبأساء وهو فعلاً من الفحش وهو قبح المنظر ومنه قول امرئ القيس : -

وَجِيدٌ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتُهُ وَلَا بِمُعْطَلٍ

ثم توسع فيه حتى صار يستعمل فيما يستقبح من المعاني ، « ألقى »^(٣) وجد ، وفي تعديها إلى مفعولين خلاف ومن منع جعل الثاني حالاً والأصح كونه مفعولاً لمجيئه معرفة وتأويله على زيادة الألف واللام على خلاف الأصل ، النعيق^(٤) دعاء الراعي وتصويته بالغنم ، قال الشاعر :

فَانْعَقُ بِضَائِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَتَّكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا^(٥)

ويقال نعق المؤذن ، ويقال نعق ينعق نعيقاً ونعاقاً ونعقاً ، وأما نعق الغراب فبالغين المعجمة ، وقيل أيضاً يقال بالمهملة في الغراب ، « النداء » مصدر نادى كالقتال مصدر قاتل وهو بكسر النون وقد تضم ، قيل : وهو مرادف

(١) الحلال : ضد الحرام . رجل حلال أي غير محرم ولا ملتبس بأسباب الحج ... لسان العرب (٩٧٤/٢) .

(٢) قال : ابن سيده : الفحش والفحشاء والفاحشة : القبيح من القول والفعل ، وجمعها الفواحش ، وأفحش عليه في المنطق ، أي : قال الفحش ، والفحشاء : اسم الفاحشة - لسان العرب (٣٣٥٥/٥) .

(٣) ألقى الشيء : وجده ، وتلاقاه ، افتقده وتداركه - لسان العرب (٤٠٥٦/٥) .

(٤) النعيق : دعاء الراعي الشاء . يقال : انعق بضائك ، أي : ادعها - لسان العرب (٤٤٧٦/٦) .

للدعاء ، وقيل : مختص بالجهر ، وقيل : بالبعد ، وقيل : بغير المعين ، ويقال « فلان أُنْدَى صوتاً من فلان » ، أي أقوى وأشد وأبعد مذهباً ، « اللحم » معروف يقال لحم الرجل لحامة فهو لحيم ضخم ، ولحم يلحم فهو لحم اشتاق إلى اللحم ، ولحم الناس يلحمهم أطعمهم اللحم ، فهو لاحم ، وألحم فهو ملحم كثر عنده اللحم ، (الخنزير) حيوان معروف ونونه أصلية فهو فعليل ، وزعم بعضهم أن نونه زائدة وأنه مشتق من خزر العين لأنه كذلك ينظر ، يقال « تخازر الرجل » : ضيق جفنه ليحد النظر ، والخزر ضيق العين وصغرهما ، ويقال رجل أخزر بين الخزر ، وقيل : هو النظر بمؤخر العين فيكون كالتشوس ، « الإهلال » رفع الصوت ، ومنه الإهلال بالتلبية ، ومنه سمي الهلال لارتفاع الصوت عند رؤيته ، ويقال أهل الهلال واستهل ، ويقال أهل بكذا رفع صوته ، قال ابن أحمر^(١) :

يَهْلُ بِالْفَذْفِ رُكْبَانُنَا كَمَا يَهْلُ الرَّكَبُ الْمُعْتَمِرُ

وقال النابغة :

أَوْ دُرَّةٌ صَدْفِيَّةٌ غَوَاصُهَا بَهْجٌ مَتَى تَرَهُ يَهْلُ وَيَسْجُدُ

ومنه إهلال الصبي واستهلاله وهو صياحه عند ولادته ، وقال الشاعر :

يَضْحَكُ الذُّبُّ لِقَتْلَى هَذِيلٍ وَتَرَى الذُّبَّ لَهَا يَسْتَهْلُ

« البطن » معروف ، وجمعه على فعول قياس ، ويجمع أيضاً على بطنان ، يقال بطن الأمر يبطن إذا خفي ، وبطن الرجل فهو بطين كبر بطنه ، والبطنة امتلاء البطن بالطعام ، ويقال البطنة تذهب الفطنة ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ هذا ثاني نداء وقع في سورة البقرة بقوله يا أيها الناس ولفظه عام ، قال الحسن نزلت في كل من حرم على نفسه شيئاً لم يحرمه الله عليه ، وروى « الكلبي » و « مقاتل » و « غيرهما » أنها نزلت في ثقيف وخزاعة وبني الحارث بن كعب قاله « النقاش » ، وقيل في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة ، قيل : وبني مدلج حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام وحرّموا البحيرة والسوائب والوصيلة والحام ، فإن صح هذا كان السبب خاصاً واللفظ عاماً ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(ومناسبة هذا لما قبله) أنه لما بين التوحيد ودلائله وما للتائبين والعاصين أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن ليدل أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام .

وقال المروزي لما حذر المؤمنين من حال من يصير عمله عليه حسرة أمرهم بأكل الحلال لأن مدار الطاعة عليه ، (كلوا) أمر بإباحة وتسويغ ، لأنه تعالى هو الموجد للأشياء فهو المتصرف فيها على ما يريد ، (مما في الأرض) من تبعيضية وما موصولة ومن في موضع المفعول نحو « أكلت من الرغيف » ، و (حلالاً) حال من الضمير المستقر في الصلة المتتقل من العامل فيها إليها ، وقال مكّي بن أبي طالب^(٢) : حلالاً نعت لمفعول محذوف تقديره « شيئاً

(١) هنيء بن أحمر من بني الحارث من كنانة شاعر جاهلي الأعلام للزركلي (١٠٠/٨) .

(٢) علي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي أبو محمد من أهل القيروان ، توفي سنة ٤٣٧ هجرية - وانظر وفيات

الأعيان (١٢٠/٢) ، الأعلام (٢٨٦/٧) .

حلالاً» ، قال ابن عطية : وهذا بعيد ولم يبين وجه بعده ، وبعده أنه مما حذف الموصوف وصفته غير خاصة لأن الحلال يتصف به المأكول وغير المأكول ، وإذا كانت الصفة هكذا لم يجوز حذف الموصوف وإقامتها مقامه ، وأجاز قوم أن ينتصب حلالاً على أنه مفعول بكلوا ، وبه ابتدأ الزمخشري^(١) ، ويكون على هذا الوجه « من » لا ابتداء الغاية متعلقة بكلوا ، أو متعلقة بمحذوف فيكون حالاً والتقدير « كلوا حلالاً مما في الأرض » ، فلما قدمت الصفة صارت حالاً فتعلقت بمحذوف كما كانت صفة تتعلق بمحذوف ، وقال ابن عطية : مقصد الكلام لا يعطي أن تكون حلالاً مفعولاً بكلوا . تأمل انتهى ، (طيباً) انتصب صفة لقوله (حلالاً) إما مؤكدة لأن معناه ومعنى حلالاً واحد وهو قول مالك وغيره ، وإما مخصصة لأن معناه مغاير لمعنى الحلال وهو المستلذ ، وهو قول الشافعي وغيره ، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث ، وقيل انتصب طيباً على أنه نعت لمصدر محذوف أي أكلاً طيباً وهو خلاف الظاهر ، وقال ابن عطية : ويصح أن يكون (طيباً) حالاً من الضمير في (كلوا) تقديره : « مستطيين » وهذا فاسد في اللفظ والمعنى ، أما اللفظ : فلأن (طيباً) اسم فاعل وليس بمطابق للضمير ، لأن الضمير جمع « وطيب » مفرد ، وليس طيب بمصدر فيقال لا يلزم المطابقة . وأما المعنى : فلأن طيباً مغاير لمعنى مستطيين لأن الطيب من صفات المأكول المستطيب من صفات الأكل تقول « طاب لزيد الطعام » ولا تقول « طاب زيد الطعام » في معنى استطابه ، وقال الزمخشري^(٢) في قوله طيباً طاهراً من كل شبهة ، وقال السجاوندي : حلالاً مطلق الشرع ، طيباً مستلذ الطبع ، وقال في المنتخب ما ملخصه الحلال الذي انحلت عنه عقدة الحظر ، إما لكونه حراماً لجنسه كالميتة ، وإما لا لجنسه كملك الغير إذا لم يأذن في أكله ، والطيب لغة الطاهر ، والحلال يوصف بأنه طيب كما أن الحرام يوصف بأنه خبيث ، والأصل في الطيب ما يستلذ ووصف به الطاهر والحلال على جهة التشبيه ، لأن النجس تكرهه النفس والحرام لا يستلذ لأن الشرع منع منه انتهى والثابت في اللغة أن الطيب هو الطاهر من الدنس ، قال :

وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ

وقال آخر :

وَلِي الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ يَصْلُحُ الْآبِرُ زَرْعَ الْمُؤْتَبِرِ
طَيِّبُوا الْبَاءَةَ سَهْلٌ وَلَهُمْ سُبُلٌ إِنْ شِئْتَ فِي وَحْشٍ وَعِرٍ

وقال الحسن : الحلال الطيب هو ما لا يسئل عنه يوم القيامة ، وقال ابن عباس : الحلال الذي لا تبعة فيه في الدنيا ولا وبال في الآخرة ، وقيل : الحلال ما يجوزه المفتي ، والطيب ما يشهد له القلب بالحل ، وقد استدل من قال بأن الأصل في الأشياء الحظر بهذه الآية ، لأن الأشياء ملك الله تعالى فلا بد من إذنه فيما يتناول منها وما عدا ما لم يأذن فيه يبقى على الحظر ، وظاهر الآية أن ما جمع الوصفين الحل والطيب مما في الأرض فهو مأذون في أكله ، أما تملكه والتصدق به أو ادخاره أو سائر الانتفاعات به غير الأكل فلا تدل عليه الآية فإما أن يجوز ذلك بنص آخر أو إجماع عند من لا يرى القياس أو بالقياس على الأكل عند من يقول بالقياس ، (ولا تتبعوا خُطوات الشيطان) وقرأ ابن عامر والكسائي وقنبل وحفص وعباس عن أبي عمرو والبرجمي عن أبي بكر بضم الخاء والطاء وبالواو ، وقرأ باقي السبعة بضم الخاء إسكان الطاء وبالواو ، وقرأ أبو السمال (خُطوات) بضم الخاء وفتح الطاء وبالواو وقد تقدم أن هذه لغى ثلاث في جمع خطوة ، ونقل ابن عطية والسجاوندي أن أبا السمال قرأ (خُطوات) بفتح الخاء والطاء وبالواو جمع خُطوة وهي المرة من

(٢) انظر الكشف (١/ ٢١٣) .

(١) انظر الكشف (١/ ٢١٣) .

الخطو ، وقرأ على قتادة والأعمش وسلام (خُطُوت) بضم الخاء والطاء والهمزة واختلف في توجيه هذه القراءة ، فقليل الهمزة أصل وهو من الخطأ جمع خطأ إن كان سُمِعَ وإلا فتقديراً وممن قال إنه من الخطأ أبو الحسن الأخفش وفسره مجاهد خطاياهم وتفسيره يحتمل أن يكون فسر بالمرادف أو فسر بالمعنى ، وقيل هو جمع خطوة لكنه توهم ضمة الطاء أنها على الواو فهمز ، لأن مثل ذلك قد يهمز قال معناه الزمخشري^(١) .

والنهي عن اتباع خطوات الشيطان كناية عن ترك الاقتداء به وعن اتباع ما سنّ من المعاصي ، يقال : « اتبع زيد خطوات عمرو ووطىء على عقبيه » إذا سلك مسلكه في أحواله ، قال ابن عباس خطواته أعماله ، وقال مجاهد : خطاياهم ، وقال السدي : طاعته ، وقال أبو مجلز : النذور في المعاصي ، وقيل : ما ينقلهم إليه من معصية إلى معصية حتى يستوعبوا جميع المعاصي ، مأخوذ من خطو القدم من مكان إلى مكان ، وقال الزجاج وابن قتيبة : طرقة ، وقال أبو عبيدة : محقرات الذنوب ، وقال المؤرج : آثاره ، وقال عطاء : زلاته .

وهذه أقوال متقاربة المعنى صدرت من قائلها على سبيل التمثيل ، والمعنى بها كلها النهي عن معصية الله ، وكأنه تعالى لما أباح لهم الأكل من الحلال الطيب نهاهم عن معاصي الله وعن التخطي إلى أكل الحرام لأن الشيطان يلقي إلى المرء ما يجري مجرى الشبهة ، فيزين بذلك ما لا يحل فزجر الله عن ذلك ، و (الشيطان) هنا إبليس ، والنهي هنا اتباع كل فرد فرداً من المعاصي ، لا أن ذلك يفيد الجمع فلا يكون نهياً عن المفرد ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تعليل لسبب هذا التحذير من اتباع الشيطان لأن من ظهرت عداوته واستبانته فهو جدير بأن لا يتبع في شيء وأن يفر منه فإنه ليس له فكر إلا في إرداء عدوه ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ لما أخبر أنه عدو أخذ يذكر ثمره العداوة وما نشأ عنها وهو أمره بما ذكر وقد تقدم الكلام في إنما في قوله : (إنما نحن مصلحون) وفي الخلاف فيها أتفيد الحصر أم لا ، وأمر الشيطان إما بقوله في زمن الكهنة وحيث يتصور ، وإما بوسوسته وإغوائه ، فإذا أطيع نفذ أمره بالسوء أي بما يسوء في العقبي ، وقال ابن عباس : السوء ما لا حذله ، والفحشاء : قال السدي : هي الزنا ، وقال ابن عباس : كل ما بلغ حداً من الحدود لأنه يتفاحش حينئذ ، وقيل : ما تفاحش ذكره ، وقيل : ما قبح قولاً أو فعلاً ، وقال طاووس : ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ، وقال عطاء : هي البخل^(٢) ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ قال الطبري : يريد به ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوه وجعلوه شرعاً ، وقال الزمخشري^(٣) : هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله مما لا يجوز عليه انتهى ، قيل : وظاهر هذا تحريم القول في دين الله بما لا يعلمه القائل من دين الله ، فيدخل في ذلك الرأي والأقيسة والشبهية والاستحسان ، قالوا وفي هذه الآية إشارة إلى ذم من قلد الجاهل واتبع حكمه ، قال الزمخشري^(٤) .

فإن قلت كيف كان الشيطان أمراً مع قوله ﴿ ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الحجر : ٤٢] .

قلت : شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر كما تقول أمرتني نفسي بكذا وتحتنه رمز إلى أنكم فيه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وسأوسه ولذلك قال ﴿ ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ [النساء : ١١٩] ، وقال الله تعالى ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ [يوسف : ٥٣] ، لما كان الإنسان يطعمها ويعطيها

(١) انظر الكشف (٢١٣/١) .

(٢) انظر الوجيز للواحدي (٤٣/١) ، الطبري (٣٠٣/٣) ، معالم التنزيل (١٣٨/١) ، الدر المشور (١٦٧/١) ، فتح القدير

(١٦٧/١) .

(٤) انظر الكشف (٢١٣/١) .

(٣) انظر الكشف (٢١٣/١) .

ما انتهت انتهى كلامه ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ الضمير في لهم عائد على كفار العرب لأن هذا كان وصفهم وهو الاقتداء بآبائهم ولذلك قالوا لأبي طالب حين احتضر أترغب عن ملة عبد المطلب ذكروه بدين أبيه ومذهبه ، وقال ابن عباس : نزلت في اليهود فعلى هذا يكون الضمير عائداً على غير مذكور وهم أشد الناس اتباعاً لأسلافهم ، وقيل هو عائد على من من قوله (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً) وهو بعيد ، وقال الطبري هو عائد على الناس من قوله : ﴿ يا أيها الناس كلوا ﴾ وهذا هو الظاهر ويكن ذلك من باب الالتفات وحكمته أنهم أبرزوا في صورة الغائب الذي يتعجب من فعله حيث دعي إلى اتباع شريعة الله التي هي الهدى والنور ، فأجاب باتباع شريعة أبيه وكأنه يقال : هل رأيتم أسخف رأياً وأعمى بصيرة ممن دعي إلى اتباع القرآن المنزل من عند الله ؟ فرد ذلك وأضرب عنه ، وأثبت أنه يتبع ما وجد عليه أباه ، وفي هذا دلالة على ذم التقليد وهو قبول الشيء بلا دليل ولا حجة ، وحكى ابن عطية أن الإجماع منعقد على إبطاله في العقائد .

وفي الآية دليل على أن ما كان عليه آباؤهم هو مخالف لما أنزل الله فاتباع آبائهم لآبائهم تقليد في ضلال ، وفي هذا دليل على أن دين الله هو اتباع ما أنزل الله لأنهم لم يؤمروا إلا به ، والمراد بقوله (وإذا) التكرار ، وبني « قيل » لما لم يسم فاعله لأنه أخصر لأنه لو ذكر الأمور لطل الكلام لأن الأمر بذلك هو الرسول ومن يتبعه من المؤمنين ، وفي قوله (ما أنزل الله) إعلام بتعظيم ما أمروهم باتباعه أن نسب إنزاله إلى الله الذي هو المشرع للشرائع فكان ينبغي أن يتلقى بالقبول ولا يعارض باتباع آبائهم رؤوس الضلالة وأدغم الكسائي لام (بل) في نون (نتبع) وأظهر ذلك غيره ، و (بل) هنا عاطفة جملة على جملة محذوفة ، التقدير « لا نتبع ما أنزل الله بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ولا يجوز أن يعطف على قوله (اتبعوا ما أنزل الله) و (عليه) متعلق بقوله (ألفينا) ، ليست هنا متعديّة إلى اثنين لأنها بمعنى وجد التي بمعنى أصاب . ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ الهمزة للاستفهام المصحوب بالتوبيخ والإنكار والتعجب من حالهم ، وأما الواو بعد الهمزة فقال الزمخشري (١) : الواو للحال ومعناه : أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصواب ، وقال ابن عطية : الواو لعطف جملة كلام على جملة لأن غاية الفساد في الالتزام أن يقولوا « نتبع » آباءنا ولو كانوا لا يعقلون » فقررروا على التزام هذا أي : هذه حال آبائهم انتهى كلامه .

وظاهر قول الزمخشري (٢) أن الواو للحال مخالف لقول ابن عطية أنها للعطف ، لأن الواو الحال ليست للعطف والجمع بينهما أن هذه الجملة المصحوبة بلو في مثل هذا السياق هي جملة شرطية ، فإذا قال « اضرب زيداً ولو أحسن إليك » المعنى : إن أحسن ، وكذلك أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، ردوا السائل ولو يشق تمرة ، المعنى فيها وإن . وتجيء لو هنا تنبيهاً على أن ما بعدها لم يكن يناسب ما قبلها لكنها جاءت لاستقصاء الأحوال التي يقع فيها الفعل ولتدل على أن المراد بذلك وجود الفعل في كل حال حتى في هذه الحال التي لا تناسب الفعل ولذلك لا يجوز « اضرب زيداً ولو أساء إليك » ولا « أعطوا السائل ولو كان محتاجاً » ولا « ردوا السائل ولو بمائة دينار » ، فإذا تقرر هذا فالواو في (ولو) في المثل التي ذكرناها عاطفة على حال مقدرة والعطف على الحال حال فصيح أن يقال إنها للحال من حيث إنها عطفت جملة حالية على حال مقدرة ، والجملة المعطوفة على الحال حال ، وصح أن يقال إنها للعطف من حيث ذلك العطف ، والمعنى والله أعلم : إنكار اتباع آبائهم في كل حال في الحالة التي لا تناسب أن يتبعوا فيها ، وهي تلبسهم بعدم العقل وعدم الهداية ولذلك لا يجوز حذف هذه الواو الداخلة على لو إذا كانت تنبيهاً على أن ما بعدها لم يكن يناسب ما قبلها ، وإن كانت الجملة الواقعة حالاً فيها ضمير يعود على ذي الحال لأن مجيئها عارية من الواو يؤذن بتقييد

(١) انظر الكشف (٢١٣/١) .

(٢) انظر الكشف (٢١٣/١) .

الجملة السابقة بهذه الحال ، فهو ينافي استغراق الأحوال حتى هذه الحال فهما معنيان مختلفان ، والفرق ظاهر بين « أكرم زيداً لو جفاك » أي إن جفاك ، وبين « أكرم زيداً ولو جفاك » : وانتصاب شيئاً على وجهين :

أحدهما : على المفعول به فعم جميع المعقولات لأنها نكرة في سياق النفي فتعم ، ولا يمكن أن يكون المراد نفي الوحدة فيكون المعنى لا يعقلون شيئاً بل أشياء .

والثاني : أن يكون منصوباً على المصدر أي شيئاً من العقل ، وإذا انتفى انتفى سائر العقول ، وقدم نفي العقل لأنه الذي تصدر عنه جميع التصرفات وآخر نفي الهداية لأن ذلك مترتب على نفي العقل ، لأن الهداية للصواب هي ناشئة عن العقل وعدم العقل عدم لها ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ لما ذكر تعالى أن هؤلاء الكفار إذا أمروا باتباع ما أنزل الله أعرضوا عن ذلك ورجعوا إلى ما ألفوه من اتباع الباطل الذي نشؤوا عليه ووجدوا عليه آباءهم ، ولم يتدبروا ما يقال لهم ، وصموا عن سماع الحق ، وخرسوا عن النطق به ، وعموا عن إبصار النور الساطع النبوي ذكر هذا التشبيه العجيب في هذه الآية منبهاً على حالة الكافر في تقليده آباءه ومحقر نفسه إذ صار هو في رتبة البهيمة أو في رتبة داعيها على الخلاف الذي سيأتي في هذا التشبيه .

وهذه الآية لا بد في فهم معناها من تقدير محذوف ، واختلفوا فمنهم من قال : المثل مضروب بتشبيه الكافر بالناعق ، ومنهم من قال : هو مضروب بتشبيه الكافر بالمنعوق به ، ومنهم من قال : هو مضروب بتشبيه داعي الكافر بالناعق ، ومنهم من قال : هو مضروب بتشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق به .

فعلى أن المثل مضروب بتشبيه الكافر بالناعق ، قيل يكون التقدير : « ومثل الذين كفروا في قلة فهمهم وعقلهم كمثل الرعاة يكلمون البهم والبهم لا تعقل شيئاً » ، وقيل يكون التقدير « ومثل الذين كفروا في دعائهم ألتههم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناقع بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه في عناء ونداء وكذلك الكافر ليس له من دعائه الآلهة وعبادته الأوثان إلا العناء » ، قال الزمخشري^(١) وقد ذكر هذا القول إلا أن قوله (إلا دعاءً ونداءً) لا يساعد عليه ، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً . انتهى كلامه ، ولحظ الزمخشري^(٢) في هذا القول تمام التشبيه من كل جهة فكما أن المنعوق به لا يسمع إلا دعاء ونداء فكذلك مدعو الكافر من الصنم والصنم لا يسمع فضعف عنده هذا القول .

ونحن نقول : التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو ، فشبّه الكافر في دعائه الصنم بالناعق بالبهيمة لا في خصوصيات المنعوق به ، وقيل : في هذا القول أعني قول من قال التقدير « ومثل الذين كفروا في دعائهم ألتههم وأصنامهم » إن الناقع هنا ليس المراد به الناقع بالبهائم من الضأن أو غيرها ، وإنما المراد به الصائح في جوف الجبال فيجيبه منها صوت يقال له الصداً يجيبه ولا ينفعه ، فالمعنى « بما لا يسمع منه الناقع إلا دعاءه ونداءه » قاله ابن زيد فعلى القولين السابقين يكون الفاعل يسمع ضميراً يعود على ما وهو المنعوق به ، وعلى هذا القول يكون الفاعل ضميراً عائداً على الذي ينعق ، ويكون الضمير العائد على ما الرابط للصلة بالموصول محذوفاً لفهم المعنى تقديره « بما لا يسمع منه » وليس فيه شروط جواز الحذف لأن الضمير مجرور بحرف جر الموصول بغيره ، واختلف ما يتعلقان به ، فالحرف الأول باء تعلقت بينق ، والثاني من تعلق بيسمع ، وقد جاء في كلامهم مثل هذا ، قال : وقيل المراد بالذين كفروا : المتبوعون لا التابعون ، ومعناه « مثل الذين كفروا في دعائهم أتباعهم وكون أتباعهم لا يحصل لهم منهم إلا الخيبة والخسران كمثل الناقع بالغنم » .

وأما القول على أن المثل مضروب بتشبيه الكافر بالمنعوق به وهو البهائم التي لا تعقل مثل الإبل والبقر والغنم والحمير ، وهو قول ابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة والحسن والربيع والسدي وأكثر المفسرين اختلفوا في تقديره مصحح هذا التشبيه ، ف قيل : التقدير و « مثل الذين كفروا في دعائهم إلى الله تعالى وعدم سماعهم إياه كمثل بهائم الذي ينق » ، فهو على حذف قيد في الأول ، وحذف مضاف من الثاني ، وقيل : التقدير « ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن الله وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي غير الصوت » فيراد بالذي ينق الذي ينق به فيكون هذا من المقلوب عندهم قالوا كما تقول : « دخل الخاتم في يدي الخف في رجلي » وكقولهم « عرض الحوص على الناقة » وأوردوا مما ذكروا أنه مقلوب جملة ، وذهب إلى هذا التفسير أبو عبيدة والفراء وجماعة ، وينبغي أن ينزه القرآن عنه لأن الصحيح أن القلب لا يكون إلا في الشعر أو إن جاء في الكلام فهو من القلة بحيث لا يقاس عليه .

وأما القول على أن المثل مضروب بتشبيه داعي الكافر بالناقع فيكون قوله تعالى (ومثل الذين كفروا) هو على تقدير و « مثل داعي الذين كفروا » فهو على حذف مضاف ، فلا يكون من تشبيه الكافر بالناقع ولا بالمنعوق ، وإنما يكون من باب تشبيه داعي الكافر في دعائه إياه بالناقع بالبهائم في كون الكافر لا يفهم مما يخاطبه به داعيه إلا دوي الصوت دون إلقاء ذهن ولا فكر فهو شبيه بالناقع بالبهيمة التي لا تسمع من الناقع بها إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم شيئاً آخر ، قال الزمخشري^(١) : ويجوز أن يراد بما لا يسمع الأصم الأصلح الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والصوت لا غير من غير فهم للحروف ، وأما على القول بأن المثل مضروب بتشبيه الداعي والكافر بالناقع والمنعوق به ، فهو الذي اختاره سيبويه في الآية أن المعنى « مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به » ، وقد اختلف في كلام سيبويه ف قيل : هو تفسير معنى لا تفسير إعراب ، وقيل هو تفسير إعراب ، وهو إن في الكلام حذفين حذف من الأول وهو حذف داعيهم ، وقد أثبت نظيره في الثاني ، وحذف من الثاني وهو حذف المنعوق به وقد أثبت نظيره في الأول ، ف شبه داعي الكفار براعي الغنم في مخاطبته من لا يفهم عنه وشبه الكفار بالغنم في كونهم لا يسمعون مما دعوا إليه إلا أصواتاً ولا يعرفون ما وراءها ، وفي هذا الوجه حذف كثير إذ فيه حذف معطوفين ، إذ التقدير الصناعي « ومثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الذي ينق والمنعوق به » ، وذهب إلى تقرير هذا الوجه جماعة من أصحابنا منهم الأستاذ أبو بكر بن طاهر ، وتلميذه أبو الحسن بن خروف ، والأستاذ أبو علي الشلوبين ، وقالوا إن العرب تستحسنه وأنه من بدیع كلامها ومثاله قوله تعالى ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء ﴾ [النمل : ١٢] ، التقدير وأدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج بيضاء فحذف تدخل لدلالة تخرج ، وحذف وأخرجها لدلالة وأدخل ، قالوا ومثل ذلك قول الشاعر :

وَإِنِّي لَتَعْرِوْنِي لِذِكْرَاكِ فَتَرَةً كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَلُهُ الْقَطْرُ^(٢)

لم يرد أن يشبه فترته بانتفاض العصفور حين يبله القطر لكونهما حركة وسكوناً فهما ضدان ، ولكن تقديره إني إذا ذكرتكَ عراني انتفاض ثم افتر ، كما أن العصفور إذا بلله القطر عراه فترة ثم ينتفض غير أن وجيب قلبه واضطرابه قبل الفترة وفترة العصفور قبل انتفاضه ، وهذه الأقوال كلها في التشبيه إنما هي على مراعاة تشبيه مفرد بمفرد ومقابلة جزء من الكلام السابق بجزء من الكلام المشبه به ، وأما إذا كان التشبيه من باب تشبيه الجملة بالجملة فلا يراعى في ذلك مقابلة الألفاظ المفردة بل ينظر فيه إلى المعنى ، وعلى هذا الضرب من التشبيه حمل الآية « أبو القاسم الراغب » قال

الراغب : فلما شبه قصة الكافرين في إعراضهم عن الداعي لهم إلى الحق بقصة الناقع قدم ذكر الناقع اليبني عليه ما يكون منه ومن المنعوق به وعلى هذا ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ﴾ [آل عمران : ١١٧] ، فهذه تسعة أقوال في تفسير هذه الآية وقد بقي شيء من الكلام عليها ، فنقول :

(ومثل الذين) مبتدأ خبره (كمثل) والكاف للتشبيه ، شبه الصفة بالصفة ، أي صفتهم كصفة الذي ينق ، ومن ذهب إلى أن الكاف زائدة فقوله ليس بشيء ، لأن الصفة ليست عين الصفة فلا بد من الكاف التي تعطي التشبيه ، بل لو جاء دون الكاف لكنا نعتقد حذفها لأن به تصحيح المعنى والذي ينق لا يراد به مفرد بل المراد الجنس وتقدم أن المراد كالناقع بالبهايم أو كالمصوت في الجبال الذي لا يجيبه منها إلا الصدا أو كالمصوت بالاصم الأصليخ أو كالمنعوق به فيكون من باب القلب ، وقيل كالمصوت بشيء بعيد منه فهو لا يسمع من أجل البعد ، فليس للمصوت من ذلك إلا النداء الذي ينصبه ويتعبه ، وقيل : وقع التشبيه بالراعي للضأن لأنها من أبله الحيوان فهي تخفق راعيها ، وفي المثل « أحقق من راعي ضأن ثمانين » ، وقال دريد بن الصمة لمالك بن عوف يوم هوازن « راعي ضأن والله » لأنه لما جاء إلى قتال النبي ﷺ أمر هوازن ومن كان معهم أن يحملوا معهم المال والنساء فلما لقيه دريد قال : أراك سقت المال والنساء ، فقال يقاتلون عن أموالهم وحریمهم فقال له دريد أمنت أن تكون عليك راعي ضأن والله لا صحبتك وقال الشاعر :

أَصْبَحْتُ هُرْءاً لِرَاعِي الضَّانِ يَهْزَأُ بِي مَاذَا يُرِيْبُكَ مِنِّي رَاعِي الضَّانِ

(إلا دعاء ونداء) هذا استثناء مفرغ لأن قبله فعل مبني متعد لم يأخذ مفعوله وذهب بعضهم إلى أنه ليس استثناء مفرغاً وأن إلا زائدة ، والدعاء والنداء منفي سماعهما ، والتقدير : « بما لا يسمع دعاء ولا نداء » وهذا ضعيف ، لأن القول بزيادة « إلا » قول بلا دليل وقد ذهب الأصمعي رحمه الله إلى ذلك في قوله :

خَرَجِيْجُ مَا تَنْفَكُ إِلَّا مَنَاخَةً عَلَى الْخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بِهَا بَلْدًا قَفْرًا^(١)

وضعف قوله في ذلك ، ولم يثبت زيادة إلا في مكان مقطوع به فنثبت لها الزيادة ، وأورد بعضهم هنا سؤالاً فقال : فإن قيل قوله (لا يسمع إلا دعاء ونداء) ليس المسموع إلا الدعاء والنداء فكيف ذمهم بأنهم لا يسمعون إلا الدعاء وكأنه قيل لا يسمعون إلا المسموع وهذا لا يجوز ، فالجواب : أن في الكلام إيجازاً ، وإنما المعنى لا يفهمون معاني ما يقال لهم كما لا يميز البهايم بين معاني الألفاظ التي لا تصوت بها ، وإنما يفهم شيئاً سيراً وقد أدركته بطول الممارسة وكثرة المعادة فكأنه قيل ليس لهم إلا سماع النداء دون إدراك المعاني والاعراض انتهى كلامه ، وقال علي بن عيسى إنما نبي فقال (إلا دعاء ونداء) لأن الدعاء طلب الفعل ، والنداء إجابة الصوت .

(صم بكم عمي) تقدم الكلام على هذه الكلم ، (فهم لا يعقلون) لما تقرر فقدّم لمعاني هذه الحواس قضى بأنهم لا يعقلون كما قال أبو المعالي^(٢) وغيره العقل علوم ضرورية يعطيها هذه الحواس إذ لا بد في كسبها من الحواس انتهى ، قيل : والمراد العقل الاكتسابي لأن العقل المطبوع كان حاصلًا لهم ، والعقل عقلاً : مطبوع ومكسوب ، ولما كان الطريق لاكتساب العقل المكتسب هو الاستعانة بهذه القوى الثلاث : كان إعراضهم عنها فقدراً للعقل

(١) البيت من الطويل لذي الرمة ، انظر ديوانه ص (١٦٩) ، الخزانة (٢٤٧/٩) ، الإفصاح للفارقي ص (٢١٩) ، تذكرة النحاة

ص (٣٠٨) ، شرح الكافية (٢٩٦/٢) ، شرح شواهد المغني ص (٢١٩) ، اللسان (فكك) .

(٢) إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي ، ركن الدين المتوفى سنة ٤٧٨ هجرية - وفيات الأعيان

(٢٨٧/١) ، الأعلام (١٦٠/٤) .

المكتسب ولهذا قيل من فقد حساً فقد عقلاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لما أباح تعالى لعباده أكل ما في الأرض من الحلال الطيب وكانت وجوه الحلال كثيرة بين لهم ما حرم عليهم لكونه أقل ، فلما بين ما حرم بقي ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر وهذا مثل قوله ﷺ لما سئل عما يلبس المحرم فقال « لا يلبس القميص ولا السراويل » فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحظور ، لكثرة المباح وقلة المحظور ، وهذا من الإيجاز البليغ .

و (الذين آمنوا) جمع من آمن برسول الله ﷺ ، ويجوز أن يراد أهل المدينة ، فاللفظ عام والمراد خاص ، وقيل هذا الخطاب مؤكد لقوله (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض) ولما كان لفظ الناس يعم المؤمن والمؤمنين والكافر ميز الله المؤمنين بهذا النداء تشريفاً لهم وتنبهياً على خصوصيتهم وظاهر (كلوا) الأمر بالأكل المعهود ، وقيل المراد الانتفاع به ونبه بالأكل على وجوه الانتفاع إذ كان الأكل أعظمها إذ به تقوم البنية ، قيل : وهذا أقرب إلى المعنى لأنه تعالى ما خص الحل والحرمه بالمأكولات بل بسائر ما ينتفع به من أكل وشرب ولبس وغير ذلك .

و (الطيبات) ، قيل : الحلال ، وقيل : المستلذ المستطاب لكن بشرط أن يكون حلالاً ، وقد تقدم هذا الشرط في قوله ﴿كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ [البقرة : ١٦٨] ، فصار هذا الأمر الثاني مثل الأول في أن متعلقه المستلذ الحلال ، « ما رزقناكم » فيه إسناد الرزق إلى ضمير المتكلم بنون العظمة ، لما في الرزق من الامتنان والإحسان ، وإذا فسر الطيبات بالحلال كان في ذلك دلالة على أن ما رزقه الله ينقسم إلى حلال وإلى حرام بخلاف ما ذهب إليه المعتزلة من أن الرزق لا يكون إلا حلالاً ، وقد تقدم الكلام على الرزق في أول السورة فأغنى عن إعادته هنا ، ومن منع أن يكون الرزق حراماً قال : المراد كلوا من مستلذ ما رزقناكم وهو الحلال ، أمر بذلك وأباحه تعالى دفعاً لمن يتوهم أن التنوع في المطاعم والتفنن في إطبابتها ممنوع منه ، فكان تخصيص المستلذ بالذكر لهذا المعنى ﴿واشكروا لله﴾ هذا من الالتفات ، إذ خرج من ضمير المتكلم إلى اسم الغائب ، وحكمة ذلك ظاهرة لأن هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصاف التي منها وصف الإناعام والرزق ، والشكر ليس على هذا الإذن الخاص ، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص ، وجاء هنا تعدية الشكر باللام وقد تقدم الكلام على ذلك (وتضمنت) هذه الآية أمرين :

الأول : (كلوا) قالوا وهو عند دفع الضرر واجب ومع الضيف مندوب إليه ، وإذا خلا عن العوارض كان مباحاً وكذا هو في الآية .

والثاني : (واشكروا لله) وهو أمر وليس بإباحة ، قيل : ولا يمكن القول بوجوب الشكر لأنه إما أن يكون بالقلب أو باللسان أو بالجوارح ، فبالقلب هو العلم بصدور النعمة من المنعم أو العزم على تعظيمه باللسان أو الجوارح ، أما ذلك العلم فهو من لوازم كمال العقل فإن العاقل لا ينسى ذلك فإذا كان ذلك العلم ضرورياً فكيف يمكن إيجابه وأما العزم على تعظيمه باللسان والجوارح فذلك العزم القلبي تابع للإقرار اللساني والعمل بالجوارح فإذا بينا أنهما لا يجبان كان العزم بأن لا يجب أولى ، وأما الشكر باللسان فإما أن يفسر بالاعتراف له بكونه منعماً أو بالثناء عليه فهذا غير واجب بالاتفاق بل هو من باب المندوبات وأما الشكر بالجوارح والأعضاء فهو أن يأتي بأفعال دالة على تعظيمه وذلك أيضاً غير واجب ، وقال غير هذا القائل الذي تلخص أنه يجب اعتقاد كونه مستحقاً للتعظيم وإظهار ذلك باللسان أو سائر الأفعال إن وجدت هناك وهذا البحث في وجوب الشكر أو عدم وجوبه كان يناسب في أول شكر أمر به وهو قوله ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة : ١٥٢] .

﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ من ذهب إلى أن معناها معنى إذ فقوله ضعيف وهو قول كوفي ولا يراد بالشرط هنا إلا

الثبت والhez للنفوس ، وكأن المعنى العبادة له واجبة فالشكر له واجب ، وذلك كما تقول لمن هو متحقق العبودية « إن كنت عبي فأتعني » لا تريد بذلك التعليق المحض ، بل تبرزه في صورة التعليق ليكون أدعى للطاعة وأهز لها ، وقيل عبر بالعبادة عن العرفان كما قال ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، قيل معناه ليعرفون فيكون المعنى أشكروا لله إن كنتم عارفين به وبنعمه ، وذلك من إطلاق الأثر على المؤثر ، وقيل : عبر بالعبادة عن إرادة العبادة أي اشكروا الله إن كنتم تريدون عبادته ، لأن الشكر رأس العبادات ، وقال الزمخشري^(١) : إن صح أنكم تختصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم ، وعن النبي ﷺ^(٢) يقول الله تعالى : إني والجن والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري » انتهى كلامه . « وإيا » هنا مفعول مقدم وقدم لكون العامل فيه وقع رأس آية وللاهتمام به والتعظيم لشأنه لأنه عائد على الله تعالى كما في قولك ﴿ وإياك نستعين ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وهذا من المواضع التي يجب فيها انفصال الضمير ، وهو إذا تقدم على العامل أو تأخر لم ينفصل إلا في ضرورة قال :

إليك حتى بلغت إياكا

﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾ تقدم الكلام على (إنما) في قوله (إنما نحن مصلحون) ، وقرأ الجمهور (حَرَّمَ) مسنداً إلى ضمير اسم الله وما بعده نصب فتكون ما مهيئة في إنما هيأت أن لولايتها الجملة الفعلية ، وقرأ ابن أبي عبلة برفع (الميتة) وما بعدها فتكون ما موصولة اسم إن والعائد عليها محذوف أي « إن الذي حرمه الله الميتة » وما بعدها خبر إن ، وقرأ أبو جعفر (حَرَّمَ) مشدداً مبنياً للمفعول فاحتملت ما وجهين : أحدهما : أن تكون موصولة اسم إن والعائد الضمير المستكن في حرم والميتة خبر إن .

والوجه الثاني : أن تكون ما مهيئة والميتة مرفوع بحرم ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (إنما حَرَّمَ) بفتح الحاء وضم الراء مخففة جعله لازماً والميتة وما بعدها مرفوع ويحتمل ما الوجهين من التهيئة والوصل و (الميتة) فاعل يحرم إن كانت ما مهيئة وخبر إن كانت ما موصولة ، وقرأ أبو جعفر (المَيِّتة) بتشديد الياء في جميع القرآن وهو أصل للتخفيف ، وقد تقدم الكلام على هذا التخفيف في قوله (أو كصيب) وهما لغتان جيدتان وقد جمع بينهما الشاعر في قوله :

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ^(٣)

قيل وحكى أبو معاذ عن النحويين الأولين أن الميت بالتخفيف الذي فارقه الروح ، والميت بالتشديد الذي لم يمت بل عاين أسباب الموت وقد تقدم الكلام في الموت (ولما أمر تعالى) بأكل الحلال في الآية السابقة فصل هنا أنواع الحرام وأسند التحريم إلى الميتة ، الظاهر أن المحذوف هو الأكل لأن التحريم لا يتعلق بالعين ، ولأن السابق المباح هو الأكل في قوله (كلوا مما في الأرض) (كلوا من طيبات ما رزقناكم) فالممنوع هنا هو الأكل وهكذا حذف المضاف يقدر بما يناسب فقوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ [النساء : ٢٣] ، المحذوف وطء كأنه قيل وطء أمهاتكم

(١) انظر الكشاف (١/ ٢١٤) .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١١٦/٦) ، وعزه الطبراني في مسند الشاميين ، والحاكم في التاريخ ، والبيهقي في الشعب ، والدليمي في مسند الفردوس عن أبي الدرداء ، وانظر كثر العمال (٤٣٦٧٤) .

(٣) البيت من الخفيف لعدي بن الرعاء الغساني ، انظر خزنة الأدب (٥٨٣/٩) ، الاشتقاق لابن دريد ص (٥١) ، شرح النظر

(٢٣٤) ، شرح شواهد المغني للسيوطي (٤٠) ، معجم الشعراء للمرزباني ص (٢٥٢) .

﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ [النساء : ٢٤] ، أي وطء ما وراء ذلكم فسائر وجوه الانتفاعات محرم من هذه الأعيان المذكورة إما بالقياس على الأكل عند من يقول بالقياس ، وإما بدليل سمعي عند من لا يقول به ، وقال بعض الناس ما معناه : إنه تعالى لما أسند التحريم إلى الميتة وما نسق عليها ، وعلقه بعينها كان ذلك دليلاً على تأكيد حكم التحريم وتناول سائر وجوه المنافع فلا يخص شيء منها إلا بدليل يقتضي جواز الانتفاع به فاستنبط هذا القول تحريم سائر الانتفاعات من اللفظ ، الأظهر ما ذكرناه من تخصيص المضاف المحذوف بأنه الأكل ، وظاهر لفظ الميتة يتناول العموم ولا يخص شيء منها إلا بدليل ، قال قوم خص هذا العموم بقوله تعالى ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة ﴾ [المائدة : ٩٦] ، وبما روي من قوله ﷺ « أحلت لنا ميتتان » ، وقال ابن عطية : الحوت والجراد لم يدخل قط في هذا العموم انتهى ، فإن عنى لم يدخل في دلالة اللفظ فلا نسلم له ذلك وإن عنى لم يدخل في الإرادة فهو كما قال لأن المخصص يدل على أنه لم يرد به الدخول في اللفظ العام الذي خصص به ، قال الزمخشري^(١) (فإن قلت) في الميتات ما يحل وهو السمك والجراد (قلت) قصد ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة ، ألا ترى أن القائل إذا قال « أكل فلان ميتة » لم يسبق الفهم إلى السمك والجراد ، كما لو قال « أكل دماً » لم يسبق إلى الكبد والطحال ، ولا اعتبار العادة والتعارف قالوا : من حلف لا يأكل لحماً فأكل سمكاً لم يحث ، وإن أكل لحماً في الحقيقة وقال الله تعالى ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ [فاطر : ١٢] ، وشبهوه بمن حلف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحث ، وإن سماه الله دابة في قوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ [الأنفال : ٢٢] ، انتهى كلامه وملخص ما يقوله : أن السمك والجراد لم يندرج في عموم الميتة من حيث الدلالة ، وليس كما قال ، وكيف يكون ذلك وقد روي عنه ﷺ أنه قال « أحلت لنا ميتتان » ، فلو لم يندرج في الدلالة لم احتجج إلى تقرير شرعي في حله إذ كان يبقى مدلولاً على حله بقوله (كلوا مما في الأرض) (كلوا من طيبات ما رزقناكم) وليس من شرط العموم ما يتفاهمه الناس ويتعارفونه في العادة كما قال الزمخشري^(٢) ، بل لو لم يكن للمخاطب شعور البتة ولا علم ببعض أفراد العام وعلق الحكم على العام لاندرج فيه ذلك الفرد الذي لا شعور للمخاطب به ، مثال ذلك ما جاء في الحديث « نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع » فهذا علق الحكم فيه بكل ذي ناب والمخاطب الذين هم العرب لا علم لهم ببعض أفراد ذي الناب ، وذلك الفرد مندرج في العموم يقضي عليه بالنهي كما في بلادنا الأندلس حيوان مفترس يسمى عندهم بالدب وبالسمع وهو ذو أنياب يفترس الرجل ويأكله ولا يشبه الأسد ولا الذئب ولا النمر ولا شيئاً مما يعرفه العرب ولا نعلمه خلق بغير بلاد الأندلس ، فهذا لا يذهب أحد إلى أنه ليس مندرجاً في عموم النهي عن أكل كل ذي ناب بل شمله النهي ، كما شمل غيره مما تعاوده العرب وعرفوه ، لأن الحكم نيط بالعموم وعلق به فهو معلق بكل فرد من أفراد ، حتى بما كان لم يخلق البتة وقت الخطاب ثم خلق شكلاً مابيناً لسائر الأشكال ذوات الأنياب فيندرج فيه ويحكم بالنهي عنه .

وإنما تمثيل الزمخشري بالإيمان فللإيمان أحكام منوطة بها ويؤول التحقيق فيها إلى أن ذلك تخصيص للعموم بإرادة خروج بعض الأفراد منه ، « والميتة » ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة ، واختلف في السمك الطافي وهو ما مات في الماء فظفاً فذهب مالك وغيره أنه حلال ومذهب العراقيين أنه ممنوع من أكله ، وفي كلام بعض الحنفيين عن أبي حنيفة أنه مكروه ، وأما ما مات من الجراد بغير تسبب فهو عند مالك وجهور أصحابه أنه حرام ، وعند ابن

(١) انظر الكشف (٢١٥/١) .

(٢) انظر الكشف (٢١٥/١) .

عبد الحكم^(١) وابن نافع^(٢) حلال ، وعند ابن القاسم وابن وهب وأشهب وسحنون^(٣) تقييدات في الجراد ذكرت في كتب المالكية ، هذا حكم الميتة بالنسبة إلى الأكل .

وأما الانتفاع بشيء منها نحو الجلد والشعر والريش واللبن والبيض والأنفحة والجنين والدهن والعظم والقرن والناَب والغصب فذلك مذكور في كتب الفقه ، ولهم في ذلك اختلاف وتقييد كثير يوقف على ذلك في تصانيفهم .

والدم ظاهره العموم ويتخصص بالمسفوح لآية الأنعام فإذا كان مسفوحاً فلا خلاف في نجاسته وتحريمه ، وفي دم السمك المزايل له في مذهب مالك قولان : أحدهما : أنه طاهر ويقتضي ذلك أنه غير محرم وأجمعوا على جواز أكل الدم المتحلل بالعروق واللحم الشاق إخراجاً ، وكذلك الكبد والطحال ، وذكر المفسرون في سير الدم المسفوح الخلاف في عفوه وفي مقدار اليسير والخلاف في دم البراغيث والبق والذباب وهذا كله من علم الفقه فيطالع في كتب الفقه .

ولم يذكر الله تعالى حكمة في تحريم أكل الميتة والدم ولا جاء نص عن رسول الله ﷺ في ذلك ، ولو تعبدنا تعالى بجواز أكل الميتة والدم لكان ذلك شرعاً يجب اتباعه ، وقد ذكروا أن الحكمة في تحريم الميتة جمود الدم فيها بالموت ، وأنه يحدث أذى للأكل ، وفي تحريم الدم أنه بعد خروجه يجمد فهو في الأذى كالجماد في الميتة وهذا ليس بشيء لأن الحس يكذب ذلك وجدنا من يأكل الميتة ويشرب الدم من الأمم صورهم وسحنون من أحسن ما يرى وأجمله ولا يحدث لهم أذى بذلك ، ولحم الخنزير ظاهره أن المحرم منه هو لحمه فقط ، وقد ذهب إلى ذلك داود^(٤) رأس الظاهرية فقال المحرم اللحم دون الشحم ، وقال غيره من سائر العلماء : المحرم لحمه وسائر أجزائه ، وإنما خص اللحم بالذكر والمراد جميع أجزائه لكون اللحم هو معظم ما ينتفع به ، كما نص على قتل الصيد على المحرم والمراد حظر جميع أفعاله في الصيد ، وكما نص على ترك البيع إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة لأنه كان أعظم ما كانوا يبتغون به منافعتهم فهو أشغل لهم من غيره والمراد جميع الأمور الشاغلة عن الصلاة ، وقال الزمخشري^(٥) فإن قلت : فما له ذكر لحم الخنزير دون شحمه .

قلت : لأن الشحم داخل في ذكر اللحم بدليل قوله « لحم سمين » يريدون أنه شحم انتهى .

وقولهم هذا ليس بدليل على أن الشحم داخل في ذكر اللحم لأن وصف الشيء بأنه يمازجه شيء آخر لا يدل على أنه مندرج تحت مدلول ذلك الشيء ، ألا ترى أنك تقول مثلاً « رجل لابن » أو « رجل عالم » لا يدل ذلك على أن اللبن أو العلم داخل في ذكر الرجل ، ولا أن ذكر الرجل مجرداً عن الوصفين يدل عليهما ، وقال ابن عطية : وخص ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذكي أو لم يذك ، وليعم الشحم وما هناك من الغضاريف وغيرها ، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه انتهى كلامه ، وليس كما ذكر ، لأن ذكر اللحم لا يعم الشحم وما هناك من الغضاريف ، لأن

(١) عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع أبو محمد فقيه مصري من أجلة أصحاب مالك ، توفي سنة ٢١٤ هجرية - وفيات الأعيان (٢٤٨/١) ، الانتقاء (٥٢) ، وفيه أن وفاته سنة ٢١٠ هجرية - الأعلام (٩٥/٤) .

(٢) أبو محمد عبد الله بن نافع الصايغ ، مولى بني مخزوم ، توفي سنة ست ومائتين ، المدارك (٣٥٦/١) ، الانتقاء (٥٦) .

(٣) عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقب بسحنون ، روى المدونة في فقه المالكية توفي سنة ٢٤٠ هجرية - معالم الإيمان (٤٩/٢) ، الأعلام (٥/٤) .

(٤) داود بن علي بن خلف الأصبهاني ، أبو سليمان الملقب بالظاهر ، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام تنسب إليه الظاهرية ، توفي ببغداد سنة ٢٧٠ هجرية - وفيات الأعيان (١٧٥/١) ، الأعلام (٣٣٣/٢) .

(٥) انظر الكشف (٢١٥/١) .

كلا من اللحم والشحم وما هناك من غضروف وغيره ليس له اسم يخصه إذا اطلق ذلك الاسم لم يدخل فيه الآخر ولا يدل عليه لا بمطابقة ولا تضمن فإذا تخلصه بالذكر يدل على تخصيصه بالحكم إذ لو أريد المجموع لدل بلفظ يدل على المجموع .

وقوله : أجمعت الأمة على تحريم شحمه ليس كما ذكر ، ألا ترى أن داود لا يحرم إلا ما ذكره الله تعالى وهو اللحم دون الشحم إلا أن يذهب ابن عطية إلى ما يذكر عن أبي المعالي عبد الملك الجويني من أنه لا يعتد في الإجماع بخلاف داود فيكون ذلك عنده إجماعاً ، وقد اعتد أهل العلم الذين لهم الفهم التام والاجتهاد قبل أن يخلق الجويني بأزمان بخلاف داود ، ونقلوا أقاويله في كتبهم ما نقلوا أقاويل الأئمة كالأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والثوري والشافعي وأحمد ، ودان بمذهبه وقوله وطريقته ناس وبلاد وقضاة وملوك الأزمان الطويلة ولكنه في عصرنا هذا قد حمل هذا المذهب ، ولما كان اللحم يتضمن عند مالك الشحم ذهب إلى أنه لو حلف حالف أن « لا يأكل لحماً فأكل شحمًا أنه يحنث » ، وخالفه أبو حنيفة والشافعي فقالا : لا يحنث كما لو حلف أنه لا يأكل شحمًا فأكل لحماً وقال تعالى ﴿ حرمتنا عليهم شحومهما ﴾ [الأنعام : ١٤٦] ، والإجماع أن اللحم ليس بمحرم على اليهود ، فالحق أن كلاً منهما لا يندرج تحت لفظ الآخر ، واختلفوا في الانتفاع بشعره في خرز وغيره ، فأجاز ذلك مالك وأبو حنيفة والأوزاعي ولم يجز ذلك الشافعي ، وقال أبو يوسف : أكره الخرز به ، وروي عنه الإباحة أيضاً ، وهل يتناول لفظ الخنزير خنزير البحر ؟ ذهب إلى ذلك أبو حنيفة وأصحابه ، فمنعوا من أكله وقال ابن أبي ليلى والأوزاعي والشافعي : لا بأس بأكله ، وقال الليث : لا يؤكل خنزير الماء ، ولا إنسانه ، ولا كلبه ، وسئل مالك عن خنزير الماء فتوقف وقال أنتم تسمونه خنزيراً ، وقال ابن القاسم : أنا أتقيه ولا أحرمه ، وعلة تحريم لحم الخنزير قالوا : تفرد النصارى بأكله فنهى المسلمون عن أكله ليكون ذلك ذريعة إلى أن تقاطعوهم إذ كان الخنزير من أنفس طعامهم ، وقيل : لكونه ممسوخاً فغلظ تحريم أكله لخبث أصله ، وقيل : لأنه يقطع الغيرة ويذهب بالأنفة فيتساهل الناس في هتك المحرم وإباحة الزنا ولم تشر الآية الكريمة إلى شيء من هذه التعليقات التي ذكروها ، (وما أهل به لغير الله) أي ما ذبح للأصنام والطواغيت قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك أو ما ذكر عليه اسم غير الله قاله الربيع بن أنس وغيره أو ما ذكر اسم المسيح عليه قاله الزهري ، أو ما قصد به غير وجه الله تعالى للتفاخر والتباهي قاله عليّ والحسن^(١) ، وروى أن علياً قال في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق : إنها مما أهل بها لغير الله فتركها الناس ، راعى عليّ النية في ذلك ، ومنع الحسن من أكل جزور ذبحتها امرأة للعبها ، وقال إنها نحررت لصنم ، وسئلت عائشة عن أكل ما يذبحه الأعاجم لأعيادهم ويهدون للمسلمين فقالت : لا تأكلوه وكلوا من أشجارهم ، والذي يظهر من الآية تحريم ما ذبح لغير الله فيندرج في لفظ غير الله الصنم والمسيح والفخر واللعب ، وسمي ذلك إهلالاً لأنهم يرفعون أصواتهم باسم المذبح له عند الذبيحة ، ثم توسع فيه وكثر حتى صار اسماً لكل ذبيحة جهر عليها أو لم يجهر كالإهلال بالتلبية صار علماً لكل محرم رفع صوته أو لم يرفعه ، ومن حمل ذلك على ما ذبح على النصب وهي الأوثان أجاز ذبيحة النصراني إذا سمي عليها باسم المسيح ، وإلى هذا ذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وابن المسيب والأوزاعي والليث ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد^(٢) وزفر^(٣) ومالك

(١) انظر ما يتعلق بهذه الآثار في تفسير الطبري (٣/٣٢١) ، ابن كثير (١/٢٠٥) ، البغوي (١/١٤٠) ، الدر المنثور (١/١٦٨) ، فتح القدير (١/١٧٠) .

(٢) محمد بن الحسن الشيباني بن فرقد ، من موالى بني شيبان ، أبو عبد الله إمام في الفقه والأصول والعربية ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة توفي سنة ١٨٩ هجرية - الفوائد البهية (١٦٣) ، البداية والنهاية (١٠/٢٠٢) ، الأعلام (٦/٨٠) .

(٣) زفر بن الهذيل بن قيس العبدي من تميم ، أبو الهذيل ، فقيه من أصحاب الإمام أبي حنيفة وكان يقول « نحن لا نأخذ بالرأي ما دام أثر وإذا جاء الأثر تركنا الرأي » توفي سنة ١٥٨ هجرية - الشذرات (١/٢٤٣) ، الانتقاء (١٧٣) ، الأعلام (٣/٤٥) .

والشافعي : لا تؤكل ذبائحهم إذا سموا عليها اسم المسيح وهو ظاهر قوله (لغير الله) كما ذكرناه لأن الإلهال لغير الله هو إظهار غير اسم الله ، ولم يفرق بين اسم المسيح واسم غيره ، وروي عن علي أنه قال : إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا ، و (أهل) مبني للمفعول الذي لم يسم فاعله المفعول الذي لم يسم فاعله هو الجار والمجرور في قوله : (به) والضمير في (به) عائذ على « ما » إذ هي موصولة بمعنى الذي ومعنى أهل بكذا أي صاح ، فالمعنى وما صبح به أي فيه أي في ذبحه لغير الله ثم صار ذلك كناية عن كل ما ذبح لغير الله صبح في ذبحه أو لم يصبح كما ذكرناه قبل ، وفي ذبيحة المجوسي خلاف ، وكذلك فيما حرم على اليهودي والنصراني بالكتاب ، أما ما حرموه باجتهادهم فذلك لنا حلال ، ونقل ابن عطية عن مالك الكراهة فيما سمي عليه الكتابي اسم المسيح أو ذبحه لكنيسة ولا يبلغ به التحريم ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ﴾ وقال ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم ﴾ [المائدة : ٣] ، وقال ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، فلم يقيد في هذه الآية الاضطرار وقيدته فيما قبل ، فإن المضطر يكون غير متجانف لإثم وفي الأولى بقوله غير باغ ولا عاد ، قال مجاهد وابن جبير وغيرهما : غير باغ على المسلمين وعاد عليهم فيدخل في الباغي والعادي قطاع السبيل ، والخارج على السلطان ، والمسافر في قطع الرحم ، والغارة على المسلمين ، وما شاكله ، ولغير هؤلاء هي الرخصة ، وإلى هذا ذهب الشافعي وهو أنه إذا لم يخرج باغياً على إمام المسلمين ولم يكن سفره في معصية فله أن يأكل من هذه المحرمات إذا اضطر إليها ، وإن كان سفره في معصية أو كان باغياً على الإمام لم يجز له أن يأكل ، وقال عكرمة وقتادة والربيع وابن زيد وغيرهم : غير قاصد فساد وتعدّ بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ، وقال ابن عباس والحسن : غير باغ في الميتة في الأكل ، ولا عاد بأكلها وهو يجد غيرها وهو يرجع لمعنى القول قبله ، وبه قال أبو حنيفة ومالك ، وأباح هؤلاء للبغاة الخارجين على المسلمين الأكل من هذه المحرمات عند الاضطرار كما أباحوا لأهل العدل ، وقال السدي : (غير باغ) أي متزود على إمساك رmqه وإبقاء قوته فيجيء أكله شهرة (ولا عاد) أي متزود ، وقيل : (غير باغ) أي مستحل لها (ولا عاد) أي متزود منها ، وقال شهر بن حوشب (غير باغ) أي مجاوز القدر الذي يحل له (ولا عاد) أي لا يقصده فيما لا يحل له .

والظاهر من هذه الأقوال على ما يفهم من ظاهر الآية أنه لا إثم في تناول شيء من هذه المحرمات للمضطر الذي ليس بباغ ولا عاد وإن قوله (إلا ما اضطررتم إليه) لا بد فيه من التقييد المذكور هنا ، وفي قوله (غير متجانف لإثم) ، لأن آية الأنعام فيها حوالة على هاتين الآيتين لأنه قال ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا اضطررتم إليه ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، وتفصيل المحرم هو في هاتين الآيتين والاضطرار فيهما مقيد فتعين أن يكون مقيداً في الآية التي أحيلت على غيرها ، والظاهر في البغي العدوان أن ذلك من قبل المعاصي لأنهما متى أطلقتا تبادر الذهن إلى ذلك وفي جواز مقدار ما يأكل من الميتة وفي التزود منها وفي شرب الخمر عند الضرورة قياساً على هذه المحرمات ، وفي أكل ابن آدم خلاف مذكور في كتب الفقه قالوا وإن وجد ميتة وخنزيراً أكل الميتة قالوا لأنها أبيحت له في حال الاضطرار والخنزير لا يحل بحال وليس كما قالوا لأن قوله : فمن اضطر جاء بعد ذكر تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير فالمعنى : فمن اضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات فرتبتها في الإباحة للأكل منها متساوية ، فليس شيء منها أولى من الآخر بالإباحة ، والمضطر مخير فيما يأكل منها ، فقولهم إن الخنزير لا يحل بحال ليس بصحيح ، وذكر بعض المفسرين أنهم أجمعوا على أن من سافر لغزو أو حج أو تجارة وكان مع ذلك باغياً في أخذ مال أو عادياً في ترك صلاة أو زكاة لم يكن ما هو عليه من البغي والعدوان مانعاً من استباحة الميتة للضرورة ، وأنهم أجمعوا أيضاً على جواز الترخيص للباغي أو العادي الحاضر في نقل هذين الإجماعين نظر ، واختلف القراء في حركة النون من قوله (فمن اضطر) (وأن احكم) (ولكن

انظر (وشبهه وحركة الدال من (ولقد استهزىء) والتاء من (وقالت اخرج عليهن) وحركة التنوين من (فتياً انظر) ونحوه وحركة اللام من نحو (قل ادعوا الله) والواو من نحو (أو ادعوا الرحمن) فكسر ذلك عاصم وحمزة وحركها أبو عمرو وإلا في اللام والواو وعباس ويعقوب إلا في الواو وضم باقي السبعة إلا ابن ذكوان فإنه كسر التنوين وعنه في (برحمة ادخلوا) و (خبيثة اجتثت) خلاف وضابط هذا أنه يكون ضمة هذه الأفعال لازمة فإن كانت عارضة فالكسر نحو (أن امشوا) وتوجيه الكسر أنه حركة التقاء الساكنين والضم أنه اتباع ولم يعتدوا بالساكن لأنه حاجز غير حصين ، أو ليدلوا على أن حركة همزة الوصل المحذوفة كانت ضمة ، وقرأ أبي جعفر وأبو السمال (فمن اضطر) بكسر الطاء وأصله اضطرر فلما أدغم نقلت حركة الراء إلى الطاء ، وقرأ ابن محيصن (فمن اطر) بإدغام الضاد في الطاء وذلك حيث وقع ومعنى الاضطرار الإلجاء بعدم وغرث هذا قول الجمهور ، وقيل : معناه أكره وغلب على أكل هذه المحرمات وانتصاب (غير باغ) على الحال من الضمير المستكن في اضطر وجعله بعضهم حالاً من الضمير المستكن في الفعل المحذوف المعطوف على قوله (اضطر) وقدره « فمن اضطر فأكل غير باغ ولا عاد » ، قدره كذلك القاضي وأبو بكر الرازي لجعل ذلك قيداً في الأكل لا في الاضطرار ، ولا يتعين ما قاله إذ يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله (غير باغ ولا عاد) بل هو الظاهر والأولى ، لأن في تقدير قبل غير باغ ولا عاد فصلاً بين ما ظاهره الاتصال بما بعده وليس ذلك في تقديره بعد قوله (غير باغ ولا عاد) وعاد اسم فاعل من عدا ، وليس اسم فاعل من عاد ، فيكون مقلوباً أو محذوفاً من باب شاك ولاث كما ذهب إليه بعضهم ، لأن القلب لا ينقاس ولا نصيرُ إليه إلا لموجب ، ولا موجب هنا لادعاء القلب ، وأصل « البغي » كما تقدم هو طلب الفساد وإن كان قد ورد لمطلق الطلب فاستعمل في طلب الخير كما قال الشاعر :

الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَتَغَيَّنِي

وقال :

لَا يَمْنَعُكَ مِنْ بَغَاءِ الْخَيْرِ تَعَفُّدُ التَّمَائِمِ

فلا إثم عليه « الإثم » تحمل الذنب ، نفى بذلك عنه الحرج ، والمحذوف الذي قدرناه من قولنا « فأكل لا بد منه » لأنه لا ينفي الإثم عمن لم يوجد منه الاضطرار ولا يترتب ذلك على الاضطرار وحده بل على الأكل المترتب على الاضطرار في حال كون المضطر لا باغياً ولا عادياً ، وظاهر هذا التركيب أنه متى كان عاصياً بسفره فأكل أنه يكون عليه الإثم لأنه يطلق أنه باغ خلافاً لأبي حنيفة ومن وافقه فإنه يبيح له الأكل عند الضرورة ، وظاهر بناء (اضطر) حصول مطلق الضرورة بشغب أو إكراه ، سواء حصل الاضطرار في سفر أو حضر ، وظاهر قوله (فلا إثم عليه) نفى كل فرد فرد من الإثم عنه إذا أكل ، لا وجوب الأكل ، وقال الطبري ليس الأكل عند الضرورة رخصة ، بل ذلك عزيمة واجبة ، ولو امتنع من الأكل كان عاصياً ، وقال مسروق : بلغني أنه من اضطر إلى الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار كأنه أشار إلى أنه قاتل نفسه بتركه ما أباح الله له ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لما ذكر أشياء محرمة اقتضى المنع منها ، ثم ذكر إباحتها للمضطر في تلك الحال المقيدة له أتبع ذلك بالأخبار عن نفسه بأنه تعالى (غفور رحيم) لأن المخاطب بصدد أن يخالف فيقع في شيء من أكل هذه المحرمات فأخبر بأنه (غفور) للعصاة إذا تابوا (رحيم) بهم ، أو لأن المخاطب إذا اضطر فأكل ما يزيد على قدر الحاجة فهو تعالى (غفور) له ذلك (رحيم) بأن أباح له قدر الحاجة ، أو لأن مقتضى الحرمة قاتم في هذه المحرمات ، ثم رخص في تناولها مع قيام المانع فعبر عن هذا الترخيص والإباحة بالمغفرة ، ثم ذكر بعد الغفران صفة الرحمة أي « لأجل رحمتي بكم أبحت لكم ذلك » ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ روي عن ابن عباس : أنها نزلت في علماء اليهود ، كانوا يصيرون من سفلتهم هدايا ، وكانوا يرجون أن يكون النبي

المبعوث منهم ، فلما بعث من غيرهم غيّرُوا صفته وقالوا : هذا نعت النبي الذي يخرج في آخر الزمان حتى لا يتبعوه ، وروي عنه أنه قال : إن الملوك سألوا علماءهم قبل المبعث ، ما الذي تجدون في التوراة ؟ فقالوا : نجد أن الله يبعث نبياً من بعد المسيح يقال له محمد بتحريم الربا ، والخمر ، والملاهي ، وسفك الدماء فلما بعث قالت الملوك لليهود هذا الذي تجدونه في كتابكم فقالوا طمعاً في أموال الملوك ليس هذا بذلك النبي فأعطاهم الملوك الأموال فأنزلت إكذاباً لهم .

وقيل : نزلت في كل كاتم حق لأخذ عرض أو إقامة غرض من مؤمن ويهودي ومشرِك ومعتل ، وإن صح سبب نزول فهي عامة والحكم للعموم ، وإن كان السبب خاصاً فيتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك لسبب دنيا يصيبها ، (ما أنزل الله من الكتاب) ظاهره أنه أنزل من علو إلى أسفل وأنه تعالى أنزل ملكاً به أي بالكتاب على رسوله ، وقيل : معنى أنزل الله أي أظهر كقوله : ﴿ سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، أي أظهر فكون المعنى إن الذين يكتُمون ما أظهر الله فيكون الإظهار في مقابلة الكتمان ، وفي المراد بالكتاب هنا أقوال :

أحدها : أنه التوراة فيكون الكاتمون أحبار اليهود ، كتموا صفة رسول الله ﷺ وغيرها وكتُموا آيات في التوراة كآية الرجم وشبه ذلك ، وقيل : التوراة والإنجيل ووجد اللفظ على المكتوب ويكون الكاتمون اليهود والنصارى ، وصف الله نبيه في الكتابين ونعته فيهما وسماه فقال : ﴿ يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقال ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف : ٦] ، والطائفتان أنكروا صفة رسول الله ﷺ ، وقد شهدت التوراة والإنجيل بذلك ، والنصوص موجودة فيهما الآن في مواضع منها في التوراة في الفصل التاسع وفي الفصل العاشر من السفر الأول وفي الفصل العشرين من السفر الخامس ، ومنها في الإنجيل مواضع تدل على ذلك قد ذكر جميعها من تعرض للكلام على ذلك ، وقيل : الكتاب المكتوب وهو أعم من التوراة والإنجيل فيتناول كل من كتم ما أنزل الله مما يتعلق بالأحكام قديماً وحديثاً ، وكل كاتم لحق وسائر لأمر مشروع ﴿ ويشتركون به ثمناً قليلاً ﴾ لما تعوضوا عن الكتم شيئاً من سحت الدنيا أشبه ذلك البيع والشراء لانطوائهما على عوض ومعوض عنه فاطلق عليه اشتراء ، و (به) الضمير عائذ على الكتمان أو الكتاب أو على الموصول الذي هو ما أقوال ثلاثة . أظهرها الآخر ويكون على حذف مضاف أي بكتُم ما أنزل الله ، والفرق بين هذا القول وقول من جعله عائداً على الكتم أنه يكون في ذلك القول عائداً على المصدر المفهوم من قوله يكتُمون وفي هذا عائداً على ما على حذف مضاف ، وتقدم الكلام في تفسير قوله ﴿ ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ [البقرة : ٧٩] ، فأغنى عن إعادته إلا فعل الاشتراء جعل علة هناك وهنا جعل معطوفاً على قوله (يكتُمون) ، ورتب الخبر على مجموع الأمرين من الكتم والاشتراء ، لأن الكتم ليست أسبابه منحصرة في الاشتراء بل الاشتراء بعض أسبابه ، فكُتِمَ ما أنزل الله من الكتاب وهو أمر رسول الله ﷺ ، وإنكار نبوته ، وتبديل صفته كان لأمر منها البغي (بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ومنها : الخسارة لكونه من العرب لا منهم ، ومنها طلب الرياسة وأن يستتبِعوا أهل ملتهم ومنها : تحصيل أموالهم ورشاء ملوكهم وعوامهم ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ أتى بخبر إن جملة لأنها أبلغ من المفرد وصدر بأولئك إذ هو اسم إشارة دال على اتصاف المخبر عنه بالأوصاف السابقة وقد تقدم لنا الكلام في ذلك في قوله ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ .

ثم أخبر عن أولئك بأخبار أربعة ، الأول (ما يأكلون في بطونهم إلا النار) فمنهم من حمله على ظاهره وقال : إن ذلك يكون في الدنيا ، وإن الرشاء التي هم يأكلونها تصير في أجوافهم ناراً فلا يحسون بها إلا بعد الموت ، ومنع تعالى أن يدركوا أنها نار استدراجاً وإملاء لهم ، ويكون في هذا المعنى بعض تجوز لأنه حالة الأكل لم يكن ناراً إنما بعد

صارت في بطونهم ناراً ، وقيل إن ذلك يكون في الآخرة فهو حقيقة أيضاً ، واختلفوا : فقيل جميع ما أكلوه من السحت والرشاء في الدنيا يجعل ناراً في الآخرة ، ثم يطعمهم الله إياه في النار ، وقيل : يأمر الزبانية أن تطعمهم النار ليكون عقوبة الأكل من جنسه ، وأكثر العلماء على تأويل قوله (ما يأكلون في بطونهم إلا النار) على معنى أنهم يجازون على ما اقترفوه من كتم ما أنزل الله والاشتراء به الثمن القليل بالنار وأن ما اكتسبوه بهذه الأوصاف الذميمة ماله إلى النار ، وعبر بالأكل لأنه أعظم منافع ما تصرف فيه الأموال وذكر في بطونهم إما على سبيل التوكيد إذ معلوم أن الأكل لا يكون إلا في البطن فصار نظير ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، أو كناية عن ملء البطن لأنه يقال « فلان أكل في بطنه » و « فلان أكل في بعض بطنه » أو لرفع توهم المجاز إذ يقال « أكل فلان ماله » إذا بذره وإن لم يأكله ، وجعل المأكول النار تسمية له بما يؤول إليه لأنه سبب النار ، وذلك كما يقولون « أكل فلان الدم » يريدون الدية لأنها بدل من الدم قال الشاعر :

فَلَوْ أَنَّ حَيًّا يَقْبَلُ الْمَالَ فِدْيَةً لَسُقْنَا إِلَيْهِ الْمَالَ كَالسَّيْلِ مُفْعَمًا
وَلَكِنْ لَنَا قَوْمٌ أَصِيبَ أَخُوهُمْ رِضًا الْعَارِ وَاخْتَارُوا عَلَى اللَّبَنِ الدَّمَ

وقال آخر :

أَكَلْتُ دَمًا إِنْ لَمْ أَرُغِكَ بِضُرَّةٍ بَعِيدَةٍ مَهْوَى الْقُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

وقال آخر :

تَأْكُلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافًا

أي ثمن إكاف ، ومعنى التلبس موجود في جميع ذلك ، وتسمية الشيء بما يؤول إليه كثير ومن ذلك ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ [النساء : ١٠] ، ومن ذلك الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجز في بطنه نار جهنم ، وذكر في بطونهم تنبيهاً على شرهم وتقبيحاً لتضييع أعظم النعم لأجل المطعم الذي هو أحسن متناول قاله الراغب ، وقال ابن عطية نحوه ، قال وفي ذكر البطن تنبيه على مذهبهم بأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم الذي لا خطر له وعلى هجنتهم بطاعة بطونهم ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ﴾ هذا الخبر الثاني عن أولئك ، وظاهره نفي الكلام مطلقاً أعني مباشرتهم بالكلام فيكون ما جاء في القرآن أو في السنة مما ظاهره أنه تعالى يحاورهم بالكلام متأولاً بأنه يأمر من يقول لهم ذلك نحو قوله تعالى ﴿ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، ويكون في نفي كلامه تعالى إياهم دلالة على الغضب عليهم ، ألا ترى أن من غضب على شخص صرمه وقطع كلامه لأن في التكلم ولو كان بشر تأنيساً ما والتفاتاً إلى المكلم وقيل معنى (ولا يكلمهم الله) أي يغضب عليهم وليس المراد نفي الكلام إذ قد جاء في غير موضع ما ظاهره أنه يكلم الكافرين قاله الحسن ، وقيل : المعنى ليس على العموم إذ قد جاء في القرآن ما ظاهره أنه يكلمهم كقوله ﴿ فوريك لفسألتهم أجمعين ﴾ [الحجر : ٩٢] ، والسؤال لا يكون إلا بالتكليم وقال ﴿ قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، فالمعنى لا يكلمهم كلام خير وإقبال وتحية وإنما يكلمهم كلاماً يشق عليهم ، وقيل : المعنى لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية ، وقيل : ولا يكلمهم الله تعريض بحرمانهم حال أهل الجنة في تكرمة الله إياهم بكلامه ، وقيل : المعنى لا يحملهم على الكلام لأن من كلمته كنت قد استدعيت كلامه كأنه قال : لا يستدعي كلامهم فيكون نحو قوله (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فنفي الكلام وهو يراد ما يلزم عنه وهو استدعاء الكلام ﴿ ولا يزكهم ﴾ هذا هو الخبر الثالث والمعنى لا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال

الأزكياء ، أو لا ينزلهم منزلة الأزكياء ، وقيل : المعنى لا يصلح أعمالهم الخبيثة ، وقيل : المعنى لا يثني عليهم ، من قولهم « زكى فلاناً » إذا أثنى عليه قاله الزجاج ، وقيل : لا يطهرهم من دنس كفرهم ، وهو معنى قول بعضهم لا يطهرهم من موجبات العذاب قاله ابن جرير ، وقيل : المعنى لا يسميهم أزكياء ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ هذا هو الخبر الرابع لأولئك ، وقد تقدم تفسير قوله (ولهم عذاب أليم) في أول السورة وترتب على الكتمان واشتراء الثمن القليل هذه الأخبار الأربعة وانعطفت بالواو الجامعة لها ، وعطف الأخبار بالواو ولا خلاف في جوازه ، بخلاف أن لا تكون معطوفة فإن في ذلك خلافاً وتفصيلاً ، وناسب ذكر هذه الأخبار ما قبلها ومناسب عطف بعضها على بعض لما نذكره فنقول متى ذكر وصف ورتب عليه أمر فللعرب فيه طريقان : أحدهما : أن تكون تلك الأمور المترتبة على الأوصاف مقابلة لها ، الأول منها لأول تلك الأوصاف والثاني والثاني فتحصل المقابلة من حيث المعنى ومن حيث الترتيب اللفظي حيث قبل بل الأول بالأول والثاني بالثاني ، وتارة يكون الأول من تلك الأمور مجاوراً لما يليه من تلك الأوصاف فتحصل المقابلة من حيث المعنى لا من حيث الترتيب اللفظي ، وهذه الآية جاءت من هذا القبيل ، لما ذكر تعالى اشتراءهم الثمن القليل وكان ذلك كناية عن مطاعمهم الخسيسة الفانية بدأ أولاً في الخبر بقوله ﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ [البقرة : ١٧٤] ، ثم قابل تعالى كتمانهم الدين والكتمان هو أن لا يتكلموا به بل يخفوه بقوله تعالى (ولا يكلمهم الله) فجوزوا على منع التكلم بالدين أن منعوا تكليم الله إياهم ، وابتنى على كتمانهم الدين واشتراءهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً أنهم شهود زور وأخبار سوء ، حيث غيروا نعت رسول الله ﷺ وادعوا أن النبي المبتعث هو غير هذا ، فقبل ذلك كله بقوله (ولا يزكيهم) ، ثم ذكر أخيراً ما أعد لهم من العذاب الأليم فرتب على اشتراء الثمن القليل قوله (ما يأكلون في بطونهم إلا النار) وعلى الكتمان قوله (ولا يكلمهم الله) وعلى مجموع الوصفين قوله (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) فبدأ أولاً بما يقابل فرداً فرداً وثانياً بما يقابل المجموع ، ولما كانت الجملة الأولى مشتملة على فعل مسند إلى الله كان الكلام الذي قبلها فيه فعل مسند إلى الله ، ولما كانت الثانية مسندة إليهم ليس فيها إسناد إلى الله جاءت الجملة المقابلة لها مسندة إليهم ولم يأت ما يطعمهم الله في بطونهم إلا النار (وناسب) ذكر هذه الآية ما قبلها لأنه تعالى ذكر في الآية قبلها إباحة الطيبات ، ثم فصل أشياء من المحرمات فناسب أن يذكر جزءاً من كتم شيئاً من دين الله ومما أنزله على أنبيائه فكان ذلك تحذيراً أن يقع المؤمنون فيما وقع فيه أهل الكتاب من كتم ما أنزل الله عليهم واشتراءهم به ثمناً قليلاً ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ (أولئك) اسم إشارة إلى الكاتمين الذين سبق ذكرهم وذكر ما أوعدوا به وتقدم تفسير (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) مستوعباً في أول السورة فأغنى عن إعادته ﴿ والعذاب بالمغفرة ﴾ لما قدم حالهم في الدنيا بأنهم اعتاضوا من الهدى الضلالة ذكر نتيجة ذلك في الآخرة وهو أنهم اعتاضوا من المغفرة التي هي نتيجة الهدى وسبب النعيم الأطول السرمدي العذاب الأطول السرمدي الذي هو نتيجة الضلالة ، لأنهم لما كانوا عالمين بالحق وكنتموه لغرض خسيس دنيوي فإن كان ذلك اشتراء للعذاب بالمغفرة وفي لفظ (اشتروا) إشعار بإيثارهم الضلالة والعذاب ، لأن الإنسان لا يشتري إلا ما كان له فيه رغبة ومودة واختيار وذلك يدل على نهاية الخسارة وعدم النظر في العواقب ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ اختلف في « ما » فالأظهر أنها تعجبية ، وهو قول الجمهور من المفسرين ، وقد جاء ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : ١٧] ، (أسمع بهم وأبصر) وأجمع النحويون على أن « ما » التعجبية في موضع رفع بالابتداء ، واختلفوا أهى نكرة تامة والفعل بعدها في موضع الخبر ، أو استفهامية صحبها معنى التعجب والفعل بعدها في موضع الخبر ، أو موصولة ، والفعل بعدها صلة والخبر محذوف ، أو موصوفة والفعل بعدها صفة والخبر محذوف .

أقوال أربعة ذكرت في النحو ، الأول : قول سيبويه والجمهور ، والثاني : قول الفراء وابن درستويه ، والثالث

والرابع : للأخفش ، وكذلك اختلفوا في أفعل بعد ما التعجبية أهو فعل وهو مذهب البصريين أم اسم وهو مذهب الكوفيين ؟ وينبني عليه الخلاف في المنصوب بعده أهو مفعول به أو مشبه بالمفعول به ؟ ، وإذا قلنا إن الكلام هو تعجب فالتعجب هو استعظام الشيء وخفاء حصول السبب وهذا مستحيل في حق الله ، فهو راجع لمن يصح ذلك منه أي هم ممن يقول فيهم من رأيهم ما أصبرهم على النار ، واختلف قائلو التعجب أهو صبر يحصل لهم حقيقة إذا كانوا في النار ؟ فذهب إلى ذلك الأصم ، وقال إذا قيل لهم ﴿ اخسؤوا فيها ولا تكلمون ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، سكتوا وانقطع كلامهم وصبروا على النار ليأسهم من الخلاص ، وضعف قول الأصم بأن ظاهر التعجب أنه من صبرهم في الحال لا أنهم سيصبرون وبأن أهل النار قد يقع منهم الجزع ، وقيل : الصبر مجاز عن البقاء في النار أي ما أبقاهم في النار ، أم هو صبر يوصفون به في الدنيا وهو قول الجمهور ، واختلف أهو حقيقة أم مجاز ؟ والقائلون بأنه حقيقة قالوا : معناه ما أصبرهم على عمل يؤديهم إلى النار لأنهم كانوا علماء بأن من عاند النبي ﷺ صار إلى النار قاله المؤرج ، وقيل : التقدير « ما أصبرهم على عمل أهل النار » كما تقول « ما أشبه سخاءك بحاتم » أي بسخاء حاتم ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وهو قول الكسائي وقطرب ، وهو قريب من قول المؤرج ، وقيل : « أَصْبَرَ » هنا بمعنى « أجزأ » وهي لغة يمانية فيكون لفظ « أَصْبَرَ » إذ ذاك مشتركاً بين معناها المتبادر إلى الذهن من حبس النفس على الشيء المكروه ومعنى الجراءة ، أي ما أجزأهم على العمل الذي يقرب إلى النار ، قاله الحسن وقتادة والربيع وابن جبير .

قال الفراء أخبرني الكسائي قال : أخبرني قاضي اليمن أن خصمين اختصما إليه فوجبت اليمين على أحدهما فحلف له خصمه فقال له ما أصبرك على الله أي ما أجزأك على الله .

والقائلون بأنه مجاز ، فقيل : هو مجاز أريد به العمل أي ما أعملهم بأعمال أهل النار قاله مجاهد ، وقيل : هو مجاز أريد به قلة الجزع أي ما أقل جزعهم من النار ، وقيل : هو مجاز أريد به الرضا وتقريره أن الراضي بالشيء يكون راضياً بمعلوله ولازمه إذا علم ذلك اللزوم فلما أقدموا على ما يوجب النار وهم عالمون بذلك صاروا كالراضين بعذاب الله والصابرين عليه وهو كما يقول لمن تعرض لغضب السلطان « ما أصبرك على القيد والسجن » ، وقال الزمخشري (فما أصبرهم على النار) تعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم انتهى كلامه . وانتهى القول في أن الكلام تعجب ، وذهب « معمر بن المثنى والمبرد » إلى أن ما استفهامية لا تعجبية وهو استفهام على معنى التوبيخ بهم أي أي شيء صبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل وهو قول ابن عباس والسدي ، يقال صبره وأصبره بمعنى أي جعله يصبر لا أن أصبر هنا بمعنى حبس واضطر فيكون أفعل بمعنى فعل خلافاً للمبرد إذ زعم أن (أصبر) بمعنى « صبر » ولا نعرف ذلك في اللغة ، وإنما تكون الهمزة للنقل أي يجعل ذا صبر ، وذهب قوم إلى أن ما نافية ، والمعنى أن الله ما أصبرهم على النار أي : ما يجعلهم يصبرون على العذاب فتلخص في معنى قوله (فما أصبرهم على النار) ، التعجب ، والاستفهام ، والنفي . وتلخص في التعجب أهو حقيقة ، أم مجاز ، وكلاهما أذلك في الدنيا أو في الآخرة ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من الوعيد قاله الزجاج ، أو إلى الحكم عليهم بأنهم من أهل الخلود في النار قاله الحسن ، أو العذاب قاله الزمخشري^(١) ، أو الاشتراء قاله ابن عطية تقريباً على بعض التفاسير في الكتاب من قوله (نزل الكتاب) وسيذكر أي ذلك الاشتراء بما سبق لهم في علم الله وورد إخباره به أو الكتمان ، وأبعدها أنه إشارة إلى ما تقدم من إخبار الله أنه (ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) وأنهم (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) ، واختلف في إعراب ذلك فقيل : هو منصوب بفعل محذوف

تقديره « فعلنا ذلك » ، وتكون الباء في بأن الله متعلقة بذلك الفعل المحذوف ، وقيل مرفوع ، واختلفوا أهو فاعل ، والتقدير « وجب ذلك » لهم ؟ أم خبر مبتدأ محذوف التقدير « الأمر ذلك » أي ما وعدوا به من العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فاختلفوا ، أم مبتدأ والخبر قوله (بأن الله نزل) أي ذلك مستقر ثابت بأن الله نزل الكتاب بالحق ، ويكون ذلك إشارة إلى أقرب مذكور وهو العذاب ، ويكون الخبر ليس مجرد تنزيل الله الكتاب بالحق بل ما ترتب على تنزيله من مخالفته وكتمانه ، وأقام السبب مقام المسبب والتفسير المعنوي ذلك العذاب حاصل لهم بكتمان ما نزل الله من الكتاب المصحوب بالحق أو الكتاب الذي نزل به بالحق ، وقال الأخفش : الخبر محذوف تقديره « ذلك معلوم بأن الله » فيتعلق الباء بهذا الخبر المقدر و (الكتاب) التوراة ، والإنجيل ، أو القرآن ، أو كتب الله المنزل على أنبيائه ، أو ما كتب عليهم من الشقاوة بقوله (صم بكم عمي) فيكون الكتاب بمعنى الحكم والقضاء أقوال أربعة .

(بالحق) قال ابن عباس : بالعدل ، وقال مقاتل : ضد الباطل ، وقال مكي : بالواجب وحيثما ذكر بالحق فهو الواجب ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب ﴾ قيل : هم اليهود ، والكتاب : التوراة واختلفا فهم : كتمانهم بعث عيسى ثم بعث محمد ﷺ آمنوا ببعض وهو ما أظهره وكفروا ببعض وهو ما كتموه ، وقيل : هم اليهود والنصارى قاله السدي ، واختلف كفرهم بما قصه الله تعالى من قصص عيسى وأمه عليهما السلام وبإنكار الإنجيل ، ووقع الاختلاف بينهم حتى تلاعنوا وتقاتلوا ، وقيل : كفار العرب ، والكتاب : القرآن ، قال بعضهم : هو سحر ، وبعضهم : هو أساطير الأولين ، وبعضهم : هو مفترى إلى غير ذلك ، وقيل : أهل الكتاب والمشركون ، قال أهل الكتاب : إنه من كلام محمد ﷺ وليس هو من كلام الله ، وقالوا ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل : ١٠٣] ، وقالوا دارست وقالوا ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ [ص : ٧] ، إلى غير ذلك ، وقال المشركون بعضهم قال سحر ، وبعضهم شعر ، وبعضهم كهانة ، وبعضهم أساطير ، وبعضهم افتراء ، إلى غير ذلك .

والظاهر الإخبار عن صدر منهم الاختلاف فيما أنزل الله من الكتاب بأنهم في معادة وتنافر لأن الاختلاف مظنة التباعد والتباين كما أن الائتلاف مظنة التحاب والاجتماع ، وفي المنتخب : الأقرب حمل الكتاب على التوراة والإنجيل اللذين ذكرت البشارة بمحمد ﷺ فيهما ، لأن القوم قد عرفوا ذلك وكرموا وعرفوا تأويله ، فإذا أورد تعالى ما يجري مجرى العلة في إنزال العقوبة به فالأقرب أن يكون المراد كتابهم الذي هو الأصل عندهم دون القرآن انتهى كلامه ﴿ لفي شقاق بعيد ﴾ تقدم أن ذلك إما مأخوذ من كون هذا يصير في شق وهذا في شق ، أو من كون هذا يشق على صاحبه ، وكفي بالشقاق عن العداوة ووصف الشقاق بالبعد إما لكونه بعيداً عن الحق ، أو لكونه بعيداً عن اللفة ، أو كني به عن الطول أي في معادة طويلة لا تنقطع وهذا الاختلاف هو سبب اعتقاد كل طائفة أن كتابها هو الحق وإن غيره افتراء وقد كذبوا في ذلك كتب الله يشبه بعضها بعضاً ويصدق بعضها بعضاً (وقد تضمنت) هذه الآيات الكريمة نداء الناس ثانياً ، وأمرهم بالأكل من الحلال الطيب ، ونهيهم عن اتباع الشيطان ، وذكر خطواته كأنهم يقتفون آثاره ويطؤون عقبه فكلما خطا خطوة وضعوا أقدامهم عليها وذلك مبالغة في اتباعه ، ثم بين أنه إنما نهاهم عن اتباعه لأنه هو العدو المظهر لعداوته ، ثم لم يكتف بذكر العداوة حتى ذكر أنه يأمرهم بالمعاصي ، ولما كان لهم متبوعاً وهم تابعوه ناسب ذكر الأمر إذ هم ممثلون ما زين لهم ووسوس ، ثم ذكر ما به أمرهم ، وهو أمره إياهم بالافتراء على الله والإخبار عن الله بما لا يعلمونه عن الله ثم ذكر شدة إعراضهم عما أنزل الله واقتفاء اتباع آبائهم حتى إنهم لو كان آبائهم مسلوبو العقل والهداية لكانوا متبعيهم مبالغة في التقليد البحت والإعراض عن كتاب الله وجرياً لخلفهم على سلف سنتهم من غير نظر ولا استدلال ، ثم ذكر أن مثل الكفار وداعيتهم إلى ما أنزل الله مثل الناعق بما لا يسمع إلا مجرد ألفاظ ، ثم ذكر ما هم عليه من الصمم والبكم والعمى التي هي مانعة من وصول العلوم إلى الإنسان ، فلذلك ختم بقوله (فهم لا يعقلون) لأن

طرق العقل والعلم منسدة عليهم ثم نادى المؤمنين نداء خاصاً ، وأمرهم بالأكل من الطيب وبالشكر لله ، ثم ذكر أشياء مما -حرم وأباح الأكل منها حال الاضطراب ، وشرط في تناول ذلك أن لا يكون المضطر باغياً ولا عادياً ، ولما أحل أكل الطيبات ، وحرم ما حرم هنا ذكر أحوال من كتم ما أنزل الله واشترى به النزر اليسير لتعتبر هذه الأمة بحال من كتم العلم وباعه بأخس ثمن إذ أخبر تعالى أنه لا يأكل في بطنه إلا النار ، أي ما يوجب أكله النار ، وأن الله لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزيكهم حين يكلم المؤمنين تكليم رحمة وإحسان ، وذكر أنهم مع انتفاء التعليم الذي هو أعلى الرتب للمرؤوس من الرئيس حيث أهله لمناجاته ومحادثته وانتفاء الثناء عليهم لهم العذاب المؤلم ، ثم بالغ في ذمهم بأن هؤلاء هم الذين أثروا الضلال على الهدى والعذاب على النعيم ثم ذكر أنهم بصدد أن يتعجب من جلدتهم على النار وأن ما حصل لهم من العذاب هو بسبب ما أنزل الله من الكتاب فخالفوه ثم ذكر أن الذين اختلفوا فيما أنزل الله هم في معاداة لا تنقطع .

« قبل » ظرف مكان تقول زيد قبلك وشرح المعنى أنه في المكان الذي هو مقابلك فيه ، وقد يتسع فيه فيكون بمعنى العندية المعنوية تقول « لي قبَل زيد دين » ، « الرقاب »^(١) جمع رقبة ، والرقبة مؤخر العنق ، واشتقاقها من المراقبة وذلك أن مكانها من البدن مكان الرقيب المشرف على القوم ، ولهذا المعنى يقال « أعتق الله رقبتك » ولا يقال « أعتق الله عنقه » ، لأنها لما سميت رقبة كانت كأنها ترقيب العذاب ، ومن هذا يقال للتي لا يعيش لها ولد رقبول لأجل مراعاتها موت ولدها ، قال في المنتخب : وفعل جمع يطرد لفعله سواء كانت اسماً نحو رقبة ورقاب أو صفة نحو حسنة وحسان ، وقد يعبر بالرقبة عن الشخص بجملة ، « البأساء » اسم مشتق من البؤس^(٢) إلا أنه مؤنث ، وليس بصفة ، وقيل : هو صفة أقيمت مقام الموصوف ، والبؤس والبأساء : الفقر ، يقال منه بش الرجل إذا افتقر قال الشاعر :

وَلَمْ يَكْ فِي بُؤْسٍ إِذَا بَاتَ لَيْلَةً يُنَاغِي غَزَالاً سَاجِيَ الطَّرْفِ أَكْهَلًا

و « البأس »^(٣) شدة القتال ، ومنه حديث عليّ « كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ » ، ويقال بؤس الرجل أي شجع ، « الضراء »^(٤) من الضر فقبل ليس بصفة ، وقيل هو صفة أقيمت مقام الموصوف ، وفي الحديث « وأعوذ بك من ضر أو مضرة » ، وقال أهل اللغة : الضراء بالفتح ضد النفع والضر بالضم الزمانة ، « القصاص » مصدر قاص يقاص مقاصة وقصاصاً نحو قاتل يقتل مقاتلة وقتلاً والقصاص^(٥) مقابلة الشيء بمثله ، ومنه قتل من قتل بالمقتول ، وأصله من قَصَصْتُ الأثر أي اتبعته ، لأنه اتباع بدم المقتول ومنه : قص الشعر اتباع أثره ، « الحر » معروف تقول حر الغلام يحر حرية فهو حرّ وجمعه أعني فعلاً الصفة على أحرار محفوظ وقالوا مرّوا مراراً فإن كانت فعلاً صفة للآدميين جمعت بالواو والنون ، وكما أن أحراراً محفوظ في الجمع كذلك حرائر محفوظ في جمع حرّة مؤنثة ، « القتلى » جمع

(٢) البؤس : الشدة والفقر . وبش الرجل يبأس بُؤساً وبأساً وبئيساً : إذا افتقر واشتدت حاجته ، فهو بائس أي : فقير - لسان العرب (٢٠٠/١) .

(٣) قال الليث : البأساء اسم الحرب والمشقة والضرب ، والبأس العذاب . والبأس : الشدة في الحرب . . . لسان العرب (١٩٩/١) .

(٤) الضراء : نقيض السراء . . . قال ابن الأثير : الضراء : الحالة التي تضر ، وهي نقيض السراء وهما بناءان للمؤنث ولا مذكر لهما - لسان العرب (٢٥٧٣/٤) .

(٥) القصاص والقصاص والقصاصاء : القود وهو القتل بالقتل أو الجرح بالجرح - لسان العرب (٣٦٥٢/٥) .

قتيل وهو منقاس في فعيل الوصف بمعنى ممات أو موجه ، « الأنثى » معروف وهي فعلى ، الألف فيه للتأنيث ، وهو مقابل الذكر الذي هو مقابل للمرأة ، ويقال للخصيتين أنثيان وهذا البناء لا تكون ألفه إلا للتأنيث ، ولا تكون ثلاً لحاق لفقد فعل في كلامهم ، « الأداء » بمعنى التأدية ، أدت الدين : قضيته وأدى عنك رسالة بلغها ، إنه لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي : أي لا يبلغ ، (أولو) من الأسماء التي هي في الرفع بالواو وفي الجر والنصب بالياء ومعنى (أولو) أصحاب ومفرده من غير لفظه وهو ذو بمعنى صاحب ، وأعرب هذا الإعراب على جهة الشذوذ ، ومؤنثه أولات بمعنى صاحبات وإعرابها كإعرابها فترفع بالضممة وتجر وتنصب بالكسرة ، وهما لازمان للإضافة إلى اسم جنس ظاهر وكتبا في المصحف بواو بعد الألف ، ولو سُمِّيَتْ بأولو زدت نوناً فقلت : جاء من أولون ، ورأيت أولين : ومررت بأولين ، نص علي ذلك سيويه لأنها حالة إضافتها مقدر سقوط نون منها لأجل الإضافة كما تقول « ضاربو زيد » و « ضاربين زيداً » ، « الألباب » جمع لب^(١) وهو العقل الخالي من الهوى ، سمي بذلك إما لبنائه من قولهم : ألب بالمكان ، ولب به أقام ، وإما من اللباب وهو الخالص ، وهذا الجمع مطرد أعني أن يجمع فعل اسم على أفعال ، والفعل منه على فعل بضم العين وكسرهما ، قالوا لببت ولبيت ، ومجيء المضاعف على فعل بضم العين شاذ ، استغنوا عنه بفعل نحو عزّ يعزّ ، وخفّ يخفّ ، فما جاء من ذلك شاذاً : لببت ، وسررت ، وفللت ، ودممت ، وعززت ، وقد سمع الفتح فيها إلا في لببت فسمع الكسر كما ذكرنا ، « الجَنَف »^(٢) الجور جَنَفَ بكسر النون يَجْنَفُ فهو جَنَف وجانف عن النحاس ، قال الشاعر :

إِنِّي أَمْرٌ مَنَعْتُ أَرْوَمَةَ عَامِرٍ ضَيَّمِي وَقَدْ جَنَفْتُ عَلَيَّ خُصُومُ

وقيل : الجنف الميل ومنه قول الأعشى :

تَجَانَفَ عَنْ حَجَرِ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي وَمَا قَصَدْتُ مِنْ أَهْلِهَا لِسَوَائِكَا

وقال آخر :

هُمُ الْمَوَلَى وَإِنْ جَنَفُوا عَلَيْنَا وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمْ لَزُورُ

ويقال أجنف الرجل جاء بالجنف ، كما يقال ألام الرجل أتى بما يلام عليه وأخس أتى بخسيس .

تم الجزء الأول ويليهِ الجزء الثاني وأوله تفسير قوله تعالى :

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ... ﴾ الخ .

(١) ليبب : عاقل ذولب ، من قوم الباء ... لسان العرب (٣٩٧٩/٥) .

(٢) يقال : جَنَفَ عليه جَنَفًا وأجنف : مال عليه في الحكم والخصومة والقول وغيرها وهو من ذلك ... لسان العرب (٧٠٠/١) .

فهرس الجزء الأول

من البحر المحيط

٢٢	محمد بن كعب القرظي	٣	تقديم
٢٢	العراق		مقدمة التحقيق
٢٢	مسروق	٨	منهج التحقيق
٢٢	قتادة	٩	علم التفسير
٢٢	الحسن البصري	٩	تعريف علم التفسير
٢٣	مرة الهمداني	١٠	التأويل
٢٣	الضحاك	١٢	الفرق بين التفسير والتأويل والعلاقة بينهما
٢٣	تدوين التفسير بالمأثور	١٣	الحاجة إلى علم التفسير
٢٣	التفسير بالرأي	١٣	العلوم التي لا بد منها للمفسر
٢٤	مناهج المفسرين بالرأي	١٤	أقسام التفسير
٢٥	أهم كتب التفسير بالرأي الجائز	١٦	أمثلة من تفسير الصحابة للقرآن
٢٧	الباب الثاني: أبو حيان وتفسيره	١٦	تفسير التابعين
٢٧	ترجمته	١٧	المفسرون من الصحابة
٢٧	كنيته	١٧	علي بن أبي طالب
٢٧	مولده	١٨	عبد الله بن مسعود
٢٨	نشأته	١٨	أبي بن كعب
٣٠	هيئته	١٩	عبد الله بن عباس
٣١	أسرته	١٩	المفسرون من التابعين وطبقاتهم
٣١	زوجه	١٩	أهل مكة
٣١	أبناءؤه	١٩	مجاهد
٣١	١ - نضار	٢٠	سعيد بن جبير
٣٢	٢ - حيان	٢٠	عطاء بن أبي رباح
٣٢	حفيدة	٢٠	عكرمة
٣٢	شيوخه	٢١	أهل المدينة
٣٥	ارتحال أبي حيان	٢١	زيد بن أسلم
٣٦	وقت خروج أبي حيان من الأندلس	٢١	أبو العالية

٦٢ المذهب البصري	٣٧ الشام وأبو حيان
٦٣ البصريون وموقف الإمام أبي حيان منهم	٣٧ الرحلة إلى السودان
٦٣ أمثلة للنقل عن نحاة أهل البصرة	٣٨ الاسكندرية وأبو حيان
٦٣ المبرد	٣٨ أبو حيان واستقرار الرحلة
٦٤ المذهب الكوفي	٣٨ ثقافته
٦٤ المذهب البغدادي	٣٩ اطلاعه على كتب السابقين
٦٥ المذهب الأندلسي	٤٠ مصنفاته
٦٥ استقلال أبي حيان النحوي	٤٠ التفسير
٦٨ أبو حيان ومعربو القرآن	٤٠ القراءات
٦٩ أبو حيان وابن عطية	٤١ الحديث
٧٥ أبو حيان والزنجشري	٤١ الفقه
٧٧ علم القراءات والبحر	٤٢ اللغة
٧٧ نشأة علم القراءات	٤٢ النحو
٧٨ المقرئون من الصحابة	٤٥ ثناء العلماء عليه
٧٨ المقرئون من التابعين	٤٦ تلاميذه
٧٩ أعداد القراءات	٥٣ خشوعه
٧٩ ضابط قبول القراءات	٥٣ غايته
٧٩ الكلام على القراءات الشاذة	٥٤ عقيدته
٨١ تواتر القراءات العشر	٥٤ أبو حيان والباطنية
٨٧ هل تجوز القراءة بالشاذ؟ وهل تصح الصلاة به؟	٥٥ أبو حيان والصوفية
٨٩ مصادر أبي حيان	٥٦ أبو حيان والإسرائيليات
٨٩ مصادر أبي حيان في التفسير	٥٧ أبو حيان ومذهبه الفقهي
٨٩ التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير	٥٨ وفاته
٨٩ المحرر الوجيز	٥٩ منهج أبي حيان في تفسيره
٩٠ الكشف	٦٠ البحر المحيط بين التفسير بالأثر والتفسير بالرأي
٩٠ مصادر أبي حيان في القراءات	٦٠ أولاً: التفسير الأثري في البحر
٩٠ مؤلفات أبي عمرو الداني	٦٠ ثانياً: التفسير بالرأي في البحر
٩٠ مصادر أبي حيان في الحديث	٦٠ بيان الجلي والخفي
٩٠ الجامع الصحيح (صحيح البخاري)	٦٠ الكلام على غوامض الإعراب
٩٠ المسند الصحيح (صحيح مسلم)	٦٠ علوم البلاغة بأنواعها الثلاثة
٩٠ سنن أبي داود	٦١ البحر المحيط بين الإيجاز والإطناب
٩٠ سنن النسائي	٦١ الفقه في تفسير البحر المحيط
٩١ الجامع الصحيح (سنن الترمذي)	٦١ الشواهد الشعرية في البحر المحيط
٩١ سنن ابن ماجه	٦١ استخدام القواعد النحوية
٩١ مسند الطيالسي	٦٢ أبو حيان والمذاهب النحوية

تفسير سورة البقرة

١٥٤	 الآية : ١
١٥٤	 الآية : ٢
١٦٢	 الآية : ٣
١٦٣	 الآية : ٤
١٦٣	 الآية : ٥
١٧٠	 الآية : ٦
١٧٢	 الآية : ٧
١٧٩	 الآيتان : ٨ ، ٩
١٨١	 الآية : ١٠
١٩٠	 الآيات : ١١ - ١٣
١٩٣	 الآية : ١٤
١٩٤	 الآية : ١٥
١٩٥	 الآية : ١٦
٢٠٧	 الآية : ١٧
٢٠٨	 الآية : ١٨
٢١٨	 الآية : ١٩
٢٢٥	 الآية : ٢٠
٢٣١	 الآيتان : ٢١ ، ٢٢
٢٤٢	 الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
٢٥١	 الآية : ٢٥
٢٦١	 الآيات : ٢٦ - ٢٩
٢٨٤	 الآيات : ٣٠ - ٣٣
٣٠١	 الآية : ٣٤
٣٠٥	 الآية : ٣٥
٣١١	 الآيات : ٣٦ - ٣٩
٣٢٥	 الآيات : ٤٠ - ٤٣
٢٣٧	 الآيات : ٤٤ - ٤٦
٣٤٣	 الآيات : ٤٧ - ٤٩
٣٥٣	 الآيات : ٥٠ - ٥٣
٣٦٢	 الآيات : ٥٤ - ٥٧
٣٧٧	 الآيات : ٥٨ - ٦١
٤٠١	 الآيات : ٦٢ - ٦٦
٤١١	 الآيات : ٦٧ - ٧٤

٩١	 سنن الدارقطني
٩١	 المعجم الكبير
٩١	 المعجم الأوسط
٩١	 المعجم الصغير
٩١	 مصادر أبي حيان في كتب النحو
٩٢	 مصادره في أصول الفقه
٩٢	 مصادره في الفقه
٩٢	 مصادره في التاريخ
٩٢	 مصادره من جهة شيوخه
٩٢	 مصادر أبي حيان في أصول الدين
٩٢	 مصادره في علم البلاغة
٩٣	 البحر في نظر أصحاب الطبقات
٩٣	 حول البحر (النهر الماد)
٩٣	 الدر اللقيط من البحر المحيط
٩٣	 المحاكمة
٩٤	 صور عن المخطوطات

مقدمة المؤلف

١٠٣	 منهجه في تأليف هذا الكتاب
١٠٥	 العلوم التي يحتاج إليها المفسر
١١١	 الشروط الواجب توافرها في المفسر
١١٢	 حديثه عن الزمخشري وابن عطية
١١٦	 ذكر فضائل القرآن
١١٨	 الترغيب في تفسير القرآن
١١٩	 المفسرون من الصحابة
١١٩	 المفسرون من التابعين
١٢٠	 منهج التفسير في العصور المتقدمة له والمتأخرة
١٢١	 تعريف علم التفسير لغة واصطلاحاً

تفسير سورة الفاتحة

١٢٣	 الآية : ١
١٣٠	 الآية : ٢
١٣٢	 الآية : ٣
١٣٣	 الآية : ٤
١٣٩	 الآية : ٥
١٤٣	 الآية : ٦
١٤٤	 الآية : ٧

٥٦٦	 الآية : ١٣١	٤٣٥	 الآية : ٧٥ - ٨١
٥٦٧	 الآيات : ١٣٢ - ١٣٨	٤٤٦	 الآية : ٨٢
٥٨٥	 الآية : ١٣٩	٤٤٧	 الآيات : ٨٣ - ٨٦
٥٨٦	 الآية : ١٤٠	٤٦٣	 الآيات : ٨٧ - ٩٦
٥٨٩	 الآية : ١٤١	٤٨٤	 الآيات : ٩٧ - ١٠٣
٥٩٠	 الآيات : ١٤٢ - ١٥٧	٥٠٥	 الآيات : ١٠٤ - ١١٣
٦٢٧	 الآيات : ١٥٨ - ١٦٧	٥٢٤	 الآيات : ١١٤ - ١٢١
٦٥٠	 الآيات : ١٦٨ - ١٧٦	٥٤١	 الآيتان : ١٢٢ ، ١٢٣
		٥٤٢	 الآيات : ١٢٤ - ١٣٠

تفسير البحر المحيطة

لمحمد بن يوسف الشيرازي حيان الأندلسي
المتوفى سنة ٧٤٥هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبدالمعز
الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد الشوقي
الدكتور أحمد النجولي الجمل
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر
أستاذ التفسير وعلم القرآن بجامعة الأزهر

قرضه

الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ الفرياري
أستاذ التفسير وعلم القرآن كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

المجلد الثامن

المحتوى

أول الزخرف - آخر الناس

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلکس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاکس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢٠٠

سورة الزخرف تسع وثمانون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ
لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ
بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي
نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الظُّلُمِ الْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ۝ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ
عِبَادِهِ جُزْأً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ أُتْخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَاسِ ۝ وَإِذَا
بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيلَةِ
وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ
سَتَكُتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ۝ أَمْ أَعْيَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ
أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۝ قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

لَأَيُّهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُم يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْمَلْ عِثْرًا مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ يُفْقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَن تَسْمَعُ الصَّهْرَ أَوْ تَهْدَى الْعُمْى وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَاِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُّعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعَا لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمُ الْيَسَّ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٦٠﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا

لَبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ۖ ٥٩ ۖ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّبِعُون هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۖ ٦٠ ۖ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۖ ٦١ ۖ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ٦٢ ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۖ ٦٣ ۖ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ۖ ٦٤ ۖ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ٦٥ ۖ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۖ ٦٦ ۖ يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۖ ٦٧ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۖ ٦٨ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۖ ٦٩ ۖ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۖ ٧٠ ۖ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ ٧١ ۖ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۖ ٧٢ ۖ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۖ ٧٣ ۖ لَا يُفَرِّغُهُمْ اللَّهُ فِيهِمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۖ ٧٤ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۖ ٧٥ ۖ وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ ۖ ٧٦ ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ۖ ٧٧ ۖ أَمْ أَمْرُؤًا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۖ ٧٨ ۖ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۖ ٧٩ ۖ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ ۖ ٨٠ ۖ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ ٨١ ۖ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ۖ ٨٢ ۖ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۖ ٨٣ ۖ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدُهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ ٨٤ ۖ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۖ ٨٥ ۖ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۖ ٨٦ ۖ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ٨٧ ۖ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۖ ٨٨ ۖ

يعشو : يعرض ، ويعشى : يعمى ، وقال ابن قتيبة : لم نر أحداً حكى عشوت عن الشيء أعرضت عنه ، وإنما يقال : تعاشيت عن كذا ، وتعامت إذا تغافل عنه ، وتقول عشوت إلى النار إذا استدلت عليها ببصر ضعيف . وقيل : عشي يعشى إذا حصلت الآفة في بصره ، وعشا يعشو نظر المعشي ولا آفة به ، كما قالوا عرج لمن به الآفة ، وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، قال الخطيئة :

مَتَى تَأْتِي تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَوْقِدٌ^(١)

أي : تنظر إليها نظر المعشي لما يضعف بصر من عظيم الوقود به . ومنه قول حاتم :

أَعْشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِذْرُ^(٢)

الصحفة قال الجوهري : هي القصعة . وقال الكسائي : أعظم القصاع الجفنة ، ثم القصعة تليها تسع العشرة ، ثم الصحفة تسع الخمسة ، ثم المكيلة تسع الرجلين ، والثلاثة والصحيفة : الكتاب ، والجمع صحف وصحائف ، الكوب قال قطرب : الإبريق لا عروة له . وقال الأخفش : الإبريق لا خرطوم له ، وقيل : كالإبريق إلا أنه لا أذن له ، ولا مقبض ، قال أبو منصور الجواليقي : إنما كان بغير عروة ليشرب الشارب من أين شاء ، لأن العروة ترد الشارب من بعض الجهات انتهى . وقال عدي :

مُتَكِنًا تَصْفِقُ أَبْوَابُهُ يَسْعَى عَلَيْهِ الْعَبْدُ بِالْكُوبِ^(٣)

أبرم قال الفراء : أبرم الأمر بالغ في إحكامه ، وأبرم القاتل إذا أدهم ، وهو القتل الثاني والأول يقال : له سجل كما قال زهير : من سجل وبرم ، انتهى . والإبرام أن يجمع خيطين ، ثم يقتلها فتلاً متقناً ، والبريم خيط فيه لوان . ﴿ حم والكتاب المين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ، وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ، فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهم العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإننا إلى ربنا لمنقلبون ، وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ، أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبئين ، وإذا بشر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ .

هذه السورة مكية ، وقال مقاتل : إلا قوله : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) وقال ابن عطية : بإجماع أهل العلم ، (إنا جعلناه) أي : صيرناه أو سميناه ، وهو جواب القسم ، وهو من الأقسام الحسنة لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونها من واد واحد ونظيره قول أبي تمام :

وَنَسَايَاكَ إِنَّمَا إِغْرِضُ^(٤)

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥١) الخزانة (٩٤/٩) الكتاب (٨٦/٣) ابن يعيش (٦٦/٢) وقد تقدم .

(٢) لم أجده في ديوانه وهو لمسكين الدارمي انظر ديوانه (٤٥) والكشاف (٢٥١/٤) وفيه لحاتم انظر أمالي المرتضى (٤٤/٢) روح المعاني (٨١/٢٥) .

(٣) البيت من السريع انظر مجاز القرآن (٢٠٦/٢) معاني الفراء (٣٧/٣) القرطبي (٧٦/١٦) .

(٤) صدر بيت من الخفيف وعجزه :

وَلَالَ تُوْمٌ وَبَرَقَ وَمِيضُ

وقيل : والكتاب أريد به الكتب المنزلة ، والضمير في جعلناه يعود على القرآن ، وإن لم يتقدم له صريح الذكر لدلالة المعنى عليه . وقال الزمخشري : جعلناه بمعنى : صيرناه معدى إلى مفعولين ، أو بمعنى خلقناه معدى إلى واحد كقوله : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام ١] (وقرأنا عربياً) حال ، ولعل مستعارة لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ، ومعنى الترجي أي : خلقناه عربياً غير عجمي أراد أن تعقله العرب ، ولثلا يقولوا لولا فصلت آياته انتهى . وهو على طريقة الاعتزال في كون القرآن مخلوقاً ، وأم الكتاب اللوح المحفوظ ، لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفع بكونه لديه علياً على جميع الكتب ، وعالياً عن وجوه الفساد حكيمياً . أي : حاكماً على سائر الكتب ، أو محكماً بكونه في غاية البلاغة والفصاحة وصحة المعاني . قال قتادة وعكرمة والسدي : اللوح المحفوظ ^(١) القرآن فيه بأجمعه منسوخ ، ومنه كان جبريل ينزل ، وقيل : أم الكتاب الآيات المحكمات لقوله ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ [آل عمران ٧] ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمات التي هي الأم . وقرأ الجمهور في أم بضم الهمزة ، والأخوان بكسرهما ، وعزاها ابن عطية يوسف بن عمرو إلى العراق ، ولم يعزها للأخوان عقلة منه . يقال : ضرب عن كذا ، وأضرب عنه إذا أعرض عنه . والذكر : قال الضحاك وأبو صالح : القرآن ^(٢) ، أي : افترائي عنكم القرآن ، وقولهم ضرب الغرائب عن الخوض إذ أدارها ونحاهما وقال الشاعر :

اضْرِبْ عَنْكَ الِهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرَبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ ^(٣)

وقيل : الذكر الدعاء إلى الله ، والتخويف من عقابه . قال الزمخشري : والفاء للعطف على محذوف تقديره أنه ملكم فنضرب عنكم الذكر ، إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب ، وخلق قرآناً عربياً لتعقلوه ، وتعملوا بموجبه انتهى . وتقدم الكلام معه في تقديره فعلاً بين الهمزة والفاء في نحو ﴿ أفلم يسيروا ﴾ [محمد ١٠] ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [البقرة ٤٤] وبينها وبين الواو في نحو ﴿ أولم يسيروا ﴾ [الروم ٩] كما وأن المذهب الصحيح قول سيبويه والنحويين أن الفاء والواو منوي بهما التقديم ، لعطف ما بعدها على ما قبلهما ، وأن الهمزة تقدمت لكون الاستفهام له صدر الكلام ، ولا خلاف بين الهمزة والحرف ، وقد رددنا عليه قوله . وقال ابن عباس ومجاهد : المعنى أفترك تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم ، وعفواً عن إجرامكم (أن كنتم) أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين ، أي : هذا لا يصلح ونحنا قتادة إلى أن المعنى صفحاً أي : معفواً عنه . أي : نتركه ثم لا نؤاخذون بقوله ، ولا بتدبره ولا تنبهون عليه ، وهذا المعنى نظير قول الشاعر :

ثُمَّ الصَّبَا صَفْحًا بِسَاكِنِ ذِي الْفَضَا وَبَصَدْعِ قَلْبِي أَنْ يَهْبَّ هُبُوبُهَا

وقول كثير :

صَفُوحًا فَمَا تَلَقَّاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتِ

وقال ابن عباس : المعنى أفحسبتم أن نصفح عنكم ، ولما فعلوا ما أمرتم به . وقال الكلبي : أن نترككم همللاً بلا أمر ولا نهي ، وقال مجاهد أيضاً : أن لا نعاقبكم بالتكذيب ، وقيل : أن نترك الإنزال للقرآن من أجل تكذيبكم . وقرأ حسان بن عبد الرحمن الضبغي ، والسميط بن عمير ، وشميل بن عذرة : بضم الصاد والجمهور بفتحها ، وهما لغتان

(١) انظر الوسيط ٤٢ خ .

(٢) انظر الوسيط ٤٢ خ .

(٣) قال أبو حاتم أنشد الأخفش بيتاً مصنوعاً لطرفة فذكره انظر النوادر (١٦٥) شرح المفصل لابن يعيش (٤٤/٩) الكشاف (٢٣٧/٤) روح

المعاني (٦٥/٢٥) اللسان (قنس) .

كالسد والسد ، وانتصاب صفحاً على أنه مصدر من معنى أفنضرب ، لأن معناه أفنصفح ، أو مصدر في موضع الحال أي : صافحين ، قالهما الخوفي وتبعه أبو البقاء ، وقال الزمخشري : وصفحاً على وجهين إما مصدر من صفح عنه إذا عرض منتصباً على أنه مفعول له على معنى أفنزعزل عنكم إنزال القرآن ، وإلزام الحجة به إعرافاً عنكم ، وإما بمعنى الجانب من قولهم نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه على معنى أفنحيه عنكم جانباً فينصب على الظرف . كما تقول : ضعه جانباً ، وامش جانباً ، وتعضده قراءة من قراءة صفحاً بالضم ، وفي هذه القراءة وجه آخر ، وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح ، وينتصب على الحال أي : صافحين معرضين ، وقال ابن عطية : صفحاً انتصابه كانتصاب صنع الله انتهى . يعني أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، فيكون العامل فيه محذوفاً ولا يظهر هذا الذي قاله فليس انتصابه انتصاب صنع الله . وقرأ نافع والأخوان بكسر الهمزة وإسراهم كان متحققاً فكيف دخلت عليه إن الشرطية التي لا تدخل إلا على غير المتحقق ، أو على المتحقق الذي انبهم زمانه . قال الزمخشري : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته ، كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوحه استجهالاً له . وقرأ الجمهور أن بفتح الهمزة ، أي : من أجل أن كنتم ، وقال الشاعر :

أُتَجَرَّعُ أَنْ بَانَ الْخَلِيطُ الْمُودُعُ

وقرأ زيد بن علي : (إذ كنتم) بزال مكان النون لما ذكر خطاباً لقريش أفنضرب عنكم الذكر ، وكان هذا الإنكار دليلاً على تكذيبهم للرسول ، وإنكاراً لما جاء به آتسه تعالى بأن عادتهم عادة الأمم السابقة من استهزائهم بالرسول ، وأنه تعالى أهلك من كان أشد بطشاً من قريش ، أي : أكثر عدداً وعدداً وجلداً ، (ومضى مثل الأولين) أي : فليحذر قريش أن يحل بهم مثل ما حل بالأولين مكذبي الرسل من العقوبة . قال معناه قتادة وهي العقوبة التي سارت سير المثل ، وقيل : مثل الأولين في الكفر والتكذيب ، وقريش سلكت مسلكها ، وكان مقبلاً عليهم بالخطاب في قوله : (أفنضرب عنكم) فأعرض عنهم إلى إخبار الغائب في قوله : (فأهلكنا أشد منهم بطشاً) ، (ولئن سألتهم) احتجاج على قريش بما يوجب التناقض ، وهو إقرارهم بأن موجد العالم العلوي والسفلي هو الله ، ثم هم يتخذون أصناماً آلهة من دون الله يعبدونها ويعظمونها ، قال ابن عطية : ومقتضى الجواب أن يقولوا خلقهن الله . فلما ذكر تعالى جاءت العبارة عن الله تعالى بالعزیز العليم ، ليكون ذلك توطئة لما عدد من أوصافه الذي ابتداء الأخبار بها ، وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش انتهى . وقال الزمخشري : لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه ، وليسندنه إليه انتهى . والظاهر أن خلقهن العزيز العليم نفس المحكي من كلامهم ، ولا يدل كونهم ذكروا في مكان خلقهن الله أن لا يقولوا في سؤال آخر خلقهن العزيز العليم ، (الذي جعل لكم) من كلام الله خطاباً لهم بتذكير نعمه السابقة ، وكرر الفعل في الجواب في قوله : (خلقهن العزيز العليم) مبالغة في التوكيد ، وفي غير ما سؤال اقتصروا على ذكر اسم الله ، إذ هو العلم الجامع للصفات العلا ، وجاء الجواب مطابقاً للسؤال من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ، لأن من مبتدأ فلو طابق في اللفظ كان بالاسم مبتدأ ، ولم يكن بالفعل لعلكم تهتدون ، أي : إلى مقاصدكم في السفر ، أو تهتدون بالنظر والاعتبار بقدر . أي : بقضاء وحتم في الأزل ، أو بكفاية لا كثيراً فيفسد ولا قليلاً فلا يجدي (فأنشرنا) أحيينا به بلدة ميتاً ذكر على معنى القطر ، وبلدة اسم جنس . وقرأ أبو جعفر ، وعيسى (ميتاً) بالتشديد . وقرأ الجمهور : تخرجون مبنياً للمفعول ، وابن وثاب ، وعبد الله بن جبيرة المصباح ، وعيسى ، وابن عامر والأخوان مبنياً للفاعل ، و (الأزواج) الأنواع من كل شيء : قيل وكل ما سوى الله فهو زوج ، كفوق وتحت ، ويمين وشمال ، وقدام وخلف ، وماض ومستقبل ، وذوات وصفات ، وصيف وشتاء ، وربيع وخريف ، وكونها أزواجاً تدل على أنها ممكنة الوجود ، ويدل على أن محدثها فرد ، وهو الله المنزه عن الضد والمقابل ،

والمعارض ، انتهى . والأنعام المعهود أن لا يركب من الأنعام إلا الإبل ، ما موصولة ، والعائد محذوف أي : ما يركبونه ، وركب بالنسبة للعلل ويتعدى بنفسه على المتعدي بوساطة في إذ التقدير ما يركبونه ، واللام في لتستوا الظاهر أنها لام كي .

وقال الحوفي : ومن أثبت لام الصيرورة جازله أن يقول به هنا . وقال ابن عطية : لام الأمر وفيه بعد من حيث استعمال أمر المخاطب بقاء الخطاب ، وهو من القلة بحيث ينبغي أن لا يقاس عليه ، فالفصيح المستعمل اضرب ، وقيل : لتضرب ، بل نص النحويون على أنها لغة رديئة قليلة ، إذ لا تكاد تحفظ إلا قراءة شاذة ، فبذلك فلتفرحوا بالثناء للخطاب ، وما أثر المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام : « لتأخذوا^(١) مصافكم » مع احتمال أن الراوي روى بالمعنى وقال الشاعر :

لَتَقُمَّ أَنْتَ يَا ابْنَ خَيْرٍ قَرِيْشٍ كَيِّ لَتَقْضِيَ حَوَائِجَ الْمُسْلِمِيْنَ^(٢)

وزعم الزجاج أنها لغة جيدة ، وذلك خلاف ما زعم النحويون ، والضمير في ظهوره . عائد على ما ، كأنه قال على ظهور ما تركبون ، قاله أبو عبيدة ، فلذلك حسن الجمع ، لأن ماها لفظ ، ومعنى فمن جمع فباعبار المعنى ، ومن أفرد فباعبار اللفظ ، ويعني من الفلك والأنعام ، وقال الفراء : نحواً منه قال أضاف الظهور ، ثم تذكروا أي في قلوبكم نعمة ربكم معترفين بها ، مستعظمين لها ، لا يريد الذكر باللسان ، بل بالقلب ، ولذلك قابله بقوله : (وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا) أي : تنزهوا الله بصريح القول ، وجاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا وضع رجله في الركاب قال : « بسم الله^(٣) » ، فإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا إلى قوله لمتقلبون ، وكبر ثلاثاً ، وهلل ثلاثاً ، وقالوا : إذا ركب في السفينة قال : بسم الله مجراها ومرساها إلى رحيم ، ويقال عند النزول منها : أنزلها منزلاً مباركاً ، وأنت خير المنزلين ، والقرن الغالب الضابط المطبق للشيء يقال : أقرن الشيء إذا أطاقه ، قال ابن هرمة :

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَلْتَنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدَا دَعْدُ وَهَجْرُ^(٤)

وحقيقة أقرنه وجده قرينته وما يقرن به ، لأن الصعب لا يكون قرينة للضعف ، قال الشاعر :

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزِّي قَرَنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيْسُ^(٥)

والقرن الحبل الذي يقرن به ، وقال أبو عبيد : فلان مقرن لفلان أي : ضابط له ، والمعنى : أنه ليس لنا من القوة ما نضبط به الدابة والفلك ، وإنما الله الذي سخرها . وأنشد قطرب لعمر بن معد يكرب :

لَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مَا عَقِيلَ لَنَا فِي النَّائِبَاتِ بِمُقَرِّنِنَا

وقرىء لمقترنين اسم فاعل من اقترن (وإنا إلى ربنا لمتقلبون) أي : راجعون ، وهو إقرار بالرجوع إلى الله ،

(١) ذكره القرطبي في التفسير (٨/٣٥٤) .

(٢) البيت من الخفيف لم نهند لقائله انظر الأشموني (٣/٤) التصريح (٥٥/١) شرح الكافية (٢/٢٥٢) . المغني رقم (٣٧٦) .

(٣) أخرجه مسلم ٩٧٨/٢ في الحج باب ما يقول إذا ركب إلى (سفر) . . (١٣٤٢/٤٢٥) .

(٤) لم أجده في ديوانه انظر الكشف (٢/٢٤٠) روح المعاني (٢٥/٦٩) .

(٥) تقدم .

(٦) البيت في تفسير القرطبي (١٦/٤٥) .

وبالبعث ، لأن الراكب في مظنة الهلاك بالغرق إذا ركب الفلك ، ويعثور الدابة إذ ركبها أمر فيه خطر ، ولا تؤمن السلامة فيه ، فقوله هذا تذكير بأنه مستشعر الصيرورة إلى الله ، ومستعد للقاءه فهو لا يترك ذلك من قلبه ولا لسانه ، (وجعلوا له) أي : وجعل كفار قريش والعرب له أي : لله في عبادته ، أي : ممن هم عبيد الله جزأ . قال مجاهد نصيباً وحظاً ، وهو قول العرب الملائكة بنات الله . وقال قتادة : جزأ أي ندأ ، وذلك هو الأصنام ، وفرعون ، ومن عبد من دون الله ، وقيل : الجزء الإناث ، قال بعض اللغويين : يقال أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى ، قال الشاعر :

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبُ قَدْ تُجْزِيءُ الْحُرَّةُ الْمَذْكَارَ أَحْيَانًا^(١)

قيل : هذا البيت مصنوع وكذا قوله :

رُؤِجَتْهَا مِنْ بَنَاتِ الْأَوْسِ مُجْزِئَةً^(٢)

ولما تقدم أنهم معترفون بأنه تعالى هو خالق العالم أنكر عليهم جعلهم لله جزأ ، وقد اعترفوا بأنه هو الخالق ، فكيف وصفوه بصفة المخلوق . (إن الإنسان لكفور) نعمة خالقه مبين مظهر لجوده ، والمراد بالإنسان من جعل لله جزأ وغيرهم من الكفرة . قال ابن عطية : ومبين في هذا الموضع غير متعد انتهى . وليس يتعين ما ذكر ، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران النعم ، ومظهراً لجوده كما قلنا . (أم اتخذ مما يخلق بنات) استفهام إنكار وتوبيخ لقلة عقولهم كيف زعموا أنه تعالى اتخذ لنفسه ما أنتم تكرهونه حين أنتم تسود وجوهكم عند التبشير بهن ، وتندونهن (وأصفاكم) جعل لكم صفوة ما هو محبوب ، وذلك البنون ، وقوله (بما يخلق) تنبيه على استحالة الولد ذكراً كان أو أنثى ، وإن فرض اتخاذ الولد فكيف يختار له الأدنى ، ويخصكم بالأعلى ، وقدم البنات لأنه المنكر عليهم لنسبتهم إلى الله ، وعرف البنين دون البنات تشريفاً لهم على البنات . وإذا بشر أحدكم تقدم تفسير نظيرها في سورة النحل . (أو من ينشأ في الحلية) أي : ينتقل في عمره حالاً فحالاً في الحلية ، وهو الحلي الذي لا يليق إلا بالإناث دون الفحول لتزينهن بذلك لأزواجهن ، وهو إن خاصم لا يبين لضعف العقل ، ونقص التدبر والتأمل أظهر بهذا الحقوقهن وشفوف البنين عليهن ، وكان في ذلك إشارة إلى أن الرجل لا يناسب له التزين كالمرأة ، وأن يكون مخشوشناً ، والفحل من الرجال أبي أن يكون متصفاً بصفات النساء ، والظاهر أنه أراد بمن ينشأ في الحلية النساء ، وقال ابن عباس ومجاهد وقاتدة^(٣) والسدي ويدل عليه قوله (وهو في الخصام غير مبين) أي : لا يظهر حجة ، ولا يقيم دليلاً ولا يكشف عما في نفسه كشفاً ، ويقال قلما تجد امرأة لا تفسد الكلام وتخلط المعاني حتى ذكر عن بعض الناس أنه قال إذا دخلنا على فلانة لا نخرج حتى نعلم أن عقلها عقل امرأة ، وقال ابن زيد : المراد بمن ينشأ في الحلية الأصنام ، وكانوا يتخذون كثيراً منها من الذهب والفضة ، ويجعلون الحلي على كثير منها ، ويبعد هذا القول قوله : (وهو في الخصام غير مبين) إلا إن أريد بنفي الإبانة نفي الخصام ، أي : لا يكون منها خصام فإنه كقوله :

عَلَى لَا حِجْبٍ لَا يَهْتَدَى مَنَارِهِ^(٤)

أي : لا منار له فيهتدى به ، ومن في موضع نصب ، أي وجعلوا من ينشأ ويجوز أن يكون في موضع رفع على

(١) البيت من البسيط انظر غريب القرآن (٣٩٦) وعجزه في القرطبي (٤٧) وانظر روح المعاني (٦٩/٢٥) والكشاف (٢٤١/٤) .

(٢) البيت من البسيط انظر البيت في القرطبي (٤٧/١٦) والكشاف (٢٢١/٤) روح المعاني (٦٩/٢٥) . (اللسان جزأ) .

(٣) انظر جامع البيان للطبري ٣٥/٢٥ وفتح الباري (٥٨٧/٨) والبغوي ١٣٦/٤ وابن كثير ١٢٥/٤ والكشاف ١٨٩/٤ والدرر ٢٥/٦ وتفسير عبد الرزاق ١٠١٥/٣ .

(٤) تقدم .

الابتداء ، أي : من ينشأ جعلوه لله . وقرأ الجمهور : ينشأ مبنياً للفاعل ، والجحدري في قول مبنياً للمفعول مخففاً . وابن عباس وزيد بن علي والحسن ومجاهد والجحدري في رواية والأخوان وحفص والمفضل وأبان وابن مقسم وهارون عن أبي عمرو ومبنياً للمفعول مشدداً ، والحسن في رواية ينشأ على وزن يفاعل مبنياً للمفعول ، والمناشئة بمعنى : الإنشاء ، كالمعلاة بمعنى الإعلاء ، وفي الخصام متعلق بمحذوف تفسيره غير مبين أي : وهو لا يبين في الخصام ، ومن أجاز أما زيدا غير ضارب بأعمال المضاف إليه في غير أجاز أن يتعلق بمبين أجرى غير مجرى لا ، ويتقديم معمول أما بعد لا مختلف فيه ، وقد ذكر ذلك في النحو .

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جثتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ، وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أ هم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ .

لم يكفهم أن جعلوا لله ولداً وجعلوه إناثاً ، وجعلوهم من الملائكة ، وهذا من جهلهم بالله وصفاته ، واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة . وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والإبان ونافع (عند الرحمن) ظرفاً ، وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة ، لقوله (إن الذين عند ربك) ، وقرأ عبد الله وابن عباس وابن جبير وعلقمة وباقي السبعة عباد الرحمن جمع عبد لقوله : (بل عباد مكرمون) ، ورأى الأعمش : (عباد الرحمن) جمعاً ، وبالنصب حكاه ابن خالويه ، قال : وهي في مصحف ابن مسعود كذلك ، والنصب على إضمار فعل ، أي : الذين هم خلقوا عباد الرحمن ، وأنشؤوا عباد الرحمن إناثاً . وقرأ أبي (عبد الرحمن) مفرداً ، ومعناه الجمع ، لأنه اسم جنس ، وقرأ الجمهور : (وأشهدوا) بهزمة الاستفهام داخله على شهدوا ماضياً مبنياً للفاعل ، أي : أحضروا خلقهم ، وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي تطلب أن تؤدى . وقيل : سألهم الرسول عليه السلام ما يدريكم أنهم إناث فقالوا : سمعنا ذلك من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى : (ستكتب شهادتهم ويسألون) عنها أي : في الآخرة . وقرأ نافع بهزمة داخله على أشهدوا رباعياً مبنياً للمفعول بلا مد بين الهمزتين ، والمسي عنه بمدة بينهما وعليّ بن أبي طالب وابن عباس ومجاهد وفي رواية أبي عمرو ونافع بتشهيل الثانية بلا مد وجماعة كذلك بمد بينهما ، وعن عليّ والمفضل عن عاصم تحقيقهما بلا مد والزهري وناس أشهدوا بغير استفهام مبنياً للمفعول رباعياً ، فقيل : المعنى على الاستفهام ، حذفت الهمزة للدلالة المعنى عليها ، وقيل : الجملة صفة للإناث أي : إناثاً شهداً منهم خلقهم ، وهم لم يدعوا أنهم شهدوا خلقهم ، لكن لما ادّعوا لجراعتهم أنهم إناث صاروا كأنهم ادّعوا ذلك ، واشهادهم خلقهم . وقرأ الجمهور : إناثاً ، وزيد بن عليّ أنثا جمع الجمع قيل : ومعنى وجعلوا سموا ، وقالوا : والأحسن أن يكون المعنى وصيروا اعتقادهم الملائكة إناثاً ، وهذا الاستفهام فيه تهكم بهم ، والمعنى إظهار فساد عقولهم ، وأن دعاويهم مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الطاعة على أهل التنجيم والطبائع (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) ، وقرأ

الجمهور : ستكتب بالتاء من فوق مبنياً للمفعول شهادتهم بالرفع مفرداً والزيري كذلك إلا أنه بالياء ، والحسن كذلك إلا أنه بالتاء ، وجمع شهادتهم وابن عباس وزيد بن علي وأبو جعفر وأبو حيوه وابن أبي عبله والجحدري والأعرج بالنون مبنياً للفاعل شهادتهم على الأفراد . وقرأت فرقة (سيكتب) بالياء مبنياً للفاعل ، أي : الله ، شهادتهم بفتح التاء ، والمعنى أنه ستكتب شهادتهم على الملائكة بأنوثتهم ويسألون ، وهذا وعيد . (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم) الضمير للملائكة ، قال قتادة ومقاتل : في آخرين ، وقال مجاهد ؛ الأوثان علقوا انتفاء العبادة على المشيئة ، لكن العبادة وجدت لما انتفت المشيئة ، فالمعنى : أنه شاء العبادة ، ووقع ما شاء ، وقد جعلوا إمهال الله لهم وإحسانه إليهم وهم يعبدون غيره دليلاً على أنه يرضى ذلك ديناً . وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة في أواخر الأنعام ، وفي الكلام حذف ، أي فنحن لا نؤاخذ بذلك إذ هو وفق مشيئة الله ، ولهذا قال : (ما لهم بذلك من علم) أي : بما ترتب على عبادتهم من العقاب (إن هم إلا يخرون) أي : يكذبون ، وقيل : الإشارة بذلك إلى ادعائهم أن الملائكة إناث . وقال الزمخشري : هما كفرتان مضموتان إلى الكفرات الثلاث ، وهم عبادتهم الملائكة من دون الله ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئته ، كما يقول إخوانهم المجبرة انتهى . جعل أهل السنة أخوات للكفرة عباد الملائكة ، ثم أورد سؤالاً وجوباً جارياً على ما اختاره من مذهب الاعتزال يوقف على ذلك في كتابه ، ولما نفى عنهم علم ترك عقابهم على عبادة غير الله ، أي : ليس يدل على ذلك عقل نفى أيضاً أن يدل على ذلك سمع ، فقال : (أم آتيناهم كتاباً) من قبل نزول القرآن ، أو من قبل إندار الرسل يدل على تجويز عبادتهم غير الله ، وأنه لا يترتب على ذلك ، ثم أخبر تعالى أنهم في ذلك مقلدون لآبائهم ، ولا دليل لهم من عقل ولا نقل ، ومعنى على أمة أي طريقة ، ودين وعادة ، فقد سلكنا مسلكهم ، ونحن مهتدون في اتباع آثارهم ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

كُنَّا عَلَى أُمَّةٍ آبَائِنَا وَيَقْتَدِي بِالْأَوَّلِ الْآخِرُ^(١)

وقرأ الجمهور : أمة بضم الهمزة ، وقال مجاهد وقطرب : على ملة ، وقال الجوهري : والأمة : الطريقة ، والذي يقال فلان لا أمة له ، أي : لا دين ولا نحلة .

قال الشاعر :

وَهَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفُورٌ

وتقدم الكلام في أمة في قوله : ﴿ وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف ٤٥] ، وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقاتلدة والجحدري بكسر الهمزة ، وهي الطريقة الحسنة لغة في الأمة بالضم ، قاله الجوهري ، وقرأ ابن عباس : أمة بفتح الهمزة ، أي : على قصد ، وحال والخلاف في الحرف الثاني كهو في الأول . وحكى مقاتل أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وأبي سفيان ، وأبي جهل وعتبة ، وشيبة بن أبي ربيعة ، من قريش أي : كما قال من قبلهم أيضاً يسلي رسول الله - ﷺ - بذلك ، والمترف : المنعم أبطرتهم النعمة ، فأثروا الشهوات ، وكرهوا مشاق التكليف . وقرأ الجمهور قل على الأمر وابن عامر وحفص قال على الخبر . وقرأ الجمهور : (جئتكم) بقاء المتكلم ، وأبي جعفر وشيبة وابن مقسم والزعفراني وأبو شيخ الهنائي وخالد (جئناكم) بنون المتكلمين ، والظاهر أن الضمير في قال ، أو في قل للرسول أي : قل يا محمد لقومك أتبعون آباءكم ، ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم ، وهذا تجهيل لهم حيث يقلدون ، ولا ينظرون في الدلائل ، قالوا : إنا بما أرسلتم أنت ، والرسول قبلك غلب الخطاب على الغيبة ، فانقمنا منهم

(١) البيت من السريع وليس في ديوانه انظر القرطبي (١٦/ ٥٠) روح المعاني (٢٥/ ٧٣) .

بالقحط ، والقتل ، والسبي والجلاء ، فانظر كيف كان عاقبة من كذبك . وقال ابن عطية : في قال ضمير يعود على النذير ، وباقي الآية يدل على أن قل في قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد - ﷺ - وإنما هي حكاية لما أمر به النذير ، ولو في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى أن كأن معنى الآية وإن جئتمكم بأين ، وأوضح مما كان عليه آباؤكم يصحبكم لجاحكم ، وتقليدكم فأجاب الكفار حينئذ من الأمم المكذبة بأنبيائها كما كذبت بمحمد - ﷺ - ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر هو ما قدمناه ، (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه) وذكر العرب بحال جدّهم الأعلى ، ونبيه عن عبادة غير الله ، وإفراده بالتوحيد والعبادة هزواً لهم ، ليكون لهم رجوع إلى دين جدّهم إذ كان أشرف آبائهم ، والمجمع على محبته وأنه - ﷺ - لم يقلد أباه في عبادة الأصنام ، فينبغي أن تقتدوا به في ترك تقليد آباءكم الأقربين ، وترجعوا إلى النظر واتباع الحق . وقرأ الجمهور براء مصدر ، يستوي فيه المفرد والمذكر ، ومقابلهما يقال : نحن البراء منك ، وهي لغة العالية ، وقرأ الزعفراني والقورصي عن أبي جعفر وابن المناذري عن نافع بضم الباء ، والأعمش بريء ، وهي لغة نجد وشيخيه ، ويجمع ويؤنث ، وهذا نحو طويل وطوال وكريم وكرام . وقرأ الأعمش : إني بنون مشددة دون نون الوقاية ، والجمهور إني بنوني الأولى مشددة ، والظاهر أن قوله : (إلا الذي فطرني) استثناء منقطع ، إذ كانوا لا يعبدون الله مع أصنامهم ، وقيل : كانوا يشركون أصنامهم معه تعالى في العبادة ، فيكون استثناء متصل ، وعلى الوجهين ، فالذي في موضع نصب ، وإذا كان استثناء متصلاً كانت شاملة من يعلم ومن لا يعلم ، وأجاز الزمخشري أن يكون الذي مجروراً بدلاً من المجرور بمن ، كأنه قال : إني براء مما تعبدون إلا من الذي ، وأن تكون إلا صفة بمعنى غير على أن ما في ما تعبدون نكرة موصوفة تقديره إني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ، فهو نظير قوله : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء ٢٢] انتهى . ووجه البديل لا يجوز ، لأنه وإنما يكون في غير الموجب من النفي والنهي والاستفهام ، ألا ترى أنه يصلح ما بعد إلا لتفريغ العامل له ، وإني بريء جملة موجبة فلا يصلح أن يفرغ العامل فيها للذي هو بريء لما بعد إلا ، وعن الزمخشري كون بريء فيه معنى الانتفاء ، ومع ذلك فهو موجب لا يجوز أن يفرغ لما بعد إلا ، وأما تقديره ما نكرة موصوفة فلم يبقها موصولة لاعتقاده أن إلا لا تكون صفة إلا لنكرة ، وهذه المسألة فيها خلاف من النحويين من قال توصف بها النكرة والمعرفة فعلى هذا تبقى ما موصولة ، ويكون إلا في موضع الصفة للمعرفة ، وجعله فطرني في صلة الذي تنبيه على أنه لا يعبد ، ولا يستحق العبادة إلا الخالق للعبادة (فإنه سيهدين) أي يديم هدايتي ، وفي مكان آخر الذي خلقتني فهو يهدين فهو هادي في المستقبل والحال ، والضمير في جعلها المرفوع عائد على إبراهيم ، وقيل : على الله ، والضمير المنصوب عائد على كلمة التوحيد التي تكلم بها ، وهي قوله (إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني) ، وقال قتادة ومجاهد والسدي : لا إله إلا الله ، وإن لم يجر لها ذكر ، لأن اللفظ يتضمنها . وقال ابن زيد : كلمة الإسلام لقوله : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة ١٢٨] ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت ﴾ [البقرة ١٣١] ﴿ هو ساءكم المسلمين ﴾ [الحج ٧٨] ، وقرأ حميد بن قيس : (كلمة) بكسر الكاف ، وسكون اللام ، وقرئ في عقبه بسكون القاف ، أي : في ذريته ، وقرئ في عقبه أي : من عقبه ، أي : خلفه ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ، ويدعو إلى توحيدهم لئلا يفرقوا ، أي : لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم ، وقرأ الجمهور (بل متعت) بقاء المتكلم ، والإشارة بهؤلاء لقريش ، ومن كان من عقب إبراهيم عليه السلام من العرب لما قال في عقبه قال تعالى (لكن متعت هؤلاء) وأنعمت عليهم في كفرهم فليسوا بمن تعقب كلمة التوحيد فيهم . وقرأ قتادة والأعمش (بل متعت) بقاء الخطاب ، ورواها يعقوب عن نافع . قال صاحب اللوامح : وهي من مناجاة إبراهيم عليه السلام ربه تعالى ، والظاهر أنه من مناجاة محمد - ﷺ - أي : قال يا رب بل متعت ، وقرأ الأعمش : (متعنا) بنون العظمة ، وهي تعضد قراءة الجمهور (حتى جاءهم الحق) وهو القرآن ، ورسول مبين هو محمد - ﷺ - ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : فما وجه من قرأ بل متعت بفتح التاء (قلت :) كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله : (وجعلها كلمة باقية في

عقبه لعلهم يرجعون) فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ، لأنه إذا متعتهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر ، والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ، ويجعلوا له أنداداً فمثاله : أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل على نفسه ، فيقول : أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقيح فعله . (فإن قلت :) قد جعل مجيء الحق ، والرسول غاية للتمتع ، ثم أردفه قوله : (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر) فما طريقة هذا النظم ومؤداه (قلت :) المراد بالتمتع ما هو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ، ومقتضياته ، فقال عز وعلا بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيّل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم ، لاقتضائها التنبه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : ولما جاءهم الحق جاؤوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها ، وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ، ومعاداته والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة ، والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد - ﷺ - من أهل زمانه بقوله (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم انتهى . وهو حسن ، لكن فيه إسهاب ، والضمير في وقالوا لقريش كانوا قد استبعدوا أن يرسل الله من البشر رسولاً ، فاستفاض عندهم أمر إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الرسل - صلى الله عليهم - فلما لم يكن لهم في ذلك مدفع ناقضوا فيما يخص محمداً - ﷺ - فقالوا : لم كان محمداً ، ولم يكن القرآن ينزل على رجل من القريتين عظيم ، أشاروا إلى من عظم قدره بالسن والقدم ، والجاه وكثرة المال . وقرئ على رجل يسكون الجيم من القريتين أي : من إحدى القريتين ، وقيل : من رجل القريتين ، وهما مكة والطائف .

وقال ابن عباس : والذي من مكة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، ومن الطائف حبيب بن عمرو بن عمرو الثقفي ، وقال مجاهد : عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل^(١) . وقال قتادة : الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . قال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه ، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ربحانة قريش ، وكان يقول لو كان ما يقول محمد حقاً لنزل علي ، أو على ابن مسعود يعني عروة بن مسعود ، وكان يكنى أبا مسعود ، (أهم يقسمون رحمة ربك) فيه توبيخ ، وتعجيب من جهلهم ، كأنه قيل على اختيارهم وإرادتهم تقسم الفضائل من النبوة ، وغيرها . ثم في إضافته في قوله : (رحمة ربك) تشريف له - ﷺ - وأن هذه الرحمة التي حصلت لك ليست إلا من ربك ، المصلح لحالك ، والمربك ، ثم أخبر تعالى أنه هو الذي قسم المعيشة بينهم فلم يحصل لأحد إلا ما قسمه تعالى ، وإذا كان تعالى هو الذي تولى ذلك وفاوت بينهم ، وذلك في الأمر الفاني فكيف لا يتولى الأمر الخاطير ، وهو إرسال من يشاء ، فليس لكم أن تتخيروا من يصلح لذلك ، بل أنتم عاجزون عن تدبير أموركم . وقرأ الجمهور (معيشتهم) على الأفراد ، وعبد الله والأعمش وابن عباس وسفيان (معائشهم) على الجمع ، والجمهور (سُخْرِيّاً) بضم السين ، وعمرو بن ميمون وابن محيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم وابن عامر بكسرها وهو من التسخير ، بمعنى الاستعباد والاستخدام ليرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم ، ولو تولى كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك ، وضاع وهلك ، ويبعد أن يكون سخرياً هنا من الهزء ، وقد قال بعضهم : أي الغني بالفقير ، وفي قوله (نحن قسمنا) تهديد في الإكباب على طلب الدنيا ، وهون على التوكل على الله . وقال مقاتل : فاضلنا بينهم فمن رئيس ومرؤوس ، وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة قليل الحيلة غني اللسان ، وهو مبسوط له ، وتلقى شديد الحيلة بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه ، وقال الشافعي رحمه الله :

(١) انظر البغوي ٤/ ١٣٧ والقرطبي ١٦/ ٥٦ والوسيط ٤٤ خ .

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ بِؤْسِ الْفَقِيرِ وَطَيْبِ عَيْشِ الْأَحْمَقِ^(١)

ورحمة ربك قيل : النبوة^(٢) وقيل : الهداية والإيمان ، وقال قتادة والسدي : الجنة خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا ، في هذا اللفظ تحقير للدنيا ، وما جمع فيها من متاعها .

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ، ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ، أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون ، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ، واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ بين تعالى أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيصة عند الله ، أي : ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة ، ويصيروا أمة واحدة في الكفر . قال ابن عباس والحسن وقتادة والسدي : لأعطيناهم من زينة الدنيا كذا وكذا ، ولكن تعالى اقتضت حكمته أن يغني ويفقر الكافر والمؤمن . قال ابن عطية : واللام في (لمن يكفر) لام الملك ، وفي (لبيوتهم) لام تخصيص ، كما تقول هذا الكساء لزيد لدابته ، أي : هو لدابته جلس ، ولزيد ملك انتهى ، ولا يصح ما قاله ، لأن لبيوتهم بدل اشتغال أعيد معه العامل ، فلا يمكن من حيث هو بدل أن تكون اللام الثانية إلا بمعنى اللام الأولى ، أما أن يختلف المدلول فلا ، واللام في كليهما للتخصيص . وقال الزمخشري : لبيوتهم بدل اشتغال من قوله (لمن يكفر) ويجوز أن تكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوباً لقميصه انتهى . ولا أدري ما أراد بقوله : ويجوز إلى آخره . وقرأ الجمهور (سُقفاً) بضمين ، وأبو رجاء بضم وسكون ، وهما جمع : سقف لغة تميم ، كرهن ورهن وابن كثير وأبو عمر وفتح السين والسكون على الأفراد ، وقال الفراء : جمع سقيفة ، وقرىء بفتحيتين كأنه لغة في سقف ، وقرىء سقوفاً جمعاً على فعول ، نحو كعب وكعوب ، وقرأ الجمهور : (ومعارج) جمع معرج ، وطلحة (ومعارج) جمع معراج ، وهي المصاعد إلى العلا (عليها) (أي :) يعلنون السطوح ، كما قال (فما استطاعوا أن يظهروه) الكهف ٩٧ ، وقرأ الجمهور : (وسرراً) بضم السين ، وقرىء بفتحها ، وهي لغة لبعض تميم وبعض كلب ، وذلك في جمع فعيل المضعف إذا كان اسماً باتفاق ، وصفة نحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة ، وهذه الأسماء معاطيف على قوله (سقفاً من فضة) فلا يتعين أن توصف المعاطيف بكونها من فضة ، وقال الزمخشري : سقوفاً ومصاعد وأبواباً وسرراً كلها من فضة انتهى . كأنه يرى اشتراك المعاطيف في وصف ما عطف عليه وزخرفاً . قال الزمخشري : وجعلنا لهم زخرفاً ، ويجوز أن يكون الأصل سقفاً من فضة وزخرف يعني : بعضها من فضة ، وبعضها من ذهب . فنصب عطفاً على محل من فضة انتهى . والزخرف : الذهب هنا ، قاله ابن عباس والحسن وقتادة والسدي ، وفي الحديث : « إياكم والحمرة^(٣) فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان » . قال ابن عطية : الحسن أحمر ، والشهوات تتبعه انتهى . قال بعض شعرائنا :

(١) تقدم .

(٢) انظر البغوي ١٣٨/٤ والقرطبي ٥٦/١٦ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١٤٨/١٨ والهيتمي في المجمع ١٣٠/٥ في كتاب اللباس باب ما جاء في الصباغ ، وقال رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما يعقوب بن خالد بن نجيج البكري العبدي ولم أعرفه وفي الآخر بكر بن محمد وروي عن سعيد عن شعبة وبقيته رجالها ثقات .

وَصَبَّغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِمَاءِ كُمَاتِهِمْ لَمَّا رَأَيْتَ الْحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرَ^(١)

وقال ابن زيد : الزخرف أثاث البيت ، وما يتخذ له من السرر والنهارق ، وقال الحسن : النقوش^(٢) ، وقيل : التزويق كالنقش ، وقرأ الجمهور لما بفتح اللام وتخفيف الميم ، وهي مخففة من الثقيلة ، واللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما زائدة ومتاع خبر كل . وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحزمة لما بتشديد الميم ، وأن نافية ، ولما بمعنى إلا . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة لما بكسر اللام الفارقة بين الإيجاب والنفي ، وما زائدة ومتاع خبر كل . وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وعيسى وعاصم وحزمة لما بتشديد الميم ، وأن نافية ، ولما بمعنى إلا . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة لما بكسر اللام وخرجوه على أن ما موصولة ، والعائد محذوف تقديره للذي هو متاع كقوله : (تماماً على الذي هو أحسن) وأن في هذا التخريج هي المخففة من الثقيلة ، وكل مبتدأ وخبره في المجرور ، أي : وأن كل ذلك لكائن ، أولمستقر الذي هو متاع ، ومن حيث هي المخففة من الثقيلة ، كان الإتيان باللام هو الوجه ، فكان يكون التركيب لكما متاع ، لكنه قد تحذف هذه اللام إذا دل المعنى على أن إن هي المخففة من الثقيلة فلا يجر إلى ذكر اللام الفارقة ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَنَحْنُ أَبَاةُ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ وَإِنْ مَالِكُ كَانَتْ كِرَامَ الْمَعَادِنِ^(٣)

يريد لكانت ، ولكنه حذف ، لأنه لا يتوهم في إن أن تكون نافية ، لأن صدر البيت يدل على المدح وتعين أن لكونها المخففة من الثقيلة ، والآخره عند ربك للمتقين ، أي : ونعيم الآخرة ، وفيه : تحريض على التقوى ، وقرأ (من يعيش) بضم الشين ، أي يتعام ويتجاهل عن ذكره ، وهو يعرف الحق ، وقيل : يقل نظره في شرع الله ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن ، والذكر هنا : يجوز أن يراد به القرآن ، واحتمل أن يكون مصدراً أضيف إلى المفعول ، أي : يعيش عن أن يذكر الرحمن . وقال ابن عطية : أي : فيها ذكر عبادته ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل انتهى . كأنه يريد بالذكر التذكير ، وقرأ يحيى بن سلام البصري : (ومن يعيش) بفتح الشين أي : يعم عن ذكر الرحمن ، وهو القرآن كقوله : (صم بكم عمي) ، وقرأ زيد ابن علي : يعيش بالواو . وقال الزمخشري على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط ، وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض انتهى . ولا يتعين ما قاله إذ تخرج ، هذه القراءة على وجهين : أحدهما : أن تكون من شرطية ، ويعشو مجزوم بحذف الحركة تقديراً ، وقد ذكر الأخفش : أن ذلك لغة بعض العرب ، ويحذفون حروف العلة للجازم ، والمشهور عند النحاة أن ذلك يكون في الشعر لا في الكلام والوجه الثاني : أن تكون من موصولة ، والجزم بسببها للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعاً في الذي ، وهو لم يكن اسم شرط قط ، فالأولى أن يكون فيها استعمل موصولاً وشرطاً ، قال الشاعر :

وَلَا تَحْفَرَنَّ بَثْرًا تُرِيدُ أَخَا بِهَا فَإِنَّكَ فِيهَا أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعُ^(٤)
كَذَاكَ الَّذِي يَبْغِي عَلَى النَّاسِ ظَالِمًا تُصِيبُهُ عَلَى رَغْمِ عَوَاقِبِ مَا صَنَعَ

أنشدهما ابن الأعرابي ، وهو مذهب الكوفيين ، وله وجه من القياس ، وهو أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره ، فكذلك يشبه به فينجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسبباً عن الصلة بشروطه

(١) البيت في روح المعاني (٨٠/٢٥) .

(٢) انظر القرطبي ٥٩/١٦ .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) البيتان من الطويل انظر روح المعاني (٨١/٢٥) وتقدم البيت الثاني في سورة البقرة .

المذكورة في علم النحو ، وهذا لا ينفيه البصريون . وقرأ الجمهور : (نقيض) بالنون ، وعلي والسلمي والأعمش ويعقوب وأبو عمر ، وبخلاف عنه ، حماد عن عاصم وعصمة عن الأعمش ، وعن عاصم والعلمي عن أبي بكر بالباء ، أي : (يقيض الرحمن) وابن عباس (يُقَيِّض) مبنياً للمفعول له شيطان بالرفع ، أي : يسر له شيطان ويعد له ، وهذا عقاب على الكفر بالحثم وعدم الفلاح . كما يقال : إن الله يعاقب على المعصية بالتزايد من السيئات . وقال الزمخشري : يخذله ويحل بينه وبين الشياطين ، كقوله ﴿ وقضينا لهم قرناً ﴾ [فصلت ٢٥] ﴿ ألم تر أرسلنا الشياطين ﴾ [مريم ٨٣] انتهى . وهو على طريقة الاعتزال ، والظاهر أن ضمير النصب في (وإنهم ليصدونهم) عائد على من على المعنى أعاد أولاً على اللفظ في أفراد الضمير ، ثم أعاد على المعنى ، والضمير في يصدونهم عائد على شيطان ، وإن كان مفرداً ، لأنه مبهم في جنسه ، ولكل عاش شيطان قرين فجاز أن يعود الضمير مجموعاً . وقال ابن عطية : والضمير في قوله (وإنهم) عائد على الشيطان ، وفي (ليصدونهم) عائد على الكفار انتهى . والأولى ما ذكرناه لتناسق الضمائر في وإنهم وفي ليصدونهم وفي يحسبون لمدلول واحد ، كأن الكلام : وأن العشة ليصدونهم الشياطين عن السبيل ، أي : سبيل الهدى والفوز ، يحسبون أي : الكفار ، وقرأ أبو جعفر وشيبة وقتادة والزهري والجدري وأبو بكر والحريمان : (حتى إذا جاءنا) على التثنية ، أي : العاشي والقرين إعادة على لفظ من ، والشيطان القرين ، وإن كان من حيث المعنى صالحاً للجمع . وقرأ الأعمش : والأعرج وعيسى : وابن محيصن ، والأخوان (جاءنا) على الأفراد ، والضمير عائد على لفظ من أعاد أولاً على اللفظ ، ثم جمع على المعنى ثم أفرد على اللفظ ، ونظير ذلك ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ [الطلاق ١١] أفرد أولاً ثم جمع في قوله (خالدين) ثم أفرد في قوله : (له رزقاً) ، روى أنها يجعلان يوم البعث في سلسلة فلا يفترقان حتى يصيرهما الله إلى النار^(١) ، قال : أي الكافر للشيطان (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين) تمنى لو كان ذلك في الدنيا حتى لا يصدّه عن سبيل الله ، أو تمنى ذلك في الآخرة وهو الظاهر ، لأنه جواب إذا التي للاستقبال ، أي : مشرقى الشمس مشرقها في أقصر يوم من السنة ومشرقها في أطول يوم من السنة ، قاله ابن السائب ، أو بعد المشرق أو المغرب غلب المشرق فثناهما ، كما قالوا العمران في أبي بكر وعمر ، والقمران في الشمس والقمر ، والموصلان في الجزيرة والموصل ، والزهد مان في زهدم وكردم ، والعجاجان في رغبة والعجاج ، والأبوان في الأب والأم ، وهذا اختيار الفراء والزجاج ، ولم يذكره الزمخشري قال : (فإن قلت :) فما بعد المشرقين (قلت :) تباعدهما ، والأصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق ، فلما غلب وجمع المشرقين بالتثنية أضاف البعد إليهما انتهى . وقيل : بعد المشرقين من المغربين ، واكتفى بذكر المشرقين وكأنه في هذا القول يريد مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما (فبئس القرين) مبالغة منه في ذم قرينه إذا كان سبب إirاده النار ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي : فبئس القرين أنت (ولن ينفعكم اليوم) حكاية حال ، يقال لهم يوم القيامة ، وهي مقالة موحشة حرمتهم روح التأسي ، لأنه وقفهم بها على أنه لا ينفعهم التأسي لعظم المصيبة ، وطول العذاب ، واستمراره مدته إذ التأسي راحة كل مصاب في الدنيا في الأغلب ، ألا ترى إلى قول الخنساء :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي^(٢)
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

فهذا التأسي قد كفاها مؤنة قتل النفس ، فنفى الله عنهم الانتفاع بالتأسي ، وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل

(١) انظر الطبري ٤٥/٢٥ وتفسير عبد الرزاق ١٠١٨/٣ وابن كثير ١٢٨/٤ والوسيط ٤٦٠ خ .

(٢) تقدم وانظر القرطبي (٦٢) الكشاف ٢٥٣/٤ . روح المعاني (٨٤/٢٥) وانظر ديوانها (٨٥) .

خير ، وهذا لا يكون إلا على تقدير أن يكون الفاعل ينفعكم أنكم ومعمولاها ، أي : ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب إن لن يخفف عنكم اشتراككم في العذاب ، وإذا كان الفاعل غير أن ، وهو ضمير يعود على ما يفهم من الكلام قبله أي : يتمنى مبادعة القرين والتبرؤ منه ، ويكون إنكم تعليلاً أي : لاشتراككم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه ، وهو الكفر ، وقال مقاتل : المعنى : ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم ، لأنكم وقرناءكم مشتركون في العذاب كما اشتركتم في الكفران في الدنيا ، وعلى كون الفاعل غير أن ، وهي قراءة الجمهور لا يتضمن الكلام نفي التأسّي ، وقرىء إنكم بالكسر ، فدل على إضمار الفاعل ، ويقويه حمل (أنكم) بالفتح على التعليل ، واليوم وإذ ظرفان ، فالיום ظرف حال وإذ ظرف ماض ، أما ظرف الحال فقد يعمل فيه المستقبل لقربه منه ، أولتجوز في المستقبل كقوله : ﴿ فمن يستمع الآن ﴾ [الجن ٩] ، وقول الشاعر :

سَأَشْقَى الْآنَ إِذْ بَلَغْتَ مُنَاهَا^(١)

وأما إذ فماض لا يعمل فيه المستقبل ، فقال الزمخشري : وإذ بدل من اليوم انتهى . وحمل إذ ظلمتم على معنى إذ تبين ووضح ظلمكم ، ولم يبق لأحد ولا لكم شبهة في أنكم كنتم ظالمين . ونظيره :

إِذَا مَا أَنْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَيْئِمَةً^(٢)

أي : تبين أي ولد كريمة انتهى . ولا يجوز فيه البدل على بقاء إذ على موضوعها من كونها ظرفاً لما مضى من الزمان ، فإن جعلت لمطلق الوقت جاز ، وتخريجها على البدل أخذه الزمخشري من ابن جني ، قال في مساءلته أبا علي راجعته فيها مراراً ، وآخر ما حصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم الله وعلمه ، فيكون إذ بدلاً من اليوم حتى كأنها مستقبلة ، أو كأن اليوم ماض . وقيل : التقدير بعد إذ ظلمتم فحذف المضاف للعلم به . وقيل : إذ للتعليل حرفاً بمعنى إن .

وقال الحوفي : اليوم ظرف متعلق بينفعكم ، ولا يجوز تعلق إذ به ، لأنها ظرفا زمان يعني متغايرين في المعنى تغيراً لا يمكن أن يجتمعا ، قال : فلا يصح أن يكون بدلاً من الأخير ، يعني لذلك التغاير من كون هذا ظرف حال ، وهذا ظرف مضي ، قال : ولكن تكون إذ متعلقة بما دل عليه المعنى ، كأنه قال : ولن ينفعكم اجتماعكم ، ثم قال : وفاعل ينفعكم الاشتراك ، وقيل : الفاعل محذوف تقديره ظلمكم ، أو جحدكم ، وهو العامل في إذ لا ضمير الفاعل لما ذكر تعالى حال الكفار ، وما يقال لهم ، وكانت قريش تسمع ذلك فلا ترداد إلا عتواً واعتراضاً ، وكان هو - ﷺ - يجتهد في تحصيل الإيمان لهم ، خاطبه تعالى تسلياً له باستفهام تعجيب ، أي : إن هؤلاء صم فلا يمكنك إسماعهم عمي حيارى ، فلا يمكنك أن تهديهم ، وإنما ذلك راجع إليه تعالى ، ولما كانت حواسهم لن ينتفعوا بها الانتفاع الذي يجري خلاصهم من عذاب الله جعلوا صماً عمياً حيارى ، ويريد بهم قريشاً فهم جامعوا الأوصاف الثلاثة ، ولذلك عاد الضمير عليهم في قوله : (فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون) ولم يجر لهم ذكر إلا في قوله : (أفأنت تسمع الصم) الآية ، والمعنى : إن قبضناك قبل نصرك عليهم ، فإنا منهم منتقمون في الآخرة . كقوله (أوتوفيناك فإلينا يرجعون أو نرينك الذي وعدناهم) من العذاب النازل بهم ، كيوم بدر (فإنا عليهم مقتدرون) أي : هم في قبضتنا ، لا يفوتونا وهذا قول الجمهور . وقال الحسن

(١) عجز بيت من الوافر لعنترة انظر ديوانه (٧٧) .

(٢) من الطويل لزائد بن صعصعة انظر معاني الفراء (٦١/١) وقد تقدم .

وقتادة : المتوعد هم الأمة أكرم الله تعالى نبيه عن أن ينتقم منهم في حياته كما انتقم من أمم الأنبياء في حياتهم فوقعت النعمة منهم بعد على موته عليه السلام في العين الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم ، وقرىء (نرينك) بالنون الخفيفة ، ولما ردد تعالى بين حياته وموته - ﷺ - أمره بأن يستمسك بما أوحاه إليه ، وقرأ الجمهور (أوحى) مبنياً للمفعول ، وبعض قراء الشام بإسكان الياء والضحاك مبنياً للفاعل ، وأنه أي : وأن ما أوحينا إليك لذكر لك ولقومك ، أي : شرف حيث نزل عليهم ، وبلسانهم جعل تبعاً لهم ، والقوم على هذا قریش ، ثم العرب قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد كان عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، فإذا قالوا : لمن يكون الأمر بعدك ، سكت حتى نزلت هذه الآية ، فكان إذا سئل عن ذلك قال : لقریش ، فكانت العرب لا تقبل حتى قبلته الأنصار . وقال الحسن : القوم هنا أمته ، والمعنى : وإنه لتذكرة وموعظة . قيل : وهذه الآية تدل على أن الإنسان يرغب في الثناء الحسن الجميل ، ولو لم يكن ذلك مرغوباً فيه ما امتن به تعالى على رسوله ، فقال : (وإنه لذكر لك ولقومك) ، وقال إبراهيم عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) والذكر الجميل قائم مقام الحياة ، بل هو أفضل من الحياة ، لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في الحي ، وأثر الذكر الجميل يحصل في كل مكان ، وفي كل زمان انتهى . وقال ابن دريد :

وَأِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى^(١)

وقال الآخر :

إِنَّمَا الدُّنْيَا مَحَاسِنُهَا طَيِّبُ مَا يَبْقَى مِنَ الْخَبَرِ^(٢)

وذكر أن هلاون ملك التتر سأل أصحابه من الملك ؟ فقالوا : أنت الذي دوخت البلاد ، وملكك الأرض ، وطاعته لك الملوك ، فقال : لا الملك هذا ، وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن هذا الذي له أزيد من ستمائة سنة قد مات ، وهو يذكر على المآذن في كل يوم خمس مرات يريد محمداً رسول الله - ﷺ - وسوف تسألون ، قال الحسن : عن شكر هذه النعمة^(٣) . وقال مقاتل : المراد من كذب به يسأل سؤال توبيخ . (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) قيل : هو على ظاهره ، وأن جبريل عليه السلام قال له ليلة الإسراء حين أمم بالأنبياء : واسأل من أرسلنا فلم يسألهم إذ كان أثبت يقيناً ، ولم يكن في شك^(٤) وروى ذلك عن ابن عباس ، وابن جبر ، والزهرى ، وابن زيد ، وفي الأثر ميكال قال لجبريل : هل سأل محمد عن ذلك ؟ فقال : هو أعظم يقيناً وأوثق إيماناً من أن يسأله ذلك^(٥) وقال ابن عباس أيضاً والحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء : أراد واسأل أتباع من أرسلنا ، وحملة شرائعهم إذ يستحيل سؤال الرسل أنفسهم ، وليسوا مجتمعين في الدنيا^(٦) . قال الفراء : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الرسل ، والسؤال الواقع مجاز عن النظر ، حيث لا

(١) انظر روح المعاني (٨٥) .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر البغوي ١٤٠/٤ .

(٤) رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (انظر مجمع الزوائد كتاب الإيمان باب منه في الإسراء ٧٤/١ وانظر الطبري ٤٧/٢٥ والبغوي ١٤١/٤ والقرطبي ٥١٩٥/٨ وابن كثير ٦/٣ ، ١٢٩/٤ والخازن ١٣٦/٦ .

(٥) انظر الطبري ٤٧/٢٥ والقرطبي ٥٩١٥/٨ والبغوي ١٤١/٤ وابن كثير ١٢٩/٤ والوسيط ٤٧ خ .

(٦) انظر الطبري ٤٦/٢٥ والبغوي ١٤١/٤ والقرطبي ٥٩١٦/٨ وزاد المسير ٣١٩/٧ ومصنف عبد الرزاق ١٣٥/٦ وفتح القدير ٥٥٨/٤ والدر ١٩/٦ والوسيط ٤٧ خ .

يصلح لحقيقته كثير منه مساءلة الشعراء الديار والأطلال ، ومنه سيد الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجني ثمارك ، فإنها إن لم تحبك حواراً أجابتك اعتباراً ، فالسؤال هنا مجاز عن النظر في أديانهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ، والذي يظهر أنه خطاب للسامع الذي يريد أن يفحص عن الديانات ، ف قيل له : اسأل أيها الناظر أتباع الرسل ، أ جاءت رسلكم بعبادة غير الله ، فإنهم يجبرونك أن ذلك لم يقع ، ولا يمكن أن يأتوا به ، وأبعد من ذهب إلى أن المعنى واسألني عن من أرسلنا ، وعلق واسأل فارتفع من وهو اسم استفهام على الابتداء ، وأرسلنا خبره في موضع نصب بأسأل بعد إسقاط الخافض ، كان سؤاله من أرسلت يا رب قبلي من رسلك أجعلت في رسالته آلهة تعبد ، ثم ساق السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب إلى محمد في قوله : (من قبلك) .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ، فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ، وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلم يرجعون ، وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ، ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين :

أحدهما : أنه لما تقدم طعن قريش على الرسول واختيارهم أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أي : في الجاه والمال ، وذكر أن مثل ذلك سبقهم إليه فرعون في قوله ﴿ أليس لي ملك مصر ﴾ [الزخرف ٥١] إلى آخر الآية أتبعه بالملك والمال ، ففرعون قدوتهم في ذلك ، ومع ذلك فصار فرعون مقهوراً مع موسى منتقماً منه ، فكذلك قريش ، والوجه الثاني أنه لما قال : (واسأل من أرسلنا) الآية . ذكر وقته موسى وعيسى ، وهما أكبر اتباعاً من سبقهم من الأنبياء ، وكل جاء بالدعاء إلى الله وإفراده بالعبادة ، فلم يكن فيما جاء أبداً بإباحة اتخاذ آلهة من دون الله كما اتخذت قريش ، فناسب ذكر قصتها للآية التي قبلها ، وآيات موسى هي المعجزات التي أتى بها وخص الملائكة بالذكر وهم الأشراف ، لأن غيرهم من الناس تبع لهم . فلما جاءهم بآياتنا قبله كلام محذوف تقديره : فطالبوه بما يدل على صحة دعواه الرسالة من الله ، فلما جاءهم بآياتنا وهي انقلاب العصا ثعباناً ، وعودها عصاً ، وإخراج اليد البيضاء نيرة ، وعودها إلى لونها الأول إذا هم منها يضحكون ، أي : فاجأهم الضحك بحيث لم يفكروا ، ولم يتأملوا ، بل بنفس ما رأوا ذلك ضحكوا سخرية واستهزاء كما كانت قريش تضحك . قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة . (قلت :) لأن فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم انتهى . ولا نعلم نحوياً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ ، بل المذهب فيه ثلاثة مذاهب : أنها حرف فلا تحتاج إلى عامل . ومذهب أنها ظرف مكان ، فإن صرح بعد الاسم بعدها بخبره كان ذلك الخبر عاملاً فيها ، نحو : خرجت فإذا زيد قائم ، فقائم ناصب لا إذا ، كأن التقدير : خرجت ففي المكان الذي خرجت فيه زيد قائم .

ومذهب : أنها ظرف زمان ، والعامل فيه الخبر أيضاً ، كأنه قال : ففي الزمان الذي خرجت فيه زيد قائم ، وإن لم يذكر بعد الاسم خبر ، أو ذكر اسم منصوب على الحال كانت إذا خبراً للمبتدأ ، فإن كان المبتدأ جثة ، وقلنا إذا ظرف

مكان ، كان الأمر واضحاً ، وإن قلنا ظرف زمان ، كان الكلام على حذف أي ففي الزمان حضور زيد ، وما ادعاه الزمخشري من إضمار فعل المفاجأة لم ينطق به ، ولا في موضع واحد ، ثم المفاجأة التي ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق ، بل المعنى يدل على أن المفاجأة تكون من الكلام الذي فيه إذا تقول : خرجت فإذا الأسد ، والمعنى ففاجأني الأسد ، وليس المعنى ففاجأت الأسد ، (وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها) قال الزمخشري : (فإن قلت :) إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات (قلت :) أختها التي هي آية مثلها ، وهذه صفة كل واحدة منها ، فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات . (قلت :) أختها التي هي آية مثلها على سبيل التفضيل والاستقراء ، واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيته ، تريد تفضيله على أمة الرجال الذين رأيته ، إذا قدرتهم رجلاً (فإن قلت :) فهو كلام متناقض ، لأن معناه ما من آية من التسع إلا وهي أكبر من كل واحدة منها ، فتكون كل واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة . (قلت :) الغرض بهذا الكلام أنهم موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل ، وتتقارب منازلهم فيه التقارب اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى هذا بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا ، وتارة يفضل ذاك . ومنه بيت الحماسة :

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقُلْ لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي^(١)

وقد فاضلت الأغمارية بين الكلمة من بينها ، ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها انتهى . وهو كلام طويل ملخصه أن الوصف بالكبرية مجاز ، وأن ذلك بالنسبة إلى الناظرين فيها^(٢) . وقال ابن عطية : عبارة عن شدة موقعها في نفوسهم بحدة أمرها ، وحدوثه وذلك أن آية عرضها موسى هي العصا واليد ، وكانت أكبر آياته ، ثم كل آية بعد ذلك كانت تقع فيعظم عندها مجيئها ، وتكبر ، لأنهم كانوا نسوا التي قبلها فهذا كما قال الشاعر :

عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا يُوَكَّلُ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي^(٣)

وذهب الطبري إلى أن الآيات هنا الحجج والبيانات انتهى . وقيل : كانت من كبار الآيات ، وكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ، فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة ، أي : من أختها السابقة عليها ، ولا يبقى في الكلام تعارض ، ولا يكون ذلك الحكم في الآية الأولى ، لأنه لم يسبقها شيء ، فتكون أكبر منه ، وقيل : الأولى تقتضي علماً ، والثانية تقتضي علماً منضماً إلى علم الأولى ، فيزداد الرجوح ، وكفى بأختها مناسبتها . تقول هذه الذرة أخت هذه ، أي : مناسبتها ،

(١) البيت من البسيط لعبيد بن العرندس انظر الكامل (٧٨/١) الحماسة البصرية (٤٧٨/١) الكشف (٢٥٦/٤) روح المعاني (٨٧/٢٥) .

(٢) قلت وما ذكره الزمخشري هو المتبادر من الآية ويؤيد شيوخ إدارة ذلك المعنى في مثل هذا التركيب وإن في نقل المصنف رحمه الله خلو الآية من الأكبرية دون ما ذكر الزمخشري أيضاً في أفعال التفضيل على ما ذكر الزمخشري معنى التفضيل قال ابن المنير والظاهر في تسويع هذا الإطلاق والله أعلم أن محل واحدة من هذه الآية إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته حتى يجزم أنها النهاية وأن كل آية دونها والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منها ليحقق عنده الفاضلة من المفضولة بل مهما أفردوه بالفكر جزم بأنه النهاية ، وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يراد من أمثاله الانتصاف ٣/ ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣) من الطويل لأبي خراش الهذلي انظر الخصائص (١٧٠/٢) ابن يعيش (١١٧/٣٠) أمالي القالي (٢٧١/١) الخزانة (٤٥٨/٥) . المغني (١٤٥) .

وأخذناهم بالعذاب بالسنين ، ونقص من الثمرات والطوفان ، والجراد والقمل والضفادع والدم ، وذلك عقاب لهم ، وآيات لموسى لعلهم يرجعون عن كفرهم . قال الزمخشري : (لعلهم يرجعون) أراد أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان ، (فإن قلت :) لو أراد رجوعهم لكان . (قلت :) إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به ، ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ، وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على اختيار المكلف ، وإنما لم يكن الرجوع لأن الإرادة لم تكن قسراً ، ولم يختاروه انتهى . وهو على طريق اعتزال ، وقال ابن عطية : لعلهم ترجّ بحسب معتقد البشر وظنهم . (وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك) أي : في كشف العذاب . قال الجمهور : هو خطاب تعظيم ، لأن السحر كان علم زمانهم أو لأنهم استصحبوا له ما كانوا يدعون به أولاً ، ويكون قولهم : (بما عهد عندك إننا لمهتدون) إخبار مطابق مقصود ، وقيل : بل خطاب استهزاء وانتقاص ، ويكون قولهم : (بما عهد عندك) أي : على زعمك ، وقوله : (وإننا لمهتدون) إخبار مطابق على شرط دعائه ، وكشف العذاب وعهد معزوم على نكته ، ألا ترى (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكتون) وعلى القول الأول يكون قوله : (فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكتون) [الزخرف ٥٠] جاريّاً على أكثر عادة الناس إذا مسه الضر تضرع ودعا ، وإذا كشف عنه رجع إلى عادته الأولى ، كقوله : (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) ﴿ ثم إذا كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره ﴾ [يونس ١٢] وقوله : (بما عهد عندك) محتمل أن يكون من أن دعوتك مستجابة ، وفي الكلام حذف أي : فدعا موسى ، فكشف فلما كشفنا ، وقرأ أبو حيوة : (ينكتون) بكسر الكاف ، (ونادى فرعون في قومه) جعل القوم محلاً للنداء ، والظاهر أنه نادى عطاء القبط في محله الذي هو وهم يجتمعون فيه ، فرفع صوته فيما بينهم لتنتشر مقالته في جميع القبط ، ويجوز أن يكون أمر بالنداء فأسند إليه ، وسبب ندائه ذلك أن لما رأى إجابة الله دعوة موسى ورفع العذاب خاف ميل القوم إليه ، فنادى (قال يا قوم أليس لي ملك مصر) أراد أن يبين فضله على موسى بملك مصر ، وهي من إسكندرية إلى أسوان ، وهذه الأنهار أي : الخلجان التي تجري من النيل ، وأعظمها نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس ، والواو في (وهذه الأنهار) واو الحال ، وتجزى خبر ، وهذه والأنهار صفة ، أو عطف بيان ، وجوز أن تكون الواو عاطفة على ملك مصر ، وتجرى حال من تحتي ، أي : من تحت قهري وملكى . كانت جناها وأنهارها تجري من تحت قصره ، وقيل : كان له سرير عظيم ، وقطع من نيل مصر قطعة قسمها أنهاراً تجري من تحت ذلك السرير ، وأبعد الضحاك في تفسيره الأنهار بالقواد والرؤساء الجبابرة يسيرون تحت لوائه ، ومن فسرهما بالأموال يعرفها من تحت يده ، ومن فسرهما بالخليل فليل كما سمي الفرس بحراً يسمى نهراً ، وهذه الأقوال الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية ، (أفلا تبصرون) عظمتي وقدرتي ، وعجز موسى ، وقرأ مهدي بن الصفيّر : (يبصرون) بياء الغيبة ، ذكره في الكامل للهذلي ، والسباعي عن يعقوب ذكره ابن خالويه . قال الزمخشري : وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوى الربوبية همة من تعظم بملك مصر ، وعجب الناس من مدى عظمتهم ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها لثلاثاً تخفى تلك الأبهة والجلالة على صغير ولا كبير ، حتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته ، وكسرونون (أفلا تبصرون) عيسى ، وعن الرشيد أنه لما قرأها قال لأولينا أحسن عبيدي ، فولاهما الخصيب ، وكان على وضوئه ، وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها فخرج إليها ، فلما شارفها ووقع عليها قال : أهى القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : أليس ليس ملك مصر ، والله هي أقل عندي من أن أدخلها ، فثنى عنانه (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) الظاهر أنها أم المنقطة المقدرة ببل ، والهمزة ، أي : بل أنا خير ، وهو إذا استفهم أهو خير ممن هو ضعيف لا يكاد يفصح عن مقصوده إذا تكلم ، وهو الملك المتحكم فيهم قالوا له بلا شك أنت خير . وقال السدي وأبو عبيدة : أم بمعنى بل ، فيكون انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خير ممن ذكر كقول الشاعر :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْتِقِ الضُّحَى وَصُورُتْهَا أَمْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ^(١)

وقال سيبويه : أم هذه المعادلة ، أي : أم يبصرون الأمر الذي هو حقيقي أن يبصر عنده ، وهو أنه خير من موسى ، وهذا القول بدأ به الزمخشري ، فقال : أم هذه متصلة ، لأن المعنى أفلا تبصرون ، أم تبصرون إلا أنه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا : أنت خير فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب انتهى . وهذا القول متكلف جداً إذ المعادل إنما يكون مقابلاً للسابق ، وإن كان السابق جملة فعلية كان المعادل جملة فعلية ، أو جملة اسمية يتقدر منها فعلية ، كقوله : ﴿ ادعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ [الأعراف ١٩٣] لأن معناه أم صمتتم ، وهنا لا يتقدر منها جملة^(٢) فعلية لأن قوله : أم أنا خير ، ليس مقابلاً لقوله أفلا تبصرون ، وإن كان السابق اسماً ، كان المعادل اسماً أو جملة فعلية يتقدر منها اسم ، نحو قوله :

أَمْخَدُجُ الْيَدَيْنِ أَمْ أُتِمَّتِ^(٣)

فأتت معادل للاسم ، فالتقدير أم متمماً ، وقيل : حذف المعادل بعد أم لدلالة المعنى عليه ، إذ التقدير تبصرون ، فحذف تبصرون وهذا لا يجوز إلا إذا كان بعد أم لا ، نحو أيقوم زيد أم لا ؟ تقديره أم لا يقوم ، وأزيد عندك أم لا ؟ أي : أم لا هو عندك ، فأما حذفه دون لا ، فليس من كلامهم^(٤) ، وقد جاء حذف أم والمعادل وهو قليل^(٥) قال الشاعر :

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهَا سَمِيعٌ فَمَا أَذْرِي أَرْشَدُ طَلَابَهَا^(٦)

يريد أم غي ، وحكى الفراء أنه قرأ : (أما أنا خير) دخلت الهزمة على ما النافية فأفادت التقدير ، (ولا يكاد يبين) الجمهور أنه كان بلسانه بعض شيء من أثر الجمرة ، ومن ذهب إلى أن الله كان أجابه في سؤاله ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ [طه ٢٧] فلم يبق لها أثر جعل انتفاء الإبانة بأنه لا يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعي ، لأنه لا قدرة له على إيضاح المعنى لأجل كلامه ، وقيل : عابه بما كان عليه موسى من الخسة أيام كان عند فرعون ، فنسب إلى ما عهده مبالغة في التعبير ، وقول فرعون : (ولا يكاد يبين) كذب بحت ، ألا ترى إلى مناظرته له وردّه عليه وإفحامه بالحجة ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم بلغاء ، وقرأ الباقر : (يبين) بفتح الياء من باب إذا ظهر (فلولا ألقى عليه أساورة من ذهب) قال مجاهد كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة لسؤدده^(٧) ، قال فرعون :

(١) تقدم في سورة البقرة .

(٢) إنما تقدر الجملة الاسمية الفعلية حيث تكون هي المعادلة أما حيث يكون المعادلة غيرها وهو تبصرون المعذور وهو فعل فلا حاجة إلى تأويل .

(٣) عجز بيت وصدره وهو لجحدربن ضبيعة :

..... إذا الكساء بالكساء التفتت

انظر الحماسة لأبي تمام (١٠٢/١) شرح المفصل لابن يعش (٩٦/٤) المغني (٦٧/٢) الصبان (١٠٣/٣) .

(٤) فإذا حذف لدلالة حرف (على) المعادل أي : دلالة (لا) ففي دلالة السبب أولوية والمنوع إنما هو الحذف دون إقامة شيء وهنا أقيم السبب مقام المسبب .

(٥) فإذا حذفت أم والمعادل فابقاؤها مع سبب المعادل أولى .

(٦) تقدم .

(٧) انظر الوسيط ٤٧ خ والبغوي ٤/١٤٢ والقرطبي ١٦/٦٧ .

هلا ألقى رب موسى عليه أساوره من ذهب إن كان صادقاً ، وكان ذلك دليلاً على إلقاء مقاليد الملك إليه لما وصف نفسه بالعزة والملك ، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام فوصفه بالضعف ، وقلة الأعضاء ، فاعترض فقال : إن كان صادقاً فهلا ملكه ربه ، وسوره ، وجعل الملائكة أنصاره ، وقرأ الضحاك : فلولا ألقى مبنياً للفاعل ، أي : الله أساوره نصباً والجمهور أساوره رفعاً ، وأبي وعبد الله أساوير ، والمفرد أسوار بمعنى سوار ، والهاء عوض من الياء ، كهي في زنادقة هي عوض من ياء زناديق المقابلة لياء زنديق ، وهذه مقابلة لألف أسوار ، وقرأ الحسن وقتادة وأبورجاء والأعرج ومجاهد وأبو حيوة وحفص : أسورة جمع سوار ، نحو خمار وأخرة ، وقرأ الأعمش : أساور ، ورويت عن أبي وعن أبي عمرو وجاء معه الملائكة مقترنين أي : يحمونه وقيمون حجته . قال ابن عباس : يعينونه على من خالفه . وقال السدي : يقارن بعضهم بعضاً^(١) ، وقال مجاهد : يمشون معه ، وقال قتادة : متتابعين . (فاستخف قومه) أي : استجهلهم لخفة أحلامهم ، قاله ابن الأعرابي ، وقال غيره : حملهم على أن يخفوا لما يريد منهم فأجابوه لفسقهم . (فلما آسفونا) منقول بالهمزة من أسف إذا غضب ، والمعنى فلما عملوا الأعمال الخبيثة الموجبة لأن يحلم عنهم ، وعن ابن عباس : أحزنونا أوليائنا المؤمنين ، نحو السحرة وبني إسرائيل ، وعنه أيضاً أغضبونا ، وعن علي أسخطونا ، وقيل : خالفوا . وقال القشيري وغيره : الغضب من الله إما إرادة العقوبة ، فهو من صفات الذات ، أو العقوبة فيكون من صفات الفعل . وقرأ الجمهور : سلفاً ، قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة : أي متقدمين إلى النار ، وهو مصدر سلف يسلف سلفاً ، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسلاف ، وقيل : هو جمع سالف ، كحارس وحرس ، وحقيقته أنه اسم جمع ، لأن فعلاً ليس من أبنية الجمع المكسرة . وقال طفيل يرثي قومه :

مَضَوْا سَلْفًا قَصَدَ السَّبِيلَ عَلَيْهِمْ صُرُوفُ الْمَنَايَا وَالرَّجَالُ تَقَلَّبُ^(٢)

قال الفراء والزجاج : سلفاً ليتعظ بهم الكفار المعاصرون للرسول . وقرأ أبو عبد الله وأصحابه وسعيد بن عياض والأعمش وطلحة والأعرج وحمة والكسائي : (وسُلفاً) بضم السين واللام جمع سليف ، وهو الفريق سمع القاسم بن معن العرب تقول مضى سليف من الناس . وقرأ علي ومجاهد والأعرج أيضاً : (وسُلفاً) بضم السين واللام جمع سلفة ، وهي الأمة والقطيعة ، والسلف في غير هذا ولد القبح والجمع سلفان (ومثلاً للآخرين) أي : حديثاً عجيب الشأن سائراً مسيراً المثل ، يحدث به الآخرون من الكفار ، يقال لهم مثلكم مثل قوم فرعون .

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي إسرائيل ، ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ، ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، هل ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب

(١) انظر البغوي ١٤٢/٤ والوسيط ٤٧ خ والقرطبي ١٦/٦٧ .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (٤٠) اللسان (سلف) .

وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم خالدون ، وتلك الجنة التي أورتتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴿١﴾ .

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة موسى - عليه السلام - ذكر طرفاً من قصة عيسى - عليه السلام - وعن ابن عباس وغيره لما نزل ﴿١﴾ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴿٢﴾ [آل عمران ٥٩] ونزل كيف خلق من غير فحل ؟ قالت قریش : ما أراد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبد كما عبدت النصارى عيسى ^(١) فهذا كان صدودهم عن ضربه مثلاً وقيل ضرب المثل بعيسى هو ما جرى بين الزبيري وبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - في القصة المحكية في قوله (إنكم وما تعبدون) وقد ذكرت في سورة الأنبياء في آخرها أن ابن الزبيري قال : فإذا كان هؤلاء أي : عيسى وأمه ، وعزير في النار ، فقد وصفنا أن نكون نحن وأهنتنا معهم ، وقيل : المثل هو أن الكفار لما سمعوا أن النصارى تعبد عيسى قالوا : آلهتنا خير من عيسى ، قال ذلك منهم من كان يعبد الملائكة ، وضرب مبني للمفعول ، فاحتمل أن يكون الفاعل ابن الزبيري إن صحت قصته ، وأن يكون الكفار ، وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبورجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي (يصدون) بضم الصاد ، أي : يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل . وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها ، أي : يصيحون ، ويرتفع لهم حمية بضرب المثل : وروى ضم الصاد عن علي ، وأنكرها ابن عباس ، ولا يكون إنكاره إلا قبل بلوغه تواترها . وقرأ الكسائي والفراء هما لغتان بمعنى مثل يعرشون ويعرشون . (وقالوا آلهتنا خير أم هو) خفف الكوفيون الهمزتين ، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين . وقرأ ورش في رواية أبي الأزهري همزة واحدة على مثال الخبر ، فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها ، واحتمل أن يكون خبراً محضاً حكوا أن آلهتهم خير ، ثم عن لهم أن يستفهموا على سبيل النزول من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام ، وهذا الاستفهام يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى (ما ضربه لك إلا جدلاً) أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا لأجل الجدل والغلبة والمغالطة ، لا لتمييز الحق واتباعه ، وانتصب جدلاً على أنه مفعول من أجله ، وقيل : مصدر في موضع الحال . وقرأ ابن مقسم (إلا جدلاً) بكسر الجيم ، وألف خصمون شديد والخصومة واللجاج وفعل من أبنية المبالغة ، نحو هدي ، والظاهر أن الضمير في أم ، هو لعيسى لتتناسق الضمائر في قوله : (إن هو إلا عبد) ، وقال قتادة : يعود على النبي - ﷺ - (أنعمنا عليه) بالنبوة وشرفناه بالرسالة ، (وجعلناه مثلاً) أي : خبرة عجيبة ، كالمثل لبني إسرائيل إذ خلق من غير أب ، وجعل له من إحياء الموتى ، وإبراء الأكهم والأبرص والأسقام كلها ما لم يجعل لغيره في زمانه ، وقيل : المنعم عليه هو محمد - ﷺ - (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض) قال بعض النحويين : من تكون للبدل ، أي : لجعلنا بدلکم ملائكة ، وجعل من ذلكم قوله تعالى : ﴿٣﴾ أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴿٤﴾ [التوبة ٣٨] أي بدل الآخرة وقول الشاعر :

أَخَذُوا الْمَخَاضَ مِنَ الْفَصِيلِ غُلْبَةً ظُلْمًا وَيُكْتَبُ لِلْأَمِيرِ إِفَالًا ^(٢)

أي : بدل الفصيل ، وأصحابنا لا يثبتون لمن معنى البدلية ، ويتأولون ما ورد ما يومهم ذلك ، قال ابن عطية : لجعلنا بدلاً منكم ، وقال الزمخشري : ولو نشاء لقدرتنا عجائب الأمور ، وبدائع الفطر (لجعلنا منكم) لولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلقونكم في الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات القديم متعالية عن ذلك انتهى . وهو تخريج حسن ،

(١) انظر القرطبي ٦٩/١٦ والبيهقي ١٤٢/٤ .

(٢) البيت من الكامل للراعي النميري انظر ديوانه (٢٤٢) ابن يعيش (٤٤/٦) المغني (١٦/٢) .

ونحو من هذا التخريج قول من قال : لجعلنا من الإنس ملائكة ، وإن لم تجر العادة بذلك ، والجواهر جنس واحد ، والاختلاف بالأوصاف ، يخلفون قال السدي : يكونون خلفاءكم ، وقال قتادة : يخلف بعضهم بعضاً ، وقال مجاهد : في عمارة الأرض وقيل : في الرسالة بدلاً من رسلكم ، والظاهر أن الضمير في (وإنه لعلم للساعة) يعود على عيسى إذ الظاهر في الضمائر السابقة أنها عائدة عليه . وقال ابن عباس ومجاهد وقاتدة والحسن والسدي والضحاك وابن زيد : أي : وأن خروجه لعلم للساعة يدل على قرب قيامها ، إذ خروجه شرط من أشراتها ، وهو نزوله من السماء في آخر الزمان . وقال الحسن وقاتدة أيضاً وابن جبير : يعود على القرآن على معنى أنه يدل إنزاله على قرب الساعة ، وأنه به تعلم الساعة وأهوالها وقالت فرقة : يعود على النبي - ﷺ - إذ هو آخر الأنبياء تميزت الساعة به نوعاً وقدرًا من التمييز ، ونفي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه . وقرأ الجمهور (لعلم) مصدر علم . قال الزمخشري : أي : شرط من أشراتها تعلم به فسمى العلم شرطاً لحصول العلم به . وقرأ ابن عباس ، وأبو هريرة ، وأبو مالك الغفاري . وزيد بن علي وقاتدة ، ومجاهد ، والضحاك ، ومالك بن دينار ، والأعمش ، والكليبي ، قال ابن عطية وأبو نصر . (لعلم) بفتح العين واللام ، أي : لعلامة ، وقرأ عكرمة به ، قال ابن خالويه وأبو نصر ، للعلم معروفاً بفتحيتين ، (فلا تترن بها) أي : لا تشكون فيها (واتبعون هذا) أي : هداي ، أو شرعي ، وقيل : أي : قل لهم يا محمد : واتبعوني هذا ، أي الذي أدعوكم له ، أو هذا القرآن كان الضمير في قال للقرآن ، ثم حذر من إغواء الشيطان ونبه على عدواته بالبينات ، أي : المعجزات أو بآيات الإنجيل الواضحات بالحكمة ، أي : بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع . قال السدي : بالحكمة النبوة . وقال أيضاً : قضايا يحكم بها العقل . وذكر القشيري والماوردي الإنجيل . وقال الضحاك : الموعظة (ولأبين لكم بعض الذي يختلفون فيه) وهو أمر الديانات ، لأن اختلافهم يكون فيها وفي غيرها من الأمور التي لا تتعلق بالديانات ، فأمر الديانات بعض ما يختلفون فيه ، وبين لهم في غيره ما احتاجوا إليه . وقيل : بعض ما يختلفون فيه من أحكام التوراة . وقال أبو عبيدة : بعض بمعنى كل ، ورده الناس عليه . وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ [آل عمران ٥٠] أي : في الإنجيل لحم الإبل ، والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت ، وقال مجاهد : بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة . وقيل : مما سألتهم من أحكام التوراة . وقال قتادة : ولأبين لكم اختلاف القرون الذين تحربوا في أمر عيسى في قوله (قد جئكم بالحكمة) وهم قومه المبعوث إليهم ، أي من تلقائهم ، ومن أنفسهم بأن شرهم ، ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم ، وتقدم الخلاف في اختلافهم في سورة مريم في قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ [مريم ٣٧] ، هل ينظرون الضمير لقريش ، وأن تأتيهم بدل من الساعة ، أي : إتيانها إياهم ، (الأخلاء يومئذ) قيل : نزلت في أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، والتنوين في (يومئذ) عوض عن الجملة المحذوفة ، أي : يوم إذ تأتيهم الساعة ، و (يومئذ) منصوب (بعدو) المعنى : أنه ينقطع كل صلة ، وتنقلب إلا صلة المتقين ، فإنها لا ترداد إلا قوة . وقيل : إلا المتقين إلا المجتنبين أخلاء السوء ، وذلك أن أخلاء السوء كل منهم يرى أن الضرر دخل عليه من خليله ، كما أن المتقين يرى كل منهم النفع دخل عليه من خليله . وقرئ يا عبادي بالياء وهو الأصل ، ويا عباد بحذفها ، وهو الأكثر ، وكلاهما في السبعة ، وعن المعتمر بن سليمان سمع أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلا يفزع ، فينادي مناد (يا عبادي لا خوف عليكم) الآية فيرجوها الناس كلهم ، فيتبعها الذين آمنوا الآية قال : فيئأس منها الكفار ، وقرأ الجمهور (الأخوف) مرفوع منون ، وابن محيصن بالرفع من غير تنوين ، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر بفتحها من غير تنوين ، والذين آمنوا صفة ليا عبادي ، (تحبرون) تسرون سروراً يظهر حباره ، أي : أثره على وجوهكم ، لقوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين ٢٤] ، وقال الزجاج : يكرمون إكراماً يبالغ فيه ، والخبرة المبالغة فيما وصف بجميل ، وأمال أبو الحرث عن الكسائي بصحاف ،

ذكره ابن خالويه ، والضمير في وفيها عائد على الجنة ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين ، هذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهاة في القلوب ، أو مستلذة في العيون . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وابن عباس وحفص : (ما تشتهي) بالضمير العائد على ما ، والجمهور وباقي السبعة بحذف الهاء ، وفي مصحف عبد الله (ما تشتهي الأنفس وتلذذ الأعين) بالهاء فيها (وتلك الجنة) مبتدأ وخبر (والتي أورثتموها) صفة ، أو الجنة صفة ، و (التي أورثتموها بما كنتم تعملون) الخبر ، وما قبله صفتان ، فإذا كان بما الخبر تعلق بمحذوف ، وعلى القولين الأولين يتعلق بأورثتموها ، وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة ، ولما ذكر ما يتضمن الأكل والشرب ذكر الفاكهة (منها تأكلون) من للتبعية ، أي : لا تأكلون إلا بعضها ، وما يخلف المأكول باق في الشجر كما جاء في الحديث .

﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون ، أم يحسبون أننا لانسمع سرهم ونجواهم بل ورسلنا لديهم يكتبون ، قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذي له السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ، ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ، وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ .

ولما ذكر تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم من لذائذ البشارة ، أعقب ذلك بذكر حال الكفرة ، وما يجابون به عند سؤالهم . وقرأ عبد الله (وهم فيها) أي : في جهنم ، والجمهور : (وهم فيه) أي : في العذاب : وعن الضحاك : يجعل المجرم في تابوت من نار ، ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً لا يرى ولا يرى . (لا يفتر عنهم) أي : لا يخفف ولا ينقص من قولهم ، فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً ، ونقص حرها ، والمبلس : الساكت اليأس من الخير . (وما ظلمناهم) أي : ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه ، ولكن كانوا هم الظالمين ، أي : الواضعين الكفر موضع الإيمان ، فظلموا بذلك أنفسهم ، وقرأ الجمهور والظالمين على أن هم فصل ، وقرأ عبد الله وأبو زيد النحويان : (الظالمون) بالرفع على أنهم خبرهم ، وهم مبتدأ ، وذكر أبو عمر والجزمي : أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ، ويرفعون ما بعده على الخبر . وقال أبو زيد : سمعتهم يقرؤون ﴿ تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً ﴾ [المزمل ٢٠] يعني برفع خير وأعظم ، وقال قيس بن ذريح :

نَحْنُ إِلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأَ أَنْتَ أَقْدَرُ^(١)

قال سيبويه : إن رؤية كان يقول أظن زيدا . هو خير منك يعني بالرفع . (ونادوا يا مالك) تقدم أنهم مبلسون أي : ساكتون ، وهذه أحوال لهم في أزمان متطاولة ، فلا تعارض بين سكوتهم ، وندائهم . وقرأ الجمهور : (يا مالك) ، وقرأ عبد الله وعليّ وابن وثاب والأعمش : (يا مال) بالترخيم على لغة من ينتظر الحرف . وقرأ أبو السرار

(١) البيت من الطويل انظر ديوان (٣٣) الكتاب (١/٣٩٥) شرح المفصل لابن يعيش (٣/١١٢) روح المعاني (٢٥/١٠٢) . الجمل (١٥٤) ورواية الكتاب .

نُبَكِّي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأَ أَنْتَ أَقْدَرُ

الغنوي : (يا مال) بالبناء على الضم جعل اسماً على حياله ، واللام في (ليقض) لام الطلب ، والرغبة والمعنى يمتنا مرة حتى لا يتكرر عذابنا كقوله : (فوكزه موسى فقضى عليه) أي : أماته ، قال : أي : مالك (إنكم ماكثون) أي : مقيمون في النار لا تبرحون . وقال ابن عباس : يحييهم بعد مضي ألف سنة ، وقال : نوف بعد مائة ، وقيل ثمانين^(١) وقال عبد الله بن عمر : وأربعين . (لقد جئناكم بالحق) يظهر أنه من كلام الله تعالى ، وقيل : من كلام بعض الملائكة ، كما يقول أحد خدم الرئيس أعلمناكم وفعلنا بكم . وقيل : ويحتمل أن يكون لقد جئناكم من قول الله لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مال ، وفي هذا توعّد وتخويف بمعنى انظروا كيف يكون حالكم . (أم أبرموا) والضمير لقريش . أي : بل أحكموا أمراً من كيدهم للرسول ، ومكرهم (فإنما مبرمون) كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ [الطور ٤٢] وكانوا يتناجون ويتسارعون في أمر الرسول فقال تعالى (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم) وهو ما يحدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال (ونجواهم) وهي ما تكلموا به فيما بينهم ، (بلى) أي : نسمعها رسلنا وهم الحفظة ، (قل إن كان للرحمن ولد) كما تقولون فأنا أول من يعبد على ذلك ، ولكن ليس له شيء من ذلك ، وأخذ الزخشي هذا القول وحسنه بفصاحته ، فقال : إن كان للرحمن ولد ، وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح . يوردونه وحجة واضحة يبذلونها ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ، كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفى الولد والإطراب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالاً مثلها ، فهو في صورة إثبات الكيونة والعبادة ، وفي معنى نفيا على أبلغ الوجوه وأقواها ، ثم قال الزخشي : ونظيره أن يقول العدلي للمجبر ، ثم ذكر كلاماً يستحق عليه التأديب بل السيف ، نزهت كتابي عن ذكره ، ثم قال : وقد تمحل الناس بما أخرجه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقلة بالتوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم ، فأنا أول العابدين الموحد لله المكذبين قولهم ، بإضافة الولد إليه ، وقيل : إن كان للرحمن ولد ، فأنت أول الأنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد . وقرأ بعضهم : (عبيد) وقيل : هي أن النافية أي ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووجد . وروى أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال : إن الملائكة بنات الله ، فنزلت فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقني ، فقال له الوليد بن المغيرة : وما صدقك ، ولكن قال : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول الموحد من أهل مكة أن لا ولد له انتهى . أما القول إن كان لله ولد في زعمكم ، فهو قول مجاهد ، وأما القول فأنا أول الأنفين فهو قول جماعة ، حكاة عنهم أبو حاتم ، ولم يسم أحداً منهم ، ويدل عليه قراءة السلمي والياني ، العبدان وقراءة ذكرها الخليل بن أحمد في كتابه العين ، العبدان بإسكان الباء تخفيف العبدان بكسرها ، وذكر صاحب اللوامح أنه جاء عن ابن عباس في معنى العبادان أنه الأنفين انتهى . وقال ابن عرفة : يقال عبد يعبد فهو عبد ، وقلما يقال عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ، ولا الشاذ ، ثم قال كقول مجاهد ، وقال الفرزدق :

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئَنِي بِمِثْلِهِمْ وَأَعْبُدُ أَنْ أَهْجُوا كُلِّيًّا بِذَارِمِي^(٢)

أي : آنف وأستنكف ، وقال آخر :

(١) انظر القرطبي ٧٧/١٦ - ٧٨ .

(٢) البيت من الطويل انظر مجاز القرآن (٢٠٦/٢) القرطبي (٢٨٠/١٦) الفضليات (٥٠٢) المحتسب (٣٥٨/٢) .

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الْوُدِّ يَصْرِمُ خَلِيلَهُ وَيُعْبِدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا^(١)

وأما القول بأن إن نافية فمروي عن ابن عباس والحسن والسدي وقتادة وابن زيد وزهير بن محمد . وقال مكي : لا يجوز أن تكون إن بمعنى ما النافية ، لأنه يوهم أنك إنما نفيت عن الله الولد فيما مضى دون ما هو آت ، وهذا محال انتهى . ولا يلزم منه محال ، لأن كان قد تستعمل فيما يدوم ولا يزول . كقولك : وكان الله غفوراً رحيماً أي : لم يزل ، فالمعنى ما كان وما يكون . وقال أبو حاتم : العبد بكسر الباء الشديد الغضب ، وقال أبو عبيدة : معناه أول الجاحدين ، والعرب تقول عبدي حقي أي : جحدني ، وقرأ : (وَلَدَ) بفتحين عبد الله وابن وثاب وطلحة والأعمش بضم الواو وسكون اللام ثم قال : (سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أي : من نسبة الولد إليه ، والمعنى إزالة العلم يجب أن يكون واجب الوجود دوماً كان كذلك ، فهو فرد مطلق لا يقبل التجزي ، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه فيتولد منه شخص مثله ، ولا يكون إلا فيما هو قابل ذاته للتجزي ، وهذا محال في حقه تعالى ، فامتنع إثبات الولد ، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال : (فذرهم يخوضوا) أي : في باطلهم ، (ويلعبوا) أي : في دنياهم ، وظاهر هذين الأمرين مهادة وترك ، وذلك مما نسخ بآية السيف ، وقرأ الجمهور : (حتى يلاقوا) وأبو جعفر وابن محيصة وعبيد بن عجيل عن أبي عمرو (يلقوا) مضارع لقي (يومهم الذين يوعدون) يوم القيامة . وقال عكرمة وغيره : يوم بدر ، وأضاف اليوم إليهم لأنه الذي فيه هلاكهم وعذابهم . وقرأ الجمهور إله فيهما . وقرأ عمر ، وعبد الله ، وأبي ، وعلي ، والحكم بن أبي العالي ، وبلال بن أبي بردة ، وابن يعمر ، وجابر ، وابن زيد ، وعمر بن عبد العزيز ، وأبو الشيخ الهنائي ، وحيد ، وابن مقسم ، وابن السميع : الله فيهما ، ومعنى إله معبود به يتعلق الجار والمجرور ، والمعنى : أنه هو معبود في السماء ، ومعبود في الأرض ، والعائد على الموصول محذوف تقديره : هو إله كما حذف في قولهم ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً ، وحسنه طوله بالعطف عليه ، كما حسن في قاتل لك شيئاً طوله ، بالمعمول ، ومن قرأ الله ضمنه أيضاً معنى المعبود ، كما ضمن العلم في نحو قولهم : هو حاتم في طيء ، أي : جواد في طيء ، ويجوز أن تكون الصلة الجار والمجرور ، والمعنى : أنه فيهما بالإلهية والربوبية إذ يستحيل حمله على الاستقرار ، وفي قوله : (وفي الأرض) نفى لأهتهم التي كانت تعبد في الأرض (وعنده علم الساعة) أي : علم تعيين ، وقت قيامها وهو الذي استأثر به تعالى . وقرأ الجمهور : (يرجعون) بياء الغيبة ، ونافع وعاصم والعدنيان بقاء الخطاب ، وهو في كلتا القراءتين مبني للمفعول ، وقرئ بفتح تاء الخطاب مبنياً للفاعل ، وقرأ الجمهور بياء الغيبة وشد الدال ، وعنه بقاء الخطاب ، وشد الدال ، والمعنى : ولا يملك آهتهم التي يدعون الشفاعة عند الله . قال قتادة : استثنى ممن عبد من دون الله عيسى . وعزيراً والملائكة ، فإنهم يملكون شفاعة بأن يملكها الله إياهم إذ هم ممن شهد بالحق ، وهم يعلمونه في أحوالهم ، فالاستثناء على هذا متصل . وقال مجاهد وغيره : من المشفوع فيهم ، كأن قال لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق ، وهو يعلمه ، أي : بالتوحيد ، قالوا : فالاستثناء على هذا منفصل ، كأنه قال : لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء ، وهذا التقدير الذي قدره يجوز أن يكون فيه الاستثناء متصلاً ، لأنه يكون المستثنى منه محذوفاً ، كأنه قال : ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق ، فهو استثناء من المفعول المحذوف ، كما قال الشاعر :

نَجَا سَالِمٌ وَالنَّفْسُ مِنْهُ بِشِدْقِهِ وَلَمْ يَنْجُ إِلَّا جَفْنُ سَيْفٍ وَمِثْرَارٍ^(٢)

(١) البيت من الطويل للمرقش الأصغر انظر المفضليات (٥٠٢) روح المعاني (١٠٥/٢٥) .

(٢) تقدم .

أي : ولم ينج إلا جفن سيف ، فهو استثناء من المشفوع فيهم الجائز فيه الحذف ، وهو متصل ، فإن جعلته مستثنى من الذين يدعون ، فيكون منفصلاً ، والمعنى ؛ ولا يملك آلهتهم ، ويعني بهم الأصنام والأوثان الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، ولكن من شهد بالحق ، وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما شهد به ، هو الذي يملك الشفاعة وإن أدرجت الملائكة في الذين يدعون كان استثناء متصلاً ، وقرأ الجمهور (فأنى يؤفكون) بياء الغيبة مناسباً لقوله : (ولئن سألتهم) أي : كيف يصرفون عن عبادة من أقروا أنه موجد العالم وعبد الوارث عن أبي عمرو بقاء الخطاب . وقرأ الجمهور وقيله بالنصب ، فعن الأخفش أنه معطوف على سرهم ونجواهم ، وعنه أيضاً على وقال قيله ، وعن الزجاج على محل الساعة في قوله (وعنده علم الساعة) وقيل : معطوف على مفعول يكتبون المحذوف ، أي : يكتبون أقوالهم وأفعالهم ، وقيل : معطوف على مفعول يعلمون ، أي : يعلمون الحق (وقيله يا رب) وهو قول لا يكاد يعقل ، وقيل منصوب على إضمار فعل ، أي : ويعلم قيله . وقرأ السلمي وابن وثاب وعاصم والأعمش وحمزة . (وقيله) بالخفض ، وخرج على أنه عطف على الساعة ، أو على أنها واو القسم ، والجواب محذوف ، أي : لينصرون أو لأفعلن بهم ما أشاء ، وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد والحسن وقتادة ومسلم بن جندب : (وقيله) بالرفع ، وخرج على أنه معطوف على علم الساعة على حذف مضاف ، أي : وعلم قيله حذف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وروى هذا عن الكسائي ، وعلى الابتداء ، وخبره يا رب إلى لا يؤمنون ، أو على أن الخبر محذوف تقديره مسموع ، أو متقبل ، فجملة النداء وما بعده في موضع نصب بـ (وقيله) ، وقرأ أبو قلابة يا رب بفتح الباء ، أراد يا رباً كما تقول يا غلام ، ويتخرج على جواز الأخفش يا قوم بالفتح ، وحذف الألف والاجتزاء بالفتحة عنها . وقال الزمخشري : والذي قالوه يعني من العطف ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ، ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك ، والوجه أن يكون الجر والنصب على إضمار حرب القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : آمين الله ، وأمانة الله ، ويمين الله . ولعمرك ، ويكون قوله : (إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) جواب القسم ، كأنه قال : وأقسم بقيله ، أو وقيله يا رب قسمي ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه ، والتجائه إليه انتهى . وهو مخالف لظاهر الكلام إذ يظهر أن قوله : (يا رب) إلى (لا يؤمنون) متعلق بقيله ، ومن كلامه عليه السلام ، وإذا كان (إن هؤلاء) جواب القسم كان من إخبار الله عنهم ، وكلامه والضمير في وقيله للرسول ، وهو المخاطب بقوله (فاصفح عنهم) أي : أعرض عنهم وتاركهم ، (وقل سلام) أي : الأمر سلام (فسوف يعلمون) وعيد لهم وتهديد وموادة ، وهي منسوخة بآية السيف ، وقرأ الجمهور يعلمون بياء الغيبة ، كما في فاصفح عنهم . وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام بقاء الخطاب . وقال السدي : وقل سلام أي : خيراً بدلاً من شرهم ، وقال مقاتل : أورد عليهم معروفاً ، وحكى المارودي قل ما تسلم به من شرهم .

سورة الدخان تسع وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حَمْ ١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ٣) إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ٤) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ٥) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٦) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٧) رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٨) إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ٩) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ الْآوَلِينَ ١٠)
بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ١١) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ١٢) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ١٣) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٤) أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٥) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٦) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ١٧) إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٨) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ
١٩) وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ٢٠) أَنْ أَدَّوْا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ٢١) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ٢٢) إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ ٢٣) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ٢٤) وَإِنْ لَمْ
تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ٢٥) فَدَعَا رَبَّهُ ٢٦) أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ٢٧) فَأَسْرَعَ بِعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ٢٨) وَاتْرَكِ
الْبَحْرَ هَوًّا إِنَّهُمْ جُرْدٌ مُّغْرَقُونَ ٢٩) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٣٠) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٣١) وَنَعْمَةً كَانُوا
فِيهَا فَكَاهِينَ ٣٢) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ٣٣) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ٣٤)
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٣٥) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ٣٦) وَلَقَدْ
اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٧) وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ٣٨) إِنْ هَتُولَاءِ لَيَقُولُونَ
٣٩) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُشْرِينَ ٤٠) فَأَتَوْا بِآبَائِنَا ٤١) إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٤٢) أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ
تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ ٤٣) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ٤٤)
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٥) إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ٤٦) يَوْمَ لَا
يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٧) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٤٨) إِنْ

سَجَرَتِ الزَّقْوِمِ ۖ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۚ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۚ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ۚ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۖ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۚ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۚ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ۚ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۚ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۚ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۚ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۚ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ۚ فَضَلَّ مَنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۚ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۚ فَأَرْقَبَ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ۚ

الدخان معروف ، وقال أبو عبيدة : والدخان الجذب ، قال القتيبي : سمي دخاناً ليس الأرض منه ، حتى يرتفع منها كالدخان ، وقياس جمعه في القلة أدخنة ، وفي الكثرة دخان ، نحو غراب وأغربة وغربان ، وشذوا في جمعه على فواعل ، فقالوا : دواخن ، كأنه جمع داخنة تقديراً كما شذوا في عثان قالوا عواثن . رها البحر يرهو رهواً سكن ، يقال جاءت الخيل رهواً أي : ساكنة قال الشاعر :

وَالْخَيْلُ تَمْرُعُ رَهْوَاً فِي أَعْنَتِهَا كَالطَّيْرِ يَنْجُو مِنَ الشَّرْنُوبِ ذِي الْبَرَدِ^(١)

ويقال افعل ذلك رهواً ، أي : ساكناً على هينتك ، وقال ابن الأعرابي : رها السير قال القطامي في نعت الركاب :

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَكِيلُ^(٢)

وقال الليث : عيش راه وارع خافض ، وقال غيره : الرهو والرهوة المكان المرتفع والمنخفض يجتمع فيه الماء ، وهو من الأضداد ، والجمع رها ، والرهو المرأة الواسعة الهن ، حكاها النضر بن شميل ، والرهو ضرب من الطير يقال هو الكركي . وقال أبو عبيدة : رها الرجل يرهو رهواً فتح بين رجله . المهل دردي الزيت وعكره . عتله : ساقه بعنف ودفع وأهانته والمعتل الجاني الغليظ .

﴿ حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ، لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ، بل هم في شك يلعبون فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ، ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ، أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ،

(١) البيت للقطامي انظر ديوانه (٢٣) وروايته :

والخيل تمزع غرباً في أعنتها

انظر المفضليات (٢٩٩) القرطبي (٩٢/١٦) روح المعاني (١٢٢/٢٥) .

(٢) البيت من البسيط للقطامي انظر ديوانه (٤) والكشاف (٢٧٥/٤) وفيه نسبته للأعشى وقد تقدم والقرطبي (٩٢/١٦) روح المعاني (١٢٢/٢٥) .

إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ، ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدوا إليّ عباد الله إني لكم رسول أمين ، وأن لا تعلقوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين ، وإني عدت بربي وربكم أن ترجون ، وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ، فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ، فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ، واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ، كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴿ هذه السورة مكية ، قيل : إلا قوله : إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون) .

ومناسبة هذه السورة : أنه ذكر في أواخر ما قبلها ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ [الزخرف ٨٣] فذكر يوماً غير معين ، ولا موصوفاً ، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم بوصف وصفه ، فقال : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وأن العذاب يأتيهم من قبلك ، ويحل بهم من الجذب والقحط ، ويكون العذاب في الدنيا ، وإن كان العذاب في الآخرة فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة ، والظاهر أن الكتاب المبين هو القرآن ، أقسم به تعالى ، ويكون الضمير في أنزلناه عائداً عليه ، قيل : ويجوز أن يراد به الكتب الإلهية المنزلة ، وأن يراد به اللوح المحفوظ ، وجواب القسم ، وقال الزمخشري وغيره : قوله إنا أنزلناه على أن الكتاب هو القرآن ، ويكون قد عظمه تعالى بالإقسام به . وقال ابن عطية : لا يحسن وقوع القسم عليه ، أي : على أنا أنزلناه ، وهو اعتراض يتضمن تفخيم الكتاب ، ويكون الذي وقع عليه القسم إنا كنا منذرين انتهى . قال قتادة وابن زيد والحسن : الليلة المباركة ، ليلة القدر^(١) ، وقالوا : كتب الله كلها إنما نزلت في رمضان التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو ذلك ، والقرآن في آخره في ليلة القدر ، ويعني ابتداء نزوله كان في ليلة القدر ، وقيل : أنزل جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل يتلقاه^(٢) . وقال عكرمة وغيره : هي ليلة النصف من شعبان ، وقد أوردوا فيها أحاديث . وقال الحافظ أبو بكر بن العربي : لا يصح فيها شيء ، ولا في نسخ الأجل فيها (إنا كنا منذرين) أي : مخوفين . قال الزمخشري : (فإن قلت :) إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسرهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصاً ، لأن إنزال القرآن من الأمور المحكمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، والمباركة الكثيرة الخير لما ينتج الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيه إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة انتهى . وقرأ الحسن والأعرج والأعمش : (يَفْرُق) بفتح الياء وضم الراء كل بالنصب أي : يفرق الله . وقرأ زيد بن علي فيما ذكر الزمخشري : (نفرق) بالنون كل بالنصب ، وفيما ذكر أبو علي الأهوازي عينه بفتح الياء وكسر الراء ، ونصب كل ، ورفع حكيم على أنه الفاعل يفرق . وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش بالتشديد مبنياً للمفعول ، أو معنى يفرق يفصل من غيره ويلخص ، ووصف أمر بحكيم أي أمر ذي حكمة ، وقد أهبهم تعالى هذا الأمر . وقال ابن عباس والحسن وقاتدة ومجاهد : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والأرزاق والأجل وغير ذلك ، ويكتب ذلك إلى مثلها من العام المقبل ، وقال هلال بن أساف : كان يقال انتظر والقضاء في رمضان . وقال عكرمة : لفضل الملائكة في ليلة النصف من شعبان ، وجوزوا في (أمراً) أن يكون مفعولاً به بمنذرين لقوله : (لينذر بأساً شديداً) أو على الاختصاص ، جعل كل أمر حكيم جزلاً فخماً بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة

(١) انظر الوسيط ٥١ خ والبعوي ١٤٨/٤ والقرطبي ٨٤/١٦ .

(٢) انظر المراجع السابقة .

وفخامة نفسه بأن قال : أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، كذا قال الزمخشري . وقال : وفي قراءة زيد بن علي أمراً من عندنا على هو أمراً ، وهي نصب على الاختصاص ، ومقبولاً له ، والعامل أنزلنا أو منذرين ، أو يفرق ، ومصدراً من معنى يفرق ، أي : فرقاً من عندنا ، أو من أمرنا محذوفاً ، وحالاً قيل : من كل والذي تلقيناه من أشياخنا أنه حال من أمر ، لأنه وصف بحكيم ، فحسنت الحال منه ، إلا أن فيه الحال من المضاف إليه ، وهو ليس في موضع رفع ولا نصب ، ولا يجوز ، وقيل : من ضمير الفاعل في أنزلناه ، أي : أمرني ، وقيل : من ضمير المفعول في أنزلناه ، أي : في حال كونه أمراً من عندنا بما يجب أن يفعل ، والظاهر أن من عندنا صفة لـ (أمراً) ، وقيل : يتعلق بـ (يفرق) ، (إنا كنا مرسلين) لما ذكر إنزال القرآن ذكر المرسل أي : مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد ، فالجملة المؤكدة مستأنفة ، وقيل : يجوز أن يكون بدلاً من إنا كنا منذرين ، وجوزوا في رحمة أن يكون مصدراً ، أي : رحمتنا رحمة ، وأن يكون مفعولاً له بـ (أنزلناه) أو لـ (ليفرق) أو لـ (أمراً) من عندنا ، وأن يكون مفعولاً بـ (مرسلين) ، والرحمة توصف بالإرسال ، كما وصفت به في قوله : (وما يمسك فلا مرسل له من بعده) [فاطر ٢] والمعنى : على هذا إنا نفصل في هذه الليلة كل أمر ، أو تصدر الأوامر من عندنا ، لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا . وقرأ زيد بن علي والحسن (رحمة) بالرفع ، أي : تلك رحمة من ربك التفاتاً من مضمير إلى ظاهر ، إذ لوروعي ما قبله لكان رحمة منا لكنه وضع الظاهر موضع المضمير إيداناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين . وقرأ ابن محيصن والأعمش وأبو حيوة والكوفيون : (رب السموات) بالخفض بدلاً من ربك ، وباقي السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع على القطع ، أي : هورب ، وقرأ الجمهور : (ربكم ورب) برفعهما وابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعرفاني وابن مقسم والحسن وأبو موسى عيسى بن سليمان وصالح الناقط : كلاهما عن الكسائي بالجر ، وأحمد بن جبير الأنطاكي (ربكم ورب) بالنصب على المدح ، وهم يخالفون بين الأعراب الرفع والنصب إذا طالت النعوت ، وقوله (إن كنتم موافقين) تحريك لهم بأنكم تقررون بأنه تعالى خالق العالم وأنه أنزل الكتب ، وأرسل رحمة منه ، وأن ذلك منكم من غير علم وإيقان ، ولذلك جاء (بل هم في شك يلعبون) أي : في شك لا يزالون فيه يلعبون ، فإقرارهم ليس عن حد ولا يقين ، (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) قال علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وزيد بن علي والحسن : هو دخان يجيء يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين ، حتى تكون مصقلة حنيذة^(١) . وقال ابن مسعود وأبو العالية والنخعي : هو الدخان الذي رآه قريش ، قيل لعبد الله إن قاصاً عند أبواب كندة يقول : إنه دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ أنفاس الناس ، فقال : من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، ألا وسأحدثكم أن قريشاً لما استعصت على رسول الله - ﷺ - دعا عليهم فقال : « اللهم اشد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلhez ، والعلhez الصوف يقع فيه القراد فيشوى الصوف بدم القراد ويؤكل ، وفيه أيضاً حتى أكلوا العظام ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدث الرجل فيسمع الكلام ، ولا يرى المحدث من الدخان ، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشده الله والرحم وواعده إن دعا لهم ، وكشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ، وفيه فرحهم النبي - ﷺ - وبعث إليهم بصدقة ، ومال وفيه فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا

(١) انظر القرطبي ٨٧/١٦ ، ٨٨ والوسيط ٥١ خ والوسيط ١٤٩/٤ - ١٥٠ والبخاري كتاب التفسير تفسير سورة الدخان باب (يغشى الناس هذا عذاب أليم) وسورة يوسف باب (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) وفي سورة الروم وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب سورة الدخان والإمام أحمد في مسنده ٣٨٠/١ والترمذي في كتاب التفسير سورة الدخان باب حدثنا محمود بن غيلان ٣٧٩/٥ ، ٣٨٠ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

منتقمون ﴿ الدخان ١٦ ﴾ قال : يعني يوم بدر ، وقال عبد الرحمن : خمس قد مضين الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . وقال عبد الرحمن الأعرج : (يوم تأتي السماء) هو يوم فتح مكة ، لما حجبت السماء الغبرة ، وفي حديث حذيفة « أول الآيات خروج الدجال والدخان ونزول عيسى ابن مريم ونار تخرج من قعر عدن ، وفيه قلت : يا نبي الله وما الدخان على هذه الآية (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وذكر بقية الحديث ، واختصرناه ، (بدخان مبين) أي : ظاهر لا شك أنه دخان (يغشى الناس) يشملهم ، فإن كان هو الذي رأته قریش فالناس خاص بالكفار من أهل مكة ، وقد مضى كما قال ابن مسعود ، وإن كان من أشراط الساعة ، أو يوم القيامة فالناس عام فيمن أدركه وقت الأشرار ، وعام بالناس يوم القيامة ، (هذا عذاب) إلى (مؤمنون) في موضع نصب بفعل القول محذوفاً ، وهو في موضع الحال ، أي : يقولون ، ويجوز أن يكون إخباراً من الله ، كأنه تعجب منه كما قال في قصة الذبيح ﴿ إن هذا هو البلاء المبين ﴾ [الصافات ١٠٦] ، (إنا مؤمنون) وعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب ، والإيمان واجب ، كشف العذاب ، أو لم يكشف . (أي لهم الذكرى) أي : كيف يذكرون ويتعظون ، ويقولون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ، وقد جاءهم ما هو أعظم ، وأدخل في باب الادكار من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على يد رسول الله - ﷺ - من الآيات والبيانات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوا بأن عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون . وقرأ زر بن حبیش معلم بكسر اللام ، (إنا كاشفو العذاب قليلاً) إخبار عن إقامة الحجة عليهم ، ومبالغة في الإملاء لهم ، ثم أخبر أنهم عائدون إلى الكفر . وقال قتادة : هو توعدهم بمعاد الآخرة ، وإن كان الخطاب لقریش حين حل بهم الجذب ، كان ظاهراً وإن كان الدخان قبل يوم القيامة ، فإذا أتت السماء العذاب تضرع منافقوهم وكافروهم ، وقالوا : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) فيكشف عنهم ، قيل بعد أربعين يوماً ، فحين يكشفه عنهم يرتدون ، ويوم البطشة الكبرى على هذا هو يوم القيامة ، كقوله ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ [النازعات ٣٤] وكونه يوم القيامة هو قول ابن عباس والحسن وقتادة ، وكونه يوم بدر هو قول عبد الله وأبي وابت عباس ومجاهد ، وانتصب يوم نبطش قيل بذكراهم ، وقيل : بننتقم الدال عليه منتقمون ، وضعف بأنه لا نصب إلا بالفعل ، وقيل : بمنتقمون ورد بأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها . وقرأ الجمهور نبطش بفتح النون وكسر الطاء ، والحسن وأبو جعفر بضمها ، والحسن أيضاً وأبورجاء وطلحة بضم النون وكسر الطاء ، بمعنى نسلط عليهم من يبطش بهم ، والبطشة على هذه القراءة ليس منصوباً بـ (نبطش) ، بل بمقدر أي : نبطش ذلك المسلط البطشة ، أو يكون البطشة في معنى الإبطاشة فينتصب بـ (نبطش) . (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) هذا كالمثال لقریش ، ذكرت قصة من أرسل إليهم موسى عليه السلام - فكذبوه فأهلكهم الله . وقرئ فتنا بتشديد التاء للمبالغة في الفعل ، أو التكرير متعلقة (وجاءهم رسول كريم) أي : كريم عند الله ، وعند المؤمنين ، قاله الفراء ، أو كريم في نفسه ، لأن الأنبياء إنما يعيشون من سروات الناس ، قاله أبو سليمان ، أو كريم حسن الخلق ، قاله مقاتل . (أن أدوا إلى عباد الله) يحتمل أن تكون أن تفسيرية ، لأنه تقدم ما يدل على معنى القول ، وهو رسول كريم ، وأن تكون أن مخففة من الثقيلة ، أو الناصبة للمضارع فإنها توصل بالأمر . قال ابن عباس : أن أدوا إلى الطاعة يا عباد الله ، أي : اتبعوني على ما أدعوكم إليه من الإيمان . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل ، كما قال : فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، فعلى قول ابن عباس عباد الله منادى ، ومفعول أدوا محذوف ، وعلى قول مجاهد ومن ذكر معه عباد الله مفعول أدوا . (إني لكم رسول أمين) أي : غير متهم ، قد ائتمني الله على وحيه ورسالته (وأن لا تعملوا على الله) أي : لا تستكبروا على عبادة الله ، قاله يحيى بن سلام ، قال ابن جريج : لا تعظموا على الله ، قيل : والفرق بينهما أن التعظيم تطاول المقتدر ، واستكبار ترفع المحتقر ذكره المارودي ، وأن هنا كان السابق في أوجهها الثلاثة ، (إني آتيكم سلطان مبين) أي : بحجة واضحة في

نفسها وموضحة صدق دعواي . وقرأ الجمهور (إني) بكسر الهمزة على سبيل الإخبار ، وقرأت فرقة بفتح الهمزة ، والمعنى : لا تعلوا على الله من أجل أني آتيكم ، فهذا توبيخ لهم كما تقول أنغضب إن قال لك الحق (وإني عدت) أي : استجرت بري وربكم أن ترجون ، كانوا قد توعدوه بالقتل ، فاستعاذ من ذلك ، وقرىء عدت بالإدغام . قال قتادة وغيره : الرجم هنا بالحجارة . وقال ابن عباس وأبو صالح : بالشتم ، وقول قتادة أظهر ، لأنه قد وقع منهم في حقه ألفاظ لا تناسب ، وهذه المعادة كانت قبل أن يخبره تعالى بقوله : ﴿ فلا يصلون إليك ﴾ [القصص ٣٥] ، (وإن لم تؤمنوا لي) أي : تصدقوا (فاعتزلون) أي : كونوا بمعزل ، وهذه مشاركة حسنة . (فدعا ربه أي مغلوب فانتصر) أن هؤلاء لفظ تحقير لهم ، وقرأ الجمهور أن هؤلاء بفتح الهمزة ، أي بأن هؤلاء . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والحسن في رواية وزيد ابن علي بكسرها . (فأسر بعبادي) في الكلام حذف أي فانتقم منهم ، فقال له الله أسر بعبادي ، وهم بنو إسرائيل ، ومن آمن به من القبط . وقال الزمخشري : فيه وجهان إضمار القول بعد الفاء ، فقال أسر بعبادي ، وأن يكون جواباً لشرط محذوف ، كأنه قيل قال : إن كان الأمر كما تقول فأسر بعبادي انتهى . وكثيراً ما يميز هذا الرجل حذف الشرط ، وإبقاء جوابه وهو لا يجوز إلا للدليل واضح كأنه يتقدمه الأمر وما أشبهه مما ذكر في النحو على خلاف في ذلك (إنكم متبعون) أي : يتبعكم فرعون وجنوده ، فتنجون ويفرق المتبعون ، (واترك البحر رهواً) قال ابن عباس ساكناً ، كما أجراه . وقال مجاهد وعكرمة : ييساً من قوله : (فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً) وقال الضحاك : دمثاً ليناً . وقال عكرمة : جدداً ، وقال ابن زيد : سهلاً . وقال مجاهد أيضاً : منفرداً . قال قتادة : أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه لما قطعه حتى يلتئم ، وخاف أن يتبع فرعون ، فقيل : ليه هذا إنهم جند مغرقون ، أي : فيه لأنهم إذا رأوه ساكناً على حالته حين دخل فيه موسى وبنو إسرائيل ، أو مفتوحاً طريقاً ييساً دخلوا فيه فيطبقه الله عليهم . (كم تركوا) أي : كثيراً تركوا (من جنات وعيون) تقدم تفسيرهما في الشعراء . وقرأ الجمهور : (ومقام) بفتح الميم . قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير أراد المقام ، وقرأ ابن هرمز وقاتدة وابن السميع ونافع في رواية خارجة بضمها . قال قتادة : أراد المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها (ونعمة) بفتح النون نضارة العيش ولذاذة الحياة . وقرأ أبو رجاء (ونعمة) بالنصب عطفاً على كم كانوا فيه فاكهين . وقرأ الجمهور بألف ، أي : طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة كلابن وتامر وأبورجاء والحسن بغير ألف ، والفكه يستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ فكأنهم كانوا مستخفين بشكل النعمة التي كانوا فيها . وقال الجوهري : فكه الرجل بالكسر ، فهو فكه إذا كان مزاحاً والفكه أيضاً الأشر . وقال القشيري : فاكهين لاهين كذلك . وقال الزجاج : والمعنى الأمر كذلك فيوقف على كذلك ، والكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، وقيل : الكاف في موضع نصب ، أي : يفعل فعلاً كذلك لمن يريد إهلاكه . وقال الكلبي : كذلك أفعل بمن عصاني ، وقال الحوفي : أهلكنا إهلاكاً ، وانتقمنا انتقاماً كذلك . وقال الزمخشري : الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ، وأورثناها قوماً آخرين ، ليسوا منهم ، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في يد القبط ، فأهلك الله تعالى القبط على أيديهم ، وأورثهم ملكهم ، وقال قتادة وقال الحسن : إن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون ، وضعف قول قتادة بأنه لم ير ، وفي مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ، ولا ملكوها قط إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام انتهى . ولا اعتبار بالتواريخ ، فالكذب فيها كثير ، وكلام الله صدق ، قال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ [الشعراء ٥٩] وقيل : قوماً آخرين ممن ملك مصر بعد القبط من غير بني إسرائيل . (فما بكت عليهم السماء والأرض) استعارة لتحقير أمرهم ، وأنه لم يتغير عن هلاكهم شيء ، ويقال في التعظيم بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس ، وقال زيد بن مفرغ :

الرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي غَمَامِهِ^(١)

وقال جرير :

فَالشَّمْسُ طَالِعَةً لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا^(٢)

وقال النابغة :

بَكَى حَدِيثُ الْجَوْلَانِ مِنْ فَقْدِ رَبِّهِ وَحُورَانِ مِنْهُ خَاشِعٌ مُتَضَائِلُ^(٣)

وقال جرير :

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزَّهْوِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشْعُ^(٤)

ويقول في التحقير مات فلان فما خشعت الجبال ، ونسبة هذه الأشياء لما لا يعقل ولا يصير ذلك منه حقيقة عبارة عن تأثر الناس له ، أو عن عدمه ، وقيل هو على حذف مضاف ، أي : فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الملائكة ، وأهل الأرض وهم المؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين . روي ذلك عن الحسن ، وما روى عن علي وابن عباس ومجاهد وابن جبير : إن المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً ، وبكى عليه السماء موضع صعود عمله ، قالوا : فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله تمثيل ، وما كانوا منظرين ، أي : مؤخرين عن العذاب لما حان وقت هلاكهم ، بل عجل الله لهم ذلك في الدنيا .

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ، ولقد اخترناهم على علم على العالمين ، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ، إن هؤلاء ليقولون ، إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فاتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكتناهم إنهم كانوا مجرمين ، وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ، إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تتمرون إن المتقين في مقام أمين ، في جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ، فإنما يسرنا بلسانك لعلهم يتذكرون ، فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ .

لما ذكر تعالى إهلاك فرعون ، وقومه ذكر إحسانه لبني إسرائيل فبدأ بدفع الضرر عنهم ، وهو نجاتهم مما كانوا فيه من العذاب ، ثم ذكر اتصال النفع لهم من اختيارهم على العالمين ، وإيتائهم الآيات والعذاب المهين ، قتل أبنائهم واستخدامهم في الأعمال الشاقة . وقرأ عبد الله : (من العذاب المهين) وهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، كبقلة

(١) البيت في القرطبي (٩٣/١٦) روح المعاني (١٢٤/٢٥) .

(٢) البيت من البسيط انظر ديوانه (٣٧٢) أمالي المرتضى (٥٢/١) والقرطبي (٩٣/١٦) ، روح المعاني (١٢٤/٢٥) .

(٣) البيت من الطويل ، انظر ديوانه (١٢١) اللسان (حول) وسيأتي .

(٤) من الكامل ، انظر ديوانه (٤٢٠) الكتاب (٥٢/١) ، الخصائص (٤١٨/١) اللسان (سور) روح المعاني (١٢٤/٢٥) .

الحمقاء ، ومن فرعون بدل من العذاب على حذف مضاف ، أي : من عذاب فرعون ، أولاً حذف جعل فرعون نفسه هو العذاب مبالغة ، وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي : كائناً وصادراً من فرعون . وقرأ ابن عباس : من فرعون من استفهام مبتدأ ، وفرعون خبره ، لما وصف فرعون بالشدة والفظاعة ، قال : من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو في عتوه ، وشيئته ، ثم عرف حاله في ذلك بقوله : (إنه كان عالياً من المسرفين) أي : مرتفعاً على العالم ، أو متكبراً مسرفاً من المسرفين . (ولقد اخترناهم) أي : اصطفيناهم وشرفناهم على علم ، علم مصدر لم يذكر فاعله ، فقيل : على علم منهم ، وفضل فيهم ، فاخترناهم للنبوات والرسالات ، وقيل : على علم منا ، أي : عالين بمكان الخيرة ، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا ، وقيل : على علم منا بما يصدر من العدل ، والإحسان ، والعلم والإيمان بأنهم يزيفون ، وتفرط منهم الهنات في بعض الأموال ، وقيل : اخترناهم بهذا الإنجاء ، وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم ، وخصصناهم بذلك دون العالم . على العالمين أي : عالمي زمانهم ، لأن أمة محمد - ﷺ - مفضلة عليهم ، وقيل : على العالمين عام لكثرة الأنبياء فيهم ، وهذا خاص بهم ، ليس لغيرهم وكان الاختيار من هذه الجهة ، لأن أمة محمد أفضل ، وعلى في قوله (على علم) ليس معناها معنى على في قوله (على العالمين) ولذلك تعلقاً بفعل واحد لما اختلف المدلول كقوله :

وَيَوْمًا عَلَى ظَهْرِ الْكِتَابِ تَعَذَّرْتُ عَلَى وَأَلْتُ حَلْفَةَ لَمْ يُحْلَلْ

فعل علم حال إما من الفاعل ، أو من المفعول ، وعلى ظهر حال من الفاعل في تعذرت ، والعامل في ذي الحال . (وآتيناهم من الآيات) أي : المعجزات الظاهرة في قوم فرعون ، وما ابتلوا به ، وفي بني إسرائيل مما أنعم به عليهم من تظليل الغمام والمن والسلوى وغير ذلك ، مما لم يظهرها لغيرهم (ما فيه بلاء) أي : اختبار بالنعم ظاهراً والابتلاء بالنعم كقوله : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير ﴾ [الأنبياء ٣٥] (إن هؤلاء) يعني : قريشاً ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم (ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى) أي : ما الموتة إلا محصورة في موتتنا الأولى ، وكان قد قال تعالى : ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم ميمتكم ثم يحييكم ﴾ [البقرة ٢٨] فذكر موتتين أولى وثانية ، فأنكروا هم أن يكون لهم موتة ثانية ، والمعنى ما أخرج أمرنا ومنتهم وجودنا إلا عند موتتنا ، فيتضمن قولهم هذا إنكار البعث ، ثم صرحوا بما تضمنه قولهم فقالوا : (وما نحن بمبشرين) أي : بمبعوثين بحياة دائمة يقع فيها حساب وثواب وعقاب ، وكان قولهم ذلك في معنى قولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام ٢٩] ، (فأتوا بآبائنا) خطاب لرسول الله - ﷺ - وللمؤمنين الذين كانوا يعدونهم بالبعث ، أي : إن صدقتم فيما تقولون فأحيوا لنا من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ، حتى يكون ذلك دليلاً على البعث في الآخرة ، قيل : طلبوا من الرسول أن يدعو الله فيحيي لهم قصي بن كلاب ليشاوروه في صحة النبوة ، والبعث ، إذ كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل . (أهم) أي : قريش (خير أم قوم تبع) الظاهر أن تبعاً هو شخص معروف وقع التفاضل بين قومه وقوم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإن كان لفظ تبع يطلق على كل من ملك العرب ، كما يطلق كسرى على من ملك الفرس ، وقصر على من ملك الروم ، قيل واسمه : أسعد الحميري ، وكني أبا كرب ، وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبي - ﷺ - قبل أن يبعث بسبعائة سنة ، وروي أنه لما آمن بالمدينة كتب كتاباً ونظم شعراً أما الشعر فهو :

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ^(١)
فَلَوْ مَدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ لَكُنْتُ وَزِيْرًا لَهُ وَابْنًا عَمِّ

وأما الكتاب فروى ابن إسحاق وغيره أنه كان فيه : أما بعد فإني آمنت بك ، وبكتابك الذي أنزل عليك ، وأنا على

دينك وستك وآمنت بربك ورب كل شيء ، وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الإسلام ، فإن أدركتك فيها ونعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لي ، ولا تنسني يوم القيامة ، فإني من أمتك الأولين ، وتابعتك قبل مجيئك ، وأنا على ملتك وملة أبيك إبراهيم - عليه السلام - ، ثم ختم الكتاب ونقش عليه الله الأمر من قبل ، ومن بعد ، وكتب عنوانه (إلى محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله خاتم النبيين ، ورسول رب العالمين - ﷺ - من تبع الأول) ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد بن زيد فلم يزل عنده حتى بعث النبي - ﷺ - وكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر ، حتى أدوه للنبي - ﷺ - وعن ابن عباس كان تبع نبياً ، وعنه لما أقبل تبع من الشرق بعد أن حير الحيرة وسمرقند قصد المدينة ، وكان قد خلف بها حين سافر ابناً فقتل غيلة ، فأجمع على خرابها واستئصال أهلها ، فجمعوا له الأنصار وخرجوا لقتاله ، وكانوا يقاتلوه بالنهار ويقرونه بالليل ، فأعجبه ذلك وقال : إن هؤلاء لكرام ، إذ جاءه كعب وأسد ابناعم من قريظة جيران ، وأخبراه أنه يحال بينك وبين ما تريد ، فإنها مهاجر نبي من قريش اسمه محمد ، ومولده بمكة ، فثناه ، قولها عما كان يريد ، ثم دعواه إلى دينها فاتبعها وأكرمها وانصرفوا عن المدينة ، ومعهم نفر من اليهود فقال له في الطريق نفر من هذيل يدلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضة بمكة ، وأرادت هذيل هلاكه ، لأنهم عرفوا أنه ما أراد أحد بسوء ، إلا هلك ، فذكر ذلك للحبرين فقالوا : ما نعلم الله بيتاً في الأرض غير هذا فاتخذة مسجداً وانسك عنده واحلق رأسك ، وما أراد القوم إلا هلاكك فأكرمه وكساه ، وهو أول من كسا البيت ، وقطع أيدي أولئك النفر من هذيل وأرجلهم وسمر أعينهم وصلبهم^(١) . وقال قوم : ليس المراد بتبع رجلاً واحداً ، إنما المراد ملوك اليمن ، وكانوا يسمون التتابعة والذي يظهر أنه أرادوا واحداً من هؤلاء تعرفه العرب بهذا الاسم أكثر من معرفة غيره به . وفي الحديث لا تسبوا^(٢) تبعاً ، فإنه كان مؤمناً ، فهذا يدل على أنه واحد بعينه . قال الجوهرى : التتابعة ملوك اليمن ، والتبع الظل ، والتبع ضرب من الطير . وقال أبو القاسم السهلي : تبع لكل ملك اليمن والشحر وحضرموت ، وملك اليمن وحده لا يسمى تبعاً ، قاله المسعودي ، والخيرية الواقعة فيها التفاضل ، وكلا الصنفين لا خير فيهم هي بالنسبة للقوة والمنعة ، كما قال : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ [القمر ٤٣] بعد ذكر آل فرعون في تفسير ابن عباس ، أهم أشد أم قوم تبع ، وإضافة قوم إلى تبع دليل على أنه لم يكن مذهبهم (أهلكتهم إنهم كانوا مجرمين) إخبار عما فعل تعالى بهم ، وتنبيه على أن علة الإهلاك هي الإجماع ، وفي ذلك وعيد لقريش وتهديد أن يفعل بهم ما فعل بقوم تبع ، ومن قبلهم من مكذبى الرسل لإجرامهم ، ثم ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث ، وهو خلق العالم بالحق . وقرأ الجمهور وما بينهما من الجنسين ، وعبيد بن عميس وما بينهما لاعبين ، قال مقاتل : عابثين ما خلقنهما إلا بالحق ، أي بالعدل ، يجازي المحسن والمسيء بما أراد تعالى من ثواب وعقاب ، ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه تعالى خلق ذلك ، فهم لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً ، وقرئ ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ، والخبر يوم الفصل ، أي : يوم الفصل ميعادهم وجزاؤهم ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً أنعم جميع الموالي من القرابة والعتاقة ، والصلة شيئاً من إغناء أي : قليلاً منه ولا هم ينصرون جمع ، لأن عن مولى في سياق النفي ، فيعم فعاد على المعنى لا على اللفظ . (إلا من رحم الله) قال الكسائي : من رحم منصوب على الاستثناء المنقطع ، أي : لكن من رحمه الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه من لعنهم من المخلوقين ، قيل : ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ، أي : لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين ، فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض . وقال الحوفي : ويجوز أن يكون بدلاً من مولى المرفوع . ويكون يغني بمعنى ينفع . وقال الزمخشري : ومن رحم الله في محل الرفع على البدل من الواو في ينصرون ، أي : لا يمنع من العذاب إلا من رحم الله .

(١) انظر البغوي ١٥٢/٤ - ١٥٤ والقرطبي ٩٦/١٦ - ٩٨ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٠/٥ والطبراني في الكبير ٢٩٦/١١ والخطيب في التاريخ ٢٠٥/٣ وابن كثير في البداية ١٦٦/٢ والسيوطي في الدرر ٣١/٦ والهيتمي في المجمع ٧٦/٨ وابن عساكر في تهذيب دمشق ٤٠٩/١٠ وابن حجر في الفتح ٥٧١/٨ .

وقاله الخوفي ؛ قبله إنه هو العزيز الرحيم لا ينصر من عصاه الرحيم لمن أطاعه ومن عفا عنه . (إن شجرة الزقوم) قرىء بكسر الشين ، وتقدم الكلام فيها في سورة الصافات (طعام الأثيم) صفة مبالغة ، وهو لكثير الآثام ، ويقال له أثوم صفة مبالغة أيضاً ، وفسر بالمشرك . وقال يحيى بن سلام المكتسب للإثم ، وعن ابن زيدان الأثيم هنا هو أبو جهل ، وقيل : الوليد . (كالمهل) هو دردي الزيت ، أو مذاب الفضة ، أو مذاب النحاس ، أو عكر القطران ، أو الصديد أولها لابن عمر وابن عباس وآخرها لابن عباس . وقال الحسن (كالمهل) بفتح الميم لغة فيه ، وعن ابن مسعود وابن عباس أيضاً المهل ما أذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص . وقرأ مجاهد وقتادة والحسن والابنان وحفص (يغلي) بالياء أي : الطعام ، وعمر بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وطلحة والحسن في رواية وباقي السبعة (تغلي) بالتاء ، أي الشجرة ، (كغلي الحميم) وهو الماء المسخن الذي يتطاير من غليانه . (خذوه فاعتلوه) يقال للزبانية : خذوه فاعتلوه ، أي : سوقوه بعنف وجذب . وقال الأعمش : معنى اعتلوه اقصوه كما يقصف الخطب إلى سواء الحميم . قال ابن عباس وسطها . وقال الحسن : معظمها . وقرأ الجمهور فاعتلوه بكسر التاء ، وزيد بن علي والابنان ونافع بضمها ، والخلاف عن الحسن وقتادة والأعرج وأبي عمرو ، (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) وفي الحج يصيب من فوق رؤسهم الحميم ، والمصبوب في الحقيقة هو الحميم ، فتارة اعتبرت الحقيقة ، وتارة اعتبرت الاستعارة ، لأنه أذم من الحميم ، فقد صب ما تولد عنه من الآلام والعذاب ، فعبر بالمسبب عن السبب ، لأن العذاب هو المسبب عن الحميم ، ولفتة العذاب أهول وأهيب . (ذق) أي : العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) وهذا على سبيل التهكم والهزء ، لمن كان يتعزز ويتكرم على قومه ، وعن قتادة إنه لما نزلت (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) قال أبو جهل : أنهدني يا محمد ، وأن ما بين لايتها أعزمني ، ولا أكرم ، فنزلت هذه الآية ، وفي آخرها (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي : على قولك ، وهذا كما قال جرير :

أَلَمْ تَكُنْ فِي رُسُومٍ قَدْ رَسَمْتَ بِهَا مَنْ كَانَ مَوْعِظَةً يَا زَهْرَةَ الْيَمَنِ^(١)

يقولها لشاعر سمى نفسه به في قوله :

أَبْلَغُ كُلِّيًّا وَأَبْلَغُ عَنْكَ شَاعِرَهَا أَنِّي الْأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ^(٢)

فجاء به جرير على جهة الهزء وقرىء : (إنك) بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب على المنبر والكسائي بفتحها (إن هذا) أي : الأمر أو العذاب (ما كنتم به تمترون) أي : تشكون ، ولما ذكر حال الكفار أعقبه بحال المؤمنين ، فقال : (إن المتقين في مقام أمين) وقرأ عبد الله بن عمر وزيد بن علي وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر (في مقام) بضم الميم ، وأبورجاء وعيسى ويحيى والأعمش وباقي السبعة بفتحها ، ووصف المقام بالأمين أي : يؤمن فيه من الغير ، فكأنه فعيل بمعنى مفعول ، أي : مأمون فيه ، قاله ابن عطية . وقال الزمخشري : الأمين من قولك : أمن الرجل أمانة ، فهو أمين ، وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة ، لأن المكان المخيف كان يخوف صاحبه بما يلقي فيه من المكاره ، وتقدم شرح السندس والإستبرق . وقرأ ابن محيصن وإستبرق جعله فعلاً ماضياً . متقابلين وصف لمجالس أهل الجنة لا يستدبر بعضهم بعضاً في المجالس ، (كذلك) أي : الأمر كذلك ، وقرأ الجمهور (بحور) منوناً وعكرمة بغير تنوين ، لأن العين يُقَسَّمَنَّ إلى حور ، وغير حور ، فهؤلاء من حور العين لا من شهلن مثلاً (يدعون فيها) أي : الخدم ،

(١) من البسيط انظر ديوانه (٦٧٥) الخصائص (٤٦١/٢) .

(٢) قال ابن حني في خصائصه « وأنشدنا أبو علي لبعض البائية بهجو جريراً » فذكره ، الخصائص (٤٦١/٢) .

والتصرفين عليهم بكل فاكهة أرادوا إحضارها لديهم آمنين من الأمراض والتخم ، (لا يذوقون فيها الموت) وقرأ عبيد بن عمير (لا يذاقون) مبنياً للمفعول (إلا الموتة الأولى) هذا استثناء منقطع ، أي : لكن الموتة الأولى ذاقوها في الدنيا ، وذلك تنبيه على ما أنعم به عليهم من الخلود السرمدي ، وتذكير لهم بمقارعة الدنيا الفانية إلى هذه الدار الباقية . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي . (قلت :) أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله إلا الموتة الأولى موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ، فإنهم يذوقونها . وقال ابن عطية : قدر قوم إلا بسوي وضعف ذلك الطبري ، وقدرها ببعد وليس تضعيفه بصحيح ، بل يصح المعنى بسوي ويتسق ، وأما معنى الآية فتبين أنه نفى عنهم ذوق الموت ، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا . وقرأ أبو حيوة ووقاهم مشدداً بالقاف ، والضمير في (يسرناه) عائد على القرآن ، (وبلسانك) بلغتك ، وهي لغة العرب (فارتقب) النصر الذي وعدناك (إنهم مرتقبون) فيما يظنون الدوائر عليك ، وفيها وعدٌ له عليه السلام ووعدٌ لهم ، ومتاركة منسوخة بآيات السيف .

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ فِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَلِلَّهِ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ ۝ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ قُلْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيْنَتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝

هذه السورة مكية ، قال ابن عطية بلا خلاف ، وذكر المارودي إلا (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية ، فمدنية نزلت في عمر بن الخطاب^(١) . قال ابن عباس وقتادة وقال النحاس والمهدوي عن ابن عباس : نزلت في عمر شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به فنزلت^(٢) . ومناسبة أولها لآخر ما قبلها في غاية الوضوح ، قال : (فإنما يسرناه بلسانك) وقال : (حم تنزيل الكتاب) وتقدم الكلام على تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم أول الزمر . وقال أبو عبد الله

(١) انظر القرطبي ١٠٤/١٦ .

(٢) انظر القرطبي ١٠٤/١٦ .

الرازي ، وقوله : (العزيز الحكيم) يجوز جعله صفة لله فيكون ذلك حقيقة ، وإن جعلناه صفة للكتاب كان ذلك مجازاً ، والحقيقة أولى من المجاز مع أن زيادة القرب توجب الرجحان انتهى . وهذا الذي ردّد في قوله وإن جعلناه صفة للكتاب لا يجوز لو كان صفة للكتاب لوليه ، فكان يكون التركيب تنزيل الكتاب العزيز الحكيم من الله ، لأن من الله إما أن يكون متعلقاً بتنزيل ، وتنزيل خبر لحم ، أو لمبتدأ محذوف فلا يجوز الفصل به بين الصفة والموصوف ، لا يجوز أعجبي ضرب زيد سوط الفاضل ، أو في موضع الخبر ، وتنزيل مبتدأ فلا يجوز الفصل بين الصفة والموصوف ، أيضاً لا يجوز ضرب زيد شديد الفاضل ، والتركيب الصحيح في نحو هذا أن يلي الصفة موصوفها (إن في السموات والأرض) احتمل أن يريد في خلق السموات ، كقوله : (وفي خلقكم) والظاهر أنه لا يراد التخصيص بالخلق ، بل في السموات والأرض على الإطلاق والعموم ، أي : في أي شيء نظرت منها من خلق وغيره من تسخير وتنوير وغيرهما (آيات) لم يأت بالآيات مفصلة ، بل أتى بها مجملة إحالة على غوامض يثيرها الفكر ويخبر بكثير منها الشرع ، وجعلها للمؤمنين إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق ، وما يث من دابة أي : في غير جنسكم ، وهو معطوف على (وفي خلقكم) ومن أجاز العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض أجاز في (وما يث) أن يكون معطوفاً على الضمير في خلقكم ، وهو مذهب الكوفيين ويونس والأخفش وهو الصحيح ، واختاره الأستاذ أبو علي الشلوبين ، وقال الزمخشري : يقبح العطف عليه ، وهذا تفرع على مذهب سيبويه وجمهور البصريين ، قال : وكذلك أن أكدوه كرهوا أن يقولوا مرتت بك أنت وزيد انتهى . وهذا يحيزه الجرمي والزياري في الكلام ، وقال لقوم يوقنون وهم الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين (واختلاف الليل والنهار) تقدم الكلام على نظيره في سورة البقرة . وقرأ الجمهور آيات جمعاً بالرفع فيها ، والأعمش والجدري وحمة والكسائي ويعقوب بالنصب فيها ، وزيد بن علي برفعها على التوحيد . وقرأ أبي وعبد الله لآيات فيها كالأولى ، فاما آيات لقوم يعقلون رفعاً ونصباً فاستدل به ، وشبهه مما جاء في كلام الأخفش ومن أخذ بمذهبه على عطف معمولي عاملين بالواو ، وهي مسألة فيها أربعة مذاهب ذكرناها في كتاب التذييل والتكميل لشرح التسهيل ، فأما ما يخص هذه الآية فمن نصب آيات بالواو وعطفت واختلاف على المجرور بفي قبله ، وهو وفي خلقكم وما يث وعطف آيات على آيات ، ومن رفع فكذلك ، والعاملان أولاهما إن وفي ، وثانيهما الابتداء وفي . وقال الزمخشري : أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر ، واختلاف الليل والنهار والنصب في آيات ، وإذا رفعت والعاملان الابتداء ، وفي عملت الرفع للواو وليس بصحيح ، لأن الصحيح من المذاهب أن حرف العطف لا يعمل ، ومن منع العطف على مذهب الأخفش أضمر حرف الجر فقدر وفي اختلاف ، فالعمل للحرف مضمراً ، ونابت الواو مناب عامل واحد ، ويدل على أن في مقدرة قراءة عبد الله ، وفي اختلاف مصرحاً ، وحسن حذف في تقدمها في قوله (وفي خلقكم) وخرج أيضاً النصب في آيات على التوكيد لآيات المتقدمة ، ولإضمار حرف في وقرىء واختلاف بالرفع على خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي آيات ، ولإضمار حرف أيضاً . وقرأ واختلاف الليل والنهار آية بالرفع في اختلاف ، وفي آية موحدة ، وكذلك (وما يث من دابة) . وقرأ زيد بن علي وطلحة وعيسى وتصريف الرياح . وقال الزمخشري : والمعنى : أن المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بد لها من صانع فآمنوا بالله وأقروا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال ، وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيماناً ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ، ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ، وتصريف الرياح جنوباً وشمالاً ، وقبولاً ودبوراً ، عقلوا واستحكم علمهم ، وخلص يقينهم . وقال أبو عبد الله الرازي : ذكر في البقرة ثمانية دلائل ، وهنا ستة لم يذكر الفلك والسحاب ، والسبب في ذلك أن مدار الحركة للفلك والسحاب على الرياح المختلفة ، فذكر الرياح ، وهناك جعل مقطع الثانية واحداً ، وهنا رتبها على مقاطع ثلاثة يؤمنون يوقنون يعقلون ،

قال : وأظن سبب هذا الترتيب إن كنتم مؤمنين ، فافهموا هذه الدلائل ، فإن لم تكونوا مؤمنين ولا موقنين فلا أقل أن تكونوا من العاقلين فاجتهدوا ، وقال هناك ﴿ إن في خلق السموات ﴾ [البقرة ١٦٤] وهنا (في السموات) فدل على أن الخلق غير المخلوق ، وهو الصحيح عند أصحابنا ، ولا تفارق بين أن يقال في السموات ، وفي خلق السموات انتهى . وفيه تلخيص وتقدير وتأخير . (تلك آيات الله) أي : تلك الآيات وهي الدلائل المذكورة (نتلوها) أي : نسردها عليك ملتبسة بالحق ، ونتلوها في موضع الحال ، أي : متلو ، قال الزمخشري : والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ونحوه هذا زيد شيخاً^(١) أوقائماً انتهى . وليس نحوه ، لأن في هذا حرف تنبيه ، وقيل : العامل في الحال ما دل عليه حرف التنبيه ، أي تنبه ، وأما تلك فليس فيها حرف تنبيه عاملاً بما فيه من معنى التنبيه ، لأن الحرف قد يعمل في الحال تنبه لزيد في حال شيخه ، وفي حال قيامه ، وقيل : العامل في مثل هذا التركيب فعل محذوف يدل عليه المعنى ، أي : انظر إليه في حال شيخه فلا يكون اسم الإشارة عاملاً ، ولا حرف التنبيه إن كان هناك . وقال ابن عطية : نتلوها فيه حذف مضاف ، أي : نتلو شأنها وشرح العبرة بها ، ويحتمل أن يريد بآيات الله القرآن المنزل في هذه المعاني ، فلا يكون في نتلوها حذف مضاف انتهى . ونتلوها معناه يأمر الملك أن نتلوها . وقرئ يتلوها بياء الغيبة عائداً على الله ، و (بالحق) بالصدق ، لأن صحتها معلومة بالدلائل العقلية . (فبأي حديث) الآية فيه تقريع وتوبيخ وتهديد . (بعد الله) أي : حديث الله وهو كتابه وكلامه ، كقوله : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) وقال : (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : بعد حديث الله وكلامه . وقال الضحاک : بعد توحيد الله ، وقال الزمخشري : (بعد الله وآياته) أي : بعد آيات الله ، كقولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، يريدون أعجبنى كرم زيد انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه من حيث المعنى إقحام الأسماء من غير ضرورة ، والعطف والمراد غير العطف من إخراجها إلى باب البدل ، لأن تقدير كرم زيد إنما يكون في أعجبنى زيد كرمه بغير واو على البدل ، وهذا قلب لحقائق النحو ، وإنما المعنى في أعجبنى زيد وكرمه أن ذات زيد أعجبت ، وأعجبه كرمه ، فهما إعجابان لا إعجاب واحد ، وقد ردنا عليه مثل قوله هذا فيما تقدم . وقرأ أبو جعفر والأعرج وشيبة وقتادة والحريمان وأبو عمرو وعاصم في رواية : (يؤمنون) بالياء من تحت ، والأعمش وباقي السبعة بقاء الخطاب ، وطلحة (توقنون) بالتاء من فوق ، والقاف من الإيقان . (ويل لكل أفاك أثيم) قيل : نزلت في أبي جهل ، وقيل : في النضر بن الحارث ، وما كان يشتري من أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآية عامة فيمن كان مضاراً لدين الله ، وأفاك أثيم مبالغة ، وألفاظ هذه الآية تقدم الكلام عليها . وقرأ الجمهور : (عليم) وقتادة ومطر الوراق بضم العين وشد اللام مبنياً للمفعول ، أي : عرف ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما معنى ثم في قوله (ثم يصير مستكبراً) (قلت :) كمعناه في قول القائل :

يَرَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

وذلك بأن غمرات الموت حقيقة بأن ينجورائها بنفسه ، ويطلب الفرار منها ، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد ، فمعنى (ثم) الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعانها شيء يستبعد في العادة والطباع ، وكذلك آيات الله الواضحة القاطعة بالحق من تليت عليه سمعها كان مستبعداً في العقول إصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان بها اتخذها هزواً ، ولم يقل اتخذها إشعاراً بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله على محمد - ﷺ - خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه . وقال الزمخشري : ويحتمل وإذا علم من آياتنا شيئاً يمكن أن يتشبث به المعاند ويجعله محملاً يتسلق به على الطعن والغميرة افترسه ، واتخذ آيات الله هزواً ،

(١) ثبت في ط والأصل وهذا بعلي شيخاً وما أثبتنا هو الموافق لما يأتي بعد .

وذلك نحو افتراض ابن الزبيري قوله عز وجل (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ومغالطته رسول الله - ﷺ - وقوله خصمك ، ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ، لأنه في معنى الآية كقول أبي العتاهية :

نَفْسِي بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ اللَّهُ وَالْقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا^(١)

حيث أراد عتبة انتهى . وعتبة جارية كان أبو العتاهية يهاها وينتسب بها ، والإشارة بأولئك إلى كل أفك لشموله الأفاكين حمل أولاً على لفظ كل ، وأفرد على المعنى فجمع كقوله : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الجاثية ١٠] ، (من ورائهم جهنم) أي : من قدامهم والوراء ما توارى من خلف وأمام ، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً من الأموال في متاجرهم ، ولا من اتخذوا من دون الله من الأوثان ، (هذا) أي : القرآن (هدي) أي : بالغ في الهداية ، كقولك : هذا رجل ، أي : كامل في الرجولية . وقرأ طلحة وابن محيصن وأهل مكة وابن كثير وحفص (أليم) بالرفع نعتاً لعذاب والحسن وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وباقي السبعة بالجر نعتاً لرجز ، (الله الذي سخر) الآية آية اعتبار في تسخير هذا المخلوق العظيم ، والسفن الجارية فيه بهذا المخلوق الحقير وهو الإنسان بأمره ، أي بقدرته أناب الأمر مناب القدرة ، كأنه يأمر السفن أن تجري من فضله بالتجارة وبالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، واستخراج اللحم الطري ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء والأماك الموكلة بهذا كله ، وما في الأرض من البهائم والمياه والجبال والنبات . وقرأ الجمهور (منه) وابن عباس بكسر الميم وشد النون ، ونصب التاء على المصدر ، قال أبو حاتم نسبة هذه القراءة إلى ابن عباس ظلم ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والجحدري ، وعبد الله بن عبيد بن عمير ، وحكاها أيضاً عن هؤلاء الأربعة صاحب اللوامح ، وحكاها ابن خالويه عن ابن عباس وعبيد بن عمير . وقرأ سلمة بن محارب كذلك إلا أنه ضم التاء أي : هو منه وعنه أيضاً فتح الميم وشد النون وهاء الكناية عائد على الله وهو فاعل سخر على الإسناد المجازي ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : ذلك أو هو منه ، والمعنى على قراءة الجمهور أنه سخر هذه الأشياء كائنه منه ، وحاصلة عنده إذ هو موجدتها بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقها ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون يعني منه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي جميعاً منه ، وأن يكون وما في الأرض مبتدأ ، ومنه خبره انتهى . ولا يجوز هذان الوجهان إلا على قول الأخفش ، لأن جميعاً إذ ذاك حال ، والعامل فيها معنوي وهو الجار والمجرور فهو نظير زيد قائماً في الدار ، ولا يجوز على مذهب الجمهور . (قل للذين آمنوا يغفروا) نزلت في صدر الإسلام أمر المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ، وأن لا يعاقبهم بذنب ، بل يصبرون لهم ، قاله السدي ومحمد بن كعب . قيل : وهي محكمة والأكثر على أنها منسوخة بآية السيف . يغفروا في جزمه أوجه للنحاة تقدمت في ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ [إبراهيم ٣١] في سورة إبراهيم (لا يرجون أيام الله) أي : وقائعه بأعدائه ونقمته منهم . وقال مجاهد : وقيل أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك . وقيل : لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز . قيل نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها ، وتقدم قول ابن عباس أنها نزلت في عمر بن الخطاب ، قيل : سبه رجل من الكفار فهم أن يبطش به^(٢) . وقرأ الجمهور (ليجزئ الله) وزيد بن عليّ وأبو عبد الرحمن والأعمش وأبو عليّة وابن عامر وحزمة والكسائي بالنون ، وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه بالياء مبنياً للمفعول ، وقد روى ذلك عن عاصم ، وفيه حجة لمن أجاز بناء الفعل للمفعول على أن يقام المجرور وهو بما وينصب للمفعول به الصريح وهو قوماً ، ونظيره ضرب بسوط زيداً ، ولا يجوز ذلك الجمهور ، وخرجت هذه القراءة على أن يكون بني الفعل للمصدر ، أي : وليجزئ الجزاء قوماً ، وهذا أيضاً لا يجوز عند

(١) البيت في الكشف (٢٨٧/٤) وروح المعاني (١٤٣/٢٥) .

(٢) انظر البغوي ١٥٨/٤ والقرطبي ١٠٧/١٦ - ١٠٨ والوسيط ٥٥ خ .

الجمهور ، لكن يتأول على أن ينصب بفعل محذوف تقديره يجزي قوماً ، فيكون جملتان إحداهما ليجزي الجزاء قوماً ، والأخرى يجزيه قوماً ، وقوماً هنا يعني به الغافرين ، ونكره على معنى التعظيم لشأنهم ، كأنه قيل : قوماً أي قوم من شأنهم التجاوز عن السيئات والصفح عن المؤذيات وتحمل الوحشة . وقيل : هم الذين لا يرجون أيام الله ، أي : بما كانوا يكسبون من الإثم ، كأنه قيل لم تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن . من عمل صالحاً كهؤلاء الغافرين ، ومن أساء كهؤلاء الكفار ، وأتى باللام في فلنفسه ، لأن المحاب والحظوظ تستعمل فيها على الدالة على العلو والقهر ، كما تقول : الأمور لزيد متأتية ، على عمرو ومستصعبة ، والكتاب التوراة ، والحكم القضاء ، وفصل الأمور ، لأن الملك كان فيهم . قيل : والحكم الفقه ، ويقال : لم يتسع فقه الأحكام على نبي كما اتسع على لسان موسى من الطيبات المستلذات الحلال ، وبذلك تتم النعمة ، وذلك المن والسلوى ، وطيبات الشام إذ هي الأرض المباركة ، (بينات) أي : دلائل واضحة من الأمر ، أي : من الوحي الذي فصلت به الأمور . وعن ابن عباس من الأمر أي : أمر النبي - ﷺ - وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب . وقيل : معجزات موسى (فما اختلفوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم) متقدم تفسيره في شوري .

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۚ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۚ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ غَشَوَاتٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۚ وَإِذْ نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا نَيِّنَا مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبُوا بَنَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۚ

لما ذكر تعالى إنعامه على بني إسرائيل ، واختلافهم بعد ذلك ، ذكر حال نبيه - عليه الصلاة والسلام - وما من به عليه من اصطفاؤه ، فقال (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء) ، قال قتادة : الشريعة الأمر والنهي والحدود والفرائض . وقال مقاتل : البينة ، لأنها طريق إلى الحق . وقال الكلبي : السنة ، لأنه كان يستن بطريقة من قبله من الأنبياء ، وقال ابن زيد : الذين ، لأنه طريق إلى النجاة ، والشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد فيه الناس في الأنهار والمياه ، ومنه قول الشاعر :

وَفِي الشَّرَائِعِ مِنْ جِيلَانٍ مُّقْتَصَ رُثُ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبٌ^(١)

فشرية الدين من ذلك من حيث يرد الناس أمر الله ورحمته ، والقرب منه من الأمور التي من دين الله الذي بعثه في عباده في الزمان السالف ، أو يكون مصدر أمر ، أي : من الأمر والنهي وسمى النهي أمراً ، (أهواء الذين لا يعلمون) ، قيل : جهال قريظة والنضير^(١) ، وقيل : رؤساء قريش حين قالوا : ارجع إلى دين آبائك ، (هذا بصائر) أي : هذا القرآن جعل ما نافية من معالم الدين بصائر للقلوب ، كما جعل روحاً وحياة ، وقرىء هذي أي هذه (أم حسب) أم منقطعة تتقدر ببل ، والهمزة وهو استفهام ، إنكار ، وقال الكلبي : نزلت في عليّ ، وحمة ، وعبيدة بن الحارث ، وفي عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولئن كان ما تقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة ، كما هو أفضل في الدنيا^(٢) ، واجترحو اكتبوا ، والسيئات هنا سيئات الكفر ، ونجعلهم نصيرهم ، والمفعول الثاني هو كالذين وبه تمام المعنى . وقرأ الجمهور : (سواء) بالرفع (ومماهم) بالرفع أيضاً ، وأعربوا سواء مبتدأ وخبره ما بعده ، ولا مسوغ لجواز الابتداء به ، بل هو خبر مقدم وما بعده المبتدأ ، والجملة خبر مستأنف ، واحتمل الضمير في محياهم ومماهم أن يعود على الذين اجترحو ، أخبر أن حالهم في الزمانين سواء وأن يعود على المجترحين والصالحين بمعنى أن محيا المؤمنين ومماهم سواء في إهانتهم عند الله وعدم كرامتهم عليه ، ويكون اللفظ قد لف هذا المعنى وذهن السامع يفرقه إذ قد تقدم إبعاد الله أن يجعل هؤلاء كهؤلاء . قال أبو الدرداء : يبعث الناس على ما ماتوا عليه . وقال مجاهد : المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً والكافر يموت كافراً ، ويبعث كافراً^(٣) . وقال ابن عطية : مقتضى هذا الكلام أنه لفظ الآية ، ويظهر لي أن قوله : (سواء محياهم ومماهم) داخل في المحسنة المنكرة السيئة ، وهذا احتمال حسن ، والأول أيضاً أجود انتهى . ولم يبين كيفية تشبث الجملة بما قبلها حتى يدخل في المحسنة . وقال الزمخشري : والجملة التي هي سواء محياهم ومماهم . بدل من الكاف ، لأن الجملة تقع مفعولاً ثانياً ، فكانت في حكم المفرد ، ألا تراك لو قلت : أن نجعلهم سواء محياهم ومماهم كان سديداً ، كما تقول : ظننت زيد أبوه منطلق انتهى . وهذا الذي ذهب إليه الزمخشري من إبدال الجملة من المفرد قد أجازه أبو الفتح ، واختاره ابن مالك ، وأورد على ذلك شواهد على زعمه ، ولا يتعين فيها البدل ، وقال بعض أصحابنا وهو الإمام العامل ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ الإشبيلي ويعرف بابن العليج ، وكان ممن أقام باليمن وصنف بها قال في كتابه البسيط في النحو : ولا يصح أن يكون جملة معمولة للأول في موضع البدل ، كما كان في النعت ، لأنها تقدر تقدير المشتق تقدير الجامد ، فيكون بدلاً ، فيجتمع فيه تجوز أن ، ولأن البدل يعمل فيه العالم الأول فيصح أن يكون فاعلاً ، والجملة لا تكون في موضع الفاعل بغير سائغ ، لأنها لا تضمّر ، فإن كانت غير معمولة فهل تكون جملة لا يبعد عندي جوازها كما يتبع في العطف الجملة للجملة ، ولتأكيد الجملة التأكيد اللفظي انتهى . وتبين من كلام هذا الإمام أنه لا يجوز أن تكون الجملة بدلاً من المفرد ، وأما تجويز الزمخشري أن نجعلهم سواء محياهم ومماهم ، فيظهر لي أنه لا يجوز ، لأنها بمعنى التصيير ، لا يجوز صيرت زيداً أبوه قائم ، ولا صيرت زيداً غلامه منطلق ، لأن التصيير انتقال من ذات إلى ذات ، أو من وصف في الذات ، إلى وصف فيها ، وتلك الجملة الواقعة بعد مفعول صيرت المقدرة مفعولاً ثانياً ليس فيها انتقال مما ذكرنا ، فلا يجوز ، والذي يظهر لي أنه قلنا بتشبث الجملة بما قبلها أن تكون الجملة في موضع الحال ، والتقدير أم حسب الكفار أن نصيرهم مثل المؤمنين في حال استواء محياهم ومماهم ليسوا كذلك ، بل هم مفترقون أي : افتراق في الحاليتين ، وتكون هذه الحال مبنية ما انبهم في المثلية الدال عليها الكاف التي هي في موضع المفعول الثاني . وقرأ زيد بن علي وحمة والكسائي وحفص سواء بالنصب ، وما بعده مرفوع على الفاعلية أجرى سواء مجرى مستوياً كما قالوا مررت برجل سواء هو

(١) انظر الوسيط ٥٦ خ والبغوي ١٥٩/٤ والقرطبي ١٠٩/١٦ .

(٢) انظر الوسيط ٥٦ خ والبغوي ١٥٩/٤ والقرطبي ١١٠/١٦ .

(٣) انظر البغوي ١٥٩/٤ والوسيط ٥٦ خ والطبري ٩٠/٢٥ والبغوي ١٥٩/٤ .

والعدم ، وجوز في انتصاب سواء وجهين أحدهما : أن يكون منصوباً على الحال ، وكالذين المفعول الثاني والعكس . وقرأ الأعمش : (سواءً) بالنصب (محياهم ومماتهم) بالنصب أيضاً (محياهم ومماتهم) بالنصب أيضاً ، وخرج على أن يكون محياهم ومماتهم ظرفي زمان ، والعامل إما أن نجعلهم ، وإما سواء ، وانتصب على البدل من مفعول نجعلهم ، والمفعول الثاني سواء ، أي : أن يجعل محياهم ومماتهم سواء . وقال الزمخشري : ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين ، كمقدم الحاج وخفوق النجم ، أي : سواء في محياهم وفي مماتهم ، والمعنى إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماً لا افتراق أحوالهم ، وتمثيله بقوله وخفوق النجم ليس بجيد ، لأن خفوق مصدر ليس على مفعول ، فهو في الحقيقة على حذف مضاف ، أي : وقت خفوق النجم بخلاف محيا وممات ومقدم ، فإنها تستعمل بالوضع مصدراً ، واسم زمان ، واسم مكان ، فإذا استعملت اسم مكان أو اسم زمان لم يكن ذلك على حذف مضاف ، قامت هذه مقامه ، لأنها موضوعة للزمان وللمكان ، كما وضعت للمصدر فهي مشتركة بين هذه المدلولات الثلاثة بخلاف خفوق النجم ، فإنه وضع للمصدر فقط . وقد خلط ابن عطية في نقل القرآن ، وله بعض عذر فإنه لم يكن معرباً فقال : وقرأ طلحة بن مصرف وعيسى بخلاف عنه سواء بالنصب محياهم ومماتهم بالرفع ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص والأعمش : (سواءً) بالنصب (محياهم ومماتهم) بالنصب ، ووجه كلاً من القراءتين على ما تقتضيه صنعة الإعراب ، وتبعه على هذا الوهم صاحب التحرير ، وهو معذور لأنه ناسخ من كتاب إلى كتاب ، والصواب ما استنبه من القراءات لمن ذكرنا ، ويستنبط من هذه الآية تباين حال المؤمن العاصي من حال الطائع ، وإن كانت في الكفار وتسمى مبكاة العابدين . وعن تميم الداري - رضي الله عنه - أنه كان يصلي ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ، ويردد إلى الصباح (ساء ما يحكمون) وعن الربيع بن خيثم أنه كان يردد لها ليلة أجمع ، وكذلك الفضيل بن عياض كان يقول لنفسه ليث شعري من أي الفريقين أنت ، وقال ابن عطية : وأما لفظها فيعطي أنه اجترح الكفر بدليل معادلته بالإيمان ، ويحتمل أن تكون المعادلة هي بالاجترح وعمل الصالحات ، ويكون الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون ساء ما يحكمون هو كقوله : ﴿ بشما اشتروا ﴾ [البقرة ٩٠] وتقدم إعرابه في البقرة . وقال ابن عطية : هنا ما مصدرية والتقدير ساء الحكم حكمهم بالحق بأن خلقها حق واجب لما فيه من فيض الخيرات ، وليلد عليه دلالة الصنعة على الصانع ، ولتجزى هي لام كي معطوفة على بالحق ، لأن كلاً من التاء واللام يكونان للتعليل ، فكان الخلق معللاً بالجزاء . وقال الزمخشري : أو على معلل محذوف تقديره ليدل بها على قدرته ، ولتجزى كل نفس . وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون لام الصيرورة ، أي : فصار الأمر منها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون ، لأن يجازي كل واحد بعمله ، وبما اكتسب من خير أو شر انتهى . (أفرأيت) الآية ، قال مقاتل : نزلت في الحارث بن قيس السهمي ، وأفرأيت هو بمعنى أخبرني ، والمفعول الأول هو من اتخذ ، والثاني محذوف تقديره بعد الصلاة التي لمن اهتدى يدل عليه قوله بعد (فمن يهديه من بعد الله) أي : لا أحد يهديه من بعد إضلال الله إياه (من اتخذ إلهه هواه) أي : هو مطواع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه . قال ابن جبير : إشارة إلى الأصنام إذ كانوا يعبدون ما يهون من الحجارة . وقال قتادة : لا يهوى شيئاً إلا ركه لا يخاف الله ، فهذا يقال لهوى إله معبود ، وقرأ الأعرج وأبو جعفر : آله بقاء التأنيث بدل من هاء الضمير ، وعن الأعرج أنه قرأ آله على الجمع . قال ابن خالويه : ومعناه أن أحدهم كان يهوى الحجر فيعبد ، ثم يرى غيره فيهواه فيلقى الأول ، فكذلك قوله : (إلهه هواه) الآية ، وإن نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة . قال ابن عباس ما ذكر الله هوى إلا ذمه . وقال وهب : إذا شككت في خبر أمرين فانظر أبعدهما من هواك فآته . وقال سهل التستري : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك . وفي الحديث والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني ، ومن حكمة الشعر قول عنتره وهو جاهلي :

إِنِّي أَمْرُؤُ سَمِحٌ الْخَلِيقَةِ مَاجِدٌ لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا^(١)

وقال أبو عمران موسى بن عمران الإشبيلي الزاهد رحمه الله تعالى :

فَخَالِفْ هَوَاهَا وَاعْصِهَا إِنْ مَنْ يُطْعَ هَوَى نَفْسِهِ يَنْزِعَ بِهِ شَرٌّ مَنَزَعٍ^(٢)
وَمَنْ يُطْعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ تَرُدَّهُ وَتَرْمِ بِهِ فِي مَضْرَعٍ أَيْ مَضْرَعٍ

(وأضله الله على علم) أي : من الله تعالى سابق ، أو على علم من هذا الضال بأن الحق هو الدين ، ويعرض عنه عناداً فيكون كقوله : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ [النمل ١٤] ، وقال الزمخشري : صرفه عن الهداية واللفظ وخذله عن علم عالماً بأن ذلك لا يجدي عليه ، وأنه ممن لا لطف به ، أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألفاظ المحصلة والمقربة انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقرأ الجمهور (غِشَاوَةٌ) بكسر الغين ، وعبد الله والأعمش بفتحها ، وهي لغة ربيعة والحسن وعكرمة وعبد الله أيضاً بضمها ، وهي لغة عكيلة والأعمش وطلحة وأبو حنيفة ومسعود بن صالح وحمة والكسائي (غَشْوَةٌ) بفتح الغين وسكون الشين وابن مصرف والأعمش أيضاً كذلك إلا أنها كسرا العين ، وتقدم تفسير الجملتين في أول البقرة . وقرأ الجمهور : (تَذْكُرُونَ) بشد الذال والجحدري يخففها والأعمش بتاءين ، (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا) هي مقالة بعض قريش إنكاراً للبعث ، والظاهر أن قولهم (نموت ونحيا) حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير ، أي : نموت طائفة ، ونحيا طائفة ، وأن المراد بالموت مفارقة الروح للجسد ، وقيل في الكلام تقديم وتأخير ، أي : نحيا ونموت ، وقيل : (نموت) عبارة عن كونهم لم يوجدوا (ونحيا) أي : في وقت وجودنا ، وهذا قريب من الأول قبله ولا ذكر للموت الذي هو مفارقة الروح في هذين القولين ، وقيل : نموت الآباء ونحيا الأبناء . وقرأ زيد بن علي (ونُحْيَا) بضم النون ، (وما يهلكنا إلا الدهر) أي : طول الزمان ، لأن الآفات تستوي فيه كمالها هذا إن كان قائلو هذا معترفين بالله ، فنسبوا الآفات إلى الدهر بجهلهم أنها مقدره من عند الله ، وإن كانوا لا يعرفون الله ولا يقرون به ، وهم الدهرية فنسبوا ذلك إلى الدهر . وقرأ عبد الله (إلا دهر) وتأويله إلا دهر يمر كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر ، وأشعارهم ناطقة بشكوى الدهر ، حتى يوجد ذلك في أشعار المسلمين ، قال ابن دريد في مقصورته :

يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُتْبَى فَاتَّبِذْ فَإِنْ إِرْوَادَكَ وَالْعُتْبَى سَوَاءُ

وما كان حجتهم ليست حجة حقيقة ، أي : حجتهم عندهم أو لأنهم أدلوا بها كما يدلي المحتج بحجته ، وساقوها مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في نحو قولهم ، تحية بينهم ضرب وجيع ، أي : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة ، والمراد نفي أن يكون لهم حجة البتة ، وقرأ الجمهور (حَجَّتَهُمْ) بالنصب ، والحسن وعمرو بن عبيد وزيد بن علي وعبيد بن عمير وابن عارم فيما روى عنه عبد الحميد وعاصم فيما روى هارون وحسين عن أبي بكر عنه حجتهم أي : ما تكون حجتهم ، لأن إذا للاستقبال ، وخالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان منفياً بما لم تدخل الفاء ، بخلاف أدوات الشرط فلا بد من الفاء ، تقول إن ترزنا فما جفوتنا ، أي : فما تجفونا ، وفي كون الجواب منفياً بما ، دليل على ما اخترناه من أن جواب إذا لا يعمل فيها ، لأن ما بعد ما النافية لا يعمل فيما قبلها (ائتوا) يظهر أنه خطاب للرسول والمؤمنين ، إذ هم قائلون بمقالته ، أو هو خطاب له ولن جاء بالبعث ، وهم الأنبياء وغلب الخطاب على الغيبة ، وقال ابن

(١) انظر روح المعاني (١٥٢/٢٥) .

(٢) انظر روح المعاني (١٥٢/٢٥) .

عطية : (اتوا) من حيث المخاطبة له ، والمراد هو وإلهه والملك الوسيط الذي ذكره هو لهم ، فجاء من ذلك جملة ، قيل : لها اتوا وإن كنتم انتهى . ولما اعترفوا بأنهم ما يهلكهم إلا الدهر ، وأنهم استدلوا على إنكار البعث بما لا دليل لهم فيه من سؤال إحياء آبائهم ، ورد الله تعالى عليهم بأنه تعالى هو المحيي ، وهو المميت لا الدهر ، وضم إلى ذلك آية جامعة للحساب يوم البعث ، وهذا واجب الاعتراف به إن أنصفوا ومن قدر على هذا قدر على الإتيان بآبائهم .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَقِيقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصْرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

العامل في (ويوم تقوم) يحسر ، ويومئذ بدل من يوم ، قاله الزمخشري ، وحكاه ابن عطية عن فرقة ، والتنوين في يومئذ تنوين العوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة إلا قوله : (ويوم تقوم الساعة) ، فيصير التقدير ويوم تقوم يوم إذ تقوم الساعة يحسروا ولا مزيد فائدة في قوله يوم إذ تقوم الساعة لأن ذلك مستفاد من ويوم تقوم الساعة ، فإن كان بدلاً توكيدياً وهو قليل ، جاز ذلك ، وإلا فلا يجوز أن يكون بدلاً ، وقالت فرقة العامل في ويوم تقوم ما يدل عليه الملك ، قالوا وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسما ولا بالأرض ، لأن ذلك يتبدل فكأنه قال والله ملك السموات والأرض ، والملك يوم القيامة ، فحذفه لدلالة ما قبله عليه ، ويومئذ منصوب ببيخر ، وهي جملة فيها استئناف ، وإن كان لها تعلق بما قبلها من جهة تنوين العوض ، والمبطلون الداخلون في الباطل جاثية باركة على الركب مستوفزة ، وهي هيئة المذنب الخائف . وقرىء جاذية بالذال ، والجذو أشد استيفازاً من الجثول لأن الجاذي هو الذي يجلس على أطراف أصابعه ، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة ، وعن قتادة جماعات من الجثوة ، وهي الجماعة يجمع على جثي قال الشاعر :

تَرَى جَثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدٍ (١)

وعن مخرج السدوسي جاثية خاضعة بلغة قريش ، وعن عكرمة جاثية متميزة ، وقرأ يعقوب كل أمة تدعي بنصب كل أمة على البديل بدل النكرة الموصوفة من النكرة ، والظاهر عموم كل أمة من مؤمن وكافر ، قال الضحاك : وذلك عند الحساب . وقال يحيى بن سلام : ذلك خاص بالكفار ، تدعى إلى كتابها المنزل عليها فتحاكم إليه ، هل وافقته أو خالفته أو الذي كتبته الحفظة ، وهو صحائف أعمالها ، أو اللوح المحفوظ ، أو المعنى إلى ما يسبق لها فيه ، أي : إلى حسابها

(١) البيت من الطويل لطرفة انظر ديوانه (٣٣) السبع الطوال (٢٠٠) اللسان (حيث) .

أقوال ، وأفرد كتابها اكتفاء باسم الجنس ، لقوله ﴿ ووضع الكتاب ﴾ [الزمر ٦٩] ﴿ اليوم تجزون ﴾ [الجاثية ٢٨] ﴿ هذا كتابنا ﴾ [الجاثية ٢٩] هو الذي دعيت إليه كل أمة وصحت إضافته إليه تعالى ، لأنه مالكة الأمر بكتبه وإليهم ، لأن أعمالهم مثبتة فيه ، والإضافة تكون بأدنى ملائسة ، فلذلك صحت ، إضافته إليهم ، وإليه تعالى ينطق عليكم يشهد بالحق من غير زيادة ولا نقصان (إنا كنا نستنسخ) أي : الملائكة ، أي : نجعلها تنسخ أي تكتب ، وحقيقة النسخ نقل خط من أصل ينظم فيه فأعمال العباد كأنها الأصل . وقال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم ، وعن ابن عباس يجعل الله الحفظة تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعل العباد ، ثم يسكونه عندهم ، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فبعيد أيضاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان يقول ابن عباس أُلستم عرباً ، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ، ثم بين حال المؤمن بأنه يدخله في رحمته ، وهو الثواب الذي أعدله ، وأن ذلك هو الظفر بالبغية ، وبين حال الكافر بأنه يوبخ ويقال له أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن اتباعها ، والإيمان بها ، وكنتم أصحاب جرائم ، والفاء في أفلم ينوي بها التقديم ، وإنما قدمت الهمزة ، لأن الاستفهام له صدر الكلام ، والتقدير فيقال له ألم . وقال الزمخشري : والمعنى ألم يأتيكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم فحذف المعطوف عليه انتهى . وقد تقدم الكلام معه في زعمه أن بين الفاء والواو إذا تقدمها همزة الاستفهام معطوفاً عليه محذوفاً ورددنا عليه ذلك . وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد وإذا قيل : إن وعد الله بفتح الهمزة ، وذلك على لغة سليم ، والجمهور إن بكسرهما . وقرأ الجمهور (والساعة) بالرفع على الابتداء ، ومن زعم أن لاسم إن موضعاً جوز العطف عليه هنا ، أو زعم أن لأن واسمها موضعاً جوز العطف عليه ، وبالعطف على الموضع لأن واسمها هنا . قال أبو علي ذكره في الحجة وتبعه الزمخشري فقال وبالرفع عطفاً على محل إن واسمها ، والصحيح المنع ، وهمزة بالنصب عطفاً على وعد الله ، وهي مروية عن الأعمش وأبي عمرو وعيسى وأبي حيوة والعسي والمفضل إن نظن إلا ظناً ، تقول ضربت ضرباً ، فإن نفيت لم تدخل إلا إذا لا يفرغ العامل بالمصدر المؤكد فلا تقول ما ضربت إلا ضرباً ، ولا ما قمت إلا قياماً ، فأما الآية فتأول على حذف وصف المصدر حتى يصير مختصاً لا مؤكداً ، وتقديره إلا ظناً ضعيفاً ، أو على تضمين نظن معنى نعتقد ، ويكون ظناً مفعولاً به ، وقد تأول ذلك بعضهم على وضع إلا في غير موضعها ، وقال : التقدير إن نحن إلا نظن ظناً ، وحكي هذا عن المبرد ، ونظيره ما حكاه أبو عمرو بن العلاء وسيبويه من قول العرب ليس الطيب إلا المسك . قال المبرد : ليس إلا الطيب المسك انتهى . واحتاج إلى هذا التقدير كون المسك مرفوعاً بعد إلا ، وأنت إذا قلت ما كان زيد إلا فاضلاً نصبت ، فلما وقع بعد إلا ما يظهر أنه خبر ليس احتاج أن يرحزح إلا عن موضعاً ، ويجعله في ليس ضمير الشأن ، ويرفع إلا الطيب المسك على الابتداء ، والخبر فيصير كالمفوز به ، في نحو ما كان إلا زيد قائم ، ولم يعرف المبرد أن ليس في مثل هذا التركيب عاملتها بنو تميم معاملة ما ، فلم يعملوها إلا باقية مكانها ، وليس غير عاملة ، وليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب في نحو : ليس الطيب إلا المسك ، ولا تميمي إلا وهو يرفع في ذلك حكاية جرت بين عيسى بن عمرو وأبي عمرو بن العلاء ذكرناها فيما كتبناه من علم النحو ، ونظير (إن نظن إلا ظناً) ، قول الأعشى :

وَجَدَّ بِهِ الشَّيْبُ أَثْقَالَهُ وَمَا اغْتَرَّهُ الشَّيْبُ إِلَّا اغْتِرَارًا^(١)

أي : اغتراراً بيناً ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما معنى أن نظن إلا ظناً (قلت) أصله نظن ظناً ، ومعناه إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفي ما سوى الظن توكيداً بقوله : (وما نحن بمستيقنين) انتهى . وهذا الكلام ممن لا

(١) البيت من المتقارب انظر الديوان (٧٣) ابن يعيش (١٠٧/٧) شرح الكافية للرضي (١٣٦/١) الخزانة (٣٧٤/٣) روح المعاني (١٥٧/٢٥) . وروايته في الديوان :

أحل به الشيب أثقاله وما اعتره الشيب إلا اعتراراً

شعور له بالقاعدة النحوية من أن التفريغ يكون في جميع المعمولات من فاعل ومفعول وغيره إلا المصدر المؤكد ، فإنه لا يكون فيه^(١) ، وقدّره بعضهم إن نظن إلا أنكم تظنون ظناً ، قال : وإنما احتيج إلى هذا التقدير ، لأنه لا يجوز في الكلام ما ضربت إلا ضرباً ، فاهتدى إلى هذه القاعدة النحوية وأخطأ في التخريج ، وهو محكي عن المبرد ، ولعله لا يصح قولهم : إن نظن دليل على أن الكفار قد أخبروا بأنهم ظنوا البعث واقعاً ، ودل قولهم قبل قوله : (إن هي إلا حياتنا الدنيا) على أنهم منكرون البعث ، فهم والله أعلم فرقتان أو اضطربوا ، فتارة أنكروا وتارة ظنوا ، وقالوا : إن نظن إلا ظناً على سبيل الهزء . (وبدا لهم سيئات ما عملوا) أي : قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات ، وأطلق على العقوبة سيئة كما قال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ [الشوري ٤٠] ، (وحق بهم) أي : أحاط ، ولا يستعمل حاق إلا في المكروه ، (ننساكم) نترككم في العذاب ، أو نجعلكم كالشيء المنسي الملقى غير المبالي به (كما نسيتم لقاء يومكم) أي : لقاء جزاء الله على أعمالكم ولم تخطر على بال بعدما ذكرتم به ، وتقدم إليكم بوقوعه ، وأضاف اللقاء لليوم توسعاً كقوله : ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ ٣٣] وقرأ الجمهور : (لا يخرجون) مبنياً للمفعول ، والحسن وابن وثاب وحمزة والكسائي مبنياً للفاعل منها ، أي : من النار (ولا هم يستعتبون) أي : بطلب مراجعة إلى عمل صالح ، وتقدم الكلام في الاستعتاب ، وقرأ الجمهور رب بالجر في الثلاثة على الصفة ، وابن محيصن بالرفع فيهما على إضمار هو .

(١) والمقصد في معنى التفريغ أن يحذف المستثنى منه ويكون بعد نفي أو شبهة وحينئذ يعرب المستثنى على حسب العوامل قبل (إلا) فتكون مفرغة للعمل في ما بعد (إلا) لعدم اشتغاله بمستثنى والاستثناء المفرغ يكون في جميع المعمولات ، الفاعل ونائبه والمفعول به والمجرور والظرف والمفعول به انظر شرح الكافية ١/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۚ إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَتَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۚ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ تُعَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا

يَسْتَعِثَّانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبْعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

وَأَذْكُرُ أَحَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْطَرِفٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِغْ فَعَلٌ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا أَجْزَأْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنُ حِقْفٍ ذِي رُكَامٍ عَقَنْقَلٍ^(١)

عبي بالأمر إذا لم يعرف جهته، ويجوز فيه الإدغام، فتقول عي كما قلت في حيي حي، قال الشاعر:

عَيَّوْا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بَيِّضَتِهَا الْحَمَامَةُ^(٢)

﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أُنذروا معرضون، قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات اثبوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين، ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين، قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

هذه السورة مكية، وعن ابن عباس وقتادة أن (قل أرأيتم إن كان من عند الله) و(فاصبر كما صبر) الآيتين مدينتان، ومناسبة أولها لما قبلها، أن في آخر ما قبلها ذلکم بأنکم اتخذتم آيات الله هزواً، وقلتم إنه عليه الصلاة والسلام اختلقها، فقال تعالى: (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وهاتان الصفتان هما آخر تلك، وهما أول هذه (وأجل مسمى) أي: موعده لفساد هذه البنية. قال ابن عباس هو القيامة^(١)، وقال غيره أي: أجل كل مخلوق عن ما أُنذروا يحتمل أن تكون ما مصدرية، وأن تكون بمعنى الذي، (قل أرأيتم ما تدعون) معناه: أخبروني عن الذين تدعون (من دون الله) وهي الأصنام (أروني ماذا خلقوا من الأرض) استفهام توبيخ ومفعول أرأيتم الأول هو (ما تدعون) و(ماذا خلقوا) جملة استفهامية يطلبها أرأيتم، لأن مفعولها الثاني يكون استفهاماً ويطالبها أروني على سبيل التعليق، فهذا من باب الإعمال، أعمل الثاني وحذف مفعول أرأيتم الثاني، ويمكن أن يكون أروني تأكيداً لا رأيت بمعنى أخبروني، وأروني أخبروني كأنها بمعنى واحد، وقال ابن عطية: يحتمل أرأيتم وجهين أحدهما: أن تكون متعدية، وما مفعولة بها، ويحتمل أن تكون أرأيتم منبهة لا تتعدى وتكون ما استفهاماً على معنى التوبيخ، وتدعون معناه تعبدون انتهى. وكون أرأيتم لا تتعدى، وأنها منبهة فيه شيء قاله الأخفش في قوله: ﴿قال أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة﴾ [الكهف ٦٣] والذي يظهر أن ما تدعون مفعول أرأيتم كما هو في قوله: ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون﴾ [فاطر ٤٠] في سورة فاطر، وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة فيها، وقد أمضي الكلام في أرأيتم في سورة الأنعام، فيطالع هناك، ومن الأرض تفسير للمبهم في ماذا خلقوا، والظاهر أنه يريد من أجزاء الأرض أي: خلق ذلك إنما هو الله، أو يكون على حذف مضاف،

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٥ المنصف لابن جني ٤١/٣ الإنصاف ٤٥٧ الخزانة ٤/١٣ الشذور (٢٢) الشاهد فيه أنه استعمل الحقف بمعنى الرمل المشرف الموج.

(٢) البيت من مجزوء الكامل لعبيد بن الأبرص، انظر ديوانه ٧٨ المقتضب ٣١٨/١ الكتاب ٣٨٧/٢ المنصف ١٩١/٢ شرح الفصل ١١٥/١٠ المقرب (١٠٥).

شرح شواهد الشافية (٣٥٦) تفسير القرطبي ١٤٤ روح المعاني ٣٣٠.

انظر الوسيط ٥٨ خ والبغوي ٤/١٦٣ والقرطبي ١١٩/١٦.

أي : من العالي على الأرض ، أي : على وجهها من حيوان أو غيره ، ثم وقفهم على عبارتهم ، فقال : أم لهم أي : بل (أم لهم شرك في السموات اثنتي بكتاب من قبل هذا) أي : من قبل هذا الكتاب ، وهو القرآن يعني أن هذا القرآن ناطق بالتوحيد ويبطل الشرك ، وكل كتب الله المنزلة ناطقة بذلك فطلب منهم أن يأتوا بكتاب واحد يشهد بصحة ما هم عليه من عبادة غير الله (أو أثارة من علم) أي : بقية من علم أي من علوم الأولين من قولهم سمت الناقة على أثارة من شحم ، أو على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب ، والأثارة تستعمل في بقية الشرف يقال لبني فلان أثارة من شرف إذا كانت عندهم شواهد قديمة ، وفي غير ذلك قال الراعي :

وَذَاتِ أَثَارَةٍ أَكَلْتُ عَلَيْنَا نَبَاتًا فِي أَكْمَتِهِ قَفَارًا

أي بقية من شحم ، وقرأ الجمهور : (أو أثارة) وهو مصدر كالشجاعة والسباحة ، وهي البقية من الشيء كأنها أثرة . وقال الحسن : المعنى من علم استخرجتموه فثيرونه ، وقال مجاهد : المعنى هل من أحد يأثر علماً في ذلك . وقال القرطبي : هو الإسناد ومنه قول الأعشى :

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَارَيْتُمَا بَيْنَ لِلْسَّامِعِ وَالْأَثَرِ^(٢)

أي : وللمستدعين غيره ، ومنه قول عمر - رضي الله عنه - فما خلفت به ذاكرًا ولا آثرًا . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة : المعنى أو خاصة من علم^(٣) فاشتقاقها من الأثرة فكأنها قد أثر الله بها من هي عنده وقال ابن عباس : المراد بالإثارة الخط في التراب ، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهن به ، وتزجر تفسيره الأثرة بالخط يقتضي تقوية أمر الخط في التراب^(٤) ، وإنه شيء ليس له وجه إذاية وقف أحد إليه ، وقيل : إن صح تفسير ابن عباس الأثرة بالخط في التراب كان ذلك من باب التهكم بهم ، وبأقوالهم ودلائلهم . وقرأ علي وابن عباس بخلاف عنها وزيد بن علي وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي والأعمش وعمرو بن ميمون ، أو أثرة بغير ألف ، وهي واحدة جمعها أثر كقتره وقتر ، وعلي والسلمي وقتادة أيضاً بإسكان الثاء وهي الفعلة الواحدة مما يؤثر أي قد قنعت لكم بخبر واحد ، وأثر واحد يشهد بصحة قولكم ، وعن الكسائي ضم الهمة وإسكان الثاء . وقال ابن خالويه ، وقال الكسائي على لغة أخرى : إثرة وأثرة يعني بكسر الهمة وضمها . ومن أضل ممن يعبد الأصنام ، وهي جماد لا قدرة لها على استجابة دعائهم ما دامت الدنيا ، أي : لا يستجيبون لهم أبداً ، ولذلك غيا انتفاء استجابتهم بقوله إلى يوم القيامة ، ومع ذلك لا شعور لهم بعبادتهم إياهم ، وهم في الآخرة أعداء لهم ، فليس لهم في الدنيا بهم نفع ، وهم عليهم في الآخرة ضرر ، كما قال تعالى : ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم ٨٢] وجاء من لا يستجيب لأنهم يسندون إليهم ما يسند لأولى العلم من الاستجابة والغفلة ، أو كان من لا يستجيب يراد به من عبد من دون الله من إنس وجن وغيرهما ، وغلب من يعقل وحمل أولاً على لفظ من لا يستجيب ، ثم على المعنى في وهم من ما بعده ، والظاهر عود الضمير أولاً على لفظ من لا يستجيب ، ثم على المعنى في وهم على معنى من في من لا يستجيب كما فسرناه ، وقيل : يعود على معنى من في (ومن أضل) أي : والكفار عن ضلالهم

(١) البيت من الوافر نسبه في لسان العرب للشهاخ ، ونسبه للراعي البغدادي في الخزانة ، انظر ديوانه ١٤٢ اللسان (أثر) تفسير القرطبي ٢١ ، الشاهد استعمال أثارة بمعنى بقية الشيء أويقية من شحم .

(٢) البيت من السريع من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة ، ويمدح عامر بن الطفيل ، انظر الديوان ٩٣ اللسان (أثر) .

(٣) انظر البغوي ١٦٣/٤ والقرطبي ١١٩/١٦ .

(٤) انظر البغوي ١٦٣/٤ ، والقرطبي ١١٩/١٦ .

بأنهم يدعون من لا يستجيب غافلون لا يتأملون ما عليهم في دعائهم من هذه صفته ، (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) جمع بينة ، وهي الحجة الواضحة ، واللام في للحق لام العلة ، أي : لأجل الحق وأتى بالظاهرين بدل المضميرين في (قال الذين كفروا للحق) ولم يأت التركيب قالوا لها تنبيهاً على الوصفين ، وصف المتلو عليهم بالكفر ووصف المتلو عليهم بالحق ، ولو جاء بهما الوصفين لم يكن في ذلك دليل على الوصفين من حيث اللفظ ، وإن كان من سمى الآيات سحراً هو كافر ، والآيات في نفسها حق ففي ذكرهما ظاهرين يستحيل على القائلين بالكفر ، وعلى المتلو بالحق وفي قوله (لما جاءهم) تنبيه على أنهم لم يتأملوا ما يتلى عليهم ، بل بادروا أول سماعه إلى نسبته إلى السحر عناداً وظلماً ووصفوه بمبين ، أي : ظاهر أنه سحر لا شبهة فيه . (أم يقولون افتراه) أي : بل يقولون افتراه ، أي : بل يقولون اختلقه انتقلوا من قولهم هذا سحر إلى هذه المقالة الأخرى والضمير في افتراه عائد إلى الحق ، والمراد به الآيات (قل إن افتريته) على سبيل الفرض فالله حسي في ذلك ، وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا يمهني فلا تملكون لي من رد عقوبة الله بي شيئاً فكيف أفتره وأعرض لعقابه ، يقال فلان لا يملك إذا غضب ولا يملك عنانه إذا صم ومثله ﴿ فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ﴾ [المائدة ١٧] ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله ﴿ [المائدة ٤١] شيئاً ، ومنه قوله : - عليه الصلاة والسلام - (لا أملك لكم من الله شيئاً) ثم استسلم إلى الله واستنصر به ، فقال : (هو أعلم بما تفيضون فيه) أي : تندفعون فيه من الباطل ، ومراده الحق وتسميته تارة سحراً ، وتارة فرية ، والضمير في فيه يحتمل أن يعود على ما أو على القرآن ، وبه في موضع الفاعل يكفي على أصح الأقوال (شهيداً بيني وبينكم) شهيداً لي بالتبليغ والدعاء إليه ، وشهيد عليكم بالتكذيب (وهو الغفور الرحيم) عدة لهم بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر ، وإشعار بحمله تعالى عليهم إذ لم يعاجلهم بالعقاب إذ كان ما تقدم تهديداً لهم في أن يعاجلهم على كفرهم . (قل ما كنت بدعاً من الرسل) أي : جاء قبلي غيري . قاله ابن عباس والحسن وقتادة ، والبدع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله . ومنه قول عدي بن زيد أنشد قطرب :

فَمَا أَنَا بِدُعٍ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي رَجَالاً عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسِي فَأُسْعِدُ^(١)

والبدع والبديع كالحف والخفيف والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً ، وأبدع الشاعر جاء بالبديع ، وشيء بدع بالكسر أي : مبتدع ، وفلان بدع في هذا الأمر ، أي : بديع وقوم إبداع عن الأخفش . وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبي عبة بفتح الدال جمع بدعة ، وهو على حذف مضاف ، أي : ذا بدع . وقال الزحشري : ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ، ولحم زيم انتهى . وهذا الذي أجازته إن لم ينقل استعماله عن العرب لم نجزه ، لأن فعل في الصفات لم يحفظ منه سيبويه إلا عدي . قال سيبويه : ولا نعلمه جاء صفة إلا في حرف معتل يوصف به الجمع ، وهو قوم عدي ، وقد استدرك واستدراكه صحيح وأما قيم فأصله قيام وقيم مقصور منه ، ولذلك اعتلت الواو فيه إذ لو لم يكن مقصوراً لصحت كما صحت في حول وعوض . وأما قول العرب مكان سوي وماء روي ، ورجل رضي وماء صري وسبي طيبة فمتأولة عند البصريين لا يثبتون بها فعلاً في الصفات ، وعن مجاهد وأبي حنيفة (بدعاً) بفتح الباء وكسر الدال كحذر . (وما أدري ما بفعل بي ولا بكم) أي : فيما يستقبل من الزمان أي : لا أعلم مالي بالغيب ، فأفعاله تعالى وما يقدره لي ولكم من قضايا لا أعلمها . وعن الحسن وجماعة وما أدري ما يصير إليه أمري ، وأمركم في الدنيا ومن الغالب منا والمغلوب . وعن الكلبي قال له أصحابه وقد ضجروا من أذى المشركين حتى متى نكون على هذا ، فقال : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، أنزل بمكة

(١) البيت من الطويل انظر المفصليات ص ٨٢٩ وروايته فيه :

فَلَا أَنَا بِدُعٍ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي رَجَالاً عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسِي فَأُسْعِدُ

انظر فتح القدير ١٥/٥ القرطبي ١٢٣/١٦ الشاهد فيه استعمال بدع بمعنى بديع الذي لم ير له مثل .

أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت ، ورأيتها يعني في منامه ذات نخل وشجر . وقال ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة والحسن وعكرمة معناه في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ، وهذا القول ليس بظاهر ، بل قد أعلم سبحانه من أول الرسالة حال الكافر وحال المؤمن ، وقيل : ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما يلزم الشريعة . وقيل : نزلت في أمر كان النبي - ﷺ - ينتظره من الله في غير الثواب والعقاب (إن أتبع إلا ما يوحى إلى) استسلام وتبرؤ من علم المغيبات ووقوف مع النذارة إلا من عذاب الله . وقرأ الجمهور (ما يفعل) بضم الياء مبنياً للمفعول ، وزيد بن عليّ ، وابن أبي عبله بفتحها ، والظاهر أن ما استفهامية وأدري معلقة ، فجملة الاستفهام موصولة منصوبة انتهى . والفصيح المشهور إن دري يتعدى بالباء ، ولذلك حين عدي بهمزة النقل يتعدى بالباء ، نحو قوله : ﴿ ولا أدراكم به ﴾ [يونس ١٦] فجعل ما استفهامية هو الأولى ، والأجود وكثيراً ما علقت في القرآن نحو ﴿ وإن أدري أقرب ﴾ [الجن ٢٥] ويفعل مثبت غير منفي لكنه قد انسحب عليه النفي لاشتتاله على ما ، ويفعل فلذلك قال ولا بكم ، ولولا اعتبار النفي لكان التركيب ما يفعل بي ولا بكم ، ألا ترى زيادة من في قوله : ﴿ أن ينزل عليكم من خير ﴾ [البقرة ١٠٥] لانسحاب قوله : (ما يود الذين كفروا) على يود وعلى متعلق يود ، وهو أن ينزل فإذا انتفت ودادة التنزيل انتفى التنزيل . وقرأ ابن عمير (ما يوحى) بسكر الحاء ، أي الله عز وجل قل رأيتم مفعولاً رأيتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما ، والتقدير : رأيتم حالكم إن كان كذا ، ألستم ظالمين فالأول حالكم ، والثاني ألستم ظالمين وجواب الشرط محذوف ، أي : فقد ظلمتم ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً . وقال الزمخشري : جواب الشرط محذوف تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله ، وكفرتم به ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله : (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) انتهى . وجملة الاستفهام لا تكون جواباً للشرط إلا بالفاء ، فإن كانت الأداة الهمزة تقدمت الفاء نحو إن ترنا أفما نحسن إليك ، أو غيرها تقدمت الفاء نحو إن ترنا فهل ترى إلا خيراً ، فقول الزمخشري : ألستم ظالمين بغير فاء لا يجوز أن يكون جواب الشرط . وقال ابن عطية : وأرأيتم يحتمل أن تكون منبهة ، فهي لفظ موضوع للسؤال لا يقتضي مفعولاً ، ويحتمل أن تكون الجملة كان ، وما عملت فيه تسد مسد مفعولها انتهى . وهذا خلاف ما قرره محققو النحاة في رأيتم . وقيل : جواب الشرط فآمن واستكبرتم ، أي : فقد آمن محمد به ، أو الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان ، وقال الحسن : تقديره فمن أضل منكم ، وقيل : فمن المحق منا ومنكم ومن المبطل وقيل : إنما تهلكون ، والضمير في به عائد على ما عاد عليه اسم كان ، وهو القرآن . وقال الشعبي : يعود على الرسول ، والشاهد عبد الله بن سلام قاله الجمهور وابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن سيرين ، والآية مدنية^(١) . وعن عبد الله بن سلام نزلت في آيات من كتاب الله نزلت في ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ﴾^(٢) [الأحقاف ١٠] وقال مسروق : الشاهد موسى عليه السلام لا ابن سلام ، لأنه أسلم بالمدينة ، والسورة مكية ، والخطاب في وكفرتم به لقريش . وقال الشعبي : الشاهد من آمن من بني إسرائيل بموسى ، والتوراة لأن ابن سلام أسلم قبل وفاة النبي - ﷺ - بعامين ، والسورة مكية . وقال سعد بن أبي وقاص ومجاهد وفرقة الآية مكية ، والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود ، وعبد الله بن سلام مذكور في الصحيح ، وفيه بهت لليهود لعنهم الله ، ومن كذب اليهود وجعلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام أنه - ﷺ - حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة - رضي الله عنها - اجتمع بأخبار اليهود وقص

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب عبد الله بن سلام ، والترمذي كتاب التفسير باب من سورة الأحقاف ٣٨١/٥ والبغوي

عليهم أحلامه ، فعلموا أنه صاحب دولة ، وعموا فأصبحوه عبد الله بن سلام فقرأ علوم التوراة وفقهها مدة زعموا وأفرطوا في كذبهم إلى أن نسبوا الفصاحة المعجزة التي في القرآن إلى تأليف عبد الله بن سلام ، وعبد الله هذا لم تعلم له إقامة بمكة ولا تردد إليها ، فما أكذب اليهود وأبهتهم لعنهم الله ، وناهيك من طائفة ما ذم في القرآن طائفة مثلها .

﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ، ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، والذي قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثن الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ، ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

قال قتادة : هي مقالة كفار قريش للذين آمنوا^(١) أي : لأجل الذين آمنوا ، واللام للتبليغ ، ثم انتقلوا إلى الغيبة في قولهم : (ما سبقونا) ولو لم ينتقلوا لكان الكلام ما سبقتم إليه ، ولما سمعوا أن جماعة آمنوا خاطبوا جماعة من المؤمنين ، أي : قالوا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، أولئك الذين بلغنا إيمانهم يريدون : عماراً وصهيباً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم ، وآمن بالنبي - ﷺ - ، وقال الكلبي والزجاج : هي مقالة كنانة وعامرٍ وسائر قبائل العرب المجاورة ، قالت ذلك حين أسلمت غفار ومزينة وجهينة ، أي : لو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه الرعاية . وقال الثعلبي : هي مقالة اليهود حين أسلم ابن سلام وغيره منهم . وقال أبو المتوكّل : أسلم أبوذر ، ثم أسلمت غفار ، فقالت قريش ذلك ، وقيل : أسلمت أمة لعمر فكان يضربها حتى يفتر ، ويقول : لولا أي فترت لزدتك ضرباً فقال كفار قريش لو كان ما يدعوه إليه محمد حقاً ما سبقتنا إليه فلانة ، والظاهر أن اسم كان هو القرآن ، وعليه يعود به ويؤيده (ومن قبله كتاب موسى) وقيل : به عائد على الرسول ، والعامل في إذ محذوف ، أي : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، وقوله : (فسيقولون) مسبب عن ذلك الجواب المحذوف ، لأن هذا القول هو ناشئ عن العناد ، ويمتنع أن يعمل في إذ ، فسيقولون لحيلولة الفاء وليعاند زمان إذ وزمان سيقولون إفك قديم كما قالوا أساطير الأولين ، وقدمه بمرور الأعصار عليه ، ولما طعنوا في صحة القرآن قيل لهم : إنه أنزل الله من قبله التوراة على موسى ، وأنتم لا تنازعون في ذلك فلا ينزع في إنزال القرآن . (إماماً) أي : يهتدى به أن فيه البشارة بمبعث رسول الله - ﷺ - وإرساله فيلزم اتباعه ، والإيمان به ، وانتصب ، إماماً على الحال ، والعامل فيه العامل في ومن قبله ، أي : وكتاب موسى كان من قبل القرآن في حال كونه إماماً . وقرأ الكلبي : كتاب موسى نصب ، وفتح ميم من على أنها موصولة تقديره : وآتيناه الذي قبله كتاب موسى ، وقيل : انتصب إماماً بمحذوف أي : أنزلناه إماماً أي : قدوة يؤتم به ورحمة لمن عمل به ، وهذا إشارة إلى القرآن كتاب مصدق له أي : لكتاب موسى وهي التوراة التي تضمنت خبره ، وخبر من جاء به وهو الرسول فجاء هو مصدقاً لتلك الأخبار ، أو مصدقاً للكتب الإلهية ولساناً حال من الضمير في مصدق ، والعامل فيه مصدق ، أو من كتاب إذ قد وصف العامل فيه اسم الإشارة ، أو لساناً حال موطئة ، والحال في الحقيقة هو عربياً ، أو على حذف أي ذا الشأن عربي ، فيكون مفعولاً بمصدق أي : هذا القرآن مصدق من جاء به وهو الرسول ،

وذلك بإعجازه وأحواله البارة ، وقيل انتصب على إسقاط الخافض أي : بلسان عربي . وقرأ أبو رجاء وشيبة والأعرج وأبو جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير لتنذر بناء الخطاب للرسول . والأعمش وابن كثير أيضاً وباقي السبعة بياء الغيبة ، أي : لينذرنا القرآن ، والذين ظلموا الكفار عباد الأصنام حيث وضعوا العبادة في غير من يستحقه ، (وبشرى) قيل : معطوف على مصدق فهو في موضع رفع ، أو على إضمار هو ، وقيل : منصوب بفعل محذوف معطوف على لينذر ، أي : وبشر بشرى ، وقيل : منصوب على إسقاط الخافض ، أي : وبشرى . وقال الزمخشري : وتبعه أبو البقاء وبشرى في محل النصب معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له انتهى . وهذا لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين ، لأنهم يشترطون في الحمل على المحل أن يكون المحل بحق الأصالة ، وأن يكون للموضع محرز ، والمحل هنا ليس بحق الأصالة^(١) ، لأن الأصل هو الجر في المفعول له ، وإنما النصب ناشئ عن إسقاط الخافض ، لكنه لما كثر بالشروط المذكورة في النحو وصل إليه الفعل فنصبه . ولما عبر عن الكفار بالذين ظلموا عبر عن المؤمنين بالمحسنين ليقابل بلفظ الإحسان لفظ الظلم (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) تقدم الكلام على نظير هذه الآية في سورة فصلت ، ولما ذكر جزء بما كانوا يعملون قال : ووصينا إذ كان بر الوالدين ثانياً أفضل الأعمال ، إذ في الصحيح أي الأعمال أفضل : فقال الصلاة على ميقاتها ، قال : ثم أي ، قال : ثم بر الوالدين ، وإن كان عقوبتها ثاني أكبر الكبائر إذ قال عليه الصلاة والسلام ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين . والوارد في برهما كثير . وقرأ الجمهور حسناً بضم الحاء وإسكان السين وعلى والسلمي وعيسى بفتحهما ، وعن عيسى بضمهما والكوفيون إحساناً فقليل ضمن ووصينا معنى ألزمتنا فيتعدي لاثنتين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا ، وقيل : التقدير إيضاء ذا حسن ، أو ذا إحسان ، ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له ، أي : ووصينا بهما لإحساننا إليهما ، فيكون الإحسان من الله تعالى ، وقيل : النصب على المصدر على تضمين وصينا معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً . وقال ابن عطية : ونصب هذا إحساناً على المصدر الصريح ، والمفعول الثاني في المجرور ، والباء متعلقة بوصينا أو بقوله إحساناً انتهى . ولا يصح أن يتعلق بإحساناً ، لأنه مصدر بحرف مصدري ، والفعل فلا يتقدم معموله عليه ، ولأن أحسن لا يتعدى بالباء ، إنما يتعدى باللام ، تقول أحسنت لزيد ولا تقول أحسنت بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه ، وتقدم الكلام على ووصينا الإنسان بوالديه حسناً في سورة العنكبوت ، وانجر هنا بالكلام على ذلك مزيداً للفائدة . (حملته أمه كرهاً) ليس الكره في أول علوقها بل في ثاني استمراراً لحمل ، إذ لا تدبير لها في حمله ، ولا تركه انتهى . ولا يلحقها كره إذ ذاك فهذا احتمال بعيد . وقال مجاهد والحسن وقتادة : المعنى حملته مشقة ووضعته مشقة . وقرأ الجمهور بضم الكاف ، وشيبة وأبو جعفر والأعرج والحريان وأبو عمرو بالفتح وبها معاً أبو رجاء ومجاهد وعيسى والضم والفتح لغتان بمعنى واحد ، كالعقر والعقر ، وقالت فرقة بالضم المشقة ، وبالفتح الغلبة والقهر ، وضعفوا قراءة الفتح ، وقال بعضهم : لو كان بالفتح لرمت به عن نفسها إذ معناه القهر والغلبة انتهى . وهذا ليس بشيء إذ قراءة الفتح في السبعة المتواترة . وقال أبو حاتم : القراءة بفتح الكاف لا تحسن ، لأن الكره بالفتح النصب والغلبة انتهى . وكان أبو حاتم يطعن في بعض القرآن بما لا علم له به جسارة منه عفا الله

(١) يشترط أهل التحقيق من النحاة في صحة العطف على المحل أن يكون هذا المحل بحق الأصالة كما حكى المصنف أي : أن يكون المحل هو الأصل نحو : (ليس زيد بقاتم ولا قاعداً) بنصب (قاعداً) عطفاً على موضع (قاتم) لأن الأصل في خبر (ليس) النصب ، ونحو (ما جاءني من رجل ولا امرأة) برفع (امرأة) عطفاً على موضع (من رجل) لأنه فاعل الأصل فيه الرفع ، ومنعوا العطف على المحل الذي ليس بحق الأصالة ، منعوا (هذا ضارب زيدا أو أخيه) بجر الأخ على أن يكون محل « زيدا » الخفض بإضافة (ضارب) إليه باعتبار جواز الإضافة ، وذلك أن الوصف المستوفي لشروط الأعمال الأصل فيه إعماله في ما بعده لالتحاقه بالفعل ، وليس الأصل فيه الإضافة وقد تقدم هذا ، وانظر تفصيل ذلك في حاشية الدسوقي ١٢٠/٢ المغني ١٤٠/٢ ابن يعيش ٥٢/٢ - ٥٣ .

عنه وانتصابها على الحال من ضمير الفاعل ، أي : حملته ذات كره ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف ، أي : حملاً ذا كره (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) أي : ومدة حملة وفصاله وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً إما بأن تلد المرأة لستة أشهر ، وترضع عامين ، وإما أن تلد لتسعة أشهر على العرف ، وترضع عامين غير ربع عام ، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع ، فمدة الرضاع عام وتسعة أشهر ، وإكمال العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وقد كشفت التجربة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر كنص القرآن . وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقدار زمن الحمل فرأيت امرأة ولدت لمائة وأربع وثمانين ليلة ، وزعم ابن سينا أنه شاهد ذلك وأما أكثر الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه . قال ابن سينا في الشفاء : بلغني من جهة من أثق به كل الثقة أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدت ولداً نبتت أسنانه . وحكي عن أرسطاطاليس : أنه قال : إن مدة الحمل لكل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان ، فربما وضعت لسبعة أشهر ولثمانية ، وقل ما يعيش الولد في الثامن إلا في معينة مثل مصر انتهى . وعبر عن مدة الرضاع بالفصال لما كان الرضاع يلي الفصال ويلاسه ، لأنه ينتهي به ويتم سمي به . وقرأ الجمهور وفصاله وهو مصدر فاصل ، كأنه من اثنين فاصل أمه وفاصلته . وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة والجحدري : وفصله ، قيل : والفصل والفصال مصدران كالفطم والفطام ، وهنا لطيفة ذكر تعالى الأم في ثلاثة مراتب في قوله (بوالديه) (وحمله) (وإضاعه) المعبر عنه بالفصال وذكر الوالد في واحدة في قوله : (بوالديه) فناسب ما قال الرسول من جعل ثلاثة أرباع البر للأم والربع للأب في قول الرجل : يا رسول الله من أبر ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال أبأك . حتى إذا بلغ أشده في الكلام حذف تكون حتى غاية له تقديره فعاش بعد ذلك ، أو استمرت حياته ، وتقدم الكلام في بلغ أشده في سورة يوسف ، والظاهر ضعف قول من قال بلوغ الأشد أربعون ، لعطف وبلغ أربعين سنة ، والعطف يقتضي التغير إلا إن ادعى أن ذلك تأكيد لبلوغ الأشد فيمكن ، والتأسيس أولى من التأكيد ، وبلوغ الأربعين اكتمال العقل لظهور الفلاح ، قيل : ولم يبعث نبي إلا بعد الأربعين . وفي الحديث أن الشيطان يجري من وجهه على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، ويقول بأبي وجه لا يفلح . (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه) وتقدم الكلام على هذا في سورة النمل . (وأصلح لي في ذريتي) سأل أن يجعل ذريته موقعاً للصالح ومظنة له ، كأنه قال هب لي الصلاح في ذريتي فأوقعه فيهم ، أو ضمن وأصلح لي معنى والطف بي في ذريتي ، لأن أصلح يتقدي بنفسه لقوله : ﴿وأصلحنا له زوجة﴾ [الأنبياء ٩٠] فلذلك احتيج قوله في ذريتي إلى التأويل ، قيل : نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - وتناول من بعده وهو مشكل ، لأنها نزلت بمكة ، وأبوه أسلم عام الفتح ، ولقوله : (أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا) فلم يقصد بذلك أبو بكر ولا غيره ، والمراد بالإنسان الجنس ، ولذلك أشار بقوله أولئك جمعاً ، وقرأ الجمهور (يتقبل) مبنياً للمفعول أحسن رفعاً وكذا ويتجاوز وزيد بن علي وابن وثاب وطلحة وأبو جعفر والأعمش بخلاف عنه وحمزة والكسائي وحفص نتقبل أحسن نصباً ، ونتجاوز بالنون فيهما ، والحسن والأعمش وعيسى بالياء فيهما مفتوحة ، ونصب أحسن في أصحاب الجنة ، قيل : في بمعنى مع ، وقيل : هونحو قولك أكرمني الأمير في ناس من أصحابه ، يريد في جملة من أكرم منهم ، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة ، وانتصب وعد الصدق على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، لأن قوله (أولئك الذين نتقبل) وعد منه تعالى بالتقبل والتجاوز لما ذكر الإنسان البار بوالديه ، وما آل إليه من الخبر ذكر العاق بوالديه ، وما آل إليه من الشر ، والمراد بالذي الجنس ، ولذلك جاء الخبر مجموعاً في قوله : (أولئك الذين حق عليهم القول) . وقال الحسن : هو الكافر العاق بوالديه ، المنكر البعث ، وقول مروان بن الحكم واتبعة قتادة : أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قول خطأ ، ناشئ عن جور حين دعا مروان وهو أمير المدينة إلى مبايعة يزيد ، فقال عبد الرحمن : جعلتموها هرقلية كلما مات هرقل ولي ابنه ، وكلما مات قيصر ولي ابنه ، فقال مروان : خذوه فدخل

بيت أخته عائشة - رضي الله عنها - وقد أنكرت ذلك عائشة فقالت وهي المصدوقة : لم ينزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي ، وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته وصدت مروان ، وقالت ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله ، ويدل على فساد هذا القول قال تعالى : (أولئك الذين حق عليهم القول) وهذه صفات الكفار أهل النار ، وكان عبد الرحمن من أفاضل الصحابة وسراهم وأبطاهم وعمن له في الإسلام غناء يوم البيامة وغيره . (أف لكما) تقدم الكلام على أف مدلولاً ، ولغات وقراءة في سورة الإسراء واللام في لكما للبيان ، أي لكما أعني التأنيف . وقرأ الجمهور أتعداني بنونين الأولى مكسورة ، والحسن وعاصم وأبو عمرو وفي رواية وهشام بإدغام نون الرفع في نون الوقاية . وقرأ نافع في رواية وجماعة بنون واحدة ، وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر بخلاف عنه ، وعبد الوارث عن أبي عمرو وهارون بن موسى عن الجحدري وسام عن هشام بفتح النون الأولى ، كأنهم فروا من الكسرتين والياء إلى الفتح طلباً للتخفيف ففتحوا كما فر من أدغم ومن حذف . وقال أبو حاتم فتح النون باطل غلط . أن أخرج أي أخرج من قبري للبعث والحساب . وقرأ الجمهور : (أن أخرج) مبنياً للمفعول ، والحسن وابن يعمر والأعمش وابن مصرف والضحاك مبنياً للفاعل . (وقد خلت القرون من قبلي) أي : مضت ولم يخرج منهم أحد ولا بعث . وقال أبو سليمان الدمشقي : (وقد خلت القرون من قبلي) مكذبة بالبعث . (وهما يستغيثان الله) يقال : استغثت الله واستغثت بالله ، والاستعمالان في لسان العرب ، وقد ردنا ابن مالك إنكار تعديته بالياء وذكرنا شواهد على ذلك في الأنفال ، أي : يقولان الغياث بالله منك ومن قولك ، وهو استعظام لقوله (ويلك) دعاء بالثبور ، والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ، وقيل : ويلك لمن يحقر ويحرك لأمر يستعجل إليه . وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد : (أن وعد الله) بفتح الهمزة ، أي : آمن بأن وعد الله حق ، والجمهور بكسرها ، (فيقول ما هذا) أي : ما هذا الذي يقول ، أي : من الوعد بالبعث من القبور إلا شيء سطره الأولون في كتبهم ولا حقيقة له . قال ابن عطية : وظاهر ألفاظ هذه الآية أنها نزلت في مشار إليه ، قال وقيل له فنفي الله أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها ، وقوله (أولئك) ظاهره أنه إشارة إلى جنس يتضمنه قوله : (والذي قال) ويحتمل أن تكون الآية في مشار إليه ، ويكون قوله في أولئك بمعنى صنف هذا المذكور وجنسه هم الذين حق عليهم القول ، أي : قول الله إنه يعذبهم في أمم أي : جملة أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس يقتضي أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس . وقال الحسن في بعض مجالسه : الجن لا يموتون ، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت . وقرأ العباس عن أبي عمر وأنهم كانوا بفتح الهمزة ، والجمهور بالكسر (ولكل) أي : من المحسن والمسيء (درجات) غلب درجات إذ الجنة درجات ، والنار دركات ، والمعنى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ومن أجل ما عملوا منها . قال ابن زيد : درجات المحسنين تذهب علواً ودرجات المسيئين تذهب سفلاً انتهى . والمعلل محذوف تقديره وليوفيهم أعمالهم قدر جزائهم ، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات . وقرأ الجمهور : (وليوفيهم) بالياء أي : الله تعالى ، والأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه بالنون والسلمي بالتاء من فوق أي : ولنوفيهم الدرجات أسند التوفية إليها مجازاً . ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوماً تجهلون ، فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ، ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً

وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزون ﴿١﴾ .

ويوم يعرض ، أي : يعذب بالنار كما يقال عرض على السيف إذا قتل به ، والعرض المباشرة كما تقول عرضت العود على النار أي : باشرت به النار . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد عرض النار عليهم من قولهم عرضت الناقة على الحوض ، يريدون عرض الحوض عليها فقبلوا ، ويدل عليه تفسير ابن عباس بجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها انتهى . ولا ينبغي حمل القرآن على القلب إذ الصحيح في القلب أنه مما يضطر إليه في الشعر ، وإذا كان المعنى صحيحاً واضحاً مع عدم القلب فأي ضرورة تدعو إليه ، وليس في قولهم عرضت الناقة على الحوض ولا في تفسير ابن عباس ما يدل على القلب ، لأن عرض الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كل منهما صحيح إذ العرض أمر نسبي يصح إسناده لكل واحد من الناقة والحوض . وقرأ الجمهور أذهبتم على الخبر أي : فيقال لهم أذهبتم ، ولذلك حسنت الفاء في قوله : (فاليوم تجزون) ، وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثاب وأبو جعفر والأعرج وابن كثير بهمة بعدها مدة مطولة ، وابن عامر بهمتين حقتها ابن ذكوان ، ولين الثانية هشام وابن كثير في رواية . وعن هشام الفصل بين المحققة والمليئة بألف وهذا الاستفهام هو على معنى التوبيخ والتقرير فهو خبر في المعنى ، فلذلك حسنت الفاء ، ولو كان استفهاماً محضاً لم تدخل الفاء ، والطيبات هنا المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والمراكب والمواطيء وغير ذلك مما يتنعم به أهل الرفاهية ، وهذه الآية محروضة على التقليل من الدنيا وترك التنعم فيها والأخذ بالتقشف وما يجتزى به رمق الحياة عن رسول الله في ذلك ما يقتضي التأسي به . وعن عمر في ذلك أخبار تدل على معرفته بأنواع الملاذ وعزة نفسه الفاضلة عنها أتظنون أنا لا نعرف خفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاء وصلاتق ، ولكن استبقى حسناتي ، فإن الله عز وجل وصف أقواماً فقال : (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم) والصلاء الشواء ، والصفار المتخذ من الخردل والزبيب والصلائق الخبز الرقيق العريض . قال ابن عباس : وهذا من باب الزهد^(١) وإلا فالآية نزلت في كفار قريش ، والمعنى : أنه كانت تكون لكم طيبات الآخرة لو آمنتم لكنكم لم تؤمنوا فاستعجلتم طيباتكم في الحياة الدنيا ، فهذه كناية عن عدم الإيمان ، ولذلك نزلت عليه (فاليوم تجزون عذاب الهون) ولو أريد الظاهر ، ولم يكن كناية عن ما ذكرنا لم يترتب عليه الجزاء بالعذاب . وقرئ الهوان وهو والهون بمعنى واحد ، ثم بين تلك الكناية بقوله بما كنتم تستكبرون ، أي : تترفعون عن الإيمان (وبما كنتم تفسقون) أي : بمعاصي الجوارح ، وقدم ذنب القلب وهو الاستكبار على ذنب الجوارح إذ أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب ، ولما كان أهل مكة مستغرقين في لذات الدنيا معرضين عن الإيمان وما جاء به الرسول ذكرهم بما جرى للعرب الأولى ، وهم قوم عاد وكانوا أكثر أموالاً وأشد قوة ، وأعظم جاهاً فيهم ، فسلط عليهم العذاب بسبب كفرهم وضرب الأمثال ، وقصص من تقدم تعرف بقبج الشيء وتحسينه ، فقال لرسوله : واذكر لقومك أهل مكة هوداً عليه السلام إذ أنذر قومه عاداً عذبهم الله بالأحقاف . قال ابن عباس : واد بين عمان ومهرة ، وقال ابن إسحاق : من عمان إلى حضرموت . وقال ابن زيد : رمال مشرقة بالشحر من اليمن . وقيل : بين مهرة وعدن ، وقال قتادة : بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني وقال ابن عباس : هي جبل الشام قال ابن عطية والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن ، ولهم كانت إرم ذات العماد ، وفي ذكر هذه القصة اعتبار لقريش وتسليية للرسول إذ كذبه قومه ، كما كذبت عاد هوداً عليه السلام ، والجملة من قوله (وقد خلت النذر) وهو جمع نذير (من بين يديه ومن خلفه) يحتمل أن تكون حالاً من الفاعل في النذر من بين يديه ، وهم الرسل الذين تقدموا زمانه (ومن خلفه) الرسل الذين كانوا في زمانه ، ويكون على هذا معنى (ومن خلفه) أي : من بعد

(١) انظر البغوي ٤/١٦٩ والقرطبي ١٦/١٣٢ ، ١٣٣ .

إنذاره ، ويحتمل أن يكون اعتراضاً بين إنذار قومه ، وأن لا تعبدوا ، والمعنى : وقد أُنذِر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك فاذكرهم ، (قالوا أجبنا) استفهام تقرير وتوبيخ وتعجيز له فيما أنذره إياهم من العذاب العظيم على ترك إفراذ الله بالعبادة ، (لتأفكنا) : لتصرفنا قاله الضحاك ، أول تزييلنا عن آلهتنا بالإفك ، وهو الكذب أي : عن عبادة آلهتنا . (فأتنا بما تعدنا) استعجال منهم بحلول ما وعدهم به من العذاب ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ [الأحقاف ٢٤] (قال إنما العلم عند الله) أي : علم وقت حلوله ، وليس تعيين وقته إليّ وإنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم ، ولما تحقق عنده وعد الله وأنه حال بهم ، وهم في غفلة من ذلك وتكذيب ، قال : (ولكني أراكم قوماً تجهلون) أي : عاقبة أمركم لا شعور لكم بها ، وذلك واقع لا محالة ، وكانت عاد قد حبس الله عنها المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء خرجت عليهم من واد يقال له : المغيث ، فاستبشروا ، والضمير في رأوه الظاهر أنه عائد على ما في قوله : (بما تعدنا) وهو العذاب ، وانتصب عارضاً على الحال من المفعول . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم الذي فسر قوله : (عارضاً) وقال الزمخشري : فلما رأوه في الضمير وجهان ، أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهماً ، قد وضع أمره بقوله : (عارضاً) إما تمييز ، وإما حال ، وهذا الوجه أعرب وأفصح انتهى . وهذا الذي ذكر أنه أعرب ، وأفصح ليس جارياً على ما ذكره النحاة ، لأن المبهم الذي يفسره ويوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رب ، نحو : رب رجلاً لقيته ، وفي باب نعم وبئس على مذهب البصريين ، نحو : نعم رجلاً زيد ، وبئس غلاماً عمرو ، وأما أن الحال يوضح المبهم ويفسره فلا نعلم أحداً ذهب إليه ، وقد حصر النحاة المضمير الذي يفسره ما بعده ، فلم يذكروا فيه مفعول رأي : إذا كان ضميراً ولا أن الحال يفسر الضمير ويوضحه .

والعارض : المعارض في الجو من السحاب الممطر ، ومنه قول الشاعر :

يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً أَرَقَتْ لَهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْ وَجْهَةِ الْأَسَدِ^(١)

وقال الأعشى :

يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً قَذِبَتْ أَرْمُقُهُ كَأَنَّهَا الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهَا الشُّعْلُ

(مستقبل أوديتهم) هو جمع واد ، وأفعلة في جمع فاعل الاسم شاذ نحو : ناد وأندية ، وجائر وأجوزة ، والجائر الخشبة الممتدة في أعلى السقف ، وإضافة مستقبل ومطر إضافة لا تعرف ، فلذلك نعت بها النكرة (بل هو ما استعجلتم) أي : قال لهم هو العذاب الذي استعجلتم به اضرب عن قولهم عارض ممطرنا ، وأخبر بأن العذاب فاجأهم ، ثم قال (ريح) أي : هي ريح بدل من هو . وقرأ (ما استعجلتم) بضم التاء وكسر الجيم ، وتقدمت قصص في الريح فأغنى عن ذكرها هنا . (تدمر) أي : تهلك والدمار الهلاك وتقدم ذكره . وقرأ زيد بن عليّ (تَدْمُرُ) بفتح التاء وسكون الدال وضم الميم . وقرئ كذلك إلا أنه بالياء ، ورفع كل أي : يهلك كل شيء وكل شيء عام مخصوص ، أي : من نفوسهم وأموالهم ، أو من أمرت بتدميره ، وإضافة الرب إلى الريح دلالة على أنها وتصريفها مما يشهد بباهر قدرته تعالى ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده ، وذكر الأمر لكونها مأمورة من جهته تعالى . وقرأ الجمهور (لا ترى) بناء الخطاب (إلا مساكنهم) بالنصب وعبد الله ومجاهد وزيد بن علي وقتادة وأبو حيوة وطلحة وعيسى والحسن وعمرو بن ميمون بخلاف عنها ، وعاصم وحمة (لا يرى) بالياء من تحت مضمومة (إلا مساكنهم) بالرفع ، وأبو رجاء ومالك بن دينار بخلاف

(١) البيت من المنسرح للفرزدق انظر ديوانه ٢١٥ الخزائن ٣٦٩/١ العيني ٤٥١/٣ ابن يعيش ٢٠/٣ استشهد به على أن (عارضاً) بمعنى السحاب المعارض في الجو .

عنهما ، والجحدري والأعمش وابن أبي إسحاق والسلمي بالتاء من فوق مضمومة (مساكنهم) بالرفع ، وهذا لا يجيزه أصحابنا إلا في الشعر ، وبعضهم يجيزه في الكلام ، وقال ذو الرمة :

كَأَنَّهُ جَمَلٌ هَمٌّ وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا النَّخِيرَةُ وَالْأَلْوَحُ وَالْعَصَبُ^(١)

وقال آخر : فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ^(٢) ، وقرأ عيسى الهمداني : (لا يُرى) بضم الياء (إلا مساكنهم) بالتوحيد . وروي هذا عن الأعمش ونصر بن عاصم . وقرئ (لا تَرَى) بتاء مفتوحة للخطاب (إلا مساكنهم) بالتوحيد مفرداً منصوباً ، واجتزأ بالمفرد عن الجمع تصغيراً لشأنهم ، وأنهم لما هلكوا في وقت واحد فكأنهم كانوا في مسكن واحد ، ولما أخبر بهلاك قوم عاد خاطب قريشاً على سبيل الموعظة ، فقال (ولقد مكناهم) وأن نافية أي : في الذي ما مكناهم فيه من القوة والغنى والبسط في الأجسام والأموال ، ولم يكن النفي بلفظ ما كراهة لتكرير اللفظ ، وإن اختلف المعنى وقيل : إن شرطية محذوفة الجواب ، والتقدير إن مكناكم فيه طغيتم ، وقيل : إن زائدة بعد ما الموصولة تشبيهاً بما النافية وما التوقيتية ، فهي في الآية كهي في قوله :

يُرْجَى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَذْنَاهُ الْخُطُوبُ^(٣)

أي : مكناهم في مثل الذي مكناكم فيه ، وكونها نافية هو الوجه ، لأن القرآن يدل عليه في مواضع كقوله : ﴿ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا ﴾ [غافر ٨٢] وقوله : ﴿ هم أحسن أثاثاً ورثياً ﴾ [مريم ٧٤] وهو أبلغ في التوبيخ وأدخل في الحث في الاعتبار ، ثم عدد نعمه عليهم وأنها لم تغن عنهم شيئاً حيث لم يستعملوا السمع والأبصار والأفئدة فيما يجب أن يستعمل ، وقيل : ما استفهام بمعنى التقرير وهو بعيد ، كقوله : من شيء إذ يصير التقدير ، أي : شيء مما ذكر أغنى عنهم من شيء ، فتكون من زيدت في الموجب ، وهو لا يجوز على الصحيح ، والعامل في (إذ أغنى) ويظهر فيها معنى التعليل لو قلت : أكرمت زيداً لإحسانه إلي ، أو إذ أحسن إلي استويا في الوقت ، وفهم من إذ ما فهم من لام التعليل ، وأن إكرامك إياه في وقت إحسانه إليك ، وإنما كان لوجود إحسانه لك فيه . ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً لآلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ، وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ، أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ، ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ،

(١) البيت من البسيط انظر ديوانه ١٤ .

(٢) هذا عجز بيت من الطويل لذي الرمة ، وصدره .

طوى الحز والإجراز ما في عروضها

انظر ديوانه ٣٤١ شرح ابن عقيل ٤٧٨/١ الكشف ٣٠٧/٤ روح المعاني ٢٦/٢٧ .

استشهد به على إدخال تاء التأنيث على الفعل في قوله (فما بقيت) لأن فاعله مؤنث مع كونه قد فصل بين الفعل والفاعل بإلا .

(٣) البيت من الوافر لجابر بن رلان الطائي أو إلياس بن الأثر انظر الخزانة ٥٦٧/٣ ، حاشية الدسوقي على المغني ٢٤/١ الكشف ٣٠٩/٤

روح المعاني ٢٦/٢٨ القرطبي ١٦/١٣٨ .

فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴿١﴾ .

(ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) خطاب لقريش على جهة التمثيل لهم ، والذي حولهم من القرى مأرب وحجر ثمود وسدوم ، ويريد من أهل القرى (وصرفنا الآيات) أي : الحجج والدلائل والعظة لأهل تلك القرى (لعلمهم يرجعون) عن ما هم فيه من الكفر إلى الإيمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم) أي : فهلا نصرهم حين جاءهم الهلاك (الذين اتخذوا) أي : اتخذوهم من دين الله (قرباناً) أي : في حال التقرب وجعلهم شفعاء آلهة ، وهو المفعول الثاني لاتخذوا ، والأول الضمير المحذوف العائد على الموصول ، وأجاز الحوفي وابن عطية وأبو البقاء أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً لاتخذوا آلهة بدل منه . وقال الزمخشري : وقرباناً حال ، ولا يصح أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً ، وآلهة بدل منه لفساد المعنى انتهى . ولم يبين الزمخشري كيف يفسد المعنى ، ويظهر أن المعنى صحيح على ذلك الإعراب ، وأجاز الحوفي أيضاً أن يكون قرباناً مفعولاً من أجله (بل ضلوا عنهم) أي : غابوا عن نصرتهم . وقرأ الجمهور (إفكهم) بكسر الهمزة وإسكان الهاء وضم الكاف ، وابن عباس في رواية بفتح الهمزة ، والإفك مصدران ، وقرأ ابن عباس أيضاً وابن الزبير والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض وعكرمة وحنظلة بن النعمان بن مرة ومجاهد أفكهم بثلاث فتحات أي : صرفهم ، وأبو عياض وعكرمة أيضاً كذلك إلا أنها شددوا الفاء للتكثير ، وابن الزبير أيضاً وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه أفكهم بالمد ، فاحتمل أن يكون فاعل ، فالهمزة أصلية ، وأن يكون أفعل فالهمزة للتعدية أي : جعلهم يأفكون ويكون أفعل بمعنى المجرد ، وعن الفراء أنه قرئ (أفكهم) بفتح الهمزة ، والفاء ، وضم الكاف ، وهي لغة في الإفك ، وابن عباس فيما روي قطرب وأبو الفضل الرازي أفكهم اسم فاعل من أفك أي صارفهم ، والإشارة بذلك على من قرأ إفكهم مصدراً إلى اتخاذ الأصنام آلهة ، أي : ذلك كذبهم وافترائهم . وقال الزمخشري : وذلك إشارة إلى امتناع نصرته أهنتهم لهم ، وضلالهم عنهم ، أي : وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء انتهى . وعلى قراءة من جعله فعلاً معناه وذلك الاتخاذ صرفهم عن الحق ، وكذلك قراءة اسم الفاعل أي : صارفهم عن الحق ، ويحتمل أن تكون ما مصدرية أي : وافترائهم ، وأن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف أي : يفترونه . (وإذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما بين أن الإنسي مؤمن وكافر ، وذكر أن الجن فيهم مؤمن وكافر ، وكان ذلك بأثر قصة هود وقومه لما كان عليه قومه من الشدة والقوة ، والجن توصف أيضاً بذلك كما قال تعالى : ﴿ قال عفريت من الجن أنا أتيتك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ﴾ [النمل ٣٩] وأن ما أهلك به قوم هود هو الريح ، وهو من العالم الذي لا يشاهد ، وإنما يحسن بهبوه ، والجن أيضاً من العالم الذي لا يشاهد ، وأن هوداً عليه السلام كان من العرب ، ورسول الله - ﷺ - من العرب فهذه تجوز أن تكون مناسبة لهذه الآية بما قبلها ، وفيها أيضاً توبيخ لقريش وكفار العرب حيث أنزل عليهم هذا الكتاب المعجز فكفروا به ، وهم من أهل اللسان الذي أنزل به القرآن ، ومن جنس الرسول الذي أرسل إليهم وهؤلاء جن فليسوا من جنسه ، وقد أثر فيهم سماع القرآن وآمنوا به ، وبمن أنزل عليه وعلموا أنه من عند الله بخلاف قريش وأمثالها فهم مصرون على الكفر به ، (إذ صرفنا) وجهنا إليك ، وقرأ صرفنا بتشديد الراء ، لأنهم كانوا جماعة فالتكثير بحسب الحال (نفراً من الجن) والنفرون العشرة ، ويجمع على أنفار . قال ابن عباس كانوا سبعة منهم زوبعة^(١) ، والذي يجمع اختلاف الروايات أن قصة الجن كانت مرتين إحداهما حين انصرف من الطائف ، وكان خرج إليهم يستنصرهم في قصة ذكرها أصحاب السير . فروي^(٢) أن الجن كانت تسترق

(١) انظر البغوي ١٧٢/٤ - ١٧٤ والقرطبي ١٦/١٣٩ - ١٤٣ والوسيط ٦٤ خ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

السمع فلما بعث الرسول حرس السماء ، ورمى الجن بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا أمر حدث ، وطافوا الأرض فوافوا رسول الله - ﷺ - بوادي نخلة وهو قائم يصلي فاستمعوا لقراءته ، وهو لا يشعر ، فأنبأه الله باستماعهم ، والمرة الأخرى أن الله أمره أن ينذر الجن ويقرأ عليهم ، فقال : إني أمرت^(١) أن أقرأ على الجن فمن يتبعني قالها ثلاثاً ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود ، قال : لم يحضره أحد ليلة الجن غيري فانطلقنا حتى إذا كنا في شعب الحجون خط لي خطأ ، وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطاً شديداً حتى خفت على رسول الله - ﷺ - وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم تقطعوا تقطع السحاب فقال لي هل رأيت شيئاً قلت : نعم ، رجالاً سوداً مستفري ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين وكانوا اثني عشر ألفاً ، والسورة التي قرأها عليهم اقرأ باسم ربك ، وفي آخر هذا الحديث قلت : يا رسول الله سمعت لهم لغطاً ، فقال : إنهم تدارؤوا في قتيل لهم فحكمت بالحق^(٢) . وقد روي عن ابن مسعود أنه لم يحضر أحد ليلة الجن ، والله أعلم بصحة ذلك ، فلما حضروه أي : القرآن ، أي : كانوا بمسمع منه ، وقيل : حضروا الرسول وهو التفات من إليك إلى ضمير الغيب ، قالوا : (أنصتوا) أي : اسكتوا للاستماع ، وفيه تأديب مع العلم وكيف يتعلم . وقرأ الجمهور (فلما قُضي) مبنياً للمفعول ، وأبو مجلز وحبيب بن عبد الله بن الزبير قضي مبنياً للفاعل ، أي : قضى محمد ما قرأ ، أي : أنه وفرغ منه ، وقال ابن عمر وجابر بن عبد الله قرأ عليهم سورة الرحمن ، فكان إذا قال فبأي آلاء ربكما تكذبان ، قالوا : لا شيء من آيات ربنا نكذب ربنا لك الحمد ، (ولوا إلى قومهم منذرين) تفرقوا على البلاد ينذرون الجن . قال قتادة : ما أسرع ما عقل القوم انتهى . وعند ذلك وقعت قصة سواد بن قارب ، وخنافر وأمثالهما حين جاءهما رياهما من الجن ، وكان سبب إسلامهما من بعد موسى ، أي : من بعد كتاب موسى ، قال عطاء : كانوا على ملة اليهود ، وعن ابن عباس : لم تسمع الجن بأمر عيسى ، وهذا لا يصح عن ابن عباس ، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمة عظيمة لا تنحصر على ملته فيبعد عن الجن كونهم لم يسمعوها به ، ويجوز أن يكونوا قالوا من بعد موسى تنبيهاً لقومهم على اتباع الرسول إذ كان عليه الصلاة والسلام قد بشر به موسى ، فقالوا ذلك من حيث إن هذا الأمر مذكور في التوراة مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل والكتب الإلهية إذ كانت كلها مشتملة على التوحيد والنبوة والمعاد ، والأمر بتطهير الأخلاق . (يهدي إلى الحق) أي : إلى ما هو حق في نفسه صدق يعلم ذلك بصريح العقل (وإلى صراط مستقيم) غابر بين اللفظين ، والمعنى متقارب ، وربما استعمل أحدهما في موضع لا يستعمل الآخر فيه ، فجمع هنا بينهما وحسن التكرار (أجيئوا داعي الله) هو الرسول والواسطة المبلغة عنه (وآمنوا به) يعود على الله (يغفر لكم من ذنوبكم) من للتبعيض ، لأنه لا يغفر بالإيمان ذنوب المظالم ، قال معناه الزخشري ، وقيل : من زائدة ، لأن الإسلام يجب ما قبله فلا يبقى معه تبعة (ويجركم من عذاب أليم) وهذا كله ، وظواهر القرآن تدل على الثواب ، وكذا قال ابن عباس لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها ، وقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، وإليه كان يذهب أبو حنيفة . (فليس بمعجز في الأرض) أي : بفئات من عقابه إذ لا منجاة منه ، ولا مهرب كقوله (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) الجن ١٢ ، وروي عن ابن عامر وليس لهم بزيادة ميم . وقرأ الجمهور (ولم يعي) مضارع عي على وزن فعل بكسر العين ، والحسن (ولم يعي) بكسر العين وسكون الياء ، ووجهه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بقي بقا ، وهي لغة لطىء ، ولما بني الماضي على فعل بفتح العين بني مضارعه على يفعل بكسر العين ، فجاء يعي فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يعي بنقل حركة الياء إلى العين فسكنت الياء وبقي يعي ، وقرأ الجمهور بقادر اسم فاعل والباء زائدة في خبر أن ، وحسن زيادتها كون ما قبلها في حيز النفي ، وقد أجاز الزجاج ما ظننت أن أحداً بقائم

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨٧/١ والطبري في التفسير ١١٣/٢ .

(٢) انظر البغوي ١٧٢/٤ والقرطبي ١٦/١٣٩ - ١٤٣ والوسيط ٦٤ خ .

قياساً على هذا ، والصحيح قصر ذلك على السماع ، فكأنه في الآية قال أليس الله بقادر ، ألا ترى كيف جاء ببلى مقررّاً لإحياء الموتى لا لرؤيتهم ، وقرأ الجحدري وزيد بن علي وعمرو بن عبيد وعيسى والأعرج بخلاف عنه ، ويعقوب يقدر مضارعاً ، (أليس هذا بالحق) أي : يقال لهم ، والإشارة بهذا إلى العذاب أي كنتم تكذبون بأنكم تعذبون ، والمعنى توبيخهم على استهزائهم بوعده الله ووعيده ، وقولهم : (وما نحن بمعذّبين) (قالوا بلى وربنا) تصديق حيث لا ينفع ، وقال الحسن : إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك ، لأنفسهم يعترفون أنه العدل ، فيقول لهم المجابون من الملائكة عند ذلك (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) الفاء عاطفة ، هذه الجملة على الجملة من إخبار الكفار في الآخرة ، والمعنى بينهما مرتبط ، أي : هذه حالهم مع الله (فلا تستعجل) أنت ، واصبر ولا تخف إلا الله (وأولو العزم) أي : أولو الجِد من الرسل ، وهم من حفظ له شدة مع قومه ومجاهدة فتكون من للتبعض ، وقيل : يجوز أن تكون للبيان ، أي : الذين هم الرسل ، ويكون الرسل كلهم أولي العزم ، وأولو العزم على التبعض يقتضي أنهم رسل وغير رسل ، وعلى البيان يقتضي أنهم الرسل ، وكونها للتبعض قول عطاء الخراساني والكلبي ، وللبیان قول ابن زيد ، وقال الحسن بن الفضل : هم الثانية عشر المذكورة في سورة الأنعام ، لأنه قال عقب ذكرهم فبهذا هم اقتده . وقال مقاتل : هم ستة نوح صبر على أذى قومه طويلاً ، وإبراهيم صبر على النار ، وإسحق صبر نفسه على الذبح ، ويعقوب صبر على الفقد لولده وعمي بصره ، وقال فصبر جميل ، ويوسف صبر على السجن والبشر ، وأيوب على البلاء ، وزاد غيره وموسى قال قومه ﴿ إنا لمدركون قال : كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ [الشعراء ٦١ ، ٦٢] ودأود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لينة على لينة ، وقال : إنها معبر فاعبروها ولا تعمروها . (ولا تستعجل لهم) أي : لكفار قريش بالعذاب ، أي : لا تدع لهم بتعجيله فإنه نازل بهم لا محالة ، وإن تأخر ، وإنهم مستقصرون حينئذ مدة لبثهم في الدنيا ، كأنهم (لم يلبثوا إلا ساعة) ، وقرأ أبي : (من النهار) ، وقرأ الجمهور (من نهار) ، وقرأ الجمهور : (بلاغ) بالرفع ، والظاهر رجوعه إلى المدة التي لبثوا فيها ، كأنه قيل تلك الساعة بلاغهم ، كما قال تعالى : ﴿ متاع قليل ﴾ [النحل ١١٧] فبلاغ خبر مبتدأ محذوف ، قيل : ويحتمل أن يكون بلاغ يعني به القرآن والشرع ، أي : هذا بلاغ أي تبليغ وإنذار . وقال أبو مجلز : بلاغ مبتدأ ، وخبره لهم ، ويقف على فلا تستعجل وهذا ليس بجيد ، لأن فيه تفكيك الكلام بعضه من بعض ، إذ ظاهر قوله لهم إنه متعلق بقوله (فلا تستعجل لهم) والحيلولة الجملة التشبيهية بين الخبر والمبتدأ . وقرأ الحسن وزيد بن علي وعيسى (بلاغاً) بالنصب فاحتمل أن يراد بلاغاً في القرآن ، أي : بلغوا بلاغاً أو بلغنا بلاغاً . وقرأ الحسن أيضاً بلاغ بالجر نعتاً لنهار . وقرأ أبو مجلز وأبو سراح الهذلي بلغ على الأمر للنبي - ﷺ - وهذا يؤيد حمل بلاغ رفعاً ونصباً على أنه يعني به تبليغ القرآن والشرع ، وعن أبي مجلز أيضاً بلغ فعلاً ماضياً ، وقرأ الجمهور (يهلك) بضم الياء وفتح اللام ، وابن محيصن فيما حكى عنه ابن خالويه بفتح الياء وكسر اللام ، وعنه أيضاً بفتح الياء واللام وماضيه هلك بكسر اللام وهي لغة . وقال أبو الفتح هي مرغوب عنها ، وقرأ زيد بن ثابت (يهلك) بضم الياء وكسر اللام إلا القوم الفاسقون بالنصب ، وفي هذه الآية وعيد وإنذار .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَقٌّ إِذَا اتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْتًا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ فُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتِيَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ قَالَ إِنِيقَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانْتَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ قَبْلُ ۖ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ ۚ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَّفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۚ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ ۚ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ۚ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ۖ إِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۚ إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي حِفْظِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَنْكُمْ ۚ هَٰأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۚ

البال الفكر ، تقول خطر في بالي كذا ، ولا يثنى ولا يجمع ، وشذ قولهم بالات في جمعه . تعس الرجل بفتح العين تعساً ضد تنعش وأتعسه الله ، قال مجمع بن هلال :

تَقُولُ وَقَدْ أَفْرَدَتْهَا مِنْ حَلِيلِهَا تَعِسْتُ كَمَا أَتَعَسْتَنِي يَا مُجْمَعُ (١)

وقال قوم منهم عمرو بن شميل وأبو الهيثم تعس بكسر العين . وعن أبي عبيدة تعسه الله ، وأتعسه في باب فعلت

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه الحماسة ٣٠٣/١ اللسان (تعس) تفسير القرطبي ١٥٤/١٦ روح المعاني ٤٤/٢٦ الشاهد فيه (تعست كما اتعستني) (التعس ضد السعد .

وأفعلت ، وقال ابن السكيت : التعس أن يجر على الوجه . والنكس أن يجر على الرأس ، وقال هو أيضاً وتعلب التعس الهلاك . وقال الأعشى :

بَدَاتِ لَوْتُ عِفْرَنَاءَ إِذَا عَثَرْتُ فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَعَا^(١)

أسن الماء تغير ريحه ، وأسن ويأسن ذكره ثعلب في الفصيح ، والمصدر أسون ، وأسن بكسر السين يأسن بفتحها لغة أسنا ، قاله اليزيدي ، وأسن الرجل بالكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح من ريح البئر فغشي عليه ، أودار رأسه ، قال الشاعر :

فَدَأْتَرُكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ يَمِيدُ فِي الرِّيحِ مَيْدَ الْمَائِحِ الْأَسَنِ^(٢)

الأشراط العلامات ، واحدها شرط بسكون الراء وبفتحها ، قال أبو الأسود :

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا فَقَدْ جَعَلْتُ أَشْرَاطَ أَوَّلِهِ تَبْدُو^(٣)

وأشراط الرجل نفسه ألزمها أموراً . قال أوس بن حجر :

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ فَالْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا^(٤)

العسل معروف ، وعسل بن ذكوان رجل نحوي قديم ، المعى مقصور ، وألفه منقلبة عن ياء يدل عليه تثنيته معيان بقلب الألف ياء ، والمعى ما في البطن من الحوايا . القفل معروف ، وأصله اليبس والصلابة والقفل والقفل ما يبس من الشجر ، والقفل أيضاً نبت ، والقفل السوط ، وأقفل الصوم أيسه قاله الجوهري . آيفاً وآنفاً هما اسماً فاعل ، ولم يستعمل فعلهما ، والذي استعمل اثنتان وهما بمعنى مبتدئاً ، وتفسيرهما بالساعة تفسير معنى . وقال الزجاج : هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته (فأولى لهم) قال صاحب الصحاح قول العرب أولى لك تهديد وتوعيد ، ومنه قول الشاعر :

فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى وَهَلْ لِلدَّارِ يَحْلِبُ مِنْ مَرَدٍّ^(٥)

انتهى . واختلفوا أهو اسم أو فعل فذهب الأصمعي إلى أنه بمعنى قاربه ما يهلكه أي : نزل به ، وأنشد :

تَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا وَأَوْلَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ^(٦)

أي : قارب أن يزيد . قال ثعلب : لم يقل أحد في أولى أحسن مما قال الأصمعي . وقال المبرد : يقال لمن هم

(١) البيت من البسيط للأعشى ميمون بن قيس ، انظر ديوانه ١٠٧ اللسان (لوث) تفسير القرطبي ١٥٤/١٦ الكشف ٣١٨/٤ روح المعاني ٤٤/٢٦ .

(٢) البيت من البسيط لزهير بن أبي سلمى ، انظر ديوانه ١٠٥ وروايته فيه :

بغادر القرن مصفراً أنامله يميد في الرمح ميد المائح الأسن

انظر اللسان (أسن) فتح القدير ٣٤/٥ القرطبي ١٥٦/١٦ روح المعاني ٤٨/٢٦ .

(٣) البيت من الطويل انظره في القرطبي ١٥٩/١٦ والكشاف ٣٢٣/٤ روح المعاني ٥٢/٢٦ .

(٤) البيت من الطويل انظر لسان العرب (شرط) تفسير القرطبي ١٥٩/١٦ .

(٥) البيت من الوافر لم نهند لقائله ، انظر اللسان (ولي) القرطبي ١٦١/١٦ .

(٦) البيت من الوافر لم نهند لقائله ، انظر الخزانة ٨٩/٤ الهمع ١٢٨/١ الدرر اللوامع ١٠٢/١ مقاييس اللغة ١٤١/٦ اللسان (ولي) .

بالعطب كما روي أن أعرابياً كان يوالي رمي الصيد فينفلت منه ، فيقول أولى لك رمى صيداً فقاربه ، ثم أفلت منه ، وقال :

فَلَوْ كَانَ أَوْلَى يُطْعِمُ الْقَوْمَ صَيْدَهُمْ وَلَكِنَّ أَوْلَى يَتْرُكُ الْقَوْمَ جُوعًا^(١)

والأكثرون على أنه اسم ، فقيل هو مشتق من الولي ، وهو القرب كما قال الشاعر :

تُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلَيْهَا وَعَادَتْ عَوَادِ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ^(٢)

وقال الجرجاني : هو ما حول من الويل فهو أفعول منه ، لكن فيه قلب ، الضغن والضغينة : الحقد ، قال عمرو بن كلثوم :

فَإِنَّ الضُّغْنَ بَعْدَ الضُّغْنِ يَغْشُو عَلَيْكَ وَيُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّفِينَا^(٣)

وقد ضغن بالكسر وتضاغن القوم وأضغنوا بطنوا الأحقاد ، وقد ضغن عليه وأضغنت الصبي أخذته تحت حضنك ، وأنشد الأحرر : كَأَنَّهُ مُضْغِنٌ صَبِيًّا^(٤) ، وقال ابن مقبل : وَمَا اضْطَغَنْتُ سِلَاحِي عِنْدَ مَعْرَكِهَا^(٥) ، وفرس ضاغن لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب ، وأصل الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج في قوائم الدابة ، والقناة ، وكل شيء ، وقال بشر : كَذَاتِ الضُّغْنِ تَمْشِي فِي الرِّقَاقِ^(٦) ، وأنشد الليث :

إِنَّ فَتَاتِي مِنْ صَلِيَّاتِ الْقَنَا مَا زَادَهَا التَّثْقِيفُ إِلَّا ضِغْنًا^(٧)

والحقد في القلب يشبه به ، وقال قطرب : وَاللَّيْثُ أَضْغَنَ الْعَدَاوَةَ ، قال الشاعر :

قُلْ لِابْنِ هِنْدٍ مَا أَرَدْتَ بِمَنْطِقِي نَشَأَ الصَّدِيقِ وَشَيْدَ الْأُضْغَانَا^(٨)

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ، انظر اللسان (ولي) تفسير القرطبي ١٦/١٦١ .

(٢) تقدم .

(٣) البيت من الوافر من معلقة عمرو بن كلثوم انظر القصائد العشر (١٠١) القرطبي ١٦/١٦٦ .

(٤) البيت من الرجز للعامة وقبله :

لقد رأيت رجلاً دهرياً

يمشي وراء القوم ستهياً

انظر اللسان (ضغن) وذكر (مضغن) بدل (مضطغن) .

(٥) صدر بيت من البسيط وروايته في اللسان :

إذا اضطغنت سلاحي عند مغرضها ومرفق كرئاس السيف إذ شسفا

انظر اللسان (شسف) تفسير القرطبي ١٦/١٦٦ .

(٦) عجز بيت من الوافر لبشر بن أبي خازم ، صدره :

فإنك والشكاة من آل لام

اللسان (ضغن)

(٧) البيت من الرجز لم نهتد لقائله ، انظر اللسان (ضغن) إرواح المعاني ٢٦/٧٧ .

(٨) البيت من الكامل لم نهتد لقائله ، انظر إرواح المعاني ٢٦/٧٧ القرطبي ١٦/١٦٦ .

لَحْنَتْ لَهُ بَفَتْحِ الْحَاءِ لَحْنًا قُلْتُ لَهُ قَوْلًا يَفْهَمُهُ عَنْكَ وَيَخْفَى عَنْ غَيْرِهِ ، وَلَحْنَهُ هُوَ بِالْكَسْرِ فَهَمَهُ وَأَلْحَنَهُ فَهَمَهُ ، وَأَلْحَنَتْهُ أَنَا إِيَّاهُ وَلَا حَنْتُ النَّاسَ فَاطْتَنَهُمْ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَيَلْحَنُ أَحْيَا نَأْ وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا^(١)

وقال القتال الكلابي :

وَلَقَدْ وَمِيتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا وَلَحْنْتُ لَحْنًا لَيْسَ بِالْمُرْتَابِ^(٢)

وقيل : لحن القول الذهاب عن الصواب مأخوذ من اللحن في الإعراب . وتره نقصه مأخوذ من الدخل . وقيل : من الوتر ، وهو الفرد . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم * فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها * ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم * أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴿ .

هذه السورة مدنية عند الأكثر وقال الضحاك وابن جبير والسدي : مكية ، وقال ابن عطية مدنية بإجماع وليس كما قال . وعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت بعد حجه حين خرج من مكة ، وجعل ينظر إلى البيت وهي (وكان من قرية) الآية . ومناسبة أولها لآخر ما قبلها واضحة جداً . (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي : أعرضوا عن الدخول في الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه ، وهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله - ﷺ - ، قال ابن عباس : وهم المطعمون يوم بدر^(٣) . وقال مقاتل : كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدون الناس عن الإسلام ، ويأمرونهم بالكفر ، وقيل : هم أهل الكتاب صدوا من أراد منهم ، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام . وقال الضحاك : عن سبيل الله عن بيت الله يمنع قاصديه وهو عام في كل من كفر وصد ؛ (أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ) أي : أتلّفها حيث لم ينشأ عنها خير ولا نفع ، بل ضرر محض ، وقيل : نزلت هذه الآية ببدر^(٤) ، وأن الإشارة بقوله : (أَضَلَّ أَعْمَاهُمْ) إلى الاتفاق الذي اتفقوه في سفرهم إلى بدر ، وقيل : المراد بالأعمال أعمالهم البرة في الجاهلية من صلة رحم ، وفك عانٍ ونحو ذلك ، واللفظ يعم جميع ذلك ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الأنصار . وقال مقاتل : ناس من قريش ، وقيل : مؤمنو أهل الكتاب ، وقيل : هو عام وعلى تقدير خصوص السبب في القبيلتين ، فاللفظ عام يتناول كل كافر ، وكل مؤمن (وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ) تخصيصه من بين ما يجب الإيمان به تعظيم لشأن الرسول ، وإعلام بأنه لا يصح الإيمان ، ولا يتم إلا به ، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي (وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ) وقيل : وهو الحق ناسخ لغيره ، ولا يرد عليه النسخ . وقرأ الجمهور :

(١) البيت من المديد لمالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ، انظر اللسان (لحن) الحيوان ١١/١ مجمع الأمثال ١٣٧/٢ القرطبي ١٦/١٦٧ .

(٢) البيت من الكامل ، انظر اللسان (لحن) القرطبي ١٦/١٦٧ الأضداد (٢٤٠) .

(٣) انظر القرطبي ١٦/١٤٨ .

(٤) انظر القرطبي ١٦/١٤٨ .

(نزل) مبنياً للمفعول وزيد بن علي وابن مقسم نزل مبنياً للفاعل ، والأعمش : (أنزل) معدي بالهمزة مبنياً للمفعول .
وقرىء : نزل ثلاثياً (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) أي : حالهم قاله قتادة ، وشأنهم قاله مجاهد ، وأمرهم قاله ابن عباس ، وحقيقة لفظ البال أنها بمعنى الفكر ، والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب ، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله ، فكان اللفظ مشير إلى صلاح عقيدتهم ، وغير ذلك من الحال تابع . ذلك إشارة إلى ما فعل بالكفار من إضلال أعمالهم ، وبالمؤمنين من تكفير سيئاتهم ، وإصلاح حالهم ، وذلك مبتدأ وما بعده الخبر ، أي : كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف تقديره الأمر ذلك ، أي : كما ذكر بهذا السبب فيكون محل الجار والمجرور منصوباً انتهى . ولا حاجة إلى الإضمار مع صحة الوجه ، وعدم الإضمار ، والباطل ما لا ينتفع به . وقال مجاهد : الشيطان وكل ما يأمر به ، والحق هو الرسول والشرع^(١) ، وهذا الكلام تسميه علماء البيان التفسير . (كذلك يضرب) قال ابن عطية : الإشارة إلى اتباع المذكورين من الفريقين ، أي : كما اتبعوا هذين السبيلين ، كذلك يبين أمر كل فرقة ، ويجعل لها ضرباً من القول وصفها وضرب المثل من الضرب الذي هو بمعنى النوع ، وقال الزمخشري : كذلك أي مثل ذلك الضرب يضرب الله للناس أمثالهم ، لأجل الناس ليعتبروا بهم (فإن قلت :) أين ضرب الأمثال . (قلت :) في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين (فإذا لقيتم الذين كفروا) أي : في أي زمان لقيتموهم فاقتلوهم ، وفي قوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) التوبة ه أي في أي مكان فعم في الزمان وفي المكان . وقال الزمخشري : لقيتم من اللقاء وهو الحرب انتهى (فضرب الرقاب) هذا من المصدر النائب مناب فعل الأمر ، وهم مطرد فيه وهو منصوب بفعل محذوف فيه ، واختلف فيه إذا انتصب ما بعده فقليل : هو منصوب بالفعل الناصب للمصدر ، وقيل : هو منصوب بنفس المصدر لنيابته عن العامل فيه ، ومثاله : ضرباً زيداً كما قال الشاعر :

عَلَى حِينِ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَتَدَلَّ زُرَيْقُ الْمَالِ نَدْلَ الثَّعَالِبِ^(٢)

وهذا هو الصحيح ، ويدل على ذلك قوله : (فضرب الرقاب) وهو إضافة المصدر للمفعول ، ولو لم يكن معمولاً له ما جازت إضافته إليه ، وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، ولما كان القتل للإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبة عبر بذلك عن القتل ، ولا يراد خصوصية الرقاب فإنه لا يكاد تتأتى حالة الحرب أن تضرب الرقاب ، وإنما يتأتى القتال في أي موضع كان من الأعضاء ، ويقال : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه ، وعلاوته وما فيه عيناه إذا قتله كما عبر بقوله : (بما كسبت أيديكم) عن سائر الأفعال لما كان أكثر الكسب منسوباً إلى الأيدي ، قال الزمخشري : وفي هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق ، وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعقله ، وأوجه أعضائه وقد زاد في هذه في قوله : (فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) انتهى . ولما في ذلك من تشجيع المؤمنين ، وأنهم من الكفار بحيث هم متمكنون منهم إذا أمروا بضرب رقابهم ، (حتى إذا أثخنتموهم) أي : أكثرتم القتل فيهم ، وهذه غاية للضرب ، فإذا وقع الإثخان وتمكنوا من أخذ من لم يقتل ، وشدوا وثاق الأسرى (فيما منا) بالإطلاق (وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) أي : أثقالها وآلاتها . ومنه قول عمرو بن معدي كرب :

(١) انظر البغوي ١٧٧/٤ والوسيط ٦٥ خ .

(٢) البيت من الطويل نسب للأحوص ، وقيل لأعشى همدان ، وقيل لجريز ، انظر الكتاب ٥٩/١ الخصائص ١٢٠/١ الإنصاف (٢٩٣) العيني ٤٦/٣ - ٥٢٣ التصريح على التوضيح ٣٣١/١ الأشموني ١١٦/٢ اللسان (ندل) .

وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رَمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً^(١)

أنشده ابن عطية : لعمر و هذا ، وأنشده الزمخشري للأعشى ، وقيل : الأوزار هنا الآثام ، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين ، وهذه الغاية قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم . وقال قتادة : حتى يسلم الجميع ، وقيل : حتى تقتلوه . وقال ابن عطية : وظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً ، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا يضيع أوزارها ، فجاء هذه كما تقول أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة ، فإنما تريد أنك تفعله دائماً . وقال الزمخشري : وسميت يعني آلات الحرب من السلاح والكرع أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرها ، فكأنها تحملها . وتستقل بها ، فإذا انقضت فكأنها وضعتها ، وقيل : أوزارها آثامها ، يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم ، بأن يسلموا ، والظاهر أن ضرب الرقاب وهو القتل مغياً بشد الوثاق وقت حصول الإثخان ، وأن قوله : (فلما منا بعد) أي : بعد الشد (وإما فداء) حالتان للمأسور إما أن يمن عليه بالإطلاق كما من رسول الله - ﷺ - بإطلاق ثمامة بن أثال الحنفي^(٢) ، وأما أن يفدي كما روي عنه علي السلام أنه فودي منه رجلان من الكفار برجل مسلم ، وهذه الآية معارض ظاهرها لقوله تعالى : ﴿ فَاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة ٥] فذهب ابن عباس و قتادة وابن جريج والسدي والضحاك ومجاهد إلى منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين) الآية ، وأن الأسر والمن والفداء مرتفع ، فإن وقع أسير قتل ، ولا بد إلا أن يسلم^(٣) ، وروي نحوه عن أبي بكر الصديق ، وذهب ابن عمرو وعمر بن عبد العزيز وعطاء والحسن إلى أن هذه مخصصة لعموم تلك ، والمن والفداء ثابت^(٤) ، وقال الحسن : لا يقتل الأسير إلا في الحرب يهيب بذلك على العدو ، وذهب أكثر العلماء إلى أن أهل الكتاب فيهم المن والفداء وعباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل ، فخصصوا من المشركين أهل الكتاب ، وخصص من الكفار عبدة الأوثان ، وأما مذهب الأئمة اليوم فمذهب أبي حنيفة أن الإمام يخير في القتل والاسترقاق ، ومذهب الشافعي أنه يخير في القتل والاسترقاق والفداء والمن ، ومذهب مالك أنه يخير في واحد من هذه الأربعة ، وفي ضرب الجزية ، والظاهر أن قوله : (وإما فداء) يجوز فداؤه بالمال وبمن أسر من المسلمين . وقال الحسن : لا يفدى بالمال . وقرأ السلمي (فشدوا) بكسر الشين ، والجمهور بالضم ، (والوثاق) بفتح الواو ، وفيه لغة الوثاق ، وهو اسم لم يوثق به ، وانتصب منا وفداء بإضمار فعل يقدر من لفظهما ، أي : فلما تمنون منا ، وإما تفدون فداء ، وهو فعل يجب إضماره ، لأن المصدر جاء تفصيل عاقبة ، فعامله مما يجب إضماره ، ونحوه قول الشاعر :

لَأُجْهَدَنَّ فَإِذَا دَرَأُ وَقَعَةٍ تُخْشَى وَإِذَا بُلُوغُ السُّؤْلِ وَالْأَمَلِ^(٥)

أي : فلما أدرأ درأ واقعة ، وإما أبلغ بلوغ السؤل . وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكونا مفعولين ، أي : أدوهم منا وأقبلوا ، وليس إعراب نحوي . وقرأ ابن كثير في رواية شبل : وإما فدى بالقصر . قال أبو حاتم : لا يجوز قصره ، لأنه مصدر فاديته ، وهذا ليس بشيء ، فقد حكى الفراء فيه أربع لغات فداء لك بالمد والإغراء ، وفدى لك بالكسر بياء

(١) البيت من المتقارب ، انظر التهذيب ١٣/ ٢٤٤ اللسان (وزر) مشاهد الإنصاف ١/ ٢٥١ الكشف ٤/ ٣١٧ .

(٢) انظر البغوي ٤/ ١٧٨ - ١٧٩ .

(٣) انظر الوسيط ٦٦ خ وتفسير عبد الرزاق ٣/ ١٠٥٤ ومصنفه ٥/ ٢١١ والناسخ والمنسوخ للنحاس ص ٢٢١ والقرطبي ٨/ ٦٠٤٨ والبغوي ٤/ ١٧٨ .

(٤) انظر الوسيط ٦٦ خ وتفسير عبد الرزاق ٣/ ١٠٥٤ ومصنفه ٥/ ٢١١ والناسخ والمنسوخ للنحاس ص ٢٢١ والقرطبي ٨/ ٦٠٤٨ والطبري ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، والبغوي ٤/ ١٧٨ .

(٥) البيت من البسيط لم نهند لقائله ، انظر المجمع ١/ ١٩٢ شرح الأشموني ٢/ ٢٠ .

والتنوين ، وفدى لك بالقصر ، وفداء لك ، والظاهر من قوله : (فإمأنا) لمن بالإطلاق ، كما من الرسول - عليه الصلاة والسلام - على ثامة ، وعلى أبي عروة الحجبي ، وفي كتاب الزمخشري كما من على أبي عروة الحجبي ، وأثال الحنفي فغير الكنية والاسم ، ولعل ذلك من الناسخ لا في أصل التصنيف ، وقيل : يجوز أن يراد بالمتن أي يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا ، أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية ، وكونهم من أهل الذمة ، والظاهر أن قوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) غاية لقوله : (فشدوا الوثاق) لأنه قد غيا فضرِب الرقاب بشد الوثاق وقت الإثخان فلا يمكن أن يغيا بغاية أخرى لتدافع الغائتين إلا إن كانت الثانية مبنية للأولى ومؤكدة ، فيجوز لأن شد الوثاق للأسرى لا يكون إلا حتى تضع الحرب أوزارها ، إذا فسرنا ذلك بانتفاء شوكة الكفار الملقين إذ ذاك ، ويكون الحرب المراد بها التي تكون وقت لقاء المؤمنين للكفار ، ويجوز أن يكون المغيا محذوفاً يدل عليه المعنى التقدير الحكم ذلك حتى تضع الحرب أوزارها ، أي : لا يبقى شوكة لهم ، أو كما قال ابن عطية : إنها استعارة بمعنى إلى يوم القيامة ، أي : اصنعوا ذلك دائماً . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) حتى بم تعلقت . (قلت :) لا يخلو من أن تتعلق إما بالضرب والشدة ، أو بالمتن والفداء ، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي - رحمه الله - أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن يكون حرب مع المشركين ، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة ، وقيل : إذا نزل عيسى ابن مريم ، وعند أبي حنيفة - رحمه الله - إذا علق بالضرب والشدة فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حتى لا يبقى شوكة للمشركين ، وإذا علق بالمتن والفداء فالمعنى أنهم يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلى أن تناول المن والفداء ، يعني بتناول المن بأن يتركوا عن القتل ويسترقوا ، أي : بالتخيلة بضرب الجزية بكونهم من أهل الذمة ، وبالعذاب أن يفادي بأسارى المشركين أسارى المسلمين ، وقد رواه الطحاوي مذهباً لأبي حنيفة ، والمشهور أنه لا يرى فداءهم بمال ولا غيره خيفة أن يعودوا حذباءً للمسلمين . (ذلك) أي : الأمر ذلك إذا فعلوا (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) أي : لا أنقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب أو غرق ، أو موت جارف (ولكن ليلو) أي : ولكن أمركم بالقتال ليلو بعضكم ، وهم المؤمنون أي : يختبرهم ببعض ، وهم الكافرون بأن يجاهدوا ويصبروا ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب . وقرأ الجمهور : (قَاتِلُوا) بفتح القاف والفاء بغير ألف ، وقتادة والأعرج والأعمش وأبو عمرو وحفص قتلوا مبنياً للمفعول ، والفاء خفيفة وزيد بن ثابت والحسن وأبو رجاء وعيسى والجحدري أيضاً كذلك . وقرأ على (فلن يضل) مبنياً للمفعول (أعماهم) رفع ، وقرئ يضل بفتح الباء من ضل أعماهم رفع . (سيهديهم) أي : إلى طريق الجنة . وقال مجاهد : يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، لأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستبدلوا عليها ، وروى عياض عن أبي عمرو (ويدخلهم) و ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ [التغابن ٩] و ﴿ إنما نطعمكم ﴾ [الإنسان ٩] بسكون لام الكلمة (عرفها لهم) عن مقاتل أن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله . وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة : معناه بينها لهم ، أي : جعلهم يعرفون منازلهم منها ، وفي الحديث لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا ، وقيل : سماها لهم ورسمها ، كل منزل بصاحبه وهذا نحو من التعريف يقال عرف الدار وأرفها ، أي : حددها فجنة كل أحد مفرزة عن غيرها ، والعرف والأرف الحدود ، وقيل : شرفها لهم ورفعها وعلاها ، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها . وقال مورج وغيره : طيها مأخوذ من العرف ، ومنه طعام معرف ، أي : مطيب أي : وعرفت القدر طيبتها بالملح والتابل . (إن تنصروا الله) أي : دينه (ينصركم) أي : على أعدائكم بخلق القوة فيكم وغير ذلك من المعارف (ويثبت أقدامكم) أي : في مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام ، وقرأ الجمهور : (ويثبت) مشدداً ، والمفضل عن عاصم مخففاً . (فتعسا لهم) قال ابن عباس : بعداً لهم . وابن جريج والسدي حزناً لهم ، والحسن شتاً ، وابن زيد شقاء ، والضحاك رغماً ، وحكى النقاش قبحاً . (والذين كفروا) مبتدأ والفاء داخله في

خبر المبتدأ ، وتقديره فتعسهم الله تعساً ، فتعساً منصوب بفعل مضمر ، ولذلك عطف عليه الفعل في قوله : (وأضل أعمالهم) ويجوز أن يكون الذين منصوباً على إضمار فعل يفسره قوله : (فتعساً لهم) كما تقول : زيدا جدعاً له ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) على م عطف قوله : (وأضل أعمالهم) (قلت :) على الفعل الذي نصب تعساً ، لأن المعنى : فقال تعساً لهم ، أو ففضى تعساً لهم ، وتعساً لهم نقيض لغى له انتهى ، وإضمار ما هو من لفظ المصدر أولى ، لأن فيه دلالة على ما حذف . وقال ابن عباس : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردى في النار انتهى . وفي قوله : (فتعساً لهم) أي : هلاكاً بأداة تقوية لقلوب المؤمنين إذ جعل لهم التشييت للكفار الهلاك والعثرة . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله يشمل ما أنزل من القرآن في بيان التوحيد ، وذكر البعث والفرائض والحدود وغير ذلك مما تضمنه القرآن (فأحبط أعمالهم) أي : جعلها من الأعمال التي لا تزكو ولا يُعتد بها . (دمر الله عليهم) أي : أفسد عليهم ما اختصوا به من أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وكل ما كان لهم (وللكافرين أمثالها) تلك العاقبة والتدميرة التي يدل عليها دمرها هلكة ، لأن التدمير يدل عليها أو السنة لقوله عز وجل ﴿ سنة الله في الذين خلوا ﴾ [الأحزاب ٣٨] والوجه الأول هو الراجح ، لأن العاقبة منطوق بها ، فعاد الضمير على الملفوظ به وما بعده مقول القول . (ذلك بأن) ابتداء وخبر ، والإشارة بذلك إلى النصر في اختيار جماعة ، وإلى الهلاك كما قال : (وللكافرين أمثالها) قال ذلك الهلاك الذي جعل للكفار بأيدي المؤمنين بسبب أن الله مولاهم ، أي : ناصرهم ومؤيدهم وأن الكافرين لا ناصر لهم إذا اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر ، وتركوا عبادة من ينفع ويضر ، وهو الله تعالى ، قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أحد ، ومنها انتزع رسول الله - ﷺ - رده على أبي سفيان حين قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ، حين قال المشركون إنا لنا عزي ، ولا عزي لكم .

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار * والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم * وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم * أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم * مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم * ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها * فإني لهم إذا جاءتهم ذكراهم * فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ .

(يتمتعون) أي : ينتفعون بمتاع الدنيا أياماً قلائل ، ويأكلون غافلين غير مفكرين في العاقبة كما تأكل الأنعام في مسارحها ومعالفها ، غافلة عما هي بصده من النحر والذبح ، والكاف في موضع نصب إما على الحال من ضمير المصدر كما يقول سيويه ، أي : يأكلونه ، أي : الأكل مشبهاً أكل الأنعام ، والمعنى : أن أكلهم مجرد من الفكر والنظر ، كما يقال للجاهل يعيش كما تعيش البهيمة لا يريد التشبيه في مطلق العيش ، ولكن في لازمه . (والنار مثوى لهم) أي : موضع إقامة ، ثم ضرب تعالى مثلاً لمكة والقرى المهلكة على عظمتها كقرية عاد وغيرهم ، والمراد أهلها وأسند الإخراج إليها مجازاً ، والمعنى كانوا سبب خروجك ، وذلك وقت هجرته عليه السلام إلى المدينة ، وكما جاء في حديث ورقة بن نوفل يا ليتني فيها جذعاً إذ يخرجك قومك ، قال أبو مخرجي^(١) هم . وقال ابن عطية : ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ ،

(١) أخرجه البخاري ٤/١ ، ٦ ، ٢١٥ ، ٣٨/٩ من طبعة دار الفكر ، ومسلم في الإيمان رقم (٢٥٢) وأحمد في المسند ٢٣٣/٦ وأبو عوانة ١١١/١ والطبري ١٦٢/٣٠ وابن كثير ٤٥٨/٨ وأحمد والبيهقي ٥١/٧ ، ٦/٩ والبغوي ٢٦٩/٧ والسيوطي في الدر ٣٦٨/٦ .

وقال أهلكتناهم حملاً على المعنى انتهى . وظاهر هذا الكلام لا يصح ، لأن الضمير في أهلكتناهم ليس عائداً على المضاف إلى القرية التي أسند إليها الإخراج ، بل إلى أهل القرية في قوله : (وكأين من قرية) وهو صحيح ، لكن ظاهر قوله حملاً على اللفظ ، وحملاً على المعنى أي : أن يكون في مدلول واحد ، وكان يبقى كأين مفلتاً غير محدث عنه بشيء إلا أن وقت إهلاكهم ، كأنه قال : فهم لا ينصرون إذ ذاك . وقال ابن عباس : لما أخرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة ، وقال أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليّ ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ، فأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه أو قتل غير قاتله ، وقيل : بدخول الجاهلية ، قال : فأنزل الله تعالى : (وكأين من قرية) الآية . وقد تقدّم أول السورة عن ابن عباس خلاف هذا القول . (أفمن كان على بينة من ربه) استفهام توقيف وتقرير على كل شيء متفق عليه ، وهي معادلة بين هذين الفريقين . قال قتادة : والإشارة إلى الرسول ، وإلى كفار قريش انتهى . واللفظ عام لأهل الصنفين ، ومعنى على بينة واضحة وهو القرآن المعجز ، وسائر المعجزات (كمن زين له سوء عمله) وهو الشرك والكفر بالله وعبادة غيره (واتبعوا أهواءهم) أي : شهوات أنفسهم ، ممن لا يكون له بينة فعبدوا غير خالقهم ، والضمير في واتبعوا عائداً على معنى من ، وقرئ أمن كان بغير فاء . (مثل الجنة) أي : صفة الجنة وهو مرفوع بالابتداء . قال الزمخشري : قال النضر بن شميل كأنه قال صفة الجنة ، وهو ما تسمعون انتهى . فما تسمعون الخبر ، وفيها أنها تفسير لتلك الصفة فهو استئناف إخبار عن تلك الصفة ، وقال سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وقدر الخبر المحذوف متقدماً ، ثم فسر ذلك الذي يتلى . وقال ابن عطية : وفي الكلام حذف يقتضيه الظاهر ، كأنه قيل : مثل الجنة ظاهر في نفس من وعى هذه الأوصاف ، وكان ابن عطية قد قال قبل هذا ويظهر أن القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله المرء عند سماعه فهُنَا كذا ، فكأنه يتصور عند ذلك اتباعاً على هذه الصورة ، وذلك هو مثل الجنة ، قال : وعلى هذه التأويلات يعني قول النضر ، وقول سيبويه ، وما قاله هو يكون قبل قوله : (كمن هو خالد في النار : حذف تقديره أساكن ، أو أهؤلاء إشارة إلى المتقين ، قيل : ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر هذه الآية كأنه قال : مثل أهل الجنة ، وهي بهذه الأوصاف (كمن هو خالد في النار) ويحيى قوله : (فيها أنهار) في موضع الحال على هذا التأويل انتهى . ولم يذكر الزمخشري غير هذا الوجه ، قال : ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ وخبر من هو خالد في النار ، وقوله : (فيها أنهار) في حكم الصلة كال تكرير لها ، ألا ترى إلى سر قوله التي فيها أنهار ، ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها أنهار ، كأن قائلها قال : وما مثلها ، فقليل : فيها أنهار . وقال الزمخشري : أيضاً (فإن قلت :) ما معنى قوله مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ، قال : (كمن هو خالد في النار) (قلت :) هو كلام في صورة الإثبات ، ومعناه : النفي والإنكار لانطوائهم تحت كلام مصدر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه وانخراطه في مسلكه ، وهو قوله (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) فكأنه قيل : مثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أي : كمثل جزاء من هو خالد في النار . (فإن قلت :) لم عرى من حرف الإنكار ، وما فائدة التعرية . (قلت :) تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من سوى بين المستمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل :

أَفْرَحُ أَنْ أَرَزَا الْكَرَامَ وَأَنْ أَوْرَثَ دَوْدًا شَصَائِصًا نَبَلًا^(١)

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ، ووراثه الذود مع تعريته من حرف الإنكار لانطوائهم تحت حكم من قال أفرح

(١) البيت من المنسرح لحضرمي بن عامر ، انظر التهذيب ١١/٢٦٣ اللسان (جزأ) الكشف ٤/٣٢١١ . الشاهد « أفرح أن أرزا الكرام » حيث حذف الهمزة على طريقة الإنكار والتقدير (أأخرج) .

بموت أخيك وبوراثته إبله ، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصور قبح ما أزن به ، فكأنه قال نعم مثلي يفرح بمروءة الكرام ، وبأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله ، وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار انتهى . وتلخص من هذا الاتفاق على إعراب (مثل الجنة) مبتدأ ، واختلفوا في الخبر فقيل : هو مذكور وهو (كمن هو خالد في النار) وقيل : محذوف ، فقيل : مقدر قبله ، وهو قول سيبويه ، وقيل : بعده ، وهو قول النضر وابن عطية على اختلاف التقدير ، ولما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق بينها فيما يؤولان إليه ، وكما قدم من على بينة على من اتبع هواه قدم حاله على حاله . وقرأ ابن كثير وأهل مكة : آسن على وزن فاعل من آسن بفتح السين ، وقرئ (غير ياسن) بالياء . قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمز لم يتغير وغيره ولذة تأنيث لذو هو اللذيذ ، ومصدر نعت به ، فالجمهور بالجر على أنه صفة لخمير ، وقرئ بالرفع صفة لأنهار ، وبالنصب أي : لأجل لذة فهو مفعول له من غسل مصفى . قال ابن عباس : لم يخرج من بطون النحل ، قيل : فيخالطه الشمع وغيره ، ووصفه بمصفى لأن الغالب على العسل التذكير ، وهو مما يذكر ويؤنث ، وعن كعب أن النبل ودجلة والفرات وجيحان تكون هذه الأنهار في الجنة ، واختلف في تعيين كل فهو منها لماذا يكون ينزل ، وبدىء من هذه الأنهار بالماء ، وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات ، ثم بالبلن إذ كان يجري مجرى الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمير لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفس إلى ما تلتذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر في الهيئة . (ولهم فيها من كل الثمرات) وقيل : المبتدأ محذوف ، أي : أنواع من كل الثمرات ، وقدره بعضهم بقوله زوجان . (ومغفرة من ربهم) لأن المغفرة قبل دخول الجنة ، أو على حذف . أي : بنعيم مغفرة إذ المغفرة سبب التنعيم (وسقوا) عائد على معنى من وهو خالد على اللفظ ، وكذا خرجوا على معنى من يستمع كان المنافقون يحضرون عند الرسول ، ويستمعون كلامه وتلاوته ، فإذا خرجوا قالوا للذين أوتوا العلم وهم السامعون كلام الرسول حقيقة ، الواعون له (ماذا قال آنفاً) أي : الساعة ، وذلك على سبيل الهراء والاستخفاف ، أي : لم نفهم ما يقول ، ولم ندر ما نفع ذلك ، ومن سألوه ابن مسعود ، وآنفاً حال ، أي : مبتدأ أي ما القول الذي ائتمته قبل انفصاله عنه . وقرأ الجمهور آنفاً على وزن فاعل ، وابن كثير على وزن فعل . وقال الزمخشري : وآنفاً نصب على الظرف انتهى . وقال ذلك لأنه فسر بالساعة . وقال ابن عطية : والمفسرون يقولون آنفاً معناه الساعة الماضية القريبة منا ، وهذا تفسير بالمعنى انتهى . والصحيح أنه ليس بظرف ، ولا نعلم أحداً من النحاة عده في الظروف ، والضمير في زادهم عائد على الله كما أظهره قوله : (طبع الله) إذ هو مقابلهم ، وكما هو في (وآتاهم) والزيادة في هذا المعنى تكون بزيادة التفهيم والأدلة ، أو بورود الشرع بالأمر والنهي والإخبار ، فيزيد المهدي لزيادة علم ذلك ، والإيمان به ، قيل : ويحتمل أن يعود على قول المنافقين واضطرابهم ، لأن ذلك مما يعجب به المؤمن ، ويحمد الله على إيمانه ويزيد نصرة في دينه ، وقيل : يعود على قول الرسول (وآتاهم تقواهم) أي : أعطاهم أي : جعلهم متقين له ، فتقواهم مصدر مضاف للفاعل (أن تأتيهم) بدل اشتغال من الساعة ، والضمير للمنافقين أي : الأمر الواقع في نفسه انتظار الساعة ، وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك ، لأن ما في أنفسهم غير مراعى لأنه باطل . وقرأ أبو جعفر الرواسي عن أهل مكة (إن تأثم) على الشرط ، وجوابه فقد جاء أشراطها ، وهذا غير مشكوك فيه ، لأنها آتية لا محالة ، لكن خوطبوا بما كانوا عليه من الشك ، ومعناه : إن شككتم في إثباتها فقد جاء أعلامها ، فالشك راجع إلى المخاطبين الشاكين . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فما جزاء الشرط . (قلت :) قولهم : (فأنى لهم) ومعناه : أن تأتيهم الساعة فكيف لهم ذكرهم أي : تذكرهم واتعاضهم إذا جاءتهم الساعة ، يعني لا تنفعهم الذكرى حينئذ لقوله : ﴿ يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ [الفجر ٢٣] (فإن قلت :) بم يتصل قوله فقد جاء أشراطها على القراءتين (قلت :) بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول ، كقولك : إن أكرمني زيد ، فأنا حقيق بالإكرام أكرمه . وقرأ الجعفي وهارون عن أبي عمرو (بَعَثَ) بفتح الغين

وشد التاء . قال صاحب اللوامح : وهي صفة وانتصابها على الحال لا نظير لها في المصادر ، ولا في الصفات ، بل في الأسماء نحو الحرية ، وهو اسم جماعة والسرية اسم مكان انتهى . وكذا قال أبو العباس بن الحاج من أصحاب الأستاذ أبي علي الشلوين في كتاب المصادر على أبي عمر ، وأن يكون الصواب (بَعْتَة) بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم انتهى . وهذا على عادته في تغليط الرواية . (فقد جاء أشراطها) أي : علاماتها فينبغي الاستعداد لها ، ومن أشرط الساعة : مبعث رسول الله - ﷺ - إذ هو خاتم الأنبياء . وروي عنه أنه قال : أنا من أشرط الساعة . وقال : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وكفرسي رهان ، وقيل : منها الدخان وانشقاق القمر ، وعن الكلبي كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللثام ، (فأني لهم إذا جاءتهم ذكراهم) الظاهر أن المعنى فكيف لهم الذكرى ، والعمل بها إذا جاءتهم الساعة أي : قد فاتها ذلك ، قيل : ويحتمل أن يكون المبتدأ محذوفاً ، أي : فأني لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى بما كانوا يخبرون به ، فيكذبون به بتواصله بالعذاب ، ثم أضرب عن ذكر المنافقين ، وقال : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) والمعنى : دم على عملك بتوحيد ، واحتج بهذا على قول من قال : أول الواجبات العلم والنظر قبل القول ، والإقرار ، وفي الآية ما يدل على التواضع ، وهضم النفس إذ أمره بالاستغفار ، ومع غيره بالاستغفار لهم ، (متقلبكم) متصرفكم في حياتكم الدنيا (ومثواكم) إقامتكم في قبوركم ، وفي آخرتكم ، وقال عكرمة : متقلبكم في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات ، ومثواكم إقامتكم في الأرض . وقال الطبري وغيره : متقلبكم تصرفكم في يقظتكم ، ومثواكم منامكم ، وقيل : متقلبكم في معاشكم ومتاجركم ، ومثواكم حيث تستفزون من منازلكم ، وقيل : متقلبكم بالتاء وابن عباس بالنون .

﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأملئ لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ .

كان المؤمنون حريصين على ظهور الإسلام وعلو كلمته ، وتمني قتل العدو ، وكانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد جعل ذلك باباً ومضروباً لا يتعدى ، فمدح تعالى المؤمنين بطلبهم إنزال سورة^(١) ، والمعنى تتضمن أمرنا بمجاهدة العدو وفضح أمر المنافقين ، والظاهر أن ظاني ذلك هم خالص في إيمانهم ، ولذلك قال بعد (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ، وقال الزمخشري : كانوا يدعون الحرص على الجهاد ، ويتمنونه بالسنتهم ، ويقولون : (لولا نزلت سورة) في معنى الجهاد ، فإذا أنزلت وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم ، وسقطوا في أيديهم ، كقوله (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس) النساء ٧٧ انتهى . وفيه تخويف لما يدل عليه لفظ القرآن ، ولولا بمعنى هلا ، وعن أبي مالك لا زائدة ، والتقدير لونزلت وهذا ليس بشيء ، وقرئ (فإذا نزلت) وقرأ زيد بن علي : (سورة محكمة) بنصبها ومرفوع نزلت بضم ، وسورة نصب على الحال . وقرأ هو وابن عمر وذكر مبنياً للفاعل ، أي : الله فيها القتال ، ونصب الجمهور برفع سورة محكمة على أنه مفعول لم يسم فاعله ، وبناء وذكر للمفعول ، والقتال رفع به

وإحكامها كونها لا تنسخ . قال قتادة : كل سورة فيها القتال فهي محكمة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية ، وذلك أن القتال نسخ ما كان من المهادنة والصلح ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة^(١) وقيل : محكمة بالحلال والحرام ، وقيل : محكمة أريدت مدلولات ألفاظها على الحقيقة دون التشابه الذي أريد به المجاز ، نحو قوله : (على العرش استوى) طه ه في جنب الله فضرب الرقاب (رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك) أي : تشخص أبصارهم جنباً واهلماً (نظر المغشي عليه) أي : نظراً كما ينظر من أصابته الغشية من أجل حلول الموت ، وقيل : يفعلون ذلك وهو شخوص البصر إلى الرسول من شدة العداوة ، وقيل : من خشية الفضيحة فإنهم إن يخالفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم ، وأولى لهم تقدم شرحه في المفردات . وقال قتادة : كأنه قال العقاب أولى لهم ، وقيل : وهم المكروه ، وأولى وزنها أفعّل أو أفعل على الاختلاف ، لأن الاستفعال الذي ذكرناه في المفردات فعلى قول الجمهور أنه اسم يكون مبتدأ والخبر لهم ، وقيل : أولى مبتدأ ولهم من صلتها ، وطاعة خبر ، وكان اللام بمعنى الباء ، كأنه قيل : فأولى بهم طاعة ، ولم يتعرض الزخشي لإعرابه ، وإنما قال ومعناه الدعاء عليهم بأن يليه المكروه ، وعلى قول الأصمعي أنه فعل يكون فاعله مضمرّاً يدل عليه المعنى ، وأضمر لكثرة الاستعمال ، كأنه قال : قارب لهم هو أي : الهلاك ، قال ابن عطية : والمشهور من استعمال العرب أولى لك فقط على جهة الحذف والاختصار لما معها من القوة ، فيقول على جهة الزجر والتوعد أولى لك يا فلان ، وهذه الآية من هذا الباب ، ومنه قوله (أولى لك فأولى) القيامة ٣٤ وقول الصديق للحسن - رضي الله عنها - أولى لك انتهى . والأكثر أن على أن طاعة وقول معروف كلام مستقل محذوف منه أحد الجزأين إما الخبر ، وتقديره أمثل ، وهو قول مجاهد ومذهب سيبويه والخليل ، وإما المبتدأ وتقديره الأمر ، أو أمرنا طاعة أي : الأمر المرخي لله طاعة ، وقيل : هي حكاية قولهم أي : قالوا طاعة ويشهد له قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف وقولهم هذا على سبيل الهزء والخديعة . وقال قتادة : الواقف على فأولى لهم طاعة ابتداء ، وخبر والمعنى أن ذلك منهم على جهة الخديعة ، وقيل : طاعة صفة لسورة ، أي : فهي طاعة أي : مطاعة ، وهذا القول ليس بشيء لحيلولة الفصل لكثير بين الصفة والموصوف . ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ [عمران ٢١] أي - تد والعزم الجد وهو لأصحاب الأمر ، واستعير للأمر كما قال تعالى : (لمن عزم الأمور) وقال الشاعر :

قَدْ جَدَّتْ بِهِمِ الْحَرْبُ فَجَدُّوا^(٢)

والظاهر أن جواب إذا قوله : (فلو صدقوا الله) كما تقول إذا كان الشتاء فلو جئتني لكسوتك ، وقيل : الجواب محذوف تقديره فإذا عزم الأمر هو ، أو نحوه قاله قتادة ، ومن حمل طاعة وقول معروف على أنهم يقولون ذلك خديعة قدّرناه عزم الأمر ، فافقوا وتفاضوا ، وقدره أبو البقاء فأصدّق ، فلو صدقوا الله فيما زعموا من حرصهم على الجهاد ، أو في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ، ألسنتهم ، أو في قلوبهم طاعة وقول معروف . (فهل عسيتم) التفات للذين في قلوبهم مرض أقبل بالخطاب عليهم عن سبيل التوبيخ ، وتوقيفهم على سوء مرتكبهم ، وعسى تقدّم الخلاف في لغتها ، وفي القراءة فيها إذا اتصل بها ضمير الخطاب في سورة البقرة ، واتصال الضمير بها لغة الحجاز ، وبنو تميم لا يلحقون بها الضمير . وقال أبو عبد الله الرازي وقد ذكروا أن عسى يتصل بها ضمير الرفع وضمير النصب ، وأنها لا يتصل بها ضمير ، قال : وأما قول من قال عسى أنت تقوم ، وعسى أنا أقوم فدون ما ذكرنا لك تطويل الذي فيه انتهى . ولا أعلم أحداً من نقلة العرب ذكر انفصال الضمير بعد عسى ، وفصل بين عسى وخبرها بالشرط ، وهو أن توليتم . وقرأ الجمهور : (إن توليتم) ومعناه إن

(١) انظر البيهقي ١٨٣/٤ .

(٢) عجز بيت من الرجز لم يهتد لقائله ، انظر الكامل ٢٢٤/١ وروى :

قد شمرت عن ساقها فشندو وجدت الحرب بكم فجدوا

أعرضتم عن الإسلام . وقال قتادة^(١) : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله ألم يسفكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا الرحمن ، يشير إلى ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول . وقال كعب وعبد بن كعب وأبو العالية والكلبي : (إن توليتم) أي : أمور الناس من الولاية^(٢) ، ويشهد لها قراءة وليتم مبنياً للمفعول ، وعلى هذا قيل نزلت في بني هاشم وبني أمية ، وعن النبي - ﷺ - (إن توليتم) بضم التاء والواو وكسر اللام ، وبها قرأ علي وأويس أي : إن وليتكم ولاية جور دخلتم إلى دنياهم دون إمام العدل ، وعلى معنى إن توليتم بالتعذيب والتنكيل وإفقال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والثبات ، فإن كان ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، وقيل : معناه إن تولاكم الناس وكلكم الله إليهم والأظهر أن ذلك خطاب للمنافقين في أمر القتال ، وهو الذي سبقت الآيات فيه ، أي : إن أعرضتم عن امتثال أمر الله في القتال ، وأن تفسدوا في الأرض بعدم معونة أهل الإسلام ، فإذا لم تعينوهم قطعتم ما بينكم وبينهم من صلة الرحم ، ويدل على ذلك (أولئك الذين لعنهم الله) فالآيات كلها في المنافقين ، وهذا التوقع الذي في عسى ليس منسوباً إليه تعالى ، لأنه عالم بما كان وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين ، كأنه يقول لهم لنا علم من حيث ضياعهم ، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا ؟ وقرأ الجمهور : (تقطعوا) بالتشديد على التكثير ، وأبو عمرو في رواية وسلام ويعقوب وأبان وعصمة بالتخفيف مضارع قطع ، والحسن وتقطعوا بفتح التاء والقاف على إسقاط حرف الجر ، أي : أرحامكم ، لأن تقطع لازم . أولئك إشارة إلى المرضى القلوب ، فأصمهم عن سماع الموعظة ، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى . وقال الزمخشري : لعنهم الله لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم ، أطفاه وخذلهم حتى عموا انتهى . وهو على طريق الاعتزال ، وجاء التركيب فأصمهم ولم يأت فأصم آذانهم ، وجاء وأعمى أبصارهم ولم يأت وأعماهم ، قيل : لأن الأذن لو أصممت لا تسمع الأبصار ، فالعين لها مدخل في الرؤية ، والأذن لها مدخل في السمع انتهى . ولهذا جاءوا على سمعهم وجعل لكم السمع ، ولم يأت وعلى آذانهم ولا يأتي وجعل لكم الآذان ، وحين ذكر الآذان نسبت إليه الوقر ، وهو دون الصمم كما قال ﴿ وفي آذاننا وقر ﴾ [فصلت ٥] ، (أفلا يتدبرون) أي : يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ، ووعيد العصاة وهو استفهام توبيخي وتوقيفي على محاربتهم . (أم على قلوب أفاها) استعارة للذين منهم الإيمان ، وأم منقطعة بمعنى بل ، والهمزة للتقرير ولا يستحيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يصل إليها ذكر ، ولم يحتاج إلى تعريف القلوب لأنه معلوم أنها قلوب من ذكر ، ولا حاجة إلى تقدير صفة محذوف ، أي : أم على قلوب أفاها قاسية ، وأضاف الأفعال إليها أي : الأفعال المختصة ، أو هي أفعال الكفر التي استغلقت فلا تفتح . وقرئ : (إفاها) بكسر الهمزة وهو مصدر ، وأفاها بالجمع على أفعل . (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى) ، قال قتادة : نزلت في قوم من اليهود وكانوا عرفوا أمر الرسول من التوراة ، وتبين لهم بهذا الوجه ، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى . وقال ابن عباس وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ، ثم ماتت قلوبهم ، والآية تتناول كل من دخل في ضمن لفظها ، وتقدم الكلام على سول في سورة يوسف . قال الزمخشري : سول لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم بالتصريف والاشتقاق جميعاً انتهى . وقال أبو علي الفارسي : بمعنى ولا هم من السول وهو الاسترخاء والتدلي ، وقال غيره : سولهم رجاهم . وقال ابن بحر : أعطاهم سؤلهم ، وقول الزمخشري وقد اشتقه إلى آخره ليس بجيد ، لأنه توهم أن السؤل أصله الهمزة ، واختلفت المادتان أو عين سول واو وعين السؤل همزة ، والسؤل له مادتان إحداها الهمز من سأل يسأل ، والثانية الواو من سال يسال ، فإذا كان

(١) انظر الوسيط ٦٩ خ والبغوي ١٨٤/٤ .

(٢) انظر الوسيط ٦٩ والبغوي ١٨٤/٤ .

هكذا فسول يجوز أن يكون من ذوات الهمز . وقال صاحب اللوامح : والتسويل أصله من الإرخاء ، ومنه ﴿ فدلّاهما بغرور ﴾ [الأعراف ٢٢] والسول استرخاء البطن . وقرأ زيد بن علي سول لهم ، أي : كيده على تقدير حذف مضاف .

وقرأ الجمهور : (وأملي لهم) مبنياً للفاعل ، والظاهر أنه يعود على الشيطان ، وقاله الحسن وجعل وعده الكاذب بالبقاء كالإبقاء ، والإبقاء هو البقاء ملاوة من الدهر يد لهم في الآمال والأمانى ، قيل : ويحتمل أن يكون فاعل أملي ضميراً يعود على الله ، وهو الأرجح ، لأن حقيقة الإملاء إنما هو من الله . وقرأ ابن سيرين والجدري وشيبة وأبو عمرو وعيسى : وأملي مبنياً للمفعول أي : امهلوا ومدوا في عمرهم . وقرأ مجاهد وابن هرمز والأعمش وسلام ويعقوب : وأملي بهمزة المتكلم مضارع أملي ، أي : وأنا أنظرهم كقوله : ﴿ إنما علي لهم ﴾ [آل عمران ١٧٨] ويجوز أن يكون ماضياً سكنت منه الياء ، كما تقول في يعي بسكون الياء ، (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل) ، وروي أن قوماً من قريظة والنضير كانوا يعينون المنافقين في أمر الرسول والخلاف عليه بنصره ومؤازرته ، وذلك قوله : (سنطيعكم في بعض الأمر) وقيل : الضمير في قالوا للمنافقين ، والذين كرهوا ما نزل الله هم قريظة والنضير ، وبعض الأمر قول المنافقين لهم ﴿ لئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴾ [الحشر ١١] قاله ابن عباس ، وقيل : بعض الأمر التكذيب بالرسول أو بلا إله إلا الله ، أو ترك القتال معه ، وقيل : هو قول الفريقين اليهود والمنافقين للمشركين سنطيعكم في التكافؤ على عداوة الرسول ، والعودة عن الجهاد معه ، وتعين في بعض الأمر في بعض ما يأسرون به ، أو في بعض الأمر الذي يهكم . وقرأ الجمهور : (أسرارهم) بفتح الهمزة ، وكانت أسرارهم كثيرة وابن وثاب وطلحة والأعمش وحزمة والكسائي وحفص بكسرها . وهو مصدر ، قالوا ذلك سرّاً فيما بينهم وأفشاه الله عليهم . وقال أبو عبد الله الرازي : الأظهر أن يقال والله يعلم أسرارهم ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد - عليه السلام - فإنهم كانوا معاندين مكابرين ، وكانوا يعرفون رسول الله - ﷺ - كما يعرفون أبناءهم انتهى .

(فكيف إذا توفتهم الملائكة) تقدم شرح الذين في قلوبهم مرض ، ومبلغهم لأجل القتال ، وتقدم قول المرتدين وما يلحقهم في ذلك من جزائهم على طواعة الكاذبين ما أنزل الله ، وتقدم والله يعلم أسرارهم ، فجاء هذا الاستفهام الذي معناه التوقيف عقب هذه الأشياء ، فقال الطبري : فكيف علمه بها أي : بأسرارهم إذا توفتهم الملائكة ، وقيل : فكيف يكون حالهم مع الله فيما ارتكبه من ذلك القول . وقرأ الأعمش : (توفاهم) بألف بدل التاء ، أن يكون ماضياً ومضارعاً حذفت منه التاء ، والظاهر أن وقت التوفي هو عند الموت . وقال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصيته إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره ، والملائكة ملك الموت والمصرفون معه ، وقيل : هو وقت القتال نصرة للرسول يضرب وجوههم أن يثبتوا وأدبارهم انهزموا ، والملائكة ملائكة النصر ، والظاهر أن يضربون حال من الملائكة ، وقيل : حال من الضمير في توفاهم وهو ضعيف . (ذلك) أي : ذلك الضرب للوجوه والأدبار (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) وهو الكفر أو كتمان بعث الرسول ، أو تسويل الشيطان أقوال والمتبع الشيء هو مقبل بوجهه عليه ، فناسب ضرب الملائكة وجهه (وكرهوا رضوانه) وهو الإيمان بالله واتباع دينه ، والكافر للشيء متول عنه ، فناسب ضرب الملائكة دبره ففي ذلك مقابلة أمرين بأمرين .

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ، إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ، إن يسألكموها فيحلفكم بئخلوا ويخرج أضغانكم ، ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا

في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿١﴾ .

إخراج أضغانهم وهو حقودها إبرازها للرسول والمؤمنين ، والظاهر أنها من رؤية البصر لعطف العرفان عليه ، وهو معرفة القلب واتصل الضمير في أريناكم وهو الأفصح ، وإن كان يجوز الانفصال ، وفي هاتين الجملتين تقريب لشهرتهم ، لكنه لم يعينهم بأسمائهم إبقاء عليهم وعلى قراباتهم ، واكتفاء منهم بما يتظاهرون به من اتباع الشرع وإن أبطنوا خلافه . (ولتعرفنهم في لحن القول) كانوا يصطلحون فيما بينهم من ألفاظ يخاطبون بها الرسول مما ظاهره حسن ، ويعنون به القبيح ، وكانوا أيضاً يصدر منهم الكلام يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك كقولهم عند النصر إنا كنا معكم وغير ذلك كقولهم ﴿٢﴾ لئن رجعنا إلى المدينة ﴿٣﴾ [المنافقون ٨] وقوله : ﴿٤﴾ إن بيوتنا عورة ﴿٥﴾ [الأحزاب ١٣] والظاهر الإراءة والمعرفة بالسيما وجود المعرفة في المستقبل بلحن القول ، واللام في ولتعرفنهم لام جواب القسم المحذوف . (والله يعلم أعمالكم) خطاب عام يشمل المؤمن والكافر ، وقيل : خطاب للمؤمنين فقط . وقرأ الجمهور : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم) ونبلو بالنون والواو ، وأبو بكر بالياء فيهن ، وأويس (ونبلو) بإسكان الواو وبالنون ، والأعمش بإسكانها وبالياء ، وذلك على القطع إعلماً بأن ابتلاءه دائم ، ومعنى (حتى نعلم المجاهدين) أي : نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود ، وبأن مسكهم الذي يتعلق به ثوابهم . (إن الذين كفروا) ناس من بني إسرائيل ، وتبين هداهم معرفتهم بالرسول من التوراة أو منافقون كان الإيمان قد داخل قلوبهم ، ثم نافقوا والمطعمون سفرة بدر وتبين الهدى وجوده عند الداعي إليه ، أو مشاعة في كل كافر ، وتبين الهدى من حيث كان في نفسه أقوال (وسيحيط أعمالهم) أي : التي كانوا يرجون بها انتفاعاً وأعمالهم التي كانوا يكيّدون بها الرسول ودين الإسلام . (يا أيها الذين آمنوا) قيل : نزلت في بني إسرائيل أسلموا ، وقالوا لرسول الله قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا ، كأنهم منوا بذلك فنزلت فيهم هذه الآية (١) ، وقوله : (يمينون عليك أن أسلموا) فعلى هذا يكون ولا تبطلوا أعمالكم بالمن بالإسلام ، وعن ابن عباس : بالرياء والسمعة (٢) ، وعنه بالشرك والنفاق (٣) ، وعن حذيفة بالكبائر (٤) وقيل : بالعجب فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وعن مقاتل بعصيانكم للرسول ، وقيل : أعمالكم صدقاتكم بالمن والأذى . وماتوا وهم كفار عام في الموجب ، لانتفاء الغفران وهو وفاتهم على الكفر ، وقيل : هم أهل القلب ، وقيل : نزلت بسبب عدي بن حاتم - رضي الله عنه - سأل رسول الله - ﷺ - عن أبيه ، قال : وكانت له أفعال بر فما حاله فقال : في النار ، فبكى عدي وولى فدعاه فقال له : أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار فنزلت ، (فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم) وهو الصلح . وقرأ الجمهور : وتدعوا مضارع دعا ، والسلمي بتشديد الدال أي : تفتروا ، والجمهور إلى السلم بفتح السين ، والحسن وأبوجراء والأعمش وعيسى وطلحة وحمة وأبو بكر بكسرهما ، وتقدم الكلام على السلم في البقرة في قوله ﴿٥﴾ ادخلوا في السلم كافة ﴿٦﴾ [البقرة ٢٠٨] وقال الزمخشري : وقرئ ولا تدعوا من ادعى القوم وتدعوا إذا ادعوا ، نحو قولك : ارتقوا الصيد وتراموا انتهى . والتلاوة بغير لا ، وكان يجب أن يأتي بلفظ التلاوة فيقول وقرئ وتدعوا معطوف على تنهوا فهو مجزوم ، ويجوز أن يكون مجزوماً بإضمار إن ، (وأنتم الأعلون) أي : الأعلىون وهذه الجملة حالية ، وكذا (والله معكم) ويجوز أن يكونا

(١) انظر البغوي ١٨٦/٤ والوسيط ٧٠ خ .

(٢) انظر البغوي ١٨٦/٤ والوسيط ٧٠ خ .

(٣) انظر البغوي ١٨٦/٤ والوسيط ٧٠ خ .

(٤) انظر البغوي ١٨٦/٤ والوسيط ٧٠ خ .

جلتي استئناف أخبر أولاً بقوله : أنتم الأعلون فهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ، ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها ، وهي كون الله تعالى معهم . (ولن يترككم) قال ابن عباس : ولن يظلمكم ، وقيل : لن يعيركم من ثواب أعمالكم ، وقيل : ولن ينقصكم . وقال الزمخشري وقال أبو عبيد : ولن يترككم من وترت الرجل إذا اقتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم أو قريب ، قال : أو ذهبت بماله قال : أو حربته وحقيقته أفردته من قريبه ، أو ماله من الوتر وهو الفرد فشبه إضاعة عمل العامل ، وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام ، ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله ، أي : أفرد عنها قتلاً ونهباً (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) وهو تحقير لأثر الدنيا ، أي : فلا تنهوا في الجهاد ، وأخبر عنها بذلك باعتبار ما يختص بها من ذلك ، وأما ما فيها من الطاعة وأمر الآخرة فليس بذلك . (يؤتكم أجوركم) أي : ثواب أعمالكم من الإيمان والتقوى ، ولا يسألكم أموالكم ، قال سفيان بن عيينة : أي : كثيراً من أموالكم إنما يسألكم ربع العشر فطيبوا أنفسكم ، وقيل : لا حاجة إليها ، بل يرجع ثواب إنفاقكم إليكم ، وقيل : إنما يسألكم أمواله لأنه هو المالك لها حقيقة ، وهو المنعم بإعطائها ، وقيل : الضمير في يسألكم للرسول ، أي : لا يسألكم أجراً على تبليغ الرسالة ، كما قال ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ [ص ٨٦] (إن يسألكموها جميعاً فيحكم) أي : يبالغ في الإلحاح (تبخلوا ، ويخرج أضغانكم) أي : تطعون على الرسول وتضيق صدوركم كذلك ، وتحفون ديناً يذهب بأموالكم . وقرأ الجمهور : (ويخرج أضغانكم) جزماً على جواب الشرط ، والفعل مسند إلى الله وإلى الرسول ، أو إلى البخل . وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو (ويخرج) بالرفع على الاستئناف بمعنى وهو يخرج ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى وفي اللوامح عن عبد الوارث عن أبي عمرو (وتخرج) بالياء وفتحها ، وضم الراء والجيم (أضغانكم) بالرفع بمعنى وهو يخرج أو سيخرج أضغانكم رفع بفعله . وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن سيرين وابن محيصن وأيوب بن المتوكل واليمني : (وتخرج) بياء التأنيث مفتوحة (أضغانكم) رفع به ، ويعقوب : (ونخرج) بالنون (أضغانكم) رفعاً ، وهي مروية عن عيسى إلا أنه فتح الجيم بإضمار أن ، فالواو عاطفة على مصدر متوهم ، أي : يكف بخلكم وإخراج أضغانكم ، وهذا الذي خيف أن يعتري المؤمنين هو الذي تقرب به محمد بن سلمة إلى كعب بن الأشرف ، وتوصل به إلى قتله حين قال له : إن هذا الرجل قد أكثر علينا ، وطلب منا الأموال . (ها أنتم هؤلاء) كررها التنبيه تأكيداً ، وتقدم الكلام على هذا التركيب في سورة آل عمران . وقال الزمخشري : هؤلاء موصول بمعنى الذين صلته تدعون ، أي : أنتم الذين تدعون ، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا : وما وصفنا ؟ فقيل : (تدعون لتنفقوا في سبيل الله) انتهى ، وكون هؤلاء موصولاً إذا تقدمها ما الاستفهامية باتفاق ، أو من الاستفهامية باختلاف^(١) . (في سبيل الله) قيل : للغزو ، وقيل : الزكاة واللفظ أعم . (ومن يبخل) أي : بالصدقة ، وما أوجب الله عليه (فإنما يبخل عن نفسه) أي : لا يتعدى ضرره لغيره ، وبخل يتعدى بعلى وبعن ، يقال : بخلت عليه وعنه ، وصليت عليه

(١) قال أبو حيان : وكون (هؤلاء) موصولاً مذهب باختلاف ، ذهب البصريون إلى أن (ذا) يجوز أن تستعمل اسماً موصولاً بمعنى الذي وفروعه ، فتكون موصولاً مشتركاً بشرط أن تكون مسبوقاً بما الاستفهامية بلا خلاف ، أو بمن الاستفهامية على خلاف ، وإنما اختلفوا في كون (ذا) تستعمل موصولاً بعد (من) ولم يختلفوا في هذا بعد ما لأن من تختص بمن يعقل ، فليس فيها إبهام كالذي في ما التي صارت الاستفهام في غاية الإبهام فأخرجت (ذا) من التخصيص إلى الإبهام وجذبتها إلى الإبهام وليس كذلك (من) لتخصيصها فلا تجانس (ذا) في الإبهام . قال الشيخ خالد في التصريح : وكلا التعليلين ضعيف ، أما الأول فلأن بقية أدوات الاستفهام كما في الإبهام فلا خصوصية لإلحاق (ما) دون (من) . وأما الثاني فلأن (ما) تختص بما لا يعقل كما أن (من) تختص بمن يعقل إلا أن يقال : ما لا يعقل أوسع دائرة ممن يعقل ، والمرجع في ذلك إلى السماع ، وكلا الأمرين مسموع . ويشير البصريون ألا تقدر (ذا) ملغاة حكماً بتقديرها مركبة مع (ما) وجعلها اسماً للاستفهام في محل نصب على المفعولية أو في محل جر . ولم يجز البصريون في غير ذا من أساء الإشارة إلى الموصولية انظر تفصيل ذلك ، اجمع ١٨٤/١ التصريح ١٣٩/١ شرح الكافية ٤٢/٢ .

وعنه ، وكأنها إذا عديا بعن ضمنا معنى الإمساك ، كأنه قيل : أمسكت عنه بالبخل . (والله الغني وأنتم الفقراء) أي : الغني مطلقاً إذ يستحيل عليه الحاجات ، وأنتم الفقراء مطلقاً لافتقاركم إلى ما تحتاجون إليه في الدنيا ، وإلى الثواب في الآخرة . (وإن تتولوا) عطف على (وإن تؤمنوا وتتقوا) أي : وإن تتولوا أي : عن الإيمان والتقوى (يستبدل قوماً غيركم) أي : يخلق قوماً غيركم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما ، كما قال : ﴿ ويأت بخلق جديد ﴾ [فاطر ١٦] وتعيين أولئك القوم وأنهم الأنصار أو التابعون ، أو أهل اليمن أو كندة والنخع أو العجم ، أو فارس والروم أو الملائكة أقوال ، والخطاب لقريش ، أو لأهل المدينة قولان . وروى أبو هريرة أنه - عليه السلام - سئل عن هذا ، وكان سلمان إلى جنبه فوضع يده على فخذه ، وقال : قوم هذا ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس^(١) ، وإن صح هذا الحديث وجب المصير في تعيين ما انبهم من قوله قوماً غيركم إلى تعيين الرسول . (ثم لا يكونوا أمثالكم) أي : في الخلاف والتولي والبخل .

(١) والحديث أخرجه مسلم في الفضائل باب ٥٩ حديث (٢٣٠) والبخاري في التاريخ ٣٩/٩ وأحمد في المسند ٣٠٨/٢ والبغوي في التفسير ٨٧/٤ ، ١٨٦/٦٠ وابن كثير ٣٠٦/٧ وابن الجوزي في زاد المسير ٤١٦/٧ والطحاوي في المشكل ٣١/٣ .

سورة الفتح تسع وعشرون آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَينصرك الله نصراً عزيزاً ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۚ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۖ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۖ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّكَ السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ۖ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَلِكَ قَالَكُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى يَوْمِ الْأُولَى ۖ بَأْسٌ شَدِيدٌ لِقَائِهِمْ ۖ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا

تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩

ظفر بالشيء غلب عليه ، وأظفره غلبه . المعرة : المكروه والمشقة اللاصقة مأخوذ من العر ، والعرة ، وهو الجرب الصعب اللازم ، قال الشاعر :

كَذِي الْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعٌ^(١)

الشطء الفراخ أشطأ الزرع أفرخ ، والشجرة أخرجت غصونها . آزر ساوي طولاً ، قال الشاعر :

بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبْتُهَا بَجَرٍّ جِيُوشٍ غَانِمِينَ وَخَيْبٍ^(١)

أي ساوى نبتها الضال طولاً ، وهو شجر ووزنه أفعل لقولهم في المضارع يوزر .

﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً ، هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليهما حكيماً ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً ، والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾

هذه السورة مدنية ، وعن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة ، ولعل بعضاً منها نزل ، والصحيح أنها نزلت بطريق منصرفة - ﷺ - من الحديبية سنة ست من الهجرة^(٢) ، فهي تعد في المدني . ومناسبتها لما قبلها أنه تقدم ﴿ وإن تتولوا ﴾ [محمد ٣٨] الآية ، وهو خطاب لكفار قريش ، أخبر رسوله بالفتح العظيم وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال وأمن كل من كان بها ، وصارت مكة دار إيمان ، ولما قفل رسول الله - ﷺ - من صلح الحديبية تكلم المنافقون ، وقال : لو كان محمد نبياً ودينه حق ما صد عن البيت ، ولكان فتح مكة فأكذبهم الله تعالى ، وأضاف عز وجل الفتح إلى نفسه إشعاراً بأنه من عند الله لا بكثرة عدد ، ولا عدد ، وأكدته بالمصدر ووصفه بأنه مبين مظهر لما تضمنه من النصر والتأييد ، والظاهر أن هذا الفتح هو فتح مكة ، وقال الكلبي وجماعة وهو المناسب لآخر السورة التي قبل هذه لما قال ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون ﴾ محمد ٣٨] الآية بين أنه فتح لهم مكة وغنموا وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ، ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلا على أنفسهم ، وأيضاً لما قال : ﴿ وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [محمد ٣٥] بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلين ، وأيضاً لما قال : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم ﴾ [محمد ٣٥] كان فتح مكة حيث لم يلحقهم وهن ولا دعوا إلى صلح ، بل أتى صناديد قريش مستأمنين مستسلمين مسلمين ، وكانت هذه البشرى بلفظ الماضي ، وإن كان لم يقع لأن إخباره تعالى بذلك لا بد من وقوعه ، وكون هذا الفتح هو فتح مكة بدأ به الزمخشري . وقال الجمهور : هو فتح الحديبية^(٣) ، وقاله السدي والشعبي والزهري . قال ابن عطية : وهو الصحيح انتهى . ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام من القوم بحجارة وسهام ، وعن ابن عباس رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم . وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى

= فحملتني ذنب امرئ وتركته

انظر ديوان النابغة (٥٦) اللسان (عرر).

(١) البيت لامرئ القيس ، انظر ديوانه (٣٢) وروي (مجر) بدل (بحر) اللسان روح المعاني ١٢٨/٢٦ القرطبي ١٩٤/١٦ .

(٢) انظر البخاري كتاب التفسير باب سورة الفتح ، وسنن الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الفتح ٣٨٥/٥ والوسيط ٧١ خ والبغوي ١٨٧/٤ - ١٨٩ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في تخريجه على الكشف ٣٣٢/٤ هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري ، وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه ، ومن طريق أبي الأسود ، وذكره القرطبي في التفسير ٢٦٠/١٦ .

سألوه الصلح . قال الشعبي : بلغ الهدي محله وظهرت الروم على فارس ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وأطعموا كل خير . وقال الزهري : لم يكن فتح أعظم من فتح الحديبية اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام . قال القرطبي : فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف . وقال موسى بن عقبة : قال رجل منصرفهم من الحديبية : ما هذا الفتح لقد صدونا عن البيت ، فقال رسول الله - ﷺ - : بل هو أعظم الفتوح^(١) قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادكم بالراح^(٢) ، ويسألونكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان ، ورأوا منكم ما كرهوا ، وكان في فتحها آية عظيمة ، وذلك أنه نزع ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله - ﷺ - ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ، ولم ينفد ماؤها بعد . وقال الزمخشري : (فإن قلت : كيف يكون فتحاً ، وقد أحصرنا وفتحنا وحلقوا بالحديبية .) قلت : (كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحاً ميبناً انتهى . وفي هذا الوقت اتفقت بيعة الرضوان ، وهو الفتح الأعظم ، قاله : جابر بن عبد الله والبراء بن عازب ، وفيه استقبل فتح خيبر وامتلت أيدي المؤمنين خيراً ولم يفتحها إلا أهل الحديبية ، ولم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية . وقال مجاهد : هو فتح خيبر^(٣) . وفي حديث مجمع بن جارية شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا إذ الناس يهزون الأباعر ، فقبل ما بال الناس قالوا : أوحى الله للنبي - ﷺ - قال : فخرجنا نرجف فوجدنا النبي - ﷺ - عند كراع الغميم فلما اجتمع الناس قرأ النبي - ﷺ - (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أوفتح هو يا رسول الله قال : نعم ، والذي نفسي بيده إنه لفتح ، فقسمت خيبر على أهل الحديبية ولم يدخل فيها أحد إلا من شهد الحديبية . وقال الضحاك : الفتح حصول المقصود بغير قتال ، وكان الصلح من الفتح ، وفتح مكة بغير قتال ، فتناول الفتحين الحديبية ومكة . وقيل : فتح الله تعالى له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة ، والسيوف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحتها ، ومتشعب منه . . وقيل : قضينا لك قضاءً بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل ليطوفوا بالبيت من الفتاحة ، وهي الحكومة ، وكذا عن قتادة . قال الزمخشري : (فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة .) قلت : (لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ونصركناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو ، وسبب للغفران والثواب ، والفتح والظفر بالبلد عنوة ، أو صلحاً بحرب أو بغير حرب لأنه منغلقة ما لم يظفر ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح انتهى . وقال ابن عطية : المراد هنا أن الله فتح لك لكي يجعل ذلك علامة لغفرانه لك ، فكأنها لام صيرورة ، ولهذا قال عليه السلام : لقد أنزلت علي الليلة سورة هي أحب إلي من الدنيا انتهى . ورد بأن لام القسم لا تكسر ولا ينصب بها ولو جاز هذا بحال لجاز ليقوم زيد في معنى ليقوم زيد انتهى . أما الكسر فقد علل بأنه شبهت تشبيهاً بلام كي ، وأما النصب فله أن يقول ليس هذا نصباً لكنها الحركة التي تكون مع وجود النون بقيت بعد حذفها دلالة على الحذف ، وبعد هذا فهذا القول ليس بشيء إذ لا يحفظ من لسانهم ، والله ليقوم ، ولا بالله ليخرج زيد بكسر اللام ، وحذف النون وبقاء الفعل مفتوحاً ، ويتم نعمته عليك بإظهارك على عدوك ورضاه عنك ويفتح مكة والطائف وخيبر (نصراً عزيزاً) أي : بالظفر والتمكن من الأعداء بالغنيمة والأسر والقتل ، نصراً فيه عز ومنعة ، وأسندت العزة إليه مجازاً ، والعزيز حقيقة هو المنصور - ﷺ - وأعيد لفظ الله في وينصرك الله نصراً لما بعد عن ما عطف عليه إذ في الجملتين قبله

(١) والراح : الخمر ، والراح : جمع راحة وهي الكف ، والراح الارتياح ، والظاهر هنا الثالث .

(٢) انظر الوسيط ٧١ خ والبغوي ١١٨/٤ .

ضمير يعود على الله ، وليكون المبدأ مسنداً إلى الاسم الظاهر ، والمنتهى كذلك ، ولما كان الغفران وإتمام النعمة والهداية والنصر يشترك في إطلاقها الرسول - ﷺ - وغيره بقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء ٤٨] وقوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ [الصافات ١٧٢] وكان الفتح لم يبق لأحد إلا للرسول - ﷺ - أسنده تعالى إلى نون العظمة تفخياً لشأنه ، وأسند تلك الأشياء الأربعة إلى الاسم الظاهر ، واشتركت الخمسة في الخطاب له - ﷺ - تأنيساً له ، وتعظيماً لشأنه ، ولم يأت بالاسم الظاهر لأن في الإقبال على المخاطب ما لا يكون في الاسم الظاهر . (هو الذي أنزل السكينة) وهي الطمأنينة والسكون^(١) ، قيل : بسبب الصلح والأمن فيعرفون فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة بعد القتال ، فيزدادوا يقيناً إلى يقينهم . وقيل : السكينة إشارة إلى ما جاء به الرسول - ﷺ - من الشرائع ليزدادوا إيماناً بها إلى إيمانهم وهو التوحيد ، روي معناه عن ابن عباس^(٢) . وقيل : الوقار والعظمة لله ولرسوله^(٣) . وقيل : الرحمة ليرحموا ، وقاله ابن عباس . (والله جنود السموات والأرض) إشارة إلى تسليم الأشياء إليه تعالى ، ينصر من شاء ، وعلى أي وجه شاء ، ومن جنده السكينة ثبتت قلوب المؤمنين . (ليدخل) هذه اللام تتعلق قيل : بـ (إنا فتحنا لك) ، وقيل : بقوله : (ليزدادوا) (فإن قيل :) ويعذب عطف عليه والازدياد لا يكون سبباً لتعذيب الكفار . (أجيب) عن هذا بأنه ذكر لكونه مقصوداً للمؤمن ، كأنه قيل بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم الجنة ، ويعذب الكفار بأيديكم في الدنيا . وقيل بقوله : (وينصرك الله) أي : بالمؤمنين ، وهذه الأقوال فيها بعد . وقال الزمخشري : والله جنود السموات والأرض يسلط بعضها على بعض ، كما يقتضيه علمه وحكمته ، ومن قضيته أن صلح قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ، وأن وعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ، ويشكرون فيستحقوا الثواب فيثيبهم ، ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك ، وكرهوه انتهى . ولا يظهر من كلامه هذا ما يتعلق به اللام ، والذي يظهر أنها تتعلق بمحذوف يدل عليه الكلام . وذلك أنه قال : والله جنود السموات والأرض كان في ذلك دليل على أنه تعالى يبتي بتلك الجنود من شاء ، فيقبل الخير من قضى له بالخير ، والشر من قضى له بالشر ، ليدخل المؤمنين جنات ، ويعذب الكفار فاللام تتعلق ببتي هذه ، وما تعلق بالابتلاء من قبول الإيمان ، والكفر ويكفر معطوف على ليدخل ، وهو ترتيب في الذكر لا ترتيب في الوقوع ، وكان التبشير بدخول الجنة أهم فبدىء به . ولما كان المنافقون أكثر ضرراً على المسلمين من المشركين بدىء بذكرهم في التعذيب . (الظانين بالله ظن السوء) الظاهر أنه مصدر أضيف إلى ما يسوء المؤمنين ، وهو أن المشركين يستأصلونهم ولا ينصرون ، ويدل عليه عليهم دائرة السوء ، وبل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وقيل ظن السوء ما يسوى المشركين من إيصال الهموم إليهم بسبب علو كلمة الله ، وتسليط رسوله قتلاً وأسراً ونهباً ، ثم أخبر أنهم يستعلي عليهم السوء ، ويحيط بهم ، فاحتمل أن يكون خبراً حقيقة ، واحتمل أن يكون هو ما بعده دعاء عليهم ، وتقدم الكلام على هذه الجملة في سورة براءة . وقيل : ظن السوء يشمل ظنونهم الفاسدة من الشرك ، كما قال : (إن يتبعون إلا الظن) النجم ٢٨ ، ومن انتفاء رؤية الله تعالى الأشياء ، وعلمه بها كما قال : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً ﴾ [فصلت ٢٢] بطلان خلق العالم كما قال ذلك ظن الذين كفروا . وقيل : السوء هنا كما تقول هذا فعل سوء . وقرأ الحسن (السوء) فيها بضم السين ، (وكان الله عزيزاً حكيماً) لما تقدم تعذيب الكفار والانتقام منهم ، ناسب ذكر العزة ، ولما وعد تعالى بمغيبات ناسب ذكر العلم ، وقرن باللفظتين ذكر جنود السموات والأرض ، فمنها السكينة التي للمؤمنين ، والنقمة للمنافقين والمشركين ، ومن جنود الله الملائكة في السماء ، والغزاة في سبيل الله في الأرض . وقرأ

(١) انظر البغوي ١٨٩/٤ والوسيط ٧٢ خ .

(٢) انظر البغوي ١٨٩/٤ والوسيط ٧٢ خ .

(٣) انظر البغوي ١٨٩/٤ والوسيط ٧٢ خ .

الجمهور (لتؤمنوا) وما عطف عليه بقاء الخطاب ، وأبو جعفر وأبو حيوه وابن كثير وأبو عمرو وبياء الغيبة ، والجحدري بفتح التاء وضم الزاي خفيف ، وهو أيضاً وجعفر بن محمد كذلك إلا أنهم كسروا الزاي ، وابن عباس والياني بزاءين من العزة ، وتقدم الكلام في وعزروه في الأعراف ، والظاهر أن الضمائر عائدة على الله تعالى ، وتفرق الضمائر يجعلها للرسول - ﷺ - وبعضها لله تعالى حيث يليق قول الضحاك . (بكرة وأصيل) قال ابن عباس : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر (إن الذين يبايعونك) هي بيعة الرضوان ، وبيعة الشجرة حين أخذ الرسول - ﷺ - الأهبة لقتال قريش حين أرجف بقتل عثمان بن عفان فقد بعثه إلى قريش يعلمهم أنه جاء معتمراً لا محارباً ، وذلك قبل أن ينصرف من الحديبية يبايعهم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد ، ولذلك قال سلمة بن الأكوع وغيره : يابعا على الموت . وقال ابن عمر وجابر على أن لا نفر^(١) ، والمبايعة مفاعلة من البيع ، لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وبقي اسم البيعة بعد على معاهدة الخلفاء والملوك . (إنما يبايعون الله) أي : صفقتهم إنما يعضيها ويمنح الثمن الله عز وجل . وقرأ تمام بن العباس بن عبد المطلب (إنما يبايعون الله) أي : لأجل الله ولوجهه ، والمفعول محذوف أي : إنما يبايعونك الله (يد الله فوق أيديهم) ، قال الجمهور : اليد هنا النعمة أي : نعمة الله في هذه المبايعة لما يستقبل من محاسنها ، فوق أيديهم التي مدوها لبيعتك . وقيل : قوة الله فوق قواهم في نصرته ونصرهم . وقال الزمخشري : لما قال إنما يبايعون الله أكد تأكيداً على طريقة التخييل ، فقال : يد الله فوق أيديهم يريد أن يد رسول الله - ﷺ - التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول - ﷺ - كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء ٨٠] (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) فلا يعود ضرر نكته إلا على نفسه انتهى . وقرأ زيد بن علي (ينكث) بكسر الكاف . وقال جابر بن عبد الله : ما نكث أحد منا البيعة إلا جدد بن قيس ، وكان منافقاً اختبأ تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم فحرم . وقرأ الجمهور : (عليه الله) بنصب الهاء ، وقرئ (بما عهد ثلاثياً) ، وقرئ الحميدي (فسيؤتيه) بالياء والحرميان وابن عامر وزيد بن علي بالنون أجراً عظيماً ، هي الجنة وأوفى لغة تهامة . قوله عز وجل :

﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ * بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً * والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً * سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلككم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً * قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن طيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً .

قال مجاهد وغيره : ودخل كلام بعضهم في بعض المخلفون من الأعراب هم جهينة ، ومزينة ، وغفار ، وأشجع ، والدليل ، وأسلم ، استغفرهم رسول الله - ﷺ - حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً ، ليخرجوا معه ، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو ﷺ . وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً ، ورأى

أولئك الأعراب أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش ، وثقيف ، وكنانة والقبائل ، والمجاورين بمكة ، وهم الأحابيش ، ولم يكن الإيمان تمكن من قلوبهم ، ففقدوا عن النبي - ﷺ - ، وتخلفوا ، وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة ، ففضحهم الله عز وجل في هذه الآية ، وأعلم رسوله - ﷺ - بقولهم واعتذارهم ، قبل أن يصل إليهم ، فكان كذلك^(١) (شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) وهذا اعتلال منهم عن تخلفهم ، أي لم يكن لهم من يقوم بحفظ أموالهم وأهلهم غيرهم ، ويدؤوا بذكر الأموال ، لأن بها قوام العيش وعطفوا الأهل لأنهم كانوا يحافظون على حفظ الأهل أكثر من حفظ المال ، وقرىء (شغلنا) بتشديد الغين ، حكاه الكسائي ، وهي قراءة إبراهيم بن نوح بن باذان عن قتيبة ، ولما علموا أن ذلك التخلف عن الرسول كان معصية ، سألوا أن يستغفر لهم ، (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) الظاهر أنه راجع إلى الجملتين المقولتين ، من الشغل وطلب الاستغفار ، لأن قولهم (شغلنا) كذب وطلب الاستغفار خبث منهم وإظهار أنهم مؤمنون عاصون ، وقال الطبري : - هو راجع إلى قولهم (فاستغفر لنا) ، يريد أنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم ، (قل فمن يملك) أي من يمنعكم من قضاء الله (إن أراد بكم ضرراً) من قتل أو هزيمة (أو أراد بكم نفعاً) من ظفر وغنيمة ، أي هو تعالى المتصرف فيكم وليس حفظكم أموالكم وأهلكم بمانع من ضياعها إذا أراد الله تعالى وقرأ الجمهور (ضرراً) بفتح الضاد ، والأخوان بضمها ، وهما لغتان ، ثم بين تعالى لهم العلة في تخلفهم ، وهي ظنهم أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه لا يرجعون إلى أهلهم ، وتقدم الكلام على (أهل) وكيف جمع بالواو والنون في قوله (ما تطعمون أهلهم) ، وقرأ عبد الله إلى (أَهْلِهِمْ) بغير ياء (وزين) قراءة الجمهور مبنياً للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، وقيل غيره ممن نسب إليه التزيين مجازاً ، وقرىء (وَزَيْنَ) مبنياً للفاعل (وظننتم ظن السوء) احتمال أن يكون هو الظن السابق ، وهو ظنهم أن لا ينقلبوا ، ويكون قد ساءهم ذلك الظن وأحزنهم حيث أخلف ظنهم ، ويحتمل أن يكون غيره لأجل العطف ، أي ظننتم أنه تعالى يخلف وعده في نصر دينه وإعزاز رسوله - ﷺ - - (بوراً) هلكى والظاهر أنه مصدر كاهلك ولذلك وصف به المفرد المذكور كقول ابن الزبيري :

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقَتْ إِذْ أَنَا بُورٌ^(٢)

والمؤنث حكى أبو عبيدة امرأة بور والمثنى والمجموع ، وقيل يجوز أن يكون جمع بائر كحائل وحول هذا في المعتل وباذل وبذل في الصحيح وفسر (بوراً) بفاسدين هلكى ، وقال ابن بحر : أشرار . واحتمل (وكنتم) أن يكون المعنى وصرتم بذلك الظن وأن يكون (وكنتم) على بابها ، أي وكنتم في الأصل قوماً فاسدين ، أي الهلاك سابق لكم على ذلك الظن . ولما أخبر تعالى أنهم قوم بور ذكر ما يدل على أنهم ليسوا بمؤمنين فقال : (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) فهو كافر جزاؤه السعير . ولما كانوا ليسوا مجاهرين بالكفر ولذلك اعتذروا وطلبوا الاستغفار مزج وعيدهم وتوبيخهم ببعض الإمهال والترجئة ، وقال الزمخشري : (والله ملك السموات والأرض) يديره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصّر ، (وكان الله غفوراً رحيماً) رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر بالتوبة انتهى . وهو على مذهب الاعتزال (سيقول المخلفون) روي أن الله تعالى أمر نبيه - ﷺ - بغزو ، خير ، ووعد بفتحها ، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسيره إلى خير - وهم عدو مستضعف - طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا من الغنيمة وكان كذلك^(٣) ، (يريدون أن يبدلوا كلام الله) معناه : أن يغيروا وعده لأهل الحديدية بغنيمة

(١) انظر البغوي ١٩١/٤ والوسيط ٧٣.

(٢) البيت من الخفيف انظر اللسان (بور) القرطبي ١٦/١٧٨ الشاهد (إذا أنا بور) ف (بور) مصدر أخبر به عن المفرد ، وقال ابن منظور : وكذلك الاثنان والجمع قال تعالى ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ .

(٣) انظر الوسيط ٧٣ خ .

خير ، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغنم مكة خير إذا قفلوا مواعين لا يصيبون منها شيئاً ، قاله مجاهد وقتادة ، وعليه عامة أهل التأويل ، وقال ابن زيد : كلام الله قوله تعالى (قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً) وهذا لا يصح لأن هذه الآية نزلت مرجع رسول الله ﷺ من تبوك في آخر عمره ، وهذه السورة نزلت عام الحديبية ، وأيضاً فقد غزت مزينة وجهينة بعد هذه المدة معه عليه الصلاة والسلام ، وفضلهم بعد على تميم وغطفان وغيرهم من العرب ، وقرأ الجمهور (كَلَامَ اللَّهِ) بالالف والأخوان (كَلِمَ اللَّهِ) جمع كلمة وأمره تعالى أن يقول لهم (لن تتبعونا) وأق بصيغة لن وهي للمبالغة في النفي ، أي لا يتم لكم ذلك . إذ قد وعد تعالى أن ذلك لا يحضرها إلا أهل الحديبية فقط (كذلك قال الله من قبل) يريد وعده قبل اختصاصهم بها (بل تحسدونا) أي يعز عليكم أن نصيب مغناً معكم ، وذلك على سبيل الحسد أن نقاسمكم فيما تغنمون ، وقرأ أبو حنيفة بكسر السين . ثم رد عليهم تعالى كلامهم هذا فقال : (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) من أمور الدنيا ، وظاهره ليس لهم فكر إلا فيها كقوله ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم ٧] والإضراب الأول : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم ، وإثبات الحسد ، والثاني : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى ما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه (قل للمخلفين من الأعراب) أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم ذلك ، ودل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكونوا أهلاً لذلك الأمر : وأبهم تعالى في قوله (إلى قوم أولي بأس شديد) ، فقال عكرمة وابن جبير وقتادة : هم هوازن ومن حارب الرسول ﷺ في حنين ، وقال كعب : الروم الذين خرج إليهم عام تبوك ، والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة ، وقال الزهري والكلبي : أهل الردة ، وبنو حنيفة باليمامة . وعن رافع بن خديج : إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم أريدوا بها ، وقال ابن عباس وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وعطاء الخراساني وابن أبي ليلى : هم الفرس ، وقال الحسن : فارس والروم ، وقال أبو هريرة : قوم لم يأتوا بعد . وظاهر الآية يرد هذا القول ، والذي أقوله : إن هذه الأقوال تمثيلات من قائلها لا أن المعنى بذلك ما ذكروا ، بل أخبر بذلك مبهماً دلالة على قوة الإسلام ، وانتشار دعوته ، وكذا وقع حسن إسلام تلك الطوائف ، وقاتلوا أهل الردة زمان أبي بكر ، وكانوا في فتوح البلاد أيام عمر ، وأيام غيره من الخلفاء ، والظاهر أن هؤلاء المقاتلين ليسوا ممن تؤخذ منهم الجزية ، إذ لم يذكر هنا إلا القتال أو الإسلام ، ومذهب أبي حنيفة - رحمه الله تعالى ورضي عنه - أن الجزية لا تقبل من مشركي العرب ، ولا من المرتدين ، وليس إلا الإسلام أو القتل ، وتقبل ممن عداهم من مشركي العجم ، وأهل الكتاب والمجوس . ومذهب الشافعي - رحمه الله تعالى - لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس ، دون مشركي العجم والعرب ، وقال الزنجشيري : وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام الرسول ﷺ ، ولكن بعد وفاته . انتهى . وهذا ليس بصحيح فقد حضر كثير منهم مع جعفر في مؤتة ، وحضروا حرب هوازن مع رسول الله - ﷺ - ، وحضروا معه في سفرة تبوك ، ولا يتم قول الزنجشيري إلا على قول من عين أنهم أهل الردة ، وقرأ الجمهور (أو يُسْلَمُونَ) مرفوعاً ، وأبي وزيد بن علي بحذف النون منصوباً بإضمار أن في قول الجمهور من البصريين غير الجرمي ، وبها في قول الجرمي والكسائي ، وبالخلاف في قول الفراء وبعض الكوفيين ، فعلى قول النصب بإضمار أن هو عطف مصدر مقدر على مصدر متوهم أي يكون قتال أو إسلام أي أحد هذين ، ومثله في النصب قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنَكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرُ^(١)

(١) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ٦٦ الكتاب ٤٢٧/١ المختضب ٢٨/٢ الجمل ١٩٧ ، الخصائص ٢٣٦/١ ابن يعيش ٢٢/٧ الخزانة ٦٠١/٣ الأشموني ٢٩٥/٣ .

والرفع على العطف على (تقاتلونهم) ، أو على القطع ، أي أو هم يسلمون دون قتال . (فإن تطيعوا) أي فيما تدعون إليه (كما توليتم من قبل) أي في زمان الخروج مع الرسول ﷺ في زمان الحديبية . (يعذبكم) يحتمل أن يكون في الدنيا ، وأن يكون في الآخرة (ليس على الأعمى حرج) نفى الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو ، ومع ارتفاع الحرج ، فجائز لهم الغزو ، وأجرهم فيه مضاعف ، والأعرج أخرى بالصبر ، وأن لا يفر ، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان أعمى في بعض حروب القادسية . وكان رضي الله عنه يمسك الراية ، فلو حضر المسلمون فالغرض متوجه بحسب الوسع في الغزو ، وقرأ الجمهور (يُدخله) ويعذبه الباء والحسن وقتادة وأبو جعفر والأعرج وشيبة وابن عامر ونافع بالنون قوله عز وجل .

﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً * ولو قاتلكم الذين كفروا للوّلوا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً * وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً * هم الذي كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً * إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

لما ذكر تعالى حال من تخلف عن السفر مع الرسول - ﷺ - ، ذكر حال المؤمنين الخلف ، الذين سافروا معه . والآية دالة على رضا الله تعالى عنهم ، ولذا سميت بيعة الرضوان ، وكانوا فيما روي ألفاً وخمسمائة وعشرين ، وقال ابن أبي أوفى : وثلاثمائة . وأصل هذه البيعة أن رسول الله ﷺ حين نزل الحديبية بعث جواس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة ، وحمله على جل له يقال له ، الثعلب ، يعلمهم أنه جاء معتمراً لا يريد قتالاً ، فلما أتاهاهم وكلمهم عقروا جملة ، وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش ، وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فأراد بعث عمر فقال : قد علمت فظاظتي ، وهم يبعضوني ، وليس هناك من بني عدي من يحميني ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني وأحب إليهم عثمان بن عفان ، فبعثه فأخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً لحرمة ، وكان أبان بن سعيد بن العاصي حين لقيه نزل عن دابته وحمله عليها وأجاره ، فقالت له قريش : إن شئت فطف بالبيت وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه . فقال : ما كنت لأطوف به حتى يطوف به رسول الله ﷺ . وكانت الحديبية من مكة على عشرة أميال ، فصرخ صارخ من العسكر قتل عثمان . فحمى رسول الله ﷺ والمؤمنون وقالوا : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم ، فنادى منادي رسول الله - ﷺ - : البيعة البيعة ، فنزل روح القدس ، فبايعوا كلهم إلا الجند بن قيس المنافق^(١) ، وقال الشعبي : أول من بايع أبو سنان بن وهب الأسدي . والعامل في (إذ) رضي ، والرضا على هذا بمعنى إظهار النعم عليهم ، فهو صفة فعل لا صفة ذات ، لتقيده بالزمان . و (تحت) يحتمل أن يكون معمولاً لـ (يبايعونك) ، أو حالاً من المفعول ، لأنه - ﷺ - كان تحتها جالساً في أصلها ، قال عبد الله بن المغفل : وكنت قائماً على رأسه ، ويدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الغصن عن ظهره ، فبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أنتم اليوم خير أهل الأرض ، وكانت الشجرة سمرة ،

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة الحديبية ، والوسيط ٧٤ خ والبغوي ١٩٣/٤ ، ١٩٤ .

قال بكير بن الأشجع : يوم فتح مكة قال نافع : كان الناس يأتون تلك الشجرة يصلون عندها ، فبلغ عمر فأمر بقطعها ، وكانت هذه البيعة سنة ست من الهجرة ، وفي الحديث عنه - ﷺ - (لا يدخل النار من شهد بيعة الرضوان) ، (فعلم ما في قلوبهم) قال قتادة وابن جريج : من الرضا بالبيعة أن لا يفروا ، وقال الفراء : من الصدق والوفاء ، وقال الطبري ومنذر بن سعيد : من الإيمان وصحته ، والحب في الدين ، والحرص عليه ، وقيل من الهم والانصراف عن المشركين ، والأنفة من ذلك ، على نحو ما خاطب به عمر وغيره ، وهذا قول حسن يترتب معه نزول السكينة ، والتعريض بالفتح القريب والسكينة تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى ، وعلى الأقوال السابقة قيل : هذا القول لا يظهر احتياج إلى إنزال السكينة إلا أن يجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم ، وقال مقاتل : (فعلم ما في قلوبهم) من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا ، قال ابن عطية : وهذا فيه مذمة للصحابه رضي الله تعالى عنهم انتهى ، (وأثابهم فتحاً قريباً) قال قتادة وابن أبي ليلي : فتح خير ، وكان عقب انصرافهم من مكة ، وقال الحسن : فتح هجر ، وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمناً طويلاً ، وقيل : فتح مكة ، والقرب أمر نسبي ، لكن فتح خير كان أقرب ، وقرأ الحسن ونوح القاري ، (وآثامهم) أي أعطاهم ، والجمهور (وأثابهم) من الثواب ، (ومغانم كثيرة) أي مغانم خير ، وكانت أرضاً ذات عقار وأموال فقسمها عليهم ، وقيل : مغانم هجر ، وقيل : مغانم فارس والروم ، وقرأ الجمهور (يأخذونها) بالياء على الغيبة في أثابهم ، وما قبله من ضمير الغيبة ، وقرأ الأعمش وطلحة ورويس عن يعقوب ودلبة عن يونس عن ورش وأبو دحية وسقلاب عن نافع والأنطaki عن أبي جعفر بالتاء على الخطاب كما جاء بعد (وعدكم الله مغانم كثيرة) بالخطاب وهذه المغانم الموعود بها هي المغانم التي كانت بعد هذه ، وتكون إلى يوم القيامة . قاله ابن عباس ومجاهد وجهور المفسرين . ولقد اتسع نطاق الإسلام ، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى ، وغنموا مغانم لا تعد ، وذلك في شرق البلاد وغربها ، حتى في بلاد الهند وفي بلاد السودان في عصرنا هذا ، وقدم علينا حاجاً أحد ملوك غانة من بلاد التكرور ، وذكر عنه أنه استفتح أزيد من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان ، وأسلموا ، وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه ، وقيل : الخطاب لأهل البيعة ، وأنهم سيغنمون مغانم كثيرة ، وقال زيد بن أسلم وابنه : المغانم الكثيرة مغانم خير ، (فعجل لكم هذه) الإشارة بهذه إلى البيعة ، والتخلص من أمر قریش بالصلح ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم وابنه ، وقال مجاهد : مغانم خير ، (وكف أيدي الناس عنكم) أي أهل مكة بالصلح ، وقال ابن عباس : عيينة بن حصن الفزاري ، وعوف بن مالك النضري ، ومن كان معهم إذ جاؤوا لينصروا أهل خير والرسول عليه الصلاة والسلام محاصر لهم ، فجعل الله في قلوبهم الرعب ، وكفهم عن المسلمين ، وقال ابن عباس أيضاً : أسد وغطفان حلفاء خير ، وقال الطبري : كف اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول - ﷺ - إلى الحديبية وإلى خير ، (ولتكون) أي هذه الكفة آية للمؤمنين ، وعلامة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان ، وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم ، وقيل : رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ، ورؤيا الأنبياء حق ، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة ، فجعل فتح خير علامة وعنواناً لفتح مكة ، فيكون الضمير في (ولتكون) عائداً على (هذه) وهي مغانم خير ، والواو في (ولتكون) زائدة عند الكوفيين ، وعاطفة على محذوف عند غيرهم ، أي ليشكروه (ولتكون) أو وعد فعجل وكف لينفعكم بها ، ولتكون ، أو يتأخر أو يقدر ما يتعلق به متأخراً ، أي فعل ذلك (ويهديكم صراطاً مستقيماً) أي طريق التوكل ، وتفويض الأمور إليه ، وقيل : بصيرة وإتقاناً ، (وأخرى لم تقدروا عليها) ، قال ابن عباس والحسن ومقاتل : بلاد فارس والروم وما فتحه المسلمون ، وقال الضحاك وابن زيد وابن إسحاق : خير ، وقال قتادة والحسن : مكة ، وهذا القول يتسق معه المعنى ويتأيد . وفي قوله (لم تقدروا عليها) دلالة على تقدم محاولة لها ، وفوات درك المطلوب في الحال كما كان في مكة ، وقال الزمخشري : هي مغانم هوازن في غزوة حنين ، وقال : لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ، وجوز الزمخشري في (وأخرى) أن تكون مجرورة

بإضمار رب ، وهذا فيه غرابة ، لأن رب لم تأت في القرآن جارة مع كثرة ورود ذلك في كلام العرب ، فكيف يؤق بها مضمرة ؟ وإنما يظهر أن (وأخرى) مرفوع بالابتداء ، فقد وصفت بالجملة بعدها ، وقد أحاط هو الخبر ، ويجوز أن تكون في موضع نصب بمضمر يفسره معنى قد أحاط الله بها ، أي وقضى الله أخرى ، وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين . ومعنى (قد أحاط الله بها) بالقدرة والقهر لأهلها أي قد سبق في علمه ذلك ، وظهر فيها أنهم لم يقدرُوا عليها ، (ولو قاتلكم الذين كفروا) هذا ينبنى على الخلاف في قوله تعالى (وكف أيدي الناس عنكم) أهم مشركو مكة ، أو ناصرو أهل خير أو اليهود (لولو الأذبار) أي لعلبوا وانهمزوا ، (سنة الله) في موضع المصدر المؤكد لمضمون الجملة قبله ، أي سن الله عليه أنبياءه سنة وهو قوله ﴿ لاغلبن أنا ورسلي ﴾ [المجادلة ٢١] (وهو الذي كف أيديهم) أي قضى بينكم المكافاة والمجازاة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وروي في سببها : أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل ، وخرجوا يطلبون غرة في عسكر - رسول الله ﷺ - فلما أحس بهم المسلمون بعث عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد ، وسماه حينئذ سيف الله في جملة من الناس ففروا أمامهم ، حتى أدخلوهم بيوت مكة ، وأسروا منهم جملة ، وسيقوا إلى الرسول ﷺ فمنّ عليهم وأطلقهم ، وقال قتادة : كان ذلك بالحديبية عند معسكره وهو ببطن مكة ، وعن أنس : هبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم مسلحين يريدون غرته فأخذناهم فاستحياهم ، وفي حديث عبد الله بن معقل : أن رسول الله ﷺ دعا عليهم فأخذ الله أبصارهم فقال لهم : هل جئتم في عهد ، وهل جعل لكم أحد أماناً ؟ قالوا : اللهم لا ، فخلى سبيلهم ، وقال الزمخشري : كان يعني هذا الكف يوم الفتح ، وبه استشهد أبو حنيفة على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً ، وقيل : كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة ، فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة ، وعن ابن عباس : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت انتهى ، وقرأ الجمهور (بما تعملون) على الخطاب وأبو عمرو وبالياء وهو تهديد للكفار (هم الذين كفروا) يعني أهل مكة ، قال ابن خالويه : يقال الهدي والهدي والهاء ثلاث لغات انتهى ، وقرأ الجمهور (الهدي) بسكون الدال ، وهي لغة قريش وابن هرمز والحسن وعصمة عن عاصم واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمر (والهدي) بكسر الدال وتشديد الياء وهما لغتان ، وهو معطوف على الضمير في (صدوكم) (ومعكوفاً) حال ، أي محبوساً ، عكفت الرجل عن حاجته حبسته عنها ، وأنكر أبو عليّ تعدي عكف ، وحكاه ابن سيده والأزهري وغيرهما ، وهذا الحبس يجوز أن يكون من المشركين بصددهم ، أو من جهة المسلمين لترددهم ونظرهم في أمرهم ، وقرأ الجعفي عن أبي عمرو : (والهدي) بالجر معطوفاً على المسجد الحرام أي وعن نحر الهدي ، وقرأ بالرفع على إضمار وصد (الهدي) . وكان خرج عليه ومعه مائة بدنة قاله مقاتل ، وقيل : بسبعين ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت البدنة عن عشرة ، قاله المسور بن مخرمة ، وأبي بن الحكم (أن يبلغ محله) قال الشافعي : الحرم . وبه استدلل أبو حنيفة أن محل هدى المحصر الحرم لا حيث أحصر ، وقال الفراء : حيث يحل نحره ، و (أن يبلغ) يحتمل أن يتعلق بالصد ، أي وصدوا الهدي ، وذلك على أن يكون بدل اشتغال ، أي وصدوا بلوغ الهدي محله ، أو على أنه مفعول من أجله ، أي كراهة أن يبلغ محله ، ويحتمل أن يتعلق بمعكوفاً ، أي محبوساً لأجل أن يبلغ محله ، فيكون مفعولاً من أجله ، ويكون الحبس من المسلمين ، أو محبوساً عن أن يبلغ محله ، فيكون الحبس من المشركين ، وكان بمكة قوم من المسلمين مختلطين بالمشركون ، غير متميزين عنهم ، ولا معروفين الأماكن ، فقال تعالى (ولولا) كراهة أن يهلكوا أناساً مؤمنين بين ظهرائي المشركين ، وأنتم غير عارفين لهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة ، ما كف أيديكم عنهم ، وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ، قال الزمخشري : ويجوز أن يكون (لوتزلبوا) كالتكرير لـ (لولا رجال مؤمنون) لرجعها إلى معنى واحد ، ويكون (لعذبنا) هو الجواب انتهى . وقوله لرجعها إلى معنى واحد ليس بصحيح ، لأن ما تعلق به لولا الأولى غير ما تعلق به الثانية ، فالمعنى في الأولى ولولا وطء قوم مؤمنين ، والمعنى في

الثانية لو تميزوا من الكفار ، وهذا معنى مغاير للأول مغايرة ظاهرة ، و (أن تطوهم) بدل اشتغال من رجال وما بعده ، وقيل : بدل من الضمير في (تعلموهم) أي لم تعلموا وطأهم ، أي أنه وطء مؤمنين ، وهذا فيه بعد ، والوطء الدوس ، وعبر به عن الإهلاك بالسيف وغيره ، قال الشاعر :

وَوَطِئْتَنَّا وَطْئًا عَلَى حَنْقٍ وَطْءُ الْمُقَيَّدِ ثَابِتُ الْهَرَمِ^(١)

وفي الحديث (اللهم اشدد وطأتك على مضر) و (لم تعلموهم) صفة لرجال ونساء غلب فيها المذكر ، والمعنى لم تعرفوا أعيانهم وإنهم مؤمنون ، وقال ابن زيد : المعرة المأثم ، وقال ابن إسحق : الدية ، وقال ابن عطية : وهذا ضعيف لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان بين أهل الحرب ، وقال الطبري : هي الكفارة ، وقال القاضي منذر بن سعيد : المعرة : أن يعنفهم الكفار ، ويقولون قتلوا أهل دينهم ، وقيل الملامة وتألم النفس منه في باقي الزمن ، ولفق الزمخشري من هذه الأقوال سؤالاً وجواباً على عادته في تلفق كلامه من أقوالهم وإيhamه أنها سؤالات وأجوبة له ، فقال : (فإنه قلت) : أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون ؟ (قلت) : يصيبهم وجوب الدية ، والكفارة ، وسوء مقالة المشركين ، إنهم فعلوا بأهل دينهم ما فعلوا بنا من غير تمييز والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير انتهى بغير علم إخبار عن الصحابة ، وعن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية ، والامتناع من التعدي ، حتى إنهم لو أصابوا من ذلك أحداً لكان من غير قصد ، كقول النملة عن جند سليمان ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ [النمل ١٨] (وبغير علم) متعلق بـ (أن تطوهم) ، وقيل : متعلق بقوله (فتصيبكم منهم معرة) من الذين بعدكم ، ممن يعتب عليكم ، وقرأ الجمهور (لو تَزِيلُوا) ، وابن أبي عبله وابن مقسم وأبو حيوة وابن عون (لو تَزِيلُوا) على وزن (تفاعلوا) وليدخل متعلق بمحذوف دل عليه المعنى ، أي كان انتفاء التسليط على أهل مكة ، وانتفاء العذاب ليدخل الله في رحمته من يشاء ، وهذا المحذوف هو مفهوم من جواب لو ، ومعنى (تزيلوا) لو ذهبوا عن مكة ، أي لو تزيل المؤمنون من الكفار وتفرقوا منهم ، ويجوز أن يكون الضمير للمؤمنين والكفار ، أي لو افترق بعضهم من بعض ، (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) إذ معمول لـ (عذبنا) أو لـ (وصدوكم) أو لـ (اذكر) مضمرة ، والحمية : الأنفة يقال : حميت عن كذا حمية إذا أنفت عنه ، وداخلك عار وأنفة لفعله قال المتلمس :

أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَعَرَضِي عَرَضُهُمْ كَذَا الرَّأْسُ يَحْمِي أَنْفَهُ أَنْ يَهْشَمَا^(٢)

وقال الزهري : حميتهم أنفتهم عن الإقرار لرسول الله ﷺ بالرسالة ، والاستفتاح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) والذي امتنع من ذلك هو سهيل بن عمرو ، وقال ابن بحر : حميتهم : عصبيتهم لأهنتهم ، والأنفة أن يعبدوا غيرها ، وقيل : قتلوا آباءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ؟ واللات والعزى لا يدخلها أبداً ، وكانت حمية جاهلية لأنها بغير حجة ، وفي غير موضعها ، وإنما ذلك محض تعصب ، لأنه ﷺ إنما جاء معظماً للبيت ، لا يريد حرباً ، فهم في ذلك كما قال الشاعر في حمية الجاهلية :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوِيَتْ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشِدَ^(٣)

وحمية بدل من الحمية ، والسكينة : الوقار والاطمئنان ، فتوقروا وحلموا و (كلمة التقوى) لا إله إلا الله . روي

(١) البيت من الكامل للحارث بن وعله انظر شرح المفصلية (٥٤٩) ديوان الحماسة ١/٧١ - ٧٣ الكشف ٤/٣٤٣ روح المعاني ٢٦/١١٣ .

(٢) البيت من الطويل انظر القرطبي ١٦/١٩٠ .

(٣) انظر مغني اللبيب رقم (٨٩٢) .

ذلك عن النبي ﷺ ، وبه قال علي وابن عباس وابن عمر وعمر بن ميمون وقتادة ومجاهد وعكرمة والضحاك وسلمة بن كهيل وعبيد بن عمير وطلحة بن مصرف والربيع والسدي وابن زيد ، وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً : هي لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وقال علي بن أبي طالب وابن عمر - رضي الله تعالى عنهما - : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، وأضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها ، وقيل : هو على حذف مضاف ، أي كلمة أهل التقوى ، وقال المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم : كلمة التقوى هنا هي بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي التي أباهها كفار قريش ، فألزمها الله المؤمنين وجعلهم أحق بها ، وقيل : قولهم سمعاً وطاعة ، والظاهر أن الضمير في (وكانوا) عائد على المؤمنين ، والمفضل عليهم محذوف ، أي أحق بها من كفار مكة ، لأن الله تعالى اختارهم لدينه ، وصحبه نبيه ﷺ ، وقيل : من اليهود والنصارى ، وهذه الأحقية هي في الدنيا ، وقيل : أحق بها في علم الله تعالى ، وقيل : وأهلها في الآخرة بالثواب ، وقيل : الضمير في (وكانوا) عائد على كفار مكة ، لأنهم أهل حرم الله ، ومنهم رسوله لولا ما سلبوا من التوفيق ، (وكان الله بكل شيء عليماً) إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ، ورفع الكفار عنهم ، وإلى علمه بصلح الكفار في الحديبية ، إذ كان سبباً لامتناع العرب ، وإسلام كثير منهم ، وعلو كلمة الإسلام ، وكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمائة ، وبعده بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف ، وقال أبو عبد الله الرازي : في هذه الآية لطائف معنوية ، وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن ، باين بين الفاعلين إذ فاعل (جعل) هو الكفار ، وفاعل (أنزل) هو الله تعالى ، وبين المفعولين ، إذ تلك حمية وهذه سكية ، وبين الإضافتين ، أضاف الحمية إلى الجاهلية ، وأضاف السكية إلى الله تعالى ، وبين الفعل (جعل) و (أنزل) فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى ، والسكية كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها ، والحمية قبيحة مذمومة في نفسها ، وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية ، والسكية حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى ، والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة ، تقول : أكرمني زيد فأكرمته ، فدل على المجازاة للمقابلة ، ولذلك جعل فأنزل ولما كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح وكان المؤمنون عازمين على القتال وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر ، وأبوا إلا أن يكتبوا محمد رسول الله - ﷺ - ، وباسم الله قال تعالى (على رسوله) ولما سكن هو ﷺ للصلح سكن المؤمنون فقال (وعلى المؤمنين) ولما كان المؤمنون عند الله تعالى ألزموا تلك الكلمة قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفيه تلخيص وهو كلام حسن . قوله عز وجل .

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود * ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴿ رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية ، وقال مجاهد : كانت الرؤيا بالحديبية أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين ، وقد حلّقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، وفرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله ﷺ حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث : والله ما حلّقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت^(١) ، وروي : أن رؤياه كانت أن ملكاً جاءه فقال له (لتدخلن) الآية ، ومعنى

(١) انظر تفسير مجاهد ٦٠٣/٢ والطبري ٦٨/١٦ والبغوي ٢٠٣/٤ ، ٢٠٤ وابن كثير ٢٠١/٤ والوسيط ٧٦ خ والدر المنثور ٨١/٦ .

(صدق الله) لم يكذبه ، والله تعالى منزّه عن الكذب ، وعن كل قبيح ، و (صدق) يتعدى إلى اثنين ، الثاني بنفسه وبحرف الجر ، تقول : صدقت زيدا الحديث وصدقته في الحديث ، وقد عدها بعضهم في أخوات استغفر وأمر ، وقال الزمخشري : فحذف الجار وأوصل الفعل لقوله تعالى ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ [الأحزاب ٢٣] انتهى . فدل كلامه على أن أصله حرف الجر ، و (بالحق) متعلق بمحذوف أي صدقاً ملتبساً بالحق . (لتدخلن) اللام جواب قسم محذوف ، ويبعد قول من جعله جواب بالحق ، و (بالحق) قسم لا تعلق له بصدق ، وتعليقه على المشيئة قيل : لأنه حكاية قول الملك للرسول ﷺ ، قاله ابن كيسان ، وقيل : هذا التعليق تأدب بآداب الله تعالى ، وإن كان الموعود به متحقق الوقوع حيث قال تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف ٢٣] ، ٢٤ ، وقال ثعلب : استثنى فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون ، وقال الحسن بن الفضل : كان الله علم أن بعض الذين كانوا بالحديبية يموت فوقع الاستثناء لهذا المعنى ، وقال أبو عبيدة وقوم : إن بمعنى إذ كما قيل في قوله وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، وقيل : هو تعليق في قوله (آمنين) لا لأجل إعلامه بالدخول ، فالتعليق مقدم على موضعه ، وهذا القول لا يخرج التعليق عن كونه معلقاً على واجب ، لأن الدخول والأمن أخبر بهما تعالى ، ووقعت الثقة بالأمرين ، وهم الدخول والأمن الذي هو قيد في الدخول ، و (آمنين) حال مقارنة للدخول ، و (محلقين) و (مقصرين) حال مقدرة و (لا تخافون) بيان لكمال الأمن بعد تمام الحج ، ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أنهم يدخلونها فيما يستأنف ، واطمأننت قلوبهم ، ودخلوها معه عليه الصلاة والسلام في ذي القعدة سنة سبع ، وذلك ثلاثة أيام هو وأصحابه ، وصدقت رؤياه ﷺ ، (فعلم ما لم تعلموا) أي ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ، ودخول الناس فيه ، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله بهم ، قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : (فعلم ما لم تعلموا) من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل انتهى . ولم يكن فتح مكة في العام القابل ، إنما كان بعد ذلك بأكثر من عام ، لأن الفتح إنما كان سنة ثمان من الهجرة ، (فجعل من دون ذلك) أي من قبل ذلك ، أي من زمان دون ذلك الزمان الذي وعدوا فيه بالدخول (فتحاً قريباً) قال كثير من الصحابة : هذا الفتح القريب هو بيعة الرضوان ، وقال مجاهد وابن إسحاق : هو فتح الحديبية ، وقال ابن زيد : خير . وضعف قول من قال إنه فتح مكة ، لأن فتح مكة لم يكن دون دخول الرسول ﷺ وأصحابه مكة ، بل كان بعد ذلك ، (هو الذي أرسل رسوله) فيه تأكيد لصدق رؤياه ﷺ ، وتبشير بفتح مكة لقوله تعالى (ليظهره على الدين كله) وتقدم الكلام على معظم هذه الآية ، (وكفى بالله شهيداً) على أن ما وعده كائن . وعن الحسن : شهيداً على نفسه أنه سيظهر دينك ، والظاهر أن قوله (محمد رسول الله) مبتدأ وخبر ، وقيل : (رسول الله) صفة ، وقال الزمخشري : عطف بيان ، (والذين) معطوف والخبر عنه وعنهم (أشداء) وأجاز الزمخشري : أن يكون (محمد) خبر مبتدأ محذوف أي هو محمد ، لتقدم قوله (هو الذي أرسل رسوله) ، وقرأ ابن عامر في رواية : (رسول الله) بالنصب على المدح (والذين معه) هم من شهد الحديبية ، قاله ابن عباس ، وقال الجمهور : جميع أصحابه (أشداء) جمع شديد ، كقوله أعزة على الكافرين (رحماء بينهم) كقوله ﴿ أذلة على المؤمنين ﴾ [المائدة ٥٤] . وكقوله ﴿ واغلظ عليهم ﴾ [التوبة ٧٣] وقوله ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة ١٢٨] ، وقرأ الحسن (أشداء) (رحماء) بنصبهما ، قيل : على المدح ، وقيل : على الحال ، والعامل فيهما العامل في معه ، ويكون الخبر عن المبتدأ المتقدم تراهم ، وقرأ يحيى بن يعمر (أشداً) بالقصر ، وهي شاذة لأن قصر الممدود إنما يكون في الشعر نحو قوله : لَا بَدُّ مِنْ صَنَعَا وَإِنْ طَالَ السَّفَرُ ، وفي قوله (تراهم ركعاً سجداً) دليل على كثرة ذلك منهم ، وقرأ عمرو بن عبيد : (ورُضُوناً) بضم الراء ، وقرئ (سَمِيحاًهُمْ) بزيادة ياء والمد ، وهي لغة فصيحة كثيرة في الشعر قال الشاعر :

غُلَامَ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعاً لَهُ سِيَمَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ^(١)

وهذه السيماء قال مالك بن أنس : كانت جباههم منيرة من كثرة السجود في التراب^(٢) ، وقال ابن عباس وخالد الحنفي وعطية : وعد لهم بأن يجعل لهم نوراً يوم القيامة من أثر السجود^(٣) ، وقال ابن عباس أيضاً : السميت الحسن وخشوع يدعو على الوجه^(٤) ، وقال الحسن ومعمّر بن عطية : بياض وصفرة وبهيج يعتري الوجه من السهر^(٥) ، وقال عطاء والربيع بن أنس : حسن يعتري وجوه المصلين^(٦) ، وقال منصور : سألت مجاهداً هذه السيماء هي الأثر يكون بين عيني الرجل ؟ قال : لا ، وقد تكون مثل ركة البعير ، وهي أقسى قلباً من الحجارة^(٧) ، وقال ابن جبير : ذلك مما يتعلق بجاههم من الأرض عند السجود ، وقال الزمخشري : المراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجّاد من كثرة السجود ، وقوله (من أثر السجود) يفسرها أي : من التأثير الذي يؤثره السجود ، وكان كل من العليين علي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن العباس أبي الملوك يقال له : ذو الثفّات لأن كثرة سجودهما أحدثت في مواضع منها أشباه ثفّات البعير . انتهى ، وقرأ ابن هرمز (إثر) بكسر الهمزة وسكون الثاء والجمهور بفتحهما ، وقرأ قتادة من (آثار) السجود بالجمع (ذلك) أي ذلك الوصف من كونهم أشداء رحماء مبتغيين سيماءهم في وجوههم صفتهم في التوراة ، قال مجاهد والفراء : هو مثل واحد ، أي : ذلك صفتهم في التوراة والإنجيل فيوقف على الإنجيل ، وقال ابن عباس : هما مثلان فيوقف على ذلك في التوراة و (كزرع) خبر مبتدأ محذوف أي مثلهم كزرع ، أو هم كزرع ، وقال الضحاك : المعنى ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة ، وتم الكلام ثم ابتدأ (ومثلهم في الإنجيل كزرع) فعلى هذا يكون (كزرع) خبر (ومثلهم) ، وقال قتادة : مثل أصحاب النبي ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبئون نبأاً كالزرع يأمرّون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله (كزرع أخرج شطأه) كقوله ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء ﴾ [الحجر ٦٦] ، وقال ابن عطية : وقوله (كزرع) هو على كلا الأقوال وفي أي كتاب أنزل فرض مثل للنبي ﷺ وأصحابه ، في أن النبي ﷺ بعث وحده ، فكان كالزرع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل انتهى ، وقال ابن زيد : شطأه فراخه وأولاده ، وقال الزجاج : نباته ، وقال قطرب : شتول السنبلة يخرج من الحبة عشر سنبلات وتسع وثمان ، قاله الفراء ، وقال الكسائي والأخفش : طرفه ، قال الشاعر :

أَخْرَجَ الشُّطْءَ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى وَمِنْ الْأَشْجَارِ أَفْنَانُ الثُّمَرِ^(٨)

وقرأ الجمهور (شطأه) بإسكان الطاء ، والهمز وابن كثير وابن ذكوان بفتحهما ، وكذلك وبالمذ أبو حية وابن أبي عبله وعيسى الكوفي ، وبألف بدل الهمزة زيد بن علي ، فاحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز فنقل الحركة

(١) البيت من الطويل لأسيد بن عتقاء الفزاري ، انظر ديوان الحماسة ٢٥٢/٢ روح المعاني ٢٦/١٢٤ .

(٢) انظر جامع البيان ٢٦/٧٠ والبغوي ٤/٢٠٦ والقرطبي ٧/٦١١٣ وزاد المسير ٧/٤٤٦ وابن كثير ٤/٢٠٤ والوسيط ٧٧ خ .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) المصادر السابقة .

(٥) المصادر السابقة .

(٦) المصادر السابقة .

(٧) المصادر السابقة .

(٨) البيت من الرجز لم نهند لقائله ، انظر القرطبي ١٦/١٩٤ روح المعاني ١٦/١٢٦ فتح القدير ٥/٥٦ والشاهد في استعمال الشطء في الحنطة والشعير وغيرهما .

وأبدل الهمزة ألفا ، كما قالوا في المرأة والكمأة والمرأة والكمأة ، وهو تخفيف مقيس عند الكوفيين ، وهو عند البصريين شاذ لا يقاس عليه ، وقرأ أبو جعفر (شَطَّه) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الطاء ، ورويت عن شيبة ونافع والجدري ، وعن الجحدري أيضاً (شَطَّوْهُ) بإسكان الطاء وواو بعدها ، وقال أبو الفتح : هي لغة وبدل من الهمزة ، ولا يكون الشط إلا في البر والشعير وهذه كلها لغات ، وقال صاحب اللوامخ : شطأ الزرع وأشطأ إذا أخرج فراخه ، وهو في الحنطة والشعير وغيرهما ، وقرأ ابن ذكوان (فازره) ثلاثيا وباقي السبعة (فَأَزَّرُهُ) على وزن أفعله وقرىء (فَأَزَّرُهُ) بتشديد الزاي ، وقول مجاهد وغيره (آزره) فاعله خطأ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يؤزر على وزن يكرم ، والضمير المنصوب في (آزره) عائذ على الزرع ، لأن الزرع أول ما يطلع رقيق الأصل فإذا خرجت فراخه غلظ أصله وتقوى ، وكذلك أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أقله ضعفاء فلما كثروا وتقوا قاتلوا المشركين ، وقال الحسن (آزره) قواه وشدَّ أزره ، وقال السدي : صار مثل الأصل في الطول ، (فاستغلظ) صار من الرقة إلى الغلظ ، (فاستوى) أي تم نباته ، (على سوقه) جمع ساق كناية عن أصوله ، وقرأ ابن كثير على (سُوقِهِ) بالهمز ، قيل : وهي لغة ضعيفة يهمزون الواو الذي قبلها ضمة ، ومنه قول الشاعر ، أَحَبُّ الْمُؤَقِدِينَ إِلَيَّ مُوسَى^(١) ، (يعجب الزراع) جملة في موضع الحال ، وإذا أعجب الزراع فهو أخرى أن يعجب غيرهم ، لأنه لا عيب فيه إذ قد أعجب العارفين بعيوب الزرع ، ولو كان معيبا لم يعجبهم ، وهنا تم المثل و (ليغيظ) متعلق بمحذوف يدل عليه الكلام قبله تقديره جعلهم الله بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : ليغيظ بهم الكفار تعليل لماذا ؟ (قلت) : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من غنائمهم وترقيهم في الزيادة والقوة ، ويجوز أن يعلل به ، (وعد الله الذين آمنوا) لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ، ومعنى (منهم) للبيان كقوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ [الحج ٣٠] ، وقال ابن عطية : وقوله (منهم) لبيان الجنس وليست للتبعيض لأنه وعد مدح الجميع ، وقال ابن جرير : يعني من الشطء الذي أخرجه الزرع وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع إلى يوم القيامة ، فأعاد الضمير على معنى الشطء لأعلن لفظه ، والأجر العظيم : الجنة ، وذكر عند مالك بن أنس رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية وقال : من أصبح بين الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية والله الموفق .

(١) صدر بيت من الوافر لجرير وروايته في الديوان :

لحب الواقدين إليَّ موسى وجعدة لو أضاءهما الوقود

انظر الديوان ٢٢٨/١ اللسان (سوق) الشاهد فيه (المؤقدين - موسى) حيث قلبت الواو همزة ساكنة .

سورة الحجرات ثمانى عشرة آية مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۚ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَتْمِينَ ۚ (٦) وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۚ (٧) فَضَلَّأَ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۚ (٨) وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّى تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۚ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۚ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۚ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۚ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۚ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٧ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨

التنازع بالألقاب : التداعي بها تفاعل من نيزه ، وبنو فلان يتنازعون ويتنازبون ، ويقال : النبز والتزب : لقب السوء ، اللقب : هو ما يدعى به الشخص من لفظ غير اسمه وغير كنيته ، وهو قسبان : قبيح : وهو ما يكرهه الشخص لكونه تقصيرا به وذما ، وحسن : وهو بخلاف ذلك ، كالصديق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وأسد الله لحمزة رضي الله تعالى عنهم ، تجسس الأمر : تطلبه وبحث عن خفيه تفعل من الجس ، ومنه الجاسوس وهو الباحث عن العورات ليعلم بها ، ويقال لمشاعر الإنسان الحواس بالخاء والجيم ، الشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي ، الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، فالشعب : يجمع القبائل ، والقبيلة : تجمع العماير ، والعمارة : تجمع البطون ، والبطن : يجمع الأفخاذ ، والفخذ : يجمع الفصائل ، خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصي بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها ، وروي عن ابن عباس : الشعوب البطون هذا غير ما تمالأ عليه أهل اللغة ، ويأتي خلاف في ذلك عند قوله (وجعلناكم شعوبا) القبيلة : دون الشعب شبهت بقبائل الرأس لأنها قطع تقابلت ، ألت يألُت بضم اللام وكسرهما ألتا ، ولات يليت ، وألات يليت ، رباعيا ثلاث لغات حكاه أبو عبيدة ، والمعنى : نقص ، وقال رؤية :

وَلَيْلَةٌ ذَاتَ نَدَى سَرَيْتُ وَلَمْ يَلْتَنِي عَنْ سُرَاهَا لَيْتٌ^(١)

أي : لم يمنعني ولم يحبسني ، وقال الخطيئة :

أَبْلَغُ سَرَاةٍ بَيْنِي سَعْدٍ مُغْلَظَةٌ جَهْدَ الرِّسَالَةِ لَا أَلْتَأُ وَلَا كَذِبًا^(٢)

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ، يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو طيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (ليت) المحتسب ٢/ ٢٩٠ القرطبي ١٦/ ٢٢٧ فتح القدير ٥/ ١٦٨ .

(٢) البيت من البسيط ، انظر ديوانه ١٣٥ المحتسب ٢/ ٢٩٠ اللسان (ألت) الشاهد استعمال (ألتأ) بمعنى النقص .

هذه السورة مدنية ، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه ثم قال (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) ، وكانت عادة العرب وهي إلى الآن الاشتراك في الآراء ، وأن يتكلم كل بما شاء وفعل ما أحب ، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك ، قال قتادة : فربما قال قوم : ينبغي أن يكون كذا لو أنزل في كذا ، وقال الحسن : ذبح قوم ضحايًا قبل النبي ﷺ ، وفعل قوم في بعض غزواته شيئاً بأرائهم فنزلت هذه الآية^(١) ناهية عن جميع ذلك ، فقال ابن عباس : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وتقول العرب تقدمت في كذا وكذا ، وقدمت فيه إذا قلت فيه ، وقرأ الجمهور (لا تُقَدِّمُوا) فاحتمل أن يكون متعدياً وحذف مفعوله ، ليتناول كل ما يقع في النفس مما تقدم ، فلم يقصد لشيء معين بل النهي متعلق بنفس الفعل دون تعرض لمفعول معين ، كقوله فلان يعطي ويمنع ، واحتمل أن يكون لازماً بمعنى : تقدم كما تقول وجه بمعنى توجه ، ويكون المحذوف مما يوصل بحرف أي : لا تتقدموا في شيء ما من الأشياء أو بما يحبون ، ويعضد هذا الوجه قراءة ابن عباس وأبي حنيفة والضحاك ويعقوب وابن مقسم (لا تُقَدِّمُوا) بفتح التاء والقاف والدال على اللزوم ، وحذفت التاء تخفيفاً ، إذ أصله لا تتقدموا ، وقرأ بعض المكين (تقدموا) بشد التاء أدمغ تاء المضارعة في التار بعدها كقراءة البزي ، وقرئ (لا تُقَدِّمُوا) مضارع قدم بكسر الدال من القدم ، أي : لا تقدموا إلى أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليها ، والمكان المسامت وجه الرجل قريباً منه ، قيل فيه : يدي المجلوس إليه توسعاً لما جاور الجهتين من اليمين واليسار ، وهي في قوله (بين يدي الله) مجاز من مجاز التمثيل ، وفائدة تصوير الهجنة والشناعة ، فيها نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاهتداء على أمثلة الكتاب والسنة ، والمعنى لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ، ويأذنان فيه ، فتكونوا عاملين بالوحي المنزل ، أو مقتدين برسول الله ﷺ ، وهذا وعلى مدار تفسير ابن عباس ، وقال مجاهد : لا تفتاتوا على الله شيئاً حتى يقصه الله على لسان رسوله ﷺ ، وفي هذا النهي توطئه لما يأتي بعد من نهيمهم عن رفع أصواتهم ، ولما نهى أمر بالتقوى ، لأن من التقوى اجتناب المنهي عنه ، (إن الله سميع) لأقوالكم (عليم) بنياتكم وأفعالكم ، ثم ناداهم ثانياً تحريكا لما يليق به ، واستبعاداً لما يتجدد من الأحكام ، وتطرية للإنصات ، ونزلت بسبب عادة الأعراب من الجفاء وعلو الصوت (لا ترفعوا أصواتكم) أي إذا انطلق ونطقتم (ولا تجهروا له بالقول) إذا كلمتموه ، لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجل ، ولا يكون الكلام مع الرسول - ﷺ - كالكلام مع غيره ، ولما نزلت قال أبو بكر - رضي الله عنه - لا أكلمك يا رسول الله إلا السرار ، أو أخوا السرار حتى ألقى الله^(٢) . وعن عمر - رضي الله عنه - أنه كان يكلم النبي ﷺ كأخي السرار ، لا يسمعه حتى يستفهمه^(٣) . وكان أبو بكر إذا قدم على الرسول - ﷺ - قوم أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ، ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله ﷺ^(٤) ، ولم يكن الرفع والجهر إلا ما كان في طباعهم ، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء ، لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفراً ، والمخاطبون مؤمنون ، (كجهر بعضكم لبعض) أي في عدم المبالاة وقلة الاحترام ، فلم ينهوا إلا

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ١٠٦٧/٣ والطبري ٧٤/٢٦ البغوي ٢٠٩/٤ والقرطبي ١٢١/٧ وزاد المسير ٤٥٤/٧ .

(٢) انظر زاد المسير ٤٥٧/٧ والبغوي ٢١٠/٤ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ١٠٨/٧ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٤٦٢/٢ وفتح الباري ٥٩١/٨ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

(٣) انظر زاد المسير ٤٥٧/٧ والبغوي ٢١٠/٤ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ١٠٨/٧ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٤٦٢/٢ وفتح الباري ٥٩١/٨ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

(٤) انظر زاد المسير ٤٥٧/٧ والبغوي ٢١٠/٤ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ١٠٨/٧ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٤٦٢/٢ وفتح الباري ٥٩١/٨ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

عن جهر مخصوص ، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر رسول الله - ﷺ - وبحضرة العالم ، وفي المساجد وعن ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر ، وكان جهير الصوت ، وحديثه في انقطاعه في بيته أياماً بسبب ذلك مشهور ، وأنه قال : يا رسول الله لما أنزلت خفت أن يحبط عملي ، فقال له رسول الله - ﷺ - إنك من أهل الجنة وقال له مرة : أما ترضى أن تعيش حميداً ، وتموت شهيداً ؟ فعاش كذلك ، ثم قتل باليامة - رضي الله تعالى عنه - يوم مسيلمة ، (أن تحبط أعمالكم) إن كانت الآية معرضة بمن يجهر استخفافاً فذلك كفر يحبط معه العمل حقيقة ، وإن كانت للمؤمن الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على عادته فإنما يُحبط عَمَلُهُ البرّ في توقير النبي - ﷺ - ، وغض الصوت عنده أن لو فعل ذلك كأنه قال : مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها ، و (أن تحبط) مفعول له ، والعامل فيه (ولا تجهروا) على مذهب البصريين في الاختيار ، و (لا ترفعوا) على مذهب الكوفيين في الاختيار ، ومع ذلك فمن حيث المعنى حبوط العمل علة في كل من الرفع والجهر ، وقرأ عبد الله وزيد بن علي (فَتَحَبَّطَ) بالفاء ، وهو مسبب عن مقاماً قبله ، (إن الذين يغضون أصواتهم) قيل : نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لما كان منهما من غض الصوت ^(١) ، والبلوغ به أخص السرار (امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي : جربت ودربت للتقوى ، فهي مضطلة بها ، أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأن تحقيق الشيء باختباره ، أي : عرف قلوبهم كائنة للتقوى ، ف (للتقوى) في موضع الحال ، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن لأجل التقوى ، أي : لتثبت وتظهر تقواها ، وقيل : أخلصها للتقوى ، من قولهم امتحن الذهب وفتنه إذا أذاب به فخلص إبريزه من خبثه ، وجاءت في هذه الآية (إن) مؤكدة لمضمون الجملة ، وجعل خبرها جملة من اسم الإشارة الدال على التفضيم والمعرفة بعدم جائئاً بعدها ذكر جزائهم على غض أصواتهم ، وكل هذا دليل على أن الارتضاء بما فعلوا من توقير النبي - ﷺ - بغض أصواتهم ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب رافعو أصواتهم ، واستيجابهم ضد ما استوجبه هؤلاء ، (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) نزلت في وفد بني تميم الأقرع بن حابس ، والزبرقان بن بدر ، وعمر بن الاهتم وغيرهم ، وفدوا ودخلوا المسجد وقت الظهيرة والرسول - ﷺ - راقد ، فجعلوا ينادونه بجملتهم يا محمد اخرج إلينا ، فاستيقظ فخرج ، فقال له الأقرع بن حابس : يا محمد إن مدحي زين وذمي شين ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « ويلك ذلك الله تعالى » ، فاجتمع الناس في المسجد فقالوا : نحن بني تميم بخطيئنا وشاعرنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال النبي - ﷺ - : « ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ، ولكن هاتوا » ، فقال الزبرقان لشاب منهم : فحر واذكر فضل قومك ، فقال : الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه ، وآتانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء ، فنحن من خير أهل الأرض ، من أكثرهم عدداً ومالاً وسلاحاً ، فمن أنكر علينا فليأت بقول هو أحسن من قولنا ، وفعل هو أحسن من فعلنا ، فقال رسول الله - ﷺ - لثابت بن قيس بن شماس - وكان خطيبه - : « قم فأجبه » ، فقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دعا المهاجرين من بني عمه أحسن الناس وجوهاً ، وأعظمهم أحلاماً ، فأجابوه ، والحمد لله الذي جعلنا أنصار دينه ، ووزراء رسوله ، وعزاً لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع نفسه وماله ، ومن أبأها قتلناه ، وكان رغبة علينا هيناً ، أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . وقال الزبرقان لشاب : قم فقل أبياتا تذكر فيها فضل قومك ، فقال :

نَحْنُ الْكَرَامَ فَلَا حَيٍّ يُعَادِلُنَا فِينَا الرُّؤُوسُ وَفِينَا يُقْسَمُ الرَّبُّعُ
وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْقَحْطِ كُلَّهُمْ مِنْ السَّدِيفِ إِذَا لَمْ يُؤْنَسِ الْفَرْعُ

(١) انظر زاد المسير ٤٥٧/٧ والبغوي ٤/٢١٠ ومجمع الزوائد كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ١٠٨/٧ والحاكم كتاب التفسير تفسير سورة الحجرات ٤٦٢/٢ وفتح الباري ٥٩١/٨ والوسيط ٧٨ ، ٧٩ خ .

إِذَا أَيْبَنَا فَلَا يَأْبَىٰ لَنَا أَحَدٌ إِنَّا كَذَلِكِ عِنْدَ الْمُخْرِ نَرْتَفِعُ

فأمر النبي - ﷺ - فدعا حسان بن ثابت فقال له : أعد لي قولك فأسمعه ، فأجابه :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ قَدْ شَرَّعُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
يُوصِي بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سِرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ فَكُلُّ الْخَيْرِ يُطْلَعُ

ثم قال حسان في أبيات :

نَصَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ عَنَوْهُ عَلَى رُغْمِ غَابٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ
بِضْرِبٍ كَأَنوَاعِ الْمَخَاضِ مُشَاشُهُ وَطَعْنٍ كَأَفْوَاهِ اللَّقَاحِ الْمَصَادِرِ
وَسَلَّ أَحَدًا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ جُمُوعُهُمْ بِضْرِبٍ لَنَا مِثْلَ اللَّيْثِ الْخَوَادِرِ
أَلَسْنَا نَخُوضُ الْمَوْتَ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى إِذَا طَابَ وَرَدُ الْمَوْتِ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ
فَنَضْرِبُ هَامًا بِالذَّرَاعَيْنِ نَنْتَمِي إِلَى حَسْبٍ مِنْ جُدْعٍ غَسَّانَ زَاهِرِ
فَلَوْلَا حَيَاءُ اللَّهِ قُلْنَا تَكْرُمًا عَلَى النَّاسِ بِالْحَقِّينِ هَلْ مِنْ مُنَافِرِ
فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرٍ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا وَأَمَوَاتُنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَقَابِرِ

قال فقام الأقرع بن حابس فقال : إني والله لقد جئت لأمر وقد قلت شعراً فاسمعه وقال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفُ النَّاسُ فَضْلَنَا إِذَا خَالَفُونَا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
وَأَنَا رُؤُوسُ النَّاسِ فِي كُلِّ غَارَةٍ تَكُونُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ التَّهَائِمِ
وَأَنَّ لَنَا الْمَرْبَاعَ فِي كُلِّ مَعْشَرٍ وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَذَارِمِ

فقال النبي - ﷺ - لحسان قم فأجبه فقام ، وقال :

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمُ يَصِيرُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَبْلُكُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظَنَرٍ وَخَادِمِ^(١)

فقال النبي - ﷺ - «لقد كنت غنياً يا أخادرم^(٢) أن يذكر منك ما ظننت أن الناس قد نسوه» فكان قوله عليه الصلاة

والسلام أشد عليهم من جميع ما قاله حسان ، ثم رجع حسان إلى شعره فقال :

فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنْ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاءً وَأَسْلِمُوا وَلَا تَفْخَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ بِدَارِمِ
وَلَا وَرَبَّ الْبَيْتِ قَدْ مَالَتِ الْقَنَا عَلَى هَامِكُمْ بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ^(٣)

(١) انظر ديوان حسان (٢٢٧) .

(٢) الحديث في جامع المسانيد ٣٢٦/٢ .

(٣) انظر ديوان حسان ٢٢٧ .

فقال الأقرع بن حابس : والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً ، ثم دنا من رسول الله - ﷺ - وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال النبي - ﷺ - : « ما يضرك ما كان قبل هذا » ، ثم أعطاهم وكساهم ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، وذلك أن المناداة من وراء الحجرات فيها رفع الصوت ، وإساءة الأدب ، والله قد أمر بتوقير رسوله وتعظيمه ، والوراء الجهة التي يواربها عنك الشخص من خلف أو قدام و (من) لا ابتداء الغاية ، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان ، وقال الزمخشري : (فإن قلت) : أفرق بين الكلامين ، بين ما ثبت فيه وما تسقط عنه ، (قلت) : الفرق بينهما أن المنادي والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني لا يجوز ، لأن الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن يكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد ، والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار ، لا يريد وجه الدار ولا دبرها ، ولكن أن قطر من أقطارها كان مطلقاً بغير تعيين ولا اختصاص انتهى ، وقد أثبت أصحابنا في معاني (من) أنها تكون لا ابتداء الغاية وانتهائها في فعل واحد ، وأن الشيء الواحد يكون محلاً لهما ، وتأولوا ذلك على سبويه وقالوا من ذلك قولهم : أخذت الدرهم من زيد ، فزيد محل لا ابتداء الأخذ منه وانتهائه معاً ، قالوا : فمن تكون لا ابتداء الغاية فقط في أكثر المواضع ، وفي بعض المواضع لا ابتداء الغاية وانتهائها معاً ، وهذه المناداة التي أنكرت ليس إنكارها لكونها وقعت في أدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر ذلك لأنهم نادوه من خارج ، مناداة الأجلاف التي ليس فيها توقير ، كما ينادي بعضهم بعضاً ، و (الحجرات) منازل الرسول - ﷺ - ، وكانت تسعة ، والحجرة : الرفعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وحظيرة الإبل تسمى حجرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة ، وقرأ الجمهور (الحُجرات) بضم إبتاعا للضمة قبلها ، وأبو جعفر وشيبة بفتحها ، وابن أبي عبلة بإسكانها ، وهي لغى ثلاث في كل فعلة بشرطها المذكور في علم النحو ، والظاهر أن من صدر منه النداء كانوا جماعة ، وذكر الأصم : أن من ناداه كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن ، فإن صح ذلك كان الإسناد إلى الجماعة لأنهم راضون بذلك ، وإذا كانوا جماعة احتمل أن يكونوا تفرقوا ، فنادى بعض من وراء هذه الحجرة ، وبعض من وراء هذه ، أو نادوه مجتمعين من وراء حجرة حجرة ، أو كانت الحجرة واحدة ، وهي التي كان فيها الرسول - ﷺ - ، وجمعت إجلالاً له ، وانتفاء العقل عن أكثرهم دليل على أن فيهم عقلاً ، وقال الزمخشري : ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصداً إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل فإن القلة تقع موقع النفي في كلامهم انتهى . وليس في الآية الحكم بقلة العقل منطوقاً به فيحمل النفي ، وإنما هو مفهوم من قوله أكثرهم لا يعقلون ، والنفي المحض المستفاد إنما هو من صريح لفظ التقليل ، لا من المفهوم ، فلا يحمل قوله (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) النفي المحض للشكر ، لأن النفي لم يستفد من صريح التقليل ، وهذه الآية سجلت على الذين نادوه بالسفه والجهل ، وابتدأ أول السورة بتقديم الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى ورسوله على الأمور كلها ، ثم ما نهى عنه من التقديم بالنهي عن رفع الصوت والجهر ، فكان الأول بساطاً للثاني ، ثم يلي بما هو ثناء على الذين امتنعوا من ذلك ، فغضوا أصواتهم دلالة على عظم موقعه عند الله تعالى ، ثم جيء على عقبه بما هو أفضع وهو الصياح برسول الله - ﷺ - في حال خلوته ببعض حرمة من وراء الجدار ، كما يصاح بأهون الناس ليلبيه على فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء معه من المنكر المتفاحش ، ومن هذا وأمثاله تقتبس محاسن الآداب ، كما يحكى عن أبي عبيد ، ومحل من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى أنه قال : ما دقت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه ، (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) ، قال الزمخشري : (أنهم صبروا) في موضع الرفع على الفاعلية ، لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم انتهى ، وهذا ليس مذهب سبويه أن (أن) وما بعدها بعد لو في موضع مبتدأ لا في موضع فاعل ، ومذهب المبرد أنها في موضع فاعل بفعل محذوف كما زعم الزمخشري ، واسم كان ضمير يعود على المصدر المفهوم من (صبروا) ، أي

لكان هو أي : صبرهم خيراً لهم ، وقال الزمخشري : في كان إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو انتهى لأنه قدر أن وما بعدها فاعل بفعل مضمر ، فأعاد الضمير على ذلك الفاعل ، وهو الصبر المنسبك من أن ومعموها (خيراً لهم) في الثواب عند الله ، وفي انبساط نفس الرسول ﷺ ، وقضائه لحوائجهم ، وقد قيل : إنه جاؤوا في أسارى فأعتق رسول الله ﷺ النصف وفادى على النصف ، ولو صبروا لأعتق الجميع بغير فداء ، وقيل : لكان صبرهم أحسن لأدبهم ، (والله غفور رحيم) لن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا ، (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة) الآية حدث الحرث بن ضرار قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام ، فأسلمت ، وإلى الزكاة ، فأقررت بها ، فقلت : أرجع إلى قومي وأدعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن أجابني جمعت زكاته ، فترسل من يأتيك بما جمعت ، فلما جمع ممن استجاب له ، وبلغ الوقت الذي أراد الرسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، واحتبس عليه رسول الله ﷺ ، قال لسروات قومه : كان رسول الله ﷺ وقت لي وقتاً إلى من يقبض الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس الرسول إلا من سخطه ، فانطلقوا بها إليه ، وكان عليه السلام بعث الوليد بن الحرث ، ففرق فرجع فقال : منعي الحرث الزكاة ، وأراد قتلي ، فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحرث ، فاستقبل الحرث البعث وقد فصل من المدينة فقالوا : هذا الحرث فقال : إلى من بعثتم ؟ قالوا إليك ، قال : ولم ؟ فقالوا : بعث إليك الوليد فرجع وزعم أنك منعت الزكاة ، وأردت قتله ، قال : لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيت رسولك ، ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسولك ، خشية أن يكون سخطه من الله ورسوله ، قال : فنزلت هذه الآية^(١) و (فاسق) و (نبأ) مطلقان ، فيتناول اللفظ كل واحد على جهة البدل ، وتقدم قراءة (فتبينوا) و (فتثبتوا) في سورة النساء ، وهو أمر يقتضي أن لا يعتمد على كلام الفاسق ، ولا يبنى عليه حكم ، وجاء الشرط بحرف إن المقتضى للتعليل في الممكن ، لا بالحرف المقتضى للتحقيق ، وهو « إذ » لأن مجيء الرجل الفاسق للرسول وأصحابه بالكذب إنما كان على سبيل الندرة ، وأمروا بالتثبت عند مجيئه لئلا يطمع في قبول ما يليق به إليهم ونبا ما يترتب على كلامه ، فإذا كانوا بمثابة التبين والتثبت كف عن مجيئهم بما يريد ، (أن تصيبوا) مفعول له أي كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا ، (بجهالة) حال أي : جاهلين بحقيقة الأمر ، معتمدين على خبر الفاسق (فتصيحوا) فتصيروا على ما فعلتم ، من إصابة القوم بعقوبة بناء على خبر الفاسق (نادمين) مغتمين على ما فرط منكم متمنين أنه لم يقع ، ومفهوم (إن جاءكم فاسق) قبول كلام غير الفاسق ، وأنه لا يتثبت عنده ، وقد يستدل به على قبول خبر الواحد العدل ، وقال قتادة لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان^(٢) ، وقال مقلد بن سعيد : هذه الآية ترد على من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه ، لأن الله تعالى أمر بالتبين قبل القبول انتهى . وليس كما ذكر ، لأنه ما أمر بالتبين إلا عند مجيء الفاسق ، لا مجيء المسلم ، بل بشرط الفسق ، والمجهول الحال يحتمل أن يكون فاسقاً ، فالاحتياط لازم ، (واعلموا أن فيكم رسول الله) هذا توبيخ لمن يكذب للرسول عليه الصلاة والسلام ، ووعيد بالنصيحة ، ولا يصدر ذلك إلا ممن هو شاك في الرسالة ، لأن الله تعالى لا يترك نبيه ﷺ يعتمد على خبر الفاسق ، بل بين له ذلك ، والظاهر أن قوله (واعلموا أن فيكم رسول الله) كلام تام ، أمرهم بأن يعلموا أن الذي هو بين ظهرانيكم هو رسول الله ﷺ ، فلا تحبروه بما لا يصح ، فإنه رسول الله يطلعه على ذلك ، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ لو أطاعكم في كثير من الأمر الذي يؤدي إليه اجتهدكم وتقدمكم بين يديه (لعنتم)

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ١٠٦٩/٣ والطبري ٧٨/٢ وأسباب النزول للواحدي ص ٤١٣ ، ٤١٤ ومسند الإمام أحمد ٢٧٩/٤ وابن كثير ٢١٠/٤ والدر المنثور ٨٩/٦ والوسيط ٧٩ خ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠٤/١ والطبري في التفسير ٧٩/٢٦ وابن عدي في الكامل ١٤٧٣/٤ وأخرجه الترمذي في السنن بلفظ الاناة رقم (٢٠١٢) والبيهقي في شرح السنة ١٧٦/١٣ والطبراني في الكبير ١٤٨/٦ .

أي : لشق عليكم ، وقال مقاتل : لأثمتم ، وقال الزمخشري : والجملة المصدرة بلولا تكون كلاماً مستأنفاً لأدائه إلى تنافر النظم ، ولكن متصلاً بما قبله ، حالاً من أحد الضميرين في فيكم المستر المرفوع أو البارز المجرور ، وكلاهما مذهب سديد ، والمعنى أن فيكم رسول الله ، وأنتم على حالة يجب عليكم تغييرها ، وهو أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعين لكم من رأي ، واستصواب فعل المطويع لغيره ، والتابع له فيما يرتثيه المحتذي على أمثله ، ولو فعل ذلك لعتم أي : لوقعتم في الجهد والهلاك ، وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق ، وتصديق قول الوليد ، وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصنون ويزعمهم جدتهم في التقوى ، عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان) أي إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ، ولمحاته اللطيفة ، التي لا يفتن إليها إلا الخواص ، وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى انتهى ، وفيه تكثير ، ولا بعد أن تكون الجملة المصدرة بلوم مستأنفة لا حالاً ، فلا تعلق لها بما قبلها من جهة الإعراب ، وتقديم خبر (أن) على اسمها قصد إلى توبيخ بعض المؤمنين ، على ما استهجن من استتباعهم رأي الرسول - ﷺ - لأرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه ، وقيل : (يطيعكم) دون أطاعكم للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عملهم على ما يستصوبونه ، وأنه كلما عن لهم رأي في أمر كان معمولاً عليه ، بدليل قوله (في كثير من الأمر) وشريطة (لكن) مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حبيب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدم ذكرهم ، ف وقعت (لكن) في حاق موقعها من الاستدراك انتهى ، وهو ملتقط من كلام الزمخشري ، وقال الزمخشري أيضاً : ومعنى تحبيب الله وتكرمه اللطف والإمداد بالتوفيق ، وسبيله الكناية كما سبق ، وكل ذي لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغيا عليه أن الرجل لا يمدح بفعل غيره ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدي إلى أن يثنى عليهم بفعل الله ، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم ﴿ ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا ﴾ [آل عمران ١٨٨] انتهى ، وهي على طريق الاعتزال ، وعن الحسن : حبيب الإيمان بما وصف من الشئاء عليه ، وكره الثلاثة بما وصف من العقاب انتهى . (أولئك هم الراشدون) التفات من الخطاب إلى الغيبة ، (فضلاً من الله ونعمة) ، قال ابن عطية : مصدر مؤكد لنفسه ، لأن ما قبله هو بمعناه إذ التحبيب والتزين هو نفس الفضل ، وقال الحوفي ، فضلاً نصب على الحال . انتهى . ولا يظهر هذا الذي قاله ، وقال أبو البقاء : مفعول له ، أو مصدر في معنى ما تقدم ، وقال الزمخشري : (فضلاً) مفعول له : أو مصدر من غير فعله ، (فإن قلت) : من أين جاز وقوعه مفعولاً له ، والرشد فعل القوم ، والفضل فعل الله تعالى ، والشرط أن يتحد الفاعل ؟ قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزين والتكره مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه ولا ينتصب عن (الراشدون) ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى ، والجملة التي هي (أولئك هم الراشدون) اعتراض ، أو عن فعل مقدر ، كأنه قيل : جرى ذلك ، أو كان ذلك فضلاً من الله ، وأما كونه مصدراً من غير فعله فأن يوضع موضع رشد لأن رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه ، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام . (والله عليم) بأحوال المؤمنين ، وما بينهم من التمايز والتفاضل . (حكيم) حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم انتهى . أما توجيهه كون (فضلاً) مفعولاً من أجله فهو على طريق الاعتزال ، وأما تقديره : أو كان ذلك فضلاً فليس من مواضع إضمار كان ، ولذلك شرط مذكور في النحو.

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ، يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ

خيراً منهم ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحى أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم .

سبب نزولها : ما جرى بين الأوس والخزرج حين أساء الأدب عبد الله بن أبي بن سلول على رسول الله - ﷺ - وهو متوجه إلى زيارة سعد بن عباد في موضعه ، وتعصب بعضهم لعبد الله ، ورد عبد الله بن رواحة على ابن أبي فتجالد الحيان . قيل : بالحديد . قيل : بالجريد والنعال والأيدي ، فنزلت ، فقرأها عليهم فاصطلحوا^(١) وقال السدي : وكانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها : أم بدر ، وكان لها زوج من غيرهم ، فوقع بينهم شيء أوجب أن يأنف لها قومها ، وله قومه ، فوقع قتال ، فنزلت الآية بسببه^(٢) . وقرأ الجمهور (اقتتلوا) جمعاً حملاً على المعنى ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس . وقرأ ابن أبي عبله (اقتلتا) على لفظ التثنية ، وزيد بن عليّ وعبيد بن عمير (اقتلتا) على التثنية مراعي بالطائفتين الفريقان (اقتتلوا) وكل واحد من الطائفتين باغ ، فالواجب السعي بينهما بالصلح ، فإن لم تصطلحا وأقامتا على البغي قوتلتا ، أو لشبهة دخلت عليهما وكل منهما يعتقد أنه على الحق فالواجب إزالة الشبه بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، فإن لجأ فكالباغيتين (فإن بغت إحدهما) فالواجب أن تقاتل حتى تكف عن البغي ، ولم تتعرض الآية من أحكام التي تبغي لشيء إلا لقتالها ، وإلى الإصلاح (إن فاءت) والبغي هنا طلب العلو بغير الحق ، والأمر في (فأصلحوا) و (قاتلوا) هولم له الأمر من الملوك وولاتهم . وقرأ الجمهور (حتى تفي) مضارع فاء بفتح الهمزة ، والزهري (حتى تفي) بغير همزة وفتح الياء ، وهذا شاذ ، كما قالوا في مضارع جاء يحيي بغير همز ، فإذا أدخلوا الناصب فتحوا الياء أجروه مجرى يفي مضارع وفي شذوذاً ، (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) أي : إخوة في الدين . وفي الحديث : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله . وقرأ الجمهور (بين أخويكم) مثني ، لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا كان الإصلاح لازماً بين اثنين فهو ألزم بين أكثر من اثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود والحسن بخلاف عنه ، والجحدري وثابت البناني وحامد بن سلمة وابن سيرين (بين إخوانكم) جمعاً بالالف والنون ، والحسن أيضاً وابن عامر في رواية وزيد بن عليّ ويعقوب (بين إخوانكم) جمعاً على وزن غلمة . وروى عبد الوهاب عن أبي عمرو والقراءات الثلاث ، ويغلب الاخوان في الصداقة والإخوة في النسب ، وقد يستعمل كل منهما مكان الآخر ، ومنه ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات ١٠] قوله : ﴿ أو بيوت إخوانكم ﴾ [النور ٦١] ، (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) هذه الآية والتي بعدها تأديب للأمة ، لما كان فيه أهل الجاهلية من هذه الأوصاف الذميمة التي وقع النهي عنها . وقيل : نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل ، كان يمشي بالنميمة ، وقد أسلم ، فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأمة ، فعز ذلك عليه وشكاهم ، فنزلت و (قوم) مرادف رجال ، كما قال تعالى ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [النساء ٣٤] ولذلك قابله هنا بقوله (ولا نساء من نساء) وفي قول زهير :

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالَ أَذْرِي أَقَوْمَ آلِ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءً^(٣)

وقال الزمخشري : وهو في الأصل جمع قائم ، كصوم وزور في جمع صائم وزائر انتهى . وليس فعل من أبنية الجموع

(١) انظر البغوي ٢١٣/٤ .

(٢) انظر البغوي ٢١٣/٤ .

(٣) تقدم .

إلا على مذهب أبي الحسن في قوله : إن ركباً جمع راكب . وقال أيضاً الزمخشري : وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد هم الذكور والإناث فليس لفظ القوم بمتعاط للفرقيين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن انتهى . وغيره يجعله من باب التغليب ، والنهي ليس مختصاً بأنصابه على (قوم) و (نساء) بقيد الجمعية من حيث المعنى ، وإن كان ظاهر اللفظ ذلك ، بل المعنى : لا يسخر أحد من أحد ، وإنما ذكر الجمع والمراد به كل فرد فرد ممن يتناوله عموم البذل ، فكأنه إذا سخر الواحد كان بمجلسه ناس يضحكون على قوله ، أو بلغت سخريته ناساً فضحكوا فينقلب الحال إلى جماعة (عسى أن يكونوا) أي : المسخور منهم (خيراً منهم) أي : من الساخرين بهم ، وهذه الجملة مستأنفة وردت مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهي عنه ، أي : ربما يكون المسخور منه عند الله خيراً من الساخر ، لأن العلم بخفيات الأمور إنما هو لله تعالى . وعن ابن مسعود : لو سخرت من كلب خشيت أن أحول كلباً ، (ولا نساء من نساء) ، روي أن عائشة وحفصة رضي الله تعالى عنهما رأتا أم سلمة ربطت حقوبها بثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها ، فقالت عائشة لحفصة : انظري إلى ما يجرح خلفها كأنه لسان كلب . وعن عائشة : أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة . وعن أنس : كان نساء النبي - ﷺ - يعيرن أم سلمة بالقصر^(١) . وقالت صفية لرسول الله - ﷺ - « يعيرني ويقلن ، يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت : إن أبي هارون وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد »^(٢) . وقرأ عبد الله وأبي (عسوا أن يكونوا) و (عسين أن يكن) فعسى ناقصة ، والجمهور (عسى) فيهما تأمة ، وهي لغتان : الإضمار لغة تميم ، وتركه لغة الحجاز ، (ولا تلمزوا أنفسكم) ضم الميم في (تَلْمِزُوا) الحسن والأعرج وعبيد عن أبي عمرو . وقال أبو عمر : وهي عربية ، والجمهور بالكسر واللمز بالقول والإشارة ونحوه مما يفهمه آخر ، والهمز لا يكون إلا باللسان ، والمعنى : لا يعيب بعضكم بعضاً ، كما قال (فاقتلوا أنفسكم) البقرة ٥٤ كأن المؤمنين نفس واحدة ، « إذ هم إخوة كالبنين يشد بعضه بعضاً » ، « وكالجسد إذ اشتكى منه عضو تداعى سائر السهر والحمى » ، ومفهوم (أنفسكم) أن له أن يعيب غيره مما لا يدين بدينه . ففي الحديث « اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس » . وقيل : المعنى لا تفعلوا ما تلمزون به ، لأن من فعل ما استحق اللمز فقد لزم نفسه (ولا تنازوا بالألقاب) اللقب إن دل على ما يكره المدعوبه كان منهيّاً ، وأما إذا كان حسناً فلا ينهى عنه ، وما زالت الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير . وروي أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فنزلت الآية بسبب ذلك . وفي الحديث « كنوا أولادكم » . قال عطاء : مخافة الألقاب . وعن عمر : أشيعوا الكنى فإنها سنة انتهى ، ولا سيما إذا كانت الكنية غريبة لا يكاد يشترك فيه أحد مع من تكنى بها في عصره ، فإنه يطير بها ذكره في الآفاق وتتهادى أخباره الرفاق ، كما جرى في كنيتي بأبي حيان ، واسمي محمد ، فلو كانت كنيتي أبا عبد الله ، أو أبا بكر مما يقع فيه الاشتراك لم أشتهر تلك الشهرة ، وأهل بلادنا جزيرة الأندلس كثيراً ما يلقبون بالألقاب حتى قال فيهم أبو مروان الطنبي :

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ مَا عِنْدَكُمْ أَدَبٌ بِالْمَشْرِقِ الْأَدَبُ النَّفَّاحُ بِالطَّيِّبِ
يُدْعَى الشَّبَابُ شُبُوحاً فِي مَجَالِسِهِمْ وَالشَّيْخُ عِنْدَكُمْ يُدْعَى بِتَلْقِيهِ^(٣)

فمن علماء بلادنا وصالحهم من يدعى الواعي وباللص ، وبوجه نافخ ، وكل هذا يحرم تعاطيه . قيل : وليس من هذا قول المحدثين : سليمان الأعمش ، وواصل الأحذب ، ونحوه مما تدعو الضرورة إليه ، وليس فيه قصد استخفاف ولا

(١) انظر البغوي ٢١٥/٤ .

(٢) انظر البغوي ٢١٥/٤ .

(٣) انظر الدر اللقيط ١١٣/٨ .

ذى ، قالوا : وقد قال ابن مسعود لعلقمة : وتقول أنت ذلك يا أعور^(١) . وقال ابن زيد : أي : لا يقول أحد لأحد يا يهودي بعد إسلامه ، ولا يا فاسق بعد توبته ونحو ذلك^(٢) ، وتلاحي ابن أبي حدرد وكعب بن مالك فقال له مالك : يا أعرابي يريد أن يبعده من الهجرة ، فقال له الآخر : يا يهودي يريد المخاطبة لليهود في يثرب^(٣) . (بش الاسم الفسوق بعد الإيمان) أي : بش اسم تنسبونه بعصيانكم بترككم بالألقاب فتكونون فساقاً بالمعصية بعد إيمانكم ، أو بش ما يقوله الرجل لأخيه : يا فاسق بعد إيمانه . وقال الرماني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان انتهى . وقال الزمخشري : نحوقول الرماني . قال : استقباح الجمع بعد الإيمان والفسق الذي ياباه الإيمان ، وهذه نزعة اعتزالية . وقال الزمخشري : الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه في الناس بالكرم ، أو باللوم كما يقال طار ثناؤه وصيته ، وحقيقة ما سمي من ذكره وارتفع بين الناس ، كأنه قيل : بش الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن تذكروا بالفسق . (ومن لم يتب) أي : عن هذه الأشياء (فأولئك هم الظالمون) تشديد وحكم بظلم من لم يتب (اجتنبوا كثيراً من الظن) أي : لا تعملوا على حسبه ، وأمر تعالى باجتنابه لثلاث يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن المحكوم عليه بأنه إثم ، وتمييز المجتنب من غيره أنه لا يعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر ، كمن يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث ، كالدخول والخروج إلى حانات الخمر وصحبة نساء المغاني وإدمان النظر إلى المرد ، فمثل هذا يقوي الظن فيه أنه ليس من أهل الصلاح ، ولا إثم فيه^(٤) وإن كنا لا نراه يشرب الخمر ، ولا يزني ، ولا يعبت بالشبان ، بخلاف من ظاهره الصلاح فلا يظن به السوء ، فهذا هو المنهي عنه ، ويجب أن يزيله والإثم الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ، وقال الزمخشري : والهمزة فيه بدل عن الواو ، كأنه يثم الأعمال أي : يكسرها بإحباطه ، وهذا ليس بشيء ، لأن تصريف هذه الكلمة مستعمل فيه الهمز ، تقول : أثم يَأْثم فهو آثم ، والإثم ، والآثم ، فالهمزة أصل وليست بدلاً عن واو ، وأما يثم فأصله : يوثم ، وهو من مادة أخرى ، وقيل : الإثم متعلق بتكلم الظان أما إذا لم يتكلم فهو في فسحة ، لأنه لا يقدر على رفع الخواطر التي يبيحها قول النبي - ﷺ - « الحزم سوء الظن » ، وقرأ الجمهور (ولا تَجَسَّسُوا) بالجيم ، وقرأ الحسن وأبو رجاء وابن سيرين بالحاء ، وهما متقاربان ، نهى عن تتبع عورات المسلمين ومعائبهم والاستكشاف عما ستره ، وقيل : لابن مسعود ، هل لك في فلان تقطر لحيته خمرًا ، فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به ، وفي الحديث « إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » وقد وقع عمر - رضي الله عنه - في حراسته على من كان في ظاهره ريبة ، وكان دخل عليه هجماً ، فلما ذكر له نهى الله تعالى عن التجسس انصرف عمر ، (ولا يغتب بعضكم بعضاً) يقال : غابه واغتابه ، كغاله واغتاله ، والغيبة من الاغتيال ، كالغيلة من الاغتيال . وهي ذكر الرجل بما يكره مما هو فيه ، وفي الحديث : سئل رسول الله - ﷺ - ما الغيبة ؟ فقال : « أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع ، فقال : يا رسول الله وإن كان حقاً . قال : رسول الله - ﷺ - إذا قلت باطلاً فذلك البهتان »^(٥) وفي الصحيحين « فقد بهته »^(٦) ، وقال ابن عباس : الغيبة إدام كلاب الناس . وقالت عائشة عن امرأة : ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة ، فقال لها النبي - ﷺ - . اغتبتها ، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرته . وحكى الزهراوي عن جابر عن النبي - ﷺ - أنه قال : « الغيبة أشد من الزنا »^(٧) لأن الزاني يتوب الله عليه ، والذي يغتاب فلا يتاب عليه حتى يستحل ،

(١) انظر البغوي ٢١٦/٤ .

(٢) انظر البغوي ٢١٦/٤ .

(٣) انظر البغوي ٢١٦/٤ .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ٩٨٧ وابن عبد البر في تجريد التمهيد ص ٢٠٣ (٦٨٧) .

(٥) أخرجه مسلم ٢٠٠١/٤ كتاب البر باب تحريم الغيبة (٧٠ - ٢٥٨٩) والبغوي في شرح السنة ١٣/١٣٩ (٣٥٦١) .

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٩٤/٨ وعزه للطبراني في الأوسط ، وقال : فيه عباد بن كثير الثقفي وهو متروك .

وعرض المسلم مثل دمه في التحريم . وفي الحديث المستفيض « فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم » ، ولا يباح من هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه ، من تخريج الشهود والرواة ، والخطاب إذا استنصح من يخطب إليه من يعرفهم ، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ، ومنه :

وَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لِحُومَهُمْ

(أوجب أحدكم) قال الزمخشري : تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفطع وجه وأفحشه ، وفيه مبالغات شتى ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يجب ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً انتهى . وقال الرماني : كراهية هذا اللحم يدعو إليه الطبع ، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحق أن يجاب ، لأنه بصير عالم والطبع أعمى جاهل انتهى ، وقال أبو زيد السهيلي ، ضرب المثل لأخذه العرض بأكل اللحم ، لأن اللحم ستر على العظم ، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر ، وقال تعالى (ميتاً) لأن الميت لا يحس ، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب ، ثم هو في التحريم كأكل لحم الميت انتهى . وروى في الحديث « ما صام من أكل لحوم الناس » وقال أبو قلابة الرياشي : سمعت أبا عاصم يقول : ما اغتبت أحداً منذ عرفت ما في الغيبة . وقيل لعمر بن عبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمتك قال : إياه فارحموا ، وقال رجل للحسن : بلغني أنك تغتابني ، قال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي وانتصب (ميتاً) على الحال من لحم ، وأجاز الزمخشري أن ينتصب عن الأخ ، وهو ضعيف ، لأن المجرور بالإضافة لا يجيء الحال منه إلا إذا كان له موضع من الإعراب ، نحو : أعجبني ركوب الفرس مسرعاً ، وقيام زيد مسرعاً ، فالفرس في موضع نصب ، وزيد في موضع رفع ، وقد أجاز بعض أصحابنا أنه إذا كان الأول جزءاً أو كالجاء جاز انتصاب الحال من الثاني ، وقد ردنا عليه ذلك فيما كتبناه في علم النحو ، (فكرهتموه) قال الفراء : أي : فقد كرهتموه فلا تفعلوه ، وقيل : لما وقفهم على التوبيخ بقوله : (أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً) فأجاب عن هذا ، لأنهم في حكم من يقولها ، فخطبوا على أنهم قالوا : لا فليل لهم : فكرهتموه ، وبعد هذا يقدر ؛ فلذلك فاكروها الغيبة التي هي نظير ذلك ، وعلى هذا التقدير يعطف قوله (واتقوا الله) قاله أبو علي الفارسي ، وفيه عجرفة العجم ، وقال الزمخشري : ولما قرره عز وجل بأن أحداً منهم لا يجب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله : (فكرهتموه) أي : فتحققت بوجوب الإقرار عليكم بأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره لإبساء البشرية . عليكم أن تجحدوا كراحتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضاً أن تكرهوها ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين انتهى . وفيه أيضاً عجرفة العجم . والذي قدره الفراء أسهل وأقل تكلفاً وأجرى على قواعد العربية . وقيل : لفظه خبر ومعناه الأمر بتقديره : فاكروهه ، ولذلك عطف عليه (واتقوا الله) ووضع الماضي موضع الأمر في لسان العرب كثير ، ومنه : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يَتَّقُ عليه ، أي : ليتق الله ، ولذلك انجزم يُتَّبَعُ على جواب الأمر ، وما أحسن ما جاء الترتيب في هذه الآية جاء الأمر أولاً باجتناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم وهو الظن ، ثم نهى ثانياً عن طلب تحقق ذلك الظن فيصير علماً بقوله (ولا تجسسوا) ثم نهى ثالثاً عن ذكر ذلك إذا علم ، فهذه أمور ثلاثة مترتبة ، ظن ، فعلم بالتجسس ، فاغتياب ، وضمير النصب في (فكرهتموه) الظاهر أنه عائد على الأكل . وقيل : على الميت وقرأ أبو سعيد الخدري وأبو حنيفة (فكرهتموه) بضم الكاف وتشديد الراء ، ورواهما الخدري عن النبي - ﷺ - والجمهور بفتح الكاف وتخفيف الراء ، وكره يتعدى إلى واحد ، فقياسه إذا ضعف أن يتعدى إلى اثنين كقراءة الخدري ومن معه ، أي : جعلتم فكرهتموه ، فأما قوله ﴿ وكره إليكم الكفر ﴾ [الحجرات ٧] فعلى التضمن بمعنى بغض ، وهو يتعدى لواحد ، ويبلى إلى آخر ، وبغض منقول بالتضعيف من بغض الشيء إلى زيد ،

والظاهر عطف (واتقوا الله) على ما قبله من الأمر والنهي ، قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ، قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ، إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ، قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ، يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ، إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ .

قيل : غضب الحرث بن هشام وعتاب بن أسيد حين أذن بلال يوم فتح مكة على الكعبة فنزلت^(١) ، وعن ابن عباس : سبها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي - ﷺ - يا ابن فلانة ، فوبخه النبي - ﷺ - وقال له : إنك لا تفضل أحداً إلا في الدين والتقوى ، ونزل الأمر بالتفسيق في ذلك أيضاً (من ذكر وأنثى) أي : من آدم وحواء ، أو كل أحد منكم من أب وأم ، فكل واحد منكم مساوٍ للآخر في ذلك الوجه فلا وجه للتفاخر^(٢) ، (وجعلناكم شعوباً وقبائل) وتقدم الكلام على شيء من ذلك في المفردات ، وقيل : الشعوب في العجم ، والقبائل في العرب ، والأسباط في بني إسرائيل ، وقيل : الشعوب عرب اليمن من قحطان ، والقبائل ربيعة ومضر وسائر عدنان ، وقال قتادة ومجاهد والضحاك : الشعب النسب الأبعد ، والقبيلة الأقرب . قال الشاعر :

قَبَائِلُ مِنْ شُعُوبٍ لَيْسَ فِيهِمْ كَرِيمٌ قَدْ يُعَدُّ وَلَا نَجِيبٌ^(٣)

وقيل : الشعوب الموالي ، والقبائل العرب ، وقال أبو روق : الشعوب الذين ينسبون إلى والمدائن والقرى ، والقبائل الذين ينسبون إلى آبائهم انتهى . وواحد الشعوب شعب بفتح الشين ، وشعب بطن من همدان ينسب إليه عامر الشعبي من سادات التابعين ، والنسب إلى الشعوب شُعبية بفتح الشين وهم الأمم التي ليس بعرب ، وقيل : هم الذين يفضلون العجم على العرب ، وكان أبو عبيدة خارجياً شُعبياً ، وله كتاب في مناقب العرب ، ولا بن غرسبة رسالة فصيحة في تفضيل العجم على العرب ، وقد رد عليه ذلك علماء الأندلس برسائل عديدة ، وقرأ الجمهور (لتعارفوا) مضارع تعارف محذوف التاء ، والأعמש بتاءين ، ومجاهد وابن كثير في رواية وابن محيصن بإدغام التاء في التاء ، وابن عباس وأبان عن عاصم (لَتَعْرِفُوا) مضارع عرف ، والمعنى : أنكم جعلكم الله تعالى ما ذكر كي يعرف بعضكم بعضاً في النسب ، فلا ينتمي إلى غير آبائه ، لا التفاخر بالآباء والأجداد ، ودعوى التفاضل وهي التقوى ، وفي خطبته - عليه الصلاة والسلام - يوم فتح مكة « إنما الناس رجلان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هين على الله ، ثم قرأ الآية » وعنه - ﷺ - « من سره أن يكون أكرم^(٤) الناس فليتنق الله » ، وما زال التفاخر بالأنساب في الجاهلية والإسلام وبالبلاد ، وبالمذاهب ، وبالعلوم ، وبالصنائع ، وأكثره بالأنساب :

وَأَعْجَبُ شَيْءٍ إِلَى عَاقِلٍ فُرُوعُ عَنِ الْمَجْدِ مُسْتَأْخِرَةٌ

(١) انظر البغوي ٢١٧/٤ .

(٢) انظر البغوي ٢١٧/٤ . سورة « ق » .

(٣) البيت من الطويل لم نهند لقائله ، انظر القرطبي ٢٢٥/١٦ فتح القدير ٦٧/٥ .

(٤) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٣٧٣/١ وعزاه للبيهقي ، وأبي يعلى ، والطبراني ، وأبي نعيم ، والحاكم عن ابن عباس .

إِذَا سُئِلُوا مَا لَهُمْ مِنْ عُلَا أَسَارُوا إِلَى أَعْظَمِ نَآخِرَةٍ^(١)

ومن ذلك افتخار أولاد مشايخ الزوايا الصوفية بآبائهم ، واحترام الناس لهم بذلك وتعظيمهم لهم ، وإن كان الأولاد بخلاف الآباء في الدين والصلاح ، وقرأ الجمهور (إِنَّ) بكسر الهمزة ، وابن عباس بفتحها ، وكان قرأ (لتعرفوا) مضارع عرف ، فاحتمل أن تكون (أن) معمولة (لتعرفوا) وتكون اللام في (لتعرفوا) لام الأمر ، وهو أجود من حيث المعنى ، وأما إن كانت لام كي فلا يظهر المعنى : إن جعلهم شعوباً وقبائل ، لأن تعرفوا أن الأكرم هو الأتقى ، فإن جعلت مفعول « لتعرفوا » محذوفاً أي : لتعرفوا الحق ، لأن أكرمكم عند الله أتقاكم ساغ في لام (لتعرفوا) أن تكون لام كي ، (قالت الأعراب آمنا) قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمه ، قبيلة تجاور المدينة ، أظهروا الإسلام وقلوبهم دخلة ، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، وقيل : مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار ، قالوا : آمنا فاستحققنا الكرامة ، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله (قل لم تؤمنوا) أكذبهم الله في دعوى الإيمان ، ولم يصرح بإكذابهم بلفظه ، بل بما يدل عليه من انتفاء إيمانهم ، وهذا في أعراب مخصوصين ، فقد قال الله تعالى ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة ٩٩] الآية ، (ولكن قولوا أسلمنا) فهو اللفظ الصادق من أقوالكم ، وهو الاستسلام والانقياد ظاهراً ولم يواطىء أقوالكم ما في قلوبكم ، فلذلك قال (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وجاء النفي بـ (لما) الدالة على انتفاء الشيء إلى زمان الإخبار ، وتبين أن قوله (لم تؤمنوا) لا يراد به انتفاء الإيمان في الزمن الماضي ، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً ، لأنك إذا نفيت بلم جاز أن يكون النفي قد انقطع ، ولذلك يجوز أن تقول : لم يقم زيد وقد قام ، وجاز أن يكون النفي متصلاً بزمن الإخبار ، فإذا كان متصلاً بزمن الإخبار لم يجوز أن تقول : وقد قام للتكاذب الخبرين ، وأما لما فإنها تدل على نفي الشيء متصلاً بزمان الإخبار ، ولذلك امتنع : لما يقيم زيد وقد قام للتكاذب ، والظاهر أن قوله (لما يدخل الإيمان في قلوبكم) ليس له تعلق بما قبله من جهة الإعراب . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) هو بعد قوله (قل لم تؤمنوا) يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة (قلت :) ليس كذلك ، فإن فائدة قوله (لم تؤمنوا) هو تكذيب دعواهم وقوله (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطاة قلوبكم لألسنتكم ، لأنه كلام واقع موقع الحال من المضير في قوله (قولوا) انتهى . والذي يظهر أنهم أمروا أن يقولوا (قولوا أسلمنا) غير مقيد بحال ، وإن (ولما يدخل الإيمان) إخبار غير قيد في قولهم ، وقال الزمخشري : وما في (لما) من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد انتهى . ولا أدري من أي وجه يكون ما نفي بلما يقع بعد ، ولما إنما تنفي ما كان متصلاً بزمان الإخبار ، ولا تدل على ما ذكر ، وهي جواب لقد فعل ، وهب أن قد تدل على توقع الفعل ، فإذا نفي ما دل على التوقع فكيف يتوهم أن يقع بعد ؟ (وإن تطيعوا الله ورسوله) بالإيمان والأعمال ، وهذا فتح لباب التوبة ، وقرأ الجمهور (لَا يَلْتَكُمُ) من لات يليت ، وهي لغة الحجاز ، والحسن والأعرج وأبو عمر (وَلَا يَلْتَكُمُ) من ألت وهي لغة غطفان وأسد ، (ثم لم يرتابوا) (ثم) تقتضي التراخي ، وانتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان ، فقليل : من ترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان ، أي : ثم أقول لم يرتابوا ، (وقيل) قد يخلص الإيمان ثم يعترضه ما يثلم إخلاصه فنفي ذلك ، فحصل التراخي ، أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة ، فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه . (أولئك هم الصادقون) أي : في قولهم : آمنا حيث طبقت ألسنتهم عقائدهم ، وظهرت ثمرة ذلك عليهم بالجهاد بالنفس والمال ، و (في سبيل الله) يشمل جميع الطاعات البدنية والمالية ، وليسوا كأعراب بني أسد في قولهم (آمنا) وهم كاذبون في ذلك ، (قل أتعلمون الله بدينكم) هي منقولة من علمت به أي : شعرت به ، ولذلك تعدت إلى واحد

بنفسها ، وإلى الآخر بحرف الجر لما ثقلت بالتضعيف ، وفي ذلك تجهيل لهم ، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى ، ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض ، ويقال : مَنْ عليهم بيد أسداها إليه ، أي : أنعم عليه ، المنّة : النعمة التي لا يطلب لها ثواب ، ثم يقال : مَنْ عليه صنعه إذا اعتده عليه منّة وإنعاماً ، أي : يعتدون عليك (أن أسلموا) (فإن أسلموا) في موضع المفعول ، ولذلك تعدى إليه في قوله (قل لا تمنوا عليّ إسلامكم) ويجوز أن يكون (أسلموا) مفعولاً من أجله ، أي : يتفضلون عليك بإسلامهم (أن هداكم للإيمان) بزعمكم وتعليق المن بهدايتهم بشرط الصدق يدل على أنهم ليسوا مؤمنين ، إذ قد بين تعالى كذبهم في قولهم (آمنا) بقوله (قل لم تؤمنوا) وقرأ عبد الله وزيد بن عليّ (إذ هداكم) جعلاً (إذ) مكان (أن) وكلاهما تعليل وجواب الشرط محذوف ، أي : (إن كنتم صادقين) فهو المانّ عليكم ، وقرأ ابن كثير وأبان عن عاصم (يَعْلَمُونَ) بياء الغيبة ، والجمهور بقاء الخطاب .

سورة ق اربعون آية مكية بسم الله الرحمن الرحيم

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَمْ ذَا مَتْنًا وَكُنَّا نُرَآهُ ۝٣ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٤ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ۝٥ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٦ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٧ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٨ تَبَصَّرُوا وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٩ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝١٠ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١١ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝١٢ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٣ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٤ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۝١٥ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ۝١٦ أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ ۝١٧ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٨ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مِثْلَ نُوْتُوْسٍ ۝١٩ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝٢٠ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝٢١ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝٢٢ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝٢٣ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٤ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢٥ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٦ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ ۝٢٧ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٨ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ۝٢٩ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٣٠ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطِغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣١ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَى وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۝٣٢ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۝٣٣ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝٣٤ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣٥ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ۝٣٦ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝٣٧ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٣٨ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٩ وَكَمْ

أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ
 لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
 الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
 يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
 عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ
 وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بسقت النخلة بسوقاً : طالت ، قال الشاعر :

لَنَا خَمْرٌ وَلَيْسَتْ خَمْرَ كَرَمٍ وَلَكِنْ مِنْ نِتَاجِ الْبَاسِقَاتِ
 كِرَامٍ فِي السَّمَاءِ ذَهَبٌ طَوَلًا وَفَاتَ ثِمَارَهَا أَيْدِي الْجَنَاةِ^(١)

وبسق فلان على أصحابه أي : علاهم ، ومنه قول ابن نوفل في ابن هبيرة :

يَا ابْنَ الْأَذِينَ بِمَجْدِهِمْ بَسَقْتُ عَلَى قَيْسٍ فَرَارَةً^(٢)

ويقال : بسقت الشاة : ولدت ، وأبسقت الناقة ، وقع في ضرعها اللبن قبل النتاج فهي ميسق ، ونوق مباسق ،
 حاد عن الشيء : مال عنه ، حيوداً ، وحيدة ، وحيدودة ، الوريد : عرق كبير في العنق ، يقال : إنها وريدان عن يمين
 وشمال ، وقال الفراء : هو ما بين الحلقوم والعلباوين ، وقال الأثرم : هو نهر الجسد ، هو في القلب الوتين ، وفي الظهر
 الأهر ، وفي الذراع والفخذ الأكل والنسا ، وفي الخنصر الأسلم ، وقال الزمخشري : والوريدان : عرقان مكتنفان
 بصحفتي العنق في مقدمها متصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه ، سمي وريداً لأن الروح ترده ، قال :

كَأَنَّ وَرِيدَيْهِ رَشَا صُلْبٍ^(٣)

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، وإذا متنا وكنا تراباً ذلك
 رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ، بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ، أفلم
 ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل
 زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل
 باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ، كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود

(١) البيت من الوافر لم نهند لقائلها انظر تيسير القرطبي ١٧/٦ فتح القدير ٥/٧٣ .

(٢) البيت من مجزوء الكامل ، انظر اللسان (بسق) .

(٣) هذا عجز من الرجز لرؤية انظر اللسان (خلب) انظر شواهد الكشف ص ٢٨ .

وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴿ هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : بإجماع من المتأولين ، وقال صاحب التحرير : قال ابن عباس وقتادة : مكية إلا آية وهي قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض ﴾ [ق ٣٨] الآية . ومناسبتها لآخر ما قبلها : أنه تعالى أخبر أن أولئك الذين قالوا (آمنا) لم يكن إيمانهم حقاً وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار نبوة الرسول - ﷺ - فقال (بل عجبوا أن جاءهم منذر) وعدم الإيمان أيضاً يدل على إنكار البعث ، فلذلك أعقبه به ، و (ق) حرف هجاء ، وقد اختلف المفسرون في مدلوله على أحد عشر قولاً متعارضة لا دليل على صحة شيء منها ، فاطرحت نقلها في كتابي هذا ، (والقرآن) مقسم به ، و (المجيد) صفته ، وهو الشريف على غيره من الكتب ، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده ، وتقديره : إنك جثتهم منذراً بالبعث ، فلم يقبلوا (بل عجبوا) ، وقيل : ما ردوا أمرك بحجة . وقال الأخفش والمبرد والزجاج تقديره : لتبعثن ، وقيل : الجواب مذكور ، فعن الأخفش (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) وعن ابن كيسان والأخفش (ما يلفظ من قول) وعن نحاة الكوفة (بل عجبوا) والمعنى : لقد عجبوا ، وقيل : (إن في ذلك لذكرى) وهو اختيار محمد بن علي الترمذي . (وقيل) ما يبذل القول لذي (وهذه كلها أقوال ضعيفة ، وقرأ الجمهور (قاف) بسكون الفاء ، ويفتحها عيسى ، ويكسرهما الحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال ، وبالضم هرون وابن السميع ، والحسن أيضاً نقل ابن خالويه ، والأصل في حروف المعجم إذا لم تتركب مع عامل أن تكون موقوفة فمن فتح (قاف) عدل إلى أخف الحركات ، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين ، ومن ضم فكما قطُ ومنذُ وحيثُ ، (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا صدقه وأمانته ونصحه ، فكان المناسب أن لا يعجبوا ، وهذا مع اعترافهم بقدرة الله تعالى ، فأئى بعد في أن يبعث من يخوف وينذر بما يكون في المال من البعث والجزاء ؟ والضمير في (بل عجبوا) عائد على الكفار ، ويكون قوله (فقال الكافرون) تنبيهاً على القلة الموجبة للعجب وهو أنهم ، قد جبلوا على الكفر ، فلذلك عجبوا ، وقيل : الضمير عائد على الناس ، قيل : لأن كل مفطور يعجب من بعثه بشر رسولاً من الله ، لكن من وفق نظر فاهتدى وآمن ، ومن خذل ضل وكفر وحاج بذلك العجب ، والإشارة بقولهم (هذا شيء عجيب) الظاهر أنها إلى مجيء منذر من البشر ، وقيل : إلى ما تضمنه الإنذار ، وهو الإخبار بالبعث ، وقال الزمخشري : وهذا إشارة إلى المرجع انتهى . وفيه بعد . وقرأ الجمهور (أئذا) بالاستفهام ، وهم على أصولهم في تحقيق الثانية وتسهيلها والفصل بينها ، وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثاب والأعمش وابن عتبة عن ابن عامر (إذا) بهزة واحدة على صورة الخبر ، فجاز أن يكون استفهاماً حذفت منه الهمزة ، وجاز أن يكونوا عدلوا إلى الخبر ، وأضمر جواب (إذا) أي : إذا متنا وكنا تراباً رجعنا ، وأجاز صاحب اللوامح أن يكون الجواب (رجع بعيد) على تقدير حذف الفاء ، وقد أجاز بعضهم في جواب الشرط ذلك إذا كان جملة اسمية ، وقصره أصحابنا على الشعر في الضرورة ، وأما في قراءة الاستفهام فالظرف منصوب بمضمر أي : أنبعث إذا متنا ، وإليه الإشارة بقوله (ذلك) أي : البعث (رجع بعيد) ، أي : مستبعد في الأوهام والفكر . وقال الزمخشري : و (إذا) منصوب بمضمر معناه : أحين غموت ونبلي نرجع انتهى . وأخذ من قول ابن جني . قال ابن جني : ويحتمل أن يكون المعنى : أئذا متنا بعد رجعنا ، فدل (رجع بعيد) على هذا الفعل ، ويحل محل الجواب لقولهم (أئذا) ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون الرجوع بمعنى الرجوع ، وهو الجواب ويكون من كلام الله تعالى ، استبعاد الإنكار هم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن (فإن قلت :) فما ناصب الظرف إذا كان الرجوع بمعنى المرجوع ؟ (قلت :) ما دل عليه المنذر من المنذره وهو البعث انتهى ، وكون (ذلك رجع بعيد) بمعنى ، مرجوع ، وأنه من كلام الله تعالى لا من كلامهم على ما شرحه مفهوم عجيب ينبو عن إدراكه فهم العرب . (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أي : من لحومهم وعظامهم وآثارهم ، قاله ابن عباس ومجاهد والجمهور ، وهذا فيه رد لاستبعادهم الرجوع ، لأن من كان عالماً بذلك

كان قادراً على رجوعهم . وقال السدي : أي ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، وهذا يتضمن الوعيد . (وعندنا كتاب حفيظ) أي : حافظ لما فيه ، جامع لا يفوت منه شيء ، أو محفوظ من البلى والتغير ، وقيل : هو عبارة عن العلم والإحصاء ، وفي الخبر الثابت « إن الأرض تأكل ابن آدم إلا عجب الذنب » . وهو عظم كالخردلة ، منه يركب ابن آدم (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) وقدروا قبل هذا الإضراب جملة يكون مضروباً عنها ، أي : ما أجادوا النظر (بل كذبوا) ، وقيل : لم يكذبوا المنذر (بل كذبوا) والغالب أن الإضراب يكون بعد جملة منفية ، وقال الزمخشري : (بل كذبوا) إضراب اتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤا بما هو أقطع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات انتهى . وكان هذا الإضراب الثاني بدلاً من الأول ، وكلاهما بعد ذلك الجواب الذي قدرناه جواباً للقسم ، فلا يكون قبل الثانية ما قدره من قولهم : ما أجادوا النظر (بل كذبوا بالحق) والحق القرآن ، أو البعث أو الرسول - ﷺ - أو الإسلام أقوال . وقرأ الجمهور (لما جاءهم) أي : لم يفكروا فيه ، بل بأول ما جاءهم كذبوا ، والجدري لما جاءهم بكسر اللام وتخفيف الميم ، وما مصدرية واللام لام الجر كهي في قولهم : كتبت لخمس خلون ، أي : عند مجيئهم إياه ، (فهم في أمر مريج) قال الضحاك وابن زيد ، مختلط مرة ساحر ، ومرة شاعر ، ومرة كاهن ، وقال قتادة : مختلف ، وقال الحسن : ملتبس وقال أبو هريرة : فاسد ، ومرجت أمانات الناس : فسدت ومرج الدين : اختلط ، قال أبو دؤاد :

وَمَرَجَ الدِّينَ فَأَعْدَدْتُ لَهُ مُسْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَذِّ^(١)

وقال ابن عباس : المريج : الأمر المنكر ، وعنه أيضاً : مختلط وقال الشاعر :

فَجَالَتْ وَالتَّمَسْتُ لَهَا حَشَاَهَا فَخَرَّ كَأَنَّهُ خَوْطُ مَرِيحٍ^(٢)

والأصل فيه الاضطراب والقلق ، مرج الخاتم في أصبعي إذا قلق من الهزال ، ويجوز أن يكون الأمر المريج باعتبار انتقال أفكارهم فيما جاء به المنذر قائلاً عدم قبولهم أول إنذاره إياهم ، ثم العجب منهم ، ثم استبعاد البعث الذي أنذره ، ثم التكذيب لما جاء به ، (أفلم ينظروا) حين كفروا بالبعث وبما جاء به الرسول - ﷺ - إلى آثار قدرة الله تعالى في العالم العلوي والسفلي (كيف بنيناها) مرتفعة من غير عمد (وزيناها) بالنيرين وبالنجوم (وما لها من فروج) أي : من فتوق وسقوف ، بل هي سليمة من كل خلل ، (والأرض مددناها) بسطناها (وألقينا فيها رواسي) أي : جبلاً ثوابت ، تمنعها من التكفؤ من (كل زوج) أي نوع : (بهيج) أي : حسن المنظر . أي : يسر من نظر إليه ، وقرأ الجمهور (تبصرةً وذكرى) بالنصب ، وهما منصوبان بفعل مضمر من لفظهما : أي : بصر وذكر ، وقيل : مفعول من أجله زيد بن علي (تبصرةً) بالرفع (وذكر) معطوف عليه ، أي : ذلك الخلق على ذلك الوصف تبصرة ، والمعنى يتبصر بذلك ويتذكر كل عبد منيب ، أي : راجع إلى ربه مفكر في بدائع صنعه ، (ماء مباركاً) أي : كثير المنفعة (وحب الحصيد) أي : الحب الحصيد ، فهو من حذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه ، كما يقوله البصريون ، و (الحصيد) كل طلع يحصد مما له حب كالبر والشعير ، (باسقات) أي : طوالاً في العلو ، وهو منصوب على الحال ، وهي حال مقدرة ، لأنها حالة الإنبات لم تكن طوالاً ، و (باسقات) جمع والنخل اسم جنس ، فيجوز أن يذكر نحو قوله ﴿ نخل منقعر ﴾ [القمر ٢٠] وأن يؤنث نحو قوله تعالى ﴿ نخل خاوية ﴾ [الحاقة ٧] وأن يجمع باعتبار أفرادها ومنه (باسقات) وقوله ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ [الرعد ١٢] والجمهور (باسقات) بالسين . وروى قطبة بن مالك عن النبي - ﷺ - أنه قرأ (باسقات) بالصاد ، وهي

(١) البيت من المتقارب انظر القرطبي ١٧/٥ اللسان (حبك) .

(٢) البيت من الوافر لعمر بن الداهلي ، انظر ديوان الهذليين ١٠٣/٢ اللسان (مرج) . القرطبي ١٧/٥ .

لغة لبني العنبر ، يبدلون من السين صاداً إذا وليتها ، أو فصل بحرف أو حرفين خاء ، أو عين أو قاف ، أو طاء (لها طلع) تقدم شرحه عند ﴿ من طلعها قنوان دانية ﴾ [الأنعام ٩٩] ، (نضيد) أي : منضود بعضه فوق بعض : يريد كثرة الطلع وتراكمه ، أي : كثرة ما فيه من الثمر ، وأول ظهور الثمر في الكفرى هو أبيض ينضد كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً ببعضه ببعض فهو نضيد ، فإذا خرج من الكفرى تفرق فليس بنضيد ، و (رزقاً) نصب على المصدر ، لأن معنى (وأنبتنا) : رزقنا ، أو على أنه مفعول له ، وقرأ الجمهور (ميتاً) بالتخفيف وأبو جعفر وخالد بالتثقيل ، والإشارة في ذلك إلى الإحياء ، أي : الخروج من الأرض أحياء بعد موتكم ، مثل ذلك الحياة للبلدة الميت ، وهذه كلها أمثلة وأدلة على البعث ، وذكر تعالى في السماء ثلاثة البناء ، والتزين ، ونفي الفروج ، وفي الأرض ثلاثة المد ، وإلقاء الرواسي ، والإنبات ، قابل المد بالبناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، وإلقاء الرواسي بالتزين بالكواكب لارتكاز كل واحد منهما ، والإنبات المترتب على الشق بانتفاء الفروج فلا شق فيها ، ونبه فيما تعلق به الإنبات على ما يقطف كل سنة ويبقى أصله ، وما يزرع كل سنة أو سنتين ، ويقطف كل سنة ، وعلى ما اختلط من جنسين ، فبعض الثمار فاكهة لا قوت ، وأكثر الزرع قوت ، والثمر فاكهة وقوت ، ولما ذكر تعالى قوله (بل كذبوا بالحق لما جاءهم) ذكر من كذب الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - سلبية لرسوله - ﷺ - وتقدم الكلام على مفردات هذه الآية ، وقصص من ذكر فيها ، وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة ونافع (الأيكة بلام التعريف والجمهور (لَيْكَةً) ، (كل كذب الرسل) أي : كلهم ، أي : جميعهم كذب ، وحمل على لفظ (كل) فأفرد الضمير في (كَذَّب) ، وقال الزمخشري : يجوز أن يراد به كل واحد منهم انتهى . والتنوين في (كُلُّ) تنوين عوض من المضاف إليه المحذوف ، وأجاز محمد بن الوليد ، وهو من قدماء نحاة مصر أن يحذف التنوين من (كُلُّ) جعله غاية ، ويبنى على الضم كما يبنى قُبْل ، وبعد ، فأجاز : كُلُّ منطلق ، بضم اللام دون تنوين ، ورد ذلك عليه الأخفش الصغير ، وهو علي بن سليمان ، (فحق وعيد) أي : وجب تعذيب الأمم المكذبة وإهلاكهم ، وفي ذلك تسلية للرسول - ﷺ - وتهديد لقريش ومن كذب الرسول .

قوله عز وجل ﴿ أفعينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ، ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ .

(أفعينا بالخلق الأول) وهو إنشاء الإنسان من نقطة على التدرج ، وتقدم تفسير (عي) في قوله تعالى ﴿ ولم يعي بخلقهن ﴾ [الأحقاف ٣٣] ، وقرأ الجمهور (أفعينا) بياء مكسورة بعدها ياء ساكنة ماضي عي كرضي ، وقرأ ابن أبي عبلة والوليد بن مسلم والقورصبي عن أبي جعفر والسمسار عن شيبة وأبو بحر عن نافع بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية ، هكذا قال أبو القاسم الهذلي في كتاب الكامل ، وقال ابن خالويه في كتاب «شواذ القراءات» له (أفعينا) بتشديد الياء ابن أبي عبلة ، وفكرت في توجيه هذه القراءة ، إذ لم ذكر أحد توجيهها ، فخرجتها على لغة من أدغم الياء في الياء في الماضي ، فقال عي في عي ، وحى في حي ، فلما أدغم ألحقه ضمير المتكلم المعظم نفسه ولم يفك الإدغام فقال : عينا ، وهي لغة لبعض بكر بن وائل ، يقولون في : رددت : ورددنا : ردت وردنا ، فلا يفكون ، وعلى هذه اللغة يكون الياء المشددة مفتوحة ، فلو كان (نا) ضمير نصب لاجتمعت العرب على الإدغام نحو ، ردنا زيد ، وقال الحسن : الخلق الأول آدم - عليه السلام - والمعنى : أعجزنا عن الخلق الأول فنعجز عن الخلق الثاني ، وهذا توقيف للكفار وتوبيخ ، وإقامة الحجة الواضحة عليهم ، (بل هم في لبس أي : خلط وشبهة وحيرة ، ومنه قول : علي يا حار : إنه للملبوس عليك ،

اعرف الحق تعرف أهله ، (من خلق جديد) أي : من البعث من القبور ، (ولقد خلقنا الإنسان) هذه آيات فيها إقامة حجج على الكفار في إنكارهم البعث ، والإنسان اسم جنس ، وقيل : آدم ، (ونحن أقرب) قرب علم به وبأحواله لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله في كل مكان ، أي : بعلمه ، وهو منزّه عن الأمكنة ، و (حبل الوريد) مثل في فرط القرب ، كقول العرب : هو مني مقعد القابلة ومقعد الإزار ، قال ذو الرمة :

وَأَلْمُوتُ أَذْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ

والحبل : العرق الذي شبه بواحد الحبال ، وإضافته إلى الوريد للبيان ، كقولهم : بعير سانية ، أو يراد حبل العاتق ، فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد ، والعامل في (إذ أقرب) ، وقيل : اذكر ، قيل : ويحسن تقديراً ذكر ، لأنه أخبر خبراً مجرد بالخلق والعلم بخطرات الأنفس والقرب بالقدرة والملك ، فلما تم الإخبار أخبر بذكر الأحوال التي تصدق هذا الخبر ، وتعيين وروده عند السامع ، فمنها (إذ يتلقى المتلقيان) ومنها مجيء سكرة الموت ، ومنها النفخ في الصور ، ومنها مجيء كل نفس معها سائق وشهيد ، والمتلقيان : الملكان الموكلان بكل إنسان ملك اليمين يكتب الحسنات ، وملك الشمال يكتب السيئات ، وقال الحسن : الحفظة أربعة ، اثنان بالنهار ، واثنان بالليل ، و (قعيد) مفرد فاحتمل أن يكون معناه : مقاعد ، كما تقول : جلس وخلبط ، أي : مجالس ومخالط ، وأن يكون عدل فاعل إلى فعل للمبالغة كعليم ، قال الكوفيون : مفرداً قيم مقام اثنين ، والأجود أن يكون حذف من الأول لدلالة الثاني عليه ، أي : عن اليمين قعيد ، كما قال الشاعر :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي^(١)

على أحسن الوجهين فيه ، أي : كنت منه برياً ووالدي برياً ، ومذهب المبرد أن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال ، فأخر قعيد عن موضعه ، ومذهب الفراء أن لفظ (قعيد) يدل على الاثنين والجمع ، فلا يحتاج إلى تقدير ، وقرأ الجمهور (ما يلفظ من قول) وظاهر (ما يلفظ) العموم ، قال مجاهد وأبو الحوراء : يكتب عليه كل شيء حتى أنيه في مرضه . وقال الحسن وقتادة : يكتبان جميع الكلام ، فثبت الله تعالى من ذلك الحسنات والسيئات ، ويمحو غير ذلك ، وقيل : هو مخصوص ، أي : من قول خير أو شر وقال معناه عكرمة ، وما خرج عن هذا لا يكتب ، واختلفوا في تعيين قعود الملكين ، ولا يصح فيه شيء ، (رقيب) ملك يرقب ، (عتيد) حاضر ، وإذا كان على اللفظ (رقيب عتيد) فأحرى على العمل ، وقال الحسن ، فإذا مات طويت صحيفته ، وقيل له يوم القيامة (اقرأ كتابك) الإسراء ١٤^(٢) ، (وجاءت سكرة الموت) هو معطوف على (إذ يتلقى) و (سكرة الموت) ما يعتري الإنسان عند نزاعه ، والباء في (بالحق) للتعدية ، أي : جاءت سكرة الموت الحق ، وهو الأمر الذي أنطق الله به كتبه ، وبعث به رسله من سعادة الميت أو شقاوته ، أو للحال . أي : ملتبسة بالحق ، وقرأ مسعود (سكران) جمعاً ، (ذلك ما كنت منه تحيد) أي : تميل تقول : أعيش كذا ، وأعيش كذا ، فمتى فكر في قرب الموت حاد بذهنه عنه ، وأمل إلى مسافة بعيدة من الزمن ، ومن الحيد الحذر من الموت ، وظاهر (تحيد) : أنه خطاب للإنسان الذي جاءته سكرة الموت ، وقال الزمخشري : الخطاب للفاجر (تحيد) تنفر وتهرب ، (ذلك يوم الوعيد) هو على حذف أي : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر (نُفِخَ) وأضاف اليوم إلى الوعيد وإن كان يوم الوعد والوعيد معاً على سبيل التخويف ، وقرأ الجمهور (معها) وطلحة بالحاء مثقلة أدغم العين في

(١) تقدم .

(٢) انظر القرطبي ٦١٨٢/٨ والدر المنثور ٨٤١٠٥/٦ خ .

الهاء فانقلبنا حاء ، كما قالوا : ذهب محمد يريد : (سائق) جاث على السير (وشهيد) يشهد عليه ، قال عثمان بن عفان ومجاهد وغيره : ملكان موكلان بكل إنسان ، أحدهما يسوقه ، والآخر من حفظه يشهد عليه^(٢) ، وقال أبو هريرة : السائق ملك والشهيد النبي^(٣) ، وقيل : الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً^(٤) والظاهر أن قوله (سائق وشهيد) اسما جنس ، فالسائق ملائكة موكلون بذلك ، والشهيد الحفظة وكل من يشهد ، وقال ابن عباس والضحاك : السائق ملك ، والشهيد جوارح الإنسان^(٥) قال ابن عطية : وهذا يبعد عن ابن عباس ، لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي ، وقوله (كل نفس) يعم الصالحين ، فإنما معناه (وشهيد) بخيره وشره ، ويقوى في شهيد اسم الجنس ، فشهد بالخير الملائكة والباق ومنه قوله - ﷺ - لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة^(٦) ، وقال أبو هريرة : السائق ملك ، والشهيد العمل ، وقال أبو مسلم : السائق شيطان ، وهو قول ضعيف ، وقال الزمخشري : ملكان ، أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله ، أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : ملك يسوقه ويشهد عليه ، ومحل (معها سائق) النصب على الحال من (كل) لتعرفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة ، هذا كلام ساقط لا يصدر عن مبتدئ في النحو ، لأنه لو نعت (كل نفس) لما نعت إلا بالنكرة فهو نكرة على كل حال ، فلا يمكن أن يتعرف (كل) وهو مضاف إلى نكرة ، قوله عز وجل .

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد ، قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد ، ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ، يوم نقول لجهنم هل امتلكت وتقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

قرأ الجمهور (لقد كنت في غفلة) بفتح التاء والكاف في (كنت) و (غطاءك) و (بصرك) والجحدري بكسرها على مخاطبة النفس ، وقرأ الجمهور (عنك غطاءك فبصرك) بفتح التاء والكاف حملاً على لفظ (كل) من التذكير ، والجحدري وطلحة بن مصرف (عنك غطاءك فبصرك) بالكسر مراعاة للنفس أيضاً ، ولم ينقل الكسر في الكاف صاحب اللوامح إلا عن طلحة وحده ، قال صاحب اللوامح : ولم أجد عنه في (لقد كنت) الكسر فإن كسر فإن الجميع شرع واحد ، وإن فتح (لقد كنت) فحمل على كل أنه مذكر ، ويجوز تأنيث (كل) في هذا الباب لإضافته إلى نفس وهو مؤنث ، وإن كان كذلك فإنه حمل بعضه على اللفظ وبعضه على المعنى ، مثل قوله (فله أجره) ثم قال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة ٦٢] انتهى . قال ابن عباس وصالح بن كيسان والضحاك : يقال للكافر الغافل من ذوي النفس التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن وعاین الحقائق التي لا يصدق بها في الدنيا ويتغافل عن النظر فيها : (لقد كنت في غفلة من هذا) أي : من عاقبة الكفر ، فلما كشف الغطاء عنك احتد بصرك ، أي : بصيرتك وهذا

(١) انظر البغوي ٢٢٣/٤ والوسيط ٨٥ خ .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) المصدران السابقان .

(٥) أخرجه البخاري ١٥٨/١ (دار الفكر) والحميدي في مسنده (٧٣٢) والنووي في أذكاره (٣٥) وذكره الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير

كما تقول : فلان حديد الذهن ، وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي : احتدّ التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة ، وعن زيد بن أسلم قول في هذه الآية يحرم نقله ، وهو في كتاب ابن عطية ، وكفى بالغطاء عن الغفلة ، كأنها غطت جميعه أو عينيه فهو لا يبصر ، فإذا كان في القيامة زالت عنه الغفلة ، فأبصر ما كان لم يبصره من الحق ، (وقال قرينه) أي : من زبانية جهنم (هذا) العذاب الذي (لدى) لهذا الإنسان الكافر (عتيد) حاضر ، ويحسن هذا القول إطلاق ما على ما لا يعقل ، وقال قتادة (قرينه) الملك الموكل بسوقه^(١) ، أي : هذا الكافر الذي أسوقه لديّ حاضر ، وقال الزهراوي : أي : (قرينه) : شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما وقع فيه أن القرين في قوله (ربنا ما أطغيته) هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف ، ولفظ القرين اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، ومماشي الإنسان في طريقه قرين ، وقيل : (قرينه) هنا عمله قلباً وجوارح ، وقال الزمخشري : (وقال قرينه) هو الشيطان الذي قبض له في قوله ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [الزخرف ٣٦] يشهد له قوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته) (هذا ما لدي عتيد) هذا شيء لدي وفي ملكتي (عتيد) لجهنم ، والمعنى : أن ملكاً يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطاناً مقروناً به يقول : قد أعتدته لجهنم ، وهياته لها باغواي وإضلاي انتهى . وهذا قول مجاهد ، وقال الحسن و قتادة أيضاً : الملك الشهيد عليه ، وقال الحسن أيضاً : هو كاتب سيئاته ، (وما) نكرة موصوفة بالظرف وبـ (عتيد) وموصولة والظرف صلتها ، و (عتيد) قال الزمخشري : بدل أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف انتهى ، وقرأ الجمهور (عتيد) بالرفع ، وعبد الله بالنصب على الحال ، والأولى إذ ذاك أن تكون (ما) موصولة (ألقيا في جهنم) الخطاب من الله للملكين السائق والشهيد ، وقيل : للملكين من ملائكة العذاب ، فعلى هذا الألف ضمير الإثنين ، وقال مجاهد وجماعة : هو قول إما للسائق وإما للذي هو من الزبانية ، وعلى أنه خطاب للواحد ، وقال المبرد : معناه ألق ألق فثني ، وقال الفراء : هو من خطاب الواحد بخطاب الاثنين ، وقيل : الألف بدل من النون الخفيفة ، أجرى الوصل مجرى الوقف ، وهذه أقوال مرغوب عنها ، ولا ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ لقول مجاهد ، وقرأ الحسن (ألقين) بنون التوكيد الخفيفة ، وهي شاذة مخالفة لنقل التواتر بالألف (كل كفار) أي : يكفر النعمة والمنعم ، (عتيد) قال قتادة : منحرف عن الطاعة ، وقال الحسن : جاحد متمرد ، وقال السدي : المساق من العند ، وهو عظم يعرض في الحلق ، وقال ابن بحر : المعجب بما فيه (منع للخير) قال قتادة ومجاهد وعكرمة : يعني الزكاة ، أي : بخيل ، أي : مانع بني أخيه من الإيمان ، كالوليد بن المغيرة ، كان يقول لهم : من دخل منكم فيه لم أنفعه بشيء ما عشت ، والأحسن عموم الخير في المال وغيره ، (مريب) قال الحسن : شاك في الله ، أو في البعث ، وقيل : متهم الذي جوزوا فيه أن يكونوا منصوباً بدلاً من (كل كفار) وأن يكون مجروراً بدلاً من (كفار) وأن يكون مرفوعاً بالابتداء مضمناً معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء في خبره وهو (فألقياه) والظاهر تعلقه بما قبله على جهة البديل ويكون (فألقياه) توكيداً ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون صفة من حيث يختص (كفار) بالأوصاف المذكورة ، فجاز وصفه بهذه المعرفة انتهى . وهذا ليس بشيء ، لو وصفت النكرة بأوصاف كثيرة لم يجز أن توصف بالمعرفة ، (قال قرينه) لم تأت هذه الجملة بالواو ، بخلاف (وقال قرينه) قبله ، لأن هذه استؤنفت كما استؤنفت الجمل في حكاية التقاول في مقابلة موسى وفرعون ، فجرت مقابلة بين الكافر وقرينه ، فكأن الكافر قال : ربي ، هو أطغاني (قال قرينه ربنا ما أطغيته) وأما (وقال قرينه) فعطف للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه ما قاله له ، ومعنى (ما أطغيته) تنزيه لنفسه من أنه أثر فيه (ولكن كان في ضلال بعيد) أي : من نفسه لا مني ، فهو الذي استحب العمى على الهدى ، كقوله (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن

دعوتكم فاستجبتم لي (وكذب القرين ، قد أطعاه بوسوسته وتزيينه ، (قال لا تختصموا لدي) استئناف أيضاً مثل (قال قرينه) كأن قائلاً قال : ما قال الله تعالى ، فقليل (لا تختصموا لدي) أي : في دار الجزاء وموقف الحساب ، (وقد قدمت إليكم بالوعيد) لمن عصاني ، فلم أترك لكم حجة ، (ما يبذل القول لدي) أي : عندي فما أمضيته لا يمكن تبديله ، وقال الفراء : ما يكذب لدي لعلمي بجميع الأمور (وقدمت) يجوز أن يكون بمعنى تقدمت ، أي : قد تقدم قولي لكم ملتبساً بالوعيد ، أو يكون قدم المتعدية و (بالوعيد) هو المفعول ، والباء زائدة والتقديم كان في الدنيا ، ونهيه عن الاختصام في الآخرة ، فاختلف الزمانان ، فلا تكون الجملة من قوله (وقد قدمت) حالاً إلا على تأويل أي : وقد صح عندكم أنني قدمت ، وصحة ذلك في الآخرة ، فانفق زمان النهي عن الاختصام وصحة التقديم بالحال على هذا التأويل مقارنة . (وما أنا بظلام للعبيد) تقدم شرح مثله في أواخر آل عمران ، والمعنى : لا أعذب من لا يستحق العذاب ، وقرأ (يوم يقول) بياء الغيبة الأعرج وشيبة ونافع وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش ، وباقي السبعة بالنون ، وعبد الله والحسن والأعمش أيضاً (يُقَالُ) مبنياً للمفعول ، وانتصاب (يوم) (بظلام) أو باذكر ، أو بأنذر كذلك ، قال الزمخشري : ويجوز أن ينتصب بـ (نُفِخَ) ، كأنه قيل : ونفخ في الصور يوم نقول . وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم يقول انتهى . وهذا بعيد جداً قد فصل على هذا القول بين العامل والمعمول بجملة كثيرة ، فلا يناسب هذا القول فصاحة القرآن وبلاغته (وهل امتلئت) تقرير وتوقيف ، لا سؤال استفهام حقيقة ، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم ، قيل : وهذا السؤال والجواب منها حقيقة ، وقيل : هو على حذف مضاف ، أي : نقول لخزنة جهنم قاله الرماني ، وقيل : السؤال والجواب من باب التصوير الذي يثبت المعنى ، أي : حالها حال من لو نطق بالجواب لسأله لقال كذا . وهذا القول يظهر أنها إذ ذاك لم تكن ملأى ، فقوها (من مزيد) سؤال ورغبة في الزيادة والاستكثار من الداخلين فيها ، وقال الحسن وعمر وواصل : كانت ملأى وقت السؤال ، فلا تزداد على امتلائها ، كما جاء في الحديث « وهل ترك لنا عقيل من دار » أي : ما تركه ، و (مزيد) يحتمل أن يكون مصدراً واسم مفعول ، (غير بعيد) مكاناً غير بعيد ، وهو تأكيد لـ (أزلقت) رفع مجاز القرب بالوعد والإخبار فانتصاب (غير) على الظرف صفة قامت مقام مكان ، فأعربت بإعرابه ، وأجاز الزمخشري أن ينتصب (غير بعيد) على الحال من الجنة ، قال : وتذكيره يعني (بعيد) لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث انتهى . وكونه على وزن المصدر لا يسوغ أن يكون المذكر صفة للمؤنث . وقال الزمخشري أيضاً : أو على حذف الموصوف ، أي : شيئاً غير بعيد انتهى . وكأنه يعني : إزلاًفاً غير بعيد ، هذا إشارة للثواب . وقرأ الجمهور (ما توعدون) خطاب للمؤمنين ، وابن كثير وأبو عمرو وبياء الغيبة ، أي : هذا القول هو الذي وقع الوعد به ، وهي جملة اعتراضية بين المبدل منه والمبدل ، و (لكل أبواب) هو البديل من المتقين ، (من خشي) بدل بعد بدل تابع لـ (كل) قاله الزمخشري ، وإنما جعله تابعاً لـ (كل) ، لا بدلاً من للمتقين ، لأنه لا يتكرر الإبدال من مبدل منه واحد ، قال : ويجوز أن يكون بدلاً من موصوف (أبواب) و (حفيظ) ولا يجوز أن يكون في حكم (أبواب) و (حفيظ) لأن من لا يوصف به ولا يوصف من بين سائر الموصولات إلا بالذي انتهى . يعني بقوله : في حكم (أبواب) أن يجعل من صفته ، وهذا حكم صحيح ، وأما قوله : ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي فالحصر ليس بصحيح ، قد وصفت العرب بما فيه أل ، وهو موصول نحو : القائم والمضروب ، ووصفت بذو الطائية وذات في المؤنث ، ومن كلامهم بالفضل ذو فضلكم الله به ، والكرامة ذات أكرمكم الله به ، يريد بالفضل الذي فضلكم ، والكرامة التي أكرمكم ، ولا يريد الزمخشري خصوصية الذي ، بل فروعه من المؤنث والمثنى والمجموع على اختلاف لغات ذلك ، وجوز أن تكون (من) موصولة مبتدأ خبره القول المحذوف ، تقديره : يقال لهم ادخلوها ، لأن من في معنى الجمع ، وأن تكون شرطية ، والجواب الفعل المحذوف ، أي : فيقال ، وأن يكون منادى كقولهم : من لا يزال محسناً أحسن إليّ ، وحذف حرف النداء للتقريب ، وقال

ابن عطية : يحتمل أن تكون من نعتاً انتهى . وهذا لا يجوز ، لأن (من) لا ينعت بها ، و (بالغيب) حال من المفعول ، أي : وهو غائب عنه ، وإنما أدركه بالعلم الضروري ، إذ كل مصنوع لا بد له من صانع ، ويجوز أن تكون صفة لمصدر (خشي) أي : خشيه خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشي عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه ، وقيل : في الخلوة حيث لا يراه أحد ، فيكون حالاً من الفاعل ، وقرن بالخشية الرحمن بناء على الخاشي ، حيث علم أنه واسع الرحمة وهو مع ذلك يخشاه ، (ادخلوها بسلام) أي : سالمين من العذاب ، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته ، (ذلك يوم الخلود) كقوله ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر ٧٣] أي : مقدرين الخلود ، وهو معادل لقوله في الكفار (ذلك يوم الوعيد) ، (لهم ما يشاؤون فيها) أي : ما تعلق به مشيئاتهم من أنواع الملاذ والكرامات ، كقوله تعالى ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ [فصلت ٣١] ، (ولدنا مزيد) زيادة ، أو شيء مزيد على ما تشاؤون ونحوه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة ١٧] وكما جاء في الحديث^(١) « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما أطلعتهم عليه » . و (مزيد) مبهم ، فقيل : مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها ، وقيل : أزواج من حور الجنة ، وقيل : تحلي الله تعالى لهم حتى يرونها ، قوله عز وجل ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصبح بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ، نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أي : كثيراً (أهلكنا) قبل قریش (هم أشد منهم بطشاً) لكثرة قوتهم وأموالهم ، وقرأ الجمهور (فنقبوا) بفتح القاف مشددة ، والظاهر أن الضمير في (نقبوا) عائد على (كم) أي : دخلوا البلاد من أنقابها ، والمعنى : طافوا في البلاد ، وقيل : نقرأوا وبحثوا ، والتنقيب : التنقيب والبحث ، قال امرؤ القيس في معنى التطواف :

وَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَّابِ^(٢)

وروي : وقد طوفت ، وقال الحارث بن خلدة :

نَقَبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالٍ^(٣)

و (فنقبوا) متسبب عن شدة بطشهم ، فهي التي أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه ، ويجوز أن يعود الضمير في (فنقبوا) على قریش ، أي : فنقبوا في أسفارهم في بلاد القرون ، فهل رأوا محيصاً حتى يؤملوه لأنفسهم ، ويدل على عود الضمير على أهل مكة قراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونصر بن يسار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو بكسر القاف مشددة على الأمر لأهل مكة ، أي : فسيحوا في البلاد وابتحثوا ، وقرىء بكسر القاف خفيفة ، أي : نقتب أقدامهم وأخاف إبلهم ، أو حفيت لكثرة تطوافهم في البلاد ، من نقب خف البعير إذا انتقب ودمي ، ويحتمل أن يكون (هل من محيص) على إضمار القول ، أي : يقولون : هل من محيص من الهلاك ، واحتمل أن لا يكون ثم قول ، أي : لا محيص

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٨/٢ والحميدي في مسنده (١١٣٣) وذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٦/٥ .

(٢) تقدم .

(٣) البيت من الوافر ونسب لعدي بن زيد ، انظر تفسير القرطبي ١٦/١٧ الكشف ٣٩٠/٤ .

من الموت ، فيكون توقيفاً وتقريراً ، (إن في ذلك) أي : في إهلاك تلك القرون (لذكرى) لتذكرة واتعاضاً (لمن كان له قلب) أي : واع ، والمعنى : لمن له عقل وعبر عنه بمحله ، ومن له لا يعي كمن لا قلب له ، وقرأ الجمهور (أو ألقى السَّمْعَ) مبنياً للفاعل و (السَّمْعَ) نصب به أي : أو أصغى سمعه مفكراً فيه ، و (شهيدٌ) من الشهادة وهو الحضور ، وقال قتادة (لمن كان له) قيل : من أهل الكتاب ، فيعتبر ويشهد بصحتها لعلمه بذلك من التوراة فـ (شهيد) من الشهادة ، وقرأ السلمي وطلحة والسدي وأبو البرّ هيثم (أو ألقى) مبنياً للمفعول (السَّمْعَ) رفع به ، أي : السمع منه ، أي : من الذي له قلب ، وقيل : المعنى : أولم ألقى غيره السمع ، وفتح له أذنه ولم يحضر ذهنه ، أي : الملقى والفتاح والملقى له والفتوح أذنه حاضر الذهن متفطن^(١) ، وذكر لعاصم أنها قراءة السدي فمقته ، وقال : أليس يقول ﴿ يلقون السمع ﴾ [الشعراء ٢٢٣] ، (ولقد خلقنا السموات والأرض) نزلت في اليهود تكذيباً لهم في قولهم : إنه تعالى استراح من خلق السموات والأرض في ستة أيام يوم السبت ، واستلقى على العرش ، وقيل : التشبيه الذي وقع في هذه الأمة إنما أخذ من اليهود ، (وما مسنا من لغوب) احتمل أن تكون جملة حالية ، واحتمل أن تكون استثناءً ، واللغوب : الإعياء ، وقرأ الجمهور بضم اللام وعلي والسلمي وطلحة ويعقوب بفتحها ، وهما مصدران ، الأول مقيس وهو الضم ، وأما الفتح فغير مقيس كالقبول والولوع ، وينبغي أن يضاف إلى تلك الخمسة التي ذكرها سيبويه ، وزاد الكسائي الوزوع فتصير سبعة ، (فاصبر) قيل منسوخ بآية السيف (على ما يقولون) أي : وغيرهم من الكفار قریش وغيرهم (وسبح بحمد ربك) أي : فصل قبل طلوع الشمس هي صلاة الصبح ، وقيل الغروب هي صلاة العصر ، قاله قتادة وابن زيد والجمهور ، وقال ابن عباس (قبل الغروب) الظهر والعصر (ومن الليل) صلاة العشاءين (وقبل الغروب) : ركعتان قبل المغرب ، وفي صحيح مسلم عن أنس ما معناه أن الصحابة كانوا يصلونها قبل المغرب . وقال قتادة : ما أدركت أحد يصلها إلا أنساً وأباً برزة الأسلمي ، وقال بعض التابعين : كان الصحابة يهون إليها كما يهون إلى المكتوبة ، وقال ابن زيد : هي العشاء فقط ، وقال مجاهد : هي صلاة الليل (وأدبار السجود) قال أبو الأحوص : هو التسبيح في أدبار الصلوات ، وقال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن والشعبي وإبراهيم ومجاهد والأوزاعي : هما ركعتان بعد المغرب ، وقال ابن عباس : هو الوتر بعد العشاء ، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ، وابن زيد : النوافل بعد الفرائض ، وقال مقاتل : ركعتان بعد العشاء ، يقرأ في الأولى (قل يا أيها الكافرون) وفي الثانية (قل هو الله أحد) وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة وشبل وحمزة والحرميان (وإدبار) الهمة ، وهو مصدر تقول : أدبرت الصلاة : انقضت وتمت ، وقال الزمخشري وغيره : معناه : وقت انقضاء السجود ، كقولهم : آتيتك خفوق النجم ، وقرأ الحسن والأعرج وباقي السبعة بفتحها جمع دبر ، كطنب وأطناب ، أي : وفي أدبار السجود ، أي : أعقبه ، قال أوس بن حجر :

عَلَى دُبْرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرَضْنَا وَمَا حَوْلَهَا جَدَّبْ سُنُونَ تَلَمَّعُ^(٢)

(واستمع) أمر بالاستماع ، والظاهر أنه أريد به حقيقة الاستماع ، والمستمع له محذوف تقديره : واستمع لما أخبر به من حال يوم القيامة ، وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به ، كما قال رسول الله - ﷺ - لمعاذ « يا معاذ اسمع ما أقول لك » ، ثم حدثه بعد ذلك ، وانتصب (يوم) بما دل عليه ذلك يوم الخروج . أي : يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور ، وقيل : مفعول استمع محذوف تقديره : نداء المنادي ، وقيل : تقديره : نداء الكافر بالويل والثبور ، وقيل : لا يحتاج إلى مفعول ، إذ حذف اقتصاراً والمعنى : كن مستمعاً ، ولا تكن غافلاً معرضاً ، وقيل : معنى (واستمع) وانتظر ،

(١) انظر الوسيط ٦٨ خ والبغوي ٢٢٦/٤ .

(٢) البيت من الطويل ، انظر شرح الفصل ٤٥/٢ .

والخطاب لكل سامع ، وقيل : للرسول أي : ارتقبه ، فإن فيه تبين صحة ما قلته ، كما تقول لمن تعدده بورود فج : استمع كذا وكذا ، أي : كن منتظراً له مستمعاً فـ (يوم) منتصب على أنه مفعول به ، وقرأ ابن كثير (المنادي) بالياء وصلأ ووقفأ ، ونافع وأبو عمرو بحذف الياء وقفأ ، وعيسى وطلحة والأعمش وباقي السبعة بحذفها وصلأ ووقفأ إتباعاً لخط المصحف . ومن أثبتها فعلى الأصل ، ومن حذفها وقفأ فلأن الوقف تغيير يبدل فيه التثنية ألفاً نصباً ، والتاء هاء ويشدد المخفف ويحذف الحرف في القوافي ، و (المنادي) في الحديث « إن ملكاً ينادي من السماء ، أيتها الأجسام الهامدة . والعظام البالية ، والرسم الذاهبة هلموا إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى » ، (من مكان قريب) وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلق ، قيل : و (المنادي) إسرأفيل ينفخ في الصور وينادي ، وقيل : المنادي جبريل ، وقال كعب وقتادة وغيرهما : المكان صحرة بيت المقدس ، قال كعب : قربها من السماء بثمانية عشر ميلاً كذا في كتاب ابن عطية وفي كتاب الزمخشري : باثني عشر ميلاً ، وهي وسط الأرض انتهى . ولا يصح ذلك إلا بوحى ، (يوم يسمعون) بدل من (يوم ينادي) و (الصيحة) صيحة المنادي ، قيل : يسمعون من تحت أقدامهم ، وقيل : من تحت شعورهم ، وهي النفخة الثانية^(١) ، و (بالحق) متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والحشر ، (ذلك) أي : يوم النداء والسماع يوم الخروج من القبور ، وقيل : الإشارة بذلك إلى النداء واتسع في الظروف ، فجعل خبراً عن المصدر ، أو يكون حذف ، أي : ذلك النداء نداء يوم الخروج ، أو وقت النداء يوم الخروج ، وقرأ نافع وابن عامر (تَشَقُّق) بشد الشين ، وباقي السبعة بتخفيفها ، وقرئ (تَشَقُّق) بضم التاء مضارع شقت على البناء للمفعول ، و (تَشَقُّق) مضارع انشقت ، وقرأ زيد بن علي (تشقق) بفك الإدغام ، ذكره أبو علي الأهوازي في قراءة زيد بن علي من تأليفه ، و (يوم) بدل من (يوم) الثاني ، وقيل : منصوب بالمصدر ، وهو الخروج ، وقيل : (المصير) وانتصب (سراعاً) على الحال من الضمير في (عنهم) والعامل (تشقق) ، وقيل : محذوف تقديره : يخرجون ، فهو حال من الواو في (يخرجون) قاله الحوفي ، ويجوز أن يكون هذا المقدر عاملاً في (يوم تشقق) ، (ذلك حشر علينا يسير) فصل بين الموصوف وصفته بمعمول الصفة ، وهو (علينا) أي : يسير علينا ، وحسن ذلك كون الصفة فاصلة ، وقال الزمخشري (علينا يسير) تقديم الظرف يدل على الاختصاص يعني : لا يتيسر مثل ذلك اليوم العظيم إلا على القادر الذات ، الذي لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان ٢٨] انتهى . وهو على طريقه في أن تقديم المفعول وما أشبهه من دلالة ذلك على الاختصاص ، وقد بحثنا معه في ذلك في سورة الفاتحة في ﴿ إياك نعبد ﴾ [الفاتحة ٥] ، (نحن أعلم بما يقولون) هذا وعيد محض للكفار ، وتهديد لهم ، وتسلية للرسول - ﷺ - (وما أنت عليهم بجبار) بمسئلة حتى تجربهم على الإيمان قاله الطبري . وقيل : التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم ، (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) لأن من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدق بوقوعه لا يذكر إذ لا تنفع فيه الذكرى ، كما قال ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات ٥٥] وختمت بقوله (فذكر بالقرآن) كما افتتحت بـ (ق والقرآن) .

سورة الذاريات ستون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالَّذِينَ ذَرَوْا ۙ ﴿١﴾ فَأَلْحَمَلَتْ وِقْرًا ۙ ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَتِ يُسْرًا ۙ ﴿٣﴾ فَأَلْمَسَتِ امْرَأًا ۙ ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ۙ ﴿٥﴾ وَإِنَّ
الَّذِينَ لَوَفَّعُ ۙ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ ۙ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۙ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ۙ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَّاصُونَ ۙ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۙ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ۙ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۙ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَلَنْتَكُمُ هَذَا الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِءَ تَسْتَعْجِلُونَ ۙ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۙ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَاءً آنَهُمُ رِيحُهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۙ ﴿١٦﴾
كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۙ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۙ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۙ ﴿١٩﴾ وَفِي
الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۙ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۙ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۙ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ۙ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۙ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ۙ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
ۙ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْمَةٍ عَلِيمٍ ۙ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا
وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۙ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۙ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا
الْمُرْسَلُونَ ۙ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۙ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۙ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ ۙ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ۙ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً
لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۙ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۙ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَيئِيلَ وَقَالَ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ۙ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۙ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۙ ﴿٤١﴾ مَا نَذَرُ
مِن شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ۙ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ۙ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۙ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَصْطَنَعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ۙ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُّوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَنُفِّلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

الحبك الطرائق مثل حبك الرمل والماء القائم إذا ضربته الريح وكذلك حبك الشعر أثار تشنيه وتكسره قال الشاعر:

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النُّجْمِ يَنْسُجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُّكَ^(١)

والدرع محبوكة لأن حلقها مطرق طرائق وواحدتها حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثال ومثل قال الراجز :

كَأَنَّمَا حَلَّلَهَا الْحَوَاكُ طُنْفَسَةٌ فِي وَشِيهَا حَبَاكُ^(٢)

ويقال حباك للظفيرة التي يشد بها خطار القصب بكره وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الغراسات المصطفة ، وقال ابن الأعرابي حبكت الشيء أحكمته وأحسنه عمله ، قال الفراء الحبك تكسر كل شيء ، وقال غيره المحبوك الشدديد الخلق من فرس وغيره ، قال امرؤ القيس :

قَدْ عَذَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْفِهِ لَاحِقُ الْأُطْلَيْنِ مَحْبُوكُ مُرٍّ^(٣)

المهجود النوم ، السمن معروف وهو امتلاء الجسد بالشحم واللحم يقال سمن سمناً فهو سمين شُدُوا في المصدر واسم الفاعل والقياس سمن وسمن وقالوا سامن إذا حدث له السمن ، الذنوب الدلو العظيمة ، قال الراجز :

إِنَّا إِذَا نَازَلْنَا غَرِيبٌ لَهُ ذُنُوبٌ وَلَنَا ذُنُوبٌ وَإِنْ أُبَيِّتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ^(٤)

وأنشده الزمخشري

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبُ^(٥)

(١) تقدم .

(٢) البيت من الرجز لرؤبة انظر القرطبي ٢٣/١٧ فتح القدير ٨٣/٥ .

(٣) البيت من الرمل ، انظر ديوانه ١٤٤ القرطبي ٢٣/١٧ .

(٤) الكشف ٤٠٧/٤ والقرطبي ٣٩/١٧ روح المعاني ٢٤/٢٧ .

(٥) البيت من المتقارب ، انظر المصادر السابقة للسان (ذنب) .

ويطلق ويراد به الحظ والنصيب ، قال علقمة بن عبدة :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ فَحَقُّ لَشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْبٌ^(١)

ونسبه الزمخشري لعمرو بن شاس وهو وهم وهو في ديوان علقمة ، وكان الحارث بن أبي شمر الغساني أسر شاساً أخا علقمة فدخل إليه علقمة فمدحه بالقصيدة التي فيها هذا البيت فلما وصل إلى هذا البيت في الإنشاد قال الحرث نعم وأذنبه ، وقال حسان :

لَا يَبْعُدُنْ رَيْبَةَ بَنٍ مَكْرَمٍ وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذَنْبٍ

وقال آخر :

لَعَمْرُكَ وَالْمَنَايَا طَارِقَاتُ لِكُلِّ بَنِي أَبٍ فِيهَا ذَنْبٌ^(٢)

﴿ والذاريات ذرواً ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسراً ، فالمقسّمات أمراً ، إنما تواعدون لصديق ، وإن الدين لواقع ، والسماء ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك ، قتل الخراصون ، الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيان يوم الدين ، يوم هم على النار يفتنون ، ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ، إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ، وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما تواعدون ، فارب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها الآخر ما قبلها : أنه قال (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ، وقال أول هذه بعد القسم (إنما تواعدون لصديق وإن الدين لواقع) ، (والذاريات) الرياح ، (فالحاملات) : السحاب ، (فالجاريات) الفلك ، (فالمقسّمات) الملائكة ، هذا تفسير عليّ - كرم الله وجهه - على المنبر وقد سأله ابن الكواء قاله ابن عباس^(٣) ، وقال ابن عباس أيضاً (فالحاملات) هي السفن الموقرة بالناس وأمتاعهم^(٤) ، وقيل : الحوامل من جميع الحيوان^(٥) ، وقيل : (الجاريات) السحاب بالرياح ، وقيل : الجوّاري من الكواكب ، وأدغم أبو عمرو وحمزة (والذاريات) في ذال (ذروا) وذروها تفريقها للمطر أو للتراب ، وقرئ بفتح الواو ، وتسمية للمحمول بالمصدر ، ومعنى (يسراً) جرياً ذا يسر ، أي : سهولة ف (يسراً) مصدر وصف به على تقدير محذوف ، فهو على رأي سيبويه في موضع الحال (أمراً) تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها (فأمرأ) مفعول به ، وقيل : مصدر منصوب على الحال ، أي : مأمره ، ومفعول المقسمات محذوف ، وقال مجاهد : يتولى أمر العباد جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة ، وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ ، وجاء في الملائكة (فالمقسّمات) على معنى الجماعات ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الرياح لا غير ، لأنها تنشأ

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٠٧) أسالي ابن الشجري ٨١/٢ ابن يعيش ٤٨/٥ شرح شواهد الشافية (٤٩٤) المنصف ٣٣٢/٢

المفضليات (٧٨٦) اللسان ٢٨٣/٧ الشاهد استعمال ذنوب بمعنى نصيب .
(٢) انظر البيت في اللسان (ذنب) روح المعاني ٢٧/٢٤ . القرطبي ١٧/٣٩ .

(٣) انظر البغوي ٤/٢٢٩ ،

(٤) انظر البغوي ٤/٢٢٩ .

(٥) انظر البغوي ٤/٢٢٩ .

السحاب وتقله وتصرفه وتجري في الجو جرياً سهلاً ، وتقسم الأمطار بتصرف الرياح انتهى . فإذا كان المدلول متغيراً ، فتكون أقساماً متعاقبة ، وإذا كان غير متغير فهو قسم واحد ، وهو من عطف الصفات ، أي ذرت أول هبوبها التراب والحصباء ، فأقلت السحاب ، فجرت في الجو بواسطة للسحاب ، فقسمت المطر فهذا كقوله :

يَا لَهْفَ زَيَّابَةٍ لِلْحَارِثِ الصِّ صَاحِبِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ^(١)

أي : الذي صبح العدو ، فغنم منهم ، فأب إلى قومه سالماً غانماً ، والجملة المقسم عليها وهي جواب القسم هي ، (إنما توعدون) و (ما) موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف ، أي : توعدونه ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، أي : إنه وعدكم ، أو وعيدكم ، إذ يحتمل (توعدون) الأمرين ، أن يكون مضارع وعد ومضارع أوعد ، ويناسب أن يكون مضارع أوعد لقوله ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق ٤٥] ولأن المقصود التخويف والتهويل ومعنى صدقه : تحقق وقوعه ، والمتنصف بالصدق حقيقة هو المخبر ، وقال تعالى (ذلك وعد غير مكذوب) أي : مصدوق فيه ، وقيل : (لصادق) ووضع اسم الفاعل موضع المصدر ، ولا حاجة إلى هذا التقدير ، وقال مجاهد : أظهر أن الآية في الكفار ، وأنه وعيد محض و (إن الدين) أي : الجزاء (لواقع) أي : صادر حقيقة على المكلفين من الإنس والجن ، والظاهر في السماء أنه جنس أريد به جميع السموات . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : هي السماء السابعة ، أي : السحاب الذي يظل الأرض (ذات الحُبْك) أي : ذات الخلق المستوي الجيد^(٢) قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة والربيع ، وقال الحسن وسعيد بن جبير (ذات الحُبْك) أي : الزينة بالنجوم ، وقال الضحاك : ذات الطرائق يعني : من المجرة التي في السماء ، وقال ابن زيد : ذات الشدة لقوله ﴿ سبعاً شداداً ﴾ [النبأ ١٢]^(٣) ، وقيل : ذات الصفاقة ، وقرأ الجمهور (الحُبْك) بضمين ، وابن عباس والحسن بخلاف عنه ، وأبو مالك الغفاري وأبو حيوه وابن أبي عبلة وأبو السمال ونعيم عن أبي عمرو بإسكان الباء ، وعكرمة بفتحها جمع حُبْكَة مثل طُرْفَة وطُرف ، وأبو مالك الغفاري والحسن بخلاف عنه بكسر الحاء والباء ، وأبو مالك الغفاري والحسن أيضاً وأبو حيوه بكسر الحاء وإسكان الباء ، وهو تخفيف فعل المكسور هما ، وهو اسم مفرد لا جمع ، لأن فعلاً ليس من أبنية الجموع ، فينبغي أن يعد مع إبل فيما جاء من الأسماء على فعل بكسر الفاء والعين ، وابن عباس أيضاً وأبو مالك بفتحها ، قال أبو الفضل الرازي : فهو جمع حبكة مثل عقبة وعقب انتهى . والحسن أيضاً (الحُبْك) بكسر الحاء وفتح الباء ، وقرأ أيضاً كالجهمور فصارت قراءته خمساً (الحُبْك) (الحُبْك) (الحُبْك) ، وقرأ أبو مالك أيضاً (الحُبْك) بكسر الحاء وضم الباء ، وذكرها ابن عطية عن الحسن ، فتصير له ست قراءات ، وقال صاحب اللوامح : وهو عديم النظير في العربية في أبنيتها وأوزانها ، ولا أدري ما رواه انتهى . وقال ابن عطية : هي قراءة شاذة غير متوجهة ، وكأنه أراد كسرهما ، ثم توهم الحُبْك قراءة الضم بعد أن كسر الحاء وضم الباء ، وهذا على تداخل اللغات ، وليس في كلام العرب هذا البناء انتهى . وعلى هذا تأول النحاة هذه القراءات ، والأحسن عندي أن تكون مما أتبع فيه حركة الحاء لحركة ذات في الكسرة ، ولم يعتد باللام الساكنة ، لأن الساكن حازم غير حصين ، وجواب القسم (إنكم لفي قول مختلف) والظاهر أنه خطاب عام للمسلم والكافر ، كما أن جواب القسم السابق يشملهما ، واختلافهم ، كونهم مؤمناً بالرسول - ﷺ - وكتابه وكافراً . وقال ابن زيد : خطاب للكفرة فيقولون : ساحر

(١) البيت من السريع لسلمة بن ذهل التيمي ، انظر الحماسة لأبي تمام ٤٧/١ شرح شواهد المغني ٤٦٥/١ الشاهد فيه حيث وسط حرف العطف بين الصفات .

(٢) انظر الوسيط ١٨٨ خ والبغوي ٢٢٩/٤ .

(٣) انظر الوسيط ١٨٨ خ والبغوي ٢٢٩/٤ .

شاعر ، كاهن ، مجنون ، وقال الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستويًا ، إنما يكون متناقضًا مختلفًا . وقيل : اختلافهم في الحشر ، منهم من ينفيه ، ومنهم من يشك فيه ، وقيل : اختلافهم إقرارهم بأن الله تعالى أوجدهم وعبادتهم غيره ، والأقوال التي يقولونها في آلهتهم ، (يؤفك) أي : يصرف (عنه) أي : عن القرآن والرسول ، قاله الحسن وقتادة ، (من أفك) أي : من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه وأعظم ، لقوله « لا يهلك على الله إلا هالك » وقيل : من صرف في سابق علم الله تعالى أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير (لما توعدون) أول للذي أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاك ، ومنهم جاحد ، ثم قال (يؤفك) عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك ، (عنه) محذوف ، وعن هنا للسبب ، والضمير عائد على (قول مختلف) أي : يصرف بسبب من أراد الإسلام بأن يقول : هو سحر ، هو كهانة حكاه الزهراوي والزمخشري ، وأورده على عادته في إبداء ما هو محكي عن غيره أنه مخترعه ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على (قول مختلف) والمعنى يصرف عنه بتوفيق الله إلى الإسلام من قلبت سعادته وهذا على أن يكون في (قول مختلف) للكفار إلا إن عرف الاستعمال في إفكه الصرف من خير إلى شر ، فلذلك لا تجده إلا في المذمومين انتهى ، وفيه بعض تلخيص . وقرأ ابن جبير وقتادة (مَنْ أفك) مبنياً للفاعل ، أي : من أفك الناس عنه وهم قريش ، وقرأ زيد بن علي (يأفك) من أفك ، أي : يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه و (عنه) أيضاً (يأفك عنه من أفك) أي : يصرف الناس عنه من هو أفك كذاب ، وقرئ (يؤفن عنه من أفن) بالنون فيها ، أي : يحرمه من حرم ، من أفن الضرع إذا نهكه حلباً ، (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ) أي : قتل الله الخراصين ، وهم المقدرزون ما لا يصح (في غمرة) في جهل يغمرهم (ساهون) غافلون عن ما أمروا به ، (أيان يوم الدين) أي : متى وقت الجزاء ، سؤال تكذيب واستهزاء ، وتقدمت قراءة من كسر الهمزة في قوله ﴿ أيان مرساها ﴾ [الأعراف ١٨٧] و (أيان يوم الدين) فيكون الظرف محلاً للمصدر ، وانتصب (يوم هم) بمضمر تقديره : هو كائن ، أي : الجزاء قاله الزجاج ، وجوزوا أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو (يوم هم) والفتحة فتحة بناء لإضافته إلى غير متمكن ، وهي الجملة الاسمية ويؤيده قراءة ابن أبي عبلة والزعفراني (يوم هم) بالرفع . وإذا كان ظرفاً جاز أن تكون الحركة فيه حركة إعراب وحركة بناء ، وتقدم الكلام على إضافة الظرف المستقبل إلى الجملة الاسمية في غافر في قوله تعالى ﴿ يوم هم بارزون ﴾ [غافر ١٦] ، وقال بعض النحاة (يوم هم) بدل من (يوم الدين) فيكون هنا حكاية من كلامهم على المعنى ، ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء ، ولو حكى لفظ قولهم لكان التركيب : يوم نحن على النار يفتنون (ذوقوا فنتنكم) أي : يقال لهم : ذوقوا ، (هذا الذي) مبتدأ وخبر ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (هذا) بدلاً من (فنتنكم) أي : ذوقوا هذا العذاب انتهى . وفيه بعد ، والاستقلال خير من البدل ، ومعنى تفتنون تعذبون في النار ، ولما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين وانتصب (آخذين) على الحال ، أي : قابليه راضين به ، وذلك في الجنة ، وقال ابن عباس (آخذين) أي : في دنياهم (ما آتاهم ربهم) من أوامره ونواهيه وشرعه ، فالحال محكية لتقدمها في الزمان على كونهم في الجنة ، والظاهر أن (قليلاً) ظرف ، وهو في الأصل صفة ، أي : كانوا في قليل من الليل ، وجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، أي : كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً ، و (ما) زائدة في كلا الإعرابين وفسر أنس بن مالك ذلك فقال : كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء ، ولا يدل لفظ الآية على الاختصار على هذا التفسير ، وقال الربيع بن خيثم : كانوا يصيبون من الليل حظاً ، وقال مطرف ومجاهد وابن أبي نجيح : قل ليلة أتت عليهم هجوعاً كلها ، وقال الحسن : كابدوا قيام الليل ، لا ينامون منه إلا قليلاً ، وقال الضحاك : كانوا قليلاً ، أي : في عددهم ، وثم خبر كان ، ثم ابتدأ (من الليل ما يهجعون) فما نافية ، و (قليلاً) وقف حسن ، وهذا القول فيه تفكيك للكلام ، وتقدم معمول العامل المنفي بما على عامله ، وذلك لا يجوز عند البصريين ولو كان ظرفاً أو مجروراً ، وقد أجاز ذلك بعضهم ، وجاء في الشعر قوله :

إِذَا هِيَ قَامَتْ حَاسِرًا مُشْمَعِلَةً يَحْسِبُ الْفُؤَادُ رَأْسَهَا مَا تَقْنَعُ

فقدم « رأسها » على « ما تقنع » ، وهو منفي بما ، وجوزوا أن تكون ما مصدرية في موضع رفع بـ (قليلاً) أي : كانوا قليلاً هجوعهم ، وهو إعراب سهل حسن ، وأن تكون (ما) موصولة بمعنى الذي ، والعائد محذوف تقديره : كانوا قليلاً من الليل من الوقت الذي يهجعون فيه ، وفيه تكلف و (من الليل) يدل على أنهم مشغولون بالعبادة في أوقات الراحة وسكون الأنفس من مشاق النهار ، (وبالأسحار هم يستغفرون) فيه ظهور على أن تهجدهم يتصل بالأسحار ، فيأخذون في الاستغفار مما يمكن أن يقع فيه تقصير ، وكأنهم أجزموا في تلك الليالي ، والأسحار مظنة الاستغفار ، وقال ابن عمر والضحاك (يستغفرون) يصلون^(١) ، وقال الحسن : يدعون في طلب المغفرة^(٢) والظاهر أن قيام الليل ، وهذا الحق في المال هو من المندوبات ، وأكثر ما تقع زيادة الثواب بفعل المندوب . وقال القاضي منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وضعف بأن السورة مكية ، وفرض الزكاة بالمدينة ، وقيل : كان فرضاً ، ثم نسخ ، وضعف بأنه تعالى لم يشرع شيئاً بمكة قبل الهجرة من أخذ الأموال ، والسائل : الذي يستعطي ، والمحروم : لغة الممنوع من الشيء ، قال علقمة :

وَمَطْعُمُ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مَطْعَمَةٌ أَنَّى تَوَجَّهَ وَالْمَحْرُومُ مَحْرُومٌ^(٣)

وأما في الآية ، فالذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه ، وقيل : الذي تبعد منه إمكانات الرزق بعد قربها منه ، فيناله الحرمان ، وقال ابن عباس : المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم مال^(٤) وقال زيد بن أسلم : هو الذي أجيحت ثمرته ، وقيل : الذي ماتت ماشيته ، وقال عمر بن عبد العزيز : هو الكلب ، وقيل : الذي لا ينمي له مال ، وقيل : المحارب الذي لا يكاد يكسب ، وقيل : غير ذلك ، وكل هذه الأقوال على سبيل التمثيل لا التعيين ، ويجمعها أنه الذي لا مال له الحرمان أصابه ، (وفي الأرض آيات) تدل على الصانع وقدرته وتدبيره ، من حيث هي كالبساط لما فوقها ، وفيها الفجاج للسلاك ، وهي متجزئة من سهل ووعر ، وبحر وبر ، وقطع متجاورات من صلبة ورخوة ، ومنبتة وسبخة ، وتلقح بأنواع النبات ، وفيها العيون والمعادن والدواب المنبتة في بحرها وبرها المختلفة الأشكال ، وقرأ قتادة (آية) على الأفراد (للموقنين) وهم الذين نظروا النظر الصحيح وأداهم ذلك إلى إيقان ما جاءت به الرسل ، فأيقنوا لم يدخلهم ريب ، (وفي أنفسكم) حال ابتدائها وانتقالها من حال إلى حال ، وما أودع في شكل الإنسان من لطائف الحواس ، وما ترتب على العقل الذي أوتي من بدائع العلوم وغريب الصنائع ، وغير ذلك مما لا ينحصر ، (وفي السماء رزقكم) قال الضحاك ومجاهد وابن جبير : المطر والثلج لأنه سبب الأقوات ، وكل عين دائمة من الثلج ، وقال مجاهد أيضاً وواصل الأحمد : أراد القضاء والقدر ، أي : الرزق عند الله يأتي به كيف شاء (وما تواعدون) الجنة ، أو هي النار ، أو أمر الساعة ، أو من خير وشر ، أو من ثواب وعقاب أقوال ، المراد بها التمثيل لا التعيين ، وقرأ ابن محيصن (أَرْزَأُكُمْ) على الجمع ، والضمير في (إنه) عائد على القرآن ، أو إلى الدين الذي في قوله (وإن الدين لواقع) أو إلى اليوم المذكور في قوله : (أيان يوم الدين) أو إلى الرزق ، أو إلى الله ، أو إلى النبي - ﷺ - أقوال منقولة ، والذي يظهر أنه عائد على الإخبار السابق من الله تعالى فيما تقدم في هذه السورة ، من صدق الموعد ، ووقوع الجزاء وكونهم في قول مختلف ، وقتل

(١) انظر البغوي ٤/ ٢٣٠ ، ٢٣١ والوسيط ٨٨ خ والطبري ٢٦/ ١٢٢ وابن كثير ٤/ ٢٣٣ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) تقدم .

(٤) انظر البغوي ٤/ ٢٣٠ ، ٢٣١ والوسيط ٨٨ خ والطبري ٢٦/ ٢٢ وابن كثير ٤/ ٢٣٣ .

الخراصون ، وكيونة المتقين في الجنة على ما وصف ، وذكر أوصافهم وما ذكر بعد ذلك ، ولذلك شبه في الحقيقة بما يصدر من نطق الإنسان بجامع ما اشتركا فيه من الكلام ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش بخلاف عن ثلاثتهم (مَثَلُ) بالرفع صفة لقوله (لَحَقُّ) وباقي السبعة والجمهور بالنصب ، وقيل : هي فتحة بناء وهونعت كحله في قراءة من رفع ، ولما أضيف إلى غير متمكن بني ، و(ما) على هذا الإعراب زائدة للتوكيد والإضافة هي إلى (أنكم تنطقون) ، وقال المازني : بني (مَثَلُ) لأنه ركب مع (ما) فصار شيئاً واحداً ، ومثله : ويحما وهيما وابنا قال حميد بن ثور :

الْأَهْيَمَا مِمَّا لَقِيتُ وَهَيْمًا وَوَيْحًا لِمَنْ لَمْ يَلْقَ مِنْهُنَّ وَيْحَمًا^(١)

قال : فلولا البناء لكان منوناً ، وقال الشاعر :

فَأَكْرَمُ بِنَا أُمًّا وَأَكْرَمُ بِنَا ابْنَةً^(٢)

انتهى . هذا التخريج ، وابنا ليس ابنا بني مع ما ، بل هذا من باب زيادة الميم فيه وإتباع ما في الآخر ، إذ جعل في الميم الإعراب ، تقول : هذا ابنم ورأيت ابنا ، ومررت بابنم ، وليست ما في الثلاث في ابنا مركبة مع ما ، كما قال ، بل الفتحة في ابنا حركة إعراب ، وهو منصوب على التمييز ، وأنشد النحويون في بناء الاسم مع الحرف قول الرازي :

أَثُورُ مَا أَصِيدُكُمْ أَوْ ثُورَيْنِ أَمْ تَيْكُمُ الْجَمَاءُ ذَاتُ الْقَرْنَيْنِ^(٣)

وقيل : هو نعت لمصدر محذوف ، تقديره : إنه لحق حقاً مثل ما أنكم ، فحركته إعراب ، وقيل : انتصب على أنه حال من الضمير المستكن في (لَحَقُّ) ، وقيل : حال من (لَحَقُّ) وإن كان نكرة فقد أجاز ذلك الجرمي وسيبويه في مواضع من كتابه ، والنطق هنا عبارة عن الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني ، ويقول الناس : هذا حق كما أنك ههنا ، وهذا حق كما أنك ترى وتسمع ، وهذا كما في الآية وما زائدة بنص الخليل ، ولا يحفظ حذفها ، فتقول : هذا حق كأنك ههنا ، والكوفيون يجعلون مثلاً محلى ، فينصبونه على الظرف ، ويميزون : زيد مثلك بالنصب ، فعلى مذهبهم يجوز أن تكون (مَثَلُ) فيها منصوباً على الظرف ، واستدلوا بالرد عليهم مذكور في النحو ، ومن كلام بعض الأعراب : من ذا الذي أغضب الخليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين . قوله عز وجل ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضِيفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ، قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ، وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ، وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح

(١) البيت من الطويل انظر الديوان (٧) اللسان (ويح) ورواية :

ألا هيما مما لقيت وهيما

(٢) عجز بيت من الطويل لحسان ، انظر ديوانه ٢١٩ ورواية فيه .

ولدنا بني العنقاء وابني محرق

(٣) البيت من الرجز لم نهد لقائله انظر اللسان (ثور) .

وَوَيْحٌ لِمَنْ لَمْ يَدْرِ مَا هُنَّ وَيْحَمَا

وأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنا

العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم ، وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴿١﴾ .

(هل أتاك) تقرير لتجتمع نفس المخاطب ، كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب ، فتقرره : هل سمع ذلك أم لا ؟ فكأنك تقتضي أن يقول لا ، ويستطعمك الحديث ، وفيه تفخيم للحديث وتنبه على أنه ليس من علم رسول الله - ﷺ - ، وإنما عرفه بالوحي ، و (ضيف) الواحد والجماعة فيه سواء ، وبدأ بقصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وإن كانت متأخرة عن قصة عاد (هزماء) للعرب إذا كان أباهم الأعلى ، ولكون الرسل الذي وفدوا عليه جاؤوا بإهلاك قوم لوط ، إذ كذبوه ، ففيه وعيد للعرب وتهديد ، واتعاظ وتسلي للرسول - ﷺ - على ما يجري عليه من قومه ، ووصفهم بالمكرمين لكرامتهم عند الله تعالى ، كقوله تعالى في الملائكة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء ٢٦] قاله الحسن^(١) : فهي صفة سابقة فيهم ، أو لإكرام إبراهيم إياهم ، إذ خدمهم بنفسه وزوجته سارة ، وعجل لهم القرا ، وقيل : لكونه رفع مجالسهم في صفة حادثة ، وقرأ عكرمة (المكرميين) بالتشديد ، وأطلق عليهم (ضيف) لكونهم في صورة الضيف ، حيث أضافهم إبراهيم ، أو لحسابه لذلك ، وتقدم ذكر عددهم في سورة هود ، و (إذ) معمولة للمكرمين إذا كانت صفة حادثة بفعل إبراهيم ، وإلا في (ضيف) من معنى الفعل ، (أو بإضمار) اذكر ، وهذه أقوال منقولة ، وقرأ الجمهور (قالوا سلاماً) بالنصب على المصدر الساد مسد فعله المستغنى به . (قال سلام) بالرفع ، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره : عليكم سلام ، قصد أن يحبيهم بأحسن مما حيوه ، أخذاً بأدب الله تعالى ، إذ (سلاماً) دعاء ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، أي : أمري سلام ، وسلام جملة خبرية قد تحصل مضمونها ووقع ، وقال ابن عطية : ويتجه أن يعمل في (سلاماً) (قالوا) على أن يجعل (سلاماً) في معنى قولاً ، ويكون المعنى حينئذ : أنهم قالوا تحية ، وقولاً معناه سلاماً ، وهذا قول مجاهد ، وقرأ ابن وثاب والنخعي وابن جبير وطلحة . (قال سلم) بكسر السين وإسكان اللام ، والمعنى : نحن سلم ، أو أنتم سلم ، وقرئنا مرفوعين ، وقرئ (سلاماً قال سلماً) بنصبهما وكسر سين الثاني وسكون لامه ، (قوم منكرون) قال أبو العالية : أنكر سلامهم في تلك الأرض ، وذلك الزمان ، وقيل : لا نميزهم ولا عهد لنا بهم ، وقيل : كان هذا سؤالهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرفوني من أنتم و (قوم) خبر مبتدأ محذوف ، قدره : أنتم والذي يناسب حال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أنه لا يخاطبهم بذلك ، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى ، بل يظهر أنه يكون التقدير : هؤلاء قوم منكرون ، وقال ذلك مع نفسه ، أو لمن كان معه من أتباعه وغلماؤه ، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف ، (فراغ إلى أهله) أي : مضى أثناء حديثه مخفياً مضيه مستعجلاً ، (فجاء بعجل سمين) ومن أدب الضيف أن يخفي أمره ، وأن يبادر بالقرا من غير أن يشعر به الضيف ، حذراً من أن يمنعه أن يجيء بالضيافة ، وكونه عطف (فجاء) على (فراغ) يدل على سرعة مجيئه بالقرا ، وأنه كان معداً عنده لمن يرد عليه . وقال في سورة هود ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ [هود ٦٩] وهذا يدل أيضاً على أنه كان العجل سابقاً شيه قبل مجيئهم ، وقال قتادة : كان غالب ما له البقر ، وفيه دليل على أنه يحضر للضيف أكثر مما يأكل ، وكان - عليه الصلاة والسلام - مضيافاً ، وحسبك وقف للضيافة أوقافاً تمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها ، (فقربه إليهم) فيه أدب المضيف من تقريب القرا لمن يأكل ، وفيه العرض على الأكل ، فإن في ذلك تأنيساً للأكل ، بخلاف من قدم طعاماً ولم يحث على أكله ، فإن الحاضر قد يتوهم أنه قدمه على سبيل التجميل ، عسى أن يمتنع الحاضر من الأكل ، وهذا موجود في طباع الناس ، حتى إن بعضهم إذا لج الحاضر وتمادى في الأكل أخذ من أحسن ما أحضر وأجزله ، فيعطيه لغلامه يرسم رفعه لوقت آخر يختص هو بأكله ، وقيل : الهمزة في (ألا)

للإنكار ، وكأنه ثم محذوف تقديره : فامتنعوا من الأكل ، فأنكر عليهم ترك الأكل ، فقال (ألا تأكلون) وفي الحديث « إنهم قالوا : إنا لا نأكل إلا ما أدينا ثمنه ، فقال لهم : وإني لا أبيحه لكم إلا بثمن ، قالوا وما هو ؟ قال : أن تسموا الله عز وجل عند الابتداء وتحمدوه عند الفراغ من الأكل ، فقال بعضهم لبعض : بحق اتخذ الله خليلاً » ، (فأوجس منهم خيفة) أي : فلما استمروا على الامتناع من الأكل أوجس منهم خيفة ، وذلك أن أكل الضيف أمانة ودليل على انبساط نفسه ، وللطعام حرمة وذمام ، والامتناع من وحشة ، فخشي إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشر يريدونه ، فقالوا (لا تخف) ، وعرفوه أنهم ملائكة ، وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ، وعلمهم بما أضمر في نفسه من الخوف إنما يكون باطلاع الله ملائكته على ما في نفسه ، أو بظهور أمارته في الوجه ، فاستدلوا بذلك على الباطن ، وعن يحيى بن شداد ، مسح جبريل - عليه السلام - بجناحه العجل ، فقام يدرج حتى لحق بأمه ، (بسلام عليم) أي : سيكون عليماً ، وفيه تبشير بحياته حتى يكون من العلماء ، وعن الحسن (عليم) نبي ، والجمهور على أن المشر به هو إسحاق بن سارة ، وقال مجاهد : هو إسماعيل ، وقيل : علم أنهم ملائكة من حيث بشره بغيث ، ووقعت البشارة بعد التأنيس والجلوس ، وكانت البشارة بذكر لأنه أسرّ للنفس وأبهج ، ووصفه بعليم لأنها الصفة التي يختص بها الإنسان الكامل إلا بالصورة الجميلة والقوة ، (فأقبلت امرأته في صرة) أي : إلى بيتها ، وكانت في زاوية تنظر إليهم وتسمع كلامهم ، وقيل : (فأقبلت) أي : شرعت في الصباح ، قيل : وجدت حرارة الدم ، فلطمت وجهها من الحياء ، والصرة ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وسفيان : الصيحة قال الشاعر :

فَأَلْحَقْنَا بِأَلْهَادِيَاتٍ وَدُونَهُ حَوَاجِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تُزِيلْ^(١)

وقال قتادة وعكرمة : الرنة ، قيل : قالت : أوه بصياح وتعجب وقال ابن بحر : الجماعة ، أي : من النسوة تبادر وانظر إلى الملائكة ، وقال الجوهرى : الصرة الصيحة والجماعة والشدة (فصكت وجهها) أي : لطمته ، قاله ابن عباس ، وكذلك كما يفعله من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه ، وهو فعل النساء إذا تعجب من شيء ، وقال السيدي وسفيان : ضرب بكفها جبهتها ، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن (وقالت عجوز عقيم) أي : إنها قد اجتمع فيها أنها عجوز ، وذلك مانع من الولادة ، وأنها عقيم ، وهي التي لم تلد قط ، فكيف ألد تعجبت من ذلك ، (قالوا كذلك) أي : مثل القول الذي أخبرناك به (قال ربك) وهو القادر على إيجاد ما يستبعد ، وروي أن جبريل - عليه السلام - قال لها : انظري إلى سقف بيتك فنظرت ، فإذا جذوعه مورقة مثمرة ، (إنه هو الحكيم) أي : ذو الحكمة (العليم) بالمصالح ، ولما علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنهم ملائكة ، وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله تعالى رسلاً (قال فما خطبكم) (إلى قوم مجرمين) أي : ذوي جرائم ، وهي كبار المعاصي من كفر وغيره ، (لنرسل عليهم) أي : لنهلكهم بها (حجارة من طين) وهو السجيل ، طين يطبخ كما يطبخ الآجر حتى يصير في صلابة كالحجارة ، (مسومة) معلمة على كل واحد منها اسم صاحبه ، وقيل : معلمة أنها من حجارة العذاب ، وقيل : معلمة أنها ليست من حجارة الدنيا (للمسرفين) وهم المجاوزون الحد في الكفر ، (فأخرجنا من كان فيها) في القرية التي حل العذاب بأهلها ، (غير بيت) هو بيت لوط - عليه السلام - وهو لوط وابنتاه فقط ، وقيل : ثلاثة عشر نفساً ، وقال الرماني : الآية تدل على أن الإيمان هو الإسلام ، وكذا قال الزمخشري وهما معتزليان ، (وتركنا فيها) أي : في القرية (آية) علامة ، قال ابن جريج : حجراً كبيراً جداً منضوداً ، وقيل : ماء أسود منتن ، ويجوز أن يكون (فيها) عائداً على الإهلاك التي أهلكتها ، فإنها من أعاجيب الإهلاك

بجعل أعالي القرية أسافل وإمطار الحجارة ، والظاهر أن قوله (وفي موسى) معطوف على (وتركنا فيها) أي : في قصة موسى ، وقال الزمخشري وابن عطية (وفي موسى) يكون عطفاً على (وفي الأرض آيات للموقنين) (وفي موسى) وهذا بعيد جداً ، ينزه القرآن عن مثله ، وقال الزمخشري : أيضاً : أو على قوله (وتركنا فيها آية) على معنى : وجعلنا في موسى آية كقوله :

عَلَفْتَهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا

انتهى . ولا حاجة إلى إضمار : وتركنا ، لأنه قد أمكن أن يكون العالم في المجرور : وتركنا ، (فتولى بركنه) أي : ازور وأعرض ، كما قال (ونأى بجانبه) ، وقيل : بقوته وسلطانه ، وقال ابن زيد (بركنه) بجموعه ، وقال قتادة ، بقوله (وقال ساحر أو مجنون) ظن أحدهما ، أو تعمد الكذب ، وقد علم رسول الله - ﷺ - حقاً ، وقال أبو عبيدة ، أو بمعنى الواو ، ويدل على ذلك أنه قد قالهما ﴿ قال إن هذا لساحر عليم ﴾ [الشعراء ٣٤] وقال (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) الحجر ٦ واستشهد أبو عبيدة بقول جرير :

أُتْغَلَبَةُ الْفَوَارِسِ أَوْ رَبَاحًا . عَدَلَتْ بِهِمْ طَهِيَّةٌ وَالْحَشَايَا

ولا ضرورة تدعو إلى جعل (أو) بمعنى الواو ، إذ يكون قالهما وأبهم على السامع ، فأول الإبهام (هو لميم) أي : أت من المعاصي ما يلام عليه (العقيم) التي لا خير فيها من الشتاء مطر ، أو لقاح شجر ، وفي الصحيح^١ « نصرت بالصبا ، وأهلك عاد بالدبور » ، فقول : من ذهب إلى أنها الصبا ، أو الجنوب ، أو النكباء ، وهي ريح بين ريحين نكبت عن سمت القبلة ، فسميت نكباء ليس بصحيح ، لمعارضته للنص الثابت عن الرسول - ﷺ - أنها الدبور (ما تذر من شيء أتت عليه) وهو عام مخصوص ، كقوله (تدمر كل شيء بأمر ربها) [الأحقاف ٢٥] أي : مما أراد تدميره وإهلاكه ، من ناس أو ديار أو شجر أو نبات ، لأنها لم يرد الله بها إهلاك الجبال والأكام والصخور ، ولا العالم الذي لم يكن من قوم عاد (إلا جعلته كالريم) جملة حالية و (الريم) تقدم تفسيره في يس ، وهنا قال السدي : التراب ، وفتادة : الهشيم ، ومجاهد : البالي ، وقطرب : الرماد وابن عيسى : المنسحق الذي لا يرم ، جعل الهمزة في أرم للسلب ، روى أن الريح كانت تمر بالناس فيهم الرجل من قوم عاد ، فتزرعه من بينهم وتهلكه ، (تمتعوا حتى حين) قال الحسن : هذا كان حين بعث إليهم صالح ، أمروا بالإيمان بما جاء به والتمتع إلى أن تأتي أجالهم ، ثم إنهم عتوا بعد ذلك ، ولذلك جاء العطف بالفاء المقتضية تأخر العتو عن ما أمروا به ، فهو مطابق لفظاً ووجوداً ، وقال الفراء : هذا الأمر بالتمتع كان بعد عقر الناقة ، والحين : ثلاثة أيام التي أوعدوا في تمامها بالعذاب ، فالعتو كان قد تقدم قبل أن يقال لهم (تمتعوا) ولا ضرورة تدعو إلى قول الفراء ، إذ هو غير مرتب في الوجود ، وقرأ الجمهور (الصاعقة) وعمر وعثمان رضي الله عنهما والكسائي (الصَّعْقَةُ) وهي الصيحة هنا ، وقرأ الحسن (الصاعقة) وزيد بن عليّ كقراءة الكسائي (وهم ينظرون) بعيونهم قاله الطبري ، وكانت نهراً ، وقال مجاهد (وهم ينظرون) ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموه فيها ، ورأوا علاماته في قلوبهم ، وانتظار العذاب أشد من العذاب ، (فما استطاعوا من قيام) لقوله ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [عنكبوت ٣٧] ونفي الاستطاعة أبلغ من نفي القدرة (وما كانوا منتصرين) أبلغ من نفي الانتصار ، أي : فما قدرُوا على الهرب ، ولا كانوا ممن ينتصر لنفسه ، فيدفع ما حل به ، وقيل : (من قيام) هو من قولهم : ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ، فليس المعنى انتصاب القامة قاله قتادة . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وقوم بالجر عطفاً على ما تقدم ، أي : وفي قوم نوح وهي قراءة عبد الله ، وقرأ باقي السبعة وأبو عمرو في رواية بالنصب ، قيل : عطفاً على الضمير في (فأخذتهم) ، وقيل : عطفاً على (فنبتناهم) لأن معنى كل منها : فأهلكناهم ، وقيل : منصوب بإضمار فعل تقديره : وأهلكنا قوم نوح ، لدلالة معنى الكلام عليه ،

وقيل : باذكر مضمرة ، وروى عبد الوارث ومحبوب والأصمعي عن أبي عمرو وأبو السمال وابن مقسم وقوم نوح بالرفع على الابتداء والخبر محذوف ، أي : أهلكتناهم قوله عز وجل : ﴿ والسَاء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ، كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون ، فتول عنهم فما أنت بملوم ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ، فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ .

أي : وبنينا السماء ، فهو من باب الاشتغال ، وكذا : وفرشنا الأرض . وقرأ أبو السمال ومجاهد وابن مقسم برفع السماء ورفع الأرض على الابتداء ، (بأيدٍ) أي : بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وهو كقوله ﴿ داود ذا الأيد ﴾ [ص ١٧] ، (وإنا لموسعون) أي : بناءها فالجملة حالية ، أي : بنيناها مُوسَّعُوهَا ، كقوله : جاء زيد وإنه لمسرع ، أي : مسرعاً ، فهي بحيث إن الأرض وما يحيط من الماء والهواء كالنقطة وسط الدائرة ، وقال ابن زيد قريباً من هذا ، وهو أن الوسع راجع إلى السماء ، وقيل : (لموسعون) قوة وقدرة ، أي : لقادرون من الوسع وهو الطاقة ، وقال الحسن : أوسع الرزق بالمطر والماء ، (فنعم الماهدون) (وخلقنا زوجين) ، قال مجاهد : إشارة إلى المتضادات والمتقابلات ، كالليل ، والنهار ، والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلال ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض ، والصحة والمرض ، والكفر والإيمان ، ونحو ذلك ، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين بخلاف ما يفعل بطبعه ، كالنسخين والتبريد ، ومثل الحسن بأشياء مما تقدم ، وقال : كل اثنين منها زوج ، والله تعالى فرد لا مثل له ، وقال ابن زيد وغيره (من كل شيء) أي : من الحيوان (خلقنا زوجين) ذكراً وأنثى ، وقيل : المراد بالشيء الجنس ، وما يكون تحت الجنس نوعان ، فمن كل جنس خلق نوعين من الجواهر ، مثل النامي والجامد ، ومن النامي المدرك والنبات ، ومن المدرك الناطق والصامت ، وكل ذلك يدل على أنه فرد لا كثرة فيه (لعلكم تذكرون) أي : بأي بني السماء وفارش الأرض وخالق الزوجين ، تعالى أن يكون له زوج ، أو (تذكرون) أنه لا يعجزه حشر الأجساد وجمع الأرواح ، وقرأ أبي (تتذكرون) بتاءين وتخفيف الذال ، وقيل : إرادة أن تتذكروا ، فتعرفوا الخالق وتبعده ، (ففروا إلى الله) أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الله ، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاب وعذاب ، وأمر حقه أن يفر منه ، فجمعت لفظة (ففروا) بين التحذير والاستدعاء ، وينظر إلى هذا المعنى قوله النبي - ﷺ - « لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك » قاله ابن عطية ، وهو تفسير حسن ، وقال الزمخشري : إلى طاعته وثوابه من معصيته وعقابه ، ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وكرر (إني لكم منه نذير مبين) عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العلم كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما ، ألا ترى إلى قوله ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام ١٥٨] والمعنى : قل يا محمد ففروا إلى الله انتهى . وهو على طريق الاعتزال ، وقد رددنا عليه في تفسير (لا ينفع نفساً إيمانها) في موضع هذه الآية ، (كذلك) أي : أمر الأمم السابقة عند مجيء الرسل إليهم مثل الأمر من الكفار الذين بعثت إليهم ، وهو التكذيب (ساحر أو مجنون) أو للتفصيل : أي قال بعض : ساحر ، وقال بعض : مجنون ، وقال بعض : كلاهما ، ألا ترى إلى قوم نوح - عليه الصلاة والسلام - لم يقولوا عنه : إنه ساحر ، بل قالوا به جنة ، فجمعوا في الضمير ، ودلت (أو) على التفصيل ، (أتواصوا به) أي : بذلك القول ، وهو توقيف وتعجيب من توارد نفوس الكفرة على تكذيب الأنبياء مع افتراق أزمانهم ، (بل هم قوم طاغون) أي : لم يتواصوا به ، لأنهم لم يكونوا في زمان واحد ، بل جمعتهم علة واحدة ، وهي كونهم طغاة ، فهم مستعلون في الأرض ، مفسدون فيها

عاتون ، (فتول عنهم) أي : أعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا ، (فما أنت بملوم) إذ قد بلغت ونصحت ، (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) تؤثر فيهم وفيمن قدر الله أن يؤمن ، وما دل عليه الظاهر من المودة منسوخ بآية السيف وعن علي - كرم الله وجهه - لما نزل (فتول عنهم) حزن المسلمون ، وظنوا أنه أمر بالتولي عن الجميع ، وأن الوحي قد انقطع ، نزلت (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فسروا بذلك (إلا ليعبدون) أي : وما خلقت الجن والإنس الطائعين قاله زيد بن أسلم وسفيان ، ويؤيده رواية ابن عباس عن رسول الله - ﷺ - (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين) ، وقال علي وابن عباس (إلا ليعبدون) إلا لأمرهم بعبادي ، وليقروا لي بالعبادة ، فعبر بقوله (ليعبدون) إذ العبادة هي مضمن الأمر ، فعلى هذا الجن والإنس عام ، وقيل : يحتمل أن يكون المعنى إلا لمعدين ليعبدون ، وكأن الآية تعديد نعمه ، أي : خلقت لهم حواس وعقولاً وأجساماً منقاداً نحو العبادة ، كما تقول : هذا مخلوق لكذا ، وإن لم يصدر منه الذي خلق له ، كما تقول : القلم مبري لأن يكتب به ، وهو قد يكتب به ، وقد لا يكتب به ، وقال الزمخشري : إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها ، (فإن قلت :) لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً (قلت :) إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة ، لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها ، ولو أَرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم انتهى . وهو على طريقة الاعتزال ، وقال مجاهد (إلا ليعبدون) يعرفون ، وقال ابن زيد : لأحلمهم في العبادة على الشقاوة والسعادة ، وقال الربيع بن أنس : إلا للعبادة قال : وهو ظاهر اللفظ ، وقيل : إلا ليدلوا القضائي ، وقال الكلبي : إلا ليوحدون ، فالؤمن يوحد ، في الشدة والرخاء ، والكافر في الشدة ، وقال عكرمة : ليطيعون ، فأثيب العابد ، وأعاقب الجاحد ، وقال مجاهد أيضاً : إلا للأمر والنهي ، (ما أريد منهم من رزق) أي : أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم ، (وما أريد أن يطعمون) أي : أن يطعموا خلقي ، فهو على حذف مضاف ، فالإضافة إلى الضمير تجوز ، قاله ابن عباس . وقيل : (أن يطعمون) أن ينفعون ، فذكر جزءاً من المنافع ، وجعله دالاً على الجميع ، وقال الزمخشري : يريد إن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا في تحصيل معاشهم وأرزاقهم بهم ، فإما مجهز في تجارة يبغي ربحاً ، أو مرتب في فلاحه ليقول أرضاً ، أو مسلم في حرفة ليتنفع بأجرته ، أو محتطب ، أو محتش ، أو مستق أو طابخ ، أو خابز ، أو ما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق ، فأما مالك ملاك العبيد ، فقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أنا وحدي انتهى . وهو كثير وخطابة . وقرأ ابن محيصن : الرزاق ، كما قرأ (وفي السماء رازقكم) اسم فاعل ، وهي قراءة حميد ، وقرأ الأعمش وابن وثاب (المتين) بالجر صفة للقوة على معنى الاقتدار قاله الزمخشري ، أو كأنه قال : ذو الأيد ، وأجاز أبو الفتح أن تكون صفة لذو ، وخفض على الجوار كفولهم : هذا جحر ضب خرب ، (فإن للذين ظلموا) هم أهل مكة ، وغيرهم من الكفار الذين كذبوا الرسول - ﷺ - (دُنباً) أي : خطأ ونصيياً (مثل ذنوب أصحابهم) من الأمم السابقة التي كذبت الرسل في الإهلاك والعذاب ، وعن قتادة سجلاً من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ، وقال الجوهرى : الذنوب الدلو الملقى ماء ، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة ، وجمعها العدد ، وفي الكثير ذنائب ، والذنوب : الفرس الطويل الذنب ، والذنوب النصيب ، والذنوب لحم أسفل المتن ، وقال ابن الأعرابي : يقال : يوم ذنوب ، أي : طويل الشر لا ينقضي ، (فويل للذين كفروا من يومهم) ، قيل : يوم بدر ، وقيل : يوم القيامة (الذي يوعدون) أي : به أو يوعدهونه .

سورة الطور مكية وهي تسع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالطُّورِ ۝ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ۝ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرُ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَفَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُورٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِ ۝ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَامٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ۝ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رِبِّ الْمُنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۝ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ۝ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۝ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضِيِّطُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ ۝ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝

سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ٤٩

الرَّقُّ بالفتح والكسر : جلد رقيق ، يكتب فيه وجمعه : رقوق ، والرَّقُّ بالكسر المملوك ، مار الشيء : ذهب وجاء ، وأبو عبيدة : تكفأ وأنشد الأعشى :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتٍ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثَ وَلَا عَجَلَ^(١)

ويروى ، مرو السحابة ، الدع : الدفع في الضيق بشدة ، وإهانة السوم : ، الريح الحارة التي تدخل المسام ، ويقال : سم يومنا ، فهو مسموم والجمع سائم ، وقال ثعلب ، شدة الحر ، أو شدة البرد في النهار ، وقال أبو عبيدة : السموم بالنهار ، وقد يكون بالليل ، والحرور بالليل ، وقد يكون بالنهار ، وقد يستعمل السموم في لفح البرد ، وهو في لفح الحر والشمس أكثر . المنون : الدهر ، وريبه حوادثه ، وقيل : اسم للموت المسيطر : المتسلط ، وحكى أبو عبيدة : سطرت علي إذا اتخذتني خولاً ، ولم يأت في كلام العرب اسم على مفعيل إلا خمسة مهيمن ، ومحيمر ، ومبيطر ، ومسيطر ، ومبيقر ، فالمحيمر : اسم جبل ، والبواقي أسماء فاعلين ، والله تعالى أعلم .

﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً ، فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تحزبون ما كنتم تعملون ، إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، إذ في آخر تلك ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم ﴾ [الذاريات ٥٩] وقال هنا (إن عذاب ربك لواقع) ، الطور : الجبل ، والظاهر أنه اسم جنس ، لا جبل معين . وفي الشام جبل يسمى : الطور ، وهو طور سيناء ، فقال نوف البكالي : إنه الذي أقسم الله به لفضله على الجبال ، قيل : وهو الذي كلم الله عليه موسى - عليه الصلاة والسلام ، والكتاب المسطور : القرآن أو المنتسخ من اللوح المحفوظ ، أو التوراة ، أو هي الإنجيل الزبور ، أو الكتاب الذي فيه أعمال الخلق ، أو الصحف التي تعطى يوم القيامة بالآيمان والشمال ، أقوال آخرها للفراء ، ولا ينبغي أن يحمل شيء منها على التعيين ، إنما تورد على الاحتمال ، وقرأ أبو السمال (في رق) بكسر الراء (منشور) أي : مبسوط ، وقيل : مفتوح لا ختم عليه ، وقيل : (منشور) لائح ، وعن ابن عباس (منشور) ما بين المشرق والمغرب . (والبيت المعمور) قال علي وابن عباس وعكرمة : هو بيت في السماء ،

مسامت الكعبة ، يقال له : الضراح^(١) والضريح أيضاً ، وهو الذي ذكر في حديث الإسراء ، قال جبريل « هذا البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إلى آخر ما عليهم » . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : في كل سماء بيت معمور ، وفي كل أرض كذلك^(٢) ، وسأل ابن الكوا علياً - رضي الله تعالى عنه - فقال : بيت فوق سبع سموات ، تحت العرش ، يقال له : الضراح^(٣) ، وقال الحسن (البيت المعمور) : الكعبة يعمره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز من الناس أئمه الله بالملائكة ، (والسقف المرفوع) السماء قال ابن عباس : هو العرش ، وهو سقف الجنة ، (والبحر المسجور) قال مجاهد وشمر بن عطية والضحاك ومحمد بن كعب والأخفش ، هو البحر الموقد ناراً^(٤) ، وروى أن البحر : هو جهنم^(٥) وقال قتادة (البحر المسجور) المملوء^(٦) وهذا معروف من اللغة ، ورجحه الطبري بوجود ماء البحر كذلك ، ولا يتنافى ما قاله مجاهد لأن « سحرت التنور » معناه : ملأته بما يحترق ، وقال ابن عباس : المسجور الذي ذهب مأؤه^(٧) ، وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس قال : خرجت أمة لتستقي ، فقالت : إن الحوض مسجور ، أي : فارغ وليس لذي الرمة حديث إلا هذا ، فيكون من الأضداد ، ويروى أن البحار يذهب مأؤها يوم القيامة ، وقال ابن عباس أيضاً : المسجور المحبوس^(٨) ، ومنه ساجور الكلب ، وهي القلادة من عود أو حديد تمسكه ، ولولا أن البحر يمسك لفاض على الأرض ، وقال الربيع : المسجود المختلط^(٩) العذب بالملح ، وقيل : المفجور ، ويدل عليه ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ [الانفطار ٢] والجمهور على أن البحر المقسم به هو بحر الدنيا ، ويؤيده (وإذا البحار سجرت) وعن علي وابن عمر أنه في السماء تحت العرش ، فيه ماء غليظ يقال له : بحر الحياة يطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً ، فينبتون في قبورهم ، وقال قتبية بن سعيد : هو جهنم ، وسماها بحراً لسعتها وتموجها ، كما جاء في الفرس : « وإن وجدناه لبحراً » قيل : ويحتمل أن تكون الجملة في القسم بالطور والبحر والبيت ، لكونها أماكن خلوة مع الله - تعالى - خاطب منها ربه رسله ، فالطور قال فيه موسى ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف ١٤٣] والبيت المعمور لمحمد - ﷺ - والبحر المسجور ليونس ، قال ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ [الأنبياء ٨٧] فشرفت هذه الأماكن بهذه الأسباب والقسم بكتاب مسطور ، لأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كان لهم مع الله في هذه الأماكن كلام ، واقتترانه بالطور دل على ذلك ، والقسم بالسقف المرفوع لبيان رفعة البيت المعمور انتهى . ونكر (وكتاب) لأنه شامل لكل كتاب أنزله الله شمول البدل ، ويحتمل أن يكون شمول العموم ، كقوله (علمت نفس ما أحضرت) وكونه (في رَقٍ) يدل على ثبوته ، وأنه لا يتخطى الرؤوس وصفه بمنشور يدل على وضوحه ، فليس كالكتاب المطوي الذي لا يعلم ما انطوى عليه ، و (المنشور) يعلم ما فيه ولا يمنع من مطالعة ما تضمنه ، والواو الأولى واو القسم ، وما بعدها للعطف ، والجملة المقسم عليها هي قوله (إن عذاب ربك لواقع) وفي إضافة العذاب لقوله (ربك) لطيفة ، إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد

(١) انظر تفسير عبد الرزاق ١٠٨٦/٣ والبخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ومجمع الزوائد ١١٤/٧ والدر المنثور ١١٨/٦ وابن كثير ٢٣٩/٤ والطبري ١١/٢٧ والمستدرک ٤٦٨/٢ وتفسير مجاهد ٦٢٣/٢ ، ٦٢٤ والوسيط ٩٢ خ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) انظر تفسير مجاهد ٦٢٤/٢ والطبري ١٢/٢٧ والبغوي ٢٣٧/٤ والوسيط ٩٣ خ .

(٥) المصادر السابقة .

(٦) المصادر السابقة .

(٧) انظر تفسير مجاهد ٦٢٤/٢ والطبري ١٢/٢٧ والبغوي ٢٣٧/٤ والوسيط ٩٣ خ .

(٨) المصادر السابقة .

(٩) المصادر السابقة .

فبالإضافة إلى الرب وإضافته لكاف الخطاب أمان له - ﷺ - وإن العذاب لواقع هو بمن كذبه و (لواقع) على الشدة ، وهو أدل عليها من لكائن ، ألا ترى إلى قوله ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ [الواقعة] وقوله ﴿ وهو واقع بهم ﴾ [الشورى ٢٢] كأنه مهياً في مكان مرتفع ، فيقع على من حل به ، وعن جبير بن مطعم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله - ﷺ - في أسارى بدر ، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع) فكأنما صدع قلبي ، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب . وقرأ زيد بن علي (واقع) بغير لام . قال قتادة : يريد عذاب الآخرة للكفار ، أي : لواقع بالكفار ، ومن غريب ما يحكى : أن شخصاً رأى في النوم في كفه مكتوباً خمس واوات ، فعبر له بخير ، فسأل ابن سيرين فقال : تهباً لما لا يسر ، فقال له : من أين أخذت هذا ؟ فقال : من قوله تعالى (والطور) إلى (إن عذاب ربك لواقع) فما مضى يومان أو ثلاثة حتى أحيط بذلك الشخص ، وانتصب (يوم) بـ (دافع) قاله الحوفي وقال مكي لا يعمل فيه (واقع) ولم يذكر دليل المنع وقيل هو منصوب بقوله (الواقع) وينبغي أن يكون (ماله من دافع) على هذا جملة اعتراض بين العامل والمعمول ، قال ابن عباس (تمور) تضطرب ، وقال أيضاً : تشقق ، وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض ، وقال مجاهد : تدور وتسير الجبال سيراً ، هذا في أول الأمر ، ثم تسف حتى تصير آخراً كالعهن المنفوش ، (فويل) عطف على جملة تتضمن ربط المعنى وتأكيده ، والخوض التخبط في الباطل وغلب استعماله في الاندفاع في الباطل ، (يوم يُدْعَوْنَ) وذلك أن خزنة جهنم يغفلون أيدي الكفار إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم ، وزجاً في أفقيتهم . وقرأ علي وأبورجاء والسلمي وزيد بن علي (يُدْعَوْنَ) بسكون الدال وفتح العين من الدعاء ، أي : يقال لهم : هلموا إلى النار ، وادخلوها دعاءً مدعوعين ، يقال لهم (هذه النار) لما قيل لهم ذلك وقفوا بعد ذلك على الجهتين اللتين يمكن دخول الشك في أنها النار ، وهي إما أن يكون سحر يلبس ذات المرئي ، وإما أن يكون في نظر الناظر اختلال ، فأمرهم بصليها على جهة التقريع ، ثم قيل لهم على قطع رجائهم (فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم) عذابكم حتم ، فسواء صبركم ، وجزعكم ، لا بد من جزاء أعمالكم ، قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : (أفسح هذا) يعني : كنتم تقولون للوحي : هذا سحر (أفسح هذا) يريد : أهذا المصدق أيضاً سحر ، ودخلت الفاء لهذا المعنى (أم أنتم لا تبصرون) كما كنتم لا تبصرون في الدنيا يعني : أم أنتم عمي عن المخبر عنه ، كما كنتم عمياً عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم (فإن قلت :) لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله (إنما تجزون ما كنتم تعملون) (قلت :) لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه في العاقبة ، وبأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع انتهى . و (سحر) خبر مقدم و (هذا) مبتدأ ، و (سواء) مبتدأ والخبر محذوف ، أي : الصبر والجزع ، وقال أبو البقاء : خبر مبتدأ محذوف ، أي : صبركم وتركه سواء ، ولما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين ، ليقع الترهيب والترغيب ، وهو إخبار عن ما يؤول إليه حال المؤمنين ، أخبروا بذلك ، ويجوز أن يكون من جملة القول للكفار ، إذ ذلك زيادة في غمهم وتنكيد لهم ، والأول أظهر . وقرأ الجمهور (فُكِّهين) نصباً على الحال ، والخبر (في جنات ونعيم) وقرأ خالد بالرفع على أنه خبر (إن) و (في جنات) متعلق به ، ومن أجاز تعداد الخبر أجاز أن يكونا خبرين ، (ووقاهم) معطوف على (في جنات) ، إذ المعنى استقروا في جنات ، أو على (آتاهم) و (ما) مصدرية ، أي : فكهين بإيتائهم ربهم النعيم ووقايتهم عذاب الجحيم ، وجوز أن تكون الواو في (ووقاهم) واو الحال ، ومن شرط قد في الماضي ، قال : هي هنا مضمرة . أي : وقد وقاهم ، وقرأ أبو حيوة (ووقاهم) بتشديد القاف ، (كلوا واشربوا) على إضمار القول ، أي : يقال لهم (هنيئاً) ، قال الزمخشري : أكلاً وشراباً (هنيئاً) أو طعاماً وشراباً (هنيئاً) وهو الذي لا تنغيص فيه ، ويجوز أن يكون مثله في قوله :

هَنِئاً مَرِيئاً غَيْرَ ذَاِ مُخَاِمِرٍ لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ^(١)

أعني : صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل ، مرتفعاً به « ما استحلت » كما يرتفع بالفعل ، كأنه قيل : هنا عزة المستحل من أعراضنا ، وكذلك معنى (هنيئاً) ههنا هناك الأكل والشرب ، أو هناك ما كنتم تعملون ، أي : جزاء ما كنتم تعملون ، والباء مزيدة ، كما في ﴿ وكفى بالله ﴾ [النساء ١٧١] والباء متعلقة بـ (كلوا واشربوا) إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب انتهى . وتقدم لنا الكلام مشبعاً على هنيئاً في سورة النساء ، وأما تجويزه زيادة الباء فليست زيادتها مقيسة في الفاعل إلا في فاعل كفى ، على خلاف فيها . فتجويز زيادتها في الفاعل هنا لا يسوغ ، وأما قوله : إن الباء تتعلق (بكلوا واشربوا) فلا يصح إلا على الإعمال ، فهي تتعلق بأحدهما ، وانتصب (متكئين) على الحال ، قال أبو البقاء : من الضمير في (كلوا) أو من الضمير في (ووقاهم) أو من الضمير في (آتاهم) أو من الضمير في (فاكهين) أو من الضمير في الظرف انتهى . والظاهر أنه حال من الظرف وهو قوله (في جنات) ، وقرأ أبو السمال (عَلَى سُرَرٍ) بفتح الراء ، وهي لغة لكلب في المضعف ، فراراً من توالي ضميتين مع التضعيف ، وقرأ عكرمة (بحور عين) على الإضافة ، والظاهر أن قوله (والذين آمنوا) مبتدأ وخبره (ألحقنا) وأجاز أبو البقاء أن يكون (والذين) في موضع نصب على تقدير : وأكرمنا الذين آمنوا ، ومعنى الآية : قال الجمهور وابن عباس وابن جبير وغيرهما : أن المؤمنين الذين اتبعنهم ذريتهم في الإيمان يكونون في مراتب آبائهم وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال مثلهم ، كرامة لأبائهم فـ (إيمان) متعلق بقوله (واتبعناهم) وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - « قال إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته ، وإن كان لم يبلغها بعمله ليقر بها عينه ثم قرأ الآية » ، وقال ابن عباس والضحاك : إن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار وإن لم يبلغوا الإيمان بأحكام الآباء المؤمنين انتهى . فيكون (بإيمان) متعلقاً بـ (ألحقنا) أي : ألحقنا بسبب الإيمان الآباء بهم ذرياتهم ، وهم الصغار الذين ماتوا ولم يبلغوا التكليف فهم في الجنة مع آبائهم ، وإذا كان أبناء الكفار الذين لم يبلغوا حدّ التكليف في الجنة ، كما ثبت في صحيح البخاري « فأحرى أولاد المؤمنين » ، وقال الحسن : الآية في الكبار من الذرية ، وقال منذر بن سعيد : هي في الصغار لا في الكبار ، وعن ابن عباس أيضاً الذين آمنوا المهاجرون والأنصار ، والذرية التابعون ، وعنه أيضاً « إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إليهم ، فالآباء داخلون في اسم الذرية ، وقال النخعي : المعنى أعطيتناهم أجورهم من غير نقص ، وجعلنا ذريتهم كذلك . وقال الزمخشري : (والذين آمنوا) معطوف على (حور عين) أي : قرناهم بالهور العين ، وبالذين آمنوا ، أي : بالرفقاء والجلساء منهم كقوله تعالى (إخواناً على سرر متقابلين) فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين وأتبعناهم ذرياتهم ، ثم ذكر حديث ابن عباس ثم قال : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم بهم ونسلهم ، ثم قال (بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) أي : بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ، ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم ، وإن كانوا لا يستأهلونها ، تفضلاً عليهم وعلى آبائهم لتتم سرورهم ونكمل نعيمهم (فإن قلت :) ما معنى تنكير الإيمان (قلت :) معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزل ، ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل ، كأنه قال : بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء (ألحقناهم بهم) انتهى . ولا يتخيل أحد أن (والذين) معطوف على (بحور عين) غير هذا الرجل ، وهو تخيل أعجمي مخالف لفهم العربي الفصح ابن عباس وغيره ، والأحسن من هذه الأقوال قول ابن عباس ، ويعضده الحديث الذي رواه ، لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة ، وذكر من جملة إحسانه أنه يرعى

المحسن في المسيء ، ولفظة (الحقنا) تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال ، وقرأ أبو عمرو (وأتبعناهم) وباقي السبعة (وأتبعتهم) وأبو عمرو و (ذرياتهم) جمعاً نصباً ، وابن عامر جمعاً رفعاً ، وباقي السبعة مفرداً وابن جبير (وأتبعناهم ذريتهم) بالمد والهمز . وقرأ الجمهور (ألتناهم) بفتح اللام من آلات ، والحسن وابن كثير بكسرها وابن هرمز (ألتناهم) بالمد من آلت على وزن أفعل ، وابن مسعود وأبي (لَتْنَاهُمْ) من لات ، وهي قراءة طلحة والأعمش ، ورويت عن شبل وابن كثير ، وعن طلحة والأعمش أيضاً (لتناهم) بفتح اللام ، قال سهل : لا يجوز فتح اللام من غير ألف بحال ، وأنكر (ألتناهم) بالمد وقال لا يروى عن أحد ، ولا يدل عليها تفسير ولا عربية ، وليس كما ذكر ، بل قد نقل أهل اللغة (آلت) بالمد ، كما قرأ ابن هرمز ، وقرئ (وما لَتْنَاهُمْ) ذكره ابن هارون . قال ابن خالويه : فيكون هنا الحرف من لات يليت ، ووليت يلت وألت يآلت ، وآلات يليت ، ويؤلت ، وكلها بمعنى نقص ، ويقال ، ألت بمعنى غلظ ، وقام رجل إلى عمر - رضي الله عنه - فوعظه فقال رجل : لا تألت أمير المؤمنين ، أي : لا تغلظ عليه ، والظاهر أن الضمير في (ألتناهم) عائد على المؤمنين ، والمعنى : أنه تعالى يلحق المقصر بالمحسن ، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً ، وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير والجمهور ، وقال أبو زيد : الضمير على عائد على الأبناء ، (من عملهم) أي : الحسن والقيبح ، ويحسن هذا الاحتمال قوله (كل امرئ بما كسب رهين) أي : مرتين ، وفيه (وأمددناهم) أي : يسرنا لهم شيئاً فشيئاً حتى يكر ولا ينقطع (يتنازعون فيها) أي : يتعاطون ، قال الأخطل :

نَازَعَتْهُ طَيْبُ الرَّاحِ الشُّمُولُ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي^(١)

أو (يتنازعون) يتجادبون تجاذب ملاعبة ، إذ أهل الدنيا لهم في ذلك لذة ، وكذلك في الجنة ، وقرأ الجمهور (لا لغو فيها ولا تأثيم) برفعهما وابن كثير وأبو عمرو بفتحهما ، واللغو السقط من الكلام ، كما يجري بين شراب الخمر في الدنيا ، والتأثيم : الإثم الذي يلحق شارب الخمر في الدنيا ، (غلمان لهم) أي : ممالك ، (مكنون) أي : في الصدف لم تنله الأيدي قاله ابن جبير ، وهو إذ ذاك رطب ، فهو أحسن وأصفى ، ويجوز أن يراد بـ (مكنون) مخزون ، لأنه لا يخزن إلا الغالي الثمن ، والظاهر أن التساؤل هو في الجنة ، إذ هذه كلها ، معاطيف بعضها على بعض ، أي : يتساءلون عن أحوالهم ، وما نال كل واحد منهم ، ويدل عليه (فمَنَّ الله علينا) أي : بهذا النعم الذي نحن فيه ، وقال ابن عباس : تساؤلهم إذا بعثوا في النفخة الثانية حكاه الطبري عنه ، (مشفقين) رقيقى القلوب خاشعين لله ، وقرأ أبو حيوة (ووقانا) بتشديد القاف و (السموم) هنا النار ، وقال الحسن : اسم من أسماء جهنم . (من قبل) أي : من قبل لقاء الله والمصير إليه ، (ندعوه) نعبده ونسأله الوقاية من عذابه (إنه هو البر) المحسن (الرحيم) الكثير الرحمة إذا عبد أثناب ، وإذا سئل أجاب ، أو (ندعوه) من الدعاء ، وقرأ الحسن وأبو جعفر ونافع والكسائي (أنه) بفتح الهمزة ، أي : لأنه وباقي السبعة (إنه) بكسر الهمزة ، وهي قراءة الأعرج وجماعة ، وفيها معنى التعليل ، قوله عز وجل :

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن

(١) البيت من البسيط ، انظر جهرة أشعار العرب (٧٢٥) وروايته هكذا :

نازعته طيباً راح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقفة الساري

انظر القرطبي ٤٦/١٧ روح المعاني ٣٤/٢٧ .

رحمة ربك أم هم المسيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ، وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ، يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ، وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴿ لما تقدم إقسام الله تعالى على وقوع العذاب ، وذكر أشياء من أحوال المعذبين والناجين ، أمره بالتذكير إنذاراً للكافر ، وتبشيراً للمؤمن ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته ، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون إذا كانا طريقين إلى الأخبار ببعض المغيبات ، وكان للجن بهما ملازمة للإنس ، ومن كان ينسبه إلى الكهانة شبيهة بن ربيعة ، ومن كان ينسبه إلى الجنون عقبة بن أبي معيط ، وقال الزمخشري (فذكر) فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ، ولا يثبطك قولهم : كاهن أو مجنون ، ولا تبال به ، فإنه قول باطل متناقض ، فإن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله ، وما أنت بحمد الله تعالى وإنعامه عليك بصدق النبوة ورسالة العقل أحد هذين انتهى . وقال الحوفي (بنعمة ربك) متعلق بما دل عليه الكلام ، وهو اعتراض بين اسم ما وخبرها ، والتقدير : ما أنت في حال إذكارك بنعمة ربك بكاهن ، قال أبو البقاء الباء في موضع الحال ، والعامل فيه (بكاهن) أو (مجنون) والتقدير : ما أنت كاهناً ولا مجنوناً ملتبساً بنعمة ربك انتهى . وتكون حالاً لازمة لا منتقلة ، لأنه - عليه الصلاة والسلام ما زال ملتبساً بنعمة ربه . وقيل (بنعمة ربك) مقسم بها ، كأنه قيل : ونعمة ربك ما أنت كاهن ولا مجنون ، فتوسط المقسم به بين الاسم والخبر ، كما تقول : ما زيد والله بقائم ، ولما نفى عنه الكهانة والجنون اللذين كان بعض الكفار ينسبونها إليه ذكر نوعاً آخر مما كانوا يقولونه . روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة ، وكثرت آراؤهم فيه - ﷺ - حتى قال قائل منهم - وهم بنو عبد الدار - قاله الضحاك (تربصوا به ريب المنون) فإنه شاعر سيهلك ، كما هلك زهير والناطقة والأعشى . فافترقوا على هذه المقالة ، فنزلت الآية في ذلك ، وقول من قال ذلك هو من نقص الفطرة بحيث لا يدرك الشعر ، وهو الكلام الموزون على طريقة معروفة من النثر الذي ليس هو على ذلك المضمار ، ولا شك أن بعضهم كان يدرك ذلك ، إذ كان فيهم شعراء ولكنهم تمالؤوا مع أولئك الناقصي الفطرة على قولهم هو شاعر جحداً لآيات الله بعد استيقانها . وقرأ زيد بن علي (يَتَرَبَّصُّ) بالياء مبنياً للمفعول (به ريب) مرفوع و (ريب المنون) حوادث الدهر ، فإنه لا يدوم على حال . قال الشاعر :

تَرَبَّصْ بِهَا رَبِّ الْمُنُونِ لَعَلَّهَا تَطْلُقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا^(١)

وقال الهندي :

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَيْبُهَا تَتَوَجَّعُ وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ^(٢)

(قل تربصوا) هو أمر تهديد من المتربصين هلاككم ، كما تربصون هلاكي ، (أم تأمرهم أحلامهم) عقولهم بهذا أي : بقولهم : كاهن وشاعر ومجنون ، وهو قول متناقض ، وكانت قريش تدعى أهل الأحلام والنهي ، وقيل : لعمر بن العاصي : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ، أي : لم يصحبها التوفيق . (أم تأمرهم) قيل : أم بمعنى الهمزة أي : أتأمرهم وقدرها مجاهد : بيل ، والصحيح أنها تتقدر بيل والهمزة (أم

(١) تقدم .

(٢) تقدم .

هم قوم طاغون) أي : مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق ، وقراً مجاهد أي : (بل هم) مكان : أم هم وكون الأحلام أمرة مجازاً لما أدت إلى ذلك جعلت أمرة ، كقوله (أصلواتك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا) هود ، وحكى الثعلبي عن الخليل : أنه قال : كل ما في سورة والطور من (أم) وليس بعطف ، (تقوله) اختلقه من قبل نفسه ، كما قال ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ﴾ [الحاقة ٤٤] ، وقال ابن عطية : (تقوله) معناه : قال عن الغير إنه قاله ، فهو عبارة عن كذب مخصوص انتهى . (بل لا يؤمنون) أي : لكفرهم وعنادهم ثم عجزهم بقوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أي : مماثل للقرآن في نظمه وورصفه ، من البلاغة وصحة المعاني ، والإخبار بقصص الأمم السالفة والمغيبات والحكم (إن كانوا صادقين) في أنه تقوله ، فليقولوا هم مثله ، إذ هو واحد منهم ، فإن كانوا صادقين فليكونوا مثله في التقول ، فقرأ الجحدري وأبو السمال (بحديث مثله) على الإضافة أي : بحديث رجل مثل الرسول في كونه أمياً لم يصحب أهل العلم ، ولا رحل عن بلده أو مثله في كونه واحد منهم ، فلا يجوز أن يكون مثله في العرب فصاحة ، فليأت بمثل ما أتى به ، ولن يقدر على ذلك أبداً (أم خلقوا من غير شيء) أي : من غير شيء حي كالجهاد ، فهم لا يؤمنون ولا ينهون ، كما هي الجهاديات عليه قاله الطبري ، وقيل : (من غير شيء) أي : من غير علة ولا لغاية عقاب وثواب ، فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون ، وهذا كما تقول : فعلت كذا وكذا من غير علة ، أي : لغير علة فمن السبب وفي القول الأول لا ابتداء الغاية ، وقال الزمخشري : (أم خلقوا) : أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرهم (من غير شيء) من غير مقدر أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق (بل لا يوقنون) أي : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا : الله وهم شاكون فيما يقولون (لا يوقنون) (أم خلقوا من غير) رب ولا خالق أي : أم أحدثوا وبرزوا للوجود من غير إله يبرزهم وينشئهم (أم هم الخالقون) لأنفسهم ، فلا يعبدون الله ولا يأترون بأوامره ، ولا ينتهون عن مناهيه ، والقسمان باطلان ، وهم يعترفون بذلك فدل على بطلانهم ، وقال ابن عطية : ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنفسهم ، أهم الذين خلقوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون ، ثم خصص من تلك الأشياء السموات والأرض لعظمها وشرفها في المخلوقات ، ثم حكم عليهم بأنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤدبهم إلى اليقين . (أم عندهم خزائن ربك) قال الزمخشري : خزائن الرزق حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا أو عندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة (أم هم المسيطرون) الأرباب الغالبون ، حتى يديروا أمر الربوبية ويبوا الأمور على إرادتهم ، وقال ابن عطية : عندهم الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور ، لأن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله تعالى ، وقال الزهراوي : وقيل : يريد بالخزائن العلم ، وهذا قول حسن إذا نُؤمل وبسط ، وقال الرماني : خزائنه تعالى مقدوراته انتهى . والمسيطر : قال ابن عباس المسلط القاهر . وقرأ الجمهور (المسيطرون) بالصاد وهشام وقنبل وحفص بخلاف عنه بالسين ، وهو الأصل ، ومن أبدلها صاداً فلاجل حرف الاستعلاء وهو الطاء ، وأشم خلف عن حمزة ، وخلاد عنه بخلاف عنه الزاي ، (أم لهم سلم) منصوب إلى السماء (يستمعون فيه) أي : عليه أو منه ، إذ حروف الجر قد يسد بعضها مسد بعض ، وقدره الزمخشري : صاعدين فيه ، ومفعول (يستمعون) محذوف تقديره : الخبر بصحة ما يدعونه ، وقدره الزمخشري : ما يوحى إلى الملائكة من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم ، وظفرهم في الآخرة دونه كما يزعمون ، (بسلطان مبين) أي : بحجة واضحة بصدق استماعهم مستمعهم ، (أم تسألهم أجراً) على الإيمان بالله وتوحيده وأتباع شرعه ، فهم من ذلك المغرم الثقيل اللازم مثقلون ، فاقترض زهدهم في اتباعك^(١) ، (أم عندهم الغيب) أي : اللوح المحفوظ (فهم يكتبون) أي : يكتبون ذلك للناس شرعاً ، وذلك عبادة الأوثان وتسييب

السوائب ، وغير ذلك من سيرهم . وقيل : المعنى فهم يعلمون متى ، يموت محمد - ﷺ - الذي يترصدون به ، و (يكتبون) بمعنى يحكمون ، وقال ابن عباس : يعني أم عندهم اللوح المحفوظ ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون ، (أم يريدون كيداً) أي : بك وبشرعك ، وهو كيدهم به في دار الندوة (فالذين كفروا) أي : فهم ، وأبرز الظاهر تنبيهاً على العلة ، أو (الذين كفروا) عام فيندرجون فيه (هم المكيدون) أي : الذين يعود عليهم وبال كيدهم ، ويحق بهم مكرهم ، وذلك أنهم قتلوا يوم بدر ، وسمى غلبتهم كيداً ، إذ كانت عقوبة الكيد (أم لهم إله غير الله) يعصمهم ويدفع عنهم في صدور إهلاكهم ، ثم نزه تعالى نفسه عما يشركون به من الأصنام والأوثان ، (وإن يروا كسفاً من السماء) كانت قریش قد اقترحت على رسول الله - ﷺ - فيما اقترحت من قوهم (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً) فأخبر تعالى : أنهم لورأوا ذلك عياناً حسب اقتراحهم حسب اقتراحهم لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما عاينوه ، وقالوا هو (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض . (ممطرا) وليس بكسف ساقط للعذاب ، (فذرهم) أمر موادة منسوخ بآية السيف ، وقرأ الجمهور (حتى يلاقوا) وأبو حية (حتى يلقوا) مضارع لقي (يومهم) أي : يوم موتهم واحداً واحداً ، والصعق العذاب أو يوم بدر ، لأنهم عذبوا فيه ، أو يوم القيامة أقوال ثالثها قول الجمهور ، لأن صعقته تعم جميع الخلائق . وقرأ الجمهور (يَصْعَقُونَ) بفتح الياء ، وقرأ عاصم وابن عامر وزيد بن علي وأهل مكة في قول شبل بن عبادة ، وفتحها أهل مكة كالجمهور في قول إسماعيل وقرأ السلمي بضم الياء ، وكسر العين من أصعق رباعياً ، (وإن للذين ظلموا) أي : هؤلاء الظلمة (عذاباً دون ذلك) أي : دون يوم القيامة وقبله ، وهو يوم بدر ، والفتح ^(١) قاله ابن عباس وغيره ، وقال البراء بن عازب وابن عباس أيضاً : هو عذاب القبر ، وقال الحسن وابن زيد : مصائبهم في الدنيا ، وقال مجاهد : هو الجوع والقحط سبع سنين ، (فإنك بأعيننا) عبارة عن الحفظ والكلاءة ، وجمع لأنه أضيف إلى ضمير الجماعة وحين كان الضمير مفرداً أفرد العين قال تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ [طه ٣٩] ، وقرأ أبو السمال (بأعيناً) بنون واحدة مشددة ، (وسبح بحمد ربك) قال أبو الأحوص عوف بن مالك : هو التسبيح المعروف ، وهو قول : سبحان الله عند كل قيام ، وقال عطاء (حين تقوم) من كل مجلس ، وهو قول ابن جبير ومجاهد : وقال ابن عباس (حين تقوم) من منامك ، وقيل : هو صلاة التطوع ، وقيل : الفريضة ، وقال الضحاك : (حين تقوم) إلى الصلاة تقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، وقال زيد بن أسلم (حين تقوم) من القائلة والتسبيح ، إذ ذاك هو صلاة الظهر ، وقال ابن السائب : اذكر الله بلسانك حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة ، (ومن الليل فسبحه) قبل صلاة المغرب والعشاء ، (وإدبار النجوم) صلاة الصبح ، وعن عمرو وعلي وأبي هريرة والحسن : أنها النوافل (وإدبار النجوم) ركعتا الفجر . وقرأ سالم بن أبي الجعد والمنهال بن عمرو ويعقوب (وأدبار) بفتح الهمزة بمعنى : وأعقاب النجوم .

سورة النجم مكية وهي اثنتان وستون آية بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣
عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ
مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلَتِ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنْوَةُ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ۝٢١
تِلْكَ إِذَا قُسِمَةُ ضِرَىٰ ۝٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥
وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝٢٦ إِنْ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ تَسْمِيَةً الْأُنْثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى
مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۝٢٨ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۝٣٠ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۝٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ۝٣٢ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ
وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۝٣٣ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْتَهُ ۝٣٤ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ
أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝٣٥ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ۝٣٦ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ۝٣٧ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۝٣٨ أَمْ لَمْ
يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٩ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۝٤٠ أَلَا نَزَّرْنَا بِرَأْسِهِ الْوَيْلَ وَالزَّلَّةَ وَزُرَّ أُخْرَىٰ ۝٤١ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَىٰ ۝٤٢ وَأَنْ سَعِيَهُمْ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٣ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ۝٤٤ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۝٤٥ وَأَنَّهُ هُوَ

أَصْحَكَ وَأَبْكَى ۚ ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ۚ ۞ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ ۞ مِن تَطَفُّعٍ إِذَا تُفْتُخُ ۚ ۞ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ الْأُخْرَى ۚ ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ۚ ۞ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعَرَى ۚ ۞ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ۚ ۞ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى ۚ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ۚ ۞ وَالْمُؤْنِفَكَةَ أَهْوَى ۚ ۞ فَغَشَّيْهَا مَا عَشَى ۚ ۞ فَإِنِّي آءِلَاءُ رِيكَ نِتَمَارَى ۚ ۞ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ۚ ۞ أَزِفَتِ الْأَافِزَةُ ۚ ۞ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۚ ۞ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۚ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۚ ۞ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۚ ۞ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝

﴿٦٢﴾

المرة : القوة من أمرت الحبل إذا أحكمت فتلته . وقال قطرب : تقول العرب لكل جزل الرأي خصيف العقل : إنه لذومرة قال :

وَإِنِّي لَذُو مِرَّةٍ مُرَّةٍ إِذَا رُكِبَتْ خَالَةً خَالَهَا^(١)

تدلي العذق تدلياً : امتد من علو إلى جهة السفلى ، فيستعمل في القرب من العلوقاله الفراء وابن الأعرابي ، قال أسامة الهذلي :

تَدَلَّى عَلَيْنَا وَهُوَ زُرْقٌ حَمَامَةٍ إِذَا طُحِلْبُ فِي مُتَنَهَى الْقَيْظِ هَامِدٌ^(٢)

القاب والقيب والقاد والقيد : المقدار ، القوس : معروف ، وهو آلة لرمي السهام ، وتختلف أشكاله ، السدرة : شجرة النبق ، الضيزى : الجائرة ، من ضازه يضيئه إذا ضامه ، قال الشاعر :

ضَارَتْ بَنُو أَسَدٍ بِحُكْمِهِمْ إِذْ يَجْعَلُونَ الرَّؤْسَ كَالذَّنْبِ^(٣)

وأصلها : ضوزى على وزن فعلى ، نحو حبل وأنثى وريا ، بها ما فعل ببيض لتسلم الباء ، ولا يوجد فعلى بكسر الفاء في الصفات ، كذا قال سيبويه ، وحكى ثعلب : مشية حبكى ، ورجل كيصى ، وحكى غيره : امرأة عزمى وامرأة سعل والمعروف : عزمة وسعلاة ، وقال الكسائي : ضاز يضيض ضيزى ، وضاز يفضوز ضوزى ، وضاز يضا زضازاً ، اللمم : ما قل وصغر ، ومنه اللمم : المس من الجنون ، وألم بالمكان : قل لبثه فيه ، وألم بالطعام : قل أكله منه ، وقال المبرد : أصل اللمم أن يلم بالشئ من غير أن يركبه ، يقال : ألم بكذا إذا قاربه ولم يخالطه ، وقال الأزهري : العرب تستعمل الإلام في المقاربة والدنو ، يقال : ألم يفعل كذا بمعنى كاد يفعل ، قال جرير :

بِنَفْسِي مِّنْ تَجْنِيهِ عَزِيزٌ عَلَيَّ وَمِنْ زِيَارَتِهِ لِمَامٌ^(٤)

(١) البيت من المتقارب لعبيد بن ماوية الطائي انظر ديوان الحماسة ٢٤٤/١ .

(٢) البيت من الطويل لأسامة الهذلي ، انظر اللسان (دلا) .

(٣) البيت من السريع نسب لأمريء القيس وليس في ديوانه انظر روح المعاني ٥٧/٢٧ القرطبي ٦٧/١٧ فتح القدير ١٠٩/٥ .

(٤) البيت من الوافر انظر ديوانه ٢٧٩/١ .

وقال آخر :

لِقَاءُ أَجْلَاءِ الصَّفَا لِمَامُ

الأجنة جمع جنين ، وهو الولد في البطن ، سمي بذلك لاستتاره والاجتنان الاستتار ، أكدى : أصله من الكدية ، يقال لمن حفر بئراً ثم وصل إلى حجر لا يتهياً له فيها حفر : قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يتمم ، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره . قال الخطيئة :

فَأَعْطَى قَلِيلاً ثُمَّ أَكْدَى عَطَاؤُهُ وَمَنْ يَبْذُلُ الْمَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدِ

وقال الكسائي وغيره : أكدى الحافر إذا بلغ كدية أو جبلاً ، ولا يمكنه أن يحفر ، وحفر فأكدى إذا وصل إلى الصلب ، ويقال : كديت أصابعه إذا كلت من الحفر ، وكذا البيت : قلّ ريعه ، وقال أبو زيد : أكدى الرجل قلّ خيره ، أفتى : قال الجوهري : فتى يقنى قنى ، كغنى يغني غنى ، ويتعدى بتغيير الحركة ، فتقول : قنيت المال أي : كسبته نحو شترت عين الرجل وشترها الله ، ثم تعدى بعد ذلك بالهمزة أو التضعيف ، فتقول : أقناه الله مالاً ، وقناه الله مالاً ، وقال الشاعر :

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصَابَ الدَّهْرُ ثَرَوَتَهُ وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِقْلَالٍ (١)

أي : تقنى المال ، ويقال : أقناه الله مالاً وأرضاه من القنية ، قال أبو زيد : تقول العرب لمن أعطى مائة من المعز ، أعطي القنى ، ومن أعطى مائة من الضأن : أعطي الغنى ، ومن أعطى مائة من الإبل : أعطي المنى ، الشعري : هو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر ، ويقال له : مرزم الجوزاء ، وهما الشعريان ، العبور التي في الجوزاء ، والشعري : الغميصاء التي في الذراع ، وتزعم العرب أنها أختا سهيل ، قال الزمخشري : وتسمى كلب الجبار ، وهما شعريان ، الغميصاء والعبور ، ومن كذب العرب : أن سهيلاً والشعري كانا زوجين ، فأنحدر سهيل وصار يمانياً ، فاتبعته الشعري العبور فعبرت المجرة ، فسميت العبور ، وأقامت الغميصاء لأنها أخفى من الأخرى ، أزف : قرب ، قال كعب بن زهير :

بَانَ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيْبُ قَدْ أَزْفَا وَلَا أَرَى لَشَبَابٍ بَائِنٍ خَلْفَا (٢)

وقال النابغة الذبياني :

أَزِفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا لَمَّا تَزَلْ بِرَحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدِ (٣)

ويروى : أفد الترحل ، سمد لهي ولعب قال الشاعر :

أَلَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ سَامِدٌ كَأَنَّكَ لَا تُقْنَى وَلَا أَنْتَ هَالِكٌ (٤)

(١) البيت من البسيط لم نهتد لقائله ، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

(٢) انظر ديوانه ٤٥ وروايته فيه .

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الكامل ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

وقال آخر :

قِيلَ قُمْ فَأَنْظُرْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ دَعَّ عَنْكَ السُّمُودَ^(١)

وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير ، يقولون : يا جارية اسمدي لنا ، أي : غني لنا .

﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للإنسان ما تمنى ، فلله الآخرة والأولى ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة ، لأنه قال : (أم يقولون تقوله) أي : اختلق القرآن ونسبوه إلى الشعر ، وقالوا هو كاهن ومجنون ، فأقسم تعالى أنه - ﷺ - ما ضل ، وأن ما يأتي به هو وحي من الله ، وهي أول سورة أعلن رسول الله - ﷺ - بها في الحرم والمشركون يستمعون ، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس ، غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته ، وقال : يكفي هذا ، وسبب نزولها قول المشركين إن محمداً - ﷺ - يخلق القرآن ، وأقسم تعالى بالنجم ، فقال ابن عباس ومجاهد والفراء ، والقاضي منذر بن سعيد : هو الجملة من القرآن ، إذا نزلت ، وقد نزل منجماً في عشرين سنة ، وقال الحسن ومعر بن المثنى : هو هنا اسم جنس ، والمراد النجوم إذا هوت ، أي : غربت قال الشاعر :

فَبَاتَتْ تَعْدُّ النُّجْمَ فِي مُسْتَجَرِّهِ سَرِيعَ بَأْيَدِي الْأَكِلِينَ حُمُودَهَا^(٢)

أي : تعد النجوم ، وقال الحسن وأبو حمزة الثمالي : النجوم إذا انتثرت في القيامة ، وقال ابن عباس أيضاً : هو انقضض في أثر الشياطين ، وهذا تساعده اللغة ، وقال الأخفش : والنجم إذا طلع ، وهويه سقوطه ، على الأرض ، وقال ابن جبير : الصادق هو النبي ﷺ ، وهويه نزوله ليلة المعراج ، وقيل : النجم معين ، فقال مجاهد وسفيان : هو الثريا وهويه اسقوطها مع الفجر ، وهو علم عليها ، بالغلبة ، ولا تقول العرب النجم مطلقاً إلا للثريا ، ومنه قول العرب :

طَلَعَ النُّجْمُ عَشَاءً فَابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءً
طَلَعَ النُّجْمُ غَدِيَّةً فَابْتَغَى الرَّاعِي كَسِيَّةً^(٣)

وقيل : الشعرى وإليها الإشارة بقوله (وأنه هورب الشعرى) والكهان والمنجمون يتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وقيل : الزهرة وكانت تعبد . وقيل : (والنجم) هم الصحابة^(٤) وقيل : العلماء مفرد أريد به الجمع . وهوفي

(١) انظر لسان العرب (سمد) .

(٢) البيت من الطويل للراعي النميري ، انظر ديوانه ٩٢ الكشف ٤٧٧/٤ اللسان (نجم) روح المعاني ٤٤/٢٧ القرطبي ٥٥/١٧ .

(٣) البيت الأول تقوله العرب عند الشتاء والثاني عند الصيف ، انظر الكشف ٤١٦/٤ .

(٤) انظر الوسيط ٩٦ خ والبغوي ٢٤٥/٤ .

اللغة خرق الهوى ، ومقصده السفلى ، إذ مصيره إليه وإن لم يقصد إليه ، وقال الشاعر :

هَوَى الدُّلُو أَسْلَمَهَا الرَّشَا

ومنه : هوى العقاب صاحبكم هو محمد رسول الله - ﷺ - والخطاب لقريش أي : هو مهتد راشد ، وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغي ، (وما ينطق) أي : الرسول - عليه الصلاة والسلام - (عن الهوى) أي : عن هوى نفسه ورأيه (إن هو إلا وحي) من عند الله (يوحى) إليه ، وقيل : (وما ينطق) أي : القرآن عن هوى وشهوة ، كقوله (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) (إن هو) أي : الذي ينطق به أو (إن هو) أي : القرآن علمه الضمير عائد على الرسول - ﷺ - فالمفعول الثاني محذوف ، أي : علمه الوحي ، أو على القرآن ، فالمفعول الأول محذوف ، أي : (علمه) الرسول - ﷺ - (شديد القوى) هو جبريل (١) وهو مناسب للأوصاف التي بعده . وقاله ابن عباس وقتادة والربيع ، وقال الحسن (شديد القوى) هو الله تعالى وهو بعيد (٢) (ذومرة) ذوقوة ، ومنه « لا تحل الصداقة لغني ولا لذي مرة سوي » وقيل : ذو هيئة حسنة ، وقيل : هو جسم طويل حسن ، ولا يناسب هذان القولان إلا إذا كان شديد القوى ، هو جبريل - عليه السلام - (فاستوى) الضمير لله في قول الحسن ، وكذا (وهو بالأفق الأعلى) لله تعالى على معنى العظمة والقدرة والسلطان ، وعلى قول الجمهور (فاستوى) أي : جبريل في الجو (وهو بالأفق الأعلى) إن رآه الرسول - عليه الصلاة والسلام - بحراء قد سد الأفق له ستمائة جناح ، وحينئذ دنا من محمد حتى كان قاب قوسين ، وكذلك هو المرئي في النزلة الأخرى بستمائة جناح عند السدرة ، قاله الربيع والزجاج ، وقال الطبري ، والفراء : المعنى : فاستوى جبريل ، وقوله : وهو يعني محمداً - ﷺ - وفي هذا التأويل العطف على الضمير المرفوع من غير فصل ، وهو مذهب الكوفيين ، وقد يقال : الضمير في (استوى) للرسول وهو لجبريل ، و (الأعلى) لعمه الرأس ، وما جرى معه ، وقال الحسن وقتادة : هو أفق مشرق الشمس (٣) وقال الزمخشري : (فاستقام على صورة نفسه الحقيقية ، دون الصورة التي كان يتمثل بها ، كلما هبط بالوحي ، وكان ينزل في صورة دحية ، وذلك أن الرسول - ﷺ - أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ، فاستوى له بالأفق الأعلى ، وهو أفق الشمس فملاً الأفق ، وقيل : ما رآه أحد الأنبياء في صورته الحقيقة غير محمد ﷺ مرة في الأرض ، ومرة في السماء (ثم دنا) من رسول الله - ﷺ - (فيتدلى) فتعلق عليه في الهوى ، وكان مقدار مسافة قربه منه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات ، كما قال أبو علي في قوله :

وَقَدْ جَعَلْتَنِي مِنْ حَزِيمَةِ أَصْبَعَا (٤)

أي : ذا مسافة مقدار أصبع (أو أدنى) على تقديركم ، كقوله (أو يزيدون) (إلى عبده) أي : إلى عبد الله وإن لم يجز لاسمه عز وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ، كقوله (ما ترك على ظهرها) (ما أوحى) تفخيم للوحي الذي أوحى إليه قبل

(١) المصدران السابقان .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) انظر البغوي ٢٤٥/٤ - ٢٤٦ والوسيط ٩٧ خ وتفسير مجاهد ٢/٢٢٨ ، ٦٢٩ وتفسير عبد الرزاق ٣/١٠٩١ والطبري ٢٧/٢٧ والبغوي ٢٤٥/٤ وزاد المسير ٨/٦٥ وابن كثير ٤/٢٤٧ .

(٤) عجز بيت من الطويل للكلجة البربوعي وصدره :

فأدرك إبقاء العرادة لم يطلعها

انظر المفضليات (٢١) اللسان (بقي) الكشف ٤/٤٢٠ روح المعاني ٢٧/٤٨ القرطبي ١٧/٦٠ .

انتهى . وقال ابن عطية (ثم دنا) ، قال الجمهور : أي : جبريل إلى محمد - عليهما الصلاة والسلام - عند حراء^(١) وقال ابن عباس وأنس في حديث الإسراء ما يقتضي أن الدنويستند إلى الله تعالى . وقيل : كان الدنو إلى جبريل ، وقيل : إلى الرسول - ﷺ - أي : دنا وحيه وسلطانه وقدرته ، والصحيح أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل بدليل قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) فإنه يقتضي نزلة متقدمة ، وما روى أن رسول الله - ﷺ - رأى ربه قبل ليلة الإسراء ، و (دنا) أعم من (تدلى) فبين هيئة الدنو ، كيف كانت قاب قدر ، قال قتادة : وغيره ، معناه من طرف العود إلى طرفه الآخر ، وقال الحسن ومجاهد : من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض . وقال أبو رزين : ليست بهذه القوس ، ولكن قدر الذراعين ، وعن ابن عباس : أن القوس هنا ذراع تقاس به الأطوال ، وذكر الثعلبي أنه من لغة الحجاز ، (فأوحى) أي : الله (إلى عبده) أي : الرسول - ﷺ - قاله ابن عباس . وقيل : (إلى عبده) جبريل (ما أوحى) إبهام على جهة التعظيم والتفخيم ، والذي عرف من ذلك فرض الصلوات . وقال الحسن (فأوحى) جبريل إلى عبد الله محمد - ﷺ - (ما أوحى) كالأول في الإبهام ، وقال ابن زيد (فأوحى) جبريل إلى عبد الله محمد - ﷺ - ما أوحاه الله تعالى إلى جبريل عليه السلام ، وقال الزمخشري : ما أوحى أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك ، (ما كذب) فؤاد محمد - ﷺ - ما رآه ببصره من صورة جبريل ، أي : ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك يعني : أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك في أن ما رآه حق انتهى . وقرأ الجمهور (ما كَذَبَ) مخففاً على معنى : لم يكذب قلب محمد - ﷺ - الشيء الذي رآه ، بل صدقه وتحققه نظراً و (كذب) يتعدى ، وقال ابن عباس وأبو صالح ، رأى محمد - ﷺ - الله تعالى بفؤاده ، وقيل : ما رأى بعينه لم يكذب ذلك قلبه ، بل صدقه وتحققه ، ويحتمل أن يكون التقدير : فيما رأى ، وعن ابن عباس وعكرمة وكعب الأحبار : أن محمداً - ﷺ - رأى ربه بعيني رأسه ، وأبت ذلك عائشة - رضي الله تعالى عنها - وقالت : أنا سألت رسول الله - ﷺ - عن هذه الآيات فقال لي : هو جبريل - عليه السلام - فيها كلها ، وقال الحسن المعنى ما رأى من مقدورات الله تعالى وملكوته ، وسأل أبو ذر رسول الله - ﷺ - هل رأيت ربك ؟ فقال : نور أنى^(٢) أراه ، وحديث عائشة قاطع لكل تأويل في اللفظ ، لأن قول غيرها إنما هو منتزع من ألفاظ القرآن ، وليست نصاً في الرؤية بالبصر ، بل ولا بغيره ، وقرأ أبو رجاء وأبو جعفر وقاتدة والجحدري وخالد بن إلياس وهشام عن ابن عامر (ما كَذَّبَ) مشدداً ، وقال كعب الأحبار : « إن الله قسم الرؤية والكلام بين محمد وموسى - عليهما الصلاة والسلام - فكلهم موسى مرتين ، ورآه محمد - ﷺ - مرتين^(٣) » وقالت عائشة - رضي الله تعالى عنها - لقد وقف شعري من سماع هذا ، وقرأت (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)^(٤) [الأنعام ١٠٣] وذهبت هي وابن مسعود وقاتدة والجمهور إلى أن المرئي مرتين هو جبريل ، مرة في الأرض ، ومرة عند سدره المنتهى^(٥) وقرأ الجمهور (أفتَمَارُونَهُ) أي : أتجادلونه على شيء رآه ببصره وأبصره ، وعدي بعلی لما في الجدال من المغالبة ، وجاء (يرى) بصيغة المضارع ، وإن كانت الرؤية قد مضت إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعده ، وقرأ علي وعبد الله وابن عباس والجحدري ويعقوب وابن سعدان وحزمة والكسائي بفتح التاء وسكون الميم مضارع مریت ، أي : جحدت يقال : مريته حقه إذا جحدته ، قال الشاعر :

(١) انظر البغوي ٢٤٥/٤ - ٢٤٦ والوسيط ٩٧ خ وتفسير مجاهد ٦٢٨/٢ ، ٦٢٩ وتفسير عبد الرزاق ١٠٩١/٣ والطبري ٢٧/٢٧ والبغوي ٢٤٥/٤ وزاد المسير ٦٥٨ وابن كثير ٢٤٧/٤ .

(٢) أخرجه مسلم ١٦١/١ (٢٩١ - ١٧٨) والترمذي (٣٢٨٢) وأحمد في المسند ١٥٧/٥ - ١٧١ وأبو نعيم في الحلية ٦١/٩ .

(٣) انظر البغوي ٢٤٧/٤ ، ٢٤٨ والوسيط ٩٧ ، ٩٨ خ والطبري ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

لِئِنْ سَخَرْتُمْ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرَمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتُمْ أَخَا مَا كَانَ يَمْرِيكَ^(١)

وعدي بعلي على معنى التضمين ، وكانت قريش حين أخبرهم - ﷺ - بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر غيرهم ، وغير ذلك مما هو مستقصى في حديث الإسراء ، وقرأ عبد الله فيها حكى ابن خالويه ، والشعبي فيها ذكر شعبة بضم التاء وسكون الميم مضارع أمرت ، قال أبو حاتم : وهو غلط ، (ولقد رآه) الضمير المنصوب عائد على جبريل - عليه السلام - قال ابن مسعود وعائشة ومجاهد والربيع (نزلة أخرى) أي : مرة أخرى ، أي : نزل عليه جبريل - عليه السلام - مرة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها ، وذلك ليلة المعراج ، وأخرى تقتضي نزلة سابقة ، وهي المفهومة من قوله (ثم دنا) جبريل (فتدلى) وهو الهبوط والنزول من علو . وقال ابن عباس وكعب الأحبار : الضمير عائد على الله على ما سبق من قولهما إن رسول الله - ﷺ - رأى ربه مرتين ، وانتصب (نزلة) قال الزمخشري : نصب الظرف الذي هو (مرة) لأن الفعل اسم للمرة من الفعل . وقال الحوفي وابن عطية : مصدر في موضع الحال . وقال أبو البقاء : مصدر أي : مرة أخرى ، أو رؤية أخرى (عند سدره المنتهى) قيل : هي شجرة نبق في السماء السابعة^(٢) وقيل : في السماء السادسة ، ثمرها كقلال هجر ، وورقها كأذان الفيلة تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها الله تعالى في كتابه ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها^(٣) والمنتهى موضع الانتهاء ، لأنه ينتهي إليها علم كل عالم ، ولا يعلم ما وراءها صعداً إلا الله تعالى عز وجل ، أو ينتهي إليها كل من مات على الإيمان من كل جيل ، أو ينتهي إليها ما نزل من أمر الله تعالى ولاتجاوزها ملائكة العلوما صعداً من الأرض ، ولا تتجاوزها ملائكة السفلى ، أو تنتهي إليها أرواح الشهداء ، أو كأنها في منتهى الجنة وآخرها ، أو تنتهي إليها الملائكة والأنبياء ويقفون عندها ، أو ينتهي إليها علم الأنبياء ويعزب علمهم عن ما وراءها ، أو تنتهي إليها الأعمال ، أو لانتهاء من رفع إليها في الكرامة أقوال تسعة (عندها جنة المأوى) أي : عنده السدره ، قيل : ويحتمل عند النزلة ، قال الحسن : هي الجنة التي وعدها الله المؤمنين ، وقال ابن عباس بخلاف عنه ، وقتادة : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء ، وليست بالتي وعد المتقون جنة النعيم ، وقيل : جنة مأوى الملائكة ، وقرأ علي وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة (جَنَّة) بها الضمير ، وجن فعل ماض ، والهاء ضمير النبي - ﷺ - أي : عندها ستره إيواء الله تعالى وجميل صنعه ، وقيل : المعنى ضمه المبيت والليل . وقيل : جنة بظلاله ودخل فيه ، وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا : أجن الله من قرأها ، وإذا كانت قراءة قرأها أكابر من أصحاب رسول الله - ﷺ - فليس لأحد ردّها ، وقيل : إن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أجازتها ، وقراءة الجمهور (جنة المأوى) كقوله في آية أخرى ﴿ فلهم جنات المأوى نزلاً ﴾ [السجدة ١٩] ، (إذ يغشى السدره ما يغشى) فيه بابهام الموصول وصلته تعظم وتكثر للغاشي الذي يغشاه إذ ذاك أشياء لا يعلم وصفها إلا الله تعالى ، وقيل : يغشاها الجسم الغفير من الملائكة ، يعبدون الله عندها ، وقيل : (ما يغشى) من قدرة الله تعالى وأنواع الصفات التي يخترعها لها ، وقال ابن مسعود وأنس ومسروق ومجاهد وإبراهيم : ذلك جراد من ذهب ، كان يغشاها ، وقال مجاهد : ذلك تبدل أغصانها درّاً وياقوتاً ، وروى في الحديث : « رأيت على كل ورقة من ورقها ملكاً قائماً يسبح الله تعالى » ، وأيضاً يغشاها رفر ف أخضر ، وأيضاً تغشاها ألوان لا أدري ما هي ؟ وعن أبي هريرة : يغشاها نور الخلاق ، وعن الحسن : غشيتها نور رب العزة ،

(١) البيت من الهزج لم نهند لقائله ، انظر الكشاف ٤/٢٠٩ روح المعاني ٢٧/٤٩ . وروى (هجوت) بدل (سخرت) يقول لصاحبه . الكشاف ٤/٢٠٩ - ٤٢١ .

(٢) انظر البغوي ٤/٢٤٨ والوسيط ٩٩ خ والقرطبي ٢٧/٣١ .

(٣) المصادر السابقة .

فاستارت ، وعن ابن عباس غشيها رب العزة ، أي : أمره ، كما جاء في صحيح مسلم مرفوعاً ، فلما غشيها من أمر الله ما غشي ، ونظير هذا الإيهام للتعظيم (فأوحى إلى عبده ما أوحى) (والمؤتفة أهوى فغشاها ما غشى) ، (ما زاغ البصر) قال ابن عباس : ما مال هكذا ولا هكذا ، وقال الزمخشري : أي أثبت ما رآه إثباتاً مستيقناً صحيحاً من غير أن يزيع بصره ، أو يتجاوز ، إذ ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ، ويمكن منها (وما طغى) وما جاوز ما أمر برؤيته انتهى . وقال غيره (وما طغى) ولا تجاوز المرئي إلى غيره ، بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً ، وهذا تحقيق للأمر ونفي للريب عنه ، (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قيل : الكبرى مفعول (رأى) أي : الآيات الكبرى والعظمى التي هي بعض آيات ربه ، أي : حين رقى إلى السماء رأى عجائب الملكوت ، وتلك بعض آيات الله ، وقيل (من آيات) هو في موضع المفعول ، و (الكبرى) صفة لآيات ربه ، ومثل هذا الجمع بوصف بوصف الواحدة ، وحسن ذلك هنا كونها فاصلة ، وكما في قوله ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ [طه ٢٣] عند من جعلها صفة لـ (آياتنا) وقال ابن عباس وابن مسعود : أي : رفرأ أخضر قد سد الأفق ، وقال ابن زيدر : أي : جبريل في الصورة التي هو بها في السماء ، (أفرايتم) خطاب لقريش ولما قرر الرسالة أولاً وأتبعه من ذكر عظمة الله وقدرته الباهرة ، بذكر التوحيد ، والمنع عن الإشراك بالله تعالى ، وقفهم على حقارة معبوداتهم وهي الأوثان ، وأنها ليست لها قدرة ، واللوات : صنم كانت العرب تعظمه ، قال قتادة : كان بالطائف ، وقال أبو عبيدة وغيره : كان في الكعبة ، وقال ابن زيد : كان بنخلة عند سوق عكاظ ، وقال ابن عطية : وقول قتادة أرجح ، يؤيده قول الشاعر :

وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ إِلَى لَاتِهَا بِمُنْقَلَبِ الْخَائِبِ الْخَاسِرِ^(١)

انتهى . ويمكن الجمع بأن تكون أصناماً سميت باسم اللات ، فأخبر كل عن صنم بمكانه ، والتاء في (اللات) قيل : أصلية لام الكلمة ، كالباء من باب ، وألفه منقلبة فيما يظهر من ياء ، لأن مادة ليت موجودة ، فإن وجدت مادة من (ل و ت) جاز أن تكون منقلبة من واو ، وقيل : التاء للتأنيث ، ووزنها فعلة من لوى قيل : لأنهم كانوا يلوون عليها ، ويعكفون للعبادة ، أو يلتون عليها ، أي : يطوفون حذف لامها ، وقرأ الجمهور (اللات) خفيفة التاء ، وابن عباس ومجاهد ومنصور بن المعتمر وأبو صالح وطلحة وأبو الجوزاء ويعقوب وابن كثير في رواية بشدها ، قال ابن عباس : كان هذا رجلاً بسوق عكاظ يلت السمن والسويق عند صخرة ، وقيل : كان ذلك الرجل من بهز يلت السويق للحجاج على حجر ، فلما مات عبدوا الحجر الذي كان عنده إجلالاً لذلك الرجل ، وسموه باسمه ، وقيل : سمي برجل كان يلت عنده السمن بالذب ، ويطعمه الحجاج ، وعن مجاهد : كان رجل يلت السويق بالطائف ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثناً ، وفي التحرير : أنه كان صنماً تعظمه العرب ، وقيل : حجر ذلك اللات وسموه باسمه ، وعن ابن جبير : صخرة بيضاء كانت العرب تعبدها وتعظمها ، وعن مجاهد : شجيرات تعبد ببلادها انتقل أمرها إلى الصخرة انتهى ، ملخصاً وتلخيص في (اللات) أهو صنم ، أو حجر يلت عليه ، أو صخرة يلت عندها ، أو قبر اللات ، أو شجيرات ثم صخرة ، أو اللات نفسه ؟ أقوال ، و (العزى) : صنم ، وقيل : سموه لغطفان ، وأصلها تأنيث الأعز بعث إليها رسول الله - ﷺ - خالد بن الوليد ، فقطعها وخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها ، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها ، وهو يقول :

يَا عَزُّ كُفِّرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ^(٢)

(١) البيت من المتقارب لم نهند لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧/ ٥٤ .

(٢) البيت لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - انظر اللسان (عزز) الكشف ٤/ ٢٢٢ روح المعاني ٢٧/ ٥٥ القرطبي ١٧/ ٦٦ وقوله (يا عز) =

ورجع فأخبر رسول الله - ﷺ - فقال - عليه الصلاة والسلام - : « تلك العزى ولن تعبد أبداً » . وقال أبو عبيدة : كانت العزى ومناة بالكعبة انتهى . ويدل على هذا قول أبي سفيان في بعض الحروب للمسلمين : لنا عزى ولا عزى لكم ، وقال ابن زيد : كانت العزى بالطائف ، وقال قتادة : كانت بنخلة ، ويمكن الجمع فإنه كان في كل مكان منها صنم يسمى بـ (العزى) كما قلنا في (اللات) ، فأخبر كل واحد عن ذلك الصنم المسمى ومكانه ، (ومناة) قيل : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وعن ابن عباس : لثقيف ، وقيل : بالمشكك من قديد بين مكة والمدينة ، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً ، وأكثرها عدداً ، وكانت الأوس والخزرج تهل لها ، هذا اضطراب كثير في هذه الأوثان ومواضعها ، والذي يظهر أنها كانت ثلاثتها في الكعبة ، لأن المخاطب بذلك في قوله (أفرايتم) هم قريش ، وقرأ الجمهور (ومناة) مقصوراً ، فقيل : وزنها فعلة ، سميت مناة لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أي : تراق ، وقرأ ابن كثير (وَمَنَاة) بالمد والهمز قليل : ووزنها مفعلة ، فالألف منقلبة عن واو ، نحو : مقالة ، والهمزة أصل مشتقة من النوء ، كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها والقصر أشهر . قال جرير :

أَزِيدَ مَنَاةً تُوعِدُ بِأَسْ تَيْمٍ تَأْمَلُ أَيْنَ نَاهَ بِكَ الْوَعِيدُ^(١)

وقال آخر في المد والهمز :

أَلَا هَلْ أَتَى تَيْمَ بْنَ عَبْدٍ مَنَاةٍ عَلَى النَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا ابْنُ تَيْمٍ^(٢)

و (اللات والعزى وَمَنَاة) منصوبة بقوله (أفرايتم) وهي بمعنى : أخبرني والمفعول الثاني الذي لها هو قوله : (ألكم الذكر وله الأنثى) على حد ما تقرر في متعلق (أرايت) إذا كانت بمعنى : أخبرني ، ولم يعد ضمير من جملة الاستفهام على (اللات والعزى ومناة) ، لأن قوله (وله الأنثى) هو في معنى : وله هذه الإناث ، فأغنى عن الضمير ، وكانوا يقولون في هذه الأصنام : هي بنات الله ، فالمعنى : ألكم النوع المحبوب المستحسن الموجود فيكم ، وله النوع المذموم بزعمكم ، وهو المستثقل وحسن إبراز الأنثى كونه نصاً في اعتقادهم أنهم إناث ، وأنهن بنات الله تعالى ، وإن كان في لحاق تاء التأنيث في (اللات) وفي (مناة) وألف التأنيث في (العزى) ما يشعر بالتأنيث ، لكنه قد سمي المذكر بالمؤنث ، فكان في قوله (الأنثى) نص على اعتقاد التأنيث فيها ، وحسن ذلك أيضاً كونه جاء فاصلة ، إذ لو أتى ضميراً فكان التركيب : ألكم الذكر وله هن ، لم تقع فاصلة ، وقال الزجاج : وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها فيقول : أخبروني عن آلهتكم ، هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السالفة ؟ انتهى . فجعل المفعول الثاني لـ (أفرايتم) جملة الاستفهام التي قدرها ، وحذفت لدلالة الكلام السابق عليها ، وعلى تقديره يبقى قوله : (ألكم الذكر وله الأنثى) متعلقاً بما قبله من جهة المعنى ، لا من جهة الإعراب كما قلناه نحن ، ولا يعجبني قول الزجاج : وجه تلفيق هذه الآية مع ما قبلها ، ولو قال : وجه اتصال هذه ، أو وجه انتظام هذه مع ما قبلها لكان الجيد في الأدب ، وإن كان يعني هذا المعنى . وقال ابن عطية : (أفرايتم) خطاب لقريش ، وهي من رؤية العين ، لأنه أحال على أجرام مرئية ، ولو كانت (أرايت) التي هي استفاء لم تتعد انتهى . ويعنى بالأجرام (اللات والعزى ومناة) و (أرايت) التي هي استفاء تقع على الأجرام ،

= مرخم عزى ، انظر الكشف ٤/ ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(١) البيت من الوافر ، انظر ديوانه شرح ديوان جرير . (١٢٦) .

(٢) البيت من الطويل للحارثي ، انظر ديوان أبي تمام ٣/ ٣٤٤ روح المعاني ٢٧/ ٥٥ القرطبي ١٧/ ٦٧ .

نحو : أرأيت زيدا ما صنع ؟ وقوله : ولو كانت « أرأيت » التي هي استفاء يعني الذي تقول النحاة فيه : إنها بمعنى أخبرني لم تعد ، والتي هي بمعنى الاستفاء تتعدى إلى اثنين ، أحدهما منصوب ، والآخر في الغالب جملة استفاهية ، وقد تكرر لنا الكلام في ذلك ، وأوله في سورة الأنعام ، ودل كلام ابن عطية على أنه لم يطالع ما قاله الناس في أرأيت إذا كانت استفاء على اصطلاحه ، وهي التي بمعنى أخبرني ، والظاهر أن (الثالثة الأخرى) صفتان لـ (مناة) وهما يفيدان التوكيد . قيل : ولما كانت (مناة) هي أعظم هذه الأوثان أكدت بهذين الوصفين ، كما تقول : رأيت فلاناً وفلاناً ، ثم تذكر ثالثاً أجلاً منها ، فتقول : وفلاناً الآخر الذي من شأنه ، ولفظه آخر وآخرى يوصف به الثالث من المعدادات ، وذلك نص في الآية ، ومنه قول ربيعة بن مكرم :

وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ ثَالِثٍ

انتهى .

وقول ربيعة مخالف للآية ، لأن ثالثاً جاء بعد آخر . وعلى قول هذا القائل : إن (مناة) هي أعظم هذه الأوثان ، يكون التأكيد لأجل عظمها ، ألا ترى إلى قوله : ثم تذكر ثالثاً أجلاً منها ، وقال الزمخشري : والأخرى ذم ، وهي المتأخرة الوضعية المقدار ، كقوله تعالى (وقالت أخراهم لأولاهم) أي : وضعائهم لرؤسائهم وأشرفهم ، ويجوز أن تكون الأولوية والتقدم عندهم للات والعزى انتهى . ولفظ آخر ومؤنثه أخرى لم يوضعا للذم ولا للمدح ، وإنما يدلان على معنى غير ، إلا أن من شرطهما أن يكونا من جنس ما قبلهما ، لوقلت : مررت برجل وآخر لم يدل إلا على معنى غير ، لا على ذم ولا على مدح ، وقال أبو البقاء و (الأخرى) توكيد لأن الثالثة لا تكون إلا أخرى انتهى . وقيل : (الأخرى) صفة لـ (العزى) لأنها ثانية (اللات) ، والثانية يقال لها : لأخرى ، وأخرت لموافقة رؤس الآي ، وقال الحسن بن الفضل : فيه تقديم وتأخير تقديره : والعزى الأخرى ومناة الثالثة الذليلة ، وذلك لأن الأولى كانت وثناً على صورة آدمي ، والعزى صورة نبات ، ومناة صورة صخرة ، فالآدمي أشرف من النبات ، والنبات أشرف من الجهاد ، فالجهاد متأخر ، ومناة جهاد فهي في أخريات المراتب ، والإشارة بـ (تلك) إلى قسمتهم ، وتقديرهم : أن لهم الذكران ، والله تعالى البنات ، وكانوا يقولون : إن هذه الأصنام والملائكة بنات الله تعالى . قال ابن عباس وقتادة (ضِيْرَى) جائرة وسفيان : منقوصة وابن زيد : مخالفة ومجاهد ومقاتل : عوجاء والحسن : غير معتدلة ، وابن سيرين : غير مستوية . وكلها أقوال متقاربة في المعنى ، وقرأ الجمهور (ضِيْرَى) من غير همز ، والظاهر أنه صفة على وزن فُعْلَى بضم الفاء ، كسرت لتصح الياء ، ويجوز أن تكون مصدراً على وزن فعلى كذكرى ووصف به ، وقرأ ابن كثير (ضِيْرَى) بالهمز فوجه على أنه مصدر كذكرى ، وقرأ زيد بن علي (ضِيْرَى) بفتح الضاد وسكون الياء ، ويوجه على أنه مصدر كدعوى ، وصف به ، أو وصف كسكرى وناقة خرمى ، ويقال ضوزى بالواو وبالهمز ، وتقدم في المفردات حكاية لغة الهمز عن الكسائي ، وأنشد الأخفش :

فَإِنْ تَنَأَ عَنْهَا تَقْتَضِيْكَ وَإِنْ تَغِبْ فَسَهْمُكَ مَضُوْرٌ وَأَنْفُكَ رَاْغِمٌ^(١)

(إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) تقدم تفسير نظيرها في سورة هود وفي سورة الأعراف وقرأ الجمهور (إِنْ يَتَّبِعُونَ) بياء الغيبة وعبد الله وابن عباس وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر بتاء الخطاب (إِلَّا الظَّنَّ) وهو ميل النفس إلى أحد معتقدين من غير حجة (وما تهوى) أي : تميل إليه بلذة وإنما تهوى أبداً ما هو غير الأفضل ، لأنها مجبولة على حب الملاذ ، وإنما يسوقها إلى حسن العاقبة العقل . (ولقد جاءهم من ربهم الهدى)

(١) البيت من الكامل لم نهتد لقائله - انظر لسان العرب (ضار) .

توبيخ لهم ، والذي هم عليه باطل . واعتراض بين الجملتين أي : يفعلون هذه القبائح والهدى قد جاءهم ، فكانوا أولى من يقبله ويترك عبادة من لا يجدي عبادته . (أم للإنسان ما تمنى) هو متصل بقوله (وما تهوى الأنفس) : بل للإنسان ، والمراد به الجنس (ما تمنى) أي : ما تعلق به أمانيه ، أي : ليست الأشياء والشهوات تحصل بالأمانى ، بل لله الأمر ، وقولكم : إن أهتكم تشفع وتقرب زلفى ليس لكم ذلك ، وقيل : أميتهم قولهم ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ [فصلت ٥٠] ، وقيل : قول الوليد بن المغيرة ﴿ لأوتين مالا ولداً ﴾ [مريم ٧٧] ، وقيل : تمنى بعضهم أن يكون النبي . (فله الآخرة والأولى) أي : هو مالهما ، فيعطي منها ما يشاء ، ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يبلغ منها إلا ما شاء الله وقدم الآخرة على الأولى لتأخرها في ذلك ، ولكونها فاصلة فلم يراع الترتيب الوجودي ، كقوله ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ [الليل ١٣] .

﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ * إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنبياء * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * والله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا وما عملوا ويحزي الذين أحسنوا بالحقسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ .

(وكم) هي خبرية ، ومعناها : هنا الكثير ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، والخبر (لا يغني) والغنى جلب النفع ودفع الضر بحسب الأمر الذي يكون فيه الغنى و (كم) لفظها مفرد ومعناها جمع ، وقرأ الجمهور (شفاعتهم) بإفراد الشفاعة وجمع الضمير ، وزيد بن علي (شفاعته) بإفراد الشفاعة والضمير . وابن مقسم (شفاعاتهم) بجمعها ، وهو اختيار صاحب الكامل ، أي : القاسم الهذلي ، وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور ، لأنها مصدر ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً ، فإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه ، أي : يرضاه أهلاً للشفاعة ، فكيف تشفع الأصنام لمن يعبدها ، ومعنى تسمية الأنبياء كونهم يقولون : إنهم بنات الله ، والذين لا يؤمنون بالآخرة : هم العرب منكرو البعث . (وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) أي : ما يدركه العلم لا ينفع فيه الظن ، وإنما يدرك بالعلم واليقين . قيل : ويحتمل أن يكون المراد بالحق هنا هو الله تعالى ، أي : الأوصاف الإلهية ، لا تستخرج بالظنون ، ويدل عليه ذلك بأن الله هو الحق . (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا) مادة منسوخة بآية السيف (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أي : لم تتعلق إرادته بغيرها ، فليس له فكر في سواها كالنضر بن الحارث والوليد بن المغيرة ، والذكر هنا : القرآن ، أو الإيمان ، أو الرسول - ﷺ - أقوال (عن من تولى عن ذكرنا) هو سبب الإعراض ، لأن من لا يصغي إلى قول كيف يفهم معناه ؟ فأمر - ﷺ - بالإعراض عن من هذه حاله ، ثم ذكر سبب التولي عن الذكر ، وهو حصر إرادته في الحياة الدنيا ، فالتولي عن الذكر سبب للإعراض عنهم ، وإيثار الدنيا سبب التولي عن الذكر ، وذلك إشارة إلى تعلقهم بالدنيا وتحصيلها (مبلغهم) غايتهم ومنتهاهم من العلم ، وهو ما تعلق به علومهم من مكاسب الدنيا ، كالفلاحة والصنائع لقوله تعالى ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾ [الروم ٧] ولما ذكر ما هم عليه أخبر تعالى بأنه عالم بالضال والمهتدي ، وهو مجازيها . وقال الزمخشري : وقوله (ذلك مبلغهم من العلم) اعتراض انتهى . وكأنه يقول : هو اعتراض بين (فأعرض) وبين (إن ربك) ولا يظهر هذا الذي يقوله من الاعتراض . وقيل : ذلك إشارة إلى جعلهم الملائكة بنات الله . وقال الفراء : صغر رأيهم وسفه أحلامهم أي : غاية عقولهم ونهاية علومهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : ذلك إشارة إلى الظن ، أي : غاية ما يفعلون أن يأخذوا بالظن ، وقوله (إن ربك هو أعلم) في معرض التسلية ،

إذ كان من خلقه عليه الصلاة والسلام الحرص على إيمانهم ، وفي ذلك وعيد للكفار ووعد للمؤمنين . (والله ما في السموات وما في الأرض) أخبر أن من في العالم العلوي والعالم السفلي ملكه تعالى يتصرف فيها بما شاء ، واللام (ليجزي) متعلقة بما دل عليه معنى الملك ، أي : يضل ويهدي ليجزي . وقيل : بقوله (بمن ضل) و (بمن اهتدى) واللام للصيرورة ، والمعنى : إن عاقبة أمرهم جميعاً للجزاء بما عملوا أي : بعقاب ما عملوا و (الحسن) (الجنة) ، وقيل : التقدير بالأعمال الحسنى ، وحين ذكر جزاء المسيء قال (بما عملوا) وحين ذكر جزاء المحسن أتى بالصفة التي تقتضي التفضل وتدل على الكرم ، والزيادة للمحسن ، كقوله تعالى : ﴿ ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ [العنكبوت ٧] والأحسن تأنيث الحسن . وقرأ زيد بن علي (لنجزي) (ونجزي) بالنون فيها . وتقدم الكلام في الكبائر في قوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ [النساء ٣١] في سورة النساء ، والذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر (والفواحش) معطوف على كبائر ، وهي ما فحش من الكبائر أفردا بالذكر لتدل على عظم مرتكبها . وقال الزمخشري : والكبائر الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . (إلا اللمم) استثناء منقطع ، لأنه لم يدخل تحت ما قبله وهو صغار الذنوب ، أو صفة إلى كبائر الإثم غير اللمم ، كقوله ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله ﴾ [الأنبياء ٢٢] أي : غير الله (لفسدنا) ، وقيل : يصح أن يكون استثناء متصلاً ، وهذا يظهر عند تفسير اللمم ما هو ، وقد اختلفوا فيه اختلافاً . فقال الخدري : هو النظرة والعزمة والقبلة . وقال السدي : الخطرة من الذنب^(١) . وقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي والكلبي : كل ذنب لم يذكر الله تعالى عليه حداً ولا عذاباً^(٢) ، وقال ابن عباس أيضاً وابن زيد : ما ألما به من الشرك والمعاصي في الجاهلية قبل الإسلام^(٣) ، وعن ابن عباس وزيد بن ثابت وزيد بن أسلم وابنه : أن سبب الآية قول الكفار للمسلمين : قد كنتم بالأمس تعملون أعمالنا فنزلت^(٤) ، وهي مثل قوله (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) ، وقيل : نزلت في نهبان التمار وحديثه مشهور . وقال ابن عباس وغيره : العلة والسقطة دون دوام ثم يتوب منه . وقال الحسن : والزنا والسرقة والخمر ثم لا يعود ، وقال ابن المسيب : ما خطر على القلب . وقال نفطويه : ما ليس بمعتاد . وقال الرماني : الهم بالذنب ، وحديث النفس دون أن يواقع ، وقيل : نظرة الفجأة ، (إن ربك واسع المغفرة) حيث يكفر الصغائر باجتنب الكبائر ، وقال الزمخشري : والكبائر بالتوبة انتهى . وفيه نزعة الاعتزال . (هو أعلم بكم) قيل : نزلت في قوم من اليهود عظموا أنفسهم ، وإذا مات طفل لهم قالوا : هذا صديق عند الله . وقيل : في قوم من المؤمنين فخروا بأعمالهم ، والظاهر أنه خطاب عام ، و (أعلم) على بابها من التفضيل . وقال مكي : بمعنى عالم بكم ، ولا ضرورة إلى إخراجها عن أصل موضوعها . كأن مكيأ راعى عمل (أعلم) في الظرف الذي هو (إذ أنشأكم من الأرض) والظاهر أن المراد (بأنشأكم) : أنشأ أصلكم وهو آدم ، ويجوز أن يراد من فضلة الأغذية التي منشؤها من الأرض (فلا تزكوا أنفسكم) أي : لا تنسبوا إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي ، ولا تشنوا عليها واهضموها ، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم ، وكثيراً ما ترى من المتصلحين إذا حدثوا : كان وردنا البارحة كذا ، وفاتنا من وردنا البارحة ، أو فاتنا وردنا ، يوهمون الناس أنهم يقومون بالليل ، وترى لبعضه في جبينه سواداً يوهم أنه من كثرة السجود ، ولبعضهم احتضار النية حالة الإحرام فيحرك يديه مراراً ويصعق حتى ينزعج من بجانبه ، وكأنه يخطف شيئاً بيديه وقت التحريكة الأخيرة يوهم أنه يحافظ على تحقيق النية ، وبعضهم يقول في

(١) انظر الوسيط (١٠١) والطبري ٢٧ ، ٣٩ والبغوي ٢٥٢/٤ - ٢٥٣ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) المصادر السابقة .

حلفه : وحق البيت الذي زرت . يعلم أنه حاج ، وإذا لاح له فلس يشب عليه وثوب الأسد على الفريسة ، ولا يلحقه شيء من الوسواس ، ولا من إحضار النية في أخذه ، وتراه يحب الثناء عليه بالأوصاف الجميلة التي هو عارضها . وقيل : المعنى لا يزيكي بعضكم بعضاً تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو تزكية بالقطع ، وأما تزكية لإثبات الحقوق فجائزة للضرورة ، والجنين ما كان في البطن ، فإذا خرج سمي ولداً أو سقطاً ، وقوله (في بطون أمهاتكم) تنبيه على كمال العلم والقدرة ، فإن بطن الأم في غاية الظلمة ، ومن علم حاله وهو مجنّ لا يخفى عليه حاله وهو ظاهر . (بمن اتقى) قيل : الشرك ، وقال علي : عمل حسنة ، وارعوى عن معصية . قوله عز وجل : ﴿ أفرايت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن عليه النشأة الأخرى * وأنه هو أغنى وأقنى * وأنه هو رب الشعري * وأنه أهلك عاداً الأولى * وثموداً فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفة أهوى * فغشاهما غشى * فبأي آلاء ربك تتبارى * هذا نذير من النذر الأولى * أذفت الآرفة * ليس لها من دون الله كاشفة * أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا ﴿ .

(أفرايت) الآية ، قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت^(١) في الوليد بن المغيرة ، كان قد سمع قراءة رسول الله - ﷺ - وجلس إليه ووعظه ، فقرب من الإسلام وطمع فيه رسول الله - ﷺ - ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، فقال له : أترك ملة آبائك ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمّل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عن ما هم به من الإسلام ، وضل ضلالاً بعيداً ، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عنه وشح . وقال الضحّاك : هو النضر بن الحرث أعطى خمس فلايس لفقير من المهاجرين حتى ارتد عن دينه ، وضمن له أن يحمل عنه مآثم رجوعه^(٢) ، وقال السدي : نزلت في العاصي بن وائل السهمي ، كان ربما يوافق النبي - ﷺ - في بعض الأمور^(٣) ، وقال محمد بن كعب : في أبي جهل بن هشام ، قال : والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق^(٤) ، وروي عن ابن عباس^(٥) والسدي^(٦) : إنها نزلت في عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - كان يتصدق ، فقال له أخوه من الرضاعة ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح : نحواً من كلام القائل للوليد بن المغيرة الذي بدأنا به ، وذكر القصة بتامها الزمخشري ، ولم يذكر في سبب النزول غيرها . قال ابن عطية : وذلك كله عندي باطل ، وعثمان - رضي الله عنه - منزّه عن مثله انتهى . و (أفرايت) هنا بمعنى أخبرني ، ومفعولها الأول الموصول ، والثاني الجملة الاستفهامية ، وهي أعنده علم الغيب ، و (تولى) أي : أعرض عن الإسلام . وقال الزمخشري (تولى) ترك المركز يوم أحد انتهى . لما جعل الآية نزلت في عثمان ، فسر التولي بهذا ، وإذا ذكر التولي غير مقيد في القرآن ، فأكثر استعماله أنه استعارة عن عدم الدخول في الإيمان ، (وأعطى قليلاً وأكدى) ، قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم عصى . وقال مجاهد (أعطى قليلاً) من نفسه

(١) انظر البغوي ٢٥٣/٤ وتفسير عبد الرزاق ١٠٩٥/٣ والطبري ٤١/٢٧ ، ٤٢ ، والقرطبي ٦٢٨١/٨ والبغوي ٢٥٣/٤ وفتح الباري ٦٠٤/٨ وابن كثير ٢٥٧/٤ والوسيط ١٠١ خ .

(٢) المصادر السابقة .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) المصادر السابقة .

(٥) المصادر السابقة .

(٦) المصادر السابقة .

بالاستماع ، ثم أكدى بالانقطاع ، وقال الضحاك : أعطى قليلاً من ماله ثم منع ، وقال مقاتل : أعطى قليلاً من الخير بلسانه ثم قطع . (أعنده علم الغيب) أي : أعلم من الغيب أن من تحمل ذنوب آخر فإن المتحمل عنه ينتفع بذلك ، فهو لهذا الذي علمه يرى الحق وله فيه بصيرة ، أم هو جاهل ؟ ، وقال الزمخشري (فهو يرى) فهو يعلم أن ما قاله أخوه من احتمال أوزاره حق ، وقيل : يعلم حاله في الآخرة . وقال الزجاج : يرى رفع مأثمه في الآخرة . وقيل : (فهو يرى) أن ما سمعه من القرآن باطل . وقال الكلبي : أنزل عليه قرآن فرأى ما منعه حق ، وقيل (فهو يرى) أي : الأجزاء ، واحتمل (يرى) أن تكون بصرية أي : فهو يبصر ما خفي عن غيره مما هو غيب ، واحتمل أن يكون بمعنى يعلم أي : فهو يعلم الغيب مثل الشهادة . (أم لم ينبأ) أي : بل ألم يخبر بما في صحف موسى ، وهي التوراة وإبراهيم أي : وفي صحف إبراهيم التي أنزلت عليه ، وخص هذين النبيين عليهما أفضل الصلاة والسلام ، قيل : لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله ، والزواج بامرأته ، والعبد بسيده ، فأول من خالفهم إبراهيم ، ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى - عليهما السلام - كانوا لا يأخذون الرجل بجريمة غيره . (الذي وفى) ، قرأ الجمهور (وُفِّي) بتشديد الفاء ، وقرأ أبو أمامة الباهلي وسعيد بن جبير وأبو مالك الغفاري وابن السميع وزيد بن علي بتخفيفها ، ولم يذكر متعلق (وُفِّي) ليتناول كل ما يصلح أن يكون متعلقاً له ، كتبليغ الرسالة والاستقلال بأعباء الرسالة ، والصبر على ذبح ولده ، وعلى فراق إسماعيل وأمه ، وعلى نار غمروذ وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه ، وكان يمشي كل يوم فرسخاً يرتاد ضيفاً ، فإن وافقه أكرمه ، وإلا نوى الصوم . وعن الحسن : ما أمره الله بشيء إلا وُفِّي به ، وعن عطاء بن السائب ، عهد أن لا يسأل مخلوقاً ، وقال ابن عباس والربيع (وُفِّي) طاعة الله في أمر ذبح ابنه . وقال الحسن وقتادة (وُفِّي) بتبليغ الرسالة ، والمجاهدة في ذات الله ، وقال عكرمة (وُفِّي) هذه العشر الآيات (أن لا تزر) فما بعدها . وقال ابن عباس : أيضاً وقتادة (وُفِّي) ما افترض عليه من الطاعة على وجهها ، وكملت له شعب الإيمان والإسلام ، فأعطاه الله براءته من النار ، وقال ابن عباس أيضاً (وُفِّي) شرائع الإسلام ثلاثين سهماً ، يعني عشرة في براءة ﴿ التائبون ﴾ [براءة ١٢٢] الخ ، وعشرة في ﴿ قد أفلح ﴾ [المؤمنون ١] وعشرة في الأحزاب ﴿ إن المسلمين ﴾ [الأحزاب ٣٥] ، وقال أبو أمامة ورفعته إلى النبي - ﷺ - (وُفِّي) أربع صلوات في كل يوم . وقال أبو بكر الوراق : قام بشرط ما ادعى ، وذلك أن الله تعالى (قال له أسلم قال أسلمت لرب العالمين) فطالبه بصحة دعواه . فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده وافيّاً انتهى . وللمفسرين أقوال غير هذه ، وينبغي أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وُفِّي ، لا على سبيل التعيين ، و (أن) هي المخففة من الثقيلة ، وهي بدل من (ما) في قوله (بما في صحف) أو في موضع رفع ، كأن قائلًا قال : ما في صحفها ؟ فقيل : لا تزر وازرة وزر أخرى . وتقدم شرح ﴿ لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام ١٦٤] ، (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى) الظاهر أن الإنسان يشمل المؤمن والكافر ، وأن الحصر في السعي فليس له سعي غيره ، وقال عكرمة : كان هذا الحكم في قوم إبراهيم وموسى ، وأما هذه الأمة فلها سعي غيرها ، يدل عليه حديث سعد بن عباد « هل لأمي إن تطوعت عنها قال نعم » ، وقال الربيع : الإنسان هنا الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره ، وسأل والي خراسان عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ [البقرة ٢٦١] فقال : ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بالفضل ما شاء الله ، فقبل عبد الله رأس الحسين ، وما روي عن ابن عباس أنها منسوخة لا يصح لأنه خبر لم يتضمن تكليفاً وعند الجمهور أنها محكمة قال ابن عطية : والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو اللام من قوله (للإنسان) فإذا حققت الذي حق الإنسان أن يقول فيه لي كذا لم تجده إلا سعيه ، وما تم بعد من رحمة بشفاعه ، أو رعاية أب صالح ، أو ابن صالح ، أو تضعيف حسنات ، أو تعتمد بفضل ورحمة دون هذا كله فليس هو للإنسان ، ولا يسعه أن يقول : لي كذا وكذا إلا على تجوز ، وإلحاق بما هو حقيقة ، واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته

يبدن أو مال ، و فرق بعض العلماء بين البدن والمال انتهى . والسعي : التكسب و (يُرى) مبني للمفعول أي : سوف يراه حاضراً يوم القيامة ، وفي عرض الأعمال تشريف للمحسن وتوبيخ للمسيء ، والضمير المرفوع في (يجزاه) عائد على الإنسان والمنصوب عائد على السعي ، و (الجزاء) مصدر . قال الزمخشري : ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسره بقوله (الجزاء الأوفى) وإذا كان تفسيراً للمصدر المنصوب في (يجزاه) فعلى ماذا انتصابه ؟ وأما إذا كان بدلاً فهو من باب بدل الظاهر من الضمير الذي يفسره الظاهر ، وهي مسألة خلاف ، والصحيح المنع^(١) . وقرأ الجمهور (وأن إلى ربك) وما بعدها من (وأنه) (وأن) بفتح الهمزة عطفاً على ما قبلها . وقرأ أبو السمال بالكسر فيهن ، وفي قوله (الأوفى) وعيد للكافر ووعد للمؤمن ، ومنتهى الشيء غايته ، وما يصل إليه أي : إلى حساب ربك والحشر لأجله ، كما قال ﴿ وإلى الله المصير ﴾ [آل عمران ٢٨] أي : إلى جزائه وحسابه ، أو إلى ثوابه من الجنة وعقابه من النار ، وهذا التفسير المناسب لما قبله في الآية ، وعن أبي عن النبي - ﷺ - في قوله تعالى (وأن إلى ربك المنتهى) لا فكرة في الرب ، وروى أنس عنه - ﷺ - « إذا ذكر الرب فانتهوا » (وأنه هو أضحك وأبكى) الظاهر حقيقة الضحك والبكاء ، قال مجاهد : أضحك أهل الجنة ، وأبكى أهل النار ، وقيل : كنى بالضحك عن السرور ، وبالبكاء عن الحزن ، وقيل : أضحك الأرض بالنبات ، وأبكى السماء بالمطر ، وقيل : أحيا بالإيمان ، وأبكى بالكفر ، وقال الزمخشري (أضحك وأبكى) خلق قوتي الضحك والبكاء انتهى . وفيه دسياسة الاعتزال ، إذ أفعال العباد من الضحك والبكاء وغيرها مخلوقة للعبد عندهم ، لا الله تعالى فلذلك قال : خلق قوتي الضحك والبكاء ، (وأنه خلق الزوجين) المصطحبين من رجل وامرأة وغيرها من الحيوان (من نقطة إذا تمنى) أي : إذا تدفق وهو المني يقال : أمنى الرجل ومنى . وقال الأخفش (إذا تمنى) أي : يخلق ويقدر ، من منى الماني أي : قدر المقدر ، (وأن عليه النشأة الأخرى) أي : إعادة الأجسام أي : الحشر بعد البلى ، وجاء بلفظ (عليه) المشعرة بالتحتم لوجود الشيء لما كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله (عليه) بوجودها لا محالة ، وكأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه ، وتقدم الخلاف في قراءة (النشأة) في سورة العنكبوت ، وقال الزمخشري : وقال (عليه) لأنها واجبة عليه في الحكمة ، ليجازى على الإحسان والإساءة انتهى . وهو على طريق الاعتزال ، (وأنه هو أغنى وأقنى) أي : أكسب القنية يقال : قنيت المال ، أي : كسبته ، وأقنيته إياه أي : أكسبته إياه ، ولم يذكر متعلق أغنى وأقنى ، لأن المقصود نسبة هذين الفعلين له تعالى ، وقد تكلم المفسرون على ذلك ، فقالوا اثني عشر قولاً ، كقولهم : أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ، وكل قول منها لا دليل على تعينه ، فينبغي أن تجعل أمثلة . و (الشعري) التي عبت . هي العبور . وقال السدي : كانت تعبدها حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي - ﷺ - من قبل أمهاته ، وكان اسمه عبد الشعري ، ولذلك كان مشركو قريش يسمونه - عليه السلام - ابن أبي كبشة ، ومن ذلك كلام أبي سفيان : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة ، ومن العرب من كان يعظمها ولا يعبدها ، ويعتقد تأثيرها في العالم ، وأنها من الكواكب الناطقة ، يزعم ذلك المنجمون ، ويتكلمون على المغيبات عند طلوعها ، وهي تقطع السماء طولاً والنجوم تقطعها عرضاً . وقال مجاهد وابن زيد : هو مرزم الجوزاء ، (وأنه أهلك عاداً الأولى) جاء بين (أن) وخبرها لفظ (هو) ، وذلك في قوله (وأنه هو أضحك) (وأنه هو أمات) (وأنه هو أغنى) (وأنه هو رب الشعري) ففي الثلاثة الأول لما كان قد يدعي ذلك بعض

(١) حاصل ذلك أن الأخفش أجاز أن يفسر الضمير باسم ظاهر بعده ، ويكون هذا الظاهر بدلاً من الضمير ، وذهب غيره إلى المنع يقول ابن هشام أن يكون بدلاً منه الظاهر المفسر له (كضربته زيداً) وقال ابن عصفور : أجازة الأخفش ومنعه سيبويه ، وقال ابن كيسان : هو جائز بإجماع ، ومعنى الإجماع عند أبي كيسان اتفاق سيبويه وغيره ، خلافاً لما قاله ابن عصفور . وقال المصنف - رحمه الله - في التسهيل ، ويتقدم أيضاً غير منوي التأخير إن جر (رب) أرفع (بنعم) أو شبهها أو بأول المتنازعين ، أو أبدل منه المفسر ، وقد صحح المصنف - رحمه الله - في شرحه على التسهيل مذهب الأخفش فكيف منع هنا فقال : والصحيح الجواز ، وهو مذهب أبي الحسن .

الناس ، كقول غمروذ (أنا أحيي وأميت) احتيج إلى تأكيد في أن ذلك إنما هو الله لا غيره ، فهو الذي يضحك ويبكي ، وهو المميت المحيي ، والمغني والمقتي حقيقة ، وإن ادعى ذلك أحد فلا حقيقة له ، وأما (وأنه هورب الشعري) فلأنها لما عبدت من دون الله تعالى ، نص على أنه تعالى هوربها وموجدتها ، ولما كان خلق الزوجين والإنشاء الآخر وإهلاك عاد ومن ذكر لا يمكن أن يدعي ذلك أحد لم يحتج إلى تأكيد ولا تنصيص أنه تعالى هو فاعل ذلك ، وعاد الأولى : هم قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم ، وقيل (الأولى) القدماء ، لأنهم أول الأمم هلاكاً بعد قوم نوح - عليه السلام - ، وقيل : (الأولى) المتقدمون في الدنيا الأشراف قاله الزمخشري . وقال ابن زيد والجمهور : لأنها في وجه الدهر وقديمه . فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة ، وقال الطبري : وصفت بالأولى لأن عاداً الآخرة قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهو بنو لقيم بن هزال ، وقال المبرد : عاد الأخيرة هي ثمود ، والدليل عليه قول زهير :

كَأَخْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضَعُ فَتَفْطَمِ

ذكره الزهراوي ، وقيل عاد الأخيرة الجبارون وقيل قبل الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود وقيل ثمود من قبل عاد . وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية : من ولد عاد الأولى ، وقرأ الجمهور (عاداً الأولى) بتنوين (عاداً) وكسره لالتقاء ساكنين مع سكون لام (الأولى) وتحقيق الهمزة بعد اللام . وقرأ قوم كذلك غير أنهم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام وحذفوا الهمزة . وقرأ نافع وأبو عمرو بإدغام التنوين في اللام المنقول إليها حركة الهمزة المحذوفة ، و (عاد) هذه القراءة للمازني والمبرد ، وقالت العرب في الابتداء بعد النقل : الحمر والحمر ، فهذه القراءة جاءت على الحَمَر ، فلا عيب فيها ، وهمز قالون عين (الأولى) بدل الواو الساكنة ، ولما لم يكن بين الضمة والواو حائل تخيل أن الضمة على الواو ، فهمزها كما قال :

أحب المؤمنين إليّ موسى

وكما قرأ بعضهم (على سؤقه) وهو توجيه شذوذ ، وفي حرف أبي عاد غير مصروف جعله اسم قبيلة فمنعه الصرف للتأنيث والعلمية ، والدليل على التأنيث وصفه بـ (الأولى) ، وقرأ الجمهور (وثمروداً) مصروفاً ، وقرأه غير مصروف الحسن وعاصم وعصمة ، (فما أبقى) الظاهر أن متعلق (أبقى) يرجع إلى (عاد) و (ثمود) معاً أي : فما أبقى عليهم ، أي : أخذهم بذنوبهم ، وقيل : (فما أبقى) أي : فما أبقى منهم عيناً تطرف ، وقال ذلك الحجاج بن يوسف حين قيل له : إن ثقيفاً من نسل ثمود ، فقال : قال الله تعالى (وثمروداً فما أبقى) ، وهؤلاء يقولون : بقيت منهم بقية ، والظاهر القول الأول ، لأن ثمود كان قد آمن منهم جماعة بصلاح - عليه السلام - فما أهلكهم الله مع الذين كفروا به ، (وقوم نوح من قبل) أي : من قبل عاد وثمرود ، وكانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض ونوح - عليه السلام - أول الرسل ، والظاهر أن الضمير في (إنهم) عائد على قوم نوح ، وجعلهم (أظلم وأطغى) لأنهم كانوا في غاية العتو والإيذاء لنوح - عليه السلام - يضرّبونه حتى لا يكاد يتحرك ، ولا يتأثرون لشيء مما يدعوهم إليه ، وقال قتادة : دعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كلما هلك قرن نشأ قرن ، حتى كان الرجل يأخذ بيد ابنه يتمشى به إليه يحذره منه ، ويقول : يا بني إن أبي مشى بي إلى هذا ولنا مثلك يومئذ فإياك أن تصدقه ، فموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، وقيل : الضمير في (إنهم) عائد على من تقدم (عاد) و (ثمود) (وقوم نوح) أي : كانوا أكفر من قريش ، وأطغى ، ففي ذلك تسلية لرسول الله - ﷺ - و (هم) . يجوز أن يكون تأكيداً للضمير المنصوب ، ويجوز أن يكون فصلاً ، لأنه واقع بين معرفة وأفعال التفضيل ، وحذف المفضول بعد الواقع خبراً لكان ، لأنه جار مجرى خبر المبتدأ ، وحذفه فصيح فيه ،

فكذلك في خبر كان ، (والمؤتفكة) هي مدائن قوم لوط بإجماع من المفسرين^(١) ، وسميت بذلك لأنها انقلبت ومنه الإفك لأنه قلب الحق كذباً ، أفكه فائتفك ، قيل : ويحتمل أن يراد بـ (المؤتفكة) كل ما انقلبت مساكنه ودبرت أماكنه (أهوى) : أي خسف بهم بعد رفعهم إلى السماء ، رفعها جبريل - عليه السلام - ثم أهوى بها إلى الأرض ، وقال المبرد : جعلها تهوي ، وقرأ الحسن (والمؤتفكات) جمعاً والظاهر أن (أهوى) ناصب للمؤتفكة وآخر العامل لكونه فاصلة ويجوز أن يكون (والمؤتفكة) معطوفاً على ما قبله ، و (أهوى) جملة في موضع الحال يوضح كيفية إهلاكهم ، أي : وإهلاك المؤتفكة مهوياً لها ، (فغشاها ما غشي) فيه تهويل للعذاب الذي حل بهم ، لما قلبها جبريل - عليه السلام - أتبع حجارة غشيتهم ، واحتمل أن يكون فعل المشدد بمعنى المجرد ، فيتعدى إلى واحد ، فيكون الفاعل (ما) كقوله تعالى ﴿ فغشيتهم من أليم ما غشيتهم ﴾ [طه ٧٨] ، (فبأي آلاء ربك تتماهى) الباء ظرفية ، والخطاب للسامع ، و (تتماهى) تشكك ، وهو استفهام في معنى الإنكار ، أي : آلاؤه ، وهي النعم لا يتشكك فيها سامع ، وقد سبق ذكر نعم ونقم ، وأطلق عليها كلها آلاء لما في النقم من الزجر والوعظ لمن اعتبر ، وقرأ يعقوب وابن محيصن (ربك تمارى) بناء واحدة مشددة ، وقال أبو مالك الغفاري : إن قوله (أن لا تنزر) إلى قوله (تتماهى) هو في صحف إبراهيم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - (هذا نذير) ، قال قتادة ومحمد بن كعب وأبو جعفر : الإشارة إلى رسول الله - ﷺ - افتتح أول السورة به ، واختتم آخرها به ، وقيل : الإشارة إلى القرآن ، وقال أبو مالك : إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم ، أي : هذا إنذار من الإنذارات السابقة ، والنذير يكون مصدراً أو اسم فاعل ، وكلاهما من أنذر ، ولا يتفاسان ، بل القياس في المصدر إنذار ، وفي اسم الفاعل منذر ، والنذر : إما جمع للمصدر ، أو جمع لاسم الفاعل ، فإن كان اسم فاعل فوصف النذر بـ (الأولى) على معنى الجماعة ، ولما ذكر إهلاك من تقدم ذكره ، وذكر قوله (هذا نذير) ذكر أن الذي أنذره قريب الوقوع ، فقال (أزفت الأزفة) أي : قربت الموصوفة بالقرب ، في قوله (اقتربت الساعة) وهي القيامة ، (ليس لها من دون الله كاشفة) أي : نفس كاشفة تكشف وقتها وتعلمه قاله الطبري والزجاج ، وقال القاضي منذر بن سعيد : هو من كشف الضر ودفعه ، أي : ليس لها من يكشف خطبها وهو لها انتهى . ويجوز أن تكون الهاء في (كاشفة) للمبالغة ، وقال الرماني وجماعة : ويحتمل أن يكون مصدراً كالعاقبة ، و (خائنة الأعين) ، أي : ليس لها كشف من دون الله ، وقيل : يحتمل أن يكون التقدير : حال كاشفة ، (أفمن هذا الحديث) وهو القرآن (تعجبون) فتنكرون وتضحكون مستهزئين (ولا تبكون) جزعاً من وعيده (وأنتم سامدون) قال مجاهد : معرضون ، وقال عكرمة : لاهون ، وقال قتادة : غافلون ، وقال السدي : مستكبرون ، وقال ابن عباس : ساهون ، وقال المبرد : جامدون ، وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلاً عنه ، وروي أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يُرَ ضاحكاً بعد نزولها^(٢) . (فاسجدوا) أي : صلوا له (واعبدوا) أي : أفردوه بالعبادة ، ولا تعبدوا اللات والعزى ومناة والشعري . وغيرها من الأصنام ، وخرج البغوي بإسناد متصل إلى عبد الله قال : أول سورة نزلت فيها السجدة النجم ، فسجد رسول الله - ﷺ - وسجد من خلفه ، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً ، والرجل أمية بن خلف . وروي : أن المشركين سجدوا مع رسول الله - ﷺ - وفي حرف أبي وعبد الله (تضحكون) بغير واو . وقرأ الحسن (تُعجبون) (تضحكون) بغير واو ، ويضم التاء وكسر الجيم والحاء ، وفي قوله (ولا تبكون) حض على البكاء عند سماع القرآن . والسجود هنا عند كثير من أهل العلم

(١) انظر الوسيط ١٠٢ والبغوي ٢٥٦/٤ .

(٢) قال الحافظ في تحريجه على الكشف ٤/٣٠ أخرجه أحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبي الخليل ، ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف .

منهم عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - ، ووردت به أحاديث صحاح^(١) ، وليس يراها مالك هنا . وعن زيد بن ثابت : أنه قرأ بها عند رسول الله - ﷺ - فلم يسجدوا - والله تعالى أعلم .

(١) ذكر السيوطي في الدر حديث سجوده - ﷺ - ١٣٢/٦ وعزاه للبخاري ، والترمذي وابن مردويه عن ابن عباس هو في البخاري ٤٨٠/٨ (٤٨٦٢) .

سورة القمر مكية وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقَّ الْقَمَرِ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يُومٌ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ۚ فَدَعَاهُ أَنِي مَعْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۚ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۚ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۚ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ۚ تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۚ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۚ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۚ تَزَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۚ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۚ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّثَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ۚ إِنَّا إِذَا لَفِئَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۚ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۚ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۚ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ۚ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌّ ۚ فَادَّوَا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَقْعَرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْمُحْطَرِّ ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۚ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ ۚ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۚ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۚ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِهِ ۚ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ۚ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ

﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْنَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

الحدث : القبر ، وتبدل ثاؤه فاء ، فيقال : جدف ، كما أبدلوا ثم فقالوا : فم ، انهمر الماء : نزل بقوة غزيراً ، قال الشاعر :

رَاحَ تَمْرِيه الصَّبَا ثُمَّ تَنَحَّى فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرٍ^(١)

الدرس : المسامير التي تشد بها السفينة ، واحدها دسار ، نحو : كتاب وكتب ، ويقال : دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير ، وقال الليث وصاحب الصحاح : الدسر خيوط تشد بها ألواح السفينة ، الصرصر : الشديدة الصوت ، أو البرد ، إما من صرير الباب وهو تصويته ، أو من الصر الذي هو البرد ، وهو بناء متأصل على وزن فعلل عند الجمهور ، العجز : مؤخر الشيء ، المنقعر : المنقلع من أصله ، قعرت الشجرة قعراً : اقلعتها من أصلها ، فانقعرت ، والبئر نزلت حتى انتهت إلى قعرها ، والإناء شربت مافيه حتى انتهت إلى قعره ، وأقعرته البئر جعلت لها قعراً . الأشر : البطر ، وقرأ (أشر) بالكسر يأشر أشراً ، فهو أشر وأشر وأشران ، وقوم أشارى مثل سكران وسكارى ، سقر : علم لجهنم مشتق من سقرته النار ، بالسین ، وصقرته بالصاد إذا لَوَّحته ، قال ذو الرمة :

إِذَا ذَابَتْ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا بِأَفْنَانٍ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مَعِيلٍ^(٢)

وامتنعت (سقر) من الصرف للعلمية والتأنيث ، تنزلت حركة وسطه تنزل الحرف الرابع في زينب .

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر ، فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ، كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعاه باني مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدكر ، فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿ هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقيل : هي مما نزل يوم بدر ، وقال مقاتل : مكية إلا ثلاث آيات أولها (أم يقولون تحن) وآخرها (أدهى وأمر) ، وسبب نزولها : أن مشركي قريش قالوا للرسول - ﷺ - : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر

(١) البيت من الرمل لامرئ القيس ، انظر ديوانه (١٤٥) القرطبي ٨٦/١٧ فتح القدير ١٢٢/٥ .

(٢) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ٥٨٩ الكشف ٤٤١/٤ روح المعاني ٩٣/٢٧ .

فرقتين ، ووعدوه بالإيمان إن فعل ، وكانت ليلة بدر ، فسأل ربه ، فانشق القمر نصف على الصفا ، ونصف على قيعان ، فقال أهل مكة : آية سماوية لا يعمل فيها السحر ، فقال أبو جهل : اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي ، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح ، وإلا فقد سحر محمد أعيننا ، فجاءوا فأخبروا بانشقاق القمر ، فأعرض أبو جهل ، وقال : (سحر مستمر) ، وعن ابن عباس : شق القمر شقين ، شطرة على السويداء ، وشطرة على الحديبية ، وعنه : انشق القمر بمكة مرتين ، وعنه : انفلق فلقتين ، فلقة ذهب ، وفلقة بقيت ، ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها ظاهرة ، قال : ﴿ أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ﴾ [النجم ٥٧] وقال (اقتربت الساعة) وممن عاين انشقاق القمر ابن مسعود وجبير بن مطعم ، وأخبر به ابن عمر وأنس وحذيفة وابن عباس ، وحين أرى الله الناس انشقاق القمر ، قال الرسول - ﷺ - « اشهدوا » ، وقال المشركون إذ ذاك : سحرنا محمد ، وقال بعضهم : سحر القمر ، والأمة مجمعة على خلاف من زعم أن قوله (وانشق القمر) معناه : أنه ينشق يوم القيامة ، ويرده من الآية قوله (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فلا يناسب هذا الكلام أن يأتي إلا بعد ظهور ما سأله معينا من انشقاق القمر ، وقيل : سألوا آية في الجملة ، فأراهم هذه الآية السماوية ، وهي من أعظم الآيات ، وذلك التأثير في العالم العلوي ، وقرأ حذيفة (وقد انشق القمر) أي : اقتربت ، وتقدم من آيات اقترابها انشقاق القمر ، كما تقول : أقبل الأمير ، وقد جاء المبشر بقدمه ، وخطب حذيفة بالمدائن ، ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ، ولا التفات إلى قول الحسن : إن المعنى إذا جاءت الساعة انشق القمر بعد النفخة الثانية ، ولا إلى قول من قال : إن انشقاقه عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه في أنائها ، فالمعنى : ظهر الأمر ، فإن العرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح ، كما يسمى الصبح فلماً عند انفلاق الظلمة عنه ، وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق ، قال النابغة :

فَلَمَّا أَذْبَرُوا وَلَهُمْ دَوِيٌّ دَعَانَا عِنْدَ شَقِّ الصُّبْحِ دَاعِي^(١)

وهذه أقوال فاسدة ولولا أن المفسرين ذكروها لأضربت عن ذكرها صفحاً . (وإن يروا آية يعرضوا) وقرئ (وإن يروا) مبنياً للمفعول ، أي : من شأنهم وحالتهم أنهم متى رأوا يدل على صدق الرسول - ﷺ - من الآيات الباهرة أعرضوا عن الإيمان به ، وبذلك الآية ، وجاءت الجملة شرطية ليدل على أنهم في الاستقبال على مثل حالهم في الماضي (ويقولوا سحر مستمر) أي : دائم ، ومنه قول الشاعر :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا لَيْالٍ وَأَعْصُر وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ قَوْمٍ بِمُسْتَمِر^(٢)

أي لما رأوا الآيات متوالية لا تنقطع قالوا ذلك ، وقال أبو العالية والضحاك والأخفش : (مسمر) مشدود موثق ، من مرائر الحبل أي : سحر قد أحكم ، ومنه قول الشاعر :

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى سِرٍّ مَرِيرَتُهُ صِدْقُ الْعَزِيمَةِ لَارِيًّا وَلَا ضِرْعًا^(٣)

وقال أنس ويمان ومجاهد والكسائي والفراء واختاره النحاس (مستمر) مار ذاهب زائل عن قريب ، عللوا بذلك أنفسهم^(٤) ، وقيل : (مستمر) شديد المرارة ، أي : مستبشع عندنا مر^(٥) يقال ، مر الشيء وأمر إذا صار مرأ وأمر غيره

(١) البيت من الوافر ليس في ديوانه ، انظر القرطبي ١٧/ ٨٣ روح المعاني ٢٧/ ٧٧ .

(٢) البيت من الطويل لامرئ القيس ، انظر ديوانه (١٠٩) .

(٣) البيت من البسيط للقيط الإبادي ، انظر الكامل ١/ ٣٣٠ القرطبي ١٧/ ٨٣ وفتح القدير ٥/ ١٢٠ .

(٤) انظر البغوي ٤/ ٢٥٨ والوسيط ١٠٤ خ .

(٥) المصادر السابقة .

ومره ، يكون لازماً متعدياً ، وقيل : (مستمر) يشبه بعضه بعضاً^(١) ، أي : استمرت أفعاله على هذا الوجه من التخليلات ، وقيل : (مستمر) مار من الأرض إلى السماء ، أي : بلغ من سحره أنه سحر القمر ، (وكذبوا) أي : بالآيات ويمن جاء بها أي : قالوا : هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد ، (واتبعوا أهواءهم) أي : شهوات أنفسهم وما يهون ، (وكل أمر مستقر) بكسر القاف وضم الراء مبتدأ ، أو خبر ، قال مقاتل : أي : له غاية ينتهي إليها ، وقال الكلبي (مستقر) له حقيقة ، فما كان في الدنيا فسيظهر ، وما كنا في الآخرة فسيعرف^(٢) ، وقال قتادة : معناه أن الخير يستقر بأهل الخير ، والشر بأهل الشر^(٣) ، وقيل : يستقر الحق ظاهراً ثابتاً ، والباطل زاهقاً ذاهباً^(٤) وقيل : كل أمر من أمرهم وأمره يستقر على خذلان أو نصره في الدنيا وسعادة أو شقاوة في الآخرة^(٥) ، وقرأ شيبه (مستقر) بفتح القاف ، ورويت عن نافع وقال أبو حاتم : لا وجه لفتح القاف انتهى . وخرجت على حذف مضاف ، أي : ذو استقرار ، وزمان استقرار ، وقرأ أبو جعفر وزيد بن علي (مستقر) بكسر القاف والراء معاصفة لأمر ، وخرجه الزمخشري على أن يكون (وكل) عطفاً على (الساعة) أي : اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله ، وهذا بعيد لطول الفصل بجمل ثلاث ، وبعيد أن يوجد مثل هذا التركيب في كلام العرب ، نحو : أكلت خبزاً وضربت زيداً ، وأن يجيء زيد أكرمه ورحل إلى بني فلان ولحماً ، فيكون « ولحماً » عطفاً على خبزاً ، بل لا يوجد مثله في كلام العرب ، وخرجه صاحب اللوامح على أنه خبر لكل ، فهو مرفوع في الأصل لكنه جر للمجاورة ، وهذا ليس بجيد ، لأن الخفض على الجوار في غاية الشذوذ ، ولأنه لم يعهد في خبر المبتدأ ، إنما عهد في الصفة على اختلاف النحاة في وجوده ، والأسهل أن يكون الخبر مضمراً للدلالة المعنى عليه ، والتقدير : وكل أمر مستقر بالغوه ، لأن قبله (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أي : وكل أمر مستقر لهم في القدر من خير أو شر بالغه هم ، وقيل : الخبر (حكمة بالغة) أي : وكل أمر مستقر حكمة بالغة ويكون (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر) اعتراض بين المبتدأ وخبره (ولقد جاءهم من الأنبياء) أي : من الأخبار الواردة في القرآن في إهلاك من كذب الأنبياء وما يؤولون إليه في الآخرة (ما فيه مزدجر) أي : ازدجار رادع لهم عن ما هم فيه ، أو موضع ازدجار وارتداع « أي : ذلك موضع ازدجار أو مظنة له ، وقرئ (مُزَجَّر) بابدال تاء الافتعال زايًا وإدغام الزاي فيها ، وقرأ زيد بن علي (مُزَجَّر) اسم فاعل من أزجر أي : صار ذا زجر ، كأعشب أي : صار ذا عشب ، وقرأ الجمهور (حكمة بالغة) برفعها ، وجوزوا أن تكون (حكمة) بدلاً من (مزدجر) أو من (ما) وخبر مبتدأ محذوف ، وتقدم قول من جعله خبراً عن (كل) في قراءة من قرأ (مستقر) بالجر ، وقرأ البيهقي (حكمة بالغة) النصب فيها حالاً من (ما) سواء كانت (ما) موصولة أم موصوفة تخصصت بالصفة ، ووصفت الحكمة بـ (بالغة) لأنها تبلغ غيرها ، (فما تغن النذر) مع هؤلاء الكفرة ، ثم سلى رسوله ﷺ - فقال (فتول عنهم) أي : أعرض عنهم ، فإن الإنذار لا يجدي فيهم ، ثم ذكر شيئاً من أحوال الآخر ، وما يؤولون إليه إذ ذاك متعلق باقتراب الساعة ، فقال (يوم يدع الداعي) والناصب لـ (يوم) اذكر مضمرة ، قاله الرماني أو (يخرجون) ، وقال الحسن : المعنى : فتول عنهم إلى يوم ، وهذا ضعيف من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى ، أما من جهة اللفظ فحذف إلى ، وأما من جهة المعنى فإن توليه عنهم ليس معيياً بـ (يوم يدع الداع) وجوزوا أن يكون منصوباً بقوله (فما تغني النذر) ويكون (فتول عنهم) اعتراضاً ، وأن يكون منصوباً بقوله (يقول الكافرون)

(١) المصادر السابقة .

(٢) انظر الوسيط ١٠٤ خ والبغوي ٢٥٨/٤ ومعاني القرآن للفراء ١٠٤/٣ .

(٣) المصادر السابقة .

(٤) المصادر السابقة .

(٥) المصادر السابقة .

ومنصوباً على إضمار انتظر ومنصوباً بقوله (فتول) وهذا ضعيف جداً ومنصوباً بـ (مستقر) وهو بعيد أيضاً ، وحذفت الواو من (يدع) في الرسم إتباعاً للنطق ، والياء من (الداع) تخفيفاً ، أجريت أل مجرى ما عاقبها وهو التنوين ، فكما تحذف معه حذفت معها والداع هو إسرافيل ، أو جبرائيل ، أو ملك غيرهما موكل بذلك أقوال ، وقرأ الجمهور (نُكِرَ) بضم الكاف ، وهو صفة على فعل وهو قليل في الصفات ، ومنه : رجل شُلُّ ، أي : خفيف في الحاجة ، وناقاة أجد ومشية سُجِحَ وروضة أُنفَ ، وقرأ الحسن وابن كثير وشبل بإسكان الكاف ، كما قالوا : شُغِلَ وشُغِلَ وعُسِرَ وعُسِرَ ، وقرأ مجاهد وأبو قلابة والجاحدري وزيد بن علي (نُكِرَ) فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول ، أي : جهل فنكر ، وقال الخليل : النكر نعت للأمر الشديد ، والوجل : الداهية أي : تنكره النفوس ، لأنها لم تعهد مثله ، وهو يوم القيامة ، قال مالك بن عوف النضري :

أَقْدِمَ مَحَاجٍ إِنَّهُ يَوْمٌ نُكِرَ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ يَحْمِي وَيَكُرُ^(١)

وقرأ قتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والجمهور (خشعاً) جمع تكسير ، وابن عباس وابن جبير ومجاهد والجاحدري وأبو عمرو وحزمة والكسائي (خاشعاً) بالإنفراد ، وقرأ أبي وابن مسعود (خاشعاً) وجمع التكسير أكثر في كلام العرب ، وقال الفراء وأبو عبيدة : كله جائز انتهى ، ومثال جمع التكسير قول الشاعر :

بِمُطَرِّدٍ لَدُنِّ صِحَاحٍ كُعُوبُهُ وَذِي رَوْتَقٍ عَضْبٍ يَقْدُ الْقَوَانِسَا^(٢)

ومثال الإفراد قوله :

وَرِجَالٍ حَسَنِ أَوْجُهُهُمْ مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ^(٣)

وقال آخر :

تَرْمِي الْفِجَاجَ بِهِ الرُّكْبَانُ مُعْتَرِضاً أَعْنَاقَ بَزْلَهَا مُرَخًى لَهَا الْجَدَلُ^(٤)

وانتصب (خشعاً) و (خاشعاً) و (خاشعاً) على الحال من ضمير (يخرجون) والعامل فيه (يخرجون) لأنه فعل متصرف ، وفي هذا دليل على بطلان مذهب الجرمي ، لأنه لا يجوز تقدم الحال على الفاعل ، وإن كان متصرفاً ، وقد قالت العرب : شتى تؤوب الحلبة ، فشتى حال ، وقد تقدمت على عاملها ، وهو تؤوب لأنه فعل متصرف وقال الشاعر :

سَرِيعاً يَهُونُ الصَّعْبُ عِنْدَ أُولَى النُّهَى إِذَا بِرَجَاءٍ صَادِقٍ قَابَلُوا الْبَاسَا^(٥)

فسريعاً حال ، وقد تقدمت على عاملها وهو يهون . وقيل : هو حال من الضمير المجرور في (عنهم) من قوله (فتول عنهم) ، وقيل : هو مفعول بـ (يدع) أي : قوماً خشعاً ، أو فريقاً خشعاً ، وفيه بعد ، ومن أفرد (خاشعاً) وذكر

(١) البيت من الرجز ذكره السمين في الدر المنصور .

(٢) البيت من الطويل لحسيل بن سجع الضبي ، انظر الحماسة لأبي تمام ٢٢٧/١ اللسان (قنس) شرح المفصل ١٠٧/٦ .

(٣) البيت من الرمل لأبي دؤاد الإيادي انظر اللسان (أيد) القرطبي ٨٥/١٧ روح المعاني ٨٠/٢٧ فتح القدير ١٢١/٥ . وهو في اللسان مختلف .

(٤) البيت من البسيط لقطامي ، انظر معاني الفراء ١٠٥/٣ الجمهرة ٦٤٩ .

(٥) البيت من الطويل لم نهند لقائله ، انظر روح المعاني ٨٠/٢٧ .

فعلى تقدير : تخشع أبصارهم ومن قرأ (خاشعة) وأنت فعلى تقدير : تخشع ، ومن قرأ (خشعاً) جمع تكسير فلأن الجمع موافق لما بعده وهو (أبصارهم) وموافق للضمير الذي هو صاحب الحال في (يخرجون) وهو نظير قولهم : مررت برجال كرام آبائهم ، وقال الزخشي : و (خشعاً) على يخشعون (أبصارهم) وهي لغة من يقول : أكلوني البراغيث ، وهم طمىء انتهى ، ولا يجري جمع التكثير مجرى جمع السلامة فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة وقد نصب سيبويه على أن جمع التكسير أكثر في كلام العرب ، فكيف يكون أكثر ويكون على تلك اللغة النادرة القليلة ، وكذا قال الفراء حين ذكر الأفراد مذكراً ومؤنثاً ، وجمع التكسير قال : لأن الصفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك ، والجمع موافق للفظها ، فكان أشبه انتهى . وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع مجموعاً بالواو والنون ، نحو : مررت بقوم كريمين آبائهم ، والزخشي قاس جمع التكسير على هذا الجمع السالم ، وهو قياس فاسد ، ويرده النقل عن العرب أن جمع التكسير أجود من الأفراد ، كما ذكرناه عن سيبويه ، وكما دل عليه كلام الفراء ، وجوز أن يكون في (خشعاً) ضمير ، و (أبصارهم) بدل منه ، وقرئ (خشع أبصارهم) وهي جملة في موضع الحال ، و (خشع) خبر مقدم ، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة ، وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح ، وكذلك أفعال النفس من ذلة وعزة ، وحياء وصلف وخوف ، وغير ذلك (كأنهم جراد منتشر) جملة حالية أيضاً ، شبههم بالجراد في الكثرة والتموج ، ويقال : جاؤوا كالجراد في الجيش الكثير التموج ، ويقال : كالذباب ، وجاء تشبيههم أيضاً بالفراش المبتوث ، وكل من الجراد والفراش في الخارجين يوم الحشر شبه منهما ، وقيل : يكونون أولاً كالفراش حين يوجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون ؟ لأن الفراش لا جهة له يقصدها ، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر والداعي ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، قال معناه مكي بن أبي طالب ، (مهطعين) قال أبو عبيدة : مسرعين ، ومنه قوله :

بِدِجْلَةٍ دَارَهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ بِدِجْلَةٍ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ^(١)

زاد غيره : مادي أعناقهم ، وزاد غيره : مع هز ورهق ومد بصر ، نحو المقصد ، إما لخوف أو طمع ونحوه . وقال قتادة : عامدين ، وقال الضحّاك ، مقبلين^(٢) وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت ، وقال ابن عباس : ناظرين ، ومنه قول الشاعر :

تَعْبِدُنِي نَمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى وَنَمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطَعٌ^(٣)

وقيل : خافضين ما بين أعينهم ، وقال سفيان : خاشعة أبصارهم إلى السماء (يوم عسر) لما يشاهدون من مخايل هوله ، وما يرتقبون من سوء منقلبهم فيه ، (كذبت قبلهم) أي : قبل قريش (قوم نوح) وفيه وعيد لقريش ، وضرب مثل لهم ، ومفعول (كذبت) محذوف ، أي : كذبت الرسل ، فكذبوا نوحاً - عليه السلام - لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً ، كذبوا نوحاً لأنه من جملة الرسل ، ويجوز أن يكون المحذوف نوحاً ، أول مجيئه إليهم فكذبوه تكذيباً يعقبه تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب ، وفي لفظ (عبدنا) تشريف وخصوصية بالعبودية ، كقوله تعالى ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال ٤١] ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ [الإسراء ١] (وقالوا مجنون) أي : هو مجنون لما رأوا الآيات الدالة على صدقه ، قالوا : هو مصاب الجن : لم يقنعوا بتكذيبه حتى نسبوه إلى الجنون ، أي :

(١) البيت من الوافر ليزيد بن مفرغ الحميري ، انظر اللسان (هطع) القرطبي ٨٥/١٧ فتح القدير ١٢٢/٥ .

(٢) انظر الوسيط ١٠٤ خ والبغوي ٢٦٠/٤

(٣) البيت من الطويل لتبع انظر اللسان (هطع) القرطبي ٨٥/١٧ الكشاف ٤٣٣/٤ روح المعاني ٨٧/٢٧ .

يقول ما لا يقبله عاقل ، وذلك مبالغة في تكذيبهم ، (وازدجر فدعا ربه أي مغلوب) ، الظاهر أن قوله (وازدجر) من إخبار الله تعالى أي : انتهره وزجروه بالسب والتخويف ، قاله ابن زيد ، وقرأ ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ [الشعراء ١١٦] قيل : والمعنى أنهم فعلوا به ما يوجب الانزجار من دعائهم ، حتى ترك دعوتهم إلى الإيمان ، وعدل إلى الدعاء عليهم ، وقال مجاهد (وازدجر) من غام قولهم أي : قالوا (وازدجر) أي : استطير جنوباً أي : ازدجرته الجن وذهبت بلبه وتخططه ، وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والأعمش وزيد بن عليّ ورويت عن عاصم (إني) بكسر الهمزة على إضمار القول على مذهب البصريين ، أو على إجراء الدعاء مجرى القول على مذهب الكوفيين ، وقرأ الجمهور بفتحها : أي : بأي مغلوب أي : غلبني قومي ، فلم يسمعوا مني ، ويشت من إجاباتهم لي (فانتصر) أي : فانتقم بعذاب تبعته عليهم ، وإنما دعا عليهم بعد ما يش منهم ، وتفاقم أمرهم ، وكان الواحد من قومه يخنقه إلى أن يخمر مغشياً عليه ، وقد كان يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، ومتعلق (فانتصر) محذوف ، وقيل : التقدير : فانتصر لي منهم بأن تهلكهم ، وقيل : فانتصر لنفسك ، إذ كذبوا رسولك ، فوقعت الإجابة ، وللمتصوفة قول في (مغلوب فانتصر) : حكاه ابن عطية يوقف عليه في كتابه ، (ففتحن) بيان أن الله تعالى انتصر منهم وانتقم ، قيل : ومن العجب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين ، فأهلكهم الله تعالى بمطلوبهم ، (أبواب السماء بماء) جعل الماء كأنه آلة يفتح بها ، كما تقول : فتحت الباب بالمفتاح ، وكان الماء جاء وفتح الباب ، فجعل المقصود وهو الماء مقدماً في الوجود على فتح الباب المغلق ، ويجوز أن تكون الباء للحال ، أي : ملتبسة بماء منهم ، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر والأعرج ويعقوب (ففتحن) مشدداً ، والجمهور مخففاً (أبواب السماء) هذا عند الجمهور مجاز وتشبيه ، لأن المطر كثرة ، كأنه نازل من أبواب ، كما تقول : فتحت أبواب القرب ، وجرت مزاريب السماء ، وقال عليّ وتبعه النقاش : يعني بالأبواب المجرة ، وهي سرعة السماء كسر العيبة ، وذهب قوم إلى أنها حقيقة فتحت في السماء أبواب جرى منها الماء ، ومثله مروى عن ابن عباس قال : أبواب السماء فتحت من غير سحاب لم تغلق أربعين يوماً ، قال السدي (منهم) أي : كثير ، قال الشاعر :

أَعَيْنِي جُودًا بِالدُّمُوعِ الْهَوَامِرِ عَلَى خَيْرِ بَادٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ^(١)

وقرأ الجمهور (وَفَجَّرْنَا) بتشديد الجيم ، وعبد الله وأصحابه وأبو حنيفة والمفضل عن عاصم بالتخفيف ، والمشهور أن العين لفظ مشترك ، والظاهر أنها حقيقة في العين الباصرة ، مجاز في غيرها ، وهو في غير الماء مجاز مشهور غالب ، وانتصب (عيوناً) على التمييز ، جعلت الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من وفجرنا عيون الأرض ، ومن منع مجيء التمييز من المفعول أعر به حالاً ، ويكون حالاً مقدرة ، وأعر به بعضهم مفعولاً ثانياً ، كأنه ضمن (وفجرنا) صيرنا بالتفجير الأرض عيوناً ، وقيل : وفجرت أربعين يوماً ، وقرأ الجمهور (فالتقى الماء) وهو اسم جنس ، والمعنى ، ماء السماء وماء الأرض ، وقرأ عليّ والحسن ومحمد بن كعب والجحدري (الماءان) ، وقرأ الحسن أيضاً (الماوان) ، وقال الزمخشري وقرأ الحسن (ماوان) بقلب الهمزة واوا كقولهم : علباوان انتهى . شبه الهمزة التي هي بدل من هاء في الماء بهمزة الإلحاق في علماً ، وعن الحسن أيضاً (المايان) بقلب الهمزة ياء ، وفي كلتا القراءتين شذوذ . (على أمر قد قدر) أي : على حالة ورتبة قد فصلت في الأزل . وقيل : على مقادير قد رتبت وقت التقائه فروي : أن ماء الأرض كان على سبعة عشر ذراعاً ، ونزل ماء السماء على تكملة أربعين ذراعاً ، وقيل : كان ماء الأرض أكثر ، وقيل : كانا متساويين ، نزل من السماء قدر ما خرج من الأرض ، وقيل : (على أمر قد قدر) في اللوح

أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح - عليه السلام - بالطوفان ، وهذا هو الراجح ولأن كل قصة ذكرت بعد هذه القصة ذكر الله هلاك مكذبي الرسل فيها ، فيكون هذا كناية عن هلاك قوم نوح ولذلك ذكر نجاته نوح بعدها في قوله (وحملناه على ذات ألواح ودسر) ، وقرأ أبو حيوة (قَدَّر) بشد الدال ، والجمهور بتخفيفها ، وذات الألواح والدسر : هي السفينة التي أنشأها نوح - عليه السلام - ويفهم من هذين الوصفين أنها السفينة ، فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه ، ونحوه : قميصي مسرودة من حديد ، أي : درع ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه ، ولو جمعت بين الصفة والموصوف فيه لم يكن بالفصيح والدسر المسامير قاله الجمهور ، وقال الحسن وابن عباس : مقادير السفينة ، لأنها تدرس الماء ، أي : تدفعه والدسر الدفع ، وقال مجاهد وغيره : بطن السفينة ، وعنه أيضاً : عوارض السفينة ، وعنه أيضاً : أضلاع السفينة تجري في ذلك الماء المتلقى بحفظ منا وكلاءة ، بحيث نجا من كان فيها وغرق غيرهم ، وقال مقاتل بن سليمان (بأعيننا) بوحينا ، وقيل : أمرنا ، وقيل : بأوليائنا ، يقال : فلان عين من عيون الله تعالى ، أي : ولي من أوليائه ، وقيل ، بأعين الماء التي أنبعناها ، وقيل : من حفظها من الملائكة سماهم أعياناً ، وقرأ زيد بن علي وأبو السمال (بأعيناً) بالإدغام ، والجمهور بالفك ، (جزاء) أي : مجازاة (لمن كان كفر) أي : لنوح - عليه السلام - إذ كان نعمة أهداها الله إلى قومه ، لأن يؤمنوا فكفروها ، المعنى : أنه حملة في السفينة ومن آمن معه كان جزاء له على صبره على قومه المئين من السنين ، و (مَنْ) كناية عن نوح ، قيل : يعني بمن كفر : لمن جحدت نبوته ، وقال ابن عباس ومجاهد : من يراد به الله تعالى ، كأنه قال : غضباً وانتصاراً لله تعالى ، أي : انتصر لنفسه ، فأغرق الكافرين ، وأنجى المؤمنين ، وهذان التأويلان في (مَنْ) على قراءة الجمهور (كَفَر) مبنياً للمفعول ، وقرأ مسلمة بن محارب بإسكان الفاء خفف فعل ، كما قال الشاعر :

لَوْ عَصَرْتَهُ الْبَّانُ وَالْمِسْكُ انْعَصَرَ^(١)

يريد : لو عصر ، وقرأ زيد بن رومان وقتادة وعيسى (كَفَر) مبنياً للفاعل ، فمن يراد به قوم نوح ، أي : إن ما نشأ من تفتيح أبواب السماء بالماء ، وتفجر عيون الأرض والتقاء المائين من غرق قوم نوح - عليه الصلاة والسلام - كان جزاء لهم على كفرهم ، و (كفر) خبر له (كان) ، وفي ذلك دليل على وقوع الماضي بغير قد خبراً لكان ، وهو مذهب البصريين ، وغيرهم يقول : لا بد من قد ظاهرة ، أو مقدرة على أنه يجوز أن كان هنا زائدة ، أي : لمن كفر ، والضمير في (تركناها) عائد على الفعلة والقصة ، وقال قتادة والنقاش وغيرهما : عائد على السفينة ، وأنه تعالى أبقى خشبها حتى رآه بعض أوائل هذه الأمة ، وقال قتادة : وكم من سفينة بعدها صارت رماداً ، وقرأ الجمهور (مذكر) بإدغام الذال في الدال المبدلة من تاء الافتعال ، وقتادة فيما نقل ابن عطية بالذال أدغمه بعد قلب الثاني إلى الأول ، وقال صاحب كتاب اللوامح : قتادة (فهل من مذكر) فاعل من التذكير ، أي : من يذكر نفسه أو غيره بما مضى من القصص انتهى . وقرئ (مدتكر) على الأصل ، (فكيف كان عذابي ونذر) تهويل لما حل بقوم نوح من العذاب ، وإعظام له إذ قد استأصل جميعهم وقطع دابرهم ، فلم ينسل منهم أحد ، أي : كيف كان عاقبة إنذاري ، والنذر جمع نذير ، وهو الإنذار ، وفيه توقيف لقريش على ما حل بالمكذبين أمثالهم ، و (كان) إن كانت ناقصة كانت (كيف) في موضع خبر

(١) عجز بيت من الرجز لأبي النجم ، انظر المنصف ١/ ١٢٤ الاقتضاب ٤٦٢ اللسان (عصر) .

كان ، وإن كانت تامة كانت في موضع نصب على الحال ، والاستفهام هنا لا يراد به حقيقته ، بل المعنى على التذكير بما حال بهم ، (ولقد يسرنا) أي : سهلنا (القرآن للذكر) أي : للإذكار والاعتاظ لما تضمنه من الوعد والوعيد ، (فهل من مدكر) قال ابن زيد : من متعظ ، وقال قتادة : فهل من طالب خير ، وقال محمد بن كعب : فهل من مزدجر عن المعاصي ، وقيل : (للذكر) للحفظ ، أي : سهلناه للحفظ ، لما اشتمل عليه من حسن النظم ، وسلامة اللفظ ، وعروه عن الحشو ، وشرف المعاني وصحتها ، فله تعلق بالقلوب ، (فهل من مدكر) أي : من طالب لحفظه ليعان عليه ، وتكون زواجه وعلومه حاضرة في النفس ، وقال ابن جبير : لم يستظهر شيء من الكتب الإلهية غير القرآن ، وقيل : (يسرنا) هيأنا (القرآن للذكر) كقولهم : يسر ناقته للسفر إذ أرحلها ، ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه ، قال الشاعر :

وَقُمْتُ إِلَيْهِ بِاللَّجَامِ مُيَسَّرًا هُنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ (١)

قوله عز وجل : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ، أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

تقدمت قصة عاد مطولة ومتوسطة ، وهنا ذكرها تعالى موجزة ، كما ذكر قصة نوح - عليه السلام - موجزة ، ولما لم يكن لقوم نوح علم ذكر قوم مضافاً الى نوح ، ولما كانت عاد علماء لقوم هود ذكر العلم ، لأنه أبلغ في الذكر من التعريف بالإضافة ، وتكرر التهويل بالاستفهام قبل ذكر ما حل بهم وبعده لغرابة ما عذبوا به من الريح وانفرادهم بهذا النوع من العذاب ، ولأن الاختصار داعية الاعتبار والتدبر ، والصرصر : الباردة ، قاله ابن عباس والضحاك وقاتة . وقيل : المصوتة ، والجمهور على إضافة (يوم) إلى (نحس) وسكون الحاء ، وقرأ الحسن بتنوين (يوم) وكسر الحاء جعله صفة لليوم ، كقوله تعالى : في أيام نحسات ، (مستمر) قال قتادة : استمر بهم حتى بلغهم جهنم (٢) ، وعن الحسن والضحاك : كان مرأ عليهم (٣) . وروي أنه كان يوم الأربعاء (٤) ، والذي يظهر أنه ليس يوماً معيناً ، بل أريد به الزمان والوقت ، كأنه قيل : في وقت نحس ، ويدل على ذلك أنه قال في سورة فصلت ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات ﴾ [فصلت ١٦] ، وقال في الحاقة ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ [الحاقة ٧] إلا أن يكون ابتداء الريح في يوم الأربعاء ، فعبر بوقت الابتداء وهو يوم الأربعاء . فيمكن الجمع بينها (تنزع الناس) يجوز أن يكون صفة للريح ، وأن يكون حالاً منها ، لأنها وصفت فقربت من المعرفة ، ويحتمل أن يكون (تنزع) مستأنفاً ، وجاء الظاهر

(١) البيت من الطويل للأعرج ، انظر ديوان الحامسة ١٣٧/١ الكشف ٤/٤٣٥ القرطبي ١٧/٨٧ .

(٢) انظر الوسيط ١٠٥ خ ومعاني القرآن للزجاج ٢٣٠ خ والبغوي ٤/٢٦١ .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

مكان المضمير ليشمل ذكورهم وإناثهم ، إذ لو عاد بضمير المذكورين لتوهم أنه خاص بهم ، أي : تقلعهم من أماكنهم ، قال مجاهد : يلقي الرجل على رأسه ، فتفتت رأسه وعنقه ، وما يلي ذلك من بدنه^(١) ، وقيل : كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض ، ويدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها ، فتزعهم ، وتندق رقابهم^(٢) ، والجملة التشبيهية حال من الناس ، وهي حال مقدرة . وقال الطبري : في الكلام حذف تقديره : فتركهم كأنهم أعجاز نخل ، فالكاف في موضع نصب بالمحذوف ، شبههم بأعجاز النخل المنقعر ، إذ تساقطوا على الأرض أمواتاً ، وهم جث عظام طوال ، والأعجاز الأصول بلا فروغ ، قد انقلعت من مغارسها ، وقيل : كانت الريح تقطع رؤوسهم ، فتبقى أجساداً بلا رؤوس ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها ، وقرأ أبو نهيك (أَعْجَزُ) على وزن أفعِل ، نحو : ضبع وأضبع ، والنخل اسم جنس يذكر ويؤنث ، وإنما ذُكر هنا لمناسبة الفواصل ، وأنت في قوله : ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ [الحاقة ٧] في الحاقة لمناسبة الفواصل أيضاً . وقرأ أبو السمال فيما ذكر الهذلي في كتابه الكامل ، وأبو عمرو الداني برفعها ف (أبشر) مبتدأ و (واحد) صفته والخبر (نتبعه) ونقل ابن خالويه وصاحب اللوامح وابن عطية رفع (أبشر) ونصب (واحداً) عن أبي السمال ، قال صاحب اللوامح : فأما رفع (أبشر) فبإضمار الخبر ، بتقدير : أبشر منا يبعث إلينا ، أو يرسل ، أو نحوهما . وأما انتصاب (واحداً) فعلى الحال ، إما مما قبله بتقدير : أبشر كائن منا في الحال نوحده ، وإما بما بعده بمعنى : (نتبعه) في توحده ، أو في حال انفرداه ، وقال ابن عطية : ورفعها إما على إضمار فعل مبني للمفعول التقدير : أينما بشر ، وإما على الابتداء والخبر في قوله (نتبعه) و (واحداً) على هذه القراءة حال ، إما من الضمير في (نتبعه) وإما من المقدر مع (منا) كأنه يقول : أبشر كائن منا واحداً ، وفي هذا نظر ، وقولهم ذلك حسد منهم واستبعاد أن يكون نوع البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل ، فقالوا : نكون جمعاً ، ونتبع واحداً ، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويفيض نور الهدى على من رضيه انتهى . وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً قلت : قالوا (أبشراً) إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية ، وطلبوا أن يكونوا من جنس أعلى من جنس البشر ، وهم الملائكة ، وقالوا (منا) لأنه إذا كان منهم كانت المائلة أقوى ، وقالوا (واحداً) إنكاراً لأن تتبع الأمة رجلاً واحداً ، وأرادوا واحداً من أبنائهم ليس بأشرفهم ولا أفضلهم ، ويدل عليه (ألقى الذكر عليه من بيننا) أي : أنزل عليه الوحي من بيننا وبيننا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة انتهى . وهو حسن على أن فيه تحميل اللفظ ما لا يحتمله (إنا إذا) أي : إن اتبعناه ، فنحن في ضلال أي : بعد عن الصواب وحيرة ، وقال الضحاك : في تيه ، وقال وهب : بعد عن الحق (وسُعر) أي : عذاب قاله ابن عباس ، وعنه : وجنون يقال : ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها ، كأنها مجنونة وقال الشاعر :

كَأَنَّ بِهَا سُعُراً إِذَا الْعَيْسُ هَزَّهَا رَمِيلٌ وَإِرْجَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتَعِبٌ^(٣)

وقال قتادة (وسعر) عناء . وقال ابن بحر : (وسعر) جمع سعي ، وهو وقود النار أي : في خطر كمن هو في النار انتهى . وروي : أنه كان يقول لهم إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق (وسعر) أي : نيران فعكسوا عليه ، فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول ، ثم زادوا في الإنكار والاستبعاد ، فقالوا (ألقى) أي : أنزل ، قيل : وكأنه يتضمن العجلة في الفعل ، والعرب تستعمل هذا الفعل ، ومنه (وألقيت عليك محبة مني) (إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً) والذكر هنا الوحي والرسالة ، وما جاءهم من الحكمة والموعظة ، ثم قالوا ليس الأمر كما تزعم ، بل هو القرآن ، (أشر) أي : بطر

(١) انظر المصادر السابقة .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) البيت من الطويل لم نهند لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧/ ٨٨ القرطبي ١٧/ ٩٠ فتح القدير ١٢٣/ ٥ .

يريد العلو علينا ، وأن يقتادنا ويتملك طاعتنا . وقرأ قتادة وأبو قلابه (بل هو الكذاب الأشر) بلام التعريف فيها وافتتح الشين ، وشد الراء وكذا الأشر الحرف الثاني ، وقرأ الحرف الثاني مجاهد فيما ذكر صاحب اللوامح وأبو قيس الأودي (الأشر) بثلاث ضمات وتخفيف الراء ، ويقال : أشر وأشر ، كحذر وحذر فضمة الشين لغة ، وضم الهمزة تبع لضممة الشين ، وحكى الكسائي عن مجاهد ضم الشين . وقرأ أبو حيوه هذا الحرف الآخر (الأشر) أفعل تفضيل ، وإتمام خير وشر في أفعل التفضيل قليل . وحكى ابن الأنباري : أن العرب تقول : هو أخير وهو أشر قال الراجز :

بلال خير الناس وابن الأخير

وقال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأخير والأشر إلا في ضرورة الشعر ، وأنشد قول رؤبة بلال البيت ، وقرأ على الجمهور (سَيَعْلَمُونَ) بياء الغيبة ، وهو من إعلام الله تعالى لصالح - عليه السلام - وابن عامر وحمة وطلحة وابن وثاب والأعمش بناء الخطاب أي : قل لهم يا صالح وعداً يراد به الزمان المستقبل لا اليوم الذي يلي يوم خطابهم ، فاحتمل أن يكون يوم العذاب الحال بهم في الدنيا ، وأن يكون يوم القيامة ، وقال الطرماح :

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ نَوْحِ النَّوَائِحِ وَقَبْلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي فِي غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ (١)

أراد وقت الموت ولم يرد غداً بعينه ، وفي قوله (سيعلمون غداً) تهديد ووعيد ببيان انكشاف الأمر ، والمعنى : أنهم هم الكذابون الأشرون ، وأورد ذلك مورد الإبهام والاحتمال ، وإن كانوا هم المعنيين بقوله تعالى حكاية عن قول نوح - عليه الصلاة والسلام - ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ [الزمر ٣٩ ، ٤٠] والمعنى به قومه ، وكذا قول شعيب - عليه السلام - ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ [هود ٩٣] وقول الشاعر :

فَلَيْتَ لِقَيْتِكَ خَالِيَيْنِ لَتَعْلَمَنَّ أَيُّيَ وَأَيُّكَ فَارِسَ الْأَحْزَابِ (٢)

وإنما عني أنه فارس الأحزاب ، لا الذي خاطبه ، (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم) أي : ابتلاء واختياراً وأنس بذلك صالحاً ، ولما هددهم بقوله (سيعلمون غداً) وكانوا قد ادعوا أنه كاذب ، قالوا : ما الدليل على صدقك قال الله تعالى (إنا مرسلوا الناقة) أي : مخرجوها من الهضبة التي سألوها . فارتقبهم أي فانتظرهم وتبصر ما هم فاعلون واصطبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتي أمر الله ، (ونبتهم أن الماء) أي : ماء البئر الذي لهم (قسمة بينهم) أي : بين ثمود وبين الناقة غلب ثمود ، فالضمير في (بينهم) لهم وللناقة أي : لهم شرب يوم وللناقة شرب يوم ، وقرأ الجمهور (قِسْمَةً) بكسر القاف ، ومعاذ عن أبي عمرو بفتحها (كل شرب محتضر) أي : محذور لهم وللناقة ، وتقدمت قصة الناقة مستوفاة فأعنى عن إعادتها ، وهنا محذوف أي : فكانوا على هذه الوتيرة من قسمة الماء ، فملوا ذلك وعزموا على عقر الناقة ، (فنادوا صاحبهم) وهو قدار بن سالف فتعاطى هو مطاوع عطى ، وكان هذه الفعل تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده ، ولما (كانوا) راضين نسب ذلك إليهم في قوله (فعقروا الناقة) وفي قوله (فكذبوه فعقروها) والصيحة التي أرسلت عليهم (٣) . يروى أن جبريل - عليه السلام - صاح في طرف منازلهم ، ففتفتوا وهمدوا

(١) البيتان من الطويل لأبي الطمحان القيني ، انظر ديوان الحماسة ٧٧/٢ فتح القدير ١٢٦/٥ القرطبي ٩١/١٧ روح المعاني ٨٨/٢٧ .

(٢) انظر البيت في روح المعاني ٨٩/٢٧ .

(٣) انظر البغوي ٢٦٢/٤ والوسيط ١٠٥ خ .

وصاروا كهشيم المحتظر^(١) ، وهو ما تفتت وتهضم من الشجر والمحتظر الذي يعمل الحظيرة ، فإنه تفتت منه حالة العمل وتتساقط أجزاء مما يعمل به ، أو يكون الهشيم ما ييس من الحظيرة بطول الزمان ، تطأه البهائم فيتهشم ، وقرأ الجمهور بكسر الظاء ، وأبو حيوة وأبو السمال وأبورجاء وأبو عمرو بن عبيد بفتحها ، وهو موضع الاحتظار ، وقيل : هو مصدر : أي : كهشيم الاحتظار ، وهو ما تفتت حالة الاحتظار ، والحظيرة : تصنعها العرب وأهل البوادي للمواشي والسكنى من الأغصان والشجر المورق ، والقصب والحظر المنع وعن ابن عباس وقتادة : أن المحتظر هو المحترق . قال قتادة : كهشيم محترق ، وعن ابن جبير : هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي . وقيل : المحتظر بفتح الظاء هو الهشيم نفسه ، فيكون من إضافة الموصوف إلى صفته ، كمسجد الجامع على من تأوله كذلك ، وكان هنا قيل : بمعنى صار ، قوله عز وجل .

﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ * إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتمأروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر * فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر * إن المجرمين في ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر * ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مدكر * وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر * إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ تقدمت قصة لوط - عليه السلام - وقومه والحاصب من الحصباء ، وهو المعنى بقوله تعالى : (وأرسلنا عليهم حجارة من سجيل إلا آل لوط) ، قيل : إلا ابتناه و (بسحر) هو بكرة ، فلذلك صرف ، وانتصب (نعمة) على أنه مفعول من أجله ، أي : نجيناهم لإنعامنا عليهم ، أو على المصدر ، لأن المعنى : أنعمنا بالنتيجة إنعاماً ، (كذلك نجزي) أي : مثل ذلك الإنعام والنتيجة (نجزي من شكر) إنعامنا وأطاع وآمن ، (ولقد أنذرهم بطشتنا) أي : أخذناهم بالعذاب (فتمأروا) أي : تشككوا وتعاطوا ذلك بالنذر أي : بالإلذار ، أو يكون جمع نذير ، (فطمسنا) قال قتادة : الطمس حقيقة جر جبريل - عليه السلام - على أعينهم جناحه ، فاستوت مع وجوههم ، وقال أبو عبيدة : مطموسة بجلد كالوجه . قيل : لما صفقه جبريل - عليه السلام - بجناحه تركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب ، حتى أخرجهم لوط - عليه السلام - ، وقال ابن عباس والضحاك : هذه استعارة ، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ، ولم يروا شيئاً ، فجعل ذلك كالطمس ، وقرأ الجمهور (فَطْمَسْنَا) بتخفيف الميم وابن مقسم بتشديدها ، فذوقوا أي فقلت لهم على ألسنة الملائكة ذوقوا (ولقد صبحهم بكرة) أي أول النهار وباركه لقوله ﴿ مشرقين ﴾ [الحجر ٧٣] ﴿ ومصبحين ﴾ [الحجر ٨٣] ، وقرأ الجمهور (بكرة) بالتنوين ، أراد بكرة من البكر فصرف ، وقرأ زيد بن علي بغير تنوين (عذاب مستقر) أي : لم يكشفه عنهم كاشف ، بل اتصل بموتهم ، ثم بما بعد ذلك من عذاب القبر ، ثم عذاب جهنم (فذوقوا عذابي ونذر) تأكيد وتوبيخ ذلك عند الطمس ، وهذا عند تصحيح العذاب ، وقيل : وفائدة تكرار هذا وتكرار (ولقد يسرنا) التجرد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين للاتعاظ ، واستثفاف التيقظ إذا سمعوا الحث على ذلك ، لثلاث استولي عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير لقوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن ١٦] عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن ، وقوله (ويل يومئذ للمكذبين) [المرسلات ١٥] عند كل آية أوردها في سورة (والمرسلات) وكذلك تكرير القصص في أنفسها ، لتكون العبرة حاضرة للقلوب ، مذكورة في كل أوان ، (ولقد جاء آل فرعون النذر) هم موسى

وهارون وغيرهما من الأنبياء ، لأنها عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون ، أو يكون جمع نذير المصدر بمعنى : الإنذار ، (كذبوا بآياتنا) هي التسع ، والتوكيد هنا كهو في قوله ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ [طه ٥٦] والظاهر أن الضمير في (كذبوا) وفي (فأخذناهم) عائد على آل فرعون ، وقيل : هو عائد على جميع من تقدم من الأمم ذكره ، وتم الكلام عند قوله (النذر) (فأخذناهم أخذ عزيز) لا يغالب (مقتدر) لا يعجزه شيء . (أكفاركم) خطاب لأهل مكة (خير من أولئكم) الإشارة إلى قوم نوح وهود وصالح ولوط ، وإلى فرعون والمعنى : أهم خير في القوة وآلات الحروب والمكانة في الدنيا ، أو أقل كفواً وعناداً ، فلأجل كونهم خيراً لا يعاقبون على الكفر بالله ، وقفهم على توبيخهم أي : ليس كفاركم خيراً من أولئكم ، بل هم مثلهم أو شرّ منهم ، وقد علمتم ما لحق أولئك من الهلاك المستأصل لما كذبوا الرسل ، (أم لكم براءة في الزبر) أي : ألكم في الكتب الإلهية براءة من عذاب الله تعالى ، قاله الضحّاك وعكرمة وابن زيد ، (أم يقولون نحن جميع) أي : واثقون بجماعتنا منتصرون بقوتنا لا تقولون ذلك على سبيل الإعجاب بأنفسكم ، وقرأ الجمهور (أم يقولون) بياء الغيبة التفاتاً ، وكذا ما بعده للغائب ، وقرأ أبو حنيفة وموسى الأسواري وأبو البرهسم : بقاء الخطاب للكفار إتباعاً لما تقدم من خطابهم ، وقرأوا (سَتَهْزِمُ الْجَمْعُ) بفتح التاء وكسر الزاي وفتح العين خطاباً للرسول - ﷺ - ، وأبو حنيفة أيضاً ، ويعقوب بالنون مفتوحة وكسر الزاي وفتح العين ، والجمهور بالياء مبنياً للمفعول وضم العين . وعن أبي حنيفة وابن أبي عبله أيضاً بفتح الياء مبنياً للفاعل ونصب العين أي : سيهزم الله الجمع ، والجمهور (ويولون) بياء الغيبة ، وأبو حنيفة وداد بن أبي سالم عن أبي عمرو بقاء الخطاب ، و (الدبر) هنا اسم جنس ، وجاء في موضع آخر ﴿ ليولن الأدبار ﴾ [الحشر ١٢] وهو الأصل ، وحسن اسم الجنس هنا كونه فاصلة ، وقال الزمخشري (ويولون الدبر) أي : الأدبار كما قال : كلوا في بعض بطنكم تعفوا . وقرئ (الأدبار) انتهى . وليس مثل بطنكم ، لأن مجيء الدبر مفرداً ليس بحسن ، ولا يحسن لإفراد بطنكم ، وفي قوله تعالى (سيهزم الجمع) عدة من الله تعالى لرسوله - ﷺ - بهزيمة جمع قريش ، والجمهور على أنها مكية ، وتلاها رسول الله - ﷺ - مستشهداً بها ، وقيل : نزلت يوم بدر (بل الساعة موعدهم) انتقل من تلك الأقوال إلى أمر الساعة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقتال ، (والساعة أدهى) أي : أظع وأشد ، والداهية : الأمر المنكر الذي لا يهتدى لدفعه ، وهي الرزية (العظمى) تحمل بالشخص ، (وأمر) من المارة ، استعارة لصعوبة الشيء على النفس ، (إن المجرمين في ضلال) أي : في حيرة وتخطب في الدنيا ، (وسعر) أي : احتراق في الآخرة ، جعلوا فيه من حيث مصيرهم إليه . وقال ابن عباس : وخسران وجنون ، والسعر ، الجنون ، وتقدم مثله في قصة صالح - عليه السلام - (يوم يسحبون) يجرّون في النار ، وفي قراءة عبد الله (إلى النار) ، (على وجوههم ذوقوا) أي : مقولاً لهم (ذوقوا مس سقر) ، وقرأ محبوب عن أبي عمرو (مَسْقَرٌ) بإدغام السين في السين ، قال ابن مجاهد : إدغامه خطأ ، لأنه مشدد انتهى . والظن بأبي عمرو أنه لم يدغم حتى حذف إحدى السينين ، لاجتماع الأمثال ، ثم أدغم . (إنا كل شيء خلقناه بقدر) قراءة الجمهور (كل شيء) بالنصب . وقرأ أبو السمال قال ابن عطية : وقوم من أهل السنة بالرفع ، قال أبو الفتح : هو الوجه في العربية ، وقراءتنا بالنصب مع الجماعة ، وقال قوم : إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف ، وأن ما بعده يصلح للخبر ، وكان المعنى على أن يكون الفعل هو الخبر اختير النصب في الاسم الأول ، حتى يتضح أن الفعل ليس بوصف ، ومنه هذا الموضع ^(١) ، لأن في قراءة الرفع يتخيل أن الفعل وصف ، وأن الخبر يقدر ، فقد

(١) يقصد أبو حيان - رحمه الله - أن جماعة من النحاة عللوا ترجيح النصب هذا ، وفي مثله بأنه إذا كان الفعل يتوهم فيه الوصف للاسم السابقة مع الرفع ، وكان الوصل عملاً بالمقصود ترجح النصب نحو : كل مملوك من مملوكي اشتريته بعشرين دينار ، إذا قصد أن كل واحد منهم يشتري بعشرين فنصب (كل) في هذا المعنى ، لأن التقدير - حينئذ - اشتريت كل مملوك من مملوكي بعشرين ، وإن رفعنا (كلا) احتمل أن يكون (اشتريته) خبراً له و (بعشرين) متعلقاً بالخبر ، فيكون المعنى كل واحد منهم يشتري بعشرين ، وهذا هو المقصود ، واحتمل أن =

تنزع أهل السنة والقدرية الاستدلال بهذه الآية ، فأهل السنة يقولون : كل شيء فهو مخلوق لله تعالى بقدره ، دليله قراءة النصب ، لأنه لا يفسر في مثل هذا التركيب إلا ما يصح أن يكون خبراً لو وقع الأول على الابتداء ، وقالت القدرية : القراءة برفع (كل) و (خلقناه) في موضع الصفة لـ (كل) أي : إن أمرنا أو شأننا كل شيء خلقناه ، فهو بقدر : أو بمقدار على حد ما في هيئته وزمنه ، وغير ذلك . وقال الزمخشري (كل شيء) منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر ، وقرأ (كل شيء) بالرفع ، والقدر والقدر : هو التقدير ، وقرأ بهما ، أي : خلقنا كل شيء مقدراً ، محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه انتهى . قيل : والقدر : فيه وجوه ، أحدها : أن يكون بمعنى المقدار في ذاته وصفاته ، والثاني : التقدير قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ [المرسلات ٢٣] وقال الشاعر :

وَمَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَا هُوَ قَادِرٌ^(١)

أي : ما هو مقدور ، والثالث : القدر الذي يقال مع القضاء ، يقال : كان ذلك بقضاء الله وقدره ، والمعنى : إن القضاء ما في العلم والقدر ما في الإرادة ، فالمعنى : في الآية (خلقناه بقدر) أي : بقدرته مع إرادة انتهى . (وما أمرنا إلا واحدة) أي : إلا كلمة واحدة ، وهي كن . (كلمح بالبصر) تشبيه بأعجل ما يحس ، وفي أشياء أمر الله تعالى أوحى من ذلك ، والمعنى : أنه إذا أراد تكوين شيء لم يتأخر عن إرادته ، (ولقد أهلكنا أشياعكم) أي : الفرق المتشايعة في مذهب ودين . (وكل شيء فعلوه) أي : فعلته الأمم المكذبة محفوظ عليهم إلى يوم القيامة . قاله ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد . ومعنى (في الزبر) . في دواوين الحفظة ، (وكل صغير وكبير) من الأعمال ، ومن كل ما هو كائن (مستطر) أي : مسطور في اللوح يقال : سطرت واستطرت بمعنى . وقرأ الأعمش وعمران بن حدير وعصمة عن أبي بكر بشدراء (مستطر) ، قال صاحب اللوامح : يجوز أن يكون من طرّ النبات والشارب إذا ظهر وثبت ، بمعنى : كل شيء ظاهر في اللوح مثبت فيه ، ويجوز أن يكون من الاستطار لكن شدد الراء للوقف على لغة من يقول : جعفر ونفعل بالتشديد وقفاً انتهى . ووزنه على التوجيه الأول استفعل ، وعلى الثاني افتعل ، وقرأ الجمهور (ونهر) على الأفراد ، والهاء مفتوحة ، والأعرج ومجاهد وحيد وأبو السمال والفياض بن غزوان بسكونها ، والمراد به الجنس إن أريد به الأنهار ، أو يكون معنى (ونهر) وسعة في الأرزاق والمنازل ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا^(٢)

أي : أوسعت فتقها ، وقرأ زهير العرقبي والأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز والليثاني بضم النون والهاء جمع نهر كرهن ورهن ، أو (نهر) كأسد وأسد ، وهو مناسب لجمع جنات ، وقيل (نهر) جمع نهار ، ولا ليل في الجنة وهو بعيد ، (في مقعد صدق) يجوز أن يكون ضد الكذب ، أي : في المقعد الذي صدقوا في الخبر به ، وأن يكون من قولك : رجل صدق ، أي : خير وجود وصلاح ، وقرأ الجمهور (في مقعد) على الأفراد يراد به اسم الجنس ، وعثمان البتي (في مقاعد) على الجمع ، و (عند) تدل على قرب المكانة من الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

= يكون (اشترته) صفة (لكل مملوك) و (بعشرين) هو الخبر ، فيكون المعنى : كل من اشترته من المالك فهو بعشرين ، وليس هو المعنى

المقصود ، انظر تفصيل ذلك في شرح الكافية للرضي ١٧٤/٣ - ١٧٥ والتصريح ٣٠٢/١ .

(١) عجز بيت من الطويل لإياس بن مالك انظر ديوان الحماسة ٢٤١/١ اللسان (قدر).

(٢) تقدم .

سورة الرحمن مكية وهي ثمان وسبعون آية بسم الله الرحمن الرحيم

الرَّحْمَنُ ١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَكِكُهُ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
الْأَكْمَامِ ١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ١٢ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
صَلَصَلٍ كَالْفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ١٥ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ
الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ١٧ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ٢٠
فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ٢٢ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣ وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٢٤ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ
وَالْإِكْرَامِ ٢٧ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ٢٩ فَيَايَ الْآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ٣١ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٢ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ
اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ٣٣ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ٣٥ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦ فَإِذَا انشَقَّتِ
السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ٣٧ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٨ فَيَوْمَذٍ لَا يَنْصُرُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ
٣٩ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٠ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ٤١ فَيَايَ الْآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ٤٤ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٤٥ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ ٤٦ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ٤٨ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ٥٠ فَيَايَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ٥٢ فَيَايَ الْآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَرْبِقٍ وَحَنِ الْجَنَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾
 فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئْنَنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
 وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٦٨﴾
 فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي
 الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئْنَنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾
 مُتَكِبِينَ عَلَى رَقَرٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَانِ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ
 وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

النجم : النبات الذي لا ساق له ، من نجم أي : ظهر وطلع ، الأنام : الحيوان ، العصف : ورق الزرع .
 الريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، المرجان : الخرز الأحمر ، وقيل : صغار الدر ، واللؤلؤ كباره ، واللؤلؤ بناء
 غريب ، قيل : لا يحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة : اللؤلؤ والجوؤ . والدودؤ . واليؤؤ طائر ، والبؤؤ ،
 والنفؤ : الخروج من الشيء بسرعة . الشواظ : اللهب الخالص بغير دخان ، وقال حسان :

هَجَوْتُكَ فَاخْتَضَعْتَ لَهَا بِذُلٍّ بِقَافِيَةٍ تَأْجُجُ كَالشَّوَاطِ (١)

وقال رؤبة :

وَنَارُ حَرْبٍ تُسَعِّرُ الشَّوَاطِ

وتضم شينه وتكسر . النحاس : قال الخليل ، والنحاس : هو الدخان الذي لا لهب له ، وهو معروف في كلام
 العرب ، قال نابغة بني جعدة :

تُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيطِ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نَحَاسًا (٢)

وقال الكسائي : النحاس هو النار الذي له ريح شديد ، وقيل : الصفر المذاب ، وتضم نونه وتكسر الوردية :
 الشديدة الحمرة ، يتان : فرد ورد وحجرة وردة ، الدهان : الجلد الأحمر ، أنشد القاضي منذر بن سعد رحمه الله :

تَبَعْنَ الدَّهَانَ الْحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّةٍ بِمَوْسِمِ بَدْرِ أَوْ بِسُوقِ عَكَاظِ (٣)

(١) البيت من الوافر ، انظر شرح الديوان ٢٩٨ روح المعاني ١٩٢/٢٧ القرطبي ١١٢/١٧ .

(٢) البيت من مجزوء الوافر ، انظر ديوانه ٨١ غريب ابن قتيبة ٤٣٨ مجاز القرآن ٢/٢٤٥ . الاقتضاب ٤٠٧ معاني الفراء ٣/١٣٧ . الكشف

٤٤٩/٤ روح المعاني ١١٣/٢٧ القرطبي ١١٢/١٧ .

(٣) البيت من الوافر لمندرجين سعيد ، انظر روح المعاني ١١٤/٢٧ .

الناصية : مقدم الرأس ، آن : نهاية في الحر ، الأفنان : جمع فنن ، وهو الغصن ، أو جمع فن وهو النوع ، قال الشاعر :

وَمِنْ كُلِّ أَفْنَانٍ اللَّذَاذَةُ وَالصَّبِي
لَهَوْتُ بِهِ وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ نَاصِرٌ^(١)

وقال نابغة بني ذبيان :

بُكَاءُ حَمَامَةٍ تَدْعُو هَدِيلاً
مُفَجَّعَةً عَلَى فَنَنِ تُغْنِي^(٢)

الجنى : ما يقطف من الثمرة ، وهو فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى مقبوض ، (قاصرات الطرف) : قصرت الحافظهن على أزواجهن ، قال الشاعر :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرَفِ لَوْ دَبَّ مَحُولُ
مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْأَثْبِ مِنْهَا لَأَثَرًا^(٣)

الطمث : دم الحيز ، ودم الافتضاخ . الياقوت : حجر معروف ، وقيل : لا تؤثر فيه النار ، قال الشاعر :

وَطَالَمَا أَصْلَبِي الْيَاقُوتُ جَمْرَ غَضِي
ثُمَّ انْطَفَى الْجَمْرُ وَالْيَاقُوتُ يَاقُوتُ^(٤)

الادهمام : السواد ، النضخ : فوران الماء ، المقصورة : المحبوسة ، ويقال : قصيرة وقصورة أي : مخدرة وقال كثير :

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَبْتُ كُلَّ قَصِيرَةٍ
عَنِتُّ قَصِيرَاتِ الْجَحَالِ وَلَمْ أُرِدْ
إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرْ بِذَاكَ الْقَصَائِرُ
قَصَارَ الْخَطَا شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَائِرُ^(٥)

الخيمة معروفة ، وهي بيت المرتحل من خشب وتما ، وسائر الحشيش ، وإذا كان من شعر فهو بيت ، ولا يقال له : خيمة ، ويجمع على خيام وخيم ، قال جرير :

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ
سُقِيتِ الْغَيْثَ أَيُّهَا الْخِيَامُ^(٦)

الررف : ما يدلى من الأسرة من غالي الثياب ، وقال الجوهري : ثياب خضر ، تتخذ منها المجالس الواحدة رفرقة ، واشتقاقه من رف إذا ارتفع ، ومنه : رفرقة الطائر لتحريك جناحيه وارتفاعه في الهواء ، وسمي الطائر رفرافاً ، وررفرف جناحيه حركهما ليقع على الشيء ، وررفرف السحاب : هدهبه ، العبقري : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه بلد الجن ، فينسبون إليه كل شيء عجيب ، قال زهير :

(١) البيت من الطويل لم نهند لقائله ، انظر الكشف ٤/ ٤٥٢ روح المعاني ٢٧/ ١١٧ .

(٢) البيت من الوافر انظر ديوان نابغة (١٢٢) فتح القدير ٥/ ١٤٠ .

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الوافر لم نهند لقائله ، ذكره السمين الحلبي .

(٥) البيتان من الطويل لكثير عزة . اللسان (قصر) .

(٦) البيت من الوافر ، انظر ديوان ١/ ٢٧٨ .

بَخِيلٍ عَلَيْهَا جَنَّةٌ مِّمَّنْ جَنَّاتِ الْجَنَّةِ ۚ يَدْخُلُونَهَا مِنْ مَخَرَجٍ مُخْتَلَفٍ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾

وقال امرؤ القيس :

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوَحِينَ يَشُدُّهُ
صَلِيلَ زُيُوفٍ يُتَّقَدْنَ بِعَبَقَرَا (٢)

وقال ذو الرمة :

حَيٌّ كَأَنَّ رِيَاضَ الْعَفِّ أَلْبَسَهَا
مِنْ وَشْيٍ عَبَقَرَ تَحْلِيلٌ وَتَنْجِيدٌ (٣)

وقال الخليل : العبقرى كل جليل نفيس من الرجال والنساء وغيرهم . الجلال : العظمة . قال الشاعر :

خَبِرْتُ مَا قَدْ جَاءَنَا مُسْتَعْمِلٌ
جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ

﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطفوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * الحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * رب المشرقين ورب المغربين * فبأي آلاء ربكما تكذبان * مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منها اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، مدنية في قول ابن مسعود ، وعن ابن عباس : القولان وعنه : سوى آية هي مدنية ، وهي (يسأله من في السموات والأرض) الآية * وسبب نزولها فيما قال مقاتل : أنه لما نزل ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن ﴾ [الفرقان ٦٠] الآية قالوا : ما نعرف الرحمن ، فنزلت (الرحمن علم القرآن) (٤) ، وقيل : لما قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ [النحل ١٠٣] ، أكد بهم الله تعالى ، وقال (الرحمن علم القرآن) (٥) ، وقيل : مدنية ، نزلت إذ أبى سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أنه لما ذكر مقر المتقين ، في جنات ونهر ، عند ملك مقتدر ، ذكر شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة ، ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب ، إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز ، ولما ذكر قوله (عند ملك مقتدر) فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير ، فكأنه قيل : من المتصف بذلك ؟ فقال (الرحمن علم القرآن) فذكر ما نشأ عن صفة الرحمة ، وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب . والظاهر أن (الرحمن) مرفوع على الابتداء . و (علم القرآن) خبره ، وقيل (الرحمن) آية بمضمرة أي : الله الرحمن ، أو الرحمن ربنا ، وذلك آية ، و (علم القرآن) استئناف إخبار ، ولما عدّد نعمه تعالى بدأ من نعمه بما هو أعلى رتبها ، وهو تعليم القرآن ، إذ هو عماد الدين ونجاة من استمسك به ، ولما ذكر تعليم القرآن

(١) انظر ديوان زهير (٨٤) القرطبي ١٧/ ١٢٥ .

(٢) انظر ديوان امرئ القيس (٦٣) .

(٣) انظر القرطبي ١٧/ ١٢٥ .

(٤) انظر البغوي ٤/ ٢٦٦ .

(٥) انظر البغوي ٤/ ٢٦٦ .

ولم يذكر المعلم ذكره بعد في قوله (خلق الإنسان) ليعلم أنه المقصود بالتعليم ، ولما كان خلقه من أجل الدين وتعليمه القرآن كان كالسبب في خلقه ، تقدّم على خلقه ، ثم ذكر تعالى الوصف الذي يتميز به الإنسان من المنطق المفصح عن الضمير ، والذي به يمكن قبول التعليم وهو البيان ، ألا ترى أن الأخرس لا يمكن أن يتعلم شيئاً مما يدرك بالناطق ، و (علم) متعدية إلى اثنين ، حذف أولهما للدلالة المعنى عليه وهو جبريل ، أو محمد - عليهما الصلاة والسلام - ، أو الإنسان أقوال . وتوهم أبو عبد الله الرازي أن المحذوف هو المفعول الثاني . قال : فإن قيل : لم ترك المفعول الثاني . وأجاب بأن النعمة في التعليم ، لا في تعليم شخص دون شخص ، كما يقال : فلان يطعم الطعام إشارة إلى كرمه ، ولا يبين من يطعمه انتهى ، والمفعول الأول هو الذي كان فاعلاً قبل النقل بالتضعيف ، أو الهزمة في (علم) وأطعم وأبعد من ذهب إلى أن معنى (علم القرآن) جعله علامة وآية يعتبر بها ، وهذه جمل مترادفة . أخبار كلها عن الرحمن ، جعلت مستقلة لم تعطف ، إذ هي تعدد لنعمه تعالى ، كما تقول : زيد أحسن إليك خولك ، أشار بذرك و (الإنسان) اسم جنس ، وقال قتادة : (الإنسان) آدم - عليه السلام ^(١) . وقال ابن كيسان : محمد - ﷺ - ، وقال ابن زيد والجمهور البيان المنطق ، والفهم الإبانة ، وهو الذي فضل به الإنسان على سائر الحيوان ^(٢) ، وقال قتادة : هو بيان الحلال والشرائع ، وهذا جزء من البيان العام ، وقال محمد بن كعب : ما يقول ، وما يقال له ، وقال الضحّاك : الخير والشر ، وقال ابن جريج : الهدى ، وقال يمان : الكتابة ، ومن قال : الإنسان آدم ، فالبيان أسماء كل شيء ، أو التكلم بلغات كثيرة أفضلها العربية ، أو الكلام بعد أن خلقه ، أو علم الدنيا والآخرة ، أو الاسم الأعظم الذي علم به كل شيء أقوال ، آخرها منسوب لجعفر الصادق ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به على الإنسان من تعليمه البيان ذكر ما امتن به من وجود الشمس والقمر ، وما فيهما من المنافع العظيمة للإنسان ، إذ هما يجريان على حساب معلوم ، وتقدير سوي في بروجها ومنازلها ، والحسبان : مصدر كالغفران ، وهو بمعنى الحساب قاله قتادة ، وقال الضحّاك وأبو عبيدة : جمع حساب ، كشهاب وشهبان ، قال ابن عباس وأبو مالك وقاتدة : لهما في طلوعهما وغروبهما ، وقطعتهما البروج ، وغير ذلك حسابات شتى ، وقال ابن زيد : لولا الليل والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً ، يريد من مقادير الزمان ، وقال مجاهد : الحسبان الفلك المستدير ، شبهه بحسبان الرحى ، وهو العود المستدير الذي باستدارته تستدير المطحنة ، وارتفع الشمس على الابتداء ، وخبره (بحسبان) فأما على حذف ، أي : جرى الشمس والقمر كائن (بحسبان) ، وقيل : الخبر محذوف ، أي : يجريان بحسبان ، و (بحسبان) متعلق بيجريان ، وعلى قول مجاهد تكون الباء في (بحسبان) ظرفية ، لأن الحسبان عنده الفلك ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به من منفعة الشمس والقمر ، وكان ذلك من الآيات العلوية ذكر في مقابلتهما من الآثار السفلية النجم ، والشجر ، إذ كانا رزقاً للإنسان ، وأخبر أنها جريان على ما أراد الله بهما من تسخيرهما وكيونتتهما على ما اقتضته حكمته تعالى ، ولما ذكر ما به حياة الأرواح ، من تعليم القرآن ذكر ما به حياة الأشباح ، من النبات الذي له ساق ، وكان تقديم النجم وهو ما لا ساق له ، لأنه أصل القوت ، والذي له ساق ثمره يتفكه به غالباً ، والظاهر أن النجم هو الذي شرحناه ، ويدل عليه اقترانه بالشجر ، وقال مجاهد وقاتدة والحسن : النجم اسم الجنس ، من نجوم السماء ، وسجودهما قال مجاهد والحسن : ذلك في النجم بالغروب ، ونحوه ، وفي الشجر بالظل واستدارته ، وقال مجاهد أيضاً : والسجود تجوز ، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ، والجمل الأول فيها ضمير يربطها بالمبتدأ ، وأما في هاتين الجملتين فاكتفى بالوصل المعنوي عن الوصل اللفظي ، إذ معلوم أن الحسبان هو حسابانه ، وأن السجود له لا لغيره ، فكأنه قيل : بحسابانه ويسجدان له ، ولما أوردت هذه الجملة

(١) انظر الوسيط ١٠٨ خ والبغوي ٢٦٧/٤ .

(٢) انظر الوسيط ١٠٨ خ والبغوي ٢٦٧/٤ .

مورد تعديد النعم رد الكلام إلى العطف في وصل ما يناسب وصله ، والتناسب الذي بين هاتين الجملتين ظاهر ، لأن الشمس والقمر علويان ، والنجم والشجر سفليان ، (والسماء رفعها) أي : خلقها مرفوعة ، حيث جعلها مصدر قضاياء ، ومسكن ملائكته الذين ينزلون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على عظم شأنه وملكوته . وقرأ الجمهور (والسماء) بالنصب على الاشتغال ، روعي مشاكلة الجملة التي تليه ، وهي (يسجدان) ، وقرأ أبو السمال . (والسماء) بالرفع ، راعى مشاكلة الجملة الابتدائية ، وقرأ الجمهور (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) فعلاً ماضياً ناصباً (الميزان) أي : أقره وأثبتته ، وقرأ إبراهيم (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) بالخفض وإسكان الضاد ، والظاهر أنه كل ما يوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ، وإن اختلفت الآلات ، قال معناه ابن عباس والحسن وقتادة ، جعله تعالى حاكماً بالسوية في الأخذ والإعطاء ، وقال مجاهد والطبري والأكثر : الميزان العدل ، وتكون الآلات من بعض ما يندرج في العدل ، بدأ أولاً بالعلم ، فذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم ، وهو القرآن ثم ذكر ما به التعديل في الأمور وهو الميزان ، كقوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد ٢٥] ليعلموا الكتاب ويفعلوا ما يأمرهم به الكتاب ، (أن لا تطغوا في الميزان) أي : لأن لا تطغوا ف (تطغوا) منصوب بـ (أن) ، وقال الزمخشري : أو هي (أن) المفسرة ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون (أن) مفسرة ، فيكون (تطغوا) جزماً بالنهي انتهى . ولا يجوز ما قالاه ، من أن (أن) مفسرة ، لأنه فات أحد شرطيهما ، وهو أن يكون ما قبلها جملة فيها معنى القول ، ووضع الميزان جملة ليس فيها معنى القول ، والطغيان في الميزان هو أن يكون بالتعمد ، وأما ما لا يقدر عليه من التحرير بالميزان فمعفو عنه ، ولما كانت التسوية مطلوبة جداً أمر الله تعالى فقال (وأقيموا الوزن) ، وقرأ الجمهور (ولا تُخْسِرُوا) من أخسر أي : أفسد ونقص ، كقوله ﴿ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْزَنَهُمْ يَخْسِرُونَ ﴾ [المطففين ٣] أي : ينقصون ، وبلال بن أبي بردة وزيد بن علي (تُخْسِرُوا) بفتح التاء يقال : خسر يخسر ، وأخسر يخسر ، بمعنى واحد ، كجبر وأجبر ، وحكى ابن جني وصاحب اللوامح عن بلال فتح التاء والسين مضارع خسر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير (في الميزان) فحذف التاء والسين مضارع خسر بكسر السين ، وخرجها الزمخشري على أن يكون التقدير (في الميزان) فحذف الجار ونصب ، ولا يحتاج إلى هذا التخريج ، ألا ترى أن خسر جاء متعدياً ، كقوله تعالى ﴿ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الزمر ١٥] ، و ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ﴾ [الحج ١١] ، وقرئ أيضاً (تُخْسِرُوا) بفتح التاء وضم السين ، لما منع من الزيادة وهي الطغيان نهى عن الخسران الذي هو نقصان ، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله ، والحث عليه ، ولما ذكر السماء ذكر مقابلتها ، فقال (والأرض وضعها للأنام) أي : خفصها مدحوة على الماء ليتنفع بها ، وقرأ الجمهور (والأرض) بالنصب ، وأبو السمال بالرفع ، والأنام ، قال ابن عباس : بنو آدم فقط ، وقال أيضاً هو وقتادة وابن زيد والشعبي : الحيوان كله ، وقال الحسن : الثقلان الجن والإنس ، (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به ، وبدأ بقوله (فاكهة) إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقي إلى الأعلى ، ونكر لفظها ، لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها ، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ، ولم يذكر ثمرتها وهو التمر لكثرة الانتفاع بها ، من ليف وسعف وجريد وجذوع وجمار وتمر ، ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم ، وهو البر والشعير وكل ما له سنبل ، وأوراق متشعبة على ساقه ، ووصفه بقوله (ذو العصف) تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب ، ويقوت بهائمهم من ورقه الذي هو التبن ، وبدأ بالفاكهة ، وختم بالشموم ، وبينهما النخل والحب ليحصل ما به يتفكه ، وما به يتقوت وما به تقع اللذازة من الرائحة الطيبة ، وذكر النخل باسمها والفاكهة دون شجرها لعظم المنفعة بالنخل ، من جهات متعددة ، وشجرة الفاكهة بالنسبة إلى ثمرتها حقيرة ، فنص على ما يعظم به الانتفاع من شجرة النخل ، ومن الفاكهة دون شجرتها ، وقرأ الجمهور (والحب ذو العصف والريحان) برفع الثلاثة عطفاً على المرفوع قبله ، وابن عامر وأبو حيوة وابن أبي عبله بنصب الثلاثة ، أي : وخلق الحب ، وجوزوا أن يكون (والريحان) حالة الرفع ، وحالة النصب على

حذف مضاف ، أي : وذو الريحان حذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ، وحمة والكسائي والأصمعي عن أبي عمرو والريحان بالجر ، والمعنى : والحب ذو العصف الذي هو علف البهائم ، والريحان الذي هو مطعم الناس ، ويبعد دخول المسموم في قراءة الجر ، وريحان من ذوات الواو ، وأجاز أبو علي أن يكون اسماً ، ووضع موضع المصدر ، وأن يكون مصدراً على وزن فعلان كاللبنان ، وأبدلت الواو ياء كما أبدلوا الياء واواً في أشاوى ، أو مصدراً شاذاً في المعتل ، كما شذ كبنونة وبينونة ، فأصله ريوحان ، قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء ، فصار ريحان ، ثم حذفت عين الكلمة كما قالوا : ميت وهين ، ولما عدد تعالى نعمه خاطب الثقيلين بقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي : إن نعمه كثيرة لا تحصى ، فبأيها تكذبان ، أي : من هذه نعمه لا يمكن أن يكذب بها ، وكان هذا الخطاب للثقيلين ، لأنها داخلان في الأنام على أصح الأقوال ، ولقوله (خلق الإنسان) و (خلق الجن) ولقوله (سنفرغ لكم أيها الثقلان) وقد أبعد من جعله خطاباً للذكر والأنثى من بني آدم ، وأبعد من هذا قول من قال : إنه خطاب على حد قوله (ألقيا في جهنم) ويا حرسى اضربا عنقه ، يعني : إنه خطاب للواحد بصورة الاثنين (فبأي) منوناً في جميع السورة ، كأنه حذف منه المضاف إليه ، وأبدل منه (آلاء ربكما) بدل معرفة من نكرة ، و (آلاء) تقدم في الأعراف أنها النعم واحدها إلى وألا وإلى وإلى ، (خلق الإنسان) لما ذكر العالم الأكبر من السماء والأرض ، وما أوجد فيها من النعم ذكر مبدأ من خلقت له هذه النعم ، والإنسان هو آدم ، وهو قول الجمهور ، وقيل : للجنس ، وساغ ذلك لأن أباهم مخلوق من الصلصال ، وإذا أريد بالإنسان آدم ، فقد جاءت غايات له مختلفة ، وذلك بتنقل أصله . فكان أولاً تراباً ، ثم طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصلاً ، فناسب أن ينسب خلقه لكل واحد منها ، والجان هو أبو الجن ، وهو إبليس قاله الحسن ، وقال مجاهد : هو أبو الجن ، وليس بإبليس ، وقيل الجان اسم جنس ، والمارج ما اختلط من أصفر وأحمر وأخضر ، أو الذهب ، أو الخالص ، أو الحمرة في طرف النار ، أو المختلط بسواد ، أو المضطرب بلا دخان أقوال ، و (من) الأولى لابتداء الغاية ، والثانية في (من نار) للتبويض ، وقيل : للبيان ، والتكرار في هذه الفواصل للتأكيد . والتنبيه والتحريك ، وهي موجودة في مواضع من القرآن ، وذهب قوم منهم ابن قتيبة إلى أن هذا التكرار إنما هو لاختلاف النعم ، فكرر التوقيف في كل واحد منها ، وقرأ الجمهور (رب) (ورب) بالرفع ، أي : هورب ، وأبو حيوة وابن أبي عبيدة بالخفض بدلاً من (ربكما) وثنى المضاف إليه ، لأنها مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ، قاله مجاهد ، وقيل : مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما ، وعن ابن عباس : للشمس مشرق في الصيف مصعد ، ومشرق في الشتاء منحدر ، تنتقل فيهما مصعدة ومنحدرة انتهى^(١) . فالمشرقان والمغربان للشمس ، وقيل : المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس ، والمغربان مغرب الشفق ومغرب الشمس ، ولسهل التستري كلام في المشرقين والمغربين ، شبهه بكلام الباطنية المحرفين مدلول كلام الله ضربنا عن ذكره صفحاً ، وكذلك ما وقفنا عليه من كلام الغلاة الذين ينسبون للصوفية ، لأننا لا نستحل نقل شيء منه ، وقد أولغ صاحب كتاب « التحرير والتحرير » بحسب ما قاله هؤلاء الغلاة في كل آية آية . ويسمى ذلك الحقائق وأرباب القلوب ، وما ادعوا فهمه في القرآن فأغلوا فيه ، لم يفهمه عربي قط ، ولا أراد الله تعالى بتلك الألفاظ ، نعوذ بالله من ذلك ، (مرج البحرين) تقدم الكلام على ذلك في الفرقان ، قال ابن عطية وذكر الثعلبي في (مرج البحرين) ألغازاً وأقوالاً باطنة لا يلتفت إلى شيء منها انتهى . والظاهر التقاؤهما ، أي : يتجاوزان ، فلا فصل بين المائتين في رؤية العين ، وقيل (يلتقيان) في كل سنة مرة ، وقيل : معدان للالتقاء ، فحقهما أن يلتقيا لولا البرزخ بينهما ، (برزخ) أي : حاجز من قدرة الله تعالى ، (لا يبيغان) لا يتجاوزان حدهما ، ولا يبغي أحدهما على الآخر بالمجازة ، وقيل : البرزخ أجرام الأرض ، قاله قتادة ، وقيل (لا يبيغان) أي : على الناس والعمران ، وعلى هذا والذي قبله يكون من البغي ، وقيل : هو من بغى أي : طلب ، فالمعنى : لا يبيغان حالاً غير الحال التي خلقا عليها

وسخرها لها ، وقيل : ماء الأنهار لا يختلط بالماء الملح ، بل هو بذاته باق فيه ، وقال ابن عطية : والعيان لا يقتضيه انتهى .
يعني أنه يشاهد الماء العذب يختلط بالملح ، فيبقى كله ملحاً ، وقد يقال : إنه بالاختلاط تتغير أجرام العذب حتى لا تظهر ،
فإذا ذاق الإنسان من الملح المنبث فيه تلك الأجزاء الدقيقة لم يحس إلا الملوحة ، والمعقول يشهد بذلك ، لأن تداخل
الأجسام غير ممكن ، لكن التفرق والالتقاء ممكن ، وأنشد القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله تعالى :

وَمَمْرُوجَةُ الْأُمُوَاهِ لَا الْعَذْبُ غَالِبٌ عَلَى الْمِلْحِ طَبِيباً لَا وَلَا الْمِلْحُ يَعْذِبُ

وقرأ الجمهور (يَخْرُجُ) مبنياً للفاعل ، ونافع وأبو عمرو وأهل المدينة مبنياً للمفعول ، والجعفي عن أبي عمرو بالبلاء
مضمومة وكسر الراء ، أي : يَخْرُجُ الله ، وعنه وعن أبي عمرو وعن ابن مقسم بالنون ، و (اللؤلؤ والمرجان) نصب في
هاتين القراءتين ، والظاهر في (منها) أن ذلك يخرج من الملح والعذب ، وقال بذلك قوم ، حكاه الأخفش ، ورد الناس
هذا القول ، قالوا : والحس يخالفه ، إذ لا يخرج إلا من الملح وعابوا قول الشاعر :

فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ لَطِيمَةٍ عَلَى وَجْهِهَا مَاءُ الْفَرَاتِ يَمُوجُ^(١)

وقال الجمهور : إنما يخرج من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة ، فناسب إسناد ذلك إليهما ،
وهذا مشهور عند الغواصين ، وقال ابن عباس وعكرمة : تكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر ، لأن الصدف وغيرها
تفتح أفواهها للمطر ، فلذلك قال (منها) ، وقال أبو عبيدة : إنما يخرج من الملح لكنه قال (منها) تجوزاً ، وقال الرماني :
العذب فيها ، كاللقاح للملح ، فهو كما يقال الولد : يخرج من الذكر والأنثى ، وقال ابن عطية : وتبع الزجاج من حيث
هما نوع واحد ، فخروج هذه الأشياء إنما هي منها ، وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما ، كما قال ﴿ سبع
سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً ﴾ [نوح ١٥ ، ١٦] وإنما هو في إحداهن . وهي الدنيا إلى الأرض ، وقال
الزنجشيري نحواً من قول ابن عطية ، قال : (فإن قلت) لم قال (منها) وإنما يخرجان من الملح (قلت :) لما التقيا وصارا
كالشيء الواحد ، جاز أن يقال : يخرجان منها ، كما يقال : يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ، ولكن من
بعضه وتقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقيل : لا يخرجان إلا
من ملتقى الملح والعذب انتهى . وقال أبو علي الفارسي : هذا من باب حذف المضاف ، والتقدير : يخرج من أحدهما ،
كقوله تعالى ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف ٣١] أي : من إحدى القريتين ، وقيل : هما بحران يخرج من أحدهما
اللؤلؤ ، ومن الآخر المرجان ، وقال أبو عبد الله الرازي : كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، ومن أعلم
أن اللؤلؤ لا يخرج من الماء العذب ، وهب أن الغواصين ما أخرجه إلا من المالح ، ولكن لم قلت : إن الصدف لا يخرج
بأمر الله من الماء العذب إلى الماء الملح ، وكيف يمكن الجزم به ، والأمور الأرضية الظاهرة خفيت عن التجار الذين قطعوا
الفاوز ، وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمر ما في قعر البحر عليهم ؟ واللؤلؤ قال ابن عباس والضحاك وقتادة : كبار
الجوهر ، والمرجان صغاره ، وعن ابن عباس أيضاً وعلي ومرة الحمداني عكس هذا ، وقال أبو عبد الله وأبو مالك : المرجان
الحجر الأحمر ، وقال الزجاج : حجر شديد البياض ، وحكى القاضي أبو يعلى : إنه ضرب من اللؤلؤ ، كالقضببان
والمرجان اسم أعجمي معرب ، قال ابن دريد : لم أسمع فيه نقل متصرف . وقال الأعشى :

مِنْ كُلِّ مَرْجَانَةٍ فِي الْبَحْرِ أَحْرَرَهَا تَيَّارُهَا وَوَقَاهَا طِينُهَا الصَّدْفُ^(٢)

(١) البيت من الطويل لأبي ذؤيب انظر ديوان الهذليين ١/٥٧ اللسان (فرث) .

(٢) البيت من المنسرَح ، انظر ديوانه ١١٢ .

قيل : أراد اللؤلؤة الكبيرة ، وقرأ طلحة : اللؤلؤ بكسر اللام الثالثة ، وهي لغة وعبد اللولى تقلب الهمزة المتطرفة ياء ساكنة بعد كسرة ما قبلها ، وهي لغة قاله أبو الفضل الرازي ، (وله الجوار) خص تعالى الجوارى بأنها له ، وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن ، لأنهم لما كانوا هم منشئها أسندها تعالى إليه ، إذ كان تمام منفعتها إنما هو منه تعالى فهو في الحقيقة مالكها ، والجواري : السفن : وقرأ عبد الله والحسن وعبد الوارث عن أبي عمرو بضم الراء ، كما قالوا في شاك : شاك ، وقرأ الجمهور (المنشآت) بفتح الشين اسم مفعول ، أي : أنشأها الله ، أو الناس ، أو المرفوعات الشراع ، وقال مجاهد : ماله شراع من المنشآت ، وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت ، والشراع القلع ، والأعمش وحمة وزيد بن علي وطلحة وأبو بكر بخلاف عنه بكسر الشين ، أي : الرافعات الشراع ، أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ، أو التي تنشئ السفر إقبالاً وإدباراً ، وشدد الشين ابن أبي عبلة والحسن (المنشأة) وحد الصفة ودل على الجمع الموصوف ، كقوله : أزواج مطهرة ، وقلب الهمزة ألفاً على حد قوله : إِنَّ السَّبَاعَ لَتَهْدَى فِي مَرَابِضِهَا ، يريد : لتهدأ التاء لتأنيث الصفة ، كتبت تاء على لفظها في الوصل ، (كالأعلام) أي : كالجبال والآكام ، وهذا يدل على كبر السفن ، حيث شبهها بالجبال ، وإن كان المنشآت تطلق على السفينة الكبيرة والصغيرة ، وعبر بمن في قوله (كل من عليها) تغليبا لمن يعقل ، الضمير في (عليها) قليل عائد على الأرض في قوله (والأرض وضعتها للأنام) فعاد الضمير عليها ، وإن كان بعد لفظها ، والفناء عبارة عن إعدام جميع الموجودات من حيوان وغيره ، والوجه يعبر به عن حقيقة الشيء ، والجارجة منتفية عن الله تعالى ، ونحو ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص ٨٨] وتقول صعاليك مكة : أين وجه ، عربي كريم يوجد علي ؟ وقرأ الجمهور (ذو) بالواو صفة للوجه ، وأبي وعبد الله (ذي) بالياء صفة للرب ، والظاهر أن الخطاب في قوله (وجه ربك) للرسول ، وفيه تشريف عظيم له - ﷺ - ، وقيل : الخطاب لكل سامع ، ومعنى ذو الجلال الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه ، وعن أفعالهم ، أو الذي يتعجب من جلاله ، أو الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده . (يسأله من في السموات والأرض) أي : حوائجهم ، وهو ما يتعلق بمن في السموات من أمر الدين ، وما استعبدوا به ، ومن في الأرض من أمر دينهم ودنياهم . وقال أبو صالح : من في السموات الرحمة ، ومن في الأرض المغفرة والرزق ، وقال ابن جريج : الملائكة الرزق لأهل الأرض ، والمغفرة وأهل الأرض يسألونها جميعاً ، والظاهر أن قوله : (يسأله) استئناف إخبار . وقيل : حال من الوجه ، والعامل فيه يبقى أي : هودائم في هذه الحال انتهى ، وفيه بعد ، ومن لا يسأل فحالته تقتضي السؤال ، فيصح إسناد السؤال إلى الجميع باعتبار القدر المشترك ، وهو الافتقار إليه تعالى ، كل يوم أي : كل ساعة ولحظة ، وذكر اليوم ، لأن الساعات واللحظات في ضمنه ، هو في شأن قال ابن عباس : في شأن يمضيه من الخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة . وقال عبيد بن عمير : يجيب داعياً ، ويفك عانياً ، ويتوب على قوم ، ويغفر لقوم ، وقال سويد بن غفلة : يعتق رقاباً ، ويعطي رغاباً ، ويقحم عقاباً . وقال ابن عيينة : الدهر عند الله يومان : أحدهما : اليوم الذي هو مدة الدنيا ، فشأنه فيه الأمر ، والنهي ، والإماتة ، والإحياء . والثاني : الذي هو يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء ، والحساب ، وعن مقاتل : نزلت في اليهود ، قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً ، وقال الحسين بن الفضل وقد سأله عبد الله بن طاهر عن قوله : كل يوم هو في شأن ، وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة فقال : شؤون يديها لا شؤون يبتديها ، وقال ابن بحر : هو في يوم الدنيا في الابتلاء ، وفي يوم القيامة في الجزاء ، وانتصب كل يوم على الظرف ، والعامل فيه العامل في قوله في شأن ، وهو مستقر المحذوف ، نحو يوم الجمعة زيد قائم .

قوله عز وجل :

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا

تتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام * فبأي آلاء ربكما تكذبان * هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان * ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * ذواتا أفنان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيها عينان تجريان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * فيها من كل فاكهة زوجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴿ لما ذكر تعالى ما أنعم به من تعليم العلم ، وخلق الإنسان ، والسماء ، والأرض ، وما أودع فيها ، وفناء ما على الأرض ، ذكر ما يتعلق بأحوال الآخرة ، والجزاء . وقال : سنفرغ لكم أي : ننظر في أموركم يوم القيامة ، لا أنه تعالى كان له شغل فيفرغ منه ، وجرى على هذا كلام العرب في أن المعنى سيقصد لحسابكم ، فهو استعارة من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك : أي : سأجود للإيقاع بك من كل ما شغلني عنه ، حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد : التوفر على الانتقام منه ، قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التوعد بعذاب في الدنيا ، والأول أبين ، انتهى : يعني : أن يكون ذلك يوم القيامة ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ستنتهي الدنيا ، ويبلغ آخرها ، وتنتهي عند ذلك شؤون الخلق التي أرادها بقوله : كل يوم هو في شأن ، فلا يبقى إلا شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل ، انتهى . والذي عليه أئمة اللغة : أن فرغ تستعمل عند انقضاء الشغل الذي كان الإنسان مشغولاً به ، فلذلك احتاج قوله إلى التأويل ، على أنه قد قيل : إن فرغ يكون بمعنى قصد واهتم ، واستدل على ذلك بما أنشده ابن الأنباري لجرير :

الآن وَقَدْ فَرَعْتُ إِلَى نُمَيْرٍ فَهَذَا جِئْتُ لَهْمُ عَذَابًا^(١)

أي : قصدت ، وأنشد النحاس :

فَرَعْتُ إِلَى الْعَبْدِ الْمُقَيَّدِ فِي الْحِجْلِ^(٢)

وفي الحديث^(٣) : فرغ ربك من أربع ، وفيه : لأتفرغن إليك يا خبيث يخاطب به رسول الله ﷺ إرب العقبة يوم بيعتها ، أي : لأقصدن إبطال أمرك ، نقل هذا عن الخليل ، والكسائي ، والفراء ، وقرأ الجمهور (سَفَرُغُ) بنون العظمة ، وضم الراء ، من فرغ بفتح الراء ، وهي لغة الحجاز ، وحزة ، والكسائي ، وأبو حيوة ، وزيد بن علي ، بياء الغيبة ، وقتادة ، والأعرج بالنون ، وفتح الراء ، مضارع فرغ بكسرها ، وهي تميمية ، وأبو السهم وعيسى بكسر النون وفتح الراء ، قال أبو حاتم : هي لغة سفلى مضر ، والأعشى وأبو حيوة بخلاف عنهما ، وابن أبي عبيدة والزعفراني بضم الياء ، وفتح الراء ، مبنياً للمفعول ، وعيسى أيضاً بفتح النون ، وكسر الراء ، والأعرج أيضاً بفتح الياء والراء ، وهي رواية يونس والجعفي وعبد الوارث ، عن أبي عمرو ، والثقلان : الإنس والجن ، سمياً بذلك ، لكونها ثقلين على وجه الأرض ، أو لكونها مثقلين بالذنوب ، أولثقل الإنس ، وسمي الجن ثقلاً ، لمجاورة الإنس ، والثقل : الأمر العظيم ، وفي الحديث : إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي ، سمياً بذلك لعظمهما وشرفهما ، والظاهر أن قوله : يا معشر

(١) البيت من الوافر ، انظر اللسان (أين) القرطبي ١٧/ ١١٠ روح المعاني ٢٧/ ١١١ .

(٢) عجز بيت من الطويل ، وصدره :

ولما اتقى (القيد العراقي) باسته

انظر شرح ديوان جرير (٣٤٨) اللسان (فرغ) النقائض ١٥٨ .

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز .

الآية من خطاب الله إليهم يوم القيامة يوم التناد ، وقيل : يقال لهم ذلك ، قال الضحاك : يفرون في أقطار الأرض ، لما يرون من الهول ، فيجدون الملائكة قد أحاطت بالأرض ، فيرجعون من حيث جاؤوا ، فحينئذ يقال لهم ذلك^(١) . وقيل : هو خطاب في الدنيا^(٢) ، والمعنى : إن استطعتم الفرار من الموت ، وقال ابن عباس : إن استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا فتعلمون علم أقطار أي : جهات السموات والأرض^(٣) ، قال الزمخشري : يا معشر الجن والإنس ، كالترجمة لقوله أيها الثقلان إن استطعتم أن تهربوا من قضائي . وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرون على النفوذ إلا بسلطان يعني : بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه : وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، انتهى . فانفذوا أمر تعجيز ، وقال قتادة : السلطان هنا الملك وليس لهم ملك^(٤) ، وقال الضحاك : أيضاً بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجن والإنس فتحقق بهم الملائكة ، وقرأ زيد بن علي : إن استطعتم على خطاب تشية الثقلين ، ومراعاة الجن والإنس ، والجمهور على خطاب الجماعة ، إن استطعتم ، لأن كلا منها تحته أفراد كثيرة ، كقوله وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، يرسل عليهما شواظ ، قال ابن عباس : إذا خرجوا من قبورهم ، ساقهم شواظ إلى المحشر^(٥) ، والشواظ لهب النار ، وقال مجاهد : اللهب الأحمر المنقطع^(٦) ، وقال الضحاك : الدخان الذي يخرج من اللهب وقرأ الجمهور : (شَوَاطٍ) بضم الشين ، وعيسى وابن كثير وشبل بكسرها ، والجمهور (ونَحَاسٌ) بالرفع وابن أبي إسحق والنخعي وابن كثير وأبو عمرو بالجاء ، والكلبي وطلحة ومجاهد بكسر نون نحاس والسين ، وقرأ ابن جبير (ونَحَسٌ) كما تقول يوم نحس ، وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحق أيضاً (ونحس) مضارعاً ، وماضيه حسه أي : قتله أي : ويحس بالعذاب ، وعن ابن أبي إسحق أيضاً ونحس بالحركات الثلاث في الحاء على التخيير ، وحنظلة بن نعمان ونحس بفتح النون وكسر السين ، والحسن وإسماعيل ونحس بضميتين والكسر ، وقرأ زيد بن علي : نرسل بالنون عليهما شواظاً بالنصب من نار ، ونحاساً بالنصب عطفاً على شواظاً ، قال ابن عباس وابن جبير والنحاس : الدخان^(٧) ، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد هو الصفر المعروف ، والمعنى : يعجز الجن والإنس أي : أنتم بحال من يرسل عليه هذا فلا يقدر على الامتناع مما يرسل عليه ، فإذا انشقت السماء ، جواب إذا محذوف ، أي : فما أعظم الهول ، وانشقاقها انفطارها يوم القيامة ، فكانت وردة أي : حمرة كالورد ، قال ابن عباس وأبو صالح : هي من لون الفرس الورد ، فأنت لكون السماء مؤنثة ، وقال قتادة : هي اليوم زرقاء ، ويومئذ تغلب عليها الحمرة ، كلون الورد ، وهي النوار المعروف ، قاله الزجاج ، ويريد : كلون الورد ، وقال الشاعر :

فَلَوْ كُنْتُ وَرْدًا لَوْنُهُ لَعَشِيقَتِي وَلَكِنَّ رَبِّي شَانِي بِسَوَادِيَا^(٨)

وقال أبو الجوزاء : وردة صفراء ، وقال : أما سمعت العرب تسمي الخيل الورد ، قال الفراء : أراد لون الفرس الورد يكون في الربيع إلى الصفرة ، وفي الشتاء إلى الحمرة ، وفي اشتداد البرد إلى الغبرة ، فشبّه تلون السماء بتلون الورد

(١) انظر الوسيط ١١٠ خ والبغوي ٢٧١/٤ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر البغوي ٢٧١/٤ والوسيط ١١٠ خ والبغوي ٢٧١/٤ ، ٢٧٢ والقرطبي ٦٣٤٣/٩ وزاد المسير ١١٦/٨ .

(٦) انظر المصادر السابقة .

(٧) انظر المصادر السابقة .

(٨) البيت من الطويل لم يهتد لقائله ، ذكره السمين الحلبي في الدر المصون .

من الخيل ، وهذا قول الكلبي ، كالدّهان قال ابن عباس : الأديم الأحمر ، ومنه قول الأعشى :

وَأَجْرَدُ مَنْ كِرَامِ الْخَيْرِ طُرْفُ كَأَنَّ عَلَى شَوَاكِلِهِ دِهَانًا^(١)

وقال الشاعر :

كَالدَّهَانِ الْمُخْتَلِفَةِ ،

لأنها تتلون ألواناً

وقال الضحاك : كالدّهان خالصة جمع دهن ، كقرط وقرط ، وقيل : تصير حمراء من حرارة جهنم ، ومثل الدهن لدونها ودورانها ، وقيل : شبهت بالدّهان في لمعانها ، وقال الزمخشري : كالدّهان كدهن الزيت كما قال : كالمهل وهو دردي الزيت ، وهو جمع دهن أو اسم ما يدهن به ، كالحرام والأدام قال الشاعر :

كَأَنَّهُمَا مَزَادَتَا مُتَعَجِّلِ قَرِيَّانِ لَمَّا سَلَعَا بِدِهَانِ^(٢)

وقرأ عبيد بن عمير ورده بالرفع بمعنى فحصلت سماء ورده ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد كقوله :

فَلَيْتَ بَقِيْتُ لَأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ نَحْوَ الْمَغَانِمِ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ^(٣)

انتهى (فيومئذ) التنوين فيه للعوض من الجملة المحذوفة ، والتقدير : فيومئذ انشقت السماء ، والناصب ليومئذ لا يسأل ، ودل هذا على انتفاء السؤال ، و﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات ٢٤] وغيره من الآيات على وقوع السؤال ، فقال عكرمة وقتادة : هي مواطن يسأل في بعضها ، وقال ابن عباس : حيث ذكر السؤال فهو سؤال توبيخ وتقدير ، وحيث نفى فهو استخبار محض عن الذنب ، والله تعالى أعلم بكل شيء ، وقال قتادة أيضاً : كانت مسألة ثم ختم على الأفواه ، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يعملون ، وقال أبو العالية وقتادة : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم ، وقرأ الحسن وعمر بن عبيد : (ولا جُنَّ) بالهمز فراراً من التقاء الساكنين ، وإن كان التقاءهما على حدة ، وقرأ حماد بن أبي سليمان بسيماهم ، والجمهور بسيماهم ، وسيما المجرمين سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، قاله الحسن ، ويجوز أن يكون غير هذا من التشويهاً ، كالعمى والبكم والصمم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، قال ابن عباس : يؤخذ بناصيته وقدميه ، فيوطأ ويجمع كالحطب ويلقى كذلك في النار ، وقال الضحاك : يجمع بينهما في سلسلة من وراء ظهره ، وقيل : تسحبهم الملائكة ، تارة تأخذ بالنواصي وتارة بالأقدام ، وقيل : بعضهم سحباً بالناصية ، وبعضهم سحباً بالأقدام ، ويؤخذ متعد إلى مفعول بنفسه ، وحذف هذا الفاعل والمفعول ، وأقيم الجار والمجرور مقام الفاعل ، مضمناً معنى ما يعدى بالبار ، أي : فيسحب بالنواصي والأقدام ، وأل فيها على مذهب الكوفيين عوض من الضمير ، أي : بنواصيهم وأقدامهم ، وعلى مذهب البصريين الضمير محذوف ، أي بالنواصي والأقدام منهم ، هذه جهنم أي يقال لهم ذلك على طريق التوبيخ والتقريع ، يطوفون بينها أي : يترددون بين نارها وبين ما على فيها من مائع عذابها ، وقال قتادة : الحميم يغلي منذ خلق الله جهنم ، وآن أي : منتهى الحر والنضج ، فيعاقب بينهم وبين تصلية النار وبين شرب الحميم ، وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم ، وقيل : يغمسون في واد في جهنم ، يجتمع فيه صديد أهل النار فتتخلع أوصالهم ، ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقاً جديداً ، وقرأ علي والسلمي : (يُطَاوَنُ) والأعمش وطلحة وابن

(١) البيت من الخفيف ، انظر ديوانه (٢١٢) اللسان (دهن) روح المعاني ٢٧/ ١١٤ .

(٢) البيت من الطويل لامرئ القيس ، انظر ديوانه ٨٨ . الكشف ٤/ ٣٥٨ .

(٣) البيت من الكامل لقتادة بن مسلمة الخنفي ، من الشعراء الجاهليين ، انظر ديوان الحماسة ١/ ٣٢٧ الكشف ٤/ ٣٩٥ .

ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام . ﴿

قال ابن عباس : تجتنيه قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، لا يرد يده بعد ولا شوك . وقرأ عيسى بفتح الجيم وكسر النون ، كأنه أمال النون وإن كانت الألف قد حذفت في اللفظ ، كما أمال أبو عمر ، و (حتى نرى الله) [البقرة ٥٥] وقرئ : (وجنى) بكسر الجيم ، والضمير في فيهن عائد على الجنان الدال عليهن جنتان ، إذ كل فرد له جنتان ، فصح أنها جنان كثيرة ، وإن كان الجنتان أريد بهما حقيقة الثنية ، وإن لكل جنس من الجن والإنس جنة واحدة ، فالضمير يعود على ما اشتملت عليه الجنة من المجالس والقصور والمنازل ، وقيل : يعود على الفرش ، أي : فيهن معدات للاستماع ، وهو قول حسن قريب المأخذ ، وقال الزمخشري : فيهن في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والجنى ، انتهى ، وفيه بعد ، وقال الفراء : كل موضع من الجنة جنة ، فلذلك قال (فيهن) .

و (الطرف) أصله مصدر ، فلذلك وحد ، والظاهر : أنهم اللواتي يقصرن أعينهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى غيرهم .

قال ابن زيد : تقول لزوجها : وعزة ربي ما أرى في الجنة أحسن منك ، وقيل : (الطرف) طرف غيرهن ، أي قصرن عيني من ينظر إليهن عن النظر إلى غيرهن .

(لم يطمئنهن) قال ابن عباس : لم يفتضهن قبل أزواجهن ، وقيل : لم يطمأنهن على أي وجه كان الوطء من افتضاض أو غيره وهو قول عكرمة والضمير في قبلهم عائد على من عاد عليه الضمير في متكئين .

وقرأ الجمهور بكسر ميم (يطمئنهن) في الموضعين وطلحة وعيسى وأصحاب عبد الله وعلي بالضم ، وقرأ ناس بضم الأول وكسر الثاني ، وناس بالعكس ، وناس بالتخيير ، والحدودي بفتح الميم فيهما ، ونفى وطئهن عن الأنس ظاهر وأما عن الجن فقال مجاهد والحسن ، قد تجامع مع نساء البشر مع أزواجهن ، إذ لم يذكر الزوج تعالى فنفى هنا جميع المجامعين ، وقال ضمرة بن حبيب الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم ، فنفى الافتضاض عن البشريات والجنيات ، قال قتادة كأنهن على صفاء الياقوت ، وحمرة المرجان لو أدخلت في الياقوت سلكا ثم نظرت إليه لرأيت من ورائه انتهى .

وفي الترمذي « ان المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها ، من وراء سبعين حلة » .

وقال ابن عطية : الياقوت والمرجان من الأشياء التي يرتاح بحسنها ، فشبها بهما فيما يحسن التشبيه به ، فالياقوت في إملاسه وشفوفه ، والمرجان في إملاسه وجمال منظره ، وبهذا النحو من النظر ، سمت العرب النساء بذلك ، كدرة بنت أبي لهب ، ومرجانة أم سعيد انتهى .

(هل جزاء الإحسان) في العمل (إلا الإحسان) في الثواب ، وقيل : هل جزاء التوحيد إلا الجنة .

وقرأ ابن أبي إسحق (إلا الحسان) يعني بالحسان الحور العين .

(ومن دونها) أي من دون تينك الجنتين في المنزل والقدر جنتان لأصحاب اليمين ، والأوليان هما للسابقين قاله ابن زيد ، والأكثر وقال الحسن الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين . وقال ابن عباس (ومن دونها) في القرب للمنعين والمؤخرات الذكر أفضل من الأوليين ، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالنضخ ، وتينك بالجري فقط ، وهاتين بالدهمة

من شدة النعمة ، وتينك بالأفنان ، وكل جنة ذات أفنان ، ورجح الزمخشري هذا القول ، فقال : للمقربين جنتان ، من دونهم من أصحاب اليمين إدهامتا من شدة الخضرة ، ورجح غيره القول الأول بذكر جري العينين والنضج دون الجري ، ويقول (فيها من كل فاكهة) وفي المتأخرتين (فيها فاكهة) وبالاتكاء على ما بطأته من ديباج وهو الفرش ، وفي المتأخرتين الاتكاء على الرفرف وهو كسر الخباء والفرش المعدة للاتكاء أفضل ، و (العبقري) الوشي والديباج أعلى منه والمشبّه بالياقوت والمرجان أفضل في الوصف من خيرات حسان ، والظاهر النضج بالماء .

وقال ابن جبير : بالمسك والعنبر والكافور ، في دور أهل الجنة ، كما ينضخ رش المطر وعنه أيضاً بأنواع الفواكه والماء ، (ونخل ورمال) عطف على فاكهة فاقتضى العطف أن لا يندرجا في الفاكهة قاله بعضهم ، وقال يونس بن حبيب وغيره : كرروهما من أفضل الفاكهة تشريفاً لهما ، وإشارة بهما كما قال تعالى : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ [البقرة ٩٨] ، وقيل لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمال فاكهة ودواء فلم يخلصا للتفكه .

(فيهن خيرات) جمع خيرة وصف بني علي فعلة من الخير كما بنوا من الشر فقالوا أشرة ، وقيل مخفف من خيرة ، وبه قرأ بكر بن حبيب وأبو عثمان النهدي وابن مقسم ، أي بشدة الباء ، وروي عن أبي عمرو بفتح الباء ، كأنه جمع خايرة جمع على فعلة ، وفسر الرسول - ﷺ - لأم سلمة ذلك فقال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » .

(حور مقصورات) أي قصرن في أماكنهن والنساء تمدح بذلك إذ ملازمتهم البيوت تدل على صيانتهم كما قال قيس بن الأسلت :

وَتَكْسُلُ عَنْ جَارَاتِهَا فَيَزُرْنَهَا وَتَغْفُلُ عَنْ أَيْبَاتِهِنَّ فَتَعْدُرُ^(١)

قال الحسن لسن بطوافات في الطرق ، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ ، وقال عمر بن الخطاب هي در مجوف ورواه عبد الله عن النبي - ﷺ - .

(لم يطمئنهن إنس قبلهم) أي قبل أصحاب الجنتين ، ودل عليهم ذكر الجنتين .

(متكئين) قال الزمخشري : نصب على الاختصاص .

(على رفرف) قال ابن عباس وغيره فضول المجلس والبسط^(٢) ، وقال ابن جبير : رياض الجنة من رف البيت تنعم وحسن^(٣) وقال ابن عيينة الزرابي ، وقال الحسن وابن كيسان المرافق ، وقرأ الفراء وابن قتيبة المجالس (وعبقري) قال الحسن : بسط حسان فيها صور ، وغير ذلك يصنع بعبقر ، وقال ابن عباس : الزرابي ، وقال مجاهد : الديباج الغليظ ، وقال ابن زيد الطنافس ، قال الفراء : الثخان منها ، وقرأ الجمهور : على رفرف ووصف بالجمع لأنه اسم جنس الواحد منها رفرفة ، واسم الجنس يجوز فيه أن يفرد نعته ، وأن يجمع لقوله (والنخل باسقات) وحسن جمعه هنا مقابله لـ (حسان) الذي هو فاصلة ، وقال صاحب اللوامح : وقرأ عثمان بن عفان ونصر بن عاصم والحدري ومالك بن دينار

(١) البيت من الطويل ، انظر ديوانه ١٩٤/٢ وروايته فيه .

وتشتاقها جاراتها فيزرنها وتغفل عن أيباتهن فتعدر

(٢) انظر الوسيط ١١٣ وزاد المسير ١٢٧/٨ وفتح القدير ١٤٣/٥ ومجاز القرآن ٢٤٦/٢ .

(٣) انظر الوسيط ١١٣ وزاد المسير ١٢٧/٨ .

وابن محيصن وزهير العريقي وغيره (رفارف) جمع لا ينصرف (خضر) بسكون الضاد وعباقرى بكسر القاف وفتح الياء مشددة ، وعنهم أيضاً ضم الضاد ، وعنهم أيضاً فتح القاف ، قال فأما منع الصرف من عباقرى وهي الثياب المنسوبة إلى عبقر ، وهو موضع تجلب منه الثياب على قديم الأزمان ، فإن لم يكن بمجاورتها وإلا فلا يكون يمنع التصرف من ياءى النسب وجه إلا في ضرورة الشعر انتهى .

وقال ابن خالويه قرأ (على رفارف خضر ، وعباقرى) النبي - ﷺ - ، والجحدري وابن محيصن ، وقد روي عن ذكرنا على رفارف خضر وعباقرى بالصرف ، وكذلك روي عن مالك بن دينار .

وقرأ أبو محمد المروزي وكان نحوياً (على رفارف خضار) يعني على وزن فعال .

وقال صاحب الكامل (رفارف) جمع عن ابن مصرف وابن مقسم وابن محيصن ، واختاره شبل وأبو حيوة والجحدري والزعفراني وهو الاختيار لقوله (خضر) و (عباقرى) بالجمع وبكسر القاف من غير تنوين ابن مقسم وابن محيصن وروي عنهما التنوين ، وقال ابن عطية : وقرأ زهير العريقي : (رفارف) بالجمع والصرف وعنه عباقرى بفتح القاف والياء على أن اسم الموضع عباقر بفتح القاف ، والصحيح في اسم الموضع عبقر انتهى .

وقال الزمخشري : وروى أبو حاتم : (عباقرى) بفتح القاف ومنع الصرف ، وهذا لا وجه لصحته انتهى .

وقد يقال : لما منع الصرف (رفارف) شاكله في (عباقرى) كما قد ينون ما لا ينصرف للمشاكله يمنع من الصرف للمشاكله .

وقرأ ابن هرمز (خضر) بضم الضاد ، قال صاحب اللوامح وهي لغة قليلة انتهى . ومنه قول طرفه :

أَيُّهَا الْفِتْيَانُ فِي مَجْلِسِنَا جَرِّدُوا مِنْهَا وَرَاداً وَشُقْر^(١)

وقال آخر :

وَمَا أَنْتَمِيتُ إِلَى خَوْرِ وَلَا كُشْفٍ وَلَا لِثَامٍ غَدَاةَ الرَّوْعِ أَوْزَاع^(٢)

فشقر جمع أشقر وكسف جمع أكسف .

وقرأ الجمهور (ذي الجلال) صفة لربك وابن عامر وأهل الشام (ذو) صفة للاسم ، وفي حرف أبي عبد الله وأبي ذي الجلال كقراءتهما في الموضع الأول ، والمراد هنا بـ (الاسم) المسمى .

وقيل : (اسم) مقحم كالوجه في (ويبقى وجه ربك) يدل عليه إسناد تبارك لغير الاسم في مواضع كقوله ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون ١٤] ﴿ تبارك الذي إن شاء ﴾ [الفرقان ١٠] ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ [الملك ١] وقد صح الإسناد إلى (الاسم) لأنه بمعنى العلوف إذا علا الاسم ، فما ظنك بالمسمى ، ولما ختم تعالى نعم الدنيا بقوله (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ختم نعم الآخرة بقوله (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) وناسب

(١) البيت من الرمل انظر ديوانه ، المحتسب ١٦٢/١ روح المعاني ٢٧/١٢٥ .

(٢) البيت من الوافر لم يهتد لقائله ، انظر روح المعاني ٢٧/١٢٥ .

هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالى إذ ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة وهي النمو والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين ، وما آتاهم في دار كرامته من الخير ، وزيادته وديمومته «يا ذا الجلال والإكرام » من الصفات التي جاء في الحديث أن يدعى الله بها قال - ﷺ - « أظنوا بيا ذا الجلال والإكرام »^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) وأحمد في المسند ١٧٧/٤ والحاكم في المستدرک ٤٩٨/١ ، والطبراني في الكبير ٦٠/٥ والبخاري في التاريخ ٢٨٠/٣ وذكره السيوطي في الدرر ١٥٣/٦ والهيثمى في المجمع ١٥٨/١٠ .

سورة الواقعة مكية وهي ست وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ
بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ وَالسَّيِّقُونَ وَالسَّيِّقُونَ ۖ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۖ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۖ ثَلَاثَةٌ مِنْ
الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۖ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُخْلَدُونَ ۖ يَأْكُوبُ وَأَبْرِيQُ وَكَأْسٌ مِنْ مَعِينٍ ۖ لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ ۖ وَفَكَهْهَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۖ
وَلَحْمَ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۖ وَحُورٌ عِينٌ ۖ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ لَا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَفًا وَلَا تَأْتِيًا ۖ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۖ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۖ
وَطَلْحٍ مَنضُودٍ ۖ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۖ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۖ وَفَكَهْهَ كَثِيرٍ ۖ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۖ
وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ ۖ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُمْ أَتْبَارًا ۖ عُرَابًا أَرْبَابًا ۖ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ثَلَاثَةٌ مِنْ
الْأَوَّلِينَ ۖ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ فِي سُومٍ وَحَمِيمٍ ۖ وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُّومٍ ۖ
لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَظِيمِ ۖ وَكَانُوا يَقُولُونَ
أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۖ أَوْءَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۖ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۖ
لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۖ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۖ لَا تَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ۖ فَهَالِكُونَ
مِنْهَا الْبُطُونُ ۖ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۖ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْهِيمِ ۖ هَذَا تَزُومُ يَوْمَ الدِّينِ ۖ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ
فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۖ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۖ أَمْ أَنْتُمْ تُخْلِقُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۖ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا
نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ عَلَى أَنْ نُبْدِلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا
تَذَكَّرُونَ ۖ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۖ أَمْ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۖ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ

تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ٦٦ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ٦٧ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ٦٨ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ٦٩ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧٠ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنْتُمْ
أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ٧٣ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ٧٤ ﴿ فَلَآ أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ
كَرِيمٌ ٧٧ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ٧٨ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ
أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ٨٣ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ٨٤
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ ٨٥ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٨٧
فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ٨٩ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩٠
فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ٩١ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ٩٢ فَتَزُلُّ مِنْ حِمِيمٍ ٩٣ وَتَصْلِيَةٌ
جَمِيمٌ ٩٤ إِنَّ هَذَا لَهَوٌ حَقٌّ أَلْقَيْنِ ٩٥ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٩٦

رجت الأرض زلزلت وحركت تحريكاً شديداً بحيث تهدم الأبنية وتخر الجبال ، بست الجبال فتنت ، وقيل ، سيرت
من قولهم ، بس الغنم ساقها ، ويقال : رجت الأرض وبست الجبال لازمين ، المشأمة من الشؤم أو من اليد الشؤمى وهي
الشمال ، الثلاثة الجماعة كثرت أو قلت ، وقال الزمخشري الأمة من الناس الكثيرة ، وقال الشاعر :

وَجَاءَتْ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ خِنْدِفِيَّةٍ بِجَيْشٍ كَثِيرٍ مِنَ السَّيْلِ مُزِيدٍ^(١)

الموضونة المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدرع ، قال الأعشى :

وَمِنْ نَسَجِ دَاوُدَ مَوْضُوءَةٍ تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعِيرًا^(٢)

ومنه وضين الناقة وهو خزامها لأنه موزون أي مفتول ، قال الراجز :

إِلَيْكَ تَغْدُو قَلْقًا وَضِينُهَا مُعْتَرِضًا فِي بَطْنِهَا جَنِينُهَا

مُخَالِفًا دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا^(٣)

الإبريق : فعيل من البريق وهو إناء للشرب له خرطوم ، قيل : وأذن وهو من أواني الخمر عند العرب ، قال

الشاعر :

(١) البيت من الكامل لم نهند لقائله ، انظر الكشف ٤/٥٨٨ روح المعاني ٢٧/١٣٤ .

(٢) البيت من المتقارب ، انظر ديوانه ٨٨ الكشف ٤/٥٩٩ روح المعاني ٢٧/١٣٤ القرطبي ١٧/١٣١ .

(٣) رجز ، انظر اللسان (وذن) القرطبي ١٧/١٣١ .

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبْيٌ عَلَى شَرَفٍ مُّقَدَّمٌ بِسَبَا الْكِتَّانِ مَلْثُومٌ^(١)

وقال عدي بن زيد :

وَنَدْعُو إِلَى الصَّبَاحِ فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقٌ^(٢)

صدع القوم بالخمير لحقهم الصداق في رؤوسهم منها ، وقيل صدعوا فرقوا ، (السدر تقدّم الكلام عليه في سورة سبأ (المخضود) المقطوع شوكة . قال أمية بن أبي الصلت :

إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَانِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكَوَاعِبُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ^(٣)

(الطلح) شجر الموز ، وقيل : شجر من العضاة كثير الشوك ، (المسكوب) المصبوب ، العروب المتحبة إلى زوجها ، الترب : اللذة وهو من يولد هو وآخر في وقت واحد ، سمياً بذلك لمسهما التراب في وقت واحد والله تعالى أعلم .

﴿ إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً ، وكنتم أزواجاً ثلاثه ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلثة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عین كأمثل اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأنهاهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكاراً ، عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ، ثلثة من الأولين ، وثلثة من الآخرين ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها أن ما قبلها تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين ، وفاضل بين جنتي بعض المؤمنين ، وجنتي بعض ، بقوله (من دونها جنتان) فانقسم العالم بذلك إلى كافر ومؤمن مفضول ومؤمن فاضل ، وهكذا جاء ابتداء هذه السورة من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة ، وسباق وهو المقربون ، وأصحاب اليمين والمكذبون المختتم بهم آخر هذه السورة .

وقال ابن عباس : (الواقعة) من أساء القيامة كالصاخة والطامة والآفة ، وهذه الأسماء تقتضي عظم شأنها^(٤) .

ومعنى (وقعت الواقعة) أي : وقعت التي لا بد من وقوعها ، كما تقول حدثت الحادثة ، وكانت الكائنة ، وقوع الأمر نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، أي نزل ما كنت أتربّ نزوله ، وقال الضحاك (الواقعة) الصيحة وهي النفخة في الصور ، وقيل : (الواقعة) صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة .

(١) البيت من البسيط لعلقة بن عبدة ، انظر ديوانه ١١٣ المفضليات ٨١٥ اللسان (برق) .

(٢) البيت من المديد لعدي بن زيد ، انظر اللسان (برق .) .

(٣) البيت من الكامل ، انظر ديوانه ٢٦ القرطبي ٣٣٤/١٧ مجاز القرآن ٢/٢٥٠ فتح القدير ١٥٢/٥ .

(٤) انظر الطبري ٩٦/٢٧ وزاد المسير ١٣٠/٨ .

والعامل في إذا الفعل بعدها على ما قررناه في كتب النحو ، فهو في موضع خفض بإضافة إذا إليها احتاج إلى تقدير عامل ، إذ الظاهر أنه ليس ، ثم جواب ملفوظ به يعمل بها ، فقال الزمخشري ، فإن قلت ، بم انتصب إذا ، قلت ، بليس كقولك يوم الجمعة ليس لي شغل ، أو بمحذوف ، يعني إذا وقعت كان كيت وكيت ، أو بإضمار أذكر انتهى ، أما نصبها بليس فلا يذهب نحوي ، ولا من شدا شيئاً من صناعة الإعراب إلى مثل هذا ، لأن ليس في النفي كما وما لا تعلم فكذلك ليس ، وذلك أن ليس مسلوقة الدلالة على الحدث والزمان ، والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز ، لأن حد الفعل لا ينطبق عليها ، والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث ، فإذا قلت يوم الجمعة أقوم فالقيام واقع في يوم الجمعة (وليس لا حدث لها) فكيف يكون لها عمل في الظرف ؟ والمثال الذي شبه به ، وهو يوم القيامة ليس لي شغل ، لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بليس ، بل هو منصوب بالعامل في خبر ليس ، وهو الجار والمجرور ، فهو من تقديم معمول الخبر على ليس ، وتقديم ذلك ، مبني على جواز تقديم الخبر ، الذي ليس عليها ، وهو مختلف فيه ، ولم يسمع من لسان العرب قائماً ليس زيد ، وليس إنما تدل على نفي الحكم الخبري عن المحكوم عليه فقط ، فهي كما ، ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع ، جعلها ناس فعلاً ، وهي في الحقيقة حرف نفي كما النافية ، ويظهر من تمثيل الزمخشري إذا بقوله يوم الجمعة ، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها ، ولو كانت شرطاً ، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس ، لزم الفاء ، إلا أن حذفت في شعر إذ ورد ، ذلك فنقول إذا أحسن إليك زيد ، فلست تترك مكافأته ، ولا يجوز لست بغير فاء إلا إن اضطر إلى ذلك ، وأما تقديره إذا وقعت ، كان كيت وكيت ، فيدل على أن إذا عنده شرطية ، ولذلك قدر لها جواباً عاملاً فيها ، وأما قوله : بإضمار أذكر فإن سلبها الظرفية ، وجعلها مفعولاً بها منصوبة بأذكر ، وكاذبة ظاهراً أنه اسم فاعل من كذب ، وهو صفة لمحذوف ، فقدرة الزمخشري نفس كاذبة ، أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله ، وتكذب في تكذيب الغيب ، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، كقوله تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ [غافر ٨٤] ﴿ لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم به ﴾ [الشعراء ٢٠١] (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيتهم الساعة) واللام مثلها في قوله : ﴿ يا ليتني قَدِمْتُ لحياتي ﴾ [الفجر ٢٤] إذ ليس لها نفس تكذبها ، وتقول لها لم تكذبي ، كما لها اليوم نفوس كثيرة يقلن لها لم تكذبي ، أو هي من قولهم كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم ، إذا شجعتته على مباشرته ، وقالت له إنك تطيقه ، وما فوقه فتعرض له ، ولا تبال على معنى أنها وقعة لا تطاق بشدة وفضاعة ، وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها ، بما تحدثه به عند عظام الأمور ، وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذٍ أضعف من ذلك وأذل ، ألا ترى إلى قوله تعالى (كالفراش المبثوث) والفراش مثل في الضعف انتهى ، وهو تكثير وإسهاب ، وقدرة ابن عطية حال كاذبة قال : ويحتمل الكلام على هذا معنيين أحدهما : كاذبة ، أي مكذوب فيما أخبر به عنها ، فسماها كاذبة لهذا ، كما تقول هذه قصة كاذبة ، أي مكذوب فيها ، والثاني : حال كاذبة ، أي لا يضي وقوعها ، كما تقول فلان إذا حمل لم يكذب ، وقال قتادة والحسن : المعنى ليس لها تكذيب ولا رد ، ولا منثوية فكاذبة على هذا مصدر ، كالعاقبة والعافية وخائنة الأعين ، والجملة من قوله [ليس لوقعتها كاذبة] على ما قدره الزمخشري : من أن إذا معمولة لليس يكون ابتداء السورة ، إلا إن اعتقد أنها جواب لإذا ، أو منصوبة بأذكر ، فلا يكون ابتداء كلام ، وقال ابن عطية : في موضع الحال ، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه ، وقرأ الجمهور (خافضة رافعة) برفعهما على تقدير هي ، وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عتبة وابن مقسم والزعفراني واليزيدي في اختياره بنصبها ، قال ابن خالويه ، قال الكسائي : لولا أن اليزيدي سبقني إليه ، لقرأت به ونصبها على الحال ، قال ابن عطية : بعد الحال التي هي (ليس لوقعتها كاذبة) ولك أن تتابع الأحوال ، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ ، والقراءة الأولى أشهر وأبدع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ، ما لو لم يذكر لاستغنى عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما

يتهم به انتهى وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي ، قال في كتاب اللوامح ، وذو الحال الواقعة والعامل وقعت ، ويجوز أن يكون (ليس لوقعتها كاذبة) حال أخرى من الواقعة ، بتقدير إذا وقعت صادقة الواقعة فهذه ثلاثة أحوال من ذي حال ، وجازت أحوال مختلفة عن واحد ، كما جازت عنه نعوت متضادة ، وأخبار كثيرة عن مبتدأ واحد ، وإذا جعلت هذه كلها أحوالاً ، كان العامل في إذا وقعت محذوفاً ، يدل عليه الفحوى بتقدير يحاسبون ونحوه انتهى ، وتعداد الأحوال والأخبار فيه خلاف وتفصيل ، ذكر في النحو ، فليس ذلك مما أجمع عليه النحاة ، قال الجمهور : القيامة تنفطر له السماء والأرض والجبال ، وتهد له هذه البنية برفع طائفة من الأجرام ، وبخفض أخرى ، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب ، وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى ، وترفعها لتسمع الأقصى ، وقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقه : القيامة تخفض أقواماً إلى النار ، وترفع أقواماً إلى الجنة ، وأخذ الزنجشري هذه الأقوال على عادته ، وكساها بعض ألفاظ رائعة ، فقال : ترفع أقواماً ، وتضع آخرين ، إما وصفاً لها بالشدة ، لأن الوقائع العظام ، كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ، ويتضع ناس ، وإما أن الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يحطون إلى الدرجات ، وإما أنها تزلزل الأشياء عن مقارها لتخفض بعضاً ، وترفع بعضاً حيث تسقط السماء كسفاً ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمر في الجو مر السحاب انتهى (إذا رجعت) قال ابن عباس : زلزلت وحركت بجذب ، وقال أيضاً هو وعكرمة ومجاهد : بسّ فتت ، وقيل سيرت ، وقرأ زيد بن علي ، رجت وبست منبياً للفاعل ، و (إذا رجعت) بدل من إذا وقعت ، وجواب الشرط عندي ملفوظ به ، وهو قوله فأصحاب الميمنة ، والمعنى إذا كان كذا وكذا ، فأصحاب الميمنة ما أسعدهم ، وما أعظم ما يجازون به أي ، إن سعادتهم وعظم رتبته عند الله ، تظهر في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم ، وقال الزنجشري : ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة ، أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال ، لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض ، انتهى ، ولا يجوز أن ينتصب بهما معاً ، بل بأحدهما ، لأنه لا يجوز أن يجتمع مؤثران على أثر واحد ، وقال ابن جني وأبو الفضل الرازي : (إذا رجعت) في موضع رفع ، على أنه خبر للمبتدأ الذي هو (إذا وقعت) وليست واحدة منها شرطية ، بل جعلت بمعنى وقت ، وما بعد إذا أحوال ثلاثة ، والمعنى وقت وقوع الواقعة صادقة الوقوع ، خافضة قوم ، رافعة آخرين وقت رج الأرض ، وهكذا ادعى ابن مالك : أن إذا تكون مبتدأ ، واستدل بهذا ، وقد ذكرنا في شرح التسهيل ، ما تبقى به إذا على مدلولها من الشرط ، وتقديم شرح الهباء في سورة الفرقان ، (منبئاً) منتشرأ منبئاً بنقطتين بدل الثاء المثلثة ، قراءة الجمهور أي منقطعاً (وكنتم) خطاب للعالم ، (أزواجاً ثلاثة) أصنافاً ثلاثة ، وهذه رتب للناس يوم القيامة (فأصحاب الميمنة) قال الحسن والربيع : هم الميامين على أنفسهم ، وقيل الذين يؤتون صحائفهم بأيامهم ، وقيل أصحاب المنزلة السنية ، كما تقول هو مني باليمين ، وقيل المأخوذ بهم ذات اليمين ، أو ميمنة آدم ، المذكورة في حديث الإسراء في الأسود ، (وأصحاب المشأمة) هم من قابل أصحاب الميمنة في هذه الأقوال ، فأصحاب مبتدأ ، أو مبتدأ ثان استفهام في معنى التعظيم ، وأصحاب الميمنة خبر عن ما ، وما بعدها خبر عن أصحاب ، وربط الجملة هنا بالمبتدأ تكرار المبتدأ بلفظه ، وأكثر ما يكون ذلك في موضع التهويل والتعظيم ، وما تعجب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة ، والمعنى أي شيء هم ؟ (والسابقون السابقون) جوزوا أن يكون مبتدأ وخبراً ، نحو قولهم أنت أنت ، وقوله أنا أبو النجم ، وشعري شعري ، أي الذين انتهوا في السبق ، أي الطاعات وبرعوا فيها ، وعرفت حالهم ، وأن يكون السابقون تأكيداً لفظياً ، والخبر فيها بعد ذلك ، وأن يكون السابقون مبتدأ ، والخبر فيها بعده ، وتقف على قوله والسابقون ، وأن يكون متعلق بالسبق الأول مخالفاً للسبق الثاني ، والسابقون إلى الإيمان السابقون إلى الجنة ، فعلى هذا جوزوا أن يكون السابقون خبراً لقوله والسابقون ، وأن يكون صفة ، والخبر فيها بعده ، والوجه الأول ، قال ابن عطية ومذهب سيبويه : أنه يعني السابقون خبر الابتداء ، يعني خبر والسابقون ، وهذا كما

تقول الناس الناس ، وأنت أنت ، وهذا على تفخيم الأمر وتعظيمه ، انتهى ، ويرجح هذا القول أنه ذكر أصحاب الميمنة متعجباً منهم في سعادتهم ، وأصحاب المشأمة متعجباً منهم في شقاوتهم ، فناسب أن يذكر السابقون مثبتاً حالهم معظماً ، وذلك بالأخبار أنهم نهاية في العظمة والسعادة ، والسابقون عموم في السبق إلى أعمال الطاعات ، وإلى ترك المعاصي^(١) ، وقال عثمان بن أبي سودة : السابقون إلى المساجد^(٢) ، وقال ابن سيرين : هم الذين صلوا إلى القبلتين^(٣) ، وقال كعب : هم أهل القرآن^(٤) ، وفي الحديث سئل عن السابقين ، فقال هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوا بذلوه ، وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم ، أولئك إشارة إلى السابقين المقربين ، الذين علت منازلهم ، وقربت درجاتهم في الجنة من العرش ، وقرأ الجمهور (في جنات) جمعاً ، وطلحة في جنات مفرداً ، وقسم السابقين المقربين إلى (ثلة من الأولين) (وقليل من الآخرين) ، وقال الحسن السابقون من الأمم ، والسابقون من هذه الأمة^(٥) ، وقالت عائشة : الفرقان في كل أمة نبي في صدرها ثلة ، وفي آخرها قليل^(٦) ، وقيل : هما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كانوا في صدر الدنيا وفي آخرها أقل ، وفي الحديث الفرقان في أمتي ، فسابق في أول الأمة ثلة ، وسابق سائرهم إلى يوم القيامة قليل ، وارتفع ثلة على إضمارهم ، وقرأ الجمهور على سرر بضم الراء ، وزيد بن علي وأبو السمال بفتحها ، وهي لغة لبعض بني تميم ، وكلب يفتحون عين فعل ، جمع فعيل المضعف نحو سرير وتقدم ذلك في (والصفات) موضونة : قال ابن عباس : مرمولة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت (متكتين عليها) أي على السرر ، ومتكتين حال من الضمير المستكن في على سرر متقابلين ، ينظر بعضهم إلى بعض وصفوا بحسن العشرة ، وتهذيب الأخلاق وصفاء بطائنهم من غل إخواناً (يطوف عليهم ولدان مخلدون) وصفوا بالخلد ، وإن كان من في الجنة مخلداً ، ليدل على أنهم يبقون دائماً في سن الولدان لا يكبرون ، ولا يتحولون عن شكل الوصافة ، وقال مجاهد : لا يموتون ، وقال الفراء : مقرطون بالخلدات ، وهي ضروب من الأقراط (وكأس من معين) قال : من خمر سائلة جارية معينة (لا يصدعون عنها) قال الأكثرون : لا يلحق رؤوس الصداق الذي يلحق من خمر الدنيا ، وقرأت على أستاذنا العلامة أبي جعفر بن الزبير - رحمه الله تعالى - قول علقمة في صفة الخمر :

تَشْفِي الصُّدَاغَ وَلَا يُؤْذِيكَ صَالِيهَا وَلَا يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَذْوِيمُ

فقال : هذه صفة أهل الجنة ، وقيل لا يفرقون عنها ، بمعنى لا تقطع عنهم لذتهم ، بسبب من الأسباب ، كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفریق ، كما جاء فتصدع السحاب عن المدينة أي تفرق ، وقرأ مجاهد : لَا يَصْدَعُونَ بفتح الياء وشد الصاد أصله ، يتصدعون أدغم التاء في الصاد أي لا يفرقون ، كقوله (يومئذ يصدعون) والجمهور بضم الياء وخفة الصاد ، والجمهور بجر وفاكهة ولحم ، وزيد بن علي برفعها ، أي ولهم ، والجمهور (ولا ينزفون) مبنياً للمفعول ، قال مجاهد وقتادة وجبير والضحاك : لا تذهب عقولهم سكرًا ، وابن أبي إسحق بفتح الياء وكسر الزاي ، نزف البثر استفرغ ماءها ، فالعنى لا تفرغ خمرهم ، وابن أبي إسحق أيضاً ، وعبد الله والسلمي والجحدري والأعمش وطلحة وعيسى بضم

(١) انظر البغوي ٢٨٠/٤ والوسيط ١١٤ خ وابن كثير ٢٨٣/٤ وزاد المسير ١٣٣/٨ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

(٦) انظر المصادر السابقة .

الباء وكسر الزاي ، أي لا يفنى لهم شراب (مما يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (مما يشتهون) أي يتمنون ، وقرأ الجمهور : (وحوور عين) رفعهما ، وخرج عليّ على أن يكون معطوفاً على ولدان أو على الضمير المستكن في متكئين ، أو على مبتدأ محذوف هو وخبره ، تقديره لهم هذا كله (وحوور عين) أو على حذف خبر فقط ، أي ولهم حور ، أو فيهما حور ، وقرأ السلمي والحسن وعمرو بن عبيد وأبو جعفر وشيبة والأعمش وطلحة والمفضل وأبان ، وعصمة والكسائي بجرهما ، والنخعي وحير عين بقلب الواو ياء وجرهما ، والجر عطف على المجرور ، أي يطوف عليهم ولدان بكذا وكذا (وحوور عين) وقيل هو على معنى وينعمون بهذا كله ، وبحور عين ، وقال الزمخشري : عطفاً على جنات النعيم ، كأنه قال هم في جنات وفاكهة ولحم وحوور انتهى وهذا فيه بعد وتفكيك كلام مرتبط ببعضه ببعض وهو فهم أعجمي ، وقرأ أبي وعبد الله (وحوراً أعينا) بنصبهما ، قالوا على معنى ويعطون هذا كله وحوور أعينا ، وقرأ قتادة (وحوور عين) بالرفع مضافاً إلى عين ، وابن مقسم بالنصب مضافاً إلى عين ، وعكرمة (وحوراء عينا) على التوحيد اسم جنس ، وبفتح الهمزة فيهما ، فاحتمل أن يكون مجروراً عطفاً على المجرور السابق ، واحتمل أن يكون منصوباً كقراءة أبي وعبد الله (وحوراً عينا) ووصف اللؤلؤ بالمكنون ، لأنه أصفى وأبعد من التغير ، وفي الحديث صفاؤه من كصفاء الدر الذي لا تمسه الأيدي ، وقال تعالى : (كأنهن بيض مكنون) وقال الشاعر : يصف امرأة بالصون وعدم الابتذال ، فشبها بالدرة المكنونة في صدفها فقال :

قَامَتْ تَرَى بَيْنَ سَجْفَيِ كَلَّةٍ كَالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالْأَسْعَدِ
أَوْ دُرَّةٍ صَدْفِيَّةٍ غَوَاصُهَا بِهِجٍ مَتَى يَرَهَا يَهْلُ وَيَسْجُدُ^(١)

(جزاء بما كانوا يعملون) روي أن المنازل والقسم في الجنة على قدر الأعمال ، ونفس دخول الجنة برحمة الله تعالى وفضله لا بعمل عامل ، وفيه النص الصحيح الصريح ، لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني بفضل منه ورحمة ، لغو ، أسقط القول وفحشه (ولا تأثيماً) ما يؤثم أحداً ، والظاهر أن (إلا قتيلاً سلاماً سلاماً) استثناء منقطع ، لأنه لم يندرج في اللغو ولا التأثيم ، ويبعد قول من قال استثناء متصل (وسلاماً) قال الزجاج : هو مصدر نصبه قتيلاً ، أي يقول بعضهم لبعض سلاماً سلاماً ، وقيل : نصب بفعل محذوف ، وهو معمول قتيلاً ، أي قتيلاً اسلموا سلاماً ، وقيل (سلاماً) بدل من قتيلاً ، وقيل نعت لقتيلاً بالمصدر ، كأنه قيل إلا قتيلاً سلاماً من هذه العيوب ، (في سدر) في الجنة ، شجر على خلقة له ثمر كقلال هجر طيب الطعم والريح (مخضود) عار من الشوك ، وقال مجاهد : المخضود الموقر الذي تثني أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا أثناه ، وقرأ الجمهور (وطلح) بالحاء ، وعليّ وجعفر بن محمد وعبد الله بالعين قرأها على المنبر ، وقال عليّ وابن عباس وعطاء ومجاهد : (الطلح) الموز ، وقال الحسن ليس بالموز ، ولكنه شجر ظله بارد رطب ، وقيل شجر أم غيلان ، وله نوار كثير طيب الرائحة ، وقال السدي : شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، (والمنضود) الذي نضد من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق تظهر (وظل ممدود) لا يتقلص بل منبسط لا ينسخه شيء ، قال مجاهد : هذا الظل من سدرها وطلحها (وماء مسكوب) قال سفيان وغيره : جار في غير أحاديث ، وقيل منسب لا يتعب فيه بساقية ولا رشاء (لا مقطوعة) أي هي دائمة لا تقطع في بعض الأوقات ، كفاكهة الدنيا ، (ولا ممنوعة) أي لا يمنع من تناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كالتي في الدنيا ، وقرئ (وفاكهة كثيرة) برفعهما ، أي وهناك فاكهة ، (وفرش) جمع فراش ، وقرأ الجمهور : بضم الراء ، وأبو حيوة بسكونها مرفوعة ، نضدت حتى ارتفعت ، أوردت على الأسرة ، والظاهر أن الفراش ، هو ما يفرش للجلوس عليه والنوم ، وقال أبو عبيدة

وغيره : المراد بالفرش النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، ورفعهن في الأقدار والمنازل ، والضمير في (أنشأناهن) عائد على الفرش في قول أبي عبيدة إذ هنّ النساء عنده ، وعلى ما دل عليه الفرش ، إذا كان المراد بالفرش ظاهر ما يدل عليه من الملابس التي تفرش ويضطجع عليها ، أي ابتدأنا خلقهن ابتداءً جديداً ، من غير ولادة ، والظاهر أن الإنشاء ، هو الاختراع الذي لم يسبق بخلق ، ويكون ذلك مخصوصاً بالخور اللاتي لسن من نسل آدم ، ويحتمل أن يريد إنشاء الإعادة ، فيكون ذلك لبنات آدم ، (فجعلناهن أباكراً عرباً) والعرب ، قال ابن عباس : العروب المتحبة إلى زوجها ، وقاله الحسن وعبر ابن عباس أيضاً عنهن بالعواشق ، ومنه قول لبيد :

وَفِي الْخُدُورِ عَرُوبٌ غَيْرَ فَاحِشَةٍ رَيَّا الرَّوَادِفِ يَغْشَى دُونَهَا الْبَصْرُ^(١)

وقال ابن زيد : العروب المحسنة للكلام ، وقرأ حمزة وناس ، منهم شجاع وعباس والأصمعي ، عن أبي عمرو ، وناس منهم خارجة وكردم وأبو خليل ، عن نافع وناس منهم أبو بكر وحماد وأبان عن عاصم بسكون الراء ، وهي لغة تميم ، وباقي السبعة بضمها أتراباً في الشكل ، والقدر وأبعد من ذهب إلى أن الضمير في (أنشأناهن) عائد على الخور العين المذكورة قبل ، لأن تلك قصة قد انقطعت ، وهي قصة السابقين ، وهذه قصة أصحاب اليمين ، واللام في أصحاب متعلقاً بـ (أنشأناهن) (ثلثة من الأولين) أي من الأمم الماضية ، (وثلثة من الآخرين) أي من أمة محمد - ﷺ - ولا تنافي بين قوله (وثلثة من الآخرين) وقوله قبل وقليل من الآخرين ، لأن قوله من الآخرين هو في السابقين ، وقوله (وثلثة من الآخرين) هو في أصحاب اليمين ، * وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحيم * وظل من يحوم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون * أو أباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لا تكونون من شجر من زقوم * فمالتون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزله يوم الدين * نحن خلقناكم فلولا تصدقون * أفأرأيتم ما تمنون * أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبذل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفأرأيتم ما تحرثون * أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفأرأيتم الماء الذي تشربون * أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء لجعلناه أجاجاً فلولا تشكرون * أفأرأيتم النار التي تورون * أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسيح باسم ربك العظيم * فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حيثئذ تنتظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا أن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حيم * وتصلية جحيم * إن هذا هو حق اليقين * فسيح باسم ربك العظيم * .

اليحوم الأسود البهيم ، الحنث قال الخطابي هو في كلام العرب العدل الثقيل شبه الائم به ، الهيم جمع أهيم وهيماء

والهيام داء معطش يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقماً شديداً قال :

فَأَصْبَحْتُ كَالْهَيْمَاءِ لَا الْمَاءُ مُبْرَدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هَيَامُهَا^(١)

(والهيم) جمع هيام ، وهو الرمل بفتح الهاء وهو المشهور ، وقال ثعلب : بضمها قال : هو الرمل الذي لا يتماسك ، فبالفتح كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل ، بجمع أهيم من قلب ضمته كسرة لتصح الياء ، أو بالضم يكون قد جمع على فعل ، كقراد وقرد ، ثم سكنت ضمة الراء فصار فعلاً ، ثم فعل به ما فعل ببيض ، أمني الرجل النطفة ، ومناها قذفها من إحليله ، المزن السحاب ، قال الشاعر :

فَلَا مُزْنَةٌ وَذَقْتُ وَذَقَهَا وَلَا أَرْضُ أَبْقَلَ إِبْقَالَهَا^(٢)

أوريت النار من الزناد قذحتها ، وورى الزند نفسه ، والزناد حجرين ، أو من حجر وحديدة ومن شجر ، لا سيما في الشجر الرخو ، كالمرخ والعفار والكلك ، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما بالآخر ، ويسمون الأعلى الزند ، والأسفل الزنده ، شبهوهما بالعجل والطروقة ، أقوى الرجل دخل في الأرض ، القوا وهي القفر كأصحر دخل في الصحراء ، وأقوى من أقام أياماً لم يأكل شيئاً ، وأقوت الدار : صارت قفراء ، قال الشاعر :

يَا دَارَ مَيَّةٍ بِالْعُلَيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمْدِ^(٣)

إدهن لاين ، وهاود فيما لا يحمل عند المدهن ، وقال الشاعر :

الْحَزْمُ وَالْقُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْإِدْهَانِ وَالْفَهْمَةُ وَالْهَاعُ^(٤)

(الحلقوم) مجرى الطعام ، (الروح) الاستراحة ، (الريحان) تقدم في سورة الرحمن ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آبائنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفأرأيتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ المَوْتَ وما نحن بمسبوقين ، على أن نبذل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ، أفأرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون ، أفأرأيتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفأرأيتم النار التي تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴿ لما ذكر حال السابقين ،

(١) البيت من الطويل لذي الرمة ، انظر ديوانه ٧١٤ الكشف ٤/٤٦٤ روح المعاني ٢٧/١٤٦ ٢٧/١٤٦ .

(٢) تقدم .

(٣) تقدم .

(٤) البيت من مجزوء البسيط لأبي القيس بن الأسلمي الأنصاري ، انظر المفضليات ٥٦٨ .

وأَتَّبَعَهُمْ بِأَصْحَابِ الْمِمْنَةِ ، ذكر حال أصحاب المِمْنَةِ ، فقال (وأصحاب الشمال) وتقدّم إعراب نظير هذه الجملة ، وفي هذا الاستفهام تعظيم مصابهم ، (في سموم) في أشدّ حر (وحميم) ماء شديد السخونة ، (وظل من يحموم) قال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك وابن زيد والجمهور : دخان ، وقال ابن عباس : أيضاً هو سراق النار المحيط بأهلها ، يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم ، وقال ابن كيسان : اليحموم من أسماء جهنم ، وقال ابن زيد أيضاً وابن بريدة : هو جبل في النار أسود ، يفزع أهل النار إلى داره ، فيجدونه أشدّ شيء ، وأمر (لا بارد ولا كريم) صفتان للظل ، نفيتا سمي ظلاً ، وإن كان ليس كالظلال ، ونفى عنه برد الظل ونفعه لمن يأوي إليه ، ولا كريم تتميم لنفي صفة المدح فيه ، وتحقيق لما يتوهم في الظل من الاسترواح إليه عند شدة الحر ، أو نفي لكرامة من يستروح إليه ، ونسب إليه مجازاً ، والمراد هم أي يستظلون إليه وهم مهانون ، وقد يحتمل المجلس الرديء لنيل الكرامة ، ويدى أولاً بالوصف الأصلي الذي هو الظل ، وهو كونه من يحموم فهو بعض اليحموم ، ثم نفى عنه الوصف الذي ينبغي له الظل ، وهو كونه لا بارداً ولا كريماً ، وقد يجوز أن يكون (لا بارد ولا كريم) صفة ليحموم ، ويلزم منه أن يكون الظل موصوفاً بذلك ، وقرأ الجمهور (لا بارد ولا كريم) بجرهما ، وابن أبي عبلة برفعهما ، أي لا هو بارد ولا كريم على حد قوله ، فَأَيُّتُ لَا حَرَجَ وَلَا تَحَرُّومٌ ، أي لا أنا حرج ، (إنهم كانوا قبل ذلك) أي في الدنيا مترفين ، فيه ذم الترف والتنعم في الدنيا ، والترف طريق إلى البطالة ، وترك التفكير في العاقبة ، (وكانوا يصرون) أي يداومون ويواظبون على الحنث العظيم ، قال قتادة والضحاك وابن زيد الشرك وهو الظاهر ، وقيل ما تضمنه قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية من التكذيب بالبعث ، ويبعده وكانوا يقولون ، فإنه معطوف على ما قبله ، والعطف يقتضي التغاير ، فالحنث العظيم الشرك ، فقولهم (أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لبعوثون أو آباؤنا الأولون) تقدم الكلام عليه في الصفات ، وكرر الزمخشري هنا وهمه فقال : (فإن قلت) : كيف حسن العطف على المضمير في لمبعوثون من غير تأكيد بنحن ؟ (قلت) : حسن للفاصل الذي هو الهمزة ، كما حسن في قوله (ما أشر كنا ولا آباؤنا) لفصل لا المؤكدة للنفي . انتهى ، ورددنا عليه هنا ، وهناك إلى مذهب الجماعة في أنهم لا يقدرّون بين همزة استفهام وحرف العطف فعلاً ، في نحو (أفلم يسيروا) ولا اسماً في نحو (أو آباؤنا) بل الواو والفاء لعطف ما بعدهما على ما قبلهما ، والهمزة في التقدير متأخرة عن حرف العطف ، لكنه لما كان الاستفهام له صدر الكلام قدمت ، ولما ذكر تعالى استفهامهم عن البعث على طريق الاستبعاد والإنكار ، أمر نبيه - ﷺ - أن يخبرهم ببعث العالم أو لهم وآخرهم للحساب ، وبما يصل إليه المكذبون للبعث من العذاب ، (والميقات) ما وقّت به الشيء ، أي حد ، أي إلى ما وقّت به الدنيا من يوم معلوم ، والإضافة بمعنى من كخاتم حديد ، (ثم إنكم) خطاب لكفار قريش ، أيها الضالون عن الهدى ، المكذبون للبعث ، وخطاب أيضاً لمن جرى مجراهم في ذلك ، (لآكلون من شجر من زقوم) من الأولى لابتداء الغاية ، أو للتبعية ، والثانية إن كان من زقوم بدلاً ، فمن تحتمل الوجهين ، وإن لم تكن بدلاً ، فهي لبيان الجنس ، أي من شجر الذي هو زقوم ، وقرأ الجمهور (من شجر) وعبد الله (من شجرة) ، فالثن منها الضمير في منها عائذ على شجر ، إذ هو اسم جنس يؤنث ويذكر ، وعلى قراءة عبد الله فهو واضح ، (فشاربون عليه) قال الزمخشري : ذكر على لفظ الشجر كما أنث على المعنى في منها ، قال : ومن قرأ (من شجرة من زقوم) فقد جعل الضميرين للشجرة ، وإنما ذكر الثاني على تأويل الزقوم ، لأنه يفسرها وهي في معناه ، وقال ابن عطية : والضمير في عليه عائذ على المأكول ، أو على الأكل ، انتهى ، فلم يجعله عائذاً على شجر ، وقرأ نافع وعاصم وحزمة (شُرب) بضم الشين وهو مصدر ، وقيل اسم لما يشرب ، ومجاهد وأبو عثمان النهدي بكسرها ، وهو بمعنى المشروب اسم لا مصدر ، كالطحن والرعي ، والأعرج وابن المسيب وشبيب بن الحجاب ومالك بن دينار وابن جريج وباقي السبعة بفتحها ، وهو مصدر مقيس ، (والهيم) قال ابن عباس ومجاهد

وعكرمة والضحاك : جمع أهيم ، وهو الجمل الذي أصابه الهيام^(١) ، وقد فسرناه في المفردات ، وقيل جمع هيماء ، وقيل جمع هائم وهائمة ، وجمع فاعل على فعل شاذ ، كبازل وبذل ، وعائد وعوذ ، والهائم أيضاً من الهيام ، ألا ترى أن الجمل إذا أصابه ذلك هام على وجهه وذهب ، وقال ابن عباس وسفيان (الهيم) الرمال التي لا تروى من الماء ، وتقدم الخلاف في مفردة أهو الهيام بفتح الهاء أم بالضم ، والمعنى أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم ، الذي كالمهل ، فإذا ملأ وأمنه البطون ، سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم قاله الزمخشري ، وقال أيضاً : (فإن قلت) : كيف صح عطف الشارين على الشارين ؟ وهما لذوات متفقة ، وصفتان متفقتان ، فكان عطفاً للشيء على نفسه ، (قلت) : ليستا بمتفقتين من حيث إن كونهم شارين للحميم ، على ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك ، كما تشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً ، فكانتا صفتين مختلفتين ، انتهى ، والفاء تقتضي التعقيب في الشربين ، وأنهم أولاً لما عطشوا شربوا من الحميم ، ظناً أنه يسكن عطشهم فازداد العطش بحرارة الحميم ، فشربوا بعده شرباً لا يقع به ريّ أبداً ، وهو مثل شرب الهيم ، فهما شربان من الحميم لا شرب واحد ، اختلفت صفاته فعطف ، والمقصود الصفة ، والمشروب منه في (فشاربون شرب الهيم) محذوف لفهم المعنى ، تقديره فشاربون منه شرب الهيم ، وقرأ الجمهور (نزلهم) بضم الزاي ، وقرأ ابن محيصن وخارجه عن نافع ونعيم ومحبوب وأبو زيد وهارون وعصمة وعباس ، كلهم عن أبي عمرو بالسكون ، وهو أول ما يأكله الضيف ، وفيه تهكم بالكفار ، وقال الشاعر :

وَكُنَّا إِذَا أَلْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافِنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلًا^(٢)

(يوم الدين) أي يوم الجزاء (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) بالإعادة وتقرون بها ، كما أقررتم بالنشأة الأولى وهي خلقهم ، ثم قال (فلولا تصدقون) بالإعادة وتقرون بها ، كما أقررتم فهو حض على التصديق ، (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) أو (فلولا تصدقون) به ثم حض على التصديق على وجه تقييدهم بسياق الحجج الموجبة للتصديق ، وكان كافراً قال : ولم أصدق ، ف قيل له أفأريت كذا ، مما الإنسان مفطور على الإقرار به ، فقال (أفأريت ما تمنون) وهو المني الذي يخرج من الإنسان ، إذ ليس له في خلقه عمل ولا إرادة ولا قدرة ، وقال الزمخشري : (تخلقونه) تقدرونه وتصورونه ، انتهى ، فحمل الخلق على التقدير والتصوير ، لا على الإنشاء ، ويجوز في (أنتم) أن يكون مبتدأ ، وخبره تخلقونه ، والأولى أن يكون فاعلاً بفعل محذوف ، كأنه قال أتخلقونه ، فلما حذف الفعل ، انفصل الضمير وجاء أفأريت هنا مصرحاً بمفعولها الأول ، ومجيء جملة الاستفهام في موضع المفعول الثاني على ما هو المقرر فيها ، إذا كانت بمعنى أخبرني ، وجاء بعد أم جملة فليل أم منقطعة ، وليست المعادلة للهمزة ، وذلك في أربعة مواضع هنا ، ليكون ذلك على استفهامين ، فجواب الأول لا ، وجواب الثاني نعم ، فتقدر أم على هذا بل أنحن الخالقون ؟ فجوابه نعم ، وقال قوم : من النحاة ، أم هنا معادلة للهمزة ، وكان ما جاء من الخبر بعد نحن ، جيء به على سبيل التوكيد ، إذ لو قال أم نحن ، لوقع الاكتفاء به دون ذكر الخبر ، ونظير ذلك جواب من قال من في الدار زيد في الدار ، أوزيد فيها ، ولو اقتصر في الجواب على زيد لاكتفى به ، وقرأ الجمهور (ما تمنون) بضم التاء ، وابن عباس وأبو السمال بفتحها ، والجمهور قدرنا بشد الدال ، وابن كثير يخفها ، أي قضينا وأثبتنا ، أورتبنا في التقدم والتأخر فليس موت العالم دفعة واحدة ، بل بترتيب لا يتعدى ، ويقال سبقتة

(١) انظر الوسيط ١١٦ خ والبغوي ٢٨٦/٤ .

(٢) البيت من الطويل للضيبي ، انظر القرطبي ١٣٩/١٧ . روح المعاني ١٤٦/٢٧ .

على الشيء ، أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، والمعنى (وما نحن بمسبوقين) على أن نبدل أمثالكم ، أي نحن قادرون على ذلك لا تغلبونا عليه إن أردنا ذلك ، وقال الطبري : المعنى نحن قادرون قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم ، أي بموت طائفة ونبدلها بطائفة ، هكذا قرناً بعد قرن ، انتهى ، فعلى أن نبدل متعلق بقوله (نحن قدرنا) وعلى القول الأول متعلق بمسبوقين ، أي لا نسبق على أن نبدل أمثالكم ، وأمثالكم جمع مثل ، وننشئكم فيما لا تعلمون من الصفات ، أي نحن قادرون على أن نعدمكم ، وننشئ أمثالكم وعلى تغيير أوصافكم مما لا يحيط به فكركم ، وقال الحسن : من كونكم قردة وخنازير قال ذلك ، لأن الآية تنحو إلى الوعيد ، ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل ، بمعنى الصفة ، أي نحن قادرون على أن نغير صفاتكم التي أنتم عليها خلقاً وخلقاً ، وننشئكم في صفات لا تعلمونها ، (ولقد علمتم النشأة الأولى) أي علمتم أنه هو الذي أنشأكم أولاً أنشأنا إنساناً ، وقيل : نشأة آدم ، وأنه خلق من طين ولا ينكرها أحد من ولده ، (فلولا تذكرون) حض على التذكير المؤدي إلى الإيمان والإقرار بالنشأة الآخرة ، وقرأ الجمهور (تذكرون) بشد الذال ، وطلحة يخففها ، وضم الكاف قالوا ، وهذه الآية دالة على استعمال القياس والحض عليه انتهى ، ولا تدل إلا على قياس الأولى ، لا على جميع أنواع القياس ، (أفأرأيتم ما تحرثون) ما تذررونه في الأرض وتذررونه (أنتم تزرعون) أي زرعاً يتم وينبت حتى ينتفع به ، والحطام اليابس المتفتت الذي لم يكن له حب ينتفع به ، (فظلمت تفكهن) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : تعجبون ، وقال عكرمة : تلامون ، وقال الحسن : تندمون ، وقال ابن زيد : تفجعون : وهذا كله تفسير باللازم ، ومعنى تفكهن ، تطرحون الفكاهة عن أنفسكم . وهي المسرة ، ورجل فكه منبسط النفس غير مكترث بشيء ، وتفكه من أخوات تخرج وتحوب ، وقرأ الجمهور (فظلمت) بفتح الظاء ولام واحدة ، وأبو حيوة وأبو بكر في رواية القتيبي عنه بكسرهما ، كما قالوا مست بفتح الميم وكسرهما ، وحكاها الثوري عن ابن مسعود ، وجاءت عن الأعمش ، وقرأ عبد الله والجدري (فظلمتم) على الأصل بكسر اللام ، وقرأ الجحدري أيضاً بفتحها ، والمشهور ظلمت بالكسر ، وقرأ الجمهور (تفكهن) وأبو حرام بالنون بدل الهاء ، قال ابن خالويه تفكه : تعجب وتفكن تندم ، (إنا لمغرمون) قبله محذوف ، أي : يقولون ، وقرأ الجمهور (إنا) والأعمش والجحدري وأبو بكر (أثنا) بهزتين (لمغرمون) أي : معذبون من الغرام ، وهو أشد العذاب قال :

إِنْ يُعَذَّبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْطِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي^(١)

أولمحملون الغرم في النفقة ، إذ ذهب عنا غرم الرجل وأغرمته ، (بل نحن محرومون) محدودون لا حظ لنا في الخير (الماء الذي تشربون) هذا الوصف يغني عن وصفه بالعذاب ، ألا ترى مقابله وهو الأجاج ودخلت اللام في (جعلناه حطاماً) وسقطت في قوله (جعلناه أجاجاً) وكلاهما فصيح ، وطول الزمخشري في مسوغ ذلك ، وملخصه أن الحرف إذا كان في مكان وعرف واشتهر في ذلك المكان جاز حذفه لشهرة أمره ، فإن اللام علم لارتباط الجملة الثانية بالأولى فجاز حذفه استغناء بمعرفة السامع ، وذكر في كلامه أن الثاني امتنع لامتناع الأول ، وليس كما ذكر ، إنما هذا قول ضعفاء المعربين ، والذي ذكره سيويه أنها حرف لما كان سيقع لوقوع الأول ، ويفسد قول أولئك الضعفاء قولهم : لو كان إنساناً لكان حيواناً ، فالحيوانية لا تمتنع لامتناع الإنسانية ، ثم قال : ويجوز أن يقال : إن هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة ، وأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ، والظاهر أن (شجرتها) المراد منه الشجر الذي يقدح منه النار ، وقيل : المراد بالشجرة نفس النار ، كأنه يقول نوعها أو جنسها ،

فاستعار الشجرة لذلك ، وهذا قول متكلف (نحن جعلناها تذكرة) أي : لنار جهنم (ومتاعاً للمقوين) أي : النازلين الأرض القوا ، وهي القفر^(١) ، وقيل : للمسافرين^(٢) وهو قريب مما قبله ، وقول ابن زيد الجائعين ضعيف جداً ، وقدم من فوائد النار ما هو أهم وأكد من تذكيرها بنار جهنم ، ثم أتبعه بفائدتها في الدنيا ، وهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى ووقفهم عليها من أمر خلقهم وما به قوام عيشهم من الطعام والمشروب ، والنار من أعظم الدلائل على البعث ، وفيها انتقال من شيء إلى شيء ، وإحداث شيء من شيء ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهه تعالى عما يقول الكافرون ، ووصف تعالى نفسه بالعظيم ، إذ من هذه أفعاله تدل على عظمته وكبريائه وانفراده بالخلق والإشياء ، قوله عز وجل .

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولاً إذا بلغت الحلقوم وأنتم حيثئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولاً إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا هو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قرأ الجمهور (فلا أقسم) فقيل : لا زائدة مؤكدة مثلها في قوله ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ [الحديد ٢٩] والمعنى : فاقسم ، وقيل : المنفي المحذوف ، أي : فلا صحة لما يقول الكفار ، ثم ابتداء أقسم قاله سعيد بن جبير وبعض النحاة ، ولا يجوز ، لأن في ذلك حذف اسم لا وخبرها ، وليس جواباً لسائل سأل : فيحتمل ذلك نحو قوله : لا ، لمن قال هل من رجل في الدار ؟ ، وقيل : توكيد مبالغة ما وهي كاستفتاح كلام شبهه في القسم إلا في شائع الكلام القسم وغيره ومنه :

فَلَا وَابِي أَعْدَائِيهَا لَا أَخُونَهَا^(٣)

والأولى عندي أنها لام أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف كقوله :

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعُقَرَابِ^(٤)

وهذا وإن كان قليلاً فقد جاء نظيره في قوله ﴿ فاجعل أفئدة من الناس ﴾ [إبراهيم ٣٧] بياء بعد الهمزة ، وذلك في قراءة هشام ، فالمعنى (فلا أقسم) كقراءة الحسن وعيسى ، وخرج قراءة الحسن أبو الفتح على تقدير مبتدأ محذوف ، أي : فلأنا أقسم ، وتبعه على ذلك الزمخشري ، وإنما ذهبوا إلى ذلك لأنه فعل حال ، وفي القسم عليه خلاف ، فالذي اختاره ابن عصفور وغيره أن فعل الحال لا يجوز أن يقسم عليه ، فاحتاجوا إلى أن يصوروا المضارع خبر المبتدأ محذوف ، فتصير الجملة اسمية ، فيقسم عليها ، وذهب بعض النحويين إلى أن جواز القسم على فعل الحال وهذا الذي اختاره ، فتقول : والله ليخرج زيد وعليه قول الشاعر :

(١) انظر الوسيط ١١٧ خ والبغوي ٢٨٨/٤ وفتح القدير ١٥٨/٥ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) عجز بيت من الطويل لم نهند لقائله ، ذكر السمين الحلبي في الدر المصون .

(٤) صدر بيت من الرجز لم نهند لقائله ، وعجزه .

لِيَعْلَمَ رَبِّي أَنَّ بَيِّنَتِي وَاسِعٌ^(١)

وقال الزمخشري في قراءة الحسن : ولا يصح أن تكون اللام لام قسم ، لأمرين ، أحدهما : أن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح ، والثاني : أن لأفعلن في جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال انتهى ، أما الأمر الأول ففيه خلاف ، فالذي قاله قول البصريين ، وأما الكوفيون فيختارون ذلك ، ولكن يميزون تعاقبهما ، فيجيزون : لأضربن زيدا ، واضربن عمراً ، وأما الثاني فصحيح : لكنه هو الذي رجح عندنا أن تكون اللام في لا أقسم لام القسم ، وأقسم فعل حال ، والقسم قد يكون جواباً للقسم ، كما قال تعالى ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ [لتوبة ١٠٧] فاللام في (وليحلفن) جواب قسم ، وهو قسم لكنه لما لم يكن حلفهم حالاً بل مستقبلاً لزممت النون ، وهي مخرجة المضارع للاستقبال ، وقرأ الجمهور (بمواقع) جمعاً ، وعمر وعبد الله وابن عباس وأهل المدينة وحمة والكسائي (بموق) مفرداً مراداً به الجمع ، قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم : هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله - ﷺ - ، ويؤيد هذا القول قوله (إنه لقرآن) فعاد الضمير على ما يفهم من قوله (بمواقع النجوم) أي : نجوم القرآن ، وقيل : النجوم الكواكب ومواقعها ، قال مجاهد وأبو عبيدة : عند طلوعها وغروبها ، وقال قتادة : مواقعها مواضعها من السماء ، وقال الحسن : مواقعها عند الانكدار يوم القيامة ، وقيل : عند الانفضاض أثر العفاري ، ومن تأول النجوم على أنها الكواكب جعل الضمير في (إنه) يفسره سياق الكلام ، كقوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ [ص ٣٢] وفي إقسامه تعالى بمواقع النجوم سر في تعظيم ذلك لا نعلمه نحن ، وقد أعظم ذلك تعالى فقال (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) والجملة المقسم عليها قوله (إنه لقرآن كريم) وفصل بين القسم وجوابه ، فالظاهر أنه اعتراض بينهما ، وفيه اعتراض بين الصفة والموصوف بقوله (لو تعلمون) ، وقال ابن عطية : (وإنه لقسم) تأكيد للأمر وتنبية من المقسم به وليس هذا باعتراض بين الكلامين ، بل هذا معنى قصد التهم به ، وإنما الاعتراض بقوله (لو تعلمون) انتهى و (كريم) وصف مدح ينفي عنه ما لا يليق به ، وقال الزمخشري : (كريم) حسن مرضي في جنسه من الكتب ، أو نفاع جم المنافع ، أو كريم على الله تعالى (في كتاب مكنون) أي : مصون ، قال ابن عباس ومجاهد : الكتاب الذي في السماء ، وقال عكرمة : التوراة والإنجيل كأنه قال : ذكر في كتاب مكنون كرمه وشرفه ، فالمعنى على هذا الاستشهاد بالكتب المنزلة ، وقيل (في كتاب مكنون) أي : في مصاحف للمسلمين مصونة من التبديل والتغيير ، ولم تكن إذ ذاك مصاحف فهو إخبار بنبيب ، والظاهر أن قوله (لا يمسه إلا المطهرون) وصف القرآن كريم ، فالمطهرون هم الملائكة ، وقيل : لا يمسه صفة لكتاب مكنون ، فإن كان الكتاب هو الذي في السماء ، فالمطهرون هم الملائكة أيضاً ، أي : لا يطلع عليه من سواهم ، وكذا على قول عكرمة هم الملائكة ، وإن أريد بـ (كتاب مكنون) الصحف ، فالمعنى أنه لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على طهارة من الناس ، وإذا كان المطهرون هم الملائكة فلا يمسه نفي ، ويؤيد المنفي (ما يمسه) على قراءة عبد الله ، وإذا عني بهم المطهرون من الكفر والجناية ، فاحتمل أن يكون نفياً محضاً ، ويكون حكمه أنه لا يمسه إلا المطهرون ، وإن كان يمسه غير المطهر كما جاء « لا يعصده شجرها » أي : الحكم هذا ، وإن كان قد يقع العصد ، واحتمل أن يكون نفياً أريد به النهي ، فالضمة في السين إعراب ، واحتمل أن يكون نهيًا ، فلو فك ظهر الجزم ولكنه لما أدغم كان مجزوماً في التقدير ، والضمة فيه لأجل ضمة الهاء ، كما جاء في الحديث « إنا لم نرده عليك إلا أنا جزم ، وهو مجزوم ، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا من المجزوم المدغم المتصل بالهاء ضمير المذكر إلا الضم ، قال ابن عطية : والقول بأن لا يمسه نهي قول فيه ضعف ،

(١) عجز بيت من الطويل للكميت بن معروف ، وصدره (لئن قد ضاقت عليكم بيوتكم) انظر خزانة الأدب ٦٨/١٠ المفضليات ٧١٣
التصريح على التوضيح ٢٥٤/٢ .

وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة . وقوله بعد ذلك (تنزِيل) صفة ، فإذا جعلناه نهياً جاء معناه أجنبياً معترضاً بين الصفات ، وذلك لا يحسن في وصف الكلام . فتدبره ، وفي حرف ابن مسعود (ما يمسه) وهذا يقوي ما رجحته من الخبر الذي معناه حقه ، وقدره أن لا يمسه إلا طاهراً انتهى ، ولا يتعين أن يكون (تنزِيل) صفة ، بل يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، فيحسن إذ ذاك أن يكون (لا يمسه) نهياً ، وذكروا هنا حكم مس المصحف ، وذلك مذكور في الفقه ، وليس في الآية دليل على منع ذلك ، وقرأ الجمهور (الْمُطَهَّرُونَ) اسم مفعول من طَهَّرَ مَشْدَداً ، وعيسى كذلك مخففاً من أظهر ، ورويت عن نافع وأبي عمرو ، وقرأ سلمان الفارسي الْمُطَهَّرُونَ بخف الطاء وشد الهاء وكسرهما اسم فاعل من طهر ، أي : المطهرين أنفسهم ، وعنه أيضاً (الْمُطَهَّرُونَ) بشدهما أصله المتطهرون ، فأدغم التاء في الطاء ، ورويت عن الحسن وعبد الله بن عوف ، وقرئ (المتطهرون) ، وقرئ (تنزِيلاً) بالنصب أي : نزل تنزِيلاً ، والإشارة في (أفبهذا الحديث) للقرآن و (أنتم) خطاب للكفار (مدهنون) ، قال ابن عباس : مهاودون فيما لا يحل ، وقال أيضاً : مكذبون (وتعملون رزقكم) أي : شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به أي : تضعون مكان الشكر التكذيب ومن هذا المعنى قول الراجز :

مَكَانُ شُكْرِ الْقَوْمِ عِنْدَ الْيَمَنِ كَيَّ الصَّحِيحَاتِ وَقَوَّ الْأَعْيُنُ^(١)

وَقَرَأَ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ (وتعملون شكركم) وذلك على سبيل التفسير لمخالفته السواد ، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شئونة : ما رزق فلان فلاناً بمعنى ما شكره ، قيل : نزلت في الأنواء ونسبة السقيا إليها والرزق المطر فالمعنى : ما يرزقكم الله من الغيب ، وقال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر : هذا بنوء كذا وكذا ، وهذا بنوء الأسد ، وهذا بنوء الجوزاء ، وغير ذلك ، وقرأ الجمهور (تكذبون) من التكذيب ، وعليّ والمفضل عن عاصم من الكذب ، فالمعنى : من التكذيب إنه ليس من عند الله ، أي : القرآن أو المطر حيث ينسبون ذلك إلى النجوم ، ومن الكذب قولهم في القرآن : سحر وافتراء ، وفي المطر : من الأنواء ، (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) ، قال الزمخشري : ترتيب الآية ، فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين ، فلولا الثانية مكررة للتوكيد والضمير في (ترجعونها) للنفس ، وقال ابن عطية : توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله مالك كل شيء ، و (أنتم) إشارة إلى جميع البشر (حينئذ) حين إذ بلغت الحلقوم (تنظرون) أي : إلى النازع في الموت ، وقرأ عيسى (حينئذ) بكسر النون اتباعاً لحركة الهمزة في إذ (ونحن أقرب إليه منكم) بالعلم والقدرة ، (ولكن لا تبصرون) من البصيرة بالقلب ، أو أقرب ، أي : ملائكتنا ورسلا (ولكن لا تبصرون) من البصر بالعين ، ثم عاد التوقيف والتقدير : ثانية بلفظ التخصيص ، والمدين : المملوك ، قال الأخطل :

رَبَّتْ وَرَبَّانِي فِي حَجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ

قيل : ابن مملوكة يصف عبداً ابن أمة وآخر البيت :

تَرَاهُ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَوَكَّلُ

والمعنى : فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الحلقوم إن كنتم غير مملوكين وغير مقهورين ، إن كنتم صادقين في تعطيلكم ، وكفركم بالمحبي المميت المبدئ المعيد ، إذ كانوا فيما ذهبوا إليه من أن القرآن سحر وافتراء وأن ما نزل من المطر

هو بنوء كذا ، تعطيل للصانع وتعجيز له ، وقال ابن عطية : وقوله (ترجعونها) سد مسد جوابها ، والبيانات التي تقتضيها التخصيصات و (إذا) من قوله (فلولا إذا) وإن المتكررة ، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتصاراً انتهى ، وتقول : إذا ليست شرطية ، فتسد (ترجعونها) مسد جوابها ، بل هي ظرف غير شرط معمول لـ (ترجعونها) المحذوف بعد (فلولا) لدلالة (ترجعونها) في التخصيص الثاني عليه ، فجاء التخصيص الأول مقيداً بوقت بلوغ الخلقوم ، وجاء التخصيص الثاني معلقاً على انتفاء مربوبيتهم ، وهم لا يقدرّون على رجوعها ، إذ مربوبيتهم موجودة ، فهم مقهورون لا قدرة لهم (فأما إن كان) أي : المتوفى (من المقرّبين) وهم السابقون ، وقرأ الجمهور (فَرَوْح) بفتح الراء ، وعائشة عن النبي - ﷺ - وابن عباس والحسن وقتادة ونوح القاري ، والضحاك ، والأشهب ، وشعيب بن الحجاب ، وسليمان التيمي ، والربيع بن خيثم ، ومحمد بن عليّ ، وأبو عمران الجوني ، والكلبي ، ورياض ، وعبيد ، وعبد الوارث عن أبي عمرو ويعقوب بن صيان ، وزيد وروريس عنه بضمها ، قال الحسن الروح : الرحمة ، لأنها كالحيّة للمرحوم . وقال أيضاً : روحه تخرج في ريحان ، وقيل : الروح البقاء . أي : فهذان له معاً ، وهو الخلود مع الرزق ، وقال مجاهد : الريحان الرزق ، وقال الضحاك : الاستراحة ، وقال أبو العالية وقتادة والحسن أيضاً : الريحان هذا الشجر المعروف في الدنيا ، يلقي المقرب ريحاناً من الجنة ، وقال الخليل : هو ظرف كل بقلة طيبة فيها أوائل النور ، وقال - ﷺ - في الحسن والحسين - رضي الله تعالى عنها - « هما ريحانتاي من الدنيا » ، وقال ابن عطية : الريحان مما تنبسط به النفوس (فروح) فسلام (فنزل) الفاء جواب ، أما تقدم (أما) وهي في تقدير الشرط ، وإن كان من المقرّبين ، وإن كان من أصحاب اليمين ، وإن كان من المكذبين الضالين ، شرط ، وإذا اجتمع شرطان كان الجواب للسابق منهما ، وجواب الثاني محذوف ، ولذلك كان فعل الشرط ماضي اللفظ ، أو مصحوباً بلم ، وأغنى عنه جواب (أما) هذا مذهب سيويه ، وذهب أبو عليّ الفارسي إلى أن الفاء جواب (إن) ، وجواب (أما) محذوف ، وله قول موافق لمذهب سيويه ، وذهب الأخفش إلى أن الفاء جواب (لأما) والشرط معاً ، وقد أبطلنا هذين المذهبين في كتابنا المسمى « بالتذليل والتكميل في شرح التسهيل » ، والخطاب في ذلك للرسول - ﷺ - أي : لا ترى فيهم يا محمد إلا السلامة من العذاب ، ثم لكل معتبر من أمته - ﷺ - قيل : لمن يخاطبه من أصحاب اليمين ، فقال الطبري : المعنى فسلام لك أنت من أصحاب اليمين ، وقال قوم : المعنى : فيقال لهم مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وقيل : (فسلام لك) يا صاحب اليمين من أخوانك أصحاب اليمين ، أي : يسلمون عليك ، كقوله (إلا قليلاً سلاماً سلاماً) والمكذّبون الضالون ، هم أصحاب المشأمة أصحاب الشمال ، وقرأ الجمهور (وتصلية) رفعاً عطفاً على (فنزل) وأحمد بن موسى والمقري واللؤلؤي عن أبي عمرو وبجر التاء عطفاً على (من حميم) ولما انقضى الإخبار بتقسيم أحوالهم ، وما آل إليه كل قسم منهم أكد ذلك بقوله (إن هذا) أي : إن هذا الخبر المذكور في هذه السورة هو حق اليقين ، فقيل : هو من إضافة المترادفين على سبيل المبالغة ، كما تقول : هذا يقين اليقين ، وصواب الصواب بمعنى : أنها نهاية في ذلك ، فهما بمعنى واحد ، أضيف على سبيل المبالغة ، وقيل : هو من إضافة الموصوف إلى صفته جعل الحق مبيناً لليقين ، أي : الثابت المتيقن ، ولما تقدم ذكر الأقسام الثلاثة مسهباً الكلام فيهم أمره تعالى بتنزيهه عن ما لا يليق به من الصفات ، ولما أعاد التقسيم موجزاً الكلام فيه أمره أيضاً بتنزيهه وتسبيحه ، والإقبال على عبادة ربه ، والإعراض عن أقوال الكفرة المنكرين للبعث والحساب والجزاء ، ويظهر أن سبج يتعدى تارة بنفسه ، كقوله ﴿ سبج اسم ربك الأعلى ﴾ [الأعلى ١] ﴿ وتسبحوه ﴾ [الفتح ٩] وتارة بحرف الجر ، كقوله (فسبح باسم ربك العظيم) والعظيم يجوز أن يكون صفة لاسم ، ويجوز أن يكون صفة لـ (ربك) .

سورة الحديد مدنية وهي تسع وعشرون آية بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

قال النقاش وغيره : هذه السورة مدنية بإجماع من المفسرين ، وقال غيره كالزمخشري : هي مكية ، وقال ابن عطية : لا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً ، لكن يشبه صدرها أن يكون مكيّاً ، ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة ، لأنه تعالى أمر بالتسبيح ، ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض ، وأتى (سبح) بلفظ الماضي ، و (يسبح) بلفظ المضارع ، وكله يدل على الديمومة والاستمرار ، وأن ذلك ديدن من في السموات والأرض ، والتسبيح هنا عند الأكثرين بمعنى التنزيه المعروف ، في قولهم : سبحان الله ، فقيل : هو حقيقة في الجميع ، وقيل : فيمن يمكن التسبيح منهم ، وقيل : مجاز بمعنى أن أثر الصنعة فيها ينبه الرائي على التسبيح ، وقيل : التسبيح هنا الصلاة ، ففي الجهاد بعيد ، وفي الكافر سجود ظلّه صلاته ، وفي المؤمن ذلك سائق ، واللام في (لله) إما أن تكون بمنزلة اللام ، في : نصحت لزيد يقال : سبح الله ، كما يقال : نصحت زيداً ، فجاء باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول ، وإما أن تكون لام التعليل ، أي : أحدث التسبيح لأجل الله ، أي : لوجهه خالصاً ، (يحيي ويميت) جملة مستقلة لا موضع لها من الإعراب ، لقوله (له ملك السموات والأرض) لما أخبر بأنه له الملك أخبر عن ذاته بهذين الوصفين العظيمين ، اللذين بهما تمام التصرف في الملك ، وهو إيجاد ما شاء وإعدام ما شاء ، ولذلك أعقب بالقدرة التي بها الإحياء والإماتة ، وجوز أن يكون خبر مبتدأ أي : هو يحيي ويميت ، وأن يكون حالاً وذو الحال الضمير في (له) والعامل فيها العامل في الجار والمجرور ، (هو الأول) الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة ، (والآخر) أي : الدائم الذي ليس له نهاية منقضية ، وقيل : الأول الذي كان قبل كل شيء ، والآخر الذي يبقى بعد هلاك كل شيء ، والظاهر بالأدلة ونظر العقول في صفته (والباطن) لكونه غير مدرك بالحواس ، وقال أبو بكر الورّاق : الأول بالآزلية ، والآخر بالأبدية ، وقيل (الظاهر) العالي على كل شيء ، الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه ، (والباطن) الذي بطن كل شيء ، أي : علم باطنه ، وقال الزمخشري فإن قلت : فما معنى الواو قلت : الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين

الأولية والآخرية ، والثانية على أنه الجامع بين الظهور والخفاء ، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ، ومجموع الصفتين الأخريين ، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو في جميعها ظاهر وباطن جامع الظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس ، وفي هذا حجة على من جوز إدراكه في الآخرة بالحاسة انتهى ، وفيه دسياسة الاعتزال ، (يعلم ما يلج في الأرض) من المطر والأموات وغير ذلك (وما يخرج منها) من النبات والمعادن وغيرها ، (وما ينزل من السماء) من الملائكة والرحمة والعذاب وغيره (وما يعرج فيها) من الملائكة وصالح الأعمال وسيئها (وهو معكم أين ما كنتم) أي : بالعلم والقدرة ، قال الثوري : المعنى علمه معكم ، وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات ، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها ، مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها ، وقال بعض العلماء : فيمن يمتنع من تأويل ما لا يمكن حمله على ظاهره ، وقد تأول هذه الآية ، وتأول « الحجر الأسود بين الله في الأرض » ، لو اتسع عقله لتأول غير هذا مما هو في معناه ، وقرأ الجمهور (ترجع) مبنياً للمفعول والحسن وابن أبي إسحق والأعرج مبنياً للفاعل ، و (الأمور) عام في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها ، وتقدم شرح ما قبل هذا وما بعده فأغنى عن إعادته .

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۖ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۙ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا ۚ وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۚ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ۚ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝۱۱

لما ذكر تعالى تسبيح العالم له ، وما احتوى عليه من الملك والتصرف ، وما وصف به نفسه من الصفات العلا ، وختمها بالعلم بخفيات الصدور ، أمر تعالى عباده المؤمنين بالثبات على الإيمان وإدامته والنفقة في سبيل الله تعالى ، قال الضحاك (نزلت في غزوة تبوك ، (مستخلفين فيه) أي : ليست لكم بالحقيقة ، وإنما انتقلت إليكم من غيركم ، وكما وصلت إليكم تركونها لغيركم ، وفيه ترهيد فيما بيد الناس ، إذ مصيره إلى غيره ، وليس له منه إلا ما جاء في الحديث : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، وقيل لأعرابي : لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لله تعالى عندي ، أو يكون المعنى : أنه تعالى أنشأ هذه الأموال فمتعكم بها ، وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء ، فأنفقوا منها في حقوق الله تعالى ، ثم ذكر تعالى ما للمؤمن المنفق من الأجر ، ووصفه بالكرم ليصرعه في أنواع الثواب ، قيل : وفيه إشارة إلى عثمان بن عفان ، حيث بذل تلك النفقة العظيمة في جيش العسرة ، ثم قال (وما لكم لا تؤمنون بالله) وهو استفهام على سبيل التأنيب والإنكار ، أي : كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة ، وذلك ركزه فيكم من دلائل العقل ، وموجب ذلك من السمع في قوله (والرسول يدعوكم) لهذا الوصف الجليل ، وقد تقدم أخذ الميثاق عليكم بالإيمان ، فدواعي الإيمان موجودة ، وأسبابه حاصلة ، فلا مانع منه ، ولا عذر في تركه ، و (لا تؤمنون) حال كما تقول : مالك لا تقوم تنكر عليه انتفاء قيامه

(والرسول) الواو واو الحال ، فالجمله بعده حال (وقد أخذ) حال ثالثة ، وهذا الميثاق قيل : هو الذي أخذ عليهم حين الإخراج من ظهر آدم - عليه الصلاة والسلام - ، وقيل : ما نصب من الأدلة وركز في العقول من النظر فيها ، (إن كنتم مؤمنين) شرط وجوابه محذوف ، أي : إن كنتم مؤمنين لموجب ما ، فهذا هو الموجب لإيمانكم ، أو إن كنتم ممن يؤمن فما لكم لا تؤمنون والحالة هذه ، وهي دعاء الرسول وأخذ الميثاق ، وقال الطبري : إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن ، وقرأ الجمهور (وقد أَخَذَ) مبنياً للفاعل (ميثاقكم) بالنصب وأبو عمرو مبنياً للمفعول (ميثاقكم) رفعاً ، وقال ابن عطية في قوله إن كنتم مؤمنين وإنما المعنى أن قوله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد (أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) يقتضي أن يقدر بأثره ، فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة (إن كنتم مؤمنين) أي : إن دمت على ما بدأت به ، ولما ذكر توطئة ما يوجب الإيمان دعاء الرسول إياهم للإيمان ، ذكر أنه تعالى هو المنزل على رسوله - ﷺ - ما دعا به إلى الإيمان ، وذلك الآيات البينات المعجزات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أي : الله تعالى ، إذ هو المخبر عنه أو الرسول - ﷺ - لأنه أقرب ، وقرئ في السبعة (ينزل) مضارعاً فبعض ثقل ، وبعض خفف ، وقراءة الحسن بالوجهين ، وزيد بن علي والأعمش (أنزل) ماضياً ، ووصف نفسه تعالى بالرفقة والرحمة ، تأنيساً لهم ولما كان قد أمرهم بالإيمان والإنفاق ، ثم ترك تأنيبهم على ترك الإيمان مع حصول موجبه ، أنبهم على ترك الإنفاق في سبيل الله مع قيام الداعي لذلك ، وهو أنهم يموتون فيخلفونه ، ونبه على هذا الموجب بقوله (والله ميراث السموات والأرض) وهذا من أبلغ البعث على الإنفاق و (أن لا تنفقوا) تقديره : في أن لا تنفقوا ، فموضعه جر ، أو نصب على الخلاف ، وأن ليست زائدة ، بل مصدرية ، وقال الأخفش في قوله ﴿ وما لنا أن لا نقاتل ﴾ [البقرة ٣٤٦] إنها زائدة عاملة تقديره عنده : وما لنا لا نقاتل فلذلك على مذهبه في تلك هنا تكون أن وتقديره : وما لكم لا تنفقون ، وقد رد مذهبه في كتب النحو (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ، قيل : نزلت في أبي بكر - رضي الله تعالى عنه إذ كان أول من أسلم وهاجر وأنفق - رضي الله تعالى عنه - وكذا من تابعه في السبق في ذلك^(١) ، ولذلك قال (أولئك أعظم درجة) وقيل : نزلت بسبب أن ناساً من الصحابة أنفقوا نفقات جلية ، حتى قيل : إن هؤلاء أعظم أجراً من كل من أنفق^(٢) وهذه الجملة تضمنت تبين ما بين المنفقين ، وقرأ الجمهور (من قبل الفتح) وزيد بن علي قيل : بغير (من) والفتح : فتح مكة ، وهو المشهور ، وقول قتادة وزيد بن أسلم ومجاهد ، وقال أبو سعيد الخدري والشعبي : هو فتح الحديبية ، وقد تقدم في أول سورة الفتح كونه فتحاً ورفع أبو سعيد إلى النبي - ﷺ - « إن أفضل ما بين المهجرتين فتح الحديبية » والظاهر أن (مَنْ) فاعل (لا يستوي) وحذف مقابله ، وهو : ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، لوضوح المعنى ، (أولئك) أي : الذين أنفقوا قبل الفتح ، وقبل انتشار الإسلام وفشوّه واستيلاء المسلمين على أم القرى ، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين جاء في حقهم قوله - ﷺ - « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »^(٣) وأبعد من ذهب إلى أن الفاعل بـ (لا يستوي) ضمير يعود على الإنفاق ، أي : لا يستوي هو الإنفاق ، أي : جنسه إذ منه ما هو قبل الفتح وبعده ، و (من أنفق) مبتدأ ، و (أولئك) مبتدأ خبره ما بعده ، والجملة في موضع خبر (من) وهذا فيه تفكيك للكلام ، وخروج عن الظاهر لغير موجب وحذف المعطوف لدلالة المقابل كثير ، فأنفق لا سيما المعطوف الذي يقتضيه وضع الفعل وهو (يستوي) . وقرأ الجمهور (وكلاً) بالنصب وهو المفعول الأول لـ (وعد) وقرأ ابن عامر وعبد الوارث من طريق المادراي^(٤) (وكل) بالرفع والظاهر أنه مبتدأ ، والجملة بعده في موضع الخبر ، وقد أجاز ذلك الفراء وهشام ، وورد في

(١) انظر الوسيط ١٢٠ خ والبدوي ٢٩٥/٤ والخازن ٣٢/٧ وابن كثير ٣٠٧/٤ .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/٦ وابن أبي عاصم في السنة ٤٧٨/٢ وذكره الهيثمي في المجمع ١٨/١ وعزاه لأحمد وقال : فيه ابن لهيعة =

السبعة فوجب قبوله ، وإن كان غيرهما من النحاة قد خص حذف الضمير الذي حذف من مثل (وعد) بالضرورة ، وقال الشاعر :

وَحَالِدٌ تَحْمَدُ سَادَاتُنَا بِالْحَقِّ لَا تَحْمَدُ بِالْبَاطِلِ (١)

يريده تحمده ساداتنا ، وفر بعضهم من جهل (وعد) خبراً فقال : كل خبر مبتدأ تقديره : وأولئك كل و (وعد) صفة ، وحذف الضمير المنصوب من الجملة الواقعة صفة أكثر من حذفه منها إذا كانت خبراً نحو قوله :

وَمَا أَذْرِي إِغْيَرَهُمْ تَنَاءٍ وَطُولُ الْعَهْدِ أَمْ مَالُ أَصَابُوا (٢)

يريد : أصابوه ، فأصابوه صفة المال ، وقد حذف الضمير العائد على الموصوف ، و (الحسنى) تأنيث الأحسن ، وفسره مجاهد وقتادة بالجنة ، والوعد يتضمن ذلك في الآخرة ، والنصر والغنيمة في الدنيا (والله بما تعملون خبير) فيه وعد ووعد ، وتقدم الكلام على مثل قوله ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ [البقرة ٢٦١] إعراباً وتفسيراً في سورة البقرة ، وقال ابن عطية : هنا الرفع يعني في (يضاعفه) على العطف ، أو على القطع والاستئناف ، وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالنصب بالفاء على جواب الاستفهام ، وفي ذلك قلق ، قال أبو علي يعني الفارسي : لأن السؤال لم يقع على القرض ، وإنما وقع السؤال على فاعل القرض وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة - يعني من القراء - مجلت ذلك على المعنى ، كائن قوله (من ذل الذي يقرض) بمنزلة أن لو قال : أيقرض الله أحد فيضاعفه انتهى ، وهذا الذي ذهب إليه أبو علي من أنه إنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه ليس بصحيح ، بل يجوز إذا كان الاستفهام بأدواته الإسمية نحو : من يدعوني فأستجيب له ، وأين بيتك فأزورك ، ومتى تسير فأرافقك ، وكيف تكون فأصحبك ، فالاستفهام هنا واقع عن ذات الداعي ، وعن ظرف المكان وظرف الزمان ، والحال لا عن الفعل ، وحكى ابن كيسان عن العرب : أين ذهب زيد فتبعه ؟ وكذلك كم مالك فنعرفه ؟ ومن أبوك فنكرمه ؟ بالنصب بعد الفاء ، وقرأ (فيضاعفه) بالنصب قراءة متواترة ، والفعل وقع صلة للذي ، والذي صفة لذا ، وذا خبر لمن ، وإذا جاز النصب في نحو هذا فجوازه في المثل السابقة أخرى ، مع أن سماع ابن كيسان ذلك محكياً عن العرب ، ويؤيد ذلك ، والظاهر أن قوله (وله أجر كريم) هو زيادة على التضعيف المترتب على القرض ، أي : وله مع التضعيف أجر كريم قوله عز وجل :

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَتُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ

= وحديثه حسن ، وبقيه رجاله رجال الصحيح وقد صحح حديثه الشيخ شاكر - رحمه الله - .

(١) انظر البيت في المغني رقم (٨٤٥) روح المعاني ١٧٢/٢٧ .

(٢) البيت من السريع لم نهند لقائله ، حاشية الدسوقي على المغني ٢٤٣/٢ .

اللَّهُ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ قَالُوا لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ۚ

العامل في (يوم) ما عمل في (لهم) التقدير : ومستقر له أجر كريم يوم ترى ، أو اذكر يوم ترى إعظماً لذلك اليوم ، والرؤية هنا رؤية عين ، والنور حقيقة ، وهو قول الجمهور ، وروى في ذلك عن ابن عباس وغيره آثار ، وأن كل مظهر من الإيمان له نور ، فيطفئ نور المنافق ، ويبقى نور المؤمن ، وهم متفاوتون في النور ، منهم من يضيء كما بين مكة وصنعاء ، ومن نوره كالنخلة السحوق ، ومن يضيء له ما قرب قدميه ، ومنهم من يهم بالانطفاء مرة ، وبين مرة ، وذلك على قدر الأعمال ، وقال الضحاك : النور استعارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه ، والظاهر أن النور يتقدم لهم بين أيديهم ، ويكون أيضاً (بأيمانهم) فيظهر أنهما نوران ، نور ساع بين أيديهم ، ونور بأيمانهم ، فذلك يضيء الجهة التي يؤمنونها ، وهذا يضيء ما حوالهم من الجهات ، وقال الجمهور : النور أصله بأيمانهم ، والذي بين أيديهم هو الضوء المنبسط من ذلك النور ، وقيل : الباء بمعنى عن ، أي : عن أيمانهم ، والمعنى في جميع جهاتهم ، وعبر عن ذلك بالإيمان تشريفاً لها ، وقال الزمخشري : إنما قال (بين أيديهم وبأيمانهم) لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، وقرأ الجمهور (وبأيمانهم) جمع يمين ، وسهل بن شعيب السهمي وأبو حيو بكسر الهمزة ، وعطف هذا المصدر على الظرف ، لأن الظرف متعلق بمحذوف ، أي : كائناً بين أيديهم ، وكائناً بسبب أيمانهم ، (وبشراكم اليوم جنات) جملة معمولة لقول محذوف ، أي : تقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم جنات ، أي : دخول جنات ، قال ابن عطية : خالدين فيها إلى آخر الآية ، مخاطبة لمحمد - ﷺ - انتهى . ولا مخاطبة هنا ، بل هذا من باب الالتفات من ضمير الخطاب في (بشراكم) إلى ضمير الغيبة في (خالدين) ولو جرى على الخطاب لكان التركيب : خالداً أنتم فيها ، والالتفات من فنون البيان (يوم يقول) بدل من (يوم ترى) ، وقيل : معمول لأذكر ، قال ابن عطية : ويظهر لي أن العامل فيه ذلك هو الفوز العظيم ، ومحجى معنى الفوز أفخم ، كأنه يقول : إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعترى المنافقين كذا وكذا ، لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه ومضاده أبداع وأفخم انتهى . فظاهر كلامه وتقديره : أن (يوم) منصوب بالفوز ، وهو لا يجوز ، لأنه مصدر قد وصف قبل أخذ متعلقاته ، فلا يجوز إعماله ، فلو أعمل وصفه وهو (العظيم) لجاز ، أي : الفوز الذي عظم أي قدره يوم يقول ، (انظرونا) أي : انتظرونا ، لأنهم لما سبقوكم إلى المرور على الصراط ، وقد طفئت أنوارهم قالوا ذلك ، قال الزمخشري (انظرونا) انتظرونا ، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة ، كالبروق الخاطفة على ركاب تذف بهم ، وهؤلاء مشاة أو انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم ، والنور بين أيديهم فيستضيئون به انتهى . فجعل (انظرونا) بمعنى انظروا إلينا ، ولا يتعدى النظر هذا في لسان العرب إلا بلى لا بنفسه وإنما وجد متعدياً بنفسه في الشعر ، وقرأ زيد بن علي وابن وثاب والأعمش وطلحة وحمة (انظرونا) من أنظر رباعياً ، أي : آخرونا أي : اجعلونا في آخركم ، ولا تسبقونا بحيث تفوتونا ولا نلحق بكم (نفتبس من نوركم) ، أي : نصب منه حتى نستضيء به ، ويقال : اقتبس الرجل واستقبس ، أخذ من نار غيره قبساً ، (قيل ارجعوا وراءكم) القائل المؤمنون ، أو الملائكة والظاهر أن (وراءكم) معمول لـ (ارجعوا) وقيل : لا محل له من الإعراب ، لأنه بمعنى ارجعوا ، كقولهم : وراءك أوسع لك ، أي : ارجع تجد مكاناً أوسع لك ، وارجعوا أمر توبيخ وطرده ، أي : ارجعوا إلى الموقف حيث أعطينا الفوز فالتمسوه هناك ، وارجعوا إلى الدنيا والتمسوا نوراً ، أي : بتحصيل سببه ، وهو الإيمان أو تنحوا عنا فالتمسوا نوراً غير هذا ، فلا سبيل لكم إلى الاقتباس منه ، وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما هو إقناط لهم ، (فضرِب بينهم) أي : بين المؤمنين والمنافقين (بسور) بحاجز ، وقال ابن زيد : هو الأعراف ،

وقيل : حاجز غيره ، وقرأ الجمهور (فُضِرَبَ) مبنياً للمفعول ، وزيد بن علي وعبيد بن عمر مبنياً للفاعل ، أي : الله ويبعد قول من قال : إن هذا السور هو الجدار الشرقي من مسجد بيت المقدس ، وهو مروى عن عبادة بن الصامت ، وابن عباس وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار ، ولعله لا يصح عنهم ، والسور هو الحاجز الدائر على المدينة للحفظ من عدو ، والظاهر في باطنه أن يعود الضمير منه على الباب لقربه ، وقيل : على السور ، وباطنه الشق الذي لأهل الجنة ، وظاهره ما يدانيه من قبله من جهته العذاب ، (ينادونهم) استئذان إخبار أي : ينادون المنافقون المؤمنين (ألم نكن معكم) أي : في الظاهر (قالوا بلى) أي : كنتم معنا في الظاهر (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أي : عرضتم أنفسكم للفتنة بنفاقكم (وتربصتم) أي : يمايئلكم حتى وافيتكم على الكفر ، أو (تربصتم) بالمؤمنين الدوائر ، قاله قتادة (وارتبتم) شككتكم في أمر الدين (وغرتكم الأماني) وهي الأطماع مثل قولهم : سيهلك محمد هذا العام ، تهزمه قبيلة قريش مستأخرة الأحزاب إلى غير ذلك ، أو طول الآمال في امتداد الأعمار (حتى جاء أمر الله) وهو الموت على النفاق ، و (الغرور) الشيطان بإجماع ، وقرأ سماك بن حرب (الغرور) وتقدم ذلك ، (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) أيها المنافقون والناصب لليوم الفعل المنفي بلا ، وفيه حجة على من منع ذلك (ولا من الذين كفروا) في الحديث « إن الله تعالى يعزر الكافر فيقول له ، أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا ، أكنت تفتدي بجميع ذلك من عذاب النار ، فيقول : نعم يارب ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك ، وأنت في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك » ، وقرأ الجمهور (لا يؤخذ) وأبو جعفر والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر وهارون عن أبي عمرو بالتاء لتأنيث الفدية ، (هي مولاكم) قيل : أولى بكم ، وهذا تفسير معنى ، وكانت مولاكم من حيث إنها تضمهم وتبشرهم ، وهي تكون لكم مكان المولى ونحوه قوله :

نَجِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد هي ناصركم ، أي : لا ناصر لكم غيرها ، والمراد نفى الناصر على البتات ، ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا ، فاستنصر الجزع ، ومنه قوله تعالى ﴿ يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمِهلِ ﴾ [الكهف ٢٩] وقيل : تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار ، قوله عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ١٦ ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ١٧ ﴿ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهِمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ١٨ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ١٩ ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ الْغُرُورِ ﴾ ٢٠

عن عبد الله ملت الصحابة ملة فنزلت (ألم يأن)^(١) وعن ابن عباس : عوتبوا بعد ثلاث عشرة سنة^(٢) ، وقيل : كثر المزاح في بعض شباب الصحابة فنزلت^(٣) ، وقرأ الجمهور (ألم) والحسن وأبو السهال (ألماً) والجمهور (يأن) مضارع أي حان ، والحسن (يثن) مضارع أن حان أيضاً ، والمعنى : قرب وقت الشيء (أن تحشع) تطمئن وتختب ، وهو من عمل القلب ، ويظهر في الجوارح ، وفي الحديث « أول ما يرفع من الناس الخشوع لذكر الله » ، أي : لأجل ذكر الله ، كقوله ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ [الأنفال ٢] ، وقيل : أول تذكير الله إياهم ، وقرأ الجمهور (وما نزل) مشدداً ، ونافع وحفص مخففاً ، والجحدري وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو ، في رواية يونس وعباس عنه مبنياً للمفعول كشدداً وعبد الله أنزل بهمة النقل مبنياً للفاعل ، والجمهور (ولا يكونوا) بياء الغيبة عطفاً على (أن تحشع) وأبو حيوة وابن أبي عبلة وإسماعيل عن أبي جعفر وعن شيبه ويعقوب وحمة في رواية عن سليم عنه (ولا تكونوا) على سبيل الالتفات إما نهيًا وإما عطفاً على (أن تحشع) (كالذين أوتوا الكتاب من قبل) وهم معاصر وموسى - عليه السلام - من بني إسرائيل ، حذر المؤمنون أن يكونوا مثلهم في قساوة القلوب ، إذ كانوا إذا سمعوا التوراة رقوا وخشعوا (فطال عليهم الأمد) أي : انتظار الفتح ، أو انتظار القيامة ، وقيل : أمد الحياة ، وقرأ الجمهور (الأمد) مخفف الدال ، وهي الغاية من الزمان وابن كثير بشدها ، وهو الزمان بعينه الأطول (فقس قلوبهم) صلبت بحيث لا تتفعل للخير والطاعة ، يحبي الأرض بعد موتها ، يظهر أنه تمثيل لتلين القلوب بعد قسوتها ولتأثير ذكر الله فيها ، كما يؤثر الغيث في الأرض ، فتعود بعد إجداها مخصبة ، كذلك تعود القلوب النافرة مقبلة يظهر فيها أثر الطاعات والخشوع ، وقرأ الجمهور (المصدقين والمصدقات) بشد صاديهما وابن كثير وأبو بكر والمفضل وأبان وأبو عمرو في رواية هارون بخفها وأبى بقاء قبل الصاد فيهما ، فهذه وقراءة الجمهور من الصدقة ، والخف من التصديق ، صدقوا رسول الله - ﷺ - فيما بلغ عن الله تعالى ، قال الزمخشري (فإن قلت :) علام عطف قوله (وأقرضوا) (قلت :) على معنى الفعل في (المصدقين) لأن اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا ، كأنه قيل : إن الذين اصدقوا وأقرضوا انتهى ، وتابع في ذلك أبا علي الفارسي ، ولا يصح أن يكون معطوفاً على (المصدقين) لأن المعطوف على الصلة صلة ، وقد فصل بينها بمعطوف ، وهو قوله (والمصدقات) ولا يصح أيضاً أن يكون معطوفاً على صلة ال في (المصدقات) لاختلاف الضمائر ، وإذ ضمير (المتصدقات) مؤنث ، وضمير (وأقرضوا) مذكر ، فيتخرج هنا على حذف الموصول ، لدلالة عما قبله عليه ، لأنه قيل : (والذين أقرضوا) فيكون مثل قوله :

فَمَنْ يَتَّبِعْ رِسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحْهُ وَيَنْصُرْهُ سَوَاءٌ^(٤)

يريد : ومن يمدحه ، وصديق من أبنية المبالغة ، قال الزجاج ، ولا يكون فيما أحفظ إلا من ثلاثي ، وقيل : يجيء من غير الثلاثي ، كمسيك ، وليس بشيء ، لأنه يقال : مسك وأمسك فمسيك من مسك (والشهداء) الظاهر أنه مبتدأ خبره ما بعده ، فيقف على (الصديقون) وإن شئت فهو من عطف الجمل ، وهذا قول ابن عباس ومسروق والضحاك أن الكلام تام في قوله (الصديقون) واختلف هؤلاء ، فبعض قال : الشهداء هم الأنبياء يشهدون للمؤمنين بالصدقية ، لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ [النساء ٤١] الآية ، وبعض قال : هم الشهداء في سبيل الله تعالى ، استأنف الخبر عنهم ، فكأنه جعلهم صنفاً مذكوراً وحده ، لعظم أجرهم ، وقال ابن مسعود ومجاهد وجماعة ، (والشهداء)

(١) انظر الوسيط ١٢٢ خ والبغوي ٢٩٧/٤ .

(٢) انظر الوسيط ١٢٢ خ ، والبغوي ٢٩٧/٤ .

(٣) انظر الوسيط ١٢٢ خ ، والبغوي ٢٩٧/٤ .

(٤) البيت من الوافر لحسان انظر ديوانه (٦٤) وقد تقدم .

الإحرام مع الإمام . وقال علي : كن أول داخل في المسجد ، وآخر خارج ، واستدل بهذا السبق على أن أول أوقات الصلوات أفضل ، وجاء لفظ سابقوا كأنهم في مضمار يجرون إلى غاية مسابقين إليها . (عرضها) أي : مساحتها في السعة كما قال : ﴿ فذودعاء عريض ﴾ [فصلت ٥١] أو العرض خلاف الطول ، فإذا وصف العرض بالبسطة عرف أن الطول أبسط وأمد . (أعدت) يدل على أنها مخلوقة ، وتكرر ذلك في القرآن يقوي ذلك ، والسنة ناصة على ذلك ، وذلك يرد على المعتزلة في قولهم : إنها الآن غير مخلوقة وستخلق . (ذلك) أي : الموعود من المغفرة والجنة (فضل الله) عطاؤه (يؤتيه من يشاء) وهم المؤمنون . (ما أصاب من مصيبة) أي : مصيبة ، وذكر فعلها وهو جائز التذكير والتأنيث ، ومن التأنيث ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ [الحجر ٥] ولفظ مصيبة يدل على الشر ، لأن عرفها ذلك . قال ابن عباس ما معناه : أنه أراد عرف المصيبة ، وهو استعمالها في الشر ، وخصصها بالذكر لأنها أهم على البشر ، والمصيبة في الأرض مثل القحط ، والزلزلة ، وعاهة الزرع ، وفي الأنفس الأسقام والموت ، وقيل : المراد بالمصيبة الحوادث كلها من خير وشر (إلا في كتاب) هو اللوح المحفوظ ، أي : مكتوبة فيه (من قبل أن نبرأها) أي : نخلقها ، برأ : خلق ، والضمير في نبرأها الظاهر أنه يعود على المصيبة ، لأنها هي المحدث عنها ، وذكر الأرض والأنفس هو على سبيل محل المصيبة ، وقيل : يعود على الأرض ، وقيل : على الأنفس قاله ابن عباس وقتادة وجماعة ، وذكر المهدي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر . قال ابن عطية : وهي كلها معارف صحاح ، لأن الكتاب السابق أزي قبل هذه كلها انتهى . (إن ذلك) أي : يحصل كل ما ذكر في كتاب ، وتقديره : (على الله يسير) أي : سهل ، وإن كان عسيراً على العباد ، ثم بين تعالى الحكمة في إعلامنا بذلك الذي فعله من تقدير ذلك وسبق قضائه به ، فقال : (لكيلا تأسوا) أي : تحزنوا (على ما فاتكم) لأن العبد إن أعلم ذلك سلم ، وعلم أن ما فاتته لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، فلذلك لا يحزن على فائت لأنه ليس بصدد أن يفوته فهون عليه أمر حوادث الدنيا بذلك ، إذ قد وطن نفسه على هذه العقيدة ، ويظهر أن المراد بقوله : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ [آل عمران ١٥٣] أن يلحق الحزن الشديد على ما فات من الخير ، فيحدث عنه التسخط ، وعدم الرضا بالمقدور (ولا تفرحوا بما آتاكم) أن يفرح الفرح المؤدي إلى البطر المنهي عنه في قوله تعالى : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص ٧٦] فإن الحزن قد ينشأ عنه البطر ، ولذلك ختم بقوله (والله لا يجب كل مختال فخور) فالفرح بما ناله من حطام الدنيا يلحقه في نفسه الخيلاء ، والافتخار ، والتكبر على الناس ، فمثل هذا هو المنهي عنه ، وأما الحزن على ما فات من طاعة الله ، والفرح بنعم الله والشكر عليها والتواضع فهو مندوب إليه . وقال ابن عباس : ليس أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ، ومن أصاب خيراً جعله شكراً ، انتهى . يعني هو المحمود . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح . (قلت :) المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغي الملهي عن الشكر ، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس به انتهى . وقرأ الجمهور (بما آتاكم) أي : أعطاكم ، وعبد الله (أوتيتم) مبنياً للمفعول ، أي : أعطيتم وأبو عمر (وآتاكم) أي : (جاءكم الذين ييخلون) أي : هم الذين ييخلون أو يكون الذين مبتدأ محذوف الخبر على جهة الإبهام ، تقديره مذمومون أو موعودون بالعذاب ، أو مستغنى عنهم أو على إضمار ، أعني : فهو في موضع نصب ، أو في موضع نصب صفة لكل مختال ، وإن كان نكرة فهو مخصص نوعاً ما فيسوغ لذلك وصفه بالمعرفة ، قال ابن عطية : هذا مذهب الأخفش انتهى . عظمت الدنيا في أعينهم فبخلوا أن يؤدوا منها حقوق الله تعالى ، وما كفاهم ذلك حتى أمروا الناس بالبخل ، ورغبوهم في الإمساك ، والظاهر أنهم أمروا الناس حقيقة . وقيل : كانوا قدوة فيه ، فكأنهم يأمرهم به ، ومن يقول عن ما أمر الله به . وقرأ الجمهور (فإن الله هو) وقرأ نافع وابن عامر بإسقاط هو ، وكذا في

مصاحف المدينة والشام ، وكلتا القراءتين متواترة ، فمن أثبتت هو فقال أبو علي الفارسي : يحسن أن يكون فصلاً ، قال : ولا يحسن أن يكون ابتداء ، لأن حذف الابتداء غير سائغ انتهى : يعني أنه في القراءة الأخرى حذف ، ولو كان مبتدأ لم يجوز حذفه ، لأنك إذا قلت إن زيداً هو الفاضل ، فأعربت هو مبتدأ لم يجوز حذفه ، لأن ما بعده من قولك الفاضل صالح أن يكون خبراً لأن ، فلا يبقى دليل على حذف هو الرابط ، ونظيره الذين هم يراؤون ، لا يجوز حذف هم ، لأن ما بعده يصلح أن يكون صلة فلا يبقى دليل على المحذوف ، وما ذهب إليه أبو علي ليس بشيء ، لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين ، وتركيب إحداهما على الأخرى ، وليس كذلك ، ألا ترى أنه يكون قراءتان في لفظ واحد ، ولكل منهما توجيه يخالف الآخر ، كقراءة من قرأ ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ [آل عمران ٣٦] بضم التاء ، والقراءة الأخرى بما وضعت بتاء التانيث ، فضم التاء يقتضي أن الجملة من كلام أم مريم ، وتاء التانيث تقتضي أنها من كلام الله تعالى ، وهذا كثير في القراءات المتواترة ، فكذاك هذا يجوز أن يكون هو مبتدأ في قراءة من أثبتته ، وإن كان لم يرد في القراءة الأخرى ، ولكل من التركيبين في الإعراب حكم يخصه . (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات) الظاهر أن الرسل هنا هم من بني آدم ، والبينات الحجج والمعجزات ، (وأنزلنا معهم الكتاب) الكتاب اسم جنس ، ومعهم حال مقدرة ، أي : وأنزلنا الكتاب صائراً معهم أي : مقدراً صحبتهم لهم ، لأن الرسل منزلين هم والكتاب ، ولما أشكل لفظ معهم على الزمخشري فسر الرسل بغير ما فسرناه . فقال : (لقد أرسلنا رسلنا) يعني الملائكة إلى الأنبياء بالحجج والمعجزات (وأنزلنا معهم الكتاب) أي : الوحي ، والميزان وروي أن جبريل - عليه السلام - نزل بالميزان فدفعه إلى نوح ، وقال : مرقومك يزنون به ، (وأنزلنا الحديد) قيل : نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد ، السندان والكلبتان والميعة والمطرقة والإبرة . وروي ومعه المسن والمسحاة ، وعن النبي - ﷺ - « أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، أنزل الحديد والنار والماء والملح » انتهى . وأكثر المتأولين على أن المراد بالميزان العدل ، فقال ابن زيد وغيره : أراد بالموازين المعرفة بين الناس ، وهذا جزء من العدل (ليقوم الناس بالقسط) الظاهر أنه علة لإنزال الميزان فقط ، ويجوز أن يكون علة لإنزال الكتاب والميزان معاً ، لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكليف ، فإنه لا جور في شيء منها ، ولذلك جاء ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ [آل عمران ١٨] ، (وأنزلنا الحديد) عبر عن إيجادها بالإنزال كما قال (وأنزل لكم من الأنعام) وأيضاً فإن الأوامر وجميع القضايا وللأحكام لما كانت تلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها قاله ابن عطية . وقال الجمهور : أراد بالحديد جنسه من المعادن . وقال ابن عباس : نزل آدم من الجنة ومعه السندان والكلبتان والميعة (فيه بأس شديد) أي : السلاح الذي يباشر به القتال (ومنافع للناس) في مصالحهم ومعاشهم وصنائعهم ، فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها . (وليعلم الله) علة لإنزال الكتاب والميزان والحديد (من ينصره ورسله) بالحجج والبراهين المنتزعة من الكتاب المنزل ، وبإقامة العدل ، وبما يعمل من آلة الحرب للجهاد في سبيل الله . قال ابن عطية : أي : ليعلمه موجوداً ، فالتغير ليس في علم الله ، بل في هذا الحديث الذي خرج من العدم إلى الوجود ، وقوله : (بالغيب) معناه بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه ، فأمّن بها لقيام الأدلة عليها ، ولما قال تعالى : (من ينصره ورسله) وذكر تعالى أنه غني عن نصرته بقدرته وعزته ، وأنه إنما كلفهم الجهاد لمنفعة أنفسهم ، وتحصيل ما يترتب لهم من الثواب . وقال ابن عطية : ويترتب معنى الآية بأن الله تعالى أخبر بأنه أرسل رسله ، وأنزل كتباً وعدلاً مشروعاً وسلاحاً يحارب به من عاند ، ولم يهتد بهدي الله فلم يبق عذر ، وفي الآية على هذا التأويل حث على القتال . قوله عز وجل :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْتَ لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة أفرد منهم في هذه الآية نوحاً وإبراهيم - عليهما السلام - تشریفاً لهما بالذكر ، أما نوح فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض ، وأما إبراهيم فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء - عليهم السلام - وهو معظم في كل الشرائع ، ثم ذكر أشرف ما حصل لذريتهما ، وذلك النبوة وهي التي بها هدى الناس من الضلال والكتاب ، وهي الكتب الأربعة التوراة والزبور والإنجيل والقرآن ، وهي جميعها في ذرية إبراهيم - عليه السلام - وإبراهيم من ذرية نوح فصديق أنها في ذريتهما ، وفي مصحف عبد الله والنبية مكتوبة بآباء عوض الواو . وقال ابن عباس : والكتاب الخط بالقلم ، والظاهر أن الضمير في منهم عائد على الذرية . وقيل : يعود على المرسل إليهم لدلالة ذكر الإرسال والمرسلين عليهم ، ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العلل بذلك انقسموا إلى مهتد وفاسق ، وأخبر بالفسق عن الكثير منهم . (ثم قفينا) أي : اتبعنا وجعلناهم يقفون من تقدم (على آثامهم) أي : آثار الذرية (برسلنا) وهم الرسل الذين جاؤوا بعد الذرية (وقفينا بعيسى) ذكره تشریفاً له ولا انتشار أمته ، ونسبه لأمه على العادة في الأخبار عنه ، وتقدمت قراءة الحسن (الإنجيل) بفتح الهمزة في أول سورة آل عمران . قال أبو الفتح : وهو مثال لا نظير له انتهى . وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب . وقال الزمخشري : أمره أهون من أمر البرطيل يعني أنه بفتح الباء ، وكأنه عربي ، وأما الإنجيل فأعجمي . وقرئ رافة على وزن فعالة ، وجعلنا يحتمل أن يكون المعنى وخلقنا . كقوله ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام ١] ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا فيكون في قلوب في موضع المفعول الثاني لجعلنا . (ورهبانية) معطوف على ما قبله فهي داخله في الجمل . (ابتدعوها) جملة في موضع الصفة لرهبانية ، وخصت الرهبانية بالابتداع ، لأن الرافة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها بخلاف الرهبانية ، فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب ، ففيها موضع للتكسب . قال قتادة الرافة والرحمة من الله ، والرهبانية هم ابتدعوها ، والرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن^(١) واتخاذ الصوامع ، وجعل أبو علي الفارسي : ورهبانية مقتطعة من العطف على ما قبلها من رافة ورحمة ، فانتصب عنده ورهبانية على إضمار فعل يفسره ما بعده ، فهو من باب الاشتغال ، أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، واتبعه الزمخشري ، قال : وانتصابها بفعل مضمير يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، يعني : وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها انتهى . وهذا إعراب المعتزلة ، وكان أبو علي معتزلياً وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد ، فالرافة والرحمة من خلق الله ، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له ، وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية ، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه الرفع بالابتداء ، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله : (ورهبانية) لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للابتداء بالنكرة . وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم اختلفوا ثلاث فرق . ففرقة قاتلت الملوك على

الدين فغلبت وقتلت وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه ، ولم تقا تل فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير فقتلوا . وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصوامع والديارات ، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت ، والرهبانية الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف بني فعلا ن من رهب كالخشيان من خشي^(١) وقرىء (ورهبانية) بالضم . قال الزمخشري : كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان انتهى . والأولى أن يكون منسوباً إلى رهبان ، وغير بضم الراء لأن النسب باب تغيير ، ولو كان منسوباً إلى رهبان الجمع لرد إلى مفردة ، فكان يقال راهبية إلا إن كان قد صار كالعلم فإنه ينسب إليه على لفظه كالأنصار ، والظاهر أن (إلا ابتغاء رضوان الله) استثناء متصل من ما هو مفعول من أجله ، وصار المعنى أنه تعالى كتبها عليهم ابتغاء مرضاته ، وهذا قول مجاهد ، ويكون كتب بمعنى قضى . وقال قتادة وجماعة : المعنى لم يفرضها عليهم ، ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى ، فلا استثناء على هذا منقطع ، أي : لكن ابتدعوها لا ابتغاء رضوان الله تعالى والظاهر أن الضمير في (رعوها) عائد على ما عاد عليه في ابتدعوها ، وهو ضمير الذين اتبعوه ، أي : لم يرعوها كما يجب على الناظر رعاية نذره ، لأنه عهد مع الله لا يحل نكته . وقال نحوه ابن زيد ، قال : لم يدوموا على ذلك ، ولا وفوه حقه ، بل غيروا وبدلوا ، وعلى تقدير أن فيهم من رعى يكون المعنى : فما رعوها بأجمعهم . وقال ابن عباس وغيره : الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم . وقال الضحاك وغيره : الضمير للأخلاف الذين جاؤا بعد المبتدعين لها . (فأتينا الذين آمنوا) وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام . (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين لم يرعوها . (يا أيها الذين آمنوا) الظاهر أنه نداء لمن آمن من أمة محمد - ﷺ - فمعنى آمنوا دوموا وأثبتوا ، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور ملتبساً بما أمر به (يؤتكم كفلين) قال أبو موسى الأشعري : كفلين ضعفين بلسان الحبشة انتهى . والمعنى : أنه يؤتكم مثل ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين ، في قوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ [القصص ٥٤] إذ أنتم مثلهم في الإيمانين لا تفرقوا بين أحد من رسله . وروي أن مؤمني أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، وادعوا الفضل عليهم فنزلت . وقيل : النداء متوجه لمن آمن من أهل الكتاب ، فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد - ﷺ - يؤتكم الله كفلين ، أي : نصيبين من رحمته ، وذلك لإيمانكم بمحمد - ﷺ - وإيمانكم بمن قبله من الرسل ، (ويجعل لكم نوراً تمشون به) وهو النور المذكور في قوله ﴿ يسعى نورهم ﴾ [الحديد ١٢] ويغفر لكم ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ، ويؤيد هذا المعنى ما ثبت في الصحيح : ثلاثة يؤتهم الله أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي الحديث . ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا أنهم لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين ، والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله - ﷺ - فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلاً قط ، وإذا كان النداء لمؤمني هذه الأمة ، والأمر لهم فروي أنه لما نزل هذا الوعد لهم حسدهم أهل الكتاب ، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها ، وترغم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه ، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك ، وأعلم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون . وقرأ الجمهور : (لئلا يعلم) ولا زائدة كهي في قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف ١٢] وفي وقوله : ﴿ انهم لا يرجعون ﴾ [الأنبياء ٩٥] في بعض التأويلات . وقرأ خطاب بن عبد الله (لأن لا يعلم) وعبد الله وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة على اختلاف ليعلم ، والجحدري ليعلم أصله ، لأن يعلم قلب الهمزة ياء لكسرة ما قبلها وأدغم النون في الياء بغير غنة ، كقراءة خلف أن يضرب بغير غنة ، وروى ابن مجاهد عن الحسن (ليلاً) مثل ليلى اسم المرأة (يعلم) برفع الميم ، أصله لأن لا يفتح لام الجر ، وهي لغة فحذفت الهمزة اعتباطاً وأدغمت النون في اللام فاجتمعت الأمثال ، وثقل النطق بها فأبدلوا من الساكنة ياء ، فصار

ليلاً ، ورفع الميم لأن (أن) هي المخففة من الثقيلة ، لا الناصبة للمضارع إذ الأصل لأنه لا يعلم ، وقطرب عن الحسن أيضاً (لثلا) بكسر اللام ، وتوجيهه كالذي قبله ، إلا أنه كسر اللام على اللغة الشهيرة في لام الجر ، وعن ابن عباس (كي يعلم) وعنه (لكيلا يعلم) وعن عبد الله وابن جبير وعكرمة (لكي يعلم) . وقرأ الجمهور أن لا يقدرّون بالنون فإن هي المخففة من الثقيلة ، وعبد الله بحذفها فإن الناصبة للمضارع والله تعالى أعلم .

سورة المجادلة مدنية وهي اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۖ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
 الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ۖ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ
 مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا
 فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
 شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ۖ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
 أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا
 يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ
 مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ
 يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ
 وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْنَجُوا بِالْآثِمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَى ۚ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
 تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ
 وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَتٍ فَإِذْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٢ ؕ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٥ لَّنْ نُّعْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أُولَدَهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٦ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ءَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ١٧ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٨ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ءُولَئِكَ فِي الْآدِلِينَ ١٩ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٠ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ءُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ءَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢١

فسح في المجلس وسع لغيره ﴿ قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ، إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ، يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ، ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿ هذه السورة مدنية . قال الكلبي : إلا قوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) ، وعن عطاء : العشر الأول منها مدني ، وباقيها مكِّي . قرأ الجمهور قد سمع بالبيان ، وأبو عمرو وحمة والكسائي وابن محيصن بالإدغام ، قال خلف بن هشام البزار : سمعت الكسائي يقول من قرأ قد سمع فين الدال عند السين فلسانه أعجمي ليس بعربي ، ولا يلتفت إلى هذا القول ، فالجمهور على البيان ، والتي تجادل : خولة بنت ثعلبة ، ويقال بالتصغير ، أو خولة بنت خويلد ، أو خولة بنت حكيم ، أو خولة بنت دليج ، أو جميلة ، أو خولة بنت الصامت أقوال للسلف ، وأكثر الرواة على أن الريح في هذه النازلة أوس بن الصامت أخو عبادة . وقيل : سلمة بن صخر البياضي ظاهر من امرأته ، قالت زوجته : يا رسول الله أكل أوس شباي ، ونثرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني ، فقال لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فقالت : يا

رسول الله لا تفعل فيني وحيدة ليس لي أهل سواه ، فراجعها بمثل مقالته فراجعته ، فهذا هو جدالها ، وكانت في خلال ذلك تقول اللهم إن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله ، فنزل الوحي عند جدالها^(١) . قالت عائشة - رضي الله تعالى عنها - سبحان من وسع سمعه الأصوات^(٢) كان بعض كلام خولة يخفى عليّ ، وسمع الله جدالها فبعث رسول الله - ﷺ - إلى أوس وعرض عليه كفارة الظهار العتق ، فقال : ما أملك والصوم ، فقال : ما أقدر والإطعام فقال : لا أجد إلا أن تعينني فأعانه - ﷺ - بخمسة عشر صاعاً ، ودعا له فكفر بالإطعام وأمسك أهله ، وكان عمر - رضي الله تعالى عنه - يكرم خولة إذا دخلت عليه ويقول قد سمع الله لها^(٣) وقال الزمخشري : معنى (قد) التوقع ، لأنه - ﷺ - والمجادلة كانا متوقعين أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ، وينزل في ذلك ما يفرج عنها انتهى . وقرأ الحريمان وأبو عمرو ويظهرون بشدهما والأخوان وابن عامر يظاهرون مضارع ظاهر ، وأبى يتظاهرون مضارع تظاهر ، وعنه يتظاهرون مضارع تظهر ، والمراد به كله الظهار ، وهو قول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي ، يريد في التحريم كأنه إشارة إلى الركوب إذ عرفه في ظهور الحيوان ، والمعنى : أنه لا يعلوها كما لا يعلو أمه ، ولذلك تقول العرب في مقابلة ذلك نزلت عن امرأتي أي : طلقته ، وقوله منكم إشارة إلى توبيخ العرب ، وتهجين عاداتهم في الظهار ، لأنه كان من إيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم . وقرأ الجمهور (أمهاتهم) بالنصب على لغة الحجاز ، والمفضل عن عاصم بالرفع على لغة تميم ، وابن مسعود بأمهاتهم بزيادة الباء . قال الزمخشري : في لغة من ينصب انتهى . يعني أنه لا تزداد الباء في لغة تميم ، وهذا ليس بشيء ، وقد رد ذلك على الزمخشري ، وزيادة الباء في مثل ما زيد بقائم كثير في لغة تميم ، والزمخشري تبع في ذلك أبا عليّ الفارسي - رحمه الله - ولما كان معنى كظهر أمي كأمي في التحريم ، ولا يراد خصوصية الظهر الذي هو من الجسد جاء النفي بقوله (ما هنّ أمهاتهم) ثم أكد ذلك بقوله (إن أمهاتهم) أي : حقيقة (إلا السلائي ولدنهم) وألحق بهنّ في التحريم أمهات الرضاع ، وأمّهات المؤمنين أزواج الرسول - ﷺ - والزوجات لسن بأمهات حقيقة ، ولا ملحقات بهنّ . فقول المظاهر منكر من القول تنكرة الحقيقة ، وينكره الشرع ، وزور كذب باطل منحرف عن الحق ، وهو محرم تحريم المكروهات جداً فإذا وقع لزم ، وقد رجيّ تعالى بعده بقوله : (وإن الله لعفو غفور) مع الكفارة ، وقال الزمخشري : وإن الله لعفو غفور لما سلف منه إذا تاب عنه ، ولم يعد إليه انتهى . وهي نزعة اعتزالية ، والمظاهر أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها ، فلو قال : أنت عليّ كظهر أختي ، أو ابنتي لم يكن ظهاراً ، وهو قول قتادة والشعبي وداود ، ورواية أبي ثور عن الشافعي . وقال الجمهور : الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة ومالك والشافعي في قول هو ظهار ، والمظاهر أن الذمي لا يلزمه ظهاره لقوله : (منكم) أي : من المؤمنين ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي لكونها ليست من نسائه . وقال مالك : يلزمه ظهاره إذا نكحها ، ويصح من المطلقة الرجعية . وقال المزني : لا يصح ، وقال بعض العلماء : لا يصح ظهار غير المدخول بها ، ولو ظاهر من أمته التي يجوز له وطئها لزمه عند مالك . وقال

(١) انظر المسند للإمام (٤١٠/٦) وابن ماجة المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث ١٨٨/١/٦٧ ، والحاكم ٤٨١/٢ كتاب التفسير تفسير سورة قد سمع والطبري ٢/٢٨ - ٦ وتفسير عبد الرزاق (١١٨/٣) وأسباب النزول للواحدي (٣٠٤) والدر المنثور (١٧٦/٦) وابن كثير (٣١٨/٤) والحاازن (٤٤/٤٢/٧) والبغوي (٣٠٣/٤ - ٣٠٤) وزاد المسير (١٨٠/٨ ، ١٨١) .

(٢) انظر المسند للإمام أحمد (٤١٠/٦) وابن ماجة المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث ١٨٨/١/٦٧ ، والحاكم ٤٨١/٢ كتاب التفسير تفسير سورة قد سمع ، والطبري (٢/٢٨ - ٦) عبد الرزاق (١١٨/٣) وأسباب النزول للواحدي (٣٠٤) والدر المنثور (١٧٦/٦) وابن كثير (٣١٨/٤) والحاازن (٤٤/٤٢/٧) والبغوي (٣٠٣/٤ - ٣٠٤) وزاد المسير (١٨٠/٨ ، ١٨١) .

(٣) انظر المسند للإمام أحمد (٤١٠/٦) ابن ماجة المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث ١٨٨ - ٦٧/١ ، والحاكم (٤٨١/٢) كتاب التفسير تفسير سورة قد سمع والطبري (٢/٨ - ٦) وتفسير عبد الرزاق (١١٨/٣) وأسباب النزول للواحدي (٣٠٤) والدر المنثور (١٧٦/٦) وابن كثير (٣١٨/٤) والحاازن (٤٤/٤٢/٧) والبغوي (٣٠٣/٤ - ٣٠٤) وزاد المسير (١٨٠/٨ ، ١٨١) .

أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم ، وسبب الخلاف هو هل تدرج في نسائهم أم لا ؟ والظاهر صحة ظاهر العبد لدخوله في يظهرون منكم ، لأنه من جملة المسلمين وإن تعذر منه العتق والإطعام فهو قادر على الصوم . وحكى الثعلبي عن مالك أنه لا يصح ظهاره ، وليست المرأة مندرجة في الذين يظهرون ، فلو ظاهرت من زوجها لم يكن شيئاً ، وقال الحسن بن زياد : تكون مظاهرة ، وقال الأوزاعي وعطاء وإسحاق وأبو يوسف : إذا قالت لزوجها أنت عليّ كظهر فلانة فهي يمين تكفرها . وقال الزهري : أرى أن تكفر كفارة الظهار ، ولا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها أن يصيها ، والظاهر أن قوله تعالى : (ثم يعودون لما قالوا) أن يعود واللفظ الذي سبق منهم وهو قول الرجل ثانياً ، أنت مني كظهر أمي ، فلا تلزم الكفار بالقول ، وإنما تلزم بالثاني ، وهذا مذهب أهل الظاهر ، وروى أيضاً عن بكير بن عبد الله بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة وهو قول الفراء . وقال طاووس وقتادة والزهري والحسن ومالك وجماعة : (لما قالوا) أي : للوطء ، والمعنى : لما قالوا إنهم لا يعودون إليه فإذا ظاهر ثم وطئ ، فحينئذ يلزمه الكفارة ، وإن طلق أو مات . وقال أبو حنيفة ومالك أيضاً والشافعي وجماعة : معناه يعودون لما قالوا بالعزم على الإمساك ، والوطء ، فمضى عزم على ذلك لزمته الكفارة طلق أو مات . قال الشافعي : العود الموجب للكفارة أن يسك عن طلاقها بعد الظهار ، ويمضي بعده زمان يمكن أن يطلقها فيه فلا يطلق . وقال قوم : المعنى والذين يظهرون من نسائهم في الجاهلية ، أي : كان الظهار عادتهم ، ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام وقاله القتيبي . وقال الأخفش : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير فتحري رقة لما قالوا ، وهذا قول ليس بشيء ، لأنه يفسد نظم الآية فتحري رقة ، والظاهر أنه يجزئ مطلق رقة ، فتحري الكافرة . وقال مالك والشافعي : شرطها الإسلام كالرقة في كفارة القتل ، والظاهر إجزاء المكاتب ، لأنه عبد ما بقي عليه درهم ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وإن عتق نصفين لا يجزئ . وقال الشافعي : يجزئ . (من قبل أن يتأسا) لا يجوز للمظاهر أن يطأ حتى يكفر ، فإن فعل عصي ولا يسقط عنه التكفير . وقال مجاهد : يلزمه كفارة أخرى . وقيل : تسقط الكفارة الواجبة عليه ، ولا يلزمه شيء . وحديث أوس بن الصامت يرد على هذا القول ، وسواء كانت الكافرة بالعتق ، أم الصوم ، أم الإطعام ، وقال أبو حنيفة : إذا كانت بالإطعام جاز له أن يطأ ، ثم يطعم ، وهو ظاهر قوله : (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً) إذ لم يقل فيه من قبل أن يتأسا ، وقيد ذلك في العتق والصوم ، والظاهر في التماس الحقيقة ، فلا يجوز تماسها قبله ، أو مضاجعة أو غير ذلك من وجوه الاستمتاع ، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي . وقال الأكثر هو الوطء فيجوز له الاستمتاع بغيره قبل التكفير ، وقاله الحسن والثوري وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، والضمير في يتأسا عائد على ما عاد عليه الكلام من المظاهر ، والمظاهر منها : (ذلكم توعظون به) إشارة إلى التحرير ، أي : فعل عظة لكم ، لنتهوا عن الظهار (فمن لم يجد) أي : الرقة ولا ثمنها ، أو وجدها أو ثمنها وكان محتاجاً إلى ذلك ، فقال أبو حنيفة : يلزمه العتق ولو كان محتاجاً إلى ذلك ، ولا ينتقل إلى الصوم وهو الظاهر . وقال الشافعي : ينتقل إلى الصوم ، والشهران بالأهله ، وإن جاء أحدهما ناقصاً ، أو بالعدد لا بالأهله ، فيصوم إلى الهلال ، ثم شهراً بالهلال ، ثم يتم الأول بالعدد ، والظاهر وجوب التتابع ، فإن أظفر بغير عذر استأنف ، أو بعذر من سفر ونحوه فقال ابن المسيب وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي ومالك والشافعي في أحد قوليه : يمين . وقال النخعي وابن جبير والحكم بن عيينة والثوري وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه ، والظاهر أنه إن وجد الرقة بعد أن شرع في الصوم أنه يصوم ويجزئه ، وهو مذهب مالك والشافعي . وقال أبو حنيفة : وأصحابه : يلزمه العتق ولو وطئ في خلال الصوم بطل التتابع ويستأنف ، وبه قال مالك وأبو حنيفة . وقال الشافعي : يبطل إن جامع نهاراً لا ليلاً ، (فمن لم يستطع) لصوم لزمانة به ، أو كونه يضعف به ضعفاً شديداً كما جاء في حديث أوس لما قال هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ، فقال : والله يا رسول الله إني إذا لم أكل في اليوم والليلة ثلاث مرات كل بصري ، وخشيت أن تعشو عيني ، والظاهر مطلق الإطعام ، وتخصصه ما كانت العادة في الإطعام وقت

النزول ، وهو ما يشبع من غير تحديد بحد ، ومذهب مالك أنه مد وثلاث بالمد النبوي ، ويجب استيعاب العدد ستين عند مالك والشافعي ، وهو الظاهر . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه . (ذلك لتؤمنوا) قال ابن عطية إشارة إلى الرجعة والتسهيل في الفعل من التحرير إلى الصوم والإطعام ، ثم شدد تعالى بقوله : (وتلك حدود الله) أي : فالزموها وقفوا عندها ، ثم توعد الكافرين بهذا الحكم الشرعي . وقال الزمخشري : ذلك البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه التي شرعها في الظاهر وغيره ، ورفض ما كنتم عليه من جاهليتكم ، وتلك حدود الله التي لا يجوز تعديها . وللكافرين الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها عذاب أليم انتهى . (إن الذين يحادّون الله ورسوله) نزلت في مشركي قريش ، أخزوا يوم الخندق بالهزيمة كما أخزي من قاتل الرسل من قبلهم ، ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحاذين المخالفين لها ، والمحادّة المعادة والمخالفة في الحدود . (كبتوا) قال قتادة : أخزوا . وقال السدي : لعنوا . قيل : وهي لغة مذحج . وقال ابن زيد وأبو روق ردّوا مخذولين ، وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق ، (كما كبت الذين من قبلهم) أي : من قاتل الأنبياء . وقيل يوم بدر . وقال أبو عبيدة والأخفش أهلكوا ، وعن أبي عبيدة التاء بدل من الدال ، أي : كبّدوا أصابهم داء في أكبادهم . وقيل : والذين من قبلهم منافقو الأمم ، قيل : وكبتوا بمعنى سيكبتون وهي بشارة للمؤمنين بالنصر ، وعبر بالماضي لتحقيق وقوعه وتقدّم الكلام في مادة كبت في آل عمران . (وقد أنزلنا آيات بينات) على صدق محمد - ﷺ - وصحة ما جاء به . (وللكافرين) أي : الذين يحادّونه (عذاب مهين) أي : يهينهم ويذلهم ، والناصب ليوم يبعثهم العامل في للكافرين ، أو مهين ، أو اذكر أو يكون على أنه جواب لمن سأل متى يكون عذاب هؤلاء ، فقيل له : يوم يبعثهم الله أي : يكون يوم يبعثهم الله ، وانتصب جميعاً على الحال ، أي : مجتمعين في صعيد واحد ، أو معناه كلهم إذ جميع يحتمل ذينك المعنيين ، فينبئهم بما عملوا تحجيلاً لهم وتوبيخاً . أحصاه بجميع تفاصيله وكميته ، وكيفيته ، وزمانه ومكانه . ونسوه لاستحقارهم إياه واحتقارهم أنه لا يقع عليه حساب . (شهيد) لا يخفى عليه شيء ، وقرأ الجمهور ما يكون بالياء ، وأبو جعفر وأبو حيوة وشيبة بالتاء لتأنيث النجوى . قال صاحب اللوامح : وإن شغلت بالجار فهي بمنزلة ما جاءتني من امرأة إلا أن الأكثر في هذا الباب التذكير على ما في العامة ، يعني القراءة العامة ، قال : لأنه مسند إلى من نجوى ، وهو يقتضي الجنس ، وذلك مذكر انتهى . وليس الأكثر في هذا الباب التذكير ، لأن من زائدة ، فالفعل مسند إلى مؤنث فالأكثر التأنيث وهو القياس ، قال تعالى : (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) (ما تسبق من أمة أجلها) ويكون هنا تامة ، ونجوى احتمل أن تكون مصدراً مضافاً إلى ثلاثة ، أي : من تناجى ثلاثة أو مصدراً على حذف مضاف ، أي : من ذوي نجوى ، أو مصدراً أطلق على الجماعة المتناجين ، فثلاثة على هذين التقديرين . قال ابن عطية : بدل أو صفة . وقال الزمخشري : صفة وقرأ ابن أبي عبة (ثلاثة) و (خمسة) بالنصب على الحال ، والعامل يتناجون مضمرة يدل عليه نجوى . وقال الزمخشري : أو على تأويل نجوى بمتناجين ، ونصبها من المستكن فيه . وقال ابن عيسى : كل سرار نجوى ، وقال ابن سراقه : السرار ما كان بين اثنين ، والنجوى ما كان بين أكثر . قيل : نزلت في المنافقين ، واختص الثلاثة والخمسة ، لأن المنافقين كانوا يتناجون على هذين العددين مغايظة لأهل الإيمان ، والجملة بعد إلا في المواضع الثلاثة في موضع الحال ، وكونه تعالى رابعهم وسادسهم ومعهم بالعلم ، وإدراك ما يتناجون به . وقال ابن عباس : نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو ، وصفوان بن أمية تحدّثوا فقال : أحدهم أترى الله يعلم ما نقول ، فقال الآخر : يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً ، فقال الثالث : إن كان يعلم بعضاً فهو يعلمه كله . (ولا أدنى من ذلك) إشارة إلى الثلاثة والخمسة ، والأدنى من الثلاثة الإثنين ، ومن الخمسة الأربعة (ولا أكثر) يدل على ما يلي الستة فصاعداً . وقرأ الجمهور ولا أكثر عطفاً على لفظ المخفوض ، والحسن وابن أبي إسحاق والأعمش وأبو حيوة وسلام ويعقوب بالرفع عطفاً على موضع نجوى إن أريد به

المتناجون ، ومن جعله مصدراً محضاً على حذف مضاف ، أي : ولا نجوى أدنى ، ثم حذف وأقيم المضاف إليه مقامه فأعرب بإعرابه ، ويجوز أن يكون ولا أدنى مبتدأ ، والخبر إلا هو معهم ، فهو من عطف الجمل ، وقرأ الحسن أيضاً ومجاهد والخليل بن أحمد ويعقوب أيضاً ولا أكبر بالباء بواحدة والرفع ، واحتمل ، الإعرابين العطف على الموضع ، والرفع بالابتداء . وقرئ (ينبتهم) بالتخفيف والهمز ، وزيد بن علي بالتخفيف وترك الهمز وكسر الهاء ، والجمهور بالتشديد والهمز وضم الهاء ، قوله عز وجل :

﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ، يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ نزلت (ألم تر) في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم موهمين المؤمنين من أقربائهم أنهم أصابهم شر ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أقرباؤهم ، فلما كثر ذلك منهم شكوا المؤمنون إلى رسول الله - ﷺ - فأمرهم أن لا يتناجوا دون المؤمنين فلم يتهوهوا فنزلت قاله ابن عباس^(١) ، وقال مجاهد : نزلت في اليهود^(٢) وقال ابن السائب : في المنافقين^(٣) ، وقرأ الجمهور (ويتناجون) وحزرة وطلحة والأعمش ويحيى بن وثاب ورويس (ويتنجون) مضارع انتجى بما لم يحيك به الله كانوا يقولون السام عليك ، وهو الموت فيرد عليه وعليكم وتحيه الله لأنبيائه وسلام على عباده الذين اصطفى . (لولا يعذبنا الله بما نقول) أي : إن كان نبياً فما له لا يدعو علينا حتى نعذب بما نقول ، فقال تعالى : (حسبهم جهنم) ثم نهى المؤمنين أن يكون تناجيهم مثل تناجي الكفار ، وبدأ بالإثم لعمومه ، ثم بالعدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظلمات العباد ، ثم ترقى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفي هذا طعن على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك . وقرأ الجمهور فلا تتناجوا وأدغم ابن محيصن التاء في التاء . وقرأ الكوفيون والأعمش وأبو حيوه ورويس فلا تتنجوا مضارع انتجى ، والجمهور بضم عين (العدوان) وأبو حيوه بكسرها ، حيث وقع والضحاك ، (ومعصيات الرسول) على الجمع . والجمهور على الأفراد ، وقرأ عبد الله (إذا انتجيتهم فلا تتنجوا) وأل في إنما النجوى للعهد في نجوى الكفار بالإثم والعدوان ، وكونها من الشيطان ، لأنه هو الذي يزينها لهم ، فكأنها منه . (ليحزن الذين آمنوا) كانوا يوهمون المؤمنين أن غزاتهم غلبوا ، وأن أقاربهم قتلوا ، (وليس) أي : التناجي أو الشيطان أو الحزن (بضارهم) أي : المؤمنين (إلا بإذن الله) أي : بمشيئته فيقضي بالقتل ، أو الغلبة ، وقال ابن زيد هي نجوى قوم من المسلمين يقصدون مناجاة الرسول - ﷺ - وليس لهم حاجة ولا ضرورة يريدون التبجح بذلك ، فيظن المسلمون ذلك في إخبار بعد وقاصداً نحوه^(٤) ، وقال عطية العوفي : نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن في النوم^(٥) تسوءه ، فكأنه نجوى يناجي بها انتهى . ولا يناسب هذا القول ما قبل الآية ، ولا ما

(١) انظر البغوي (٤/٣٠٧ - ٣٠٨) والطبري (١٠/٢٨) والوسيط ١٢٦ ، والبغوي (٤/٣٠٧ - ٣٠٨) . وأسباب النزول الواحدي (٤٣٦)

والخازن (٧/٤٨) والقرطبي (١٠/٦٤٦١) والدر المنثور (٦/١٨٤) .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

بعدها ، وتقدمت القراءتان في نحو ليحزن . وقرئ بفتح الياء والزاي فيكون الذين فاعلاً ، وفي القراءتين مفعولاً ، ولما نهى تعالى المؤمنين عن ما هو سبب للتباغض والتنافر أمرهم بما هو سبب للتواد والتقارب ، فقال (يا أيها الذين آمنوا) الآية . قال مجاهد وقتادة والضحاك : كانوا يتنافسون في مجلس الرسول - ﷺ - فأمرُوا أن يفسح بعضهم لبعض^(١) ، وقال ابن عباس : المراد مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . وقال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان الصحابة يتشاحون على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة فنزلت^(٢) وقرأ الجمهور (تفسحوا) وداود بن أبي هند وقتادة وعيسى (تفسحوا) والجمهور (في المجلس) وعاصم وقتادة وعيسى (في المجلس) . وقرئ (في المجلس) بفتح اللام ، وهو الجلوس أي : توسعوا في جلوسكم ، ولا تتضايقوا فيه ، والظاهر أن الحكم مطرد في المجالس التي للطاعات ، وإن كان السبب مجلس الرسول ، وقيل : الآية مخصوصة بمجلس الرسول عليه الصلاة والسلام - وكذا مجالس العلم ، ويؤيده قراءة من قرأ في المجالس ، ويتأول الجمع على أن لكل أحد مجلساً في بيت الرسول - ﷺ - وانجزم (يفسح الله) على جواب الأمر في رحمته ، أو في منازلكم في الجنة ، أو في قبوركم ، أو في قلوبكم ، أو في الدنيا والآخرة أقوال ، (وإذا قيل انشزوا) أي : انهضوا في المجلس للتفسيح ، لأن مريد التوسعة على الوارد يرتفع إلى فوق فيتسع الموضع ، أمروا أولاً بالتفسيح ، ثم ثانياً بامتنال الأمر فيه إذا ائتمروا ، وقال الحسن وقتادة والضحاك : معناه إذا دعوا إلى قتال وصلاة ، أو طاعة نهضوا ، وقيل : إذا دعوا إلى القيام عن مجلس الرسول - ﷺ - نهضوا إذ كان - عليه الصلاة والسلام - أحياناً يؤثر الانفراد في أمر الإسلام ، وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن عامر ونافع وحفص بضم السين في اللفظين ، والحسن والأعمش وطلحة وباقي السبعة بكسرها ، والظاهر أن قوله (والذين أوتوا العلم) معطوف على الذين آمنوا ، والعطف مشعر بالتغاير ، وهو من عطف الصفات ، والمعنى يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة ، وقال ابن مسعود وغيره : تم الكلام عند قوله : (منكم) وانتصب (والذين أوتوا العلم) بفعل مضمّر تقديره ويخص الذين أوتوا العلم درجات ، فللمؤمنين رفع ، وللعلماء درجات (بين يدي نجواكم) استعارة ، والمعنى قبل نجواكم ، وعن ابن عباس وقتادة أن قوماً من المؤمنين وأغفاهم كثرت مناجاتهم للرسول ، عليه الصلاة والسلام في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم ، وكان - ﷺ - سمحاً لا يرد أحداً فنزلت مشددة عليهم أمر المناجاة ، وهذا الحكم قيل : نسخ قبل العمل به^(٣) . وقال قتادة : عمل به ساعة من نهار^(٤) . وقال مقاتل : عشرة أيام . وقال عليّ كرم الله وجهه : ما عمل به أحد غيري ، أردت المناجاة ولي دينار فصرفته بعشرة دراهم ، وناجيت عشر مرار أتصدق في كل مرة بدرهم ، ثم ظهرت مشقة ذلك على الناس فنزلت الرخصة في ترك الصدقة^(٥) . وقرئ (صدقات) بالجمع . وقال ابن عباس : هي منسوخة بالآية التي بعدها^(٦) وقيل : بآية الزكاة . (أأشفقتم) أخفتم من ذهاب المال في الصدقة ، أو من العجز عن وجودها تتصدقون به . فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب الله عليكم عذرکم ، ورخص لكم في أن لا تفعلوا فلا تفرطوا في الصلاة والزكاة وأفعال الطاعات . وقرأ عياش

(١) انظر تفسير الرزاق (١١٢١/٣) والطبري (١٣/٢٨ ، ١٤) والبغوي (٣٠٩/٤) والخازن (٥٠/٧) وأسباب النزول للواحدي ص (٤٣٧) والقرطبي (١٠/٦٤٦٦ ، ٦٤٦٧) وابن كثير (٤/٣٢٦) ، والدر المنثور (٦٧/١٨٥) وفتح القدير (٥/١٨٩) والوسيط (١٢٧ خ) .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر الوسيط (١٢٨ خ) والطبري (١٥/٢٨) والبغوي (٤/٣١٠) والخازن (٥٢/٧) والقرطبي (١٠/٦٤٧١) وزاد المسير (٨/١٩٥) .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

(٦) انظر المصادر السابقة .

عن أبي عمر وخير بما يعملون بالياء من تحت ، والجمهور بالتاء ، قوله عز وجل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ، أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذا لم تفعّلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم يحلفون على الكذب وهم يعلمون ، أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ، استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ، إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قويّ عزيز ، لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ الذين تولوا هم المنافقون ، والمغضوب عليهم هم اليهود ، عن السدي ومقاتل أنه - ﷺ - قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل قلبه لعل جبار ، وينظر بعيني شيطان ، فدخل عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ، فقال عليه الصلاة والسلام تشمتني أنت وأصحابك ، فحلف بالله ما فعل فقال عليه الصلاة والسلام له : فعلت فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فزلت ، والضمير في (ما هم) عائد على الذين تولوا ، وهم المنافقون ، أي : ليسوا منكم أيها المؤمنون ، (ولا منهم) أي : ليسوا من الذين تولوهم وهم اليهود ، وما هم اليهود ، ما هم استئناف إخبار بأنهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين ، لأنه مع المؤمنين بقوله ، ومع الكفار بقلبه ، وقال ابن عطية : يحتمل تأويلاً آخر ، وهو أن يكون قوله ما هم يريد به اليهود ، وقوله (ولا منهم) يريد به المنافقين ، فيجيء فعل المنافقين على هذا التأويل أحسن ، لأنهم تولوا مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم ، فيلزمهم ذمامهم ، ولا من القوم المحقين فتكون الموازنة صواباً انتهى . والظاهر التأويل الأول ، لأن الذين تولوا هم المحدث عنهم ، والضمير في ويحلفون عائد عليهم ، فتتناسق الضمائر لهم ولا تختلف ، وعلى هذا التأويل يكون ما هم استئنافاً ، وجاز أن يكون حالاً من ضمير تولوا ، وعلى احتمال ابن عطية يكون ما هم صفة لقوم ، ويحلفون على الكذب إما أنهم ما سبوا كما روي في سبب النزول ، أو على أنهم مسلمون ، والكذب هو ما ادعوه من الإسلام (وهم يعلمون) جملة حالية يقبح عليهم إذ حلفوا على خلاف ما أبطنوا ، فالمعنى : وهم عالمون متعمدون له ، والعذاب الشديد المعد لهم في الآخرة ، وقرأ الجمهور (أيمانهم) جمع يمين ، والحسن (إيمانهم) بكسر الهمزة ، أي : ما يظهرون من الإيمان . (جنة) أي : ما يتسترون به ، ويتقون المحدود وهو الترس (فصدوا) أي : أعرضوا ، أو صدوا الناس عن الإسلام إذ كانوا يشبّون من لقوا عن الإسلام ، ويضعفون أمر الإيمان وأهله ، أو صدوا المسلمين عن قتلهم بإظهار الإيمان ، وقتلهم هو سبيل الله فيهم ، لكن ما أظهروه من الإسلام صدوا به المسلمين عن قتلهم . (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) تقدم الكلام على هذه الجملة في أوائل آل عمران . (فيحلفون له) أي : لله تعالى ، ألا ترى إلى قولهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام ٢٣] (كما يحلفون لكم) أنهم مؤمنون ، وليسوا بمؤمنين ، والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على عالم الغيب والشهادة ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ، والمقصود أنهم مقيمون على الكذب ، قد تعودوا حتى كان على ألسنتهم في الآخرة ، كما كان في الدنيا . (ويحسبون أنهم على شيء) أي : شيء نافع لهم . (استحوذ عليهم الشيطان) أي : أحاط بهم من كل جهة ، وغلب على نفوسهم ، واستولى عليها ،

وتقدمت هذه المادة في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء ١٤١] في النساء ، وأنها محاذ الحمار العانة إذا ساقها ، وجمعها غالباً لها ، ومنه كان أحوذياً نسيج وحده . وقرأ عمر استحاذ أخرجه على الأصل ، والقياس واستحوذ شاذ في القياس فصيح في الاستعمال (فأنساهم ذكر الله) فهم لا يذكرونه لا بقلوبهم ولا بألسنتهم ، وحزب الشيطان جنده قاله أبو عبيدة . (أولئك في الأذلين) هي أفعال التفضيل ، أي : في جملة من هو أذل خلق الله تعالى ، لا ترى أحداً أذل منهم ، وعن مقاتل لما فتح الله مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها قالوا : نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي أظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عدداً ، أو أشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك ، فنزلت (كتب الله لأعلن أنا ورسلي) (كتب) أي : في اللوح المحفوظ ، أو قضى . وقال قتادة : بمعنى قال (ورسلي) أي : من بعثت منهم بالحرب ، ومن بعثت منهم بالحجة . (إن الله قوي) ينصر حزبه (عزيز) يمنعه من أن يذل . (لا تجد قوماً) قال الزمخشري : من باب التخيل ، خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوماً مؤمنين يوادون المشركين ، والغرض منه أنه لا ينبغي أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته والتصلب في مجانبه أعداء الله ، وزاد ذلك تأكيداً بقوله : (ولو كانوا آباءهم) انتهى . وبدأ بالآباء لأنهم الواجب على الأولاد طاعتهم ، فنهاهم عن موادتهم ، وقال تعالى : (وإن جاهدك لنشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً [العنكبوت ٨] ثم ثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب ، ثم أتى ثالثاً بالإخوان ، لأنهم بهم لتعاضد كما قيل :

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بَغِيرِ سِلَاحٍ^(١)

ثم رابعاً بالعشيرة ، لأن بها التناصر ، وبهم المقاتلة والتغلب والتسرع إلى ما دعوا إليه كما قال :

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانًا^(٢)

وقرأ الجمهور (كتب) مبنياً للفاعل (في قلوبهم الإيمان) نصباً أي : كتب الله ، وأبو حية والمفضل عن عاصم (كتب) مبنياً للمفعول ، والإيمان رفع . والجمهور : (أو عشيرتهم) على الأفراد ، وأبورجاء على الجمع ، والمعنى أثبت الإيمان في قلوبهم ، (و) أيدهم بروح منه (تعالى وهو الهدى والنور واللفظ . وقيل : الروح القرآن . وقيل : جبريل يوم بدر^(٣)) وقيل : الضمير في منه عائد على الإيمان والإنسان في نفسه روح يحيا به المؤمن ، والإشارة بأولئك كتب إلى الذين لا يوادون من حداً الله ورسوله . قيل والآية نزلت في أبي حاطب بن أبي بلتعة^(٤) وقيل : الظاهر أنها متصلة بالآي التي في المنافقين المواليين لليهود^(٥) . وقيل : نزلت في ابن أبي ، وأبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - كان منه سب^(٦) للرسول - ﷺ - فصكه أبو بكر صكة سقط منها ، فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو فعلته قال : نعم ، قال : لا تعد ، قال : والله لو كان السيف قريباً مني لقتلته . وقيل : في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وفي

(١) البيت من الطويل لمسكين الدارمي خزانة الأدب (٤٦٦/١) الأغاني (٦٠/١٨) المجمع (١٧٠/١) الشذور رقم (١٠٦) روح المعاني (٣٦/٢٧) .

(٢) البيت من البسيط لقريط بن أنيف ، انظر ديوان الحماسة (١٣/١) روح المعاني (٣٦/٢٧) .

(٣) انظر البغوي (٣١٢/٤) وزاد المسير (٢٠٠/٤) والوسيط (١٢٨ خ) .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) انظر المصادر السابقة .

(٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن السبكي كلام في هذا فراجعه في كتابيهما .

أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه بن عمير يوم أحد . وقال ابن شوذب . يوم بدر ، وفي عمر قتل خاله العاصي بن هشام يوم بدر ، وفي عليّ وحمزة وعبيد بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة يوم بدر . وقال الواقدي في قصة أبي عبيدة : أنه قتل أباه ، قال : كذلك يقول أهل الشام ، وقد سألت رجلاً من بني فهر فقالوا : توفي أبوه قبل الإسلام انتهى . يعنون في الجاهلية قبل ظهور الإسلام . وقد رتب المفسرون ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم أو عشيرتهم على قصة أبي عبيدة ، وأبي بكر ، ومصعب ، وعمر ، وعليّ وحمزة ، وعبيد مع أقربائهم ، والله تعالى أعلم .

سورة الحشر مدنية وهي أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَاوَلِي الْأَبْصَارُ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْمَةً نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

اللينة قال الأخفش كأنه لون من النخيل ، أي : ضرب منه ، وأصلها لونه قلبوا الواو ياء لسكونها ، وانكسار ما قبلها وأنشد :

قَدْ شَجَانِي الْأَصْحَابُ لَمَّا تَغَنُّوا بِفِرَاقِ الْأَحْبَابِ مِنْ فَوْقِ لِينَةٍ^(١)

انتهى . وجمعها لين ، كتمرة وقمر ، وقد كسروه على ليان وتكسير ما بينه وبين واحده هاء التانيث شاذ . كرتبة ورطب شذوا فيه فقالوا أرطاب . وقال الشاعر :

وَسَالِفَةٍ كَسَحُوقِ اللَّيَا نِ أَضْرَمَ فِيهَا الْغَوِيُّ السُّعْرَ^(٢)

وقال أبو الحجاج : الأعلم اللبان جمع لينة ، وهي النخلة انتهى . وتأتي أقوال المفسرين في اللينة . أوجف البعير حمله على الوجيف ، وهو السير السريع . تقول : وجف البعير يجف وجفاً وجيفاً ووجفاناً قال العجاج :

نَاجٍ طَوَاهُ الْأَيْنُ مِمَّا وَجَفَا

وقال نصيب :

أَلَا رَبَّ رَكْبٍ قَدْ قَطَعَتْ وَجِيفَهُمْ إِلَيْكَ وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ يُوجِفِ الرُّكْبُ

(١) انظر البيت في القرطبي ٨/١٨ .

(٢) البيت من المتقارب لامرئ القيس انظر الديوان (١٦٥) اللسان (لون) القرطبي (٨/١٨) روح المعاني (٤٣/٢٨) .

﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ، وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ هذه السورة مدنية . وقيل : نزلت في بني النضير . وتعد من المدينة لتدانيها منها ، وكان بنو النضير صالحوا رسول الله - ﷺ - على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعتة في التوراة لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً ، إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل الرسول - ﷺ - بذلك ، فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن مسلمة غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة ، وكان النبي - ﷺ - قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم في دية المسلمين الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري منصرفة من بئر معونة ، فهموا بطرح الحجر على رسول الله - ﷺ - فعصمه الله تعالى ، فلما قتل كعب أمر عليه الصلاة والسلام بالمسير إلى بني النضير ، وكانوا بقرية يقال لها الزهرة فساروا وهو عليه الصلاة والسلام على حمار مخطوم بليف ، فوجدهم ينوحون على كعب ، وقالوا ذرنا نبكي شجوناً ، ثم مر أمرك ، فقال : اخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب لنا من ذلك ، وتنادوا بالحرب . وقيل : استمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، ودس المنافق عبد الله بن أبي أصحابه أن لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ، ولننصرنكم ، وإن أخرجتم لنخرجن معكم ، فدرّبوا على الأزقة وحصنوها ، ثم أجمعوا على الغدر برسول الله - ﷺ - فقالوا : اخرج في ثلاثين من أصحابك ، ويخرج منا ثلاثون ليسمعوا منك ، فإن صدقوا آمنا كلنا ، ففعل فقالوا : كيف نفهم ونحن ستون اخرج في ثلاثة ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا ، ففعلوا فاشتملوا على الخناجر ، وأرادوا الفتك ، فأرسلت امرأة منهم ناصحة إلى أخيها وكان مسلماً فأخبرته بما أرادوا ، فأسرع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فسأله بخبرهم قبل أن يصل الرسول إليهم ، فلما كان من الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين ، فطلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤوا من المتاع ، فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات إلا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق ، وآل حبي بن أخطب ، فلحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالخيبر ، وقبض أموالهم وسلاحهم فوجد خمسين درعاً ، وخمسين بيضة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، وكان ابن أبي قد قال لهم معي ألفان من قومي وغيرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فلما نازلهم رسول الله - ﷺ - اعترلتهم قريظة ، وخذلمهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان^(١) ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر حال المنافقين واليهود ، وتولى بعضهم بعضاً ذكر أيضاً ما حل باليهود من غضب الله عليهم ، وجلالهم ، وإمكان الله تعالى رسوله - عليه الصلاة والسلام - ممن حاد الله ورسوله ، ورام الغدر بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وأظهر العداوة بحلفهم مع قريش ، وتقديم الكلام في تسبيح الجهادات التي يشملها العموم المدلول عليه بما من أهل الكتاب هم قريظة ، وكانت قبيلة عظيمة توازن في القدر والمنزلة بني النضير ، ويقال لها

(١) انظر تفسير عبد الرزاق (١١٢٣/٣) والطبري (١٩/٢٨) والرازي (٢٧٨/٢٩) والبغوي (٣١٣/٤) . وأسباب النزول للواحدي ص (٤٤١) والخازن (٥٧/٧) وسيرة ابن هشام (١٩٠/٢) وفتح الباري (٢٥٥/٧) والمواهب اللدنية (٩٥/٢) . (٩٦) .

الكاهنان ، لأنها من ولد الكاهن بن هارون نزلوا قريباً من المدينة في فتن بني إسرائيل انتظاراً لمحمد - ﷺ - فكان من أمرهم ما قصه الله تعالى في كتابه من ديارهم يتعلق بإخراج ومن أهل الكتاب ، يتعلق بمحذوف أي كائن من أهل الكتاب وصحت الإضافة إليهم لأنهم كانوا بيرية لا عمران فيها ، فبنوا فيها وأنشأوا ، اللام في (لأول الحشر) تتعلق بإخراج وهي لام التوقيت كقوله ﴿ لدلوك الشمس ﴾ [الإسراء ٧٨] والمعنى عند أول الحشر ، والحشر الجمع للتوجيه إلى ناحية ما والجمهور إلى أن هؤلاء الذين أخرجوا هم بنو النضير . وقال الحسن : هم بنو قريظة ، ورد هذا بأن بني قريظة ما حشروا ولا أجلوا ، وإنما قتلوا ، وهذا الحشر هو بالنسبة لإخراج بني النضير . وقيل : الحشر هو حشر رسول الله - ﷺ - الكتاب لقاتلهم ، وهو أول حشر منه لهم ، وأول قتال قاتلهم وأول يقتضي ثانياً . فقبل الأول حشرهم للجلاء ، والثاني حشر عمر لأهل خيبر وجلأؤهم ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بجلاء أهل خيبر بقوله - ﷺ - لا يبقين دينان في جزيرة . وقال الحسن : أراد حشر القيامة أي : هذا أوله ، والقيام من القبور آخره ، وقال عكرمة والزهري : المعنى الأول موضع الحشر ، وهو الشام ، وفي الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام قال لبني النضير : اخرجوا ، قالوا : إلى أين قال إلى أرض المحشر . وقيل : الثاني نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وهذا الجلاء كان في ابتداء الإسلام ، وأما الآن فقد نسخ فلا بد من القتل والسبي ، أو ضرب الجزية . (ما ظننتم أن يخرجوا) لعظم أمرهم ومنعتهم وقوتهم ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعددهم (وظنوا أنهم) تمنعهم حصونهم من حرب الله وبأسه ، ولما كان ظن المؤمنين منفياً هنا أجري مجرى نفي الرجاء والطمع ، فتسلط على أن الناصبة للفعل ، كما يتسلط الرجاء والطمع ، ولما كان ظن اليهود قوياً جداً يكاد أن يلحق بالعلم تسلط على أن المشددة وهي التي يصحبها غالباً فعل التحقيق ، كعلمت وتحققت وأيقنت ، وحصونهم الوصم والميضة والسلاليم والكثيية . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) أي فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم ، أو ما تمنعهم ، وبين النظم الذي جاء عليه . (قلت :) في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ، ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسماً ، لأن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم ، أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم انتهى . يعني أن حصونهم هو المبتدأ ، وما تمنعهم الخبر ، ولا يتعين هذا ، بل الراجح أن يكون حصونهم فاعلة بمانعتهن ، لأن في توجيهه تقديماً وتأخيراً ، وفي إجازة مثله من نحو : قائم زيد على الابتداء ، والخبر خلاف ، ومذهب أهل الكوفة منعه فأتاهم الله ، أي : بأسه (من حيث لم يحتسبوا) أي : لم يكن في حسابهم . وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف قاله السدي وأبو صالح وابن جريج ، وذلك مما أضعف قوتهم (وقذف في قلوبهم الرعب) فسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة حتى نزلوا على حكم رسول الله - ﷺ - (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) قال قتادة : خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا ، وخربوا هم من داخل ونحوه^(١) . قال الضحاك والزجاج وغيرهما : كانوا كلما خرب المسلمون من حصونهم هدموا هم من البيوت خربوا الحصن^(٢) . وقال الزهري وغيره : كانوا لما أبيع لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبة حسنة ، ولا سارية إلا قلعوها ، وخربوا البيوت عنها ، فيكون قوله : (وأيدي المؤمنين) إسناد التخريب إليها من حيث كان المؤمنون محاصرتهم إياهم داعية إلى ذلك . وقيل : شحوا على بقائهم سليمة فخربوها إفساداً ، وقرأ قتادة والجحدري ومجاهد وأبو حيوة وعيسى وأبو عمرو : يخربون مشدداً وباقي السبعة مخففاً ، والقراءتان بمعنى واحد عدي خرب اللازم بالتضعيف وبالهزمة . وقال صاحب الكامل : في القراءات التشديد الاختيار على التكثير . وقال أبو عمرو بن العلاء : خرب بمعنى هدم ، وأفسد

(١) انظر البغوي (٣١٥/٤) .

(٢) انظر البغوي (٣١٥/٤) .

وأخرب ترك الموضع خرباً وذهب عنه . (فاعتبروا) تفطنوا لما دبر الله من إخراجهم بتسليط المؤمنين عليهم من غير قتال .
وقيل : وعد رسول الله - ﷺ - المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم بغير قتال ، فقال فكان كما قال (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا) ، أي : لولا أنه تعالى قضى أنه سيجليلهم من ديارهم ويبقون مدة يؤمن بعضهم ، ويولد لبعضهم من يؤمن لعذبهم في الدنيا بالقتل والسي ، كما فعل ، بإخوانهم بني قريظة ، وكان بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق تركوه لجماله وعقله . وقال موسى - عليه السلام - لا تستحيوا منهم أحداً فلما رجعوا إلى الشام وجدوا موسى - عليه السلام - قد مات . فقال لهم بنو إسرائيل أنتم عصاة ، والله لا دخلتم علينا بلادنا ، فانصرفوا إلى الحجاز ، فكانوا فيه فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجلاه بخت نصر على أهل الشام ، وكان الله قد كتب على بني إسرائيل جلاء فلما هذا الجلاء على يد محمد - ﷺ - ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالسيف ، والقتل كأهل بدر وغيرهم ، ويقال : جلا القوم عن منازلهم وأجلاهم غيره . قيل : والفرق بين الجلاء والإخراج أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد ، وقال الماوردي : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد وجماعة . وقرأ الجمهور : الجلاء ممدوداً ، والحسن بن صالح وأخوه علي بن صالح مقصوراً ، وطلحة مهموزاً من غير ألف كالبناء ، (ولهم في الآخرة عذاب النار) أي : إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا في الآخرة ، وقرأ طلحة (ومن يشاقق) بالإظهار ، كالتفق عليه في الأنفال ، والجمهور ، بالإدغام كان بعض الصحابة قد شرع في بعض نخل بني النضير يقطع ويحرق ، وذلك في صدر الحرب فقالوا : ما هذا الإفساد يا محمد ، وأنت تنهي عن الإفساد فكفوا عن ذلك ، ونزل (ما قطعتم من لينة) الآية رداً على بني النضير ، وإخباراً أن ذلك بتسوية الله وتمكينه ليخربكم به ، وبذلكم ، والليننة والنخلة اسمان بمعنى واحد ، قاله الحسن ومجاهد ، وابن زيد وعمرو بن ميمون . وقال الشاعر :

كَأَنَّ قِيُودِي فَوْقَهَا عَشُّ طَائِرٍ عَلَى لَيْنَةٍ سَوْقاً يَهْفُو حَيُونُهَا^(١)

وقال آخر :

طِرَاقُ الْحَوَامِي وَاقِعٌ فَوْقَ لَيْنَةٍ يَدِي لَيْلَةٌ فِي وَلَّشِهِ يَتَرَقَّرُقُ^(٢)

وقال ابن عباس وجماعة من أهل اللغة هي النخلة ما لم تكن عجوة . وقال الثوري : الكريمة من النخل . وقال أبو عبيدة وسفيان : ما ثمرها لون وهو نوع من التمريقال له اللون . قال سفيان : هو شديد الصفرة يشف عن نواه فيرى من خارج . وقال أيضاً أبو عبيدة : اللين ألوان النخل المختلطة التي ليس فيها عجوة ولا برني . وقال جعفر بن محمد : هي العجوة ، وقيل : هي السيلان ، وأنشد فيه :

غَرَسُوا لَيْنَةً بِمَجْرَى مَعِينٍ ثُمَّ حَفَّ النَّخِيلُ بِالْأَجَامِ^(٣)

وقيل : هي أغصان الأشجار للينها فعلى هذا لا يكون أصل الياء الواو . وقيل : هي النخلة القصيرة . وقال الأصمعي : هي الدفل ، وما شرطية منصوبة بقطعتم ، ومن لينة تبين لإبهام ما ، وجواب الشرط (فيأذن الله) أي : فقطعها أو تركها بإذن الله . وقرأ الجمهور (قائمة) أنت قائمة ، والضمير في تركتموها على معنى ما . وقرأ عبد الله

(١) انظر البيت في روح المعاني (٢٧/٤٣) الكشف (٤/٥٠١) .

(٢) البيت من الطويل لم نهند لقائله . انظر القرطبي (١٨/٨) .

(٣) البيت من الكامل لم نهند لقائله انظر القرطبي (١٨/٨) .

والأعمش وزيد بن علي قوماً على وزن فعل كضرب جمع قائم . وقرىء قائماً اسم فاعل ، فذكر على لفظ ما ، وأنت في على أصولها . وقرىء أصلها بغير واو ، ولما جلا بنو النضير عن أوطانهم ، وتركوا رباعهم وأموالهم طلب المسلمون تحميسها كغنائم بدر ، فنزلت (ما أفاء الله على رسوله) بين أن أموالهم في لم يوجف عليها خيل ولا ركاب ، ولا قطعت مسافة إنما كانوا ميلين من المدينة مشوا مشياً ، ولم يركب إلا رسول الله - ﷺ - ^(١) . قال عمر بن الخطاب : كانت أموال بني النضير لرسول الله - ﷺ - خاصة ينفق منها على أهله نفقة سنته ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى ^(٢) وقال الضحاك ^(٣) : كانت له عليه الصلاة والسلام فآثر بها المهاجرين وقسمها عليهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا أبا دجانه ، وسهل بن حنيف والحارث بن الصمة أعطاهم لفقرهم ، وما في قوله : (وما أفاء الله على رسوله) شرطية ، أو موصولة ، وأفاء بمعنى يفيء ، ولا يكون ماضياً في اللفظ ، والمعنى ولذلك صلة ما الموصولة إذا كانت الباء في خبرها ، لأنها إذ ذاك شبهت باسم الشرط ، فإن كانت الآية نزلت قبل جلائهم كانت مخبرة بغيث ، فوقع كما أخبرت ، وإن كانت نزلت بعد حصول أموالهم للرسول - ﷺ - كان ذلك بياناً لما يستقبل ، وحكم الماضي المتقدم حكمه ، ومن في من خيل زائدة في المفعول يدل عليه الاستغراق ، والركاب الإبل سلط الله رسوله عليهم ، وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم ، وقال بعض العلماء : كل ما وقع على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة . (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) قال الزمخشري : لم يدخل العاطف على هذه الجملة ، لأنها بيان للأولى ، فهي منها غير أجنبية عنها ، بين لرسول الله - ﷺ - ما يصنع بما أفاء الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوم على الأقسام الخمسة انتهى . وقال ابن عطية : أهل القرى المذكورون في هذه الآية هم أهل الصفراء ، وبنيع ، ووادي القرى ، وما هنالك من قرى العرب التي تسمى قرى عرينة ، وحكمها مخالف لبني النضير ، ولم يحبس من هذه رسول الله - ﷺ - لنفسه شيئاً ، بل أمضاها لغيره ، وذلك أنها في ذلك الوقت فتحت انتهى . وقيل : إن الآية الأولى خاصة في بني النضير ، وهذه الآية عامة . وقرأ الجمهور كي لا يكون بالياء ، وعبد الله وأبو جعفر وهشام بالياء . والجمهور (دولة) بضم الدال ونصب التاء ، وأبو جعفر وأبو حيوة وهشام بضمهما ، وعلي والسلمي بفتحها . وقال عيسى بن عمر : هما بمعنى واحد . وقال الكسائي وحذاق البصرة : الفتح في الملك بضم الميم ، لأنها الفعلة في الدهر ، والضم في الملك بكسر الميم والضمير في تكون بالتأنيث عائد على معنى ما إذ المراد به الأموال ، والمغانم ، وذلك الضمير هو اسم يكون ، وكذلك من قرأ بالياء أعاد الضمير على لفظ ما ، أي : يكون الفيء وانتصب دولة على الخبر ، ومن رفع دولة فتكون تامة ، ودولة فاعل ، وكيلاً يكون تعليل لقوله : (فله وللرسول) أي : فالفيء وحكمه لله وللرسول يقسمه على ما أمره الله تعالى (كي لا يكون) الفيء الذي حقه أن يعطى للفقراء بلغة يعيشون بها متداولاً بين الأغنياء يتكاثرون به ، أو كيلاً يكون دولة جاهلية بينهم كما كان رؤساؤهم يستأثرون بالغنائم ، ويقولون من عز بز ، والمعنى : كي لا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية . وروي أن قوماً من الأنصار تكلموا في هذه القرى المفتحة ، وقالوا : لنا منها سهمنا فنزل (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وعن الكلبي أن رؤوساً من المسلمين قالوا له : يا رسول الله خذ صفيك ، والربع ودعنا ، والباقي فهكذا كنا نفعل في الجاهلية ، فنزل (وما آتاكم الرسول فخذوه) الآية . وهذا عام يدخل فيه قسمة ما أفاء الله ، والغنائم وغيرها حتى أنه قد استدل بهذا العموم على تحريم الخمر ، وحكم الواشمة والمستوشمة وتحريم المخيط للمحرم . (ومن غريب الحكايات في

(١) انظر الطبري (٢٤/٢٨) والبخاري (٣١٦/٤) والقرطبي (٦٤٩٠/١٠) والخازن (٥٩/٧ ، ٦٠) وزاد المسير (٢٠٩/٨) وابن كثير (٣٣٥/٤) .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر المصدر السابق .

الاستنباط (أن الشافعي - رحمه الله تعالى ؛ قال : سلوني عما شئتم أخبركم به من كتاب الله تعالى ، وسنة النبي - ﷺ - فقال له عبد الله بن محمد بن هارون : ما تقول في المحرم يقتل الزنور ؟ فقال : قال الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله - ﷺ - اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر^(١) ، وحدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أنه أمر بقتل الزنور انتهى . ويعني في الإحرام بين أنه يقتدي بعمر وأن الرسول - ﷺ - أمر بالاعتداء به ، وأن الله تعالى أمر بقبول ما يقول رسول الله - ﷺ - قوله عز وجل : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ، ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصركم والله يشهد أنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ، لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ للفقراء ، قال الزنجشري : بدل من قوله : (ولذي القربى) والمعطوف عليه ، والذي منع الإبدال من الله وللرسول ، والمعطوف عليهما وإن كان المعنى لرسول الله - ﷺ - أن الله عز وجل أخرج رسوله من الفقراء في قوله ﴿ ينصرون الله ﴾ [الحشر ٨] وأنه يترفع برسول الله - ﷺ - عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب في تعظيم الله عز وجل انتهى . وإنما جعله الزنجشري بدلاً من قوله (ولذي القربى) لأنه مذهب أبي حنيفة ، والمعنى إنما يستحق ذو القربى الفقير ، فالفقر شرط فيه على مذهب أبي حنيفة ، ففسره الزنجشري على مذهبه ، وأما الشافعي فيرى أن سبب الاستحقاق هو القرابة ، يأخذ ذو القربى الغني لقرابته . وقال ابن عطية : (للفقراء المهاجرين) بيان لقوله (والمساكين وابن السبيل) وكررت لام الجر لما كانت الأولى مجرورة باللام لبيان (بين الأغنياء منكم) أي : ولكن يكون للفقراء انتهى . ثم وصف تعالى المهاجرين بما يقتضي فقرهم ، ويوجب الإشفاق عليهم ، (أولئك هم الصادقون) أي : في إيمانهم وجهادهم قولاً وفعلاً ، والظاهر أن قوله (والذين تبؤوا) معطوف على المهاجرين وهم الأنصار ، فيكون قد وقع بينهم الاشتراك فيما يقسم من الأموال ، وقيل : هو مستأنف مرفوع بالابتداء ، والخبر يحبون أثنى الله تعالى بهذه الخصال الجليلة كما أثنى على المهاجرين بقوله (يبتغون فضلاً) إلخ ، والإيمان معطوف على الدار ، وهي المدينة والإيمان ليس مكاناً فيتبؤا . فقيل : هو من عطف الجمل ، أي : واعتقدوا الإيمان وأخلصوا فيه ، قاله أبو علي فيكون كقوله :

عَلَّقْتُهَا بَيْنًا وَمَاءً بَارِدًا

أو يكون ضمن تبؤوا معنى لزموا ، وال لزوم قدر مشترك في الدار والإيمان ، فيصح العطف أو لما كان الإيمان قد شملهم صار كالمكان الذي يقيمون فيه ، لكن يكون ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز . قال الزنجشري : أو أراد دار الهجرة ، ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٦٦٢) ، (٣٨٠٥) وابن ماجة في المقدمة (٩٧) وأحمد في المسند (٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢) وابن

مقامه ، أو سمي المدينة لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان بالإيمان . وقال ابن عطية : والمعنى تبوؤا الدار مع الإيمان معاً ، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله : (من قبلهم) فتأملته انتهى . ومعنى (من قبلهم) من قبل هجرتهم (حاجة) أي : حسداً (مما أوتوا) أي : مما أعطى المهاجرون ، ونعم الحاجة ما فعله الرسول - ﷺ - في إعطاء المهاجرين من أموال بني النضير والقرى ، (ويؤثرون على أنفسهم) ، من ذلك قصة الأنصاري مع ضيف الرسول ﷺ حيث لم يكن لهم إلا ما يأكل الصبية ، فأوهمهم أنه يأكل حتى أكل الضيف ، فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام - عجب الله من فعلكم البارحة ، فالآية مشيرة إلى ذلك . وروى غير ذلك في إثباتهم (والخصاصة) الفاقة مأخوذة من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيادته من الفرج والفتوح ، فكان حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج ، وقرأ أبو حيوه وابن أبي عبله (شح) بكسر الشين . والجمهور بإسكان الواو ، وتخفيف القاف ، وضم الشين ، والشح اللؤم وهو كرازة النفس على ما عندها والحرص على المنع ، قال الشاعر :

يُمَارِسُ نَفْسًا بَيْنَ جَنِيِّهِ كَرَةً إِذَا هُمْ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهَلًا^(١)

وأضيف الشح إلى النفس لأنه غريزة فيها . وقال تعالى (وأحضرت الأنفس الشح) وفي الحديث من أدى الزكاة المفروضة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النائة فقد برىء من الشح ، (والذين جاؤوا من بعدهم) الظاهر أنه معطوف على ما قبله من المعطوف على المهاجرين . فقال الفراء : هم الفرقة الثالثة من الصحابة ، وهو من آمن أو كفر في آخر مدة النبي - ﷺ - وقال الجمهور أراد من يجيء من التابعين ، فعلى القول الأول يكون معنى من بعدهم ، أي : من بعد المهاجرين والأنصار السابقين بالإيمان ، وهؤلاء تأخر إيمانهم أو سبق إيمانه ، وتأخرت وفاته حتى انقرض معظم المهاجرين والأنصار ، وعلى القول الثاني يكون معنى (من بعدهم) أي : من بعد ممات المهاجرين مهاجرينهم وأنصارهم وإذا كان والذين معطوفاً على المجرور قبله ، فالظاهر أنهم مشاركون من تقدّم في حكم النفي . وقال مالك بن أوس : قرأ عمرو [التوبة ٦٠] (إنما الصدقات للفقراء) الآية فقال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ [الأنفال ٤١] فقال وهذه لهؤلاء ، ثم قرأ (ما أفاء الله على رسوله) حتى بلغ (للفقراء المهاجرين) إلى (والذين جاؤوا من بعدهم) ثم قال لئن عشت لنؤتين الراعي وهو يسير نصيبه منها . وعنه أيضاً أنه استشار المهاجرين والأنصار فيما فتح الله عليه من ذلك في كلام كثير آخره أنه تلا (ما أفاء الله على رسوله) الآية ، فلما بلغ (أولئك هم الصادقون) قال هي لهؤلاء فقط ، وتلا (والذين جاؤوا من بعدهم) ، الآية ، إلى قوله (رؤوف رحيم) ثم قال : ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك . وقال عمر رضي الله تعالى عنه : لولا ما يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله - ﷺ - - خيبر . وقيل : والذين جاؤوا من بعدهم مقطوع مما قبله معطوف عطف الجمل لا عطف المفردات ، فإعرابه (والذين) مبتدأ ندبوا بالدعاء للأولين ، والثناء عليهم ، وهم من يجيء بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، والخبر (يقولون) أخبر تعالى عنهم بأنهم لإيمانهم ومحبة أسلافهم يقولون : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا) وعلى القول الأول يكون يقولون استئناف إخبار قيل : أو حال . (ألم تر إلى الذين نافقوا) الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ ، ورفاعة بن التابوت ، وقوم من منافقي الأنصار ، كانوا بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الجمل المحكية بقوله : (يقولون) واللام في لإخوانهم للتبليغ والأخوة بينهم أخوة الكفر وموالاتهم (ولا

حبان أورده الهيثمي في الموارد (٢١٩٣) وفي الجمع (٥٣/٩ ، ٢٩٥) وأبو نعيم في الحلية (١٠٩/٩) والطحاوي في مشكل الآثار (٨٣/٢) ، ٨٤ ، ٨٥) والطبراني في الكبير (٦٨/٩) وابن سعد في الطبقات (٢/٢ - ٩٨ ، ٩٩) والبخاري في التاريخ (٢٠٩/٨) (٥٠/٩) والبغوي في التفسير (٥٥٦/١) (٢١٦/٦) والحاكم في المستدرک (٧٥/٣) والبيهقي (١٢/٥) ، (١٥٣/٨) .
(١) انظر البيت في الكشف (٥٠٥/٤) روح المعاني (٥٣/٢٧) .

نطيع فيكم) أي : في قتالكم أحداً من الرسول والمؤمنين ، أو لا نطيع فيكم ، أي : في خذلانكم ، وإخلاف ما وعدناكم من النصرة (ولننصرنكم) جواب قسم محذوف قبل إن الشرطية ، وجواب إن محذوف ، والكثير في كلام العرب إثبات اللام المؤذنة بالقسم قبل أداة الشرط ، ومن حذفها قوله ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين ﴾ [المائدة ٧٣] التقدير : ولئن لم ينتهوا لكاذبون أي : في مواعيدهم لليهود ، وفي ذلك دليل على صحة النبوة ، لأنه إخبار بالغيب ، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير ، بل أقاموا في ديارهم وهذا إذا كان قوله لإخوانهم إنهم بنو النضير ، وقيل : هم يهود المدينة ، والضائير على هذين القولين . وقيل : فيها اختلاف ، أي : لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون ، ولئن قاتل اليهود لا ينصرهم المنافقون ، ولئن نصر اليهود المنافقين ليولي اليهود الأدبار ، وكأن صاحب هذا القول نظر إلى قوله (ولئن قاتلوا لا ينصرونهم) فقد أخبر أنهم لا ينصرونهم ، فكيف يأتي (ولئن نصرهم) فأخرجه في حيز الإمكان ، وقد أخبر أنهم لا ينصرونهم فلا يمكن نصرهم إياهم بعد إخباره تعالى أنه لا يقع ، وإذا كانت الضائير متفقة فقال الزمخشري : معناه ولئن نصرهم على الفرض ، والتقدير كقوله : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر ٦٥] وكما يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون ، وقال ابن عطية : معناه ولئن خالفوا ذلك فإنهم ينهزمون انتهى . والظاهر أن الضمير في (ليولن الأدبار) وفي (ثم لا ينصرون) عائد على المفروض أنهم ينصرونهم ، أي : ولئن نصرهم المنافقون ليولن المنافقون الأدبار ، ثم لا ينصر المنافقون . وقيل : الضمير في التولي عائد على اليهود ، وكذا في لا ينصرون . قال ابن عطية : وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله (لا يخرجون) و (لا ينصرون) لأنها راجعة على حكم القسم لا على حكم الشرط ، وفي هذا انظر انتهى . وأي : نظر في هذا ، وهذا جاء على القاعدة المتفق عليها من أنه إذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم ، وحذف جواب الشرط وكان فعله بصيغة الماضي أو مجزوماً بلم ، وله شرط وهو أن لا يتقدمه طالب خبر ، واللام في لئن مؤذنة بقسم محذوف قبله فالجواب له . وقد أجاز الفراء أن يجاب الشرط وإن تقدم القسم ، ورده عليه البصريون ، ثم خاطب المؤمنين بأن هؤلاء يخافونكم أشد خيفة من الله تعالى لأنهم يتوقعون عاجل شركم ، ولعدم إيمانهم لا يتوقعون أجل عذاب الله ، وذلك لقلة فهمهم . و (رهبة) مصدر رهب المبني للمفعول ، كأنه قيل : أشد مرهوبة فالرهبة واقعة منهم ، لا من المخاطبين والمخاطبون مرهوبون وهذا كما قال :

فَلَهُوَ أَخَوْفٌ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمُهُ وَقِيلَ إِنَّكَ مَأْسُورٌ وَمَقْتُولٌ
مِنْ ضَيْغَمٍ بَثْرَاءِ الْأَرْضِ مَحْدَرُهُ يَبْطِنُ عَثْرٌ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ^(١)

فالمخبر عنه مخوف لا خائف ، والضمير في صدورهم . قيل : لليهود ، وقيل : للمنافقين ، وقيل : للفريقين ، وجعل المصدر مقراً للرهبة دليل على تمكنها منهم ، بحيث صارت الصدور مقراً لها ، والمعنى : رهبتهم منكم أشد من رهبتهم من الله عز وجل : (لا يقاتلونكم) أي : بنو النضير ، وجميع اليهود . وقيل : اليهود والمنافقون جميعاً أي : مجتمعين متساندين يعضد بعضهم بعضاً (إلا في قرى محصنة) لا في الصحراء لخوفهم منكم ، وتحصينها بالدروب والخنادق ، أو من وراء جدار يستترون به من أن تصيبهم ، وقرأ الجمهور : (جذر) بضمين جمع جدار ، وأبو رجاء والحسن وابن وثاب بإسكان الدال تحفيفاً ، ورويت عن ابن كثير وعاصم والأعمش ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وكثير من المكين (جدار) بالالف وكسر الجيم . وقرأ كثير من المكين وهارون عن ابن كثير (جَدْر) بفتح الجيم وسكون الدال . قال صاحب اللوامح وهو واخذ بلغة اليمن ، وقال ابن عطية : ومعناه أصل بنيان كالسور ونحوه . قال : ويحتمل أن يكون من جذر النخل ، أي من وراء نخلهم ، إذ هي مما يتقى به عند المصافة . (بأسهم بينهم شديد) أي : إذا اقتتلوا بعضهم

(١) البيتان من البسيط لكعب بن زهير من قصيدته (بانت سعاد) انظر ديوانه (٢٠) الجمهرة (٦٣٩) المقرب (٧١ / ١) - (٧٢) .

مع بعض كان بأسهم شديداً ، أما إذا قاتلوكم فلا يبقى لهم بأس ، لأن من حارب أولياء الله خذل (تحسبهم جميعاً) أي : مجتمعين ذوي إلفة واتحاد ، (وقلوبهم شتى) أي : وأهواؤهم متفرقة ، وكذا حال المخذولين لا تستقر أهواؤهم على شيء واحد ، وموجب ذلك الشتات هو انتفاء عقولهم ، فيهم كالبهائم لا تتفق على حالة . وقرأ الجمهور (شتى) بالفتح التانيث ومبشر بن عبيد منوناً جعلها ألف الإلحاق وعبد الله وقلوبهم أشت أي : أشد تفرقاً ، ومن كلام العرب شتى تؤوب الحلبة ، قال الشاعر :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فِتْيَةً شَقَّتِ الْعَصَا هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهِيَ أَمْسِرَ جَمِيعُ (١)

قوله عز وجل : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهم أنها في النار خالدین فيها وذلك جزاء الظالمين ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ كمثل خبر مبتدأ محذوف ، أي : مثلهم ، أي : بني النضير (كمثل الذين من قبلهم قريباً) وهم بنو قينقاع ، أجلاهم الرسول - ﷺ - من المدينة قبل بني النضير ، فكانوا مثلاً لهم قاله ابن عباس ، أو أهل بدر الكفار فإنه عليه الصلاة والسلام قتلهم فهم مثلهم في أن غلبوا وقهروا ، وقيل : الضمير في من قبلهم للمنافقين ، والذين من قبلهم منافقو الأمم الماضية غلبوا ودلوا على وجه الدهر ، فهؤلاء مثلهم ، ويبعد هذا التأويل لفظة قريباً إن جعلته متعلقاً بما قبله ، وقريباً ظرف زمان ، وإن جعلته معمولاً لذاقوا ، أي : ذاقوا وبال أمرهم قريباً من عصيانهم ، أي : لم تتأخر عقوبتهم في الدنيا كما لم تتأخر عقوبة هؤلاء ، (ولهم عذاب أليم) في الآخرة (كمثل الشيطان) لما مثلهم بمن قبلهم ، ذكر مثلهم مع المنافقين ، فالمنافقون كالشيطان ، وبني النضير كالإنسان ، والجمهور على أن الشيطان والإنسان اسماً جنس يورطه في المعصية ، ثم يفر منه ، كذلك أغوى المنافقون بني النضير ، وحرضوهم على الثبات ووعدهم النصر ، فلما نشب بنو النضير خذلهم المنافقون وتركوهم في أسوأ حال . وقيل : المراد استغواء الشيطان قريشاً يوم بدر ، وقوله لهم (لا غالب لكم اليوم من الناس وأني جار لكم) إلى قوله (إني بريء منكم) [الأنفال ٤٨] ، وقيل : التمثيل بشيطان مخصوص مع عابد مخصوص استودع امرأة فوقع عليها ، فحملت فحشي الفضيحة فقتلها ودفنها ، سول له الشيطان ذلك ، ثم شهره فاستخرجت فوجدت مقتولة ، وكان قال إنها ماتت ودفنتها ، فعلموا بذلك فتعرض له الشيطان ، وقال : اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ففعل ، وتركه عند ذلك ، وقال أنا بريء منك ، وقول الشيطان : إني أخاف الله رياء ، ولا يمنعه الخوف عن سوء يوقع ابن آدم فيه . وقرأ الجمهور (عاقبتهم) بنصب التاء ، والحسن وعمر بن عبيد وسليم بن أرقم برفعهما ، والجمهور (خالدین) بالياء حالاً و (في النار) خبر إن ، وعبد الله وزيد بن علي والأعمش وابن أبي عتبة بالألف ، فجاز أن يكون خبر إن والظرف ملغى ، وإن كان قد أكد بقوله فيها ، وذلك جائز على مذهب سيويه ، ومنع ذلك أهل الكوفة ، لأنه إذا أكد عندهم لا يلغى ، ويجوز أن يكون في النار خبراً لأن ، وخالد بن خبر ثمان ، فلا يكون فيه حجة على مذهب سيويه ، ولما انقضى في هذه السورة وصف المنافقين واليهود وعظ المؤمنين ، لأن الموعدة بعد ذكر المصيبة لها موقع في النفس

لرقة القلوب ، والحذر مما يوجب العذاب ، وكرر الأمر بالتقوى على سبيل التوكيد ، أو لاختلاف متعلق التقوى ، فالأولى في أداء الفرائض لأنه مقترن بالعمل ، والثانية في ترك المعاصي ، لأنه مقترن بالتهديد والوعيد . وقرأ الجمهور ولتنظر أمراً ، واللام ساكنة وأبو حية ويحيى بن الحارث بكسرها ، وروي ذلك عن حفص عن عاصم ، والحسن بكسرها وفتح الراء جعلها لام كي ، ولما كان أمر القيامة كائناً لا محالة عبر عنه بالغد ، وهو اليوم الذي يلي يومك على سبيل التقريب . وقال الحسن وقتادة : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد ، ونحوه (كأن لم تغن بالأمس) [يونس ٢٤] يريد تقريب الزمان الماضي . وقيل : عبر عن الآخرة بالغد ، كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بقوله لغد ليوم الموت ، لأنه لكل إنسان كغده . وقال مجاهد وابن زيد : بالأمس الدنيا ، وغد الآخرة . وقال الزمخشري : أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدم للآخرة ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه . انتهى . وقرأ الجمهور (لا تكونوا) بناء الخطاب ، وأبو حية بياء الغيبة على سبيل الالتفات ، وقال ابن عطية : كناية عن نفس التي هي اسم الجنس ، كالذين نسوا هم الكفار وتركوا عبادة الله وامثال ما أمر ، واجتناب ما نهى وهذا تنبيه على فرط غفلتهم ، واتباع شهواتهم (فأنساهم أنفسهم) حيث لم يسعوا إليها في الخلاص من العذاب ، وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب ، عوقبوا على نسيان جهة الله تعالى بأن أنساهم أنفسهم . قال سفيان : المعنى حظ أنفسهم ، ثم ذكر مباينة الفريقين أصحاب النار في الجحيم ، وأصحاب الجنة في النعيم ، كما قال ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستترون ﴾ [السجدة ١٨] وقال تعالى : ﴿ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [ص ٢٨] (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) هذا من باب التخييل والتمثيل ، كما مر في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات ﴾ [الأحزاب ٧٢] ودل على ذلك (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدع ، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر . وقرأ طلحة (مصدعاً) بإدغام التاء في الصاد ، وأبو السمال وأبو دينار الأعراي (القدوس) بفتح القاف ، والجمهور بالفك والضم ، وقرأ الجمهور (المؤمن) بكسر الميم اسم فاعل من آمن بمعنى آمن . وقال ثعلب المصدق المؤمنين في أنهم آمنوا . وقال النحاس : أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة . وقيل : المصدق نفسه في أقواله الأزلية . وقرأ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين . وقيل : أبو جعفر المدني (المؤمن) بفتح الميم . قال أبو حاتم لا يجوز ذلك ، لأنه لو كان كذلك لكان المؤمن به ، وكان جائزاً لكن المؤمن المطلق بلا حرف جريكون من كان خائفاً فأومن . وقال الزمخشري : يعني المؤمن به على حذف حرف الجر ، كما تقول في قوم موسى من قوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف ١٥٥] المختارون ، (المهيمن) تقدم شرحه ، (الجبار) القهار الذي جبر خلقه على ما أراد ، وقيل : الجبار الذي لا يدانيه شيء ، ولا يلحق ومنه نخلة جبارة إذا لم تلحق ، وقال امرؤ القيس :

سَوَابِقُ جَبَّارٍ أَتَيْتَ فُرُوعَهُ وَعَالِينَ قُنُوناً مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرًا^(١)

وقال ابن عباس : هو العظيم ، وجبروته عظيمة . وقيل : هو من الجبر ، وهو الإصلاح جبرت العظم أصلحته بعد الكسر . وقال الفراء : من أجبره على الأمر قهره ، وقال : ولم أسمع فعلاً من أفعل إلا في جبار ، ودراك انتهى . وسمع أسار فهو أسار . المتكبر : المبالغ في الكبرياء ، والعظمة ، وقيل : المتكبر عن ظلم عباده ، الخالق المقدر لما يوجده . البارئ المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة المصور الممثل . وقرأ علي وحاطب بن أبي بلتعة والحسن وابن السميع (المصور) بفتح الواو والراء وانتصب مفعولاً بالبارئ ، وأراد به جنس المصور . وعن علي فتح الواو وكسر الراء على إضافته اسم الفاعل إلى المفعول نحو الضارب الغلام .

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٥٧) القرطبي (٣١/١٨) الشاهد في قوله (جبار) .

سورة الممتحنة مدنية وهي ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ إِنْ يَشَقَّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۚ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْضِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۚ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۖ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۚ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَلَّهُوْا عَلَىٰ إخراجِكُمْ أَنْ تُولَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۚ

هذه السورة مدنية ونزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة ، كان قد وجه كتاباً مع امرأة إلى أهل مكة يخبرهم بأن رسول الله - ﷺ - متوجه إليهم لغزوهم ، فأطلع الله رسوله - ﷺ - على ذلك ، ووجه إلى المرأة من أخذ الكتاب منها ، والقصة مشهورة في كتب الحديث والسير . ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر فيها قبلها حالة المنافقين والكفار ، افتتح هذه بالنهي عن موالاة الكفار ، والتودد إليهم ، وأضاف في قوله (عدوي) تغليظاً لجرمهم ، وإعلاماً بحلول عقاب الله بهم ، والعدو ينطلق على الواحد ، وعلى الجمع وأولياء مفعول ثانٍ لتتخذوا . (تلقون) بيان لموالاتهم فلا موضع له من

الإعراب ، أو استئناف إخبار . وقال الحوفي والزمخشري : حال من الضمير في (لا تتخذوا) أو صفة لأولياء ، وهذا تقدمه إليه الفراء ، قال تلقون إليهم بالمودة من صلة أولياء انتهى . وعندهم أن النكرة توصل وعند البصريين لا توصل ، بل توصف ، والحال والصفة قيدهم قد نهوا عن اتخاذهم أولياء مطلقاً ، والتقيد يدل على أنه يجوز أن يتخذوا أولياء إذا لم يكونوا في حال إلقاء المودة ، أو إذا لم يكن الأولياء متصفين بهذا الوصف ، وقد قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾ [المائدة ٥١] فدل على أنه لا يقتصر على تلك الحال ، ولا ذلك الوصف والأولياء عبارة عن الإفضاء بالمودة ، ومفعول تلقون محذوف ، أي : تلقون إليهم أخبار رسول الله - ﷺ - وأساراه ، والباء في بالمودة للسبب ، أي : بسبب المودة التي بينهم . وقال الكوفيون : الباء زائدة كما قيل في ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة ١٩٥] أي أيديكم قال الحوفي وقال البصريون : هي متعلقة بالمصدر الذي دل عليه الفعل ، وكذلك قوله ﴿ بإلحاد بظلم ﴾ [الحج ٢٥] أي : إرادته بإلحاد انتهى . فعلى هذا يكون بالمودة متعلقاً بالمصدر ، أي : إلقاؤهم بالمودة ، وهذا ليس بجيد ، لأن فيه حذف المصدر ، وهو موصول ، وحذف الخبر إذ إلقاؤهم مبتدأ ، وبما يتعلق به (قد كفروا) جملة حالية ، وذو الحال الضمير في تلقون ، أي : توادونهم وهذه حالهم ، وهي الكفر بالله ولا ينساب الكافر بالله أن يود ، وأجاز الزمخشري أن يكون حالاً من فاعل لا تتخذوا . وقرأ الجمهور (بما جاءكم) والحدري والمعلّى عن عاصم لما باللام مكان الباء . أي : لأجل ما جاءكم (يخرجون الرسول) استئناف كالتفسير لكفرهم ، أو حال من ضمير كفروا (وإياكم) معطوف على الرسول ، وقدم على إياكم الرسول لشرفه ، ولأنه الأصل للمؤمنين به ، ولو تقدم الضمير لكان جائزاً في العربية ، خلافاً لمن خص ذلك بالضرورة ، قال : لأنك قادر على أن تأتي به متصلاً فلا تفصل إلا في الضرورة ، وهو محجوج بهذه الآية ، وبقوله تعالى ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ [النساء ١٣١] وقدم الموصول هنا على المخاطبين للسبق في الزمان ، وبغير ذلك من كلام العرب ، وأن تؤمنوا مفعول من أجله ، أي : يخرجون لإيمانكم ، أو كراهة لإيمانكم (إن كنتم خرجتم) شرط جوابه محذوف ، لدلالة ما تقدم عليه ، وهو قوله (لا تتخذوا عدوي) ونصب جهاداً ، وابتغاء ، على المصدر في موضع الحال ، أي : مجاهدين ومبتغيين ، أو على أنه مفعول من أجله . (تسرون) استئناف ، أي : تسرون وقد علمتم أي أعلم الإخفاء والإعلان ، وأطلع الرسول - ﷺ - على ذلك ، فلا طائل في فعلكم هذا ، وقال ابن عطية : تسرون بدل من تلقون انتهى . وهو شبيه ببذل الاشتمال ، لأن الإلقاء يكون سراً وجرهاً ، فهو ينقسم إلى هذين النوعين ، وأجاز أيضاً أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أنتم تسرون ، والظاهر أن أعلم أفعّل تفضيل ، ولذلك عداه بالباء ، وأجاز ابن عطية أن يكون مضارعاً عدي بالباء ، قال : لأنك تقول علمت بكذا (وأنا أعلم) جملة حالية ، والضمير في (ومن يفعله منكم) الظاهر أنه إلى أقرب مذكور ، أي : ومن يفعل الإسرار . وقال ابن عطية : يعود على الاتخاذ ، وانتصب سواء على المفعول به على تقدير تعدي ضل ، أو على الظرف على تقدير اللزوم والسواء الوسط . ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، وشرح ما به الولاية من الإلقاء بالمودة بينهم ، وذكر ما صنع الكفار بهم أولاً من إخراج الرسول - ﷺ - والمؤمنين ذكر صنيعهم آخرأ لوقدروا عليه من أنه إن تمكنوا منكم تظهر عدائهم لكم ، ويسطوا أيديهم بالقتل والتعذيب ، وألستهم بالسب ، وودوا لو ارتدتم عن دينكم الذي هو أحب الأشياء إليكم ، وهو سبب إخراجهم إياكم . قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ، ثم قال : وودوا بلفظ الماضي (قلت :) الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودوا قبل كل شيء كفركم ، وارتدادكم يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا ، والدين جميعاً انتهى . وكان الزمخشري فهم من قوله : وودوا أنه معطوف على جواب الشرط ، فجعل ذلك سؤالاً وجواباً ، والذي يظهر أن قوله (وودوا) ليس على جواب الشرط ، لأن وادتهم كفرهم ليست مرتبة على الظفر بهم والتسلط عليهم ، بل هم وادون

كفرهم على كل حال سواء أظفروا بهم ، أم لم يظفروا ، وإنما هو معطوف على جملة الشرط والجزاء ، أخبر تعالى بخبرين أحدهما اتضاح عداوتهم والبسط إليهم ما ذكر على تقدير الظفر بهم ، والآخر ودادتهم كفرهم لا على تقدير الظفر بهم . ولما كان حاطب قد اعتذر بأن له بمكة قرابة فكتب إلى أهلها بما كتب ليرعوه في قرابته ، قال تعالى : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أي : قراباتكم الذين توالون الكفار من أجلهم ، وتتقربون إليهم محاماة عليهم ، ويوم معمول لينفعكم ، أو ليفصل . وقرأ الجمهور (يفصل) بالياء مخففاً مبنياً للمفعول . وقرأ الأعرج وعيسى وابن عامر كذلك ، إلا أنه مشدد ، والمرفوع إما (بينكم) وهو مبني على الفتح لإضافته إلى مبني ، وإما ضمير المصدر المفهوم من يفصل ، أي : يفصل هو ، أي : الفصل . وقرأ عاصم والحسن والأعمش يفصل بالياء مخففاً مبنياً للفاعل ، وحزمة والكسائي وابن وثاب مبنياً للفاعل بالياء مضمومة مشدداً ، وأبو حيوة وابن أبي عبلة كذلك إلا أنه بالنون مشدداً وهما أيضاً ، وزيد بن علي بالنون مفتوحة مخففاً مبنياً للفاعل ، وأبو حيوة أيضاً بالنون مضمومة ، فهذا ثنائي قراءات ، ولما نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأن من سيرته التبرؤ من الكفار ، ليقصدوا به في ذلك ويتأسوا . وقرأ الجمهور (إسوة) بكسر الهمزة ، وعاصم بضمها وهما لغتان ، (والذين معه) قيل : من آمن به وقال الطبري وغيره : الأنبياء معاصروه أو كانوا قريباً من عصره ، لأنه لم ير وأنه كان له أتباع مؤمنون في مكافحته لهم ، ولنمرود ألا تراه قال لسارة حين رحل إلى الشام مهاجراً من بلد نمرود ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك ، والتأسي بإبراهيم عليه السلام هو في التبرؤ من الشرك ، وهو في كل ملة وبرسولنا - عليه الصلاة والسلام - على الإطلاق في العقائد ، وأحكام الشرع . وقرأ الجمهور (براء) جمع بريء ، كظريف وظرفاء ، وعيسى (براء) جمع بريء أيضاً كظريف وظرفاء ، وأبو جعفر بضم الباء كتؤام وظؤار ، وهم اسم جمع الواحد بريء ، وتؤام وظئر ورويت عن عيسى . قال أبو حاتم : زعموا أن عيسى الهمداني روى عنه براء على فعال ، كالذي في قوله تعالى ﴿ إني براء مما تعبدون ﴾ [الزخرف ٢٦] في الزخرف ، وهو مصدر على فعال يوصف به المفرد والجمع ، وقال الزمخشري : وبراء على إبدال الضم من الكسر ، كرخال ورباب انتهى ، فالضمة في ذلك ليست بدلاً من كسرة ، بل هي ضمة أصلية ، وهو قريب من أوزان أسماء الجموع ، وليس جمع تكسير فتكون الضمة بدلاً من الكسرة (إلا قول إبراهيم) استثناء من قوله أسوة حسنة ، قاله قتادة والزمخشري . قال مجاهد وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم : المعنى أن الأسوة لكم في هذا الوجه لا في الوجه الآخر ، لأنه كان لعلمه ليست في نازلتنكم . وقال الزمخشري (فإن قلت :) فإن كان قوله لأستغفرن لك مستثنى من القول الذي هو أسوة حسنة فما بال قوله فما أملك لك من الله من شيء ، وهو غير حقيق بالاستثناء ، ألا ترى إلى قوله فمن يملك لكم من الله شيئاً . (قلت :) أراد استثناء جملة قوله (لأبيه) والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبني عليه ، وتابع له ، كأنه قال أنا أستغفر لك ، وما في طاقتي إلا الاستغفار انتهى . وقال الزمخشري : أولاً بعد أن ذكر أن الاستثناء هو من قوله (أسوة حسنة) في مقالات قال : لأنه أراد بالأسوة الحسنة فهو الذي حق عليهم أن يأتسوا به ، ويتخذوه سنة يستنون بها انتهى . والذي يظهر أنه مستثنى من مضاف لإبراهيم ، تقديره أسوة حسنة في مقالات إبراهيم ومحاوراته لقومه (إلا قول إبراهيم) لأبيه (لأستغفرن لك) فليس فيه أسوة حسنة ، فيكون على هذا استثناء متصل ، وإما أن يكون قول إبراهيم مندرجاً في أسوة حسنة ، لأن معنى الأسوة هو الاقتداء والتأسي ، فالقول ليس مندرجاً تحته ، لكنه مندرج تحت مقالات إبراهيم عليه السلام . وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت لم تبق جملة إلا كذا انتهى . وقيل : هو استثناء منقطع المعنى ، لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك فلا تأسوا به فيه ، فتستغفروا وتفدوا آباءكم الكفار بالاستغفار (ربنا عليك توكلنا) وما بعده الظاهر أنه من تمام قول إبراهيم متصلاً بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة ما يتأسى به فيه ، وفصل بينهما بالاستثناء اعتناء بالاستثناء ، ولقربه من المستثنى منه ، ويجوز أن يكون أمراً من الله للمؤمنين ، أي : قولوا ربنا عليك توكلنا ، علمهم بذلك قطع العلائق التي

بينهم ، وبين الكفار . (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) ، قال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيسبوننا ويعذبوننا . وقال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ، أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم محقون ، وأنا مبطلون فيفتنوا لذلك ، وقال قريباً منه قتادة ، وأبو مجلز وقول ابن عباس أرجح ، لأنه دعاء لأنفسهم ، وعلى قول غيره دعاء للكافرين ، والضمير في فيهم عائد على إبراهيم والذين معه ، وكررت الأسوة تأكيداً ، وأكدت ذلك بالقسم أيضاً ، ولمن يرجو بدل من ضمير الخطاب بدل بعض من كل . وروي أنه لما نزلت هذه الآية عزم المسلمون على إظهار عداوات أقربائهم الكفار ، ولحقهم هم لكونهم لم يؤمنوا حتى يتوادوا ، فنزل (عسى الله) الآية مؤنسة ومرجئة ، فأسلم الجميع عام الفتح ، وصاروا إخواناً ومن ذكر أن هذه المودة هي تزويج النبي - ﷺ - أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأنها كانت بعد الفتح فقد أخطأ ، لأن تزويجها كان وقت هجرة الحبشة ، وهذه الآيات سنة ست من الهجرة ، ولا يصح ذلك عن ابن عباس إلا أن يسوقه مثلاً وإن كان متقدماً لهذه الآية ، لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات قاله ابن عطية ، و (عسى) من الله تعالى واجبة الوقوع (والله قدير) على قلب القلوب وتيسير العسير (والله غفور) لمن أسلم من المشركين . (لا ينهاكم الله) الآية قال مجاهد : نزلت في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكانوا في رتبة سوء لتركهم فرض الهجرة . وقيل : في مؤمنين من أهل مكة وغيرها تركوا الهجرة . وقال الحسن وأبو صالح في خزاعة ، وبني الحارث بن كعب ، وكنانة ومزينة ، وقبائل من العرب كانوا مظاهرين للرسول محبين فيه وفي ظهوره . وقيل : فيمن لم يقاتل ، ولا أخرج ولا أظهر سوءاً من كفار قريش . وقال قرة الهمداني وعطية العوفي : في قوم من بني هاشم منهم العباس . وقال عبد الله بن الزبير : في النساء والصبيان من الكفرة . وقال النحاس والثعلبي : أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة . وقيل : قدمت على أساء بنت أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - أمها نفيلة بنت عبد العزى وهي مشركة بهدايا ، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول ، فنزلت الآية ، فأمرها رسول الله - ﷺ - أن تدخلها منزلها ، وتقبل منها وتكفيها وتحسن إليها . قال ابن عطية : وكانت المرأة فيما روي خالتها فسمتها أمّاً ، وفي التحرير أن أبا بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - طلق امرأته نفيلة في الجاهلية وهي أم أساء بنت أبي بكر ، فقدمت في المدة التي فيها الهدنة وأهدت إلى أساء قرطاً وأشياء ، فكرهت أن تقبل منها فنزلت الآية و (أن تبروهم) و (أن تولوهم) بدلان مما قبلها بدل اشتغال ، قوله عز وجل :

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجَّرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَكَانُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ۝ يَتَأْتِيهِمُ النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ۝

كان صلح الحديبية قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يرد إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة رد إليهم ، فجاءت أم كلثوم وهي بنت عقبة بن أبي معيط وهي أول امرأة هاجرت بعد هجرة رسول الله - ﷺ - في هدنة الحديبية ، فخرج في أثرها أخوها عمارة ، والوليد فقالا : يا محمد أوف لنا بشرطنا ، فقالت يا رسول الله حال النساء إلى الضعف كما قد علمت فتدني إلى الكفار يفتنوني عن ديني ، ولا صبر لي ، فنقض الله العهد في النساء ، وأنزل فيهن الآية ، وحكم بحكم رضوه كلهم . وقيل : سبب نزولها سبيعة بنت الحارث الأسلمية جاءت الحديبية مسلمة ، فأقبل زوجها مسافر المخدمومي . وقيل : صيفي بن الراهب ، فقال : يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تحف ، فنزلت بياناً أن الشرط إنما كان في الرجال دون النساء ، وذكر أبو نعيم الأصبهاني أن سبب نزولها أميمة بنت بشر بن عمرو بن عوف امرأة حسان بن الدحداحة ، وسماهن تعالى مؤمنات قبل أن يمتحن ، وذلك لنطقهن بكلمة الشهادة ، ولم يظهر منهن ما ينافي ذلك أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان . وقرئ مهاجرات بالرفع على البدل من المؤمنات ، وامتحانهن قالت عائشة بآية المبايعه ، وقيل : بأن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وقال ابن عباس بالحلف أنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، ورغبة في دين الإسلام ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة وعكرمة : كانت تستحلف أنها ما هاجرت لبغض في زوجها ولا لجريرة جرتها ولا لسبب من أغراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة (الله أعلم بإيمانهن) لأنه تعالى هو المطلع على أسرار القلوب ومخبات العقائد ، فإن علمتموهن أطلق العلم على الظن الغالب بالحلف ، وظهور الأمارات بالخروج من الوطن ، والحلول في قوم ليسوا من قومها وبين انتفاء رجعهن إلى الكفار أزواجهن ، وذلك هو التحريم بين المسلمة والكافرة . وقرأ طلحة (لا هن يخلان لهم) وانعقد التحريم بهذه الجملة ، وجاء قوله (ولا هم يخلون هن) على سبيل التأكيد ، وتشديد الحرمة ، لأنه إذا لم تحل المؤمنة للكافر علم أنه لا حل بينهما البتة . وقيل : أفاد قوله (ولا هم يخلون هن) استمرار الحكم بينهم فيما يستقبل ، كما هو في الحال ما داموا على الإشراك ، وهن على الإيمان (وآتوهن ما أنفقوا) أمر أن يعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت ، فلا يجمع عليه خسران الزوجة والمالية . قال ابن عباس : أعطى رسول الله - ﷺ - بعد امتحانها زوجها الكافر ما أنفق عليها ، فتزوجها عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - وكان إذا امتحنهن أعطى أزواجهن مهورهن . وقال قتادة : الحكم في رد الصداق إنما كان في نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد عليه الصداق ، والأمر كما قال قتادة ، ثم نفى الخرج في نكاح المؤمنين إياهن إذا آتوهن مهورهن ، ثم أمر تعالى المؤمنين بفراق نسائهن الكوافر عوايد الأوثان . وقرأ الجمهور (تمسكوا) مضارع أمسك ، كأكرم وأبو عمرو ومجاهد بخلاف عنه وابن جبير والحسن والأعرج مضارع مسك مشدداً ، والحسن أيضاً وابن أبي ليلي وابن عامر في رواية عبد الحميد وأبو عمرو في رواية معاذ (تمسكوا) بفتح الثلاثة مضارع تمسك محذوف الثاني بتمسكوا ، والحسن أيضاً تمسكوا بكسر السين مضارع مسك ثلاثياً . وقال الكرخي : الكوافر يشمل الرجال والنساء ، فقال له أبو علي الفارسي : النحويون لا يرون هذا إلا في النساء جمع كافرة ، وقال أليس يقال طائفة كافرة ، وفرقة كافرة ، قال أبو علي : فبهت ، فقلت : هذا تأييد انتهى . وهذا الكرخي معتزلي فقيه ، وأبو علي معتزلي فأعجبه هذا التخريج ، وليس بشيء لأنه لا يقال كافرة في وصف الرجال إلا تابعاً لموصوفها ، أو يكون محذوفاً مراداً ، أما بغير ذلك فلا يجمع فاعلة على فواعل إلا ويكون للمؤنث ، والعصم جمع عصمة ، وهي سبب البقاء في الزوجية (وأسألوا ما أنفقتم) أي : واسألوا الكافرين ما أنفقتم على أزواجكم إذا فروا إليهم (وليسألوا) أي : الكفار ما أنفقوا على أزواجهم إذا فروا إلى المؤمنين . ولما تقرر هذا الحكم ، قالت قریش : فيما روى لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ، ولا ندفع لأحد صداقاً ، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى (وإن فاتكم) فأمر تعالى المؤمنين أن يدفعوا من فرت زوجته من المسلمين ففاتت بنفسها إلى الكفار ، وانقلبت من الإسلام ما كان مهرها . قال

الزخشري : (فإن قلت :) هل لإيقاع شيء في هذا الموضع فائدة ؟ (قلت :) نعم ، الفائدة فيه أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر غير معوض منه تغليظاً في هذا الحكم ، وتشديداً فيه انتهى . واللاقي ارتددن من نساء المهاجرين ، ولحقن بالكفار ، أم الحكم بنت أبي سفيان زوج عياض بن شداد الفهري ، وأخت أم سلمة فاطمة بنت أبي أمية زوج عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - وعبدية بنت عبد العزى زوج هشام بن العاصي ، وأم كلثوم بنت جرويل زوج عمر أيضاً . وذكر الزخشري : أنهم ست فذكر أم الحكم ، وفاطمة بنت أبي أمية زوج عمر بن الخطاب ، وعبدية وذكر أن زوجها عمرو بن ود ، وكلثوم وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاصي ، أعطى أزواجهن رسول الله - ﷺ - مهورهن من الغنيمة . وقرأ الجمهور (فعاقبتكم) بألف ومجاهد والزهري والأعرج وعكرمة وحيد وأبو حيوه والزعفراني بشد القاف ، والنخعي والأعرج أيضاً وأبو حيوه أيضاً والزهري أيضاً وابن وثاب بخلاف عنه بخف القاف مفتوحة ، ومسروق والنخعي أيضاً والزهري أيضاً بكسرهما ، أيضاً (فعاقبتكم) على وزن افعل يقال عاقب الرجل صاحبه في كذا ، أي : جاء فعل كل واحد منها يعقب فعل الآخر ، ويقال أعقب . قال :

وَحَارَدَتِ النُّكْدُ الْجِلَادُ وَلَمْ يَكُنْ لِعُقْبَةٍ قَدْرُ الْمُسْتَعِيرِينَ يُعْقَبُ^(١)

وعقب أصاب عقبي ، والتعقيب غزو وإثر غزو ، وعقب بفتح القاف وكسرهما مخففاً . وقال الزخشري : فعاقبتكم من العقبة ، وهي النوبة شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه ، كما يتعاقب في الركوب وغيره ، ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر فأتوا من فاتته امرأته إلى الكفار ، مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا يؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهري يعطي من صداق من لحق بهم ، ومعنى أعقبتم دخلتم في العقبة ، وعقبتم من عقبه إذا قفاه ، لأن كل واحد من المتعاقبين يقفي صاحبه ، وكذلك عقبتم بالتخفيف يقال عقبه يعقبه انتهى . وقال الزجاج : فعاقبتكم قاضيتموهم في القتال بعقوبة ، حتى غنمتم ، وفسر غيرها من القراءات لكأن العقبي لكم ، أي : كانت الغلبة لكم حتى غنمتم ، والكفار من قوله : (إلى الكفار) ظاهره العموم في جميع الكفار ، قاله قتادة ومجاهد ، قال قتادة : ثم نسخ هذا الحكم ، وقال ابن عباس : يعطي من الغنيمة قبل أن تخمس . وقال الزهري : من مال الفيء ، وعنه من صداق من لحق بنا . وقيل : الكفار مخصوص بأهل العهد . وقال الزهري اقتطع هذا يوم الفتح . وقال الثوري : لا يعمل به اليوم . وقال مقاتل : كان في عهد الرسول فنسخ . وقال ابن عطية : هذه الآية كلها قد ارتفع حكمها . وقال أبو بكر بن العربي القاضي : كان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة . وقال القشيري : قال قوم : هو ثابت الحكم إلى الآن . (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك) كانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وهو على الصفا وعمر أسفل منه يبایعنهم بأمره ، ويبلغهن عنه ، وما مست يده - عليه الصلاة والسلام - يد امرأة أجنبية قط . وقالت أسماء بنت يزيد بن السكن : كنت في النسوة المبايعات فقلت يا رسول الله ابسط يدك نبايعك ، فقال لي عليه الصلاة والسلام : إني لا أصافح النساء ، لكن آخذ عليهن ما آخذ الله عليهن^(٢) ، وكانت هند بنت عتبة في النساء ، فقرأ عليهن الآية ، فلما قررهن على أن لا يشركن بالله شيئاً قالت هند : وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال تعني إن هذا بين لزومه ، فلما وقف على السرقة قالت : والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري أيجل لي ذلك ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما

(١) البيت من الطويل للكميت بن زيد ، انظر ديوانه ٢٣ اللسان (عقب - حرد) وروي (معقب) بدل (يعقب) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٨٣١) وذكر وينحوه أخرجه البخاري (٥٠٤/٨) في كتاب التفسير باب (إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات)

مضى ، وفيما عبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله - ﷺ - وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ، قالت : نعم فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك . فقال : (ولا يزين) فقالت : أو تزني الحرة ؟ قال (ولا يقتلن أولادهن) فقالت : ربناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر ، فضحك عمر - رضي الله تعالى عنه - حتى استلقى ، وتبسم رسول الله - ﷺ - فقال : (ولا يأتين بهتان) فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا يأمر الله إلا بالرشد ، ومكارم الأخلاق . فقال : (ولا يعصينك في معروف) فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ، ومعنى قول هند أو تزني الحرة ، أنه كان في قريش في الإماء غالباً ، وإلا فالبلغايا ذوات الرباط قد كن حرائر . وقرأ عليّ والحسن والسلمي (ولا يقتلن) مشدداً ، وقتلهن من أجل الفقر والفاقة ، وكانت العرب تفعل ذلك والبهتان قال الأكثرون : أن تنسب إلى زوجها ولداً ليس منه ، وكانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك . (بين أيديهن وأرجلن) لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين وفرجها الذي تلده به بين الرجلين . وروى الضحاك : البهتان العضه ، لأنها إذا قذفت المرأة غيرها فقد بهت ما بين يدي المقدوفة ، ورجليها إذا نفت عنها ولداً قد ولدته ، أو ألحقت بها ولداً لم تلده . وقيل : البهتان السحر . وقيل : بين أيديهن ألسنتهن بالنميمة ، وأرجلهن فروجهن ، وقيل : بين أيديهن قبله ، أو جسة وأرجلهن الجماع ، ومن البهتان الفرية بالقول على أحد من الناس ، والكذب فيما أوثمن عليه من حمل وحيض ، والمعروف الذي نهي عن العصيان فيه ، قال ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم : هو النوح وشق الجيوب ، ووشم الوجوه ، ووصل الشعر ، وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندها . وروي أن قوماً من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ، فقل لهم : لا تتولوا قوماً مغضوباً عليهم ، وعلى أنهم اليهود فسرهم الحسن وابن زيد ومنذر بن سعيد ، لأن غضب الله قد صار عرفاً لهم . وقال ابن عباس : كفار قريش ، لأن كل كافر عليه غضب من الله . وقيل : اليهود والنصارى قد يثسوا من الآخرة . قال ابن عباس : من خيرها وثوابها ، والظاهر أن من في أصحاب القبور لا ابتداء الغاية ، أي : من لقاء أصحاب القبور ، فمن الثانية كالأولى من الآخرة ، فالمعنى أنهم لا يلقونهم في دار الدنيا بعد موتهم . وقال ابن عرفة : هم الذين قالوا ما يهلكنا إلا الدهر انتهى والكفار على هذا كفار مكة ، لأنهم إذا مات لهم حميم قالوا هذا آخر العهد به ، لن يبعث أبداً ، وهذا تأويل ابن عباس وقتادة والحسن . وقيل : من لبيان الجنس ، أي : الكفار الذين هم أصحاب القبور ، والمأيوس منه محذوف أي : كما يثس الكفار المقبورون من رحمة الله ، لأنه إذا كان حياً لم يقبر كان يرجى له أن لا يئأس من رحمة الله إذ هو متوقع إيمانه ، وهذا تأويل مجاهد ، وابن جبير ، وابن زيد . وقال ابن عطية : وبيان الجنس أظهر انتهى . وقد ذكرنا أن الظاهر كون من لا ابتداء الغاية إذ لا يحتاج الكلام إلى تقدير محذوف . وقرأ ابن أبي الزناد (كما يثس الكافر) على الأفراد . والجمهور على الجمع . ولما افتتح هذه السورة بالنهي عن اتخاذ الكفار أولياء ختمها بمثل ذلك تأكيداً لترك موالاتهم ، وتنفيذ المسلمين عن توليهم وإلقاء المودة إليهم .

سورة الصف مدنية وهي أربع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٥ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٧ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٨ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٩ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١٠ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١١ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١٢ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١٣ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١٤

المَرْصُوصُ قَالَ الْفَرَاءُ وَالْقَاضِي مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ : هُوَ الْمَعْقُودُ بِالرَّصَاصِ . وَقَالَ الْمُبَرِّدُ : رَصَصْتُ الْبِنَاءَ لَأَمَتَ بَيْنَ

أَجْزَائِهِ ، وَقَارِبَتْهُ حَتَّى يَصِيرَ كَقِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ ، قَالَ الرَّاعِي :

مَا لَقِيَ الْبَيْضُ مِنَ الْحَرْقُوصِ بَفَتْحِ بَابِ الْمُغْلَقِ الْمَرْصُوصِ (١)

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (حرقص) .

الحرقوص دويبة تولع بالنساء الأبيكار . وقيل : هو من الترصيص وهو انصمام الأسنان ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ، يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص . وإذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين . إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴿ هذه السورة مدنية في قول الجمهور ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة . وقال ابن يسار : مكية ، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد . وسبب نزولها قول المنافقين للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك ، أو قول شباب من المسلمين فعلنا في الغزو كذا ، ولم يفعلوا ، أو قول ناس وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نغني فيه ففرض الجهاد ، وأعلم تعالى بحب المجاهدين فكرهه قوم وفر بعضهم يوم أحد ، فنزلت أقوال . الأول لابن زيد ، والثاني لقتادة ، والثالث لابن عباس وأبي صالح ، ومناسبتها الآخر السورة قبلها أن في آخر تلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ [المجادلة ١٤] فاقتضى ذلك إثبات العداوة بينهم ، فحضر تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنين في الحرب أعداءهم ، والنداء بيا أيها الذين آمنوا ، إن كان للمؤمنين حقيقة فلاستفهام يراد به التلطف في العتب ، وإن كان للمنافقين فالمنعنى : يا أيها الذين آمنوا ، أي : بألستهم والاستفهام يراد به الإنكار والتوبيخ وتهكم بهم في إسناد الإيمان إليهم ، ولم يتعلق بالفعل وحده وقف عليه بالهاء أو بسكون الميم ، ومن سكن في الوقف فلاجرائه مجرى الوقف ، والظاهر انتصاب مقتاً على التمييز ، وفاعل كبر أن تقولوا ، وهو من التمييز المنقول من الفاعل ، والتقدير كبر مقت قولكم ما لا تفعلون ، ويجوز أن يكون من باب نعم وبش ، فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالتمييز ، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم ، أي : بش مقت قولكم كذا ، والخلاف الجاري في المرفوع في بش رجلاً زيد جار في أن تقولوا هنا ، ويجوز أن يكون في كبر ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله (لم تقولون) أي : كبر هو أي القول مقتاً ، ومثله ﴿ كبرت كلمة ﴾ [الكهف ٥] أي : ما أكبرها كلمة ، و (أن تقولوا) بدل من المضممر ، أو خبر ابتداء مضممر . وقيل : هو من أبنية التعجب ، أي : ما أكبره مقتاً . وقال الزمخشري : قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله :

عَلَّتْ نَابَ كُلِّيبٍ بَوَاؤُهَا^(١)

ومعنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظرائه وأشكاله ، وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتاً على تفسيره دلالة على أن قوله ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه ، واختبر لفظ المقت لأنه أشدّ البغض ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كثيراً حتى جعل أشدّه وأفحشه ، وعند الله أبلغ

(١) عجز بيت من الطويل لرجل من بني بكر انظر الكشاف (٤/ ٥٢٣) .

من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقتته عند الله فقد تم كبره وشدته انتهى . وقال ابن عطية : والمقت البغض من أجل ذنب ، أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت انتهى . وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت إذا كان يبغضه كل أحد انتهى . وقرأ زيد بن علي (يقاتلون) بفتح التاء ، وقيل : قرئ (يقتلون) وانتصب صفاً على الحال ، أي : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين كأنهم فيء في تراصهم من غير فرجة ولا خلل بنيان رص بعضه إلى بعض ، والظاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنیان المرصوص . وقيل : المراد استواء نيابهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنیان المرصوص . قيل : وفيه دليل على فضل القتال راجلاً ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة ، و (صفاً) و (كأنهم) قال الزمخشري : حالان متداخلان . وقال الحوفي : كأنهم في موضع النعت لصفاً انتهى . ويجوز أن يكونا حالين من ضمير يقاتلون ، ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل وهو راجع إلى الكذب فإن ذلك في معنى الإذاية للرسول - عليه الصلاة والسلام - إذ كان في اتباعه من عانى الكذب فناسب ذكر قصة موسى ، وقوله لقومه : (لم تؤذوني) وإذابتهم له كان بانتقاصه في نفسه ، وجحد آيات الله تعالى ، واقتراحهم عليه ما ليس لهم اقتراحه (وقد تعلمون) جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكرمه ، فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية ، وقد تدل على التحقيق في الماضي والتوقع في المضارع ، والمضارع هنا معناه الماضي ، أي : وقد علمتم كقوله ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ [النور ٦٤] أي : قد علم ﴿ قد نرى تقلب ﴾ [البقرة ١٤٤] وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب الفعل (فلما زاغوا) عن الحق (أزاع الله قلوبهم) . قال الزمخشري : بأن منع الطافه (والله لا يهدي القوم الفاسقين) لا يلطف بهم ، لأنهم ليسوا من أهل اللطف ، وقال غيره : أسند الزيف إليهم ، ثم قال أزاع الله كقوله تعالى (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) [الحشر ١٩] وهو من العقوبة على الذنب بالذنب بخلاف قوله ﴿ ثم تاب الله عليهم ليتوبوا ﴾ [التوبة ١١٨] ولما ذكر شيئاً من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ذكر أيضاً شيئاً من قصة عيسى عليه السلام ، وهناك قال (يا قوم) لأنه من بني إسرائيل وهنا قال عيسى (يا بني إسرائيل) من حيث لم يكن له فيهم أب ، وإن كانت أمه منهم ، و (مصداقاً) و (مبشراً) حالان ، والعامل رسول ، أي : مرسل ويأتي و (اسمه) جملتان في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية ، ولمن تأخر من النبي المذكور ، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته . وروي أن الحواريين قالوا : يا رسول الله هل بعدنا من أمة : قال نعم ، أمة أحمد - ﷺ - حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل ، وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم ، أو من أحمد أفعل التفضيل ، وقال حسان :

صَلَّى الْإِلَهَ وَمَنْ يَحْفُ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارِكِ أَحْمَدُ^(١)

وقال القشيري : بشر كل نبي قومه بنبينا محمد - ﷺ - والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأن آخر نبي قبل نبينا - ﷺ - فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام ، والظاهر أن الضمير المرفوع في جاءهم يعود على عيسى ، لأنه المحدث عنه . وقيل : يعود على أحمد لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد - ﷺ - وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين ، أي : فلما جاء البشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة (قالوا هذا سحر مبين) ، وقرأ الجمهور (سحر) أي : ما جاء به من البينات . وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب (ساحر) أي : هذا الحال ساحر . وقرأ الجمهور : (يدعي) مبنياً للمفعول ، وطلحة (يدعي) مضارع ادعى مبنياً للفاعل ، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به ، لكنه لما ضمن معنى الانتفاء والانتساب عدي بإلى . وقال الزمخشري أيضاً وقرأ طلحة بن مصرف : (وهو يدعي) بشد الدال بمعنى يدعي دعاه وادعاه نحو لمسه والتمسه . (يريدون) الآية تقدم

تفسير نظيرها في سورة التوبة . وقال الزمخشري : أصله يريدون أن يطفئوا كما جاء في سورة براءة، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة في قولك جئتكم لأكرمكم ، كما زيدت اللام في لا أبا لك تأكيداً لمعنى الإضافة في لا أبا لك انتهى . وقال نحوه ابن عطية ، قال : واللام في قوله (ليطفئوا) لام مؤكدة دخلت على المفعول ، لأن التقدير يريدون أن يطفئوا، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، تقول لزيد ضربت ولرؤيتك قصرت انتهى . وما ذكره ابن عطية من أن هذه اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر ، بل الأكثر زيدا ضربت من لزيد ضربت ، وأما قولها إن اللام للتأكيد ، وأن التقدير أن يطفئوا فالإطفاء مفعول يريدون ، فليس بمذهب سيويه والجمهور . وقال ابن عباس وابن زيد : هنا يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول . وقال السدي : يريدون دفع الإسلام بالكلام . وقال الضحاك : هلاك الرسول - ﷺ - بالأراجيف ، وقال ابن بحر : إبطال حجج الله بتكذيبهم وعن ابن عباس سبب نزولها أن الوحي أبطأ أربعين يوماً ، فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا أطفالاً الله نور محمد فيها كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول - ﷺ - فنزلت ، واتصل الوحي . وقرأ العربيان ونافع وأبو بكر والحسن وطلحة والأعرج وابن محيصن (متم) بالتثنية (نوره) بالنصب ، وباقي السبعة والأعمش بالإضافة . وقرأ الجمهور (تنجيكم) مخففاً ، والحسن وابن أبي إسحاق والأعرج وابن عامر مشدداً ، والجمهور (تؤمنون) (وتجاهدون) (وعبد الله) آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا) أمرين وزيد بن علي بالتاء ، فيها محذوف النون فيها ، فأما توجيه قراءة الجمهور فقال المبرد : هو بمعنى آمنوا على الأمر ، ولذلك جاء يغفر مجزوماً انتهى . فصورته صورة الخبر ، ومعناه الأمر ، ويدل عليه قراءة عبد الله ، ونظيره قوله : اتقى الله امرؤ فعل خيراً يثب عليه ، أي : ليق الله وجيء به على صورة الخبر . قال الزمخشري : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وهاد موجودين ، ونظيره قول الداعي غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، جعلت المغفرة لقوة الرجاء كأنها كانت ووجدت انتهى . وقال الأحفش : هو عطف بيان على تجارة ، وهذا لا يتخيل إلا على تقدير أن يكون الأصل أن تؤمنوا ، حتى يتقدر بمصدر ، ثم حذف أن فارتفع الفعل كقوله :

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضِرُ الْوَعَى^(١)

يريد أن أحضر ، فلما حذف أن ارتفع الفعل ، فكان تقدير الآية هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم إيمان بالله ورسوله وجهاد . وقال ابن عطية : تؤمنون فعل مرفوع تقديره ذلك أنه تؤمنون انتهى . وهذا ليس بشيء ، لأن فيه حذف المبتدأ وحذف أنه وإبقاء الخبر ، وذلك لا يجوز . وقال الزمخشري : وتؤمنون استئناف ، كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال تؤمنون ، ثم اتبع المبرد فقال : هو خبر في معنى الأمر ، وبهذا أجيب بقوله (يغفر لكم) انتهى . وأما قراءة عبد الله فظاهرة المعنى ، وجواب الأمر يغفر ، وأما قراءة زيد فتوجه على حذف لام الأمر التقدير لتؤمنوا كقول الشاعر :

قُلْتُ لِيَسْوَإٍ عَلَى بَسَائِهَا تَأْذَنُ لِي إِنِّي مِنْ أَحْمَائِهَا^(٢)

يريد لتأذن ويغفر مجزوم على جواب الأمر في قراءة عبد الله وقراءة زيد وعلى تقدير المبرد . وقال الفراء : هو مجزوم

(١) صدر بيت من الطويل لطرفة ، وعجزه :

وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مَخْلُودِي

.....

انظر أمالي الشجري (١/٨٣) ابن يعيش (٢/٧) - (٤/٢٨) الخزانة (١/٥٧) الهمع (١/٥) العيني (٤/٤٠٢) شرح شواهد المغني (٢٦٧٠) .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٧/٨٩) .

على جواب الاستفهام ، وهو قوله : (هل أدلكم) واستبعد هذا التخريج . قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا . وقال المهدي : إنما يصح حملاً على المعنى ، وهو أن يكون يؤمنون وتجاهدون عطف بيان على قوله : (هل أدلكم) كان التجارة لم يدر ما هي فبينت بالإيمان ، والجهاد ، فهي هما في المعنى ، فكأنه قال : هل تؤمنون وتجاهدون ؟ قال : فإن لم تقدر هذا التقدير لم يصح ، لأنه يصير إن دلتهم يغفر لكم ، والغفران إنما يجب بالقبول والإيمان لا بالدلالة . وقال الزمخشري نحوه ، قال وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ، فكأنه قال : هل تتحرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ؟ انتهى . وتقدم شرح بقية الآية ، ولما ذكر تعالى ما يمنهم من الثواب في الآخرة ذكر ما يسرهم في العاجلة ، وهي ما يفتح عليهم من البلاد وأخرى صفة المحذوف ، أي : ولكم مثوبة أخرى أو نعمة أخرى عاجلة إلى هذه النعمة الآجلة ، فأخرى مبتدأ وخبره المقدر لكم وهو قول الفراء ، ويرجحه البديل منه بقوله : (نصر من الله) وتحبونها صفة ، أي : محبوبة إليكم ، وقال قوم (وأخرى) في موضع نصب بإضمار فعل ، أي : ويمنحكم أخرى ، ونصر خبر مبتدأ ، أي : ذلك أهو نصر . وقال الأخفش : وأخرى في موضع جر عطفاً على تجارة ، وضعف هذا القول ، لأن هذه الأخرى ليست مما دل عليه إنما هي من الثواب الذي يعطيهم الله على الإيمان والجهاد بالنفس والمال . وقرأ الجمهور (نصر) بالرفع ، وكذا (وفتح قريب) وابن أبي عبلة بالنصب فيها ثلاثتها ووصف أخرى بتحبونها ، لأن النفس قد وكلت بحب العاجل ، وفي ذلك تحريض على ما يحصل ذلك وهو الإيمان والجهاد . وقال الزمخشري : وفي تحبونها شيء من التوبيخ على محبة العاجل ، قال : (فإن قلت) لم نصب من قرأ نصراً من الله وفتحاً قريباً ؟ (قلت :) يجوز أن ينصب على الاختصاص ، أو على ينصرون نصراً ، ويفتح لكم فتحاً ، أو على يغفر لكم ، ويدخلكم جنات ويؤتكم أخرى ، نصراً وفتحاً قريباً : (فإن قلت :) علام عطف قوله (وبشر المؤمنين) ؟ (قلت :) على تؤمنون ، لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله ، وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك انتهى . (كونوا أنصار الله) ندب المؤمنين إلى النصر ، ووضع لهم هذا الاسم ، وإن كان قد صار عرفاً للأوس والخزرج ، وسأهم الله به . وقرأ الأعرج وعيسى وأبو عمرو الحرميان (أنصاراً لله) بالتنوين ، والحسن والجحدري وباقي السبعة بالإضافة إلى الله ، والظاهر أن كما في موضع نصب على إضمار ، أي : قلنا لكم ذلك كما قال عيسى . وقال مكي : نعت لمصدر محذوف ، والتقدير كونوا كوناً ، وقيل : نعت لأنصاراً ، أي : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال من أنصاري إلى الله انتهى . والحواريون : اثنا عشر رجلاً ، وهم أول من آمن بعيسى ، بثهم عيسى في الآفاق بعث بطرس وبولس إلى رومية واندراوس ، ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس ، وبوقاس إلى أرض بابل ، وفيلبس إلى قراطجنة ، وهي إفريقية ويحنس إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف ، ويعقوبين إلى بيت المقدس ، وابن بليمن إلى أرض الحجاز ، وتستمر إلى أرض البربر وما حولها ، وفي بعض أسمائهم إشكال من جهة الضبط فليتمس ذلك من مظانه . (فأيدنا الذين آمنوا) بعيسى (على عدوهم) وهم الذين كفروا بعيسى ، (فأصبحوا ظاهرين) أي : قاهرين لهم مستولين عليهم . وقال زيد بن علي وقادة : ظاهرين غالبين بالحجة والبرهان . وقيل : أيدنا المسلمين على الفرقتين الضاليتين والله أعلم .

سورة الجمعة مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمُنُّونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿١١﴾

السفر : الكتاب المجتمع الأوراق منضدة .

هو يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ، هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ، قل يا أيها الذين هادوا إن زعمت أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة

فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴿ هذه السورة مدنية . وقيل : مكية وهو خطأ ، لأن أمر اليهود وانفضاض الناس في الجمعة لم يكن إلا بالمدينة . ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم ، أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه ، وذكر ما أنعم به على أمة محمد - ﷺ - من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتركيبتهم ، فصارت أمته غالبية سائر الأمم ، وقاهرة لها ، منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم . وقرأ الجمهور (الملك) بجره وجر ما بعده ، وأبو وائل ومسلمة بن محارب ورؤبة وأبو الدينار الأعرابي بالرفع على إضمار هو ، وحسنه الفصل الذي فيه طول بين الموصوف والصفة ، وكذلك جاء عن يعقوب . وقرأ أبو الدينار وزيد بن علي (القدوس) بفتح القاف ، والجمهور بالضم . (هو الذي بعث) الآية تقدم الكلام في نظيرها في آل عمران ، وفي نسبة الأمي وآخرين ، الظاهر أنه معطوف على الأميين ، أي : وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون . وقيل : (وآخرين) منصوب معطوف على الضمير في ويعلمهم ، أسند تعليم الآخرين إليه عليه الصلاة والسلام مجازاً لما تناسق التعليم إلى آخر الزمان ، وتلا بعضه بعضاً ، فكأنه عليه الصلاة والسلام وجد منه . وقال أبو هريرة وغيره : وآخرين هم فارس ، وجاء نصاً عنه في صحيح البخاري ومسلم ، ولو فهم منه الحصر في فارس لم يجز أن يفسر به الآية ، ولكن فهم المفسرون منه أنه تمثيل . فقال مجاهد وابن جبير : الروم والعجم . وقال مجاهد أيضاً وعكرمة ومقاتل : التابعين من أبناء العرب ، لقوله : (منهم) أي : في النسب . وقال مجاهد أيضاً والضحاك وابن حبان : طوائف من الناس . وقال ابن عمر : أهل اليمن وعن مجاهد أيضاً أبناء الأعاجم ، وعن ابن زيد أيضاً : هم التابعون ، وعن الضحاك أيضاً : العجم ، وعن أبي روق : الصغار بعد الكبار ، وينبغي أن تحمل هذه الأقوال على التمثيل ، كما حملوا قول الرسول - ﷺ - في فارس وهو العزيز الحكيم في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأنيده واختياره من سائر البشر . (ذلك فضل الله) أي : إتياء النبوة ، وجعله خير خلقه واسطة بينه وبين خلقه (مثل الذين حملوا التوراة) هم اليهود المعاصرون للرسول - ﷺ - كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها ، ولم يطبقوا القيام بها حين كذبوا الرسول - ﷺ - وهي ناطقة بنبوته . وقرأ الجمهور (حملوا) مشدداً مبنياً للمفعول ، ويحيى بن يعمر ووزيد بن علي مخففاً مبنياً للفاعل شبه صفتهم بصفة الحمار الذي يحمل كتباً ، فهو لا يدري ما عليه أكتب هي أم صخر وغير ذلك ، وإنما يدرك من ذلك ما يلحقه من التعب بحملها . وقال الشاعر في نحو ذلك :

رَوَامِلُ لِلْأَشْعَارِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بِجِدِّهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبُعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ^(١)

وقرأ عبد الله (حمار) منكرأ ، والمأمون بن هارون يحمل بشد الميم مبنياً للمفعول . والجمهور : (الحمار) معرفاً ، ويحمل مخففاً مبنياً للفاعل ، ويحمل في موضع نصب على الحال . قال الزمخشري : أو الجر على الوصف ، لأن الحمار كاللثيم في قوله :

وَلَقَدْ أَمَرْتُ عَلَى اللَّثِيمِ يَسْبِي^(٢)

انتهى . وهذا الذي قاله قد ذهب إليه بعض النحويين ، وهو أن مثل هذا من المعارف يوصف بالجميل ، وحملوا عليه ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس ٣٧] وهذا وأمثاله عند المحققين في موضع الحال لا في موضع الصفة ، ووصفه

(١) انظر أسرار البلاغة (١٣١) المصون (١١) اللسان (زمل) روح المعاني (٩٥/٢٧) القرطبي (٦٢/١٨) .

(٢) تقدم .

بالمعرفة ذي اللام دليل على تعريفه مع ما في ذلك المذهب من هدم ما ذكره المتقدمون من أن المعرفة لا تنعت إلا بالمعرفة ،
والجمل نكرات ، (بش مثل القوم) قال الزمخشري : بش مثلاً مثل القوم انتهى ، فخرجه على أن يكون التمييز
محذوفاً ، وفي بش ضمير يفسره مثلاً الذي ادعى حذفه ، وقد نص سيبويه على أن التمييز الذي يفسره الضمير المستكن في
نعم وبش وما أجرى مجراهما لا يجوز حذفه . وقال ابن عطية : والتقدير بش مثل القوم انتهى . وهذا ليس بشيء ،
لأن فيه حذف الفاعل ، وهو لا يجوز ، والظاهر أن مثل القوم فاعل بش ، والذين كفروا هو المخصوص بالذم على حذف
مضاف ، أي : مثل الذين كذبوا بآيات الله ، وهم اليهود ، أو يكون الذين كذبوا صفة للقوم ، والمخصوص بالذم محذوف
التقدير ، بش مثل القوم المكذبين مثلهم ، أي : مثل هؤلاء الذين حملوا التوراة . روى أنه لما ظهر رسول الله - ﷺ -
كتبت يهود المدينة لليهود خير إن اتبعتموه أطعناكم ، وإن خالفتموه خالفناه ، فقالوا لهم : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا
عزيز بن الله ، والأنبياء ، متى كانت النبوة في العرب ، نحن أحق بها من محمد ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت (قل يا أيها
الذين هادوا) وكانوا يقولون : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة ١٨] ، وإن كان قولكم حقاً فتمنوا أن تنقلوا سريعاً
إلى دار كرامته المعدة لأولياءه ، وتقدم تفسير نظير بقية الآية في سورة البقرة . وقرأ الجمهور (فتمنوا الموت) بضم الواو ،
وابن يعمر وابن أبي إسحاق ابن السميع بكسرها ، وعن ابن السميع أيضاً فتحها . وحكى الكسائي عن بعض الأعراب
أنه قرأ بالهمز مضمومة بدل الواو ، وهذا كقراءة من قرأ (تلؤون) بالهمز بدل الواو . قال الزمخشري : ولا فرق بين لا ،
ولن في أن كل واحد منها نفي للمستقبل ، إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فأتى مرة بلفظ التأكيد ﴿ ولن يتمنوه ﴾
[البقرة ٩٥] ومرة بغير لفظه (ولا يتمنونه) وهذا منه رجوع عن مذهبه في أن لن تقتضي النفي على التأييد إلى مذهب
الجماعة في أنها لا تقتضيه ، وأما قوله إلا أن في لن تأكيداً وتشديداً ليس في لا ، فيحتاج ذلك إلى نقل عن مستقري اللسان .
وقرأ الجمهور (فإنه) والفاء دخلت في خبر إن إذا جرى مجرى صفته ، فكان إن باشرت الذي ، وفي الذي معنى الشرط
فدخلت الفاء في الخبر ، وقد منع هذا قوم منهم الفراء ، وجعلوا الفاء زائدة . وقرأ زيد بن علي (إنه) بغير فاء ، وخرجه
الزمخشري على الاستثنا ، وخبر (إن) هو (الذي) كأنه قال : قل إن الموت هو الذي تفرون منه انتهى . ويحتمل أن
يكون خبر (إن) هو قوله (إنه ملاقيكم) فالجملة خبر (إن) ويحتمل أن يكون (إنه) توكيداً لـ (إن الموت)
و (ملاقيكم) خبر (إن) لما طال الكلام أكد الحرف مصحوباً بضمير الاسم الذي (لأن) ، (إذا نودي) أي : إذا أذن ،
وكان الأذان عند قعود الإمام على المنبر ، وكذا كان في زمن الرسول - ﷺ - كان إذا صعد على المنبر أذن على باب المسجد ،
فإذا نزل بعد الخطبة أقيمت الصلاة ، وكذا كان في عهد أبي بكر وعمر إلى زمان عثمان كثر الناس ، وتباعدت المنازل فزاد
مؤذناً آخر على داره التي تسمى الزوراء ، فإذا جلس على المنبر أذن الثاني ، فإذا نزل من المنبر أقيمت الصلاة ولم يعب ذلك
أحد على عثمان - رضي الله عنه - (فإن قلت :) من في قوله (من يوم الجمعة) ما هي ؟ (قلت :) هي بيان لإذا ، وتفسير
له انتهى . وقرأ الجمهور (الجمعة) بضم الميم ، وابن الزبير وأبو حيوة وابن أبي عبلة ، ورواية عن أبي عمرو وزيد بن علي
والأعمش بسكونها ، وهي لغة تميم ، ولغة بفتحها لم يقرأ بها ، وكان هذا اليوم يسمى عروبة ، ويقال العروبة . قيل :
أول من سباه الجمعة كعب بن لؤي ، وأول جمعة صليت جمعة سعد بن أبي زرارة ، صلى بهم ركعتين ، وذكرهم فسموه يوم
الجمعة لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة ، فهي أول جمعة جمعت في الإسلام ، وأما أول جمعة جمعها
رسول الله - ﷺ - فإنه لما قدم المدينة نزل بقاء على بني عمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء
والخميس ، وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة ، فأدرك صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد
لهم ، فخطب وصلى الجمعة ، والظاهر وجوب السعي لقوله تعالى : (فاسعوا إلى ذكر الله) وأنه يكون في المشي خفة
وبدار . وقال الحسن وقتادة ومالك وغيرهم : إنما تؤق الصلاة بالسكينة ، والسعي هو بالنية والإرادة والعمل وليس

الإسراع في المشي ، كالسعي بين الصفا والمروة ، وإنما هو بمعنى قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ [النجم ٣٩] فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشي كله سعي ، والظاهر أن الخطاب بالأمر بالسعي للمؤمنين عموماً ، وأنها فرض على الأعيان وعن بعض الشافعية أنها فرض كفاية ، وعن مالك رواية شاذة أنها سنة . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : ثبت عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : الرواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم ، وقالوا : المأمور بالسعي المؤمن الصحيح الحر الذكر المقيم ، فلو حضر غيره أجزأتهم انتهى . والمسافة التي يسعى منها إلى صلاة الجمعة لم تتعرض الآية لها ، واختلف الفقهاء في ذلك . فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس والزهر : ستة أميال . وقيل : خمسة ، وقال ربيعة : أربعة أميال . وروى ذلك عن الزهري وابن المنكر . وقال مالك والليث : ثلاثة . وقال أبو حنيفة وأصحابه على من في المصر سمع النداء أو لم يسمع ، لا على من هو خارج المصر ، وإن سمع النداء ، وعن ابن عمر وابن المسيب والزهري وأحمد وإسحاق على من سمع النداء . وعن ربيعة على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشياً أدرك الصلاة . وقرأ كبراء من الصحابة والتابعين (فامضوا) بدل (فاسعوا) وينبغي أن يحمل على التفسير من حيث إنه لا يراد بالسعي هنا الإسراع في المشي ، ففسره بالمضي ، ولا يكون قرأناً لمخافته سواد ما أجمع عليه المسلمون ، وذكر الله هنا الخطبة ، قاله ابن المسيب ، وهي شرط في انعقاد الجمعة عند الجمهور . وقال الحسن هي مستحبة ، والظاهر أنه يجزىء من ذكر الله تعالى ما يسمى ذكراً . قال أبو حنيفة : لو قال الحمد لله ، أو سبحان الله ، واقتصر عليه جاز ، وقال غيره لا بد من كلام يسمى خطبة ، وهو قول الشافعي وأبي سفيان ، ومحمد بن الحسن ، والظاهر تحريم البيع ، وأنه لا يصح . وقال ابن العربي : يفسخ وهو الصحيح وقال الشافعي : ينعقد ولا يفسخ ، وكلما يشغل من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ ورعاً انتهى . وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون الأمصار من القرى ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ونهوا عن تجارة الدنيا ، وقت التحريم من الزوال إلى الفراغ من الصلاة ، قاله الضحاك ، والحسن وعطاء . وقال ناس غيرهم من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ ، والإشارة بذلك إلى السعي ، وترك البيع ، والأمر بالانتشار ، والابتغاء أمر إباحة ، وفضل الله هو ما يلبسه في حالة حسنة ، كعبادة المريض ، وصلة صديق ، واتباع جنازة ، وأخذ في بيع وشراء ، وتصرفات دينية ودينية ، فأمر مع ذلك بإكثار ذكر الله . وقال مكحول والحسن وابن المسيب : الفضل المأمور بابتغائه هو العلم . وقال جعفر الصادق : ينبغي أن يكون فجر صبح يوم السبت ، ويعني أن يكون بقية يوم الجمعة في عبادة . وروى أنه كان أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بعير تحمل ميرة . قال مجاهد : وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من درابها ، فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه ، وتركوه - ﷺ - قائماً على المنبر في اثني عشر رجلاً . قال جابر أنا أحدهم . قال أبو بكر غالب بن عطية هم العشرة المشهود لهم بالجنة ، والحادي عشر قيل : عمار . وقيل : ابن مسعود . وقيل : ثمانية قالوا فنزلت (وإذا رأوا تجارة) ، وقرأ الجمهور : (إليها) بضمير التجارة ، وابن أبي عتبة (إليه) بضمير الله ، وكلاهما جائز نص عليه الأخفش عن العرب . وقال ابن عطية : وقال إليها ، ولم يقل إليها تهماً بالأهم ، إذا كانت سبب اللهو ، ولم يكن اللهو سببها ، وتأمل أن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية ، لأنها أهم ، وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأيمن انتهى . وفي قوله (قائماً) دلالة على مشروعية القيام في الخطبة ، وأول من استراح في الخطبة عثمان ، وأول من خطب جالساً معاوية ، وقرئ إليها بالثنية للضمير ، كقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ [النساء ١٣٥] وتخريجه على أن يتجاوز بأوفتكون بمعنى الواو ، وقد تقدم غير هذا التخريج في قوله : (فالله أولى بهما) في موضعه في سورة النساء . وناسب ختمها بقوله (والله خير الرازيين) لأنهم كانوا قد مسهم شيء من غلاء الأسعار ، كما تقدم في سبب النزول وقد ملأ المفسرون كثيراً من أوراقهم بأحكام ، وخلاف في مسائل الجمعة مما لا تعلق لها بلفظ القرآن .

سورة المنافقون مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
 لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا
 تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ
 ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾
 سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا
 الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
 ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ
 فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

الجسم والخشب معرفان أسندت ظهري إلى الحائط أملت وأصفت إليه ، وتساند القوم اصطفوا وتقابلوا للقتال .

﴿١﴾ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووارؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزان السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لن رجعنا إلى

المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل والله العزة ولسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ، يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴿ هذه السورة مدنية ، نزلت في غزوة بني المصطلق ، كانت من عبد الله بن أبي بن سلول وأتباعه فيها أقوال فنزلت . وسبب نزولها مذكور في قصة طويلة من مضمونها أن اثنين من الصحابة ازدحما على ماء ، وذلك في غزوة بني المصطلق ، فشج أحدهما الآخر ، فدعا المشجوج يا للأنصار ، والشاج يا للمهاجرين ، فقال عبد الله بن أبي بن سلول ما حكى الله تعالى عنه من قوله : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقوله : (ليخرجن الأعز منها الأذل) وعنى الأعز نفسه ، وكلاماً قبيحاً فسمعه زيد بن أرقم ، ونقل ذلك إلى رسول الله - ﷺ - فلام رسول الله - ﷺ - عبد الله ، فحلف ما قال شيئاً من ذلك ، فاتهم زيد ، فأنزل الله تعالى : (إذا جاءك المنافقون) إلى قوله (لا يعلمون) تصديقاً لزيد ، وتكذيباً لعبد الله بن أبي . ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلًا عن المنافقين ، واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك ، وذلك لسرورهم بالعر التي قدمت بالميرة إذ كان وقت مجاعة ، جاء ذكر المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان ، وأتبعه بقبايح أفعالهم ، وقولهم (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) إذ كانوا هم أصحاب أموال ، والمهاجرون فقراء قد تركوا أموالهم ، ومتاجرهم ، وهاجروا الله تعالى . (قالوا نشهد) يجري مجرى اليمين ، ولذلك تلقى بما يتلقى به القسم ، وكذا فعل اليقين والعلم يجري مجرى القسم بقوله (إنك لرسول الله) وأصل الشهادة أن يواطىء اللسان القلب هذا بالنطق ، وذلك بالاعتقاد ، فأكذبهم الله وفضحهم بقوله : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أي : لم تواطىء قلوبهم ألسنتهم على تصديقك ، واعتقادهم أنك غير رسول ، فهم كاذبون عند الله ، وعند من خبر حالهم ، أو كاذبون عند أنفسهم ، إذا كانوا يعتدون أن قولهم : إنك لرسول الله كذب ، وجاء بين شهادتهم وتكذيبهم قوله تعالى : (والله يعلم إنك لرسوله) إيداناً أن الأمر كما لفظوا به من كونه رسول الله حقاً ، ولم تأت هذه الجملة لتوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسطت الأمر بينها ليزول ذلك التوهم ، (اتخذوا أيمانهم) سمي شهادتهم تلك أيماناً . وقرأ الجمهور (أيمانهم) بفتح الهمزة جمع يمين ، والحسن بكسرها مصدر آمن ، ولما ذكر أنهم كاذبون أتبعهم بموجب كفرهم ، وهو اتخاذ أيمانهم جنة ، يستترون بها ، ويدبون بها عن أنفسهم ، وأموالهم ، كما قال بعض الشعراء :

وَمَا اَنْتَسَبُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا لِيَصُونِ دِمَائِهِمْ أَنْ لَا تُسَالَا^(١)

ومن أيمانهم أيمان عبد الله ، ومن حلف معه من قومه أنه ما قال ما نقله زيد بن أرقم إلى رسول الله - ﷺ - جعلوا تلك الأيمان جنة ، بقي من القتل . وقال أعشى همدان :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَجْعَلْ لِعَرَضِكَ جُنَّةً مِّنَ الْمَالِ سَارَ الْقَوْمُ كُلُّ مَسِيرٍ^(٢)

وقال الضحّاك : اتخذوا حلفهم بالله إنهم لمنكم . وقال قتادة : كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم . وقال السدي : جنة من ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا (فصدوا) أي : أعرضوا وصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام (ذلك) أي : ذلك الحلف الكاذب ، والصد المقتضيان لهم سوء العمل بسبب إيمانهم ، ثم كفرهم ، وقال ابن عطية : ذلك إشارة إلى فعل الله بهم في فضيحتهم وتوبيخهم ، ويحتمل أن تكون الإشارة

(١) تقدم .

(٢) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر المصون .

إلى سوء ما عملوا فالمعنى ساء عملهم بأن كفروا . وقال الزمخشري : ذلك لقول عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم آمنوا ، ثم كفروا ، أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستخفاف بالإيمان ، أي : ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا . وقرأ الجمهور (فطبع) مبنياً لمفعول ، وزيد بن علي مبنياً للفاعل ، أي : فطبع الله ، وكذا قراءة الأعمش وزيد في رواية مصرحاً بالله ، ويحتمل على قراءة زيد الأولى أن يكون الفاعل ضميراً يعود على المصدر المفهوم من ما قبله ، أي : فطبع هو ، أي : بلعهم بالدين ، ومعنى (آمنوا) نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل المسلمون (ثم كفروا) أي : ظهر كفرهم بما نطقوا به من قولهم : لئن كان محمد ما يقوله حقاً فنحن شر من الحمير ، وقولهم : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات ، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، وبالكفر عند شياطينهم ، أو ذلك فيمن آمن ثم ارتد . (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) الخطاب للرسول - ﷺ - أو للسامع ، أي : لحسنها ونضارتها وجهارة أصواتهم ، فكان منظرهم يروق ، ومنطقهم يحلو . وقرأ الجمهور (تسمع) بقاء الخطاب ، وعكرمة وعطية العوفي (يسمع) بالياء مبنياً للمفعول ، ولقولهم الجار والمجرور هو المفعول الذي لم يسم فاعله ، وليست اللام زائدة ، بل ضمن يسمع معنى يصغ ويمل ، تعدى باللام وليست زائدة ، فيكون قولهم هو المسموع ، وشبهوا بالخشب لعزوب إفعالهم ، وفراغ قلوبهم من الإيمان ، ولم يكف حتى جعلها مسندة إلى الحائظ لا انتفاع بها ، لأنها إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها ، وأما إذا كانت غير منتفع بها فإنها تكون مهملة مسندة إلى الحيطان ، أو ملقاة على الأرض قد صفت أو شبهوا بالخشب التي هي الأصنام ، وقد أسندت إلى الحيطان ، والجملة التشبيهية مستأنفة أو على إضمارهم . وقرأ الجمهور (خُشِبَ) بضم الخاء والشين ، والبراء بن عازب والنحويان وابن كثير بإسكان الشين ، تخفيف خشب المضموم . وقيل : جمع خشباء كحمر جمع حمراء ، وهي الخشبة التي نخر جوفها شبهوا بها في فساد بواطنهم . وقرأ ابن المسيب وابن جبير (خَشَبَ) بفتح الخاء اسم جنس الواحد خشبة ، وأنت وصفه كقوله (أعجاز نخل خاوية) أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام ، وذكر من كان ذا بهاء وفصاحة عبد الله بن أبي ، والجد بن قيس ومعتب بن قشير ، قال الشاعر في مثل هؤلاء :

لَا تَخْذَعْنَكَ اللَّحَى وَلَا الصُّورُ تَسْعَةُ أَغْشَارٍ مَن تَرَى بَقَرُ
تَرَاهُمْ كَالسَّحَابِ مُنْتَشِرًا وَلَيْسَ فِيهَا لَطَائِبٌ مَطَرُ
فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ شَبَهٌ لَهُ رُؤَاؤٌ وَمَا لَهُ ثَمَرُ

وقيل : الجملة التشبيهية وصف لهم بالجبن والخور ، ويدل عليه (يحسبون كل صيحة عليهم) في موضع المفعول الثاني ليحسبون ، أي : واقعة عليهم ، وذلك لجبنهم وما في قلوبهم من الرعب . قال مقاتل : كانوا متى سمعوا بنشidan ضالة أو صياحاً بأي وجه كان ، أو أخبروا بنزول وحى طارت عقولهم ، حتى يسكن ذلك ، ويكون في غير شأنهم ، وكانوا يخافون أن ينزل الله تعالى فيهم ما تباح به دماؤهم وأموالهم ، ونحو هذا قول الشاعر :

يَرُوعُهُ السَّرَارُ بِكُلِّ أَرْضٍ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَارُ

وقال جرير :

مَا زِلْتُ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلًا تَكُرُّ عَلَيْهِمْ وَرَجَالًا^(٢)

أنشده ابن عطية لجرير ، ونسب هذا البيت للزمخشري للأخطل . قال : ويجوز أن يكون (هم العدو) المفعول

(١) انظر روح المعاني (٢٧/١١١) .

(٢) انظر شرح ديوان جرير (٣٣٩) الكشف (٤/٥٤١) القرطبي (١٨/٨٢) روح المعاني (٢٧/١١١) .

الثاني ، كما لو طرحت الضمير . (فإن قلت :) فحقه أن يقول هي العدو (قلت :) منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر في (هذا ربي) وأن يقدر مضاف محذوف على يحسبون كل أهل صيحة انتهى . وتخريج (هم العدو) على أنه مفعول ثان لـ (يحسبون) تخريج متكلف بعيد عن الفصاحة ، بل المتبادر إلى الذهن السليم أن يكون (هم العدو) وإخباراً منه تعالى بأنهم ، وإن أظهروا الإسلام وأتباعهم ، هم المبالغون في عداوتك ، ولذلك جاء بعده أمره تعالى آياه بحذرهم ، فقال : فاحذرهم ، فالأمر بالحذر متسبب عن إخباره بأنهم هم العدو (قاتلهم الله) دعاء يتضمن إبعادهم ، وأن يدعو عليهم المؤمنون بذلك (أنى يؤفكون) أي : كيف يصرفون عن الحق ، وفيه تعجب من ضلالهم وجهلهم ، ولما أخبره تعالى بعداوتهم أمره بحذرهم فلا يثق بأظهار مودتهم ، ولا بدين كلامهم ، وقاتلهم الله كلمة ذم وتوبيخ ، وقالت العرب : قاتله الله ما أشعره ، يضعونه موضع التعجب ، ومن قاتله الله فهو مغلوب ، لأنه تعالى هو القاهر لكل معاند ، وكيف استفهام أي : كيف يصرفون عن الحق ، ولا يرون رشد أنفسهم . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون أنى ظرفاً لقاتلهم ، كأنه قال قاتلهم الله كيف انصرفوا ، أو صرفوا فلا يكون في هذا القول استفهام على هذا انتهى . ولا يصح أن يكون (أنى) لمجرد الظرف ، بل لا بد أن يكون ظرفاً استفهاماً إما بمعنى أين ، أو بمعنى متى ، أو بمعنى كيف ، أو شرطاً بمعنى أين ، وعلى هذه التقادير لا يعمل فيها ما قبلها ، ولا تتجرد لمطلق الظرفية بحال من غير اعتبار ما ذكرناه ، فالقول بذلك باطل ، ولما صدق الله زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن سلول مقت الناس ابن سلول ، ولما المؤمنون من قومه ، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله - ﷺ - واعترف بذنبك يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ، وقال لهم : لقد أشرتُم عليّ بالإيمان فأمنت ، وأشرتُم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد ، و (يستغفر) مجزوم على جواب الأمر ، و (رسول الله) يطلب عاملان أحدهما (يستغفر) ، والآخر (تعالوا) فاعمل الثاني على المختار عند أهل البصرة ، ولو أعلم الأول لكان التركيب تعالوا يستغفر لكم إلى رسول الله - ﷺ - ، وقرأ مجاهد ونافع وأهل المدينة وأبو حيوة وابن أبي عتبة والمفضل وأبان عن عاصم والحسن ويعقوب بخلاف عنها (لواء) بفتح الواو ، وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى وأبورجاء والأعرج وباقي السبعة بشدها لكثير ، ولوى رؤوسهم على سبيل الاستهزاء ، واستغفار الرسول لهم هو استتابتهم من النفاق ، فيستغفر لهم إذ كان استغفاره متسبباً عن استتابتهم فيتوبون ، وهم يصدون عن المجيء واستغفار الرسول . وقرئ (يصدون) ويصدون جملة حالية ، وأتت بالمضارع ليدل على استمرارهم (وهم مستكبرون) جملة حالية أيضاً ، ولما سبق في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون البتة سوى بين استغفاره لهم ، وعدمه . وحكى مكي أنه عليه الصلاة والسلام كان استغفر لهم ، لأنهم أظهروا له الإسلام ، وقال ابن عباس نزلت هذه بعد قوله تعالى في براءة ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ [التوبة ٨٠] وقوله عليه الصلاة والسلام : سوف أستغفر لهم زيادة على السبعين ، فنزلت هذه الآية ، فلم يبق للاستغفار وجه . وقرأ الجمهور (أستغفرت) بهزمة التسوية التي أصلها همزة الاستفهام ، وطرح ألف الوصل وأبو جعفر بمدة على الهمزة ، قيل : هي عوض من همزة الوصل ، وهي مثل المدة في قوله ﴿ قل الذكركم حرم ﴾ [الأنعام ١٤٣ ، ١٤٤] لكن هذه المدة في الاسم لثلاث يلتبس الاستفهام بالخبر ، ولا يحتاج ذلك في الفعل ، لأن همزة الوصل فيه مكسورة ، وعن أبي جعفر أيضاً ضم ميم عليهم إذ أصلها الضم ، ووصل الهمزة . وروى معاذ بن معاذ العنبري عن أبي عمرو كسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، ووصل الهمزة فتسقط في القراءتين ، واللفظ خبر والمعنى على الاستفهام ، والمراد التسوية ، وجاز حذف الهمزة لدلالة أم عليها ، كما دلت على حذفها في قوله :

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِشَمَانٍ^(١)

يريد أسبع . وقال الزمخشري : وقرأ أبو جعفر (آستغفرت) إشباعاً لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان لا قلب همزة الوصل ألفاً كما في الأسحر والله . وقال ابن عطية : وقرأ أبو جعفر بن القعقاع (آستغفرت) بمدة على الهمزة ، وهي ألف التسوية . وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر ، وفي هذا كله ضعف ، لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل ، وقد أغنت عنها همزة الاستفهام ، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريد بها ، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر . (هم الذين يقولون) إشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه سفه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم ، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى (لا تنفقوا على من عند رسول الله) إن كان الله تعالى حكى نص كلامهم فقولهم على من عند رسول الله هو على سبيل الهزاء ، كقولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [الحجر ٦] أو لكونه جرى عندهم مجرى اللعب ، أي : هو معروف بإطلاق هذا اللفظ عليه إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر ، فالظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ ، ولكنه تعالى عبر بذلك عن رسوله - ﷺ - إكراماً له وإجلالاً . وقرأ الجمهور (ينفضوا) أي : يتفرقوا عن الرسول ، والفضل بن عيسى (ينفضوا) من انفض القوم في طعامهم ، فنفض الرجل وعاءه ، والفعل من باب ما يعدي بغير الهمزة ، وبالهمزة لا يتعدى . قال الزمخشري : وحقيقته حان لهم أن ينفضوا مزادهم . وقرأ الجمهور (ليخرجن الأعز منها الأذل) فالأعز فاعل ، والأذل مفعول ، وهو من كلام ابن سلول : كما تقدم ، ويعني بالأعز ، وأصحابه ، وبالأذل المؤمنين ، والحسن وابن أبي عتبة والسبي في اختياره (لنخرجن) بالنون ونصب الأعز والأذل ، فالأعز مفعول ، والأذل حال ، وقرأ الحسن فيما ذكر أبو عمر والداني (لنخرجن) بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء ونصب الأعز على الاختصاص ، كما قال : نحن العرب أقرى الناس للضيف ، ونصب الأذل على الحال ، وحكى هذه القراءة أبو حاتم ، وحكى الكسائي والفاء أن قوماً قرؤوا (ليخرجن) بالياء مفتوحة وضم الراء فالفاعل الأعز ، ونصب الأذل على الحال . وقرئ مبنياً للمفعول ، وبالياء الأعز مرفوع به الأذل نصباً على الحال ، ومحجج الحال بصورة المعرفة متأول عند البصريين ، فما كان منها بأل فعلى زيادتها إلا أنها معرفة . ولما سمع عبد الله ولد عبد الله بن أبي هذه الآية جاء إلى أبيه ، فقال : أنت والله يا أبت الدليل ، ورسول الله - ﷺ - العزيز ، فلما دنا من المدينة جرد السيف عليه ، ومنعه الدخول حتى يأذن له رسول الله - ﷺ - وكان فيما قال له : وراءك لا تدخلها حتى تقول رسول الله - ﷺ - الأعز وأنا الأذل ، فلم يزل حبيساً في يده حتى أذن له رسول الله - ﷺ - بتخليته ، وفي هذا الحديث أنه قال لأبيه : لئن لم تشهد لله ، ولرسوله بالعزة لأضربن عنقك ، قال : أفاعل أنت ؟ قال : نعم ، فقال أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين . وقيل : للحسن بن علي - رضي الله تعالى عنها - أن فيك تيهاً فقال : ليس بتيه ، ولكنه عزة وتلا هذه الآية . (لا تلهكم أموالكم) بالسعي في نمائها ، والتلذذ بجمعها ، ولا أولادكم بسروركم بهم ، وبالنظر في مصالحهم في حياتكم ، وبعد مماتكم عن ذكر الله هو عام في الصلاة ، والثناء على الله تعالى بالتسبيح والتحميد ، وغير ذلك والدعاء . وقال نحواً منه الحسن وجماعة . وقال الضحاك وعطاء : أكد هنا الصلاة المكتوبة . وقال الحسن أيضاً : جميع الفرائض ، وقال الكلبي : الجهاد مع رسول الله - ﷺ - وقيل : القرآن ، (ومن يفعل ذلك) أي : الشغل عن ذكر الله بالمال ، والولد (فأولئك هم الخاسرون) حيث آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، (وأنفقوا مما رزقناكم) قال الجمهور : المراد الزكاة . وقيل : عام في المفروض والمندوب ، وعن ابن عباس نزلت في مانعي الزكاة ، والله لورأى خيراً ما سأل الرجعة ، فقليل له : أما تتقي الله يسأل المؤمنون الكرة ، قال : نعم ، أنا أقرأ عليكم به قرآناً يعني أنها نزلت في المؤمنين ، وهم المخاطبون بها . (لولا أخرجني) أي : هلا أخرجت موتي إلى زمان قليل . وقرأ الجمهور (فأصدق) وهو منصوب على جواب الرغبة ، وأبي وعبد الله وابن جبير (فأتصدق) على الأصل . وقرأ الجمهور السبعة (وأكن) مجزوماً قال الزمخشري : (وأكن) بالجزم عطفاً على محل فأصدق ، كأنه قيل : إن أخرجتني أصدق ، وأكن انتهى . وقال ابن عطية عطفاً على الموضع ، لأن التقدير إن

تؤخرني أصدق ، وأكن ، هذا مذهب أبي علي الفارسي ، فأما ما حكاه سيويه عن الخليل فهو غير هذا ، وهو أنه جزم وأكن على توهم الشرط الذي يدل عليه بالتمني ، ولا موضع هنا ، لأن الشرط ليس بظاهر ، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط ، كقوله تعالى ﴿ من يضل الله فلا هادي له ويذرهم ﴾ [الأعراف ١٨٦] فمن قرأ بالجزم عطف على موضع فلا هادي له ، لأنه وقع هنالك فعل كان مجزوماً انتهى . والفرق بين العطف على الموضع والعطف على التوهم أن العامل في العطف على الموضع موجود دون مؤثره ، والعامل في العطف على التوهم مفقود وأثره موجود^(١) . وقرأ الحسن وابن جبير وأبو رجاء وابن أبي إسحاق ومالك بن دينار والأعمش وابن محيصن وعبد الله بن الحسن العنبري وأبو عمرو (وأكون) بالنصب عطفاً على (فأصدق) وكذا في مصحف عبد الله وأبي . وقرأ عبيد بن عمير (وأكون) بضم النون على الاستئناف ، أي : وأنا أكون ، وهو وعد الصلاح . (ولن يؤخر الله نفساً) فيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات حذاراً أن يجيء الأجل ، وقد فرط ولم يستعد للقاء الله . وقرأ الجمهور (تعملون) بقاء الخطاب للناس كلهم ، وأبو بكر بالياء حص الكفار بالوعيد ، ويحتمل العموم .

(١) فيراد بالتوهم تخيل أن العامل الموجود معدوم كما في (إنك وزيد ذاهبان) فزيد معطوف على الكاف في إنك على توهم عدم (إن) أو تخيل أن العامل المعدوم موجود نحو (ليس زيد قائماً ولا قاعداً) بجر (قاعد) عطفاً على (قائماً) على توهم دخول الباء عليه .
وشرط جوازه : صحة دخول العامل المتوهم وشرطه حسنه كثرة دخول هذا العامل انظر تفصيل ذلك في حاشية الدسوقي (١٢٢/٢) وانظر المغني (١٢٢/٢) والكتاب (٤٥٢/١) والتصريح (٢٤١/٢) حاشية الدسوقي (١٢٣/٢) .

سورة التغابن مدنية وهي ثمانية عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهُدُونَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ
يُعْثِقَ اللَّهُ قُلُوبَنَا وَلَنْ يُنْفِخَ اللَّهُ فِي سُرُورِنَا ثُمَّ لَنْ نَقْدِرَ ۝٧ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠ مَا أَصَابَ مِنْ
مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٢ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ۝١٣ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ
وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ
يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۝١٧ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨

التغابن تفاعل من الغبن ، وليس من اثنين بل هو من واحد ، كتواضع ، وتحامل ، والغبن : أخذ الشيء بدون قيمته ، أو بيعه كذلك . وقيل : الغبن الإخفاء ومنه غبن البيع لاستخفافه ويقال غبنت الثوب وخبنته إذا أخذت ما طال منه عن مقدارك فمعناه النقص ﴿ يسبح الله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير . يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ، ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ، زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ، فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ، يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ هذه السورة مدنية في قول الأكثرين ، وقال ابن عباس وغيره : مكية إلا آيات من آخرها (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم) إلخ ، نزلت بالمدينة . وقال الكلبي مدنية ومكية ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها أن ما قبلها مشتمل على حال المنافقين ، وفي آخرها خطاب المؤمنين ، فأتبعه بما يناسبه من قوله (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) هذا تقسيم في الإيمان والكفر بالنظر إلى الاكتساب عند جماعة من المتأولين لقوله : كل مولود يولد على الفطرة ^(١) ، وقوله تعالى ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم ٣٠] ، وقيل : ذاك في أصل الخلقة بدليل ما في حديث النطفة من قول الملك أشقي أم سعيد ^(٢) ، والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام أنه طبع يوم طبع كافراً . وما روى ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال خلق الله فرعون في البطن كافراً ^(٣) . وحكى يحيى بن زكريا في البطن مؤمناً . وعن عطاء بن أبي رباح : فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب ، وقدم الكافر لكفرته ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ [سبأ ١٣] وحين ذكر الصالحين قال : ﴿ وقليل ما هم ﴾ [ص ٢٤] وقال الزمخشري : فمنكم آت بالكفر ، وفاعل له ، ومنكم آت بالإيمان وفاعل له ، كقوله تعالى : (وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) الحديد والدليل عليه قوله تعالى (والله بما تعملون بصير) أي : عالم بكفركم ، وإيمانكم اللذين هما من قبلكم ، والمعنى هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقال أيضاً وقيل : هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق . هم الدهرية ، ومنكم مؤمن به ، وعن الحسن في الكلام حذف دل عليه تقديره ، ومنكم فاسق ، وكأنه من كذب المعتزلة على الحسن ، وتقدم الجار والمجرور في قوله (له الملك وله الحمد) قال الزمخشري : ليدل بتقدمها على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه ، والقائم به المهيمن عليه ، وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه ، وأما ملك غيره فتسليط منه وحده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده . وقرأ الجمهور (صوركم) بضم الصاد وزيد بن علي وأبو رزين بكسرها ، والقياس الضم ، وهذا تعديد للنعمة في حسن

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) وأخرجه أبو داود رقم (٤٧١٤) (٤٧١٦) وأحمد (٢٣٣/٢) ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١ ، (٣٥٣/٣) والحميدي (١١١٣) وأبو نعيم في الحلية (٢٢٨/٩) في تاريخ أصفهان (٢٢٦/٢) ومالك في الموطأ (٢٤١) والترمذي (٢١٣٨) والبيهقي (٢٠٢/٦) .

(٢) البخاري (٣٠٣/٦) في بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) في القدر (٦٥٩٤) مسلم (٢٠٣٦/٤) في القدر (٢٦٤٣/١) .

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٢١/٢) وعزاه لابن عدي ، والدارقطني في الأفراد ، والبيهقي وابن عساكر ، وأخرجه ابن عدي (٣٤٣/١) ، (٢٤٩٨/٧) .

الخلق ، لأن أعضاء بني آدم متصرفة بجميع ما تتصرف فيه أعضاء الحيوان ، وبزيادة كثيرة فضل بها ، ثم هو مفضل بحسن الوجه وجمال الجوارح ، كما قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين : ٤] ، وقيل : النعمة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل ، فهذا هو الذي حسن له حتى لحقته كمالات كثيرة ، وتكاد العرب لا تعرف الصورة إلا الشكل لا المعنى القائم بالصورة ، ونبه تعالى بعلمه بما في السموات والأرض ، ثم بعلمه بما يسر العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه بما أكتنه الصدور على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء ، لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل للعالم كله ، ثم بخاص العباد من سرهم وإعلانهم ، ثم ما خص منه ، وهو ما تنطوي عليه صدورهم من خفي الأشياء وكامنها ، وهذا كله في معنى الوعيد ، إذ هو تعالى المجازي على جميع ذلك بالثواب والعقاب . وقرأ الجمهور (ما تسرون وما تعلنون) بناء الخطاب ، وعبيد عن أبي عمرو بأن عن عاصم بالياء (ألم يأتكم) الخطاب لقريش ، ذكروا بما حل بالكفار قبلهم عاد وثمود وقوم إبراهيم وغيرهم ، ممن صرح بذكرهم في سورة براءة وغيرها ، وقد سمعت قريش أخبارهم (فذاقوا وبال أمرهم) أي : مكروهم وما يسؤوهم منه . (ذلك) أي : الوبال (بأنه) بأن الشأن والحديث استبعدوا أن يبعث الله تعالى من البشر رسلاً ، كما استبعدت قريش ، فقالوا على سبيل الاستغراب : (أبشر يهدوننا) وذلك أنهم يقولون نحن متساوون في البشرية فأنى يكون لهؤلاء تمييز علينا ، بحيث يصيرون هداة لنا ، وارتفع (أبشر) عند الحوفي وابن عطية على الابتداء ، والخبر (يهدوننا) والأحسن أن يكون مرفوعاً على الفاعلية ، لأن همزة الاستفهام تطلب الفعل ، فالمسألة من باب الاشتغال ، فكفروا العطف بالفاء يدل على تعقب كفرهم مجيء الرسل (بالبينات) أي : لم ينظروا في تلك البينات ، ولا تأملوها ، بل عقبوا مجيئها بالكفر (واستغنى الله) استفعل بمعنى الفعل المجرد ، وغناه تعالى أزلي ، فالمعنى أنه ظهر تعالى غناه عنهم . إذ أهلكهم وليست استفعل هنا للطلب . وقال الزمخشري : معناه وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ، ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال ، والزعم تقدم تفسيره ، و (الذين كفروا) أهل مكة ، و (بلى) إثبات لما بعد حرف النفي (وذلك على الله يسير) أي : لا يصرفه عنه صارف . (فآمنوا بالله ورسوله) وهو محمد - ﷺ - (والنور الذي أنزلنا) هو القرآن ، وانتصب (يوم يجمعكم) بقوله (لتنبؤن) ، أو بـ (خير) بما فيه من معنى الوعيد ، والجزاء أو باذكر مضمرة قاله الزمخشري ، والأول عن النحاس ، والثاني عن الحوفي . وقرأ الجمهور (يجمعكم) بالياء وضم العين ، وروي عنه سكونها وإشامها الضم ، وسلام ويعقوب وزيد بن علي والشعبي بالنون (ليوم الجمع) يجمع فيه الأولن والآخرن ، وذلك أن كل واحد يبعث طامعاً في الخلاص ، ورفع المنزل . (ذلك يوم التغابن) مستعار من تغابن القوم في التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لأن السعداء نزلوا منازل الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزل الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء ، وفي الحديث ما من عبد يدخل الجنة ، ألا أرى مقعده من النار ، لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة ، لو أحسن ليزداد حسرة ، وذلك معنى (يوم التغابن) وعن مجاهد وغيره إذا وقع الجزاء غبن المؤمنون الكافرين ، لأنهم يجوزون الجنة ، وتحصل الكفار في النار . وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وطلحة ونافع وابن عامر والمفضل عن عاصم وزيد بن علي والحسن بخلاف عنه (نكفر) (وندخله) بالنون فيهما ، والأعمش وعيسى والحسن وباقي السبعة بالياء فيهما قوله عز وجل : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا ياذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتهم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ الظاهر إطلاق المصيبة

على الرزية وما يسوء العبد ، أي : في نفس ، أو مال أو ولد ، أو قول أو فعل ، وخصت بالذكر وإن كان جميع الحوادث لا تصيب إلا بإذن الله ، وقيل : ويحتمل أن يريد بالمصيب الحادثة من خير وشر إذ الحكمة في كونها بإذن الله وما نافية ، ومفعول أصاب محذوف ، أي : ما أصاب أحداً ، والفاعل من مصيبة ومن زائدة ، ولم تلحق التاء أصاب وإن كان الفاعل مؤنثاً وهو فصيح ، والتأنيث لقوله تعالى ﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ [الحجر ٥] وقوله (وما تأتيهم من آية إلا بإذن الله) أي : بإرادته وعلمه وتمكينه ، (ومن يؤمن بالله) أي : يصدق بوجوده ، ويعلم أن كل حادثة بقضائه وقدره ، (يهد قلبه) على طريق الخير والهداية . وقرأ الجمهور (يهد) بالياء مضارعاً لهدي مجزوماً وما على جواب الشرط . وقرأ ابن جبير وطلحة وابن هرمز والأزرق عن حمزة بالنون ، والسلمي والضحاك وأبو جعفر (يهد) مبنياً للمفعول (قلبه) رفع وعكرمة وعمرو بن دينار ومالك بن دينار (يهدأ) بهمزة ساكنة (قلبه) بالرفع يطمئن قلبه ، ويسكن بإيمانه ولا يكون فيه اضطراب ، وعمرو بن فايد (يهدأ) بالالف بدلاً من الهمزة الساكنة ، وعكرمة ومالك بن دينار أيضاً (يهد) بحذف الألف بعد إبدالها من الهمزة الساكنة ، وإبدال الهمزة ألفاً في مثل يهد أو يقرأ ليس بقياس ، خلافاً لمن أجاز ذلك قياساً ، وبني عليه جواز حذف تلك الألف للجازم ، وخرج عليه قوله زهير بن أبي سلمى :

جَزِيٍّ مَتَى يُظْلَمَ يُعَاقَبُ بِظُلْمِهِ سَرِيْعاً وَإِنْ لَا يُبَدَّ بِالظُّلْمِ يَظْلَمُ^(١)

أصله يهدأ ، ثم أبدل من الهمزة ألفاً ، ثم حذفها للجازم تشبيهاً بألف يخشى إذا دخل الجازم ، ولما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) ثم أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذر مما يلحق الرجل من أمرائه وولده بسبب ما يصدر من بعضهم من العداوة ، ولا أعدى على الرجل من زوجته وولده إذا كانا عدوين ، وذلك في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فيأذهاب ماله وعرضه ، وأما في الآخرة فبما يسعى في اكتسابه من الحرام لهما ، وبما يكسبانه منه ، بسبب جاهه ، وكم من امرأة قتلت زوجها وجذمت وأفسدت عقله ، وكم من ولد قتل أباه ، وفي التواريخ وفيها شاهدناه من ذلك كثير ، وعن عطاء بن أبي رباح أن عوف بن مالك الأشجعي أراد الغزو مع النبي - ﷺ - فاجتمع أهله وولده ، فبطوه وشكوا إليه فراقه ، فرق ولم يغز ، ثم إنه ندم وهم بمعاقتهم فنزلت (يا أيها الذين آمنوا) الآية . وقيل : آمن قوم بالله ، وثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة ، ولم يهاجروا إلا بعد مدة ، فوجدوا غيرهم قد تفقه في الدين فندموا ، وأسفوا وهموا بمعاقة أزواجهم وأولادهم ، فنزلت . وقيل : قالوا لهم أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم فغضبوا عليهم ، وقالوا لئن جمعنا الله في دار الهجرة لم نصبكم بخير ، فلما هاجروا منعهم الخير ، فحبوا أن يعفو عنهم ويردوا إليهم البر والصلة و (من) في (من أزواجكم وأولادكم) للتبعيض ، وقد توجد زوجة تسر زوجها وتعينه على مقاصده في دينه ودنياه وكذلك الولد ، وقال الشعب العبي يمدح ولده رباطاً :

إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرَّجَالِ حَزَازَةً فَأَنَّتِ الْحَلَالُ الْحَلُوَّ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ
لَنَا جَانِبٌ مِنْهُ دَمِيثٌ وَجَانِبٌ إِذَا رَامَهُ الْأَعْدَاءُ مَرْكَبُهُ صَعْبُ
وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هَزَةٌ كَمَا اهْتَزَّتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْغُصْنُ الرُّطْبُ

وقال فرعان بن الأعرف في ابنه منازل وكان عاقاً له قصيدة فيها بعض طول منها :

وَرَبَّيْتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكْتُهُ أَخَا الْقَوْمِ وَاسْتَغْنَى عَنِ الْمَسْحِ شَارِبُهُ

فَلَمَّا رَأَى أَحْسَبُ الشَّخْصِ أَشْخَصًا بَعِيدًا وَذَا الشَّخْصِ الْبَعِيدُ أَقَارِبُهُ
تَعَمَّدَ حَقِّي ظَالِمًا وَلَوَى يَدِي لَوَى يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) أي : بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون في الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما ، وفي باب العداوة جاء بمن التي تقتضي التبعض ، وفي الفتنة حكم بها على الأموال والأولاد على بعضها ، وذلك لغلبة الفتنة بهما ، وكفى بالمال فتنة قصة ثعلبة بن حاطب أحد من نزل فيه ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله ﴾ [التوبة ٧٥] الآيات ، وقد شاهدنا من ذكر أنه يشغله الكسب والتجارة في أمواله حتى يصلي كثيراً من الصلوات الخمس فائتة ، وقد شاهدنا من كان موصوفاً عند الناس بالديانة والورع ، فحين لاح له منصب وتولاه استتاب من يلوذ به من أولاده وأقاربه ، وإن كان بعض من استتابه صغير السن ، قليل العلم سيء الطريقة ، ونعوذ بالله من الفتن ، وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق ٧] ﴿ شغلتنا أموالنا وأهلونا ﴾ [الفتح ١١] ، (والله عنده أجر عظيم) تزهيد في الدنيا ، وترغيب في الآخرة والأجر العظيم : الجنة . (فاتقوا الله ما استطعتم) قال أبو العالية جهدكم . وقال مجاهد : هو أن يطاع فلا يعصى (واسمعوا) ما توعظون به (وأطيعوا) فيما أمرتم به ، ونهيتم عنه (وأنفقوا) فيما وجب عليكم و (خيراً) منصوب بفعل محذوف ، تقديره وأتوا خيراً ، أو على إضمار يكن ، فيكون خيراً ، أو على أنه نعت لمصدر محذوف أي : إنفاقاً خيراً ، أو على أنه حال ، أو على أنه مفعول به (وأنفقوا) خيراً أي : ملاً أقوال الأول عن سيبويه ، ولما أمر بالإنفاق أكد بقوله (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً) ورتب عليه تضعيف القرض وغفران الذنوب ، وفي لفظ القرض تلطف في الاستدعاء ، وفي لفظ المضاعفة تأكيد للبذل لوجه الله تعالى ، ثم أتبع جوابي الشرط بوصفين أحدهما عائداً في المضاعفة إذ شكره تعالى مقابل للمضاعفة ، وحلمه مقابل للغفران . قيل : وهذا الحض هو في الزكاة المفروضة . وقيل : هو في المندوب إليه ، وتقدم الخلاف في القراءة في (يوق) وفي (شح) وفي (يضاعفه) .

سورة الطلاق مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

هذه السورة مدنية . قيل : وسبب نزولها طلاق رسول الله - ﷺ - حفصة ، قاله قتادة عن أنس . وقال السدي : طلاق عبد الله بن عمرو . وقيل : فعل ناس مثل فعله ، منهم عبد الله بن عمرو بن العاصي ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعتبة بن غزوان فنزلت . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : وهذا وإن لم يصح فالقول الأول أمثل ، والأصح فيه أنه بيان لشرع مبتدأ . ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد أشار إلى الفتنة بالنساء ، وأنهن قد يعرضن الرجال للفتنة ، حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق ، فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل بأن لا يكون بينهن اتصال ، لا بطلب ولد ولا حمل . (يا أيها النبي) نداء للنبي - ﷺ - وخطاب على سبيل التكريم والتنبية (إذا طلقتم) خطاب له - عليه الصلاة والسلام - مخاطبة الجمع على سبيل التعظيم ، أولأتمته على سبيل تلوين الخطاب ، أقبل - عليه السلام - أولاً ، ثم رجع إليهم بالخطاب ، أو على إضمار القول ، أي : قل لأمتك إذا طلقتم أوله ولأتمته وكأنه ثم محذوف تقديره : يا أيها النبي وأمة النبي إذا طلقتم ، فالخطاب له ولهم ، أي : أنت وأمتك أقوال . وقال الزمخشري : خص النبي - ﷺ - وعم بالخطاب ، لأن النبي إمام أمة وقودتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، إظهاراً لتقدمه ، واعتباراً لترؤسه ، وأنه مدره قومه ولسانهم والذي يصدر عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه ، فكان هو وحده في حكم كلهم ، وساداً مسد جميعهم انتهى . وهو كلام حسن ومعنى (إذا طلقتم) أي : إذا أردتم تطليقهن ، و (النساء) يعني المدخول بهن ، و (طلقوهن) أي : أوقعوا الطلاق (لعدتهن) هو على حذف مضاف ، أي : لاستقبال عدتهن ، واللام للتوقيت نحو : كتبته لليلة بقيت من شهر كذا ، وتقدير الزمخشري هنا حالاً محذوفة يدل عليها المعنى يتعلق بها المجرور ، أي : مستقبلات لعدتهن ليس بجيد ، لأنه قدر عاملاً خاصاً ، ولا بحذف العامل في الظرف والجار والمجرور إذا كان

خاصاً بل ، كان كوناً مطلقاً ، لو قلت : زيد عندك ، أو في الدار تريد : ضاحكاً عندك ، أو ضاحكاً في الدار لم يجز ، فتعليق اللام بقوله (فطلقوهن) ويجعل على حذف مضاف هو الصحيح ، وما روى عن جماعة من الصحابة والتابعين - رضي الله تعالى عنهم - من أنهم قرؤوا (فطلقوهن في قبل عدتهن) وعن بعضهم (في قبل عدتهن) وعن عبد الله (لقبل طهرهن) هو على سبيل التفسير ، لا على أنه قرآن لخلافه سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون شرقاً وغرباً ، وهل تعتبر العدة بالنسبة إلى الأطهار أو الحيض ، تقدم ذلك في البقرة في قوله (ثلاثة قروء) والمراد أن يطلقهن في طهر لم يجامعهن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضي عدتهن ، فإن شاء ردها وإن شاء أعرض عنها ، لتكون مهيةً للزوج ، وهذا الطلاق أدخل في السنة . وقال مالك : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكره الثلاث مجموعة أو مفارقة ، وأبو حنيفة كره ما زاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفارقة في الأطهار فلا ، وقال الشافعي : لا بأس بإرسال الطلاق الثلاث ، ولا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح ، راعي في السنة الوقت فقط ، وأبو حنيفة التفريق والوقت ، وقوله (فطلقوهن) مطلق لا تعرض فيه لعدد ولا لوصف ، من تفريق أو جمع ، والجمهور على أنه لو طلق لغير السنة وقع ، وعن ابن المسيب وجماعة من التابعين : أنه لو طلق في حيض أو ثلاثة لم يقع . والظاهر أن الخطاب في (وأحصوا العدة) للأزواج أي : اضبطوا بالحفظ وفي الإحصاء فوائد مراعاة الرجعة وزمان النفقة والسكنى وتوزيع الطلاق على الأقراء ، وإذا أراد أن يطلق ثلاثاً والعلم بأنها قد بانّت ، فيتزوج بأختها وبأربع سواها ، ونهى تعالى عن أخراجهن من مساكنهن ، حتى تنقضي العدة ، ونهاهن أيضاً عن خروجهن ، وأضاف البيوت إليهن لما كان سكنانهن فيها ، ونهيهن عن الخروج لا يبيحهن إذن الأزواج ، إذ لا أثر لإدخالهم ، والإسكان على الزوج ، فإن كان ملكه أو بكراً فذاك ، أو ملكها فلها عليه أجرته ، وسواء في ذلك الرجعية والمبتوتة ، وسنة ذلك أن لا تبيت عن بيتها ، ولا تخرج عنه نهراً إلا للضرورة ، وذلك لحفظ النسب والاحتفاظ بالنساء ، (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) وهي الزنا عند قتادة ومجاهد والحسن والشعبي وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحامد والليث ، ورواه مجاهد عن ابن عباس « فيخرجن للحد » وعن ابن عباس : البذاء على الأحماء ، فتخرج ويسقط حقها في السكنى ، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب ، وعنده أيضاً : جميع المعاصي من سرقة ، أو قذف أو زناً ، أو غير ذلك ، واختاره الطبري ، فيسقط حقها في السكنى ، وعند ابن عمر والسدي وابن السائب هي خروجها من بيتها خروج انتقال ، فيسقط حقها في السكنى . وعند قتادة أيضاً نشوزها عن الزوج ، فتطلق بسبب ذلك ، فلا يكون عليه سكنى ، وإذا سقط حقها من السكنى أتمت العدة . (لا تدري) أيها السامع (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ، قال المفسرون : الأمر هنا الرغبة في ارتجاعها والميل إليها بعد انحرافه عنها ، أو ظهور حمل فيراجعها من أجله ، ونصب (لا تدري) على جملة الترجي (لا تدري) معلقة عن العمل ، وقد تقدم لنا الكلام على قوله ﴿ وإن أدري لعله فته لكم ﴾ [الأنبياء ١١١] وذكرنا أنه ينبغي أن يزداد في المعلقات (لعل) فالجملة المترجاة في موضع نصب بـ (لا تدري) ، (فإذا بلغن أجلهن) أي : أشرفن على انقضاء العدة (فامسكوهن) أي : راجعوهن (بمعروف) أي : بغير ضرار (أو فارقوهن بمعروف) أي : سرحوهن بإحسان ، والمعنى : ارتكوهن حتى تنقضي عدتهن ، فيملكن أنفسهن ، وقرأ الجمهور (أجلهن) على الأفراد ، والضحاك وابن سيرين (آجالهن) على الجمع والإمسك بمعروف : هو حسن العشرة فيما للزوجة على الزوج ، والمفارقة بمعروف : هو أداء المهر والتمتع والحقوق الواجبة والوفاء بالشرط . (وأشهدوا) الظاهر وجوب الإشهاد على ما يقع من الإمساك وهو الرجعة ، أو المفارقة وهي الطلاق وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة كقوله : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ [البقرة ٢٨٢] وعند الشافعية واجب في الرجعة ، مندوب إليه في الفرقة . وقيل (وأشهدوا) يريد على الرجعة فقط ، والإشهاد شرط في صحتها ، فلها منفعة من نفسها حتى يشهد ، وقال ابن عباس : الإشهاد على الرجعة وعلى الطلاق يرفع عن النوازل أشكالا كثيرة ويفسد تاريخ الإشهاد من الأشهاد ، قيل : وفائدة الإشهاد أن لا يقع بينها التجاحد ، وأن لا

يتهم في إمساكها ، ولثلا يموت أحدهما ، فيدعي الثاني ثبوت الزوجية ليرث انتهى . ومعنى (منكم) قال الحسن ، من المسلمين ، وقال قتادة : من الأحرار ، (وأقيموا الشهادة لله) هذا أمر للشهود ، أي : لوجه الله خالصاً ، لا لمراعاة مشهود له ، ولا مشهود عليه ، ولا يلحظ سوى إقامة الحق ، (ذلكم) إشارة إلى إقامة الشهادة ، إذ نوازل الأشياء تدور عليها ، وما يتميز المبطل من المحق ، (ومن يتق الله) قال علي بن أبي طالب وجماعة : هي في معنى الطلاق ، أي : ومن لا يتعدى طلاق السنة إلا طلاق الثلاث ، وغير ذلك (يجعل) الله (مخرجاً) إن ندم بالرجعة ، ويرزقه ما يطعم أهله انتهى . ومفهوم الشرط أنه إن لم يتق الله ، فبنت الطلاق وندم لم يكن له مخرج ، وزال عنه رزق زوجته ، وقال ابن عباس للمطلق ثلاثاً : إنك لم تتق الله ، بانت منك امرأتك ، ولا أرى لك مخرجاً ، وقال (يجعل له مخرجاً) يخلصه من كذب الدنيا والآخرة ، والظاهر أن قوله (ومن يتق الله) متعلق بأمر ما سبق من أحكام الطلاق ، وروى أنها في غير هذا المعنى ، وهو أن أسرابن يسمى سالماً لعوف بن مالك الأشجعي ، فشكا ذلك للرسول - ﷺ - وأمره بالتقوى ، فقبل ، ثم لم يلبث أن تفلت ولده ، واستاق مائة من الإبل « كذا في الكشف ، وفي الوجيز » قطعاً من الغنم كانت للذين أسروه « وجاء أباه فسأل رسول الله - ﷺ - « أيطيب له فقال : نعم فنزلت الآية » . وقال الضحاك (من حيث لا يحتسب) امرأة أخرى . وقيل : (ومن يتق) الحرام (يجعل له مخرجاً) إلى الحلال . وقيل : (مخرجاً) من الشدة إلى الرخاء ، وقيل : من النار إلى الجنة ، وقيل : من العقوبة (ويرزقه من حيث لا يحتسب) من الثواب . وقال الكلبي (ومن يتق الله) عند المصيبة (يجعل له مخرجاً) إلى الجنة (ومن يتوكل على الله) أي : يفوض أمره إليه (فهو حسبه) أي : كافيه ، (إن الله بالغ أمره) قال مسروق : أي : لا بد من نفوذ أمر الله توكلت أم لم تتوكل ؟ وقرأ الجمهور (بالغ) بالتونين (أمره) بالنصب ، وحفص والمفضل وأبان وجبله وابن أبي عبله وجماعة عن أبي عمرو ويعقوب وابن مصرف وزيد بن علي بالإضافة ، وابن أبي عبله أيضاً وداود بن أبي هند وعصمة عن أبي عمرو (بالغ أمره) رفع ، أي : نافذ أمره ، والمفضل أيضاً (بالغاً) بالنصب (أمره) بالرفع ، فخرجه الزمخشري على أن (بالغاً) حال ، وخبر (إن) هو قوله تعالى (قد جعل الله) ويجوز أن تخرج هذه القراءة على قول من ينصب (إن) الجزأين كقوله :

إِذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ وَلْتَكُنْ حُطَّاكَ خِفَافاً إِنَّ حُرَّاسَنَا أَشَدُّ^(١)

ومن رفع (أمره) فمفعول (بالغ) محذوف تقديره ، بالغ أمره ما شاء^(٢) ، (قد جعل الله لكل شيء قدراً) أي : تقديرًا وميقانًا لا يتعداه ، وهذه الجملة تحض على التوكل . وقرأ جناح بن حبيش (قدراً) بفتح الدال والجمهور بإسكانها ، قوله عز وجل :

وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعَدَّتْهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۖ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۖ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ أُؤْلَتْ مِنْهُنَّ فَلْيَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَضَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ

(١) تقدم .

(٢) وهذا لا ينبغي الأخذ به في توجيه قراءة المفضل ، قال السيوطي في الاقتراح (١٨٦) فإن قلت إحداهما - يعني اللغتين جداً ، وكثرت الأخرى جداً أخذت بأوسعها رواية وأقواها قياساً .

بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَ رِثْمٌ فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ۚ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۚ

وروى أن قوماً منهم أبي بن كعب وخلاد بن النعمان لما سمعوا قوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قالوا : يا رسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبر ؟ فنزلت هذه الآية ، فقال قائل : فما عدة الحامل ؟ فنزلت (وأولات الأحمال) وقرأ الجمهور (يَتُسْنَ) فعلاً ماضياً ، وقرئ بياءين مضارعاً ، ومعنى (إن ارتبتم) في أنها يشتت ، أم لأجل مكان ظهور الحمل ، وإن كانت انقطع دمها ، وقيل : إن ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس ، أهو دم حيض استحاضة ؟ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها غير المرتاب بها أولى بذلك ، وقدر بعضهم مبلغ اليأس بستين سنة ، وبعضهم بخمس وخمسين . وقيل : غالب سن يأس عشيرة المرأة . وقيل : أقصى عادة امرأة في العالم . وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة ، أطبق بها الدم ، لا ندري أهو دم حيض أو دم علة ؟ وقيل : (إن ارتبتم) شككتهم في حالهن وحكمهن ، فلم تدر وأما حكمهن ، فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر ، واختار الطبري أن معنى (إن ارتبتم) شككتهم ، فلم تدروا ما الحكم ؟ فقيل (إن ارتبتم) أي : إن تيقنتم إياسهن ، وهو من الأضداد ، وقال الزجاج : المعنى (إن ارتبتم) في حيضها ، وقد انقطع عنها الدم وكانت مما يحيض مثلها . وقال مجاهد أيضاً (إن ارتبتم) هو للمخاطبين أي : إن لم تعلموا عدة الأيسة (واللائي لم يحضن) فالعدة هذه ، فتلخص في قوله (إن ارتبتم) قولان : أحدهما : أنه على ظاهر مفهوم اللغة فيه ، وهو حصول الشك ، والآخر أن معناه التيقن للإياس ، والقول الأول معناه : إن ارتبتم في دمها ، أهو دم حيض أو دم علة ؟ أو إن ارتبتم في علوق بحمل أم لا ؟ أو (إن ارتبتم) أي : جهلتم عدتهن أقوال ، والظاهر أن قوله (واللائي لم يحضن) يشمل من لم يحض لصغر ، ومن لا يكون لها حيض البتة ، وهو موجود في النساء ، وهو أنها تعيش إلى أن تموت ولا تحيض ، ومن أتى عليها زمان الحيض وما بلغت به ولم تحض ، فقيل : هذه تعدت سنة ، (واللائي لم يحضن) معطوف على (واللائي يشن) فإعرابه مبتدأ كإعراب مبتدأ كإعراب (واللائي يشن) وقدرنا خبره جملة من جنس خبر الأول ، أي : عدتهن ثلاثة أشهر ، والأولى أن يقدر : مثل أولئك أو كذلك ، فيكون المقدر مفرداً جملة (وأولات الأحمال) عام في المطلقة ، وفي المتوفى عنها زوجها ، وهو قول عمر وابن مسعود وأبي مسعود البصري وأبي هريرة وفقهاء الأمصار ، وقال علي وابن عباس : (وأولات الأحمال) في المطلقات ، وأما المتوفى عنها فعدتها أقصى الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر صبرت إلى آخرها ، والحجة عليها حديث سبيعة . وقال ابن مسعود : من شاء لاعنته ، ما نزلت (وأولات الأحمال) إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها . وقرأ الجمهور (حملهن) مفرداً ، والضحاك (أحملهن) جمعاً . (ذلك أمر الله) يريد ما علم من حكم المعتدات ، وقرأ الجمهور (وَيُعْظَمُ) بالياء مضارع أعظم ، والأعظم (نُعْظِمُ) بالنون ، خروجاً من الغيبة للتكلم ، وابن مقسم بالياء ، والتشديد مضارع عظم مشدداً ، ولما كان الكلام في أمر المطلقات وأحكامهن من العدد وغيرها ، وكمن لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل الأمر بالتقوى من حيث المعنى مبرزاً في صورة شرط وجزاء في قوله : (ومن يتق الله) إذا الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقة بعض ما يشينها به وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنه إنما فارقها لأمر ظهر له منها ، فلذلك تكرر قوله (ومن يتق الله) في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ، من ترك الضرر والنفقة على المعتدات ، وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات ، وإعظام الأجر (من) في (من حيث سكتن) للتبعيض أي : بعض مكان سكناكم ، وقال قتادة : إن لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه قاله الزمخشري : وقال الحوفي (من) لابتداء الغاية ، وكذا قال أبو البقاء (من وجدكم) قال الزمخشري : (فإن قلت :) فقوله (من وجدكم) (قلت :) هو عطف بيان كقوله (من حيث سكتن)

وتفسيره كأنه قيل : أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه ، والوجد : الوسع والطاقة انتهى . ولا نعرف عطف بيان يعاد فيه العالم ، إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً من قوله (من حيث سكنتم) ، وقرأ الجمهور (من وُجدكم) بضم الواو ، والحسن والأعرج وابن أبي عبله وأبو حيوه بفتحها ، والفياض بن غزوان وعمرو بن ميمون ويعقوب بكسرهما ، وذكرها المدوي عن الأعرج ، وهي لغات ثلاث بمعنى الوسع ، والوجد بالفتح يستعمل في الحزن والغضب والحب ، ويقال : وجدت في المال ووجدت على الرجل وجداً وموجدة ، ووجدت الضالة وجداناً ، والوجد : بالضم الغني والقدرة ، يقال : افتقر الرجل بعد وجد ، وأمر تعالى بإسكان المطلقات ، ولا خلاف في ذلك في التي لم تبت ، وأما المبتوتة فقال ابن المسيب وسليمان بن يسار وعطاء والشعبي والحسن ومالك والأوزاعي وابن أبي ليلى والشافعي وأبو عبيد : لها السكنى ، ولا نفقة لها . وقال الثوري وأبو حنيفة : لها السكنى والنفقة ، وقال الحسن وحامد وأحمد وإسحاق وأبو ثور : لا سكنى لها ولا نفقة . (ولا تضاروهن) ولا تستعملوا معهن الضرار (لتضيقوا عليهن) في المسكن ببعض الأسباب ، من إنزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج . وقيل : هذه المضارة مراجعتها إذا بقي من عدتها قليل ، ثم يطلقها ، فيطول حبسها في عدته الثانية ، وقيل : إلجاؤها إلى أن تفتدي منه ، (وإن كن أولات حمل) لا خلاف في وجوب سكنها ونفقتها ، بتت أو لم تبت ، فإن كان متوفى عنها فأكثر العلماء على أنها لا نفقة لها ، وعن علي وابن مسعود : تجب نفقتها في التركة ، (فإن أرضعن لكم) أي : ولدن وأرضعن المولود وجب لها النفقة ، وهي الأجر والكسوة ، وسائر المؤن على ما قرر في كتب الفقه ، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد بينهن ما لم يبين ، ويجوز عند الشافعي ، وفي تعميم المطلقات بالسكنى وتخصيص أولات الأحمال بالنفقة . دليل على أن غيرها من المطلقات لا يشاركها في النفقة ، وتشاركهن في السكنى و (ائتمروا) افعلوا من الأمر ، يقال : ائتمر القوم وتأمروا إذا أمر بعضهم بعضاً ، والخطاب للآباء والأمهات ، أي : وليأمر بعضكم بعضاً (بمعروف) أي : في الأجرة والإرضاع ، والمعروف : الجميل بأن تسامح الأم ولا يماكس الأب ، لأنه ولدتهما معاً ، وهما شريكان فيه ، وفي وجوب الإشفاق عليه . وقال الكسائي (وائتمروا) تشاوروا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن الملا يأترون بك ليقتلوك ﴾ [القصص ٢٠] وقول امرئ القيس :

وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتُمُّ^(١)

وقيل : المعروف الكسوة والدثار ، (وإن تعاسرتم) أي : تضايقتن وتشاكستن فلم ترض إلا بما ترضى به الأجنبية ، وأبي الزوج الزيادة ، أو إن أبي الزوج الإرضاع إلا مجاناً وأبت هي إلا بعوض (فسترضع له أخرى) أي : يستأجر غيرها ، وليس له إكراهها ، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه أجبرت على الإرضاع بأجرة مثلها ، ولا يختص هذا الحكم ، من وجوب أجرة الرضاع بالمطلقة ، بل المنكوحة في معناها ، وقيل : (فسترضع) خبر في معنى الأمر ، أي : فلترضع له أخرى ، وفي قوله (فسترضع له أخرى) يسير معاتبه للأم إذا تعاسرت ، كما تقول لمن تستقصيه حاجة فيتوان : سيقضيها غيرك ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ، والضمير في (له) عائذ على الأب كما تعدى في قوله (فإن أرضعن لكم) أي : للأزواج (لينفق) الموسر والمقدور عليه ما بلغه وسعه أي : على المطلقات والمريضات ، ولا يكلف ما لا يطيقه ، والظاهر أن المأمور بالإنفاق الأزواج ، وهذا أصح في وجوب نفقة الولد على الوالد دون الأم ، وقال محمد بن المواز : إنها على الأبوين على قدر الميراث ، وفي الحديث « يقول لك ابنك أنفق علي ، إلى من تكلمي » ، ذكره في صحيح البخاري ، وقرأ الجمهور (لِيُنْفِقَ) بلام الأمر ، وحكى أبو معاذ (لينفق) بلام كي ونصب القاف ، ويتعلق بمحذوف تقديره : شرعنا ذلك لينفق ، وقرأ

(١) عجز بيت صدره (أحرار بن عمرو كأي خمر) انظر ديوان امرئ القيس (٦٨) .

الجمهور (قدر) مخففاً وابن أبي عبلة مشدد الدال (سيجعل الله) وعد لمن قدر عليه رزقه ، يفتح له أبواب الرزق ، ولا يختص هذا الوعد بفقراء ذلك الوقت ، ولا بفقراء الأزواج مطلقاً ، بل من أنفق ما قدر عليه ولم يقصر ولو عجز عن نفقة امرأته ، فقال أبو هريرة والحسن وابن المسيب ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق : يفرق بينهما ، وقال عمر بن عبد العزيز وجماعة : لا يفرق بينهما ، قوله عز وجل :

وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَتٍ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَقِبَهُ أَمْرُهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

تقدم الكلام على (كآين) في آل عمران ، وعلى (نكرأ) في الكهف (عنت) أعرضت (عن أمر ربها) على سبيل العناد والتكبر ، والظاهر في (فحاسبناها) الجمل الأربعة أن ذلك في الدنيا ، لقوله بعدها (أعد الله لهم عذاباً شديداً) وظاهره أن المعد عذاب الآخرة ، والحساب الشديد : هو الاستقصاء والمناقشة ، فلم تغتفر لهم زلة ، بل أخذوا بالدقائق من الذنوب ، وقيل : الجمل الأربعة من الحساب والعذاب والذوق والخسر في الآخرة ، وجيء به على لفظ الماضي ، كقوله (ونادى أصحاب الجنة) ويكون قوله (أعد الله لهم) تكريراً للوعيد ، وبياناً لكونه مترقباً ، كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب . وقال الكلبي الحساب في الآخرة ، والعذاب النكير في الدنيا بالجوع والفحط والسيوف ، ولما ذكر ما حل بهذه القرية العاتية أمر المؤمنين بتقوى الله تحذيراً من عقابه ، ونبه على ما يحض على التقوى ، وهو إنزال الذكر ، والظاهر أن الذكر هو القرآن وأن الرسول هو محمد - ﷺ - فأما أن يجعل نفس الذكر مجاز الكثرة بقدر منه الذكر ، فكأنه هو الذكر ، أو يكون بدلاً على حذف مضاف ، أي : ذكر رسول ، وقيل : (رسولاً) نعت على حذف مضاف ، أي : ذكرأ ذا رسول ، وقيل : المضاف محذوف من الأول ، أي : ذا ذكر رسولاً ، فيكون (رسولاً) نعتاً لذلك المحذوف ، أو بدلاً ، وقيل : رسول بمعنى رسالة ، فيكون بدلاً من ذكرأ ، ويبيده قوله بعده (يتلو عليكم) والرسالة لا تسند التلاوة إليها إلا مجازاً ، وقيل الذكر أساس أسماء النبي - ﷺ - ، وقيل الذكر الشرف لقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف ٤٤] فيكون (رسولاً) بدلاً منه ، وبياناً له ، وقال الكلبي : الرسول هنا جبريل - عليه السلام - وتبعه الزمخشري ، فقال (رسولاً) هو جبريل - صلوات الله وسلامه عليه - أبدل من (ذكرأ) لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله في معنى إنزال الذكر ، فصح إبداله منه انتهى . ولا يصح لتباين المدلولين بالحقيقة ، ولكونه لا يكون بدل بعض ولا بدل اشتغال ، وهذه الأعراب على أن يكون (ذكرأ) و (رسولاً) لشيء واحد ، وقيل : (رسولاً) منصوب بفعل محذوف ، أي : بعث رسولاً ، أو أرسل رسولاً ، وحذف للدلالة (أنزل) عليه ، ونحا إلى هذا السدي واختاره ابن عطية ، وقال الزجاج وأبو علي الفارسي : يجوز أن يكون (رسولاً) معمولاً للمصدر الذي هو الذكر انتهى . فيكون المصدر مقدراً بأن والقول

تقديره : أن ذكر رسولاً ، وعمل منوناً ، كما عمل : ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسبعة يتيماً ﴾ [البلد ١٤ ، ١٥] كما قال الشاعر :

بَضْرِبٍ بِالسُّيُوفِ رُؤُوسَ قَوْمٍ أَرْزَلْنَا هَامُهُنَّ عَنِ الْمَقِيلِ^(١)

وقرىء (رسول) بالرفع على إضمار هو (ليخرج) يصح أن يتعلق بـ (يتلو) وبـ (أنزل) (الذين آمنوا) أي : الذين قضى وقدر ، وأراد إيمانهم ، أو أطلق عليهم آمنوا باعتبار ما آل أمرهم إليه ، وقال الزمخشري : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح ، لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ انتهى ، والضمير في (ليخرج) عائد على الله تعالى ، أو على الرسول - ﷺ - ، أو على الذكر ، (ومن يؤمن) راعى اللفظ أولاً في (مَنْ) الشرطية ، فأفرد الضمير في (يؤمن) (ويعمل) و (يدخله) ثم راعى المعنى في (خالدين) ثم راعى اللفظ في (قد أحسن الله له) فأفرد ، واستدل النحويون بهذه الآية على مراعاة اللفظ أولاً ، ثم مراعاة المعنى ، ثم مراعاة اللفظ ، وأورد بعضهم أن هذا ليس كما ذكروا ، لأن الضمير في (خالدين) ليس عائداً على (من) بخلاف الضمير في (يؤمن) و (يعمل) و (يدخله) وإنما هو عائد على مفعول (يدخله) و (خالدين) خال منه ، والعامل فيها (يدخله) لا فعل الشرط ، (الله الذي خلق سبع سموات) لا خلاف أن السموات سبع بنص القرآن والحديث كما جاء في حديث الإسراء ، ولقوله - ﷺ - : « لسعد : حكمت بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة »^(٢) وغيره من نصوص الشريعة ، وقرأ الجمهور (مثلهن) بالنصب ، والمفضل عن عاصم وعصمة عن أبي بكر (مثلهن) بالرفع ، فالنصب قال الزمخشري : عطفاً على (سبع سموات) انتهى ، وفيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف وهو الواو والمعطوف ، وهو مختص بالضرورة عند أبي عليّ الفارسي ، وأضمر بعضهم العامل بعد الواو للدلالة ما قبله عليه ، أي : وخلق من الأرض مثلهن فـ (مثلهن) مفعول للفعل المضمر لا معطوف ، وصار ذلك من عطف الجمل ، والرفع على الابتداء (ومن الأرض) الخبر ، والمثلية تصدق بالاشتراك في بعض الأوصاف ، فقال الجمهور ، المثلية في العدد أي : مثلهن في كونها سبع أرضين ، وفي الحديث « طوقه من سبع أرضين » و « رب الأرضين السبع وما أقللن » ، فقليل سبع طباق ، من غير فتوق . وقيل : بين كل طبقة وطبقة مسافة ، قيل : وفيها سكان من خلق الله ، قيل : ملائكة وجن ، وعن ابن عباس من رواية الواقدي الكذاب ، قال : « في كل أرض آدم كآدم ، ونوح كنوح ، ونبي كنيكم ، وإبراهيم كإبراهيمكم ، وعيسى كعيسى » ، وهذا حديث لا شك في وضعه ، قال أبو صالح : إنها سبع أرضين منبسطة ، ليس بعضها فوق بعض ، تفرق بينها البحار ، وتظل جميعها السماء ، (يتنزل الأمر بينهن) من السموات السبع إلى الأرضين السبع ، وقال مقاتل وغيره : الأمر هنا الوحي فـ (بينهن) إشارة إلى بين هذه الأرض التي هي أديانها ، وبين السماء السابعة ، وقال الأكثرون : الأمر القضاء فـ (بينهن) إشارة إلى بين الأرض السفلى التي هي أقصاها ، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها ، وقيل : (يتنزل الأمر بينهن) بحياة وموت وغنى وفقير ، وقيل : هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبير ، وقرأ الجمهور (يُنَزَّلُ) مضارع تنزل ، وقرأ عيسى وأبو عمرو وفي رواية (يُنَزَّلُ) مضارع نَزَلَ مشدداً (الأمر) بالنصب ، والجمهور (لتعلموا) بتاء الخطاب ، وقرىء بياء الغيبة ، والله تعالى أعلم .

(١) البيت من الوافر لمرار بن منقذ التميمي انظر شواهد سيبويه (٦٠/١) روح المعاني (١٤١/٢٧) .

(٢) وهو سيدنا سعد بن معاذ أخرجه البخاري (٤٤/٥) وفي الأدب المفرد (٩٤٦) والبيهقي (٦٣/٩) والطبراني (٩/٧) وذكره الهيثمي في المجمع (١٣٩/٦) .

سورة التحريم مدنية وهي اثنتا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرَّصَاتِ زَوْجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُوبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِينَاتٍ نَنْبِتْنَ عِيدَاتٍ سَيَحِبَّنَّ ثَيِّبَاتٍ وَاتِّكَارًا ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

هذه السورة مدنية ، وسبب نزولها ما يأتي ذكره في تفسير أوائلها ، والمناسبة بينها وبين السورة قبلها أنه لما ذكر جملة من أحكام زوجات المؤمنين ، ذكر هنا ما جرى من بعض زوجات رسول الله ﷺ (يا أيها النبي) نداء إقبال ، وتشريف ، وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم . (لم تحرم) سؤال تلطف ، وذلك قدم قبله (يا أيها النبي) كما جاء في قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ [التوبة ٤٣] ومعنى (تحرم) تمنع ، وليس التحريم المشروع بوحى من الله ، وإنما هو امتناع لتطبيب خاطر بعض من يحسن معه العشرة (ما أحل الله لك) هو مباشرة مارية جاريتها ، وكان ﷺ ألم بها في بيت بعض نسائه فغارت من ذلك صاحبة البيت فطبيب خاطرها بامتناعه منها واستكتمها ذلك فأفشته إلى بعض نسائه ، وقيل : هو غسل كان يشربه عند بعض نسائه ، فكان ينتاب بيتها لذلك فغار بعضهن من دخوله بيت التي عندها العسل وتواصين على أن يذكرن له على أن رائحة ذلك العسل ليس بطيب ، فقال : لا أشربه ، وللزخشي هنا كلام أضربت عنه صفحاً ، كما أضربت عن كلامه في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكلامه هذا ونحوه محقق قوي فيه ، ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً .

فلوحرم الإنسان على نفسه شيئاً أحله الله كشرب عسل أو وطء سريه واختلفوا إذا قال لزوجه أنت علي حرام ، أو الحلال علي حرام ، ولا يستثنى زوجته فقال جماعة : منهم الشعبي ، ومسروق ، وربيعه ، وأبوسلمة ، وأصبغ : هو

كتحريم الماء والطعام ، وقال تعالى (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) والزوجة من الطيبات ومما أحله الله ، وقال أبو بكر ، وعمر ، وزيد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعائشة وابن المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، وسليمان بن يسار ، وابن جبير ، وقتادة ، والحسن ، والأوزاعي ، وأبو ثور وجماعة : هو يمين يكفرها ، وقال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً في إحدى روايته ، والشافعي ، في أحد قوليه : فيه تكفير يمين ، وليس بيمين ، وقال أبو حنيفة ، وسفيان ، والكوفيون : هذا ما أراد من الطلاق فإن لم يرد طلاقها فهو لاشيء ، وقال آخرون كذلك فإن لم يرد فهو يمين ، وفي التحرير قال أبو حنيفة وأصحابه : إن نوى الطلاق فواحدة بائنة ، أو اثنتين فواحدة ، أو ثلاثاً فثلاث ، أو لم ينو شيئاً فيمين وهو مول أو الظهار فظهار ، وقال ابن القاسم : لا ينفع نية الظهار ويكون طلاقاً ، وقال يحيى بن عمر يكون فإن ارتجعها فلا يجوز له وطئها حتى يكفر كفارة الظهار فما زاد من إعداده ، فإن نوى واحدة فرجعية وهو قول الشافعي ، وقال الأوزاعي ، وسفيان ، وأبو ثور رأى أي شيء نوى به من الطلاق وقع ، وإن لم ينو شيئاً فقال سفيان : لا شيء عليه ، وقال الأوزاعي ، وأبو ثور : تقع واحدة . وقال الزهري : له نيته ولا يكون أقل من واحدة ، فإن لم ينو : فلا شيء ، وقال ابن جبير : عليه عتق رقبة وإن لم يكن ظهاراً ، وقال أبو قلابة وعثمان وأحمد وإسحاق التحريم ظهار ففيه كفارة ، وقال الشافعي : إن نوى أنها محرمة كظهر أمه فظهار ، أو تحريم عينها بغير طلاق ، أو لم ينو فكفارة يمين ، وقال مالك : هي ثلاث في المدخول بها ، وينوي في غير المدخول بها فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، وقاله علي ، وزيد ، وأبو هريرة ، وقيل : في المدخول بها ثلاث ، قاله علي أيضاً وزيد بن أسلم ، والحكم ، وقال ابن أبي ليل وعبد الملك بن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ولا ينوي في شيء ، وروى ابن خويز مندد عن مالك ، وقاله زيد ، وحامد بن أبي سليمان : إنها واحدة بائنة في المدخول بها وغير المدخول بها ، وقال الزهري ، وعبد العزيز بن الماجشون : هي واحدة رجعية ، وقال أبو مصعب ، ومحمد بن الحكم : هي في التي لم يدخل بها واحدة ، وفدي المدخول بها ثلاث . وفي الكشف : لا يراه الشافعي يميناً ، ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن : وإن نوى الطلاق فهو رجعي . وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي وعن علي : ثلاث . وعن زيد : واحدة ، وعن عثمان : ظهار انتهى . وقال أيضاً : ولم يثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لما أحله هو حرام علي ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه وهو قوله : والله لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له (لم تحرم ما أحل الله لك) أي : لم تمتنع منه بسبب اليمين يعني أقدم على ما حلفت عليه وكفر ونحو قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ [القصص ١٢] أي : منعناه منها . انتهى . وتبغى في موضع الحال ، وقال الزمخشري : تفسير لتحرم أو استثناف مرضاة رضا أزواجك أي بالامتناع مما أحله الله لك ، (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) الظاهر : أنه كان حلف على أنه يمتنع من وطء مارية ، أو من شرب ذلك العسل على الخلاف في السبب وفرض إحالة على آية العقود ﴿ وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة ٨٩] وتحلة : مصدر حلل ، كتكرمه من كرم ، وليس مصدراً مقيساً ، والمقيس : التحليل والتكريم ، لأن قياس فعل الصحيح العين غير المهموز هو التفعيل وأصل هذا تحللة فأدغم ، وعن مقاتل : أعتق رقبة في تحريم مارية ، وعن الحسن لم يكفر . انتهى . فدل على أنه لم يكن ثم يمين و (بعض أزواجه) حفصة ، والحديث هو بسبب مارية (فلما نبات به) أي : أخبرت عائشة ، وقيل : الحديث إنما هو شربت عسلاً ، وقال ميمون بن مهران : هو إسرائه إلى حفصة أن أبا بكر وعمر يملكان إمري من بعدي خلافة ، وقرأ الجمهور (فلما نبات به) وطلحة (أنبأت) والعامل في (إذا) « اذكر » ، وذكر ذلك على سبيل التأنيب لمن أسر له فأفشاه . ونباً وأنبا : الأصل أن يتعديا إلى واحد بأنفسهما ، وإلى ثان بحرف الجر ، ويجوز حذفه فتقول : نبات به ، المفعول الأول محذوف أي غيرها و (من أنبأك هذا) أي : بهذا (قال نبأني) أي : نبأني به أو نبأني ، فإذا ضمنت معنى أعلم تعدت إلى ثلاث مفاعيل نحو قوله الشاعر :

نُبَّتْ زُرْعَةٌ وَالسَّفَاهَةُ كَاسِمُهَا تَهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الْأَشْعَارِ^(١)

(وأظهره الله عليه) أي : أطلعه أي على إفشائه ، وكان قد تكوّن فيه ، وذلك بإخبار جبريل عليه السلام وجاءت الكناية ههنا عن التفشية ، والحذف للمفشي إليها بالسر : حياطةً وصوتاً عن التصريح بالاسم ، إذ لا يتعلق بالتصريح بالاسم غرض . وقرأ الجمهور (عَرَفَ) بشد الراء ، والمعنى أعلم به وأنب عليه وقرأ السلمي ، والحسن ، وقتادة ، وطلحة ، والكسائي ، وأبو عمرو في رواية هارون عنه : بخف الراء أي : جازي بالعتب واللوم ، كما تقول لمن يؤذيك « لأعرفن لك ذلك » أي : لأجزيّنك ، وقيل : إنه طلق حفصة وأمر بمراجعتها ، وقيل : عاتبها ولم يطلقها ، وقرأ ابن المسيب ، وعكرمة (عراف) بألف بعد الراء وهي إشباع ، وقال ابن خالويه ، ويقال : إنها لغة يمانية ومثلها قوله :

أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الْعَقْرَابِ الشَّائِلَاتِ عُقَدَ الْأَذْنَابِ^(٢)

يريد من العقرب ، (وأعرض عن بعض) أي : تكرّماً وحياءً وحسنَ عشرة ، قال الحسن : ما استقصى كريم قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، ومفعول (عَرَفَ) المشدد محذوف أي : عَرَفَهَا بعضه ، أي : أعلم ببعض الحديث ، وقيل : المعرف خلافة الشيخين ، والذي أعرض عنه حديث مارية ، ولما أفشت حفصة الحديث لعائشة واكتتمتها إياه ونباها الرسول ﷺ به ظنت أن عائشة فضحتّها فقالت (من أنباك هذا) على سبيل التثيت ، فأخبرها أن الله هو الذي نبأه به فسكنت وسلمت ، (إن تتوبا إلى الله) انتقال من غيبة إلى خطاب ، ويسمى الالتفات ، والخطاب لحفصة وعائشة (فقد صغت) مالت عن الصواب . وفي حرف عبد الله (راغت) . وأق بالجمع في قوله (قلوبكما) وحسن ذلك إضافته إلى مثني وهو ضميرهما ، والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثني والتثنية دون الجمع كما قال الشاعر :

فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِدٍ كَنَوَافِدِ الْعُبُطِ الَّتِي لَا تُرْفَعُ^(٣)

وهذا كان القياس ، وذلك أن يعبر بالمثني عن المثني لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع ، لأن التثنية جمع في المعنى والإفراد لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر كقوله :

حَمَامَةٌ بَطْنِ الْوَادِيْنِ تَرْنَمِي^(٤)

يريد بطني ، وغلط ابن مالك فقال في كتاب التسهيل : ونختار لفظ الأفراد على لفظ التثنية ، وقرأ الجمهور (تظاهراً) بشد الظاء ، وأصله : تتظاهرا ، وأدغمت التاء في الظاء . وبالأصل قرأ عكرمة ، وبتخفيف الظاء قرأ أبو رجاء ، والحسن ، وطلحة ، وعاصم ، ونافع في رواية . وبشد الظاء والهاء دون ألف قرأ أبو عمرو ، في رواية ، والمعنى : وإن تعاونوا عليه في إفشاء سره والإفراط في الغيرة (فإن الله هو مولاه) أي : مظاهره ومعينه . والأحسن الوقف على قوله مولاه ، ويكون (وجبريل) مبتدأ ، وما بعده معطوف عليه ، والخبر (ظهير) فيكون ابتداء الجملة بجبريل وهو أمين وحي

(١) البيت من الكامل للناطقة انظر ديوانه (٨٦) العيني (٤٣٩/٢) التصريح على التوضيح (١/٢٦٥) .

(٢) تقدم .

(٣) البيت من الكامل لأبي ذؤيب انظر ديوان الهذليين (٢٠/١) . اللسان (خلس) .

(٤) صدر بيت من الطويل وعجزه .

سقال من الغر الغواوي مطيرها

نسب لتوبة بن الحمير وقيل : للشياخ انظر ديوان توبة (٣٦) ملحق ديوان الشياخ (٤٣٨) أمالي القالي (٨٨/١) الهمع (٥١/١) المقرب (١٢٨/٢) الدرر (١/٢٦) .

الله واختتامه بالملائكة . وبدى بجبريل وأفرد بالذكر تعظيماً له وأظهاراً لمكانته عند الله ، ويكون قد ذكر مرتين ، مرة بالنص ، ومرة في العموم . واكتنف (صالح المؤمنين) جبريل تشريفاً لهم واعتناء بهم إذا جعلهم بين الذين (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فعلى هذا جبريل داخل في الظهراء لا في الولاية ويختص الرسول بأن الله هو مولاه ، وجوزوا أن يكون (وجبريل وصالح المؤمنين) عطفاً على اسم الله ، فيدخلان في الولاية ويكون (والملائكة) مبتدأ ، والخبر (ظهير) فيكون (جبريل) داخلاً في الولاية بالنص ، وفي الظهراء بالعموم . والظاهر عموم (وصالح المؤمنين) فيشمل كل صالح ، وقال قتادة ، والعلاء بن العلاء بن زيد . هم : الأنبياء ، وتكون مظاهرتهم له كونهم قدوة ، فهم ظهراء بهذا المعنى ، وقال عكرمة ، والضحاك ، وابن جبير ، ومجاهد : المراد أبو بكر وعمر . وزاد مجاهد : وعلي بن أبي طالب ، وقيل : الصحابة ، وقيل : الخلفاء ، وعن ابن جبير : من برىء من النفاق . (وصالح) يحتمل أن يراد به الجمع . وإن كان مفرداً فيكون كالسامر في قوله ﴿ مستكبرين به سامرا ﴾ [المؤمنون ٦٧] أي : سياراً ويحتمل أن يكون جمعاً حذف منه الواو خطأ لحذفها لفظاً ، كقوله ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق ١٨] وأفرد الظهير ، لأن المراد فوج ظهير ، وكثيراً ما يأتي فعيل نحو هذا للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ المفرد ، كأنهم في المظاهرة يد واحدة على من يعاديه ، فما قدر تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه ، وذلك إشارة إلى تظاهرها ، أو إلى الولاية . وفي الحديث أن عمر قال يا رسول الله « لا تكثر بأمر نسائك ، والله معك ، وجبريل معك ، وأبو بكر وأنا معك » فنزلت ، وروى عنه أنه قال لزوجات النبي ﷺ « عسى ربه إن طلقكن « الآية فنزلت ، وقرأ الجمهور (طلقكن) بفتح القاف . وأبو عمرو في رواية ابن عباس بإدغامها في الكاف . وتقدم ذكر الخلاف في أن يبده في سورة الكهف . والتبديل به محذوف للدلالة المعنى عليه ، تقديره : أن يبده خيراً منك ، لأنهن إذا طلقهن كان طلاقهن لسوء عشرتهن ، واللواتي يبدهن بهذه الأوصاف يكن خيراً منهن . وبدأ في وصفهن بالإسلام وهو الانقياد ، ثم بالإيمان وهو التصديق ، ثم بالقنوت وهو الطوعية ، ثم بالتوبة وهي الإقلاع عن الذنب ، ثم بالعبادة وهي التلذذ ، ثم بالسياحة وهي كناية عن الصوم ، قاله أبو هريرة وابن عباس وقاتدة والضحاك ، وقيل : إن الرسول ﷺ فسره بذلك ، قاله أيضاً الحسن ، وابن جبير ، وزيد بن أسلم ، وابن عبد الرحمن ، قال الفراء والقتيبي : سمي الصائم سائحاً لأن السائح لا زاد معه ، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام ، وقال زيد بن أسلم ويمن مهاجرات ، وقال ابن زيد : ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة ، وقيل : ذاهبات في طاعة الله وقرأ الجمهور (سائحات) وعمرو بن فائد (سَيِّحات) وهذه الصفات تجتمع ، وأما الثبوت والبكارة فلا يجتمعان فلذلك عطف أحدهما على الآخر ، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى . وذكر الجنسين لأن في أزواجه ﷺ من تزوجها بكراً ، والثيب : الراجع بعد زوال العذرة ، يقال ثابت تثوب ثوباً ووزنه فعيل كسيد . ولما وعظ أزواج الرسول ﷺ موعظة خاصة أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهلهم وعطف (وأهلهم) على (أنفسكم) لأن رب المنزل راع وهو مسؤول عن أهله . ومعنى وقايتهم : حملهم على طاعته وإلزامهم إداء ما فرض عليهم ، قال عمر : يا رسول الله نقي أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ قال : تنهون عما نهاكم الله تعالى عنه ، وتأمرونهم بما أمركم الله به فتكون ذلك وقاية بينهن وبين النار . ودخل الأولاد في وأهلهم . وقيل : دخلوا في أنفسكم ، لأن الولد بعض من أبيه فيعلمه الحلال والحرام ويحنيه المعاصي ، وقرئ (وأهلوكم) بالواو وهو معطوف على الضمير في (قوا) وحسن العطف للفصل بالمفعول . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) أليس التقدير قوا أنفسكم وليقي أهلوكم أنفسهم ؟ (قلت :) لا ، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو وأنفسكم واقع بعده ، فكأنه قيل قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ، لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه فجعلت ضميرهما معاً على لفظ المخاطب . انتهى . وناقض في قوله هذا لأنه قدر : وليقي أهلوكم ، فجعله من عطف الجمل ، لأن « أهلوكم » اسم ظاهر لا يمكن عنده أن يرتفع بفعل الأمر الذي للمخاطب وكذا في قوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ [الأعراف ١٩] ثم قال : ولكن المعطوف مقارن

في التقدير للواو ، فناقض ، لأنه في هذا جعله مقارناً في التقدير للواو ، وفيما قبله رفعه بفعل آخر غير الرفع للواو وهو وليق . وتقدم الخلاف في فتح الواو في قوله (وقودها) وضمها في البقرة وتفسير : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ [التحريم ٦] في البقرة (عليها ملائكة) هي الزبانية التسعة عشر وأعوانهم . ووصفهم بالغلط : إما لشدة أجسامهم وقوتها ، وإما لفظاظتهم لقوله ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب ﴾ [آل عمران ١٥٩] أي : ليس فيهم رقة ولا حنة على العصاة وانتصب (ما أمرهم) على البدل أي لا يعصون أمره لقوله تعالى : ﴿ أف عصيت أمري ﴾ [طه ٩٣] أو على إسقاط حرف الجر أي فيما أمرهم (ويفعلون ما يؤمرون) ، قيل : كرر المعنى تأكيداً ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) أليس الجملتان في معنى واحد ؟ (قلت :) لا ، فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ، ويلتزمون ، ولا يأبونها ، ولا ينكرون ، ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون ولا يتأقلون عنه ولا يتوانون فيه ، (لا تعندوا) خطاب لهم عند دخولهم النار ، لأنهم لا ينفعهم الاعتذار فلا فائدة فيه ، قوله عز وجل :

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ ﴿١٢﴾

ذكروا في النصح أربعة وعشرين قولاً ، وروي عن عمر ، وعبد الله ، وأبي ومعاذ ، أنها التي لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، ورفع معاذ إلى النبي ﷺ وقرأ الجمهور (نصوحاً) بفتح النون ، وصفاً لتوبة ، وهو من أمثلة المبالغة كضروب وقتول ، وقرأ الحسن ، والأعرج ، وعيسى وأبو بكر عن عاصم ، وخارجة عن نافع : بضمها ، وهو مصدر وصف به ووصفها بالنصح على سبيل المجاز إذا النصح صفة النائب ، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة ، فيأتي بها على طريقها ، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها من قولهم : غسل ناصح أي : خالص من الشمع ، أو من النصيحة وهي الخياطة أي : قد أحكمها وأوثقها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته وتوثيقه . وسمع عليّ أعرابياً يقول « اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك » فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين « قال : وما التوبة ؟ قال يجمعها ستة أشياء : على الماضي من الذنوب الندامة ، وعلى الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن يعزم على أن لا يعود ، وأن تدب نفسك في طاعة الله . كما أدبتها في المعصية وأن تذيبها مرارة الطاعة كما أذقتها حلالة المعاصي » . وعن حذيفة بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه . انتهى . و (نصوحاً) من نصح فاحتمل وهو الظاهر أن تكون التوبة تنصح نفس النائب واحتمل أن يكون متعلق بالنصح الناس أي : يدعوهم إلى مثلها لظهور أمرها على صاحبها ، وقرأ

زيد بن علي (توبا) بغير تاء ، ومن قرأ بالضم جاز أن يكون مصدراً وصف كما قدمناه ، وجاز أن يكون مفعولاً له ، أي : توبوا لنصح أنفسكم ، وقرأ الجمهور (ويدخلكم) عطفاً على أن يكفر ، وقال الزمخشري : عطفاً على محل (عسى) أن يكفر ، كأنه قيل : توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم انتهى . والأولى أن يكون حذف الحركة تخفيفاً وتشبيهاً لما هو من كلمتين بالكلمة الواحدة تقول في قمع ونطع قمع ونطع ، (يوم لا يخزي) منصوب بـ (يدخلكم) و (لا يخزي) تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر ، و (النبي) هو محمد رسول الله ﷺ . وفي الحديث أنه ﷺ تضرع إلى الله عز وجل في أمر أمته فأوحى الله تعالى إليه إن شئت جعلت حسابهم إليك فقال : يا رب أنت أرحم بهم ، فقال تعالى : إذا لا أخزيك فيهم . وجاز أن يكون (والذين) معطوفاً على (النبي) فيدخلون في انتفاء الخزي . وجاز أن يكون مبتدأ والخبر (نورهم يسعى بني أيديهم وبأيمانهم) ، وقرأ سهل بن شعيب ، وأبو حيوة (وبأيمانهم) بكسر الهمزة . وتقدم في الحديث يقولون (ربنا أتمم لنا نورنا) قال ابن عباس والحسن : يقولون ذلك إذا طفىء نور المنافقين . وقال الحسن أيضاً يدعونه تقرباً إليه كقوله : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ [محمد ١٩] وهو مغفور له ، وقيل : يقوله من يمر على الصراط زحفاً وحبواً ، وقيل : يقوله من يعطي من النور مقدار ما يبصر به موضع قدميه (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) تقدم نظير هذه الآية في التوبة (ضرب الله مثلاً للذين كفروا) وضرب تعالى المثل لهم بامرأة نوح وامرأة لوط في أنهم لا ينفعهم في كفرهم لحمة نسب ، ولا وصلة صهر ، إذ الكفر قاطع العلائق بين الكافر والمؤمن ، وإن كان المؤمن في أقصى درجات العلا لا ترى إلى قوله تعالى (إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح) كما لا ينفع تينك المرأتين كونهما زوجتي نبيين ، وجاءت الكناية عن اسمهما العلمين بقوله (عبيدين من عبادنا) لما في ذلك من التشريف بالإضافة إليه تعالى ، ولم يأت التركيب بالضمير عنها فيكون تحتها لما قصد من ذكر وصفها بقوله (صالحين) لأن هو الوصف الذي يمتاز به من اصطفاه الله تعالى بقوله في حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [البقرة ١٣٠] وفي قول يوسف عليه السلام ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ [الشعراء ٨٣] وفي قول سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ [النحل ١٩] (فخانتاهما) وذلك بكفرهما وقول امرأة نوح عليه السلام هو مجنون وغيمة امرأة لوط عليه السلام وبمن ورد عليه من الأضياف قاله ابن عباس ، وقال لم تزن امرأة نبي قط ولا ابتلي في نسائه بالزنا ، قال في التحرير : وهذا إجماع من المفسرين وفي كتاب ابن عطية ، وقال الحسن في كتاب النقاش (فخانتاهما) بالكفر والزنا وغيره ، وقال الزمخشري : ولا يجوز أن يراد بالخيانة : الفجور ، لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد بخلاف الكفر فإن الكفر يستسمجونه ويسمونونه حقاً ، وقال الضحاك (خانتاهما) بالنميمة ، كان إذا أوحى إليه شيء أفشاه للمشركين ، وقيل : بنفاقهما ، قال مقاتل : اسم امرأة نوح « والهة » واسم امرأة لوط « والعة » (فلم يغنيا) بياء الغيبة ، والألف ضمير نوح ولوط ، أي على قربهما فرق بينهما الخيانة (وقيل ادخلا النار) أي وقت موتها أو يوم القيامة (مع الداخلين) الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أو مع من دخلها من إخوانكم من قوم نوح وقوم لوط . وقرأ مبشر بن عبيد (تغنيا) بالتاء والألف ضمير المرأتين ومعنى (عنها) من أنفسهما ولا بد من هذا المضاف إلا أن يجعل عن اسماً كهي في دع عنك لأنها إن كانت حرفاً كان في ذلك تعدية الفعل الرفع للضمير المتصل إلى ضمير المجرور وهو يجري مجرى المنصوب المتصل وذلك لا يجوز (وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون) مثل تعالى حال المؤمنين في أن وصلة الكفار لا تضرهم ولا تنقص من ثوابهم ، بحال امرأة فرعون واسمها آسية بنت مزاحم ، ولم يضرها كونها كانت تحت فرعون عدو الله تعالى والمذموم الإلهية بل نجاها منه إيمانها ، وبحال مريم إذ أوتيت من كرامة الله تعالى في الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفاراً (إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة) هذا يدل على إيمانها وتصديقها بالبعث ، قيل : كانت عمة موسى عليه السلام ، وأمنت حين سمعت بتلقف عصاه ما أفك السحرة ، طلبت من ربها القرب من رحمة ، وكان ذلك أهم عندها فقدمت

الظرف وهو (عندك بيتاً) ثم بينت مكان القرب فقالت في الجنة ، وقال بعض الظرفاء وقد سئل : أين في القرآن مثل قولهم الجار قبل الدار ؟ قال قوله تعالى (ابن لي عندك بيتاً في الجنة) فـ (عندك) هو المجاورة ، و (بيتاً في الجنة) هو الدار وقد تقدم (عندك) على قوله (بيتاً) ، ونجني من فرعون قيل : دعت بهذه الدعوات حين أمر فرعون بتعذيبها لما عرف إيمانها بموسى عليه السلام ، وذكر المفسرون أنواعاً مضطربة في تعذيبها ، وليس في القرآن نصاً أنها عذبت ، وقال الحسن لما دعت بالنجاة نجاها الله تعالى أكرم نجاة فرفعها ، إلى الجنة تأكل وتشرب وتتعم ، وقيل : لما قالت (ابن لي عندك بيتاً في الجنة) أريت بيتها في الجنة بيني وعمله قيل كفره ، وقيل : عذابه وظلمه وشماته ، وقال ابن عباس : الجماع (ونجني من القوم الظالمين) قال : أهل مصر ، وقال مقاتل ، القبط ، وفي هذا دليل على الالتجاء إلى الله تعالى عند المحن وسؤال الخلاص منها وإن ذلك من سنن الصالحين والأنبياء ، (ومريم) معطوف على امرأة فرعون (بنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) تقدم تفسير نظير هذه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقرأ الجمهور (ابنت) بفتح التاء . وأيوب السخيتاني ابنه بسكون الهاء وصلاً أجراه مجرى الوقف ، وقرأ الجمهور (فنفخنا فيه) أي : في الفرج . وعبد الله فيها كما في سورة الأنبياء أي : في الجملة . وجمع تعالى في التمثيل بين التي لها زوج ، والتي لا زوج لها ، تسلياً للأرامل وتطبيعاً لقلوبهن . وقرأ الجمهور (وصدقت) بشد الدال ، ويعقوب ، وأبو مجلز ، وقتادة ، وعصمة عن عاصم بخفها أي : كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى عليه السلام وما أظهر الله له من الكرامات ، وقرأ الجمهور (وكلماته) جمعاً فاحتمل أن تكون الصحف المنزلة على إدريس عليه السلام وغيره وسماها (كلمات) لقصرها ويكون المراد بكتبه الكتب الأربعة ، واحتمل أن تكون « الكلمات » ما كلم الله تعالى به ملائكته وغيرهم ، و « بكتبه » جميع ما يكتب في اللوح وغيره . واحتمل أن تكون الكلمات ما صدر في أمر عيسى عليه السلام ، وقرأ الحسن ، ومجاهد ، والجاحدري (بكلمة) على التوحيد فاحتمل أن يكون اسم جنس ، واحتمل أن يكون كناية عن عيسى لأنه قد أطلق عليه أنه « كلمة الله ألقاها إلى مريم » . وقرأ أبو عمرو ، وحفص (وكتبه) جمعاً ، ورواه كذلك خارجة عن نافع ، وقرأ باقي السبعة (وكتابه) على الأفراد ، فاحتمل أن يراد به الجنس ، وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى وقرأ أبو رجاء (وكتبه) ، قال ابن عطية بسكون التاء (وكتبه) وذلك كله مراد به التوراة والإنجيل وقال صاحب اللوامح ، أبو رجاء (وكتبه) بفتح الكاف وهو مصدر أقيم مقام الاسم ، قال سهل (وكتبه) أجمع من كتابه ، لأن فيه وضع المضاف موضع الجنس ، فالكتب عام ، والكتاب هو الإنجيل فقط . انتهى . (وكانت من القانتين) غلب الذكورية على التأنيث و (القانتين) شامل للذكور والإناث و (من) للتبعية ، وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون لابتداء الغاية ، على أنها ولدت من القانتين ، لأنها من أعقاب هارون أخي موسى صلوات الله وسلامه عليهما ، وقال يحيى بن سلام : مثل ضربه الله يحذره عائشة وحفصة من المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم بنت عمران ، ترغيباً في التمسك بالطاعات والثبات على الدين انتهى . وأخذ الزمخشري كلام ابن سلام هذا وحسنه وزمكه بفصاحة فقال : وفي طي التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين المذكورتين في أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه لما في التمثيل من ذكر الفكر ونحوه ، ومن التغليظ قوله : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ [آل عمران ٩٧] وإشارة إلى أن من حقها أن يكونا في الإخلاص والكتمان فيه كمثلي هاتين المؤمنتين ، وأن لا يشكلا على أنها زوجتا رسول الله ﷺ فإن ذلك الفضل لا ينقصهما إلا مع كونهما مخلصين والتعريض بحفصة أرج ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله ﷺ وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً يدق عن فطن العالم ويزل عن تبصره . انتهى . وقال ابن عطية : وقال بعض الناس : إن في المثليين عبرة لزوجات النبي ﷺ حين تقدم عتابهن ، وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة الملك مكية وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى
 مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
 بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ
 الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ
 خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ
 ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ
 الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا
 وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ الشُّورُ ﴿١٥﴾

هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها : أنه لما ضرب للكفار بتينك المراتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانت تحت
 نبين ومثلاً ، للمؤمنين بأسية ومريم وهما محتوم لهما بالجنة ، وإن كان قوماهما كافرين ، كان ذلك تصرفاً في ملكه على ما سبق
 قضاؤه فقال (تبارك) أي : تعالى وتعاظم (الذي بيده الملك) وهو كناية عن الإحاطة والقهر وكثيراً ما جاء نسبة اليد إليه
 تعالى كقوله : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ [يس ٨٣] ﴿ بيدك الخير ﴾ [آل عمران ٢٦] وذلك في حقه
 تعالى استعارة لتحقيق الملك إذا كانت في عرف الآدميين آلة للتملك ، والملك هنا هو على الإطلاق لا يبيد ولا يخل ، وعن
 ابن عباس : ملك الملوك لقوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ [آل عمران ٢٦] وناسب الملك ذكر وصف القدرة والحياة
 ما يصبح بوجوده الإحساس . ومعنى خلق الموت : إيجاد ذلك المصحح وإعدامه والمعنى : خلق موتكم وحياتكم أيها
 المكلفون ، وسمى علم الواقع منهم باختيارهم بلوى وهي الحيرة استعارة من فعل المختبر ، وفي الحديث : أنه فسر (أيكم

أحسن عملاً) أي : أحسنكم عقلاً ، وأشدكم خوفاً وأحسنكم في أمره ونهيه نظراً ، وإن كان أقلكم تطوعاً^(١) ، وعن ابن عباس ، والحسن ، والثوري : أزهلكم في الدنيا ، وقيل : كنى بالموت عن الدنيا ، إذ هو واقع فيها وعن الآخرة بالحياة من حيث لا موت فيها فكأنه قال هو الذي خلق الدنيا والآخرة ، وصفهما بالمصدرين . وقدم الموت لأنه أهيب في النفوس و (ليلوكم) متعلق بـ (خلق) و (أيكم أحسن عملاً) مبتدأ وخبر ، فقدر الحوفي قبلها فعلاً تكون الجملة في موضع معموله ، وهو معلق عنها تقديره « فينظر » . وقدر ابن عطية فينظر أو فيعلم ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) من أين تعلق قوله (أيكم أحسن عملاً) بفعل البلوى (قلت :) من حيث إنه تضمن معنى العلم ، فكأنه قيل ليعلمكم أيكم أحسن عملاً ، وإذا قلت « علمته أزيد أحسن عملاً أم هو » كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه كما تقول علمته هو أحسن عملاً (فإن قلت :) يسمى هذا تعليقاً ؟ (قلت :) لا إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعاً ، كقولك « علمت أيهما عمرو وعلمت أزيد منطلق » ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرراً بحرف الاستفهام وغير مصدر به ، ولو كان تعليقاً لافترقت الحالتان ، كما افترقتا في قولك « علمت أزيد منطلق وعلمت زيدا منطلقاً » انتهى . وأصحابنا يسمون ما منعه الزمخشري تعليقاً ، فيقولون في الفعل إذا عدي إلى اثنين ونصب الأول وجاءت بعده جملة استفهامية ، أو بلام الابتداء ، أو بحرف نفي كانت الجملة معلقة عنها الفعل وكانت في موضع نصب كما لو وقعت في موضع المفعولين ، وفيها ما يعلق الفعل عن العلم . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الجملة في الكهف في قوله تعالى (لنبلوهم أيهم أحسن عملاً) الكهف وانتصب (طباقاً) على الوصف لسبع ، فإما أن يكون مصدر طابق مطابقة وطباقاً ، لقولهم النعل خصفها طباقاً على طبق وصف به على سبيل المبالغة ، أو على حذف مضاف أي « ذا طباق » ، وإما جمع طبق كجمل وجمال أو جمع طبقة كرحبة ورحاب والمعنى : بعضها فوق بعض وما ذكر من مواد هذه المسوات ، فالأولى : من موج مكفوف ، والثانية : من درة بيضاء ، والثالثة : من حديد ، والرابعة من نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة : من ذهب والسابعة : من زمردة بيضاء يحتاج إلى نقل صحيح ، وقد كان بعض من ينتمي إلى الصلاح وكان أعمى لا يبصر موضع قدمه يخبر أن يشاهد السموات على بعض أوصاف مما ذكرنا ، من تفاوت ، قال ابن عباس : من تفرق ، وقال السدي : من عيب ، وقال عطاء بن يسار : من عدم استواء ، وقال ثعلب : أصله من الفوت ، وهو أن يفوت شيء شيئاً من الخلل ، وقيل : من اضطراب ، وقيل : من اعوجاج ، وقيل : من تناقض ، وقيل : من اختلاف ، وقيل : من عدم التناسب والتفاوت تجاوز الحد الذي تجب له زيادة أو نقص ، قال بعض الأدباء :

تَنَاسَبَتِ الْأَعْضَاءُ فِيهِ فَلَا تَرَى بِهِنَّ اخْتِلَافاً بَلْ أَتَيْنَ عَلَى قَدَرٍ^(٢)

وقرأ الجمهور (من تفاوت) بألف مصدر تفاوت ، وعبد الله ، وعلقمة ، والأسود ، وابن جبير ، وطلحة ، والأعمش بشد الواو مصدر «تَفَوَّتَ»، وحكى أبو زيد عن العربي (تَفَاوُتاً) بضم الواو وفتحها وكسرها ، والفتح والكسر شاذان . والظاهر : عموم خلق الرحمن من الأفلاك وغيرها ، فإنه لا تفوت فيه ولا فطور ، بل كل جارٍ على الإلتقان ، وقيل : المراد في خلق الرحمن السموات فقط . والظاهر : أن قوله تعالى (ما ترى) استئناف أنه لا يُدْرِكُ في خلقه تعالى تفاوت . وجعل الزمخشري هذه الجملة صفة متابعة لقوله (طباقاً) أصلها : ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير في قوله خلق الرحمن ، تعظيماً لخلقهن ، وتنبهياً على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بياهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المناسب ، انتهى . والخطاب في (ترى) لكل مخاطب ، أول للرسول ﷺ . ولما

(١) يروى عن ابن عمر مرفوعاً أخرجه البغوي في التفسير (٣٦٩/٤) .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٧/٢٨) .

أخبر تعالى أنه لا تفاوت في خلقه ، أمر بترديد البصر في الخلق المناسب ، فقال (فارجع) ففي الفاء معنى التسبب . والمعنى أن العيان يطابق الخبر . و (الفطور) قال مجاهد : الشقوق « فطر ناب البعير » شق اللحم وظهر ، قال الشاعر :

بَنَى لَكُمْ بِلاَ عَمَدٍ سَمَاءَ وَسَوَّاهَا فَمَا فِيهَا فُطُورُ

وقال أبو عبيدة : صدوع وأنشد قول عبيد بن مسعود :

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ رَدَدْتِ فِيهِ هَوَاكِ فَلَيْطَ فَالَتَاتِ الْفُطُورِ^(١)

وقال السدي : حروق ، وقال قتادة : خلل ، ومنه التفطير والانفطار ، وقال ابن عباس : وَهْنٌ وهذه تفاسير متقاربة ، والجملة من قوله (هل ترى من فطور) في موضع نصب بفعل معلق محذوف ، أي : فانظر هل ترى أو ضمن معنى (فارجع البصر) معنى فانظر ببصرك هل ترى ، فيكون معلقاً (ثم ارجع البصر) أي رده كرتين هي تثنية لا شفع الواحد بل يراد بها التكرار كأنه قال كرة بعد كرة أي كرات كثيرة ، كقوله (لبيك) يريد إجابات كثيرة ، بعضها في إثر بعض ، وأريد بالتثنية التكثير ، كما أريد بما هو أصل لها التكثير وهو مفرد عطف على مفرد نحو قوله :

لَوْ عُدَّ قَبْرٌ وَقَبْرٌ كَانَ أَكْرَمَهُمْ بَيْتاً وَأَبْعَدَهُمْ عَن مَّنْزِلِ الدَّامِ^(٢)

يريد : لو عدت قبور كثيرة ، وقال ابن عطية وغيره : (كرتين) معناه مرتين ، ونصبها على المصدر ، وقيل : أمر برجوع البصر إلى السماء مرتين ، غلط في الأولى فيستدرك بالثانية ، وقيل : الأولى ليرى حسناتها واستواءها ، والثانية ليبصر كوكبها في سيرها وانتهائها ، وقرأ الجمهور (ينقلب) جزماً على جواب الأمر ، والخوارزمي عن الكسائي يرفع الباء أي : « فينقلب » على حذف الفاء أو على أنه موضع حال مقدرة أي إن رجعت البصر وكررت النظر لتطلب فطور شقوق أو خللاً أو عيباً رجع إليك مبعداً عما طلبته لانتفاء ذلك عنها ، وهو كال من كثرة النظر . وكلاله يدل على أن المراد بالكرتين ليس شفع الواحد لأنه لا يكل البصر بالنظر مرتين اثنتين و « الحسين » الكال قال الشاعر :

لَهُنَّ السَّوْجَى لَمْ كَرَّ عَوْنًا عَلَى النَّوَى وَلَا زَالَ مِنْهَا ظَالِعٌ وَحَسِيرٌ

يقال حسر بعيره يحسر حسوراً أي كل وانقطع فهو حسير ومحسور ، قال الشاعر يصف ناقة :

فَشَطَرُهَا نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ مُحْسُورٌ^(٣)

أي ونحرها ، وقد جمع حسير بمعنى أعيا وكل ، قال الشاعر :

بِهَا جَيْفُ الْحَسْرِى فَأَمَّا عِظَامُهَا

البيت ، السماء الدنيا : هي التي نشاهدها ، والدنو أمر نسبي وإلا فليست قريبة بمصاييح أي بنجوم مضيئة كالمصاييح ، ومصاييح مطلق الأعلام ، فلا يدل على أن غير سماء الدنيا ليست فيها مصاييح (وجعلناها رجوماً للشياطين) أي : جعلناها منها ، لأن السماء ذاتها ليست يرفع بها الرجوم هذا إن عاد الضمير في قوله (وجعلناها) على السماء ، والظاهر

(١) البيت من الوافر انظر تفسير القرطبي (١٨/١٣٦) .

(٢) البيت من مجزوء البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٣) ذكره ابن منظور في اللسان (٢/٨٥٧) مادة (حسر) القرطبي ١٨/١٣٧ .

عوده على (مصابيح) ونسب الجرم إليها لأن الشهاب المتبع للمسترق منفصل من نارها والكوكب قارّ في ملكه على حاله فالشهاب كقبس يؤخذ من النار ، والنار باقية لا تنقص . والظاهر أن الشياطين هم مسترقو السمع وأن الرجم هو حقيقة يرمون بالشهاب كما تقدم في سورة الحجر وسورة الصافات ، وقيل : معنى (رجوماً) ظنونا للشياطين الإنس وهم المنجمون ينسبون إلى النجوم أشياء على جهة الظن من جهاهم ، والتمويه والاختلاق من أزيكائهم ، ولهم في ذلك تصانيف تشتمل على خرافات يوهون بها على الملوك وضعفاء العقول ، ويعملون موالد يحكمون فيها بالأشياء لا يصح منها شيء ، وقد وقفنا على أشياء من كذبهم في تلك الموالد وما يحكونه عن أبي معشر وغيره من شيوخ السوء كذب يغرون به الناس الجهال ، وقال قتادة : خلق الله تعالى النجوم زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وليهتدي بها في البر والبحر ، فمن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظه من الآخرة . والضمير في (لهم) عائد على الشياطين ، وقرأ الجمهور (عذابُ جهنم) برفع الباء ، والضحاك ، والأعرج ، وأسيد بن أسيد المزني والحسن في رواية هارون عنه بالنصب ، عطفاً على (عذاب السعير) أي : واعتدنا للذين كفروا عذاب جهنم (إذا ألقوا فيها) أي : طرحوا كما يطرح الخطب في النار العظيمة ويرمى به ، ومثله حصب جهنم (سمعوا لها) أي لجهنم شهيقاً أي : صوتاً منكراً كصوت الحمار تصوت مثل ذلك لشدة توقدها وعليانها ، ويحتمل أن يكون على حذف مضاف ، أي : سمعوا لأهلها كما قال تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ [هود ١٠٦] وهي تفور وتغلي بهم غلي المرجل ، (تكاد تميز) أي : ينفصل بعضاً من بعض لشدة اضطرابها ، ويقال : فلان يتميز من الغيظ إذا وصفوه بالإفراط في الغضب ، وقرأ الجمهور (تميز) بتاء واحدة خفيفة والبيزي يشددها ، وطلحة بتائين ، وأبو عمرو بإدغام الدال في التاء ، والضحاك (تمايز) على وزن تفاعل وأصله « تمايز » بتائين ، وزيد بن علي ، وابن أبي عبله (تميز) من « من ماز » من الغيظ على الكفرة جعلت كالمعتاضة عليهم لشدة غليانها بهم ومثل هذا التجوز قول الشاعر :

فِي كَلْبٍ^(١) يَشْتَدُّ فِي جَرِيهِ يَكَادُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ إِهَابِهِ^(١)

وقولهم : غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء ، إذا أفرط في الغضب ، ويجوز أن يراد من غيظ الزبانية (كلما ألقى فيها فوج) أي فريق من الكفار (سألهم خزنتها) سؤال توبيخ وتقريع ، وهو ما يزيدهم عذاباً إلى عذابهم (خزنتها) مالك وأعوانه (ألم يأتكم نذير) يذكركم بهذا اليوم قالوا بلى اعتراف بمجيء النذر إليهم ، قال الزمخشري : اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأنه عز وعلا أزاح عنهم ببعثة الرسل وإنذارهم فيما وقعوا فيه وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة ، وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعده على ضده . انتهى . وهو على طريق المعتزلة والظاهر : أن قوله (إن أنتم إلا في ضلال كبير) من قول الكفار للرسل الذين جاؤوا نذراً إليهم ، أنكروا أولاً أن الله نزل شيئاً واستجهلوا ثانياً من أخبر بأنه تعالى أرسل إليهم الرسل ، وأن قائل ذلك في حيرة عظيمة ، ويجوز أن يكون من قول الخزنة للكفار أخباراً لهم وتقريعاً بما كانوا عليه في الدنيا أرادوا بالضلال الهلاك الذي هم فيه ، أو سموا عقاب الضلال ضلالاً لما كان ناشئاً عن الضلال ، وقال الزمخشري : أو من كلام الرسل لهم ، حكوه للخزنة ، أي : قالوا لنا هذا فلم نقبله . انتهى . فإن كان الخطاب في (إن أنتم) للرسل ، فقد يراد به الجنس ، ولذلك جاء الخطاب بالجمع وقالوا أي للخزنة حين حاوروهم لو كنا نسمع سماع طالب للحق أو نعقل عقل متأمل له لم نستوجب الخلود في النار (فاعترفوا بذنبهم) أي : بتكذيب الرسل (فسحقاً) أي : فبعداً لهم ، وهو دعاء عليهم ، والسحق : البعد ، وانتصابه على المصدر أي : سحقهم الله سحقاً قال الشاعر :

(١) البيت من الرجز شرح الفصل لابن يعيش (١٣٢/٧) .

يَجُولُ بِأَطْرَافِ الْبِلَادِ مُغْرِبًا وَتَسْحَقُهُ رِيحُ الصَّبَا كُلُّ مَسْحَقٍ^(١)

والفعل منه ثلاثي ، وقال الزجاج : أي : أسحقهم الله سحقاً ، أي باعدهم بُعداً ، وقال أبو علي الفارسي : القياس إسحاقاً فجاء المصدر على الحذف كما قيل :

وَإِنْ أَهْلَكَ فَذَلِكَ كَانَ قَدَرِي

أي تقديرني انتهى . ولا يحتاج إلى ادعاء الحذف في المصدر لأن فعله قد جاء ثلاثياً كما أنشد^(٢) :

وَتَسْحَقُهُ رِيحُ الصَّبَا كُلُّ مَسْحَقٍ^(٣)

وقرأ الجمهور يسكون الحاء ، وعلي ، وأبو جعفر ، والكسائي بخلاف عن أبي الحرث عنه بضمها ، قال ابن عطية (فسحقاً) نصباً على جهة الدعاء عليهم ، وجاز ذلك فيه وهو من قبل الله تعالى من حيث هذا القول فيهم مستقراً . أولاً ، ووجوده لم يقع إلا في الآخرة فكانه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى به ، كما تقول « سحقاً لزيد وبعداً » ، والنصب في هذا كله بإضمار فعل وإن وقع وثبت فالوجه فيه الرفع كما قال تعالى : ﴿ وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين ١] ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر ٧٣] وغير هذا من الأمثلة انتهى . (يخشون ربهم بالغيب) أي : الذي أخبروا به من أمر المعاد وأحواله ، أو غائبين عن أعين الناس أي في خلواتهم كقوله « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (وأسروا قولكم) خطاب لجميع الخلق قال ابن عباس : وسببه أن بعض المشركين قال لبعض أسروا قولكم لا يسمعكم إله محمد (ألا يعلم من خلق) الهمة للاستفهام ولا للنفي والظاهر : أن (مَنْ) مفعول ، والمعنى أيتنفي علمه بمن خلق ، وهو الذي لطف علمه ، ودق ، وأحاط بخفيات الأمور وجلياتها . وأجاز بعض النحاة أن يكون (مَنْ) فاعلاً والمفعول محذوف كأنه قال : ألا يعلم الخالق سركم وجهركم ، وهو استفهام معناه الإنكار أي كيف لا يعلم ما تكلم به من خلق الأشياء وأوجدها من عدم الصرف وحاله أنه اللطيف الخبير المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن ، (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً) منه منه تعالى بذلك ، والذلول : فاعول للمبالغة من ذلك ، نقول دابة ذلول بينة الذل ورجل ذليل بين الذل . وقال ابن عطية والذلول فاعول بمعنى مفعول أي مذلول ، فهي كركوب وحلوب . انتهى . وليس بمعنى مفعول ، لأن فعله قاصر وإنما تعدى بالهمز كقوله وتذل من تشاء وأما بالتضعيف لقوله وذللناها لهم وقوله أي مذلولة يظهر أنه خطأ ، (فامشوا في مناكبها) أمر بالتصرف فيها والاكتساب ومناكبها . قال ابن عباس ، وقتادة ، وبشر بن كعب : أطرافها وهي الجبال ، وقال الفراء ، والكلبي ، ومنذر بن سعيد : جوانبها ، ومنكب الرجل : جانباه وقال الحسن ، والسدي : طرفها وفجاجها ، قال الزمخشري : والمشي في مناكبها مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير وأنباء عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم ينزل انتهى . وقال الزجاج : سهل لكم السلوك في جبالها فهو أبلغ التذليل (وإليه النشور) أي البعث فيسألكم عن شكر هذه النعمة عليكم .

قوله عز وجل :

ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۚ ۝١٦ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ

(١) البيت من الطويل انظر القرطبي (١٨/١٣٩) وروح المعاني (٢٨/١٤) .

(٢) عجز بيت من الوافر المفضليات (١٢٢) .

(٣) تقدم .

حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ وَيَقِضْنَ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍ
وَقُتُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَنْ يَمْشِيَ مُكَبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشَى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ
وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً
سَيَّئَتْ وَجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ
أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مَنْ عَذَابُ الْعِلْمِ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

قرأ نافع ، وأبو عمرو ، والبزي (أأمتم) بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية ، وأدخل أبو عمرو ، وقالون بينها ألفاً .
وقنبل بإبدال الأولى وأوالضمة ما قبلها . وعنه ، وعن ورش أوجه غير هذه والكوفيون ، وابن عامر بتحقيقها (من في
السماء) هذا مجاز وقد قام البرهان العقلي على أنه تعالى ليس بمتحيز في جهة ، ومجازه : أن ملكوته في السماء ، لأن في السماء
هو صلة (من) ففيه الضمير الذي كان في العامل فيه ، وهو استقر أي : من في السماء هو أي ملكوته فهو على حذف
مضاف وملكوته في كل شيء ، لكن خص السماء بالذكر ، لأنها مسكن ملائكته ، وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ومنها
تنزل قضاياه وكتبه وأمره ونهيه أو جاء على هذا على طريق اعتقادهم إذ كانوا مشبهة فيكون المعنى (أأمتم من تزعمون أنه في
السماء وهو المتعالي عن المكان) وقيل (من) على حذف مضاف أي خالق من في السماء ، وقيل : من هم الملائكة ، وقيل :
جبريل وهو الملك الموكل بالخسف وغيره ، وقيل : (من) بمعنى « على » ويراد بالعلو القهر والقدرة ، لا بالمكان . وفي
التحريض الإجماع منعقد على أنه في السماء بمعنى الاستقرار ، لأن من قال من المشبهة والمجسمة أنه على العرش لا يقول بأنه في
السماء (أن يخسف بكم الأرض) وهو ذهابها سفلًا (فإذا هي تمور) أي تنهب أو تتموج ، كما يذهب التراب في الريح . وقد
تقدم شرح (الحاصب) في سورة الإسراء ، و « النذير » و « النكير » مصدران بمعنى الإنذار والإنكار ، وقال حسان بن
ثابت :

فَأَنْذِرْ مِثْلَهَا نُصْحًا قُرَيْشًا مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلْتَ نَذِيرًا^(١)

وأثبت ورش ياء « نذيري » و « نكيري » ، وحذفها باقي السبعة .

ولما حذرهم ما يمكن إحلاله بهم من الخسف ، وإرسال الحاصب ، نسبهم على الاعتبار بالطير ، وما أحكم من
خلقها ، وعن عجز آلهتهم عن شيء من ذلك ، وناسب ذلك الاعتبار بالطير إذا قد تقدم ذكر الحاصب ، وقد أهلك الله

أصحاب الفيل بالطير والخاصب الذي رمت به ، ففيه إذكرار قریش بهذه القصة وأنه تعالى لو شاء لأهلكهم بحاصب ترمي به الطير كما فعل بأصحاب الفيل (صافات) بأسطة أجنحتها صافتها ، حتى كأنها ساكنة (ويقبضن) ويضممن الأجنحة إلى جوانبهن ، وهاتان حالتان للطائر يستريح من إحداها إلى الأخرى . وعطف الفعل على الاسم لما كان في معناه ، ومثله قوله تعالى ﴿ فالملغيرات صباحاً فأثرن ﴾ [العاديات ٤٣] عطف الفعل على الاسم لما كان المعنى « فاللآتي أغرن صباحاً فأثرن » ومثل هذا العطف فصيح . وعكسه أيضاً جائز إلا عند السهيلي فإنه قبيح نحو قوله :

بَاتَ يُغَشِّيهَا بِعَضْبٍ بَاطِرٍ يَقْصِدُ فِي أَسْوِقِهَا وَجَائِرٍ^(١)

أي : قاصد في أسوقها وجائر ، وقال الزمخشري : (صافات) باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفاً ، و (يقبضن) ، ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن (فإن قلت :) لم قيل ويقبضن ولم يقل وقابضات ؟ (قلت :) أصل الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهم صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة ، كما يكون من السباح انتهى . وملخصه : أن الغالب هو البسط فكأنه هو الثابت فعبر عنه بالاسم والقبض متجدد فعبر عنه بالفعل (بما يمكنه إلا الرحمن) أي : بقدرته ، قال الزمخشري : وبما دبرهن من القوادم والخوافي ، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد يأتي منها الجري في الجو (إنه بكل شيء بصير) يعلم كيف يخلق ، وكيف يذكر العجائب . انتهى . وفيه نزوع إلى قول أهل الطبيعة ونحن نقول : إن أثقل الأشياء ، إذا أراد إمساكها في الهواء واستعلاءها إلى العرش كان ذلك ، وإذا أراد إنزال ما هو أخف سفلاً إلى منتهى ما ينزل كان وليس ذلك معذوقاً بشكل لا من ثقل ولا خفة ، وقرأ الجمهور (ما يمكنه) مخففاً . والزهرى مشدداً ، وقرأ الجمهور (أمّن) بإدغام ميم أم في ميم من إذا الأصل « أم من » ، وأم هنا بمعنى بل خاصة ، لأن الذي بعدها هو اسم استفهام في موضع رفع على الابتداء وهذا خبر ، والمعنى : من هو ناصركم إن ابتلاكم بعذابه ؟ وكذلك من هو رازقكم إن أمسك رزقه ؟ والمعنى لا أحد ينصركم ولا يرزقكم ، وقرأ طلحة (أمّن) بتخفيف الميم ونقلها إلى الثانية كالجماعة ، قال صاحب اللوامح : ومعناه أهذا الذي هو جند لكم ينصركم أم الذي يرزقكم ؟ فلفظه لفظ الاستفهام ، ومعناه التقرير والتوبيخ . انتهى . (بل لجوا) تمادوا (في عتوّ) في تكبر وعناد (ونفور) شراد عن الحق لثقله عليهم ، وقيل : هذه إشارة إلى أصنامهم (أفمن يمشي مكباً على وجهه) قال قتادة : نزلت مخبرة عن حال القيامة وأن الكفار يمشون فيها على وجوههم ، والمؤمنون يمشون على استقامة وقيل : للنبي ﷺ كيف يمشي الكافر على وجهه ؟ فقال : « إن الذين أمشاه في الدنيا على رجليه قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه » ، فالمشي على قول قتادة حقيقة ، وقيل : هو مجاز ضرب مثلاً للكافر والمؤمن في الدنيا ، فقيل عام وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك نزلت فيهما ، وقال ابن عباس أيضاً : نزلت في أبي جهل والرسول عليه الصلاة والسلام ، وقيل : في أبي جهل ، وحمة ، والمعنى أن الكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه كالماضي في انخفاض وارتفاع ، كالأعمى يتعثّر كل ساعة فيخر لوجهه ، وأما المؤمن فإنه لطمأنينة قلبه بالإيمان وكونه قد وضع له الحق كالمشي صحيح البصر مستوياً ينحرف على طريق واضح الاستقامة لا حزون فيها فآلة نظره صحيحة ومسلكه لا صعوبة فيه ، و (مكباً) حال من أكب ، وهو لا يتعدى ، وكب متعد قال تعالى (فكبت وجوههم في النار) والهمزة فيه للدخول في الشيء ، أو للصيرورة ، ومطالع كب انكب تقول كيبته فانكب ، وقال الزمخشري : ولا

(١) البيت من الرجز . الصبان (٣/ ١٢٠) اللسان (غني) والقرطبي (١٨/ ١٤٢) وروح المعاني (٢٨/ ٢٠) .

شيء من بناء افعل مطاوعاً ، ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه ، وهذا الرجل كثير التبجح بكتاب سيبويه ، وكم من نص في كتاب سيبويه عمى بصره وبصيرته حتى أن الإمام أبا الحجاج يوسف بن معروز صنف كتاباً يذكر فيه ما غلط فيه الزمخشري ، وما جهله من نصوص كتاب سيبويه . و (أهدى) أفعل تفضيل من الهدى في الظاهر ، وهو نظير « العسل أحلى أم الخل » وهذا الاستفهام لا تراد حقيقة ، بل المراد منه أن كل سامع يجب بأن « الماشي سويّاً على صراط » مستقيم أهدى « وانتصب (قليلاً) على أنه نعت لمصدر محذوف ، و (ما) زائدة و (تشكرون) مستأنف ، أو حال مقدرة ، أي تشكرون شكرياً قليلاً ، وقال ابن عطية : ظاهره أيهم يشكرون قليلاً ، وما عسى أن يكون للكافرين شكر وهو قليل غير نافع وأما أن يريد به نفي الشكر جملة فعبر بالقلة ، كما تقول العرب « هذه أرض قلّ ما تنبت كذا » وهي لا تنبت بالبتة . انتهى . وتقدم نظير قوله والرد عليه في ذلك (ذرأكم) بثكم و (الحشر) البعث و (الوعد) المشار إليه هو وعد يوم القيامة ، أي : متى إنجاز هذا الوعد ، (فلما رأوه زلفة) أي رأوا العذاب وهو الموعود به زلفة أي قرباً أي ذا قرب ، وقال الحسن : عياناً ، وقال ابن زيد : حاضراً وقيل التقدير مكاناً ذا زلفة ، فانتصب على الظرف (سيئته) أي : ساءت رؤيته وجوههم ، وظهر فيها السوء والكآبة ، وغشيتها السواد كمن يساق إلى القتل . وأخلص الجمهور كسرة السين . وأشملها الضم أبو جعفر ، والحسن ، وأبورجاء ، وشيبة ، وابن وثاب ، وطلحة ، وابن عامر ، ونافع ، والكسائي (وقيل لهم) أي : تقول لهم الزبانية ومن يوبخهم ، وقرأ الجمهور (تدعون) بشد الدال مفتوحة ، فقليل : من الدعوى ، قال الحسن : تدعون أنه لا جنة ولا نار ، وقيل : تطلبون وتستعجلون ، وهو من الدعاء ، ويقوي هذا القول قراءة أبي رجاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وابن يسار عبد الله بن مسلم ، وسلام ويعقوب (تدعون) بسكون الدال ، وهي قراءة ابن أبي عبة ، وأبي زيد ، وعصمة عن أبي بكر ، والأصمعي عن نافع ، روي أن الكفار كانوا يدعون على الرسول ﷺ وأصحابه بالهلاك ، وقيل : كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتل ونحوه ، فأمر أن يقول (إن أهلكني الله) كما تريدون (أرحمنا) بالنصر عليكم فمن يحميكم من العذاب الذي سببه كفركم ، ولما قال (أرحمنا) قال (هو الرحمن) ثم ذكر ما به النجاة وهو الإيمان والتفويض إلى الله تعالى ، وقرأ الجمهور (فستعلمون) بقاء الخطاب . والكسائي بياء الغيبة نظراً إلى قوله (فمن يحير الكافرين) ولما ذكر العذاب وهو مطلق ذكر فقد ما به حياة النفوس وهو الماء ، وهو عذاب مخصوص « والغور » مشروح في الكهف ، و (المعين) في (قد أفلح) وجواب (إن أهلكني) (فمن يحير) وجواب (إن أصبح) (فمن يأتيكم) وتليت هذه الآية عند بعض المستهزئين فقال : تحيى به الفؤوس والمعاول فذهب ماء عينيه .

سورة القلم مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

بِأَنزَالِ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَبْيَتِكَ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدْخِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيْمُنٌ عَلَيْنَا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الْيَوْمَ الْفَيْصَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا لَهُمْ أَتَاهُمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مَُّتَقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَعَلَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُزْلِفُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمُجَنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

المهين : قال الرماني : الوضع لإكثاره من القبائح ، من المهانة وهي القلة ، الهمز : أصله في اللغة : الضرب طعناً باليد أو بالعصا أو نحوها ، ثم استعير للذي ينال بلسانه . قال القاضي منذر بن سعيد وبعينه وإشارته ، النميم والنميمة مصدران لنم ، وهو نقل ما يسمع مما يسوء ويحشر النفوس وقيل : النميم جمع غيمة يريدون به اسم الجنس . العتل : قال الكلبي والفراء : الشديد الخصومة بالباطل ، وقال معمر : هو الفاحش اللئيم ، قال الشاعر :

بَعْتُ لِمِنْ الرِّجَالِ زَنِيمٍ غَيْرِ ذِي نَجْدَةٍ وَغَيْرِ كَرِيمٍ ^(١)

وقيل : الذي يعتل الناس أي : يجزهم إلى حبس أو عذاب ، ومنه ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ [الدخان ٤٨] ، قال ابن السكيت : عتلته وعتنته باللام والنون ، الزنيم : الدعي ، قال حسان :

زَنِيمٌ تَدَاعَاهُ الرِّجَالُ زِيَادَةً كَمَا زِيدَ فِي عَرَضِ الْأَدِيمِ الْأَكَارُغُ ^(٢)

وقال أيضاً :

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطُ خَلْفِ الرَّائِبِ الْقَدْحِ الْفَرْدُ ^(٣)

والزنيم : من الزنمة وهي الهبة من جلد الماعز تقطع فتخلى معلقة في حلقه ، سمي الدعي بذلك لأنه زيادة معلقة بغير أهله ، وسمه : جعل له سمة ، وهي العلامة تدل على شيء ، قال جرير :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسِمِي وَعَلَى الْبَيْتِ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ ^(٤)

الخرطوم الأنف ، والخرطوم من صفات الخمر ، قال الشاعر :

قَدْ أَشْهَدَ الشَّرْبَ فِيهِمْ مِزْهَرُ زَنِمٍ وَالْقَوْمُ تَصْرَعُهُمْ صَهْبَاءُ خَرْطُومٍ ^(٥)

قال الشمتري : الخرطوم : أول خروجها من الدن ، ويقال لها الأنف أيضاً ، وذلك أصفى لها وأرق ، وقال النضر بن شميل : الخرطوم : الخمر ، وأنشد للأعرج المعنى :

تَظَلُّ يَوْمَكَ فِي لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ وَأَنْتَ بِاللَّيْلِ شَرَابُ الْخَرَاطِيمِ ^(٦)

الصرام : جداد النخل ، الحرْدُ : المنع من قولهم حاردت الإبل : إذا قلت ألبانها ، وحاردت السنة قل مطرها وخيرها ، قاله أبو عبيد ، والقبتبي ، والحد : الغضب ، قال أبو نضر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي : وهو مخفف وأنشد :

(١) البيت من الطويل لم نهتد لقائله ذكره السمين في الدر المنصور .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (٢١٦) اللسان (زنم) القرطبي (١٥٣/١٨) روح المعاني (٣٣/٢٩) الكشف (٥٨٧/٤) .

(٣) تقدم .

(٤) البيت من الكامل انظر شرح ديوان جرير (٣٣٥) القرطبي (١٥٥/١٨) روح المعاني (٣٥/٢٩) قوله ميسمي تعبير مجازي أراد به قصائد الهجاء .

(٥) البيت من البسيط لعلمة بن عبدة انظر ديوانه (١١٣) المفضليات (٨١٢) انظر القرطبي (١٥٥/١٨) .

(٦) البيت من البسيط للأعرج . انظر القرطبي (١٥٥/١٨) روح المعاني (٢٦/٢٩) فتح القدير (٢٦٩/٥) .

إِذَا جِيَادُ الْخَيْلِ جَاءَتْ تَرْدِي مَمْلُوءَةً مِنْ غَضَبٍ وَحَرْدٍ^(١)

وقال الأشهب بن رميلة :

أُسُودُ شَرَى لَاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ تَسَاقَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءِ الْأَسَاوِدِ^(٢)

وقال ابن السكيت : وقد يحرك تقول : حرد بالكسر حرداً فهو حردان ، ومنه قيل : أسد حارد ، وليوث حوارد ، والحرد الانفراد حرد يحرد حروداً : تنحى عن قومه ونزل منفرداً ولم يخالطهم وكوكب حروود معتزل عن الكواكب ، وقال الأصمعي : المنحرد : المنفرد في لغة هذيل انتهى . والحرد : القصد حردَ يحرد بالكسر : قصد ومنه : حردت حردك أي قصدت قصدك ، ومنه قول الشاعر :

وَجَاءَ سَيْلٌ كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغْلَةِ^(٣)

﴿ بن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلی خلق عظيم ، فستبصر ويصرون ، بأيكم المفتون ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، فلا تطع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلافٍ مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخراطوم ، إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مبصحين ، أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلامون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل . انتهى . ومعظمها نزل في الوليد بن المغيرة وأبي جهل .

ومناسبتها لما قبلها : أنه فيما قبلها ذكر أشياء من أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة ، وعلمه الواسع ، وأنه تعالى لو شاء لخسف بهم ، أو لأرسل عليهم حاصباً ، وكان ما أخبر تعالى به هو ما تلقفه رسول الله ﷺ بالوحي ، وكان الكفار ينسبونه مرة إلى الشعر ، ومرة إلى السحر ، ومرة إلى الجنون . فبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون وتعظيم أجره على صبره على أذاهم وبالثناء على خلقه العظيم ، (ن) حرف من حروف المعجم نحو ص وق ، وهو غير معرب كبعض الحروف التي جاءت مع غيرها مهملة من العوامل والحكم على موضعها بالإعراب تحرّص ، وما يروى عن ابن عباس ومجاهد أنه اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع ، وعن ابن عباس أيضاً ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك : أنه اسم الدواة ، وعن معاوية بن قرة يرفعه : أنه لوح من نور ، وعن ابن عباس أيضاً : أنه آخر حرف من حروف الرحمن . وعن جعفر الصادق : أنه نهر من أنهار الجنة لعله لا يصح شيء من ذلك ، وقال أبو نصر عبد الرحيم القشيري في تفسيره : (ن) حرف من حروف المعجم ، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم ، فهو

(١) البيت من الرجز للأعرج انظر اللسان (حرد) . روح المعاني ٢٨/٢٩ فتح القدير (٢٧٢/٥) .

(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (حرد - خفا) . أمالي القالي (٢٩/١) فتح القدير (٢٧٢/٥) .

(٣) البيت من الرجز انظره في زيادات ديوان حسان (٥٢٢) الصحاح (حرد) وانظر القرطبي (١٥٨/١٨) روح المعاني (٣٨/٢٩) الكشف

إذن حرف هجاء كما في سار مفاتيح السور . انتهى . ومن قال إنه اسم الدواة أو الحوت ، وزعم أنه مقسم به كالقلم فإن كان علماً فينبغي أن يُجرَّ ، فإن كان مؤنثاً منع الصرف أو مذكراً صرف ، وإن كان جنساً أعرب ونوّن ، وليس فيه شيء من ذلك فضعف القول به ، وقال ابن عطية : إذا كان اسماً للدواة فإما أن يكون لغة لبعض العرب أو لفظة أعجمية عربت قال الشاعر :

إِذَا مَا الشُّوقُ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِمْ أَلَقْتُ النُّونَ بِالدَّمَعِ السَّجُومِ^(١)

فمن جعله البهموت جعل القلم هو الذي خلقه الله وأمره بكتب الكائنات ، وجعل الضمير في (يسطرون) للملائكة ، ومن قال هو اسم جعله القلم المتعارف بأيدي الناس . نص على ذلك ابن عباس وجعل الضمير في (يسطرون) للناس ، فجاء القسم على هذا المجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم وأمور الدنيا والآخرة ، فإن القلم أخو اللسان ونعمة من الله عامة . انتهى . وقرأ الجمهور (ن) بسكون النون وإدغامها في واو والقلم بغنة ، وقوم بغير غنة ، وأظهرها حمزة ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وقالون وحفص ، وقرأ ابن عباس ، وابن أبي إسحاق ، والحسن ، وأبو السمال بكسر النون ، لالتقاء الساكنين . وسعيد بن جبير ، وعيسى بخلاف عنه بفتحها فاحتمل أن تكون حركة إعراب ، وهو اسم للسورة أقسم به ، وحذف حرف الجر فانتصب ومع الصرف للعلمية والتأنيث ، ويكون (والقلم) معطوفاً عليه واحتمل أن يكون لالتقاء الساكنين ، وأوثر الفتح تخفيفاً كآين ، و (ما) يحتمل أن تكون موصولة ، ومصدرية ، والضمير في (يسطرون) عائد على الكتاب لدلالة القلم عليهم ، فإما أن يراد بهم الحفظة ، وإما أن يراد كل كاتب ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه فيكون الضمير في (يسطرون) لهم كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم أو تسيطرهم انتهى . فيكون كقوله (كظلمات في) في بحر لجي أي : وكذي ظلمات ولهذا عاد عليه الضمير في قوله ﴿ يغشاه موج ﴾ [النور ٤٠] وجواب القسم (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ويظهر أن (بنعمة ربك) قسم اعترض به بين المحكوم عليه والحكم على سبيل التوكيد والتشديد والمبالغة في انتفاء الوصف الذميمة عنه ﷺ ، وقال ابن عطية : (بنعمة ربك) اعترض ، كما تقول للإنسان أنت بحمد الله فاضل انتهى ، ولم يبين ما يتعلق به الباء في (بنعمة) ، وقال الزمخشري : يتعلق (بمجنون) منفيّاً ، كما يتعلق بعقل مثبتاً في قولك « أنت بنعمة الله عاقل » مستوياً في ذلك النفي والإثبات استواءهما في قولك « ضرب زيد عمراً » و « ما ضرب زيد عمراً » تعمل الفعل مثبتاً ومنفيّاً إعمالاً واحداً ، ومحلّه النصب على الحال كأنه قال : ما أنت بمجنون متعمداً عليك بذلك ، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي ، والمعنى استبعاد ما كان ينسب إليه كفار مكة عداوة وحسداً ، وأنه من إنعام الله تعالى عليه بحصافة العقل والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة . انتهى . وما ذهب إليه الزمخشري من أن (بنعمة ربك) متعلق (بمجنون) وأنه في موضع الحال يحتاج إلى تأمل ، وذلك : أنه إذا تسلط النفي على محكوم به وذلك له معمول ، ففي ذلك طريقان : أحدهما أن النفي يتسلط على ذلك المعمول فقط ، والآخر أن يتسلط النفي على المحكوم به فينتفي معموله لانتفائه بيان ذلك تقول « ما زيد قائم مسرعاً » فالتبادر إلى الذهن أنه منتفئ إسرعه دون قيامه فيكون قد قام غير مسرع ، والوجه الآخر : أنه انتفى قيامه فانتهى إسرعه ، أي لا قيام فلا إسرع . وهذا الذي قررناه لا يتأتى معه قول الزمخشري بوجه بل يؤدي إلى ما لا يجوز أن ينطق به في حق المعصوم ﷺ ، وقيل : معناه ما أنت بمجنون والنعمة بربك لقولهم سبحانه اللهم وبحمدك أي والحمد لله ، ومنه قول لبيد :

وَأَفْرَدْتُ فِي الدُّنْيَا بِفَقْدِ عَشِيرَتِي وَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدٍ نَافِعٌ^(١)

أي وهو أريد انتهى . وهذا تفسير معنى ، لا تفسير إعراب وفي المنتخب ما ملخصه : المعنى : انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، أي حصول الصفة المحموده ، وزال عنك الصفة المذمومة بواسطة إنعام ربك ، ثم قرر بهذه الدعوى ما هو كالدليل القاطع على صحتها لأن نعمه كانت ظاهرة في حقه من : كمال الفصاحة ، والعقل ، والسيره المرضية ، والبراءة من كل عيب ، والاتصاف بكل مكرمة ، فحصول ذلك وظهوره جار مجرى اليقين في كونهم كاذبين في قولهم إنه مجنون ، (وإن لك لأجراً) في احتمال طعنهم ، وفي دعاء الخلق إلى الله ، فلا يمنحك ما قالوا عن الدعاء إلى الله ، (وإنك لعلی خلق عظيم) هذا كالتفسير لما تقدم من قوله (بنعمة ربك) وتعريف لمن رماه بالجنون أنه كذب وأخطأ ، وأن من كان بتلك الأخلاق المرضية لا يضاف الجنون إليه ، ولفظه يدل على الاستعلاء والاستيلاء . انتهى . (وإن لك لأجراً) أي : على ما تحملت من أثقال النبوة ومن أذاهم مما ينسبون إليك مما أنت لا تلتبس به من المعائب (غير ممنون) أي : غير مقطوع ، ومننت الحبل : قطعته ، وقال الشاعر :

عَبَسَ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا

أي لا يقطع ، وقال مجاهد : غير محسوب ، وقال الحسن غير مكدر بالمن ، وقال الضحاك : بغير عمل ، وقيل : غير مقدر وهو معنى قول مجاهد ، وقال الزمخشري : أو غير ممنون عليك ، لأنه ثواب تستوجهه على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ، وإنما تمن الفواضل لا الأجور على الأعمال ، انتهى وفيه دسيصة الاعتزال (وإنك لعلی خلق عظيم) قال ابن عباس ومجاهد دين عظيم ليس دين أحب إلى الله تعالى منه ، وقالت عائشة : إن خلقه كان القرآن ، وقال علي : هو أدب القرآن ، وقال قتادة : ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى ، وقيل : سمي عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه من كرم السجية ، ونزاهة القرينة ، والملكة الجميلة ، وجودة الضرائب ما دعاه أحد إلا قال « لبيك » ، وقال إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق » ، ووصى أبا ذر فقال « وخالق الناس بخلق حسن » ، وعنه ﷺ « ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من خلق حسن » ، وقال « أحبكم إلى الله تعالى أحسنكم أخلاقاً » ، والظاهر تعلق (بأيكم المفتون) بما قبله ، وقال عثمان المازني : تم الكلام في قوله (ويبصرون) ثم استأنف قوله (بأيكم المفتون) انتهى فيكون قوله (بأيكم المفتون) استفهاماً يراد به التردد بين أمرين ، ومعلوم نفى الحكم عن أحدهما ، ويعينه الوجود وهو المؤمن ليس بمفتون ، ولا به فتون ، وإذا كان متعلقاً بما قبله وهو قول الجمهور فقال قتادة ، وأبو عبيدة معمر : الباء زائدة ، والمعنى : أيكم المفتون ، وزيدت الباء في المبتدأ كما زيدت فيه في قوله « بحسبك درهم » أي حسبك ، وقال الحسن ، والضحاك ، والأخفش : الباء ليست بزائدة ، « والمفتون » بمعنى الفتنة أي : بأيكم هي الفتنة ، والفساد الذي سموه جنوناً ، وقال الأخفش : أيضاً بأيكم فتن المفتون ، حذف المضاف وأقام المضاف إله مقامه ، ففي قوله الأول جعل المفتون مصدراً ، وهنا أبقاه اسم مفعول ، وتأوله على حذف مضاف ، وقال مجاهد ، والفراء : الباء بمعنى « في » ، أي : في أي فريق منكم النوع المفتون انتهى . فالباء ظرفية نحو « زيد بالبصرة » ، أي في البصرة ، فيظهر من هذا القول أن الباء في القول قبله ليست ظرفية بل هي سببية ، وقال الزمخشري : المفتون المجنون ، لأنه فتن أي محن بالجنون ، أو لأن العرب يزعمون أنه من تخيل الجن وهم الفتان للفتاك منهم . انتهى . وقرأ ابن أبي عبيدة (في أيكم المفتون) ، (إن ربك هو أعلم) وعيد للضال ، وهم المجانين على الحقيقة ، حيث كانت لهم عقول لم ينتفعوا بها ولا استعملوها فيما جاءت به الرسل ، وأو يكون (أعلم) كناية عن جزاء الفريقين (فلا تطع المكذبين) أي الذين كذبوا بما أنزل الله عليك من الوحي ، وهذا نهي عن طواعيتهم في شيء مما دعوه إليه من تعظيم آلهتهم ، (ودوا لو تدهن) (لو) هنا على رأي البصريين مصدرية ، بمعنى « أن » أي : ودوا إدهانكم ،

وتقدم الكلام في ذلك في قوله تعالى : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة ٩٦] ومذهب الجمهور : أن معمول « ود » محذوف أي « ودوا إدهانكم » وحذف للدلالة ما بعده عليه ، و (لو) باقية على بابها من كونها حرفاً لما كان سيقع لوقوع غيره ، وجوابها . محذوف تقديره « لسروا بذلك » ، وقال ابن عباس ، والضحاك ، وعطية ، والسدي ، (لو تدهن) لو تكفر فيتأدون على كفرهم . وعن ابن عباس أيضاً : لو ترخص لهم فيرخصون لك ، وقال قتادة لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك ، وقال الحسن : لو تصانعونهم في دينك ، فيصانعونك في دينهم وقال زيد بن أسلم : لو تنافق وترائي فينافقونك ويروؤونك ، وقال الربيع بن أنس : لو تكذب فيكذبون ، وقال أبو جعفر : لو تضعف فيضعفون ، وقال الكلبي ، والفراء : لو تلين فيلينون وقال ابان بن تغلب : لو تحاي فيحابون . وقالوا غير هذه الأقوال ، وقال الفراء : الدهان التلين وقال المفضل : النفاق ، وترك المناصحة وهذا نقل أهل اللغة ، وما قالوه لا يخرج عن ذلك ، لأن ما خالف ذلك هو تفسير باللازم و (فيدهنون) عطف على (تدهن) ، وقال الزمخشري : عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أي : فهم يدهنون كقوله : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف ﴾ [الجن ١٣] بمعنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون حيثئذ ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك . انتهى . وجمهور المصاحف على إثبات النون ، وقال هارون : إنه في بعض المصاحف فيدهنوا ، ولنصبه وجهان : أحدهما : إنه جواب (ودوا) لتضمنه معنى ليت ، والثاني أنه على توهم أنه نطق بأن أي : ودوا أن تدهن فيدهنوا فيكون عطفاً على التوهم ، ولا يجيء هذا الوجه إلا على قول من جعل « لو » مصدرية بمعنى « أن » ولا تطع كل حلاف مهين » تقدم تفسير « مهين » وما بعده في المفردات . وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ، ونوسب فيها فجاء (حلاف) وبعده (مهين) لأن النون فيها مع الميم تواخ ، ثم جاء (هماز مشاء بنميم) بصفتي المبالغة ، ثم جاء (مناع للخير معتد أثيم) فمناع ، وأثيم صفتا مبالغة . والظاهر أن « الخير » هنا يراد به العموم فيما يطلق عليه خير ، وقيل : « الخير » هنا المال ، يريد : مناع للمال ، عبر به عن الشح ، معناه : متجاوز الحد في الظلم ، وفي حديث شداد بن أوس ، قلت : يعني لرسول الله ﷺ : وما العتل الزنيم ؟ قال الرحيب الجوف ، الوتر الخلق ، الأكل ، الشروب ، الغشوم ، الظلوم ، وقرأ الحسن (عتل) برفع اللام والجمهور بجرها بعد ذلك ، وقال الزمخشري : جعل جفاء ودعوته أشد معاييه ، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ « لا يدخل الجنة ولد الزنا ، ولا ولده ، ولا ولد ولده » وبعد ذلك نظير ثم في قوله (ثم كان من الذين آمنوا) ، وقرأ الحسن (عتل) رفعاً على الدم ، وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك انتهى . وقال ابن عطية : بعد ذلك أي بعد أن وصفناه به ، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف ، لا في حصول تلك الصفات في الموصوف ، وإلا فكونه عتلاً هو قبل كونه صاحب خير يمنعه . انتهى . و « الزنيم » الملقق في القوم وليس منهم . قاله ابن عباس وغيره ، وقيل : « الزنيم » : المريب ، القبيح الأفعال ، وعن ابن عباس أيضاً : « الزنيم » الذي له زئمة في عنقه كزئمة الشاة ، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرفناه بزئمته انتهى . وروي أن الأخنس بن شريق كان بهذه الصفة كان له زئمة ، وروي ابن جبير عن ابن عباس : أن « الزنيم » هو الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بالزئمة ، وعنه أيضاً : أنه المعروف بالابنة ، وعنه أيضاً : أنه الظلوم ، وعن عكرمة : هو اللئيم ، وعن مجاهد ، وعكرمة ، وابن المسيب : إنه ولد الزنا الملحق في النسب بالقوم ، وكان الوليد دعياً في قريش ليس من منهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده ، وقال مجاهد : كانت له ستة أصابع في يده في كل إبهام أصبع زائدة ، والذي يظهر أن هذه الأوصاف ليست لمعين ، ألا ترى إلى قوله (كل حلاف) وقوله (إنا بلوناهم) فإنما وقع النهي عن طوعية من هو بهذه الصفات ، قال ابن عطية ما ملخصه : قرأ النحويان ، والحرميان ، وحفص ، وأهل المدينة (أن كان) على الخبر . وباقي السبعة والحسن وابن أبي إسحق وأبو جعفر على الاستفهام . وحقق الهمزتين حمزة . وسهل الثانية باقيهم . فأما على الخبر : فقال أبو علي

الفارسي : يجوز أن يعمل فيها (عتل) وإن كان قد وصف انتهى . وهذا قول كوفي ولا يجوز ذلك عند البصريين ، وقيل (زنيم) لا سيما على قول من فسره بالقيح الأفعال ، وقال الزمخشري : متعلق بقوله (ولا تطع) يعني : ولا تطعه مع هذه المثالب لأن كان ذا مال أي ليساره وحظه من الدنيا ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى لكونه متمولاً مستظهاً بالبنيين كذب آياتنا ، ولا يعمل فيه (قال) الذي هو جواب (إذا) لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب . انتهى . وأما على الاستفهام فيحتمل أن يفسر عامل يدل عليه ما قبله ، أي : أياكون طواعية لأن كان ، وقدره الزمخشري : أطيعه لأن كان أو عامل يدل عليه ما قبله أي أكذب أو جحد لأن كان ، وقرأ نافع في رواية الزبيدي عنه (أن كان) بكسر الهمزة ، قال الزمخشري : والشرط للمخاطب ، أي : لا تطع كل حلاف شارطاً يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط في الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الرجاء إليه قوله : ﴿ لعله يذكر ﴾ [طه ٤٤] انتهى . وأقول (إن كان) شرط (وإذا تتلى) شرط فهو مما اجتمع فيه شرطان ، وليس من الشروط المترتبة الوقوع فالمتأخر لفظاً هو المتقدم ، والمتقدم لفظاً هو شرط في الثاني كقوله :

(١) فَإِنْ عَثَرْتَ بَعْدَهَا إِنْ وَالْتَ نَفْسِي مِنْ هَاءٍ تَاءٍ فَقُولَا لَهَا

لأن الحامل على ترك تدبر آيات الله ، كونه ذا مال وبنين ، فهو مشغول القلب فذلك غافل عن النظر والفكر ، قد استولت عليه الدنيا وأبطرت ، وقرأ الحسن (أئذا) على الاستفهام وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله القرآن أساطير الأولين لما تليت عليه آيات الله ، ولما ذكر قبائح أفعاله وأقواله ذكر ما يفعل به على سبيل التوعيد فقال (سنسمه على الخرطوم) والسمة : العلامة . ولما كان الوجه أشرف ما في الإنسان ، والأنف أكرم ما في الوجه لتقدمه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة وقالوا : حمي الأنف ، شامخ العرين ، وقالوا في الدليل : جدع أنفه ورغم أنفه وكان أيضاً مما تظهر السمات فيه لعلوه ، قال : سنسمه على الخرطوم وهو غاية الإذلال والإهانة والاستبداد ، إذ صار كالبهمية لا يملك الدفع عن وسمه في الأنف ، وإذا كان الوسم في الوجه شيئاً فكيف به على أكرم عضو فيه؟ وقد قيل : الجبال في الأنف ، وقال بعض الأدباء :

وَحُسْنُ الْفَتَى فِي الْأَنْفِ وَالْأَنْفُ عَاطِلٌ فَكَيْفَ إِذَا مَا الْخَالُ كَانَ لَهُ حَلِيَا

و (سنسمه) فعل مستقبل لم يتعين زمانه ، وقال ابن عباس : هو الضرب بالسيف ، أي يضرب به وجهه وعلى أنفه فيجيء ذلك كالوسم على الأنف وحل به ذلك يوم بدر ، وقال المبرد : ذلك في عذاب الآخرة في جهنم وهو تعذيب بنار على أنوفهم ، وقال آخرون : ذلك يوم القيامة أي نوسم على أنفه بسمة يعرف بها كفره وانحطاط قدره ، وقال قتادة وغيره : معناه سنفعل به في الدنيا من الذم والمقت والاشتهار بالشر ما يبقى فيه ولا يخفى به فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتاً بيناً ، كما تقول : « سأطوقك طوق الحمامة » أي أثبت لك الأمر بيناً فيك ، ونحو هذا أراد جرير بقوله :

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مِيسِمِي^(١)

وفي الوسم على الأنف تشويه فجاءت استعارته في المذمات بليغة جداً ، قال ابن عطية : وإذا تأملت حال أبي جهل ونظرائه ، وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأخروية : رأيت أنهم قد وسموا على الخراطيم . انتهى . وقال أبو العالية ، ومقاتل ، واختاره الفراء : يسود وجهه قبل دخول النار . وذكر (الخرطوم) والمراد الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدي عن

بعض ، وقال أبو عبد الله الرازي : إنما بالغ الكافر في عداوة الرسول ﷺ بسبب الأنفة والحمية فلما كان شاهد الإنكار هو الأنفة والحمية ، وعبر عن هذا الاختصاص بقوله (سنسمه على الخرطوم) انتهى . كلامه وفي استعارة الخرطوم مكان الأنف استهانة واستخفاف لأن حقيقة الخرطوم هو للسياح وتلخص من هذا أن قوله (سنسمه على الخرطوم) أهو حقيقة أم مجاز ، وإذا كان حقيقة ، فهل ذلك في الدنيا أو في الآخرة ؟ وأبعد النضرين شميل في تفسيره الخرطوم بالخمير ، وأن معناه : سنحده على شربها .

ولما ذكر المتصف بتلك الأوصاف الذميمة وهم كفار قريش أخبر تعالى بما حل بهم من الابتلاء بالقحط والجوع بدعوة رسول الله ﷺ « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » الحديث (كما بلونا أصحاب الجنة) المعروف خبرها عندهم ، كانت بأرض اليمن بالقرب منهم قريباً من صنعاء لرجل كان يؤدي حق الله منها فمات ، فصارت إلى ولده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحق الله تعالى ، فأهلكها الله تعالى من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بهم ، وقيل : كانت بصوران على فراسخ من صنعاء لناس بعد رفع عيسى عليه السلام وكان صاحبها ينزل للمساكين ما أخطاه المنجل ، وما في أسفل الأكراس ، وما أخطاه القطاف من العنب ، وما بقي على السباط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شيء كثير فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، ونحن أولو عيال فحلفوا (ليصرمنها مصبحين) في السدف خفية من المساكين ولم يستثنوا في يمينهم ، والكاف في (كما بلونا) في موضع نصب و « ما » مصدرية ، وقيل : بمعنى الذي ، وإذ معمول لبلونا هم (ليصرمنها) جواب القسم ، لا على منطوقهم إذ لو كان على منطوقهم لكان « لنصرمنها » بنون المتكلمين ، والمعنى ليجدن ثمرها إذا دخلوا في الصباح قبل خروج المساكين إلى عاداتهم مع أبيهم ، (ولا يستثنون) أي لا ينثنون مما عزموا عليه من منع المساكين ، وقال مجاهد : معناه لا يقولون إن شاء الله ، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره ، وقال الزمخشري متبعاً قول مجاهد : ولا يقولون إن شاء الله (فإن قلت :) لم سمي استثناءً وإنما هو شرط ؟ (قلت :) لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث إن معنى قولك « لأخرجن إن شاء الله » و « لا أخرج إلا أن يشاء الله » واحد . انتهى . (فطاف عليها طائف) قرأ النخعي (طَئِف) ، قال الفراء : و « الطائف » الأمر الذي يأتي بالليل ، ورد عليه بقوله : ﴿ إذا مسهم طائف من الشيطان ﴾ [الأعراف ٢٠١] فلم يتخصص بالليل ، و (طائف) مبهم ، فقيل : هو جبريل عليه السلام ، اقتلعها ، وطاف بها حول البيت ، ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم ، ولذلك سميت بالطائف . وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الماء والشجر والأعناب غيرها ، وقال ابن عباس : (طائف) من أمر ربك ، وقال قتادة : عذاب من ربك ، وقال ابن جرير : عنق خرج من وادي جهنم (فأصبحت كالصريم) . قال ابن عباس : كالرماد الأسود ، و (الصريم) الرماد الأسود بلغة خزمية ، وعنه أيضاً (الصريم) رملة باليمن معروفة لا تنبت فشبها جنتهم بها ، وقال الحسن : صرم عنها الخير : أي قطع ، فالصريم : بمعنى مصروم . وقال الثوري : كالصبح من حيث ابيضت كالزعر المحصود ، وقال مؤرج : كالرملة انصرفت من معظم الرمل ، والرملة لا تنبت شيئاً ينفع ، وقال الأخفش : كالصبح انصرم من الليل ، وقال المبرد : كالنهار فلا شيء فيها ، وقال شمر : الصريم الليل ، والصريم النهار أي : ينصرم هذا عن ذلك ، وذلك عن هذا ، وقال الفراء ، والقاضي منذر بن سعيد ، وجماعة : الصريم : الليل من حيث اسودت جنتهم (فتنادوا) دعا بعضهم بعضاً إلى المضي إلى مياعدهم (أن اغدوا على حرثكم) قال الزمخشري : (فإن قلت :) هلا قيل اغدوا إلى حرثكم وما معنى (على) قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه كان غدواً عليه ، كما تقول غدا عليهم العدو ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح أي فأقبلوا على حرثكم باكرين انتهى واستسلف الزمخشري أن غدا يتعدى بإلى ويحتاج ذلك إلى نقل بحيث يكثر ذلك فيصير أصلاً فيه ، ويتأول ما خالفه والذي في حفطي أنه معدى بعلى كقول الشاعر :

بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدُوَّةً فَرَأَيْتُهُ قُعوداً عَلَيْهِ بِالصَّريِّمِ عَوَاذِلَهُ^(١)

(إن كنتم صارمين) الظاهر : أنه من صرام النخل ، قيل : ويحتمل أن يريد : إن كنتم أهل عزم وإقدام على أيكم ، من قولك « سيف صارم » . (يتخافتون) يخفون كلامهم خوفاً من أن يشعر بهم المساكين (أن لا يدخلنها) أي يتخافتون بهذا الكلام وهو لا يدخلنها ، (وأن) مصدرية ، ويجوز أن تكون تفسيرية . وقرأ عبد الله ، وابن أبي عبله (لا يدخلها) بإسقاط « أن » على إضمار يقولون ، أو على إجراء (يتخافتون) مجرى القول ، إذ معناه يسارون القول ، والنهي عن الدخول نهي عن التمكين منه ، أي لا تمكنوهم من الدخول فيدخلوا (وغدوا على حرد قادرين) أي : على قصد وقدوة في أنفسهم ، يطنون أنهم تمكنوا من مرادهم ، قال معناه ابن عباس ، أي : قاصدين إلى جنتهم بسرعة (قادرين) عند أنفسهم على صرامها . قال أبو أبو عبيدة والقتبي : (على حرد) على منع أي : قادرين في أنفسهم على منع المساكين من خيرها فجزاهم الله بأن منعهم خيراً ، وقال الحسن : (على حرد) أي : حاجة وفاقة ، وقال السدي ، وسفيان (على حرد) على غضب ، أي لم يقدرُوا إلا على حق وغضب بعضهم على بعض ، وقيل : (على حرد) على انفراد أي : انفراد دون المساكين ، وقال الأزهري (حرد) اسم قريتهم ، وقال السدي : اسم جنتهم أي : غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم ، أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام قيل : ويحتمل أن يكون من التقدير بمعنى التضييق لقوله تعالى (من قدر عليه رزقه) أي : مضيقين على المساكين إذ حرموهم ما كان أبوهم ينيلهم منها (فلما رأوها) أي : على الحالة التي كانوا غدوها عليها من هلاكها ، وذهب ما فيها من الخير (قالوا إنا لضالون) أي : عن الطريق إليها ، قاله قتادة ، وذلك في أول وصولهم أنكروا أنها هي ، واعتقدوا أنهم أخطأوا الطريق إليها ثم وضح لهم أنها هي وأنه أصابها من عذاب الله ما أذهب خيرها ، وقيل : لضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين فقالوا (بل نحن محرومون) خيرها بخيانتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أي أفضلهم وأرجحهم عقلاً (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أنبهم ووبخهم عى تركهم ما حضهم عليه من تسبيح الله أي ذكره وتنزيهه عن السوء ، ولو ذكروا الله وإحسانه إليهم لامثلوا ما أمر به من مواسة المساكين ، واقتفوا سنة أبيهم في ذلك فلما غفلوا عن ذكر الله تعالى ، وعزموا على منع المساكين ابتلاهم الله ، وهذا يدل على أن أوسطهم كان قد تقدم إليهم وحرصهم على ذكر الله تعالى ، وقال مجاهد ، وأبو صالح : كان استنأؤهم سبحانه الله ، قال النحاس : جعل مجاهد التسبيح موضع إن شاء الله ، لأن المعنى تنزيه الله أن يكون شيء إلا بمشيئته ، وقال الزمخشري : لالتقائهما في معنى التعظيم لله لأن الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه له وكل واحد من التفويض ، والتنزيه تعظيم له ، وقيل : (لولا تسبحون) تستغفرون .

ولما أنبهم رجعوا إلى ذكر الله تعالى واعترفوا على أنفسهم بالظلم وبادروا إلى تسبيح الله تعالى ف (قالوا سبحانه ربنا) ، قال ابن عباس : أي نستغفر الله من ذنبنا ، ولما أقرؤوا بظلمهم لام بعضهم بعضاً ، وجعل اللوم في حيز غيره إذ كان منهم من زين ، ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف ، ومنهم من عصى الأمر ، ومنهم من سكت على رضا منه ، ثم اعترفوا بأنهم طغوا وترجوا انتظار الفرج في أن يبدلهم خيراً من تلك الجنة (عسى ربنا أن يبدلنا) أي بهذه الجنة (خيراً منها) وتقدم الكلام في الكهف والخلاف في تخفيف (يبدلنا) وتثقلها منسوباً إلى القراء ، (إنا إلى ربنا راغبون) أي : طالبون بإبصال الخير إلينا منه . والظاهر أن أصحاب هذه الجنة كانوا مؤمنين أصابوا معصية وتابوا ، وقيل : كانوا من أهل الكتاب ، وقال عبد الله بن مسعود : بلغني أن القوم دعوا الله وأخلصوا ، وعلم الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة ، وكل عنقود منها كالرجل الأسود القائم ، وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها ، وقال القشيري : المعظم يقولون : إنهم تابوا

(١) البيت من الطويل لزهير بن أبي سلمى انظر ديوانه (٦٨) اللسان (حرم) المغني (٨٩٣) روح المعاني (٣٨/٢٩) .

وأخلصوا انتهى . وتوقف الحسن في كونهم مؤمنين وقال : أكان قولهم (إنا إلى الله راغبون) إيماناً أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة (كذلك العذاب) هذا خطاب للرسول ﷺ في أمر قريش ، قال ابن عطية : والإشارة بذلك إلى العذاب الذي نزل بالجنة ، أي : كذلك العذاب أي الذي نزل بقريش بغتة ثم عذاب الآخرة بعد ذلك أشد عليهم من عذاب الدنيا ، وقال كثير من المفسرين : العذاب النازل بقريش المائل لأمر الجنة هو الجذب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود . انتهى . وقال الزمخشري : مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا (ولعذاب الآخرة) أشد وأعظم منه انتهى وتشبيهه بلاء قريش ببلاء أصحاب الجنة هو أن أصحاب الجنة عزموا على الانتفاع بثمرها وحرمان المساكين فقلب الله تعالى عليهم وحرّمهم ، وأن قريشاً حين خرجوا إلى بدر حلفوا على قتل الرسول ﷺ وأصحابه ، فإذا فعلوا ذلك رجعوا إلى مكة ، وطافوا بالكعبة ، وشربوا الخمر فقلب الله عليهم بأن قتلوا وأسروا . ولما عذبهم بذلك في الدنيا قال (ولعذاب الآخرة أكبر) ، قوله عز وجل : ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون ، أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ، سلمهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ، فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملئ لهم إن كيدي متين ، أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ، وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ لما ذكر تعالى أنه بلا كفار قريش وشبهه بلاءهم ببلاء أصحاب الجنة أخبر بحال أضدادهم وهم المتقون ، فقال (إن للمتقين) أي الكفر (جنات النعيم) أضافها إلى النعيم ، لأن النعيم لا يفارقها إذ ليس فيها إلا هو فلا يشوبه كدر كما يشوب جنات الدنيا ، وروي : أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش إن كان ثم جنة فلنا فيها أكثر الحظ فنزلت (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) ، قال مقاتل : قالوا فضلنا الله عليكم في الدنيا ، فهو يفضلنا عليكم في الآخرة ، وإلا فالمشاركة . فأجاب تعالى (أفنجعل) أي لا يتساوى المطيع والعاصي ، هو استفهام فيه توقيف على خطأ ما قالوا وتوبيخ . ثم التفت إليهم فقال (ما لكم) أي : أي شيء لكم فيما تزعمون ، وهو استفهام إنكار عليهم ثم قال (كيف تحكمون) وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عليهم ، استفهام عن هيئة حكمهم ففي قولهم (ما لكم) استفهام عن كينونة مبهمة ، وفي (كيف تحكمون) استفهام عن هيئة حكمهم ، ثم أضرب عن هذا إضراب انتقال لشيء آخر لا يبطال لما قبله فقال (أم لكم) أي بل ألكم (كتاب) أي من عند الله (تدرسون) أن ما تختارونه يكون لكم وقرأ الجمهور (إن لكم) بكسر الهمزة فقل هو استئناف قول على معنى : إن لكم كتاب فلكم فيه متخير ، وقيل : أن معمولة لتدرسون ، أي تدرسون في الكتاب أن لكم لما تخيرون ، أي تختارون من النعيم . وكسرت الهمزة من (أن) لدخول اللام في الخبر وهي بمعنى أن بفتح الهمزة قاله الزمخشري وبدأ به وقال : ويجوز أن تكون حكاية للمدرس كما هو كقوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلاماً على نوح ﴾ [الصافات ٧٨ ، ٧٩] انتهى . وقرأ طلحة ، والضحاك (أن لكم) بفتح الهمزة ، واللام في (لما) زائدة كهي في قراءة من قرأ ﴿ إلا أنهم ليأكلون الطعام ﴾ [الفرقان ٢٠] بفتح همزة أهم ، وقرأ الأعرج (إن لكم) على الاستفهام ، (أم لكم أيمان) أي أقسام (علينا بالغة) أي متناهية في التوكيد يقال فلان عليّ يمين إذا حلفت له على الوفاء بما حلفت عليه (إلى يوم القيامة) متعلق بما تعلق به الخبر وهو (لكم) أي ثابتة لكم إلى يوم القيامة ، أو بالغة ، أي تبلغ إلى ذلك اليوم وتنتهي إليه : وقرأ الجمهور (بالغة) بالرفع على الصفة . والحسن ، وزيد بن علي بالنصب على الحال من الضمير المستكن

في (علينا) وقال ابن عطية : حال من نكرة لأنها مخصصة تغليباً ، (إن لكم لما تحكمون) جواب القسم لأن معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم قاله الزمخشري ، وقرأ الأعرج (إن لكم علي) كالتي قبلها على الاستفهام ، (سلهم أيهم بذلك زعيم) أي ضامن بما يقولونه ويدعون صحته ؟ و « سل » معلقة عن مطلوبها الثاني ، لما كان السؤال سبباً لحصول العلم جاز تعليقه كالعلم ومطلوبها الثاني أصله أن يعدى بعن أو بالباء ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام ﴾ [البقرة ٢١٧] ، وقال الشاعر :

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
عَلِيمٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ^(١)

ولو كان « غير » اسم استفهام لتعدى إليه بعن أو بالباء ، كما تقول « سل زيدا عن من ينظر في كذا » ولكنه علق (سلهم) فالجملة في موضع نصب ، وقرأ الجمهور (أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم) وعبد الله بن أبي عبله (فليأتوا بشركهم) قيل : والمراد في القراءتين الأصنام ، أو ناس يشاركونهم في قولهم ويوافقونهم فيه أي لا أحد يقول بقولهم كما أنه لا كتاب لهم ولا عهد من الله ولا زعيم بذلك (فليأتوا بشركائهم) هذا استدعاء وتوقيف ، قيل : في الدنيا أي ليحضرهم حتى ترى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا ، وقيل : في الآخرة على أن يأتوا بهم (يوم يكشف عن ساق) وعلى هذا القول الناصب لـ (يوم) (فليأتوا) ، وقيل : اذكر ، وقيل التقدير : يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت وحذف للتهويل العظيم بما يكون فيه من الحوادث والظاهر وقول الجمهور إن هذا اليوم هو يوم القيامة ، وقال أبو مسلم هذا اليوم هو في الدنيا لأنه قال (ويدعون إلى السجود) ويوم القيامة ليس فيه تعبد ولا تكليف ، بل المراد منه إما آخر أيام الرجل في دنياه لقوله : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ [الفرقان ٢٢] ثم يرى الناس يدعون إلى الصلاة إذا حضرت أوقاتها فلا يستطيع الصلاة ، لأنه الوقت الذي لا ينفع فيه نفساً إيمانها وإما حال المرض والهزم والمعجزة (وقد كانوا) قبل ذلك اليوم (يدعون إلى السجود وهم سالمون) مما بهم الآن فذلك ، إما لشدة النازلة بهم من هول ما عاينوا عند الموت ، وإما من العجز والهزم ، وأجيب بأن الدعاء إلى السجود ليس على سبيل التكليف ، بل على سبيل التقرير والتخجيل ، وعندما يدعون إلى السجود سلخوا القدرة عليه ، وحيل بينهم وبين الاستطاعة حتى يزداد حزنهم وندامتهم على ما فرطوا فيه حين دعوا إليه وهم سالمون الأطراف والمفاصل ، وقرأ الجمهور (يُكشِفُ) بالياء مبنياً للمفعول ، وقرأ عبد الله بن أبي عبله بفتح الياء مبنياً للفاعل ، وابن عباس وابن مسعود أيضاً ، وابن هرمز بالنون ، وابن عباس (يَكْشِفُ) بفتح الياء مبنياً للفاعل ، وعنه أيضاً بالياء مضمومة مبنياً للمفعول ، وقرئ (يُكْشِفُ) بالياء المضمومة وكسر الشين من أكشف ، إذا دخل في الكشف ، ومنه أكشف الرجل انقلبت شفته العليا ، وكشف الساق : كناية عن شدة الأمر وتفاقمه ، قال مجاهد : هي أول ساعة من يوم القيامة ، وهي أظفعتها وما جاء في الحديث من قوله فيكشف لهم عن ساق محمول أيضاً على الشدة في ذلك اليوم وهو مجاز شائع في لسان العرب ، قال حاتم :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضُّهَا وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا^(٢)

وقال الراجز :

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ إِشْفَاقِهَا وَمِنْ طِرَادِي الْخَيْلِ عَنْ أَرْزَاقِهَا

(١) البيت من الطويل لعلمة انظر ديوانه (١٣١) العيني (١٦/٣) الهمع (٢٢/٢) الدرر (١٤/٢) المفضليات (٣٩٢) القرطبي (١٨٢/١٨) .

(٢) تقدم .

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا حَمْرَاءَ تَبْرَى اللَّحْمَ عَنْ عُرَاقِهَا (١)

وقال الراجز :

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشُدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا (٢)

وقال آخر :

صَبْرًا أَمَامُ إِنْ شَرٌّ بَاقٍ وَقَامَتِ الْحَرْبُ بِنَا عَلَى سَاقٍ (٣)

وقال الشاعر :

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الْبَوَاحُ (٤)

ويروى الصراح ، وقال ابن عباس يوم يكشف : عن شدة ، وقال أبو عبيدة : هذه كلمة تستعمل في الشدة يقال : كشف عن ساقه إذا تشمر ، قال : ومن هذا تقول العرب لسنة الجذب كشفت ساقها ونكر ساق للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة خارج عن المألوف كقوله تعالى (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) فكأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ظاهره أنهم يدعون ، وتقدم أن ذلك على سبيل التوبيخ لا على سبيل التكليف ، وقيل : الداعي : ما يروونه من سجد المؤمنين فيريدون هم السجود فلا يستطيعونه ، كما ورد في الحديث الذي حاورهم فيه الله تعالى أنهم يقولون أنت ربنا ونحزون للسجود فيسجد كل مؤمن ، وتصير أصلاب المنافقين والكفار كصيافي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً . انتهى . ونفي الاستطاعة للسجود في الآخرة لا يدل على أن لهم استطاعة في الدنيا كما ذهب إليه الجبائي و (خاشعة) حال وذو الحال الضمير في (يدعون) وخص الأبصار بالخشوع وإن كانت الجوارح كلها خاشعة ، لأنه أبين فيه منه في كل جارية (ترهقهم) تغشاهم (ذلة) وقد كانوا يدعون إلى السجود) قيل : هو عبارة عن جميع الطاعات ، وخص بالذكر من حيث هو أعظم الطاعات ومن حيث امتحنوا به في الآخرة ، وقال النخعي ، والشعبي : أراد بالسجود الصلوات المكتوبة ، وقال ابن جبير : كانوا يسمعون النداء للصلوة ، وحي على الفلاح فلا يجيبون (فذري ومن يكذب بهذا الحديث) المعنى خل بيني وبينه فإنني سأجازيه ، وليس ثم مانع . وهذا وعيد شديد لمن يكذب بما جاء به الرسول ﷺ من أمر الآخرة وغيره ، وكان تعالى قدم أشياء من أحوال السعداء والأشقياء و (من) في موضع نصب ، إما عطفاً على الضمير في (ذري) ، وإما على أنه مفعول معه (سنستدرجهم) إلى قوله (متين) تكلم عليه في الأعراف ، (أم تسألهم أجراً) إلى (يكتبون) تكلم عليه في الطور ، روي أنه ﷺ أراد أن يدعو على الذين انهزموا بأحد حين اشتد بالمسلمين الأمر ، وقيل : حين أراد أن يدعو على ثقيف فتزلت (فاصبر لحكم ربك) وهو إمهالهم وتأخير نصرك عليهم ، وامض لما أمرت به من التبليغ واحتمال الأذى (ولا تكن كصاحب الحوت) هويونس عليه السلام (إذ نادى) أي في بطن الحوت وهو قوله : ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ﴾ [الأنبياء ٨٧] وليس النهي منصباً على الذوات ، إنما المعنى لا يكن حالك مثل حاله إذ نادى ، فالعامل في (إذ) هو المحذوف المضاف أي كحال أو كقصّة صاحب الحوت (إذ نادى) وهو مكظوم مملوء

(١) البيت من الرجز للعجاج انظر اللسان (عرق) روح المعاني (٤٢ / ٢٩) القرطبي (١٦٢ / ١٨) .

(٢) البيت من الرجز انظر الكامل (٢٢٤ / ١) .

(٣) البيت من البسيط لم نهند لقائله انظر فتح القدير (٢٧٥ / ٥) .

(٤) البيت من الكامل لسعد بن مالك انظر اللسان (سوق) ديوان الحماسة (١٩٧ / ١) وروي الصراح بدل (البواح) .

غيظاً على قومه إذ لم يؤمنوا لما دعاهم إلى الإيمان ، وأحوجوه إلى استعجال مفارقتهم إياهم ، وقال ذو الرمة :

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيِّ مُضْمِرٌ حُزْنًا عَاني الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُومٌ^(١)

وتقدمت مادة كظم في قوله ﴿ والكاذمين الغيظ ﴾ [آل عمران ١٣٤] ، وقرأ الجمهور (تداركه) ماضياً ولم تلحقه علامة التأنيث لتحسين الفصل ، وقرأ عبد الله ، وابن عباس (تداركته) بقاء التأنيث ، وابن هرمز ، والحسن والأعمش ، بشد الدال ، وقال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك . والأصل في ذلك تداركه ، لأنه مستقبل انتصب بأن الخفيفة قبله ، وقال بعض المتأخرين : هذا لا يجوز على حكاية الحال الماضية المتضمنة أي لولا ان كان يقال تداركه ، ومعناه لولا هذه الحال الموجودة كانت له من نعم الله (لنبد بالعراء) ونحوه قوله ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ [القصص ١٥] وجواب (لولا) قوله (لنبد بالعراء وهو مذموم) أي : لكنه نبذه وهو غير مذموم ، كما قال : ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ [الصافات ١٤٥] والمعتمد فيه على الحال لا على النبذ مطلقاً بل بقيد الحال ، وقيل : لنبد بعراء القيامة مذموماً ، ويدل عليه (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) الصافات ١٤٣ ، ١٤٤ ثم أخبر تعالى أنه اجتبه أي اصطفاه (وجعله من الصالحين) أي الأنبياء ، وعن ابن عباس رد الله إليه الوحي وشفعه في قومه ولما أمره تعالى بالصبر لما أَرَادَهُ تعالى ، ونهاه عن ما نهاه أخبره بشدة عداوتهم ليتلقى ذلك بالصبر لما أَرَادَهُ تعالى ونهاه عن ما نهاه أخبره فقال (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك) أي ليزلقون قومك بنظرهم الحاد الدال على العداوة المفرطة أو ليهلكونك من قولهم نظر إلي نظراً يكاد يصرعني ويكاد يأكلني أي لو أمكنه بنظره الصرع والأكل لفعله ، وقال الشاعر :

يَتَعَارِضُونَ إِذَا التَّقُوا فِي مَوْطِنٍ نَظَرًا يَزُلُّ مَوَاطِنَ الْأَقْدَامِ^(٢)

وقال الكلبي : (ليزلقونك) ليصرفونك ، وقرأ الجمهور (ليزلقونك) بضم الياء من أزلق ونافع بفتحها ، من زلقت الرجل عدّي بالفتحة من زلق الرجل بالكسر ، ونحو شرت عينه بالكسر وشرها الله بالفتح ، وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، والأعمش ، وعيسى (ليزهقونك) وقيل : معنى (ليزلقونك) بأبصارهم ليأخذونك بالعين ، وذكر أن اللفع بالعين كان في بني أسد ، قال ابن الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً ثم تسقط طائفة أو عدة منها ، قال الكفار لهذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ فأجابهم ، وأنشد :

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسُبُونَكَ سَيِّدًا وَإِخَالُ أَنْكَ سَيِّدٌ مَعْيُونٌ^(٣)

أي مصاب بالعين فعصم الله نبيه ﷺ وأنزل عليه هذه الآية ، قال قتادة : نزلت لدفع العين حين أرادوا أن يعينوه عليه الصلاة والسلام ، وقال الحسن : دواء من أصابته العين أن يقرأ هذه الآية . وقال القشيري : الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان لا مع الكراهة والبغض ، وقال (ويقولون إنه لمجنون) وقال القرطبي : ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة له حتى يهلك انتهى . وقد يكون في المعين وإن كان مبغضاً عند العائن صفة يستحسنها العائن فيعينه من تلك الصفة لا سيما من تكون فيه صفات كمال لما سمعوا الذكر من يقول (لما) ظرف يكون العامل فيه ليزلقونك وإن

(١) البيت من البسيط ليس في ديوان ذي الرمة انظر روح المعاني (٤٥/٢٩) فتح القدير (٢٧٧/٥) .

(٢) انظر البيت في الكشف (٥٩٧/٤) القرطبي (١٦٦/١٨) روح المعاني (٤٦/٢٩) .

(٣) البيت من الكامل للعباس بن مرداس انظر المقتضب (١٠٢/١) الخصائص (٢٦١/١) أمالي الشجري (١١٣/١) التصريح (٣٩٥/٢)

الأشموني (٣٢٥/٤) روح المعاني (٤٦/٢٩) القرطبي (١٦٦/١٨) .

كان حرف وجوب لوجوب وهو الصحيح كان الجواب محذوفاً لدلالة ما قبله عليه أي لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ،
(الذكر) القرآن (ويقولون إنه لمجنون) تنفيراً عنه وقد علموا أنه ﷺ أنهم فضلاً وأرجحهم عقلاً ، (وما هو) أي
القرآن (إلا ذكر) عظة وعبرة (للعالمين) أي للجن والإنس فكيف ينسبون إلى الجن من جاء به .

سورة الحاقة كية وهي اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَى ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
 بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ
 حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ
 وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي
 الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيِبَهَا أُذُنٌ وَعِيَةٌ ۝١٢ فَاذْنُفَخْ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ۝١٣ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
 فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا
 وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
 بِيَمِينِهِ ۝١٩ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِئَةٌ ۝٢٠ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةٍ ۝٢١ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٢٢ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ
 قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۝٢٥ فَيَقُولُ
 يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ ۝٢٦ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۝٢٧ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٨ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۝٢٩ هَلَّاكَ عَنِّي
 سُلْطَانِيَةَ ۝٣٠ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣٢ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٣ إِنَّهُمْ كَانَ لَا
 يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٤ وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝٣٥ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۝٣٦ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٧
 لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٨ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ۝٣٩ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ۝٤٠ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤١ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ
 شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ۝٤٢ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۝٤٣ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٤ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ
 الْأَقَاوِيلِ ۝٤٥ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٦ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٧ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝٤٨ وَإِنَّهُمْ لَتَذْكُرَةٌ
 لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥١ وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۝٥٢ فَسَبِّحْ بِاسْمِ
 رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝٥٣

الحسوم : قال الفراء : من حسم الداء أي تابع باللكوة عليه ، قال الشاعر :

فَفَرَّقَ بَيْنَ جَمْعِهِمْ زَمَانٌ تَتَابَعَ فِيهِ أَعْوَامُ حُسُومٍ^(١)

وقال المبرد : حسمت الشيء : فصلته عن غيره ومنه الحسام ، قال الشاعر :

فَأَرْسَلَتْ رِيحاً دُبُوراً عَقِيماً فَذَارَتْ عَلَيْهِمْ فَكَانَتْ حُسُوماً^(٢)

وقال الليث : الحسوم : الشؤم يقال : هذه ليالي الحسوم أي تحسم الخير عن أهلها وقاله في الصحاح . صرعى : هلكى ، الواحد : صريع وهي الشيء ضعف وتداعى للسقوط ، قال ابن شجرة من قولهم وهى السقاء إذا انخرق ، ومن أمثالهم قول الراجز :

خَلَّ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ وَمَنْ هُرِيقَ بِالْفَلَاةِ مَأْوُهُ^(٣)

الأرجاء : والجوانب، واحدها رجا ، أي : جانب من حائط أو بئر ونحوه ، وهو من ذوات الواو ، ولذلك برزت في التثنية ، قال الشاعر :

كَأَنَّ لَمْ تَرَ قَبْلِي أَسِيراً مُقَيِّداً وَلَا رَجُلاً يَرْمِي بِهِ الرَّجْوَانُ^(٤)

وقال الآخر :

فَلَا يَرْمِي بِهِ الرَّجْوَانُ إِنِّي أَقْلُ الْيَوْمَ مَنْ يُغْنِي مَكَانِي^(٥)

« هاء » بمعنى خذ فيها لغات ذكرناها في شرح التسهيل ، وقال الكسائي وابن السكيت : العرب تقول هاء يا رجل ، وللاتنين رجلين ، أو امرأتين : هاؤما ، وللرجال : هاؤم ، وللمرأة : هاء بهمة مكسورة من غيرياء ، وللنساء : هاؤن ، قيل : ومعنى (هاؤم) خذوا ، ومنه الخبر في الربا «إلا هاء وهاء» أي : يقول كل واحد لصاحبه خذ ، وقيل : تعالوا ، وزعم القتيبي أن الهمزة بدل من الكاف ، وهذا ضعيف إلا إن كان عني أنها تحل محلها في لغة من قال هاك وهاك وهاكها وهاكم وهاكن ، فيمكن أنه بدل صناعي لأن الكاف لا تبدل من الهمزة ولا الهمزة منها ، وقيل : (هاؤم) كلمة وضعت لإجابة الداعي عند الفرح والنشاط ، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام ناداه أعرابي بصوت عال فجابه عليه الصلاة والسلام « هاؤم » بصولة صوته ، وزعم قوم أنها مركبة في الأصل ، والأصل « هاء أموا » ثم نقله التخفيف والاستعمال ، وزعم قوم أن هذه الميم ضمير جماعة الذكور ، القطوف : جمع قطف وهو ما يجتنى من الثمر ويقطف ، السلسلة : معروفة ، وهي حلق يدخل في حلق على سبيل الطول ، الذراع مؤنث وهو معروف ، وقال الشاعر :

أَرْمِي عَلَيْهَا وَهِيَ فَرْعٌ أَجْمَعُ وَهِيَ ثَلَاثُ أَذْرُعٍ وَأَصْبُعُ^(٦)

(١) البيت من الوافر لعبد العزيز بن زرارة الكلابي انظر القرطبي (١٨/١٦٩) الكشف (٤/٥٩٩) .

(٢) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر فتح القدير (٥/٢٨٠) .

(٣) البيت من المتقارب لم نهتد لقائله انظر اللسان (وهى) القرطبي (١٨/١٧٢) روح المعاني (٢٩/٥٥) .

(٤) تقدم .

(٥) تقدم .

(٦) البيت من الرجز لم نهتد لقائله انظر اللسان (ذرع) .

حض على الشيء حمل على فعله بتوكيد ، الغسلين : قال اللغويون : ما يجري من الجراح إذا غسلت ، الوتين : عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه ، وقال الكلبي : عرق بين العلباء والحلقوم ، والعلباء : عصب العنق ، وهما علباوان بينهما العرق ، وقيل : عرق غليظ تصادفه شفرة الناحر ، ومنه قول الشياخ :

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عُرَابَةً فَاشْرُقِي بِدَمِ الْوَتِينِ^(١)

﴿ الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ، كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله المؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها ، انه لما ذكر شيئاً من أحوال السعداء والأشقياء ، وقال ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ [القلم ٤٤] ذكر حديث القيامة ، وما أعد الله تعالى لأهل السعادة ، وأهل الشقاوة وأدرج بينهما شيئاً من أحوال الذين كذبوا الرسل ، كعاد ، وثمود ، وفرعون ليزدجر بذكرهم ، وما جرى عليهم الكفار الذين عاصروا رسول الله ﷺ ، وكانت العرب عالمة بهلاك عاد وثمود وفرعون فقص عليهم ذلك ، (الحاقة) المراد بها القيامة والبعث ، قاله ابن عباس وغيره ، لأنها حقت لكل عامل عمله ، وقال ابن عباس وغيره : لأنها تبدي حقائق الأشياء ، وقيل : سميت بذلك لأن الأمر يحق فيها ، فهي من باب ليل نائم والحاقة اسم فاعل ، من حق الشيء : إذا ثبت ، ولم يشك في صحته وقال الأزهري : حاقته فحقته أحقه أي غالبته فغلبته ، فالقيامة حاقة ، لأنها تحقق كل محاق في دين الله بالباطل أي كل مخاصم ، فتغلبه ، وقيل (الحاقة) مصدر كالعاقبة والعافية ، و (الحاقة) مبتدأ و (ما) مبتدأ ثان ، (والحاقة) خبره والجملة خبر عن الحاقة والرباط تكرار المبتدأ بلفظه ، نحو « زيد ما زيد » (وما) استفهام لا يراد حقيقته بل التعظيم ، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ إذا أريد يعني التعظيم والتهويل (وما أدراك ما الحاقة) مبالغة في التهويل ، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة وتفصيل أوصافها (وما) استفهام أيضاً مبتدأ و (أدراك) الخبر ، والعائد على (ما) ضمير الرفع في (أدراك) (وما) مبتدأ ، و (الحاقة) خبر ، والجملة في موضع نصب بإدراك ، و (أدراك) معلقة ، وأصل درى أن يعدى بالباء ، وقد تحذف على قلة ، فإذا دخلت همزة النقل تعدى إلى واحد بنفسه ، وإلى الآخر بحرف الجر ، ف قوله (ما الحاقة) بعد (أدراك) في موضع نصب بعد أسقاط حرف الجر ، و (القارعة) من أسماء القيامة لأنها تفرع القلوب بصدمتها ، وقال الزمخشري : تفرع الناس بالأقراع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف والنجوم بالطمس والانكدار ، فوضع الضمير ليدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدتها .

ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم انتهى . وقرأ الجمهور (فأهلكوا) رباعياً مبنياً للمفعول ، وزيد بن علي (فهلكوا) مبنياً للفاعل ، قال قتادة (بالطاغية) بالصيغة التي خرجت عن حد كل صيغة ، وقال مجاهد ، وابن زيد : بسبب الفعلة الطاغية التي فعلوها ، وقال ابن عباس ، وابن زيد أيضاً ، وأبو عبيدة ما معناه الطاغية مصدر كالعاقبة ، فكأنه قال بطغيانهم ، ويدل عليه

﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ [الشمس ١١] ، وقيل (الطاغية) عاقر الناقة ، والهاء فيه للمبالغة كرجل راوية وأهلكوا كلهم لرضاهم بفعله ، وقيل : بسبب الفئة الطاغية ، واختار الطبري وغيره أن الطاغية هي الصيحة وترجيح ذلك مقابلة سبب الهلاك في ثمود بسبب الهلاك في عاد وهو قوله (بريح صرصر) وتقدم القول في (صرصر) في سورة القمر (عاتية) عنت على خُزَّانها فخرجت بغير مقدار ، أو على عاد فما قدرُوا على أن يستروا منها ، أو وصفت بذلك استعارة لشدة عصفها . والتسخير : هو استعمال الشيء باقتدار عليه فمعنى (سخرها عليهم) أي أقامها وأدامها (سبع ليال) بدت عليهم صبح الأربعاء لثمان بقين من شوال إلى آخر الأربعاء تمام الشهر (حسوماً) قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو عبيدة تباعاً ، فلم يتخللها انقطاع ، وقال الخليل : شَوْماً ونحساً ، وقال ابن زيد : (حسوماً) جمع حاسم أي تلك الأيام قطعتهم بالإهلاك ومنه حسم العلل والحسام ، وقال الزمخشري : وإن كان مصدرراً فإما أن ينتصب بفعل مضمّر أي تحسم حسوماً بمعنى تستأصل استئصالاً ، أو تكون صفة كقولك (ذات حسوم) ، تكون مفعولاً له أي سخرها عليهم للاستئصال ، وقرأ السدي (حَسُوماً) بالفتح حالاً من الريح أي : سخرها عليهم مستأصلة ، وقيل : هي أيام العجز وهي آخر الشتاء ، وأسماؤها : الصين ، والصنبر ، والوبر ، والأمر ، والمؤتمر ، والمعلل ، ومصفى الجمر ، وقيل : مكفي الطعن (فترى القوم فيها) أي في الليالي والأيام ، أو في ديارهم أو في مهاب الريح احتمالات أظهرها : الأول ، لأنه أقرب ، ومصرح به ، وقرأ أبو نبيك (أعجز) على وزن أَفْعَل كضَبْع وأَضْبَع ، وحكى الأخفش أنه قرىء (نخيل خاوية) خلت أعجازها بلى وفساداً ، وقال ابن شجرة : كانت تدخل من أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحسوم أديارهم ، فصاروا كالنخل الخاوية ، وقال يحيى بن سلام : خلت أبدانهم من أرواحهم ، وقال ابن جريج : كانوا في سبعة أيام في عذاب ، ثم في الثامن ماتوا وألقتهم الريح في البحر ، فذلك قوله (فهل ترى لهم من باقية) ، وقال ابن الأنباري : (من باقية) أي من باقي والهاء للمبالغة ، وقال أيضاً : من فئة باقية ، وقيل : (من باقية) من بقاء مصدر جاء على فاعلة كالعاقبة ، وقرأ أبو رجاء ، وطلحة ، والجدري ، والحسن بخلاف عنه ، وعاصم في رواية أبان والنحوان (ومن قبله) بكسر القاف وفتح الباء أي أجناده وأهل طاعته ، وتقول زيد قبلك أي : فيما يليك من المكان ، وكثر استعمال قبلك حتى صار بمنزلة عندك وفي جهتك وما يليك بأي وجه ولي ، وقرأ باقي السبعة ، وأبو جعفر ، وشيبة والسلمي (ومن قبله) ظرف زمان أي الأمم الكافرة التي كانت قبله ، وكثّر قوم نوح ، وقد أشار إلى شيء من حديثه بعد هذا (والمؤتفكات) قرى قوم لوط ، وقرأ الحسن هنا (والمؤتفكة) على الأفراد (بالخاطئة) أي بالفعل أو الفعلات الخاطئة قاله مجاهد : أو بالخطأ فيكون مصدرراً جاء على فاعلة كالعاقبة قاله الجرجاني (فعصوا رسول ربهم) (رسول) جنس وهو من جاءهم من عند الله تعالى كموسى ولوط عليهما السلام ، وقيل : لوط عليه السلام أعاده على أقرب مذكور وهو رسول المؤتفكات ، وقال الكلبي : موسى عليه السلام أعاده على الأسبق وهو رسول فرعون ، وقيل (رسول) بمعنى رسالة (رابية) أي نامية ، قال مجاهد : شديدة يريد أنها زادت على غيرها من الأخذات وهي الغرق وقلب المدائن ، (أنا لما طغى الماء) أي : زاد وعلا على أعلى جبل في الدنيا خمس عشر ذراعاً ، قال ابن جبير طغى على الخزان كما طغت الريح على خزانها (حملناكم) أي في أصلاب آبائكم (في الجارية) هي سفينة نوح عليه السلام ، وكثر استعمال الجارية في السفينة ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ [الشورى ٣٢] وقال الشاعر :

تَسْعُونَ جَارِيَةً فِي بَطْنِ جَارِيَةٍ^(١)

وقال المهدوي : المعنى في السفن الجارية يعني أن ذلك هو على سبيل الامتنان ، والمحمولون : هم المخاطبون

(١) شطربيت من البسيط ذكره السمين الحلبي في الدر المنثور .

(لنجعلها) أي سفينة نوح عليه السلام (لكم تذكرة) بما جرى لقومه الهالكين وقومه الناجين فيها وعظة ، قال قتادة أدركها أوائل هذه الأمة ، وقال ابن جريج : كانت ألواحها على الجودي ، وقيل : لنجعل تلك الجملة في سفينة نوح عليه السلام لكم موعظة تذكرون بها نجاة آبائكم ، وإغراق مكذبي نوح عليه السلام (وتعيها) أي تحفظ قصتها أذن من شأنها أن تعي المواعظ ، يقال : وعيت لما حفظ في النفس ، وأوعيت لما حفظ في غير النفس من الأوعية ، وقال قتادة : الواعية هي التي عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وفي الحديث أنه ﷺ قال لعلي « إني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذك لك يا علي » قال علي رضي الله تعالى عنه فما سمعت بعد ذلك شيئاً ، فنسيته وقرأها (وتعيها) بكسر العين وتخفيف الياء العامة ، وابن مصرف ، وأبو عمرو ، في رواية هارون ، وخارجة عنه ، وقيل بخلاف عنه بإسكانها ، وحزمة باخفاء الحركة . ووجه الإسكان التشبيه في الفعل بما كان على وزن فعل في الاسم والفعل نحو كبذ ، وعلم وتعي ليس على وزن فعل بل هو مضارع وعي ، فصار إلى فعل وأصله يفعل حذف واوه ، وروي عن عاصم عصمة ، وحزمة الأزرق (وتعيها) بتشديد الياء ، قيل : وهو خطأ ، وينبغي أن يتأول على أنه أريد به شدة بيان الياء احترازاً ممن سكنها لا إدغام حرف في حرف ، ولا ينبغي أن يجعل ذلك من باب التضعيف في الوقف ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك بعضهم ، وروي عن حمزة ، وعن موسى بن عبد الله العنسي (وتعيها) بإسكان الياء فاحتمل الاستثناف وهو الظاهر ، واحتمل أن يكون مثل قراءة (من أوسط ما تطعمون أهاليكم) بسكون الياء ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) لم قيل (أذن واعية) على التوحيد والتنكير (قلت :) للإيدان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت ، وعقلت عن الله تعالى فهي السواد الأعظم عند الله تعالى ، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملؤوا ما بين الخافقين انتهى . وفيه تكثير .

ولما ذكر تعالى تعالى ما فعل بمكذبي الرسل من العذاب في الدنيا ذكر أمر الآخرة ، وما يعرض فيها لأهل السعادة ، وأهل الشقاوة وبدأ بأعلام يوم القيامة فقال (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) وهذه النفخة نفخة الفزع ، قال ابن عباس : وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب العالم ، ويؤيد ذلك قوله (وحملت الأرض والجبال) وقال ابن المسيب ، ومقاتل : هي النفخة الآخرة ، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ ، والواو لا ترتب . وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً ، ولما كانت (مرة) أكدت بقوله (واحدة) ، وقرأ الجمهور (نفخة واحدة) برفعها ولم تلحق التاء نفخ لأن تأنيث النفخة مجازي ووقع الفصل ، وقال ابن عطية : لما نعت صبح رفعه . انتهى . ولولم ينعت لصح لأن نفخة مصدر محدود ونعته ليس بنعت تخصيص ، إنما هو نعت توكيد ، وقرأ أبو السمال بنصبها أقام الجار والمجرور مقام الفاعل ، وقرأ الجمهور (وحملت) بتخفيف الميم وابن أبي عبيدة ، وابن مقسم ، والأعمش ، وابن عامر في رواية يحى بتشديدها ، فالتخفيف على أن تكون الأرض والجبال حملتها الريح العاصف ، أو الملائكة ، أو القدرة من غير واسطة مخلوق ، ويبعد قول من قال إنها الزلزلة ، لأن الزلزلة ليس فيها حمل ، إنما هي اضطراب ، والتشديد على أن تكون للتكثير ، أو يكون التضعيف للنقل ، فجاز أن تكون الأرض والجبال المفعول الأول أقيم مقام الفاعل ، والثاني محذوف أي ريحاً تفتتها ، أو ملائكة ، أو قدرة وجاز أن يكون الثاني أقيم مقام الفاعل ، والأول محذوف وهو واحد من الثلاثة المقدرة . وثني الضمير في (فذكتا) وإن كان قد تقدم ما يعود عليه ضمير الجمع لأن المراد جملة الأرض ، وجملة الجبال أي : ضرب بعضها ببعض حتى تفتت وترجع كما قال تعالى : ﴿ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ [المزل ١٤] والدك فيه : تفرق الأجزاء لقوله هباء والدق فيه اختلاف الأجزاء ، وقيل تبسط فتصير أرضاً (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) وهو من قولهم بغير أدك ، وناقة دكاء إذا ضعفا فلم يرتفع سنامها واستوت عراجينها مع ظهرهما (فيومئذ) معطوف على (فإذا نفخ في الصور) وهو منصوب بوقعت كما أن (إذا) منصوب بنفخ على ما اخترناه وقرنناه ، واستدللنا له في أن العامل في إذا هو الفعل الذي يليها لا الجواب وإن كان مخالفاً

لقول الجمهور والتنوين في إذ للعرض من الجملة المحذوفة وهي في التقدير « فيوم إذ نفخ في الصور وجرى كيت وكيت » و (الواقعة) هي القيامة ، وقد تقدم في إذا وقعت الواقعة أن بعضهم قال : هي صخرة بيت المقدس ، (وانشقت السماء) أي : انفتحت وتميز بعضها من بعض (فهي) يوم إذ انشقت (واهية) ضعيفة لتشقها بعد أن كانت شديدة ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ [النازعات ٢٧] أو منخرقة كما يقال وهي السماء انخرق ، وقيل : انشقاقها لنزول الملائكة قال تعالى : ﴿ ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ [الفرقان ٢٥] وقيل : انشقاقها لهول يوم القيامة (والمملك على أرجائها) ، قال ابن عباس : على حافات حين تنشق ، والظاهر : أن الضمير في حافات عائد على السماء ، وقال ابن جبر ، والضحاك : على حافات الأرض ينزلون إليها يحفظون أطرافها وإن لم يجر لها ذكر قريب ، كما روي أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ، ثم ملائكة الثانية فيصفون حولهم ، ثم ملائكة كل سماء فكلما نذ أحد من الجن والإنس وجد الأرض أحيط بها (والمملك) اسم جنس يراد به الملائكة ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما الفرق بين قولك (والمملك) وبين أن يقال والملائكة (قلت :) الملك أعم من الملائكة ، ألا ترى أن قولك ما من ملك إلا وهو شاهد أعم من قولك ما من ملائكة . انتهى . ولا يظهر أن الملك أعم من الملائكة لأن المفرد المحلى بالألف واللام الجنسية قصاره أن يراد به الجمع المحلى بهما ، ولذلك صح الاستثناء منه فقصاراه أن يكون كالجمع المحلى بهما ، وأما دعواه أنه أعم منه بقوله ألا ترى إلخ فليس دليلاً على دعواه لأن (من ملك) نكرة مفردة في سياق النفي قد دخلت عليها من المخلصة للاستغراق فشملت كل ملك ، فاندرج تحتها الجمع لوجود المفرد فيه ، فانتفى كل فرد فرد بخلاف من ملائكة فإن (من) دخلت على جمع منكر ، فعم كل جمع من الملائكة ولا يلزم من ذلك انتفاء كل فرد فرد من الملائكة ، لو قلت « ما في الدار من رجال » جاز أن يكون فيها واحد ، لأن النفي إنما انسحب على جمع ، ولا يلزم من انتفاء الجمع أن ينتفي المفرد والمملك في الآية ليس في سياق نفي دخلت عليه من فيكون أعم من جمع ، دخلت عليه من ، وإنما جيء به مفرداً لأنه أخف ، ولأن قوله على أرجائها يدل على الجمع لأن الواحد بما هو واحد لا يمكن أن يكون على أرجائها في وقت واحد ، بل في أوقات ، والمراد والله تعالى أعلم : أن الملائكة على أرجائها لا أنه ملك واحد ينتقل على أرجائها في أوقات ، وقال الزمخشري : يعني أنها تنشق وهي مسكن الملائكة فينضوون إلى أطرافها وما حولها من حافات انتهى . والضمير في فوقهم عائد على الملك ضمير جمع على المعنى لأنه يراد به الجنس قال معناه الزمخشري ، وقيل يعود على الملائكة الحاملين ، أي فوق رؤوسهم ، وقيل : على العالم كلهم ، والظاهر : أن التمييز المحذوف في قوله (ثمانية) أملاك أي ثمانية أشخاص من الملائكة ، وعن الضحاك ثمانية صفوف ، وعن الحسن : الله أعلم كم هم أثنائية صفوف ؟ أم ثمانية أشخاص ؟ وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالا متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً (يومئذ) أي : يوم إذ كان ما ذكر (تعرضون) أي : للحساب و (تعرضون) هو جواب قوله (فإذا نفخ) فإن كانت النفخة هي الأولى فجاز ذلك لأنه اتسع في اليوم فجعل ظرفاً للنفخ ووقوع الواقعة ، وجميع الكائنات بعدها وإن كانت النفخة هي الثانية فلا يحتاج إلى اتساع ، لأن قوله (فيومئذ) معطوف على فإذا و (يومئذ تعرضون) بدل من فيومئذ وما بعد هذه الظروف واقع في يوم القيامة ، والخطاب في (تعرضون) لجميع العالم المحاسبين ، وعن عبد الله رأى موسى في القيامة عرضتان فيهما معاذير وتوقيف وخصومات ، وثالثة تتطير فيها الصحف للآيمان والشئال ، وقرأ الجمهور (لا تخفى) بناء التأنيث ، وعلي ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وحزمة ، والكسائي ، وابن مقسم عن عاصم ، وابن سعدان بالياء (خافية) سريرة وحال كانت تخفى في الدنيا ، قوله عز وجل ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابه ، إني ظننت أني ملاق حسابه ، فهو في عيشة راضية في جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابه ، ولم أدر ما حسابه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه

ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ها هنا حيم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ﴿١﴾ أما حرف تفصيل ، فصل بها ما وقع في يوم العرض ، ويظهر أن من قضي عليه دخول النار من الموحدين أنه في يوم العرض يأخذ كتابه بيمينه مع الناجين من النار ، ويكون ذلك بأنس به مدة العذاب ، وقيل لا يأخذه حتى يخرج من النار وإيمانه أنيسه مدة العذاب ، وقيل : وهذا يظهر لأن من يُسار به إلى النار كيف يقول (هاؤم اقرؤوا كتابيه) وهل هذا إلا استبشار وسرور فلا يناسب دخول النار ، و (هاؤم) إن كان مدلولها خذ فهي متسلطة على (كتابيه) بغير واسطة ، وإن كان مدلولها تعالوا فهي متعدية إليه بواسطة إلى . و (كتابيه) يطلبه (هاؤم) و (اقرؤوا) فالصريون يعملون (اقرؤوا) والكوفيون يعملون (هاؤم) وفي ذلك دليل على جواز التنازع بين اسم الفعل والقسم ، وقرأ الجمهور (كتابيه) و (حسابيه) في موضعيهما و (ماليه وسلطانيه) وفي القارعة (ماهيه) بإثبات هاء السكت وفقاً ووصلاً لمراعاة خط المصحف ، وقرأ ابن محيصن بحذفها وصلاً ووقفاً وإسكان الياء وذلك : كتابي ، وحسابي ، ومالي ، وسلطاني ، ولم ينقل ذلك فيما وقفت عليه في (ماهيه) في القارعة وابن أبي إسحاق ، والأعمش بطرح الهاء فيهما في الوصل لا في الوقف ، وطرحها حمزة في مالي ، وسلطاني ، وما هي في الوصل لا في الوقف ، وفتح الياء فيهن ، وما قاله الزهراوي من أن إثبات الهاء في الوصل لحن ، لا يجوز عند أحد علمته ليس كما قال ، بل ذلك منقول نقل التواتر فوجب قبوله (إني ظننت) أي : أيقنت ، ولو كان ظناً فيه تجويز لكان كفراً ، (فهو في عيشة راضية) ذات رضا ، وقال أبو عبيدة ، والفراء (راضية مرضية) كقوله (من ماء دافق) أي مدفوق ، (في جنة عالية) أي مكاناً وقدرأ ، (قطوفها) أي ما يجنى منها (دانية) أي قريبة التناول يدركها ، القائم ، والقاعد والمضطجع ، بفيه من شجرتها ، (كلوا واشربوا) أي يقال وهنيئاً تقدم الكلام عليه في أول النساء ، وقال الزمخشري : هنيئاً أكلاً وشرباً ، هنيئاً أو هنيئتم هنيئاً على المصدر . انتهى . فقوله أكلاً وشرباً هنيئاً يظهر منه جعل هنيئاً صفة لمصدرين ولا يجوز ذلك إلا على تقدير الإضمار عند من يميز ذلك أي أكلاً هنيئاً وشرباً هنيئاً (بما أسلفتم) أي قدمتم من العمل الصالح (في الأيام الخالية) يعني أيام الدنيا ، وقال مجاهد ، وابن جبر ، ووكيع ، وعبد العزيز بن ربيع : أيام الصوم ، أي بدل ما أمسكتكم عن الأكل والشرب لوجه الله تعالى ، والظاهر : العموم في قوله (بما أسلفتم) أي من الأعمال الصالحة ، (يا ليتني لم أوت كتابيه) لما رأى فيه قبائح أفعاله وما يصير أمره إليه تمى أنه لم يعطه وتمى أنه لم يدر حسابه ، فإنه انجلى عنه حسابه عن ما يسوءه فيه ، إذ كان عليه لا له (يا ليتني) أي الموتة التي متها في الدنيا (كانت القاضية) أي القاطعة لأمري فلم أبعث ولم أعذب ، أو يا ليت الحالة التي انتهت إليها الآن كانت الموتة التي متها في الدنيا ، حيث رأى أن حالته التي هو فيها أمر مما ذاقه من الموتة ، وكيف لا وأمره آل إلى عذاب لا ينقطع ، (ما أغنى عني ماليه) يجوز أن يكون نفياً محضاً ، أخبر بذلك متأسفاً على ماله حيث لم ينفعه ويجوز أن يكون استفهاماً وبخ به نفسه وقررها عليه ، (هلك عني سلطانيه) أي حجتي ، قاله ابن عباس ، ومجاهد والضحاك ، وعكرمة ، والسدي ، وقال ابن زيد : ذلك ملوك الدنيا وكان عضد الدولة بن بويه لما تسمى بملك الأملاك غلاب القدر لم يفلح وجن فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله (هلك عني سلطانيه) خذوه أي يقال للزبانية (خذوه فغلوه) أي اجعلوا في عنقه غلاً (ثم الجحيم صلوه) قال الزمخشري : ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس يقال صلي النار وصله النار . انتهى . وإنما قدره لا تصلوه إلا الجحيم لأنه يزعم أن تقديم المفعول يدل على الحصر ، وقد تكلمنا معه في ذلك عند قوله (إياك نعبد) وليس ما قاله مذهباً لسيبويه ولا لحذاق النحاة ، وأما قوله لأنه كان سلطاناً يتعظم على الناس ، فهذا قول ابن زيد وهو مرجوح والراجح قول ابن عباس ومن ذكر معه أن السلطان هنا هو الحجة التي كان يحتج بها في الدنيا لأن من أوتي كتابه بشيئه ليس مختصاً بالملوك بل هو عام في جميع أهل الشقاوة ، (ثم في سلسلة ذرعتها) أي قياسها ومقدار طولها (سبعون ذراعاً) يجوز أن يراد ظاهره من العدد ، ويجوز أن يراد المبالغة في طولها

وإن لم يبلغ هذا العدد ، قال ابن عباس ، وابن جريج ، ومحمد بن المنكدر بذراع الملك ، وقال نوف البكالي وغيره : الذراع سبعون باعاً في كل باع كما بين مكة والكوفة ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح ، وقال الحسن : الله أعلم بأي ذراع هي ، وقيل : بالذراع المعروف ، وإنما خاطبنا تعالى بما نعرفه ونحصله وقال ابن عباس : لو وضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص (فاسلكوه) أي أدخلوه كقوله : ﴿ فسلكه ينابيع ﴾ [الزمر ٢١] والظاهر : أنه يدخله في السلسلة ولطولها تلتوي عليه من جميع جهاته فيبقى داخلاً فيها مضغوطاً حتى تعمه ، وقيل : في الكلام قلب ، والسلسلة تدخل في فمه وتخرج من دبره فهي في الحقيقة التي تسلك فيه ، ولا ضرورة تدعو إلى إخراج الكلام عن ظاهره إلا إن دل الدليل الصحيح على خلافه ، وقال الزمخشري : والمعنى في تقديم السلسلة على السلك : مثله في تقديم الجحيم على التصليية . أي : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفضع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم ، ومعنى (ثم) الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصليية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك في السلسلة ، لا على تراخي المدة . انتهى . وقد تقدم أن من مذهبه الحصر في تقديم المعمول وأما (ثم) فيمكن بقاؤها على موضوعها من المهلة الزمانية ، وأنه أولاً يؤخذ فيغل ، ولما لم يعذب بالعجلة صارت له استراحة ، ثم جاء تصليية الجحيم فكان ذلك أبلغ في عذابه إذ جاءه ذلك . وقد سكنت نفسه قليلاً ، ثم جاء سلكه بعد ذلك بعد كونه مغلولاً معذباً في النار ، لكنه كان له انتقال من مكان إلى مكان فيجد بذلك بعض تنفس ، فلما سلك في السلسلة كان ذلك أشد ما عليه من العذاب حيث صار لا حراك له ولا انتقال ، وأنه يضيق عليه غاية ، فهذا يصح فيه أن تكون (ثم) على موضوعها من المهلة الزمانية ، (أنه كان لا يؤمن) بدأ بأقوى أسباب تعذيبه وهو كفره بالله (وإنه) تعليل مستأنف ، كأن قائلًا لم يعذب هذا العذاب البليغ ؟ قيل إنه كان لا يؤمن ، وعطف (ولا يحض) على (لا يؤمن) داخل في العلة ، وذلك يدل على عظم ذنب من لا يحض على إطعام المسكين ، إذ جعل قرين الكفر ، وهذا حكم ترك الحض فكيف يكون ترك الإطعام ؟ والتقدير على إطعام طعام المسكين ، وأضاف الطعام إلى المسكين من حيث لم ينسبه إليه إذ يستحق المسكين حقاً مال الغني الموسر ولو بأذن يسار ، وللعرب في مكارمهم وإيثارهم آثار عجيبة غريبة بحيث لا توجد في غيرهم ، وما أحسن ما قيل فيهم :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَغْتَرِبُهُمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

وكان أبو الدرداء يحض أمراته على تكثير الرزق لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان أفلا نخلع نصفها الآخر ؟ ، وقيل : هو منع الكفار وقولهم ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ [يس ٤٧] يعني أنه إذا نفى الحض انتفى الإطعام بجهة الأولى كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ [المدثر ٤٣ ، ٤٤] (فليس له اليوم ها هنا حيم) أي صديق ملاطف وادّ ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف ٦٧] وقيل قريب يدفع عنه (ولا طعام إلا من غسلين) قال ابن عباس : هو صديد أهل النار ، وقال قتادة ، وابن زيد : هو والزقوم أخبث شيء وأبشعه ، وقال الضحاك ، والربيع : هو شجر يأكله أهل النار ، وقيل : هو شيء يجري من أهل النار يدل على هذا قوله في الغاشية ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ [الغاشية ٦] فهما شيء واحد أو متداخلان ، قيل : ويجوز أن يكونا متباينين وأخبر بكل واحد منهما عن طائفة غير الطائفة التي الآخر طعامها ، و (له) خبر ليس ، وقال المهدوي : ولا يصح أن يكون (ها هنا) ، ولم يبين ما المانع من ذلك ، وتبعه القرطبي في ذلك وقال : لأن المعنى يصير ليس ها هنا طعام إلا من غسلين ، ولا يصح ذلك ، لأنَّ ثمَّ طعاماً غيره . و (ها هنا) متعلق بما في (له) من معنى الفعل . انتهى . وإذا كان ثم غيره من الطعام ، وكان الأكل غير أكل آخر صح الحصر بالنسبة إلى اختلاف الأكلين ، وأما إن كان الضريع هو الغسلين كما قال بعضهم فلا تناقض إذ المحصور في الآيتين هو شيء واحد ، وإنما يمتنع ذلك من وجه غير ما ذكره ، وهو أنه إذا جعلنا الخبر ها هنا كان له واليوم متعلقين بما تعلق به الخبر وهو العامل في ههنا وهو عامل معنوي فلا يتقدم معموله عليه ، فلو كان

العامل لفظياً جاز كقوله تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) فله متعلق بكفواً وهو خبر ليكن ، وقرأ الجمهور (الخاطئون) بالهمز اسم فاعل من خطيء وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك ، والمخطيء الذي يفعله غير متعمد ، وقرأ الحسن ، والزهري ، والعنكي ، وطلحة في نقل بياء مضمومة بدلاً من الهمزة ، وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، وطلحة ، ونافع بخلاف عنه بضم الطاء دون همز ، فالظاهر اسم فاعل من خطيء كقراءة من همز ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ، ويتعدون حدود الله . انتهى . فيكون اسم فاعل من خطا يخطو كقوله تعالى (ولا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان) خطا إلى المعاصي . قوله عز وجل ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإننا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم ﴾ تقدم الكلام في (لا) قبل القسم في قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم) وقراءة الحسن (لأقسم) بجعلها لاماً دخلت على أقسم ، وقيل : (لا) هنا نفى للقسم أي لا يحتاج في هذا إلى قسم لوضوح الحق في ذلك ، وعلى هذا فجوابه القسم . قال مقاتل سبب ذلك : أن الوليد قال : إن محمداً ساحر ، وقال أبو جهل : شاعر ، وقال : كاهن فرد الله عليهم بقوله فلا أقسم بقوله (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) عام في جميع مخلوقاته ، وقال عطاء : (ما تبصرون) من آثار القدرة (وما لا تبصرون) من أسرار القدرة ، وقيل : الأجساد والأرواح (إنه) أي إن القرآن (لقول رسول كريم) هو محمد ﷺ في قول الأكثرين ويؤيده (وما هو بقول شاعر) وما بعده ونسب القول إليه ، لأنه هو مبلغه والعامل به ، وقال ابن السائب ، ومقاتل ، وابن قتبية ، هو جبريل عليه السلام ، إذ هو الرسول عن الله . ونفى تعالى أن يكون قول شاعر لمباينته لضروب الشعر ، ولا قول كاهن لأنه ورد بسبب الشياطين ، وانتصب (قليلاً) على أنه صفة لمصدر محذوف ، أولزمان محذوف ، أي : تؤمنون إيماناً قليلاً ، أو زماناً قليلاً ، وكذا التقدير في (قليلاً ما تذكرون) والقلة : هو إقرارهم إذا سئلوا من خلقهم قالوا الله . وقال ابن عطية : ونصب (قليلاً) بفعل مضمر يدل عليه (تؤمنون) و (ما) تحتل أن تكون نافية ، فينتفي إيمانهم البتة ، ويحتل أن تكون (ما) مصدرية والمتصف بالقلة هو الإيمان اللغوي لأنهم قد صدقوا بأشياء يسيرة لا تغني عنهم شيئاً إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ هو حق صواب . انتهى . أمّا قوله ونصب (قليلاً) بفعل مضمر يدل عليه (تؤمنون) فلا يصح لأن ذلك الفعل الدال عليه (تؤمنون) إما أن تكون (ما) نافية أو مصدرية كما ذهب إليه ، فإن كانت نافية فذلك الفعل المضمر الدال عليه (تؤمنون) المنفي بما يكون منفيًا فيكون التقدير (ما تؤمنون قليلاً ما تؤمنون) والفعل المنفي بما لا يجوز حذفه ولا حذف « ما » ، لا يجوز « زيدا ما أضربه » على تقدير « ما أضرب زيدا ما أضربه » وإن كانت مصدرية كانت (ما) في موضع رفع على الفاعلية بقليلًا أي : إيمانكم ، ويبقى (قليلاً) لا يقدمه ما يعتمد عليه حتى يعمل ولا ناصب له وأما في موضع رفع على الابتداء فيكون مبتدأ لا خبر له ، لأن ما قبله منصوب لا مرفوع . وقال الزمخشري : والقلة معنى العدم ، أي : لا تؤمنون ولا تذكرون البتة . والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم انتهى . ولا يراد بقليلًا هنا النفي المحض كما زعم ، وذلك لا يكون إلا في « أقل » نحو « أقل رجل يقول ذلك إلا زيد » وقد تستعمل في قليل وقليلة إذا كانا مرفوعين نحو ما جوزوا في قوله :

قَلِيلٌ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَاتُهَا^(١)

(١) عجز بيت من الطويل الذي الرمة ديوانه (٧١٦) .

انبطت فالتقت بلدة فوق بلدة

انظر الخزنة (٥١/٢) . ديوانه (٧١٦) .

أما إذا كان منصوباً نحو « قليلاً ضربت » أو « قليلاً ما ضربت » أن تكون « ما » مصدرية ، فإن ذلك لا يجوز ، لأنه في قليلاً ضربت منصوب بضربت ولم تستعمل العرب قليلاً إذا انتصب بالفعل نفيّاً بل مقابلاً لكثير ، وأما « قليلاً ما ضربت » على أن تكون ما مصدرية فتححتاج إلى رفع قليل ، لأن ما المصدرية في موضع رفع على الابتداء ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو بخلاف عنهما ، والجحدري ، والحسن (يؤمنون) (يذكرون) بالياء فيهما ، وباقي السبعة بتاء الخطاب ، وأبيّ بياءين ، وقرأ الجمهور (تنزيل) بالرفع . وأبو السمال (تنزيلاً) بالنصب ، وقرأ الجمهور (ولو تقول) والتقول : أن يقول الإنسان عن آخر إنه قال شيئاً لم يقله . وقرأ ذكوان ، وابنه محمد (يقول) مضارع قال ، وهذه القراءة معترضة بما صرحت به قراءة الجمهور . وقرئ (ولو تقول) مبنياً للمفعول ، وحذف الفاعل ، وقام المفعول مقامه وهو بعض إن كان قرئ مرفوعاً ، وإن كان قرئ منصوباً بعليّنا قام مقام الفاعل ، والمعنى : ولو تقول علينا متقول ولا يكون الضمير في (تقول) عائد على الرسول ﷺ لاستحالة وقوع ذلك منه فنحن نمنع أن يكون ذلك على سبيل الفرض في حقه عليه الصلاة والسلام و (الأقاويل) جمع الجمع وهو أقوال كبيت وأبيات وأبايت ، قال الزمخشري : وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تصغيراً لها وتحقيراً كقولك الأعاجيب والأصاحيك كأنها أفعولة من القول ، والظاهر أن قوله (باليمين) المراد به الجارحة فقال الحسن : المعنى قطعناه عبرة ونكالاً والباء على هذا زائدة ، وقيل : الأخذ على ظاهره ، قال الزمخشري : والمعنى ولو ادعى مدع علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما تفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاملة بالسخط والانتقام ، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول : وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته . وخص اليمين على اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب في فقه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يلحفه بالسيف ، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه . ومعنى (لأخذنا منه باليمين) لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله تعالى (لقطعنا منه الوتين) لقطعنا وتينه انتهى . وهو قول للمتقدمين حسنة الزمخشري بتكثير ألفاظه ومصاغها قالوا : المعنى لأخذنا بيده التي هي اليمين على جهة الإذلال والصغار ، كما يقول السلطان إذا أراد عقوبة رجل « يا غلام خذ بيده وافعل كذا » قاله أو قريباً منه الطبري ، وقيل : اليمين هنا مجاز ، فقال ابن عباس : باليمين بالقوة معنا لنلنا منه عقابه بقوة منا ، وقال مجاهد : بالقدر ، وقال السدي : عاقبناه بالحق و (من) على هذا صلة ، وقال نفطويه : لقبضنا بيمينه عن التصرف ، وقيل : لنزعنا منه قوته ، وقيل : لأذللناه وأعجزناه (ثم لقطعنا منه الوتين) ، قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وقال مجاهد : حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع والموتون الذي قطع وتينه ، والمعنى : لو تقول علينا لأذهبنا حياته معجلاً ، والضمير في عنه الظاهر أنه يعود على الذي تقول ، ويجوز أن يعود على القتل أي لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه والخطاب في (منكم) للناس ، والظاهر : في (حاجزين) أن يكون خبراً لما على لغة الحجاز ، لأن حاجزين هو محط الفائدة ، ويكون منكم لو تأخر لكان صفة لأحد فلما تقدّم صار حالاً وفي جواز هذا نظر أو يكون للبيان أو تتعلق بحاجزين كما تقول « ما فيك زيد راغباً » ولا يمنع هذا الفصل من انتصاب خبر ما ، وقال الحوفي ، والزمخشري (حاجزين) نعت لأحد على اللفظ ، وجمع على المعنى ، لأنه في معنى الجماعة يقع في النفي العام للواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ، ومنه ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة ٢٨٥] وقوله ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ [الأحزاب ٣٢] مثل بهما الزمخشري وقد تكلمنا على ذينك في موضعيهما ، وفي الحديث : « لم تحل لأحد سود الرؤوس قبلكم » وإذا كان « حاجزين » نعتاً (من أحد) مبتدأ والخبر (منكم) ويضعف هذا القول ، لأن النفي يتسلط على الخبر وهو كينونته منكم فلا يتسلط على الحجز ، وإذا كان حاجزين خبراً تسلط النفي عليه ، وصار المعنى ما أحد منكم يحجزه عن ما يريد به من ذلك (وإنه لتذكرة) أي : وإن القرآن أو الرسول ﷺ ، (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) وعيد أي مكذبين بالقرآن أو بالرسول ﷺ ، (وإنه لحسرة) أي القرآن من حيث كفروا به ويرون من آمن به ينعم وهم معذبون ، وقال مقاتل وإن تكذيبهم بالقرآن (لحسرة) عليهم عاد الضمير على

المصدر المفهوم من قوله مكذبين كقوله :

إذا نهي السفية جرى إليه

أي للسفه ، (وإنه) أي وإن القرآن (لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) وسبق الكلام على إضافة حق إلى اليقين في آخر الواقعة .

سورة المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْكَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الْيَمِينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ أَبْغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُخْفُونَ عَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَبَلَّكَ الْمُتَطْعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْسَمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(العِهن) الصوف دون تقييد ، أو الأحمر أو المصبوغ ألواناً أقوال ، « الفصيلة » قال ثعلب : الآباء الأدنون ، وقال أبو عبيدة الفخذ ، وقيل : عشيرته الأقربون ، لظى : اسم لجهنم ، أو للدركة الثانية من دركاتها وهو علم منقول من اللظى وهو اللهب ومنع الصرف هو للعلمية والتأنيث ، والشوى : جمع شواة وهي جلدة الرأس ، وقال الأعشى :

قَالَتْ قُتِيلَةٌ مَا لَهُ قَدْ جُلَّتْ شَيْئاً شَوَاتُهُ^(١)

والشوى : جلد الإنسان ، والشوى : قوائم الحيوان ، والشوى : كل عضوليس بمقتل ، ومنه رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل ، والشوى : زوال المال ، والشوى : الشيء الهين اليسير ، الهلع : الفزع والاضطراب السريع عند مس المكروه والمنع السريع عند مس الخير من قولهم ؛ ناقة هلوع سريعة السير ، وقال أبو عبيدة : الهلع في اللغة أشد الحرص وأسوأ الجزع ، الجزع : الخوف قال الشاعر :

جَزَعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعَا

عزيزين : جمع عزة ، قال أبو عبيدة : جماعات في تفرقة ، وقيل الجمع اليسير كثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ، وقال الأصمعي : في الدار عزون أي أصناف من الناس ، وقال عنتره :

وَقَرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ لَذِي وَلِيٍّ عَلَيْهِ الطَّيْرُ كَالْعَصَبِ الْعَزِينِ^(٢)

وقال الراعي :

أَخْلَيْفَةَ الرَّحْمَنِ إِنَّ عَشِيرَتِي أَمْسَى سَوَاتُهُمْ عَزِينَ فَلَوْلَا^(٣)

وقال الكميث :

وَنَحْنُ وَجَنْدَلٌ بَاغٍ تَرَكْنَا كَتَائِبَ جَنْدَلٍ شَتَّى عَزِينَا^(٤)

وقال آخر :

تَرَانَا عِنْدَهُ وَاللَّيْلُ دَاغٍ عَلَى أَبْوَابِهِ حَلَقاً عَزِينَا^(٥)

وقال آخر :

فَلَمَّا أَنْ أُبَيِّنَ عَلَى أَصَاحٍ ضَرَجْنَ حَصَاهُ أَشْتَاتَا عَزِينَا^(٦)

وعزة مما حذفت لامه ، فقيل : هي واو وأصله عزوة ، كأن كل فرقة تعتري إلى غير من تعتري إليه الأخرى ، فهم متفرون ويقال عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره ، وقيل : لامها هاء والأصل عزهة وجمعت ، عزة بالواو والنون ، كما جمعت سنة وأخواتها بذلك وتكسر العين في الجمع وتضم وقالوا عزى على فعل ولم يقولوا عزات ﴿ سأل سائل بعدذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذي المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً ﴾

(١) البيت من مجزوء الكامل ليس في ديوان الأعشى انظر اللسان (شوا) القرطبي (١٨/ ١٨٦ - ١٨٧) روح المعاني (٢٩/ ٧٥) فتح القدير (٢٩٠/ ٥) .

(٢) البيت من الوافر انظر القرطبي (١٨/ ١٩٠) فتح القدير (٢٩٣/ ٥) .

(٣) البيت من الكامل انظر مجاز القرآن (٢/ ٢٧٠) معاني الفراء (٣/ ١٨٦) القرطبي (١٨/ ١٩٠) .

(٤) البيت من الوافر انظر الكشف (٤/ ٤٩١) القرطبي (١٨/ ١٩٠) .

(٥) البيت من الوافر لم نهند لقائله انظر القرطبي (١٨/ ١٩٠) .

(٦) البيت من الوافر لم نهند لقائله انظر القرطبي (١٨/ ١٩٠) اللسان (غزا) .

جيلاً ، إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميماً ، يصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بينه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيهِ ، كلا إنها لظي ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى ، إنَّ الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في أمواهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جنات مكرمون ﴿ هذه السورة : مكية ، قال الجمهور : نزلت في النضر بن الحارث حين قال : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال ٣٢] الآية ، وقال الربيع بن أنس : في أبي جهل ، وقيل : في جماعة من قريش ﴾ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق ﴿ [الأنفال ٣٢] الآية ، وقيل : السائل نوح عليه السلام ، سأل العذاب على الكافرين وقيل : السائل رسول الله ﷺ ، سأل أن يشدد وطأته على مضر الحديث ، فاستجاب الله دعوته ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها : أنه لما ذكر (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) أخبر عن ما صدر عن بعض المكذبين بنقم الله وإن كان السائل نوحاً عليه السلام أو الرسول ﷺ فناسب تكذيب المكذبين أن دعا عليهم رسولهم حتى يصابوا فيعرفوا صدق ما جاءهم به ، وقرأ الجمهور (سأل) بالهمز أي : دعا داع من قولهم : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه فالباء على أصلها ، وقيل : المعنى : بحث باحث واستفهم ، قيل : فالباء بمعنى عن وقرأ نافع ، وابن عامر (سأل) بالفاء ، فيجوز أن يكون قد أبدلت همزته ألفاً ، وهو يدل على غير قياس ، وإنما قياس هذا بين ، ويجوز أن يكون على لغة من قال «سأل اسأل» حكاه سيبويه ، وقال الزمخشري : هي لغة قريش يقولون : سلت تسال وهما يتسايلان : انتهى . وينبغي أن يثبت في قوله إنها لغة قريش ، لأن ما جاء في القرآن من باب السؤال هو مهموز ، أو أصله الهمز كقراءة من قرأ : ﴿ وسلوا الله من فضله ﴾ ^(١) [النساء ٣٢] إذ لا يجوز أن يكون من سأل التي عيناها وإذ كان يكون ذلك وسلوا الله مثل خافوا الأمر ، فيبعد أن يجيء ذلك كله على لغة غير قريش ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم إلا يسيراً فيه لغة غيرهم . ثم جاء في كلام الزمخشري : وهما يتسايلان بالياء ، وأظنه من الناسخ وإنما هو يتسايلان بالواو ، فإن توافقت النسخ بالياء فيكون التحريف من الزمخشري . وعلى تقدير أنه من السؤال ف (سائل) اسم فاعل منه . وتقدم ذكر الخلاف في السائل من هو ، وقيل : سأل من السيلان ويؤيده قراءة ابن عباس : (سأل سائل) وقال زيد بن ثابت : في جهنم واد يسمى سائلاً وأخبرنا عنه ، قال ابن عطية : ويحتمل إن لم يصح أمر الوادي أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب قد استعير له السيل لما عهد من نفوذ السيل وتصميمه ، وقال الزمخشري : والسيل مصدر في معنى السائل ، كالغور بمعنى الغاير ، والمعنى : اندفع عليهم وادي عذاب ، فذهب بهم وأهلكهم انتهى . وإذا كان السائل هم الكفار فسؤالهم إنما كان على أنه كذب عندهم فأخبر تعالى أنه واقع وعيداً لهم ، وقرأ أبي ، وعبد الله (سأل سأل) مثل مال بالقاء صورة الهمزة وهي الياء من الخط تخفيفاً ، قيل : والمراد سائل . انتهى . ولم يحك هل قرأ بالهمز أو بإسقاطها ألبتة فإن قرأ بالهمز : فظاهر ، وإن قرأ بحذفها فهو مثل شاك شايك ، حذفت عنه واللام جرى فيها الإعراب والظاهر : تعلق (بعذاب) بـ (سأل) ، وقال أبو عبد الله الرازي يتعلق بمصدر دل عليه فعله كأنه

(١) يقصد المصنف رحمه الله أن أسألوا إذا خفت لكثرة الاستعمال نقلت حركة الهمزة على السين ثم تحذف الهمزة ، وهذا كثير كهذه الآية ﴿ وسلوا الله من فضله ﴾ [النساء ٣٢] والأصل وأسألوا ألقى فتحة الهمزة على السين ، وحذفت الهمزة ، وكذا همزة الوصل ، للاغتناء بتحريك السين ، شرح الشافية للرضي (٤٢/٣) .

قيل : ما سؤاله فقيل : سؤاله بعذاب والظاهر : اتصال الكافرين بواقع ، فيكون متعلقاً به واللام للعلّة أي نازل بهم لأجلهم أي لأجل كفرهم أو على أن اللام بمعنى على ، قاله بعض النحاة . ويؤيده قراءة أبيّ (على الكافرين) أو على أنه في موضع أي واقع كائن للكافرين ، وقال قتادة ، والحسن : المعنى كأن قائلاً قال لمن هذا العذاب الواقع ؟ فقيل للكافرين ، وقال الزمخشري : أو بالفعل أي دعاء للكافرين ثم قال ، وعلى الثاني وهو ثاني ما ذكر من توجيهه في الكافرين قال هو كلام مبتدأ جواب للسائل أي : هو للكافرين ، وكان قد قرر أن سأل ضمن معنى دعا فعدي تعديته كأنه قال : دعا داع بعذاب ، من قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ومنه قوله تعالى (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) انتهى . فعلى ما قرره أنه متعلق بدعا يعني بسأل فكيف يكون كلاماً مبتدأ جواباً للسائل أي هو للكافرين ، هذا لا يصح . فقد أخذ قول قتادة والحسن وأفسده ، والأجود أن يكون من الله متعلقاً بقوله (واقع) و (ليس له دافع) جملة اعتراض بين العامل والمعمول ، وقيل : يتعلق بدافع أي من جهته إذا جاء وقته (ذي المعارج) المعارج : لغة الدرج وهنا استعارة ، قال ابن عباس و قتادة : في الرتب والفواضل والصفات الحميدة ، وقال ابن عباس : أيضاً المعارج : السموات تعرج فيها الملائكة من سماء إلى سماء ، وقال الحسن : هي المراقي إلى السماء ، وقيل : المعارج : الغرف أي جعلها لأوليائها في الجنة (تعرج) قراءة الجمهور بالتاء على التأنيث ، وعبد الله ، والكسائي ، وابن مقسم ، وزائدة عن الأعمش بالياء ، (والروح) قال الجمهور هو : جبريل خص بالذكر تشريفاً ، وآخر هنا بعد الملائكة ، وقدم في قوله (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً) ، وقال مجاهد : ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم لا تراهم الحفظة ، كما لا نرى نحن حفظتنا ، وقيل : الروح ملك غير جبريل عظيم الخلقة ، وقال أبو صالح : خلق كهيئة الناس وليسوا بالناس ، وقال قبيصة بن ذؤيب : روح الميت حين قبض إليه ، الضمير عائد على الله تعالى أي إلى عرشه وحيث يهبط منه أمره تعالى ، وقيل (إليه) أي : إلى المكان الذي هو محلهم ، وهو في السماء لأنها محل بره وكرامته ، والظاهر : أن المعنى أنها تعرج في يوم من أيامكم هذه ومقدار المسافة إن لو عرجها آدمي خمسون ألف سنة ، قاله ابن عباس ، وابن إسحاق ، وجماعة من الخذاق منهم القاضي منذر بن سعيد ، فإن كان المعارج ملكاً فقال مجاهد : المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش ، ومن جعل الروح جنس أنواع الحيوان ، قال وهب : المسافة من وجه الأرض إلى منتهى العرش ، وقال عكرمة ، والحكم : أراد مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة لا يدري أحد ما مضى منها وما بقي ، أي تعرج في مدة الدنيا وبقاء هذه البنية ، وقال ابن عباس : أيضاً هو يوم القيامة ، وقيل : طوله ذلك العدد وهذا ظاهر ما جاء في الحديث في مانع الزكاة ، فإنه قال (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري قدره في رزايه وهوله وشدته للكفار ذلك العدد وفي الحديث « يخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة » ، وقال عكرمة : « مقدار ما ينقضي فيه من الحساب قدر ما يقضى بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا » ، وقال الحسن : نحوه ، وقيل : لا يراد حقيقة العدد إنما أريد به طول الموقف يوم القيامة وما فيه من الشدائد ، والعرب تصف أيام الشدة بالطول وأيام الفرح بالقصر ، قال الشاعر يصف أيام الفرح والسرور :

وَيَوْمٍ كَظَلَّ الرُّمَحُ قَصَرَ طُولُهُ دَمُ الزُّقِّ عَنَّا وَاصْطَفَاكَ الْمَزَاهِرُ^(١)

والظاهر : أن قوله في يوم متعلق بتعرج ، وقيل : بدافع والجملة من قوله (تعرج) اعتراض ، ولما كانوا قد سألوا استعجال العذاب ، وكان السؤال على سبيل الاستهزاء والتكذيب ، وكانوا قد وعدوا به ، أمره تعالى بالصبر ، ومن جعله من السيلان فالمعنى : أنه أشرف على الوقوع ، والضمير في (يرونه) عائد على العذاب ، أو على اليوم إذا أريد به يوم القيامة ، وهذا الاستبعاد هو على سبيل الإحالة منهم (ونراه قريباً) أي هيناً في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر ، وكل ما هو

آت قريب ، والبعد والقرب في الإمكان ، لا في المسافة (يوم تكون) منصوب بإضمار فعل أي يقع يوم تكون أو يوم تكون (السماء كالمهل) كان كيت وكيت أو قريباً ، أو بديل من ضمير (نراه) إذا كان عائداً على يوم القيامة ، وقال الزمخشري أو هو بديل من (في يوم) فيمن علقه بواقع انتهى ولا يجوز هذا ، لأن (في يوم) وإن كان في موضع نصب لا يبدل منه منصوب ، لأن مثل هذا ليس من المواضع التي تراعى في التوابع^(١) ، لأن حرف الجر فيها ليس بزائد ولا محكوم له بحكم الزائد كرب ، وإنما يجوز مراعاة المواضع في حرف الجر الزائد كقوله :

يَا بَنِي لَبَيْتِي لَسْتُ بِإِيدٍ إِلَّا يَدًا لَيْسَتْ لَهَا عَضْدٌ^(٢)

ولذلك لا يجوز « مررت بزید الخياط » على مراعاة موضع بزید « ولا مررت بزید وعمرا » و « لا غضبت على زید وجعفر » و « لا مررت بعمرو وأخاك » على مراعاة الموضع (فإن قلت :) الحركة في يوم تكون حركة بناء لا حركة إعراب ، فهو مجرور مثل (في يوم) (قلت :) لا يجوز بناؤه على مذهب البصريين ، لأنه أضيف إلى معرب ، لكنه يجوز على مذهب الكوفيين فيتمشى كلام الزمخشري على مذهبه إن كان استحضره وقصده ، (كالمهل) تقدم الكلام عليه في سورة الدخان [الدخان ٤٥] « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » [المعارج ٩] كما في القارعة ، لما نسفت طارت في الجو كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح ، قال الحسن تسير الجبال مع الرياح ، ثم تهبط ، ثم تصير كالعهن ، ثم تنسف فتصير هباء ، وقرأ الجمهور (ولا يسأل) مبنياً للفاعل ، أي لا يسأله نصرة ولا منفعة لعلمه أنه لا يجد ذلك عنده ، وقال قتادة : لا يسأله عن حاله لأنها ظاهرة ، وقيل : لا يسأل أن يحمل عنه من أوزاره شيئاً لئلاسه عن ذلك ، وقيل : شفاعته ، وقيل : حمياً منصوب على إسقاط عن أي عن حميم لشغله بما هو فيه ، وقرأ أبو حيو ، وشيبة ، وأبو جعفر ، والبزي ، بخلاف عن ثلاثهم مبنياً للمفعول أي : لا يسأل إحضاره كل من المؤمن والكافر له سبياً يعرف بها ، وقيل : عن ذنوب حميمه ليؤخذ بها ، (يبصرونهم) استئناف كلام ، قال ابن عباس : في المحشر يبصر الحميم حميمه ثم يفر عنه لشغله بنفسه ، وقيل : (يبصرونهم) في النار ، وقيل : (يبصرونهم) فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (يبصرونهم) صفة ، أي : حمياً مبصرين مصرفين إليهم ، انتهى . و (حميم حمياً) نكرتان في سياق النفي فيعمان ، ولذلك جمع الضمير ، وقرأ قتادة (يبصرونهم) مخففاً مع كسر الصاد ، أي : يبصر المؤمن الكافر في النار قاله مجاهد ، وقال ابن زيد : يبصر الكافر من أضله في النار عبدة وانتقاماً وحزناً (يود المجرم) أي الكافر ، وقد يندرج فيه المؤمن العاصي الذي يعذب ، وقرأ الجمهور : (من عذاب) مضافاً ، وأبو حيو بفتحها (وصاحبته) زوجته (وفصيلته) أقرباؤه الأدنون (تؤويه) تضمه انتهاء إليها ، أو ليأذا بها في النوائب ، (ثم ينجي) عطف على (يفتدي) أي : ينجي بالافتداء أو من تقدم ذكرهم ، وقرأ الزهري (تؤويه) وتنجي بضم الهاءين ، (كلا) ردع لودادتهم الافتداء وتنبيه على أنه لا ينفع ، (إنها) الضمير للقصة و (لظى نزاعة) تفسير لها ، أو للنار الدال عليها عذاب يومئذ و (لظى) بدل من الضمير ، و (نزاعة) خبر « إن » ، أو خبر مبتدأ و (لظى) خبر (إن) أي هي نزاعة ، أو بدل من لظى ، أو خبر بعد خبر . كل هذا ذكره وذلك على قراءة الجمهور برفع (نزاعة) وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر . انتهى . ولا أدري ما هذا المضمير الذي ترجم عنه الخبر ، وليس هذا من المواضع التي يفسر فيها المفرد الضمير ، ولولا أنه ذكر بعد هذا ، أو ضمير القصة لحلت كلامه عليه ، وقرأ ابن أبي عبلة ، وأبو حيو ، والزعفراني ، وابن مقسم ، وحفص ، واليزيدي في اختباره (نزاعة) بالنصب فتعين أن يكون (لظى) في (إنها) عائداً على « النار » الدال عليها عذاب ، وانتصب (نزاعة) على الحال المؤكدة ، أو

(١) قال الألوسي : فاشترط أبي حيان لمراعاة المحل كون الجار زائداً أو شبهه كرب غير صحيح (٢٩/٥٩) .

(٢) البيت من الكامل لأوس بن حجر انظر يوانه (٢١) ونسب لطرفة انظر شرح الفصل لابن يعين (٢/٩٠) .

المبينة ، والعامل فيها (لظى) وإن كان عاملاً لما فيه من معنى التلظى كما عمل العلم في الظرف في قوله :

أَنَا أَبُو الْمُنْهَالِ بَعْضُ الْأَحْيَانِ

أي المشهور بعض الأحيان ، أو على الاختصاص للتهويل ، قاله الزمخشري ، وكأنه يعني القطع ، فالنصب فيها كالرفع فيها إذا أضمرت هو فتضمر هنا ، أعني تدعو أي حقيقة يخلق الله فيها الكلام كما يخلقه في الأعضاء ، قاله ابن عباس وغيره : تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وقال الزمخشري : وكما خلقه في الشجرة . انتهى . فلم يترك مذهب الاعتزال ، وقال الخليل : مجاز عن استدنائها منهم ، وما توقعه بهم من عذابها ، وقال ثعلب : يهلك تقول العرب دعاك الله أي أهلكك وحكاه الخليل عن العرب قال الشاعر :

لَيْلَالِي يَدْعُونِي الْهُوَى فَأُجِيبُهُ . وَأَعِينُ مَنْ أَهْوَى إِلَيَّ رَوَانِي

وقال آخر :

تَرْفَعُ لِلْعَيَانِ وَكُلُّ فَجٍّ طَبَاهُ الدَّعِي مِنْهُ وَالْخَلَاءُ

يصف ظليماً ، وطباه . أي : دعاه ، والهوى والدعي لا يدعوان حقيقة ، ولكنه لما كان فيهما ما يجذب صارا داعيين مجازاً ، وقيل : تدعو أي خزنة جهنم أضيف دعاؤهم إليها من أدبر عن الحق وتولى (وجمع فأوعى) أي وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه ولم يؤد حق الله فيه ، وهذه إشارة إلى كفار أغنياء ، وقال الحكيم : كان عبد الله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول : سمعت الله يقول (وجمع فأوعى) (إن الإنسان) جنس ولذلك استثنى منه (إلا المصلين) ، وقيل : الإشارة إلى الكفار ، وقال ثعلب : قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت قد فسره الله تعالى ، ولا يكون تفسير أبيين من تفسيره ، وهو : الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع ، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس . انتهى . ولما كان شدة الجزع والمنع متمكنة في الإنسان جعل كأنه خلق محمولاً عليهما كقوله ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء ٣٧] والخير المال ، (إلا المصلين) استثناء كما قلنا من (الإنسان) ولذلك وصفهم بما وصفهم به من الصبر على المكاره والصفات الجميلة التي حاوروها ، وقرأ الجمهور (على صلاتهم) بالافراد . والحسن جمعاً . وديمومتها قال الجمهور : المواظبة عليها ، وقال ابن مسعود : صلاتها لوقتها ، وقال عقبه بن عامر : يقرؤون فيها ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً ، ومنه المال الدائم ، وقال الزمخشري : دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها ولا يشتغلون عنها بشيء ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقبتها ، وقيموا أركانها ، ويكملوها بسنتها ، وأدائها ، ويحفظونها من الاحباط باقتران المآثم ، والدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة على أحوالها انتهى . وهو جوابه لسؤاله (فإن قلت :) كيف قال (على صلاتهم دائمون) ثم قال (على صلاتهم يحافظون) أقول إن الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد لكنه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها فذكرت أول محصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها والصفات التي بعد هذه تقدم تفسيرها ومعظمها في سورة (قد أفلح المؤمنون) ، وقرأ الجمهور بشهادتهم على الأفراد ، والسلمي ، وأبو عمر ، وحفص على الجمع ، قوله عز وجل :

﴿ فإل الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ، أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ، كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ، فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، يوم يخرجون من الأجدات سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ كان رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة ويقرأ

القرآن ، فكانوا يحتفون به حلقاً حلقاً يسمعون ويستنهضون بكلامه ، ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلها قبلهم ، فنزلت وتقدم شرح (مهطعين) في سورة إبراهيم عليه السلام ومعنى (قبلك) أي في الجهة التي تليك (عن اليمين وعن الشمال) أي : عن يمينك وشمالك وقيل : نزلت في المستهزئين الخمسة ، وقرأ الجمهور (أن يُدْخَلَ) مبنياً للمفعول . وابن يعمر ، والحسن وأبوجاء ، وزيد بن علي ، وطلحة ، والمفضل عن عاصم مبنياً للفاعل ، (كلا) ردّ وردع لطماعتهم إذ أظهروا ذلك ، وإن كانوا لا يعتقدون صحة البعث ، ولا أن ثم جنة ولا ناراً (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي أنشأناهم من نطفة مذرة فنحن قادرون على إعادتهم وبعثهم يوم القيامة وعلى الاستبدال بهم خيراً منهم قيل : بنفس الخلق ، ومنتهم عليهم بذلك يعطي الجنة بل بالإيمان والعمل الصالح ، وقال قتادة : في تفسيرها : إنا خلقت من قدر يا ابن آدم ، وقال أنس : كان أبو بكر إذا خطبنا ذكر مناتن ابن آدم ومروره في مجرى البول مرتين ، وكذلك نطفة في الرحم ، ثم علقه ، ثم مضغه ، إلى أن يخرج ، فيتلوث في نجاسته طفلاً ، فلا يقلع أبو بكر حتى يقدر أحدنا نفسه ، فكأنه قيل : إذا كان خلقكم من نطفة مذرة فمن أين تتشرفون وتدعون دخول الجنة قبل المؤمنين ، وأبهم في قوله (مما يعلمون) وإن كان قد صرح به في عدة مواضع إحالة على تلك المواضع ، ورأى مطرف بن عبد الله بن الشخير المهلب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز ، فقال له : يا عبد الله : ما هذه المشية التي يبغضها الله تعالى ؟ فقال له أتعرفني ؟ قال نعم . أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت تحمل عذرة ، فمضى المهلب وترك مشيته ، وقرأ الجمهور (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) لانفياً ، وجمعهما . وقوم بلام دون ألف ، وعبد الله بن مسلم وابن محيصن والجدري (المشرق والمغرب) مفردين ، أقسم تعالى بمخلوقاته على إيجاب قدرته (على أن يدل خيراً منهم) (وأنه لا يسبقه شيء إلى ما يريد ، (فذرهم يخوضوا ويلعبوا) وعيد ، وما فيه من معنى المهادنة هو منسوخ بآية السيف ، وقرأ أبو جعفر ، وابن محيصن (يلقوا) مضارع لقي ، والجمهور (يلاقوا) مضارع لاقى ، والجمهور (يخرُجُونَ) مبنياً للفاعل ، قال ابن عطية : وروى أبو بكر عن عاصم مبنياً للمفعول و (يوم) بدل من يومهم ، وقرأ الجمهور نصب بفتح النون وسكون الصاد وأبو عمران الجوني ، ومجاهد بفتحهما ، وابن عامر ، وحفص بضمهما والحسن ، وقاتدة بضم النون وسكون الصاد والنصب : ما نصب للإنسان فهو يقصده مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم وغلب في الأصنام حتى قيل الأنصاب ، وقال أبو عمرو : هو شبكة يقع فيها الصيد فيسارع إليها صاحبها ، مخافة أن يتفلت الصيد منها ، وقال مجاهد : نصب علم ومن قرأ بضمهما ، قال ابن زيد : أي أصنام منصوبة كانوا يعبدونها ، وقال الأخفش : هو جمع نصب كرهن ورهن والأنصاب جمع الجمع يوفضون يسرعون ، وقال أبو العالية يستبقون إلى غايات ، قال الشاعر :

فَوَارِسُ ذَبْيَانَ تَحْتَ الْحَدِيدِ بِدِ كَالِجَنِّ يُوفِضْنَ مِنْ عَبْقَرٍ^(١)

وقال آخر في معنى الإسراع :

لَأَنْعَتَنَّ نَعَامَةً مِيفَاضَا حَرْجَاءَ ظَلَّتْ تَطْلُبُ الْإِضَاضَا^(٢)

وقال ابن عباس وقاتدة : يسعون ، وقال الضحاك : ينطلقون ، وقال الحسن : يبتدرون ، وقرأ الجمهور ذلة منوناً ، (ذلك اليوم) برفع الميم مبتدأ وخبر ، وقرأ عبد الرحمن بن خلاد ، عن داود بن سالم ، عن يعقوب ، والحسن بن عبد الرحمن ، عن التمار (ذلة) بغير تنوين مضافاً إلى ذلك واليوم بخفض الميم .

(١) البيت من الرمل لمار بن منقذ العدوي انظر فتح القدير (٥/ ٢٩٥) .

(٢) البيت من الرجز لم نهند لقائله . انظر اللسان (خنص) .

سُورَةُ نُوحٍ

ترتيبها ٧١ آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا فِيْءَآذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيجعل لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا نَذَرُكَ الْهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُكَ وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا (٢٨)

الأطوار : الأحوال المختلفة قال :

فَإِنْ أَفَاقَ فَقَدْ طَارَتْ عَمَائِشُهُ وَالْمَرْءُ يُخْلَقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارٍ (١)

(١) انظر البيت في اللسان (طور) روح المعاني (٢٩/٩١) .

وَدَّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ونسراً ، أسماء ، أصنام أعلام لها اتخذها قوم نوح عليه السلام آلهة ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ، قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً ، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ، ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً ﴿ هذه السورة مكية ، ومناسبتها : لما قبلها ، أنه تعالى لما أقسم على أن يبدل خيراً منهم ، وكانوا قد سخرُوا من المؤمنين ، وكذبوا بما وعدوا به من العذاب ، ذكر قصة نوح وقومه معه ، وكانوا أشد تمرداً من المشركين فأخذهم الله أخذ استئصال ، حتى أنه لم يبق لهم نسلاً على وجه الأرض ، وكانوا عباد أصنام كمشركي مكة فحذر تعالى قريشاً أن يصيبهم عذاب يستأصلهم إن لم يؤمنوا ، ونوح عليه السلام أول نبي أرسل ، ويقال له شيخ المرسلين وآدم الثاني : وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه الصلاة والسلام ، (أن أنذر قومك) يجوز أن تكون (أن) مصدرية وأن تكون تفسيرية (عذاب أليم) قال ابن عباس : عذاب النار في الآخرة وقال الكلبي ما حل بهم من الطوفان (من ذنوبكم) من للتبعيض لأن الإيمان إنما يجز ما قبله من الذنوب لا ما بعده ، وقيل : لابتداء الغاية ، وقيل : زائدة وهو مذهب ، قال ابن عطية : كوفي ، وأقول : أخفشي ، لا كوفي ، لأنهم يشترطون أن تكون بعد من نكرة ، ولا يبالون بما قبلها من واجب أو غيره والأخفش يجوز مع الواجب وغيره ، وقيل : النكرة والمعرفة ، وقيل : لبيان الجنس ورد بأنه ليس قبلها ما تبينه ، قال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف قال ويؤخركم مع إخباره بامتناع تأخير الأجل وهل هذا إلا تناقض ؟ (قلت :) قضى الله مثلاً أن قوم نوح إن آمنوا عثّرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكتهم على رأس تسعمائة سنة ، فقبل لهم آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أي إلى وقت سماه الله تعالى وضر به أمداً تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف ، ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير انتهى . وقال ابن عطية : (ويؤخركم إلى أجل مسمى) مما تعلقت المعتزلة به في قولهم ، إن للإنسان أجلين ، قالوا : لو كان واحداً محدداً لما صح التأخير إن كان الحد قد بلغ ، ولا المعالجة إن كان لم يبلغ ، قال : وليس لهم في الآية تعلق ، لأن المعنى أن نوحاً عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم ، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير ، وإما ممن قضى له بالكفر والمعالجة ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) وجواب (لو) محذوف تقديره « لو كنتم تعلمون » لبادرتهم إلى عبادته وتقواه وطاعتي فيما جئتكم به منه تعالى ، ولما لم يجيبوه وآذوه شكاً إلى ربه شكوى من يعلم أن الله تعالى عالم بحاله مع قومه لما أمر بالإنذار فلم يجد فيهم (قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً) أي جميع الأوقات من غير فتور ولا تعطيل في وقت ولما ازدادوا إعراضاً ونفاراً عن الحق جعل الدعاء هو الذي زادهم إذ كان سبب الزيادة ، ومثله (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم) أي : ليتوبوا فتغفر لهم ذكر المسبب الذي هو حظهم خالصاً ليكون أقبح في إعراضهم عنه (جعلوا أصابعهم في آذانهم) والظاهر : أنه حقيقة سدوا مسامعهم حتى لا يسمعوا ما دعاهم إليه وتغطوا بشياهم حتى لا ينظروا إليه كراهة ، وبغضاً من سماع النصيح ، ورؤية الناصح . ويجوز أن يكون كناية عن المبالغة في إعراضهم عن ما دعاهم إليه ، فهم بمنزلة من سد سمعه ومنع بصره ، ثم كرر صفة دعائه ، بياناً ، رتوكيداً ، لما ذكر دعاءه عموم الأوقات ذكر عموم حالات الدعاء و (كلما دعوتهم) يدل على تكرار الدعوات فلم يبين حالة دعائه أولاً ، وظاهره أن

يكون دعاؤه ، إسراراً ، لأنه يكون ألطف بهم ولعلهم يقبلون منه كحال من ينصح في السر فإنه جدير أن يقبل منه ، فلما لم يُجد له الإسرار انتقل إلى أشد منه وهو دعاؤهم جهاراً صلة بالدعاء إلى الله لا يحاشي أحداً ، فلما لم يجد عاد إلى الإعلان وإلى الإسرار ، قال الزمخشري : ومعنى ثم الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما انتهى . وكثيراً كرر الزمخشري أن ثم للاستبعاد ولا نعلمه من كلام غيره^(١) . وانتصب (جهاراً) بدعوتهم وهو أحد نوعي الدعاء ، ويحيى فيه من الخلاف ما جاء في نصب هوميثي الخوزلي . قال الزمخشري : أولاً لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم ، ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا بمعنى دعاء جهاراً ، أي مجاهراً به ، أو مصدرراً في موضع الحال ، أي مجاهراً ، ثم أخبر أنه أمرهم بالاستغفار وأنهم إذا استغفروا دَرَّ لهم الرزق في الدنيا ، فقدم ما يسرهم وما هو أحب إليهم إذ النفس متشوفة إلى الحصول على العاجل ، كما قال تعالى ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ [الصف ١٣] ، ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [الأعراف ٩٦] ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾ [المائدة ٦٦] الآية ، ﴿ وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ﴾ [الجن ١٦] قال قتادة : كانوا أهل حب للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها ، وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرار الدعاء قحطوا ، وأعقم نسائهم ، فبدأهم في وعده بالمطر ، ثم ثنى بالأموال والبنين و (مدراراً) من الدر وهو صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث ، ومفعال لا تلحقه التاء إلا نادراً فيشترك فيه المذكر والمؤنث ، تقول : رجل محذبة ، ومطربة ، وامرأة محذابة ، ومطربة ، والسماء المطلة ، قيل لأن المطر ينزل منها إلى السحاب ويجوز أن يراد السحاب والمطر كقوله :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضٍ قَوْمٍ^(٢)

البيت « الرجاء » بمعنى الخوف وبمعنى الأمل ، فقال أبو عبيدة وغيره : (لا ترجون) لا تخافون ، قالوا : والوقار بمعنى العظمة والسلطان والكلام على هذا . وعيد وتخويف ، وقيل : لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً ، قال الزمخشري : والمعنى ما لكم لا تكونون على حال ما يكون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب ، و (الله) بيان للموقر ، ولو تأخر لكان صلة أو لا تخافون الله حلماً ، وترك معاجلة بالعقاب فتؤمنوا ، وقيل : ما لكم لا تخافون الله عظمة ، وعن ابن عباس : لا تخافون الله عاقبة ، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب من قر إذا ثبت واستقر انتهى ، وقيل : ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله ، وتلقاه وقاراً ويكون على هذا منهم كأنه يقول : تؤدو منكم وتمكنوا في النظر ، لأن الفكر مظنة الخفة والطيش وركوب الرأس انتهى وفي التحرير قال سعيد بن جبير : ما لكم لا ترجون الله ثواباً ، ولا تخافون عقاباً وقاله ابن جبير عن ابن عباس ، وقال العوفي عنه : ما لكم لا تعلمون الله عظمة ؟ وعن مجاهد ، والضحاك ما لكم لا تبالون الله عظمة ، قال قطرب : هذه لغة حجازية ، وهذيل ، وخزاعة ، ومضر يقولون : لم أرج : لم أبال انتهى (لا ترجون) حال (وقد خلقكم أطواراً) جملة حالية تحمل على الإيمان بالله وإفراده بالعبادة ، إذ في هذه الجملة الحالية التنبيه على تدريج الإنسان في أطوار لا يمكن أن تكون إلا من خلقه تعالى ، قال ابن عباس ، ومجاهد : من النطفة والعلق والمضغة ، وقيل :

(١) الجمهور على أن ثم تفيد المهلة بمعنى عدم اتصال معطوفها بما عطف عليه ، وقد ذكر الزمخشري هذا المعنى ، وهو الاستبعاد في ثم على أنه مجاز كونها للمهلة إذ الاستبعاد يستلزم التراخي في المنزلة ، وقال الرضي : وقد تحيى في الجمل خاصة لاستبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها ، وعدم مناسبتها له انظر الصبان (٣/٩٤) وشرح الكافية للرضي (٢/٣٦٧) فإنكار أبي حيان مبني على أن غير الزمخشري لم يذكر هذا المعنى ، قلت فقد تابع الزمخشري الرضي والشوكاني ، في فتح القدير (٥/٢٩٧) قال الشيخ سليمان الجمل : (ثم للدلالة على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار) .

(٢) تقدم .

في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخلقهم ومللهم ، وقيل : صبياناً ثم شباباً ثم شيوخاً وضعفاء ثم أقوياء ، وقيل : معنى (أطواراً) أنواعاً صحيحاً ، وسقيماً ، وبصيراً ، وضريراً ، وغنياً ، وفقيراً ، قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ، وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فَجَاجًا ، قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا ، وَمَكْرًا وَمَكْرًا كِبَارًا ، وَقَالُوا لَا تَذَرُنْ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنْ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ، مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ، وَقَالَ نُوحُ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَارًا ، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَرًا ، رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ لما نبههم نوح عليه السلام على الفكر في أنفسهم ، وكيف انتقلوا من حال إلى حال ، وكانت الأنفس أقرب ما يفكرون فيه منهم ، أرشدهم إلى الفكر في العالم علوه وسفله ، وما أودع تعالى فيه أي في العالم العلوي من هذين النيرين اللذين بهما قوام الوجود ، وتقدم شرح (طباقاً) في سورة الملك ، والضمير في (فيهن) عائد على السموات ويقال القمر في الساء الدنيا ، وصح كون السموات ظرفاً للقمر ، لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف ، تقول : زيد في المدينة ، وهو في جزء منها ، ولم تقيد الشمس بظرف فقيل : هي في الرابعة ، وقيل : في الخامسة ، وقيل : في الشتاء في الرابعة ، وفي الصيف : في السابعة ، وهذا شيء لا يوقف على معرفته إلا من علم الهيئة . ويذكر أصحاب هذا العلم أنه يقوم عندهم البراهين القاطعة على صحة ما يدعونه ، وأن في معرفة ذلك دلالة واضحة على عظمة الله ، وقدرته ، وباهر مصنوعاته (سراجاً) يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم ، ولم يبلغ القمر مبلغ الشمس في الإضاءة ولذلك جاء هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، والضياء أقوى من النور ، والإنبات استعارة في الإنشاء ، أنشأ آدم من الأرض ، وصارت ذريته منه ، فصح نسبتهم كلهم إلى أنهم أنبتوا منها . وانتصاب (نباتاً) بـ (أنبتكم) مصدرأ على حذف الزائد ، أي : أنباتاً ، أو على إضمار فعل أي فنبتم نباتاً ، وقال الزمخشري : المعنى أنبتكم فنبتم أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم . انتهى . ولا أعقل معنى هذا الوجه الثاني الذي ذكره (ثم يعيدكم فيها) أي : يصيركم فيها مقبورين (ويخرجكم إخراجاً) أي يوم القيامة ، وأكده بالمصدر أي ذلك واقع لا محالة (بساطاً) تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه . وظاهره أن الأرض ليست كروية بل هي مبسوطة (سبلاً) طرقاً (فجاجاً) متسعة . وتقدم الكلام على الفج في سورة الحج . ولما أصرروا على العصيان وعاملوه بأقبح الأقوال والأفعال (قال نوح رب إنهم عصوني) الضمير للجميع . وكان قد قال لهم وأطيعون . وكان قد أقام فيهم ما نص الله تعالى عليه ألف سنة إلا خمسين عاماً وكانوا قد وسع عليهم في الرزق بحيث كانوا يزرعون في الشهر مرتين واتبعوا أي عامتهم وسفلتهم إذ لا يصح عوده على الجميع في عبادة الأصنام (من لم يزد) أي : رؤساؤهم وكبرائهم وهم الذين كان ما تأكلوه من المال وما تكثروا به من الولد سبباً في خسارتهم في الآخرة ، وكان سبب هلاكهم في الدنيا وقرأ ابن الزبير ، والحسن ، والأعرج ، ومجاهد ، والأخوان ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع في رواية خارجة (وولده) بضم الواو ، وسكون اللام . والسلمي ، والحسن أيضاً وأبورجاء ، وابن وثاب ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر بفتحهما وهما لغتان كبخل وبخل والحسن أيضاً والجحدري ، وقتادة ، وزر ، وطلحة ، وابن أبي إسحاق ، وأبو عمرو في رواية بكسر الواو وسكون اللام ، وقال أبو حاتم : يمكن أن يكون الولد بالضم جمع الولد كخشب وخشب ، وقد قال حسان بن ثابت :

يَا بِكَرَ آمِنَةَ الْمُبَارَكِ بِكُرْهَا مِنْ وَلَدٍ مُحْصَنَةٍ بِسَعْدِ الْأَسْعَدِ^(١)

(١) البيت من الكامل انظر ديوانه (١٥٤) .

(ومكروا) يظهر أنه معطوف على صلة (من) وجمع الضمير في (ومكروا) وقالوا على المعنى ، ومكروهم : احتياهم في الدين وتحريش الناس على نوح عليه السلام ، وقرأ الجمهور (كِبَاراً) بتشديد الباء وهو بناء فيه مبالغة كثير ، قال عيسى ابن عمر : هي لغة يمانية وعليها قول الشاعر :

وَالْمَرْءُ يُلْحِقُهُ بِقُنَانِ النَّدَى خُلِقَ الْكَرِيمَ وَلَيْسَ بِالْوَضَاءِ^(١)

وقول الآخر :

بَيْضَاءُ تَضْطَادُّ الْقُلُوبَ وَتَسْتَبِي بِالْحُسْنِ قَلْبَ الْمُسْلِمِ الْقِرَاءِ^(٢)

ويقال : حسان وطوال وجمال ، وقرأ عيسى ، وابن محيصن ، وأبو السمال بخف الباء وهو بناء مبالغة ، وقرأ زيد بن علي ، وابن محيصن فيما روى عنه أبو الأخيرط وهب بن واضح (كِبَاراً) بكسر الكاف وفتح الباء ، وقال ابن الأنباري : هو جمع كبير كأنه جعل (مكراً) مكان ذنوب أو أفاعيل . انتهى . يعني فلذلك وصفه بالجمع ، وقالوا : أي كبراًؤهم لأنباعتهم ، أو قالوا : أي جميعهم بعضهم لبعض (لا تذرن) لا تتركن (آلهنكم) أي : أصنامكم وهو عام في جميع أصنامهم ، ثم خصوا بعد أكابر أصنامهم وهو (ودّ) وما عطف عليه . وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الزمان ، قال عروة بن الزبير : كانوا بني آدم ، وكان (ودّ) أكبرهم وأبرهم به ، وقال محمد بن كعب ، ومحمد بن قيس : كانوا بني آدم ونوح عليهما السلام ماتوا فصورت أشكالهم لتذكر أفعالهم الصالحة ، ثم هلك من صورهم وخلف من يعظمها ثم كذلك حتى عبدت ، قيل : انتقلت تلك الأصنام بأعيانها ، وقيل : بل الأسماء فقط إلى قبائل من العرب فكان ودّ لكلب بدومة الجندل ، وسواع لهذيل ، وقيل : لهمدان ، ويغوث لمراد ، وقيل : لمذحج ويعوق لهمدان ، وقيل : لمراد ، ونسر لحمير ، وقيل : لذي الكلاع من حمير ، ولذلك سمت العرب بعبد ودّ ، وعبد يغوث ، وما وقع من هذا الخلاف في سواع ، ويغوث ، ويعوق يمكن أن يكون لكل واحد منها صنم يسمى بهذا الاسم إذ يبعد بقاء أعيان تلك الأصنام فإنما بقيت الأسماء فسموا أصنامهم بها . قال أبو عثمان النهدي : رأيت يغوث وكان من رصاص يحمل على جل أجرد يسيرون معه لا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك ، فإذا برك نزلوا ، وقالوا رضي لكم المنزل فينزلون حوله ويضربون له بناء انتهى . وقال الثعلبي : كان يغوث لكهلان من سبأ يتوارثونه ، حتى صار في همدان وفيه يقول مالك بن نط الهمداني :

يَرِيشُ اللَّهُ فِي السُّنْيَا وَيَبْرِي وَلَا يَبْرِي يَغُوثُ وَلَا يَرِيشُ^(٣)

وقال الماوردي « ود » اسم صنم معبود سمي وداً لودهم له . انتهى . وقيل : كان ود على صورة رجل وسواع ، على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . وهذا مناف لما تقدم من أنهم صوروا صور ناس صالحين ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة بخلافهم عنهم (ودّاً) بضم الواو ، والحسن ، والأعشى ، وطلحة وياقي السبعة بفتحها قال الشاعر :

(١) البيت من الكامل لأبي صدقة الدبيري انظر القرطبي (١٨/١٩٨) روح المعاني (٢٩/٩٥) اللسان (وضاً) .

(٢) البيت من الكامل لأبي صدقة الدبيري انظر اللسان (قرأ) القرطبي (١٨/١٩٨) روح المعاني (٢٩/٩٥) .

(٣) تقدم .

حَيَّاكَ وَدُّ فَإِنَّا لَا يَحِلُّ لَنَا لَهُمُ النِّسَاءُ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَّا^(١)

وقال آخر :

فَحَيَّاكَ وَدُّ مَنْ هَذَاكَ لَعَسَه وَخُوصَ بِأَعْلَا ذِي فَضَالَةِ هَجَه^(٢)

قيل أراد ذلك الصنم ، وقرأ الجمهور (ولا يغوث ويعوق) بغير تنوين ، فإن كانا عربيين فمنع الصرف للعلمية ووزن الفعل ، وإن كانا عجميين فللعجمة والعلمية ، وقرأ الأشهب (ولا يغوثاً ويعوقاً) بتنوينها قال صاحب اللوامح جعلهما فعولاً فلذلك صرفهما ، فأما في العامة فإنها صفتان من الغوث والعوق بفعل منهما ، وهما معرفتان فلذلك منع الصرف لاجتماع الفعلين اللذين هما تعريف ومشابهة الفعل المستقبل انتهى . وهذا تحبيط ، أما أولاً : فلا يمكن أن يكونا فعولاً ، لأن مادة يغث مفقودة وكذلك يعق ، وأما ثانياً فليسوا بصفتين من الغوث والعوق لأن يفعلاً لم يحىء اسماً ولا صفة وإنما امتنعا من الصرف لما ذكرناه ، وقال ابن عطية : وقرأ الأعمش (ولا يغوثاً ويعوقاً) بالصرف وذلك وهم ، لأن التعريف لازم ووزن الفعل انتهى . وليس ذلك بوهم ولم ينفرد الأعمش بذلك بل قد وافقه الأشهب العقيلي على ذلك ، وتخريجه على أحد الوجهين أحدهما : أنه جاء على لغة من يصرف جميع ما لا ينصرف عند عامة العرب وذلك لغة ، وقد حكاها الكسائي وغيره . والثاني أنه صُرف لمناسبة ما قبله وما بعده من المنون إذ قبله (ودأ) (ولا سواعاً) وبعده (ونسراً) كما قالوا في صرف (سلاسل) و (قوارير) (قوارير) لمن صرف ذلك للمناسبة ، وقال الزمخشري : وهذه قراءة مشكلة ، لأنها إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما منع الصرف ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات (ودأ وسواعاً ونسراً) كما قرئ (وضحاها) بالإمالة لوقوعه مع المالمات للازدواج انتهى . وكأن الزمخشري لم يدر أن ثم لغة لبعض العرب تصرف كل ما لا ينصرف عند عامتهم فلذلك استشكلها ، (وقد أضلوا) أي : الرؤساء المتبوعون (كثيراً) من أتباعهم وعامتهم وهذا إخبار من نوح عليه السلام عنهم بما جرى على أيديهم من الضلال ، وقال الحسن : (وقد أضلوا) أي : الأصنام عاد الضمير عليها كما يعود على العقلاء كقوله تعالى (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) ويحسنه عوده على أقرب مذكور ، ولكن عوده على الرؤساء أظهر ، إذ هم المحدث عنهم والمعنى فيهم أمكن ولما أخبر أنهم قد أضلوا كثيراً دعا عليهم بالضلال ، فقال ولا تزدد وهي معطوفة على (وقد أضلوا) إذ تقديره وقال وقد أضلوا كثيراً فهي معمولة لقال المضمرة المحكي بها قوله وقد أضلوا ولا يشترط التناسب في عطف الجمل بل قد يعطف جملة الإنشاء على جملة الخبر والعكس خلافاً لمن يدعي التناسب ، وقال الزمخشري : ما تلخصه : عطف (ولا تزدد) على (رب إنهم عصوني) أي : قال هذين القولين ، (إلا ضلالاً) قال الزمخشري : (فإن قلت : كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته (قلت :) المراد بالضلال أن يخذلوا ويمنعوا اللطاف ، لتصميمهم على الكفر ، ووقوع اليأس من إيمانهم وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به ، بل لا يحسن الدعاء بخلافه انتهى . وذلك على مذهب الاعتزال ، قال : ويجوز أن يراد بالضلال الضياع والهلاك ، كما قال (ولا تزدد الظالمين إلا تباراً) ، وقال ابن بحر : (إلا ضلالاً) إلا عذاباً قال : كقوله : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ [القمر ٤٧] ، وقيل : إلا خسراً ، وقيل : إلا ضلالاً في أمر دنياهم ، وترويع مكرهم وحيلهم ، وقرأ الجمهور (مما خطيئاتهم) جمعاً بالآلف والتاء مهموزاً . وأبو رجاء كذلك إلا أنه أبدل الهمزة ياء وأدغم فيها ياء المد . والجحدري وعبيد عن أبي عمرو على الأفراد مهموزاً ، والحسن ، وعيسى ، والأعرج بخلاف عنهم

(١) البيت من المنسرح لم نهند لقائله انظر القرطبي (١٨/١٩٩) فتح القدير (٥/٣٠١) .

(٢) البيت من الوافر لم نهند لقائله ذكره السمين في الدر المصون .

وأبو عمرو (خطاياهم) جمع تكسير وهذا إخبار من الله تعالى للرسول عليه الصلاة والسلام بأن دعوة نوح عليه السلام قد أجبت و (ما) زائدة للتوكيد ، قال ابن عطية : لا ابتداء الغاية ، ولا يظهر إلا أنها للسبب ، وقرأ عبد الله (من خطيئاتهم ما أغرقوا) بزيادة (ما) بين (أغرقوا) و (خطيئاتهم) ، وقرأ الجمهور أغرقوا بالهمزة وزيد بن عليّ (غرقوا) بالتشديد وكلاهما للنقل وخطيئاتهم الشرك وما انجر معه من الكبائر فأدخلوا ناراً أي جهنم وعبر عن المستقبل بالماضي لتحقيقه وعطف بالفاء على إرادة الحكم أو عبر بالدخول عن عرضهم على النار غداً وعشياً كما قال النار يعرضون عليها ، قال الزمخشري : أو أريد عذاب القبر انتهى ، وقال الضحاك : كانوا يفرقون من جانب ويحرقون بالنار من جانب (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) تعريض بانتفاء قدرة آهتهم عن نصرهم ودعاء نوح عليه الصلاة والسلام بعد أن أوحى إليه ﷺ انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿ [هود ٣٦] ﴾ قاله قتادة ، وعنه أيضاً ما دعا عليهم إلا بعد أن أخرج الله كل مؤمن من الأصاب ، وأعقم أرحام نسائهم ، وهذا لا يظهر ، لأنه قال (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) الآية فقله (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) يدل على أنه لم يعقم أرحام نسائهم ، وقاله أيضاً محمد بن كعب والربيع ، وابن زيد ، ولا يظهر كما قلنا وقد كان قبل ذلك طامعاً في إيمانهم عاطفاً عليهم ، وفي الحديث : أنه ربما ضربه ناس منهم أحياناً حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون و (دياراً) من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي وما أشبهه ، ووزنه فيعال أصله ذيوار اجتمعت الياء والواو وسُبقت إحداهما بالسكون فأدغمت ويقال منه دوار ووزنه فعال وكلاهما من الدوران كما قالوا قيام وقوام والمعنى واحد وعن السدي من سكن داراً ، وقال الزمخشري : وهو فيعال من الدور ، أو من الدار . انتهى . والدار أيضاً من الدور ، وألفها منقبة عن واو (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) وصفهم وهم حالة الولادة بما يصيرون إليه من الفجور والكفر ، ولما دعا على الكفار استغفر للمؤمنين ، فبدأ بنفسه ، ثم بمن وجب برّه عليه ثم للمؤمنين فكان هو ووالداه اندرجوا في المؤمنين والمؤمنات ، وقرأ الجمهور (ولوالدي) أنها أبوه لك بن متوشلخ وأمه شمخاء بنت أنوش ، وقيل : هما آدم وحواء ، وقرأ ابن جبير ، والجحدري (ولوالدي) بكسر الدال ، فيما أن يكون خص أباه الأقرب ، أو أراد جميع من ولدوه إلى آدم عليه السلام ، وقال ابن عباس : لم يكفر لنوح عليه السلام أب ما بينه وبين آدم عليه السلام ، وقرأ الحسين بن عليّ ، ويحيى بن يعمر ، والنخعي ، والزهري ، وزيد بن عليّ (ولولدي) تشنية ولد يعني ساماً وحاماً ، (ولن دخل بيتي) قال ابن عباس ، والجمهور مسجدي ، وعن ابن عباس أيضاً شريعتي استعار لها بيتاً ، كما قالوا قبة الإسلام وفسطاطه ، وقيل : سفينته ، وقيل : داره (وللمؤمنين والمؤمنات) دعا لكل مؤمن ومؤمنة في كل أمة ، والتبار : الهلاك .

سورة الجن مكية وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ
 بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
 وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
 رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرِّ سَاشِدِيدًا
 وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعْ فَأَن لَّيُبْجِدَ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ
 أَرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا
 ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنِ تُعْجِزَهُمْ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا
 يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾
 وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوِ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لَتَفْنِينَ فِيهِ
 وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَن الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ
 عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
 وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِي وَمَن
 يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَن أَضْعَفُ
 نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا
 يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرَضَىٰ مِّن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ
 أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

الجد : لغة العظمة والجلال وجد في عيني : عظم وجل ، وقال أبو عبيدة ، والأخفش : الملك والسلطان ، والجد : الحظ ، والجد : أبو الأب ، الحرس : اسم جمع الواحد حارس كغيب واحد غائب وقد جمع على أحراس ، قال الشاعر : تجاوزت أحراساً وأهوالاً معشر^(١) كشاهد وأشهد الحارس : الحافظ للشيء يرقبه ، القدد : السير المختلفة الوحدة قدة .

قال الشاعر :

الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْهَادِي بِطَاعَتِهِ فِي قُنْيَةِ النَّاسِ إِذْ أَهْوَأُوهُمْ قَدَدُ^(٢)

وقال الكمي :

جَمَعْتُ بِالرَّأْيِ مِنْهُمْ كُلَّ رَافِضَةٍ إِذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قَدَدُ^(٣)

تحرى الشيء : طلبه باجتهاد ، وتوخاه وقصده ، الغدق : الكثير ، اللبد : جمع لبدة وهو تراكم بعضه فوق بعض ومنه لبدة الأسد ، ويقال للجراد الكثير المتراكم لبد ، ومنه اللبد الذي يفرش يلبد صوفه دخل بعضه في بعض ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنوا به ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً ، وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لا ندرى أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً ، وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ، وأنا لما سمعنا الهدى آمناً به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾

هذه السورة مكية ، ووجه مناسبتها لما قبلها : أنه لما حكى تمادي قوم نوح في الكفر ، وعكوفهم على عبادة الأصنام ، وكان عليه الصلاة والسلام أول رسول إلى الأرض ، كما أن محمداً ﷺ آخر رسول إلى الأرض ، والعرب الذي هو منهم عليه الصلاة والسلام كانوا عباد أصنام ، كقوم نوح ، حتى انهم عبدوا أصناماً مثل أصنام أولئك في الأساء وكان ما جاء به محمد ﷺ من القرآن هادياً إلى الرشد ، وقد سمعته العرب وتوقف عن الإيمان به أكثرهم أنزل الله تعالى سورة الجن إثر سورة نوح تبكيّاً لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان ، إذ كانت الجن خيراً لهم ، وأقبل للإيمان ، هذا وهم من غير جنس الرسول ﷺ ومع ذلك فبنفس ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به للوقت وعرفوا أنه ليس من نمط كلام الناس بخلاف العرب فإنه نزل بلسانهم وعرفوا كونه معجزاً وهم مع ذلك مكذبون له ولمن جاء به حسداً وبغياً (أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ، وقرأ الجمهور (قل أوحى) رباعياً ، وابن أبي عبلة ، والعتيكي عن أبي عمرو ، وأبو إياس جوية بن عائذ الأسدي (وحي) ثلاثياً يقال : وحي وأوحى بمعنى واحد ، قال العجاج :

(١) صدر بيت من الطويل لامرئ القيس وعجزه (عليّ حراساً لو يسروا مقتلي) انظر ديوانه (١٣) .

(٢) البيت من البسيط لم نهند لقائله انظر روح المعاني (١١٠/٢٩) القرطبي (١١/١٩) .

(٣) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المنصور .

وَحَىٰ إِلَيْهَا الْقَرَارُ فَاسْتَقَرَّتْ^(١)

وقرأ زيد بن عليّ ، وجوية فيما روى عن الكسائي ، وابن أبي عبله ، أيضاً أحيى بإبدال الواو همزة ، كما قالوا في وعد اعد ، وقال الزمخشري : وهو من القلب المطلق ، جوازه في كل واو مضمومة انتهى . وليس كما ذكر ، بل في ذلك تفصيل ، وذلك أن الواو المضمومة قد تكون أولاً ، وحشواً ، وآخر ، ولكل منها أحكام وفي بعضها خلاف وتفصيل مذكور في النحو ، قال الزمخشري : وقد أطلقه المازني في المكسور أيضاً كإشاح ، وإسادة ، وإعاء أخيه . انتهى . وهذا تكثير وتبجح ، وكان يذكر هذا في وعاء أخيه في سورة يوسف ، وعن المازني في ذلك قولان : أحدهما : القياس كما قال ، والآخر : قصر ذلك على السماع ، و (أنه استمع) في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله أي استماع نفر من الجن والمشهور : أن هذا الاستماع هو المذكور في الأحقاف في قوله تعالى (واذا صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) وهي قصة واحدة ، وقيل : قصتان ، والجن الذين أتوه بمكة جن نصيبين ، والذين أتوه بنخلة جن نينوى ، والسورة التي استمعوها قال عكرمة (اقرأ باسم ربك) وقيل : سورة الرحمن ، ولم تتعرض الآية لا هنا ولا في سورة الأحقاف ، إلى أنه رأهم وكلمهم عليه الصلاة والسلام ، ويظهر من الحديث أن ذلك كان مرتين إحداها في مبدأ مبعث رسول الله ﷺ وهو في الوقت الذي أخبر فيه عبد الله بن مسعود أنه لم يكن معه ليلة الجن ، وقد كانوا فقدوه عليه الصلاة والسلام فالتمسوه في الأودية والشعاب فلم يجدهوه فلما أصبح إذا هو جاء من قبل حراء وفيه : أتاني داعي الجن فذهبت معه وقرأت عليهم القرآن ، فانطلق بنا ، وأرانا آثارهم وآثار نارهم ، والمرة الأخرى كان معه ابن مسعود ، وقد استندب ﷺ من يقوم معه إلى أن يتلو القرآن على الجن فلم يقدّم أحد غير عبد الله بن مسعود فذهب معه إلى الحجون عند الشعب ، فخط عليه خطاً وقال : لا تجاوزه فانحدر عليه ﷺ أمثال الحجر يجرون الحجارة بأقدامهم يمضون يقرعون في دفوفهم ، كما تفرغ النسوة في دفوفهن حتى غشوه فلا أراه فقمت ، فأومأ إليّ بيده أن اجلس ، فتلا القرآن ، فلم يزل صوته يرتفع ، واختفوا في الأرض حتى ما أراهم ؛ الحديث . ويدل على أنها قصتان اختلافهم في العدد فقليل : سبعة ، وقيل : تسعة . وعن زر : كانوا ثلاثة من أهل حران ، وأربعة من أهل نصيبين قرية باليمن غير القرية التي بالعراق ، وعن عكرمة : كانوا اثني عشر ألفاً من جزيرة الموصل ، وأين سبعة من اثني عشر ألفاً (فقالوا إنا سمعنا قرأناً عجياً) أي قالوا لقومهم لما رجعوا إليهم ووصفوا قرأناً بقولهم (عجياً) وصفاً بالمصدر على سبيل المبالغة ، أي : هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه ، وحسن مبانيه ، ودقة معانيه ، وغرابة أسلوبه ، ومواعظه ، وكونه مبيناً لساائر الكتب . « والعجب » ما خرج عن أحد أشكاله ونظائره ، (يهدي إلى الرشd) أي يدعو إلى الصواب ، وقيل : إلى التوحيد والإيمان ، وقرأ الجمهور (الرشd) بضم الراء وسكون الشين ، وعيسى بضمهماء وعنه أيضاً فتحها (فآمنا به) أي : القرآن ، ولما كان الإيمان به متضمناً للإيمان بالله ويوحدانيته وبراءة من الشرك قالوا (ولن نشرك بربنا أحداً) ، وقرأ الحريمان ، والأبوان بفتح الهمزة من قوله (وأنه تعالى) وما بعده وهي اثنتا عشرة آية آخرها (وأنامنا المسلمون) وباقي السبعة بالكسر فأما الكسر : فواضح لأنها معطوفات على قوله (إنا سمعنا) فهي داخلة في معمول القول ، وأما الفتح : فقال أبو حاتم : هو على أوحى فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله . انتهى . وهذا لا يصح لأن من المعطوفات ما لا يصح دخوله تحت أوحى وهو كل ما كان فيه ضمير المتكلم كقوله (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) ألا ترى أنه لا يلائم (أوحى إليّ) (أنا كنا نقعد منها مقاعد) وكذلك باقيها ، وخرجت قراءة الفتح على أن تلك كلها معطوفة على الضمير المجزور في (به) من قوله (فآمنا به) أي وبأنه ، وكذلك باقيها ، وهذا جائز على مذهب الكوفيين وهو الصحيح . وقد تقدم احتجاجنا على صحة ذلك في قوله : ﴿ وكفر به والمسجد الحرام ﴾

(١) صدر بيت من الرجز انظر الديوان (٥) اللسان (عنا - وحى) المحتسب (٢/ ٣٣١) .

[البقرة ٢١٧] ، وقال مكي : هو أجود في « أن » منه في غيرها ، لكثرة حذف حرف الجر مع ان ، وقال الزجاج : وجهه أن يكون محمولاً على (آمنا به) لأن معناه صدقناه وعلمناه فيكون المعنى « فأما به أنه تعالى جد ربنا » وسبقه إلى نحوه الفراء ، قال : فُتحت أن لوقوع الإيمان عليها ، وأنت تجد الإيمان يحسن في بعض ما فتح دون بعض فلا يمنعك ذلك من إضائهن على الفتح فإنه يحسن فيه ما يوجب فتح « أن » نحو صدقنا وشهدنا ، وأشار الفراء إلى أن بعض ما فتح لا يناسب تسليط آمنا عليه نحو قوله : (وإنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً) وتبعهما الزمخشري ، فقال : ومن فتح كلهن فِعْطاً على محل الجار والمجرور في (آمنا به) كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يقول سفيهاً وكذلك البواقي . انتهى . ولم يتفطن لما تفطن له الفراء من أن بعضها لا يحسن أن يعمل فيه (آمنا) ، وقرأ الجمهور (جَدُّ رَبِّنا) بفتح الجيم ورفع الدال مضافاً إلى ربنا أي عظمته قاله الجمهور ، وقال أنس والحسن : غناه ، وقال مجاهد : ذكره ، وقال ابن عباس : قدره وأمره ، وقرأ عكرمة (جَدُّ) منوناً (رَبُّنا) مرفوع الباء ، كأنه قال : عظيم هو ربنا فربنا بدل ، والجد : في اللغة العظيم ، وقرأ حميد بن قيس (جُد) بضم الجيم مضافاً ومعناه : العظيم حكاه سيبويه ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والمعنى تعالى ربنا العظيم ، وقرأ عكرمة (جَدُّاً رَبُّنا) بفتح الجيم والدال منوناً ورفع (ربنا) وانتصب (جَدُّاً) على التمييز المنقول من الفاعل أصله تعالى (جد ربنا) ، وقرأ قتادة وعكرمة أيضاً جَدُّاً بكسر الجيم والتنوين نصباً ربنا رفع ، قال ابن عطية : نصب جَدُّاً على الحال ، ومعناه تعالى : حقيقة و متمكناً ، وقال غيره ، هو صفة لمصدر محذوف تقديره : تعالياً جَدُّاً ، وربنا مرفوع بتعالى ، وقرأ ابن السميع (جدى ربنا) أي جدواه ونفعه ، وقرأ الجمهور (يقول سفيهاً) هو إبليس ، وقيل : هو اسم جنس لكل سفيه وإبليس مقدم السفهاء والشطط التعدي وتجاوز الحد ، قال الأعشى :

أَبْنَتْهُونَ وَلَنْ يَنْهَى دَوُو شَطَطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّزْتُ وَالْقَتْلُ

ويقال أشط في السوم : إذا أبعد فيه ، أي قولاً هو في نفسه شطط ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى (وأنا ظننا) الآية كنا أحسننا الظن بالإنس والجن واعتقدنا أن أحداً لا يجترئ على أن يكذب على الله فينسب إليه الصاحبة والولد فاعتقدنا صحة ما أغوانا به إبليس ومردته حتى سمعنا القرآن فبيننا كذبهم ، وقرأ الجمهور (أن لن تقول) مضارع قال . والحسن ، والجحدري ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ، ويعقوب ، وابن مقسم (تقول) مضارع تقول ، حذف إحدى التاءين وانتصب كذباً في قراءة الجمهور بتقول لأن الكذب نوع من القول ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي : قولاً كذباً أي : مكذوباً فيه ، وفي قراءة الشاذ على أنه مصدر لتقول ، لأنه هو الكذب فصار كقعدت جلوساً (وأنه كان رجال) ، روى الجمهور أن الرجل كان إذا أراد المبيت أو الحلول في واد نادى بأعلى صوته : يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك ، فيعتقد بذلك أن الجنى الذي بالوادي يمنعه ويحميه ، فروي أن الجن كانت تقول عند ذلك لا غم لك لكم ولا لأنفسنا من الله شيئاً ، قال مقاتل : أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ، ثم بنو حنيفة ، ثم فشا ذلك في العرب ، والظاهر : أن الضمير المرفوع في (فزادوهم) عائد على رجال من الإنس ، إذ هم المحدث عنهم ، وهو قول مجاهد والنخعي وعبيد بن عمير (فزادوهم) أي : الإنس (رهقاً) أي جراءة وانتشاء وطغياناً وغشيان المحارم وإعجاباً بحيث قالوا سدنا الإنس والجن وفسر قوم الرهق بالإثم ، وأنشد الطبري في ذلك بيت الأعشى :

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُؤْيَيْهَا لَا يَسْتَفِينِي وَامِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقاً^(١)

(١) انظر البيت في روح المعاني (١٠٦/٢٩) القرطبي (١٢٠٨/١٨) .

قال معناه ما لم يغش محرمًا ، والمعنى : زادت الإنس الجن مأثمًا ، لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً لمحارم الله تعالى ، وقال قتادة وأبو العالية والربيع وابن زيد (فزادوهم) أي الجن زادت الإنس مخافة يتخيلون لهم بمنتهى طاقتهم ويغوونهم لما رأوا من خفة أحلامهم فازدروهم واحتقروهم ، وقال ابن جبير (رهقاً) كفرًا ، وقيل : لا يطلق لفظ الرجال على الجن ، فالمعنى : وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس ، وكان الرجل يقول مثلاً : أعوذ بحذيفة بن اليمان من جن هذا الوادي ، وهذا قول غريب ، (وأنهم) أي كفار الإنس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن يخاطب به بعضهم بعضاً وظنوا وظننتم كل منهما يطلب (أن لن يبعث) فالمسألة من باب الاعمال و (أن) هي المخففة من الثقيلة ، وقيل : الضمير في (وأنهم) يعود على الجن ، والخطاب في (ظننتم) لقريش ، وهذه والتي قبلها هما من الموحى به لا من كلام الجن (أن لن يبعث الله أحداً) الظاهر أنه بعثة الرسالة إلى الخلق ، وهو أنسب لما تقدم من الآي ولما تأخر ، وقيل : بعث القيامة ، (وأنا لمسنا السماء) أصل اللمس : المس ثم استعير للطلب والمعنى : طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها (فوجدناها ملئت) الظاهر : أن وجد : هنا بمعنى صادف وأصاب وتعدت إلى واحد والجملة من ملئت في موضع الحال ، وأجيز أن تكون تعدت إلى اثنين فملئت في موضع المفعول الثاني ، وقرأ الأعرج (ملئت) بالياء دون همز والجمهور بالهمز و (شديداً) صفة للحرس على اللفظ لأنه اسم جمع كما قال :

أَخْشَى رُجَيْلًا أَوْ رَكِيئًا عَادِيًا^(١)

ولو لحظ المعنى لقال شداداً بالجمع والظاهر : أن المراد بالحرس : الملائكة أي حافظين من أن تقربها الشياطين و (شهباً) جمع شهاب وهو ما يرجم به الشياطين إذا استمعوا ، قيل : ويحتمل أن يكون الشهب هم الحرس ، وكرر المعنى لما اختلف اللفظ نحو .

وَهِنْدُ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّائِي وَالْبُعْدُ^(٢)

وقوله (فوجدناها ملئت) بدل : على أنها كانت قبل ذلك يطرقون السماء ولا يجدونها قد ملئت ، (مقاعد) جمع مقعد ، وقد فسر رسول الله ﷺ صورة قعود الجن : أنهم كانوا واحداً فوق واحد ، فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه ، فكانوا يسترقون الكلمة ، فيلقونها إلى الكهان ، ويزيدون معها ثم يزيد الكهان الكلمة مائة كذبة (فمن يستمع الآن) الآن ظرف زمان للحال ويستمع مستقبل فاتسع في الظرف واستعمل للاستقبال كما قال :

سَأَسْعَى الْآنَ إِذْ بَلَغْتَ إِنَاهَا^(٣)

فالمعنى : فمن يقع منه استماع في الزمان الآتي (يجد له شهاباً رصداً) أي يرصده فيحرقه هذا لمن استمع ، وأما السمع فقد انقطع كما قال تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ [الشعراء ٢١٢] والرجم : كان في الجاهلية وذلك مذكور

(١) شطر بيت من الطويل لعبد بن يغوث بن وقاص الحارثي وبعده (والذئب أخشاه وكلباً عاويًا) انظر اللسان (رجل) روح المعاني (١٠٨/٢٩) الكشف (٦٢٤/٤) .

(٢) البيت من الوافر للحطيئة وتماه (ألا حبذا هند وأرض بها هند) انظر اللسان (نأى) وابن يعيش (١٠/١ - ٧٠) الهمع (٨٨/٢) شرح القصائد (٣٢١) .

(٣) عجز بيت من الوافر لم نهتد لقائله وصدره :

فإنني لست خاذلكم ولكنني

انظر الدسوقي على المغني (١٤٩/١) .

في أشعارهم ، ويدل عليه الحديث حين رأى عليه الصلاة والسلام نجماً قد رمي به قال : ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية ؟ قالوا ، كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم ، قال أوس بن حجر :

وَأَنْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ نَقْعُ يَثُورُ بِحَالَةٍ طُنْبَا^(١)

وقال عوف بن الجزع :

فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعِيرَ مِنْ دُونِ إِيْفِهِ أَوْ الثَّوَرَ كَالدَّرِيِّ يَتَّبِعُهُ الدَّمُ^(٢)

وقال بشر بن أبي حازم :

وَالْعِيرُ يَرْهَقُهَا الْغُبَارُ وَجَحَشُهَا يَنْقُضُ خَلْفَهُمَا انْقِضَاصَ الْكَوْكَبِ^(٣)

قال التبريزي : وهؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ليس فيهم مخضرم ، وقال معمر : قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال : نعم ، قلت : أرايت قوله (وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) فقال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ وقال الجاحظ : القول بالرمي أصح لقوله (فوجدناها ملئت) وهذا إخبار عن الجن أنه زيد في حرس السماء حتى امتلأت ولما روى ابن عباس وذكر الحديث السابق ، وقال الزمخشري : تابعا للجاحظ . وفي قوله دليل على أن الحرس هو الملء والكثرة ، فلذلك نقعد منها مقاعد أي كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها انتهى . وهذا كله يبطل قول من قال إن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله ﷺ ، وهو إحدى آياته ، والظاهر : أن رصداً على معنى ذوي شهاب راصدين بالرجم ، وهم الملائكة الذين يرمونهم بالشهب ، ويمنعونهم من الاستماع ، ولما رأوا ما حدث من كثرة الرجم ومنع الاستراق قالوا (وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض) وهو كفرهم بهذا النبي ﷺ فينزل بهم الشر (أم أراد بهم ربهم رشداً) فيؤمنون به فيرشدون وحين ذكروا الشر لم يسندوه إلى الله تعالى وحين ذكروا الرشد أسندوه إليه تعالى ، (وأنا منا الصالحون) أخبروا بما هم عليه من صلاح وغيره ، (ومنا دون ذلك) أي : دون الصالحين ، ويقع (دون) في مواضع موقع غير فكأنه قال (ومنا) غير صالحين ، ويجوز أن يريدوا (ومنا دون ذلك) في الصلاح ، أي : فيهم أبرار ، وفيهم من هو غير كامل في الصلاح و (دون) في موضع الصفة لمحذوف ، أي : ومنا قوم دون ذلك ، ويجوز حذف هذا الموصوف في التفصيل بمن حتى في الجمل ، قالوا : منا ظعن ومنا أقام ، يريدون منا فريق ظعن ومنا فريق أقام ، والجملة من قوله (كنا طرائق قدداً) تفسير للقسمة المتقدمة ، قال ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، أهواء مختلفة ، وقيل : فرقا مختلفة ، وقال الزمخشري : أي كنا ذوي مذاهب مختلفة ، أو كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة ، أو كنا في طرائق مختلفة كقوله :

كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثُّعْلَبُ^(٤)

أو كانت طرائقنا قدداً على حذف المضاف الذي هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه ، انتهى . وفي تقديره الأولين حذف المضاف من (طرائق) وإقامة المضاف إليه مقامه ، إذ حذف ذوي ومثل ، وأما التقدير الثالث : وهو

(١) انظر البيت في القرطبي (١٩/١٠) روح المعاني (٢٩/١٠٩) الكشف (٤/٦٢٦) .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١١١) الكشف (٤/٦٢٦) .

(٣) انظر البيت في الكشف (٤/٦٢٥) .

(٤) تقدم .

أن ينتصب على إسقاط (في) فلا يجوز ذلك إلا في الضرورة ، وقد نص سيبويه على أن « غسل الطريق » شاذ فلا يخرج القرآن عليه (وأنا ظننا أن لن نعجز الله) أي أيقنا في الأرض أي كائنين (في الأرض ولن نعجزه هرباً) أي من الأرض إلى السماء و (في الأرض) و (هرباً) حالان أي فارين أو هارين ، (وانا لما سمعنا الهدى) وهو القرآن (آمنا) به أي بالقرآن (فمن يؤمن بربه فلا يخاف) أي فهو لا يخاف ، وقرأ ابن وثاب ، والأعمش ، والجمهور (فلا يخاف) وخُرِجَتْ قراءتهما على النفي ، وقيل : الفاء زائدة ولا نفي وليس بشيء وكان الجواب بالفاء أجود من المجيء بالفعل مجزوماً دون الفاء ، لأنه إذا كان بالفاء كان على إضمار مبتدأ ، أي : فهو لا يخاف ، والجملة الاسمية أدل وأكد من الفعلية على تحقق مضمون الجملة (بخساً) قال ابن عباس نقص الحسنات (ولا رهقاً) قال زيادة في السيئات ولا رهقاً قيل تحميل ما لا يطاق ، وقال الزمخشري : أي جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخص أحداً ، ولا رهق ظلم أحد فلا يخاف جزاءهما ، ويجوز أن يراد فلا يخاف أن يبخص بل يجوز الجزاء الأوفى ولا أن ترهقه ذلة من قوله : ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ [القلم ٤٣] انتهى . وقرأ الجمهور (بخساً) بسكون الخاء . وابن وثاب بفتحها (ومنا القاسطون) أي الكافرون الجاثرون عن الحق ، قال مجاهد وقتادة : القاسط الظالم ومنه قول الشاعر :

قَوْمٌ هُمْ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدٍ عَنَوَةً وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى النُّعْمَانِ^(١)

وجاء هذا التقسيم وإن كان قد تقدم (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك) ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة ، ويرغب من يدخل في الإسلام . والظاهر : أن (فمن أسلم) إلى آخر الشرطين من كلام الجن ، وقال ابن عطية : الوجه أن يكون (فمن أسلم) مخاطبة من الله تعالى لمحمد ﷺ ويؤيده ما بعده من الآيات ، وقرأ الأعرج (رُشداً) بضم الراء وسكون الشين ، والجمهور بفتحها ، وقال الزمخشري : وقد زعم من لا يرى للجن ثواباً أن الله تعالى أوعدهم قاسطتهم ، وما وعد مسلميهم وكفى به وعيداً . أي : (فأولئك تحروا رشداً) فذكر سبب الثواب وموجبه ، والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد . انتهى . وفيه دسيعة الاعتزال في قوله وموجبه .

قوله عز وجل : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً ، وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحداً ، قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً ، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً حتى إذا رَأَوْا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ .

هذا من جملة الموحى المندرج تحت (أوحى إلي) و (أن) مخففة من الثقيلة ، والضمير في (استقاموا) قال الضحاك ، والربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، وأبو مجلز : هو عائذ على قوله (فمن أسلم) و (الطريقة) طريقة الكفر أي : لو كفر من أسلم من الناس (لأسقيناهم) إملاء لهم واستدرجاً واستعارة الاستقامة للكفر قلقة لا تناسب ، وقال ابن عباس : ومجاهد ، وقتادة ، وابن جبير : هو عائذ على القاسطين ، والمعنى : على الطريقة الإسلام والحق لأنعمنا عليهم نحو قوله (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) الآية ، وقيل : الضمير في (استقاموا) عائذ على الخلق كلهم ، (وأن) هي

المخففة من الثقيلة (لأسقيناهم ماء غدقاً) كناية عن توسعة الرزق لأنه أصل المعاش ، وقال بعضهم : المال حيث الماء ، وقرأ الجمهور (غدقاً) بفتح الدال ، وعاصم في رواية الأعشى بكسرهما ، ويقال : العين تغدق غدقاً فهي غدقة إذا كثرت ماؤها ، (لنفتنهم) أي لنختبرهم كيف يشكرون ما أنعم عليهم به ، أو لنمتحنهم ونستدرجهم وذلك على الخلاف في من يعود عليه الضمير في استقاموا ، وقرأ الأعمش ، وابن وثاب بضم واو (لو) والجمهور بكسرهما ، وقرأ الكوفيون (يسلكه) بالياء ، وباقي السبعة بالنون ، وابن جندب بالنون من أسلك وبعض التابعين بالياء من أسلك أيضاً وهما لغتان ، سلك وأسلك قال الشاعر :

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَائِدَةٍ^(١)

وقرأ الجمهور (صَعَدَا) بفتحيتين ، وهو مصدر صعد ، وصف به العذاب أي : يعلو المذهب ويغلبه وفسر بشاق يقال : فلان في صعد من أمره أي في مشقة ، وقال غمر ما يتصعد بي شيء كما يتصعد في خطبة النكاح أي : ما يشق عليّ ، وقال أبو سعيد الخدري ، وابن عباس : صعد جبل في النار ، وقال الخدري : كلما وضعوا أيديهم عليه ذابت ، وقال عكرمة : هو صخرة ملساء في جهنم يكلف صعودها ، فإذا انتهى إلى أعلاها حذر إلى جهنم ، فعلى هذا يجوز أن يكون بدلاً من (عذاب) على حذف مضاف أي عذاب صعد ، ويجوز أن يكون (صعداً) مفعول (يسلكه) و (عذاباً) مفعول من أجله ، وقرأ قوم (صُعْدًا) بضمّتين ، وابن عباس والحسن بضم الصاد وفتح العين ، قال الحسن : معناه لا راحة فيه ، وقرأ الجمهور (وأنّ المساجد) بفتح الهمزة عطفاً على (أنه استمع) فهو من جملة الموحى ، وقال الخليل : معنى الآية : ولأن المساجد لله فلا تدعوا ، أي : لهذا السبب وكذلك عنده (لا يلاف قريش) (فليعبدوا) وكذلك ﴿ وأن هذه أمتكم ﴾ [المؤمنون ٥٢] أي ولأن هذه ، وقرأ ابن هرمز ، وطلحة (وإن المساجد) بكسرهما على الاستثناف ، وعلى تقدير الخليل : فالمعنى : فلا تدعوا مع الله أحداً في المساجد لأنها لله خاصة ولعبادته ، والظاهر : أن المساجد هي : البيوت المعدة للصلاة والعبادة في كل ملة ، وقال الحسن : كل موضع سجد فيه فهو مسجد كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن ، لأن الأرض كلها مسجد هذه الأمة ، وأبعد ابن عطاء في قوله : إنها الأرباب التي يسجد عليها ، واحداً مسجد بفتح الجيم ، وهي : الجبهة ، والأنف ، واليدان ، والركبتان ، والقدمان عدّ الجبهة والأنف واحداً ، وأبعد أيضاً من قال : المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد ، وقال إنه جمع مسجد وهو السجود ، وروي : أنها نزلت حين تغلبت قريش على الكعبة فقبل لرسول الله ﷺ المواضع كلها لله فاعبده حيث كنت ، وقال ابن جبير : نزلت ، لأن الجن قالت يا رسول الله : كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك ؟ فنزلت الآية ليخاطبهم على معنى : أن عبادتكم حيث كنتم مقبولة إذا دخلنا المساجد ، وقرأ الجمهور (وأنه لما قام عبد الله) بفتح الهمزة عطفاً على قراءتهم (وأن المساجد) بالفتح ، وقرأ ابن هرمز ، وطلحة ، ونافع وأبو بكر ، بكسرهما على الاستثناف ، و (عبد الله) هو محمد رسول الله ﷺ (يدعو) أي يدعو الله (كادوا) أي : كاد الجن قال ابن عباس والضحاك : ينقضون عليه لاستماع القرآن ، وقال الحسن وقتادة : الضمير في (كادوا) لكفار قريش ، والعرب في اجتماعهم على رد أمره ، وقال ابن جبير : المعنى أنها قول الجن لقومهم يحكون ، والضمير في (كادوا) لأصحابه الذين يطوعون له ، ويقتدون به في الصلاة قال الزمخشري : (فإن قلت :) هلا قيل رسول الله أو النبي (قلت :) لأن تقديره : وأوحى إليّ أنه لما قام عبد الله ، فلما كان واقعاً في كلام رسول الله ﷺ - عن نفسه جيء به على ما

(١) صدر بيت من البسيط لعبد مناف بن ربيعي عجزه :

ثلاثاً كما تطرد الجمالة الشرذا

يقتضيه التواضع والتذلل ، أو لأن المعنى : أن عبادة الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ، ولا مستنكر حتى يكونوا عليه لبداً ، ومعنى : قام يدعوه ، قام يعبد به يريد قيامه لصلاة الفجر بنخلة ، حين أتاه فاستمعوا لقراءته - عليه السلام - (كادوا يكونون عليه لبداً) أي : يزدحون عليه متراكمين ، تعجباً مما رأوا من عبادته ، واقتداء أصحابه به ، قائماً وراكعاً وساجداً ، وإعجاباً بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا ما لم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره انتهى . وهو قول متقدم كثرة الزخشي بخطابته ، وقرأ الجمهور (لَبِداً) بكسر اللام وفتح الباء جمع لبدة ، نحو كسرة وكسر ، وهي الجماعات شبهت بالشيء التلبد بعضه فوق بعض ، ومنه قول عبد مناف بن ربيع :

صَافُوا بِسِتَّةِ أَبْيَاتٍ وَأَرْبَعَةٍ حَتَّى كَانَتْ عَلَيْهِمْ جَانِبًا لَبِداً^(١)

وقال ابن عباس : أعواناً ، وقرأ مجاهد وابن محيصن وابن عامر بخلاف عنه بضم اللام جمع لبدة كزُبرة وزُبر ، وعن ابن محيصن أيضاً تسكين الباء وضم اللام (لُبِداً) ، وقرأ الحسن والجنحدي وأبو حيوة وجماعة عن أبي عمرو بضممتين جمع لَبْد ، كَرَهْنُ وَرُهْنُ ، أو جمع لبود ، كصبور وصبر ، وقرأ الحسن والجنحدي بخلاف عنها (لُبِداً) بضم اللام وشد الباء المفتوحة ، قال الحسن وقاتدة وابن زيد : لما قام الرسول للدعوة تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليظفثوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويتم نوره انتهى . وأبعد من قال (عبد الله) هنا نوح - عليه السلام - ، كاد قومه يقتلونه حتى استنقذه الله منهم . قال الحسن ، وأبعد منه قول من قال : إنه عبد الله بن سلام ، وقرأ الجمهور (قال إنما أدعو ربي) أي : أعبده أي : قال للمتظاهرين عليه ، إنما أدعوري ، أي : لم آتكم بأمر ينكر إنما أعبد ربي وحده ، وليس ذلك مما يوجب إطباقكم على عداوتي ، أو قال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ما ترون من عبادة الله بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يعبد غيره ، أو قال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله - ﷺ - ، وهذا كله مرتب على الخلاف في عود الضمير في (كادوا) ، وقرأ عاصم وحزمة وأبو عمرو بخلاف عنه ، (قل) أي : قل يا محمد لهؤلاء المزدحمين عليك ، وهم إما الجن ، وإما المشركون على اختلاف القولين في ضمير (كادوا) ، ثم أمره تعالى أن يقول لهم ما يدل على تبرئه من القدرة على إيصال خير أو شر إليهم ، وجعل الضر مقابلاً للرشد تعبيراً به عن الغي ، إذ الغي ثمرته الضر ، يمكن أن يكون المعنى : ضرراً ولا نفعاً ولا غياً ولا رشداً ، فحذف من كل ما يدل عليه مقابله ، وقرأ الأعرج (رُشداً) بضممتين ، ولما تبرأ عليه السلام من قدرته على نفعهم وضرهم أمر بأن يخبرهم بأنه مربوب لله تعالى يفعل فيه ربه ما يريد ، وأنه لا يمكن أن يجيره منه أحد ، ولا يجد من دونه ملجأ يركن إليه قال قريباً منه قتادة ، وقال السدي : حرزاً وقال الكلبي : مدخلاً في الأرض ، وقيل : ناصراً ، وقيل : مذهباً ومسلكاً ، ومنه قول الشاعر :

يَا لَهْفَ نَفْسِي وَنَفْسِي غَيْرُ مُجْدِيَةٍ عَنِّي وَمَا مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ مُلْتَحِدٍ^(٢)

وقيل : في الكلام حذف ، وهو قالوا له : اترك ما تدعوا إليه ، ونحن نجيرك ، فقيل له (قل لن يجيرني) وقيل : هو جواب لقول وردان سيد الجن ، وقد ازدحموا عليه ، قال وردان : أنا أرحلهم عنك ، فقال : إني لن يجيرني أحد ذكره الماوردي ، (إلا بلاغا) قال الحسن : هو استثناء منقطع ، أي : لن يجيرني أحد ، لكن إن بلغت رحمتي بذلك ، والإجارة للبلاغ مستعارة ، إذ هو سبب إجارة الله تعالى ورحمته ، وقيل : على هذا المعنى هو استثناء متصل أي : لن يجيرني في أحد ، لكن لم أجد شيئاً أميل إليه وأعتصم به ، إلا أن أبلغ وأطيع ، فيجبرني الله ، فيجوز نصه على الاستثناء من (ملتحداً) وعلى

(١) انظر البيت في روح المعاني (١١٦/٢٩) .

(٢) البيت من البسيط لم نهند لقائله انظر روح المعاني (١١٦/٢٩) ، القرطبي (١١٩/١٨) .

البدل ، وهو الوجه ، لأن ما قبله نفياً ، وعلى البدل خرجه الزجاج ، وقال أبو عبد الله الرازي : هذا الاستثناء منقطع ، لأنه لم يقل : ولم يجد ملتجداً ، بل قال (من دونه) والبلاغ من الله لا يكون داخلاً تحت قوله (من دونه ملتجداً) لأنه لا يكون من دون الله ، بل يكون من الله وبإعانه وتوقيفه ، وقال قتادة : التقدير : لا أملك إلا بلاغاً إليكم ، فأما الإيمان والكفر فلا أملك انتهى ، وفيه بعد لطول الفصل بينهما ، وقيل : إلا في تقدير الانفصال (إن) شرطية ، و (لا) نافية وحذف فعلها لدلالة المصدر عليه ، والتقدير : إن لم أبلغ بلاغاً من الله ورسالته ، وهذا كما تقول : إن لا قياماً قعوداً ، أي : إن لم تقم قياماً فاقعد قعوداً ، وحذف هذا الفعل قد يكون لدلالة عليه بعده أو قبله ، كما حذف في قوله :

فَطَلَّقَهَا فَلَسْتَ لَهَا بِكُفٍّ وَإِلَّا يَعْلُ مَفْرِقَكَ الْحَسَامُ^(١)

التقدير : وإن لا تطلقها ، فحذف تطلقها ، لدلالة فطلقها عليه ، و (من) لابتداء الغاية ، وقال الزمخشري : تابعاً لقتادة أي : لا أملك إلا بلاغاً من الله ، و (قل إني لن يجيرني) جملة معترضة ، اعترض بها لتأكيد نفي الاستطاعة عن نفسه ، وبيان عجزه على معنى أن الله إن أراد به سوءاً من مرض ، أو موت ، أو غيرهما لم يصح أن يجيره منه أحد ، أو يجد من دونه ملاذاً يأوي إليه انتهى . (ورسالاته) قيل : عطف على « بلاغاً » أي : إلا أن أبلغ عن الله ، أو أبلغ رسالاته ، الظاهر أن (رسالاته) عطف على (الله) أي : إلا أن أبلغ عن الله وعن رسالاته ، (ومن يعص الله ورسوله) أي : بالشرك والكفر ، ويدل عليه قوله (خالدين فيها أبداً) ، وقرأ الجمهور (فإن له) بكسر الهمزة ، وقرأ طلحة بفتحها ، والتقدير : فجزاؤه أن له ، قال ابن خالويه ، وسمعت ابن مجاهد يقول : ما قرأ به أحد ، وهو لحن ، لأنه بعد فاء الشرط ، وسمعت ابن الأنباري يقول : هو ضراب ومعناه ، فجزاؤه ، أن له نار جهنم انتهى . وكان ابن مجاهد إماماً في القراءات ، ولم يكن متسع النقل فيها كابن شنبوذ ، وكان ضعيفاً في النحو ، وكيف يقول : ما قرأ به أحد ، وهذا كطلحة بن مصرف قرأ به ، وكيف يقول وهو لحن ، والنحويون قد نصوا على أن بعد فاء الشرط يجوز فيها الفتح والكسر ، وجمع (خالدين) حملاً على معنى من ، وذلك بعد الحمل على لفظ (من) في قوله (يعص) (فإن له) (حتى إذا رأوا) (حتى) هنا حرف ابتداء ، أي : يصلح أن يجيء بعدها جملة الابتداء والخبر ، ومع ذلك فيها معنى الغاية ، قال الزمخشري : (فإن قلت :) (بم تعلق حتى) وجعل ما بعده غاية له (قلت :) بقوله (يكونون عليه لبداً) على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ، ويستضعفون أنصاره ، ويستقلون عددهم (حتى إذا رأوا ما يوعدون) من يوم بدر ، وإظهار الله له عليهم ، أو من يوم القيامة ، فسيعلمون حينئذ أنهم أضعف ناصراً وأقل عدداً ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال من استضعاف الكفار له ، واستقلالهم لعدده ، كأنه لا يزالون على ما هم عليه (حتى إذا رأوا ما يوعدون) قال المشركون : متى يكون هذا الموعد إنكاراً له ، فقيل ، قل إنه كائن لا ريب فيه ، فلا تنكروه فإن الله قد وعد ذلك ، وهو لا يخلف الميعاد ، وأما وقته فلا أدري متى يكون ، لأن الله لم يبينه لما رأى في إخفاء وقته من المصلحة انتهى ، وقوله : بم تعلق إن عني تعلق حرف الجر فليس بصحيح ، لأنها حرف ابتداء ، فما بعدها ليس في موضع جر خلافاً للزجاج وابن درستويه ، فإنها زعموا أنها إذا كانت حرف ابتداء فالجملة الابتدائية بعدها في موضع جر ، وإن عني بالتعلق اتصال ما بعدها بما قبلها ، وكون ما بعدها غاية لما قبلها فهو صحيح ، وأما تقديره : إنها تتعلق بقوله : (يكونون عليه لبداً) فهو بعيد جداً لطول الفصل بينهما بالجملة الكثيرة ، وقال التبريزي (حتى) جاز أن تكون غاية لمحذوف ، ولم يبين ما المحذوف ، وقيل : المعنى : دعهم (حتى إذا رأوا ما يوعدون) من الساعة (فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) أهم أم أهل الكتاب ؟ والذي يظهر لي أنها غاية لما تضمنته الجملة التي قبلها ، من الحكم بكيونة النار لهم ، كأنه قيل : إن العاصي يحكم له بكيونة النار لهم ،

والحكم بذلك هو وعيد حتى إذا رأوا ما حكم بكيנותه لهم فسيعلمون ، فقلوه (فإن له نار جهنم) هو وعيد لهم بالنار ، و (من أضعف) مبتدأ وخبر في موضع نصب لما قبله ، وهو معلق عنه ، لأن (من) استفهام . ويجوز أن تكون (من) موصولة في موضع نصب بـ (سيعلمون) و (أضعف) خبر مبتدأ محذوف ، والجملة صلة لـ (من) وتقديره : هو أضعف ، وحسن حذفه طول الصلة بالمعمول ، وهو (ناصراً) ، قال مكحول : لم ينزل هذا إلا في الجن ، أسلم منهم من وفق ، وكفر من خذل ، كالإنس قال : وبلغ من تابع النبي - ﷺ - ليلة الجن سبعين ألفاً ، وفزعوا عند انشقاق الفجر ، ثم أمره تعالى أن يقول لهم : إنه لا يدري وقت طول ما وعدوا به ، أهو قريب أم بعيد ؟ قال الزمخشري : (فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ أم يجعل له ربي أمداً ﴾ [آل عمران ٣٠] والآمد : يكون قريباً وبعيداً ، ألا ترى إلى قوله تعالى (توذّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) (قلت :) كان رسول الله - ﷺ - يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية . أي : هو (عالم الغيب فلا يظهر) فلا يطلع و (من رسول) تبين لمن ارتضى ، يعني : أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى ، الذي هو مصطفى للنبوّة خاصة ، لا كل مرتضى ، وفي هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابها أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط انتهى . وقال ابن عباس : عالم الغيب ، قال الحسن : ما غاب عن خلقه ، وقيل : الساعة ، وقال ابن عباس (إلا) بمعنى ، « لكن » فجعله استثناء منقطعاً ، وقيل : (إلا) بمعنى (ولا) أي : ولا من ارتضى من رسول ، و (عالم) خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو عالم الغيب ، أو بدل من (ربي) ، وقرئ (عالم) بالنصب على المدح ، وقال السدي (عَلِمَ الْغَيْبُ) فعلاً ماضياً ناصباً الغيب ، والجمهور (عالم الغيب) اسم فاعل مرفوعاً . وقرأ الجمهور (فَلَا يُظْهِرُ) من أظهر ، والحسن (يَظْهَرُ) بفتح الياء والهاء من ظهر (إلا من ارتضى من رسول) استثناء من (أحداً) أي : فإنه يظهره على ما يشاء من ذلك ، فإنه يسلك الله من بين يدي ذلك الرسول ، (ومن خلفه رسداً) أي : حفظة يحفظونه من الجن ، ويجرسونه في ضبط ما يلقيه تعالى إلى ذلك الرسول من علم الغيب ، وعن الضحاك : ما بعث نبي إلا ومعه ملائكة يجرسونه من الشياطين ، أن يتشبهوا بصورة الملك ، وقال القرطبي : قال العلماء : لما تمدح سبحانه بعلم الغيب واستأثر به دون خلقه ، كان فيه دليل على أنه لا يعلم الغيب أحد سواه ، ثم استثنى من ارتضاء من الرسل ، فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزة لهم ودلالة صادقة على نبوتهم ، ثم ذكر استدلالاً على بطلان ما يقوله المنجم ، ثم باستحلال دم المنجم ، وقال الواحدي : في هذا دليل على أن من ادعى أن النجوم تدل على ما يكون من حياة أو موت ، أو غير ذلك ، فقد كفر بما في القرآن ، قال أبو عبد الله الرازي والواحدي : تجوز الكرامات على ما قال صاحب الكشاف ، فجعلها تدل على المنع من الأحكام النجومية ، ولا تدل على الإلهامات مجرد تشبه ، وعندي أن الآية لا تدل على شيء مما قالوه ، لأن قوله : على غيبه ليس فيه صفة عموم ، فيكفي في العمل بمقتضاه أن لا يظهر خلقه تعالى على غيب واحد من غيوبه ، ويحمله على وقت قيام القيامة ، فلا يبقى دليل في الآية على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد ، ويؤكد أنه ذكر هذه الآية عقيب قوله (إن أدري أقرب ما توعدون) الآية . أي : لا أدري وقت وقوع القيامة ، إذ هي من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد ، و (إلا من ارتضى) استثناء منقطع ، كأنه قال : فلا يظهر على غيبه المخصوص أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فله حفظة يحفظونه من شرّ مردة الإنس والجن ، قال أبو عبد الله الرازي : واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس المراد من هذه الآية أنه لا يطلع أحد على شيء من المغيبات إلا الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والذي يدل عليه وجوه ، أحدها : أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقاً وسطيحاً كانا كاهنين يخبران بظهور محمد - ﷺ - قبل زمان ظهوره ، وكانا في العرب مشهورين بهذا النوع من العلم ، حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار رسولنا ﷺ وثانيها إطباق الأمم على صحة علم التعبير ، فيختبر المعبر عن ما

يأتي في المستقبل ، ويكون صادقاً ، وثالثها : أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه ، من بغداد إلى خراسان ، سألها عن أشياء في المستقبل ، فأخبرت بها ووقعت على وفق كلامها ، فقد رأيت أناساً محققين في علوم الكلام والحكمة حكوا عنه : أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة على سبيل التفصيل ، وجاءت كذلك ، وبالعاب أبو البركات صاحب المعبر في شرح حالها في كتاب التعبير ، وقال : فحصت عن حالها منذ ثلاثين سنة ، حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات أخباراً مطابقة موافقة ، ورابعها : أنا نشاهد أصحاب الإلهامات الصادقة ، ليس هذا مختصاً بالأولياء ، فقد يوجد في السحرة وفي الأحكام النجومية ما يوافق الصدق ، وإن كان الكذب يقع منهم كثيراً ، وإذا كان ذلك مشاهداً محسوماً فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجز الطعن إلى القرآن ، وذلك باطل ، فقلنا إن التأويل الصحيح ما ذكرناه انتهى . وفيه بعض تلخيص ، وإنما أوردنا كلام هذا الرجل في هذه المسألة ، لننظر فيما ذكر من تلك الوجوه ، أما قصة شق وسطيح ، فليس فيها شيء من الإخبار بالغيب ، لأنه مما يخبر به رئي الكهان من الشياطين مسترقة السمع ، كما جاء في الحديث « إنهم يسمعون الكلمة ويكذبون ، ويلقون إلى الكهنة ، ويزيد الكهنة للكلمة مائة كذبة » ، وليس هذا من علم الغيب ، إذ تكلمت به الملائكة ، وتلقفها الجنى ، وتلقفها منه الكاهن ، فالكاهن لم يعلم الغيب ، وأما تعبير المنامات فالمعبر غير المعصوم لا يعبر بذلك على سبيل البت والقطع ، بل على سبيل الحزر والتخمين ، وقد يقع ما يعبر به وقد لا يقع ، وأما الكاهنة البغدادية ، وما حكى عنها فحسبه عقلاً أن يستدل بأحوال امرأة لم يشاهدها ، ولو شاهد ذلك لكان في عقله ما يجوز أنه لبس عليه ، هذا وهو العالم المصنف الذي طبق ذكره الآفاق ، وهو الذي شكك في دلائل الفلاسفة وسامهم الخسف ، وأما حكايته عن صاحب المعبر ، فهو يهودي أظهر إسلامه ، وهو منتحل طريقة الفلاسفة ، وأما مشاهدته أصحاب الإلهامات الصادقة ، فلي من العمر نحو من ثلاث وسبعين سنة ، أصحاب العلماء ، وأتردد إلى من ينتمي إلى الصلاح ، فلم أر أحداً منهم صاحب إلهام صادق ، وأما الكرامات . فلا أشك في صدور شيء منها ، لكن ذلك على سبيل النادرة ، وذلك في من سلف من صلحاء هذه الأمة ، وربما قد يكون في أعصارنا من تصدر منه الكرامات . والله تعالى أن يخص من شاء بما شاء والله الموفق ، وقرأ الجمهور (لِيَعْلَمَ) مبنياً للفاعل ، قال قتادة (لِيَعْلَمَ) محمد - ﷺ - أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وحفظوا . وقال ابن جبير (لِيَعْلَمَ) محمد أن الملائكة الحفظة الرصد النازلين بين يدي جبريل وخلفه (قد أبلغوا رسالات ربهم) ، وقال مجاهد (لِيَعْلَمَ) من أشرك وكذب ، أن الرسل قد بلغت ، وعلى هذا القول لا يقع لهم هذا العلم إلا في الآخرة ، وقيل : ليعلم الله رسله مبلغه خارجة إلى الوجود ، لأن علمه بكل شيء قد سبق ، واختار الزمخشري هذا القول الأخير ، فقال : ليعلم الله أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، يعني الأنبياء ، وحد أولاً على اللفظ في قوله (من بين يديه ومن خلفه) ثم جمع على المعنى كقوله ﴿ فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴾ [الجن ٢٣] والمعنى : ليلبلغوا رسالات ربهم ، كما هي محروسة من الزيادة والنقصان ، وذكر العلم كذكره في قوله ﴿ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ [محمد ٣١] انتهى . وقيل : ليعلم أي : أي رسول كان أن الرسل سواه بلغوا . وقيل : ليعلم إبليس أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، سليمة من تخليطه وإسراف أصحابه ، وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة بلغوا رسالات ربهم ، وقيل : ليعلم محمد أن قد بلغ جبريل ومن معه إليه رسالة ربه ، وقيل : ليعلم الجن أن الرسل قد بلغوا ما أنزل إليهم ، ولم يكونوا هم المتلقين باستراق السمع ، وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ (لِيَعْلَمَ) بضم الياء مبنياً للمفعول ، والزهري وابن أبي عتبة بضم الياء ، وكسر اللام ، أي : لِيَعْلَمَ الله ، أي : من شاء أن يعلمه أن الرسل قد أبلغوا رسالاته ، وقرأ الجمهور (رِسَالَاتٍ) على الجمع وأبو حيوة على الأفراد . وقرأ الجمهور (وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ) وأحاط مبنياً للفاعل ، أي : الله (وَأَحْصَى) مبنياً للفاعل ، أي : الله (كُلُّ) نصباً ، وابن أبي عتبة (وَأَحِيطَ) (وَأَحْصَى) مبنياً للمفعول (كُلُّ) رفعاً ، ولما كان (لِيَعْلَمَ) مضمناً معنى علم ، صار المعنى : قد علم ذلك ، فعطف (وأحاط) على هذا الضمير ، والمعنى : وأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع ،

٣٥٠ سورة الجن / الآيات : ١ - ٢٨

لا يفوته منها شيء (وأحصى كل شيء عدداً) أي : معدوداً محصوراً وانتصابه على الحال من (كل شيء) وإن كان نكرة لاندراج المعرفة في العموم ، ويجوز أن ينتصب نصب المصدر لـ (أحصى) لأنه في معنى إحصاء ، وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون تمييزاً . فيكون منقولاً من المفعول ، إذ أصله : وأحصى عدد كل شيء ، وفي كونه ثابتاً من لسان العرب خلاف .

سورة المزمل مكية وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَتَأْتِيَ الْمُزْمَلُ ۝١ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نَصَفَهُ ۝٣ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٤ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٦ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٧ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٨ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٩ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝١٠ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١١ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١٢ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمَامًا ۝١٣ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٤ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ۝١٥ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٦ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٧ فَكَيْفَ تَنْقُوتُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٨ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۝١٩ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝٢٠ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۝٢١ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٢ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۝٢٣ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝٢٤ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحِصَّهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۝٢٥ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ ۝٢٦ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۝٢٧ وَآخَرُونَ يَقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۝٢٨ فَأَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۝٢٩ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۝٣٠ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نُّحَدِّثُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۝٣١ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۝٣٢ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣

تزمّل في ثوبه : النف ، وزمّل لف ، قال امرؤ القيس :

كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادٍ مُّزْمَلٍ ^(١)

وقال ذو الرمة :

(١) عجز بيت من الطويل انظر ديوان امرئ القيس (٢٥) .

وَكَاثِنٌ تَخَطَّتْ نَاقَتِي مِنْ مَفَاةٍ وَمِنْ نَائِمٍ عَنْ لَيْلِهَا مُتَزَمِّلٍ^(١)

تبتل إلى كذا : انقطع إليه ، ومنه : هبة بتلة ، وطلقة بتلة ، والبتول وبتل الحبل ، وقال الليث : البتل تميز الشيء من الشيء ، والبتول المرأة المنقطعة عن الرجال ، لا شهوة لها ولا حاجة لها فيهم ، والتبتل : ترك النكاح والزهد فيه ، ومنه قول امرئ القيس :

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةٌ مُنْسِي رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ^(٢)

ومنه النهي عن التبتل ، أي : عن الانقطاع عن التزويج ، ومنه قيل للراهب : متبتل ، لانقطاعه عن الناس وانفراده للعبادة ، والغصة : الشجى ، وهو ما ينشب بالخلق من عظم أو غيره ، وجمعها غصص ، والفعل غصصت ، فأنت غاص وغصان قال :

كُنْتُ كَالْغَصَانِ بِالمَاءِ اغْتَصَارِي^(٣)

الكثيب : الرمل المجتمع . وجمعه : كثب وكثبان في الكثرة وأكنبة في القلة . قال ذو الرمة .

فَقُلْتُ لَهَا لَا إِنَّ أَهْلِي جِيْرَةٌ لِأَكْثَبَةِ الدَّهْنِ جَمِيعاً وَمَالِيَا^(٤)

المهيل : الذي يمر تحت الرجل ، وهلت عليه التراب صبيته ، وقال الكلبي : المهيل الذي إذا وطئته القدم زل من تحتها ، وإذا أخذت أسفله انهال ، وأهلت لغة في هلت ، الشيب : جمع أشيب ، ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ، إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ، إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ، إن لك في النهار سباً طويلاً ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأً جيلاً ، وذري والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ، إن لدينا أنكلاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ، إنا أرسلنا إليك رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً ويبلاً ، فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعده مفعولاً ﴾ هذه السورة مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها (واصبر على ما يقولون) والتي تليها ذكره الماوردي ، وقال الجمهور : هي مكية إلا قوله تعالى (إن ربك يعلم) إلخ فإنه نزل بالمدينة . وسبب نزولها فيما ذكر الجمهور أنه - عليه الصلاة والسلام - لما جاءه الملك في غار حراء ، وحاوره بما حاوره ، رجع إلى خديجة ، فقال : زملوني زملوني ، فنزلت « يا أيها المدثر » وعلى هذا نزلت « يا أيها المزمل » قالت عائشة والنخعي وجماعة : ونودي بذلك لأنه كان في وقت نزول الآية ، متملاً بكساء ، وقال قتادة : كان تزمل في ثيابه للصلاة ، واستعد فنودي على معنى ، يا أيها المستعد للعبادة ، وقال عكرمة : معناه للنبوة وأعبائها ، أي : المشمر المجد ، فعلى هذا يكون التزمل مجازاً ، وعلى ما سبق يكون حقيقة ، وما رووا أن عائشة - رضي الله عنها - سئلت ما كان تزمله ، قالت : كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه علي وأنا نائمة ، ونصفه عليه إلى آخر الرواية كذب صراح ، لأن نزول « يا أيها المزمل » بمكة في أوائل مبعثه ، وتزويجه عائشة كان بالمدينة ، ومناسبة هذه السورة لما قبلها : أن في آخر ما قبلها (عالم الغيب) الآيات ، فأتبعه بقوله (يا أيها المزمل) إعلاماً بأنه - ﷺ - ممن ارتضاه من الرسل ، وخصه

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٦٠٠) الكشف (٥٠٧/٤) .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٧) شرح المعلقات للزوزني (٣٥) القرطبي (٣٠/١٩) .

(٣) عجز بيت من الرمل لعدي بن زيد التميمي انظر الكتاب (٤٦٢/١) الحزانة (٥٩٤/٣) ، اللسان (عصر) .

(٤) البيت من الطويل انظر ديوانه (٧٣٢) اللسان (دحن) .

بخصائص ، وكفاه شر أعدائه . وقرأ الجمهور (المَزْمَل) بشد الزاي ، وكسر الميم أصله المتزمل ، فأدغمت التاء في الزاي ، وقرأ أبيّ (المَزْمَل) على الأصل وعكزته بتخفيف الزاي ، أي : المزمل جسمه أو نفسه ، وقرأ بعض السلف بتخفيف الزاي وفتح الميم ، أي : الذي لف وللزخشي في كيفية نداء الله له بهذا الوصف كلام ضربت عن ذكره صفحاً ، فلم أذكره في كتابي ، وقال السهيلي ليس المزمل باسم من أسائه - عليه الصلاة والسلام - يعرف به ، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب ، والعرب إذا قصدت الملاطفة بالمخاطب تركت المعاتبة ، نادوه مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي ﷺ لعليّ - كرم الله وجهه - وقد نام ولصق بجنبه التراب ، « قم أبا تراب » إشعاراً بأنه ملاطف له ، فقله (يا أيها المزمل) فيه تأنيس وملاطفة ، وقرأ الجمهور (قم الليل) بكسر الميم على أصل التقاء الساكنين ، وأبو السمال بضمهما إبتاعاً للحركة من القاف . وقرئ بفتحها طلباً للتخفيف ، قال ابن جني : الغرض بالحركة الهروب من التقاء الساكنين ، فبأي حركة تحرك الحرف حصل الغرض و(قم) طلب، فقال الجمهور : هو على جهة الندب ، وقيل : كان فرضاً على الرسول خاصة ، وقيل : عليه وعلى الجميع ، قال قتادة : ودام عاماً أو عامين ، وقالت عائشة : ثمانية أشهر ، ثم رحمهم الله ، فنزلت (إن ربك يعلم) الآيات ، فخفف عنهم (قم الليل إلا قليلاً) بين الاستثناء أن القيام المأمور به يستغرق جميع الليل ، ولذلك صح الاستثناء ، منه إذ لو كان غير مستغرق لم يصح الاستثناء منه ، واستغرق جميعه بالقيام على الدوام غير ممكن ، فلذلك استثنى منه لراحة الجسد ، وهذا عند البصريين منصوب على الظرف ، وإن استغرقه الفعل ، وهو عند الكوفيين مفعول به . وفي قوله (إلا قليلاً) دليل على أن المستثنى قد يكون مبهم المقدار ، كقوله ﴿ ما فعلوه إلا قليلاً منهم ﴾ [النساء ٦٦] في قراءة من نصب ﴿ ثم توليتهم إلا قليلاً منكم ﴾ [البقرة ٨٣] ، قال وهب بن منبه : القليل ما دون العشار والسدس ، وقال الكلبي ومقاتل : الثلث ، وقيل : ما دون النصف ، وجوزوا في (نصفه) أن يكون بدلاً من (الليل) ومن (قليلاً) فإذا كان بدلاً من (الليل) كان الاستثناء منه ، وكان المأمور بقيامه نصف الليل إلا قليلاً منه ، والضمير في (منه) و (عليه) عائد على النصف ، فيصير المعنى ، قم نصف الليل إلا قليلاً ، أو انقص من نصف الليل قليلاً ، أو زد على نصف الليل ، فيكون قوله (أو انقص) من نصف الليل (قليلاً) تكراراً لقول (إلا قليلاً) من نصف الليل ، وذلك تركيب غير فصيح ينزه القرآن عنه ، قال الزمخشري (نصفه) بدل من (الليل) و (إلا قليلاً) استثناء من النصف ، كأنه قال : قم أقل من نصف الليل ، والضمير في (منه) و (عليه) للنصف ، والمعنى التخيير بين أمرين ، بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت ، وبين أن يختار أحد الأمرين ، وهما النقصان من النصف والزيادة عليه انتهى . فلم يتنبه للتكرار الذي يلزمه في هذا القول ، لأنه على تقديره : قم أقل من نصف الليل ، كان قوله (أو انقص) من نصف الليل تكراراً ، وإذا كان (نصفه) بدلاً من قوله : (إلا قليلاً) فالضمير في (نصفه) إما أن يعود على المبدل منه ، أو على المستثنى منه ، وهو (الليل) لا جائز أن يعود على المبدل منه ، لأنه يصير استثناء مجهول من مجهول ، إذ التقدير : إلا قليلاً نصف القليل ، وهذا لا يصح له معنى البتة ، وإن عاد الضمير على (الليل) فلا فائدة في الاستثناء من الليل ، إذ كان يكون أحصر وأوضح وأبعد عن الإلباس أن يكون التركيب : قم الليل نصفه ، وقد أبطلنا قول من قال (إلا قليلاً) استثناء من المبدل ، وهو (نصفه) وأن التقدير : قم الليل نصفه إلا قليلاً منه ، أي : من النصف ، وأيضاً ففي دعوى أن (نصفه) بدل من (إلا قليلاً) والضمير في (نصفه) عائد على الليل إطلاق القليل على النصف ، ويلزم أيضاً أن يصير التقدير : إلا نصفه فلا تقمه ، أو انقص من النصف الذي لا تقومه ، أو زد عليه النصف الذي لا تقومه ، وهذا معنى لا يصح ، وليس المراد من الآية قطعاً ، وقال الزمخشري : وإن شئت جعلت (نصفه) بدلاً من (قليلاً) وكان تخبيراً بين ثلاث ، بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه ، وبين قيام الزائد عليه ، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل ، وإن شئت قلت : لما كان معنى (قم الليل إلا قليلاً نصفه) إذا أبدلت النصف من الليل : قم أقل من

نصف الليل ، رجع الضمير في (منه) و (عليه) إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل ، وقم أنقص من ذلك الأقل ، أو أزيد منه قليلاً ، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث ، ويجوز إذا أبدلت (نصفه) من (قليلاً) وفسرته به أن تجعل (قليلاً) الثاني بمعنى نصف النصف ، وهو الربع ، كأنه قيل : أو انقص منه قليلاً نصفه ، وتجعل المزيد على هذا القليل أعني الربع نصف الربع ، كأنه قيل : أوزد عليه قليلاً نصفه ، ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تنتمى الثلث ، فيكون تخييراً بين النصف والثلث والربع انتهى . وما أوسع خيال هذا الرجل ، فإنه يجوز ما يقرب وما يبعد ، والقرآن لا ينبغي ، بل لا يجوز أن يحمل إلا على أحسن الوجوه التي تأتي في كلام العرب ، كما ذكرناه في خطبة هذا الكتاب ، ومن نص على جواز أن يكون (نصفه) بدلاً من (الليل) أو من (قليلاً) الزمخشري ، كما ذكرناه عنه ، وابن عطية أورده مورد الاحتمال ، وأبو البقاء ، وقال : أشبه بظاهر الآية أن يكون بدلاً من (قليلاً أو زد عليه) والهاء فيهما للنصف ، فلو كان الاستثناء من النصف لصار التقدير : قم نصف الليل إلا قليلاً ، أو انقص منه قليلاً ، والقليل المستثنى غير مقدر ، فالنقصان منه لا يتحصل انتهى ، وأما الحوفي فأجاز أن يكون بدلاً من (الليل) ولم يذكر غيره ، وقال ابن عطية : وقد يحتمل عندي بقوله (إلا قليلاً) أنه استثناء من القيام ، فيجعل (الليل) اسم جنس ، ثم قال (إلا قليلاً) أي : الليالي التي تحل بقيامها عند العذر البين ونحوه ، وهذا النظر يحسن مع القول بالنذب انتهى . وهذا خلاف الظاهر ، وقيل : المعنى : أو نصفه ، كما تقول : أعطه درهماً درهمين ثلاثة ، تريد ، أو درهمين ، أو ثلاثة انتهى ، وفيه حذف حرف العطف من غير دليل عليه ، وقال التبريزي : الأمر بالقيام والتخيير في الزيادة والنقصان وقع على الثلثين من آخر الليل ، لأن الثلث الأول وقت العتمة ، والاستثناء وارد على المأمور به ، فكأنه قال : قم ثلثي الليل إلا قليلاً ، ثم جعل (نصفه) بدلاً من (قليلاً) فصار القليل مفسراً بالنصف من الثلثين ، وهو قليل من الكل ، فقوله (أو انقص منه) أي : من المأمور به وهو قيام الثلث (قليلاً) أي : ما دون نصفه (أوزد عليه) أي : على الثلثين ، فكان التخيير في الزيادة والنقصان واقعاً على الثلثين ، وقال أبو عبد الله الرازي : قد أكثر الناس في تفسير هذه الآية ، وعندي فيه وجهان ملخصان ، وذكر كلاماً طويلاً ملفقاً يوقف عليه من كتابه ، وتقدم تفسير الترتيل في آخر الإسرائ (قولاً ثقیلاً) هو القرآن ، وثقله بما اشتمل عليه من التكاليف الشاقة ، كالجهاد ومداومة الأعمال الصالحة ، قال الحسن : إن الهذء خفيف ، ولكن العمل ثقیل . وقال أبو العالية والقرطبي : ثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ، وقيل : ثقله ما كان يحل بجسمه - ﷺ - حالة تلقيه الوحي ، حتى كانت ناقته تبرك به ذلك الوقت ، وحتى كادت رأسه الكريمة أن ترض فخذ زيد بن ثابت ، وقيل : كلام له وزن ، ورجحان فليس بالسفساسي ، قال ابن عباس : كلاماً عظيماً ، وقيل : ثقیل في الميزان يوم القيامة ، وهو إشارة إلى العمل به ، وقيل : كناية عن بقاءه على وجه الدهر ، لأن الثقیل من شأنه أن يبقى في مكانه (إن ناشئة الليل) قال ابن عمر وأنس بن مالك وعلي بن الحسين ، هي ما بين المغرب والعشاء ، وقالت عائشة ومجاهد : هي القيام بعد النوم ، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يُقَمْ ناشئة الليل . وقال ابن جبير وابن زيد ؛ هي لفظة حبشية ، نشأ الرجل : قام من الليل ف (ناشئة) على هذا جمع ناشيء ، أي : قائم ، وقال ابن جبير وابن زيد أيضاً وجماعة (ناشئة الليل) ساعاته ، لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء ، وقال ابن عباس وابن الزبير والحسن وأبو مجلز : ما كان بعد العشاء فهو ناشئة ، وما كان قبلها فليس بناشئة ، قال ابن عباس : كانت صلاتهم أول الليل ، وقال هو وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، وقال الكسائي : ناشئة الليل أوله ، وقال الزمخشري : ناشئة الليل : النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، أي : تنهض وترتفع ، من نشأت السحابة إذا ارتفعت ، ونشأ من مكانه ونشأ إذا نهض ، قال الشاعر :

نَشَأْنَا إِلَىٰ خُوصٍ بَرَىٰ نَيْهَا السُّرَىٰ وَالصَّقَّ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاجِدِ^(١)

أو قيام الليل على أن الناشئة مصدر ، من نشأ إذا قام ونهض ، على فاعلة كالعاقبة انتهى . وقرأ الجمهور (وطاء) بكسر الواو وفتح الطاء ممدوداً ، وقرأ قتادة وشبل عن أهل مكة بكسر الواو وسكون الطاء والهمزة مقصورة ، وقرأ ابن محيصن بفتح الواو ممدوداً ، والمعنى : أنها أشد مواطأة ، أي : يواطئ القلب فيها اللسان ، أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص ، ومن قرأ (وطاء) أي : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل ، أو أقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار ، كما جاء « اللهم اشد وطأتك على مضر »^(١) ، وقال الأخفش : أشد قياماً ، وقال الفراء : أثبت قراءة وقياماً ، وقال الكلبي : أشد نشاطاً للمصلي ، لأنه في زمان راحته ، وقيل : أثبت للعمل وأدوم لمن أراد الاستكثار من العبادة ، والليل وقت فراغ ، فالعبادة تدوم (وأقوم قبلاً) أي : أشد استقامة على الصواب ، لأن الأصوات هادئة ، فلا يضطرب على المصلي ما يقرؤه . قال قتادة ومجاهد : أصوب للقراء ، وأثبت للقول ، لأنه زمان التفهم ، وقال عكرمة : أتم نشاطاً وإخلاصاً وبركة ، وحكى ابن شجرة : أعجل لإجابة للدعاء ، وقال زيد بن أسلم : أجدر أن يتفقه فيها القارئ . وقرأ الجمهور (سَبَّحاً) أي : تصرفاً وتقلباً في المهمات ، كما يتردد السابح في الماء ، قال الشاعر :

أَبَا حَوْا لَكُمْ شَرَقَ الْبِلَادِ وَغَرَبَهَا فَفِيهَا لَكُمْ يَا صَاحِبِ سَبْحٍ مِنَ السَّبْحِ

وقيل (سَبَّحاً) سبحة أي : نافلة ، وقرأ ابن يعمر وعكرمة وابن أبي عبيدة (سَبَّحاً) بالخاء المنقوطة ، ومعناه : خفة من التكاليف ، والتسييح التخفيف ، وهو استعارة من سبخ الصوف إذا نفسه ونشر أجزائه ، فمعناه : انتشار الهمة وتفرق الخاطر بالشواغل ، وقيل : فراغاً وسعة لنومك وتصرفك في حوائجك . وقيل : المعنى : إن فات حزب الليل بنوم أو عذر ، فليخلف بالنهار ، فإن فيه سبحة طويلاً ، قال صاحب اللوامح ، وفسر ابن يعمر وعكرمة (سَبَّحاً) بالخاء معجمة ، وقال : نوماً أي : تنام بالنهار لتستعين به على قيام الليل ، وقد تحتل هذه القراءة غير هذا المعنى ، لكنها فسراها فلا يجاوز عنه انتهى ، وفي الحديث (لا تسبخي بدعائك) أي : لا تحففي ، وقال الشاعر :

فَسَبِّحْ عَلَيْكَ اللَّهُمَّ وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ شَيْئاً فَكَأَنَّ^(٢)

وقال الأصمعي : يقال : سبخ الله عنك الحمى ، أي : خففها ، وقيل : السبخ : المد يقال : سبخي قطنك أي : مديه ويقال لقطع القطن : سبائح ، الواحدة سبيخة ، ومنه قول الأخطل :

فَأَرْسِلُوهُمْ يُذَرِّينَ الثُّرَابَ كَمَا يُذَرِّي سَبَائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارِ^(٣)

(واذكر اسم ربك) أي : دم على ذكره ، وهو يتناول كل ذكر ، من تسييح وتهليل وغيرهما ، وانتصب (تبتلياً) على أنه مصدر على غير الصدر ، وحسن ذلك كونه فاصلة ، وقرأ الأخوان وابن عامر وأبو بكر ويعقوب رب بالخفض على البدل من (ربك) وباقي السبعة بالرفع ، وزيد بن علي بالنصب ، والجمهور (المشرق والمغرب) موحدتين ، وعبد الله وأصحابه وابن عباس بجمعهما ، وقال الزمخشري : وعن ابن عباس على القسم يعني خفض (رب) بإضمار حرف القسم ، كقولك : الله لأفعلن ، وجوابه (لا إله إلا هو) كما تقول ، والله لا أحد في الدار إلا زيد انتهى ، ولعل هذا التخريج لا يصح عن ابن عباس ، إذ فيه إضمار الجار في القسم ، ولا يجوز عند البصريين إلا في لفظة الله ، ولا يقاس

(١) متفق عليه أخرجه البخاري (٤٥٩٠) ومسلم (٦٧٥/٢٩٤) وقد تقدم .

(٢) البيت من الطويل لم نهند لقائله انظر اللسان (سبخ) روح المعاني (١٣٢/٢٩) ، القرطبي (٢٩/١٩) .

(٣) البيت من البسيط انظر ديوانه ٧٨ اللسان (سبخ) روح المعاني (١٣٢/٢٩) ، القرطبي (٢٩/١٩) .

عليه ، ولأن الجملة المنفية في جواب القسم إذا كانت اسمية فلا تنفى إلا بما وحدها ، ولا تنفى بلا إلا الجملة المصدرة بمضارع كثيراً ، وبماض في معناه قليلاً ، نحو قول الشاعر :

رُدُّوا فَوَاللَّهِ لَا زُرْنَاكُمْ أَبَدًا مَا دَامَ فِي مَائِنَا وَرَدُّ لِيُورَادِ^(١)

والزخشي : أورد ذلك على سبيل التجويز والتسليم ، والذي ذكره النحويون هو نفيها بما نحو قوله :

لَعُمْرُكَ مَا سَعَدْتُ بِخُلَّةِ آثِمٍ وَلَا نَأْنَى يَوْمَ الْحِفَاطِ وَلَا حَصْرِ^(٢)

(فاتخذة وكيلاً) لأن من انفرد بالالوهية لم يتخذ وكيلاً إلا هو ، (واصبر) (واهجرهم) قيل : منسوخ بآية السيف (وذري والمكذبين) قيل : نزلت في صناديد قريش ، وقيل : المطعنين يوم بدر ، وتقدمت أسماؤهم في سورة الأنفال ، وتقدم شرح مثل هذا في ﴿ فذري ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ [القلم ٤٤] (أولي النعمة) أي : غصارة العيش وكثرة المال والولد ، و (النعمة) بالفتح التمتع ، وبالكسر الإنعام ، وما ينعم به ، وبالضم المسرة يقال : نعم ونعمة عين ، (ومهلهم قليلاً) وعيد لهم بسرعة الانتقام منهم ، والقليل موافاة آجالهم ، وقيل : وقعة بدر ، (إن لدينا) أي : ما يضاد نعمتهم (أنكالا) قيوداً في أرجلهم ، قال الشعبي : لم تجعل في أرجلهم ، خوفاً من هروبهم ، ولكن إذا أرادوا أن يرتفعوا استقلت بهم ، وقال الكلبي : الأنكال : الأغلال والأول أعرف في اللغة ، ومنه قول الخنساء :

دَعَاكَ فَقَطَّعْتَ أَنْكَالَهُ وَقَدْ كُنَّ قَبْلَكَ لَا تُقَطِّعُ^(٣)

(وجميعاً) ناراً شديدة الإيقاد (وطعاماً ذا غصة) قال ابن عباس : شوك من نار يعتري في حلوقهم ، لا يخرج ولا ينزل . وقال مجاهد وغيره : شجرة الزقوم ، وقيل : الضريع وشجرة الزقوم (يوم) منصوب بالعامل في (لدينا) وقيل : بـ (ذري) . (ترجف) تضطرب ، وقرأ الجمهور (تَرْجُفُ) بفتح التاء مبنياً للفاعل ، وزيد بن علي بضمها مبنياً للمفعول (كئيباً) أي : رملًا مجتمعاً (مهيلًا) أي : رخوًا ليناً . قيل : ويقال : مهيل ومهيل ، ومكيل ومكيول ، ومدين ومديون الإتمام في ذوات الياء لغة تميم ، والحذف لأكثر العرب ، ولما هدد المكذبين بأهوال القيامة ذكرهم بحال فرعون ، وكيف أخذه الله تعالى ، إذ كذب موسى - عليه السلام - وأنه إن دام تكذيبهم أهلكهم الله تعالى ، فقال (إنا أرسلنا إليك) والخطاب عام للأسود والأحر ، وقيل : لأهل مكة (رسولاً شاهداً عليكم) كما قال ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ [النحل : ٨٩] وشبه إرساله إلى أهل مكة بإرسال موسى إلى فرعون على التعيين ، لأن كلاً منهما ربا في قومه واستحققوا بهما ، وكان عندهم علم بما جرى من غرق فرعون ، فناسب أن يشبه الإرسال بالإرسال ، وقيل : (الرسول) بلام التعريف ، لأنه تقدم ذكره ، فأحيل عليه ، كما تقول : لقيت رجلاً فضربت الرجل لأن المضروب هو الملقى ، والوبيل : الرديء العقبى ، من قولهم : كلاً وبيل ، أي : وخيم لا يستمرراً لثقله . أي : لا ينزل في المريء ، قوله عز وجل : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً ، إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ، إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من

(١) البيت من البسيط لم نهند لقائله انظر الهمع (٤١/٢) .

(٢) البيت من الطويل لامرئ القيس انظر ديوانه (١١٢) اللسان (نأناً) .

(٣) البيت من المتقارب انظر الديوان (٦٦) القرطبي (٣١/١٩) .

فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴿ (يوماً) منصوب (بتقون) منصوب نصب المفعول به على المجاز ، أي : كيف تستقبلون هذا اليوم العظيم الذي من شأنه كذا وكذا ، والضمير في (يجعل) لليوم أسند إليه الجعل لما كان واقعاً له على سبيل المجاز . وقال الزمخشري (يوماً) مفعول به أي : فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهو له إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً انتهى . و (تقون) مضارع اتقى واتقى ليس بمعنى وقى حتى يفسره به ، واتقى يتعدى إلى واحد ، ووقى يتعدى إلى اثنين ، وقال تعالى (ووقاهم عذاب الجحيم) ولذلك قدره الزمخشري : تقون أنفسكم يوم القيامة ، لكنه ليس (تقون) بمعنى تقون فلا يتعدى تعديته ، ودس في قوله : ولم تؤمنوا وتعملوا صالحاً الاعتزال . قال ويجوز أن يكون ظرفاً أي : فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا ، قال : ويجوز أن ينتصب بـ (كفرتم) على تأويل جحدتم أي : فكيف تقون الله وتحشونه إن جحد ثم يوم القيامة والجزاء ، لأن تقوى الله خوف عقابه انتهى . وقرأ الجمهور (يوماً) منوناً (يجعل) بالياء ، والجملة من قوله : (يجعل) صفة ليوم ، فإن كان الضمير في (يجعل) عائداً على اليوم فواضح وهو الظاهر ، وإن عاد على الله كما قال بعضهم فلا بد من حذف ضمير يعود إلى اليوم ، أي : يجعل فيه كقوله ﴿ يوماً لا تجزي نفس ﴾ [البقرة: ١٢٣] ، وقرأ زيد بن علي بغير تنوين (نجعل) بالنون فالظرف مضاف إلى الجملة ، والشيب مفعول ثانٍ لـ (يجعل) أي : يصير الصبيان شيوخاً ، وهو كناية عن شدة ذلك اليوم ، ويقال في اليوم الشديد ، يوم يشيب نواصي الأطفال ، والأصل فيه أن الهموم إذا تفاقمت أسرع بالشيب ، قال المتنبي :

وَالْهَمْ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَهَرَمٌ^(١)

وقال قوم : ذلك حقيقة ، تشيب رؤوسهم من شدة الهول ، كما قد يرى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر ونحوه ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة ، وقال السدي (الولدان) أولاد الزنا ، وقيل : أولاد المشركين ، والظاهر العموم . أي : يشيب الصغير من غير كبر ، وذلك حين يقال لآدم يا آدم قم فابعث بعث النار ، وقيل : هذا وقت الفزع قيل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ، (السماء منفطر به) قال الفراء يعني المظلة تذكر وتؤنث ، فجاء (منفطر) على التذكير ، ومنه قول الشاعر :

فَلَوْ رَفَعَ السَّمَاءُ إِلَيْهِ قَوْماً لَحِقْنَا بِالسَّمَاءِ وَبِالسَّحَابِ^(٢)

وعلى القول بالتأنيث فقال أبو علي الفارسي : هو من باب الجراد المنتشر ، والشجر الأخضر ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ [القمر: ٢٠] انتهى . يعني أنها من باب اسم الجنس الذي بينه وبين مفردة تاء التأنيث ، وأن مفردة سماء واسم الجنس يجوز فيه التذكير والتأنيث ، فجاء (منفطر) على التذكير . وقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة والكسائي ، وتبعهم القاضي منذر بن سعيد : مجازها السقف ، فجاء عليه (منفطر) ولم يقل منفطرة ، وقال أبو علي أيضاً : التقدير : ذات انفطار ، كقولهم : امرأة مريض أي : ذات رضاع ، فجرى على طريق التسبب ، وقال الزمخشري ، أو السماء شيء منفطر ، فجعل (منفطر) صفة لخبر محذوف مقدر بمذكر وهو شيء ، والانفطار : التصدع والانشقاق ، والضمير في (به) الظاهر أنه يعود على اليوم ، والباء للسبب أي : بسبب شدة ذلك اليوم ، أو ظرفية أي : فيه . وقال مجاهد : يعود على الله ، أي : بأمره

(١) انظر البيت في الكشف (٤/٦٤١) .

(٢) تقدم .

وسلطانه ، والظاهر أن الضمير في (وعده) عائد على اليوم فهو من إضافة المصدر إلى المفعول أي : إنه تعالى وعد عباده هذا اليوم وهو يوم القيامة ، فلا بد من إنجازه ، ويجوز أن يكون عائداً على الله تعالى ، فيكون من إضافة المصدر إلى الفاعل ، وإن لم يجزله ذكر قريب ، لأنه معلوم أن الذي هذه مواعيده هو الله تعالى (إن هذه) أي : السورة ، أو الأنكال وما عطف عليه والأخذ الويل ، أو آيات القرآن المتضمنة شدة القيامة (تذكرة) أي : موعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) بالتقرب إليه بالطاعة ، ومفعول (شاء) محذوف يدل عليه الشرط ، لأن (مَنْ) شرطية أي : فمن شاء أن يتخذ سبيلاً اتخذ إلى ربه ، وليست المشيئة هنا على معنى الإباحة ، بل تتضمن معنى الوعد والوعيد ، (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) تصلي كقوله ﴿ قم الليل ﴾ [المزمل : ٢] لما كان أكثر أحوال الصلاة القيام عبره عنها ، وهذه الآية نزلت تخفيفاً لما كان استمرار استعماله من أمر قيام الليل ، إما على الوجوب ، وإما على الندب على الخلاف الذي سبق (أدنى من ثلثي الليل) أي : زماناً هو أقل من ثلثي الليل ، واستعير الأدنى وهو الأقرب للأول ، لأن المسافة بين الشيتين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز ، وإذا بعدت كثر ذلك ، وقرأ الجمهور (من ثلثي) بضم اللام ، والحسن وشيبة وأبو حيوه وابن السمينغ وهشام وابن مجاهد عن قبل فيما ذكر صاحب الكامل بإسكانها ، وجاء ذلك عن نافع وابن عامر فيما ذكر صاحب اللوامح ، وقرأ العربيان ونافع (ونصفه وثلثه) بجرهما عطفاً على (ثلثي الليل) ، وباقي السبعة وزيد بن علي بالنصب عطفاً على (أدنى) لأنه منصوب على الظروف أي : وقتاً أدنى من ثلثي الليل ، فقراءة النصب مناسبة للتقسيم الذي في أول السورة ، لأنه إذا قام الليل إلا قليلاً صدق عليه أدنى من ثلثي الليل ، لأن الزمان الذي لم يقم فيه يكون الثلث وشيئاً من الثلثين ، فيصدق عليه قوله (إلا قليلاً) وأما قوله (ونصفه) فهو مطابق لقوله أولاً (نصفه) وأما (ثلثه) فإن قوله (أو انقص منه قليلاً) قد ينتهي النقص في القليل إلى أن يكون الوقت ثلث الليل ، وأما قوله (أوزد عليه) فإنه إذا زاد على النصف قليلاً كان الوقت أقل من الثلثين ، فيكون قد طابق قوله (أدنى من ثلثي الليل) ويكون قوله تعالى (نصفه أو انقص منه قليلاً) شرحاً لمبهم ما دل عليه قوله (قم الليل إلا قليلاً) وعلى قراءة النصب ، قال الحسن وابن جبير معنى (تحصوه) تطبيقه أي : قدر تعالى أنهم يقدرون الزمان على ما مر في أول السورة فلم يطبقوا قيامه لكثرتة وشدته ، فخفف تعالى عنهم فضلاً منهم ، لا لعله جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات ، وأما قراءة الجر فالمعنى ، أنه قيام مختلف ، مرة أدنى من الثلثين ، ومرة أدنى من النصف ، ومرة أدنى من الثلث ، وذلك لتعذر معرفة البشر مقادير الزمان مع عذر النوم ، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى والبشر لا يحصون ذلك ، أي : لا يطبقون مقادير ذلك فتاب عليهم أي : رجع بهم من الثقل إلى الخفة وأمرهم بقيام ما تيسر ، وعلى القراءتين يكون علمه تعالى بذلك على حسب الوقوع منهم ، لأنهم قاموا تلك المقادير في أوقات مختلفة ، قاموا أدنى من الثلثين ونصفاً وثلثاً ، وقاموا أدنى من النصف وأدنى من الثلث ، فلا تنافي بين القراءتين ، وقرأ الجمهور (وثلثه) بضم اللام ، وابن كثير في رواية شبل بإسكانها ، وطائفة معطوف على الضمير المستكن في (تقوم) وحسنه الفصل بينها ، وقوله (وطائفة من الذين معك) دليل على أنه لم يكن فرضاً على الجميع ، إذ لو كان فرضاً لكان التركيب : والذين معك إلا إن اعتقد أنهم كان منهم من يقوم في بيته ومنهم من يقوم معه ، فيمكن إذ ذاك الفرضية في حق الجميع ، (والله يقدر الليل والنهار) أي : هو وحده تعالى العالم بمقادير الساعات ، قال الزنجشري : وتقديم اسمه عز وجل مبتدأً مبنياً عليه يقدر هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير انتهى ، وهذا مذهبه ، وإنما استفيد الاختصاص من سياق الكلام لا من تقديم المبتدأ ، ولو قلت : زيد يحفظ القرآن ، أو يتفقه في كتاب سيبويه لم يدل تقديم المبتدأ على الاختصاص ، و (أن) مخففة من الثقيلة والضمير في (تحصوه) الظاهر أنه عائد على المصدر المفهوم من (يقدر) أي : أن لن تحصوا تقدير ساعات الليل والنهار ، لا تحيطوا بها على الحقيقة . وقيل : الضمير يعود على القيام المفهوم من قوله (فتاب عليكم) قيل : فيه دليل على أنه كان فيهم من ترك بعض ما أمر به ، وقيل : رجع بكم من ثقل إلى خف ، ومن عسر إلى يسر ، ورخص

لكم في ترك القيام المقدر (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) عبر بالقراءة عن الصلاة ، لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود : أي فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل . قيل : وهذا ناسخ للأول ، ثم نسخاً جميعاً بالصلوات الخمس ، وهذا الأمر بقوله (فاقرؤوا) ، قال الجمهور : أمر بإباحة ، وقال ابن جبير وجماعة : هو فرض لا بد منه ولو خمسين آية ، وقال الحسن وابن سيرين : قيام الليل فرض ولو قدر حلب شاة ، وقيل : هو أمر بقراءة القرآن بعينها ، لا كناية عن الصلاة ، وإذا كان المراد : فاقروا في الصلاة ما تيسر ، فالظاهر أنه لا يتعين ما يقرأ ، بل إذا قرأ ما تيسر له وسهل عليه أجزأه ، وقدره وأبو حنيفة بآية حكاها عنه الماوردي ، وثلاث حكاها ابن العربي ، وعين مالك والشافعي (ما تيسر) قالوا : هو فاتحة الكتاب لا يعدل عنها ، ولا يقتصر على بعضها ، (علم أن سيكون منكم مرضى) بيان لحكمة النسخ ، وهي تعذر القيام على المرضى والضاربين في الأرض للتجارة ، والمجاهدين في سبيل الله (فاقرؤوا ما تيسر منه) كرر ذلك على سبيل التوكيد ، ثم أمر بعمودي الإسلام البدني والمالي ، ثم قال (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) العطف يشعر بالتغاير ، فقوله (وآتوا الزكاة) أمر بأداء الواجب (وأقرضوا الله) أمر بأداء الصدقات التي يتطوع بها ، وقرأ الجمهور (هو خيراً وأعظم أجراً) بنصبها ، واحتمل (هو) أن يكون فصلاً ، وأن يكون تأكيداً لضمير النصب في (تجدوه) ولم يذكر الزمخشري والحوافي وابن عطية في إعراب (هو) إلا الفصل ، وقال أبو البقاء : هو فصل ، أو بدل ، أو تأكيد فقوله : أو بدل وهم لو كان بدلاً لطابق في النصب ، فكان يكون إياه ، وقرأ أبو السمال وابن السميع (هو خيرٌ وأعظمُ) برفعها على الابتداء أو الخبر ، قال أبو زيد : هو لغة بني تميم يرفعون ما بعد الفاصلة ، يقولون : كان زيد هو العاقل بالرفع ، وهذا البيت لقيس بن ذريح وهو :

تَجَنُّ إِلَى لَيْلَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا وَكُنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأِ أَنْتَ أَقْدَرُ^(١)

قال أبو عمرو الجرمي : أنشد سيبويه هذا البيت شاهداً للرفع ، والقوافي مرفوعة ، ويروى : أقدر ، وقال الزمخشري : وهو فصل ، وجاز وإن لم يقع بين معرفتين لأن أفعل من أشبه في امتناعه من حرف التعريف المعرفة انتهى ، وليس ما ذكره متفقاً عليه ، ومنهم من أجاز ، وليس أفعل من أحكام الفصل ومسائله ، والخلاف الوارد فيها كثير جداً ، وقد جمعنا فيه كتاباً سميناه « بالقول الفصل في أحكام الفصل » وأودعنا معظمه شرح التسهيل من تأليفنا .

سورة المدثر مكية وهي ست وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَبَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمُئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۝١٦ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ عِنْدَنَا ۝١٧ سَاءُ رَهَقُهُمْ صَعُودًا ۝١٨ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرَ ۝١٩ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢١ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢٢ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٣ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٤ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝٢٥ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٦ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٨ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٩ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝٣٠ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرِ ۝٣١ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَهٖ وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَيْنَا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۝٣٢ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ۝٣٣ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝٣٤ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝٣٥ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ ۝٣٦ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٧ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝٣٨ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٩ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٤٠ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٤١ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ۝٤٢ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝٤٣ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝٤٤ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ۝٤٥ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ۝٤٦ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝٤٧ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۝٤٨ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ۝٤٩ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ۝٥٠ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝٥١ فَزَتْ مِنْ قَسَورَةٍ ۝٥٢ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ۝٥٣ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ إِلَّاخِرَةً ۝٥٤ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ۝٥٥ فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْ ۝٥٦ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝٥٧

تدثر : لبس الدثار ، وهو الثوب الذي فوق الشعر ، والشعار الثوب الذي يلي الجسد ، ومنه قوله - ﷺ - « الأنصار شعار والناس دثار » ، النقر : الصوت ، قال الشاعر :

أَخْفَضَهُ بِالنَّقْرِ لَمَّا عَلَوْتُهُ وَيَرْفَعُ طَرْفًا غَيْرَ خَافٍ غَضِيضٌ^(١)

وقال الراجز :

أَنَا ابْنُ مَآوِيَةٍ إِذْ جَدَّ النَّفَرُ^(٢)

يريد : النقر ، فنقل الحركة فالناقور ، فاعول منه ، كالجاسوس مأخوذ من التجسس ، عبس يعبس عبساً وعبوساً قطب ، والعبس : ما تعلق بأذناب الإبل من أبعادها وأبوالها . قال أبو النجم :

كَأَنَّ فِي أَذْنَابِهِنَّ الشُّوْلَ مِنْ عَبَسِ الضَّيْفِ قُرُونُ الْإِبِلِ^(٣)

بسر : قبض ما بين عينيه ، واربد وجهه ، قال :

صَحْبَنَا تَمِيمًا غَدَاةَ الْجَفَارِ بِشَهَبَا مُلَوَّمَةٍ بَاسِرَةٍ^(٤)

وأهل اليمن يقولون : بسر المركب وأبسر إذا وقف ، وقد أبسرنا ، وتقول العرب : وجه باسر بين البسور إذا تغير واسود لاحه البسر غير خلقتة ، قال :

تَقُولُ مَا لَاحَكَ يَا مُسَافِرُ يَا ابْنَةَ عَمِّي لَاحِنِي الْهَوَاجِرُ^(٥)

وقال آخر :

وَتَعْجَبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْني شَاجِبًا تَقُولُ لِشَيْءٍ لَوَحَتْهُ السَّمَائِمُ^(٦)

وقال الأخفش : اللوح شدة العطش ، لاحه العطش ولوحه غيره :

وقال الشاعر :

سَقَتْنِي عَلَى لَوْحٍ مِنَ الْمَاءِ شَرِبَةً سَقَاهَا بِهِ اللَّهُ الرَّهَامَ الْغَوَادِيَا^(٧)

ويقال : التاح ، أي : عطش ، القسورة ، الرماة والصيادون قاله ابن كيسان ، أو الأسد قاله جماعة من اللغويين ،

قال :

-
- (١) البيت من الطويل لامرئ القيس انظر ديوانه (٧٥) .
 (٢) صدر بيت من الرجز نسب لعبد الله بن معاوية الطائي انظر الإنصاف (٧٣٢) - التصريح (٣٤١/٢) المغني (٨٤٣/٢) الهمع (١٠٧/٢) اللسان (نفر) .
 (٣) انظر البيت في اللسان (عبس) .
 (٤) البيت من المتقارب نسب لأبي تراب الظاهري ، ونسبه القرطبي في تفسير لبشر بن أبي حازم انظر القرطبي (٧٥/١٩) فتح القدير (٣٢٧/٥) .
 (٥) البيت من الرجز لم نهند لقائله انظر الكشف (٦٥٠/٤) ، روح المعاني (١٥٧/٢٩) ،
 (٦) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون .
 (٧) البيت من الطويل لم نهند لقائله انظر فتح القدير (٢٢٨/٥) .

مُضْمَرٌ تَحْدِيرُهُ الْأَبْطَالُ كَأَنَّهُ الْقَسُورَةُ الرَّبَّالُ^(١)

أو الرجال الشداد ، قال لبيد :

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتَفَةً فِي نَدِينَا أَتَانَا الرَّجَالُ الصَّائِدُونَ الْقَسَاوِرَ^(٢)

أو ظلمة أول الليل لا ظلمة آخره قاله ابن الأعرابي وتعلب .

﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ، فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مალأً ممدوداً ، وبينن شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ هذه السورة مكية ، قال ابن عطية : بإجماع ، وفي التحرير قال مقاتل : إلا آية وهي (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة) ومناسبتها لما قبلها : أن في ما قبلها : ﴿ ذرني والمكذبين ﴾ [المزل ١١] وفيه ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ [المزل ١٩] فناسب (يا أيها المدثر قم فأنذر) وناسب ذكر يوم القيامة بعد وذكر بعض المكذبين في قوله (ذرني ومن خلقت وحيداً) قال الجمهور : لما فرغ من رؤية جبريل على كرسي بين السماء والأرض ورعب منه رجع إلى خديجة ، فقال : « زملوني دثروني » نزلت (يا أيها المدثر) قال النخعي وقناة وعائشة : نوذي وهو في حال تدثره ، فدعي بحال من أحواله ، وروي : أنه كان تدثر في قطيفة ، قيل : وكان يسمع من قريش ما كرهه ، فاغتم وتغطى بثوبه مفكراً ، فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه ، وقال عكرمة معناه : يا أيها المدثر للنسوة وأثقالها ، كما قال في المزل ، وقرأ الجمهور (المذثر) بشد الدال ، وأصله : المتدثر فأدغم ، وكذا هو في حرف أبي على الأصل ، وقرأ بتخفيف الدال كما قرئ بتخفيف الزاي في المزل أي : دثر نفسه ، وعن عكرمة أيضاً فتح التاء اسم مفعول ، وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك (قم فأنذر) أي : قم من مضجعك أو (قم) بمعنى الأخذ في الشيء ، كما تقول : قام زيد يضرب عمراً أي : أخذ ، وكما قال :

عَلَامَ قَامَ يَشْتُمُنِي لَيْئِمٌ^(٣)

أي : أخذ ، والمعنى : قم قيام تصميم وجد (فأنذر) أي : حذر عذاب الله ووقائعه ، والإنذار عام بجميع الناس وبعثه إلى الخلق ، (وربك فكبر) أي : فعظم كبريائه ، وقال الزمخشري : واختص (ربك) بالتكبر وهو الوصف بالكبرياء ، وأن يقال : الله أكبر انتهى ، وهذا على مذهبه من أن تقديم المفعول على الفعل يدل على الاختصاص . قال : ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره انتهى ، وهو قريب مما قدره النحاة في قولك ، زيداً فاضرب ، قالوا تقديره : تنبه فاضرب زيداً ، فالفاء هي جواب الأمر ، وهذا الأمر إما مضمن معنى الشرط ، وإما الشرط بعده محذوف ، على الخلاف الذي فيه عند النحاة ، (وثيابك فطهر) الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن

(١) البيت من الرجز لم يهتد لقائله انظر اللسان (رهل) .

(٢) البيت من الطويل للبيد بن ربيعة انظر فتح القدير (٥ / ٣٣٣) .

(٣) تقدم .

طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي ، ومن هذه الآية ذهب الشافعي إلى وجوب غسل النجاسة من ثياب المصلي . وقيل : تطهيرها : تقصيرها ومخالفة العرب في تطويل الثياب وجرهم الذبول على سبيل الفخر والتكبر ، قال الشاعر :

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقُ الْمِسْكِ بِهِمْ يُلْحِفُونَ الْأَرْضَ هُدَابُ الْأُزُرِ^(١)

ولا يؤمن من إصابتها النجاسة وفي الحديث إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما كان أسفل من ذلك ففي النار» وذهب الجمهور إلى أن الثياب هنا مجاز ، فقال ابن عباس والضحاك : تطهيرها أن لا تكون تتلبس بالقدر ، وقال ابن عباس وابن جبير أيضاً : كني بالثياب عن القلب ، كما قال امرؤ القيس :

فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي^(٢)

أي : قلبي من قلبك . وعلى الطهارة من القدر ، وأنشد قول غيلان بن سلمة الثقفي :

إِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا ثَوْبَ غَادِرٍ لَيْسْتُ وَلَا مِنْ خَزِيَّةٍ أَتَقَنَّعُ^(٣)

وقيل : كناية عن طهارة العمل ، المعنى : وعملك فأصلح قاله مجاهد وابن زيد ، وقال ابن زيد : إذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : فلان خبيث الثياب ، وإذا كان حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب ، ونحو هذا عن السدي ، ومنه قول الشاعر :

لَا هُمْ إِنْ عَامِرَ بْنَ جَهْمٍ أَوْ دَمَّ حَجًّا فِي ثِيَابٍ دَسَمِ^(٤)

أي : دنسة بالمعاصي ، وقيل : كني عن النفس بالثياب قاله ابن عباس : قال الشاعر :

فَشَكَّكَتْ بِالرُّمَحِ الطُّوِيلِ ثِيَابَهُ

وقال آخر :

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ وَأَوَّجُهُهُمْ بَيْضُ سَافِرٍ غِرَانِ^(٥)

أي : أنفسهم ، وقيل : كني بها عن الجسم ، قالت ليلى وقد ذكر إبلأ :

رَمَوْهَا بِأَثْوَابٍ خِفَافٍ فَلَا نَرَى لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُنْفَرَا^(٦)

أي : ركبوها فرموها بأنفسهم . وقيل : كناية عن الأهل قال تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة ١٨٧] والتطهر فيهن اختيار المؤمنات العفائف ، وقيل : وطئنهن في القبل لا في الدبر ، في الطهر لا في الحيض ، حكاه ابن بحر ، وقيل :

(١) البيت لطرفة انظر ديوانه (٦٨) الأشموني (٢/١٩٠) العيني (٣/٣٠٨) روح المعاني (٢٩/١٤٨) .

(٢) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٢) روح المعاني (٢٩/١٤٧) .

(٣) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٢) .

(٤) انظر البيت في القرطبي (١٩/٤٢) .

(٥) تقدم .

(٦) انظر البيت في روح المعاني (١٩/١٤٧) القرطبي (١٩/٤٣) .

كناية عن الخلق أي : وخلقك فحسن قاله الحسن والقرطبي ، ومنه قوله :

وَيُخَيِّى مَا يُلَاثِمُ سُوءَ خَلْقِي وَيُخَيِّى طَاهِرَ الْأَنْوَابِ حَرًّا^(١)

أي : حسن الأخلاق ، وقرأ الجمهور (والرَّجْز) بكسر الراء ، وهي لغة قريش ، والحسن ومجاهد والسلمي وأبو جعفر وأبو شيبه وابن محيصن وابن وثاب وقتادة والنخعي وابن أبي إسحاق والأعرج وحفص بضمها ، فقليل هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان ، وقيل : الكسر للبين والنقائص والفجور ، والضم لصنمين إساف ونائلة ، وقال عكرمة ومجاهد والزهري : للأصنام عموماً . وقال ابن عباس : الرجز السخط ، أي : اهجر ما يؤدي إليه ، وقال الحسن : كل معصية ، والمعنى في الأمر اثبت ودم على هجره ، انتهى . لأنه - ﷺ - كان بريئاً منه ، وقال النخعي : (الرجز) الإثم ، وقال القتيبي : العذاب أي : اهجر ما يؤدي إليه ، وقرأ الجمهور (وَلَا تَمْنُنْ) بفك التضعيف ، والحسن وأبو السمال بشد النون ، قال ابن عباس وغيره : ولا تعط عطاء لتعطى أكثر منه ، كأنه من قولهم : من إذا أعطى . قال الضحاك : هذا خاص به ﷺ ، ومباح ذلك لأتمته ، لكنه لا أجر لهم ، وعن ابن عباس أيضاً : لا تقل دعوت فلم أجب ، وعن قتادة : لا تدل بعملك ، وعن ابن زيد : لا (تمنن) بنبتك (تستكثر) بأجر ، أو كسب تطلبه منهم ، وقال الحسن (تمنن) على الله بجدك (تستكثر) أعمالك ، ويقع لك بها إعجاب ، وهذه الأقوال كلها من المنّ تعداد اليد وذكرها . وقال مجاهد (ولا تمنن تستكثر) ما حملناك من أعباء الرسالة أو تستكثر من الخير من قولهم : جبل متين ، أي : ضعيف وقيل : ولا تعط مستكثراً راثياً لما تعطيه ، وقرأ الجمهور (تستكثر) برفع الراء والجملة حالية أي : مستكثراً ، قال الزمخشري : ويجوز في الرفع أن تحذف أن ويطل عملها ، كما روي :

أحضر الوغى

بالرفع انتهى . وهذا لا يجوز أن يحمل القرآن عليه . لأنه لا يجوز ذلك إلا في الشعر ، ولنا مندوحة عنه مع صحة الحال أي : مستكثر ، وقرأ الحسن وابن أبي عبلة بجزم الراء ووجهه أنه بدل من (تمنن) أي : لا تستكثر كقوله ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ [الفرقان ٦٩] في قراءة من جزم بدلاً من قوله (يلقى) وكقوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَارًا تَأْجَجَا^(٢)

ويكون من المن الذي في قوله تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ [البقرة ٢٦٤] لأن من شأن المان أن يستكثر ما يعطي أن يراه كثيراً ويعتد به ، وأجاز الزمخشري فيه وجهين ، أحدهما : أن تشبه ثرو بعضه ، فتسكن تخفيفاً ، والثاني : أن يعتبر حال الوقف ، يعني : فيجري الوصل مجرى الوقف ، وهذان لا يجوز أن يحمل القرآن عليهما مع وجود ما هو راجح عليهما وهو البذل ، وقرأ الحسن أيضاً والأعمش (تستكثر) بنصب الراء أي : لن تحقرها . وقرأ ابن مسعود (أن تستكثر) بإظهار أن (ولربك فاصبر) أي : لوجه ربك . أمره بالصبر ، فيتناول الصبر على تكاليف التوبة ، وعلى أداء طاعة الله ، وعلى أذى الكفار ، قال ابن زيد : على حرب الأحمر والأسود ، فكل مصبور عليه ومصبور عنه يندرج في الصبر ، وقال الزمخشري : والفاء في قوله (فإذا نقر) كأنه قيل : فاصبر على أذاهم ، فيبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى عاقبة صبرك عليه ، وقال الزمخشري : والفاء في (فذلك) للجزاء فإن قلت : بم انتصب إذا ؟

(١) انظر البيت في القرطبي (٤٣/١٩) ، روح المعاني (٢٩/١٤٦) .

(٢) تقدم .

وكيف صح أن يقع (يومئذ) ظرفاً لـ (يوم عسير) (قلت :) انتصب (إذا) بما دل عليه الجزاء ، لأن المعنى : فإذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين ، والذي أجاز وقوع (يومئذ) ظرفاً لـ (يوم عسير) أن المعنى ، فذلك وقت النقر ووقوع يوم عسير ، لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور ، ويجوز أن يكون (يومئذ) مبنياً مرفوع المحل بدلاً من (ذلك) و (يوم عسير) خبر كأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير (فإن قلت :) فما فائدة قوله (غير يسير) و (عسير) مغن عنه . (قلت :) لما قال (على الكافرين) فقصر العسر عليهم ، قال (غير يسير) ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ، فيجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ، ويجوز أن يراد به عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً ، كما يرجى بيسير العسير من أمور الدنيا انتهى ، وقال الحوفي فـ (إذا) إذا متعلقة بـ (أنذر) أي : فأنذرهم إذا نقر في الناقور ، قال أبو البقاء يجري على قول الأخفش أن تكون (إذا) مبتدأ والخبر (فذلك) والفاء زائدة ، فأما (يومئذ) فظرف لـ (ذلك) وأجاز أبو البقاء أن يتعلق (على الكافرين) بـ (يسير) أي : غير يسير أي : غير سهل على الكافرين ، وينبغي أن لا يجوز ، لأن فيه تقدم معمول العامل المضاف إليه (غير) على العامل ، وهو ممنوع على الصحيح ، وقد أجازوه بعضهم فيقول : أنا يزيد غير راض ، (ذري ومن خلقت وحيداً) لا خلاف أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، فروي أنه كان يلقب بالوحيد ، أي : لأنه لا نظير له في ماله وشرفه في بيته ، والظاهر انتصاب (وحيداً) على الحال من الضمير المحذوف العائد على (من) أي : خلقت منفرداً ذليلاً قليلاً لا مال له ولا ولد ، فاتاه الله تعالى المال والولد ، فكفر نعمته وأشرك به واستهزأ بدينه ، وقيل : حال من ضمير النصب في (ذري) قاله مجاهد ، أي : ذري وحدي معه ، فأنا أجزيك في الانتقام منه ، أو حال من التاء في (خلقت) أي : خلقت وحدي لم يشركني في خلقي أحد ، فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر في إهلاكه ، وقيل : (وحيداً) لا يتبين أبوه وكان الوليد معروفاً بأنه دعي ، كما تقدم في قوله تعالى ﴿ عتل بعد ذلك زينيم ﴾ [القلم ١٣] وإذا كان يدعى وحيداً فلا يجوز أن ينتصب على الذم ، لأنه لا يجوز أن يصدفه الله تعالى في أنه لا نظير له ، ورد ذلك بأنه لما لقب بذلك صار علماً ، والعلم لا يفيد في المسمى صفة ، وأيضاً فيمكن حمله على أنه وحيد في الكفر والخبث والدناءة ، (وجعلت له مالاً ممدوداً) ، قال ابن عباس : كان له بين مكة والطائف إبل وحجور ونعم وجنان وعبيد وجوار . وقيل : كان صاحب زرع وضرع وتجارة ، وقال النعمان بن بشير : المال الممدود : هو الأرض لأنها مدت ، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هو الريع المستغل مشاهرة ، فهو مد في الزمان لا ينقطع . وقيل : هو مقدار معين ، واضطربوا في تعيينه ، فما قيل : ألف دينار ، وقيل : ألف ألف دينار ، وكل هذا تحكم . (وبين شهوداً) أي : حضوراً معه بمكة لا يظعنون عنه لغناهم ، فهو مستأنس بهم ، أو (شهوداً) أي : رجالاً يشهدون معه المجامع والمحافل ، أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه ، واختلف في عددهم ، فذكر منهم خالد وهشام وعمارة وقد أسلموا ، والوليد والعاصي وقيس وعبد شمس ، قال مقاتل : فما زال الوليد بعد هذه الآية وبعد نزولها في نقص في ماله وولده حتى هلك ، (ومهدت له تمهيداً) أي : وطئت وهيئت وبسطت له بساطاً ، حتى أقام ببلدته مطمئناً يرجع إلى رأيه . وقال ابن عباس : وسعت له ما بين اليمن إلى الشام . وقال مجاهد : مهدت له المال بعضه فوق بعض ، كما يجهد الفراش (ثم يطمع أن أزيد) أي : على ما أعطيته من المال والولد (كلا) أي : ليس يكون كذلك مع كفره بالنعم . وقال الحسن وغيره : ثم يطمع أن أدخله الجنة : لأنه كان يقول : إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلا لي (ثم يطمع) قال الزمخشري : استبعاد لطمعه واستنكار أي : لا مزيد على ما أوتي كثرة وسعة (كلا) قطع لرجائه وردع انتهى . وطمعه في الزيادة دليل على مبشعه وحبه للدنيا (إنه كان لا يأتنا عنيداً) تعليل للردع على وجه الاستئناف ، كأن قائل قال : لم لا يزد ، فقال : إنه كان يعاند آيات المنعم وكفر بذلك ، والكافر لا يستحق المزيد ، وإنما جعلت الآيات بالنسبة إلى الإنعام لمناسبة قوله (وجعلت له مالاً ممدوداً) إلى آخر ما آتاه الله ، والأحسن أن يحمل على آيات القرآن لحديثه في القرآن وزعمه أنه

سحر ، (سأرهقه) أي : سأكلفه وأعتته بمشقة وعسر (صعوداً) عقبة في جهنم ، كلما وضع عليها شيء من الإنسان ذاب ، ثم يعود ، والصعود في اللغة : العقبة الشاقة ، وتقَدَّم شرح (عنيد) في سورة إبراهيم عليه السلام (إنه فكر وقَدَّر) ، روي أن الوليد حاج أبا جهل وجماعة من قريش في أمر القرآن ، وقال : إن له خلوة وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى ، ونحو هذا من الكلام ، فخالقوه وقالوا : هو شعر ، فقال : والله ما هو بشعر ، قد عرفنا الشعر هزجه وبسيطه ، قالوا : فهو كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، قالوا : هو مجنون ، قال : والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وخنقه ، قالوا : هو سحر ، قال : أما هذا فيشبه أنه سحر ويقول أقوال نفسه ، وروي هذا بالفاظ غير هذه ، ويقرب من حيث المعنى ، وفيه : وترعمون أنه كذب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ، فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ، ففكر ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلا سحر يؤثره عن مثل مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادي فرحاً ، وتفرقوا متعجبين منه ، وروي : أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه ، ثم سمع كذلك مراراً حتى كاد أن يقارب الإسلام ، ودخل إلى أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه - مراراً ، فجاءه أبو جهل فقال : يا وليد أشعرت أن قريشاً قد ذمَّتْك بدخولك إلى ابن أبي قحافة ، وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه ، وقد أبغضتكم لمقاربتك أمر محمد ، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولاً يرضيهم ، ففتنه أبو جهل ، فافتتن ، وقال : أفعل (إنه فكر) تعليل للوعيد في قوله (سأرهقه صعوداً) ، قيل : ويجوز أن يكون (إنه فكر) بدلاً من قوله (إنه كان لآياتنا عنيداً) بياناً ، لكنه عناد ، وفكر أي : في القرآن ومن أتى به (وقدر) أي : في نفسه ما يقول فيه ، (فقتل كيف قدر) قيل : (قتل) لعن ، وقيل : غلب وقهر ، وذلك من قوله :

لِسَهْمَيْكَ فِي أَغْشَارِ قَلْبٍ مُّقْتَلٍ^(١)

أي : مذلل مقهور بالحب ، فلعن دعاء عليه بالطرد والإبعاد ، وغلب ، وذلك إخبار بقهره وذلته و (كيف قدر) معناه : كيف قدر ما لا يصح تقديره وما لا يسوغ أن يقدره عاقل ، وقيل : دعاء مقتضاه الاستحسان والتعجب ، فقيل : ذلك لمنزعه الأول في مدحه القرآن ، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه ، فيجري مجرى قول عبد الملك بن مروان : قاتل الله كثيراً ، كأنه رآنا حين قال كذا ، وقيل : ذلك لإصابته ما طلبت قريش منه ، وقيل : ذلك ثناء عليه على جهة الاستهزاء به ، وقيل : ذلك حكاية لما كرروه من قولهم (قتل كيف قدر) تهكماً بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ، وهذا فيه بعد وقولهم ﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ﴾ [المنافقون : ٤] مشهور في كلام العرب أنه يقال : عند استعظام الأمر والتعجب منه ، ومعناه : انه قد بلغ المبلغ الذي يحسد عليه ويدعى عليه من حساده ، والاستفهام في (كيف قدر) في معنى : ما أعجب تقديره وما أغربه ، كقولهم : أي : رجل زيد ، أي : ما أعظمه وجاء التكرار بضم ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى ، للتراخي الذي بينها ، كأنه دعي عليه أولاً ، ورجي أن يقلع عن ما كان يرومه فلم يفعل فدعي عليه ثانياً (ثم نظر) أي : فكر ثانياً . وقيل : نظر إلى وجوه الناس (ثم عبس وبسر) أي : قطب وكلج لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول : وقيل : قطب في وجه رسول الله - ﷺ - (ثم أدبر) رجع مدبراً ، وقيل : (أدبر) عن الحق (واستكبر) قيل : تشارس مستكبراً ، وقيل : استكبر عن الحق ، وصفه بالهيئات التي تشكل بها حين أراد أن يقول ما قال كل ذلك على سبيل الاستهزاء ، وأن ما يقوله كذب وافتراء إذ لو كان ممكناً لكان له هيئات غير هذه ، من فرح اللب ، وظهور السرور والجدل والبشر في وجهه ، ولو كان حقاً لم يحتاج إلى هذا الفكر ، لأن الحق أبلغ يتضح بنفسه من غير إكداد فكر ولا إبطاء تأمل ، ألا

ترى إلى ذلك الرجل ، وقوله حين رأى رسول الله - ﷺ - فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ؟ وأسلم من فوره . وقيل : (ثم نظر) فيما يحتج به للقرآن فرأى ما فيه من الإعجاز والإعلام بمرتبة الرسول - ﷺ - ودام نظره في ذلك (ثم عبس وبسر) دلالة على تأنيه وتمهله في تأمله ، إذ بين ذلك تراخ وتباعد ، وكان العطف في (وبسر) وفي (واستكبر) لأن البسور قريب من العبوس ، فهو كأنه على سبيل التوكيد ، والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار ، إذ الاستكبار معنى في القلب ، والإدبار حقيقة من فعل الجسم ، فهما سبب ومسبب ، فلا يعطف بثم ، وقدم المسبب على السبب ، لأنه الظاهر للعين ، وناسب العطف بالواو وكان العطف في (فقال) بالفاء ، دلالة على التعقيب ، لأنه لما خطر بباله هذا القول بعد تطلبه لم يتالك أن نطق به من غير تمهل ، ومعنى (يؤثر) يروي وينقل . قال الشاعر :

لَقُلْتُ مِنَ الْقَوْلِ مَا لَا يَزَا لُ يُؤْثِرَ عَنِّي بِهِ الْمَسْنَدُ

وقيل : (يؤثر) أي : يختار ويرجع على غيره من السحر ، فيكون من الإيثار ، ومعنى (إلا سحر) أي : شبيه بالسحر ، (إن هذا إلا قول البشر) تأكيد لما قبله أي : يلتقط من أقوال الناس ، ويظهر أن كفر الوليد إنما هو عناد ، ألا ترى ثناءه على القرآن ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر والكهانة والجنون ، وقصته مع رسول الله - ﷺ - حين قرأ عليه أوائل سورة فصلت إلى قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُمُودَ ﴾ [فصلت ١٣] وكيف ناشده الله بالرحم أن يسكت ؟ (سأصليه سقر) ، قال الزمخشري : بدل من (سأرهقه صعوداً) انتهى . ويظهر أنها جملتان اعتقت كل واحدة منهما ، فتوعد على سبيل التوعد العصيان الذي قبل كل واحدة منهما ، فتوعد على كونه عنيداً لآيات الله بإرهاق صعود ، وعلى قول بأن القرآن سحر يؤثر بإصلائه سقر ، وتقدم الكلام على (سقر) في أواخر سورة القمر (وما أدراك ما سقر) تعظيماً لهولها وشدها (لا تبقي ولا تذر) أي : (لا تبقي) على من ألقي فيها (ولا تذر) غاية من العذاب إلا أوصلته إليه ، (لَوَاحَةٌ لِلْبُشْرِ) قال ابن عباس ومجاهد وأبو رزين والجمهور معناه : مغيرة للبشرات ، محرقة للجلود ، مسودة لها ، والبشر جمع بشرة ، وتقول العرب : لاحت النار الشيء إذا أحرقتة وسودته . وقال الحسن وابن كيسان (لَوَاحَةٌ) بناء مبالغة من لاح إذا ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمتها وهو لها وزجرها . كقوله تعالى ﴿ لَتَرُونَ الْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر ٦] وقوله ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات ٣٦] وقرأ الجمهور (لَوَاحَةٌ) بالرفع أي : هي لَوَاحَةٌ ، وقرأ العوفي وزيد بن عليّ والحسن وابن أبي عبلة (لَوَاحَةٌ) بالنصب على الحال المؤكدة ، لأن النار التي لا تبقي ولا تذر ، لا تكون إلا مغيرة للأبشار ، وقال الزمخشري : نصباً على الاختصاص للتهويل ، (عليها تسعة عشر) التمييز محذوف ، والمتبادر إلى الذهن أنه ملك ، ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه أن المراد ملك حين سمعوا ذلك ؟ فقال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدهم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي - وكان شديد البطش - أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين ، فأنزل الله تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي : ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون ، وأنزل الله تعالى في أبي جهل ﴿ أولى لك فأولى ﴾ [القيامة : ٣٥] وقيل : التمييز المحذوف صنفاً من الملائكة ، وقيل : نقيباً ، ومعنى (عليها) يتولون أمرها وإليهم جماع زبانيته ، فالذي يظهر من العدد ومن الآية بعد ذلك ومن الحديث أن هؤلاء هم النقباء ، ألا ترى إلى قوله تعالى (وما يعلم جنود ربك إلا هو) وقوله - عليه الصلاة والسلام - يؤق بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، وقد ذكر المفسرون من نعوت هؤلاء الملائكة وخلقهم وقوتهم ، وما أقدرهم الله تعالى عليه من الأفعال ما الله أعلم بصحته ، وكذلك ذكر أبو عبد الله ، الرازي حكماً على زعمه في كون هؤلاء الملائكة على هذا العدد المخصوص يوقف

عليها في تفسيره ، وقرأ الجمهور (تسعة عشر) مبنيين على الفتح على مشهور اللغة في هذا العدد ، وقرأ أبو جعفر وطلحة بن سليمان بإسكان العين كراهة توالي الحركات ، وقرأ أنس بن مالك وابن عباس وابن قطيب وإبراهيم بن قتيبة بضم التاء ، وهي حركة بناء ، عدل إليها عن الفتح لتوالي خمس فتحات ولا يتوهم أنها حركة إعراب ، لأنها لو كانت حركة إعراب لأعرب (عشر) وقرأ أنس أيضاً (تسعة) بالضم أعشر بالفتح ، وقال صاحب اللوامح : فيجوز أنه جمع العشرة على أعشر ، ثم أجراه مجرى (تسعة عشر) وعنه أيضاً (تسعة وعشر) بالضم وقلب الهمزة من أعشر واواً خالصة تخفيفاً ، والباء فيهما مضمومة ضمة بناء لأنها معاقبة للفتحة فراراً من الجمع بين خمس حركات على جهة واحدة ، وعن سليمان بن قتيبة - وهو أخو إبراهيم - بضم التاء ضمة إعراب وإضافته إلى أعشر ، وأعشر مجرور منون ، وذلك على فك التركيب ، قال صاحب اللوامح : ويحيى على هذه القراءة - وهي قراءة من قرأ (أعشر) مبنياً أو معرباً من حيث هو جمع - أن الملائكة الذين هم على النار تسعون ملكاً انتهى ، وفيه بعض تلخيص ، قال الزمخشري : وقرئ (تسعة عشر) جمع عشير مثل يمين وأيمن انتهى ، وسليمان بن قتيبة هذا هو الذي مدح أهل بيت رسول الله - ﷺ - وهو القائل :

مَرَرْتُ عَلَى أَيْبَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَمْ أَرْ أَمْثَالاً لَهَا يَوْمَ حَلَّتْ
وَكُنَّا نُواثِمًا ثُمَّ عَادُوا رَزِيَّةً لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ الرِّزَايَا وَجَلَّتْ

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) أي : جعلناهم خلقاً لا قبل لأحد من الناس بهم (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي : سبب فتنة و (فتنة) مفعول ثانٍ لـ (جعلنا) أي : جعلنا تلك العدة - وهي تسعة عشر - سبباً لفتنة الكفار ، فليس (فتنة) مفعولاً من أجله ، وفتنتهم : هي كونهم أظهرُوا مقاومتهم في مغالبتهم ، وذلك على سبيل الاستهزاء ، فإنهم يكذبون بالبعث والنار وبخزنتها (ليستيقن) هذا مفعول من أجله ، وهو متعلق بـ (جعلنا) لا بـ (فتنة) فليس الفتنة معلولة للاستيقان ، بل المعلول جعل العدة سبباً لفتنة (الذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود والنصارى أن هذا القرآن هو من عند الله ، إذ هم يحدون هذه العدة في كتبهم المنزلة ، ويعلمون أن الرسول لم يقرأها ولا قرأها عليه أحد ، ولكن كتابه يصدق كتب الأنبياء ، إذ كل ذلك حق يتعاوض من عند الله تعالى ، قال هذا المعنى ابن عباس ومجاهد ، ووبرود الحقائق من عند الله تعالى يزداد كل ذي إيمان إيماناً ، ويزول الريب عن المصدقين من أهل الكتاب وعن المؤمنين ، وقيل : إنما صار جعلها فتنة ، لأنهم يستهزئون ، ويقولون : لم لم يكونوا عشرين ، وما مقتضي لتخصيص هذا العدد بالوجود ، ويقولون هذا العدد القليل ، ويقولون بتعذيب أكثر العالم من الجن والإنس من أول ما خلق الله تعالى إلى قيام الساعة ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سبباً لاستيقان أهل الكتاب ، وزيادة إيمان المؤمنين ، واستهزاء الكافرين والمنافقين ، فما وجه صحة ذلك ؟ (قلت :) ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً لذلك وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سبباً ، وذلك أن المراد بقوله (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع (فتنة للذين كفروا) موضع (تسعة عشر) لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ، ويعترض ويستهزئ ، ولا يدعن إذعان المؤمن وإن خفي عليه وجه الحكمة ، كأنه قيل : ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها ، لأجل استيقان المؤمنين ، وحيرة الكافرين انتهى . وهو سؤال عجيب وجواب فيه تحريف كتاب الله تعالى ، إذ زعم أن معنى (إلا فتنة للذين كفروا) إلا تسعة عشر ، وهذا لا يذهب إليه عاقل ، ولا من له أدنى ذكاء ، وكفى رداً عليه تحريف كتاب الله ، ووضع ألفاظ مخالفة للألفاظ ، ومعنى مخالف لمعنى ، وقيل : (ليستيقن) متعلق بفعل مضمر أي : فعلنا ذلك ليستيقن (ولا يرتاب) توكيد : لقوله (ليستيقن) إذ إثبات اليقين ونفي الارتياب أبلغ وأكد في الوصف ، لسكون النفس السكون التام ، (والذين في قلوبهم مرض) قال الحسين بن

الفضل : السورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما المرض في الآية الاضطراب وضعف الإيمان ، وقيل : هو إخبار بالغيب : أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة (ماذا أراد الله بهذا مثلاً) لما سمعوا هذا العدد لم يبتدوا وحراروا ، فاستفهم بعضهم بعضاً عن ذلك . استبعاداً أن يكون هذا من عند الله ، وسموه (مثلاً) استعارة من المثل المضروب ، استغراباً منهم لهذا العدد ، والمعنى : أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب ، ومرادهم إنكار أصله ، وأنه ليس من عند الله وتقدم إعراب مثل هذه الجملة في أوائل البقرة .

﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر ، كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ، كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون ، عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرّت من قسورة ، بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ، كلا بل لا يخافون الآخرة ، كلا إنه تذكرة ، فما شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

الكاف في محل نصب ، و (ذلك) إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أي : مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ، فيشكون ، فيزيدهم كفراً وضلالاً ، ويهدي المؤمنين ، فيزيدهم إيماناً ، (وما يعلم جنود ربك إلا هو) إعلام بأن الأمر فوق ما يتوهم ، وأن الجزاء إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها ، والساء عامرة بأنواع من الملائكة ، وفي الحديث « أطت السماء ، وحق لها أن تنط ، ما فيها موضع قدم إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً » (وما هي) أي : النار قاله مجاهد ، أو المخاطبة والنذارة ، أو نار الدنيا ، أو الآيات التي ذكرت ، أو العدة التسعة عشر ، أو الجنود ، أقوال راجحها الأول ، وهي سقر . ذكر بها البشر ليخافوا ويطيعوا ، وقد جرى ذكر النار أيضاً في قوله ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ [المدثر ٣١] (إلا ذكرى للبشر) أي : الذين أهلوا للتذكر والاعتبار كلا . قال الزمخشري : (كلا) إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى ، لأنهم يتذكرون انتهى . ولا يسوغ هذا في حق الله تعالى ، أن يخبر أنها ذكرى للبشر ، ثم ينكر أن تكون لهم ذكرى ، وإنما قوله (للبشر) عام مخصوص ، وقال الزمخشري : أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيراً وقيل : ردع لقول أبي جهل وأصحابه : أنهم يقدرّون على مقاومة خزنة جهنم ، وقيل : ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة ، وقال الفراء : هي صلة للقسام ، وقدرها بعضهم بحقاً ، وبعضهم بالآلة الاستفتاحية ، وقد تقدم الكلام عليها في آخر سورة مريم - عليها السلام - (والقمر والليل إذا أدبر) أي : ولي ، ويقال : دبر وأدبر بمعنى واحد ، أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها ، وتنبيهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها ، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وابن يعمر وأبو جعفر وشيبة وأبو الزناد وقتادة وعمر بن عبد العزيز والحسن وطلحة والنحويان والابن بك (إذا) زمان مستقبل (دبر) بفتح الدال ، وابن جبير والسلمي والحسن بخلاف عنهم ، وابن سيرين والأعرج وزيد بن علي وأبو شيخ وابن محيصن ونافع وحمة وحفص (إذ) ظرف زمان ماضٍ (أدبر) رباعياً ، والحسن أيضاً ، وأبورزين وأبورجاء وابن يعمر أيضاً ، والسلمي أيضاً ، وطلحة أيضاً ، والأعمش ويونس بن عبيد ومطر (إذا) بالالف (أدبر) بالهمز ، وكذا هو في مصحف عبد الله وأبي . وهو مناسب لقوله (إذا أسفر) ويقال : كأمس الدابر ، وأمس المدبر بمعنى واحد ، وقال يونس بن حبيب (دبر) انقضى ، و (أدبر) تولى . وقال قتادة (دبر) الليل ولي ، وقال الزمخشري : و (دبر) بمعنى (أدبر) كقبل بمعنى أقبل ، وقيل : هو من دبر

الليل النهار أخلفه ، وقرأ الجمهور (أَسْفَرَ) رباعياً وابن السميعة وعيسى بن الفضل (سَفَر) ثلاثياً ، والمعنى : طرح الظلمة عن وجهه ، (إنها لإحدى الكبر) الظاهر أن الضمير في (إنها) عائد على النار ، قيل : ويحتمل أن يكون للنذارة وأمر الآخرة ، فهو للحال والقصة ، وقيل : إن قيام الساعة لإحدى الكبر ، فعاد الضمير إلى غير مذكور ، ومعنى (إحدى الكبر) الدواهي الكبرى أي : لا نظير لها ، كما تقول : هو أحد الرجال ، وهي إحدى النساء ، و (الكبر) العظام من العقوبات .

وقال الراجز :

يَا أَبْنَ الْمُعَلَّى نَزَلْتَ إِحْدَى الْكُبَرِ ذَاهِيَةَ الدَّهْرِ وَصَمَاءَ الْغَيْرِ^(١)

و (الكبر) جمع الكبرى ، طرحت ألف التانيث في الجمع ، كما طرحت همزته في قاصعاء ، فقالوا : قواصع وفي كسب ابن عطية : و (الكبر) جمع كبيرة ، ولعله من وهم الناسخ ، وقرأ الجمهور (لإحدى) بالهمزة وهي منقلبة عن واو ، أصالة : لوحدي ، وهو بدل لازم ، وقرأ نصر بن عاصم وابن محيصن ووهب بن جرير عن ابن كثير بحذف الهمزة ، وهو حذف لا ينقاس ، وتخفيف مثل هذه الهمزة أن تجعل بين بين ، والظاهر أن هذه الجملة جواب للقسم ، وقال الزمخشري : أو تعليل لـ (كلا) والقسم معترض للتوكيد انتهى ، وقرأ الجمهور (نذيراً) واحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الإنذار ، كالنكير بمعنى الإنكار ، فيكون تمييزاً أي : (لإحدى الكبر) إنذار ، كما تقول : هي إحدى النساء عفافاً ، كما ضمن (إحدى) معنى أعظم جاء عنه التمييز . وقال الفراء : هو مصدر نصب بإضمار فعل ، أي : أنذر إنذاراً ، واحتمل أن يكون اسم فاعل بمعنى منذر . فقال الزجاج : حال من الضمير في (إنها) ، وقيل : حال من الضمير في (إحدى) ومن جعله متصلاً بـ (قم) في أول السورة ، أو بـ (فأنذر) في أول السورة ، أو حالاً من (الكبر) أو حالاً من من ضمير (الكبر) فهو بمعزل عن الصواب ، قال أبو البقاء : والمختار أن يكون حالاً مما دلت عليه الجملة ، تقديره : عظمت نذيراً انتهى . وهو قول لا بأس به . قال النحاس : وحذفت الهاء من (نذيراً) وإن كان للنار على معنى النسب . يعني ذات الإنذار ، وقال علي بن سليمان : أعني : نذيراً ، وقال الحسن لأنذر ، إذ هي من النار ، قال ابن عطية : وهذا القول يقتضي أن (نذيراً) حال من الضمير في (إنها) ومن قوله (لإحدى) ، قال أبو رزین : (نذيراً) هنا هو الله تعالى ، فهو منصوب بإضمار فعل أي : أدعوني نذيراً ، وقال ابن زيد : نذير هنا هو محمد - ﷺ - فهو منصوب بفعل مضمّر ، أي : ناد ، أو بلغ ، أو أعلن . وقرأ أبي وابن أبي عبلة (نذيرٌ) بالرفع فإن كان من وصف النار جاز أن يكون خبراً وخبر مبتدأ محذوف ، أي : هي نذير ، وإن كان من وصف الله ، أو الرسول فهو على إضمار هو ، والظاهر أن (لمن) بدل من (البشر) بإعادة الجار ، و (أن يتقدم) منصوب بـ (شاء) ضمير يعود على (مَنْ) ، وقيل : الفاعل ضمير يعود على الله تعالى ، أي : لمن شاء هو أي : الله تعالى ، وقال الحسن : هو وعيد نحو قوله تعالى ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ [الكهف ٢٩] ، قال ابن عطية : هو بيان في النذارة ، وإعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر ، إذ هو بعينه يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره ، ثم قوى هذا المعنى بقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) ، وقال الزمخشري (أن يتقدم) في موضع الرفع بالابتداء ، و (لمن شاء) خبر مقدم عليه ، كقولك لمن توضأ : أن يصلي ، ومعناه : مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر (أن يتقدم أو يتأخر) والمراد بالتقدم والتأخر السبق إلى الخير والتخلف عنه ، وهو كقوله ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ [الكهف ٢٩] انتهى ، وهو معنى لا يتبادر إلى الذهن ، وفيه حذف ،

قيل : والتقدم الإيمان ، والتأخر الكفر ، وقال السدي (أن يتقدم) إلى النار المتقدم ذكرها (أو يتأخر) عنها إلى الجنة ، وقال الزجاج (أن يتقدم) إلى المأمورات (أو يتأخر) عن المنهيات ، والظاهر العموم في (كل نفس) ، وقال الضحاك (كل نفس) حقيق عليها العذاب ، ولا يرتن الله تعالى أحداً من أهل الجنة و (رهينة) بمعنى رهن ، كالشئمة بمعنى الشتم ، وليست بمعنى مفعول ، لأنها بغير تاء للمذكر والمؤنث ، نحو : رجل قتيل وامرأة قتيل ، فالمعنى : كل نفس بما كسبت رهن ومنه قول الشاعر :

أَبْعَدَ الَّذِي بِالنَّعْفِ نَعْفَ كُؤَيْبٍ رَهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلٍ^(١)

أي : رمس رهن والمعنى : ان كل نفس رهن عند الله غير مفكوك ، وقيل : الهاء في (رهينة) للمبالغة ، وقيل : على تأنيث اللفظ لا على الإنسان ، والذي أختاره أنها مما دخلت فيه التاء ، وإن كان بمعنى مفعول في الأصل ، كالنطيحة ، ويدل على ذلك أنه لما كان خبراً عن المذكر كان بغيرها ، قال تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) فأنت ترى حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغير تاء ، وحيث كان خبراً عن المؤنث أتى بالتاء ، كما في هذه الآية ، فأما الذي في البيت فأنت على معنى النفس ، (إلا أصحاب اليمين) قال ابن عباس : هم الملائكة : وقال علي : هم أطفال المسلمين ، فعلى هذين القولين يكون استثناء منقطعاً أي : لكن أصحاب اليمين في جنات ، وقال الحسن وابن كيسان : هم المسلمون المخلصون ، ليسوا بمرتدين ، لأنهم أدوا ما كان عليهم ، وهذا كقول الضحاك الذي تقدم ، وقال الزمخشري (إلا أصحاب اليمين) فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق انتهى . وظاهر هذا أنه استثناء متصل (في جنات) أي : هم في جنات (يتساءلون) أي : يسأل بعضهم بعضاً ، أو يكون يتساءل بمعنى يسأل أي : يسألون عنهم غيرهم ، كما يقال : دعوته وتداعوته بمعناه ، وعلى هذين التقديرين : كيف جاء (ما سلككم في سقر) بالخطاب للمجرمين ، وفي الكلام حذف المعنى : أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً ، أو يسألون غيرهم عن من غاب من معارفهم ، فإذا عرفوا أنهم مجرمون في النار . قالوا لهم ، أو قالت لهم الملائكة ، هكذا قدره بعضهم ، والأقرب أن يكون التقدير : يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل (ما سلككم في سقر) ، وقال الزمخشري (فإن قلت : كيف طابق قوله (ما سلككم) وهو سؤال وإنما كان يطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ما سلككم (قلت : (ما سلككم) ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عنهم ، لأن المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم : ما سلككم في سقر ، قالوا : لم نك من المصلين ، إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل في غرابة نظمه انتهى . وفيه تعسف ، والأظهر أن السائلين هم المتسائلون ، و (ما سلككم) على إضمار القول كما ذكرنا ، وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير ، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار ، والجواب : أنهم لم يكونوا متصفين بخصائل الإسلام ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم ارتقوا من ذلك إلى الأعظم ، وهو الكفر والتكذيب بيوم الجزاء ، كقولهم : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ [البلد ١١] ثم قال ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ [البلد ١٧] و (اليقين) أي : يقيناً ، على إنكار يوم الجزاء أي : وقت الموت ، وقال ابن عطية : و (اليقين) عندي صحة ما كانوا يكذبون ، من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة ، وقال المفسرون (اليقين) الموت ، وذلك عندي هنا متعقب ، لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي ، وإنما اليقين الذي عنوا في هذه الآية الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا ، فتيقنوه بعد الموت ، وإنما يفسر اليقين بالموت في قوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر ٩٩] (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ليس المعنى : أنهم يشفع لهم ، فلا تنفع شفاعة من يشفع لهم ، وإنما

المعنى : نفى الشفاعة فانقضى النفع ، أي : لا شفاعة شافعين لهم ، فتنفعهم من باب :

عَلَى لَاحِبٍ لَا يَهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أي : لا منار له فيهتدى به ، وتخصيصهم بانتفاء شفاعة الشافعين يدل على أنه قد تكون شفاعات وينتفع بها ، ووردت أحاديث في صحة ذلك ، (فما لهم عن التذكرة) وهي مواعظ القرآن التي تذكر الآخرة ، (معرضين) أي : والحال المنتظرة هذه الموصوفة ، ثم شبههم بالحمر المستنفرة في شدة إعراضهم ونفارهم عن الإيمان وآيات الله تعالى . وقرأ الجمهور (حُر) بضم الميم والأعمش بإسكانها ، قال ابن عباس : المراد الحمر الوحشية ، شبههم تعالى بالحمر مذمة وتهجيناً لهم ، وقرأ نافع وابن عامر والمفضل عن عاصم (مُسْتَنْفَرَةٌ) بفتح الفاء ، والمعنى : استنفرتها فزعها من القسورة ، وباقي السبعة بكسرها ، أي : نافرة ، نفر واستنفر بمعنى : عجب واستعجب ، وسخر واستسخر ، ومنه قول الشاعر :

أُمْسِكْ حِمَارَكَ إِنَّهُ مُسْتَنْفِرٌ فِي إِصْرِ أَحْمِرَةٍ عَهْدَنَ لِعُرْبٍ^(١)

ويناسب الكسر قوله (فَرْتُ) ، وقال محمد بن سلام ، سألت أبا سرار العتوي - وكان أعرابياً فصيحاً - فقلت : كأنهم حمر ماذا مستنفرة طردها قسورة ؟ فقلت : إنما هو (فرت من قسورة) قال : أفرت قلت : نعم ، قال : فمستنفرة إذن ، قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري وقتادة وعكرمة : القسورة الرماة ، وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو هريرة وجمهور من اللغويين : الأسد ، وقال ابن جبير : رجال القنص ، وهو قريب من القول الأول ، وقاله ابن عباس أيضاً : وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل ، والمعنى : فرت من ظلمة الليل ، ولا شيء أشد نفاراً من حمر الوحش ، ولذلك شبهت بها العرب الإبل ، في سرعة سيرها وخفتها (بل يريد كل امرئ منهم) أي : من المعرضين عن عظات الله وآياته (أن يؤتى صحفاً منشرة) أي : منشورة غير مطوية تقرأ كالكتب التي يتكاتب بها ، أو كتبت في السماء نزلت بها الملائكة ساعة كتبت رطبة لم تطوبع ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله - ﷺ - « لن ننبعك حتى يؤتى كل واحد منا بكتاب من السماء » عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، يؤمر فيها باتباعك ، ونحوه ﴿ لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [الإسراء: ٩٣] وروي أن بعضهم قال : إن كان يكتب في صحف ما يعمل كل إنسان فلتعرض تلك الصحف علينا ، فنزلت هذه الآية ، وقرأ الجمهور (صُحُفًا) بضم الصاد والحاء (مُنْشَرَّة) مشدداً ، وابن جبير بإسكانها (مُنْشَرَّة) مخففاً ، ونشر وأنشر مثل نزل وأنزل ، شبه نشر الصحيفة بإنشاء الله الموت ، فعب عنه بـ (منشرة) من أنشرت ، والمحفوظ في الصحيفة والثوب نشر مخففاً ثلاثياً ، ويقال في الميت : أنشره الله فنشر هو ، أي : أحياه فحيي ، (كلا) ردع عن إرادتهم تلك ، وزجر لهم عن اقتراح الآيات (بل لا يخافون الآخرة) ولذلك أعرضوا عن التذكرة ، لا لامتناع إيتاء الصحف . وقرأ الجمهور (يخافون) بياء الغيبة ، وأبو حيوة بقاء الخطاب التفاتاً (كلا) ردع عن إعراضهم عن التذكرة (إنه تذكرة فمن شاء ذكره) ذكر في (إنه) وفي (ذَكَرَهُ) لأن التذكرة ذكر ، وقرأ نافع وسلام ويعقوب (تذكرة) بقاء الخطاب ساكنة الذال ، وباقي السبعة وأبو جعفر والأعمش وطلحة وعيسى والأعرج بالياء ، وروي عن أبي حيوة (يذكرون) بياء الغيبة وشد الذال ، وروي عن أبي جعفر (تذكرون) بالتاء وإدغام التاء في الذال ، (هو أهل التقوى) أي : أهل أن يتقى ويخاف ، وأهل أن يغفر ، وروي أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - أن النبي - ﷺ - فسر هذه الآية ، فقال : يقول لكم ربكم جلست قدرته وعظمته : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل يتقى إله غيري ، ومن اتقى أن يجعل معي إلهاً غيري فأنا أغفر له ، وقال الزمخشري : في قوله تعالى (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) يعني إلا أن يفسرهم على الذكر ويلجئهم إليه ، لأنهم مطبوع على قلوبهم ، معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً .

(١) البيت من الكامل لم نهند لقائله انظر اللسان (نقر) القرطبي (٥٨ / ١٩) .

سورة القيامة مكية وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۚ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ۚ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۚ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۚ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۚ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَىٰ الْمَقَرُ ۚ كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۚ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۚ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرُهُ ۚ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْيَعْنَىٰ قُرْءَانَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۚ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۚ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۚ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۚ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۚ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۚ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۚ وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۚ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۚ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۚ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۚ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّي ۚ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۚ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۚ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۚ أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّنْ مَّيِّ يُمَتَّىٰ ۚ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۚ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ

برق بكسر الراء : فزع ودهش ، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق ، فدهش بصره . ومنه قول ذي الرمة :

وَلَوْ أَنَّ لَقَمَانَ الْحَكِيمَ تَعَرَّضْتُ لِعَيْنَيْهِ مَيَّ سَافِرًا كَادَ يَبْرُقُ^(١)

قال الأعشى :

وَكُنْتُ أَرَىٰ فِي وَجْهِ مَيَّةَ لَمَحَةٍ فَأَبْرُقُ مَعْشِيًا عَلَيَّ مَكَائِيَا^(٢)

وبرق بفتح الراء : شق بصره ، وهو من البريق أي : لمع بصره ، من شدة شخوصه ، الوزر : ما يلجأ إليه من

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (٤٧٩) روح المعاني (١٧٤/١٩) .

(٢) البيت من الطويل ليس في ديوان الأعشى وهو في ديوان ذي الرمة (٧٣١) .

حصن أو جبل أو غيرهما : قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا لِفَلْتَى مِنْ وَرَرٍ مِنْ الْمَوْتِ يُدْرِكُهُ وَالْكَبَرُ^(١)

النضرة : النعمة وجمال البشرة وطراوتها ، قال الشاعر :

أَبَى لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي وَضَرْبُهُ فَأْسٌ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرُهُ^(٢)

أي : مؤثرة ، التراقي : جمع ترقوة ، وهي عظام الصدر ، ولكل إنسان ترقوتان ، وهو موضع الحشجة . قال دريد بن الصمة :

وَرَبَّ عَظِيمَةٍ دَافَعْتُ عَنْهُمْ وَقَدْ بَلَغَتْ نَفْسُهُمُ التَّرَاقِي^(٣)

رقى يرقى من الرقية ، وهي ما يستشفى به للمريض من الكلام المعد لذلك ، (تمطى) تبخر في مشيته ، وأصله من المطا وهو الظهر أي : يلوي مطاه تبختراً ، وقيل : أصله تمطط أي : تمدد في مشيته ومد منكبيه ، قلبت الطاء فيه حرف علة ، كراهة اجتماع الأمثال ، كما قالوا : تطنى من الظن ، وأصله : تظنن ، والمُطْطِطُ : التبختر ومد اليدين في المشي ، والمطيط : الماء الخائر في أسفل الحوض ، لأنه يتمطط فيه ، أي : يمتد ، وعلى هذا الاشتقاق لا يكون أصله من المط لاختلاف المادتين ، إذ مادة المطا (م ط و) ومادة تمطط (م ط ط) ، (سدى) مهمل يقال : إبل سدى ، أي : مهملة ، ترعى حيث شاءت بلا راع ، وأسديت الشيء أي : أهملته وأسديت حاجتي ضيعتها ، قال الشاعر :

فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ جَهْدَ الْيَمِينِ مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئاً سُدًى^(٤)

وقال أبو بكر بن دريد في المقصورة :

لَمْ أَرْ كَالْمُزْنَ سَوَاماً بَهْلاً تَحْسِبُهَا مَرْعِيَّةً وَهِيَ سُدًى

﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بل قادرين على أن نسوي بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يسأل أيان يوم القيامة ، فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ ، كلا لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ، لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ، كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ، وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ، كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ، وظنّ أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق ، فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منيّ يمني ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحمي الوق ؟ ﴾

(١) البيت من الرجز لربيعه بن الذئبة انظر مجاز القرآن (٢٧٧/٢) روح المعاني (١٧٦/٢٩) ، الفرطبي (٩٤/١٩) .

(٢) البيت من الطويل للناطقة انظر ديوانه (٧٠) فتح القدير (٣٣٩/٥) .

(٣) البيت من الوافر ليس في ديوان دريد انظر روح المعاني (١٨٤/٢٩) فتح القدير (٣٤١/٥) .

(٤) البيت من البسيط لم نهند لقائله انظر روح المعاني (١٨٨/٢٩) .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها : أن في آخر ما قبلها قوله ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة كلا إنه تذكرة ﴾ [المدثر ٥٣ ، ٥٤] وفيها كثير من أحوال القيامة ، فذكر هنا يوم القيامة وجَمَلًا من أحوالها ، وتقدّم الكلام في (لا أقسم) والخلاف في (لا) والخلاف في قراءتها في أواخر الواقعة ، أقسم تعالى بيوم القيامة لعظمه وهوله ، و (لا أقسم) قيل : (لا) نافية ، نفى أن يقسم بالنفس اللوامة ، وأقسم بيوم القيامة ، نص على هذا الحسن ، والجمهور على أن الله أقسم بالأمرين ، و (اللوامة) قال الحسن : هي التي تلوم صاحبها في ترك الطاعة ونحوها ، فهي على هذا ممدوحة ، ولذلك أقسم الله بها ، وروي نحوه عن ابن عباس ، وعن مجاهد : تلوم على ما فات وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟ وقيل : النفس المتقية التي تلوم النفوس في يوم القيامة على تقصيرهن في التقوى ، وقال ابن عباس وقتادة : هي الفاجرة الخشعة اللوامة لصاحبها على ما فاتته من سعي الدنيا وأعراضها ، فهي على هذا ذميمة ، ويحسن نفى القسم بها ، والنفس اللوامة : اسم جنس بهذا الوصف . وقيل : هي نفس معينة ، وهي نفس آدم - عليه السلام - لم تنزل لائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة . قال ابن عطية : وكل نفس متوسطة ليست بمطمئنة ولا أمانة بالسوء فإنها لوامة في الطرفين ، مرة تلوم على ترك الطاعة ، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي ، فإذا اطمأنت خلصت وصفت انتهى . والمناسبة بين القسمين ، ومن حيث أحوال النفس من سعادتها وشقاوتها ، وظهور ذلك في يوم القيامة ، وجواب القسم محذوف يدل عليه يوم القيامة المقسم به ، وما بعده من قوله (أيجسب) الآية ، وتقديره : لتبعن ، وقال الزمخشري (فإن قلت :) قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون) والأبيات التي أنشدتها المقسم عليه فيها منفي ، وكان قد أنشد قول امرئ القيس :

لَا وَأَبِيكَ ابْنَةَ الْعَامِرِي لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفْرٌ^(١)

وقول غوية بن سلمى :

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةً بِأَحْتِمَالِي لَتُحْزِنَنِي فَلَا بِكَ مَا أَبَالِي^(٢)

قال : فهلا زعمت أن (لا) التي للقسم زيدت موطئة للنفي بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ها هنا منفيًا ، نحو قولك : لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى (قلت :) لو قصروا الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكنه لم يقسم ، ألا ترى كيف لقي ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد ١] بقوله ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [البلد ٤] وكذلك ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة ٧٥] ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ [الواقعة ٧٧] ثم قال الزمخشري : وجواب القسم ما دل عليه قوله (أيجسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه) وهو : لتبعن انتهى . وهو تقدير النحاس . وقول من قال : جواب القسم هو (أيجسب الإنسان) وما روي عن الحسن : أن الجواب (بلى قادرين) وما قيل : إن (لا) في القسمين لنفيهما أي : لا أقسم على شيء وأن التقدير : أسألك أيجسب الإنسان ، أقوال لا تصلح أن يرد بها ، بل تطرح ولا يسود بها الورق ، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها ، والإنسان هنا : الكافر المكذب بالبعث ، وروي أن عدي بن ربيعة قال لرسول الله - ﷺ - : يا محمد ، حدثني عن يوم القيامة ، متى يكون أمره ؟ فأخبر رسول الله - ﷺ - فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أوثر به أو يجمع الله هذه العظام بعد بلاها فنزلت « ، وقيل : « نزلت في أبي جهل ، كان يقول أيزعم محمد - ﷺ - أن يجمع الله هذه العظام بعد بلاها وتفرقها ، فيعيدها خلقاً

(١) انظر الكشف (٦٥٨/٤) روح المعاني (١٧٠/٢٩) .

(٢) البيت من الوافر لغوية بن سلمى انظر الكشف (٦٥٨/٤) ، روح المعاني (١٧٠/٢٩) .

جديداً^(١) ، وقرأ الجمهور (نجمع) بنون (عَظَامَه) نصباً . وقتادة بالتاء مبنياً للمفعول (عَظَامُهُ) رفعاً . والمعنى : بعد تفرّقها ، واختلاطها بالتراب ، وتطير الرياح إياها في أقاصي الأرض ، وقوله (أيجسب) استفهام تقرير وتوبيخ ، حيث ينكر قدرة الله تعالى على إعادة المعدم (بلى) جواب للاستفهام المنسحب على النفي ، أي : بلى نجمعها . وذكر العظام وإن كان المعنى إعادة الإنسان وجمع أجزائه المتفرقة ، لأن العظام هي قالب الخلق ، وقرأ الجمهور (قادرين) بالنصب على الحال من الضمير الذي في الفعل المقدر وهو يجمعها . وابن أبي عبيدة ، وابن السميع ، (قادرون) أي : نحن قادرون (على أن نسوي بنانه) وهي الأصابع أكثر العظام تفرّقاً وأدقها أجزاء ، وهي العظام التي في الأنامل ومفاصلها . وهذا عند البعث . وقال ابن عباس والجمهور : « المعنى : نجعلها في حياته هذه بضعة ، أو عظماً واحداً ، كخف البعير لا تفارق فيه . أي : في الدنيا ، فتقل منفعتة بها . وهذا القول فيه توعّد . والمعنى الأول هو الظاهر ، والمقصود من رصف الكلام . وذكر الزمخشري هذين القولين بألفاظ منمقة على عادته في حكاية أقوال المتقدمين وقيل : (قادرين) منصوب على خبر كان ، أي : بلى كنا قادرين في الابتداء ، (بل يريد الإنسان) (بل) إضراب وهو انتقال من كلام إلى كلام من غير إبطال . والظاهر أن يريد إخبار عن ما يريده الإنسان . وقال الزمخشري : (بل يريد) عطف على (أيجسب) فيجوز أن يكون قبله استفهاماً . وأن يكون إيجاباً على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر . أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب . » انتهى . وهذه التقادير الثلاثة لا تظهر ، وهي متكلفة . بل المعنى : الإخبار عن الإنسان من غير إبطال لمضمون الجملة السابقة ، وهي : نجمعها قادرين ، لنبين ما هو عليه الإنسان من عدم الفكر في الآخرة وأنه معني بشهواته . ومفعول (يريد) محذوف يدل عليه التعليل في (ليفجر) قال مجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، وابن جبير ، والضحاك ، والسدي : « معنى الآية : ان الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً ركباً رأسه ، مطيعاً أملاً ، ومسوقاً بتوبته . قال السدي أيضاً : ليظلم على قدر طاقته ، وعلى هذا فالضمير في (أمامه) عائد على الإنسان ، وهو الظاهر . وقال ابن عباس : « ما يقتضي أن الضمير عائد على يوم القيامة أن الإنسان في زمان وجوده أمام يوم القيامة ، وبين يديه يوم القيامة خلفه ، فهو يريد شهواته ، ليفجر في تكذيبه بالبعث ، وغير ذلك بين يديه يوم القيامة . وهو لا يعرف القدر الذي هو فيه ، والأمام : ظرف مكان استعير هنا للزمان : أي : ليفجر فيما بين يديه ويستقبله من زمان حياته . (يسأل أيان يوم القيامة) أي : متى يوم القيامة ؟ سؤال استهزاء وتكذيب وتعنت وقرأ الجمهور (بَرَق) بكسر الراء وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم وعبد الله بن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبيدة والزعفراني وابن مقسم ونافع وزيد بن علي وأبان عن عاصم وهارون ، ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو ، والحسن ، والجدري بخلاف عنها . ففتحها . قال أبو عبيدة : (بَرَق) بالفتح شق . وقال ابن إسحاق : « خفت عند الموت » قال مجاهد « هذا عند الموت »^(٢) وقال الحسن : « هو يوم القيامة »^(٣) . وقرأ أبو السمال (بلق) باللام عوض الراء ، أي : انفتح وانفرج يقال : بلق الباب وأبلقته وأبلقته : فتحته . هذا قول أهل اللغة إلا الفراء فإنه يقول : « بلقه وأبلقه إذا أغلقه » . وقال ثعلب : « أخطأ الفراء في ذلك إنما هو بلق الباب وأبلقه إذا فتحه » . انتهى . ويمكن أن تكون اللام بدلاً من الراء ، فهما يتعاقبان في بعض الكلام نحو قولهم : نثره ونثله ، ووجرو وجل . وقرأ (وخسَفَ) مبنياً للفعل ، وأبو حيوة وابن أبي عبيدة ويزيد بن قطيب وزيد بن علي مبنياً للمفعول . يقال (خَسَفَ الْقَمَرُ) وخسفه الله . وكذلك الشمس . قال أبو عبيدة وجماعة من أهل اللغة : الخسوف والكسوف بمعنى واحد . وقال ابن أبي أويس الكسوف ذهاب بعض الضوء والخسوف جميعه ، (وجمع الشمس

(١) انظر الوسيط (١٧٠ خ) .

(٢) انظر الوسيط (١٧٠ خ) والطبري (١١٣/٢٩) والقرطبي (٦٨٨٨/٩) وزاد المسير (٤١٩/٨) ، وابن كثير (٤٤٨/٤) .

(٣) انظر المصادر السابقة .

والقمر) لم تلحق علامة التأنيث ، لأن تأنيث الشمس مجاز أو لتغليب التذكير على التأنيث . وقال الكسائي : حمل على المعنى والتقدير جمع النوران أو والضياءان . ومعنى الجمع بينهما : قال عطاء بن يسار يجمعان فيلقيان في النار . وعنه : يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في البحر فيكونان نار الله الكبرى ، وقيل : يجمع بينهما في الطلوع من المغرب فيطلعان أسودين مكورين . وقال علي وابن عباس : يجلعان في نور الحجب ، وقيل : يجتمعان ولا يتفرقان ، ويقربان من الناس فيلحقهم العرق لشدة الحر فكأن المعنى يجمع حرهما . وقيل : يجمع بينهما في ذهاب الضوء ، فلا يكون ثم تعاقب ليل ولا نهار ، وقرأ الجمهور (المَفَر) بفتح الميم والفاء أي أين الفرار ؟ وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب والحسن بن زيد وابن عباس والحسن وعكرمة وأيوب السختياني وكلثوم بن عياض ومجاهد وابن يعمر وحامد بن سلمة وأبو رجاء وعيسى وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبله والزهرى بكسر الفاء وهو موضع الفرار ، وقرأ الحسن بكسر الميم وفتح الفاء ، ونسبها ابن عطية للزهرى ، أي : الجيد الفرار . وأكثر ما يستعمل هذا الوزن في الآلات وفي صفات الخيل نحو قوله :

مَكْرٌ مَفَرٌ مَقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا^(١)

والظاهر أن قوله (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر) من تمام قول الإنسان . وقيل : هو من كلام الله تعالى لا حكاية عن الإنسان (كلا) ردع عن طلب المفَر (لا وزر) لا ملجأ . وعبر المفسرون عنه بالجبل ، قال مطرف بن الشخير : هو كان وزر فرار العرب في بلادهم فلذلك استعمل والحقيقة أنه الملجأ من جبل أو حصن أو سلاح أو رجل أو غيره . (إلى ربك يومئذ) أي : إلى حكمه يومئذ ، تقول أين المفَر (المستقر) أي الاستقرار أو موضع استقرار من جنة أو نار إلى مشيئته تعالى يدخل من شاء الجنة ويدخل من شاء النار (بما قدم وأخر) قال عبد الله وابن عباس (بما قدم) في حياته (وأخر) من سنة يعمل بها بعده^(٢) ، وقال ابن عباس أيضاً : بما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات^(٣) وقال زيد بن أسلم : بما قدم من ماله لنفسه وبما أخر منه للوارث . وقال النخعي ومجاهد ، بأول عمله وآخره^(٤) . وقال الضحاك : بما قدم من فرض وأخر من فرض . والظاهر حمله على العموم أي : يخبره بكل ما قدم وكل ما أخر مما ذكره المفسرون وما لم يذكروه ، (بصيرة) خبر عن الإنسان أي شاهد . قاله قتادة . والهاء للمبالغة . وقال الأخفش : هو كقولك : فلان عبرة وحجة . وقيل : أنت لأنه أراد جوارحه أي جوارحه على نفسه بصيرة . وقيل : (بصيرة) مبتدأ محذوف الموصوف ، أي : عين بصيرة . و (على نفسه) الخبر والجملة في موضع خبر عن (الإنسان) والتقدير عين بصيرة . وإليه ذهب الفراء ، وأنشد :

كَأَنَّ عَلَى ذِي الْعَقْلِ عَيْنًا بِصِيرَةً بِمَقْعَدِهِ أَوْ مَنْظَرٍ هُوَ نَاطِرَةٌ
يُحَاذِرُ حَتَّى يَحْسَبَ النَّاسُ كُلَّهُمْ مِنَ الْخَوْفِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ سَرَائِرُهُ^(٥)

وعلى هذا نختار أن تكون (بصيرة) فاعلاً بالجار والمجرور وهو الخبر عن الإنسان ألا ترى أنه قد اعتمد بوقوعه خبراً

(١) صدر بيت لامرئ القيس وعجزه :

كجلمود صخر حطه السيل من عل

انظر ديوانه (١١٩) .

(٢) انظر الوسيط (١٧١ خ) والطبري (١١٥/٢٩) والقرطبي (٦٨٩٠/٩) والبغوي (٤٢٢/٤) وتفسير ابن جزري ص (٨١١) وابن كثير

(٤٤٨/٤) وزاد المسير (٤٢٠/٨) وتفسير عبد الرزاق (١١٨٢/٣) .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر المصادر السابقة .

(٥) البيتان من الطويل انظر روح المعاني (١٧٧/٢٩) فتح القدير (٣٣٨/٥) .

عن الإنسان وعلى هذا فالتاء للتأنيث . وتأول ابن عباس البصيرة بالجوارح أو الملائكة الحفظة . والمعاذير : عند الجمهور الأعذار ، فالمعنى لوجاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه فإنه هو الشاهد عليها والحجة البينة عليها . وقيل : المعاذير : جمع معذرة . وقال الزمخشري : قياس معذرة معاذر فالمعاذير ليس بجمع معذرة وإنما هو اسم جمع لها ونحو المناكير في المنكر . انتهى . وليس هذا البناء من أبنية أسماء الجموع وإنما هو من أبنية جمع التكسير فهو كذاكير وملاميخ والمفرد منها لمحة وذكر ولم يذهب أحد إلى أنها من أسماء الجموع بل قيل هما جمع للمحة وذكر على غير قياس أو هما جمع لمفرد لم ينطق به وهو مذكر وملمحة . وقال السدي والضحاك : المعاذير الستور بلغة اليمن ، واحداها معذار ، وهو يمنع رؤية المحتجب كما تمنع المعذرة عقوبة الذنب ، وقاله الزجاج أيضاً . أي : وإن رمى مستورة يريد أن يخفى عمله بنفسه شاهدة عليه . وأنشدوا في أن المعاذير الستور . قول الشاعر :

وَلَكِنَّهَا ضَنْتٌ بِمَنْزِلِ سَاعَةٍ عَلَيْنَا وَأَطَّتْ فَوْقَهَا بِالْمَعَاذِيرِ^(١)

وقيل : البصيرة : الكاتبان يكتبان ما يكون من خير أو شر أي وإن تستر بالستور ، وإذا كانت من العذر فمعنى (ولو ألقى) أي : نطق بمعاذيره وقالها . وقيل : ولورمى بأعذاره واستسلم . وقال السدي : ولو أدلى بحجة وعذر ، وقيل : ولو أحال بعضهم على بعض كقوله تعالى (لولا أنتم لكنا مؤمنين) والعذرة والعذرى المعذرة . قال الشاعر :

هَإِنْ ذِي عُذْرَةٍ إِنْ لَا تُكُنْ نَفَعْتُ^(٢)

وقال فيها ولا عذر لمجحود ، (لا تحرك به لسانك) ، الظاهر والمنصوص الصحيح في سبب النزول : أنه خطاب للرسول - ﷺ - على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وقال القفال : هو خطاب للإنسان المذكور في قوله (ينبأ الإنسان) وذلك حال تنبئه بقبائح أفعاله يعرض عليه كتابه فيقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) فإذا أخذ في القراءة تلجلج من شدة الخوف وسرعة القراءة ، فقليل له (لا تحرك به لسانك لتعجل به) فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك وأن نقرأها عليك . (فإذا قرأناه) عليك (فاتبع قرآنه) بأنك فعلت تلك الأفعال (ثم إن علينا بيانه) أي بيان أمره وشرح عقوبته . وحاصل قوله هذا القول أنه تعالى يقرر الكافر على جميع أفعاله على التفصيل ، وفيه أشد الوعيد في الدنيا والتهويل في الآخرة . وفي صحيح البخاري^(٣) : « عن ابن عباس أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يعالج من التنزيل شدة وكان ربما يحرك شفثيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه لحينه فنزلت »^(٤) . وقال الضحاك : « السبب أنه كان - عليه الصلاة والسلام - كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق فنزلت »^(٥) . وقال الشعبي : كان لحرصه - عليه الصلاة والسلام - على أداء الرسالة والاجتهاد في عبادة الله ربما أراد النطق ببعض ما أوحى إليه قبل كمال إيراد الوحي فأمر أن لا يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى والضمير في (به) للقرآن دل عليه مساق الآية . (إن علينا جمعه) أي في صدرك (وقرآنه) أي : قراءتك إياه والقرآن . مصدر كالقراءة ، قال الشاعر :

(١) البيت من الطويل لم نهند لقائله انظر فتح القدير (٥/٣٣٨) .

(٢) انظر لسان العرب (عذر) للنابغة .

(٣) أخرجه البخاري (٨/٥٤٧ - ٥٤٨) في كتاب التفسير باب « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ، (٤٩٢٧) .

(٤) انظر الطبري (٢٩/١١٦ ، ١١٧) والقرطبي (٩/٦٨٩٧) وتفسير ابن جزي ص (٨١١) والبغوي (٤/٤٢٣) وزاد المسير (٨/٤٢١) وابن

كثير (٤/٤٤٩) والوسيط (١٧١ خ) .

(٥) انظر المصادر السابقة .

صَحَّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطَّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا^(١)

وقيل : (وقرآنه) وتأليفه في صدرك ، فهو مصدر من قرأت أي جمعت . ومنه قولهم للمرأة التي لم تلد : ما قرأت سلا قط وقال الشاعر :

ذِرَاعِي بِكُرَّةِ أَدْمَاءٍ بِكُرٍ هَجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا^(٢)

(فإذا قرأناه) أي : الملك المبلغ عنا (فاتبع) أي : بذهنك وفكرك . أي : فاستمع قراءته قاله ابن عباس . وقال أيضاً هو وقتادة والضحاك : فاتبع في الأوامر والنواهي . وفي كتاب ابن عطية : وقرأ أبو العالية ، (فإذا قرأته فاتبع) قرته بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة ولم يتكلم على توجيه هذه القراءة الشاذة . ووجه اللفظ الأول أنه مصدر أي إن علينا جمعه وقراءته . فنقل حركة الهمزة إلى الراء الساكنة وحذفها فبقى قرأته كما ترى . وأمّا الثاني فإنه فعل ماض أصله فإذا قرأته أي أردت قراءته فسكن الهمزة فصار قرأته ثم حذف الألف على جهة الشذوذ كما حذف في قول العرب : ولو ترما الصبيان . يريدون ولو ترى ما الصبيان وما زائدة . وأمّا اللفظ الثالث فتوجيهه توجيه اللفظ الأول أي فإذا قرأته أي أردت قراءته فاتبع قراءته بالدرس أو بالعمل ، (ثم إن علينا بيانه) ، قال قتادة وجماعة : أن نبينه لك ونحفظكه . وقيل : أن تبينه أنت . وقال قتادة أيضاً : أن نبين حلاله وحرامه ومجمله ومفسره . وفي التحرير والتحيز : قال ابن عباس (إن علينا جمعه) أي حفظه في حياتك وقراءته تأليفه على لسانك ، وقال الضحاك : نثبته في قلبك بعد جمعه لك ، وقيل : جمعه بإعادة جبريل عليك مرة أخرى إلى أن يثبت في صدرك . (فإذا قرأناه) قال ابن عباس : أنزلناه إليك فاستمع قراءته ، وعنه أيضاً : فإذا يتلى عليك فاتبع ما فيه ، وقال قتادة : فاتبع حلاله واجتنب حرامه ، وقد غمق الزمخشري بحسن إيراده تفسير هذه الآية فقال : كان رسول الله - ﷺ - إذا لقن الوحي نازع جبريل القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلت منه فأمر بأن يستنصت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضى إليه وحيه ثم يعقبه بالدراسة أن يرسخ فيه . والمعنى لا تحرك لسانك بقراءة الوحي ما دام جبريل يقرأ التعجيل به لتأخذه على عجلة ولئلا يتفلت منك ، ثم علل النهي عن العجلة بقوله (إن علينا جمعه) في صدرك وإثبات قراءته في لسانك (فإذا قرأناه) جعل قراءة جبريل قراءته ، والقرآن القراءة (فاتبع) قراءته ، فكأن مقفياً له فيه ولا ترأسله وطامن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ فنحن في ضمان تحفيظه . (ثم إن علينا بيانه) إذا أشكل عليك شيء من معانيه كأنه كان يعجل في الحفظ والسؤال عن المعنى جميعاً كما ترى بعض الحراص على العلم ونحوه ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴾ [طه ١١٤] انتهى . وذكر أبو عبد الله الرازي ، في تفسيره : أن جماعة من قدماء الروافض زعموا أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وما قبلها ، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك . ثم ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه . ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها ، أنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته ، وأنه أقصر شهواته على الفجور غير مكترث بما يصدر منه ، ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها فظهر بذلك تباین من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها . وبضدها تتميز الأشياء ، ولما كان - عليه الصلاة والسلام - لثابته على ذلك كان يبادر للتحفظ بتحريك لسانه أخبره تعالى أنه يجمعه له ويوضحه . (كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة) ، لما فرغ من خطابه

(١) تقدم .

(٢) انظر البيت في اللسان (قرأ) روح المعاني (٢٩ / ١٧٨)

عليه الصلاة والسلام رجع إلى حال الإنسان السابق ذكره المنكر البعث وأن همه إنما هو في تحصيل حطام الدنيا الفاني لا في تحصيل ثواب الآخرة إذ هو منكر لذلك . وقرأ الجمهور (بل تحبون العاجلة) (وتذرون) بتاء الخطاب لكفار قريش المنكرين البعث . و (كلا) رد عليهم وعلى أقوالهم ، أي ليس كما زعمتم وإنما أنتم قوم غلبت عليكم محبة شهوات الدنيا حتى تتركون معه الآخرة والنظر في أمرها وقال الزمخشري : (كلا) ردع وذكر في كتابه ما يوقف عليه فيه . وقرأ مجاهد والحسن وقتادة والجحدري وابن كثير وأبو عمرو وبياء الغيبة فيهما ، ولما وبخهم بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة تخلص إلى شيء من أحوال الآخرة فقال (وجوه يومئذ ناضرة) وعبر بالوجه عن الجملة ، وقرأ الجمهور (ناضرة) بألف وزيد بن علي (نضرة) بغير ألف . وقرأ ابن عطية (وجوه) رفع بالابتداء ، وابتدأ بالنكرة ، لأنها تخصصت بقوله (يومئذ) و (ناضرة) خبر (وجوه) وقوله (إلى ربهنا ناظرة) جملة هي في موضع خبر بعد خبر . انتهى . وليس (يومئذ) تخصيصاً للنكرة فيسوغ الابتداء بها ، لأن ظرف الزمان لا يكون صفة للجملة وإنما يكون (يومئذ) معمول لـ (ناضرة) ، وسوغ جواز الابتداء بالنكرة كون الموضع موضع تفصيل و (ناضرة) الخبر و (ناظرة) صفة . وقيل : (ناضرة) نعت لـ (وجوه) و (إلى ربهنا ناظرة) الخبر وهو قول سائغ . ومسألة النظر ورؤية الله تعالى مذكورة في أصول الدين . ودلائل الفريقين ، أهل السنة وأهل الاعتزال فلا نطيل بذكر ذلك هنا . ولما كان الزمخشري من المعتزلة ومذهبه أن تقديم المفعول يدل على الاختصاص قال هنا : ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر في محشر يجمع الله فيه الخلائق فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال فوجب حمله على معنى لا يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي يريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعْمَاءَ

وسمعت سرورية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم تقول عيني ناظرة إلى الله وإليكم . والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه انتهى . وقال ابن عطية : ذهبوا يعني المعتزلة إلى أن المعنى إلى رحمة ربهنا ناظرة ، أو إلى ثوابه أو ملكه ، فقدروا مضافاً محذوفاً ، وهذا وجه سائغ في العربية ، كما تقول : فلان ناظر إليك في كذا أي إلى صنعك في كذا . انتهى . والظاهر أن (إلى) قوله (إلى ربهنا) حرف جر يتعلق بـ (ناظرة) ، وقال بعض المعتزلة (إلى) هنا واحد الآلاء ، وهي النعم ، وهي مفعول به معمول لـ (ناظرة) بمعنى منتظرة (وجوه يومئذ باسرة) يجوز أن يكون (وجوه) مبتدأ خبره (باسرة) و (تظن) خبر بعد خبر وأن تكون (باسرة) صفة و (تظن) الخبر . والفاقرة : قال ابن المسيب : قاصمة الظهر . و (تظن) بمعنى توقن أو يغلب على اعتقادها وتتوقع أن يفعل بها فاقرة فعل هو في شدة داهية تقصم . وقال أبو عبيدة : فاقرة : من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار (كلاً) ردع عن إثارة الدنيا على الآخرة ، وتذكيرهم بما يؤولون إليه من الموت الذي تنقطع العاجلة عنده وينتقل منها إلى الآجلة . والضمير في (بلغت) عائد إلى النفس الدال عليها سياق الكلام ، كقول حاتم :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ^(١)

وتقول العرب : أرسلت يريدون جاء المطر ولا نكاد نسمعهم يقولون الساء . وذكرهم تعالى بصعوبة الموت وهو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقي ودنا زهوقها . وقيل : مبني للمفعول فاحتمل أن يكون القائل حاضر والمريض طلبوا له من يرقى ويطب ويشفي وغير ذلك مما يتمناه له أهله . قاله ابن عباس والضحاك وأبو قلابة وقتادة ، وهو استفهام

حقيقة وقيل هو استفهام إبعاد وإنكار أي قد بلغ مبلغاً لا أحد يرقيه كما عند الناس من ذا الذي يقدر أن يرقى هذا المشرف على الموت . قاله عكرمة وابن زيد . واحتمل أن يكون القائل الملائكة أي من يرقى بروحه إلى السماء أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ قاله ابن عباس أيضاً وسليمان التيمي . وقيل : إنما يقولون ذلك ، لكرهتهم الصعود بروح الكافر لخبثها وننتها ، ويدل عليه قوله بعد (فلا صدق ولا صلى) الآية^(١) ووقف حفص على (مَنْ) وأبتدأ (راق) (وأدغم الجمهور . قال أبو علي : لا أدري ما وجه قراءته ، وكذلك قرأ (بل ران) انتهى . وكأن حفصاً قصد أن لا يتوهم أنها كلمة واحدة فسكت سكتاً لطيفاً ليشعر أنها كلمتان ، وقال سيبويه : إن النون تدغم في الراء وذلك نحو من راشد والإدغام بغنة وبغير غنة ولم يذكر البيان ولعل ذلك من نقل غيره من الكوفيين وعاصم شيخ حفص يذكر أنه كان عالماً بالنحو ، وأما (بل ران) فقد ذكر سيبويه أن اللام البيان فيها والإدغام مع الراء حسنان ، فلما أفرط في شأن البيان في (بل ران) صار كالوقوف القليل (وطن) أي المريض (أنه) أي : ما نزل به (الفراق) فراق الدنيا التي هي محبته والظن هنا على بابه . وقيل : فراق الروح الجسد . (والتفت الساق بالساق) قال ابن عباس والربيع بن أنس وإسماعيل بن أبي خالد : استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها لأنه بين الحالين قد اختلطا به^(٢) كما يقول شمريت الحرب عن ساق استعارة لشدها . وقال ابن المسيب والحسن . هي حقيقة ، والمراد ساقا الميت عند ما لقا في الكفن . وقال الشعبي وقتادة وأبو مالك : التفافهما لشدة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذه على هذه^(٣) . وقال الضحّاك : أسوق حاضريه من الإنس والملائكة هؤلاء يجهزون إلى القبر وهؤلاء يجهزون روحه إلى السماء^(٤) : وقيل : التفافهما موتها أولاً إذ هما أول ما تخرج الروح منها فتبردان قبل سائر الأعضاء . وجواب^(٥) (إذا) محذوف تقديره وجد ما عمله في الدنيا من خير وشر . (إلى ربك يومئذ المساق) المرجع والمصير (المساق) مفعول من السوق فهو اسم مصدر إما إلى جنة وإما إلى نار (فلا صدق ولا صلى) الجمهور أنها نزلت في أبي جهل وكادت أن تصرّح به في قوله (يتمطى) فإنها كانت مشيته ومشية قومه بني مخزوم وكان يكثر منها ، وتقدم أيضاً أنه قيل في قوله ﴿ أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ [القيامة ٣] أنها نزلت في أبي جهل . وقال الزمخشري : يعني الإنسان في قوله (أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ) ألا ترى قوله (أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سدى) وهو معطوف على قوله (يسأل أيا يوم القيامة) أي لا يؤمن بالبعث (فلا صدق) بالرسول والقرآن (ولا صلى) ويجوز أن يراد فلا صدق ماله يعني فلا زكاة . انتهى . وكون (فلا صدق) معطوفاً على قوله (يسأل) فيه بعد . و (لا) هنا نفت الماضي أي : لم يصدق ولم يصل . وفي هذا دليل على أن لا تدخل على الماضي فتنصبه ومثله قوله :

وَأَيُّ خَمِيسٍ لَا أَتَانَا نَهَابُهُ وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرُونَ مِنْ كَبْشِهِ دَمًا^(٦)

وقال الراجز :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمًا^(٧)

(١) انظر الوسيط (١٧٢ خ) والطبري (١٢١/٢٩) والبغوي (٤٢٤/٤) وزاد المسير (٤٢٤/٨) وابن كثير (٤٥١/٤) والقرطبي (٦٩٠١/٩) ،

(٦٩٠٢) .

(٢) انظر الطبري (١٢٢/٢٩) والقرطبي (٦٩٠٣/٩) والبغوي (٤٢٤/٤) وزاد المسير (٤٢٥/٨) والوسيط (١٧٢ خ) .

(٣) انظر الوسيط (١٧٢ خ) .

(٤) انظر الوسيط (١٧٢ خ) .

(٥) انظر الوسيط (١٧٢ خ) .

(٦) البيت من الطويل لم نهند لقائله ذكره السمين في الدر المصون .

(٧) تقدم .

و (صَدَّقَ) معناه برسالة الله . وقال قوم : هو من الصدقة وهذا الذي يظهر نفى عنه الزكاة والصلاة وأثبت له التكذيب ، كقوله ﴿ لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ [المائدة ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦] وحمل (فلا صدق) على نفى التصديق بالرسالة فيقتضي أن يكون (ولكن كذب) تكراراً ولزم أن يكون (لكن) استدراكاً بعد (ولا صلى) لا بعد (فلا صدق) لأنه كان يتساوى الحكم في (فلا صدق) وفي (كذب) ولا يجوز ذلك . إذ لا تقع (لكن) بعد متوافقين (وتولى) أعرض عن رسول الله - ﷺ - وكذب بما جاء به (ثم ذهب أهله) أي : قومه (يتمطى) يبختر في مشيته ، روي : « أن رسول الله - ﷺ - لبأ جاهل يوماً في البطحاء ، وقال له : إن الله يقول لك : أولى فأولى لك . فنزل القرآن على نحوها » . وقالت الخنساء :

هَمَمْتُ بِنَفْسِي كُلَّ الْهُمُو مِ فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا

وتقدم الكلام على (أولى) شرحاً وإعراباً في قوله تعالى (فأولى لهم طاعة وقول معروف) في سورة القتال وتكراره هنا ، مبالغة في التهديد والوعيد . ولما ذكر حاله في الموت وما كان من حاله في الدنيا قرر له أحواله في بدايته ليتأملها فلا ينكر معها جواز البعث من القبور . وقرأ الجمهور (ألم يك) بياء الغيبة والحسن بناء الخطاب على سبيل الالتفات . وقرأ الجمهور (تُمْنِي) أي : النطفة يمينها الرجل . وابن محيصن والحدادي وسلام ويعقوب وحفص وأبو عمر بخلاف عنه بالياء أي (يُمْنِي) هو أي المني فخلق الله منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة (فَسَوَى) أي سواه شخصاً مستقلاً (فجعل منه الزوجين) أي النوعين أو المزدوجين من البشر وفي قراءة زيد بن عليّ (الزوجان) بالالف وكأنه على لغة بني الحارث بن كعب ومن وافقهم من العرب من كون المثنى بالالف في جميع أحواله . وقرأ أيضاً (يَقْدِر) مضارعاً والجمهور (بقادر) اسم فاعل مجرور بالياء الزائدة (أليس ذلك) أي الخالق المسوى (بقادر) وفيه توقيف وتوبيخ لمنكر البعث . وقرأ طلحة بن سليمان والفيض بن غزوان بسكون الياء من قوله (أن يُجَيِّ) وهي حركة إعراب لا تنحذف إلا في الوقف وقد جاء في الشعر حذفها ، وقرأ الجمهور بفتحها ، وجاء عن بعضهم (يُجَيِّ) بنقل حركة الياء إلى الحاء وإدغام الياء في الياء . قال ابن خالويه : لا يميز أهل البصرة سيويه وأصحابه إدغام (يجي) قالوا لسكون الياء الثانية ولا يعتدون بالفتحة في الياء لأنها حركة إعراب غير لازمة ، وأما الفراء فاحتج بهذا البيت :

تَمْشِي بَسَدَه بَيْنَهَا فَتَعْيِي

يريد فتعى ، والله تعالى أعلم .

سورة الدهر مدنية وهي إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
 فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ
 سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
 عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِنًا
 وَيَتِمَّ وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ۝١٠
 فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَرُءُوسًا ۝١١ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
 لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ
 وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا
 تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۝١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّشْهُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا
 كَبِيرًا ۝٢٠ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَذَا
 كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ
 عَاشِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦
 إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا
 بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ
 اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣١

الأمشاج : الأخلاط ، واحدها مشج بفتحين ، أو مشج كعدل ، أو مشج كشراف ، قاله ابن الأعرابي ،

وقال رؤبة :

يَطْرَحْنَ كُلُّ مُعْجَلٍ سَاجٍ لَمْ يُكْسَ جِلْدًا مِنْ دَمٍ أَمْشَاجٍ^(١)

وقال الهذلي :

كَأَنَّ النَّصْلَ وَالْفَوْقَيْنِ مِنْهَا خِلَافَ الرَّيشِ سَيْطَ بِهِ مَشِيحُ^(٢)

وقال الشماخ :

طَوَتْ أَحْشَاءَ مُرْتَجَةٍ لَوَقَتْ عَلَى مَشَجٍ سُلَّالَتُهُ مَهِينُ^(٣)

ويقال : مشج يمشج مشجاً إذا خلط ومشيج كخليط وممشوج كمخلوط ، مزج الشيء بالشيء : خلطه ، وقال الشاعر :

كَأَنَّ سَيْبَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ^(٤)

استطار الشيء : انتشر ، وتقول العرب استطار الصدع في القارورة وشبهها واستطال . ومنه قول الشاعر :

فَبَانَتْ وَقَدْ أُسَارَتْ فِي الْفَوْأِ دِ صَدْعًا عَلَى نَائِبِهَا مُسْتَطِيرًا^(٥)

وقال الفراء : مستطير مستطيل . ويقال يوم قمطير وقماطر واقمطر فهو مقمطر ، إذا كان صعباً شديداً ، وقال الراجز :

قَدْ جَعَلَتْ شَبُوءَ تَزْيِيرُ تَكُسُوا اسْتَهَا لَحْمًا وَتَقْمِطِرُ^(٦)

وقال الشاعر :

فَفَرُّوا إِذَا مَا الْحَرْبُ نَارَ غُبَارِهَا وَبَحَّ بِهَا الْيَوْمُ الشَّدِيدُ الْقَمَاطِرُ^(٧)

وقال الزجاج : القمطير : الذي يعيش حتى يجتمع ما بين عينيه ، ويقال : قمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها ورمت بأنفها فاشتقه من القطر وجعل الميم زائدة . وقال أسد بن ناعصة :

وَاصْطَلَيْتُ الْحُرُوبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِإِسْدِ الشَّرِّ قَمْطِيرِ الصَّبَاحِ^(٨)

واختلف في هذا الوزن ، وأكثر النحاة لا يثبت افْعَلٌ في أوزان الأفعال . الزمهرير : أشد البرد ، وقال ثعلب : هو القمر بلغة طي . وأنشد قول الراجز :

(١) البيت من الرجز انظر فتح القدير (٣٤٥/٥) .

(٢) البيت من الوافر انظر اللسان (مشج) ديوان الهذليين (٤/٣) .

(٣) البيت من الوافر انظر الديوان (٣٢٨) الكشف (٥٣٢/٤) القرطبي (٧٩/١٩) اللسان (سلك) .

(٤) تقدم .

(٥) البيت من المتقارب للأعشى انظر الديوان (٨٥) .

(٦) البيت من السريع لم نهتد لقائله انظر اللسان (قمطر) .

(٧) البيت من الطويل انظر فتح القدير (٣٤٨/٥) .

(٨) البيت من الخفيف انظر الكشف (٦٦٩/٤) ، القرطبي (٨٩/١٩) .

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اعْتَكَرَ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ^(١)

القارورة : إناء رقيق صاف توضع فيه الأشربة . قيل : ويكون من الزجاج : الزنجبيل : قال الدينوري : نبت في أرض عمان عروق تسري وليس بشجر يؤكل رطباً ، وأجوده ما يحمل من بلاد الصين ، كانت العرب تحبه ، لأنه يوجب لذعاً في اللسان إذا مزج بالشراب فيتلذذون به ، قال الشاعر :

كَأَنَّ جَنْباً مِنَ الزَّنْجَبِيلِ بَاتَ بِفِيهَا وَارِباً مَسْتُوراً^(٢)

وقال المسيب بن علس :

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ لَ إِذَا دُقَّتْهُ وَسَلَافَةُ الْخَمْرِ^(٣)

السلسيل والسلسل والسلسال : ما كان من الشراب غاية في السلاسة ، قاله الزجاج : وقال ابن الأعرابي : لم أسمع السلسيل إلا في القرآن ، ثم : ظرف مكان للبعد .

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ، إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ، عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ، يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ، وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيتِيمًا وَأُسِيرًا ، إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ، متكئين فيها على الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقال مجاهد وقتادة مدنية ، وقال الحسن وعكرمة : مدنية إلا آية واحدة فإنها مكية وهي ﴿ وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمْ أَنثًا أَوْ كَفُوراً ﴾ [الإنسان : ٢٤] ، وقيل : مدنية إلا من قوله ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور : ٤٨] الخ فإنه مكِّي ، حكاه الماوردي ، ومناسبتها لما قبلها ظاهرة جداً لا تحتاج إلى شرح (هل) حرف استفهام فإن دخلت على الجملة الاسمية لم يمكن تأويله بقدر لأن قد من خواص الفعل فإن دخلت على الفعل فالأكثر أن تأتي للاستفهام المحض . وقال ابن عباس وقتادة : هي هنا بمعنى قد . قيل : لأن الأصل أهل فكان الهمزة حذفت واجتزأ بها في الاستفهام ، ويدل على ذلك قوله :

سَائِلُ فَوَارِسَ يَرْبُوعٍ لِحِلَّتِهَا أَهْلُ رَأُونَا بِوَادِي النَّتِّ ذِي الْأَكَمِ^(٤)

فالمنى : أفد أتى ، على التقدير والتقريب جميعاً . أي : أتى (على الإنسان) قبل زمان قريب (حين من الدهر) لم يكن كذا فإنه يكون الجواب أتى عليه ذلك وهو بالحال المذكور . وما تليت عند أبي بكر وقيل عند عمر رضي الله تعالى عنهما قال : ليتها تُمَّتْ . أي تلك الحالة تُمَّتْ . وهي كونه شيئاً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف . و (الإنسان) هنا جنس بني

(١) البيت من الرجز لم نهند لقائله انظر الكشف (٤/٦٧٠) ، روح المعاني (٢٩/٢٠٠) ، القرطبي (١٩/٩٠) .

(٢) البيت من المتقارب للأعشى انظر الديوان (٨٥) الكشف (٤/٦٧٢) ، روح المعاني (٢٩/٢٠٢) ، اللسان (زنجبيل) .

(٣) البيت من الكامل انظر الكشف (٤/٦٧٢) .

(٤) البيت من البسيط لزيد الخيل انظر ابن يعيش (٨/١٥٢) الكشف (٤/٦٦٥) روح المعاني (٢٩/١٨٩) .

آدم . والحين الذي مرّ عليه إما حين عدمه ، وإما حين كونه نطفة ، وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه فإنه في تلك المدة لا ذكر له ، وسمي إنساناً باعتبار ما صار إليه ، وقيل : آدم عليه الصلاة والسلام - والحين : الذي مر عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح^(١) . وعن ابن عباس : بقي طيناً أربعين سنة صلصالاً أربعين ثم حاً مسنوناً أربعين فتم خلقه في مائة وعشرين سنة ، وسمي إنساناً باعتبار ما آل إليه ، والجملة من (لم يكن) في موضع الحال من (الإنسان) كأنه قيل غير مذكور ، وهو الظاهر . أو في موضع الصفة لـ (حين) فيكون العائد على الموصوف محذوفاً ، أي : لم يكن فيه . (إنا خلقنا الإنسان) هو جنس بني آدم ، لأن آدم لم يخلق (من نطفة أمشاج) أخلاط وهو وصف لـ (النطفة) . فقال ابن مسعود وأسامة بن زيد عن أبيه : هي العروق التي في النطفة . وقال ابن عباس ومجاهد والربيع : هو ماء الرجل وماء المرأة اختلطتا في الرحم فخلق الإنسان منهما^(٢) . وقال الحسن : اختلاط النطفة بدم الحيض فإذا جبلت ارتفع الحيض . وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة وقتادة : أمشاج منتقلة من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى غير ذلك إلى انشائه إنساناً . وقال ابن عباس وعكرمة أيضاً والكلبي : هي ألوان النطفة^(٣) وقيل : أخلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء والنطفة أريد بها الجنس فلذلك وصفت بالجمع كقوله ﴿ على رفرف خضر ﴾ [الرحمن : ٧٦] أول تنزيل كل جزء من النطفة نطفة ، وقال الزمخشري : نطفة أمشاج كبرمة أعشار وبرد أكياس وهي ألفاظ مفرد غير جموع ولذلك وقعت صفات للإفراد ويقال أيضاً نطفة مشج ، ولا يصح (أمشاج) أن تكون تكسيراً له بل هما مثلاً في الأفراد لوصف المفرد بهما انتهى . وقوله مخالف لنص سيبويه والنحويين على أن أفعالاً لا يكون مفرداً ، قال سيبويه : وليس في الكلام أفعال إلا أن يكسر عليه اسماً للجميع وما ورد من وصف المفرد بأفعال تأولوه . (نبتليه) نختبره بالتكليف في الدنيا . وعن ابن عباس : نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقه . فعلى هذا هي حال مصاحبة ، وعلى أن المعنى نختبره بالتكليف فهي حال مقدرة ، لأنه تعالى حين خلقه من نطفة لم يكن مبتلياً له بالتكليف في ذلك الوقت . وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ناقلين له من حال إلى حال فسمي ذلك الابتلاء على طريق الاستعارة . انتهى . وهذا معنى قول ابن عباس : وقيل : نبتليه بالإيمان والكون في الدنيا ، فهي حال مقارنة . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير الأصل : فجعلناه سميعاً بصيراً نبتليه ، أي : جعله سميعاً بصيراً هو الابتلاء ، ولا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير . والمعنى يصح بخلافه ، وامتن تعالى عليه بهاتين الصفتين ، وهما كناية عن التمييز والفهم إذ آلتها سبب لذلك وهما أشرف الحواس تدرك بهما أعظم المدركات ولما جعله بهذه المثابة أخبر تعالى إلى أنه هداه إلى السبيل أي : أرشده إلى الطريق وعرفنا مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك إذ أرشدناه طريق الهدى وقال مجاهد : سبيل السعادة والشقاوة^(٤) . وقال السدي : سبيل الخروج من الرحم . وقال الزمخشري : أي مكانه وأقدرناه في حالتيه جميعاً وإذا دعونه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع كان معلوماً منه أنه يؤمن أو يكفر لإلزام الحجة . انتهى . وهو على طريقة الالتزام ، وقرأ الجمهور (إمّا) بكسر الهمزة فيهما . وأبو السمال وأبو العاج وهو كثير بن عبد الله السلمي شامي ولي البصرة هشام بن عبد الملك بفتحها فيهما ، وهي لغة حكاها أبو زيد عن العرب . وهي التي عدها بعض الناس في حروف العطف^(٥) .

(١) انظر الوسيط (١٧٣ خ) والقرطبي (٦٩١٠/٩) والبغوي (٤٢٧/٤) .

(٢) انظر المصادر السابقة .

(٣) انظر المصادر السابقة .

(٤) انظر الوسيط (١٧٣ خ) .

(٥) الذين ذهبوا بأن إمّا عاطفة استندوا إلى أن سيبويه ذكرها في حروف العطف (٢٢١/١) فحملوا كلامه على ظاهره واختلفوا في تأويله ففي شرح الكافية وقال الأندلسي إمّا الأولى مع الثانية حرف عطف ، والواو عاطفة لإمّا الثانية على إمّا الأولى نحو (جاء إمّا زيد وإمّا عمرو) حتى يصير الحرف واحد ، ثم تعطفان معاً ما بعد الثانية على ما بعد الأولى ، وهذا عذر بارد من وجوه ، لأن تقدم بعض العاطف على المعطوف =

وأنشدوا :

يَلْحَقُهَا إِذَا شِمَالٌ عَرِيَّةٌ وَإِذَا صَبَا جُنْحُ الْعَشِيِّ هُبُوبٌ^(١)

وقال الزمخشري : وهي قراءة حسنة والمعنى (إما شاكراً) بتوفيقنا (وإما كفوراً) فبسوء اختياره انتهى . فجعلها (إما) التفصيلية المتضمنة معنى الشرط ولذلك تلقاها بقاء الجواب فصار كقول العرب : إما صديقاً فصديق . وانتصب (شاكراً) و (كفوراً) على الحال من ضمير النصب في (هديناه) ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكونا حالين من (السبيل) أي : عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً وإما سبيلاً كفوراً ، كقوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد ١٠] فوصف السبيل بالشكر والكفر مجازاً . انتهى . ولما كان الشكر قل من يتصف به قال (شاكراً) ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء (كفوراً) بصيغة المبالغة ، ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد . وقرأ طلحة وعمر بن عبید وابن كثير وأبو عمرو وحمة (سلاسل) ممنوع الصرف وقفاً ووصلاً . وقيل : عن حمزة وأبي عمر الوقف بالألف ، وقرأ حفص وابن ذكوان بمنع الصرف ، واختلف عنهم في الوقف ، وكذا عن البري وقرأ باقي السبعة بالتونين وصلاً ، وبالألف المبدلة منه وقفاً ، وهي قراءة الأعمش . قيل : وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أفعل من وهي لغة الشعراء ثم كثر حتى جرى في كلامهم ، وعلل ذلك بأن هذا الجمع لما كان يجمع فقالوا : « صواحبات يوسف » ونواكسي الأبصار أشبه المفرد فجرى فيه الصرف ، وقال بعض الرجاز :

وَالصَّرْفُ فِي الْجَمْعِ أَتَى كَثِيرًا حَتَّى ادَّعَى قَوْمٌ بِهِ التَّخْيِيرَ^(٢)

والصرف ثابت في مصاحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة وفي مصحف أبي وعبد الله وكذا (قوارير) ، وروى هشام عن ابن عامر (سلاسل) في الوصل (وسلاسل) بألف دون تنوين في الوقف ، وروي أن من العرب من يقول رأيت عمراً بالألف في الوقف (من كأس) (من) لابتداء الغاية (كان مزاجها كافوراً) ، قال قتادة : يمزج لهم بالكافور ويختتم لهم بالمسك . وقيل : هو على التشبيه أي طيب رائحة وبرد كالكافور ، وقال الكلبي : (كافوراً) اسم عين في الجنة وصرفت لتوافق الآي . وقرأ عبد الله (قافوراً) بالقاف بدل الكاف ، وهما كثيراً ما يتعاقبان في الكلمة كقولهم : عربي قح وكح ، و (عيناً) بدل من (كافوراً) ومفعولاً به (يشربون) أي ماء عين أو بدل من محل (من كأس) على حذف مضاف ، أي يشربون خمرًا خمر عين أو نصب على الاختصاص ولما كانت الكأس مبدأ شربهم أي به (من) وفي (يشرب بها) أي يمزج شراهم بها أي بالباء الدالة على الإلصاق . والمعنى يشرب عباد الله بها الخمر كما تقول : شربت الماء بالعسل ، أو ضمن يشرب معنى يروى فعدي بالباء ، وقيل : زائدة ، والمعنى : يشرب بها . وقال الهذلي :

شَرِبْنَا بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ مَتَى لُجَجٍ خَضِرٍ لَهْنٌ نَثِيجٌ^(٣)

قيل : أي شربنا ماء البحر . وقرأ ابن أبي عبيدة (يشربها) و (عباد الله) هنا هم المؤمنون (يفجرونها) يثقبونها بعود

= عليه ، وعطف بعض العاطف على بعضه وعطف الحرف على الحرف غير موجود في كلامهم ، فالحق أن الواو هي العاطفة ، وإما لأحد الشيتين غير عاطفة ، وعلى هذا الذي اختاره الرضي يونس وأبو علي ، وابن كيسان وابن عصفور . شرح الكافية (٣٧٢/٢ - ٣٩٨) .

(١) تقدم .

(٢) انظر البيت في روح المعاني (٢٩/١٩٤) .

(٣) تقدم .

قصب ونحوه حيث شاؤوا فهي تجري عند كل واحد منهم هكذا ورد في الأثر . وقيل : هي عين في دار رسول الله - ﷺ - تنفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين . (يوفون بالنذر) في الدنيا وكانوا يخافون . وقال الزمخشري : (يوفون) جواب من عسى يقول ما لهم يرزقون ذلك . انتهى . فاستعمل عسى صلة لـ (من) وهو لا يجوز . وأتى بعد عسى بالمضارع غير مقرون بأن وهو قليل أو في شعر : والظاهر أن المراد بالنذر : ما هو المعهود في الشريعة أنه نذر . قال الأصم وتبعه الزمخشري : هذا مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفي بما أوجبه هو على نفسه كان لما أوجبه الله تعالى عليه أوفى . وقيل (النذر) هنا عام لما أوجبه الله تعالى ، وما أوجبه العبد فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات (على حبه) أي على حب الطعام إذ هو محبوب للفاقة والحاجة ، قاله ابن عباس ومجاهد . أو على حب الله ، أي لوجهه وابتغاء مرضاته . قاله الفضيل بن عياض وأبو سليمان الداراني . والأول أمدح ، لأن فيه الإيثار على النفس ، وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر . وقال الحسن بن الفضل : على حب الطعام ، أي محبين في فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف . (مسكيناً) وهو الطواف المنكسر في السؤال (وبتياً) هو الصبي الذي لا أب له (وأسيراً) والأسير معروف وهو من الكفار ، قاله قتادة . وقيل : من المسلمين تركوا في بلاد الكفار رهائن وخرجوا لطلب الفداء . وقال ابن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وقيل : وأسيراً استعارة وتشبيه . وقال مجاهد وابن جبير وعطاء : هو المسجون وقال أبو حمزة الليثاني : هي الزوجة . وعن أبي سعيد الخدري : هو المملوك والمسجون . وفي الحديث « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » . (إننا نطعمكم لوجه الله) هو على إضمار القول ، ويجوز أن يكون صرحاً به خطابه للمذكورين منعاً منهم وعن المجازاة بمثله أو الشكر لأن إحسانهم مفعول لوجه الله تعالى فلامعني لمكافأة الخلق ، وهذا هو الظاهر . وقال مجاهد : إما أنهم ما تكلموا به ولكن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم به . (لا نريد منكم جزاء) أي : بالأفعال (ولا شكوراً) أي : ثناء بالأقوال . وهذه الآية قيل : نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وذكر النقاش في ذلك حكاية طويلة جداً ظاهرة الاختلاف ، وفيها إشعار للمسكين واليتيم والأسير يخاطبون بها بيت النبوة ، وإشعار لفاطمة رضي الله عنها تحاطب كل واحد منهم ظاهراً بالاختلاف ، لسفاسف ألفاظها ، وكسر أبياتها ، وسفاطة معانيها . (يوماً عبوساً) نسبة العبوس إلى اليوم مجاز . قال ابن عباس : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه عرق كالقطران ، وقرأ الجمهور (فَوَقَّاهُمْ) بخفة القاف ، وأبو جعفر بشدها (ولقاهم نضرة) بدل عبوس الكافر (وسروراً) فرحاً بدل حزنه ، لا تكاد تكون النظرة إلا مع فرح النفس وقرة العين وقرأ الجمهور (وجزاهم) (وعليّ) (وجزاهم) على وزن فاعل (جنة وحريراً) بستاناً فيه كل مأكول هنيء (وحريراً) فيه ملبس بهي . وناسب ذكر الحرير مع الجنة ، لأنهم أوثروا على الجوع والعناء (لا يرون فيها) أي في الجنة (شمساً) أي حر شمس ولا شدة برد أي لا شمس فيها فترى فيؤذي حرها (ولا زمهريراً) يرى فيؤذي بشدته . أي هي معتدلة الهواء ، وفي الحديث : « هواء الجنة سحسج لا حر ولا قر » . وقيل : لا يرون فيها شمساً ولا قمراً ، والزمهرير : في لغة طيء القمر ، وقرأ الجمهور (ودانية) قال الزجاج : هو حال عطفاً على (متكئين) . وقال أيضاً : ويجوز أن يكون صفة للجنة فالمعنى وجزاهم جنة دانية . وقال الزمخشري ما معناه : إنها حال معطوفة على حال وهي (لا يرون) أي غير راثنين ، ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنو الظلال عليهم . وقرأ أبو حنيفة (ودانية) بالرفع ، واستدل به الأخفش على جواز رفع اسم الفاعل من غير أن يعتمد ، نحو قولك : قائم الزيدون ، ولا حجة فيه ، لأن الأظهر أن يكون (ظلها) مبتدأ (ودانية) خبر له ، وقرأ الأعمش (ودانية) عليهم) وهو كقوله ﴿ خاشعاً أبصارهم ﴾ [القمر ٧] وقرأ أبي (ودانٍ) مرفوع فهذا يمكن أن يستدل به الأخفش . (وذللت قطوفها) قال قتادة ومجاهد وسفيان : إن كان الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة وإن قاعداً أو مضطجعا فكذلك فهذا تذليلها لا يرد اليد عنها بعد ولا شك . فأما على قراءة الجمهور (ودانية) بالنصب كان (وذللت) معطوفاً على (دانية) لأنها في تقدير المفرد ، أي

ومذلة ، وعلى قراءة الرفع كان من عطف جملة فعلية على جملة اسمية . ويجوز أن تكون في موضع الحال ، أي وقد ذلت رفعت دانية أو نصبت . قوله عز وجل : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ، وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ، عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَنَدَسٌ خَضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ، إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جِزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ، إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ أَنثًا أَوْ كَفُورًا ، وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ، نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ، إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ، وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنْ كَانَ عَلَيْكَ حَكِيمًا ، يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لما وصف تعالى طعامهم وسكناتهم وهيئة جلوسهم ذكر شراهم . وقدم ذكر الآنية التي يسقون منها ، والآنية : جمع إناء وتقدم شرح الأكواب . وقرأ نافع والكسائي (قواريرًا قواريرًا) بتوניהما وصلًا وإبداله ألفًا وقفًا . وابن عامر وحزمة وأبو عمرو وحفص بمنع صرفهما ، وابن كثير بصرف الأول ومنع الصرف في الثاني . وقال الزخشي : وهذا التثنية بدل من ألف الإطلاق لأنه فاصلة ، وفي الثاني لاتباعه الأول انتهى . وهذا قال في قراءة من قرأ ﴿ سَلَسًا ﴾ [الإنسان ٤] بالتثنية أنه بدل من حرف الإطلاق أجرى الفواصل مجرى أبيات الشعر ، فكما أنه يدخل التثنية في القوافي المطلقة إشعاراً بترك التثنية كما قال الراجز :

يَا صَاحَ مَا هَاجَ الدُّمُوعَ الذُّرْفَنَ

فهذه النون بدل من الألف إذ لو ترنم لوقف بألف الإطلاق (من فضة) أي : مخلوقة من فضة ومعنى (كانت) أنه أوجدها تعالى من قوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس ٨٢] تفخيماً لتلك الحلقة العجيبة الشأن الجامعة بين بياض الفضة ونصوعها ، وشفيف القوارير وصفائها ، ومن ذلك قوله ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ [الإنسان ٥] ، وقرأ الأعمش (قوارير من فضة) بالرفع ، أي هو قوارير . وقرأ الجمهور (قَدَرُوهَا) مبنياً للفاعل ، والضمير للملائكة ، أو للطواف عليهم ، أو المنعمين . والتقدير على قدر الأكف ، قاله الربيع . أو على قدر الري ، قاله مجاهد ، وقال الزخشي : (قدروها) صفة لـ (قوارير من فضة) ومعنى تقديرهم لها : أنهم قدروها في أنفسهم على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم فجاءت كما قدروها ، وقيل : الضمير للطائفين بها يدل عليه قوله (يطاف عليهم) على أنهم قدروها شراها على قدر الري ، وهو الذرابة ، لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ، ولا يعجز وعن مجاهد : لا يفيض ولا يغيض ، انتهى . وقرأ علي وابن عباس والسلمي والشعبي وابن أبي عمير وابن عبد الخالق وعبد الله بن عبيد بن عمير وأبو حيوه وعباس عن أبان والأصمعي عن أبي عمرو وابن عبد الخالق عن يعقوب (قَدَرُوهَا) مبنياً للمفعول ، قال أبو علي : كأن اللفظ قدروها عليها وفي المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن يقال : قدرت عليهم ، فهي مثل قوله ﴿ مَا لِنْ مَفَاتِحِهِ لِنُوءِ الْعَصِيبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ ﴾ [القصص ٧٦] ومثل قول العرب « إِذَا طَلَعَتِ الْجُزْأُ أَلْقَى الْعُودَ عَلَى الْحَرْبَاءِ » . وقال الزخشي : ووجهه أن يكون من قدر منقولاً من قدر تقول : قدرت الشيء وقدرنيه فلان إذا جعلك قادراً عليه ، ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاءوا وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا . انتهى . وقال أبو حاتم : قدرت الأواني على قدر ربه ففسر بعضهم قول أبي حاتم قال فيه حذف على حذف وهو أنه قدر على قدر ربه إياها ثم حذف على فصار قدر ربه مفعول لم يسم فاعله ثم حذف قدر فصار ربه قائماً مقامه ثم حذف الري فصار الواء مكان الهاء والميم لما حذف المضاف مما قبلها وصارت الواو

مفعول ما لم يسم فاعله واتصل ضمير المفعول الثاني في تقدر النصب بالفعل بعد الواو التي تحولت من الهاء والميم حتى أقيمت مقام الفاعل . انتهى . والأقرب في تخريج هذه القراءة الشاذة : أن يكون الأصل : « قدر بهم منها تقديرًا » فحذف المضاف وهو الذي وأقيم الضمير مقامه ، فصار التقدير : قدروا منها ، ثم اتسع في الفعل فحذفت من ووصل الفعل إلى الضمير بنفسه ، فصار : قدروها فلم يكن فيه إلا حذف مضاف واتسع في المجرور . والظاهر أن الكأس تمزج بالزنجبيل ، والعرب تستلذه ، وتذكره في وصف رضاب أفواه النساء كما أنشدنا لهم في الكلام على المفردات . وقال الزمخشري : تسمى العين زنجبيلًا ، لطعم الزنجبيل فيها انتهى . وقال قتادة الزنجبيل : اسم لعين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً يمزج لسائر أهل الجنة^(١) وقال الكلبي : يسقى بجامين ، الأول مزاجه الكافور ، والثاني مزاجه الزنجبيل . و (عيناً) بدل من (كأس) على حذف . أي كأس عين أو من زنجبيل على قول قتادة . وقيل : منصوب على الاختصاص ، والظاهر أن هذه العين تسمى سلسبيلًا بمعنى توصف بأنها سلسلة في الاتساع ، سهلة في المذاق . ولا يحمل سلسبيل على أنه اسم حقيقة لأنه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية ، وقد روي عن طلحة أنه قرأه بغير ألف جعله علماء لها ، فإن كان علماء فوجه قراءة الجمهور بالتنوين ، المناسبة للفواصل كما قال ذلك بعضهم في (سلاسل) و (قوارير) ويحسن ذلك أنه لغة لبعض العرب ، أعني صرف ما لا يصرفه أكثر العرب . وقال الزمخشري : وقد زيدت الباء في التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . انتهى . وكان قد ذكر فقال : شراب سلسل وسلسال وسلسيل ، فإن كان عني أنه زيد حقيقة فليس بجيد ، لأن الباء ليست من حروف الزيادة المعهودة في علم النحو ، وإن عني أنها حرف جاء في سنخ الكلمة وليس في سلسيل ولا في سلسال فيصح ويكون مما اتفق معناه وكان مختلفاً في المادة . وقال بعض المعربين (سلسبيلاً) أمر للنبي - ﷺ - ولأتمته بسؤال السبيل إليها وقد نسبوا هذا القول إلى علي كرم الله وجهه ويجب طرحه من كتب التفسير . وأعجب من ذلك توجيه الزمخشري له واشتغاله بحكايته ويذكر نسبته إلى علي كرم الله وجهه ورضي عنه . وقال قتادة : هي عين تنبع من تحت العرش من جنة عدن إلى الجنان^(٢) ، وقال عكرمة : عين سلس ماؤها^(٣) وقال مجاهد : عين حديرة الجرية سلسلة سهلة المساغ^(٤) وقال مقاتل : عين يتسلسل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاءوا . وتقدم شرح (مخلدون) وتشبيه الولدان باللؤلؤ المنثور في بياضهم ، وصفاء ألوانهم ، وانتشارهم في المساكن في خدمة أهل الجنة ، يجيئون ويذهبون . وقيل : شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه ، فإنه أحسن في العين ، وأبهج للنفس وجواب (إذا رأيت) نعيماً ومفعول فعل الشرط محذوف اقتصاراً . والمعنى إذا رميت ببصرك هنا و (ثم) ظرف العامل فيه (رأيت) ، وقيل : التقدير : وإذا رأيت ما ثم فحذف ما كما حذف في قوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ [الأنعام ٩٤] أي : ما بينكم ، وقال الزجاج : وتبعه الزمخشري ، فقال : ومن قال معناه ما ثم فقد أخطأ ، لأن (ثم) صلة لما ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة . انتهى . وليس بخطأ مجمع عليه ، بل قد أجاز ذلك الكوفيون ، وثم شواهد من لسان العرب كقوله :

فَمَنْ يَهْجُورُ رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ^(٥)

أي : ومن يمدحه فحذف الموصول وأبقى صلته . وقال ابن عطية : و (ثم) ظرف العامل فيه (رأيت) أو معناه

(١) انظر القرطبي (٦٩٣٣/٩) والبعوي (٤٣٠/٤) والوسيط (١٧٣) خ .

(٢) انظر القرطبي (٩٣/١٩) .

(٣) انظر القرطبي (٩٣/١٩) .

(٤) انظر القرطبي (٩٣/١٩) .

(٥) تقدم .

التقدير رأيت ما ثم حذف ما . انتهى . وهذا فاسد ، لأنه من حيث جعله معمولاً لـ (رأيت) لا يكون صلة لما ، لأن العامل فيه إذ ذاك محذوف ، أي : ما استقر ثم . وقرأ الجمهور (ثم) بفتح الثاء . وحيد الأعرج (ثم) بضم التاء حرف عطف ، وجواب (إذا) على هذا محذوف . أي : وإذا رميت ببصرك رأيت نعيماً ، والملك الكبير : قيل : النظر إلى الله تعالى . وقال السدي استئذان الملائكة عليهم (١) . وقال أكثر المفسرين : الملك الكبير : اتساع مواضعهم (٢) . وقال الكلبي : كبيراً عريضاً يبصر أديانهم منزله في الجنة مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أديانهم (٣) . وقال عبد الله بن عمرو قال : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه . وقال الترمذي : وأظنه الترمذي الحكيم لا أبا عيسى الحافظ صاحب الجامع : هو ملك التكوين والمشية إذا أراد شيئاً كان لقوله تعالى ﴿ لهم ما يشاءون فيها ﴾ [ق ٣٥] ، وقيل غير هذه الأقوال . وقرأ عمر وابن عباس والحسن ومجاهد والجحدري وأهل مكة وجمهور السبعة (عليهم) بفتح الياء . وابن عباس بخلاف عنه والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن ونافع وحزرة بسكونها . وهي رواية أبان عن عاصم . وقرأ ابن مسعود والأعمش وطلحة وزيد بن علي مضمومة وعن الأعمش وأبان عن عاصم بفتح الياء . وقرأ (عليهم) حرف جر ابن سيرين ومجاهد وقتادة وأبو حيوة وابن أبي عبلة والزعفراني وأبان أيضاً وقرأت عائشة رضي الله عنها (علّتهم) بقاء التانيث فعلاً ماضياً ف (ثياب) فاعل ، ومن قرأ بالياء مضمومة فمبتدأ خبره (ثياب) ومن قرأ (عليهم) حرف جر ف (ثياب) مبتدأ ، ومن قرأ بنصب الياء وبالتاء ساكنة فعلى الحال ، وهو حال من المجرور في (يطوف عليهم) فذو الحال الطوف عليهم والعامل (يطوف) ، وقال الزمخشري : (و) عليهم (بالنصب على أنه حال من الضمير في (يطوف عليهم) أو في (حسبهم) أي يطوف عليهم ولدان عالياً للمطوف عليهم ثياب أو حسبهم (لؤلؤاً) عالياً لهم ثياب . ويجوز أن يراد رأيت أهل نعيم وملك عليهم ثياب . انتهى . إما أن يكون حالاً من الضمير في (حسبهم) فإنه لا يعني إلا ضمير المفعول وهذا عائد على (ولدان) (ولذلك قدر (عليهم) بقوله عالياً لهم أي للولدان وهذا لا يصح لأن الضمائر الآتية بعد ذلك على أنها للمطوف عليهم من قوله (وحلوا وسقامهم) و (إن هذا كان لكم جزاء) وفك الضمائر يجعل هذا كذا وذاك كذا مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك لا يجوز ، وأما جعله حالاً من محذوف وتقديره : أهل نعيم ، فلا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة الكلام وبراعته دون تقدير ذلك المحذوف . و (ثياب) مرفوع على الفاعلية بالحال . وقال ابن عطية : ويجوز في النصب في القراءتين أن يكون على الظرف ، لأنه بمعنى فوقهم . انتهى . و (عال) و (عالية) اسم فاعل فيحتاج في إثبات كونها ظرفين إلى أن يكون منقولاً من كلام العرب عليك أو عاليتك ثوب . وقرأ الجمهور (ثياب) بغير تنوين على الإضافة إلى (سندس) وقرأ ابن أبي عبلة وأبو حيوة (عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق) برفع الثلاثة برفع سندس بالصفة ، لأنه جنس ، كما تقول : ثوب حرير تريد من حرير ، ويرفع خضر بالصفة أيضاً ، لأن الخضرة لونها ورفع إستبرق بالعطف عليها ، وهو صفة أقيمت مقام الموصوف ، تقديره : وثياب إستبرق ، أي من إستبرق . وقرأ الحسن وعيسى ونافع وحفص (خضر) برفعها ، وقرأ العربيان ونافع في رواية (خضر) بالرفع صفة لـ (ثياب) و (إستبرق) جر عطفاً على (سندس) ، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بجر (خضر) صفة لـ (سندس) ورفع (إستبرق) عطفاً على (ثياب) ، وقرأ الأعمش وطلحة والحسن وأبو عمرو بخلاف عنهما وحزرة والكسائي ووصف اسم الجنس الذي بينه وبين واحد تاء التانيث والجمع جائز فصيح ، كقوله تعالى ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ [الرعد ١٢] وقال ﴿ والنخل باسقات ﴾ [ق ١٠] فجعل الحال جمعاً وإذا كانوا قد جمعوا صفة اسم الجنس

(١) انظر القرطبي (٩٣/١٩) والبغوي (٤/٤٣٠) .

(٢) انظر المصدرين السابقين .

(٣) انظر المصدرين السابقين .

الذي ليس بينه وبين واحد تاء التأنيث المحكي بأل بالجمع كقولهم : « أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض » حيث جمع وصفها ليس بسديد ، بل هو جائز أورده النحاة مورد الجواز بلا قبح ، وقرأ ابن محيصن (واستبرق) وتقدم ذلك والكلام عليه في الكهف ، وقال الزمخشري هنا وقرئ (واستبرق) نصباً في وضع الجر على منع الصرف ، لأنه أعجمي وهو غلط ، لأنه نكرة يدخله حرف التعريف تقول الاستبرق إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علماً لهذا الضرب من الثياب وقرئ (واستبرق) بوصل الهمزة والفتح على أنه مسمى بـ (استفعل) من البريق وليس بصحيح ، أيضاً ، لأنه معرف مشهور تعريفه وأن أصله استبره . انتهى . ودل قوله إلا أن يزعم ابن محيصن . وقوله بعد وقرئ (واستبرق) بوصل الألف والفتح ، أن قراءة ابن محيصن هي بقطع الهمزة مع فتح القاف والمنقول عنه في كتب القراءات أنه قرأ بوصل الألف وفتح القاف . وقال أبو حاتم : لا يجوز والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه والصواب قطع الألف واجراؤه على قراءة الجماعة ، انتهى . ونقول : إن ابن محيصن قارئ جليل مشهور بمعرفة العربية ، وقد أخذ عن أكابر العلماء ويتطلب لقراءته وجه ، وذلك أنه يجعل استفعل من البريق ، تقول : برق واستبرق كعجب واستعجب . ولما كان قوله (خُضِرَ) يدل على الخضرة ، وهي لون ذلك السندس وكانت الخضرة مما يكون فيها لشدتها دهمة وغبش أخبر أن في ذلك اللون بريقاً وحسناً يزيل غبشته فـ (استبرق) فعل ماض والضمير فيه عائذ على السندس ، أو على الاخضرار الدال عليه قوله (خضر) وهذا التخريج أولى من تلحين من يعرف العربية وتوهيم ضابط ثقة (أساور من فضة) وفي موضع آخر (من ذهب) أي يحلون منها على التعاقب أو على الجمع بينهما كما يقع للنساء في الدنيا . قال الزمخشري : وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران سوار من ذهب وسوار من فضة . انتهى . فقوله بالمعصم إما أن يكون مفعول أحسن ، وإما أن يكون بدلاً منه ، وإما أن يكون مفعول أحسن ، وقد فصل بينهما بالجار والمجرور . فإن كان الأول فلا يجوز ، لأنه لم يعهد زيادة الباء في مفعول أفعل للتعجب ، لا تقول : ما أحسن يزيد . تريد ما أحسن زيدا ، وإن كان الثاني ففي مثل هذا الفصل خلاف والمنقول عن سيبويه أنه لا يجوز . والمولد منا إذا تكلم ينبغي أن يتحرز في كلامه عما فيه الخلاف (وسقامهم ربهم شراباً طهوراً) (طهور) صفة مبالغة في الطهارة وهي من فعل لازم ، وطهارتها بكونها لم يؤمر باجتنابها ، وليست كخمر الدنيا التي هي في الشرع رجس ، أو لكونها لم تدس برجل دنسة ، ولم تمس بيد وضرة ولم توضع في إناء لم يعن بتنظيفه ، ذكره بأبسط من هذا الزمخشري ، ثم قال : أولاً أنه لا يؤول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقاً من أبدانهم له ريح كريخ المسك . انتهى . وهذا الآخر قاله أبو قلابة والنخعي وإبراهيم التيمي قالوا : لا تنقلب إلى البول ، بل تكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك ، (إن هذا) أي النعيم السرمدي (كان لكم جزاء) أي : لأعمالكم الصالحة (وكان سعيكم مشكوراً) أي مقبولاً مثاباً ، قال قتادة : لقد شكر الله سعياً قليلاً وهذا على إضمار يقال لهم ، وهذا القول لهم هو على سبيل التهنة والسرور لهم بضد ما يقال للمعاقب إن هذا بعملك الرديء فيزداد غماً وحزناً ، ولما ذكر أولاً حال الإنسان وقسمه إلى العاصي والطائع ذكر ما شرف به نبيه محمد - ﷺ - فقال (إنا نحن نزلنا عليك القرآن) وأمره بالصبر بحكمه وجاء التوكيد بـ (إن) لمضمون الخبر ومدلول المخبر عنه وأكد الفعل بالمصدر ، (ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً) قتال قتادة : « نزلت في أبي جهل ، قال إن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه ، فانزل الله تعالى (ولا تطع) الآية والنهي عن طاعة كل واحد منها أبلغ من النهي عن طاعتها ، لأنه يستلزم النهي عن أحدهما ، لأن في طاعتها طاعة أحدهما ، ولو قال : لا تضرب زيدا وعمراً لجاز أن يكون نهياً عن ضربها جميعاً لا عن ضرب أحدهما . وقال أبو عبيدة (أو) بمعنى الواو والكفور وإن كان أثماً فإن فيه مبالغة في الكفر . ولما كان وصف الكفور مبانياً للموصوف لمجرد الإثم صلح التغاير فحسن العطف . وقيل : الأثم عتبة ، والكفور : الوليد ، عتبة كان ركاباً للمآثم متعاطياً لأنواع الفسوق ، وكان الوليد غالباً في الكفر شديد الشكيمة في العتو . (واذكر اسم ربك بكرة) يعني صلاة الصبح (وأصيلاً) الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب

والعشاء ، وقال ابن زيد وغيره : كان ذلك فرضاً ونسخ فلا فرض إلا الخمس . وقال قوم : هو محكم على وجه الندب . (إن هؤلاء) إشارة إلى الكفرة ، (يحبون العاجلة) يؤثرونها على الدنيا ، (ويذرون وراءهم) أي أمامهم وهو ما يستقبلون من الزمان ، (يوماً ثقيلاً) استعير الثقل لليوم لشدته وهوله من ثقل الجرم الذي يتعب حامله وتقدم شرح الأسر في سورة القتال (وإذا شئنا) أي تبديل أمثالهم بإهلاكهم (بدلنا أمثالهم) ممن يطيع . وقال الزمخشري : وحقه أي يحيي بـ (إن) لا بـ (إذا) كقوله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ [محمد ٣٨] ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ [الأنعام ١٣٣] انتهى . يعني أنهم قالوا : إن إذا للمحقق وإن للممكن وهو تعالى لم يشأ لكنه قد توضع إذا موضع إن وإن موضع إذا كقوله ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ [الأنبياء ٣٤] (إن هذه) أي السورة ، أو آيات القرآن ، أو جملة الشريعة ، ليس على جهة التخيير بل على جهة التحذير من اتخاذ غير سبيل الله . وقال الزمخشري : لمن شاء ممن اختار الخير لنفسه والعاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة . (وما يشاءون) الطاعة (إلا أن يشاء الله) بقصرهم عليها . (إن الله كان عليماً) بأحوالهم وما يكون منهم (حكيماً) حيث خلقهم مع علمه بهم . انتهى . وفيه دسيسة الاعتزال ، وقرأ العربيان وابن كثير (وما يشاءون) بياء الغيبة ، وباقي السبعة بناء الخطاب . ومذهب أهل السنة أنه نفى لقدرتهم على الاختراع وإيجاد المعاني في أنفسهم ولا يرد هذا وجود ما لهم من الاكتساب ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما محل (أن يشاء الله) ؟ (قلت :) النصب على الظرف ، وأصله إلا وقت مشيئة الله وكذلك قرأ ابن مسعود إلا ما يشاء الله لأن (ما) مع الفعل كان معه . انتهى . ونصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف إلا المصدر المصريح به ، كقولك : أحييتك صياح الديك . ولا يميزون : أحييتك أن يصيح الديك ، ولا ما يصيح الديك . فعلى هذا لا يجوز ما قاله الزمخشري (يدخل من يشاء في رحمته) وهم المؤمنون . وقرأ الجمهور (والظالمين) نصباً بإضمار فعل يفسره قوله (أعد لهم) وتقديره : ويعذب الظالمين . وهو من باب الاشتغال ، جملة عطف فعلية على جملة فعلية . وقرأ ابن الزبير وأبان بن عثمان وابن أبي عتبة (والظالمون) عطف جملة اسمية على فعلية ، وهو جائز حسن . وقرأ عبد الله (وللظالمين) بلام الجر ، وهو متعلق بـ (أعد لهم) تأكيداً ، ولا يجوز أن يكون من باب الاشتغال ويقدر فعل يفسره الفعل الذي بعده ، فيكون التقدير ، وأعد للظالمين أعد لهم . وهذا مذهب الجمهور ، وفيه خلاف ضعيف مذكور في النحو . فتقول يزيد مررت به ويكون التقدير مررت بزيد مررت به ويكون من باب الاشتغال والمحفوظ المعروف عن العرب نصب الاسم وتفسير مررت المتأخر وما أشبهه من جهة المعنى فعلاً ماضياً .

سورة المرسلات مكية وهي خمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَاتِ ۝٢ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ۝٥ عُدْرًا أَوْ
 نَذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ۝٧ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا
 الرُّسُلُ أَقْنَتِ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥
 أَلَمْ يَنْهَكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ۝١٧ كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ
 نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَذِ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٧
 وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَا
 ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ۝٣١ إِنَّمَا تَرْمِي بِشَجَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤
 هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْقُونُ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
 وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونُ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَكَهَ
 مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥
 كُلُّوْا وَتَمَنَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨
 وَيْلٌ يَوْمَذِ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠

فرجت الشيء : فتحته فانفرج . قال الرازي :

الْفَارِجُ بَابُ الْأَمِيرِ الْمُبْتَهَمِ

كفت : ضم وجمع . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ، « اكفتوا صبيانكم » ومنه قيل ليقبع الغرقد كفت وكفته
 والكفات : اسم لما يكفت كالضمام والجماع يقال هذا الباب جماع الأبواب ، وقال الصمصامة بن الطرماع :

فَأَنْتَ الْيَوْمَ فَوقَ الْأَرْضِ حَيٌّ وَأَنْتَ غَدًا تَضُمُّكَ فِي كِفَاتٍ^(١)

وقال أبو عبيدة : الكفات الوعاء . شمع : ارتفع ، الشرر : ما تطاير من النار متبدداً في كل جهة ، واحده شررة . ولغة تميم شرار بالالف واحده شرارة . القصر . الدار الكبيرة المشيدة . والقصر : قطع من الخشب قدر الذراع وفوقه ودونه يستعد به للشبثاء واحده قصرة ، والقصر : بفتح الصاد أعناق الإبل والنخل والناس واحده قصرة وبكسر القاف وفتح الصاد جمع قصرة كحلقة من الحديد وحلق والله تعالى أعلم ﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشرأ ، فالفارقات فرقأ ، فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً ، إنما توعدون لواقع ، فإذا النجوم طمست ، وإذا السواء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقد رنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

هذه السورة مكية : وحكى عن ابن عباس وقتادة ومقاتل أن فيها آية مدنية وهي ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ [المرسلات ٤٨] . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة جداً ، وهو أنه تعالى يرحم من يشاء ويعذب الظالمين فهذا وعد منه صادق فأقسم على وقوعه في هذه ، فقال (إنما توعدون لواقع) ولما كان المقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تعيين تلك الموصوفات ، فقال ابن مسعود وأبو هريرة وأبو صالح ومقاتل والفراء (والمرسلات) الملائكة أرسلت بالعرف ضد النكر ، وهو الوحي فبالتعاقب على العباد طرفي النهار . وقال ابن عباس وجماعة : الأنبياء ومعنى (عرفاً) إفضالاً من الله تعالى على عباده ، ومنه قول الشاعر :

لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وانتصابه على أنه مفعول له ، أي أرسلن للإحسان والمعروف ، أو متتابعة تشبيهاً بعرف الفرس في تتابع شعره وأعراف الخيل ، وتقول العرب : الناس إلى فلان عرف واحد . إذا توجهوا إليه متتابعين ، وهم عليه كعرف الضبع إذا تألبوا عليه وانتصابه على الحال . وقال ابن مسعود أيضاً وابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرِّيح^(٢) . وقال الحسن : السحاب . وقرأ الجمهور (عرفاً) بسكون الراء وعيسى بضمها ، (فالعاصفات) قال ابن مسعود : الشديديات الهبوب . وقيل : الملائكة تعصف بأرواح الكفار أي تزعجها بشدة أو تعصف في مضيتها كما تعصف الرياح تحقّقاً في امتثال أمره . وقيل : هي الآيات المهلكة كالزلازل والصواعق والخسوف . (والناشرات) قال السدي وأبو صالح ومقاتل : الملائكة تنشر صحف العباد بالأعمال . وقال الربيع : الملائكة تنشر الناس من قبورهم . وقال ابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة : الرِّيح رحمة الله ومطره . وقال أبو صالح الأمطار : تحيي الأرض بالنبات ، وقال الضحاك : الصحف تنشر على الله تعالى بأعمال العباد . فعلى هذا تكون الناشرات على معنى النسب ، أي ذات النشر . (فالفارقات) قال ابن عباس وابن مسعود وأبو صالح ومجاهد والضحاك : الملائكة تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقال قتادة والحسن وابن كيسان : آيات القرآن فرق بين الحلال والحرام . وقال مجاهد أيضاً : الرِّيح تفرق بين السحاب فتبدّده . وقيل : الرسل حكاه الزجاج . وقيل : السحاب الماطر تشبيهاً بالناقة الفاروق وهي الحامل التي تجزع حين تضع . وقيل : العقول تفرق بين الحق والباطل

(١) البيت من الوافر انظر فتح القدير (٣٥٨/٥) .

(٢) انظر الوسيط (١٧٦ خ) والقرطبي (٦٩٤٦/٩) والبغوي (٤٣٢/٤) وزاد المسير (٤٤٦/٨) .

والصحيح والفاقد . (فالملقيات ذكراً) قال ابن عباس وقتادة والجمهور : الملائكة تلقي ما حملت من الوحي إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، وقال قطرب : الرسل تلقي ما أنزل عليها إلى الأمم . وقال الربيع : آيات القرآن أُلقيت على النبي - ﷺ - . واختار الزمخشري من الأقوال أن تكون (والمرسلات) إلى آخر الأوصاف إما للملائكة ، وإما للرياح ، فللملائكة تكون (عذراً) للمحققين (أو نذراً) للمبطلين ، وللرياح يكون المعنى فآلقين (ذكراً) إما (عذراً) للذين يعتذرون إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها وإما إنذاراً للذين يغفلون عن الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء ، وجعلن ملقيات للذكر ، لكونهن سبباً في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت ، قال الزمخشري : والذي أراه أن المقسم به شيان ولذلك جاء العطف بالواو في (والناشرات) والعطف بالواو يشعر بالتغاير ، بل هو موضوعه في لسان العرب . وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات فيدل على أنها راجعة إلى العاديات : وهي الخيل . وكقوله :

يَا لَهْفَ زَيَابَةَ لِلْحَارِثِ فَالْصَّا بِحِ فَالْغَانِمِ فَالْإِيْبِ^(١)

فهذه راجعة لموصوف واحد وهو الحارث فإذا تقرر هذا ، فالظاهر : انه أقسم أولاً بالرياح فهي مرسلاته تعالى ، ويدل عليه عطف الصفة بالفاء كما قلنا وأن العصف من صفات الريح في عدة مواضع من القرآن . والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ويكون (فالفارقات) (فالملقيات) من صفاتهم كما قلنا في عطف الصفات ، وإلقاؤهم الذكر وهو ما أنزل الله يصح إسناده إليهم وقرأ الجمهور (فالملقيات) اسم فاعل خفيف ، أي نظرقه إليهم وابن عباس مشدد من التلقية ، وهي أيضاً إيصال الكلام إلى المخاطب ، يقال : لقيته الذكر فتلقيه . وقرأ أيضاً ابن عباس فيما ذكر المهدي بفتح اللام والقاف مشددة اسم مفعول ، أي : تلقت من قبل الله تعالى . وقرأ إبراهيم التيمي والنحويان وحفص (عذراً أو نذراً) بسكون الذالين . وزيد بن ثابت وابن خارجه وطلحة وأبو جعفر وأبو حيوة وعيسى والحسن بخلاف والأعشى عن أبي بكر بضمهما وأبو جعفر أيضاً وشيبة وزيد بن علي والحريمان وابن عامر وأبو بكر بسكونها في (عذراً) وضمها في (نذراً) فالسكون على أنها مصدران مفردان ، أو مصدران جمعان فـ (عذراً) جمع عذير بمعنى العذرة و (نذراً) جمع نذير بمعنى الإنذار وانتصابها على البدل من (ذكراً) كأنه قيل : فالملقيات عذراً أو نذراً ، أو على المفعول من أجله ، أو على أنها مصدران في موضع الحال ، أي : عاذرين أو منذرين . ويجوز مع الإسكان أن يكونا جمعين على ما قرناه . وقيل : يصح انتصاب (عذراً أو نذراً) على المفعول به بالمصدر الذي هو ذكراً ، أي : فالملقيات أي فذكروا عذراً ، وفيه بعد ، لأن المصدر هنا لا يراد به العمل إنما يراد به الحقيقة لقوله (ألقى الذكر عليه) ق ٢٥ والإعذار هي بقيام الحجة على الخلق والإنذار هو بالعذاب والنقمة . (إنما توعدون) أي من الجزاء بالثواب والعقاب (لواقع) و (ما) موصولة وإن كانت قد كتبت موصولة بـ (إن) وهذه الجملة هي المقسم عليها . وقرأ الجمهور (أو نذراً) بواو التفصيل ، وإبراهيم التيمي (ونذراً) بواو العطف (فإذا النجوم طمست) أي : أذهب نورها فاستوت مع جرم السماء ، أو عبر عن إلحاق ذواتها بالطمس وهو انتشارها وانكدارها ، أو أذهب نورها ثم انتشرت ممحوقة النور . (وإذا السماء فرجت) أي : صار فيها فروج بانفطار . وقرأ عمرو بن ميمون (طُمِسَتْ) (فَرَجَتْ) بشد الميم والراء . والجمهور بخفيهما (وإذا الجبال نسفت) أي فرقتها الرياح وذلك بعد التسيير وقبل كونها هباء . وقرأ الجمهور (أَقْتَتْ) بالهمز وشد القاف . وبتخفيف القاف والهمز النخعي والحسن وعيسى وخالد . وقرأ أبو الأشهب وعمرو بن عبيد وعيسى أيضاً وأبو عمرو بالواو وشد القاف . قال عيسى : وهي لغة سفلى مضر وعبد الله والحسن وأبو جعفر بواو واحدة وخف القاف والحسن أيضاً . وقتت

بواوين على وزن فوعلت والمعنى : جعل لها وقت منتظر فحان وجاء أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره وهو يوم القيامة ، والواو في هذا كله أصل والهمزة بدل . قال الزمخشري : ومعنى توقيت الرسل : تبين وقتها الذي يحضرون فيها للشهادة على أمهم وجواب (إذا) محذوف للدلالة ما قبله عليه ، وتقديره : إذا كان كذا وكذا وقع ما توعدون . (لأي يوم أجلت) تعظيم لذلك اليوم ، وتعجيب لما يقع فيه من الهول والشدة والتأجيل : من الأجل أي ليوم عظيم أخرت (ليوم الفصل) أي بين الخلائق ، (ويل) تقدم الكلام فيه في أول ثاني حزب من سورة البقرة (يومئذ) يوم إذ طمست النجوم وكان ما بعدها ، وقرأ الجمهور (نهلك الأولين) بضم النون وفتحة هاء . قال الزمخشري : من هلكه بمعنى أهلكه . قال العجاج :

وَمَهُمَّ هَالِكٌ مَنْ تَعَرَّجَا^(١)

انتهى . وخرج بعضهم . هالك من تعرجا

على أن هالكاً هو من اللازم وَمَنْ موصول فاستدل به على أن الصفة المشبهة باسم الفاعل قد يكون معمولها موصولاً . وقرأ الجمهور (تنبهم) بضم العين على الاستئناف ، وهو وعد لأهل مكة ويقوي الاستئناف قراءة عبد الله (ثم ستنبهم) بسين الاستقبال . والأعرج والعباس عن أبي عمرو بإسكانها ، فاحتمل أن يكون معطوفاً على (نهلك) واحتمل أن يكون سكن تخفيفاً كما سكن ﴿ وما يشعركم ﴾ [الأنعام ١٠٩] فهو استئناف فعلى الاستئناف يكون (الأولين) الأمم التي تقدمت قريشاً أجمع ويكون (الآخرين) من تأخر من قريش وغيرهم ، وعلى التشريك يكون (الأولين) قوم نوح وإبراهيم - عليهما السلام - ومن كان معهم و (الآخرين) قوم فرعون ومن تأخر وقرب من مدة رسول الله - ﷺ - والإهلاك هنا : إهلاك العذاب والنكال ولذلك جاء (كذلك نفعل بالمجرمين) فأق بالصفة المقتضية لإهلاك العذاب وهي الإجماع ، ولما ذكر إفناء الأولين والآخرين ذكر ووقف على أصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث (من ماء مهين) أي ضعيف هومني الرجل والمرأة (في قرار مكين) وهو الرحم (إلى قدر معلوم) أي عند الله تعالى وهو وقت الولادة ، وقرأ علي بن أبي طالب (فقدّرنا) بشد الدال من التقدير كما قال ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ [عبس ١٩] وباقي السبعة بخفها من القدرة . وانتصب (أحياء وأمواتاً) بفعل يدل عليه ما قبله . أي يكفأ أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها . واستدل بهذا من قال إن النباش يقطع لأن بطن الأرض حرز للكفن فإذا نبش وأخذ منه فهو سارق ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى نكفتمكم أحياء وأمواتاً فينتصبا على الحال من الضمير لأنه قد علم أنها كفات الإنس . انتهى . و (رواسي) جبلاً ثابتات شامخات مرتفعات ، ومنه شمع بأنفه : ارتفع شبه المعنى بالجزم (وأسقيناكم) جعلناه سقياً لمزارعكم ومنافعكم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب إنها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالت صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فإن كان لكم كيد فكيدون ، ويل يومئذ للمكذبين ، إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ، ويل يومئذ للمكذبين ، وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ يقال للمكذبين (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) أي من العذاب (انطلقوا إلى ظل) أمر قراءة الجمهور تكراراً أو بياناً للمنطلق إليه . وقرأ رويس عن يعقوب بفتح

(١) رجز بعده (هائلة أهواله من أدلجا) انظر اللسان (هلك) روح المعاني (٢٩ / ٢٢٠) الكشف (٤ / ٦٧٩) .

اللام على معنى الخبر ، كأنهم لما أمروا امتثلوا فانطلقوا إذ لا يمكنهم التأخير إذ صاروا مضطرين إلى الانطلاق (ذي ثلاث شعب) ، قال عطاء : هودخان جهنم^(١) . وروي : « أنه يعلو من ثلاثة مواضع يظن الكفار أنه مغن من النار فيهرعون إليه فيجدونه على أسوأ وصف » . وقال ابن عباس : يقال ذلك لعبدة الصليب ، فالمؤمنون في ظل الله عز وجل وهم في ظل معبودهم ، وهو الصليب له ثلاث شعب ، والشعب : ما تفرق من جسم واحد ، (لا ظليل) نفي لمحاسن الظل (ولا يغني) أي ولا يغني عنهم من حر (اللهب) شيئاً ، (إنها ترمي بشر) الضمير في (إنها) لجهنم ، وقرأ الجمهور (بشر) وعيسى (بشرار) بألف بين الرأين . وابن عباس وابن مقسم كذلك إلا أنه كسر الشين ، فاحتمل أن يكون جمع شرر أي بشرار من العذاب ، وأن يكون صفة أقيمت مقام موصوفها ، أي : بشرار من الناس كما تقول : قوم شرار جمع شر غير أفعال التفضيل ، وقوم خيار جمع خير غير أفعال التفضيل ، ويؤنث هذا فيقال للمؤنث شرة وخيرة بخلافها إذا كانا للتفضيل فلها أحكام مذكورة في النحو . وقرأ الجمهور (كالقصر) وابن عباس وابن جبير ومجاهد والحسن وابن مقسم بفتح القاف والصاد . وابن جبير أيضاً والحسن أيضاً (كالقَصْرِ) بكسر القاف وفتح الصاد . وبعض القراء بفتح القاف وكسر الصاد . وابن مسعود بضمهما كأنه مقصور من القصور كما قصروا النجم والنمر من النجوم والنمور قال الراجز :

فيها عَنَابِلُ أَسُودَ وَنَمِرٌ

وتقدم شرح أكثر هذه القراءات في المفردات . وقرأ الجمهور ومنهم عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - (جمالات) بكسر الجيم وبالألف والتاء جمع جمال جمع الجيم ، وهي الإبل كقولهم رجالات قریش ، وابن عباس وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء بخلاف عنهم كذلك إلا أنهم ضموا الجيم ، وهي جمال السفن الواحد منها جملة لكونه جملة من الطاقات والقوى ، ثم جمع على جل وجمال ثم جمع جمال ثانياً جمع صحة فقالوا جمالات . وقيل : الجمالات : قلوب الجسور . وقرأ حمزة والكسائي وحفص وأبو عمرو في رواية الأصمعي وهارون عنه (جُمَالَة) بكسر الجيم لحقت جمالاً التاء ، لتأنيث الجمع كحجر وحجارة . وقرأ ابن عباس والسلمي والأعمش وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عتبة ورويس كذلك إلا أنهم ضموا الجيم . قال ابن عباس وابن جبير : الجمالات : قلوب السفن وهي حباله العظام إذا اجتمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام^(٢) . وقال ابن عباس أيضاً : الجمالات : قطع النحاس الكبار وكان اشتقاق هذه من اسم الجملة . وقرأ الحسن (صُفْرٌ) بضم الفاء . والجمهور بإسكانها ، شبه الشرر أولاً بالقصر وهو الصحن . من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء وثانياً بالجمال ، لبيان التشبيه . ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان وهي القصور ، قال الشاعر :

فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي فَكَأَنَّهَا فَذُنُّ لَأَقْصَى حَاجَةِ الْمُتَلَوِّمِ^(٣)

ومن قرأ بضم الجيم ، فالتشبيه من جهة العظم والطول والصفرة الفاقعة أشبه بلون الشرر ، قاله الجمهور ، وقيل : صفر سود . وقيل : سود تضرب إلى الصفرة . وقال عمران بن حطان الرقاشي :

دَعَتْهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَرَمَتْهُمْ بِمِثْلِ الْجَمَالِ الصُّفْرِ نَزَاعَةَ الشَّوَى^(٤)

(١) انظر الوسيط (١٧٧ خ) والقرطبي (١٠٦/١٩) .

(٢) انظر القرطبي (١٠٧/١٩) .

(٣) البيت من الكامل من معلقة عنترة بن شداد شرح المعلقات (١٠٨) روح المعاني (٢٢٣/٢٩) .

(٤) البيت من الطويل انظر الكشف (٦٨١/٤) ، القرطبي (١٠٧/١٩) .

وقرأ الأعمش والأعرج وزيد بن علي وعيسى وأبو حيوه وعاصم في رواية (هذا يوم لا ينطقون) بفتح الميم . والجمهور برفعها . قال ابن عطية : لما أضاف إلى غير متمكن بناء فهي فتحة بناء وهي في موضع رفع . وقال صاحب اللوامح : قال عيسى هي لغة سفل مضر يعني بناءهم (يوم) مع (لا) على الفتح ، لأنهم جعلوا يوم مع لا كالاسم الواحد فهو في موضع رفع لأنه خبر المبتدأ . انتهى . والجملة المصدرة بمضارع مثبت أو منفي لا يجيز البصريون في الظرف المضاف إليها البناء بوجه وإنما هذا مذهب كوفي . قال صاحب اللوامح : ويجوز أن يكون نصباً صحيحاً على الظرف فيصير هذا إشارة إلى ما تقدمه من الكلام دون إشارة إلى (يوم) ويكون العامل في نصب (يوم) نداء تقدمه من صفة جهنم . ورميها بالشر في يوم لا ينطقون فيكون يومئذ كلام معترض لا يمنع تفريغ العامل للمعمول كما كانت ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، ذواتا أفنان ﴿ [الرحمن ١٦] انتهى ، وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بهذا إلى رميها بشر . وقال الزمخشري : ونصبه الأعمش أي هذا الذي قص عليكم وأوقع يومئذ ، وهنا نفي نطقهم . وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم نطقوا في مواضع من هذا اليوم ، وذلك باعتبار طول اليوم ، فيصح أن ينفي القول فيه في وقت ويثبت في وقت أو نفي نطقهم بحجة تنفع وجعل نطقهم بما لا ينفع كلا نطق . وقرأ القراء كلهم فيها أعلم (ولا يؤذَن) مبنياً للمفعول . حكى أبو علي الأهوازي أن زيد بن علي قرأ (ولا يَأْذَن) مبنياً للفاعل . أي الله تعالى (فيعتذرون) عطف على (ولا يؤذَن) داخل في حيز نفي الإذن أي فلا إذن فاعتذار ، ولم يجعل الاعتذار متسبباً عن الإذن فينصب . وقال ابن عطية : ولم ينصب في جواب النفي ، لتشابه رؤوس الآي . والوجهان جائزان انتهى . فجعل امتناع النصب هو تشابه رؤوس الآي ، وقال : والوجهان جائزان . فيظهر من كلامه استواء الرفع والنصب ، وأن معناهما واحد ، وليس كذلك ، لأن الرفع كما ذكرنا لا يكون متسبباً بل صريح عطف ، والنصب يكون فيه متسبباً فافتقرا ، وذهب أبو الحجاج الأعلم إلى أنه قد يرفع الفعل ويكون معناه المنصوب بعد الفاء وذلك قليل ، وإنما جعل النحويون معنى الرفع غير معنى النصب رعيّاً للأكثر في كلام العرب وجعل دليلاً ذلك وهذه الآية كظاهر كلام ابن عطية وقد رد ذلك عليه ابن عصفور وغيره . (هذا يوم الفصل جمعناكم) للكفار (والأولين) قوم نوح - عليه السلام - وغيرهم من الكفار الذين تقدم زمانهم على زمان المخاطبين . أي جمعناكم للفصل بين السعداء والأشقياء . (فإن كان لكم كيد) أي في هذا اليوم كما كان لكم في الدنيا ما تكيدون به دين الله وأوليائه (فكيدون) اليوم ، وهذا تعجيز لهم وتوبيخ . ولما كان في سورة الإنسان ذكر نزراً من أحوال الكفار في الآخرة وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها جاء في هذه السورة الإطناب في وصف الكفار والإيجاز في وصف المؤمنين فوقع بذلك الاعتدال بين السورتين . وقرأ الجمهور (في ظلال) جمع ظِل . والأعمش في (ظُلُل) جمع ظُلَّة ، (كلوا واشربوا) خطاب لهم في الآخرة على إضمار القول ويدل عليه (بما كنتم تعملون) (كلوا وتمتعوا) خطاب للكفار في الدنيا (قليلاً) أي : زماناً قليلاً إذ قصارى أكلكم وتمتعكم الموت ، وهو خطاب تهديد لمن أجرم من قريش وغيرهم . (وإذا قيل لهم اركعوا) من قال : إنها مكية قال هي في قريش ، ومن قال إن هذه الآية مدنية قال هي في المنافقين . وقال مقاتل : نزلت في ثقيف . « قالوا لرسول الله - ﷺ - حط عنا الصلاة فإننا لا ننحنى إنها مسبة فأبى ، وقال : لا خير في دين لا صلاة فيه » . ومعنى (اركعوا) اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول وحيه^(١) . وقيل : الركوع هنا : عبارة عن الصلاة ، وخص من أفعالها الركوع ، لأن العرب كانوا يأنفون من الركوع والسجود وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله (ويل يومئذ للمكذبين) لأن كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة وتقريرات من أحوال الدنيا ، فناسب أن يذكر الوعيد عقيب كل جملة منها للمكذب بالويل في يوم الآخرة . والضمير في (بعده) عائد على القرآن ، والمعنى أنه قد تضمن من

٤٠٠ سورة المرسلات / الآيات : ١ - ٥٠

الإعجاز والبلاغة والأخبار المغيبات وغير ذلك مما احتوى عليه ما لم يتضمنه كتاب إلهي ، فإذا كانوا مكذبين به ، (فبأي حديث بعده) يصدقون به ، أي لا يمكن تصديقهم بحديث بعد أن كذبوا بهذا الحديث الذي هو القرآن . وقرأ الجمهور (يؤمنون) بباء الغيبة . ويعقوب وابن عامر في رواية بناء الخطاب .

سورة النبأ مكية وهي إحدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ
الْأَرْضَ مِهْدًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠)
وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
نَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَلَتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ
فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا
(٢١) لِلطَّغْيِينَ مَتَابًا (٢٢) لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا هَمِيمًا وَغَسَاقًا (٢٥) جَزَاءُ
وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩)
فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءُ مَنْ رَزَقَهُ عَطَاءٌ حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا
يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)
ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

السبات : قال ابن قتيبة : السبات : أصله القطع والمد فالنوم قطع الأشغال الشاقة ، ومن المد قول الشاعر :

وَإِنْ سَبَتَهُ مَالٌ حَبْلًا كَانَهُ سُدَى وَإِمْلَاتِ مِنْ نَوَاسِجٍ خَنْعَمَا

أي : إن مدت شعرها مال والتف كالتفاف السدي بأيدي نساء ناسجات . الوهاج : المتوقد المتلألئ ، المعصر : قال الفراء : السحاب الذي يجلب المطر ولما يجتمع مثل الجارية المعصر قد كادت تحيض ولما تحض . وقال نحوه ابن قتيبة . وقال أبو النجم العجلي :

تَمْشِي الْهُوَيْنَا مَائِلًا خِمَارَهَا قَدْ أَعْصَرْتُ أَوْ قَدْ دَنَا إِعْصَارُهَا^(١)

الثج : قال ثعلب أصله شدة الانصباب . وقال الأزهري : ثجاج : شديد الانصباب ثج الماء وثججته ثجاً وثجوجاً يكون لازماً بمعنى الانصباب وواقعاً بمعنى الصب . قال الشاعر في وصف الغيث :

إِذَا رَمَقَتْ فِيهَا رَحَى مَرْجَحْنَهُ تَنْعَجُ ثَجَّاجاً غَزِيرَ الْحَوَافِلِ^(٢)

ألفافاً : جمع لف ، ثم جمع لف على ألفاف . الكواعب : جمع كاعب وهي التي برز نهداها ، ومنه كعب الرجل لبروزه ، ومنه الكعبة . قال عاصم بن قيس المنقري :

وَكَمْ مِنْ حَصَانٍ قَدْ حَوَيْنَا كَرِيمَةَ وَمِنْ كَاعِبٍ لَمْ تَذِرِ مَا الْبُؤْسُ مَعْصِرِ^(٣)

الدهاق : الملقى مأخوذ من الدهق ، وهو ضغط الشيء وشده باليد كأنه لامتلائه انضغط . وقيل : الدهاق : المتابعة . قال الشاعر :

أَتَانَا عَامِرٌ بَيِّنِي قِرَانَا فَاتَّرَعْنَا لَهُ كَأْساً دِهَاقاً^(٤)

وقال آخر :

لَأَنْتَ إِلَى الْفُؤَادِ أَحَبُّ قُرْباً مِنْ الصَّادِي إِلَى كَأْسٍ دِهَاقٍ^(٥)

﴿ عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنيينا فوقكم سبْعاً شَدَاداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حياً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ، إن يوم الفصل كان ميقاتاً ، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ هذه السورة مكية . وروى « انه - ﷺ - لما بعث جعل المشركون يتساءلون بينهم فيقولون : ما الذي أتى به ؟ ويتجادلون فيما بعث به » فنزلت^(٦) ، ومناسبتها لما ذكر قبلها ظاهرة لما ذكر (فبأي حديث بعده يؤمنون) أي : بعد الحديث الذي هو القرآن وكانوا يتجادلون فيه ويسائلون عنه ، قال (عم يتساءلون) وقرأ الجمهور (عَمَّ) وعبد الله وأبي وعكرمة وعيسى (عَمَّا) بالألف ، وهو أصل (عم) والأكثر حذف الألف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف الجر وأضيف إليها ، ومن إثبات الألف قوله :

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمْنِي لَيْمٍ كَخُنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادٍ^(٧)

وقرأ الضحاك وابن كثير في رواية (عَمَّه) بهاء السكت أجرى الوصل مجرى الوقف ، لأن الأكثر في الوقف على ما

(١) البيت من الرجز انظر روح المعاني (١٢/٣٠) ، اللسان (عصر) .

(٢) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المصون .

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٩/١١٩) .

(٤) البيت من الوافر لخداش بن زهير انظر اللسان (دهق) .

(٥) البيت من الوافر انظر القرطبي (١٩/١٢٠) .

(٦) انظر الوسيط (١٧٧ خ) والقرطبي (٢/٣٠) والقرطبي (٩/٦٩٦١) والبيهقي (٤/٤٣٦) . والدر المثور (٦/٣٠٥) .

(٧) تقدم .

الاستفهامية هو بإلحاق هاء السكت إلا إذا أضيفت إليها فلا بد من الهاء في الوقف نحو يحي مة ، والاستفهام عن هذا فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب . كما تقول : أي رجل زيد وزيد ما زيد كأنه لما كان عديم النظر أو قليله خفي عليك جنسه فأخذت تستفهم عنه ثم جرد العبارة عن تفخيم الشيء فجاء في القرآن . والضمير في (يتساءلون) (عن النبأ العظيم) وهو أمر رسول الله - ﷺ - وما جاء به من القرآن . وقيل : الضمير لجميع العالم ، فيكون الاختلاف تصديق المؤمن وتكذيب الكافر . وقيل : المتساءل فيه البعث والاختلاف فيه . (عم) متعلق بـ (يتساءلون) . ومن قرأ (عمه) بالهاء في الوصل فقد ذكرنا أنه يكون أجرى بالوصل مجرى الوقف . و (عن النبأ) بمتعلق بمحذوف ، أي : يتساءلون عن النبأ . وأجاز الزخشي أن يكون وقف على (عمه) ثم ابتداء بـ (يتساءلون عن النبأ العظيم) على أن يضم لـ (عمه) (يتساءلون) وحذفت لدلالة ما بعدها عليه كشيء مبهم ثم يفسر . وقال ابن عطية : قال أكثر النحاة قوله (عن النبأ العظيم) متعلق بـ (يتساءلون) الظاهر كأنه قال لم يتساءلون ؟ (عن النبأ العظيم) ، وقال الزجاج : تام في قوله (عم يتساءلون) ثم كان مقتضى القول أن يجيب مجيب فيقول : يتساءلون عن النبأ ، فاقتضى إيجاز القرآن ، وبلاغته أن يبادل المحتج بالجواب الذي يقتضيه الحال والمجاورة اقتضاء بالحجة وإسراعاً إلى موضع قطعهم . وقرأ عبد الله وابن جبير (يسألون) بغير تاء وشد السين ، وأصله يتساءلون بقاء الخطاب فأدغم التاء الثانية في السين . (كلا) ردع للمتسائلين . وقرأ الجمهور بياء الغيبة فيهما . وعن الضحاك : الأول بالتاء على الخطاب والثاني بالياء على الغيبة . وهذا التكرار تأكيد في الوعيد . وحذف ما يتعلق به العلم ، على سبيل التهويل . أي سيعلمون ما يحل بهم . ثم قرأهم تعالى على النظر في آياته الباهرة ، وغرائب مخلوقاته التي ابتدئها من العدم الصرف وأن النظر في ذلك يفضي إلى الإيمان بما جاءت به الرسل من البعث والجزاء ، فقال (ألم نجعل الأرض مهاداً) فبدأ بما هم دائماً يباشرونه . والمهاد : الفراش الموطأ . وقرأ الجمهور (مهاداً) ومجاهد وعيسى وبعض الكوفيين (مَهْداً) بفتح الميم وسكون الهاء . ولم ينسب ابن عطية عيسى في هذه القراءة . وقال ابن خالويه : مَهْداً على التوحيد مجاهداً وعيسى الهمداني وهو الحوفي ، فاحتمل أن يكون قول ابن عطية وبعض الكوفيين كناية عن عيسى الهمداني وإذا أطلقوا عيسى أو قالوا عيسى البصرة فهو عيسى بن عمر الثقفي . وتقدم الكلام في المهاد في البقرة في أو حزب ﴿واذكروا الله﴾ [البقرة ٢٠٣] (والجبال أوتاداً) أي ثبتنا الأرض بالجبال كما ثبت البيت بالأوتاد . قال الأفوه :

وَالْبَيْتُ لَا يَنْبَنِي إِلَّا لَهُ عُمْدٌ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ^(١)

(أزواجاً) أي أنواعاً من اللون والصورة واللسان . وقال الزجاج وغيره : مزدوجين ذكراً وأنثى (سباتاً) سكناً وراحة ، سبت الرجل : استراح وترك الشغل ، والسبات : علة معروفة يفرط على الإنسان السكوت حتى يصير قاتلاً والنوم شبيه به إلا في الضرر . وقال قتادة : النائم مسبوت لا يعقل كأنه ميت . (لباساً) أي يستترون به عن العيون فيما لا يحبون أن يظهر عليه (وجعلنا النهار) قابل النوم بالنهار إذ فيه اليقظة . (معاشاً) وقت عيش وهو الحياة تتصرفون فيه في حوائجكم . (سبعاً) أي سموات (شدداً) محكمة الخلق قوية لا تتأثر بمرور الأعصار إلا إذا أراد الله عز وجل ، وقال الشاعر :

فَلَمَّا جِئْتُهُ أَعْلَى مَحَلِّي وَأَجْلَسَنِي عَلَى السَّبْعِ الشَّدَادِ

(سراجاً) هو الشمس (وهاجاً) حاراً مضطرم الاتقاد . وقال عبد الله بن عمر : والشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها ولهيها يضطرم علواً . (من المعصرات) قال أبي الحسن وابن جبير وزيد بن أسلم وقاتدة ومقاتل : هي

السموات . وقال ابن عباس وأبو العالية والربيع والضحاك : السحاب القاطرة ، مأخوذ من العصر ، لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء . وقيل : السحاب التي فيها الماء ولم تمطر . وقال ابن كيسان : سميت بذلك من حيث تغيث فهي من العصرة ومنه قوله ﴿ وفيه يعصرون ﴾ [يوسف ٤٩] والعاصر : المغيث فهو ثلاثي وجاء هنا من أعصر أي دخلت في حين العصر فحان لها أن تعصر وأفعل للدخول في الشيء . وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة : الرياح ، لأنها تعصر السحاب جعل الإنزال منها لما كانت سبباً فيه . وقرأ ابن الزبير وابن عباس والفضل بن عباس أخوه وعبد الله بن يزيد وعكرمة وقتادة (بالمعصرات) بالباء بدل من ، قال ابن عطية : فهذا يقوي أنه أراد الرياح . وقال الزمخشري فيه وجهان ، أن يراد بالرياح التي حان لها أن تعصر السحاب وأن يراد السحاب لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها كما تقول أعطى من يده درهماً وأعطى بيده درهماً . (ثجاجاً) منصباً بكثرة ، ومنه « أفضل الحج العج والثج » . أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي . وقرأ الأعرج (ثجاجاً) بالحاء آخراً ومساجح الماء ، مصابه والماء ينشجج في الوادي . (حباً ونباتاً) بدأ بالحب ، لأنه الذي يتقوت به كالحنطة والشعير ، وثني بالنبات فشمّل كل ما ينبت من شجر وحشيش ودخل فيه الحب . (ألفافاً) ملتفة ، قال الزمخشري : ولا واحد له كالأوزاع والأخفاف ، وقيل : الواحد لف . وقال صاحب الإقليد : أنشدني الحسن بن علي الطوسي :

جَنَّةُ لِفْ وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بَيْضُ زُهْرٍ^(١)

ولو قيل هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً ، انتهى . ولا حاجة إلى هذا القول ولا إلى وجاهته ، فقد ذكر في المفردات أن مفردة لف بكسر اللام ، وأنه قول جمهور أهل اللغة . (وإن يوم القيامة يفصل فيه بين الحق والباطن) (كان ميقاتاً) أي في تقدير الله وحكمه تؤقت به الدنيا وتنتهي عنده ، أو حداً للخلائق ينتهون إليه . (يوم ينفخ في الصور) بدل من (يوم الفصل) ، قال الزمخشري : أو عطف بيان وتقدم الكلام في الصور . وقرأ أبو عياض (في الصور) بفتح الواو جمع صورة ، أي : يرد الله الأرواح إلى الأبدان . والجمهور بسكون الواو (فتأتون) من القبور إلى الموقف أمماً كل أمة بإمامها . وقيل : جماعات مختلفة . وذكر الزمخشري حديثاً في كيفية قبحة لعشرة أصناف يخلقون عليها وسبب خلقه من خلق على تلك الكيفية - الله أعلم بصحته - وقرأ الكوفيون (وَفُتِحَتْ) خف . والجمهور بالتشديد (فكانت أبواباً) تنشق حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدران ، وقيل : ينقطع قطعاً صغيراً حتى تكون كالألواح الأبواب المعهودة . وقال الزمخشري : فتحت فكانت أبواباً ، أي : كثرت أبوابها لتزول الملائكة كأنها ليست إلا أبواباً مفتحة كقوله ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ [القمر ١٢] كأن كلها عيون تنفجر . وقيل : الأبواب : الطرق والمسالك ، أي : تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقاً لا يسدها شيء . (فكانت سراباً) أي تصير شيئاً كلا شيء لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها ، انتهى . وقال ابن عطية : عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منبثاً ولم يرد أن الجبال تشبه الماء على بعد من الناظر إليها . وقال الواحدي : على حذف مضاف ، أي ذات أبواب . قوله عز وجل ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا يثنى فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ، إن للمتقين مفازاً ، حدائق وأعناباً وكواكب أثراباً ، وكأساً دهاقاً ، لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً ، رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ، إنا أنذركم عذاباً قريباً ، يوم ينظر المرء ما قدمت

يداه ، ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴿١﴾ .

(مرصاداً) مفعال من الرصد ترصد من حقت عليه كلمة العذاب . وقال مقاتل : مجلساً للأعداء ومراً للأولياء ، ومفعال للمذكر والمؤنث بغير تاء ، وفيه معنى النسب أي ذات رصد وكل ما جاء من الأخبار والصفات على معنى النسب فيه الكثير واللزوم ، وقال الأزهري : المرصاد : المكان الذي يرصد فيه العدو ، وقال الحسن : إلا أن على النار المرصاد فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجيء بجواز احتبس . وقرأ أبو عمر والمتقري وابن يعمر (أن جهنم) بفتح الهمزة ، والجمهور بكسرهما (مآباً) مرجعاً . وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن علي وابن وثاب وعمرو بن ميمون وعمرو بن شرحبيل وطلحة والأعمش وحمزة وقتيبة وسورة وروح (لبثين) بغير ألف بعد اللام ، والجمهور بألف بعدها . وفاعل يدل على من وجد منه الفعل وفعل على من شأنه ذلك كحاذر وحذر . أحقاباً تقدم الكلام عليه في الكهف عند (أو أمضي حقاً) [الكهف ٦٠] والمعنى هنا حقاً بعد حقب كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ولا يكاد يستعمل الحقب إلا حيث يراد تتابع الأزمنة . كقول أبي تمام :

لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ دَارِ مَأْوِيَةِ الْحُقُبِ أَنْجِلُ الْمَغَانِي لَيْلِي أَمْ هِيَ نَهْبُ

ويجوز أن يتعلق (للطاغين) بـ (مرصاداً) ويجوز أن يتعلق بـ (مآباً) و (لبثين) حال من (الطاغين) و (أحقاباً) نصب على الظرف . وقال الزمخشري : وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره وحقب إذا أخطأ الرزق فهو حقب ، وجمعه أحقاب . فينتصب حالاً عنهم يعني (لبثين فيها) حقبين جحدين وقوله (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً) تفسير له ، والاستثناء منقطع يعني : لا يذوقون فيها برداً وروحاً ينفس عنهم حر النار ، ولا شراب يسكن من عطشهم ، ولكن يذوقون فيها حميماً وغساقاً . انتهى . وكان قد قدم قبل هذا الوجه ما نصه : ويجوز أن يراد (لبثين فيها أحقاباً) غير ذائقين برداً ولا شراباً (إلا حميماً وغساقاً) ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب . انتهى . وهذا الذي قاله هو قول للمتقدمين حكاه ابن عطية . قال : وقال آخرون : إنما المعنى (لبثين فيها أحقاباً) غير ذائقين برداً ولا شراباً ، فبهذه الحال يلبثون أحقاباً ، ثم يبقى العذاب سرمداً ، وهم يشربون أشربة جهنم والذي يظهر : أن قوله (لا يذوقون) كلام كمستأنف وليس في موضع الحال و (إلا حميماً) استثناء متصل من قوله (ولا شراباً) وإن (أحقاباً) منصوب على الظرف حملاً على المشهور من لغة العرب لا منصوب على الحال على تلك اللغة التي ليست مشهورة ، وقول من قال إن الموصوفين باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين ، أواخر الآي يدفعه ، وقول مقاتل ، إن ذلك منسوخ بقوله (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) فاسد ، والظاهر وهو قول الجمهور أن البرد : هو مس الهواء القَر ، أي لا يمسه منه ما يستلذ ويكسر شدة الحر . وقال أبو عبيدة والكسائي ، والفضل بن خالد ومعاذ النحوي : البرد هنا : النوم والعرب تسميه بذلك لأنه يبرد سورة العطش ، ومن كلامهم « منع البرد البرد » وقال الشاعر :

فَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نَفَاخاً وَلَا بَرْدًا^(١)

النفاخ : الماء ، والبرد : النوم . وفي كتاب اللغات في القرآن : إن البرد هو النوم بلغة هذيل والذوق على هذين القولين مجاز . وقال ابن عباس : البرد : الشراب البارد المستلذ ، ومنه قول حسان بن ثابت :

يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيضِ عَلَيْهِمْ بَرْدًا يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ^(٢)

(١) انظر روح المعاني (١٩/٣٠) ، اللسان (نفخ) (برد) .

(٢) البيت من الكامل انظر ديوانه (٣٦٥) روح المعاني (١٩/٣٠) اللسان (برد) .

ومنه قول الآخر :

أَمَانِي مِنْ سُعْدَى حَسَانٌ كَأَنَّمَا سَقَتَكَ بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمَأٍ بَرْدًا^(١)

والذوق على هذا حقيقة . والنحويون ينشدون على هذا بيت حسان بَرَدَى بفتح الراء والذال بعدها ألف التأنيث وهو نهر في دمشق وتقدم شرح الحميم والغساق وخلف القراء في شدة الشين وخفتها (وفاقاً) أي لأعمالهم وكفرهم ، وصف الجزء بالمصدر لـ (وافق) أو على حذف مضاف ، أي ذا وفاق . وقال الفراء : هو جمع وفق ، وقرأ الجمهور بخف الفاء . وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبله بشدها من وفقه كذا . (لا يرجون) لا يخافون أو لا يؤمنون ، والرجاء والأمل مفترقان . والمعنى هنا : لا يصدقون بالحساب فهم لا يؤمنون ولا يخافون . وقرأ الجمهور (كَذَاباً) بشد الذال مصدر كَذَبَ ، وهي لغة لبعض العرب يمانية ، يقولون في مصدر فَعَلَ فِعْلاً وغيرهم يجعل مصدره على تفعيل نحو تكذيب ، ومن تلك اللغة قول الشاعر :

لَقَدْ طَالَ مَا ثَبَّطْتَنِي عَنْ صَحَابَتِي وَعَنْ حَاجَةٍ قَضَاؤُهَا مِنْ شِفَائِيَا^(٢)

ومن كلام أحدهم وهو يستفتي : الحلق أحب إليك أم القِصَار يريد التقصير يعني في الحج ، وقال الزمخشري : وفَعَلَ في باب فَعَلَ كله فاش في كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره ، وسمعت بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فاساراً ماسمع بمثله . وقرأ علي وعوف الأعرابي وأبورجاء والأعمش وعيسى بخلاف عنه بخف الذال . قال صاحب اللوامح : علي وعيسى البصرة وعوف الأعرابي (كَذَاباً) كلاهما بالتخفيف ، وذلك لغة اليمن بأن يجعلوا مصدر كَذَبَ مخففاً كَذَاباً بالتخفيف مثل كتب كتاباً فصار المصدر هنا من معنى الفعل دون لفظه مثل أعطيته عطاء انتهى . وقال الأعشى :

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهُ^(٣)

وقال الزمخشري : هو مثل قوله ﴿ أَنْبِتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح ١٧] يعني : وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذاباً أو تنصبه بـ (كذبوا) لا يتضمن معنى كذبوا لأن كل مكذب بالحق ، كاذب ، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه وكذبوا بآياتنا فكاذبوا مكاذبة ، أو كذبوا بها مكاذبين ، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة ، أو لأنهم يتكلمون بما هو إفراط في الكذب فعل من يغالب في أمر فيبلغ فيه أقصى جهده . انتهى . والأظهر الإعراب الأول ، وما سواه تكلف ، وفي كتاب ابن عطية وكتاب اللوامح : وقرأ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وفي كتاب ابن خالويه : عمر بن عبد العزيز والماجشون ثم اتفقوا (كَذَاباً) بضم الكاف وشد الذال ، فخرج على أنه جمع كاذب ، وانتصب على الحال المؤكدة ، وعلى أنه مفرد صفة لمصدر أي تكذيباً كذاباً مفراطاً في التكذيب . وقرأ الجمهور (وكل شيء) بالنصب ، وأبو السهال بالرفع وانتصب (كتاباً) على أنه مصدر من معنى (أحصيناه) أي إحصاء ، أو يكون (أحصيناه) في معنى كتبناه ، والتجوز إما في المصدر وإما في الفعل وذلك لالتقائهما في معنى الضبط ، أو على أنه مصدر في موضع الحال ، أو مكتوباً في اللوح وفي مصحف الحفظة . (وكل شيء) عام مخصوص . أي كل شيء مما يقع عليه الثواب والعقاب وهي جملة اعتراض معترضة . و (فذوقوا) مسبب عن كفرهم بالحساب فتكذيبهم بالآيات . وقال عبد الله بن عمرو : ما نزلت في أهل النار آية أشد من هذه . ورواه أبو بردة عن النبي ﷺ - ولما ذكر شيئاً من حال أهل النار ذكر ما

(١) البيت من الطويل لرجل من بني الحارث انظر ديوان الحماسة (٢/ ١٥٩) روح المعاني (٣٠/ ١٩) .

(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (قضى) روح المعاني (٣٠/ ٢٠) .

(٣) البيت من مجزوء الكامل ليس في ديوان الأعشى انظر الكشف (٤/ ٦٨٩) ونسبه في اللسان للأعشى (صدق) .

لأهل الجنة فقال (إن للمتقين مفازاً) أي : موضع فوز وظفر حيث زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، و (حدائق) بدل من (مفازاً) وفواز فيكون أبدل الجرم من المعنى على حذف ، أي فوز حدائق أي بها . (دهاقاً) قال الجمهور : مترعة^(١) ، وقال مجاهد وابن جبير : متتابعة^(٢) ، وقرأ الجمهور (ولا كذاباً) بالتشديد أي لا يكذب بعضهم بعضاً وقرأ الكسائي بالتخفيف كاللفظ الأول في قوله تعالى (وكذبوا بآياتنا كذاباً) مصدر كذب ومصدر كاذب . قال الزمخشري : (جزاء) مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله (إن للمتقين مفازاً) كأنه قال جازى المتقين بمفاز وعطاء نصب بـ (جزاء) نصب المفعول به ، أي جزاءهم عطاء . انتهى . وهذا لا يجوز ، لأنه جعله مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة التي هي (إن للمتقين مفازاً) والمصدر المؤكد لا يعمل ، لأنه ليس ينحل بحرف مصدرى والفعل ولا تعلم في ذلك خلافاً . وقرأ الجمهور (حساباً) وهو صفة لـ (عطاء) أي كافياً من قولهم : أحسبني الشيء ، أي كفاني ، وقال مجاهد : معنى حساباً هنا بتقسيط على الأعمال أو دخول الجنة برحمة الله والدرجات فيها على قدر الأعمال فالحساب هنا بموازنة الأعمال . وقرأ ابن قطيب (حسباً) بفتح الحاء وشد السين . قال ابن جني : بنى فعلاً من أفعل كدراك من أدرك انتهى . فمعناه محسباً أي كافياً ، وقرأ شريح بن يزيّد الحمصي وأبو البرّ هيثم بكسر الحاء وشد السين وهو مصدر مثل كذاب أقيم مقام الصفة ، أي إعطاء محسباً أي كافياً . وقرأ ابن عباس وسراح (حسناً) بالنون من الحسن وحكى عنه المهدوي (حسباً) بفتح الحاء وسكون السين والباء نحو قولك حسبك كذا أي كافيك ، وقرأ عبد الله وابن أبي إسحق والأعمش وابن محيصن وابن عامر وعاصم (ربّ) و (الرحمن) بالجر والأعرج وأبو جعفر وشيبة وأبو عمرو والحرميان برفعهما . والأخوان (ربّ) بالجر و (الرحمن) بالرفع وهي قراءة الحسن وابن وثاب والأعمش وابن محيصن بخلاف عنهما ، في الجر على البدل (من ربك) و (الرحمن) صفة أو بدل (من رب) أو عطف بيان . وهل يكون بدلاً (من ربك) فيه نظر ، لأن البدل الظاهر أنه لا يتكرر فيكون كالصفات ، والرفع على إضمار هورب أو على الابتداء وخبره (لا يملكون) والضمير في (لا يملكون) عائد على المشركين ، قاله عطاء عن ابن عباس ، أي لا يخاطب المشركون الله أما المؤمنون فيشفعون ويقبل الله ذلك منهم . وقيل : عائد على المؤمنين ، أي لا يملكون أن يخاطبوه في أمر من الأمور لعلمهم أن ما يفعله عدل منه . وقيل : عائد على أهل السموات والأرض والضمير في (منه) عائد عليه تعالى والمعنى : أنهم لا يملكون من الله أن يخاطبوه في شيء من الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه . والعامل في (يوم) إما (لا يملكون) وإما (لا يتكلمون) وقد تقدم الخلاف في (الروح) أهو جبريل أم ملك أكبر الملائكة خلقة ، أو خلق على صورة بني آدم ، أو خلق حفظة على الملائكة ، أو أرواح بني آدم ، أو القرآن ، وقيامه مجاز يعني ظهور آثاره الكائنة عن تصديقه أو تكذيبه ، والظاهر : عود الضمير في (لا يتكلمون) على (الروح) و (الملائكة) ، وقال ابن عباس : عائد على الناس فلا يتكلم أحد إلا بإذن منه تعالى ونطق بالصواب . وقال عكرمة : الصواب لا إله إلا الله أي قالها في الدنيا . وقال الزمخشري : هما شريطتان أن يكون المتكلم منهم مأذوناً لهم في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب ، فلا يشفع لغير مرتضى لقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ [الأنبياء ٢٨] انتهى . (ذلك اليوم الحق) أي كيانه ووجوده (فمن شاء) وعيد وتهديد . والخطاب في (أنذرناكم) لمن حضر النبي - ﷺ - واندرج فيه من يأتي بعدهم (عذاباً) هو عذاب الآخرة لتحقيق وقوعه وكل آت قريب . (ويوم ينظر المرء) عام في المؤمن والكافر . (ما قدمت يداه) من خير أو شر لقيام الحجة له وعليه ، وقال الزمخشري : وقاله قبله عطاء : المرء هو الكافر لقوله (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) ، والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ومعنى ما قدمت يداه من الشر

(١) انظر القرطبي (١٩/١٢٠) والطبري (٣٠/١٣) وتفسير ومجاهد (٢/٧٢٢) وتفسير عبد الرزاق .

(٢) انظر المصادر السابقة .

لقوله ﴿وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران ١٨١ ، ١٨٢] ، وقال ابن عباس وقتادة والحسن : المرء هنا : المؤمن كأنه نظر إلى مقابله في قوله (ويقول الكافر) وقرأ الجمهور (المرء) بفتح الميم وابن أبي إسحاق بضمها . وضعفها أبو حاتم ولا ينبغي أن تضعف ، لأنها لغة يتبعون حركة الميم لحركة الهمزة فيقولون : مرؤ ومرأ ومرء على حسب الإعراب و (ما) منصوب بـ (ينظر) ومعناه ينتظر (ما قَدَّمْت يدها) فـ (ما) موصولة ، ويجوز أن يكون ينظر من النظر وعلق عن الجملة فهي في موضع نصب على تقدير إسقاط الخافض و (ما) استفهامية منصوبة تقدّمت ، وتمنيه ذلك أي تراباً في الدنيا ولم يخلق أو في ذلك اليوم . وقال أبو هريرة وعبد الله بن عمر : « إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض ثم يقول لها بعد ذلك كوني تراباً فتعود جميعها تراباً فإذا رأى الكافر ذلك تمنى مثله^(١) . وقيل : الكافر هنا : إبليس إذا رأى ما حصل للمؤمنين من الثواب قال (يا ليتني كنت تراباً) كآدم الذي خلق من تراب واحتقره هو أولاً . وقيل : تراباً أي متواضعاً لطاعة الله تعالى لا جباراً ولا متكبراً .

(١) انظر الوسيط (١٨٠ خ) والقرطبي (١٩/١٢٣) والطبري (٣٠/١٧ - ١٨) وابن كثير (٤/٤٦٦) .

سورة النازعات مكية وهي ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّيْقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدْرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَلَيْنَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنِي ۝١٨ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝٢١ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَى ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ۝٢٦ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالِ أَرْسَلَهَا ۝٣٢ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۝٣٣ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ ۝٣٤ الْكُبْرَى ۝٣٥ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝٣٦ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۝٣٧ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٤١ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝٤٣ إِلَى رَبِّكَ مُنْهَلَهَا ۝٤٤ إِنَّمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ۝٤٥ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۝٤٦

أغرق في الشيء بالغ فيه وأناه وأغرق النازع في القوس : بلغ غاية المد حتى ينتهي إلى النصل، والاستغراق : الاستيعاب، والغرقى : قشرة البيضة . نشط البعير والإنسان : ربطه وأنشطه حله ومنه : « وكأنا أنشط من عقال » . ونشط : ذهب من قطر إلى قطر ، ولذلك قيل لبقير الوحش التواشط ، لأنهم يذهبون بسرعة من مكان إلى مكان ، ومنه قول الشاعر وهو هيمان بن قحافة :

أَرَى هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا الشَّامَ بِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسِطًا^(١)

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (نشط) .

وكان هذه اللفظة مأخوذة من النشاط . وقال أبو زيد : نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته أنشوطه وأنشطته حللته وأنشطت الحبل مددته . وقال الليث : أنشطته بأنشوطه ، أي وثقته وأنشطت العقال مددت أنشوطته فانحلت . ويقال : نشط بمعنى أنشط . والأنشوطه : عقدة يسهل انحلالها إذا جذبت كعقدة التكة . وجف القلب وجيفاً : اضطرب من شدة الفزع ، وكذلك وجب وجيباً ، في كتاب لغات القرآن المروي عن ابن عباس : واجفة : خائفة بلغة همدان . الحافرة : يقال : رجع فلان في حافرته ، أي في طريقه التي جاء منها فحفرها أي أثر فيها بمشييه فيها جعل أثر قدميه حفراً وتوقعها العرب على أول أمر يرجع إليه من آخره . ومنه قول الشاعر :

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارٍ^(١)

أي أأرجع إلى الصبا بعد الصلوع والشيب ، الناخرة : المصوتة بالريح المجوِّفة ، والناخرة بمعناها كطامع وطمع وحاذر وحذر قاله الفراء وأبو عبيد وأبو حاتم وجماعة . وقيل : النخرة : البالية المتعفنة الصائرة رمياً . نخر العود والعظم : بلي وتفتت ، فمعناه مغاير للناخرة وهو قول الأكثرين . وقال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة ، التي لم تنخر بعد والناخرة التي قد بليت . قال الراجز لفرسه :

أَقْدَمَ أَخَاهُمْ عَلَى الْأَسَاوِرَةِ وَلَا تَهْوَلُنْكَ رُؤُوسُ نَادِرِهِ
فَإِنَّمَا قَصْرُكَ تُرْبُ السَّاهِرَةِ حَتَّى تَعُودَ بَعْدَهَا فِي الْحَافِرَةِ^(٢)
مِنْ بَعْدَمَا صِرْتَ عِظَامًا نَاخِرَةً

وقال الشاعر :

وَأَخْلَيْتُهَا مِنْ مُخِّهَا فَكَأَنَّهَا قَوَارِيرُ فِي أَجْوَاهِهَا الرِّيحُ تَنْخَرُ^(٣)

ويروى تصفر ونُخرة الريح بضم النون : شدة هبوبها والنخرة أيضاً مقدم أنف الفرس والحمار والخنزير ، يقال : هشم نخرته ، الساهرة : وجه الأرض والفلاة ، وصفت بما يقع فيها وهو السهر للخوف . وقال أمية بن أبي الصلت :

وَفِيهَا لَحْمٌ سَاهِرَةٌ وَبَحْرٌ وَمَا فَاهُوا بِهِ لَهُمْ مُقِيمٌ^(٤)

وقال أبو بكر الهذلي :

يَرْتَدُّ سَاهِرَةٌ كَأَنَّ جَمِيمَهَا وَعَمِيمَهَا أَسْدَافُ لَيْلٍ مُظْلِمٍ^(٥)

والساهر كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف . وقال أمية بن أبي الصلت :

وَبَثَّ الْخَلْقَ فِيهَا إِذْ دَحَاهَا فَهَمُّ قُطَانِهَا حَتَّى التَّنَادِي^(٦)

(١) البيت من الوافر لم نهند لقائله انظر اللسان (حفر) فتح القدير (٣٧٤/٥) .

(٢) الأبيات من الرجز للهمداني انظر اللسان (نخر) .

(٣) البيت من الطويل للحارثي انظر ديوان الحماسة (١٦٥/٢) .

(٤) البيت من الوافر انظر اللسان (سهر) .

(٥) البيت من المنسرح انظر اللسان (سهر) فتح القدير (٣٧٥/٥) .

(٦) البيت من الوافر انظر فتح القدير (٣٧٩/٥) .

وقيل : دحاها : سواها . قال زيد بن عمرو :

وَأَسْلَمَتْ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثَقِيلًا
دَحَاهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ شَدَّهَا بِأَيْدٍ وَأَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ^(١)

الطامة : الداهية التي تطم على الدواهي ، أي تعلو وتغلب وفي أمثالهم : « أجرى الوادي فطم على القرى » .
ويقال : طم السيل الركية إذا دفنها ، والطم : الدفن والعلو .

﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سباحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ، يقولون أئنا لمردون في الحافرة ، إذا كنا عظاماً نخرة ، قالوا تلك إذا كربة خاسرة ، فإنما هي زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ، هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ثم أدبر يسمي ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر في آخر ما قبلها الإنذار بالعذاب يوم القيامة أقسم في هذه على البعث يوم القيامة ، ولما كانت الموصوفات بها محذوفات وأقيمت صفاتها مقامها وكان لهذه الصفات تعلقات مختلفة اختلفوا في المراد بها . فقال عبد الله وابن عباس (النازعات) الملائكة تنزع نفوس بني آدم^(٢) . و (غرقاً) إغراقاً في الصدر . وهي المبالغة في الفعل ، أو غرقاً في جهنم يعني نفوس الكفار . قاله عليّ وابن عباس . وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وابن كيسان والأخفش : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق . وقال السديّ وجماعة . تنزع بالموت إلى ربها . و (غرقاً) أي إغراقاً في الصدر^(٣) وقال السدي أيضاً : النفوس تحن إلى أوطانها وتنزع إلى مذهبها ولها نزع عند الموت . وقال عطاء وعكرمة القسي : أنفسها تنزع بالسهم . وقال عطاء أيضاً الجماعات النازعات بالقسي وغيرها إغراقاً . وقال مجاهد : المنايا تنزع النفوس . وقيل (النازعات) الوحش تنزع إلى الكلا ، حكاه يحيى بن سلام . وقيل : جعل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب والتي تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب ، قاله في الكشف . (والناشطات) قال ابن عباس ومجاهد : الملائكة تنشط النفوس عند الموت : أي تحلها وتنشط بأمر الله إلى حيث كان . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة والحسن والأخفش : النجوم تنشط من أفق إلى أفق تذهب وتسير بسرعة . وقال مجاهد أيضاً : المنايا^(٤) وقال عطاء البقر الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر وقال ابن عباس أيضاً : النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج . وقيل : التي تنشط للإزهاق (والسابحات) قال عليّ ومجاهد : الملائكة تتصرف في الآفاق بأمر الله تحيي وتذهب . وقال قتادة والحسن : النجوم تسبح في الأفلاك . وقال أبو روق : الشمس والقمر والليل والنهار . وقال عطاء وجماعة : الخيل يقال للفرس سابح . وقيل : السحاب ، لأنها كالعائمة في الهواء . وقيل : الحيتان دواب البحر فها دونها ، وذلك من عظم المخلوقات فيبدي أنه تعالى أمد في الدنيا نوعاً من الحيوان منها أربعائة في البر وستائة في البحر . وقال عطاء أيضاً : السفن ، وقال مجاهد أيضاً : المنايا تسبح في نفوس الحيوان (فالسابقات) قال مجاهد : الملائكة سبقت بني آدم بالخير والعمل الصالح ، وقاله أبو روق ، وقال ابن مسعود : أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين

(١) البيتان من المقارب انظر اللسان (دحا) فتح القدير (٣٧٩/٥) .

(٢) انظر الوسيط (١٧٩ خ) والقرطبي (١٢٤/١٩) .

(٣) انظر المصدرين السابقين .

(٤) انظر المصدرين السابقين .

يقبضونها وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى . وقال عطاء : الخيل . وقيل : النجوم . وقيل : المنايا تسبق الآمال (فالمدبرات) قال ابن عطية : لا أحفظ خلافاً أنها الملائكة ، ومعناه أنها التي تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فيها كالرياح والسحاب وسائر المخلوقات . انتهى . وقيل : الملائكة الموكلون بالأحوال ، جبريل للوحي ، وميكائيل للمطر ، وإسرافيل للنفخ في الصور ، وعزرائيل لقبض الأرواح . وقيل : تدبيرها نزولها بالحلال والحرام . وقال معاذ : هي الكواكب السبعة . وإضافة التدبير إليها مجاز ، أي يظهر تقلب الأحوال عند قرانها وتربيعها وتسديسها وغير ذلك ولفق الزخشي من هذه الأقوال أقوالاً اختارها وأدارها أولاً على ثلاثة ، الملائكة ، أو الخيل ، أو النجوم ، ورتب جميع الأوصاف على كل واحد من الثلاثة ، فقال : أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي هي تنزع الأرواح من الأجساد وبالطوائف التي تشطها أي تخرجها من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها ، وبالطوائف التي تسبح في مضيها أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم ، كما رسم لهم غرقاً أي إغراقاً في النزع أي تنزعها من أقاصي الأجساد من أناملها وأظفارها ، أو أقسم بخيل الغزاة التي تنزع في أعتتها إلى آخر ما نقلناه ، ثم قال : من قولك : ثور ناشط إذا خرج من بلد إلى بلد والتي تسبح في جريتها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر وإسناد التدبير إليها لأنها من أسبابه ، وأقسم بالنجوم التي تنزع من المشرق إلى المغرب وإغراقها في النزع أن تقطع الفلك كله حتى تنحط من أقصى المغرب والتي تخرج من برج إلى برج والتي تسبح في الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً في علم الحساب . وقيل : (النازعات) أيدي الغزاة وأنفسهم تنزع القسي بإغراق السهام والتي تنشط الإرهاق ، انتهى . والذي يظهر أن ما عطف بالفاء من وصف المقسم به قبل الفاء وأن المعطوف بالواو وهو مغاير لما قبله كما قررناه في المرسلات ، على أنه يحتمل أن يكون المعطوف بالواو من عطف الصفات بعضها على بعض . والمختار في جواب القسم أن يكون محذوفاً وتقديره لتبعثن للدلالة ما بعده عليه قاله الفراء . وقال محمد بن علي الحكيم الترمذي : الجواب (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) والمعنى فيما اقتضت من ذكر يوم القيامة وذكر موسى - عليه السلام - وفرعون . قال ابن الأنباري : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال . وقيل : اللام التي تلقي بها القسم محذوفة من قوله (يوم ترجف الراجفة) أي : ليوم كذا (تتبعها الرادفة) ولم تدخل نون التوكيد لأنه قد فصل بين اللام المقدره والفعل . وقول أبي حاتم هو على التقديم والتأخير كأنه قال (فإذا هم بالساهرة) (والنازعات) قال ابن الأنباري خطأ ، لأن الفاء لا يفتح بها الكلام . وقيل : التقدير : يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة والنازعات على التقديم والتأخير أيضاً ، وليس بشيء . وقيل : الجواب (هل أتاك حديث موسى) لأنه في تقدير قد أتاك ، وليس بشيء وهذا كله إعراب من لم يحكم العربية . وحذف الجواب هو الوجه ويقرب القول بحذف اللام من (يوم ترجف) قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : هما الصيحتان ، أي : النفختان الأولى تميمت كل شيء وفي الثانية تحمي^(١) . وقال مجاهد أيضاً (الواجفة) الزلزلة (والرادفة) الصيحة . وقال ابن زيد (الواجفة) الأرض (والرادفة) الساعة . والعامل في (يوم) اذكر مضمرة ، أو لتبعثن المحذوف واليوم متسع تقع فيه النفختان وهم يبعثن في بعض ذلك اليوم المتسع (وتتبعها) حال . قيل : أو مستأنف (واجفة) مضطربة ، ووجيف القلب يكون من الفرع ويكون من الإشفاق ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بني حجباً وأسرتهم
أكبادنا من ورائهم تجف^(٢)

(قلوب) مبتدأ (واجفة) صفة تعمل في (يومئذ) (أبصارها) أي أبصار القلوب (خاشعة) مبتدأ وخبر في موضع

(١) انظر الوسيط (١٨٠ خ).

(٢) البيت من المنسرح انظر فتح القدير (٣٧٤/٥).

خبر قلوب . وقال ابن عطية : رفع قلوب بالابتداء ، وجاز ذلك وهي نكرة ، لأنها قد تخصصت بقوله (يومئذ) انتهى . ولا تخصص الأجرام بظروف الزمان ، وإنما تخصصت بقوله (واجفة) (يقولون) حكاية حالهم في الدنيا ، والمعنى هم الذين يقولون ، و (الحافرة) قال مجاهد : فاعلة بمعنى مفعولة . وقيل : على النسب ، أي : ذات حفر ، والمراد : القبور أي لمردودون أحياء في قبورنا . وقال زيد بن أسلم (الحافرة) النار . وقيل : جمع حافرة بمعنى القدم ، أحياء نمشي على أقدامنا ونطأ بها الأرض . وقال ابن عباس : الحياة الثانية هي أول الأمر وتقول التجار النقد في الحافرة أي : في ابتداء الصوم . وقال الشاعر :

أَلَيْتُ لَا أَنْسَاكُمْ فَأَعْلَمُوا حَتَّى تُرَدَّ النَّاسُ فِي الْحَافِرَةِ^(١)

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبله (في الحِفْرَةِ) بغير ألف والجمهور بألف ، وقيل : هما بمعنى واحد . وقيل : هي الأرض المنتنة المتغيرة بأجساد موتاتها ، من قولهم : حفرت أسنانه إذا تأكلت وتغيرت . وقرأ عمرو وأبي وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر (ناخرة) بألف وأبورجاء والحسن والأعرج وأبو جعفر وشيبة والسلمي وابن جبير والنخعي وقتادة وابن وثاب وأهل مكة وشبل وباقي السبعة بغير ألف . (قالوا تلك إذاً) أي الردة إلى الحافرة إن رددنا (كرة خاسرة) أي قالوا لتكذيبهم بالغيب ، أي لو كان هذا حقاً لكانت ردتنا خاسرة إذ هي إلى النار . وقال الحسن : خاسرة : كاذبة ، أي ليست بكافية وهذا القول منهم استهزاء . وروي أن بعض صناديد قريش قال ذلك (وإنما هي زجرة واحدة) لما تقدم (يقولون أننا لمردودون) تضمن قولهم استبعاد النشأة الثانية واستضعاف أمرها فجاء قوله (وإنما) مراعاة لما دل عليه استبعادهم ، فكانه قيل ليس بصعب ما تقولون وإنما هي نفخة واحدة (فإذا هم) منشورون أحياء على وجه الأرض قال ابن عباس : الساهرة : أرض من فضة يخلقها الله تعالى^(٢) . وقال وهب بن منبه جبل بالشام يمده الله تعالى يوم القيامة لحشر الناس . وقال أبو العالية وسفيان أرض قريبة من بيت المقدس . وقال ابن عباس : أرض مكة . وقال قتادة : جهنم ، لأنه لا نوم لمن فيها . رأى أن الضمائر قبلها إنما هي للكفار ففسرها بجهنم ، وقيل : الأرض السابعة يأتي بها الله يحاسب عليها الخلائق ، ولما أنكروا البعث وتمردوا شق ذلك على رسول الله - ﷺ - فقص تعالى عليه قصة موسى عليه السلام - وتمرد فرعون على الله عز وجل حتى ادعى الربوبية وما آل إليه حال موسى من النجاة ، وحال فرعون من الهلاك ، فكان ذلك مسلاة لرسول الله - ﷺ - وتبشيراً بهلاك من يكذبه ونجاته هو من أذاهم . قال تعالى (هل أتاك) توقيفاً له على جمع النفس لما يلقيه إليه وتقدم الكلام في (الوادي المقدس) والخلاف في القراءات في (طوى) (اذهب إلى فرعون) تفسير للنداء أو على إضمار القول (فقل هل لك إلى أن تزكى) لطف في الاستدعاء ، لأن كل عاقل يجيب مثل هذا السؤال بنعم . وتزكى تتحل بالفضائل ، وتنظهر من الرذائل والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى . وقرأ الحرميان وأبو عمرو وبخلاف (تزكى) و (تصدَّى) [عبس ٦] بشد الزاي والصاد . وباقي السبعة بخفها . وتقول العرب هي لك في كذا ؟ أو هل لك إلى كذا ؟ فيحذفون القيد الذي تتعلق به (إلى) أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا ، أو سبيل إلى كذا . قال الشاعر :

فَهَلْ لَكُمْ فِيهَا إِلَيَّ فَإِنِّي بَصِيرٌ بِمَا أَعْيَا النَّطَاسِيَّ حِذْيًا^(٣)

(١) البيت من الكامل انظر فتح القدير (٣٧٤/٥) .

(٢) انظر القرطبي (١٣٠/١٩) .

(٣) البيت من الطويل لأوس بن حجر انظر ديوانه (١١١) اللسان (نطس) فتح القدير (٣٧٦/٥) .

(وأهديك إلى ربك فتحشى) هذا تفسير للتركيز . وهي الهداية إلى توحيد الله تعالى ومعرفته (فتحشى) أي : تخافه ، لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر ٢٨] وذكر الخشية ، لأنها ملاك الأمر ، وفي الكلام حذف . أي فذهب وقال له ما أمر به ربه . وأتبع ذلك بالمعجزة الدالة على صدقه (فأراه الآية الكبرى) وهي العصا واليد جعلها واحدة ، لأن اليد كأنها من جملة العصا ، لكونها تابعة لها ، أو العصا وحدها ، لأنها كانت المقدمة والأصل واليد تبع لها ، لأنه كان يتقيها بيده . وقيل له : (أدخل يدك في جيبك) (فكذب) أي فرعون موسى - عليه السلام - وما أتى به من المعجز وجعل ذلك من باب السحر ﴿ وعصى ﴾ [النمل ١٢] الله تعالى بعدما علم صحة ما أتى به موسى وإنما أوهم أنه سحر . (ثم أدبر يسعى) قيل : أدبر حقيقة ، أي قام من مكانه فاراً بنفسه . وقال الجمهور : هو كناية عن إعراضه عن الإيمان (يسعى) يجتهد في مكايده موسى عليه السلام . (فحشر) أي جمع السحرة وأرباب دولته (فنادى) أي قام فيهم خطيباً . أو فنادى في المقام الذي اجتمعوا فيه معه . (فقال أنا ربكم الأعلى) قال ابن عطية : قول فرعون ذلك نهاية في المخرفة ونحوها باق في ملوك مصر وأتباعهم . انتهى . وإنما قال ذلك ، لأن ملك مصر في زمانه كان إسماعيلياً ، وهو مذهب يعتقدون فيه إلهية ملوكهم وكان أول من ملكها منهم المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله ولاهم العاضد وطهر الله مصر من هذا المذهب الملعون بظهور الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي - رحمه الله تعالى - وجزاه عن الإسلام خيراً . (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) قال ابن عباس (الآخرة) قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص ٣٨] والأولى قوله (أنا ربكم الأعلى) ، وقيل : العكس وكان بين قولتيه أربعون سنة . وقال الحسن وابن زيد (نكال الآخرة) بالحرق (والأولى) يعني الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب آخرة حياته وأولاه . وقال أبو زرير : الأولى كفره وعصيانه ، والآخرة : قوله أنا ربكم الأعلى . وقال مجاهد : عبارة عن أول معاصيه وآخرها أي نكل بالجميع . وانتصب (نكال) على المصدر والعامل فيه (فأخذه) لأنه في معناه ، وعلى رأي المبرد بإضمار فعل من لفظه ، أي : نكل نكال . والنكال : بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم . وقال الزمخشري : (نكال الآخرة) هو مصدر مؤكد كوعد الله وصبغة الله ، كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة والأولى انتهى . والمصدر المؤكد لمضمون الجملة السابقة يقدر له عامل من معنى الجملة (إن في ذلك) أي فيما جرى لفرعون وأخذه تلك الأخذة (لعبرة) لعظة (لمن يخشى) أي لمن يخاف عقوبة الله يوم القيامة وفي الدنيا .

قوله عز وجل ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها ، وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاًها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم ، فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ، يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فم أنت من ذكرها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ الخطاب : الظاهر أنه عام ، والمقصود الكفار منكرو البعث ، وفهم على قدرته تعالى (أشد خلقاً) أي أصعب إنشاء (أم السماء) فالمسؤول عن هذا يجيب ولا بد السماء لما يرى من ديمومة بقائها وعدم تأثرها . ثم بين تعالى كيفية خلقها (رفع سمكها) أي جعل مقدارها في العلو مديداً رفيعاً مقدار خمسمائة عام والسمك : الارتفاع الذي بين سطح السماء التي تليها وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها (فسواها) أي جعلها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع ولا منخفض ، أو غمها وأتقن إنشاءها بحيث إنها محكمة الصنعة (وأغطش) أي : أظلم (ليلها) (وأخرج) أبرز ضوء شمسها كقوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس ١] وقولهم : وقت الضحى الوقت الذي تشرق فيه الشمس . وأضيف الليل والضحى إلى السماء ، لأن الليل ظلها والضحى هو نور سراجها . (والأرض بعد ذلك) أي بعد خلق السماء وما فعل فيها (دحاًها)

أي بسطها فخلق الأرض ثم السماء ثم دحا الأرض ، وقرأ الجمهور (والأرض) (والجبال) بنصبهما والحسن وأبو حيوة وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال برفعهما . وعيسى برفع الأرض وأضيف الماء والمرعى إلى الأرض ، لأنها يظهران منها . والجمهور (متاعاً) بالنصب أي فعل ذلك تمتيعاً لكم وابن أبي عبلة بالرفع . أي ذلك متاع . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فهلا أدخل حرف العطف على أخرج ؟ (قلت :) فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون معنى (دحاها) بسطها ومهداها للسكنى ثم فسر التمهيد بما لا بد منه في تأتي سكنائها من تسوية أمر المأكّل والمشرب وإمكان القرار عليها . والثاني : أن يكون (أخرج) حالاً بإضمار قد كقوله ﴿ أو جاؤوكم حصرت صدورهم ﴾ [النساء ٩٠] انتهى . وإضمار قد قول للبصريين . ومذهب الكوفيين والأخفش أن الماضي يقع حالاً ولا يحتاج إلى إضمار قد وهو الصحيح . ففي كلام العرب وقع ذلك كثيراً . انتهى . (ومرعاها) مفعّل من الرعي فيكون مكاناً وزماناً ومصدرأ ، وهو هنا مصدر يراد به اسم المفعول كأنه قيل : ومرعيها : أي النبات الذي يرعى وقدم الماء على المرعى ، لأنه سبب في وجود المرعى ، وشمل (ومرعاها) ما يتقوت به الأدمي والحيوان ، وغيره فهو في حق الأدمي استعارة ولهذا قيل دل الله سبحانه وتعالى بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع بما يخرج من الأرض حتى الملح ، لأنه من الماء (فإذا جاءت الطامة) قال ابن عباس والضحاك : القيامة . وقال ابن عباس أيضاً والحسن : النفخة الثانية . وقال القاسم : وقت سوق أهل الجنة إليها وأهل النار إليها وهو معنى قول مجاهد : (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) أي : عمله الذي كان سعى فيه في الدنيا . وقرأ الجمهور (وبُورَّت) مبنياً للمفعول مشدد الراء (لمن يرى) بياء الغيبة ، أي لكل أحد فيشكر المؤمن نعمة الله ، وقيل (لمن يرى) هو الكافر . وعائشة وزيد بن علي وعكرمة ومالك بن دينار مبنياً للفاعل مخففاً وبتاء ، ويجوز أن يكون خطاباً للرسول ﷺ - أي لمن ترى من أهلها ، وأن يكون إخباراً عن الجحيم فهي تاء التأنيث قال تعالى ﴿ إذا رأيتهم من مكان بعيد ﴾ [الفرقان ١٢] ، وقال أبو نبيك وأبو السمال وهارون عن أبي عمرو : (وبُورَّت) مبنياً ومخففاً و (يوم يتذكر) بدل من (فإذا) وجواب (إذا) قال الزمخشري : فإن الأمر كذلك . وقيل : عاينوا وعلموا ، ويحتمل أن يكون التقدير : انقسم الراؤون قسمين ، والأولى أن يكون الجواب (فأما) وما بعده ، كما تقول : إذا جاءك بنو تميم فأما العاصي فأهنة وأما الطائع فأكرمه . (طغى) تجاوز الحد في عصيانه (وآثر الحياة الدنيا) على الآخرة ، وهي مبتدأ أو فصل والعائد على (مَنْ) من الخبر محذوف على رأي البصريين ، أي المأوى له وحسن حذفه وقوع (المأوى) فاصلة ، وأما الكوفيون فمذهبهم أن آل عوض من الضمير . وقال الزمخشري : والمعنى فإن الجحيم مأواه ، كما تقول للرجل : غرض الطرف تريد طرفك ، وليس الألف واللام بدلاً من الإضافة ولكن لما علم أن الطاغية هو صاحب المأوى وأنه لا يغرض الطرف غيره تركت الإضافة ودخول حرف التعريف في (المأوى) والطرف للتحريف لأنها معرفان . انتهى . وهو كلام لا يتحصل منه الرابط العائد على المبتدأ إذ قد نفى مذهب الكوفيين ، ولم يقدر ضميراً محذوفاً كما قدره البصريون فرام حصول الربط بلا رابط ، (وأما من خاف مقام ربه) أي مقاماً بين يدي ربه يوم القيامة للجزاء . وفي إضافة المقام إلى الرب تفخيم للمقام وتهويل عظيم واقع من النفوس موقعاً عظيماً . قال ابن عباس : خافه عندما هم بالمعصية فأنتهى عنها (ونهى النفس عن الهوى) أي عن شهوات النفس وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بمحمود ، قال سهل : لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين . وقال بعض الحكماء : إذا أردت الصواب فانظر هوائك فخالفه . وقال عمران الميرتلي :

فَخَالَفَ هَوَاهَا وَأَعَصَاهَا إِنَّ مَنْ يُطِيعَ هَوَى نَفْسِهِ تَنَزَّعَ بِهِ كُلُّ مَنْزَعٍ
وَمَنْ يُطِيعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَةَ تُزْرِدَهُ وَتَزْرِمُ بِهِ فِي مَضْرَعٍ أَيِّ مَضْرَعٍ

وقال الفضيل : أفضل الأعمال خلاف الهوى وهذا التفصيل هو عام في أهل الجنة وأهل النار . وعن ابن عباس :

نزل ذلك في أبي جهل ومصعب بن عمير العبدري - رضي الله تعالى عنه - وعنه أيضاً (فأما من طغى) فهو أخ لمصعب بن عمير أسر فلم يشدوا وثاقه وأكرموا وبيتوه عندهم فلما أصبحوا حدثوا مصعباً فقال ما هولي بأخ شدوا أسيركم فإن أمه أكثر أهل البطحاء حلياً ومالاً فأوثقوه (وأما من خاف مقام ربه) فمصعب بن عمير وقي رسول الله - ﷺ - بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه حتى نفذت المشاقص في جوفه وهي السهام فلما رآه رسول الله - ﷺ - متشطحاً في دمه ، قال : عند الله احتسبك ، وقال لأصحابه : لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما وإن شراك نعله من ذهب » ، قيل : واسم أخيه عامر . وفي الكشاف : وقيل الآيتان نزلتا في أبي عزيز بن عمير ومصعب بن عمير وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ووقى رسول الله - ﷺ - بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه . انتهى . (يسألونك) أي قریش ، وكانوا يلحون في البحث عن وقت الساعة إذ كان يتوعدهم بها ، ويكثر من ذلك فنزلت هذه الآية (أيا نمرساها) متى إقامتها ؟ أي متى يقيمها الله ؟ ويشتها ويكونها ؟ وقيل : أيا نمرساها ومستقرها ؟ كما أن مرسى السفينة ومستقرها حيث تنتهي إليه (فيم أنت من ذكرها) قالت عائشة : « رضي الله تعالى عنها - كان رسول الله - ﷺ - يسأل عن الساعة كثيراً فلما نزلت هذه الآية انتهى . والمعنى في أي شيء أنت من ذكر تحديدها ووقتها أي لست من ذلك في شيء ، (إنما أنت منذر) (إلى ربك منتهاها) أي انتهاء علم وقتها لم يؤت علم ذلك أحداً من خلقه . وقيل (فيم) إنكاراً لسؤالهم ، أي فيم هذا السؤال ثم قال (أنت من ذكرها) وعلامة من علاماتها ، فكفاهم بذلك دليلاً على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها ، ولا معنى لسؤالهم عنها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، أي لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذي لا فائدة لهم في علمه وإنما بعثت لتنذر من أهواها من يكون إنذارك لطفاً به في الخشية منها . انتهى . وهذا القول حكاه الزمخشري وزمكه بكثرة ألفاظه ، وهو تفكيك للكلام وخروج عن الظاهر المتبادر إلى الفهم ولم يخله من دسيسة الاعتزال . وقرأ الجمهور (منذرٌ من) بالإضافة ، وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وشيبة وخالد الحذاء وابن هرمرزوعيسى وطلحة وابن محيصن وأبو عمرو وفي رواية وابن مقسم (منذرٌ) بالتنوين . وقال الزمخشري : وقرأ (منذرٌ) بالتنوين وهو الأصل والإضافة تخفيف . وكلاهما يصلح للحال والاستقبال فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة ، كقولك : هو منذر زيد أمس انتهى أما قوله : وهو الأصل يعني التنوين فهو قول قد قاله غيره ممن تقدم . وقد قررنا في هذا الكتاب وفيما كتبناه في هذا العلم : أن الأصل الإضافة لأن العمل إنما هو بالشبه والإضافة هي أصل في الأسماء . وأما قوله : فإذا أريد الماضي فليس إلا الإضافة ، فهذا فيه تفصيل وخلاف مذكور في علم النحو . وخص (من يخشاها) لأنه هو المنتفع بالإنذار (كأنهم يوم يرونها) تقريب وتقرير لقصر مقامهم في الدنيا (لم يلبثوا) لم يقيموا في الدنيا (إلا عشية) يوم أو بكرته . وأضاف الضحى إلى العشية ، لكونها طرفي النهار بدأ بذكر أحدهما فأضاف الآخر إليه تجوذاً واتساعاً وحسن الإضافة كون الكلمة فاصلة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

سورة عبس مكية وهي اثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَรَى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَعْتَى ۚ (٥)
فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا
لَذِكْرَةٌ ۚ (١١) لِمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۚ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۚ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۚ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۚ (١٦) قُلِ الْإِنْسَانُ
مَا أَكْفَرُهُ ۚ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۚ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۚ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَآقَرَهُ ۚ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ
أَنشَرَهُ ۚ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقُضْ مَا أَمَرُهُ ۚ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا
ۚ (٢٦) فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ (٢٧) وَعَبَا وَقَضَا ۚ (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَحَلَّا ۚ (٢٩) وَحَدَّائِقُ غُلَبًا ۚ (٣٠) وَفَكَهْهَ وَأَبَّا ۚ (٣١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تُعْجِبَكُمْ
ۚ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ۚ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ۚ (٣٦) لِكُلِّ أُمَرٍ مِّنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ۚ (٣٨) ضَاكِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ (٣٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۚ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ
ۚ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ (٤٢)

تَصَدَّى تَعَرَّضَ ، قال الراعي :

تَصَدَّى لِوَضَّاحٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ سِرَاجُ الدُّجَى يُجْبَى إِلَيْهِ الْأَسَاوِرُ^(١)

وأصله : تصدّد من الصدد ، وهو ما استقبلك وصار قبالتك . يقال : داري صدد داره ، أي قبالتها . وقيل : من
الصدى وهو العطش ، وقيل : من الصدى وهو الصوت الذي تسمعه إذا تكلمت من بعد في خلاء كالجبل ، والمصاداة :
المعارضة . السفرة : الكتبة ، الواحد سافر . وسفرت المرأة : كشفت النقاب وسفرت بين القوم أسفر سفارة : أصلحت
بينهم ، قاله الفراء الواحد سفير والجمع سفراء . قال الشاعر :

فَمَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَسْعَى بِغُشٍّ إِنْ مَشَيْتُ^(٢)

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٠٩ ، وروي (السواتر) بدل (الأساور) .

(٢) البيت من الوافر لم يند لقائله انظر فتح القدير (٣٨٣/٥) .

القضب : قال الخليل : القضب : الفصفصة الرطبة ، ويقال بالسين فإذا يبست فهي القت . قال : والقضب : اسم يقع على ما يقع من أغصان الشجرة ليتخذ منها سهام أو قسي . الغلب : جمع غلباء ، يقال : حديقة غلباء . غليظة الشجر ملتفته . وأغْلَوْبُ الشعب : بلغ والتف بعضه ببعض ، ورجل أغلب : غليظ الرقبة . والأصل في هذا الوصف استعماله في الرقاب . ومنه قول عمرو بن معدى كرب :

يَسْعَى بِهَا غُلْبُ الرَّقَابِ كَأَنَّهُمْ بُزْلُ كُسَيْنَ مِنَ الشُّعُورِ جَلَالاً^(١)

الأب : المرعى لأنه يُؤْب ، أي يُؤم وينتجع والأب والأم أخوان ، قال الشاعر :

جِذْمُنَا قَيْسَ وَنَجْدُ دَارُنَا وَلَنَا الْأَبُ بِهِ وَالْمَكْرَعُ^(٢)

وقيل : ما يأكله الآدميون من النبات يسمى الحصيد ، وما أكله غيرهم يسمى الأب . ومنه قول بعض الصحابة يمدح رسول الله ﷺ :

لَهُ دَعْوَةٌ مِثْمُونَةٌ رِيحُهَا الصَّبَا بِهَا يُنْبِتُ اللَّهُ الْحَصِيدَةَ وَالْأَبَا^(٣)

الصاخة : قال الخليل : صيحة تصخ الآذان صخاً : أي : تصمها لشدة وقعها ، وقيل : مأخوذة من صخه بالحجر إذا صكه . وقال الزمخشري : أصاخ لحديثه مثل أصاخ له . الغبرة : الغبار ، القتر : سواد كالدخان . وقال أبو عبيدة القتر في كلام العرب الغبار جمع القتر . وقال الفرزدق :

مَتَوَجُّجٌ بِرِدَاءِ الْمُلْكِ يَتَّبَعُهُ فَوْجٌ تَرَى فَوْقَهُ الرِّيَاطِ وَالْقَتَرَ^(٤)

﴿ عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة ، قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ، فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صبياء الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبثنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخللاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأباً ، متاعاً لكم ولأنعامكم ، فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قتر ، أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ هذه السورة مكية . وسبب نزولها . مجيء ابن أم مكتوم إليه - ﷺ - وقد ذكر أهل الحديث وأهل التفسير قصته . ومناسبتها لما قبلها : أنه لما ذكر ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ [النازعات ٤٥] ذكر في هذه من ينفعه الإنذار ومن لم ينفعه الإنذار ، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام ، عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل ، وأبي وأميه ، ويدعوهم إليه (أن جاءه) مفعول من أجله ، أي : لأن جاءه ويتعلق بـ (تولى) على مختار البصريين في الإعمال وبـ (عبس) على مختار أهل الكوفة . وقرأ الجمهور (عبس) مخففاً (أن) بهمة واحدة . وزيد بن علي بشد الباء . وهو

(١) البيت من الكامل انظر الكشف ٥٦٢/٤ .

(٢) البيت من الرمل انظر اللسان (أيب) الكشف ٥٦٣/٤ .

(٣) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر المصون .

(٤) البيت من البسيط انظر الديوان ٢٣٤ .

والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى (أآن) بهمزة ومدة بعدها . وبعض القراء بهمزتين محقتين . والهمزة في هاتين القراءتين للاستفهام وفيهما يقف على (تولى) . والمعنى : ألأن جاءه كاد كذا . وجاء بضمير الغائب في (عبس وتولى) إجلالاً له - عليه الصلاة والسلام - ولطفاً به أن يخاطبه ، لما في المشافهة بقاء الخطاب مما لا يخفى . وجاء لفظ (الأعمى) إشعاراً بما يناسب من الرفق به والصغول ما يقصده . ولابن عطية هنا كلام أضربت عنه صفحاً . والضمير في (لعله) عائد على (الأعمى) أي يتطهر بما يتلقن من العلم (أو يذكر) أي يتعظ (فتفتحه) ذكراك ، أي موعظتك ، والظاهر نصب (يدريك) على جملة الترجي ، فالمعنى : لا تدري ما هو مترجى منه من ترك أو تذكر . وقيل : والمعنى وما يطلعك على أمره وعقبى حاله ، ثم ابتداء القول (لعله يزكى) أي تنمو بركته ويتطهر لله . وقال الزمخشري : وقيل : الضمير في (لعله) للكافر يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام أو يذكر فتقربه الذكرى إلى قبول الحق (وما يدريك) أن ما طمعت فيه كائن انتهى . وهذا قول ينزه عنه حمل القرآن عليه . وقرأ الجمهور (أو يذكُر) بشد الذال والكاف ، وأصله يتذكر ، فأدغم والأعرج وعاصم في رواية (أو يذكُر) بسكون الذال وضم الكاف . وقرأ الجمهور (فتفتحه) برفع العين عطفاً على (أو يذكُر) وعاصم في المشهور والأعرج وأبو حنيفة وابن أبي عبيدة والزعفراني بنصبهما ، قال ابن عطية : في جواب التمني لأن قوله (أو يذكر) في حكم قوله (لعله يزكى) انتهى . وهذا ليس تمنياً إنما هو ترج ، وفرق بين الترجي والتمني . وقال الزمخشري : وبالنصب جواباً لـ (لعل) كقوله ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ [القصص ٣٨] انتهى . والترجي عند البصريين لا جواب له ، فينصب باضمار أن بعد الفاء . وأما الكوفيون فيقولون ينصب في جواب الترجي . وقد تقدم لنا الكلام على ذلك في قوله (فأطلع إلى إله موسى) في قراءة حفص ، ووجهنا مذهب البصريين في نصب المضارع ، (أما من استغنى) ظاهره من كان ذا ثروة وغنى . وقال الكلبي : عن الله وقيل : عن الإيمان بالله . قيل : وكونه بمعنى الثروة لا يليق بمنصب النبوة ، ويدل على ذلك : أنه لو كان من الثروة لكان المقابل : وأما من جاءك فقيراً حقيراً . وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والأعرج وعيسى والأعمش وجمهور السبعة (تَصَدَّى) بخف الصاد . وأصله : يتصدى ، فحذف والحرمان بشدها ، أدغم التاء في الصاد ، وأبو جعفر (تُصَدَّى) بضم التاء وتخفيف الصاد . أي يصديك حرصك على إسلامه ، يقال : تصدى الرجل وصدته ، وهذا المستغنى هو الوليد أو أمية أو عتبة وشيبة أو أمية وجميع المذكورين في سبب النزول . أقوال . قال القرطبي : وهذا كله غلط من المفسرين ، لأن أمية والوليد كانا بمكة وابن أم مكتوم كان بالمدينة ما حضر معها وماتا كافرين ، أحدهما : قبل الهجرة والآخر : في بدر ولم يقصد قط أمية المدينة ، ولا حضر معه مفرداً ولا مع أحد . انتهى . والغلط من القرطبي كيف ينفي حضور ابن أم مكتوم معها ، وهو وهم منه ، وكلهم من قريش ، وكان ابن أم مكتوم بها والسورة كلها مكية بالإجماع وكيف يقوم وابن أم مكتوم بالمدينة كان أولاً بمكة ثم هاجر إلى المدينة وكانوا جميعهم بمكة حين نزول هذه الآية وابن أم مكتوم : هو عبد الله بن سرح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي وأم مكتوم أم أبيه عاتكة وهو ابن خال خديجة - رضي الله عنها - (وما عليك أن لا يزكى) تحقير لأمر الكافر وحض على الإعراض عنه وترك الاهتمام به ، أي وأي شيء عليك في كونه لا يفلح ولا يتطهر من دنس الكفر ؟ (وأما من جاءك يسعى) أي يمشي بسرعة في أمر دينه (وهو يخشى) أي يخاف الله ، أو يخاف الكفار وأذاهم أو يخاف العثار والسقوط لكونه أعمى وقد جاء بلا قائد يقوده (تلهي) تشتغل يقال : لها عن الشيء يلهي إذا اشتغل عنه . قيل : وليس من اللهو الذي هو من ذوات الواو انتهى . ويمكن أن يكون منه ، لأن ما بيني على فعل من ذوات الواو تنقلب واوه ياء لكسرة ما قبلها نحو شقي يشقى ، فإن كان مصدره جاء بالياء فيكون من مادة غير مادة اللهو وقرأ الجمهور (تلهي) (والبزي عن ابن كثير) عَنْهُ وتلهي (بإدغام تاء المضارعة في تاء تفعّل . وأبو جعفر بضمها مبنياً للمفعول أي يشغلك دعاء الكافر للإسلام . وطلحة بتاين وعنه بقاء واحدة وسكون اللام . (كلا إنها) أي سورة القرآن أو الآيات (تذكرة) عظة ينتفع بها . (فمن شاء

ذكره) أي فمن شاء أن يذكر هذه الموعظة ذكره . أتى بالضمير مذكراً لأن التذكرة هي الذكر ، وهي جملة معترضة تتضمن الوعد والوعيد ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ [المزمل ١٩] واعتترض بين (تذكرة) وبين صفته أي تذكرة كائنة (في صحف) ، قيل : اللوح المحفوظ . وقيل : صحف الأولياء المنزل . وقيل : صحف المسلمين فيكون إخباراً بمغيب إذ لم يكتب القرآن في صحف زمان كونه - عليه السلام - بمكة ينزل عليه القرآن (مكرمة) عند الله ، و (مرفوعة) في السماء السابعة ، قاله يحيى بن سلام ، أو مرفوعة عن الشبه والتناقض ، أو مرفوعة المقدار (مطهرة) أي منزهة عن كل دنس قاله الحسن ، وقال أيضاً : (مطهرة) من أن تنزل على المشركين . قال الزمخشري : منزهة عن أيدي الشياطين لا تمسها إلا أيدي ملائكة مطهرة (سفرة) كتبه ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ . انتهى . (بأيدي سفرة) قال ابن عباس : هم الملائكة لأنهم كتبه ، وقال أيضاً : لأنهم يسفرون بين الله تعالى وأنبيائه . وقال قتادة : هم القراء . وواحدة السفرة سافر . وقال وهب : هم الصحابة لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والعلم . (قتل الإنسان ما أكفره) ، قيل : نزلت في عتبة بن أبي لهب غاضب أباه ، فأسلم ثم استصلحه أبوه وأعطاه مالا وجهزه إلى الشام فبعث إلى رسول الله - ﷺ - أنه كافر برب النجم إذا هوى . وروي «أنه - ﷺ - قال : اللهم ابعث عليه كلبك يأكله فلما انتهى إلى الغاضرة ذكر الدعاء فجعل لمن معه ألف دينار إن أصبح فجعلوه وسط الرفقة والمتاع حوله ، فأقبل الأسد إلى الرحال ووثب فإذا هو فوقه فمزقه فكان أبوه يندبه ويكي عليه ، وقال : ما قال محمد شيئاً قط إلا كان » والآية وإن نزلت في مخصوص فالإنسان يراد به الكافر . وقتل دعاء دعاء عليه والقتل أعظم شدائد الدنيا . (ما أكفره) الظاهر أنه تعجب من إفراط كفره والتعجب بالنسبة للمخلوقين إذ هو مستحيل في حق الله تعالى أي هو ممن يقال فيه ما أكفره . وقيل : (ما) استفهام توقيف . أي أي شيء أكفره؟ أي : جعله كافراً بمعنى لأي شيء يسوغ له أن يكفر . (من أي شيء خلقه) ؟ استفهام على معنى التقرير على حقارة ما خلق منه . ثم بين ذلك الشيء الذي خلق منه فقال (من نطفة خلقه فقدره) أي فهيأه لما يصلح له . وقال ابن عباس : أي في بطن أمه . وعنه : قدر أعضائه وحسنأ ودميماً وقصيراً وطويلاً وشقيماً وسعيداً . وقيل : من حال إلى حال نطفة ثم علقه إلى أن تم خلقه (ثم السبيل يسره) أي ثم يسر السبيل ، أي سهل ، قال ابن عباس وقتادة وأبو صالح والسدي : سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان ، وتيسيره له هو هبة العقل ، وقال مجاهد والحسن وعطاء وابن عباس في رواية أبي صالح عنه : السبيل العام اسم الجنس في هدى وضلال ، أي يسر قوماً لهذا كقوله ﴿إنا هديناه السبيل﴾ [الإنسان ٣] الآية وقوله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد ١٠] وعن ابن عباس يسره للخروج من بطن أمه ، (ثم أماته فأقبره) أي جعل له قبراً صيانة لجسده أن يأكله الطير والسباع (قبره) دفنه وأقبره : صيره بحيث يقبر وجعل له قبراً ، والقابر : الدافن بيده ، قال الأعشى :

لَوْ أُسْنَدَتْ مَيِّتاً إِلَى قَبْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ

(ثم إذا شاء أنشره) أي أراد إنشائه أنشره . والمعنى : إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه الله وهو يوم القيامة . وفي كتاب اللوامح : شعيب بن الحبحاب (شاء نشره) بغير همز قبل النون ، وهما لغتان في الأحياء ، وفي كتاب ابن عطية : وقرأ شعيب بن أبي حمزة (شاء نشره) ، (كلا) ردع للإنسان عن ما هو فيه من الكفر والطغيان لما يقضى في من أول مدة تكليفه إلى حين إقباره ما أمره به الله تعالى . فالضمير في (يقض) للإنسان ، وقال ابن فورك : لله تعالى ، أي لم يقض الله لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره بما لم يقض له . ولما عدّد تعالى نعمه في نفس الإنسان ذكر النعم فيما به قوام حياته وأمره بالنظر إلى طعامه وكيفيات الأحوال التي اعتورت على طعامه حتى صار بصدد أن يطعم . والظاهر أن الطعام هو المطعوم ، وكيف يسره الله تعالى بهذه الوسائط المذكورة من صب الماء ، وشق الأرض ، والإنبات وهذا قول الجمهور . وقال أبي وابن

عباس ومجاهد والحسن ، وغيرهم (إلى طعامه) أي إذا صار رجيعاً ليتأمل عاقبة الدنيا على أي شيء يتفانى أهلها . وقرأ الجمهور (إنا) بكسر الهمزة . والأعرج وابن وثاب والأعمش والكوفيون ورويس (أنا) بفتح الهمزة . والحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما (أي) بفتح الهمزة ممالاً ، فالكسر على الاستثناف في ذكر تعداد الوصول إلى الطعام ، والفتح قالوا على البدل ورده قوم لأن الثاني ليس الأول ، قيل : وليس كما ردوا ، لأن المعنى فلينظر الإنسان إلى انعامنا في طعامه ، فترتب البدل وصح انتهى ، كأنهم جعلوه بدل كل من كل . والذي يظهر أنه بدل الاشتغال وقراءة أبي ممالاً على معنى : فلينظر الإنسان كيف صيبننا . وأسند تعالى الصب والشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . وصب الماء هو المطر . والظاهر أن الشق : كناية عن شق الفلاح بما جرت العادة أن يشق به ، وقيل : شق الأرض هو بالنبات . (حباً) يشمل ما يسمى حباً من حنطة وشعير وذرة وسلت وعدس وغير ذلك . (وقضياً) قال الحسن : العلف ، وأهل مكة يسمون القت القضب . وقيل : الفصفصة وضعف لأنه داخل في الأب ، وقيل : ما يقضب ليأكله ابن آدم غصاً من النبات كالبقول والهلين . وقال ابن عباس : هو الرطب ، لأنه يقضب من النخل ولأنه ذكر العنب قبله . (غلباً) قال ابن عباس : غلاظاً وعنه : طوالاً وعن قتادة : وابن زيد : كراماً (وفاكهة) ما يأكله الناس من ثمر الشجر كالخوخ والتين (وأباً) ما تأكله البهائم من العشب . وقال الضحاك : التبن خاصة . وقال الكلبي : كل نبات سوى الفاكهة رطبها والأب يابسها . الصاخة : اسم من أساء القيامة ، يصم نبأها الأذان ، تقول العرب صخبهم الصاخة ، ونابتهم النابتة ، أي الداهية . وقال أبو بكر بن العربي : الصاخة : هي التي تورث الصمم وإنها لمسمعة ، وهذا من بديع الفصاحة ، كقوله :

أَصَمُّهُمْ سِرُّهُمْ أَيَّامُ فُرْقَتِهِمْ فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِسِرِّ يُورِثُ الصَّمَمَ^(١)

وقول الآخر :

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعًا^(٢)

ولعمر الله إن صيحة القيامة مسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة . انتهى . (يوم يفر) بدل من (إذا) وجواب (إذا) محذوف تقديره : اشتغل كل إنسان بنفسه يدل عليه (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) وفراره ومن شدة الهول يوم القيامة كما جاء من قول الرسل : « نفسي نفسي » ، وقيل : خوف التبعات ، لأن الملابس تقتضي المطالبة ، يقول الأخ لم تواسني بمالك ، والأبوان قصرت في برنا ، والصاحبة أطعمتني الحرام ، وفعلت وصنعت ، والبنون لم تعلمنا وترشدنا . وقرأ الجمهور (يُغْنِيهِ) أي عن النظر في شأن الآخر من الإغناء . والزهري وابن محيصن وابن أبي عبيدة وحيد وابن السميع (يَعْنِيهِ) بفتح الياء والعين المهملة ، من قولهم : عناني الأمر قصدي (مسفرة) مضيفة من أسفر الصبح أضاء . (وترهقها) تغشاها (قتر) أي : غبار والأولى ما يغشاها من العبوس عند الهم ، والثانية من غبار الأرض . وقيل (غبرة) أي من تراب الأرض ، و (قتر) سواد كالدخان ، وقال زيد بن أسلم : الغبرة : ما انحطت إلى الأرض . والقتر : ما ارتفعت إلى السماء . وقرأ الجمهور (قَتْرَة) بفتح التاء وابن أبي عبيدة بإسكانها .

(١) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٢) صدر بيت من الطويل لأبي تمام ، انظر الديوان ١٩٧/٤ وعجزه .

سورة التكوير مكية وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ٧ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ ٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ١٤ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخُنُوسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ١٦ وَاللَّيْلُ إِذَا عَسْعَسَ ١٧ وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩

انكدت النجوم : انتثرت ، وقال أبو عبيدة : انصبت كما تنصب العقاب إذا كسرت ، قال العجاج يصف صقراً :

أَبْصَرَ حُرْمَاتٍ فَلَاةٍ فَاَنْكَدَرُ تَقْضَى الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ^(١)

العِشَارُ : جمع عشاء ، وهي الناقة التي مر حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع في تمام السنة ، التعطيل : التفريغ والإهمال . الوحش : حيوان البر الذي ليس في طبعه التأنس ببني آدم ، الموءدة ، البنت التي تدفن حية ، وأصله من النقل كأنها تنقل من التراب حتى تموت ، ومنه اتدد ، أي توقر وأثقل ، ولا تخف . الكشط : التقشير ، كشطت جلد الشاة : سلخته عنها ، الخُنُوسُ : جمع خانس والخنوس : الانقباض والاستخفاء ، تقول خنس بين القوم وانخس . الكُنُوسُ : جمع كناس وكانسة يقال : كنس إذا دخل الكناس وهو المكان الذي تأوي إليه الطباء . والخُنُوسُ : تأخر الأنف عن الشفة مع ارتفاع قليل من الأنبة . عَسْعَسَ : قال الفراء : عسّس الليل وعسّس إذا لم يبق منه إلا القليل . وقال الخليل : عَسْعَسَ الليل : أقبل وأدبر . قال المبرد : هو من الأضداد . وقال علقمة بن قرط :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَأَنْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

(١) البيت من مشطور الرجز انظر ديوانه ٢٨ ، المحتسب ١٥٧/١ وقد تقدم .

وقال رؤبة :

يَا هِنْدُ مَا أَسْرَعَ مَا تَعَسَّسَا مِنْ بَعْدِمَا كَانَ فَتَى قَرَعَرَعَا

التنفس : خروج النسيم من الجوف ، واستعير للصبح ومعناه امتداده حتى يصير نهراً واضحاً ، الظنين : المتهم ، فعيل بمعنى مفعول ظننت الرجل اتهمته ، والضنين : البخيل ، قال الشاعر :

أَجُودُ بِمَكْنُونِ الْحَدِيثِ وَإِنِّي بِسِرِّكَ عَنْ مَا سَأَلْتَنِي لَضَيْنُ

﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سلت ، بأيّ ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت ، فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها في غاية « الظهور » وتكويد الشمس . قال ابن عباس : إدخالها في العرش . وقال مجاهد وقتادة والحسن : ذهاب ضوءها . وقال الربيع بن خيثم : رمى بها ، ومنه كورته فتكور ، وقال أبو صالح : نكست ، وعن ابن عباس أيضاً : أظلمت ، وعن مجاهد : اضمحلت ، وقيل : غوّرت . وقيل : يلف بعضها ببعض ويرمى بها في البحر ، وقال أبو عبيدة : كورت مثل تكويد العمامة . وقال القرطبي : من كار العمامة على رأسه يكوها ، أي لاثها وجمعها فهي تكور ثم يحى ضوءها ثم يرمى بها ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ارتفاع الشمس على ابتداء أو الفاعلية ؟ (قلت :) بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كورت لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط انتهى . ومن طريقته أنه يسمي المفعول الذي لم يسم فاعله فاعلاً ولا مشاحة في الاصطلاح وليس ما ذكر من الإعراب مجعلاً على تحتمه عند النحاة بل يجوز رفع الشمس على الابتداء عند الأخفش والكوفيين ، لأنهم يميزون أن تجيء الجملة الاسمية بعد إذا نحو : إذا زيد يكرمك فأكرمه (انكدرت) عن ابن عباس : تساقطت . وعنه أيضاً تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها ، من قولهم : ماء كدر . أي : متغير . وتسير الجبال : أي عن وجه الأرض أو سيرت في الجو تسير السحاب كقوله ﴿ وهي تمرر السحاب ﴾ [النمل ٨٨] وهذا قبل نفسها وذلك في أول هول يوم القيامة . و (العشار) أنفس ما عند العرب من المال . وتعطيلها : تركها مسيية مهملة أو عن الحلب ، لاشتغالهم بأنفسهم ، أو عن أن يحمل عنها الفحول . وأطلق عليها عشاراً باعتبار ما سبق لها ذلك . قال القرطبي : وهذا على وجه المثل لأنه في القيامة لا يكون عشاء ، فالمعنى : أنه لو كان عشاء لعطلها أهلها واشتغلوا بأنفسهم . وقيل : إذا قاموا من القبور شاهدوا الوحوش والدواب محشورة وعشارهم فيها التي كانت كرائم أموالهم لم يعبؤوا بها لشغلهم بأنفسهم ، وقيل : العشار : السحاب ، وتعطيلها من الماء فلا تمطر ، والعرب تسمي السحاب بالحامل : وقيل : العشار : الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : العشار : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع وقرأ الجمهور (عطلت) بتشديد الطاء . ومضر عن اليزيدي بتخفيفها ، كذا في كتاب ابن خالويه ، وفي كتاب اللوامح عن ابن كثير ، قال : في اللوامح : وقيل : هو وهم إنما هو عطلت بفتحيتين بمعنى تعطلت ، لأن التشديد فيه التعدي يقال منه عطلت الشيء وأعطلته فعطل بنفسه ، وعطلت المرأة فهي عاطل إذا لم يكن عليها الحلي فلعل هذه القراءة عن ابن كثير لغة استوى فيها فعلت وأفعلت - والله أعلم - . انتهى . وقال امرؤ القيس :

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّيْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعْطَلٍ^(١)

(حشرت) أي جمعت من كل ناحية . فقال ابن عباس : جمعت بالموت فلا تبعث ولا يحضر في القيامة غير الثقلين . وعنه وعن قتادة وجماعة : يحشر كل شيء حتى الذباب . وعنه : تحشر الوحوش حتى يقتص من بعضها البعض ثم يقتص للجهنم من القرناء ثم يقال لها موتي فتموت . وقيل : إذا قضى بينها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس ونحوه . وقال أبي : في الدنيا في أول الهول تفر في الأرض وتجتمع إلى بني آدم تأنساً بهم . وقرأ الجمهور (حُشِرَتْ) بخف الشين والحسن وعمرو بن ميمون بشدها . (وإذا البحار سُجِّرَتْ) تقدم أقوال العلماء في سجر البحر في الطور ﴿والبحر المسجور﴾ [الطور ٦] وفي كتاب لغات القراءات : سُجِّرَتْ جمعت بلغة خثعم . وقال هنا ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى ملكت وقيد اضطرابها حتى لا تخرج على الأرض من الهول فتكون اللفظة مأخوذة من ساجور الكلب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يخف الجيم وباقي السبعة بشدها . قال ابن عطية : وذهب قوم إلى أن هذه الأشياء المذكورة استعارات في كل ابن آدم وأحواله عند الموت فالشمس نفسه والنجوم عيناه وحواسه وهذا قول ذاهب إلى أن هذه إثبات الرموز في كتاب الله تعالى . انتهى . وهذا مذهب الباطنية ومذاهب من ينتمي إلى الإسلام من غلاة الصوفية . وقد أشرنا إليهم في خطبة هذا الكتاب وإنما هؤلاء زنادقة تستروا بالانتماء إلى ملة الإسلام وكتاب الله جاء بلسان عربي مبين لا رمز فيه ولا لغز ولا باطن ولا إيماء لشيء مما تنتحله الفلاسفة ولا أهل الطبائع . ولقد ضمن تفسيره أبو عبد الله الرازي المعروف بابن خطيب الري أشياء مما قاله الحكماء عنده وأصحاب النجوم وأصحاب الهيئة وذلك كله بمعزل عن تفسير كتاب الله عز وجل ، وكذلك ما ذكره صاحب التحرير والتحجير في آخر ما يفسره من الآيات من كلام من ينتمي إلى الصوف ويسمونها الحقائق وفيها ما لا يحل كتابته فضلاً عن أن يعتقد نسأل الله تعالى السلامة في ديننا وعقائدنا وما به قوام ديننا ودنيا . (وإذا النفوس زوجت) أي : المؤمن مع المؤمن ، والكافر مع الكافر كقوله ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ [الواقعة ٧] قاله عمر وابن عباس ، أو نفوس المؤمنين بأزواجهم من الحور العين وغيرهن . قاله مقاتل بن سليمان ، أو الأزواج الأجساد ، قاله عكرمة والضحاك والشعبي . وقرأ عاصم في رواية (زُوجَتْ) على فُوعَلَتْ ، والمفاعلة تكون بين اثنين والجمهور بسوا مشددة . وقال الزمخشري : وأديشد مقلوب من يؤود إذ أثقل قال الله تعالى ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة ٢٥٥] لأنه اثنان بالتراب . انتهى . ولا يدعى في وأد أنه مقلوب من آد لأن كلا منهما كامل التصرف في الماضي والأمر والمضارع والمصدر اسم الفاعل واسم المفعول وليس فيه شيء من مسوغات ادعاء القلب ، والذي يعلم به الأصالة من القلب أن يكون أحد النظمين فيه حكم يشهد له بالأصالة والآخر ليس كذلك أو كونه مجرداً من حروف الزيادة والآخر فيه مزيداً ، وكونه أكثر تصرفاً والآخر ليس كذلك ، أو أكثر استعمالاً من الآخر وهذا على ما قرروا أحكم في علم التصريف . فالأول كـ (يُس) وأيس ، والثاني كـ (طَأْمَنَ) و (طَمَأَنَّ) ، والثالث كشوايع وشواع ، والرابع كلعمرى ورعملي . وقرأ الجمهور (المؤدَّة) بهمزة بين الواوين اسم مفعول . وقرأ البزي في رواية (المؤودة) بهمزة مضمومة على الواو ، فاحتمل أن يكون الأصل المؤودة فحذف إحدى الواوين على الخلاف الذي فيه المحذوف ، واو المد أو الواو التي هي عين نحو مقوول حيث قالوا مقول . وقرئ (المؤودة) بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة ، أعني التسهيل بالحذف ونقل حركتها إلى الواو ، وقرأ الأعمش (المؤدة) بسكون الواو على وزن الفُعْلة ، وكذا وقف حمزة بن مجاهد ، ونقل القراء أن حمزة يقف عليها كالمؤودة لأجل الخط ، لأنها رسمت كذلك والرسم سنة متبعة . وقرأ الجمهور (سُئِلَتْ) مبنياً للمفعول ، (بأي ذنب قتلت) كذلك وخف الياء وبتاء التأنيث فيها ، وهذا السؤال هو لتوبيخ الفاعلين للوآد ، سؤاها يؤول إلى سؤال

الفاعلين وجاء (قُتِلَتْ) بناء على أن الكلام إخبار عنها ، ولو حكى ما خوطبت به حين سئلت لقليل قتلت . وقرأ الحسن والأعرج (سئلت) بكسر السين وذلك على لغة من قال سأل بغير همز . وقرأ أبو جعفر بشد الياء ، لأن الموءودة اسم جنس فناسب التكثير باعتبار الأشخاص . وقرأ ابن مسعود وعلي وابن عباس وجابر بن زيد وأبو الضحى ومجاهد (سَأَلْتُ) مبنياً للفاعل (قُتِلْتُ) بسكون اللام وضم التاء حكاية لكلامها حين سئلت ، وعن أبيّ وابن مسعود أيضاً والربيع بن خيثم وابن يعمر (سألت) مبنياً للفاعل (بأي ذنب قتلت) مبنياً للمفعول بناء التأنيث فيها إخباراً عنها ولو حكى كلامها لكان قتلت بضم التاء ، وكان العرب إذا ولد لأحدهم بنت واستحياها ألبسها جبة من صوف أو شعر وتركها ترعى الإبل والغنم ، وإذا أراد قتلها تركها حتى إذا صارت سداسية قال لأمها طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أمائها ، وقد حفر حفرة أو بئراً في الصحراء فيذهب بها إليها ويقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوي بالأرض . وقيل : كانت الحامل إذا قرب وضعها حفرت حفرة فتمخضت على رأسها فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته . وقد افتخر الفرزدق وهو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بجده صعصعة إذ كان منع وأد البنات ، فقال :

وَمِنَّا الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ فَأَحْيَا الْوَيْدَ وَلَمْ يُوَيْدِ^(١)

(وإذا الصحف نشرت) صحف الأعمال كانت مطوية على الأعمال فنشرت يوم القيامة . ليقرأ كل إنسان كتابه . وقيل : الصحف التي تتطاير بالآيمان والشهائل بالجزاء وهي صحف غير صحف الأعمال ، وقرأ أبو رجاء وقتادة والحسن والأعرج وشيبة وأبو جعفر ونافع وابن عامر وعاصم (نُشِرَتْ) بخف الشين ، وباقي السبعة بشدّها ، وكشط السماء : طيها كطي السجل ، وقيل : أزيلت كما يكشط الجلد عن الذبيحة ، وقرأ عبد الله (قُشِطَتْ) بالقاف وهما كثيراً ما يتعاقبان كقولهم : عربي قح وكح . وتقدّمت قراءته قافوراً أي كافوراً ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص سرعت بشد العين . وباقي السبعة بخفها وهي قراءة عليّ ، قال قتادة : سحرها غضب الله تعالى وذنوب بني آدم وجواب (إذا) وما عطف عليه (علمت نفس ما أحضرت) ونفس : تعم في الإثبات من حيث المعنى ما أحضرت من خير تدخل به الجنة أو من شر تدخل به النار . وقال ابن عطية : ووقع الأفراد لينبه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه . انتهى . وقرئت هذه السورة عند عبد الله فلما فبلغ القاريء (علمت نفس ما أحضرت) قال عبد الله : وا انقطاع ظهراه . (بالخنس) قال الجمهور : الدراري السبعة ، الشمس والقمر ، وزحل ، وعطارد ، والمريخ ، والزهرة ، والمشتري وقال علي : الخمسة دون الشمس والقمر تجري الخمسة من الشمس والقمر وترجع حتى تخفى مع ضوء الشمس قاله الزمخشري . وقال ابن عطية : تخنس في جريها التي يتعهد فيما ترى العين وهي جوار في السماء وهي تكنس في أبراجها ، أي تستتر . وقال علي أيضاً والحسن وقتادة : هي النجوم كلها ، لأنها تخنس وتكنس بالنهار حين تختفي . وقال الزمخشري : أي تخنس بالنهار وتكنس بالليل أي تطلع في أماكنها كالوحش في كنسها . انتهى . وقال عبد الله والنخعي وجابر بن زيد وجماعة : المراد بالخنس الجوار الكنس بقر الوحش ، لأنها تفعل هذه الأفعال في كنائسها . وقال ابن عباس وابن جبير والضحاك : هي الظباء والخنس من صفة الأنوق لأنها يلزمها الخنس وكذا بقر الوحش (عَسَسَ) بلغة قريش ، وقال الحسن : أقبل ظلامه ويرجع مقابلته بقوله (والصبح إذا تنفس) فهما حالتان . وقال المبرد : أقسم بإقباله وإدباره وتنفسه كونه يجيء معه روح ونسيم فكأنه نفس له على المجاز ، (إنه) أي إن هذا المقسم عليه أي إن القرآن (لقول رسول كريم) الجمهور على أنه جبريل - عليه السلام - وقيل : محمد - ﷺ - و (كريم) صفة تقتضي نفي المذام كلها وإثبات صفات المدح اللائقة به . (ذي قوة) كقوله ﴿ شديد

(١) انظر البيت في اللسان (وأد) .

القوى ﴿ [النجم ٥] ﴾ (عند ذي) الكينونة اللاتقة من شرف المنزلة وعظم المكانة . وقيل : العرش متعلق بـ (مكن مطاع) (ثم) إشارة إلى (عند ذي العرش) أي : أنه مطاع في ملائكة الله المقربين يصدرودن عن أمره . وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة وأبو البرهسم وابن مقسم (ثم) بضم الشاء حرب عطف . والجمهور (ثم) بفتحها ظرف مكان للبعيد ، وقال الزمخشري : (وقرىء) (ثم) تعظيماً للأمانة وبياناً ، لأنها أفضل صفاته المعدودة . انتهى . وقال صاحب اللوامح : بمعنى مطاع وأمين وإنما صارت (ثم) بمعنى الواو بعد أن مواضعها للمهلة والتراخي عطفاً ، وذلك لأن جبريل - عليه السلام - كان بالصفين معاً في حال واحدة فلو ذهب ذاهب إلى الترتيب والمهلة في هذا العطف بمعنى مطاع في الملاء الأعلى ثم أمين عند انفصاله عنهم حال وحيه على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لجاز أن لوورد به أثر انتهى . (أمين) مقبول القول يصدق فيها يقول مؤتمن على ما يرسل به من وحي وامثال أمره . (وما صاحبكم بمجنون) نفى عنه ما كانوا ينسبونوه إليه ويبهتونه به من الجنون (ولقد رآه) أي رأى الرسول - ﷺ - جبريل - عليه السلام - وهذه الرؤية بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض في صورته له ستائة جناح . وقيل : هي الرؤية التي رآه فيها ﴿عند سدره المنتهى﴾ [النجم ١٤] وسمى ذلك الموضع أفقاً مجازاً ، وقد كانت له - عليه السلام - رؤية ثانية بالمدينة وليست هذه . ووصف الأفق بالمبين لأنه روى أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، قاله قتادة وسفيان وأيضاً أفق في غاية البيان ، وقيل : في أفق السماء الغربي ، حكاة ابن شجرة ، وقال مجاهد : رآه نحو جباد وهو مشرق مكة . وقرأ عبد الله وابن عباس وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وعائشة وعمر بن عبد العزيز وابن جبير وعروة وهشام بن جندب ومجاهد وغيرهم . ومن السبعة النحويان وابن كثير (بظنين بالطاء ، أي بمتهم ، وهذا نظير الوصف السابق بـ (أمين) ، وقيل : معناه بضعيف القوة على التبليغ من قولهم بثر ظنون إذا كانت قليلة الماء ، وكذا هو بالطاء في مصحف عبد الله . وقرأ عثمان وابن عباس أيضاً والحسن وأبو رجاء والأعرج وأبو جعفر وشيبة وجماعة غيرهم وباقي السبعة بالضاد ، أي ببخيل يشح به لا يبلغ ما قيل له وينحل كما يفعل الكاهن حتى يعطي حلوانه . قال الطبري : وبالضاد خطوط المصاحف كلها . (وما هو بقول شيطان رجيم) أي الذي يترأى له إنما هو ملك لا مثل الذي يترأى للكهان ، ﴿فأين تذهبون﴾ استضلال لهم حيث نسبوه مرة إلى الجنون ، ومرة إلى الكهانة ، ومرة إلى غير ذلك مما هو بريء منه . وقال الزمخشري : كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في بنات الطريق أين تذهب مثلث حالهم بحاله في تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل . انتهى . ذكر (تذكرة) وعظة (لمن شاء) بدل من (للعالمين) ثم عذق مشيئة العبيد بمشيئة الله تعالى ، قال ابن عطية : ثم خصص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر ، تشريفاً وتنبهاً وذكراً لتلبسهم بأفعال الاستقامة . ثم بين تعالى أن تكسب العبد على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء . انتهى . وقال الزمخشري : وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شأوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعاً ، (وما تشاءون) الاستقامة يا من يشأوها . إلا بتوفيق الله تعالى ولطفه وما تشأونها أنتم يا من لا يشأونها إلا بقسر الله وإلجائه ، انتهى ففسر كل من ابن عطية والزمخشري المشيئة على مذهبه . وقال الحسن : ما شاءت العرب الإسلام حتى شاء الله لها .

سورة الانفطار مكية وهي تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ
مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ
صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ
لِلَّهِ ﴿١٩﴾

بعثت المتاع قلبته ظهر البطن وبعثت الحوض وبعثته هدمته وجعلت أعلاه أسفله ﴿١﴾ إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك ، كلا بل تكذبون بالذين وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ، إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين ، وما أدرأك ما يوم الدين ، ثم ما أدراك ما يوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴿١٩﴾ هذه السورة مكية ، وانفطارها تقدم الكلام فيه ، وانتثار الكواكب ، سقوطها من مواضعها كالنظام . وقرأ الجمهور (فُجِّرَتْ) بتشديد الجيم ، ومجاهد والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري بخفها ، وتفجيرها ، من امتلائها فتفجر من أعلاها وتفيض على ما يليها ، أو من أسفلها فيذهب الله ماءها حيث أراد ، وعن مجاهد (فُجِّرَتْ) مبنياً للفاعل مخففاً بمعنى بغت لزوال البرزخ نظراً إلى قوله تعالى ﴿ لا يغيان ﴾ [الرحمن ٢٠] لأن البغي والفجور متقابلان (بعثت) قال ابن عباس بحثت ، وقال السدي : أثرت لبعث الأموات . وقال الفراء : أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة . وقال الزمخشري : بعث وبعث بمعنى واحد وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما والمعنى بحثت وأخرج موتاهما . وقيل : البراءة المبعثرة ، لأنها بعثت أسرار المنافقين . انتهى . فظاهر قوله : انها مركبان أن مادتهما ما ذكر ، وأن الرء ضمت إلى هذه المادة ، والأمر ليس كما يقتضيه كلامه ، لأن الرء ليست من حروف الزيادة بل هما مادتان مختلفتان وإن اتفقا من حيث المعنى ، وأما أن إحداها مركبة من كذا فلا ونظيره قولهم دمث ودمث وسبط وسبطر ، (ما قدمت وأخرت) تقدم الكلام على شبهه في سورة القيامة . وقرأ الجمهور (ما غرك) ف (ما) استفهامية ، وقرأ ابن جبر والأعمش (ما أغرك)

بهمة فاحتمل أن يكون تعجباً واحتمل أن تكون ما استفهامية ، وأعرك : بمعنى : أدخلك في الغرة ، وقال الزمخشري : من قولك غر الرجل فهو غار إذا غفل من قولك بينهم العدو وهم غارون وأغره غيره جعله غاراً . انتهى . وروي أنه - عليه الصلاة والسلام - قرأ ما غرك بربك الكريم ، فقال : جهلة وقاله عمر رضي الله تعالى عنه . وقرأ ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب ٧٢] وهذا يترتب في الكافر والعاصي . وقال قتادة : عدوه المسلط عليه . وقيل : ستر الله عليه ، وقيل : كرم الله ولطفه يلحق هذا الجواب فهذا لطف بالعاصي المؤمن . وقيل : عفوه عنه إن لم يعاقبه أول مرة . وقال الفضيل رضي الله عنه : يستره المرخي . وقال ابن السكك :

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَجِي وَاللَّهُ فِي الْخُلُوفِ رَائِيكَ
عَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمَّهَالُهُ وَسَتَرُهُ طُولَ مَسَاوِيكَ

وقال الزمخشري : في جواب الفضيل : وهذا على سبيل الاعتراف بالخطأ بالاغترار بالستر وليس باعتذار كما يظن الطماع ويظن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم إنما قال (بربك الكريم) دون سائر صفاته ، ليلقن عبده الجواب حتى يقول غربي كونه الكريم . انتهى . وهو عادته في الطعن على أهل السنة . (فسواك) جعلك سواً في أعضائك (فعذلك) صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت وقرأ الحسن وعمر بن عبيد وطلحة والأعمش وعيسى وأبو جعفر والكوفيون بخف الدال وباقي السبعة بشدها وقراءة التخفيف إما أن تكون كقراءة التشديد ، أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت ، وإما أن يكون معناه فصرفك ، يقال : عدله عن الطريق أي عدلك عن خلقه غيرك إلى خلقه حسنة مفارقة لسائر الخلق ، أو فعذلك إلى بعض الأشكال والهيئات . والظاهر أن قوله (في أي صورة) متعلق (بربك) أي وضعك في صورة اقتضتها مشيئته من حسن ، وطول وذكورة ، وشبه ببعض الأقارب ، أو مقابل ذلك ، و (ما) زائدة و (شاء) في موضع الصفة لـ (صورة) ولم يعطف (ربك) الفاء كالذي قبله ، لأنه بيان لـ (عدلك) وكون (في أي صورة) متعلقاً (بربك) هو قول الجمهور . وقيل : يتعلق بمحذوف أي ربك حاصلاً في بعض الصور . وقال بعض المتأولين : إنه يتعلق بقوله (فعذلك) أي فعذلك في صورة أي صورة و (أي) تقتضي التعجب والتعظيم فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار وعلى هذا تكون (ما) منصوبة بـ (شاء) كأنه قال : أي تركيب حسن شاء ربك والتركيب : التأليف وجمع شيء إلى شيء . وأدغم خارجة عن نافع (ربك كلا) كأبي عمرو في إدغامه الكبير و (كلا) ردع وزجر لما دل عليه ما قبله من اغترارهم بالله تعالى ، أو لما دل عليه ما بعد (كلا) من تكذيبهم بيوم الجزاء والدين أو شريعة الإسلام ، وقرأ الجمهور (بل تكذبون) بالتاء خطاباً للكفار والحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو بشر بياء الغيبة ، (وإن عليكم لحافظين) استئناف إخبار أي عليهم من يحفظ أعمالهم ويضبطها . ويظهر أنها جملة حالية والواو واو الحال ، أي تكذبون بيوم الجزاء . والكاتبون : الحفظة يضطوبون أعمالكم لأن تجاوزوا عليها . وفي تعظيم الكنية بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء ، وقرأ الجمهور (يَصْلُونَهَا) مضارع (صَلَّى) مخففاً وابن مقسم مشدداً مبنياً للمفعول . (يعلمون ما تفعلون) فيكتبون ما تعلق به الجزاء . قال الحسن يعلمون ما ظهر دون حديث النفس . وقال سفيان : إذا هم العبد بالحسنة أو السيئة وجد الكاتبان ريجها . وقال الحسين بن الفضل : حيث قال (يعلمون) ولم يقل يكتبون دل على أنه لا يكتب الجميع فيخرج عنه السهو والخطأ وما لا تبعة فيه (وما هم عنها بغائبين) أي عن الجحيم أي لا يمكنهم الغيبة ، كقوله ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة ١٦٧] وقيل : إنهم مشاهدوها في البرزخ . لما أخبر عن صليهم يوم القيامة أخبر بانتفاء غيبتهم عنها قبل الصلي أي يرون مقاعدهم من النار . (وما أدراك) تعظيم لهول ذلك اليوم . وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو (يوم لا تملك) برفع الميم أي هو يوم وأجاز الزمخشري فيه أن يكون بدلاً مما قبله ، وقرأ محبوب عن أبي عمرو (يوم لا

تملك) على التنكير منوناً مرفوعاً فكه عن الإضافة وارتفاعه على هو يوم و (لا تملك) جملة في موضع الصفة والعائد محذوف ، أي لا تملك فيه . وقرأ زيد بن علي والحسن أبو جعفر وشيبة والأعرج وباقي السبعة (يوم) بالفتح على الظرف ، فعند البصريين هي حركة إعراب ، وعند الكوفيين يجوز أن تكون حركة بناء . وهو على التقديرين في موضع رفع خبر المحذوف ، تقديره الجزاء يوم لا تملك ، أو في موضع نصب على الظرف ، أي يدان يوم لا تملك ، أو على أنه مفعول به أي اذكر يوم لا تملك ، ويجوز على رأي من يجيز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر المبتدأ محذوف ، تقديره : هو يوم (لا تملك نفس لنفس شيئاً) عام كقوله (فالיום لا يملك بكم لبعض نفعاً ولا ضرراً) [سبأ: ٤٢] وقال مقاتل: لنفس كافرة شيئاً من المنفعة . (والأمر يومئذ لله) قال قتادة : وكذلك هو اليوم ، لكنه هناك لا يدعي أحد منازعة ولا يمكن هو أحداً مما كان ملكه في الدنيا .

سورة المطففين مكية وهي ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُنْثَى عَلَيْهِ أَيْشَانَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤْثِرُونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

التطفيف : النقصان وأصله من الطفيف ، وهو النزل الحقيق ، والمطفف : الآخذ في وزن أو كيل طفيفاً أي شيئاً حقيراً خفياً ، ران غطى وغشى كالصدإ يغشى السيف ، قال الشاعر :

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبٍ فَاجِرٍ فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي رَانَ فَانْجَلَى

وأصل الرين : الغلبة ، يقال : رانت الخمر على عقل شاربها وران الغشي على عقل المريض ، قال أبو زيد :

ثُمَّ لَمَّا رَأَاهُ رَأَتْ بِهِ الْخَمَ رُ وَأَنَّ لَا تَرِيْنُهُ بِإِنْتِقَاءٍ^(١)

(١) البيت من الخفيف انظر اللسان (رين) .

وقال أبو زيد : يقال رين بالرجل يُرَانُ به رَيْنًا إذا وقع فيما لا يستطيع منه الخروج . الرحيق : قال الخليل أجود الخمر : وقال الأخفش : والزجاج : الشراب الذي لا غش فيه ، قال حسان :

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (١)

نافس في الشيء . رغب فيه ، ونفست عليه بالشيء ، أنفس نفاسة : إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه .
التسليم : أصله الارتفاع ، ومنه تسليم القبر ، وسنام البعير وتسمنته : علوت سنامه ، الغمز الإشارة بالعين والحاجب .
ويل للمطففين ، الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين ، وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالو الجحيم ، ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴿ هذه السورة مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . مدنية في قول الحسن وعكرمة ومقاتل أيضاً . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا من (إن الذين أجمعوا) [المطففين : ٢٩] إلى آخرها فهو مكي ، ثمان آيات ، وقال السدي : كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيلان يأخذ بالأوفى ويعطي بالانقص فنزلت . ويقال إنها أول سورة أنزلت بالمدينة . وقال ابن عباس : نزل بعضها بمكة ونزل أمر التطفيف بالمدينة ، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله بهذه السورة . وقيل : نزلت بين مكة والمدينة ، ليصلح الله تعالى أمرهم قبل ورود رسوله ﷺ - والمناسبة بين السورتين ظاهرة . لما ذكر تعالى السعداء والأشقياء ويوم الجزاء ، وعظم شأن يومه ذكر ما أعد لبعض العصاة وذكرهم بأخس ما يقع من المعصية وهي التطفيف الذي لا يكاد يجدي شيئاً في تثمير المال وتنميته . (إذا اکتالوا على الناس) قبضوا لهم (وإذا كالوهم) أو وزنوهم أقبضوهم . وقال الفراء (من) و (على) يعتقبان هنا اکتلت على الناس واکتلت من الناس فإذا قال اکتلت منك ، فكأنه قال استوفيت منك ، وإذا قال : اکتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك . والظاهر أن (على) متعلق بـ (اکتالوا) كما قررناه ، وقال الزمخشري : لما كان اکتيالهم من الناس اکتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل على مكان من للدلالة على ذلك . ويجوز أن يتعلق بـ (يستوفون) أي يستوفون على الناس خاصة فأما أنفسهم فيستوفون لها . انتهى . وكال ووزن مما يتعدى بحرف الجر ، فنقول : كلت لك ووزنت لك . ويجوز حذف اللام ، كقولك : نصحت لك ونصحتك ، وشكرت لك وشكرتك . والضمير ضمير نصب ، أي كالوا لهم أو وزنوا لهم ، فحذف حرف الجر ووصل الفعل بنفسه والمفعول محذوف وهو المكيل والموزون . وعن عيسى وحمة المكيل له والموزون له محذوف ، و (هم) ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع الذي هو الواو ، وقال الزمخشري : ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعاً للمطففين ، لأن الكلام يخرج به إلى نظم فاسد وذلك أن المعنى إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا أعطوهم أخسروا ، وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر ، لأن الحديث واقع في الفعل لا في المباشر انتهى . ولا تنافر فيه بوجه ، ولا فرق بين أن يؤكد الضمير وأن لا يؤكد ، والحديث واقع في الفعل غاية ما في هذا أن متعلق الاستيفاء وهو (على الناس) مذكور وهو في (كالوهم) أو وزنوهم محذوف للعلم به ، لأنه معلوم أنهم لا يخسرون الكيل والميزان إذا كان لأنفسهم إنما يخسرون ذلك لغيرهم . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) هلاً قيل : أو اتزنوا ، كما قيل (أو وزنوهم) (قلت :) كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء

والسرقة ، لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين جميعاً يخسرون ينقصون . انتهى . و (يخسرون) معدى بالهمزة يقال خسر الرجل وأخسره غيره . (ألا يظن) توقيف على أمر القيامة وإنكار عليهم في فعلهم ذلك ، أي (ليوم عظيم) وهو يوم القيامة ، و (يوم) ظرف العامل فيه مقدر أي يبعثون (يوم يقوم الناس) ويجوز أن يعمل فيه (مبعوثون) ويكون معنى (ليوم) أي لحساب يوم . وقال الفراء : هو بدل من (يوم عظيم) لكنه بنى . وقرئ (يوم يقوم) بالجر وهو بدل من (ليوم) حكاه أبو معاذ ، وقرأ زيد بن علي (يوم) بالرفع أي ذلك يوم و (يظن) بمعنى يوقن أو هو على وضعه من الترجيح ، وفي هذا الإنكار والتعجيب ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس لله خاضعين ووصفه برب العالمين دليل على عظم هذا الذنب وهو التطفيف . (كلا) ردع لما كانوا عليه من التطفيف ، وهذا القيام تختلف الناس فيه بحسب أحوالهم ، وفي هذا القيام الجاهل العرق للناس وأحوالهم فيه مختلفة ، كما ورد في الحديث . و (الفجار) الكفار ، وكتابهم هو الذي فيه تحصيل أعمالهم . و (سجين) قال الجمهور : فعيل من السجن كسكير ، أو في موضع ساجن فجاء بناء مبالغة و (سجين) على هذا صفة لموضع المحذوف . قال ابن مقبل :

وَرُقْفَةٍ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ ضَاحِيَةً ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الْأَبْطَالُ سَجِينًا^(١)

وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما (سجين) أصفة هو أم اسم ؟ (قلت :) بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم ، وهو منصرف ، لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف . انتهى . وكان قد قدم أنه كتاب جامع وهو ديوان الشر دُونَ الله فيه أعمال الشياطين ، وأعمال الكفرة ، والفسقة من الجن والإنس ، وهو (كتاب مرقوم) مسطور بين الكتابة ، أو معلم يعلم من رآه لا أنه لا خير فيه . والمعنى : أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان انتهى . واختلفوا في (سجين) إذا كان مكاناً اختلافاً مضطرباً حذفنا ذكره ، والظاهر : أن (سجيناً) هو كتاب ولذلك أبدل منه (كتاب مرقوم) وقال عكرمة سجين : عبارة عن الخسار والهوان ، كما تقول : بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الجمود ، وقال بعض اللغويين : (سجين) نونه بدل من لام وهو من السجيل . فتلخص من أقوالهم ، أن (سجين) نونه أصلية أو بدل من لام وإذا كانت أصلية فاشتقاقه من السجن ، وقيل : هو مكان فيكون (كتاب مرقوم) خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو كتاب وعني بالضمير عوده على (كتاب الفجار) أو على (سجين) على حذف ، أي هو محل كتاب مرقوم و (كتاب مرقوم) تفسير له على جهة البدل أو خبر مبتدأ والضمير المقدر الذي هو عائذ على (سجين) أو كناية عن الخسار والهوان هل هو صفة أو علم . (وما أدراك ما سجين) أي ليس ذلك مما كنت تعلم (مرقوم) أي مثبت كالرقم لا يبلى ولا يمحي ، قال قتادة : رقم لهم بشر لا يزداد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد ، وقال ابن عباس والضحاك (مرقوم) مختم بلغة حمير وأصل الرقم الكتابة . ومنه قول الشاعر :

سَأَرَقُمُ فِي الْمَاءِ الْقَرَّاحَ إِيَّيْكُمْ عَلَى بُعْدِكُمْ إِنْ كَانَ لِلْمَاءِ رَاقِمٌ^(٢)

وتبين من الإعراب السابق أن (كتاب مرقوم) بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، وكان ابن عطية قد قال : إن (سجيناً) موضع ساجن على قول الجمهور ، وعبارة عن الخسار على قول عكرمة ، ثم قال (كتاب مرقوم) من قال بالقول الأول في (سجين) فـ (كتاب) مرتفع عنده على خبر (إن) والظرف الذي هو (لفي سجين) ملغى ومن قال في (سجين) بالقول الثاني فـ (كتاب مرقوم) على خبر ابتداء مضمّر التقدير ، هو كتاب مرقوم ويكون هذا الكتاب مفسر السجين ما هو انتهى .

(١) انظر البيت في اللسان (سجن) .

(٢) البيت من الكامل لم ينتد لقائله ، انظر اللسان (رقم) فتح القدير (٥ / ٤٠٠) .

فقلوه : والظرف الذي هو (لفي سجين) ملغى قول لا يصح ، لأن اللام التي في (لفي سجين) داخلة على الخبر وإذا كانت داخلة على الخبر فلا إلغاء في الجار والمجرور ، بل هو الخبر ، ولا جائز أن تكون هذه اللام دخلت في (لفي سجين) على فضلة هي معمولة للخبر أو لصفة الخبر فيكون الجار والمجرور ملغى لا خبراً لأن (كتاب) موصوف بـ (مرقوم) فلا يعمل ، ولأن مرقوماً الذي هو صفة لـ (كتاب) لا يجوز أن تدخل اللام في معموله ، ولا يجوز أن يتقدم معموله على الموصوف ، فتعين بهذا أن قوله (لفي سجين) هو خبر (إن) ، (الذين يكذبون) صفة ذم كل معتمد متجاوز الحد (أثيم) صفة مبالغة ، وقرأ الجمهور (إذا) والحسن (أئذا) بهمزة الاستفهام ، والجمهور (تتلى) بقاء التأنيث وأبوحية وابن مقسم بالياء ، قيل : ونزلت في النضر بن الحارث . (بل ران) قرىء بإدغام اللام في الراء وبالإظهار . وقف حمزة على (بل) وقفاً خفيفاً يسيراً لتبيين الإظهار . وقال أبو جعفر بن الباذش : وأجمعوا يعني القراء على إدغام اللام في الراء إلا ما كان من سكت حفص على (بل) ثم يقول (ران) وهذا الذي ذكره ليس كما ذكر من الإجماع ، ففي كتاب اللوامح عن قالون من جميع طرقه إظهار اللام عند الراء نحو قوله ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ [النساء ٥٨] ﴿ بل ربكم ﴾ [الأنبياء ٥٦] وفي كتاب ابن عطية : وقرأ نافع (بل ران) غير مدغم وفيه أيضاً وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة ، وقال سيبويه : اللام مع الراء نحو أسفل رحمه البيان والإدغام حسنان . وقال الزمخشري : وقرىء بإدغام اللام في الراء وبالإظهار ، والإدغام أجود وأمليت الألف وفخمت . انتهى . وقال سيبويه : فإذا كانت يعني اللام غير لام المعرفة ، نحو لام هل وبل فإن أدغم في بعضها أحسن ، وذلك نحو : هل رأيت فإن لم تدغم فقلت هل رأيت فهي لغة لأهل الحجاز ، وهي غريبة جائزة ، انتهى . وقال الحسن والسدي : هو الذنب على الذنب . وقال الحسن : حتى يموت قلبه . وقال السدي : حتى يسود القلب . وفي الحديث نحو من هذا . فقال الكلبي : طبع على قلوبهم . وقال ابن سلام : غطى . (ما كانوا يكسبون) قال ابن عطية : وعلق اللوم بهم فيما كسبوه وإن كان ذلك بخلق منه تعالى واختراع لأن الثواب والعقاب متعلقان بكسب العبد . والضمير في قوله (إنهم) للكفار ، فمن قال بالرؤية وهو قول أهل السنة قال إن هؤلاء لا يرون ربهم فهم محجوبون منه ، واحتج بهذه الآية مالك على سبيله الرؤية من جهة دليل الخطاب وإلا فلو حجب الكل لما أغنى هذا التخصيص . وقال الشافعي : لما حجب قوماً بالسخط دل على أن قوماً يرونه بالرضا ، ومن قال بأن لا رؤية وهو قول المعتزلة قال إنهم محجوبون عن ربهم وغفرانه . انتهى . وقال أنس بن مالك : لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه ، وقال الزمخشري : (كلا) ردع عن الكسب الرائن (على قلوبهم) وكونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأعداء المهانون عندهم ، قال الشاعر :

إِذَا اغْتَرَوْا بِأَبِ ذِي عَيْبَةٍ رَحَبُوا وَالنَّاسُ مَا بَيْنَ مَرْحُوبٍ وَمَحْجُوبٍ

وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة : محجوبين عن رحمته ، وعن ابن كيسان : عن كرامته . انتهى . وعن مجاهد : المعنى محجوبون عن كرامته ورحمته . (وعن ربهم) متعلق بـ (محجوبون) وهو العامل في (يومئذ) والتنوين تنوين العوض من الجملة المحذوفة ولم تتقدم جملة قريبة يكون عوضاً منها لكنه تقدم (يقوم الناس لرب العالمين) فهو عوض من هذه الجملة ، كأنه قيل : يوم إذ يقوم الناس ثم هم مع الحجاب عن الله هم صالو النار وهذه ثمرة الحجاب . (ثم يقال) أي تقول لهم خزنة النار (هذا) أي العذاب وصلي النار وهذا اليوم (الذي كنتم به تكذبون) قال ابن عطية : (هذا الذي) يعني الجملة مفعول لم يسم فاعله لأنه قول بني له الفعل الذي هو يقال . انتهى . وتقدم الكلام على نحو هذا في أول البقرة في قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴾ [البقرة ١١] قوله عز وجل ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ، إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة

النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عينا يشرب بها المقربون ، إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴿ لما ذكر تعالى أمر كتاب الفجار عقبه بذكر كتاب ضدهم ، ليتبين الفرق (عليون) جمع واحده (عليّ) مشتق من العلو ، وهو المبالغة . قاله يونس وابن جني . قال أبو الفتح : وسيله أن يقال عليّة كما قالوا للغرفة عليّة ، فلما حذفت التاء عوضوا منها الجمع بالواو والنون . وقيل : هو وصف للملائكة ، فلذلك جمع بالواو والنون ، وقال الفراء : هو اسم موضوع على صفة الجمع ولا واحد له من لفظه كقوله عشرين وثلاثين والعرب إذا جمعت جمعاً ولم يكن له بناء من واحده ولا تثنية قالوا في المذكر والمؤنث بالواو والنون ، وقال الزجاج : أعرب هذا الاسم كإعراب الجمع : هذه قنسرون ورأيت قنسرين ، و (عليون) الملائكة ، أو المواضع العلية ، أو علم لديوان الخير الذي دون فيه كل ما علمته الملائكة وصلحاء الثقلين ، أو علو في علو مضاعف ، أقوال ثلاثة للزحشري . وقال أبو مسلم : كتاب الأبرار ، كتابة أعمالهم (لفي عليين) ثم وصف عليين بأنه (كتاب مرقوم) فيه جميع أعمال الأبرار . وإذا كان مكاناً فاختلّفوا في تعيينه اختلافاً مضطرباً رغبتنا عن ذكره وإعراب (لفي عليين) و (كتاب مرقوم) كإعراب (لفي سجين) و (كتاب مرقوم) وقال ابن عطية : و (كتاب مرقوم) في هذه الآية خبر (إن) والظرف ملغى . (انتهى) . هذا كما قال في لفي سجين وقد ردنا عليه ذلك وهذا مثله ، و (المقربون) هنا قال ابن عباس وغيره : هم الملائكة أهل كل سماء (ينظرون) قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : إلى ما أعد لهم من الكرامات : وقال مقاتل : إلى أهل النار ، وقيل : ينظر بعضهم إلى بعض . وقرأ الجمهور (تعرف) بقاء الخطاب للرسول - ﷺ - أو للنّاظر (نصرّة النعيم) نصباً ، وقرأ أبو جعفر وابن أبي إسحاق وطلحة وشيبة ويعقوب والزعفراني (تُعْرِفُ) مبنياً للمفعول (نصرّة) رفعاً ، وزيد بن عليّ كذلك إلا أنه قرأ يعرف بالياء إذ تأنيث نصرّة مجازي والنصرّة ، تقدّم شرحها في قوله ﴿ نصرّة وسروراً ﴾ [الإنسان ١١] ، (مختوم) الظاهر : أن (الرحيق) ختم عليه تهماً وتنظفاً بالرائحة المسكية كما فسره ما بعده . وقيل : تختم أوانيّه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة ، وقرأ الجمهور ختامه أي خلطه ومزاجه قاله عبد الله وعلقمة ، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن معناه : خاتمته ، أي يجد الرائحة عند خاتمة الشراب رائحة المسك . وقال أبو عليّ أي ابزازه المقطع وذكاء الرائحة مع طيب الطعم . وقيل : يمزج بالكافور ويختم مزاجه بالمسك ، وفي الصحاح : الختام : الطين الذي يختم به ، وكذا قال مجاهد وابن زيد : ختم إناءه بالمسك بدل الطين . وقال الشاعر :

كَأَنَّ مُشْعَشَعًا مِنْ خَمْرِ بَصْرَى نَمَتَهُ الْبُحْتُ مَشْدُودَ الْخَتَامِ^(١)

وقرأ عليّ والنخعي والضحاك وزيد بن عليّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة والكسائي (خاتمته) بعد الخاء ألف وفتح التاء ، وهذه بينة المعنى أنه يراد بها الطبع على الرحيق . وعن الضحاك وعيسى وأحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي : كسر التاء ، أي آخره : مثل قوله ﴿ وخاتم النبيين ﴾ [الأحزاب ٤٠] وفيه حذف ، أي خاتم رايحة المسك ، أو خاتمته الذي يختم به ويقطع (من تسنيم) . قال عبد الله وابن عباس : هو أشرف شراب الجنة ، وهو اسم مذكر لماء عين في الجنة . وقال الزحشري : (تسنيم) علم لعين بعينها ، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه . و (عينا) نصب على المدح . وقال الزجاج : على الحال . انتهى . وقال الأخفش : يسقون (عينا يشرب بها) أي : يشربها ، أو منها ، أو ضمن يشرب معنى يروى بها ، أقوال : (المقربون) قال ابن مسعود وابن عباس والحسن وأبو صالح : « يشربها المقربون

صرفاً ويمزج للأبرار . ومذهب الجمهور (الأبرار) هم أصحاب اليمين ، وأن المقرّبين هم السابقون ، وقال قوم : الأبرار والمقرّبون في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكل من نعم في الجنة ، وروي أن علياً وجعاً معه من المؤمنين مروا بجمع من كفار قريش فضحكوا منهم ، واستخفوا بهم ، عبثاً فنزلت (إن الذين أجرموا) قبل أن يصل عليّ رضي الله تعالى عنه إلى الرسول - ﷺ - وكفار مكة هؤلاء قيل : هم أبوجهل ، والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل ، والمؤمنون عمار ، وصهيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم من فقراء المؤمنين ، والظاهر : أن الضمير في (مروا) عائد على (الذين أجرموا) إذ في ذلك تناسق الضمائر لواحد . وقيل : للمؤمنين ، أي وإذا مرّ المؤمنون بالكافرين ، يتنافر الكافرون أي يشيرون بأعينهم . و (فأكهين) أي متلذذين بذكرهم وبالضحك منهم . وقرأ الجمهور فأكهين بالالف أي أصحاب فاكهة ومزح وسرور باستخفافهم بأهل الإيمان . وأبورجاء والحسن وعكرمة وأبو جعفر وحفص بغير ألف والضمير المرفوع في (رأوهم) عائد على المجرمين ، أي إذا رأوا المؤمنين نسبوهم إلى الضلال ، وهم محقون في نسبتهم إليه (وما أرسلوا) على الكفار (حافظين) وفي الإشارة إليه بأنهم ضالون إثارة للكلام بينهم ، وكأن في الآية بعض مودعة ، أي أن المؤمنين لم يرسلوا حافظين على الكفار . وهذا على القول بأن هذا منسوخ بآية السيف . وقال الزخشي : وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدّهم إياهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام وجدهم في ذلك . ولما تقدّم ذكر يوم القيامة ، قيل (فاليوم الذين آمنوا) و (اليوم) منصوب بـ (يضحكون) منهم في الآخرة و (ينظرون) حال من الضمير في (يضحكون) أي يضحكون ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والعذاب بعد العزة والنعيم . وقال كعب : لأهل الجنة كوى ينظرون منها إلى أهل النار . وقيل : سترشفاف بينهم يرون منه حالهم . (هل ثوب) أي هل جوزي ، يقال ثوبه وأثابه إذا جازاه ، ومنه قول الشاعر :

سَأَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مُثَوَّبٌ وَحَسْبُكَ أَنْ يُشْنَى عَلَيْكَ وَتُحْمَدُ^(١)

وهو استفهام بمعنى التقرير للمؤمنين ، أي هل جوزوا بها ، وقيل : (هل ثوب) متعلق بـ (ينظرون) و (ينظرون) معلق بالجملة في موضع نصب بعد إسقاط حرف الجر الذي هو إلى . وقرأ الجمهور (هل ثوب) بإظهار لام هل والنحويان وحمة وابن محيصن بإدغامها في الثاء . وفي قوله (ما كانوا) حذف ، تقديره : جزاء أو عقاب ما كانوا يفعلون .

سورة الانشقاق مكية وهي خمس وعشرين آية

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

الكدح : جهد النفس في العمل حتى يؤثر فيها من كدح جلده إذا خدشه قال ابن مقبل :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أُمُوتٌ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ^(١)

وقال آخر :

وَمَضَتْ بَشَاشَةٌ كُلِّ عَيْشٍ صَالِحٍ وَبَقِيَتْ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ^(٢)

حار : رجع ، قال الشاعر :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ يُحَوِّرُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ^(٣)

الشفق : الحمرة بعد مغيب الشمس حين تأتي صلاة العشاء الآخرة . قيل : أصله : من رقة الشيء ، يقال : شيء شفق ، أي لا يتهاسلك لرقته ، ومنه أشفق عليه رق قلبه : والشفقة : الاسم من الشفاق ، وكذلك الشفق ، قال الشاعر :

(١) البيت من الطويل لتميم بن مقبل ، انظر ديوانه ٢٤ اللسان (كدح) المحتسب ٢١٢/١ .

(٢) البيت من الكامل ذكره السمين في الدر .

(٣) البيت من الطويل للبيد ، انظر ديوانه (١٦٩) ، الهمع ١٢٢/١ .

تَهَوَّى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحُرْمِ

وَسَقَ : ضم وجمع . ومنه الوسق : الأصواع المجموعة ، وهي ستون صاعاً ، وطعام موسوق ، أي مجموع ، وإبل مستوسقة ، قال الشاعر :

إِنَّ لَنَا قَلَائِصًا حَقَائِقًا مُسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ يَجِدَنَّ سَائِقًا^(١)

أَسَقَ : قال الفراء : اتساق القمر امتلاؤه واستواؤه ليالي البدر وهو افتعال من الوسق الذي هو الجمع ، يقال : وسقته فأتسق ، ويقال : أمر فلان متسق ، أي مجتمع على الصلاح منتظم . طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ : حال بعد حال ، والطبق : ما طابق غيره ، وإطباق الثرى : ما تطابق منه ، ومنه قيل للغطاء الطبق . قال الأعرج بن حابس .

إِنِّي أَمْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَسَاقِنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقٍ^(٢)

وقال امرؤ القيس :

دِيمَةٌ هَاطِلَاءٌ فِيهَا وَطْفٌ طَبَقٌ لِلْأَرْضِ تَجْرِي وَتَذَرُ^(٣)

﴿ إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها ونخلت ، وأذنت لربها وحقت ، يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ، ويصلى سعيراً ، إنه كان في أهله مسروراً ، إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيراً ، فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقاً عن طبق فما لهم لا يؤمنون ، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون ، والله أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب أليم ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ هذه السورة مكية ، واتصالها بما قبلها ظاهر ، قال ابن عباس : انشقت تنشق : أي تنصدع بالغيام ، وقاله الفراء والزجاج . وقيل : تنشق هول يوم القيامة ، كقوله ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ [الحاقة ١٦] وقرأ الجمهور بسكون تاء (انشقت) وما بعدها وصلاً ووقفاً . وقرأ عبيد بن عقيـل عن أبي عمرو بإشمام الكسر وقفاً بعدما لم تختلف في الوصل إسكاناً ، قال صاحب اللوامح : فهذا من التغيرات التي تلحق الروي في القوافي ، وفي هذا الإشمام بيان أن هذه التاء من علامة ترتيب الفعل للإناث وليست مما تنقلب في الأسماء فصار ذلك فارقاً بين الاسم والفعل فيمن وقف على ما في الأسماء بالتاء ، وذلك لغة طيء . وقد حمل في المصاحف بعض التاءات على ذلك . انتهى . وقال ابن خالويه : (إذا السماء انشقت) بكسر التاء عبيد عن أبي عمرو ، وقال ابن عطية : وقرأ أبو عمرو (انشقت) يقف على التاء كأنه يشمها شيئاً من الجر وكذلك في أخواتها . قال أبو حاتم : سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات ، وهي لغة . انتهى . وذلك أن الفواصل قد تجري مجرى القوافي ، فكما أن هذه التاء تكسر في القوافي تكسر في الفواصل ، ومثال كسرها في القوافي قول كثير عزة :

(١) البيت من البسيط لإسحاق بن خلف ، وقيل لابن المعل ، انظر اللسان (شفق) .

(٢) البيت من الرجز للعجاج ، انظر ملحقات ديوانه ٨٤ ، اللسان (١٩٨٧) (وسق) .

(٣) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٤) البيت من الرمل انظر ديوانه ١٤٤ .

وَمَا أَنَا بِالدَّاعِي لِعِزَّةٍ بِالرَّدَى وَلَا شَامِتٍ إِنْ نَعْلُ عِزَّةً زُلَّتِ^(١)

وكذلك باقي القصيدة ، واجراء الفواصل في الوقف مجرى القوافي مهيع معروف ، كقوله تعالى ﴿ الظنوننا ﴾ [الأحزاب ١٠] و ﴿ الرسولا ﴾ [الأحزاب ٦٦] في سورة الأحزاب ، وحمل الوصف على حالة الوقف أيضاً موجود في الفواصل (وَأَذْنَتْ) أي استمعت ، وسمعت أمره ونبيه . وفي الحديث : « ما أذن الله بشيء إذنه لنبي يتغنى بالقرآن » . وقال الشاعر :

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ ، وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(٢)

وقال قنعب :

إِنْ يَا أَذْنُوا رَبِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا وَمَا هُمْ أَذْنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفْنُوا^(٣)

وقال الحجاف بن حكيم : أذنت لكم ، لما سمعت هريركم . وإذنها انقيادها لله تعالى حين أراد انشقاقها فعل المطيع إذا ورد عليه أمر المطاع أنصت وانقاد ، كقوله تعالى ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت ١١] ، (وحقت) قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير : وحق لها أن تسمع . وقال الضحاك : أطاعت وحق لها أن تطيع . وقال قتادة : وحق لها أن تفعل ذلك . وهذا الفعل مبني للمفعول والفاعل هو الله تعالى ، أي وحق الله تعالى عليها الاستماع ، ويقال ، فلان محقوق بكذا وحقيق بكذا ، والمعنى أنه لم يكن في جرم السماء ما يمنع من تأثير القدرة في انشقاقه وتفريق أجزائه وإعدامه ، قيل : ويحتمل أن يريد وحق لها أن تنشق لشدة الهول وخوف الله تعالى . وقال الزمخشري : وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ، ومعناه الإيذان بأن القادر الذات يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك . انتهى . وفي قوله : القادر الذات دسيسة الاعتزال وما أولع هذا الرجل بمذهب الاعتزال يدسه متى أمكنه في كل ما يتكلم به (وإذا الأرض مدت) ، قال مجاهد : سويت وقال الضحاك : بسطت باندكك جبالها ، ومنه الحديث تمد الأرض مد الأديم العكاظي حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه « وذلك أن الأديم إذا مد زال ما فيه من ثنٍ وانبسط فتصير الأرض إذ ذاك كما قال تعالى ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه ١٠٦ ، ١٠٧] ، (وألقت ما فيها وتحلت) قال ابن جبير والجمهور : ألقت ما في بطنها من الأموات وتحلت ممن على ظهرها من الأحياء . وقيل : تحلت مما على ظهرها من جبالها وبحارها . وقال الزجاج : ومن الكنوز . وضعف هذا بأن ذلك يكون وقت خروج الدجال وإنما تلقى يوم القيامة الموتى (وتحلت) أي عن ما كان فيها لم تتمسك منهم بشيء ، وجاء (تحلت) أي تكلفت أقصى جهدها في الخلو كما تقول : تكرم الكريم بلغ جهده في الكرم وتكلف فوق ما في طبعه . ونسبة ذلك إلى الأرض نسبة مجازية ، والله تعالى هو الذي أخرج تلك الأشياء من باطنها ، وجواب (إذا) محذوف فيما أن يقدره الذي خرج به في سورة التكوين أو الانفطار ، أو ما يدل عليه (إنك كادح) أي لاقى كل إنسان كدحه وقال الأخفش والمبرد : وهو ملاقيه إذا انشقت السماء فأنت ملاقيه . وقيل : يا أيها الإنسان على حذف الفاء تقديره فيا أيها الإنسان . وقيل : وأذنت على زيادة الواو . وعن الأخفش . إذا السماء مبتدأ خبره وإذا الأرض على زيادة الواو ، والعامل فيها على قول الأكثرين الجواب إما المحذوف الذي قدره وإما الظاهر الذي قيل إنه جواب . قال ابن عطية : وقال بعض النحويين العامل (انشقت) وأبى ذلك كثير من أئمتهم لأن (إذا) مضافة إلى (انشقت) ومن يميز ذلك تضعف عنده

(١) البيت من الطويل انظر الديوان ٥٧/١ .

(٢) البيت من البسيط لقنعب بن أم صاحب ، انظر السان (أذن) ديوان الحماسة ١٧٩/٢ .

(٣) البيت من البسيط انظر ديوان الحماسة ٧٩/٢ .

الإضافة ويقوى معنى الجزاء . انتهى . وهذا القول نحن نختاره ، وقد استدللنا على صحته فيما كتبناه ، والتقدير : وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض . وقيل : لا جواب لها إذ هي قد نصبت بـ (اذكر) نصب المفعول به ، فليست شرطاً . (وأذنت لربها) أي في إلقاء ما في بطنها وتخليها و (الإنسان) يراد به الجنس والتقسيم بعد ذلك يدل عليه . وقال مقاتل : المراد به الأسود بن عبد الأسد بن هلال المخزومي جادل أخاه أبا سلمة في أمر البعث ، فقال أبو سلمة : والذي خلقتك لتركن الطبقة ولتوافين العقبة ، فقال الأسود : فأين الأرض والسماء وما حال الناس ؟ انتهى . وكأن مقاتلاً يريد أنها نزلت في الأسود ، وهي تعم الجنس . وقيل : المراد أبي بن خلف ، كان يكذب في طلب الدنيا وإيذاء الرسول - ﷺ - والإصرار على الكفر . وأبعد من ذهب إلى أنه الرسول - ﷺ - والمعنى : إنك تكذب في إيلاغ رسالات الله تعالى وإرشاد عباده ، واحتمال الضر من الكفار فأبشر فإنك تلقى الله بهذا العمل وهو غير ضائع عنده . (إنك كاذب) أي جاهد في عملك من خير وشر (إلى ربك) أي طول حياتك إلى لقاء ربك ، وهو أجل موتك (فملاقيه) أي جزاء كدحك من ثواب وعقاب . قال ابن عطية : فالفاء على هذا عاطفة جملة الكلام على التي قبلها ، والتقدير : فأنت ملاقيه ، ولا يتعين ما قاله ، بل يصح أن يكون معطوفاً على كاذب عطف المفردات ، وقال الجمهور : الضمير في (ملاقيه) عائد على (ربك) أي فملاقي جزائه فاسم الفاعل معطوف على اسم الفاعل . (حساباً يسيراً) قالت عائشة رضي الله تعالى عنها ، يقرر ذنوبه ثم يتجاوز عنه . وقال الحسن : مجازي بالحسنة ويتجاوز عن السيئة . وفي الحديث : « من حوسب عذب » فقالت عائشة : ألم يقل الله تعالى (فسوف يحاسب حساباً يسيراً) فقال عليه الصلاة والسلام إنما ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فيهلك^(١) . (وينقلب إلى أهله) أي إلى من أعد الله له في الجنة من نساء المؤمنات ، ومن الحور العين ، أو إلى عشيرته المؤمنين فيخبرهم بخلاصه وسلامته أو إلى المؤمنين إذ هم كلهم أهل إيمان ، وقرأ زيد بن علي (وَيُقَلَّبُ) مضارع قَلَبَ مبنياً للمفعول (وراء ظهره) روي : « أن شماله تدخل من صدره حتى تخرج من راء ظهره فيأخذ كتابه بها » . قال ابن عطية : وأما من ينفذ عليه الوعيد من عصاتهم يعني عصاة المؤمنين فإنه يعطى كتابه عند خروجه من النار : وقد جوز قوم أن يعطاه أولاً قبل دخوله النار ، وهذه الآية ترد على هذا القول . انتهى . والظاهر من الآية أن الإنسان انقسم إلى هذين القسمين ولم يتعرض للعصاة الذين يدخلهم الله النار (يدعو ثوراً) يقول واثبوره ، والثبور : الهلاك وهو جامع لأنواع المكار ، وقرأ قتادة وأبو جعفر وعيسى وطلحة والأعمش وعاصم وأبو عمرو وحزمة (وَيُصَلَّى) بفتح الياء مبنياً للفاعل . وباقي السبعة وعمر بن عبد العزيز وأبو الشعثاء والحسن والأعرج بضم الياء وفتح الصاد واللام مشددة ، وأبو الأشهب وخارجة عن نافع وأبان عن عاصم وعيسى أيضاً والعنكي وجماعة عن أبي عمرو بضم الياء ساكن الصاد مخفف اللام بني للمفعول من المتعدي بالهمزة كما بني (وَيُصَلَّى) المشدد للمفعول من المتعدي بالتضعيف . (إنه كان في أهله مسروراً) أي فرحاً بطراً مرفاً ، لا يعرف الله ، ولا يفكر في عاقبته ، لقوله تعالى ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ [القصص ٧٦] بخلاف المؤمن فإنه حزين مكتئب يتفكر في الآخرة . (إنه ظن أن لن يحور) أي أن لن يرجع إلى الله ، وهذا تكذيب بالبعث . (بلى) إيجاب بعد النفي ، أي بلى ليحورن . (إن ربه كان به بصيراً) أي لا تخفى عليه أفعاله فلا بد من حوره ومجازاته (فلا أقسم بالشفق) أقسم تعالى بمخلوقاته ، تشريفاً لها وتعريضاً للاعتبار بها . و (الشفق) تقدم شرحه ، وقال أبو هريرة وعمر بن عبد العزيز وأبو حنيفة : هو البياض الذي يتلوه الحمرة ، وروى أسد بن عمرو أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا إلى قول الجمهور . وقال مجاهد والضحاك وابن أبي نجيع : إن الشفق هنا كأنه لما عطف عليه الليل قال ذلك . قال ابن عطية : وهذا قول ضعيف .

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٩٦ - ١٩٧ ، في العلم باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه (١٠٣) في الرقاق (٦٥٣٦) (٦٥٣٧) ومسلم ٢٢٠٤/ ، في الجنة باب إثبات الحساب (٢٨٧٦/٧٩) .

انتهى . وعن مجاهد : هو الشمس وعن عكرمة : ما بقي من النهار (وما وسق) ما ضم من الحيوان وغيره إذ جميع ذلك ينضم ويسكن في ظلمة الليل . وقال ابن عباس (وما وسق) أي ما غطى عليه من الظلمة . وقال مجاهد : وما ضم من خير وشر . وقال ابن جبير : وما ساق وحمل . وقال ابن بحر : وما عمل فيه . ومنه قول الشاعر :

فَيَوْمًا تَرَانَا صَالِحِينَ وَتَارَةً تَقُومُ بِنَا كَالْوَاسِقِ الْمُتَلَبِّبِ^(١)

وقال ابن الفضل : لف كل أحد إلى الله أي سكن الخلق إليه ورجع كل إلى ما رآه لقوله (لتسكنوا فيه) [القصص ٧٣] وقرأ عمرو وعبد الله وابن عباس ومجاهد والأسود وابن جبير ومسروق والشعبي وأبو العالية وابن وثاب وطلحة وعيسى والأخوان وابن كثير بقاء الخطاب وفتح الباء ، فقيل : خطاب للرسول - ﷺ - أي حالاً بعد حال من معالجة الكفار . وقال ابن عباس : ساء بعد ساء في الإساءة وقيل : عدة بالنصر ، أي لتركن أمر العرب قبلاً بعد قبيل ، وفتحاً بعد فتح ، كما كان ووجد بعد ذلك ، وقال الزمخشري : وقرء (لتركن) على خطاب الإنسان في (يا أيها الإنسان) وقال ابن مسعود : المعنى لتركن السماء في أهوال القيامة حالاً بعد حال تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتنشق ، فالتاء للتأنيث وهو إخبار عن السماء بما يحدث لها ، والضمير الفاعل عائد على السماء . وقرأ عمر وابن عباس أيضاً بالياء من أسفل وفتح الباء على ذكر الغائب ، قال ابن عباس : يعني نبيكم - ﷺ - وقيل : الضمير الغائب يعود على القمر لأنه يتغير أحوالاً من إسرار واستهلال وإبصار ، وقال الزمخشري ليركن الإنسان . وقرأ عمر وابن عباس أيضاً وأبو جعفر والحسن وابن جبير وقتادة والأعمش وباقي السبعة بقاء الخطاب وضم الياء ، أي لتركن أيها الإنسان ، وقال الزمخشري : و (لتركن) بالضم على خطاب الجنس ، لأن النداء للجنس فالمعنى لتركن الشدائد الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال ، أو يكون الأحوال من النطقة إلى الهرم كما تقول طبقة بعد طبقة ، قال نحوه عكرمة . وقيل : عن نجيء بمعنى بعد . وقيل : المعنى لتركن هذه الأحوال أمة بعد أمة . ومنه قول العباس بن عبد المطلب في رسول الله - ﷺ - :

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِسُورِكَ الْأَفْقُ
تَنْقُلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقُ^(٢)

وقال مكحول وأبو عبيدة : المعنى : لتركن سنن من قبلكم . وقال ابن زيد : المعنى : لتركن الآخرة بعد الأولى ، وقرأ عمر أيضاً (ليركن) بياء الغيبة وضم الباء ، قيل : أراد به الكفار لا بيان توبيخهم بعده ، أي يركبون حالاً بعد أخرى من المذلة والهوان في الدنيا والآخرة . وقرأ ابن مسعود وابن عباس (لتركن) بكسر التاء ، وهي لغة تميم ، قيل : والخطاب للرسول - ﷺ - وقرئ بالتاء وكسر الباء . على خطاب النفس ، و (طبق) الشيء مطابقة لأن كل حال مطابقة للأخرى في الشدة ، ويجوز أن تكون اسم جنس واحده طبقة ، وهي المرتبة من قولهم : هم على طبقات و (عن طبق) في موضع الصفة لقوله (طبقاً) أو في موضع الحال من الضمير في (لتركن) وعن مكحول : كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه . (فما لهم لا يؤمنون) تعجب من انتفاء إيمانهم وقد وضحت الدلائل (لا يسجدون) لا يتواضعون ويخضعون قاله قتادة . وقال عكرمة : لا يباشرون بجباههم المصلى . وقال محمد بن كعب : لا يصلون ، وقرأ الجمهور (يُكذَّبُونَ) مشدداً . والضحاك وابن أبي عمير وخفصاً ويفتح الياء (بما يوعون) بما يجمعون من الكفر والتكذيب ، كأنهم يجعلونه في أوعية ، وعيت العلم وأوعيت المتاع . قال نحوه ابن زيد ، وقال ابن عباس : بما تضمرون من عداوة الرسول - ﷺ -

(١) البيت من الطويل لم نهند لقائله انظر اللسان (وسق) .

(٢) البيتان من المنسرح ذكرهما السمين في الدر المصون .

والمؤمنين . وقال مجاهد : بما يكتُمون من أفعالهم . وقرأ أبو رجاء (بما يُعُون) من وعى يعي ، (إلا الذين آمنوا) أي سبق لهم في علمه أنهم يؤمنون (غير ممنون) غير مقطوع . وقال ابن عباس (ممنون) معدد عليهم محسوب منغص بالئن . وتقدم الكلام على ذلك في فصلت ، والله الموفق .

سورة البروج مكية وهي اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُمْ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

الأخذود : الخد في الأرض وهو الشق ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق ومنه .

فساحت قوائمه في أحقاقيق جردان

﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ، إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز الكبير ، إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ، هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا في تكذيب ، والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ﴾ .

هذه السورة مكية ، ومناسبتها لما قبلها ، لما ذكر أنه تعالى أعلم بما يجمعون للرسول - ﷺ - وللمؤمنين من المكر والخداع وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والصلب والحرق بالشمس واحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه ، ذكر أن هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم يعذبون بالنار ، وأن أولئك الذين اعرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم أو يجرموا ، وأن أولئك الذين عذبوا عباد الله ملعونون

فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش ملعونون . فهذه السورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذب ، (ذات البروج) قال ابن عباس والجمهور : هي المنازل التي عرفتها العرب ، وهي اثنا عشر على ما قسمته ، وهي التي تقطعها الشمس في سنة ، والقمر في ثمانية وعشرين يوماً ، وقال عكرمة والحسن ومجاهد : هي القصور ، وقال الحسن ومجاهد أيضاً : هي النجوم . وقيل : عظام الكواكب ، سميت بروجاً لظهورها . وقيل : هي أبواب السماء . وقد تقدّم ذكر البروج في سورة الحجر ، (واليوم الموعود) هو يوم القيامة ، أي الموعود به (وشاهد ومشهود) هذان منكران وينبغي حملهما على العموم لقوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكويد ١٤] وإن كان اللفظ لا يقتضيه لكن المعنى يقتضيه إذ لا يقسم بنكرة ولا يدرى من هي فإذا لوحظ فيه معنى العموم اندرج فيها المعرفة فحسن القسم وكذا ينبغي أن يحمل ما جاء من هذا النوع نكرة كقوله ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ [الطور ١ ، ٢] ولأنه إذ حمل (وكتاب مسطور) على العموم دخل فيه معنيان الكتب الإلهية كالنوراة والإنجيل والقرآن فيحسن إذ ذاك القسم به ، ولما ذكر واليوم الموعود ، وهو يوم القيامة باتفاق ، وروي ذلك عن النبي - ﷺ - ناسب أن يكون المقسم به من يشهد في ذلك اليوم ومن يشهد عليه إن كان ذلك من الشهادة ، وإن كان من الحضور فالشاهد : الخلائق الحاضرون للحساب والمشهود : اليوم كما قال تعالى ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود ١٠٣] كان موعوداً به فصار مشهوداً . وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيينهما ، وعن ابن عباس : الشاهد الله تعالى . وعن الحسن بن علي وعكرمة ، الرسول - ﷺ - . وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار : آدم - عليه السلام - وذريته وعن ابن عباس أيضاً والحسن الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي كل قول منها المشهود : يوم القيامة وعن علي وابن عباس وأبي هريرة والحسن وابن المسيب وقتادة (وشاهد) يوم الجمعة . وعن ابن المسيب : يوم التروية ، وعن علي أيضاً يوم القيامة . وعن النخعي : يوم الأضحى (ومشهود) في هذه الأقوال : يوم عرفة ، وعن ابن عمر : يوم الجمعة (ومشهود) يوم النحر . وعن جبار يوم الجمعة (ومشهود) الناس وعن محمد بن كعب : ابن آدم (ومشهود) الله تعالى . وعن ابن جبير : عكس هذا . وعن أبي مالك : عيسى (ومشهود) أمته . وعن علي : يوم عرفة (ومشهود) يوم النحر . وعن الترمذي الحكيم : الحفظة (ومشهود) عليهم الناس . وعن عبد العزيز بن يحيى : محمد - ﷺ - (ومشهود) أصحابها ، وقيل : هما يوم الاثنين ويوم الجمعة ، وقيل : الملائكة المتعاقبون وقرآن الفجر ، وقيل : النجم والليل والنهار ، وقيل : الله والملائكة وأولو العلم (ومشهود) به الوحداية . و ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران ١٩] ، وقيل : مخلوقاته تعالى (ومشهود به) وحدانيته . وقيل : هما الحجر الأسود والحجيج ، وقيل : الليالي والأيام وبنو آدم ، وقيل : الأنبياء ومحمد - ﷺ - وهذه أقوال سبعة وعشرون لكل منها متمسك ، وللصوفية أقوال غير هذه . والظاهر ما قلناه أولاً ، وجواب القسم قيل محذوف ، فقيل : لتبعثن ونحوه . وقال الزمخشري : يدل عليه (قتل أصحاب الأخدود) ، وقيل : الجواب مذكور فقيل (وإن الذين فتنوا) ، وقال المبرد : (أن بطش ربك لشديد) وقيل (قتل) وهذا نختاره وحذفت اللام ، أي لقتل ، وحسن حذفها كما حسن في قوله ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس ١ ، ٩] ثم قال (قد أفلح من زكاه) أي لقد أفلح من زكاه ، ويكون الجواب دليلاً على لعنة الله على من فعل ذلك ، وطرده من رحمة الله ، وتنبهاً لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم على أنهم ملعونون بجامع ما اشتركا فيه من تعذيب المؤمنين وإذا كان (قُتِل) جواباً للقسم ، فهي جملة خبرية ، وقيل : دعاء فيكون الجواب غيرها . وقرأ الحسن وابن مقسم بالتشديد ، والجمهور بالتخفيف . وذكر المفسرون في (أصحاب الأخدود) أقوالاً فوق العشرة ، ولكل قول منها قصة طويلة كسلنا عن كتابتها في كتابنا هذا ، ومضمناها : أن ناساً من الكفار خدوا أخدوداً في الأرض ، وسجروه ناراً ، وعرضوا المؤمنين عليها ، فمن رجع عن دينه تركوه ، ومن أصرّ على الإيمان أحرقوه و (أصحاب الأخدود) هم المحرقون للمؤمنين . وقال الربيع وأبو العالية وابن إسحاق : بعث الله على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم أو

نحو هذا ، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود : فعلى هذا يكون القتل حقيقة لا بمعنى اللعن ويكون خبراً عن ما فعله الله بكالفار والذين أرادوا أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم . وقول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دل عليه القصص الذي ذكره . وقرأ الجمهور (النار) بالجر وهو بدل اشتغال ، أو بدل كل من كل على تقدير محذوف ، أي أخدود النار ، وقرأ قوم (النار) بالرفع ، قيل : على معنى قتلهم ، ويكون أصحاب الأخدود إذ ذاك المؤمنين و (قُتِلَ) على حقيقته ، وقرأ الحسن وأبورجاء وأبو حيوه وعيسى (الوقود) بضم الواو وهو مصدر ، والجمهور بفتحها وهو ما يوقد به ، وقد حكى سيويه أنه بالفتح أيضاً مصدر كالضم . والظاهر : أن الضمير في (إذ هم) عائد على الذين يحرقون المؤمنين وكذلك في (وهم) على قول الربيع يعود على الكافرين ويكون (هم) أيضاً عائداً عليهم ، ويكون معنى (على ما يفعلون) ما يريدون من فعلهم بالمؤمنين . وقيل : أصحاب الأخدود ، محرق وتم الكلام عند قوله (ذات الوقود) ويكون المراد بقوله (وهم) قريش الذين كانوا يفتنون المؤمنين والمؤمنات و (إذ) العامل فيه (قُتِلَ) أي لعنوا وقعدوا على النار ، أو على ما يدنومنها من حافات الأخدود ، كما قال الأعشى :

تَشِبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَضْطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ^(١)

(شهود) يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، أي لم يفرط فيما أمر به ، أو شهود يوم القيامة على ما فعلوا بالمؤمنين يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم ، وقرأ الجمهور (نَقَمُوا) بفتح القاف . وزيد بن علي وأبو حيوه وابن عبلة بكسرها ، أي ما عابوا ولا أنكروا الإيمان ، كقوله ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ﴾ [المائدة ٥٩] وكقول ابن قيس الرقيات :

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا^(٢)

جعلوا ما هو في غاية الحسن قبيحاً حتى نقموا عليه كما قال الشاعر :

وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شَكْلَةٍ عَيْنَهَا كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلًا عُيُونُهَا^(٣)

وفي المنتخب : إنما قال (إلا أن يؤمنوا) لأن التعذيب إنما كان واقعاً على الإيمان في المستقبل ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى فكأنه قال إلا أن يديموا على إيمانهم . انتهى وذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به وهو كونه تعالى عزيزاً ، غالباً ، وقادراً ، يخشى عقابه ، حميداً منعماً ، يجب له الحمد على نعمته ، له ملك السموات والأرض ، وكل من فيها ، يحق عليه عبادته ، والخشوع له ، تقريراً لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي . (والله على كل شيء شهيد) وعيد لهم أي أنه علم ما فعلوا فهو يجازيهم والظاهر : أن الذين فتنوا عام في كل من ابتلى المؤمنين والمؤمنات بتعذيب أو أذى وأن لهم عذابين عذاباً لكفرهم وعذاباً لفتنتهم . وقال الزمخشري : يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصة ، وبالذين آمنوا المطروحين في الأخدود ، ومعنى فتنوهم : عذبوهم بالنار وأحرقوهم (فلهم في الآخرة عذاب جهنم) بكفرهم (ولهم عذاب الحريق) وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق ، أو لهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا . لما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم . انتهى . وينبغي أن لا يجوز هذا الذي جوزه لأن في الآية ، ثم لم يتوبوا ، وأولئك المحرقون لم ينقل لنا أن أحداً منهم تاب ، بل الظاهر أنهم لم يلعنوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر . وقال ابن عطية (ثم لم يتوبوا) يقوي أن الآيات في قريش ، لأن هذا اللفظ في قريش

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه ١٢٠ اللسان (حلق) الكشف ٥٨٤/٤ .

(٢) البيت من المنسرح انظر ديوانه (٣) البيت من الطويل انظر اللسان (مشكل) .

(٣) اللسان (نقم) .

أحكم منه في أولئك الذين قد علموا أنهم ماتوا على كفرهم ، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب وآمن . انتهى . وكذلك قوله (إن الذين آمنوا) المراد به العموم لا المطروحون في النار . والبطش الأخذ بقوة (يبدىء ويعيد) قال ابن زيد والضحاك : يبدىء الخلق بالإنشاء ويعيده بالحشر . وقال ابن عباس : عام في جميع الأشياء ، أي كل ما يبدأ وكل ما يعاد ، وقال الطبري : يبدىء العذاب ويعيده على الكفار ، ونحوه : عن ابن عباس قال : تأكلهم النار حتى يصيروا فحماً ثم يعيدهم خلقاً جديداً . وقرئ (يَبْدَأُ) من بدأ ثلاثياً ، حكاه أبو زيد . ولما ذكر شدة بطشه ذكر كونه غفوراً سائراً لذنوب عباده ، ودوداً لطيفاً بهم ، محسناً إليهم ، وهاتان صفتا فعل . والظاهر أن (الودود) مبالغة في الواد . وعن ابن عباس : المتودد إلى عباده بالمغفرة . وحكى المبرد عن القاضي إسماعيل بن إسحاق : أن (الودود) هو الذي لا ولد له ، وأنشد :

وَأَرْكَبُ فِي الرُّوعِ غُرْبَانَةً ذُلُولَ الْجَمَاعِ لِقَاحاً وَدُوداً^(١)

أي لا ولد لها تحن إليه ، وقيل : (الودود) فعول بمعنى مفعول كركوب وخلوب ، أي يوده عباده الصالحون (ذو العرش) بإضافة نفسه ، تشريفاً للعرش ، وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات . وقرأ الجمهور (ذو) بالواو ، وابن عامر في رواية (ذي) بالياء صفة لـ (ربك) ، وقال القفال (ذو العرش) ذو الملك والسلطان ، ويجوز أن يراد بالعرش : السرير العالي ، ويكون خلق سريراً في سائه في غاية العظمة بحيث لا يعرف عظمته إلا هو ومن يطلعه عليه . انتهى . وقرأ الحسن وعمر بن عبيد وابن وثاب والأعمش والمفضل عن عاصم والأخوان (المجيد) بخفض الدال صفة لـ (العرش) ومجادته : عظمه وعلوه ومقداره وحسن صورته وتركيبه ، فإنه قيل : العرش : أحسن الأجسام صورة وتركيباً . ومن قرأ (ذي العرش) بالياء جاز أن يكون (المجيد) بالخفض صفة لـ (ذي) والأحسن جعل هذه المرفوعات أخباراً عن (هو) فيكون (فعّال) خبراً ، ويجوز أن يكون (الودود ، ذو العرش) صفتين لـ (الغفور) . و (فعّال) خبر مبتدأ ، وأق بصيغة (فعال) لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، والمعنى أن كل ما تعلقت به إرادته فعله لا معترض عليه (هل أتاك حديث الجنود) تقرير لحال الكفرة ، أي قد أتاك حديثه ، وما جرى لهم مع أنبيائهم ، وما حل بهم من العقوبات ، بسبب تكذيبهم ، فكذلك يحل بقريش من العذاب مثل ما حل لهم ، و (الجنود) الجموع المعدّة للقتال (فرعون وثمود) بدل من (الجنود) وكأنه على حذف مضاف أي جنود فرعون ، واختصر ما جرى لهم إذ هم مذكورون في غير ما سورة من القرآن . وذكر ثمود ، لشهرة قصتهم في بلاد العرب ، وهي متقدمة ، وذكر فرعون ، لشهرة قصته عند أهل الكتاب وعند العرب الجاهلية أيضاً . ألا ترى إلى زهير بن أبي سلمى ، وقوله :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ تُبْعاً وَأَهْلَكَ لُقَمَانَ بَنَ عَادٍ وَعَادِيَا
وَأَهْلَكَ ذَا الْقَرْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ مَا لَوَى وَفِرْعَوْنَ جَبَّاراً طَغَى وَالنَّجَاشِيَا^(٢)

وكان فرعون من المتأخرين في الهلاك فدل بقصته وقصة ثمود على أمثالهما من قصص الأمم المكذبين وهلاكهم (بل الذين كفروا) أي من قومك (في تكذيب) حسداً لك ، لم يعتبروا بما جرى لمن قبلهم حين كذبوا أنبياءهم (والله من ورائهم محيط) أي : هو قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون وثمود ، ومن كان محاطاً به فهو محصور في غاية لا يستطيع دفعاً ، والمعنى دنو هلاكهم . ولما ذكر أنهم (في تكذيب) وأن التكذيب عنهم ، حتى صار كالوعاء لهم وكان - ﷺ - قد كذبوه

(١) البيت من المتقارب انظر اللسان (ودد) فتح القدير ٤١٣/٥ .

(٢) البيتان من الطويل انظر الديوان ١٤١ .

وكذبوا ما جاء به وهو القرآن أخبر تعالى عن الذي جاء به وكذبوا فقال (بل هو قرآن) أي : بل الذي كذبوا به قرآن (مجيد) ومجادته : شرفه على سائر الكتب بإعجازه في نظمه ، وصحة معانيه ، وإخباره بالمغيبيات ، وغير ذلك من محاسنه . وقرأ الجمهور (قرآن مجيد) موصوف وصفة . وقرأ ابن السميع (قرآن مجيد) بالإضافة قال ابن خالويه : سمعت ابن الأنباري يقول معناه : بل هو قرآن رب مجيد ، كما قال الشاعر :

وَلَكِنَّ الْغِنَى رَبُّ غَفُورٌ

معناه : ولكن الغنى غنى رب غفور . انتهى . وعلى هذا أخرجه الزمخشري ، وقال ابن عطية : وقرأ اليهاني (قرآن مجيد) على الإضافة وأن يكون الله تعالى هو المجيد انتهى . ويجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته فيكون مدلوله ومدلول التنوين ورفع مجيد واحداً ، وهذا أولى لتوافق القراءتين . وقرأ الجمهور (في لَوْح) بفتح اللام (محفوظ) بالخفض صفة لـ (اللوح) واللوح المحفوظ : هو الذي فيه جميع الأشياء . وقرأ ابن يعمر وابن السميع بضم اللام قال ابن خالويه : اللوح : الهواء ، وقال الزمخشري : يعني اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح المحفوظ من وصول الشياطين إليه . انتهى . وقرأ الأعرج وزيد بن علي وابن محيصن ونافع بخلاف عنه (محفوظ) بالرفع صفة لـ (قرآن) كما قال تعالى (وإنا له لحافظون) [الحجر ٩] أي : هو محفوظ في القلوب لا يلحقه خطأ ولا تبديل .

سورة الطارق مكية وهي سبع عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ۝ إِنْهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلَهُمْ رُؤُودًا ۝

طرق يطرق طروقاً ، أتى ليلاً ، قال امرؤ القيس :

وَمِثْلُكَ حُبْلَى قَدْ طَرَفْتُ وَمُرْضِعٍ

وأصله الضرب ، لأن الطارق يطرق الباب ، ومنه المطرقة : وهي المبيعة . واتسع فيه فكل ما جاء بليلى يسمى طارقاً ، ويقال : أطرق فلان : أمسك عن الكلام وأطرق بعينه ، رمى بهما نحو الأرض . دفع الماء يدفعه دفقاً : صبه ، وماء دافق على النسب ، ويقال دفع الله روحه إذا دعا عليه بالموت ، الترية : موضع القلادة من الصدر ، قال امرؤ القيس :

مُهْفَهْفَةٌ بَيَّضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنَجِلِ (١)

جمعها بما حولها فقال ترائبها : وقال الشاعر :

وَالزَّعْفَرَانُ عَلَى تَرَائِبِهَا شَرَقْتُ بِهِ اللَّبَّاتُ وَالنَّحْرُ (٢)

وقال أبو عبيدة : وجمع ترية تريب ، قال المثقب العبدى :

وَمِنْ ذَهَبٍ يَبِينُ عَلَى تَرِيْبٍ كَلَوْنِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي عُصُونٍ (٣)

(١) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٥) ، المعلقات للزوزني ٣٠ .

(٢) البيت من الكامل نسب لأبي بكر بن المسور الزهري انظر اللسان (ترب) ، الطبري ٤٥٣/٨ .

(٣) البيت من الوافر انظر اللسان (ترب) .

الهزل : ضدّ الجد . وقال الكميت :

تَجِدُ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ^(١)

أَمَهَلَت الرجل : انتظرتة . والمَهْل والمُهْلَة : السكينة ، ومهله أيضاً تمهلاً ، وتمهل في أمره : اتأد واستمهله انتظرتة . ويقال : مهلاً ، أي : رِفْقاً وسكوناً ، رُوِيَداً : مصدر أُرود يروُد ، مصغر تصغير الترخيم ، وأصله إرواداً ، وقيل : هو تصغير رود من قوله « يمشي على رود » ، أي : مهل ، ويستعمل مصدرأ نحو : رويد عمر ، وبالإضافة : أي إمهال عمرو ، كقوله ﴿ فضرب الرقاب ﴾ [محمد ٤] ونعتاً لمصدر ، نحو : ساروا سيراً رويداً ، وحالاً ، نحو سار القوم رويداً ، ويكون اسم فعل ، وهذا كله موضح في علم النحو ، والله تعالى أعلم .

﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب ، إن كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ، يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر والسماء ذات الرجوع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ، إنهم يكيّدون كيّداً ، وأكيد كيّداً ، فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ هذه السورة مكية ، ولما ذكر فيها قبلها تكذيب الكفار للقرآن نبه هنا على حقارة الإنسان ثم استطرده منه إلى أن هذا القرآن قول فصل جد لا هزل فيه ولا باطل يأتيه ، ثم أمر نبيه بإمهال هؤلاء الكفرة المكذبين وهي آية موادة منسوخة بآية السيف (والسماء) هي المعروفة ، قاله الجمهور ، وقيل : (السماء) هنا المطر و (الطارق) هو الآتي ليلاً ، أي يظهر بالليل ، وقيل : لأنه يطرق الجني ، أي يصكه من : طرقت الباب إذا ضربته ليفتح لك ، أتى بالطارق ، مقسماً به ، وهي صفة مشتركة بين النجم الثاقب وغيره ، ثم فسره بقوله (النجم الثاقب) إظهار الفخامة ما أقسم به لما علم فيه من عجب القدرة ، ولطيف الحكمة ، وتنبيهاً على ذلك كما قال تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة ٧٥ ، ٧٦] ، وقال ابن عطية : معنى الآية : والسماء جميع ما يطرق فيه من الأمور والمخلوقات ، ثم ذكر بعد ذلك على جهة التنبيه أجل الطارقات قدراً ، وهو النجم الثاقب ، وكأنه قال (وما أدراك ما الطارق) حتى الطارق . انتهى . فعلى هذا يكون (النجم الثاقب) بعضاً مما دل عليه (والطارق) إذ هو اسم جنس يراد به جميع الطوارق . وعلى قول غيره يراد به واحد مفسر بالنجم الثاقب و (النجم الثاقب) عند ابن عباس : الجدي . وعند ابن زيد : زحل ، وقال هو أيضاً وغيره الثريا ، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم النجم . وقال علي : نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيره من النجوم فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم رجع إلى مكانه من السماء السابعة فهو طارق حين ينزل وطارق حين يصعد . وقال الحسن : هو اسم جنس ، لأنها كلها ثواقب ، أي ظاهرة الضوء ، وقيل : المراد جنس النجوم التي يرمى بها ويرجم ، و (الثاقب) قيل : المضيء ، يقال ثقب يثقب ثقباً وثقابة : أضاء ، أي يثقب الظلام بضوئه ، وقيل : المرتفع العالي ، ولذلك قيل هو زحل ، لأنه أرقها مكاناً ، وقال الفراء : ثقب الطائر : ارتفع وعلا . وقرأ الجمهور (إن خفيفة) (كُلُّ) رفْعاً (لَمَّا) خفيفة ، فهي عند البصريين مخففة من الثقيلة و (كل) مبتدأ و (اللام) هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن الخفيفة و (ما) زائدة و (حافظ) خبر المبتدأ و (عليها) متعلق به ، وعند الكوفيين (إن) نافية و (اللام) بمعنى إلا و (ما) زائدة و (كل) و (حافظ) مبتدأ وخبر ، والترجيح بين المذهبين المذكور في علم النحو . وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وعاصم وابن عمر وحزمة وأبو عمرو ونافع بخلاف عنها

(١) عجز بيت من الطويل وصدره :

أرانا على حب الحياة وطولها

(لَمْ) مشددة ، وهي بمعنى إلا لغة مشهورة ، في هذيل وغيرهم ، تقول العرب : أقسمت عليك لَمْأَ فَعَلْتَ كَذَا أي إلا فعلت ، قاله الأخفش ، فعلى هذه القراءة يتعين أن تكون نافية ، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ وحكى هرون أنه قرىء (إِنْ) بالتشديد (كُلُّ) بالنصب . فاللام هي الداخلة في خبر (إِنْ) و (مَا) زائدة و (حافظ) خبر إن وجواب القسم هو ما دخلت عليه إن سواء كانت المخففة أو المشددة أو النافية ، لأن كلاً منها يتلقى به القسم فتلقيه بالمشددة مشهورة ، وبالمخففة ﴿ تالله إن كدت لتردين ﴾ [الصافات ٥٦] وبالنافية ﴿ ولئن زالتا نأْمُسْكُهُمَا ﴾ [فاطر ٤١] ، وقيل : جواب القسم (إنه على رجعه لقادر) وما بينها اعتراض ، والظاهر : عموم كل نفس . وقال ابن سيرين وقتادة وغيرهما : إن كل نفس مكلفة عليها حافظ يحصي أفعالها ، ويعدها للجزاء عليها ، فيكون في الآية وعيد وزاجر وما بعد ذلك يدل عليه . وقيل : حفظة من الله يذبون عنها ، ولو وكل المرء إلى نفسه لاختطفته الغير والشياطين ، وقال الكلبي والفراء : حافظ من الله يحفظها ، حتى يسلمها إلى المقادير ، وقيل : الحافظ العقل يرشده إلى مصالحه ويكفه عن مضاره ، وقيل : حافظ مهيمن ، و رقيب عليه وهو الله تعالى ، ولما ذكر أن كل نفس عليها حافظ أتبع ذلك بوصية الإنسان بالنظر في أول نشأته الأولى حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه فيعمل لذلك ولا يملئ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته و (مِمَّ خُلِقَ) استفهام و (مَنْ) متعلقة بـ (خُلِقَ) والجملة في موضع نصب بـ (فلينظر) وهي معلقة وجواب الاستفهام ما بعده وهو (خلق من ماء دافق) وهو مني الرجل والمرأة لما امتزجا في الرحم واتحدا عبر عنها بماء وهو مفرد ، و (دافق) قيل : هو بمعنى مدفوق ، وهي قراءة زيد بن علي . وعند الخليل وسيبويه هو على النسب كلابن وتامر ، أي : ذي دفق ، وعن ابن عباس بمعنى دافق لزج ، وكأنه أطلق عليه وصفه لأنه موضوع في اللغة لذلك . والدفق الصب فعله متعد . وقال ابن عطية : والدفق : دفع الماء بعضه ببعض تدفق الوادي والسيول : إذا جاء يركب بعضه بعضاً . ويصح أن يكون الماء دافقاً ، لأن بعضه يدفع بعضاً فمنه دافق ومنه مدفوق . انتهى . وركب قوله هذا على تدفق . وتدفق لازم دققته فتدقق ، نحو كسرتة فتكسر . ودفق ليس في اللغة معناه ما فسر من قوله ، والدفق : دفع الماء بعضه ببعض بل المحفوظ أنه الصب . وقرأ الجمهور (يَخْرُجُ) مبنياً للفاعل (من بين الصُّلْبِ) بضم الصاد وسكون اللام ، وابن أبي عبلة وابن مقسم مبنياً للمفعول ، وهما وأهل مكة وعيسى بضم الصاد واللام والياء يفتحهما ، قال العجاج :

فِي صُلْبٍ مِثْلِ الْعَنَانِ الْمُؤَدَّمِ^(١)

وتقدمت اللغات في (الصلب) في سورة النساء وإعرابها صالِب كما قال العباس :

تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَجِمٍ^(٢)

قال قتادة والحسن معناه : من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة وترؤبه . وقال سفيان وقتادة أيضاً : من بين صلب الرجل وترائب المرأة . وتقدم شرح الترائب في المفردات ، وقال ابن عباس : موضع القلادة ، وعن ابن جبير هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب . وقيل : ما بين المنكبين والصدر . وقيل : هي التراقي . وعن معمر : هي عصارة القلب ، ومنه يكون الولد . ونقل مكّي عن ابن عباس أن الترائب : أطراف المرء رجلاه ويداه وعيناه . قال ابن عطية :

(١) عجز بيت من الرجز انظر ديوانه (٤٠٥/١) اللسان (صلب) .

(٢) صدر بيت من المنسرح عجزه :

وفي هذه الأحوال تحكم على اللغة . انتهى . (إنه) الضمير يعود على الخالق الدال عليه (خلق) ، (على رجعه) قال ابن عباس : وقتادة : الضمير (في رجعه) عائد على الإنسان ، أي على رده حياً بعد موته أي من أنشأه أولاً قادر على بعثه يوم القيامة لا يعجزه شيء . وقال الضحاك : على رده من الكبر إلى الشباب ، وقال عكرمة ومجاهد : الضمير عائد على الماء ، أي على رد الماء في الإحليل أو في الصلب . وعلى هذا القول وقول الضحاك يكون العامل في (يوم تبلى) مضمّر تقديره اذكر وعلى قول ابن عباس وهو الأظهر ، فقال بعض النحاة العامل (ناصر) من قوله (ولا ناصر) وهذا فاسد ، لأن ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها ، وكذلك (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها على المشهور المنصور . وقال آخرون ومنهم الزخمشري : العامل (رجعه) ورد بأن فيه فصلاً بين الموصول ومتعلقه وهو من تمام الصلة ولا يجوز ، وقال الحذاق من النحاة . العامل فيه مضمّر يدل عليه المصدر تقديره : يرجعه يوم تبلى السرائر ، قال ابن عطية : وكل هذه الفرق فرت من أن يكون العامل (لقادر) لأنه يظهر من ذلك تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده ، وإذا تؤمل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون المعنى ، لقادر وذلك أنه قال (إنه على رجعه لقادر) على الإطلاق أولاً وآخرأ ، وفي كل وقت ، ثم ذكر تعالى وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب ليجمع الناس إلى حذره والخوف منه . انتهى . (تبلى) قيل : تختبر . وقيل : تعرف وتتصفح ، وتميز صالحها من فاسدها و (السرائر) ما أكتته القلوب من العقائد والنيات وما أخفته الجوارح من الأعمال والظاهر : عموم السرائر وفي الحديث « إنها التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة وكأن المذكور في الحديث هو أعظم السرائر . وسمع الحسن من ينشد :

سَيَبْقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا
سَرِيرَةٌ وَدَّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

فقال ما أغفله عما في السماء والطارق ، والبيت للأحوص . ولما كان الامتناع في الدنيا إما بقوة في الإنسان وإما بناصر خارج عن نفسه نفى عنه تعالى ما يتمتع به وأقْب (مِنْ) الدالة على العموم في نفى القوة والناصر (والسماء) أقسم ثانياً بالسماء ، وهي المظلة ، قيل : ويحتمل أن يكون السحاب . (ذات الرجع) قال ابن عباس : الرجع : السحاب فيه المطر . وقال الحسن : ترجع بالرزق كل عام . وقال ابن زيد : الرجع : مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال ومن منزلة إلى منزلة تذهب وترجع ، وقيل : الرجع : المطر . ومنه قول الهذلي :

أَبْيَضَ كَالرَّجْعِ رُسُوبٌ إِذَا مَا نَاحَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي^(١)

يصف سيفاً شبهه بماء المطر في بياضه وصفائه ، وسمي رجعاً كما سمي إرباً ، قال الشاعر :

رَبَّاءَ شَمَاءَ لَا يَأْوِي لِقُلَّتْهَا
إِلَّا السَّحَابُ وَإِلَّا الْإِرْبُ وَالسَّبَلُ^(٢)

تسمية بمصدر آب ورجع تزعم العرب أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض إذا أرادوا التفاؤل ، وسموه رجعاً وإرباً ليرجع ويؤوب . وقيل : لأن الله تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً . قالت الخنساء :

كَالرَّجْعِ فِي الْمَوْجَةِ السَّارِيَةِ

وقيل : الرجع الملائكة ، سموا بذلك ، لرجوعهم بأعمال العباد ، وقيل : السحاب والمشهور عند أهل اللغة وقول

(١) انظر اللسان (رجع) .

(٢) البيت من البسيط انظر ديوان الهذليين ٣٧/٢ . اللسان (أوب) .

الجمهور إن الرجع : هو المطر . والصدع : ما تتصدع عنه الأرض من النبات . ويناسب قول من قال : الرجع المطر ، وقال ابن زيد : ذات الانشقاق النبات ، وقال أيضاً ، ذات الحرث . وقال مجاهد : الصدع : ما في الأرض من شقاق ولصاب وخندق وتشقق بحرث وغيره ، وهي أمور فيها معتبر . وعنه أيضاً ، ذات الطرق تصدعها المشاة ، وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم يوم النشور والضمير في (إنه) قالوا عائد على القرآن . (فَصْل) أي فاصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان . وأقول : ويجوز أن يعود الضمير في (إنه) على الكلام الذي أخبر فيه ببعث الإنسان يوم القيامة وابتلاء سرائره ، أي إن ذلك القول قول جزم مطابق للواقع لا هزل فيه ، ويكون الضمير قد عاد على مذكور وهو الكلام الذي تضمن الإخبار عن البعث وليس من الأخبار التي فيها هزل بل هو جد كله . (إنهم) أي الكافرون (يكيّدون) أي في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق (وأكيّد) أي أجازيهم على كيدهم . فسمى الجزاء كيذاً على سبيل المقابلة نحو قوله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ آل [عمران ٥٤] ﴿ إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة ١٤ ، ١٥] ثم أمر رسوله - ﷺ - فقال (أمهلهم رويداً) أي انتظر عقوبتهم ، ولا تستعجل ذلك . ثم أكد أمره فقال (أمهلهم رويداً) أي إمهالاً لما كرر الأمر تأكيداً خالف بين اللفظين على أن الأول مطلق ، وهذا الثاني مقيد بقوله (رويداً) ، وقرأ ابن عباس (مَهْلُهُمْ) بفتح الميم وشدّ الهاء موافقة للفظ الأمر الأول .

سورة الأعلى مكية وهي تسع عشرة آية بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝
سَنُقَرِّثُكَ فَلَا تَنْسَى ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ
الذِّكْرِى ۝ سَيَذَكَّرُكَ مَنْ يَخْشَى ۝ وَيَنْجِنُهَا الْأَشَقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ إِنَّ
هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝

الغناء : مخفف الثاء ومشددها ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات والقماش . قال الشاعر :

كَأَنَّ طَمِيَا الْمُجِيمِ غُدُوَّةً مِّنَ السَّيْلِ وَالْأَغْدَاءُ فَلَكَ مَغْزِلُ

ورواه الفراء والأغناء على الجمع وهو غريب من حيث جمع فعال على أفعال ، الحوة : سواد يضرب إلى الخضرة ، قال ذو الرمة :

لَمَيَاءٌ فِي شَفَتَيْهَا حَوَّةٌ لَعَسُ وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَنْبُ^(١)

وقيل : خضرة عليها سواد ، والأحوى : الطبي الذي في ظهره خطان من سواد وبياض قال الشاعر :

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفِضُ الْمُرْدَ شَادِنٌ مَظَاهِرُ سَمَطِي لَوْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ^(٢)

وفي الصحاح : الحوة : سمرة . وقال الأعمش : لون يضرب إلى السواد ، وقال أيضاً : الشديد الخضرة التي تضرب إلى السواد .

﴿ سبِّح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، سنقرثك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ، ونيسرك لليسرى ، فذكر إن نفع الذكرى ، سيدكر من

(١) البيت من البسيط انظر ديوانه (٥) الصبان على الأشموني ١٢٧/٣ ، الجمع ١٢٦/٢ .

(٢) البيت من الطويل لطرفة انظر شرح المعلقات للزوزني ٦٦ .

يخشى، ويتجنبها الأشقى، الذي يصل النار الكبرى، ثم لا يموت فيها ولا يحيى، قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصل، بل تؤثر الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى ﴿ هذه السورة مكية. ولما ذكر فيها قبلها، (فلينظر الإنسان مم خلق) الطارق كأن قائلًا قال من خلقه ؟ على هذا المثل فقل (سبح اسم ربك) وأيضاً لما قال (إنه لقول فصل) الطارق قيل هو (سنقرئك) أي : ذلك القول الفصل . (سبح) نزه عن النقائص (اسم ربك) الظاهر أن التنزيه يقع على الاسم، أي نزهه عن أن يسمى به صنم أو وثن فيقال له رب أو إله وإذا كان قد أمر بتنزيهه للفظ أن يطلق على غيره فهو أبلغ وتنزيه الذات أخرى . وقيل : الاسم هنا بمعنى المسمى، وقيل : معناه نزه اسم الله عن أن تذكره إلا وأنت خاشع . وقال ابن عباس : المعنى : صلّ باسم ربك الأعلى كما تقول ابداً باسم ربك وحذف حرف الجر . وقيل : « لما نزل ﴿ سبح باسم ربك العظيم ﴾ [الحاقة ٥٢] قال رسول الله - ﷺ - اجعلوها في ركوعكم فلما نزل (سبح اسم ربك الأعلى) قال اجعلوها في سجودكم » . وكانوا يقولون في الركوع . اللهم لك ركعت ، وفي السجود : اللهم لك سجدت ، قالوا (الأعلى) يصح أن يكون صفة لـ (ربك) وأن يكون صفة لـ (اسم) فيكون منصوباً ، وهذا الوجه لا يصح أن يعرب (الذي خلق) صفة لـ (ربك) فيكون في موضع جر لأنه قد حالت بينه وبين الموصوف صفة لغيره ، لو قلت : رأيت غلام هند العاقل الحسن لم يجز بل لا بد أن تأتي بصفة هند ثم تأتي بصفة الغلام فنقول رأيت غلام هند الحسن العاقل فإن لم يجعل الذي صفة لـ (ربك) بل ترفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو تنصبه على المدح جاز أن يكون (الأعلى) صفة لـ (اسم) ، (الذي خلق) أي كل شيء (فسوى) أي لم يأت متفاوتاً بل متناسباً على إحكام وإتقان دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم ، وقرأ الجمهور (قَدَّر) بشد الدال فاحتمل أن يكون من القدر والقضاء واحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء . وقال الزمخشري : (قَدَّر) لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به انتهى . وقرأ الكسائي (قَدَّر) مخفف الدال من القدرة أو من التقدير والموازنة وهدي عام لجميع الهدايات . وقال الفراء (فهدي) وأصل اكتفى بالواحدة عن الأخرى . وقال الكلبي ومقاتل : هدى الحيوان إلى وطء الذكور للإناث . وقال مجاهد : هدى الإنسان للخير والشر والبهايم للمراتع . وقيل : هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي وهذه الأقوال محمولة على التمثيل لا على التخصيص ، والظاهر أن أحوى صفة لغناء ، قال ابن عباس : المعنى : فجعله غناء أحوى أي أسود لأن الغناء إذا قدم وأصابته الأمطار أسود وتعفن فصار أحوى . وقيل (أحوى) حال من المرعى أي أخرى المرعى أحوى أي للسواد من شدة خضرته ونضارته لكثرة ربه وحسن تأخير (أحوى) لأجل الفواصل ، قال :

وَعَيْتَ مِنَ الْوَسْمِيِّ حُوّاً تِلَاعُهُ تَبَطَّنَتْهُ بِشَيْظَمَ صَلْتَانِ

(سنقرئك فلا تنسى) ، قال الحسن وقتادة ومالك : هذا في معنى ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ [القيامة ١٦] وعده الله أن يقرئه وأخبره أنه لا ينسى ، وهذه آية للرسول - ﷺ - في أنه أمّي وحفظ الله عليه الوحي وأمنه من نسائه ، وقيل : هذا وعد باقراء السور وأمر أن لا ينسى على معنى التثبيت والتأكيد وقد علم أن النسيان ليس في قدرته فهو نهي عن إغفال التعاهد ، وأثبت الألف (في فلا تنسى) وإن كان مجزوماً بـ (لا) التي للنهي لتعديل رؤوس الآي . (إلا ما شاء الله) الظاهر أنه استثناء مقصود . قال الحسن وقتادة وغيرهما : مما قضى الله نسخه وأن ترتفع تلاوته وحكمه ، وقال ابن عباس (إلا ما شاء الله) أن ينسبك لتسن به على نحو قوله عليه الصلاة والسلام « إني لأنسى وأنسى لأسن » . وقيل : (إلا ما شاء الله) أن يغلبك النسيان عليه ثم يذكرك به بعد كما قال عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عباد بن بشر : « لقد ذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا وكذا » . وقيل : (فلا تنسى) أي فلا تترك العمل به (إلا ما شاء الله) أن تتركه بنسخه إياه فهذا في نسخ العمل . وقال الفراء وجماعة : هذا استثناء صلة في الكلام على سنة الله تعالى في الاستثناء وليس ثم شيء أبيح

استثناءه ، وأخذ الزمخشري هذا القول فقال : وقال (إلا ما شاء الله) والغرض نفي النسيان رأساً كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا ما شاء الله ولا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي . انتهى . وقول الفراء والزمخشري يجعل الاستثناء كلا استثناء ، وهذا لا ينبغي أن يكون في كلام الله تعالى ، بل ولا في كلام فصيح وكذلك القول بأن (لا) في (فلا تنسى) للنهي والألف ثابتة لأجل الفاصلة ، وهذا قول ضعيف . ومفهوم الآية في غاية الظهور وقد تعسفوا في فهمها والمعنى : أنه تعالى أخبر أنه سيقرئه وأنه لا ينسى إلا ما شاء الله فإنه ينساه إما النسخ وإما أن يسن وإما على أن يتذكر وهو - ﷺ - معصوم من النسيان فيما أمر بتبليغه فإن وقع نسيان فيكون على وجه من الوجوه الثلاثة . ومناسبة (سنقرئك) لما قبله : أنه لما أمره تعالى بالتسبيح وكان التسبيح لا يتم إلا بقراءة ما أنزل عليه من القرآن ، وكان يتذكر في نفسه مخافة أن ينسى فأزال عنه ذلك وبشره بأنه تعالى يقرئه وأنه لا ينسى استثنى (ما شاء الله) أن ينسيه لمصلحة من تلك الوجوه . (إنه يعلم الجهر) أي جهرك بالقرآن (وما يخفى) أي في نفسك من خوف التفلت وقد كفاك ذلك بكونه تكفل بإقرائك إياه وإخباره أنك لا تنسى إلا ما استثناء وتضمن ذلك إحاطة علمه بالأشياء (ونيسرك) معطوف على (سنقرئك) وما بينهما من الجملة المؤكدة اعتراض أي يوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل يعني في حفظ الوحي . وقيل : للشرعية الخفية السهلة . وقيل : يذهب بك إلى الأمور الحسنة في أمر دنياك وآخرتك من النصر وعلو المنزلة والرفعة في الجنة . ولما أخبر أنه يقرئه ويسره أمره بالتذكير إذ ثمرة الإقراء هي انتفاعه في ذاته وانتفاع من أرسل إليهم . والظاهر : أن الأمر بالتذكير مشروط بنفع الذكرى وهذا الشرط إنما جاء به توبيخاً لقريش أي (إن نفعت الذكرى) في هؤلاء الطغاة العتاة ، ومعناه استبعاد انتفاعهم بالذكرى فهو كما قال الشاعر :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي^(١)

كما تقول : قل لفلان وأعدله إن سمعك فقوله إن سمعك إنما هو توبيخ وإعلام إن لن يسمع . وقال الفراء والنحاس والزهراوي والجرجاني : معناه وإن لم ينفع فاقصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني ، وقيل : إن بمعنى (إذ) كقوله ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٣٩] أي : إذ كنتم لأنه لم يخبر بكونهم الأعلو إلا بعد إيمانهم (سيذكر من يخشى) أي لا يتذكر بذكراك إلا من يخاف فإن الخوف حامل على النظر في الذي ينبغي مما يخافه فإذا نظر فأداه النظر والتذكر إلى الحق ، وهؤلاء هم العلماء والمؤمنون كل على قدر ما وفق له . (ويتجنبها) أي الذي (الأشقى) أي المبالغ في الشقاوة ، لأن الكافر بالرسول - ﷺ - هو أشقى الكفار كما أن المؤمن به وبما جاء به هو أفضل ممن آمن برسول قبله ثم وصفه بما يؤول إليه حاله في الآخرة وهو صلي النار ووصفها بالكبرى . قال الحسن : (النار الكبرى) نار الآخرة والصغرى نار الدنيا . وقال الفراء (الكبرى) السفلى من أطباق النار . وقيل : نار الآخرة تتفاضل فيها شيء أكبر من شيء (ثم لا يموت) فيستريح (ولا يحیی) حياة هنية وجيء بـ (ثم) (المقتضية للتراخي ، إيداناً بتفاوت مراتب الشدة لأن التردد بين الحياة والموت أشد وأفظع من الصلابة بالنار (قد أفلح) أي فاز وظفر بالبغية (من تزكى) تطهر ، قال ابن عباس : من الشرك وقال لا إله إلا الله . وقال الحسن : من كان عمله زاكياً ، وقال أبو الأحوص وقتادة وجماعة : من رضى من ماله وزكاه (وذكر اسم ربه) أي وحده لم يقرنه بشيء من الأنداد (فصلی) أي أتى الصلاة المفروضة وما أمكنه من النوافل . والمعنى أنه لما تذكر آمن بالله ثم أخبر عنه تعالى أنه أفلح من أتى بهاتين العبادتين الصلاة والزكاة واحتج بقوله (وذكر اسم ربه) على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنه جائز بكل اسم من أسماؤه تعالى وأنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة على الذكر الذي هو تكبيرة الافتتاح وهو احتجاج ضعيف . وقال ابن عباس (وذكر اسم ربه) أي معاده وموقفه بين يدي ربه

(١) البيت من الوافر ذكره السمين في الدر المصون .

(فصلى) له . وقرأ الجمهور (بل تؤثر) بتاء الخطاب للكفار . وقيل : خطاب للبر والفاجر ، يؤثرها البر ، لاقتناء الثواب والفاجر لرغبته فيها . وقرأ عبد الله وأبوجاء والحسن والجحدري وأبو حيوه وابن أبي عبلة وأبو عمرو والزعفراني وابن مقسم بياء الغيبة . (إن هذا) أي الإخبار بإفلاح من تزكى وإيثار الناس للدنيا قاله ابن زيد وابن جرير ويرجح بقرب المشار إليه بهذا . وقال ابن عباس وعكرمة والسدي : إلى معاني السورة . وقال الضحاك : إلى القرآن . وقال قتادة : إلى قوله (والآخرة خير وأبقى) (لفي الصحف الأولى) لم ينسخ إفلاح من تزكى والآخرة خير وأبقى في شرع من الشرائع فهو في الأولى وفي آخر الشرائع ، وقرأ الجمهور (الصحف) بضم الحاء كالحرف الثاني . والأعمش وهرون وعصمة كلاهما عن أبي عمرو بسكونها . وفي كتاب اللوامح العبلي عن أبي عمرو (الصحفُ صُحف) بإسكان الحاء فيهما لغة تميم . وقرأ الجمهور (إبراهيم) بألف وبياء والهاء مكسورة ، وأبوجاء بحذفهما والهاء مفتوحة مكسورة معاً وأبو موسى الأشعري وابن الزبير (إبراهيم) بألف في كل القرآن . ومالك بن دينار إبراهيم بألف وفتح الهاء وبغير ياء وعبد الرحمن بن أبي بكر (إبراهيم) بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن . قال ابن خالويه : وقد جاء (إبراهيم) يعني بألف وضم الهاء وتقدم في (والنجم) الكلام على (صحف إبراهيم وموسى) عليه الصلاة والسلام .

سورة الغاشية مكية وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يَسْمَنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا
رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾
وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَارٍ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾
لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
إِنَّا عَلَيْهِمْ حَسَاسٌ ﴿٢٦﴾

الضريع : قال أبوحنيفة : وأظنه صاحب النبات ، الضريع الشبرق وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا
لحماً ، ومنه قول ابن عذارة الهذلي :

وَحُبْسَنَ فِي هَزَمِ الضَّرِيعِ فَكُلُّهَا حَذَبَاءُ دَامِيَةِ الْيَدَيْنِ حَرُودٌ^(١)

وقال أبو ذؤيب :

رَعَى الشُّبْرَقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى وَصَارَ ضَرِيعاً بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ^(٢)

وقال بعض اللغويين : يبس العرفج إذا تحطم ، وقال الزجاج هو نبت كالعوسج . وقال الخليل : نبت أخضر منتن
الريح يرمي به البحر . النمارق : الوسائد واحدها نَمْرُقَةٌ بضم النون والراء وبكسرهما .

وقال زهير :

(١) البيت من الكامل انظر ديوان الهذليين ٧٣/٣ اللسان (فرع) .

(٢) البيت من الطويل انظر الكشف ٥٩٣/٤ فتح القدير ٤٢٩/٥ .

كُهُولاً وَشُبَّاناً حَسَنَاتٍ وَجُوهُهُمْ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَنَمَارِقٍ^(١)

الزراي : بُسُط عراض فاخرة . وقال الفراء : هي الطنافس المخملة وواحدها زرية ، بكسر الزاي وفتحها ، وسطحت الأرض : بسطت ووطئت .

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، ولا يسمن ولا يغني من جوع ، وجوه يومئذ ناعمة لسيها راضية في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزراي مبثوثة ، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ، فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾ هي مكية ، ولما ذكر فيما قبلها فذكر وذكر النار والآخرة قال (هل أتاك حديث الغاشية) والغاشية ، الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يوم القيامة . قاله سفيان والجمهور . وقال ابن جبير ومحمد بن كعب : النار قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ [إبراهيم ٥٠] ، وقال ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ [الأعراف ٤١] فهي تغشى سكانها . وهذا الاستفهام توقيف ، وفائدته : تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر . وقيل : المعنى : هل كان هذا من عملك لولا ما علمناك وفي هذا تعديد النعمة . وقيل : بمعنى قد . (وجوه يومئذ) أي يوم إذ غشيت ، والتنوين عوض من الجملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضاً منها لكن لما تقدم لفظ الغاشية و « أل » موصولة باسم الفاعل فتنحل للتي غشيت ، أي للداهية التي غشيت فالتنوين عوض من هذه الجملة التي انحل لفظ الغاشية إليها وإلى الموصول الذي هو التي . (خاشعة) ذليلة (عاملة ناصبة) ، قال ابن عباس والحسن وابن جبير وقتادة : عاملة في النار ، ناصبة تعباً فيها ، لأنها تكبرت عن العمل في الدنيا ، قيل : وعملها في النار جر السلاسل والأغلال وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل وارتقاؤها دابّة في صعود نار وهبوطها في حدود منها . وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم وابن جبير (عاملة) في الدنيا (ناصبة) فيها لأنها على غير هدى فلا ثمرة لها إلا النصب وخاتمته النار والآية في القسيسين وعباد الأوثان وكل مجتهد في كفره . وقال عكرمة والسدي (عاملة ناصبة) بالنصب على الذم والجمهور برفعها . وقرأ (تصلى) بفتح التاء وأبورجاء وابن محيصن والأبوان بضمهما وخارجة بضم التاء وفتح الصاد مشدّد اللام وقد حكّاها أبو عمرو بن العلاء (حامية) مسعرة آنية قد انتهى حرها كقوله ﴿ وبين حميم آن ﴾ [الرحمن ٤٤] قاله ابن عباس والحسن ومجاهد . وقال ابن زيد : حاضرة لهم من قوهم أنى الشيء حضر . والضريع : قال ابن عباس شجر من ناز . وقال الحسين وجماعة : الزقوم ، وقال ابن جبير : حجارة من نار . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة وعكرمة ومجاهد : شبرق النار ، وقيل : العبشوق . وقيل : رطب العرفج ، وتقدم ما قيل فيه في المفردات . وقيل : واد في جهنم ، والضريع إن كان الغسلين ، والزقوم فظاهر ، ولا يتنافى الحصر في ﴿ إلا من غسلين ﴾ [الحاقة ٣٦] و (إلا من ضريع) وإن كانت أغيار مختلفة والجمع بأن الزقوم لطائفة والغسلين لطائفة والضريع لطائفة ، وقال الزمخشري : (لا يسمن) مرفوع المحل أو مجروره على وصف (طعام) أو (ضريع) يعني أن طعامهم من شيء ليس من مطاعم الإنس وإنما هوشوك ، والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به ، وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه وهما إمطة الجوع وإفادة القوة والسمن في البدن انتهى . فقوله مرفوع

(١) البيت من الطويل انظر الديوان (١١٣) برواية :

وفيههم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل

المحل أو مجروره على وصف طعام أو ضريع ، أما جره على وصفه لـ (ضريع) فيصح ، لأنه مثبت منفي عنه السمن والإغناء من الجوع . وأما رفعه على وصفه لـ (طعام) فلا يصح ، لأن الطعام منفي ولا يسمن منفي فلا يصح تركيبه إذ يصير التقدير : ليس لهم طعام لا يسمن ولا يغني من جوع إلا من ضريع ، فيصير المعنى أن لهم طعاماً يسمن ويغني من جوع من غير ضريع كما تقول ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو . فمعناه أن له مالاً ينتفع به من غير مال عمرو ، ولوقيل : الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدّر في (إلا من ضريع) كان صحيحاً ، لأنه في موضع رفع على أنه بدل من اسم ليس أي ليس لهما طعام إلا كائن من ضريع إذ لا طعام من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع . وهذا تركيب صحيح ومعنى واضح ، وقال الزمخشري : أو أريد أن لا طعام لهم أصلاً ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم ، فضلاً عن الإنسان ، لأن الطعام ما أشبع وأسمن ، وهو منها بمعزل ، كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل على التوكيد انتهى . فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً إذ لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظة طعام إذ ليس بطعام ، والظاهر الاتصال فيه وفي قوله ﴿ولا طعام إلا من غسلين﴾ [الحاقة ٣٦] لأن الطعام هو ما يطعمه الإنسان وهذا قدر مشترك بين المستلذ والمكروه وما لا يستلذ ولا يستكره ، (وجوه يومئذ ناعمة) صحح الابتداء في هذا وفي قوله (وجوه يومئذ خاشعة) بالنكرة لوجود مسوغ ذلك ، وهو التفصيل (ناعمة) لحسنها ونضارتها أو متنعمة ، (لسعيها راضية) أي لعملها في الدنيا بالطاعة (راضية) إذا كان ذلك العمل جزاءه الجنة (في جنة عالية) أي مكاناً ومكانة . وقرأ الأعرج وأهل مكة والمدينة ونافع وابن كثير وأبو عمرو بخلاف عنهم (لا تُسمع) مبنياً للمفعول (لاغية) رفع أي كلمة لاغية أو جماعة لاغية أو لغو ، فيكون مصدرراً كالعاقبة . ثلاثة أقوال الثالث : لأبي عبيدة وابن محيصن وعيسى وابن كثير وأبو عمرو كذلك إلا أنهم قرأوا بالياء لمجاز التأنيث والفضل والجحدري كذلك إلا أنه نصب (لاغية) على معنى لا يسمع فيها أي أحد ، من قولك : أسمعت زيداً والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر وقتادة وابن سيرين ونافع في رواية خارجة وأبو عمرو بخلاف عنه وباقي السبعة (لا تسمع) بقاء الخطاب عموماً ، أو للرسول - عليه الصلاة والسلام - أو الفاعل الوجود ، (لاغية) بالنصب (فيها عين جارية) عين : اسم جنس أي عيون أو مخصوصة ذكرت تشريفاً لها . (فيها سرر مرفوعة) من رفعة المنزلة أو رفعة المكان ليرى ما خوله ربه من الملك والنعيم أو مخبوءة من رفعت لك هذا أي خبأته . (وأكواب موضوعة) أي بأشربتها معدة لا تحتاج إلى مالىء أو موضوعة بين أيديهم أو موضوعة على حافات العيون . (ونمارق مصفوفة) أي وسائد صف بعضها إلى جنب بعض للاستناد إليها والاتكاء عليها (وزرابي مبثوثة) متفرقة هنا وهناك في المجالس . ولما ذكر تعالى أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع الحكيم ، أتبع ذلك بذكر هذه الدلائل وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) وهي الجمال فإنه اجتمع فيها مانفرك من المنافع في غيرها من أكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة وعيشها بأي نبات أكلته وصبرها على العطش حتى أن فيها ما يرد الماء لعشر وطواعيتها لمن يقودها ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقيل وكثرة حنينها وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها ، وهي لا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها . وقد أبان تعالى امتنانه عليهم بقوله ﴿أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً﴾ [يس ١٧١ الآيات] ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل وهبوا المائة منها من يقصدهم ومن أرادوا إكرامه وذكرها الشعراء في مدح من وهبها كما قال :

أَعْطَوْا هُنَيْدَةً تُحْدُوهَا ثَمَانِيَّةٌ

وقال آخر :

الْوَاهِبُ الْمَائَةَ الْهَجَانَ بِرُمَيْتِهَا

وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبوادهم وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع بل هو عام في كل موجوداته كما قيل :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وقال أبو العباس المبرد : الإبل هنا السحاب ، لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالاً كالإبل وتزجي كما تزجي الإبل ، وهي في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام ، ومنه قوله :

كَأَنَّ السُّحَابَ ذَوَيْنِ السَّمَاءِ نَعَامٌ تَعْلَقُ بِالْأَجَلِ

وقال الزمخشري : ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله إلا طلب المناسبة ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم وغير ذلك وإنما رأى السحاب مشبهاً بالإبل كثيراً في أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريقة التشبيه والمجاز . انتهى . وقرأ الجمهور (الإبل) بكسر الباء وتخفيف اللام . والأصمعي عن أبي عمرو وبإسكان الباء . وعليّ وابن عباس بشد اللام ورويت عن أبي عمرو وأبي جعفر والكسائي . وقالوا : إنها السحاب عن قوم من أهل اللغة . وقال : الحسن : خص الإبل بالذكر ، لأنها تأكل النوى والقت ، وتخرج اللبن ، فقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة ، وقال : العرب بعيدة العهد بالفيل ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه ولا يركب ظهره ولا يحلب دره ، والإبل لا واحد له من لفظه ، وهو مؤنث ، ولذلك إذا صغر دخلته التاء فقالوا أُبَيْلَةٌ ، وقالوا في الجمع آبال وقد اشتقوا من لفظه فقالوا : تأبل الرجل ، وتعجبوا من هذا الفعل على غير قياس فقالوا ما أبّل زيداً وإبل اسم جاء على فِعْلٍ ولم يحفظ سيبويه مما جاء على هذا الوزن غيره و (كيف خلقت) جملة استفهامية في موضع البدل من الإبل و (ينظرون) تعدى إلى إبل بواسطة إلى وإلى (كيف خلقت) على سبيل التعليق ، وقد تبدل الجملة وفيها الاستفهام من الاسم الذي قبلها كقولهم : عرفت زيداً أبو من هو على أصح الأقوال على أن العرب قد أدخلت إلى علي (كيف) فحكى أنهم قالوا : انظر إلى كيف يصنع ؟ و (كيف) سؤال عن حال ، والعامل فيها (خلقت) وإذا علق الفعل عن ما فيه الاستفهام لم يبق الاستفهام على حقيقته ، وقد بينا ذلك في كتابنا المسمى بالتذكرة وفي غيره . وقرأ الجمهور (خلقت) (رفعت) (نصبت) (سطحت) بناء التأنيث مبنياً للمفعول وعليّ وأبو حيوة وابن أبي عبلة بناء المتكلم مبنياً للفاعل والمفعول محذوف ، أي خلقتها رفعتها نصبتها رفعت رفعاً بعيد المدى بلا عمد نصبت نصباً ثابتاً لا تميل ولا تزول سطحت سطحاً حتى صارت كالمهاد للمقلب عليها . وقرأ الجمهور (سطحت) خفيفة الطاء والحسن وهارون بشدّها ولما حضهم على النظر أمر رسوله - ﷺ - بتذكيرهم فقال (فذكر) ولا يهمنك كونهم لا ينظرون (إنما أنت مذكر) كقوله تعالى ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى ٤٨] (لست عليهم بمسيطر) أي بمسلط كقوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق ٤٥] وقرأ الجمهور بالصاد وكسر الطاء ، وابن عامر في رواية ونطبق عن قبل ، وزرعان عن حفص بالسين ، وحزة في رواية بإشمام الزاي ، وهارون بفتح الطاء وهي لغة تميم ، وسيطر : متعد عندهم ، ويدل عليه فعل المطاوعة ، وهو تسيطر وليس في الكلام على هذا الوزن إلا مسيطر ومهيمن ومبيطر ومبيقر ، وهي أسماء فاعلين من سيطر وهيمن وبيطر ، وجاء مجيمر اسم واد ومدير ويمكن أن يكون أصلهما مدبر ومجمر فصغرا ، وقرأ الجمهور (إلا) حرف استثناء ، فقيل : متصل ، أي فأنت مسيطر عليه . وقيل : متصل من (فذكر) أي فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر وما بينها اعتراض . وقيل : منقطع وهي آية موادة نسخت بآية

السيف . وقرأ ابن عباس وزيد بن عليّ وقتادة وزيد بن أسلم (ألا) حرف تنبيه واستفتاح ، والعذاب الأكبر : هو عذاب جهنم ، وقرأ الجمهور (إياهم) بتخفيف الياء مصدر آب ، وأبو جعفر وشيبة بشدّها مصدرًا لفعل من آب على وزن فيعال ، أو مصدرًا كفوعل كحوقل على وزن فيعال أيضاً كحيقال ، أو مصدر الفعل كجمهور على وزن فعوّال كجمهور فاصله أوأب فقلبت الواو الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها واجتمع في هذا البناء والبناءين قبله واو ياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغم ولم يمنع الإدغام من القلب لأن الواو والياء ليستا عيّنين من الفعل بل الياء في فيعل والواو في فعول زائدتان . وقال صاحب اللوامح ، وتبعه الزمخشري : يكون أصله إواباً مصدر أوب نحو ، كذب كذاباً ثم قيل إواباً فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها . قال الزمخشري : كديوان في دوان ثم فعل به ما فعل بسيد يعني أنه اجتمع ياء وواو وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الواو فأما كونه مصدر أوب فإنه لا يجوز لأنهم نصوا على أن الواو الأولى إذا كانت موضوعة على الإدغام وجاء ما قبلها مكسوراً فلا تقلب الواو الأولى ياء لأجل الكسرة ومثلوا باخرواط مصدر أخروط ومثلوا أيضاً بمصدر أوب نحو أوب إواباً ، فهذه وضعت على الإدغام فحصنها من الإبدال ولم تتأثر للكسرة . وأما تشبيه الزمخشري بديوان فليس بجيد ، لأنهم لم ينطقوا بها في الوضع مدغمة فلم يقولوا دوان ، ولولا الجمع على دواوين لم يعلم أن أصل هذه الياء واو وأيضاً فنصوا على شذوذ ديوان فلا يقاس عليه غيره . وقال ابن عطية : ويصح أن يكون من أوب فيجيء إواباً سهلت الهمزة وكان اللام في الإدغام يردها إواباً لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس ، انتهى . فقلوه : وكان اللازم في الإدغام بردها إواباً ليس بصحيح ، بل اللازم إذا اعتبر الإدغام أن يكون إياباً لأنه قد اجتمعت ياء وهي المبدلة من الهمزة بالتسهيل وواو وهي عين الكلمة وإحداهما ساكنة فتقلب الواو ياء وتدغم فيها الياء فيصير إياباً ، ولما كان من مذهب الزمخشري أن تقديم المعمول يفيد الحصر قال معناه : أن إياهم ليس إلا إلى الجبار المقنندر على الانتقام وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه تعالى ، وهو الذي يحاسب على النقيير والقطمير ومعنى الوجوب الوجوب في الحكمة ، والله أعلم .

سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ
۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَكَثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ
عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ ۝١٦ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى
طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا إِذَا
دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَبْدَأُ
الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝٢٣ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ
وَقَافَهُ أَحَدٌ ۝٢٦ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ۝٢٩ وَأَدْخِلِي
جَنَّتِي ۝٣٠

الحجر : العقل ، قال الفراء ، العرب تقول إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ، حافظاً لها ، كأنه من حجرت على
الرجل . إرم : أمة قديمة ، وقيل : اسم أبي عاد كلها وهو عاد بن عوص ، بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام -
وقيل : مدينة وعلى أنه اسم قبيلة ، قال زهير :

وَأَخْرَيْنَ تَرَى الْمَآذِي عُدَّتَهُم
مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ أَوْ مَا أَوْرَثَتْ إِرْمَ^(١)

وقال الرقيات :

مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوْلُهُ
أَذْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهُ إِرْمَ^(٢)

(١) البيت من البسيط انظر شرح ديوانه ١٥٨ .

(٢) البيت من مجزوء البسيط لابن قيس الرقيات ، انظر الكشف ٥٩٦/٤ .

جاء خرق وقطع تقول جبت البلاد أجوبها إذا قطعتها وجاوزتها ، قال :

وَلَا رَأَيْتَ قَلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ سِتِّينَ وَسَقاً وَلَا جَابَتْ بِهَا بَلْدًا^(١)

السوط : آلة للضرب معروفة ، قال بعض اللغويين : وهو مصدر من ساط يسوط إذا اختلط ، وقال الليث : ساطه إذا خلطه بالسوط . ومنه قول الشاعر :

أَحَارَتْ إِنَّا لَوُتُسَاطٌ دِمَاؤُنَا تَزَايَلْنَ حَتَّى لَا يَمَسَّ دَمٌ دَمًا^(٢)

وقال أبو زيد : يقال أمواهم سويطة بينهم : أي مختلطة اللم الجمع واللف . قال أبو عبيدة : لمت ما على الخوان إذا أكلت جميع ما عليه بأسره ، وقال الحطيئة :

إِذَا كَانَ لَمَّا يَتَّبِع الدِّمَ رَبُّهُ فَلَا قَدَسَ الرَّحْمَنُ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا^(٣)

ومنه : لمت الشعث ، قال النابغة :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ^(٤)

الجم الكبير ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ، فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ، كلا بل لا تكرمون البيتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكولون التراث أكلاً لما ، وتحبون المال حباً جماً ، كلا إذا دكت الأرض دكاً ، وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً ، وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي ﴾ هذه السورة مكية في قول الجمهور . وقال علي بن أبي طلحة : مدنية ولما ذكر فيها قبلها ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ [الغاشية ١] ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ [الغاشية ٨] أتبعها بذكر الطوائف المتكبرين المكذبين المتجبرين الذين وجوههم خاشعة ، وأشار إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر ٢٧] وأيضاً لما قال ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ [الغاشية ٢٣] وقال هنا ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر ١٤] تهديداً لمن كفر وتولى ، وقرأ أبو الدينار الأعرابي (والفجر) (والوتر) (ويسر) بالتونين في الثلاثة ، قال ابن خالويه : هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافي بالتونين وإن كان فعلاً وإن كان فيه ألف ولام ، قال الشاعر :

أَقِلِّي اللُّومَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا وَقُولِي إِنِّ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

(١) البيت من البسيط لأبي وجزة ، وانظر الكامل ١٠٩/١ .

(٢) البيت من الطويل للمتلسم ، انظر اللسان (زيل) .

(٣) البيت من الوافر انظر الكشف ٥٩٩/٤ .

(٤) البيت من الطويل انظر ديوانه (١٨) اللسان (شعث) .

انتهى . وهذا ذكره النحويون في القوافي المطلقة إذا لم يترنم الشاعر وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم في الكلام لا في الشعر وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى القوافي ، وقرأ الجمهور (وليالي عشر) بالتثنية ، وابن عباس بالإضافة ، فضبطه بعضهم (وليالي عشر) بلام دون ياء وبعضهم (وليالي عشر) بالياء ويريد وليالي أيام عشر ، ولما حذف الموصوف المعدود وهو مذكر جاء في عدده حذف التاء من عشر . والجمهور (والوتر) بفتح الواو وسكون التاء ، وهي لغة قریش والأغر عن ابن عباس وأبورجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلاف عنه والأخوان بكسر الواو ، وهي لغة تميم ، واللغتان في الفرد فأما في الرحل فالكسر لا غير . وحكى الأصمعي فيه اللغتين ويونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء . والجمهور (يسر) بحذف الياء وصلاً ووقفاً ، وابن كثير بإثباتها فيها . ونافع وابن عمر بخلاف عنه بياء في الوصل وبحذفها في الوقف والظاهر ؛ وقول الجمهور منهم علي وابن عباس وابن الزبير : أن (الفجر) هو المشهور أقسم به كما أقسم بالصبح ويراد به الجن لا فجر يوم مخصوص . وقال ابن عباس ومجاهد : من يوم النحر . وعكرمة من يوم الجمعة . والضحاك : من ذي الحجة . ومقاتل : من ليلة جمع . وابن عباس وقتادة : من أول يوم من المحرم . وعن ابن عباس أيضاً : الفجر النهار كله . وعنه أيضاً وعن زيد بن أسلم (الفجر) هو صلاة الصبح ، وقرأنا هو قرآن الفجر ، وقيل : فجر العيون من الصخور وغيرها . وقال ابن الزبير والكلبي وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي وعطية العوفي : هي عشر ذي الحجة . وابن عباس والضحاك : العشر الأواخر من رمضان . وقال ابن جريج : الأول منه ، ويمن وجماعة : الأول من المحرم ، ومنه يوم عاشوراء ، ومسروق ومجاهد : وعشر موسى عليه السلام التي أمها الله تعالى . قيل : والأظهر . قول ابن عباس للحديث المتفق على صحته . قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان رسول الله ﷺ - إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله^(١) . قال التبريزي : اتفقوا على أنه العشر الأواخر يعني من رمضان لم يخالف فيه أحد فتعظيمه مناسب لتعظيم القسم . وقال الزمخشري : وأراد بالليالي العشر ذي الحجة . (فإن قلت :) فما بالها منكرا من بين ما أقسم به ؟ (قلت :) لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليس لغيرها . (فإن قلت :) فهل عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة ؟ (قلت :) لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ، ليكون الكلام أبعد من اللغاز والتعمية انتهى . أما السؤالان فظاهران وأما الجواب عنها فلفظ ملفق لا يعقل منه معنى فيقبل أن يرد (والشفع والوتر) ذكر في كتاب التحرير والتحجير : فيها ستة وثلاثين قولاً ضجرنا من قراءتها فضلاً عن كتابتها في كتابنا هذا . وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ - أنه قال : هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر^(٢) . وروى : « أبو أيوب عنه - ﷺ - الشفع : يوم عرفة ويوم الأضحى والوتر ليلة النحر »^(٣) وروى « جابر عنه - ﷺ - الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة » . وفي هذا الحديث تفسيره - عليه الصلاة والسلام - الفجر بالصبح ، والليالي العشر بعشر النحر ، وهو قول ابن عباس وعكرمة واختاره النحاس ، وقال : أحديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي ﷺ - وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين صوم عرفة وتر لأنه تاسعها ويوم النحر شفع لأنه عاشرها^(٤) . وذكر ابن عطية في (الشفع والوتر) أربعة عشر قولاً ، والزمخشري ثلاثة أقوال ، ثم قال : وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان

(١) البخاري ٢٦٩/٤ في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ومسلم ٨٣٢/٢ في الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤/٧) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٨/٤ ، وانظر تفسير القرطبي ٣٩/٢٠ .

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ١٤٠/٧ في باب سورة الفجر ، وعزاه للطبراني من حديث طويل ، وفيه واصل بن السائب وهو متروك .

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ١٤٠/٧ ، وعزاه للبزار وأحمد ورجالهما رجال الصحيح ، غير عياش بن عتبة وهو ثقة .

فيه وذلك قليل الطائل ، جدير بالتلهي عنه ، انتهى . (والليل إذا يسري) قسم بجنس الليل و (يسري) يذهب وينقرض ، كقوله ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ [المدثر ٣٣] ، وقال الأخفش : وابن قتيبة (يسري) فيه فيكون من باب ليلك نائم ، وقال مجاهد وعكرمة والكلبي : المراد ليلة جمع ، لأنه يسري فيها . وجواب القسم محذوف . قال الزمخشري : وهو لنعذبن يدل عليه قوله (ألم تر) إلى قوله ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ [الفجر ١٣] ، وقال ابن الأنباري : الجواب ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر ١٤] والذي يظهر : أن الجواب محذوف يدل عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية وهو قوله ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ ثم إن علينا حسابهم ﴾ [الغاشية ٢٥ ، ٢٦] وتقديره لإيابهم إلينا وحسابهم علينا ، وقول مقاتل (هل) هنا في موضع تقديره إن في ذلك قسماً لذي حجر ، فهل على هذا في موضع جواب القسم قول لم يصدر عن تأمل ، لأن المقسم عليه على تقدير أن يكون التركيب إن في ذلك قسماً لذي حجر : لم يذكر فيبقى قسم بلا مقسم عليه ، لأن الذي قدره من إن في ذلك قسماً لذي حجر لا يصح أن يكون مقسماً عليه ، وهل في ذلك تقرير على عظم هذه الأقسام أي هل فيه مقنع في القسم لذي عقل فيزدجر ويفكر في آيات الله . ثم وقف المخاطب على مصارع الأمم الكافرة الماضية مقصوداً بذلك توعدهم قريش ، ونصب المثل لها . و (عاد) هو عاد بن عوص وأطلق ذلك على عقبه ثم قيل للأولين منهم عاداً الأولى و (إرم) نسبة لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الأخيرة . وقال مجاهد وقتادة : هي قبيلة بعينها . وقال ابن إسحاق : إرم هو أبو عاد كلها . وقال الجمهور : إرم : مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن . وقال محمد بن كعب : هي الإسكندرية . وقال ابن المسيب والمقبري : هي دمشق . وقال مجاهد أيضاً : معناه القديمة ، وقرأ الجمهور (بعاد) مصروفاً (إرم) بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية ، لأنه اسم للقبيلة و (عاد) وإن كان اسم القبيلة فقد يلحظ فيه معنى الحي فيصرف أو لا يلحظ فجاء على لغة من صرف هنداً و (إرم) عطف بيان أو بدل ، وقرأ الحسن : (بعاد) غير ممنوع الصرف مضافاً إلى (إرم) فجاز أن يكون (إرم) جداً ومدينة والضحاك إرم بفتح الراء وما بعدها ممنوعي الصرف ، وقرأ ابن الزبير (بعاد) بالإضافة (أرم) بفتح الهمزة وكسر الراء وهي لغة في المدينة . والضحاك (بعاد) مصروفاً و (بعاد) غير مصروف أيضاً (أرم) بفتح الهمزة وسكون الراء تخفيف أرم بكسر الراء . وعن ابن عباس والضحاك (أرم) فعلاً ماضياً أي بلي ، يقال : رم العظم وأرم هو أي بلي وأرمة غيره معدى بالهمزة من رم الثلاثي . و (ذات) على هذه القراءة مكسورة التاء . وابن عباس أيضاً فعلاً ماضياً (ذات) بنصب التاء على المفعول به . و (ذات) بالكسر صفة لـ (إرم) وسواء كانت اسم قبيلة أو مدينة وإن كان يترجح كونها مدينة بقوله (لم يخلق مثلها في البلاد) فإذا كانت قبيلة صح إضافة عاد إليها فكها منها بدلاً أو عطف بيان ، وإن كانت مدينة فالإضافة إليها ظاهرة والفك فيها يكون على حذف مضاف ، أي بعاد أهل إرم ذات العباد . وقرئ (إرم ذات) بإضافة (أرم) إلى (ذات) والإرم : العلم يعني بعاد أعلام ذات العباد . ومن قرأ (أرم) فعلاً ماضياً (ذات) بالنصب ، أي جعل الله ذات العباد رمياً ، ويكون (إرم) بدلاً من فعل ربك وتبييناً لفعل . وإذا كانت (ذات العباد) صفة للقبيلة ، فقال ابن عباس : هي كناية عن طول أبدانهم . ومنه قيل : رفيع العباد ، شبهت قدودهم بالأعمدة ، ومنه قولهم : رجل عمد وعمدان أي طويل . وقال عكرمة ومقاتل : أعمدة بيوتهم التي كانوا يرحلون بها ، لأنهم كانوا أهل عمود . وقال ابن زيد : أعمدة بنيانهم . وإذا كانت صفة للمدينة فأعمدة الحجارة التي بنيت بها . وقيل : القصور العالية والأبراج يقال لها عماد ، وحكي عن مجاهد : إرم مصدر أرم يأرم إذا هلك والمعنى : كهلاك ذات العباد وهذا قول غريب . كأن معنى (كيف فعل ربك بعاد) كيف أهلك عاداً كهلاك ذات العباد . وذكر المفسرون أن (ذات العباد) مدينة ابتناها شداد بن عاد لما سمع بذكر الجنة على أوصاف بعيد أو مستحيل عادة أن يبنى في الأرض مثلها وأن الله تعالى بعث عليها وعلى أهله صيحة قبل أن يدخلها هلوكوا جميعاً ويوقف على صفتهم في كتاب التحرير وشيء منها في الكشف . وقرأ الجمهور (لم يخلق) مبنياً للمفعول (مثلها) رفع ، وابن الزبير مبنياً

للفاعل (مثلها) نصباً ، وعنه (نخلق) بالنون والضمير في (مثلها) عائد على المدينة التي هي ذات العماد (في البلاد) أي في بلاد الدنيا أو عائد على القبيلة أي في عظم أجسام وقوة . وقرأ ابن وثاب وشمود بالتثنية . والجمهور بمنع الصرف (جابوا الصخر) خرقوه ونحتوه فاتخذوا في الحجارة منها بيوتاً ، كما قال تعالى ﴿ وتحتون من الجبال بيوتاً ﴾ [الشعراء ١٤٩] قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفاً وسبعمئة مدينة كلها بالحجارة (بالوادي) وادي القرى ، وقيل : جابوا واديهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوه فعل ذي القوة والآمال . (ذي الأوتاد) تقدم الكلام على ذلك في سورة ص . (الذين) صفة لعاد وشمود وفرعون أو منصوب على الذم أو مرفوع على إضمارهم (فصب عليهم ربك سوط عذاب) أتهم هنا وأوضح في الحاقة وفي غيرها ، ويقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه واستعمل الصب لاقتضائه السرعة في النزول على المضروب ، قال :

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ مُحْصِرَاتٍ كَأَنَّهُا شَايِبٌ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطْرِ

يريد المحدودين في قصة الإفك . وقال بعض المتأخرين في صفة الجبل :

صَبَّيْنَا عَلَيْهِمْ ظَالِمِينَ شَيَاطِنًا فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلٌ

وخص السوط فاستعير للعذاب ، لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره وقال الزمخشري : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا في من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائل ما يعذب به و (المرصاد) المكان الذي يترتب فيه الرصد مفعال من رصده وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأتهم لا يفوتونه . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون (المرصاد) في الآية اسم فاعل كأنه قال لبالرصد فعبّر ببناء المبالغة . انتهى ولو كان كما زعم لم تدخل الباء ، لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة . (فأما الإنسان) ذكر تعالى ما كانت قریش تقولوه وتستدل به على إكرام الله تعالى وإهانته لعبده فيرون المكرم من عنده الثروة والأولاد والمهاتن ضده ، ولما كان هذا غالباً عليهم وبخوا بذلك ، والإنسان اسم جنس ويوجد هذا في كثير من أهل الإسلام . وقال الزمخشري (فإن قلت :) بم اتصل قوله (فأما الإنسان) (قلت :) بقوله (إن ربك لبالمرصاد) كأنه قال إن الله تعالى لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعي للعاقبة وهو مرصد للعاصي (فأما الإنسان) فلا يريد ذلك ولا يهيمه إلا العاجلة ما يلذه وينعمه فيها . انتهى . وفيه التصريح بمذهب الاعتزال في قوله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة و (إذا) العامل فيه فيقول ، والنية فيه التأخير ، أي فيقول كذا وقت الابتداء . وهذه الفاء لا تمنع أن يعمل ما بعدها فيما قبلها وإن كانت فاء دخلت في خبر المبتدأ لأجل (أما) التي فيها معنى الشرط وبعد (أما) الثانية مضمرة به وقع التوازن بين الجملتين تقديره : فأما إذا هو ما ابتلاه و (فيقول) خبر عن ذلك المبتدأ المضمرة و (ابتلاه) معناه اختبره أي شكر أم يكفر إذا بسط له وأبصر أم يجزع إذا ضيق عليه لقوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير وفنة) وقابل (ونعمه) بقوله (فقد عليه رزقه) ولم يقابل (فأكرمه) بلفظ (فأهانته) لأنه ليس من يضيق عليه الرزق كان ذلك إهانته له . ألا ترى إلى ناس كثير من أهل الصلاح مضيقاً عليهم الرزق كحال الإمام أبي سليمان داود بن علي الأصهباني - رضي الله تعالى عنه - وغيره وذم الله تعالى العبد في حالتيه هاتين أما في قوله (فيقول ربي أكرمن) فلأنه إخبار منه على أنه يستحق الكرامة ويستوجبها . وأما قوله (أهانن) فلأنه سمى ترك التفضيل من الله تعالى إهانته وليس بإهانته أو يكون إذا تفضل عليه أقر بإحسان الله إليه وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك تفضل الله إهانته لا إلى الاعتراف بقوله (أكرمن) ، وقرأ ابن كثير (أكرمني وأهانني) بالياء فيهما ، ونافع بالياء وصلاً وحذفها وقفاً ، وخير في الوجهين أبو عمرو ، وحذفها باقي السبعة فيهما وصلاً ووقفاً ، ومن حذفها وقفاً سكن النون فيه . وقرأ الجمهور فقَدَر بخف الدال . وأبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلاف عنه وابن عامر بشدها . قال الجمهور : هما بمعنى واحد بمعنى ضيق والتضعيف

فيه للمبالغة لا للتعدي ولا يقتضي ذلك قول الإنسان أهانن لأن إعطاء ما يكفيه لا إهانة فيه . (كلا) على قولهم ومعتقدهم أي ليس إكرام الله وتقدير الرزق سببه ما ذكرتم بل إكرامه العبد تيسيره لتقواه وإهانتته تيسيره للمعصية . ثم أخبرهم بما هو عليه من أعمالهم السيئة ، وقال الزمخشري : (كلا) ردع للإنسان عن قولهم ، ثم قال : بل هنا شر من هذا القول وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال فلا يؤدون فيه ما يلزمهم من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرة وحض أهله على طعام المسكين ، ويأكلونه أكل الانعام ، ويجبونه فيشحون به ، انتهى . وفي الحديث : « أحب البيوت إلى الله تعالى بيت فيه يتيم مكرم » .

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو عمرو (يكرمون) (ولا يحضون) (ويأكلون) ويجبون بياء الغيبة فيها . وباقي السبعة بقاء الخطاب . وأبو جعفر وشيبة والكوفيون وابن مقسم (تحاضون) بفتح التاء والألف ، أصله تحاضون ، وهي قراءة الأعمش ، أي يحض بعضهم بعضاً وعبد الله أو علقمة وزيد بن عليّ وعبد الله بن المبارك والشيرازي عن الكسائي كذلك إلا أنهم ضموا التاء ، أي تحاضون أنفسهم أي بعضهم بعضاً . وتفاعيل وفاعل يأتي بمعنى فعل أيضاً . (على طعام) يجوز أن يكون بمعنى إطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء ، والأولى أن يكون على حذف مضاف ، أي على بذل طعام ، (وتأكلون التراث) كانوا لا يورثون النساء ولا صغار الأولاد فيأكلون نصيبهم ، ويقولون لا يأخذ الميراث إلا من يقاتل ويحمي الحوزة . والتراث ثاؤه بدل من واو كالتكلة والتخمة من توكلت ووخت . وقيل : كانوا يأكلون ما جمعه الميت من المظلمة ، وهم عالمون بذلك يجمعون بين الحلال والحرام ، ويسفون في إنفاق ما ورثوه ، لأنهم ما تعبوا في تحصيله كما شاهدنا الوراث البطالين . (كلا) ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم ، ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه في دار الدنيا . (دكاً دكاً) حال كقولهم باباً باباً ، أي : مكرراً عليهم الذك . (وجاء ربك) قال القاضي منذر بن سعيد معناه : ظهوره للخلق هنالك وليس بجيء نقلة وكذلك مجيء الطامة والصاخة ، وقيل : وجاء قدرته وسلطانه . وقال الزمخشري : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره ، وتبيين آثار قدرته وسلطانه ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ، ووزراته وخواصه . انتهى . (والملك) اسم جنس يشمل الملائكة . وروى : « أنه ملائكة كل سماء تكون صفاً حول الأرض في يوم القيامة . قال الزمخشري : (صفاً صفاً) تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محققين بالجن والإنس انتهى . (وجيء بجهم) كقوله تعالى ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ [النازعات ٣٦] ، يومئذ بدل من (إذا) ، قال الزمخشري : وعامل النصب فيها (يتذكر) انتهى . ظاهر كلامه أن العامل في البذل هو العامل نفسه في المبدل منه ، وهو قول قد نسب إلى سيبويه ، والمشهور خلافه^(١) . وهو أن البذل على نية تكرار العامل ، أي يتذكر ما فرط فيه . (وأنى له الذكرى) أي منفعة الذكرى ، لأنه وقت لا ينفع فيه التذكر لو اتعظ في الدنيا لنفعه ذلك في الأخرى ، قاله الجمهور . قال الزمخشري : وغيره : أو وقت حياتي في الدنيا ، كما تقول : جئت لطلوع الشمس ولتاريخ كذا وكذا . وقال قوم (لحياتي) في قبري يعني الذي كنت أكذب به . قال الزمخشري : وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان في أيديهم ، ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم ، وأنهم لم يكونوا مجبورين عن الطاعات ، مجبرين على المعاصي كمذهب أهل الأهواء والبدع وإلا فما معنى التحسر . انتهى . وهو على طريقة الاعتزال . وقرأ الجمهور (لا يُعَذَّب) (ولا يُوثَق) مبنيين للفاعل والضمير في (عذابه) و (وثاقه) عائد على الله تعالى أي لا يكل عذابه ، ولا وثاقه إلى أحد لأن الأمر لله وحده وفي ذلك أو هو من الشدة في حيز لم يعذب قط أحد في

(١) مذهب سيبويه والمبرد والسيرافي وابن الحاجب : أن العامل في البذل هو العامل في المبدل منه ، إذ المتبوع في حكم الطرح ، فكان عامل الأول باشر الثاني ، يقول سيبويه . هذا باب من الفعل يستعمل في الاسم ، ثم ينزل مكان الاسم اسماً آخر فيعمل فيه كما عمل في الأول ومعنى كون المبدل منه : في نية الطرح : أن البذل قائم بنفسه غير مبين للمبدل منه ، تبيين النعت للمنعوت وليس المراد الإلغاء والطرح لفظاً ، وإلا كان زيد رأيت أباه عمراً في تقدير : زيد رأيت عمراً وهو فاسد انظر شرح الكافية ٣٠٠/١ والكتاب ٧٥/١ وانظر الهامش .

الدنيا مثله ، والأول أوضح لقوله (لا يعذب ولا يوثق) ولا يطلق على الماضي إلا بمجاز بعيد ، بل موضوع (لا) إذا دخلت على المضارع أن يكون مستقبلاً ، ويجوز أن يكون الضمير قبلها عائداً على الكافر ، أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه . وقيل : إلى الله أي لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله للكافر ، ويضعف هذا عمل لا يعذب في (يومئذ) وهو ظرف مستقبل . وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وسوار القاضي وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو حريه ولاسم والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو بفتح الذال والثاء مبنيين للمفعول ، فيجوز أن يكون الضمير فيهما مضافاً للمفعول ، وهو الأظهر أي لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، أو لا يحمل أحد عذاب الإنسان لقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الإسراء ١٥] و (عذاب) وضع موضع تعذيب ، وفي اقتباس مثل هذا خلاف وهو أن يعمل ما وضع لغير المصدر كالعطاء والثواب والعذاب والكلام ، فالصريون لا يميزونه ويقيسونه . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنهم وثاقه بكسر الواو والجمهور بفتحها والمعذب : هو الكافر على العموم ، وقيل : هو أمية بن خلف ، وقيل : أبي بن خلف ، وقيل : المراد به إبليس ، وقام الدليل على أنه أشد من الناس عذاباً ويدفع القول هذا قوله (يومئذ يتذكر الإنسان) والضمائر كلها مسوقة له ، ولما ذكر تعالى : شيئاً من أحوال من يعذب ذكر شيئاً من أحوال المؤمن فقال (يا أيها النفس) وهذا النداء الظاهر أنه على لسان ملك . وقرأ الجمهور بتاء التانيث . وقرأ زيد بن علي (يا أيها) بغير تاء ، ولا أعلم أحداً ذكر أنها تذكر وإن كان المنادي مؤنثاً إلا صاحب البديع . وهذه القراءة شاهدة بذلك ، ولذلك وجه من القياس وذلك أنه لم يشن ولم يجمع في نداء المثنى والمجموع فكذلك لم يؤنث في نداء المؤنث . (المطمئنة) الأمنة التي لا يلحقها خوف ولا حزن أو التي كانت مطمئنة إلى الحق لم يخالطها شك . قال ابن زيد : يقال لها ذلك عند الموت وخروجها من جسد المؤمن في الدنيا ، وقيل : عند البعث ، وقيل : عند دخول الجنة . (إلى ربك) أي إلى موعد ربك . وقيل الرب هنا : الإنسان دون النفس ، أي ادخل في الأجساد ، والنفس اسم جنس . وقيل : هذا النداء هو الآن للمؤمنين . لما ذكر حال الكفار قال يا مؤمنون دوموا وجدوا حتى ترجعوا راضين مرضيين (راضية) بما أوتيته (مرضية) عند الله ، فادخلي في عبادي أي في جملة عبادي الصالحين (وادخلي جنتي) معهم ، وقيل لنفس والروح ، والمعنى : فادخلي في أجساد عبادي . وقرأ الجمهور (في عبادي) جمعاً . وابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبوجعفر وأبو صالح والكلبي وأبو شيخ الهنائي والبياني ، (في عبدي) على الأفراد ، والأظهر أنه أريد به اسم الجنس فمدلوله ومدلول الجمع واحد . وقيل : هو على حذف خاطب النفس مفردة ، فقال : (فادخلي في عبدي) أي في جسد عبدي وتعدي فادخلي أولاً بـ (في) وثانياً بغير فاء ، وذلك أن إذا كان المدخول فيه غير ظرف حقيقي تعددت إليه بـ (في) دخلت في الأمر ودخلت في غمرا الناس . ومنه (فادخلي في عبادي) وإذا كان المدخول فيه ظرفاً حقيقياً تعدت إليه في الغالب بغير وساطة فيه . قيل : في عثمان بن عفان ، وقيل : في حمزة ، وقيل : في خبيب بن عدي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

سورة البلد مكية وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ
لَنْ يَفْعِدَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْنَحَمَ الْعَقَبَةُ (١١) وَمَا أَدْرَبَكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ
فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْعَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّيْنُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ
مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

الكبد : الشدة والمشقة ، وأصله من كبد الرجل كبدًا فهو أكبد إذا وجعه كبده وانتفخت فاستعمل في كل تعب
ومشقة ومنه المكابدة . وقال لبيد :

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيْتِ أُرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ (١)

وقال ذو الأصبع :

وَلَى ابْنُ عَمٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ فِي كَبَدٍ لَظَلَّ مُحْتَجِرًا بِالنَّبْلِ يَرْمِينِي (٢)

الشفة : معروفة وأصلها شفهة ، حذفت منه الهاء ، ويدل عليه شَفِيْهَةٌ وشفاه وشفَاهَتْ ، وهي مما لا يجوز جمعه
بالألف والتاء ، وإن كان تاء التأنيث . النجد : العنق ، وجمعه نجود ، وبه سميت نجد ، لارتفاعها عن انخفاض تهامة .
والنجد : الطريق العالي ، قال امرؤ القيس :

فَرِيقَانِ مِنْهُمْ جَارِعٌ بَطْنٌ نَخْلَةٍ وَآخَرُ مِنْهُمْ قَاطِعٌ كَبْكِيرِ

الفك : تخليص الشيء من الشيء ، قال الشاعر :

(١) البيت من مجزوء البسيط انظر اللسان (كبد) الكشف ٦٠٢/٤ .

(٢) البيت من البسيط انظر ديوان المفضليات (٣٢٦) .

فَيَا رَبِّ مَكْرُوبٍ كَرَّرْتُ وَرَاءَهُ وَعَانَ فَكَتُّ الْغُلِّ عَنْهُ فَقَدْنِي

السغب : الجوع العام ، وقد يقال سغب الرجل إذا جاع . ترب الرجل : إذا افتقر ولصق بالتراب ، وأترب : إذا استغنى وصار ذا مال كالتراب ، وكذلك أترى . أوصدت الباب وأصدته : إذا أغلقته وأطبقته . قال الشاعر :

تَجِنُّ إِلَى أَجْبَالٍ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُؤَصَّدَةٍ^(١)

﴿ لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان في كبد ، أيجsb أن لن يقدر عليه أحد ، يقول أهلك ما لألبدا ، أيجsb أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو طعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا أصحاب المشأمة ، عليهم نار مؤصدة ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، وقيل : مدنية ولما ذكر تعالى ابتلاءه للإنسان بحالة التنعيم ، وحالة التقدير ، وذكر من صفاته الذميمة ما ذكر وما آل إليه حاله وحال المؤمن ، أتبعه بنوع من ابتلائه ومن حاله السيء وما آل إليه في الآخرة . والإشارة لهذا البلد إلى مكة (وأنت حل) جملة حالية تنفيذ تعظيم المقسم به ، أي فأنت مقيم به وهذا هو الظاهر . وقال ابن عباس وجماعة معناه : وأنت حلال بهذا البلد يحل لك فيه قتل من شئت وكان هذا يوم فتح مكة . وقال ابن عطية : وهذا يتركب على قول من قال لا نافية أي أن هذا البلد لا يقسم الله به وقد جاء أهله بأعمال توجب الإحلال لإحلال حرمة . وقال شرحبيل بن سعد يعني (وأنت حل بهذا البلد) جعلوك حلالاً مستحل الأذى والقتل والإخراج ، وهذا القول بدأ به الزمخشري . وقال : وفيه بعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجب من حالهم في عداوته ، أو سلى رسول الله - ﷺ - بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يحلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتيماً للتلئية والتنفيس عنه فقال (وأنت حل) به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر ، ثم قال الزمخشري بعد كلام طويل (فإن قلت :) أين نظير قوله (وأنت حل) في معنى الاستقبال ؟ (قلت :) قوله عز وجل ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر ٣٠] واسع في كلام العباد تقول لمن تعده الإكرام والحب وأنت مكرم محبوب وهو في كلام الله أوسع ، لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة ، وكفأك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح . انتهى . وحمله على أن الجملة اعتراضية لا يتعين وقد ذكرنا أولاً أنها جملة حالية وبيننا حسن موقعها ، وهي حال مقارنة لا مقدرة ولا محكية فليست من الأخبار بالمستقبل . وأما سؤاله والجواب فهذا لا يسأله من له أدنى تعلق بالنحو لأن الأخبار قد تكون بالمستقبلات ، وأن اسم الفاعل وما يجري مجراه حالة إسناده أو الوصف به لا يتعين حمله على الحال بل يكون للماضي تارة ، وللحال أخرى ، وللمستقبل أخرى ، وهذا من مبادئ علم النحو . وأما قوله : وكفأك دليلاً قاطعاً إلخ فليس بشيء ، لأننا لم نحمل (وأنت حل) على أنه يحل لك ما تصنع في مكة من الأسر والقتل في وقت نزولها بمكة فتتافيا بل حملناه على أنه مقيم بها خاصة وهو وقت النزول كان مقيماً بها ضرورة وأيضاً فما حكاه من الاتفاق على أنها نزلت بمكة فليس بصحيح . وقد حكى الخلاف فيها عن قول ابن عطية . ولا يدل قوله (وأنت حل بهذا البلد) على ما ذكره من أن المعنى يستحل إذا ذاك ، ولا على أنك تستحل فيه أشياء ، بل الظاهر ما ذكرنا أولاً من

(١) البيت من الطويل انظر شواهد الكشف (٦٩) ، فتح القدير ٤٤٥/٥ .

أنه تعالى أقسم بها لما جمعت من الشرفين شرفها بإضافتها إلى الله تعالى ، وشرفها بحضور رسول الله - ﷺ - وإقامته فيها ، فصارت أهلاً لأن يقسم بها ، والظاهر : أن قوله (ووالد وما ولد) لا يراد به معين ، بل ينطلق على كل والد . وقال ابن عباس ، ذلك ، قال : هو على العموم يدخل فيه جميع الحيوان . وقال مجاهد : آدم وجميع ولده . وقيل : والصالحين من ذريته ، وقيل : نوح وذريته ، وقال أبو عمران الحوفي : إبراهيم عليه السلام وجميع ولده ، وقيل : ووالد رسول الله - ﷺ - وما ولد إبراهيم عليه السلام . وقال الطبري والماوردي : يحتمل أن يكون الوالد النبي - ﷺ - لتقدم ذكره وما ولد أمته لقوله - ﷺ - إنما أنا لكم بمنزلة الوالد^(١) ولقراءة عبد الله وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فأقسم تعالى به وبأتمته بعد أن أقسم ببلده مبالغه في شرفه عليه الصلاة والسلام . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما المراد بوالد وما ولد ؟ (قلت :) رسول الله - ﷺ - ومن ولده أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وكرم أبيه إبراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - وبمن ولده وبه . (فإن قلت :) لم نكر ؟ (قلت :) للإيهام المستقبل بالمدح والتعجب . (فإن قلت :) هلا قيل ومن ولد ؟ (قلت :) فيه ما في قوله ﷺ والله أعلم بما وضعت ﷻ [آل عمران ٣٦] أي بأي شيء وضعت يعني موضوعاً عجيب الشأن انتهى . وقال الفراء : وصلح ما للناس كقوله ﷻ ما طالب لكم ﷻ [النساء ٣] ﷻ وما خلق الذكر والأنثى ﷻ [الليل ٣] وهو الخالق للذكر والأنثى انتهى . وقال ابن عباس وعكرمة وابن جبير : المراد بالوالد الذي يولد له (وبما ولد) العاقر الذي لا يولد له . جعلوا (ما) نافية فتحتاج إلى تقدير موصول يصح به هذا المعنى كأنه قال : ووالد والذي ما ولد وإضمار الموصول لا يجوز عند البصريين . (لقد خلقنا الإنسان في كبد) هذه الجملة المقسم عليها . والجمهور على أن (الإنسان) اسم جنس و (في كبد) يكابد مشاق الدنيا والآخرة ، ومشاقه لا تكاد تنحصر من أول قطع سرتة إلى أن يستقر قراره إما في جنة فتزول عنه المشقات ، وإما في نار فتتضاعف مشقاته وشدائده . وقال ابن عباس وعبد الله بن شداد وأبو صالح والضحاك ومجاهد (في كبد) معناه منتصب القامة ، واقفاً ، ولم يخلق منكباً على وجهه وهذا امتنان عليه . وقال ابن كيسان : منتصباً رأسه في بطن أمه فإذا أذن له بالخروج قلب رأسه إلى قدمي أمه . وعن ابن عمر يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء . وقال ابن زيد : (الإنسان) آدم في كبد في السماء سماها كبداً ، وهذه الأقوال ضعيفة . والأول هو الظاهر . والظاهر : أن الضمير في (أيحسب) عائد على (الإنسان) أي هو لشدة شكيمته وعزته وقوته يحسب أن لا يقاومه أحد ، ولا يقدر عليه أحد لاستعصامه بعدده وعدده . يقول على سبيل الفخر (أهلك ما لا لبداً) أي في المكارم وما يحصل به الثناء (أيحسب) أن أعماله تخفى وأنه لا يراه أحد ، ولا يطلع عليه في إنفاقه ، ومقصد ما يبتغيه مما ليس لوجه الله منه شيء بل عليه حفظة يكتبون ما يصدر منه من عمل في حياته ويحصونه إلى يوم الجزاء ، وقيل : الضمير في (أيحسب) لبعض صنديد قريش . وقيل : هو أبو الأسد أسيد بن كلدة كان ييسط له الأديم العكاظي فيقوم عليه ويقول من أزالني عنه فله كذا ؟ فلا ينزع إلا قطعاً ويبقى موضع قدميه ، وقيل : الوليد بن المغيرة ، وقيل : الحرث بن عامر بن نوفل ، وكان إذا أذنب استفتى النبي - ﷺ - فيأمره بالكفارة فقال (لقد أهلك ما لا لبداً) في الكفارات والتبعات منذ تبعت محمداً - ﷺ - وقرأ الجمهور (لبداً) بضم اللام وفتح الباء وأبو جعفر بشد الباء ، وعنه وعن زيد بن علي (لبداً) بسكون الباء ومجاهد وابن أبي الزناد بضمهما . ثم عدّد تعالى على الإنسان نعمه فقال (ألم نجعل له عينين) يبصر بهما (ولساناً) يفصح عما في باطنه (وشفتين) يطبقهما على فيه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك . (وهديناه النجدين) قال ابن مسعود وابن عباس والجمهور : طريق الخير والشر ، وقال ابن عباس أيضاً وعليّ وابن المسيب

(١) أخرجه الشافعي في الأم ٢٢/١ في الطهارة ، والدارمي في السنن ١٧٢/١ - ١٧٣ في الوضوء باب الاستنجاء بالأحجار ، وأبو داود ١٨/١ في الطهارة باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨) والنسائي ٣٨/١ ، في الطهارة باب النهي عن الاستطابة بالروث ، وابن ماجة ١١٤/١ في الطهارة (٣١٣) .

والضحك : التدين لأنها كالطريقين لحياة الولد ورزقه . (فلا اقتحم العقبة) أي لم يشكر تلك النعم السابقة و(العقبة) استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بدل مال تشبيه بعقبة الجبل وهو ما صعب منه وكان صعوداً فإنه يلحقه مشقة في سلوكها واقتحمها : دخلها بسرعة وضغط وشدة والقحمة الشدة والسنة الشديدة ، ويقال : قحم في الأمر قحوماً رمى نفسه فيه من غير روية ، والظاهر أن (لا) للنفي وهو قول أبي عبيدة والفرأء والزجاج كأنه قال : وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً ، أي فلم يقتحم . قال الفرأء والزجاج كأنه قال : وهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً ، أي فلم يقتحم . قال الفرأء والزجاج : ذكر لا مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد لا مع الفعل الماضي حتى تعيد كقوله تعالى ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة ٣١] وإنما أفردا لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله (ثم كان من الذين آمنوا) قائماً مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ولا آمن . وقيل : هو جار مجرى الدعاء كقوله : لا نجا ولا سلم دعاء عليه أن لا يفعل خيراً . وقيل : هو تحضيض بـ (ألا) ولا نعرف أن (لا) وحدها تكون للتحضيض وليس معها الهمزة . وقيل : العقبة : جهنم لا ينجي منها إلا هذه الأعمال . قاله الحسن . وقال ابن عباس ومجاهد وكعب : جبل في جهنم . وقال الزمخشري بعد أن تنحل مقالة الفرأء والزجاج : هي بمعنى لا متكررة في المعنى لأن معنى (فلا اقتحم العقبة) فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . انتهى . ولا يتم له هذا إلا على قراءة من قرأ (فك) فعلاً ماضياً . وقرأ ابن كثير والنحويان (فك) فعلاً ماضياً (رقبة) نصب أو (أطعم) فعلاً ماضياً . وباقي السبعة (فك) مرفوعاً (رقبة) مجروراً . وإطعام مصدر منون معطوف على (فك) وقرأ علي وأبورجاء كقراءة ابن كثير إلا أنها قرأ (ذا مسغبة) بالألف . وقرأ الحسن وأبورجاء أيضاً ، (وإطعام في يوم ذا) بالألف : ونصب (ذا) على المفعول أي إنساناً ذا مسغبة ، و (يتيماً) بدل منه أو صفة ، وقرأ بعض التابعين (فك رقبة) بالإضافة (أو أطعم) فعلاً ماضياً . ومن قرأ (فك) بالرفع فهو تفسير لاقتحام العقبة ، والتقدير : وما أدراك ما اقتحام العقبة . ومن قرأ فعلاً ماضياً فلا يحتاج إلى تقدير مضاف ، بل يكون التعظيم للعقبة نفسها ، ويجيء (فك) بدلاً من (اقتحم) قاله ابن عطية ، وفك الرقبة : تخليصها من الأسر والرق . (ذا مقربة) ليجتمع صدقة وصلة . و (أو) هنا للتنويع ووصف (يوم) بذي مسغبة ، على الاتساع (ذا متربة) قال : هم المطروحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم . وقال ابن عباس : هو الذي يخرج من بيته ثم يقلب وجهه إليه مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب ، (ثم كان من الذين آمنوا) هذا معطوف على قوله (فلا اقتحم) ودخلت (ثم) لتراخي الإيمان والفضيلة لا للتراخي في الزمان ، لأنه لا بد أن يسبق تلك الأعمال الحسنة الإيمان إذ هو شرط في صحة وقوعها من الطائع ، أو يكون المعنى : ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان إذ الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات ، أو يكون التراخي في الذكر كأنه قيل : ثم اذكر أنه كان من الذين آمنوا (وتواصوا بالصبر) أي : أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان والطاعات وعن المعاصي (وتواصوا بالرحمة ، أي بالتعاطف والتراحم ، أو بما يؤدي إلى رحمة الله و (الميمنة) و (المشأمة) تقدّم القول فيهما في الواقعة . وقرأ أبو عمرو وحمة وحفص (مؤصدة) بالهمز هنا وفي الهمزة فيظهر أنه من أصدت ، قيل : ويجوز أن يكون من أوصدت ، وهمز على حد من قرأ (بالسوق) مهموزاً ، وقرأ باقي السبعة بغير همز فيظهر أنه من أوصدت . وقيل : يجوز أن يكون من أصدت وسهل الهمزة وقال الشاعر :

قَوْمًا تَعَالَجُ قَمَلًا أَبْنَاءَهُمْ وَسَلَاسِلًا حَلَقًا وَبَابًا مُؤَصَّدًا^(١)

(١) البيت من الطويل ولم نهتد لقائله انظر اللسان (وسق) .

سُورَةُ الشَّمْسِ

ترتيبها ٩١ آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝ (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝ (٥)
وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝ (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ (٩) وَقَدْ خَابَ
مَنْ دَسَّاهَا ۝ (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ (١٣)
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا ۝ (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝ (١٥)

طحا ودحا بمعنى واحد أي : بسط ووطأ ، ويأتي طحا بمعنى ذهب . قال علقمة :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ^(١)

ويقال : ما أدري أين طحا ، أي ذهب . قاله أبو عمرو . وفي أيمان العرب « ولا القمر الطاحي » . أي المشرق المرتفع . ويقال : طحا يطحو طحواً ، ويطحي طحواً ، التدسية : الإخفاء ، وأصله دسس ، فأبدل من ثالث المضاعفات حرف علة ، كما قالوا في : القصص نقص قال الشاعر :

وَأَنْتَ الَّذِي دَسَّيْتَ عَمْرًا فَأَصْبَحْتَ حَلَالِيْلُهُ مِنْهُ أَرَامِلَ ضُيْعَا^(٢)

وينشد أيضاً :

وَدَسَّيْتَ عَمْرًا فِي التُّرَابِ

دمدم عليه القبر : أطبقه ، وقال مؤرج : الدمدة : إهلاك باستئصال ، وقال في الصحاح : دمدمت الشيء : ألزقته بالأرض وطحطحته .

☞ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض

(١) صدر بيت من الطويل وعجزه :

يعيد الشباب عصر حان مشيب

.....

انظر فتح القدير ٤٤٩/٥ . اللسان (طي) .

(٢) البيت من الطويل انظر اللسان (دسا) .

وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ، كذبت ثمود بطغواها ، إذ أنبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ﴿ هذه السورة مكية . ولما تقدم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها أقسم هنا بشيء من العالم العلوي ، والعالم السفلي ، وبما هو آلة التفكير في ذلك وهو النفس ، وكان آخر ما قبلها مختماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة ، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا ، وفي ذلك بما ألهم في الآخرة إلى النار ، وفي الدنيا إلى الهلاك المستأصل . وتقدم الكلام على ضحى في سورة طه عند قوله ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه ٥٩] ، وقال مجاهد : هو ارتفاع الضوء وكماله . وقال مقاتل : حرها لقوله ﴿ ولا تضحى ﴾ [طه ١١٩] ، وقال قتادة : هو النهار كله ، وهذا ليس بجيد ، لأنه قد أقسم بالنهار . والمعروف في اللغة أن الضحى هو بعيد طلوع الشمس قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد ، وفتح الضاد إلى الزوال ، وقول مقاتل ، تفسير باللازم . وما نقل عن المبرد من أن الضحى : مشتق من الضحى ، وهو نور الشمس والألف مقلوبة من الحاء الثانية ، وكذلك الواو في ضحوه مقلوبة عن الحاء الثانية ، لعله مختلف عليه ، لأن المبرد أجّل من أن يذهب إلى هذا ، وهاتان مادتان مختلفتان لا تشق إحداها من الأخرى ، (والقمر إذا تلاها) قال الحسن والفراء . (تلاها) معناه تبعها دأباً في كل وقت لأنه يستضيء منها فهو يتلوها لذلك . وقال ابن زيد يتلوها في الشهر كله ، يتلوها في النصف الأول من الشهر بالطلوع ، وفي الآخر بالغروب ، وقال ابن سلام : في النصف الأول من الشهر ، وذلك لأنه يأخذ موضعها ويسير خلفها إذا غابت يتبعها القمر طالعاً ، وقال قتادة : إنما ذلك البدر تغيب هي فيطلع هو ، وقال الزجاج وغيره (تلاها) معناه امتلاً واستدار وكان لها تابعاً للمنزل من الضياء والقدر ، لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر . وقيل : من أول الشهر إلى نصفه في الغروب تغرب هي ثم يغرب هو ، وفي النصف الآخر يتحاوران وهو أن تغرب هي فيطلع هو . وقال الزمخشري : (تلاها) طالعاً عند غروبها أخذاً من نورها وذلك في النصف الأول من الشهر . (والنهار إذا جلاها) الظاهر أن مفعول (جلاها) هو الضمير عائد على الشمس ، لأنه عند انبساط النهار تنجلي الشمس في ذلك الوقت تمام الانجلاء ، وقيل : يعود على الظلمة ، وقيل : على الأرض وقيل : على الدنيا والذي يجلي الظلمة هو الشمس أو النهار فإنه وإن لم تطلع الشمس لا تبقى الظلمة . والفاعل بـ (جلاها) ضمير النهار . قيل : ويحتمل أن يكون عائداً على الله تعالى ، كأنه قال : والنهار إذا جلى الله الشمس ، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته . (والليل إذا يغشاها) أي يغشى الشمس فبدخوله تغيب وتظلم الأفاق وتنبه ذلك إلى الليل مجاز ، وقيل : الضمير عائد على الأرض ، والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها إلى قوله (يغشاها) عائدة على الشمس ، وكما أن النهار جلاها كان النهار هو الذي يغشاها . ولما كانت الفواصل ترتب على ألف وهاء المؤنث أتي (والليل إذا يغشاها) بالمضارع ، لأنه الذي ترتب فيه ، ولو أتي بالماضي كالذي قبله وبعده كان يكون التركيب إذا غشيها ، فتفوت الفاصلة وهي مقصودة . وقال القفال ما ملخصه : هذه الأقسام بالشمس في الحقيقة بحسب أوصاف أربعة ، ضوءها عند ارتفاع النهار وقت انتشار الحيوان وطلب المعاش . وتلو القمر لها بأخذ الضوء وتكامل طلوعها وبروزها . وغيبوتها بمجيء الليل . و (ما في قوله) (وما بناها) و (ما طحاها) و (ما سواها) بمعنى الذي ، قاله الحسن ومجاهد وأبو عبيدة واختاره الطبري . قالوا : لأن (ما) تقع على أولى العلم وغيرهم . وقيل : مصدرية قاله قتادة والمبرد والزجاج ، وهذا قول من ذهب إلى أن (ما) لا تقع على آحاد أولى العلم . وقال الزمخشري : جعلت مصدرية وليس بالوجه ، لقوله (فألهمها) وما يؤدي إليه من فساد النظم ، والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على (من) لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل : والسواء والقادر العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها ، وفي كلامهم « سبحان من سخر كن لنا » انتهى . أما قوله : « وليس بالوجه ، لقوله (فألهمها) » يعني من عود الضمير في (فألهمها) على الله تعالى ، فيكون قد عاد على مذكور وهو ما المراد به

الذي ولا يلزم ذلك ، لأننا إذا جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام ، ففي (بناها) ضمير عائد على الله تعالى ، أي وبناها هو أي الله تعالى كما إذا رأيت زيدا قد ضرب عمراً ، فقلت : عجبت مما ضرب عمراً تقديره من ضرب عمرو هو كان حسناً فصيحاً جائزاً ، وعود الضمير على ما يفهم من سياق الكلام كثير . وقوله : وما يؤدي إليه من فساد النظم « ليس كذلك » ، ولا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ذكر . وقوله : « إنما أوثرت إلخ » لا يراد به (ما) ولا بمن الموصولتين معنى الوصفية ، لأنها لا يوصف بهما بخلاف الذي فاشتراكهما في أنها لا يؤديان معنى الوصفية موجود فيها فلا ينفرد به ما دون من . وقوله « وفي كلامهم » إلخ تأوله أصحابنا على أن « سبحان » علم و « ما » مصدرية ظرفية . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) الأمر في نصب (إذا) معضل لأنك إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجز فتقع في العطف على عاملين ، وفي نحو قولك : مررت أمس بزيد واليوم عمرو . وأما أن تجعلهن للقسم فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه ؟ (قلت :) الجواب فيه أن واو القسم مطرح معه إبراز الفعل اطراحاً كلياً فكان لها شأن خلاف شأن الباء حيث أبرز معها الفعل وأضمر ، فكانت الواو قائمة الفعل ، والباء سادة مسدداً معاً ، والواوات العواطف نواصب عن هذه ، فحقهن : أن يكن عوامل على الفعل والجار جميعاً كما تقول : ضرب زيد عمراً وبكر خالداً ، فترفع بالواو تنصب لقيامها مقام ضرب الذي هو عاملهما . انتهى . أما قوله : « وفي واوات العطف فتنصب بها وتجز » فليس هذا بالمختار ، أعني أن يكون حرف العطف عاملاً لقيامه مقام العامل ، بل المختار أن العمل إنما هو للعامل في المعطوف عليه ثم إننا لانشاء حجة في ذلك ، وقوله : « فتقع في العطف على عاملين » ليس ما في الآية من العطف على عاملين وإنما هو من باب عطف اسمين ، مجرور منصوب ، على اسمين مجرور ومنصوب ، فحرف العطف لم ينب مناب عاملين ، وذلك نحو قولك : أثمر بزيد قائماً وعمرو جالساً ، وقد أنشد سيبويه في كتابه (١) :

فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحاً وَلَا مُسْتَنْكَرٌ أَنْ تُعَقَّرَ (٢)

فهذا من عطف مجرور ومرفوع على مجرور ومرفوع ، والعطف على عاملين فيه أربع مذاهب ، وقد نسب الجواز إلى سيبويه . وقوله : « في نحو قولك مررت أمس بزيد واليوم عمرو وهذا المثال مخالف لما في الآية بل وزان ما في الآية مررت بزيد أمس وعمرو واليوم » ونحن نجيز هذا ، وأما قوله : على استكراه فليس كما ذكر ، بل كلام الخليل يدل على المنع . قال الخليل في قوله عز وجل ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجل وما خلق الذكر والأنثى ﴾ [الليل ١ ، ٢ ، ٣] الواوان الأخيرتان ليستا بمنزلة الأولى ولكنهما الواوان اللتان يضمنان الأسماء إلى الأسماء في قولك : مررت بزيد وعمرو والأولى بمنزلة الباء والتاء . انتهى وأما قوله : « إن واو القسم مطرح معه إبراز الفعل اطراحاً كلياً » فليس هذا الحكم مجمعاً عليه ، بل قد أجاز ابن كيسان التصريح بفعل القسم مع الواو ، فتقول : أقسم أو أحلف والله لزيد قائم ، وأما قوله « والواوات العواطف نواصب عن هذه » إلخ فمبني على أن حرف العطف عامل لنيابته مناب العامل وليس هذا بالمختار ، والذي نقوله إن المعضل هو تقرير العامل في إذا بعد الإقسام كقوله (والنجم إذا هوى) (والليل إذا دبر) (والصبح إذا أسفر) (والقمر إذا تلاها) (والليل إذا يغشى) وما أشبهها فإذا ظرف مستقبل لا جائز أن يكون العالم فيه فعل القسم المحذوف لأنه فعل إنشائي فهو في الحال يناهض أن يعمل في المستقبل لإطلاق زمان العامل زمان المعمول ، ولا جائز أن يكون ثم مضاف محذوف

(١) يريد رحمه الله أن سيبويه جعل (ولا مستنكر أن تعقرا) من العطف على معمول عامل واحد ، وبيانه : أن سيبويه جوز الجر حملاً على (معروف) فيكون مستنكر خبراً عن الرد الذي هو اسم ليس ، وتأويل المسببية بين مستنكر ، والرد أن الرد ملتبس بالخیل ، وكأنه منها وأن تعقرا متصل بضمير الخيل ، فكانه اتصل بضمير الرد حيث كان من الخيل ، وأن تعقرا فاعل بمستنكر أيضاً . فالعطف مع الجر على معمول عامل واحد وهو الباء في بمعروف .

(٢) البيت من الطويل للناطقة الجعدي انظر الكتاب ٣٢/١ الجمهرة (١٤٨) شرح أبيات سيبويه للسيرا في ٢٣٨/١ .

أقيم المقسم به مقامه ، أي وطلوع النجم ومحجي الليل ، لأنه معمول لذلك الفعل فالطلوع حال ولا يعمل فيه المستقبل ضرورة أن زمان المعمول زمان العامل ، ولا جائز أن يعمل فيه نفس المقسم به ، لأنه ليس من قبيل ما يعمل سيما إن كان جزءاً ، ولا جائز أن يقدر محذوف قبل الظرف فيكون قد عمل فيه ويكون ذلك العامل في موضع الحال ، وتقديره : والنجم كائناً إذا هوى ، والليل كائناً إذا يغشى ، لأنه لا يلزم كائناً أن يكون منصوباً بالعامل ولا يصح أن يكون معمولاً لشيء مما فرضناه أن يكون عاملاً وأيضاً فقد يكون القسم به جثة وظروف الزمان لا تكون أحوالاً عن الجثث كما لا تكون أخباراً .

(ونفس وما سواها) اسم جنس ويدل على ذلك ما بعده من قوله (فألهما) وما بعده ، وتسويتها إكمال عقلها ونظرها ، ولذلك ارتبط به (فألهما) لأن الفاء تقتضي الترتيب على ما قبلها من التسوية التي هي لا تكون إلا بالعقل . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) لم نكرت النفس ؟ (قلت :) فيه وجهان : أحدهما : أن يريد نفساً خاصة من النفوس وهي نفس آدم ، كأنه قال : وواحدة من النفوس ، انتهى . وهذا فيه بعده ، للأوصاف المذكورة بعدها فلا تكون إلا للجنس ، ألا ترى إلى قوله (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) كيف تقتضي التغير في المزكي وفي المدسي . (فألهما) قال ابن جبير : ألزمها ، وقال ابن عباس : عرفها ، وقال ابن زيد : بين لها . وقال الزجاج : وفقها للتقوى . (وألهما فجورها) أي خذلها ، وقيل : عرفها ، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور واكتساب التقوى . وقال الزمخشري : ومعنى إلهام الفجور والتقوى إفهامها وإعقابها وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منها ، بدليل قوله (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليها والتزكية الإغناء والقدسية النقص والإخفاء بالفجور انتهى . وفيه دسياسة الاعتزال (قد أفلح من زكاها) قال الزجاج وغيره : هذا جواب القسم ، وحذفت اللام لطول الكلام ، والتقدير : لقد أفلح . وقيل : الجواب محذوف ، تقديره : لتبعثن ، وقال الزمخشري : تقديره : ليد من الله عليهم . أي على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله - ﷺ - كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً . وأما (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لقوله (فألهما فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء . انتهى . وزكاؤها ، طهورها وغاؤها بالعمل الصالح . ودساها : أخفاها وحقرها بعمل المعاصي . والظاهر : أن فاعل (زكى) و (دسى) ضمير يعود على (من) وقاله الحسن وغيره . ويجوز أن يكون ضمير الله تعالى وعاد الضمير مؤنثاً باعتبار المعنى من مراعاة التأنيث . وفي الحديث ما يشهد لهذا التأويل : « كان عليه السلام إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » . وقال الزمخشري : (وأما) قول من زعم أن الضمير في (زكى) و (دسى) لله تعالى وأن تأنيث الراجع إلى (مَنْ) لأنه في معنى النفس فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدرأ هو بريء منه ومتعال عنه ، ويحيون ليايهم في تحمل فاحشة ينسبونها إليه تعالى . انتهى . فجري على عادته في سبب أهل السنة . وقائل ذلك هو بحر العلم عبد الله بن عباس والرسول - ﷺ - يقول « وزكها أنت خير من زكاها » . وقال تعالى (دساها) في أهل الخير بالرياء وليس منهم وحين قال (وتقواها) أعقبه بقوله (قد أفلح من زكاها) ولما قال (وقد خاب من دساها) أعقبه بأهل الجنة ، ولما ذكر تعالى خيبة من دسى نفسه ذكر فرقة فعلت ذلك ليعتبر بهم (بطغواها) الباء عند الجمهور سببية ، أي كذبت ثمود نبيها بسبب طغيانها . وقال ابن عباس : الطغوى : هنا العذاب كذبوا به حتى نزل بهم لقوله ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ [الحاقة ٥] ، وقرأ الجمهور (بطغواها) بفتح الطاء ، وهو مصدر من الطغيان ، قلبت فيه الباء وأوَّافصلاً بين الاسم وبين الصفة . قالوا فيها صرنا وحدنا ، وقالوا في الاسم تقوى وشروى . وقرأ الحسن ومحمد بن كعب وحماة بن سلمة بضم الطاء ، وهو مصدر كالرجعي . وكان قياسها الطغيا بالياء كالسُّقيا لكنهم شذوا فيه (إذا نبعث) أي خرج لعقر الناقة بنشاط وحرص . والناصب لـ (إذ) (كذبت) و (أشقاها) قدار بن سالف وقد يراد به الجماعة ، لأن أفعال التفضيل إذا أضيف إلى معرفة جاز إفراده وإن عني به جمع . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكونوا جماعة

والتوحيد لتسويتك في أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث . وكان يجوز أن يقال أشقوها انتهى . فأطلق الإضافة . وكان ينبغي أن يقول إلى معرفة لأن إضافته إلى نكرة لا يجوز فيه إذ ذاك إلا أن يكون مفرداً مذكراً كحاله إذا كان بـ (من) والظاهر أن الضمير في (لهم) عائد على أقرب مذكور وهو (أشقاها) إذا أريد به الجماعة . ويجوز أن يعود على (ثمود) (رسول) هو صالح عليه السلام . وقرأ الجمهور (ناقة الله) بنصب التاء ، وهو منصوب على التحذير مما يجب إضمار عامله ، لأنه قد عطف عليه فصار حكمه بالعطف حكم المكرر ، كقولك : الأسد الأسد أي : احذروا ناقة الله (وسقيها) فلا تفعلوا ذلك . (فكذبوه) الجمهور على أنهم كانوا كافرين وروى : « أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابعوا صالحاً بمدة ثم كذبوا وعقروا » . وأسند العقرب للجماعة لكونهم راضين به ومتماثلين عليه . وقرأ الجمهور (قدمدم) بميم بعد دالين . وابن الزبير (فدهم) بهاء بينهما . أي أطبق عليهم العذاب مكرراً ذلك عليهم (بذنبهم) فيه تخويف من عاقبة الذنوب (فسواها) قيل : فسوى القبيلة في الهلاك ، عاد عليها بالتأنيث كما عاد في (بطغواها) ، وقيل : الدمدم ، أي سواها بينهم فلم يفلت منهم صغيراً ولا كبيراً . وقرأ أبي والأعرج ونافع وابن عامر (فلا يخاف) بالفاء وباقي السبعة (ولا) بالواو ، والضمير في (يخاف) الظاهر عوده إلى أقرب مذكور وهو (ربهم) أي لأدرك عليه تعالى في فعله بهم ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ [الأنبياء ٢٣] قاله ابن عباس والحسن ، وفيه ذم لهم وتعقبة لأثارهم . وقيل : يحتمل أن يعود على صالح أي لا يخاف عقبي هذه الفعلة بهم إذ كان قد أنذرهم وحذرهم . ومن قرأ (ولا يحتمل الضمير الوجهين) . وقال السدي والضحاك ومقاتل والزجاج وأبو علي : الواو والحاء ، والضمير في (يخاف) عائد على (أشقاها) أي انبعث لعقربها وهو لا يخاف عقبي فعله لكفره وطغيانه والعقبي : خاتمة الشيء وما يجيء من الأمور بعقبه وهذا فيه بعد لطول الفصل بين الحال وصاحبها .

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝^(١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝^(٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝^(٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝^(٤) فَمَا مَنَّ مَنْ أَعْطَى وَالْقَى ۝^(٥)
وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ۝^(٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝^(٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝^(٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝^(٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝^(١٠)
وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝^(١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝^(١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝^(١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝^(١٤) لَا يَصْلَاهَا
إِلَّا الْأَشْقَى ۝^(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝^(١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝^(١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى ۝^(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝^(١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝^(٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝^(٢١)

هذه السورة مكية ، وقال علي بن أبي طلحة مدنية ، وقيل : فيها مدني . ولما ذكر فيها قبلها ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس ٩ ، ١٠] ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح وما تحصل به الخيبة ، ثم حذر النار وذكر من يصلها ومن يتجنبها . ومفعول (يغشى) محذوف فاحتمل أن يكون (النهار) كقوله ﴿ يغشى الليل والنهار ﴾ [الأعراف ٥٤] وأن يكون الشمس كقوله (والليل إذا يغشاها) ، وقيل : الأرض وجميع ما فيها بظلامه . و (تجلّى) انكشف وظهر إما بزوال ظلمة الليل ، وإما بنور الشمس . أقسم بالليل الذي فيه كل حيوان يأوي إلى مأواه ، وبالنهار الذي تنتشر فيه ، وقال الشاعر :

يُجَلَّى السُّرَى مِنْ وَجْهِهِ عَنْ صَفِيحَةٍ عَلَى السَّيْرِ مُشْرَاقٌ كَثِيرُ شُحُومِهَا

وقرأ الجمهور (تجلّى) فعلاً ماضياً فاعله ضمير (النهار) ، وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير (تتجلّى) ببناءين يعني الشمس . وقرىء (تجلّى) بضم التاء وسكون الجيم ، أي الشمس (وما خلق) (ما) مصدرية أو بمعنى الذي والظاهر : ععم الذكر والأنثى . وقيل : من بني آدم فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته . وقال ابن عباس والكلبي والحسن : هما آدم وحواء . والثابت في مصاحف الأمصار والمتواتر ، (وما خلق الذكر والأنثى) وما ثبت في الحديث من قراءة (والذكر والأنثى) نقل آحاد مخالف للسواد فلا يعد قرأناً ، وذكر ثعلب : أن من السلف من قرأ (وما خلق الذكر) بجر الذكر . وذكرها الزمخشري عن الكسائي وقد خرجوه على البدل من (ما) على تقدير : والذي خلق الله . ، وقد يخرج على توهم المصدر أي وخلق الذكر والأنثى ، كما قال الشاعر :

تَطُوفُ الْعُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَمَا طَافَ بِالْبَيْعَةِ الرَّاهِبُ^(١)

(١) البيت من المتقارب ذكره السمين في الدر المنصور .

بجر الراهب على توهم النطق بالمصدر ، أي كطواف الراهب بالبيعة . (إن سعيكم) أي مساعيكم (لشتى)
 لمتفرقة مختلفة . ثم فصل هذا السعي (فأما من أعطى) الآية روي : « أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
 كان يعتق ضعفة عبيده الذين أسلموا وينفق في رضا رسول الله - ﷺ - ماله وكان الكفار بضده » . قال عبد الله بن أبي
 أوفى : نزلت هذه السورة في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأبي سفيان بن حرب . وقال السدي : نزلت في أبي
 الدحداح الأنصاري بسبب ما كان يعلق في المسجد صدقة ويسبب النخلة التي اشتراها من المنافق بحائط له وكان
 الرسول - ﷺ - ساوم المنافق في شرائها بنخلة في الجنة وذلك بسبب الأيتام الذين كانت النخلة تشرف على بيتهم فيسقط منها
 الشيء فتأخذ الأيتام فمنعهم المنافق فأبى عليه المنافق فجاء أبو الدحداح وقال يا رسول الله أنا أشتري النخلة التي في الجنة
 بهذه » . وحذف مفعولي (أعطى) إذ المقصود الثناء على المعطي دون تعرض للمعطي والعطية . وظاهره بذل المال في
 واجب ومندوب ومكرمة . وقال قتادة : أعطى حق الله . وقال ابن زيد : أنفق ماله في سبيل الله . (واتقى) قال ابن
 عباس : اتقى الله . وقال مجاهد : واتقى البخل وقال قتادة : واتقى ما نهى عنه . (وصدق بالحسنى) صفة تأنيث
 الأحسن . فقال ابن عباس وعكرمة وجماعة : هي الحلف في الدنيا الواردة وعد الله تعالى . وقال مجاهد والحسن وجماعة :
 الجنة ، وقال جماعة : الثواب . وقال السلمي وغيره : لا إله إلا الله . (فسيسره اليسرى) أي نهيه للحالة التي هي أيسر
 عليه وأهون وذلك في الدنيا والآخرة . وقابل (أعطى) بـ (بخل) واتقى بـ (استغنى) لأنه زهد فيما عند الله بقوله
 واستغنى (اليسرى) وهي الحالة السيئة في الدنيا والآخرة . وقال الزمخشري : فسنبذله ونمنعه الألفاظ حتى تكون الطاعة
 أعسر شيء عليه وأشد كقوله (يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) [الأنعام ١٢٥] إذ سمي طريقة الخير
 باليسرى ، لأن عاقبتها اليسر وطريقة الشر العسر ، لأن عاقبتها العسر ، أو أراد بهما طريقي الجنة والنار، أي فسنديهما في
 الآخرة للطريقين . انتهى . وفي أول كلامه دسيئة الاعتزال . وجاء (فسيسره اليسرى) على سبيل المقابلة لقوله
 (فسيسره اليسرى) واليسرى لا تيسر فيها ، وقد يراد بالتيسير التهيئة وذلك يكون في اليسرى والعسرى ، (وما يغني)
 يجوز أن تكون (ما) نافية واستفهامية أي : شيء يغني عنه ماله (إذا تردى) تفعل من الردى أي هلك قاله مجاهد ، وقال
 قتادة وأبو صالح (تردى في جهنم أي سقط من حافاتها . وقال قوم : تردى بأكفانه من الردى . وقال مالك بن الذئب :

وَحُطَّ بِأَطْرَافِ الْأُسْنَةِ مَضْجَعِي وَرَدَّا عَلَى عَيْنِي فَضْلَ رِدَائِيَا^(١)

وقال آخر :

نَصِيئُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّهُ رِدَاءُ إِنْ تُلَوِّ فِيهِمَا وَحْنُوطُ^(٢)

(إن علينا للهدى) التعريف بالسبيل ومنحهم الإدراك كما قال تعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل ٩] وقال
 الزمخشري : إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع ، (وإن لنا للآخرة والأولى) أي ثواب
 الدارين لقوله تعالى ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [العنكبوت ٢٧] ، وقرأ ابن الزبير وزيد بن
 عليّ وطلحة وسفيان بن عيينة وعبيد بن عمير (تتلظى) بتاءين والبرزى بتاء مشددة والجمهور بتاء واحدة . وقال
 الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتيهما
 المتناقضتين . فقل (الأشقى) وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له . وقال (الأتقى) وجعل مختصاً بالنجاة وكأن

(١) البيت من الطويل انظر الجمهرة (٦١٠) .

(٢) البيت من الطويل ذكره السمين في الدر المنصور .

الجنة لم تخلق إلا له . وقيل : هما أبوجهل أو أمية بن خلف وأبوبكر الصديق رضي الله تعالى عنه يتزكى من الزكاة أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو يتفعل من الزكاة . انتهى . وقرأ الجمهور (يتزكى) مضارع تزكى . وقرأ الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم بإدغام التاء في الزاي و (يتزكى) في موضع الحال فموضعه نصب ، وأجاز الزمخشري أن لا يكون له موضع من الإعراب لأنه جعله بدلاً من صلة الذي وهو (يؤق) قاله . وهو إعراب متكلف وجاء (تُجْزَى) مبنياً للمفعول لكونه فاصلة وكان أصله نجزيه إياها أو نجزيها إياه . وقرأ الجمهور (إلا ابتغاء) بنصب الهمزة وهو استثناء ، لأنه ليس داخلاً في (من نعمة) وقرأ ابن وثاب بالرفع على البدل في موضع نعمة لأنه رفع ، وهي لغة تميم ، وأنشد بالوجهين قول بشر بن أبي حازم :

أُضْحَتْ خَلَاءً قَفَّاراً لَا أُنِيسَ بِهَا إِلَّا الْجَادِرُ وَالظُّلُمَاتُ تَخْتَلِفُ^(١)

وقال الراجز في الرفع :

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أُنِيسُ إِلَّا الْيَعَافِيرُ وَإِلَّا الْعَيْسُ^(٢)

وقرأ ابن أبي عبله (إلا ابتغاء) مقصوراً ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (ابتغاء وجه) الله مفعولاً له على المعنى ، لأن معنى الكلام لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة . انتهى . وهذا أخذه من قول الفراء ، قال الفراء : ونصب على تأويل ما أعطيك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله . (ولسوف يرضى) وعد بالثواب الذي يرضاه . وقرأ الجمهور (يَرْضَى) بفتح الياء وقرئ بضمها ، أي يرضى فعله يرضاه الله ويمجازه عليه .

(١) البيت من البسيط انظر الكشف ٦٠٩/٤ .

(٢) البيت من الرجز لجران بن العود عامر بن الحرث انظر الصبان ١٤٧/٢ ، الكشف ٦١٠/٤ .

سورة الضحى مكية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١

سجا الليل : أدبر ، وقيل : أقبل ، ومنه :

يَا حَبْدَا الْقَمْرَاءَ وَاللَّيْلُ السَّاجُ وَطَرَقُ مِثْلُ مِلَاءِ النَّسَاجِ^(١)

وبحر ساج : ساكن ، قال الأعشى :

وَمَا ذُنُبَنَا إِنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمِّكُمْ وَبَحْرُكَ سَاجٍ لَا يُوَارِي الدَّعَامِصَا^(٢)

وطرف ساج : غير مضطرب بالنظر . وقال الفراء : سجا الليل : ألم وركد . وقال ابن الأعرابي : سحا الليل : اشتد ظلامه . ﴿ والضحى ، والليل إذا سجدى ، ما ودَّعَكَ ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيها قبلها (وسجنها الأتقى) وكان سيد الأتقين رسول الله - ﷺ - ذكر تعالى هنا نعمه عليه . وقرأ الجمهور (ما ودَّعَكَ) بتشديد الدال . وعروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبله بخفها ، أي ما تركك . واستغنت العرب في فصيح كلامها بـ (ترك) عن ودع ووذر ، وعن اسم فاعلها بتارك ، وعن اسم مفعولها بمتروك ، وعن مصدرهما بالترك . وقد سمع ودع ووذر ، قال أبو الأسود :

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَّعَهُ

وقال آخر :

وَتَمَّ وَدَّعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ فَرَأَيْتَ أَطْرَافَ الْمُتَقَفَّةِ السُّمْرِ^(٣)

(١) البيت من الرجز للحارثي انظر اللسان (سجا) .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوان (١٠٠) اللسان (سجا) .

(٣) البيت من الطويل انظر الكشاف (٦١١/٤) .

والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك . (وما قل) ما أبغضك . واللغة الشهيرة في مضارع (قل يلقى) وطىء تعلّى بفتح العين . وحذف المفعول اختصاراً في (قل) وفي (فأوى) وفي (فهدى) وفي (فأغنى) إذ يعلم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول - ﷺ - قال ابن عباس وغيره : « أبطأ الوحي مرة على الرسول - ﷺ - وهو بمكة حتى شق ذلك عليه فقالت أم جميل امرأة أبي لهب يا محمد ما أرى شيطانك إلا تركك فنزلت » . وقال زيد بن أسلم إنما احتبس عنه جبريل عليه السلام لجر وکلب كان في بيته . (وللآخرة خير لك من الأولى) يريد الدارين . قاله ابن إسحاق وغيره ويحتمل أن يريد حالتيه قبل نزول السورة وبعدها وعده تعالى بالنصر والظفر قاله ابن عطية اهتماماً . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) كيف اتصل قوله (وللآخرة خير لك من الأولى) بما قبله ؟ (قلت :) لما كان في ضمن نفي التوديع والقلبي أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنت حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته . (ولسوف يعطيك ربك فترضى) قال الجمهور : ذلك في الآخرة . وقال ابن عباس : رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار ، وقال أيضاً : رضاه أنه وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم ، وقيل : في الدنيا بفتح مكة وغيره . والأولى أن هذا موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الظفر ، ولما ادخر له من الثواب . واللام في (وللآخر) لام ابتداء أكدت مضمون الجملة ، وكذا في (ولسوف) على إضمار مبتدأ ، أي ولأنت سوف يعطيك . ولما وعده هذا الموعد الجليل ذكره بنعمه عليه في حال نشأته . (ألم يجدك) يعلمك (يتيماً) توفي أبوه - عليه الصلاة والسلام - وهو جنين أتت عليه ستة أشهر ، وماتت أمه - عليه الصلاة والسلام - وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه أبو طالب فأحسن تربيته ، وقيل : لجعفر الصادق : لم يتم النبي - ﷺ - من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق ، قال الزمخشري : ومن يدع التفاسير أنه من قولهم : درة يتيمة وأن المعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فأواك انتهى . وقرأ الجمهور (فأوى) رباعياً . وأبو الأشهب العقيلي (فأوى) ثلاثياً بمعنى رحم . تقول أويت لفلان أي رحمته . ومنه قوله الشاعر :

أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ إِنَّهُ لِنَفْسِي قَدْ طَالَبْتُ غَيْرَ مَنِيلٍ^(١)

(ووجدك ضالاً) لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك . قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة ثم رده الله إلى جده عبد المطلب . وقيل : ضلاله من حليلة مرضعته ، وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب . ولبعض المفسرين أقوال فيه بعض ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور (ووجدك) أي وجد رهطك ضالاً فهداه بك . ثم أقول على حذف مضاف نحو ﴿ وأسأل القرية ﴾ [يوسف ٨٢] ، وقرأ الجمهور (عائلاً) أي فقيراً ، قال جرير :

اللَّهُ نَزَّلَ فِي الْكِتَابِ فَرِيضَةً لِّابْنِ السَّبِيلِ وَلِلْفَقِيرِ الْعَائِلِ^(٢)

كرر لاختلاف اللفظ . وقرأ البيهقي (عَيْلاً) كسيد بتشديد الياء المكسورة . ومنه قول أجيحة بن الحلاج :

(١) البيت من الطويل انظر حاشية الدسوقي على المغني ٥١/٢ .

(٢) البيت من الكامل انظر ديوانه ٧٣٧/٢ .

وَمَا يَذْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَذْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يِعْيِلُ^(١)

عال : افتقر . وأعال : كثر عياله . قال مقاتل : فأغنى رضاك بما أعطاك من الرزق . وقيل : أغناك بالقناعة والصبر ، وقيل : بالكفاف ، ولما عدد عليه هذه النعم الثلاث وصاه بثلاث كأنها مقابلة لها ، (فلا تقهر) قال مجاهد : لا تحتقره ، وقال ابن سلام : لا تستزله ، وقال سفيان : لا تظلمه بتضييع ماله . وقال الفراء لا تمنعه حقه . والقهر : هو التسلط بما يؤدي . وقرأ الجمهور (تقهر) بالقاف ، وابن مسعود وإبراهيم التيمي بالكاف بدل القاف ، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور . (وأما السائل) ظاهره المستعطي (فلا تنهر) أي تزجره لكن أعطه أو رده رداً جميلاً . وقال قتادة : لا تغلظ عليه وهذه في مقابلة (ووجدك عائلاً فأغنى) فالسائل كما قلنا المستعطي ، وقاله الفراء وجماعة . وقال أبو الدرداء والحسن وغيرهما : السائل هنا : السائل عن العلم والدين لا سائل المال فيكون بإزاء (ووجدك ضالاً فهدى) ، (وأما بنعمة ربك فحدث) ، قال مجاهد والكلبي : معناه : بث القرآن وبلغ ما أرسلت به ، وقال محمد بن إسحاق : هي النبوة ، وقال آخرون : هي عوم في جميع النعم . وقال الزمخشري : التحديث بالنعم شكرها وإشاعتها ، يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهدية والإغناء وما عدا ذلك . انتهى . ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة ، أمره بثلاثة فذكر اليتيم أولاً ، وهي البادية ، ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف ما امتن به عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة ، لأنه بعد اليتيم هو زمان التكليف وهو - عليه الصلاة والسلام - معصوم من اقتراف ما لا يرضى الله عز وجل في القول والفعل والعقيدة ، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم ، وحالة التكليف . وفي الآخر ترقى إلى الأشرف فهما مقصدان في الخطاب .

سورة الانشراح مكية وهي ثمانى آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ
الَّذِى أَنتَقِصَ ظَهْرَكَ ۚ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۚ

هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، وشرح الصدر ، تنويره بالحكمة ، وتوسيعه لتلقي ما يوحى إليه .
قاله الجمهور ، والأولى العموم لهذا ولغيره من مقاساة الدعاء إلى الله تعالى وحده واحتمال المكارة من إذابة الكفار . وقال ابن
عباس وجماعة : إشارة إلى شق جبريل - عليه السلام - صدره في وقت صغره . ودخلت همزة الاستفهام على التقي فأفاد
التقرير على هذه النعمة وصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك . ولذلك عطف عليه الماضي وهو (ووضعنا) وهذا نظير قوله
﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت ﴾ [الشعراء ١٨] وقرأ الجمهور (نشرق) بجزم الحاء لدخول الجازم ، وقرأ أبو جعفر
بفتحها . وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه ألم نشرق فأبدل من النون ألفاً ثم حذفها تخفيفاً فيكون مثل ما أنشده أبو زيد
في نواته من قول الراجز :

مِنْ أَيِّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفِرُّ أَيُّومٌ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمٌ قُدِرَ^(١)

وقال الشاعر :

أَضْرَبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقُهَا ضَرَبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسُ الْفَرَسِ^(٢)

وقال قراءة مردولة . وقال الزمخشري : وقد ذكرها عن أبي جعفر المنصور وقالوا لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها
فظن السامع أنه فتحها . انتهى . ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله ، وهو أنه لغة لبعض العرب ، حكاها اللحياني
في نواته ، وهي الجزم بـ (لن) والنصب بـ (لم) عكس المعروف عند الناس . وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح
المختار بن أبي عبيد وهو القائم بثار الحسين بن علي رضي الله تعالى عنها :

قَدْ كَانَ سَمُكَ الْهُدَى يَنْهَدُ قَائِمُهُ حَتَّى أُتِيحَ لَهُ الْمُخْتَارُ فَاَنْعَمَدَا
فِي كُلِّ مَا هَمَّ أَمْضَى رَأْيُهُ قَدْماً وَلَمْ يُشَاوِرْ فِي إِقْدَامِهِ أَحَدًا^(٣)

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (قدر) المغني ٢٨١/١ المحتسب ٣٦٦/٢ الخصائص ٩٥/٣ .

(٢) البيت من المنسرح لطرفة ، انظر ديوانه ١٩٠ الخصائص ١٢٦/٢ المحتسب ٢٦٧/٢ .

(٣) البيتان من البسيط ذكرهما السمين في الدر المصون .

بنصب يشاور هذا محتمل للتخريجين ، وهو أحسن مما تقدم . (ووضعتنا عنك وزرك) كناية عن عصمته من الذنوب ، وتطهيره من الأدناس . عبر عن ذلك بالخط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك كما يقول القائل : رفعت عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر منه زيارة على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه . وقال أهل اللغة : أنقض الحمل ؛ ظهر الناقه إذا سمعت له صرياً من شدة الحمل ، وسمعت نقيض الرجل : أي صريه ، قال عباس بن مرداس :

وَأَنْقَضَ ظَهْرِي مَا تَطَوَّيْتُ مِنْهُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ مُشْفِقاً مُتَحَنِّناً^(١)

وقال جميل :

وَحَتَّى تَدَاعَتْ بِالنَّقِيضِ جِبَالُهُ وَهَمَّتْ بِوَأْيِ زُورَةٍ إِنْ نَحُطَّهَا^(٢)

والنقيض : صوت الانقضاض والانفكاك . (ورفعتناك ذكرك) هو أن قرنه بذكره تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخب ، وفي غير موضع من القرآن ، وفي تسميته نبي الله ورسول الله وذكره في كتب الأولين ، والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به . وقال حسان :

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبُوءَةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُورٌ يُلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَاهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذَّنُ أَشْهَدُ^(٣)

وتعديد هذه النعم عليه - ﷺ - يقتضي أنه تعالى كما أحسن إليك بهذه المراتب ، فإنه يحسن إليك بظفرك على أعدائك ، وينصرك عليهم ، وكان الكفار أيضاً يعيرون المؤمنين بالفقر فذكره هذه النعم وقوى رجاءه بقوله (فإن مع العسر يسراً) أي : مع الضيق فرجاً ثم كرر ذلك مبالغة في حصول اليسر . ولما كان اليسر يعتقب العسر من غير تطاول أزمان جعل كأنه معه وفي ذلك تبشير الرسول - ﷺ - بحصول اليسر عاجلاً ، والظاهر : أن التكرار للتوكيد كما قلنا . وقيل : تكرر اليسر باعتبار المحل فيسر في الدنيا ويسر في الآخرة . وقيل : مع كل عسر يسر إن من حيث إن العسر معرف بالعهد ، واليسر منكر فالأول غير الثاني ، وفي الحديث : « لن يغلب عسر يسرين » وضم سين (العسر) و (يسرا) فيهن ابن وثاب وأبو جعفر وعيسى . وسكنهما الجمهور . ولما عدد تعالى نعمه السابقة - ﷺ - ووعدته بتيسير ما عسره أمره بأن يدأب في العبادة إذا فرغ من مثلها ولا يفتّر . وقال ابن مسعود : فرغت من فرضك فانصب في التنفل عبادة لربك . وقال أيضاً ، فانصب في قيام الليل . وقال مجاهد : قال : فإذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك ، وقال ابن عباس وقتادة : فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، وقال الحسن : فإذا فرغت من الجهاد فانصب في العبادة . ويعترض قوله هذا بأن الجهاد فرض بالمدينة . وقرأ الجمهور (فَرِغْتَ) بفتح الراء ، وأبو السمال بكسرها ، وهي لغة ، قال الزخشي : ليست بفصيحة ، وقرأ الجمهور (فانصب) بسكون الباء خفيفة ، وقوم بشدها مفتوحة من الأنصاب . وقرأ آخرون من الإمامية (فانصب) بكسر الصاد بمعنى إذا فرغت من الرسالة فانصب خليفة . قال ابن عطية : وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم انتهى . وقرأ الجمهور (فارغب) أمر رغب ثلاثياً أي اصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه . وقرأ أبو زيد بن علي وابن أبي عبلة (فرغت) أمر من رغب بشد الغين .

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٤٦١ .

(٢) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/٤٦١ .

(٣) البيتان من الطويل انظر ديوانه (٥٤) .

سورة التين مكية وهي ثمانى آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

التين هو الفاكهة المعروفة واسم جبل وتأتي أقوال المفسرين فيه ﴿ والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية . ولما ذكر فيها قبلها من كمله الله خلقاً وخلقاً وفضله على سائر العالم ذكر هنا حالة من يعاديه وأنه يرده أسفل سافلين في الدنيا والآخرة ، وأقسم تعالى بما أقسم به أنه خلقه مهياً لقبول الحق ، ثم نقله كما أراد إلى الحالة السافلة ، والظاهر : أن (التين والزيتون) هما المشهوران بهذا الاسم . وفي الحديث : « مدح التين وأنها تقطع البواسير^(١) وتنفع من النقرس » . وقال تعالى ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ [المؤمنون ٢٠] قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والنخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي . وقال كعب وعكرمة : أقسم تعالى بمنابتهما . فإن التين ينبت كثيراً بدمشق والزيتون بإيليا فأقسم بالأرضين ، وقال قتادة : هما جبلان بالشام ، على أحدهما دمشق ، وعلى الآخر بيت المقدس . انتهى . وفي شعر النابغة ذكر التين وشرح بأنه جبل مستطيل ، قال النابغة :

صَهْبُ الظَّلَالِ أَبَيْنَ التِّينِ عَنْ عَرَضٍ يُزْجِينَ غَيْمًا قَلِيلًا مَأْوُهُ شَبَهَا

وقيل : هما مسجدان ، واضطربوا في مواضعهما اضطراباً كثيراً ضربنا عن ذلك صفحاً ولم يختلف في (طور سينا) أنه جبل بالشام هو الذي كلم الله تعالى موسى - عليه السلام - ومعنى (سينين) ذو الشجر . وقال عكرمة : حسن مبارك . وقرأ الجمهور (سينين) وابن أبي اسحاق وعمرو بن ميمون وأبورجاء بفتح السين ، وهي لغة بكر وتميم . قال

(١) أخرجه أبو نعيم في الطب والعلبي من حديث أبي ذر ، وفي إسناده من لا يعرف انظر تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر على الكشاف ٧٧٣/٤ . وأخرجه البخاري في التفسير ٥٠٤/٤ والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في السواك ، عن معاذ رفعه الزيتون من شجرة مباركة (قال الحافظ ابن حجر : إسناده واه .

الزخشي : ونحو سينون بيرون في جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء تحريك النون بحركات الإعراب انتهى .
 وقرأ عمر بن الخطاب وعبد الله وطلحة والحسن (سيناء) بكسر السين، والمد ، وعمر أيضاً وزيد بن علي بفتحها والمد ،
 وهو لفظ سرياني اختلفت بها لغات العرب . وقال الأخفش (سينين) شجر واحد سينينة . (وهذا البلد الأمين) هو مكة
 و (أمين) للمبالغة ، أي آمن من فيه ومن دخله ، وما فيه من طير . وحيوان ، أو من : أئمن الرجل بضم الميم أمانة فهو
 أمين ، وأمانته : حفظه من دخله ولا ما فيه من طير وحيوان أو من . أئمن الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين ، كما يحفظ الأمين
 ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من آمنه ، لأنه مأمون الغوائل ، كما وصف بالأمين في قوله ﴿ حرماً آمناً ﴾
 [القصص ٥٧] بمعنى ذي أمن . ومعنى القسم بهذه الأشياء إبانة شرفها وما ظهر فيها من الخير بسكنى الأنبياء
 والصالحين ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم - عليه السلام - ومولد عيسى ومنشأه ، والطور : هو المكان الذي نودي
 عليه موسى - عليه السلام - ومكة : مكان مولد رسول الله - ﷺ - ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين . (في
 أحسن تقويم) ، قال النخعي ومجاهد وقتادة : حسن صورته وحواسه ، وقيل : انتصاب قامته ، وقال أبو بكر بن طاهر :
 عقله وإدراكه زيناه بالتميز . وقال عكرمة : شبابه وقوته ، والأولى العموم في كل ما هو أحسن ، والإنسان هنا ، اسم
 جنس و (أحسن) صفة لمحدوف ، أي في تقويم أحسن . (ثم رددناه أسفل سافلين) قال عكرمة والضحاك والنخعي :
 بالهرم وذهول العقل وتغلب الكبر حتى يصير لا يعلم شيئاً ، أما المؤمن فمرفوع عنه القلم ، والاستثناء على هذا منقطع
 وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا بل في الجنس من يعتريه ذلك . وقال الحسن ومجاهد وأبو العالية وابن زيد وقتادة أيضاً
 (أسفل سافلين) في النار على كفره ثم استثنى استثناء متصلاً . وقرأ الجمهور (سافلين) منكرأ ، وعبد الله (السافلين)
 معرفاً بالآلف واللام . وأخذ الزخشي أقوال السلف وحسنها ببلاغته وانتقاء ألفاظه فقال : في أحسن تعديل لشكله
 وصورته ، وتسوية أعضائه ، ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الحلقة الحسنة القوية السوية إذ (رددناه أسفل)
 من سفلى خلقاً وتركيباً ، يعني أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقه وهم أصحاب النار ، و (أسفل) من سفلى من أهل
 الدركات أو (ثم رددناه) بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفلى في حسن الصورة والشكل ، حيث نكسناه في
 خلقه ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وتشنن جلده وكان بضاً ، وكل سمعه وبصره وكانا
 حديدين ، وتغير كل شيء فيه فمشثيه دلف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف ، انتهى وفيه تكثير وعلى أن ذلك
 الرد هو إلى الهرم فالمعنى ولكن الصالحين من الهرم لهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم ، وصبرهم على ابتلاء الله
 بالشيخوخة والهرم . وفي الحديث « إذا بلغ مائة ولم يعمل كتب له مثل ما كان يعمل في صحته ولم تكتب عليه سيئة »^(١) وفيه
 أيضاً : « أن المؤمن إذا رد لأرذل العمر كتب له ما كان يعمل في قوته وذلك أجر غير ممنون » ومنوع مقطوع ، أي محسوب
 يمن به عليهم . والخطاب في (فما يكذبك) للإنسان الكافر قاله الجمهور . أي ما الذي يكذبك أي يجعلك مكذباً بالدين
 تجعل لله أنداداً وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل . وقال قتادة والأخفش والفراء : قال الله لرسوله - ﷺ - فإذا الذي
 يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبر التي توجب النظر فيها صحة ما قلت (أليس الله بأحكم
 الحاكمين) وعيد للكفار وإخبار بعدله تعالى .

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في المجمع ٢٠٧/١٠ - ٢٠٨ باب فيمن طال عمره من المسلمين وعزاه لأبي يعلى .

سورة العلق مكية وهي تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) إِنَّ رَأَاهُ اسْتَفْعَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ (١٩) وَأَقْتَرِبُ (٢٠)

السُّفْعُ : قال المبرد : الجذب بشدة ، وسفع بناصية فرسه : جذب ، قال عمرو بن معد يكرب :

قَوْمٌ إِذَا كَثُرَ الصَّيَاحُ رَأَيْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ مُلْجَمٍ مُهْرُهُ أَوْ سَافِعٍ (١)

وقال مؤرج : معناه الأخذ بلغة قريش . النادي والندى ، المجلس ، ومنه قول الأعرابية سيد ناديه وثمال عافيه ،

وقال زهير :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ حِسَانٍ وَجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ (٢)

الزبانية : ملائكة العذاب ، فقيل : جمع لا واحد له من لفظه كعباديد . وقيل : واحدهم زبانية على وزن حدرية وعفريه ، قاله أبو عبيدة . وقال الكسائي : زبني وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير للنسب كقولهم إنسي وأصله زباني . قال عيسى بن عمر والأخفش : واحدهم زابن ، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه ، ومنه قول الشاعر :

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنْاتِنَا وَلَوْ زَبْنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرْ (٣)

وقال عتبة بن أبي سفيان : وقد زبنتنا الحرب وزبناها .

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما

(١) البيت من الكامل انظر الديوان ١٤٥ .

(٢) البيت من الطويل انظر الديوان ١١٣ اللسان (قوم) .

(٣) البيت من الطويل لأوس بن حجر وانظر المحتسب ١٠٨/٢ اللسان (رم) .

لم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناسية ، ناسية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴿ هذه السورة مكية . وصدرها أول ما نزل من القرآن وذلك في غار حراء على ما ثبت في صحيح البخاري وغيره ، وقول جابر أول ما نزل المدثر ، وقول أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أول ما نزل الفاتحة لا يصح . وقال الزمخشري : عن ابن عباس ومجاهد : هي أول سورة نزلت . وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم . انتهى . ولما ذكر فيما قبلها خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم ذكر ما عرض له بعد ذلك ذكره هنا منبهاً على شيء من أطواره وذكر نعمته عليه ثم ذكر طغيانه بعد ذلك وما يؤول إليه حاله في الآخرة . وقرأ الجمهور (اقرأ) بهمزة ساكنة ، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم بحذفها كأنه على قول من يبدل الهمزة بناسب حركتها فيقول قرأ يقرأ كسعى يسعى فلما أمر منه قيل (اقر) بحذف الألف ، كما تقول : اسع ، والظاهر تعلق الباء بـ (اقرأ) وتكون للاستعانة ، ومفعول (اقرأ) محذوف ، أي : اقرأ ما يوحى إليك ، وقيل : (باسم ربك) هو المفعول وهو المأمور بقراءته ، كما تقول : اقرأ الحمد لله . وقيل : المعنى اقرأ في أول كل سورة وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم . وقال الأخفش : الباء بمعنى على أي : اقرأ على اسم الله ، كما قالوا في قوله ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله ﴾ [هود ٤١] أي على اسم الله . وقيل : المعنى اقرأ القرآن مبتدئاً باسم ربك . وقال الزمخشري : محل (باسم ربك) النصب على الحال ، أي : اقرأ مفتتحاً باسم ربك قل بسم الله ثم اقرأ انتهى . وهذا قاله قتادة ، المعنى : اقرأ ما أنزل عليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك . وقال أبو عبيدة : الباء صلة والمعنى : اذكر ربك . وقال أيضاً : الاسم صلة ، والمعنى اقرأ بعون ربك وتوفيقه ، وجاء (باسم ربك) ولم يأت بلفظ الجلالة ، لما في لفظ الرب من معنى الذي ربك ونظر في مصلحتك . وجاء الخطاب ليدل على الاختصاص والتأنيس . أي ليس لك رب غيره . ثم جاء بصفة الخالق ، وهو المنشئ للعالم ، لما كانت العرب تسمى الأصنام أرباباً أتى بالصفة التي لا يمكن شركة الأصنام فيها . ولم يذكر متعلق الخلق أولاً فالمعنى أنه قصد إلى استبداده بالخلق فاقصر أو حذف إذ معناه خلق كل شيء ، ثم ذكر خلق الإنسان وخصه من بين المخلوقات ، لكونه هو المنزل إليه ، وهو أشرف . قال الزمخشري : أشرف ما على الأرض ، وفيه دسياسة أن الملك أشرف . وقال : ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان كما قال ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ﴾ [الرحمن ١ ، ٢ ، ٣] فقيل : الذي خلق مبهماً ثم فسره بقوله (خلق) تفخياً لخلق الإنسان ودلالة على عجب فطرته انتهى . و (الإنسان) هنا اسم جنس . و (العلق) جمع علقه فلذلك جاء (من علق) وإنما ذكر من (خلق) (من علق) لأنهم مقرون به ولم يذكر أصلهم آدم ، لأنه ليس متقراً عند الكفار فيسبق الفرع . وترك أصل الخلقة ، تقريباً لأفهامهم . ثم جاء الأمر ثانياً تأنيساً كأنه قيل امض لما أمرت به وربك ليس مثل هذه الأرباب بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص . و (الأكرم) صفة تدل على المبالغة في الكرم إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى ، ويحلم على الجاني ويقبل التوبة ، ويتجاوز عن السيئة ، وليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال (الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على أفضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضببطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به . ول بعضهم في الأقلام :

وَرَوَاقِمٌ رُقُشٌ كَمِثْلٍ أَرَاقِمٍ قَطَفَ الْخَطَّانِيَا لَهُ أَقْصَى الْمَدَى
سُودُ الْقَوَائِمِ مَا يَجِدُ مَسِيرُهَا إِلَّا إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بَيْضُ الْمَدَى

انتهى . من كلام الزمخشري ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة الله تعالى الأكرم ،
والرشيد ، وفخر السعداء ، وسعيد السعداء ، والشيخ الرشيد فيا لها مخزية على من يدعوهم بها يجدون عقابها يوم عرض
الأقوال والأفعال ومفعولا (عَلَّمَ) محذوفان ، إذ المقصود إسناد التعليم إلى الله تعالى وقدر بعضهم (الذي علم) الخط
(بالقلم) وهي قراءة تعزى لابن الزبير ، وهي عندي على سبيل التفسير لا على أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف ،
والظاهر أن المعلم كل من كتب بالقلم ، وقال الضحاك إدريس . وقيل : آدم لأنه أول من كتب . (والإنسان) في قوله
(علم الإنسان) الظاهر : أنه اسم الجنس . عدد عليه اكتساب العلوم بعد الجهل بها . وقيل : الرسول - عليه الصلاة
والسلام - (كلا إن الإنسان ليطغى) نزلت بعد مدة في أبي جهل ناصب رسول الله - ﷺ - العداوة ونهاه عن الصلاة في
المسجد فروي أنه قال لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه فيروى : « أن رسول الله - ﷺ - رد عليه وانتهره
وتوعده فقال أبو جهل أيتوعدني محمد والله ما بالوادي أعظم نادياً مني » ، ويروى « أنه هم أن يمنعه من الصلاة فكف
عنه » . (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يتقدم ذكره ، لدلالة الكلام عليه (إن الإنسان ليطغى) أي
يجاوز الحد (إن رآه استغنى) الفاعل ضمير الإنسان وضمير المفعول عائد عليه و (رأى) هنا من رؤية القلب يجوز أن يتحد
فيها الضميران متصلين فتقول رأيتني صديقك ، وفقد وعدم بخلاف غيرها . فلا يجوز زيد ضربه وهما ضمير زيد ، وقرأ
الجمهور (إن رآه) بألف بعد الهمزة وهي لام الفعل . وقيل بخلاف عنه بحذف الألف ، وهي رواية ابن مجاهد عنه ،
قال : وهو غلط لا يجوز وينبغي أن لا يغلطه ، بل يتطلب له وجهاً ، وقد حذفت الألف في نحو من هذا ، قال :

وَصَانِي الْعَجَاجِ فِيمَا وَصَّنِي

يريد وصاني ، فحذف الألف وهي لام الفعل وقد حذفت في مضارع (رأى) في قولهم أصاب الناس جهد ولو تر
أهل مكة ، وهو حذف لا ينقاس لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها .
(إن إلى ربك الرجعى) أي الرجوع مصدر على وزن فُعْلٍ ، الألف فيه للتأنيث ، وفيه وعيد للطاغي المستغنى ، وتحقير لما
هو فيه من حيث مآله إلى البعث والحساب والجزاء على طغيانه . (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) تقدم أنه أبو جهل ،
قال ابن عطية : ولم يختلف أحد من المفسرين أن الناهي أبو جهل وأن العبد المصلي هو محمد رسول الله - ﷺ - انتهى . وفي
الكشاف : وقال الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة . وقال التبريزي : المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر .
قيل : جماعة أقيمت في الإسلام ، كان معه أبو بكر وعلي وجماعة من السابقين فمرّ به أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال له صل
جناح ابن عمك وانصرف مسروراً ، وأنشأ أبو طالب يقول :

إِنَّ عَلِيًّا وَجَعَفَرًا ثِقَتِي عِنْدَ مُلِمِّ الزَّمَانِ وَالْكَرْبِ
وَاللَّهُ لَا أَخْذُلُ النَّبِيَّ وَلَا يَخْذُلُهُ مَنْ يَكُونُ مِنْ حَسْبِي
لَا تَخْذُلًا وَانْصُرَا ابْنَ عَمِّكُمَا أَخِي لِأُمِّي مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَبِي

ففرح رسول الله - ﷺ - بذلك ، والخطاب في (أرأيت) الظاهر أنه للرسول - ﷺ - وكذا (أرأيت) الثاني ،
والتناسق في الضمائر هو الذي يقتضيه النظم ، وقيل (أرأيت) خطاب للكافر التفت إلى الكافر ، فقال (أرأيت) يا كافر إن
كانت صلاته هدى ، ودعاء إلى الله ، وأمرًا بالتقوى ، أنتاه مع ذلك . والضمير في (إن كان) وفي (إن كذب) عائد على
الناهي ، قال الزمخشري : ومعناه أخبرني عن من ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة
فيما ينهى عنه من عبادة الله وكان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد وكذلك إن كان على التكذيب

للمحق والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن (ألم يعلم بأن الله يرى) ويطلع على أحواله من هداة وضلالة فيجازيه على حسب ذلك وهذا وعيد . انتهى . وقال ابن عطية : الضمير في (إن كان على الهدى) عائد على المصلي ، وقاله الفراء وغيره . قال الفراء : المعنى : أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى وهو على الهدى وأمر بالتقوى والناهي مكذب متولي عن الذكر أي فما أعجب هذا ألم يعلم أبو جهل بأن الله تعالى يراه ويعلم فعله فهذا تقرير وتوبيخ . انتهى . وقال : من جعل الضمير في (إن كان) عائداً على المصلي إنما ضم إلى فعل الصلاة الأمر بالتقوى لأن أبا جهل كان يشق عليه من رسول الله - ﷺ - أمران ، الصلاة والدعاء إلى الله تعالى . ولأنه كان - ﷺ - لا يوجد إلا في أمرين ، إصلاح نفسه . بفعل الصلاة ، وإصلاح غيره بالأمر بالتقوى . وقال ابن عطية : (ألم يعلم بأن الله يرى) إكمال التوبيخ ، والوعيد بحسب التوفيقات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها يجاء بها في نسق ثم جاء بالوعيد الكافي بجميعها اختصاراً واقتضاباً ، ومع كل تقرير تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها (ألم يعلم) دال عليها مغن ، وقال الزمخشري : (فإن قلت :) ما متعلق (أرايت) ؟ (قلت :) (الذي ينهى) مع الجملة الشرطية ، وهما في موضع المفعولين . (فإن قلت :) فأين جواب الشرط (قلت :) هو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني (فإن قلت :) فكيف صح أن يكون (ألم يعلم) جواباً للشرط ؟ (قلت :) كما صح في قولك : إن أكرمك أكرمك وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه (فإن قلت :) فما (أرايت) الثانية وتوسطها بين مفعولي (أرايت) ؟ (قلت :) هي زائدة مكررة للتوكيد . انتهى . وقد تكلمنا على أحكام (أرايت) بمعنى أخبرني في غير موضع منها التي في سورة الأنعام وأشبعنا الكلام عليها في شرح التسهيل ، وما قرره الزمخشري هنا ليس بجار على ما قررناه فمن ذلك أن ادعى أن جملة الشرط في موضع المفعول الواحد والموصول هو الآخر ، وعندنا أن المفعول الثاني لا يكون إلا جملة استفهامية كقوله ﴿ أفرايت الذي تولى ﴾ [النجم ٣٣، ٣٤، ٣٥] وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب ﴿ أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً أطلع الغيب ﴾ [مريم ٧٧، ٧٨] ﴿ أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه ﴾ [الواقعة ٥٨، ٥٩] وهو كثير في القرآن فتخرج هذه الآية على ذلك القانون ويجعل مفعول (أرايت) الأولى هو الموصول وجاء بعده (أرايت) وهي تطلب مفعولين و (أرايت) الثانية كذلك ، فمفعول (أرايت) الثانية والثالثة محذوف يعود على (الذي ينهى) فيهما أو على (عبداً) في الثانية (وعلى الذي ينهى) في الثالثة على الاختلاف السابق في عود الضمير . والجملة الاستفهامية توالى عليها ثلاثة طوالب . فنقول : حذف المفعول الثاني لـ (أرايت) وهو جملة الاستفهام الدال عليه الاستفهام المتأخر لدلالته عليه حذف مفعول (أرايت) الأخير لدلالة مفعول (أرايت) الأولى عليه وحذفاً معاً لـ (أرايت) الثانية لدلالة الأولى على مفعولها الأول ولدلالة الآخر لـ (أرايت) الثالثة على مفعولها الآخر وهؤلاء الطوالب ليس طلبها على طريق التنازع ، لأن الجمل لا يصح إضمارها وإنما ذلك من باب الحذف في غير التنازع ، وأما تجويز الزمخشري وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء فلا أعلم أحداً أجازه بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه ما ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة شعر . (كلا) ردع لأبي جهل ومن في طبقته عن نهي عباد الله عن عبادة الله ، (لئن لم ينته) عن ما هو فيه وعيد شديد (لنسفعا) أي لناخذن (بالناصية) وعبر بها عن جميع الشخص أي سحباً إلى النار لقوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن ٤١] واكتفى بتعريف العهد عن الإضافة إذ علم أنها ناصية الناهي . وقرأ الجمهور بالنون الخفيفة وكتبت بالألف باعتبار الوقف إذ الوقف عليها بإبدالها ألفاً وكثر ذلك حتى صارت روياً فكُتبت ألفاً كقوله :

وَمَهْمَا تَشَأْ مِنْهُ فَرَارَةٌ تَمْنَعَا

وقال آخر :

يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا

ومحبوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو بالنون الشديدة ، وقيل : هو مأخوذ من سفعتة النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى حال شديد . وقال التبريزي : قيل : أراد لفسود وجهه من السفعة وهي السواد ، وكفت من الوجه لأنها في مقدمه . وقرأ الجمهور (ناصية خاطئة) يجر الثلاثة على أن (ناصية) بدل نكرة من معرفة . قال الزمخشري : لأنها وصفت فاستقلت بفائدة . انتهى . وليس شرطاً في إبدال النكرة من المعرفة أن توصف عند البصريين خلافاً لمن شرط ذلك من غيرهم ولا أن يكون من لفظ الأول أيضاً خلافاً لزاعمه . وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبة وزيد بن علي بنصب الثلاثة على الشتم . والكسائي في رواية ببعض رفعها أي هي ناصبة كاذبة خاطئة . وصفها بالكذب والخطأ مجازاً والحقيقة صاحبها ، وذلك أخرى من أن يضاف فيقال : ناصية كاذب خاطيء لأنها هي المحدث عنها في قوله (لنسفعا بالناصية) ، (فليدع ناديه) إشارة إلى قول أبي جهل : وما « بالوادي أكبر نادياً مني » . والمراد أهل النادي . وقال جرير :

لَهُمْ مَجْلِسُ صَهْبِ السَّبَالِ أَذْلَةٌ

أي : أهل مجلس ، ولذلك وصف بقوله صهب السبال أذلة وهو أمر تعجبي أي لا يقدره الله على ذلك . « ولودعا ناديه لأخذته الملائكة عياناً » . وقرأ الجمهور (سَنَدْعُ) بالنون مبنياً للفاعل . وكتبت بغير واو لأنها تسقط في الوصل لالتقاء الساكنين . وقرأ ابن أبي عبة (سَيُدْعَى) مبنياً للمفعول (الزبانية) رفع ، (كَلَّا) ردع لأبي جهل ورد عليه في (لا تطعه) أي : لا تلتفت إلى نهييه وكلامه . (واسجد) أمر له بالسجود . والمعنى : دم على صلاتك وعبر عن الصلاة بأفضل الأوصاف التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى (واقرب) وتقرب إلى ربك ، وثبت في الصحيحين : سجد رسول الله ﷺ - في إذا السماء انشقت ، وفي هذه السورة ، وهي من العزائم عند علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكان مالك يسجد فيها في خاصية نفسه .

سورة القدر مكية وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

هذه السورة مدنية في قول الأكثر ، وحكى المارودي عكسه ، وذكر الواحدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة وفي الحديث : أن أربعة عبدوا الله تعالى ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين ، أيوب وزكريا وحزقيل ويوشع فعجب الصحابة من ذلك فقروا (إنا أنزلناه في ليلة القدر) السورة فسروا بذلك ^(١) . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة . لما قال (اقرأ باسم ربك) فكأنه قال : اقرأ ما أنزلناه عليك من كلامنا (إنا أنزلناه في ليلة القدر) والضمير عائد على ما دل عليه المعنى ، وهو ضمير القرآن . قال ابن عباس وغيره : أنزل الله تعالى ليلة القدر إلى سماء الدنيا جملة ثم نجمه على محمد - ﷺ - في عشرين سنة . وقال الشعبي وغيره : إنا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك في ليلة القدر . وروي « أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان » . وقيل : المعنى إنا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفضلها ، ولما كانت السورة من القرآن جاء الضمير للقرآن ، تفخيماً وتحسيناً فليست ليلة القدر ظرفاً للنزول بل على نحو قول عمر رضي الله تعالى عنه لقد خشيت أن ينزل في قرآن . وقول عائشة : لأننا أحقر في نفسي من أن ينزل في قرآن . وقال الزمخشري : عظم من القرآن من إسناد إنزاله إلى مختصاً به ومن مجيئه بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة ، والاستغناء عن التنبيه عليه ، وبالرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه . انتهى . وفيه بعض تلخيص . وسميت ليلة القدر ، لأنه تقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ، وتدفع إلى الملائكة لتمثله ، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وقال الزهري : معناه ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن من قولك رجل له قدر ، وقال أبو بكر الوراق : سميت بذلك ، لأنها تكسب من أحيائها قدراً عظيماً لم يكن له قبل وترده عظيماً عند الله تعالى . وقيل : سميت بذلك ، لأن كل العمل فيها له قدر وخطر . وقيل : لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر لأمة ذات قدر ، لأنه ينزل فيها ملائكة ذات قدر وخطر . وقيل : لأنه قدر فيها الرحمة على المؤمنين ، وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق ٧] أي ضيق وقد اختلف السلف والخلف في تعيين وقتها اختلافاً متعارضاً جداً ، وبعضهم قال : رفعت والذي يدل عليه الحديث أنها لم ترفع وأن العشر الأخير تكون فيه وأنها في أوتاره كما قال عليه الصلاة والسلام « التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة » . وفي الصحيح « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . (وما أدراك ما ليلة القدر) تفخيم لشأنها ، أي

(١) ذكره السيوطي في الدر ٢٧١/٦ وعزاه لابن أبي حاتم عن علي بن عروة .

لم تبلغ درايتك غاية فضلها ، ثم بين له ذلك ، قال سفيان بن عيينة : ما كان في القرآن (وما أدراك) فقد أعلمه وما قال (وما يدريك) فإنه لم يعلمه . قيل : وأخفاها الله تعالى عن عباده ، ليجدوا في العمل ولا يتكلموا على فضلها ويقصروا في غيرها . والظاهر أن ألف شهر يراد به حقيقة العدد وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام والحسن : في ليلة القدر أفضل من العمل في هذه الشهور . والمراد خير من ألف شهر عار من ليلة القدر وعلى هذا أكثر المفسرين ، وقال أبو العالية : خير من ألف شهر رمضان لا يكون فيها ليلة القدر . وقيل : المعنى خير من الدهر كله لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها قال تعالى ﴿ يود أحدكم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة ٩٦] يعني جميع الدهر وعوتب الحسن بن عليّ على تسليمه الأمر لمعاوية فقال : إن الله تعالى أري في المنام نبيه - ﷺ - بني أمية ينزون على مقبرة نزو القردة فاهتم لذلك فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وهي خير من مدة ملوك بني أمية وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان . قال القاسم بن الفضل الجذامي : فعدنا ذلك فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً وخرج قريباً من معناه الترمذي وقال حديث غريب انتهى . وقيل : آخر ملوكهم مروان الجعدي في آخر القدر من الزمان ولا يعارض هذا تملك بني أمية في جزيرة الأندلس مدة غير هذه لأنهم إنما كانوا في بعض أطراف الأرض وآخر عماره العرب بحيث كان في إقليم العرب إذاك ملوك كثيرون غيرهم وذكر أيضاً في تخصيص هذه المدة « أن رسول الله - ﷺ - ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك وتقصرت أعمارهم فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي » وقيل : إن الرجل فيها مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد . وقال أبو بكر الوراق : ملك كل من سليمان وذي القرنين خمسمائة سنة فصار ألف شهر فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما . (تنزل الملائكة والروح) تقدم الخلاف في الروح أهو جبريل أم رحمة ينزل بها أم ملك غيره ؟ أم أشرف الملائكة ؟ أم جند من غيرهم ؟ أم حفظة على غيرهم من الملائكة . والتنزيل إما إلى الأرض وإما إلى سماء الدنيا ، (بإذن ربهم) متعلق بـ (تنزل) (من كل أمر) متعلق بـ (تنزل) و (من) للسبب أي تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل ، و (سلام) مستأنف خبر للمبتدأ الذي هو (هي) أي هي سلام إلى أول يومها ، قاله أبو العالية ونافع المقرئ والفراء وهذا على قول من قال : إن تنزلهم لتقدير الأمور لهم ، وقال أبو حاتم (من) بمعنى الباء ، أي : بكل أمر وابن عباس وعكرمة والكلبي : من كل امرئ أي من أجل كل إنسان . وقيل : يراد بكل امرئ الملائكة ، أي من كل ملك تحية على المؤمنين العاملين بالعبادة . وأنكر هذا القول أبو حاتم سلام هي أي هي سلام جعلها سلاماً لكثرة السلام فيها . قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة . وقال منصور والشعبي : سلام بمعنى التحية أي تسلم الملائكة على المؤمنين ، ومن قال تنزلهم ليس لتقدير الأمور في تلك السنة جعل الكلام تاماً عند قوله (بإذن ربهم) ، وقال (من كل) أمر متعلق بقوله (سلام هي) أي من كل أمر نخوف ينبغي أن يسلم منه هي سلام ، وقال مجاهد : لا يصيب أحداً فيها داء . وقال صاحب اللوامح : وقيل معناه هي سلام من كل أو أمري سالمة أو مسلمة منه ولا يجوز أن يكون (سلام) بهذه اللفظة الظاهرة التي هي المصدر عاملاً فيما قبله لامتناع تقدم معمول المصدر على المصدر كما أن الصلة كذلك لا يجوز تقديمها على الموصول انتهى . وعن ابن عباس : تم الكلام عند قوله (سلام) ولفظة (هي) إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة انتهى . ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى . وقرأ الجمهور (مُطَّلَع) بفتح اللام . وأبو رجاء والأعمش وابن وثاب وطلحة وابن محيصن والكسائي وأبو عمرو بخلاف عنه بكسرهما . فقيل : هما مصدران في لغة بني تميم . وقيل : المصدر بالفتح وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز .

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

آياتها ٨ ترتيبها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۚ (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۚ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۚ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۚ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۚ (٦) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۚ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۚ (٨)

هذه السورة مكية في قول الجمهور . وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار مدنية . قاله ابن عطية . وفي كتاب التحرير : مدنية ، وهو قول الجمهور . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أنها مكية ، واختاره يحيى بن سلام . ولما ذكر إنزال القرآن في السورة التي قبلها ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق ١] ذكر هنا أن الكفار لم يكونوا منفكين عن ما هم عليه حتى جاءهم الرسول يتلو عليهم ما أنزل عليه من الصحف المطهرة التي أمر بقراءتها وقسم الكافرين هنا إلى أهل كتاب وأهل إشراك . وقرأ بعض القراء (والمشركون) رفعا عطفاً على (الذين كفروا) ، والجمهور بالجر عطفاً على (أهل الكتاب) و (أهل الكتاب) اليهود والنصارى و (المشركون) عبدة الأوثان من العرب . وقال ابن عباس (أهل الكتاب) اليهود الذين كانوا ييثرب هم قريظة والنضير وبنو قينقاع (والمشركون) الذين كانوا بمكة وحولها والمدينة وحولها . قال مجاهد وغيره : لم يكونوا منفكين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة . وقال الفراء وغيره : لم يكونوا منفكين عن معرفة صحة نبوة محمد - ﷺ - والتوكف لأمره حتى جاءتهم البينة فتفرقوا عند ذلك . وقال الزمخشري : كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث لا نفك ما نحن فيه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد - ﷺ - فحكى الله ما كانوا يقولونه . وقال ابن عطية : ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى : وذلك أنه يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة ويتم على من آمن النعمة فكأنه قال ما كانوا ليركوا سدى ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى . انتهى . وقيل : لم يكونوا منفكين عن حياتهم فيموتوا حتى تأتيتهم البينة . والظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين أي منفصلاً بعضهم من بعض بل كان كل منهم مقرأ الآخر على ما هو عليه مما اختاره لنفسه هذا من اعتقاده في شريعته وهذا من اعتقاده في أصنامة والمعنى أنه اتصلت مودتهم

واجتمعت كلمتهم إلى أن أتهمهم البينة وقيل معنى (منفكين) هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة وأن
 يفصل فلا يلتئم والمعنى لم يكونوا معذيين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب . انتهى .
 و (منفكين) اسم فاعل من انفك وهي التامة ، وليست الداخلة على المبتدأ والخبر . وقال بعض النحاة : هي الناقصة ،
 ويقدر (منفكين) عارفين أمر محمد - ﷺ - أو نحو هذا وخبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه لا اختصاراً ولا اختصاراً نص على
 ذلك أصحابنا ولهم علة في منع ذلك ذكروها في علم النحو وقالوا في قوله حين ليس بحير أي في الدنيا . فحذف الخبر أنه
 ضرورة والبينة الحجة الجليلة ، وقرأ الجمهور (رسول) بالرفع بدلاً من (البينة) وأبيّ وعبد الله بالنصب حالاً من (البينة)
 (يتلو صحفاً) أي قراطيس مطهرة من الباطل فيها كتب مكتوبات قيمة مستقيمة ناطقة بالحق (وما تفرّق الذين أوتوا
 الكتاب) أي من المشركين وانفصل بعضهم من بعض فقال كل ما يدل عنده على صحة قوله (إلا من بعد ما جاءتهم البينة)
 وكان يقتضي مجيء البينة أن يجتمعوا على اتباعها ، وقال الزمخشري : كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا
 جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول - ﷺ - وقال أيضاً : أفرد أهل الكتاب يعني
 في قوله (وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب) بعد جمعهم (والمشرّكين) قيل : لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم فإذا
 وصفوا بالتفرّق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف ، والمراد بتفرّقهم : تفرّقهم عن الحق أو تفرّقهم فرقاً فمنهم
 من آمن ومنهم من أنكر . وقال ليس به ومنهم من عرف وعاند ، وقال ابن عطية : ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل
 الكتاب من أنهم لم يتفرّقوا في أمر محمد - ﷺ - إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته
 فلما جاء من العرب حسدوه انتهى . وقرأ الجمهور (مخلصين) بكسر اللام و (الدين) منصوب به والحسن بفتحها أي :
 يخلصون هم أنفسهم في نياتهم وانتصب (الذين) إما على المصدر من (ليعبدوا) أي ليدنوا الله بالعبادة الدين ، وإما على
 إسقاط في أي في الدين والمعنى : وما أمروا أي في كتابيها بما أمروا به إلا ليعبدوا (حنفاء) أي مستقيمي الطريقة . وقال
 محمد بن الأشعث الطالقاني (القيمة) هنا الكتب التي جرى ذكرها كأنه لما تقدم لفظ قيمة نكرة كانت الألف واللام في
 القيمة للعهد كقوله تعالى ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ [المزمّل ١٥ ، ١٦] ، وقرأ عبد الله
 (وذلك الدين القيمة) فإلهاء في هذه القراءة للمبالغة ، أو أنث على أن عني بالدين الملة ، كقوله : ما هذه الصوت يريد ما
 هذه الصيحة ، وذكر تعالى مقر الأشقياء جزاء السعداء و (البرية) جميع الخلق . وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع (البرية)
 بالهمز من برأ بمعنى خلق . والجمهور بشد الياء ، فاحتمل أن يكون أصله الهمز ثم سهل بالإبدال وأدغم ، واحتمل أن
 يكون من البراء وهو التراب ، قال ابن عطية : وهذا الاشتقاق يجعل الهمزة خطأ ، وهو اشتقاق غير مرضي ويعني اشتقاق
 البرية بلا همز من البرا وهو التراب فلا يجعله خطأ بل قراءة الهمزة مشتقة من برأ وغير الهمز من البرا والقراءتان قد تختلفان في
 الاشتقاق نحو أو ننساها ﴿ أو ننسها ﴾ [البقرة ١٠٦] فهو اشتقاق مرضي وحكم على الكفار من الفريقين بالخلود في النار
 وبكونهم شر البرية . وبدأ بأهل الكتاب ، لأنهم كانوا يطعنون في نبوته وجناتهم أعظم ، لأنهم أنكروه مع العلم به و (شر
 البرية) ظاهره العموم ، وقيل : (شر البرية) الذين عاصروا الرسول - ﷺ - إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر
 من هؤلاء كفرعون وعاقراًقة صالح . وقرأ الجمهور (خير البرية) مقابل (شر البرية) وحيد وعامر بن عبد الواحد (خيار
 البرية) جمع خير كجيد وجياد وبقية السورة واضحة وتقدم شرح ذلك إفراداً وتركيباً .

سورة الزلزلة مدنية وهي ثمانى آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

الذرة : النملة صغيرة حمراء رقيقة . ويقال : إنها أصغر ما تكون إذا مضى لها حول . وقال امرؤ القيس :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرْفِ لَوْ دَبَّ مَحْوُلٌ
مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْأَتْبِ مِنْهَا لَأُثِرَا

وقيل : الذرة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء . ﴿١﴾ إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿٢﴾ هذه السورة مكية في قول ابن عباس ومجاهد وعطاء . مدنية في قول قتادة ومقاتل ، لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة . ولما ذكر فيها قبلها كون الكفار يكونون في النار ، وجزاء المؤمنين فكأن قائلًا قال متى ذلك ؟ فقال (إذا زلزلت الأرض زلزالها) ، قيل : والعامل فيها مضمر يدل عليه مضمون الجمل الآتية تقديره تحشرون . وقيل : اذكر ، وقال الزمخشري : « تحدث » انتهى . وأضيف الزلزال إلى الأرض ، إذ المعنى زلزالها الذي تستحقه ، ويقتضيه جرمها وعظمها ، ولو لم يضاف لصديق على كل قدر من الزلزال وإن قل . والفرق بين أكرمت زيدا كرامة وكرامته واضح . وقرأ الجمهور (زلزالها) بكسر الزاي والجحدري وعيسى بفتحها ، قال ابن عطية : « وهو مصدر كالوسواس » وقال الزمخشري : « المكسور مصدر والمفتوح اسم وليس في الأبنية فعّال بالفتح إلا في المضاعف » انتهى . أما قوله : « والمفتوح اسم » فجعله غيره مصدراً جاء على فعّال بالفتح . ثم قيل : قد يجيء بمعنى اسم الفاعل (١) فتقول فضفاض في معنى مُقْضِضٍ وَصَلْصَالٍ في معنى مُصْلِصِلٍ وأما قوله « وليس في الأبنية » إلخ فقد وجد فيها فعّال بالفتح من غير المضاعف . قالوا : ناقة بها خَزَعَان بفتح الحاء وليس بمضاعف (وأخرجت الأرض أثقالها) جعل ما في بطنها أثقالاً . وقال النقاش والزجاج والقاضي منذر بن سعيد . (أثقالها) كنوزها وموتاهها . ورد بأن الكنوز إنما تخرج وقت الدجال لا يوم القيامة . وقائل ذلك يقول هو الزلزال يكون في الدنيا وهو من أشرط الساعة ، وزلزال يوم القيامة كقوله

(١) قول ابن حبان (ثم قيل قد يجيء بمعنى اسم الفاعل ، قال ابن مالك في التسهيل (٢٠٦) وفتح أول هذا - يعني مصدر فعلل إن كان كالزلزال جائز ، والغالب أن يراد به حينئذ اسم فاعل .

﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات ٦ ، ٧] فلا يرد عليه بذلك إذ قد أخذ الزلزال عاماً باعتبار وقته . ففي الأول أخرجت كنوزها ، وفي الثاني أخرجت موتها . وصدقت أنها زلزلت زلزالها . وأخرجت أثقالها . وقيل : أثقالها : كنوزها . ومنه قوله : « تلقى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة » . وقال ابن عباس « موتها » وهو إشارة إلى البعث وذلك عند النفخة الثانية ، فهو زلزال يوم القيامة لا الزلزال الذي هو من الأشرار ، (وقال الإنسان ما لها) يعني معنى التعجب لما يرى من الهول . والظاهر عموم الإنسان . وقيل : ذلك الكافر ، لأنه يرى ما لم يقع في ظنه قط ، ولا صدقه ، والمؤمن وإن كان مؤمناً بالبعث فإنه استهول المرأى ، وفي الحديث « ليس الخبر كالعيان » . قال الجمهور : « الإنسان » : هو الكافر يرى ما لم يظن . (يومئذ) أي : يوم إذ زلزلت وأخرجت (تحدث) (ويومئذ) بدل من (إذا) فيعمل فيه لفظ العامل في المبدل منه أو المكرر على الخلاف في العامل في البديل . (تحدث أخبارها) الظاهر : أنه تحديث وكلام حقيقة بأن يخلق فيها حياة وإدراكاً فتشهد بما عمل عليها من صالح أو فاسد ، وهو قول ابن مسعود والثوري وغيرهما ، ويشهد له ما جاء في الحديث : « بأنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة » . وما جاء في الترمذي^(١) عنه - رحمته الله - : « أنه قرأ هذه الآية ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، فقال : إن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا قال فهذه أخبارها » . هذا حديث حسن صحيح غريب . قال الطبري : وقوم التحديث مجاز عن إحداث الله تعالى فيها الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينادون به ويحدثون عنه . وقال يحيى بن سلام : « تحدث بما أخرجت من أثقالها » . وهذا هو قول من زعم أن الزلزلة هي التي من أشرار الساعة . وفي سنن ابن ماجة حديث في آخره : تقول الأرض يوم القيامة يا رب هذا ما استودعني » . وعن ابن مسعود : « تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى ، فيكون ذلك جواباً لهم عند سؤالهم » و (تحدث) هنا تتعدى إلى اثنين ، والأول محذوف أي : تحدث الناس وليست بمعنى أعلم المنقولة من علم المتعدية إلى اثنين فتتعدى إلى ثلاثة (بأن ربك أوحى لها) أي : بسبب إحياء الله ، فالباء متعلقة بـ (تحدث) قال الزمخشري : « ويجوز أن يكون المعنى : يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها (بأن ربك أوحى لها) تحديث بأخبارها ، كما تقول : نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين » انتهى . وهو كلام فيه عفش ينزه القرآن عنه . وقال أيضاً : « ويجوز أن يكون (بأن ربك) بدلاً من (أخبارها) كأنه قيل : يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها ، لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا » انتهى . وإذا كان الفعل تارة يتعدى بحرف جر ، وتارة يتعدى بنفسه وحرف الجر . ليس بزائد . فلا يجوز في تابعه إلا الموافقة في الإعراب فلا يجوز : استغفرت الذنب العظيم . بنصب الذنب وجر العظيم ، لجواز أنك تقول : من الذنب . ولا : اخترت زيدا الرجال الكرام بنصب الرجال وخفض الكرام ، وكذلك لا يجوز أن تقول : استغفرت من الذنب العظيم ، بجر الذنب ونصب العظيم . وكذلك في : اخترت فلو كان حرف الجر زائداً جاز الاتباع على موضع الاسم بشرطه المحررة في علم النحو . تقول : ما رأيت من رجل عاقلاً ، لأن من زائدة ومن رجل عاقل على اللفظ . ولا يجوز نصب رجل وجر عاقل على مراعاة جواز دخول من . وإن ورد شيء من ذلك فبابه الشعر . وعدي أوحى باللام لا بـ (إلى) وإن كان المشهور تعديتها بـ (إلى) لمراعاة الفواصل . قال العجاج يصف الأرض :

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَّاتِ الثُّبْتُ^(٢)

(١) أخرجه الترمذي ٤١٦/٣ في التفسير باب ٨٧ (٣٣٥٣) .

(٢) البيت من الرجز انظر ديوانه (٥) المحتسب ٣٣١/٢ .

فعداها باللام . وقيل ؛ الموحى إليه محذوف ، أي : أوحى إلى ملائكته المصرفين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال . واللام في (لها) للسبب ، أي : من أجلها ، ومن حيث الأفعال فيها وإذا كان الإيحاء إليها احتمال أن يكون وحي إلهام واحتمل أن يكون برسول من الملائكة . (يومئذ يصدر الناس) انتصب (يومئذ) بـ (يصدر) والصدر يكون عن ورد . وقال الجمهور : « هو كونهم في الأرض مدفونين » . والصدر : قيامهم للبعث و (أشتاتاً) جمع شت . أي : فرقاً مؤمن وكافر وعاص سائرون إلى العرض (ليروا أعمالهم) ، وقال النقاش : « الصدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار ووردهم هو ورد المحشر » . فعلى الأول . المعنى : ليرى عمله ويقف عليه . وعلى قول النقاش ليرى أجزاء عمله وهو الجنة والنار . والظاهر : تعلق لـ (يروا) بقوله (يصدر) ، وقيل بـ (أوحى) لها وما بينها اعتراض . وقال ابن عباس : (أشتاتاً) متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حدة وأهل كل دين على حدة » . وقال الزخشري : (أشتاتاً) بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين » . انتهى . ويحتمل أن يكون (أشتاتاً) أي : كل واحد وحده ، لا ناصر له ، ولا عاضد كقوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ [الأنعام ٩٤] ، وقرأ الجمهور (ليروا) بضم الياء . والحسن والأعرج وقتادة وحماة بن سلمة والزهري وأبو حنيفة وعيسى ونافع في رواية بفتحها . والظاهر تخصيص العامل . أي : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً من السعداء ، لأن الكافر لا يرى خيراً في الآخرة . وتعميم (ومن يعمل مثقال ذرة شراً) من الفريقين ، لأنه تقسيم جاء بعد قوله (يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) وقال ابن عباس : « قال هذه الأعمال في الآخرة ، فيرى الخير كله من كان مؤمناً والكافر لا يرى في الآخرة خيراً » ، لأن خيره قد عجل له في دنياه ، والمؤمن تعجل له سيئاته الصغائر في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها ، وما عمل من شر أو خير رآه ، ونبه بقوله (مثقال ذرة) على أن ما فوق الذرة يراه قليلاً كان أو كثيراً ، وهذا يسمى مفهوم الخطاب . وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد بل يكون المسكوت عنه بالأولى في ذلك الحكم كقوله ﴿ ولا تقل لها أف ﴾ [الإسراء ٢٣] والظاهر انتصاب (خيراً) و (شراً) على التمييز لأن (مثقال ذرة) مقدار ، وقيل : بدل من (مثقال) . وقرأ الجمهور بفتح الياء فيها . أي : يرى جزاءه من ثواب وعقاب . وقرأ الحسين بن علي وابن عباس وعبد الله بن مسلم وزيد بن علي والكلبي وأبو حنيفة وخليفة بن نشيط وأبان عن عاصم والكسائي في رواية حميد بن الربيع عنه بضمها وهشام وأبو بكر بسكون الهاء فيها . وأبو عمرو بضمهما مشبعين ، وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية ، والإسكان في الوصل لغة حكاها الأخفش ولم يحكها سيبويه ، وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل . وهذه الرؤية رؤية بصر . وقال النقاش : « ليست برؤية بصر وإنما المعنى يصيبه ويناله » . وقرأ عكرمة (يراه) بالألف فيهما ، وذلك على لغة من يرى الجزم بحذف الحركة المقدرة في حروف العلة . حكاها الأخفش أو على توهم أن (من) موصولة لا شرطية ، كما قيل في ﴿ إنه من يتقي ويصبر ﴾ [يوسف ٩٠] في قراءة من أثبت ياء (يتقي) وجزم (يصبر) توهم أن (مَنْ) شرطية لا موصولة ، فجزم (ويصبر) عطفاً على التوهم . والله تعالى أعلم .

سورة العاديات مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَدِيَّتِ صَبَحًا ۚ ۱) فَالْمُورِبَتِ قَدَحًا ۚ ۲) فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا ۚ ۳) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۚ ۴) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۚ ۵) إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۚ ۶) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۚ ۷) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۚ ۸) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا
بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ۚ ۹) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۚ ۱۰) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۚ ۱۱)

العاديات : الجاريات بسرعة . وهو وصف ويأتي في التفسير الخلاف في الموصوف . الضبح : تصويت جهير عند العدو الشديد ، ليس بصهيل ، ولا رغاء ، ولا نباح ، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضح . وعن ابن عباس : « ليس يضح من الحيوان غير الخيل والكلاب » . قيل : ولا يصح عن ابن عباس ، لأن الإبل تضح ، والأسود من الحيات والبوم والصدى والأرنب والثعلب والقوس ، كما استعملت العرب لها الضبح . وأنشد أبو حنيفة في صفة قوس :

حَنَانَةٌ مِنْ نَشْمٍ أَوْ تَالِبٍ تَضْبَحُ فِي الْكَفِّ ضَبَاحَ الثُّعْلَبِ ۱)

وقال أهل اللغة : « أصله للثعلب فاستعير للخيل وهو من ضبحته النار غيرت لونه ولم تبالغ فيه ، وانضح لونه ، تغير إلى السواد قليلاً » ، وقال أبو عبيدة : « الضبح والضبع بمعنى العدو الشديد . وكذا قال المبرد : « الضبح : من إضباعها في السير » . القدح : الصك . وقيل : الاستخراج ومنه قدحت العين أخرجت منها الفاسد ، والقداح والقداحة والمقدحة ما تورى به النار ، أغار على العدو : قصده لنهب ، أو قتل ، أو أسر . النقع : الغبار . قال الشاعر :

يُخْرِجُنْ مِنْ مُسْتَطَارِ النَّقْعِ دَامِيَةً كَأَنَّ آذَانَهَا أَطْرَاقُ أَقْلَامٍ ۲)

وقال ابن رواحة :

عَدِمْتُ بُنْيَتِي إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفِي كَدَاءٍ ۳)

(١) البيت من الرجز انظر اللسان (ضبح) .

(٢) البيت من البسيط انظر فتح القدير ٤٨٢/٥ .

(٣) البيت من الوافر انظر فتح القدير ٤٨٢/٥ .

وقال أبو عبيدة : « النقع : رفع الصوت » ، ومنه قول لبيد :

فَمَتَى يَنْقَعُ صُرَاخُ صَادِقٍ تَحْلِيُوهَا ذَاتَ جَرَسٍ وَزَجَلٍ^(١)

الكنود : الكفور للنعمة . قال الشاعر :

كُنُودٌ لِنَعْمَاءِ الرَّجَالِ وَمَنْ يَكُنْ كُنُوداً لِنَعْمَاءِ الرَّجَالِ يُبْعِدُ^(٢)

وعن ابن عباس : « الكنود : بلسان كندة وحضرموت العاصي ، وبلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كنانة البخيل السيء الملكة » . وقاله مقاتل . وقال الكلبي مثله إلا أنه قال : « وبلسان بني مالك ، البخيل » ولم يذكر وحضرموت . ويقال كند النعمة كنوداً ، وقال أبو زيد في البخيل :

إِنْ تَقْتَنِي فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً غَيْرَ أَنِّي أُمْنَى بِدَهْرٍ كُنُودٍ^(٣)

حصل الشيء : جمعه ، وقيل : ميزه من غيره . ومنه قيل للمنخل المحصل ، وحصل الشيء : ظهر واستبان ﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ، إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ هذه السورة مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ، مدنية في قول ابن عباس وأنس وقتادة . لما ذكر فيها قبلها ما يقتضي تهديداً ووعيداً بيوم القيامة بتعنيف لمن لا يستعد لذلك اليوم ، ومن أثر أمر دنياه على أمر آخرته ، والجمهور من أهل التفسير واللغة على أن العاديات هنا : الخيل تعدو في سبيل الله وتضبح حالة عدوها ، وقال عنترة :

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ فِي جِيَاظِ الْمَوْتِ ضَبْحاً^(٤)

وقال أبو عبد الله وعلي وإبراهيم والسدي ومحمد بن كعب وعبيد بن عمير (العاديات) الإبل ، أقسم بها حين تعدو من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاج . وبأهل غزوة بدر لم يكن فيها غير فرسين فرس للزبير وفرس للمقداد ، وبهذا حج علي رضي الله عنه ابن عباس حين تماريا فرجع ابن عباس إلى قول علي رضي الله تعالى عنها . وقالت صفية بنت عبد المطلب :

فَلَا وَالْعَادِيَاتِ غَدَاةَ جَمْعٍ بِأَيْدِيهَا إِذَا سَطَعَ الْغُبَارُ^(٥)

وانتصب (ضبحاً) على إضمار فعل ، أي : يضبحن ضبحاً ، أو على أنه في موضع الحال ، أي : ضابحات ، أو على المصدر على قول أبي عبيدة ان معناه : العدو الشديد فهو منصوب بـ (العاديات) وقال الزمخشري : « أو بـ (العاديات) كأنه قيل : والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو » . انتهى . وإذا كان الضبح مع العدو فلا يكون معنى (والعاديات) معنى الضابحات فلا ينبغي أن يفسر به . (فالموريات قدحاً) والإيراء : إخراج النار ، أي : تقدح

(١) البيت من الرمل انظر الكامل ٣٣١/١ اللسان (نقع) .

(٢) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٤٨٣/٥ .

(٣) البيت من الخفيف انظر فتح القدير ٤٨٣/٥ .

(٤) البيت من مجزوء الكامل انظر الكشف ٩٢٧/٤ ، فتح القدير ٤٨١/٥ ، اللسان (ضبح) .

(٥) البيت من الوافر انظر فتح القدير ٤٨٢/٥ .

بحوافها الحجارة فيتطاير منها النار لصك بعض الحجار بعضاً . ويقال : قدح فأورى ، وقدح فأصلد ، وتسمى تلك النار التي تقدحها الحوافر ، من الخيل أو الإبل نار الحباب ، قال الشاعر :

تَقْدُ السُّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْحَبَابِ

وقيل : (فالموريات قدحاً) مجاز أو استعارة في الخيل تشعل الحرب . قاله قتادة . وقال تعالى ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ﴾ [المائدة ٦٤] ويقال : حمي الوطيس إذا اشتد الحرب . وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم : « الموريات : الجماعة التي تمكر في الحرب والعرب تقوله إذا أرادت المكر بالرجل والله لا يكون ذلك ولأورين لك » . وعن ابن عباس أيضاً : « التي توري نارها بالليل لحاجتها وطعامها » وعنه أيضاً : جماعة الغزاة تكثر النار إرهاباً . وقال عكرمة : ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به ، وتظهر من الحجج والدلائل ، وإظهار الحق وإبطال الباطل » . (فالمغيرات صبحاً) أي : تغير على العدو في الصبح . ومن قال هي الإبل قال : العرب تقول : أغار إذا عدا جرياً أي من مزدلفة إلى منى ، أو في بدر ، وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب . والظاهر أنها الخيل التي يجاهد عليها العدو من الكفار ، ولا يستدل على أنها الإبل بوقعة بدر وإن لم يكن فيها إلا فرسان ، لأنه لم يذكر أن سبب نزول هذه السورة هو وقعة بدر ، ثم بعد ذلك لا يكاد يوجد أن الإبل جاهد عليها في سبيل الله بل المعلوم أنه لا يجاهد في سبيل الله تعالى إلا على الخيل في شرق البلاد وغربها . (فأترن) معطوف على اسم الفاعل الذي هو صلة أل ، لأنه في معنى الفعل ، إذ تقديره فاللاتي عَدَوْنَ فَأَغَرْنَ فَأَتَرْنَ . وقال الزمخشري : « معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه » انتهى . وتقول أصحابنا هو معطوف على الاسم ، لأنه في معنى الفعل . وقرأ الجمهور (فَأَتَرْنَ فَوْسَطْنَ) بتخفيف الثاء والسين ، وأبو حيوة وابن أبي عتبة بشدّها . وعليّ وزيد بن علي وقاتدة وابن أبي ليلى بشدّ السين ، وقال الزمخشري : وقرأ أبو حيوة (فَأَتَرْنَ) بالتشديد بمعنى : فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة . وقرئ (فَوْسَطْنَ) بالتشديد للتعدية ، والباء مزيادة للتوكيد . كقوله ﴿ وأتوا به ﴾ [البقرة ٢٥] وهي مبالغة في وسطن « انتهى . أما قوله : أوقلب ، فتمحل بارد ، وأما أن التشديد للتعدية ، فقد نقلوا أن وَسَطَ مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد ، وأنها لغتان . والضمير في (به) عائد في الأول على الصبح . أي : هيجن في ذلك الوقت غباراً . وفي (به) الثاني على الصبح . قيل : أو على النقع ، أي : وسطن النقع الجمع ، فيكون وسطه بمعنى توسطه . وقال علي وعبد الله (فوسطن به جمعاً) أي : الإبل و (جمعاً) اسم للمزدلفة ، وليس بجمع من الناس . وقال بشر بن أبي حازم :

فَوْسَطْنَ جَمْعَهُمْ وَأَقْلَتَ حَاجِبُ تَحْتَ الْعَجَاجَةِ فِي الْغُبَارِ الْأَقْتَمِ^(١)

وقيل : الضمير في (به) يعود على العدو الدال عليه (والعاديات) أيضاً . وقيل : يعود على المكان الذي يقتضيه المعنى وإن لم يجر له ذكر ، لدلالة (والعاديات) وما بعدها عليه . وقيل : المراد بالنقع هنا : الصياح والظاهر أن المقسم به هو جنس العاديات ، وليست أل فيه للعهد ، والمقسم عليه (إن الإنسان لربه لكنود) وفي الحديث : « الكنود يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده » . وقال ابن عباس والحسن : « هو الجحود لنعمة الله تعالى » وعن الحسن أيضاً : « هو اللائم لربه يعد السيئات وينسى الحسنات » . وقال الفضيل : « هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة »

(١) البيت من الكامل ، انظر ديوان المفضليات ٦٨٢ الجمهرة (٤٠٢) .

ويعامل الله على عقد عوض » . وقال عطاء : « هو الذي لا يعطي في النائبات مع قومه » . وقيل : البخيل . وقال ابن قتيبة : « أرض كنود لا تنبت شيئاً والظاهر عود الضمير في (وإنه) على (ذلك لشهيد) أي : يشهد على كنوده ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره . وقاله الحسن ومحمد بن كعب . وقال ابن عباس وقتادة : « هو عائد على الله تعالى . أي : وربه شاهد عليه ، وهو على سبيل الوعيد » . وقال التبريزي : هو عائد على الله تعالى وربه شاهد عليه هو الأصح ، لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين ، ويكون ذلك كالوعيد والزجر عن المعاصي » . انتهى . ولا يترجح بالقرب إلا إذا تساوى من حيث المعنى . والإنسان هنا : هو المحدث عنه والمسند إليه الكنود أيضاً فتناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنى أولى من جعلها لمختلفين ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين على واحد . (وإنه) أي : وإن الإنسان (لحب الخير) أي : المال (لشديد) أي : قوي في حبه وقيل : لبخيل بالمال ضابط له ، ويقال للبخيل شديد ومتشدد . وقال طرفة :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَاقُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَشْدَدِ^(١)

وقال قتادة : الخير من حيث وقع في القرآن هو المال . قال ابن عطية : ويحتمل أن يراد هذا الخير الدنيوي من مال وصحة وجاه عند الملوك ونحوه ، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك ، فأما المحب في خير الآخرة فممدوح مرجوله الفوز » . وقال الفراء : نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير فلما تقدم الحب قال (لشديد) وحذف من آخره ذكر الحب ، لأنه قد جرى ذكره ولرؤوس الآية كقوله تعالى ﴿ في يوم عاصف ﴾ [إبراهيم ١٨] والعصوف للريح لا لأيام كأنه قال في يوم عاصف الريح . انتهى . وقال غيره ما معناه : لأنه ليس أصله ذلك التركيب بل اللام في (الحب) لام العلة ، أي : وإنه لأجل حب المال لبخيل أو وإنه لحب المال وإيثاره قوي مطيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف متعاس ، تقول : هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً ، قال الزمخشري . أو أراد وإنه لحب الخيرات غير هش منبسط ، ولكنه شديد منقبض . (أفلا يعلم) توقيف إلى ما يؤول إليه الإنسان . ومفعول (يعلم) محذوف وهو العامل في الظرف . أي : أفلا يعلم ماله إذا بعثر . وقال الحوفي : (إذا) ظرف مضاف إلى (بعثر) والعامل فيه (يعلم) انتهى . وليس بمتضح ، لأن المعنى : أفلا يعلم الآن . وقرأ الجمهور (يُعْثَرُ) بالعين مبنياً للمفعول . وقرأ عبد الله بالحاء . وقرأ الأسود بن زيد (بحث) وقرأ نضر بن عاصم (بحث) على بئنه للفاعل وقرأ ابن يعمر ونصر بن عاصم ومحمد بن أبي سعدان (وَحُصِّلَ) مبنياً للفاعل . والجمهور مبنياً للمفعول . وقرأ ابن يعمر أيضاً ونصر بن عاصم أيضاً (وَحَصَّلَ) مبنياً للفاعل خفيف الصاد . والمعنى : جمع ما في المصحف . أي : أظهر محصلاً مجموعاً . وقيل : ميز وكشف ، ليقع الجزاء عليه ، وقرأ الجمهور (إن) بكسر الهمزة (لخبر) باللام . هو استئناف إخبار والعامل في بهم وفي (يومئذ لخبر) وهو تعالى خير دائماً لكنه ضمن (خبر) معنى مجاز لهم في ذلك اليوم . وقرأ أبو السمال والحجاج بفتح الهمزة وإسقاط اللام . ويظهر في هذه القراءة تسلط (يعلم) على (إن) لكنه لا يمكن إعمال (خبر) في (إذا) لكونه في صلة أن المصدرية لكنه لا يمكن أن يقدر له عامل فيه من معنى الكلام فإنه قال : يجزيهم إذا بعثر . وعلى هذا التقدير ، يجوز أن يكون (يعلم) معلقة عن العمل في قراءة الجمهور وسدت مسد المعمول في (إن) وفي خبرها اللام ظاهر إذ هي في موضع نصب بـ (يعلم) و (إذا) العامل فيها من معنى مضمون الجملة تقديره كما قلنا يجزيهم إذا بعثر .

سورة القارعة مكية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

الفراش : قال الفراء : هو الهمج الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد ، ويقال : هو أطيّش من فراشة . قال : وقد كان أقوام رددت قلوبهم عليهم وكانوا كالفراش من الجهل . وقيل : فراشة الحلم نفشت الصوف والقطن فرقت ما كان ملبداً من أجزائه .

﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبعوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هية ، نار حامية ﴾ هذه السورة مكية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، لأنه ذكر وقت بعثت القبور ، وذلك هو وقت الساعة وقال الجمهور : القارعة : القيامة نفسها ، لأنها تفرع القلوب بهولها ، وقيل : صيحة النفخة في الصور ، لأنها تفرع الأسعاع وفي ضمن ذلك القلوب . وقال الضحاك : هي النار ذات التغيط والزفير . وقرأ الجمهور (القارعة ما القارعة) بالرفع فـ (ما) استفهام ، فيه معنى الاستعظام والتعجيب ، وهي مبتدأ و (القارعة) خبره . وتقدم تقرير ذلك في (الحاقة وما الحاقة) وقيل : ذلك في قوله ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ [الواقعة ٨] وقال الزجاج : هو تحذير والعرب تحذروا وتغري بالرفع كالنصب . قال الشاعر :

أَخُو النَّجْدَةِ السَّلَاحُ السَّلَاحُ^(١)

وقرأ عيسى بالنصب ، وتخريجه على أنه منصوب بإضمار فعل ، أي : اذكروا القارعة . و (ما) زائدة للتوكيد

(١) شطربيت من الخفيف وهو بكماله :

لجديرون بالوفاء إذ قال ل أخو النجدة السلاح السلاح

انظر شواهد الأسموني ١٩٣/٣ .

و (القارعة) تأكيد لفظي للأولى . وقرأ الجمهور (يوم) بالنصب وهو ظرف . العامل فيه قال ابن عطية (القارعة) فإن كان عنى بالقارعة اللفظ الأول فلا يجوز ، للفصل بين العامل وهو في صلة آل والمعمول بالخبر ، وكذا لو صار (القارعة) علماً للقيامة لا يجوز أيضاً . وإن كان عنى اللفظ الثاني أو الثالث فلا يلتزم معنى الظرف معه . وقال الزمخشري : الظرف نصب بمضمردل عليه (القارعة) . أي : تفرع (يوم يكون الناس) . وقال الحوفي : تأتي (يوم يكون) . وقيل : اذكر يوم ، وقرأ زيد بن علي (يوم يكون) مرفوع الميم أي : وقتها يوم. يكون الناس (كالفراس المبثوث) قال قتادة : هو الطير الذي يتساقط في النار . وقال الفراء : غوءاء الجراد ، وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض يركب بعضه بعضاً من الهول . وقيل : الفراش : طير دقيق يقصد النار ، ولا يزال يتفحم على المصباح ونحوه حتى يحترق . شبهوا في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجيء والذهاب على غير نظام ، والتطايير إلى الداعي من كل جهة حتى تدعوهم إلى ناحية المحشر كالفراس المتطايير إلى النار ، قال جرير :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتُ وَقَوْمَهُ مِثْلَ الْفَرَّاشِ عَشِينَ نَارَ الْمُصْطَلِي (١)

وقرن بين الناس والجبال ، تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالعهن المنفوش فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها . وتقدم الكلام في الموازين وثقلها وخفتها في الأعراف و (عيشة راضية) في الحاقة . (فأمه هاوية) الهاوية : دركة من دركات النار . و (أمه) معناه مأواه ، كما قيل للأرض أم الناس ، لأنها تؤويهم وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب فنحن بنوها وهي أمنا . وقال قتادة وأبو صالح وغيره : فأم رأسه هاوية في قعر جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوساً . وقيل : هو تفاؤل بشر وإذا دعوا بالهلكة قالوا « هوت أمه » ، لأنه إذا هوى ، أي : سقط وهل فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً . قال الشاعر :

هَوَتْ أُمُّهُ مَا نَبَعْتُ الصَّبْحَ غَادِيَا وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلَ حِينَ يَبْثُورُ

وقرأ الجمهور (فأمه) بضم الهمزة . وطلحة بكسرهما . قال ابن خالويه : وحكى ابن دريد أنها لغة . وأما النحويون فإنهم يقولون لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء ، انتهى . (وما أدراك ما هيه) (هي) ضمير يعود على (هاوية) إن كانت كما قيل : دركة من دركات النار معروفة بهذا الاسم ، وإن كانت غير ذلك مما قيل فيها فهي ضمير الداهية التي دل عليها قوله (فأمه هاوية) والهاء في (ماهية) هاء السكت . وحذفها في الوصل ابن أبي إسحق والأعمش وحمة ، وأثبتها الجمهور (نار) خبر مبتدأ محذوف . أي : هي نار أعادنا الله منها بمنه وكرمه .

سورة التكاثر مكية وهي ثمانى آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ۚ ۱ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ ۲ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۳ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۴ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ ۵ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ۶ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ۷ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۚ ۸

هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين . وقال البخاري : مدنية . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة وسبب نزولها . أنه فيما روى الكلبي ومقاتل كان بين بني سهم وبين بني عبد مناف لحاء فتعادوا الأشراف الأحياء أيهم أكثر؟ فكثرتهم بنو عبد مناف ، ثم تعادوا الأموات فكثرتهم بنو سهم ، لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية . وقال قتادة : نزلت في اليهود قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان . وقال ابن زيد : نزلت في بطن من الأنصار . (أهاكم) شغلكم . فعلى ما روى الكلبي ومقاتل يكون المعنى ، أنكم تكاثرتُم بالأحياء حتى استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتُم بالأموات . عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر ، تهكماً بهم . وهذا معنى ينبو عنه لفظ (زرتُم) قيل : حتى زرتُم ، أي متم وزرتُم بأجسادكم مقابرهم ، أي : قطعتم بالتكاثر ، والمفاخرة بالأموال ، والأولاد ، والعدد ، أعماركم حتى متم وسمع بعض الأعراب (حتى زرتُم) فقال : بعث القوم للقيامة ورب الكعبة فإن الزائر منصرف لا مقيم . وعن عمر بن عبد العزيز نحو من قول الأعرابي . وقيل : هذا تأنيث على الإكثار من زيارة تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره . وكان رسول الله - ﷺ - نهى عن زيارة القبور ثم قال « فزوروها »^(١) . أمر بإباحة ، للاتعاض بها ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر . قال ابن عطية : كما يصنع الناس في ملازمتها ، وتسنيماً بالحجارة والرخام ، وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليها . وابن عطية لم ير إلا قبور أهل الأندلس فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنتهم بالقرافة الكبرى ، والقرافة الصغرى ، وباب النصر ، وغير ذلك ، وما يضيع فيها من الأموال لتعجب من ذلك ، ولرأى ما لم يخطر ببال . وأما التباهى بالزيارة ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوف أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور . زرت قبر سيدي فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلاناً بكذا ، والشيخ فلاناً بكذا ، فيذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد ، وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفاراً ، وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه ، وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحسين الظن بهم ، وبذل أموالهم لهم ، وأما من شذ منهم لأن يتكلم للعامة فيأتي بعجائب ، يقولون : هذا فتح

(١) أخرجه مسلم ٦٧٢/٢ في الجنائز باب استئذان النبي - ﷺ - ربه عز وجل في زيارة قبر أمه (٩٧٧/١٠٦) .

هذا من العلم اللدني ، علم الخضر حتى إن من ينتمي إلى العلم لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ، ونقل كثيراً من حكاياتهم ، ومزج ذلك بيسير من العلم طلباً للمال والجاه ، وتقيل اليد ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته . وقرأ الجمهور (ألهاكم) على الخبر . وابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة بالمد على الاستفهام . وقد روى كذلك عن الكلبي ويعقوب . وعن أبي بكر الصديق وابن عباس أيضاً والشعبي وأبي العالية وابن أبي عبله والكسائي في رواية (ألهاكم) بهمزي . ومعنى الاستفهام التوبيخ والتقريع على قبح فعلهم . والجمهور على أن التكرير تأكيد . قال الزمخشري : والتكرير تأكيد للردع والإنذار و (ثم) دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك لا تفعل والمعنى : سوف تعلمون الخطاب فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى ، وقال علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - (كلا سوف تعلمون) في القبور (ثم كلا سوف تعلمون) في البعث غاير بينهما بحسب التعلق . وتبقى (ثم) على بابها من المهلة في الزمان . وقال الضحاك : الزجر الأول ووعيده للكافرين . والثاني للمؤمنين . (كلا لو تعلمون) أي : ما بين أيديكم مما تقدمون عليه (علم اليقين) أي : كعلم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر . أو العلم اليقين فأضاف الموصوف إلى صفته وحذف الجواب ، لدلالة ما قبله عليه وهو (ألهاكم التكاثر) ، وقيل : (اليقين) هنا الموت . وقال قتادة : البعث ، لأنه إذا جاء زال الشك . ثم قال (لترون الجحيم) والظاهر أن هذه الرؤية هي رؤية ورود ، كما قال تعالى (وإن منكم إلا واردها) ولا تكون رؤية عند الدخول فيكون الخطاب للكفار ، لأنه قال بعد ذلك ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ [مريم ٧١] (ثم ترونها عين اليقين) تأكيد للجملة التي قبلها . وزاد التوكيد بقوله (عين اليقين) نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى . وعن ابن عباس : هو خطاب للمشركون ، فالرؤية رؤية دخول . وقرأ ابن عامر ، والكسائي (لتروُن) بضم التاء . وباقي السبعة بالفتح . وعليّ وابن كثير في رواية وعاصم في رواية بفتحها في (لترون) وضمها في (لترونها) ومجاهد والأشهب وابن أبي عبله بضمهما . وروي عن الحسن وأبي عمرو وبخلاف عنهما أنها همزا الواوين . استقلوا الضمة على الواو فهمزوا كما همزوا في ﴿ وقتت ﴾ [المرسلات ١١] وكان القياس أن لا تهمز ، لأنها حركة عارضة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها ، لكنها لما تمكنت من الكلمة بحيث لا تزول أشبهت الحركة الأصلية فهمزوا ، وقد همزوا من الحركة العارضة ما يزول في الوقف نحو استروا الصلاة . فهمز هذه أولى . (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) الظاهر العموم في (النعيم) وهو كل ما يتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب . فالمؤمن يسأل سؤال إكرام وتشريف ، والكافر سؤال توبيخ وتقريع ، وعن ابن مسعود والشعبي وسفيان ومجاهد : هو الأمن والصحة . وعن ابن عباس : البدن والحواس فيم استعملها . وعن ابن جبير : كل ما يتلذذ به وفي الحديث : « بيت يكنك وخرقة تواريك وكسرة تشد قلبك وما سوى ذلك فهو نعيم » .

سورة العصر مكية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا
بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

هذه السورة مكية في قول ابن عباس وابن الزبير ، والجمهور . ومدنية في قول مجاهد وقتادة ومقاتل لما قال فيها قبلها (أهلكم التكاثر) ووقع التهديد بتكرار (كلا سوف تعلمون) بين حال المؤمن والكافر ، (والعصر) قال ابن عباس : هو الدهر يقال فيه عصر وعصر وعصر . أقسم به تعالى ، لما في مروره من أصناف العجائب . وقال قتادة (العصر) العشي أقسم به كما أقسم بالضحى ، لما فيها من دلائل القدرة . وقيل : العصر : اليوم والليلة . ومنه قول حميد بن ثور :

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَمَا مَا تَيَمَّمَا^(١)

وقيل : العصر بكرة ، والعصر عشية ، وهما الأبردان . فعلى هذا والقول قبله ، يكون القسم بواحد منها غير معين . وقال مقاتل : العصر الصلاة الوسطى ، أقسم بها . وبهذا القول بدأ الزمخشري قال : لفضلها بدليل قوله تعالى ﴿ وَالصَّلَاةَ الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ ﴾ [البقرة ٢٣٨] في مصحف حفصة . وقوله - ﷺ - : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » لأن التنكيف في أدائها أشق ، لتهافت الناس في تجارتهم وتحاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعاشهم انتهى . وقرأ سلام (والعصر) بكسر الصاد والصبر بكسر الباء . قال ابن عطية : وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة . وروي عن أبي عمرو (بالصبر) بكسر الباء إشاماً . وهذا لا يكون إلا في الوقف . انتهى . وفي الكامل للمهزلي (والعصر) (والصبر) ﴿ والفجر ﴾ [الفجر ١] ﴿ والوتر ﴾ [الفجر ٣] بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها ، هارون وابن موسى عن أبي عمرو ، والباقون بالإسكان كالجماعة . انتهى . وقال ابن خالويه (وتواصوا بالصبر) بنقل الحركة عن أبي عمرو ، وقال صاحب اللوامع : عيسى البصرة (بالصبر) بنقل حركة الهاء إلى الياء ، لثلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف ، ولا إلى أن يسكن فيجمع بين ساكنين ، وذلك لغة شائعة ، وليس شاذة ، بل مستفيضة وذلك دلالة على الإعراب وانفصال عن التقاء الساكنين ومادته حق الموقف عليه من السكون . انتهى . وقد أنشدنا في الدلالة على هذا في شرح التسهيل عدة أبيات كقول الراجز :

أَنَا جَرِيرٌ كُنَيْتِي أَبُو عَمْرٍو أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَسَعْدٌ فِي الْقَصْرِ^(٢)

(١) البيت من الطويل انظر الكامل ١٢٨/١ اللسان (عسر) .

(٢) البيت من الرجز ذكره السمين في الدر المصون .

يريد أبو عمر ، (والعصر) و (الإنسان) اسم جنس يعم ، ولذلك صح الاستثناء منه . والخسر : الخسران كالكفر والكفران . وأي خسران أعظم ممن خسر الدنيا والآخرة ؟ قرأ ابن هرمز وزيد بن عليّ وهارون عن أبي بكر عن عاصم (خُسْرٌ) بضم السين . والجمهور بالسكون . ومن باع آخرته بدنيه فهو في غاية الخسران بخلاف المؤمن فإنه اشترى الآخرة بالدنيا فربح وسعد . (وتواصوا بالحق) أي : بالأمر الثابت من الذين عملوا به وتواصوا به (وتواصوا بالصبر) في طاعة الله تعالى وعن المعاصي .

سورة الهمزة مكية وهي تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي
الْحُطْمَةِ (٤) وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحُطْمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ
مُؤَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

الخطمة : أصله : الوصف من قولهم : رجل خطمة ، أي : أكول ، قال الرازي :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ الْحُطْمِ (١)

وقال آخر :

إِنَّا حَطَمْنَا بِالْقَضِيبِ مُضْعَبًا يَوْمَ كَسَرْنَا أَنْفَهُ لِيُغْضَبَا (٢)

﴿ ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن في الخطمة ، وما أدراك ما الخطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾ هذه السورة مكية ، لما قال فيها قبلها (إن الإنسان لفي خسر) بين حال الخاسر ، فقال : (ويل لكل همزة) ونزلت في الأخنس بن شريق ، أو العاصي بن وائل ، أو جميل بن معمر ، أو الوليد بن المغيرة ، أو أمية بن خلف ، أقوال ، ويمكن أن تكون نزلت في الجميع ، وهي مع ذلك عامة فيمن اتصف بهذه الأوصاف ، وقال السهيلي : هو أمية بن خلف الجمحي ، كان يهزم النبي - ﷺ - ويعينه ذكره ابن إسحق . وإنما ذكرته وإن كان اللفظ عاماً ، لأن الله سبحانه وتعالى تابع في أوصافه والخبر عنه حتى فهم أنه يشير إلى شخص بعينه وكذلك قوله في سورة ن ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ [القلم ١٠] تابع في الصفات حتى علم أنه يريد إنساناً بعينه . وتقدم الكلام في الهمزة في سورة (ن) وفي (اللمز) في سورة براءة . وفعله من أبنية المبالغة كنومة وعيبة وسحرة وضحكة ، وقال زياد الأعجم :

تدلي بؤدي إذا لأقيتني كذياً وإن أُغيبَ فأنت الهامز اللمزة (٣)

(١) عجز بيت من الرجز وصدده :

يحمي الذمار خزرجي من جشم

(حطم) انظر الكامل ٢٢٤/١ اللسان (حطم) .

(٢) البيت من الرجز انظر فتح القدير ٤٩٤/٥ .

(٣) البيت من البسيط انظر فتح القدير ٤٩٤/٥ .

وقرأ الجمهور بفتح الميم فيهما ، والباقون بسكونها ، وهو المسخرة الذي يأتي بالأصاحيك منه ويشتم ويهمز ويلمز .
(الذي) بدل أو نصب على الذم . وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر والأخوان (جَمَعَ) مشدد الميم ، وباقي السبعة بالتخفيف . والجمهور (وعدده) بشد الدال الأولى أي : أحصاه وحافظ عليه وقيل : جعله عدة لطوارق الدهر .
والحسن والكلبي بتخفيفها . أي : جمع المال وضبط عدده . وقيل : وعدداً من عشيرته ، وقيل : (وعدده) على ترك الإدغام كقوله :

إِنِّي أَجُودُ لَأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَيَّنُوا

(أخلده) أي : أبقاه حياً إذ به قوام حياته ، وحفظه مدة عمره . وقال الزمخشري : أي طول المال أمله ومناه الأمانى البعيدة حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت . قيل : وكان للأخنس أربعة آلاف دينار ، وقيل : عشرة آلاف دينار . (كلا) ردع له عن حسابه . وقرأ الجمهور (لينبذ) فيه ضمير الواحد . وعليّ والحسن بخلاف عنه وابن محيصن وحيد وهارون عن أبي عمرو (لينبذاً) بآلف ضمير اثنين . الهمزة ومآله . وعن الحسن أيضاً (لينبذ) بضم الدال . أي : هو وأنصاره . وعن أبي عمرو (لينبذنه) وقرأ الجمهور في الخطمة (وما أدراك ما الخطمة) وزيد بن عليّ (في الخطمة) (وما أدراك ما الخطمة) وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقي فيها . قال الضحاك : الخطمة الدرك الرابع من النار . وقال الكلبي : الطبقة السادسة من جهنم . وحكى عنه القشيري أنها الدركة الثانية . وعنه أيضاً : الباب الثاني . وقال الواحدي : باب من أبواب جهنم انتهى . و (نار الله) أي هي أي الخطمة . (التي تطلع على الأفئدة) ذكرت الأفئدة ، لأنها ألطف ما في البدن وأشدّه تألماً بأذى شيء من الأذى . واطلاع النار عليها هو أنها تعلوها وتشتمل عليها ، وهي تعلو الكفار في جمع أبدانهم لكن نبه على الأشرف ، لأنها مقر العقائد . وقرأ الأخوان وأبو بكر في (عُمْد) بضممتين جمع عمود . وهارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم . وباقي السبعة بفتحها وهو اسم جمع ، الواحد عمود ، وقال الفراء : جمع عمود كما قالوا : أديم وأدم ، وقال أبو عبيدة : جمع عماد ، قال ابن زيد (في عمد) حديد مغلولين بها . وقال أبو صالح : هذه النار هي قبورهم . والظاهر : أنها نار الآخرة ، إذ يسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمدة كل ذلك إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية . وقال قتادة : كنا نحدث أنها عمد يعذبون بها في النار . وقال أبو صالح : هي القيود . والله تعالى أعلم .

سُورَةُ الْفِيلِ

ترتيبها ١٠٥ آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

الفيل : أكبر ما رأيناه من وحوش البر ، يجلب إلى ملك مصر ولم نره بالأندلس بلادنا . ويجمع في القلة على أفيال ، وفي الكثرة على فيول وفيلة . الأبابيل : الجماعات تحيء شيئاً بعد شيء ، قال الشاعر :

كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتِ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ ^(١)

وقال الأعشى :

طَرِيقٌ وَخَبَارٌ رَوَاءَ أَصُولِهِ عَلَيْهِ أَبَابِيلُ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ ^(٢)

قال أبو عبيدة والفراء : لا واحد له من لفظه ، فيكون مثل عبايد وبيادير : وقيل : واحده إِبُول مثل عَجُول . وقيل : إِبِيل مثل سَكِين ، وقيل : إِبَال وذكر الرقاشي وكان ثقة أنه سمع في واحده إِبَالَة وحكى الفراء إِبَالَة مخففاً . ﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ﴿٤﴾ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيها قبلها عذاب الكفار في الآخرة أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدنيا والظاهر أن الخطاب للرسول ﷺ - بذكر نعمته عليه إذ كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد - عليه السلام - وإرهاصاً بنبوته ، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - ومعنى (أَلَمْ تَرَ) أَلَمْ تَعْلَمْ قدره على وجود علمه بذلك ، إذ هو أمر منقول نقل التواتر ، فكانه قيل : قد علمت فعل الله ربك هؤلاء الذين قصدوا حرمة ؟ ضلل كيدهم ، وأهلكهم بأضعف جنوده ، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل . وقصة الفيل ذكرها أهل السير والتفسير مطولة ومختصرة . وتطالع في كتبهم . وأصحاب الفيل : أبرهة بن الصباح الحبشي ومن كان معه من جنوده . والظاهر : أنه فيل واحد وهو قول الأكثرين . وقال الضحاك : ثمانية فيلة . وقيل : اثنا عشر فيلاً . وقيل : ألف فيل . وهذه أقوال متكاذبة . وكان العسكرستين ألفاً لم يرجع

(١) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

(٢) البيت من الطويل انظر ديوانه (١١) .

أحد منهم إلا أميرهم في شزيمة قليلة ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا ، وكان الفيل يوجهونه نحو مكة لما كان قريباً منها فيبرك ، ويوجهونه نحو اليمن والشام فيسرع . وقال الواقدي : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن الرسول - ﷺ - وقرأ السلمي (ألم تر) بسكون ، وهو جزم بعد جزم ، ونقل عن صاحب اللوامح (ترأ) بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل ، وهي لغة لتيم و (تر) معلقة والجملة التي فيها الاستفهام في موضع نصب به و (كيف) معمول لفعل . وفي خطابه تعالى لنبي - ﷺ - بقوله (فعل ربك) تشريف له - ﷺ - وإشادة من ذكره كأنه قال ربك معبودك هو الذي فعل ذلك لا أصنام قريش أساف ونائلة وغيرهما . (ألم يجعل كيدهم في تضليل) وإبطال ، يقال : ضلل كيدهم إذا جعله ضالاً ضائعاً ، وقيل لا مريء القيس الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه . أي : ضيعه وتضييع كيدهم هو بأن أحرق الله تعالى البيت الذي بنوه قاصدين أن يرجع حج العرب إليه وبأن أهلكهم لما قصدوا هدم بيت الله الكعبة بأن أرسل عليهم طيراً جاء من جهة البحر ، ليست نجدية ، ولا تهامية ، ولا حجازية سوداء ، وقيل : خضراء على قدر الخطاف ، وقرأ الجمهور (ترميهم) بالتاء والطير : اسم جمع بهذه القراءة . وقوله :

كَالطَّيْرِ يَنْجُومَنَّ الشُّرُوبَ ذِي الْبَرْدِ

وتذكر كقراءة أبي حنيفة وابن يعمر وعيسى وطلحة في رواية عنه (يرميهم) ، وقيل : الضمير عائد على (ربك) (بحجارة) كان كل طائر في منقاره حجر وفي رجله حجران ، كل حجر فوق حبة العدس ودون حبة الحمص مكتوب في كل حجر اسم مرميه ، ينزل على رأسه ويخرج من دبره . ومرض أبرهة فتقطع أثملة أثملة ، ومامات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت أبو مكسوم وزيره وطائره يتبعه حتى وصل إلى النجاشي وأخبره بما جرى للقوم فرماه الطائر بحجره فمات بين يدي الملك ، وتقدم شرح (سجيل) في سورة هود و (العصف) في سورة الرحمن . شبهوا بالعصف ورق الزرع الذي أكل أي : وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود ، والتبن الذي أكلته الدواب وراثته ، وجاء على آداب القرآن نحو قوله ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة ٧٥] أو الذي أكل حبه فبقي فارغاً فنسبه أنه أكل مجاز إذ المأكول حبه لا هو . وقرأ الجمهور (مأكول) بسكون الهمزة وهو الأصل ، لأن صيغة مفعول من فَعَلَ ، وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه بفتح الهمزة ، إتباعاً لحركة الميم ، وهو شاذ وهذا كما اتبعوا في قوهم (محموم) بفتح الحاء لحركة الميم . قال ابن إسحاق : لما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم ، فكان ذلك نعمة من الله تعالى عليهم . وقيل : هو إجابة لدعاء الخليل - عليه الصلاة والسلام - .

سورة قريش مكية وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ قُرَيْشٌ (١) لِّإِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

قريش : علم اسم قبيلة ، وهم بنو النضر بن كنانة ، فمن كان من بني النضر فهو من قريش دون بني كنانة . وقيل : هم بنو فهر بن مالك بن النضر . فمن لم يلبده فهر فليس بقريشي ، قال القرطبي : والقول الأول أصح وأثبت وسموا بذلك ، لتجمعهم بعد التفرق ، والتقريش : التجمع والالتام . ومنه قول الشاعر :

إِخْوَةٌ قَرَشُوا الذُّنُوبَ عَلَيْنَا فِي حَدِيثٍ مِنْ دَهْرِهِمْ وَقَدِيمٍ

كانوا متفرقين في غير الحرم فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوه مسكناً ، ومنه قوله :

أَبُونَا قُصِيٌّ كَانَ يُدْعَى مُجْمَعاً بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ^(١)

وقال الفراء : القرش : التكسب . وقد قرش يقرش قرشاً إذا كسب ، وجمع ، ومنه سميت قريش . وقيل : كانوا يفتشون على ذي الخلة من الحاج ليسدوها ، والقرش : التفتيش . ومنه قول الشاعر :

أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُقَرَّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو هَلْ لِيَذَاكَ بَقَاءُ^(٢)

وسأل معاوية ابن عباس بم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : بدابة في البحر أقوى دوابه يقال لها القرش تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلو . ومنه قول تبع :

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْرَ	رَبِّهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا
تَأْكُلُ الْغَنَاءَ وَالسَّمِينَ وَلَا تَتَّ	رُكُّ فِيهَا لِذِي جَنَاحَيْنِ رَيْشَا
هَكَذَا فِي الْبِلَادِ حَيُّ قُرَيْشٍ	يَأْكُلُونَ الْبِلَادَ أَكْلاً كَمِيشَا
وَلَهُمْ آخِرُ الزَّمَانِ نَبِيٌّ	يُكْثِرُ الْقَتْلَ فِيهِمْ وَالْخُمُوشَا ^(٣)

(١) البيت من الطويل لمطروود الخزاعي ، انظر شرح ديوان أبي تمام ٩٥/٤ اللسان (جمع) .

(٢) البيت من الخفيف لابن حلزة انظر اللسان (قرش) .

(٣) الأبيات من الخفيف انظر الكشف ٦٤٠/٤ ، اللسان (قرش) المقتضب ٣٦٢/٢ .

وفي الكشف : دابة تعبت بالسفن ولا تطاق إلا بالنار فإن كان قُرَيْش من مزيد فيه فهو تصغير ترخيم ، وإن كان من ثلاثي مجرد فهو تصغير على أصل التصغير (الشتاء والصيف) فصلان معروفان من فصول السنة الأربعة . وهزمة الشتاء مبدلة من واو ، قالوا ، شتا يشتو . وقالوا : شتوة . و (الشتاء) مفرد وليس بجمع شتوة .

﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

هذه السورة مكية في قول الجمهور . مدنية في قول الضحاك وابن السائب . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة ، ولا سيما أن جعلت اللام متعلقة بنفس (فجعلهم) وهو قول الأخفش ، أو بإضمار فعلنا ذلك لإيلاف قريش . وهو مروي عن الأخفش حتى تطمئن في بلدها . فذكر ذلك للامتنان عليهم ، إذ لو سلط عليهم أصحاب الفيل لتشتتوا في البلاد والأقاليم ، ولم تجتمع لهم كلمة . قال الزمخشري : وهذا بمنزلة التضمين في الشعر : وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به ، وهما في مصحف أبي سورة واحدة بلا فصل . وعن عمر : أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب . وقرأ في الأولين (والتين) والمعنى : أنه أهلك أهل الحبشة الذين قصدوهم ، ليتسامع الناس بذلك فيتهييئهم زيادة تهيب ، ويحترمهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم . انتهى . قال الحوفي : ورد هذا القول جماعة ، وقالوا : لو كان كذا لكان لإيلاف بعض سورة (ألم تر) وفي إجماع الجميع على الفصل بينهما ما يدل على غير ما قال يعني الأخفش والكسائي والفراء تتعلق بأعجبوا مضمرة أي أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت ، ثم أمرهم بالعبادة بعد وأعلمهم أن الله هو الذي أطعمهم وآمنهم لا آسفهم ، أي : فليعبدوا الذي أطعمهم بدعوة أبيهم حيث قال ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ [إبراهيم ٣٧] وآمنهم بدعوته حيث قال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [إبراهيم ٢٥] ولا تشتغلوا بالأسفار التي إنغا هي طلب كسب وعرض دنيا . وقال الخليل بن أحمد : تتعلق بقوله (فليعبدوا) والمعنى : لأن فعل الله بقريش هذا ، ومكنهم من إلفهم هذه النعمة ، (فليعبدوا) أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلة قال الزمخشري : (فإن قلت :) فلم دخلت الفاء ؟ (قلت :) لما في الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى إما لافليعبدوا لإيلافهم على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه هذه النعمة الواحدة التي هي نعمة ظاهرة . انتهى . وقرأ الجمهور (لإيلاف قريش) مصدراً ألف رباعياً وابن عامر (لإيلاف) على وزن فعال مصدر ألف ثلاثياً يقال ألف الرجل الأمر الفاء وإلا فاء وألفه غيره إياه إيلافاً وقد يأتي ألف متعدياً لواحد كألف ، قال الشاعر :

مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الرَّمْلِ أَدْمَاءَ حَرَّةٍ شُعَاعُ الضَّحَى فِي مَتْنِهَا يَتَوَضَّحُ^(١)

ولم يختلف القراء السبعة في قراءة (إيلافهم) مصدراً للرباعي ، وروي عن أبي بكر عن عاصم أنه قرأ بهزتين فيها الثانية ساكنة ، وهذا شاذ وإن كان الأصل . أبدلوا الهزمة التي هي فاء الكلمة لثقل اجتماع هزتين ولم يبدلوا في نحو يؤلف على جهة اللزوم ، لزوال الاستثقال بحذف الهزمة فيه . وهذا المروي عن عاصم هو من طريق الشمني عن الأعشى عن أبي بكر . وروى محمد بن داود النصار عن عاصم (إيلافهم) بهزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة ناشئة عن حركة الهزمة الثانية لما أشبع كسرتها . والصحيح رجوع عاصم عن الهزمة الثانية وأنه قرأ كالجماعة ، وقرأ أبو جعفر فيما حكى الزمخشري (لإلف) قريش وقرأ فيما حكى ابن عطية الفهم ، قال الشاعر :

(١) البيت من الطويل لذي الرمة ، انظر ديوانه (١١١) اللسان (ألف) .

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشًا لَّهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّافٌ^(١)

جمع بين مصدرى ألف الثلاثي ، وعن أبي جعفر وابن عامر (إلافهم) على وزن فعال ، وعن أبي جعفر وابن كثير الفهم على وزن فعل . وبذلك قرأ عكرمة ، وعن أبي جعفر أيضاً (لئلاف) بياء ساكنة بعد اللام اتبع لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى حذفاً على غير قياس . وعن عكرمة (لئالف قريش) وعنه أيضاً ، (لتألف قريش) على الأمر وعنه وعن هلال بن فتيان بفتح لام الأمر . وأجمعوا هنا على صرف (قريش) راعوا فيه معنى الحى ويجوز منع صرفه ملحوظاً فيه معنى القبيلة للتأنيث والعلمية . قال الشاعر :

وَكَفَى قُرَيْشُ الْمُغْضَلَاتِ وَسَادَهَا

جعله اسماً للقبيلة سبويه في نحو معد وقريش وثقيف . وكيونة هذه للأحياء أكثر ، وإن جعلتها اسماً للقبائل فجائز حسن . وقرأ الجمهور (رَحْلَةً) بكسر الراء . وأبو السمال بضمها . فبالكسر مصدر ، بالضم الجهة ، التي يرحل إليها . والجمهور على أنها رحلتان . فقيل : إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح ، ومنه قول الشاعر :

سَفَرَيْنَ بَيْنَهُمَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ سَفَرُ الشَّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْيَافِ

وقال ابن عباس : رحلة إلى اليمن ورحلة إلى بصرى . وقال : يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل ، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم . وقال الزمخشري : وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس ، كقوله :

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعْفُوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنُ خَمِيصُ^(٢)

انتهى . وهذا عند سبويه لا يجوز إلا في الضرورة^(٣) ومثله .

حامة بطن الوادين ترغي^(٤)

يريد بطني الوادين . أنشد أصحابنا على الضرورة . وقال النقاش : كانت لهم أربع رحل . قال ابن عطية : وهذا قول مردود . انتهى . ولا ينبغي أن يرد فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف هاشم كان يؤلف ملك الشام أخذ منه خيلاً فأمن به في تجارته إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . فكان هؤلاء يسمون المجيرين . فتختلف تجر قريش إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم ، قال الأزهري : الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة فإذا كان كذلك جاز أن يكون لهم أربع باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجار في خفارة هؤلاء الأربعة فيها ، وفيهم قول الشاعر بمدحهم :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوَّلُ رَحْلَهُ هَلَّا نَزَلْتَ بِأَلِ عَبْدِ مَنْافٍ

(١) البيت من البسيط لمساور بن هند ، انظر اللسان (ألف) الكشف ٦٣٩/٤ .

(٢) انظر الكتاب ١٠٥/١ ، الخزانة ٥٥٩/٧ ، المقتضب ١٧٠/٢ .

(٣) يريد المصنف رحمه الله استعمال البطن في معنى البطون ، في قوله بطنكم قال سبويه : وليس بمستكر في كلامهم أن يكون اللفظ واحداً ، والمعنى جميع حتى قال بعضهم في الشعر عن ذلك ما لا يستعمل في الكلام الكتاب ١٠٧/١ .

(٤) شطر بيت للشياخ انظر الأشموني ٩٤/٣ .

الْأَخِذُونَ الْعَهْدَ مِنْ أَفَاقِهَا وَالرَّاحِلُونَ لِرِحْلَةِ الْإِيلَافِ
وَالرَّائِثُونَ وَلَيْسَ يُوجَدُ رَائِثٌ وَالْقَائِلُونَ هَلُمَّ لِلْأَضْيَافِ
وَالْخَالِطُونَ غَنِيَّهُمْ لِفَقِيرِهِمْ حَتَّى يَصِيرَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

فتكون (رحلة) هنا اسم جنس يصلح للواحد ولأكثر و (إيلافهم) بدل من (لإيلاف قريش) أطلق المبدل منه وقيد البديل بالمفعول به ، وهو (رحلة) أي : لأن ألفوا رحلة ، تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً بعظيم النعمة فيه . (هذا البيت) هو الكعبة ، وتمكن هنا هذا اللفظ ، لتقدم حمايته في السورة التي قبلها . و (من) هنا للتعليل أي : لأجل الجوع كانوا قطاناً ببلد غير ذي زرع عرضة للجوع والخوف لولا لطف الله تعالى بهم وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام . قال تعالى ﴿ تَجِبْ إِلَى ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص ٥٧] (وآمنهم من خوف) فضلهم على العرب بكونهم يأمنون حيث ما حلوا ، فيقال : هؤلاء قطان بيت الله فلا يتعرض إليهم أحد وغيرهم خائفون . وقال ابن عباس والضحاك . (وآمنهم من خوف) معناه : من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً . قال الزمخشري : والتنكير في (جوع) و (خوف) لشدهما يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم . وقرأ الجمهور (مِنْ خوف) بإظهار النون عند الخاء . والمسيبي عن نافع بإخفائها وكذلك مع العين نحو من على وهي لغة حكاها سيبويه ، وقال ابن الأسلت يخاطب قريشاً :

فَقُومُوا فَصَلُّوا رَبَّكُمْ وَتَمَسَّحُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْبَيْتِ بَيْنَ الْأَخَاشِبِ
فَعِنْدَكُمْ مِنْهُ بَلَاءٌ وَمَصْدَقٌ غَدَاةَ أَبِي مَكْسُومٍ هَادِي الْكَتَائِبِ
كَتَيْبَةٌ بِالسَّهْلِ تَمْشِي وَرِحْلَةٌ عَلَى الْعَادِقَاتِ فِي رُؤُوسِ الْمَنَاقِبِ
فَلَمَّا أَتَاكُمْ نَصْرُ ذِي الْعَرْشِ رَدَّهُمْ جُنُودُ الْمَلِكِ بَيْنَ سَاقٍ وَحَاجِبِ
فَوَلُّوا سِرَاعاً هَارِبِينَ وَلَمْ يَوُثِّبْ إِلَى أَهْلِهِ مَلَجِيشٍ غَيْرُ عَصَائِبِ

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سها عن كذا يسهوسهوا لها عنه وتركه عن غفلة . الماعون : فاعول من المعن وهو الشيء القليل . تقول العرب : ما له معن أي شيء قليل . وقاله قطرب . وقيل : أصله معونة والألف عوض من الهاء فوزنه مفعول في الأصل على مَكْرَم فتكون الميم زائدة ووزنه بعد زيادة الألف عوضاً ما فعل . وقيل : هو اسم مفعول من أعان يُعِين جاء على زنة مفعول قلب فصارت عينه مكان الفاء فصار مَوْعُونَ ، ثم قلبت الواو ألفاً كما قال في بوب باب فصار مَاعُونَ فوزنه على هذا مفعول . وقال أبو عبيدة والزجاج والمبرد : الماعون في الجاهلية : كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل أو كثير . وأنشدوا بيت الأعشى :

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ إِذَا مَا سَمَاؤُهُمْ لَمْ تَعْمَ

وقالوا : المراد به في الإسلام الطاعة . وتأتي أقوال أهل التفسير فيه إن شاء الله تعالى عز وجل : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴾ ، فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هو يراؤون ، ويمنعون الماعون ﴿ هذه السورة مكية في قول الجمهور . مدنية في قول ابن عباس وقتادة . قال هبة الله المفسر الضرير : نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق ، ولما عدد تعالى نعمه على قريش وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء أتبع امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه ، ونزلت في أبي جهل أو الوليد بن المغيرة أو العاصي بن وائل أو عمر بن عائد أو رجلين من المنافقين أو أبي سفيان بن حرب ، كان ينحرف في كل أسبوع جزوراً فاتاه يتيماً فسأله شيئاً فقرعه بعضاً . أقوال آخرها لابن جريج والظاهر : أن (أَرَأَيْتَ) هي التي بمعنى أخبرني فتعدي لاثنتين ، أحدهما (الذي) والآخر محذوف . فقدرة الحوفي : أليس مستحقاً عذاب الله . وقدره الزمخشري : من هو . ويدل على أنها بمعنى أخبرني قراءة عبد الله (أَرَأَيْتَكَ) بكاف الخطاب ، لأن كاف الخطاب لا تلحق البصرية . قال الحوفي : ويجوز أن تكون من رؤية البصر فلا يكون في الكلام حذف . وهمة الاستفهام تدل على التقرير والتفهم ليتذكر السامع من يعرفه بهذه الصفة و (الدين) الجزاء بالثواب والعقاب . وقال الزمخشري : والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء ؟ هو (الذي يدع اليتيم) أي : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة أو أذى (ولا يحض) أي ولا يبعث أهله على

بذل الطعام للمسكين . جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف . انتهى . وقرأ الجمهور (يَدْعُ) بضم الدال وشد العين . وعليّ والحسن وأبورجاء واليمني بفتح الدال وخف العين . أي : يتركه بمعنى لا يحسن إليه ويحفظه . وقرأ الجمهور (ولا يحض) مضارع حَضَّ . وزيد بن علي (يحاض) مضارع حاضضت . وقال ابن عباس (بالدين) بحكم الله . وقال مجاهد : بالحساب . وقيل : بالجزاء ، وقيل : بالقرآن ، وقال إبراهيم ابن عرفة : (يدع اليتيم) يدفعه عن حقه وقال مجاهد : يدفعه عن حقه ولا يطعمه . وفي قوله (ولا يحض) إشارة إلى أنه هو لا يطعم إذا قدر وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحض غيره بخلاً فلا ينترك هو ذلك فعلاً أولى وأحرى ، وفي إضافة طعام إلى المسكين دليل على أنه يستحقه . ولما ذكر أولاً عمود الكفر وهو التكذيب بالدين ذكر ما يترتب عليه مم يتعلق بالخالق وهو عبادته بالصلاة . فقال (فويل للمصلين) والظاهر أن (المصلين) هم غير المذكور . وقيل : هو داع اليتيم غير الحاض وأن كلاً من الأوصاف الذميمة ناشئة عن التكذيب بالدين ، فالمصلون هنا - والله أعلم - هم المنافقون . أثبت لهم الصلاة وهي الهيات التي يفعلونها . ثم قال (الذين هم عن صلاتهم ساهون) نظراً إلى أنهم لا يوقعونها كما يوقعها المسلم من اعتقاد وجوبها والتقرب بها إلى الله تعالى . وفي الحديث (عن صلاتهم ساهون) يؤخرونها وقتها تهاوناً بها^(١) . قال مجاهد : تأخير ترك وإهمال ، وقال إبراهيم : هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا ملتفتاً . وقال قتادة : هو الترك لها أو هم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم أصلي أم لم يصل . وقال قطرب : هو الذي يقرأ ولا يذكر الله تعالى : وقال ابن عباس : المنافقون يتركون الصلاة سرّاً ويفعلونها علانية ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ [النساء ١٤٢] الآية ويدل على أنها في المنافقين قوله تعالى (الذي هم يراؤون) وقاله ابن وهب عن مالك ، قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم لكانت في المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذي قال عن صلاتهم ولم يقل في صلاتهم . وقال الزخشري بعد أن قدم فيما نقلناه من كلامه ما يدل على أن (فذلك الذي يدع) في موضع رفع قال : وطريقة أخرى أن يكون (فذلك) عطفاً على (الذي يكذب) إما عطف ذات على ذات ، أو عطف صفة على صفة ، ويكون جواب (أريت) محذوفاً للدلالة ما بعده عليه كأنه قال : أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين أنعم ما يصنع ؟ ثم قال (فويل للمصلين) أي : إذا علم أنه مسيء فويل للمصلين على معنى فويل لهم إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ، لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة ، مرأتين غير مزيّن أمواهم (فإن قلت :) كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذب وهو واحد ؟ (قلت :) معناه الجمع ، لأن المراد به الجنس انتهى . فجعل (فذلك) في موضع نصب عطفاً على المفعول وهو تركيب غريب ، كقولك : أكرمت الذي يزورنا فذلك الذي يحسن إلينا . فالتبادر إلى الذهن أن (فذلك) مرفوع بالابتداء وعلى تقدير نصب يكون التقدير أكرمت الذي يزورنا فأكرمتم ذلك الذي يحسن إلينا ، فاسم الإشارة في هذا التقدير غير متمكن . تمكن ما هو فصحيح إذ لا حاجة إلى أن يشار إلى الذي يزورنا بل الفصحح أكرمت الذي يزورنا فالذي يحسن إلينا أو أكرمت الذي يزورنا فيحسن إلينا ، وأما قوله : إما عطف ذات على ذات فلا يصح ، لأن (فذلك) إشارة إلى (الذي يكذب) فليسا بذاتين ، لأن المشار إليه بقوله (فذلك) هو واحد ، وأما قوله : ويكون جواب (أريت) محذوفاً فلا يسمى جواباً بل هو في موضع المفعول الثاني لـ (أريت) وأما قوله : أنعم ما يصنع ؟ فهزمة الاستفهام لا نعلم دخولها على نعم ولا بش ، لأنها إنشاء والاستفهام لا يدخل إلا على الخبر . وأما وضعه المصلين موضع الضمير وأن المصلين جمع لأن ضمير الذي يكذب معناه الجمع . فتكلف واضح ولا ينبغي أن يحمل القرآن إلا على ما اقتضاه ظاهر التركيب . وهكذا عادة هذا الرجل يتكلف أشياء في فهم القرآن ، ليس بواضحة . وتقدم الكلام في الرياء في سورة البقرة . وقرأ الجمهور

(يراؤون) مضارع رأى على وزن فاعل . وابن أبي إسحاق والأشهب مهموزة مقصورة مشددة الهمزة ، وعن ابن أبي إسحاق بغير شد في الهمزة ، فتوجيه الأولى إلى أنه ضعف الهمزة تعدية كما عدوا بالهمزة فقالوا في رأى أرى فقالوا راءى فجاء المضارع يرأى كيصلي وجاء الجمع يروون كيصلون ، وتوجيه الثانية أنه استثقل التضعيف في الهمزة فخففها ، أو حذف الألف : من يراؤون حذفاً لا لسبب ، (ويمنعون الماعون) قال ابن المسيب وابن شهاب (الماعون) بلغه قریش المال . وقال الغراء عن بعض العرب (الماعون) الماء . وقال ابن مسعود وابن عباس وابن الحنفية والحسن والضحاك وابن زيد : ما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية . وفي الحديث : « سئل - ﷺ - عن الشيء الذي لا يحل منعه فقال الماء والملح والنار » . وفي بعض الطرق : الإبرة والخمير . وقال عليّ وابن عمر وابن عباس أيضاً (الماعون) الزكاة . ومنه قول الراعي ^(١) :

أَخْلِيْفَةُ الرَّحْمَنِ ^(١) إِنَّا مَعْشَرٌ حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً
عُرْبٌ نَرَى اللَّهَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَقَّ الزَّكَاةِ مُنْزَلاً تَنْزِيلاً
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَا عَوْنَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَ

يعني بالماعون الزكاة . وهذا القول يناسبه مما ذكره قطرب من أن أصله من المعن وهو الشيء القليل فسميت الزكاة ماعوناً ، لأنها قليلة من كثير وكذلك الصدقة غيرها . وقال ابن عباس : هو العارية . وقال محمد بن كعب والكلبي : هو المعروف كله . وقال عبد الله بن عمر : منع الحق ، وقيل : الماء والكلأ .

(١) بنحوه أخرجه ٤٠٩/١ ، والبغوي في التفسير ٥٣٢/٤ ، والقرطبي ١٤٤/٢٠ .

(٢) الأبيات في القرطبي (١٤٥/٢٠) .

سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنَّا شَانَتْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

وهو ضرب النحر للإبل بما يفيت الروح من محدود (الأبتر) الذي لا عقب له . والبتر : القطع بترت الشيء قطعه . وبتر بالكسر فهو أبتر ، وانقطع ذنبه وخطب زياد خطبته البتراء ، لأنه لم يحمد فيها الله تعالى ولا صلى على رسوله ﷺ ورجل أبتر ، بضم الهمزة الذي يقطع رحمه . ومنه قول الشاعر :

لَيْتِمُ بَدَتْ فِي أَنْفِهِ خَنْزَوَانَةٌ عَلَى قَطْعِ ذِي الْقُرْبَى أَحَدُ أَبَاتِرٍ^(١)

والبترية : قوم من الزيدية نسبوا إلى المغيرة بن سعد ولقبه الأبتر والله تعالى أعلم ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فصل لربك وانحر ، إِنَّا شَانَتْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ هذه السورة مكية في المشهور . وقول الجمهور مدنية في قول الحسن وعكرمة وقتادة . ولما ذكر فيها قبلها وصف المنافق بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة قابل في هذه السورة البخل بـ (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) والسهو في الصلاة بقوله (فصل) والرياء (لربك) ومنع الزكاة بقوله (وانحر) أراد به التصديق بلحم الأضاحي . فقابل أربعاً بأربع ونزلت في العاصي بن وائل كان يسمي الرسول - ﷺ - بالأبتر ، وكان يقول دعوه إنما هو رجل أبتر لا عقب له لو هلك انقطع ذكره واسترحم منه ، وقرأ الجمهور أعطيناك بالعين ، والحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني أنطيناك بالنون ، وهي قراءة مروية عن رسول الله - ﷺ - ، قال التبريزي : هي لغة للعرب العاربة من أولى قريش ومن كلامه - ﷺ - : « اليد العليا المنطية واليد السفلى المنطاة » . ومن كلامه أيضاً - عليه الصلاة والسلام - « وأنطوا النيحة » . وقال الأعشى :

جِيَادُكَ خَيْرُ جِيَادِ الْمُلُوكِ تُصَانُ الْحَلَالُ وَتُنْطَى السَّعِيرَا^(٢)

قال أبو الفضل الرازي وأبو زكريا التبريزي : أبدل من العين نوناً فإن عنيا النون في هذه اللغة مكان العين في غيرها فحسن ، وإن عنيا البدل الصناعي فليس كذلك ، بل كل واحد من اللغتين أصل بنفسها لوجود تمام التصرف من كل واحدة فلا يقول الأصل العين ثم أبدلت النون منها . وذكر في التحرير في الكوثر ستة وعشرين قولاً . والصحيح هو ما فسره به رسول الله - ﷺ - فقال : « هو نهر في الجنة حافاته من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي صحيح مسلم واقتطعنا منه .

(١) البيت من الطويل لعبادة بن طهفة انظر اللسان (بتر) .

(٢) البيت من المتقارب انظر ديوانه (٨٨) .

قال : « أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم . قال : نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آيته عدد النجوم » . انتهى . قال ذلك - عليه الصلاة والسلام - عند ما نزلت هذه السورة وقرأها . وقال ابن عباس : الكوثر : الخير الكثير . وقيل لابن جبير : إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة فقال هو من الخير الكثير . وقال الحسن : الكوثر القرآن ، وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن وثاب : كثرة الأصحاب والأتباع . وقال هلال بن يساف : هو التوحيد ، وقال جعفر الصادق : نور قلبه دله على الله تعالى وقطعه عما سواه . وقال عكرمة : النبوة . وقال الحسن بن الفضل : تيسير القرآن وتخفيف الشرائع . وقال ابن كيسان : الإيثار . وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا أن الكوثر منحصر في واحد منها . والكوثر . فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر بم آب ابنتك قالت آب بكوثر . وقال الشاعر :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرًا^(١)

(فصلٌ لربك وانحر) الظاهر : أن (فصل) أمر بالصلاة يدخل فيها المكتوبات والنوافل . والنحر : نحر الهدى والنسك والضحايا ، قاله الجمهور ، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد فأمر بهذين . قال أنس : كان ينحري يوم الأضحى قبل الصلاة فأمر أن يصلي وينحر . وقاله قتادة . وقال ابن جبير : نزلت وقت صلح الحديبية . قيل له صل وانحر الهدى . فعلى هذا الآية من المدني . وفي قوله (لربك) تنذير بالكفار حيث كانت صلاتهم مكاء وتصدية ، ونحرهم للأصنام . وعن علي - رضي الله تعالى عنه - صل لربك وضع يمينك على شمالك عند نحر في الصلاة . وقيل : ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند نحر . وعن عطية وعكرمة : هي صلاة الفجر بجمع والنحر بمنى . وقال الضحاك : استوبين السجدين جالساً حتى يندو نحر . وقال أبو الأحوص : استقبل القبلة بنحر (إن شئت) أي : مبغضك . تقدم أنه العاصي ابن وائل . وقيل : أبو جهل . وقال ابن عباس : لما مات إبراهيم ابن رسول الله - ﷺ - خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال بتر محمد فأنزل الله تعالى إن شئت هو الأبر . وقال شمر بن عطية هو عقبة بن أبي معيط . وقال قتادة الأبر هنا يراد به الحقير الدليل . وقرأ الجمهور (شئت) بالألف وابن عباس (شئت) بغير ألف . فقيل : مقصور من شاني ، كما قالوا برروبر في بارر وبار . ويجوز أن يكون بناء على فعل وهو مضاف للمفعول إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال ، وإن كان بمعنى الماضي فتكون إضافته لا من نصب على مذهب البصريين . وقد قالوا :

حذر أموراً ومزقون عرضي

فلا يستوحش من كونه مضافاً للمفعول وهو مبتدأ ، والأحسن الأعراف في المعنى أن يكون فصلاً ، أي : هو المنفرد بالبر المخصوص به لا رسول الله - ﷺ - فجميع المؤمنين أولاده ، وذكره مرفوع على المنابر والمنابر ، ومسروود على لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر . يبدأ بذكر الله تعالى ويشني بذكره - ﷺ - وله في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف - ﷺ - وعلى آله وشرف وكرم .

(١) البيت من الطويل للكميت ، انظر الكشف ٤/ ٦٤٤ اللسان (كثر) .

سورة الكافرون مكية وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ لَا نُعْبُدُ مَا يُعْبَدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا يُعْبَدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا
عَبَدْتُمْ ۚ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا يُعْبَدُ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۚ

هذه مكية في قول الجمهور ، وروي عن قتادة أنها مدنية ، وذكروا من أسباب نزولها . أنهم قالوا له - عليه الصلاة والسلام - دَعُ ما أنت فيه ونحن نمؤلك ونزوجهك من شئت من كرائمتنا ، وملكك علينا ، وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ونحن نعبد إلهك حتى نشترك فحيث كان الخير لنلناه جميعاً ، ولما كان أكثر شائته قريشاً وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، أنزل الله تعالى هذه السورة ، تبرئاً منهم وإخباراً لا شك فيه أن ذلك لا يكون ، وفي قوله (قل) دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله . وخطابه لهم بـ (يا أيها الكافرون) في ناديتهم ومكان بسطة أيديهم مع ما في هذا الوصف من الإردال بهم ، دليل على أنه محروس من عند الله تعالى لا يبالي بهم . و (الكافرون) ناس مخصوصون وهم الذين قالوا له تلك المقالة الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب ، وأمّية ، وأبي ابن خلف ، وأبو جهل ، وابنا الحجاج ، ونظراؤهم ممن لم يسلم ووافى على الكفر تصديقاً للإخبار في قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، وللمفسرين في هذه الجمل أقوال ، أحدها : أنها للتوكيد . فقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) توكيد لقوله (لا أعبد ما تعبدون) وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ثانياً تأكيد لقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أولاً . والتوكيد في لسان العرب كثير جداً وحكوا من ذلك نظماً ونثراً ما لا يكاد يحصر . وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر وأنهم لا يسلمون أبداً ، والثاني أنه ليس للتوكيد . واختلفوا ، فقال الأخفش : المعنى : لا أعبد الساعة ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون السنة ما أعبد ، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد ، فزال التوكيد إذ قد تقيدت كل جملة بزمان مغاير . وقال أبو مسلم (ما) في الأولين بمعنى الذي ، والمقصود المعبود ، و (ما) في الآخرين مصدرية ، أي : لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر ، ولا أنتم مثل عبادتي المبنية على اليقين . وقال ابن عطية : لما كان قوله لا أعبد محتملاً أن يراد به الآن ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه جاء البيان بقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أبداً وما حيت . ثم جاء قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب فهذا كما قيل لنوح - عليه السلام - ﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود ٣٦] أما أن هذا في معينين وقوم نوح عموا بذلك فهذا معنى التريديد الذي في السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط بل فيه ما ذكرته . انتهى . وقال الزمخشري : (لا أعبد) أرادت به العبادة فيما يستقبل لأن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال . والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه

ما أطلب منكم من عبادة إلهي (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي : وما كنت قط . عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه . يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية فكيف ترجى مني في الإسلام (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي : وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته (فإن قلت :) فهلا قيل ما عبدت كما قيل ما عبدتم ؟ (قلت :) لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت » انتهى . أما حصره في قوله لأن (لا) لا تدخل وفي قوله لا تدخل ، فليس بصحيح ، بل ذلك غالب فيها لا متحتم . وقد ذكر النحاة دخول لا على المضارع يراد به الحال ، ودخول ما على المضارع يراد به الاستقبال ، وذلك مذكور في المبسوطات من كتب النحو . ولذلك لم يورد سيبويه ذلك بأداة الحصر إنما قال : وتكون لا نفيًا لقوله يفعل ولم يقع الفعل . وقال : وأما ما فهي نفي لقوله هو يفعل إذا كان في حال الفعل . فذكر الغالب فيها . وأما قوله في قوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي : وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فلا يستقيم لأن (عابداً) اسم فاعل قد عمل في (ما عبدتم) تم فلا يفسر بالماضي إنما يفسر بالحال أو الاستقبال ، وليس مذهبه في اسم الفاعل مذهب الكسائي وهشام من جواز إعماله ماضياً ، وأما قوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أي : وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته ف (عابدون) قد أعمله في (ما أعبد) فلا يفسر بالماضي . وأما قوله : وهو لم يكن إلى آخره فسوء أدب منه على منصب النبوة ، وهو أيضاً غير صحيح لأنه - ﷺ - لم يزل موحد الله عز وجل ، منزهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله ، مجتنباً لأصنامهم يحج بيت الله ، ويقف بمشاعر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وهذه عبادة لله تعالى . وأي عبادة أعظم من توحيد الله تعالى ونبد أصنامهم ، والمعرفة بالله تعالى من أعظم العبادات . قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات ٥٦] ، قال المفسرون : معناه ليعرفون فسمى الله تعالى المعرفة به عبادة . والذي أختاره في هذه الجملة أنه أولاً نفى عبادته في المستقبل لأن (لا) الغالب أنها تنفي المستقبل قيل : ثم عطف عليه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفيًا للمستقبل على سبيل المقابلة ثم قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) نفيًا للحال لأن اسم الفاعل الحقيقة فيه دلالة على الحال ثم عطف عليه (ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفيًا للحال على سبيل المقابلة فانتظم المعنى أنه - ﷺ - لا يعبد ما يعبدون لا حالاً ولا مستقبلاً وهم كذلك ، إذ قد حتم الله موافاتهم على الكفر . ولما قال (لا أعبد ما تعبدون) فأطلق ما على الأصنام قابل الكلام بما في قوله (ما أعبد) وإن كانت يراد بها الله تعالى لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ مع الإفراد . وهذا على مذهب من يقول : إن ما لا تقع على أحاد من يعلم أما من جوز ذلك وهو منسوب إلى سيبويه فلا يحتاج إلى استعذار بالتقابل . وقيل : (ما) مصدرية في قوله (ما أعبد) ، وقيل : فيها جميعها ، وقال الزمخشري : المراد الصفة ، كأنه قيل : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . (لكم دينكم ولي دين) أي : لكم شرككم ولي توحيد . وهذا غاية في التبرؤ . ولما كان الأهم انتفاء - عليه الصلاة والسلام - من دينهم بدأ بالنفي في الجملة السابقة بالمنسوب إليه . ولما تحقق النفي رجع إلى خطابهم في قوله (لكم دينكم) على سبيل المهادنة . وهي منسوخة بآية السيف ، وقرأ سلام (ديني) بياء وصلًا ووقفًا ، وحذفها القراء السبعة والله تعالى أعلم .

سورة النصر مدنية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

هذه مدنية ، نزلت منصرفة - ﷺ - من غزوة خيبر وعاش بعد نزولها سنتين . وقال ابن عمر : نزلت في أوسط أيام التشريق بمضى في حجة الوداع وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها - ﷺ - ولما كان في قوله (لكم دينكم) موادة جاء في هذه بما يدل على تخويفهم وتهديدهم وأنه آن محي نصر الله ، وفتح مكة ، واضمحلال ملة الأصنام ، وإظهار دين الله تعالى . قال الزمخشري : (إذا) منصوب بـ (سبح) وهو لما يستقبل والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة ، انتهى . وكذا قال الحوفي ، ولا يصح إعمال (فسبح) في (إذا) لأجل الفاء لأن الفاء في جواب الشرط لا يتسلط الفعل الذي بعدها على اسم الشرط فلا تعمل فيه بل العامل في (إذا) الفعل الذي بعدها على الصحيح المنصور في علم العربية ، وقد استدللنا على ذلك في شرح التسهيل وغيره وإن كان المشهور غيره^(١) والنصر : الإعانة والإظهار على العدو ، والفتح : فتح البلاد ومتعلق النصر والفتح محذوف . فالظاهر أنه نصر رسوله - ﷺ - والمؤمنين على أعدائهم وفتح مكة وغيرها عليهم ، كالطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن ، وقيل : نصره - ﷺ - على قريش ، وفتح مكة ، وكان فتحها لعشر مضين من رمضان سنة ثمان . ومعه - عليه الصلاة والسلام - عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار . وقرأ الجمهور (يَدْخُلُونَ) مبنياً للفاعل . وابن كثير في رواية مبنياً للمفعول (في دين الله) في ملة الإسلام الذي لا دين له يضاف غيرها . (أفواجاً) أي : جماعات كثيرة ، كانت تدخل في القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً بعد واحد واثنين اثنين قال الحسن : لما فتح - عليه الصلاة والسلام - مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا أما الظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل . وقال أبو عمر بن عبد البر لم يمت رسول الله - ﷺ - وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حين منهم من قدم ومنهم من قَدَّم وافده . قال ابن عطية : والمراد - والله أعلم - عبدة الأوثان ، وأما نصارى بني ثعلب فما أراهم أسلموا قط في حياة الرسول - ﷺ - لكن أعطوا الجزية ، وقال مقاتل وعكرمة : المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل . وقال الجمهور : وفود العرب . وكان دخولهم بين فتح مكة وموته - ﷺ - و (أفواجاً) جمع فوج . قال الحوفي وقياس جمعه أفُوج ولكن استثقلت الضمة على الواو فعُدل إلى أفواج . كأنه يعني أنه كان ينبغي أن يكون معتل العين كالصحيح فكما أن قياس فَعَل صحيحها أن يجمع على أَفْعُل لا على أَفْعَال فكذلك هذا ، والأمر في هذا المعتل بالعكس

(١) يريد المصنف رحمه الله أن المنصور خلاف ما عليه الجمهور ، فالجمهور يرون أن ناصب (إذا) الشرطية جوابها ، وأنها مضافة إلى الفعل الذي يليها .

القياس فيه أفعال كَحَوَّضٍ وَأَحْوَاضٍ . وشذ فيه أفعال كَتَوَّبَ وَأَتَوَّبَ ، وهو حال و (يدخلون) حال أو مفعول ثانٍ إن كان (رأيت) بمعنى علمت المتعدية لاثنتين . وقال الزمخشري : إما على الحال على أن (رأيت) بمعنى أبصرت أو عرفت . انتهى . ولا نعلم (رأيت) جاءت بمعنى عرفت ، فنحتاج في ذلك إلى استثبات (فسبح بحمد ربك) أي ملتبساً بحمده على هذه النعم التي خولَّكَهَا من نصرِكَ على الأعداء ، وفتحك البلاد ، وإسلام الناس ، وأي نعمة أعظم من هذه إذ كل حسنة يعملها المسلمون فهي في ميزانه . وعن عائشة : « كان - ﷺ - يكثر قبل موته أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك » . قال الزمخشري : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأُمَّته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة في نفسه . وعن النبي - ﷺ - « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة »^(١) . انتهى . وقد علم هو - ﷺ - من هذه السورة دنو أجله وحين قرأها - عليه الصلاة والسلام - استبشر الصحابة وبكى العباس ، فقال : وما يبكيك يا عم ؟ قال : نعت إليك نفسك ، فقال : إنها لكما تقول : فعاش بعدها سنتين . (إنه كان تَوَّاباً) فيه ترجية عظيمة للمستغفرين .

سورة المسد مكية وهي خمس آيات بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

الحطب : معروف ، ويقال : فلان يحطب على فلان إذا وشى عليه . الجيد : العنق . المسد : الحبل من ليف .
وقال أبو الفتح : ليف المقل . وقال ابن زيد : هو شجر باليمن يسمى المسد . انتهى . وقد يكون من جلود الإبل ومن
أوبارها . قال الراجز :

ومسد أمر من أياتق

ورجل ممسود الخلق : أي مجدوله شديده . ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ﴾
ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ﴿ هذه السورة مكية . ولما ذكر فيها قبلها دخول الناس في
دين الله تعالى أتبع بذكر من لم يدخل في الدين وخسر ولم يدخل فيما دخل فيه أهل مكة من الإيمان . وتقدم الكلام على
التياب في سورة غافر ، وهنا قال ابن عباس : خابت . وقتادة : خسرت . وابن جبير : هلكت . وعطاء : ضلت .
وعمان بن رباب : صفرت من كل خير . وهذه الأقوال متقاربة في المعنى . وقالوا فيها حكى أشابة أم تابة : أي هالكة من
الهرم والتعجيز . وإسناد الهلاك إلى اليمين ، لأن العمل أكثر ما يكون بهما وهو في الحقيقة للنفس كقوله ﴿ ذلك بما قدمت
يداك ﴾ [الحج ١٠] ، وقيل : أخذ بيديه حجراً ليرمي به الرسول - ﷺ - فأسند التب إليهما ، والظاهر أن التب : دعاء
(وتب) إخبار بحصول ذلك . كما قال الشاعر :

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءُ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ^(١)

ويدل عليه قراءة عبد الله (وقد تب) ، روي : « أنه لما نزل ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء ٢١٤] قال :
يا صفية بنت عبد المطلب يا فاطمة بنت محمد لا أغني لكما من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئت ، ثم صعد الصفا فنادى
بطون قريش يا بني فلان يا بني فلان » . وروي : « أنه صاح بأعلى صوته يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه من كل وجه فقال
لهم : أرايتم لو قلت لكم إني أنذرکم خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . قال فإني نذير لكم بين يدي

(١) البيت من الطويل نسب لأبي الأسود الدؤلي ، وقيل للنابغة الذبياني ، انظر الكشف ٦٤٩/٤ اللسان (عوى) الأشموني
٥٩/٢ . ملحقات ديوان أبي الأسود (١٢٤) ديوان النابغة (٧٩) الهمع ٦٦/١ .

عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا ؟ فافترقوا عنه ونزلت هذه السورة » . وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله - ﷺ - . وقرأ ابن محيصن وابن كثير (أبي لهب) بسكون الهاء . وفتحها باقي السبعة . ولم يختلفوا في (ذات لهب) لأنها فاصلة والسكون يزيلها على حسن الفاصلة . قال الزمخشري : وهو من تغيير الأعلام كقولهم شمس مالك بالضم . انتهى . يعني سكون الهاء في (لهب) وضم الشين في شمس . ويعني في قول الشاعر :

وَإِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ بِهِ لِابْنِ عَمِّي شَمْسٍ بِنِ مَالِكٍ^(١)

فأما في لهب فالمشهور في كنيته فتح الهاء . وأما شمس بن مالك فلا يتعين أن يكون من تغيير الأعلام بل يمكن أن يكون مسمى بشمس المنقول من شمس الجمع كما جاء أذنان خيل شمس . قيل : ولكن بأبي لهب ، لحسنه وإشراق وجهه . ولم يذكره تعالى باسمه لأن اسمه عبد العزى فعُدل عنه إلى الكنية ، أو لأن الكنية كانت أغلب عليه من الاسم ، أو لأن ماله إلى النار . فوافقت حالته كنيته كما يقال للشير أبو الشر وللخير أبو الخير ، أو لأن الاسم أشرف من الكنية فعُدل إلى الأنقص ، ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بأسمائهم ولم يكن أحداً منهم . والظاهر أن (ما) في (ما أغنى عنه ماله) نفي . أي لم يغن عنه ماله الموروث عن آبائه (وما كسب) هو بنفسه أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها ، أو ما كسب من أرباح ماله الذي يتجر به . ويجوز أن تكون (ما) استفهاماً في موضع نصب ، أي : أي شيء يغني عنه ماله ؟ على وجه التقرير والإنكار . والمعنى أين الغنى الذي لماله وكسبه . والظاهر أن (ما) في قوله (وما كسب) موصولة . وأجيز أن تكون مصدرية . وإذا كانت (ما) في (ما أغنى) استفهاماً فيجوز أن تكون (ما) في (وما كسب) استفهاماً أيضاً ، أي : وأي شيء كسب ؟ أي : لم يكسب شيئاً . وعن ابن عباس : وما كسب ولده ، وفي الحديث : « ولد الرجل من كسبه » . وعن الضحاك : وما كسب هو عمله الخبيث في عداوة الرسول - ﷺ - وعن قتادة : وعمله الذي ظن أنه منه على شيء . وروي عنه أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي . وقرأ عبد الله (وما اكتسب) بقاء الافتعال . وقرأ أبو حيوة وابن مقسم وعباس في اختياره وهو أيضاً (سيُصلى) بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام (ومريته) وعنه أيضاً (ومُريته) على التصغير فيها بالهمز ويابدالها ياء وادغام ياء التصغير فيها ، وقرأ أيضاً (حمالة للحطب) بالتثنية في (حمالة) وبلاد الجري في (الحطب) ، وقرأ الحسن وابن أبي اسحاق (سيُصلى) بضم الياء وسكون الصاد . وأبو قلابة (حمالة الحطب) على وزن فاعلة مضافاً ، واختلس حركة الهاء في (وامراته) أبو عمرو في رواية والحسن وزيد بن علي والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبله وابن محيصن وعاصم (حمالة) بالنصب . وقرأ الجمهور (سيُصلى) بفتح الياء وسكون الصاد (وامراته) على التكبير (حمالة) على وزن فعالة للمبالغة مضافاً إلى الحطب مرفوعاً ، والسين للاستقبال وإن تراخى الزمان ، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة . وارتفع (وامراته) عطفاً على الضمير المستكن في (سيُصلى) وحسنه وجود الفصل بالمفعول وصفته . و (حمالة) في قراءة الجمهور خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة لامراته لأنه مثال ماض فيعرف بالإضافة . وفعال أحد الأمثلة الستة وحكمها كاسم الفاعل . وفي قراءة النصب انتصب على الذم . وأجازوا في قراءة الرفع أن يكون (وامراته) مبتدأ و (حمالة) واسمها أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء . والظاهر أنها كانت تحمل الحطب أي ما فيه شوك لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول - ﷺ - وأصحابه لتعقرهم فذمت بذلك ، وسميت حمالة الحطب ، قاله ابن عباس فـ (حمالة) معرفة فإن كان صار لقباً لها جاز فيه حالة الرفع أن يكون عطف بيان وأن يكون بدلاً . قيل : وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتشرها بالليل في طريق

رسول الله - ﷺ - ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة ويقال للمشاء بها يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم النائرة ويورث الشر . قال الشاعر :

مِنَ الْبَيْضِ لَمْ يَصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لَامِهِ وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرُّطْبِ^(١)

جعله رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر . وقال الرازي :

إِنَّ بَنِي الْأَرْزَمِ حَمَّالُو الْحَطَبِ هُمْ الْوُشَاةُ فِي الرُّضَا وَفِي الْغَضَبِ^(٢)

وقال ابن جبير : حمالة الخطايا والذنوب من قولهم يحطب على ظهره . قال تعالى ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام ٣١] ، وقيل : الحطب جمع حاطب كحارس وحرس أي يحمل الجناة على الجنايات . والظاهر أن الحبل من مسد . وقال عروة بن الزبير ومجاهد وسفيان : استعارة ، والمراد سلسلة من حديد في جهنم . وقال قتادة : قلادة من ودع . وقال ابن المسيب : قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لأنفقها على عداوة محمد . قال ابن عطية : وإنما عبر عن قلادتها بحبل من مسد على جهة التفاؤل لها وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث . انتهى . وقال الحسن : إنما كانت خرزاً . وقال الزمخشري : والمعنى في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الخطابون تحسيساً لحالها وتحقيراً لها بصورة بعض الخطابات من المواهن لمتنعض من ذلك ويمتعض بعلها ، وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجلدة ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب ، فقال :

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي أَمْ مَا تُعَيِّرُ مِنْ حَمَالَةِ الْحَطَبِ
عَرَسَاءَ شَاذِخَةٍ فِي الْمَجْدِ سَامِيَةٍ كَانَتْ سَلِيلَةَ شَيْخٍ ثَاقِبِ الْحَسَبِ

ويحتمل أن يكون المعنى : أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك فلا يزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجر الزقوم أو الضريع وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه انتهى . ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر وهو مع رسول الله - ﷺ - في المسجد وببدها فهر ، فقالت : بلغني أن صاحبك هجاني ولأفعلن وأفعلن وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله - ﷺ - فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها هل ترين معي أحداً؟ فقالت : أتهزأ بي ؟ لا أرى غيرك وإن كان شاعراً فأنا مثله أقول :

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا وَأَمْرُهُ عَصَيْنَا

فسكت أبو بكر ومضت هي فقال رسول الله - ﷺ - لقد حجبني عنها ملائكة فما رأيتني وكفى الله شرها . وذكر أنها ماتت مخنوقة بحبلها وأبو لهب رماه الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال .

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ١٢/٥ ، الكشاف ٦٥١/٤ .

(٢) البيت من الرجز انظر اللسان (درع) .

سورة الإخلاص مكية وهي أربع آيات بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

الصمد : فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ويستقل بها . قال :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ يَعْمُرُونَ مَسْجِدَ السَّيِّدِ الصَّمَدِ^(١)

وقال آخر :

عَلَوْتُهُ بِحَسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا خُزَيْتَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ^(٢)

الكفو : النظير ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هذه السورة مكية في قول عبد الله والحسن وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة ، مدنية في قول ابن عباس ومحمد بن كعب وأبي العالية والضحاك ، ولما تقدم فيها قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول - ﷺ - وهو عمه أبو لهب وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأوثان والقائلين بالثنوية وبالتثليث وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد ، وعن ابن عباس : « أن اليهود قالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه ؟ فنزلت » . وعن أبي العالية ، قال قادة الأحزاب انسب لنا ربك فنزلت . فإن صح هذا السبب كان (هو) ضميراً عائداً على الرب ، أي (قل هو الله) . أي : ربي الله ويكون مبتدأ وخبر و (أحد) خبر ثان . وقال الزمخشري : و (أحد) بدل من قوله (الله) أو على هو أحد . انتهى . وإن لم يصح السبب فهو ضمير الأمر والشأن مبتدأ والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر (هو) و (أحد) بمعنى واحد . أي فرد من جميع جهات الوجدانية ، أي في ذاته وصفاته ، لا يتجزأ ، أو همزة أحد هذا بدل من واو وإبدال الهمزة مفتوحة من الواو قليل من ذلك امرأة أناة يريدون وناة لأنه من الوني وهو الفتور كما أن أحداً من الوحدة . وقال ثعلب : بين واحد وأحد فرق ، الواحد يدخله العدد والجمع والاثنان والأحد لا يدخله ، يقال : الله أحد ولا يقال زيد أحد ، لأن الله خصوصية له الأحد وزيد تكون منه حالات انتهى . وما ذكر من أن أحداً لا يدخله ما ذكر منقوض بالعدد . وقرأ أبان بن عثمان وزيد بن علي ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السهال وأبو عمرو وفي رواية يونس ومحبوب

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥١٦/٥ .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٦٧/٢٠ .

والأصمعي واللؤلؤي وعبيد وهارون عنه (أحدُ الله) بحذف التنوين لالتقائه مع لام التعريف ، وهو موجود في كلام العرب وأكثر ما يوجد في الشعر نحو قوله :

ولا ذَاكَرَ الله إلا قليلاً

ونحو قوله :

عمرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومه

(الله الصمد) مبتدأ وخبر ، والأفصح أن تكون هذه جملاً مستقلة بالإخبار على سبيل الاستئناف كما تقول زيد العالم زيد الشجاع . وقيل : الصمد صفة والخبر في الجملة بعده ، وتقدم شرح الصمد في المفردات وقال الشعبي ويمان بن رباب : هو الذي لا يأكل ولا يشرب . وقال أبي بن كعب : يفسره ما بعده وهو قوله (لم يلد ولم يولد) ، وقال الحسن (الصمد) المصمت الذي لا جوف له . ومنه قوله :

شَهَابٌ حُرُوبٍ لَا تَزَالُ جِيَادُهُ عَوَاسٍ يَغْلُكُنَ الشَّكِيمَ الْمُصَمَّدًا^(١)

وفي كتاب التحرير أقوال غير هذه لا تساعد عليها اللغة ، وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد : هو السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم ، قال الزمخشري : (لم يلد) لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . ودل على هذا المعنى بقوله ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام ١٠١] ، (ولم يولد) لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد يقال له كُفُو بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وبضم الكاف مع ضم الفاء . وقرأ حمزة وحفص بضم الكاف وإسكان الفاء . وهمز حمزة . وأبدلها حفص واواً . وباقي السبعة بضمهما والهمز ، وسهل الهمزة الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع . وفي رواية عن نافع أيضاً كفا من غير همز نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة . وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس كِفَاءً بكسر الكاف وفتح الفاء والمد كما قال النابغة :

لَا تَقْدَفْنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ^(٢)

الأعلم : لا كفاء له لا مثل له . وقال مكِّي : سيبويه يختار أن يكون الظرف خبراً إذا قدمه ، وقد خطأه المبرد بهذه الآية ، لأنه قدم الظرف ولم يجعله خبراً والجواب أن سيبويه لم يمنع إلغاء الظرف إذا تقدم إنما أجاز أن يكون خبراً وأن لا يكون خبراً . ويجوز أن يكون حالاً من النكرة وهي (أحد) لما تقدم نعتها عليها نصب على الحال فيكون (له) الخبر على مذهب سيبويه واختياره ، ولا يكون للمبرد حجة على هذا القول . انتهى . وخرجه ابن عطية أيضاً على الحال . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه ؟ (قلت :) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه . انتهى . وهذه الجملة ليست من هذا الباب ، وذلك أن قوله ، (ولم يكن له كفواً أحد) ليس الجار والمجرور فيه تاماً إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـ (كان) بل هو متعلق بكفواً وقدم عليه فالتقدير ولم يكن أحد كفواً له أي مكانته فهو في معنى المفعول متعلق بـ (كفواً) وتقدم على (كفواً) للاهتمام به إذ فيه ضمير الباري تعالى . وتوسط الخبر وإن كان الأصل

(١) البيت من الطويل انظر فتح القدير ٥/١٦٦ .

(٢) صدر بيت من البسيط انظر ديوانه (٣٦) اللسان (ركن) فتح القدير ٥/١٧٠ .

التأخر ، لأن تأخر الاسم هو فاصلة فحسن ذلك . وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب مكّي وغيره أن (له) الخبر و (كفوا) حال من (أحد) لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه . وسيبويه إنما تكلم في هذا الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ويصلح أن يكون غير خبر ، قال سيبويه : وتقول ما كان فيها أحد خير منك وما كان أحد مثلك فيها وليس أحد فيها خير منك إذا جعلت فيه مستقراً ولم تجعله على قولك : فيها زيد قائم ، أجريت الصفة على الاسم فإن جعلته على فيها زيد قائم نصبت ، فتقول : ما كان فيها أحد خيراً منك . وما كان أحد خيراً منك فيها إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخرت المفعول كان أحسن ، وإذا أردت أن يكون مستقراً فكلما قدمته كان أحسن . والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير قال تعالى (ولم يكن له كفواً أحد) وقال الشاعر :

مَا دَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيًّا^(١)

انتهى . وما نقلناه ملخصاً ، وهو بالفاظ سيبويه فأنت ترى كلامه وتمثيله بالظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ، ومعنى قوله « مستقراً » أي : خبراً للمبتدأ ولـ (كان) (فإن قلت :) فقد مثل بالآية الكريمة ؟ (قلت :) هذا الذي أوقع مكياً والزمخشري وغيرهما فيما وقعوا فيه وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام وهو في قوله :

ما دام فيهن فصيل حيا

أجرى فضلة لا خبراً كما أن (له) في الآية أجرى فضلة فجعل الظرف القابل أن يكون خبراً كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبراً ، ولا يشك من له ذهن صحيح أنه لا ينعقد كلام من قوله (ولم يكن له أحد) بل لو تأخر (كفواً) وارتفع على الصفة وجعل (له) خبراً لم ينعقد منه كلام ، بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو (كفواً) و (له) متعلق به . والمعنى ولم يكن له أحد مكافئه . وقد جاء في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة منها : « أنها تعدل ثلث القرآن » . وقد تكلم العلماء على ذلك وليس هذا موضعه والله الموفق .

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥

الفلق : فَعَلَ بمعنى مفعول . وتأتي أقوال أهل التفسير فيه إن شاء الله تعالى . وقب الليل : أظلم والشمس : غابت والعذاب حل ، قال الشاعر :

وَقَبَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ فَكَانَهُمْ لَحَقَتْهُمْ نَارُ السُّمُومِ فَأُخْصِدُوا^(١)

النفث : شبه النفخ دون تفل بريق ، قاله ابن عطية . وقيل : نفخ بريق معه ، قاله الزمخشري . وقال صاحب اللوامح : شبه النفخ من الفم في الرقية ولا ريق معه ، فإذا كان بريق فهو التفل . قال الشاعر :

فَإِنْ أَبْرَأَ فَلَمْ أَنْفِثْ عَلَيْهِ وَإِنْ يَفْقِدُ فَحَقُّ لَهُ الْفُقُودُ^(٢)

﴿ قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ هذه السورة مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر ورواية كريب عن ابن عباس ، مدنية في قول ابن عباس في رواية صالح وقتادة وجماعة . قيل : وهو الصحيح . وسبب نزول المعوذتين قصة سخر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله - ﷺ -^(٣) وهو جف والجف قشر الطلع فيه مشاطة رأسه عليه الصلاة والسلام وأسنان مشطه ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرور بالإبر فأنزلت عليه المعوذتان فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد - ﷺ - في نفسه خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكأنما نشط من عقال . ولما شرح أمر الإلهية في السورة قبلها شرح ما يستعاذ منه بالله من الشر الذي في العالم ومراتب مخلوقاته . و (الفلق) الصبح ، قاله ابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد وقتادة وابن جبير والقرطبي وابن زيد ، وفي المثل : « هو أين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح » . وقال الشاعر :

يَا لَيْلَةً لَمْ أَنْمَهَا بِتُ مُرْتَقِبًا أُرْعَى النُّجُومَ إِلَى أَنْ قُدِّرَ الْفَلَقُ^(٤)

(١) البيت من الكامل انظر فتح القدير ٥/٢٠٥ .

(٢) البيت من الوافر لعنترة انظر ديوانه ٤٢ ديوان الحياصة ١٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري ٢٣٢/٨ في الطب باب السحر (٥٧٦٣) وأحد في المسند ٥٧/٦ ، ٦٣ ، ٩٦ ، انظر من فتح الباري ٨/٢٢٣ .

(٤) البيت من البسيط انظر فتح القدير ٥/١٩٩ .

وقال الشاعر يصف الثور الوحشي :

حَتَّى إِذَا مَا انْجَلَى عَنْ وَجْهِهِ فَلَقَى هَادِيَهُ فِي أُخْرَيَاتِ اللَّيْلِ مُتَّصِباً^(١)

وقيل (الفلق) كلما يفلقه الله تعالى كالأرض والنبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك . وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين : الفلق : جب في جهنم ، ورواه أبو هريرة عن رسول الله - ﷺ - وقالوا لما اطمأن من الأرض الفلق وجمعه فلقان . وقيل : واد في جهنم . وقال بعض الصحابة : بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره . وقرأ الجمهور (من شرِّ ما خلق) بإضافة (شر) إلى (ما) و (ما) عام يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد كالإحراق بالنار والإغراق بالبحر والقتل بالسهم . وقرأ عمرو بن فايد (من شرِّ) بالتونين ، وقال ابن عطية : وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر (من شرِّ) بالتونين (ما خلق) على النفي وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ [الزمر ٦٢] ولهذه القراءة وجه غير النفي فلا ينبغي أن ترد وهو أن يكون (ما خلق) بدلاً (من شر) على تقدير محذوف ، أي من شرِّ ما خلق ، فحذف لدلالة (شر) الأول عليه ، أطلق أولاً ثم عمّ ثانياً . والغاسق : الليل . و (وقب) أظلم ودخل على الناس قاله ابن عباس . والحسن ومجاهد وزمكه الزخشري على عادته ، فقال : والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى ﴿ إلى غسق الليل ﴾ [الإسراء ٧٨] ومنه : غسقت العين امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة . امتلأت دماً ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء . انتهى . وقال الزجاج : هو الليل لأنه أبرد من النهار والغاسق : البارد استعيد من شره ، لأنه فيه تنبث الشياطين والهوام والحشرات وأهل الفتك . قال الشاعر :

يَا طَيْفَ هِنْدٍ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَرْقَا إِذْ جِئْتَنَا طَارِقاً وَاللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا^(٢)

وقال محمد بن كعب : النهار دخل في الليل . وقال ابن شهاب : المراد بالغاسق الشمس إذا غربت وقال القتيبي وغيره : هو القمر إذا دخل في ساهوره فخسف وفي الحديث : نظر - ﷺ - إلى القمر فقال يا عائشة : نعوذ بالله من هذا فإنه الغاسق إذا وقب . وعنه - ﷺ - : « الغاسق النجم » . وقال ابن زيد عن العرب : الغاسق الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام والطاعون تهيج عند ذلك . وقيل : الحية إذا لدغت ، والغاسق سم ناهبا لأنه يسيل منه . و (النفاثات) النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر يعقدن عقداً في خيوط وينفنن عليها ويرقن . وقرأ الجمهور (النفاثات) والحسن بضم النون . وابن عمر والحسن أيضاً وعبد الله بن القاسم ويعقوب في رواية (النفاثات) والحسن أيضاً وأبو الربيع (النفاثات) بغير ألف نحو الخدرات . والاستعاذة من شرهن : هو ما يصيب الله تعالى به من الشر عند فعلهن ذلك . وسبب نزول هاتين المعوذتين ينفي ما تأوله الزخشري من قوله : ويجوز أن يراد به النساء ذات الكيادات من قوله ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ [يوسف ٢٨] تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفت في العقد : أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محسنهن كأنهن يسخرنهم بذلك . انتهى . وقال ابن عطية : وهذا النفت هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذي بذلك ، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب ، وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصل إلى أمه في الحين فوضع انتهى . وقيل : الغاسق والحاسد بالطرف ، لأنه إذا لم يدخل الليل لا يكون منسوباً إليه . وكذا كل ما فسر به

(١) البيت من البسيط لذي الرمة انظر ديوانه ٣٠ فتح القدير ٥/١٩٥ .

(٢) البيت من البسيط ذكره السمين في الدر المصون .

الغاسق وكذلك الحاسد لا يؤثر حسده إذا ظهره بأن يحتال للمحسود فيما يؤذيه ، أما إذا لم يظهر الحسد فإنما يتأذى به هولاً المحسود لا غتنامه بنعمة غيره . قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسهاجة حاله في وقت حسده وإظهار أثره انتهى . وعم أولاً فقال (من شر ما خلق) ثم خص هذه لخفاء شرها . إذ يجيء من حيث لا يعلم ، وقالوا : شر العداة المراجي بكيدك من حيث لا تشعر . ونكر (غاسق) و (حاسد) وعرف (النفاثات) لأن كل نفاثة شريرة ، وكل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ومنه : « لا حسد إلا في اثنتين » . ومنه قول أبي تمام :

وَمَا حَاسِدٌ فِي الْمَكْرُمَاتِ بِحَاسِدٍ

وقال آخر :

إِنَّ الْغَلَا حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ

وقول المنظور إليه للحاسد إذا نظر الخمس على عينيك يعني به هذه السورة لأنها خمس آيات . وعين الحاسد في الغالب واقعة نعوذ بالله من شرها .

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

تقدم أنها نزلت مع ما قبلها . والخلاف أهى مدينة أم مكية ، وأضيف الرب إلى الناس ، لأن الاستعاذة من شر الموسوس في صدورهم استعاذوا بربهم مالكهم وإلههم كما يستعيز العبد بمولاه إذا دهمه أمر . والظاهر أن (ملك الناس) . إله الناس (صفتان وقال الزمخشري : هما عطفان بيان كقولك سيرة أبي حفص عمر الفاروق ، بين بـ (ملك الناس) ثم زيد بياناً بـ (إله الناس) لأنه قد يقال لغيره رب الناس كقوله ﴿ اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة ٣١] وقد يقال ملك الناس . وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان . انتهى . وعطف البيان المشهور أنه يكون بالجوامد . وظاهر قوله : إنها عطفان بيان لواحد ولا أنقل عن النحاة شيئاً في عطف البيان هل يجوز أن يتكرر لمعطوف عليه واحد أم لا يجوز . وقال الزمخشري : (فإن قلت :) فهلا أكتفي بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة ؟ (قلت :) لأن عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار دون الإضمار . انتهى . و (الوسواس) قالوا : اسم من أسماء الشيطان . والوسواس أيضاً مما يوسوس به شهوات النفس ، وهو الهوى المنهي عنه . و (الخناس) الراجع على عقبه المستتر أحياناً وذلك في الشيطان ممكن إذا ذكر العبد الله تعالى تأخر ، وأما الشهوات فتخس بالإيمان وبلمة الملك وبالحياء فهذان المعنيان يندرجان في الوسواس ويكون معنى (من الجنة والناس) من الشياطين ونفوس الناس ، أو يكون (الوسواس) أريد به الشيطان ، والمغري المزين من قرناء السوء فيكون (من الجنة والناس) تبييناً لذلك الوسواس . قال تعالى ﴿ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام ١١٢] وقال قتادة : إن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين فنعوذ بالله منهم . وقال أبوذر لرجل : هل تعوذت من شياطين الإنس . وقال الزمخشري : (الوسواس) اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال . والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعتها وشغلها الذي هو عاكف عليه أو أريد ذو الوسواس . وقد تكلمنا معاً في دعواه أن الزلزال بالفتح اسم وبالكسر مصدر في إذا زلزلت . ويجوز في (الذي) الجر على الصفة ، والرفع والنصب على الشتم . و (من) في (من الجنة والناس) للتبويض . أي كائناً من الجنة والناس فهو في موضع الحال ، أي ذلك الموسوس هو بعض الجنة وبعض الناس . وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون (من) متعلقاً بـ (يوسوس) ومعناه : ابتداء الغاية . أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس انتهى ولما كانت مضرة الدين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب والملك والإله وإن اتحد المطلوب ، وفي

الاستعاذة من ثلاث الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب وإن تكثر الذي يستعاذ منه . « كان رسول الله ﷺ - إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيها وقرأ (قل هو الله أحد) والمعوذتين ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثاً » .

تم هذا التفسير بعونه تعالى .

فهرس الجزء الثامن

من البحر المحيط

٢٢٩	تفسير سورة المجادلة	٣	تفسير سورة الزخرف
٢٣٩	تفسير سورة الحشر	٣١	تفسير سورة الدخان
٢٥٠	تفسير سورة الممتحنة	٤٢	تفسير سورة الجاثية
٢٥٠	الآيات : ١ - ٩	٤٢	الآيات : ١ - ١٧
٢٥٣	الآيات : ١٠ - ١٣	٤٦	الآيات : ١٨ - ٢٦
٢٥٧	تفسير سورة الصف	٥٠	الآيات : ٢٧ - ٣٧
٢٦٢	تفسير سورة الجمعة	٥٣	تفسير سورة الأحقاف
٢٦٦	تفسير سورة المنافقين	٦٩	تفسير سورة محمد
٢٧٢	تفسير سورة التغابن	٨٧	تفسير سورة الفتح
٢٧٧	تفسير سورة الطلاق	١٠٣	تفسير سورة الحجرات
٢٧٧	الآيات : ١ - ٣	١١٨	تفسير سورة ق
٢٧٩	الآيات : ٤ - ٧	١٣٠	تفسير سورة الذاريات
٢٨٢	الآيات : ٨ - ١٢	١٤٢	تفسير سورة الطور
٢٨٤	تفسير سورة التحريم	١٥١	تفسير سورة النجم
٢٨٤	الآيات : ١ - ٧	١٦٩	تفسير سورة القمر
٢٨٨	الآيات : ٨ - ١٢	١٨٣	تفسير سورة الرحمن
٢٩١	تفسير سورة الملك	٢٠٠	تفسير سورة الواقعة
٢٩١	الآيات : ١ - ١٥	٢١٦	تفسير سورة الحديد
٢٩٥	الآيات : ١٦ - ٣٠	٢١٦	الآيات : ١ - ٦
٢٩٩	تفسير سورة القلم	٢١٧	الآيات : ٧ - ١١
٣١٣	تفسير سورة الحاقة	٢١٩	الآيات : ١٢ - ١٥
٣٢٤	تفسير سورة المعارج	٢٢١	الآيات : ١٦ - ٢٠
٣٣١	تفسير سورة نوح	٢٢٣	الآيات : ٢١ - ٢٥
٣٣٨	تفسير سورة الجن	٢٢٥	الآيات : ٢٦ - ٢٩

٤٨٣	تفسير سورة الانشراح	٣٥١	تفسير سورة المزمل
٤٨٥	تفسير سورة التين	٣٦٠	تفسير سورة المدثر
٤٨٧	تفسير سورة العلق	٣٧٣	تفسير سورة القيامة
٤٩٢	تفسير سورة القدر	٣٨٣	تفسير سورة الدهر
٤٩٤	تفسير سورة البينة	٣٩٤	تفسير سورة المرسلات
٤٩٦	تفسير سورة الزلزلة	٤٠١	تفسير سورة النبأ
٤٩٩	تفسير سورة العاديات	٤٠٩	تفسير سورة النازعات
٥٠٢	تفسير سورة القارعة	٤١٧	تفسير سورة عبس
٥٠٥	تفسير سورة التكاثر	٤٢٢	تفسير سورة التكويد
٥٠٧	تفسير سورة العصر	٤٢٧	تفسير سورة الانفطار
٥٠٩	تفسير سورة الهمزة	٤٣٠	تفسير سورة المطففين
٥١١	تفسير سورة الفيل	٤٣٦	تفسير سورة الانشقاق
٥١٣	تفسير سورة قريش	٤٤٢	تفسير سورة البروج
٥١٧	تفسير سورة الماعون	٤٤٧	تفسير سورة الطارق
٥٢٠	تفسير سورة الكوثر	٤٥٢	تفسير سورة الأعلى
٥٢٢	تفسير سورة الكافرون	٤٥٦	تفسير سورة الغاشية
٥٢٤	تفسير سورة النصر	٤٦١	تفسير سورة الفجر
٥٢٦	تفسير سورة المسد	٤٦٨	تفسير سورة البلد
٥٢٩	تفسير سورة الإخلاص	٤٧٢	تفسير سورة الشمس
٥٣٢	تفسير سورة الفلق	٤٧٧	تفسير سورة الليل
٥٣٥	تفسير سورة الناس	٤٨٠	تفسير سورة الضحى